

المصباح المنير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

حقوق الطبع محفوظة

طبعت بإذن خاص من

AL- MAJLISULILM

INDIA



المجلس العلمي

دلهي - الهند

لصاحبه الشيخ

صفي الرحمن المباركفوري وأولاده

حسين آباد - مباركفور، أعظم كره - بوبي - الهند

HUSAINABAD MUBARAKPUR - AZAMGARH. (UP)
INDIA

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٥٣٧١

التقييم الدولي: 978-977-6241-44-2

التاريخ: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



• الإدارة والفرع الرئيسي:

٣٣ ش صعب صالح - عين شمس الشرقية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت و فاكس: ٢٤٩٠٠٨٠٨/٢٤٩٠٠٦٠٦/٢٤٩٩١٢٥٤

• فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر - درب الأتراك - ت: ٢٥١٠٨٠٠٤

E-mail: islamya2005@hotmail.com

المصباح المنيب

في تهذيب

تفسير ابن كثير

للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير

رحمه الله

إعداد

جماعة من العلماء

المكتبة الإسلامية

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

11. 2. 1948

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو مجمع الخيرات، ومنيع البركات، ومطلع الرحمات، كيف لا وهو كلام باري البريات، ورب الأرض والسموات، ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فلا جرم كان كلامه أعظم الكلام وأنفعه، وكتابه هو الأجمع لكل خير وبركة وصلاح وفلاح، خاصة أنه الكتاب الخاتم المهيمن الذي هو خير كتاب أنزل على خير نبي أرسل إلى خير أمة أخرجت للناس.

وقد كان تفسير ابن كثير - رحمه الله - من أهم ما كُتب في تفسير القرآن العظيم ومن أكثره قبولاً وانتشاراً في هذه الأمة، لذا كثرت عناية العلماء به وحضهم عليه، حتى قيل: كل بيت ليس فيه تفسير ابن كثير فهو بيت فقير.

ولما كان هذا التفسير بهذه المنزلة فقد كثرت الكتب التي تناولته بالدراسة والتلخيص والتحقيق، وكان من أنفع مختصراته كتاب: «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» الذي قامت به لجنة علمية بإشراف الشيخ صفى الرحمن المباركفوري - رحمه الله - ومراجعته فقد طار صيته، وكان له قبول حسن، وأقبل عليه الناس إقبالاً قل نظيره لما اتصف به من خصال ومزايا عظيمة نوجزها فيما يلي:

(١) الاختصار على الصحيح والمقبول من الأحاديث التي يوردها الإمام ابن كثير في تفسيره وترك الضعيف منها وتخرجها.

(٢) الإبقاء على طائفة من الأحاديث التي يتم بها معنى الموضوع وحذف بقية الأحاديث التي هي تكرار لمعنى واحد من طرق مختلفة.

(٣) تلخيص أقوال أهل التأويل، خاصة إذا اتفقت أو تقاربت.

(٤) وضع عنوانات مناسبة لجميع مباحث التفسير. وهذه من أهم مزايا الكتاب.

(٥) الاستيفاء لكل أو جلّ الفوائد التي احتوى عليه تفسير ابن كثير بحيث يكون هذا المختصر جامعاً زُبدة ما حواه الأصل.

(٦) سهولة المأخذ حجماً ومادةً وصياغةً؛ ليسهل شراؤه وحمله وتناوله وتدبره، حيث جاء غاية في اليسر والإبانة.

هذا وقد حصلت المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة على إذن كتابي بطباعة الكتاب من المجلس العلمي بدلهي - الهند لصاحبه الشيخ / صفى الرحمن المباركفوري وأولاده ممهوراً بتوقيع الدكتور فيض الرحمن بن صفى الرحمن المباركفوري المدير العام للمجلس العلمي ومختوماً بختمه، وقد أثبتناه عقب هذه المقدمة.

نسأل الله أن يعم نفعه جميع من قام عليه وقرأه وشارك في نشره وبالله تعالى التوفيق، ومنه العون والبركة.

وصلّى اللّٰهُ وسلّم وبارك علّاٰى نبّٰى الهدى محمد وعلّاٰى
آل بيته الطاهرين وصحابته الطيبين وسلّم تسليماً كثيراً

المكتبة الإسلامية
بالقاهرة



تفويض

إلى من يهمه الأمر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بهذا نفوض السادة / المكتبة الإسلامية بالقاهرة - شارع صعب صالح بعين شمس بالقيام بجميع ما يلزم لطباعة ونشر الكتب التالية : ١- المصباح المنير في مختصر ابن كثير ٢- منة المنعم في مختصر صحيح مسلم ٣- إتحاف الكرام في شرح بلوغ المرام ٤- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار ٥- مختصر الرحيق المختوم على أن تتم الطباعة بالهند أو جمهورية مصر العربية مع الاحتفاظ بحقوق الطبع والنشر للمجلس العلمي بدلهي - الهند لصاحبها فضيلة الشيخ صفي الرحمن المبارك فوري وأولاده،
كذلك لهم حق التفويض للغير لإتمام إجراءات ما يلزم .

على أن تحصل دار المجلس العلمي على نسبة ١٠٪ من سعر بيع الجملة والتصدير .

نسأل الله لنا ولكم التوفيق

المدير العام

دكتور / فيض الرحمن صفي الرحمن المباركفوري

نائبه



حسين آباد، مبارکپور، اعظم گڑھ - یوپی - الهند

HUSAINABAD MUBARAKPUR - AZAMGARH. (UP) INDIA

ترجمة المؤلف

بقلم فضيلة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط - رحمه الله -
هو الإمام الجليل أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر
ابن كثير القرشي البصري الأصل الدمشقي النشأة والترية
والتعليم.

ولد به (مجلد) القرية من أعمال مدينة بصرى سنة (٧٠١ هـ)
(١٣٠٢ م) وكان أبوه خطيب قرية، ومات أبوه في الرابعة من
عمره، ورباه أخوه الشيخ عبد الوهاب وعلمه في مبدأ أمره،
ثم انتقل إلى دمشق الشام المحروسة سنة (٧٠٦ هـ) في
الخامسة من عمره.

شيوخه:

تفقه بالشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري
الشهير بابن الفركاح المتوفى سنة (٧٢٩ هـ) وسمع بدمشق
من عيسى بن المطعم، ومن أحمد بن أبي طالب الشهير بابن
الشحنة المتوفى سنة (٧٣٠ هـ)، ومن ابن الحجار المتوفى سنة
(٧٣٠ هـ) ومن مسند الشام بهاء الدين القاسم بن مظفر بن
عساكر المتوفى سنة (٧٢٣ هـ) ومن ابن الشيرازي، ومن
إسحاق بن يحيى الأمدي شيخ الظاهرية عفيف الدين المتوفى
سنة (٧٢٥ هـ) ومن محمد بن ززاد، ولزم الشيخ جمال
الدين يوسف بن الزكي المزي المتوفى سنة (٧٤٢ هـ)، وبه
انتفع وتخرج وتزوج بابنته، وقرأ على شيخ الإسلام تقي
الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية المتوفى
سنة (٧٢٨ هـ) كما قرأ على الشيخ الحافظ المؤرخ شمس
الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفى سنة
(٧٤٨ هـ) وأجاز له من مصر أبو موسى القرافي، وأبو الفج
الدبوسي، وعلي بن عمر السواني، وغيرهم. قال الحافظ
الذهبي في «المعجم المختص» عن الحافظ ابن كثير: هو الإمام
المفتي، المحدث البار، فقيه متفنن، ومفسر نقال، وله
تصانيف مفيدة.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة»:
اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وكان كثير
الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في حياته،
وانتفع الناس بها بعد وفاته.

وقال المؤرخ الشهير أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن
سيف الدين المعروف بـ «ابن تغري بَرْدِي» في كتابه «المنهل
الصابي والمستوفي بعد الوافي»: هو الشيخ الإمام العلامة عماد
الدين أبو الفداء، لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب،
وبرع في الفقه والتفسير والحديث، وجمع وصنف، ودرّس
وحدث وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير
والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرّس إلى أن توفي رحمه
الله، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في
التاريخ والحديث والتفسير.

تلامذته:

وهم كثيرون منهم ابن حجي، وقال فيه: أحفظ من
أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها،
وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له
بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به إلا واستفدت منه.

وقال ابن العماد الحنبلي في كتابه: «شذرات الذهب في
أخبار من ذهب»: هو الحافظ الكبير، عماد الدين، كان كثير
الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك في العربية،
وقال فيه ابن حبيب: سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع
بالتقوى، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد،
واشتهر بالضبط والتحرير.

مؤلفاته:

مؤلفاته كثيرة:

١- منها ومن أعظمها تفسيره للقرآن الكريم، وهو من
أحسن كتب التفسير بالرواية، وقد طبع عدة مرات،
واختصره عدة أشخاص.

٢- التاريخ المسمى بالبداية، وهو المطبوع في (١٤) مجلداً،
باسم «البداية والنهاية» ذكر فيه قصص الأنبياء والأسم
الماضية، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي إلى زمنه ثم
ألف «الفتن وأشرار الساعة والملاحم وأحوال الآخرة».
وهو المقصود بـ «النهاية» وقد طبعت «البداية» أولاً ثم
طبعت «النهاية» بمفردها، وحققها عدة أشخاص.

٣- «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» جمع
فيه بين كتابي شيخه المزي والذهبي: «تهذيب الكمال في
أسماء الرجال» و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال» مع

١٠- اختصر «علوم الحديث» لأبي عمرو بن الصلاح

وسماه «مختصر علوم الحديث» وطبعه الشيخ أحمد محمد شاكر المحدث المصري - رحمه الله - مع شرح له، وسمى شرحه «الباعث الخفي في شرح مختصر علوم الحديث» وقد طبع عدة مرات.

١١- السيرة النبوية مطولة (ضمن البداية) ومختصرة، وهما مطبوعتان.

رسالة في الجهاد، سماها «الاجتهاد في طلب الجهاد» وقد طبعت أكثر من مرة.

وفاته:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: وكان قد أضرَّ - يعني: فقد بصره - في آخر حياته، وتوفي بدمشق الشام المحروسة سنة (٧٧٤هـ) - (١٣٧٣م).

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

* * *

زيادات مفيدة في الجرح والتعديل.

٤- «المُهَذَّبُ والسُّنَنُ في أحاديث المسانيد والسنن» وهو المعروف بـ «جامع المسانيد» جمع فيه بين مسند الإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي يعلى الموصلي، وابن أبي شيبة، مع الكتب الستة: الصحيحين، والسنن الأربعة، ورتبه على الأبواب، طبع منه حديثاً بعض الأجزاء.

٥- «طبقات الشافعية» مجلد وسط، ومعه مناقب الشافعي.

٦- خَرَجَ أحاديث «أدلة التنبيه» في فقه الشافعية

٧- شرح صحيح البخاري ولم يكمله.

٨- شرح في كتاب كبير في الأحكام ولم يكمله، وصل فيه إلى الحج.

٩- مختصر كتاب «المدخل» لليهقي، وأكثرها لم يطبع.

شرح الرموز المستعملة في التخریج

ابن أبي حاتم	= تفسير ابن أبي حاتم.	الطبراني	= المعجم الكبير للطبراني.	الشریعة	= لمحمد بن الحسين الأجرى.
ابن أبي حاتم غ	= تفسير ابن أبي حاتم تحقيق	الطبري	= تفسير جامع البيان للطبري.	عبد الرزاق	= تفسير عبد الرزاق.
ابن أبي شيبة	= المصنف لابن أبي شيبة.	عدي	= الكامل لابن عدي.	العظمة	= العظمة لأبي الشيخ دار العاصمة الرياض.
ابن حبان	= صحيح ابن حبان.	العقيلي	= الضعفاء الكبير للعقيلي.	علل الحديث	= لعل بن المديني.
ابن خزيمة	= صحيح ابن خزيمة.	عمدة التفسير	= عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (أحمد شاکر).	غريب الحديث	= غريب الحديث لأبي عبيد القاسم.
ابن عدي	= الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي	فتح الباري	= فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر.	فتح الباري	= فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر.
ابن عساكر	= تاريخ دمشق لابن عساكر (مختصر).	القرطبي	= تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.	الكشاف	= تفسير الكشاف للزمخشري.
ابن ماجه	= السنن للإمام ابن ماجه القزويني.	الكنز	= كنز العمال.	المجمع	= مجمع الزوائد.
ابن هشام	= سيرة ابن هشام.	المحرر الوجيز	= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن غالب الغرناطي.	المحرر الوجيز	= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن غالب الغرناطي.
أبو داود	= السنن للإمام أبي داود.	المحلى	= المحلى لابن حزم.	مسلم	= الصحيح للإمام مسلم.
أحمد	= مسند الإمام أحمد بن حنبل.	مشكاة	= مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي.	مشكل	= مشكل الآثار للطحاوي.
الإحياء	= إحياء العلوم للإمام الغزالي.	المطالب	= المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر.	المطالب	= المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر.
الأم	= كتاب الأم للإمام الشافعي.	موارد الظمآن	= موارد الظمآن لأبي بكر الهيثمي.	موارد الظمآن	= موارد الظمآن لأبي بكر الهيثمي.
البخاري	= الصحيح للإمام البخاري.	الموطأ	= موطأ الإمام مالك.	النسائي في الكبرى	= السنن الكبرى للإمام النسائي.
البغوي	= تفسير الإمام البغوي.	النسائي	= السنن للإمام النسائي.	اليوم واللييلة	= عمل اليوم واللييلة للنسائي.
البيهقي	= السنن الكبرى للإمام البيهقي.				
تحفة الأحوذى	= شرح جامع الترمذي للشيخ عبد الرحمن المباركفوري.				
التاريخ الكبير	= للإمام البخاري.				
الترمذي	= جامع الترمذي.				
الحاكم	= المستدرک للحاكم.				
الحلية	= حلية الأولياء لأبي نعيم.				
الحميدي	= مسند الحميدي.				
الخطيب	= التاريخ للخطيب البغدادي.				
الدارقطني	= السنن للإمام الدارقطني.				
الدارمي	= سنن الدارمي.				
الرازي	= التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي.				
الزفاف	= آداب الزفاف لناصر الدين الألباني.				
سعيد بن منصور	= سنن سعيد بن منصور.				
السنة	= كتاب السنة لابن أبي عاصم.				
شرح السنة	= شرح السنة للإمام البغوي.				

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الأمري فهم القرآن﴾

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعَذِّبُهُمْ﴾ (٤)، واختتمه بالحمد فقال - بعد ما ذكر مال
أهل الجنة وأهل النار: - ﴿وَرَبِّ الْمَلَكِطَةِ حَافِيَةٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ
مُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥)
ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٦) فله الحمد في الأولى
والآخرة، أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في
ذلك كله كما يقول المصلي: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مَلَأَ
السَّمَوَاتِ وَمَلَأَ الْأَرْضَ وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» (١)

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مُتَّبِعِينَ وَمُؤْمِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وختمهم بالنبي الأمي العربي
المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس
والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَكُونُ
الْأَنسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ
الَّذِي بُوِثَ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿لَا تَذَرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغْ﴾ فمن
بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحر، وإنس وجان
فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ
مَوْعِدٌ﴾ فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله
تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ
مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿يُبْعَثُ إِلَى الْأَخْزَرِ
وَالْأَسْوَدِ﴾ قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. (٧)

فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقليين

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟
(فالجواب) إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن

«بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو^(٦). ولهذا كان عبد الله بن عمرو^(٧) قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

[حكم الروايات الإسرائيلية]

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام (أحدها) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يُشهد له بالصدق فذاك صحيح (والثاني) ما علمنا كذبه مما عندنا، مما يخالفه (والثالث) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كليهم، وعددهم. وعصا موسى من أي الشجر كانت. وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعوض الذي ضرب به القليل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم.

[مكانة تفسير التابعين]

(فصل) إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها^(٧). وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله^(٨). ولهذا كان سفیان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به^(٩).

بالقرآن، فما أجل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(١) يعني السنة. والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة. وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماءهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود^(٢). روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الله يعني: ابن مسعود قال: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته^(٣).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن بركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللَّهُمَّ فَهِّمْنِي فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْنِي التَّوْبِيلَ»^(٤) وروى ابن جرير عن عبد الله - يعني: ابن مسعود - قال: نعم ترجمان القرآن ابن عباس^(٥). وهذا إسناد صحيح، وقد مات ابن مسعود^(٦) في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح وعمر بعده عبد الله ابن عباس ستًا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود. وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليُّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية سورة النور - ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا^(٥).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال:

(١) أحمد: ١٣١/٤. (٢) الطبري: ٨٠/١.

(٣) فتح الباري: ٢٠٥/١. (٤) الطبري: ٩٠/١.

(٥) الطبري: ٨١/١. (٦) فتح الباري: ٥٧٢/٦.

(٧) الطبري: ٩٠/١. (٨) الطبري: ٩٠/١.

(٩) الطبري: ٩١/١.

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن^(٦). وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة يعني السلمي عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن فاتق الله وعليك بالسداد^(٧). وروى الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنها هو الرواية عن الله^(٨).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن الصحابة وأئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سُئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتَنبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلُجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٩).

[وجوه التفسير]

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا مؤمل: حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهلته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله^(١٠).

[الصور المكية والمدنية]

روى همام عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج^(١) الطبري: ٧٧/١ وتحفة الأحوذى: ٢٧٧/٨ والنسائي في فضائل القرآن: ١١٤ وأبو داود في العلم من رواية أبي الحسن ابن العبد - قاله المزني في الأطراف: ٤/٤٢٣.

(٢) الطبري: ٧٨/١. (٣) الطبري: ٢٢٩/٢٤.

(٤) الطبري: ٨٦/١. (٥) الطبري: ٦٠٢/٢٣.

(٦) الطبري: ٨٦/١. (٧) الطبري: ٨٦/١.

(٨) الطبري: ٨٦/١. (٩) أحمد: ٢/٢٦٣ و٣٠٥.

و٤٩٥ وتحفة الأحوذى: ٧/٤٠٧ والحاكم: ١/١٠١.

(١٠) الطبري: ٧٥/١.

وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد ابن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك ابن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عبارتهم تبين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً، فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليفتن القلب لذلك، والله الهادي.

[التفسير بالرأي]

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَبْسُؤْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود. وقال الترمذي: هذا حديث حسن^(١).

[السكوت عن تفسير غير المعلوم]

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى ابن جرير عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(٢). وروي أيضاً عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَلِكُمُوعِبَادٌ﴾ فقال: هذه الفاكة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر^(٣). وهذا محمول على أنه رضي الله عنه إنما أراد استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبأ من الأرض ظاهر لا يجهل، كقوله تعالى: ﴿فَأَنبَأْنِيهَا بِجَبَابٍ﴾^(٤) رغباً وقضياً^(٥) الآية.

وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سُئل عن آية - لو سُئل عنها بعضكم لقال فيها - فأبى أن يقول فيها، إسناده صحيح^(٦)، وروي أيضاً عن ابن أبي مليكة قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال له ابن عباس: فيها ﴿يَوْمَ كَانَ مَقْدَارُهُ مِائَتَيْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؟ فقال له الرجل: إنها سألتك لتحدثني فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم^(٧).

والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح: ﴿الْفَاطِيَتِ بِاللَّهِ طَبَّ السَّوَى﴾ والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: علمنا ذلك في أربعة أشهر، قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى ﴿وَلَيْتَلَطَّفُ﴾ من سورة الكهف، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن، وقد حكى الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه (البيان) خلافاً في هذا كله فالله أعلم.

[التحزيب والتجزئة]

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين، كما في الربعات بالمدارس وغيرها، وقد ذكرنا - فيما تقدم - الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلث، وخمس، وسبع، وتسع، وأحد عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل حتى نختتم^(٢).

[معنى السورة واشتقاقها]

(فصل) واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة، ف قيل: من الإبانة والارتفاع قال النابغة:

ألم تـر أن الله أعطاك سورة

تـرى كل ملك دونها يتذبذب

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان، وقيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذة من أسرار الإناء وهو البقية. وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها، وقيل: لتأماها وكمالها، لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت): ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها، كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره، وجمع السورة سور يفتح الواو، وقد يجمع على سورات وسورات.

[معنى الآية]

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها، أي: هي بائنة عن أختها ومنفردة،

(١) الإتيان: ٢٨/١. (٢) أحمد: ٩/٤ وأبو داود:

والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق و﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِيُحَرِّمَ﴾ إلى رأس العشر، و﴿إِنَّا ذُرِّبَتْ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور بمكة.^(١)

[عدد آيات القرآن الكريم]

فأما عدد آيات القرآن العظيم فسته آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال: فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتي آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية. وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه «البيان».

[عدد كلماته وحروفه]

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان - عن عطاء بن يسار -: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة. وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن، وهو ثلاثمائة ألف حرف، وأحد وعشرون ألف حرف، ومائة وثمانون حرفاً، وقال الفضل بن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً. وقال سلام أبو محمد الحناني: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً.

[تقسيمات أخرى للقرآن الكريم]

قال: فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَلَيْتَلَطَّفُ﴾ وثلاثة الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى مائة من الشعراء، والثالث إلى آخره، وسُبعة الأول إلى الدال من قوله تعالى: ﴿فَيَنْتَهُم مِّنْ أَمْنٍ بِهِمْ وَيَنْتَهُم مِّنْ صَدِّ﴾ والسُّبع الثاني إلى التاء من قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد: ﴿أَكْكَلَهَا﴾ والرابع إلى الألف في الحج من قوله: ﴿جَعَلْنَا مَنَسْكَ﴾ والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾

«قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ: مُحَمَّدِي عَبْدِي»^(١) الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها، ويقال لها: (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ»^(٢)؟ وهي مكية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ والله تعالى أعلم.

[عدد آياتها]

وهي سبع آيات بلا خلاف. والبسمة آية مستقلة من أولها، كما هو عند الجمهور قراء الكوفة، وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف.

[عدد كلماتها وحروفها]

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً.

[لماذا سميت أم الكتاب]

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة^(٣)، وقيل: إنها سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أمّا، فنقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها: أمّا. قال: وسميت مكة أم القرى لتقديمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها^(٤).

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٥). وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»^(٦).

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده عن

(١) تحفة الأحوذى: ٢٨٣/٨. (٢) فتح الباري: ٥٢٩/٤.

(٣) فتح الباري: ٦/٨. (٤) الطبري: ١٠٧/١.

(٥) أحمد: ٤٤٨/٢. (٦) الطبري: ١٠٧/١.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ وقيل: سميت آية لأنها عَجَب يعجز البشر عن التكلم بمثلها، قال سيويه: وأصلها آية مثل أكمة وشجرة، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصارت آية بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: أصلها آية على وزن أمنة، فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها. وقال الفراء: أصلها آية، بتشديد الياء، فقلبت الأولى ألفاً كراهية التشديد، فصارت آية، وجمعها آي وآيات وآياي.

[معنى الكلمة]

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل «ما» و«لا» ونحو ذلك. وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل «يَسْتَعِظُونَ» و«أَنْزَلْنَاهُمْ» و«فَأَسْقَيْنَهُمْ». وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل «وَالْعَصْرِ ١» و«وَالشَّمْسِ ١» و«وَاللَّيْلِ ١» وكذلك «الْقَلَمِ ١» و«طه ١» و«مِيقَاتِ ١» و«حَمِّ ١» في قول الكوفيين، و«حَدِّ ١» و«سَقِّ ٢» عندهم كلمتان، وغيرهم لا يسمي هذه آيات، بل يقول: هذه فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: ﴿مُدَّاهَتَانِ ١٦﴾ بسورة الرحمن.

[العجمة والقرآن]

(فصل) قال القرطبي: أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية، فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

[أسماء الفاتحة ومعناها]

يقال لها: الفاتحة، أي: فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتتح القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضاً: أم الكتاب عند الجمهور، وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ» ويقال لها: (الحمد) ويقال لها: (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه:

عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: قَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ: ﴿يَا عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ﴾ نَسِيتُ ﴿قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَعِدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ﴾ وهكذا رواه النسائي، وفي لفظ عند مسلم والنسائي: «فَنَصَفَهَا لِي وَنَصَفَهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٦).

الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث

مما يختص بالفاتحة من وجوه

وهو أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٧) أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس^(٧)، وهكذا قال في هذا الحديث: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة، فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها. وهو القراءة، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيُحَرِّزْهُ فَإِنَّ أَكْبَرَ الْقُرْآنِ مَنْهُوَ﴾^(٨) والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: «أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ»^(٨).

[وجوب قراءة الفاتحة في الصلوات كلها]

إماماً كان أو مأموماً أو منفرداً

فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء. وقد دل عليه الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»^(٩). والخداج هو الناقص، كما فسر به في الحديث «خَبِيرٌ تَمَامٌ». وأيضاً قد ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت

أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمدعاني رسول الله ﷺ فلم أجه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» ثم قال: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: «نَعَمْ» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمُبَارَكُ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١٠). وهكذا رواه البخاري^(١١) وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(١٢).

(حديث آخر) روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفرنًا غيبٌ، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأمنه بريقة، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنًا. فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ فقال: لا ما رقيت إلا بأمر الكتاب، قلنا: لا تتحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِمْ أَنَّهَا رُقِيَةٌ، أَفْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسْمِهِ»^(١٣).

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه والنسائي في سنته عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: «هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤمهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوه»^(١٤).

[الفاتحة في الصلاة]

(حديث آخر) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا أَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلَاثًا - غَيْرُ تَمَامٍ» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام، فقال: أقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ: أَتَى عَبْدِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ: مُجِدِّي

(١) أحمد: ٢١١/٤. (٢) فتح الباري: ٦/٨، ٦٧١.

(٣) أبو داود: ٢/١٥٠، والنسائي: ٢/١٣٩، وابن ماجه: ٢/١٢٤٤.

(٤) فتح الباري: ٨/٦٧١.

(٥) مسلم: ١/٥٥٤، والنسائي في الكبرى: ٥/١٢.

(٦) مسلم: ١/٢٩٦، والنسائي في الكبرى: ٥/١١، ١٢.

(٧) فتح الباري: ٨/٢٥٧.

(٨) فتح الباري: ٨/٢٥١، ومسلم: ١/٤٣٩.

(٩) أحمد: ٢/٢٥٠.

الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَبِكَارَمَتِكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَلَاثًا - ثُمَّ يَقُولُ - أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي: هو أشهر شيء في هذا الباب ^(٣).

وقد فسر الهمز بالموتة، وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن جابر بن مطعم عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - الْحَمْدُ لِلَّهِ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - سُبْحَانَ اللَّهِ بُحْرَةً وَأَصِيلًا - ثَلَاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قال عمرو: همزه: الموتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر ^(٤)، وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر: حدثنا ابن فضيل حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَهَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قال: همزه: الموتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر ^(٥).

[التعوذ عند الغضب]

وروى الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده، عن أبي بن كعب رضه قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزع أنف أحدهما غضبا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ شَيْئًا لَوْ قَالَ لَنَهَبَ عَنْهُ مَا يَحِذُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» وكذا رواه النسائي في «اليوم واليلة» ^(٦).

وروى البخاري عن سليمان بن صرد رضه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَنَهَبَ عَنْهُ مَا يَحِذُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» ^(١). وفي صحيحه ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُجْزَى صَلَاةٌ لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ» ^(٢). والأحاديث في هذا الباب كثيرة. [فعل المصلي أن يقرأ فاتحة الكتاب إماما كان أو مأموماً أو منفردا في جميع الصلوات وفي كل ركعة ولا بد].

تفسير الاستعاذة وأحكامها

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَوْدَ وَأَنْتَ بِالْغَرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝ وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِ إِحْسَنَ السَّيِّئَةِ مَن قَلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ۝﴾ وأعوذ بك ربَّيَّ أَنْ يَحْضُرُونِ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِأَيْدِيهِ إِحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾ وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾. فهذه ثلاث آيات ليس هن رابعة في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو والإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا، ولا يتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾ وقال: ﴿أَفَنَسِيخُدُونَهُ وَذَرَيْتُهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾، وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ ۝﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝﴾.

[الاستعاذة تكون قبل التلاوة]

ومعنى قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝﴾ أي: إذا أردت القراءة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ۝﴾ الآية: أي إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك

(١) فتح الباري: ٢/٢٧٦. ومسلم: ١/٢٩٥.

(٢) ابن خزيمة: ٢٤٨/١ وابن حبان: ٣/١٣٩.

(٣) أحمد: ٣/٦٩ وأبو داود: ١/٤٩٠ وتحفة الأحوذ: ٢/٤٧.

والنسائي: ٢/١٣٢ وابن ماجه: ١/٢٦٤.

(٤) أبو داود: ١/٤٨٦ وابن ماجه: ١/٢٦٥.

(٥) ابن ماجه: ١/٢٦٦.

(٦) النسائي في الكبرى: رقم ١٠٢٣٣.

الرَّجِيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون، وقد رواه أيضًا مع مسلم وأبي داود والنسائي^(١).

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار فضائل الأعمال، والله أعلم.

[الاستعاذة واجبة أو مستحبة؟]

(مسألة) وجهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة، ليست بمتحمة يأثم تاركها، وحكى الرازي عن عطاء ابن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَاسْتَوِذْ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرك شر الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط، فإذا قال المستعذ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كفى ذلك.

[من لطائف الاستعاذة]

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للنفوس مما كان يتعاطاها من اللغو والرفث، وتطيب له، وهو لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني. وقال تعالى: ﴿إِنْ عَاوَى لَبِئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٢) وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري، فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورًا، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونًا أو موزورًا، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

(فصل) والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنبابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير.

[معنى الاستعاذة]

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجنباب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي

أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن، لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جمل، لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه. وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لمن رابعة، قوله في الأعراف: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾^(٣) فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) وقال تعالى في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥) ﴿أَدْفَعْ يَأْتِيهِمْ أَحْسَنَ النَّسِيئَةِ مِمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٦) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾^(٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾^(٨) وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا إِلَىٰ ذِيكَ وَيَنُوكُ عَذَابُكَ إِنَّهُ لَكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٩) ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١٠) ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١١).

[تسمية الشيطان]

الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلامهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح. وقال سيويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح، ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانًا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» فقلت: - أو للإنس - شياطين؟ قال: «نَعَمْ»^(١٢). وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ

(١) فتح الباري: ٦/٣٨٨ ومسلم: ٤/٢٠١٥ وأبو داود:

١٤٠/٥ والنسائي في الكبرى: ٦/١٠٤.

(٢) أحمد: ٥/١٧٨.

وأوائل السور، فاختلَفوا فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب، ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد ابن كعب القرظي وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والأرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن معقل بن مقرن، زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان ومحمد بن الحنفية، زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسمة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم^(٣)، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم^(٤). وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) الْعَمْدُ بِهِ نَبِ الْأَعْلَمِيَّتِ^(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٣) تِلْكَ بِوَيْهِ الْبَرِّ^(٤) وقال الدارقطني إسناده صحيح^(٥). وروى الإمام أبو عبد الله

والخيار وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ. فقلت: يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»^(١). وروى ابن جرير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركب برذوناً فجعل يتبخر به فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تبخيراً فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي، إسناده صحيح^(٢).

[معنى الرجيم]

والرجيم فعل بمعنى مفعول أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاحِبَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُرُوبِ﴾^(١) وَجَعَلْنَا فِي كُلِّ شَيْطَانٍ تَارِدًا^(٢) لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا التَّلَا الْأَعْلَى وَيَقْدُونَ فِي كُلِّ جَانِبٍ^(٣) دُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ^(٤) إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخِطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ، يَهَابُ ثَائِبٌ^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ﴾^(٦) وَجَعَلْنَا فِي كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمًا^(٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ، يَهَابُ ثَائِبٌ^(٨) إلى غير ذلك من الآيات. وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالسواوس والرباثة. والأول أشهر وأصح.

[البسمة أول آية من سورة الفاتحة]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من كل سورة. ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي، ومن التابعين: عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله، وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

[الجهر والإسرار بالبسمة في الصلاة الجهرية]

فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال: بأنها من

(١) مسلم: ٣٦٥/١. (٢) الطبري: ١/١١١.

(٣) النسائي: ١٣٤/٢ وابن خزيمة: ٢٥١/١ وصحيح ابن

حبان: ١٤٣/٣ والحاكم: ٢٣٢/١ والدارقطني: ٣٠٥

والبيهقي: ٤٦/٢

(٤) فتح الباري: ٧٠٩/٨.

(٥) أحمد: ٣٠٢/٦ وأبو داود: ٢٩٤/٤ وابن خزيمة: ٢٤٨/١

والحاكم: ٢٣١/٢ والدارقطني: ٣٠٧/١.

من الحديث في ذلك^(١)، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعاً: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٢). وهو حديث حسن، وهكذا تستحب عند الأكل، لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيعة عمر بن أبي سلمة: «قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ بِمَا يَلِيكَ»^(٣). ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع، لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ بَقِيَ مِنْ بَيْتِهِمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(٤).

[بماذا يتعلق باسم الله؟]

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالياء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان، وكل قد ورد به القرآن، أما من قدره باسم تقديره، باسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ آتِكُمُ الْكِتَابَ بِاسْمِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ﴾^(٥)، ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو: أبدأ بسم الله أو ابتدأت باسم الله فلقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ﴾^(٦)، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بد له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياماً أو قعوداً، أو أكلاً أو شرباً، أو قراءة، أو وضوءاً، أو

الشافعي والحاكم في مستدركه عن أنس؛ أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسم^(٧). وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها. فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر. وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهرًا ولا سرًا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين^(٨). وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين، ولمسلم: ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها^(٩)، ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه^(١٠). فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة، وهي قريية، لأنهم أجمعوا على صحة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رديف النبي ﷺ: قال عثر بالنبي ﷺ فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ: إِذَا قُلْتَ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ وَقَالَ: يَقُوِّي صَرَغَتَهُ وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(١١)، وقد روى النسائي في «اليوم والليلة» وابن مردويه في تفسيره عن أسامة بن عمير قال: كنت رديف النبي ﷺ فذكره وقال: «لَا تَقُلْ هَكَذَا، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّيْتِ، وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ»^(١٢). فهذا من تأثير بركة بسم الله.

[استحبابها في بداية كل عمل]

ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة، لما جاء. وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد

(١) مسند الإمام الشافعي: ١/ ٨٠ والحاكم: ١/ ٢٣٣.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ١٢.

(٣) فتح الباري: ٢/ ٢٦٥ ومسلم: ١/ ٢٩٩.

(٤) قال الحافظ في بلوغ المرام: وفي رواية لأحمد والنسائي وابن خزيمة: «لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم» وفي أخرى لابن خزيمة: «كانوا يسرون» وعلى هذا يحمل النفي في رواية مسلم. اهـ.

(٥) الترمذي: ٢٤٤. (٦) أحمد: ٥/ ٥٩.

(٧) النسائي في الكبرى: ٦/ ١٤٢.

(٨) عون المعبود: ٦/ ١.

(٩) أحمد: ٣/ ٤١ وأبو داود: ١/ ٧٥ وتحفة الأحوذى: ١/ ١١٥.

والنسائي: ١/ ٦١ وابن ماجه: ١/ ١٤٠.

(١٠) مسلم: ٣/ ١٦٠.

(١١) فتح الباري: ٩/ ١٣٦ ومسلم: ٢/ ١٠٥٨.

عثمان بن زفر سمعت العزرمي يقول: الرحمن الرحيم قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين^(٤) قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ﴿فَذَكَرَ الاسْتِواءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنَ لِيَعْلَمَ جَمِيعُ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ﴾ وقال: ﴿وَصَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿فَخَصَّصَهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ﴾ قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: ﴿رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا﴾. واسمه تعالى الرحمن خاص به، لم يسم به غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَعَلَّ مِنْ آسَاسِنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا تَجَهَّمْ مَسِيلَةَ الْكُذَابِ وَتَسْمَى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جَلْبَابَ الْكُذْبِ وَشَهِرَ بِهِ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا: مَسِيلَةُ الْكُذَابِ، فَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكُذْبِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَضِرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِّ، وَأَهْلِ الْوَبْرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَعْرَابِ.

وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وإنما تجهم مسيلة اليمامة في التسمي به، ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة، وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾﴾ والحاصل أن من أسائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله، والرحمن، والخالق، والرازق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص. وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً ﴿يَسْمِيهِ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

(١) فتح الباري: ١١/٢١٨ ومسلم: ٤/٢٠٦٢.

(٢) تحفة الأحوذى: ٦/٣٣. (٣) القرطبي: ١/١٠٥.

(٤) الطبري: ١/١٢٧.

صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل. والله أعلم.

[معنى لفظ الجلالة «الله»]

[الله] علم على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْفَتْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مائة إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

[تفسير: الرحمن الرحيم]

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَكُنْ وَصَلَهَا وَصَلَتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»^(٢). قال: وهذا نص في الاشتقاق، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له.

قال القرطبي: ثم قيل: هما بمعنى واحد كندمان ونديم، قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك: رجل غضبان - للرجل الممتلى غضباً - وفعل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَصَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وقال ابن عباس: هما اسمان دقيقان أحدهما أرق من الآخر أي: أكثر رحمة^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي: حدثنا

وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً، فهو أعم.

ذكر أقوال السلف في الحمد

ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال: قال عمر لعلي - وأصحابه عنده -: لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها. فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة أحبها الله تعالى لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن يقال^(٣). وقال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله قال: شكرني عبدي. رواه ابن أبي حاتم^(٤).

[فضائل الحمد]

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله ألا أنشدك محمد حدث به ربي تبارك وتعالى فقال: «أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْحَمْدَ» ورواه النسائي^(٥). وروى أبو عيسى الحافظ الترمذي، والنسائي وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» وقال الترمذي: حسن غريب^(٦).

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ بِمَا أَخَذَ»^(٧).

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَعَصَلَتْ بِالْمَلَائِكِينَ فَلَمْ يَذَرْتَا كَيْفَ يَكْتُبَانِيَا فَصَعِدَا إِلَى اللَّهِ فَقَالَ: يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَذَرِي كَيْفَ تَكْتُبُهَا قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ - تَأَدَّا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: «اَكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ

تَبَارَكَ يَوْمَ الْآخِرَةِ» ﴿١﴾ فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة، ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣﴾

[معنى الحمد]

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما يرأى من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصى العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نهبهم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخر^(١). وقال ابن جرير رحمه الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه، فكانه قال: قولوا: الحمد لله. قال: وقد قيل: إن قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله: «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه^(٢).

[الفرق بين الحمد والشكر]

والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه، وهو أخص، لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين. والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد تقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحده حمدًا ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له، وباللام أفصح. وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللجماد أيضاً، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان

(١) الطبري: ١/١٣٥. (٢) الطبري: ١/١٣٧.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/١٥. (٤) ابن أبي حاتم: ١/١٣.

(٥) أحمد: ٣/٤٣٥ والنسائي في الكبرى: ٤/٤١٦.

(٦) تحفة الأحوذى: ٩/٣٢٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٠٨.

وابن ماجه: ٢/١٢٤٩.

(٧) ابن ماجه: ٢/١٢٥٠.

عَبْدِي حَتَّى يُلْقَانِي فَأَجْزِيَنِي بِهَا»^(١).

[الألف واللام في «الحمد» للاستغراق]

والألف واللام في «الحمد» لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» الحديث^(٢).

[معنى الرب]

والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم.

[معنى العالمين]

والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً. قال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عما يعقل، وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم. وعن زيد ابن أسلم وأبي محيصة: العالم كل ما له روح ترفرف. وقال قتادة: «نَبِّ الْكَائِنَاتِ»^(١) كل صنف عالم، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال القرطبي: وهذا هو الصحيح إنه شامل لكل العالمين كقوله: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٢) قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّهُمْ مُّؤْمِنُونَ»^(٣).

[وجه تسمية العالم]

والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته^(٣).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وقوله تعالى: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»^(٢) تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة. قال القرطبي: إنها وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله: رب العالمين، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْعَذِبُ أَتَى أَنَا

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»^(١) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»^(٢) وقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» قال: فالرب فيه ترهيب، والرحمن الرحيم ترغيب. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ»^(٥).

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾

[معنى تخصيص الملك بيوم الدين]

وتخصيص الملك بيوم الدين لا يفهم عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا»^(٣٨)، وقال تعالى: «وَحُشِّنَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا»^(٣٩) وقال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ»^(٤٠) وقال الضحاک عن ابن عباس ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٤١) يقول: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملهم في الدنيا.

[معنى يوم الدين]

قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر إلا من عفا عنه^(٦)، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر.

[الملك وملك الأملاك هو الله]

والملك في الحقيقة هو الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكُتُوبِ السُّلُومِ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أَخْتَعُ اسْمَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلَاقِ، وَلَا مَالِكِ إِلَّا اللَّهُ»^(٧) وفيها عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يَقْبُضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِمِيزِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ

(١) ابن ماجه: ١٢٤٩/٢. (٢) الترغيب والترهيب: ٢٥٣/٢.

(٣) القرطبي: ١٣٩/١. (٤) القرطبي: ١٣٩/١.

(٥) مسلم: ٢١٠٩/٤. (٦) ابن أبي حاتم: ١٩/١.

(٧) فتح الباري: ٦٠٤/١ ومسلم: ١٦٨٨/٣.

[الفاتحة إرشاد إلى الشاء فتجب]

[قراءتها في الصلاة]

وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالشاء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی، وإرشاد لعباده بأن يشوا عليه بذلك. ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢) قَالَ اللَّهُ: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»^(٣) قَالَ اللَّهُ: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي، فَلِذَا قَالَ: «سَلِّكْ يَوْمَ الدِّينِ»^(٤) قَالَ اللَّهُ: مَجْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(٥) قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: «أَعْدَا أَمْرًا أَلَسْتُ بِمُتَّقِيٍّ»^(٦) صِرَطُ الَّذِينَ آمَنَتْ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»^(٧) قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٨).

[توحيد الألوهية]

قال الضحاك عن ابن عباس رضی اللہ عنہما: «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ» يعني: إياك نوح ونخاف ونرجوكم يا ربنا لا غيرك.

[توحيد الربوبية]

«وإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(٩) على طاعتك وعلى أمورنا كلها^(١٠) وقال قتادة: «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(١١) يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم^(١٢). وإنما قدم «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ» على «وإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ» لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها. والاهتمام بالحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم. والله أعلم.

(١) فتح الباري: ٤٠٤/١٣ ومسلم: ٢١٤٨/٤.

(٢) فتح الباري: ٨٩/٦ ومسلم: ١٥١٨/٣.

(٣) ابن ماجه: ١٤٢٣/٢.

(٤) فتح الباري: ٢٧٦/٢ ومسلم: ٢٩٥/١.

(٥) مسلم: ٢٩٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١٩/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ٢٠/١.

الْمُتَكَبِّرُونَ؟^(١٣). وفي القرآن العظيم: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»^(١٤) فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»^(١٥) «وَكَانَ رَأَاهُ مَلِكًا»^(١٦) «إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أُنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا»^(١٧) وفي الصحيحين: «مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَمِيرَةِ»^(١٨).

[تفسير الدين]

والدين: الجزاء والحساب، كما قال تعالى: «يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ» وقال: «لَوْ تَأَلَّمِيثُونَ»^(١٩) أي: مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»^(٢٠) أي: حاسب نفسه، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم «يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ».

«إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»

[معنى العبادة لغة وشرعاً]

والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد ويعبر معبد أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

[قوائد تقديم المفعول والالتفات]

وقدم المفعول، وهو إياك، وكرر للاهتمام والحرص أي: لا تعب إلا إياك، ولا تنوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين. وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(٢١) فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»^(٢٢) «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا»^(٢٣) «وَرَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا»^(٢٤) وكذلك هذه الآية الكريمة «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(٢٥).

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، لأنه لما أثنى على الله فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال: «إِيَّاكَ تَبَّهْتُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِثُ»^(٢٦).

[تسمية الله نبيه عبداً في أشرف المقامات]

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة، وإسرائه به.

[الإرشاد إلى العبادة عند ضيق الصدر]

وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ تَمَرَّدْنَا بِصَبِيٍّ صَدْرَكَ يَمَّا يَقُولُونَ ۝ فَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝﴾ ^(١١) ^{فار مخرج} ^{أهنا الصراط المستقيم}

[سر تأخير الدعاء بعد الحمد والوصف]

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: ﴿فَنُصِفُهَا لِي وَنُصِفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ﴾ وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله إليه، لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ إِذْ خِفْتُ فَيُتْرِكُ ۝﴾ وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول كقول الشاعر:

والأعلى صرح الله في النفس والبدن
أذكر حُرَّ حاجتي أم قد كفاني
حيثما أوك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوماً

كفاه ممن تعرضه الثناء

[معنى الهداية]

الهداية ههنا الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو أرزقنا أو أعطنا، ﴿وَهَدَيْنَا السَّبِيلَ ۝﴾ أي: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإل كقوله تعالى: ﴿أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝﴾ وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

[معنى الصراط المستقيم]

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أمير المؤمنين على صراط

إذا عوج الموارث مستقيم ^(١١)

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف هاستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه. والمراد به الإسلام.

كما روى الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سميان عن رسول الله ﷺ قال: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرَحَّاتٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَوَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُ لَا تَفْتَحُهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَحَّجُ، فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: حَرَامُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالسَّادِّي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ» ^(١٢)

[سؤال المؤمن الهداية مع اتصافه بها]

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيتته على الهداية ورسوخه فيها

الصحيح: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ مَا تَسَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ»^(١) يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَشَفْنَا مِنْهُ آيَاتِنَا الْفُتْنَةَ وَأَنبَغَاءَ قُلُوبِهِمْ﴾ فليس، - بحمد الله -، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حيد.

[التأمين بعد الفاتحة]

(فصل) يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل يس، ويقال: آمين بالقصر أيضاً ومعناه: اللهم استجب، والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفَاسِقِينَ﴾^(٢) فقال: «آمين»، مد بها صوته^(٣)، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم^(٤). وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفَاسِقِينَ﴾^(٥) قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول^(٦)، رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه: فيرتج بها المسجد^(٧). والدارقطني قال: هذا إسناد حسن^(٨). وعن بلال أنه قال: يا رسول الله لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود^(٩).

ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددوا الميم من آمين مثل: ﴿مَائِينَ أَلْيَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا آمَنَ الْإِمَامُ قَامُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَاقَعَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١٠) ولمسلم أن

أحد من اليهود ولا النصراني وأما أصحابه فتصبروا ودخلوا في دين النصرانية، لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة ابن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه، آمن بها وجد من الوحي ﷺ.

مشمولات الفاتحة

(فصل) اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العباد له، وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مائل، وإلى سؤا لهم بإياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفْضِي بهم ذلك على جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم؛ في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون.

[إسناد الإنعام إلى الله دون الإضلال.]

والرد على القدرية

وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿يَرْبِّدُ اللَّهُ أَمْسَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَزَوَّجُوا قَوَّامًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَبْدَأْهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾^(١١) وقال: ﴿مَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١٢) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن هذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون، ويحتجون على بدعتهم بمشابهة من القرآن، ويتكون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم. وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث

(١) فتح الباري: ٥٧/٨.

(٢) أحمد: ٣١٥/٤ وأبو داود: ٥٧٤/١ وتحفة الأخواني: ٦٥/٢.

(٣) تحفة الأخواني: ٦٧/٢. (٤) أبو داود: ٥٧٥/١.

(٥) أبو داود: ٥٧٥/١ وابن ماجه: ٢٧٩/١.

(٦) الدارقطني: ٣٣٥/١. (٧) أبو داود: ٥٧٦/١.

(٨) فتح الباري: ٢٠٣/١١ ومسلم: ٣٠٧/١.

فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدهم سناً فقال: «مَا مَعَكَ يَا فُلَانٌ؟» فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟» قال: نعم، قال: «اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ» فقال رجل من أشrafهم: والله ما منعتني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَؤْهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَ وَقَامَ بِهِ كَمَنْ لَجَّ جِرَابٍ تَحْشَوْ مِنْكَ يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَبَرِّقَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَنْ لَجَّ جِرَابٍ أَوْ كَيِّ عَلَى مِسْكِ». هذا لفظ رواية الترمذي ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه مسلماً قاله الله أعلم^(٨).

وروى البخاري: عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوط عنده - إذ جالت الفرس، فسكت فسكت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكت، ثم قرأ فجالت الفرس، فأنصرف، وكان ابنه يحسب قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما أخرجه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «أَقْرَأَ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ؟» قال: قد أشفقت يا رسول الله أن تطأ بحسبي وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال: «وَتَذَرِي مَا ذَاكَ؟» قال: لا. قال: «يَلِكُ الْمَلَائِكَةُ ذَنَّتْ لَصُوتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»^(٩) وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن. والله أعلم.

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

قال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر

(١) مسلم: ١/٣٠٧. (٢) مسلم: ١/٣٠٣.

(٣) أحمد: ٢/٢٨٤ ومسلم: ١/٥٣٩ وتحفة الأحوذى: ٨/١٨٠ والنسائي في الكبرى: ٥/١٣.

(٤) النسائي في الكبرى: ٦/٢٤٠ (٥) الحاكم: ٢/٢٦٠.

(٦) الدارمي: ٢/٣٢٢.

(٧) الطبراني: ٦/١٦٣ وابن حبان: ٢/٧٨.

(٨) تحفة الأحوذى: ٨/١٨٦ والنسائي في الكبرى: ٥/٢٢٧ وابن ماجه: ١/٧٨.

(٩) فتح الباري: ٨/٦٨٠.

رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَاقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفْرَةً مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١) قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان. وقيل: في الإجابة. وقيل: في صفة الإخلاص. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً «إِذَا قَالَ - يعني: الإمام - وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللَّهُ»^(٢) وقال الترمذي معناه: لا تخيب رجاءنا. وقال الأكرتون معناه: اللهم استجب لنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وأعن يا كريم

تفسير سورة البقرة

(ذكر ما ورد في فضلها) في مسند أحد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَجْعَلُوا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ». وقال الترمذي: حسن صحيح^(٣). وعن عبد الله - يعني: ابن مسعود - رضي الله عنه قال: إن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائي في اليوم والليلة^(٤) وأخرجه الحاكم في مستدركه ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٥). وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وروى أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث آيات من آخرها، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق^(٦). وعن سهل ابن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ، وَإِنْ مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلَةً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم ابن حبان في صحيحه وابن مردويه^(٧).

وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم،

[سورة البقرة المدنية بلا خلاف]

(فصل) والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: ﴿وَأَنفُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن، ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل. وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العاذون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفًا وخمسةائة حرف فالحمد لله أعلم.

قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة^(٨)، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة^(٩) وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه.

وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخرًا فقال: «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ» يعني: أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسملة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين^(١٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَّامِ﴾

[الكلام حول الحروف المقطعة]

الحروف المقطعة التي في أوائل السور هي مما استأثر الله

حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعت يقول: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْلَافَهَا بَرَكَتٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ» قال: ثم سكت ساعة ثم قال: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَأَلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظَلِّلَانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عِمَامَتَانِ، أَوْ غَيَّابَتَانِ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ يَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ يَقُولُ مَا أَغْرَفَكَ. فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِبَيْتِيهِ وَالْخَلْدُ بِبَيْتِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لِهَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: يَا تَحْسِينَا هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ وَأَضَعْ فِي دَرَجِ السَّجَنَةِ وَغَرِّفْهَا، فَهُوَ فِي صُغُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ أَوْ تَرْيِيلًا^(١). وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه^(٢) وهذا إسناد حسن على شرط مسلم.

ولبعضه شواهد، فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَأَلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عِمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِيهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ: اقْرَأُوا الْبَقَرَةَ فَإِنَّ أَخْلَافَهَا بَرَكَتٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»^(٣) وقد رواه مسلم في الصلاة^(٤).

الزهران: المنيرتان، والغاية: ما أظلك من فوقك، والفريق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها. والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلِ عِمْرَانَ» وضرب لها رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسبتين بعد قال: «كَأَنَّهُمَا عِمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِيهِمَا»^(٥) ورواه مسلم^(٦)، والترمذي وقال: حسن غريب^(٧).

(١) أحمد: ٣٥٢/٥. (٢) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢.

(٣) أحمد: ٢٤٩/٥. (٤) مسلم: ٥٥٣/١.

(٥) أحمد: ١٨٣/٤. (٦) مسلم: ٥٥٤/١.

(٧) تحفة الأحوذى: ١٩١/٨. (٨) الدر المنثور: ٤٧/١.

(٩) الدر المنثور: ٤٧/١. (١٠) المجمع: ١٨٠/٦.

(١) الطبري: ٢٠٨/١.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها، فقول: إنها ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكره فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله،

[الهداية نوعان]

ويطلق الهدى ويراد به ما يقَرُّ في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وقال: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَهِدَى لَهُ﴾ وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (٧) إلى غير ذلك من الآيات، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨) وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٩) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا النَّعْيَ عَلَى الْهَدْيِ﴾ وقال: ﴿وَهَدَيْتُهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) على تفسير من قال: المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح. والله أعلم.

[معنى التقوى]

وأصل التقوى: التوقي مما يكره، لأن أصلها وقوى من الوقاية، وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

[معنى الإيمان]

قال أبو جعفر الرازي عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: الإيمان التصديق (٣)، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون (٤) وقال معمر عن الزهري: الإيمان: العمل (٥)، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون (٦).

قال ابن جرير: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل (قلت) أما الإيمان في

والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقادة وإساعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذه خلافاً (١). ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ كِتَابَ لَدِينِهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) وقال بعضهم: هذا خبر، ومعناه النهي، أي لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله تعالى: ﴿لَدِينِ﴾ ويتدعى بقوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَبُشْرَى﴾ والوقوف على قوله تعالى: ﴿لَدِينِ﴾ أولى للآية التي ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى: ﴿هَدًى﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون ﴿فِيهِ هَدًى﴾ وهدى يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ومنصوباً على الحال.

[اختصاص الهداية للمتقين]

وخصت الهداية للمتقين كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (١١) ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١٢) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن، لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى: ﴿تَنبَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبُشْرَى لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) وعن ابن عباس وابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هَدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٤) يعني: نوراً للمتقين.

[معنى المتقين]

عن ابن عباس قال: ﴿هَدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٥) قال: هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي. وعنه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وقال قتادة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُعْمِلُونَ السُّلُوكَ﴾ الآية والتي بعدها، واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال. وقد روى الترمذي وابن ماجه عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْتَلِعُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدْعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَدَرًا يَمَّا يَبِ بَأْسٌ» ثم قال الترمذي: حسن غريب (١٦).

(١) ابن أبي حاتم: ٣١/١.

(٢) تحفة الأحوذى: ١٤٧/٧ وابن ماجه: ١٤٠٩/٢.

(٣) الطبري: ٢٣٥/١. (٤) الطبري: ٢٣٥/١.

(٥) الطبري: ٢٣٥/١. (٦) الطبري: ٢٣٥/١.

﴿يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَحَرِّمُوا رَفْعَهُمْ يُقِيمُونَ﴾

[معنى إقامة الصلاة]

قال ابن عباس: ﴿يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يقيمونها بفروضها^(٦). وقال الضحاك عن ابن عباس: إقامة الله الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليه. وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، وركوعها وسجودها^(٨). وقال مقاتل بن حيان: المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور بها وثما وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة^(٩). فهذا إقامتها.

[المراد بالإنفاق]

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس: ﴿يُقِيمُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم^(١٠)، وقال السدي: أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿يُقِيمُونَ﴾ قال: نفقة الرجل على أهله وما تنزل الزكاة^(١١). وقال جوير عن الضحاك: كانت قرباناً يتقربون بها إلى الله إلى قدر ميسرتهم وجهده. نزلت فرائض الصدقات: سبع آيات في سورة براءة فيهن الصدقات، هن الناسخات المثبتات^(١٢).

(قلت) كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإزادة الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مش توحيد والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والماله الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة

اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَسْتَعِينُ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾^(١٧) وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً^(١٨). وهو يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة. ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾^(١٩) والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

[المراد بالغيب]

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة^(٢٠).

وروى سيعد بن منصور عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به، فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾^(٢١). وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه^(٢٢). وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد عن ابن محيريز قال: قلت لأبي جعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح قال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني»^(٢٣).

بعلمه. مسعود فواتح ا قال: ف غير ذا حروف أوائل ال حرقاً، في حرو عن محه قلت منها أرب قن - الحروف صناعة مشتملة والمجه ومن الم مفصلة الأجنا الشيء ومر أن هذ قال م فقد أ: صح ا وقفنا. على ث بدليل

المدة

أوائل

فقليل:

بيناً ل

- (١) ابن أبي حاتم: ١/٣٥. (٢) الطبري: ١/٣٦٦
(٣) سعيد بن منصور: ٢/٥٤٤.
(٤) ابن أبي حاتم: ١/٣٤ والحاكم: ٢/٢٦٠.
(٥) أحمد: ٤/١٠٦. (٦) الطبري: ١/٤١
(٧) الطبري: ١/٢٤١. (٨) ابن أبي حاتم: ١
(٩) ابن أبي حاتم: ١/٣٧. (١٠) الطبري: ١/٣
(١١) الطبري: ١/٢٤٣. (١٢) الطبري: ١/٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: غطسوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه فإنهم لا يؤمنون بما جنتهم به. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سَكَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣) وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْنَا الَّذِينَ أَوْفَرُوا أَلَكْتَبَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبْعُوا فِتْنَتَكَ﴾ الآية، أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له، ومن أضله فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤) وَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول (٧).

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٨)

[معنى الختم]

قال السدي: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ﴾ أي: طبع الله (٩) وقال قتادة في هذه الآية: استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه فحتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون (١٠)، وقال ابن جريج: قال مجاهد ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: الطبع. ثبت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم (١١). قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع (١٢) قال ابن جريج: وحدثني عبد الله ابن كثير أنه سمع مجاهداً يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله (١٣)، وقال

الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثله هذه يعني: الكف، فإذا أذنبت العبد ذنباً ضم منه، وقد بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنبت ضم، وقال بأصبع أخرى فإذا أذنبت ضم، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابع كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا يرون ذلك الرين (١٤).

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل ق وصف نفسه بالخنس والطبع على قلوب الكافرين بما لكفرهم، كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ (١٥) وذو حديث ثقيب القلوب «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَدِينِكَ» (١٦) وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح ع رسول الله ﷺ قال: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا تُحْصِي عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نَكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَيْتَ فِيهِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَيْسِفٍ وَمِثْلِ الصَّفَا فَلَا تُضَرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّائِوَاتِ وَالْأَرْضُ، وَالْآلُ أَسْوَدَ مُزِيدًا كَالْكُوزِ مَجْحُوبًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا» (١٧) الحديث.

قال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخ عن رسول الله ﷺ وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قد رسول الله ﷺ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ رَادَّ رَادَّتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ قُلُوبُهُمْ مَّا كَانُوا يَكْفِيونَ﴾» (١٨). رواه الترمذي والنسائي وأبو ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح (١٩).

[إعراب غشاوة ومعناها]

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِ

- (١) الطبري: ٢٥٢/١. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٤/١.
(٣) ابن أبي حاتم: ٤٤/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٤/١.
(٥) الطبري: ٢٥٩/١. (٦) الطبري: ٢٥٩/١.
(٧) الطبري: ٢٥٨/١. (٨) القرطبي: ١٨٧/١.
(*) الترمذي: ٢١٤٠، ٣٥٨٧ وابن ماجه: ٣٨٣٤.
(٩) مسلم: ١٢٨/١. (١٠) الطبري: ٢٦٠/١.
(١١) تحفة الأحوذى: ٢٥٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٩/٦.
وابن ماجه: ١٤١٨/٢.

الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقُل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام عليه السلام، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول، - وكان رأسًا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر - قال: هذا أمر الله قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف من هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد [نافق]، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

[تفسير الآية]

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١) يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم ^(٢)، وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدي، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لثلاث يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣) أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ السُّفُفُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي: إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر، ولهذا يؤكدون في الشهادة بأن ولام التأكيد في خيرها. أكدوا أمرهم قالوا: آمنا بالله وباليوم الآخر، وليس الأمر كذلك، كما كذبهم الله في شهادتهم وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله

وَعَلَى سَمْعِهِمْ ^(٤) وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، يقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون ^(٥).

[ذكر المنافقين]

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيثار ويطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس أظن في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريضاً لأحوالهم لتجنب، ويجنب من تلبس بها أيضًا فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٦)
﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ^(٧)

[معنى النفاق]

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار. وعملي وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جرير: النفاق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه ^(٨).

[بداية النفاق]

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل، بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من

(٢) الطبري: ١/ ٢٧٠.

(١) الطبري: ١/ ٢٦٦.

(٣) الطبري: ١/ ٢٦٩.

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) ويقول: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يظهرون ما أظهروه من الإيمان مع إسرائهم الكفر يعتقدون بجعلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمَاعًا يَفْتَخِرُونَ لَكُمَا يَكْفُرُونَ لَكُمَا وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ نِقْمَةٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤) يقول: وما يغترون بصنيعهم هذا ولا يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون لا إله إلا الله، يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك (٥).

وقال سعيد عن قتادة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يظهرون ما أظهروه من الإيمان مع إسرائهم الكفر يعتقدون بجعلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمَاعًا يَفْتَخِرُونَ لَكُمَا يَكْفُرُونَ لَكُمَا وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ نِقْمَةٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٦) ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٧) يقول: وما يغترون بصنيعهم هذا ولا يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون لا إله إلا الله، يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك (٨).

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٩)

[المراد بالمرض]

قال السدي: عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً (١٠). وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة (١١). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون، والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال زادهم رجساً (١٢)، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٣) وَأَمَّا الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ. قال شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم، وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمُ هُدًى وَكَانَتْهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١٤) وقوله: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٥) وقرئ (يكذبون)، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فإنهم كانوا كذبة، ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا.

(تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلمات الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة.

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِيقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِتِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُتَفِيقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦) ﴿مَّا يُؤْمِنُونَ أَتَيْنَا بُقْعًا أُنْذِرُوا وَقَتَلُوا نَفْسَيْكَا﴾ (١٧) فيها دليل على أنه لم يغر بهم، ولم يدرك على أعيانهم، وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ قُلُوبَهُمْ بِسَمْعِهِمْ وَلَنُتَرَفِقَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم، وقد عاتبه ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فيه فقال: «إِنِّي أَكْثَرُهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» (١٨) ومع هذا لما مات صلى عليه ﷺ وشهد دفنه كما يفعل بقية المسلمين. وفي الصحيح: «إِنِّي خُبِرْتُ فَأَخْبَرْتُ» وفي رواية: «لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَوِ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لِي لَزِدْتُ» (١٩).

(١) ابن أبي حاتم: ٤٦/١. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٧/١.

(٣) الطبري: ٢٨٠/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٨/١.

(٥) الطبري: ٢٨٠/١. (٦) الطبري: ٤٠٦/٢٣.

(٧) فتح الباري: ١٨٤/٨ ومسلم: ٢١٤١/٤.

المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح ونجح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب (٥). يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون إنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهله لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) يقول تعالى: وإذا قيل للناس: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في أمثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون -لعنهم الله-: أصحاب رسول الله ﷺ، قاله أبو العالية والسدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة (٦) وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم (٧) وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة، وهم سفهاء؟ والسفهاء جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم، والحلماة جمع حليم، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قُرْبَىٰ﴾ قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان. وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) يعني:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢)

[المراد بالفساد]

قال السدي في تفسيره عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) قال: هم المنافقون، أما ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية (١). وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة (٢) وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة (٣).

[أنواع فساد المنافقين]

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها (٤).

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُهُمْ آلِيَاءُهُمْ إِلَّا تَتَّبِعُوهُ تَكُونُوا فِي الْأَرْضِ وَقَدَاسًا كَبِيرٌ﴾ (٥) فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ آلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٦) ثم قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نُصِيرًا﴾ (٧) فالنفاق لما كان ظاهره الإيثار اشتبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة النفاق حاصل؛ لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، وإلى الكافرين على

(١) الطبري: ٢٨٨/١. (٢) ابن أبي حاتم: ٥٠/١.

(٣) ابن أبي حاتم: ٥١/١. (٤) الطبري: ٢٨٩/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ٥٢/١. (٦) الطبري: ٢٩٣/١.

(٧) الطبري: ٢٩٤/١.

فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) الله يستهزئ بهم وينذهم في طغيانهم يعمهون ﴿١٥﴾

[مكر المنافقين وخداعهم]

يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا، وأظهروا لهم الإيمان والموالة والمصافاة غرورا منهم للمؤمنين، ونفاقا ومصانعة وتقية، وليسركوهم فيما أصابوا من خير ومنهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني: إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم، وشياطينهم، سادتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين.

[شياطين الجن والإنس]

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

[معنى الاستهزاء]

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم (١٥). وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) ساخرون بأصحاب محمد ﷺ (١٦)، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة (١٧). وقوله تعالى -جوابا ومقابلة على صنيعهم-: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) وقال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُفَنِّقُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِم مِّنْ ثُورِكُمْ بَيْنَ أَرْبَعِمَا وَرَدَّكُم فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورَةٍ بَابٌ بَاطِلَةٌ فِيهِ الْارْحَمَةُ وَظَهَرَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٦) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّ لَهُمْ حَيَرًا لَّا تُفْصِحُهُمْ إِنَّمَا تُمَلِّ لَهُمْ لِيُزدَادُوا إِسْمًا﴾ الآية، قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين

وأهل الشرك به.

[مكر المنافقين وباله عليهم]

فهذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوق العقاب، في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَمْسَلَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ آتَعَدَّ عَيْنَكُم فَأَعَدُّوا عَيْنَهُ﴾ فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما، قال: وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث متف عن الله عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يتمتع ذلك.

[المد والطغيان والعمه]

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) روى السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يملئ لهم (١٤) وقال مجاهد: يزيدهم، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ (١٥) شَايِعٍ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦) قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَتُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٧) والطغيان: هو المجاوزة في الشيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا خَلَقْنَا آدَمَ خَلَقْنَا فِي نَفْسِهِ (١٨) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَمَهُ: الضلال. يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها إذا ضل، قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولا يبتدون سبيلا (١٧).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت

(١) الطبري: ٣٠٠/١. (٢) الطبري: ٣٠٠/١.

(٣) الطبري: ٣٠٠/١. (٤) الطبري: ٣١١/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ٥٧/١. (٦) الطبري: ٣٠٧/١.

(٧) الطبري: ٣٠٩/١.

بَحَرَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٦٦﴾

على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: ذهب عنهم بما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَتِهِمْ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيرا ﴿بِكُمْ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمَى﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿٦٧﴾ فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي هَآذِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ يَكَاذِبُونَ يُخَفِّفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّنْشَأُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَئِنْ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾

[مثل آخر للمنافقين]

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة (٣) وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقاعدة وعطية العوفي وعطاء الخراساني والسدي والربيع بن أنس (٤)، وقال الضحاك: هو السحاب (٥)، والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿وَيَحْفَلُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَذْجَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رِجَحْتَ بِخَبَرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٧١﴾ أي: ما ربحت صفتهم في هذه البيعة، وما كانوا مهتدين أي: راشدين في صنعهم ذلك، وروى ابن جرير عن قتادة ﴿فَمَا رِجَحْتَ بِخَبَرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة (١)، وهكذا رواه ابن أبي حاتم بمثله سواء (٢).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَاهُمْ فِي ظُلُمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ صُمٌّ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٤﴾

[مثل المنافقين]

تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوفد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فينا هو كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذا هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى واستحبابهم الغي

(١) الطبري: ١/٣١٦. (٢) ابن أبي حاتم: ١/٦٠.

(٣) الطبري: ١/٣٣٤. (٤) ابن أبي حاتم: ١/٦٦.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/٦٧.

ذكر الحديث الوارد في ذلك

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود **﴿تُورَهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾** قال: على قدر أعمالهم يمررون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويظفأ أخرى ^(٥)، وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيظفأ نوره، فالؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون **﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾** ^(٦)، وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً، فإذا انتهى إلى الصراط طفى نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا: **﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾**.

[أقسام المؤمنين وأقسام الكافرين والمنافقين]

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً، مؤمنون خلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون وهم قسبان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يرددون، تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة يخسوا، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالاً من الذين قبلهم.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَكْرِكِ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ نُرٌّ مَجِيدٌ لَّهُمْ شَيْئًا﴾** الآية، ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط، وهم الذين قال تعالى فيهم: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَبِيٍّ يَبْشَرُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَوْ يَكَدُ يَرَوْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** ^(٧)، فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾** ^(٨) وقال: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾**

وَهُمْ يَجْمَعُونَ ^(٩) **﴿وَبَرُّ﴾** هو ما يلمح في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال: **﴿يَجْمَعُونَ أَصْنَعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصُّوْعِ حَذَرُ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** ^(١٠) أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً، لأن الله محيط بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾** ^(١١) **﴿رِعُونَ وَتَمُودُ﴾** ^(١٢) **﴿بِئَ الدِّينِ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ﴾** ^(١٣) **﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾** ^(١٤) ^{بهم}.

ثم قال: **﴿يَكَاذِبُ الْبَرُّ يُخَفِّفُ أَبْصَرَهُمْ﴾** أي: لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿يَكَاذِبُ الْبَرُّ يُخَفِّفُ أَبْصَرَهُمْ﴾** يقول: يكاد يحكم القرآن يدل على عورات المنافقين ^(١٥).

وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾** يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر ^(١٦)، كقوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾** وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس **﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾** أي: يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي: متحيرين ^(١٧)، وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم ^(١٨).

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يظفأ نوره تارة ويضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يظفأ نوره بالكلية، وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: **﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَكُمْ﴾**، وقال في حق المؤمنين: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَنْشَرُكُمْ يَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ^(١٩).

(٢) الطبري: ٣٤٩/١.

(١) الطبري: ٣٤٩/١.

(٤) ابن أبي حاتم: ٧٥/١.

(٣) الطبري: ٣٤٦/١.

(٦) الخاكم: ٤٩٥/٢.

(٥) الطبري: ١٧٩/٢٣.

«أو»، في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ آبَاءٍ وَلَا كُفُورًا﴾ (١١) أو تكون للتخيير أي: اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قال القرطبي: أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري أن كلاً منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٣)

[توحيد الألوهية]

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي: مهذا كالفرش -، مقرر موطأة مثبتة بالرواسي الشاغات ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٤).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد به السحاب ههنا، في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد، رزقاً لهم ولأعنامهم، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن.

ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥) ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت:

يَعْبُدُ عَلَيْهِ وَلَا هَٰذِي وَلَا كَيْتَبٌ مُّثِيرٌ (١٧). وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريبات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضاً صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةً مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَها: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خِيفًا» (١٨) استدلو به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق. إما عملياً لهذا الحديث أو اعتقادي كما دلت عليه الآية.

[أقسام القلوب]

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مُرَبُّوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، فِيرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمِثْلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلِ الْفَرْخَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالذَّمُّ، فَأَيُّ الْمَادَتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ» (١٩). وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠) روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١) قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير (٢٢). وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماهم وأبصارهم قدير (٢٣).

ودهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضر وبان لصنف واحد من المنافقين وتكون

(١) فتح الباري: ١١/١، ومسلم: ١/٧٨.

(٢) أحمد: ١٧/٣. (٣) ابن أبي حاتم: ١/٧٦.

(٤) الطبري: ١/٣٦١.

[إثبات رسالة الرسول ﷺ]

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَ مَا جَاءَ بِهِ، إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شُهِدَاكُمْ﴾ أعوانكم^(١) وقال السدي عن أبي مالك: شركاءكم، أي قوموا آخرين يساعدونكم على ذلك، أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم^(٢)، وقال مجاهد: ﴿وَأَدْعُوا شُهِدَاكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به^(٣) يعني حكام الفصحاء.

[التحدي والإعجاز]

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤)، وقال في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بِبَعْضِهِمْ لَبِئْسَ ظَهِيرًا﴾^(٥)، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ، مُمْقِرِينَ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَغْفِرُ مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦)، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ إِلَىٰ بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَأَدْعُوا مَن أَسْتَغْفِرُ مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٨) وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ - يعني محمداً ﷺ - ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني: من مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي،

يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَّهِ نِدَاً وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١). الحديث، وكذا حديث معاذ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»^(٢). الحديث، وفي الحديث الآخر: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»^(٣).

[دلائل وجود الباري تعالى]

وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البحر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير^(٤).

فمن تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾^(٥) وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ^(٦) وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييج والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهِدَاكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٧) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَادْعُوا النَّارَ إِلَيْنَا وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ^(٨)

(١) فتح الباري: ٨/ ٣٥٠ ومسلم: ١/ ٩٠.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٣٥٩ ومسلم: ١/ ٥٩.

(٣) أحمد: ٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨. (٤) الرازي: ٢/ ٩١.

(٥) الطبري: ١/ ٣٧٦. (٦) ابن أبي حاتم: ١/ ٨٤.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/ ٨٥.

طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريح التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الخلاوة سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧﴾ وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ٨﴾ وَأَشْرَفَ فِيهَا حَنَابِلُ دُونَ ٧، وقال في التهيب: ﴿أَفَأَمْسَرْتُمْ أَن يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْآلِ ٩﴾ وَأَمْسَرْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٠ أَمْ أَمْسَرْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ١١ وقال في الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ١٢﴾ وقال في الوعظ: ﴿أَفَسَرَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ١٣﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ١٤ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ١٥ إِلَى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والخلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ١٦﴾ فأرعاها سمعك، فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ١٧﴾ الآية، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال، وفي وصف الجنة والنار، وما أعد الله فيها لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به، وحذرت، وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل التحدي، وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم، وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّنْهُ ١٨﴾ وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ ١٩﴾ فهذا التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنَّ تَفْعَلُوا ٢٠﴾ ولن لنفي التأييد في المستقبل أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الأبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين.

[من وجوه إعجاز القرآن]

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي كُنْتُ أَتُكَلِّمُ ءَانِيئَهُ ثُمَّ قُلْتُ يَنْ لَّدُنَّ حَكِيمٌ خَيْرٌ ٢١﴾ فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن معانيات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتِي لَكَ صِدْقًا وَعَدًا ٢٢﴾ أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سب أو شيء من الشهادات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق، أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجده فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هنر لا

[القرآن هو المعجزة العظمى لنبيينا محمد ﷺ]

ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِنْهُ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَارْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(١) - لفظ مسلم - وقوله رضي الله عنه: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا» أي الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

[المراد بالحجارة]

قوله تعالى: «فَأَقْشِرُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» ^(٢) أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرارها كالخطب ونحوه، كما قال تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» ^(٣) وقال تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا كُودُونَ» ^(٤) «لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» ^(٥) والمراد بالحجارة هنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حرًا إذا حيت، أجارنا الله منها، وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» الآية.

وقوله تعالى: «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» ^(٦) أظهر أن الضمير في «أُعِدَّتْ» عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، ولا منافاة بين القولين في المعنى، لأنها متلازمان، و«أُعِدَّتْ» أي: رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال ابن إسحاق عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر ^(٧).

[إن جهنم موجودة الآن]

وقد استدلل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن، لقوله تعالى: «أُعِدَّتْ» أي: أرصدت وهيئت، وقد وردت

أحاديث كثيرة في ذلك منها: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ» ^(٨). ومنها: «اسْتَأْذَنَتِ النَّارُ رَبَّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكُلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ» ^(٩) وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة، فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا حَجَرٌ أَلْقَى بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا» وهو عند مسلم ^(١٠)، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى.

﴿يَسِّرْ أَلْبَابَكَ عَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(١١)

[جزاء المؤمنين الصالحين]

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسوله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسوله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثنائي على أصح أقوال العلماء كما سنسطة في موضعه، وهو أن يذكر الإيثار ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله، فلماذا قال تعالى: ﴿يَسِّرْ أَلْبَابَكَ عَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، أي: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري في غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافته قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَجْرَى تَحْتَ تَلَالِي، أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ الْمِسْكِ» ^(١٢) وروى أيضًا عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار

(١) فتح الباري: ١/٨/٦١٩ ومسلم: ١/١٣٤.

(٢) الطبري: ١/٣٨٣. (٣) مسلم: ٤/٢١٨٦.

(٤) البخاري: ٥٣٧ وتحفة الأحوذ: ٧/٣١٧.

(٥) مسلم: ٤/٢١٨٤. (٦) ابن أبي حاتم: ١/٨٧.

الجنة تفجر من جبل المسك^(١).

[مِشَابَهَةٌ ثَمَارُ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكتبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أنتمونا أنفأ به، فتقول لهم الولدان: كلوا فباللون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾^(٢) وقال: أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ قال: يشبهه بعضه بعضًا، ويختلف في الطعم^(٣)، وقال عكرمة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب^(٤)، وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء^(٥).

[أَزْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَطْهُرَاتٌ]

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: مطهرة من القدر والأذى^(٦)، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد^(٧)، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمائم، وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف^(٨)، وروي عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك^(٩).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٠) هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زميرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَهُدًى بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَفْسُقُونَ عِندَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ وَلَا تُصْلِحُ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢﴾

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١) وقال سعيد عن قتادة: أي: إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئًا مما قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(١١).

[مِثْلُ الدُّنْيَا]

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلؤوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا شَاءُوا مَا دُعُوا﴾^(١٢) ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحي، أي لا يستنكف، وقيل: لا يخشى، أن يضرب مثلاً ما، أي: أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي ما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(١٣) فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها، كما ضرب

(١) ابن أبي حاتم: ٨٨/١. (٢) ابن أبي حاتم: ٩٠/١.

(٣) ابن أبي حاتم: ٩٠/١. (٤) الطبري: ٣٩١/١.

(٥) الطبري: ٣٩٢/١. (٦) الطبري: ٣٩٥/١.

(٧) الطبري: ٣٩٦/١. (٨) ابن أبي حاتم: ٩١/١.

(٩) ابن أبي حاتم: ٩٢/١. (١٠) الطبري: ٣٩٨/١.

(١١) الطبري: ٣٩٩/١. (١٢) الطبري: ٣٩٨/١.

(١٣) مسلم: ١٩٩١/٤.

عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَوَّاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ وَالْحِذَاءُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ» (١).
فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد به في الآية الفاسق الكافر، والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ (٢). وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد: «أَمَنْ بَعْدُ إِنَّمَا يُرِيدُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَمِينٌ إِنَّمَا يُنذِرُ أُولَا الْأَلْبَابِ (٣) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثُ (٤) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٥)» الآيات، إلى أن قال: «وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٦) والعهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، هو وصية الله إلى خلقه، وأمره بإيهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إيهم عما نهاهم عنه من معصيته، في كتبه وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقيل: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، والعهد الذي نقضه أهل الكتاب هو ما أخذ الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتائبهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً.

وقيل: بل عني بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيد ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به

المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعْمُوا لَهُ» إِنَّكَ الْذِّبُكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧) وقال: «مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْفَعَسِ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَفِلِ بِهِ وَلَئِنْ أَهْرَأَهُ الْبُيُوتُ لَبِثَ الْفَعَسُ يَوْمَهُ ثُمَّ لَوَّ كَانُوا يَعْمُورُونَ (٨)»، وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٩) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (١٠) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (١١) بَيَّنَّتْ اللَّهُ الْذِّبُكَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَالِيلِينَ (١٢) وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (١٣)» وقال تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (١٤) الْآيَةُ، كلما قال: «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ» هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ» الآية.

وقال مجاهد في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَعِيزُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا» الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويهديهم الله بها (١٥).

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» يعني به: المنافقين، ويهدي به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إيهم به (١٦)، «وَيَهْدِي بِهِ» يعني المثل «كَثِيرًا» من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هدايتهم، وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (١٧)» قال: هم المنافقون، وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد، وثبت في الصحيحين

(١) ابن أبي حاتم: ٩٣/١. (٢) الطبري: ٤٠٨/١.

(٣) فتح الباري: ٤٠٨/٦، ومسلم: ٨٥٦/٢.

حق. وروي عن مقاتل بن حيان أيضًا نحو هذا وهو حسن،
وإليه مال الزنجشري.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) ورجحه ابن جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك. فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعه وتركه.

[المراد بالخسران]

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧) قال: في الآخرة^(٢٦)، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٢٥) وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نُسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام، فإنما يعني به الذنب^(٢٣). وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧) الخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أخرج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه خسر الرجل يخسر خسراً وخساراً، كما قال جرير بن عطية: إن سـلـطـا في الخـسـار إنـه

الأسـلـيـطـا في الخـسـار إنـه

أولاد قوم خلقوا أنفسهم (٤)
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ تُمَيِّتُهُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُمْ رُجْعُونَ﴾ (٥)
يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المصروف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٦) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون (٧) وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ (٨)

والآيات في هذا كثيرة، وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَرًا فَآخِيَةً﴾ أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق ثم

- (١) الطبري: ٤١٦/١. (٢) ابن أبي حاتم: ١٠١/١.
(٣) الطبري: ٤١٧/١. (٤) الطبري: ٤١٧/١.
(٥) الطبري: ٤١٩/١. (٦) الطبري: ٤٣٧/١.

[خلقت الأرض قبل السماوات]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

[دحيث الأرض بعد خلق السماوات]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَمِعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ بَعْضٍ ^(١)، وَهَذِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

[استخلاف آدم وبنيه للملائكة وما قالوه]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِجْسَادِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ أَيُّ وَادٍ يُصَادُّكُمْ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢)

(٢) فتح الباري: ٨/٤١٧.

(١) الطبري: ١/٤٣٦.

(٤) فتح الباري: ١٣/٤٢٦.

(٣) الطبري: ١/٤٦٤.

هذا العذر وقد مدح على ذلك، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِمِجْعٍ يَرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ، كَانَتْ مِنْ كَانٍ»^(١) وهذا قول الجمهور، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) فَأَوْسَبَحَتْ لَا عِلْمَ لَنَا وَلَا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(٣) قَالَ يَتَأَدَّمُ أَنْفُسُهُمْ بِسَمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمَ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَلِمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ^(٤)

[فضل آدم على الملائكة]

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين المقام، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودابة وسائر أرض وسهل وبحر وخيل وحرار وأشياء ذلك من الأمم وغيرها^(٥)، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم ابن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحيفة والقدر؟ قال: نعم حتى الفسوة والفسية^(٥)، والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية، يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من

بالأعمال، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ»^(١) فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركتهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم: ﴿إِنْ عَلِمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقيل: معنى قوله تعالى جواباً لهم: ﴿إِنْ عَلِمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) إن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء، والحالة ما ذكرتم، لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنْ عَلِمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) أي: من وجود إبليس بينكم، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنْ عَلِمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم والبق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

[وجوب نصب الخليفة، وبعض مسائل الخلافة]

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والإمامة تنال بالنص كما يقول طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيلاء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده، كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته، أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خيراً بالحروب والآراء، قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً لغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»^(٢). وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه، وسلم الأمر إلى معاوية، لكن كان

(١) مسلم: ١٧٩ ومسنَد أبي عوانة: ١/١٤٥.

(٢) البخاري: ٧٠٥٦ والطبري: ١/٤٧٧.

(٣) مسلم: ١٤٧٠. (٤) الطبري: ١/٤٥٨.

(٥) الطبري: ١/٤٨٥.

وإن جعلتكم فيها أطمعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقدس، فإذا كنتم لا تعلمون أساء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدوهم فأنتم بها هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٣) أي: العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام.

[إظهار فضل آدم بعلمه]

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكَادُمْ أَنْبِتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٤) قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبرائيل، أنت ميكايل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأساء كلها حتى بلغ الغراب^(٥)، وقال مجاهد في قول الله: ﴿قَالَ يَكَادُمْ أَنْبِتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحامة والغراب واسم كل شيء^(٦)، وروي عن سعيد بن جبيرة والحسن وقتادة نحو ذلك^(٧)، فلما ظهر آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أساء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٥) أي ألم أتقدم إليكم إني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) وكما قال إخباراً عن الهدى أنه قال لسليمان: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾.

صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، قَيَّاتُونَ أَدَمَ يَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي. ائْتُوا نُوْحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُلٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، قَيَّاتُونَهُ، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَ رَبِّهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، فَيَسْتَحْيِي، يَقُولُ: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، قَيَّاتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، يَقُولُ: ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ. فَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ. يَقُولُ: ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ، قَيَّاتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَيَّاتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْذِنُ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَقَالُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ وَوَسِّلْ نَعْفَةَ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ بَعْلَمْنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيُحْدِثُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُوذُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي -مِثْلَهُ- ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحْدِثُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُوذُ الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ^(١). وقد روى هذا الحديث مسلم والنسائي^(٢) وابن ماجه.

ووجه إيراد ههنا، والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «قَيَّاتُونَ أَدَمَ يَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ». فدل هذا على أنه علمه أساء جميع المخلوقات^(٣)، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِكَةِ﴾ يعني: السميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، قال: ثم عرض تلك الأساء على الملائكة: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤)

ومعنى ذلك: فقال: أنبئوني بأساء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: «اتَّجَمَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قيلكم إني إن جعلت خليفة في الأرض من غيركم عصاني وذريته، وأفسدوا وسفكوا الدماء،

(١) فتح الباري: ١٠/٨.

(٢) مسلم: ١/١٨١ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٨٤.

(٣) مسلم: ١/١٨١ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٦٤ وابن ماجه: ١٤٤٢/٢.

(٤) عبد الرزاق: ١/٤٢. (٥) ابن أبي حاتم: ١/١١٨.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/١١٩. (٧) ابن أبي حاتم: ١/١١٩.

وسجد له ملائكته^(١)، وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَى مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعماهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لَا، لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا بَشَرًا أُنَّ يَسْجُدُ لِيَسِّرَ لَأُمْرَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَسْجُدَ لِرُؤُوسِهَا مِنْ عَظْمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(٥) ورجحه الرازي.

[استكبار إبليس]

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري، وهذا طيني، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام^(٦)، قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْفٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٧) وقد كان في إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس.

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٨) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٩)

[تكريم آخر لآدم]

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس: إنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء ﴿رَعْدًا﴾ أي هنيئاً واسعاً طيباً: وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله أرايت آدم أنبيأ كان؟ قال «نَعَمْ نَبِيًّا رَسُولًا كَلَّمَهُ اللَّهُ قُبْلًا» - يعني: عياناً - فقال: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٨).

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١٠) غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١١) قال يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز^(١٢)، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١٣) فكان الذي أبدوا هو قولهم: أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١٤)

[تكريم آدم بسجود الملائكة له]

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم، امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة، منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ»^(١٥).

[دخول إبليس فيمن أمر بالسجود]

[ولم يكن من الملائكة]

ولما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر، وسيسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١٦) ولذا روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمونه جناً^(١٧).

[كانت الطاعة لله والسجدة لآدم]

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن

(١) الطبري: ٤٩٨/١. (٢) أبو داود: ٢٨/٥.

(٣) الطبري: ٥٠٢/١. (٤) الطبري: ٥١٢/١.

(٥) الترمذي: ١١٥٩، والمجمع: ٣١٠/٤.

(٦) ابن أبي حاتم: ١٢٣/١. (٧) مسلم: ٩٣/١.

(٨) العظمة: ١٥٥٣/٥.

[خلقت حواء قبل دخول آدم الجنة]

وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معاناة إبليس أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها فقال: ﴿كَأَدُمُ أَتَيْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: ثم ألفت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحمًا، وآدم نائم لم يهب من نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال - فيما يزعمون والله أعلم -: «لَحْيِي وَدَمِي وَرُؤُوسِي» فسكن إليها، فلما روجه الله وجعل له سكنًا من نفسه قال له قبلًا: ﴿يَتَّكِدُمْ أَتَكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مَتَاهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْنَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

[اختبار آدم]

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم، وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي؟ فقيل: الكرم. وقيل: الخنطة. وقيل: النخلة. وقيل: التينة. وقيل: شجرة من أكل منها أحدث، وقيل: شجرة تأكل ثمرها الملائكة لخلدهم، قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله - عز وجل - ثناؤه - نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلها منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائر أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم (٢)، وكذلك رجح الإمام الرازي في تفسيره، وغيره، وهو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى الجنة فيكون معنى الكلام - كما قرأ عاصم ابن بهلة، - وهو ابن أبي النجود - (فأزلهما)، أي فنحاهما (٣) ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو

الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقادة: فأزلهما، أي من قبل الزلل (٤)، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ (٥) أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا وَمَا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيئ والراحة ﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٦) أي: قرار وأرزاقي وأجال - إلى حين - أي: إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة.

[كان آدم طويل القامة]

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِيَأْسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَسْتَنْدِي فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةً، فَتَارَعَهَا، فَتَادَاهُ الرَّخْمَنُ: يَا آدَمُ مَنِي تَمَرٌ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّخْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنْ اسْتِخْيَاءٌ» (٧).

[لبث آدم في الجنة ساعة من نهار]

وروى الحاكم عن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٨). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف (٩). وعن الحسن البصري قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستيميسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، رواه ابن أبي حاتم (١٠). وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا» (١١).

[شبهة وجوابها]

فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء

(١) الطبري: ١/ ٥١٤. (٢) الطبري: ١/ ٥٢٠.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ١٢٨. (٤) ابن أبي حاتم: ١/ ١٢٨، ١٢٩.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ١٢٩. (٦) الحاكم: ٢/ ٥٤٢.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/ ١٣١. (٨) ابن أبي حاتم: ١/ ١٣٢.

(٩) مسلم: ٢/ ٥٨٥ والنسائي: ٣/ ٩٠.

هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجه وإليس حين أبطههم من الجنة، والمراد الذرية: إنه سيتزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبيئات والبيان^(٥)، ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْ هُذَا﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿٣٩﴾ قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة^(٦) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيُخْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَتَمُّ﴾ ﴿١٣٨﴾ كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: خالدون فيها لا يحيد لهم عنها ولا محيص. ﴿يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَتَّبِعْ آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِلَيَّ قَارِعُونَ ﴿١٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ وَلَا تَشْكُرُوا يَتَّبِعْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِلَيَّ قَائِلُونَ ﴿١١﴾﴾

[حض بني إسرائيل على الدخول في الإسلام]

يقول تعالى أمر بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٢﴾.

[إسرائيل يقب يعقوب عليه السلام]

فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي، عن

كما يقول الجمهور من العلماء، فكيف تمكن إيليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قديماً، والقدر لا يخالف ولا يانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا «البداية والنهاية».

وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرعة والإهانة، فلا يمتنع، ولهذا قال بعضهم: - كما جاء في التوراة - أنه دخل في فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لها وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لها وهو في الأرض وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره.

﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾

[توبة آدم ودعاؤه]

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ وروى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس وأحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(١)، وقال السدي عن حدثه عن ابن عباس ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ قال: قال آدم عليه السلام: يا رب ألم تخلفني بيديك؟ قيل له: بلى، ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى، وعطست فقلت: يرحك الله، وسبقت رجلك غضبك؟ قيل له: بلى، قال: وكنت عليّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أرايت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه^(٢)، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ

(١) ابن أبي حاتم: ١٣٦/١ والطبري: ٥٤٣/١ و٥٤٦.

(٢) الطبري: ٥٤٣/١. (٣) الطبري: ٥٤٢/١.

(٤) الحاكم: ٥٤٥/٢. (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٩/١.

(٦) الطبري: ٣٨٩/١٨.

الهدى المضي بهم إلى النار، إلى أن سلخوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخط الحق بالباطل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣) قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣) أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، يقول: كونوا معهم ومنهم^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣) أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكملة الصلاة، وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١)

[التوبيخ على الأمر بالمعروف

مع عدم الالتزام به]

يقول تعالى: كيف يليق بك يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١) ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنبهوا من رقدتكم، وتنبهوا من عمايتكم، وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقوا به وبالبر، ويخالفون، فغيرهم الله عز وجل^(٢)، وكذلك قال السدي وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فغيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة^(٣)، وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس:

قوله: ﴿يَمَّا أَنْزَلْتُ﴾ وكلا القولين صحيح؛ لأنها متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفروهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِهَبَاءٍ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تتناضوا عن الإيمان بأيأتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، وقوله: ﴿وَرِئَيْتُ قَائِمُونَ﴾ (١١) روى ابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله^(٤)، ومعنى قوله: ﴿وَرِئَيْتُ قَائِمُونَ﴾ (١١) أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدون من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢)
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١٣)

[النهي عن لبس الحق وكتمانه]

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدون من تلبس الحق بالباطل، وغمويه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) فنهاهم عن الشيثين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب^(٥). وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله^(٦)، وروي عن الحسن البصري نحو ذلك^(٧).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم^(٨)، قلت) ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن

(١) ابن أبي حاتم ١/١٤٧. (٢) الطبري: ١/٥٦٩.

(٣) ابن أبي حاتم ١/١٤٧. (٤) ابن أبي حاتم: ١/١٤٧.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/١٤٨. (٦) الكشاف: ١/١٣٣.

(٧) عبد الرزاق: ١/٤٤. (٨) الطبري: ٢/٨.

الَّذِينَ يَطْعُونَ أَنفُسَهُمْ فَلَئِنْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ وَآتَاهُمُ الْيَوْمَ رِجْوُنَ ﴿١٠﴾

[الاستعانة بالصبر والصلاة]

يقول تعالى أمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام^(٥)، نص عليه مجاهد، قال القرطبي وغيره: ولهذا يُسمى رمضان شهر الصبر^(٦)، كما نطق به الحديث، وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي، ولهذا قرنه بأداء العبادات، وأعلاهما فعل الصلاة. روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. قال: وروى عن الحسن البصري نحو قول عمر^(٧).

وأما قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الْمُنْتَفَعِ﴾ فإن الصلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ الآية.

والضمير في قوله: ﴿وَلِئَلَّا لَكِبْرٌ﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير، ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَذُّكُمْ يُذَارِ اللَّهُ حَبْرٌ لِمَنْ ءَامَرَ وَعَدِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وما يُفْلِحُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُفْلِحُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٨) أي: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، وما يلقاها أي: يؤتاها ويُلهمها إلا ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا لَكِبْرٌ﴾ أي: مشقة ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله^(٩).

﴿وَتَسْأَلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتحيدون ما تعلمون من كتابي^(١١).

والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قول العلماء من السلف والخلف.

قال الإمام أحمد عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة وأنا رديفه: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أبي لا أكلمه إلا أسمعكم، إني لا أكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل، إنك خير الناس، وإن كان علي أميراً، بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يَجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَيَنْتَلِقِي بِهِ أَقْبَابُهُ فَيَكُونُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَكُونُ الْجَوَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَقُولُ كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَنْهَيْتُمْ، وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْتُمْ»^(١٢). رواه البخاري ومسلم^(١٣).

وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١٤) وقوله إخباراً مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(١٥) وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١٦).

﴿وَسَمِعِمْوُا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١٧)

(١) الطبري: ٧/٢. (٢) أحمد: ٥/٢٠٥.

(٣) فتح الباري: ٦/٣٨١ ومسلم: ٤/٢٢٩١.

(٤) القرطبي: ١/٣٦٧. (٥) ابن أبي حاتم: ١/١٥٤.

(٦) القرطبي: ١/٣٧٢. (٧) ابن أبي حاتم: ١/١٥٥.

(٨) الطبري: ١٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْطِئُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَهُ رَحْمُونَ﴾ (١٦) هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي وإن الصلاة أو الوصاة لتقبله ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَبْطِئُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَهُ رَحْمُونَ﴾ (١٨) أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات، فأما قوله: ﴿يَبْطِئُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ قال ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة: سدفه، والضياء: سدفه، والمغيث: صارخاً، والمستغيث: صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَمَا الْمُفْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ (١٩) ﴿قُلْتُ:﴾ وفي الصحيح: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلَكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَرْزُجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَلِيلَ وَالْإِلَّهَ وَأَذْكَرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَطْنَنْتُ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي﴾ (٢٠).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمِي إِلَىٰ أَيْنَ مَنَئَتْ

عَلَيْكُمْ وَأَيُّ فَضْلَتِكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢١)

[تذكير بني إسرائيل بتفضيلهم على الأمم]

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى فَعْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْءٌ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٢٢) لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من طول نعمة بهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا تَجْرَى فَعْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْءًا﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿وَلَا لِرَبِّ وَارِثَةٌ وَرَدَّ أُخْرَى﴾: وقال ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ يَوْمَئِذٍ نَأْتٍ نَّيْبُهَا﴾ (٢٣) وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ وَكُنْتُمْ يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً.

[لا يقبل من الكفار شفاعاة ولا فداء، ولا ينصرون]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يعني: من الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٢٤) وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (٢٥) وَلَا صَافِيَةٍ جَمِيعٍ (٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُغْفَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ (٢٧) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَقْدِرْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ الآية. فأخبر

بذكرهم تعالى بسالف نعمه إلى آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم، على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ فَضْلَتِكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٠) قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً (٣١)، وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك (٣٢).

[أمة محمد أفضل من بني إسرائيل]

ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم؛ لقوله

(١) الطبري: ١٧/٢. (٢) مسلم: ٢٢٧٩/٤.

(٣) الطبري: ٢٤/٢. (٤) ابن أبي حاتم: ١٥٨/١.

(٥) أحمد: ٤٤٧/٤، ٣/٥ وتحفة الأحوذني: ٣٥٢/٨، وابن

ماجه: ١٤٣٣/٢.

تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله، ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ (١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصرون﴾ (١٧) أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال: ﴿قَالَهُ، مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٨) أي إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ (١٩) وَلَا يُؤْنَسُ وَاقِفُهُ أَحَدٌ (٢٠) وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصرون﴾ (٢١) بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُنْهَكُونَ (٢٢) وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلُّوا عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصرون﴾ (٢٣) ما لكم اليوم لا تمنعون منا، هيهات ليس ذلك لكم اليوم (٢٤)، قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصرون﴾ (٢٥) يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرشا والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلها، وبالחסنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفُّواهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٦) مَا لَكُمْ لَا تَنصرون (٢٧) بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُنْهَكُونَ (٢٨) ﴿وَأِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وفي ذلكم بلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٢٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ (٣٠)

[تنجية بني إسرائيل من فرعون وإغراق آل فرعون]

يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صعبة موسى عليه

السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته: رأى نارا خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سُمَارُهُ عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها.

وهنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد. معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، وقيل معناه يديمون عذابكم، كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعي نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿يُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم في قوله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْهَتْ عَنْكُمْ﴾ وأما في سورة إبراهيم فلما قال ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَلْفٌ﴾ أي: بأبائيه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيدي على بني إسرائيل.

وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرا من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا، وكسرى لمن ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافرا، والنجاشي لمن ملك الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجاننا آباءكم كتمت فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك (٣١)، وأصل البلاء الاختبا

يكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ يَوْمَ فَتْنَةٍ﴾ وقال: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْخَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته به بلاء^(١)، وفي الخير: أبليه إبلاء وبلاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَجْمَعْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وَأَشَرَّ نَظَرُونَ﴾^(٥)، معناه وبعد أن أنقذناكم من فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون فيكم ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً، كما في مواضعه، ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى: ﴿فَأَجْمَعْنَكُمْ﴾ أي خلصناكم منهم، وحبزنا بينكم هم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشقى دوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

[صوم يوم عاشوراء]

قد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما روى الإمام عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى رد يصومون يوم عاشوراء، فقال: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل نبي إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال لـ الله ﷻ: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ» فصامه رسول الله ﷺ بصومه^(٢)، وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي ماجه^(٣).

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَتَمَّتْ مُوسَى^(٤) ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٥) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٦)

[اتخاذ بني إسرائيل العجل]

ول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لما سم العجل بعد ذهاب موسى لمقات ربه عند انقضاء أمد مدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف في تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ﴾ إنها ذو القعدة بكمالها وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر، وقوله تعالى: ذَآءَاتِنَا مُوسَى الْكِتَابَ يعني: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وهو رق بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿٥٩﴾ وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٧).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٨)

[توبة بني إسرائيل بقتل أنفسهم]

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال تعالى: ﴿وَلَمَّا شَوَّطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يُقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ﴾^(٩) وقال أبو العالية وسعيد بن جبيرة والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ أي: إلى خالقكم^(١٠)، قلت: وفي قوله ههنا ﴿إِلَى بَارِيكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: فقال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به، فغفر الله للقاتل والمقتول^(١١).

وروى ابن جرير عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾

(١) الطبري: ٤٩/٢. (٢) أحمد: ٢٩١/١.

(٣) فتح الباري: ٢٨٧/٤ ومسلم: ٧٩٦/٢ والنسائي في الكبرى: ١٥٧/٢ وابن ماجه: ٥٥٣/١.

(٤) ابن أبي حاتم: ١٦٧/١. (٥) ابن أبي حاتم: ١٦٨، ١٦٧/١.

(٦) النسائي في الكبرى: ٤٠٤، ٤٠٥ والطبري: ٣٠٦/١٨.

وابن أبي حاتم: ١٦٨/١.

فَنَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٦﴾ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل، فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة (١).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَسْتَرْهَنَّاظُرُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعْنَتَكُمْ فَتَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[طُلب خيارهم رؤية الله وإماتتهم وإحيائهم]

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصق إذ سألتهم رؤيتي جهرة عيانًا لما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جرير، قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية (٢)، أي حتى نرى الله (٣)، وقال عروة بن رويم في قوله: ﴿وَأَسْتَرْهَنَّاظُرُونَ﴾ (٤) قال: صق بعضهم وبعض ينظرون (٥)، ثم بعث هؤلاء، وصق هؤلاء، وقال السدي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فأتوا، فقام موسى يبيكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلك خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّهَاءُ مِنَّا﴾ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا و[عاش] رجل رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعْنَتَكُمْ فَتَشْكُرُونَ﴾ (٦) (٧) وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم (٨)، وكلنا قال قتادة (٩).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به، ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخلوه، فما له

لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟ وقرأ قول الله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فجاءت غصبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فأتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعْنَتَكُمْ فَتَشْكُرُونَ﴾ (١٠) فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فتفتت الجبل فوقهم (١١).

وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا، وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعايتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق والثاني أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح، لأن معايتهم للأمر الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون، وهذا واضح، والله أعلم.

﴿وَلَلَّانَا عَلَيْكُمُ الْقِمَامَ وَأَرْكَنَّا عَلَيْكُمْ أَمْنًا وَاسْلَوْا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٢)

[تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم]

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضًا بأسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَلَلَّانَا عَلَيْكُمُ الْقِمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك؛ لأنه يغم الساء، أي: يواربها ويستترها وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التبه ليقبهم حر الشمس قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبي حنبل والضحاك والسدي نحو قول ابن عباس (١٣)، وقال الحسن وقتادة: ﴿وَلَلَّانَا عَلَيْكُمُ الْقِمَامَ﴾ كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام؛ من الشمس (١٤)، وقال ابن جرير: قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب (١٥).

(١) الطبري: ٧٣/٢. (٢) الطبري: ٨١/٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ١٧٠/١. (٤) ابن أبي حاتم: ١٧٢/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١. (٦) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١. (٨) الطبري: ٨٨/٢.

(٩) ابن أبي حاتم: ١٧٤/١. (١٠) ابن أبي حاتم: ١٧٤/١.

(١١) الطبري: ٩١/٢.

فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات
البنات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.

[فضيلة صحابة محمد ﷺ على سائر أصحاب الأنبياء]

ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ، وسائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم،
مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك في ذلك
القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد
أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، لكن لما أجهدهم
الجوع سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدر
مبارك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم،
وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءتهم سحابة
فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا
فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء
مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا أَتَيْنَا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَرَّيْدُ
الْمُحْسِنِينَ ۝٨٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
قَالُوا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا يَجِرُ ۝٨٩﴾ وَمَنْ السَّعَاءُ يَمَسُّوْنَ ۝٩٠﴾

[تعنت اليهود بعد الفتح بدلاً من شكر الله تعالى]

يقول تعالى لائماً على نكولهم عن الجهاد وعن دخولهم
الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه
السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة، وقتال من فيها من
العمالق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا،
فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة،
ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما
نص على ذلك السدي والربيع بن أنس^(١١)، وقتادة

وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن
ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه،
فيأكلون منه ما شاءوا. وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في
مخلتهم سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحل من العسل،
يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل
منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق،
حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعة، أخذ ما يكفيه ليوم
سادسه ويوم سابعه، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر
معيشته، ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية^(١٢).

قال المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج
مع الماء صار شرباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر،
ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك رواية
البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ «الْكُمَاةُ
مِنَ الْمَنِّ وَمَا وَهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(١٣) وهذا الحديث رواه الإمام
أحمد^(١٤) وأخرجه الجماعة في كتبهم إلا أبا داود، وقال الترمذي:
حسن صحيح^(١٥)، وروى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال
رسول الله ﷺ «الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السَّمِّ،
وَالْكُمَاةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَا وَهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(١٦) تفرد بإخراجه
الترمذي^(١٧).

وأما السلوى، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:
السلوى طائر شبيه بالسائي، كانوا يأكلون منه. وروى
السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من
الصحابة: السلوى طائر يشبه السائي^(١٨)، وكذا قال مجاهد
والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس
رحمهم الله تعالى^(١٩)، وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير
يكون بالجنة، أكبر من العصفور أو نحو ذلك^(٢٠)، وقال
قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة، تحشرها عليهم
الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه
ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم
سادسه، ليوم جمعة، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه،
لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه^(٢١).

وقوله تعالى ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أمر بإباحة
وإرشاد وامتنان، وقوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٧﴾ أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم،
وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٧٦. (٢) فتح الباري: ٨/١٤.

(٣) أحمد: ١/١٨٧. (٤) فتح الباري: ٨/١٤ ومسلم:

٣/١٦٩ وتحفة الأحوذني: ٦/٢٣٥ والنسائي في الكبرى:

٤/٣٧٠ وابن ماجه: ٢/١١٤٣. (٥) تحفة الأحوذني: ٦/٢٣٣.

(٦) تحفة الأحوذني: ٦/٢٣٥. (٧) الطبري: ٢/٩٦.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٧٨. (٩) ابن أبي حاتم: ١/١٧٩.

(١٠) ابن أبي حاتم: ١/١٧٩. (١١) ابن أبي حاتم: ١/١٨١.

وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿يَقُومُوا آذِلًا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ الآيات^(١). وقال آخرون: هي أريحاء، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد.

وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سُجِّدَا﴾ أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال، قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾ أي ركعاً^(٢)، وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾ قال: ركعاً من باب صغير، ورواه الحاكم وزاد ابن أبي حاتم: فدخلوا من قبل أستاههم، وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم على دخولهم، واستبعده الرازي، وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع؛ لتعذر حمله على حقيقته، وقال خصيف: قال عكرمة قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة، وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وقائدة والضحاك هو باب الحطة من باب إيلياء: بيت المقدس، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عني بالباب جهة من جهات القبلة، وقال خصيف قال عكرمة قال: ابن عباس: فدخلوا على شق، وقال السدي عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود عن عبد الله بن مسعود: قيل لهم: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم أي: رافعي رؤوسهم^(٣) خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ عن ابن عباس ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: مغفرة، استغفروا^(٤)، وقال الحسن وقائدة أي: احطط عنا خطايانا^(٥) ﴿نَنْفِرُ لَكُمْ حِطَّةً﴾ وسنزيد المؤمنين^(٦) وقال: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات، وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا له تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم، ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿قِيلَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ فَدَخَلُوا يَرْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ﴾^(٦) ورواه النسائي موقوفاً ويعضه مسنداً وفي قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فبدلوا وقالوا: حبة^(٧)، وروى نحوه عبد الرزاق ومن طريقه البخاري ومسلم والترمذي^(٨)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يرحفون على أستاههم، من قبل أستاههم، رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزءوا فقالوا: حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٩) وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب^(٩) وهكذا روي عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي والحسن، وقائدة أنه العذاب^(١٠) وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونَ رَجُزٌ، عَذَابٌ عُدَّتْ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ»^(١١) وهكذا رواه النسائي^(١٢)، وأصل الحديث في الصحيحين: «إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ يَأْزِرُونَ فَلَا تَدْخُلُوهُمْ»^(١٣) الحديث، روى ابن جرير عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الْوَجْعَ وَالسَّقَمَ رَجُزٌ عُدَّتْ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلُكُمْ»^(١٤) وهذا الحديث أصله خرج في الصحيحين^(١٥).

(١) الرازي: ٨٢/٣. (٢) الطبري: ١١٣/٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١. (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ١٨٥/١. (٦) فتح الباري: ١٤/٨.

(٧) النسائي في الكبرى: ٢٨٦/٦ (٨) تحفة الأحوذى: ٢٩١/٨.

(٩) الطبري: ١١٨/٢. (١٠) ابن أبي حاتم: ١٨٧/١.

(١١) ابن أبي حاتم: ١٨٦/١. (١٢) النسائي في الكبرى: ٣٦٢/٤.

(١٣) فتح الباري: ١٨٩/١٠ ومسلم: ١٧٣٩/٤.

(١٤) الطبري: ١١٦/٢.

(١٥) فتح الباري: ٥١٢/٦ ومسلم: ١٧٣٧/٤.

الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس ويصل ويقول وفوم فقالوا: ﴿يَسْمُونِي لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدْ قَادِحٌ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وإني قالوا: ﴿عَلَى طَعَامٍ وَجِدٍ﴾ وهم يأكلون المن والسلوى، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو مأكل واحد. فالبقول والفتاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم فوقع في قراءة ابن مسعود: وثومها، بالفاء، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن، في قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم^(٢)، وفي اللغة القديمة: فوموا لنا بمعنى اختبروا، قال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا في عاثور شر، وعافور شر، وأثافي وأثائي، ومغافير ومغاثير، وأشبه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والفاء فاء لتقارب مخرجيهما^(٣)، والله أعلم. وقال آخرون: الفوم الخنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز.

قال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَشْتَبِهُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي هُوَ حُوٌّ﴾ فيه تقريب لهم وتوبيخ على ما سألوهم من هذه الأطعمة الدنيئة، مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع، وقوله تعالى: ﴿أَهْطِطُوا مِصْرًا﴾ قال ابن عباس مصراً من الأمصار^(٤)، وروى ابن جرير عن أبي العالية والربيع بن أنس أنها فسرا ذلك بمصر فرعون^(٥)، والحق أن المراد: مصر من الأمصار، كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتهم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناؤه وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: ﴿أَتَشْتَبِهُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي هُوَ حُوٌّ﴾ أهبطوا مِصْرًا فإن لكم مآساً أكثر^(٦) أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر، ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِي مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِي اللَّهُ يَقُولُونَ الْبَلْغِينَ بِعَذَابِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٧)

﴿وَإِذْ أَسْتَشْفَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُونُوا شُرَكَاءَ مِنْ رَبِّي اللَّهُ لَا تَعْبُدُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ﴾^(٨)

[الانفجار اثنتي عشرة عيناً]

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم، وتيسري لكم الماء وإخراجاه لكم من حجر معكم، وتفجري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعثه لكم بلا سعي منكم ولا كد، وابدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْبُدُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ﴾^(٩) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون في كلامهم، كما قال ابن عباس^(١٠): وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم، يشربون منها، لا يرحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمتزل الأول^(١١).

وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ ما فعل لهم. وأما في هذه السورة - وهي البقرة - فهي مدنية، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم، وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرًا، وهو الانفجار، فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدْ قَادِحٌ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَشْتَبِهُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفٌ بِالَّذِي هُوَ حُوٌّ﴾^(١٢) أَهْطِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَكْثَرَ

[طلبهم الطعام الدنيء بدل المن والسلوى]

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هيناً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتهم، قال الحسن البصري: فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه، واذكروا عيشهم

(٢) ابن أبي حاتم: ١٩٣/١.

(١) الطبري: ١٢٠/٢.

(٤) ابن أبي حاتم: ١٩٤/١.

(٣) الطبري: ١٣٠/٢.

(٥) الطبري: ١٣٤/٢.

[ضرب الذلة والمسكنة على اليهود]

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ أي: وضعت عليهم، وألزموا بها شرعاً وقدرًا، أي: لا يزالون مستنزلين، ومن وجدهم استنزلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكون.

وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية^(١)، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي: المسكنة: الفاقة^(٢)، وقال عطية العوفي: الخراج^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَبَاءَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله^(٤)، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿وَبَاءَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى اللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه، يوء به بوءاً وبوءاً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِآيَاتِي وَلِيُنَفِّسَ عَنْكَ﴾ يعني: تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام إذن: رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الرِّبَايَةَ بَعْدَ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء، وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق.

[تعريف الكبر]

وهذا جاء في الحديث المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١) وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله يعني: ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا. وَإِمَامًا ضَالًّا. وَتَمَثَّلَ مِنَ الْمُتَمَثِّلِينَ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٣) وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان: فعل المناهي، والاعتداء: المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[الإيمان والعمل الصالح هو مدار النجاة في كل زمان] لما بين تعالى حال من خالف أوامرهم، وارتكب زواجرهم وتعدى في فعل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارم، وما أحدهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمة السالفة، وأطاع فإن له جزاء الحسن، وكذلك الأمر إلى قبة الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنو على ما يتركونه ويحلفونه، كما قال تعالى: ﴿الْأَنبِيَاءُ أَوَّلِيًّا﴾^(١) لا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢)، وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ﴾^(٣) وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون^(٤).

[تعريف المؤمن]

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية^(١) - قال - فأنزل الله بعد ذلك ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أ. طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشرعة محمد ﷺ بعد بعثه بها بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زه فهو على هدى وسبيل نجاة.

فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمه إلى التوراة في زمانهم.

[وجه تسمية اليهود]

واليهود من الهوادة، وهي المودة، أو التهود، وهي التوراة.

(١) ابن أبي حاتم: ١/١٩٥، ١٩٦.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/١٩٦. (٣) ابن أبي حاتم: ١/١٩٦.

(٤) الطبري: ٢/١٣٨. (٥) الطبري: ٢/١٣٨.

(٦) مسلم: ١/٩٣. (٧) أحمد: ١/٤٠٧.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/١٩٨.

وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا قَبْلُ ذَلِكَ فَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾
[أخذ الميثاق من اليهود مع رفع الطور عليهم
وتولييهم بعد ذلك]

ويقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود
والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر
تعالى لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم، ليقرأوا بما
عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وجزم وهمة وامثال، كما قال تعالى:
﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾ فالطور هو
الجبل، كما فسره به في الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس
ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس
 وغير واحد ^(٥)، وهذا ظاهر، وفي رواية عن ابن عباس: الطور ما
أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور ^(٦)، وقال الحسن في
قوله: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يعني: التوراة ^(٧) وقال مجاهد:
﴿بِقُوَّةٍ﴾، بعمل ما فيه ^(٨)، وقال أبو العالية والربيع ﴿وَأَذْكُرُوا مَا
فِيهِ﴾ يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا به ^(٩)، وقوله تعالى:
﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا قَبْلُ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ يقول تعالى: ثم
بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانشيتم ونقضتموه
﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: بتوبته عليكم،
وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾﴾
بقضكم ذلك الميثاق، في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا
فِرْدَةً خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾﴾ فجعلناها كلاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾﴾

[اعتادواهم في السبت ومسحهم قردة وخنازير]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود ما أحل من
البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده

فقال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا، فكأنهم
سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض،
وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، وقال أبو عمرو بن
العلاء: لأنهم يهودون، أي يتحركون عند قراءة التوراة.

[وجه تسمية النصارى]

فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه
والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، سمو
بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضاً، كما
قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْكَوَارِثُونَ نَحْنُ
أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وقيل: إنهم إنما سمو بذلك من أجل أنهم نزلوا
أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروي عن
ابن عباس أيضاً ^(١)، والله أعلم.

والنصارى جمع نصران، كشاوى جمع نشوان، وسكارى
جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم
على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر. وطاعته فيما
أمر، والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً،
وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، وشدة إيمانهم،
ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

[الصابئون]

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال سفيان الثوري، عن
ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس
واليهود والنصارى، وليس لهم دين ^(٢)، وكذا رواه ابن
أبي نجيع عنه ^(٣)، وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك ^(٤)
وقيل: فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور. وقيل: قوم
يعبدون الملائكة. وقيل: قوم يعبدون الكواكب. وأظهر الأقوال
والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا
على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما
هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتنونه، ولهذا
كان المشركون ينزون من أسلم بالصابئ، أي: إنه قد خرج عن
سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون
الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَبَدَّخْدَا مِسْقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

(١) الرازي: ٩٧/٣ (٢) الطبري: ١٤٦/٢

(٣) الطبري: ١٤٦/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ١/١٩٩، ٢٠٠

(٥) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١

(٧) ابن أبي حاتم: ٢٠٤/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/١

(٩) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/١

(٥) إرواء الغليل: ٣٧٥/٥

﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا يبيتها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧) إليها. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ﴾ أي: إنها ليست مذلة بالحرارة، ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة، حسنة، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عيب فيها (٩)، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد: مسلمة من الشية (١٠)، وقال عطاء الخراساني: مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها (١١)، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٢) قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها (١٢)، يعني: أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعت، فلماذا ما كادوا يذبحونها. وقال عبيدة ومجاهد وهوب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنهم اشتروها بآل كثير، وفيه اختلاف (١٣).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَا ثُمَّ فِيهَا﴾ وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧) قُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٢)

[أحياء المقتول وتعيين القاتل]

قال البخاري: ﴿فَاذْرَيْنَا ثُمَّ فِيهَا﴾: اختلفتم (١٤). وهكذا قال مجاهد وقال عطاء الخراساني والضحاك: اختلفتم فيها (١٥)، وقال ابن جريج: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَا ثُمَّ فِيهَا﴾ قال بعضهم: أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه (١٦)، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) قال مجاهد: ما تغيبون (١٨).

﴿قُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء

فقالوا: من قتلنا؟ فقال: هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يورث قاتل بعد (١١)، ورواه ابن جرير بنحو من ذلك، والله أعلم (١٢).

﴿قَالُوا أَنْعِ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَوْمَرُونَ (١٨) قَالُوا أَنْعِ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا تَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (١٩) قَالُوا أَنْعِ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا أَأَتْنَحْتِ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

[تعتهم في السؤال عن البقرة وتضييق الله عليهم]

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤا لهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، فقالوا: ﴿أَنْعِ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما هذه البقرة، وأي شيء صفتها؟ قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ أي: لا كبيرة هامة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وهوب بن منبه والضحاك والحسن وقاتدة، وقاله ابن عباس أيضاً (٣)، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، يقول: نصف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقرة، وأحسن ما تكون (٤).

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديد الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض (٥)، وقال السدي: ﴿تَسُرُّ النَّظَّارِينَ﴾ (١١) أي: تعجب الناظرين (١٦)، وكذا قال أبو العالية وقاتدة والربيع بن أنس (٧). وقال وهب ابن منبه: إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها (٨). وفي التوراة أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ في التعريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وجعلها لنا

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| (١) ابن أبي حاتم: ١١٤/١ | (٢) الطبري: ١٨٣/٢ |
| (٣) ابن أبي حاتم: ٢١٦/١ | (٤) ابن أبي حاتم: ٢١٧/١ |
| (٥) ابن أبي حاتم: ٢٢١/١ | (٦) ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١ |
| (٧) ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١ | (٨) الطبري: ٢٠٢/٢ |
| (٩) الطبري: ٢١٤/٢ | (١٠) ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١ |
| (١١) ابن أبي حاتم: ٢٢٦/١ | (١٢) الطبري: ٢١٩/٢ |
| (١٣) الطبري: ٢٢١/٢ | (١٤) فتح الباري: ٥٠٦/٦ |
| (١٥) ابن أبي حاتم: ٢٢٩/١ | (١٦) الطبري: ٢٢٥/٢ |
| (١٧) الطبري: ٢٢٥/٢ | (١٨) ابن أبي حاتم: ٢٢٩/١ |

هذه البقرة، فالمعجزة حاصلية به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نهمه كما أبهمه الله، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ﴾ أي: فضربوه فيحس، ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القليل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد.

والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصد الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها. وشاهد هنا قوله تعالى: ﴿وَوَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَفْسٌ وَحَمَلُهَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ فَيْحٍ وَأَنْسَبَ وَقَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٣﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[بيان قسوة قلوب اليهود]

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريباً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله، فهي كالحجارة التي لا تلبث أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٦﴾﴾ قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: لما ضرب السمقوت ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقبل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، يعني: أبناء أخي الشيخ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(١)، فصارت قلوب

بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون والأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشيا الله وفيه إدراك لذلك بحسبه، وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس ﴿وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾^(٢).

[وجود قوة الإدراك في الجمادات]

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إنسان الخشوع إلى الحجارة، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقَ مِنْهَا﴾ وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ السَّمَوَاتِ السَّعَى وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ الآية، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفَخُوا فِيهِ ظِلُّهُ﴾ الآية، ﴿قَالُوا أَتَيْنَا طَائِفِينَ ﴿١١﴾﴾ ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ الآية: ﴿وَقَالُوا لَيُجْلُوهُمْ لَمْ يُشْهِدْهُمْ عَيْنَانِ قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ﴾ الآية، وفي الصحيح: «هَذَا جَبَلٌ يُحْيِي وَتُحْيِي»^(٣) وكحتم الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إِنْ لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنْ لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(٤) وفي صفة الحجر الأسود: «إِنَّهُ يَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَكَمَّ بِحَقِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٥)، وغير ذلك مما في معناه.

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ نَهْيَهُمْ﴾، أي: أَوْكُفُوا^(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ ذُرًّا ﴿١﴾﴾ وقال آخرون: أو ههنا بمعنى بل، فتقديره:

(١) الطبري: ٢٣٤/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٣٣/١
(٣) فتح الباري: ٩٨/٦ (٤) مسلم: ١٧٨٢/٤
(٥) أحمد: ٢٦٦/١

قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم الحق يرشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبتل يرشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسِّئُونَ أَلِكُنْبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

[اليهود كانوا يقرؤون بنبوة محمد ﷺ ولا يؤمنون]
وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ الآية، روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا﴾ أي: أن صاحبكم - محمد - رسول الله، ولكنه إليكم خاصة (٢)، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه. وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٣) وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم (٤). وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٥) قال أبو العالية: يعني: ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة، وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسَوْنَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم

فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَخْرُوجٌ النَّاسُ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلِيٍّ أَوْ زَيْدُونَ﴾ (٦)، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٧) وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فَمِنْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ عندكم، حكاية ابن جرير، وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل، فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة (٨)؛ وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلَتْهُمْ كُرْأَتُهُمْ بِقِيَمَةٍ﴾ مع قوله: ﴿أَوْ كَطَلْمُوتٍ فِي تَحْرِيرٍ﴾ الآية، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٩) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ (١١)

[قطع الصلح في إيمان يهود زمن النبي ﷺ]

يقول تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: يتفاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آبائهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجلية، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٢) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ مَيْتَقَاتِهِمْ لِمَنْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه (١٤)، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم (١٥)، وقال ابن وهب:

(١) الطبري: ٢/٢٣٦ (٢) ابن أبي حاتم: ١/٢٣٦

(٣) الطبري: ٢/٢٤٥ (٤) الطبري: ٢/٢٤٦

(٥) الطبري: ٢/٢٥٠ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٣٩

خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وَمَا يَتْلُونَ﴾ (٧) يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: ﴿هَآمَنَّا﴾. كذا قال أبو العالية والربيع وقتادة (٢).

﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُّونٌ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا يَكْتُمُونَ﴾ (٩)

[معنى الأمي]

يقول تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُّونٌ﴾ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمي، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: لا يدرون ما فيه (٣). ولهذا في صفات النبي ﷺ: أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَكُمُ الْكِتَابُ﴾ (٤)

﴿الْبَطْلُونُ﴾ (٥) وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا الْحَدِيثُ (٦)، أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقفها إلى كتاب ولا حساب، وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

[تفسير الأماني]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ يقول: إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً (٥). وقيل: إلا أماني يتمنونها. قال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً (٦)، والتمنسي في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه، وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧) يكذبون (٧) وقال قتادة وأبو العالية والربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق (٨).

[ويل لهؤلاء اليهود المحرفين]

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا﴾ الآية، هؤلاء صنف آخر من اليهود. وهم الدعاة إلى الضلال بالزور

والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والويل الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، وقد الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرأونه غصاً لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب بدلو كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: ه من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قد سألكم عن الذي أنزل عليكم (٩)، رواه البخاري (١٠)، وقد الحسن ابن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الد بحذافيرها (١١).

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (١٢) أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبه والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك ابن عباس ؓ: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٣) يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم (١٤).

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥)

[من أماني اليهود أنهم لا يمكنون]

[في النار إلا أياماً معدودة]

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منه فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) ابن أبي حاتم: ٢٤٠/١ | (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٠/١ |
| (٣) ابن أبي حاتم: ٢٤١/١ | (٤) فتح الباري: ١٥١/٤ |
| (٥) الطبري: ٢٦١/٢ | (٦) الطبري: ٢٦٢/٢ |
| (٧) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ | (٨) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ |
| (٩) ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١ | (١٠) فتح الباري: ٣٤٤/٥ |
| و٣٤٥/١٣ و٥٥٥ | (١١) ابن أبي حاتم: ٤٧/١ |
| (١٢) الطبري: ٢٧٣/٢ | |

شركة^(٤)، وقال الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خثيم ﴿وَأَحْطَلْتُ بِهِ حَظِيَّتَهُ﴾ قال: الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب^(٥)، وعن السدي وأبي رزين نحوه^(٦)، وقال أبو العالية ومجاهد والحسن في رواية عنها، وقادة والربيع بن أنس: ﴿وَأَحْطَلْتُ بِهِ حَظِيَّتَهُ﴾ الموجبة الكبيرة^(٧)، وكل هذه الأقوال مقاربة في المعنى، والله أعلم.

[محقرات الذنوب إذا اجتمعن يهلكن]

ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّا كُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكَهُ» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى يَجْعُوا سَوَادًا، وَأَجْبُوا نَارًا فَأَنْضَجُوا مَا قَدُّوا فِيهَا»^(٨). وروى محمد ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»^(٩) أي: من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له^(٩).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأَنفُسِكُمْ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(١٠)

[ميثاق بني إسرائيل]

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذهم ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدا وعمدا، وهم يعرفونه، ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك

أي: بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه «وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَلَكَاذُ إِلَّا أَنْبَاءًا مَّفْذُودَةً» اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة^(١١)، زاد غيره وهي مدة عبادتهم العجل.

وقال الخافظ أبو بكر بن مردويه - رحمه الله - عن أبي هريرة، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجْعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا». فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان، قال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فَلَانٌ». فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أمينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخْسُوا اللَّهَ وَاللَّهُ لَا تَخْلِفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ شَيْئًا؟» فقالوا: نعم، قال: «فَمَا تَحْكُمُ عَلَى ذَلِكَ؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك، وإن كنت نبيئا لم يضرك،^(١٢) ورواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي بنحوه^(١٣).

﴿كُلٌّ مِّنْ كُتُبِ سَبْئَةٍ وَأَحْطَلْتُ بِهِ حَظِيَّتَهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٥)

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيت ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة، وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات، من العمل الموافق للشريعة، فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١٦) وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١٧) وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن: ﴿وَأَحْطَلْتُ بِهِ حَظِيَّتَهُ﴾ قال: أحاط به

(١) الطبري: ٢٧٦/٢

(٢) دلائل النبوة: ٢٥٦/٤

(٣) أحمد: ٤٥١/٢ وفتح الباري: ٣١٤/٦ والنسائي في الكبرى:

٤١٣/٦

(٤) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١

(٦) ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١

(٨) أحمد: ٤٠٢/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٢٥٤/١

خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٦) وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ﴾، وفي الصحيحين عن ابن مسعود: قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: «الصلوة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» (١).

قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما يفتقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحسن من القول: بأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسناً، كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضي الله (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تُخْفَرَنَّ مِنَ الْمُعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تُجِدْ فَالْقَوْلُ أَهْكَاءَ بَوَاجٍ مُنْطَلِقٌ» وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي، وصححه (٣).

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (١٣) فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءَ تَقْسِفُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قُرْبَىٰ مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطْهَرُونَ عَنْهُمْ بِالْإِيمَةِ وَالْعَدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِتَعْصِيَةِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤) أولئك الذين استروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يحفظ عنهم العذاب ولا هم يحرصون (١٥).

[بنود الميثاق، ونقضهم له]

يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، ويتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استغفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله،

(١) فتح الباري: ٥/٦، ومسلم: ٨٩/١.

(٢) ابن أبي حاتم: ٢٥٨/١.

(٣) أحمد: ١٧٣/٥، ومسلم: ٢٠٢٦/٤، وتحفة الأحوذى: ٥٦٢/٥.

رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبر بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ جزء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ يَفْعَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: استحبوها على الآخرة واختاروها، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يفترون عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦) أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

[استكبار اليهود وتكذيبهم الأنبياء وقتلهم إياهم]

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعنوة والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا^(١)، وقال غيره: أردفنا، والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهينة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب^(٢)، وتأيسده بروح القدس، وهو جبريل - عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما

ولا يظهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَّابُوا إِلَى بَرِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّكُمْ﴾ وذلك أن أهل المللة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿مَثَلُ السُّؤْمَنِ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُلِهِمْ بِمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْمِ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفْرَزْنَاهُ فَرِيقَيْنِ وَتَشْهَدُونَ﴾ (٨٨) أي: ثم أفرزتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، روى محمد بن إسحاق بن يسار، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية^(٤) قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دماهم، وافترض عليهم فيها فداء أسرارهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع، وهم حلفاء الخرج، والنضير، وقريظة، وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا نارًا ولا بعثًا ولا قيامة ولا كتابًا ولا حلالًا ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسرارهم، تصديقًا لما في التوراة وأخذًا به، بعضهم من بعض، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسرارهم في أيدي الأوس، ويفتدى النضير وقريظة ما كان في أيدي الخرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دماهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى - ذكره حيث أنبأهم بذلك -: ﴿أَفَتَوْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: تقادونهم بحكم التوراة، وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره، ولا يظهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخرج فيما بلغني نزلت هذه القصة.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة

(١) مسلم: ١٩٩٩/٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦١/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٦٨/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٦٨/١

غشاة^(١١) وقال عكرمة: عليها طابع^(١٢)، وقال أبو العالية: أي: لا تفقه^(١٣)، قال مجاهد وقادة: وقرأ ابن عباس: (غُلْفٌ) بضم اللام، وهو جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية كل علم، فلا نحتاج إلى علمك^(١٤)، قاله ابن عباس وعطاء، (بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ) أي: طردهم الله وأبعدهم من كل خير (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل^(١٥) (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) هو قوله: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ قُلُوبِنَا نَدْعُوا إِلَيْهِ) ولهذا قال تعالى: (بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) أي: ليس الأمر كما ادعوا، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (١٥).

وقد اختلفوا في معنى قوله: (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) (١٥)، وقوله (فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (١٥) فقال بعضهم: قليل من يؤمن منهم، وقيل: قليل إيمانهم، بمعنى أنهم يؤمنون بها جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بها كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ، وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال قليلًا ما يؤمنون وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط.

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرِ) (١٦)

[كانت اليهود تنتظر بعثة النبي ﷺ فلما بعث كفروا به]

يقول تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ) يعني: اليهود، (كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ) وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ (مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ) يعني: من التوراة، وقوله: (وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا)

جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: (وَلِيُجِدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَيَجْتَسِرَ بِآيَاتِهِ مَن رَّيَيْكُمْ) الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمر المخالفة لأموالهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم، فكذبوهم، وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (١٧).

[روح القدس هو جبريل]

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية^(١)، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب وإسماعيل بن خالد والسدي والريعي بن أنس وعطية العوفي وقادة^(٢) مع قوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) (١٧) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٨) ما روى البخاري عن عائشة: أن رسول الله ﷺ وضع لسان بن ثابت منبرًا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ أَتَى حَسَنَ رُّوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نَبِيِّكَ) (٣) وقد رواه أبو داود في سننه^(٤) والترمذي^(٥) وقال: حسن صحيح، وفي صحيح ابن حبان، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوحِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلُوا فِي الطَّلَبِ) (٦).

[استمرار اليهود في محاولة قتل الأنبياء]

وقال الزخشي في قوله تعالى: (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (١٧) إنها لم يقل: وفريقًا قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا؛ لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر، وقد قال عليه السلام في مرض موته: «مَا زَالَتْ أَكْثَلُ خَيْرِ تَعَاوِدِي هَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَهْبَرِي» (٧) (قلت): وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره^(٨).

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) (١٥) روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أي: في أكنة^(٩)، وقال مجاهد: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) عليها

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٩/١. (٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٠/١.

(٣) فتح الباري: ٥٦٢/١٠. (٤) أبو داود: ٢٧٩/٥.

(٥) تحفة الأحوذى: ١٣٧/٨. (٦) السنة: ٣٠٤/١٤.

(٧) ابن عدي: ١٢٣٩/٣. (٨) فتح الباري: ٧٣٧/٧.

(٩) الطبري: ٣٢٦/٢. (١٠) الطبري: ٣٢٦/٢.

(١١) ابن أبي حاتم: ٢٧٤/١. (١٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٣/١.

(١٣) القرطبي: ٢٥/٢. (١٤) ابن أبي حاتم: ٢٧٤/١.

بمحمد ﷺ وبالقرآن^(٦)، وعن عكرمة وقصادة مثله^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٨) لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٩) أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغبين، وقد روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَثْنَالُ الذَّرَفِ فِي صُورِ النَّاسِ، يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسْ، تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ: غُصَّارَةُ أَهْلِ النَّارِ»^(١٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفُونَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَّاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُتِيَكَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١٢)

[ادعاء اليهود الإيمان مع كفرهم بالحق]

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ، وصدوقه واتباعه ﴿قَالُوا تَوْفُونَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل، ولا نقر إلا بذلك ﴿وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَّاءَهُ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ منصوبًا على الحال، أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أُتِيَكَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٣) أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم

كفروا^(١٤) أي: وقد كانوا من قبل محيي هذا الرسول بهذا الكتاب يستصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم. وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعث الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جأنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الآية^(١٥)، وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجاهه مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به، حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٦) ﴿٢١﴾.

﴿يُسْأَلُنَا أَشْرَقُوا بِهِ أَمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ نَعْلَمُ أَنَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنْ قَضَائِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَهُ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١٧) قال مجاهد: ﴿يُسْأَلُنَا أَشْرَقُوا بِهِ أَمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يهود شروا الحق بالباطل وكتبان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه^(١٨)، وقال السدي: ﴿يُسْأَلُنَا أَشْرَقُوا بِهِ أَمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم^(١٩)، يقول: نسألهما اعتاضوا لأنفسهم، فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكرامية ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ قَضَائِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا، ﴿قَبْلَهُ وَبِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس في الغضب على الغضب: بغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم^(٢٠) (فلست ومعنى ﴿يَأْتُوا﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب، وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم

(١) الطبري: ٢/ ٣٣٣ (٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٧٦

(٣) الطبري: ٢/ ٣٤٠ (٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٧٧

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٧٩ (٦) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٧٨

(٧) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٧٩ (٨) أحمد: ٢/ ١٧٩

تعمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله،
وخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ
وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمر عليكم، إذ كفرتم بخاتم
الرسول وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين،
فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان، وقد فعلتم هذه الأفاعيل
القيحة: من نقضكم الموائيق، وكفركم بآيات الله، وعبادكم
العجل من دون الله؟.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ لَذَرُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنْ يَمَنُّوهُ
أَبَدًا يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَنَجْذِثُنَّ
أَعْيُنَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَاهُمْ وَمِمَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ لَكُمُ
يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ يَمَا يَمَنُّونَ ﴿١٧﴾﴾

[دعوة اليهود إلى المباهلة]

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضيهما، يقول الله تعالى
لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ لَذَرُ الْآخِرَةِ عِنْدَ
اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿١٥﴾﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك
على رسول الله ﷺ (١٤) ﴿وَلَنْ يَمَنُّوهُ أَبَدًا يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك
والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على
الأرض يهودي إلا مات.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَتَمْنُوا الْوَتِ﴾ فسلوا
الموت (١٥). وروى عبد الرزاق عن عكرمة قوله: ﴿فَتَمْنُوا
الْوَتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦). قال: قال ابن عباس: لم
تمنى يهود الموت، لما تواروا (١٦). وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن
جبير، عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم
بريقه (١٧)، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وقال ابن
جرير في تفسيره: وبلغنا أن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنُّوا

تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغيا وعنادا واستكبارا على رسل
الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والنشهي، كما قال
تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿١٧﴾﴾ وقال السدي: في هذه الآية
يعبرهم الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ (١٨).

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات
الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله
إلا الله، والآيات البينات هي: الطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم والعصا واليد، وفرق البحر وتظليلهم بالغيام
والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدها،
﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: معبودا من دون الله في زمان موسى
وأيامه، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى
الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى
مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿١٩﴾﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من
عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى:
﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
آتَيْنَاكُمْ يَقُورُوا وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا
فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مَرْكُمُ
بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾

[عصيان اليهود بعد أن رفع الله عليهم]

الطور وأخذ الميثاق

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم، وخالفتهم للميثاق،
وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه
ثم خالفوه، ولهذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقد تقدم تفسير
ذلك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال
عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلس ذلك إلى
قلوبهم (٢١). وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس (٢٢)، وقوله: ﴿قُلْ
بِسْمَايَا مَرْكُمُ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بسما

(١) ابن أبي حاتم ٢٨١/١ (٢) عبد الرزاق: ٥٢/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٨٣/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٨٤/١

(٥) الطبري: ٣٦٦/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٨٥/١

(٧) ابن أبي حاتم: ٢٨٤/١

عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿وَمَنْ الذِّكْرُ أَشْرَكُوا﴾** قال الأعاجم ^(٧)، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه ^(٨). وقال مجاهد: **﴿وَوَدَّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر ^(٩).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس **﴿وَمَا هُوَ بِمُزَجَّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾** أي: وما هو بمنجي من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع ما عنده من العلم ^(١٠)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ود هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، وليس بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً ^(١١)، **﴿وَاللَّهُ بِصِغِيرِ بَإِ يَصْمَلُونَ﴾** ^(١٢) أي: خير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٣) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ^(١٤)

[عداوة اليهود لجبريل]

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوهم، وأن ميكائيل ولي لهم ^(١٥)، قال البخاري: قوله تعالى: **﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾** قال عكرمة: جبر وميك وإسراف: عبد. إيل: الله، ثم روى عن أنس ابن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض بختر، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: **﴿أَخْبَرَنِي بِهِنَّ**

الْمَوْتُ لَأَمَّا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يَبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا﴾ ^(١٦).

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة **﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَوَّلِيَّاءَ اللَّهِ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ لَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** ^(١٧) وَلَا يَسْتَوُونَ أَهْلًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ^(١٨) قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَدَى بَعُوثٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مِنْكُمْ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١٩) فهم عليهم لعائن الله تعالى، لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم.

وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وقد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم، إلى المباهلة، فقال: **﴿مَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ تَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَكُرْبَانَا وَسَاءَ مَا نَدْعُوهُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَكَ الْغُرَى﴾** ^(٢٠) **﴿وَاللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** ^(٢١) فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، ويدلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضر بها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: **﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾** أي: من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله عما هو فيه، ومد له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله تعالى، وقد فسرت الآية بتمني الموت دون التعرض للمباهلة. والأول أولى.

وسميت هذه المباهلة تمنياً، لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء ما لهم بعد الموت.

[حرصهم على طول العمر]

وهذا قال تعالى: **﴿وَلَنْ يَسْتَوِيَ أَهْلًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** ^(٢٢) وَلَنَجْذِثُنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَيَّ عَلَى طُولِ الْعُمُرِ، لما يعلمون من ما لهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا

(٢) ابن أبي حاتم: ٢٨٦/١

(١) الطبري: ٣٦٢/٢

(٤) ابن أبي حاتم: ٢٨٧/١

(٣) الحاكم: ٢٦٣/٢

(٦) الطبري: ٣٧٦/٢

(٥) ابن أبي حاتم: ٢٨٨/١

(٧) الطبري: ٣٧٧/٢

الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ (٣١) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣٣﴾، وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ» (٣) ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي: من الكتب المتقدمة: ﴿وَهَدَى وَشَرَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٤) أي: هدى قلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ» الآية: وقال تعالى: «وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» الآية.

ثم قال تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» (٣٥) يقول تعالى من عادائي وملائكتي ورسلي، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَشَاءُ» (٣٦) وجبريل وميكال وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنها دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضا، ولأنه أيضا يتزل على أنبياء الله بعض الأحيان، ولكن جبرائيل أكثر، وهي وظيفته، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرِائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣٧) وقوله تعالى: «فَأَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» (٣٨) فيه إيقاع المظهر مكان المضمحل حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين، بل قال: «فَأَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» (٣٩). وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى وليا لله فقد عادى الله،

جِبْرِيلَ أَيُّهَا؟ قال: جبريل؟ قال: «نَعَمْ» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ» (٤٠) «أَمَّا أَوَّلُ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ، فَتَأْتِي تَحْشُرُ النَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَرِزَادَةُ كَبِدِ الْحَوْبِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ، نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ» قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ» قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. قالوا: هو شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله - انفرد به البخاري من هذا الوجه (٤١)، وقد أخرجاه من وجه آخر عن أنس (٤٢).

ومن الناس من يقول: إيل عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع، فَوَزَّاهُ عبد الله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافي عبد الجليل، فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

[التفريق بين الملائكة كالتفريق بين الأنبياء]

وأما تفسير الآية بقوله تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» أي: من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذکر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من كفر برسل الله فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» الآية، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: «وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»

(١) فتح الباري: ١٥/٨ و ٣١٩/٧

(٢) البخاري: ٣٣٢٩، ٣٩١١، ٣٩٣٨، ٣١٥، ٣١٥

(٣) فتح الباري: ٣٤٨/١١ (٤) مسلم: ٥٣٤/١

وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون (٢).

[نقض العهد من عادة اليهود]

وقال مالك بن الصيف - حين بُعث رسول الله ﷺ، وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ -: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدَ آبْنَدُهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ (٣) وقال الحسن البصري: في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونقضوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً (٥).

[اليهود طرخوا كتاب الله وأقبلوا على السحر]

قال السدي: ﴿وَكَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) وقال قتادة في قوله: ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧) قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به (٨).

[كان السحر قبل عهد سليمان عليه السلام]

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ (٩) أي: على عهد سليمان، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا، فلما أمتهم الكهنة كلبوا لهم، وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتب الناس ذلك الحديث في الكتب. وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف

ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ» (١٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَاتِيَتٍ بَيِّنَتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (١١) ﴿وَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدَ آبْنَدُهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَنَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْفُوا إِلَيْكَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِإِذْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَظُنُّ بَيْنَ أَهْلِ حَقٍّ يَقُولُ إِنَّمَا نَحْنُ قِتْنَةٌ وَلَا تَكْفُرُ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرَةِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقُوا لَمَوْبَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ حَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٥).

[دلائل نبوة محمد ﷺ]

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَاتِيَتٍ بَيِّنَتٍ﴾ (١٦) الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات وإيضاحات، دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم، وما حُرِّف أوائهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف، من غير تعلم تعلمه من بشري، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَاتِيَتٍ بَيِّنَتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوهم عليهم، وتخبرهم به غداة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى في ذلك عبرة

(١) فتح الباري: ٣٤٨/١١ (٢) الطبري: ٣٩٧/٢

(٣) الطبري: ٤٠٠/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٩٥/١

(٥) الطبري: ٤٠٤/٢ (٦) الطبري: ٤٠٤/٢

قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَأَتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مُلْكِهِمْ﴾ من السحر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ وما أنزل الله السحر على الملوكين ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ببابل هاروت وماروت، فيكون معنيًا بالملوكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود، فيها ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمدًا أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجالان: اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم^(٥). هذا لفظه بحروفه، وهذا التأويل فيه من التكلف ما لا يخفى.

وذهب كثير من السلف إلى أنها كانا ملكين من السماء، وأنها أنزلتا إلى الأرض، فكان من أمرها ما كان، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قوله: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى. وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والكلبي. وأما قصة الزهرة فموضوعة بلا مرية.^(٦)

قال أصحاب الهيئة: ويُعد ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوقيانوس، سبعون درجة، ويسمون هذا طولًا، وأما عرضها، وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنتان

من بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كثر لا تأكلونه أبدًا؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته، فقالوا له: فادن، فقال: لا، ولكنتي ههنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار وذهب وفشا في الناس أن سليمان كان ساحرًا، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

[قصة هاروت وماروت وتفسير الملكين]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يُلْمَاَنِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعني التي في قوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال القرطبي: ما نافية ومعطوف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله، وجعل قوله ﴿هَرُوتَ وَمَرْوْتَ﴾ بدلًا من الشياطين، قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾^(٢) أولكونها لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، وتقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح، ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ﴾ الآية، يقول لم ينزل الله السحر^(٣) وإسناده عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: ما أنزل الله عليها السحر^(٤)، قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا ﴿وَأَتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مُلْكِهِمْ﴾ من السحر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ ولا أنزل الله السحر على الملوكين ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله ﴿بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوْتَ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم.

(٢) القرطبي: ٥٠/٢

(١) الطبري: ٤٠٥/٢

(٤) الطبري: ٤١٩/٢

(٣) الطبري: ٤١٩/٢

(٦) الطبري: ٥١/٢

(٥) الطبري: ٤١٩/٢

وإنهم يفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والاختلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْسَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَنْعَثُ سَرِيَاءَ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَهُ أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً، وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ يَقُولُ: مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكَتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، يَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتُ شَيْئًا وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ يَقُولُ: مَا تَرَكَتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيَقْرَبُهُ وَيُذْنِبُهُ وَيُلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ» (٧).

[تعلم السحر كفر]

وقوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمَانِ مِنَ الْحَيِّ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نبهاه أشد النهي، وقال له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنها علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمره أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعله، فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعا في السماء فيقول: يا حسرتاه، يا ويله ماذا أصنع (١)، وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحدا حتى يقولوا: إنما نحن فتنة فلا تكفر (٢)، رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولوا: إنما نحن فتنة، أي: بلاء ابتلينا به، فلا تكفر (٣).

وقال السدي: إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه، وقال له: لا تكفر إنما نحن فتنة، فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماذ قبل عليه، فإذا بال عليه خرج منه نور فسطح حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان، وأقبل شيء أسود كهية الدخان حتى يدخل في مسامعه، وكل شيء، وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علما السحر، فذلك قول الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمَانِ مِنَ الْحَيِّ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» الآية (٤)، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار (٥) وقد استدلل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» (٦) وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر.

[من السحر ما يفرق به بين الزوجين]

وقوله تعالى: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر، وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة،

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك، أو حقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيته امرأة ويشئى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

[قضاء الله فوق كل شيء]

وقوله تعالى: «وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله (٨)، وقال الحسن البصري: «وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى (٩). وقوله تعالى: «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» أي: يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق، قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب (١٠).

وقوله تعالى: «وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١١) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَاتَوْا وَاتَّقَوْا لَمْثُوبَةَ رَبِّهِمْ لَسَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٢) يقول تعالى: «وَلَيْسَ»

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| (١) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ | (٢) ابن أبي حاتم: ٣١٠/١ |
| (٣) الطبري: ٤٤٣/٢ | (٤) الطبري: ٤٤٣/٢ |
| (٥) الطبري: ٤٤٣/٢ | (٦) كشف الأستار: ٤٤٣/٢ |
| (٧) مسلم: ٢١٦٧/٤ | (٨) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ |
| (٩) ابن أبي حاتم: ٣١١/١ | (١٠) ابن أبي حاتم: ٣١٤/١ |

ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقرر عليها.

وقال الضحاك: عن ابن عباس ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك: عاظنا^(٣). وقال ابن أبي حاتم وروي عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس، وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك^(٤)، وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾ لا تقولوا خلافاً^(٥)، وفي رواية: لا تقولوا: اسمع منا، ونسمع منك. وقال عطاء: لا تقولوا ﴿رَعَيْنَا﴾، كانت لغة تقولها الأنصار، فنهى الله عنها^(٦)، وقال السدي: كان رجل من اليهود من بشي قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد، يأتي النبي ﷺ فيإذا لقيه فكلّم قال: أرعني سمعك، واسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون اسمع، غير مسمع، غير صاغر، وهي كالتي في سورة النساء فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا^(٧).

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا^(٨).

[شدة عداوة الكافرين وأهل الكتاب للمسلمين]

وقوله تعالى: ﴿مَّا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشرّكين الذين حذر الله تعالى من مشابهتم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم وبينهم، وبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٩).

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٠) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١١).

البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيثار ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَعَثَابَةَ رَبِّهِمْ لَآتَوْا بِهِمْ خَيْرًا لَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنقَرُوا الْحَاكِمَ لَكَانَ مَثُوبَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مَا اسْتَخَارُوا لَأَنفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْثَرُ آلِهَتِنَا وَيَلِكُكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾^(١٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٣) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^(١٤).

[الأدب في اختيار الكلمات]

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وفعلهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون: راعنا، ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَدِّعْنَا لِيَّأَيُّسِنَاهُمْ وَلَعَنَّا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١٥)، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾، وإنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلًا، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٦). وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضيهما الله عن رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجِيلٌ رَزَقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجِيلٌ لِي الدِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١٧) وروى أبو داود عنه «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١٨).

(١) أحمد: ٥٠/٢ (٢) أبو داود: ٣١٤/٤

(٣) الطبري: ٤٦١/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣١٧/١

(٥) ابن أبي حاتم: ٣١٨/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣١٨/١

(٧) الطبري: ٤٦٢/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ٩٦٥/٣

[النسخ وتهريفه]

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ ما تبدل من آية ^(١)، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نمحو من آية ^(٢)، وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ قال: ثبت خطها وبطل حكمها، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ^(٣). وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك ^(٤)، وقال السدي: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ نسخها: قبضها ^(٥). وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضها ورفعها، مثل قوله: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا قَارَ جُوهُهَا الثَّبَّةُ)، وقوله: (كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَابْنَانِ مِنْ دَهَبٍ لَا يَبْقَى لَهَا نَائِلًا) ^(٦).

وقال ابن جرير: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ ما نقل من حكم آية إلى غيره، فبطله ونغيره، وذلك أن نحو الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك، إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذاك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي كلتا حالتها منسوخة ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نُبَيِّهَا﴾، فقرأ على وجهين، (ننساها) و (نسها)، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُبَيِّهَا﴾ يقول: ما تبدل من آية أو تركها لا تبطلها ^(٨)، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: (أو ننساها)، ثبت خطها وبطل حكمها ^(٩)، وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء: (أو ننساها)، نؤخرها ونرجئها ^(١٠). وقال عطية العوفي: أو (ننساها)، نؤخرها فلا ننسخها ^(١١)، وقال السدي: مثله أيضاً وكذا الربيع بن أنس ^(١٢)، وأما على قراءة ﴿أَوْ نُبَيِّهَا﴾، فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُبَيِّهَا﴾، قال: كان الله عز وجل ينسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقوله: ﴿نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلُهَا﴾، أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:

﴿نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم ^(١٣). وقال أبو العالية: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا نعمل بها (أو ننساها)، أي نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها ^(١٤)، وقال السدي: ﴿نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلُهَا﴾ يقول: نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه ^(١٥). وقال قتادة: ﴿نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلُهَا﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي ^(١٦).

[بيان صحة النسخ والرد على اليهود]

في استحالتهم ذلك

وقوله: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(١٧) أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ^(١٨)، يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويسح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، ويختبر عباده، وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهي عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامثال ما أمروا، وترك ما نهى عن زجروا.

وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود، وتهريف شبهتهم، لعنهم الله، في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تحرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله -: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد، أن لي ملك السموات والأرض وسلطانها دون

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| (١) الطبري: ٤٧٣/٢ | (٢) ابن أبي حاتم: ٣٢١/١ |
| (٣) ابن أبي حاتم: ٣٢٢/١ | (٤) ابن أبي حاتم: ٣٢٢/١ |
| (٥) ابن أبي حاتم: ٣٢٢/١ | (٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٤/١ |
| (٧) الطبري: ٤٧٢/١ | (٨) الطبري: ٤٧٦/٢ |
| (٩) الطبري: ٤٧٣/٢ | (١٠) الطبري: ٤٧٧/٢ |
| (١١) الطبري: ٤٧٧/٢ | (١٢) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ |
| (١٣) الطبري: ٤٨١/٢ | (١٤) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ |
| (١٥) ابن أبي حاتم: ٣٢٧/١ | (١٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٧/١ |

الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتفال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا، وكان يهجو النبي ﷺ، وفيه أنزل الله ﷻ: **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ** إلى قوله **فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا** ^(٥).

وقال الضحاك: عن ابن عباس، أن رسولا أميا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيا، ولذلك قال الله تعالى: **كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ** يقول من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئا، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فغيرهم ووبخهم ولاهمهم أشد الملامة ^(٦)، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس: **مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ** من قبل أنفسهم ^(٧)، وقال أبو العالية: **مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ** من بعد ما تبين أن محمدا رسول الله، يجذونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسدا وبغيا، إذ كان من غيرهم ^(٨)، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، وقوله: **فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ^(٩)، مثل قوله تعالى: **وَلَسَمِعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْمَ كَثِيرًا** الآية، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: **فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**، نسخ ذلك قوله: **فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**، وقوله: **فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا**

ولهذا قال أنس بن مالك: خبينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع ^(١).

وقوله تعالى: **﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلَ ۚ ﴾**، أي: بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعتم المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: **﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾** ^(٢)، قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال: قال رافع بن خزيمة أو وهب بن زيد: يا محمد، اتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم، **﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلَ ۚ وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾** ^(٣).

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكديبا وعنادا. قال الله تعالى: **﴿ وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴾**، أي ومن يشتر الكفر بالإيمان **﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾** ^(٤) أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقُرْآنَ ﴾** ^(٥)، وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء ^(٦).

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ ۝ وَيَقِمْوْا لِنُفُوسِهِمْ ذِكْرًا وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا نُقِذُوا لِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَذُحِرَ الَّذِينَ أُوتُوا زَكَاةً وَمَا تَحْمِلُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾ ^(٧)

[النهى عن سلوك طريقة أهل الكتاب]

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل

(١) مسلم: ٤١/١ (٢) الدارمي: ٤٨/١ والمجمع: ١٥٨/١

(٣) الطبري: ٤٩٠/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٣٠/١

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٣١/١ (٦) الطبري: ٥٠٢/٢

(٧) ابن أبي حاتم: ٣٣٢/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١

(٩) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٤/١	(٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١
(٣) ابن أبي حاتم: ٣٣٣/١	(٤) فتح الباري: ٨٧/٨
ومسلم: ١٤٢٢/٣	(٥) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١
(٦) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١	(٧) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١
(٨) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١	(٩) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١
(١٠) ابن أبي حاتم: ٣٣٨/١	(١١) مسلم: ١٣٤٤/٣

جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيحاء والإشارة. وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال الربيع بن أنس وقتادة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالوا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم^(٣)، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل^(٤). وقال السدي كذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء^(٥)، واختار أبو جعفر ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١٣)، أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجر فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجْوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(١٤).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٥)

[ظلم من منع عن المساجد وسعى في خرابها]

المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها، هم مشركو قريش كما رواه ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾، قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة، حتى نحر هديه بذي طوى، وهادئهم وقال لهم: «مَا كَانَ أَحَدٌ يَصُدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يَصُدُّهُ»، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق، وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة^(٦).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا

﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ بَرَكَةَ﴾^(١) عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ^(٢) تَصَلِّي تَارَاحِمِيَّةً^(٣) تَشْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ^(٤).

وأما إن كان العمل موافقاً للشرعة، في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَيِّضِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٦) الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ^(٧) وَيَسْتَعْمُونَ الْمَعَاطُونَ^(٨) ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٩) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَقَوْلُهُ: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٠)، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجر، وأمنهم مما يخافونه من المحذور، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١١) على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٢) يعني لا يحزنون للموت^(١٣).

[تنازع اليهود والنصارى فيما بينهم كفرًا وعنادًا]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَانِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَانِي لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاددهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى، على رسول الله ﷺ، اتهمهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعبسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزله الله في ذلك من قولها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَانِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَانِي لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(١٤)، قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي يكفر اليهود بعبسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعبسى، وفي الإنجيل ما جاء به عبسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يده صاحبه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، بين بهذا

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٩/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٤١/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٤٠/١

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٤٠/١ (٦) الطبري: ٥٢١/٢

النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (١).

لما وجه الله تعالى الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعواهم من الصلاة في المسجد الحرام، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأناداهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُونَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِئِهِ إِلَّا الْغَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٣) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٤) وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُمَا أَنْ يَبْلُغَ أَجَلَ اللَّهِ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَصَرٌ يَعْبَرُ بِكُمْ يُدْخِلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّنَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَكُفُّوا مِنْهُمْ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٥).

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فإذا كان من هو كذلك مطرودا منها، مصدودا عنها بأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عبارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عبارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

[بشارة بغلبة الإسلام]

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، هذا خبر معناه الطلب، أي: لا نتمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب مني: «لَا تَحْجِزَنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوقَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ» (٦)، وهذا إنما كان تصديقا وعملا بقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ (٧).

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على

المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفا، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ، ألا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلي اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيرا ونذيرا، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوها عنها، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٨) على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتنعوا من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عربيا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرها الله ورسوله.

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، كما روى الإمام أحمد عن بسر بن أرطاة، قال قال رسول الله ﷺ يدعو: «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ» (٩) وهذا حديث حسن. ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَرْقِ وَالْعَرَبُ قَانِمًا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّكَ

اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ (١٠)

[استقبال القبلة في الصلوات]

وهذا، والله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ، يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ لَنَعْنَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا

(١) ابن أبي حاتم: ٣٤١/١ (٢) فتح الباري: ٥٦٥/٣

(٣) أحمد: ١٨١/٤

[الرد على من يقول: إن لله ولداً]

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها، على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله- وكذا من أشبههم من اليهود، ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم، إن لله ولداً، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تعالى وتقدس وتزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افترضوا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له، وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟! كما قال تعالى: ﴿يَبْدِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ تَكَاذَبْتُمْ وَتَقَرَّبْتُمْ مِنْهُ ۖ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَٰذَا ۝ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْنِي الرَّحْمَنُ أَنْ يَبْدَعَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا لَآئِي الرَّحْمَنِ عَبْدٌ ۚ لَقَدْ أَحْصَيْتُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ۚ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟! ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ،

وَجَعَلَ فِي السَّمَاءِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ: «قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» ۝ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأُنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ﴾ وقال: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا ۚ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ﴾ (١) وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا ۚ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ﴾ قال: قبله الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً (٢)، وقال مجاهد: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا ۚ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ﴾ حيثما كنتم فلكم قبله تستقبلونها الكعبة (٣).

قل: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذنا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه، من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسافة وشدة الخوف (٤). فعن ابن عمر، أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا ۚ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ﴾ (٥)، رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه، وأصله في الصحيحين، من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية (٦). وفي صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر، أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم، وركبائاً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ (٧). وقيل: نزلت فيمن اشتبهت عليه القبلة لأجل الظلمة والسحاب ونحوهما فصلى لغير القبلة.

[قبلة أهل المدينة ما بين المشرق والمغرب]

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ» (٨) وله مناسبة ههنا، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» قال ابن جرير: ومعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ» (٩) يسع خلقه كلهم بالكفاية والجلود والإفضال، وأما قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ فإنه يعني عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم (١٠).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ﴾ يسع السموات والأرض وإذا قُصِيَ نمر أو قول لله كُنْ فَيَكُونُ (١١)

(١) الطبري: ٥٢٧/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٤٧/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٤٥/١ (٤) الطبري: ٥٣٠/٢

(٥) الطبري: ٥٣٠/٢

(٦) مسلم: ٤٨٦/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٢/٨ والنسائي:

٢٤٤/١ وابن أبي حاتم: ٣٤٤/١ والحاكم: ٢٦٦/٢

(٧) فتح الباري: ٤٦/٨ (٨) العقيلي: ٣٠٩/٤

(٩) تحفة الأحوذى: ٣١٧/٢ وابن ماجه: ٣٢٣/١

(١٠) الطبري: ٥٣٧/٢

عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالفها وموجدها، من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده أن من يشهد له بذلك: المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل، وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح عيسى، من غير والد بقدرته^(١١)، وهذا من ابن جرير - رحمه الله - كلام جيد وعبرة صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧) يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له: كن - أي مرة واحدة - فيكون، أي: فيوجد، على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢١) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥) ونبه بذلك أيضًا على أن خلق عيسى بكلمة ﴿كُنْ﴾ فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِن مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قَوْلُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٨)

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه؛ فأذن الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ (١٢)، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قال: هم

وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا، فَسَبَّحَانِي أَنْ أَخَذْتُ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا^(١) انفرد به البخاري. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا أَخَذَ صَبْرٌ عَلَى آدَى سَمِيعَةٍ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرُفُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»^(٢).

[كل شيء خاضع وقانت لله تعالى]

وقوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: ﴿قَانِتُونَ﴾ (٣١) مصلين^(٣)، وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) مقرون له بالعبودية^(٤)، وقال سعيد بن جبير: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١)، يقول الإخلاص^(٥)، وقال الربيع بن أنس: يقول: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) أي قائم يوم القيامة^(٦)، وقال السدي: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) أي: مطيعون يوم القيامة^(٧)، وقال خفيف عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) قال: مطيعون، كن إنساناً فكان^(٨)، وقال: كن حملاً فكان، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٣١) مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره^(٩)، وهذا القول عن مجاهد، وهو اختيار ابن جرير، يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وهو شرعي وقدري، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ (١٥).

[معنى البديع]

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على غير مثال سبق؛ قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة، كما جاء في صحيح مسلم: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ» والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١٠)، وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحانه الله أن يكون له ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلاتها

(١) فتح الباري: ١٨/٨

(٢) فتح الباري: ١٣/٣٧٢ ومسلم: ٤/٢١٦٠

(٣) ابن أبي حاتم: ١/٣٤٩ (٤) ابن أبي حاتم: ١/٣٤٩

(٥) ابن أبي حاتم: ١/٣٥٠ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٣٥٠

(٧) الطبري: ٢/٥٣٨ (٨) ابن أبي حاتم: ١/٣٤٩

(٩) ابن أبي حاتم: ١/٣٤٨ (١٠) مسلم: ٢/٥٩٢

(١١) الطبري: ٢/٥٥٠ (١٢) ابن أبي حاتم: ١/٣٥٢

(٦) ابن أبي حاتم: ٣٥٥/١ (٧) مسلم: ١٩٢٤

للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياداً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته.

[معنى التلاوة الحقّة]

وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأ كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله ^(١)، قال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه ^(٢)، وعن عمر بن الخطاب: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها ^(٣)، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب تعوذ ^(٤).

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر عن ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بها أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْبَرُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الآية، ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: إذا أقمتوها حق الإقامة، وأستم بها حق الإتيان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، فادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَمِئْتُ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ^(٥) ويقولون: سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ^(٦)، أي: إن كان ما وعده به من شأن محمد ﷺ لواقعاً، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٧) وإذا بُشِّرَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَمَانًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ سُلَاطِينَ ^(٨) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ يَمَّا صَبَرُوا وَبَدَّرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ^(٩).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَسَلَّمْتُ﴾ فإنَّ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَلَيْتَ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿ ولها قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وفي الصحيح: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِإِلَاحٍ دَخَلَ النَّارَ﴾ ^(١٠).

﴿يَنْبَغِي لِشَرِّهِ أَنْ يَكْفُرَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ ^(١١) وَتَعَمَّتْ عَنْكَ وَأَنَّى قَضَيْتُكَ عَلَى الْعَالَمِينَ ^(١٢) وَأَقْرَبُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ^(١٣).

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم، نعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتما ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدنيوية، ولا يجسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحلمهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ^(١٤)

[ذكر إبراهيم الخليل وتوليته إمامة الناس]

يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بها كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: وأذكر يا محمد هؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتحلون ملة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، أذكر هؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَتْهُنَّ﴾ أي قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ^(١٥) أي: وفى جميع ما شرع له فعلم به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(٢) الطبري: ٥٦٧/٢.

(١) الطبري: ٥٦٧/٢.

(٤) ابن ماجه: ٤٢٩.

(٣) القرطبي: ٩٥/٢.

(٥) مسلم: ١٣٤/١.

ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء^(٥)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ وَالْإِسْتِغْدَادُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ وَتَنْفُ الْإِبْطِ»، ولفظه لمسلم^(٦).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأمعنهم، فراق قومهم في الله حين أمر بمفارتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافة، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الصيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله، وأخلصه للبلاء قال الله له: «أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» على ما كان من خلاف الناس ورافقهم^(٧).

[عهد الله لا ينال الظالمين]

وقوله: «قَالَ وَبِنُذْرِي قَالَ لَا تَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينامهم عهد الله، ولا يكونون أئمة، فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه؛ وأما قوله تعالى: «قَالَ لَا تَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» فيخبره أنه كائن في ذريته ظالم، لا ينال عهده، ولا ينبغي أن يوليه شيئاً من أمره، وإن كان من ذرية خليله، ومحسن ستغذ فيه دعوته، وتبلغ له ما أراد من مسألته. واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم

قَاتِلًا لِلَّهِ خَيْفًا وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَنِبَنَّ وَهَذِهِ إِلَكَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٤﴾ وَمَا بَشَرْتَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَكَانَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَكَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾»، وقال تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ لِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ أَنْبَأُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾».

وقوله تعالى: «يُكَلِّمُ» أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: «وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينَ» وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: «وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: «وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» أي: قام بهن، قال: «لَوْ جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» أي: جزء على ما فعل، لما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

[ما هي كلمات الابتلاء؟]

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروى عن ابن عباس في ذلك روايات، فروى عبد الرزاق عن ابن عباس: ابتلاء الله بالمناسك^(١)، وكذا رواه أبو إسحاق^(٢). وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن عباس: «وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ»، قال: ابتلاء بالطهارة: خمس في الرأس وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس: وفي الجسد، تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط^(٣)، وغسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي، وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك^(٤).

(قلت): وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْمَاءُ اللَّحْيَةِ وَالسَّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَتَنْفُ الْإِبْطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَاتِّقَاصُ الْمَاءِ»

(١) الطبري: ١٣/٣. (٢) الطبري: ١٣/٣.

(٣) عبد الرزاق: ٥٧/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٣٥٩/١.

(٥) مسلم: ٢٢٣/١.

(٦) فتح الباري: ٣٤٧/١٠ ومسلم: ٢٢٢/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ٣٦٠/١.

(٥)

عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس .

وروى ابن أبي حاتم عن جابر يحدث عن حجة النبي ﷺ، قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أينما؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فأذن الله عز وجل: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٦)، وقال البخاري: باب قوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، مثابة، يثوبون: يرجعون، ثم روي عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث أو وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأذن الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نساءه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلني أو رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نساءه، قالت: يا عمر، إن في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأذن الله ﷻ رُبُّهُ، إِنَّ طَلْقَكُمْ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمِينَ﴾ الآية.

وروى ابن جرير عن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين^(٧)، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه^(٨)، وروى البخاري بسنده عن عمر ابن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين^(٩).

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أثناء إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه، ويناول الحجاره، فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف على كل ما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل

لنفسه، وقال ابن خويزمنداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راعياً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا

وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

[فضل بيت الله]

قال العوفي: عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون فيه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه، وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ يقول: وأمّا من العدو، وأن يجعل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسَبَّحُونَ^(١)، وروي عن مجاهد وعطاء والسدي وقتادة والربيع بن أنس قالوا: من دخله كان آمناً^(٢). ومضمون هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا، من كونه مثابة للناس، أي: جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى، لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله ﴿فَلْيَجْعَلْ آفِئَةً مِّنَ الْكَافِرِينَ تَهْوِي بِإِذْنِهِمْ﴾، إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَقَفَّيْ دُعَاؤَهُ﴾ ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً، من دخله آمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً، وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِكَاءَ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده. فقال: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

[مقام إبراهيم]

وقال سفيان الثوري عن سعيد بن جبير: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجاره، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه^(٤). وقال السدي: للمقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه^(٥). حكاها القرطبي وضعفه ورجحه غيره، وحكاها الرازي في تفسيره

(١) الطبري: ٢٩/٣. (٢) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٠.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/٣٧١. (٤) الطبري: ٣/٣٥.

(٥) الرازي: ٤٥/٤. (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٠.

(٧) الطبري: ٣/٣٦٣. (٨) مسلم: ٢/٩٢٠.

(٩) فتح الباري: ٣/٥٨٦.

وَبَعَثْنَا إِلَيْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

[الأمر بتطهير بيت الله]

قال الحسن البصري: قوله ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنجس، ولا يصيبه من ذلك شيء^(٣)، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس.

وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني من أتاه من غربة^(٤) ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة والربيع بن أنس، أنها فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير^(٥)، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾ فروى عن ابن عباس: ﴿وَأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾ قال: إذا كان مصليا فهو من الركع السجود^(٦)، وكذا قال عطاء وقتادة^(٧).

وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوسِ وَالْأَصَالِ﴾^(٨) ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِأَبْنَيْتِ لَهُ»^(٩) وقد جمعت في ذلك جزءا على حدة، والله الحمد والمنة.

[تحرير مكة]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ، وَإِنِّي

(١) قد أزيلت هذه البقعة، ووضع مقام إبراهيم في عمود قصير من الزجاج والسياح.

(٢) الترمذي: ٣٦٦٢. (٣) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٣.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٥. (٥) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٥.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٦. (٧) ابن أبي حاتم: ١/٣٧٦.

(٨) مسلم: ١/٣٩٧.

في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري، وكانت آثار قديمة ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية: وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة

على قدميه حافيا غير ناعل وقد أدرك المسلمون ذلك فيه فعن أنس بن مالك قال: رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخص قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم.

وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنية الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك^(١)، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا، والله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهددين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا بتابعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قتال فيهما رسول الله ﷺ: «افْتَدُوا بِاللَّذْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(٢) وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده، ولهذا لم يترك ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنهم.

قال عبد الرزاق عن ابن جريج: حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول ما نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وروى عبد الرزاق أيضا عن مجاهد، قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر رضي الله عنه، ملتصقا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾^(٣) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنُشِئَ النَّصِيرُ ﴿١٠﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ رَبَّنَا وَاتَّقِ لَنَا لَيْلَتَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَكَ

حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، فَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا، وَلَا يُقَطَّعُ عِصَاهُهَا»^(١) وهكذا رواه النسائي^(٢)، وأخرجه مسلم^(٣).

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُقَرَّ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْقَطُ لِقَطْعَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُغْتَلَى خَلَاقُهَا» فقال العباس: يا رسول الله: إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليوتهم، فقال: «إِلَّا الْإِذْخِرَ»^(٤) وهذا لفظ مسلم، ولها عن أبي هريرة نحو من ذلك، ثم روى البخاري بعد ذلك عن صفية بنت شيبة عن النبي ﷺ مثله^(٥).

وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يَحْرَمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِإِمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَغْضَدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخربة، رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه^(٦).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلدا حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبا عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال:

[دعاء الخليل مكة بالأمن والرزق]

وقوله تعالى إخبارا عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: من الخوف، أي: لا يرعب أهله، وقد فعل ذلك شرعا وقدرًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَسَخَفْنَا لِقَابِيَّهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ، وَتَقَدَّمَ الْأَحَادِيثُ تحريم القتال فيه. وفي صحيح مسلم عن جابر: سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ» وقال في هذه السورة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: هذه البقعة بلدا آمنا، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. ورواه تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وناسب هذا هناك لأنه، - والله أعلم - وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، ورواه مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ عَلَيَّ الْكِبَرَ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَهُوَ فِيهَا ذَلِيلٌ﴾ روى ابن جرير عن أبي بن كعب: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: هو قول تعالى^(٩)، وهذا قول مجاهد وعكرمة^(١٠)، وروى ابن أبي حنيفة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله:

(١) الطبري: ٤٨/٣.

(٢) النسائي في الكبرى: ٨٧/٢.

(٣) مسلم: ٩٩٢/٢.

(٤) فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢.

(٥) فتح الباري: ٢٥٣/٣.

(٦) فتح الباري: ٥٠/٤ ومسلم: ٩٨٧/٢.

(٧) أحمد: ٢٦٢/٥. (٨) مسلم: ٩٨٩/٢.

(٩) الطبري: ٥٣/٣.

(١٠) الطبري: ٥٤/٣.

كفر أيضا أرزقه كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقا لا أرزقهم؟
 أمتهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير^(١)، ثم
 قرأ ابن عباس ﴿كَلَّا نُنَدُّهُ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَمَلِكُمْ وَمَا كَانَ
 عَمَلُهُمْ ذَلِكُمْ مَحْطُورًا^(٢)﴾ رواه ابن مردويه، وروي عن عكرمة
 ومجاهد نحو ذلك أيضا، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ^(٣) مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا
 ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ^(٤)﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ
 إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٥)
 يُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ^(٦)﴾ وقوله:
 ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَفَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لِيُصِيبَهُمْ سَفَاتٍ مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ^(٧)﴾ وَلِيُصِيبَهُمْ
 أَلْبَابٌ مِنْ سُورٍ عَلَىٰ يَكْحُوتَ^(٨) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُنْ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا
 مِنَ الْمُنْتَوَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ^(٩)﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَصْطَفَاهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ وَنَسَّ الْمَصِيرَ ﴿٥٨﴾ أي: ثم ألجته بعد متاعه في الدنيا، وبسطنا عليه من ظله إلى عذاب النار، ونَسَّ المصير، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿٥٨﴾ وفي الصحيحين «لا أحد أصبر على أدنى سعيه من الله إنهم يجعون له ولدا وهو يزرقهم ويعافهم» ^(٢) وفي الصحيح أيضا «إن الله ليبي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ^(٣) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿٦٠﴾.

[بناء الكعبة والدعاء بقبول ذلك العمل]

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ بِغَيْرِ إِحْسَافٍ إِنْ يَرَوْهُ غَيْرَ الْقَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ
وَالْأَسْمِعِلْ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١١٧﴾ رَبَّنَا
وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَبِعَيْنِنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ فالقواعد جمع قاعدة
وهي السارية والأساس.

يقول تعالى. واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام البيت، ورفعها القواعد منه، وهما يقولان:
﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وحكى القرطبي
وغيره عن أبي وابن مسعود أنها كانا يقرآن (وإذ يرفع إبراهيم

القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم^(٤)، (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ الآية، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَقَعُ ابْرَاهِيمُ الْآقَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك^(٥). وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي: خائفة ألا يتقبل منهم، كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً ليعفي أثرها على سائرته، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم فقئ إبراهيم منطقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال: ﴿رَبِّنَا إِنَّا سَكَنْتُ مِنْ دَرَجَتَيْ يَوَادِّ عَيْزِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَسْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٧/١.

(٢) فتح الباري: ١٣/٣٧٢، ومسلم: ٤/٢١٦٠.

(٢٣) فتح الباري: ٨/ ٢٠٥. (٢٤) القرطبي: ٢/ ١٢٦.

(٥) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٨٤.

من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فَلَيْذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، - أو قال: بجناحه -، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يَرْحُمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهلَه، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاتقاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، - قال: وأم إسماعيل عند الماء -، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْثَى» فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل آيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل ليطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغني لنا، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهد

وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أترك عليك السلام، ويقول: غَيْرِ عَتَبَةِ بَابِكَ، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقني بأهلك وطلقها، وتزوج منهم بأخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجد فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يتغني لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأنت على الله عز وجل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ وَلَوْ كَرِهَ اللَّهُ لَكَاهُمْ فِيهِ» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا يوافقه، قال: فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام ومريه ببيت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً - وأشار إلى أكنة مرتفعة على ما حولها -، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناول الحجارة، وهما يقولان: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(١)، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

[ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه

السلام بمدد طويلة، قبل مبعث رسول الله ﷺ

بخمسة سنين]

وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه - دائماً إلى يوم الدين، قال محمد بن

الركنين، فترى الناس تلك الليلة، وقالوا: نظروا، فإن أصيب لم يهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم -عليه السلام-، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً، قال: فحدثني بعض من يروي الحديث: أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بن حجرين منها ليقلع بها أيضاً أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس^(٣).

[النزاع في وضع الحجر الأسود. وقضاء محمد بن

عبد الله القضاء العادل ﷺ]

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، يعني: الحجر الأسود، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا «العقة الدم» فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان عامئذ أسنّ قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رآه قالوا: هذا الأمين رضيانا، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلي ثوباً، فأنتي به فأخذ الركن، يعني: الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بني عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحي «الأمين».

فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن

إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهيمون بذلك ليستقوها، ويهابون هدمها، وإنما كانت رضاً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده، ويؤمن الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رمى بسفينته إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبضي لجان، فنهاهم في أنفسهم بعض ما يصلحها.

وكانت حجة تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدي لها كل يوم، تشدق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا أحزأت ركبت وفتحت فاهاً، فكانوا يهابونها^(١)، فينهاهي يوماً تشدق على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاحتفظها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رقيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب ابن عمرو ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده، حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع رباً، ولا مظلمة أحد من الناس، قال ابن إسحاق: والناس يتحلقون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم^(٢).

قال: ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود، والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة، لبني جمح وسهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي، وهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبؤكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية

(١) كيف سرقوا كنز الكعبة ما دامت الحية قد كانت على هذا الحال؟

(٢) ابن هشام: ٢٠٧/١.

(٣) ابن هشام: ٢٠٤/١.

عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قریش تهاب
بنيان الكعبة لها:

عجبت لما تصويت العقاب

إلى الثعبان وهي لها اضطراب

وقد كانت يكون لها كشيخ

وأحياناً يكون لها وثاب

إذا قمنا إلى التأسيس شدت

تهيبنا البناء وقد تهاب

فلما أن خشينا الزجر جاءت

عقاب تلتب لها انصباب

فضممتها إليها ثم خلست

لنا البنيان لبس له حجاب

فقمنا حاشدين إلى بناء

لنا منه القواعد والترات

غداة نرفع التأسيس منه

وليس على مؤسونا ثياب

أعز به المليك بنى لبؤي

فليس لأصله منهم ذهاب

وقد حشدت هناك بنو عدي

ومرة قد تقدمها كلاب

فبؤنا المليك بذاك عزاً

وعند الله يلمس الثواب^(١)

[بناء ابن الزبير الكعبة على ما كان

يريده رسول الله ﷺ]

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثنائي
عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كسيت بعد البرود،
وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف^(٢)، (قلت): ولم
تزل على بناء قریش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن
الزبير بعد ستة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما
حاصر ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض
وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر،

وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمى
ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، ولم تزل
كذلك مدة إمارته، حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت
عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك.

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عطاء، قال: إن
احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فذكر
من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد
أن يجزهم أو يجزهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال:
أيها الناس، أشيروا علي في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها، أو
أصلح ما وهي منها؟ قال ابن عباس: فإني قد خرق لي رأي
فيها، أرى أن تصلح ما وهي منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه
وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها ﷺ، فقال ابن الزبير:
لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجده، فكيف
ربكم - عز وجل -؟ إني مستخير ربي ثلاثاً، ثم عازم على أمري
فلما مضت ثلاث، أجمع رأيي على أن ينقضها فتحاها ما الناس
ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل
فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا
ففقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمد
يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إن
سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ قال: «لَوْلَا أَنِّي نَاسٌ
حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكَفَرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَقْوِي عَلَى
بِنَائِهِ لَكُنْتُ أَذْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَاباً
يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَاباً يَخْرُجُونَ مِنْهُ» قال: فأنا أجد ما أنف
ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر
حتى أبدى له أسساً نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، وكان
طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً فلما زاد فيه استقصره فزاد في
أوله عشرة أذرع وجعل له بابين:

أحدهما: يدخل منه، والآخر: يخرج منه.

فلما قتل ابن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك يستعجز
بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إلى
العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إننا لسنا من تطلع
ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من
الحجر فردة إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاد إلى

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لَيَحْجَنَّ النَّيْتُ وَلَيَعْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ بَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» (٧).

[دعاء الخليل]

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٨) قال ابن جرير: يعين بذلك واجعلنا مسلمين لأمرك، خاضعين لاطاعتك، ولا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك، ولا في العبادة غيرك (٨)، وقال عكرمة: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ» قال الله: قد فعلت، «وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ» قال الله: قد فعلت.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» (٩) وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام حجة عبادة الله تعالى أن يجب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قال: «وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» وهو قوله: «وَاجْتَنِبْنِي وَابْنِي أَنْ تَعْبُدَ الْآصْنَامَ» وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (٩).

[تفسير المناسك]

«وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» قال سعيد بن منصور: أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» فأثام جبرائيل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، ارفع القواعد وأتم البنين، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند

بنائه (١٠) وقد رواه النسائي في سننه عن عائشة بالمرفوع منه (١١)، ولم يذكر القصة.

وقد كانت السنة إقراراً ما فعله عبد الله بن الزبير ﷺ؛ لأنه هو الذي وقده رسول الله ﷺ، ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام، وقرب عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال: ودننا أنا تركناه وما تولى، كما روى مسلم عن عبد الله بن عبيد قال: وقد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب، يعني: ابن الزبير، سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قَوْمَكَ اسْتَفْضَرُوا مِنْ بَنِيانِ النَّيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِم بِالْشَّرْكِ أَعَذْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِي رِيكَ مَا تَرَكُوهُ مِنْهُ» فأراها قريباً من سبعة أذرع، زاد الوليد بن عطاء - أحد رواة - قال السيوطي: «وَلَجَعَلْتُ هَا بَيْنَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا، وَهَلْ تَذَرِينَ لِي كَأَنَّ قَوْمَكُمْ رَفَعُوا بَابَهَا؟» قالت: قلت: لا. قال: «تَعَزَّزَا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ حَتَّى يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ» قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنبت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: وددت أني تركت وما تحمل (١٢).

[حبشي يهدم الكعبة قرب القيامة]

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْرَبُ الْكَعْبَةُ دُو السُّوَيْفَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ» أخرجاه (١٣)، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كَانِي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجٍ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا» رواه البخاري (١٤)، وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْرَبُ الْكَعْبَةُ دُو السُّوَيْفَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيَسْلُبُهَا جَلْبَتُهَا، وَيُحْرَدُّهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَصْلِعُ أَفِيدِعَ، يُضْرَبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمَعُولِهِ» (١٥) - الفدع: زيغ بين القدم وعظم الساق - وهذا، والله أعلم، إنها يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري

(١) مسلم: ٢/ ٩٧٠. (٢) النسائي: ٥/ ٢١٨.

(٣) مسلم: ٢/ ٩٧١.

(٤) فتح الباري: ٣/ ٥٣٨ ومسلم: ٤/ ٢٢٣٢.

(٥) فتح الباري: ٣/ ٥٣٨. (٦) أحمد: ٢/ ٢٢٠.

(٧) فتح الباري: ٣/ ٥٣١. (٨) الطبري: ٣/ ٧٣.

(٩) مسلم: ٣/ ١٢٥٥.

﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ يعني: السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم^(٥)، وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة، ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني طاعة الله^(٦)، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٧) أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاحُ﴾^(٨) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلَمِينَ^(٩) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١٠)

[ملة إبراهيم لا يرغب عنها إلا السفيه]

يقول تبارك وتعالى ردًا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الخفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(١١) وَإِلَى وَجْهِهِ وَجَّهْتُ لِيَذِي فَطَرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١٢) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّكُم مَّقْضُوا قَلِيلًا مِّنْ دِينِي وَنَبِّئُوا عَنِ الْآخِرَةِ إِنِّي أَخَذْتُ عَهْدَ ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(١٣) وهذا الحديث «دعوة أبي إبراهيم، ونشرى عيسى عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَرَى وَمُبَشِّرًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ آخِرَتِهِمْ﴾^(١٤) ولهذا قال في هذا الحديث «دعوة أبي إبراهيم، ونشرى عيسى عليه السلام»^(١٥)

وقوله: ﴿وَرَأَتْ أَهْمِي أَنَّهُ أَخْرَجَ مِنِّي نَارًا أَضَاءَتْ لَهُ فُصُورُ الشَّامِ﴾^(١٦)، قيل: كان منامًا رآته حين حملت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونيوته ببلاذ الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهلها، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ وَلَا مَن خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» وفي صحيح البخاري: «وَهُمْ بِالشَّامِ»^(١٧).

[تفسير الكتاب والحكمة]

الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخيث إليس، وكان الخيث أراد أن يدخل في الحج شيئًا، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريت؟ قالها ثلاث مرات، قال: نعم^(١٨) وروي عن أبي جمل وقتادة نحو ذلك^(١٩).

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢٠)

[دعاء الخليل ببعثة النبي ﷺ]

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي: من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأمين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن.

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبا، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَرَى وَمُبَشِّرًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ آخِرَتِهِمْ﴾^(٢١) ولهذا قال في هذا الحديث «دعوة أبي إبراهيم، ونشرى عيسى عليه السلام»^(٢٢)

وقوله: ﴿وَرَأَتْ أَهْمِي أَنَّهُ أَخْرَجَ مِنِّي نَارًا أَضَاءَتْ لَهُ فُصُورُ الشَّامِ﴾^(٢٣)، قيل: كان منامًا رآته حين حملت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونيوته ببلاذ الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهلها، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ وَلَا مَن خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» وفي صحيح البخاري: «وَهُمْ بِالشَّامِ»^(٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن،

(١) سعيد بن منصور: ٦١٥/٢.

(٢) ابن أبي حاتم: ٣٨٧/١. (٣) أحمد: ٥/٢٦٢.

(٤) فتح الباري: ٦/٧٣١ ومسلم: ١٥٢٤/٢.

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٩٠/١. (٦) ابن أبي حاتم: ٣٩١/١.

وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

[وجوب الالتزام بالتوحيد حتى الممات]

وقوله: ﴿يَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ أَصْلَحُ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموها هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبحث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه.

وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»^(٣). وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَا يَنْدُو لِلنَّاسِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَا يَنْدُو لِلنَّاسِ» وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾^(٤).

﴿أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٥) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتُحُونَ عَنْهَا كَاؤًا يَسْمُونَ﴾^(٦).

[عهد يعقوب لبنيه عند الموت]

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أبا، نقله القرطبي^(٧).

(١) ابن أبي حاتم: ٣٩٢/١.

(٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦، ومسلم: ٣٧٠/١.

(٣) فتح الباري: ١٠٥/٦. (٤) القرطبي: ١٣٨/٢.

الضلال، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد، من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغي فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَكْثَرُ لُظْمًا لِعَظِيمٍ﴾، قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه^(١)، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ خَافِيًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا الذِّكْرُ وَالذِّكْرُ مَاتُوا وَاللَّهُ وَكَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ^(٣). وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) أي أمره الله بالإخلاص له، والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرًا، وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة، وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقد قرأ بعض السلف (يعقوب) بالنصب عطفًا على ﴿يَبَيِّنُ﴾، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، وكان حاضرًا ذلك، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ﴾ الآية، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ وهذا يقضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قلت: ثم أي؟ قال: «بَيْتُ الْمَقْدِسِ»، قلت: كم بينها؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» الحديث^(٥)، وأيضًا فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا،

وَيَقُوتُ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ سَمُوتٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَخُنْهُمْ مُسْتَشُونَ ﴿١٦﴾

[المسلم يؤمن بجميع ما أنزل الله

ولا يفرق بين نبي ونبي]

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونص على أعيان من الرسل، وأجل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا رَبُّنَا بَعْضٌ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٦) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿الآية﴾.

وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْتُبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» (١٧).

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ «آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» الآية، والأخرى بـ «آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (١٨).

وقال أبو العالية والربيع وقناة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط (١٩). وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ ثُلُوكًا» الآية، وقال تعالى: «وَقَطَّنْهُمْ أَتْنَقَّ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا» (٢٠).

(١) فتح الباري: ١٩/١٢. (٢) أحمد: ٣١٩/٢.

(٣) مسلم: ٢٠٧٤/٤. (٤) ابن أبي حاتم: ٣٩٦/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١. (٦) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١. (٨) فتح الباري: ٢٠/٨.

(٩) مسلم: ٥٠٢/١ وأبو داود: ٤٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٣٣٩/٦.

(١٠) ابن أبي حاتم: ٣٩٩/١.

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه (١)، وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: إنه يقاسم الإخوة، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد ابن ثابت وجاعة من السلف والخلف.

وقوله: ﴿إِلَهِمَا وَجِدَا﴾ أي: نوحده بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَتَّكَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١)، والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نَحْنُ مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٢٢).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُشْتَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾ ولهذا جاء في الأثر: «مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (٢٣).

﴿قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (٢٤) وقوله:

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتكم إليه من اليهودية والنصرانية، بل تتبع «ملة إبراهيم حنيفًا» أي: مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى بن جارية (٢٥)، وقال مجاهد والربيع بن أنس: حنيفاً أي: متبعاً (٢٦). وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم (٢٧).

﴿قَالُوا مَبْنَاهُ وَمَنْزِلُنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَبِأَنفُسِهِمْ

درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: تناظرونا في توحيد الله والإخلاص له والالتقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: نحن براء منكم وما تعبدون وأنتم براء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ أَعْمَلُ أَنتُمْ تَرَبُّونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرَبِّي وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وجهي لله وَمَنْ أَتَّبَعَنِي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَحَاجُّكَ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُكَ فِي اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون أي: في العبادة والتوجه.

ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ أَأَشْتُمُ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصاري، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢) الآية والتي بعدها، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلام، وإن محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا الله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٣) تهديد ووعيد شديد، أي: إن علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي قد مضت، ﴿وَمَا مَا كُنْتُ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم

قال القرطبي: والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد (١).

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله (٢). وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيها (٣).

﴿وَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَتْ بِهِ فَقَدْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤) صَبَغَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبَغَهُ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ (٥)

يقول تعالى: فَإِنْ آمَنُوا، يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بمثل ما آمنتم به أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدْ آمَنُوا﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَأِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

روى ابن أبي حاتم: أخبرنا زياد بن يونس: حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية، وقد قدم (١).

وقوله: ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله (٢)، وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والزبيد بن أنس والسدي نحو ذلك (٣) ومعنى ﴿فُطِرَتْ﴾ لله (٤) أي: الزموا ذلك عليكموه.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ بِرَبِّهِمْ مُخْلِصُونَ﴾ (٥) أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا لَقَدْ أَشْتُمُ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٦) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى

(١) القرطبي: ١٤١/٢. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١.

(٣) ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١.

(٥) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١. (٦) ابن أبي حاتم: ٤٠٣/١.

(٧) ابن أبي حاتم: ٤٠٥/١.

هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ سَطْرُهُ﴾ أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركبتين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس (٥)، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب أن الخبر وصل قومًا من الأنصار وهم في صلاة العصر نحو بيت المقدس فتوجهوا نحو الكعبة (٦). وفي الصحيحين أيضًا عن ابن عمر رضيهما الله عنه أنه قال: بينا الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٧).

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب، وزيف عن الهدى، وتحبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أي قالوا: ما هؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في

انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم متقادين لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين، ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨) وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ليصكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إنك الله بالكاين لرؤوف رحيم (٩)

[تحويل القبلة]

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل من كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجلاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾ (١) إنك الله بالكاين لرؤوف رحيم انفرد به البخاري (١) ورواه مسلم من وجه آخر (٢).

روى محمد بن إسحاق عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْتَكَ قِبَلَهُ تَرَضَّاهَا قَوْلِي وَجْهَكَ سَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية (٣).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما

(١) فتح الباري: ٨/ ٢٠. (٢) مسلم: ١/ ٣٧٥.

(٣) الطبري: ٣/ ١٣٣. (٤) الطبري: ٣/ ١٣٨.

(٥) يعارضه ما ثبت في صحيح البخاري من صلواته ﷺ في الحطيم حينما كان بمكة (انظر حديث ٣٨٥٦).

(٦) البخاري: ٣٩٩ وكان هؤلاء بني سلمة، وكانوا ساكنين عند مسجد القبلتين.

(٧) فتح الباري: ٨/ ٢٤ ومسلم: ١/ ٣٧٥.

مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ، فَتَدْعُونَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ^(٢) ورواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه^(٣).

وروى الإمام أحمد أيضًا عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَحْيَى النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَخْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَدْعَى قَوْمُهُ، فَيَقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: وَمَا عَلِمْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيًّا ﷺ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ قال: عدلاً ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٤).

وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأتيت على صاحبها خير، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأتيت عليها شر، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مُسْلِمٌ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» قال: فقلنا: وثلاثة قال: فقال: «وَالثَّلَاثَةُ» قال: فقلنا: وإثنان قال: «وَالْإِثْنَانِ». ثم لم نسأله عن الواحد^(٥). وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي^(٦).

[من حكمة تحويل القبلة]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ﴿وَمِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾، أي: مرتدداً عن دينه

(١) أحمد: ١٣٤/٦. (٢) أحمد: ٣٢/٣.

(٣) فتح الباري: ٢١/٨ وتحفة الأحوذى: ٢٩٧/٨ والنسائي في الكبرى: ٢٩٢/٦ وابن ماجه: ١٤٣٢/٢.

(٤) أحمد: ٥٨/٣. (٥) أحمد: ٢١/١.

(٦) فتح الباري: ٢٧١/٣ وتحفة الأحوذى: ١٦٦/٤ والنسائي: ٥١/٤.

قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ و﴿يَسِّرْ لِي أَمْرًا﴾ تَوَلَّيْتُكُمْ يَكُنْ الْمَشْرِيقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ أَمْرًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن بعينه وفي تصرفه وخدامه، حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمنه عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِيقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مَسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ، يعني في أهل الكتاب: «إِنَّمَا لَا تَحْسُبُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا تَحْسُبُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَذَا اللَّهُ هَا وَصَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَذَا اللَّهُ هَا وَصَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ»^(١).

[فضل الأمة المحمدية]

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واختارناها لكم لتجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ آتَيْنَاكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ يَلَّةَ أَيْكُمْ لِزَمِيرٍ هُوَ سَمَكُكُمْ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَدْعَى قَوْمُهُ فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَّبِيٍّ وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ، فَيَقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ:

بِالنَّاسِ رَأَوْهُ وَفَّ رَجِيمٌ ﴿٦﴾

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها، فقال رسول الله ﷺ «أَسْرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «قَوَالَهُ اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا» ﴿٧﴾.

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَتْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْتَكَ قَبْلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُجُوهُكُمْ شَطْرَهُ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

[أول ما نسخ من القرآن القبلة]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَتْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قَوْلِهِمْ آلِي كَاؤًا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ﴿٨﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ أَرْسُولَ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

[هل القبلة عين الكعبة أم جهة الكعبة؟]

روى الحاكم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: شطره قبله ﴿٩﴾، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾، أي: هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٢٢﴾﴾ ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عمر قال: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة ﴿١﴾. ورواه مسلم ﴿٢﴾ والترمذي، وعند الترمذي أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع ﴿٣﴾، وكذا رواه مسلم عن أنس مثله ﴿٤﴾، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله، واتباعهم لأوامر الله عز وجل، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه ﴿٥﴾.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي: ليعطيكم أجرهما جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) فتح الباري: ٨/ ٢٢. (٢) مسلم: ١/ ٣٧٥.

(٣) تحفة الأحوذى: ٨/ ٣٠٠. (٤) مسلم: ١/ ٣٧٥.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٢٠ وتحفة الأحوذى: ٨/ ٣٠٠.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٩٩. (٧) مسلم: ٤/ ٢١٠٩.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ١/ ١٠٣. (٩) الحاكم: ٢/ ٢٦٩.

الهُوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعْتَهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٦٤) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٦٥).

[معرفة اليهود بالنبي محمد ﷺ وكنيتهم أنهم الحق]

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «إِنَّكَ هَذَا؟» قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «أَمَّا إِنَّهُ لَا يَخْفِي عَلَيْكَ وَلَا تَخْفِي عَلَيْهِ» (١) قال القرطبي: ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه (٢).

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣).

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَفِقُوا لِخَيْرَاتِ أَنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٦)

[لكل أمة قبلة]

قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ يعني: بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبلة قبله يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون (٤). وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهذاكم أنتم أيها الأمة للقبلة التي هي القبلة (٥). وروى عن مجاهد

جبر وقادة والربيع بن أنس وغيرهم (١).

﴿وَبَيِّنْ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه، وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسافرة في القتال يصلي على كل حال. وكذا من جهل جهة القبلة يصلي بجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

[مسألة تحويل القبلة كانت معلومة عند اليهود]

قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: اليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرفكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِشَايِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦٧)

[عناد اليهود وجحودهم]

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٨) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٦٩) ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى

(١) ابن أبي حاتم: ١٠٧/١ - ١٠٩.

(٢) القرطبي: ١٦٣/٢.

(٣) أحمد: ١٦٣/٤.

(٤) ابن أبي حاتم: ١٢١/١.

(٥) الطبري: ١٩٣/٣.

وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدي نحو هذا ^(١). وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا جَاءً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وقال ههنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمَنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ^(١٢٩) وَفِي حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّتِ نِعْمَتِي عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ^(١٣٠)

[لماذا تكرر ذكر نسخ القبلة ثلاث مرات؟]

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بآية قبله أو بعده من السياق، فقال أولاً: ﴿قَدْ رَأَى تَغَلُّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَوْلَا لِيُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لْيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها، وقال في الأمر الثاني: ﴿وَمَنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ^(١٢٩) فذكر أنه الحق من الله، وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحجبون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيعرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حججهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها.

[حكمة نسخ القبلة]

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: أهل الكتاب، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى

الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني مشركي قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة، وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عند الجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، لا صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة؛ فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفه عين، وأتمته تبع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تحشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخش منه، وقوله: ﴿وَلَئِمَّتِ نِعْمَتِي عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: لأنتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَأَازْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٣١) فَادْكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ^(١٣٢)

[بعثة نبينا محمد ﷺ نعمة عظيمة]

توجب ذكر الله وشكره

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات، ويزكّيهم، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول الغري، فاستقبل ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء.

يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نعمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٧)، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِضِينَ».

والصبر صبران، صبر على ترك المحارم والمأثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. وأما الصبر الثالث، وهو الصبر على المصائب والتواب، فذلك أيضاً واجب، كالاستغفار من المعاييب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في باين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله^(٨).

[حياة الشهداء]

وقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتُوا بَلْ أَعْيَاهُ»، يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أَنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ، تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُتَعَلِّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: مَاذَا تَبْتَغُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ تَبْتَغِي، وَقَدْ أَعْطَيْنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَبْتَغُونَ مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتَقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نَقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى»^(٩) - لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - يَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كَتَبْتُ لَهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُعْتَبَرُ»^(١٠).

فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ» الآية، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: «الَّذِينَ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ يَتْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآثَارِ»^(١١)، قال ابن عباس: يعني: بنعمة الله محمداً ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ»^(١٢) قال مجاهد، في قوله: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَنْصِتُ لَكُمْ» يقول: كما فعلت فاذكروني^(١٣).

وقال الحسن البصري في قوله: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي^(١٤). وفي الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالِي خَيْرٌ مِنْهُ»^(١٥) وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ لِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَالِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ: لِي مَالٍ خَيْرٌ مِنْهُ - وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي شَيْءٍ ذَكَرْتُكَ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي شَيْءٍ ذَكَرْتُكَ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَتَيْتَنِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»^(١٦) صحيح الإسناد، أخرجه البخاري^(١٧).

وقوله: «وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» أمر الله تعالى بشكره ورد على شكره بمزيد الخير فقال: «وَإِذَا ذُكِرْتُمْ رَبُّكُمْ لِيَنْشْكُرُوا لِي أَذْكُرْكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ»^(١٨) وروى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَلِلَّهِ أَنْ يَحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرِ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ»، وقال روح مرة: «عَلَى نَفْسِهِ»^(١٩).

«وَقَالَهَا الْإِنْسَانُ عَمَلُهُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»^(٢٠) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتُوا بَلْ أَعْيَاهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ^(٢١)

[فضل الصبر والصلاة]

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن

(١) البخاري: ٣٩٧٧. (٢) الطبري: ٣/٢١٠.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ١/١٤١. (٤) فتح الباري: ١٣/٣٩٥.

(٥) أحمد: ١٣٨/٣ وفتح الباري: ١٣/٥٢١.

(٦) أحمد: ٤٣٨/٤. (٧) مسلم: ٤/٢٢٩٢.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ١/١٤٤. (٩) مسلم: ٣/١٥٠٢.

(١٠) أحمد: ٣/٤٥٥.

أحمد عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به. قال: «لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ قِيسَرِي عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فَعِلَ ذَلِكَ بِهِ»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجري في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ، وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القسط وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف، فقعدها عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله مالي أن لا يكون بك الرغبة، لكني امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْغِيَرَةِ فَسَوْفَ يُذَوِّبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي».

قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً مني. رسول الله ﷺ (٣). ونحوه في صحيح مسلم مختصراً (٤).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ آلَيْتَهُ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٨)

[معنى نفي الجناح في الطواف بين الصفا والمروة]

روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة، قالت: قلت: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ آلَيْتَهُ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بشئ قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهل لها

فيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

﴿وَلْيَتْلُوَنَّكُمْ بَقِيَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْسَرِ وَشَفَرَةٍ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ (٥٩) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ (٦١)

[يبتلى المؤمن فيصبر ويؤجر]

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ وَتَعْلَمَ الْوَصْدِينَ وَتَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾ (٦٢) فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَمَعُوا اللَّهَ لِأَسْوَءِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لِأَسْوَءِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وقال هنا: ﴿بَقِيَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَمْسَرِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالشَّرَفِ﴾ أي: لا تغل الخدائق والمزارع كعادتها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَبْشُرِ الصَّابِرِينَ﴾ ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٦٣) أي: تسلاوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة.

ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ثناء من الله عليهم ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي: أمانة من العذاب (٦٤) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ﴾ فهذه العلاوة (٦٥)، وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذا ذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

[فضل الاسترجاع عند المصيبة]

وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٥٨/١. (٢) الحاكم: ٢/٢٧٠.

(٣) أحمد: ٢٧/٤. (٤) مسلم: ٢/٦٣٣.

وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وترادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤها وزادها حين تركها إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفذ ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذلة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وأنس غريبتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها «طَعَامٌ طَعْمٌ، وَشِفَاءٌ شَفِئٌ» فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه. وأن يلتجئ إلى الله عز وجل ليُريح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يشبهه عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر عليها السلام.

وقوله: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب، ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات، حكى ذلك الرازي، وعزى الثالث إلى الحسن البصري^(٥)، والله أعلم، وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» أي: يشب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه، و«لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا».

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّائِمُونَ» (١٥٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٥٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦٠) خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُطْرَقُونَ (١٦١)

(١) أحمد: ٦/١٤٤.

(٢) فتح الباري: ٣/٥٨١ ومسلم: ٢/٩٢٩.

(٣) مسلم: ٢/٨٨٦، والنسائي: ٥/٢٣٩.

(٤) أحمد: ٦/٤٢١. (٥) الرازي: ٤/١٤٦.

يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: «إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما^(١). أخرجه في الصحيحين.

وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس -إلا من ذكرت عائشة- كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية.

وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء^(٢). وقد روى البخاري نحو ذلك عن أنس.

وقال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية.

[حكمه السعي وأصله]

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: «إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» وفي رواية النسائي «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»^(٣).

وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي نجرة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعي، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: «اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»^(٤).

واستدل بهذا الحديث على أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج. وقيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، وقيل: مستحب، والصحيح أنه ركن أو واجب. فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج.

[اللعن الدائم لمن كتم الأحكام الدينية]

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدي النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد (ص)، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله (ص) قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَحَامٍ مِنْ نَارٍ» (٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لو لا آية في كتاب الله، ما حدثت أحداً شيئاً «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُفْكِرِينَ» الآية (٣)، وقال مجاهد: إذا أجذبت الأرض، قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم لعن الله عصاة بني آدم (٤)، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقسادة: «وَيَلْعَنُهُمُ اللَّهُ» يعني: تلعنهم الملائكة والمؤمنون (٥)، وقد جاء في الحديث «أَنَّ الْعَالَمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْبَحْرِ»، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال، أو الحال، أن لو كان له عقل، ويوم القيامة، والله أعلم.

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا» أي رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أفعالهم وأحوالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه «فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. ثم أخبر تعالى عن كفره واستمر به الحال إلى مماته بأن «عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٦) خَلِيدِينَ فِيهَا أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي «لَا يَخْفَقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ» فيها أي لا ينقص عما هم فيه «وَلَا هُمْ يُظْرَوْنَ» أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتقر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

[جواز لعن الكفرة]

(فصل) لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن

الخطاب (رض) ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن، لأننا لا ندري بما يختص الله له، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، وفي قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله (ص) «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (١) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾
يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عدل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أساءة بنت يزيد بن السكن عن رسول الله (ص) أنه قال: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ» ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٧). و«اللَّهُ» (٨) «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السماوات والأرض وما فيها وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْبَلَدِ وَاللَّهَارِ
وَالْفَلَاحِ الَّذِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَثَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٩)

[دلائل التوحيد]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع. ﴿وَخَلْقِ الْبَلَدِ وَاللَّهَارِ﴾. هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾

- (١) ابن أبي حاتم غ: ١/١٧٠. (٢) أحمد: ٢/٤٩٥.
(٣) فتح الباري: ١/٢٥٨. (٤) ابن أبي حاتم غ: ١/١٧٥.
(٥) ابن أبي حاتم غ: ١/١٧٤. (٦) عبد الرزاق: ٧/٣٨١.
(٧) أبو داود: ٢/١٦٨.

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٣٥﴾ إِذْ تَسَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ اللَّهُ مَا تَتَّبِعُهُ لَكُنَّا مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٣٧﴾ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرْبُوهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٨﴾

[أحوال المشركين في الدنيا والآخرة، وتبري

المتبوعين من تابعيهم يوم القيامة]

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادا أي أمثالا ونظراء، يعبدونهم معه، ويجوبونهم كعبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١) وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» ولحبهم لله، ونظام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئا بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

ثم توعده تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: «وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» يقول: لو يعلمون ما يعانونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبري المتبوعين من التابعين، فقال: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِئَةً يَبْعُدُونَ ويقولون: «سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ» بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ» والجن أيضا تبرأ منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَسْأَلَ مِنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَنْفَعُ لَهُمْ دُعَاؤُهُمْ فِي شَيْءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ»^(٢) وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ»^(٣) وقال تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا»^(٤) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٠﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ» أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا.

«وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ» أي: فسي تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بها عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء.

«وَمَا أَزَلَّ اللَّهُ مِنَ الْمَنَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَنِجَاهُ الْأَرْضَ بِدَرَسَاتٍ» كما قال تعالى: «وَمَا يَأْتِيهِمْ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَيْهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا كَثِيرًا مِنْهَا يَأْكُلُونَ» إلى قوله: «وَمَا لَا يَعْلَمُونَ».

«وَبَيْنَ يَمِينٍ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

«وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ» أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي بمشقة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعها، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبورًا، وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك بطول مهنا، والله أعلم.

«وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أي: سائر بين السماء والأرض، يسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى.

«لَا يَسْتَوِي لِقَؤُهُمْ يَقُولُونَ» أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ»^(٥) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قَوْمًا عَذَابُ النَّارِ ﴿١١﴾

«وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْ يَنْخُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

[المشرك كالحیوان]

فَنَادَى الَّذِينَ كَانُوا فِي طَيْبَتٍ مَا زَرَقْتُمْ وَأَسْكُرُوا إِلَيْهِ
بِكُفْرِهِمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٤﴾ ثُمَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَيْمَةَ
وَالذَّمَّ وَالنَّحْيَ الْخَبِيرَ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٥﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَغْنَمُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَآمِنُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

وقد روى ابن ماجه عن سلمان رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن
السمن والجبن والفراء، فقال: «الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ،
وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَقَّا عَنْهُ» (١٢).

- (١) الطبري: ٣/ ٣٠٥.
(٢) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٢٥.
(٣) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٢٦.
(٤) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٢٧.
(٥) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٢٨.
(٦) أحمد: ٣/ ٣٢٨.
(٧) مسلم: ٢/ ٧٠٣ وتحفة الأحوزي: ٨/ ٣٣٣.
(٨) فتح الباري: ٦/ ١٥٢.
(٩) أحمد: ٥/ ٣٦٥ والموطأ: ١/ ٢٢ وأبو داود: ١/ ٦٤ وتحفة الأحوزي: ١/ ٢٢٤ والنسائي: ١/ ٥٠ وابن ماجه: ١/ ١٣٦.
(١٠) ترتيب مسند الشافعي: ٢/ ١٧٣ وأحمد: ٢/ ٩٧ وابن ماجه: ٢/ ١٠٧٣ والدارقطني: ٤/ ٢٧٢.
(١١) القرطبي: ٢/ ٢٢١. (١٢) ابن ماجه: ٢/ ١١١٧.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَّهٌ: ﴿فَمَا أَكَلَ مِنْ اضْطِرَارٍّ﴾، وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام، الاضطرار^(٧)، وعن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل، يشرب ثم مات، دخل النار^(٨)، وهذا يقتضي أن أكل الميت للمضطر عزيمة لا رخصة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ أَنَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الطَّلَاقَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧)

[ذم اليهود على كتمانهم ما أنزل الله]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك، تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدى والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - أن يظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إما على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نذر يسير، فبأنفسهم بذلك. واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتعذيب الرسول والإيمان بما جاء عن الله، بذلك النذر اليسير، فخافوا وخسروا في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصحه وجعله معه من الآيات الظاهرات، والدلائل القاطعات فصده الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباعوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ أَنَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧)

وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليظاً، أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي، وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت عما يذبحه العجم لأعيادهم، فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم^(١).

[إباحة الحرام للمضطر]

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَّهٌ رَحِيمٌ﴾، وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وقال سعيد في رواية عنه وعن مقاتل بن حيان: غير باغ يعني غير مستحل^(٢)، وعن ابن عباس ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ولا عاد في أكله، وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قال: غير باغ في الميتة، أي: في أكله، أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة^(٣).

(مسألة) إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف، روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل الغبري قال: أصابتنا عاماً خمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط، فضر بني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا [أَوْ سَاعِيًا]، وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا» فأمره فرد إليه ثوبه، فأمره بوسق من طعام أو نصف وسق^(٤)، إسناد صحيح قوي جيد، وله شواهد كثيرة، من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ فِيهِ غَيْرُ مَتَّخِذِ حُبْنَةٍ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ»^(٥) الحديث.

(١) القرطبي: ٢/ ٢٢٤. (٢) ابن أبي حاتم غ: ٣٦١/١.

(٣) الطبري: ٣/ ٣٢٤. (٤) ابن ماجه: ٢/ ٧٧٠.

(٥) تحفة الأحوذى: ٤/ ٥١٠. (٦) ابن أبي حاتم غ: ١/ ١٠٠.

(٧) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٤٠. (٨) البيهقي: ٩/ ٣٥٧.

وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْتَدُونَ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

[جامع البر]

اشتملت هذه الآية على جل عظيمة وقواعد عميمة،
وعقيدة مستقيمة.

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر
المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة،
شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض
المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد
إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتنال أوامره، والتوجه حيثما
وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان
الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو
المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا
قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي
والهدايا: ﴿لَنْ يَتَالَ اللَّهُ لِحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ بِئَالِهِ
الْتَّقَى مِنْكُمْ﴾ وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل
المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى:
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا
كلام الإيمان، وحقيقته العمل، وروى عن الحسن والربيع بن
أنس مثله (٢)؛ وقال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾
الآية، قال: هذه أنواع البر كلها (٣)، وصدق رحمه الله، فإن
من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها،
وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا
هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله.
﴿وَالْكِتَابُ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء
على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما
قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل
سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله،
وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله
وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْإِنْسَانِ عَظِيمٌ﴾ أي أخرجته وهو محب له

(١) البخاري: ٥٦٣٤ ومسلم: ٢٠٦٥.

(٢) ابن أبي حاتم: ٢٥١/١. (٣) ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١.

قِيَلَا، وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة
كتمان الحق نارا تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠) وفي الحديث
الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرِبُ
فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يَجْرُ فِي بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ» (١).

وقوله: ﴿وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم
كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا
يزكِّيهم، أي: لا يشي عليهم ولا يمدحهم، بل يعذبهم عذاباً
البياً، ثم قال تعالى خبراً عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى﴾ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من
صفة الرسول، وذكر مبعثه، والبشارة به من كتب الأنبياء،
وإتباعه ونصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة،
وهو تكذيبه، والكفر به، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْعَذَابُ
بِالتَّعْوِيلِ﴾ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه
من أسابه المذكورة، وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾
غير تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأيهم
فيما من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب
والنكال والأغلال، عياداً بالله من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّ أَنْ يَكْتُمَ بِالْحَقِّ﴾ أي: إنما
استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد
ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء
الخذلوا آيات الله هزوا، فكتابهم أمرهم بإظهار العلم ونشره،
فخلفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى
ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه
ويحذرونه ويكتمون صفته، فاستهزوا بآيات الله المنزلة على رسله،
لهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّ
أَنْ يَكْتُمَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى
عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْمَرْفَقِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآوَى
بِالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، وقوله: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ المراد به زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان^(٧).

وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ يَعْتَدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ لَا يَفْضَحُونَ أَلَيْسَ الْإِنْفِقَ﴾، وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ حَتًّا»^(٨).

وفي الحديث الآخر: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ خَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٩).

وقوله: ﴿وَالصَّادِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَرِّ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء «وَحِينَ الْبَأْسِ» أي: في حال القتال والنفاق.

الأعداء، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية الهمداني^(١١) ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة^(١٢) والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وأبو مالك

والضحاك وغيرهم^(١٤)، وإنما نصب «الصَّادِرِينَ» على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال، لشدة وصعوبته، وإد

أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، أي: هؤلاء الذين اتصفت بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيماء القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ كُتِبَ بِالْمَاءِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَصَرَّفَ عَنْهُ، مِنْ أَحَدِهِ شَيْءٌ فَلَيْسَ

(١) فتح الباري: ٣/ ٣٣٤ ومسلم: ٢/ ٧١٦.

(٢) أحمد: ٤/ ٢١٤.

(٣) عبد الرزاق: ٦/ ٤١٦.

(٤) فتح الباري: ٣/ ٣٩٩ ومسلم: ٢/ ٧١٩.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٥٩. (٦) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢١٠.

(٧) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٦٤. (٨) مسلم: ١/ ٧٨.

(٩) مسلم: ١/ ٧٨. (١٠) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٧٠.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٧١. (١٢) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٧٠.

(١٣) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٧١. (١٤) الطبري: ٣/ ٣٥٥.

راغب فيه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَجِيحٌ، تَأْمُلُ الْغَنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ»^(١). وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ، مَشْكُومًا مَبِينًا وَأَيُّرًا﴾^(٨) إِنَّمَا طَوَعَكَ لِيُؤَيِّدَ اللَّهُ لَا تُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٩). وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنْ مَّا يَحِبُّونَ﴾ وقوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له.

وقوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»^(٢)، فَهَمَّ أَوْلَى النَّاسِ بِكَ وَبِرَّكَ وَإِعْطَاكَ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

﴿وَأَلَيْسَ﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار، دون البلوغ والقدرة على التكسب. وقد روى عبد الرزاق عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُنَمُّ بَعْدَ حُلْمٍ»^(٣).

﴿وَالْمُسْكِينُ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكنائهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلتهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَكْبَسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَصَدَّقَ عَلَيْهِ»^(٤).

﴿وَأَبْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين^(٥)، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان^(٦).

﴿وَالشَّالِيَةَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى.

الدم، وذلك العفو^(٨)، ﴿فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعل الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية، ﴿وَأَذَاكَ إِلَيْهِ يَأْخُذُ﴾ يعني: من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعني: المدافعة.

[لولي الدم إحدى ثلاث خصال]

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتل ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْقُوا بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد^(٩). وأخرجه ابن حبان في صحيحه^(١٠)، وقال قتادة: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رحم الله هذه الأمة، وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أورش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل هذه الأمة القصاص والعفو والأرش، وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان^(١١) والربيع بن أنس نحو هذا^(١٢).

وقوله: ﴿فَمَنْ أَعْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وهكذا روي عن ابن عباس^(١٣) ومجاهد وعكرمة والحسن^(١٤) وقاتل بن الربيع بن أنس والسدي ومقاتل ابن حيان أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية^(١٥).

[فائدة القصاص وحكمته]

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَّةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع

بالمعروف وأداة إيته بحسن ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ فمن أعدى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَكُنْتُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَّةٌ يَأْوِلُ الْأَنْبِلُ لِمَلَكُم تَتَّقُونَ ﴿٧٩﴾

[الأمر بالقصاص، وبيان ما فيه من المصلحة]

يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أي المؤمنون، حرّم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنشاكم بأنشاكم، ولا تتجاوزوا وتعندوا كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غارت قريظة في الجاهلية، وقهرهم، فكان إذا قتل النضري القرطي لا يقتل به، بل يفادى بياقة وسق من التمر، وإذا قتل القرطي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بياقة وسق من التمر، ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يبيع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبيعاً، فقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْقُوا بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ وقوله: ﴿أَلْقُوا بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ منها منسوخة، نستختها النفس بالنفس، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا تُقْتَلُ سُلَيْمٌ بِكَافِرٍ»^(١). ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وإنما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

(مسألة) ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة، وحكاها ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك بن مروان والزهرري وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابت.

وقولسه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَذَاكَ إِلَيْهِ يَأْخُذُ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية وأبي الشعثاء ومجاهد^(٢) وسعيد بن جبير^(٣) وعطاء^(٤) والحسن^(٥) وقاتل بن الربيع بن حيان^(٦)، وقال سحاح عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: من ترك له من أخيه شيء، يعني أخذ الدية بعد استحقاق

(١) البخاري: ١١١. (٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٨/١.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩/١. (٤) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٨/١.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩/١. (٦) الطبري: ٣٦٨/٣.

(٧) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩/١. (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٠/١.

(٩) سنن سعيد بن منصور: ٦٥٢/٢.

(١٠) صحيح ابن حبان: ٦٠١/٧.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٤/١. (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٥/١.

(١٣) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٧/١. (١٤) ٢٨٩.

(١٥) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٧/١. (١٦) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٨/١.

الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(٧) ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيب والحسن^(٨) ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين^(٩) وعكرمة^(١٠) وزيد بن أسلم والربيع بن أنس^(١١) وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان^(١٢) وطاوس^(١٣) وإبراهيم النخعي وشريح والضحاك والزهري: أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث^(١٤).

[الوصية لقريب لا يرث]

بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استثناءً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت الصحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا خَرَّ امْرِئٌ مِّنْ مُّسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُّوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَرَسُولُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ». قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي^(١٥) والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جدًا.

[الوصية بالمعروف]

والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربه وصية لا تجحف بوزن من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعد قال: يا رسول الله، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنتي، أفسأوصي بثلاثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلاث؟ قال: «الثلاث والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغني خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»^(١٦)، وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غصوا من الثلث

القصاص لكم، وهو قتل القاتل، حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكف من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبيرة^(١٧) وأبي مالك^(١٨) والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان^(١٩) ﴿يَتَذَكَّرُ الْأَنْبِيَاءُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢٠) يقول: يا أولي العقول والأفهام والنهى، لعلمكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢١) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ عِلْمَ^(٢٢) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^(٢٣)

[الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، ثم

نسخها في حق الورثة]

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلها حتمًا من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِّوَارِثٍ»^(٢٤).

وروي الإمام أحمد عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور، والحاكم في مستدرکه^(٢٥)، وقال: صحيح على شرطهما، وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢٩١ / ١. (٢) ابن أبي حاتم غ: ١٢ / ١.
(٣) ابن أبي حاتم غ: ٢٩٠ - ٢٩٢.
(٤) تحفة الأحوذني: ٣١٣ / ٦ والنسائي: ٢٤٧ / ٦ وابن ماجه: ٩٥٥ / ٢.

(٥) سعيد بن منصور: ٦٦٣ / ٢ والحاكم: ٢٧٣ / ٢.
(٦) ابن أبي حاتم غ: ٣٠١ / ١. (٧) ابن أبي حاتم غ: ٢٠٢ / ١.
(٨) الطبري: ٣٩١ / ٣. (٩) ابن أبي حاتم غ: ٢٠٢ / ١.
(١٠) ابن أبي حاتم غ: ٣٠٣ / ١. (١١) الطبري: ٣٨٩ / ٣.
(١٢) ابن أبي حاتم غ: ٣٠٣ / ١.
(١٣) فتح الباري: ٤١٩ / ٥ ومسلم: ١٢٤٩ / ٣، ١٢٥٠.
(١٤) فتح الباري: ٧٢٤ / ٥ ومسلم: ١٢٥٠ / ٣.

[الأمر بالصوم]

يقول تعالى خاطباً المؤمنين من هذه الأمة، وأمرًا لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع، بنية خالصة لله عز وجل، لم فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلمهم فيه أسوة، وليجهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَسْتَأْذِنُ فِي مَا أَنزَلْنَا فَاسْتَفِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٣) لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: «إِنَّا مَعَشَرَ النَّبِيِّينَ مِمَّنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةُ فَلَيْتَ وَجْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (٦). ثم بين مقدار الصوم وأنه في أيام معدودات ثلاثا يشق على النفوس فتضعف عن حله وأدائه.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر (٧)، وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود مثله (٨).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ بن جبل: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾: كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها (٩)، وروي أيضاً من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: هي منسوخة (١٠)، وقال السدي عن مرة عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ

إلى الرابع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثَلُثُ والثَلُثُ كثير» (١). وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَدَلًا مَّعِيَةً فَإِنَّمَا أَتَمَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتان لها بطريق الأولى ﴿فَإِنَّمَا أَتَمَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك (٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصي إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصٍّ جَنَفَ أَوْ إِتَمَّ﴾ قال ابن عباس (٣) وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدي: الجنف الخطأ (٤)، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيع الشيء الثلاثي محابة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقته من غير نص، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللموصي والحالة هذه، أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، يعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه، وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

[فضل العدل في الوصية]

روى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ يَحْتَمِلُ أَهْلُ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى خَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ يَحْتَمِلُ أَهْلُ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ الآية (٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٣) إِنَّمَا مَعْدُوذَتِي فَمَنْ مِنْكُمْ مَرِيضٌ أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ وَأَن نَّصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨١)

(١) البخاري: ٢٧٤٣. (٢) الطبري: ٣/٣٩٧.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٣١٠/١. (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣١١/١.

(٥) عبد الرزاق: ٨٨/٩.

(٦) فتح الباري: ٨/٩ ومسلم: ٢/١٠١٨.

(٧) فتح الباري: ٨/٢٦ ومسلم: ٢/٧٩٢.

(٨) فتح الباري: ٨/٢٦. (٩) فتح الباري: ٨/٢٩.

(١٠) فتح الباري: ٨/٢٩.

مُسْكِينٌ ﴿١﴾ قال: يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمون، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً^(١). ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

[فدية الصيام للعجزة وكبار السن]

وروى البخاري عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مِسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً^(٢)، وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه، فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر، ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، بل يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتجشمون^(٣)، كما قاله ابن مسعود وغيره. وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد ما كبر عامًا أو عامين عن كل يوم مسكيناً، خبزًا ولحماً وأفطر^(٤).

وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أيوب بن أبي تيمية، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم^(٥)، وما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، يفديان فقط ولا قضاء عليهما.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَشْيَاءٍ أُخْرَى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[فضل رمضان ونزول القرآن فيه]

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره

من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك في ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثق يعني ابن الأسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِيَّةً مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ»^(٦).

[فضل القرآن]

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلائل وحججاً بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

[إيجاب صوم شهر رمضان]

وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجاب صوم على من شهد استهلال الشهر، أي: كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه، أن يصوم لأجله ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، وإباحة الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإنفاذ بشرط القضاء، فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَشْيَاءٍ أُخْرَى﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشهد عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر، أي: في حالة السفر فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر تخمته في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

[مسائل عن الصوم في السفر]

وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شب

(١) فتح الباري: ٢٨ / ٨. (٢) فتح الباري: ١١٨ / ٨.

(٣) الطبري: ٤٣١ / ٣. (٤) فتح الباري: ١٧٩ / ٨.

(٥) مستدرك أبي يعلى: ٧ / ٢٠٤. (٦) أحمد: ١٠٧ / ٤.

أَلَيْسَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ أَلَيْسَ وَلِتُكْمِلُوا أَلَيْدَةً ﴿١﴾ أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكمّلوا عدة شهركم.

[ذكر الله على إتمام العبادة]

وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٦﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ النُّجُومِ ﴿١١﴾﴾ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير^(٩)، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَيْدَةً وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَ سَجِيئًا لِّي وَلِيُؤْمِنُوا فِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

[الله يسمع دعاء عباده]

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصدق شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وأدياً، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا، فقال:

رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر، أخرجه صاحبها الصحيح^(١١). والأمر في ذلك على التخير وليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: فمننا الصائم ومننا المفطر، فلم يعيب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فتينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله ابن رواحة^(١٢).

والإفطار في السفر أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ»^(١٣). وقال في حديث آخر: «عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ»^(١٤). وقالت طائفة: هما سواء، لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إن كثير الصيام، أفاصوم في السفر؟ فقال: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ لَا أَفْطِرُ». وهو في الصحيحين^(١٥)، وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد طلل عليه فقال: «مَا هَذَا؟» قالوا: صائم، فقال: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ». أخرجه^(١٦).

فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا ينعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام. ولا يجب التابع في القضاء، بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وعليه ثبتت الدلائل لأن التابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

[اليسر دون العسر]

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يُسِّرُوا وَلَا تُعْسِرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُفْسِرُوا». أخرجه في الصحيحين^(١٧). وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بَشِّرُوا وَلَا تُفْسِرُوا، وَسِّرُوا وَلَا تُعْسِرُوا، وَنَطَّوْا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(١٨). ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ

(١) فتح الباري: ٣ / ٢١٣ ومسلم: ٢ / ٧٨٤

(٢) فتح الباري: ٤ / ٢١٥ ومسلم: ٢ / ٧٩٠

(٣) مسلم: ٢ / ٧٩٠. (٤) مسلم: ٢ / ٧٨٦.

(٥) فتح الباري: ٤ / ٢١١ ومسلم: ٢ / ٧٨٩.

(٦) فتح الباري: ٤ / ٢١٦ ومسلم: ٢ / ٧٨٦.

(٧) أحمد: ٣ / ١٣١، ٢٠٩ وفتح الباري: ١٠ / ٥٤١ ومسلم: ٣ / ١٣٥٩

(٨) فتح الباري: ٧ / ٦٦٠ ومسلم: ٣ / ١٥٨٧

(٩) البخاري: ٨٤٢.

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْزُقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا عَائِيًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِي رَاجِلِيهِ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١). أخرجه في الصحيحين^(٢)، وبقية الجماعة بنحوه، وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ، قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»^(٣).

[الدعاء يقبل ولا يضيع]

وروى الإمام أحمد أيضًا عن أبي سعيد أن النبي ﷺ، قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِنْشَاءٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْأُخْرَى، وَإِمَّا أَنْ يَضْرِبَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قالوا: إِذَا نَكَّرَ؟ قال: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٤).

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد عن جبير بن نفير: أن عبادة ابن الصامت، حدثهم: أن النبي ﷺ قال: «مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ إِلَّا أَنَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِنَّمِ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ»^(٥)، ورواه الترمذي^(٦).

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(٧). أخرجه في الصحيحين من حديث مالك^(٨)، وهذا لفظ البخاري رحمه الله وأتابه الجنة.

وروى مسلم عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِنَّمِ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يُسْتَعْجَلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الِاسْتَعْجَالُ؟ قال: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرُ يُسْتَجَبْ لِي، فَيُسْتَحْصِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(٩).

[ثلاثة لا ترد دعوتهم]

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْعَتَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، يَقُولُ: بَعِزِّي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(١٠).

«أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الْقِيَامِ أَرْفَعُ إِلَى سَائِبِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ» عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ تَكْفُرُونَ

وَأَنْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ^١ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ^٢ وَلَا تُبْشِرُوا بِهِمْ وَأَنْتُمْ عَنِكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ^(٣)

[الإذن بالأكل والشرب والجماع في ليالي رمضان]

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو الجماع، قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد^(١١) وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله^(١٢) وعمرو بن دينار^(١٣) والحسن^(١٤) وقتادة والزهري^(١٥) والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي^(١٦) وعطاء الخرساني ومقاتل بن حيان^(١٧)، وقوله: «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ» قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن^(١٨) وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن^(١٩).

(١) أحمد: ٤ / ٤٠٢.

(٢) فتح الباري: ٢ / ٥٠٩ ومسلم: ٤ / ٢٠٧٦.

(٣) أحمد: ٣ / ٢١٠. (٤) أحمد: ٣ / ١٨.

(٥) أحمد: ٥ / ٣٢٩. (٦) تحفة الأحوذى: ١٠ / ٢٤.

(٧) أحمد: ٢ / ٣٩٦.

(٨) فتح الباري: ١١ / ١٤٥ ومسلم: ٤ / ٢٠٩٥.

(٩) مسلم: ٤ / ٢٠٩٦.

(١٠) أحمد: ٣ / ٥٤٤ وتحفة الأحوذى: ٧ / ٢٢٩ وابن ماجه: ١ / ٥٥٧.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٧.

(١٢) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨.

(١٣) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٩.

(١٤) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨.

(١٥) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٩.

(١٦) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨.

(١٧) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٧٠، ٣٧١.

(١٨) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٧٠.

(١٩) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٨١.

وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلَّ مَنِهَا يَحْتَاطُ الْآخِرَ وَيَأْسَهُ وَيُضَاجِعُهُ، فَجَاءَ أَنْ يَرْخِصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامِعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ، لِثَلَا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيَحْرَجُوا.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَتَمَّ قَبْلَ أَنْ يَفْطُرَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهِا، وَإِنْ قِيسَ بِنِ صِرْمَةِ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، وَكَانَ يَوْمُهُ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، فَغَلَبَتْهُ عَنْهُ فَنَامَ، وَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ نَائِمًا قَالَتْ: خِيبة لَكَ، أُنْمِتْ؟ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارَ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَحْلِلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفِطْرِ أَرْفَتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيٍّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيٌّ عَقْلًا أَبْيَضَ وَعَقْلًا أَسْوَدَ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَيْبِنَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلْتَ تَحْتَ وَسَادَتِي، قَالَ: «إِنَّ وَسَادَتَكَ إِذَا لَعْرِضُ، أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ»^(٢)، وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا»^(٣)، فَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْبَلَادَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، بَلْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ وَسَادَهُ عَرِيضًا فَقَفَاهُ أَيْضًا عَرِيضُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَفْسَرُهُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، أَمَّا الْخَيْطَانِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»^(٤).

[استحباب السحور وبيان وقته]

وَفِي إِبَاحَتِهِ تَعَالَى جَوَازُ الْأَكْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ السَّحُورِ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الرِّخْصَةِ وَالْأَخْذِ بِهَا مَحْبُوبٌ، وَلِهَذَا وَرَدَتِ السَّنَةُ الثَّابِتَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَثِّ عَلَى السَّحُورِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(٥).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلَّ مَنِهَا يَحْتَاطُ الْآخِرَ وَيَأْسَهُ وَيُضَاجِعُهُ، فَجَاءَ أَنْ يَرْخِصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامِعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ، لِثَلَا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيَحْرَجُوا.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَتَمَّ قَبْلَ أَنْ يَفْطُرَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهِا، وَإِنْ قِيسَ بِنِ صِرْمَةِ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، وَكَانَ يَوْمُهُ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، فَغَلَبَتْهُ عَنْهُ فَنَامَ، وَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ نَائِمًا قَالَتْ: خِيبة لَكَ، أُنْمِتْ؟ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارَ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَحْلِلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفِطْرِ أَرْفَتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا^(١).

وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ هَهُنَا مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ سَمِعْتَ الْبَرَاءَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَجُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَّا عَنْكُمْ﴾^(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِذَا صَلُّوا الْعِشَاءَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ النِّسَاءَ وَالطَّعَامَ إِلَى مِثْلِهِا مِنَ الْقَابِلَةِ، ثُمَّ إِنْ أَنَاَسَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَضَابُوا مِنَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَّا عَنْكُمْ فَالْتَنَّ بِتُرُوقِهِنَّ﴾ الْآيَةُ، وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣).

وَقَوْلُهُ: «وَأَبْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَسٌ وَشَرِيحُ الْقَاضِي وَمُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَعَطَاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسَّيِّدِي وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالْحَكَمُ بْنُ عَتَبَةَ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالضُّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي الْوَلَدَ^(٤): وَقَالَ قَتَادَةُ: وَابْتَعُوا الرِّخْصَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: «وَأَبْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» يَقُولُ: مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ.

[آخر وقت السحور]

قَوْلُهُ: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

(١) الطبري: ٣/ ٤٩٥. (٢) فتح الباري: ٨/ ٣٠.

(٣) الطبري: ٣/ ٤٩٦ و ٤٩٨.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨، والطبري: ٣/ ٥٠٦، ٥٠٧.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٣١. (٦) فتح الباري: ٨/ ٣١.

(٧) فتح الباري: ٨/ ٣١. (٨) فتح الباري: ٨/ ٣١.

(٩) فتح الباري: ٤/ ١٦٥ ومسلم: ٢/ ٧٧٠.

فليغتسل وليتم صومه، ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم، وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضي .

وفي صحيح مسلم عن عائشة، أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: **وَأَنْ تَدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ**. فقال: لست مثلاً يا رسول الله، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: **إِنِّي لَا رَجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَقْبَى** ^(١٠)

[الصيام ينتهي بدخول الليل فيشروع

الإفطار على الفور]

وقوله تعالى: **﴿ثُمَّ آتُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ آتِلٍ﴾** يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أبي المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ ههنا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ ههنا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّيَامُ»** ^(١١) وسهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»** أخرجه ^(١٢)

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَغْبَلَهُمْ فِطْرًا»** ^(١٣) ، وقال: هذا حديث حسن غريب. الترمذي ^(١٤)

[النهى عن صوم الوصال]

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً، روى الإمام أحمد

(١) مسلم: مسلم: ٧٧١ / ٢ . (٢) أحمد: ٤٤ / ٣ .

(٣) فتح الباري: ١٦٤ / ٤ . ومسلم: ٧٧١ / ٢ .

(٤) فتح الباري: ١٦٢ / ٤ . ومسلم: ٧٦٨ / ٢ .

(٥) أحمد: ٢٣ / ٤ . (٦) تحفة الأحوذ: ٢٨٩ / ٣ .

(٧) الطبري: ٥١٧ / ٣ . (٨) مسلم: ٧٦٩ / ٢ .

(٩) فتح الباري: ١٨٢ / ٤ . ومسلم: ٧٨١ / ٢ .

(١٠) مسلم: ٧٨١ / ٢ .

(١١) فتح الباري: ٢٣١ / ٤ . ومسلم: ٧٧٢ / ٢ .

(١٢) فتح الباري: ٢٣٤ / ٤ . ومسلم: ٧٧١ / ٢ .

(١٣) أحمد: ٢٣٧ / ٢ . (١٤) تحفة الأحوذ: ٢٨٦ / ٣ .

قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحْرِ»** ^(١) . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: **«السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ تَخَرَّجَ جَرَعَةَ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»** ^(٢) ، وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبهها بالآكلين. ويستحب تأخيرها إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية ^(٣) .

وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تساحوا في السحور عند مقاربة الفجر، روي مثل هذا عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم محمد بن علي بن الحسين وأبو مجلز وإبراهيم النخعي وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء والحسن والحكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر ابن زيد، وإليه ذهب الأعمش ومعمرب بن راشد، وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، والله الحمد.

وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانٌ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يُتَاذَى بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»** ^(٤) . لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **«لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ فِي الْأَفْقِ وَلَكِنَّ الْمُعَرَّضَ الْأَخْمَرَ»** ^(٥) ، ورواه أبو داود والترمذي ولفظهما: **«كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا يَمْنَعُكُمْ السَّاطِعُ الْمُصْبَدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَغْتَرَّضَ لَكُمْ الْأَخْمَرُ»** ^(٦) .

وروى ابن جرير عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَغْرُنْكُمْ أَذَانٌ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ - لِعُمُودِ الصُّبْحِ - حَتَّى يَسْتَطِيرَ»** ^(٧) . ورواه مسلم في صحيحه مثله سواء ^(٨) .

[من أصبح جنباً فلا حرج في صيامه]

(مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام؛ يستدل على أنه من أصبح جنباً

الحمد والمنة، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبية على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (٧).

وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت ترور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رآيا النبي ﷺ أسرعوا، وفي رواية: تواريا، أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبي ﷺ: «علي رسلكما، إنهما صفيئة بنت حيي»، أي: لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيي أي زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ بَيْنِ أَدَمَ يَجْرِي الدَّمُ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا» - أَوْ قَالَ - «مَرًّا» (٨)، قال الشافعي - رحمه الله -: أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها، لئلا يقع في محذور، وهما كانا أتقى الله من أن يظننا بالنبي ﷺ شيئاً، والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يديني إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة (٩).

مذهب أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُؤَاصِلُوا» قالوا: خاري ورسول الله ﷺ إنك تواصل، قال: «فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكُمْ إِنِّي أُبَيِّتُ سَوْلاً لِيُعْمِي رَبِّي وَيَسْقِيَنِي». قال: فلم يتبها عن التواصل فواصل ويصوم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لَوْ تَأَخَّرَ لَأَلَّ لِرَدِّتُكُمْ» كالتمكل لهم، وأخرجه في الصحيحين (١).

رسول وقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائصه ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك نايار لطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يقال: يكون مواصلاً مع الحسي. وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُؤَاصِلُوا نَائِكُمْ أَرَادَ أَنْ يُؤَاصِلَ فَلْيُؤَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله! قال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أُبَيِّتُ لِي مُطْعِمٌ طَارِئٌ يَمْنِي وَسَائِقٌ يَسْقِيَنِي». أخرجه في الصحيحين أيضاً (٢).

[أحكام الاعتكاف]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُ﴾ وأنت عنكم في المسجد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه (٣). وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله ودا تعالى: ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُ﴾ أي: لا تقرهم من ما دعتهم عاكفين في المسجد ولا في غيره (٤). وكذا قال مجاهد وقادة وغير واحد: أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية (٥)، قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقادة والضحاك والسدي والربيع بن أنس ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف (٦).

وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحمل له أن يلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابيه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، والله

(١) أحمد: ٢/ ٢٨١ وفتح الباري: ٤/ ٢٣٨ ومسلم: ٢/ ٧٧٤.

(٢) فتح الباري: ٤/ ٣٣٨. (٣) الطبري: ٣/ ٥٤٠.

(٤) الطبري: ٣/ ٥٤١. (٥) الطبري: ٣/ ٥٤١.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٣٨٥ و٣٨٦ و٣٨٧.

(٧) فتح الباري: ٤/ ٣١٨ ومسلم: ٢/ ٨٣١.

(٨) فتح الباري: ٤/ ٣٢٦ ومسلم: ٤/ ١٧١٢.

(٩) فتح الباري: ٤/ ٣٢٠ ومسلم: ١/ ٢٤٤.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِثْلَ الْفُجَّارِ﴾ أي: هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبخنا فيه وما حرّمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أي: شرعها الله وبينها بنفسه، فلا تقربوها أي: لا تجاوزوها وتتعدوها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى آتِلٍ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَالِنَاسِ﴾ أي: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لَالِنَاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكَ لَكَرِيمٌ﴾ (١).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

[الرشوة حرام]

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيعة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه أثم أكل الحرام (١)، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخصص وأنت تعلم أنك ظالم (٢).

[قضاء القاضي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً]

وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنِّي بَأْتِيَنِ الْحَضَمَ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَسَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَرِيقًا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَنْزِهَا» (٣)، فدلّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) أي: تعلمون بطلان ما تدعون وتخرجون في كلامكم، قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يحط ويصيب، واعلموا أن من قضى له باطل أن خصومه تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المطر للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا (٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوْفِيَتْ لِنَفْسٍ وَالْحَقُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦).

[السؤال عن الأهلة]

قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ يعلمون بها حل دينهم وعدة نساءهم ووقت حجهم وروى عبد الرزاق عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْأَهْلَةِ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ، فَصُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ عَلَيَكُمْ فَعَلُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا» (٦)، ورواه الحاكم في مستدركه وصحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٧).

[مدار البر على التقوى]

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورهم، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (٨) ورواه أبو داود الطيالسي عن البراء قال: كانت الأنصار إذا قدم من سفرهم، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فزلت هذه الآية وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا

(١) الطبري: ٣ / ٥٥٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٩٣، ٣٩٤ والطبري: ٣ / ٥٥٠، ٥٥١.

(٣) فتح الباري: ١٣ / ١٩٠ ومسلم: ٣ / ١٣٧٣.

(٤) الطبري: ٣ / ٥٥٠. (٥) الطبري: ٣ / ٥٥٤.

(٦) عبد الرزاق: ٤ / ١٥٦. (٧) الحاكم: ١ / ٤٢٣.

(٨) الفتح: ٨ / ٣١. (٩) مستدرك الطيالسي: ٩٨.

وقتل النساء والصبيان والشيخوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تُغْدِرُوا وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِذَا وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»^(٤)، وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان^(٥). والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًا.

[الشرك أشد من القتل]

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله، والشرك به، والصد عن سبيله، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» قال أبو مالك: أي: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل^(٦). وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس في قوله: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ»، يقول: الشرك أشد من القتل.

[حرمة القتال في الحرم، وجواز دفع الصائل]

وقوله: «وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ» كما جاء في الصحيحين: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنِّي سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُغْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاءُهُ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ»^(٧)، يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخدمة، وقد آمنهم بقوله: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ

أحدهم سفراً، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدله بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» الآية^(٨)، وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» أي: اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» غدا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعَدِّينَ»^(٩) «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبِضُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ حَتَّى يُقَاتِلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(١٠) «إِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١١) «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ»

[الامر بقتال من يقاتل، وبقتله حيث وجد]

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة^(١٢)، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: «وَأَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» وفي هذا نظر، لأن قوله: «الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» إنما هو تبييض وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً»^(١٣) ولهذا قال في الآية: «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبِضُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» أي: لتكن همتهم منبعثة على قتالهم، كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً.

[التهي عن الاعتداء كالمثلة والغلول]

وقوله: «وَلَا تَعَدُّوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعَدِّينَ» أي: قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة والغلول

(١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٠١ (٢) الطبري: ٣ / ٥٦١ .

(٣) الطبري: ٣ / ٥٦٢ . (٤) مسلم: ٣ / ١٣٥٧ .

(٥) فتح الباري: ٦ / ١٧٢ ومسلم: ٣ / ١٣٦٤ .

(٦) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤١٢ .

(٧) فتح الباري: ٦ / ٣٢٧ ومسلم: ٢ / ٩٨٦، ٩٨٧ .

دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ^(١).
وقوله: ﴿حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ﴾ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَاذِبِينَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى: وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ
يَبْذُوكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ، فَلَكُمْ حَيْثُ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَقَتَلْتُمُوهُمْ دَفْعًا لِلصَّالِحِينَ،
كَمَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى
الْقِتَالِ، لَمَّا تَأَلَّيْتُ عَلَيْهِ بِطُونَ قَرِيشَ وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ
نَقِيفٍ وَالْأَحَابِيشِ عَامِئِدٍ، ثُمَّ كَفَّ اللَّهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ:
﴿وَقَدْ أَلَّيْتُ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ
أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَبِسَاءَ مُؤْمِنَةٍ
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَقُتْلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَصَرَةٌ يَبْغِي عَنْكُمْ لِيَدْخُلَ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، مَنْ يَسَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَنْهُمْ رَجِيمٌ﴾^(٢) أي:
فَإِنْ تَرَكَوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ
يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ
تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبُ أَنْ يَغْفِرَهُ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ.

[الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة]

ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك، قاله
ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقاعدة^(٣) والربيع
ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم^(٤) ﴿وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ﴾
أي: يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت
في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قاله: سئل النبي ﷺ
عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في
سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ»^(٥)، وفي الصحيحين: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى
يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا هَذَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا
بِحَقِّهَا وَجَسَابَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ»^(٦).

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى
فَإِنْ أَنْهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكِّ وَقِتَالَ الْمُؤْمِنِينَ فَكَفُوا عَنْهُمْ،
فَإِنْ مِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ أَنْ لَا يُقَاتَلَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَ^(٧)،
أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ أَنْهَوْا فَقَدْ تَحَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ
الشُّرْكُ، فَلَا عُدُونَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِالْعُدُونَ هَهُنَا
الْمُعَاوَةِ وَالْمُقَاتَلَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَحَزْرًا سَيِّئَةً سَيِّئَةً تَنْهَايُهَا﴾،

﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾؛ ولهذا قال
عكرمة وقاعدة: الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله^(٨)
وروى البخاري تحت قوله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾
الآية، عن نافع، عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن
الزبير فقالا: إنا الناس قد ضيعوا، وأنت ابن عمر وصاحب
النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم
أخي، قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال
قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن
تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وزاد عثمان بن صالح أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن
ما حملك على أن تحج عامًا وتعتز عامًا، وترك الجهاد في سبيل الله
عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخي، بي
الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس
وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قالوا: يا أبا عبد الرحمن
ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه! ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا
فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَغَنِيْلُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
فَقَبْلَىٰ إِلَهُ أَمْرٍ أَلْوَىٰ﴾ ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا
عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلًا، فكان الرجل يقتل في دينه
إما قتله أو عذبه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة، قال: فما قولك
في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكم
أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده
فقال: هذا بيته حيث ترون^(٩).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ
عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَنْقُصُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١٠)

[حرمة القتال في الأشهر الحرم إلا إذا بدأ]

العدو بالقتال فيها]

قال عكرمة عن ابن عباس، والضحاك والسدي وقتادة

(١) أحمد: ٢ / ٢٩٢ (٢) ابن أبي حاتم: غ: ١ / ١٥٠

(٣) ابن أبي حاتم: غ: ١ / ٤١٦ .

(٤) فتح الباري: ١٣ / ٤٥٠ ومسلم: ٣ / ١٥١٣ .

(٥) فتح الباري: ١ / ٥٩٢ ومسلم: ١ / ٥٣ .

(٦) الطبري: ٣ / ٥٨٤ . (٧) الطبري: ٣ / ٥٧٣ .

(٨) فتح الباري: ٨ / ٣٢ .

ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحجسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة، وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قبل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْأَشْهُرُ الْحُرُمُ إِلَيْنَا يُخْرَجُونَ﴾^(١) وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام، إلا أن يغزى ويغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناد صحيح^(٢).

ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، وهو غيم بالحديبية أن عثمان قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة، تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان.

وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتحصن فلهم بالطائف، عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمحنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً^(٣) كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه^(٤).

وقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ يَمْثِلُ مَا أَعَدَّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

[الأمر بالإنفاق في سبيل الله]

روى البخاري عن حذيفة ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة^(٥)، ورواه ابن أبي حاتم مثله، قال: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل ابن حيان نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقة، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرنه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا، فقيم فيها، فنزل فينا: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد، في تفسيره، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه^(٦)، وقال الترمذي حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ولفظ أبي دواد عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل يُريد: فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففتنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا، فصاح الناس إليه، فقالوا: سبنا الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية^(٧).

(١) الطبري: ٣ / ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٧ و ٥٧٩.

(٢) أحمد: ٣ / ٣٤٥.

(٣) إنما كمل أربعون يوماً من يوم وقعة حنين إلى يوم رجوعه ﷺ من الجعرانة إلى المدينة.

(٤) فتح الباري: ٣ / ٧٠١ ومسلم: ٢ / ٩١٦.

(٥) فتح الباري: ٨ / ٣٣.

(٦) تحفة الأحوذ: ٨ / ٣١١ والنسائي في الكبرى: ٦ / ٢٩٩ وابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٢٤ والطبري: ٣ / ٥٩٠ وصحيح ابن حبان: ٧ / ١٠٥ والحاكم: ٢ / ٧٧٥.

(٧) أبو داود: ٣ / ٢٧.

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي، قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملت على العدو وحدي فقتلوني، أكننت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وإنما هذه في النفقة، رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الثوري وقيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن البراء، فذكره، وقال بعد قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي يده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال عطاء عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة، أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في مسائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والأخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتياده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْنَةٌ مِّن صِبَاٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أُمِيتُمْ مِّن تَمَنَعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَانْفِقُوا اللَّهَ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣٤﴾

[الأمر بإتمام الحج والعمرة]

لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالها بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ أي: صددتم عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامها، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم، وقال مكحول: إتمامها إنشاؤها جميعاً من الميقات^(١)،

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري، قال: بلغنا عمر قال في قول الله: ﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: من غاب أن يفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٢) وقال السدي في قوله: ﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أقيموا الحج والعمرة^(٣)، وقال قتادة عن زرارة، عن ابن عباس أن قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف^(٤)، وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة في قوله: ﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قال: هم قراءة عبد الله: ﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ لا يجاوز بالعمرة البيت، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال كذلك قال ابن عباس^(٥). وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه قال: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت^(٦)، وكذا روى الثوري أيضاً، عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم، أنه قرأ: ﴿وَأَقِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ﴾.

[إذا أحصر المحرم في الطريق فليذبح]

وليحلق رأسه ويتحلل]

وقوله: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي: عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رؤوسهم، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا، فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك ذكر ﷺ: ﴿رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ﴾ قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال: الثالثة: ﴿وَالْمُقَصِّرِينَ﴾^(٧)، وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان متزهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم.

والحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال - وهو

(١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٣٧ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٣٧
(٣) الطبري: ٤ / ١٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٩
(٥) الطبري: ٤ / ٧ (٦) الطبري: ٤ / ٧
(٧) مسلم: ٢ / ٩٤٦

حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَجِلَّ حَتَّىٰ أَتَحَرَ» (١٥).

[من حلق رأسه في الإحرام وجبت عليه الفدية]

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ روى البخاري عن عبد الرحمن بن الأصبهاني، سمعت عبد الله بن معقل قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام، فقال: حملت إلى النبي ﷺ، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ يَبْلُغُ بِكَ هَذَا، أَمَا تَحِدُّ شَاةً؟» قلت: لا، قال: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِّن طَعَامٍ، وَاخْلِقْ رَأْسَكَ»، فنزلت في خاصة وهي لكم عامة (١٦).

وروى الإمام أحمد عن كعب بن عجرة، قال: أتى عليّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر، والقمل يتناثر على وجهي، أو قال: حاجبي، فقال: «يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟» قلت: نعم، قال: «فَاخْلِقْهُ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ نَيْسَكَةً»، قال أيوب: لا أدري بأيّهن بدأ (١٧)، ولما كان لفظ

التركان عن طريق أو نحو ذلك - روى الإمام أحمد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَحَرَّجَ أَوْ عَرَجَ فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق (١)، وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة (٢)، وفي رواية لأبي داود وابن ماجه: «مَنْ عَرَجَ أَوْ كَثُرَ أَوْ مَرَضَ»، فذكر معناه (٣). ورواه ابن أبي حاتم (٤) ثم قال: وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعي وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر (٥). وقال الثوري: الإحصار من كل شيء أذاه (٦).

وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: «حُجِّي وَاشْرُطِي أَنْ تَحْلِي حَيْثُ خِيسَتِي» (٧) ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله (٨)، فصح الاشتراط في الحج لهذا الحديث.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ روى الإمام مالك عن علي ابن أبي طالب، أنه كان يقول: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (٩)، وقال ابن عباس: الهدي من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن (١٠)، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يسارته (١١)، وقال العوفي، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم (١٢). وقال هشام بن عروة عن أبيه: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء (١٣).

والدليل على صحة أجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي، أي: مها تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً (١٤).

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿لَنْ أَحْصِيَهُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله -، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما

(١) أحمد: ٤٥٠ / ٣.

(٢) تحفة الأحوذى: ٤ / ٨ والنسائي: ١٩٨ / ٥.

(٣) أبو داود: ٢ / ٤٣٤ وابن ماجه: ٢ / ١٠٢٨.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٤٤ (٥) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٤٥.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٤٥ (٧) فتح الباري: ٩ / ٣٤.

(٨) مسلم: ٢ / ٨٦٨ (٩) الموطأ: ١ / ٣٨٥.

(١٠) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٥٠ (١١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٥١.

(١٢) الطبري: ٤ / ٣٠ (١٣) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٤٥٢.

(١٤) فتح الباري: ٣ / ٦٣٩ ومسلم: ٢ / ٩٥٨.

(١٥) فتح الباري: ٣ / ٤٩٣ ومسلم: ٢ / ٩٠٢.

(١٦) فتح الباري: ٨ / ٣٤ (١٧) أحمد: ٤ / ٢٤١.

القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿فَيَذِيذُ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: «انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام»، فكلُّ حسن في مقامه والله الحمد والمنة.

[بيان التمتع في الحج]

وقوله: ﴿وَإِذَا أَنتُم مِّن تَمَتُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِّنَ الْهَدْيِ﴾ أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهاء، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم الحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ، وآخر يقول: قرن، ولا خلاف أنه ساق الهدى.

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِّنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر، وقال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعاً^(١)، رواه أبو بكر بن مردويه.

وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية التمتع في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ، ولم ينزل قرآن يجرمها ولم ينه عنها، حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري: يقال: إنه عمر^(٢).

وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله يأمر بالتام، يعني قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به ﷺ.

[إذا لم يجد المتمتع الهدى فليصم عشرة أيام]

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ قِصَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ﴾

عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك، وقال العوفي عن ابن عباس إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله^(٣)، وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة عن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة^(٤)، وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي أيضاً^(٥).

فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد، يجوز أن يصومها في أيام التشريق، لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدى. وروى سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي، أنه كان يقول: من فاتته صيام ثلاثة أيام في الحج، صامهن أيام التشريق، وهذا يقول عبيد بن عمير الليثي وعكرمة والحسن البصري وعروة بن الزبير^(٦)، ولما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿قِصَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ وأما ما رواه مسلم عن قتبية الهذلي رحمه الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلْحَجِّ التَّشْرِيقُ أَيَّامٌ أَكُلٌ وَشُرْبٌ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٧) فهذا عام ورواه عائشة وابن عمر مخصوصة منه.

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان: (أحدهما) إذا رجعتم إلى رحاكم، (والثاني): إذا رجعتم إلى أوطانكم، روى عبد الرزاق عن سالم، سمعت ابن عمر قال: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ قِصَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إذا رجع إلى أهله^(٨)، وكذا روى عن سعيد بن جبيرة وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهري والربيع بن أنس^(٩).

وقد روى البخاري عن سالم بن عبد الله، أن ابن عمر قال تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدى

(١) أبو داود: ٣٦٢ / ٢.

(٢) فتح الباري: ٣٤ / ٨، ومسلم: ٩٠٠ / ٢.

(٣) الطبري: ٩٧ / ٤.

(٤) الطبري: ٩٥ / ٤.

(٥) الطبري: ٩٤ / ٤.

(٦) الطبري: ٩٨ - ٩٩ / ٤.

(٧) مسلم: ٨٠٠ / ٢.

(٨) عبد الرزاق: ١ / ٧٦.

(٩) ابن أبي حاتم غ: ٤٩٨ / ٢.

لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج من أجل قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾^(٤). وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج^(٥)، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج، وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، روى ابن مردويه عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْرُمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ»^(٦). وإسناده لا بأس به، لكن رواه الشافعي والبيهقي من طرق عن ابن جريج، عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيهل بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا^(٧)، وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذٍ مذهب صحابي يتقوى بقول ابن عباس: من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره، والله أعلم.

[أشهر الحج]

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة^(٨)، وهذا الذي علقه البخاري عنه بصيغة الجزم، رواه ابن جرير موصولاً عن ابن عمر: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ قال: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، إسناد صحيح^(٩)، وقد رواه الحاكم أيضاً في مستدركه وقال: هو على شرط الشيخين^(١٠).

(قلت) وهو مروى عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله ابن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وابن سيرين ومكحول وقتادة والضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان^(١١)،

ومتهم من لم يهد، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ مِنْ شَيْءٍ حَرَّمَ اللَّهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيُطَفِّ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَلْيَقْصُرْ وَلْيَحْلِلْ، ثُمَّ لِيَهْلِ بِالْحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَذَا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ». وذكر تمام الحديث والحديث مخرج في الصحيحين^(١٢).

وقوله: ﴿ذَلِكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْلُرْ بِطَيْرٍ يَحْتَاحِيهِ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَخْطُطْ بِبَيْسِنِكَ﴾ وقال: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتَمٍ يَبْتَثُ رَبُّهُ آذِينَكَ لَيْلَةً﴾ وقيل: معنى كاملة، الأمر بأكملها وإتمامها.

[لا يمتنع أهل مكة]

وفولسه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي التَّسْجِدِ الْكَرَامِ﴾ حاضروه هم أهل الحرم، فلا متعة لهم. وروى عبد الرزاق عن طاوس قال: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. وكذا قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي التَّسْجِدِ الْكَرَامِ﴾ قال: وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس^(١٣).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم وما نهاكم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١٤) أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه رجزه.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ فَمَنْ وَصَلَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْتَلِمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُوا فَكَبَّكَ حَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَأَتَّقُوا يَسْأَلُ الْأَلْبَسَ^(١٥).

[متى يحرم للحج؟]

قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ أي: لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، وهو مروى عن ابن عباس^(١٦) وجابر، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه أن تخصيص وقت الحج بأشهر معلومات من بين سائر شهور السنة يدل على أنه لا يصح قبلها، كمبقات الصلاة. وروى الشافعي رحمه الله عن ابن عباس أنه قال: لا ينبغي

(١) فتح الباري: ٣ / ٦٣٠ ومسلم: ٢ / ٩٠١.

(٢) الطبري: ٤ / ١١١. (٣) الطبري: ٤ / ١١٥.

(٤) الأم: ٢ / ١٣٢. (٥) ابن خزيمة: ٤ / ١٦٢.

(٦) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود / ٣٦١.

(٧) الأم: ٢ / ١٣٢، والبيهقي: ٤ / ٣٤٣.

(٨) فتح الباري: ٣ / ٤٩٠. (٩) الطبري: ٤ / ١١٦.

(١٠) الحاكم: ٢ / ٢٧٦.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٤٨٨.

وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم النخعي والزهري ومكحول، وابن أبان والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان^(١٢).

وروى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم^(١٣).

وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب. وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقَوْلُهُ كُفْرٌ»^(١٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا الذي للأصنام، قال الله تعالى: «أَوْفَسَقَ أَهْلُ لَيْعٍ إِلَهَ اللَّهِ بِهِ؟» وقال الضحاك: الفسوق التنازع بالألقاب.

والذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم، كما نبى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في حين السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد، ولهذا قال: «وَمِنَ الْأَشْهُرِ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ» وقال في الحرم: «وَمَنْ بَرِدَ فِيهِ بِالْعَمَلِ بَطُلٌ ثَبَاتُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»^(١٥) وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَنْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١٦).

[النهى عن الجدل في الحج]

وقوله: «وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» المراد بالجدال المخاصمة روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في قوله: «وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه^(١٧).

(١) الطبري: ٤ / ١٢٠. (٢) الطبري: ٤ / ١٢١.

(٣) الطبري: ٤ / ١٢٣. (٤) الطبري: ٤ / ١٢٣.

(٥) الطبري: ٤ / ١٢٦. (٦) الطبري: ٤ / ١٢٧.

(٧) الطبري: ٤ / ١٢٨. (٨) الطبري: ٤ / ١٢٨.

(٩) الطبري: ٤ / ١٢٩. (١٠) الطبري: ٤ / ١٢٩.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٤٩٧.

(١٢) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠.

(١٣) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٤٩٧.

(١٤) فتح الباري: ١ / ١٣٥.

(١٥) فتح الباري: ٤ / ٢٥، ٢٥ / ٩٨٣.

(١٦) الطبري: ٤ / ١٤١.

واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: زرتك العام ورأيتك اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم، قال الله تعالى: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» وإنما تعجل في يوم ونصف يوم^(١٨).

وقوله: «فَمَنْ رَمَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ» أي أوجب بإحرامه حجاً، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام^(١٩)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «فَمَنْ رَمَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ» يقول: من أحرم بحج أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام^(٢٠)، وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم^(٢١).

[النهى عن الرفث في الحج]

وقوله: «فَلَا رَفَثٌ» أي: من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: «أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الْفَجْرِ أَلْزَمْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ» وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء، روى ابن جرير عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث: إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم^(٢٢)، وقال عطاء بن أبي رباح: الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش^(٢٣)، وكذا قال عمرو بن دينار، وقال عطاء: كانوا يكرهون العراة، وهو التعريض، وهو محرم^(٢٤). وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة إذا حللت أصبتك^(٢٥)، وكذا قال أبو العالية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث: غشيان النساء والتقبل والغمز، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك^(٢٦)، وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفث غشيان النساء^(٢٧)، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني وعطاء بن يسار وعطية وإبراهيم النخعي والربيع والزهري والسدي ومالك ابن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

[النهى عن الفسوق في الحج]

وقوله: «وَلَا فُسُوقٌ» قال مقسم وغير واحد، عن ابن عباس هي المعاصي^(٢٨)، وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس

فترت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج^(٥). وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس، قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٦). وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومنصور بسن المعتمر وقتادة وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس وغيرهم، وروى ابن جرير عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يبيع ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٧). وهذا موقوف، وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعاً، روى أحمد عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا نكرى فهل لنا من حج؟ قال: ليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني، فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فدعا النبي ﷺ، فقال: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»^(٨). وروى ابن جرير عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا في الحج؟^(٩).

[الوقوف بعرفة]

وقوله: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إنها صرف عرفات وإن كان علياً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع، كمسلمات ومؤنات، سمي به بقعة معينة فروعياً فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير^(١٠). وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج، ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن

وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس^(١١). وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة وجابر ابن زيد وعطاء الخراساني ومكحول والسدي ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والربيع بن أنس وإبراهيم النخعي وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهري^(١٢).

[التزغيب في فعل الخيرات وأخذ الزاد في الحج]

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. وتوله: ﴿وَتَذَكَّرُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْآزَادِ النَّقِيُّ﴾ روى البخاري وأبو داود عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يمحون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: ﴿وَتَذَكَّرُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْآزَادِ النَّقِيُّ﴾^(١٣) وروى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَذَكَّرُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْآزَادِ النَّقِيُّ﴾ فنهوا عن ذلك، وأمر أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك^(١٤).

[زاد سفر الآخرة]

وقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْآزَادِ النَّقِيُّ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدتهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسًا النَّقِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَتَأُولَى الْأَتْبَابِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأمر بأمرى، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَآذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِّينَ ﴿١٣٨﴾

[التجارة في الحج]

روى البخاري عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومجنة ودر المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم،

(١) الطبري: ٤ / ١٤١.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٥٥.

(٣) فتح الباري: ٣ / ٤٤٩ وأبو داود: ٢ / ٣٤٩.

(٤) الطبري: ٤ / ١٥٦. (٥) فتح الباري: ٨ / ٣٤.

(٦) أبو داود: ٢ / ٣٥٠. (٧) الطبري: ٤ / ١٦٥.

(٨) أحمد: ٢ / ١٥٥. (٩) الطبري: ٤ / ١٦٨.

(١٠) الطبري: ٤ / ١٧١.

يزل واقفاً - يعني: بعرفة - حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شئت للقصواء الزمام، حتى إن رأسه ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ»، كلما أتى جبلاً من الجبال^(٩) أرخصى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس^(١٠).

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع؟ قال: كان يسير العتق، فإذا وجد نجر، نص. والعتق هو اتبساط السير، والنص فوقه^(١١).

[المشعر الحرام]

وروى عبد الرزاق عن سالم، قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها^(١٢). وقال هشيم، عن حجاج، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» قال: فقال: هو الجبل وما حوله^(١٣). وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد والسدي والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين^(١٤).

(١) أحمد: ٤ / ٣١٠ وأبو داود: ٢ / ٤٨٥ وتحفة الأحوزي: ٣ / ٦٣٣ والنسائي: ٥ / ٢٥٦ وابن ماجه: ٢ / ١٠٠٣.

(٢) مسلم: ٢ / ٩٤٣.

(٣) أحمد: ٤ / ٢٦١ وأبو داود: ٢ / ٤٨٦ وتحفة الأحوزي: ٣ / ٦٣٥ والنسائي: ٥ / ٢٦٤ وابن ماجه: ٢ / ١٠٠٤.

(٤) عبد الرزاق: ٥ / ٩٦. (٥) الطبري: ٤ / ١٧٤.

(٦) الطبري: ٤ / ١٧٣. (٧) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٥١٩.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٥١٧.

(٩) الكلمتان بالخاء المعجمة، وهو التل اللطيف من الرمل الضخم وفي النهاية: قيل: الجبال في الرمل كالجبال في غير الرمل.

(١٠) مسلم: ٢ / ٨٨٦.

(١١) فتح الباري: ٣ / ٦٠٥ ومسلم: ٢ / ٩٣٦.

(١٢) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٥٢١ (١٣) الطبري: ٤ / ١٧٦.

(١٤) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٥٢١ و٥٢٢.

عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْحُجَّ عَرَفَاتٍ - ثَلَاثًا - فَمَنْ أَذْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَذْرَكَ، وَأَيَّامٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ»^(١).

ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(٢). وقال في هذا الحديث: «فَمَنْ أَذْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَذْرَكَ».

وعن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللت راحتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَذْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضَى تَقَاتَهُ» رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي^(٣)، ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج، قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة^(٤) وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة؛ لأن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفت، فسميت عرفات^(٥)، وروى نحوه عن ابن عباس^(٦)، وابن عمر وأبي مجلز^(٧)، فالله أعلم.

وتسمى عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال، ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة.

[وقت الإفاضة من عرفات ومزدلفة]

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العيائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخَّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس^(٨). ورواه ابن مردويه وزاد: ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس، حتى إذا أسفر كل شيء وكان في الوقت الآخر، دفع، وهذا حسن الإسناد، وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم

الجار^(٧)، فانه أعلم.

[الأمر بالاستغفار وبعض أهدية الاستغفار]

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً^(٨)، وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين^(٩). وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة.

وأورد ابن مردويه ما هنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَاتَتْ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَاتَتْ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١٠).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاسْأَلُكَ بِمَغْفِرَةِ مَنْ عِنْدَكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١١). والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَرُوا كَمَا شَكَرْتُمْ فَمَنْ أَكْثَرُ شُكْرًا قُلْ رَّبَّنَا عَلَيْكَ الْاٰثِمَاتُ وَمَا لَهُ فِي الْاٰخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَيَسْأَلُهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا عَلَيْكَ الْاٰثِمَاتُ فِي الْاٰثِمَاتِ حَسَنَةً وَفِي الْاٰخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ الْاٰثِمَاتِ اٰلُؤُلَآئِكَ لَمْ يَصِبْ مِنْهَا كَثَبٌ اَللّٰهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٢٠٢﴾

(١) أحمد: ٨٢ / ٤. (٢) فتح الباري: ٨ / ٣٥.

(٣) الطبري: ٤ / ١٨٦. (٤) الطبري: ٤ / ١٨٧.

(٥) أحمد: ٨٠ / ٤.

(٦) فتح الباري: ٣ / ٦٠٢ ومسلم: ٢ / ٨٩٤.

(٧) فتح الباري: ٨ / ٣٥. (٨) مسلم: ١ / ٤١٤.

(٩) فتح الباري: ٢ / ٣٧٨ ومسلم: ١ / ٤١٧.

(١٠) فتح الباري: ١١ / ١٠٠.

(١١) فتح الباري: ١٣ / ٤٨٤ ومسلم: ٤ / ٢٠٧٨.

وقد روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، عن النبي ﷺ، قال: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْقَعُوا عَنْ عَرَّتِهِ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ، وَارْقَعُوا عَنْ مُحْسِرٍ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ النَّسْرِيقِ دَبِيجٌ»^(١).

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَيِّنَ الْفَكَالَيْنِ﴾^(٢) قبل: من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول، والكل متقارب ومتلازم وصحيح.

﴿لَمْ أَهْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَسَ الْأَسْوَاقُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)

[الأمر بالتزام الوقوف بعرفة والإفاضة

منها لمن لم يكن يقف بها في الجاهلية]

ثم - ههنا - لعطف خبر على خبر، وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الراقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليدرك الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وطقان بيته، روى البخاري عن عائشة، قالت: كانت قريش ومن دالها دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الخمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ أَفْكَسَ الْأَسْوَاقُ﴾^(٢). وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء^(٣) وقتادة والسدي وغيرهم^(٤)، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع.

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: أصللت بعيراً لي بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الخمس، ما شأنه ههنا؟^(٥) أخرجه في الصحيحين^(٦).

ثم روى البخاري عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي

[الامر بكثرة الذكر وطلب خيري الدنيا

والآخرة بعد قضاء النسك]

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك و فراغها، وقوله: ﴿كَذِكْرُكُمْ ءَابَاءُكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم. فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحملات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (١) والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره: كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا، وأو - ههنا - لتحقيق الماثلة في الخبر كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْجَبَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ وقوله: ﴿يَخْتَنُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (١٨) فليست ههنا للشك قطعا، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن آخره، فقال: ﴿فَمَنْ أَلْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢٠) أي: من نصيب ولا حظ، وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه بمن هو كذلك.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمَنْ أَلْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢٠) وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢١) فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٢) ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٣).

وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، ونساء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعها من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلبا شاكرا، والسأ ذاكرا، وجسدا صابرا، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار (٢).

ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء، روى البخاري عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٣).

وروى أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِتَاهُ؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ، فَهَلَا قُلْتَ: رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٤) قال: فدعا الله فشفاه (٥)، انفرد بإخراجه مسلم (٥).

وروى الحاكم في مستدركه عن سعيد بن جبير، قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفبجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٢) ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَدَّى يُؤْتَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)

(١) ابن أبي حاتم: ٥٣٠ / ٢. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٢ / ٢.

(٣) فتح الباري: ٣٥ / ٨. (٤) أحمد: ١٠٧ / ٣.

(٥) مسلم: ٢٠٦٨ / ٤. (٦) الحاكم: ٢٧٧ / ٢.

فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عاقبة، ودار رحمة،

الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمَى الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (١١).

ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: «وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (١٢) كما قال: «وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (١٣).

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدَ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْجِصْرِ» (١٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُغْدِبَ فِيهَا وَهْلَكَ الْحَرَكُ وَالسَّلْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسَاكِدَ (١٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ إِنَّكَ أَخَذْتَهُ أَهْرَءَ يَأْتِشِرُ فَعَسَىٰ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهًا (١٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَقَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ (١٧)

[بيان أحوال المنافقين]

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك (١٨). وعن ابن عباس، أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خيب وأصحابه «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَقَاتِ اللَّهِ» (١٩).

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم (٢٠)، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد، وهو الصحيح.

وروى ابن جرير عن القرظي، عن نوف، وهو البكالي،

[الذكر في أيام التشريق، وهي أيام أكل وشرب]

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر (٢١)، وقال عكرمة: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات، الله أكبر، الله أكبر (٢٢).

وروى الإمام أحمد عن عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ عَرَفَةَ، وَيَوْمَ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ، عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ» (٢٣).

وروى أحمد أيضًا عن نيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ» ورواه مسلم أيضًا (٢٤). وتقدم حديث جبير بن مطعم: «عَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ» (٢٥).

وتقدم أيضًا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي: «وَأَيَّامُ مَنَى ثَلَاثَةٌ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ» (٢٦).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ طَعْمٍ وَذِكْرِ اللَّهِ» (٢٧).

وروى ابن جرير أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى: «لَا تَصُومُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٢٨).

[بيان الأيام المعدودات]

وقال مقسم عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده (٢٩).

وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وإبراهيم النخعي ويحيى ابن أبي كثير والحسن وقتادة والسدي والزهري والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك (٣٠). وعليه دلل ظاهر الآية الكريمة حيث قال: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ» فدل على ثلاثة بعد النحر.

ويتعلق بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذكر الله على الأضاحي والذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، ويتعلق بذلك أيضًا التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق، وقد جاء في

(١) القرطبي: ٣ / ٣.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٥ / ٢. (٣) أحمد: ٤ / ١٥٢.

(٤) أحمد: ٥ / ٧٥ ومسلم: ٢ / ٨٠٠.

(٥) أحمد: ٤ / ٨٢. (٦) أبو داود: ٢ / ٤٨٥.

(٧) الطبري: ٤ / ٢١١. (٨) الطبري: ٤ / ٢١١.

(٩) الطبري: ٤ / ٢١٣.

(١٠) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٧ - ٥٤٩.

(١١) أبو داود: ٢ / ٤٤٧. (١٢) الطبري: ٤ / ٢٢٩.

(١٣) الطبري: ٤ / ٢٣٠.

فَلَا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتَوْها وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ،^(٦)
فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك
الحرث، وهو محل نهاء الزروع والثمار، والنسل، وهو نتائج
الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما، وقال مجاهد: إذا
سعى في الأرض فساداً منع الله القطر فهلك الحرث والنسل
﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي لا يحب من هذه صفته، ولا
من يصدر منه ذلك.

[من صفات المنافق رد النصيحة]

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي إذا
وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله واترع عن
قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته العزة
والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذا
الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ
فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا النَّكَرَ بِكَادُوتٍ يُسْطَرُّونَ
بِالَّذِينَ يُتْلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ ذَلِكَ
النَّارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا قال في
هذه الآية: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَيْهَا﴾ أي من
كافيته عقوبة في ذلك.

[من صفات المؤمن المخلص إيثار مرضاة الله]

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر
صفات المؤمنين الحميدة فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس وأبو
وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجاعة:
نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة
وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بهاله، وإن أحب أن
يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله،
فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجاعة إلى
طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله
تجارحكم، وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية.

وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه
الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين،
الستهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمز من الصبر، يلبسون
للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله
تعالى: فعلي يجرئون ويغيثون، حلفت بنفسي لأبعثن
عليهم فتنة ترك الحليم فيها حيران، قال القرطبي: تدبرتها في
القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن
يُتَعَبَّكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾^(١)
الآية وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ معناه أنه يظهر
للناس الإسلام، ويبازر الله بما في قلبه من الكفر والنفاق،
كقوله تعالى: ﴿يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ اللَّهِ﴾
الآية، هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن ابن عباس^(٢)،
وقيل: معناه إنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف، وأشهد الله
لهم أن الذي في قلبه موافق للسان، وهذا المعنى صحيح،
وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٣)، واختاره ابن جرير،
وعزاه إلى ابن عباس، وحكاها عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْصَارُ﴾^(٤) الألد في اللغة: الأعوج
﴿وَتُذِيرُ يَوْمَ قَوْمًا لِّذَا﴾^(٥) أي: عوجاً، وهكذا المنافق في
حال خصومته يكذب ويزور عن الحق، ولا يستقيم معه، بل
يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه
قال: «إِنَّهُ السُّنَّافِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،
وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٦). وروى البخاري عن عائشة ترفعه،
قال: «إِنْ أَبْغَضَ الرَّجُلُ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدَ الْحَصِمَ»^(٧).

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَاكَ
الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ^(٨) أي هو أعوج
المقال سيئ الفعال، فذلك قوله، وهذا فعله، كلامه كذب،
واعتقاده فاسد وأفعاله قبيحة، والسعي - ههنا - هو القصد،
كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿فَمَ أَتَى بِسِحْرِ فِرْعَوْنَ﴾^(٩) فَحَسَرْتُ فَادَى^(١٠)
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى^(١١) فَأَمَّا اللَّهُ فَكُلَّ الْأَخِرَةِ وَالْأُولَى^(١٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى^(١٣) وقال تعالى: ﴿يُنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تُودِعُوا لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي:
اقصدوا واعدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي
الحسي إلى الصلاة منهني عنه بالسنة النبوية: «إِذَا أُتِيتُمُ الصَّلَاةُ

(١) الطبري: ٤ / ٢٣٢. (٢) الطبري: ٤ / ٢٣٠.

(٣) الطبري: ٤ / ٢٣٣. (٤) فتح الباري: ١ / ١١١.

(٥) فتح الباري: ٨ / ٣٦. (٦) مسلم: ١ / ٤٢٠.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «رَبِّحَ النَّبِيُّ صُهَيْبًا»^(١).

ومعنى الآية عام يدخل فيها كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِيُثَبِّتُ بِهِمْ الْيُسُفَىٰ وَيُؤْتِيَ الْمُؤْمِنِينَ دَرَجَاتٍ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصْرِ ۚ﴾^(٢) فاستبشروا ببيعكم للذي يابستم به، وذلك هو الفوز العظيم^(٣)، ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين أكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَقَاتٍ ۖ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٥) فَإِنْ رَزَقْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٦).

[وجوب الأخذ بالإسلام كاملاً]

يقول الله تعالى أمراً عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك، قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعني الإسلام^(٧)، وقوله: ﴿كَافَّةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك: جميعاً^(٨)، وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر^(٩) خاصة من آمن من أهل الكتاب.

كما يروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ كذا قرأها بالنصب، يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيذان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾^(١٠) يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ، ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيذان بالتوراة وما فيها.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: اعملوا الطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١١)، و﴿إِنَّمَا يَدْعُوا

حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٢) ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١٣) وقوله: ﴿فَإِنْ رَزَقْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: ﴿عَزِيزٌ﴾ في نقمته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره^(١٤).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١٥)

[الحث على عدم التأخير في الإيمان]

يقول تعالى مهذباً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفُصِّي الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١٦) كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَبْذُرُ النَّاسَ أَنْ يَقْتُلَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَقَاتِي رَبُّكَ أَوْ تَوَاتَىٰ بَعْضُ مَا يَتَىٰ رَبُّكَ﴾ الآية.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء^(١٧)، وهي في بعض القراءات (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ) وهي كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى الْأُنثَىٰ وَالنَّعْمُ وَمِنَّ الْمَلَائِكَةُ أَنْزِيلًا﴾^(١٨).

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ نَايِبَتِهِمْ مِنْ بَدَلِ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١٩) رَبُّ الْبَاقِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ نَفَقُوا

(١) الطبري: ٢٤٨/٤.

(٢) الطبري: ٢٥٢/٤ وابن أبي حاتم غ: ٥٨٤ و ٥٨٥.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٦/٢ - ٥٨٨.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٥/٢. (٥) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٢/٢.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ٥٩١/٢. (٧) الطبري: ٢٦٤/٤.

فَوَقَّهْمَ يَوْمَ لَيْفَمَهُ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١١﴾

[عقاب تبديل نعمة الله والسخرية من المؤمنين]

يقول تعالى خبراً عن بني إسرائيل: كم شاهدوا مع موسى من آية بينة، أي حجة قاطعة على صدقه فيها جاءهم به، كيده وعصاه ولفقه البحر وضرب الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١٢﴾ كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١١٣﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْآيَاتِ﴾ ﴿١١٤﴾

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، واطمأنوا إليها، وجعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يرضي الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبدلوا ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والخط الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين.

وهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١١٥﴾ أي: يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاءً كثيراً جزيلًا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «إِنَّ آدَمَ أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» ^(١). وقال النبي ﷺ: «أَنْفَقَ بِلَالٌ، وَلَا تُحْشَى مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاقًا» ^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.

وفي الصحيح: «أَنَّ مَلَكَئِكَ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةً كُلِّ يَوْمٍ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ اعْطِ مُتَّبِقًا خَلْقًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ اعْطِ مُتَّبِقًا خَلْقًا» ^(٣).

وفي الصحيح: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْبَيْتَ، وَمَا لَبَسْتُ فَأَبْلَيْتَ، وَمَا تَصَدَّقْتُ فَأَمْضَيْتَ، وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَذَا هِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ» ^(٤).

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «الدُّنْيَا دَارُ مَرٍ دَارَ لَهْ، وَمَالٌ مِنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ» ^(٥).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ مِنْ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَفَوْا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِ اللَّهِ يَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١١٦﴾

[الاختلاف بعد مجيء العلم دليل على]

البغي والضلال]

روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وأهله عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ^(٦).

ورواه الحاكم في مستدركه ^(٧) ثم قال: صحيح الإسناد، يخرجاه، كذا روى أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن ابن كعب أنه كان يقرؤها: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) ^(٨).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ فكان أول من بعث نوحاً ^(٩).

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ الآية، قال قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَعْدَ أَنْهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأَوْتَيْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، فَهَذَا الْبَاقِي الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، فَقَدْ لِيَهُودُ، وَبَعْدَ عِدِّ لِلنَّصَارَى» ^(١٠).

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبي

(١) الحميدي: ٢ / ٤٥٩. (٢) الطبراني: ١٠ / ١٩٢.

(٣) فتح الباري: ٣ / ٣٥٧. (٤) مسلم: ٤ / ٢٢٧٣.

(٥) أحمد: ٦ / ٧١. (٦) الطبري: ٤ / ٢٧٥.

(٧) الحاكم: ٢ / ٥٤٦. (٨) الطبري: ٤ / ٧٨.

(٩) عبد الرزاق: ١ / ٨٢. (١٠) عبد الرزاق: ١ / ٨٢.

تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنواب. قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة الهمداني والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدي ومقاتل بن حيان ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ الفقر^(٥). وقال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ السقم.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خوفاً من الأعداء زلزلاً شديداً، وامتحانوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضِّعُ الْإِنشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخَلِّصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ بَيْنَ لَحْيِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثم قال: «وَاللهُ لَيُثَبِّتَنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّايِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذُّبَّ عَلَى عَنِيهِ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٦).

وقال الله تعالى: ﴿آلَتِ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَاسَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾.

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَوُضِعُوا لِلَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾ الآية. ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة^(٧).

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: ستهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمْلَكْنَا أَسَدَ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَعْنَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾.

في قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بَازِيَةً﴾ فاختلوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة، واخلطوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة، واخلطوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واخلطوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واخلطوا في إراهم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واخلطوا في عيسى عليه السلام. فكذبت به اليهود، وقالوا لأمة بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إقاراً ولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك^(٨).

وقوله: ﴿وَإِذْ يُؤَيِّدُ بِيَدَيْهِ مِنَ يَنْشَأُ﴾ أي: بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه ﴿إِذْ صَرَّطُوا سُبُلَهُمْ ۝﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة، وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ حَكَمَ بَيْنَ عِبَادِكَ فَبَيَّنَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٩) وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَارْزُقْنَا تَبَاعَةً، وَارْزُقْنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبِسًا عَلَيْنَا فَضْلًا، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»^(١٠).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ۝﴾

لا يحصل النصر ودخول الجنة إلا

بعد الاختيار والتمييز

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن

(١) الطبري: ٢٨٤ / ٤. (٢) الطبري: ٢٨٦ / ٤.

(٣) انفرد بإخراجه مسلم: ٥٣٤ / ١.

(٤) تخرجه الإحياء: ١٤١٨ / ٣. (٥) ابن أبي حاتم غ: ٦١٦ / ٢.

(٦) فتح الباري: ٧١٦ / ٦. (٧) فتح الباري: ٢٥ / ٩.

لها كانا يعتقانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به غير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو ابن الحضرمي، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه آمنوا وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم.

وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعر والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنينا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه، قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قال: «لَمَّا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وغنهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. وقالت اليهود، تفاءلوا بذلك على

يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأزل الله: ﴿يَتَقَاتِلَ فِيهِ الْقَبِيلُ الْأَحْزَابُ وَآلُ بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾ الآية (١).

وقال عبد الملك بن هشام راوي السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني رحمه الله، في كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا.

وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين، ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة، ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر، حليف لهم، ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص، ومن بني عدي ابن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم من عترة بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بني غنم، حليف لهم، وخالد بن الكبير أحد بني سعد بن لبيث، حليف لهم ومن بني الحارث بن فهر: سهيل ابن بيضاء. فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، ترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب، قال: سمعنا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشا، حتى آتية منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينتقل، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فإماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد.

فسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق القرع يقال له بجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيدا

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٨) أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعدته ووعدته، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها^(٨).

[إصلاح أموال اليتامى]

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَكُمْ﴾ الآية، روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى إِلَّا بِأَلْيَ حَسَنٍ﴾ و﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠) انطلق من كان عنده يتييم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم^(٩). وهكذا رواه أبو داود والنسائي^(١٠) والحاكم في مستدركه^(١١). وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية، كمجاهد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلى وقتادة وغير واحد من السلف والخلف^(١٢).

وروى وكيع بن الجراح عن عائشة رضي الله عنها قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي عرة، حتى أخلط طعامه بطعامي، وشرابه بشرابي^(١٣).

فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: على حدة، ﴿وَإِنْ

الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ شُعُوبَهُمَا﴾، ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْآزَلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ (١١) وسياي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر^(١٢).

[الأمر بإنفاق ما فضل من المال]

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ قرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجه قريب. وقال الحكم عن بقسم عن ابن عباس: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك^(٣)، كذا روي عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبيرة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراساني والربيع بن أنس وغير واحد^(٤).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «أنفقهُ عَلَى نَفْسِكَ». قال: عندي آخر، قال: «أنفقهُ عَلَى أَهْلِكَ»، قال: عندي آخر، قال: «أنفقهُ عَلَى وَلَدِكَ»، قال: عندي آخر، قال: «فَأَنْتَ أَبْصَرُ»^(٥)، وقد رواه مسلم في صحيحه.

وأخرج مسلم أيضاً عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «إِذَا بَنَيْتَ نَفْسَكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلْأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِنَفْسِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرْبَيْكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»^(٦).

وفي الحديث أيضاً: «إِنَّ أَدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْدَلَ الْقَضَى خَيْرٌ لَكَ، لَأَنْ تُسَكِّتَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ»^(٧).

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٦٣٦. (٢) الطبري: ٤ / ٣٣١ - ٣٣٦.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٦٥٦.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٦٥٦، ٦٥٧.

(٥) الطبري: ٤ / ٣٤٠. (٦) مسلم: ٢ / ٦٩٢.

(٧) مسلم: ١٠٣٦. (٨) الطبري: ٤ / ٣٤٨.

(٩) الطبري: ٤ / ٣٥٠.

(١٠) أبو داود: ٣ / ٢٩١ والنسائي: ٦ / ٢٥٦.

(١١) الحاكم: ٢ / ١٠٣. (١٢) الطبري: ٤ / ٣٥٠ - ٣٥٣.

(١٣) الطبري: ٤ / ٣٥٥.

سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطر المومسات منهن^(٤)، وهذا إسناده صحيح.

وروى ابن جرير عن زيد بن وهب، قال: قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصرانية المسلمة^(٥)، قال: وهذا أصح إسناداً من الأول.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» وقال البخاري: قال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من الشرك بالله تعالى. ربه عيسى^(٦).

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسْبِهَا وَلِحِجْمَتِهَا وَلِدِينِهَا فَاطْفَرِ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبْتَ يَدَاكَ»^(٨). ولمسلم عن جابر بن عبد الله^(٩)، وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الْمَرْأَةُ مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(١٠).

وقوله: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» أي: تزوجوا الرجال المشركين النساء المومنات، كما قال تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ بِمَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَبِمَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ» ثم قال تعالى: «وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» أي: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً. «أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ» أي: بشره وما أمر به وما نهى عنه «وَيُؤَيِّنُ بِلِلَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^(١١).

«وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمُجِيزِ» قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمُجِيزِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(١٢).

(١) الطبري: ٤ / ٣٦٢.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ٦٦٩-٦٧١.

(٣) الطبري: ٤ / ٣٦٦.

(٤) الطبري: ٤ / ٣٦٦.

(٥) الطبري: ٤ / ٣٦٦.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ٢ / ١٧١.

(٧) فتح الباري: ٩ / ٣٢٦.

(٨) فتح الباري: ٩ / ٣٥ ومسلم: ٢ / ١٠٨٧.

(٩) مسلم: ٢ / ١٠٨٧.

(١٠) مسلم: ٢ / ١٠٩٠.

تَحَالِفُوهُمْ فَلْيَحْزَنْكُمْ» أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشربكم بشربهم فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» أي: يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وقوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» بل قد جوز الأكل منه للفقير المعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً، كما سيأتي بيانه في سورة النساء - إن شاء الله وبه الثقة.

«وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ وَيُؤَيِّنُ بِلِلَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^(١٣).

[تحريم نكاح المشركين والمشركات]

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: «وَالْمُفْضَلَةُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ» قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا»: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب^(١)، وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم^(٢). وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم.

قال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك لثلاث يزهدهم في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني^(٣). كما روى أبو كريب عن شقيق، قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أنزعم أنها حرام، فأخلي

قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فانزرت وهي حائض، وهذا لفظ البخاري^(٧)، ولها عن عائشة نحوه^(٨)، وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن سعد الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «مَا فَوْقَ الْإِزَارِ»^(٩). فقلوه تعالى: «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ» تفسير لقوله: «فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ» ونهى عن قربانهن بالجماع مادام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: «فَإِذَا طَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، وقال ابن عباس: «حَتَّى يَطْهُرْنَ» أي: من الدم «فَإِذَا طَهَّرْنَ» أي: بالماء، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم^(١٠).

[تحريم الوطء في الدبر]

وقوله: «مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني الفرج^(١١). وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى. وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد: «فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» يعني: طاهرات غير حيض^(١٢)، ولهذا قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ» أي من الذنب وإن تكرر غشيانه «وَيُحِبُّ الْمُطَّهِرِينَ»^(١٣) أي: المنتزهين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حَرِّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَائِمَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾

[الأمر باعتزال النساء في المحيض]

روى الإمام أحمد عن أنس، أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ، فأُنزل الله عز وجل: «وَسَكُنْوا نَكَاحَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى نِسَاءٍ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ» حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصْتَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليها، فخرجنا فاستقبلها هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها، فعرفا أن لم يجد عليها^(١). ورواه مسلم.

نقله: «فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ» يعني: الفرج؛ لقوله: «اصْتَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»^(٢). ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيها عدا الفرج.

روى أبو داود عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً^(٣).

وروى أبو جعفر بن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبي وعلى أهله، فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحباً مرحباً، فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا استحي، فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها^(٤). وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة.

(قلت) ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ، يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن^(٥).

وفي الصحيح عنها، قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطي النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه^(٦).

وثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية

(١) أحمد: ٣/١٣٢. (٢) مسلم: ١/٢٤٦.

(٣) أبو داود: ١/٢٨٦. (٤) الطبري: ٤/٣٧٨.

(٥) فتح الباري: ١/٤٧٩. (٦) مسلم: ١/٢٤٥.

(٧) فتح الباري: ١/٤٨٣، ومسلم: ١/٢٤٣.

(٨) فتح الباري: ١/٤٨٠، ومسلم: ١/٢٤٢.

(٩) أحمد: ٤/٣٤٢، وأبو داود: ١/١٤٥، وتحفة الأحوذى:

٤١٥/١، وابن ماجه: ١/٢١٣.

(١٠) ابن أبي حاتم غ: ٢/٦٨٢ و٦٨٣.

(١١) ابن أبي حاتم غ: ٢/٦٨٤.

(١٢) ابن أبي حاتم غ: ٢/٦٨٤، ٦٨٥.

[سبب نزول قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾]

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد^(١) ﴿فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾ أي: كيف شئتم، مقبلة ومدبرة في صمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث.

روى البخاري عن ابن المنكدر قال: سمعت جابرًا قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾^(٢). ورواه مسلم وأبو داود^(٣).

وروى ابن أبي حاتم: عن محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة، وهي مدبرة، جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾ قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ: «مُفْبِلَةٌ وَمُدْبِرَةٌ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْفَرْجِ»^(٤).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أَتِيَهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذَا كَانَ فِي الْفَرْجِ»^(٥).

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سابط، قال: دخلت على حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت: إني سائلتك عن أمر، وأنا أستحي أن أسألك عنه، قالت: فلا تستحي يا ابن أخي، قال: عن إتيان النساء في أدبارهن؟ قالت: حدثني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يجيئون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جئ امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجوهن، فأبى امرأة أن تطيع زوجها، وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ، استحييت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ، فخرجت فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ، فقال: «اذْهَبِي الْأَنْصَارِيَّةَ»، فدعيت، فتلا عليها هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾ «صَلِّمَا وَاحِدًا»^(٦). ورواه الترمذي وقال: حسن^(٧).

وروى النسائي عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر، أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول، إنك تقول عن ابن عمر: إنه أفنى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال: كذبوا علي، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن

عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾ فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نجسي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منها مثل ما كنا نرد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمته، وكانت نساء الأنصار أخذن بحال اليهود، إنسا يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شَيْئٌ﴾^(٨) وهذا إسناد صحيح.

روى أحمد عن خزيمة بن ثابت الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَسْتَحْيِي اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ ثَلَاثًا، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ أَعْبَازِهِنَّ»^(٩). رواه النسائي وابن ماجه^(١٠).

وروى أبو عيسى الترمذي والنسائي عن ابن عباس، قال قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً الدُّبُرَ»^(١١). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه ابن حزم أيضًا.

وروى الإمام أحمد عن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن، فإن الله لا يستحي من الحق^(١٢) وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: هو حديث حسن^(١٣).

وروى أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى حين أحض هن؟ قال: وما التحميص فذكرت الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين^(١٤)؟ وما إسناده صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك.

(١) الطبري: ٣٩٧/٤. (٢) فتح الباري: ٣٧/٨.

(٣) مسلم: ١٠٥٨/٢، وأبو داود: ٦١٨/٢.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ٦٩٣/٢. (٥) أحمد: ٢٦٨/١.

(٦) أحمد: ٣٠٥/٦. (٧) تحفة الأحوذى: ٢٢٢/٨.

(٨) النسائي في الكبرى: ٣١٥/٥. (٩) أحمد: ٢١٥/٥.

(١٠) النسائي في الكبرى: ٣١٦/٥، وابن ماجه: ٦١٩/١.

(١١) تحفة الأحوذى: ٣٢٩/٤، والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٥.

وصحیح ابن حبان: ٢٠٢/٦.

(١٢) ذكره ابن حجر في أطراف المسند ٣٨٤/٤ ولم يوجد في المطبوع.

(١٣) تحفة الأحوذى: ٢٧٤/٤.

(١٤) الدارمي: ٢٧٧/١ ح ١١٤٣.

عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وهكذا رواه مسلم ^(٤) وأحمد ^(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير ^(٦)، وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي رحمهم الله ^(٧).

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ، لَا أَخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَحَلَلْتُهَا» ^(٨). وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَقْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» ^(٩).

[لغو اليمين]

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللغوية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ^(١٠).

فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا، وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد؛ لتكون هذه بهذه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية، وفي الآية الأخرى:

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج، قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون: إنك تقول ذلك. قال: يكذبون علي يكذبون علي، فهذا هو الثابت عنه، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير ومجرو بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف، إنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء.

وقوله: ﴿وَقَدْ مَوَّاهُ لَأَشْكُرُ﴾ أي: من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات، ولهذا قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) أي: المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم.

وروى ابن جرير عن عطاء، قال: أراه عن ابن عباس ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) قال: تقول: باسم الله، التسمية عند الجماع ^(١٧)، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِن تَعَذَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا» ^(١٨).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^{(٩٢}

﴿يَمَّا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

انقضاء أربعة أشهر؛ إما أن يفيء أي يجامع، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ أي: يخلفون على ترك الجماع من نسائهم، وفيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء، كما هو مذهب الجمهور ﴿رَبُّنَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ قَاءُوا﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله ^(٨) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(٩) لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَّوَالَتُنَّ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، كما روى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فأما أن يطلق وإما أن يفيء ^(٩)، وأخرجه البخاري ^(١٠).

وروى ابن جرير عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء ولا طلق ^(١١)، ورواه الدارقطني من طريق سهيل ^(١٢) قلت) وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم.

﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَنْصَرِفُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ

قال أبو داود: (باب لغو اليمين) ثم روي عن عطاء في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «الَلَّغُو فِي الْيَمِينِ هُوَ كَلَامُ الرَّجُلِ فِي نَيْتِهِ: كَلَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ» ^(١).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ^(٢).

وروي أيضاً عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة ^(٣)، وكذا روي عن سعيد بن جبير ^(٤).

وقال أبو داود: (باب اليمين في الغضب) ثم روي عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك، وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَمِينُ عَلَيْكَ، وَلَا تَذَرُ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَفِيهَا لَا تَمْلِكُ» ^(٥).

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يخلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد وغيره، وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفور لعباده حلیم عليهم.

﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبُّنَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(٦) وَإِنْ عَزَّوَالَتُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^(٧)

[الإيلاء وحكمه]

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ ألى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ» ^(١)، ولها من عمر بن الخطاب نحوه ^(٢)، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند

(١) أبو داود: ٥٧٢/٣. (٢) ابن أبي حاتم غ: ٧١٦/٢.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢. (٤) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢.

(٥) أبو داود: ٥٨١/٣.

(٦) فتح الباري: ٣٨٠/٨، ومسلم: ١١١٣/٢.

(٧) فتح الباري: ١٤٣/٤، ومسلم: ١١١٠/٢.

(٨) الطبري: ٤٦٦/٤، ٤٦٧. (٩) الموطأ: ٥٥٦/٢.

(١٠) فتح الباري: ٣٣٥/٩. (١١) الطبري: ٤٩٣/٤.

(١٢) الدارقطني: ٦١/٤.

تطويلها لما لها في ذلك من مقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

[الزوج أحق بالرجعة]

وقوله: ﴿وَيُؤْتِيَنَّكَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها، مادامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حصرنا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرنا في الآية التي بعدها على ثلاث تطبيقات، صار للناس مطلقة بائن، وغير بائن.

[حقوق الزوجين]

وقوله: ﴿وَكُلٌّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منها إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال في خطبته في حجة الوداع: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَخْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُؤْطِقْنَ فُرُوجَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(٤). وفي حديث بهز ابن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٥).

وقال وكيع، عن بشير بن سليمان، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: ﴿وَكُلٌّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم^(٦).

(١) الطبري: ٥٠٢/٤.

(٢) أبو داود: ١٩١/١ والنسائي: ٢١١/٦.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٧٤٤/٢ و٧٤٥.

(٤) مسلم: ٨٨٦/٢. (٥) أبو داود: ٦٠٦/٢.

(٦) الطبري ٥٣٢/٤، وابن أبي حاتم غ: ٧٥٠/٢.

الْمَعْرُوفِ وَاللِّرْجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٨﴾

[بيان عدة المطلقة]

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تزوج إن شاءت.

[معنى القراء]

روى الثوري عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقتي بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد وضعت مائي ونزعت ثيابي وأغلقت بابي، فقال عمر لعبد الله بن مسعود: ما ترى؟ قال: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة، قال عمر: وأنا أرى ذلك^(١)، وهكذا روى عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ، وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخراساني أنهم قالوا: الأقراء: الحيض.

يزيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها: «دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ»^(٢). فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القراء هو الحيض، ولكن المنذر أحد رواه. قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور، وذكره ابن حبان في الثقات.

[يقبل كلام النساء في الحيض والطمهر]

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حبل أو حيض، قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي والحكم بن عتيبة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد^(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تهديد لمن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعدى إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في

[فضل الرجال على النساء]

وقوله: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ دَرَجَةً﴾ أي في الفضيلة في الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

[قصر الطلقات على الثلاث، وبيان الرجعية والبانة]

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، مادامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾.

قال أبو داود رحمه الله في سننه: (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث). ثم روي عن ابن عباس ﴿وَالطَّلَاقُ ثَلَاثٌ يَرْتَبِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْوَاحِهِنَّ﴾ الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فُنسخ ذلك فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الآية (١)، ورواه النسائي (٢).

وروي ابن أبي حاتم عن عروة، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أويك أبداً، قالت: كيف ذلك؟ قال: أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأنت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ (٣)، وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره (٤).

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ أي إذا طلقها

واحدة أو اثنتين فأنت خير فيها، مادامت عدتها باقية، بين تردها إليك، ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين تركها حتى تنقضي عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحاً محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في ذلك - أي في الثالث - فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرح بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً (٥).

[النهي عن استرجاع المهر]

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتوهن من الأصدقة أو بيعضه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّ تَعَالَوْهُنَّ يَتَّخِذُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ مُبَيَّنَةٍ﴾ فإما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها فلا قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَتَسَاءَلْتُمْ هِيَ تَرِيكَ﴾ (٦)

[الإذن بالخلع واسترجاع المهر فيه]

وأما إذا تشاقت الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته، ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي ما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر، وسألت الافتداء منه، فقد روى ابن جرير عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ، قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فحَرَّمَ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ» (٧). وهكذا رواه الترمذي وقال: حسن (٨).

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول (٩)، وروى الإمام مالك في موطأه عن حبيبة بنت

(١) أبو داود: ٦٤٤/٢. (٢) النسائي: ٢١٢/٦.

(٣) ابن أبي حاتم: ٧٥٤/٢. (٤) الطبري: ٥٣٩/٤.

(٥) الطبري: ٥٤٣/٤. (٦) الطبري: ٥٦٩/٤.

(٧) تحفة الأحوذ: ٣٦٧/٤. (٨) الطبري: ٥٥٦/٤.

[لا رجعة بعد الطلاق الثالث]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين، لم تحل للأول، لأنه ليس بزواج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، روى مسلم في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ قال: «لا، حتى يَدْوَقَ عُسَيْلَتَهَا»^(١١)، ورواه البخاري أيضاً^(١٢).

وروى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ، فقال: إن رفاعة طلقني ألبتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدية، وأخذت هدية من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ؟ فما زاد رسول الله ﷺ على التيسم، فقال رسول الله ﷺ: «كَأَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لَا، حَتَّى تَدْوَقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَدْوَقَ عُسَيْلَتِكَ»^(١٣)، وهكذا رواه البخاري^(١٤) ومسلم^(١٥) والنسائي وعند مسلم: أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات^(١٥).

والمراد بالغسيلة: الجلاء، لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا إِنَّ عُسَيْلَةَ الْجِلَاءِ»^(١٦).

[اللعنة على المحلل والمحلل له]

(فصل) والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج،

سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغسل، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَذِهِ؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل يا رسول الله. قال: «مَا شَأْنُكِ؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس، لزوجها، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هَذِهِ حَبِيبَةُ بَنْتِ سَهْلٍ قَدْ ذَكَرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ». فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ: «خُذْ مِنْهَا»، فأخذ منها وجلس في بيت أهلها^(١). وهكذا رواه الإمام أحمد^(٢)، وأبو داود^(٣) والنسائي^(٤).

وروى البخاري عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرِيدِينَ عَلَيْهِ حَبِيبَتَهُ؟» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أَقْبِلِ الْحَبِيبَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»^(٥). وكذا رواه النسائي^(٦).

[عدة المختلعة]

روى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء، أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ أو أمرت أن تعتد بحبضة^(٧).

[اعتداء حدود الله ظلم]

وقوله: ﴿إِنَّكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٨) أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ جَدُّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حَرَامًا فَلَا تَنْتَهِكُوهُ، وَسَكَّتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا»^(٨).

[الطلاقات الثلاث في مجلس واحد حرام]

وقد استدلل بهذه الآية على أن جمع الطلاقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، ويدل له حديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه أنه قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: «أَيْلَسِبَ بِكَشَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله^(٩).

(١) الموطأ: ٢/٥٦٤.

(٢) أحمد: ٦/٤٣٣.

(٣) أبو داود: ٢/٦٦٧.

(٤) النسائي: ٦/١٦٩.

(٥) فتح الباري: ٩/٣٠٦.

(٦) النسائي: ٦/١٦٩.

(٧) تحفة الأحوذى: ٤/٣٦٣.

(٨) الدارقطني: ٤/٢٩٨.

(٩) النسائي: ٦/١٤٢.

(١٠) مسلم: ٢/١٠٥٧.

(١١) أحمد: ٦/٣٤.

(١٢) فتح الباري: ٩/٢٨٤.

(١٣) فتح الباري: ١٠/٥١٨.

(١٤) مسلم: ٢/١٠٥٧.

(١٥) أحمد: ٦/٦٢.

(١٦) النسائي: ٦/١٤٦.

فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد؛ بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الراشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله^(١). ورواه الترمذي والنسائي^(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس.

وروى الحاكم في مستدركه عن نافع أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣)، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر الأثرم عن قبيصة بن الجوز جاني وحرب الكرمان وأبو بكر الأثرم عن قبيصة بن جابر، عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجعتها^(٤).

[متى تحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول؟]

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فَلَا تُجَازِعُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أي: المرأة والزوج الأول ﴿إِنْ طَلَّاقًا يَبِينُ﴾ حُدُودُ اللَّهِ أي: يتعاشرا بالمعروف. قال مجاهد: إن طلقا أن نكاحها على غير دلالة^(٥). ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه وأحكامه ﴿يَنْبِئُهَا﴾ أي: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِنَّ فَاسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِرُوهُنَّ ضَرَارًا لِعَعْدُوْهُنَّ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْدِي اللَّهِ هُرُوءًا وَأَذْكُرُوا يَعْمَلَتَنَّهُ سَعْيَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ مِنْ لَدُنْكُمْ بِالْحِكْمَةِ يَعْظُمُ عَلَيْكُمْ يَدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[الأمر بحسن المعاملة مع المطلقة]

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت

عدها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإذا أمسكها، أي: يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرح أي: يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِرُوهُنَّ ضَرَارًا لِعَعْدُوْهُنَّ﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قربت انقضاء العدة راجعها ضراراً؛ لئلا تذهب إلى غيره، فيطلقها فتعتد، فإذا شارفت على قضاء العدة طلق؛ لئلا عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك^(٦)، وتوعدهم عليه، فقال ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: بمخالفته أمر الله تعالى وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْدِي اللَّهِ هُرُوءًا﴾ روى ابن جرير عند هذه الآية عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأنابه أبو موسى قال: يا رسول الله، أغضبت الأشعرين؟ فقال: ﴿يَقُولُ أَحَدُهُمْ: قَدْ طَلَّقْتُ، قَدْ رَاجَعْتُ، لَيْسَ هَذَا طَلَاَقُ الْمُسْلِمِينَ، طَلَّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ عِدَّتِهَا﴾^(٧) وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة^(٨)، وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان: الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويسير كنت لاعباً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْدِي اللَّهِ هُرُوءًا﴾ فالزم الله بذلك.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا يَعْمَلَتَنَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ مِنْ لَدُنْكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾، أي: السنة ﴿يَعْظُمُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يأمركم ويهدهد ويتوعدكم على ارتكاب المحارم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: ف.

(١) أحمد: ٤٤٨/١.

(٢) أحمد: ٤٤٨/١، وتحفة الأحوزي: ٢٦٤/٤، والنسائي: ١٤٩/٦.

(٣) الحاكم: ١٩٩/٢. (٤) ابن أبي شيبه: ٢٩٤/٤.

(٥) الطبري: ٥٩٨/٤.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ٧٧٢/٢ - ٧٧٤.

(٧) الطبري: ١٤/٥. (٨) الطبري: ٨/٥.

(٩) ابن أبي حاتم غ: ٧٧٥/٢، ٧٧٦.

إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك ^(٧)، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني ^(٨).

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي نيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأمر به، ويستعظ به، ويفعل له ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه، في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: اتباعكم شرع الله، في رد المولات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَتْلُمُ﴾ أي: من المصالح، فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ أي: الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تدرن.

﴿وَالَّذِينَ يَرْضَعُونَ أَوْلَادَهُمْ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِزَ﴾ رِضَاعَةً وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ يَرْضَعُ وَيُكْسِبُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ وَلَا وَسْعَةً لَا تُضَاعَدُ وَلِلْهِ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٥﴾

[لا رضاعة إلا في مدة الرضاعة]

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي ستان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِزَ الرِّضَاعَةَ﴾ فلا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقها لم يحرم. قال الترمذي: (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) ثم روى عن أم سلمة، قالت: قال

(١) الطبري: ٢٢/٥. (٢) الطبري: ٢٢/٥.

(٣) الطبري: ٢٢/٥، ٢٣. (٤) ابن ماجه: ١/٦٠٦.

(٥) فتح الباري: ٤٠/٨.

(٦) أبو داود: ٥٦٩/٢، وتحفة الأحوذى: ٨/٣٢٥، وابن أبي حاتم

غ: ٧٧٨/٢، والطبري: ١٧/٥ - ١٩، والبيهقي: ٧/١٠٤.

(٧) تحفة الأحوذى: ٨/٣٢٤. (٨) البيهقي: ٧/١٠٤.

تأتون وفيما تدرن، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْلِفُ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ رِضَاً بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَتْلُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

[نهي الولي عن منع المرأة أن تنكح زوجها المطلق]

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلاقاً أو طلاقين، فتنتضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها ^(١). وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً ^(٢)، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك: إنها أنزلت في ذلك ^(٣)، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية.

[لا نكاح إلا بولي]

وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في تزويجها من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: «لا تُزَوِّج المرأة المرأة، ولا تُزَوِّج المرأة نفسها، فَإِنَّ الرِّأْيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا» ^(٤). وفي الأثر الآخر: «لا نكاح إلا بولي مُرْشِدٍ وشاهدي عدل».

[سبب نزول الآية]

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فقد روى البخاري - رحمه الله - في كتابه «الصحيح» عند تفسير هذه الآية أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ^(٥) وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن، عن معقل بن يسار ^(٦)

به، وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار، أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويا وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع

رسول الله ﷺ «لا يَحْرُمُ مِنَ الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»^(١). وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً. (قلت): تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين.

ومعنى قوله: «إلا ما كان في الثدي» أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء ابن عازب، قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ ابْنِي مَاتَ فِي الثَّدْيِ، إِنَّ لَهُ مَرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

ويؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْرُمُ مِنَ الرضاع إلا ما كان في الحَوْلَيْنِ»^(٣).

(قلت): وقد رواه الإمام مالك في «الموطأ» عن ثور بن زيد، عن ابن عباس مرفوعاً^(٤)، ورواه الدراوردي عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس، وزاد: «وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ». وهذا أصح.

[رضاعة الكبير]

وقد روي في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم^(٥)، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها، فترضعه، وتحجج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص^(٦)، وهو قول الجمهور.

[أجرة الرضاعة]

وقوله: «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثلهن في بلدن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفِ أَنْفُسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ قال

الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده^(٧)، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

[لا ضرر ولا ضرار]

وقوله: «لَا تُضَادُّ وَلَدَهُ يَوْلَدُهَا» أي: بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تستنزل اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل له ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها، ولهذا قال: «وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُ» أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منه إضراراً بها، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهري والسدي والثوري وابن زيد وغيرهم^(٨).

وقوله تعالى: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ» قيل: في عدم الضرر لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل من على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها، وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره، وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أن رأى امرأة ترضع بعد الحولين، فقال: لا ترضعيه^(٩).

[الفطام عن تراض منهما]

وقوله: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّمَّيْنِ وَتَشَاوَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا» أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا في احتياط للطفل والإزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلها، وأرشدنا

(١) تحفة الأحوذى: ٣١٣/٤. (٢) عمدة التفسير: ١٢٦/١.

(٣) الدارقطني: ١٧٤/٤. (٤) الموطأ: ٦٠٢/٢.

(٥) مسلم: ١٠٧٧/٢. (٦) أبو داود: ٥٤٩/٢، ٥٥٠.

(٧) الطبري: ٣٩/٥. (٨) الطبري: ٥٠، ٤٩/٥.

(٩) الطبري: ٣٦/٥.

فَأَحْذَرُوهُ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾

[إباحة التعريض بالخطبة في العدة،

والنهي عن النكاح فيها]

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح، قال الثوري وشعبة وجريز وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيما عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ ﴿٣٨﴾ قال: التعريض أن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف ^(٣٩) - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا، ولا يتصحب للخطبة ^(٤٠)، ورواه البخاري تعليقا عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيما عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ ﴿٣٩﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن يسر لي امرأة صالحة ^(٤١)، وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقنادة والزهري ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد ^(٤٢) وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة.

وهكذا حكم المطلقة المتتمة يجوز التعريض لها، كما قاله السيوطي لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: ﴿فَإِذَا حَلَلْتُ فَأَلْبِسِي﴾، فلما حلت، خطب عليها أسامة بن زيد مولاها، فزوجها إياه ^(٤٣)، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها. والله أعلم، وقوله: ﴿وَأَوْ أَكْتَضْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أضمرتم في أنفسكم من خطبتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ

أَنْفُسُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٨﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداذ على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحْدَثَ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ^(٤٤).

وفي الصحيحين أيضًا عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عنها أفنكحلها؟ فقال: ﴿لَا﴾ كل ذلك يقول: ﴿لَا﴾ مرتين أو ثلاثا، ثم قال: ﴿إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَكْتُمُ سَنَةً﴾ ^(٤٥).

قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشًا، وليست شر ثيابها، ولم تحس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطي بكرة، فترمي بها، ثم تؤتي بدابة: حمار أو شاة أو طير فتفتض به. فقلنا تفتض بشيء إلا مات.

والغرض أن الإحداذ هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولًا واحدًا، ويجب الإحداذ على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والأيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة، لعموم الآية.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن، قاله السجهاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ^(٤٦) قال الزهري: أي على أوليائها. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعني: النساء اللاتي انقضت عدتهن ^(٤٧)، قال العوفي عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تترين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف ^(٤٨).

وروي عن مقاتل بن حيان نحوه ^(٤٩)، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: النكاح الحلال الطيب ^(٥٠)، وروي عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك ^(٥١).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَضْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ عَنِ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَقْرَبُوا عَهْدَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ

(١) فتح الباري: ٣٩٤/٩، ومسلم: ١١٢٣/٢.

(٢) مسلم: ١١٢٤/٢. (٣) ابن أبي حاتم غ: ١١٢/٢.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ٨١٣/١. (٥) ابن أبي حاتم غ: ٨١٣/٢.

(٦) ابن أبي حاتم غ: ٨١٢/٢. (٧) الطبري: ٩٣/٥.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ٨١٤٠/٢. (٩) الطبري: ٩٥/٥.

(١٠) الطبري: ٩٦/٥. (١١) فتح الباري: ٨٤/٩.

(١٢) ابن أبي حاتم غ: ٨١٧/٢، ٨١٨.

(١٣) مسلم: ١١١٤/٢.

[متعة الطلاق]

ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره.

وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد وأبي أسيد، أنهما قالَا: تزوج رسول الله ﷺ أمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه، بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها، ويكسوها ثوبين رازقين^(٩).
﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضِّفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدٌ أَلْكَاحُ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١٠)

[للمرأة نصف المهر إذا طلقت قبل الدخول]

وهذه الآية الكريمة بما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنها أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم.

وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سُمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سُمي من الصداق. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ أي: النساء، عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء، قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ قال: إلا أن تعفو الشب فتدع حقها^(١١).

قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم - رحمه الله - وروي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي

مُدْرِكُهُمْ وَمَا يَلْحُوتُكَ﴾ وكقولهم: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تَزِيدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَكِنْ لَا تَزِيدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، ونحو هذا^(١٢)، وكذا روي عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاهد والثوري، هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره^(١٣).
وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير^(١٤) والسدي والثوري وابن زيد: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض، كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك^(١٥)، وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني^(١٦)، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِمُوا عَقْدَ الْكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والريبع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهري وعطاء الخراساني والسدي والثوري والضحاك: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة^(١٧)، وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، فوعدهم على ما يقع في ضآلهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمة، ولم ينقظهم من عائدته، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١٨).
﴿لَا كِتَابَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَطْلُقُوا نِسَاءً مَا تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾

حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٩)

[الطلاق قبل الدخول]

أباح - تبارك وتعالى - طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصري: المس النكاح^(٢٠)، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضة وإن كان في هذا انكسار لقبها.

- (١) الطبري: ١٠٧/٥. (٢) ابن أبي حاتم غ: ٨٢١/٢.
(٣) الطبري: ١٠٩/٥. (٤) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٤/٢.
(٥) الطبري: ١١٤/٥. (٦) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٦/٢.
(٧) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٨/٢، ٨٢٩.
(٨) ابن أبي حاتم غ: ٨٣١/٢. (٩) فتح الباري: ٢٦٩/٩.
(١٠) ابن أبي حاتم غ: ٨٣٩/٢.

بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدا ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلوا على أي حال كان، رجلاً أو ركباناً، يعني: مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجلاً على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ^(١٤)، ورواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم^(١٥).

وروى مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير عن ابن عباس، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(١٦)، وبه قال الحسن البصري وقادة والضحاك وغيرهم^(١٧).

وقال البخاري: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو). وقال الأوزاعي: إن كان تيمناً بالفتح ولم يقدرُوا على الصلاة صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدرُوا على الإيماء أخوا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدرُوا صلوا ركعة وسجدة، فإن لم يقدرُوا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا.

وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال، فلم

(١) أحمد: ٥/٢٢. (٢) أحمد: ٥/٨. (٣) أحمد: ٥/٧.

(٤) تحفة الأحوذ: ٨/٣٢٨. (٥) ابن حبان: ٣/١٢١.

(٦) تحفة الأحوذ: ٨/٣٢٩. (٧) مسلم: ١/٤٣٧.

(٨) مسلم: ١/٤٣٦. (٩) ابن ماجه: ١/٢٢٤.

(١٠) مسلم: ١/٣٨٢. (١١) مسلم: ١/٣٨١.

(١٢) أحمد: ٤/٣٦٨.

(١٣) فتح الباري: ٣/٨٨، ومسلم: ١/٣٨٣، وأبو داود: ١/٥٨٣، وتحفة الأحوذ: ٨/٣٣٠، والنسائي: ٣/١٨.

(١٤) الموطأ: ١/١٨٤.

(١٥) فتح الباري: ٨/٤٦، ومسلم: ١/٥٧٤.

(١٦) مسلم: ١/٤٧٨، ٤٧٩، وأبو داود: ٢/٤٠، والنسائي: ٣/١٦٩.

(١٧) ابن ماجه: ١/٣٣٩، والطبري: ٥/٢٤٧.

(١٨) الطبري: ٥/٢٤٠، ٢٤١.

صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ^(١). وفي لفظ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وسماها لنا أنها هي صلاة العصر^(٢)، وفي لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال: «هِيَ الْعَصْرُ». قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى^(٣)، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٤)، وروى أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»^(٥).

وقد روى الترمذي عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»، ثم قال: حسن صحيح^(٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه ولفظه: «سَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ»^(٧). الحديث.

فهذه تقرر في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها قوله ﷺ في الحديث الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَاتَهَا وَتَرَّ أَهْلُهُ وَتَالَهُ»^(٨)، وفي الصحيح عن بريدة بن الحصيب، عن النبي ﷺ قال: «يَكُونُ بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْغَنِيمِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ»^(٩).

[النهى عن الكلام في الصلاة]

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١٠) أي: خاشعين ذليلاً مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال: «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا»^(١١).

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَضِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذَكَرُ اللَّهِ»^(١٢).

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم، قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١٣)، فأمرنا بالسكوت^(١٤)، رواه الجماعة سوى ابن ماجه^(١٥).

[صلاة الخوف]

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١٦)، لما أمر تعالى عباده

الربع أو الثمن مما ترك الزوج^(٣).

وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته، وبشر عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ هذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ الْأَرْبَعُ مِمَّا تَرَكَ الْوَدَّاءُ لَمْ يَكُن لَكُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ فبشر ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة^(٤).

قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقيس والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٥).

وروي البخاري عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب. فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة: سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد - رحمه الله -، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عليها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها، وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، لقول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث ففسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت، ولا سكنى لها^(٦).

وقول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركه الميت،

يقدرُوا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري^(١).

[الأمر بإتمام الصلاة في حالة الأمن]

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها، ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُورًا﴾^(٣) وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾^(٤) وَلَمْ تَطْلُقْ مَتْنَعًا بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ^(٥) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^(٦)

[نسخ هذه الآية]

قال الأكرهون: هذه الآية منسوخة بالتالي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ روي البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا غير شيئاً منه من مكانه^(٧).

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نُسِخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتُ مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها.

روي ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقة في دار سنة، ففسختها آية الموارث، فجعل لها

(١) فتح الباري: ٥٠٣/٢. (٢) فتح الباري: ٤٨/٨.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٧١/٢. (٤) الطبري: ٢٥٥/٥.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ٨٧٦، ٨٧٥/٢.

(٦) البخاري: ٤٥٣١، ٥٣٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّهُمْ لَأُولُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) وَفَتَنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢) مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٣) وَإِنَّهُ يُقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥٦﴾

[قصة هؤلاء الأموات]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان. وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط.

وروى وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعاهم أن يجيبهم فأجابهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ الآية.

وذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل، استوخوا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فرارًا من الموت، هاربين إلى البرية، فتنزلوا واديًا أفحج، فملؤا ما بين عدوتيته، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر، مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يجيبهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمع، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصاً

فهذا محل خلاف بين الأئمة، وقد استدلوا على وجوب سكنى في منزل الزوج، بما رواه مالك في موطنه عن زينب بنت كعب بن عجرة، أن الفريضة بنت مالك بن سنان، وهي اخت أبي سعيد الخدري، ^(١) أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإنا زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم فقتلوه، قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمرني فموتت له فقال: «كَيْفَ قُلْتِ؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: «امْكُنِي فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» قالت: فاعدت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به ^(٢)، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ^(٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

[وجوب متعة الطلاق]

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

﴿١٥٦﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٦﴾ قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٦﴾ وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها، أو مطلقاً قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف ^(٤)، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ إِنْ طَلَقْتَ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَدَيُّهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٦﴾ من باب ذكر بعض أفراد العموم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: في إحلالة وتحريمه وفروضه وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بينه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿عَلَّامٌ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ أي: تفهمون وتدبرون.

(١) الموطأ: ٥٩١/٢.

(٢) أبو داود: ٧٧٣/٢، وتحفة الأحوذى: ٣١٩/٤، ٣٩٠.

والنسائي: ٢٠٠/٦، وابن ماجه: ١/٦٥٤.

(٣) الطبري: ٥/٢٦٤. (٤) الطبري: ٥/٢٦٣.

وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى: أيها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمده، فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسائي يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: فيما يرهم من الآيات الباهرة، والحجج القاطعة، والدلالات الدامغة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١١) أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه القصة عبرة ودليل، على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من البوء، طلباً لطول الحياة، فعملوا بتقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد.

ومن هذا القليل الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن البوء قد وقع بالشام، فذكر الحديث فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيّباً لبعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تحزّجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه». فحمد الله عمر ثم انصرف (١٢)، وأخرجاه في الصحيحين (٣).

[الفرار من الجهاد لا يقرب الأجل ولا يبعده]

وقوله: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (١٣) أي: كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَتِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُودَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤)، وقال تعالى: «وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْأَنْفَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ قَلِيلًا» (١٥) أَيْتَمَّا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّسْتَوِينَ.

وروي عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة

الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً. وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعن ضربة، وما أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نام أعين الجبناء يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه (١٦).

[القرض الحسن وثوابه]

وقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافَ كَثِيرَةً»، يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى: «مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ غَيْرِمْ وَلَا ظُلْمٌ» (١٧).

وقوله: «فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَةً مِّنَ السَّنَةِ فَسَوَّغَتْ لَهَا فِيهَا سَبْعُ سَبَّابِلٍ فِي كُلِّ سَبَّابِلَةٍ أَوَّلُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١٨) وسيأتي الكلام عليها. وقوله: «وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِطُّظٍّ» أي: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة ذلك ﴿وَالَّذِينَ رُجُوعُهُمْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١٩).

«لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدَأَ مُوسَىٰ إِذْ قَالَ لِأَخِيهِمْ أَهْمُ أَبْتِئْتُ لَكُمْ مَلِكًا فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا قُلْنَا قَدْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ تَوْلَاؤًا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ بِالظَّالِمِينَ» (٢٠).

[قصة اليهود في طلبهم الملك والقتال، واستقامة]

[القليل منهم وانتصارهم]

قال مجاهد: هو شمويل عليه السلام (٢١)، وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - على

(١) الطبري: ٥/٢٦٦. (٢) أحمد: ١/١٩٤.

(٣) فتح الباري: ١٠/١٨٩، ١٢/٣٦١، ومسلم: ٤/١٧٤٠.

(٤) تهذيب التهذيب: ٣/١٢٤. (٥) مسلم: ٧٥٨.

(٦) الطبري: ٥/٢٩٣.

فيهم، لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا﴾، أي: كيف يكون ملكاً علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَكَنُ مَنَ أَلَمَالِ﴾ أي: هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض منهم على نبههم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف.

ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَلْسِنِهِ وَالْجَسْرَ﴾ أي: وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علماً وقامة منكم، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣) أي: هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك من لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٤)

يقول لهم نبههم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه وقار وجلالة. قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي وقار (١). وقال الربيع: رحمة، وكذا روي عن العوفي، عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ روى ابن جرير عن ابن عباس، في هذه الآية: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال: عصاه، ورضاض الألواح (٢)، وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة، وزاد: والتوراة (٣). وقال عبد الرزاق: سألت

طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة، والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم - عليه الصلاة والسلام - فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أساطهم، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلاها، وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها، لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله - عز وجل - أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل، أي سمع الله دعائي، ومنهم من يقول: شمعون، وهو بمعناه.

فنبأ ذلك الغلام، ونشأ فيهم، أنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسى إن أقام الله لكم ملكاً ألا تفوا بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي: وقد أخذت منا البلاد، وشبيت الأولاد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْفِتْكَالَ تَوَلَّوْا أَلَّا يَلْقَا بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْفُتُورُ﴾ (١٥) أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا إِنَّ يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَكَنُ مَنَ أَلَمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَلْسِنِهِ وَالْجَسْرَ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦)

أي: لما طلبوا من نبههم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك

(١) عبد الرزاق: ٩٨/١. (٢) الطبري: ٣٣١/٥.

(٣) الطبري: ٣٣١، ٣٣٢.

أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشحجهم علماءهم
العالون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله. ليس
كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ مِثْلَ
عَلَيْتِ فَتْنَةِ كَثِيرَةٍ يَؤْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤).

﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالَتِهِمْ جُودَهُمْ قَالُوا ذُنُوبُنَا أَفْغَرُ
صَبْرًا وَنَحْنُ أَقْدَمُنَا وَأَنْصُرُنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
(٢٥) فَهَزَمُوهُمْ يَؤْذِنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَعَلَى
اللَّهُ الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةُ وَعِلْمُهُ وَمَا يَكُنْ وَلَوْلَا دَفْعُ
النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٦) يَأْتِيكَ آيَاتُ اللَّهِ تَكُونُ
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٧).

أي: لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب
طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿قَالَ
رَبُّكَ أَفْغَرُ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: أنزل علينا صبرًا من عند
﴿وَنَحْنُ أَقْدَمُنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنبتنا الفناء
والعجز ﴿وَأَنْصُرُنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨).

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَؤْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: غلبهم
وقهرهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ ذكره
الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله
وكان طالوت قد وعدته إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته
ويشطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود
عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال
تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكُ﴾ الذي كان بيد طالوت
﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعِلْمُهُ﴾
يُشَاقُّ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين
كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا
كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

الشوري عن قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ
هَارُونَ﴾ فقال: منهم من يقول: قفيز من من، ورضاض
الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان (١).

وقوله: ﴿تَحْمِلُ الْعَلَمِيكَةَ﴾ قال ابن جريج: قال ابن
عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض
حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون (٢)، قال
السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنوا بنبوة
شمعون، وأطاعوا طالوت (٣).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾ أي: على صدقي فيما
جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) ﴿أَي: بالله واليوم الآخر.

﴿لَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ
فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ
اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ لَمَّا جَاوَزَهُ
هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ
كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ وَتَةً كَثِيرَةٌ يَؤْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣٠).

يقول تعالى مخبرًا عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج
في جنوده، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه
يوميئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفًا (٤)، فالله أعلم، أنه قال:
﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ أي: مختبركم بنهر، قال ابن عباس
وغیره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين (٥)، يعني نهر الشريعة
المشهور، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فلا يصحني
اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ
اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا
مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من
اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو (٦).

وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث
أن أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة
عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما
جازه معه إلا مؤمن (٧)، ورواه البخاري بنحوه (٨).

ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: استقلوا

(١) الطبري: ٥/٣٣٣. (٢) الطبري: ٥/٣٣٥.

(٣) الطبري: ٥/٣٣٩. (٤) الطبري: ٥/٣٤٠.

(٥) الطبري: ٥/٣٤٠. (٦) الطبري: ٥/٣٤٥.

(٧) الطبري: ٥/٣٤٦، ٣٤٧. (٨) فتح الباري: ٧/٣٣٩.

أَفَأَقْصَى قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَفَةِ الطُّورِ؟ فَلَا تُفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ^(١) وفي رواية: «لَا تُفْضَلُوا يَتَى الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

فالجواب: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند الخصام والتشاجر. وأن مقام التفضيل ليس إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ﴾ أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعِنْتُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلُّوا﴾ أي: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٣).

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا أَمْ رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤) يأمر تعالى عباده بالإنفاق عما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ أي: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني: صداقته بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا نِسَاءَ لُورٍ﴾^(٥) ﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٦) مبتدأ محصور في خبره، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٧) ولم يقل: والظالمون هم الكافرون^(٨).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

(١) فتح الباري: ٥٠٨/٦، ومسلم: ٤٣/٤.

(٢) فتح الباري: ٥١٩/٦، ومسلم: ٤٣/٤.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٩٦٦/٣.

وَبِيعَ وَمَلُوتَ وَمَسْحَدٌ يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا^(٩) الآية. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ دُوَفَّضِلَ عَلَى الْمَسْكِينِ﴾

﴿أي: مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحمة بِهِمْ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١٠) أي: هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١١) وهذا تأكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعِنْتُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلُّوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يُرِيدُ﴾^(١٢)

[تفضيل بعض الأنبياء على بعض]

نحبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ ذَبُورًا﴾^(١٣)، وقال ههنا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعني: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر ^(١٤) ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ، الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

(فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي أصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده، فطمم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث؟ وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُنْفِقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

[فضل آية الكرسي]

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن
رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله.
روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب، أن النبي ﷺ سألَهُ «أَيُّ
آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مَرَارًا،
ثُمَّ قَالَ أَبِي: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَالُ لِلْمَلِكِ عِنْدَ سَائِقِ
الْعَرْشِ» ^(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢)، وَلَيْسَ عَنْده زِيَادَةٌ: «وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ» إلخ.

روى الإمام أحمد عن أبي أيوب، أنه كان في سهوة له تمر،
وكانت الغول تحييء فتأخذ، فشكاها إلى النبي ﷺ فقال:
«فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: فَجَاءَتْ،
فَقَالَ لَهَا، فَأَخَذَهَا فَقَالَتْ: إِنِّي لَا أَعُودُ، فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَتْ، فَقَالَ
لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: أَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ لِي: إِنِّي
لَا أَعُودُ، إِنِّي لَا أَعُودُ، فَأَرْسَلْتُهَا، فَقَالَ: «إِنهَا عَائِدَةٌ»، فَأَخَذْتُهَا
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ تَقُولُ: لَا أَعُودُ، وَأَجِيبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ
فَيَقُولُ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» فَأَقُولُ: أَخَذْتُهَا، تَقُولُ: لَا أَعُودُ،
فَيَقُولُ: «إِنهَا عَائِدَةٌ»، فَأَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ: أَرْسَلَنِي، وَأَعْلَمَكِ
شَيْئًا تَقُولُهُ فَلَا يَقْرَبُكَ شَيْءٌ، آيَةُ الْكُرْسِيِّ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ
فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «صَدَقْتَ وَهِيَ كَذُوبٌ» ^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي
فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ ^(٤). وَالْغُولُ فِي لُغَةِ
الْعَرَبِ: الْجَانُ إِذَا تَبَدَّى فِي اللَّيْلِ.

وقد ذكر البخاري مثل هذه القصة عن أبي هريرة، فروى في
كتاب فضائل القرآن وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من
صحيحه، عن أبي هريرة، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ
زكاة رمضان، فأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْشُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ
وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ
وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قَالَ:
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ
سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ،

الْمَصْبَاحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ ابْنِ مَكْتُومٍ
لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَعُودُ» فَصَدَّقْتُهُ، فَجَعَلَ يَخْشُو
الطَّعَامَ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: دَعْنِي
فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ عَنْهُ
فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُ
الْبَارِحَةَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ
وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فَصَدَّقْتُهُ
الثَّلَاثَةَ، فَجَعَلَ يَخْشُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ
تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، فَقَالَ: دَعْنِي أَعْلَمَكِ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ
بِهَا، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أُوبِتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنَ يَدْخُلَ
عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تَصْبِحَ. فَخَلَّ
سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُ
الْبَارِحَةَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي
اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ لِي: إِذَا أُوبِتَ
إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ
وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تَصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى
الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» فَعَلِمْتُ
مُخَاطَبَ مَنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: «لَا
شَيْطَانٌ» ^(٥). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ^(٦).

[اسم الله الأعظم في آية الكرسي]

روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت:
سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾
«إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ» ^(٧). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ
وَالْتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ^(٨)
وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «اسْمُ

(١) أحمد: ١٤١/٥. (٢) مسلم: ٥٥٦/١.

(٣) أحمد: ٤٢٢/٥. (٤) تحفة الأحوذى: ٨٣/٨.

(٥) فتح الباري: ٦٧٢/٨، ٤، ٥٦٨/٦، ٣٨٦.

(٦) الدارمي: ٥٣٢. (٧) أحمد: ٤٦١/٦.

(٨) أبو داود: ١٦٨/٢، وتحفة الأحوذى: ٤٤٧/٩، وابن ماجه

تُسَفِّعُ - قال: - قَبَّحْتُ لِي حَدًّا فَأَذْخِلْهُمْ الْجَنَّةَ^(٣).

٦- وقوله: ﴿يَسْكُنُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيتها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

٧- وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعاه عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

٨- وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ روى وكيع في تفسيره، عن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره^(٤). ورواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين^(٥)، ولم يخرجاه. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السماوات السبع، والأرضين السبع، بسطن، ثم وصلن، بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المغازة^(٦).

٩- وقوله: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يكره حفظ السموات والأرض، ومن فيها، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة. وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

١٠- وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(١٠٠) كقوله: وهو «الْكَبِيرُ التَّعَالَى»^(١) وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا

الْعَظْمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي ثَلَاثٍ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِلْ عِمْرَانَ وَطه^(١١). وقال هشام - وهو ابن عمار خطيب دمشق -: أما البقرة ف ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿إِلَهَ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝﴾ وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۝﴾.

وهذه الآية مشتتة على عشر جمل مستقلة:

١- فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

٢- ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، المقيم لغيره. فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، لا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِمْ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۝﴾.

٣- وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أي: لا تغلبه «سِنَّةٌ» وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ لَهُ أَنْ يَنَامَ، يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ الشُّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ شُبَحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٢).

٤- وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كَانَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِندَ اللَّهِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْيَمِينِ قَرْدًا ۝﴾.

٥- وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِ ۝ يَأْذَنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ۝﴾^(٣) وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ ۝﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «إِنِّي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرُجُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي. ثُمَّ يَقَالُ: ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسَمِّعُ، وَاشْفَعْ

(١) الطبراني: ٨/ ٢٨٢. (٢) مسلم: ١/ ١٦٢.

(٣) مسلم: ١/ ١٨٠. (٤) الطبراني: ١٢/ ٣٩.

(٥) الحاكم: ٢/ ٢٨٢. (٦) ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٨١.

فَصَامَ مَا وَاللَّهِ تَجِبُ عَلَيْهِ ﴿١٥٦﴾

[لا إكراه في الدين]

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلالته وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأمر الله عز وجل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ^(١)، وقد رواه أبو داود والنسائي ^(٢).

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم»، قال: إني أجدني كارهاً، قال: «وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَاً» ^(٣) فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: أسلم وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص.

[التوحيد هو العروة الوثقى]

وقوله: ﴿مَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٤) أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله عبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثل، والصراط المستقيم، روى أبو قاسم البغوي عن حسان بن قائد العبسي قال: قال عمر رضي الله عنه: إن الجبب السحر، والطاغوت الشيطان، وإن الشجاعة والجبين غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان

فارسياً أو نبطياً ^(٥)، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها، والاستنصار بها.

وقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ قال مجاهد: العروة الوثقى بمعنى الإيمان ^(٦)، وقال السدي: هو الإسلام ^(٧)، وروى الإمام أحمد عن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجلاً في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فبهن فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك ما رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، رأيت كأنني في روضة خضراء. - قال ابن عون: فذكر من خضر وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقبل لي: اصعد عليه فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون: هو الوصيف - فرقع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: «أما الرُّوضَةُ قَرُوضَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الْعُمُودُ فَعُمُودُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فِيهِ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ» قال: وهو عبد الله بن سلام ^(٨). أخرجه ابن الصريحين ^(٩) وأخرجه البخاري من وجه آخر ^(١٠).

(١) الطبري: ٥/٤٠٧.

(٢) أبو داود: ٣/١٣٢، والنسائي في الكبرى: ٦/٣٠٤.

(٣) أحمد: ٣/١٨١. (٤) الطبري: ٥/٤١٧.

(٥) الطبري: ٥/٤٢١. (٦) الطبري: ٥/٤٢١.

(٧) أحمد: ٥/٤٥٢.

(٨) فتح الباري: ٧/١٦١، ومسلم: ٤/١٩٣٠.

(٩) فتح الباري: ٢/٤١٨.

﴿اللَّهُ ذِي الْآيَاتِ ءَامُوا يُخْرِجْهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْلُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٨) ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شَرِّكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢٩) وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى اللَّهِ عِزَّتْ فِي رَيْبِهِمْ أَنِ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّیَ الَّذِیْ یُحْیِی وَیُمِیتُ قَالَ أَنَا أُحْیِی وَأُمِیتُ قَالَ إِبْرَاهِیمُ فَإِنَّکَ تَأْتِیَ بِالنَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِیْ کَفَرَ وَاللَّهُ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ﴾ (٣٠)

[مناظرة خليل الله مع نمرود]

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، والأول قول مجاهد وغيره، قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر (٣١). والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى اللَّهِ عِزَّتْ فِي رَيْبِهِمْ أَنِ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى اللَّهِ عِزَّتْ فِي رَيْبِهِمْ أَنِ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملته: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تحجبه، وطول مدته في الملك، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً،

على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّیَ الَّذِیْ یُحْیِی وَیُمِیتُ﴾ أي: إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار، ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدتها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود - ﴿أَنَا أُحْیِی وَأُمِیتُ﴾. قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما - فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة (٣٢). والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾. ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَأِنَّکَ تَأْتِیَ بِالنَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت، تحيي وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي: أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ﴾ (٣٣) أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حججهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، وبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، والله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة.

﴿أَوْ كَأَلَّى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْمِدُ هَٰذِهِ سُدَّةٌ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ يَبُثُّ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعْمِكَ وَسِرَّاتِكَ لَمْ يَسْتَنْهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ وَلِنَحْصِكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَيْفَ تُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٩﴾﴾

[قصة عزيز]

نقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَ إِزْرَهُمْ فِي رَبِّهِمْ وَهُوَ فِي قُوَّةٍ قَوْلُهُ: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الَّذِي جَاءَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَهَٰذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَأَلَّى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ روى ابن أبي حاتم عن ناجية بن كعب، عن علي بن أبي طالب، أنه قال: هو عزيز ^(١). ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه ^(٢)، وحكاها ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة ^(٣)، وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل، وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها، وقتل أهلها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، قوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقفوها وجدرانها على عرصاتها، فوق متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العماراة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّى يُعْمِدُ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها، وشدة خرابها، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيأ الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحيي بدنه، فلما استقل سويًا قال الله له، أي: بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَسِرَّاتِكَ لَمْ يَسْتَنْهْ ﴿وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِيمَا ذَكَرَ عَنبَ وَتِينَ وَعَصِيرَ، فَوَجَدَهُ كَمَا فَقَدَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ، لَا الْعَصِيرَ اسْتَحَالَ، وَلَا التَيْنَ حُمُضَ وَلَا أَتْنُ، وَلَا الْعَنَبَ تَعَفَّنَ.

﴿وَانْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحية الله عز وجل، وأنظر ﴿وَلِنَحْصِكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً على المدبر ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَيْفَ تُنْشِزُهَا﴾ أي: نرفعها فيركب بعضها على بعض.

وقد روى الحاكم في مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كَيْفَ تُنْشِزُهَا﴾ بالزاي ثم قال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ^(٤). وقرأ (ننشرها) أي: ننحياها، قاله مجاهد ^(٥). ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهو تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً فأنزل من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق كله بإذن الله عز وجل ^(٦)، وذلك كله بمرأى من عزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: أن عالم بهذا، وقد رأيته عياناً، فأننا أعلم أهل زمانى بذلك، وقد آخرون (قال اعلم) على أنه أمر له بالعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَحْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾

[طلب خليل الله من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى]

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبَاباً، منها أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّ الْاَلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدته، فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ فأما الحديث الذي رواه البخاري عن هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي

(١) ابن أبي حاتم غ: ٣/١٠٠٩. (٢) الطبري: ٥/٤٣٩.

(٣) الطبري: ٥/٤٣٩، ٤٤٠، وابن أبي حاتم غ: ٣/١٠٠٩، ١٠١٠.

(٤) الحاكم: ٢/٢٣٤. (٥) الطبري: ٥/٤٧٦.

(٦) الطبري: ٥/٤٦٨.

الموتى، قال: أَوَلَمْ تُؤْمِن؟ قال: بلى، ولكن لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي» (١).
فمعناه: أننا نحن أحق بطلب اليقين.

[جواب طلب الخليل]

وقوله: ﴿قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن، وقوله: ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: قطعهن، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدبلي ووهب بن منبه والحسن والسدي وغيرهم (٢). فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن وشفن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه بمنين سعيًا؛ ليكون أبلغ له في الرؤية التي سأله، وجعل كل طائر يجر لياخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له عبر رأسه ياباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية حسده بحول الله وقوته (٣)، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يتمتع منه شيء، وما شاء كان بلا مانع؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها (٤). وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَعْبَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ

فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان (٥)، وهكذا رواه الحاكم في

المستدرک مثله، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٦).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سُبُلٍ فَإِنَّهُ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧)

[جزاء الإنفاق في سبيل الله]

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله (٨).

وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك (٩). وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. روى الإمام أحمد عن أبي مسعود أن رجلاً تصدق بناقطة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ﴾ (٩). ورواه مسلم والنسائي ولفظ مسلم: جاء رجل بناقطة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: ﴿لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ﴾ (١٠).

(حديث آخر) روى أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، يَقُولُ اللَّهُ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلِخُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، الصَّوْمُ

(١) فتح الباري: ٤٩/٨.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ١٠٣٩/٣، ١٠٤٠.

(٣) القرطبي: ٣/٣٠٠. (٤) الطبري: ٥/٤٨٩.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ١٠٣٢/٣. (٦) الحاكم: ٤/٢٦٠.

(٧) ابن أبي حاتم غ: ٣/١٠٤٧.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ٣/١٠٤٧.

(٩) أحمد: ٤/١٢١.

(١٠) مسلم: ٣/١٥٠٥، والنسائي: ٦/٤٩.

جَنَّةٌ^(١). وكذا رواه مسلم^(٢).

وقوله: ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُنْفِقُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده.

﴿لَا يَرْبُحُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ^(٥) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُطْلَرُوا صَدَقَتُكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^(٦)

[النهي عن إتباع الصدقات بالمن والأذى]

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات من أذى من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا بفعل.

وقوله: ﴿وَلَا أَذًى﴾ أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكرهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم على الله لا على أحد سواه. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٧) أي: على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ عن خلقه، ﴿حَلِيمٌ﴾^(٨) أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّا بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُتَّقِفُ سِلْعَتَهُ

بِالْخَلْفِ الْكَاذِبِ^(٩).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُطْلَرُوا صَدَقَتُكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من رأى بها الناس، فأظهر أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدحة الناس له أو شبيه بالصفات الجميلة لشكر بين الناس، أو يقال: إنه كبر ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معامل الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، ف الضحاك: والذي يتبع نفقته من أذى^(١٠). فقال: ﴿فَمَثَلُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي: أملساً يابساً أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله أي: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وأظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: ﴿يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَتَّبِعَهُمَا مَرْصَبَاتُ اللَّهِ وَتَكْفِيرَاتُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْهَلًا ضِعَفَتْ فَإِنْ لَمْ يُنْسَبْهَا وَابِلٌ قَطَلٌ وَاللَّهُ يَكْفُلُ﴾^(١١)

وهذا مثل المؤمنين المتقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك، ﴿وَتَكْفِيرَاتُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: وهم متحققون مشتبون الله سيجزهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قول عليه السلام في الحديث المتفق على صحته: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ لِيَتَنَ وَاحْتِسَابًا»^(١٢) أي: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: كمثل بستان بريرة.

(١) أحمد: ٤٤٣/٢. (٢) مسلم: ٨٠٧/٢.

(٣) مسلم: ١٠٢/١. (٤) الطبري: ٥٢٧/٥.

(٥) فتح الباري: ٣٠٠/٤.

حال يكون حاله؟!

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: ضيعة في شيعته ﴿وَأَصَابَةُ الْكِبَرِ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يفرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعقب، كما ليس لهذا قوة فيفرس مثل بستانه، ولا يجده قدَّم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحرَّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرَّم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها، عند كبره وضعف ذريته^(١).

وهكذا روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِيَّ وَانْقِضَاءِ عُمْرِي»^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣) أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتزولونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَكْ أَلَمْ تَنْتَلِ نَصْرِيهَا لِلْأَثَرِ وَمَا بَقِيَهَا إِلَّا الْعَاقِلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مِنْ حَيْثُ كَانَ كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرَحَّجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَكُمْ يَخَافُهُ إِلَّا أَنْ تُحْجِزُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٤) الشَّيْطَانُ يُعَذِّبُكُمْ بِالْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(٥) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ^(٦) ﴿

[ترغيب إنفاق المال الطيب في سبيل الله]

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق، والمراد به: الصدقة ههنا، قاله ابن عباس من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، ومن الثمار والزرع التي أنبتتها لهم من الأرض.

وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك، وتجري فيه الأنهار^(٧).

وقوله: ﴿وَأَصَابَةُ الْكِبَرِ﴾ وهو: المطر الشديد، كما تقدم، ﴿وَتَأْتَانِ أَكْثُلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿وَضِعْفَتِ﴾ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾، قال الضحاك: هو الرذاذ، وهو اللين من المطر^(٨)، أي: هذه الجنة بهذه الرطوبة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصيبها وابل فطل، وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يسور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميته، كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٩) أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَةُ الْكِبَرِ وَلَهُ ذُرِّيَةُ ضَعُفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١٠)

[أمثال ضياع الحسنات بالسيئات]

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس، وعن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فبمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء، يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس ﷺ: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله^(١١).

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات - عياداً بالله من ذلك - فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَةُ الْكِبَرِ وَلَهُ ذُرِّيَةُ ضَعُفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرق ثمارها، وأباد أشجارها، فأبى

(١) الطبري: ٥٣٧/٥. (٢) الطبري: ٥٣٩/٥.

(٣) فتح الباري: ٤٩/٨. (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧٤/٣.

(٥) الحاكم: ٥٤٢/١.

قال ابن عباس: أمرهم بالإتفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن الصدق بردالة المال ودنيته، وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: تقصدوا الخبيث ﴿وَمَنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِدِيهِ﴾ أي: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصداً إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه.

روى ابن جرير - رحمه الله - عن البراء بن عازب رضي الله عنه، في قول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَمْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر، فعلقوه على خبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف، فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ ^(١)، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَلَسْتُمْ بِتَاجِدِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْوُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حَقِّكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: ﴿وَلَا أَنْ تَغْوُوا فِيهِ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد وهو قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا عَشَبْتُمْ﴾ ^(٢).

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ^(٣) أي: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا ليساوي الغني الفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دُمُومَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا يفتد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، وسيعزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

[الوساوس الشيطانية في الإنفاق]

وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يُوَدِّعُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِزُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٤) روى ابن

أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَأَيْبَادُ الْبَرِّ وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فَأَيْبَادُ الْبَاطِلِ وَتَصْدِيقُ الْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ فَلْيَعُودَ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يُوَدِّعُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِزُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ ^(٥) الآية، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً ^(٦).

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يُوَدِّعُ الْفَقْرَ﴾ أي يخون الفقر لئلمسكوا ما بأيديكم، فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي مع نيه إياكم عن الإفساد خشية الإملاق، بأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِزُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي في مقابل ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أي في مقابلته خوفكم الشيطان من الفقر والله واسع عليم.

[معنى الحكمة]

وقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، وحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثال ^(٧) وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي الشَّيْءِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ تَالاً فَسَطَّطَهُ عَلَى هَلَكَيْتٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بَيِّنَاتٍ وَيُعْلِمُهَا» ^(٨).

وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه ^(٩) وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ^(١٠) أي وما يتفكر بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل، يعني به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ كُذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غُورَهُ﴾

(١) الطبري: ٥٥٩/٥.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ١٠٨٨/٣، والطبري: ٥٦٥/٥.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ١٠٩٠/٣.

(٤) تحفة الأحوذى: ٣٣٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦.

(٥) الطبري: ٥٧٦/٥. (٦) أحمد: ٤٣٢/١.

(٧) فتح الباري: ١٩٩/١ ومسلم: ٥٥٩/١ والنسائي في

الكبرى: ٤٢٦/٣ وابن ماجه: ١٤٠٧/٢.

صَرَفًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ
الْعَقْفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْتَلُوكَ النَّاسَ إِلَّا كَفًا وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَالْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾

[الصدقة للمشركين]

قال أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس، قال: كانوا
يكروهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص
لهم، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا
تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾. (١)

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ
عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قال الحسن
البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا
ابتغاء وجه الله (٢)، وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت
لوجه الله فلا عليك ما كان عمله (٣).

وهذا مَعْنَى حَسَنٌ وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء
وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن
أصاب، أبر أو فاجر أو مُسْتَحِقٍّ أو غيره، وهو مشاب على
قصده، ومستند هذا تمام الآية ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ والحديث المخرج في
الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ
رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ
رَأِيئِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى رَأِيئِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ
لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى رَأِيئِهِ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ
فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيِّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى
غَنِيِّ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى غَنِيِّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ

(١) أبو داود: ٨٣/٢.

(٢) فتح الباري: ٣/٣٤٤ ومسلم: ٢/٧١٥.

(٣) النسائي في الكبرى: ٦/٣٠٥.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١١٥.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١١٥.

لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أَصْكَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ
تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ
مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾

بحر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات
من النفقات والمندورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك
أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده،
وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره،
وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَصْكَارٍ﴾ ﴿٧٧﴾
أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

[أفضل إظهار الصدقة وإخفائها]

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ﴾ أي إن
أظهرتموها لنعم شيء هي.

وقوله: ﴿وَلَنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه
دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن
الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء
الناس به، فيكون أفضل من هذه الحشية، وقال رسول الله ﷺ:
«الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُجْرِبُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُجْرِبِ
بِالصَّدَقَةِ» (١) والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت
في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ
يُظَاهِرُهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْمِهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي
عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ
فَلَيْهِ مُلْكٌ يَأْتِيهِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ
خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ
فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا
حَتَّى لَا تَعْلَمَ نِسَاؤُهُ مَا تَصَدَّقَ بِهِنَّ» (٢).

وقوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: بـدَل
صدقات، ولا سيما إذا كانت سرًا، يحصل لكم الخير في رفع
لجوجات، ويكفر عنكم السيئات، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ﴾ (٣) أي: لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾
﴿فَرَأَى الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ لَا يُسْطِيعُوا

﴿٣٧﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

[مدح المتصدقين]

قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلَافِ وَالْإِتِهَارِ وَلَا عِلَافَةَ عَلَيْهِمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ هذا مدح منه تعالى للمتصدقين

سبيله، وابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات من ليل ونهار والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل لابد في ذلك أيضًا، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضًا عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع: «وَأَنَّكَ لَنْ تُثِقَّ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ أَزْدَدَتْ بِهَا دَرَجَةً وَرَفَعَةً، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي أَمْرٍ أَيْكَ»

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْسِبُهَا كَأَنَّهُ صَدَقَةٌ»^(٧)، أخرجاه^(٨) وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطُبُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

[ذم أكلة الربا]

لما ذكر تعالى الأبرار المودين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات، في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأول

بَصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ قَوْضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: نَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى رَأَيْنِي، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ. فَأُتِيَ قَبِيلٌ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، وَأَمَّا الرَّأْيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِيفَ بِهَا عَنْ زَنَاها، وَلَعَلَّ الْغَنَى يَغْتَبِرُ قَبِيلُكَ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِيفَ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ»^(١).

[من أحق بالصدقة]

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم ولا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا فِي الْأَرْضِ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْنِطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاةَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالمهم، وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَابِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمَرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفِظُنْ لَهُ فَيَصَّدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»^(٢). وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضًا^(٣).

وقوله: ﴿تَسْرِفُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ﴾ أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿بِسَيِّئِهِمْ فِي تَوْبِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي لا يلحون في المسألة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: «مَنْ اسْتَعْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَ أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْفَ كَفَّاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ فِيمَا أَوْقِيَهُ فَقَدْ أَلْحَفَ»، قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خيز من أوقية، فرجعت فلم أسأله^(٤)، وهكذا رواه أبو داود والنسائي^(٥)، وقوله: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يَبْذُرُهُ اللَّهُ يَوْمَ عِلَافٍ﴾

(١) فتح الباري: ٣/ ٣٤٠، ومسلم: ٢/ ٧٠٩.

(٢) فتح الباري: ٣/ ٣٩٩.

(٣) أحمد: ١/ ٣٨٤. (٤) أحمد: ٣/ ٩.

(٥) أبو داود: ٢/ ٢٧٩ والنسائي: ٥/ ٩٨.

(٦) فتح الباري: ٣/ ١٩٦ ومسلم: ٤/ ١٢٥٠.

(٧) أحمد: ٤/ ١٢٢.

(٨) فتح الباري: ١/ ٥٥٦ ومسلم: ٢/ ٦٩٥.

الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول رباً أصع رباً العباس^(٤). ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ما كان أكل من الربا قبل التحريم^(٥). ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا، ففعله بعد بلوغ نهي الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٦).

وقد روى أبو داود عن جابر، قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَمِيِّ﴾ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذَرِ الْمُخَابِرَةَ فَلْيُؤْذَنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(٦) ورواه الحاكم في مستدركه^(٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وإنما حرمت المخابرة: وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة: وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة: وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنها حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشئين قبل الجفاف، وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا^(٨) - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشرعية شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَلَائِلَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ

نَافْسِهِ بِالْبَاطِلِ وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا، إِلَى بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ، فَقَالَ: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَمِيِّ»، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخطب الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً ينجح^(١)، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروى عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع ابن أنس وقادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك^(٢)، وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: «نَأْتِيَانِي عَلَى نَهْرٍ سَحِيبَتُهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: - أَحْمَرُ مِثْلَ الدَّمِ، وَإِذَا لِيَ النَّهْرُ رَجُلٌ سَابِحٌ يَنْسَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَنْسَحُ مَا يَنْسَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَارَةَ عِنْدَهُ، فَيَغْفِرُ لَهُ قَاتَهُ، فَيُلْقِيهِمْ حَجَرًا»، فذكر في تفسيره أنه أكل الربا^(٣).

وقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»، أي: إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع، لأن الشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا، وقوله تعالى: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا، فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا عَنْكَ مَا سَلَفَ﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «وَكُلُّ رِبَا فِي

(١) الطبري: ٩/٦.

(٢) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١٣٠، ١١٣١.

(٣) فتح الباري: ٣/٢٩٥. (٤) أبو داود: ٣/٦٢٨.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ٣/١١٣٥. (٦) أبو داود: ٣/٦٩٥.

(٧) الحاكم: ٢/٢٨٥.

(٨) فتح الباري: ١٠/٤٨، ومسلم: ٤/٢٣٢٢.

وَعِزُّهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ^(١). وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ»^(٢). وروى أحمد عن سعيد بن المسيب، أن عمر قال: من آخر ما نزل، آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريسة^(٣)، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُبًّا، أَيْسَرُهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ»^(٤).

ومن هذا القبيل، وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر^(٥)، وقد أخرجه الجماعة، سوى الترمذي^(٦)، كما قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجمعوها، فباعوها وأكلوا أثمانها»^(٧) وقد ورد في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، في لعن المحلل قوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ أَكْلَ الرِّبَا وَمُوكَلَّتُهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَانِيَتُهُ»^(٨)، قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فلا اعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(١٠)

[لا يبارك في الربا]

يخبر تعالى أنه يمحى الربا، أي يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله، فلا يتنفع به، بل يعذبه به في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُوهُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وقال: ﴿وَمَا ءَانِسْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيُزِيلَنَّ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، وقال ابن جرير: في قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود [عن النبي ﷺ] أنه قال: «الرِّبَا وَإِنْ كُنْتُ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»^(١١)، رواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه^(١٢).

[إن الله يربي الصدقات كما يربي أحدكم فلاناً] وقوله: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: ينميها، وقيل: يربيها، كما روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَعَ بَعْدَ عَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُ يَمِينَهُ، ثُمَّ يَرْبِيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ الْجَبَلُ»^(١٣) (١٢) (١١) وقد رواه مسلم في الزكاة^(١٤).

[الكافر الأثيم مبعوض عند الله]

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(١٥)، أي: لا يحب ثقل القلب، أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي: أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسمى في أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحر عليه من النعمة، ظلم أثم بأكل أموال الناس بالباطل.

[مدح الشاكرين]

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين برهم، المطيعين المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة، الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة يتبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٦).

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٧) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْدُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ^(١٨)

- (١) فتح الباري: ١/١٥٣ ومسلم: ١/١٢١٩.
- (٢) تحفة الأحوذى: ٧/٢٢١ والنسائي: ٨/٣٢٨.
- (٣) أحمد: ١/٣٦ وابن ماجه: ٢٢٧٦.
- (٤) ابن ماجه: ٣/٧٦٤ ونحوه للحاكم في المستدرک: ٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
- (٥) أحمد: ٦/٤٦.
- (٦) فتح الباري: ٨/٥١ ومسلم: ٣/١٢٠٦ وأبو داود: ٣/١٢٢٢ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٠٦ وابن ماجه: ٢/١٢٢٢.
- (٧) فتح الباري: ٦/٥٧٢ ومسلم: ٣/١٢٠٧.
- (٨) مسلم: ٣/١٢١٩.
- (٩) الطبري: ٦/١٥.
- (١٠) أحمد: ١/٣٩٥.
- (١١) فتح الباري: ٣/٢٦.
- (١٢) فتح الباري: ١٣/٤٢٦. (١٣) مسلم: ٢/٧٠٢.

قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رِبَا مَوْضُوعٍ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(٥).

[الإحسان إلى المعسر]

وقوله: «وَلَا كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٦)، يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: «وَلَا كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربى، ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: «وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٧)، أي: وأن تركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين.

روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قال: ثم سمعته يقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» ثم سمعتك تقول: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قال: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدِّينُ، فَإِذَا حُلَّ الدِّينُ فَأَنْظَرُهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ»^(٨).

وروى أحمد عن محمد بن كعب القرظي، أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناده، فقال: يا فلان، اخرج، فقد أخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي شيء، قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيْبِهِ، أَوْ نَحَا عَنْهُ، كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٩)، ورواه مسلم في صحيحه^(١٠).

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن حذيفة، قال: قال

ذُو عُسْرَةٍ فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١١) وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(١٢)

[الأمر بالتقوى واجتناب الربا]

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه، ناهيًا لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١٣) أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك، وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي، أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فشاؤروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد، نائب مكة، إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١٤) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(١٥) فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم^(١٦)، وهذا تهديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار.

[أكل الربا إعلان عن الحرب مع الله ورسوله]

قال ابن جريج: قال ابن عباس: «فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ» أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله^(١٧)، وعنه قال: يقال يوم القيامة لأكل الرب: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(١٨) فمن كان مقبياً على الربا، لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع وإلا ضرب عقه^(١٩).

ثم قال تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فَلَاحِكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ» أي بأخذ الزيادة «وَلَا تُظْلَمُونَ»^(٢٠) أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتكم من غير زيادة عليه: ولا نقص منه، وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن الأحوص

(١) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٠، ١١٤١.

(٢) الطبري: ٢٦/٦.

(٣) الطبري: ٢٥/٦.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٧/٣.

(٥) أحمد: ٣٦٠/٥.

(٦) أحمد: ٣٠٨/٥.

(٧) مسلم: ٢٠٧٤/٤.

رسول الله ﷺ «أَتَى اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ لَكَ يَا رَبِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا أَرْجُوكَ بِهَا - قَالَتْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - قَالَ الْعَبْدُ عِنْدَ آخِرِهَا: يَا رَبِّ إِنَّكَ كُنْتَ أَغْطَيْتَنِي فَضْلَ مَالٍ، وَكُنْتَ رَجُلًا أَبْيَعَ النَّاسِ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَسْرِعُ عَلَى الْمَوِيرِ، وَأَنْظِرُ الْمُغِيرَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَحَقُّ مَنْ يُسَّرُّ، ادْخُلِ الْجَنَّةَ». وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه عن حذيفة، زاد مسلم: وعقبه بن عامر وأبي مسعود البديري عن النبي ﷺ بنحوه^(١).

ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: «وَأَنْتُمْ أَيُّوْمًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُمُوتُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»^(٢)، وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، وقد رواه النسائي عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء نزل من القرآن «وَأَنْتُمْ أَيُّوْمًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُمُوتُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»^(٣)، وكذا رواه الضحاك والعمري عن ابن عباس^(٤).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاسْكُتُوا» وَلْيَكُتِبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتِبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتِبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تُكْفَرُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ الْأَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَاعُوا فَإِنَّمَا فَتُوفَى بَيْنَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعْطِ كُفْمُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ^(٥)

[الأمر بكتابة المعاملات الموجلة]

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى

الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين^(٦).

فقلوه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاسْكُتُوا» هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات موجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقاصدها وميقاتها، وأصبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآيات حيث قال: «ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ الْأَلَّا تَرْتَابُوا»، وثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الشار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كِتَابٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنَ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»^(٧)، وقوله: «فَاسْكُتُوا» أمر منه تعالى بالكتاب للتوثق والحفظ، قال ابن جريج: من أذن فليكتب، ومن ابتاع فليشهد^(٨)، وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم^(٩): كان ذلك واجبا، ثم نسخ بقوله: «فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَاذْكُرُوا الَّذِي أَوْثَقْتُمْ أَمْنَتَكُمْ».

وقوله: «وَلْيَكُتِبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» أي بالقسط والحق، ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتِبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتِبْ» أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك فكلما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره من لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إِنْ مِنْ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعِينَ صَانِعًا أَوْ تُضَعَّ لِأَخْرَقٍ»^(١٠) وفي الحديث الآخر: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١١) وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، وقوله: «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» أي وليملل المدبر على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك «وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا» أي لا يكتف منه شيئا «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ

(١) فتح الباري ٦/ ٥٧٠ ومسلم: ٣/ ١١٩٥ وابن ماجه: ٨٠٨/٢.

(٢) النسائي في الكبرى: ٦/ ٣٠٧. (٣) الطبري: ٦/ ٤٠.

(٤) الطبري: ٦/ ٤١.

(٥) فتح الباري: ٤/ ١٠٥ ومسلم: ٣/ ١٢٢٦.

(٦) الطبري: ٦/ ٤٧. (٧) الطبري: ٦/ ٤٧، ٤٩، ٥٠.

(٨) فتح الباري: ٥/ ١٧٦. (٩) الطبراني: ١١/ ٥.

الشَّهَادَةِ وَأَذَقَ الْأَتْرَابُوا ﴿١﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَذَقَ الْأَتْرَابُوا﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَكُونَ بَحِيرَةً حَائِزَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يدايد، فلا بأس بعدم الكتابة لانقضاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وهذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَمِيزُوا بَيْنَهُمْ فَمَنْ تَبَايَعْتُمْ عَلَى الْوَجوب، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه، وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستبغى النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال:

إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتنه وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: «أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتَعْتَهُ مِنْكَ» قال الأعرابي: لا والله ما بعته، فقال النبي ﷺ: «بَلْ قَدْ ابْتَعْتَهُ مِنْكَ» فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي، وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي، يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بِسْمِ اللَّهِ تَشْهَدُ؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين^(٤)، وهكذا رواه أبو داود

أَلْحَقَ سَيِّمَهَا ﴿٢﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه ﴿أَوْضَعِيفًا﴾ أي: صغيراً، أو مجنوناً ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيْلَهُ وَالْمَكْدَلُ﴾.

[الأمر بالإشهاد مع الكتابة]

وقوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثق ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَاتْرَكَانِ﴾ وهذا إما أن يكون في الأموال، وما يقصد به المال، وإما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «بِمَا تَشْتَرِ الشَّاءَ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْأَسْفَغَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تَكْثِرْنَ اللَّغْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَائِصَاتٍ عُقْلٍ وَوَيْسٍ أَغْلَبَ لِيذِي لُبٍّ مِنْكُمْ» قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أَمَّا نَقْصَانُ عَقْلِيهَا، فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تُعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نَقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَكْثُ اللَّيَالِي لَا تُضِلُّ وَتَقْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نَقْصَانُ الدِّينِ»^(١).

وقوله: ﴿مَنْ رَضِيَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وقوله: «أَنْ تَضِلَّ أَحَدُهُمَا» يعني المرأتين، إذا نسيت الشهادة «تَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى» أي يحصل لها ذكرى بما وقع به من الإشهاد.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَادُوهَا﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقولهم: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ» ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وقيل: وهو مذهب الجمهور - المراد بقوله: «وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَادُوهَا»^(٢) لالءاء، لحقيقة قوله الشهداء، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم، وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعت لشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب^(٣)، وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري أنها تعم الخالين: التحمل والأداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى آجِلٍ﴾ هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: «وَلَا تَسْمَعُوا» أي لا تغلوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من نقلة والكثرة إلى آجله، وقوله: «وَلَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ

(١) مسلم: ٨٧/١. (٢) الطبري: ٦٨/٦.

(٣) ابن أبي حاتم غ: ١١٨١/٣ والطبري: ٧١/٦.

(٤) أحمد: ٢١٥/٥.

والنسائي نحوه^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرَكَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما^(٢). وقوله: ﴿وَلِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم، لا تجحدون عنه، ولا تنفكون عنه، وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿وَعَلِمُكُمْ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ وكقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَلِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ قَالُوا الَّذِي أَوتِيتُمْ أَكْتَنْتُمْ وَلَيْتَ اللَّهُ رَبَّهُ﴾
وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

[بيان الرهن]

يقول تعالى: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً، فَرِهَنْ مقبوضة أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق، وقد استدلل بقوله: ﴿فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير، رهنها قوتاً لأهله، وفي رواية: من يهود المدينة^(٣).

وقوله: ﴿فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ قَالُوا الَّذِي أَوتِيتُمْ أَكْتَنْتُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها^(٤). وقال الشعبي: إذا اتّمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا^(٥). وقوله: ﴿وَلَيْتَ اللَّهُ رَبَّهُ﴾ يعني المؤمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل

السنن من رواية قتادة، عن الحسن عن سمرة أن رسول الله قال: «عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتُ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ»^(٦).

قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها، وتظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتبتها كذلك^(٧)، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ قال السدي: يعني فاجر قلبه^(٨)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآيِيْنَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أُولَ الَّذِينَ وَالَاقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ أَوْ نَسُوا أَوْ نَسَاكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ وهكذا قال هنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[هل يحاسب العباد على ما أخفوه في صدورهم]

يجبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وبينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سبحانه عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تَخْفَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوتِيَتْهُ بِهَلَكَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَبُّكُمْ سَافِرٌ فَتَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَخْفَىٰ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: لما نزلت

(١) أبو داود: ٣١/٤ والنسائي: ٣٠١/٧.

(٢) الطبري: ٨٥/٦، ٨٦.

(٣) فتح الباري: ٣٥٤/٤ ومسلم: ١٢٢٦/٣ عن عائشة.

(٤) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٢/٣.

(٥) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٣/٣.

(٦) أحمد: ١٣/٥ وأبو داود: ٨٢٢/٣ وتحفة الأخواني: ١٢/٤.

(٧) والنسائي في الكبرى: ٤١١/٣ وابن ماجه: ٨٠٢/٢.

(٨) الطبري: ١٠٠/٦.

مَا تَنْكَلِمُ أَوْ تَعْمَلُ» (٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكَبُهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُوهَا عَمَلًا» (٥).

«أَمَّا الرَّسُولُ يَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٦٨) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا غَافِينَ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَوْرَاقَنَا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٩)

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين

الكريمتين نفعا الله بهما

روى البخاري عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَرَاءَ» (٦) وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ مِثْلَهُ (٧). وهو في الصحيحين من طرق متعددة (٨) وهكذا رواه أحمد بن حنبل (٩).

وروى مسلم عن عبد الله، قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض منها، قال: «إِذْ يَنْفُثُ الْمَلَكُ الْيَزْدَرُ مَا يَنْفُثُ» (١٠) قال: فراش من ذهب، قال: أعطي رسول الله ﷺ

رسول الله ﷺ: «لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَسَابِغْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ مَنْ نَكَلَهُ وَيُعَذِّبُ مَنْ نَكَلَهُ» وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلِّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فلما أقر بها القوم، وذلت بها أنفسهم، أنزل الله في أنسرها «أَمَّا الرَّسُولُ يَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٦٨) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا غَافِينَ أَوْ أَخْطَأْنَا» (١١) إلى آخره (١).

ورواه مسلم فذكر مثله، ولفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا غَافِينَ أَوْ أَخْطَأْنَا» قال: نعم، «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قال: نعم «وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال: نعم (٢).

روى الإمام أحمد عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس، فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فيكي، قال: آية؟ قلت: «وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ» قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت، غمت أصحاب رسول الله ﷺ غمًا شديدًا، وغازطهم غيظًا شديدًا، وقالوا: يا رسول الله هلكننا، إن كنا نؤاخذ بما نكلنا وما نعمل فأما نسينا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية: «أَمَّا الرَّسُولُ يَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ» إِلَى «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» فتجاوز لهم عن حديث النفس، وأخذوا بالأعمال (٣).

وقد روى الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا

(١) أحمد: ٤١٢/٢. (٢) مسلم: ١١٥/١.

(٣) أحمد: ٣٣٢/١.

(٤) فتح الباري: ٩/٣٠٠ ومسلم: ١١٧/١ وأبو داود: ٦٥٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٤/٣٦١ والنسائي: ١٥٦/٦ وابن ماجه: ٦٥٨/١.

(٥) فتح الباري: ١٣/٤٧٣ ومسلم: ١١٧/١.

(٦) فتح الباري: ٨/٦٧٢.

(٧) مسلم: ١/٥٥٥ وأبو داود: ١١٨/٢ وتحفة الأحوذى: ١٨٨/٨ والنسائي في الكبرى: ١٤/٥ وابن ماجه: ٤٣٥/١.

(٨) فتح الباري: ٨/٧١٢ و٧/٣٦٩ ومسلم: ١/٥٥٤.

(٩) أحمد: ٤/١١٨.

ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقححات^(١).

وقد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: «هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فتزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لو يؤتئهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته». رواه مسلم والنسائي^(٢) وهذا لفظه.

[تفسير الآيتين]

ثم أخبر عن الجميع فقال: «كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكَلِمَةٍ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» فالؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بآرون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، و قوله: «وَقَالُوا سُبْحَانَكَ وَأَعْلَنَّا» أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وتمنا به وامتنلنا العمل بمقتضاه، «فَعَفَاكَ رَبُّكَ» سؤال للغفر والرحمة واللفظ.

وقوله: «لَا يَكِلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورافته بهم، وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الرافعة لما كان أشق منه الصحابة في قوله: «وإن تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ» أي هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرامية الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله: «لَهَا مَا كَسَبَتْ» أي من خير «وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» أي من شر، وذلك في الأفعال التي تدخل تحت التكليف.

ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا

إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. وقد تقدم في صحيح الحديث أبي هريرة، قال: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»^(٣) والحديث عباس، قال الله: «قَدْ فَعَلْتُ»^(٤).

وقوله: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة، وإن أخطأنا، شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كان عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة، بوضعه شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنفي السهل السليم وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»^(٥) وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ»^(٦). وجاء الحديث من طريق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُعْثُ بِالْخِنْفِيَّةِ السَّمْعَةِ»^(٧) وقوله: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به، قال مكحول في قوله: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قال: الغربة والغلظة^(٨)، رواه ابن أبي حاتم، «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ» وفي الحديث الآخر: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وقوله: «وَأَعْفُفْنَا» أي فبما بيننا وبينك مما تعلمت تقصيرنا وزللنا «وَأَعْفُفْنَا» أي فبما بيننا وبين عبادك، فظاهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة «وَأَرْحَمْنَا» أي فبما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه بوقوعه في نظيره وقد تقدم في الحديث أن الله قال: «نَعَمْ» وفي الحديث الآخر: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وقوله: «أَنْتَ مَوْلَانَا» أي أنت ولينا وناصرنا، وعليه توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة.

(١) مسلم: ١/١٥٧.

(٢) مسلم: ١/٥٥٤ والنسائي في الكبرى: ٥/١٢.

(٣) مسلم: ١/١١٥. (٤) مسلم: ١/١١٦.

(٥) مسلم: ١/١١٥. (٦) مسلم: ١/١١٦.

(٧) أحمد: ٥/٢٦٦، ٦/١١٦، ٢٣٣.

(٨) ابن أبي حاتم غ: ٣/١٢٣٥.

﴿وَالْأَنْجِيلُ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّقَاتِلِ﴾ أي في زمانها. ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغبي والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، وبينه ويوضحه ويفسره ويقرره، ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان، ﴿ذُو أَنْفَاءٍ﴾ أي عن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض؛ بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم، وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا، كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْتَمِ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَدَلًا ذِي هَيْبَةٍ وَهَبْنَا لَكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَمَامٌ لَنَا يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ أَنْتَ الْيُخْلِيفُ الْمَيْسَكُ﴾

[بيان الآيات المتشابهات والمحكمات]

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب،

إلا بك، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿أَيُّ الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَرِسَالَةَ نَبِيِّكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ.﴾

وروى ابن جرير عن أبي إسحاق أن معاذًا رضي الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين ^(١).

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

لأن صدرها إلى ثلاث وثلاثين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباحلة منها، إن شاء الله تعالى، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿مِنْ قَبْلِ هَٰذَا لَقَدْ آتَيْنَا الْفُرْقَانَ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْفَاءٍ﴾

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضًا الكلام على قوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدًا، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي على موسى بن عمران،

أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متاشبهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأَخْرُ مُمْتَشِهَتِ﴾ أي تحتل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد. فالمحكّمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به. والمتشابهات: المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمر به ولا يعمل به.

قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: ﴿وَمِنْهُ أَيْتٌ تُحْكَمُ﴾ فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس هن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، قال: والمتشابهات في الصدق، هن تصريح وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا فَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي إنسا يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم، وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَبِعَالِ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعَالِ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تحريفه على ما يريدون، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكَمُ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُمْتَشِهَتِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَؤُاْ الْآلِيبِ﴾ (٦) فقال: ﴿فَإِذَا

رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ، فَأَخَذَرُوهُمْ﴾ وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنن، سننه، ثلاثهم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكَمُ﴾ قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُاْ الْآلِيبِ﴾ (٧) قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَأَخَذَرُوهُمْ﴾ (٨) لفظ البخاري.

[لا يعلم تأويل المتشابهات إلا الله]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: تفسير لا يعذر أحد في فهمه وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله (٩)، ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي ثيبك وغيرهم.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ونسبه كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يعلم بعيد، وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله (١٠)، وفي الحديث رسول الله ﷺ دعا لابن عباس، فقال: «اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي النَّبِيِّ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ» (١١) والتأويل يطلق، ويراد به في القرآن معاني أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّي مِنْ قَبْلُ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء، كقوله: ﴿تَنْفِثَاتَاؤِيلِهِ﴾ أي بتفسيره، فهذا

(١) أحمد: ٤٨/٦.

(٢) فتح الباري: ٥٧/٨، مسلم: ٢٠٥٣/٤، وأبو داود: ٦/٥.

(٣) الطبري: ٥٧/١. (٤) الطبري: ٢٠٣/٦.

(٥) فتح الباري: ٢٠٥/١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ نَارٍ سِيبًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١) كَذَابٌ مَالٍ مَبْعُوثٌ وَلَّيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝

[يوم القيامة لا ينفع مال ولا بنون]

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥١) وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد ينافع لهم عند الله، ولا بمنجهم من عذابه وأليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥) وقال تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ﴾ (١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ الْيَهُدَ (١٧)، كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي آيات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم يتفقوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) أي حطبها الذي تسجر به، وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابٌ مَالٍ مَبْعُوثٌ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون (٢)، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون، وكشبه آل فرعون (٣)، والألفاظ متقاربة، والدأب: الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، والمعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١١) أي شديد الأخذ، أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد، الذي غلب كل شيء، ودل له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَنَحْسُهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُقَسَّ الْأَيْهَادُ﴾ (١٢) فَكَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ زُرَّاعًا

في هذا المعنى، فالوقوف على ﴿وَالَّذِينَ سَخِرُوا فِي الْغُرَى﴾؛ لأنهم سخر من قلوبهم ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا نَعْمَ لَكَ الْإِخْرَاقُ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَبَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ شَاقِقًا﴾ أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، أي بالمتشابه، ﴿لَنْ يَنْفَعَنَا رَبَّنَا﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن جميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْآلِ الْكَافِ﴾ (٧) أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة، وروى ابن كثير في تفسيره عن نافع ابن يزيد، قال: يقال: الراسخون في العلم، المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاطون من قولهم، ولا يحقرن من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم خبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قَوْمًا آمَنُوا بِحَبِيثَاتِكَ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تخيلها كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك نفوسهم، ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، ونجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ تَوَكَّلُ﴾ (٨).

روى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن أم سلمة، أن النبي ﷺ كان يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ» ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ تَوَكَّلُ﴾ (٨) (١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي يقولون: في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتخزي كلًّا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

(١) ابن أبي حاتم: ٨٤/٢ والطبري: ٢١٣/٦.

(٢) الطبري: ٢٢٤/٦. (٣) ابن أبي حاتم: ٩٢/٢.

الْمَنِيَّةُ وَنَسَ يُؤَيِّدُ ضَمِيرَهُ. مَنْ يَشْكُكُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَمَيِّرَةٌ
لَأَوَّلِ الْأَبْصَرِ ﴿١٧﴾

تهديد اليهود بأنهم سيُقبلون، وحثهم على

الاستعداد بيوم بدر

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين ﴿سَتَقْلِبُونَ﴾ أي في الدنيا، ﴿وَتُعْشَرُونَ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَيُشْرَى آلِيَهُمْ﴾ ﴿١٨﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن عاصم ابن عمر بن قتادة، أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع. ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية، أي: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِي يَمَّتَيْنِ﴾ أي طائفتين ﴿الَّتَقَتَا﴾ أي للقتال ﴿فَوْعَةً يُغَرِّبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر، وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ فَيَنْبِيهِمْ رَأْيَ الْآمِنِ﴾ أي يسرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم.

وقيل: إن المعنى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ فَيَنْبِيهِمْ رَأْيَ الْآمِنِ﴾ أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم، أي ضعيفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، قال عبد الله ابن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزَيُّكُمُوهُمْ إِذْ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ﴾ الآية ^(١)، وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلاً منهم، قللنا، كم كنتم؟ قال: ألفاً ^(٢).

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثلهم، أي أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، ورأى المشركون المؤمنين كذلك، ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلوع، ثم لما حصل التصاف، والتقى الفريقان، قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل

منهما على الآخر ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليبرهن بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيذان على الكفر والطغيان ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿١٩﴾ أي إن في ذلك لآية لآؤلِ الْأَبْصَرِ ﴿٢٠﴾ أي إن في ذلك لاعتبار لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويقوم الأشهاد.

﴿رَبِّنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْأَمْرِ﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ أَذِنْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ تَجَرُّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَنْزَجُ مَطَهَّرَةً وَرَضُوا مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْأَعْيَانِ ﴿٢٢﴾

[بيان الحياة الدنيا]

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أصناف الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء، لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَعْيُنُهَا عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ^(٣). فأما إذا كان القصد بهن الإعانة وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منهن، وإن خيّر هذه الأمة مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً ^(٤)، وقوله: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا السَّرَّاءُ الصَّالِحَةُ، إِنَّ نَظَرَ إِلَيْهَا تَرْتَابٌ وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا» وقوله في الحديث الآخر: «حُبَّ إِلَيَّ النِّسَاءِ وَالطَّبِيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» ^(٥). وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من النساء إلا الخيل ^(٦).

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ من بعدهم

(١) الطبري: ٦/٢٣٤. (٢) الطبري: ٦/٢٣٦.

(٣) فتح الباري: ٩/٤١. (٤) فتح الباري: ٩/١٥.

(٥) مسلم ٢/١٠٩٠. (٦) النسائي في الكبرى: ٥/٨٠.

(٧) النسائي: ٦/٢١٧، ٧/٦١ عن أنس.

وَحَدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهَذَا عَمْدُ مَدْحٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: **«تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنَّ مُكَائِرَ بِكُمْ الْأُمَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (١).
وَحَبَّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلِ، وَالتَّكْبَرِ عَلَى الضَّعْفَاءِ، وَالتَّجْبَرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا مَذْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقُرَابَاتِ، وَوَجْهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَدْحُ عَمْدٍ عَلَيْهِ شَرْعًا.
وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَقْدَارِ الْقَنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ، وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْجَزِيلُ كَمَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ (٢).

(وَحَبَّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ): تَارَةً يَكُونُ رِبْطُهَا أَصْحَابَهَا مَعْدَةً لِسَبِيلِ اللَّهِ، مَتَى احتَاجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ بَنَاتُونَ، وَتَارَةً تَرْتَبُ فَخْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهَذِهِ عَلَى صَحَابِهَا وَزُرْ، وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا، وَلَمْ يَنْسِ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا، فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ، كَمَا سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: **«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ»** الْآيَةِ، وَأَمَّا الْمُسُومَةُ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمُسُومَةُ الرَّاعِيَةُ (٣)، وَالْمُطَهَّمَةُ الْحَسَانُ، وَكَذَا رَوَى عَنْ

[دَعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]

يُصَفُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الشَّوَابُ الْجَزِيلُ، فَقَالَ تَعَالَى: **«الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتَ آمَنَّا»** أَيُّ بَكَ وَيَكْتَابُكَ وَيَرْسُولُكَ، **«فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا»** أَيُّ يَا إِيَّانَا بَكَ وَبِمَا شَرَعْتَ لَنَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، **«وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»** ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **«الْمُتَّقِينَ»** أَيُّ فِي قِيَامِهِمُ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْمَحْرَمَاتِ، **«وَالْمُتَّقِينَ»** فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَةِ، **«وَالْمُتَّقِينَ»** وَالْقَنُوتِ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ **«وَالْمُتَّقِينَ»** أَيُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقُرَابَاتِ، وَسَدِّ الْخَلَاتِ، وَمَوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ **«وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»** ذَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا قَالَ لِبَنِيهِ: **«سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»** إِنَّهُ أَخْرَجَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ.

وُثِّبَ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمُسَانِيدِ وَالسَّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: **«يَنْزِلُ**

وَحَدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهَذَا عَمْدُ مَدْحٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: **«تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنَّ مُكَائِرَ بِكُمْ الْأُمَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (١).
وَحَبَّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلِ، وَالتَّكْبَرِ عَلَى الضَّعْفَاءِ، وَالتَّجْبَرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا مَذْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقُرَابَاتِ، وَوَجْهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَدْحُ عَمْدٍ عَلَيْهِ شَرْعًا.
وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَقْدَارِ الْقَنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ، وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْجَزِيلُ كَمَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ (٢).

(وَحَبَّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ): تَارَةً يَكُونُ رِبْطُهَا أَصْحَابَهَا مَعْدَةً لِسَبِيلِ اللَّهِ، مَتَى احتَاجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ بَنَاتُونَ، وَتَارَةً تَرْتَبُ فَخْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهَذِهِ عَلَى صَحَابِهَا وَزُرْ، وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا، وَلَمْ يَنْسِ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا، فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ، كَمَا سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: **«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ»** الْآيَةِ، وَأَمَّا الْمُسُومَةُ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمُسُومَةُ الرَّاعِيَةُ (٣)، وَالْمُطَهَّمَةُ الْحَسَانُ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّيِّدِي وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَأَبِي سَنَانٍ وَغَيْرِهِمْ (٤)، وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسُومَةُ الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ (٥) وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«الَّذِينَ مِنْ قَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدُّنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرِ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ - أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ»** (٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **«وَالْأَنْفَكُ»** يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ، **«وَالْحَرْثُ»** يَعْنِي الْأَرْضَ الْمُتَّخَذَةَ لِلْغَرَسِ وَالزَّرْعَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **«ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»** أَيُّ إِنْسَانِ هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَزِينَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ **«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقِتَابِ»** أَيُّ حَسَنِ الْمَرْجِعِ وَالشَّوَابِ.

[أجزاء المتقين خير من نعيم الدنيا كلها]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **«قُلْ أَتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ»** أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: أَخْبَرْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: **«لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا**

(١) ابن حبان: ١٣٤/٦. (٢) الطبري: ٢٥٠/٦.

(٣) الطبري: ٢٥٢/٦. (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٣-١٢٥.

(٥) ابن أبي حاتم: ١٢٧/٢. (٦) أحمد: ١٧٠/٥.

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟^(١) الحديث، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ فَأَنْتَهَيْتُهُ وَتَرْتُهُ إِلَى السَّحَرِ»^(٢)، وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح، رواه ابن أبي حاتم^(٣).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْغَيْبِ قَائِمًا بِأَلْقَاسِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَيْلُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَذَكَّرْ اللَّهُ فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(١٩) فَإِنْ جَاهَكُ فَقُلْ أَتَمَنَّى لَكَ وَمَنْ أَتَمَنَّى وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَكُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصَيْرُورَتِهِ عَلِيمٌ^(٢٠)

[شهادة التوحيد]

شهد تعالى - وكفى به شهيداً - وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَيْكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، ثم قرن شهادة الملائكة وأولي العلم بشهادته، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْوَيْلُ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قَائِمًا بِأَلْقَاسِهِ﴾ أي هو في جميع الأحوال كذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يرام جنبه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

[الدين هو الإسلام]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِسْلَمُوا﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين

المتقبل عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِسْلَمُوا﴾ ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَيْلُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ﴾ أي بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق، لتحاسدهم وتباغضهم وتدابره، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَذَكَّرْ اللَّهُ﴾ أي من جحد بما أنزل الله في كتابه ﴿فَاتَّكَلَّ اللَّهُ مَرِيعًا الْحِسَابِ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاهَكُ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَتَمَنَّى لَكَ وَمَنْ أَتَمَنَّى﴾ الآية، أي: فقل: أخلصت عبادة الله وحده لا شريك له ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ﴿وَمَنْ أَتَمَنَّى﴾ أي: على ديني، يقول كمقالتني، كما قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ الآية

[الإسلام دين الناس كافة، والنبي ﷺ]

مبعوث إليهم جميعاً

ثم قال تعالى أمراً لبعده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقه ودينه، والدخول في شرعه، وما بعثه الله به، الكتابيين من المسلمين والأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَكُوا وَتَوَلَّوْا فَلَمَّا جَاءَكُمُ الْبَلَاءُ﴾ أي والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصَيْرُورَتِهِ عَلِيمٌ﴾ أي هو علم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعث صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما أبنا

(١) فتح الباري: ١١/ ١٣٣ ومسلم: ١/ ٥٢١ وأبو داود: ١٧/ ٢ وتحفة الأحوذى: ٩/ ٤٧١ والنسائي في الكبرى: ١٢/ ٦ وابن ماجه: ١/ ٤٣٥ وأحمد: ٢/ ٤٨٧.

(٢) فتح الباري: ٢/ ٥٦٤ ومسلم: ١/ ٥١٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ٢/ ١٤٥.

[ذم أهل الكتاب على عدم تحكيمهم كتاب الله]

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم الذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيها من طاعة الله فيها أمرهم به فيها من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنها، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَسْكُنُ الْآثَانَ مَعْدُودَاتٍ﴾ أي إنما حملهم وجراهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَرَّضْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ (١١) أي ثبتهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الأمرين المعروف، والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُخَوِّضُ مَنْ تَشَاءُ وَتُكْذِلُ مَنْ تَشَاءُ يَسْأَلُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣) ﴿تُولِيهِ أَيْلٌ فِي الْهَارِ وَتُولِيهِ الْهَارُ فِي أَيْلٍ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٤).

[الإرشاد إلى الشكر]

يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ مَعْظَمًا لِرَبِّكَ، وَشَاكِرًا لَهُ، وَمَفْضًا إِلَيْهِ، وَمَتَوَكِّلاً عَلَيْهِ﴾ (١) ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي لك

وحدث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ﴾ (٢) ﴿يُسَبِّحُ اللَّهَ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٣) وفي الصحيحين وغيرهما ما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأمهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك (٤)، وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» (٥) رواه مسلم. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَنْحَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وقال ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» (٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّنَةٌ مَعَذَاتِ آلِهِمْ﴾ (٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَوِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٨).

[ذم اليهود على كفرهم وقتلهم الأنبياء والصالحين]

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمخارم في تكذيبهم بآيات الله، قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إماماً الرسل، استكباراً عليهم، وعناداً لهم، وتعاطفاً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعواهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الْكِبَرُ يَنْظُرُ الْحَقُّ وَغَمَطُ النَّاسِ» (٩).

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلّة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَبَيِّنَةٌ مَعَذَاتِ آلِهِمْ﴾ (١٠) أي مرجع مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَوِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (١٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَسْكُنُ الْآثَانَ مَعْدُودَاتٍ وَنَحْنُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ (١٣) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٤).

(١) فتح الباري: ٤٢/١ ومسلم: ١٩٩٣/٤.

(٢) مسلم: ١٣٤/١. (٣) مسلم: ٣٧٠/١ والبخاري ٣٣٥.

(٤) مسلم: ٩٣/١.

يَقْعَلُ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُم مَّنْعَةً
وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

[النهي عن موالاة المشركين]

نهي الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين
وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين
ثم تواعد على ذلك، فقال تعالى: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ
اللَّهِ فِي شَيْءٍ» أي ومن يرتكب نهي الله في هذا، فقد برئ من الله
كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ
تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ» إلى أن قال: «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلَ
السَّيْلِ»، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخِذُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا مُبِينًا»، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
وَالضَّالِّينَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّاهُمْ» الآية
وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين
والأنصار والأعراب «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
يَفْعَلُوهُ كَمَا يَفْعَلُ الْآخَرُونَ وَقَدْ سَاءَ كَيْدٌ» ﴿٢٩﴾.

وقوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُم مَّنْعَةً» أي: إلا من حاله
في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتسقى
بظاهرة لا بباطنه ونيتة، كما حكاه البخاري عن أبي السريته
أنه قال: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تُلْعَنُهُمْ»
وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة، ثم قال
تعالى: «وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ» أي: يحذركم نقمته أي
مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه،
ثم قال تعالى: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» ﴿٣٠﴾ أي: إليه المرجع
والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِنْ تَحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَتَذَكَّرُوا بِعِلْمِ اللَّهِ وَعِلْمِ مَا فِي الصُّدُورِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
عِلْمَ مَا مِنْ خَيْرٍ تَحْضُرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَدَّ
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَؤُوفٌ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾

[الله يعلم ما في الصدور، ويحضر كل

أعمال العبد يوم القيامة]

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر

الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ
تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت
الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، وفي هذه الآية تنبيه
وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة،
لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي
القرشي المكي الأمي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول
الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن
من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء،
ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، وإطلاعه على
الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر
أمره في الأفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه
وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه
عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال
تعالى: ﴿اللَّهُمَّ تِلْكَ الْمُلْكُ﴾ الآية، أي أنت المتصرف في
خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تعالى على من يتحكم عليه في
أمره حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ لَكُنَّا
عَظِيمٌ﴾ ﴿٣٣﴾، قال الله ردّاً عليهم: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّي﴾
الآية، أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا
مدافع، ولنا الحكمة البالغة، والحجة التامة في ذلك، وهكذا
نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية،
وقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تأخذ
من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا
في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً
وصيفاً وخريفاً وشتاءً، وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: تخرج الحبة من الزرع، والزرع من
الحبة، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من
الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة
من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء
﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: تعطي من شئت من المال
ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقرر على آخرين لما لك في
ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل.

﴿لَا يَتَخَذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ

يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقْبَلْكُمْ دُورِكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ، يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته، ثم قال تعالى أمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله، ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَىٰ

الْعَالَمِينَ ۚ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

[المصطفون من أهل الأرض]

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمسج له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهري قومه يدعوه إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر، وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهم السلام. فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَّيْتُ لَكَ فِي بَيْتِي مَعْزَرَ فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٥) فَلَمَّا وَصَّعَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّعْتُهَا

والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات، ويجمع ما في السماوات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يغيضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَضَرًا﴾ الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير شر، كما قال تعالى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَذِي مَا أَقْدَمَ وَأَخَّرَ﴾ (٢٢) فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وعاظمه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول ليطهانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿وَبَيَّنَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَقْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَنَفْسُ الْقَرِينِ﴾، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال جل جلاله مرجعاً لعباده لئلا يأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: من رآفته بهم حلزهم نفسه، وقال غيره: أي رحيم بخلقهم، يجب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ (٢٤)

[حب الله في اتباع الرسول]

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر هو إلى حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ﴿مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ﴾ (٢٦). ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبة إياكم، وهو أعظم من الأول، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم

(١) الطبري: ٢٠٢/٦. (٢) فتح الباري: ٣٥٥/٥.

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/٢.

فُلِّي وَهِيَ أَعْمَرُ بِمَا وَصَّعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ
وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٧٠﴾

[قصة ولادة مريم]

امراة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام، وهي حنة بنت
فاقوذ. قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت
يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتتت الولد، فدعت الله تعالى أن
يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت
منه، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً، أي خالصاً
مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع
لدعائي العليم بينتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها: أذكر أم
أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَصَّعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
وَصَّعَتْ﴾ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أي: في القوة والجلد في
العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالة
على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه
شرع من قبلنا وقد حكى مقررراً، وبذلك ثبت السنة عن
رسول الله ﷺ حيث قال: ﴿وُلِدَ لِي الْيَلَّةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ
أَبِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أخرجه ^(١) وكذلك ثبت فيها: أن أنس بن مالك
ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ، فحنكه وسماه
عبد الله ^(٢)، وكذلك ثبت تسمية الآخرين يوم الولادة.

فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن
جندب، أن رسول الله ﷺ، قال: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينٌ بِمَقِيَّتِهِ
يُنْبِئُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ» فقد رواه أحمد
وأهل السنن ^(٣)، وصححه الترمذي بهذا اللفظ، يروى:
وَيُدَمَّى، وهو أثبت وأحفظ، والله أعلم.

وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: عودتها بالله عز وجل من
شر الشيطان، وعودت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه
السلام، فاستجاب الله لها ذلك، كما روى عبد الرزاق عن
أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا
مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ
وَأَبْنَاهَا» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا
بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ^(٤)، أخرجه ^(٥).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْفَرُمَ إِنَّ لِي لَـ

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧١﴾

[نشوء مريم وكرامتها على الله]

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه ﴿وَأَنْبَتَهَا
حَسَنًا﴾ أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر
أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منه
الخير والعلم والدين، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله كافلاً لها
وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً
نافعاً، وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن
إسحاق وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في
الصحيح: «إِذَا يَبْغِي وَيَعْسَى وَهَمَّا ابْنَا الْحَالَةِ» ^(٦) وقد يطلق
على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت
حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله
قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جده
ابن أبي طالب، وقال: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» ^(٧).

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال
﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. قال مجاهد
وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي
والضحاك وقاتدة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي
يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء
في الصيف ^(٨). فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَنْفَرُمَ إِنَّ لِي
لَـ هَذَا﴾ أي يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ
لِي رِزْقًا مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة
إنك سمع الدعاء ^(٩) فادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب
أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وصدراً وحسباً ونبياً من
الصالحين ^(١٠) قال رب أنى يكون لي غلم وقد بلغني العكر
وأمرأتى عاقراً قال كذلك الله يفعل ما يشاء ^(١١) قال رب اجعل لي

(١) فتح الباري: ٣/٣٠٦ ومسلم: ٤/١٨٠٧.

(٢) فتح الباري: ٩/٥٠١.

(٣) أحمد: ٥/٧ وأبو داود: ٣/٢٥٩ ونخبة الأحوذى: ٥/١١٥.

والنسائي: ٧/١٦٦ وابن ماجه: ٢/١٠٥٧.

(٤) عبد الرزاق: ١/١١٩.

(٥) فتح الباري: ٨/٦٠ ومسلم: ٤/١٨٣٨.

(٦) فتح الباري: ٦/٥٣٩. (٧) فتح الباري: ٧/٥٧١.

(٨) ابن أبي حاتم: ٢/٢٢٧-٢٢٩.

الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أي: الملك ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاضمه أمر، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة استدلل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) ﴿يَمْرُؤُا اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٢٢) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَهْلُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢٣)

[فضل مريم على نساء عصرها]

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك، أن الله قد اصطفاها، أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالته على نساء العالمين، روى هشام بن عروة عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهِمْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَلِيدٍ» أخرجه في الصحيحين (٦)، وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ» (٧). وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود (٨)، ولفظ

يَمْرُؤُا قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (١١)

[دعاء زكريا وتبشيره ببيحي]

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وكان شيخًا كبيرًا وقد وهن منه العظم، واشتعل رأسه شيبًا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيًا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعَلِّمُ فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهًا خطابا أسمعه، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، وجلس مناجاته وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِبَيْحٍ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى لأن الله أحياء بالآيات (١). وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَقْرُرٍ مِنَ اللَّهِ﴾. روى العوفي وغيره عن ابن عباس، وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية ﴿مُصَدِّقًا لِمَقْرُرٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى ابن مريم (٢). قوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جابر وغيرهم: الحكيم (٣). وقال ابن عباس والثوري والضحاك: السيد الحكيم التقى (٤). وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد في خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ ليس معناه ههنا أنه لا يأتي النساء، بل معناه: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشائهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولدا له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿وَجَاعَلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود

(١) ابن أبي حاتم: ٢/٢٣٥.

(٢) ابن أبي حاتم: ٢/٢٣٥-٢٣٧.

(٣) ابن أبي حاتم: ٢/٢٣٨. (٤) الطبري: ٦/٣٧٥، ٣٧٦.

(٥) تحفة الأحوذني: ١٠/٣٨٨.

(٦) فتح الباري: ٦/٥٤٢ ومسلم: ٤/١٨٨٦.

(٧) الطبري: ٦/٣٩٧.

(٨) فتح الباري: ٦/٥٤٣ ومسلم: ٤/١٨٨٦ وتحفة الأحوذني: ٥/٥٦٣ والنسائي في الكبرى: ٥/٩٣ وابن ماجه:

صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِسِرِّكَ كَبِيرٌ وَنُهُ أَمْسَحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّابِرِينَ﴾ قَالَتِ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْ يَدَهُ قَالَ كَذَلِكَ أَنَّهُ يُعَلِّقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٦٦﴾

[تبشير مريم الصديقة بعيسى]

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيرها منها ولد عظيم له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِسِرِّكَ كَبِيرٌ وَنُهُ أَمْسَحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: بولسديك وجوده بكلمة من الله، أي: يقول له: كن، فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ كما ذكره الجمهور. ﴿أَسْمَةُ الْمَسِيحِ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: يكون مشهوراً بهذا الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك، وسمي المسيح لأب كان مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى، وقوله ﴿عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه حيث لا أب له. ﴿وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشع الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

[كلام عيسى في المهدي]

وقوله: ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وجد كحولته حيث يوحى الله إليه بذلك، روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَمَّا تَكَلُّمُ مَوْلُودٍ فِي صُغَرِهِ أَوْ عَيْسَى وَصَاحِبُ جُرْنِجٍ﴾ (١) وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿لَمْ تَكَلِّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةً: عَيْسَى، وَصَاحِبُ جُرْنِجٍ، وَصَاحِبُ آخَرٍ﴾ (٢) ﴿وَمِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: قوله وعمله، له علم صحيح، وعمل صالح.

البخاري «كُلُّهُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آيَةُ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّامِ» (١) وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى ابن مريم عليهما السلام في كتابنا البداية والنهاية، والله الحمد والمنة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدُّوْب في العمل لها، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه عما فيه محنة لها، ورفعته في الدارين، بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَمْرُؤُكَ أَفْتَنِي لَيْكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿بَلِّغْ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنُوتٌ﴾. ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه على جليلة الأمر ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقتصروا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبته في الأجر.

روى ابن جرير عن عكرمة، قال: ثم خرجت بها، يعني أم مريم بمريم، تحملها في خرقتها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليها السلام، قال: وهم يومئذ يلبون في بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فلما حررتها، وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا، وكان عمران يؤمهم في الصلاة، وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إليّ فإن خالتي تحتني، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقتصروا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، ففرعهم زكريا فكفلها (٢). وقد ذكر عكرمة أيضاً (٣) والسدي وقناة والربيع بن أنس وغير واحد (٤)، دخل حديث بعضهم في بعض، أنهم دخلوا إلى نهر الأردن، واقتصروا هنالك على أن يلقوا أقلامهم، فأهم يثبت في جربة الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا، فإنه ثبت، ويقال إنه ذهب صُعُداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم،

(١) فتح الباري: ١٣٣/٧. (٢) ابن جرير: ٣٥١/٦.

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٦٦/٢. (٤) ابن أبي حاتم: ٢٦٧/٢.

(٥) ابن أبي حاتم: ٢٧٢/٢، ٢٧٣.

(٦) ابن أبي حاتم: ٢٧٢/٢ والبخاري: ٣٤٣٦ ومسلم: ٢٥٥٠.

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل،
 قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ اَنْتَ اَيُّ يَوْمٍ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾
 تقول كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا
 من عزمي أن أتزوج، ولست بغيا، حاشا لله؟ فقال لها الملك
 عن الله عز وجل في جواب هذا السؤال ﴿كَذَلِكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾
 سورة: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل يفعل، كما في قصة زكريا، بل
 نص هنا على أنه يخلق لثلاث يبقى لجطل شبهة، وأكد ذلك
 بقوله: ﴿اِذَا قَعَزَ اَمْرًا اَوْ اَمَّا يَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ أي: فلا يتأخر
 شيئا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى:
 ﴿وَمَا اَمْرُنَا اِلَّا وَاَحَدَةٌ كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ أي: إنما نأمر مرة
 واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سرعًا
 كلمه بالبصر.

وَأَمَّا الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ﴿١٥﴾
وَنُوحًا إِلَىٰ نَحْوِ إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ قَدْ جَعَلْنَاكُمْ قِبَايَةً مِنْ رَبِّكُمْ أَنِ
يَكُونَ لَكُمْ مِنَ الطَّيِّبِ كَهَيْئَةِ الطَّيِّبِ فَأَنْفُخُ فِيهِ نُفُوسًا
مِنْ بَنِي آدَمَ وَأَبْرَأَ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأَمَّا السَّائِرُ
فَبَشَرٌ مِمَّنْ بَدَأَ تَجَمُّوعًا وَمَا تَخْتَصِرُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِذَا فِي
ذَلِكَ لَآئِكَةٌ لَكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ
رَبِّكَ التَّوْرَةَ وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
رَبُّكُمْ قِبَايَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧﴾
اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٨﴾

[صفات عيسى عليه السلام

وممجزاته ودعوته]

يقول تعالى خبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة، والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة، **﴿وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾**، فالتوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم عليهما السلام. وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا، وقوله: **﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾** أي يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: **﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ إِنِّي أَغَاثٌ لَّكُمْ مِّنَ الظَّالِمِينَ كَذِبَتِ**

الطير فَأَنْفَخُ فِيهِمْ كَرُونَ طَيْرًا يَا ذَا اللّٰهِ ﴿١٠﴾ وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عياناً بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أن الله أرسله ﴿وَأُتِيَكَ الْأَكْثَمَةُ﴾ هو الذي يولد أعمى، وهذا المعنى أبلغ في المعجزة، وأقوى في التحدي ﴿وَالْأَنْبَرُ﴾ معروف، ﴿وَأُتِيَ الْمَوْتُ يَا ذَا اللّٰهِ﴾.

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر، وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء، وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماهد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد. وكذلك محمد ﷺ بعثه في زمان الفصحاء والبلغاء، ونحارير الشعراء، فاتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بغضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأَنبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر في بيته لغده. ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَمَعْدًا لِّمَا يُبَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ أَي مقررًا لها ومثبتًا ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وكشف لهم عن المغطى في ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّ أَقْيَامَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول لكم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

فَاعْبُدُوهُ ﴿١﴾ أَي: أَنَا وَأَنْتُمْ سِوَاهُ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْ أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ قَالَ قَالُوا لَحَاقُوا بِكُم يَا أَنْصَارُ اللَّهُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكُمْ مَسْلُومُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آرَأَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُأُوهُمْ مَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِالْمَكْرِينِ ﴿٥٤﴾﴾

[نصرة الحواريين لعيسى عليه السلام]

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْ أَنْصَارِيٍّ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال، قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله ^(١). والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِيَنِي حَتَّى أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي» ^(٢) حتى وجد الأنصار، فأووه ونصروه، وهاجر إليهم، فأسووه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ هُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكُمْ مَسْلُومُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آرَأَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ الخواريون قيل: كانوا قصارين، والصحيح أن الخواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضيه، فقال النبي: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ خَوَارِيًا وَخَوَارِيِي الزُّبَيْرِ» ^(٣)، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضيه في قوله: ﴿فَاكْفُتْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ ^(٤)، وهذا إسناد جيد.

[هم اليهود يقتل عيسى عليه السلام]

ثم قال تعالى مخبراً عن بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤوا عليه، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، فأنهوا إليه أن مهنا رجلاً يضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك، ويفتد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما

تقلدوه في رقابهم، ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصل وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم قد ظفروا بنجاة الله تعالى من بينهم، ورفع من روزنة ذلك البيت السماء، وألقى شبهه على رجل كان عنده في المنزل، فلما أوثقك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه وأمر وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكرهم، فإنه نجى نبيه، ورفع من بين أظهرهم، وتركهم ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبته، وأمر الله في قلوبهم قسوة، وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِالْمَكْرِينِ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

[معنى متوفيك]

قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ المراد بالرفاء هو النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ مَنَامَهَا﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» وقال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْبِهِمْ هَيْتَا عَظِيمًا وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ صَلَواتُهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ هُمْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٦٠﴾﴾ وَاللَّهُ إِلَهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا

(١) ابن أبي حاتم: ٣/ ٢٩٠. (٢) أحمد: ٣/ ٣٢٢.

(٣) فتح الباري: ٦/ ٦٣ ومسلم: ٤/ ١٨٧٩.

(٤) ابن أبي حاتم: ٢/ ٢٩٤.

(٥) فتح الباري: ١١/ ١٣٤.

خاتم الرسل وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمدا ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائما منصورا ظاهرا على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوا كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية، ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقا، سلبوا النصارى بلاد الشام، وأجلوهم إلى الروم، فلهجوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيثون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها، ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزءا مفردا.

[تهديد الكفار بالعذاب في الدنيا والآخرة]

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ٢٥ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْزِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ٢٦ ﴿وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأخذ الأموال، وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ ٢٧ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ٢٨ أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

قِيلَ مَوْتُهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ٢٩ ﴿والضمير في قوله: ﴿قِيلَ مَوْتُهُ﴾ عائد على عيسى عليه السلام، أي وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم، لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وروى ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه ٣٠

[التحريف في دين المسيح]

وقوله تعالى: ﴿وَمُظَاهِرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وهكذا وقع، فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيئا بعده، فمنهم من آمن بما بعث الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة، ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرّفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين، والأمانة الكبرى، التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم، لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارا، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمدا ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وبلائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي،

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى، ومبدأ ميلاده، وكيفية أمره، هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك، ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مزية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢١) ما كان لله أن يتخذ من ولده سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كُنْ فَيَكُونُ (٢٢) وههنا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٣) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٢٤) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَقُلْ أَتَاوَا نَعْيَ أَبْنَاءَ نَا وَأَبْنَاءَ كُرٍّ وَنِسَاءَ نَا وَنِسَاءَ كُرٍّ وَأَنْفُسَا نَا وَأَنْفُسَا كُرٍّ ثُمَّ نَبْتَلِ فَنَجْعَلْ لَمَنَّا نَعْيَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٥) إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْقَصَصِ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) فَإِنْ قُولُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٢٧)

[المماثلة في خلق آدم وعيسى]

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب وأم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء النبوة لعيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقال هاهنا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٢٤) أي هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه، ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ، أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان:

[الدعوة إلى المباينة في عيسى عليه السلام]

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَقُلْ أَتَاوَا نَعْيَ أَبْنَاءَ نَا

وَأَبْنَاءَ كُرٍّ وَنِسَاءَ نَا وَنِسَاءَ كُرٍّ وَأَنْفُسَا نَا وَأَنْفُسَا كُرٍّ﴾ أي: نحضرهم في حال المباينة ﴿ثُمَّ نَبْتَلِ﴾ أي: نلتعن ﴿فَنَجْعَلْ لَمَنَّا نَعْيَ﴾ على الكافرين ﴿أَيُّ مَنَا أَوْ مِنْكُمْ﴾.

وكان سبب نزول هذه المباينة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصارى حين قدموا فاجتمعوا بحاجون في عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم، كما ذكر الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره. قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول إليهم أمرهم وهم العاقب، واسمه عبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر ابن وائل، وأويس بن الحارث، وزيد، ونسب يزيد ونبيه، وخويلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله ويحسّس، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم، وهم العاقب وكان أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة، وكان أسفلهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها، وشر فوه، وبنوا له الكنائس، ومولوه، وأخدموه لما يعلمونه من صلاته في دينهم (١)، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه، بما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية، لما يرى من تعظيمه فيها، وجاهه عند أهلها.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الخيرات: جب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول من رأيهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُّوهُمْ» فصلوا إلى المشرق، قال: فكلهم

رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، أو السيد الأيم، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وكذلك قول النصرانية، فهم يحتجون في قولهم: هو الله، بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، وغير الغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً، وذلك كله بأمر الله. وليجعله آية للناس، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله، ويحتجون في قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون لو كان واحداً ما قال: إنا فعلت ونقضت وأمرت وخلقنا، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً - وفي كل ذلك من قولهم: قد نزل القرآن.

ثم تكلم ابن إسحاق على التفسير إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، لم تأتكم بما نريد أن نفعل فيها دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصراني لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبياً قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في

أموالنا، فإنكم عندنا رضا^(١).

وروى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه، قال: جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعنا، قال: فقال: أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا آمِنًا حَقَّ آمِينٍ» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «فَمَنْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنُ الْحَرَّاحِ؟» فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هَذَا آمِينٌ هَؤُلَاءِ الْأُمَمَةُ»^(٢) وروى البخاري عن أنس، عن رسول الله ﷺ، قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْحَرَّاحِ»^(٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل، قبحه الله: إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عَنَّا»، ولو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا، ورأوا مقادهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون ما لا ولا أهلاً^(٤)، ورواه البخاري والترمذي والنسائي^(٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم قال الله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَبِشْءٍ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(٦) «فَلَنْ تَوَلَّوْا» أي: عن هذا إلى غيره «فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ» أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه ويحمده، ونعوذ به من حلول نقمته.

«قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدَمَ مِنْ دُونِ

(١) ابن هشام: ٢/٢٣٣. (٢) فتح الباري: ٧/٦٩٥.

(٣) فتح الباري: ٧/٦٩٦. (٤) أحمد: ١/٢٤٨.

(٥) فتح الباري: ٨/٥٩٥ وتحفة الأحوذني: ٩/٧٧ والنسائي في

الكبرى: ٦/٥١٨.

دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال ابن أبي نُجَيْج: عن مجاهد في قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية: يعني يهوداً صلت مع النبي ﷺ صلاة الفجر، وكفروا آخر النهار مكرّاً منهم؛ ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبِتَكُفُّوا﴾ أي لا تطمئنثوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ﴾ أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات؛ وإن كنتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مَا أَوْثَقْتُمْ بِهِمَا جُورٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فیتعلموه منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند ربكم، أي: يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتركب الحجة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ يخضع برحمته من يشاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^(٣) أي: اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحصى ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، وهذاكم به إلى أكمل الشرائع.

﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ وَبِئْتَهُ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٤) بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين^(٥).

الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا كُفُّوا هَذَا أَوْ تَصَرَّتْ عَنْتَدُوا﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِيْمِهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي، يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم. روى سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وِلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»، ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِيْمِهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾^(١) الآية، قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿وَمَنْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) يتأهل الكتاب لم تكفروك بإيت الله وأنتم تشهدون^(٣) يتأهل الكتاب لم تليسوا الحق بالباطل وتكفرون الحق وأنتم تعلمون^(٤) وقالت طائفة من أهل الكتاب: «إِنَّا بِالَّذِي آتَى عَلَى النَّبِيِّ آمَنَّا وَجِهَةَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَيَكُفُّوا إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مَا أَوْثَقْتُمْ بِهِمَا جُورٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ^(٦) يَخْضَعُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^(٧)

[حسد اليهود للمسلمين وكيدهم]

خبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم محمور بهم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(١) أي: تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أي: تكفرون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي آتَى عَلَى النَّبِيِّ آمَنَّا وَجِهَةَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ﴾ الآية، هذه مكيلة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى

[بيان حال أمانة اليهود]

يجبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْتُمْ بِهِمْ قَطَّارٌ﴾ أي من المال ﴿يُؤَدُّوهُ إِلَيْكَ﴾ أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْتُمْ بِهِمْ قَطَّارٌ لَا يُؤَدُّوهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه إليك. وقد تقدم الكلام على القنطار في أول السورة، وأما الدينار فمعروف. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَثْمَانِ سَكِينٌ﴾ أي إنسا لهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمين، وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧) أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، واتفقوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت.

روى عبد الرزاق عن صعصعة بن يزيد، أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَثْمَانِ سَكِينٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحمل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم (١)، ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أي لكن من أوفى بعهد واتفق منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتفق محارم الله تعالى، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَتَّخِذُونَ مِمَّا قَلِيلًا أَوْلِيَاءَ لَئِنْ خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧)

[لا نصيب في الآخرة لمن خالف العهد]

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيانهم الكاذبة الفاجرة الأثمة بالآثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ

فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها ﴿يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: برحمة منه لا يعني لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد وردت أحاديث تنقل بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها.

(الحديث الأول) روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، هم؟ خابوا وخسروا قال وأعاد رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «السُّبُلُ، وَالْمُنَقُّ سُلْعَتُهُ بِحَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالنَّسَاءُ» ورواه مسلم وأهل السنن (٣).

(الحديث الثاني) روى الإمام أحمد عن عدي بن عبد الكندي، قال: خاصم رجل من كندة، يقال له: امرؤ القيس، ابن عابس، رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض فقضى على الحضرمي بالينة، فلم يكن له بينة، فقضى امرؤ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكته من اليمن رسول الله ﷺ ذهبت ورب الكعبة أرضي، فقال النبي ﷺ: «الْحَلْفُ عَلَى يَمِينٍ كَافِيَةٌ لِقِطْعِ بِهَا مَالٌ أَحَدٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَزِيمٌ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قال رجاء - أحد رواة - وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَتَّخِذُونَ مِمَّا قَلِيلًا أَوْلِيَاءَ لَئِنْ خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الْجَنَّةُ» فاشهد أي قد تركها له كلها (٤)، ورواه النسائي (٥).

(الحديث الثالث) روى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِقِطْعِ بِهَا مَالٌ أَحَدٌ لَقِيَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»، فقد الأشعث: «فِي وَالله كَانَ ذَلِكَ؛ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ قُلْتُ: لَا فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «اخْلِفْ» فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْنٌ يَخْلِفُ فَيَذْهَبَ مَالِي» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) عبد الرزاق: ١/٢٣. (٢) أحمد: ٥/١٤٨.

(٣) مسلم: ١/١٠٢، وأبو داود: ٤/٣٤٦، وتحفة الأحوذ: ٤/٤٠١، والنسائي: ٧/٢٤٥، وابن ماجه: ٢/٧٤٤.

(٤) أحمد: ٤/١٩١. (٥) النسائي في الكبرى: ٣/٤٨٦.

لِّلْكَافِرِينَ كُفُؤُهُمْ عَسَادًا لِّمِنْ دُونَ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُفُؤُهُمْ دَسِيقٌ سَمَا كُفُؤُهُمْ
تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾

[النبي لا يدعو إلى عبادة نفسه

ولا إلى عبادة غير الله]

أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا مرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى، فالجهلة من الأخبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إن شاء أمروا بما أمر الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإن شاء ينهونهم عما نهاهم الله عنه، وبلغتهم إياه رسله الكرام فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ كُفُؤُهُمْ دَسِيقٌ سَمَا كُفُؤُهُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد: أي حكماء علماء حلما، وقال الضحاك في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها ﴿وَمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي

إِلَى الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ نَسًا قَلِيلًا﴾ الآية^(١). أخرجه^(٢).

[الحديث الرابع] روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ خَلَفَ عَلَى سِلَافَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ -يَعْنِي كَاذِبًا- وَرَجُلٌ بَايَعَ إِنْسَانًا فَإِنْ أَخْطَاهُ وَفَى لَهُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ»^(٣). ورواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح^(٤). ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ لَقَرِيفًا يَلُوتُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ بِمِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

[تحريف اليهود لكلام الله بلي الألسن]

عبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله-، أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهوا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافترؤا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والربيع بن أنس: ﴿يَلُوتُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه^(٥)، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيدون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه، يؤولونه على غير تأويله. وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلها الله تعالى، لم يغير منها حرف، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكُتِبَ كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُمْ بِمِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول. رواه ابن أبي حاتم، فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالترجمة فبغيره خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، وهم فاسقون، وهو من باب تفسير المعبر المعرب وفهم كثير منهم في أكثرهم، بل جميعهم فاسد، وأما إن عني كتب الله التي هي كتبه عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ لَقَرِيفًا يَلُوتُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالْحُكْمَ وَالسُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُونَ

(١) أحمد: ١/٣٧٩.

(٢) فتح الباري: ٥/٣٣٦، ومسلم: ١/١٢٢.

(٣) أحمد: ٢/٤٨٠.

(٤) أبو داود: ٣/٧٤٩ وتحفة الأحوذني: ٥/٢١٨.

(٥) ابن أبي حاتم: ٢/٣٦١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢/٣٦٥.

إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ الآية، وقال ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ أَرْسَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهَ مِنْ دُونِي فَلْنَكُنَّ كَحَجَرٍ خَشَنٍ ذَرًى﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَعْتَبْتَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾

[أخذ الميثاق من الأنبياء أن يؤمنوا

بنبيينا محمد ﷺ]

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمن به ولنصرته، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ لَمَّا آتَيْتُكَ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ وقال ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والسدي: يعني عهدي ^(١) وقال محمد بن إسحاق ^(٢) ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) أي: ثقل ما حملتم من عهدي ^(١) أي ميثاقي الشديد المؤكد ﴿قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴿١٩﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس ^(٢) ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمدًا وهو حي ليؤمن به ولنصرته ^(٣)، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمن به ولنصرته، وقال طاووس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس.

فالرسول محمد خاتم الأنبياء - صلوات الله وسلامه

عليه - دائيًا إلى يوم الدين، هو الإمام الأعظم الذي لزم في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة، المقدم الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمع بيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم المحشر في الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العرو الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النبوة إليه، فيكون المخصوص به - صلوات الله وسلامه عليه.

﴿أَفَعِدَّ دِينَ اللَّهِ يَبِغُوتَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي الدِّينِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَأَلَّهُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْطِطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَنُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنُفَرِّقُ مُسْلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾

[الدين عند الله الإسلام ولا يقبل غيره]

يقول تعالى: منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي استسلم له من فيها طوعاً وكراً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَخْلُوقَاتُ اللَّهِ مِنْ نَفْسٍ وَنَفْسٍ ظِلَالَةٍ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَدَّخِرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٤﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ يُؤْمَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَلْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالَهُ اللَّهُ، والكفر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسطو العظيم الذي لا يخالف ولا يانع، وقد روى وكيع في نصب عن مجاهد ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقوله: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿٢٦﴾ وروى عن ابن عباس ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/٢، ٣٧٤.

(٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٣/٢. (٣) الطبري: ٥٥٥/٦.

(٤) الطبري: ٥٦٥/٦.

تَسْكُنُونَ وَالْأَرْضَ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿١﴾ قال: حين أخذ الميثاق،
وَالْيَوْمَ يَجْعَلُونَ ﴿٢﴾ أي: يوم المعاد، فيجازي كلًا بعمله.
ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَّا يَأْتِيهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن،
﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي من
صحف والوحي، ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل
المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر، ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ﴾ يعني بذلك: التوراة والإنجيل،
﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا
تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُمْ
سُلْطُونَ﴾ فالؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل،
وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مصدقون
بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ
يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي من سلك طريقًا
سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
﴿٣﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا
لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ» (٢).

وروى الإمام أحمد عن الحسن، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ إِذْ ذَاكَ
وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَجِيءُ الْأَعْمَالِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ نَجِيءُ الصَّلَاةِ فَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ، يَقُولُ: إِنَّكَ
عَلَىٰ خَيْرٍ نَجِيءُ الصَّدَقَةِ فَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ، يَقُولُ: إِنَّكَ
عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ نَجِيءُ الصِّيَامِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، يَقُولُ: إِنَّكَ
عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ نَجِيءُ الْأَعْمَالِ كُلِّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَىٰ
خَيْرٍ، ثُمَّ نَجِيءُ الْإِسْلَامِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ،
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ بِكَ التَّوَكُّلُ أَخَذَ بِكَ أَغْطِي، قَالَ اللَّهُ
فِي كِتَابِهِ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣) ﴿٤﴾ تفرد به أحمد (٣).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ
حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) أَوْلَيْتِكَ
جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتُ وَالنَّارُ أَجْمَعِينَ (٢) خَلِيلِينَ
فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤)

ألا يهدي الله قوماً كفروا بعد الإيمان إلا من تاب [روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن سلوا

لي رسول الله هل لي من توبة؟ قال: فتزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ
قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
فأرسل إليه قومه فأسلم (١)، وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن
حبان (٢)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي قامت عليهم
الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم
الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية
بعدما تلبسوا به من العماية؟، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوْلَيْتِكَ جَزَاءَهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتُ وَالنَّارُ أَجْمَعِينَ﴾ (٣) أي: يلعنهم الله،
ويلعنهم خلقه، ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يفر عنهم العذاب ولا يخفف
عنهم ساعة واحدة، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) وهذا من لطفه وبره ورافته
ورحمته وعاملته على خلقه أنه من تاب إليه، تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ
تَوْبَتُهُمْ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا رِجْزٌ ذَخِيرًا لِمَنْ أَتَتْهُ
بِهِمْ أَوْلَيْتِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢)

[لا تقبل توبة الكافر عند الموت]

ولا قديته يوم القيامة [

يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد
كفراً، أي: استمر عليه إلى الممات، وخبراً بأنهم لن تقبل لهم
توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية،
ولهذا قال ههنا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، روى الحافظ
أبو بكر البزار عن ابن عباس، أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم

(١) الطبري: ٥٦٥/٦. (٢) فتح الباري: ٣٥٥/٥.

(٣) أحمد: ٣٦٢/٢. (٤) الطبري: ٥٧٢/٦.

(٥) النسائي في الكبرى: ٣١١/٦ والحاكم: ٣٦٦/٤ وابن حبان:

[الإنفاق من أحب الأموال من البر]

روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون **«لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ**
قَالَ: الْجَنَّةُ» (٤)، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، يقول: روى
 أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه
 يبرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي **ﷺ** يدخل
 ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت **«لَنْ تَنَالُوا**
حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ» (٥) قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن
 يقول: **«لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ»**، وإن أحب أموال
 إلي يبرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، تمل
 فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي **ﷺ**: **«يَسْخَرُ**
ذَلِكَ مَالٍ رَابِعٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٍ، وَقَدْ سَمِعْتُ وَأَنَا أَرَى أَنَّ تَعْمَلُهَا
الْأَقْرَبِينَ» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، ففعل
 أبو طلحة في أقاربه وبني عمة (٥)، أخرجاه (٦)، وفي الصحيح
 أن عمر قال: يا رسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفسي عند
 من سهمي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: **«حَبَسِ الْأَمْوَالَ**
وَسَبَّلِ الشَّعْرَةَ» (٧).

«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ
عَلَى نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ. قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١٢) **فَمَنْ أَذَرَنِي عَلَى اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ بَرٍّ**
ذَلِكَ فَأَوْفَيْتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (١١) **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ**
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (١٥)

[أسئلة اليهود لنبيينا محمد ﷺ]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من
 اليهود نبي الله **ﷺ** فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عن
 لا يعلمهن إلا نبي، قال: **«سَلُونِي عَمَّا يَشْتُمُونَ وَلَكِنَّ اجْعَلُوا**
ذِمَّةَ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ بِنَفْسِهِ عَلَى نَبِيِّهِ، لَعِنْ أُنَا حَدَّثْتُكُمْ
فَعَرَقْتُمُوهُ لِتَسَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ» قَالُوا فَذَلِكَ لَكَ فَا
«سَلُونِي عَمَّا يَشْتُمُونَ» قَالُوا أَخْبَرْنَا عَنْ أَرْبَعٍ خِلَالِ أَخْبَرْنَا

أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدَوْا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَسْأَلُونَ لَهُمْ، وَذَكَرُوا
 ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ **ﷺ**، فَتَرَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ**
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا أَنْ يَقْبَلُوا تَوْبَتَهُمْ» وإسناده جيد (١).

ثم قال تعالى: **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ**
أَحَدِهِمْ قَوْلٌ وَلَا يَرْضَى ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ» أي: مَنْ مَاتَ عَلَى
 الكفر فلن يقبل منه خير أبداً. ولو كان قد أنفق ملاء الأرض
 ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي **ﷺ** عن عبد الله بن
 جدعان، وكان يهري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام:
 هل ينفعه ذلك؟ فقال: **«لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ رَبِّ اغْفِرْ**
لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (٢). وكذلك لو افتدى بملاء الأرض
 ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: **«وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا**
شَفَعَةٌ» وقال: **«لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُدُ»**، وقال: **«إِنَّ الَّذِينَ**
كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَبِشَاءِ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُوا
بِهِ. مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٣).

ولهذا قال: تعالى هنا: **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ**
يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ قَوْلٌ وَلَا يَرْضَى ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ» فعطف
«وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ» على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه
 أحسن من أن يقال: أن الواو زائدة، والله أعلم.

ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد
 أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملاء
 الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها
 ووعرها وبرها وبحرها.

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله **ﷺ**: **«يُؤْتَى**
بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟
يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ خَيْرٍ مَنْزِلٍ، يَقُولُ: سَلْ وَنَحْنُ، يَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا
أَعْمَى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَتُكِلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مِرَارٍ، لِمَا بَرَى مِنْ
فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ
كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ يَقُولُ: يَا رَبِّ مَرَّ مَنْزِلٍ، يَقُولُ لَهُ: تَقْتَدِي
مِنِّْي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، نَعَمْ يَقُولُ: كَلْبَتُ قَدْ
سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَسْتُ تَفْعَلُ فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ» (٣)، ولهذا
 قال: **«وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ»** أي: وما لهم من
 أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

«لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ» وَمَا تُنْفِقُوا

مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكُونُ عَلَيْهِ **«يَا»**

(١) الدر المنثور: ٢/٢٥٨. (٢) مسلم: ١/١٩٦.

(٣) أحمد: ٣/٢٠٧. (٤) الطبري: ٦/٥٨٧.

(٥) أحمد: ٣/١٤١.

(٦) فتح الباري: ٨/٧١ ومسلم: ٢/٦٦٣.

(٧) مسلم: ٣/١٢٥٦ والنسائي: ٦/٢٣٢.

الله تعالى قد نصّ في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل والبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك، وكان الله - عز وجل - قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟! وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون؟! و

ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي كان حلالاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَنزِلُوا بِالتَّوْرَةِ فَآلَتُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ أَقْدَرُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي فمن كذب على الله، وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُكُمْ لِمِلَّةِ اللَّهِ وَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي بَيْتٍ مَبْنُوعٍ لِّلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

نَعَامَ حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَيْفَ مَاءَ الْمَرْأَةِ وَمَاءَ الرَّجُلِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الذَّكْرُ مِنْهُ وَالْأُنْثَى؟ وَأَخْبَرْنَا كَيْفَ هَذَا نَبِيُّ الْأُمِّيِّ فِي النَّوْمِ؟ وَمَنْ وَلِيَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةً لِّئِنْ أَخْبَرَهُمْ لَيَتَابَعْنَهُ، فَقَالَ: «أَنشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَءِيلَ مَرَضَ مَرَضاً شَدِيداً وَطَالَ سَقَمُهُ فَتَنَزَّلَ اللَّهُ نَزْلاً لِّئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيَحْرَمَنَّ أَحَبَّ النَّسَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لِحَمَانِ الْإِبِلِ وَأَحَبَّ النَّسَابِ إِلَيْهِ الْبَنَاتُ» فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ» وَقَالَ: «أَنشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضٌ غَلِيظٌ وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَضْفَرُ رَقيقٌ فَأَيُّهَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ إِنَّ عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِنْ عَلَا مَاءَ الْمَرْأَةِ عَلَى مَاءِ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالُوا نَعَمْ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ» قَالُوا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدِّثْنَا مَنْ وَلَيْكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَعِنْدَهَا نَحْمِيعُكَ أَوْ نَقَارُفُكَ قَالَ: «إِنَّ وَلِيِّ جِبْرِيلَ وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيّاً قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ» قَالُوا: فَعِنْدَهَا نَقَارُفُكَ لَوْ كَانَ وَلَيْكَ غَيْرُهُ لَتَابَعْنَاكَ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾ الآية ^(١).

وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قلت: ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان (أحدهما) أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَى الْآلَمَالُ عَلَى حَبِيبٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ الآية.

(المناسبة الثانية): لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه، وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرة ومشيتته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه - تبارك وتعالى -، شرع في الرد على اليهود - قبحهم الله -، وبين أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن

﴿وَلَبِيتَ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِكَبَّةٍ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾
 ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى
 النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾^(١٧)

[الكعبة أول بيت وضع للعبادة]

يخبر تعالى ﴿لَبِيتَ وَضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِكَبَّةٍ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل - عليه السلام - الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك، ونادى الناس إلى حجه، ولهذا قال تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: وضع مباركًا ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثُمَّ حَيْثُ أَذْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ»^(١) وأخرجه البخاري ومسلم^(٢).

[وجه تسمية بكعة، وأسماء مكة]

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِكَبَّةٍ﴾ بكعة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُميت بذلك؛ لأنها تبتك أعناق الظلمة والجباية، بمعنى: أنهم [يذلون] بها، ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدحمون. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسة بالنون، وبالباء أيضًا، والحاطمة، والنساسة، والرأس، وكوثي، والبلدة، والبنية، والكعبة.

[مقام إبراهيم]

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ﴾ أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه، ويتاوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَأَتِمُّوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها ههنا، والله المنة. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشعر^(٣) ومجاهد: أثر قدميه في المقام آية بيِّنة^(٤)، وكذا روي عن عبد العزيز والحسن وقشادة والسدي ومقاتل بن عبيد وغيرهم^(٥)، وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة: وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافئًا غير ناعم

[الحرم مقام أمن]

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعني: حرم مكانه دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول يهبجه حتى يخرج. وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آمِنًا وَمَسَاجِدَ لِلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(٦) أَلَدَّتْ أَلْطَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَسَهُمْ مِنْ حَرٍّ وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جَمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةُ اصْطِبَادِهَا وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةُ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَبِيشِهَا ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا. ففي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «هَجْرَةٌ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيَّةٌ وَإِذَا اسْتَفْرَغْتُمْ فَاغْتَرُّوا». وقال يوم الفتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِي لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُتَغَرَّ صَيْدُهُ وَلَا يُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا

(١) أحمد: ١٥٠/٥.

(٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ٣٧٠/١.

(٣) الطبري: ٢٦/٧. (٤) الطبري: ٢٧/٧.

(٥) ابن أبي حاتم: ٤١٢/٢، ٤١٣.

[معنى الاستطاعة]

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: «الشَّعْثُ الثَّقِيلُ» فقام آخر، فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «الحجُّ والنَّجْ» فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ» ^(٨)، وهكذا رواه ابن ماجه ^(٩). وروى الحاكم عن أنس أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله - عز وجل -: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فقيل: ما السبيل؟ فقال: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ»، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ^(١٠). وروى أحمد أيضاً عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتِمَّجَلْ» ^(١١). ورواه أبو داود ^(١٢).

[منكر الحج كافر]

وقوله تعالى: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه. وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مَنْ أَطَاعَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحْجِ، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً. وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه ^(١٣).

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِقَالَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾
﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ ءَامَنَ تَبِعُوا هَٰؤُلَاءِ وَأَنتم شُهَدَآءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١٤)

[تعنيف أهل الكتاب على كفرهم]

[وصدهم عن سبيل الله]

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب على عنادهم

منهم، وَلَا تَحْتَلْ خَلَاةَا» فقال العباس: يا رسول الله، إلا زجر، فإنه لقيتهم وليبوهم، فقال: «إِلَّا الْإِذْخَرُ» ^(١).
وفاء، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبي شريح العدوي أنه قال عمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم فتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ وَبَجَرَهَا النَّاسُ فَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يَرَىٰ يَوْمَئِذٍ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يَغْضِدَ بِهَا شَجَرَةً فَإِنَّ أَحَدًا تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ تَحْرِمُهَا بِالْأَنْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فقيل لأبي شريح: ما لك عزم؟ قال: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شَرِيحٍ إِنَّ الْحَرَمَ لَا يُعْدُ غَاصِبًا وَلَا فَارًا بِدَمٍ وَلَا فَارًا بِخَرَبَةٍ» ^(٢).
وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ» ^(٣). رواه مسلم. وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وهو واقف بالحرزوة في سوق مكة، «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْ لَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» ^(٤). رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذي والنسائي وابن ماجه ^(٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

[بيان وجوب الحج]

وقوله: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع. روى الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ نَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوْا» فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلِكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» ^(٦)، ورواه مسلم نحوه ^(٧).

(١) فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢.

(٢) مسلم: ٩٨٧/٢. (٣) مسلم: ٩٨٩/٢.

(٤) أحمد: ٣٠٥/٤.

(٥) تحفة الأحوذني: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٤٧٩/٢.

وابن ماجه: ١٠٣٧/٢.

(٦) أحمد: ٥٠٨/٢. (٧) مسلم: ٩٧٥/٢.

(٨) تحفة الأحوذني: ٣٤٨/٨. (٩) ابن ماجه: ٩٦/٢.

(١٠) الحاكم: ٤٤٢/١. (١١) أحمد: ٢٢٥/١.

(١٢) أبو داود: ٣٥٠/٢. (١٣) الحلية: ٢٥٢/٩.

لالحق، وكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان، بجهدهم وطاعتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وما بشروا به وتوهموا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزىهم على ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِغَدَابَتِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (٩٠) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٩١)

[تحذير المسلمين عن طاعة أهل الكتاب]

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ وَنَ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِغَدَابَتِكُمْ كَافِرِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨)، الآية بعدها. وكما جاء في الحديث أن النبي قال يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَغْجَبَ إِلَيْكُمْ إِيَّانَا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وذكروا الأنبياء، قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَعْظَمُهُمْ؟» قالوا: فأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبَ إِيْمَانًا؟ قال: «قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِن بَعْدِكُمْ يَحْدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا» (١). ثم قال

تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: بهذا هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُدَّة في الهدى والعدَّة في مباحدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٩٠) ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٩١)

[ما هو حق تقاة الله؟]

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر (٢)، وهذا إسناد صحيح موقوف، والحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣)، كذا في الأظهر أنه موقوف. والله أعلم. وروى عن أنس أنه لا يبقى العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه (٤). وتعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياً بالله من خلاف ذلك. روى الإمام أحمد عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالناس وابن عباس جالس، معه محجن، فقال: قال رسول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥) ولو أن قطرة من الرِّقْمِ قُطِرَتْ لَأَمْرَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِبَتَهُمْ، فكيف بمن ليس له طعام إلا الرِّقْمُ؟ (٥) وهكذا الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحهم والحاكم في مستدركه وقال الترمذي: حسن صحيح، والحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٦).

- (١) الطبراني: ٢٢/٤، ٢٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٤٦/٢.
(٣) الحاكم: ٢٩٤/٢. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٨/٢.
(٥) أحمد: ٣٠٠/١.
(٦) تحفة الأحوذى: ٣٠٧/٧ والنسائي في الكبرى: ١٠٠/١.
وابن ماجه: ١٤٤٦/٢ وابن حبان: ٢٧٨/٩ والحاكم: ١٤٦/٢.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُكِّرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْهَمَ لَنَفَعَهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِنْ يَفْعَلُوكُمْ بِأُولَئِكَ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرْكُمْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلُ أَنْ مَا نَفَعُوا إِلَّا يَجْعَلِ مِنَ اللَّهِ وَلِئِنَّ النَّاسَ لَنَاصُونَ لِمَا عَلَّمُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ يَأْتُهُمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا بَدِئَهُمُ اللَّهُ وَيَقُولُونَ الْآيَاتُ بَعْدَ حَقِّهَا وَمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٣٣﴾

[فضل الأمة المحمدية وكونها خير أمة]

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم يدخلوا في الإسلام ^(٧)، وهكذا قال ابن عباس وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس: ﴿كُنْتُمْ أُمَّةً أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني: خير الناس للناس ^(٨)، والمهم أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُكِّرْتُمْ بِاللَّهِ﴾

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حبيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أَلْفَ خَيْرًا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ^(٩). وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي، ويروي من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم

صلى الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَقَرُّ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً -بمعنى: الأهواء- كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً- وَهِيَ الْجَمَاعَةُ- وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِزٌّ وَلَا مَفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ لَنُغَيِّرَنَّكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ» ^(١) وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى ^(٢).

[ثمرات الألفة والفرقة يوم الحشر]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة. قاله ابن عباس رضي الله عنه ^(٣): «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ عِلْمِكُمْ» قال الحسن البصري: وهم المنافقون ^(٤) «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» وهذا الوصف يعم كل كافر «وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَمَنْ دَرَسَهُمُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ^(٥) يعني الجنة، ما كانوا فيها أبدًا، لا ييغون عنها حولًا، وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب، قال: رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمع إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا -حتى عد سبعة- ما حدثكموه، ثم قال: هذا حديث حسن ^(٥)، ورواه ابن ماجه وأخرجه أحمد في مسنده بنحوه ^(٦).

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَيْتَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته تلوها عليك يا محمد ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي تكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذي لا يجوز؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدًا من خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملك له وعييد له ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأَمْوَالُ﴾ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

(١) أحمد: ١٠٢/٤. (٢) أبو داود: ٥/٥.

(٣) ابن أبي حاتم: ٤٦٤/٢. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٦٥/٢.

(٥) تحفة الأحوذ: ٣٥١/٨.

(٦) ابن ماجه: ٦٢/١ وأحمد: ٢٥٦/٥.

(٧) فتح الباري: ٧٢/٨.

(٨) ابن أبي حاتم: ٤٧٢/٢، ٤٧٣.

(٩) أحمد: ٣/٥ وتحفة الأحوذ: ٣٥٢/٨ وابن ماجه: ١٤٣٣/٢.

بعده نبيا قبله، ولا رسولا من الرسل، فالعمل على منهاجه وميله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيره مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نَارُ رُشْدٍ لِي مَا هُوَ؟ قَالَ: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأُعْطِيتُ نَفَاحِ الْأَرْضِ وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا وَجُعِلَتْ لِي خَيْرُ الْأُمَمِ» ^(١). وإسناده حسن.

وتدور أدبيات يناسب ذكر بعضها هنا.

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي ثَمَرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا نُضِيءُ وُجُوهُهُمْ بِإِسَاءَةِ الْفَقْرِ لِلَّهِ الْبَذَرُ»، فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن غصص الأسدي يرفع نمرة عليه، فقال يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «لَنْ أَجْعَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا»، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» ^(٢).

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرافها وكرامتها على الله عز وجل،

وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة

روى الإمام أحمد عن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثُ النَّاسِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشُّطْرُ» ^(٣)، وهكذا رواه عن طريق آخر ^(٤)، وهو على شرط مسلم. وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» ^(٥).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن بريدة، أن النبي ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا» ^(٦). وكذلك رواه عن طريق آخر ^(٧). وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن ^(٨)، ورواه ابن ماجه ^(٩).

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال:

«نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، يَبْدَأُ اللَّهُ أُمَّتَهُ أَوَّلًا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوَّلِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فَهَذَا اللَّهُ لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ عَدَا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ عَدِّ» رواه البخاري ومسلم مرفوعا بنحوه ^(١٠)، ورواه مسلم أيضا عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» وذكر تمام الحديث ^(١١).

فهذه الأحاديث وغيرها في معنى قوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» فمن انصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» ﷻ، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها ^(١٢)، رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» الآية، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: «وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ» أي: بما أنزل على محمد ﷺ «لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

[البشارة للمسلمين بالفتح والنصر على أهل الكتاب]

ثم قال تعالى محبة عباده المؤمنين ومبشرا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: «لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُضْلِكُوكُمْ يُلَاقِكُمْ الْآدِبَارُ ثُمَّ لَا

(١) أحمد: ٩٨/١.

(٢) فتح الباري: ١١/٤١٣ ومسلم: ١/١٩٧.

(٣) أحمد: ٣/٣٤٦. (٤) أحمد: ٣/٣٨٣.

(٥) فتح الباري: ١١/٣٨٥ ومسلم: ١/٢٠٠.

(٦) أحمد: ٥/٣٥٥. (٧) أحمد: ٥/٣٤٧.

(٨) تحفة الأحوذى: ٧/٢٥٦. (٩) ابن ماجه: ٢/١٣٤.

(١٠) البخاري: ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧، ومسلم: ٨٥٥.

(١١) مسلم: ٨٥٥. (١٢) الطبري: ٧/١٠٢.

يُصْرُوكَ ﴿٣٣﴾ وهكذا وقع، فإنهم يوم خير أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ثلث الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين، ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم - عليه السلام - بشرع محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام -، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَوَقَّعُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: ألزهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يؤمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بذمة من الله، وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أمان منهم لهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين، ولو امرأة، وكذا عبد، على أحد قولي العلماء، قال ابن عباس: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس ^(١). هكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي والربيع ابن أنس ^(٢). وقوله: ﴿وَبَاءَ وَيُغَضِّبُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ألزموا فالترمو بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي: ألزموها قدراً وشرعاً.

وهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله، وقتل رسل الله، وقبضوا لذلك، أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله - عز وجل -، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعباداً بالله من ذلك، والله - عز وجل - المستعان.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ^(٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ صِرَاطٍ أُسْبِطَ حَرَّتْ قَوَارِظُهَا فَأَنْفُسُهُمْ فَهَنْكَتْ وَمَا ظَلَمَ مِنْ وَلَئِكَ أَنْفُسَهُمْ يَفْلِحُونَ ﴿١١٤﴾

[فضل من أسلم من أهل الكتاب]

قال محمد بن إسحاق وغيره - ورواه العوفي عن عباس -: إن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن أسيد بن سَعِيَّة وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ^(٣) أي ليسوا كلهم على حد سواء، منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، نبي الله، فهي قائمة، يعني مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يقومون الليل ويكثرون التضرع ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(٤) وهؤلاء هم المذكورون في السورة ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ ^(٥) وهكذا قال الله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي لا يضيع الله، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً. ثم قال تعالى خبراً عن الكفرة المشركين بأنه: ﴿لَنْ يَنْفَعَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي لا يرد عنهم الله ولا عذابه إذا أراد به هيم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[بيان مثل ما ينفقه الكفار]

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قال محمد بن الحسن والسدي ^(٤)، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ صِرَاطٍ أُسْبِطَ﴾ أي برد شديد، قال عباس وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقتادة والصفي

(١) الطبري: ١١٢/٧. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٨٠/٢.

(٣) المحرر الوجيز: ٤٩٢/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٤٩٣/٢.

كاتباً، قال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين^(٥)، ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعابهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَكُمُ خَبَآءًا وَدُؤَا مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي: قد لاح على صفحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ أَزْوَآءٌ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة. وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم^(٦)، ورواه ابن جرير.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ الْآثَامَ مِنَ الْقَيْظِ﴾ والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة^(٧). وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ الْآثَامَ مِنَ الْقَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحق. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين، ويغيطكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين، ومكمل دينه، ومُغْلٍ كلمته، ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيطكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل.

وربيع بن أنس وغيرهم^(١). وقال عطاء: برد وجليد^(٢)، وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي نار^(٣). وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق زروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظُلُمًا أَنفُسُهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُ﴾ أي فأحرقت، يعني بذلك السفعة إنارت على حرث قد آن جده أو حصاده، فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذا ذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا، وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحرث بدروب صاحبه. وكذلك هؤلاء بناهوا على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمُ خَبَآءًا وَدُؤَا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَآئِنْتُمْ أَزْوَآءٌ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ الْآثَامَ مِنَ الْقَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَنْوَهُنَّ وَإِنْ تَضَرَّعْتُمْ سِوَةَ يَسْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَذِبُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَسْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٤﴾

[النهى عن اتخاذ غير المؤمنين بطانة]

يقول - تبارك وتعالى - ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقهم لا يألون المؤمنين خيالًا، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم، وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخله أمره. وقد روى البخاري، والنسائي وغيرهما عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَنْصَحُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضِيهِ عَلَيْهِ، وَالْمَغْضُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ»^(٤)، وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدهقانة، قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلامًا من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته

(١) ابن أبي حاتم: ٤٩٤/٢، ٤٩٥.

(٢) ابن أبي حاتم: ٤٩٦/٢. (٣) ابن أبي حاتم: ٤٩٥/٢.

(٤) فتح الباري: ٢٠١/١٣ والنسائي: ١٥٨/٧.

(٥) ابن أبي حاتم: ٥٠٠/٢. (٦) الطبري: ١٤٩/٧.

(٧) الطبري: ١٥٣/٧.

للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُومُهُمْ وَإِنْ تُبْصِرْكُمْ سَيِّئَةً يَبْصُرْهُمُ﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة أي جذب، أو أدبيل عليهم الأعداء، لما لله تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ الآية، يرشدكم تعالى على السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به. وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين. والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبين صبر الصابرين فقال تعالى:

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ (٢٣)﴾

[بيان غزوة أحد]

المراد بهذه الواقعة: يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغير واحد^(١). وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم، وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قُتل من أشرفهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قفلهم إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحايش، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلما فرغ منها صلى على رجل من

بنو النجار يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس ﴿أَيُّكُمْ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمُكُّتُ بِالْمَدِينَةِ؟﴾ فأشار عبد الله بن أبي ناصر بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوها فأنفروا الرجال في وجوهم، ورامهم النساء والصبيان بالحجارة، فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائين، وأشار آخرون بالصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فذكر رسول الله ﷺ فلبس لأمتة وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِبَنِي لَيْسَ لأمتة أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ».

فسار عليه السلام في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشرا رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضباً؛ لكونه لم يرجع قوله، وقال هو وأصحابه: لو تعلم اليوم قتالاً لا تبعناكم، ولكن نراكم تقاتلون اليوم واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نادى الشعب من أحد في عدوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره أحد، وقال «لَا يُقَاتِلُنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ». ومهياً رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه. وأمر على الرماة عبد بن جبير أخا بني عمرو بن عوف. والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم: «انْصَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا وَلَا تُؤَيِّدَنَّ مِنْ قِبَلِكُمُ الْوَلَدُ مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ التَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَحْطُطُ الْظُلْمَ تَبَرَّحُوا مَكَانَكُمْ». وظهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ، وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم بالخذق بعد هذا اليوم بقرى من ستين. وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميسرة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء، ثم كان بين الفريقين مأساة تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات - إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ أي تنزلهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة ومبعدة وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقولون عليهم بضمايركم. وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ تَفْشَلَا﴾ الآية، روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما

أحد؟ على قولين (أحدهما) أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وروى هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والريبع بن أنس وغيرهم^(٣)، واختاره ابن جرير. قال عباد عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْفَىٰ كُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: هذا يوم بدر^(٤)، رواه ابن أبي حاتم. ثم روى عن عامر الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَنْ يَخْفَىٰ كُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ إلى قوله ﴿مُسَوِّينَ﴾ قال: فبلغت كُرْزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمس^(٥)، وقال الريبع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف^(٦)، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَيْبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٧) إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ فالجواب أن التنصيص على الألف -ههنا- لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى: يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يعني: تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقون وتطيعوا أمري. وقوله تعالى: ﴿وَيَا تُوَكُّمَ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال الحسن وقتادة والريبع والسدي: أي من وجههم هذا^(٨)، وقال العوفي عن ابن عباس: من سفرهم هذا، ويقال: من غضبهم هذا^(٩).

(القول الثاني): إن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ آهْلِكَ تَبَوُّؤُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وذلك يوم أحد، ولكن لم يحصل الإمداد بالملائكة يومئذ؛ لقوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد.

(١) فتح الباري: ٦٣/٨. (٢) مسلم: ١٩٤٨/٤.

(٣) ابن أبي حاتم: ٥١٩-٥٢١/٢. (٤) الطبري: ١٧٤/٧.

(٥) ابن أبي حاتم: ٥٢٠/٢. (٦) الطبري: ١٧٨/٧.

(٧) ابن أبي حاتم: ٥٢٣/٢، ٥٢٤.

(٨) الطبري: ١٨٢/٧.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ الآية، قال: من الطافقتان بنو حارثة وبنو سلمة. وما نحب -وقال سفيان مرة- وما يسري أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَبَّاهٌ﴾^(١) وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة^(٢).

التذكير بنصر الله يوم بدر مع قلة العدد والعدة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي: يوم بدر، وكان في يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة ثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك، وخرب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم وسان، وسعون بعيراً، والباقون مشاة، ليس معهم من غنم جمع ما يحتاجون إليه. وكان العدو يومئذ ما بين السبعائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة تكامله، والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وجهه وتزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخرى الشيطان وجهه، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين، وحزبه النقيضين، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي قليل عدوكم، ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ كُنُوزُكُمْ فَلَمْ تَفْعَلْ مَعَكُمْ شَيْئًا﴾ أي: «غفور رحيم». وبدر: محلة بين مكة والمدينة تعرف بئرها، مسوية إلى رجل حفرها، يقال له: بدر بن النارين، وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْفَىٰ كُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَا أُوتُوكُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا لِيُبَدِّدَ رَيْبَكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّينَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٩﴾

[النصر بالملائكة]

اختلف المفسرون في هذا الوعد، هل كان يوم بدر أو يوم

وقوله تعالى: ﴿تُؤَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِمِائَةِ الْغُفْرَانِ أَتَلُمُوتُكَ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بالسيا، وقال أبو إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان سبيا الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ^(١)، وكان سيهاهم أيضًا في نواصي خيلهم. وقال مكحول: مسومين بالعائم. وكان سبيا الملائكة يوم بدر عائم سود، ويوم حنين عائم حر. وروى عن ابن عباس، قال: لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر ^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن عباد أن الزبير رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عامة صفراء معتجرا بها، فنزلت الملائكة عليهم عائم صفر ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم، وتطمينًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإننا النصر من عند الله الذي لو شاء لا تنصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ لَا نَصْرَ لَهُمْ وَلَكِنْ يَبْتَغُوا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ وَلَئِنْ فُتِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبْعِلَ أَعْمَلُكُمْ ۖ سَتَهْلِكُ سُلُوكُكُمْ بِاللَّهُمْ ۖ وَيَجْهَلُوكَ اللَّهُ عَقْلًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ۖ وَلَهُذَا قَالَ هَٰذَا: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ^(٤) أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام. ثم قال تعالى: ﴿يَقْطَعُ طَرَفَايِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ أَيَّ أَمْرِكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجَلَادِ لَمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَلَهُذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمَكْنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمَجَاهِدِينَ، فَقَالَ: ﴿يَقْطَعُ طَرَفَايِنَ أَيَّ لِيَهْلِكَ أُمَّةٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ ۖ أَيَّ يَخْزِيهِمْ وَيُرْهِمُ بَغِيظَهُمْ لَمَا لَمْ يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا. وَلَهُذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ يَقْتُلُوا ۖ﴾ أي يرجعوا ^(٥) خَائِبِينَ أي لم يحصلوا على ما أملوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَيُّ بَلِ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَيَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ﴾ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ﴾ وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ﴾ قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ^(٦)، ثم ذكر تعالى بقية الأقسام، فقال: ﴿أَوْ يُتَوَكَّبَ

عَلَيْهِمْ ۖ أَيَّ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ يُعَذِّبُهُمْ ۖ أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ﴾ أي يستحقون ذلك.

وروى البخاري عن سالم عن أبيه، أنه سمع رسول الله يقول: إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الصلاة ^(٧) اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا بعدما يقول: «سمع الله بحجته، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ﴾ ^(٨) الآية وهكذا رواه النسائي ^(٩). وروى الإمام البخاري عن سالم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا بين هشام رضي الله عنه اللَّهُمَّ الْعَنِ سُهَيْلَ عَمْرِو رضي الله عنه صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فنزلت هذه الآية لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَوْ يُتَوَكَّبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ فتب عليهم كلهم ^(١٠).

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد، قنت بعد الصلاة وربما قال: إذا قال: «سمع الله بحجته اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» أنشج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعيَّاش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرِّ وَخَيْلِهِمْ عَلَيْهِمْ سِنَّةٌ كَسَنِي يُوسُفَ يهتف بذلك وكان يقول في صلواته في صلاة الفجر اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا لأخياء من العرب حتى أنزل الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ﴾ الآية ^(١١).

وقال البخاري: قال حميد وثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوْا نَبِيَّهُمْ» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ﴾ ^(١٢).

- وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، كسر ربايعته يوم أحد، وشجَّ في جبهته حتى سال الدم على وجهه فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِزٍّ وَجَلٍّ» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَوْ يُتَوَكَّبَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ﴾ ^(١٣). ورواه مسلم ^(١٤).
- (١) ابن أبي حاتم: ٥٢٥/٢. (٢) ابن أبي شيبة: ١٤/١٤.
(٣) ابن أبي حاتم: ٥٢٧/٢. (٤) الطبري: ١٩٥/٧.
(٥) فتح الباري: ٧٣/٨.
(٦) النسائي في الكبرى: ٣١٤/٦. (٧) أحمد: ٩٣/٢.
(٨) البخاري: ٤٥٦٠. (٩) فتح الباري: ٦٥/٧.
(١٠) أحمد: ٩٩/٣. (١١) مسلم: ١٧٩١.

الصحيح: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَمَنْ تَجَرَّ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» الآية.

روى البزار عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» فَإِنَّ النَّارَ؟ قال: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قال: «حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، قال: «وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). وهذا يحتمل معنيين: (أحدهما): أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل. (الثاني): أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش وعرسها، كما قال الله عز وجل: «كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: «الَّذِينَ يُفِيقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» أي في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفي جميع الأحوال، كما قال: «الَّذِينَ يُفِيقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالزُّهْمِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضاه. والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله تعالى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى كتموه، فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣) وقد رواه الشيخان^(٤). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْتَبِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاءَ اللَّهِ مِنْ

نَمٍ قَالَ تَعَالَى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أي: بلع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه «يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» أي: هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يحال عما يفعل وهم يسألون «وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً» تَعَالَى اللَّهُ لَمَلِكُمْ مُقْلِحُونَ^(٥) وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٦) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٧) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ الْبَسْطِيطِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٨) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْرِئُوا مِنْ مَّا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ^(٩) أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن فَعَلَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَجَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَهُمْ لَا يَجْرُ الْغَيْلَانِ^(١٠)

[حرمة الربا على الإطلاق]

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا، وأكله أضغافاً مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية، إذا حلَّ أجل الدين: إما أن يقضي وإما أن يربي، فإن قضاؤه، وإلا زاده في المدة، وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر تعالى عباده بالتقوى لتعلمهم يقلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»^(١١).

[الندب إلى فعل الخيرات وحصول الجنة]

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات، والمسارة إلى نيل القربات، فقال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»^(١٢) أي: كما أعدت النار للكافرين، وقد قيل: إن معنى قوله: «عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» تنبيهها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: «بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» أي: فما ظنك بالظواهر؟!، وقيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقرب والمستدير عرضه كطولوه، وقد دل على ذلك ما ثبت في

(١) فتح الباري: ١٤/٦. (٢) كشف الأستار: ٤٣/٣.

(٣) أحمد: ٢٣٦/٢.

(٤) فتح الباري: ١٠/٥٣٥ ومسلم: ٤/٢٠١٤.

أخرجه في الصحيح بنحوه (٧).

وقد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: بلغني إيليس حين نزلت ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، بكى (٨) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه.

قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لم يستمروا على المعصية، ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرروا. والذنب تابوا عنه، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال عبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب الله عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْلِعُونَ عَنْفُسَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ عَنِ عِبَادِهِ﴾. وكقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَغْفِرِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩) ونظائر هذا كثير جدًا.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال وهو على المنبر: «ازْجُحُوا تَرْجُحُوا وَاغْفِرُوا يُغْفَرُوا وَذَلْ لَأَقْبَحَ الْقَوْلِ وَذَلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (٩) تفرد به أحمد. ثم قال تعالى بعد وصفهم وصفهم به ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُكَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: جزاءهم على هذه الصفات ﴿مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجَرُّهُ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ (١٠) أي: من أنواع المشروبات ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾

ما كثر فيها ﴿وَفِيهِمْ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١) هذا بيان للناس وهُدًى وموعظة للمتقين ﴿وَلَا تَهَمُّوْا وَلَا تَحْزَنْوْا وَأَنْتُمْ الْآعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح يشله. وذلك لأنهم ندوا لها بين الناس ولعلم الله الذين آمنوا وتجنه منهم شهداء. والله لا يحب الظالمين (١٣) ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ي

فنيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن برنوة - ثلاثا - ألا إن عمل النار سهل يسهوه والسعيد من وقى الفتنة وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد الله إلا مالا جوفه إيتانا (١)، انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتمنه حسن.

وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه أن رسول الله قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَا اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُجْحِرَهُ مِنْ أَيْ الْحُورِ شَاءَ» ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (٢). وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «مَا يُجْحَرُ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» (٣) رواه ابن جرير وكذا رواه ابن ماجه (٤). فقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله - عز وجل - . ثم قال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: مع كف الشر يعفون عن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقی في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث: «ثَلَاثٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا رَادَّ اللَّهُ عَبْدًا بِغَفْرٍ إِلَّا عِزًّا وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ» (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَلَعِمَ أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِلْمُ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمُ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : عِلْمُ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ. أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» (٦).

(١) أحمد: ١/٣٢٧.

(٢) أحمد: ٣/٤٣٨، ٤٤٠ وأبو داود: ١٣٧/٥ وتحفة الأحرار.

(٣) ١٣٩/٦ وابن ماجه: ٢/١٤٠٠.

(٤) أحمد: ٢/١٢٨.

(٥) أحمد: ٤/٢٣١.

(٦) أحمد: ٢/٢٩٦.

(٧) فتح الباري: ١٣/٤٧٤.

(٨) عبد الرزاق: ١/١٣٣.

(٩) أحمد: ٢/١٦٥.

يُحْصَلْ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تَبْتَغُوا، وَيُرَى اللَّهُ مِنْكُمْ
الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَقَارَنَةِ الْأَعْدَاءِ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٧٣) أي: قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم، تمنون لقاء العدو وتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدوكنكم فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني الموت شاهدهم وقت لمعان السيوف، وحدث الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال، والتكلمون يعبرون عن هذا بالتخيل. وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكيش، وعداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤١) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ مَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُؤَجِّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾ فَانْقَلَبُوا بِنُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَى دَارِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُحْسِنُونَ ﴿١٤٥﴾

[ذكر إشاعة موت الرسول ﷺ في غزوة أحد،

وبيان الموقف الصحيح في حالة موته [

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلتم محمداً، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، وَجَوَّزُوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

(۱) فتح الباری: ۱۸۱/۶ و مسلم: ۱۳۶۲/۳.

الَّذِينَ جَاءُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الضَّالِّينَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ ﴿١١٣﴾
الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ فَغَدَرْتُمْ عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١٤﴾

[بيان حكمة ما أصيبوا به يوم أحد]

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقُتل منهم سبعون ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني القرآن فيه بيان للأمور على حليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهَٰذِي زُرْعَةٌ﴾ يعني: القرآن فيه خبر ما قبلكم. ﴿وَهَٰذِي لُغُوبُكُمْ﴾، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي زاجر عن المحارم والمأثم. ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا بسب ما جرى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿إِن يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ مِّنَ الْقَوْمِ فَاصْرَحْ بِهِ نَشْرًا﴾ أي إن كنتم قد أصابكم جراح، وقتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ الْأَعْدَاءُ النَّارُونَ﴾ وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس في مثل هذا: لئلا يرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني يقتلون في سبيله، ويدلون مهجمهم في مرضاته ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ﴾ ١١٠ ﴿وَلْيَحْصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب. وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. وقوله: ﴿وَيَمْحَقِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا ونظروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٧) أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تنلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة الفرقة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْيِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نِسَاءٌ مُنَاقِلَاتٌ لَازِجَاتٌ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يُخَوِّلُوهُنَّ فَوْقَ عَلَى سُدُورِهِمْ فِي ظِلٍّ مُتَمَتِّعِينَ﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٧) أي لا

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿١﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه، قال ابن أبي نجیح عن أبيه أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً ﷺ قد قُتِلَ، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتِلَ، فقد بُلِّغَ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة^(١).

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي الذين قاموا بطاعته، وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا. وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ، أن الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فارس من مسكنه بالشَّح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيَّم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتِبَتْ عليك فقد ممَّتها.

وروى الزهري عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يحدث الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلَّا تلاها، وعن سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أي لا يموت أحد إلَّا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربهها الله له، ولهذا قال: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ كقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وكقوله: ﴿هُوَ

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ رَفَعَكُمْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُتَسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهذه فيها تشجيع للجبناء، وترغيب لهم في القتال، فإن الإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، كما روى ابن حاتم عن حبيب بن صهبان، قال: قال رجل من المسلمين وهو حُجْر بن عدي: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء المسلمين هذه النطفة - يعني دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم، أقحم الناس، فلما رآهم العدو قالوا: ديوان، فهربوا^(٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فُؤُودُهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فُؤُودُهُ مِنْهَا﴾ أي: من كان عمله لدنيا فقط، نال منها قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعد الدار الآخرة، أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا فُؤُودُهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئِنْ تُرِيدَ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾^(٤) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ لَشَدِيدٍ^(٥) وهكذا قال ههنا: ﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنبسط

من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم. ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم من أحد: ﴿وَأَكْبَرُ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ وَمَعَهُ رِيبٌ كَثِيرٌ﴾ قيل: معناه من نبي قُتِلَ، وقُتِلَ معه ريبون من أصحابه كثير؟ وهذا القول هو اختيار ابن جرير. وقيل: وكم من نبي قُتِلَ بين يدي من أصحابه ريبون كثير، وكلام ابن إسحاق في السير يقتضي قولاً آخر، قال: أي وكأين من نبي أصابه القتل وما ريبون، أي جماعات، فما وهنوا بعد نبينهم، وما ضعفوا بعد عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فجعل قول ﴿مَعَهُ رِيبٌ كَثِيرٌ﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السيوطي وبالف فيهِ، وله اتجاه لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ الآية وكذلك حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يقل غيره، وروى سفيان الثوري عن ابن مسعود

(١) دلائل النبوة: ٢٤٨/٣. (٢) فتح الباري: ٧/٧٥١.

(٣) ابن أبي حاتم: ٥٨٤/٢، وديوان جمع ديوان، وهو بالفارسية

والهندي: العفريت الكبير.

رَبِّيُونَ كَيْدًا^(١)، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخراساني: الربيون: الجموع الكثيرة^(٢).

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن (رَبِّيُونَ كَيْدًا) أي: يربون كثير، وعنه أيضًا: علماء صبر أبرار وأتقياء.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ يقتل بينهم^(٣) ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يقول: فما ارتدوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم أن ذلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، وقال ابن عباس: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ تخشعوا، وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا بغيرهم، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّالِّينَ﴾^(٤) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ ذَلُّوا رَبَّنَا أَفَغَرَّ ابْنَا ذُوقْنَاهُ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا وَانْصَرَفْنَا عَلَى الْفُتُورِ الْكَافِرِينَ^(٥) أي: لم يكن لهم هجير إلا ذلك فَنَاقَهُمُ اللَّهُ كُتَابَ الدُّنْيَا أي النصر والظفر والعاقبة ﴿وَحَسَنَ قَوْلُهَا الْآخِرَةُ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَاتَّخَذُوا الذِّكْرَ أَمْثَلًا إِنْ تَطِيعُوا الذِّكْرَ كَفَرُوا﴾ فَمَدَّكُمْ عَلَى آغْفِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَيْرِينَ^(٦) بَلِ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ^(٧) سَنُقْلِي فِي قُلُوبِ الذِّكْرِ نَبَأًا بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ الْكَاذُ وَيَسَّ مَثْوَى الظَّالِمِينَ^(٨) وَلَقَدْ مَدَّكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّوهُمْ بِآذِينِهِ^(٩) حَتَّى إِذَا اسْتَعِزَّ عَنَّا فَغَمَّ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَيْنَكُمْ مَا كُنْتُمْ يَئِسْنَ مِنَ الْإِنْسَانِ مِمَّا يُبْدِي الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُبْدِي الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَقَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ^(١٠) ثُمَّ دُفِضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^(١١) إِذْ تَضَعُوا وَكَلَّا سَبَّحْتَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرُونَ^(١٢) لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١٣)

اللهي عن طاعة الكفار، وبيان أسباب ما

حصل في أحد من النصر والهزيمة]

يخبر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْذُواكُمْ عَلَىٰ آغْفِكُمْ

فَتَقْلَبُوا وَخَيْرِينَ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه، فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾^(١٤) ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم، والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما اذخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿سَنُقْلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ الْكَاذُ وَيَسَّ مَثْوَى

الظَّالِمِينَ﴾^(١٥) وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال: «أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرِ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَرِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: أول النهار ﴿إِذْ تَخُسُّوهُمْ﴾ أي تقتلونهم ﴿بِآذِينِهِ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا قَسَيْتُمْ﴾ وقال ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل: الجبن^(١٧). ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرماة ﴿فَمِمَّا بَعَدَ مَا أَرَيْنَكُمْ مَا كُنْتُمْ يَئِسْنَ مِنَ الْإِنْسَانِ مِمَّا يُبْدِي الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُبْدِي الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَقَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أداهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك، والله أعلم، لكثرة عدد العدو وعددهم، وقلة عدد المسلمين وعددهم.

وروى البخاري عن البراء، قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُؤَيِّسُونَا» فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، ورفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة

(١) الطبري: ٢٦٦/٧.

(٢) ابن أبي حاتم: ٥٨٧/٢، ٥٨٨.

(٣) ابن أبي حاتم: ٥٩١/٢.

(٤) فتح الباري: ٥١٩/١، ومسلم: ٣٧٠/١.

(٥) الطبري: ٢٩١/٧.

الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لَا تُحْيِيوهُ» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لَا تُحْيِيوهُ». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتِلُوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله! قد أبقي الله لك ما يزنك، فقال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني^(١)، تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن الزبير أن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيته أنظر إلى خدعم هند وصواجاتها مشمرات هوارب ما دون أخذهن كثير ولا قليل، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتتنا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم. قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فدفعته لقريش فلا ثوابه.

وقوله تعالى: «ثُمَّ صَرَقَكُمْ عَنْهُمْ يَبْتَغِيكُمْ» قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي ابن النجار، قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتِلَ ﷺ^(٢).

وروى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه يعني أنس بن النضر، غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقى

سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد، إني أجد ریح الجنة دون أنرمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته بيناته أو بشامة، وبه يفر وثانون من طعنة وضربة ورمية بسهم، هذا لفظ البخاري وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس بنحوه^(٤).

[ذكر ما أصاب بعض المسلمين يوم أحد من الهزيمة وقوله تعالى: «إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي: في الجبل هارين مر أعدائكم. وقرأ الحسن وقتادة «إِذْ تَصْعَدُونَ» أي: في الجبل «وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» أي: وأنتم لا تلوون على أحد الدهش والخوف والرعب «وَأَرْسُولُكُمْ يَدْعُوكُمْ أَخْرَجَتْكُمْ» أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم، يدعوك ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكر. والسدي: لما شدَّ المشركون على المسلمين بأحد فهزمهم، وبعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فنادى عليها. وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، إِلَى اللَّهِ» فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إليهم، فقال: «إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» وَأَرْسُولُكُمْ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَتْكُمْ^(٦). وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد^(٧).

[دفاع الأنصار والمهاجرين عن الرسول ﷺ]

وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم، قال: رأيت طلحة شلاً، وقى بها النبي ﷺ، يعني يوم أحد^(٨). والصحيحين عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يبق مع رسول ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ، طلحة بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما^(٩).

وقال سعيد بن المسيب: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: نزل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال: «إِزْمِ فِدَاكَ وَأُمِّي»، وأخرجه البخاري^(١٠)، وثبت في الصحيحين عن

(١) فتح الباري: ٤٠٥/٧. (٢) ابن هشام: ٨٨/٣.

(٣) فتح الباري: ٤١١/٧. (٤) مسلم: ١٥١٢/٣.

(٥) ابن أبي حاتم: ٦٠٩/٢. (٦) الطبري: ٣٠١/٧.

(٧) الطبري: ٣٠٣/٧. (٨) فتح الباري: ١١٦/٧.

(٩) البخاري: ٤٠٦٠ ومسلم: ٢٤١٤.

(١٠) البخاري: ٤٠٥٥.

سعد بن أبي وقاص أيضًا قال: رأيت يوم أحد عن يميني، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان منذ القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني ميكائيل - عليهما السلام ^(١).

وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير، قال: كان أبي بن خلف أخو بني نضلة قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بعث رسول الله ﷺ حلفته، قال: «بَلِّ أْنَا أَقْتَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فلما كان أحد، أقبل أبي في الحديد مقنعا وهو يقول: لا نجوت إن عاهد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير، أخو بني عبد الدار، بقي رسول الله ﷺ معه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف، من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة، وطعنه فيها بحربة، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أبوك يا أبا بن خلف؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ «بَلِّ أْنَا أَقْتَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي، لعل ذي النجان لما أتوا أجمعون، فمات إلى النار «فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّيْرِ». وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه، عن الزهري، عن سعد بن المسيب بنحوه.

وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد، أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ، وضربت رباغيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته، حتى إذا صار رمادا ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم.

وقوله تعالى: «فَأَنْزَلْنَاهُ سُلَاطِنًا يَنْصُرُهُمُ اللَّهُ» أي فجازاكم غمًا على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان. وقال ابن جرير: وكذا قوله: «وَأَلْصَقْنَاهُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ» أي على جذوع النخل ^(٢)، قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل قتل محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهم أَنْ يَنْتَلُونَا» وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قيل: قُتِلَ محمد ﷺ، كان ذلك عندهم أعظم من

الهزيمة، رواهما ابن مردويه، وقال مجاهد وقادة: الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثاني: ما أصابهم من القتل والجراح، وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه. وعن السدي: الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني إشراف العدو عليهم. وقوله تعالى: «لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ» أي: على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم «وَلَا مَا أَصَابَكُمْ» من الجراح والقتل، قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف والحسن وقتادة والسدي ^(٣)، «وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ» سبحانه ويحمده لا إله إلا هو جل وعلا.

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّعَاسًا يَفْشِي طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» ^(٤) إِنْ الَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ^(٥)

[إنزال الأمانة، وهي النعاس أثناء الغزوة على

المؤمنين، وذكر هلع المناققين]

يقول تعالى متمتا على عبادته فيما أنزل عليهم من السكينة والأمانة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مُسْتَلْثَمُو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: «إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمْنًا مِّنْهُ» الآية، وروى البخاري عن أنس، عن أبي طلحة، قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه ^(٦)، وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن أنس، عن أبي طلحة،

(١) البخاري: ٤٠٥٤ ومسلم: ٢٣٠٦.

(٢) الطبري: ٣٠٤/٧. (٣) ابن أبي حاتم: ٦١٣١/٢.

(٤) فتح الباري: ٧/٢٢.

(٥) فتح الباري: ٧٦/٨ وتحفة الأحوذى: ٣٥٨/٨.

قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حقيقته من النعاس. لفظ الترمذي وقال: حسن صحيح^(١)، ورواه النسائي أيضًا عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقى عليه النعاس، الحديث^(٢).

قال: والطائفة الأخرى المتأفون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعته وأخذله للحق ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي إنما هم كذبة، أهل شك وريب في الله - عز وجل -، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ بَدُو الْقَوْمِ أَمَنَةً مُعَاسًا يَفْقَهُونَ طَوَافِقَهُ وَمِنْكُمْ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَوَطَافِقَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ نَخْلَبَ الرَّسُولَ وَنَلْمُؤُنَّ إِلَيْهِمْ أَهْلِيهِمْ أَيْدًا﴾ إلى آخر الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الرب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفطعية تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعهم إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لقول معتب^(٣)، رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا يُجَاد عنه، ولا مناص منه، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَجِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي يختبركم بما

جرى عليكم؛ ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضرائر.

[ذكر تنويع بعض المؤمنين يوم أحد وبيان العقوبة لهم] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا وَمِنْكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي ببعض ذنوب السالفة كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة السالفة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنب، ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، روى الإمام أحمد عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد عتبة، فقال له الوليد: مالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثم فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عينين، قال له عثم يقول: يوم أحد ولم أخلف عن بدر، ولم أترك ستة عمر، فانطلق فخبّر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله إني لم أفر عينين، فكيف يعبرني بذنب قد عفا الله عنه؟ فقال له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا وَمِنْكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأما قوله تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد، وأما قوله: إني لم أفر يوم بدر، فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَا خَافَتُنَا إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّرُ وَيُمِيتُ بِمَا تَصَلَّوْنَ بَصِيرَةً﴾ ولكن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تَمُوتُونَ لَمَنْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً حَبْرٍ وَمَا يَجْمَعُونَ ﴿وَلَيْنَ لَكُمْ قِتْلَتُمْ لَئِنْ لَمْ تُحْسِرُوا﴾

[النهي عن مشابهة الكفار في تعليق الموت وأمر القدر بغير مشيئة الله تعالى]

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم (١) تحفة الأحوذى: ٣٥٨/٨ والنسائي في الكبرى: ١/٦/١ والحاكم: ٢/٢٩٧. (٢) النسائي في الكبرى: ١/٦/٢٩ (٣) ابن أبي حاتم: ٢/٢٢٠. (٤) أحمد: ١/٦٨.

قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لجزره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ شَيْءٍ جَعَلَكُمْ لِينًا، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكُمْ وَبِهِمْ، وَقَالَ قَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم، و(ما) صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَسْتَفْهَمُ﴾ وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وهكذا هنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أي برحمة من الله، وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ، بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظ: الغليظ، والمراد به هنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي لو كنت سعيء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ولأن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(١).

[الأمر بالشورى والعمل بها]

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطبيقاً لقلوبهم؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاوهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغداد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن نقول: اذهب، فنحن معك، وبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو المُنْعِقُ ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم. وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصلحة الأحزاب بثلاث نهار المدينة عامية، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري

الذال عليه قلوبهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب؛ لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا: «مَوَدَّةُ آبَائِنَا فِي أَخْوَانِهِمْ» لِأَكْثَرِ نَفْسٍ فِي الْأَرْضِ» أي: كنوا في الغزو والفتنة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا عُزَّى﴾ أي: كانوا في الغزو والفتنة، وما قتلوا في الغزو، وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ سِرًّا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم؛ ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم، ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَخَيَّرُ بَيْنَ الْأَمْرِ وَالْخَلْقِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَجِي أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عَمَرٍ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِمُضَاهَاةٍ وَقَدَرِهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرٌ﴾ أي: علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَثَرُ لَمَغْفِرَةٍ﴾ أي: كنوا رخصة حريصاً يجمعون ﴿تضمن هذا أن القتل في سبيل الله، والموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني، ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصره ومرجعه إلى الله فموجله، فيجزيه بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَوْ قُلْتُمْ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ﴾.

﴿يَا رَحِيمٌ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ شَيْءٍ جَعَلَكُمْ لِينًا، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكُمْ وَبِهِمْ، وَقَالَ قَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم، و(ما) صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَسْتَفْهَمُ﴾ وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وهكذا هنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أي برحمة من الله، وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ، بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظ: الغليظ، والمراد به هنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي لو كنت سعيء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ولأن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(١).

[من صفات نبيينا محمد ﷺ الرحمة واللين]

يقول تعالى مخاطباً رسوله، تمتاً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به

(٧) الْقِيَامَةُ.

وروى الإمام أحمد عن أبي حيد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له: ابن التبية، على الصدقة، فقال: هذا لكم، وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على ذلك فقال: «مَا بَالُ الْعَامِلِ تَبِعْتَهُ فَبِجِيءٍ يَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأَمَّهُ فَيَنْظُرُ أَبْنَدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِي لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مَتَهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا حَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعُرُ، ثُمَّ يَدِيهِ حَتَّى رَأَيْنَا عَفْرَةَ إِبْطِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ ثَلَاثًا، وَهَشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، فَقَالَ أَبُو حَمِيدٍ: بَصَرَ عَيْنِي، وَسَمِعْتُ أَدْنَى وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. أَخْرَجَاهُ» (٨).

وروى أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام عن معاذ جبل، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسا أنري فرددت، فقال: «أَتَدْرِي لِمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصَيِّبُ شَيْئًا مِنْهُ، فَإِنَّهُ غُلُوبٌ» وَمَنْ يَغْلِبْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فغظمه، وعظم أمره، ثم قال: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدٌ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي؟ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدٌ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ خَمَحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي؟ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدٌ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفَقُ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي؟ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدٌ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي؟ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ» (١١) أَخْرَجَاهُ (١٢).

المشركين. فقال له الصديق: إنا لم نجعل لقتال أحد وإننا جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال ﷺ في قصة الإفك: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أَبْنُوا أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَوْهُمْ بِمَنْ وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا» (١). واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنهما، يشاورهم في الحروب ونحوها وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» (٢). ورواه أبو داود والترمذي، وحسنه النسائي (٣).

[التوكل على الله بعد المشورة]

وقوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ»، وقوله تعالى: «إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ» وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٧). وهذا كما تقدم من قوله: «وَمَا لَنْصُرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمُهَيَّزِ الْحَكِيمِ» ثم أمرهم بالتوكل عليه، فقال: «وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

[الغلول ليس من شأن النبي ﷺ]

وقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ»، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون (٤). وروى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعن رسول الله أخذها، قال: فأكثرنا في ذلك، فأنزل الله: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٥) وكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب (٦)، وهذه تبرئة له - صلوات الله وسلامه عليه - عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

ثم قال تعالى: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة، روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: «أَغْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ: ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَحْدُونِ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - يَقْبِضُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ

(١) البخاري: ٤٧٥٧. (٢) ابن ماجه: ٢/٢٣٣.

(٣) أبو داود: ٣٤٥/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٩/٨.

(٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/٢. (٥) الطبري: ٣٤٨/٧.

(٦) أبو داود: ٢٨٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٥٩/٨.

(٧) أحمد: ١٤٠/٤.

(٨) أحمد: ٤٢٣/٥ والبخاري: ٧١٧٤، ٢٥٩٧ ومسلم: ٨٢٢.

(٩) تحفة الأحوذى: ٥٦٤/٤. (١٠) أحمد: ٤٢٦/٢.

(١١) فتح الباري: ٢١٤/٦ ومسلم: ١٤١٦/٣.

تعالى: ﴿يَمْعَشِرَ لَيْلِي وَالْأَيَّامَ أَلْمَأَاتِكُمْ رَسُولُكُمْ يَنْكُحُ﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعتة في فهم الكلام عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: القرآن والسنة، ﴿وَلَوْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الرسول ﴿لَإِنِّي ضَلُّلْتُ مِثْلَ﴾ أي لفي غيٍّ وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد.

﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَهُ قَدْ أَصَبْتُمْ مَنَازِلَهَا فَلَنِمَّ إِلَىٰ هَذَا قَلَّ
هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١٦) وَمَا
أَصَبْتُمْ يَوْمَ النَّجْدِ الْمُجَمَّانِ فَيَذِنَ اللَّهُ وَلِيْعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٧) وَلِيْعَلَّ
الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ
نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۚ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِ الْبَيْتِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ
لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَاللَّهُ أَكْلَمُ بِمَا
يَكْتُمُونَ﴾ (١١٨) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَاتِلُوا ۚ قُلْ
قَادَرُوا عَلَىٰ أَنْ فُتِنَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ كَيْدَ سُلَيْمَانَ ۚ وَلَقَدْ فُتِنَ

[سبب ما أصابهم يوم أحد وحكمته]

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْأَاصْبَبْتُكُمْ مُّصِيبَةً﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿فَدَأَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا، وأسروا سبعين أسيرًا، ﴿فَلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكسرت ربايعته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْأَاصْبَبْتُكُمْ مُّصِيبَةً فَدَأَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فَلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء. وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والريعي بن أنس والسدي ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي بسبب عصيانكم رسول الله ﷺ حين أمركم أن لا ترحوا من مكانكم ففعلتكم، يعني: بذلك الرماة

(١) أحمد: ٣٠/١ ومسلم: ١١٤ والترمذي: ١٥٧٤.

(٢) ابن أبي حاتم: ٦٤٦/٢ والطبري: ٣٦٧/٧.

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم
حير أبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان
شهيد وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد،
فقال رسول الله ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ عَلَّهَا - أَوْ
عَلَّيْتَهَا - ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ
فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قال: فخرجت
فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وكذا رواه
مسلم والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح^(١).

[ليس الأمين والغال سواء]

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَنَا كَمَنْ بَاءَ يَسْحَطُ مِنَّا اللَّهُ وَمَا لَهُ جَهَنَّمُ وَيُسْرًا لِّلصَّيْرِ ﴾ (١٣) أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجبر من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله والألم به، فلا يحمله عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم؛ وبئس المصير، وهذا لما نطأثر كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتْلُو آيَاتِنَا أَلَمْ يَكُن مِّن زِينَةِ الْحَقِّ كَمَن هُوَ آمَنٌ ﴾ وكقوله: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَرَجَتْ عِندَ اللَّهِ ﴾، قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات^(١)، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة، ودرجاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّي دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِصِعْرٍ لَّيًّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيوفهم إياها، لا يظلمهم خيرا، ولا يزيدهم شرا، بل يجازى كلّا بعمله.

[بَعَثَ نَبِيَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ نِعْمَةً عَظِيمَةً]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: من جنسكم، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَتَمِّ النَّاسِ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَاذُكُرُوا الطَّعَامَ وَيُخَشِّشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ وقال

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَذَنُ اللَّهُ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَتَمَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ يعني: أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذي رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين، يجرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثروا أسواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجئناكم، ولا تلقون قتالًا. قال الله عز وجل: ﴿هُمْ لِلْكَافِرِينَ مَوَازٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، لقوله: ﴿هُمْ لِلْكَافِرِينَ مَوَازٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَا قَوْمِ هُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جنده من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر. وهم أضعاف المسلمين، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قاتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَادِرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَمُوتُوا﴾ إن كنتم صديقين ﴿أَي:﴾ إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد أت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول ^(١).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُونَ ﴿٣٨٣﴾ فَرَجَيْنَ يَمَا عَاتَيْنَهُمْ ثُمَّ مِنْ فَصِيوَةٍ وَكَسَبَتْ يَأْتِيَنَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَزْدَانُ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨٤﴾ يَسْتَبَيِرُونَ يَبْتِمِعُونَ مَنْ شَاءَ وَفَضَّلُوا أَنْ يَكُونَ يُضْمِعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨٥﴾ الَّذِينَ اسْتَجَبُوا لِرَبِّهِمْ وَأَرْسَلْنَا مِنْهُمْ مَا أَصَابَهُمُ الْفَرَحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨٦﴾ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَبِّمُ الْوَسْكَالِ ﴿٣٨٧﴾ فَاثْقَبُوا بِبَيْعَةِ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَسْأَلْهُمْ سُوءَ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٣٨٨﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٨٩﴾

[فضل الشهداء]

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار وأرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. روى مسلم صحيحه عن مسروق، قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣٨٣﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل تضيء بالعرش، تشرع من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى قناديل القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشبهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء تشبهي ونحن تشرع من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتردوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن تراد أرواحنا في أجساد حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس له حاجة، تركوا» ^(٢). وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد.

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «القيامة نفس تموت، لها عند الله خير، يسر لها أن ترجع إلى الدنيا إلى الشهيد، فإنه يسر له أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى، يأتيه من فضل الشهادة» انفراد به مسلم ^(٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَانِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَهْزَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَأْتِي إِلَى قَنَادِيلِ

(١) الطبري: ٣٨٣/٧. (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣.

(٣) مسلم: ١٨٧٧، وأحمد: ١٢٦/٣.

وفي هذا الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ» وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقتل رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْلَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا»^(٧).

ثم قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلنا ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء، وثواباً أعطاهم، إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

[ذكر غزوة حمراء الأسد وفضل من شهدها]

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لما لا تمموا على أهل المدينة، وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم، ليرعبهم، ويريم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حَضَرَ الواقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه - لما سنذكره - فانتدب المسلمون

في ظلِّ العرش، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِيبِهِمْ وَمَا كُلَّهِمْ، مِنْ مُنْقَلَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، يَفْقَدُوا فِي الْجَهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿لَا تَحْزَنْ أَلِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَا بَعْدُهَا﴾^(٩) هكذا رواه أحمد، وكذا قال قتادة بن ربعٍ والضحاك: أنها نزلت في قتل أحد^(١٠).

وروى أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا؟» قال: قلت يا رسول الله، استشهد أبي، وترك ديناً وعبالاً، فقال: «أَلَا أَخْبَرُكَ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كَفَّاحًا»، قال علي: الكفاح المواجهة قال: سَلَى أَعْظَمَكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِيكَ نَبِيًّا، فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ: إِنْهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ فَلْيَبْلُغْ مَنْ وَرَأَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية^(١١).

وروى الإسماعيل أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا» تفرد به أحمد^(١٢). وقد رواه ابن جرير^(١٣) وهو إسناد جيد. وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحمل أن يكون انتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح والله أعلم.

وقد روي في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رحمه الله، رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(١٤).

(١) أحمد: ١/٢٦٥. (٢) الطبري: ٧/٣٨٩، ٣٩٠.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي: ٣/٢٩٩.

(٤) أحمد: ١/٢٦٦. (٥) الطبري: ٧/٣٨٧.

(٦) أحمد: ٣/٤٥٥.

(٧) فتح الباري: ٧/٤٤٥ ومسلم: ١/٤٦٨.

لَهُ شَجَاعًا أَفْرَعُ، لَهُ رَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَخَذٍ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني: بشدقيه - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ مَرٌّ لَّهُمْ﴾^(٣) إلى آخر الآية، تفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان في صحيحه^(٤).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَفْرَعُ يَبْتَعُهُ، يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَبْتَعُهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ» ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيَطَوِّقُونَ مَا بَحَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٥)، وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه^(٦) ثم قال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: «وَأَنْفِقُوا وَمَا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ» فإن الأمور كلها مرجعها على الله عز وجل. فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ يَتَعَلَّمُونَ خَيْرٌ﴾^(٧) أي: بنيانكم وضمايركم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيكَهُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُوا دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٨) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد^(٩) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِيمَانِنَا آلَا نُوْمِرُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٠) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ^(١١)

[وعيد الله للمشركين]

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيكَهُ﴾ الآية، رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

عن خبراً عن ذلك إخباراً مقروراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَكْثَرُ زِينَةٍ أَي: استبدلوا هذا بهذا﴾ كُنْ يَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا أَي: ولكن يضررون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْعِمُهُمْ بِذَوَائِقِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١٢) كقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسْقِئُ مِنْ ثَوَالٍ وَبَيْنَ (١٣) شَاعٍ لَهُمْ فِي الْخَبَرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (١٤)﴾ كقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكَلِمِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾ وكقوله: ﴿وَلَا تَحْجِجْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْهُمُ الرِّيسَ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (١٦)﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه ولبه، ويفتضح فيه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم بطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين فظهر خالفهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد^(١٧)، وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة^(١٨)، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من لأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (١٩) إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ رُجُومًا غُلُوقًا﴾^(٢٠) ثم قال تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: اطعوا الله ورسوله، واتبعوه فيما شرع لكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَنُفِثْنَاكُمْ أَمْرَ عَظِيمٍ﴾^(٢١).

[ذم البخل والوعيد عليه]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ مَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا يحسبن البخل أن جمع المال ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه. ثم أخبر بمال أمر ماله يوم القيامة، فقال: ﴿سَيَطَوِّقُونَ مَا بَحَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، روى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاةَ مِثْلٍ

(١) الطبري: ٤٢٤/٧. (٢) الطبري: ٤٢٤/٧. (٣) فتح الباري: ٧٨/٨. (٤) ابن حبان: ١٠٧/٥. (٥) أحمد: ٣٧٧/١. (٦) تحفة الأحوذى: ٣٩٣/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٧/٦. وابن ماجه: ٥٦٨/٢.

وقوله: ﴿سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨) ذلك بما قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ (١٩) أي يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُا إِلَيْنَا إِنَّا يُتُوبُونَ رُسُلًا حَتَّىٰ يَأْتَيْنَا بِغُرَابٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى تكذبا أيضا لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فقبلت منه، أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي وبنار تأكل القسارين المتقبلة، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٠) أنكم تتبعون الحق وتقادون للرسول.

ثم قال تعالى مسلينا لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢١) أي لا يبيدك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البينات، وهي الحجج والبراهين القاطعة، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المتلفة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٢) أي الين الواضح الجلي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (٢٣) ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا لَّوْن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ﴾ (٢٤)

[كل نفس ذائقة الموت]

يخبر تعالى إخبارا عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّمِّنْ عَلَيْهَا نَارٌ وَرَبُّنَا وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٥) فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحلة

العرش، ويفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرًا كما كان أولًا، وهذه الآية فيها تعزية للناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها صلب آدم، وانتهت البرية، أقام الله القيامة، وجازى الخلق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنصَبُوا أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

[لمن الفوز؟]

وقوله: ﴿فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ من جنب النار، ونجا منها، وأدخل الجنة فقد فاز كل من روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «مَوْضِعٌ سَوِيٌّ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» أَرَوُّوا شَيْئًا: ﴿فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ حديث ثابت في الصحيحين، من غير هذا الوجه بدون الزيادة (١)، وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم بن حبان صحيحه (٢) والحاكم في مستدركه (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ تصغر شأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، فليزائل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَأَبْقَى﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَوْثَرْتُمْ شَيْئًا وَفَسَحَ الْحَيَوةُ وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي السِّمِّ، فَلْيَنْظُرْ تَرْجِعْ إِلَيْهِ» (٥) وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (٦) هي متاع، هي متاع، متروكة، أولئك والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها، فخذوا هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

[المؤمن يبغى ويسمع من العدو الأذى]

وقوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغَنَّ بَنِيَّ مِنَ الْمَوْلَى وَالْجُوعِ وَتَقْصِرَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالتَّعَرُّثِ﴾ إلى آخر الآية.

(١) فتح الباري: ١٠٠/٦. (٢) ابن حبان: ٢٥٢/٩.

(٣) الحاكم: ٢٩٩/٢.

(٤) مسلم: ٢٨٥٨ والترمذي: ٢٣٢٤.

أَلِكْتَبِ لَوْ رُدُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَنًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿الْآيَةُ﴾ وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبد الأوثان: هذا أمر قد توجَّه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، وأسلموا^(١).

فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤدَّى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله والرجوع إلى الله عز وجل.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا بُشِّرُوكَ ﴿١٧٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾﴾

[ذم أهل الكتاب على نبذ العهد وكتمان الحق]

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدُّون الطفيف، والخط الديني السخيف، فبست الصفة صفقتهم، وبست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ، أنه قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَحَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٢).

[ذمهم على خداعهم وحبهم أن يحمدا بما لم يفعلوا]
وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما

لبي لا بد أن يتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو ماله، ويتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة ريد في السبلاء ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة، قبل وقعة بدر، مسلبيًا لهم عما ألهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرًا لهم بالصنع والصبر والعفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٠﴾﴾.

روى البخاري عن أسامة بن زيد، «أن رسول الله ﷺ ركب على جار عليه قطيفة فذكية، وأردف أسامة بن زيد وراه، يعود سعد بن عباد، في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين وعبد الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل، ودعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ: بلى يا رسول الله، فاعشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يحفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عباد، فقال له النبي ﷺ: «يَا سَعْدُ أَلَمْ نَسْعَ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ - يريد عبد الله بن أبي - قال: كذا وكذا، فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فوالذي نزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطاح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه، ويعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَهْلُ

(١) البخاري: ٤٥٦٦ ومسلم: ١٧٩٨.

(٢) الطبراني: ٤٠١/٨.

لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ «من ادعى دعوة كاذبة ليكثر بها، لم يزد الله إلا قلة»^(١) وفي الصحيح أيضاً «المنشع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٢). وروى الإمام أحمد أن مروان قال: اذهب يا رافع -لبوابه- إلى ابن عباس فقل: لئن كان امرئ منا فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل، معذباً لتعذب أجمعون، فقال ابن عباس: وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَيْسَوْا مَا يُبْشَرُونَ﴾^(٣) وتلا ابن عباس ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموا إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتبهم ما سألهم عنه^(٤)، وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم والترمذي والنسائي وفي تفسيريهما^(٥)، وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رحمه الله: أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتدوا إليه وحلفوا، وأجوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية، وكذا رواه مسلم بنحوه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَادِرٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦) أي: هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، والقدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قَوْلًا عَذَابًا لَّنَا^(٢) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن

تُخَلِّقُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ^(٣) وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الْآلِ الْبَرِّ^(٤) رَبَّنَا وَءَالِيَنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ^(٥)

[دلائل التوحيد لأولي الألباب]

وصفاتهم وقولهم ودعائهم

يقول الله تعالى: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكناسها واتساعها، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارت، وثواب، وبحار وجبال وقفار، وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألف والرائح والطعم والخواص، ﴿وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبها وتقارضها الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً. وكل ذلك تقدير الحكيم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: للناس النامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جليتها، وليس كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ لَا مُعْرِضُونَ﴾^(١) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِآلِهِمْ إِلَّا هُمْ يُشْرِكُونَ^(٢) ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ آيَاتِنَا وَقُعُودَهُمْ عَلَىٰ جُوبِهِمْ﴾. كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنَّ تَسْتَطِيعَ قَقَاعًا، فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِيعَ فَعَلَىٰ جَنْبٍ»^(٣) أي: لا يقصر ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم والسبب ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيه من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته

(١) البخاري: ٦١٠٥، ٦٦٥٢ ومسلم: ١/١٠٤.

(٢) مسلم: ٢١٢٩. (٣) أحمد: ١/٢٩٨.

(٤) فتح الباري: ٨/٨١ ومسلم: ٤/٢١٤٣ ونحفة الأحوي

٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣١٨.

(٥) البخاري: ٤٥٦٧ ومسلم: ٢٧٧٧.

(٦) فتح الباري: ٢/٦٨٤.

ركعة، ثم أذن بلال فصلي ركعتين، ثم خرج فصلي بالناس الصبح^(١). وكذا رواه مسلم^(٢).

وروى ابن مردويه عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد ابن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر:

زرباً تزدد حباً

فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل» قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك، فقام إلى القربة. فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكي حتى بل لحيته، ثم سجد فبكي حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣)» ثم قال: «وَيُلَينَ قُرْآنَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»^(٤).

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثِيَ مِنْكُمْ مِنْ بَعْضِ قَالِدِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقِيلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيَقَاتِلُهُمْ وَلَا تُدْخِلُهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَوَابِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ»^(٥)

[استجابة الله لأولي الأبواب]

يقول تعالى: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ» أي: فأجابهم، روى سعيد بن منصور عن سلمة - رجل من آل أم سلمة - قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثِيَ» إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول طعنة قدمت علينا^(٦)، وقد رواه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه^(٧).

وخياره ورحمته. وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: «رَكَائِنَ مِنْ بَنِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون^(٨)، وملح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قسماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتكفرون في خلق السموات والأرض، قائلين: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا أَمْ نَجْزِي الَّذِينَ أساءوا بما عملوا، ونجزى الذين أحسنوا بالحسن. ثم تزهوه عن العتب وخلق الباطل، فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: عن أن تخلق شيئاً باطلاً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو منزّه عن النقائص والعيوب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيضنا لأعمال نرضى بها عنا. ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، ونحيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ» أي: أهتته وأظهرت حربه لأهل الجمع، «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» أي: يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أردت بهم «رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ» أي: داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ «أَنَّهُ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا» أي: يقول: آمنا بربكم فآمنا، أي: فاستجبنا له واتبعناه، «رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» أي: بيا ربنا واتباعنا نبيك، «فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» أي: استرهم، «وَكُفِّرْ عَنْ سَيِّئَاتِنَا» فيما بيننا وبينك، «وَتُوفِّقْنَا مَعَ الْأَنْزَارِ» أي: ألحقنا بالصالحين، «رَبَّنَا وَمَا لَنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ» قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على نبيك ﷺ «وَمَا لَنَا بِهَذَا الظَّنِّ» أي: على رؤوس الخلائق، «إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ» أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري - رحمه الله - عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٩)» ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة

(١) فتح الباري: ٨/ ٨٣. (٢) مسلم: ١/ ٥٣٠.

(٣) موارد الظمان: ١٣٩. (٤) سعيد بن منصور: ٣/ ١١٣٦.

(٥) الحاكم: ٢/ ٣٠٠.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّى لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلَ مِنْكُمْ بَنِي آدَمَ﴾ هذا تفسير للإجابة، أي: قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران، ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي ضابقتهم المشركون بالأذى حتى أخرجوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَيَتَكَبَّرُونَ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقُصُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده، ويعقر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتل في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني خطايائي؟ قال: «نَعَمْ» ثم قال: «كَيْفَ قُلْتُ؟» فأعاد عليه ما قال، فقال: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَهُ فِي جَبْرِيلَ آتِئاً»^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ وَلَا ذُلَّ مِنْهُمْ جَنَّتْ تَحْتِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري في خلاها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿فَوَاكِينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزئياً كثيراً. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً.

﴿لَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لَهُمُ الْيَهَادُ ﴿١٧٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٧٨﴾

[التحذير من الاختيار بأهل الدنيا،

وبيان ما للصالحين من الجزاء]

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة، والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم،

ويصحبون مرتين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيها هم استدراجاً، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ﴾ وَيَسَّ لَهُمُ الْيَهَادُ ﴿١٧٧﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ لَا يَقْلِبُونُ﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِخُ فِي الصُّورِ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٧﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْشَلُوا وَإِلَى رَبِّكُمُ الْمَصِيرُ﴾ وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ اللَّهِ الَّذِي يَعْطِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر ما لهم إلى النار، قال بعده: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ اللَّهِ الَّذِي يَعْطِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ضيافة من عند الله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ وروى جرير عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدق فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ ويقول: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ اللَّهِ الَّذِي يَعْطِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّمَا تَمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا فِي ظُلْمِهِمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾

﴿وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَأْوِلُ إِلَيْهِمْ يَخْشَوْنَ لِلَّهِ لَا يَشْكُرُونَ بِمَا كَانَتْ تَكُنَّ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا لَكُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا آمِنُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٧٩﴾

[حال بعض أهل الكتاب وأجرهم]

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بحق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْكُرُونَ بِمَا كَانَتْ تَكُنَّ قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتفون ما بأيديهم من البشارات بما هم فيها، وذكر صفته ونعته ومبعثه، وصفة أمته، وهؤلاء خير أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى.

مَرَّتَيْنِ^(٤) فذكر منهم: «وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِهِ» وقوله تعالى: «لَا يَشْكُرُونَ يَذُنُّونَ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا» أي: لا يكتفون بما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المردودة منهم، بل يذلون ذلك مجاناً، ولهذا قال تعالى: «أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» قال مجاهد: «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يعني: سريع الإحصاء، رواه ابن أبي حاتم وغيره.

[الأمر بالمصابرة والمرابطة]

وقوله تعالى: «يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا» قال الحسن البصري رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرأ ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم^(٥)، وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حنيف ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم، وروى ابن أبي حاتم هنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْنَحُ اللَّهُ بِهِ الْخَطَّابَ وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ إِسْبَاحُ الضُّوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَاتِّبَاعُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَلْيُكْمِ الرِّبَاطُ فَلْيُكْمِ الرِّبَاطُ فَلْيُكْمِ الرِّبَاطُ»^(٦).

وقيل: المراد بالمرابطة هنا مرابطة الغزو في نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٧).

وروى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ يُؤْمِنُونَ^(٨) وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ^(٩) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا^(١٠)» وقد قال تعالى: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُوهُ حَتَّى يَلَاقَوْهُ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ» الآية. وقد قال تعالى: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَنْتَوِيكُمُ الْبَاقِي وَيُفَكِّرُونَ^(١١)»، وقال تعالى: «لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتُولُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَاتِلَ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ^(١٢)»، وقال تعالى: «قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لِلْآذِقَانِ سَجْدًا^(١٣) وَيَقُولُونَ سَخِرَ رَيْنًا إِنْ كَانِ وَعَدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا^(١٤) وَيَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكَوْنَ مِنْهُ خُشْعًا^(١٥)».

وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يفلحوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يمتدون ويتطاولون للحق، كما قال تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ» إلى قوله تعالى: «فَاتَّبَعُوا اللَّهَ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» الآية. وهكذا قال مجاهد: «أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» الآية، وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة «كهيعص»^(١٦) بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطارقة والقساوسة، بكى وبكوا معه حتى انخسبوا بظاهم^(١٧). وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نجاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إِنَّ أَخَاكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ» فخرج إلى الصحراء، فصمَّهم وصلى عليه.

وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يعني مسلمة أهل الكتاب^(١٨). وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ، وبالذي اتبعوا محمداً ﷺ. رواها ابن أبي حاتم. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ

(١) ابن هشام: ١/٣٥٧.

(٢) فتح الباري: ٧/٢٣٠ ومسلم: ٢/٦٥٧.

(٣) الطبري: ٧/٤٩٩.

(٤) فتح الباري: ٦/١٦٩ ومسلم: ١/١٣٤.

(٥) الطبري: ٧/٥٠٢.

(٦) مسلم: ١/٢١٩ والنسائي: ١/٨٩.

(٧) البخاري: ٢٨٩٢.

رِيحُ الْعَرِيرِ لَكُمْ وَتَحْسُنُ عِبْرَتُنَا

وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الْأَبْيَضُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالٍ نَبِيًّا

قَسُولٌ صَاحِبُ صَادِقٍ لَا يَكُ

لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي

أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارِ نَاهٍ

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطَلِقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكُ

قَالَ: فَلَقِيتُ الْفَضِيلَ بْنَ عِيَاضٍ بِكَتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

فَلَمَّا قَرَأَهُ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ

وَنَصَحَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْحَدِيثَ؟ قَالَ: قُلْتُ

نَعَمْ، قَالَ: فَارْتَبِطْ بِهَذَا الْحَدِيثِ، كَرَاهٍ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ

أَبَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَيْنَا، وَأَمِلَ عَلَيَّ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ

مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِمَنِي عَمَلًا أَنَا لَهُ ثَوَابُ الْمَجَاهِدِينَ

سَبِيلَ اللَّهِ، فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّيَ فَلَا تُفْطِرَ، وَتَصُومَ وَلَا

تُفْطِرَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَقَالَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّقْتُ ذَلِكَ

بَلَّغْتَ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتُ أَنْ قَرَسَ الْمَجَاهِدُونَ

لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ الْحَسَنَاتِ»^(١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَتَقُوا اللَّهَ» أَي: فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ

وَأَحْوَالِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَازِ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّمَا

اللَّهُ حَيْثُمَا كُنْتُ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمْتَحِنُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ

بِخُلُقِ حَسَنٍ»^(٢) «لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُوهُ» أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ

قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُوهُ» وَأَنَّ

اللَّهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَنِي إِذَا لَقِيتُمُونِي

(١) مسلم: ١٩١٣. (٢) أحمد: ٢٠/٦.

(٣) أبو داود: ٢٠/٣. وتحفة الأحوذ: ٢٤٩/٥.

(٤) ابن حبان: ٦٩/٧. (٥) الترمذي: ١٦٣٩.

(٦) البخاري: ٢٨٨٦. (٧) الطبري: ٥٠٣/٧.

(٨) أحمد: ٢٣٦/٥. (٩) تحفة الأحوذ: ١٣/٦.

(١٠) الطبري: ٥١٠/٧.

قَالَ: «رَبَّاطٌ يَوْمَ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامٍ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانَ»^(١)

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُنْتَحَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»^(٢)

وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ

حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣)، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا^(٤).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهَا النَّارُ حَتَّى يَكُتَّ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَحَيْرَتِهِ

بِأَنْتَ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٥).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدُّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيسَةِ

إِنْ أُعْطِيَ رِضِي وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ وَإِذَا شِيبَكَ فَلَا

أَنْتَقَشَ طَوْبَى لِعَبْدٍ أَخِيذَ بَعْتَانِ قَرَسُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَتْ رَأْسُهُ

مُعْبَرَةً قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ

كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشْفَعْ»^(٦).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى

عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ، وَمَا يَتَخَوَّفُ

مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ بَعْدَ مَوْثِقِ

مِنْ مَنَزَلَةٍ شَدِيدَةٍ يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَهَا فَرْجًا، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عَسَرَ

يَسْرِينَ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَازِبُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُوهُ»^(٧)

وَقَدْ رَوَى الْخَافِضُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجُمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ مِنْ

طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي سَكِينَةَ، قَالَ: أَمِلَ عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ

ابْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِطَرَسُوسَ، وَوَدَعْتُهُ لِلْخُرُوجِ،

وَأَنْشَدَهَا مَعِيَ إِلَى الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ،

وَفِي رِوَايَةٍ سَنَةُ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ.

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا

لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْتَبُّ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِمُوعٍ

فَنُحُورُنَا بِإِلْمَائِنَا تَنْخَضِبُ

أَوْ كَانَ يُنْعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ

فَنُحُورُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَنْعَبُ

نهي تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة، نسأله
برك على الكتاب والسنة آمين.

[تفسير] سورة النساء

[مبينة، وبعض ما لهذه السورة من فضائل]

قال العوفي عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة.
وتدروى ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير وزيد بن
نابت، وروى الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود
قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسري أن لي بها
دنيا وما فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و﴿إِنْ
كُنْتُمْ كَافِرِينَ مَا يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ
شَيْئًا بِهِ وَيُغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية [وفي رواية: وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ
سِوَاَ أَنْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
(١) ثم قال: هذا إسناد صحيح، إن كان عبد الرحمن
سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك.

وروى الحاكم عن ابن عباس قال: سلوني عن سورة
نساء فإن قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث
صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ لَكُمُ الزَّوْجَاتِ
وَمِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

[الأمر بالتقوى والتذكير بالخلق وصلة الأرحام]

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك
ومنها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة،
وهي آدم عليه السلام ﴿وَنَخْلَقُ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها
سلام، خلقت من ضلعه الأيسر، من خلقه وهو نائم،
فستقظ فرأها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه، وفي الحديث
صحيح: ﴿إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلْعِ
فَلَا فَإِنَّ ذَهَبَ نَفْسَهُ كَثُرَتْ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا
وَفِيهَا عَوَجٌ﴾ (٣). وقوله: ﴿وَمِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ أي: وذراً
من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساءً، ونشرهم في أقطار
الارض على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم

إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال إبراهيم
ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: كما يقال: أسألك بالله
وبالرحم (٤)، وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون
وتعاهدون (٥)، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن برؤوها
وصلوها، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والضحاك
والربيع وغير واحد (٦) وقرأ بعضهم: (والأرحام) بالخفض على
العطف على الضمير في به، أي تساءلون بالله وبالأرحام، كما
قال مجاهد وغيره (٧).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: هو مراقب لجميع
أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشِيدٌ﴾ وفي
الحديث الصحيح: «اغْيِدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ
يَرَاكَ» (٨) وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب. ولهذا ذكر تعالى
أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، ليعطف بعضهم
على بعض، ويحنتهم على ضعفائهم. وقد ثبت في صحيح
مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ
حين قدم عليه أولئك النفر من مصر، وهم مجتازو النهر -
أي: من عريم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة
الظهر فقال في خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَجَعَلَ لَكُمُ الزَّوْجَاتِ وَمِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٩) وذكر تمام الحديث، وهكذا رواه أحمد وأهل
السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة (١٠)، وفيها: ثم يقرأ
ثلاث آيات هذه منها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ الآية.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَالْأَرْحَامَ﴾ (١١) ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالكم إلى
أموالكم إِنَّهُ كَانَ حَوْصًا كَثِيرًا (١٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ مَثَلُ ذَٰلِكَ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فَاذْكُرُوا

(١) الحاكم: ٣٠٥/٢. (٢) الحاكم: ٣٠١/٢.

(٣) فتح الباري: ٤١٨/٦. (٤) الطبري: ٥١٩/٧.

(٥) الطبري: ٥١٨/٧. (٦) الطبري: ٥٢٢، ٥٢١/٧.

(٧) الطبري: ٥١٩/٧. (٨) فتح الباري: ١٤٠/١.

(٩) مسلم: ٧٠٥/٢.

(١٠) أحمد: ٣٥٨/٤ والنسائي: ٧٥/٥ وابن ماجه: ٧٤/١.

مَكَتَ إِبْنُكُمْ إِنِّي أَذِي لَا تَقُولُوا ﴿٥﴾ وَأَنَا الْيَسَاءُ صَدَقْتَنِي خَلَّةٌ
فَلَمْ يَصِلْ لَكَ عَنْ شَيْءٍ وَنَمَتَ فَسَاءَ فَكَلَّوْهُ هَيْتَ مَا رِيكَ ﴿٦﴾

[الامر بحفظ أموال اليتامى]

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبْذُلُوا الْيَتِيمَ بِالطَّلَإِ﴾ وقال سعيد بن المسيب والزهرري: لا تعط مهزولاً وتأخذ سمياً^(١). وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً^(٢). وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد، وي طرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم^(٣). وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والسدي وسفيان بن حسين: أي لا تخطوها فتأكلوها جميعاً^(٤). وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أي إثماً كبيراً عظيماً^(٥). وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك وأبي مالك وزيد ابن أسلم وأبي سنان مثل قول ابن عباس^(٦) والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

[النهي عن نكاح اليتيمة بصدقات دون]

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا طَابَ لَكُمْ مِنْ أَلَيْسَاءَ مَثَقٌ﴾ أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه.

وروى البخاري عن عائشة: أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها علق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العلق وفي ماله^(٧). ثم روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، قالت: يا ابن أخي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فهو أن ينكحهن إلا أن يقسطوا لهن.

ويلغوا بين أعلى ستهن في الصداق، وأمروا أن ينكح طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأقول: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي الْيَسَاءِ﴾، قالت عائشة: وقول الله في الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة إذا كانت قليلة المال والجمال، فهو أن ينكحوا من رغبة ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبة عنهن إذا كن قليلات المال والجمال^(٨).

[قصر الزواج على أربع من النساء]

وقوله: ﴿مَثَقٌ وَلَكُنَّ وَرَيْعٌ﴾ أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن، إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَنَكَحَ رَسُولًا أَوْ كَاتِبًا﴾ ورَيْعٌ أي: أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة للدلالة على عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية، يرى ابن عباس وجمهور العلماء: لأن المقام مقام امتنان وإباحة كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره.

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه أن غيلان بن صندب الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: ﴿يَنْهَى أَرْبَعًا﴾ فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، ونسب بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيا من السمع سمع بموتك فقفذه في نفسك، ولعلك لا تفتن إلا قليلاً. وإيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن في مالك لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجمك أبي رغال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن الدارقطني والبيهقي وغيرهم، إلى قوله: ﴿اخْتَرْتُمُنَّ﴾ وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد^(٩).

وجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع

(١) الطبري: ٥٢٥/٧. (٢) الطبري: ٥٢٥/٧.

(٣) الطبري: ٥٢٦/٧. (٤) الطبري: ٥٢٨/٧.

(٥) الطبري: ٥٣٠/٧. (٦) الطبري: ٥٣٠/٧.

(٧) فتح الباري: ٨٧/٨. (٨) فتح الباري: ٨٧/٨.

(٩) أحمد: ١٤/٢. والآم: ٤٩/٥. والترمذي: ١١٢٨. وابن

١٩٥٣ وسنن الدارقطني: ٣/٢٧١ والبيهقي: ٧/٨٢.

عَنْ سَيِّدِ مَتْنِهِ تَقَرُّوا بِهَذَا مَتْنِيَّكُمْ.

﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ مِنْهَا وَأَسْوَهُمْ وَقُولُوا هَذَا قَوْلًا قَدْرًا﴾ (١) وَابْتَلُوا لِيَسْمَعَنَّ هَذِهِ سَعَىٰ ۚ فَإِنَّ أَعْيُنَنَا مِنْهُمْ رُئِينَا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَسْعِفْ بِأَلْمَعْرِفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِذَلِكَ حَسِيبًا

[الحجر على السفهاء]

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قيامًا، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغير، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل، وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه، حجر عليه، وقال الضحاك عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بنوك والنساء (٢)، وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك: هم النساء والصبيان (٣)، وقال سعيد بن جبير: هم اليتامى (٤)، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء (٥).

[الأمر بالإنفاق على المحجورين بالمعروف]

وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ مِنْهَا وَأَسْوَهُمْ وَقُولُوا هَذَا قَوْلًا قَدْرًا﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، يقول: لا تعدد إلى مالك وما خولك الله، وجعله لك معيشة، فتعطيهم امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم (٦). وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا هَذَا قَوْلًا قَدْرًا﴾، يعني في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة ومن تحت: الحجر بالفعل من الإنفاق في الكسائي والأرزاق والكلام الطيب وتحسين الأخلاق.

رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة، وقد أسلمن معه، فلما لم يأسك أربع، وفراق سائرهن، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف طريق الأولى والأخرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

[الاكتفاء بالواحدة عند خشية عدم العدل]

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَدْرُوا نُفُوسَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: فإن خفيتم من تعدد النساء أن لا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة، أو على الجوارى لراوي، فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل بحسن، ومن لا فلا حرج. وقوله: ﴿وَلَا تَدْرُوا أَلَّا تَدْرُوا﴾ أي أن لا تجوروا. يقال: عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار. وقد روى ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عائشة عن النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَدْرُوا أَلَّا تَدْرُوا﴾ قال: لا تجوروا (٧). قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة موقوف، وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس وعائشة ومجاهد وعكرمة والحسن، وأبي مالك والربيع والنخعي والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: لا تملوا (٨).

[إعطاء الصداق واجب]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَتَمُّ لِنَسَاءِ صَدَقَاتِهِنَّ مِثْلُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النحلة المهر (٩)، وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة: نحلة: فريضة، وقال مقاتل وقتادة وابن جريج: نحلة أي: فريضة. زاد ابن جريج: مسألة (١٠)، وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: واجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبًا بغير حق، ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع صداق إلى المرأة حتمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما منع النيحة ويعطي النحلة طيبًا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو من شيء منه فليأكله حلالًا طيبًا، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طِبَّنَا لَكُمْ﴾

(١) ابن حبان: ١٣٤/٦. (٢) الطبري: ٥٤٩/٧. ٥٥١.

(٣) الطبري: ٥٥٣/٧. (٤) الطبري: ٥٥٣/٧.

(٥) الطبري: ٥٥٣/٧. (٦) الطبري: ٥٦٢/٧.

(٧) الطبري: ٥٦٢/٧. (٨) الطبري: ٥٦٣/٧.

(٩) الطبري: ٥٦٤/٧. (١٠) الطبري: ٥٧٠/٧.

[الأمر باختبار اليتامى، ودفع أموالهم

لهم عند الرشد]

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل بن حيان: أي اختبروهم ^(١) ﴿حَقَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال مجاهد: يعني الحلم ^(٢)، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وفي سنن أبي داود عن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ «لَا يَتَمَّ بَعْدَ اخْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ» ^(٣) وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْمَخْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ» ^(٤).

أو يستكمل خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر، قال: عرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير ^(٥) واختلوا في إنبات الشعر الحشن حول الفرج، وهي الشعرة، والصحيح أنها بلوغ، وقد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي رضي الله عنه، قال: عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لن يثبت خلى سبيله، فكانت فيمن لم يثبت فخل سبيلي ^(٦)، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه ^(٧)، وقال الترمذي حسن صحيح.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ عَاسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة ^(٨) وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه.

[جواز الأكل للفقر من مال اليتيم

بقدر قيامهم عليه]

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافاً

ويداراً) أي مبادرة قبل بلوغهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فَلْيَسَّعَافَ﴾ من كان في غنية عن مال اليتيم فليست عنه، ولا يأكل منه شيئاً، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية على اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسَّعَافَ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه ^(٩). ورواه البخاري ^(١٠) أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: أن رجلاً رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: «كُلْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَدِّرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا وَمَنْ غَنِيَ تَقِي مَالَكَ - أَوْ قَالَ تَقْدِي مَالَكَ - بِإِلَهِهِ» شك حسين ^(١١)

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: بعد بلوغ الحلم، وإيناس الرشد، فحينئذ سلموا أموالهم، فإذا دفع إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وهذا أمر الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم، وسلموا أموالهم لثلاث بقع من بعضهم جحد وإنكار لما فيه وتسلمه، ثم قال: ﴿وَكُنْ بِأَهْلِهِ حَيِيًّا﴾ أي: وكفى بالله حياءً وشهداً وربيّاً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وتسليمهم للأموال، هل هي كاملة موفرة أو منقصة مخحولة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها؟ الله بذلك كله، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحْبَبْتُ لَكَ لَا تَأْتِرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَلِنَ مَالُ يَتِيمٍ» ^(١٢).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوعًا﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ^(١٣) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ

(١) الطبري: ٥٧٤/٧. (٢) الطبري: ٥٧٥/٧.

(٣) أبو داود: ٢٩٣/٣. (٤) أبو داود: ٥٥٨/٤.

(٥) البخاري: ٢٦٦٤ ومسلم: ١٨٦٨.

(٦) أحمد: ٣١٠/٤.

(٧) أبو داود: ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذى: ٢٠٧/٥ والنسائي: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢.

(٨) الطبري: ٥٧٦/٧. (٩) الطبري: ٥٩٣/٧.

(١٠) فتح الباري: ٨٩/٨. (١١) مسند أحمد: ٢/٢١٥.

(١٢) مسلم: ١٤٥٨/٣.

يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى، وهو الرؤوف الرحيم، أن يرضخ لهم شيء من الوسط، يكون براً بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم.

[العدل في الوصية]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يمجّره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب. ولينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة^(٦)، وهكذا قال مجاهد وغير واحد^(٧)، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعود، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث قال: «الثلث، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ». ثم قال ﷺ: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٨).

[الوعيد لمن أكل مال اليتيم]

وقيل: المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِتْرَافًا وَوَيْدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾، حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس^(٩)، وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً، فإنما يأكل في بطنه ناراً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١٠) أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفِيقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّخَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،

وَمِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ يَأْخُذُوا بِحَبْلٍ مُنْتَصِفٍ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١١).

[الأمر بالتوريث والرضخ لحاضري]

القسمة من غير الورثة]

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، أي: جميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستون في أصل الورثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يليق به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه حصة كل حصة النسب. وقد روى ابن مردويه عن جابر قال: جاءت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن لي ابنتين، وقد مات أبوهما، وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وسيأتي هذا الحديث عند أبي المراث بسياق آخر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية، قيل: المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب^(١٢)، روى البخاري عن ابن عباس^(١٣): ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾. قال: هي محكمة وليست بمنسوخة. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: هي قائمة يعمل بها^(١٤)، وقال الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية، قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم^(١٥)، وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن بكر وأبي العالية والشعبي والحسن^(١٦)، وقال ابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وإبراهيم النخعي وعطاء بن رباح والزهري ويحيى بن يعمر: إنها واجبة، وقيل: هذا وصية يوصي به الميت، وقيل: بل هذه الآية منسوخة.

قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ وهي قسمة ميراث، وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا، إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا

(١) أبو داود: ٣/٣١٤. (٢) فتح الباري: ٨/٩٠.

(٣) الطبري: ٨/٨. (٤) الطبري: ٨/٨.

(٥) الطبري: ٨/٨. (٦) الطبري: ٨/١٩.

(٧) الطبري: ٨/٢١.

(٨) فتح الباري: ٥/٤٢٧ ومسلم: ٤/١٢٥٣.

(٩) الطبري: ٨/٢٣.

وَأَكُلَ الرِّبَا، وَأَكُلَ مَالَ النِّسَمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذَفَ الْمُخَضَّنَاتِ الْمُؤَمَّنَاتِ الْغَافِلَاتِ^(١).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ وَمِمَّا تَرَكَ ابْنٌ لَّهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمْ ثُلُثُ مَا تَرَكَ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِمَا أَوْتَيْنَاهُ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرَيْضَةُ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٢)﴾

[الأمر بالمواثيق والحض على تعلمها]

هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة من آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك، ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك. وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك. قال ابن عينة: إنما سمي الفرائض نصف العلم، لأنه يتلى به الناس كلهم.

[سبب نزول الآية]

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: عادي رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً فدعا بيا فتوضأ منه، ثم رش علي، فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(٣) وكذا رواه مسلم والنسائي^(٤)، ورواه الجماعة كلهم^(٥).

(حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية): روى أحمد عن جابر، قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ ماله، فلم يدع لهما مالا، ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ» قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدِ الثُّلُثَيْنِ، وَأُمَّهُمَا الثُّمْنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»^(٦). وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه^(٧)، والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة

من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخ ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلالته، ولكن في الحديث ههنا تبعاً للبخاري رحمه الله فإنه ذكره في الحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية والله أعلم.

[الأولاد يرثون بحساب للذكر مثل حظ الأنثيين]

فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنف فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل

مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وغيره المشقة، فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى، واستنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أنه تعالى أرحم بغيره من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فقلد أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «أرحم من السي تدور على ولدها، فلها وجدة من الميراث أخذته فألصقته بصدورها وأرضعته». فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقُولُ ذَلِكَ؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فَوَاللَّهِ أَرْحَمُ بِيَعَادِهِ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(٨) وروى البخاري ههنا عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للابوين لكل واحد منهما السدس والثالث، وجعل للزوج الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع^(٩).

(١) فتح الباري ٥/٤٦٢ ومسلم: ٩٢/١.

(٢) فتح الباري: ٨/٩١.

(٣) مسلم: ٣/١٢٣٥ والنسائي في الكبرى ٦/٣٢٠.

(٤) فتح الباري: ١/١١٨ ومسلم: ٣/١٢٣٤ وأبو داود: ٣٠٨/٣ وتحفة الأحوذ: ٨/٣٦٨ والنسائي: ١/٧٧.

ماجه: ٢/٩١١.

(٥) أحمد: ٣/٣٥٢.

(٦) أبو داود: ٣/٣١٤ وتحفة الأحوذ: ٦/٢٦٧ وابن ماجه: ٢/١٠٨.

(٧) مسلم: ٤/٢١٠٩. (٨) فتح الباري: ٨/٩٣.

مَنْهُمْ سُدُسٌ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي
ثُلُثٍ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ مِنَ
اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيلٌ ﴿١٢﴾

[ميراث الزوجين]

يقول تعالى: ولكم أبا الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا
متن عن غير ولد، فإن كان هن ولد، فلكم الربع مما تركن من
بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على
الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين
العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب.
ثم قال: ﴿وَلَكُمْ مِنَ الرِّبْعِ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ إلى آخره، وسواء
في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنان والثلاث
والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾... إلخ
الكلام عليه كما تقدم.

[تعريف الكلالة]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾ الكلالة
مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه،
والمراد هنا من يرثه من حواشيه، لا أصوله ولا فروعه، كما
روى الشعبي عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة،
فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن
خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة
من لا ولده ولا والد، فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن
أخالف أبا بكر في رأي رأيته^(١)، رواه ابن جرير وغيره.

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس قال: كنت آخر
الناس عهداً بعمر بن الخطاب، فسمعت يقول: القول ما قلت،
فقلت: وما قلت؟ قال: الكلالة من لا ولده ولا والد^(٢).
وهكذا قال علي بن أبي طالب وابن مسعود وصح من غير
وجه عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي
والنخعي والحسن البصري وقتادة وجابر بن زيد والحكم^(٣)،
وبه يقول أهل المدينة وأهل الكوفة والبصرة، وهو قول
الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجهور السلف والخلف، بل
جميعهم، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد.

[حكم أولاد الأم من غير أبيه]

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أي من أم كما هو في قراءة

بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص، وكذا
أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه ﴿فَلْيَكُنْ
مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ
الْثُلُثِ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: [أحدهم]
أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم. [الثاني]: أن ذكر
وإناتهم في الميراث سواء. [الثالث]: أنهم لا يرثون إلا إذا
ميتهم يورث كلاله، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد
ولد ابن. [الرابع]: أنهم لا يزدادون على الثلث، وإن
ذكورهم وإناتهم.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾
لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والخيف
يحرم بعض الورثة أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله
الفرصة، فمتى سعى في ذلك، كان كمن ضاد الله في حكمه
وقسمته. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله
﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِي وَارِثٍ﴾^(٤)

﴿يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُخْذِلْهُ جُنَّتْ جُنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ
وَمَنْ يَقِصْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ لَمْ يَلِدْ
نَارًا خَلِيلًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٥)

[الوعيد على تعدي الحدود في الموارث]

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب
قربهم من الميت، واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند عدمه،
حدود الله، فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ
يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولا
ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله ورسوله
وقسمته ﴿يُخْذِلْهُ جُنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦) وَمَنْ يَقِصْ
اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ يَخْذِلْهُ نَارًا خَلِيلًا فِيهَا
عَذَابٌ مُهِينٌ^(٧) أي لكونه غير ما حكم الله

(١) الطبري: ٥٣/٨. (٢) الطبري: ٥٩/٨.

(٣) الطبري: ٥٥-٥٧/٨.

(٤) أبو داود: ٢٨٧٠ والترمذي: ٢١٢١، ٢١٢٢ والنسائي: ٣٦٧٣ وابن ماجه: ٢٧١٢، ٢٧١٣.

فرض الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم
وحكم به ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.
روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ
الرَّجُلُ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً فَلِذَا أَوْصَى خَافَ
وَصِيَّتَهُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ
بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً فَيُغْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ
فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، قال: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١).

وروى أبو داود في باب الإضرار في الوصية من سنته عن
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ أَوْ الْمَرْأَةُ
طَاعَةَ اللَّهِ سَبْعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَخْضَرُ هُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتُجْبُ
لَهُمَا النَّارُ» وقال: قرأ علي أبو هريرة من ههنا: «وَمَنْ بَعْدَ وَصِيَّتِهِ
يَوْمَئِذٍ يَأْخُذُ بِنَاصِيَتِهِ مُضْكَأً» حتى بلغ «وَذَلِكَ الْعَوْرُ
الطَّيْبُ» (٢). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه (٣)، وقال

الترمذي: حسن غريب، وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل.
﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ مِنْ بَيْنَايَكُمْ فَانْتَهِدْ عَنْهَا﴾
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٤) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا
مِنْكُمْ تَنَادَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ
اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٥)

الامر بحبس الزانية في البيت،

ثم نسخ هذا الأمر

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت، فثبت زناها
بينة العادلة، هُجِست في بيت، فلا تمكن من الخروج منه إلى
أن تموت، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ﴾ يعني: الزنا
﴿مِنْ بَيْنَايَكُمْ فَانْتَهِدْ عَنْهَا﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَبِيلًا﴾
﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ﴾ يعني: الزنا ﴿مِنْ بَيْنَايَكُمْ فَانْتَهِدْ عَنْهَا﴾
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَبِيلًا﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن
عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور،
فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن
جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقادة وزيد بن
أسلم والضحاك، أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه.

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كان
رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، أثر عليه، وكره لذلك،

وتريد وجهه، فأنزل الله - عز وجل - عليه ذات يوم، فلما
سري عنه، قال: «خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ سَبِيلًا النَّيِّبَ
بِالنَّيِّبِ وَالْبَكْرَ بِالْبَكْرِ، النَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ، وَالْبَكْرُ جَلْدُ
مِائَةٍ ثُمَّ نَفَى سَنَةً» (١). وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من
طرق عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ ولفظه: «خُذُوا
عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ سَبِيلًا النَّيِّبَ بِالْبَكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ
وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالنَّيِّبُ بِالنَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ» (٢) وقال
الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا﴾ قال ابن عباس رضي الله
عنهما: أي بالشتم والتعير والضرب بالنعال (٣)،
وكان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم، وقال
مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكتفي (٤)، وكأنه يريد
اللواط. والله أعلم، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس،
قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَفْعَلُ عَمَلًا لَوْ لُوطٌ
فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٥).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: أقلعا ونزعا عما كانا
عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت، «فَأَعْرِضْنَا عَنْهُمَا» أي لا
تعفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا
ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. وقد ثبت في الصحيحين
«إِذَا زَنَّتْ أُمَةٌ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْلِدْنَهَا الْحَدَّ وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا» (٦) أي ثم
لا يعبرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّعْرَ بِيَهْلُوكُمْ بِتُوبَتِهِمْ يُؤْتُونَكَ
مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
(٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا
حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ

(١) أحمد: ٢٧٨/٢. (٢) أبو داود: ٢٨٨/٣.

(٣) تحفة الأحوذى: ٦/٣٠٤ وابن ماجه: ٩٠٢/٢.

(٤) أحمد: ٣١٧/٥.

(٥) مسلم: ١٣١٦/٣ وأبو داود: ٥٧٠/٤ وتحفة الأحوذى:

٤/٧٠٥ والنسائي في الكبرى: ٤/٢٧٠ وابن ماجه: ٨٥٢/٢.

(٦) الطبري: ٨٥/٨. (٧) الطبري: ٨٢/٨.

(٨) أبو داود: ٦٠٧/٤ وتحفة الأحوذى: ٥/٢١ والنسائي في

الكبرى: ٤/٣٢٢ وابن ماجه: ٨٥٦/٢.

(٩) فتح الباري: ٤/٤٩١ ومسلم: ٣/١٣٣٨.

وَهُمْ كَفَرُوا بِتَوْبَتِكُمْ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

[قبول توبة العبد ما لم يغفر]

يقول سبحانه وتعالى: إنما يتقبل الله التوبة عن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو قبل معاناة الملك الذي يقبض روحه، أي قبل الغررة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصي الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل، حتى ينزع عن الذنب ^(١)، وقال قتادة عن أبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة ^(٢)، رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة، قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأروا أن كل شيء عصي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره ^(٣). وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد، قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه ^(٤). وقال أبو صالح عن ابن عباس: من جهالة عمل السوء ^(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت ^(٦). وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب ^(٧). وقال الحسن البصري: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» ما لم يغفر ^(٨). وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب ^(٩). وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْرِغْ» ^(١٠) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب. ووقع في سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، وهو وهم، إنما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ^(١١).

قال تعالى: «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩﴾ فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص، ولهذا قال: «وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَتَقْبَلُ؟» وهذا كما قال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ» ﴿١٠﴾ والآيتين، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، كما قال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُولَئِكَ لَا يَتَّبِعُ النَّفْسَ الَّتِي نَفَسَتْ عَنْهُمْ لَمَنْ أَتَى مِنَ اللَّهِ مِنَ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» ﴿١١﴾ الآية.

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير

وقوله: «وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ»

الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته يقبل منه فدية ولو بملء الأرض. قال ابن عباس وأبو الربيع بن أنس «وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ» نزلت في أهل الشرك. وروى الإمام أحمد عن أسامة بن أنس أبا ذر حدثهم أن رسول الله ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ أَوْ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَقْعِ الْحِجَابُ» قيل: وما وقع الحجاب؟ «أَنْ تَخْرُجَ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ» ^(١٢)، ولهذا قال الله ﷻ: «وَأُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» أي موجعا شديداً يعني «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ» تَصْلُوهُنَّ لِتَدْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ مُبَيِّنَةٌ وَعَلَّيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسْكُوتٌ فَكُنَّ شَيْعًا وَبِحَسْبِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ كَثِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَزُوْجَ مَكَاتٍ زَوْجَ وَءَاتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا فَائِدَ لَكُمْ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبَيِّنَةٌ ﴿١٤﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُ وَكَانَ أَمْرُكُمْ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَیْظًا ﴿١٥﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَنَقِصًا وَسَاءَ سَبِيلًا

[معنى إرث النساء كرهاً]

روى البخاري عن ابن عباس - «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا» يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴿١٣﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزويجها شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوها، فهم أحق بها أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا» يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴿١٣﴾

[النهي عن الإضرار بالنساء]

وقوله: «وَلَا تَصْلُوهُنَّ لِتَدْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ»

- | | |
|--|------------------------|
| (١) الطبري: ٨٩/٨. | (٢) الطبري: ٨٩/٨. |
| (٣) عبد الرزاق: ١٥١/١. | (٤) الطبري: ٩٠/٨. |
| (٥) الطبري: ٩٠/٨. | (٦) الطبري: ٩٤/٨. |
| (٧) الطبري: ٩٤/٨. | (٨) الطبري: ٩٦/٨. |
| (٩) الطبري: ٩٤/٨. | (١٠) أحمد: ١٣٢/٢. |
| (١١) تحفة الأحوذى: ٥٢١/٩، وابن ماجه: ١٤٢٠/٢. | (١٢) فتح الباري: ١٣/٨. |
| (١٣) أحمد: ١٧٤/٥. | |

إسماكم لمن وكرهتهن، فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير. وفي الحديث الصحيح: «لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُفّاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرٌ»^(٥).

[النهاية عن استرداد الصداق]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبْدَاً﴾^(٦) أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة، ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن عما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال، وقد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا.

وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهي عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أبي العجفاء السلمي، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغلوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثني عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليستلي بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: كلفت إليك علق القربة^(٧)، ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق^(٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الحافظ أبو يعلى عن مسروق قال: ركب عمر ابن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صدق النساء. وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعائة درهم، فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعائة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قریش: فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء صداقهم على أربعائة درهم؟

(١) الطبري: ١١٥/٨ - ١١٧. (٢) الطبري: ١١٧/٨.

(٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٤/١٠. (٤) أبو داود: ٦٦/٣.

(٥) مسلم: ١٠٩١/١. (٦) أحمد: ٤٠/١.

(٧) أبو داود: ٥٨٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٥٥/٤ والنسائي:

١١٧/٦ وابن ماجه: ٦٠١/١.

نصاروهم في العشرة، لتترك لك ما أصدقها، أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِدَلِيلٍ مَبِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والضحاك وأبو قلابة وأبو صالح والسدي وزيد بن أسلم وسعيد بن أبي هلال: يعني بذلك: الزنا. يعني: إذا زنت فلنك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، وتضاجرها حتى تتركه لك، وتخالعها^(١)، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا فَرْقَتَهُمَا وَالْزَّانِيَةُ وَالزَّانِي عُكْرُمَةٌ وَالضَّحَّاكُ الْفَاحِشَةُ الْمُبِينَةُ النُّشُورُ وَالْعَصِيانُ﴾^(٢)، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا والعصيان، والنشور وبذاء اللسان، وغير ذلك. يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها؛ حتى تفرقه من حقها، أو بعضه، ويفارقها، وهذا جيد والله أعلم.

[الأمر بحسن عشرة النساء]

وقوله تعالى: ﴿وَعَايَرْتُمْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهم، وجسوا أفعالكم وحيثانكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٣) وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل للعشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين ﷺ، يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقتها بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال: «هَلْهُ يَتْلُكُ»^(٤). ويجمع نسائه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله، يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ. وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَحِبَّلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: فعسى أن يكون صبركم مع

[بيان المحرمات الأبديّة وغير الأبديّة]

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما ينبع من الرضاع، والمحارم بالصهر، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: حرمت عليكم سبع نسبا وسبع صهرا، **وَأُولَئِكَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ** الآية^(١)، وروى الطبري عن ابن عباس قال: يحرم من نسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَصَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ** (٢) فهن النسب.

وقوله تعالى: **وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرِّضَاعَةِ** أي: كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ الرِّضَاعَةَ مُحَرَّمٌ مِثْلُ الْحَرَمِ الْوِلَادَةِ»**، وفي لفظ مسلم: **«يَحَرَّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحَرَّمُ مِنَ النَّسَبِ»** (٣).

[قادر ما يحرم من الرضاغة ومدتها]

ولا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان فيما أنزل من القرآن، «عشر رضعات معلومات يحرمن»، نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن^(٤)، وفي حديث سهل بن سهل، أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالما مولى أبي حذيفة خمس رضعات^(٥).

ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاغة في سن الصغر دون الحولين. كما قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله: **«وَرَضَعْنَ وَلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ»**.

[حرمة أمهات الزوجات وبناتهن]

وقوله: **«وَأُمَّهَاتُكُمْ نِسَاءَكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»**، أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دُخِلَ بها أو لم يدخل، وأما الربيبة، وهي بنت المرأة، فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يسزوج بنتها؛ ولهذا قال: **«وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي**

حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن.

[الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن]

وأما قوله تعالى: **«وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ»** فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: **«وَلَا تُكْرَهُوا مُبْتَنِيَكُمْ عَلَى أُلُفٍّ إِنْ أَرَدْتُمْ مَخَصَّنًا»**. وفي الصحيحين: أن أم حبيسة قالت: يا رسول الله، انكح אחتي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان، قال: **«أَوْ تُحْيِيَنَّ ذَلِكَ؟»** قالت نعم. لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير אחتي، قال: **«فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي»** قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: **«بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ؟»** قالت: نعم. قال: **«إِنَّمَا لَوْ تَكُنْ رَبِّيبِي فِي حَجْرِي مَا حَلَلْتُ لِي، إِنَّمَا بِنْتُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَرْضَعْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةً، فَلَا تُعْرِضْنِ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ»**^(٦) وفي رواية للبخاري: **«إِنِّي لَوُلِّمْتُ أَنْزُوجَ أُمِّ سَلَمَةَ مَا حَلَلْتُ لِي»**^(٧)، فجعل المناطق في التحريم مجرد تزويجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك.

[تفسير الدخول]

ومعنى قوله: **«الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ»** أي: نكحتموهن، قاله ابن عباس وغير واحد^(٨). وقال ابن جريج عن عطاء: هو أن تهدي إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها. قلت: رأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها؟ قال: هو سواء، وحسبه، قد حرم ذلك عليها ابنتها^(٩).

[تحريم زوجات الأبناء دون زوجات المتبنين]

وقوله تعالى: **«وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ»**

(١) الطبري: ٨/١٤٢. (٢) الطبري: ٨/١٤١.

(٣) فتح الباري: ٩/٤٣ ومسلم: ٢/١٠٦٨.

(٤) مسلم: ٢/١٠٧٥. (٥) أبو داود: ٢/٥٥٠.

(٦) فتح الباري: ٩/٦٤ ومسلم: ٢/١٠٧٣.

(٧) فتح الباري: ٩/٦٢. (٨) الطبري: ٨/١٤٨.

(٩) الطبري: ٨/١٤٨.

أي: وحرمت عليكم زوجات آبائكم الذين ولدقوهم من أصلا بكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكُمْ لِيَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَعْيَابِهِمْ﴾ الآية، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾. قال: كنا نحدث - والله أعلم - أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ونزلت ﴿وَمَا جَعَلَ أَعْيَابُكُمْ إِبْنَاءَكُمْ﴾، ونزلت ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾^(١)، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد: أن هؤلاء الآيات مبهمات ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ ﴿وَأَمْهَنَتِ نِسَائِكُمْ﴾، ثم قال: وروى عن طاوس وإبراهيم والزهري ومكحول، نحو ذلك.

(قلت): معنى مبهمات أي: عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه.

[شبهة وجوابها]

فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاة كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه، فالجواب من قوله ﷺ: ﴿يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ﴾^(٢).

[تحريم الجمع بين الأختين في النكاح]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية. أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتك فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. فدل على أنه لا مشوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خير، فيمسك إحداها ويطلق الأخرى لا محالة. روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه، قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداها^(٣).

[تحريم المحصنات إلا إذا صرن ملك اليمين]

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ

أَيْتَنُكُمْ﴾ أي: وحرم عليكم من الأجنبية المحصنات وهم الزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتَنُكُمْ﴾ يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتَنُكُمْ﴾ فاستحللنا بها فروجهن^(٤)، وهكذا رواه الثرمذي^(٥) والنسائي^(٦)، وابن جرير^(٧)، ورواه مسلم في صحيحه وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا التحريم كتبته الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده والزموا شرعه وما فرضه.

[إحلال نكاح غير من ذكرنا]

وقوله تعالى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي ما عدل ذكرنا من المحارم، من لكم حلال، قاله عطاء وغيره^(٨)، وتعالى: ﴿أَنْ تَتَزَوَّجُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِجِينَ﴾ تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراي ما طهر بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِجِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك كما قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَتَيْنِ إِمَّا نِكَاحًا وَإِمَّا جُنُوبًا﴾ وقال مجاهد: نزلت في نكاح الجوارهن فريضة^(٩)، وقال مجاهد: نزلت في نكاح

[بيان متعة النساء وحرمتها]

وكان ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرؤون: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾^(١٠)، وقال مجاهد: نزلت في نكاح

(١) الطبري: ١٤٩/٨. (٢) مسلم: ١٠٧٢/٢.

(٣) أحمد: ٢٣٢/٤. (٤) أحمد: ٧٢/٣.

(٥) تحفة الأحوذفي: ٢٨٢/٤.

(٦) النسائي في الكبرى: ٣٠٨/٣. (٧) الطبري: ١٥٣/٨.

(٨) مسلم: ١٠٨٠/٢. (٩) الطبري: ١٧٢/٨.

(١٠) الطبري: ١٧٦/٨-١٧٨.

المرأة بإذنها لما جاء في الحديث: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا»^(٦) وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُكُمْ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وادفعوا ما همسورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أي عفاف عن الزنا، لا يتعاطيهن، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسْتَفْعِدَاتٍ﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة - وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، قال ابن عباس: المسافحات هن الزواني المعلنات^(٧)، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة. و﴿مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ يعني أخلاء، وكذا روي عن أبي هريرة ومجاهد والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني ويحيى ابن أبي كثير ومقاتل بن حيان والسدي، قالوا: أخلاء^(٨).

[على الأمة إذا زنت نصف عذاب الحرّة]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَتَرَكَ بِمُحْصَنَةٍ فَكَلْبَيْنِ يَصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ المراد بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والله أعلم. والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ أي: تزوجن، كما فسر ابن عباس ومن تبعه^(٩)، وقوله: ﴿يَصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذب الذي يمكن تنصيفه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي إنها يباح نكاح الإماء بالشرط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فحيث يزوج بالأمة، وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) الطبري: ١٧٦/٨.

(٢) فتح الباري: ٥٩٠/٩، ومسلم: ١٠٢٧/٢.

(٣) مسلم: ١٠٢٥/٢. (٤) الطبري: ١٨٠/٨.

(٥) أبو داود: ٥٦٣/٢. (٦) ابن ماجه: ٦٠٦/١.

(٧) الطبري: ١٩٣/٨. (٨) الطبري: ١٩٤/٨.

(٩) الطبري: ٢٠٢/٨.

المتعة^(١). والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، وعن حرم الحمر الأهلية يوم خيبر^(٢). وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه، أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذْنُتُ لَكُمْ فِي الْأَسْتِنَاعِ مِنَ النِّسَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُحْلِلْ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ نِسَاءً» وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَزَوَّجْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيقَةِ﴾ معناه كقوله: ﴿وَأَنذَرُكُمْ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبْرأتك منه أو عن شيء منه، فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وروى ابن جرير قال: زعم الخضرى أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسر، فقال: ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيت به من بعد الفريضة^(٤). يعني: إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَايِعَتِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَنذَرُكُمْ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْتَفْعِدَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَتَرَكَ بِمُحْصَنَةٍ فَكَلْبَيْنِ يَصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[جواز نكاح الإماء إذا لم يستطع نكاح الحرائر]

يقول تعالى: ومن لم يجد منكم طَوْلًا أي: سعة وقدرة. أن ينكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ أي: الحرائر العفائف المؤمنات. ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: تزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَايِعَتِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور ومراعاتها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور؛ ثم قال: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته، لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده، ليس لعبده أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بغيرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ غَائِرٌ» أي زان. فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج

﴿رُسُلُهُ لَيْسَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَتُؤْتِكُمْ مِنْهُ غَنِيَةً عَلَىٰ حِكْمَةٍ ۚ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَنْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَقْتُلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ۚ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۝﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعهم التي يجها ويرضاها، ﴿وَتُؤْتِكُمْ مِنْهُ غَنِيَةً﴾ أي: من الإثم والمحارم، ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَقْتُلُوا مِثْلًا عَظِيمًا﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن يقتلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإمام بشرطه، كما قال مجاهد وغيره ^(١) ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهيمته. وروى ابن أبي حاتم عن طائوس، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي في أمر النساء ^(٢). وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝﴾ إن تحببوا كبار ما تنهون عنه تكفروا عنكم سَيِّئَاتِكُمْ وَتَذَكَّرْكُمْ تَذَكَّرْكُمْ كَرِيمًا ۝

[النهى عن الكسب الحرام]

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الخيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى روى ابن جرير عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته، وإلا رددته ورددت معه درهمًا، قال: هو الذي قال الله عز وجل: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ^(٣) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما أنزل

اللَّهُ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل أموالنا، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس؟! فأنزل الله بعد ذلك ﴿لَيْسَ مِنَ الْآعْتَمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية، وكذا قال قتادة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَتَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالضم وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسببوا بها في تحصيل الأموال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^{(٩٤٢)</}

الكبائر، فقال: «الشُّرْكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وقال: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ قال: قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ شَهَادَةُ الزُّورِ - قال شعبة: أكبر ظني أنه قال: «شَهَادَةُ الزُّورِ»^(٧). أخرجه من حديث شعبة به^(٨).

(حديث آخر): أخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكرة عن أبيه، قال: قال النبي ﷺ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكان متكئا، فجلس فقال: «أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ؟» فإزال يكررها حتى قلنا: لبته سكت^(٩).

(حديث آخر فيه ذكر قتل الولد): وهو ثابت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ وفي رواية: أكبر، قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِهَذَا نَبَاً وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(١٠) ثم قرأ: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» إلى قوله «إِلَّا مَنْ تَابَ».

(حديث آخر): عن عبد الله بن عمرو وفيه ذكر اليمين الغموس. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، - أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ، - شعبة الشاك - وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ» رواه البخاري والترمذي والنسائي^(١١).

(حديث آخر): عن عبد الله بن عمرو في التسبب إلى شتم الوالدين، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يُلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يُسَبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيُسَبُّ أَبَاهُ، وَيُسَبُّ أُمُّهُ فَيُسَبُّ أُمَّهُ» وهكذا رواه مسلم^(١٢) وقال

ثبت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا^(١)، وهكذا رواه أبو داود^(٢)، وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحِدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَحْمِلُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسَيْمٍ فَسَيْمُهُ فِي يَدِهِ يَحْمِلُهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ تَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين^(٣)، وعن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك^(٤)، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسَيْفٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥) وقد أخرجه الجماعة في كتبهم ولهذا قال تعالى: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدَّوكَ وَطَلْعًا» أي: ومن يتعاطى ما نهى الله عنه معتديا فيه ظلما في تعاطيه أي: علما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه «فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا» الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل ليبى عن ألقى السمع وهو شهيد.

[تكفر الصفائر إذا اجتنبت الكبائر]

وقوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» الآية، أي إذا اجتنبتم كبائر الأثام التي بهم عنها، كفرنا عنكم صفائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: «وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا» وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضها منها، روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي، قال: قال لي النبي ﷺ: «أَذْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم، قال: «لَكِنِّي أَذْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ لَا يَنْطَهَرُ الرَّجُلُ فَيُخَسِّنَ طَهْرَهُ ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيَنْصَبُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ إِلَّا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ مَا اجْتَنَبْتَ الْمُفْلِتَةَ»^(٥)، وقد روى البخاري عن سلمان نحوه.

[السبع الموبقات]

(تفسير هذه السبع): وذلك بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفْبِقَاتِ» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّخِيفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١).

(حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن

(١) أحمد: ٤/٢٠٣، ٢٠٤. (٢) أبو داود: ٣٣٤.

(٣) البخاري: ٥٧٧٨، ومسلم: ١٠٩.

(٤) أحمد: ٤/٣٣. (٥) أحمد: ٥/٤٣٩.

(٦) فتح الباري: ٥/٤٦٢، ومسلم: ١/٩١.

(٧) أحمد: ٣/١٣١.

(٨) فتح الباري: ١٠/٤١٩، ومسلم: ١/٩١.

(٩) فتح الباري: ٥/٣٠٩، ومسلم: ١/٩١.

(١٠) فتح الباري: ٨/٣٥٠، ومسلم: ١/٩٠.

(١١) أحمد: ٢/٢٠١، والبخاري: ٦٦٧٥، وتحفة الأحوذى:

٣٠٢١ والنسائي: ٨/٦٣. (١٢) مسلم: ٩٠.

الترمذي: صحيح، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقَالَ تَحَرُّ»^(١).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢)

[التمني عن تمني ما فضل به غيره]

روى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا يغزو، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣) ورواه الترمذي^(٤) وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي كل يرث بحسبه، رواه الوالي عن ابن عباس، ثم أرشدناهم إلى ما يصلحهم، فقال: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا تمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٥) أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعلیم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٦).

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾^(٧) وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا^(٨)

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وأبو صالح وقتادة وزيد بن أسلم والسدي والضحاك ومقاتل بن حیان وغيرهم، في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أي ورثة^(٩)، وعن ابن عباس في رواية: أي عصبه، قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى.

قال: ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلکم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيان المؤكدة أنتم وهم،

فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدوهم في الأيمان المغالطة إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاهدات، وقد كان هذا ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاهدة. روى البخاري عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرون المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت من قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له^(١٠).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١١) وَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْنَاهُ حَفِظَتْ لِلْعَيْبِ وَمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهَ فِ قَوَّامُونَ وَأَهْجَرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَمْلَعْنَكُمْ فَلَا تَعْلَمْنَ عَلَيْهِنَ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا^(١٢)

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي الرجل قيم على المرأة، وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ كُنُوا أَهْلَهُمْ أَفْرَاقَهُ» رواه البخاري^(١٣) وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي من المهور والنفقات والكُلْف التي أوجبها الله عليهم هن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قima عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ الآية.

[علامة المرأة الصالحة]

وقوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أي من النساء ﴿فَقَنِينَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حَفِظْنَ لِلْعَيْبِ﴾ وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي

(١) البخاري: ٥٩٧٣ ومسلم: ٦٤.

(٢) أحمد: ٣٢٢٦/٦. (٣) تحفة الأحوذى: ٨/٣٧٧، ٣٧٥.

(٤) الطبري: ٨/٢٧٠، ٢٧١. (٥) فتح الباري: ٨/٩٦.

(٦) فتح الباري: ٧/٧٣٢. (٧) الطبري: ٨/٢٩٤.

غَيْرُ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(١) وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح^(٢)، قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر^(٣).

[لا سبيل على المرأة إذا أطاعت]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٤) تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو يتقم من ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنْتَيْهِمَا فَاغْتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا أَصْلَحْتُ يَوْفِيَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٥)

[تحكيم حكيمين عند خوف الشقاق بين الزوجين]

ذكر الحال الأول وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني وهو إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنْتَيْهِمَا فَاغْتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصوصتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا، فيظنرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفریق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته، وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة،

المحفوظ من حفظه الله^(٦). روى ابن جرير عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ أَمْرَةٌ إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهَا رَجُلٌ، وَإِذَا أَمَرَتْهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَيْبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَتَمَلَّكَ» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النَّسَاءِ﴾ إلى آخرها^(٧)، وروى الإمام أحمد أن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ»^(٨).

[النشوز وعلاجه]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُخَافُونَ شَوْهَرَهُمْ﴾ أي والنساء اللاتي يخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المعضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعضها وليخربها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته، لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ تَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(٩)، وروى البخاري عن أبي هريرة رضيه الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَايَسَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً وَلَمْ يَنْصَحْ رَجُلٌ زَوْجَهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُنْصَحَ»^(١٠)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُخَافُونَ شَوْهَرَهُمْ فَظُهُورُهمْ﴾. وقوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ﴾ في النصائح، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهجر هو أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره^(١١)، وكذا قال غير واحد، وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عباس في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها^(١٢). وفي سنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: «أَنْ تُطِيعَهَا إِذَا طَعِمَتْ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَبَتْ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُنْصَحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي بَيْتٍ»^(١٣). وقوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ﴾، أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالمهجران، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «نُفِّرُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، وَلَكُنَّ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا تَهْجُرْنَ فَرَسَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا

(١) الطبري: ٢٩٥/٨. (٢) الطبري: ٢٩٥/٨.

(٣) أحمد: ١٩١/١. (٤) تحفة الأخوذي: ٣٢٣/٤.

(٥) فتح الباري: ٢٠٥/٩. (٦) مسلم: ١٠٥٩/٢.

(٧) الطبري: ٣٠٢/٨. (٨) الطبري: ٣٠٢-٣٠٤/٨.

(٩) أبو داود: ٦٠٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٣٧٥/٥ وابن

ماجه: ٥٩٣/١ وأحمد: ٣/٥.

(١٠) مسلم: ٨٨٦/٨. (١١) الطبري: ٣١٤/٨.

(١٢) الطبري: ٣١٦/٨.

[حق الجار]

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قال أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني بينك وبينه قرابة^(٤)، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذي ليس وبينه قرابة^(٥)، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد ومهران والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن وقادة^(٦)، وقال مجاهد أيضًا في قوله: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني الرقيق في السفر^(٧)، وقد وردت الأحاديث بالجار الجار، فنذكر بعضًا منها والله المستعان.

(الحديث الأول): روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أن رسول الله ﷺ قال: «مَارَآلَ جَرِيرِلُ يُوسُفِي بِالْجَارِ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ»^(٨) أخرجاه في الصحيحين^(٩)

(الحديث الثاني): روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أن رسول الله ﷺ قال: «مَارَآلَ جَرِيرِلُ يُوسُفِي بِالْجَارِ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ»^(١٠) وروى أبو داود والترمذي عن قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه^(١١)

(الحديث الثالث): روى أحمد أيضًا عن عبد الله بن ابن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لْجَارِهِ» ورواه الترمذي وقال حسن غريب^(١٢)

(الحديث الرابع): روى الإمام أحمد عن المقداد بن أن رسول الله ﷺ قال: «مَا تَقُولُونَ فِي الرِّجَالِ قَالُوا: حَرَامٌ، حَرَمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَزِيَّ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَسْرَعُ مِنْ أَنْ يَزِيَّ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، قَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟» قَالُوا: حَرَمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ

قصرها على زوجها، ومنعوها التفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي الذي رضي يرث الذي كرهه ولا يرث الكاره الراضي^(١٣)، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يוכלها الزوجان، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفقة، ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضًا من غير توكيل.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ احْسَنُوا وَبَذَلُوا الْفَرْقَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْحَبْلِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَفِيًّا لَا فَخْرًا﴾^(١٤)

[الأمر بعبادة الله والإحسان إلى]

[الوالدين والأقربين وغيرهم]

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآتات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثم قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(١٥) ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلها سببًا لخروجه من العدم إلى الوجود، وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنَّ فَسَادًا وَأَنَا نُفُوسُكَ لَا أَتَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ كِسْفًا﴾ ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»^(١٦)، ثم قال تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم، ثم قال: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم، وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة.

- (١) الطبري: ٨/٣٢٥. (٢) فتح الباري: ١٣/٢٠٩.
(٣) تحفة الأخواني: ٣/٣٢٤. (٤) الطبري: ٨/٣٣٥.
(٥) الطبري: ٨/٣٣٨. (٦) الطبري: ٨/٣٣٥.
(٧) الطبري: ٨/٣٤١. (٨) أحمد: ٨٥/٢.
(٩) فتح الباري: ١٠/٤٥٥ ومسلم: ٤/٢٠٢٥.
(١٠) أحمد: ٢/١٦٠.
(١١) أبو داود: ٥/٣٥٧ وتحفة الأخواني: ٦/٧٢، ٧٣.
(١٢) أحمد: ٢/١٦٧.
(١٣) تحفة الأخواني: ٦/٧٥.

أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك، وروى ابن جرير عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي، قال: لا نجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية، ولا عاقلاً إلا وجدته جباراً شقيئاً، وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيئًا﴾ (٢٢)، وعن رجل من [بأنه] جيم، قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: «إِنَّكَ وَإِسْبَالُ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْخِيَلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخِيَلَةَ» (١١).

﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا نَّارٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آتَاهُمُ اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٢٩﴾

[ذم البخل]

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب، واليُسامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً وقد قال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنْ الْبُخْلِ» (١٢). وقال: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحْ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالْقِطْعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا» (١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعمة الله عليه، لا تظهر عليه ولا تبين، لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (١) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ أَيُّ

عَنْهُ آيَاتٌ أُتِرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ» (١١) تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَكَ نِدًّا وَفُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» (٢). (الحديث الخامس): روى الإمام أحمد عن عائشة، أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إِلَى أَقْرَبِيهِمَا مِنْكَ بَابًا»، ورواه البخاري (٣). وسيأتي الكلام في سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان.

[الأمر بالإحسان إلى المملوك]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت، يقول: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فجعل يرددها حتى ما ينطق بها لسانه (٤)، وروى الإمام أحمد عن المقدم بن مديكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ رُوْحَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ» (٥) ورواه النسائي (٦). وإسناده صحيح، والله الحمد.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقرهمان له: هل أعطيت الرقيق قرهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كُنْ بِالرِّقَةِ إِيَّاهُ أَنْ يَخْسَعَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قَوْمَهُمْ» (٧) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامَةٌ وَكِسْوَةٌ، وَلَا تَكْلِفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ» (٨) رواه مسلم أيضاً وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يَلْبِسْهُ مَعَهُ فَلْيَبَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لَقْمَتَيْنِ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ فِي حَرَّةٍ وَعِلَاجَةٍ» أخرجه (٩)، ولفظه للبخاري.

[إن الله لا يحب المتكبرين]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ (١٠)، أي مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغیض، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا﴾ يعني متكبراً «فَخُورًا» (١١) يعني يعُدُّ ما أعطى، وهو لا يشكر الله تعالى (١٠) يعني: يفخر على الناس بما

(١) أحمد: ٨/٦.

(٢) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١.

(٣) أحمد: ١٧٥/٦ والبخاري: ٦٠٢٠.

(٤) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤.

(٥) أحمد: ١٣١/٤. (٦) النسائي في الكبرى: ٣٧٦/٥.

(٧) مسلم: ٦٩٢/٢. (٨) مسلم: ١٢٨٤/٣.

(٩) فتح الباري: ٢١٤/٥ ومسلم: ١٢٨٤/٣.

(١٠) الطبري: ٣٥٠/٨. (١١) أحمد: ٦٤/٥.

(١٢) الأدب المفرد: ٨٣. (١٣) أبو داود: ٣٢٤/٢.

بحاله وشماله ﴿وَإِنَّ لَهُ لِحَبْلَ الْخَيْرِ لَشَدِيدًا﴾ (٨) وقال ههنا: ﴿وَيَكْفُرُونَ مَا بَاءَ اللَّهُ مِنْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧) والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويحجدها، فهو كافر لنعم الله عليه، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَكْرَمَهَا عَلَيْهِ» (١)، وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتابتهم ذلك، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلًا في ذلك بطريق الأولى، فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا أَلْتَّيْسِ﴾ فإنه ذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم: العالم، والغاوي، والمنفق، المراءون بأعمالهم: «يَقُولُ صَاحِبُ الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي سَبِيلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ» أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا، وهو الذي أردت بفعلك (٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدوهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سول لهم وأمل لهم، وقارنهم، فحسن لهم القباح، ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَتْهُمْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا يَكْفُرُونَ﴾ الآية، أي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجه التي يحبها الله ويرضاها، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٦) أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه، ويلهمه رشده، ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن الجنب الأعظم الإلهي الذي من طرده عن بابه، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عيادًا بالله من ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ

مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) فكيف إذا جئت من كل أمم بشهادة وحشتنا بك على هؤلاء شهيداً (١١) يومئذ يؤذ الذين كفروا وعصوا الرسول لوسنوى يوم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً (١٢)

[لا يظلم الله مثقال ذرة]

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفىها له، ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ الآية، وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَبْنِيْ إِبْنَاهُ أَنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَكُنْ بِهَا اللَّهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْأَاءً لِّسْرًا أَعْمَلْتُمْ﴾ (١) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٢) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣) وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا فَنَسُتُ وَجَدْتُمْ فِي قُلُوبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيَّتَانِ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ النَّارِ» وفي لفظ: «أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيَّتَانِ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا» ثم يقول أبو سعيد: أقروا أن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية (٤).

[هل يخفف العذاب عن المشركين ؟]

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً، وقد استدلل له بالحديث الصحيح أن العباس قال يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (١) وقد يكون هذا خاضاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُنَابُ عَلَيْهَا الرُّزْقَ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ» (٢).

(١) الطبراني الكبير: ١٨/١٣٥. (٢) النسائي: ٦/٢٤.

(٣) فتح الباري: ١٣/٤١٣، ومسلم: ١/١٦٧.

(٤) البخاري: ٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ومسلم: ٢٠٩.

(٥) مسند الطيالسي: ٤٧، ومسلم: ٢٨٠٨.

[معنى الأجر العظيم]

وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقادة
الضحاك في قوله: ﴿وَيُؤْتِي مِنَ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١٠) يعني:
خسة، يسأل الله رضاه والجنة، وروى ابن أبي حاتم عن
عثنان النهدي، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة مني لأبي
هريرة، فقدم قبلي حاجًا وقدمت بعده، فإذا أهل البصرة يأترون
من أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ
الْحَسَنَةَ الْفَافَ حَسَنَةً» فقلت: ويحكم ما كان أحد أكثر مجالسة
منى لأبي هريرة، وما سمعت منه هذا الحديث، فهممت أن
أخذه فوجدته قد انطلق حاجًا، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في
هذا الحديث، ورواه ابن أبي حاتم من طريق أخرى عن
أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت إخواني بالبصرة
يعلمون أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي
بِالْحَسَنَةِ الْفَافَ حَسَنَةً» فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي
الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي بِالْحَسَنَةِ الْفَافَ حَسَنَةً» ثم تلا هذه
الآية: ﴿تَمَنَّا مَتَّعَ الْحِكْمَةَ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١١).

[شهادة نبينا ﷺ على أمته يوم]

[القيامة وتمني الكفار الموت]

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَى هَذِهِ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾^(١٢) يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم
القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم
القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني الأنبياء عليهم
السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الآية؛ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ
نُعَذِّبُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، وروى
البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله
ﷺ: «أَقْرَأْ عَلَيَّ» قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك، وعليك
أقول؟ قال: «نَعَمْ إِنْ أُجِبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ عَنِّي» فقرأت
سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَذِهِ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾^(١٣) فقال:
«حَسْبُكَ الْآنَ» فإذا عيناه تدرقان^(١٤). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُذِ
يُذِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَوَسَّوْا الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا﴾^(١٥) أي لو انشقت وبلعتهن مما يرون من أهوال
الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله:

﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ يَكُنْ مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ
حَدِيثًا﴾^(١٦) إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه،
ولا يكتُمون منه شيئًا. وروى عبد الرزاق عن سعيد بن
جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف عليّ
في القرآن، قال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس هو
بالشك، ولكن اختلاف قال: فهات ما اختلف عليك من
ذلك. قال أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ
رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١٧) وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(١٨)
فقد كتموا. فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا
أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١٩) فانهم لما رأوا يوم القيامة أن
الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا
يتعاطى ذنب أن يغفروه، ولا يغفر شركًا جحد المشركون،
فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٢٠) رجاء أن يغفر لهم،
فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا
يعملون، فعند ذلك ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ
شِئْنَا لَوَسَّوْا الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٢١).

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى
تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ
مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِأُيُوهِيكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٢٢)

[النهي عن اقتراب الصلاة في حال السكر والجناية]

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال
السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محالها
التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازًا من باب إلى
باب من غير مكث، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل
عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية. فإن رسول الله
ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا.
فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر
بيانًا شافيًا. فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات، فلما
نزل قوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصَابُ وَالَّذِينَ
رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُونُ﴾^(٢٣) إلى قوله تعالى:

جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴿١﴾ أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فريدون الماء ولا يجدون عمراً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ ^(١٤) ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب رحمه الله ما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُدْأَوُا حَوْخُوحَةَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا حَوْخُوحَةُ أَبِي بَكْرٍ» ^(١٥) وهذا قاله في آخر حياته ﷺ، علماً منه أن أبا بكر رُفِّعَ سبيل الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيها يصلح للمسلمين فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلا بابه ﷺ، ومن روى: «إلا باب علي»، كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «تَاوَلْنِي الْخُمْرُ مِنَ الْمَسْجِدِ» فقلت: إني حائض، فقال: «إِنَّ حَيْضَتِكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ» ^(١٦) وله عن أبي هريرة مثله ^(١٧)، فيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم.

[بيان التيمم]

وقوله: ﴿وَأَن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أما المرض الميع للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء، فوات عضو أو شيئه أو تطويل البرء، ومن العلماء من جرح التيمم بمجرد المرض، لعموم الآية، والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير، وقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ﴾ هو المكان المظلم من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، وأما قوله: ﴿أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ﴾ فقرأ (لستم) و«لستم»، وهو كناية عن الجماع.

﴿فَقَدْ أَنْتُمْ مُّنْهَوْنَ﴾ ^(١٨) فقال عمر: انتهينا انتهينا ^(١٩). وفي رواية: فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربن الصلاة سكران ^(٢٠)، لفظ أبي داود. وذكرنا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم: عن سعد قال: نزلت في أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لحى بعير ففرز به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ﴾ الآية، والحديث بطوله عند مسلم ^(٢١)، ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه ^(٢٢).

(سبب آخر): روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلائناً، قال: فقرأ: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ^(٢٣) هكذا رواه ابن أبي حاتم، وكذا رواه الترمذي ^(٢٤)، وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها. وقد روى الإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نَسَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَنْتَبِهْ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ» ^(٢٥) انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم ^(٢٦)، ورواه هو والنسائي ^(٢٧). وفي بعض ألفاظ الحديث: «فَلَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَنْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسَهُ» ^(٢٨) وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب، إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأ، ولا تجلس ^(٢٩)، ثم قال: وروي عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبي عبيدة، وسعيد بن المسيب، وأبي الضحى، وعطاء، ومجاهد، ومسروق، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة، وعكرمة، والحسن البصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقتادة نحو ذلك ^(٣٠)، وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب، عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا

(١) أحمد: ٥٣/١. (٢) أبو داود: ٨٠/٤.

(٣) مسند الطيالسي: ٢٨. (٤) مسلم: ١٨٧٨/٤.

(٥) أبو داود: ١٧٧٣ ونحفة الأحوذى: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦.

(٦) الطبري: ٣٧٨/٨. (٧) تحفة الأحوذى: ٣٨٠/٨.

(٨) أحمد: ١٤٢/٣. (٩) فتح الباري: ٣٧٧/١.

(١٠) النسائي: ٢١٥/١. (١١) فتح الباري: ٣٧٥/١.

(١٢) الطبري: ٣٨٢/٨. (١٣) الطبري: ٣٨٤-٣٨١/٨.

(١٤) الطبري: ٣٨٤/٨. (١٥) فتح الباري: ٦٦٥/١.

(١٦) مسلم: ٢٤٥/١. (١٧) مسلم: ٢٤٥/١.

الصحيحين، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ حَسَنًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَتَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَقْبَتِي أَذْرَكَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ» وفي لفظ: «فَعِنْدَهُ طَهُورٌ وَمَسْجِدٌ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَصَمُ إِلَى قَوْمِهِ، وَيُعْتَصَمُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ^(٧) وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ، جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ» ^(٨) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» ^(٩) أي ومن عفووه عنكم وغفرانه لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة، أن تفعل على هيئة ناقصة، من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنبه حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء، فإن الله عز وجل قد أرحص في التيمم، والحالة هذه، رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

(ذكر سبب نزول مشروعية التيمم) روى البخاري عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بلدات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت عائشة: فعابني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن يده في خاصرتي، ولا يمنعي من التحرك

لقوله تعالى: «وَلَا تَلْعَنُوا مَنْ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تَسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ رِيشَهُ فَضَيْفَ مَا فَرَضْتُمْ» وقال تعالى: «يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَنْعَمُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُوهُنَّ؟» روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: «أَوْ لَتَمْسُكُنَّ النَّسَاءُ» قال: الجامع ^(١). وروي عن علي وأبي ابن كعب ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة ومقاتل بن حيان، نحو ذلك ^(٢).

وقوله تعالى: «فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: «يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَصِلَ مَعَ الْقَوْمِ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟» قال: بلى، يا رسول الله! ولكن أصابني جنبه ولا ماء، قال: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ» ^(٣) والتيمم في اللغة هو القصد، تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي قصدك والصعيد هو التراب فقط، لقوله تعالى: «فَضَحَّ صَعِيدًا زَلَقًا» ^(٤) أي تراباً أملس طيباً، ولما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن البيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ» ^(٥). فنخصص الطهورية بالتراب، في مقام الامتنان، فلما كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، والطيب ههنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، إلا ابن ماجه عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فَإِذَا وَجَدَهُ فَلْيُمْسِ بِشَرَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ» ^(٦) وقال الترمذي: حسن صحيح، وقوله: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ» التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لأنه لا بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، والصحيح أنه يكفي له مسح الوجه والكفين بضرية واحدة. روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزي، أن رجلاً أتى عمر، فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء، فقال عمر: لا تصل، فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين! إذ أنا وأنت في سرية فأجنبتا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ» وضرب النبي ﷺ يده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه ^(٦) وهذه الأمة مختصة بمشروعية التيمم، دون سائر الأمم، كما ثبت في

(١) الطبري: ٨/ ٣٩٢. (٢) الطبري: ٨/ ٣٩٢، ٣٩٣.

(٣) فتح الباري: ١/ ٥٤٥ ومسلم: ١/ ٤٧٤.

(٤) مسلم: ١/ ٣٧١.

(٥) أحمد: ٥/ ١٨٠ وأبو داود: ١/ ٢٣٥ ونخبة الأحوذ:

٣٨٨ والنسائي: ١/ ١٧١.

(٦) أحمد: ٤/ ٢٦٥.

(٧) فتح الباري: ١/ ٥١٩ ومسلم: ١/ ٣٧٠.

(٨) مسلم: ١/ ٣٧١.

إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا. فقال أسيد ابن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته^(١)، وقد رواه البخاري ومسلم^(٢).

﴿ثُمَّ تَرَىٰ بُنْيَانًا مُّبِينًا مِّنَ الْكُتُبِ يُشِرونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَعْيُنِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاجِعًا لِّيَا يَا لَيْسَنَّهُم وَطْعَنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾

[ذم اليهود على اختيارهم الضلالة وتحريف الكلم]

والعصيان ولي الألسن والطعن في الدين]

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشتركون بالضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليشترتوا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا، «وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ۝١٦﴾ أي: يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْيُنِكُمْ ۝١٧﴾ أي هو يعلم بهم ويحذرهم منهم، «وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝١٨﴾ أي: كفى به وليًا لمن لجأ إليه ونصيرًا لمن استنصره. ثم قال تعالى: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ۝١٩﴾ «مَن» في هذا لبيان الجنس كقوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ۝٢٠﴾، وقوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۝٢١﴾ أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدًا منهم وإفراء «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۝٢٢﴾ أي: يقولون: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، هكذا فسره مجاهد وابن زيد^(٣)، وهو المراد، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، وقوله: «وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ ۝٢٣﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٤)، وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله، «وَرَاجِعًا لِّيَا يَا لَيْسَنَّهُم وَطْعَنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٤﴾ أي يهودون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي، وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: «يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ۝٢٥﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرون «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا فِي الَّذِينَ ۝٢٦﴾، يعني بسبهم النبي ﷺ، ثم قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٧﴾ أي: قلبي مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء من الله لهم. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: «فَقُولُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرِيعًا ۝٢٨﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إلا نافعًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَنتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ فَذَرُوهَا وَعَلَىٰ أَذْبَارِهَا ۚ تَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٢٩﴾ الله لا يغير أن يشرك به، ويغير ما دُونَ ذلك لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٣٠﴾

[دعوتهم إلى الإيمان مع التهديد]

يقول تعالى أمرًا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على أئمتهم رسولهم محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهددًا لهم أن يعللوا بقوله: «مِّن قَبْلُ أَن تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ فَذَرُوهَا وَعَلَىٰ أَذْبَارِهَا ۝٣١﴾ العوفي عن ابن عباس: وطمسها: أن تغمي «فَذَرُوهَا» أذبارها، يقول: نجعل وجوههم من قبل أفئيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه^(٥)، وكذا قتادة وعطية العوفي^(٦)، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، ومثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سُبُل الضلالة، يبرعون ويمشون القهقري على أذبارهم، وهذا كما قال بعضهم: قولهم: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً سَفَىٰ إِلَى الْأَذْقَانِ ۚ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝٣٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ۝٣٣﴾ الآية: إن هذا من ضربه الله لهم في ضلالهم، ومنعهم عن الهدى.

[إسلام كعب الأخبار عند سماعه هذه الآية]

وقد ذكر أن كعب الأخبار أسلم حين سمع هذه الآية. ورواه

(١) فتح الباري: ١/ ٥١٤.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٢٤، ١٢/ ١٨٠، ومسلم: ١/ ٢٧٩.

(٣) الطبري: ٨/ ٤٣٣. (٤) الطبري: ٨/ ٤٣٤.

(٥) الطبري: ٨/ ٤٤٠. (٦) الطبري: ٨/ ٤٤١.

لأهل الكِبَاثِرِ مِنْ أَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥)، وقوله: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا»^(٦)، كقوله: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»^(٧)، وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تُجْعَلَ لِهِنَّ نِدَاً وَهُوَ خَلْقَكَ»^(٨). وذكر تمام الحديث.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنَةً﴾^(٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَيْفَ يَهُدُوا إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٧﴾

ذم اليهود ولعنهم على تركيتهم

أنفسهم وإيمانهم بالجنة والطاغوت

وقلبهم الهداية والإيمان

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ حِينَ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ»^(٧) وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ»، وفي قولهم: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا»^(٨)، ولهذا قال تعالى: «يَلْعَنُ اللَّهُ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ» أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل؛ لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها، ثم قال تعالى: «وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنَةً»^(٩) أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتن، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة^(٩). وقوله: «أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ» أي في تركيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا»، وقولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا

بِإِذْنِ رَبِّهِ» قال: تذكرنا عند إبراهيم إسماعيل، قال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة، فخرج إليه عمر، فقال: يا كعب! أسلم، فقال: أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ فِي كِتَابِكُمْ «مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا بُرُودُهُمْ إِلَىٰ أَشْفَارِهِمْ» وأنا قد حملت التوراة، قال: فتركه عمر، ثم خرج حتى انتهى إلى حصص، فسمع رجلاً من أهلها حزينا وهو يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا صَدَقَ لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُوسَ وَجُوهَكُمْ فَتَرَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ» الآية، قال كعب: يا رب أمنت يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين^(١١).

وقوله: «أُولَٰئِكَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ لَعْنًا أَصْعَبَ السَّبَبِ» يعني: الذين اعتدوا في سبهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قرعة وخاري، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. وقوله: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا»^(١٢) أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يجانع.

[لا يغفر الشرك أبداً إلا بالتوبة]

ثم أخبر تعالى أنه «لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» أي: لا يغفر لعبد لفته وهو شرك به، «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ» أي: من الذنوب «لِمَنْ يَشَاءُ»، أي من عباده.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَا عَبْدُنِي مَا عَبْدْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، فَإِنِّي غَافِرٌ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنِي إِنَّ لِقِيَّتِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لِقِيَّتِكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ»^(١٢) تفرد به أحمد من هذا الوجه.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وَأِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وَأِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ» ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «عَلَىٰ رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»، قال: فخرج أبو ذر وهو يحير إزاره وهو يقول: وإن رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ، وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ^(٣). أخرجه من حديث حسين به^(٤).

ورد البرار عن ابن عمر: قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكِبَاثِرِ حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» وقال: «أَخَّرْتُ شَفَاعَتِي

(١) الطبري: ٤٤٦/٨. (٢) أحمد: ١٥٤/٥.

(٣) أحمد: ١٥٢/٥.

(٤) فتح الباري: ٢٩٤/١٠ ومسلم: ٩٥/١.

(٥) كشف الأستار: ٨٤/٤.

(٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١.

(٧) الطبري: ٤٥٢/٨. (٨) الطبري: ٤٥٣/٨.

(٩) الطبري: ٤٥٨/٨، ٤٥٩.

﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْآلَاءِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(١)
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ
إِزَاهِمَ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَآيَاتِهِمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾
آمَنَ بِهِ وَوَعَّتْهُمْ مَنَ صَدَقَتُهُ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴿٥٢﴾

[بخل اليهود وحسدهم]

يقول تعالى: أم لهم نصيب من الملك، وهذا إنكار، أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٢)، أي لأنهم لم يصب نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس شيئًا - شيئًا، ولا ما يملأ النقيير، وهو النقط في النواة في قول ابن عباس والأكثرين. وهذه الآية تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأْتُمُوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا ينفاد، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَسْأَلَنَّ قَوْمًا﴾^(٣) أي: بخیلاً، ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ﴾ يعني بذلك حسدهم التمس على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنهم من نصيب إياه حسدهم له، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. وروى الطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ الآية، قال ابن عباس: نحن الناس دون الناس قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَكُلًّا عَظِيمًا﴾^(٤) أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم، النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب وحكموا فيهم بالسنن، وهي الحكمة، وجعلنا منهم النبي ومع هذا ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ﴾، أي بهذا الإيتاء وهذا الإيتاء ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي كفر به وأعرض عنه وسعى لي الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم من بني إسرائيل. اختلّفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ﴾، أي منكم، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾^(٥)، فالكفرة منهم أشدّ لك، وأبعد عما جئتكم به من الهدى، والحق المين، ولهذا

أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴿٥٣﴾ واتكلمهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تحزي عن الأبناء شيئًا في قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَكَفَى بِهِمْ إِثْمًا مُبِينًا﴾^(٦) أي وكفى بصنيعهم هذا كذبًا وافتراء ظاهرًا. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغْيَةِ﴾ أما الجبت، فقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان^(٧). وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه «الصالح»: الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت، فقال هم كهان تنزل عليهم الشياطين^(٨). وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم^(٩). وقال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل.

[لا فضل للكفار على المسلمين]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾^(١٠) أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله بأيديهم. وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد، فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناء، ونسقي الحجيح، ومحمد صنوبر قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيح بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلًا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ الآية، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف.

[لعنة الله على اليهود لاستنصارهم بالمشركين]

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنًا وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(١١).

(١) الطبري: ٨/٤٦٢. (٢) ابن أبي حاتم: ٤/١٣.

(٣) الطبري: ٨/٤٦٢. (٤) الطبراني: ١١/١٤٦.

(٥) الطبري: ٨/٤٨٢.

نزلهم: ﴿وَكُنْ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بالنار عوقبهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله. ﴿يَنْكُرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُفِضَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ نَارًا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ والذين وعملوا الصالحات سَدَّ جُلُودُهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ ﴿٧﴾

[بيان عذاب من يكفر بكتاب الله ورسله]

نزلهم تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية، أي خلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كَمَا نُفِضَتْ جُلُودُهُمْ سَدَّ جُلُودُهُمْ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال الأعمش عن ابن عمر إذا احترقت جلودهم بَدَّلُوا جُلُودًا غَيْرَهَا بِضَاءِ أَمْثَالِ الْفَرَاتِيسِ^(١)، رواه ابن أبي حاتم، وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن نوية: ﴿كَمَا نُفِضَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية، قال: تنصجهم في يوم سبعين ألف مرة. قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام بن الحسن: ﴿كَمَا نُفِضَتْ جُلُودُهُمْ﴾ كلما أنصجتهم فالت حرمهم قيل لهم: عودوا فعدوا^(٢).

[بيان مال الصالحين وهو الجنة ونعيمها]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَدَّ جُلُودُهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مال سعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع حاجاتها، ومحافها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبدا، لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي من الحيض والنفس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، لما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى^(٣). وكذا قال قتادة والحسن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية السدي^(٤). وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والسخام والبزاق والمنسي والولد. وقوله: ﴿وَنَدَّ جُلُودُهُمْ ظِلًّا سِلًّا﴾ أي ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا. روى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً سَيِّدُ الرَّائِبِ فِي ظِلِّهَا مِائَةُ عَامٍ لَا يَفْطَمُهَا: شَجَرَةُ الْخُلْدِ﴾^(٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَفِثَ فِيكُمْ بِهِ وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥٨)
[الأمر بأداء الأمانة]

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَحْنُ مَنْ خَانَكَ» رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١)، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله - عز وجل - على عباده من الصلوات والزكوات والصيام والكفارات والتذورات وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما ياتمون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله - عز وجل - بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا حَتَّىٰ يَفْتَضَّ لِلشَّيْءِ الْجَمَاءُ مِنَ الْقُرْنَاءِ»^(٢). روى ابن جرير عن ابن جريج في الآية، قال: نزلت في عثمان ابن طلحة، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك^(٣)، وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أولا، فحكمها عام، ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي هي أمر لكل أحد.

[الأمر بالعدل في القضاء]

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن

- (١) الطبري: ٤٨٤/٨. (٢) الطبري: ٤٨٥/٨.
(٣) الطبري: ٣٩٥/١. (٤) ابن أبي حاتم: ٩٢/١.
(٥) الطبري: ٤٨٩/٨.
(٦) أحمد: ٤١٤/٣ وأبو داود: ٨٠٥/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٧٩/٤.
(٧) مسلم: ١٩٩٧/٤. (٨) الطبري: ٤٩٢/٨.

أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء^(١)، يعني الحكام بين الناس، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَاكِمِ مَا لَمْ يُخْرِ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَّهَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ»^(٢)، وفي الأثر: «عَدَلَ يَوْمَ كِبَادَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(٣)، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَمُوتُ بِمَعْرُوفِهِ» أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله تعالى: «وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا»^(٤) أي سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم.

﴿تَابِعْنَا آلِينَ عَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَ الْأَرْوَاحِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٥)

[الأمر بطاعة الأمير في المعروف]

روى البخاري عن ابن عباس «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَ الْأَرْوَاحِ مِنْكُمْ» قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية^(٦)، وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه^(٧). وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وروى الإمام أحمد عن علي، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهتم القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لَسَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٨)، أخرجاه في الصحيحين^(٩). وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ»، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» وأخرجاه^(١٠). وعن عباد بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا. وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرْهَانٌ»^(١١)، أخرجاه، وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أُمِرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ رَيْبَةً»، رواه البخاري^(١٢).

وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في الوداع يقول: «وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يُشَوِّدُكُمْ بِكُمْ اسْمَعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» رواه مسلم^(١٣)، وفي لفظ له: «عَسَى تَجِدُونَهُ» وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَانِي»^(١٤)، ولهذا قال تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ» أي اتبعوا «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» أي خذوا ببسسته «وَأُولَ الْأَرْوَاحِ مِنْكُمْ» فيما أمركم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا مخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح «الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(١٥).

[الأمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع]

وقوله: «فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» قال غير واحد من السلف أي إلى كتاب الله وسنة رسوله وهذا أمر من الله - عز وجل - بأن كل شيء تنازع الناس في أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ إِلَى اللَّهِ» فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ» أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» فدل على أن من لم يتحاكم في محل التنازع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً ولا باليوم الآخر، وقوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ» أي التحاكم إلى الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير «وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله.

- (١) الطبري: ٤٩٠/٨. (٢) ابن ماجه: ٢/٧٥.
- (٣) الكنز: ١٢/٦. (٤) فتح الباري: ١٠١/٨.
- (٥) مسلم: ١٤٦٥/٣ وأبو داود: ٩٢/٣ وخفة الأحاديث: ٣٦٤/٧ والنسائي: ١٥٤/٧. (٦) أحمد: ٨٢/١.
- (٧) فتح الباري: ٦٥٥/٧ ومسلم: ١٤٦٩/٣.
- (٨) أبو داود: ٢٦٢٦ والبخاري: ٧١٤٤ ومسلم: ١٨٣٩.
- (٩) فتح الباري: ٢٠٤/١٣ ومسلم: ٤٧٠/٣.
- (١٠) فتح الباري: ١٣٠/١٣. (١١) مسلم: ١٨٣٨.
- (١٢) فتح الباري: ١١٩/١٣ ومسلم: ١٤٦٦/٣.
- (١٣) فتح الباري: ١٣٠/١٣. (١٤) الطبري: ١٠٤/٨.

يأتوا إلى الرسول ﷺ، فيستغفروا الله عنده ويسأله أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْ جَدَّوْا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦).

[لا يكون المرء مؤمناً حتى يحكمه النبي ﷺ في

خصوصياته ويرضى به في قرارة نفسه]

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكمه الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٧) أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. وروى البخاري عن عروة، قال: خاصم الزبير رجلاً في شريح من الحرّة، فقال: النبي ﷺ: «اسق يا زبير! ثُمَّ أُرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فقال الأنصاري: يا رسول الله! أن كان ابن عمك، فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير! ثُمَّ اخْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَذْرِ، ثُمَّ أُرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ». واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليها ﷺ بأمر لها فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١٨) الآية.

(سبب آخر): روى الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم في تفسيره عن ضمرة، أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ ففضى للمحق على المبطل، فقال المقضي عليه: لا أرضى، فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق، فذهب إليه، فقال الذي قضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، ففضى لي، فقال أبو بكر: فأتنا على ما قضي به رسول الله ﷺ، فأبى صاحبه أن يرضى، قال: نأتي عمر بن الخطاب، فأتياه فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، ففضى لي عليه، فأبى أن يرضى، فسأله عمر بن الخطاب فقال كذلك، فدخل عمر منزله وخرج والسيوف في يده قد سلّه، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية (١٩).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اقْتُلُوكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهُنَّ﴾ (٢٠) وَإِذَا لَا تَنبِيْهُنَّ يَوْمَئِذٍ عَظِيمًا (٢١) وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٢) وَمِنَ الْوَسْوَاسِ الْغَالِيَةِ (٢٣) وَالرَّسُولُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِجَالًا (٢٤) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٢٥)

[أكثر الناس يعاندون لما يؤمرون]

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبوا له من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان، فكيف يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ أَي لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وتركوا ما ينهون عنه خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي تَنبِيْهُنَّ (٢٦)، قال السدي: أي وأشد تصديقاً، وإنا مِن لَدُنَّا أَي من عندنا أَجْرًا عَظِيمًا (٢٧) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٨) أَي في الدنيا والآخرة

[من يطع الله والرسول فهو مع المكرمين عند الله] ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَأُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٢٩). أي من عمل بما أمره الله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله عز وجل يستكرمه وكرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة الصديقون، ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلت سرائرهم وعلايتهم، ثم أثنى عليهم فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٣٠) وروى البخاري عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا يَمْزُغُ الْإِلَٰهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وكان في شكوك قبض فيها فأخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: «إِنَّمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ» فعلمت أنه خير (٣١)، وكذا رواه مسلم (٣٢).

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨. (٢) الدر المنثور: ٢/٢١١. (٣) فتح الباري: ١٠٣/٨. (٤) مسلم: ٤/١٨٩٣.

بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني أحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن الله يعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم^(٦)، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿وَكُنْ لِلَّهِ غَلِيماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتَّقُوا ثُبَاتٍ أَوْ تَقَرُّوا جَمِيعاً﴾ (٧) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ شَهِيداً (٨) وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ كُنْتُ مِنْهُمْ فَأَوْزَ قَوْراً عَظِيماً (٩) فَلْيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيَهُ أَجْراً عَظِيماً (١٠)

[الأمر بأخذ الحذر من العدو]

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيله ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية، والثبات جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَّقُوا ثُبَاتٍ﴾ أي عصباً يعني، سرايا متفرقين ﴿أَوْ اتَّقُوا جَمِيعاً﴾ (١١) يعني كلكم^(٧)، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وخصيف الجزري^(٨).

[من علامات المنافقين التخلف عن الجهاد]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين^(٩)، وقال مقاتل بن حيان: ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾

وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «اللَّهُمَّ [يَا] الرَّفِيقُ رَافِقِي»^(١٠) ثلاثاً ثم قضي، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

[ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة]

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من أنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «لَأَنْ مَالِي أَرَاكَ تَحْزُوناً؟» قال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، قال: «ما هو؟» قال: نحن نغزو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك، ثم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأناه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، بعث النبي ﷺ فيشره^(١١). وقد روي هذا الأثر مرسلًا عن سروق، وعكرمة، وعامر الشعبي وقتادة، وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندًا، وقد روي مرفوعًا من وجه آخر، رواه أبو بكر بن مردويه عن عائشة، قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في بيت فأكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت لي موتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْحَضَرَةِ وَالشُّهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَرَضِيَ عَنْهُمْ رَافِقاً﴾ (١٢). وهكذا رواه الحافظ عبد الله المقدسي في كتابه «صفة الجنة» ثم قال: لا أرى سنده بأساً^(١٣)، والله أعلم. وثبت في صحيح مسلم عن أبيه عن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فبينما بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلِّ»، فقلت: يا رسول الله! أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت: هو ذلك. قال: «فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١٤).

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي. وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصُّدُوقِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا» - وَصَبَّ سَبْعِينَ سَماً لَمْ يَمُتْ وَالَّذِي^(١٥) - تفرد به أحمد، وأعظم من هذا كله

(١) مسلم: ٤/١٨٩٤. (٢) الطبري: ٨/٥٣٤.

(٣) الطبراني: ٣٣٠٨ ومن طريق أبي نعيم في الحلية ٨/١٢٥.

(٤) مسلم: ٤٨٩. (٥) جامع المسانيد والسنن: ١٠/٧٧.

(٦) فتح الباري: ٧/٥١. (٧) الطبري: ٨/٥٣٧.

(٨) الطبري: ٨/٥٣٨، ٥٣٧. (٩) الطبري: ٨/٥٣٨.

أي ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد ويبطئ الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جريج وابن جرير، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَإِنْ أَصَبْتُكَ مُصِيبَةً﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما في ذلك من الحكمة قال: ﴿فَدَأْنَمُ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، بعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاتته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

﴿وَلَنْ أَصْبِحَ بِكُمْ فَلَمَّ اللَّهُ﴾ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿يَقُولُونَ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿وَتَلَيَّحْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: بأن يضرب لي بسهم معهم، فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

[الترهيب في الجهاد]

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أي المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله - سواء قُتل أو غلب وسلب - فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين: «وَنَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ يَتَأَمَّلُ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَتِنَا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

[التحض على القتال لإيقاظ المستضعفين]

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني مكة، كقوله تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِنَ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ ثم بقوله: ﴿الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا نَصِيرًا﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصراً، روى عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، ثم تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الْإِنِّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَادْفَعُوا الْقَرْضَ الْحَلَالَ إِذَا فُتِنْتُمْ بِهِمْ فَقَالُوا لَا بَأْسَ بِكُمُ الْخَبِيرَةَ كَذِبًا وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا لَكَ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا أَيْنَمَا أَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نَصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَبْغُوا عِنْدَكَ كُلَّ فُلٍّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رِسُولًا مَوْجُودًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

[اللوم على حب تأخر فرض القتال ممن كانوا يبيعون الدنيا بالآخرة]

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالجهاد والذكا، وإن لم تكن ذات النصب لكن كانوا مأمورين بالجهاد والذكا، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون، ويودون لو أمروا بالجهاد ليشفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لجهادهم كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عددهم، كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، وأشراف بقاع الدنيا فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء، [لائقاً] فلماذا لم يؤمرهم إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا بما كانوا يودونه، جزع بعضهم منه، وخافوا مواجهته خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا رَبَّنَا إِلَى مَا آخَرْتُمْ فِرْعَوْنَ إِلَى مَدَّةٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ويطمأننهم الله بأنهم لا يقاتلون في سبيل الظالمين، ويتم الأبناء، وتأيم النساء، وهذه الآية كقول:

(١) فتح الباري: ٦/٢٥٣ ومسلم: ٣/١٤٩٦.

(٢) فتح الباري: ٨/١٠٣.

له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبي ﷺ. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ف قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر. ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ مِّنْ اللَّهِ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾ أي فمن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كُنتُمْ آيِدِيكُمْ وَيَعْمَلُونَ عَنْ يَدَيْكُمْ﴾ قال السدي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد: ﴿وَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي بذنبك. وقال قتادة في الآية: ﴿وَمِنْ نَفْسِكَ﴾ عقوبة لك. يا ابن آدم بذنبك. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَلَّى عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٩)

[طاعة الرسول هي طاعة الله]

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَانِي» (٣). وهذا الحديث ثابت في الصحيحين (٤). وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨) أي ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: «مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ

﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِّرَ فِيهَا أَلْفُ آيَاتٍ﴾، الآيات، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تَقَاتِلُوا الْقَوْمَ»، فلما حوله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ (١) وَالْأَجْرُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أي آخره المتقي خير من دنياه. ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا لِيْلًا (٢)﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد.

[لا مفر من الموت]

ولله تعالى: ﴿أَتَيْتَكُمْ كُنُوزًا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشْكُورَةٍ﴾ أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِنِ (٦)﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَجْعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ والقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء، جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتملاً، ومقاماً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنه أو رمية، وما أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجناء، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشْكُورَةٍ﴾ أي حصينة منيعة عالية فيمنع، أي لا يعني حذر وتحصن من الموت.

[طيرة المنافقين بالنبي ﷺ]

قوله: ﴿وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي «يَقُولُوا هَٰؤُلَاءِ مِمَّنْ عِندَ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً﴾ أي قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع، أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدي «يَقُولُوا مِمَّنْ مِّنْ عِنْدِكَ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَٰكِنَّا هَٰؤُلَاءِ مِمَّنْ عِندَ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً، وهم كارهون

(١) الطبري: ٥٤٩/٨.

(٢) النسائي في الكبرى: ٣٢٥/٦ والحاكم: ٣٠٧/٢.

(٣) أحمد: ٢٥٢/١.

(٤) فتح الباري: ١٣٥/٦ ومسلم: ١٤٦٦/٣.

رَشِيدٌ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يُضِرُّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

[بيان سفاهة المنافقين]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظه الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، يعلمون ما يفعلون والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ الآية، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي اصفح عنهم، واحلم عليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢) أي كفى به ولياً وناصرًا ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَ﴾ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^(٣) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِنُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا^(٤)

[القرآن حق]

يقول تعالى أمراً لهم بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة والأفاظه البليغة، وخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَاتِ أَرَأَيْتَ قُلُوبَ أَقْفَالِهَا﴾^(٥)، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي لو كان مفتعلاً مخلقاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا﴾ أي اضطراباً وتضاداً ﴿كَثِيرًا﴾^(٦)، أي وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى خبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَاْمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي محكمه ومتشابهه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغفوا، ولهذا

مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين، روى الإمام أحمد عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حر النعم، أقبلت أنا وأخي مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبواب فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آيات القرآن فتأروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً، حتى أحر وجهه، يرميهم بالتراب ويقول: يَا قَوْمِ هَذَا أَهْلَكْتُ الْأُمَّةَ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضُرِّهِمْ الْكُتُبَ بَعْضُهَا يَبْغِضُ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكْذَّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنَّمَا يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَجَهَلْتُمْ مِنْهُ فَارْجِعُوا إِلَى عَالِيهِ»^(٧).

وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: هجرت رسول الله ﷺ يوماً، فإنا جلوس إذ اختلف الإنسان في أمر فارتفعت أصواتها، فقال: «إِنَّمَا هَلَكْتُ الْأُمَّةَ نَسِيًا بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»^(٨). ورواه مسلم والنسائي^(٩).

[النهي عن إشاعة الخبر دون تحقيق]

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «كفى بالمرء كذباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(١٠) وكذا رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه^(١١) وفي الصحيحين، عن المغيرة بن شعبه عن رسول الله ﷺ، نهي عن قيل وقال^(١٢)، أي الذي يكرر الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا وفي الصحيح: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»^(١٣) ولذا ذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ، طلق نساء، فجاء منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فصبر حتى استأذن على النبي ﷺ، فاستفهمه أطلقت نساء فقال: «لَا» قللت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله. وعند

(١) مسلم: ٥٩٤/٢. (٢) أحمد: ١٨١/٢.

(٣) أحمد: ١٩٢/٢.

(٤) مسلم: ٢٠٥٣/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٣/٥.

(٥) مسلم: ١٠/١. (٦) أبو داود: ٢٢٢/٥.

(٧) مسلم: ٥ وأبو داود: ٤٩٩٢. (٨) مسلم: ٩/١.

وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى
 اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي
 وُلِدَ فِيهَا. قالوا: يا رسول الله! أفلا نبشّر الناس بذلك؟ فقال:
 «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ
 كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَأَلُوهُ
 الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،
 وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٥).

وروي من حديث عبادة^(٦) ومعاذ^(٧) وأبي الدرداء، نحوه
 ذلك. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يَا
 أَبَا سَعِيدٍ! مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رِئًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا
 وَنَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، قال: فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدّها
 عليّ يا رسول الله! ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ
 اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ»^(٨)، رواه مسلم. وقوله: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا» أي بتحريضك إياهم على القتال تبعث همهم على
 مناجزة الأعداء. ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهلها،
 ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله تعالى: «وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ
 تَنْكِيلًا»^(٩) أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى:
 «ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَصِرَ لَهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَ الَّذِي فِي
 الْآيَةِ».

[الشفاة الحسنة والسيئة]

وقوله: «مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا» أي
 من سعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك،
 «وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» أي يكون عليه
 وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيتة، كما ثبت في
 الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ
 عَلَى لِسَانِ نَبِيِّ مَا شَاءَ»^(٩)، وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه
 الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض^(١٠). وقوله: «وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا»^(١١). قال ابن عباس وعطاء وعطية

سدر: أطلقتهن؟ فقال: «لَا» فقامت على باب المسجد فتناديت
 بتأييد صوتي، لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية
 وإذا جاءهم أمر من الأمرين أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوها إلى
 رسول الله ﷺ وأبى الأمر منهم لعلمهم الذين يستنبطونه منهم
 أنا استنبطت ذلك الأمر^(١١)، ومعنى قوله: يستنبطونه
 يستخرجونه [ويستعملونه] من معادنه، يقال: استنبط
 فلان العين إذا حفرها واستخرجها من قعرها. وقوله:
 «تَنْفَعُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»^(١٢)، قال ابن أبي طلحة عن
 عباس: يعني المؤمنين^(١٢).

فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَى إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ
 أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا
 مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ
 شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا
 وَالْمُجَاهِدِينَ يَحْيِيهِمْ وَحَيَّوْا يَحْسَنُوا مِنْهَا أَوْ رَدُّهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ حَسِيمًا^(١٣) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا
 رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا^(١٤)

[أمر الله رسوله بأن يباشر القتال بنفسه]

يا رسول الله ﷺ وأمره رسول الله ﷺ أن يباشر القتال بنفسه،
 ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال: «لَا تُكْفَى إِلَّا
 نَفْسُكَ» روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق، قال: سألت
 ابن عمر بن عازب عن الرجل يلقى مائة من العدو فيقاتل
 بخون من يقول الله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»؟ قال: قد
 سأل الله تعالى لنبيه ﷺ: «فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَى إِلَّا
 نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ». ورواه الإمام أحمد عن سليمان بن
 داود، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، قال: قلت
 لرسول الله ﷺ: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى
 التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: «فَقِيلَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْفَى إِلَّا نَفْسُكَ» إنها ذلك في النفقة^(١٣).

[تحريض المؤمنين على القتال]

وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ أي على القتال، ورغبهم فيه،
 وشجعهم عنده، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي
 صفوف: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»^(١٤) وقد
 روت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه
 بخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

(١) فتح الباري: ١٨٧/٩، ومسلم: ١١٠٥/٢.

(٢) الطبري: ٥٧٥/٨. (٣) أحمد: ٢٨١/٤.

(٤) مسلم: ١٥١٠/٣. (٥) فتح الباري: ١٤/٦.

(٦) تحفة الأحوذى: ٢٣٧/٧. (٧) ابن ماجه: ١٤٤٨/٢.

(٨) مسلم: ١٥٠١/٣. (٩) فتح الباري: ٣٥١/٣.

(١٠) الطبري: ٥٨١/٨.

وقتادة ومطر الوراق: ﴿مُقِيمًا﴾ أي حفيظًا^(١). وقال مجاهد: شهيدًا، وفي رواية عنه: حسيبًا^(٢).

[الأمر برد السلام بأحسن منه]

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِحِجَةٍ فَجِوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، والمائلة مفروضة. وروى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي، عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليكم، فرد عليه، ثم جلس فقال: «عَشْرُونَ»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله! فرد عليه ثم جلس، فقال: «عَشْرُونَ»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، ثم جلس فقال: «ثَلَاثُونَ»^(٣)، وكذا رواه أبو داود، وأخرجه الترمذي والنسائي والبخاري، ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن أبي سعيد وعلي وسهل بن حنيف^(٤)، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام، رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُسَدُّونَ بالسلام ولا يُزَادُونَ، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَلِأَنَّهُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»^(٥) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَصْحَابِهِمْ»^(٦). وقد جاء في الحديث الذي رواه [أبو داود بسنده إلى أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَذَلَّكُمْ عَلَى أَمْرِ إِذَا قَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٧)].

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالالهية لجميع المخلوقات وتضمن قسمًا لقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ النَّارِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعيدته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي اللَّتَفِيقَيْنِ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ يَمَّا كَسَبُوا يُرِيدُونَ تَهْدِيَةً مِّنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ودَّوْهُ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَنْجِدُوا

مِنْهُمْ أُولَئِكَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذِّهُمُ جَدًّا وَجَدُّهُمْ وَلَا تَنْجِدُوا مِنْهُمْ وَيْلًا وَلَا نَصِيرًا ۚ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رِسْقٌ أَوْ جَاءَهُمْ حَصِيرٌ ۚ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغْلَبُوا قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلِنْ أَعَزَّ لَكُمْ لَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَالِ لَكُمْ أَلَسْتُمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ سَبِيلًا ۖ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا كَلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا بِهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوكُمْ أَلَسْتُمْ وَيَكُونُوا أَعْيُنُهُمْ فَحَدُودُهُمْ وَأَقْسَلُوهُمْ حَيْثُ شَاءُوا وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ۝

[النكير على اختلاف الصحابة فيمن رجع من]

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في النكير على قولين: واختلف في سبب ذلك فروى الإمام أحمد بن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع فخرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأُتِيَ رسول الله ﷺ في اللَّتَفِيقَيْنِ فِتْنَتَيْنِ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا طَائِفَةٌ وَإِنَّمَا الْجَبَّتْ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَالِدِ»^(٨) أخرجه الصحيحين^(٩)، وقال العوفي عن ابن عباس: نزلت في من كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وإن المشركين أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المشركين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوه، فإنهم يظهرون عليكم عداوة وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبعان الله أو كفاة أنقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ [أ] من أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، تستحل ديارهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك ففتن، والرسول عندهم لا

(١) الطبري: ٥٨٣/٨. (٢) الطبري: ٥٨٣/٨.

(٣) أحمد: ٤٣٩/٤.

(٤) أبو داود: ٣٧٩/٥ وتحفة الأحوذى: ٦٣/٧.

الأستار: ٤١٨/٢.

(٥) فتح الباري: ٢٩٣/١٢ ومسلم: ١٧٠٦/٤.

(٦) مسلم: ١٧٠٧/٤. (٧) أبو داود: ٣٧٨/٥.

(٨) أحمد: ١٨٤/٥.

(٩) فتح الباري: ١١٥/٤ ومسلم: ١٠٠٧/٢.

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون، يظهرون للنبي وأصحابه الإسلام، ليأمنوا بذلك عندهم على دمايتهم وأموالهم وذرياتهم، ويصانعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْلَاوْا إِلَىٰ شَبَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿كُلُّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي انهمكوا فيها، وقال السدي: الفتنة - ههنا - الشرك^(٧)، وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا^(٨) ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا وَلَوْ إِذْ لَازَمْتُمُوهُمْ﴾ المهادنة والصلح، ﴿وَيَكْفُرُوا أَبَدًا بِمَا قَالُوا﴾ أي عن القتال، ﴿فَبَحِّثْهُمْ﴾ أسراء، ﴿وَأَقْلُبْهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُهُمْ﴾ أي أين لقيتموهم، ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا نَبِيًّا﴾ أي بينا واضحا. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مِنْكُمْ أَوْ حُرِّيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَسِيصًا مُشْعِرًا مَثَلَيْنِ مِنْكُمْ فَأَنَّى تُؤْتَىٰ مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خليدا فيها وعصيب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما^(٩).

[حكم قتل المؤمن خطأ]

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا يَخْدِي ثَلَاثُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،

وَأَقْبَلُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي امْرِئٍ قَتَلْتُمْ﴾^(١١) رواه ابن أبي حاتم. تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ردهم وأوقعهم خطأ، قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي أوقعهم^(١٢)، وقوله: ﴿كَسَبُوا﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَدًى﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا خلاص له إليه، ﴿وَرُوِّدُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي هم يودون الهدى ولا تستنصون أنتم وإياهم فيها وما ذاك إلا لشدة سخطهم وبغضهم لكم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَنَّهُمْ أُولَئِكَ هُمُ السَّيِّئُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا الهجرة، قاله العوفي عن عباس^(١٣)، وقال السدي: أظهرها كفرهم.

[من يقاتل ومن لا يقاتل]

استثنى الله من هؤلاء، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَخْلُفُونَ مَا قَوْمُهُمْ فِي بَيْنِهِمْ يَتَّبِعُ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم منهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي وابن زيد وابن جرير^(١٤). صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من شرط أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم^(١٥)، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاسْلُوكُمُ النَّعْرَيْنِ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية^(١٦).

﴿أَرْجَأْهُمْ﴾ أي حَصَرْتُمْ صُدُّوهُمْ، الآية، هؤلاء قوم يرون من المشركين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى مكة وهم حصرة صدورهم، أي ضيقة صدورهم، مبغضين لقتلهم، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطْنَا عَلَيْهِمُ مَا فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ بِلَهُ اللَّهِ فَاعْلَمُوا﴾ أي المسألة ﴿فَاجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ خُصْمًا﴾ أي فليس لكم أن تقتلوه ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع نبيهم، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، فها هم النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره، وقوله: ﴿مَنْ يَرْجُوا أَنْ يَأْمُرَكُمْ وَيَأْمُرُوا بِقَوْمِهِمْ﴾ الآية،

(١) الطبري: ١٠/٩.

(٢) الطبري: ١٥/٩.

(٣) الطبري: ١٧/٩.

(٤) الطبري: ١٩/٩.

(٥) فتح الباري: ٣٨٨/٥ وأحد: ٣٢٥/٤.

(٦) الطبري: ١٨/٩.

(٧) الطبري: ٢٨/٩.

(٨) الطبري: ٢٧/٩.

وَالْتَبَّ الزَّانِي، وَالتَّارُكُ لِدِينِهِ الْمُقَارِفُ لِلْجَمَاعَةِ^(١). ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من أحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه، وقوله: ﴿إِلَّا خَطَا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع، واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل لأمه- وهي أسماء بنت مخزبة- وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله، فأُنزل الله هذه الآية^(٢)، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيذان حين رفع عليه السيف، فأهوى به إليه فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: إنما قالها متعوذاً فقال له: «هَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»^(٣) وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء.

وقوله: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة، روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار: أنه جاء بأمة سوداء، فقال: يا رسول الله! إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعقتها، فقال لها رسول الله: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قالت: نعم. قال: «أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قالت: نعم. قال: «أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قالت: نعم. قال: «اعْتِقِيهَا»^(٤). وهذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضر، وقوله: «وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هو الواجب الثاني فيما بين

القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قريتهم، وهذه الدية إنما تجب أحاساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود، قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض، ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة، لفظ النسائي^(٥). وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو

أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها^(٦) وهذا يقتضي أن عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، كما تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد لشبهة العمد. وفي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ابن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يسمعون، يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «أَبْرَأُ إِلَيْكَ يَمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»^(٧) وبعث علياً فودى قتلاً أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب، وهذا الحديث أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: «لَا أَنْ يَصَدَّقُوا» أي فتجب فيه الدية لأهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب، وقوله: «فَإِنْ كَانَ عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» أي إذا القتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، وقوله: «كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْتَغُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقًا» أي إذا القتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قسليم، فلهم مؤمناً فدية كاملة، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَسِيماً شَهْرَتَيْنِ مُتَّاعِيَيْنِ» أي لا بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير مرض أو حيض أو نفاس استأنف، وقوله: «تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أي هذه توبة القاتل إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، «وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا»^(٨) قد تقدم تفسيره غير مرة.

[الوعيد على قتل العمد]

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم العمد، فقال: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» الآية تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم

(١) فتح الباري: ١٢/٢٠٩ ومسلم: ٣/١٣٠٢.

(٢) الطبري: ٩/٣٢. (٣) الطبري: ٩/٣٤.

(٤) أحمد: ٣/٤٥١.

(٥) النسائي: ٤٧٩٩ وأحمد: ١/٣٨٤ وأبو داود: ٤٥٤٥ والترمذي: ١٣٨٦ وابن ماجه: ٢٦٣١.

(٦) فتح الباري: ١٢/٢٦٣ ومسلم: ٣/١٣٠٩.

(٧) فتح الباري: ٧/٦٥٣.

وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة^(٦) كما ذكرناه غير مرة، وإن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مُؤْمِعًا مَّتَعِيمًا﴾ الآية، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمتع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة والإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب،

وبتقدير دخول القاتل إلى النار، إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحًا ينجو به، فليس بمخلد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذَى ذَرَّةٍ مِنْ إِبْرَائِيلَ»^(٧).

﴿يَأْتِيهَا الذِّبَابُ عَامُونَ إِذَا ضَرَبَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَجَّيْنَاهَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَسْلَمْنَا لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُثُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَعَانِدُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ عَلَيْهِمْ فَنَجَّيْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٨).

[السلام من علامات الإسلام]

روى الإمام أحمد عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرمي غنمًا له فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعود منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبَابُ﴾

(١) فتح الباري: ١١/٤٠٢ ومسلم ٣/١٣٠٤.

(٢) جامع المسانيد والسنن: ٧/١٤٣.

(٣) تحفة الأحوذى: ٤/٦٥٢.

(٤) فتح الباري: ٨/١٠٦.

(٥) مسلم: ٤/٢٣١٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٢٦.

(٦) فتح الباري: ٦/٥٩١ ومسلم: ٤/٢١١٨.

(٧) البخاري: ٤٤/٧٥٠٩ والترمذي: ٢٥٩٨.

بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ نَفْسًا أَلَى حَرَمِ اللَّهِ لَا يَأْتِيهِمْ﴾ الآية، وقال: ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ أَلا تَشْكُرُونَ﴾ الآية، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة، ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: «أَوَّلُ مَا يَقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي»، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْتَقًا مَا مَا يَصِيبُ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ»^(٩) وفي الحديث آخر: «الزَّوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»^(١٠).

[هل تقبل توبة قاتل العمد؟]

فإن ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا، بخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فحدثني ابن عباس فسأله عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مُؤْمِعًا مَّتَعِيمًا فَجَزَاؤُهُ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ هي ما نزل، وما نسخها شيء^(١١)، وكذا رواه أيضًا مسلم والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن لا توبة فيها بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب، وحقق وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، فحرم من ظلامته وأرضاه عن [طلابته]، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية، وهذا خبر لا يجوز حمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين من الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

نسأل: ﴿قُلْ يَسِيْرُوا إِلَيْنِ آتِرُوا عَلَيْنِ أَنْفُسِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ الآية، وهذا عام في جميع الذنوب من شرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من أتى من أي ذلك تاب الله عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء، والله أعلم. وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل علماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك

الَّذِينَ آمَنُوا^(١) إلى آخرها، ورواه الترمذي في التفسير ثم قال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أسامة بن زيد^(٢)، ورواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٣)، وروى البخاري عن ابن عباس: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسَتْ مُؤْمِنًا» قال: قال ابن عباس كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسَتْ مُؤْمِنًا» قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغنيمة، وقرأ ابن عباس «أَلْسَلَكُمْ»^(٤).

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد^(٥)، [عن أبيه عبد الله بن أبي حدرد^(٦)] قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، وعلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مربنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، معه متبع له ووطب من لبن، فلما مربنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه علم بن جثامة فقتله، بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا [القرآن] «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّفْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إلى قوله تعالى «خَبِيرًا»^(٧) تفرد به أحمد^(٨).

وروى البخاري عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ» هكذا ذكر البخاري^(٩) هذا الحديث معلقاً مختصراً، وقد روي مطولاً موصولاً، فروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله! إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: «ادْعُوا إِلَى الْمَقْدَادِ، يَا مَقْدَادُ! أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَذِبَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَدَا؟» قال: فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّفْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَتِيلًا»، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ

مِنْ قَبْلُ»^(١٠) وقوله: «وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانٌ كَثِيرٌ» أي حشره رغبت فيه عرض الحياة الدنيا الذي حكمكم على قتل من الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر إليكم الإيثار، ففعلتم واتهمتموه بالمصانعة والتقية، لتبتغوا عرض الحياة عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الحال إيماناً ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع قال تعالى: «وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ» الآية، ورواه عبد الرزاق عن سعيد بن جبير في «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» تستضعفون ببيانك استخفى هذا الراعي بليانه^(١١)، وقوله: «فَقَتِيلًا» تقدم، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمْلِكُ تَعْمُلُوكَ خَيْرًا» قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

«لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَاللَّهُ يَأْمُرُ لَهُمْ وَأَنْصِبُهُمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْصِبَهُمْ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ»^(١٢) درجته منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا.

[لا يستوي المجاهدون والقاعدون]

روى البخاري عن البراء، قال: لما نزلت «لَا يَسْتَوِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فحرقها أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله «غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ» البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي أنه رأى رسول الله ﷺ في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أُملى علي «لَا يَسْتَوِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَاللَّهُ يَأْمُرُ لَهُمْ وَأَنْصِبُهُمْ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ» ابن أم مكتوم وهو يملئها علي، قال: يا رسول الله! أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله رسوله ﷺ، وكان فخذله على فخذي، فثقلت على حتى

(١) أحمد: ٢٧٧/١. (٢) تحفة الأحوذ: ٨.

(٣) الحاكم: ٢٣٥/٢. (٤) فتح الباري: ٨/١٠.

(٥) أحمد: ١١/٦. (٦) البخاري: ١٨٦٦.

(٧) مجمع الزوائد: ٩/٧. (٨) عبد الرزاق: ١٠/١.

(٩) فتح الباري: ١٠٨/٨.

[النهي عن المكث في المشركين للقادرين على الهجرة]

روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكثبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِيْنَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٥)، وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة ^(٦) عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِيْنَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي لم تكتسبوا هنا وتركت الهجرة ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ الآية، وروى أبو داود عن سمرة بن جندب، أما بعد، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ إلى آخر الآية، هذا عذر من الله هؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدر على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدر ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ^(٨) قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقاً ^(٨).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَمَنَّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي يتجاوز عنهم بترك الهجرة وعسى من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ ^(٩) روى البخاري عن أبي هريرة، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سَمِعَ اللَّهُ لَنْ حَيْدَةً»، ثم قال قبل أن يسجد: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بَنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بَنِ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بَنِ الْوَلِيدِ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ

أرض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ^(١٠) روى البخاري دون مسلم، وقد روى الترمذي عن ابن عباس، قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ عن الخازن إلى بدر، ولما نزلت غزوة بدر، قال أبو أحمد بن حنبل وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله! فهل لنا حصة؟ فنزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ^(١١) روى الله المجاهدين على القاعدتين درجة، فهؤلاء القاعدون أولي الضرر، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾ ^(١٢) روى الله المجاهدين من المؤمنين غير أولي الضرر، هذا حديث حسن غريب ^(١٣)، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحى ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾، صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار من ترك الجهاد من العمى والعرج والمرضى، عن مساواتهم المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حِصَّةٌ مِنْ دَرَجَاتٍ وَلَا يَكُونَ لَهُمْ حِصَّةٌ مِنْ دَرَجَاتٍ﴾ ^(١٤) قال: «نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ» ^(١٥). وقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾ ^(١٦) ثم فصلهم به من الدرجات، في غرف الجنان والدرجات، ومغفرة الذنوب والزلزلات، وحلول الرحمة، وإحساناً منه وتكريماً، ولهذا قال تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ وَنُفُوزٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ^(١٧).

ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَكُنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(١٨).

رواه الله طَالِيْنَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا هُمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ^(١٩) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ^(٢٠) قَالُوا أَنْ يَعْذَرَنَا اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً عَفُوراً ^(٢١) وَمَنْ يَنْجِ اللَّهُ يُجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَثِيراً وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَرْكَبْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ^(٢٢)

- (١) فتح الباري: ١٠٨/٨. (٢) تحفة الأحوذى: ٣٨٨/٨.
- (٣) فتح الباري: ٧٣٢/٧. (٤) مسلم: ١٥٠١/٣.
- (٥) فتح الباري: ١١١/٨. (٦) الطبري: ١٠٨/٩.
- (٧) أبو داود: ٢٢٤/٣. (٨) الطبري: ١١١/٩.

الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ^(١).

وقال البخاري: أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس **﴿إِلَّا أَلْتَضَعَعِينَ﴾** قال: كنت أنا وأمي من عذر الله - عز وجل^(٢) - . وقوله: **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾**، هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، والمرغم مصدر تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، وقال ابن عباس: المرغم التحول من أرض إلى أرض^(٣) . وكذا روي عن الضحاك والربيع بن أنس والثوري^(٤) وقال مجاهد: **﴿مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾** يعني: مترحلاً عما يكره. قوله: **﴿وَسَعَةً﴾** يعني الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال: في قوله: **﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾** أي [والله] من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى^(٥)، وقوله: **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** أي ومن خرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله **﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوُّهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ﴾**^(٦). وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه. فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية: أنه لما جاء الموت ناء بصره إلى الأرض التي هاجر إليها^(٧).

[صلاة القصر]

يقول تعالى: **﴿وَلَا تَضُرُّكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** أي سافرتهم في كسها قال تعالى: **﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ بِمَرَضِهِمْ﴾** **﴿وَلَا تَضُرُّكُمْ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾** الآية. وقوله: **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾** أي تخففوا فيها من كميتها بأن

الرابعة ثنائية.

وأما قوله تعالى: **﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** فقد هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة. والأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: **﴿تُكْرِهُوا فَبَيِّنْهُمْ عَلَى الْيَقِينِ﴾** **﴿إِنْ أَرَادَ نَصْرًا﴾** وكقول: **﴿وَرَبِّيبُكُمْ﴾** التي في حُجُورِكُمْ مِنْ قِسَابِكُمْ^(١)، وروى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية، قال: سألت عبد الخطاب قلت: **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾** **﴿يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وقد آمن [الله] الناس؟ فقال لي عبد عجب ما عجبت منه، فسألت رسول الله **﴿عَنْ رَبِّهِ﴾** فقال: **﴿صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَ﴾** وهكذا رواه مسلم وأهل السنن. وقال الترمذي حديث حسن صحيح^(٢) وقال علي بن المديني هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا رجاله معروفون. وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي حنظلة الخذاء، قال: سألت ابن عمر عن صلاة

(١) فتح الباري: ١١٣/٨. (٢) فتح الباري: ١١٣/٨.

(٣) الطبري: ١١٩/٨. (٤) الطبري: ١١٩/٨.

(٥) الطبري: ١٢١/٩.

(٦) فتح الباري: ١٦٤/١ ومسلم: ١٥١٥/٣ وأبو داود: ٦٥١/٢ وتحفة الأحوذ: ٢٨٣/٥ والنسائي: ٢٠٧/٢.

وابن ماجه: ١٤١٣/٢ وأحمد: ٢٥٠/١.

(٧) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤.

(٨) أحمد: ٢٥٠/١.

(٩) مسلم: ٤٧٨/١ وأبو داود: ٧/٢ وتحفة الأحوذ: ٢٠٧/٢.

والنسائي في الكبرى: ٣٢٧/٦ وابن ماجه: ٣٣٩/١.

﴿وَلَا تَضُرُّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾

واحدة لأنها ذكر الله.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها. روى الإمام أحمد عن أبي عياش الزرقني، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم^(٨).

وهكذا رواه أبو داود والنسائي^(٩)، وهذا إسناد صحيح وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري، عن ابن عباس رضيهما، قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد

قال: ركعتان، فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون فقال: سنة رسول الله ﷺ^(١).

وروى البخاري عن أنس قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتكم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً^(٢). وهكذا أخرجه بقية الجماعة^(٣). وروى الإمام أحمد عن حازمة بن وهب الخزاعي، قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر يعني أكثر ما كان الناس، وأمنه ركعتين^(٤). ورواه الجماعة سوى ابن ماجه^(٥)، ولفظ البخاري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين^(٦).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُصَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ نَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَئِنْ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَرُّهُمْ فَاصْلُوا مِنْكُمْ وَلِيَأْخُذُوا بِرُءُوسِهِمْ فَاذْلُكُوا عَنْكُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وَالدِّينُ كَذَرُوا أَوْ تَعْمَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَالْمَالِكُونَ بِبِلَادِكُمْ عَلَيْهِمْ مِثْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٠﴾

[بيان صلاة الخوف وأنواعها]

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالغروب، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها رجالاً وركباناً، وهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس فرض الله الصلاة على سنان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي شرف ركعة. رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(٧)، وبه قال أحمد بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد وإليه ذهب مالك والضحاك، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن عمر المروزي: أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فركعة واحدة تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة

(١) ابن أبي شيبة: ٤٤٧/٢.

(٢) فتح الباري: ٦٥٣/٢.

(٣) مسلم: ٤٨١/١ وأبو داود: ٢٥/٢ وتحفة الأحوزي:

٣/١١٠ والنسائي: ٣/١٢١ وابن ماجه: ١/٣٤٢.

(٤) أحمد: ٣٠٦/٤.

(٥) فتح الباري: ٦٥٥/٢ ومسلم: ٤٨٤/١ وأبو داود: ٤٩٣/٢

وتحفة الأحوزي: ٣/٦٢١ والنسائي: ٣/١١٩.

(٦) فتح الباري: ٦٥٥/٢.

(٧) مسلم: ٦٨٧ وأبو داود: ١٢٤٧، والنسائي: ٣/١٦٩ وابن

ماجه: ١٠٦٨.

(٨) أحمد: ٥٩/٤، ٦٠.

(٩) أبو داود: ٢٨/٢ والنسائي: ٣/١٧٦، ١٧٧.

وسجدوا معه، ثم قام الثانية، فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة، ولكن يجرس بعضهم بعضاً^(١).

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ، صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه وصف خلفه، فصلى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا في مقام هؤلاء، فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين ثم سلم، فكانت للنبي ﷺ ركعتين، ولهم ركعة^(٢)، ورواه النسائي وهو في صحيح مسلم بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسانيد.

وروى ابن أبي حاتم عن سالم، عن أبيه، قال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة^(٣)، وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم من طريق معمر به، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه، وكذا ابن جرير. وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَنْ تَقْعُوا فِي آسِيحَتِكُمْ وَتَحْذَرُوا جُرُومَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ﴿وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي آيَةِ الْقُرْآنِ تَكْفُورًا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنْ شَيْءٍ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[الامر بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف]

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها، ولكن ههنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى

في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَقْلِبُوهَا فِيهِمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها، ولكن فيها أكد، لشدة حرمة وعظمتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، أي: في سائر أحوالكم قال تعالى: ﴿وَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فإذا ذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخسروا وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَوْقُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضا^(٤)، وقال أيضا للصلاة وقتا كوقت الحج^(٥)، وكذا روي عن مجاهد ابن عبد الله وعلي بن الحسين ومحمد بن علي والحسن ومحمد والسدي وعطية العوفي^(٦).

[الحض على مطاردة العدو رغم الجراح]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي آيَةِ الْقُرْآنِ﴾ أي لا تضربوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم مرصدا ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، كما وعدكم إياه كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وهو وعد حق، وخير صلاتهم وهم لا يرجون شيئا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأنتم رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ وَلَا تَكُنَ لِلْظَّالِمِينَ ضَعِيفًا﴾ ﴿وَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ذَنُوبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٠٢.

(٢) أحمد: ٣/ ٢٩٨، والنسائي: ٣/ ١٧٤، ومسلم: ٨٤٠.

(٣) الدر المنثور: ٢/ ٣٧٥. (٤) الطبري: ٩/ ١٦٩.

(٥) الطبري: ٩/ ١٦٩. (٦) الطبري: ٩/ ١٦٧، ١٦٨.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ رَدَّهَا فَفَعَلَ أَحْتِمِلُ هُنْتَائِهَا وَإِنَّمَا يُثِيبَا (٣) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (٤)

[الترغيب في التوبة والاستغفار والوصية]

لمن يكسب الإثم أو يرمي به البريء]

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه، من أي ذنب كان. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السماوات والأرض والجبال (٣)، رواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد عن علي عليه السلام قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئا نفعتني الله بما شاء أن ينفعتني منه. وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ» وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ (٤) الآية».

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْ وَارِدَةٌ وَذَرَّ أَخْرَى﴾ الآية، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣) أي: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: قبل نزول ذلك عليك، كقولهم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى

بِكَ كِتَابٌ مِنْ رَبِّكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِكَ لَهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُخَوِّفُ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ مُبْدِيًا وَخَاتِمًا﴾ (١) هَذَا شَرُّهُ هَذَا جَدُّهُ عَنَّهُمْ فِي الْآيَةِ فَجَدُّهُ اللَّهُ عَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (٢)

[الأمر بالحكم بما أنزل الله]

نصلي: غاطبا لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في دينه، وقوله: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ثبت في صحيحين عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ جَلَبَ خَصْمَ بَابِ حَجْرَةٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَهُمَا أَسْمَعُ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ الْحَقُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ شَيْءٍ فَلْيَأْخُذْهُ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْبِسْهَا أَوْ لِيَذَرَهَا» (١) وروى أحمد عن أم سلمة، قالت: جاء رجلان من الأنصار يمشيان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد درست، ليس بينهما شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَأْتِي بَيْنَكُمْ الْحَقُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ لَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِحَقِّ شَيْءٍ فَلْيَأْخُذْهُ مِنْ نَارٍ يَأْخُذُهَا فِي يَوْمِ الْقِيَمَةِ» فَبَكَى رَجُلٌ وَقَالَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا: حَقِّي لِأَخِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ فَلَا تَفْعَلْ بِأَخِيكَ فَمَنْ تَوَخَّى الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهْمَا ثُمَّ لِيَخْلِلْ كُلُّ مَكْنَاهُ صَاحِبُهُ» (٢)

نصلي: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (١) هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس فلا يكرهوا عليهم، ويباهون الله بها؛ لأنه مطلع على جميعهم، وعالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُسْوِئُونَ مَا لَمْ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمَكُلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم، ثم قال تعالى: ﴿هَذَا شَرُّهُ هَذَا جَدُّهُ عَنَّهُمْ فِي الْآيَةِ﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما هم عليه من الباطل، والذين يحكمون بالظاهر، وهم معصون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ؟ لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلا، ولهذا ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾

(١) فتح الباري: ١٢٨/٥ ومسلم: ١٣٣٧/٣.

(٢) أحمد: ٣٢٠/٦. (٣) الطبري: ١٩٥/٩. (٤) أحمد: ٨/١.

إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴿١٣٧﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٣٩﴾﴾.

[نجوى الخير]

يقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ يعني كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: إلا نجوى من قال ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيُنْجِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» وقالت: «لَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصْ فِي شَيْءٍ يَمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثِ الْحَرْبِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا» قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ. وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه ^(١). روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟» قالوا: بلى، يا رسول الله! قال: «الْإِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ» قال: «وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». ورواه أبو داود والترمذي ^(٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: غلصًا في ذلك محتسبًا ثواب ذلك عند الله - عز وجل -، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ أي ثوابًا جزيلاً كثيراً واسعاً.

[جزاء من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين]

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشریفاً

لهم وتعظيماً لبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة ذلك، وقد تواعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿تَوَلَّوْا مَا نَهَى عَنْهُ وَأُصْلِحْوا جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٣٩﴾﴾ أي إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزبنها استدرجاً له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي ذَلِيلٍ وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكِذِبِ سَنُتَدْرِجْهُمْ فِيَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَلْيَسْأَلُوا أَزْوَاجَهُمْ لَقَوْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوا ﴿١٤١﴾﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَالْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿١٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ إِنَّ يَدْعُوكَ إِلَى أَنْ يَكْفُرَ بِمَا كُنْتَ تَكْفُرُ وَإِنْ يَدْعُوكَ بِيَدَايَيْهِ إِلَى أَنْ تَكْفُرَ لَا تَكْفُرْ وَمَنْ يَكْفُرْ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَهُ أَجْرٌ لَبِيبٌ ﴿١٤٤﴾﴾ وَقَالَ لَا تُخْذَلْ مِنْ عِبَادِكُمْ فَصِيًّا مَقْرُوضًا ﴿١٤٥﴾ وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ وَلَا مَرْثِيَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَكُمْ آيَاتِكُمْ فَتَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَكُمْ لَا لِيَوْمِئِذٍ فَتَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ وَمَنْ يُتَّخَذِ الشُّتْرَانَ لِيَوْمِئِذٍ وَاللَّهُ فَتَدْرِكُ حَسْرَةً خُسرَانًا فُهِيمًا ﴿١٤٦﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ يَعِدُهُمُ الشُّتْرَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤٧﴾ أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ يَحْدُونَ عَنْهَا مُحِيطًا ﴿١٤٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرَفُ الْوَعْدِ وَاللَّهُ حَقٌّ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٤٩﴾﴾

[الشرك لا يغفر والمشركون يعبدون]

[الشیطان في الحقيقة]

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ الآية، وذكرنا ما يتعلق به من الأحاديث في صدر هذه السورة، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ أي: فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسر في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدنيا والآخرة.

(١) أحمد: ٤٠٣/٦.

(٢) فتح الباري: ٣٥٣/٥، ومسلم: ٢٠١١/٤، وأبو داود: ١٨/٥.

وغطفة الأحوذني: ٧٠/٦، والسائي في الكبرى: ١٩٣/٥.

(٣) أحمد: ٤٤٤/٦، وأبو داود: ٤٩١٩، والترمذي: ٢٥٠٩.

الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠) كما قال تعالى: ﴿خبراً عن إبليس يوم العاد﴾: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَصَيْتُمْ فَأَخَذْتُكُمْ وَمَا كَانُ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢١).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومنهم ما وعدهم ﴿وَمَا وَهَمُ جَهَنَّمَ﴾ أي مصيرهم وما لهم يوم القيامة ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢٢) أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص.

[جزء المؤمنين الصالحين]

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء وما لهم في ما لهم من الكرامة التامة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يصفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٣) أي لا أحد أصدق منه قولاً، وخبراً لا إله إلا هو، ولا رب سواه، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَسَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِذِئْبَةٍ، وَكُلُّ بِذِئْبَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٤) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيهَا شَيْئًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخَبِّرًا (١٢٦)

﴿إِنْ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِيُتَنَكَّلُوا﴾ وقال [جوير] ضحكاً في الآية، قال المشركون إن [الملائكة] بنات، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن صوراً من جوارى فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة، وهذا التفسير يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٢٧) ﴿الْآيَاتِ، تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْهُ الرَّحِيمَ إِتْنًا﴾ (١٢٨) وقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَاسًا﴾ (١٢٩).

﴿وَإِنْ يَدْعُونَكَ إِلَّا لِشَيْءٍ مَرِيدًا﴾ (١٣٠) أي هو في أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس من غير الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ لَكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ يَسْجُدَ لِلشَّيْطَانِ﴾ الآية. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم سجدوا يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا ﴿وَكَانُوا يُدْعَوْنَ لِلْجَنَّةِ أَكْثَرَهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ (١٣١).

قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جوارده، وقال: ﴿لَا تُخَاجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١٣٢) أي من جوارده معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف، تسعة آلاف تسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، ﴿وَلَا تُضِلَّهُمْ﴾ أي من الخس، ﴿وَلَا يُنَبِّئُهُمْ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم إيماناً، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغروهم من أنفسهم، وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُهُمْ قُلُوبُنَا﴾ (١٣٣) آذات لا تشبه. قال قتادة وسدي وغيرهما: يعني تشبيهاً وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة (١٣٤)، ﴿وَلَا تُؤْمِرُهُمْ فَلْيَفْعَلُوا﴾ (١٣٥) خلق الله ﷻ وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: يعني بذلك الوشم، وفي صحيح مسلم، النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: لعن الله من فعل ذلك (١٣٦)، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الوشمة والمستوشمات، والنامصات والتمنصات، والمتفلجات لحسن المغيرات خلق الله - عز وجل - ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله - عز وجل - يعني قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رُسُلًا فَخُذُوا مِنْهُمْ عَذَابًا فَانْهَوْا﴾ (١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١٣٨) أي: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفاتها. وقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُنبِئُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٣٩) وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم

(١) الطبري: ٢٠٩/٩. (٢) الطبري: ٢١٤/٩.

(٣) مسلم: ١٦١٨/٣، وفتح الباري: ٣٩٢/١٠.

(٤) فتح الباري: ٤٩٨/٨.

[النجاح ليس بالأمان بل بالعمل الصالح]

قُلْ قَادِرَةٌ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ اخْتَفَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُتِبْنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَنَبِينَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَكُتِبْنَا يَقْضَى عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية، ثُمَّ أَفْلَحَ اللَّهُ حِجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ^(١)، وَكَذَا رَوَى عَنِ السَّيِّدِ وَمَسْرُوقٍ وَالضَّحَّاكِ وَأَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ^(٢)، وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **رَضِيَ** أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَخَاصُمَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ فَقَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: كُتِبْنَا خَيْرَ الْكُتُبِ، وَنَبِينَا خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ: لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَكُتِبْنَا نَسْخَ كُلِّ كِتَابٍ، وَنَبِينَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَمَرْتُمْ وَأَمَرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُتَابِكُمْ وَنَعْمَلْ بِكُتَابِنَا، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٣) الآية.

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحْلِي وَلَا بِالتَّمْنِي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمَجْرَدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ هُوَ الْمُحَقِّقُ سَمِعَ قَوْلَهُ بِمَجْرَدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمُ النِّجَاحُ بِمَجْرَدِ التَّمْنِي؟ بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاتِّبَاعِ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٤) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٥)، وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَشَدَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «مَا هِيَ يَا عَائِشَةُ؟» قُلْتُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، فَقَالَ: «هُوَ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا»^(٦)، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو دَاوُدَ^(٧).

رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ **رَضِيَ** قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «سَلِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ

الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا، وَالنَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا»، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ^(٨)، وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالتَّيْسَانِيِّ^(٩) وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُجْزَى لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا﴾^(١٠) قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا أَنْ يَشْرِي فَيُتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ^(١١)، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْفَى مُؤْمِنٌ﴾ الآية، لَمَّا ذَكَرَ الْجُزْءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَأَنَّهُ لَا يَدَانِ فِي مُسْتَحَقِّهَا مِنَ الْعَبْدِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَنَسَأَهُ الْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْعَفْوُ وَالْمَسَاحَةُ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَانِهِمْ وَإِنَانِهِمْ بِشَرَطِ الْإِيمَانِ، سَيِّدَ خَلْقِهِ الْجَنَّةِ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مَقْدَارَ النِّقَمِ، الْقِرَّةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَيْضِ الْخِطِّ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ، وَهَذَا النِّقَمِ، وَهُمَا فِي نَوَاةِ التَّمْرَةِ، الْقُطْمِيرُ وَهُوَ اللَّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَعَمَلُ إِبْرَاهِيمَ وَاحْتِسَابُهُ، فَتَحْسِنُ أَيُّ اتَّبَعَ فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَمَا أَرَادَ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَهَذَا الشَّرْطَانِ لَا يَصْغُرُ عَامِلٌ بَدُونَهُمَا، أَيُّ يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا وَخَالِصًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِلشَّرِيعَةِ، فَيُصْغَرُ ظَنُّهُ بِالتَّابِعَةِ، وَيَاطُنُهُ بِالْإِخْلَاصِ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَهُمَا الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ، فَمَنْ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَاقِفًا، وَهَمَّ بِإِثْرِهِ يَرَاوُنَ النَّاسَ، وَمَنْ فَقَدَ التَّابِعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا، وَجَمْعُهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، الْآيَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ بِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْإِنْسَانِ عَلَى هَدًى﴾ لَكَذِبْنِ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ الْآيَةُ

(١) الطبري: ٢٢٩/٩. (٢) الطبري: ٢٢٩/٩-٢٢٩/٩.

(٣) الطبري: ٢٣٠/٩. (٤) الطبري: ٢٤٤/٩.

(٥) الطبري: ٢٤٦/٩، وأبو داود: ٤٧١/٣.

(٦) سعيد بن منصور: ١٣٧٨/٤ (٧) أحمد: ٢٤٨/٢.

(٨) مسلم: ١٩٩٣/٤، وتحفة الأحوذى: ٤٠٠/٨، والتيساني:

الكبرى: ٣٢٨/٦.

(٩) الطبري: ٢٣٩/٩.

الْوَلَدَانِ وَأَنْتَ تَعْمَلُونَ لِلْيَتَامَى الْقِسْطَ وَمَا نَقَعُوا مِنْ حَبْرٍ مِنْ
 اللَّهُ كَانَ بِهِ عَلَيْهِمَا رَحْمَةٌ

[حكم اليتيمة]

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها **﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾** - إلى قوله - **﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾**
 قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها،
 قد شركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره
 أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت
 هذه الآية ^(١)، وكذلك رواه مسلم ^(٢)، وروى ابن أبي حاتم عن
 عائشة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية
 فيهن، فأنزل الله **﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾** الآية، قالت: والذي ذكر
 الله أنه يتلى عليهم في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله: **﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَادْنُوا مِنْهَا حَتَّى تَكُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِنْسَاءِ ﴾** ^(٣) وبهذا
 الإسناد عن عائشة قالت: وقول الله عز وجل: **﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾** رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين
 تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبا في مالها
 وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن،
 وأصله ثابت في الصحيحين، والمقصود أن الرجل إذا كان في
 حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره
 الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى
 غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل ^(٤)، وهذا المعنى في
 الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون للرجل فيها
 رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن
 يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركه في ماله الذي بينه وبينها،
 كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، وهي قوله:
﴿ فِي يَتَامَى الْإِنْسَاءِ ﴾ الآية، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده
 اليتيمة فيلقى عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن
 يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها، وأكل مالها،

(١) فتح الباري: ٧/ ٦٦٢.

(٢) فتح الباري: ٧/ ١٥، ومسلم: ٤/ ١٨٥٤.

(٣) مسلم: ١/ ٣٧٧، وابن ماجه: ١/ ٥٠، ومسلم: ٤/ ١٨٥٥.

(٤) فتح الباري: ٨/ ١١٤، (٥) مسلم: ٣٠١٨.

(٦) الطبري: ٩/ ٢٥٨.

(٧) فتح الباري: ٩/ ٦، ومسلم: ٤/ ٢٣١٣.

قَالَ تَعَالَى: **﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** ^(١) والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً،
 أي: تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية، لا يصده
 عنه صا، ولا يرده عنه راد.

[إبراهيم خليل الله]

قوله: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ^(٢) وهذا من باب
 الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما
 يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلقة التي هي أرفع
 مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في
 قوله: **﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾** ^(٣)، وقال تعالى: **﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾** الآية. وقال تعالى: **﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَنَزَّيْكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** ^(٤) الآية، والآية بعدها،
 وروى البخاري عن عمرو بن ميمون، قال: إن معاذاً لما قدم
 على النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ: **﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾** ^(٥)
 فقال رجل من القوم: لقد قرأت عين أم إبراهيم ^(٦)، وإنما سمي
 خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل له، لما قام به من الطاعة التي
 بها ويرضاها، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي
 سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة
 خطبها، قال: **﴿ أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ
 الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا وَلَكِنْ
 صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا ﴾** ^(٧)، وجاء من طريق جندب بن عبد الله
 بنجلي وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود عن
 النبي قال: **﴿ إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾** ^(٨).

قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الجميع
 ملكه وعنده، وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما
 قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل لعظمته
 وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله: **﴿ وَكَانَ
 اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِطًا ﴾** ^(٩) أي علمه نافذ في جميع ذلك لا
 غنى عليه خافية من عبادته، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة
 في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر،
 ولا تخفى عليه ذرة لما تراه للناظرين وما تورى.

﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى الْإِنْسَاءِ الَّتِي لَا تُولُونَهُنَّ مَا لَكُمْ لهنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِّينَ وَمَنْ

وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فحرم الله ذلك، ونهى عنه ^(١).

وقال في قوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ آلِ لَدُنِّ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿لِلَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ صغيراً أو كبيراً، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره ^(٢) وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثرت بها ^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ^(٤) تهيباً على فعل الخيرات وامثال الأمر، وإن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه. ﴿وَإِنْ أَمْرُأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ^(٥) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِخْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٦) وَإِنْ يَنْقَرِعَا بِعَيْنِ اللَّهِ كَلًا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ^(٧)

[أحكام نشوز الزوج]

يقول تعالى خبراً ومشروعاً عن حال الزوجين، تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاهه معها، وتارة في حال فراقه لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي من الفراق، وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق.

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس، قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! لا تطلقني، واجعل يومي لعائشة ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرُأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

الآية. قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء جازت ^(٨). ورواه الترمذي وقال: حسن غريب الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت وهب يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقسم لها سودة ^(٩). وفي صحيح البخاري نحوه ^(١٠). وروى البخاري عن عائشة: ﴿وَإِنْ أَمْرُأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قال: الرجل تكون عنده المرأة المسنة بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شاة حل، فنزلت هذه الآية ^(١١).

[معنى ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾]

وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامات والخير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها ^(١٢)، والظاهر الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة ^(١٣) ولم يفارقها تركها من جملة نساءه، وفعله ذلك لتتأسى به في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه السلام، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق ^(١٤) ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ بل الطلاق بغض إليه سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ^(١٥) وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكره منهن، وتقسما لمن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بهن وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء. وقوله تعالى: ﴿تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التقدير في المحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) الطبري: ٩/٢٦٤. (٢) الطبري: ٩/٢٥٥.

(٣) الطبري: ٩/٢٥٥. (٤) مسند الطيالسي: ١٩٩.

(٥) تحفة الأحوذى: ٨/٤٠٣.

(٦) فتح الباري: ٩/٢٢٣، ومسلم ٢/١٠٨٥.

(٧) فتح الباري: ٥/٢٥٧. (٨) البخاري: ٤٦٠١.

(٩) الطبري: ٩/٢٧٢.

ثم سألني ومجاهد والحسن البصري والضحاك بن مزاحم^(١) روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا نبيي فيما أمرك، فلا تُلغني فيما نكيت ولا أمرك» يعني القلب، وما لفظ أبي داود^(٢)، وهذا إسناد صحيح.

قوله: «فَلَا تُلْغُوا كَلَّ الْأَمَلِ» أي فإذا ملستم إلى وحده منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية «فَتَذَرُوهَا كَالْمَعْلَقَةِ» انتهى هذه الأخرى معلقة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة^(٣). وروى أبو داود عاصبي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ نِسَاءٌ فَمَكَرَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَيقَيْهِ سَلْطَانٌ» وقوله: «وَلَا تَصْلُحُوا وَتَقُولُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا حَمِيدًا» أي وإن أصلحت في أموركم، وقسمتم بالعدل بينكم، وانقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من قبل إلى بعض النساء دون بعض، ثم قال تعالى: «وَلَا تَمْلِكُنَّ لِلَّهِ شَيْئًا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَكِيمٌ» وكان الله وسعاً حكيماً^(٤).

ومعنى الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق، وقد أخبر الله تعالى إذا تفرقوا فالله يغنيها عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله بها هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، «وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا» أي: واسع الفضل عظيم المن حكيماً جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

قوله: «وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» وإن تكفروا فإن الله في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً^(٥) والله ما سموت وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً^(٦) إن يشأ فيحكمكم أيما الناس ويأت بتأخيرين وكان الله على ذلك من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً^(٧).

[الوصية بتقوى الله]

خير تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه الحاكم فيها، بهذا قال: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ» أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله وجل، بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: «وَلَا تَكْفُرُوا

فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ»^(٨). وقال: «فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ»^(٩) أي غني عن عبادته، «حَمِيدٌ» محمود في جميع ما يقدره ويشعره، قوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» وكفى بالله وكيلاً^(١٠) أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء. وقوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ» وكان الله على ذلك قديرًا^(١١) أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال: «وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ»^(١٢) وقوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» أي يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سأله من هذه وهذه أغناك وأعطاك وأفناك، كما قال تعالى: «فَمَنْ أَلْكَاسٍ مِنْ يَحْمِلُ رَيْنًا فَإِنِّي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ»^(١٣) ومنهم من يقول ريناً أي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار^(١٤) أولئك لهم نصيب مما كسبوا^(١٥) الآية، وقال تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ» الآية، وقال تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» إلى قوله: «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» الآية، ولهذا قال: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»^(١٦).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»^(١٧)

[الأمر بالقيام بالعدل وإداء الشهادة لله]

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه، وقوله: «شُهَدَاءَ لِلَّهِ»

(١) الطبري: ٢٨٥-٢٨٧/٩.

(٢) أبو داود: ٢١٣٤، وتحفة الأحوذى: ١١٤٠ وابن ماجه:

١٩٧١، والنسائي: ٦٣/٧.

(٣) الطبري: ٢٩٠-٢٩٢/٩. (٤) مسند الطيالسي: ٣٢٢.

بمعنى يتظرون زوال دولتهم وظهور الكفر عليهم وذهاب
ملستهم ﴿وَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي نصر وتأييد وظفر
وغنمة ﴿فَقَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: يتوددون إلى المؤمنين
بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي إدالة على المؤمنين
في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبطل ثم يكون
لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي
ساعدناكم في الباطن، وما ألواناهم خبالاً وتحذيراً حتى
انتصرتهم عليهم، وقال السدي: نستحوذ عليكم: نغلب
عليكم^(١)، كقوله: ﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ﴾ وهذا أيضاً تودد
منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء، ليحظوا
عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا للضعف إيمانهم وقلة
إيقانهم، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي بما
يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة فلا تغتروا
بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له
في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم بل هو
يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٢) روى
عبد الرزاق عن يسيع الكندي، قال: جاء رجل إلى علي بن
أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٣) فقال علي عليه السلام: أدنه أدنه، ثم
قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٤)، وكذا روى ابن جريج عن عطاء
الخراساني، عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا﴾^(٥)، قال: ذاك يوم القيامة^(٦)، وكذا روى السدي عن
أبي مالك الأشجعي، يعني يوم القيامة^(٧). وقال السدي:
﴿سَبِيلًا﴾ أي حجة^(٨)، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ
اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٩)، أي في الدنيا بأن يسلطوا
عليهم استيلاء استتصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في
بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا
والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، وعلى هذا يكون ردّاً على المنافقين فيما
أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه

ابن كثير في تلويهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من
دونه المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون
بهم بالردة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما
نحن مستهزون، أي بالمؤمنين. في إظهارنا لهم الموافقة، قال الله
تعالى: ﴿لَنْ يَنْفَعُوا﴾ أي من مكرهم فيما سلكوه من مودة الكافرين ﴿أَيَنْفَعُونَ
بِشَرِّ الْعِزَّةِ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا
لغيره له ولن يجعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَنْ
لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ فَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ
رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠)
والقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله
إقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم
نصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ
يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
إِذَا يُنَادِيهِمْ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله
إلَيْكُمْ ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه
بآيات الله ويستهزاها وينقص بها، وأقرمتموهم على ذلك، فقد
سلكتموهم في الذي هم فيه، فهذا قال تعالى: ﴿إِذَا يُنَادِيهِمْ
فِي الْمَآثِمِ﴾ والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي
في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية ﴿وَإِذَا
قِيلَ لِلَّذِينَ يُخَاشِعُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية، قال مقاتل بن
حنبل: نسخ هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نسخ
قوله: ﴿إِذَا يُنَادِيهِمْ﴾ لقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ
مُسَابِقِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذُكِّرُوا لِمَالِهِمْ يَتَّقُونَ﴾^(١١)
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾
في كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود
في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال
والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿لَنْ يَرْضَوْا بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ
مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالَّذِينَ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ
يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١٢)

[تربص المنافقين بالمسلمين]

ينهى تعالى عن المنافقين أنهم يترصدون بالمؤمنين دوائر السوء

(١) الطبري: ٩/ ٣٢٥. (٢) عبد الرزاق: ١/ ١٧٥.

(٣) الطبري: ٩/ ٣٢٨. (٤) الطبري: ٩/ ٣٢٨.

(٥) الطبري: ٩/ ٣٢٨.

من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم
ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَرَى الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَعْذِرُونَ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَذِيبِينَ﴾.

﴿وَنَ كُتْمَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢٢) مُذَبِّدِينَ بَيْنَ
ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٢٣)

[مخادعة المنافقين لله وكسلهم في الصلاة]

وتذيبهم بين المؤمنين والكفار

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ
آمَنُوا﴾، وقال مهننا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَدِيعُهُمْ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر
والضرائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم
يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام
الشريعة ظاهراً، فكذا يكون حكمهم عند الله يوم القيامة،
وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة
يخلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن
ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْفِقُونَ لَهُ
كَأَنَّهُمْ لَكُزٌّ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي هو الذي
يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول
إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ
الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ لَئِنْ لَمْ نَمُوتْ وَأَنْظَرُوا نَفَقَتَيْنِ مِنْ قُرْبِكُمْ﴾ إلى قوله:
﴿وَيَقْسُ الْقَصِيرُ﴾ (١٢٤) وقد ورد في الحديث: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ
بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ» (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ الآية، هذه
صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي
الصلاة إذا قاموا إليها، قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لانية
لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها،
وهذه صفة ظواهرهم، ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة،
فقال: ﴿رُءَاوُ النَّاسَ﴾ أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع
الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا
يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً، كصلاة
العشاء في وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما
ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى
الْمُتَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا

لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ
رَجُلًا فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ أَطْلُقَ مَعِيَ بِرَجَالٍ مَعَهُمْ حُرْمٌ
حُطْبٌ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقُ عَلَيْهِمْ بِسُورَةٍ
بِالنَّارِ» (٢). وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ
يَجِدُ عَرَقًا سَمِيمًا أَوْ مِزْمَاتَيْنِ حَسْبَتَيْنِ لَشَهِدَ الصَّلَاةَ، وَلَوْ لَا
الْبُيُوتُ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرِّيَّةُ حَرَقْتُ عَلَيْهِمْ بَيْتَهُمْ بِالنَّارِ»

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢٢) أي في صلاتهم
يخشعون، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون
لأهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون، وقد روى الإمام
مالك عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنس بن مالك، قال: قال
رسول الله ﷺ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ تِلْكَ صَلَاةُ
الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ
فَقَرَّرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» (٣)، وكذا رواه
والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح (٤).

وقوله: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعبر
المنافقين بحرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين طاهرين
وباطنين، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع
المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتره الشك، فلا
يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿كُلَّمَا أَمُوءَ اللَّهُمَّ شَرُّهُ
وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية، وقال مجاهد: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ
إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعبر
اليهود. وروى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لَا
الْمُنَافِقُ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى
هَذِهِ مَرَّةً وَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تُنْبِغُ» (٦)، تفرد به مسلم (٧)، ولهذا قال تعالى
﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٢٣) أي ومن صرف عن
طريق الهدى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا وَمَا مَرَّ شِدًّا﴾ (١٢٤) فإنه ﴿مَنْ يُضِلِلِ
فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُ﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا
هادي لهم ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه
ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(١) فتح الباري: ١١/٣٤٣.

(٢) فتح الباري: ٢/٥٣، ومسلم: ١/٤٥١.

(٣) فتح الباري: ٢/٢٤٨، ومسلم: ١/٣٢٥.

(٤) الموطأ: ١/٢٢٠.

(٥) مسلم: ١/٤٣٤، وتحفة الأحوذى: ١/٤٩٧، والنسائي: ١/٥٤١.

(٦) الطبري: ٩/٣٣٣. (٧) مسلم: ٤/٢١٤٦.

جميع أمره، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص، فبمنفعهم العمل الصالح وإن قل ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثم قال تعالى خبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنسا يعذب العباد بذنوبهم فقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي أصلحتم العمل وأتمتم بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به عِلْمُهُ وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا﴾ إن يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا

[الإذن بالجهر بالسوء للمظلوم مع ترغيبه في العفو]
قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن صبر فهو خير له (٣) وقال الحسن البصري: لا بدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه (٤)، وفي رواية عنه قال: وقد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفر على عليه، لقوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَعْ أَكِلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلِ﴾.

وروى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَغْتَدِ السَّظْلُومُ» (٥).

وقوله: ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي إن تظهروا أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوت من أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (٦)، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك

أَسْمَا لَا تَخْجَلُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١١) إِنَّ ذَلِكَ الْأَنفَسَكِلَ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٢) تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا مَا يَنْفَعُكُمُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ (١٤) وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٥)

[النهي عن ولاء الكفار]

قال تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم المؤدة إليهم، وإنشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُتَّقُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ أي يَحْذَرُكُمْ عِقَابُهُ فِي شَيْءٍ، ولهذا قال ههنا: ﴿أَتَزِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا بِأَمْرِهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي حجة عليكم في عقوبته عليهم، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناد صحيح، قاله عمار وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب وعمر بن الخطاب والسدي والنضر بن عربي.

المنافقون - الموالون للكفار - في أسفل

النار إلا أن يتوبوا]

أخبر تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الْأَذْكَلِ الْأَشْفَكِ مِنَ النَّارِ﴾ يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ. قال الوالي عن ابن عباس: ﴿فِي الْأَذْكَلِ الْأَشْفَكِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في أسفل النار، غيره: النار دركات كما أن الجنة درجات، وروى ابن جرير عن عبد الله يعني ابن مسعود ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الْأَذْكَلِ الْأَشْفَكِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في نوايت من نار تطبق عليهم، أي مغلقة مغلقة (٧).

وروى ابن أبي حاتم أن ابن مسعود سئل عن المنافقين، فقال: مغلون في نوايت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار، ولا يجد لهم نصيراً (٨) أي يقذفهم مما هم فيه ويخرجهم من النار، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب عليه وقيل نعمه إذا أخلص في توبته، وأصلح عمله، واعتصم بربه في

(٢) الطبري: ٣٣٩/٩.

(١) الطبري: ٣٣٩/٩.

(٤) الطبري: ٣٤٤/٩.

(٣) الطبري: ٣٤٤/٩.

(٥) أبو داود: ٤٨٩٤.

على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانه على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: **«مَا تَقَصَّ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا جُزَاءً، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»** (١).

﴿إِنْ لَبِثَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥) **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾** (١٦) **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** (١٧)

[الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم كفر خالص]

توعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله، من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان، فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادمهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصية، فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدًا عليها الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشر فهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم. والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردة نبوته للحسد أو العصية أو التشهي، تين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًا، إنما هو عن غرض وهوى وعصية، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنْ لَدَيْكَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾** فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله **﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾** أي في الإنسان **﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾** (١٥) أي طريقًا ومسلًا، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾** أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعيًا إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله، لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهانا منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله: **﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾** (١٦) أي كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا

ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما يفعله كثير من أبحار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي المصغر بالذل الأخروي **﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْإِذَّةَ وَالْمَسَكَنَةَ﴾** **﴿يَغْضَبُونَكَ اللَّهُ﴾** في الدنيا والآخرة. وقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾** يعني بذلك أمة محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزل الله، وبكل نبي بعث الله. قال تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** **﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾** الآية، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: **﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ﴾** على ما آمنوا بالله ورسله **﴿وَكَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** (١٧) أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾** **﴿سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذْنَا الصُّعْفَةَ يُطَوِّقُهَا ثُمَّ أَخَذُوا الْحِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ﴾** **﴿فَعَفَوْا عَنْ ذَلِكَ﴾** **﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾** (١٨) **﴿وَرَفَعْنَا السُّورَةَ فَنَنظَرُ﴾** **﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَوْتِ﴾** **﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾** (١٩)

[عناد اليهود]

قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقناة: سأل رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء كما نزلت على موسى مكتوبة (٢)، قال ابن جريج: سأله أن ينزل صحفًا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه جاءهم به (٣)، وهذا إنما قالوه على سبيل التعتن والعداوة والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو في سورة **﴿شَتَّى﴾** **﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ مِنَ السَّمَاءِ﴾** (٤) والآيات، ولهذا قال تعالى: **﴿فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ﴾** أي بطغيانهم وبغيتهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في البقرة حيث يقول تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَى كُنْ نُؤْمِنُ لَكَ قَوْلٌ﴾** **﴿وَأَخَذَتْكُمُ الصُّعْفَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾** (٥) ثم بعثناك

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤.

(٢) الطبري: ٢٥٦/٩.

(٣) الطبري: ٣٥٧/٩.

الْقِيَمَةُ بِكَوْنٍ عَلَيْهِمْ تَشْيِيدًا

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب له
وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق
أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي حجج
والمعجزات التي شاهدوها على [أيدي] الأنبياء
قوله: ﴿وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لكثرة
واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعا غفيرا
عليهم السلام. وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال ابن
وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقادة وغير
غطاء^(١)، وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا
مَغْلُوبَةٌ﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ
كُلَّهُمْ﴾ كأنهم اعتدروا إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول،
وفي أكنة، فقال الله: بل هي مطبوع عليها بكفر
الكلام على مثل هذا في سورة البقرة ﴿فَلَا تَعْلَمُ

عيسى وحقيقة ذلك

﴿وَيَكْفُرُ بِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٦) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا^(٧)، وكذلك قال السدي وجوير ومحمد بن إسحاق وغير واحد^(٨)، وهو ظاهر من الآية، أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض - فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وقوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَتَّبِعُنَا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي ذُكِّرْنَا لَمَجْنُونًا﴾ (٩) وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات وأهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرئ بها الأكفمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرا، ثم ينفخ فيه، فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير

[illegible]

ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجرها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يسكنهم في بلدة، بل يكثر السباحة هو وأمه عليها السلام، ثم لم ينفعهم ذلك، حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان، وأنهبوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امثل متولي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه اثنا عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه عليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقي عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكانه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا يتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، ورفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسِي إِيَّيْ مَوْفِقُكَ وَرَافِقُكَ﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك نفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه، وتبحجوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى، ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه. وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود، أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها، والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وجلاء بينه، وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيانات، والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين، المطلع على السرائر والضاير، الذي يعلم السر في السماوات والأرض، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي رأوا شبهه

فظنوه إياه، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَتَشْكُرُنَّ مِنْ عِلْمِ الْإِنْبَاءِ الْظُّنَّ﴾ يعني بذلك من ادعى أنه قتله من ومن سلمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من حيرة وضلال وسعر، ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٧) قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا عَزِيزًا﴾ أي منيع الجناح، لا يرام جناحه، ولا يضام من لا يرام ﴿حَكِيمًا﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم القديم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: لما أريد أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الخواريين، يعني فخرج عليهم من عين في ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشر بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: أحسن أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت هو ذلك عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم فكفروا به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به، واقتروا بالفرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء يعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم صعد إلى السماء وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا ما شاء الله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافران على المسلمة فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بن جندب وكذا ذكره غير واحد من السلف، أنه قال لهم: أيكم يلقي شبهي فيقتل مكاني، وهو رفيقي في الجنة.

[يؤمن جميع النصارى بالمسيح قبل موته]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَآيُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ (١٨) روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: قيل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَآيُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، قال: قيل: أيهم؟ قال: اليهود والنصارى.

(١) ابن أبي حاتم: ٤/١١١٠.

(٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨٩.

فَبَدَأَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى
الْإِسْلَامِ وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَأَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ وَيَهْلِكُ اللَّهُ
فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ
الْأَسُودُ مَعَ الْإِبِلِ وَالتَّهَارُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ وَيَلْبَسُ
الصَّبِيَانُ بِحُلَيَّاتٍ لَا تَضُرُّهُمْ فَيَمُوتُكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَسُوفُ
وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» وكذا رواه أبو داود (١١).

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن
رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ
يَذَابِقَ فَيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ
فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ: خَلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْنَا مِنَّا نَفْسَانَهُمْ
فَقَبُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ لَا نُحِلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا فَيَصَابِلُونَهُمْ
[فَيَهْزِمُهُمْ] ثَلَاثَ لَا يَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيَقْتُلُ ثُلُثَهُ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ
عِنْدَ اللَّهِ وَيَفْتَحُ الثَّلَاثَ لَا يَفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينَ فَيَسْتَأْذِنُ فِيهَا
يَقْسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمْ
الشَّيْطَانُ إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِكُمْ فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ
فَإِذَا جَاوَوْا الشَّامَ خَرَجَ قَبِيْلَتَا هُم يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ
إِذْ أُتِيِمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ
اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لَأَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ
وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيَرْسِلُهُ دَمَةً فِي حَرْبِهِ» (١٢).

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَتَقَاتِلَنَّ الْيَهُودَ فَلَتَقْتُلَنَّاهُمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا
يَهُودِيٌّ فَتَقَاتِلْهُ» (١٣) وله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُوهُمْ
لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ
الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَقَاتِلْ
فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ» (١٤).

ولنذكر حديث النّواسة بن سمعان ههنا لشبهه بهذا الحديث.

عيسى ابن مريم عليه السلام (١). وقال العوفي عن ابن عباس
عن ذلك (٢)، وقال أبو مالك في قوله: «إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
مَوْتِ عِيسَى» قال: ذلك عند نزول عيسى، وقبل موت عيسى ابن
مريم عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به (٣).

في الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى
أرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة
وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

في البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه
عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
يُؤْمِنَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ
وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَقْبِضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ
حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ثُمَّ يَقُولُ
يَا هُرَيْرَةُ أَفَرَأَوْا إِنْ شِئْتُمْ: «وَلَنْ يَنْزِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ
بِمَوْلَايَ وَيَوْمَئِذٍ يُكْفَىٰ عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ شَيْدًا (١٥)» (١٦) وكذا رواه
مسلم (١٧) وقوله: «قَبْلَ مَوْتِهِ» أي موت عيسى ابن مريم.

طريق أخرى عن أبي هريرة: روى الإمام أحمد عن
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لِيَهْلِكَ عِيسَى بِفَيْحِ الرُّوحَاءِ
بِالْحِجْزِ أَوْ الْعُقْرَةِ أَوْ لِيُنْزِلَنَّاهُمَا جَمِيعًا» (١٨)، وكذا رواه مسلم (١٩)
وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَنْزِلُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ، وَيَمْحُو الصَّلِيبَ، وَتَجْمَعُ لَهُ
الصَّلَاةُ، وَيُعْطَى الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَ، وَيَضَعُ الْخَرَاجَ، وَيَنْزِلُ
الرُّوحَاءَ فَيَسْحُجُ مِنْهَا أَوْ يَغْتَمِرُ أَوْ يَجْمَعُهَا» قال: وَتَلَا
أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَلَنْ يَنْزِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ»
لَا، فَرَعَمَ حَنْظَلَةً أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ
عِيسَى فَلَا أَدْرِي هَذَا كُلُّهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ شَيْءٌ قَالَهُ أَبُو
هُرَيْرَةَ (٢٠)؟ وكذا رواه ابن أبي حاتم.

طريق أخرى: روى البخاري أن أبا هريرة قال: قال
رسول الله ﷺ: «كَيْفَ يَكُونُ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَأَمَّاكُمْ مِنْكُمْ» (٢١) وهكذا رواه الإمام أحمد. وأخرجه مسلم (٢٢).

(طريق أخرى): روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي
قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ نَسَتْ وَيَسْتَهْمُ وَاحِدٌ
وَأَنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا يَنْبِي وَيَتَنَبَّ
وَأَنَّهُ نَارِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ
وَالْبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُخَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ

(١) الطبري: ٣٨٠/٩.

(٢) الطبري: ٣٨٠/٩.

(٣) الطبري: ٣٨٠/٩.

(٤) فتح الباري: ٥٦٦/٦.

(٥) مسلم: ١٣٥/١، وانظر أيضًا فتح الباري: ٤٤/٥ و ٤٨٣/٤.

(٦) أحمد: ٥١٣/٢.

(٧) مسلم: ١٣٥/١.

(٨) أحمد: ٢٩٠/٢.

(٩) فتح الباري: ٥٦٦/٦.

(١٠) أحمد: ٢٧٢/٢، ومسلم: ١٣٦/١، ١٣٧.

(١١) أحمد: ٤٠٦/٢، وأبو داود: ٤٣٢٤، والطبري: ٣٨٨/٩.

(١٢) مسلم: ٢٢٢١/٤.

(١٣) مسلم: ٢٢٣٨/٤.

(١٤) مسلم: ٢٢٣٩/٤.

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن النّوّاس بن سميّان، قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي رُجُو هِنَا فَقَالَ «مَا شَأْنُكُمْ؟» فَلَنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ عَدَاةً فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَلَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَاْمُرُوا حَاجِبَ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابَّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَائِفَةٌ كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعُرَى ابْنِ قَطْرِ فَمَنْ أَذْرَكُهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ قَوَائِمَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَغَابَ بَيْنَنَا وَعَاثٌ بِسَالَا يَا عِبَادَ اللَّهِ فَأُثْبِتُوا» فَلَنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا لَبِثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمَ كَسَنِي وَيَوْمَ كَشَفُهُ وَيَوْمَ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرِ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» فَلَنَّا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنِي أَتُكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا أَقْدِرُوْا لَهُ قَدْرَهُ» فَلَنَّا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْعَيْنِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالْأَرْضَ فَتَنْبُتُ فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًّا وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَهُ خَوَاصِرُ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَدْرُونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُضَيِّحُونَ مُخْلِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَيَمُرُّ بِالْحَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ فَتَبْعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُتَمَلِّكًا سَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةً الْغُرْضُ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ وَيَضْحَكُ فَيَبْتِئُهَا كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْهِي دَمَشَقَ بَيْنَ مَهْرٍ وَدَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْحِيَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرٌ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ بَحْبَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَلْزِمَهُ يَسَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَيَبْتِئُهَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنْ قَدْ أَخْرَجْتَ عِبَادِي لَا يَدَانِ لِأَخِي بِقَاتِلِهِمْ فَحَرَّرَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَبَعَثَ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أُولَهُمْ عَلَى بَحْرَةِ طَرِيقَةٍ فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ مَاءٌ وَيُخَضِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَخِيهِمْ خَبَرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَخِيكُمْ الْيَوْمَ فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى

وَأَصْحَابَهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّفْثَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُضَيِّحُونَ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَنْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَشْتُهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَغْصَانِ الشَّجَرِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَقَطِّرُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَبِيتُ مَدْرًا وَلَا وَبَرًا فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَبْزُقَهَا كَالزَّلَاقَةِ ثُمَّ لِلْأَرْضِ: أَخْرِجِي لِمَرْكِ وَرُدِّي بَرَكَاتِكَ فَيُؤْمِنُ بِكُلِّ الْعَبْدِ الرِّمَانَةَ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِفْطِهَا وَيُبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسُلِ حَتَّى إِنْ مَلَكَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِيهِ الْفِشَامُ مِنَ النَّاسِ وَاللَّقْحَةُ مِنَ الْعِشَمِ الْقَحْدُ مِنَ النَّاسِ فَيَبْتِئُهَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَائِفَةً فَأَنَادَتْ تَحْتَ أَبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَنَفْسٍ مِنَ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا فَتَخْرُجُ الْحُرُ لَعَلَّيْهِمْ يَقُومَ السَّامِ وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السَّنَنِ (٢). وسنذكره أيضًا من أحد عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَقٌّ إِذَا نَادَى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ الآية.

وقد بينت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين ومائة للمجمع الأموي بياض من حجارة منحوتة عروسة المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صبيغ النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها الله عيسى ابن مريم عليه السلام كما ورد في الحديث.

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه أيضًا عن يونس بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي قال: سمعت عبد بن عمرو، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله، إله إلا الله، أو كلمة نحوها، لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرج البيت ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُتُ أَرْبَعِينَ لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ مَسْعُودٌ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُتُ النَّاسَ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ عَدَاةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ

(١) مسلم: ٤/٢٢٥٠.

(٢) أحمد: ٤/١٨١، وأبو داود: ٤/٤٩٦، وفتح الأحمدي: ١١/١٩١، والنسائي في الكبرى: ١٥/٥، وابن ماجه: ١٣٥٦/٢.

أَدَمَ كَأَحْسَنَ مَا تَرَى مِنْ أَدَمَ الرَّجَالِ تَضْرِبُ إِلَيْهِ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَجُلُ الشَّعْرِ يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ثُمَّ رَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا جَعْدًا قَطِطًا أَغْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَشْبِهِ مَنْ رَأَيْتُ بَابِنَ قَطْنٍ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ^(٧).

ثم رواه البخاري عن سالم، عن أبيه، قال: لا والله ما قال النبي ﷺ لعيسى: أحر، ولكن قال: «يَبْنِيَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ أَدَمُ سِنْتُ الشَّعْرِ يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يَبْرَأُ رَأْسُهُ مَاءً - فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ فَلَذَهَبْتُ أَلْتَقِثُ فَإِذَا رَجُلٌ أَخْمَرُ جَسِيمٌ جَعْدُ الرَّأْسِ أَغْوَرَ عَيْنَيْهِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَائِفَةٍ قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهَا ابْنُ قَطْنٍ^(٨)» قَالَ الزُّهْرِيُّ رَجُلٌ مِنْ خُرَاعَةِ هَلَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، هَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظُ الْبُخَارِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَوْمَ أَلْقَيْنَاكَ يَكُونُ عَلَيْكَ شَهِيدًا^(٩)» قَالَ قَتَادَةُ: يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهُمُ الرِّسَالَةُ مِنَ اللَّهِ، وَأَقْرَبُ عِبَادِيَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنَاتُ لَيْسَ^(١٠)» إِلَى قَوْلِهِ: «وَالْمَرْيُومُ الْحَكِيمُ^(١١)».

«فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُجِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا^(١٢)» وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْهَمُهُمْ أَمْوَالُ الَّذِينَ بِالْبَيْتِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١٣) لَكِنَّ الَّذِينَ أَلْسِنُوا فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا^(١٤)»

[تَحْرِيمُ طَيِّبَاتٍ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَتْ أَحْلَاهَا لَهُمْ وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدْرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَبَضَهُمْ لِأَنَّهُ تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ، وَحَرَفُوا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، فَحَرَمَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَطْعَمًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَرْعِيًّا

أَخَذَ فِي قَلْبِهِ مِتْقَالٌ ذَرَّةٌ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيَّانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ زَا أَعْدَتْكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» مِنْهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَيَقْبِضُ شِرَارُ النَّاسِ فِي سَبْعَةِ وَأَحْلَامِ السَّبْعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ثُمَّ الشَّيْطَانُ يَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ يَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا ثُمَّ بِمَادَّةِ الْأَوْتَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقَهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ثُمَّ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لِيَنَّا وَرَفَعَ لِيَنَّا، قَالَ: مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ: فَيَضَعُ وَيَضَعُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ قَالَ نَحْمَانُ الشَّادُ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى ثُمَّ يَتَامُ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ فَتُؤْمَرُ بِأَتَمِّ مَسْئُولِينَ^(١٥)» قَالَ: «ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَنَاتِ النَّارِ مِنْ كَمْ؟ يُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَانَةٌ وَتِسْعُونَ» فَذَلِكَ يَوْمٌ «يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا^(١٦)» وَذَلِكَ «يَوْمٌ يُكْشَفُ»

(صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)

فَقَدِمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ آدَمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَإِذَا شَاءَ نَافِرُهُ رَجُلًا مَرْبُوعًا إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ^(١٧)»، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ سَمْعَانَ: «فَيُنْزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْيَتْيَاءِ شَرْقِيٍّ وَدَمَشَقِيٍّ مُرَوِّدَيْنِ وَاضِعًا كَفَيْهِ عَلَى أَخِيحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ نَحْرًا وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ مِثْلِ جَبَانِ اللَّوْثِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَحْدُحُ نَفْسُهُ إِلَّا مَاتَ وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ^(١٨)»، وَفِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَلَّةُ أَشْرَى بِِي لَقِيْتُ مُوسَى» قَالَ: فَتَعَنَّتْ فَإِذَا رَجُلٌ حَسَنٌ قَالَ: «مُضْطَرِبٌ رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ شَوْءَةٍ» قَالَ: «وَلَقِيْتُ عِيسَى» فَتَعَنَّتْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «وَبَعَثَ أَخْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيَّاسٍ» يَغْنِي الْحَتَامَ «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلِيهِ الْحَدِيثُ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ فَلَمَّا عِيسَى فَأَخْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ وَأَمَّا مُوسَى فَدَمٌ جَسِيمٌ سَبُطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ الرُّطَّةِ^(١٩)»، وَلَهُ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ شَهْرَايَ النَّاسِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَغْوَرَ أَلَّا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَغْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَائِفَةٍ^(٢٠)»، وَلِمُسْلِمٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ فَإِذَا رَجُلٌ

(١) مسلم: ٤/٢٢٥٨. (٢) أبو داود: ٤/٤٩٨.

(٣) مسلم: ٤/٢٢٥٣.

(٤) فتح الباري: ٦/٤٩٣، ومسلم: ١/١٥٤.

(٥) فتح الباري: ٦/٥٤٩. (٦) مسلم: ٤/٢٢٤٨.

(٧) فتح الباري: ٦/٥٥٠. (٨) فتح الباري: ١/١٥٤.

بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك كما قال تعالى: ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ وقد قلنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد: أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْلَطَ بِظُفْرِ ذَلِكَ جَرْتَهُمْ يُغْنِمُونَ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيتهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ولهذا قال: ﴿فَيُظْلَمُونَ ذِينَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقاً من الأنبياء وكذبوا عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: ﴿وَآخِذْهُمْ بِزِينَا وَقَدْ تُهَوِّعُهُمْ﴾ أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الخيل وصنوف من الشبه وأكلوا أموال الناس بالباطل قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَنَكِينُ الرَّاسِخُونَ فِي الْأَعْيَارِ مِنْهُمْ﴾ أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد وزيد بن سعية وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بها أرسل الله به محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ الرَّكَّوَةُ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال ويحتمل زكاة النفوس ويحتمل الأمرين والله أعلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرا وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَتُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْيَسَّىٰ بْنِ مَرْيَمَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ قَبْلَ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ نُوْحًا عَلَى الْفُجَاءِ﴾ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّكَ بِحُكْمِ اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[أوحى إلى النبي ﷺ مثل ما أوحى إلى من بعده]

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال سكين وعدي بن محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، في ذلك من قولها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ مِنَ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات (١). فذكر تعالى أنه أوحى إلى ورسله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المقدمين ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْيَسَّىٰ بْنِ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور اسم الكتاب الذي الله إلى داود عليه السلام.

[المذكورون في القرآن خمسة وعشرون رسولا]

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلَ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي من قبل هذه الآية يعني في السور وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسماهم وهم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمداً ﷺ وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي خلقاً لم يذكر في القرآن.

[فضل موسى]

قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ولهذا يقال له: الكليم وقد الحافظ أبو بكر بن مردويه: عن عبد الجبار بن عبد الله قال: رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ (وكلم الله موسى تكليماً) فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر قرآن الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن

علي بن علي بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على
الله ﷻ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١١) وإنما اشتد
علي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه
بلفظ القرآن ومعناه وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون
نوع الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحدًا من خلقه
ويأباه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: (وكلم
موسى تكليمًا) فقال له: يا ابن اللخناء فكيف تصنع بقوله
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾؟ يعني: أن هذا لا
من التحريف ولا التأويل.

[القصص من بعثة الأنبياء إقامة الحجة]

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي يمشرون من أطاع
وتابع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره
ببشره بالعقاب والعذاب وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ
نُجَاتٌ بَعْدَ أَرْسُلِهِ﴾ وكان الله عزيزًا حكيمًا (١٢) أي إنه
من أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة وبين ما يحبه
وما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى:
﴿وَلَا أَفْعَلُ لَهُمْ عَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَئِذَا أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ أَنْ قِيلَ إِنَّ هَذَا أَرْسُلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ
وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية
التي فيها الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله
ﷺ: «لَا أُخَذَ أَغْرَبٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
سُوءُهَا وَمَا بَطُنَ، وَلَا أُخَذَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَذْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
سُوحَ نَفْسُهُ، وَلَا أُخَذَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
مَتَّ النَّبِيُّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ»، وفي لفظ آخر: «مِنْ أَجْلِ
مَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ» (١٣).

عن الله ﷻ ﴿يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُ﴾ وَالْمَلَكُ
يَعْلَمُ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ
رُسُلِهِمْ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ
يَكُنْ لَهُمْ لِيَعْفُرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
فِيهَا أَبْدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٧) يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ
ضَلُّوا بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمُرُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
فِي مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٨)

لتضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخر السياق
نعت نبوته ﷺ والرد على من أنكروا نبوته من المشركين وأهل

الكتاب قال الله تعالى: ﴿لَيْكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي
وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك فالله يشهد لك بأنك
رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا
يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١٩)
ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع
العباد عليه من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه وما
يكرهه ويأباه وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل وما
فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا
ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ
مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ (٢٠).

قوله: ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي بصدق ما جاءك
وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢١).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٢٢) أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق
وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به قد خرجوا عن
الحق وضلوا عنه وبعثوا منه بعدًا عظيمًا شاسعًا ثم أخبر
تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين
لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك
محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (٢٣) أي سبيلًا
إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا﴾ الآية ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمُرُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي قد جاءكم محمد
صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي
من الله عز وجل فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم
ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي فهو
غني عنكم وعن إيمانكم ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى:
﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
حَمِيدٌ﴾ (٢٤) وقال ههنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي بمن
يستحق منكم الهداية فيهدية وبمن يستحق الغواية فيغويه
﴿حَكِيمًا﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

(١) الطبراني في الأوسط: ٣٣٢٥.

(٢) فتح الباري: ٤٦/٨، ومسلم: ٤/٢١١٤.

لَا تَحْوَ بَنِي الْمَسِيحِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ
تَقْنَهُنَّ ابْنِ مَرْيَمَ وَرُوحَ مَتَّى فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
سَهُوَ حَرْفٌ لَكُمْ بَيْنَهُنَّ لَمْ نُجِدْ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَهُ مَرَى سَمَوَاتٍ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾

[نهي أهل الكتاب عن الغلو في الدين]

[إطراء عيسى ابن مريم]

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في
النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة
التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من
دون الله يعبدونه كما يعبدونه بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه
من زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوه في كل ما
قالوه سواء كان حقًا أو باطلًا أو ضلالًا أو رشادًا أو صحيحًا
أو كذبًا ولهذا قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية. وروى الإمام أحمد
عن ابن عباس، عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي
كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ
اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١). وهكذا رواه البخاري ولفظه: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ
فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يَا مُحَمَّدُ
يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ أَنَا
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَاللَّهُ مَا أَحْبَبَ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ
مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣) فترد به من هذا الوجه.
وقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا عَالِيَ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» أي لا تفتروا عليه
وتجعلوا له صاحبة وولداً تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً
كبيراً وتزده وتقدس وتوحد في سؤده وكبرياته وعظمته فلا إله
إلا هو ولا رب سواه ولهذا قال: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» أي إنما هو
عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له: كن فكان ورسول من
رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها
جبريل عليه السلام إلى مريم فنفض فيها من روحه بإذن ربه
عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل وكانت تلك النفخة
التي نفخها في جيب درعها فتزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة
لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل

لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد
هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح
أرسل بها جبريل قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَتَتْهُ صِدْقَةٌ
بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨﴾
تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَبْنَتْ
عِمْرَانَ النَّحْيَ أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا﴾ إلى آخر السورة وقال
إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الآية.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة «وَكَلِمَتُهُ اللَّهُ
مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» هو كقوله: ﴿كُنْ﴾ فكان^(١) وقد
أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت
يحيى يقول في قول الله «وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»
قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى
وروى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال:
«شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَخَدَّه لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»
وَأَنَّ عَيْسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
الْحَيُّ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ

زاد في رواية: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ
شَاءَ»^(٢)، وكذا رواه مسلم^(٣)، فقوله في الآية: «وَرُوحٌ مِنْهُ»
«وَرُوحٌ مِنْهُ» كقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّكَابِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْهُ» أي من خلقه ومن عنده وليست من التبعية بل هي
تقوله النصارى - عليهم لعائن الله المتابعة - بل هي
الغاية كما في الآية الأخرى وأضيفت الروح إلى الله عز وجل
التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: «وَمِنْ
نَاقَةٍ لِلَّهِ» وفي قوله: «وَمِنْ بَيْتٍ لِلَّهِ» وكما في
الحديث الصحيح: «فَأَذْخُلُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ»^(٤) إضافة
إليه إضافة تشريف [لها] وهذا كله من قبيل واحد
واحد.

- (١) أحمد: ٢٣/١. (٢) فتح الباري: ١/٦.
(٣) أحمد: ١٥٣/٣. (٤) عبد الرزاق: ١/١٧.
(٥) ابن أبي حاتم: ٦٣١٠. (٦) فتح الباري: ١/٦.
(٧) فتح الباري: ٥٤٧/٦. (٨) مسلم: ٥٧/١.
(٩) البخاري: ٧٤٤٠.

وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَخِيرًا لَّكُمْ﴾ أي يكن خيرا لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيها عبده وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو وكيل على كل شيء كيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَبْعُثُ الْمَمُوتَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨١﴾ إلى قوله: ﴿قُرْءًا﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعًا﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٣﴾

[الأنبياء والملائكة لا يستنكفون]

[عن كونهم عباد الله]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ﴾ لن يستكبر وقال قتادة: لن يحتشم ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ^(١) ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعًا﴾ ﴿٨٢﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٣﴾ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا عمتين مستكبرين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا نُورًا مُبِينًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَسُوا بِهٖ فَسَيَجْزِيهِمْ فِي

﴿فَقَابَلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد لا ولد له ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عليه السلام هو الله ورسوله ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي عيسى مع الله وأمه مع الله شريكين تعالى الله عن ذلك عظيم ﴿هَٰذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ﴾ حيث يقول ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثٌ وَمَكَانٌ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية وقال ﴿فَمَا أَتَدَّكُرُ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية فالنصاري - عليهم لعائن الله - من جهلهم بصلابهم ولا كفرهم جد بل أقوالهم وضلالهم منتشر من يعتقد إلهًا ومنهم من يعتقد شريكًا ومنهم من يعتقد ولدًا لهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير متفقة ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع نصارى النصراني لا فقرقوا على أحد عشر قولاً.

[فرق النصاري]

يصف بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن جابر الإسكندراني في حدود سنة أربع مائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا في المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة التي لهم وإياها هي الخيانة الحقة الصغيرة وذلك في أيام سفيان بن عيينة المدينية المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا يحصى ولا يحضر فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا فكانوا أحزابًا لا يحصى خمسين منهم على مقالة وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص فلما رأى منهم عداوة قد ازدوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفر وقد توافقوا على مقالة فاختارها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفًا ذاهية ومحققًا من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر وثبت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتبًا وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعتقدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكية ثم إنهم اجتمعوا على مقالة فحدث فيهم العقوبة ثم مجمعا ثالثًا فحدث فيهم العقوبة وكل هذه الفرق تثبت الأقسام الثلاثة في المسيح وخصه في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم من العداوة ما اتحد أو امتزجا أو حل فيه على ثلاث مقالات

رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿٧٥﴾

[أوصاف ما جاء من عند الله]

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس وخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيله للشبهة ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (٧٥) أي ضياء واضحاً على الحق قال ابن جريج وغيره: وهو القرآن (١) ﴿قَالَمَا الَّذِي آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن (٢) رواه ابن جريج ﴿فَسَيُذِخُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَفَضْلٍ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعة في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (٧٥) أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُ هَٰكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ أَنَّهُ أَخَذَ فَلَهَا يَنْصَفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثُونَ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)

[حكم الكلاله وهي آخر آية نزولاً]

روى البخاري عن البراء قال: آخر سورة نزلت براءة وآخر آية نزلت يستفتونك (٣).

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا عقل، فتوضأ ثم صب علي، أو قال: «صبوا عليه»، فعقلت فقلت: إنه لا يرثي إلا كلاله، فكيف الميراث؟ [قال] فأنزل الله آية الفرائض (٤)، أخرجه في الصحيحين (٥)، ورواه الجماعة وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية (٦)، وكان معنى الكلام - والله أعلم - يستفتونك عن الكلاله ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ فيها فدل المذكور على المتروك وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ولهذا فسرنا أكثر

العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومن الناس يقول: الكلاله من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية ﴿أَمَرْتُ هَٰكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وقد أشكل حكم الكلاله على المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلي عهداً ينتهي إليه: الجد والكلاله وباب من أبواب اليرث وروى الإمام أحمد عن معدان بن أبي طلحة قال: قال ابن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء إلا عفا عنه سألته عن الكلاله حتى طعن بإصبعه في صدره ويحكفك آية الصيغ التي في آخر سورة النساء (٨) هكذا مختصراً، وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا (٩).

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان وعليه التكلان قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمَرْتُ هَٰكَ﴾ أي مات قال الله تعالى: ﴿هَٰكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عز وجل قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٠) وبقي رحمه ربك ذو الجلال والإكرام قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي الذي لا ولد له ولا والد، ويسأل عن ذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ أَخَذَ فَلَهَا يَنْصَفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها لم ترث شيئاً لأنه يجبرها بالإجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً لأن الأخوة يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أن يقولان في الميت: ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله ﴿أَمَرْتُ هَٰكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ أَنَّهُ أَخَذَ فَلَهَا يَنْصَفُ مَا تَرَكَ﴾ ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت وخالفها الجمهور فقالوا في هذه المسألة للبنت النصف بالفرض وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية وهذه الآية نص يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلم يثبت.

(١) الطبري: ٤٢٨/٩. (٢) الطبري: ٢٩٩/٩.

(٣) فتح الباري: ١١٧/٨. (٤) أحمد: ٢٩٨/٣.

(٥) فتح الباري: ٢٦/١٢، ومسلم: ١٢٣٥/٣.

(٦) فتح الباري: ٥/١٢، ومسلم: ١٢٣٥/٣، وأبو داود: ٣٠٨/٣، وتحفة الأحوذى: ٢٧٣/٦، والنسائي في الكبرى: ٥٩/٤، وابن ماجه: ٤٦٢/١.

(٧) فتح الباري: ٤٨/١، ومسلم: ٢٣٢٢/٤.

(٨) أحمد: ٢٦/١. (٩) مسلم: ١٢٣٦/٣.

الأمر لأئمة^(٤) وهذا إسناد صحيح.

وروى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري عن عمر بن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حر النعم: من الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نقر بالزكاة في أموالنا ولا نؤديها إليك أيجل قتالهم؟ وعن الكلالة ثم قال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٥). قال ابن جرير: وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد^(٦) وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه وهو الذي يدل عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ السَّيِّئَ لِنُجَاتِهِمْ﴾ والله أعلم.

تفسير سورة المائدة

[فضائل المائدة وزمن نزولها]

قد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح^(٧)، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٨). وقد روى الحاكم في مستدركه نحو رواية الترمذي، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٩). وروى الحاكم أيضًا عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١٠) ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن ابن مهدي عن معاوية بن صالح وزاد: وسألها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: القرآن^(١١). ورواه النسائي^(١٢).

عن طريق سليمان عن إبراهيم عن الأسود قال: قضى معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان: قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ^(١) وفي صحيح البخاري أيضًا عن هزيل بن جميل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن عم فقال: للابنة النصف وللأخت النصف واثبت ابن مسعود فسألني فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى قال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين في للأخت فأثبتنا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود لا تسألوني مادام هذا الخبر فيكم^(٢).

﴿وَمَنْ يَرْتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي والأخ يرث ما لها إذا ماتت كلالة وليس لها ولد أي ولا والد لأنه لو كان له ولد لم يرث الأخ شيئًا فإن فرض أن معه من له فرض يرث إليه فرضه كزوج أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَلْيُؤْتِ رَجُلًا مِمَّنْ يَرِثُ الْوَرِثَةَ﴾

﴿إِنْ كَانَ كَانَتْ أُنثَىٰ فَلَهَا مِمَّا تَرَكَ﴾ أي فإن كان من موت كلالة أختان فرض لها الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما في حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً مِمَّنْ لَكُمْ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾.

﴿وَلَا يَرِثُ الْوَرِثَةَ رَجُلًا وَلَا نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ هذا حكم العصابات من البنين وبني البنين والإخوة جميع ذكورهم وإناتهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحدد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه وقوله: ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ أي هو الذي يعاقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى.

وروى ابن جرير عن طارق بن شهاب، قال: أخذ عمر رضي الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: لأقضي في كلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن فخرجت حيث تدعي من البيت فتفرقوا فقال: لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا

(١) البخاري: ٦٧٤١. (٢) البخاري: ٦٧٣٦.

(٣) فتح الباري: ١٧/١٢، ومسلم: ١٢٣٣/٣.

(٤) الطبري: ٤٣٩/٩. (٥) الحاكم: ٣٠٤/٢.

(٦) الطبري: ٤٣٧/٩. (٧) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٨.

(٨) تحفة الأحوذى: ٤٣٧/٨. (٩) الحاكم: ٣١١/٢.

(١٠) الحاكم: ٣١١/٢. (١١) أحمد: ١٨٨/٦.

(١٢) النسائي في الكبرى: ١١١٣٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَإِنَّهَا لَمِنْ أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِمَةِ الْاَنْعَامِ
 لَا مَشْيَ عَنْكُمْ عَنْهُ لِحُلِيِّ الصَّيْدِ وَاسْمُ حُرْمٍ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْلُوا سَعِيرَ اللَّهِ وَلَا النَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ
 وَلَا مَسْجِدَهُ وَلَا أَقْسِمَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَقُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا
 حَنَنْتُمْ فَأَصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْبُدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْفِتْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
 الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ②

وأبو العالية ومطرف بن عبد الله وعبد الله بن عبيد بن عمير والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغير واحد في قوله ﴿يَتَّبِعُونَ قَضَاكَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني بذلك التجارة^(٣) وهذا كما تقدم في قوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا قَضَاكَ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قال ابن عباس: يرضون الله بحجهم وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَأْتِينَ آلِيبَتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ قَضَاكَ مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾^(٤).

[إباحة الصيد بعد الحلال من الإحرام]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحت لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذي يثبت على السبب أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى والذي يتنظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه والله أعلم.

[العدل واجب في كل حال]

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكَ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ ومعناها ظاهر أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم ففتقصوا منهم ظمناً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد وهذه الآية كما سيأتي من قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكَ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال، وروى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف ونترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال لحساب المحارم كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ فِيهِ قُتِلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ أَشَدُّ﴾ الآية وفي صحيح البخاري بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إِنَّ هَذَا شَهْرٌ كَتَبَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ السَّنَةَ فِيهِ شَهْرَانِ مِنْهُمَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ثَلَاثَةٌ مُمَوَّلِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمِ وَرَجَبٌ مُضَرُّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(١) وهذا على استمرار تحريمها إلى آخر وقت.

[الإهداء إلى بيت الله]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَهْدَى وَلَا أَلْتَمِذَ﴾ يعني لا تركوا إهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ولا تركوا تلبسها في أعناقها لتتميم به عما عداها من الأنعام وليعلم أنها هي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء وتبعث من يراها من الإتيان مثلها فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل مما معصوا من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بلذ الحليفة وهو وادي العقيق فلما صبح طاف على نسائه وكن تسعاً ثم اغتسل وتطيب وصلى يعني ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة وكان فيه ابتلاء كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال ولما كان كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شُكْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَفُوتُ الْقُلُوبَ﴾^(٢).

وقال مقاتل بن حيان: وقوله ﴿وَلَا أَلْتَمِذَ﴾ فلا تستحلوها وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر حرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من خاء شجر الحرم فيأمنون به رواه ابن أبي حاتم ثم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^(٣).

[تحرير من قصد البيت الحرام]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِينَ آلِيبَتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ قَضَاكَ مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله ورغباً في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه قال مجاهد وعطاء

(١) فتح الباري: ١٠/١٠. (٢) الطبري: ١٠/٣٣٢.

(٣) الطبري: ٩/٤٨٠-٤٨١. (٤) الطبري: ٩/٤٧٢، ٤٧٥.

أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية والشأن هو البغض قاله ابن عباس وغيره^(١). وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالعاونة على فعل الخيرات وهو البر وترك المنكرات وهو التقوى وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم^(٢) وقد روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قَالَ: «تَحْجِرُهُ وَتَنْتَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٣) انفرد به البخاري من حديث هشيم به نحوه^(٤). وروى أحد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَضُرُّ عَلَى أَذَاهُمْ أَظْلَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَضُرُّ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٥) وفي الصحيح: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ إِثْمِ مَنْ تَبِعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ إِثْمِهِمْ شَيْئًا»^(٦). ﴿مُؤْمِنَتْ عَلَيْكُمُ الْيَمِينَةُ وَالْأَدَمُ وَكُفِّرَ الْخِزِيرُ وَمَا أَهْلُ لَيْلَىٰ لِلَّهِ بِهِ وَالْمَنْعِقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّيِّمُ إِلَّا مَا دَكَّنْتُمْ وَمَا دُبِيعَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَىٰ فَلَكُمْ فَيْسُ الْيَوْمِ بِبِئْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَا الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٧)

[ما حرم أكله من الحيوانات]

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن فلها حرمة الله عز وجل ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها لما رواه مالك في موطنه وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في

صحيحهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل فقال: «هُوَ الطَّهَوْرُ مَاؤُهُ الْجِلُّ مَيْتَهُ»^(٨)، وهكذا الحديث من الحديث وقوله: «وَالْأَدَمُ» يعني به المسفوح كتول مسفوحاً قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر، روى ابن جرير عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقال: إنما حرم عليكم الدم المسفوح، وقد روى محمد بن إدريس الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً عن رسول الله ﷺ: «أَجِلُّ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَانِ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(٩)، وكذا روى حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي من حديث ابن زيد بن أسلم، وهو ضعيف^(١٠).

وقوله: «وَلَحْمُ الْخِزِيرِ» يعني إنسيه ووحشيه، جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحليل اللحم جمودهم ههنا، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: «فَأَمَّا أَوْسَقًا» يعنون قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ» أعادوا الضمير فيما ليس بالخير حتى يعم جميع أجزائه وهذا بعيد من حيث اللغة يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والإنس اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب العرف المطرد وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبِثَ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ بِلَدِّهِ فِي لَحْمِ خِزِيرٍ وَدَمِهِ»^(١١) فإذا كان هذا مجرد اللبس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء الشحم وغيره؟ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ

- (١) الطبري: ٩/٤٧٨.
- (٢) الطبري: ٩/٢٩٠.
- (٣) أحمد: ٣/٩٩.
- (٤) فتح الباري: ٥/٧.
- (٥) أحمد: ٥/٣٦٥.
- (٦) مسلم: ٤/٢٠٦.
- (٧) أبو داود: ١/٦٤، وتحفة الأحوذى: ١/٢٢٤، وابن خزيمة: ١/١٠٩، وابن حبان: ٢/٢٧٢.
- (٨) ترتيب مسند الشافعي: ٢/١٧٣.
- (٩) أحمد: ٢/٩٧، والدارقطني: ٤/٢٧٢، والبيهقي: ١/١٠٩.
- (١٠) مسلم: ٤/١٧٧٠.

وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّجَّعُ ﴿١﴾ قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتهم من هؤلاء وفيه روح فكلوه، فهو ذكي ^(٨)، وكذا روي عن سعيد ابن جبير والحسن البصري والسدي ^(٩)، وروى ابن جرير عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها ^(١٠)، وهكذا روي عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال ^(١١).

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله! إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مدى، أفنذبح بالقصب؟ فقال: «مَا أَثَرُ الدَّمِ، وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُّوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأَخَذْتُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمَذَى الْحَبَشَةِ» ^(١٢).

وقوله: ﴿وَمَا ذُيِّعَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة ^(١٣)، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، ويتضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ^(١٤)، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب، من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

[حرمة الاستقسام بالأزلام]

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحداً رُلم، وقد تفتح الزاي،

السبح المنير في تهذيب ابن كثير
ثَلَاثُونَ مِائَةً فَإِنَّمَا تُطْلَى بِهَا الشُّقْنُ وَتُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ
يُصْبَحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا هُوَ حَرَامٌ» ^(١).
صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لمرقل
هنا عن الميتة والدم.

﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم
فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته
العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها
من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر
الوثان فإنها حرام بالإجماع.

﴿وَالنَّخِيعَةُ﴾ وهي التي تموت بالحق، إما قصداً
وإنما بأن تتجبل في وثاقها، فتموت به فهي حرام وأما
سوقه في التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى
كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب
حتى [توقد بها] فتموت ^(٢) قال قتادة: كان أهل
حامية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها ^(٣). وفي
صحيح أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أرمي
بالصيد فأصيب قال: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِرْعَاضِ فَخَرِّقْ
عَنْهُ وَلَوْ أَصَابَ بَعْرَضٍ فَإِنَّهَا هُوَ وَفَيْدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ» ^(٤) ففرق بين ما
بالسهم أو بالمرزاق ونحوه بحدّه فأحله وما أصاب
رأسه فجعله وفيداً لم يحله وهذا مجمع عند الفقهاء.

فهي التي تقع من شاطئ أو موضع عال فتموت
فلا تحمل قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المتردية
سقط من جبل ^(٥) وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر ^(٦).
السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر ^(٧).

نطيحة فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي
إن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو من مذبحتها،
صحيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي منطوحة.

تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّجَّعُ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد
نمر أو ذئب أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام،
وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحتها فلا تحمل بالإجماع،
وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو
غيره أو البقرة أو نحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين.

السدي: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه
فإن سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة
ولذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالنَّخِيعَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِيَةُ

(١) فتح الباري: ٤/٤٩٥، ومسلم: ٣/١٢٠٧.

(٢) الطبري: ٩/٤٩٦. (٣) الطبري: ٩/٤٩٦.

(٤) فتح الباري: ٩/٥١٨. (٥) الطبري: ٩/٤٩٨.

(٦) الطبري: ٩/٤٩٨. (٧) الطبري: ٩/٤٩٨.

(٨) الطبري: ٩/٥٠٢. (٩) الطبري: ٩/٥٠٧، ٥٠٤.

(١٠) الطبري: ٩/٥٠٣. (١١) الطبري: ٩/٥٠٤.

(١٢) فتح الباري: ٩/٥٥٤، ومسلم: ٣/١٥٥٨.

(١٣) الطبري: ٩/٥٠٨. (١٤) الطبري: ٩/٥٠٨.

فيقال: لم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قدام ثلاثة، على أحدها مكتوب: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث عُقْل ليس عليه شيء، ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث عُقْل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر ففعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، وقال ابن عباس: هي قدام كانوا يستقسمون بها الأمور^(١). وذكر محمد بن إسحاق وغيره: إن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل، منصوب على بئر داخل الكعبة، فيها توضع الهدايا، وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام، مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه، ولم يعدلوا عنه^(٢) وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام فقال: «فَاتْلَهُمُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَقْسِمُوا بِهَا أَبَدًا»^(٣).

وقال مجاهد في قوله: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ» قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقمارون [بها]^(٤). وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه قد قرن بينها وبين القمار، وهو الميسر فقال في آخر السورة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْنَابُ أَلْوَنٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ»^(٥) «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»^(٦) إلى قوله: «مُنْتَهُونَ». وهكذا قال ههنا: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ مِّنْ نَّفْسٍ» أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك. وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه.

كما روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِن

كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِّي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَأَقْضِهِ وَبَشِّرْ لِّي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِّي فِي دُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي، فَاصْرِفْني عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَأَقْضِ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»^(٧) لفظ أحمد، وزد الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

[يأس الكفار والشيطان من دين المسلمين]

وقوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني يشسوا أن يراجعوا دينهم وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان^(٨)، وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ بَيَّسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُضَلُّونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّخْرِيشِ يَبْسُهُمْ»^(٩)، ويحتمل أن يكر المراد أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين، لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال تعالى أمر المؤمنين أن يصبروا ويشتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدًا الله، فقال: «فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَخَشَوْنِي» أي لا تخافوهم في مخالفة إياهم، واخشوني، أنصركم عليهم وأبدتهم، وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

[إكمال دين الإسلام]

وقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَضْتُ عِلْمَكُمْ وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وفلا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: «وَقَدْ كَمَّمْتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» أي صدقًا في الأخبار، عدلًا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل له

(١) الطبري: ٥١٥/٩. (٢) الطبري: ٥١٣/٩.

(٣) فتح الباري: ٤٤٦/٦. (٤) الطبري: ٥١٢/٩.

(٥) أحمد: ٣٤٤/٣ وفتح الباري: ٥٨/٣ وأبو داود: ١٨٧/٢ وخلف

الأحوذى: ٥٩١/٢ والنسائي: ٨٠/٦ وابن ماجه: ٤٠/١.

(٦) الطبري: ٥١٦/٩. (٧) الطبري: ٥١٦/٩.

(٨) مسلم: ٢١٦٦/٤.

المضطر وافترقه إلى ذلك، فيتجاوز عنه، ويغفر له، وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يُكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(٧) لفظ ابن حبان، وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله! إنا بأرض تصيبنا بها المخصصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إِذَا لَمْ تَضْطَرِّحُوا، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا، وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بَقَلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا»^(٨) تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

ومعنى قوله: «مَا لَمْ تَضْطَرِّحُوا» يعني به الغداء «وَمَا لَمْ تَغْتَبِقُوا» يعني به العشاء، أو تَحْتَفِئُوا بَقَلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا» فكلوا منها.

وقوله: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أي متعاط لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له، وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: «فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(٩) وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

«يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُجِلَ لَهُمْ قُلْ أُجِلَ لَكُمْ الطَّيْبُتُ وَكَأَنَّكُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»^(١٠)

[بيان الحلال]

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيها، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» قال بعدها «يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُجِلَ لَهُمْ قُلْ أُجِلَ لَكُمْ الطَّيْبُتُ» كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، وقال مقاتل:

بُنِيَتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» أي سوره أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، ثم به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

وروى ابن جرير عن هارون بن عنتره، عن أبيه، قال: لما نزل «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» وذلك يوم الحج الأكبر، قال له النبي ﷺ: «مَا يَبْكِيكَ؟» قال: أبكاني أنا كنا نريد من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، «أَصْدَقْتُ»^(١١) ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١٢).

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من يهود بني نصر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: رأي آية؟ قال: قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة^(١٣)، ورواه البخاري عن الحسن ابن الصباح عن جعفر بن عون به^(١٤)، ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي^(١٥). ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية عن علي قال: قالت اليهود لعمر: والله! إنكم تقرؤون آية لو نزلت لاتخذناها عيداً. فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت، وأين نزلت، وابن رسول الله ﷺ حيث أنزلت: يوم عرفة، وأنا والله عرفة، قال سفيان: وأشك، كان يوم الجمعة أم لا «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»^(١٦) الآية، وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية، غير نوع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا، وإن كان مخالفاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم الجمعة، فهذا ما يصدر عن الثوري رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير، ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها، والله أعلم. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر.

[إباحة الميتة في حالة الاضطرار]

وقوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخَصَّةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١٧) أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه الحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة أُلْجَأَتْه إلى ذلك فله أن يأكله، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده

(١) الطبري: ٥١٩/٩. (٢) مسلم: ١/١٣٠.

(٣) أحمد: ٣٨/١. (٤) فتح الباري: ١/١٢٩.

(٥) مسلم: ٤/٢٣١٣ وتحفة الأحوذ: ٤٠٧/٨ والنسائي:

٢٥١/٥.

(٦) فتح الباري: ٨/١١٩. (٧) ابن حبان: ٤/١٨٢.

(٨) أحمد: ٥/٢١٨.

الطيأت ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: ليس هو من الطيأت، رواه ابن أبي حاتم.

[حكم صيد الجوارح الملعمة]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، والطيأت من الرزق، وأحل لكم ما [اصطدقوه] بالجوارح، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وعن قال ذلك علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ﴾ وهن الكلاب الملعمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها^(١). رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك^(٢)، ثم روى ابن جرير: عن ابن عمر، قال: أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه^(٣). قلت: والمحكي عن الجمهور: إن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب، لأنه تكلب الصيد بمخالبها، كما تكلبه الكلاب، فلا فرق، كما رواه ابن جرير عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال: «مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ»^(٤).

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جرح له، أي لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّارِ﴾ أي ما كسبتم من خير وشر.

وقوله تعالى: ﴿مُكَيِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في «عَلَّمْتُم» علمتم فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول، وهو الجوارح، أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجراح إذا قتل الصيد بصدمة لا بمخالبه وظفره أنه لا يحل له، ولهذا قال «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّارِ» وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجراح معلماً، وأمسك على

صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله، حل وإن قتله بالإجماع. وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله! إني أرسل الكلاب الملعمة وأذكر اسم الله عليها، فقال: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مِمَّا عَلَيْكَ». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإِنْ قَتَلْنَ، مَا لَمْ يَبْشُرْ بِهَا لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ». له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إِنْ أَرَادَ بِالْمَعْرَاضِ فَحَرَقْ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرَضٍ، فَإِنَّهُ وَاسِعٌ تَأْكُلُهُ»^(٥). وفي لفظ لها: «وَإِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَذْكُرْهُ حَيًّا فَأَذْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قُتِلَ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذِكَاثَهُ»^(٦). وفي رواية لها: «فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»^(٧).

[التسمية على الجراح عند إرساله]

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند إرساله له، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقول: إذا أرسلت جارك فقل: باسم الله، وإن جرح فلا حرج^(٨)، وقيل: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية الأكل، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربه بن أبي سلمة فقال: «سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِبَيْتِكَ»، وكل بما يليك وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله! قوماً يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بلحمان لا تدرى

(١) الطبري: ٥٤٨/٩. (٢) الطبري: ٥٤٧/٩.

(٣) الطبري: ٥٤٩/٩. (٤) الطبري: ٥٥٠/٩.

(٥) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٢٩/٣.

(٦) فتح الباري: ٥١٣/٩، ومسلم: ١٥٣٠/٣.

(٧) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٢٩/٣.

(٨) فتح الباري: ٥٢٤/٩.

(٩) فتح الباري: ٥٢٧/٩، ومسلم: ١٥٣٢/٣.

(١٠) الطبري: ٥٧١/٩.

(١١) فتح الباري: ٤٣١/٩، ومسلم: ١٥٩٩/٣.

عليها أم لا؟ فقال: «سَمُوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»^(١).

بِمَنْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ جِلَّ لَكُمْ
نَكْرًا جِلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
كَتَبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُجْرِمِينَ وَلَا مُتَحَدِّثِينَ أَخْدَانِي وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

[حل فيبيحة أهل الكتاب]

ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما
أحل لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿يَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾
ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى
﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ جِلَّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس
هو أمانة ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة وعطاء
وخسن، ومكحول وإبراهيم النخعي، والسدي ومقاتل بن
عبيد بن ذبائحهم^(٢)، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء،
فذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبيح
عند الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن
اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزعه عنه، تعالى وتقدس.

ولم يثبت في الصحيح: عن عبد الله بن مغفل، قال: أدبني
بجرب من شحم يوم خيبر فضضته وقلت: لا أعطي اليوم من
هذا أحدًا، والتفت فإذا النبي ﷺ يبتسم^(٣)، فاستدل الفقهاء
على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من
شحم، قبل القسمة، وهذا ظاهر، واستدل به الفقهاء الحنفية
وشافعية والحنابلة، على أصحاب مالك في منعهم، أكل ما
يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم
عليهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وأجود منه في
الدلالة، ما ثبت في الصحيح، أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله
شاة مصلية، وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع،
فتناوله، فنفس منه نشة، فأخبره الذراع أنه مسموم، فلفظه، وأثر
ذلك في ثياب رسول الله ﷺ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن
براء بن معرور فإت، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها
ذئب، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألم
هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامَكُمْ جِلَّ لَهُمْ﴾ أي ويحبل لكم أن
تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخبارًا عن الحكم

عندهم، اللهم إلا أن يكون خبرًا عما أمروا به، من الأكل من
كل طعام، ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو
غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي ولكم أن تطعموهم من
ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة
والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن
سلول، حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس
حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك، فأما
الحديث الذي فيه: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا
تَقِيًّا»^(٥) فمحمول على الذنب والاستحباب، والله أعلم.

[جواز نكاح الحرائر العفاف من أهل الكتاب]

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأحل لكم نكاح
الحرائر العفاف من النساء المؤمنات، والظاهر من الآية أن المراد
من المحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الآية
الأخرى ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْتَفْهِاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾،
وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول:
لا أعلم شرًا أعظم من أن تقول إن ربه عيسى، وقد قال الله
تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ الآية.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك الغفاري، عن ابن عباس
قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ قال
فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب،
وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا
بذلك بأسًا، أخذًا بهذه الآية الكريمة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْثُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه خصصة للتي في سورة البقرة
﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ إن قيل بدخول الكتابيات
في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها، لأن أهل الكتاب قد
انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى:
﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَشَابِهِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ﴾^(١) وكقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ
فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن، أي كما هن
محصنات عفاف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس، وقد أفتى

(١) فتح الباري: ٩/ ٥٥٠. (٢) الطبري: ٩/ ٧٣ - ٥٧٧.
(٣) فتح الباري: ٩/ ٥٥٢. (٤) فتح الباري: ٧/ ٥٦٩.
(٥) أبو داود: ٥/ ١٦٧.

جابر بن عبد الله وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري، بأن الرجل إذا تكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينهما^(١)، وترد عليه ما بذل لها من المهر، رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِينَ وَلَا مُتَجِدِّينَ أَخْدَانٍ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسْتَفْهِينَ﴾ وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عن مجرمهم ﴿وَلَا مُتَجِدِّينَ أَخْدَانٍ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء.

﴿يَتَأْتِيهَا اللَّيْلُ نَامُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَآئِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

[الأمر بالوضوء]

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث واجب، وفي حق المتطهر ندب، وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ، وروى الإمام أحمد بن حنبل عن سليمان ابن بريدة، عن أبيه، قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله. قال: ﴿إِنِّي عَمَلْتُ فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ﴾^(٢)، وهكذا رواه مسلم وأهل السنن^(٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن جرير حدثنا الفضل بن البشر قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضأ ومسح بفضل ظهوره الخفين، فقلت: أبا عبد الله، أشيء تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه، فأنا أصنعه كما رأيته رسول الله يصنعه^(٤)، وكذا رواه ابن ماجه^(٥)، وروى أحمد عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، قال: أرايت

وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن ابن حنظلة بن أبي عامر بن الغسيل، حدثها أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة، ووضوء الوضوء إلا من حدث، فكان عبد الله يرى أن به فذلك، كان يفعله حتى مات^(٦)، وهكذا رواه أبو داود فعل ابن عمر هذا ومدامته على إسباغ الوضوء لكل دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

وروى أبو داود عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا تأتاك؟ فقال: «إِنَّمَا أُؤْمِرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ»^(٨)، وكذا الترمذي، والنسائي^(٩). وقال الترمذي: هذا حديث وروى مسلم عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ الخلاء، ثم إنه رجع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله، تبوضأ؟ فقال: «لِمَ؟ أَصَلِّيْتُ فَأَتَوْضَأُ؟»^(١٠).

[النية والتسمية في الوضوء]

وقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قد استدل بقوله تعالى قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ على وجوب التسمية بالوضوء، لأن تقدير الكلام ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ لها كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وأبو أمري ما نوى^(١١)، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١٢) ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما

(١) الطبري: ٥٨٥/٩، ٥٨٦. (٢) أحمد: ٣٥٨/٥.

(٣) مسلم: ٢٣٢/١، وأبو داود: ١٢٠/١، وتحفة الأحبار: ١٩٤/١، والنسائي: ٨٦/١، وابن ماجه: ١٧٠/١.

(٤) الطبري: ١١/١٠. (٥) ابن ماجه: ١٧٠/١.

(٦) أحمد: ٢٢٥/٥. (٧) أبو داود: ٤١/١.

(٨) أبو داود: ٣٦/٤.

(٩) تحفة الأحوذني: ٥٧٩/٥، والنسائي: ٨٥/١.

(١٠) مسلم: ٢٨٣/١.

(١١) فتح الباري: ١٥/١، ومسلم: ١٥١٥/٣.

(١٢) أبو داود: ٧٥/١.

وتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ
مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلُ يَدُهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا،
لَكُمْ لَا يَذْرِي أُبَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»^(١). وحَدَّثَ الوجه عند الفقهاء
بأن شعر الرأس - ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم - إلى
الحنين والدَّقَن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

[تخليل اللحية]

روى الإمام أحمد عن أبي وائل قال: رأيت عثمان يتوضأ،
حديث، قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه،
رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت^(٢)،
ملي وابسن ما جه^(٣)، وقال الترمذي: حسن
صحيح، وخسنه البخاري.

[كيفية الوضوء]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه،
غرفة من ماء فمضمض بها واستنشق، ثم أخذ غرفة
محمية بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بها
وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ
غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ
غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ
غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت
رسول الله ﷺ يعني يتوضأ^(٤). ورواه البخاري^(٥).

«وَأَيُّكُمْ إِلَى الْمَرِافِقِ» أي مع المرافق كما قال
«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا»^(٦).
يستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه
روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله
«إِنِّي أَنْتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًا مُحْجَلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ»،
استنطاق منكم أن يطيل غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»^(٧) وفي صحيح
عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تَبْلُغُ
حَبَّةٌ مِنَ الْمَوْءِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(٨). وقوله تعالى:
«تَسْحَبُوا ذُرِّيَّتَكُمْ» الباء للإلصاق، وقد ثبت في
صحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني، عن
رجل قال لعبد الله بن زيد بن عاصم، وهو جد عمرو
بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني
توضأ؟ فقال رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم
بوضوء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم

مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه
مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه يديه، فأقبل بهما وأدبر بدأ
بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى
المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجله^(٩).

وفي حديث عبد خير عن علي في صفة وضوء رسول الله
ﷺ نحو هذا^(٩)، وروى أبو داود عن معاوية والمقدام بن
معد يكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله^(١٠)، ففي
هذه الأحاديث دلالة على وجوب تكميل مسح جميع الرأس.
روى عبد الرزاق، عن حمران بن أبان، قال: رأيت عثمان
ابن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً، فغسلها، ثم تمضمض
واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى
المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم
غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال:
رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ
تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ،
غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١١) أخرجه البخاري ومسلم في
الصحيحين^(١٢). وفي سنن أبي داود عن عثمان في صفة
الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة^(١٣).

[وجوب غسل الرجلين دون المسح]

قوله: «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» قرئ «وَأَرْجُلَكُمْ»
بالنصب عطفاً على «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ». روى ابن
أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأه «وَأَرْجُلَكُمْ» يقول:
رجعت إلى الغسل^(١٤)، وروى عن عبد الله بن مسعود وعروة
وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدي

(١) فتح الباري: ٣١٦/١، ومسلم: ٢٣٣/١.

(٢) جامع المسانيد والسنن: ١٧/١٩٧.

(٣) تحفة الأحوذى: ١/١٣٣، وابن ماجه: ١/١٤٨.

(٤) أحمد: ١/٢٦٨، (٥) فتح الباري: ١/٢٩٠.

(٦) فتح الباري: ١/٢٨٣، ومسلم: ١/٢١٦.

(٧) مسلم: ١/٢١٩.

(٨) فتح الباري: ١/٣٤٧، ومسلم: ١/٢١٠.

(٩) أبو داود: ١/٨٢، (١٠) أبو داود: ١/٨٨، ٨٩.

(١١) عبد الرزاق: ١/٤٤.

(١٢) فتح الباري: ١/٣١١، ومسلم: ١/٢٠٥.

(١٣) أبو داود: ١/٨٠، ٨٢.

(١٤) الطبري: ١٠/٥٥.

وَحَلَّلَ بَيْنَ الْأَصَابِعِ، وَيَالِغُ فِي الْأَسْتِشْقَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ضَائِعَةً
[المسح على الخفين سنة ثابتة]

روى الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس
رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم
الصلاة^(١٢). وقد رواه أبو داود عن أوس بن أبي أوس
رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم، فبال وتوضأ
على نعليه وقدميه^(١٣).

وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي
أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ
أسلمت^(١٤)، فردد به أحمد. وفي الصحيحين عن همام بن
جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال
رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه
الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن
جرير كان بعد نزول المائدة^(١٥)، لفظ مسلم. وقد ثبت
عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً ومفعلاً
[الأمر بالتيمة عند عدم وجود الماء وللنبي

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ الْمَاءُ مِنْ الْقَائِلِ أَوْ لَمْ تَمْسَسْهُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ فَمَنْهُ﴾ كل ذلك ثبت
الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته
يطول الكلام، وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك
البخاري روى ههنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة
روى عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء

(١) الطبري: ١٠/٥٤-٥٧.

(٢) فتح الباري: ١/٣١٩، ومسلم: ١/٢١٤.

(٣) فتح الباري: ١/٣٢١، ومسلم: ١/٢١٥.

(٤) مسلم: ١/٢١٣. (٥) البيهقي: ١/٧٠ والحاكم: ١/٧٠.

(٦) مسلم: ١/٢١٥. (٧) البيهقي: ١/٧٠.

(٨) أحمد: ٣/٤٢٤. (٩) أبو داود: ١/١٢١.

(١٠) جمع الزوائد: ١/٢٣٥.

(١١) أبو داود: ١/٩٩ وتحفة الأحوذني: ١/١٤٩.

(١٢) وابن ماجه: ١/١٤٢.

(١٣) أحمد: ٨/٤. (١٤) أبو داود: ١/١٣.

(١٥) أحمد: ٤/٣٦٣.

(١٦) فتح الباري: ١/٥٨٩، ومسلم: ١/٢٢٨.

ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك^(١)،
وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، وإنها
جاءت هذه القراءة بالخفض على المجاورة وتناسب الكلام، كما
في قول العرب: جُحِرَ ضَبٌّ خَرِبٌ، وكقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَابُثٌ
سُنْدِينٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه

قد تقدم حديث أميري المؤمنين عثمان وعلي، وابن عباس
ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب،
أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة، وإما
مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم.

وفي الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا
رسول الله ﷺ في سفرة سافرها، فأذركنا وقد أرهقتنا الصلاة،
صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فننادي
بأعلى صوته «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»^(٢)
وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة^(٣). وفي صحيح
مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَيْلٌ
لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»^(٤). وعن عبد الله بن الحارث بن [جزء] أنه
سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ
النَّارِ»^(٥) رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناد صحيح.

وقد روى مسلم في صحيحه، عن عمر بن الخطاب: أن
رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ
وقال: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»^(٦). وروى الحافظ أبو بكر
البيهقي عن أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد
توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله
ﷺ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»^(٧).

وروى الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي ﷺ: أن
رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي، وفي ظهره قدمه لمعة قدر
الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد
الوضوء^(٨). ورواه أبو داود من حديث بقيق، وزاد:
والصلاة^(٩). وهذا إسناد جيد قوي صحيح، والله أعلم.

[الأمر بالتخليل بين الأصابع]

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل
بين أصابعه^(١٠). وروى أهل السنن عن لقيط بن صبرة قال:
قلت: يا رسول الله! أخبرني عن الوضوء. فقال: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ،

مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى تَخْرُجَ نَفْسًا مِنَ الدُّنْيَا ^(٣) رواه مسلم ^(٤).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَيقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا» ^(٥).

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ، وَلَا صَلَاةَ بِغَيْرِ طَهْوٍ» ^(٦).

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٧) يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ ؕ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ^(٨) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ^(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ^(١٠) يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ ؕ آمَنُوا أَدَّ كُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ^(١١)

[التذكير بنعمة الرسالة والإسلام]

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم. وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته وموازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه، وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا: يا بعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ

الدين، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فتنى رأسه في راقته، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة وقال: الناس في قلادة؟! فتمنيت الموت لكان رسول الله ﷺ وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت فالتبس الماء فلم يوجد، فنزلت ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ﴾ فَمُنَّمَا إِلَى الصَّلَاةِ فَاعْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴿إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، من الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، لا بركة لهم ^(١١)

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ هذا سهل عليكم ويسر، ولم يعسر، بل أباح التيمم عند وعند فقد الماء توسعة عليكم، ورحمة بكم، وجعله من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما من شرع له، وكل هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير، وقوله ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ﴾ أي لعلمكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه من التوسعة والرافة والرحمة والتسهيل والسباحة.

[الدعاء بعد الوضوء]

وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل من التطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما (إمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبه بن عامر قال: علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروختها بعشي، فأتى رسول الله ﷺ قائماً يتحدث الناس، فأدرت من قوله: نَسْلِمُ تَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، فَعَلَيْهَا بَقْلِيهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ قال: قلت: ما هذا، فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فأتى فإذا عمر بن الخطاب فقال: إني قد رأيتك جئت أنفاً، قال: «ما من أحد يتوضأ فيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، أَوْ قِيَّسُ الْوُضُوءِ، يَقُولُ: أَشْهَدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتُحْتَلَّ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» ^(٢) لفظ مسلم.

[فضل الوضوء]

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ بِلْيِهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ

(١) فتح الباري ٨/١٢١.

(٢) أحمد: ١٥٣/١ ومسلم: ٢٠٩/١ وأبو داود: ١١٨/١

والنسائي: ٩٢/١ وابن ماجه: ١٥٩/١.

(٣) الموطأ: ٣٢/١.

(٤) مسلم: ٢١٥/١.

(٥) مسلم: ٢٠٣/١.

(٦) مسلم: ٢٠٤/١.

يَدْعُوهُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَلَّ عَدِيْمُ فَكُنْ كُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وقيل: هذا تذكّار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والالتقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾.

[الأمر بالتزام العدل]

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّينَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِلِقَاسِطٍ﴾ أي بالعدل لا بال جور، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نَحْلًا، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقي، فقال: «أَكُلْ وَلَدِكَ تَحَلَّتْ مِثْلُهُ؟» قال: لا، فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ». وقال: «إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَى ءَلَا تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَأَن يُقِيلَ لَكُمْ أَنُجِعُوا فَانْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٢)، وكقول بعض الصحابيّات لعمر: أنت أفض وأغلظ من رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وسيجزيك على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فأخبر، وإن شراً فشر، ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمته منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٣) وهذا من عدله تعالى، وحكمته الذي لا يجوز فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القادر.

[كف أيدي الكفار عن المسلمين نعمة من الله]

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا عَلَيْنَا أَن يَدِينَكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ عَنْكُمْ﴾. روى عبد الرزاق عن جابر: أن النبي ﷺ منزلاً، وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها، وعنده سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: عز وجل. قال الأعرابي، مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله». قال: فشام الأعرابي السيف. فقال أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى يعاقبه، وقال معمر: كان قتادة يذكر نحو هذا، ويذكر أن العرب أرادوا أن يقتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي وتناول ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية^(٢)، وقصة هذا الأعرابي رواها ابن الحارث - ثابتة في الصحيح^(٣).

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة بن خالد، أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يقتكوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي، لما جاءهم يستعينهم العامرين، ووكلا عمرو بن جحاش بن كعب بن عبد الله وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عليه يلقي تلك الرحي من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ فقاموا فقالوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل ذلك هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما بين يديه وحفظه من شر الناس وعصمه، ثم أمر رسول الله ﷺ بغزوهم، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ

(١) فتح الباري: ٥/ ٢٥٠، ومسلم: ٣/ ١٢٤٢.

(٢) عبد الرزاق: ١/ ١٨٥.

(٣) البخاري: ٤١٣٥، ٤١٣٦، ٤١٣٩.

الله^(٢)، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتشد عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولوا المعاهدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بحفظي وكلائي ونصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي صدقتموهم فيما يبيئونكم به من الوحي ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي ذنوبكم، أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود.

[الميثاق ونقضه]

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده، وجحد وعامله معاملة من لا يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال، ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ يَتَّبِعُهُمْ لَعْنُهُمْ﴾ أي فيسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم، أي أبعدناهم عن الحق، وطردناهم عن الهدى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿يَجْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهَا﴾ أي فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزل، وحلوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ﴿وَسُوءَ حَقًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه. ﴿وَلَا تَرَأَى عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك. وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ^(٣) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ منسوخة بقوله: ﴿فَتَنَلُوا الَّذِينَ لَا يَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية^(٤).

حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ^(٥) فِيمَا نَقُضُهُمْ يَتَّبِعُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يَجْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهَا وَسُوءَ حَقًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَرَأَى عَلَى خَائِنَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٦) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أُخَذْنَا بِعَهْدِهِمْ فَسُوءُوا حَقًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ الْفِتْنَةَ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ^(٧)

[ميثاق أهل الكتاب ولعنهم على نقضه]

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما مدهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، ورطدوا عن بابه وجنبه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع، والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَعَهِدْنَا لَهُمْ عَلَى عُرُوفِهِمْ أَنِ يَسْمَعُوا آيَاتِيَ وَيُحْسِنُوا الْعَمَلَ وَأَنَّهُمْ سَتَأْتُكَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَحْسِنُوا إِلَيَّ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ورسوله ولكتابه، وقد ذكر محمد بن إسحاق وابن عباس وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال خيبر، فأمر بأن يقيم نقباء، من كل سبط نقيب^(١).

[نقباء الأنصار ليلة العقبة]

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً: ثلاثة من الأوس: وهم أسيد بن خضير، وسعد بن خيشمة، ورفاعة بن عبد المنذر، ويقال: بدله أبو الهيثم بن التيهان^(٢)، وتسعة من الخزرج وهم: أبو أمية أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد بن الصامت، وسعد بن عباد، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو بن [خنيس]^(٣)، وقد ذكرهم نقيب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق رحمه

(٢) ابن هشام: ٨٦/٢، ٨٧.

(١) الطبري: ١١٣/١٠.

(٤) الطبري: ١٣٤/١٠.

(٣) الطبري: ١٣١/١٠.

[ميثاق النصارى ونسيانهم له ونتيجته]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام - وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ، ومناصرتة، ومؤازرته، واقضاء آثاره، وعلى الإتيان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق، ونقضوا العهود، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي فآلقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً، ويعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنْفِثُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

[بيان الحق بالرسول والقرآن]

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه، وقد روى

الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس رضيهما، قال: من بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحسن قوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجل أخفوه ^(١)، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ثم أخرجه عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي طرق النجاة والسلم ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحلوم ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشد لهم أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلَ بَشَرٍ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَنفُثُ بِهِنَّ مَائِدَةً وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

[شرك النصارى وكفرهم]

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى في ادعائهم في الباطل ابن مريم - وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يصدقه منه، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك، ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعذله وعظمته، وهذا رد النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

ورد على أهل الكتاب في قولهم: نحن أبناء الله [

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم
تراثهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ

﴿أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم
رحمة، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده

إبراهيم: ﴿أنت ابني بكري﴾، فحملوا هذا على غير تأويله،
فردوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم

فقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل
النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي

إيكم، يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم
من البتة ما ادعوا في عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من

ذلك مغزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء
الله وأحبناؤه، قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

بِأَسْمَائِكُمْ؟ إِنْ لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدْعُونَ أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ، فَلِمَ أَعَدَّ
لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَكُذْبِكُمْ وافترائكم؟

﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنَّا لَكُمُ أَسْوَأُ أَهْلِيكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ،
وهو سبحانه الحكام في جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن

يَشَاءُ﴾ أي هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع
الحساب ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي الجميع

سلكه وبحث فهره وسلطانه ﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب
الذي يحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجوز.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ
الَّذِينَ أَنزَلْنَا مَا جَاءَكُمْ مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ

وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد
رسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده

ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ
رُّسُلٍ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم،

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان
سفياني وقتادة في رواية عنه: كانت ستائة سنة^(١). ورواه

بخاري عن سليمان الفارسي^(٢)، وعن قتادة: خمسمائة وستون
سنة. وقال معمر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون

سنة. ومنهم من يقول: ستائة وعشرون سنة، ولا منافاة
بينهما، فإن القائل الأول أراد ستائة سنة شمسية، والآخر أراد

سنين، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف ﴿وَلَيُتَوَفَّىٰ كُفْرَهُمْ
ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٥٠﴾﴾ أي قمرية لتكميل ثلاثمائة
الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب، وكانت الفترة بين
عيسى ابن مريم وآخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين

من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِنِّي مَرْثَمٌ لَّأَنَا،

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ﴿٥١﴾﴾ وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد
عيسى نبي، يقال له خالد بن سنان، كما حكاه القاضي وغيره،

والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل وطموس
من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران

والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عظم،
فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر

في سائر العباد، إلا قليلاً من التمسكين ببقايا من دين الأنبياء
الأقدمين، من بعض أحرار اليهود وعباد النصارى والصابئين.

كما روى الإمام أحمد عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن
النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: ﴿وإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ

أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي، هَذَا كُلُّ مَالٍ تَحْلَتُهُ عِبَادِي
حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ

فَأَصْلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ
يُسِرُّوا بِمَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ

الْأَرْضِ فَمَقَّحَتْهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتَيْلِكَ وَأَتَيْلِي بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا

يَغْيِسُهُ الْمَاءُ تَقْرُوهُ نَارًا وَتَقْطُرُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا
فَقُلْتُ: يَا رَبِّ إِذْنٌ يَتْلَعُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةٌ، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ

كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نَفْرَكَ وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ
وَابْعَثْ جَيْشًا يَبْعَثُ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ،

(١) البغوي: ٢٣/٢. (٢) فتح الباري: ١٠١/٣٢٤.

(٣) البغوي: ٢٣/٢. (٤) عبد الرزاق: ١/١٨٦.

(٥) فتح الباري: ٦/٥٥٠.

[البخل] أو الكذب «والسُنْظِيرُ»: الفاجِسُ^(١).

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وفي لفظ مسلم: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(٢) وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشرعة الغراء، ولهذا قال تعالى: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ» أي لئلا تحتجوا وتقولوا: يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيره ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ»، يعني محمداً ﷺ «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني^(٣).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَمَعَ لَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) يَتَقَوَّمُوا أَدْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَتَنْفَلِكُوا خَسِرِينَ^(٥) قَالُوا يَتَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِنَّا بِهَا دَاخِلُونَ^(٦) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا آدْكُلُوا عَلَيْهِمُ الْآبَاكُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُفْرَهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٧) قَالُوا يَتَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ^(٨) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(٩) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(١٠)

[تذكير موسى قومه بنعم الله وأمره بدخولهم]

في الأرض المقدسة وتمردهم عليه]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكنيهم موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ» أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء

المصباح المتعريف في تهذيب ابن كثير

والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل إبراهيم عليهما السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم وقوله: «وَجَمَعْنَا لَكُمْ مُلُوكًا» روى عبد الرزاق عن ابن عمر في قوله: «وَجَمَعْنَا لَكُمْ مُلُوكًا» قال: الخادم والمرأة والبيت وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: المرأة والخبر «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» قال: الذين همب ظهرانهم يومئذ. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١١). وقال قتادة: كانوا أول من اتخذ الخدم^(١٢).

وقد ورد في الحديث: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَاذِي فِي حَسْبِهِ، أَوْ فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ السُّبُحَاتُ بِحَذَائِرِهَا»^(١٣).

وقوله: «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» يعني عام زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والفرس وسائر أصناف بني آدم، كما قال: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الطِّبْتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ»^(١٤) وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: «تَتَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»^(١٥) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرُ نَارٍ تَلْبَلُبُ تَأْكُلُ أَنْفُسَهُنَّ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(١٦) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَفَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١٧) والمقصود أنهم كانوا أشرف زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكرم شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرواحاً وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً. قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»، وذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرورها وكربها عند الله عند قوله تعالى: «كُفِّرْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» سورة آل عمران.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهل بيته من بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرج مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين فنهضوا

(١) أحمد: ٤/١٦٢. (٢) مسلم: ٤/٢١٩٧.

(٣) الطبري: ١٠/١٥٨. (٤) عبد الرزاق: ١/١٨٧.

(٥) الحاكم: ٢/٣١٢. (٦) الطبري: ١٠/١٦٣.

(٧) الترمذي: ٢٣٤٦.

كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة، والبيض والبلب فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» وما يقول ذلك، إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ يقول سعد ونُسْطَه ذلك (٢).

وروى أبو بكر بن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعنك. ورواه الإمام أحمد والنسائي ورواه ابن حبان (٣).

وروى البخاري في المغازي وفي التفسير من طرق عن عبد الله بن مسعود، ولفظه في كتاب التفسير قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» ولكن امض ونحن معك، فكانه سري عن رسول الله ﷺ (٤).

[دعاء موسى على اليهود]

وقوله: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (٥) يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: «رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي» أي ليس أحد يطعني منهم فيمثل أمر الله ويحجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون «فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» قال العوفي عن ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم (٥)، وكذا قال علي بن أبي طلحة،

عليها وتلكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه بحول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة عليهم، فتكلموا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب الخادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون، فمدد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تغريطهم في أمر، فقال تعالى خبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَوْعَدَةَ﴾ أي المطهرة.

قال: ﴿أَلَيْسَ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي التي وعدكموها الله حين أنزل عليكم إسرائيل أنه ورائه من آمن منكم ﴿وَلَا تَزِدُّوا لَهُمْ فِيهِمْ﴾ أي ولا تنكروا عن الجهاد ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٦) ﴿يَنْخَرِجُوا مِنْهَا فَيَأْتُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي اعتذروا بأنهم من بلاد التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها، قوماً أي ذوي خلق هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مطاردتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما نريد، فإن خرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

[خطبة يوشع وكالب عن الجهاد]

قال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ، حرضهم رجلان الله عليها نعمة، وهما من يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم: ﴿جَلَّانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي ممن هم مهابة وموضع من يخافون، ويقال لهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن جرير، ويخاهد وعكرمة، وعطية والسدي، والربيع بن أنس، وأحد من السلف والخلف رحمهم الله (١) فقالا: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَوْعَدَةَ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتكم نصركم الله على أعدائكم، وأيدكم وظفركم بهم، وحسنتم البلدة التي كتبها الله لكم، فلم ينفع ذلك فيهم، فقالوا لموسى: إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَنَحْنُ وَقَتْلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢) وهذا نكلهم عن الجهاد، وخالفه لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء.

[حسن جواب الصحابة يوم بدر]

وما أحسن ما أجاب به الصحابة يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاؤوا لمنع العير، الذي

(١) الطبري: ١٧٦/١٠ - ١٧٨. (٢) البداية والنهاية: ٢٦٢/٣.

(٣) أحمد: ١٠٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٣٤/٦ وابن حبان:

١٠٩/٧.

(٤) البخاري: ٤٦٠٩. (٥) الطبري: ١٨٨/١٠.

عن ابن عباس^(١)، وكذا قال الضحاك: اقض بيتنا وبينهم، وافتح بيتنا وبينهم^(٢)، وقال غيره: افرق: افصل بيتنا وبينهم.

[تحرير دخول اليهود الأرض المقدسة أربعين سنة]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة، فوقموا في التيه يسرون دائئاً، لا يتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد ويقال لها: قبة الزمان.

[فتح بيت المقدس]

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلما انقضت المدة، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم، قال: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علي. فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله يوشع ابن نون، أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون: حطة، أي حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة.

وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس، رضي الله عنه، قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: فتأهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة، ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها^(٣)، وهو الذي قيل له، اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب، فخشي أن دخلت ليلة السبت أن يسبوا، فنادى الشمس: إني مأمورة، وإنك مأمورة، فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقبوه إلى النار فلم تأت، فقال فيكم الغلول، فدعا رؤوس

الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم، والتصقت يدا رجل منهم بيده فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذنب لها عيتان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القرابين فأثت النار فأكلته، وهذا السياق له شاهد في الصحيح.

[تسليية الله لموسى]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسليية لموسى عليه السلام عنهم، أي لا تأسف ولا تحزن عليهم لير حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفاتهم ولرسوله، ونكولهم عن طاعتها فيما أمرهم به من الجهاد فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلف في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون، ولتقريب أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدد أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام وافترضوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الليل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد في جميع الوجود ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ يَالْحَقِّي إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٧) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَتَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٨) إِنَّكَ أَرِيدُ أَنْ تُبَوِّأَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكَ فَتَكُونَ مِنَ الصَّاحِبِ النَّارُ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٠) فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوثِقُ أَجْرُثُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

(٢) الطبري: ١٨٩/١٠.

(١) الطبري: ١٨٩/١٠.

(٣) الطبري: ١٩٣/١٠.

مَنْ أَلْفَرَابَ فَأَوْرَى سَوْءَةً أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿٢١﴾

[قصة هابيل وقايل]

يقول تعالى ميثاً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر بني آدم لصلبه وهما قاييل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر قتله، بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل قربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، فجاز المقتول بوضع الآثام بالدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾، أي نصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر بني آدم، وهما هابيل وقاييل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، فتعبد لله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ نَفْسٌ عَلَيْكَ تَبَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى شرع لأدم عليه السلام، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قاييل وضيفة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك، إلا أن يغربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل، ولم يتقبل من قاييل، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأمر أن ينكحها غيره من إختوها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيفة، وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي، فقال: لا، أنا أختي بأختي، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكباش ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله ^(١)، إسناده جيد.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من اتقى الله في فعله ذلك، وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وقوله: ﴿لَيْسَ نَسْطُكَ إِلَيْكَ لَيْسَ لِي نَسْطُكَ﴾ أي أنا يأسط يدك إليك لا قتلك إني أخاف

اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين توعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه ﴿لَيْسَ نَسْطُكَ إِلَيْكَ لَيْسَ لِي نَسْطُكَ﴾ أي أنا يأسط يدك إليك لا قتلك أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب، قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله إن كان لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج يعني الورع، ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا تَوَاجَعَ الْمُسْلِمَانِ يَسْتَفِيهِيَا، فَالْقَائِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ^(٢).

وروى الإمام أحمد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا سَتَكُونُ فِتْنَةُ الْقَائِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمِ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقبطني؟ فقال: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ» ^(٣) وكذا رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة وخباب بن الارت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة ^(٤).

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٥) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقطادة والسدي في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ﴾ أي يائمه قتل وإثمك الذي عليك قبل ذلك، قاله ابن جرير ^(٥). وقوله تعالى: ﴿فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ^(٦) أي فحسنت وسولت له نفسه، وشجعت على قتل أخيه فقتله، أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر، وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك ^(٦)، رواه ابن أبي حاتم، وقال عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: أخذ برأسه ليقبض عليه فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال:

(١) الطبري: ٢٢٣/١٠.

(٢) فتح الباري: ٣٥/١٣ ومسلم: ٢٢١٤/٤.

(٣) أحمد: ١٨٥/١. (٤) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٦.

(٥) الطبري: ٢١٦، ٢١٥/١٠. (٦) الطبري: ٥٣٦/٤.

أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشذخ رأسه، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل، فقالت له: ويحك، وأي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: ما لك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبني منها برآء، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه؟ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كَيْفٌ مِنْ دِمَهِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» (١) وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود (٢) وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذي قتل أخاه، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل (٣).

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي سُوَّةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلُ عَجْرَتٌ أَنْ أَكُونَ وَمِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُودِي سُوَّةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٤) قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضي الله عنهم: لما مات الغلام تركه بالعرء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حشى عليه، فلما رآه قال: ﴿يُنَوِّلُ عَجْرَتٌ أَنْ أَكُونَ وَمِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُودِي سُوَّةَ أَخِي﴾ (٤) وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فحشى عليه من التراب حتى واره، فقال الذي قتل أخاه ﴿يُنَوِّلُ عَجْرَتٌ أَنْ أَكُونَ وَمِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُودِي سُوَّةَ أَخِي﴾ (٥).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.

[تعجيل عقوبة البغي وقطيعة الرحم]

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عِقَابُهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُرُ لِصَاحِبِهِ، فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» (٦) وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

﴿مَنْ أَحْلَى ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيَرُ

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا فَأَخْبَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْبَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسْرَى (٣١) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ وَأَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٢) إِلَّا الَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْكُمْ فَمَا لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ (٣٣)

[يجب على الإنسان أن يحترم الإنسان]

يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعداً ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمنا ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيَرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَخْبَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْبَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ﴿وَمَنْ أَخْبَاهَا﴾ حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم من الاعتبار، ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَا أَخْبَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا﴾ والأعمش وغيره: عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: دخل على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب النضر يا أمير المؤمنين! فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس ولرباي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك بما جواز ما زور، قال: فانصرفت ولم أقاتل، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيَرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَخْبَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْبَاهَا النَّاسُ جَمِيعًا﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفس حرمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني أنه من حرم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه (٧)، وهكذا قال مجاهد: ﴿وَمَنْ

(١) أحمد: ٣٨٣/١.

(٢) فتح الباري: ١٢/١٩٨ ومسلم: ٣/١٣٠٣ وتحفة الأخوين

٧/٤٣٦ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن ماجه: ٢/١٣

(٣) الطبري: ١٠/٢١٩. (٤) الطبري: ١٠/٢٢٥.

(٥) الطبري: ١٠/٢٢٦. (٦) أبو داود: ٥/٢٠٨.

(٧) الطبري: ١٠/٢٣٥.

نَبَاهَا أَي كَفَّ عَنْ قَتْلِهَا^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ نَاسًا جَمِيعًا﴾، يقول: من قتل نفساً واحدة حرّمها الله فهو من قتل الناس جميعاً^(٢)، وقال سعيد بن جبير: من سَجَلَ دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، قال ابن جريج، من الأعرج، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب، قال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه^(٣).

[تهذيب المشرّفين]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَئِىَ الْأَرْضِ لَشُرُيُونَ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المعاصي بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني نضلة من حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقتاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وقعت الحروب أزوارها. فدوا من أسروه، وودوا من أسروا، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْ بَعِثَتِ الْفِتْنَةَ لَا تَفْصَحُ فَمَنَافِقُكُمْ لَا تُفْصَحُ وَمَا كُنْتُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ لِنُفُسِكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا فَرَيقًا مِّنْكُمْ دِينُكُمْ عَلَىٰ أَيْمَانِكُمْ أَتُكْفَرُ بِهِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْكُمْ يَأْكُلُونَ مِمَّا كُسِبَ وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ أَيُّ شَيْءٍ هَؤُلَاءِ لَا يَفْقَهُونَ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزْيُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَتَوْمٌ تُنْفَخُ الْبُزُوفُ إِنَّ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(٥).

[جزاء المحاربين والأشرار]

قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأرجلهم من خلفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية، المحاربة من المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على

أنواع من الشر، روى ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري، قالوا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى ﴿أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقتلوا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرم هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقتلوا عليه، لم يمنعه ذلك أن يقيم عليه الحد الذي أصاب^(٦)، ورواه أبو داود والنسائي من طريق عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، نزلت في المشركين من تاب منهم قبل أن يقتلوا عليه، لم يمنعه ذلك أن يقيم عليه الحد الذي أصابه^(٧).

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات؛ كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة - واسمه عبد الله بن زيد الجرهمي البصري - عن أنس بن مالك أن نقرأ من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَنَا رَاغِبِينَ فِي إِبِلِهِ، فَتُصَيِّبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيَا؟» فقالوا: بلى، فخرجوا فشرّبوا من أبوالها وألبانها فصحو، فقتلوا الراعي، وطرّدوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم، فأدركوا فجاء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم، وفي لفظ لها: من عكل أو عرينة، وفي لفظ: وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون، فلا يسقون^(٨).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأرجلهم من خلفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأحاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله^(٩) وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن

(١) الطبري: ١٠/٢٣٦. (٢) الطبري: ١٠/٢٣٣.

(٣) الطبري: ١٠/٢٣٥. (٤) الطبري: ١٠/٢٤٤.

(٥) أبو داود: ٥٣٦/٤ والنسائي: ١٠١/٧.

(٦) فتح الباري: ١٢/١١٤ ومسلم: ٣/١٢٩٦.

(٧) الطبري: ١٠/٢٦٣.

مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفع صحیح.

وقال ابن جریر في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي النَّارِ﴾

يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل العذاب

الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا

من فعلهم ذلك حتى هلكوا، لهم في الآخرة مع الجزاء

جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها

عظيم، يعني عذاب جهنم^(١).

[تسقط حدود المحاربة إذا تاب المحاربون

قبل القدرة عليهم]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾

أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٢)، أما على قول من قال: إنها في

الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل

عليهم، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع

وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر

من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب

رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد

جعفر، فكلّموا عليّاً فيه فلم يؤمنه، فأتى سعيد بن قيس

فخلفه في داره، ثم أتى عليّاً، فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت

حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، فقرا حتى

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له

قال سعيد بن قيس، فإنه حارثة بن بدر، وكذا رواه ابن جرير

وروى ابن جرير عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من

أبي موسى وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضي الله عنه

صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى! هذا مقام العائذ بك، أنا

ابن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت

الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقصدوا عليّ، فنه

أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب

ورسوله وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن

عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن بك صادقاً

(١) الطبري: ١٠/٢٦٢، ٢٦٣. (٢) الطبري: ١٠/٢٦٨-٢٦٩.

(٣) مسلم: ٣/١٣٣٣.

(٤) أحمد: ١/١٥٩ وتحفة الأحوزي: ٧/٣٧٧ وابن ماجه: ٢/٦٨.

(٥) الدارقطني: ٣/٢١٥. (٦) الطبري: ١٠/٢٧٦.

(٧) الطبري: ١٠/٢٨٠.

البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وروى ذلك كله

أبو جعفر بن جرير^(١) ومستند هذا القول: أن ظاهر (أو)

للتخير كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد

﴿فَجَزَاءٌ مِمَّا قُتِلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ

كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ وكقوله في كفارة القدية:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدَتِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةً أَوْ

نُسْأً﴾ وكقوله في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ

مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾

هذه كلها على التخير فكذلك فلتكن هذه الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفِقُوا مِنْ الْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو

أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار

الإسلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك

وسعيد بن جبير والضحاك والربيع بن أنس والزهري والليث

ابن سعد ومالك بن أنس وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى

بلد آخر أو يخرج من السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية^(٢) وقال

سعيد بن جبير وأبو الشعثاء والحسن والزهري والضحاك

ومقاتل بن حيان: إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام، وقال

آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم

وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم، خزي لهم بين

الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب

العظيم يوم القيامة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في

المشركين، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة

ابن الصامت رضي الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما

أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا

نقتل أولادنا، ولا يعصه بعضنا بعضاً، فمن وفي منكم فأجره

على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة

له، ومن ستره الله فأمره إلى الله: إن شاء عذبه وإن شاء عفا

عنه^(٣)، وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي

الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللَّهُ أَغْدَلُ مِنْ أَنْ يُنْتَبِىَ عُقُوبَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ

أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ

يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ﴾^(٤). رواه الإمام أحمد

والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب. وقد

سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث^(٥)، فقال: روي

رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ النَّاتِيَةُ، وَالصَّلَاةُ الْفَائِضَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»^(٦).

وقوله: «وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِهِ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح، والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يأس، ويحيى ولا يموت، لا تبل ثيابه ولا يفتى شبابه.

[لا تقبل الفدية من الكفار يوم

القيامة ويستمرون في النار]

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ تَابُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ. مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا ويمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، ويتقن وصوله إليه، ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص ولا مناص، ولهذا قال: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي موجع «يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ» كما قال تعالى: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ

يُخْرَجُوا مِنْهَا كَانُوا فِيهَا يَضِلُّونَ»، وقام الرجل ما شاء الله، خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله. ثم روى ابن جرير موسى بن إسحاق المدني، أن عليًا الأسدي حارب وأخاف سيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يعلو حتى جاء نائبًا، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: «يُنَادِي الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّهُ يَنْفَخُ فِي الْأُفُوفِ نَفْثًا، وَهُوَ الْعَاقِبُ الرَّحِيمُ» فوقف عليه فقال: يا سيدي أريد أن أعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء نائبًا فأم المدينة من السحر، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما سمعوا عرفه الناس فقاموا إليه فقال: لا سبيل لكم علي، جئت من قبل أن تقدروا علي، فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده فأتى مروان بن الحكم، وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا علي جاء نائبًا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، فخرج علي نائبًا مجاهدًا في سبيل الله في حروب، فلقوا الروم فقبروا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقترحموا الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به فماتوا جميعًا^(١).

وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ كَفَرُوا فِي سَبِيلِهِ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَظِرُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ^(٣)

[الأمر بالتقوى والوسيلة والجهاد]

فعل تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت طاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، فقد قال بعدها: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» قال سفيان الثوري: حدثنا أبي عن طلحة عن عطاء، عن ابن عباس: أي غربة^(٤)، وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه^(٥)، وقرأ ابن زيد: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ»^(٦).

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة

(١) الطبري: ٢٨٤/١٠. (٢) الطبري: ٢٩١/١٠.

(٣) الطبري: ٢٩١/١٠. (٤) الطبري: ٢٩١/١٠.

(٥) فتح الباري: ٢٥١/٨. (٦) مسلم: ٢٨٨/١.

يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ۝ الآية، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بمقام الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾ أي دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا يحيد لهم عنها. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرٌّ مَضْجَعٍ، فَيُقَالُ: هَلْ تَقْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذِكًّا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلَسَمْتَ تَفْعَلُ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»، رواه مسلم والنسائي (١).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤) ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦)

[الأمر بقطع يد السارق]

يقول تعالى حاكماً وأمرًا بقطع يد السارق والسارقة، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام، وزيدت شروط آخر كما سنذكره - إن شاء الله تعالى - كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح.

[متى تقطع يد السارق؟]

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْخَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ» (٢).

وأخرج الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة رضيها أن رسول الله ﷺ قال: «تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا» (٣) ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا» (٤)

فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن

أبي طالب رضيهم عنه، وبه يقول عمر بن عبد العزيز واللبث سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه، وإسحاق بن إبراهيم في رواية عنه، وأبو ثور وداود بن علي الظاهري، ورجحه ذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في عنه، إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم شرعي، فمن سرق واحداً منها أو ما يساويه قطع.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد، وكذا سفيان الثوري، رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن السرقة عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة، والثابت هو الأول، وهو القطع في ربع دينار فصاعداً. وإنما ناسب في السرقة أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لئلا ينال الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند الألباب ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما من الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعان به في ذلك من الله، أي تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في أمره ونهيه وشرعه، وقد

[توبة السارق مقبولة]

نم قال تعالى: ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٦) أي من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقته عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالت يا رسول الله! إن هذه المرأة سرقتنا. قال قومها: فنحن نفيها فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يديها» فقالوا: نحن نفيها بخمس دينار، فقال: «اقطعوا يديها» فقطعت يديها اليمنى، فقالت هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كبريت ولدتك أمك»، فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٦) وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقته، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة، عن عائشة أن قريش

(١) مسلم: ٤/٢١٦٢ والنسائي: ٣٦/٦.
(٢) فتح الباري: ١٢/٨٣، ومسلم: ٣/١٣١٤.
(٣) فتح الباري: ١٢/٩٩، ومسلم: ٣/١٣١٢.
(٤) مسلم: ٣/١٣١٣. (٥) أحمد: ١٧٧/٢.

[التلقين بعدم الحزن على تصرفات اليهود والمنافقين]

نزلت هذه الآيات الكرييات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي أظهروا الإيمان بالإيمان باستهتارهم، وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ أي مستجيون له، متفعلون عنه، ﴿سَمْعُوتَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي يستجيون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام ويثبوتونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك.

[تحريف اليهود ومحاولة انحرافهم عن]

الرجم في قصة اليهوديين]

﴿يَحْزِقُونَ الْكُفْرَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله، ويدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، ﴿يَقُولُونَ إِنَّا أَوْفَيْتُهُ هَذَا فَخَذُّوهُ وَإِن لَّمْ تَوَفَّوهُ فَأَخْذُوا﴾ قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه، والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذلوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث في ذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجلِّون في التوراة في شأن الرِّجْم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبت، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية

من التوراة التي سرت، في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا من يدين ربك؟ رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقرأ فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «فمن يدين ربك؟» فقال له أسامة: استغفر لي رسول الله ﷺ فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأتى به ياهو أهله، ثم قال: «أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَخَذُوهُ بِالْأُذُنِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ بِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِنْتَكَ الْمَرْأَةَ الَّتِي سَرَقَتْ قَطَعْتَ». قالت عائشة: فَحَسِبْتُ تَوْبَتَهَا بَعْدَ، وَتَزَوَّجْتَ، وَكَانَتْ تَأْتِي ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١)، وهذا لفظ مسلم. فظن له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع من رسول الله ﷺ فبقيت يدها ^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا يملك حكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الذين قالوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ سَمْعُوتَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِقُونَ الْكُفْرَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّا هَذَا أَخَذْنَاهُ وَإِن لَّمْ تَوَفَّوهُ فَأَخْذُوا وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَا تَمْلِكُ لَهُ مِنْ أَلَيْسَ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَلَاحِقَهُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(١) سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ أَكْتَلُونَ لِلْحَاجَةِ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَا تَجْعَلْ لَكَ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ يَكُونُوا فِتْنَةً وَبِعْدُ التَّوْرَةُ فِيهَا كُتِبَ اللَّهُ ثُمَّ يَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِمُعْجِزِينَ ^(٢) إِنَّا نَزَّلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا نَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ هَادُوا وَالرَّجَبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ يَمَّا تَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَحْشَوْا شَيْئًا وَأَخْشَوْا وَلَا تَتَرَفُّوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ^(٣)

(١) فتح الباري: ٦١٩/٧، ومسلم: ١٣١٥/٣.

(٢) مسلم: ١٣١٦/٣.

الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجها، فرأيت الرجل ينجي على المرأة يقبها الحجارة. أخرجاه، وهذا لفظ البخاري وفي لفظ له: فقال لليهود: «مَا تَصْنَعُونَ بِهَا؟» قالوا: نَسْخِمُ وجوهها ونخزيمها، قال: «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فجاءوا فقالوا الرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه فقال: ارفع يدك، فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاثم بينها، فأمر بها فرجها^(١).

وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: «مَا تَحْدُثُونَ فِي التَّورَةِ عَلَى مَنْ رَأَيْتُمْ؟» قالوا: نسود وجوهها ونحممها، ونحملها ونخالف بين وجوهها ويظاف بها. قال: «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» قال: فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مر بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فرفع يده، فإذا تحمها آية الرجم، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجها. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمها، فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه^(٢). وروى أبو داود عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القُفِّ، فأتاهم في بيت المدراس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم. قال ووضعوا الرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها، ثم قال: «اثْنُونِي بِالتَّورَةِ» فأتى بها، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، وقال: «أَمَنْتُ بِكَ وَمَنْ أَمَنَ بِكَ» ثم قال: «اثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فأتى بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع^(٣).

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ، حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانهم وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم،

وعُدوهم إلى تحكيم رسول الله ﷺ، إنما كان عن هوى وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به. قالوا: «إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا» أي: الجلد والتحميم، «فَمَنْ أَمْنُكُمْ؟» أي: أقبلوه، «وَمَنْ يُؤَدُّ لَكُمْ تَوَاتُوهَ فَاحْذَرُوا» أي من قبوله وإتباعه وقال الله تعالى: «وَمَنْ يُؤَدِّ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَكُنْ تَمْلِكُ» أي: شَيْئاً أَوْلَيْتُكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤَدِّ اللَّهُ أَنْ يَطْلُبَهُمْ فُلُوبُهُمْ أَلَدَيْتُ خَيْرِي وَأَلْهَمْتُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٤) لِلْكَذِيبِ أي: الباطل «أَكْثَلُونَ لِلشَّعْبِ» أي: وهو الرُّشوة، كما قاله ابن مسعود وغير واحد^(٥)، أي: كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه، وأنى يستجيب قال لنبية: «فَإِنْ جَاءَكَ» أي: يتحاكمون إليك بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُ» أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقبض بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم، عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وأسلم وعطاء الخراساني والحسن وغير واحد هي بقوله: «وَأَيُّ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ يَبَيِّنْ أَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ^(٦)» «فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» أي بالحق والعدل، وإن كان خارجين عن طريق العدل «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»

[ذم مقاصد اليهود الزائفة ومدح كتابهم التوراة] ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصد الزائفة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي يلبس الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرج حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر، وعدم لزومه لهم، فقال: «وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَبَعْدَ التَّورَةِ حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»^(٧) ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى عمران، فقال: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَبُورْهَانٌ» أَلَيْسَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا؟ أي لا يخرجون حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها «وَالرَّبِّينِئُونَ وَالْأَجْلَالِ» وكذلك الربانيون منهم، وهم العلماء العباد، والأخبار العلماء «وَمَا اسْتَحَقُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ» أي بما استودعوا

(١) الموطأ: ٨١٩/٢. (٢) مسلم: ١٢٢٦/٣.
(٣) أبو داود: ٥٩٧/٤. (٤) الطبري: ٦١٩/١٠.
(٥) الطبري: ٣٣٠-٣٣٢.

فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان^(٣)، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن إسحاق بنحوه^(٤).

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين الذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك، وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْفُسًا يَلْتَمِسُونَ﴾ والعنف يأتى من العنف، إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب^(٥)، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة^(٦)، وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن منصور عن إبراهيم، قال نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذه الأمة بها، رواه ابن جرير^(٧).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٨) قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير^(٨).

وروى عبد الرزاق أخبرنا معمر عن طاوس، قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلْ﴾ الآية، قال: هي بكفر، قال ابن طاوس: وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال الثوري، عن ابن جريج، عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، رواه ابن جرير^(٩)، وقال وكيع، عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة^(١٠).

والله الذي أمروا أن يظهره ويعملوا به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِمْ أَنْ لَا تَخْشَوْا الشَّكَّ وَأَخْشَوْا﴾ أي لا تخافوا منهم كانوا مني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات

روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ يَجْعَلْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاثِبُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال ابن عباس: أنزلها في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداها قد قهرت الأخرى الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قاتل قتلته من ذرية من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قاتل قتلته الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ، فبطلت الطائفتان كلتاها لمقدم رسول ﷺ، ويومئذ لم يظهر، ولم يوطنها عليه وهو في الصلح فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بئاسة وسق، فبطلت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد، بينهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، فأعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد ﷺ فبطلتكم ذلك، فكادت الحرب تهيح بينهما ثم ارتضوا على أن يعملوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيرة، فقالت: والله ما محمد يعطيكُم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فلدسو إلى محمد من يخبرهم ربه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حكمتم فلم تحكموه، فلدسو إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين يخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ، أخبر الله رسول الله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَجْرِزُكَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل^(١١)، ورواه أبو داود بنحوه^(١٢).

وروى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس: أن الآيات التي في المائدة قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف، تؤدى لهم دية كاملة، وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية، فحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم،

(١) أحمد: ٢٤٦/١. (٢) أبو داود: ٧/٤.

(٣) الطبري: ٣٢٦/١٠.

(٤) أحمد: ٣٦٣/١ وأبو داود: ١٦/٤ والنسائي: ١٩/٨.

(٥) الطبري: ٣٤٧-٣٥٧. (٦) الطبري: ١٠/٣٥٧.

(٧) الطبري: ١٠/٣٥٦. (٨) الطبري: ٤/٥٩٧.

(٩) عبد الرزاق: ١٩١/١ والطبري: ٤/٥٩٥.

(١٠) الطبري: ١٠/٣٥٥.

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْيَدَ بِالْيَدِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْتَضِرْكُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٥)

وهذا أيضاً مما ويخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويقيدون النضري من القرطي، ولا يقيدون القرطي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْتَضِرْكُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً وقال هاهنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً.

[يقتل الرجل بالمرأة]

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل»، إجماع العلماء، على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو ابن حزم: «أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ» (١)، وفي الحديث الآخر: «الْمُسْلِمُونَ تَنَكَّافُوا دِمَاؤُهُمْ» (٢)، وهذا قول جمهور العلماء.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن الربيع عمه أنس، كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «الْقَصَاصُ»، فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله! تكسر ثنية فلانة، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَنَسُ، كَتَبْتُ اللَّهُ الْقَصَاصُ» قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة! قال: فرضي القوم فغفوا، وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ» (٣) أخرجه في الصحيحين (٤).

[قصاص الجروح]

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة،

عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفق العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتترع السن بالسن، وتقتصر بالجراح (٥)، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، وفي العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة

لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحه عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فله، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبد شبيب، عن أبيه، عن جده أن رجلاً طعن رجلاً في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدمي، فقال: «حَتَّى يَأْتِيَكَ ثَمَّ جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَقْدَمِي، فَأَقْدَمَهُ فَقَالَ: يَأْسِرُ عَرَجْتُ، فَقَالَ: «قَدْ نَبَّيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ اللَّهُ عَرَجُكَ» ثم نبى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح جرح صاحبه (٦)، فترد به أحمد.

(مسألة) فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص، فلا شيء عليه وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم.

[العفو كفارة للذنوب]

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ (١) ابن أبي طلحة عن ابن عباس: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ» فمن عفا وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جابر عن ابن عباس: فمن تصدق به فهو كفارة للجراح، المجروح على الله عز وجل (٢)، رواه ابن أبي حاتم. وعن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل: ﴿تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: للمجروح. عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي في أحد قول أبي إسحاق الهمداني نحو ذلك.

(١) النسائي: ٥٨/٨. (٢) ابن ماجه: ٨٩٥/٢.

(٣) أحمد: ١٦٧/٣.

(٤) فتح الباري: ١٢٤/٨، ومسلم: ١٣٠٢/٣.

(٥) الطبري: ٣٦٠/١٠. (٦) أحمد: ٢١٧/٢.

(٧) الطبري: ٣٦٧/١٠. (٨) الطبري: ٢١٦/١٠.

بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالْوَلَايَةُ لَهُمُ الْقَنَسُوتُ ﴿١﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصاري، وهو ظاهر من السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِيمُوا الصِّرَاطَ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْشَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّتَ بَيْنَهُمْ يَبْعُثُ دُونَهُمْ رِجَالًا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَنَسِفُونَ ﴿١٩﴾ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالْوَلَايَةُ لَهُمُ الْقَنَسُوتُ ﴿٢٠﴾﴾

الْمُهَيِّمُ يَهَيِّئُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

[مدح القرآن ووصفه والأمر بالحكم به]

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزل على عبده ورسوله الكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبر به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من محيي محمد عليه السلام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي لكائن لا محالة ولا بد.

قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: أي مؤتمناً عليه ^(٣). وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: المهيم الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله ^(٤). ورواه عن عكرمة وسعيد

(١) أحمد: ٣١٦/٥.

(٢) النسائي في الكبرى: ٣٣٥/٦ والطبري: ٣٦٤/١٠.

(٣) الطبري: ٣٧٨/١٠. (٤) الطبري: ٣٧٩/١٠.

روى الإمام أحمد أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُخْرِجُ مِنْ جَسَدِهِ جِرَاحَةً يَصَدِّقُ بِهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ» ^(١) ورواه ساني وابن جرير ^(٢).

قوله: «وَمَنْ لَمْ يَخُصَّكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالْوَلَايَةُ لَهُمُ الْقَنَسُوتُ» قد تقدم عن طاوس وعطاء أنها قالا: كفر دون ظلم، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ الآية ﴿وَأَنبِئَتْهُ إِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ الآية ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلشَّاكِينِ﴾ الآية ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية ﴿وَمَنْ لَمْ يَخُصَّكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالْوَلَايَةُ لَهُمُ الْقَنَسُوتُ﴾ الآية ^(٣).

[ذكر عيسى ومدح الإنجيل]

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مواعظها حاكمها بما فيها ﴿وَأَنبِئَتْهُ إِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي متبعاً لما غلب لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل طعن ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح له قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلشَّاكِينِ﴾ أي وجعلنا الإنجيل ﴿هُدًى﴾ يهتدى به ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلشَّاكِينِ﴾ أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قرئ بالفتح ﴿أَهْلَ الْإِنجِيلِ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي أنبياء الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرئ بالفتح ﴿لِيَحْكُمَ﴾ بالجرم على أن اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا جميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثته محمد، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ رَسُولَ اللَّهِ الْأَنْجَمَ الَّذِي يُحْدِثُ عَنْهُمْ مَكُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ الآية قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَخُصَّكُمْ

ابن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك^(١)، وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، وعن الوالي عن ابن عباس «وَمُهَيِّمًا» أي شهيدًا^(٢)، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس «وَمُهَيِّمًا» أي حاكمًا على ما قبله من الكتب^(٣)، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيم يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات، ما ليس في غيره، فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك^(٥)، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت ﴿وَأَن آخُذَكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تُلَِّعْ آهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا^(٥).

وقوله: ﴿وَلَا تُلَِّعْ آهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُلَِّعْ آهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا جَاءً﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس «لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا جَاءً» قال: سبيلاً^(٦) وعنه: سبيلاً وسنة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد، وشرعية واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة،

وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْتَلِيكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُم﴾ أي ابتليكم شرع الشرائع مختلفة ليختبر عبادي فيها شرع لهم، ويشيخ يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من كره. وقال عبد الله بن كثير: «فِي مَاءِ اتِّكُم» يعني من الكتب. ثم إنه تعالى نديهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمباداة فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرع جعله ناسخاً ما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَبُئِيتُكُمْ بِآيَاتٍ تَخْتَلَفُونَ﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيصدق الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين بالحق بالعادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة والأدلة الواضحة وقال الضحاك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» يعني آية محمد ﷺ والأول أظهر. وقوله: ﴿وَأَن آخُذَكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنبى عن الله ﷻ ثم قال: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْرُتُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأحذر أعداءك اليهود أن يدلّسوا عليك الحق فيما بينهم من أمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفر خونة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ أَن يُبَيِّتُكُمْ يَبْعُثُ دُونَهُم﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قصد وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى، لما لهم من السوء السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِن كُنْتُمْ لَفَاقِشُونَ﴾ أي إن أكثر الناس خارجون عن طاعة مخالفتون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ النَّاسِ وَكَوْا حَرَصَتِ يَوْمَئِذٍ﴾^(٧). وقال تعالى: ﴿أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَفْسِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: قال كعب أسد وابن صلوبا وعبد الله بن سوريا وشاس بن ثعلبة بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود، وأشرافهم

(١) الطبري: ٣٧٧/١٠ - ٣٨٠. (٢) الطبري: ١٠/٣٧٧.

(٣) الطبري: ١٠/٣٧٩. (٤) الطبري: ١٠/٣٨٢.

(٥) الطبري: ١٠/٣٣٢. (٦) الطبري: ١٠/٣٨٧.

سادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن يتنا
بين قوما خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم،
يا ابن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله
عز وجل فيهم: ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْهِ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَمَن رَّعَاهُمْ أَيَّتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله
﴿يُؤْتُونَ﴾^(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله بحكم المشتغل على كل خير، الناهي عن كل شر، وَعَدَلَ إِلَى سِوَاهُ مِنَ الْأَرَءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا رِجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ مِمَّا يَضَعُونَهَا بِأَرَائِهِمْ وَمَوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوضِ مِنْ سُلُوكِهِمْ جَنْكِيزْ خَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَاسِقَ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مُجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ اقْتَبَسَهَا مِنْ شَرَائِعِ شَتَّى: مِنْ يَهُودِيَّةٍ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مَجْرَدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُعْتَبَرًا يَقْدَمُونَهُ عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ﴾ أَيِ يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَيِ مَنْ أَعْدَلَ مِنْ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنْ اللَّهِ شَرْعَهُ، وَأَمَّنَ بِأَقْصَى الْوَقْفِ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بَخَلْقِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَغْضُ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَتَغَيَّبُ فِي إِسْلَامِ سُنَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَالِبُ دَمِ امْرِئٍ يَغَيِّرُ حَقَّ لِرَبِّيقِ دَمَهُ» (٢).

روى البخاري عن أبي الهيثم باسناده نحوه بزيادة (٣).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَتَوَلَّوْنَ بَيْنَهُمْ فَنُفِئَتْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَرَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فَتَنَ كَأَن نُّصِيبَا دَارَهُ
سِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْبَحُوا عَلَىٰ مَا أَشْرَوْا فِي
سَمِ نَدِيمِ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَا الَّذِينَ ائْتَمَرُوا بِاللَّهِ

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرَ بَرٍّ ﴿٥٥﴾

[النهي عن موالاة اليهود والنصارى وأعداء الإسلام]

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذي هم أعداء الإسلام وأهله -قاتلهم الله- ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعدهم من بتعطى ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية. روى ابن أبي حاتم أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر وقال: إن هذا لحفيظ؟ هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا بل نصراني. قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآية ^(٤)، ثم روي عن عبد الله بن عتبة قال: ليقن أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآية ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك وريب ونفاق، يسارعون فيهم، أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أباد عند اليهود والنصارى، فينعمهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿ فَتَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ قال السدي: يعني فتح مكة ^(٦). ﴿ أَوْ أَمْرَيْنِ عِنْدِهِ ﴾. قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ فَيَصْبِحُوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الموالاتة ﴿ تَنذِيرًا ﴾ أي على ما كان منهم مما لم يُجَدَّ عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين، لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويخلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم واقتراؤهم، ولهذا قال تعالى:

(١) الطبري: ٣٩٣/١٠. (٢) الطبراني: ٣٧٤/١٠.

(٣) فتح الباری: ٢١٩/١٢. (٤) الدر المنثور: ١٠٠/٣.

(٥) ابن أبي حاتم: ١١٥٦/٤. (٦) الطبري: ٤٠٥/١٠.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ جَهْدَ آمِنَتِهِمْ إِنَّمَا لَكُمْ خِطَّةٌ عَمَلُكُمْ فَأَصْبَحُوا خَيْرِينَ﴾ (٥٣)

[سبب النزول]

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فابطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه. قال: فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظملاً، ثم قال: «وَيْحَكَ أُرْسِلَنِي» قال: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هَمْ لَكَ». قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبو إسحاق بن يسار عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت، قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، [فخلعهم] إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار، ولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحْزَنُونَ نَوْمَةً لَا أَحْزَمَ ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (٥٦) ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٧)

[تهديد المؤمنين بإتيان قوم آخرين إن ارتدوا]

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة

دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير منه وأشد منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَزَلَّجُوا مَوَاطِئَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْتًا لَكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئِشًا بِذُنُوبِهِمْ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٥٩) أي: بممتنع ولا صعب تعالى ههنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل. وهذا خطاب عام إلى يوم القيامة تعالى: ﴿إِذْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعاضداً خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ حَافَّةٌ﴾ (٦٠) وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الغياص القتال، فهو ضحوك لأوليائه، قتال لأعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحْزَنُونَ لَوْ لَمْ يَأْتِهمْ يَرْبُهمْ عَمَّا فِيه من طاعة الله، وإقامة دينه، وقاتل أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يردهم عن ذلك راداً، ولا يصدهم عنه صائد، ولا يحزنهم لو لم يأتهم، ولا عذل عاذل. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: أمرني خليلي رسول الله ﷺ بسبع: أمرني بحب الله، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أعظم من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدير، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان يكره، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهم من كنز تحت العرش وثبت في الصحيح: «مَنْ يَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذُلَّ نَفْسُهُ، وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ يُطِيقُ» (٦١)، «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أي: من انصف الصفات فإنها هو من فضل الله عليه وتوفيقه له (٦٢) «عَلِيمٌ» أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك من عباده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقام الصلاة التي هي أكبر

(١) ابن هشام: ٥٢/٣. (٢) أحمد: ٥٩/٥.

(٣) أحمد: ٤٠٥/٥، وتحفة الأحوذني: ٥٣١/٦، وابن ماجه:

الْأَوْتَيْنِ ﴿١﴾، وقرأ بعضهم: (وَالْكَفَّارِ) بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، تقديره: ولا الكفار أولياء أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار ههنا: المشركون، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير (لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) ^(١).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مِّنْهُ مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن يَتَّخِذُوا مِنهُ نُصْرَةً وَيُحْدِثْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرَ﴾ ^(٢).

[استهزاء الكفار بالصلاة والأذان]

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أي: وكذلك إذا أدتكم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتَّخَذُوا﴾ أيضاً ﴿هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي﴾ «إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَذْبَرَهُ وَلَهُ حُصَاصٌ - أَيُّ صُرَاطٍ - حَتَّى لَا يَسْمَعَ النَّادِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النَّادِيْنُ أَقْبَلَ فَيُذَا ثُوبٌ لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَهُ، فَإِذَا قُضِيَ الثُّوْبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظْلُ الرَّجُلُ لَا يَذْكُرُ كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ» متفق عليه ^(٣)، وقال الزهري: قد ذكر الله التَّادِينَ في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(٤)، رواه ابن أبي حاتم.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ سَمِعْتُمْ مَّا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُزِلَ مِن قَبْلِ وَأَن أَكْفَرُكُمْ فَتَسْبِقُونَ﴾ ^(٥) قُلْ هَلْ سَمِعْتُمْ بَشِيرَ مِن ذَلِكَ مَثْوًةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَيْتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ تَفَرُّدَةً وَلَحْدًا بَرَّ وَعَمَّةً أَطْلَقَتْ أُولَئِكَ شَرَّ مَكَانٍ وَأَصْلَ عَنِ سَوَاءِ السَّمِينِ ^(٦) وَبَدَّ حَسْرَةً وَكَمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَشَهِدْنَا أَنَّهُمْ كَاثِبُونَ ^(٧) وَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِسْمِ وَالْعَدْوِ وَأَكْثَهُمْ

بإسلام، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين والمساكين. وأما قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع إكمال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه عُدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن علمه من أئمة الفتوى، فالعنى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي: يحضرون في صلواتهم الفريضة في مساجد الله؛ لأداء صلواتهم مع الجماعة، وينفون صدقاتهم في مصالح المسلمين.

[بيان سبب نزول هذه الآيات]

وقد تقدم أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت بعد حين تسبباً من حلف اليهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يَؤْمُرُ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ^(٨)، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّهُ لَفِي قُوَىٰ عَزِيزٍ﴾ ^(٩) لَا يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ وَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَانُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنُ وَأَيْدِيهِمْ يُرْجَعُ فِيهِ وَيُذْخِرُهُمْ عَلَىٰ غَيْرِي مَن قَبِلَهَا الْأَتْخَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(١٠).

فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مِّنْهُ مُّؤْمِنُونَ﴾ ^(١١) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(١٢).

[النهي عن موالاته الكفار]

هذا تنفير من موالاته أعداء الإسلام وأهله من الكفار والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتمة على كل خير ديني وأخروي - يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرَ﴾، من ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِّنْ

(١) الطبري: ١٠/٤٣٠.

(٢) البخاري: ٦٠٨، ١٢٢٢، ١٢٣١، ومسلم: ١/٢٩٨، ٣٩٨.

(٣) ابن أبي حاتم: ٤/١١٦٤.

السَّحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾ لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ
عَنْ قَوْلِهِمْ لِأَتَدَّ وَأَكْلَهُمُ السَّحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٧﴾

[نقم أهل الكتاب من المؤمنين لأجل الإيمان بالله]

يقول تعالى: قل يا محمد، هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً
ولعباً من أهل الكتاب ﴿هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا
هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً،
كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
(٨)﴾. وكقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن
فَضْلِهِ﴾. وفي الحديث المتفق عليه: «مَا يَنْقُمُ ابْنُ حِجَلٍ إِلَّا أَنْ
كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ» (١)، وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ تَسْقُوتٌ﴾ معطوف
على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمننا بأن
أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

[أهل الكتاب يستحقون شر عذاب يوم القيامة]

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هل
أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم
أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَنْ
لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعد من رحمته ﴿وَعُذِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا
يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ كما تقدم بيانه في
سورة البقرة، وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف، وقد
روى سفيان الثوري عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله
ﷺ عن الفردة والخنازير: أي مما مسخ الله؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ
يُبْلِكْ قَوْمًا - أَوْ لَمْ يَمْسُخْ قَوْمًا - فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلاً وَلَا عَقَبًا،
وَإِنَّ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ» (٢) وقد رواه مسلم (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَعَبْدُ الظُّلُمُوتِ﴾ أي: وجعل منهم من خدم
الطاغوت، أي: خدامه وعبيده، والمعنى: أنكم يا أهل الكتاب
الطاعنين في ديننا والذي هو توحيد الله وإفراذه بالعبادات دون
ما سواه، كيف يصدر منكم هذا، وأنتم قد وجد منكم جميع ما
ذكر؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ شَرٌّ مِّمَّا كُنَّا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ
عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما
ليس في الطرف الآخر مشاركة كقوله عز وجل: ﴿أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٤).

[من عادة المنافقين إظهار الإيمان وإبطان الكفر]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ الْقَوْلُ آمَنُوا وَقَدْ دَخَلُوا الْكُفْرَ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا
يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم: أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر

وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أي: دخلوا
يا محمد ﴿بِالْكُفْرِ﴾ أي: مستصحيين الكفر في قلوبهم، ثم
وهو كامن فيها، لم يتفعلوا بها قد سمعوا منك من العلم
نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا
فَخَصِمُوهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَغْنَىٰ بِنَاكَ مَا كَانُوا
أَي: والله عالم بسر أئثرهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن
لخلقهم خلاف ذلك، وترينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم
والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أم الله
وقوله: ﴿وَرَأَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْتَرْعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَنَّهُ
السَّحَتْ﴾ أي: يبادرون إلى ذلك، من تعاطي المسأمة والمكر
والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ
يَصْنَعُونَ﴾ أي: لبس العمل كان عملهم وبس الاعتناء اعتد

[النكير على الربانيين والأخبار على

تركهم النهي عن المنكر]

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ
وَأَكْلَهُمُ السَّحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٧) يعني: هلا
ينهاهم الربانيون والأخبار عن تعاطي ذلك، والربانيون
العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأخبار هم
فقط ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقال علي بن أبي طلحة
ابن عباس (٤) يعني: الربانيين، أنهم بش ما كانوا يصنعون
يعني: في تركهم ذلك، وروى ابن جرير عن ابن عباس
ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لَوْلَا
الرِّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ لِأَتَدَّ وَأَكْلَهُمُ السَّحَتْ لَيْسَ مَا
يَصْنَعُونَ﴾ (١٧) (٥)، قال: كذا قرأ.

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي
أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله
من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأخبار
فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فمُروا بالله
وانتهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعتدوا
أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا
أجلاً (٦)، وروى الإمام أحمد عن جرير قال: قال رسول الله

(١) فتح الباري: ٣/ ٣٨٨، ومسلم ٦٧٦/٢.

(٢) مشكل الآثار: ٤/ ٢٧٥. (٣) مسلم: ٤/ ٢٥١.

(٤) الطبري: ١٠/ ٤٥٠. (٥) الطبري: ١٠/ ٤٩.

(٦) كثر العمال: ٣/ ٦٨٣.

وقوله: ﴿كَلِمًا أَتَقْدُوا أَنَاكَ لِتَحْرَبَ أَطْفَاءَ اللَّهِ﴾ أي: كلما عقدوا أسبابًا يكيدونك بها، وكلما أبرموا أمورًا يحاربونك بها، أبطلها الله ورد كيدهم عليهم، وحق مكرهم السيئ بهم ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من سَجَّيْتُهُمْ أَنَّهُمْ دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفة.

ألو عمل أهل الكتاب بكتابتهم لحصل

لهم خير الدنيا والآخرة

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني القرآن ^(١) ﴿لَا كُفُلًا مِنْ قُوَّتِهِمْ وَمِنْ نَحْتِ أَرْبُلِهِمْ﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدًا ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لَا كُفُلًا مِنْ قُوَّتِهِمْ وَمِنْ نَحْتِ أَرْبُلِهِمْ﴾ يعني: بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والناابت لهم من الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ آمَنُوا وَأَتَّقَوْا لَمُنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ قُوَّةٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ^(٢) وكقوله عن اتباع عيسى: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ^(٣) جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا تَكُنْ مِنْ رُسُلِهِ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٥)

الأمر بالتبليغ والوعد بالعصمة

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ باسم الرسالة،

وأمره بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام، روى البخاري تفسير هذه الآية، عن عائشة رضيت عنها: قالت: من حدثك أن كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية ^(٦)، هكذا رواه هاهنا وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولاً، وكذا رواه في كتاب الإيمان ^(٧)، والترمذي والنسائي في كتابي التفسير سنتها ^(٨)، وفي الصحيحين عنها أيضًا أنها قالت: لو كان كتم شيئًا من القرآن لكتبتم هذه الآية: ﴿وَنَحْنُ فِي نَفْسِ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَحْنُ أَنْتَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ ^(٩).

وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسل البلاغ، وعلينا التسليم ^(١٠). وقد شهدت له أمته بإبلاغه وأداء الأمانة، واستنتقهم بذلك في أعظم المحافل، في يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من ألفاً ^(١١)، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قالوا: نشهد أنك قد صدقت، وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقولها ويقول: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» ^(١٢)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقَعَلُ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، «فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ؟» أي: علم ما يترتب على ذلك لو وقع، وقال علي بن أبي طالب ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ تَقَعَلُ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته ^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بلغ رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومفسد

(١) الطبري: ٤٦٣/١٠. (٢) فتح الباري: ١٢٤/٨.

(٣) مسلم: ١٥٩/١.

(٤) تحفة الأحوذ: ٤٤١/٨، والنسائي في الكبرى: ١١٥/٦.

(٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣، ومسلم: ١٦٠/١.

(٦) فتح الباري: ٥١٢/١٣.

(٧) يقول القاضي سليمان المنصور فوري في رحمة للعالمين

وهو يذكر خطبته ﷺ في حجة الوداع بعرفة: «وقد بلغ

العابدين لله في هذه الأرض مائة وأربعة وأربعين ألفاً

وعشرين ألفاً».

(٨) مسلم: ٨٨٦/٢. (٩) الطبري: ٤٦٨/١٠.

﴿وَالصَّبِيحُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد. وأما النصارى فمعمروفون، وهم حملة الإنجيل، والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشرعية المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين؛ فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يجزنون، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا
وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۚ وَحَسِبُوا أَنَّ لَكَ كُتُوبًا فَتِنَّهُ فَعَسَا وُصِّمُوا
ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على
السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق
واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافقهم
منها قبلوه وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُفُّوا
عَنْهُمْ رَسُولُكُمْ إِنَّمَا أَنْفُسُهُمْ قَرِيبًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ
وَصَحِبُوا إِلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي: وحسبوا إلا
لا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن
الحق وصموا، فلا يسمعون حقًا ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: بما كانوا فيه، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي: بعد
ذلك ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مطلع

[illegible]

(١) أحمد: ٦/١٤١.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٢٣٢، ومسلم: ٤/ ١٨٧٥.

(۳) فتح الباری: ۶/۹۵، ومسلم: ۴/۱۸۷۵.

(٤) الصحيح أن دخوله عليه السلام بعائشة كان في السنة الأولى من الهجرة.

(٥) تحفة الأحوذى: ٤١٠/٨.

(٦) الطبري: ٤٦٩/١٠، والحاكم: ٣١٣/٢.

فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء
 إليك، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحَرِّسُ، كما
 روى الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ
 سهر ذات ليلة، وهي إلى جنبه قالت: فقلت ما شأنك يا
 رسول الله؟ قال: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحَرِّسُنِي اللَّيْلَةَ»
 قلت: فينا أنا على ذلك، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلَاحِ، فَقَالَ:
 «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ. فقال: «مَا جَاءَ بِكَ؟»، قال:
 جئت لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيظ
 رسول الله ﷺ في نومه ^(١)، أخرجاه في الصحيحين ^(٢)، وفي لفظ:
 سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مقدمه المدينة، يعني: على أثر هجرته
 بعد دخوله بعاشة رضي الله عنه، وكان ذلك في سنة ثنتين منه
 (١٤)

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يخرج
حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت:
وأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ،
تَصَرُّفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا رواه الترمذي،
ثم قال: وهذا حديث غريب^(٥)، وهكذا رواه ابن جرير
والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٦).
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: بلغ أنت والله
هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال تعالى:
﴿يَسِّرْ لَكَ ذُنُوبَهُ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقال:
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْكُلْبَ وَالْحِثَّ وَالْحَسَابَ﴾.

[illegible]

لا نجاة إلا باليمان بالقرون

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: من الدين ﴿حَتَّى تُبَيِّنُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بها فيها، ومما فيها: الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والافتداء بشريعته، وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وكثيراً ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن عليهم، ولا يهينك ذلك منهم، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة

يَقُولُونَ لَيْسَ رَبُّ الْبَيْتِ كَقَرُونَا مِنْهُمْ عَذَابَ آيَةٍ ۖ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُنْتُهُ صَدِيقَةٌ ۚ كُنَّا يَكْفُلَانِ الْطَّعَامَ أَنْظَرُ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنْ يُؤْفَكُوا ﴿٧٥﴾

[كفر النصارى ودعوة المسيح للتوحيد]

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم، وتنزه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أَنشَى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَلَيْنَ اللَّهُ رِزْقِي وَرِزْقُكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً لهم بعبادة ربه وربهم، وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَؤُا إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ فَيُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرّم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ أَنْ يَشْرَكَ بِهِمْ وَيَغْفِرَ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَتِيتُوا عَلَيْكُمْ أَلَمْ نَرْزُقْكُمْ اللَّهُ قَالُوا بَلَىٰ وَبَعَثْنَا خُرُوجًا عَلَى الْكُفَّيرِ﴾ ﴿٧٧﴾، وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»، وفي لفظ: «مُؤْمِنَةٌ»^(١)، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ عما هو فيه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ إنها نزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد.

وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة^(٢) بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ ۖ الْآيَةُ ٣﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَلَنْ لَّمْ يَنْتَهُوا

[المسيح عبد وأمه صديقة]

وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا﴾ إِسْرَءِيلَ ﴿٧٨﴾. وقوله: ﴿وَأُنْتُهُ صَدِيقَةٌ﴾ أي: مؤتمنة مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست ببيت وقوله تعالى: ﴿كُنَّا يَكْفُلَانِ الْطَّعَامَ﴾ أي: محتاجين للتغذية به، وإلى خروجه منها، فهي عیدان كسائر الناس، وبها يلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المستطرفة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ أَنْظَرُ أَنْ يُؤْفَكُوا﴾ ﴿٧٩﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يلجأون وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئاً فَتَعْبُدُوا اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٠﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا قَبْلَ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٨١﴾

[النهي عن الشرك والغلو في الدين]

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأوثان، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال تعالى: ﴿قُلْ ۖ أَيُّ بَاحِدٍ هَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْعَوْنَ وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئاً وَلَا تَنْفَعُ﴾ أي: لا يقدر على دفع عنكم ولا إيصال نفع إليكم ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عذبتهم

(١) فتح الباري ٦/٢٠٧. (٢) الطبري: ١٠/٤٨٣.

(٣) الطبري: ١٠/٤٨٣.

﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ﴾^(٣) رواه مسلم.

[و] روى أبو داود عن العُرْس - يعني: ابن عميرة -، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكْرَهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً: فَلَا تُكْرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا قَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»^(٤)، تفرد به أبو داود. وروى أبو داود عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لَنْ يَبْذُلَ النَّاسُ حَتَّى يَغْذِرُوا - أَوْ يُعْذِرُوا - مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(٥). وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ». قَالَ فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: قَدْ وَابَّيْنَا أَشْيَاءَ فَبَيْنَا^(٦).

وفي حديث عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٧)، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لَا يَنْفَعِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قِيلَ وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «بِتَعَرُّضٍ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»^(٨)، وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب^(٩).

[دهر المنافقين]

وقوله تعالى: ﴿كَرِهْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك: المنافقين. وقوله: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني: بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالات المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر عنهم أنهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لو آمنوا حق الإيمان

بعدة جاد لا يسمع ولا يصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟ ثم قال: ﴿قُلْ يَكَاهِلُ الْكِتَابُ لَا يَكُونُ فِي يَدَيْكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً وَاصْلَوْا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لَمَنْ أَلَزَيْنَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ يَمَّا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(١٠) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١١) كَرِهْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(١٢) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَتَقِصُّونَ﴾^(١٣)

[لعنة الله على الكافرين من بني إسرائيل]

بحر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان نبي ابن مريم، بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على خلقه، قال العوفي عن ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان. ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في دعاتهم، فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمخارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[أحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام، روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَنَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَنَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَنْتَعِثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(١٤)، ورواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن^(١٥).

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله

(١) أحمد: ٣٨٨/٥. (٢) تحفة الأحوزي: ٦/٣٩١.

(٣) مسلم: ٦٩/١. (٤) أبو داود: ٤٣٤٥.

(٥) أبو داود: ٤٣٤٧. (٦) ابن ماجه: ٤٠٠٧.

(٧) أبو داود: ٥١٤/٤، وتحفة الأحوزي: ٦/٣٩٥، وابن ماجه:

١٣٢٩/٢.

(٨) أحمد: ١٤٠٥/٥.

(٩) تحفة الأحوزي: ٦/٥٣١، وابن ماجه: ٢/١٣٣٢.

بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا ﴿يُنصِرُنَا﴾ ذلك بأن منهم قسيسين وذهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴿٢١﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين ﴿٢٢﴾ وما لنا لا يؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴿٢٣﴾ فأنتهم الله بما قالوا جندت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴿٢٤﴾ والذين كفروا وعدوا بما ينبتن أولئك أحب إليهم ﴿٢٥﴾

[بيان سبب النزول لهذه الآيات]

وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رآه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه^(١). وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلغموا^(٢)، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم؛ ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى هوى بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرفقة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً﴾، وفي كتابهم: من ضربك على خدك

الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعا في منكر ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ وأنهم لا يستكبرون ﴿٢٦﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، خطباؤهم وعلماؤهم، واحد منهم قسيس وقس أيضا، وقد نزل على قسوس، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد، مشتمل الرهبة، وهي: الخوف، كراكب وركبان، لوفارس أو فرسان روى ابن أبي حاتم عن حامية بن رثاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ وقال: هم الرهبان الذين هم في الصوامع والحرب فيهم، قال سلمان: وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ فأقراي (ذلك بأن منهم صديقين ورهبانين) فقولاه: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ وذهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴿٢٧﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعلم والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والانصياع فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعث محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من ينزل بصحة هذا ويؤمن به.

وهذا الصف من النصارى هم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِيهِمْ ذَلِكَ عَنْ قَوْلِهِمْ بِالْحَقِّ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اقْبَلُوا الْقُرْآنَ فَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ أَتَيْنَاهُم بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ ولذا نزل عليه ﴿وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الرُّسُودُ قَالَ اللَّهُ إِنَّ إِلَهُنَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعتراهم بما كانوا يكتمون، جندت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴿٢٨﴾ أي ماكنين فيها لا يحولسون ولا يزلون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان ثم أخبر عن حال الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي هم أهلها والدخلون فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا ظِلَافَ مَا أَهْلَ اللَّهُ لَهُ﴾ ﴿وَلَا تَحْمِلُوا أَوْثَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ وكذا وما رآه

(١) الطبري: ٤٩٩/١٠، ٥٠٠. (٢) الطبري: ١٠/١٠.

(٣) الطبري: ٢٦٦/٦.

الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله.

[كفارة اليمين]

﴿فَكَفَرْتُمْ، إِنْ لَمْ تُجِزُوا عَهْدَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: محايوج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس وسعيد ابن جبير وعكرمة أي: من أعدل ما تطعمون أهليكم^(٣). وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ هي: أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس: عباءة لكل مسكين أو شملة^(٥)، وقال مجاهد: أدناه ثوب وأعلاه ما شئت^(٦). وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحامد بن أبي سليمان وأبو مالك: ثوب ثوب^(٧).

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولا بد أن تكون مؤمنة كما ثبت من حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك، ومسند الشافعي وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ: «أبنت الله؟».

قالت: في السماء. قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: رسول الله. قال: «أَغْنَيْهَا فَإِنِّي مُؤَمِّنَةٌ»^(٨). الحديث بطوله. فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحائث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ

بالأسهل، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كَفَّرَ بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾، وقد قرأها أبي بن كعب وابن مسعود وأصحابه: (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)^(٩). وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنًا متواترًا، فلا أقل أن يكون خبرًا واحدًا أو تفسيرًا من الصحابة، وهو في حكم

(١) الطبري: ٥١٨/١٠.

(٢) فتح الباري: ٥/٩، ومسلم: ١٠٢٠/٢.

(٣) الطبري: ٥٤١/١٠. (٤) الطبري: ٥٣١/١٠.

(٥) الطبري: ٥٤٧/١٠. (٦) الطبري: ٥٤٥/١٠.

(٧) الطبري: ٥٤٥/١٠، ٥٤٦.

(٨) الموطأ: ٧٧٦/٢، والرسالة: ٧٥، ومسلم: ٣٨/١.

(٩) الطبري: ٣١/٥.

حَلَاطِيْبًا وَتَقُوْا اللّٰهَ الَّذِيْ اُنْشَرِ بِهٖ مَوْثُوْتٌ ﴿٨٨﴾

[لا رهبانية في الإسلام]

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك بهرات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، قال النبي ﷺ: «لِكَيْنِ أَصُوْمٌ وَأُفْطِرُ، وَأَصْلِي، وَأَنَامُ، وَأَكْبَحُ شَاءَ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِيْ فَهُوَ مِنِّيْ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّيْ»^(١) رواه ابن أبي حاتم، وروى ابن مردويه عن طريقه عن علي بن ابن عباس نحو ذلك، وفي الصحيحين عن عائشة عن أن ثابته من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «مَبَالُ أَقْوَامٍ يَقُوْلُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لِكَيْنِ أَصُوْمٌ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُوْمُ، وَأَكُلُ لَحْمًا، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّيْ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، ولا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تبالوا بالحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٣)، ونسأل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٤)، فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجاهلي فيه، لا إفراط ولا تفريط، ولهذا قال: ﴿لَا تُخْرِجُوا طَائِفَتًا مِّنْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٥)، ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: في حال كونه حلالًا طيبًا، واتقوا الله في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، وتركوا مخالفته وعصيانته ﴿الَّذِيْ اُنْشَرِ بِهٖ مَوْثُوْتٌ﴾

﴿لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْعَمَلِ فِيْ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ فَكَفَرْتُمْ، إِنْ لَمْ تُجِزُوا عَهْدَ رَبِّكُمْ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ بِهٖ حَلْفُهُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

[اللغو في اليمين]

وقد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة، بما أنشأ عن إعادته ههنا، والله الحمد والمنة، وأنه قول الرجل في

المرفوع. وقوله: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ آيَاتِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه كثارة اليمين الشرعية ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قال ابن جرير: معناه: لا تركوها بغير تكفير ^(١) ﴿كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَسْأَلُ رَبُّهُ مَنْ هُوَ إِنَّمَا أَخْبَرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ وَيَجْزِي مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَبَاهُ لَعَنَكُمْ تَقْدِحُونَ﴾ ^(٢) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِي الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٤﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥﴾

[تحريم الخمر والميسر]

يقول تعالى: ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: الشرط نج من الميسر، ورواه ابن أبي حاتم. روى ابن أبي حاتم عن عطاء ومجاهد وطاوس - قال سفيان: أو اثنين منهم - قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز ^(٦)، وعن ابن عمر، قال: الميسر، هو القمار ^(٧). وقال الضحاك عن ابن عباس، قال: الميسر هو القمار ^(٨)، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة.

[تفسير الأنصاب والأزلام]

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد ابن جبير والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قداح كانوا يستقسمون بها، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِي مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: سخط من عمل الشيطان ^(٩). وقال سعيد بن جبير: ثم ^(١٠). وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان ^(١١) ﴿فَاجْتَبَاهُ لَعَنَكُمْ تَقْدِحُونَ﴾ وهذا ترغيب، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ^(١٢)، وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَأْكُلُونَ

الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُ رَبُّهُ مَنْ هُوَ إِنَّمَا أَخْبَرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ وَيَجْزِي مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَبَاهُ لَعَنَكُمْ تَقْدِحُونَ﴾ ^(١) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِي الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾

فرواهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جاء رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية، قال النبي ﷺ: «لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ» ^(٨) انفرد به أحمد وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال: تحريم الخمر - اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا كَبِيرٌ﴾، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾، فكانت من رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، نادى: لا يشرع في الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ^(٩) عسر: انتهينا انتهينا ^(١٠). وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي ^(١١). وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبه

(١) الطبري: ١٠/٥٦٠، ٥٦٢. (٢) الطبري: ٤/٣٢٢.

(٣) الطبري: ٤/٣٢٥. (٤) الطبري: ٤/٣٢٤.

(٥) الطبري: ١٠/٥٦٥. (٦) الطبري: ٤/٣٣٠.

(٧) الطبري: ١٠/٥٦٥. (٨) أحمد: ٢/٣٥١.

(٩) أحمد: ١/٥٣.

(١٠) أبو داود: ٤/٧٩، وتحفة الأحوذني: ٨/٤١٧، والشمس

٢٨٦/٨.

بِعَيْنَيْهَا وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعُهَا وَمُبْتَاعُهَا وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا وَحَامِلُهَا وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ وَآكِلُ ثَمَرِهَا^(٦)، ورواه أبو داود وابن ماجه^(٧)، وروى أحمد عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المريد فخرجت معه، فكنيت معه، فكنيت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكنيت عن يساره، ثم أقبل عمر، فتنحيت له فكان عن يساره، فأتى رسول الله ﷺ المريد، فإذا بزقاق على المريد فيها خمر - قال ابن عمر: - فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة - قال ابن عمر: وما عرفت المدينة إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا وَسَاقِيهَا وَبَائِعُهَا وَمُبْتَاعُهَا وَحَامِلُهَا وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا وَآكِلُ ثَمَرِهَا»^(٨).

(حديث آخر) روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن سعد قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث، قال: وصنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لحى جزوراً، فضرب به أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزوراً، فنزلت «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ» إلى قوله تعالى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ» أخرجه مسلم^(٩).

(حديث آخر): روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذْكَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١٠) قال: هي في التوراة: إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب والمزامير، والزفن والكبارات - يعني: البرابط - والمزمارات - يعني: به الدف - والطناير والشعر والخمر مرة لمن طعمها، أقسم الله يمينه وعزته من شربها بعد ما حرمها لأعطشته يوم القيامة، ومن تركها بعد ما حرمها لأسقينه إياها في حظيرة القدس^(١١)، وهذا إسناد صحيح.

(١) فتح الباري: ١٢٦/٨، ومسلم: ٢٣٢٢/٤.

(٢) فتح الباري: ١٢٦/٨. (٣) أحمد: ١٨١/٣.

(٤) فتح الباري: ١٣٣/٥، ومسلم: ١٥٧٠/٣.

(٥) الطبري: ٥٧٨/١٠. (٦) أحمد: ٢٥/٢.

(٧) أبو داود: ٣٦٧٤، وابن ماجه: ٣٣٨٠.

(٨) أحمد: ٧١/٢. (٩) البيهقي: ٢٨٥/٨، ومسلم: ١٧٤٨.

(١٠) ابن أبي حاتم: ١١٩٦/٤.

عن مئير رسول الله ﷺ: أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي خمسة: العنب والتمر والعسل والخطبة والشعير، والخمر ما حذر العقل^(١). وروى البخاري عن ابن عمر قال: نزل تحريم خمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة، ما فيها شراب العنب^(٢).

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقي عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل ابن بيضاء ونفراً من صحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى أت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حُرمت؟ فقالوا: حتى نطير ونسأل، فقالوا: يا أنس، اسكب ما بقي في إنائك، فإله ما عاهدوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ^(٣). أخرجه في الصحيحين، وفي رواية عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حُرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شربهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، قال: أخرج فانظر، فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حُرمت، فجرت في سلك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: أخرج فأهرقها، فهرقتها فقالوا: أو قال بعضهم: - قتل فلان وفلان وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنِ شَاءُوا أَن يَخْسُفُوا بِأُفُئِهِمْ خَمْرًا وَلَا فَسَادًا فِي السُّبُلِ﴾ الآية^(٤).

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك قال: بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجاجة ومعاذ بن جبل وسهيل ابن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وكمر، فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حُرمت. قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغسل بعضنا، وأصينا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ يفسر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذْكَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ» إلى قوله تعالى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ»، فقال رجل: يا رسول الله، فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِنِ شَاءُوا أَن يَخْسُفُوا بِأُفُئِهِمْ خَمْرًا وَلَا فَسَادًا فِي السُّبُلِ﴾ أنت سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم، وقال رجل لأنس بن مالك، أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب^(٥).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ

(حدث آخر) قال الشافعي - رحمه الله -: أنبأنا مالك عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَ فِي الْآخِرَةِ»، أخرجه البخاري ومسلم^(١). وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَمٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَتَاتَ وَهُوَ يَذُنُّهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَغْتَرْبِهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٢).

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريته، فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضئته عندها غلام وباطية خمر؛ فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لنقع عليّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر؛ فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً، إلا أوشك أحدها أن يخرج صاحبه، رواه البيهقي^(٣)، وهذا إسناد صحيح، وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً، والموقوف أصح، والله أعلم.

وروى أحمد بن حنبل عن ابن عباس قال: لما حُرِّمَتِ الْخَمْرُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصْحَابُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرِبُونَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية، ولما حولت القبلة قال ناس: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٤)، وعن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ فقال النبي ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ» وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريقه^(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَسَوْنَكُمُ اللَّهُ يَتَذَكَّرُ مِنْ أَلْسِنِكُمْ أَلْسِنُكُمْ وَأَمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ لَنْ يَكُنْ لَكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقُولُوا هَذَا بَلَدٌ حَرَامٌ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٦) يعني: لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قلله ومنكم متعدياً فحرم ما قل من غير أن يغير بحكم يوهي دوا عدل ومنكم هذياً يبلغ الكعبة أو كعبة طعم مسكرين وعدل ذلك صيماً ليذوق وبال أمره عفا الله عنه سبب ومن مدد فيسببهم الله ومنه والله عزيز ذو انتقام^(٧).

إحرام الصيد في الحرم والإحرام

قال لوالي عن ابن عباس قوله: ﴿لَسَوْنَكُمُ اللَّهُ يَتَذَكَّرُ مِنْ أَلْسِنِكُمْ﴾

أَلْسِنَةُ تَنَالُهُ أَلْسِنُكُمْ وَرَمَاكُمْ قَالَ: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يتلى الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شربوا لتناولوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقرّبوه^(٨). وقال غيره: ﴿تَنَالُهُ أَلْسِنُكُمْ﴾ يعني: صغار الصيد وفراخه، ^(٩) يعني: كبارها. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله، محرمون ﴿لَعَلَّ اللَّهَ مِّنْ عِقَابِهِ بِالْغَيْبِ﴾^(١٠) يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد، يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالارماح سراً وجهراً، لتظهر طاعة من يطيع منهم في وجهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ مَغْفِرَةً وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١١)، وقوله ههنا: ﴿فَمَنْ أَعَدَّ نَقْدًا قَالَ السَّيْدِي وَغَيْرِهِ﴾ يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والنهي: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٢) أي: لمخالفته أمر الله وشرعه. ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعدي فيه، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين، عن علي بن أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خَسَّ فَوَاسِقُ قَتْلَى فِي الْحَرَمِ وَالْغُرَابِ، وَالْجُدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١٣). وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «خَسَّ الدَّوَابُّ لَيْسَ عَلَى الْمُخْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ، وَالْغُرَابُ، وَالْجُدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١٤)، أخرجه أبو أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله^(١٥). قال أيوب: فقلت: فالحية؟ قال: الحية لاشك فيها، ولا يختلف في قتلها وألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والثعلب والفهد؛ لأنها

- (١) مسند الشافعي: ١٧٦٣، والبخاري: ٥٥٧٥، ومسلم: ٢٠٠٣.
- (٢) مسلم: ٢٠٠٣.
- (٣) البيهقي: ٨/١٢٨٧.
- (٤) أحمد: ٢٩٥/١.
- (٥) مسلم: ٤/١٩١٠، وتحفة الأحوذى: ٨/٤١٩، والنسائي الكبير: ٦/٣٣٧.
- (٦) الطبري: ١٠/٥٨٤.
- (٧) الطبري: ١٠/٥٨٣.
- (٨) الدر المنثور: ٣/١٨٥.
- (٩) البخاري: ٣٣١٤، ومسلم: ١١٩٨.
- (١٠) الموطأ: ١/٣٥٦.
- (١١) فتح الباري: ٤/٤٢، ومسلم: ٢/٨٥٨.
- (١٢) النسائي: ٥/١٩٠.
- (١٣) فتح الباري: ٦/٤٤.

مساكين الحرم وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿أَوْ كَثْرَةُ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿هَذَا بَلَّغَ الْكُتُبِ أَوْ كَثْرَةُ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل طيباً أو نحوه، فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فأطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل آيلاً، أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: الطعام مُدٌّ مُدٌّ يُشْبِعُهُمْ^(٦).

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَّمَ﴾ أي: في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾^(٧). قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَّمَ﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة. قال: قلت: فهل في العود من حدّ تعلمه؟ قال: لا، قال قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدي^(٧). رواه ابن جرير. وقيل: معناه فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء، ثم الجمهور من السلف^(٨) والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرّر ما تكرّر، سواءً الخطأ في ذلك والعمد.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾^(٩)

(١) أبو داود: ٤٢٤/٢، وتحفة الأحوذى: ٥٧٦/٣، وابن ماجه: ١٠٣٢/٢.

(٢) الطبري: ٨/١١. (٣) الطبري: ١١/١١.

(٤) الطبري: ٢٧/١١. (٥) الطبري: ٢٦/١١.

(٦) الطبري: ٣١/١١. (٧) الطبري: ٤٨/١١.

(٨) الطبري: ٥٠/١١.

أَوْ لَأَن الْكَلْبَ يَطْلُقُ عَلَيْهَا. فإله أعلم. وعن سعيد عن النبي ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم؟ فقال: الْقَرْبَ، وَالْقَرْبَ، وَالْقَرْبَ، وَيُرْمِي الْغُرَابَ وَلَا يَقْتُلُهُ، وَالْقَرْبَ، وَالْجَدَاةَ، وَالسَّيَّحَ الْعَادِيَّ، رواه أبو داود، وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن^(١).

جزاء قتل الصيد في الحرم أو الإحرام

قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾، المراد بالمتعمد هنا: القاصد إلى قتل الصيد، إجماعاً^(٢)، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فهو أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه، وهو قول والذبي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، السنة على الناسي^(٣)، ومعنى هذا: أن القرآن دل على الجزاء على المتعمد وعلى نائيمة بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، وجاءت السنة من أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما ذهب إليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، لا مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم، غير ملوم.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ دليل لوجوب الجزاء من قتل المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي كما حكم أصحابه في المثل، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة، وفي بقرة ببقرة، وفي الغزال بعتز، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة. رواه البيهقي.

قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني: أنه يحكم في المثل - أو بالقيمة في غير المثل - عدلان من المسلمين، وروى ابن جرير عن أبي جرير البجلي، قال: أصبت نأماً محرماً، فذكرت ذلك لعمر، فقال: اثنت رجلين من بني نضير فليحكما عليك، فأتي عبد الرحمن وسعداً فحكما عليهما. وروى ابن جرير عن طارق، قال: أوطأ طيلاً فقتله وهو محرّم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال له حكم معي، فحكما فيه جدلاً قد جمع الماء والشجر، ثم قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٥).

قال: ﴿هَذَا بَلَّغَ الْكُتُبِ﴾ أي: وإصلاً إلى الكعبة، وهو وصوله إلى الحرم، بأن يُذبح هناك، ويُفَرَّقَ لحمه على

يقول - عز ذكره -: والله منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو أَنْفَارٍ ۝﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه ^(١).

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُ خَرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾ جعل الله لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسموات والسموات والارض وأن الله بكل شيء عليم ^(٢) أعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما العقبان وأن الله عفوفٌ رحيمٌ ^(٣) ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ^(٤).

[إحلال صيد البحر للمحرم]

قال سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طرياً ^(١) ووطعامه، ما يتزود منه مليحاً يابساً، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ووطعامه، ما لفظه ميتاً، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري. وقوله ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون و﴿وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ وهم: جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر والسفر ^(٢). وقال غيره: الطري منه: لمن يصطاده من حاضرة البحر، وطعامه ما مات فيه أو اصطيد منه وملح وقد زادوا للمسافرين والنائين عن البحر. وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم ^(٣). وروى الإمام مالك

ابن أنس عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قيل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة وأنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيينا إلا تمر، فقلت: وما تغني التمرة؟ فقال: فقد وجدنا فقدناها حين فني، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الطرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمان عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فصبها، ثم أمر براحلة فرحلت، وميرت تحتها، فلم تصبها ^(٤). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ^(٥).

وروى مالك عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا الماء، فإن توضعنا به عطشنا، أفنؤخذ بساء البحر؟ قال: لا، رسول الله ﷺ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْجَلُّ مَيْتَةٌ» ^(٦). وهذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو الأرب، وصححه البخاري والترمذي وابن حبان، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ.

[تحريم صيد البر للمحرم]

وقوله: ﴿وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُ خَرْمًا﴾ أي: في إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على ذلك، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثم وغرم، أو غرم وحرّم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، وكذا في حرّم من المحرمين والمحلين. وأما إذا صاد حلال صيداً، إلى محرم، فإن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد، يجزى للمحرم أكله؛ لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى رسول الله ﷺ حمازاً وحشياً وهو بالأبواء أو بؤذان، فردّه عليه، ما في وجهه قال: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا خَرَّمْنَا» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ^(١)، وله ألفاظ كثيرة، قالوا: فخرج النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فردّه لذلك، إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه، وأما إذا صاد حراماً حين صاد حراماً وحشاً، وكان حلالاً لم يحرم، أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَهَانَ فِي قَبْلِهَا؟» قالوا: لا. قال: «فَكُلُوا» وأكل منها رسول الله ﷺ. والقصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة ^(٢).

(١) الطبري: ٥٧/١١. (٢) الطبري: ٥٩/١١.

(٣) الطبري: ٧١/١١. (٤) الطبري: ٧٢/١١.

(٥) الموطأ: ٩٣٠/٢.

(٦) فتح الباري: ١٥٢/٥، ومسلم: ١٥٣٥/٣.

(٧) الموطأ: ٢٢/١.

(٨) مسند الشافعي: ٢٥، وأحمد: ٢٣٧/٢، وأبو داود: ٢٨٦.

والترمذي: ٦٩، والنسائي: ٥٠/١، وابن ماجه: ٢٨٦.

خزيمة: ١١١، وابن حبان: ١١٩.

(٩) البخاري: ١٨٢٥، ٢٥٧٣، ومسلم: ٨٥٠/٢.

(١٠) فتح الباري: ٥٢٨/٩، ومسلم: ٨٥٢/٢.

إليكم، إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثواب على الطاعة
وعلينا العقاب على المعصية، وغير خفي علينا المطيع منكم
القابل رسالتنا، من العاصي الآبي رسالتنا؛ لأننا نعلم ما عمله
العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه، وما تخفونه في
أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق. فمن كان كذلك
لا يخفى عليه شيء من ضائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس،
مما في السماوات والأرض، ويده الثواب والعقاب، فحقيق أن
يتقي، وأن يطاع فلا يعصى [١].

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَى إِلَيْكَ الْغَائِبُونَ﴾ (١٠) ﴿يَتَأْوَى
إِلَيْهِ مَنْ لَا يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَوْكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا
عَنْهَا جِئَ بِتُرْكٍ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ
(١١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٢)
يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد، لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ
وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان «كثرة الخيرات»
يعني: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما
جاء في الحديث: «مَا قُلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ تَمَّا كَثُرَ وَأَمْسَى» (١٣) ﴿فَاتَّقُوا
اللَّهَ يَتَأْوَى إِلَيْكَ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة
المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه واقتنعوا بالحلال واكتفوا به،
﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (١٤) أي: في الدنيا والآخرة.

[ذكر السؤال بدون فائدة]

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْوَى إِلَيْهِ مَنْ لَا يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ
(*) ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات. هي: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩ ثم
فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع، ولم يذكر تفسير
آخرها ولا الثلاثة بعدها. وهذا هو الثابت في كل الأصول
المخطوطة والمطبوعة. والظاهر أنه سها عن ذلك، رحمه الله. فمن
البعيد جداً أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه في
جميع النسخ على اختلاف مصادرها. فرأيت - تكميل هذا
النقص، بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين: ابن جرير
الطبري - بشيء من الاختصار والتصرف، والاقتصار على
التفسير نفسه. مراعيًا الدقة في المحافظة على عبارته العالية ما
استطعت، إن شاء الله، وبه الاستعانة. (تكميل بقلم الشيخ أحمد
شاكر، هذا كتب هنا في الأصل: سقط من هذا الموضع تفسير
الثلاث الآيات ٩٧، ٩٨، ٩٩ وترك لها بياض في النسخة المكية.
وليس فيه هذا التكميل) الناشر.

(١) أحمد: ١٩٧/٥.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْشَوْنَ﴾ (١٥) ﴿يَقُولُ تَعَالَى:
خَشَا اللَّهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَاحْذَرُوا، بطاعته فيما أمركم به من
شأنه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم
من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعن
صيد البر وقتله في حال إحرامكم. فإن الله مصيركم
رجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على
تقوا له. ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرُوبِ قِبَلَ الْأَشْهُارِ الْحَرَامِ وَالْمَقْدِسِ
أَلَيْسَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (١٦) ﴿يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِبَلاً لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ مِنْ رِيسٍ يَحْجُزُ قُوَّتَهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ، وَمُسْتَهْجِرٍ عَنْ
سُوءِهِمْ، وَظَالِمٍ عَنْ مَظْلُومِهِمْ﴾ (١٧) ﴿وَالْأَشْهُارُ الْحَرَامُ وَالْمَقْدِسُ
مَقْدِسٌ يَقُولُ: وَجَعَلَ هَذِهِ أَيْضًا قِبَلاً لِلنَّاسِ، كَمَا جَعَلَ
بَيْتَ قِبَلاً لَهُمْ، فَحُجُزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ عَنْ
بَعْضٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِبَاطٌ غَيْرُهُ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ وَمَصَالِحَ
دِينِهِمْ وَرَحَلَ تَعَالَى الْكَعْبَةَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلُوبَ
تَمْلِكُ كَانَ يَحْجُزُ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ وَيَعْظُمُهُ، بِمَنْزِلَةِ الرَّئِيسِ
يُوقِفُهُمْ بِهِ أَمْرُ تَبَاعِهِ وَأَمَّا الْكَعْبَةُ: فَالْحَرَمُ كُلُّهُ. وَسَمَّاها اللَّهُ
مَقْدِسًا لِلْعَرَبِ بِهَا أَنْ يَصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُجْتَلَى خِلَافُهَا أَوْ
يُحْتَلَى شَجَرُهَا. وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْكَعْبَةُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهَدْيُ
وَالْقُلُوبُ قِوَامُ أَمْرِ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.
فِي الْإِسْلَامِ مَعَالِمُ حُجَّتِهِمْ وَمَنَاسِكِهِمْ، وَمَتَوَجَّهُهُمْ
بِصَلَاتِهِمْ ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ﴾ (١٨) ﴿يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرَ لَكُمْ أَيُّهَا
النَّاسُ - ذَلِكَ قِبَاطًا، كَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ مِنْ أَحَدٍ لَكُمْ لِمَصَالِحِ
دِينِكُمْ مَا أَحَدٌ مِمَّا بِهِ قِوَامُكُمْ، عَلِمًا مِنْهُ بِمَنَافِعِكُمْ وَمَضَارِكُمْ
فَنَالَكُمْ يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِمَّا فِيهِ صَلَاحُ
دِينِكُمْ وَأَجْلُكُمْ. وَلِتَعْلَمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ
مِنْ أُمُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَهُوَ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَجَازِي
حَسَنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمَسِيءَ مِنْكُمْ بِإِسَاءَتِهِ﴾ (١٩) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ
شَدِيدَ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) ﴿يَقُولُ تَعَالَى: اعْلَمُوا
بِكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ
مِنْ سِرِّ أَعْمَالِكُمْ وَعِلَانِيَتِهَا. شَدِيدٌ عِقَابُهُ مِنْ عَصَاةِ
رَبِّهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ غَفُورٌ لِلذُّنُوبِ مِنْ أَطَاعَةٍ وَأَنَابٍ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ بِهِ
بِعَاقِبَتِهِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ بَعْدَ إِيَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا﴾ (٢١) ﴿مَا عَلَى
النَّاسِ أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَهَذَا مِنْ اللَّهِ
نِعْمَةً وَوَعْدٌ يُعَدُّ: لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ

بُذِّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ ﴿١﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتفتيح عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: «فُلَانٌ» فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ ^(١) رواه البخاري في غير هذا الموضع، ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي ^(٢).

وروى ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿يَكُنْ أَتَى آلِيكَ ءَامَتُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُذِّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ الآية، قال: فحدثنا أن أنس ابن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنَّهُ لَكُمْ» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وجدت كلاً لا فأرأسه في ثوبه ييكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ» قال: ثم قام عمر -أو قال: فأنشأ عمر- فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً عائداً بالله -أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن- قال: وقال رسول الله ﷺ: «لَمْ أَرِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، صُورَتِ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَافِظِ» ^(٣)، أخرجه من طريق سعيد ^(٤).

ثم روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَكُنْ أَتَى آلِيكَ ءَامَتُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُذِّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ^(٥)، تفرد به البخاري. وروى الإمام أحمد عن علي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ»، فأنزل الله: ﴿يَكُنْ أَتَى آلِيكَ ءَامَتُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُذِّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ الآية، وكذا رواه الترمذي وابن ماجه ^(٦). وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا

علم بها الشخص ساءته، فالأولى: الإعراض عنها وتركها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ أَنْ تُبَذَّلَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي تبيثتم عن السؤال عنها، حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿وَوَكَالَهُ عَلَى اللَّهِ يُبَيِّنُ﴾ ^(٧)، ثم قال: «عَفَا اللَّهُ عَنْهَا» أي: عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ ^(٨) والمراد: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعلة قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضيق، وقد ورد في الحديث: «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُجَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» ^(٩)، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذُرُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلُكَ وَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةً سَأَلُوا عَنْهُمْ وَاخْتَلَفْتَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» ^(١٠) وفي الحديث الصحيح أيضًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرِيضَةً فَلَا تُضَيَعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا» ^(١١) ثم قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِكَافِرِينَ﴾ ^(١٢) أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها من قبلكم فأجابوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بيئت لهم فلم يتفنعوا بها، لأنهم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا سَلَكَةٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ^(١٣) وإذا قيل لهم: تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ^(١٤)

[تفسير الحيوانات المذكورة]

- روى البخاري عن سعيد بن المسيب، قال: البحيرة التي يُمنع دُرُّها للطواغيت، فلا يجلبها أحد من الناس، والمانعة ^(١) فتح الباري: ٨/ ١٣٠.
- ^(٢) فتح الباري: ١١/ ٣٢٦، ومسلم: ٤/ ١٨٣٢، وأحمد: ١٨٠٣/ ١.
- وتحفة الأخوذ: ٨/ ٤٢١، وتحفة الأشراف: ١/ ٤١٣.
- ^(٣) الطبري: ١١/ ١٠٠.
- ^(٤) فتح الباري: ١٣/ ٤٧، ومسلم: ٤/ ١٨٣٤.
- ^(٥) فتح الباري: ٨/ ١٣٠.
- ^(٦) أحمد: ١/ ١١٣، والترمذي: ٣٠٥٥، وابن ماجه: ٢٨٨٤.
- ^(٧) البخاري: ٧٢٨٩، ومسلم: ٢٣٥٨.
- ^(٨) مسلم: ٤/ ١٨٣١.
- ^(٩) البيهقي: ١٠/ ١٢.

هي: الشاة إذا نُتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً [أو أنثى] وهو ميت - اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحوها وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا، رواه ابن أبي حاتم^(٧). وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري، عن سعيد بن المسيب **«وَلَا وَصِيلَةَ»**، قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى، ثم نَتَتْ بأنثى فسموها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يتحدعونها لطواغيتهم^(٨). وكذا روي عن الإمام مالك ابن أنس رحمه الله تعالى. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، تَوَآمَيْنَ توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحامي: فقال العوفي عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا لَقِحَ فحله عشراً قيل: حام فتركوه^(٩). وكذا قال أبو روق وقادة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وأما الحام، فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا: حَمَى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجوزون له وَبْرًا، ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوضٍ يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه^(١٠). وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: أما الحام فمِنَ الإبل، كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيوه، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص الجشمي، عن أبيه مالك ابن نَفْصَةَ، قال: أتيت النبي ﷺ في خُلُقَانٍ مِنَ الثياب، فقال لي: **«هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟»** فقلت: نعم. قال: **«مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟»** قال: فقلت: من كل المال: من الإبل، والغنم والحيل، والريق، قال: **«فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيَرْ عَلَيْكَ»**، ثم قال: **«تَنْتَجِ إِبِلُكَ وَافِيَةً آذَانَهَا»** قال: قلت: نعم، وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال: **«فَلْعَلَّكَ تَأْخُذُ الْمَوْسَى**

بَسِيئَتِهَا لَأَهْلَتَهُمْ لَا يَحْمِلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ. قال: وقال بريدة: قال رسول الله ﷺ: **«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ يَخْرُ قُصْبَةً فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»** وصلة: الناقة البكر تُبَكَّرُ - في أول نتاج إبل - ثم تُنْثَى بعدئذ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها أخرى ليس بينها ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب باب المعداد، فإذا قضى ضرابه ودَعَوْهُ للطواغيت، نظره عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه^(١١). وكذا رواه مسلم والنسائي^(١٢).

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ أَبُو خُرَازَةَ عَمْرُو بْنُ عَمْرٍو وَإِنَّهُ يَخْرُ أَمْعَاءُهُ فِي النَّارِ»**^(١٣)، تفرد به أحمد من هذا وجه عمرو هذا هو: ابن لحي بن قَمْعَةَ، أحد رؤساء خزاعة حين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم خليل، فادخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس لعبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغزها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: **«وَجَعَلُوا لَهُ مِثْلًا ذَرَأًا مِنْ الْأَحْزَابِ وَالْأَعْيُنِ»**، إلى آخر الآيات في ذلك.

في البحيرة: فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **«هِيَ شاة إذا نُتجت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً نجوه، فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا آذانها، شالوا هذه بحيرة»**^(١٤). وذكر السدي وغيره قريباً من هذا. وأما السائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من بحيرة إلا أنها: ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد، نتت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو أنثى أو ذكرين نجوه، فأكله رجالهم دون نسائهم^(١٥). وقال محمد بن إسحاق: سائبة هي: الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهما ذكر، سَيِّبَتْ فلم تركب ولم يُجَزَّ وبرها ولم يجلب لبنها إلا نصيب. وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقُضِيَتْ حاجته، سَيَّبَ من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها وقال السدي: كان الرجل منهم إذا نصبت حاجته، أو عوفي من مرض، أو كثر ماله، سَيَّبَ شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عَوَقَبَ بعقوبة في الدنيا. وأما الوصيلة، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:

(١) فتح الباري: ٨/ ١٣٣.

(٢) مسلم: ٤/ ٢١٩٢، والنسائي في الكبرى: ٦/ ٣٣٨.

(٣) أحمد: ١/ ٤٤٦. (٤) الطبري: ١١/ ١٢٩.

(٥) الطبري: ١١/ ١٣٠. (٦) الطبري: ١١/ ١٢٨.

(٧) ابن أبي حاتم: ٤/ ١٢٢٢. (٨) عبد الرزاق: ١/ ١٩٦.

(٩) الطبري: ١١/ ١٢٩. (١٠) ابن أبي حاتم: ٤/ ١٢٢٥.

فَقَطَّعْ أَذَانُ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ [بُحْرٌ] وَتَشْقُ أَذَانُ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ حُرْمٌ؟ قلت: نعم. قال: «فَلَا تَفْعَلْ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ»، ثم قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَاقِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ». أما البحيرة، فهي التي يجعدون أذانها فلا تستفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها، ولا أوبارها، ولا أشعارها، ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها^(١).

وأما السائبة، فهي التي يسيئون لأهلتهم ويذهبون إلى آهلتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة، فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع جُدعت وقُطِعَ قرنها، فيقولون: قد وَصَلَتْ فلا يذبحونها، ولا تضرب ولا تمتع معها وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجا في الحديث، وقد روي وجه آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه. وقد روي هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عثم أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به، وليس فيه تفسير هذه^(٢)، والله أعلم. وقوله تعالى: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُوا لَا يَعْقِلُونَ»^(٣)، أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قرية، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعا لهم، وقرية يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» أي: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجب، وترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك. قال الله تعالى: «أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَطْلَعُونَ شَيْفًا» أي: لا يفهمون حقا ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٤)

[الأمر بإصلاح النفس]

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريبا منه أو بعيدا.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا

يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ رَأَوْا النُّكْرَ وَلَا يَغَيِّرُونَهُ، يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفَعَهُ بِعِقَابِهِ». قال: سمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إن الكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان^(٥).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ أَلَوْصِيَّةٌ أَتَيْنَ دَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَتَى فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَسْتُمْ لَا تَشْرِي بِهِ، ثُمَّ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ لَا شَهْدَةَ اللَّهُ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ»^(٦) فَإِنْ عُدَّ عَنْهُمَا اسْتَشْفَا فَأَخْرَجَ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَشْفَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فَتَّسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَدًا مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدْنَا إِلَّا بِالْظُلْمِ»^(٧) ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَحْلِفُوا آمَنَ بَعْدَ آمِنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[شهادة عدلين على الوصية]

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عريض، تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ أَلَوْصِيَّةٌ أَتَيْنَ» أي: شهادة اثنين، وقيل: أن يشهد الثمان، وقيل: تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين، وقيل: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من المسلمين.

وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب^(٨).

وقوله تعالى: «إِنْ أَشْرَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ» أي: سافروا ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا شرطان لجواز استشهاد النميم عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. روى ابن جرير عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في الوصية^(٩). وقوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا بِعَدْلِ الْوَصِيَّةِ﴾ قال العوفي: قال ابن عباس: يعني: صاحب العصر^(١٠). وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين. وقال الزهري: يعني: صاحب

(١) ابن أبي حاتم: ٤/ ١٢٢٠. (٢) أحمد: ٤/ ١٣٦.

(٣) أحمد: ١/ ٥. (٤) ابن أبي حاتم: ١٢/ ١٢٩.

(٥) الطبري: ١١/ ١٦٣، ١٦٤. (٦) الطبري: ١١/ ١٧٢.

[يسأل الأنبياء عن أمهم]

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّكَ لَمَسَلْنَاهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣)، وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم (٤). قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ (٥). رواه ابن جرير (٦)، وابن أبي حاتم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ﴾ (٧) يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا (٨)، رواه ابن جرير، ثم اختاره وهو من باب التاديب مع الرب جل جلاله، أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبناء وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ﴾ (٩).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ بِعَمِّي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْمَامَ وَالْأَنْبِيَاءَ بِإِذْنِي وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ بِالْيَمَنِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّ أَنْ أَمْسُوا بِوَيْسُرٍ قَالُوا أَمَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١).

[تذكير عيسى بالنعم]

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام عما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال: ﴿ادْكُرْ بِعَمِّي عَلَيْكَ﴾ أي: في

الصدق (١). والمقصود: أن يقام هذا الشاهدان بعد صلاة جمع الناس فيها بحضرته ﴿فَيُقِيمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿فَنَسْتَأْذِنُ﴾ أي: إن ظهرت لكم منها ريبة أنها خانا أو غلاما، فحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَسْتَأْذِنُ﴾ أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان (٢) ﴿فَنَسْتَأْذِنُ﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية ﴿وَلَوْ كُنَّا دَافِقِينَ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريبا لنا لا نسيب ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، أضافها إلى الله؛ تشريفا لها نظرا لأمرها ﴿وَإِنَّا إِذَا الْيَمِينُ الْأَيْمِينَ﴾ (٣) أي: إن فعلنا شيئا من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَرَضَ عَنْهُمَا اسْتَخَفَّا قُلُوبَهُمَا﴾ أي: فإن اشتبهوا وطهر وتحقق من الشاهدين الوصيين: أنها خانا أو غلاما شيئا من الوصي به إليهما، وظهر عليهما بذلك؛ ﴿فَتَاخَرَانِ يَقُولَانِ مِمَّا مِمَّا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَئِينَ﴾ أي: متى تحقق ذلك بغير الصحيح على خيانتها، فيقيم اثنان من الورثة المستحقين بتركها، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال، ﴿فَيُقِيمَانِ بِاللَّهِ شَهَادَتَهُمَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا أنها خانا، أحق وأصح وأثبت من شهادتها المتقدمة، ﴿وَمَا عَدَّتِنَا﴾ أي: فيما اتيناها من الخيانة، ﴿وَإِنَّا إِذَا الْيَمِينُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) أي: إن كنا قد اتينا عليها، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولها والحالة هذه، كما يخلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل، فيدفع برمته إليهم، كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَتَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذين رآهم استريب بهما - أقرب إلى إقامتها الشهادة على وجه المرضي. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيَتِنَا﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها هو تعظيم حلف بالله، ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إن رُدَّتْ اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يخافون؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيَتِنَا﴾. ثم قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أي: وأطيعوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥) أي: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأُرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ﴾ (٦)

(١) الطبري: ١١/١٧٤. (٢) الطبري: ١١/٢١٠.

(٣) عبد الرزاق: ١/٢٠١. (٤) الطبري: ١١/٢١٠.

(٥) الطبري: ١١/٢١١.

خلقني إياك من أمّ بلا ذكر، وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء، **﴿وَعَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾** حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبها الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة، **﴿وَإِذْ أَيْدِيكَ يَرُوحُ الْقُدْسِ﴾** وهو: جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقك في المهد صغيراً، فشهدت براءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتي إلى عبادتي، ولهذا قال: **﴿تَكْفُرُ النَّاسُ فِي الْكُفْرِ وَكَهْلًا﴾** أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك وضمن **﴿تَكْفُرُ﴾** تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بامر عجيب.

وقوله: **﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** أي: الخط والفهم **﴿وَالْتُورَةَ﴾** وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم. وقوله: **﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾** أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فيكون طائراً بإذني، أي: تفتخ في تلك الصورة التي شكلتها، بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

وقوله تعالى: **﴿وَتَبَرَّأَ الْأَكْثَمُ وَالْأَبْرَصُ بِإِذْنِي﴾** قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. وقوله: **﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْكُوفُ بِإِذْنِي﴾** أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيتته. وقوله تعالى: **﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾** (١١) أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم، ورفعتك إليّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتنان يكون واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ.

وقوله: **﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِوَاسِلِي﴾** وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾** الآية، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: **﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾** (١٢) ثم كُلٌّ مِنْ كَلِّ

الْفَرْبِ قَاتِلُكَ سَجَلٌ رَبُّكَ ذُلًّا ۖ الآية، قال الحسن البصري ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في ذلك، فقالوا: **﴿آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** (١٣).

﴿وَإِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ يُنْزِلُ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَالُوا رَبُّدْ أَنْ تَأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٤) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْ رَبِّنَا وَأَنَّتْ خَيْرَ الْأَرْزَاقِ (١٥) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ فَيُعَذِّبَ الْعَادِيَ لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ

[بيان نزول المائدة]

هذه قصة المائدة واليهما تُنسب السورة، فيقال سورة المائدة وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، لما أجابهم بنزولها، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة، فقوله تعالى: **﴿الْخَوَارِجُ﴾** وهم أتباع عيسى عليه السلام **﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾** والمائدة الخبثان عليه الطعام، وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا لاحتاجهم وفقرهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم ينزلونها منها ويتقوون بها على العبادة، **﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ﴾** (١٣) أي: فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله تسألوا هذا، فعهاه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في الرزق إن كنتم مؤمنين، **﴿قَالُوا رَبُّدْ أَنْ تَأْكُلَ مِنهَا﴾** أي: محتاجون إلى الأكل منها، **﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾** إذا شاهدنا رزقاً لنا من السماء، **﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا﴾** أي: ويزداد بك وعلماً برسالتك، **﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** (١٤) ونشهد أنها الآية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وما جئت به. **﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾** قال السدي: أي: نزل ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نغمته نحن ومن بعدنا وقال سفيان الثوري: يعني: يوماً نصلي فيه (١٥). **﴿وَأَمَّا آيَةُ﴾** أي: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتي لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك، **﴿وَأَرْزُقْنَا﴾** أي: من عند رزقاً هيناً بلا كلفة ولا تعب **﴿وَأَنَّتْ خَيْرَ الْأَرْزَاقِ﴾** (١٥) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ فَيُعَذِّبَ الْعَادِيَ لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ

من دون الله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْحَدُونِي وَإِنِّي إِلَٰهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقرير على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: يَلْقَى عِيسَى حَجَّتَهُ، وَلَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْحَدُونِي وَإِنِّي إِلَٰهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: فلقاه الله ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ إلى آخر الآية^(٤). وقد رواه الثوري عن معمر، عن ابن طاوس، عن طاوس بنحوه.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿عَلِمْتُهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُهُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه. ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: هذا هو الذي قلت لهم. وقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا وَفَّقْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا ۖ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثَعْبَةً، وَلَئِنْ أَوَّلَ الْخَلْقِ يَكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِزْرَاهِمُ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِّنْ أُمَّتِي يَقُوْخُدُ بِهِمْ ذَاتَ السَّمَاءِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أُحْدِثُوا بِعَدِكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا وَفَّقْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥) إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ (٦)، فيقال: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُزَكِّدِينَ عَلَى أَصْحَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ^(٥). ورواه البخاري عند هذه الآية^(٦).

وقوله: ﴿إِنْ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ (٦) روى البخاري عند هذه الآية^(٦).

وعاندها، ﴿فَإِنْ أَعَذَّبَهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: من عالمي زمانكم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ﴿وَالْفُتُوحُوتُ فِي الْأَشْفَالِ مِنَ الْآثَارِ﴾. وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن رباح قال: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ثم من أصحاب المائدة، وآل فرعون^(١).

وروى ابن أبي حاتم أيضًا عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم له ادع أن الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت مائدة بالمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، وضعت بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها روي ابن جرير عن إسحاق ابن عبد الله، أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعة أرغفة، وسبعة أكواب، يأكلون منها ما شاؤوا. قال: فسرق بعضهم منها لعلها لا تنزل غدا، فرفعت^(٢). وهذه الآثار وغيرها دالة على المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم، من الله لدعوته، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من العظيم ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسُلًا عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

[واقعة تاريخية غريبة]

وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة بالالأكلى وأنواع من الفضة، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني دمشق، فبانت وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيرا لما فيها من البراقبت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام. فالله أعلم.

وقال الله يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْحَدُونِي وَإِنِّي إِلَٰهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ قُلْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُهُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ (٣) مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا وَفَّقْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤) إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ (٥)

[الشيخ يتبرأ من الشرك ويقر بالتوحيد]

هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذته وأمه الهين

(١) الطبري: ١١/٢٣٣.

(٢) الطبري: ٥/١٣٢، وابن أبي حاتم: ٤/١٢٤٦.

(٣) الطبري: ٥/١٣٤. (٤) ابن أبي حاتم: ٤/١٢٥٣.

(٥) مسند الطيالسي: ٣٤٣. (٦) فتح الباري: ٨/١٣٥.

يجأرون حولها بالتسبيح^(٣). وقال السدي عن مرة عن قال: نزلت سورة الأنعام بشيعها سبعون ألفاً من الملائكة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ نَوْمًا وَالنَّهَارَ عَمَلًا﴾
﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَ
﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَمْرُورُونَ﴾^(٢)
السَّمَوَاتِ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ

[الحمد لله على جليل قدرته وعظيم سلطانه]

يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، وحامداً لها من
السموات والأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات والنور
لعباده في ليالهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ، وروى
النور ؛ لكونه أشرف ، كقوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَآلَتِهَا﴾
وكما قال في آخر هذه السورة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾
﴿فَأَتَّبِعُوا وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١) أي روي
كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا له شريكاً وعدلاً ، والظلمات
صاحبة ولدان. تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً
تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني أباهم آدم ، الذي
أصلهم ، ومنه خرجوا فانتشروا في المشرق والمغرب ، وروى
﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال سعيد بن جابر ،
عباس ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾
الآخرة^(٥) . وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جابر
والحسن وقتادة والضحاك ، وزيد بن أسلم وعطية والسدي
ومقاتل بن حيان وغيرهم^(٦) . وعن ابن عباس ومجاهد
قَضَىٰ أَجَلًا يعني : مدة الدنيا^(٧) . ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾
عمر الإنسان إلى حين موته . وكأنه مأخوذ من قوله تعالى
هذا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾
الآية . ومعنى قوله : ﴿عِنْدَهُ﴾ أي : لا يعلمه إلا هو ، قال
﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا إِلَهًا هُوَ﴾ وكقوله : ﴿يَنْتَظِرُ
السَّاعَةَ أَيَّانَ مَرْسَهَا﴾^(٨) فيم أنت من ذكرها^(٩) إلى ربك مُنْتَهَى^(١٠)
تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ مَمْرُورُونَ﴾ قال السدي وغيره : يعني : تشكروا

الْحَكِيمُ ﴿١١﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ،
فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ،
ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى
رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون
علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبا عجيب ، وقد ورد في
الحديث : أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددوها .

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١١)
يَوْمَ تَمُوتُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

[لا ينفع يوم القيامة إلا الصديق]

يقوله تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم - عليه
السلام - فيما أنابه إليه : من التبري من النصارى الملحدين
الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه
عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ
صِدْقُهُمْ﴾ . قال الضحاك عن ابن عباس يقول : يوم ينفع
المؤحدين توحيدهم ، ﴿هُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا﴾ أي : ماكثين فيها ، لا يحولون ولا يزولون ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾
وسياي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث .

وقوله : ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٢) أي : هذا الفوز الكبير الذي
لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿لِيُثَبِّتَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(١٣)
وكما قال : ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(١٤) ، وقوله : ﴿لِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٥) أي : هو
الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ،
فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ، وفي مشيئته ، فلا نظير له ،
ولا وزير ، ولا عدل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا
إله غيره ، ولا رب سواه . قال ابن وهب سمعت حيي بن
عبد الله يحدث عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن
عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة^(١٦) .

[تفسير سورة الأنعام وهي مكية]

[فضل سورة الأنعام وزمن نزولها]

قال العوفي وعكرمة وعطاء عن ابن عباس : أنزلت سورة
الأنعام بمكة^(٢) . وروى الطبراني عن ابن عباس ، قال : نزلت
سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك

(١) الترمذي : ٣٠٦٣ . (٢) الدر المنثور : ٣/ ١٤٣

(٣) الطبراني : ٢١٥/ ١٢ . (٤) الدر المنثور : ٣/ ٢٤٣

(٥) الطبري : ٢٥٧/ ١١ . (٦) الطبري : ١١/ ٢٥٦-٢٥٧

(٧) الطبري : ١١/ ٢٥٦ .

بصبيكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم،
والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم
أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الْزَيْنُ لَكُنْهُوَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَعَكَ لَقَاضَى لَأُفْسِرَ ثُمَّ لَا يُظَرُّونَ ٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَنَبَيِّسَنَ عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ٩﴾ وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالْأَعْيُنِ سَجَرٌ وَمِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْكَاذِبِينَ ١١﴾

[ذم المعاندين وإياؤهم عن أن يكون الرسول بشراً]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق، ومباهتهم ومناعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَسَوُهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه ورأوا نزوله، وباشروا ذلك، ﴿لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَنزَلْنَا بِهِ نَحْنُ قَوْمٌ مَّتَّحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: ليكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ نَبْرُؤُا الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلُوسُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كقوله تعالى: ﴿قَدْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً لَّيَمْسُوكَ مُظْمِئِينَ لَنُزِّلَنَّا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولًا﴾ ﴿٢٠﴾ فمن رحمة تعالى بخلقه، أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم؛ ليدعو بعضهم بعضاً، ويمكن بعضهم أن يتفهم ببعض، في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، قال الضحاك

ساعة^(١). وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَكُنْ لَهُ جَهَنَّمُ وَمَا يُكْسِبُونَ﴾ ﴿٢﴾ أي: هو المدعو: الله في الأرض وفي السماء، أي: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من سموات ومن في الأرض، ويسمونه: الله، ويدعونه رغباتاً، إلا من كفر من الجن والإنس، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ أي هو إله من في السماء، وإله من الأرض، وهو الله يعلم سركم وجهركم، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالكم خيرا وشرها.

فَالْيَهُودُ مِنْ آيَةِ رَبِّهِمْ إِنِ اتَّبَعُوا مَا كَانُوا عَلَىٰ يَدَيْهِمْ فَيُقَبَّلْ إِلَيْهِمْ فَيَلْبَسُوا ثِيَابَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِأَنَّهُمْ يُفْعَلُونَ وَإِنِ اتَّبَعُوا مَا كَانُوا عَلَىٰ يَدَيْهِمْ فَيُلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى النَّارِ فَيَسْتَرْجُونَ
وَأَن يَأْتِيَهُم مِّنْ رَبِّهِمْ فَيَنقُذَهُم مِّنَ النَّارِ فَذَرُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْغَضُوا
وَأَن يَأْتِيَهُم مِّنْ رَبِّهِمْ فَيَنقُذَهُم مِّنَ النَّارِ فَذَرُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْغَضُوا
وَأَن يَأْتِيَهُم مِّنْ رَبِّهِمْ فَيَنقُذَهُم مِّنَ النَّارِ فَذَرُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْغَضُوا

[عناد المشركين وتوعدهم عليه]

قوله تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم
 من أنفهم من آية، أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات،
 وحدانية الله وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها،
 ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا
 بِرُسُلِنَا، هُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْتَوُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذا
 ما هم عليه، ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن
 يعم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه وليذوقن
 ما هم عليه، قال تعالى واعظاً لهم ومحذراً لهم، أن يصيبهم من
 عذاب النكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من
 شجون السالفه الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعا
 من الأموال وأولاداً واستغلالاً للأرض، وعمارة لها، فقال:
 ﴿يَوْمَآذٍ أَهْلُكَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ثَمَرَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
 أَي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض
 سعة والجنود؛ ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا
 مِن ثَمَرَاتٍ مُنْتَهِيَةٍ، وَجَعَلْنَا الْآفَاقَ بَحْرًا مَخْرُوجًا مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي:
 من أعاليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجاً
 لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: بخطاياهم، وسيئاتهم
 من اجتراحوها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فذهب
 أولون كأمس الذاهب، وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ
 بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل
 أولئك، فأهلكوا كلهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن

عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملك، ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور. ^(١) ﴿وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَئِيلِيْشُوْٓنَ﴾ أي: وخلقنا عليهم ما يخلطون، وقال الوالي عنه: ولشبهنا عليهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ اَسْتَهْزِئْ بِرُسُلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِيْنَ سَخِرُوْا مِنْهُمْ مَا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِئُوْنَ﴾ ^(٢) هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿قَدْ سِرُّوْا فِي الْاَرْضِ ثُمَّ اَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِيْنَ﴾ ^(٣) أي فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله، وعاندوهم، من العذاب والنعكس والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قَدْ لَمِنَ ثَمَآ فِي السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كُتُبٌ عَلٰى نَفْسِهِ الرِّحْمَةُ لِيَجْمَعَٰكُمْ اِلٰى يَوْمٍ اَلِيْمٍ لَا رَيْبَ فِيْهِ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ ^(٤) ولله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ^(٥) قل أعز الله أمحمد ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إن أئمت أن أكوت أول من أسلم ولا تكون من المشركين ^(٦) قل إن أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ^(٧) من يصرف عنه يومئذ فقد جرمه وذلك الفوز العظيم ^(٨)

[الله هو الخالق الرازق المنعم فيجب الانقياد له]

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِيْ تَغْلِبُ غَضَبِيْ» ^(١) وقوله: ﴿لِيَجْمَعَٰكُمْ اِلٰى يَوْمٍ اَلِيْمٍ لَا رَيْبَ فِيْهِ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده (إلى يقيت يوم معلوم) وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون، فهم في ريبهم يترددون، وقوله: ﴿الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة «فهم لا يؤمنون» ^(٢) أي لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْاَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السماوات والأرض الجميع عباده وخلقهم، وتحت قهره وتصرفه وتديره، لا إله إلا هو، «وهو السميع العليم» أي: السميع لأقوال عباده، العليم بركاتهم وضرائهم وسرائرهم،

ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بال العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صر المستقيم؛ ﴿قُلْ اَعَزَّ اللهُ اَلْحَمْدُ وَلِيَا فَاطِر السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ﴾ ^(٣) ﴿قُلْ اَعَزَّ اللهُ اَلْحَمْدُ مَرْوِيْ اَعَزُّ اَنْهَا الْجَاهِلُوْنَ﴾ ^(٤) والمعنى ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السماوات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما، على غير مثال سبق «وهو الذي يطمع» أي: وهو الرازق لخلقهم من غير احتياج اليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْاِنْسَ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾ ^(٥) الآية. بعضهم هنا «وهو يطعم ولا يطعم» أي: لا يأكل، وفي جليل أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دعا رجل من الأنصار - من أهل المدينة - النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وبه يديه، قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن عشناه وأطعمنا، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وكمل حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي، ولا [مكاني] ولا تفت ولا تستغنى عنه. الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا الشراب، وكسانا من العري، وهذانا من الضلال، وبصرنا العمى، ونضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله العالمين» ^(٦) ﴿قُلْ اِنْ اُرْسِلْتُ اَنْ اَكُوْتُ اَوَّلَ مَنْ اَسْلَمَ﴾ أي: هذه الأمة «وَلَا تَكُوْتُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ» ^(٧) قل إن أئمت أن أعصيت ربي عذاب يوم عظيم ^(٨) يعني: يوم القيامة يصرف عنه أي: العذاب «يَوْمَئِذٍ فَقَدْ جَرَّمَهُ» يعني: رجمه «وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْبَيْنُ» كقولهم: «فمن ربح عن الكسار وأز آلجته فقد فاز» والفوز: حصول الربح، ونفي الخسارة. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ اِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ فَهَرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٩) وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم ^(١٠) قل أتئذ أعز أشده قل الله شهيد بيني وبينكم وأرجي القرآن لأئذركم به ومن بلغ أئبكم لتشهدون أن مع الله إلهاً قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون ^(١١) أئبهم الكتب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون ^(١٢) ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ^(١٣)

[الله هو النافع الضار القاهر]

يقول تعالى مخبراً، أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف

(١) الطبري: ٢٦٨/١١. (٢) فتح الباري: ٣٩٥/١٣، ومب

٢١٠٧/٤. (٣) النسائي في الكبرى: ١١/٦.

زَعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَنْ يَسْمَعْ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَبَرَأَ كُلَّ عَابِدٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَقًّا إِذَا جَاءَكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا إِلَهَ آلِ آسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَيُدَّعِيُونَ كُنْ لَوْ لَا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْرِفُونَ ﴿٢٦﴾

[يسأل المشركون عن شركهم]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه، قائلاً لهم: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ زَعُمُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ زَعُمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّهُمْ﴾ أي حجتهم وقال عطاء الخراساني: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّهُمْ﴾ بليتهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهذا كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ كُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

[لا يستفيد الشقي من القرآن]

وقوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَوًا يَقُولُوا يَبْأَ﴾ أي يحيثون ليستمعوا قراءتك، ولا تحجز عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي غطية؛ لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمّاً عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقِي بِمِائَةٍ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعْوَةً وَنِدَاءً﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَوًا لَا يَقُولُوا يَبْأَ﴾ أي مهملارأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين، لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي يجادلونك وينظرونك، في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي جئت به، إلا ما أخذوا من كتب الأوائل، ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي أنهم يبهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والالتحاق بالقرآن، ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي ويبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا يتفقون ولا يدعون أحداً

منهم بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ﴿وَإِنْ يَنْزَغُ إِلَيْكَ فَتَنَّاكَ أَكِنَّةً لَمْ يَلْزَمْكَ يَتَّبِعُكَ فَهَوْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية، وفي الصحيح: رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطٍ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي وهو الذي خضعت له راب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل راب، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وعظمته وعلوه، وقدرته على الأشياء، واستكانت خضاعاً بين يديه، وتحت قهره وحكمه، ﴿وَهُوَ الْكَافِيُ﴾ في جميع أفعاله ﴿الْحَكِيمُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا شيء إلا من يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق، ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْزِلُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ﴾ أي هو العالم بما جتكم به، وما أنتم قائلون ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وهو نذير لكل من يله، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْلَاهُ﴾ وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي نذر له: ﴿إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنْتُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أنتم مع الله، كقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا﴾ ﴿قُلِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَنِدُّ وَإِنِّي نَرَىٰ إِنَّمَا تَشْرِكُونَ﴾.

في الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم]

يقول تعالى مخبراً عن أهل الكتاب: أنهم يعرفون هذا الذي بعث به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأبناء، المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشر وبوجود نعتهم وصفته، وبلده ومهاجرة وصفة أمته، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خسروا كل الخسارة ﴿فَهَذَا﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء من قبل به في قديم الزمان وحديثه ثم قال: ﴿وَمَنْ ظَلَمَ مَنْ أَفْتَرَىٰ﴾ أي لا أظلم من تقول على الله، فادعى أنه أرسله، ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم من كذب بآيات الله، وببراهينه، ودلائله. ﴿إِنَّهُ لَا يَفْقَهُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفهم هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿وَنَحْنُ نَسْمَعُ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا شُرَكَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

ينتفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَهُمْ يَهْوُونَ عَنْهُ﴾^(١) يريدون الناس عن محمد ﷺ، أن يؤمنوا به. وقال محمد ابن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه^(٢). وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد^(٣)، ﴿وَأَن يَهْلِكُونَ لَا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤) أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وهم لا يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِكَائِت رَيْنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُتُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٦) وقالوا إن هي إلا حياننا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَيْهِمْ قَالُوا لَيْتَنَّا هَذَا الْحَقُّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا قَالُوا فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٧)

[لا تفيد الأمان عند رؤية العذاب]

يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا: ﴿يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِكَائِت رَيْنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حيثئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله يسير ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٩) انظرو كيف كذبوا على أنفسهم وصلى عنهم ما كانوا يفعلون ﴿١٠﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله خبراً عن موسى، أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ الآية، وقوله تعالى خبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا﴾ وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِن قَبْلُ﴾، فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيثار، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُتُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١١) أي في تمنيتهم الرجعة، رغبة ومحبة في الإيثار، ثم قال خبراً عنهم

أنهم ﴿لَوْ رَدُّوا﴾ إلى الدار الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا هُتُوا عَنْهُ﴾ والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١٢) أي في قولهم: ﴿يَلَيْتُنَا نَكْذِبُ بِكَائِت رَيْنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقالوا: ﴿إِن هِيَ إِلَّا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(١٣) أي: لعادوا لما نهوا عنه، ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا معاد بعدها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(١٤).

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَيْهِمْ﴾ أي: أوقفوا من قال: ﴿الَيْتَنَّا هَذَا الْحَقُّ﴾؟ أي: اليس هذا المعاد وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا قَالُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١٥) أي: بما كنتم تكذبون به، اليوم مسه ﴿أَفَيْسَرَ هَذَا أَمْ أَسْتَرْ لَّا تَبْصُرُونَ﴾^(١٦) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَلَّةِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً يَخْسِرُونَ﴾ على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظنهم الآساة ما يرون ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُتً وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَشْقُونَ﴾^(١٧) أفلا تعقلون ﴿١٨﴾

يقول تعالى خبراً عن خسارة من كذب بلفظه، وعن حيث جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما كان من قبيح الفعل، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً يَخْسِرُونَ﴾ على ما فرطنا فيها، وهذا الضمير يحتمل عوده على الدنيا، وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها، وهم يحملون أوزارهم على ظنهم الآساة ما يرون ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُتً وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَشْقُونَ﴾^(١٩) ليس من رجل يدخل قبره، إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، مشتم عليه ثياب دسيسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما بك وجهك؟ قال: كذلك كان عملك قبيحاً، قال: ما أنتن رجل؟ قال: كذلك كان عملك مشتماً، قال: ما أندس ثيابك؟ قال: فيقول: عملك كان دسيسة، قال له: من أنت؟ قال: عملك. قال: فيكون في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على فرس فسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾^(٢٠) وظنهم الآساة ما يرون ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُتً وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَشْقُونَ﴾^(٢١) أي: إنها غالبها كذلك. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَشْقُونَ﴾^(٢٢)

(١) الطبري: ١١ / ٣١١. (٢) الطبري: ١١ / ٣١١.

(٣) الطبري: ١١ / ٣١٢. (٤) الطبري: ١١ / ٣٢٨.

بِقَوْلِهِ (٣٢)

إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ اللَّهُ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ
بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ
مِثْلَ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
مِن نِّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ
فَلَمَّا أَن تَبَنَّىٰ قَفَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
نَارُ اللَّهِ لَجْمَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)
يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوُكَّعُ بِهِمْ أَتَمُّ لَيْلٍ يَرَجَعُونَ (٣٦)

[تسليية للنبي ﷺ]

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه
تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ اللَّهُ الَّذِي يَقُولُونَ ﴿٣٢﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم
وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كَيْفَ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿تَعْلَمُكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٤) ﴿فَلَمَّا كَانَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَى عَائِزِهِمْ إِنْ لَمْ
يَكُنْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَشَقًّا﴾ (٣٥) وقوله: ﴿فَأْتِيَهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَي: لَا يَتَهَمُونَكَ
بِكَذِبِ نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ
أَي: وَلَكِنَّهُمْ يَعَانِدُونَ الْحَقَّ، وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ، وَذَكَرَ
عَنِ إِسْحَاقَ بْنِ الزَّهْرِيِّ فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ، حِينَ جَاءَ
بِهِمْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سَفْيَانَ صَخْرَ بْنَ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدُ مِنْهُمْ بِالْآخِرِ،
فَسَمِعُوا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَمَ الصَّبِيحُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعْتَهُمْ
شَرِيقٌ، فَقَالَ كُلُّ مَنْهُمْ لِلْآخِرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ،
فَتَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا، لَمَّا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشِ بِهِمْ،
فَقَسَمُوا بِحَبِيبِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ جَاءَ كُلُّ مَنْهُمْ، ظَنًّا
بِمُصَاحِبِهِ لِيَحْيِيَانِ، لَمَّا سَبَقَ مِنَ الْعَهْدِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعْتَهُمْ
شَرِيقٌ، فَتَلَاوَمُوا ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ
الثَّلَاثَةَ جَازُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ
تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ
مَعَهُ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ
مَنْ رَأَيْتَ فِيهَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ
سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا، وَأَعْرِفُ مَا يَرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا
رَفَعْتُ عَنْهَا وَلَا مَا يَرَادُ بِهَا، قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ

به، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ،
فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأَيْتَ فِيهَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: مَاذَا
سَمِعْتَ؟ قَالَ: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافِ الشَّرَفِ: أَطَعْمُوا
فَاطِمَتَنَا، وَحَلُّوا فَحَمَلَنَا، وَأَعْطُوا فَاعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَافَيْنَا عَلَى
الرَّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رَهَانٍ، قَالُوا: مَتَانِي، يَا تَبِيهِ الْوَحْيِ مِنْ
السَّمَاءِ، فَمَتَى نَدْرُكَ هَذِهِ؟ وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نَصْدَقُهُ.
قَالَ: فَجَاءَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ (١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ نَصَبُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا
حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له، فيمن كذبه من
قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له
بالنصر كما نُصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العقابة، بعد ما نالهم
من التكذيب من قومهم والأذى البالغ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النُّصْرُ فِي
الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النُّصْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ﴾ أَيِ الَّتِي كَتَبَهَا بِالنُّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ،
كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كَمَا نَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٦) إِنَّهُمْ لَمْ يَنْصُورُوا
﴿وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كَمَا نَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ
لَأَخْلِفَ أَنَا وَرَسُولِي إِلَى اللَّهِ قَوْلِي غَيْرَ﴾ (٣٨) وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ
مِن نِّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٩) أَي: مِنْ خَبَرِهِمْ، كَيْفَ نَصَرُوا وَأَيَّدُوا
عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَسُوءَةٌ وَهُمْ قُدُورَةٌ، ثُمَّ قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أَي: إِنْ كَانَ شَقٌّ عَلَيْكَ
إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿فَإِنْ أَسْطَقْتَ أَنْ تَبْنِي قَفَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي
السَّمَاءِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: النُّفُقُ:
السَّرْبُ، فَتَذْهَبُ فِيهِ ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أَوْ تَجْعَلُ لَكَ سُلَّمًا فِي
السَّمَاءِ، فَتَصْعَدُ فِيهِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، أَفْضَلُ مِمَّا آتَيْتُهُمْ بِهِ فَافْعَلْ (٢).
وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسَّيِّدِيُّ وَغَيْرُهُمَا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤) كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ الْآيَةُ، قَالَ عَلِيُّ
ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهَدْيِ﴾ (٤) قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْرُصُ أَنْ يُؤْمِنَ بِكُلِّ جَمِيعِ
النَّاسِ، وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهَدْيِ، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ قَدْ
سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا
يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدَعَاكَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ

(١) ابن هشام: ١ / ٣٣٧. (٢) الطبري: ١١ / ٣٣٨.

(٣) الطبري: ١١ / ٣٣٨. (٤) الطبري: ١١ / ٣٤٠.

يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لَسْتَ مِنْ كَانِ حَيًّا وَحَيًّا﴾^(١) **الْقَوْلُ عَلَى الْكُفْرِ** ﴿٢٦﴾ وقوله: ﴿وَالْمَوْقِفُ بِعَنَّهُمُ اللَّهُ ثُمَّ لَمْ يُرْجَعُونَ﴾^(٢) يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبهم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْقِفُ بِعَنَّهُمُ اللَّهُ ثُمَّ لَمْ يُرْجَعُونَ﴾^(٣)

وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا رُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) وما من دابة في الأرض ولا طير يطير يحتاج إليه إلا أمم أمثالكم مفرطنا في الكتب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴿٢٧﴾ والذين كذبوا بآياتنا صد وبكم في الظلمات من شيء الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿٢٨﴾

[مطالبة المشركين بآية]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون لولا نزل عليه آية من ربه، أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، وما يتعتنون كقولهم: ﴿أَنْ تَأْتِيَنَا مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ كَقَوْلِكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجَرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُبْرِئُهَا﴾^(٥) الآيات ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا مِثْرَهُ فظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿إِنْ تَشَاءُ نَزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ آسْمَاءٍ آيَةٌ فَظَلَمْتَ أَغْنَاهُمْ مَا خَصِينِ﴾^(٧)

[ما المراد بالأمم]

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(٨) قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تُعرف بأسمائها^(٩). وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة^(١٠)، وقال السدي: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ أي خلق أمثالكم^(١١).

وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١٢) أي: مفصيح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يَكُنِ مِنَ الدَّابَّةِ لَمْ يَحْمِلْ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ

الَسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٣) وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١٤) ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١٥) قال: حشرها الموت^(١٦). وقيل: إن حشرها هو يوم يمشي يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَإِذَا الزُّلُوشُ حُشِرَتْ﴾^(١٧) وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة، في قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١٨) قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ، أن يأخذ للجاء من القراء، ثم يقول: كُنْوا نزل، فلذلك يقول الكافر: ﴿يَلْبَسُنِي كُتُوبًا﴾^(١٩) وقدر روي هذا مرفوعاً في حديث الصور.

[الكفار صرهم وبكم في الظلمات]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾^(٢٠) مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم. كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم، وهو الذي لا يتكلم، وهو مع في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، لم يخرج عما هو فيه، كقوله: ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزُكِّرْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَصِيرُونَ﴾^(٢١) ثُمَّ يَكْفُرُ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِينَ فِي بَحْرٍ لَبِيٍّ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ نَفْسَهُمْ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(٢٣) ولهذا قال: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْلِبْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢٤) أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَيْنَاكُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾^(٢٥) إن كنتم صدقون^(٢٦) بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن أنتم كنتم صادقين^(٢٧) ولقد أرسلنا إلى أمير من قبلك فأخذهم بالأسانيد وأظفروا أعقابهم باضمرة^(٢٨) فلو لا إذ جاءهم نأسا نصرعوا ولكن قنوت قلوبهم وذن لهم الشيطان ما كانوا يعلمون^(٢٩) فلما أسوأ ذكروا أيدهم فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرجوا بها أرواحهم أخذتهم بغتة فلما أخذهم لم ينصتوا^(٣٠) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿٣١﴾

(١) الطبري: ١١ / ٣٤٥. (٢) الطبري: ١١ / ٣٤٥.

(٣) الطبري: ١١ / ٣٤٥. (٤) ابن أبي حاتم: ٤ / ١٢٨٦.

(٥) الطبري: ١١ / ٣٤٧.

وَبَيِّنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

فالجواب والله أعلم، أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب، الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبال مكة اللذان يكتفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأني بهم وسأل الرفق لهم.

[لا يعلم الغيب إلا الله]

وقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ روى البخاري عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ثَمَسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢١) ﴿١﴾. وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْوَدَّيْنِ وَالْبَحْرِ ﴾ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، برّيا وبحريا، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سباع المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ حَاقِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (١١) ﴿٢﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠) ﴿٣﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (١١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (١٢) ﴿٤﴾

[العباد بيده الله قبل الموت وبعد]

يقول تعالى: إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسُفُ إِنَّكَ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾. وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَمِيسَلٌ لَّيَّ قَصْنٍ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ فذكر في هذه الآية الوفايتين الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام، حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار (٢).

وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه، ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وحال حركتهم، كما قال: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (١٠) ﴿٥﴾ وكما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي: في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي: في النهار كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ (١٠) ﴿٦﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَيشًا ﴿ وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ أي: ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد وقتادة والسدي وقوله: ﴿ لِيُقَاضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُنْفِخُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١١) ﴿٧﴾ أي: ويخبركم على ذلك إن خيرا أو خيرا، وإن شرا فشر، وقوله: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي: وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كقوله: ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَنِي يَدُودٍ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وحفظة يحفظون عمله ويحفظون عليه كقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ (١٠) ﴿٨﴾ الآية وكقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَلْتَفِقَ الْيَوْمِينَ عَرِيَّا لِيَأْتِيَ قَبِيذٌ ﴾ (١٧) ﴿٩﴾ مَا لِيُظْمَرَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِندَهُ ﴾ (١٨) ﴿١٠﴾ وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ أي: احتضر واحد أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعاون من الملائكة (١٣) ويخرج الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الخلق. وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (١١) ﴿١١﴾ أي: في حفظ روح المولى بل يحفظونها ويؤثرونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عبادا بالله من ذلك، وقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْفَظُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ قَالُوا: أَخْرِجِي أَبْنَاهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ أَخْرِجِي حِمْدَهُ وَأَبْنِي بِرَبِّهِ وَرَبِّ نَحْنُ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانِ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ مَنْ هَذَا فَيُقَالُ: فَلَانِ فَيُحْدَثُ

(١) فتح الباري: ٨ / ١٤١. (٢) الطبري: ٥ / ٢١٢.

(٣) الطبري: ١١ / ٤١٠.

الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْيَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهراً وسراً ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٦) ﴿أَي: بعدها قال الله: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ (١٦) أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال ثم أنتم تشكرون، عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أي: بعد إنجائهم إياكم، كقوله في سورة سبحان: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمُ الْمَاءَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونُ مِنْهُ نَاضِرًا لِيَسْفَلَ بِهِ سُبُحٌ لَكُمْ وَمِنْهُ يَسْفَلُ الْيَرُّ لَكُمْ فَتَكُونُونَ مِنْهُ جَارًا﴾ (١١) وإذا مسَّكم الضرُّ في البحرِ ضلَّ من تدعون إلا إِيَّاهُ فَلَا يَنْصُرُكُمُ الْيَرُّ أَعْرَضَتْ وَكَانَ إِلَهُكُمْ كُفْرًا﴾ (١٧) أَمَا أَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْيَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ (١٨) أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَرُسِلَ عَلَيْكُمْ فَأَصَابَا مِنْ الرِّيحِ فَبَغَرْتُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (١٩).

روى البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (١٦) يلبسكم: يخلطكم من اللباس، يلبسوا: يخلطوا شيئاً فرقاً، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (١٦) قال: رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: رسول الله ﷺ: «هَذِهِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ» (٢) وهكذا رواه أيضاً في كتاب التوحيد (٣)، ورواه النسائي أيضاً في التفسير (٤).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً ثم قال: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْفَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّيَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَتْنِيهَا». انفراد بإخراجه مسلم، فرواه في كتاب الفتن (٥).

بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حِمْدَهُ يَبْرِي بِرُفْحٍ وَرَنَجَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ فِي الْيَمِّ قَالَ: اخْرُجِي أَتَيْتُهَا النَّفْسُ الْحَيَّةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ حَيْثُ اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ وَآخِرَ مَنْ يَكُونُ أَزْوَاجٌ فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى سَّمَاءٍ يَنْسِفُتُ عَنْهَا قُبُورُهَا مِنْ هَذَا يُقَالُ فَلَانُ يُقَالُ لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْحَيِّبِ اِزْجَعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ يَنْتَفِخُ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تُصْبِرُ إِلَى الْقَبْرِ يَخْلُسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ يُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ وَيُخْلُسُ الرَّجُلُ السَّوْءُ (١) يُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي حَدِيثِ الْأَوَّلِ ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ يعني الخلائق كلهم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، فيحكم فيهم بذلك، كما قال: ﴿قُلْ إِنِّي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٢) لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمِ الثَّانِي فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (٣) وقال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ لَهُمْ أَحَدًا﴾ (٤) إلى قوله: ﴿وَلَا يَظَلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٥) ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ الْحَيُّ الْآلَ لَهُ الْمُلْكُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْيَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٦) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾ (١٦) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (١٦).

[بيان فضل الله وكرمه وبطشه وقهره]

يقول تعالى ممثلاً على عباده، في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر، أي: الحائرين الواقعين في المهامة البرية، وفي اللجج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ يَمًّا رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرُّوْا بِهَا جُلَّةً تَرِيحُ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) الآية، وقوله: ﴿أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْيَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرًّا يَكُنْ يَدُّ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) وقال في هذه

(١) أحمد: ٢/ ٣٦٤. (٢) فتح الباري: ٨/ ١٤١.

(٣) فتح الباري: ١٣/ ٤٠٠. (٤) النسائي في الكبرى: ٦/ ٤٠.

(٥) أحمد: ١/ ١٧٥ ومسلم: ٢٨٩٠.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، أنه قال: وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها، فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلٌ إِنَّمَا صَلَاةُ رَعْبٍ وَرَعْبٍ سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَلْبِسَكُنَا بِمَا أَمْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ لَا يَلْبِسَنَا شَيْئًا فَمَنْعَنِيهَا»^(١) ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه والترمذي في الفتن وقال: حسن صحيح^(٢).

وقوله: «أَوْ يَلْبِسَكُمُ شَيْعًا» يعني يجعلكم ملتبسين شيعة: فرقًا متخالفين. وقال الوالي عن ابن عباس: يعني الأهواء^(٣)، وكذا قال مجاهد وغير واحد^(٤)، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وَسَتَقَرُّقُ هَذِهِ الْأُمَمُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»^(٥) وقوله تعالى: «وَيُنِيقُ بِضَبَكُمْ بَاسٌ بَعْضٌ» قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلب بعضكم على بعض بالعذاب والقتل^(٦). وقوله تعالى: «انْظُرْ كَيْفَ تُصْرَفُ الْأَكْبَابُ» أي: ثيبتها ونوضها مرة ونفسرها، «لَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ»^(٧) أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

«وَكَذَّبَ بِهِ» قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ^(٨) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٩) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهِمْ إِيَّاكُمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١٠) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْفَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ^(١١)

[الدعوة لإرشاد بغير إكراه]

يقول تعالى: «وَكَذَّبَ بِهِ» أي: بالقرآن الذي جنتهم به، والهدى والبيان، «قَوْمُكَ» يعني قريشًا «وَمَوَالِحُ» أي: الذي ليس وراءه حق «قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» أي: إنها عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا

والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة، ولما قال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَفَرٍّ» قال ابن عباس وغير واحد: أي: لكل نبي حقيقة، أي: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما في «وَلَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ»^(١٢) وقال: «لِكُلِّ أَجَلٍ حِسَابٌ» وهذا تهديد ووعد أكيد، ولهذا قال بعده: «وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»^(١٣) وقوله: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهِمْ إِيَّاكُمْ» بالكذب والاستهزاء.

[النهي عن الجلوس مع من يخوض في آيات الله] «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» أي: حتى يأخذوا كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، «وَمَا يَلْبِسُ الشَّيْطَانُ» والمراد بذلك كل فرد، من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيًا «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى» بعد التذكر «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(١٤) ولهذا ورد في الحديث: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي السَّخَطُ وَالنَّسِيَانُ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ»^(١٥). وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ فِي الْكِتَابِ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَعُودُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذَا يَنْتَهَى إِلَيْكُمْ إِذَا جُلِيسْتُمْ مَعَهُمْ وَإِنْ أَقْرَبْتُمْهُمْ فَلْيَعْرِضُوا عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»^(١٦) وقوله: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْفَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أي: إذا تجبوههم، فلم يجلسوا معهم ذلك، فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم، وقول «وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ»^(١٧) أي: ولكن أمرنا بالإعراض عنهم، حيث ذكّرناهم بما هم فيه، لعلمهم بغير ذلك ولا يعودون إليه.

«وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُعْبًا وَلَهُمْ وَغَرَّتُهُمُ الْغِيَا الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعِدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يَأْخُذَ بِهَا

(١) أحمد: ١٠٨ / ٥.

(٢) النسائي: ٢١٧ / ٣ وابن حبان: ١٧٩ / ٩ وتحفة الأحوذى

٣٩٧ / ٦ وأحمد: ١٠٨ / ٥.

(٣) الطبري: ٤٢٠ / ١١. (٤) الطبري: ٤١٩ / ١١.

(٥) أبو داود: ٥ / ٥ وغفة الأحوذى: ٣٩٩ / ٧ وابن ماجه

١٣٢٢ / ٢.

(٦) الطبري: ٤٢١ / ١١. (٧) ابن ماجه: ٦٥٩ / ١.

الصُّورِ ﴿١٦﴾ كقولهم: ﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾﴾
كقولهم: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرًا ﴿١٨﴾﴾ وما أشبه ذلك، والمراد بالصور القرن الذي
ينفخ فيه إسراfil عليه السلام، فعن رسول الله ﷺ، أنه قال:
«إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ نَفَخَ الصُّورَ، وَحَتَّى جَهَنَّمُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ
فَيَنْفُخُ». رواه مسلم في صحيحه^(١)، وروى الإمام أحمد عن
عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ما الصور؟
قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ نَتَجَدَّ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِتَى أَتْلَكَ
وَقَوْمَكَ فِي صَلَاتٍ مِثْلِ مِثْرٍ ﴿١٩﴾ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ تَمَّ يَهْدِي رَبِّي
لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِي إِنِّي بِرَبِّهِمْ وَأَمَّا فَتُشْرِكُونَ
﴿٢٢﴾﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ
حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[وعظ إبراهيم لأبيه]

المقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره
عنها ونهاه كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ نَتَجَدَّ أَصْنَامًا
ءَالِهَةً﴾ أي: أتتاه لصنم تعبد من دون الله ﴿إِتَى أَتْلَكَ
وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِي صَلَاتٍ مِثْلِ مِثْرٍ﴾ أي
تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمرهم
في الجحالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم. وقال
تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢٤﴾﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي
قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٢٥﴾﴾
يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ يَتَّبِعْ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٢٧﴾﴾
قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي إِبْرَاهِيمُ لَيْنَ تَتَّبِعَ لَارْجَمَكَ
وَأَهْجُرَنِي مِلًّا ﴿٢٨﴾﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ
بِي حَفِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي
عَسَىٰ آلَا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيعًا ﴿٣٠﴾﴾ فكان إبراهيم عليه
السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين

إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه
تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
وَعَدَهَا إِنَّمَا فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
حَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ وثبت في الصحيح أن إبراهيم، يلتقي
القيامة، فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك
إبراهيم: أي رب ألم تعدني أنك لا تحزني يوم يعصيك
خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقال: يا إبراهيم
وراءك، فإذا هو بذيخ ملطخ، فيؤخذ بقولته
النار^(٣).

انكشاف دلالة التوحيد على إبراهيم

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ
نِينَ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهَا، عَلَى
عِزِّ وَجَلٍّ، فِي مَلِكِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا
كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال:
إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
تُخْفِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ تُسْفِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
لَا يَذُوقُونَ إِلَّا لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٌ ﴿٤٠﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى الْكُوكِبَ وَسْتَرَهُ ﴿٤١﴾﴾ رَأَى الْكُوكِبَ ﴿٤٢﴾﴾ أَي: نَجْمًا
أَفَلَ ﴿٤٣﴾﴾ أَي: غَاب، قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآلِيلَةَ ﴿٤٤﴾﴾ قال
علم أن ربه دائم لا يزول^(٤)، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِعًا﴾ أي
﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَيْنَ تَمَّ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ
الضَّالِّينَ ﴿٤٥﴾﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴿٤٦﴾﴾ أَي: من
الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أَي: جرماً من النجم ومن
أكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أَي: غابت ﴿قَالَ يُغْوِي إِنِّي
بِرَبِّهِمْ وَأَمَّا فَتُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي
عِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: من
وابتدعها على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أَي: في حال
حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال:
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

[هذا مقام المناظرة]

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا

(١) الطبري: ٥ / ٢٣٨.

(٢) تحفة الأحوذى: ٧ / ١١٧ وأحمد: ٢ / ١٦٢.

(٣) فتح الباري: ٦ / ٤٤٥. (٤) الطبري: ١١ / ١١٠.

عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَبِذَلِكَ حُجِّجْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره شبهه من القول، أنه قال: ﴿أَتُحْجَّجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ أي: تجادلوني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصري وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، وشبهكم الباطلة، وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: لا آخف من شيء، أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبت إليه، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أبايها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها، ولا تنظرون بل عاجلون بذلك. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بيته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتزجروا عن عبادتها، وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونَنِي وَلَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنِّي نَوَّكْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكَ مَتِّينٌ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ ءَاجِدٌ تَابِعِيهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾﴾ وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة ^(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ سَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أُتُمٌ وَءَابَاؤُهُمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ

لقومه، ميثاً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل صام، فبين في المقام الأول مع أيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السبابة، صوابهم إلى الخالق العظيم، الذين هم عند أنفسهم أحقر بعدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي من السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد وvenus والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة فمن عندهم الشمس، ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً من الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، سخرة مقدرة بسر معين، لا تزيف عنه ميثاً ولا شيئاً، تلك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله تعالى في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من في ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في الشمس، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، من ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنِّي بِرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة ينبغي بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَسَّخْتُ وَآلِ الْأَرْضِ حَقِيقًا وَمَا أَتَاوَنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٦﴾﴾ إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومديرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربوبيه وملكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿لَكَ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءَ يَطْلُبُهَا جُنُودُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾ قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عِلِّيِّينَ ﴿٥١﴾﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَشْرَكْتُمْ لَهَا عِشْقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات، يزيد أنه كان في هذا المقام منظرًا لقومه فيما كانوا فيه من

لا ناظرًا، قوله تعالى: ﴿وَجَادُّهُمْ قَوْمٌ﴾ قَالَ أَتُحْجَّجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ

يَا آمِنُ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ أَيُّ فَائِي طَائِفَتَيْنِ أَصُوبُ، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع، بلا دليل، أيهما أحق بالآمن من عذاب الله يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآمِنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

[الشرك هو الظلم العظيم]

روى البخاري عن عبد الله، قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْسُوا بِمَعْنَاهُمْ يَقُولُوا﴾ قال أصحابه وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) وروى الإمام أحمد عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْسُوا بِمَعْنَاهُمْ يَقُولُوا﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، أينما لم يظلم نفسه؟ قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿يَبْتَغِي لَكَ شِرْكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ (٢).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: وجها
حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ
أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَنْتُمْ تَفْرِقُونَ﴾ الآية، وقد صدقه
الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْسُوا
بِلِسَانِهِمْ يَقُولُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الْآثَرُ وَهُمْ مُهُمْدُونَ﴾ ثم قال بعد
ذلك كله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
مَنْ نَشَاءُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أقواله
وأفعاله، عليم أي بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج
والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَكَرَّمْنَا
وَعِيسَى وَإِسَّاكَ كُلًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَاسْمِعِيلَ وَإِسْحَاقَ
يُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَلَجِئْنَا بِهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشِئْتُ لَحِطْتُ عَنْهُمْ فَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ عَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْزَكَاةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَاذِبِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَفَصَدُّوا لَأَسْتَأْذِنُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

[هبة إسحاق ويعقوب لابن أبيه في شيخوخته]

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن
السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة
وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروها بإسحاق؛ فنعجت
المرأة من ذلك ﴿وَقَالَتْ يَتْلُوَنَّ أَئِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ
إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيِّدٌ نَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فبشروهما
وجوده ببنوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى ﴿وَنَبِّئْهُنَّ
إِذَا سَأَلْنَكَ عَنْ نَبِيِّنَّ الْفَصْلَ الْحَادِثِ﴾ (٧٤) وهذا أكمل في البشارة وأعظم
في النعمة، وقال: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَتْلُوَنَّ
عَقْدٌ﴾ (٧٥) أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، ففقر أعين
به، كما قرئت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسب
والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه
يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي
في اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم على
السلام، حين اعتزل قومه وتركهم ونزع عنهم، وهاجر من
بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل
عن قومه وعشيرته، بأولاد صالحين من صلبه على دينه، ليقرب
بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آخَرْتَهُمْ وَمَا بَعْدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَوَبَّيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٧٦) وقال هنا
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ (٧٧) وقول
﴿وَوَثَّقْنَا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ (٧٨) أي من قبله هديناه كما هديناه
ووهبنا له ذرية سالحة.

[خصوصية نوح وإبراهيم]

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وفي

(١) فتح الباري: ٨ / ١٤٤. (٢) أحمد: ١ / ٤٤٤.

(٣) الطبری: ١١ / ٥٠٥.

أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: ﴿وَأَجْنِبْتُمْ وَهْدِيَتُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

[الشرك يحبط أعمال المخلوقين حتى الرسل]

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَدِيهِ مِنْ يَشَاءَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم للملازمة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨٩) وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَنْخُدَّ هَؤُلَاءَ لَنَخُدَّ مِنْ دُونِ أَنْ نَكُنَّا فِتْلِينَ﴾ (٩٠) وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ وَمِمَّا تَحِفُّ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَأْتِ شَيْئًا سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٩١). وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك، رحمة للعباد بهم، ولطفًا منا بالخالقة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة، الكتاب والحكم والنبوة، وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني أهل مكة، قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد (٩٢)، ﴿وَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُوا بِهَا كُفْرِيكَ﴾ (٩٣) أي: إن يكفر بهذه النعم، من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً آخرين، أي: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَيُؤْثِرُوا بِهَا كُفْرِيكَ﴾ (٩٤) أي: لا يمحذون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه. ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فِيهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيَهُ﴾، أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له، فيما يشرعه

لذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، وثالث كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً، إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَكُفُّوا﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى نوح، لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه (٩٥)، وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى إبراهيم، لأنه الذي سبق الكلام من أحله حسن، لكن يشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليبا، وكما قال في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا مَا لَنَا بِاللَّهِ وَآلِهِ إِتَابُكَ إِنَّا نُسَبِّحُكَ وَإِنَّا نُكْفِيكَ﴾ (٩٦) فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليبا، وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ لِلْكَائِكَتُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٧) إلا إبليس فإنه أن يكون مع الساجدين (٩٨) فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة لأنه كان في تشبه بهم، فعمل بمعاملتهم ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطيعته من النار، والملائكة من النور، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح، على القول الآخر، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام، بأمه عليها السلام، فإنه لا أب له. روى ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود، قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ، فأنجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ حتى بلغ ﴿يُوحَيَّ وَعِيسَى﴾ قال: بلى. قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت (٩٩). فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته، أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه،

(١) الطبري: ٥٠٧ / ١١ (٢) الدر المنثور: ٣ / ٣١١.

(٣) الطبري: ٥١٦، ٥١٥ / ١١.

نُطِقَ بِكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١١﴾

[لا أحد أظلم ممن يفتري على الله

ويدعي نزول الوحي عليه]

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد من كذب على الله، فجعل له شركاء أو ولدًا، أو ادعى إرساله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ زُرْتُمُوهُ إِنَّهُ لَمِنَ الْأَفْهَامِ﴾ قال عكرمة وقادة: نزلت في الكذاب ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ^(١) أي: ومن أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، مما يفتره يقول، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا اتَّخَذْنَا قُلُوبًا فَادًّا سَازِجَةً لَقَدْ أَفْلَحْنَا وَمِثْلَ هَذَا﴾ الآية.

حال هؤلاء الظلمة عند الموت ويوم القيامة]

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في غمرة وغمراته، وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يرب، كقوله: ﴿لَنْ يَسْطِطَعَ إِلَيْكَ لِنْفَتَايَ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَنْ يَسْطِطَعَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَنْتُمْ بِأَشْوَى﴾ الآية، وقال الضحاك: صالح باسطوا أيديهم أي بالعذاب ^(٢)، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب لهم، فخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿خُذُوا أَلْسِنَتَكُمْ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر، بشرته بالعداب، والنكال، والأغلال، والسلاسل، والجحيم، وغضب الرحمن الرحيم، فتسفرق روحه في جسده، حتى يتألى الخروج، فنضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الآية، أي: اليوم غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن بيته والافتقار لرسوله.

فلم يردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن عند الموت وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ أُمَّةً وَالْقَوْلُ الْأَثَابُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم معادهم هذا كما قال: ﴿وَعَرِضْوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا

خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث، وقوله: ﴿وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي من النعم والأموال التي اقتنيتوها، في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْبَيْتَ، أَوْ لَيْسَتْ قَابِلِيَّتٌ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْسَيْتَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ» ^(٣) وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بدج، فيقول الله عز وجل: أين ما جمعت؟ فيقول يا رب! جمعت وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم! أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئًا، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزَكَّيْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿وَمَا تَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تفرع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم، إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ^(٤) ويقال لهم: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ^(٥) من دون الله هل ينصرونكم؟ أو ينصرون؟ ^(٦) ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا تَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة لهم، فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع أي شملكم، وبالنصب أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل. ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: ذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ^(٧) من رجاء الأصنام والأنداد. كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَبَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الْذِّبِ أَنْبَأُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ^(٨) قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ^(٩) وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي الصُّورِ فَلَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَوْدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا

(١) الطبري: ١١ / ٥٣٣ - ٥٣٥.

(٢) الطبري: ١١ / ٥٣٩. (٣) مسلم: ٤ / ٢٢٧٣.

وَمَا وَصَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿١٥﴾ وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ فَأَلْقِ الْقَبْ وَالنَّوْثَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ ﴿١٧﴾ فَأَلْقِ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

[التعريف بالله ببعض آياته]

يخبر تعالى أنه فائق الحب والنوى، أي: يشقه في الشرى، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار، على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى، ولهذا فسر قوله: ﴿فَأَلْقِ الْقَبْ وَالنَّوْثَ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، كقوله: ﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِي يُزَكِّيهِمْ أَنْ يَمُوتَ وَأُخْرَجَ مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْغَيْثَ مِنَ الْغَيْثِ﴾ معطوف على ﴿فَأَلْقِ الْقَبْ وَالنَّوْثَ﴾ ثم فسر، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذا، هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره، وقوله: ﴿فَأَلْقِ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَا﴾ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي: فهو سبحانه يخلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويحيي النهار بضياءه وإشراقه، كقوله: ﴿يَغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِيبَاتُ﴾ فيبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فائق الإصباح، وقابل

ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَا﴾ أي: ساجياً مظلماً، فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿١﴾ وَالْأَيْلَ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ وقال: ﴿وَالْأَيْلَ إِذَا تَفَنَّى﴾ ﴿٣﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ﴿٤﴾ وقال: ﴿جَلَّهَا﴾ ﴿٥﴾ وَالْأَيْلَ إِذَا تَشَنَّى ﴿٦﴾ وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَحُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير يضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طويلاً وقصرًا، قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيكًا وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ عَيْنًا﴾ الآية، وكما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ سابق النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٠﴾ وقال: ﴿وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْعِرِينَ بِأَمْرِهِ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة من الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق النهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِي يُزَكِّيهِمْ أَنْ يَمُوتَ وَأُخْرَجَ مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا أَتَاكُمُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢٨﴾ ولما ذكر خلق السماوات والأرض فيهن، في أول سورة (حم) السجدة، قال: ﴿وَرَبَّنَا آتِنَا الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٤﴾ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه، أن الله جعلها للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات الليل والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد بيّنا ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أي: يعقلون ويعرفون الحق، ويتجنبون الباطل.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٍّ وَمُسْتَوْدَعٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُهُ مِنْهَا مُرْتَضِيبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنَ الزَّيْتُونِ وَالرَّامَانَ مُشْبِيهَا وَعَمِيرٌ مُتَشَبِهٌ انْظُرُوا إِلَى شَعَرَاتِ خَيْبَتِهِ يَوْمَ يَأْتِيَنَّكُمْ ذَلِكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني

الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَوِّدٌ وَجَعَتْ مِنْ أَعْتَبٍ وَزَرَعَ وَنَجِلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ
صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَنَجِدٍ وَتَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴿١٠﴾
الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَا يَنْتِ﴾ أي
دلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته
﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) أي: يصدقون به ويتبعون رسله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ
عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٢)

[ذم المشركين]

هذا رد على المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا
في عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء له في العبادة،
تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت
الجن، مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما
عبدوها، إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله:
﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا
مُرِيدًا﴾ (١٣) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا
(١٤) وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا هُمْ يَلْتَمِئُونَ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ فَلْيَنْصَحُوا أَعْدَاءَ
الْأَنْفُسِ وَلَا تَرْبِهِمْ فَلْيَغْشَى خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ
وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١٥)
يَدْعُهُمْ وَيُخَيِّبُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْشًا (١٦) وكقوله
تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَّابِتْ لَكَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلزَّحْنِ عَصِيًّا﴾ (١٧) وكقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَءَ آدَمَ أَنْ
لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨) وَأَنْ أَتَعْبُدُونِي هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٩) ونقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ
أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ
(٢٠)﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي:
وخلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه
غيره، كقول إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُوا﴾ (٢١) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ (٢٢) ومعنى الآية، أنه سبحانه وتعالى هو المستقل
بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة، وحده لا شريك
له، وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يبين به تعالى
عن ضلال من ضل، في وصفه تعالى بأن له ولدا، كما يزعم من

به السلام، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَنَفْسٍ مِنْهَا رُوحَهَا وَيَتَوَلَّى أَعْيُنَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وقوله:
﴿فَسْتَعِزُّوا﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد
رحمن السلمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد، وعطاء،
إبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وعطاء
خراساني، وغيرهم: ﴿فَسْتَعِزُّوا﴾ أي: في الأرحام، قالوا أو
نهرهم: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب (٢٣)، وعن ابن
مسعود وطائفة عكسه، وعن ابن مسعود أيضًا وطائفة،
يستقر في الدنيا، ومستودع حيث يموت.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾ (٢٤) أي:
يهيئون ويعون كلام الله ومعناه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاءَ مَاءً﴾ أي: بقدر مباركا ورزقا للعباد وإحياء
وعائلا للخلائق، رحمة من الله بخلقه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ ثَنَاتِ كُلِّ
شَيْءٍ مَاءً﴾ وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَبَرًا﴾ أي: زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه
الحب والثمار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾
أي: يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها، ﴿وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ
طَلْحٍ قَانٍ﴾ أي: جمع قنو، وهي عذوق الرطب ﴿دَائِيَةً﴾
أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالي عن
ابن عباس: ﴿قِنَوَانٌ دَائِيَةٌ﴾ يعني بالقنوان الدانية قصار النخل
اللاصقة عذوقها بالأرض (٢٥)، رواء ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَابٍ﴾ أي: ونخرج منه جنات
من أغناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز،
رويا كانا بخيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده، في
قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَلَا تَغْنَبُ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا
وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا
بَيْنَ جَنَّتَيْنِ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمْنَا
الْوَتَانَ مَشْجَرًا غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: متشابه في الورق
والشكل، قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلا
وطعما وطبعًا (٢٦)، وقوله تعالى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَبُغْوَةً﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس،
والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي، وقتادة، وغيرهم (٢٧)،
أي: فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان
حطبًا، صار عنبًا ورطبًا، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى،
من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كقوله تعالى: ﴿وَفِي

(١) الطبري: ١١ / ٥٦٥ - ٥٧٠ (٢) الطبري: ١١ / ٥٧٦.

(٣) الطبري: ١١ / ٥٧٨. (٤) الطبري: ١١ / ٥٨٢.

[رؤية الله في الآخرة]

قاله من اليهود في عزيز، ومن قال من النصارى في عيسى، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة، إنها بنات الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ومعنى ﴿وَحَرِّقُوا﴾ أي: اختلقوا وانتفكوا وتحرقوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف وهذا قال: ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) أي: تقدس وتنزه وتعظم، عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون، من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَرَكْتَ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (١٠١)

[معنى البديع]

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدهما، وخالفهما، ومنشئهما، ومحدثهما، على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي. ومنه سميت البدعة بدعة (١)؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ﴿وَلَوْ تَرَكْتَ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) إلى قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (٩٠) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (٩١) فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣)

[الله هوريكهم]

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء، ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده، لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له، ولا والد ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عدل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) أي: حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار.

وقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ أي لا تدركه في البصر وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار، رسول الله ﷺ، من غير ما طريق ثابت، في الصحابة والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، وفي رواية: (على الله فإن الله تعالى قال: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ (٢) وثبت في الصحيح، من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنُبِّغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفُضُ الْقَنَاطَ وَيَرْفَعُهُ يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ حِجَابُهُ النَّورُ - أو النار - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» (٣) وفي الخبر المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده - أي: ندمته وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ مِنْهُ اللَّجْجُ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوَدِّعًا صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ لَيْلِكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يرم الفناء لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه، تعالى وتقدس وتنزه، فلا تدركه الأبصار.

ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، تثبت الرؤية في الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ فالذي نفتته الإدراك الذي بمعنى رؤية العظمة والجلال، على ما هو عليه، فإن ذلك ممكن للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء، وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه، لأنه خلق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١١) ولا يكون عبر بالإبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ لا يراه شيء، وهو يرى الخلاق، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ

(١) الطبري: ٢ / ٥٤٠.

(٢) فتح الباري: ٨ / ٤٧٢ ومسلم: ١ / ١٥٩ وتحفة الأحوت:

٨ / ٤٤١ والنسائي في الكبرى: ٦ / ٣٣٥ ومسلم: ٦ / ١١٩

(٣) مسلم: ١ / ١٦٢.

﴿ قَالَ: ﴿اللطيف﴾ لاستخراجها، ﴿الحديد﴾ بمكانها، أعلم، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان، فيما وعظ به ﴿يُنَبِّئُ إِبْنَاهُ إِذَا نَكَرَ بِمَقَالِ جَسَدٍ مِّنْ حَدِيدٍ فَقَدْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ أَوْ سِنْدَةٍ أَوْ مَضْجَعٍ أَوْ مَنَافٍ أَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ رِقَابًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غُيُوبَهُ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾

[تفسير البصائر]

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، ما جاء به رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَنْ أَعْمَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَنْ صَدَّقَ كَذِبًا لَّيْسَ اللَّهُ بِهَادِي الْقَائِلِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿وَمَنْ كَذَبَ بَعْدَ الْحَقِّ إِذَا اتَىٰ بِلَاغٍ مِّنْهُ فَسَمِعَ النَّاسَ نَدَىٰ مِمَّنْ لَا يَفْقَهُ شَيْئًا مِّمَّا بَلَغَ الْوَحْيَ﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَكْثَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿١٣٠﴾

[الأمر باتباع الوحي]

يقول تعالى أمر الرسول ﷺ ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكَ أَنِ يُخَاطَبُكَ الْقَوْمُ مِن دُونِهِ فَأَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿أَلَيْسَ لَكَ بِأَن تَقُولَ أَفْعَلُ مَا أُفْعَلُ﴾ ﴿١٤٠﴾

[النهي عن سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله]

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهيجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أولئهم ﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) وقال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فسب الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾^(٢) ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يُسَبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيُسَبُّ أَبَاهُ، وَيُسَبُّ أُمُّهُ فَيُسَبُّ أُمُّهُ»^(٣) أو كما قال ﷺ وقوله: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ» أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة، فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ﴾ أي: ومعادهم ومصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) وَتَقَلِّبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٦)

[طلب المعجزات والإقسام على

الأيمان عند مجيئها]

يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة وخارقة ﴿لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل: يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات، تعتنا وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم

بها، وإن شاء ترككم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧) قيل: المخاطب بها يشعركم المشركون، وإليه ذهب مجاهد، وكأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم، في هذه الأيمان التي تقسمون بها، وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون بكسر (إنها) على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجي الآيات التي طلبوها، وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾ المؤمنون، أي: وما يدريك أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في قوله: ﴿أَنَّهَا﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول ﴿يُشِيرُكُمْ﴾ وعلى هذا فتكون ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٨) صلة كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَ شَجَرَةٍ أَنْ تَزْنَ﴾ وقوله: ﴿وَحَكْرُكُمْ عَلَى قَرِيْبِهِ أَهْلُ كَنْهَاهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٩) أي: ما منعتك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون وتقديره في هذه الآية، وما يدريك أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك، حرصاً على إيمانهم، أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلِّبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما حشد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، وردت عن كل أمر^(١٠)، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَتَقَلِّبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ﴾ ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال ابن أبي طلحة: عن ابن عباس رض، أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يَتَّبِعُكَ مِنْ خَيْرٍ﴾^(١١) جل وعلا وقال: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَةٍ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنِّ اللَّهِ» إلى قوله: ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٢) فأخبر الله سبحانه، أنهم لو ردوا يكونوا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَمَادُوا لِبَاءَهُمْ عَاتِيَهُمْ وَلَكَذِبُونَ﴾^(١٣) وقال تعالى: ﴿وَتَقَلِّبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال: ولو ردوا إلى الدنيا، لحيل بينهم

(١) الطبري: ١٢ / ٣٤. (٢) عبد الرزاق: ٢ / ١١٥.

(٣) فتح الباري: ١٠ / ٤١٧. (٤) الطبري: ١٢ / ٤٤.

بين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا^(١)،
قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال ابن
عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية، والربيع بن
نس، وقتادة: في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش:
يعبون، وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع،
وأبو مالك، وغيره: في كفرهم يترددون.

﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا لِلَّهِ الْمَلَكُوتُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ
فِي نَحْيٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلُومُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
يَجَاهِلُونَ﴾

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء، الذين أقسموا بالله
جهد أنيأهم، لئن جاءهم آية ليؤمنن بها، فزُلنا عليهم الملائكة
نخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوها فقالوا: ﴿أَو
بِأَنَّ اللَّهَ وَالْمَلَكُوتَ قَبِيلًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُنْزِلَ
بِسْمِ مَا أَوْفَى رَسُولُ اللَّهِ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَصَرُّوا
غِيْرًا﴾ ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: فأخبرهم بصدق ما جاءهم
به الرسل ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا﴾ قرأ بعضهم: (قبلاً) بكسر
الغاف وفتح الباء، من المقابلة والمعاينة، وقرأ آخرون بضمها،
قل معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً، كما رواه علي بن أبي طلحة،
والعوفي عن ابن عباس^(٢)، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد
بن أسلم، وقال مجاهد: ﴿قُبْلًا﴾ أي: أفواجاً، قبلاً قبلاً^(٣)،
أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فيخبرونهم بصدق الرسل
ليأجاءوهم به ﴿فَمَا كَانُوا يَلُومُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: أن الهداية
إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال
لما يريد، ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ لعلمه وحكمته
وسلطانه وقهره وغلبته، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
مَنْزُورًا لَعَادُوا عَلَى أَلْسِنِهِمْ﴾

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَلْيَصْغَحْ إِلَيْهِ أَقْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلْيَرْصُوهَ وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾

[لكل نبي عدو]

يقول تعالى: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك

ويعادونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يحزنك
ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَفَصِّرُوا عَلَى مَا
كُذِّبُوا وَأَوْذُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ
مِنْ قَبْلِكَ إِنْ رُبِّكَ لَنُورٌ مُنِيرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآية، وقال ورقة ابن
نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا
عُودِي، وقوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أي لهم
أعداء من شياطين الإنس والجن، والشيطان كل من خرج عن
نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء،
فيحهم الله ولعنهم، قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة، في
قوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قال: من الجن شياطين، ومن
الإنس شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي:
يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوَّف
الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾
أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه، وإرادته ومشئته، أن يكون
لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدعهم ﴿وَمَا يَفْعَلُونَ﴾
أي: يكذبون. أي: دع أذاهم، وتوكل على الله في
عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم، وقوله تعالى:
﴿وَلْيَصْغَحْ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إليه. قاله ابن عباس^(٤) ﴿أَقْعَدَةُ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم،
وقال السدي: قلوب الكافرين ﴿وَلْيَرْصُوهَ﴾ أي: يجبروه
ويريدوه^(٥)، وإنما يستجيب ذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال
تعالى: ﴿فَلْيَكْذِبُوا مَا تَكِيدُونَ﴾ مَا أَشَرَّ عَلَيْهِ يَفْقِينِينَ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي
الْحَمِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْ لِي قَوْلٌ مُخِلٌ لِي﴾ يُوَفِّكَ عَنْهُ مَنْ
أَيْكَ^(٦) وقوله: ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ قال علي
ابن أبي طلحة عن ابن عباس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون^(٧)،
وقال السدي وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون^(٧).

﴿أَفَصَرَ اللَّهُ أَتْبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُعَلِّمُونَ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا
تَكُونُ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾

(١) الطبري: ١٢ / ٤٥. (٢) الطبري: ١٢ / ٤٩.

(٣) الطبري: ١٢ / ٤٩، ٥٠. (٤) الطبري: ١٢ / ٥٨.

(٥) الطبري: ١٢ / ٥٩. (٦) الطبري: ١٢ / ٥٩.

(٧) الطبري: ١٢ / ٦٠.

مُبْدَلٌ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل هؤلاء المشركين بالله، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا﴾ أي بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبينًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما عندهم من البشارات بك، من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الصِّبْغَ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّكَ تَمَعَّرُ الْخَطِّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حكم ^(١)، يقول صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إلى آخر الآية: ﴿لَا مُبْدَلٌ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٩﴾

[أكثر الناس في ضلال]

يخبر تعالى: عن حال أكثر أهل الأرض، من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ بِقَلْبِهِمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ فإن الخرص هو الخزر، ومنه خرص النخل، وهو خزر ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ فيسره لهم، لكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِلَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَمَا

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير

لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ أَصْلُهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿٢٥﴾

[إحلال ما ذبح باسم الله]

هذا إباحة من الله، لعباده المؤمنين، أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه، قرا بعضهم ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرا آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح ﴿إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم، ثم بين تعالى جهات المشركين، في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنْ كَثُرَ أَصْلُهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم واقترائهم.

﴿وَذَرُوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ

سَيَجْزُونَ مِمَّا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المعصية في السر والعلانية ^(٢)، وقال قتادة: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: سره وعلانيته، قلبه وكثيره ^(٣)، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ مِمَّا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ أي سواء كان ظاهرًا أو خفيًا، فإن الله سيجزيهم عليه، روي ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم، فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكهرت أن تطلع الناس عليه» ^(٤).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَلَئِنْ الشَّيْطَانُ لَيَوْخُوْنَ إِلَيْكُمْ لِجِدِّدْ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ بَأْسٌ وَلَا لَكُمْ﴾ ﴿٢٩﴾

(١) الطبري: ١٢ / ٦٣. (٢) الطبري: ١٢ / ٧٣.

(٣) الطبري: ١٢ / ٧٢. (٤) مسلم: ٤ / ١٩٨٠.

[تحرير ما ذبح بغير اسم الله]

وقال السدي: في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف ترعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُبحَ عَنْكُمْ﴾ فأكلمتم الميتة ﴿لَا تَكُلُوا مِمَّا ذُبحَ عَنْكُمْ﴾ (١) وهكذا قاله مجاهد، والضحاك، وغير واحد من علماء السلف (٢).

[تقديم قول أحد على ما شرعه الله شرك]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُبحَ عَنْكُمْ﴾ (٣) أي حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم، أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: ﴿بَلَى إِنَّهُمْ أَخْلَوْا لَهُمْ الْهَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَأَتَوْهُمُ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِنَّمَا﴾ (٤).

﴿أَوْ مَن كَانَ مِنْكُمْ فَأَحْبَبْتَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ ثَوْرًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

[مثل الكافر والمؤمن]

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي في الضلالة هالِكًا حائرًا، فأحياء الله أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ ثَوْرًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن كما رواه العوفي، وابن أبي طلحة، عن ابن عباس (٦)، وقال السدي: الإسلام (٧)، والكل صحيح ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: الجهالات، والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) فتح الباري: ٩ / ٥٢٤، ومسلم: ٣ / ١٥٢٩، وفتح الباري: ١٣٧ / ٣، ومسلم: ١٥٣٢.

(٢) فتح الباري: ٩ / ٥٤٦، ومسلم: ٣ / ١٥٥٨.

(٣) مسلم: ١ / ٣٣٢.

(٤) فتح الباري: ٩ / ٥٤٦، ومسلم: ٣ / ١٥٥١.

(٥) ابن أبي حاتم: ٤ / ١٣٧٩، (٦) الطبري: ١٢ / ٨٦.

(٧) الطبري: ١٢ / ٨١، (٨) الطبري: ١٢ / ٨١.

(٩) الطبري: ١٢ / ٨٠، (١٠) تحفة الأحوذ: ٨ / ٤٩٢.

(١١) الطبري: ١٢ / ٩١، (١٢) الطبري: ١٢ / ٩١.

استدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، وإن كان الذابح مسلماً، ويقول في آية الصيد: ﴿تَكُونُ لَكُمْ مَأْكَلًا مِمَّا أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾، واذكروا اسم الله عليه ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَأَيْنَهُ لَفِشَ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغیر الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إِذَا أُرْسِلْتَ كَلْبُكَ الْمُعْلَمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ نَكَلًا مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ» (١) وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «مَا أَتَاهُ الدَّمُ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكَلَّوْهُ» (٢) وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» (٣) رواه مسلم، وحديث جندب بن سفیان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ مِنْ دَبَحٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَدْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا، فَلْيَدْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ» (٤) أخرجه.

[وحي الشيطان]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّهِمْ لِيُؤْخِرَهُمْ إِلَى أَيَّامِهِمْ﴾ (١) روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق، قال: قال رجل لابن عمر، إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، قال: صدق، رتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّهِمْ لِيُؤْخِرَهُمْ إِلَى أَيَّامِهِمْ﴾ (٢) وعن أبي زميل، قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحي المختار بن أبي عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، ففرت، وقلت يقول ابن عباس: صدق؟ فقال ابن عباس: هما وحيان: وحي الله ووحى الشيطان، فوحي الله إلى محمد ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّهِمْ لِيُؤْخِرَهُمْ إِلَى أَيَّامِهِمْ﴾ (٣) وقد تقدم عن عكرمة في قوله: ﴿يُؤْخِرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا.

وقوله: ﴿لِيُؤْخِرَهُمْ﴾ روى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُؤْخِرَهُمْ﴾ قال: يوحى الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قبلتم، ولا تأكلون مما قتل الله؟ وفي بعض ألفاظه، عن ابن عباس، أن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه، وأن الذي قد مات، لم يذكر اسم الله عليه (٤).

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَسَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» ^(١) كما قال تعالى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ^(٢) وقال تعالى: «أَفَنْتَبَيِّنُكَ لِمَكَارِنَ وَجْهِهِ أَهْدَى أَمِنْ يَسْتَوِي سَوَاءً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ^(٣) وقال تعالى: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» ^(٤) وقال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ» ^(٥) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ^(٦) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ^(٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأُمُورُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ^(٨) أَنْتَ يَسْمَعُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ^(٩) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ^(١٠)، والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب التلحين ههنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ».

وقوله تعالى: «كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ^(١١) أي: حسنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدرا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَكْبُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» ^(١٢) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ أُوْفَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ^(١٣)

[أكابر المجرمين وحيلهم ومصيرهم]

يقول تعالى، وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر، والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» الآية، وقال تعالى: «وَإِذَا أَرَادْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» الآية، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعة فخالفوا، فدمرناهم، قيل: أمرناهم أمرا قدريا، كما قال ههنا: «لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا» وقوله تعالى: «أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا» قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس «أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا» قال: سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقادة «أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا» عظماءها ^(١٤) قلت: وهكذا قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» ^(١٥) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْبَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» ^(١٦) وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا نُرْسَلُ عَنْكَ أَهْلَاءٌ وَوَعْدَنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدِرُونَ» ^(١٧) والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى: إخبارا عن قوم نوح: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا» ^(١٨) وقوله تعالى: «وَلَوْ رَزَيْنَا إِلَى الظَّالِمِينَ مَوْفُقَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» ^(١٩) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْهُ عَنِ الْمُنَى إِذْ جَاءَكَ بِكَ كُفْرٌ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ^(٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِيلِ وَالنَّهَارُ إِذَا تَأَمَّرْتُمُو أَنْ تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَجَعَلَ اللَّهُ أَتَدَاؤًا ^(٢١) الآية، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، قال: كل مكر في القرآن فهو عمل، وقوله تعالى: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» ^(٢٢) أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: «وَلِيَجْعَلِي أَعْقَابَهُمْ لَبَّةً لَعَنَ أَعْقَابِهِمْ» وقال: «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ» ^(٢٣) وقوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ أُوْفَى رَسُولِ اللَّهِ» أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ أُوْفَى رَسُولِ اللَّهِ» أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقول جل وعلا: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ الْمُنِذِرُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا» الآية.

وقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ» ^(٢٤) أَفَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ^(٢٥) الآية، يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم «بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ» أي: من مكة والطائف، وذلك أنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسداً، وعناداً

الصحيحين عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِثْنَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ» (٤) والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعَكُ فِي السَّمَاءِ

كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» (٥)

يقول تعالى: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»

أي: يسره له وينشطه ويسهله، لذلك فهذه علامات على الخير،

كقوله تعالى: «أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»

الآية، وقال تعالى: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْأَفْصَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ» (٦)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» يقول تعالى: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان

به (٥)، وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر.

وقوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا»

قري بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثر (ضيقاً) بتشديد

الياء وكسرها، وهما لغتان كهن وهين. وقرأ بعضهم (حرماً)

بفتح الحاء وكسر الراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى،

ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من

أهل البادية من مدليج عن الحرجة، فقال: هي الشجرة تكون

بين الأشجار، لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء

فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من

الخير (٦). «كَأَنَّمَا يَصْعَكُ فِي السَّمَاءِ» من شدة ذلك عليه.

وقال سعيد بن جبير: يجعل صدره ضيقاً حرجاً، قال: لا يجد

فيه مسلكاً إلا صعداً (٧).

وقال الحكم بن أبان: عن عكرمة عن ابن عباس «كَأَنَّمَا

يَصْعَكُ فِي السَّمَاءِ» يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ

السما (٨)، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان

واستكباراً كقوله تعالى خبراً عنه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْجُدُوكَ

لَا مُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٩) وقال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْجُدُوكَ إِلَّا مُرُورًا أَهَذَا

الَّذِي بَدَعُوا إِلَهًا مَعَكُمْ وَهُمْ يُدْعِرُونَ الْحَرْنَ هُمْ كَاذِبُونَ

﴾ (١٠) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَوَيْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ

بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١).

[اعتراف الكفار بعلو نسب النبي ﷺ]

هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته

ومرأته، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه، حتى

أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين» وقد

اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك

الروم: وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل

كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

الحديث بطوله، الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه

السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به.

وروى الإمام أحمد عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن رسول الله

ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَضْطَقَّ مِنْ وَلَدِ إِسْرَافِيلَ إِسْرَافِيلَ، وَأَضْطَقَّ

مِنْ بَنِي إِسْرَافِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَأَضْطَقَّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا،

وَأَضْطَقَّ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَأَضْطَقَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (١)

ألفرد بإخراجه مسلم (٢)، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْتَمِدُ مِنْ خَيْرِ قُرُونٍ بَنِي آدَمَ

تُرْنَا نَقَرْنَا، حَتَّى يُعْتَمِدَ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» (٣).

وقوله تعالى: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ

وَعَذَابٌ شَدِيدٌ» الآية، هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد

لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه

سيعيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة، لما

أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في

السدنيا، كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَكُونُونَ جَهَنَّمَ لَآخِرِينَ» (٤) أي: صاغرين ذليلين

حقيرين، وقوله تعالى: «وَعَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا كَانُوا يَمْكُرُونَ» (٥)

لما كان المكر غالباً إنسا يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل

والخدعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء

وفاقاً «وَلَا تَظْلِمُوا رَبَّكُمْ أَحَدًا» (٦) كما قال تعالى: «يَوْمَ تَبْلُغُ الرِّبَا

﴿١﴾ أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر، وجاء في

(١) أحمد: ١٠٧ / ٤. (٢) مسلم: ١٦٨٢ / ٤.

(٣) فتح الباري: ٦ / ٦٥٣.

(٤) فتح الباري: ٦ / ٣٢٧ ومسلم: ٣ / ١٣٦١.

(٥) الدر المنثور: ٣ / ٣٥٦. (٦) الطبري: ١٢ / ١٠٤.

(٧) الطبري: ١٢ / ١٠٥. (٨) الدر المنثور: ٣ / ٣٥٦.

قلبه، حتى يدخله الله في قلبه.

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾^(١) فَرَأَسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴿أَيِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ، وَسَيَاقِ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَأَسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أَيِ: مِنْ إِغْوَائِهِمْ، وَإِضْلَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لِكَرَّعُوكُمْ مِثْلَ نَسِيبٍ ۖ وَآيَاتِهِ فِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝﴾، وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ۖ يَعْنِي أَوْلِيَاءَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا: مَجْبِينَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ هَذَا.

قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض، إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس^(٥).

وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتدروا به يوم القيامة^(٦)، وأما استمتاع الجن بالإنس فإن كان فيما ذكر، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن ﴿وَلَكِنَّا أَجَلْنَا إِلَيْكَ لَتَجَلَّ لَنَا﴾ قال السدي: يعني الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَانَكُمْ﴾ أي مأواكم ومنزل لكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي ماكتبن فيها مكثا خلدا إلا ما شاء الله

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾

[تولية بعض الظالمين على بعض]

وقال معمر عن قتادة في تفسير الآية: يولي الله بعض الظالمين بعضا في النار، يتبع بعضهم بعضا^(٧). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال ظالمي الجن وظالمي الإنس^(٨)، وقرأ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝﴾ قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس، وقال بعض الشعراء:

ومما من يد إلا يد الله فوقها

ولا ظالم إلا سبيلى بظالم

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته^(١)، وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصدّه عن سبيل الله^(٢)، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الرجس الشيطان^(٣)، وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه^(٤)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ۝﴾

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَواتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾

لما ذكر تعالى طريق الصالحين عن سبيله الصادين عنها، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: وضحناها وبينناها وفسرناها ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ۝﴾ أي: لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَواتِ﴾ وهي الجنة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيها سلوكه من الصراط المستقيم المكتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاغوجاج أفصوا إلى دار السلام ﴿وَهُوَ إِلَهُهُمْ﴾ أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأنابهم الجنة بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ جُمْعًا يَمْتَعُونَ الْجَنَّةِ قَدْ اسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا النَّارُ مَثْوَانَكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ

رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝

(١) الطبري: ١٢ / ١٠٩. (٢) الطبري: ١٢ / ١١٠.

(٣) الطبري: ١٢ / ١١١. (٤) الطبري: ١٢ / ١١١.

(٥) الدر المنثور: ٣ / ٣٥٧. (٦) الطبري: ١٢ / ١١٦.

(٧) عبد الرزاق: ٢ / ٢١٨. (٨) الطبري: ١٢ / ١١٩.

يقول تعالى واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ جُمْعًا﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونه،

إِنَّهُ الثَّقَلَيْنِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِّي آتٍ بِالْآلَةِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ (٢).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَدَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أي أقرنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتنا وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، وقال تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ لِحُكْمِ اللَّهِ﴾ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنْهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٦٧) أي: في الدنيا، بما جاءهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (٦٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (٦٨) أي: إنا أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٦٩) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٧٠) وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْفِيزُوا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٧١) قَالُوا بَلَى فَرَجْنَا نَذِيرًا فَكُنَّا عَمَلًا ﴿٧٢﴾ والآيات في هذا كثيرة.

قال: وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي لكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها ويثيبها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر. (قلت): ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: من كافري الجن والإنس، أي ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٧٣) ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي: وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك، يحصيهما ويثيبها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم

ومعنى الآية الكريمة، كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نعمل بالظالمين سلبا بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض ونتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَدَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّضْنَاهُمْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٦٧)

[تفريع الجن والإنس بالسؤال عن إرسال

الرسل واعتراضهم بذلك]

وهذا أيضا مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث سألهم وهو أعلم هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَدَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من جملتكم، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف (١) والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ - إلى قوله - ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

وقوله تعالى: عن إبراهيم ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْكَ مِنْ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَأْخُذُوا الطَّعَامَ وَيَسْتَخْرِجُوا فِي الْأَشْوَاقِ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخبارا عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٥﴾ يَقُولُونَ آيِسُوا دَعَايَ اللَّهِ وَعِبَادُ اللَّهِ بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَمَنْ لَا يُجِبُ دَعَايَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْتَرِجٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٧﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لَكَمُ

إياه ومعادهم إليه (١).

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾
 (١٣٢) إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَا تَنْتَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٤)

[الوعيد بإذهابهم إذا عصوا]

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾: يا محمد ﴿الغفور﴾: أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذو الرحمة﴾: أي: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَئِيمٌ وَفَرَحِيمٌ﴾، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي قوما آخرين، أي يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾: أي: هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٣٤) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣٥﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣٦﴾.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَلَنْ تَتَوَلَّوْا مَسْجِدَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ وقال محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبا بن عثمان يقول في هذه الآية: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾: الذرية الأصل والذرية النسل (١٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَا تَنْتَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أخبرهم يا محمد، أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنتم مستمر على طريقتي ومنهجي كقولهم: ﴿وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَايِلُونَ﴾ (١٣١) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾: ناحياتكم ﴿فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أتكون لي أو لكم وقد أنجز الله مواعده لرسوله صلوات الله عليه أي فإنه تعالى مكّنه في البلاد وحكمه في نواصي مخالفه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه عليه السلام أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحِبِّهِ أَنا وَرَسُولُنا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَيُنْفِخُنَّ عَنْهُمْ أَشْهَادُ﴾ (١٣٥) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَّةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْكَبِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦)

[بيان بعض أعمال الشرك]

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبرأ ﴿مِنْ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزرع والشمار ﴿وَالْأَنْكَبِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءاً وقسماً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ﴾.

قال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه وإن سقط منه شيء فيها سمي للصمد، رده إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقي شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلف بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم

(١) الطبري: ١٢/ ١٢٥. (٢) الدر المنثور: ٣/ ٣٦١.

(٣) الطبري: ١٢/ ١٢٩.

في ذلك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْعَدُ وَحَرَّتْ جَهَنَّمُ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ بِرَعِيَّتِهِمْ وَأَفْعَدُ حَرِمَتْ طَهْرُهَا وَأَفْعَدُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْعَدُ عَلَيْهِمْ سَيِّئُ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٨)

[بعض تحريمات المشركين في الأنعام]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الحجر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا^(٧)، وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما^(٨) وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْعَدُ وَحَرَّتْ جَهَنَّمُ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أمواهم وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى، وقال ابن زيد بن أسلم ﴿جَهَنَّمُ﴾ إنما احتجروها لأفْعَدُهم^(٩)، وقال السدي ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ بِرَعِيَّتِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا^(١٠) وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ آيَةُ رَبِّكَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا لِلَّهِ أَدَبٌ لَكُمْ أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقال السدي: أما الأنعام التي حرمت ظهورها فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها لا إذا ولدوها ولا إن نحروها.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود: قال لي أبو وائل أتدري ما في قوله: ﴿وَأَفْعَدُ حَرِمَتْ طَهْرُهَا وَأَفْعَدُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا قال: هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها^(١١). وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملوا

بإدخال ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله حتى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يجرمون من الماء البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان، يرمعون أنهم يجرمونه قربة لله، فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا إِلَهُهُمُ أَشْرَارًا مِمَّنْ أَنْشَأَ الْكَوْكَبُ وَالْأَفْعَدُ نَصِيْبًا﴾ الآية^(١٢)، وهكذا في مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد^(١٣)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يبيعونه لا يأكلونه أبدًا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿كَأَيِّ عَصَافَةٍ﴾^(١٤) أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطأوا أولاً في القسم؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالفه، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ونشئته، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا فيها رمعوا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل وعلا: ﴿وَيَجْعَلُونَ إِلَهَ ابْنَتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا آلَهُ مِنْ عِبَادِهِ جِزَاءً إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ﴾^(١٥) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْآيَاتِ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَا يَصْرِفُهُمْ﴾^(١٦).

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ يَكْثِيرُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيُكَلِّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٩)

[زين الشيطان للمشركين قتل أولادهم]

يقول تعالى: وكما زين الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا الله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق وواد البنات خشية العار، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ يَكْثِيرُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ زينوا لهم قتل أولادهم^(١٧). وقال مجاهد: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ شياطينهم يأمرهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة^(١٨)، وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ﴿لِيُزِدُوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وإما ﴿وَلِيُكَلِّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا﴾ أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً وله الحكمة التامة

(١) الطبري: ١٣١/١٢، ١٣٢. (٢) الطبري: ١٢/١٣٣.

(٣) الطبري: ١٢/١٣٤. (٤) الطبري: ١٢/١٣٦.

(٥) الطبري: ١٢/١٣٦. (٦) الطبري: ١٢/١٣٧.

(٧) الطبري: ١٢/١٤٣. (٨) الطبري: ١٢/١٤٣.

(٩) الطبري: ١٢/١٤٣. (١٠) الطبري: ١٢/١٤٣.

(١١) الطبري: ١٢/١٤٤.

شيثاً^(١) ﴿أَفِرَّاءَ عَلَيْهِ﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا﴾ أي عليه ويسندون إليه. ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِمَّنْ فَهِنَّ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٦)

قال أبو إسحاق السبيعي: عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية قال: اللبن^(٢). وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فهو اللبن كانوا يجرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك^(٣). وكذا قال السدي^(٤).

وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة وقادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ قال: هي السائبة والبحيرة^(٥). وقال أبو العالية ومجاهد وقادة في قول الله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ﴾ أي قولهم الكذب^(٦) في ذلك يعني كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٣١) متع^(٧) الآية، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيه عليهم أثم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افِرَّاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٣٧) يقول تعالى قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٣١) متع^(٨) في الحديث ثم إنا متهمهم ثم ندينهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون^(٩) روى الحافظ أبو

بكر ابن مردويه في تفسير هذه الآية عن ابن عباس: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فافرق ما فوق الثلاثين من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افِرَّاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب منازعة قريش من صحيحه^(٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالزَّيْتِ نَخِيلًا أُكْلُهُ خَالِصٌ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيَاحُ مُمْسِكَةٌ لِّمُشْتَرِكٍ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَرُوا حَقَّهُ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ حِمْلُوهُمْ وَفَرَّسًا كَلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَذَرُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣٩)

[الله الذي خلق الثمر والحب والأنعام]

يقول تعالى ميتاً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها فجعلوها منها حراماً وحلالاً، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات، رواية: فالمعروشات ما عرش الناس ﴿وَعَرَّ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما عرس في البر والجبال من الثمرات^(٨)، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما عرش من الكرم. وقال ابن جرير: ﴿مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ قال: ﴿مُتَشَكِّبًا﴾ في المنظر ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^{(٩٠}

تركبون والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً^(٤)، وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صُفًى يَدِينَا أَعْنَكَاهُمْ لَهَا مَلِكُونَ^(٥)﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَكُونُونَ^(٦) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ شَفِيفُكُمْ بَيْنَ بَطْنِي وَبَيْنَ قَرْنِي وَدَمْرُ لَبَنَاءَ صَالِحِينَ^(٧)﴾ وَتَشْدِيدُ^(٨) إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَمَّا وَمَتَاعًا إِلَى جِينِ^(٩)﴾.

[كلوا من هذه الأنعام ولا تتبعوا فيها خطوات الشيطان]
وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أَيْ: مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ فَكُلْهَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ^(١٠)﴾ أَيْ: طَرِيقَهُ وَأَمْرَهُ كَمَا اتَّبَعَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، أَيْ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ افْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ، **﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾** أَيْ: إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ **﴿عَدُوٌّ يَبِينٌ﴾** أَيْ: يَبِينُ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ^(١١)﴾**، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿يَنْبَغِي مَا كَمْ لَا يَفْقَهُنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾** الْآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْ عَدُوِّكُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا^(١٢)﴾** وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

﴿فَمَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ وَمِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ قُلُوبُ الْمَذْكُورِينَ حَرَّمَ أَمْرَ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمْ أَرْحَامُ الْأَنْبِيَاءِ يَنْبَغِي بِمَعْنَى إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٣) وَمِنْ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلُوبُ الْمَذْكُورِينَ حَرَّمَ أَمْرَ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمْ أَرْحَامُ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُنْفِلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(١٤)

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً بحيرة وسائبة ووصيلة وحامساً، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فين تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ،

نَضِجَةً، وَيَتْرَكُهُمْ فَيَتَبَعُونَ أَثَارَ الصَّرَامِ^(١٥)، وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: يُعْطَى مِثْلُ الضَّغْتِ^(١٦)، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: ﴿وَأَنْشَأُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَاوِيهِ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي الزَّوَاكَةِ، لِلْمَسَاكِينِ الْقَبْضَةُ وَالضَّغْتُ لَعْلَفُ دَابَّتِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِينَ يَصْرُمُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ صَحَابِ الْجَنَّةِ فِي سُورَةِ «ن»: ﴿إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهِمْ مَتَّحِينَ^(١٧) وَلَا يَتَكَلَّمُونَ^(١٨) فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفَتٌ مِّن رَّبِّكَ وَهَرَبَوا بَهِيمُونَ^(١٩) فَأَصْبَحَتِ الْفَصِيرُ^(٢٠) عَلَى كَالِيبِ الْمَذْهَبِ سَوْدَاءَ مُحْتَرَقَةٍ^(٢١) فَتَنَادُوا مُصْحِينَ^(٢٢) أَنْ أَقْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ مَّزْمِينَ^(٢٣) فَاطْلُقُوا وَهَرَبْتُمْ عَنْهُمْ^(٢٤) أَنْ لَا يَدْلُكُمُ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ نَارُكُمْ^(٢٥) وَغَدَا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرٍ^(٢٦) أَيْ: قُوَّةَ وَجَلْدٍ وَهَمَةٍ^(٢٧) فَلَمَّا رَأَوْهَا تَأَوَّاهُ^(٢٨) لِمَا لَمْ يَأْتُوا^(٢٩) بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ^(٣٠) قَالَ أَوْسَطُكُمْ أَلَمْ نَأْمُرْ لَكُمْ لَوْلَا تَسْتَحِينُونَ^(٣١) قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ رِيبًا إِنَّمَا نَطْلُوعُكُمْ^(٣٢) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوِّمُونَ^(٣٣) قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ رِيبًا إِنَّمَا نَبِيدُ لِلصَّغِيرَاتِ^(٣٤) إِنَّمَا كُنَّ نَارٌ بَدِيعَةٌ^(٣٥) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا يَعْلَمُونَ^(٣٦).

[بيان الإسراف]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُسْرِفُوا فِي الْإِعْطَاءِ فَتَعْطُوا فَوْقَ الْمَعْرُوفِ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِهَاسٍ، جَدُّ نَخْلٍ لَهُ فَقَالَ لَا يَأْتِينِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتُهُ فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى فَلَيْسَتْ لَهُ ثَمَرَةٌ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ، لَكِنِ الظَّاهِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ سَبَاقِ الْآيَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَاشْكُرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِثًا عَلَى الْأَكْلِ، أَيْ لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضَرَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْكُرُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الْآيَةُ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ تَعْلِيلًا: ﴿كُلُوا وَاشْكُرُوا وَالتَّسْوِيفُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَحِيلَةٍ^(٣٧)﴾ وَهَذَا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[فوائد الأنعام]

وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ أَيْ: وَأَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَةٌ وَمَا هُوَ فَرَسٌ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَمُولَةِ مَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْفَرَسُ الصَّغَارُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَمُولَةٌ﴾: مَا حَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ، **﴿وَفَرَسَاتٌ﴾**: الصَّغَارُ مِنَ الْإِبِلِ، رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَنْجِرْهُ^(٣٨)، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: الْحَمُولَةُ مَا

(١) عبد الرزاق: ٢ / ٢١٩. (٢) الطبري: ١٢ / ١٦٥.

(٣) كتاب اللباس تحت الباب الأول، وفيه: «وَتَصَدَّقُوا» بعد «السوا».

(٤) الحاكم: ٢ / ٣١٧. (٥) الطبري: ١٢ / ١٨١.

وأنه أنشأ من الأنعام حولة وفرشا، ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز ذكره وأنشاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها ويقر كذلك وأنه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلا وركوبا وحولة وحلبا وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِمْ زَوْجًا مِّنَ الْأَنْثَىٰ﴾ رد عليهم في قولهم «ما فبطون هذه الأنعام خالصة للذكور» وعلمهم أن ذلك من ذلك الآية. وقوله تعالى: ﴿تَنْبِئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن يقين، كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البعيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك.

وقال العمري عن ابن عباس: قوله: ﴿ثَمِينَةَ زَوْجٍ مِّنَ الْأُنثَىٰ﴾ أي: زوجة من الأنثى، فهذه أربعة أزواج «قُلْ لَّيْسَ لَكُمْ حَرَمٌ مِّنَ الْأَنْثَىٰ» يقول لم أحرم شيئا من ذلك «أَمَّا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِمْ زَوْجًا مِّنَ الْأُنثَىٰ» يعني: هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى؟ فلم تحرمون بعضا وتحلون بعضا؟! «تَنْبِئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» يقول تعالى: كله حلال (١) وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ شُكَّاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ تهكم بهم فيها ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرمه من ذلك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ» أي: لا أحد أظلم منهم «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمع، لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سبب السوائب ووصل الوصيلة وحمل الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح (٢).

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْمَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ لَهْمًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاطِلٍ وَأَعْلَىٰ فِتْنَةٍ لِّبِكِ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٥)

[بيان الأشياء المحرمة]

يقول تعالى أمرا عبده ورسوله محمدا ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد هؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: أكل يأكله معناه لا أجد من الحيوانات شيئا حراما سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعا لفهوم هذه الآية، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾

وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحا، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به (٣).

وقال الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهي عن لحوم الحمز الأهلية زمن خير، فقال قد كان يقول ذلك الحز ابن عمرو عن رسول الله ﷺ، ولكن أبي ذلك الحز، يعني: ابن عباس وقرا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية (٤)، وكذا رواه البخاري، وأخرجه أبو داود

وروى أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدرکه عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكنت عنه فبر عفو، وقرا هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية، وهذا لفظ ابن مردويه، ورواه أبو داود، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٥) وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة تعني الشاة، قال: «الفلانة أخذتم مسكها»؟ قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ قال: «يا رسول الله ﷺ: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْمَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ﴾ وَإِنَّكُمْ لَا تَطْعَمُونَهُ، إِنْ تَذَبُّوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ فَاَرْسَلْتُ فَسَلَخْتُ مَسْكَهَا فَذَبَّغْتُهُ فَاتَّخَذْتُ مِنْهُ قُرْبَةً حَتَّى تَحْرُقَ عِنْدَهَا» (٦). ورواه البخاري والنسائي، ونحوه (٧).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاطِلٍ وَأَعْلَىٰ فِتْنَةٍ لِّبِكِ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فمن أضل إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غر متلبس ببغي ولا عدوان «فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» أي: غفر له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بآية كفاية، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الردع عن المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات عن

(١) الطبري: ١٢ / ١٨٧. (٢) فتح الباري: ٨ / ١٣٢.

(٣) الطبري: ١٢ / ١٩٣. (٤) الحميدي: ٢ / ٢٧٩.

(٥) فتح الباري: ٩ / ٥٧٠ وأبو داود: ٤ / ١٦٢.

(٦) أبو داود: ٣٨٠٠ والحاكم: ٤ / ١١٥.

(٧) أحمد: ١ / ٣٢٧.

(٨) فتح الباري: ١١ / ٥٧٧ والنسائي: ٧ / ١٧٣.

أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه^(٨).

[حيلة اليهود ولعنة الله عليهم]

وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن سمرة باع خمرًا، فقال: قاتل الله سمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَعَلُواهَا قَبَاغُوهَا» أخرجاه^(٩). وعن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» فقيل: يا رسول الله، أرايت شحوم الميتة، فإنها يُدمن بها الجلود، وتطلى بها السفن، ويستصح بها الناس، فقال: «لَا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَعَلُوهُ ثُمَّ بَاغَوْهُ وَأَكَلُوا لَمَنَّهُ»^(١٠). ورواه الجماعة^(١١).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ

عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١٢)

يقول تعالى: فإن كذبك يا محمد مغالوك من المشركين واليهود ومن شابههم، ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْصِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَبِعْ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١٣) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ وقال تعالى: ﴿غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ

(١) راجع تفسير سورة آل عمران الآية ٩٣.

(٢) الطبري: ١٢ / ٢٠٢. (٣) الطبري: ١٢ / ٢٠٣.

(٤) الطبري: ١٢ / ٢٠٤. (٥) الطبري: ١٢ / ٢٠٤.

(٦) الطبري: ١٢ / ٢٠٥. (٧) الطبري: ١٢ / ٢٠٥.

(٨) الطبري: ١٢ / ٢٠٦.

(٩) فتح الباري: ٤٨٣ / ٣ / ١٢٠٧.

(١٠) فتح الباري: ٤ / ٤٩٥.

(١١) فتح الباري: ٤ / ٤٩٥ / ٣ / ١٢٠٧ وأبو داود:

٣٠٦ / ٣ وتحفة الأحوذى: ٤ / ٥٢١ والنسائي: ٣٠٩ / ٧

وابن ماجه: ٢ / ٧٣٢.

نفسهم، بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يحيد فيها وجه الله إليه أن ذلك محرم، وإنها حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وما عدا ذلك فلم يحرم وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف زعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله!!؟

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّخْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُفْرِ ذَلِكَ جَرَيْنَهُمْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

[ما حرم على اليهود من الحلال لبيغهم]

يقول تعالى: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطيور^(١٤) كالإبل والنعام والإوز والبط، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْفَقْرِ وَالنَّخْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الرب وشحم الكليتين وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فتحن نحره.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم^(١٥). وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير الحوايا: جمع، واحدها حاوية وحوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي: المباعر، وتسمى المراض، وفيها الأمعاء، قال: ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو ما حملت الحوايا، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أو الحوايا وهي المبر^(١٦). وقال مجاهد: الحوايا: المبر والمريض^(١٧)، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك^(١٨) وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُفْرِ﴾ يعني: إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحلناه لهم.

وقال ابن جريج: شحم الألية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال^(١٩) ونحوه، قاله السدي^(٢٠). وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي هذا التضييق إنما فعلناه بهم

وألزمنهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَظَلِمْنَا مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبَصَدْنَاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي وإننا لعادلون فيما جازيناهم به. وقال ابن جرير: وإننا لصادقون فيما

تُخْلِفُونَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله ولكن الله الحجة البالغة على عباده، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرّمتموه وكنتم وافترتم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلِكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَآيَاتُنَا وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَنَكَ قَوْمُكُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

[الوصايا العشرة]

قال داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَنَكُمْ تَقْتُلُونَ﴾ ^(١) وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(٢).

وروى الحاكم أيضاً في [مستدركه]، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَيْكُمْ بُيَاتِي عَنِّي عَلَى ثَلَاثِ ثَمَلَاتٍ» قال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات «فَمَنْ وَفَى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» ومن انتقص منها شيئاً، فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أحر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عبته وإن شاء عفا عنه، ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(٣).

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرّموا ما

الْعِبَادِ ﴿١٤٠﴾ وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُذِيقُ ﴿١٤٢﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْذُوؤُودُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَ مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنَ الْبَاطِلِ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا خُرُوصٌ ﴿١٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

[ذكر مخالطة والرد عليها]

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرّموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرّمه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الآية، وكذلك الآية التي في (النحل) مثل هذه سواء.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي بهذه الشبهة ضلّ من ضلّ قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من آليم الانتقام، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فنظفروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا خُرُوصٌ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضلّ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَىٰ أَلْهَدَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

(١) تحفة الأحوذى: ٨ / ٤٤٦. (٢) الحاكم: ٢ / ٣١٧.

(٣) الحاكم: ٢ / ٣١٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَيَاوُلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفْيِهَا» قلت: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قلت: ثم أي؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استردته لزادني ^(٤).

[النهي عن قتل الأولاد]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يندون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعِمَ مَعَكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثم تلا رسول الله ﷺ «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ» الآية ^(٥). وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة

والسدي وغيره: هو الفقر ^(٦)، أي ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ أي لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا قال: ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا

يَنْهَى اللَّهُ وَتَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ، وكل ذلك فعلوه بأرائهم يسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَمَاقَاتُ﴾ أي: هلموا قتلوا ﴿أَتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا ولا ظنًا بل وجمانه وأمرًا من عنده.

[النهي عن الشرك]

﴿الْأَشْشُرُ كُذِّبُوا شَيْئًا﴾ وكان في الكلام محذوفًا دل عليه سياق، وتقديره وأوصاكم ﴿الْأَشْشُرُ كُذِّبُوا شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكَ وَمَنْ كَانَ يَرْغَبْ لِمَلِكٍ يَسْأَلْهُ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا بَنِي جَزِيلٍ قَبَسَرَنِي اللَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أَتِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ^(١).

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «قُولُوا تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَبَايَ أَطْعَمَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَايَ، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقِرَابِ الْأَرْضِ حَبِطَةً أَتَيْتَكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْتُ حَتَّى تَنْتَلِعَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفِرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ!!» ^(٢) ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» ^(٣) والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

[الأمر بالإحسان إلى الوالدين]

وقوله تعالى: ﴿وَيَاوُلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا أي أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَاوُلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقرأ بعضهم: (وَوَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَاوُلَدَيْنِ إِحْسَانًا) أي: أحسنوا إليهم، والله تعالى كثير ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ^(٤) وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَلِحْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا أَلَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأمَرَ بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما،

(١) البخاري: ١٢٣٧ ومسلم: ٩٤.

(٢) أحمد: ٥ / ١٧٢ وتحفة الأحوذى: ٩ / ٥٢٤ عن أنس.

(٣) مسلم: ١ / ٩٤.

(٤) فتح الباري: ٢ / ١٢ ومسلم: ٨٩ / ١.

(٥) فتح الباري: ٨ / ٣٥٠ ومسلم: ٩١ / ١.

(٦) الطبري: ١٢ / ٢١٧.

حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَدَرَأُوا ظُلْهَرَ الْأَيْتَمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْبَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» ^(١) وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ عَنْ وَزَادَ عَنْ مَوْلَاهُ الْمُغِيرَةَ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتَ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا لَضْرِبْتَهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مَصْفُوحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ عَصِيَّةٍ سَعْدٍ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَغْبَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهِ أَغْبَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» ^(٢) أَخْرَجَاهُ.

[النهي عن قتل النفس المحرمة]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد جاء في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الشَّيْبِ الزَّائِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُقَارِفِ لِلْجَعَامَةِ» ^(٣).

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرفوعاً: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا أَمْ يَرَخَ رَاحَتَهُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» ^(٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَهُ دَمَةٌ اللَّهِ، وَدَمَةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْفَرَ بِدَمَةِ اللَّهِ فَلَا يَرَخَ رَاحَتَهُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حسن صحيح ^(٥). وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ مَعَهُ﴾ أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَدِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمْرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٦)

[تحريم أكل مال اليتيم]

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَدِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

﴿وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، فانظروا كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله، وفاسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْتَكُونُكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلُوبُ إِصْلَاحَ لَكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ عَنَّا لَعَنُوكُمْ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود ^(١)، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال السيب ومالك وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم ^(٢).

[الأمر بإيفاء الكيل والميزان]

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمْرَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يأمر ب إقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما تودع على تركه في قوله ^(٣) ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ^(٤) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ كَالْوَهْمِ أَوْ رَزَقُوهُمْ يَخْسِرُونَ ^(٥) أَلَا يَبْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ^(٦) عَظِيمٌ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ ﴿٧﴾ وقد أهلك الله أمة من كانوا يخسون المكيال والميزان.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا﴾ أي من العدل في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وجهده فلا حرج عليه.

[الأمر بالشهادة العادلة]

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعمل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال.

[الأمر بإيفاء عهد الله]

وقوله: ﴿وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول ويوصي الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد

(١) فتح الباري: ٨ / ١٤٦ ومسلم: ٤ / ٢١١٤.

(٢) فتح الباري: ١٣ / ٤١١ ومسلم: ٢ / ١١٣٦.

(٣) فتح الباري: ١٢ / ٢٠٩ ومسلم: ٣ / ١٣٠٢.

(٤) فتح الباري: ١٢ / ٣٧٠.

(٥) تحفة الأحوذى: ٤ / ٦٥٨ وابن ماجه: ٢ / ٨٩٦.

(٦) أبو داود: ٣ / ٢٩١. (٧) الطبري: ١٢ / ٢٢٣.

وروى الإمام أحمد عن النّوّاس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرَحَّاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا هَلُمُّوا ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُ لَا تَفْتَحُهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ فَالْصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: حَرَامُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مَنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَإِعْظَمَ اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ^(٩) ورواه الترمذي والنسائي^(١٠) وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله تعالى: «فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: «اللَّهُ وَحْدَ الذِّبْرِ» أَمَّا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالذِّبْرِ كَفَرُوا أَوَّلًا وَأَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أَوَّلَتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاهُ لَن يُصِيبَهُمْ غُرُورٌ﴾ (١٢٤) وَهَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَتْهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٢٥)

[مدح التوراة والقرآن]

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ» عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: «وَمَنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَاسِمًا تَبَدُّوْهَا وَتُخَفَّوْنَ كَثِيرًا» الآية، وبعدها: «وَهَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَتْهُ مُبَارَكٌ» الآية.

وقال تعالى مخبراً عن المشرّكين: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

﴿ذَلِكَ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَدْعُو إِلَى تَذَكُّرٍ﴾ يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا^(١١).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ذَلِكُمْ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَدْعُو إِلَى تَذَكُّرٍ ﴿١٢٥﴾

[الأمر باتباع الصراط المستقيم والنهي

عن اتباع السبل الأخرى]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» وفي قوله: «أَنْ أَيْمُوا الَّذِينَ وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ» ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما ملك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله^(١٢) ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد^(١٣).

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله هو ابن مسعود بنحو: قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمٌ» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ سَيِّطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»^(١٤)، وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(١٥).

وروى الإمام أحمد وعبد بن حميد واللفظ لأحمد عن جابر، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فخط خطاً هكذا أمامه فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله وقال: «هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ» ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» ذَلِكُمْ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَدْعُو إِلَى تَذَكُّرٍ ﴿١٢٥﴾ ورواه أحمد وابن ماجه في كتاب السنة من سننه، والبخاري^(١٦).

وروى ابن جرير أن رجلاً قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» الآية^(١٧).

(١) الطبري: ١٢ / ٢٢٥. (٢) الطبري: ١٢ / ٢٢٩.

(٣) الطبري: ١٢ / ٢٢٩. (٤) أحمد: ١ / ٤٦٥.

(٥) الحاكم: ٢ / ٣١٨.

(٦) أحمد: ٣ / ٣٩٧ وعبد بن حميد: ٣٤٥.

(٧) ابن ماجه: ١١. (٨) الطبري: ١٢ / ٢٣٠.

(٩) أحمد: ٤ / ١٨٢.

(١٠) تحفة الأحوذى: ٨ / ١٥٢ والنسائي في الكبرى: ٦ / ٣٦١.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تعلمكم أن تقولوا: لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أوتوه كقوله: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِكُمْ﴾ لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴿الآية﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا﴾ أي: لم يتفجع بها جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله أي: صرف الناس وصددهم عن ذلك قاله السدي، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وصدف عنها: أعرض عنها.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَانُهَا نَكْمًا عَمَّتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا أَنَا مُنْظَرُونَ﴾ (١٥٨)

[تهديد من سوف إيمانه وتوبته]

يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَانُهَا نَكْمًا عَمَّتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا أَنَا مُنْظَرُونَ﴾ (١٥٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها» فذلك حين «لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» (١٥٩).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» (١٦٠) ورواه أحمد وعنده والدخان (١٦١).

روى الإمام أحمد عن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من

قَالُوا لَوْلَا أَوْفَتْ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ ﴿قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٦٢) وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَنَقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴿الآية﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَا مَا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً، لما يحتاج إليه في شريعته كقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١٦٣) الآية. وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ﴾ أي جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (١٦٤) وكقوله: ﴿وَأَذِيقُوا الْإِبْرَهِيمَ رِيَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَّخَذَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاءُوكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَوْفُونَ﴾ (١٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿لَقَدْهُمْ فِيهَا زُيُوفٌ وَذُؤُونٌ﴾ (١٦٦) وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦٧﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه جبل الله التين.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٦٨) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ﴾ (١٦٩)

[القرآن حجة الله على خلقه]

قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لثلاث تقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني: ليقطع عنكم كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ يَقُولُوا مِمَّا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ (الآية). وقوله تعالى: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (١٧٠) قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس هم اليهود والنصارى (١٧١)، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد (١٧٢) وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٧٣) أي: وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه.

(١) الطبري: ١٢ / ٢٣٩. (٢) الطبري: ١٢ / ٢٤٠.

(٣) الطبري: ١٢ / ٢٤١. (٤) فتح الباري: ٨ / ١٤٧.

(٥) الطبري: ١٢ / ٢٦٥. (٦) أحمد: ٢ / ٤٤٥.

[في التفرقة]

قال مجاهد وقشادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى^(١). وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ ففرقوا فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية^(٢)، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شَيْعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية.

وفي الحديث: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينَنَا وَاحِدٌ»^(٣) فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها، كما قال الله تعالى: «لَسْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» وقوله تعالى: «لِنَمَّا أَمَرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتَقِبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٤) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْتَبِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا يَنْتَقِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٥)

[الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها]

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا﴾ وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية كما روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن

(١) أحمد: ٢٠١ / ٢.

(٢) مسلم: ٤ / ٢٢٦٠ وأبو داود: ٤ / ٤٩٠ وابن ماجه:

١٣٥٣ / ٢.

(٣) الطبري: ١٢ / ٢٦٩، ٢٧٠. (٤) الطبري: ١٢ / ٢٦٩.

(٥) فتح الباري: ٦ / ٥٥٠.

المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات يقول: إن أولها الدجال قال: فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات فقال: لم يقل مروان شيئاً حفظت من رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحًى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَلَا أُخْرَى عَلَى إِيْرَهَا» ثم قال عبد الله وكان يقرأ الكتب وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع حتى إذا بدا لها أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل، أنت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلم يرد عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تترك المشرق قالت: رب ما أبعد المشرق من لي بالناس، حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع فقال لها: من مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية^(١) وأخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه في سننهما^(٢).

فقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه فإما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: «أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْتِنَاهَا سَيِّئًا» أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾^(٣) تهديد شديد للكافرين، ووعد أكيد لمن سوف يإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقترب الساعة وظهور أشراتها كما قال: ﴿قُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ أَهْلُهَا وَذَكَرَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَرَأَوْا بَأْسًا قَالُوا مَتَى يَأْتِيهِمْ يَوْمُهُمْ وَكَفَرُوا بِمَا كُنَّا يَوْمَ مَشْرِكِينَ﴾^(٤) فليدرك ينفعهم إيمانهم لما رَأَوْا بَأْسًا الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنْقِضُهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥)

«نَحْنُ مَعَايِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ، وَبَنَاتُ وَاحِدٍ»^(٣) فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة. والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَأَعْفُ بِ ذُنُوبِي جَمِيعًا لَا تَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا تَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(٤) ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد، وقد رواه مسلم في صحيحه.

«قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ أَمْرًا رُبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْبِرُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِهَا وَلَا نُزُلًا وَلَا زُودًا وَذُرِّعًا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفَخُ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»^(٥)

الأمر بإخلاص التوكل

يقول تعالى: «قُلْ يَا عَمَلُوهَا لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ» «أَغْفِرُ اللَّهُ أَمْرًا رُبًّا» أي: أطلب ربًّا سواه، «وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» يريني ويحفظني ويكلوني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر. ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا له: «إِلَهِكَ تَعَالَىٰ وَإِلَٰهَكَ نَسِيتُ»^(٦)، وقوله: «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ»^(٧) وقوله: «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بَدْعُهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا»^(٨) وقوله: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا»^(٩) وأشباه ذلك من الآيات.

وذهبك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في نوله: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي» النسك الذبح في الحج والعمرة.

وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكشين وقال حين ذبحهما: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١٠)

الدين جميع الأنبياء هو الإسلام

وقوله عز وجل: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١١) قال قتادة: أي: من هذه الأمة^(١٢)، وهو كما قال: فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَأَعِزُّوهُ»^(١٣) وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أكون مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١٤) وقال تعالى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَرْغَبْ عَنْ آيَاتِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْفَاحِشِينَ»^(١٥) إذ قال له: رَبُّهُ أَسْلَمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَلَمِينَ^(١٦) وَوَضَعَ يَمَانِي فِي يَدَيْهِ وَيَعْقُوبُ يَدَيْيَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ لَا تَشْرُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»^(١٧) وقال يوسف عليه السلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ»^(١٨) وقال موسى: «يَقُولُ إِنْ كُنتُمْ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَاعْبُدُوا اللَّهَ أَنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ»^(١٩) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٢٠) وَجَعَلْنَا رَحْمَتَكَ مِنَ الْقَوِي الْكَثِيرِينَ^(٢١) وقال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ آتْرَافَةً فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِيقِيُّونَ وَالْأَنْحَارُ»^(٢٢) الآية، وقال تعالى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّنَ أَنْ آمِنُوا بِ رُسُلِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»^(٢٣) فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال قائمة منصوره وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام:

(١) الحاكم: ٢ / ٤٦٧. (٢) الطبري: ١٢ / ٢٨٥.

(٣) فتح الباري: ٦ / ٥٥٠. (٤) أحمد: ١ / ١٠٢.

(٥) مسلم: ١ / ٥٣٤.

[لا تزروا زرة وزر أخرى]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وَلَا يَدْعُ مَثَلُهُ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ ثَقُلَةٌ﴾ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١٣) قال علماء التفسير: أي: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (١٤) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (١٥) معناه: كل نفس مرتبة بعملها السعي، إلا أصحاب اليمين فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْئًا﴾ أي: ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما ألتناهم أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضلهم ومسته، ثم قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (١٦) أي من شر، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (١٧) أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَقْعُ بَيْنَنَا وَالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاسِقُ الْعَلِيمُ (١٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠)

[جعل الله الناس خلانف ومتفاوتي الدرجات ليبليهم]

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وخلقاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاكُمْ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ تَخْلِفُونَ﴾ (٢١) وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢)، وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: فآوت يسنكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿عَمَّنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا﴾ وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: لِيختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتنحكم به، لِيختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقر في فقره ويسأله عن صبره وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوعٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَتَنْظُرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» (١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) تهيب وترغب أن حسابه وعقابه سريع، فيمن عصاه وخالف رسله ﷺ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) لمن والاه واتبع رسله فيها جاؤوا به من خير وطلب. وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ وَأَنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤) وقوله: ﴿نَبِيٌّ يَكَادِي إِلَيْنَا الْعُقُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٦) إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيها لدب وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكأها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بها لينع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعوا فيها أمر، وترك ما عنه نهي وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب محجب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً، أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِحَيَاتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْفَيْ يَتَرَاهُمُونَهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَسَعُونَ» ورواه الترمذي وقال: حسن، ورواه مسلم (٢).

(١) مسلم: ٤ / ٢٠٩٨.

(٢) أحمد: ٢ / ٣٣٤ وتحفة الأحوذى: ٩ / ٥٧٧ ومسلم: ٤ / ٢١٠٩.

مِنْ قَرِيْبِهِ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكُوْمُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ تَعْدِيْهِمْ اَلَا قَلِيْلًا وَكُنَّا عَنْ اَلْوَرِيْثِ (٥٨) ﴿٥٨﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسَاتِيْنَتَا أَوْ هُم قَالُوْنَ﴾ (٦) ﴿٦﴾ أَي: فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَبِأَسِهِ وَنَقَمَتْ يَسَاتَا أَي: لَيْلًا، أَوْ هُم قَائِلُونَ مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ الْاِسْتِرَاحَةُ وَسَطُ النَّهَارِ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَقْتُ غَفْلَةٍ وَهَوٍ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنَةً وَهُمْ ثَائِمُونَ﴾ (١٧) ﴿١٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضَاحِيٌّ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١٨) ﴿١٨﴾ وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٩) ﴿١٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيْبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٢٠) ﴿٢٠﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١) ﴿٢١﴾.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَاتِيْنَتَا أَلَا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) ﴿٥﴾ أَي: فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ حُجِيِّ الْعَذَابِ، إِلَّا أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿خَائِدِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الْآيَةَ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦) ﴿١٦﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ فَيَسْأَلُ اللَّهُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) ﴿١﴾ قَالَ عَمَّا بَلَغُوا (٣).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عَمَلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧) ﴿٧﴾ يَوْضَعُ الْكِتَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤) ﴿٤﴾ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٥) ﴿٥﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِرُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمَلُوا مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ وَخَفِيرٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) ﴿٦﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَوْمِنَا الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩) ﴿٩﴾

وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبَ نَفْسِي﴾ (١١) أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ.

تفسير سورة الأعراف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَصِّ﴾ (١) ﴿١﴾ كَتَبَ أَرْزُلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ يَتَذَكَّرُ بِهِ، وَذَكَرْنِي لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف ﴿كَتَبَ أَرْزُلَ إِلَيْكَ﴾ أَي: هَذَا كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَي: مِنْ رَبِّكَ ﴿فَلَا يَكُنْ فِي سَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسَّيِّدِي: شَكَّ فِيهِ، وَقِيلَ: لَا تَتَّحِجْ بِهِ فِي إِبْلَاحِهِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا عَلَى الْعَذَابِ وَاسْتَأْذِنْنَا الرُّسُلَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَتَذَكَّرُ بِهِ﴾ أَي: أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَذَكَّرُ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿وَذَكَرْنِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿٢﴾ ثُمَّ قَالَ قَالَ خَطَابًا الْعَالَمَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: اقْتَصُوا مِنَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أَي: لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرُّسُلُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) ﴿٣﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ نَاسٍ لَوْ كَرِهْتَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠١) ﴿١٠١﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرَ نَاسٍ الْأَرْضَ بِضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا دُونُ أَكْثَرِهِمْ يَاللَّهُ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١١) ﴿١١﴾.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا بِأَسَاتِيْنَتَا أَوْ هُم قَالُوْنَ﴾ (٦) ﴿٦﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَاتِيْنَتَا أَلَا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) ﴿١﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عَمَلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧) ﴿٧﴾

[أحوال قري أهلك]

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَي: بِمُخَالَفَةِ رِسَالَتِنَا وَتَكْذِيبِهِمْ، فَاعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَأْكَانًا يُنَادَوْنَ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) ﴿١٠﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيْهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا النَّبِيُّ مُعْمِلُهُ وَقَصِيْرٌ مَشِيدٌ﴾ (١٥) ﴿١٥﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا

[بيان وزن الأعمال]

يقول تعالى: ﴿وَأَلْزَمْنَا﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقَّ﴾
أي لا يظلم تعالى أحداً بقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ
فَلَا تظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَا﴾ وكفى بنا حسيدين ﴿١٧﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً
﴿١٨﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٩﴾ فَهُوَ فِي
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٢١﴾ فَأُمُّهُ
كَاسِيَةٌ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَزْوَاجُ مَا هِيَ ﴿٢٣﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿٢٤﴾ وقال
تعالى: ﴿فَلِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَصَابَ يَنْفَعُ يَنْفَعُهُمْ يُؤْمِنُ وَلَا
يُشَاءُ لَوْ كَفَرَ ﴿٢٥﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٦﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

(فصل): والذي يوضع في الميزان يوم القيامة. قيل:
الأعمال وإن كانت أعراساً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة
أجساماً. قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس^(١)، كما
جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة
كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف^(٢). ومن
ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة
شاب صاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن
الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك^(٣). وفي حديث البراء
في قصة سؤال القبر: «يَتَابَى الْمُؤْمِنُ شَابٌ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ
الرَّيْحِ يَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ»^(٤)، وذكر
عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في
الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون
سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا
إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟
فيقول الله تعالى إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة
الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ
الْبِطَاقَةُ»^(٥) رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه، وقيل: يوزن
صاحب العمل كما في الحديث: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ
السَّيِّئِ فَلَا يَرَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ» ثم قرأ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٦)، وفي مناقب عبد الله بن مسعود:

أن النبي ﷺ قال: «أَعْجَبُونَ مِنْ دَقَّةٍ سَاقِيَةٍ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
لَهَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»^(٧) وقد يمكن الجمع بين هذه
الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال
وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها - والله أعلم.
﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٨)

[سائر نعم السماء والأرض خلقت للإنسان]

يقول تعالى: ممتناً على عبدة فيما مكن لهم، من أنه جعل
الأرض قراراً وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها
منازل وبيوتاً وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب
لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش أي: مكاسب
وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسبون أنواع الأسماك
وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله: ﴿وَلَوْ
تَقَدَّرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَشْكُرُونَهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلْهُمَ كَفَّارٌ
﴿٩﴾ وقد قرأ الجميع «مَعِيشَةً» بلا همز إلا عبد الرحمن بن
هرمز الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه الأكثرون
بلا همز، لأن معاش جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً
ومعيشة أصلها معيشة، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت
إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء
لزوال الاستثقال فقل معاش ووزنه مفاعل؛ لأن الياء
أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع
مدينة وصحيفة وبصرة من مدن وصحف وأبصر، فإن الياء
فيها زائدة، ولهذا تجمع على فاعل وتهمز لذلك، والله أعلم.
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَوَّيْكَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٠)

[قصة سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس]

يبنه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين
لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم
ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال
تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

(١) البغوي: ١٤٩ / ٢. (٢) مسلم: ٥٥٣ / ١.

(٣) ابن ماجه: ١٢٤٢ / ٢. (٤) أحمد: ٢٨٧ / ٤.

(٥) تحفة الأحوذى: ٣٩٥ / ٧. (٦) فتح الباري: ٢٧٩ / ٨.

(٧) أحمد: ٤٢٠ / ١.

والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.
وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله
ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ،
وَخُلِقَ آدَمُ يَمًّا وَصِفَ لَكُمْ»^(١).

[أول من قاس إبليس]

وروى ابن جرير عن الحسن في قوله: «خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ»^(٢) قال: قاس إبليس وهو أول من قاس،
إسناده صحيح، وروى عن ابن سيرين، قال: أول من قاس
إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس^(٣) إسناد
صحيح أيضًا.

«قَالَ فَأَهْطِ مِنْهَا فَمَا بَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ»
«قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»^(٤) «قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»^(٥)
يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قاري كوني: «فَأَهْطِ مِنْهَا» أي:
بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي فما يكون لك
أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة
ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزل التي هو فيها في الملكوت
الأعلى «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ»^(٦) أي: السدليلين الحقيرين،
معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك
استدرك العين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: «أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ»^(٧) «قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»^(٨) أجابه تعالى إلى ما سأل، لما
له في ذلك من الحكمة والإرادة المشيئة التي لا تخالف ولا
تتعارض، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

«قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٩) ثُمَّ
لَا يَنْصُرُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ
وَأَسْمَائِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»^(١٠)

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس: «إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»^(١١) واستوثق
إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: «فِيمَا آغَاوَيْتَنِي
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»^(١٢) أي: كما آغويتني، قال ابن
عباس: كما أضللتني^(١٣)، وقال غيره: كما أهلكني لأقعدن
عبادك الذين تحلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على
«صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ»^(١٤) أي: طريق الحق وسبيل النجاة،
لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك

لَا تَدْرِي فَسَجَدُوا ۖ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ قَالَ رَبُّكَ لِمَلَأْتُكِ
فِي خُلُقِكُمْ بِنُكْرًا مِنْ صُلُحِكُمْ مِنْ حِلْمٍ مُسْتَوِينَ»^(١٥) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(١٦) وذلك أنه تعالى لما
خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب، وصوره بشرًا
سويًا، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا
لشأن الربّ تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس
لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس في أول
تفسير سورة البقرة.

فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه
أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في
زمن النبي ﷺ: «وَلَلَّكُنَا عَلَيْكُمْ أَقْنَامًا وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْكَمَنَ
وَالْأَلْوَكَّ» والمراد آبائهم الذين كانوا في زمن موسى،
ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه
واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ سَلْسَلَةٍ مِنْ طِينٍ»^(١٧) الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من
السلسلة، وذريته مخلوقون من نقطة، وصح هذا؛ لأن المراد
من خلقنا الإنسان الجنس لا معينا، والله أعلم.

«قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىَّ فَسَجِدْ لِأَمْرِكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(١٨)

قوله تعالى: «مَا مَنَّكَ عَلَىَّ فَسَجِدْ» تقديره ما أخرجك والزمك
واضطرلك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، قاله ابن جرير
وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس - لعنه الله -
«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من
الطاعة؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني: لعنه
الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه
بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر
اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى الشريف العظيم، وهو أن
الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا
في مقابلة نص قوله تعالى: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(١٩) فشذ من
بين الملائكة لترك السجود فهذا أبلس من الرحمة أي: أيس من
الرحمة فأخطأ، قبحه الله في قياسه، ودعواه أن النار أشرف من
الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزاة والحلم والأناة والثبوت،
والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من
شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره
ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد

(١) مسلم: ٤ / ٢٢٩٤. (٢) الطبري: ١٢ / ٣٢٨.

(٣) الطبري: ١٢ / ٣٢٨. (٤) الطبري: ١٢ / ٣٣٢.

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ يَتَعَكَّ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ ﴾

جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرده والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى، بقوله: ﴿ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا ﴾ قال ابن جرير: أم المذموم فهو العيب، والذام غير مشدد: العيب يقال: ذامه يذامه ذامًا فهو مذموم، ويتركون الهمة فيقول ذمته أذيت ذينًا وذامًا، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال والمدحور المقصي، هو المبعد المطرود ^(٧).

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحدًا ^(٨). وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: ﴿ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا ﴾ قال: مقبلاً ^(٩)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صغيراً مقبلاً ^(١٠) وقال السدي مقبلاً مطروداً ^(١١)، وقال قتادة: لعيناً مقبلاً ^(١٢)، وقال مجاهد: منقياً مطروداً ^(١٣) وقال الربيع بن أنس: مذمومًا منقياً والمدحور للصغر ^(١٤). وقوله تعالى: ﴿ لَمَنْ يَتَعَكَّ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿١٨﴾ قوله: ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَتَعَكَّ مِنْهُمْ فَلَتْ جَهَنَّمَ حَزَاؤُكَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴾ ^(١٥) وَأَسْتَفْزِدُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتُكَ وَأَجَلْتُ عَلَيْهِمْ بِخِيَاكَ وَرَجَلْتُكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ رِمَا يِعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ لِأَعْرُورًا ^(١٦) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.

﴿ وَيَتَذَكَّرُ أَسْكَنُ أَمْتُ وَرَبُّكَ أَلْحَنُ فَكُلًا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَنْزَا هَكَذَا الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١٧) فَوَسَّوْا لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُذِي لَهَا مَا وَرَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا وَقَالَ مَا تَهْكُمُ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ لَكَ وَلَكِنَّ لَكَ لَأُولَئِكَ لَكُمْ أَتَى لَكُمْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ

[مكر الشيطان مع آدم وحواء وأكلهما من الشجرة]

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة

إياي. قال مجاهد: ﴿ صِرْطُكَ الْمَسْجُومُ ﴾ ^(١٨) يعني: الحق. روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبي الفاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَابِنِ آدَمَ يَطْرُقُهُ، فَقَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَسْلِمْتُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ قَالَ: فَعَصَا فَأَسْلَمَ» قال: «قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْحِجْرَةِ فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ، فَعَصَا وَهَاجَرَ ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَقَالَ: فَتَقَابَلُ فَتَقْتُلُ فَتَنْكُحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسِّمُ الْمَالَ قَالَ فَعَصَا وَجَاهَدَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ قَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَمَاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ عَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَّتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» ^(١٩) وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَلْبِثُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ ثُمَّ لَا تَلْبِثُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وَعَنْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أشهي لهم المعاصي ^(٢٠).

والمراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه والشر يُجِبُّه لهم. وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَلْبِثُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ولم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم ^(٢١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ^(٢٢) قال: موحدين ^(٢٣)، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢٤) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢٥﴾ ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها.

كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يسمي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» قال وكيع: من تحتي يعني: الخسف ^(٢٦)، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(١) أحمد: ٣ / ٤٨٣. (٢) الطبري: ١٢ / ٣٣٨.

(٣) الطبري: ١٢ / ٣٤١. (٤) الطبري: ١٢ / ٣٤٢.

(٥) أحمد: ٢ / ٢٥.

(٦) أبو داود: ٥ / ٣١٥ والنسائي: ٨ / ٢٨٢ وابن ماجه: ٢ / ١٢٧٣ وابن حبان: ٢ / ١٥٥ والحاكم: ١ / ٥١٧.

(٧) الطبري: ١٢ / ٣٤٢. (٨) الطبري: ١٢ / ٣٤٤.

(٩) الطبري: ١٢ / ٣٤٤. (١٠) الطبري: ١٢ / ٣٤٣.

(١١) الطبري: ١٢ / ٣٤٣. (١٢) الطبري: ١٢ / ٣٤٣.

(١٣) الطبري: ١٢ / ٣٤٣. (١٤) الطبري: ١٢ / ٣٤٤.

إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله^(١). وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه^(٣).

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٤) قَالَ فِيهَا حَيَوْنٌ وَفِيهَا تَمَوُّثُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ^(٥).

[إهبطوا إلى الأرض]

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبِطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿أَهْبِطْ مِنْهَا جَعِيمًا﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسوله ﷺ، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٦) أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول. وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمَوُّثُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾^(٧) كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾^(٨) يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها يحياهم وفيها يماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويمجزي كلًا بعمله.

﴿يَتَنَبَّأُ عَادِمٌ قَدْ أَتَىٰكَ عَبْدُكَ لِبَاسٌ يُؤْذِي سَوْءَ كَيْدٍ وَرَيْشًا وَإِبْلِيسَ

النَّفْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ مَّا نَسِيَ اللَّهُ نَعْلَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٩)

[إزال اللباس والريشة]

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس المذكور ههنا لستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات

أن يأكل منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والسوسة والخديعة، ليسلبيهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وَقَالَ كَذِبًا وَاِفْتِرَاءً﴾^(١٠) مَا يَكْفُرُ بِكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَي لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكِي لَا يَبُلُ﴾^(١١) كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾^(١٢) أي لئلا تضلوا ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(١٣) أي لئلا تميد بكم ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾^(١٤) أي حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكَا لَيِّنٌ النَّاصِيحُ﴾^(١٥) فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يتجدد المؤمن بالله، وقال لقادة في الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فالتعالي أرشدكما.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رَيْبًا أَنْ تَنْهَكَا عَنْ يَمِينِكَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنْ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوًّا ذِيًّا﴾^(١٦) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٧)

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان آدم رجلًا طويلاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيها وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هاربًا في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمي تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك^(١٨). وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق، عن الحسن عن أبي ابن كعب عن النبي ﷺ مرفوعًا^(١٩)، والموقوف أصبح إسنادًا.

وعن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^(٢٠) قال: ورق التين^(٢١). صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلتا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهية الثوب^(٢٢)، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾^(٢٣)، قال: كان لباس آدم وحواء نورًا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلتا من الشجرة بدت لهما سواتهما^(٢٤)، رواه ابن جرير بسند صحيح إليه، وروى عبد الرزاق عن قتادة، قال: قال آدم: أي رب أرايت إن تبت واستغفرت، قال: إذن أدخلك الجنة، وأما

(١) الطبري: ١٢ / ٣٥٤. (٢) الطبري: ١٢ / ٣٥٢.

(٣) الطبري: ١٢ / ٣٥٤. (٤) الطبري: ١٢ / ٣٥٣.

(٥) الطبري: ١٢ / ٣٥٥. (٦) عبد الرزاق: ٢ / ٢٢٦.

(٧) الطبري: ١٢ / ٣٥٧.

ليستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدو بفضه أو كله

وما بدا منه فلا أحل

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدئوا به من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَأَمَّا قَوْلُ الْفَحْشَاءِ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

[إن الله لا يأمر بالفحشاء، بل بالقسط والإخلاص]

فقال تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُلْ أَيُّ مَعْصِيَةٍ أَمَرْتُ بِأَنْ يَأْتُوا بِهَا﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكروها، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٨) أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَسَأَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله وما جاؤوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشرعة وأن يكون خالصاً من الشرك.

[مفهوم البدء والعودة]

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (١٩) إلى قوله: ﴿الضَّلَالَةَ﴾ يختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٠) فقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢١) يحْيِيكُمْ بعد موتكم (٢٢). وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء (٢٣). وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٤) قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم يعيدهم (٢٥). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرًا (٢٦). واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه عن ابن عباس، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى

والريش من التكملات والزيادات، قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب (٢٧).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى (٢٨).

﴿يَسَىءَ دَمٌ لَا يَقِينُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَبْرُؤُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَبْدُوَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٩)

[التحذير من فتنة الشيطان]

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيّناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَنَسْتَدِينُهُ وَذَرَيْتُهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٣٠).

﴿وَأَمَّا قَوْلُ الْفَحْشَاءِ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣١) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٣٢) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُنْتَصَرُونَ (٣٣)

[عمل الكفار الفاحشة ونسبتها إلى الله]

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة. يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على فرجها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بفضه أو كله

وما بدا منه فلا أحل (٣٤)

فأنزل الله: ﴿وَأَمَّا قَوْلُ الْفَحْشَاءِ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية، قلت: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصا الله فيها، وكانت قريش وهم الخمس يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحسب ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحسب ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً

(١) الطبري: ١٢ / ٣٦٤. (٢) الطبري: ١٢ / ٣٦٨.

(٣) الطبري: ١٢ / ٣٧٧. (٤) الطبري: ١٢ / ٣٨٥.

(٥) الطبري: ١٢ / ٣٨٥. (٦) الطبري: ١٢ / ٣٨٥.

(٧) الطبري: ١٢ / ٣٨٥.

لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائها وأحكامها في هذه الآية الكريمة^(٩).

﴿يَسْجُدْ سَاجِدًا خَدُّوْا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١٠)

[الأمر بالتجمل عند الذهاب إلى المساجد]

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه، من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير - واللفظ له - من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعرضه أو كله

وما بسدا منه فلا أحله^(١١)

فقال الله تعالى: ﴿خَدُّوا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿خَدُّوا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس وهو ما يوارى السوء وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد^(١٢)، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك، ومالك عن الزهري^(١٣)، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، وهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة - ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد - والطيب، لأنه من الزينة والسواك، لأنه من تمام ذلك.

(١) الطبري: ١٢ / ٣٨٦.

(٢) فتح الباري: ٦ / ٤٤٥ و ٨ / ١٣٥ ومسلم: ٤ / ٢١٩٤.

(٣) الطبري: ١٢ / ٣٨٢. (٤) فتح الباري: ١١ / ٤٨٦.

(٥) فتح الباري: ٣ / ٢٩٠ ومسلم: ٤ / ٢٠٤٧.

(٦) مسلم: ٤ / ٢١٩٧. (٧) مسلم: ١ / ٢٠٣.

(٨) فتح الباري: ٣ / ٢٦٧ ومسلم: ٤ / ٢٠٣٩.

(٩) الطبري: ١٢ / ٣٨٨.

(١٠) مسلم: ٤ / ٢٣٢٠ والنسائي في الكبرى: ٦ / ٣٤٥.

والطبري: ١٢ / ٣٩٠.

(١١) الطبري: ١٢ / ٣٩١. (١٢) الطبري: ١٢ / ٣٩٢ - ٣٩٤.

لَهُ خُفَاءُ عُرَاةٌ غُرُلَا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا نَاعِلِينَ^(١) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٢).

وقال علي بن ابن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا نَاعِلِينَ﴾^(٣) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ زَكَرًا وَكَافَرًا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مؤمناً وكافراً^(٤)﴾. قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «قَوْلُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْنِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَذَلُّهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْنِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَذَلُّهَا^(٥)».

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَوَدَاءُ يَهُودَ فَإِسْرَائِيلَ وَيُنَصْرَانِيَّةَ وَيُمَجْسَانِيَّةَ^(٦)».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ فَاجْتَالَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ^(٧)» الحديث، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ زَكَرًا وَكَافَرًا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مؤمناً وكافراً﴾ وفي الحديث: «كُلُّ النَّاسِ يَبْتَلُو، فَبِتَابِغِ نَفْسَهُ فَمُعِيقُهَا أَوْ مُوَفِّقُهَا^(٨)» وقدر الله نافذ في برته، إنه هو ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾^(٩) ﴿وَالَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾^(١٠) وفي الصحيحين: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَبِّحُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُسَبِّحُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ^(١١)» ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ الشَّيْطَانِ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، قال ابن جرير: وهذا من أين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه صواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها؛ لأنه لو كان كذلك

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ (٢٣)﴾

[الحرام هو الفواحش والإثم والبغي

والشرك والافتراء على الله]

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُنْخُ مِنْ اللَّهِ»^(٩) أخرجه في الصحيحين^(١٠) وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام وقوله: «وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» قال السدي: أما الإثم فالمعصية والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق^(١١). وقال مجاهد، الإثم المعاصي كلها وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه^(١٢)، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا، وقوله تعالى: «وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا» أي: تجعلوا له شركاء في عبادته «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ (٢٣)» من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولذا ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقول:

﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الآية.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٢٤)﴾ يعني آدم إماماً يائسكم رُسُلٌ وَمَنْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِيٌّ فَمَنْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٥) وَالَّذِينَ كَذَبُوا عَائِيَّتَنَا أَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

يقول تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ» أي قرن وجيل «أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ

(١) أحمد: ١ / ٢٤٧.

(٢) أبو داود: ٤ / ٣٣٢ وتحفة الأحوذفي: ٧ / ٧٢ وابن ماجه:

٤٧٣ / ١.

(٣) فتح الباري: ١٠ / ٢٦٤. (٤) الطبري: ١٢ / ٣٩٤.

(٥) أحمد: ٤ / ١٣٢.

(٦) الترمذي: ٢٣٨٠ والنسائي في الكبرى: ٤ / ١٧٨.

(٧) الطبري: ١٢ / ٣٩٤. (٨) الطبري: ١٢ / ٣٩٥.

(٩) أحمد: ١ / ٣٨١.

(١٠) فتح الباري: ٩ / ٢٣٠ ومسلم: ٤ / ٢١١٤.

(١١) الطبري: ١٢ / ٤٠٣. (١٢) الطبري: ١٢ / ٤٠٣.

ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ بَيَاضِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفَفُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنْ خَيْرَ أَكْحَالِكُمْ إِلَّا نِمْدُ، فَإِنَّهُ يَخْلُو الْبَصَرَ وَيَنْتِ الشَّعْرُ»^(١). هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢).

[النهى عن الإسراف في المطعم والملبس]

وقوله تعالى: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا» الآية، وقال البخاري قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة^(٣). وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة^(٤). إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معديكرب الكندي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقِمِّنَ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا عَمَلَةَ، فَتَلَّتْ طَعَامُ، وَتَلَّتْ شَرَابُ، وَتَلَّتْ لِنَفْسِهِ»^(٥). ورواه النسائي والترمذي^(٦)، وقال الترمذي: حسن وفي نسخة: حسن صحيح.

وقال عطاء الخراساني: عن ابن عباس قوله: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)» في الطعام والشراب^(٧). وقال ابن جرير: وقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)» يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدين حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يجب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به^(٨).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾

يقول تعالى ردّاً على من حرم شيئاً من المأكّل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يجرمون ما يجرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حبّاً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة عزمة على الكافرين.

وَأَسْرُوا الدَّمَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ يَجْزَى الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ يَجْزَى الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

[المكذبون لا تفتح لهم أبواب]

السما ولا يدخلون الجنة أبداً]

قوله: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس^(١)، وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس^(٢). وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٣)، وقاله السدي وغير واحد^(٤)، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء [قال]: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون فلان بأفيع أسائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية^(٥). هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه^(٦).

وقد قال ابن جريج في قوله: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم^(٧) وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود، هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية زوج الناقة^(٨) وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها (حتى يليج الجمل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم، يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة^(٩). وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال: الفرش «وَمِنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ» قال: اللحف^(١٠) وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي^(١١) وَكَذَلِكَ يَجْزَى الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ لَهُمْ قَسَا إِلَّا وَسْمُهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَزَعْنَا مَا فِي

صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

[بيان مال الصالحين وأحوالهم]

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، ونبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ لَهُمْ قَسَا إِلَّا وَسْمُهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ أي من حسد وبغض، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَأَقْبَضَ لَهُمْ مِطْأَةً كَانَتْ بَيْنَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَلَّوْا وَتَقَوَّأُوا أَوَّلَ مَنْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ يَمْنُرُهُ فِي الْجَنَّةِ أَذَلَّ مِنْهُ بِمَسْكُوئِهِ كَمَا فِي الدُّنْيَا»^(١٢) وقال السدي في قوله: ﴿وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية، إن أهل الجنة إذا سفيروا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشرىوا من إحداها فيتزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النسيم فلم يشعوا ولم يتسخوا بعدها أبداً^(١٣).

روى النسائي وابن مردويه - واللفظ له - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ»^(١٤) ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا

(١) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣، (٢) الطبري: ٤٢٢/١٢.

(٣) الطبري: ٤٢٢/١٢، (٤) الطبري: ٤٢٢/١٢.

(٥) الطبري: ٤٢٤/١٢.

(٦) أبو داود: ١١٤/٥ والنسائي: ٧٨/٤ وابن ماجه: ١/٩٩٤.

(٧) الطبري: ٤٢٣/١٢، (٨) الطبري: ٤٢٨/١٢.

(٩) الطبري: ٤٣١/١٢، (١٠) الطبري: ٤٣٦/١٢.

(١١) الطبري: ٤٣٦/١٢، (١٢) فتح الباري: ١١٥/٥.

(١٣) الطبري: ٤٣٩/١٢، (١٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦.

كافرون أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَوَدَّوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

[الأعراف وأصحابها]

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه:

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٦﴾﴾ وهو الأعراف. الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴿١٦﴾﴾ ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو السور، وهو الأعراف ^(١) وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار، سور له باب ^(٢)، قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرْف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه.

وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس ^(٣)، وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله، وروى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم ^(٤).

وقال معمر عن الحسن إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم ^(٥). وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع ^(٦). وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال الضحاك عن ابن

﴿إِنْ يَنْتَظِرُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: بسبب أنكم أنتم الجنة أورشتموها بما كنتم تعملون ^(٧)، أي: بسبب أنكم أنتم الجنة الرحمة، فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازل لكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ^(٨) أنه قال: «وَاغْلُمُوا أَنْ أَحَدَكُمْ لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» ^(٩).

﴿وَرَأَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَأَنهَلُوا بِهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذَنْ مَوَّزَنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿١٨﴾﴾

[لأهل جهنم حسرة فوق حسرة]

نحبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقرير والتوبيخ والاستقراء في منازلهم ﴿إِنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ أن ههنا حسرة للقول المحذوف «وقد» للتحقيق أي: قالوا لهم: «قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ» كما أخر تعالى في سورة الصافات عن النبي الذي كان له قرين من الكفار ﴿فَاتَّخَذَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَمُوْنِ ﴿٢٠﴾﴾ وَلَوْلَا بَيْعَتُهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢١﴾﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ ﴿٢٢﴾﴾ أَلَمْ نُنَبِّئُكَ الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بها صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُبْتَغُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أَصَلُّوْهَا مُصِرَّةً أَوْ لَا تَصِيرُ أَوْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وكذلك قرع رسول الله ﷺ قلى القلب يوم بدر فنادى يَا أَبَا نُجَلٍ بْنُ هِشَامٍ، وَيَا غُنَيْمُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وسمى رؤسهم - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فإني وجدت ما وعظمني رأيي حَقًّا، وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قومًا قد جفروا؟ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِي أَقُولُ مِنْهُمْ، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا» ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَنْ مَوَّزَنَ بَيْنَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ أي أعلم معلم ونادى مناد أن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويغنون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد منهم بِالْآخِرَةِ كُفُورُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي وهم بقاء الله في الدار الآخرة

(١) فتح الباري: ١١ / ٣٠٠ ومسلم: ٤ / ٢١٧٠.

(٢) مسلم: ٤ / ٢٢٠٣. (٣) الطبري: ١٢ / ٢٤٩.

(٤) الطبري: ١٢ / ٤٤٩. (٥) الطبري: ١٢ / ٤٥١.

(٦) الطبري: ١٢ / ٤٤٩. (٧) الطبري: ١٢ / ٤٥٣.

(٨) عبد الرزاق: ٢ / ٢٣٠. (٩) الطبري: ١٢ / ٤٦٥.

وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْفَخُ ﴿١٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ كَمَا نَسِفْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَوْمَئِذٍ هَذَا﴾ وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسَوْنَا الْفِتَّةَ يَوْمَئِذٍ هَذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا اللقاء يومهم هذا، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «أَلَمْ أَرْزُوكَ؟ أَلَمْ أُخْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَنْزَلَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟» فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَطَعْتَ أَمْرًا مُلَاقِيًّا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتِي، ﴿١٨﴾ وَكَلَعَدَّ جَنَّتَهُمْ يَكْتَبُ فَصَلَّتْهُ عَنْ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ يَقُومُ يَوْمَئِذٍ ﴿١٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كُنُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾

لا مجال للمشركين للاعتذار

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كَتَبْنَا نُحْمَةً لِّأَنفُسِكُمْ فَصَنَعْنَا آيَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَنَعْنَا عَلَى غَيْرِ﴾ أَي: على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِ الْكِتَابَ﴾ والمقصود أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أراح علمهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿٢١﴾ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أَي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد ﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أَي يوم القيامة قال ابن عباس ﴿٢٣﴾ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كُنُوا مِن قَبْلُ﴾ أَي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أَي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كقوله:

عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. ﴿٢٤﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَحِمًا لَا يَمُرُّونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أَهْوَلُكَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتْلُوهُمْ إِلَّا رَحْمَةُ دُخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢٦﴾

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريب أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسياهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي كثرنكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُتَّقُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْوَلُكَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتْلُوهُمْ إِلَّا رَحْمَةُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أصحاب الأعراف ﴿دُخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّبَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْنَا الْفِتَّةَ يَوْمَئِذٍ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣١﴾

[نعيم الجنة حرام على أهل النار]

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني الطعام ﴿٣٢﴾. وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت فأفرض علي من الماء فيقال لهم: أجيئوهم فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ يعني: طعام الجنة وشراها. ﴿٣٥﴾

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا بائخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْنَا الْفِتَّةَ يَوْمَئِذٍ هَذَا﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿٣٦﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿سُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْتَ لَنَا فَنَسِينَا﴾

(١) الطبري: ١٢ / ٤٦٣. (٢) الطبري: ١٢ / ٤٦٩.

(٣) الطبري: ١٢ / ٤٧٣. (٤) الطبري: ١٢ / ٤٧٤.

(٥) الطبري: ١٢ / ٤٧٤. (٦) مسلم: ٤ / ٢٢٧٩.

(٧) الطبري: ١٢ / ٤٧٩. (٨) الطبري: ١٢ / ٤٧٩.

تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

[الليل والنهار من آيات الله]

وقوله تعالى: ﴿يُنشِئُ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا أي سريعًا لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٠) كقوله: ﴿لَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي أينما وجدته ومشيتته ولهذا قال منها ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣١) كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الآية.

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعًا: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ».

﴿أَعُوذُ بِكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِثُّ الْمُتَعَدِّينَ﴾ (٣٢) وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِسْلَامِهَا وَأَعِزُّهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٣)

[الترغيب في الدعاء]

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم

﴿وَأَنْزَلَ إِذْ يُوقِفُ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ تَابِينَ﴾ (٣٤) بَلْ بَدَأْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَأَنْهُمْ لَكَاذِبُونَ (٣٥) ﴿كَمَا قَالَ هَئِنَّا: ﴿قَدْ خَسِرْنَا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَي خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمْ النَّارَ وَخَلُّوهُمْ فِيهَا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٧) ﴿أَي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْتَخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٨)

[خلق الكون في ستة أيام]

بحر تعالى أنه خلق العالم سبواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كالف سنة كما نص على ذلك مجاهد (١) والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية لصحاح عن ابن عباس، فأما يوم السبت وهو القطع. روى له البرم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللَّهُ الثُّرَيَّةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجَبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْكَرْوَةَ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدُّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ» (٢).

[تفسير الاستواء]

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا

في دنياهم وأخراهم فقال: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه تذللًا واستكانة، وخفية كقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْزُقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ الحديث. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللًا واستكانة لطاعته ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهراً مراعاة (٢)

[النهي عن الاعتداء في الدعاء]

ثم روي عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره . وقال أبو جليز (٤) ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء . وروى الإمام أحمد عن أبي نعمة أن عبد الله ابن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعُدْ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ﴾ وهكذا رواه ابن ماجه وأخرجه أبو داود . وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

[النهي عن الإفساد في الأرض]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً مما عنده من ويل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ثم قلنا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مَنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، وقال: قريب ولم يقل قريبة؛ لأنه ضمّن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلها قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم . ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا

أَقْلَّتْ سَحَابًا فَلَا سَفْتَهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا بُحْرًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَثَرِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥)

[من آيات الله أنه ينزل المطر ويخرج الثمر]

لما ذكر تعالى أنه خالق السماوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر. نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ تَنْشُرًا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ: ﴿بُشْرًا﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين المطر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَكِيمُ﴾ (٦) وقال: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى مَائِكَرِنِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْثَلِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧) وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِظِلَالٍ﴾ أي: حملت الرياح سحاباً فقال: أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض ملهمة.

وقوله: ﴿سَفْتَهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة مجلبة لا نبات فيها كقوله ﴿وَأَيُّهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ الْغَيْثَةُ أَحْيَيْتُهَا﴾ الآية ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيا الأجساد بعد صيرورتها رمياً يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً؛ فتنبث منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله ﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا بُحْرًا﴾ قال مجاهد وغيره كالسباح (٨) ونحوها.

(١) فتح الباري: ١١/١٩١، ومسلم: ٤/٢٠٧٦.

(٢) الطبري: ١٢/٤٨٥. (٣) الطبري: ١٢/٤٨٦.

(٤) الطبري: ١٢/٤٨٦. (٥) أحمد: ٥/٥٥.

(٦) ابن ماجه: ٢/٢١٧١، وأبو داود: ١/٧٣.

(٧) ابن أبي حاتم: ٥/١٥٠١. (٨) الطبري: ١٢/٤٩٧.

التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وَإِنَّا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۝١٣﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍ قَدِيمٌ ۝١٤﴾ إلى غير ذلك من الآيات ﴿قَالَ يَنْفَرُوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٥﴾ أي: ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب العالمين رب كل شيء ومليكه ﴿أَتُفْلِكُمْ رَسُولًا لَيْسَ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَعَلَّكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا بالله لا يدرهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء [ويُنكِهها] عليهم ويقول: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» (٢).

﴿أَوْعِظْتُمْ أَنْ جَاءَ كُرٌّ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى نَجْلِ مِنْكُمْ لِيُذْهِبَكُمْ وَلِيُفْنِقُوا وَلِتُلَكَّرَ رُحُومٌ ۝١٧﴾ فكذبوه فأبغضته والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتِنا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ۝١٨﴾ يقول تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه ﴿أَوْعِظْتُمْ﴾ الآية، أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ولتلقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلِتُلَكَّرَ رُحُومٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر ﴿فَأَبْغَضْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفينة كما قال: ﴿فَأَبْغَضْتَهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَغْرَقُوا فَاذْخُلُوا فَاكْفَرُوا فَلَئِنْ جِئْتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَادًا ۝١٩﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ۝٢٠﴾ أي: عن الحق لا يصرونه ولا يهتدون له فين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية.

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين. وقال ابن وهب: بلغني عن

وروي البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهَدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيبَةٌ قَلِيلَتِ الْمَاءُ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَّا وَالشُّبَّ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَتَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَفَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا فِيهَا قِيعَانٌ لَا تَمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ قَفَّ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» (١).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٢﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣﴾ أَتُفْلِكُمْ رَسُولًا لَيْسَ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَعَلَّكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٤﴾

[قصة نوح وقومه]

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما اتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد ابن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين وذاً وسواهاً ويغوث ويعوق ونسراً فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة- رسوله نوحًا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ لَضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام

بِرِّيَّ سَمَّا شُرُكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذُوبِي جَمِيعًا ثَمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾
إِنِّي نَوَّكَتُ عَلَى اللَّهِ رَقِيَّ وَرَكَتُكَ مَآئِينَ دَائِمَةٍ إِلَّا هُوَ أَخِذْ بِصَاحِبِيهَا إِن رَقِيَّ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ (٢)

[قصة وافد عاد]

وروى الإمام أحمد عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو
العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالريذة فإذا
بعجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى
رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها
فاتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق،
وإذا بلال مقلد سيقاً بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن
الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال
فجلست فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه فأذن
لي فدخلت وسلمت فقال: «هَلْ يَنْتَحِمُ وَيَنْ تَمِيمُ شَيْءٌ؟» قلت:
نعم وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم
منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب، فأذن لها
فدخلت، فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم
حاجزاً فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت،
وقالت: يا رسول الله فإلى أين [تضطر مضرَك؟] قال: قلت:
إن مثلي مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها» حملت هذه
ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون
كوافد عاد قال لي: «وَمَا وَافِدٌ عَادٌ؟» وهو أعلم بالحديث منه
ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال
له: قَيْلٌ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر
وتغنيه جارتان يقال لهما: الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى
جبال مَهْرَةَ. فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجد إلى مريض
فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه،
فمرت به سحابات سود فتودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة
منها سوداء فتودي منها: خذها رماذاً رمدداً، لا تبق من عاد
أحداً قال: فلما بلغني أنه بُعِثَ عليهم من الريح إلا قدر ما
يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق. قال:
وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد
عاد». هكذا رواه الإمام أحمد في المسند (٣)، ورواه الترمذي

يعدون أصناماً فصنم يقال له: صُدَاء. وآخر يقال: صمود.
وآخر يقال له: الهباء ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَفَّقَ
عَيْنَكُمْ مِنْ رَيْبِكُمْ رَجَسٌ وَعَظْبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم
بمفالتكم هذه من ريبكم رجس قيل: هو مقلوب من رجز وعن
ابن عباس معناه سخط وغضب ﴿أَتَجِدُونَنِي فِي تَأْسَمَلَوْ
تَمَيَّنْتُمْهَا أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي
سميتموها أنتم وأبائكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل
الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ
بَيْنَ يَدَيْنَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وهذا
تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله.

[مصير قوم عاد]

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَذْرَبْنَا مَعَهُ رِجْمَتَهُ وَمَا وَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا
فَإِنَّا لَنَازِلُونَ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦). وقد ذكر الله سبحانه صفة
إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح
العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم كما قال في
الآية الأخرى ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوهُمْ بِرِيحٍ مَرَصْرَمَةٍ عَلَيْهِمْ ﴿٢٧﴾
سَخَرْنَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَكُنُوزُهُمْ آتَايَهُمْ خُشُوعًا فَزَعَى الْقَوْمُ فِيهَا
مَرْحًا كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُغْلَى خَاوِيَةٌ ﴿٢٨﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٢٩﴾ مَا
فَرَدُوا رَعْتُوا أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ
مَعَهُ فَرَفَعَهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تَنَكَّسَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتُثَلِّغُ رَأْسَهُ حَتَّى
لَبِثَهُ مِنْ جِثَّتِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُغْلَى خَاوِيَةٌ﴾، وقال
عبد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضر
موت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها
بفضل قوتهم التي آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها
من دُونِ اللَّهِ فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام وهو من
أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدا الله ولا
يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه
وكذبوه وقالوا: من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس، وهم يسير
يكونون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في
الأرض الفساد وتجبروا وبناو بكل ريع آية عتياً بغير نفع
كلهم هود فقال: ﴿أَتُنْبِئُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَاءٍ تَنْبُتُونَ ﴿٣٠﴾ وَتَنْجُدُونَ
مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٣٢﴾ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٣٣﴾﴾ ﴿قَالُوا يَا هُوَذَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
الْإِلَهِينَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ
بَعْثٌ مِّنَ آلِهَتِنَا يُسْوِوهُ﴾ أي بجنون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآلِهَتُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

(٢) الطبري: ١٢/٥٠٧.

(١) الطبري: ١٢/٥٢٢.

(٣) أحمد: ٣/٤٨٢.

وَلَكِنَّ الْغُفَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ

تَوَلَّوْا بَعْدَ رَشْدِهِمْ ذُنُوبًا

وأقامت الناقة وفصلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة
تشرب من ثراها يوماً وتدعه لهم يوماً وكانوا يشربون لبنها يوم
شربها يجلبونها فيملؤن ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيتهم كما قال
في الآية الأخرى: ﴿وَيُنَبِّئُهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾^(١٨)
وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ آلِ يَثْرِبَ وَلَكِنْ شَرِبْتُمْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾^(١٩)
وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره
ليسعها؟ لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقاً
مثلاً ومنظراً رائعاً إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم
ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها
ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال
فأذنه: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها
حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان^(٢٠) قلت: وهذا هو
الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾^(٢١)، وقال: ﴿وَأَنبَأْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ بِمُبِيرَةٍ
نَظَلُّوهُمُ بِهَا﴾ وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فاستند ذلك على مجموع
القبلة فدل على رضا جميعهم بذلك والله أعلم.

[قتل الناقة]

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن
سبب قتل الناقة أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز
ركبت أم غنم كانت عجوزاً كافرة وكانت من أشد الناس
عداوةً لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل
وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى
يقال لها: صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا ذات حسب ومال
وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقت فكانتا يجعلان
لن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب،
فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم
لها يقال له: مصدع بن مخرج بن المحيا فأجابه إلى ذلك ودعت
عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جندع وكان رجلاً أحر أزرق
قصيراً يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب
إليه وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له صهياد ولكن ولد
على فراش سالف. وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن
تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف، ومصدع بن مخرج
فاستغويا غواة من ثمود فاتبعها سبعة نفر فصاروا تسعة رهط

وهم الذي قال الله تعالى: ﴿وَكُنْتَ فِي الْأَدْبَةِ تَسْعَةً رَهْطٍ
يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٢٢) وكانوا رؤساء في
قومهم فاستألوا القبيلة الكافرة بكملها فطاعوهم على ذلك
فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء، وقد كمن لها
قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع
في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به
عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من
أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها لقدار وذمرت وشدت على
الناقة بالسيف فكسفت عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض
ورغت رعاة واحدة تحذر سقبتها ثم طعن في لبثها فنحرها
وانطلق سقبتها وهو فصلها حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى
صخرة فيه ورغاً^(٢٣) فروى عبد الرزاق عن معمر عن سمع
الحسن البصري أنه قال: يا رب أين أمي، ويقال إنه رغا ثلاث
مرات وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال بل اتبعوه ففقروه
مع أمه^(٢٤) فالله أعلم، فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة
وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى
الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الآية.

[محاولة المفسدين بقتل صالح وبلدية العذاب]

بهم، ثم نزول العذاب على ثمود

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة
الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه
قبلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿قَالُوا تَنَاسَوْا بِاللَّهِ لَئِنْ سَأَلْتُمْ
وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَتَقُولُنَّ لَوْلِيهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٢٥)
﴿وَمَكْرُوهٌ مَكْرًا وَمَكْرُوهٌ مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢٦)
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الآية، فلما عزموا على
ذلك وتواطؤوا عليه وجأؤوا من الليل ليفتكوا ببني الله،
فأرسل الله سبحانه وتعالى -وله العزة ولرسوله- عليهم
حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود
يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم
مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم
الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم حمرة،
وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت
ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا

(١) الطبري: ١٢/٥٣٧.

(٢) الطبري: ١٢/٥٣١.

(٣) عبد الرزاق: ٢/٢٣١.

يَسْمَعُ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُحِبُّونَ^(٤).

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكَ﴾ أي: فلم تتفعلوا بذلك: لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ^(٥) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ^(٦)﴾

[قصة لوط عليه السلام وقومه]

يقول تعالى ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ أو تقديره ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ولوط هو ابن هارن بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعث الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط^(٧)، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ^(٨) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ﴾ أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى ﴿فَتَوَلَّوْا بَنَاتِكُمْ إِِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ^(٩)﴾ فأرشدكم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكُمْ مِنْ حَرٍ وَاللَّهُ لَنَنْكَرَ مَا تُرِيدُ^(١٠)﴾ أي: لقد علمت أنه لا إرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وقعدوا ينتظرون نعمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ما ذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صبيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَشِينَ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى قالوا: إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبه ابنة السلق، ويقال لها: الزريقة، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت^(١١).

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه^(١٢)، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال كان لما وقعت النعمة بقومه مقياً، إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله. قال عبد الرزاق عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: ﴿أَتَذَرُونَ مَنْ هَذَا﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ﴿هَذَا قَبْرُ أَبِي رَغَالٍ رَجُلٍ مِنْ ثَمُودَ، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَذُفِنَ هَاهُنَا، وَذُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَتَزَلَّ الْقَوْمُ فَاثْبَتَوْهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَجَحُوا عَنْهُ فَاسْتَخَرُوا الْغُصْنَ^(١٣)﴾ وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو تقيف^(١٤).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّحْتُ

لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ^(١٥)﴾

هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإيائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإحلالته فشددت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القلب قلب بدر، فجعل يقول: ﴿يَا أَبَا جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَأْتِي وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا﴾ فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَتَيْتُمْ

(١) الطبري: ١٢/٥٣٤. (٢) عبد الرزاق: ٢/٢٣٢.

(٣) عبد الرزاق: ٢/٢٣٢.

(٤) فتح الباري: ٧/٣٥١ ومسلم: ٤/٢٢٠٣.

(٥) الطبري: ١٢/٥٤٨.

إبراهيم وشعيب وهو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية يثرون^(٥).

(قلت): مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة ﴿قَالَ يَبْقَرُونَ أَتُمِدُّوهُمُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتمكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان وتدليسا كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾^(٦) إلى قوله ﴿لَرْبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧) وهذا تهديد شديد ووعد أكيد نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له: خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْذَرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٨) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٩)

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين^(١٠). وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي تتوعدون المؤمنين الاتنين إلى شعيب ليتبعوه^(١١). والأول أظهر؛ لأنه قال:

(١) الطبري: ١٢/ ٥٥٠. (٢) الطبري: ١٢/ ٥٥٠.

(٣) الطبري: ١٢/ ٥٥٠.

(٤) أحمد: ١/ ٣٠٠ والترمذي: ١٤٥٦ وأبو داود ٤٤٦٢ وابن

ماجه: ٢٥٦١.

(٥) الطبري: ١٢/ ٥٥٤. (٦) الطبري: ١٢/ ٥٥٧.

(٧) الطبري: ١٢/ ٥٥٧.

﴿وَمَا كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾^(١٢) إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ^(١٣)

أي: ما أجابوا لوطا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالما وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب^(١٤). وقال مجاهد: إنهم أناس ينظرون من أدبار الرجال وأدبار النساء^(١٥). وروي مثله عن ابن عباس أيضا^(١٦).

﴿فَأَنْبِئْهُمْ وَأَهْلَهُمْ بِأَمْرِهِمْ كَانَتْ مِنَ الْعَذَابِ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١٧)

يقول تعالى: فأنجبنا لوطا، أهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٨) فَأَوْصَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(١٩) إلا أمر أنه لما لم يؤمن به، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتم فلما جاء العذاب التفتت هي فاصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي الباقين، وقيل: من المالكين وهو تفسير باللازم، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(٢٠) مَسْمُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ^(٢١) ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي:

انظروا يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ﴿مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يُعْمَلُ عَمَلٌ لَوْ طُوفَ فَاثْتَلَوْا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ﴾^(٢٢).

﴿وَالَّذِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُونَ أَتُمِدُّوهُمُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ كُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢٣)

[قصة شعيب عليه السلام ومدين]

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان ابن

كَانُوا هُمُ الْخَيْرِينَ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعْبًا إِتَكْرَمُوا الْخَيْرُونَ﴾ فلهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيبيين﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعبا واصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِجْمَتًا وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثيبيين﴾

والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تنكبوا به في قومه ﴿أَصْلَوْنَكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتهم وقال تعالى إخبارا عنهم في سورة الشعراء ﴿فَكَذَّبُوا فَاتُّعِدُّ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية. فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وهي سحابة أظلمت فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيبيين﴾ ثم قال تعالى: ﴿كَانَ لِمَن يَتَنَوَّاهَا﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقرة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقليلهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَيْرِينَ﴾.

﴿فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنقرة والنكال، وقال مقررًا لهم وموبخًا: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاوِ وَالضَّرَبِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ثم بدلنا مكان السينة الحسنة حتى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرُّ وَالْأَسْرَءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَبِكُلِّ مَرْطَبٍ﴾ وهو الطريق وهذا الثاني هو قوله ﴿وَنَصَّذُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ﴾ أي: كنستم مستضعفين لقلبتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسوله. وقوله ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أي: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عَذَابًا فِي مِلَّتِكُمْ بَدَأَ إِذْ يَخْتَصِمَنَّ اللَّهُ مِثْلًا وَلِمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ ﴿١٨﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبًا ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيها هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة. وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كاهرين ما تدعوننا إليه فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيها أنتم فيه، فقد أعظمنا القرية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا وهذا تعبير منه عن أتباعه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا رد إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجرور أبدًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعْبًا إِتَكْرَمُوا فَالْأَخْذُ بِهِمْ لَبِئْسَ بِهِمُ عَذَابٌ﴾ ﴿١٩﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيبيين ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَيْرِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا

[ابتلاء الأمم السابقة]

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء ما يصيبهم في بلادهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَقَدْهُمْ يَصْرُثُونَ﴾، أي يدعون ويخنعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء بخيرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي حولنا الحالة من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا، ونحوه: ﴿حَتَّىٰ عَفَا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، فقال: عفا الشيء إذا كثر.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّةُ وَالسَّرَّةُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينبشوا إلى الله فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آبائنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وفارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيح: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١) فالؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة، وعدم شعور منهم أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: «مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخَذَةُ أَسْفَى لِلْكَافِرِ»^(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَدَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقْبَحُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَأْمُرْ أَهْلُ الْقُرَىٰ بِأَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَرًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَأْمُرْ أَهْلُ الْقُرَىٰ بِأَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَرًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾

[البركات مع الإيمان والبطش مع الكفر]

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَنَمَأَمَتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَازِبَ الْيَزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٨﴾ أي ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فلإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ﴾ ﴿١٩﴾ فَتَمَتَّعُوا فَتَعَنَّتُهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَدَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي قطر الساء ونبات الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المأثم والمحارم، ثم قال تعالى خوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرف على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿بَيِّنًا﴾ أي ليلاً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَأْمُرْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَرًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذة إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمُرُكَ اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصْبَتَهُمْ يَذَّوْبِهِمْ﴾ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿٢٣﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أولم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وكذا قال مجاهد وغيره^(٣). وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى أولم نبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فاساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم ﴿أَن لَّوْنَشَاءُ أَصْبَتَهُمْ يَذَّوْبِهِمْ﴾ يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(١) مسلم: ٤/٢٢٩٥. (٢) أحمد: ٦/١٣٦.

(٣) الطبري: ١٢/٥٨٠.

يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ موعظة ولا تذكيراً (١).

وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السلية خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ» (٢) وفي الصحيحين: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ أَوْ مَجَسَّيْنِ» (٣) الحديث.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤)

[قصة موسى وفرعون]

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: بحجبتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون، وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، وكفوله تعالى: ﴿وَمَجَّدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥) أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر كيف فعلنا بهم أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه وأشفى للقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٧﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٨)

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجأه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربيه ومليكه، ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق

﴿قُلْتُ﴾: وهكذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ (١٠) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (١١) وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١٢﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (١٣) أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين.

﴿ذَلِكَ الْقَرْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِآيَاتٍ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطِغُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٥)

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَرْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي يا محمد ﴿وَمِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي: من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِآيَاتٍ﴾ أي الحجج على صدقهم فيها أخبرهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٦) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاة ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨) وَتَقَلَّبَ أَفْعَادُهُمْ وَأَصْبَحَتْ كَمَا لَرَّ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١٩﴾ الآية. ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطِغُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٠) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴿٢١﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامثال. والعهد الذي أخذه هو ما جيلهم عليه وفطهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربه ومليكه وأنه لا إله إلا هو فأقروا بذلك

(١) الطبري: ٥٧٩/١٢. (٢) مسلم: ٢١٩٧/٤.

(٣) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤.

[قول قور فرعون في موسى إنه ساحر واتفاقهم

على معارضته بالسحرة]

أي: قال الملأ، وهم الجمهور والسادة، من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوا وقالوا كمثلته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخساد كلمته وظهور كذبه وافترائه وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَمَنْ كَفَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ فلما تشاوروا في شأنه واتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى.

﴿قَالُوا آتِيهِمْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

يَأْتُوهُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٧﴾

قال ابن عباس: ﴿آتِيهِمْ﴾ آخريه ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أي: في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبه سحرتهم فلهاذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراههم من البيئات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿فَلَمَّا أَيْتَكَ بِسِحْرِهِمْ فَأَجْعَلْ يَسَاءَ وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُغْلِبُهُمْ، هُنَّ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحًى ﴿١٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٢٠﴾ وقال تعالى ههنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ

الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٢٢﴾

[اجتماع السحرة ومقابلتهم مع موسى وتمويههم

في تحويل حبالهم وعصيهم حيات]

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين

صدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله أعطاها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة أظهرها لئراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿قَالَ لَقَدْ عَصَاةٌ إِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٤﴾

وَنَزَعَ يَدَهُ، إِذَا هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٥﴾

[عصا موسى ويده البيضاء]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحية الذكر (١). وكذا قال السدي والضحاك (٢)، وفي حديث الفتون من رواية يزيد بن هارون عن الأصمعي بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَصَاةٌ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها سرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم من سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل (٣). وقال السدي في قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها واضعة لحياها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دعر منها ووثب وأحدث، ولم يكن يحدث قبل ذلك، وصاح يا موسى خذها وأنا أو من بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعدت عصا (٤).

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ، إِذَا هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٥) أي: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ الآية. وقال ابن عباس في حديث لنتون: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يعني: من غير برص ثم أعادها إلى كسبه فعدت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد (٥).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ أَنْ

يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا أَنَا فَأَعْمُرُكُمْ ﴿٢٧﴾

(١) الطبري: ١٦/١٣. (٢) الطبري: ١٧/١٥.

(٣) الطبري: ١٦/١٣. (٤) الطبري: ١٥/١٣.

(٥) الطبري: ١٧/١٣. (٦) الطبري: ١٨/١٣.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت [تبتلع] تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت ووقع السحرة سجداً قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون لو كان هذا ساحراً ما غلبنا^(٢). وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغرفاه مبتلع حبالهم وعصيتهم فألقى السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثوب أهلها^(٣).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَكَرٌّ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنَّا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١٣٢) لَا أَطْعَمُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٣٤﴾ وَمَا نُنَبِّئُكَ إِلَّا أَنَّا ءَمَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴿١٣٥﴾

[تهديد فرعون السحرة بعد الإيمان وجوابهم له]

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَكَرٌّ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنَّا أَهْلَهَا﴾ أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ وَكَرِيمٌ﴾ الذي علمكم السحر وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أطل الباطل فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملا من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ولهذا قد كانوا ممن أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعا دولته وجهلهم كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَّا نُرْكَمُ الْآخِلَ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم. وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود

استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى لبشيتهم وليعطيتهم عطاء جزيلاً فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجمعهم من جلسائه والمقرين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُوا يَكْمُوسِيَّ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَنَّ نَحْنُ الْمُثْقَلِينَ﴾^(١٣٦) قَالِ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٣٧﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَنَّ نَحْنُ الْمُثْقَلِينَ﴾ أي: قبلك كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(١٣٨) فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي: أنتم أولاً. قيل: الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالمهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾^(١٣٩) فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ الْأَعْلَى ﴿١٤٠﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَافًا مَصْنُوعًا إِنَّمَا سَوَّاهُ سِحْرٌ وَلَا يَقْلِبُ السَّاحِرِينَ أَفَى ﴿١٤١﴾.

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، قال: فأقبلت نجبل إليه من سحرهم أنها تسعى^(١٤٢). ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(١٤٣) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَافِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَاجِدِينَ ﴿١٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٤٨﴾

[غلبة موسى وإيمان السحرة]

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقى ما في يمينه وهي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقتهم فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر فخرروا سجداً وقالوا:

﴿ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٤٩) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) الطبري: ١٣/٢٨. (٢) الطبري: ١٣/٣٠.

(٣) الطبري: ١٣/٣٠.

بن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا
مَنْ كَفَرْتُمْ بِهِ فِي الدِّينَةِ﴾ قال: التقى موسى عليه السلام وأمير
سحرة فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن
جنت به حق؟ قال الساحر: لأتئن غدا بسحر لا يغلبه سحر،
والله ألتن غلبتي لأؤمن بك، ولأشهدن أنك حق، وفرعون
نهر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال. وقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّ مِنْهَا
نَارًا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة،
مخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم
منكم فكمون؟ أي: ما أصنع بكم ثم فر هذا الوعيد بقوله:
﴿لَنُخْرِجَنَّ مِنْكُمْ وَأُزِيلَنَّ عَنْ خَلْفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرجل
يسرى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ أي: على الجدوع.

قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي
والأرجل من خلاف فرعون (٢) وقول السحرة ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ
مُتَقَلِّبِينَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك
فكأنه على ما تدعوننا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم
من تلكال فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص عن عذاب الله
ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئَرًا﴾ أي: عمنا بالصبر على
عذابك والثبت عليه ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى
عليه السلام وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
حَيَاتُكَ﴾ (٣) إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لَنَعْرِفُ لَنَا خَطِيئَاتٍ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
سِحْرٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٤) إِنَّهُ مِنْ بَابِ رَبِّهِ مُجَرَّمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا
يُورَثُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٥) وَمَنْ بَابُهُ مُؤَمِّلًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ
ثُمَّ الَّذِينَ رَحِمْنَا اللَّهُ (٦) فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في
آخره شهداء بررة، قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن
جريج: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء (٣).

﴿وَقَالَ لَأَكْلَأَنَّ مِنْ قَوَرِ فِرْعَوْنَ أَنَدَّرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَيَذَرَكُ وَءَالِهَتَكَ﴾ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي
نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
اسْتَعِينُوا بِآلِهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
يَشَاءُ مِنَ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٨) قَالُوا أَوِذْنَا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَأْنِيْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٩)

[تخريض القوم واستعداد فرعون لقتل بني إسرائيل
وشكوى بني إسرائيل إلى موسى ووعد بنصر الله]
يخبر تعالى عما غاملاً عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى
عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿وَقَالَ لَأَكْلَأَنَّ مِنْ قَوَرِ
فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَنَدَّرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي: أنشدتهم
﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يفسدوا أهل رعتك، ويدعوهم إلى
عبادة ربهم دونك يا الله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد
موسى وقومه! إلا أن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا
يشعرون ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكُ وَءَالِهَتَكَ﴾ وقال السدي في
قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكُ وَءَالِهَتَكَ﴾ وأهله فيما زعم ابن عباس
كانت البقر كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها
فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار (٤). فأجابهم
فرعون فيما سأله بقوله: ﴿سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾
وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى
عليه السلام حذراً من وجوده فكان خلاف ما رماه وضد ما
قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني
إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: أعزهم الله
وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما
ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله:
﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) قَالُوا أَوِذْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْنِيْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا﴾ أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من
قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منهمهاً لهم على حالهم
الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية، وهذا تحضيض لهم على العزم على
الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٩) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ
وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ. أَلَا إِنَّمَا طَرَّهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٠)

(١) الطبري: ٣٣/١٣ (٢) الطبري: ٣٤/١٣

(٣) الطبري: ٣٦/١٣ (٤) الطبري: ٣٨/١٣

[ابتلاء آل فرعون بالسنين]

أبوهم وتدع الخشب^(٧). وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة^(٨). وعنه أنه الدبى - وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له^(٩). وبه قال مجاهد وعكرمة وقنادة، وعن الحسن وسعيد بن جبير: القمل دواب سود صغار^(١٠).

وروى أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فلم يرسلهم، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعاه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم يثبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلا فقالوا: هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلط على الكلا، فلما رأوا أثره في الكلا عرفوا أنه لا يقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعاه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداوسوا وأحرزوا في البيوت. فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعاه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق الضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا فما أسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذنبه في الضفادع ويهم أن يتكلم فينب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعاه فكشف عنهم فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عيطاً فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اخترناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿وَالسِّنِينَ﴾ وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَوَفَّقْ يَنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك^(١١). وقال أبو إسحاق عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة^(١٢) ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ^(١٣) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴿أي: من الخصب والسرور﴾ قَالُوا إِنَّا هَذَا بِأَيِّ يَوْمٍ هَٰذَا ﴿أي: هذا لنا بما نستحقه﴾ وَإِنْ تَوَيْتُمْ سَيِّئَةً ﴿أي: جدد وقطع﴾ يَطْرَأُ يَأْمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴿أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به﴾ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ اللَّهَ ﴿قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس﴾ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ اللَّهَ يَقُول مصائبهم عند الله ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْمُونَ﴾ ^(١٤)

﴿وَقَالُوا مَهْمَا قَاتَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَإِشْرَاقًا بِهَا فَمَا كُنْ لَكَ يَوْمَئِذٍ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْحُمْلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَاءَ يَأْتِي مُمْسِكَةً فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجُّ قَالُوا إِنَّمُوسَىٰ أَدْعُنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَ رَبِّكَ كَيْفَ نَكْشِفُ عَنْ الرِّجِّ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ^(١٦) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَّ إِلَىٰ أَجَلٍ لَهُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٧﴾

[تمرد قوم فرعون وعقاب الله لهم بآيات]

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم ﴿مَهْمَا قَاتَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَإِشْرَاقًا بِهَا فَمَا كُنْ لَكَ يَوْمَئِذٍ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون أي آية جئنا بها ودلالة وحجة أقمناها ردناها فلا قبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ عن ابن عباس في رواية كثرة الأمطار المغرقة للزروع والثمار. وعنه في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال^(١٨). وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول، لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله ابن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد^(١٩). وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أُجِلَّتْ لَنَا مِثَّتَانِ وَدَمَانِ: الْحُمُوتُ وَالْجَرَادُ وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(٢٠). وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير

(١) الطبري: ٤٦/١٣. (٢) الطبري: ٤٦/١٣.

(٣) الطبري: ٣٨/١٣. (٤) الطبري: ٥٠/١٣.

(٥) فتح الباري: ٥٣٥/٩، ومسلم: ١٥٤٦/٣.

(٦) مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٩٧/٢ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢.

(٧) الطبري: ٦٨/١٣. (٨) الطبري: ٥٤/١٣.

(٩) الطبري: ٥٤/١٣. (١٠) الطبري: ٥٥/١٣.

[إغراق آل فرعون في اليم وتورث]

بني إسرائيل الأرض المباركة]

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على إثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وعن الحسن البصري وقادة في قوله: ﴿مَشْرُقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَيْ بُرْكَانِهَا﴾ يعني: الشام، وقوله: ﴿وَوَسَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير وهي قوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) وَتَمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَتَجْعَلَهُمَا يَتَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ أَي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يعْرِشُونَ﴾ يبنون (٧).

﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُؤْنَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْسُوسُ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ (٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيُظَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)

[مجاورة بني إسرائيل البحر ومرورهم بمعبود مجسم]

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُؤْنَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾.

قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لحم. قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر فلها أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا:

﴿يَمْسُوسُ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ (١٠)

وليس لنا شراب فقال: إنه قد سحركم. فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلى وجدناه دماً عيطاً فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن لك وترسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، فرجع عدو الله فرعون حين أمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتادي في الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، لم يركب لا يقدر على أن يجرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا لَيَمْسُوسُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدُ عِنْدَكَ لَيَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْإِجْرَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلْتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له شيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيها

بلغني حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد حتى نفع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له شيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والفرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له شيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له شيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عيطاً (١١).

﴿فَانْقَمَتَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتِينَنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٢) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرُوقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَيْ بُرْكَانِهَا ﴿وَوَسَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣)

(١) الطبري: ١٣/٦٣. (٢) الطبري: ١٣/٧٨، ٧٩.

(٣) الطبري: ١٣/٨٠.

أي: تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَيَطِلْنَآ﴾ كانوا يعملون. وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير في تفسير هذه الآية عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان للكفار سدره يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط قال: فمررنا بسدره خضراء عظيمة قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: «قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ وَيَطِلْنَآ كَمَا تَوَاعَلُونَ ﴿١٣٩﴾» (١).

﴿قَالَ اعْبُدُوا اللَّهَ أَفْبَعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠) وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقِيلُونَ بُنْيَانَكُمْ وَيَسْخَبُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذُلِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

[تذكير بني إسرائيل بنعم الله]

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ وَمِيقَتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢)

[صام موسى وانقطع إلى الله أربعين ليلة]

يقول تعالى ممثلاً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى عليه السلام وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ عَذَابِي وَوَعْدْتُكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية فحينئذ استخلف موسى عليه السلام على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أُنْظِرْ إِلَيَّ فَإِن كُنْتُ رَبِّي وَلَئِن أُنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَغَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِّي فُلَمَّا جَاءَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٧)

[طلب موسى رؤية ربه]

يجبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله تعالى سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ حرف لن ههنا على نفي الرؤية في الدنيا لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ بِحُجَّتِ الْآخِرَةِ﴾ (١٣٨) إِلَى مَا تَأْتِيهِ (١٣٩).

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «إِنَّا مُوسَى إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيًّا إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْبِسُ إِلَّا تَذْهَبُهُ» (١٣٩) وهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾ روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: قال «هكذا» يعني أنه أخرج طرف الخنصر (١٤٠).

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب (١٤١). وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن حماد بن سلمة به وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١٤٢). وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾ قال: مغشياً عليه (١٤٣). رواه ابن جرير لأن هنا قرينة تدل على الغشي. وهي قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تزييماً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله: ﴿ثَبَّتَ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد من بني إسرائيل واختاره ابن جرير وفي رواية أخرى عن ابن عباس ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد. وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾

(١) الطبري: ١٣/ ٨٢. (٢) البداية والنهاية: ١١٢/ ٣.

(٣) أحمد: ٣/ ١٢٥. (٤) تحفة الأخوذ: ٤٥١/ ٨.

(٥) الحاكم: ٢/ ٣٢٠. (٦) الطبري: ١٣/ ٩٧.

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴿٤﴾ قَالَ سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمَهُ ^(٤). وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والنياب.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ الرَّشْدِ لَا يَنْجُدُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ الْفَعْلِ يَنْجُدُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

[يُحَرِّمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَرُّوهُمْ مُنَازِعَةً أُولَئِكَ سَرَقُوا﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي ^(٥)، قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة ^(٦)، قلت: ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئَ الرَّشْدِ لَا يَنْجُدُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشd أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن

فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي ﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه ههنا عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال: يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ﴿اذْعُوهُ﴾ فدعوه قال: ﴿لَمْ لَطَمْتُ وَجْهَهُ؟﴾ قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعتة يقول: والذي اصطفى موسى على البشر قال: قلت: وعلى محمد؟! وأخذتني غضبة فلطمته فقال: ﴿لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفْنَى، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَحَدًا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوْمِ الْعَرَشِ فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِضَعْفَةِ الطُّورِ؟﴾ ^(١) وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه وسلم في أحاديث الأنبياء وأبو داود في كتاب السنة من سننه ^(٢). وأما حديث أبي هريرة فرواه الإمام أحمد والشيخان بنحوه ^(٣).

﴿هَذَا يَمْوَسِي إِلَى أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٧﴾﴾

[اصطفاء موسى وإعطائه الألواح]

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، ويعد في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم موسى بن عمران عليهم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾ أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به. ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة والله أعلم، وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ

(١) فتح الباري: ٨/١٥٢.

(٢) البخاري: ٢٤١٢، ٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٢٧، ٦٥١٨.

ومسلم: ٢٣٧٤ وأبو داود: ٤٦٦٨.

(٣) أحمد: ٢/٢٦٤ وفتح الباري: ١٣/٤٥٥ ومسلم:

١٨٤٤/٤.

(٤) الطبري: ١٣/١١٢.

(٥) الطبري: ١٣/١١٠.

(٦) الطبري: ١٣/١١٣.

منادى (وَتَقَوُّزُنَا) ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من المالكين وها اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي بِتَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَاحْذَرُوا أَيْدِيكُمْ بِئْسَ الْإِلَهُ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تُجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء: الأسف: الشد

الغضب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي بِتَعْدِي﴾ يقول: بش ما صنعتكم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَاحْذَرُوا أَيْدِيَكُمْ بِئْسَ الْإِلَهُ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تُجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال: ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده ولا فهو شقيقه

لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُ

إِنَّمَا فَتَنَّاهُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَأَلْبِسُونِي لِأَظْهَرُ أَمْرِي ﴿٦﴾﴾ فعد ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِي كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَئِلُكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِي كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَئِلُكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِي كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَئِلُكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِي كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَئِلُكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِي كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ» (٢).

ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْشَاهُمُ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى المساء حبط عمله، وقوله: ﴿هَذِهِ نَجَازُكَ لِلَّذِينَ كَانُوا يَمَكُونُ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدنن تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿وَلَمَّا سَوَّطُ فِئَ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

[قصة عبادة العجل]

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، من حلي القبط الذي كانوا

استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار

عجلاً جسداً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو

على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٢٠﴾﴾ وقد اختلف

المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبحر على

قولين والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به وقالوا: هذا إلهم وإله موسى فنسي قال الله

تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ إِلَهُهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٢١﴾﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السماوات والأرض ورب كل شيء

ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل

والضلال وقوله: ﴿وَلَمَّا سَوَّطُ فِئَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموها على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ

لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: (لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا) بالناء المثناة من فوق (رَبَّنَا)

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو: أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَقَتُلُوا ابْنَارِيَكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ تَجْرَى الْمُفْتَرِينَ﴾ نافلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتفاهم وإن هتكجت بهم السجلات وطفطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية ﴿وَكَذَلِكَ تَجْرَى الْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتري إلى يوم القيامة^(١)، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل^(٢)، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا الشَّيْئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ وَمَنْ بَعْدَهَا﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا الشَّيْئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها^(٣).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُجُوتِهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

[أَخَذَ مُوسَى الْأَلْوَابَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ]

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَنْ مُوسَى﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ أي: التي كان ألغافها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وَفِي سُجُوتِهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألغافها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة، وأما التفصيل فذهب وزعموا أن رضاها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألغافها وهي من جوهر الجنة فقد أخبر تعالى

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُجُوتِهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

هَدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

- (١) الطبري: ١٣/١٣٥. (٢) الطبري: ١٣/١٣٦. (٣) الدر المنثور: ٣/٥٦٦. (٤) الطبري: ١٣/١٤١. (٥) الطبري: ١٣/١٤٠.

قال: ﴿عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْأَةٍ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك - سبحانه لا إله إلا هو - وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة عرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾. وروى الإمام أحمد عن جندب وهو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأنشأ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته فأطلق عقاها ثم ركعها ثم نادى:

اللهم ارحمني ومحمدًا ولا تشرك في رحمتنا أحدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَتَقُولُونَ هَذَا أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟» قَالُوا: بَلَى قَالَ: «لَقَدْ حَظَرْتُ رَحْمَةً وَأَسِعَتْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ جَنَّتُهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا وَآخَرُ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً أَتَقُولُونَ هُوَ أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟» ^(١) رواه أحمد وأبو داود ^(٢)، وروى الإمام أحمد أيضًا عن سليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِائَةٌ رَحْمَةً يَتَرَاهِمُ بِهَا الْخَلْقُ وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا وَآخَرُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(٣). تفرد بإخراجه مسلم ^(٤)، وقوله: «فَسَاكُنْتُمُهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ» الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي مني وإحسانًا إليهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله: «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» أي ساجعها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» أي الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال ويحتمل أن تكون عامة لها فإن الآية مكية «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبَائِنَا يُؤْمِنُونَ» أي يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوُحُوشِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْغُلْلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٥)

يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه أفعَل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة [فَأَفْطَلَتْ] أرواحهم فأتوا جميعًا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتِي﴾ قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل ^(١).

وقال ابن عباس وقناة ومجاهد وابن جرير: إنهم أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزيلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم ^(٢)، ويتوجه هذا القول بقول موسى: «أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ آلَتُنَا هَؤُلَاءِ إِنَّا بِكَ لَشَائِكُونَ» أي ابستلاؤك واختبارك وامتحانك، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ^(٣)، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: «أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» الغفر هو الستر وترك المؤاخذه بالذنوب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يُراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل «وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» أي لا يغفر الذنب إلا أنت. «وَأَكْتَفَى لَنَا فِي هَذَا الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ» الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود «وَأَكْتَفَى لَنَا فِي هَذَا الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ» أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة «إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ» أي تبنا ورجعنا وأبنا إليك، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمي والسدي وقناة وغير واحد ^(٤). وهو كذلك لغة.

﴿قَالَ عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْأَةٍ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْتُمُهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبَائِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٥)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبَائِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٦)

[رحمة الله مكتوبة للمتقين المزمكين]

الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَبِرَسُولِهِ

يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية،

- (١) الطبري: ١٤٠/١٣. (٢) الطبري: ١٤٤، ١٤٣/١٣.
(٣) الطبري: ١٥١/١٣. (٤) الطبري: ١٥٥، ١٥٤/١٣.
(٥) أحمد: ٣١٢/٤. (٦) أبو داود: ١٩٧/٥.
(٧) أحمد: ٤٣٩/٥. (٨) مسلم: ٢١٠٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^١
هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المقدمة وهكذا كانت حاله
عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر

قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم وقوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أخبرهم أن رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه، ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقضوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصراط المستقيم. ﴿وَمَنْ قَوِّرْهُ مَوْسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

يقول تعالى خبراً عن بني إسرائيل: إن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْ أَهْلِي الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا يَنْ أَهْلِي الْكِتَابِ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ خُدُوعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْعُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ مَنَعًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٦٠) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦١) وإذا نزل عليهم قالوا آمنا به وإنه الحق من ربنا إنما كنا من قبله مشككين (١٦٢) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَخْرُوجٌ لَدَفُوا سُجُودًا﴾ (١٦٣) ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً (١٦٤) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَبَزِيْدُهُمْ خُشُوعًا (١٦٥) وَفُطِنَتْهُمْ أَنْفُ عَشْرَةِ أَسْبَاطٍ أَسْمَاءُ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَمَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْبُرْ بَعْصَاكَ الْمَجْرَجَ قَالِيجُوسُ مِنْهُ آتَيْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ النَّارَ وَالسَّلَوتِ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٦) وَلَا قِيلَ لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرَّيْدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦٧) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٨)

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا

مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٩)

[عموم رسالة نبينا محمد ﷺ للعالم كله]

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَلَيَّ الْوَيْلَ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غُيُوبَ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا خطاب للأحر والأبوس والعجمي ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث على الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتُوبُوا أَلَمْ يَكُنْ وَالْأَوَّلِينَ أَسْأَلْتُمْ فَمَنْ سَأَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَتُوبُوا فَمَأْتِيكُمْ عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم. روى البخاري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء، أنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر ﷺ محاوراة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَنَا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرْتُ أَي: غاضب وحاقد. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ.» انفراد به البخاري (١)

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «أَعْطَيْتُ خَسَاءً يَعْطُهُنَّ بَنِي قَبِيلِي وَلَا أَقُولُهُنَّ فَخَرَّبُ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً الْأَخْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَنُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخْرَجْتُهَا لِأُمِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ لِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» (٢) إسناد جيد ولم يخرجوه. وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى في

سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينَ يَمَافَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٠﴾ فَلَمَّا عَزَا
عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦١﴾

[مسخهم قردة ونجاة الناهين دون الساكتين]

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق:
فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم
السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك
واعترلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت
للمنكرة: ﴿لِمَ تَقْطُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾
أي: لم تهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا
العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة:
﴿مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر المعروف
والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَقْنُونَ﴾ يقولون: ولعلهم لهذا
الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين
فإذا تابوا، تاب الله عليهم ورحمهم. قال تعالى: ﴿لَمَّا سُوا مَا
ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَجْمَعًا
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا
المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَينَ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك
الظالمين وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل
فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عطيماً فيذموا.
وعن عكرمة عن ابن عباس في الآية، قال: ما أدري أنجا
الذين قالوا: ﴿لِمَ تَقْطُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم
أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينَ﴾ فيه دلالة
بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. وبئس معناه في قول
مجاهد: الشديد^(٢). وفي رواية: أليم، وقال قتادة: موجد^(٣)،
والكل متقارب والله أعلم، وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي:
ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبَكُ يَلْبَعْن عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينِ مَنْ يَسْؤُهُمْ سَوْءُ
الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الرَّجِيمِ﴾ ﴿١٦١﴾

السياق مكي ونهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما
أغنى عن إعادته هنا. والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ
يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ كَانَتْهُمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرْعَ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾

[عدوان اليهود في السبت]

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا
مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية، يقول تعالى لنبه صلوات الله وسلامه
عليه: ﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين
بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله
فجاءتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في
المخالفة وحذر هؤلاء من كتاب صفتك التي يجدونها في
كتبهم لئلا يلج بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية
هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق
عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله
تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾
قال: هي قرية يقال لها: أيلة، بين مدين والطور^(١). وكذا قال
عكرمة ومجاهد وقاتدة والسدي^(٢). وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية
به إذ ذاك، ﴿إِذْ كَانَتْهُمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾
قال الضحاك عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء^(٣). قال
ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ
نَبْلُوهُمْ﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في
اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم
صيده ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
يقول: يفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها^(٤)، وهؤلاء
قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب
الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وقد روى
الفيقيه الإمام أبو عبد الله ابن بطه - رحمه الله - عن أبي هريرة
أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَرْكَبُوا مَا ارْتَكَبَتْ الْيَهُودُ
فَسَتَحْلُوا نَحَارِمَ اللَّهِ بِأَذَى الْجَيْلِ»^(٥)، وهذا إسناد جيد.
﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَقْطُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْرِزَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُون﴾ ﴿١٦٣﴾ فَلَمَّا

(١) الطبري: ١٣/ ١٨٠. (٢) الطبري: ١٣/ ١٨٠، ١٨١.

(٣) الطبري: ١٣/ ١٨٣. (٤) الطبري: ١٣/ ١٨٣.

(٥) الزفاف: ١٩٢. (٦) الطبري: ١٣/ ١٨٧.

(٧) الطبري: ١٣/ ٢٠٢. (٨) الطبري: ١٣/ ٢٠٢.

[الدالة الدائمة لليهود]

﴿نَأْتِ﴾ تفعل من الأذن أي: أعلم، قاله مجاهد، وقال غيره: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا [تُلْقِيَتْ] باللام في قوله: ﴿يَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ سَوْمِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليه الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية، قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم ^(١)، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية ^(٢) قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للرجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف شرعه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛ لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترتيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْثَلًا مِنْهُمُ الضَّالِّينَ وَنَبَذْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ يَدْيَهُمْ وَنَبَذْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالَّذِينَ يَبْعَثُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخِيرَةُ هِيَ يَأْتِيكَ بِتَقْوَى أَهْلًا يَعْقِلُونَ ^(٣) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجْرَ الْمُصْلِحِينَ ^(٤)﴾

[انتشار بني إسرائيل في الأرض]

يذكر تعالى أنه قرَّعهم في الأرض أمّا أي طوائف وقرَّعاً كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَتِيفًا ^(٥)﴾ ﴿مِنْهُمْ الضَّالِّينَ وَنَبَذْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ يَدْيَهُمْ وَنَبَذْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالَّذِينَ يَبْعَثُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فسيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها

والرغبة والرغبة والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الآية يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يشرف لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ^(٦)﴾، وقال قتادة في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إي والله لخلف سوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بعد أنيائهم ورسلمهم أورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تمنوا على الله أماني، وغرة يغترون بها ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء ولا ينههم شيء عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يزالون حلالاً كان أو حراماً ^(٧)، وقال السدي قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقصون قاضياً إلا ارتشى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهد أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقصى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم فيقول: سيفغري، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية. يقول تعالى منكراً عليهم في صنعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْتَاً قَلِيلاً فَبَسْ مَا بَشَرْتُمْ ^(٨)﴾ وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فسيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها

(١) الطبري: ٢٠٥/١٣. (٢) عبد الرزاق: ٢٤٠/٢.

(٣) الطبري: ٢١٢/١٣. (٤) الطبري: ٢١٣/١٣.

(٥) الطبري: ٢١٣/١٣.

رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودِيٌّ دَانِيهِ وَيَنْصَرَانِي وَيُمَجْسَانِي، كَمَا تُولَدُ [الْبَيْمَةُ] بِبَيْمَةِ جَمْعَاءَ مَلَّ نُحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ؟»^(٤) وفي صحيح مسلم عن عياض ابن حار قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ، فَبَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجَسَاتُهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ»^(٥). وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: قَبُولُ. نَعَمْ قَالَ يَقُولُ: قَدْ أَوَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(٦). أخرجه في الصحيحين^(٧).

وروى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيَّ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: يَسْتَيِّنُ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ وَقَدْ وَهَبْتَ لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: أَوْلَمْ يَنْقُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُنْطَلِهَا إِلَيْكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: فَحَدَّثَ آدَمَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنُسِيَّ آدَمَ فَنُسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِيَّ آدَمَ فَخَطِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، ثُمَّ قَالَ الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(٨)، ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(٩).

فهذه الأحاديث وأمثالها دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار،

ولا يتوبون منها^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ الْأَخْزَرُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من بويل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس هؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أننى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَسَكَّنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِشُورَةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)

[رفع الطور على رؤوس اليهود لتمردهم]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِبَيْنِهِمْ﴾^(٣). وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ وقال القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فنزلت عليهم وأبوا أن يقرأوا بها حتى نطق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله^(٤).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَسْمِعْتُ رِبِّيَكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْتَ شَهِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٥) أو نقول: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَنِيهِمْ أَفَبِلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ السَّابِقُونَ^(٦) وكذلك نقول الآية وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(٧)

[بيان العهد الماخوذ من ذرية آدم]

نخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَكَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(١) الطبري: ٢١٥/١٣. (٢) الطبري: ٢١٨/١٣.

(٣) النسائي في الكبرى: ٣٩٦/٦.

(٤) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤.

(٥) مسلم: ٢١٩٧/٤. (٦) أحمد: ١٢٧/٣.

(٧) فتح الباري: ٤١٩/٦ ومسلم: ٢١٦٠/٤.

(٨) تحفة الأحوذى: ٤٥٧/٨. (٩) الحاكم: ٣٢٥/٢.

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أو وجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ الآية وتارة تكون حاله كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالقول وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وَأَتَيْنُكُمْ بَيْنَ كُلِّ مَسَاسٍ أَنْتُمُوهُ﴾ قالوا: وما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف فلو كان قد وقع هذا كما قال من قاله لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فُطروا عليها من الإقرار بالوحيد ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: لثلاث تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ فَآتَيْنَاهُ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُنَجِّيهِ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ هُونَهُ فَمِنْهُ كَفَرَ الْكَلْبُ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا فَاقْضِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٨﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ ﴿٧٩﴾

[قصة بلعم بن باعوراء ومثل العالم]

الذي ينسلخ من علمه]

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رضي عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ﴾ الآية قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعوراء ^(١). وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به ^(٢). وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس: هو صيفي بن الراهب. قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقبلاً ببيت المقدس مع الجبارين، وقال العوفي عن ابن عباس رضي عنه: هو رجل من أهل اليمن يقال له: بلعم آناه الله آياته فتركها ^(٣). وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل

وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله فأقطعه فبعثه دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال [عمران] بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس: هو بلعم بن باعر ^(٤). وكذا قال مجاهد وعكرمة ^(٥). وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنها هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف ^(٦). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر ^(٧). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه آناه - يعني: بلعم - بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديث ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية ^(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُنَجِّيهِ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ هُونَهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿وَلَنُنَجِّيهِ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي. وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يجر جنا من بلادنا ويقتلنا ويحلبها بني إسرائيل، وإننا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم، قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أذهب عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه، ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر

(١) عبد الرزاق: ٤٤٣/٢. (٢) الطبري: ٢٥٣/١٣.

(٣) الطبري: ٢٦١/١٣. (٤) الطبري: ٢٥٣/١٣.

(٥) الطبري: ٢٥٤/١٣. (٦) الطبري: ٢٥٣/١٣.

(٧) الطبري: ٢٥٨/١٣. (٨) الطبري: ٢٦٠/١٣.

وبني إسرائيل وهو جبل حسان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به فتزل عنها فضر بها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به فضر بها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟! أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم ينزع عنها فضر بها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: وانددلج لسانه لرفع على صدره فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسامركم لكم وأحتال، جعلوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعثنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتهموهم، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها [كسبي] - ابنة صُور رأس أمته - برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها، قال: أجل هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل، وكان فتحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبًا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر، فأخذ حرته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانظمتها بحرته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد برمقه على خاصرته وأسند الحربة إلى [لحيه] وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فتحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا والمقتل لهم يقول: عشرون ألفًا في ساعة من النهار، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولسد فتحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع

رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوءِ، الْعَائِدُ فِي هَيْبِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْبِهِ»^(١). وقوله: «وَأَنْفُسُهُمْ كَأَوْظِلْمُونَ»^(٢) أي: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣)

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم^(٢).
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٣)

[الكفر والقدور]

يقول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ» أي خلقنا وجعلنا لجهنم «كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ» أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٣).

والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها، وقوله تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا» يعني: ليس يتفقهون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» الآية، وقال تعالى: «لَهُمْ بَعْضٌ عَمَّا فَكَّمُوا لَا يُبْصِرُونَ»^(٤) هذا في

حق المناقضين. وقال في حق الكافرين: «لَهُمْ بَعْضٌ عَمَّا فَكَّمُوا لَا يُبْصِرُونَ»^(٥) ولم يكونوا صابرين ولا بكيا ولا عبياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ»^(٦) وقال: «فَإِنَّمَا لَا تَفْقَهُونَ إِلَّا بَصَرًا وَلَكِنَّ تَعَمَّى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»^(٧) وقال: «وَمَنْ يَعْمَىٰ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقْنِصْ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لِمُعْرِضٍ»^(٨) وَإِنَّمَا يَصْدُوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٩) وقوله تعالى: «أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ»

أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تستمع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ يُتَوَقَّعُ لَا تَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ» أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» أي: من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له؛ إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: «أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»^(١٠).

﴿رَبِّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الْجِنَّاتِ وَمَا فِيهَا أَسْمَاءُ سَبِيحَتٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قُلُوبٌ يَفْقَهُونَ﴾^(١١)

[بيان أسماء الله الحسنى]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثْرَ» أخرجه في الصحيحين^(٤)، وأخرجه الترمذي في جامعه مثله.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(١) فتح الباري: ٢٨٨/٥.

(٢) أحمد: ٣٩٢/١ وأبو داود: ٥٩١/٢ وتحفة الأحوذى:

٢٣٧/٤ والنسائي: ١٠٥/٣ وابن ماجه: ٦٠٩/١.

(٣) مسلم: ٢٠٤٤/٤.

(٤) فتح الباري: ٤١٧/٥ و٢١٨/١١ ومسلم: ٢٠٦٢/٤.

لهم ما هم فيه، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَيْنٌ﴾ (١٨٢) ﴿أَي: قوي شديد.

﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٣)

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا

بَصَّاحِهِمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل

هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٣) ﴿أَي

ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢١) وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ

بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ وَقُرْدَى ثَمَرَ نَفْعِكُمْ مَا بَصَّاحِكُمْ

مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: إنما

أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً ليس فيه تعصب ولا

عناد ﴿مِثْلَ خُفٍّ وَقُرْدَى﴾ أي: مجتمعين ومتفرقين،

﴿ثَمَرَ نَفْعِكُمْ﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبيه

جنون أم لا، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه

رسول الله حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا

فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان، يا بني

فلان فحذرهم بأس الله، ووقائع الله، فقال قائلهم: إن

صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى

أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٣) ﴿١﴾.

﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ

وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ كَلِمَةً أَقْرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٤)

يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله

وسلطانه في السماوات والأرض، وفيما خلق من شيء فيها،

فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا

شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا

له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلصوا الأنداد

والأوثان، ويحذروا أن تكون أجالهم قد اقتربت فيهلكوا على

كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ

بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٤) يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد

تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه،

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ

فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ

فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ

بِهِ نَفْسُكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ

اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَيْسَ

قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذِقَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ

حُزْنَهُ وَهَمَّهُ وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ قُرْحًا» قيل: يا رسول الله، أفلا

تعلمها؟ فقال: «بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَعْلَمَهَا» (١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ﴾ قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات

في أسماء الله (٢). وقال ابن جريج عن مجاهد «وَذَرُوا الَّذِينَ

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، والعزى

من العزيز (٣). وقال قتادة: يلحدون يشركون في أسمائه (٤).

وأصل إلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل

والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة

القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨٥)

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: بعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾

فائقة بالحق قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون

إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨٥) يعملون ويقضون، وقد جاء في

الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة

المحمدية. وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال:

قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ

لَا يَفْشُرُهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ وَلَا مِنْ خَلْقِهِمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، وفي

رواية: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»، وفي رواية: «وَهُمْ

بِالشَّامِ» (٥).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٦)

وَأَمَلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَيْنٌ﴾ (١٨٧)

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٦) ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه

العاش في الدنيا حتى يغتروا بها هم فيه ويعتقدوا أنهم على

شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِّجُوا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ يَقِنَتْ فِئَادُهُمْ تُبَلِّسُونَ

﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقُورِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلِلْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥)

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَلِ لَهُمْ﴾ أي: وسأمل لهم، أي أطول

(١) أحمد: ٣٩١/١. (٢) الطبري: ٢٨٢/١٣.

(٣) الطبري: ٢٨٣/١٣. (٤) الطبري: ٢٨٣/١٣.

(٥) فتح الباري: ٤٥١/١٣. ومسلم: ١٥٢٤/٣.

(٦) الطبري: ٢٨٩/١٣.

يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟! ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُ، وَيُدْرِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَقُونَ﴾ (١٨)

يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيها نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٩).

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِي إِلَّا هُوَ وَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَئِنَّةٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٠)

بيان الساعة وأشراتها

يقول تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَتَأْتِيَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قيل: نزلت في قريش، وقيل في نفر من اليهود، والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢١).

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسِيهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: متها^(١) أي: متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِي إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي: يعلم جليلة أمرها ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون^(٢)، قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض، يقول: كبرت عليهم^(٣).

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جريج: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء وانشرت النجوم،

وكُورت الشمس، وسُيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها.

وقال السدي: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: خفيت في السماوات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل^(٤). ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَئِنَّةٌ﴾ يعني قيامها تأنيبهم على غفلة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَئِنَّةٌ﴾ قضي الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَئِنَّةٌ﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إِنَّ السَّاعَةَ تَبِيحٌ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يُضِلُّ حَوْضَهُ وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَائِيَّتَهُ وَالرَّجُلُ يَقْسِمُ بِلَعْنَتِهِ فِي السُّوقِ وَيُخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»^(٥). وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيَّتَاهَا لَم تَكُنْ أَتَيْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيَّتَاهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَفَّرَ الرَّجُلَانِ قَوْمَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِيهِ وَلَا يَطْوِيَانِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بَلْبَنٍ لِفَحْشَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»^(٦).

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه إنهما علمها عنده استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً^(٧)، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها.

ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٠). ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أي لست أعلم بها

(١) الطبري: ٢٩٤/١٣. (٢) عبد الرزاق: ٢٤٤/٢.

(٣) عبد الرزاق: ٢٤٥/٢. (٤) الطبري: ٢٩٥/١٣.

(٥) الطبري: ٢٩٧/١٣. (٦) فتح الباري: ٣٦٠/١١.

(٧) الطبري: ٢٩٨/١٣.

تَجَوَّى الْأَرْضُ مِنْ تَتْنٍ رِيحِهِمْ - أَيُّ تَتْنٍ - ، قَالَ: فَيَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَطَرُ فَيَجْعَلُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ».

قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال وتعد الأرض مد الأديم، ثم رجع إلى حديث هشيم، قال: «فَقَبَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمَيْمِ لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ بِوِلَادَتِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»^(٤). ورواه ابن ماجه نحوه^(٥). فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشرافها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بها أعلمه الله تعالى به.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لَا يَحِلُّ لَهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَكِنْ سَأَخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنْ يَنْ يَكُنْهَا فَتَنَةٌ وَهَرَجًا» قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها فما الهرج؟ قال: «بِلِسَانِ الْحَيَّةِ الْقَتْلُ» قال: «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَافُرُ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا»^(٦). لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا» الآية^(٧)، ورواه النسائي^(٨)، هذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقضي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيها ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(٩). وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(١٠).

«قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِطُرُقِ الدِّينِ وَاتَّخِذْ إِلَهُكَ عَلَى كُلِّ مَسْجِدٍ وَابْتَغِ الْوَسِيلَةَ إِلَى رَبِّكَ مِنْ هَذَا الدِّينِ إِنَّنِي أَمَرَ بِالْإِسْلَامِ مِنْ قَبْلِهِ وَأَنَا أَوْلَى بِهِ مِنَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا بِرَبِّي»

منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

وفي رواية فسأله عن أشراف الساعة، فبين له أشراف الساعة، ثم قال: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ» وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: صدقت، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هَذَا جَزِيلٌ أَتَانُكُمْ يَعْلَمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١١)، وفي رواية قال: «وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهَا فِيهَا إِلَّا صُورَةُ هَذِهِ» وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سأله عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إِنْ يَعْشَى هَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»^(١٢). يعني بذلك موتهم الذي يُفْضِي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. ثم روى مسلم عن أنس أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا الْغُلَامُ فَعَسَى أَنْ لَا يَذْكُرْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١٣). انفرد به مسلم.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنْفُسُكُمْ بِاللَّهِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ ثَانِي عَلَيْهَا مِائَةٌ سَنَةٍ». رواه مسلم. وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: إنها أراد رسول الله ﷺ انخراط ذلك القرن. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُشْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، فَقَدْ أَكْرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ - قَالَ -: فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّمَا وَجِبَتْهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ الدَّجَالَ خَارِجٌ - قَالَ -: وَمَعِيَ قُضِيَانِ، فَإِذَا رَأَيْ دَابَّ كَمَا يَدُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيُهْلِكُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رَأَيْ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمٌ إِنْ تَحْتَنِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيُهْلِكُكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يُخْرِجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطَّأُونَ بِلَادَهُمْ لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ: قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ فَأَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُكُمْ وَيُؤَيِّتُهُمْ حَتَّى

(١) فتح الباري: ١/١٤٠. (٢) مسلم: ٤/٢٢٦٩.

(٣) مسلم: ٤/٢٢٧٠. (٤) أحمد: ١/٣٧٥.

(٥) ابن ماجه: ٢/١٣٦٥. (٦) أحمد: ٥/٣٨٩.

(٧) الطبري: ١٣/٢٩٢. (٨) النسائي في الكبرى: ٦/٥٠٦.

(٩) فتح الباري: ١١/٣٥٥.

نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٨﴾

[الرسول لا يعلم الغيب ولا يملك نفعا

ولا ضرراً حتى لنفسه]

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٣٨) الآية. قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَقْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَبَرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ﴿وَمَا مَسْنِيُّ الشُّوْءِ﴾ ولا يصيني الفقر (١٣٩)، وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعدت للسنة المجدة من المخصبة، ولو فت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَمَا مَسْنِيُّ الشُّوْءِ﴾ قال: لا تجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون واقعيته (١٤٠)، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَأَ يَسْرَتَهُ يَسَافِرًا لِّبَشِيرٍ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرٍ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ (١٤١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا صَلَاحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٢) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (١٤٣) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٤٤).

[كل الناس أولاد آدم]

بنيته تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام. وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربها توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ وذلك أو الحمل لا تحمد

المرأة له ألقا، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله (١٣٩)، وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه (١٤٠)، وقال ميمون ابن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به (١٤١)، وقال قتادة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: استبان حملها (١٤٢)، وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء قامت به وقعت (١٤٣). وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها (١٤٤). وقال السدي: كبر الولد في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا﴾ أي: بشرنا سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة (١٤٥)، وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً (١٤٦).

وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاماً ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٧) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٤٨).

روى ابن الجري عن الحسن ﴿جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم (١٤٩).

وعنه قال: عنى بها: ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (١٥٠). وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا (١٥١)، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وهو كالأستطارد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية،

(١) الدر المنثور: ٢٢٣/٣. (٢) الطبري: ١٣/٣٠٢.

(٣) الطبري: ١٣/٣٠٥. (٤) الطبري: ١٣/٣٠٥، ٣٠٤.

(٥) الطبري: ١٣/٣٠٤. (٦) الطبري: ١٣/٣٠٥.

(٧) الطبري: ١٣/٣٠٤. (٨) الطبري: ١٣/٣٠٥.

(٩) الطبري: ١٣/٣٠٥. (١٠) الطبري: ١٣/٣٠٦.

(١١) الطبري: ١٣/٣٠٦. (١٢) الطبري: ١٣/٣٠٦.

(١٣) الطبري: ١٣/٣١٤. (١٤) الطبري: ١٣/٣١٤.

(١٥) الطبري: ١٣/٣١٥.

يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرًا بِالْيَمِينِ﴾ (١٣) وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (١٤) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شاخين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسراها ويثلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل ليعتبر قومها بذلك ويرثوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيذا في قومه - صنم يعبد به ويطلبه، فكان يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان به بالعدرة، فيجيئ عمر بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضًا، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودياه في جبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهًا مستند

لم تك والكلب جميعًا في قرن
ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحها، كما قال إبراهيم: ﴿يَتَّبِعُونَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (١٥) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها علي فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم ﴿وَإِنْ رَأَى اللَّهُ إِلَى الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٦) أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه الجأ، وهو ولي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا آمَنَّا بِكَ بَعْضُ الْبَشَرِ يَسُوءُ قَالَتِ أَفْئِدَةُ اللَّهِ وَآشَدُّوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٧) من دوني فكيفوني جميعًا ثم لا تظنن ﴿إِنِّي نَزَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رُوحِي وَزَكَّرْتُ مَائِنَ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِأَمْرِي﴾ (١٨) ربي على صراط مستقيم ﴿وَقَوْلِ الْخَالِلِ: ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (١٩) فَأَنْتُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

ومعلوم أن المصاييح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمي بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسها، ولهذا نظر في القرآن، والله أعلم.

﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ تَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَسْتَعْصِمْتَهُمْ ﴿٢٢﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِذْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ أَلَهُمْ آزُجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَأْتِ بَطْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَأْتِ إِسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الْأَلَى سَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُقْرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

إلهة المشركين لا تخلق ولا تنصر ولا تملك شيئًا

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنصر لعابديها، بل هي جماد لا تحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) أي: أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ مِثْرَ مَثَلٍ فَأَسْتَوِعُوا اللَّهَ إِنَّ الْإِذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٢٢) ما فكدروا الله حق فكدروا الله لقوى عزيز ﴿٢٣﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم النيابة شيئًا من حقير المطاعم وطارات، ما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُتُونَ﴾ (٢٤) الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ تَصْرًا﴾ (٢١) أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ (٢٢) يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام

الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهو لا كانوا أو شباناً، فقال عينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل^(٨). انفرد بإخراجه البخاري وقد أخذ بعض الحكماء معنى الآية، فسبكه في بيتين فيها جناس، فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفِ كَمَا

أَمَرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلَسْنُ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ

فمستحسن من ذوي الجاه لسين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان؛ فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يُجرِّبه، وإما مسيء فمعه بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١١) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (١٢) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١٤) وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ (١٥) أي: هذه الوصية ﴿وَمَا يَزْعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ﴾ (١٦) وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَمَا يَزْعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وح السجدة لا رابع لها، فإنه تعالى، يرشد فيهن إلى معاملة

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (١٨). والآيات وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (١٩) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٠). قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، مؤكداً لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يُصَرِّوْنَ﴾ (٢١)، وقوله: ﴿وَأِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْكُفْرِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٢) كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُوهُمْ لَا تَسْمَعُوا دُعَاءَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٣) إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جهاد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعب عنها بضمير من يعقل.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) وَإِنَّا يَزْعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

[الأمر بالعفو]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم^(١)، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ (٢) قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس^(٣). وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس^(٤)، وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفي صحيح البخاري عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس^(٥). وفي رواية لغيره: عن هشام عن أبيه عن ابن عمر^(٦)، وفي رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنها قالت: مثل ذلك^(٧). والله أعلم.

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن [أُمِّي] قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) قال رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا يَا جَرِيرُ؟» قال: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِيَ مِنْ حَرَمِكَ، وَتَصِلَ مِنْ قِطْعِكَ»^(٨).

وقال البخاري قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) العرف: المعروف، ثم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قدم بن عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه

(١) الطبري: ٣٢٨/١٣. (٢) الطبري: ٣٢٧/١٣.

(٣) الطبري: ٣٢٧/١٣. (٤) فتح الباري: ١٥٥/٨.

(٥) فتح الباري: ١٥٦/٨. (٦) فتح الباري: ١٥٦/٨.

(٧) الطبري: ١٥٤/٦ وابن أبي حاتم: ١٦٣٨/٥.

(٨) فتح الباري: ١٥٥/٨.

ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي
الْفَنَى ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (١٠٦) الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما
يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم (١٠٧). ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ (١٠٨) لا
تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُم بِالشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرِ بِنُورِهِمْ أُولَٰئِكَ أَلَتْزَمْنَا أَزْوَاجَهُمْ
الْشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرِ بِنُورِهِمْ أُولَٰئِكَ أَلَتْزَمْنَا أَزْوَاجَهُمْ﴾ (١٠٩) قال ابن عباس وغيره:
ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً (١١٠).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْلَا جِئْنَاهُمْ بِبُرْهَانٍ كَرِيمٍ﴾ (١١١)
مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١٢)

[طلب المشركين الآيات]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا
لَوْلَا جِئْنَاهُمْ بِبُرْهَانٍ كَرِيمٍ﴾ يقول: لولا تلقبها. وقال مرة أخرى: لولا
أحدثتها فأنشأتها (١١٣). وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير
عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْلَا جِئْنَاهُمْ بِبُرْهَانٍ
كَرِيمٍ﴾ (١١٤) لولا اقتضيتها، قالوا: تخريجها عن نفسك (١١٥). وكذا قال
قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. واختاره ابن
جرير (١١٦). ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ قَالُوا
لَوْلَا جِئْنَاهُمْ بِبُرْهَانٍ كَرِيمٍ﴾ (١١٧) إن لنا نزل عليهم من السماء آية
فقلنا: أعتقناهم فما خضعوا (١١٨). يقولون للرسول ﷺ: ألا تعجب
نفسك في طلب الآيات من الله، حتى نراها ونؤمن بها، قال
الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنَ رَبِّي﴾ (١١٩) أي: أنا لا
أقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمروني به، فأمثل ما
يوحى إلي، فإن [بعث] آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء
إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم
إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات
وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٠).

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٢١)

[الأمر باستماع القرآن]

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر
تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان
يعتمده كفار قريش، المشركون، في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا

العاصي من الإنس بالمعروف بالتالي هي أحسن فإن ذلك يكفه
عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الْوَيْلُ لِلْيَنَانِ
وَبَيْنَهُمْ عَادُوهُ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١٢٢) ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة
به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد
هلاكك ودمارك بالكيفية فإنه عدو مبین لك ولأبيك من
قبلك، وقال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن
الأعراض عن الجاهل ويملك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾
يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٣) سمع
الجاهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من
كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ
الشيطان وغير ذلك، من أمور خلقه (١٢٤).

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن
إعادته هنا.

﴿إِنَّ الْيَتِيمَ أَتَقْوَى إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا فَإِذَا
هُمْ بُصِيرُونَ﴾ (١٢٥) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفَنَى ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (١٢٦)

[طريقة أرباب التقوى عند الوسوسة]

يخبر تعالى عن المتقين من عبادته الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا
ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم (طيف). وقرأ
الآخرون ﴿طَلِفٌ﴾ وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى
واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب،
ومنهم من فسر بهمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من
فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب وقوله:
﴿تَذَكُّرًا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعدله،
فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُمْ
بُصِيرُونَ﴾ (١٢٧) أي: قد استقاموا وصحوا عما كانوا فيه.

[إخوان الشياطين يمدون في الفنى]

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفَنَى﴾ (١٢٨) أي: وإخوان الشياطين
من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ (١٢٩) وهم
أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي
الْفَنَى﴾ أي: تساعد الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم
وتحسنها لهم. وقال ابن كثير: المد الزيادة: يعني: يزيدهم في
الغنى، يعني: الجهل والسفاهة ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (١٣٠) قيل: معناه:
إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال علي

(١) الطبري: ١٣/٣٣٢. (٢) الطبري: ١٣/٣٣٨.

(٣) الطبري: ١٣/٢٥٢. (٤) الطبري: ١٣/٣٤١.

(٥) الطبري: ١٣/٣٤١. (٦) الطبري: ١٣/٣٤٢.

ذَاتَ يَبِيصَكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

[تفسير الأنفال]

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: المغنم، ثم روي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر ^(٣). أما ما علقه عن ابن عباس فذلك رواه علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ^(٤)، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها المغنم ^(٥)، وقيل: النفل ما ينقله الإمام لبعض الأشخاص، من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وقيل: هو الخمس بعد الأربعة من الأخماس. وقيل: هو الفية. وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وما شئ منهم إلى المسلمين من دابة أو عبد أو أمة أو متاع وروى ابن جرير عن علي بن صالح بن حي قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنْ

الْأَنْفَالِ﴾: قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.

[سبب نزول الآية]

وروى الإمام أحمد عن سعد بن مالك، قال: قلت: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: «إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَأَكْ وَلَآئِي، ضَعْمُهُ» قال: فوضعت، ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت: قد أنزل الله في شيتا؟ قال: «كُنْتُ سَأَلْتُ السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي، فَهُوَ لَكَ». قال: وأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: الأنفال لله والرسول ^(٦). ورواه أبو دود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح ^(٧).

[سبب آخر في نزول الآية]

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن

الْفَرَّانِ وَالْقَوَافِدِ ﴿١﴾ الآية. قال ابن جرير: قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ^(٢).

﴿وَأَذْكُرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ بَضْرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ^(٣) إِنْ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٤﴾

[الأمر بالذكر والعبادة في الصباح والمساء]

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ^(٥) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال ههنا: ﴿وَالْغُدُوِّ﴾ وهو أول النهار، ﴿وَالْآصَالِ﴾ جمع أصيل كما أن الأيان جمع يمين، وأما قوله: ﴿بَضْرَعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرا، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْزُقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِي رَاحِلَتِهِ» ^(١). والمراد الخص على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال؛ لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية، وإنا ذكرهم بهذا ليقتردي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُعْمَلُونَ الصُّفُوفُ الْأُولَى فَالْأُولَى وَتَرَاهُمْ فِي الصَّفِّ» ^(٢). وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

آياتها سبعون وخمس آيات. كلماتها: ألف كلمة وستمائة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة. حروفها: خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاسْتَمِعُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا

(١) فتح الباري: ١٥٧/٦ ومسلم: ٢٠٧٧/٤.

(٢) مسلم: ٣٢٢٢/١ (٣) فتح الباري: ١٥٦/٨.

(٤) الطبري: ٣٧٨/١٣ (٥) الطبري: ٣٦٢، ٣٦١/١٣.

(٦) أحمد: ١٧٨/١ (٧) أبو داود: ١٧٧/٣ وتحفة

الأحوذى: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦.

يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فآدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤) يقول: لا يرجون غيره (٧).

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت أي: فرغت وخافت (٨). وكذا قال السدي وغير واحد. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه (٩). أي: خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجه. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا أَثْمَارَ الْفِتْنَةِ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ دُكِّرُوا اللَّهُ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَقْبَرِ الذُّنُوبَ لَا اللَّهُ وَكَمْ يُعْرِضُونَهَا عَنْ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَبَّ النُّفْسَ غَنَىٰ الْفَوَاقِ﴾ (١٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (١١) ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهيم بمعصية فيقال له: اتق الله فيجل قلبه.

[زيادة الإيمان إذا تتلى آيات القرآن]

وقوله: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَسَوْا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢). وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكي الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

[بيان التوكل]

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) أي: لا يرجون سواه، ولا

الأنفال؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمة رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول: عن سواء- (١). وروى الإمام أحمد أيضًا عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يرمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يجوزونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها؛ فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: [لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ] خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

فقسما رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الرُّبْع، فإذا أُقبل [وكل الناس] راجعًا نفل الثلث، وكان يكره الأنفال (٢). [ويقول: ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم]، ورواه الترمذي وابن ماجه نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن (٣).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا ولا تحاصموا، ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسبه ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمة بينكم على ما أراه الله، فإنه إننا يقيسه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله [على المؤمنين] أن يتقوا [الله] ويصلحوا ذات بينهم (٤). وكذا قال مجاهد (٥). وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا (٦).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٢) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٣)

[أوصاف المؤمنين الصادقين]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: المنافقون لا

(١) أحمد: ٣٢٢/٥. (٢) أحمد: ٣٢٣/٥.

(٣) تحفة الأحرفي: ٤٦٨/٨ وابن ماجه: ٩٥١/٢.

(٤) الطبري: ٣٨٤/١٣. (٥) الطبري: ٣٨٤/١٣.

(٦) الطبري: ٣٨٤/١٣. (٧) الطبري: ٣٨٦/١٣.

(٨) الطبري: ٣٨٦/١٣. (٩) الطبري: ٣٨٦/١٣.

يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنبه، ولا يطلبون الخرائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

[بيان أعمال المؤمنين]

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢) ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها^(١). وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والشهادة والصلاة على النبي ﷺ. وهذا إقامتها^(٢). والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

[بيان حقيقة الإيمان]

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

[ثمرة الإيمان الكامل]

وقوله: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ عِلِّيْنِ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يناها غيرهم فقال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رَجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» (٤). وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث [عطية] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمَا (٤).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ (٥) يُجِدُّ لَوْنِكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيْنَ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى

الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْلٍ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٣﴾

[اتباع الرسول باعث خير للمؤمنين]

قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبه به - في الصلاح للمؤمنين - اتقاؤهم بهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله. ومعنى هذا: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغنم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمة وقسم رسول الله ﷺ، فقسما على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراحتكم للقتال: بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رَشَدًا وَهُسْدًا، ونصرًا وفتحًا - كما قال تعالى: ﴿كُنْتُ عَلَيْكُمْ الْيَقَالَ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣) قال السدي: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ (٥) لطلب المشركين ﴿يُجِدُّ لَوْنِكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيْنَ﴾ قال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعرير ولم تعلمنا قتالًا فنستعد له؟ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْلٍ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال؛ ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام، ويجعل غالبًا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يديركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: ﴿كُنْتُ عَلَيْكُمْ الْيَقَالَ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾، وقال محمد بن إسحاق رحمه الله عن عبد الله بن عباس، قال: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلًا من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال:

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٧/١

(٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦ ومسلم: ٤/١٧٧

(٤) أحمد: ٢٧/٣ وأبو داود: ٢٨٧/٤ وتحفة الأحوذى: ١٤٢/٨

وابن ماجه: ٣٧/١

عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَابْتَشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ! لَكَائِي الآنَ أَنْظِرُنِي إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»^(١). وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا^(٢)، وكذلك قال السدي وقسادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلق^(٣)، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ كَسَبَ بَنُوتُكَ رِبَّكَمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾^(٤) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٥)

[استغاثة المسلمين واستجابة الله لهم بإزالة الملائكة]

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ كَسَبَ بَنُوتُكَ رِبَّكَمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَرِهَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾^(٦) ثم روي عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فأريت النبي ﷺ أشرق وجهه وصره يعني: قوله-^(٧) ثم روي عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللَّهُمَّ أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَنْعُ وَيُوْلَوْنَ الدُّبُرَ» ورواه النسائي^(٨) وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾^(٩) أي: يردف بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس «مُرَوِّفِينَ»^(١٠) متتابعين^(١١) روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة^(١٢)، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم عن ابن عباس، عن عمر حديثاً^(١٣) فيه: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك

هذه غير قُرَيْشٍ فِيهِ أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْصُرَهُمْ. فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له: ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأباه الخبر عن قريش بمسيرهم؛ ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر ركباً فقال: فأحسن، ثم قام عمر ركباً فقال: فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله! امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «ابشروا عَنِ النَّاسِ» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عند الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا نراك من دمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في دمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. وكان رسول الله ﷺ يخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته، إلا ممن دمه بالدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» فقال: فقد آمنا بك وصدقتك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله! لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق! إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله، فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «يسروا

(١) الطبري: ١٣/٣٩٩. (٢) الطبري: ١٣/٤٠٣.

(٣) الطبري: ١٣/٤٠٢، ٤٠٥. (٤) فتح الباري: ٧/٣٣٥.

(٥) فتح الباري: ٧/٣٣٥ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٧٧.

(٦) الطبري: ١٣/٤١٢. (٧) الطبري: ١٣/٤٢٣.

(٨) الطبري: ١٣/٤٠٩، ومسلم: ٣/١٣٨٣.

وأما فخر مستقياً قال: فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ قال: «صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين^(١). وقال البخاري: باب شهود الملائكة بدرًا. ثم روى رفاعه بن رافع الزرقني وكان من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(٢). انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ، والصواب رواية البخاري. والله أعلم. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْعَمَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ»^(٣). وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إليهم بهم إلا بشرى ﴿وَلِيُظْمِنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصرهم على أعدائهم بدون ذلك ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَغْنَتْهُمُ مَقْنَدُوا الْوَقَاتِ فَمَا مَتَّاعٌ بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقَهَا ذَلِكَ لِكَيْلِ بَشَاءِ اللَّهِ أَنْ تَنْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ﴿وَلِيُخْلِفَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُواهُمْ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالِ الْآيَاتِمْ نَدَّوْلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) وليُخَصَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكَافِرِينَ^(٦) فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليوم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ﴾

وقتل المؤمنين للكافرين، أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى: للمؤمنين في هذه الأمة: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُضْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾^(٧) ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب -لعنه الله- بالعسرة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، إنما غسلوه بالماء قدفاً من بعيد، ورجوه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كقول تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُؤَيِّدُ بَقِيَّتَهُمُ الْآخِرَةِ﴾^(٨) ﴿حَكِيمٌ﴾^(٩) فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُضَيِّقُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١٠) إذ يوحى ربك إلى الملائكة أُنِزَ عَلَيْكُمْ فَتَقْرَأُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْلَمُوا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا قُوَّةَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ^(١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١٢) ذَلِكَ فَدَرَوْهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ^(١٣)

[غلبة النعاس على المسلمين]

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً منهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلته عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً شَاسَاً يُثَبِّتُ بِهَا قُلُوبَكُمْ وَطَاقَةً قَدْ أَهَمَّتْكُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآية، قال أبو طلحة: كنت عن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميذون وهم تحت الحجف، وروى الحافظ أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي

(١) مسلم: ٣/١٣٨٤. (٢) فتح الباري: ٧/٣٦٢.

(٣) فتح الباري: ٧/٣٥٥، ومسلم: ٤/١٩٤١.

شَرَابًا طَهُورًا ﴿١٠﴾ أي: مطهرًا لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على جملة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر. والله أعلم.

[أمر الله الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين والقتال معهم]

وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رُؤْيَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتَ﴾ أي: ثبتوا أنتم المؤمنين وقوا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم، بذلك سألتني الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿فَأَضَرُّوهُمُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضَرُّوهُمُ مِنْهُنَّ كُلَّ بُنْيَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام فقلقوها، واحترزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم وقوله: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: معناه: اضربوا الرؤوس، وقيل: معناه: فوق الأعناق أي على الأعناق وهي الرقاب، قاله الضحاك وعطية العوفي ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَغْنَتْهُمُ فَتُكْرُوا أَلْوَنًا﴾. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتل الملائكة بمن قتلوه بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، وقوله: ﴿وَأَضَرُّوهُمُ مِنْهُنَّ كُلَّ بُنْيَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة ^(٨). وقال العوفي عن ابن عباس: فذكر قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

نَحْتُ شَجَرَةً وَيَكِي حَتَّى أَصْبَحَ ^(١). وعن عبد الله بن مسعود ^(٢) أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان ^(٣)، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب ^(٤)، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وذلك مشهور جدًا، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم أمانة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ^(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ^(٦) ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ^(٧) وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسمًا فقال: «أَبَشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جَنَرِيلُ عَلَى قَنَايَةِ النَّعْسِ» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَرْجِعُ الْجَنَّةَ وَيُؤْتُونَ الْأُزْبُرَ﴾ ^(٨).

[نزل المطر ليلة بدر]

وقوله: ﴿وَيُزِيلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنين، فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسةائة مجنبة، وميكائيل في خمسةائة مجنبة ^(٩). وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبث لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا ^(١٠) معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم ^(١١)، وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ ثَابُتٌ سُتُورٌ خَضَرٌ وَاسْتَرَقَّ وَجْهُهُمْ وَأَسَاوِرٌ مِن ذَهَبٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ

(١) مسند أبي يعلى: ٢٤٢/١. (٢) الطبري: ١٣/١٩٠.

(٣) ابن أبي حاتم: ١٦٦٤/٥. (٤) دلائل النبوة: ٣/٥٤.

(٥) الطبري: ١٣/٤٢٣. (٦) الواقدي في المغازي: ١/٥٤.

(٧) الطبري: ١٣/٤٢٥. (٨) الطبري: ١٣/٤٣١.

تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ قلت: إن الله يقول: ﴿إِنَّا لَيَسِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ الآية، فقال: إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها، وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحِدِّينَ إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾: المتحيز الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه (٣) فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفِيقَاتِ» قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسُّخْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالنَّوْطِيُّ يَوْمَ الرَّحْفِ وَقِلْدُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» (٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَبَ أَيُّ: رَجَعَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنَهُ﴾ أي: مصيره ومقلب يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيدُ﴾ (٥).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا دَمَيْتُ إِذْ رَسَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦) ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧).

[قتل الله للكافرين ودميهم بالتراب]

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم. أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَائْتِمَادِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِرِيكُمْ﴾ (٨) ﴿يُعَلِّمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ النِّصْرَ لَيْسَ عَلَىٰ كَثْرَةِ الْعُدَدِ وَلَا بِلِبْسِ الْأَلَمَةِ وَالْعُدَدِ، وَإِنَّا النِّصْرَ مِنْ عِنْدِ تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾

الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (٩). الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني: قتيلاً ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٠) أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ذَلِكَ كَمْ فَذَوْهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١) هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ (١٢) ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِيَالٍ أَوْ مُتَحِدِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَتْ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنَهُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيدُ﴾ (١٣).

[النهي عن التولي يوم الزحف وجزاؤه]

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ (١٤) أي: تفروا وتركوا أصحابكم ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِيَالٍ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة لئلا يرى أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير والسدي (١٥)، وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها ﴿أَوْ مُتَحِدِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أي: فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره (١٦) أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر: لو تحيز إلي لكنت له فئة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال لما قتل أبو [عبيد] قال عمر: أيها الناس أنا فتكم وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر: أيها الناس لا

(١) الطبري: ٤٣٦/١٣، ٤٣٧. (٢) الطبري: ٤٣٦/١٣.

(٣) الطبري: ٤٣٧/١٣.

(٤) فتح الباري: ٤٦٢/٥، ومسلم: ٩٢/١.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم! انصر أعلى الجندين وأكرم الفتيين وخير القبيلتين فقال الله: ﴿إِنْ قَسَيْتُمْ حُفُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وهو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ الْآيَةُ (٦)﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ قَسَيْتُمْ﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تَقْبَلَ عَنْكُمُ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كُفِّرْتُمْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١١)﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعُوا مَا يَسْمَعُونَ (٢) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣)﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٥)﴾

[الامر بطاعة الله ورسوله]

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامشال أوامره وترك زواجه ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا يَسْمَعُونَ (٢)﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاهم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣)﴾ وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك (٤)، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ فهو لاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيع لله فيما خلقها له وهو لاء خلقوا للعبادة فكفروا،

يَا أَيُّهَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (١١)﴾. ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكاثته فرماهم بها وقال: ﴿شَاقِبَتِ الْوُجُوهُ﴾ ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ رَبُّكَ اللَّهُ رَحِيمٌ (١١)﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي: ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته (١٢) وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث «وَكُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٌ أَبْلَاةٌ» وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَمِعُ عَلَيْهِ (١٣)﴾ أي: سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ (١٤)﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغر أمرهم وأنهم وكل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ قَسَيْتُمْ حُفُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ قَسَيْتُمْ حُفُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ وَلَنْ تَقْبَلَ عَنْكُمُ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كُفِّرْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١١)﴾

[إجابة استفتاح المشركين]

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ قَسَيْتُمْ حُفُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقصوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتكم كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم! أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿إِنْ قَسَيْتُمْ حُفُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية (٣).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم! أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتح (٤)، وأخرجه النسائي في التفسير وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٥)، وروي نحوه هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد،

(١) الطبري: ٤٤٤/١٣. (٢) الطبري: ٤٤٨/١٣.

(٣) الطبري: ٤٥٣/١٣. (٤) أحمد: ٤٣١/٥.

(٥) النسائي في الكبرى: ٣٥٠/٦ والحاكم: ٣٢٨/٢.

(٦) الطبري: ٤٥٣/١٣. (٧) الطبري: ٤٥٨/١٣.

ولم يخرجاه^(٥)، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي^(٦)، وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: حتى يتردى لا يعقل، وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ! بُنْتُ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قال: قلنا يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ تَعَالَى يُقَلِّبُهَا»^(٧). وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه وقال: حسن^(٨).

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سميان الكلابي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَبْسُطَ أَقَامَهُ وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَزَاغَهُ» وكان يقول: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ بُنْتُ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قال: «وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْضِبُهُ وَيَزَيِّغُهُ»^(٩) وهكذا رواه النسائي وابن ماجه. **﴿وَأَنْقَرُوا نَفْسَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**^(١٥)

[التحذير من فتنه عامة]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِتْنَةً أَيْ: اخْتِبَارًا وَمِحْنَةً يَمُحُّ بِهَا الْمَسِيءَ وَغَيْرَهُ لَا يَخْصُ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ بَلْ يَمُحُّ بِهَا حَيْثُ لَمْ تَدْفَعْ وَتَرَفَعْ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قُلْنَا لِلزَّيْرِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَيَعَتِ الْخَلِيفَةُ الَّذِي قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بَدْمَهُ؟ فَقَالَ الزَّيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَأَنْقَرُوا نَفْسَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ نَكُنْ نَحْسِبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مَنَا حَيْثُ وَقَعَتْ^(١١)، وَقَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ

وَهَذَا شَبِيهِهُمُ بِالْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآزِيِّ يَغْنَمُ بِنَا لَا يَسْتَعِ إِلَّا مَعَةً وَنِدَاءً﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَوَلَيْكَ كَالَّذِينَ بَلَغُوا الْمَكَرَ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ النَّافِقُونَ﴾^(١٢) وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ جُرَيْرٍ^(١٣). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ، قُلْتُ: وَلَا مَنَافَةَ بَيْنَ الْمَشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي هَذَا لِأَنَّ كَلَامَهُمْ مَسْلُوبُ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ وَالْقَصْدُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ وَلَا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ لَوْ فَضَرَأَ أَنْ لَهُمْ فَهْمًا فَقَالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أَي: لَا فَهْمَهُمْ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ وَلَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَمْ يَفْهَمَهُمْ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أَي: أَفْهَمَهُمْ ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَعِنَادًا بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ مُعْرِضُونَ^(١٤) عَنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُنْتَحَبُوتٌ﴾^(١٥)

[الأمر باستجابة الله والرسول]

قَالَ الْبُخَارِيُّ «اسْتَجِيبُوا» أَجِيبُوا «لِمَا يُحْيِيكُمْ» لِمَا يَصْلُحُكُمْ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمَعْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَصْلِي فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَانِي فَلَمْ أَتِهِ حَتَّى صَلَيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» ثُمَّ قَالَ: «لَا أَعْلَنُكَ أَكْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ» فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُخْرِجَ فَذَكَرْتُ لَهُ. وَقَالَ مَعَاذُ: أَنْ حَفْصُ بْنُ عَاصِمٍ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا وَقَالَ: «لَا تَعْنِدُ قَوْلَهُ نَبَأٌ أَتَيْتُكَ»^(١٦) هِيَ السَّبْعُ الثَّلَاثِيَّةُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ الزَّيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزَّيْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾:

أَيُّ لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الدَّلِّ، وَقَوَاكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنْعَكُمْ مِنْ عِبَادِكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ.

[الله يحول بين الإنسان وقلبه]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ^(١٧)، رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مَوْقُوفًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ

(١) الطبري: ١٣/٤٦٠. (٢) فتح الباري: ٨/١٥٨.

(٣) ابن هشام: ٢/٣٢٤. (٤) الطبري: ١٣/٤٦٨.

(٥) الحاکم: ٢/٣٢٨. (٦) الطبري: ١٣/٤٧٠، ٤٧١.

(٧) أحمد: ٣/١١٢. (٨) تحفة الأحوذی: ٦/٣٤٩، ٣٥٠.

(٩) أحمد: ٤/١٨٢.

(١٠) النسائي في الكبرى: ٤/٤١٤ وابن ماجه: ١/٧٢.

(١١) أحمد: ١/١٦٥.

فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى» قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يُصَيِّبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةِ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»^(١).

(حديث آخر): وروى الإمام أحمد أيضًا عن جرير، أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مَنْ يَعْمَلُونَ ثُمَّ لَمْ يَغَيِّرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢) وأخرجه ابن ماجه^(٣).

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤)

[تذكير المسلمين بما كانوا فيه من الذل والضعف]

وما آتوا إليه من القوة والنصر

بنيته تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثروهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقتلتهم، وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة؛ فأوآهم إليها وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة بن دعامة السدوسي - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحسي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراة جلوداً وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله! ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشمر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد

ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصة^(١). وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعصمهم الله بالعذاب^(٢)، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ هي أيضاً لكم^(٣)، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿أَتَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ فأياكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن^(٤) ورواه ابن جرير، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِزِّهِ ثُمَّ لَتُدْعَهُ فَلَا يَسْتَجِيبَ لَكُمْ»^(٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي الرقاد قال: خرجت مع مولاي لدعوت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخضن على الخير أو [ليستحتنكم] الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم^(٦).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد أيضاً عن النعمان بن بشير أنه خطب فقال: وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه يقول: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا وَالْمُدَّامِنِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَيْبَةً فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَأَوْعَرَهَا وَفَرَّهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا الْمَاءَ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَأَذَوْهُمْ فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا فَانْشَقَّتْ مِنْهُ وَلَمْ تُؤْذَ مِنْ فَوْقِنَا: فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمَرُهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا»^(٧)، انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم فرواه في الشركة والشهادات^(٨)، والترمذي في الفتن من غير وجه^(٩).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي لِي أَتَيْتُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِزِّهِ» فقلت: يا رسول الله! أما

(١) الطبري: ١٣/٤٧٤. (٢) الطبري: ١٣/٤٧٤.

(٣) الطبري: ١٣/٤٧٥. (٤) الطبري: ١٣/٤٧٥.

(٥) أحمد: ٥/٣٨٨. (٦) أحمد: ٥/٣٩٠.

(٧) أحمد: ٤/٢٦٦. (٨) فتح الباري: ٥/١٥٧، ٣٤٥.

(٩) تحفة الأحوذى: ٦/٣٩٤. (١٠) أحمد: ٦/٣٠٤.

(١١) أحمد: ٤/٣٦٤. (١٢) أحمد: ٤/٣٦٦ وابن ماجه: ٢/١٣٢٩.

قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بَيْنَ خَلَاوَةِ الْإِبَانِ: مَنْ كَانَتْ لَهُ رُسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ بِمَا سَوَّاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَقْنَدَهُ اللَّهُ مِنْهُ»^(٤)، بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفس^(٥)، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٦).

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٧)
قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والطحاوي وقتادة ومقاتل ابن حيان وغير واحد: «فُرْقَانًا» مخربًا، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة^(٨)، وفي رواية عن ابن عباس «فُرْقَانًا» نجاة، وفي رواية عنه نصرًا، وقال محمد بن إسحاق «فُرْقَانًا»: أي فصلًا بين الحق والباطل وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أو امره وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصر ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها - سترها عن الناس - سببًا لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمُوا بِرُسُولِهِ يُؤْخَذْ لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُجْعَلَ لَكُمْ ثَوَابٌ تَمَشُّونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٩) و﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَكِرِينَ﴾^(١٠)
[ذكر ما دبره أهل مكة من قتل النبي ﷺ أو

حبسه أو جلالة

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «لِيُثْبِتُوكَ»: ليقيدوك^(١١)، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق^(١٢).
روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: وحدثني

ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم بحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله^(١٣).
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْوُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَحْوُوا أَمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٤) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١٥)

[سبب نزول هذه الآية والنهي عن الخيانة]

في الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبًا فأقر بها صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله! ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دَعُهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذَرًا، وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذَرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «وَتَحْوُوا أَمَنَتَكُمْ» الأمانة، الأعمال التي اتّمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: «لَا تَحْوُوا» لا تنقضوها^(١٦).

وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تحونوا الله والرسول كما صنع المنافقون^(١٧)، وقوله: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ»، أي: اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أنشكرونه عليها وطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»^(١٨) وقال: «وَيُثْبِتُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ». وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١٩). وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢٠). وقال تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»^(٢١) أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه

- (١) الطبري: ١٣/٤٧٨. (٢) الطبري: ١٣/٤٨٥.
(٣) الطبري: ١٣/٤٨٣. (٤) مسلم: ١/٦٦.
(٥) مسلم: ١/٦٧. (٦) فتح الباري: ١/٧٥.
(٧) الطبري: ١٣/٤٨٩، ٤٩٠. (٨) الطبري: ١٣/٤٩١.
(٩) الطبري: ١٣/٤٩٢.

شَاعِرٌ تَرَضُّ بِرَبِّهِ رَبِّ الْعَمَلُونَ ﴿٣٠﴾ فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذي اجتمعوا عليه من الرأي ^(١)، وعن السدي نحو هذا السياق. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ^(٣٠) أي: فمكرت بهم بكيدي التين حتى خلصتكم منهم ^(٢).

﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَتَيْنْتُمْ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(٣١) وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا وَعَذَابَ أَلَسَ ^(٣٢) وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

[زعم قريش في إتيانهم بمثل القرآن]

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تنادى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل وبلا فقد تحداو غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وأسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول: بالله! أيتنا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك، والله الحمد ومعنى ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع أسطورة أي: كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَسْتَهْزَأُ فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بِكُفْرِهِ وَأَصِيلًا ^(٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالسَّمُوتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٦) أي: لمن تاب إليه وأتاب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره. فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به رب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والناطقة إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله! ما هذا لكم برأي، والله! ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ فانظروا في غير هذا. قال قائل منهم: أخرجه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحم وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله! ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه. وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله! لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبو جهل لعنه الله. والله! لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فأنهم إذا رأوا ذلك، قبلوا العقل واسترحنا، وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: ففارقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاده عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ^(٣٠) وأنزل في قوهم: تربصوا به رب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، ﴿أَمْ يَقُولُونَ

[استفتاح المشركين وطلبهم العذاب]

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيىوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ وَوَقِّنَا لَاتِبَاعِهِ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعَجَلُوا الْعَذَابَ، وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلاً يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣٤) وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٣٥) رَبِّكَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ (٣٦).

وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٧) وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٨) قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزبدي عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٩) فنزلت: ﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٤٠) رواه البخاري (١).

وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٧) وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٨) قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزبدي عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٩) فنزلت: ﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٤٠) رواه البخاري (١).

[وجود النبي ﷺ واستغفار المشركين كانا

أمانين من العذاب]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٤١) روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم! لبيك، لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ: قد، قد، ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

ويقولون: غفرانك غفرانك فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار (٢).

وروى الترمذي عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: ﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٤٢) فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ

﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَافَ وَتَصَدِيقَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٤٤)

[عذاب المشركين بعد ارتكابهم الفظائع]

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ، حين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم، وأسر سرائرهم، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد.

فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّةُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيُحْبِكُمْ وَنَهْمُهُمْ مَعْرَةٌ يَنْزِعُ عَنْهُمْ لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكُوا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٤٥) وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ﴾ (٤٧) أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام؛ وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ

(١) فتح الباري: ٨/ ١٦٠. (٢) الطبري: ١٣/ ٥١١.

(٣) تحفة الأحوذى: ٨/ ٤٧٢. (٤) أحمد: ٣/ ٢٩.

(٥) الحاكم: ٤/ ٢٦١.

وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ
 فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٧﴾

[إنفاق الكفار أموالهم للصد عن سبيل

الله يعود حسرة عليهم]

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا: لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم يبدرون فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش! إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾﴾ (٧٧)، وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبيرة والحكم بن عيينة وقاتة والسدي وابن أبيزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ (٧٧)، وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر (٨) وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي: ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق؛ والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٧٨)

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا يَحْتَرِفُونَ اللَّهَ بِمَنَاسِكِهِمْ مِنَ الْمَنَاسِكِ وَآثَمُوا الْآخِرَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْزَبِينَ ﴿٨٠﴾، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، الآية.

وروى الحاكم في مستدركه عن رفاعة قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا: فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: «حليفنا منّا وابن أختنا منّا ومولانا منّا» إن أوليائي منكم المتّقون ثم قال: هذا صحيح ولم يخرجوا (١)، وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أُولَآئُوهُ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾، قال عبد الله بن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر ابن عيسى ونبيط بن شريط وقاتة بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصّفير (٢)، وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم (٣)، وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾، قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق والمكاء: الصّفير والتصدية: التصفيق، وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقاتة وعطية العمري وحجر بن عيسى وابن أبيزى نحو هذا.

وروى ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: المكاء الصّفير والتصدية التصفيق وعن سعيد بن جبيرة وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل (٤). وقوله ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٧٩)، قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي (٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصَّدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٨٠) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

(١) الحاكم: ٣٢٨/٢. (٢) الطبري: ٥٢٦، ٥٢٢/١٣.

(٣) الطبري: ٥٢٥/١٣. (٤) الطبري: ٥٢٧/١٣.

(٥) الطبري: ٥٢٨/١٣. (٦) الطبري: ٥٣٢/١٣.

(٧) الطبري: ٥٣١، ٥٣٠/١٣. (٨) الطبري: ٥٣٣/١٣.

فقال: يا أبا عبد الرحمن! ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَلَا تَلْقَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَتَلُوا﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي! أعير بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدًّا﴾ إلى آخر الآية. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يؤثموه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فليقولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما قولي في علي وعثمان، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخنته، وأشار بيده وهذه ابنته - أو بنته - حيث ترون^(٤)، وعن سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر^(٥) فقال: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهبل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك^(٥). هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ يعني: لا يكون شرك^(٦)، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم، وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا، ﴿حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه^(٧)، وقوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا عَنْهُ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله^(٨)، وقال الحسن وقتادة وابن جريج: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا عَنْهُ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله^(٩)، وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد^(١٠).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء^(١)، وليميز من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) فمعنى الآية على هذا: إنا ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعهم كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣) أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا عَنْهُ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٥) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُغْنِيكُمُ الْمَوْلَى وَغْنِمُ النَّصِيرِ^(٦)

[ترغيب الكفار في التوبة وترهيبهم على كفرهم]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود^(١) أن رسول الله ﷺ قال: ﴿مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ﴾^(٢) وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: ﴿الْإِسْلَامُ يُجِبُّ مَا قَبْلَهُ وَالْتَّوْبَةُ تُجِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَإِنْ يَؤُودُوا﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أننا نعالجهم بالعذاب والعقوبة.

[الأمور بالقتال لإنهاء الكفر والشرك]

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا عَنْهُ﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رجلاً جاء

(١) الطبري: ١٣/٥٣٤. (٢) فتح الباري: ١٢/٢٧٧.

(٣) مسلم: ١٢١ وأحمد: ٤/٢٠٥.

(٤) فتح الباري: ٨/١٦٠. (٥) فتح الباري: ٨/١٦٠.

(٦) الطبري: ١٣/٥٣٨. (٧) ابن أبي حاتم: ٥/١٧٠١.

(٨) ابن أبي حاتم: ٥/١٧٠١. (٩) الطبري: ١٣/٥٣٨، ٥٣٩.

(١٠) ابن هشام: ٢/٣٢٧.

ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾، تؤكد لتخمس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلِبْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣١)، وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال الضحاک عن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: وقوله ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ مفتاح كلام: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً (٣٢)، وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية، والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد (٣٣). ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل [من بلقين]، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «الله خُمُسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْيَاسِهَا لِلْجَيْشِ» قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لَا، وَلَا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ [جَنْبِكَ] لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ» (٣٤).

وروى الأمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة! كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأَخْصَاصِ. فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنمليتي، فقال: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَدَاوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ، وَأكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرُ، وَلَا تَغْلُوا فَإِنَّ الْغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ،

كُلُّهُ لِلَّهِ»، لا يكون مع دينكم كفر (٣٥)، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٣٦) وفيها عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -» (٣٧).

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْتَهَوْا﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم: ﴿فَلَمَّا أَنْتَهَوْا﴾ أي: بما يعملون بصير (٣٨)، كقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، الآية، وفي الآية الأخرى ﴿فَاخْرُجْهُمْ فِي الدِّينِ﴾، وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ ابْتَدُوا بِفَكْرٍ عَذْوَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩).

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله الله، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قال: يا رسول الله! إنما قالها تموداً، قال: «هَلَّا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ؟» وجعل يقول ويكرر عليه: «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قال أسامة: حتى تمنت أني لم أكن أسلمت [إلا ذلك اليوم] (٤٠)، وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَقِمُّ أَمْرُكُمْ وَبِعَمِّ النَّصِيرِ﴾ (٤١)، أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، وسيدكم وناصركم على أعدائكم لنعم المولى ونعم النصير.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْمَسْكِينِ وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْبَلَاءِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٢)

[حكم الغنيمة والفيء]

يبين تعالى تفصيل ما شرعه خصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة من إحلال المغانم والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم غير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها،

(١) الطبري: ١٣/٥٣٩.

(٢) فتح الباري: ١/٩٥ ومسلم: ١/٥٣.

(٣) البخاري: ١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨.

(٤) مسلم: ١/٩٦. (٥) الطبري: ١٣/٥٤٩.

(٦) الطبري: ١٣/٤٥٠، ٥٤٨. (٧) البيهقي: ٦/٣٢٤.

الْفَرَقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ أَجْمَعَيْنِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾
 بينه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فرق به بين الحق
 والباطل بيدر، ويسمى الفرقان؛ لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان
 على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال علي بن
 أبي طلحة والعمري عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرق
 الله فيه بين الحق والباطل^(٧)، رواه الحاكم، وكذا قال مجاهد
 ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن
 حيان وغير واحد أنه يوم بدر^(٨).

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَدِينَةِ
 الْأَنْبِيَاءِ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنْ
 لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
 وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

[بعض تفاصيل يوم بدر]

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ﴾
 أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة،
 ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي:
 البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير
 الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾
 أي: مما يلي سيف البحر، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: أستم
 والمشركون إلى مكان ﴿لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ﴾، قال محمد بن
 إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن
 أبيه، في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم،
 ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ
 لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد
 بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن
 غير ملائمتكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه^(٩).

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ
 والمسلمون، يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين
 عدوهم على غير ميعاد^(١٠)، قال محمد بن إسحاق: وحدثني

وَلَا تَبَالُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَمِّمْ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ،
 وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ،
 يُنْجِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ^(١١)، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره
 في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام
 أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب،
 عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في
 قصة الخمس والنهي عن الغلول^(١٢)، ورواه أبو داود والنسائي^(١٣)
 عن عمرو بن عنبسة. وقد كان للنبي ﷺ من المغنم شيء
 يصطفيه لنفسه، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما
 نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك
 أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن ابن
 عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو
 الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد^(١٤)، وعن عائشة رضي الله عنها: كانت
 صفيه من الصفي، رواه أبو داود في سنته^(١٥). وأما سهم ذوي
 القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني
 المطلب وأزروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام،
 ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له،
 مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأئمة
 وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وَالْيَتَمَىٰ﴾
 أي: يتامى المسلمين، ﴿وَالْمُسْكِينِ﴾ هم المحاييج الذين لا
 يجدون ما يسد خللتهم ومسكتهم ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر
 أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه
 في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات في سورة
 براءة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي:
 امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون
 بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في
 الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد
 القيس، أن رسول الله ﷺ قال لهم: ﴿وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْتَاهُمْ عَنْ
 أَرْبَعٍ. أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟
 شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ
 الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْغَنَمِ﴾^(١٦)، الحديث بطوله، فجعل
 أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوب البخاري على ذلك في
 كتاب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخمس من
 الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقوله: ﴿يَوْمَ

(١) أحمد: ٣١٦/٥. (٢) أحمد: ١٨٤/٢. وأبو داود: ٢٦٩٤.

(٣) أبو داود: ٢٧٥٥ (٤) أحمد: ١/٢٧١. والترمذي: ١٥٦١.

(٥) أبو داود: ٢٩٩٤ (٦) فتح الباري: ١/١٥٧. ومسلم: ٤٦/١.

(٧) الطبري: ١٣/٥٦١. (٨) الطبري: ١٣/٥٦١.

(٩) ابن هشام: ٢/٣٢٨. (١٠) الطبري: ١٣/٥٦٦.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عَلِيمٌ﴾ (١١) أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا مَّا زَوَّارْتَهُمْ كَثِيرًا مَّا نَسِيتُمْ وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّرُورَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٣)

[تقليل الله كل فئة في عين الأخرى]

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشبيهاً لهم (٤)، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد (٥)، وقوله: ﴿وَلَوْ زَوَّارْتَهُمْ كَثِيرًا لَفُتِلْتُمْ﴾ أي: لجبتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك، بأن أراهم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّرُورَ﴾ (١٢) أي: بما تُجَنِّه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الضُّرُورُ﴾ (١٦) وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم قليلاً في رأي العين، فيجزوهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي تراه سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسالناه، فقال: كنا ألفاً (٦)، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ﴾ الآية، قال حضض بعضهم على بعض (٧)، إسناده صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب للثمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته (٨)، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى

يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجوده يصلي فجعل أصحاب رسول الله يسألونها لمن أنتم؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان؛ فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم، وقال «إِذَا صَدَقْتُمْ صَرِّبْتُمُوهَا، وَإِذَا كَذَبْتُمْ تَرَكْتُمُوهَا، صَدَقًا وَاللَّهِ! إِنَّمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟» قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى: والكتيب: العققل، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كَمْ الْقَوْمُ؟» قالوا: كثير. قال: «مَا عُدَّتْهُمْ؟» قالوا: ما ندري. قال: «كَمْ يَنْخَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله ﷺ: «الْقَوْمُ مَا بَيْنَ التَّسْعِ وَالْعَشْرِ إِلَى الْأَلْفِ» ثم قال لهما: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَسْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة ابن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمر بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هَؤُلَاءِ نَجَدَةُ قَدِ افْتَتَحَ إِلَيْكُمْ أَفْئَادَ كَيْدِهِا» (٩).

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَيِّنَةٍ مِّنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك (١٠)، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحيثما يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿وَبَيِّنَةٍ مِّنْ حَيٍّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْمَرْنَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي يَهْدِي فِي النَّاسِ﴾، وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك (١١). وقوله:

(١) ابن هشام: ٢/٢٦٨. (٢) الطبري: ١٣/٥٦٨.

(٣) أحمد: ٦/١٩٥. (٤) الطبري: ١٣/٥٧٠.

(٥) الطبري: ١٣/٥٧٠. (٦) الطبري: ١٣/٥٧٢.

(٧) ابن أبي حاتم: ٥/١٧١٠.

(٨) ابن هشام: ٢/٣٢٨ وابن أبي حاتم: ٥/١٧١٠.

في باب الشجاعة والاثار بما أمرهم الله ورسوله به، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والجوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زميرهم إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا ثُمَّ لَا يَرْجِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَازِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ (١٧) وَإِذْ ذُرِّيَّتُهُ لَهَا الشَّيْطَانُ أَغْوَيْنَهَا وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَكْبَرُ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ جَاءَ لَكُمْ تَرَائِيَاتُ الْفِتْنَتَيْنِ فَكُفَّ عَنْ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتَّكِبْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (١٩)

[كيفية خروج المشركين ليوم بدر]

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركون في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِيقًا﴾ أي: هرباً، المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننجز الجزر ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يوماً أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحسام، ورُموا في أطواء بدر مهاتين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَازِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ (١٧) أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم (١٨). قال ابن عباس ومجاهد وقادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

كَلَّا مِنَ الْفِرْقَيْنِ بَآخِرٍ، وَقَلِيلٌ فِي عَيْنِهِ لِيُطْمَعَ فِيهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَوَاجِهَةِ، فَلَمَّا تَحَمَّ الْقِتَالُ وَأَيَّدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ، بَقِيَ حِزْبُ الْكَفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضَعْفَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتَيْنِ اتَّفَقْتُمَا فِتْنَةً فَتُنَبِّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ وَمَثَلُهَا فِي رَأْيِ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَتَهُ مَنْ يَشَأْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ الْأَبْصَارِ (١٢)﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فَإِنَّ كَلَّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاقْتَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَنَفْسُكُمُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٤)

[تعليم آداب الحرب]

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاقْتَبُوا﴾ ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّوفِ» ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَنَجَّي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، أَهْزِمْنَهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» (١٥) وعن كعب الأبحار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاقْتَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٤).

[الأمر بالثبات عند المقاتلة]

وأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حاهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وَتَذَكَّرْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥) وقد كان للصحابه رضي الله عنهم

(١) فتح الباري: ١٤٠/٦، ومسلم: ١٣٦٢/٣.

(٢) ابن هشام: ٣٢٩/٢.

المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكّون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦) وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه، قال والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، فسوة وعثوا^(٧). وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: غر هؤلاء دينهم^(٨). وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾^(٩) في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١٠) ذلك لما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ^(١١)

ضرب الملائكة الكفار عند قبض أرواحهم

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكرًا، إذ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ^(١٢) ويقولون لهم: ﴿وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١٣)، قال ابن جريج: عن مجاهد ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾ استأهمهم، قال يوم بدر. قال ابن جريج: قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أذبارهم^(١٤). وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم، إذا استصعبت

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِيظِ النَّاسِ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر^(١٥). وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِيظِ النَّاسِ وَيُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(١٦).

[تزيين الشيطان وتغديره المشركين]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَرَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب له اليوم من الناس^(١٧)، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه نبذاهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم - سيد بني مدلج - كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١٨).

قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر، سار إليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿تَكْصَعُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ قال: رجع سلبوا، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية^(١٩)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه أترع أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب، وذلك حين رأى الملائكة^(٢٠).

[موقف المنافقين يوم بدر]

وقوله: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هُنَالِكَ دِيَارَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال

(١) الطبري: ١٤/٨، ٩. (٢) الطبري: ١٤/١١.

(٣) الطبري: ١٤/٩. (٤) الطبري: ١٤/٧.

(٥) الدر المنثور: ٤/٧٨. (٦) الطبري: ١٤/١٤.

(٧) الطبري: ١٤/١٣. (٨) الطبري: ١٤/١٦.

﴿كَذَّابٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ^(٥٦) فَإِنَّمَا تَنفِقُ فِي الْحَرْبِ فَنُفِذَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ^(٥٧)

[الأمر بشدة ضرب من يكفر وينقض العهد]

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا لهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيات نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾^(٥٦) أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام ﴿فَأِنَّمَا تَنفِقُ فِي الْحَرْبِ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فَنُفِذَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة^(٥٧). ومعناه غلظ عقوبتهم وأخذهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصبروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٥٧) وقال السدي: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك^(٥٨).

﴿وَلِئَلَّا تَخَافَ مِن قَوْمٍ خِيفَانِ فَانِذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾^(٥٩)

[الأمر بنقض العهد على سواء]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلِئَلَّا تَخَافَ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيفَانِ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من الميثاق والعهد ﴿فَانِذِرْهُمْ﴾ أي عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾^(٥٩) أي حتى ولو في حق الكافرين لا يحبها أيضاً. روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض

أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشرهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: أن ملك الموت إذا جاء للكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: أخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من محموم، فتفرق في بدنه فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصفوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب^(٦٠)، ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ﴾^(٦٠) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٦١) أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، عند مسلم رحمه الله، من رواية أبي ذر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَخْصِيهَا لَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ﴾^(٦٢) ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَّابٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٦٣)

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وستنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٦٣) أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَهُ أَتَمَّهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيُرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٦٤) كَذَّابٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ^(٦٥)

يغير تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُقِيمُ حَتَّىٰ يَغْيُرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ﴾^(٦٦) وقوله:

(١) أحمد: ٢٨٧، ٢٨٨. (٢) مسلم: ٤/١٩٩٤.

(٣) الطبري: ١٤/٢٣، ٢٤. (٤) الطبري: ١٤/٢٣.

ظهورها فهي له ستر. وَرَجُلٌ رِبَطُهَا فَخْرًا وَرِبَاءٌ وَرِبَاءٌ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزَّرَ. وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا شَيْئًا إِلَّا هَزَلَهُ الْأَيُّمَةُ الْجَامِعَةُ الْقَادَةُ» ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٩﴾. رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم ^(١)، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «الْحَيْلُ ثَلَاثَةٌ: قَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَقَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَقَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ، فَأَمَّا قَفَرَسُ الرَّحْمَنِ فَلَا يَزِيضُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلَقَهُ وَرَوْنَهُ وَيَوْلُهُ - وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ - وَأَمَّا قَفَرَسُ الشَّيْطَانِ، فَلَا يَزِيضُ إِلَّا بِقَاتِلِهِ أَوْ بِرَاهِنٍ عَلَيْهِ، وَأَمَّا قَفَرَسُ الْإِنْسَانِ، فَالْقَفَرَسُ يَرْبِطُهَا الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ مِنَ الْفَقْرِ» ^(٢).

وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارق، أن رسول الله ﷺ، قال: «الْحَيْلُ مَغْفُودٌ فِي تَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ» ^(٣) وقوله: «تَرْهَبُونَ» أي تخوفون «يَوْمَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» أي من الكفار «وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ» قال مجاهد يعني بني قريظة ^(٤)، وقال السدي: فارس ^(٥).

وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون ^(٦)، ويشهد له قوله تعالى: «وَمَنْ حَوْلَ كُرَيْشٍ الْأَعْرَابُ مُتَوَقِّفُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» وقوله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُوءَ بِالَّذِينَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» أي مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، كما تقدم في قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» ^(٧).

﴿وَلَنْ جَنَّتْهُمُ لِلْسَّلَامِ فَأَجْتَعِلَ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْعَلِيمُ﴾ ^(٨) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِيكَ بِصُرُوهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ فَلَوْ بِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا

الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ كَانَ يَنْتَهُ وَيَنْ قَوْمَ عَهْدٍ فَلَا يَحُلُّ عَقْدَهُ وَلَا يَشُدُّهَا حَتَّى يَنْقُضِي أَمْدَهَا، أَوْ يَنْتَهُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عبسة ^(١)، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح ^(٢).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُوءَ بِالَّذِينَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» ^(٤).

[الامر بالإعداد حسب المستطاع حتى يرهب أعداء الله] يقول تعالى لنبيه ﷺ: ولا تحسبن يا محمد «الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا» أي فاتونا، فلا تقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيتنا، فلا يعجزونا، كقوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» ^(٥) أي يظنون، وقوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ النَّصِيرُ» ^(٦) وقوله تعالى: «لَا يَغْرُرُكَ تَغْلِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ» ^(٧) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْيَهُودُ ^(٨) ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ» أي مهما أمكنكم «مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» روى الإمام أحمد عن عتبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ^(٩) «الْإِنْ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، الْإِنْ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» ^(١٠) رواه مسلم ^(١١).

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة ^(١٢) أن رسول الله ﷺ قال: «الْحَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رِبَطُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاطِلٌ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا، فَاسْتَبَتَتْ شَرْقًا أَوْ شَرْقَيْنِ كَانَتْ أَثَرًا هَا وَرَوَّاهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِتَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يَرُدَّ أَنْ يَسْقِي بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِلَّذِي الرُّجُلُ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رِبَطُهَا تَغْيِيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا

(١) أحمد: ٤/١١١.

(٢) أبو داود الطيالسي: ١٥٧/أبو داود: ٣/١٩٠ ونحفة الأخوذى:

(٣) أحمد: ٤/١٥٦. (٤) مسلم: ٣/١٥٢٢.

(٥) الموطأ: ٢/٤١٤. (٦) البخاري: ٢٨٦٠ ومسلم: ٩٨٧.

(٧) أحمد: ١/٣٩٥. (٨) فتح الباري: ٦/٦٦.

(٩) الطبري: ١٤/٣٦. (١٠) الطبري: ١٤/٣٦.

(١١) الطبري: ١٤/٣٦.

وَالْأَرْضَ جَمِيعًا مَا آَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ
بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

[الأمم بالجنوح للسلم إن جنح لها العدو]

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حرك، ومناذلتك، فقاتلهم ﴿وَلِإِنْ جَنَحُوا﴾ أي مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَأَجْنَحْ لَهُمْ﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجاهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. وروى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ فَافْعَلْ» ^(١) وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقوا ويستعدوا ﴿فَاتَّكَبَ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك وحده.

[التذكير بنعمة التأييف بين قلوب المؤمنين]

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمٍ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٦) وَآَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿أي جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك﴾ ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ^(١٧). وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَغَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي» كلها قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن ^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(١٦) أي عزيز الجناح، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٦) يَأْتِيهَا

الَّتِي حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا وَمِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعَقًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

[التحريض على القتال والتبشير بأن القليل من

المسلمين يغلبون الكثير من الكفار]

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ وَمَنَاجِزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمِبَارِزَةِ الْأَقْرَانِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ أَي كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَتَرَادَفَتْ أُمْدَادُهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ. ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حُثُّهُمْ أَوْ مُرُّهُمْ عَلَيْهِ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، عند صفِّهم ومواجهتهم العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدِهِمْ وَعُدُدِهِمْ: ﴿فَوُتُّوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فقال عمر بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ»، فقال: بخ بخ فقال: «مَا يُجْزِيكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخْ بَخْ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فَأَنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج ثمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقتيتهن من يده وقال: لأن أنا حيت حتى أكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ ^(٣).

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخريت، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم ^(٤)، وروى

(١) أحمد: ٩٠/١.

(٢) فتح الباري: ٦٤٤/٧ ومسلم: ٧٣٨/٢.

(٣) مسلم: ١٥١١/٣. (٤) أبو داود: ١٠٥/٣.

﴿لَمْ يَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرَنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية (٧)، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء، وقد روى الإمام أبو داود في سننه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعائة (٨)، وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل بنبي قريظة، وإن شاء فادى بهال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة ابن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر.

﴿وَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْظِمْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ (٧) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧)

[وعد الأسرى بعوض أحسن إن كان فيهم خير]

قال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال يوم بدر: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أَتَانَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقَاتِلَانَا فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ - فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبُخَارِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرِهًا» فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس والله! لئن لقيته لأجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: «يَا أَبَا حَفْصٍ - قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَوَّلُ يَوْمٍ كُنَانِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَبَا حَفْصٍ - أَتَضْرِبُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ؟» فقال عمر: يا رسول الله! ائذن لي فأضرب عنقه فوالله! لقد نافق فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما أضرب من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفًا إلا أن يكفرها الله تعالى عني

البخاري من حديث ابن المبارك نحوه (١). وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفًا، فخفف الله عنهم ففسخها بالآية الأخرى، فقال: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم يسع لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم (٢).

﴿وَمَا كَانَتْ لِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدَ عَرْنُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ﴾ (٧) ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ (٩)

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله! اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَنْسِ»، فقام عمر فقال: يا رسول الله! اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! لئى أن تغفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية. وكذا روى العوفي عن ابن عباس (٤)، وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبيرة، وعطاء والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضًا (٥)، أن المراد ﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ سَبَقَ﴾ هذه الأمة بإحلال الغنائم. ويستشهد لهذا القول، بما أخرجه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ خَسْمًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطُهْرًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَ الشَّقَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْتَغِي إِلَى قَوْمِهِ، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَاقَةً» (٦). وقال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله

(١) فتح الباري: ٨/ ١٦٣. (٢) البخاري: ٤٦٥٢، ٤٦٥٣.

(٣) أحمد: ٣/ ٢٤٣. (٤) الطبري: ١٤/ ٦٥.

(٥) الطبري: ١٤/ ٦٥ - ٦٩.

(٦) فتح الباري: ١/ ٥١٩، ١/ ٣٧٠.

(٧) النسائي في الكبرى: ٦/ ٣٥٢.

(٨) أبو داود: ٣/ ١٣٩.

ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال مر بعضهم يرفعه إلى قال: «لا» قال فارفعه أنت علي، قال: «لا» فشر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ و«تَمَّ مِنْهَا دَرَاهِمُ»^(٥)، وقد رواه البخاري في مواضع صحيحة تعليقاً بصيغة الجزم^(٦).

وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ﴿وَلَا يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيها أظهروا لك من الأقوال «فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ» أي من قبل بدر بالكفر به «فَأَمَكُنْ مِنْهُمْ» أي بالأسارى يوم بدر «وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ»^(٧) أي عليهم بما يفعله حكيم فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكَيْتٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَنْ لَكُمْ أَنْ تَقُصُّوا إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»^(٨)

[المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض]

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهو لاء «بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا أخرج رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس^(٩)، روى الإمام أحمد عن جرير هو ابن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَوْلَىٰ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلُقَاءُ مِنْ قُرْبَى، وَالْعُقَاتُ مِنْ تَقْيِفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١٠) تفرد به أحمد.

وقد أتى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية

بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً^(١١)، وبه عن ابن عباس قال: لما أُمِّي رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه: يا رسول الله! ما لك لا تنام؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: «سَمِعْتُ أَيْنَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ فَأُطْلِقُوهُ» فسكت فنام رسول الله ﷺ^(١٢). وفي صحيح البخاري من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لَا وَاللَّهِ لَا تَذَرُونَهُ مِنْهُ وَرَهْمًا»^(١٣) وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن الزهري عن جماعة سباهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْزِيكَ وَأَمَّ ظَاهِرَكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فَأَنْتَ تَفْسِكُ وَإِنِّي أَخِيكَ تَوَقَّلْ بَنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَحَلِيفَتُكَ عُثْبَةُ بْنُ عَمْرِو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» قال ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فَإِنَّ الْمَالَ الَّذِي دَفَعْتَهُ أَنْتَ وَأَمَّ الْفَضْلُ فَقُلْتُ هَذَا: إِنْ أَصَبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَعْتَهُ لِي فِي الْفَضْلِ وَعَبْدُ اللَّهِ وَقُتْمٌ؟» قال: والله! يا رسول الله! إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا شيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبت مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ: «لَا ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأذن الله عز وجل فيه «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١٤) قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل^(١٥).

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بهال من البحرين فقال: «انْزُورُوا فِي مَسْجِدِي» قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله! أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ: «خُذْ» فحنا في ثوبه

(١) ابن سعد: ١٠/٤. (٢) ابن سعد: ١٣/٤.

(٣) فتح الباري: ٣٧٣/٧. (٤) القرطبي: ٥٢/٨.

(٥) البيهقي: ٣٥٦/٦.

(٦) البخاري: ٣١٦٥، ٣٠٤٩، ٤٢١.

(٧) فتح الباري: ٣٠/١٢. (٨) أحمد: ٣٦٣/٤.

الآية، يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدوهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، «يَتَنَكَّمُ وَيَتَنَهَّمُ يَتَنَهَّمُ» أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تقضوا أمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه (٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ

فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٣٣)

[الكفار بعضهم أولياء بعض ولا ولاية لهم مع المسلمين]

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم في مستدركه عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا - ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٣٣)» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٤). قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ» (٥) ومعنى قوله: «إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» (٣٣) أي إن لم تحابوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٦١) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدَا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٥)

[المؤمنون حقًا]

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا يتقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه. ثم

في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأَوْثَنَ مِنَ الْمُكْهَرِبِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية. وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي لا يجدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر يجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك.

[لا ولاية لمن آمن ولم يهاجر]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ دِينِهِمْ﴾ قرأ حمزة (ولايتهم) بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة «مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يهاجِرُوا» هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

كما روى الإمام أحمد عن بريدة بن الحصبب الأسلمي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه، بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «اغزوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَذْغُهُمْ إِلَىٰ إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَافٍ - فَأَتَيْتُهُمْ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. أذْغُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ أذْغُهُمْ إِلَى التَّحُولِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِفُهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ هُمْ مَالِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَنْ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ، فَأَعْلِفُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يُجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يُجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ هُمْ فِي الْقِيَاءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَأَذْغُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجَزْيَةِ. فَإِنْ أَجَابُوا فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزَّ بِاللَّهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ» (١) انفرد به مسلم (٢)، وعنده زيادات أخر، وقوله: ﴿وَأِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾

(١) أحمد: ٣٥٢/٥. (٢) مسلم: ١٣٥٧/٣.

(٣) الطبري: ٨٣/١٤. (٤) الحاكم: ٢٤٠/٢.

(٥) فتح الباري: ٥١/١٢ ومسلم: ١٢٣٣/٣.

عنان ﷺ وأرضاه، وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطهم فبعث أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس: ﴿بِرَأْيِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه.

[إعلان البراءة إلى المشركين]

فقوله تعالى: ﴿بِرَأْيِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﷺ إلى الذين عهدتم من المشركين ① فيسيحوا في الأرض أربعة أشهر. هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير الموقفة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ﴾ الآية، ولما سيأتي في الحديث: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَيَّ مُدَّتِهِ»، وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد ②.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية، أو أربعين آية من «براءة» فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرين من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم وقال: لا يحجج بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ③. ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَذَرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ④﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿بِرَأْيِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل

ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه في الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ الآية وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية. وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ① وفي الحديث الآخر: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مَعَهُمْ» وفي رواية: «خَيْرَ مَعَهُمْ» ②.

[الإرث للأقارب]

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالحالة والحال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقادة وغير واحد ③ على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء للذين كانوا يتوارثون بها أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم محتج بأدلة، من أقواها حديث: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَغْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِيُورِثُ» ④ قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال. والله الحمد والمنة، وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تفسير سورة التوبة

[وهي مدنية]

﴿بِرَأْيِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ فيسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ ②﴾

[لَمْ يَكُتَبِ الْبَسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟]

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما روى البخاري عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿وَسَتَقُونَكُمْ فِي اللَّهِ فَيُقَيِّمُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة ⑤، وإنما لم يسلم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن

(١) فتح الباري: ١٠/٥٧٣. (٢) الطبراني: ٣/١٩.

(٣) الطبري: ١٤/٩٠. (٤) أبو داود: ٣/٢٩١.

(٥) فتح الباري: ٨/١٦٧. (٦) الطبري: ١٤/١٠٠-١٠٢.

(٧) الطبري: ٦/٣٠٤.

على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الإجل المسمى (٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ عَهْدًا فَإِذَا قَامُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ كَبُرُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُ الْعَمَلِينَ﴾ (٤)

[من كان له عهد ولم ينقض فعهده إلى مدته]

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عاهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظهر على المسلمين أحداً أي يبالى عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥) أي الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَأْتُوا الْقِسْطَ وَهُوَ أَخْلَصُ وَأَن تَأْتُوا الْبُكُورَ فَاقْتُلُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْعَهْدِ إِنَّهُمْ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦)

[هذه هي آية السيف]

قال مجاهد وعمر بن شعيب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها (٧) بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا نَفْسًا عِنْدَ التَّسْلِيمِ﴾ حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوهم (٨) وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَاحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار في معاقلة وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿إِن تَأْتُوا الْقِسْطَ وَهُوَ أَخْلَصُ وَأَن تَأْتُوا الْبُكُورَ فَاقْتُلُوا

أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي بريء منهم أيضاً ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ أي عما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُم بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته ونحت قهره ومشيتته ﴿وَنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال، روى البخاري رحمه الله أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمعنى: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أوقف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (٩)، ورواه البخاري أيضاً أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، يوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر» من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنجد أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرك (١٠)، وهذا اللفظ البخاري في كتاب الجهاد. وروى محمد بن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت براءة علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر؟ فقال: «لَا يُؤْذِي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» ثم دعا علياً فقال: «اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةٍ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بَيْنِي، أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّ كَافِرٌ، وَلَا يَحْجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ لُرَبَّانٍ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ» فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّ كَافِرٌ، وَلَا يَحْجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ لُرَبَّانٍ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ» فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما

(١) فتح الباري: ١٦٨/٨. (٢) فتح الباري: ١٦٨/٨.

(٣) الطبري: ١٠٧/١٤. (٤) الطبري: ١٣٧، ١٣٦/١٤.

واحدًا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضًا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم فقال رسول الله: «لَوْ لَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تَقْتُلُ لَقُتِلَ لَقَرْنَتْ عُنُقُكَ» ^(٤) وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى أمانه ووطنه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٧)

[تأكيد البراءة من المشركين]

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إليهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين تقفوا فقال تعالى ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي أمان وبتكون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿وَالَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُومًا أَنْ يَبْلُغَ لِحَجَّتَهُمْ﴾ الآية ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي مهما تمسكوا بما عاهدتموه عليه وعاهدتموه من شركه الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٧) وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن تقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوه معهم في الحرم

سَيَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٥) ولذا اعتمد الصديق ﷺ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثاله، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاييج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر ^(٦) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ» ^(١) الحديث.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنما نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عهد وكل مدة، وقال العوفي: عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل [براءة] أربعة أشهر، من يوم أذن براءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر ^(٢).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنَةً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(١)

[إذا طلب المشرك الأمان فيعطى]

يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئًا من [أمر] الدين تقبم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنَةً﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(١) أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ^(٣)، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة ابن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم،

(١) فتح الباري: ٩٥/١ ومسلم: ٥٣/١.

(٢) الطبري: ١٣٣/١٤. (٣) الطبري: ١٣٩/١٤.

(٤) ابن هشام: ٢٤٧/٤.

هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر. كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، وعدد رجالاً، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد^(٣).

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام: مثله، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم. وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان ابن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً عوقة رؤوسهم، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَتِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبي حاتم^(٤).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا تَكْفُرُوا آمَنُوا بِهِمْ وَهُمْ يَأْخُذُونَ بِالرَّسُولِ وَهُمْ بِكُذُوبِكُمْ أُولَئِكَ مَرَوُا أَخَشُوهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٣) وَيَذْهَبُ عَن قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٤)

[الحث على قتالهم وبيان بعض فوائد]

وهذا أيضاً مبيح وتخفيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِيرِينَ﴾ (٣٠) وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِنَّا لَهُمُ الْوَيْلُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا جُنُودُ اللَّهِ وَمَا جُنُودُ اللَّهِ بِكُفْرٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية وقوله: ﴿وَهُمْ بِكُذُوبِكُمْ أُولَئِكَ مَرَوُا قَبْلَ الْمُرَادِ بِذَلِكَ: يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك، وقيل المراد: نقضهم العهد وقتلهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

أيضا فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هدهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله الم محمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّتَهُمْ قِطْعًا بِغَدْرِهِمْ وَإِنَّهُمْ لَفُشْرَةٌ وَكَأَنَّهُمْ لَمَيْمٌ﴾ (١٥) يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم وميئنا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم إذ ظهروا على المسلمين وأذلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعمري عن ابن عباس: إلا القرابة، والذمة العهد^(١). وكذا قال الضحاك والسدي^(٢).

﴿أَشْرَوْا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) لَا تَرْقُبُوا فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (١٧) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِزْنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَتَفَصِّلِ الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٨) يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم ﴿أَشْرَوْا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) لَا تَرْقُبُوا فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴿تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها﴾ (١٧) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿إلى آخرها تقدمت.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا آمَنَّا بِهِمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمْنٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُونَ﴾ (١٩)

[لا إيمان لآئمة الكفر]

يقول تعالى: وإن نكث المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ﴿آمَنَّا بِهِمْ﴾ أي عهودهم ومواثيقهم ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَتِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمْنٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُونَ﴾ (١٩) أي يرجعون عما

(١) الطبري: ١٤٦/١٤ (٢) الطبري: ١٤٧/١٤

(٣) الطبري: ١٥٦/١٤ (٤) ابن أبي حاتم: ١٧٦١/٦

يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فانما أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، فييدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن، ثم قال عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ فِي كَيْفِهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَهَذَا عَامٌ فِي الْمُؤْمِنِينَ كَلِمَةٌ، وَقَالَ مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١١) يعني: خراعة (١)، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذْهَبُ غِظٌ قَلْبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ (١٥) في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

[من حكمة القتال اختبار المسلمين]

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نخبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر.

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ أَحْبَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَمَّاكُمْ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذابين (٣) وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية، والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبده من يطعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٨)

[لا يعمر المشركون مساجد الله]

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ (مسجد الله) فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسمه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم ويقالهم قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال نصراني، ولو سألت اليهودي ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ لقال صابئ، والمشرک لقال مشرك (٩) ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي بشرتهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٠) وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ بِهِمْ إِلَّا أَنْ يُصْذَرُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أُولَئَاؤُهُ إِلَّا الْفُتُونُ وَلَنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١)

[أهل الإيمان يعمرّون المساجد]

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه (١٢).

وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

(١) الطبري: ١٤/١٦١. (٢) الطبري: ١٤/١٦٥.

(٣) تحفة الأحوذى: ٧/٣٦٥ والحاكم: ١/٢١٢.

(٥) مسلم: ١٨٧٩ وعبد الرزاق: ٢/٢٦٨.

الوجوه، ارجعوا قال: فانهم منا وركبوا أكتافنا فكانت إياها^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقریب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم وقسم أموالهم بين الغانمين ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّضْرِي واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها: ما إن رأيت ولا سمعت بمثل

في الناس كلهم بمثل عمـد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومتى تشأ تخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها
بالسمهري وضرب كل مهـند
فكانه ليث على أشباله
وسط المساء خادر في مرصد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤)
﴿فَتِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي لَا يُمْنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ بَيْنَ الْيَدَيْنِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُؤْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٥)

[منع المشركين عن دخول المسجد الحرام]

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يجمع بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرًا. وروى عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة^(٦). وقال الإمام أبو عمرو والأوزاعي،

جعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب برة البقرة، فجعلوا يقولون: يا ليك، يا ليك، وانعطف ناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يلاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله لجمع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما رجعت شزيمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدّقوا الحملة، وأخذ بضعة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره، قال: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي وَعْدَتِي» ثم رمى القوم بها فبقا في إنسان منهم إلا أصابه منها عينه وفمه ما يشغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون فقتلهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى فتدلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال له رجل: يا أبا عتبة، أفررت عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن يوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(٧) قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة ليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضاً يرضىها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما رسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَزَّلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الأعرابي قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فلقنا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شأهت

(١) فتح الباري: ٦/٨١ ومسلم: ٣/١٤٠١.

(٢) الطبري: ١٤/١٨٦. (٣) عبد الرزاق: ٢/٢٧١.

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿١﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جذب ووقت قبض وحس، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فسرل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

[الجزية علامة الذلة والكفر]

وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي عن قهرهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ (١) أي ذليلون حقرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَا تَبْذُؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَأُضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْبَعِهِ» (٢) ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلهم وتصغيرهم وتخفيفهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن عثم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا في أحوالنا ديوار ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجد ما خرب منها ولا نحبي منها ما كان خططاً للمسلمين ولا نمنع كنائسنا أن يتزها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للسيرة وابن السبيل وأن ننزل من مربنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نبيه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن ولما ورد في الصحيح «الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجَسُ» (٣).

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال [محمد] بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتقطع عنا الأسواق ولتهلك التجارة وليذهب [عنا] ما كنا نصيب فيها من المرافق فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ (٤) أي أن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية (٥)، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ (٧) أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة.

[التحريض على قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية]

فقال: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ (٨) فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لخطوئهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

(١) فتح الباري: ٣/ ١٥٠. (٢) الطبري: ١٤/ ١٩٧.

(٣) الطبري: ١٤/ ١٩٣ - ١٩٦. (٤) مسلم: ٤/ ١٧٠٧.

لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلافهم
﴿يُضَاهَوْنَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾
أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿فَنَلَّاهُمُ
اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّهُ يَوْفُكُونَ﴾ (٢٠)
أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟
وقوله: ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْكَابًا يَتَدُّونَ
اللَّهُ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي
وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة
رسول الله ﷺ فرأى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت
أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته
وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم
على رسول الله ﷺ فقدم عدي المدينة وكان رئيساً في قومه
طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحادث الناس
بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من
فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ
وَرُءُسَهُمْ أَرْكَابًا يَتَدُّونَ اللَّهَ﴾ قال: فقلت: إنهم لم
يعبدوهم فقال: «بَلَا إِنَّمَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَائِلَ، وَأَخْلَوْا لَهُمُ
الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ» وقال رسول الله ﷺ:
«يَا عَدِي مَا تَقُولُ؟ أَيْفَرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ
مِنْ اللَّهِ؟ مَا يَفَرُّكَ؟ أَيْفَرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مَنْ
إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق
قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: «إِنَّ الْيَهُودَ تَغْضُوبُ
عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُونَ» (٢١) وهكذا قال حذيفة بن اليمان
وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ
وَرُءُسَهُمْ أَرْكَابًا يَتَدُّونَ اللَّهَ﴾: إنهم اتبعوهم فيها حللوا
وحرروا (٢٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما
حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) أي: تعالى
وتقدس وتزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد
والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

جاسوساً ولا نكتنم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا
نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا
الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوفر المسلمين وأن نقوم لهم
من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من
ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا
نكلم بكلامهم ولا نكتسي بكناهم ولا نركب السروج ولا
نقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا
ننقش خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجزم مقادير
رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنا نرى على أوساطنا
وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا
في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بواقيسنا
في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في
كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعائين ولا
باعوناً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في
شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا
نخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد
المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال فلما أتيت عمر
بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم
ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا
في شيء مما شرطنا لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل
لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق^(١).

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَاءُهُمْ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

«شرك اليهود والنصارى وكفرهم هو سبب قتالهم»
وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين
الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشيعة
والفرقة على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في عزيز: «إنه ابن الله»
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى

(١) المحلي: ٣٤٦/٧.

(٢) أحمد: ٣٧٨/٤ وتحفة الأحوزي: ٤٩٢/٨ والطبري:

31.14

(٣) الطبری: ١٤/٢١٢.

جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جَاهَهُمْ وَجُزْئُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَكَذَا
كَرَرْتُمْ لِاتِّفَاسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾
[التحذير من علماء السوء وعباد الضلال]

قال السدي: الأخبار من اليهود والربان من
النصارى^(٢)، وهو كما قال: فإن الأخبار هم علماء اليهود كما
قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْزَكَاةُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْفِرَ وَأَتَّبِعُهُمُ
أَسْتَحْتُ﴾ والربان عباد النصارى، والقسيون علماءهم كما
قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَتِيلَيْسِيَّ وَزَهْرَانَا﴾
والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال
سفيان ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبهة من
اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبهة من النصارى، وفي
الحديث الصحيح: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَدُّو الْقُدَّةَ
بِالْقُدَّةِ» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟» - وفي
رواية: فارس والروم؟ قال: «فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟»^(٣)
والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا
قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُنَّ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْكَبْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم
ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار
اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خبز وهذا
وضرائب تحميهم إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على
ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك
الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعرضهم
الذل والصغار وباعوا بغضب من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وهم مع
أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق
بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى
الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار ويوم
القيامة لا ينصرون.

[عذاب من يكثر الذهب والفضة]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُفْقَهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤)، هؤلاء
هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على
العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَن يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٥) الذِّكْرُ أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾

[محاولة أهل الكتاب إطفاء نور الإسلام]

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب
﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى
ودين الحق بمجرد جداهم وافتراهم، فمثلهم في ذلك كمثل
من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا
لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن
يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه
وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٦)
والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي
الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً لأنه يغطي
الحب في الأرض كما قال: «أَعَجَبَ الْكَافَرُ بَنَاءَهُ».

[دين الإسلام يغلب جميع الأديان]

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى:
هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح
والعلم النافع، ودين الحق: هو الأعمال [الصالحة] الصحيحة
النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان كما ثبت في
الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ
مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبُلُغُ مَلُوكُ أَمْنِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا»^(٧)،
وروى الإمام أحمد عن تميم الداري رحمه الله قال: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،
وَلَا يَبْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَنٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، يُعَزُّ عَزِيزًا
وَيُذِلُّ ذَلِيلًا، عَزَا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذَلَا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»
فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك [في] أهل بيتي لقد
أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب
من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية^(٨).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُنَّ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْكَبْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٩) يَوْمَ يُخَوِّعُ عَلَيْهَا فِي نَارٍ

(١) مسلم: ٤/٢٢١٥. (٢) أحمد: ٤/١٠٣.

(٣) الطبري: ١٤/٢١٦. (٤) الشريعة: ص ١٨.

هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:
وهل أنفس الدين إلا الملوك

وأحبنا ر س و و رهباننا

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى زكاته^(١)، وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال^(٢)، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

وقد جاء في مدح التقليل من الذهب والفضة وذم التكثير منها أحاديث كثيرة. ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقي روى عبد الرزاق عن علي بن عيسى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْثُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية. قال النبي ﷺ: «تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ» يقولها ثلاثاً، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأي مال نتخذ؟ فقال عمر بن الخطاب: أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله! إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأي المال نتخذ قال: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فذوقوا ما كنتم تكذبون^(٤) أي: يقال لهم هذا الكلام تبيكياً وتقرعاً وتهكماً كما في قوله: «ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ»^(٥) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(٦) أي: هذا بذلك، وهذا الذي كنتم تكذبون لأنفسكم ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عدواة رسول الله ﷺ وأمراته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً، في جيدها أي: عنقها جبل من مسد، أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه من هو أشفق عليه في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضرب الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير عن ثوبان؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ رَيْبَتَانِ يَتَّبِعُهُ وَيَقُولُ: وَتِلْكَ مَا أَنْتَ؟

فَيَقُولُ: أَنَا كُنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ، وَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمُهَا، ثُمَّ يَتَّبِعُهَا سَائِرُ جَسَدِهِ» ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه^(١)، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَاتِحٌ مِنْ نَارٍ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ يُرَى سَبِيلُهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٢) وذكر تمام الحديث. وروى البخاري في تفسير هذه الآية، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالريذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْثُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت إنها لفينا وفيهم^(٤).

﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَشَدُّ عَذَابَ شَهْرٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَسُوا فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥)

[السنة اثنا عشر شهراً]

روى الإمام أحمد عن أبي بكر؛ أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ مُضَرُّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» ثم قال: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه

(١) الموطأ: ٢٥٦/١. (٢) فتح الباري: ١٧٥/٨.

(٣) عبد الرزاق: ٢٦٣/٢.

(٤) الطبري: ٣٦٣/٦ وابن حبان: ٨٠٣ وابن خزيمة: ٢٢٥٥.

والبخاري: ٤٦٥٩.

(٥) مسلم: ٦٨٢/٢. (٦) فتح الباري: ١٧٣/٨.

بفتح القاف - (قلت): وكسرها - لعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة. الحجة بكسر الحاء (قلت): وفتحها - سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة، أسماء الأيام أولها: الأحد ويجمع على أحاد وأوحد ووحد، ثم يوم الاثنين ويجمع على اثنين، الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأربيع، والخميس يجمع على خمسة وأخاميس، ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجماعات، السبت مأخوذ من السبب وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمي الأيام: أول، ثم أهون، ثم جبار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر - من العرب العرباء العاربة المتقدمين -:

أرجسي أن أعيش وإن يومي
بأول أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار فإن أقتنه
فمؤنس أو عروبة أو شيار

[الأشهر الحرم]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَامِ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم «البسل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا، وأما قوله: «ثَلَاثَةُ مَوَالِيَتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ ذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ مَضْرُوبٌ يَتَرُجْمَانِي وَشَعْبَانٌ» فإنما أضافه إلى «مضر» لبيان صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما ظنه «ربيع» من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ١١ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

(١) أحمد: ٣٧/٥.

(٢) فتح الباري: ٨/١٧٥ و ٦/٣٣٨ و ١٠/١٠٠ ومسلم: ٣/١٣٠٥.

بغير اسمه قال: «أَلَيْسَتْ الْبَلَدَةُ؟» قلنا: بلى، قال: «فَإِنَّ وَمَاءَ كُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وأحسبه قال: وأعراضكم عليكم حرام كحرمته يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا تَرْجِعُونَ بَعْدِي ضَلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا لِيَبْلَغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ سَمِعِهِ»^(١) رواه البخاري في التفسير وغيره. ورواه مسلم^(٢).

(فصل) ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه ساء (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك، لكونه شهرا محرما، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً قال: ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر سمي بذلك، لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صفر المكان إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعتهم فيه، والارتباع: الإقامة في عمارة الربع، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة كزغيف وأرغفة، وربيع الآخر كالأول. جمادي سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور - وفي هذا نظر - إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلا بد من دورانها، فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي، عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وليلة من جمادي ذات أنديّة
لا يُبصر العبد في ظلماتها الطنينا
لا يبيح الكلب فيها غير واحدة
حتى يلف على خرطومه الذنبا

ويجمع على جماديات، كجباري وجباريات، وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادي الأولى والأول جمادي الآخر والآخره. رجب من الترجيب - وهو التعظيم - ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات. شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة، ويجمع على شعبان وشعبانات. رَمَضَان من شدة الرمضاء، وهو الحر يقال: رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رَمَضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال: إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه - (قلت) قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبيته في أول كتاب الصيام - شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال: ويجمع على شواول وشواويل وشوالات. القعدة

ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال وجعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والتزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم ليزلهم من حصونهم، فقالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً، ثم قفل عنهم؛ لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ عَامًا وَهُمْ يُنَادِيَنَّ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوهُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٣)

[ذم التصرف في الشرع بالرأي]

هذا لما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بأرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم، فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال ليؤاطوا عدة ما حرم الله: الأشهر الأربعة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثامة فينادي ألا إن أبا ثامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال، فيحله للناس فيحرم صفرًا عامًا ويحرم المحرم عامًا فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عامًا وعامًا يحرمونه^(٢١)، وروى العوفي عن ابن عباس نحوه^(٢٢)، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حماره فيقول: يا أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمتنا المحرم وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول: مثل مقالته ويقول: إنا قد حرمتنا صفرًا وأخرنا المحرم، فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْهَيْنَا الْقِسْمَ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْظِلُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْكَافِرِ يُطْلَقْ يُدْفَنُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ (٢٤) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، ﴿فَلَا تَقْظِلُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حرامًا وعظم حُرْمَتَهُنَّ وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم^(٢٥)، وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَقْظِلُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال إن الله اصطفى صفائا من خلقه. اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر، يعظموا ما عظم الله. فلاننا [نعظم] الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

[القتال في الأشهر الحرم]

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يَقُولُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٦) واعلموا إن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعَتَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُورِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِمَّنْ أَعَدَدْنَاهُ لَكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثُّ مَا أَعَدَدْنَاهُ لَكُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فهو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُورِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْظِلُوا فِيهِمُ الشُّهُورَ الْحَرَامَ حَتَّى يُقَاتِلُوهُمْ فِيهِ فَاَنْ قَاتِلُوهُمْ فَاتْلُوهُمْ﴾ الآية، أما حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تمة قتال هوازن، وأحلافها من

(١) الطبري: ١٤/٢٣٨. (٢) الطبري: ١٤/٢٤٥.

(٣) الطبري: ١٤/٢٤٦.

قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام^(١) وكانوا يحلون شهر المحرم عامًا ويمحرون عوضه صفرًا، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة يحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها فـ «يُحَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ» أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية، وهو المحرم وتارة ينسئون إلى صفر، أي: يؤخرونه.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلامًا جيدًا مفيدًا حسنًا فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب؛ فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل، القلمس وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان: ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثامة جنادة ابن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام؛ فكانت العرب إذا فرغت من حجاجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عامًا ويجعل مكانه صفر ويمحرمه عامًا ليواطى عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله، يعني ويمحرم ما أحل الله^(٢). والله أعلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقِمْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣) إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٤) أي: أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزِلْ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودٍ لَمْ تَرْوَاهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥)

[الله ناصر نبيه ﷺ]

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ

قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام^(١) وكانوا يحلون شهر المحرم عامًا ويمحرون عوضه صفرًا، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة يحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها فـ «يُحَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ» أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية، وهو المحرم وتارة ينسئون إلى صفر، أي: يؤخرونه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقِمْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣) إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٤)

[العقاب والتهديد على التثاقل عن الجهاد]

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَنْتَقِمْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم ولمنم إلى المقام في الدعوة والخفض وطيب الثمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا، أرضا منكم بالدنيا بدلاً

(١) الطبري: ٢٤٦/١٤. (٢) ابن هشام: ٤٥/١.

(٣) أحمد: ٢٢٨/٤. (٤) مسلم: ٢١٩٣/٤.

(٥) الطبري: ٢٥٥/١٤.

﴿وَتَعْلَمُ الْكَذِبِ﴾ (١٣) يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصريين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم فيه.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما نذبه لهم إليه بادروا وامتلأوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١٤) إنما يستفذنك أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة عمل أعمالهم ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جنتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (١٥) أي: يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكت، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِنُعَايَتِهِمْ فَبَطَلَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (١٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضْعَفُوا لَكُمْ يَتَغَوَّكُمُ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

[كشف أحوال المنافقين]

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِنُعَايَتِهِمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً ﴿فَبَطَلَهُمْ﴾ أي: أخرهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (١٦) أي: قدراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جناء غدولون ﴿وَلَا تُضْعَفُوا لَكُمْ يَتَغَوَّكُمُ الْفِتْنَةُ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي يسكنكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمُ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستصحبونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

(١) أحمد: ١٠٩/٣. (٢) ابن أبي حاتم: ١٨٠٥/٦.

(٣) الطبري: ٢٧٤/١٤. (٤) الطبري: ٢٧٣/١٤.

(٥) الطبري: ٢٧٣/١٤.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْعًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٧) ومن هذا القيل ما رواه الإمام أحمد عن أنس؛ عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: أجدني كارهاً قال: «أسلم وإن كنت كارهاً» (١).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ السُّفْهُ وَاسِيَحِفُّوتٍ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٨)

[سبب تخلف المنافقين وبيان حيلتهم]

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعدما استأذنه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ السُّفْهُ﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿وَاسِيَحِفُّوتٍ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٨).

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِ﴾ (١٩) ﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٢١)

[معاقبة النبي ﷺ على إذنه لهم]

روى ابن أبي حاتم عن عون قال: هل سمعتم بمعاقبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاقبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ (٢٢) وكذا قال موزق العجلي وغيره (٢٣). وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فَإِذَا اسْتَفْذِنُوكَ بِعِصْيَانِهِمْ فَاذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية (٢٤).

وكذا روي عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا (٢٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعدار

قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِ فِي جَلَادِي الْأَصْفَرِ؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله! لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله وقال: «قَدْ أَفْنَيْتُ لَكَ» ففسى الجد بن قيس نزلت هذه: «وَمِنْهُمْ مَن يَفْعَلُ أَشْدَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي» الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر - وليس ذلك به - فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم (٢).

وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة (٣). وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟» قالوا: الجد بن قيس على أننا نبخله. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ ذَاكَ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟ وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْجَعْدُ الْأَبْيَضُ بِشَرِّ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ تَعْرُورٍ» (٤) وقوله تعالى: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» (٥) أي: لا عيذ لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

«إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسِّرْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ قَرِحُونَ» (٦) قُلْ لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٧)

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أي: فتح وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك «وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ» أي: قد احتزنا من متابعتهم من قبل هذا «وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ قَرِحُونَ» فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال: «قُلْ أَيُّ لَمْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» أي: نحن تحت مشيئته وقدره «هُوَ مَوْلَانَا» أي: سيدنا وملجؤنا «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (٨) أي: ونحن متوكلون عليه وهو حسبتنا ونعم الوكيل.

«قُلْ هَلْ رَزَقُوكُمْ بِئَاءَ الْإِحْسَانِ الْحَسْبَيْنِ وَنَحْنُ نَقْرُبُ بِكُمْ

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من وي الشرف، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجد بن قيس كانوا أشرافاً في قومهم، فبططهم الله لعلمه بهم إن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده (١) وكان في جنده قوم أهل محبة لهم طاعة، فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم فقال: «وَفِيكُمْ سَعُونَ لَكُمْ» ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْظَالِمِينَ» (٢) فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لَنَا بِرَأْسِهِمْ وَلِقَاءَهُمْ لَكَاذِبُونَ» (٣) وقال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» (٤) وقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيَّهِمْ أِنْ أَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مَا فَعَلْنَا إِلَّا قَلِيلٌ وَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَدُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّلًا» (٥) وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦) وَلَهْدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٧) والآيات في هذا كثيرة.

«لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ» (٨)

يقول تعالى محزناً لنبيه عليه السلام على المنافقين: «لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ» أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة: وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رتمه العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: «حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ» (٩).

«وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» (١٠)

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد «اتَّذَنَ لِي» في القعود «وَلَا تَفْتِنِي» بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن

(١) الطبري: ٢٧٧/١٤. (٢) الطبري: ٢٨٧/١٤.

(٣) الطبري: ٢٨٧/١٤. (٤) الحاكم: ٢١٩/٣.

لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

[بيان هلع المنافقين]

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم
ولهعهم، أنهم ﴿يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَكُمْ﴾ يعني مؤكدة
﴿وَمَا هُمْ بِتَكْوَرُ﴾ أي: في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٥٨﴾
أي: فهو الذي حلهم على الخلف ﴿لَوْ يَخْدُوتُكَ مَلَجَاتُ﴾
أي: حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به ﴿أَوْ مَغْرَبَاتُ﴾
وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مَدْخَلَا﴾ وهو السرب في الأرض
والنفق، قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقشادة. ﴿لَوْلَا﴾
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم
إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن
للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن
الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلبوا شر
المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا
قال: ﴿لَوْ يَخْدُوتُكَ مَلَجَاتُ أَوْ مَغْرَبَاتُ أَوْ مَدْخَلَا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ﴾
يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا
عَاتَبَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

[لمز المنافقين في الصدقات وطمعهم فيها]

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي:
يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهكم في
ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للسلدين،
وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا إن ﴿أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ أي يغضبون لأنفسهم،
وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول:
ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجلاً من
أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم
ذهباً وفضة فقال يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما
عدلت، فقال نبي الله ﷺ ﴿وَيْلَكَ﴾ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْدُلُ عَلَيْكَ
يَغْدِي؟ ثم قال نبي الله: ﴿احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ﴾ فَإِنَّ فِي أُمْتِي
أَشْبَاهَ هَذَا، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ سَرَائِفَهُمْ، فَبِإِذَا خَرَجُوا

أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّكَ فَتَرَوْهُمْ إِنَّا
مَعَكُمْ مُّتَرِصُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ
مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا
مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ ﴿٥٩﴾
يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَوْهُمْ بِنَا﴾ أي:
تنتظرون بنا ﴿إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله
ابن عباس ومجاهد وقشادة وغيرهم ﴿وَنَحْنُ نَرِيبُ بِكُمْ﴾
أي: نتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ
يَأْتِيَنَّكَ﴾ أي: نتظر بكم هذا، أو هذا إما ﴿أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ
بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّكَ﴾ بسبي أو يقتل ﴿فَتَرَوْهُمْ إِنَّا
مَعَكُمْ مُّتَرِصُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا﴾ أي مها أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ
مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ثم أخبر تعالى عن
سبب ذلك وهو أنهم لا يقبل منهم لـ ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: ليس لهم قدم [قصد] صحيح ولا
همة في العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾ ﴿٥٩﴾
وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأن
الله طيب لا يقبل إلا طيباً. فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا
عمالاً لأنه إنما يقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾
يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾
كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَيْ مَا مَتَعْنَا بِهِمْ أَوْجَاعًا مِنْهُمْ زهرة
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿٦٠﴾ وقال:
﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِمْ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ سَأَلُوكَ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله (٢)،
وقوله: ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: ويريد أن يمتيهم
- حين يمتيهم - على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد
لعذابهم. عباداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب
الاستدراج لهم فيها هم فيه.

﴿وَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَكُمْ﴾ وَمَا هُمْ بِتَكْوَرُ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْقَهُونَ ﴿٥٨﴾ لَوْ يَخْدُوتُكَ مَلَجَاتُ أَوْ مَغْرَبَاتُ أَوْ مَدْخَلَا

الصَّدَقَةُ لَغَيْبِي، وَلَا لِيْ مِرَّةٌ سَوِيٌّ. رواه أحمد وأبو داود
والترمذي ^(٥).

[المساكين]

وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، كَرَدُّهُ
اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمَرَةُ وَالتَّمَرَتَانِ» قالوا: فمن المسكين
يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطِنُ لَهُ
فَيَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا». رواه الشيخان ^(٦).

[العاملون عليها]

وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منه قسطاً
على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين
تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب
[ابن] ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس
يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إِنَّ
الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمَحْمَدَ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاحُ النَّاسِ» ^(٧).

[المؤلفة قلوبهم]

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى ليُسَلِّمَ، كما أعطى
النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهداها
مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد
أن كان أبغض الناس إلي ^(٨)، كما روى الإمام أحمد عن صفوان
ابن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض
الناس إليّ، فإزال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي ^(٩)، ورواه
مسلم والترمذي ^(١٠)، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت
قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء
وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: «إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَفَرَسَهُ أَحَبَّ
لِيَّ مِنْهُ، خَشْيَةً أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» ^(١١).

(١) الطبري: ٣٠٢/١٤.

(٢) فتح الباري: ٣٠٢/١٢ ومسلم: ٧٤٤/٢.

(٣) الطبري: ٣٠٦، ٣٠٥/١٤. (٤) الطبري: ٣٠٦/١٤.

(٥) أحمد: ١٦٤/٤ وأبو داود: ٢٨٥/٢ وتحفة الأحوذ: ٣١٧/٣.

(٦) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢.

(٧) مسلم: ٧٥٢/٢. (٨) مسلم: ١٨٠٦/٤.

(٩) أحمد: ٤٦٥/٦.

(١٠) مسلم: ١٨٠٦/٤ وتحفة الأحوذ: ٣٣٤/٣.

(١١) فتح الباري: ٣٩٩/٣.

تُلَوِّهُمُ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ»
كر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا
طَيْبَكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْنَعُكُمْوهُ، إِنَّمَا أَنَا حَازِنٌ» ^(١).

وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان عن
سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه خرقوص، لما
نرض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له: اعدل
نك لم تعدل فقال: «لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَغْدِلُ» ثم
ل رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَنْفِي هَذَا
رَمْ يَخْفِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَاتَهُ مَعَ صِيَابِهِمْ،
مُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُقُ السَّهْمِ مِنَ الرِّمِيَةِ، فَأَيُّهَا لَقَيْتُمُوهُمْ
اقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَوَيْمِ السَّمَاءِ» ^(٢) وذكر بقية
الحديث، ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك
قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
لِلَّهِ سَيِّئَاتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ^(٣)
نضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث
جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو
بوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده
في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره وترك زواجره
وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِا
وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنِ
السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٤)

[بيان مصارف الزكاة]

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولزمهم إياه
في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها
وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء
المذكورين، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية؛ لأنهم أحوج من
غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وروي عن ابن
عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير
وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً،
والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس ^(٥)، وقال قتادة:
الفقير من به زمانه، والمسكين: الصحيح الجسم ^(٦)، ولنذكر
أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية.

[الفقراء]

فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحِلُّ

رواه مسلم^(٥)، وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ، فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ: لغرمائه: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ» رواه مسلم^(٦).

[في سبيل الله]

وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان.

[ابن السبيل]

وابن السبيل هو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلد وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ إِلَّا لِحَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِإِلَهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَارٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مُسْكِنٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِقَبِي»^(٧)، وقوله: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه «وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ»^(٨) أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، حكيم فيما يقول ويفعله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بِيَوْمِ اللَّهِ وَيَوْمِ الْيَوْمِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مَكْرَهُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٩)

[من سمات المنافقين إيذاء النبي ﷺ]

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: «هُوَ أَذُنٌ» أي: من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جثنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة^(١٠).

(١) فتح الباري: ٦/٤٣٣ ومسلم: ٧٤١/٢.

(٢) الطبري: ٣١٧/١٤. (٣) الطبري: ٣١٦/١٤.

(٤) أحمد: ٢٩٩/٤. (٥) مسلم: ٧٢٢/٢.

(٦) مسلم: ١١٦١/٣.

(٧) أبو داود: ٢٨٨/٢ وابن ماجه: ٥٩٠/١.

(٨) الطبري: ٢٢٦/١٤.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بدُهيّة في تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أَتَأْلَفُهُمْ»^(١). ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضر من أطراف البلاد، والله أعلم.

[الرقاب]

وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر ابن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد: أنهم المكاتبون^(٢)، ورُوي عن أبي موسى الأشعري نحوه^(٣).

وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد في حديث مرفوع أن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الأجزاء من جنس العمل ﴿وَمَا تَجْزِيَن إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

[فضل العتاق]

وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟ فقال: «أَتَقِيَّ النَّسَمَةَ وَفَكَ الرِّقَّةَ» فقال: يا رسول الله أو ليسا واحداً؟ قال: «لَا، عَتَقْتُ النَّسَمَةَ أَنْ تُفْرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرِّقَّةَ أَنْ تُعَيِّنَ فِي ثَمَنِهَا»^(٥).

[الغارمون]

وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمل حالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بهاله، أو غرم في أداء دينه، أو في معصية ثم تاب، فهو لاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَا الصَّدَقَةَ فَتَأْتِيَ لَكَ بِهَا» قال: ثم قال: «يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ رَجُلٍ تَحْمِلُ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُبْصِيَهَا ثُمَّ يَمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْ جَائِحَةٌ اخْتَنَحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ - فَمَا يَوَاهُنَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ شَحَتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا شَحْتًا».

المنافقين (٣)

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَأَبِإِلَهِكُمْ وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَسْذِرُوا فَعُدَّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن تَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّهُمْ كَانُوا أَجْزِمِينَ﴾

[ومنها تحايلهم واعتذارهم بالباطل]

عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائتنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن [عمر]: أنا رأيته متعلقا بحَقِّ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِإِلَهِكُمْ وَأَبِإِلَهِكُمْ وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ الآية (٤).

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم دبيعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: [مُحْشَن] بن حُمَيْر، يسرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: اتحسبون جلاد بني أصفر يقتل العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين فقال [مُحْشَن] ابن حُمَيْر: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقاتلتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ: - فيما بلغني - لعمار بن ياسر: «أَذْرِكُ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ اخْتَرَقُوا، فَاسْلُطْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا قَتَلْ بَنِي، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال دبيعة ابن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقْبِها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشي بن حير: يا رسول الله قد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفي عنه في هذه الآية [مُحْشَن] بن حير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

وقوله: ﴿لَا تَسْذِرُوا فَعُدَّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به [إن تَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً] أي: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿يَأْتِيهِمْ كَانُوا﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِإِلَهِهِ وَيُؤْمِنُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الآية (٥) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَاتِلُ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

[ومنها محاولة إرضاء الناس بالحلف الكاذب]

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله، إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعهما رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد حق، ولأنت أشر من الحمير، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «مَا تَحْتَكُ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فجعل يلعن ويلعن بالحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم، صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله الآية. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية (٦)، أي أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حدِّ الله ورسوله في حدِّ ﴿قَاتِلُ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِداً فِيهَا﴾ أي: مهائلاً معذباً، و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم والشفاء الكبير.

﴿يَخْدَرُ الْمُتَنَفِّثُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيُّوْا رَبَّ اللَّهِ يُخْرِجْ مَا تَخْذَرُونَ﴾

[ومنها خوفهم من إفضاء السر]

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا (٧)، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَوكَ حَبْرُوكَ يُخَوِّدُوكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ حَسْبَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَكْسُ الْمَصِيرُ﴾ (٨)، وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَزَيُّوْا رَبَّ اللَّهِ يُخْرِجْ مَا تَخْذَرُونَ﴾ (٩) أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ (١٠) إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة» فاضحة

(١) الطبري: ٣٢٩/١٤ (٢) الطبري: ٣٣١/١٤

(٣) الطبري: ٣٣٢/١٤ (٤) الطبري: ٣٣٣/١٤

يَذَرَا، وَتَاعًا يَبَاعُ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ صَبَّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!»^(٣) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

﴿أَلَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَشُعُوبٌ وَقَوْمٌ بِآيَاتِهِمْ وَأَصْحَابُ مَذْيَبٍ وَالْمُؤْتَفِكَةُ كُنْتُ أَنْتَهُمُ رُسُلُهُمْ وَالْبَيِّنَاتُ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٧)

[نصيحة المنافقين بأن يعتبروا بمن قبلهم]

يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين للمكذبين للرسول: ﴿أَلَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تحبوا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمٌ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودًا عليه السلام ﴿وَشُعُوبٌ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمٌ بِآيَاتِهِمْ﴾ كيف نصره الله عليهم وآيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿وَأَصْحَابُ مَذْيَبٍ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجة وعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَىٰ﴾ أي: الأمة المؤتفكة وقيل: أم قراهم، وهي سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطًا عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: يهلكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٧) أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٧)

تَجْرِبَتِ ﴿٦﴾ أي: مجربين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَكَفَّارٍ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٦﴾

[بيان بعض خصال المنافقين الأخرى]

يقول تعالى: منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسُوكَ كَانِيسَةً لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ هُمْ أَفْضَلُونَ﴾^(٧) أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها مخلدين، هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾. ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١١)

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقوله ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن [البصري]: بدينهم^(١١)، وقوله ﴿وَخُضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: في الكذب والباطل ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها، لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شهناهم لا أعلم إلا أنه قال: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحَرَ صَبَّ لَدَخَلْتُمُوهُ﴾^(٢) وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِرَارًا بِشِيرٍ، وَفَرَاغًا

(١) الطبري: ٣٤٣/١٤. (٢) الطبري: ٣٤٢/١٤.

(٣) الطبري: ٣٤٢/١٤.

[صفات المؤمنين المحموده]

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحموده، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه^(١). وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسحر والحمى»^(٢) وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: يعز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات، لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣)

[البشارة للمؤمنين بالنعم الدائمة]

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها أبداً ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ﴾ أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٤) وبه قال، قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمنين في الجنة حنيفة من ثلوثه واحدة مجوفة، طوله ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً»^(٥) أخرجه في الصحيحين وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، مَا جَزَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ [جَلَسَ] فِي أَرْضِهِ الَّتِي وَلَدَ فِيهَا» قالوا: يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعْلَاهَا

اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، يَنْ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَقَوْفُهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى قَسَلُوا اللَّهَ فِي الْوَسِيلَةِ» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»^(٦).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن أبي المديلة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَيْتَهُ مِنْ ذَهَبٍ وَلَيْتَهُ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَلَأَهَا الْمِسْكَ وَحَضَبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الرَّعْفَرَانُ. مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ، لَا يَبْئَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْتَنُ شَيْءٌ»^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، يَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ يَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَمْ يَقُولُ: أَلَا أَعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ يَقُولُونَ: يَا رَبَّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ يَقُولُ: أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» أخرجه من حديث مالك^(٨).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوَدُّهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ الْمَصِيرُ﴾^(٩) يَقُولُونَ يَا لَئِمَّا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعْذِْبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١٠)

(١) فتح الباري: ١٠/٤٦٤. (٢) فتح الباري: ١٠/٤٥٢.

(٣) فتح الباري: ٨/٤٩١ ومسلم: ١/١٦٣.

(٤) فتح الباري: ٨/٤٩١ ومسلم: ٤/٢١٨٢.

(٥) فتح الباري: ٦/١٤. (٦) أحمد: ٢/٦٥.

(٧) أحمد: ٢/٣٠٤.

(٨) فتح الباري: ١١/٤٢٣ ومسلم: ٤/٢١٧٦.

[الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم]

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فليكنه في وجهه^(١). وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم^(٢)، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم^(٣)، وعن مقاتل والربيع مثله^(٤)، وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم^(٥)، وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم.

[سبب النزول]

قال الأموي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن جده قال: وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ﷺ، الجلاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول، لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم عليّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحني ولئن كتمتها لتهلكني، وإلحادهما أهون عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قاله الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب عليّ، فأنزل الله - عز وجل - فيه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فوقفه رسول الله ﷺ عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن الزرع.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إِنَّهُ سَيَأْتِيَكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي الشَّيْطَانِ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلَامَ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟» فانطلق الرجل فجاءه

بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

[هم المنافقين بقتله]

وقوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ تَبَالُؤُا﴾ قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن أمرته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل في عبد الله بن أبي، هم بقتل رسول الله ﷺ^(٦)، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ. وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: فسيهم نزلت هذه الآية، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة، عن حذيفة بن اليان رضي الله عنه قال: كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة، وأنا أسوقه وعمار يقوده، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فانتهرهم [فَأَنْبَهْتُ] رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: «هَلْ صَرَرْتُمْ الْقَوْمَ؟» قلنا: لا يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب قال: «هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَهَا أَرَادُوا؟» قلنا: لا، قال: «أَرَادُوا أَنْ يُزَاحِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَقْبَةِ فَيَلْقَوْهُ مِنْهَا» قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عسائرتهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لَا، أَكْرَهَ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بَيْنَهُمَا أَنْ مُحَمَّدًا قَاتَلَ يَقُومُ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ» ثم قال - اللَّهُمَّ أَرْمِهِم بِالذَّبِيلَةِ - قلنا: يا رسول الله وما الذبيلة؟ قال: «شَهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيطِ قَلْبِ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ»^(٧).

حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين خليفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك، فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن آثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ

(١) الطبري: ٣٥٨/١٤. (٢) الطبري: ٣٥٩/١٤.

(٣) الطبري: ٣٥٩/١٤. (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٤٢/٦.

(٥) الطبري: ٣٥٩/١٤. (٦) الطبري: ٣٦٣/١٤.

(٧) دلائل النبوة: ٢٦٠/٥.

أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلاصهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَثْمِنَ خَانَ»^(٤) وقوله: ﴿أَتَرَىٰ عَلَىٰ الْوَعْدِ نَهَارًا ۚ إِنَّكَ أَنتَ يَوْمَئِذٍ تَعْلَمُ ۚ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهرها أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب أي: يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥)

[ومنها لُزُ الْمُطَّوِّعِينَ وَالسَّخَرِيَّةِ مِنَ الْمُقْلِينَ]

وهذا أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولزمهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بهال جزيل قالوا: هذا مُرَاءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرأى، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية^(٥). وقد رواه مسلم أيضًا في صحيحه^(٦).

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يومًا فسادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله: هذا صاع من تمر، بت ليلتي أجز بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله أن يشره في الصدقات، فسخر منه رجال وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا، وما يصنعون بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُكَ»

ولا علمنا بما أراد القوم؟ وقد كان في حرة يمشي فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم يومئذ^(١)، وما رواه مسلم أيضًا عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا حَتَّى يُلَاحَظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ: ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدَّبِيلَةَ، سَرَّاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ»^(٢) ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويؤمن سعادته، ولو تمت عليه السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأَنْصَارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي» كلها قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمّن^(٣).

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ الآية.

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ سِرًّا كُنْهُمَا وَإِنْ يَتُوبَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا، أي: بالقتل والهلم والغم، والآخرة، أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٦) أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَكُمْ لَئِنْ أُتُوا بِفَضْلٍ لَيَصَدَّقَنَّ وَلَكِنْ كُنُوا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٧) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ^(٨) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوُوهُ بِمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^(٩) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ^(١٠)

[من سمات المنافقين طلب المال ثم البخل بالصدقة]

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما رضى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عيادًا الله من ذلك. وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية،

(١) مسلم: ٢١٤٤/٤. (٢) مسلم: ٢١٤٣/٤.

(٣) فتح الباري: ٦٤٤/٧.

(٤) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١.

(٥) فتح الباري: ٣٣٢/٣. (٦) مسلم: ٧٠٦/٢.

فقال له النبي ﷺ: «مَا أَسْمُكَ؟» قال: الحباب بن عبد الله قال: «بَلْ أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ الْحَبَابَ اسْمُ شَيْطَانٍ»، فانطلق معه حتى شاهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصل عليه فقبل له: أتصلي عليه [وهو منافق]؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: «إِنْ سَتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَا سَتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ وَ سَبْعِينَ» (٢) وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد وقشادة بن دَعَامَةَ ورواه ابن جرير بأسانيد (٣).

﴿ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) فَلْيَصْحِكُوا قِيلًا وَلْيَسْكُوا كَيْدًا جَرَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

[فرح المنافقين على تخلفهم عن الغزوة]

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجهم ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، فلهاذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررت منه من الحر بل أشد حرًا من النار، كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نَارُ بَيْتِي أَدَمُ النَّارِ تُوقَدُ نِهَا، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «فَضَلْتُ عَلَيْهَا بِسَعَةِ وَسَبْعِينَ جُزْءًا» (٤) أخرجاه في الصحيحين (٥)، وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ لَمْ يَنْعَلَنْ وَشِرَّ أَكْبَانَ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا» (٦) أخرجاه في الصحيحين (٧)، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾

فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أئجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون، قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكَتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ» ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعًا، فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية (١)، وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوها وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهد أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل.

﴿قَوْلُهُ﴾: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ يَسْخَرُونَ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارًا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

[النتهي عن الاستغفار للمنافقين]

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسنًا لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما قال الشعبي: لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه

(١) الطبري: ٣٨٣/١٤. (٢) الطبري: ٣٩٦/١٤.

(٣) الطبري: ٣٩٦/١٤. (٤) الموطأ: ٩٩٤/٢.

(٥) فتح الباري: ٣٨٠/٦، ومسلم: ٢١٨٤/٤.

(٦) الحاكم: ٥٨٠/٤.

(٧) فتح الباري: ٤٢٥/١١، ومسلم: ١٩٦/١.

عام في كل من عُرِفَ نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرِي اللَّهُ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» وَمَا رُبُّهُ عَلَى السَّاعِينَ» قال: إنه منافق.

قال فضلي عليه رسول الله ﷺ: فأنزل الله - عز وجل - آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (٣).

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضًا بنحو من هذا (٤)، وفيه: قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم: قال فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله - عز وجل - (٥). وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن صحيح (٦)، ورواه البخاري (٧).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. والله ورسوله أعلم: قال فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله - عز وجل - (٥). وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن صحيح (٦)، ورواه البخاري (٧).

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة - والله الحمد والمنة. ﴿وَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةُ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَّاكَ أُولُوا الْأَرْوَاحِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْفَلْعِيدِينَ﴾ (٨) ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٩) [ذم المتخلفين عن الجهاد]

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكين عنه، مع القدرة عليه ووجود السعة والطول. واستأذنا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْفَلْعِيدِينَ﴾ (٨) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجنب

وقال تعالى: ﴿يُصَبِّحُ مِنْ قَبْلِ رُؤُوسِهِمُ الْمُحْسِنُ﴾ (١٠) يُصَهِّرُ بَدَنَهُ مَا فِي بَطْنِهِمْ وَالْجُلُودُ (١١) وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ (١٢) كُلَّمَا أَوْدَوُا أَنْ يُجْرُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ وَلْيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (١٤) أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحرب، ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا. ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله - عز وجل - استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (١٥)

[لا يؤذن للمنافقين بالخروج في الحرب]

يقول تعالى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ (١٥) أي: مذكراً لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَقْلِبُ فِيهِمْ لَأُنْصِرَهُمْ كَمَا نَزَّلْنَا بِأُولَئِكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله في عمرة الخديبية: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِهِمْ لَنَنْحُدَّهَا﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (١٥) قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة (١٦).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية. والله ورسوله أعلم. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٧)

[النهي عن الصلاة على المنافقين]

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم

(١) الطبري: ٤٠٤/١٤. (٢) الطبري: ٤٠٤/١٤.

(٣) فتح الباري: ١٨٤/٨. (٤) فتح الباري: ١٨٥/٨.

(٥) أحمد: ١٦/١. (٦) تحفة الأحوذني: ٤٩٥/٨.

(٧) فتح الباري: ١٨٤/٨.

الناس، وإذا كان أمنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لُفُوفُ رَأْيِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ لُفُوفُ سَلَفِهِمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي، في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغِيبِينَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ۖ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَتَّقُونَهُ﴾ (٨٧) أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه ولا ما فيه مضرة لهم، فيجتنبوه.

﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨) أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٨٩) لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم وما لهم، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠) ثم بين تعالى حال ذوي الأعدار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه، من الضعف وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب من حول المدينة. قال الضحاك عن ابن عباس، إنه كان يقرأ: (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ) بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر. لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩١).

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُقِيمُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٢) ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم

تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما يقيمون (٩٣) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ غَنِيْبَةٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونَ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٤) [بيان العذر الشرعي لعدم المشاركة في الجهاد]

ثم بين تعالى الأعدار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوهم في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٥)

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، يا معشر من حضر: أستم مؤقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسئعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللهم وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا^(١)، وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينعضوا غايزين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله، احملنا فقال لهم: والله لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية^(٢)، وأصل الحديث في الصحيحين

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ خَلَقْتُم بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاوِيَاءَ، وَلَا نَلْتُمُ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا، إِلَّا وَقَدْ شَرَّ كُؤُومُ فِي الْأَجْرِ» ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية^(٣)، وأصل الحديث في الصحيحين

(١) ابن أبي حاتم: ٦/١٨٦٢. (٢) الطبري: ١٤/٤٢٠.

(٣) الطبري: ١٤/٤٢١. (٤) ابن أبي حاتم: ٦/١٨٦٣.

[الأعراب أشد كفراً ونفاقاً]

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، أي: أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهزئت، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني، فقال زيد: ما يريك من يدي إنها الشال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَكَرَ الْبَادِيَةَ جَفَاً، وَمَنْ أَتَى الصَّيْدَ غَفْلًا، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنًا» (٣) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب (٤) ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ذُؤَيْبِيٍّ» لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم اللطف أخلاقاً من الأعراب؛ لما في طباع الأعراب من الجفاء (٥).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ (٦) أي: عليهم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم «مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ» أي: في سبيل الله «مَغْرَمًا» أي: غرامة وخسارة «وَيَنْزِعُ بِكُمُ الدَّوَابَّ» أي: ينتظر بكم الحوادث والافات «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ» أي: هي منعكسة عليهم، والسوء دائر عليهم «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٧) أي: سمع لدعاء عباده عليهم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يقربون بها عند الله،

من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا تَقَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا يَزُتُمْ سَبْرًا، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نَعَمْ حَسَبُهُمُ الْعُدْرُ» (٨)، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال «وَطَبِخَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٩).

﴿يَسْتَدْرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا أَنْ تُؤْمِنُوا لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُدْرِكُوا إِلَى عَذَابِ الْعَذَابِ فَيُنْزِلُكُمْ يَوْمَ الْكُفْرِ تَعْلَمُونَ﴾ (١٠) سَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْفَلْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسُوا وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ جَزَاءً بِنَاكَ أَوْ يَكْسِبُونَ (١١) يَعْلَمُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (١٢).

[بيان مكر المنافقين]

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يستدرون إليهم «قُلْ لَا تَعْتَدُوا أَنْ تُؤْمِنُوا لَكُمْ» أي: لن يصدقكم «قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ» أي: قد أعلمنا الله أحوالكم «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ» أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا «ثُمَّ تُدْرِكُوا إِلَى عَذَابِ الْعَذَابِ وَاللَّهِ يَكْتُبُكُمْ يَوْمَ الْكُفْرِ تَعْلَمُونَ» (١٣) أي: فيخبركم بأعمالكم خيرها ورثها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتدين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم لهم رجس أي: خبث، نجس بواطنهم واعتقاداتهم، وما واهم في آخرتهم جهنم «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١٤) أي: من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم «فَارْتَأَى اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (١٥) أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سُميت الفارة فوسقة لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ (١٦) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَنْزِعُ بِكُمُ الدَّوَابَّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَهُمُ اللَّهُمْ سَيِّئًا جَلِيلًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ ذَكِيمٌ (١٨).

(١) فتح الباري: ٤٣٢/٧ ومسلم: ١٩١١.

(٢) الطبري: ٤٢٩/١٤. (٣) أحمد: ٣٥٧/١.

(٤) أبو داود: ٢٧٨/٣ وتحفة الأحوذني: ٥٣٢/٦ والنسائي:

١٩٥/٧.

(٥) النسائي: ٢٨٠/٦.

وَيَتَنَوَّنُونَ بِذَلِكَ دَعَاءَ الرَّسُولِ لَهُمْ ﴿الْأَتَاؤُةَ لَّهُمْ﴾ أَي: أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلُ لَهُمْ ﴿سَيَذَرُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿وَالسَّامِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [

فَضَائِلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّتَابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ] يَجْرِي تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النِّعَمِ وَالنِّعَمِ الْمَقْسِمِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحَدِيثَةِ (١)، وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُمُ الَّذِينَ صَلُّوا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢) وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَا وَبِيلَ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَا سَيْدِ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ أَعْنِي: -الصُّدَّيْقُ الْأَكْبَرُ وَالْخَلِيفَةُ الْأَعْظَمُ- أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يَعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ وَيَغْضَوْنَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ- عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ وَقُلُوبُهُمْ مَعْكُوسَةٌ، فَايِنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيْيَانِ بِالْقُرْآنِ؟ إِذْ يَسْبُونَ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ! وَأَمَّا أَهْلُ السَّنَةِ فَإِنَّهُمْ يَتَرْضَوْنَ عَمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَيَسْبُونَ مَنْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُؤَالُونَ مَنْ يُؤَالِي اللَّهَ، وَيَعَادُونَ مَنْ يَعَادِي اللَّهَ، وَهُمْ مُتَبِعُونَ لَا مُتَبَدِّعُونَ، وَيَقْتَدُونَ وَلَا يَتَّبِعُونَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ حِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلَحُونَ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنُونَ.

وَيَمَنَّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّبِعُونَ وَيَنْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى الْإِتِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ قَلَمُهُمْ سَعْدُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوْا إِلَى عَذَابِ عَظِيمٍ (١١)

[مُتَّبِعُوا الْأَعْرَابَ وَالْمَدِينَةَ] يَجْرِي تَعَالَى رَسُولُهُ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أَنْ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقِينَ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْإِتِّفَاقِ﴾ أَي: مَرَّتُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ، وَيُقَالُ: قَرَدُ فُلَانٍ عَلَى اللَّهِ، أَي: عَتَا وَتَجَبَّرَ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ قَلَمُهُمْ﴾ لَا يَنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلَمَّهْهُمْ بِسَمِئَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشُكًّا، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمَذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمِيلًا إِلَى الرَّاحَةِ مَعَ إِيْيَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَأَخْرَجُوا عَرَفُوا يُدْزِئُوهُمْ﴾ أَي: أَقْرَبُوا بِهَا وَعَارَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ آخَرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أَنْسَافٍ مَعِينِينَ إِلَّا أَنَّهَا عَامَةٌ فِي كُلِّ الْمَذْنِبِينَ الْخَطَاةِينَ

(١) الطبري: ٤٣٥/١٤. (٢) الطبري: ٤٣٦/١٤، ٤٣٧، ٤٣٩.

(٣) عبد الرزاق: ٢/٢٨٥. (٤) الطبري: ٤٤٢/١٤.

(٥) الطبري: ٤٤٤/١٤.

قرأ بعضهم: (صلواتك) على الجمع، وآخرون قرأوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الأفراد ﴿سَكَنَ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم ^(٥)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك، ومن هو أهل له.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تبيح إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحسها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه فيريها لصاحبها؛ حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ يَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيَرِيهَا لِأَحَدِكُمْ، كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حَتَّى إِنْ اللَّقْمَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ أُحُدٍ» وتصدق ذلك في كتاب الله - عز وجل - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿يَسْخَرُ اللَّهُ الزَّيْطَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ ^(٦) وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن الصدقة تقع في يد الله - عز وجل - قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ^(٧).

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَيَرْجِعُهُمْ إِلَىٰ غَيْرِ الْقَبْرِ وَلَئِنَّهُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(١٠)

[الوعيد للعصاة]

قال مجاهد: هذا وعيد ^(٨) يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه - تبارك وتعالى - وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الثُّرَيَّا لَا تَخْفَىٰ مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ ^(٩) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلُغُ الثُّرَيَّا﴾ ^(١٠) وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ^(١١) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا.

وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٩) وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام

المخلطين المتلوئين، وقال ابن عباس: ﴿وَأَخْرُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة وجاعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يخلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ^(١)، وروى البخاري عن سُمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: لَنَا: «أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ فَأَبْتَعَانِي، فَأَتَيْتَنِي بِإِلَى مَدِينَةٍ مَنِينَةٍ بِلَيْنَ ذَهَبٍ وَلَيْنَ فِضَّةٍ، فَتَلَقَانِي رَجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقْتُمْ كَأَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَأَى، وَشَطْرَ كَاتِبٍ مَا أَنْتَ رَأَى، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَتَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا فَذَهَبَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا لِي أَحْسَنَ سُورَةٍ، قَالَا لِي: هَلْ يَوْجُؤُكَ هَذَا مِنْزِلُكَ، قَالَا: وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ» ^(٢) هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية.

﴿عَلِمَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ أَنَّ صَلَاتَكَ لَكُمُ اللَّهُمَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(١٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(١٣)

[الأمر بأخذ الزكاة وبيان فوائدها]

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بزيكهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإن كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة، وقتلواهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقالاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلتهم على منعه ^(٣)، وقوله: ﴿وَصَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» ^(٤) وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾

(١) الطبري: ٤٣٧/١٤. (٢) فتح الباري: ١٩٣/٨.

(٣) فتح الباري: ٢٦٤/١٣. (٤) مسلم: ٧٥٦/٢.

(٥) الطبري: ٤٥٧/١٤. (٦) الطبري: ٤٦١/١٤.

(٧) الطبري: ٤٦٠/١٤. (٨) الطبري: ٤٦٣/١٤.

(٩) فتح الباري: ٥١٢/١٣.

أحمد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعُجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا يَمَّ يَحْتَمِلُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَمَعُلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ - أَوْ بَرْهَةً مِنْ ذَهْرِهِ - يَمَعُلُ صَالِحٌ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَمَعُلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَمَعُلُ الْبَرْهَةً مِنْ ذَهْرِهِ يَمَعُلُ سَيِّئًا، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَمَعُلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: «يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْضِيهِ عَلَيْهِ» ^(١) تفرد به الإمام أحمد.

﴿وَالْأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا عَدَّ لَهُمْ وَيَمَّا

يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾

[إرجاء أمر المتخلفين الثلاثة]

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلفوا أي: عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا وميلًا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شغًا ونفاقًا، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ اتَّبَعْتَهُمْ﴾ الآية، ﴿وَلَمَّا تَبَوَّأَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ ^(٢) أي: عليهم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق

العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَرِزْقَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ رُدُّنَا إِلَى الْأَرْضِ مِنَّا وَلَمَّا نَكُنْ فِيهَا فَلَا نَفْعَ فِيهِمْ أَنْ يُسَجِّدُوا أَسْسَافًا عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْ أُولَئِكَ إِنَّهُمْ يَنْفَعُونَ فِيهِمْ إِلَّا أُنَاسٌ مِمَّنْ يَنْفَعُونَ فِيهِمْ﴾ ^(٣) لا نفعة فيه رجال يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ^(٤)

[مسجد الضرار ومسجد التقوى]

سبب نزول هذه الآيات الكرييات، أنه كان بالمدينة - قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها - رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل

الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرّق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارًا إلى كفار مكة من مشركي قريش، بياثتهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنعهم الله - عزّ وجلّ -، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حضر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكُسِرَت رِباعيته اليمنى السفلى وشجّ رأسه - صلوات الله وسلامه عليه - وتقدم أبو عامر في أول المباشرة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك علينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتعمد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالت هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فلما قفل - عليه السلام - راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بأثوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى

أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين، المحافظين على إسباغ الوضوء والتزوه عن ملابس القاذورات.

وقد روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال: «إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أَنْ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا، لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»^(٧) فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

﴿أَمَّنْ أَسْسَ بُلَيْسَهُ عَلَى تَقْوَى رَبِّكَ أَلَّا تَرْضَوْنَ خَيْرًا مِّنْ أَسْسَ بُلَيْسَهُ عَلَى شَفَا جُرْبِي هَكَذَا فَتَأْتَارِيهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٨) لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيْبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ^(٩)

[الفرق بين المسجدين]

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضاراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فلانها يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي: طرف حفيرة، مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٠) أي: لا يصلح عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضاراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ^(٨)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيْبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدين العجل حبه، وقوله: ﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيْبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وقناة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغير واحد^(٩) من علماء السلف، «وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ» أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾^(١١) في مجازاتهم عنها من خير وشر.

(١) الطبري: ١٤ / ٤٧٠.

(٢) ابن ماجه: ١ / ٤٥٢، والترمذي: ٣٢٤.

(٣) فتح الباري: ٣ / ٨٢، ومسلم: ١٣٩٩.

(٤) أبو داود: ٤٤، والترمذي: ٣١٠٠، وابن ماجه: ٣٥٧.

(٥) أحمد: ٣ / ٤٢٢.

(٦) ابن خزيمة: ١ / ٤٥.

(٧) أحمد: ٣ / ٤٧١، ٤٧٢.

(٨) الطبري: ١٤ / ٤٩٣.

(٩) الطبري: ١٤ / ٤٩٥ - ٤٩٧.

ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، هم أناس من الأنصار بنو مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾^(١١) وقوله ﴿وَلْيَحْضِرْنَ﴾ أي: الذين بنوه ﴿أَنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أي: ما أردنا بنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١٢) أي: فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضاراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له: الراهب - لعنه الله - وقوله: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي له - والأمة تبع له في ذلك - عن أن يقوم فيه أي: يصلي فيه أبداً.

[فضل مسجد قباء والصلاة فيه]

ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس - من أول يوم - بنيانه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين وممقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسبب إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ»^(٢)، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً ومشياً^(٣)، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناء وأسس أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة^(٤)، فله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن عويم بن ساعدة الأنصاري، أنه حدثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ النَّتَاءَ فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطْهَرُونَ بِهِ؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أديارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا^(٥)، ورواه ابن خزيمة في صحيحه^(٦)، وقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ^(١٣) دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من

﴿التَّكْوِينُ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش
 ﴿التَّكْوِينُ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها
 وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد، فلهذا
 قال: ﴿التَّكْوِينُ﴾ ومن أفضل الأفعال الصيام، وهو ترك
 الملاذ من الطعام والشراب والجساع، وهو المراد بالسياحة
 ههنا، ولهذا قال: ﴿التَّكْوِينُ﴾ كما وصف أزواج النبي
 ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْبُرُ﴾ أي: صائحات، وكذا
 الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال:
 ﴿الرَّكُوعُ﴾ السَّكِينُ ﴿وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلْقَ
 اللَّهِ وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ
 الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فَعَلَهُ وَيَحِبُّ تَرْكَهُ، وَهُوَ حَفِظَ
 حُدُودَ اللَّهِ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ
 وَنَصَحَ الْخَلْقَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)، لأن
 الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به
 ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
 كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ﴾ (٢) وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُوا لِزُهَيْمَ لِأَمْرِهٖ إِلَّا عَنْ
 مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ إِنَّ
 لِزُهَيْمَ لَأَوَدَّ حَلِيمَ﴾ (٣)

[النهي عن الدعاء للمشركين]

روى الإمام أحمد، عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت
 أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل
 وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةُ
 أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» فقال أبو جهل وعبد الله بن
 أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا
 على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَلَهُ
 عَنْكَ، فَتَزَلْ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
 لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١) قَالَ وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
 أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) أخرجه (٥).

وروى ابن جرير عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: أن النبي ﷺ

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
 لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
 وَعَمَّا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي النَّزْهَةِ وَالْإِنْفِصَالِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ
 أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِأَيْمَانِهِ
 وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣)

[اشتري الله من المجاهدين أنفسهم وأموالهم بالجنة]

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم
 وأموالهم - إذ بذلوا في سبيله - بالجنة، وهذا من فضله
 وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به
 على عبده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة:
 بابعهم الله فأغلى ثمنهم (١). وقال شمر بن عطية: ما من
 مسلم إلا والله - عز وجل - في عنقه بيعة، وفي بها أو مات
 عليها ثم تلا هذه الآية (٢). ولهذا يقال من حمل في سبيل الله
 بآيع الله، أي: قيل هذا العقد ووفى به. وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو
 اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة.

ولهذا جاء في الصحيحين: «وَتَكْفَلُ اللَّهُ لَنْ يَخْرُجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا
 يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ وَتَضَدُّقٌ بِرُسُلِي، بَانَ تَوْفَاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ
 الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَنَزَلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرِ
 أَوْ غَنِيمَةٍ» (٣) وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي النَّزْهَةِ وَالْإِنْفِصَالِ
 وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه
 الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة
 المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن
 المنزل على محمد، - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. -
 وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ فإنه لا يخلف الميعاد.
 هكذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ
 مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٥) ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِأَيْمَانِهِ
 وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦) أي: فليستبشروا من قام بمقتضى
 هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

﴿التَّكْوِينُ﴾ التَّكْوِينُ التَّكْوِينُ التَّكْوِينُ

الرَّكُوعُ السَّكِينُ الرَّكُوعُ السَّكِينُ الرَّكُوعُ السَّكِينُ

وَالْكَاهُونُ عَنِ الْمُشْكِرِ وَالْحَفُوظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ

وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ (١)

هذا نعت المؤمنين الذين اشتري الله منهم أنفسهم
 وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة

(١) الطبري: ٤٩٩/١٤. (٢) الطبري: ٤٩٩/١٤.

(٣) فتح الباري: ٦/٢٥٤، ومسلم: ٣/١٤٩٦.

(٤) أحمد: ٤٣٣/٥.

(٥) فتح الباري: ٨/١٩٢، ومسلم: ١/٥٤.

لما قدم مكة، أتى رَسْم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعيراً، فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت. قال: «إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي» فما رُفِي بأكبر من يومئذ^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ آمَنَاتٌ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فهناه الله - عزَّ وجلَّ - عن ذلك، فقال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ» فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَرْغَبَةٍ وَغَدَاةٍ﴾ الآية^(٢)، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية^(٣) وقوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: مازال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو الله^(٤)، وكذا قال مجاهد والضحاك وقناة وغيرهم - رحمهم الله -^(٥)، وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبیر: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حتى يلقي أباه، وعلى وجه أبيه الفترة والغبرة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي ربِّ ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأبي خزي أخزي من أبي الأبعد، فيقال: انظر إلى ما وراءك فإذا هو بنبيخ متلطخ، أي: قد مسخ ضبعاً ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار^(٦). وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٧)، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: الأواه: الدعاء^(٨)، وكذا روي من غير وجه، عن ابن مسعود^(٩)، وقيل: المتضرع، وقيل: الرحيم، وقيل: الموقن المؤمن، وقيل: المسبح، وقيل: غير ذلك.

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بَكِيٌّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾^(١٠) إِنَّ اللَّهَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١١)

[لا مؤاخلة إلا بعد إقامة الحجة]

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُمَوِّدُ قَهْدِيهِمْ﴾ الآية، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ الآية، قال بيان الله - عزَّ وجلَّ - للمؤمنين في ترك

الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا^(١٢). وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد [إذا] رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالهي عنه، ثم تعدوا نبيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليه بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من الأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر [بعدم] ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١٤) قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه^(١٥).

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُكَلِّمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٦)

[بيان غزوة تبوك]

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، في سنة مجدية وحر شديد وعسر من الزاد والماء^(١٧)، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في هَبَان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم^(١٨)، وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن

(١) الطبري: ٤٨٩/٦. (٢) الطبري: ٥١٢/١٤.

(٣) الطبري: ٥١٣/١٤. (٤) الطبري: ٥١٩/١٤.

(٥) الطبري: ٥١٩، ٥١٨/١٤. (٦) الطبري: ٥٢١/١٤.

(٧) الطبري: ٥٢٤، ٥٢٣/١٤. (٨) الطبري: ٥٢٤/١٤.

(٩) الطبري: ٥٣٧/١٤. (١٠) الطبري: ٥٣٦/١٤.

(١١) الطبري: ٥٣٨/١٤. (١٢) الطبري: ٥٤٠/١٤.

(١٣) الطبري: ٥٤١/١٤.

الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله - عز وجل - قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: «حُبُّ ذَلِكَ؟» قال نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(١)، وقال ابن جرير: في قوله «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ» أي: من النفقة والظهر والزاد والماء «وَمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ كَثِيرٍ مِمَّنْ هُمْ» أي: عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه «إِنَّهُ يَهْدِي رُؤُوفٌ رَحِيمٌ»^(٢).

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٣) يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»^(٤)

[قصة الثلاثة الذين خلفوا]

روى الإمام أحمد أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعة، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راكبتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلباً يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في

حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً [فجلى] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: قتل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله - عز وجل - وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصغر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى [شمر] بالناس الجدد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليت أني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً من عذرة الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «مَا قَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بؤداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه فألفاً من تبوك، حضرني بشي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بما إذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تَعَالَى» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «مَا خَلَقَكَ، أَمْ تَكُنْ قَدْ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا؟» فقلت: يا رسول الله إني لو

جفاك، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مَضِيعَة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأته وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيمنت به التنور فسجرت به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتييني يقول: يا مارك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقر بها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لا مرأتي: الحقى بأهلك فكوفي عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالًا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ولكن [لا يتركك]» قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضافت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشريا كعب بن مالك، قال: فغمرت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله - عز وجل - بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشري نزعته له ثوبًا فكسوتها إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره - قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة - قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» قال: قلت: أومن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بَلْ مِنْ

جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلًا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسطخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تحجد علي فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» فقممت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذرت به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بلرالي فيها أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفّت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار.

فيينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا ببطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطلق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا، فإذا فيه: أما بعد قد بلغنا أن صاحبك قد

الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْفَالَسَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار^(٣).

[الأمر بقول الصدق]

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يبتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤) أي: اصدقوا والزمو الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم وغرجًا، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ، فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنِ اسْكَمَ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الشُّجُورِ، وَإِنَّ الشُّجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(٥) أخرجاه في الصحيحين.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا يَخَافُ الْكَفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّ تَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)

[جزاء الخروج للفزوة]

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهن

عند الله قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي ببخير وقلت يا رسول الله: إننا نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فو الله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاء الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَفِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٧) وَعَلَى الْفَالَسَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوًّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٨) إلى آخر الآيات. قال كعب: فو الله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلُوتُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآزِلُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٩) يَحْلُوتُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(١٠) قال: وكنا - أيها الثلاثة الذين - خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عز وجل ﴿وَعَلَى الْفَالَسَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنها هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه^(١١).

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحب الصحيح البخاري ومسلم بنحوه^(١٢)، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه

(١) أحمد: ٥٥٦/٣.

(٢) فتح الباري: ١٩٣/٨، ومسلم: ٢١٢١/٤.

(٣) الطبري: ٥٤٤/١٤. (٤) أحمد: ٣٨٤/١.

(٥) فتح الباري: ٥٢٣/١٠، ومسلم: ٢٠١٢/٤.

وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي، إما للنفقة وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً وتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصابة، يعني السرايا، ولا يسبوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، وبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليعلموا [ليتعلموا] ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ^(١).

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما يتشعرون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجثمتونا؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله - عز وجل -: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني الخبر ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ ولبستموا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ﴿وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ^(٢).

وقال قتادة في الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تفقه في الدين، وتنتقل طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قلوبهم ^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ إنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجذبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها، حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويغتلوا بالإسلام وهم كاذبون،

بأنفسهم عن مواساته فيها حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ مَوْطِنًا يَبْتَغِ الْكُفَّارُ﴾ أي: ينزلون منزلًا يهرب عدوهم ﴿وَلَا يَتَأَلَوْنَ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمُ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٤) كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ^(٥).

﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٦) يقول تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿وَلَا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا (به)؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٧) وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، وروى عبد الله أيضًا عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصباها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانٍ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» يرددها مرارًا ^(٨)، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية ما ازداد قوم في سبيل الله بعدًا من أهلهم إلا ازدادوا قربًا من الله ^(٩).

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ^(١٠)

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية، قال: ففسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراعاة تعالى من نفير الأحياء كلها

(١) أحمد: ٦٣/٥. (٢) الطبري: ١٤/٥٦٥.

(٣) الطبري: ١٤/٥٦٧. (٤) الطبري: ١٤/٥٦٦.

(٥) الطبري: ١٤/٥٦٨.

فضيّقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرتهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٢)

[الأمر بجهاد الكفار والأقرب فالأقرب]

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فاولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلاً كاد أن يتجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة عن منعها من الطغمان وبيّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمّله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقبصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحارب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة للمحدين، وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً، ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي، ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار.

فكسى الإسلام رياسة حلة سابعة، وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ يَنْصُورُ الْمُحْسِنِينَ وَيُغْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣) أي: قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار.

ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا، لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحذوا على كثير من بلاد الإسلام والله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله.

والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين [من] نواصي أعدائهم الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ إِنَّا كُنَّا زَادَتْهُ هَذِهِ بَيِّنَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥)

[إيمان المؤمن يزيد وينقص والمنافقون يزدادون رجساً] بقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَن يَقُولُ إِنَّا كُنَّا زَادَتْهُ هَذِهِ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته

يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه؛ فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٥١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٢﴾

[بعثة الرسول ﷺ من الله تعالى]

يقول تعالى عنتاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته (٢) وذكر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يَئُتُّ أمته ويشق عليها وفي الصحيح: «إِنَّ هَذَا الَّذِي يُسْرُّ وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمَحَةٌ كَامِلَةٌ، يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ» (٣) ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم وروى الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُجَزِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُطْلِعُهَا مِنْكُمْ مُطْلِعٌ، أَلَا وَإِنِّي أَخِذُ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافُتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافَتِ الْفَرَّاشِ أَوْ الدُّبَابِ» (٤).

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: ﴿وَأَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (٦) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٧) وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جتهدتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٨) ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٩) أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما

هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ وَتَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٠) وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (١١) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالتهم ودمارهم كما أن سبب الزواج لو غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أُولَٰئِكَ يَوْمَئِذٍ هُمْ يُقْتَلُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَمُوتُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

[ابتلاء المنافقين]

يقول تعالى: أولارى هؤلاء المنافقين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَمُوتُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٤) أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع (١٥).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٦) هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: تلفتوا ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَفِرُوا مِنْ مِثْرَيْنِ ۖ قَالَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٧) ﴿فَرَأَى مِنْهُمْ كُفْرًا﴾ (١٨) وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَبِكُمْ يُعْطَىٰ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (١٩) أي: ما هؤلاء القوم يتفللون عنكم يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٢٠) ﴿وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٢١) أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يتصدون لفهمه، ولا

(١) الطبري: ٥٨٠/١٤. (٢) أحمد: ٢٠٢/١، ٢٩١/٥.

(٣) فتح الباري: ١١٦/١. (٤) أحمد: ٣٩٠/١.

صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ^(١)، قال: الأعمال الصالحة: صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسيبهم - قال: - ومحمد ﷺ يشفع لهم^(٥).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّيْرُ مُبِينٌ^(٢)﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّيْرُ مُبِينٌ^(٣)﴾ أي: ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٤)﴾

[الله خالق الكون وربّه والمتصرف فيه]

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كآلف ستة مما تعدون، كما سيأتي بيانه، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ أي: يدبر لأمرها الخلاق لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بالبحار الملحين، ولا يلبيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَافِئُهَا وَلَا ذَرَّةٌ وَلَا يَبْسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^(٥)﴾ وقال الدرروردي عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال: حين نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ قَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْقِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ لَعْنُ بَشَرَةٍ وَرِضْوَةٍ^(٦)﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْفَرَ لَهُ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٧)﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٨)﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم

فيها وما بينها تحت العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة^(٩).

وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم^(١٠). آخر سورة براءة والله الحمد والمنة.

تفسير سورة يونس

عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّكَ إِلَهٌ مِّنْ دُونِ إِلَهِاتِ الْكَافِرِينَ^(١)﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنَّ أُوحِيَآ إِلَى رَجُلٍ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنُوا لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ^(٢) قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّيْرُ مُبِينٌ^(٣) أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ﴿وَلَكَّ إِلَهٌ مِّنْ دُونِ إِلَهِاتِ الْكَافِرِينَ^(٤)﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين.

[لا يكون الرسول إلا بشراً]

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ﴾ الآية. يقول الله تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قومهم: ﴿أَبَشَرُهُمْ قَوْمًا﴾ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ آلِهَتُهُ إِنَاهَا وَجِدًا إِن هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ^(٥)﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبٌ﴾ الآية^(٦). وقوله: ﴿إِنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقِي﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول^(٧). وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿إِنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: أجراً حسناً بما قدموا، وقال مجاهد: ﴿إِنَّ لَهُمْ قَدَمٌ

(١) أحمد: ١١٧/٥. (٢) فتح الباري: ١٩٥/٨.

(٣) الطبري: ١٣/١٥. (٤) الطبري: ١٥/١٥.

(٥) الطبري: ١٤/١٥.

الشهور والأعوام ﴿مَخْلَقَ اللَّهِ ذَلِكَ إِلَّا لِحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ فَنَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٨﴾ وقوله: ﴿تَفْصِيلَ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وقوله: ﴿إِنِّي فِي أَخْيَافٍ أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبها إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يَغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ وقال: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿قَالُوا الصَّبَاحُ وَحَدَّثُوا أَيْلَ سَكَنًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مَرْكَبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْيَافٍ أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَأَيُّ لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: العقول، وقال ههنا: ﴿لَأَيُّ لَأَيُّ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالْآيَاتِ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يَسْمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

[ماوى منكري الساعة جهنم]

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا ببقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأننت إليها نفوسهم: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ الآية. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يفكرون فيها، والشرعية فلا يأمرون بها بأن ماؤهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الْآيَاتِ مَاؤُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُونَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿١﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا مُتَعَدَّةٌ

تعملون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَعْبُدُكَ وَكذلك الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

[مرجع الجميع إلى الله]

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾، ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من محموم ﴿هَذَا قَوْلُهُ وَهُوَ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْوَاهُ أَرْوَجُ ﴿١٠٣﴾، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَانٍ ﴿١٠٥﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي فِي خَلْقِ أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيُّ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾

[كل شيء شاهد على قدرة الله]

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، فساوت بينهما لئلا يشتبهتا، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ تَدْرُكُهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيرِ﴾ ﴿١٠٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلَ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ الآية، وقوله في هذه الآية لكريمة: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف

لَهُمْ وَيَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

[الجزاء الحسن لأهل الإيمان والعمل الصالح]

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتلأوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم: حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به^(١)، وقوله: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَتُكَ اللَّهُمَّ وَبِحَيَّتِهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة. وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومَةُ سَلَامٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأَلُفًا﴾ الآية. وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ دَعْوَتَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة [و] في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ»^(٢). وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ أَجَلَهُمْ فَذَرُّوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾

[لا يستجيب الله دعاء الشر استجابته دعاء الخير]

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد [بالشر] إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم، والحالة هذه، لطفًا ورحمة، كما يستجيب

لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والثناء، ولهذا قال: ﴿﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ﴾﴾ الآية، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ» ورواه أبو داود^(٣) وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَيَذِيقُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية ﴿﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾﴾ الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه^(٤). فلو يعمل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَأَمَّا مَنِ الظَّنَّ أَلْفَنًا دَعَا لِيُخْرِجَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ، مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾

[الإنسان يذكر الله عند الشدة وينساه عند الرخاء]

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله: ﴿﴿ وَإِذَا مَسَّ الشَّرَّ فَدُودُكَ وَعَاسُكَ عَرِيضٌ ﴾﴾ أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها، وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿﴿ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ ﴾﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿﴿ كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾﴾ ﴿١٢﴾ فأما من رزقه الله الهداية والهداة والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى: ﴿﴿ وَلَا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾﴾ وكقول رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِلْأَمْرِ الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»^(٥).

(١) الطبري: ٢٨/١٥. (٢) مسلم: ٤/٢١٨١.
(٣) أبو داود: ١٨٥/٢. (٤) الطبري: ٣٤/١٥.
(٥) مسلم: ٤/٢٢٩٥.

وحججه الواضحة قالوا له: انت بقرآن غير هذا، أي: رد هذا وجننا غيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ في الخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴿ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به:

[ثبوت صدق القرآن]

﴿قُلْ أَوْشَاءَ اللَّهِ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته: أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله - عز وجل -، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليَدْعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله (٢). وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة -مقامه عليه السلام- بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة (٣).

﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بَيِّنَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ﴾ (٤)

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرأاً ﴿وَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥) ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (٦)

[العبرة بإهلاك القرون الأولى]

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوعٌ خَضِرٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَانْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ» (١) وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً دُي من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد، فانتشط أبو بكر، ثم دُرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاثة أذرع حول المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤيك، لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤيك؟ قال: وهل لك في رؤيائي من حاجة أو لم تنتهرني؟ قال: ويحك إني كرهت أن تنعي لخليفة رسول الله ﷺ نفسه، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع، قال: أما إحداهن فإنه كان خليفة. وأما الثانية فإنه لا يضاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) فقد استخلفت يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: فإني: لا أخاف في الله لومة لائم فما شاء الله! وأما قوله: شهيد، فإني لعمر الشهادة والمسلمون مطيعون به؟ (٣)

﴿وَإِذَا قُتِلَ عَلَيْهِمْ يَأْتَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بَقَرَةٌ أَوْ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ في الخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (٤) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا شِئْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥)

[بيان تعنت رؤساء قريش]

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله،

(٢) الطبري: ٣٩/١٥.

(١) مسلم: ٢٠٩٨/٤.

(٤) أحمد: ٢٠٢/١.

(٣) فتح الباري: ٨٢/٨.

هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ﴾ (١٧) وكذلك مَنْ كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفَعُونَ لِلَّهِ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَنْتَ وَاحِدَةٌ فَاتَّخَذُوا لَوْ لَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩).

[ما يعتقده المشركون في آلهتهم]

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَشْفَعُونَ لِلَّهِ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال ابن جرير معناه: يخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ (٢٠) ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢١).

[الشرك حادث]

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (٢٢)، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿لِيَهْدِيَكَ مِنْ هَٰذَا عَنْ يَمِينٍ وَيَسَارٍ﴾ (٢٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: لولا ما تقدم من الله تعالى: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل محدود، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأغنت الكافرين.

(١) أحمد: ٥٠١/٥.

(٢) انظر زاد المعاد: ٦٤٧/٣. وأصل القصة في البخاري: ٦٣،

ومسلم: ١٢ وغيرهما.

(٣) البداية والنهاية: ٣٢٦/٦. (٤) الطبري: ٤٦/١٥.

(٥) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برِّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجّاح والأسود العنسي.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطِيعُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١) ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله - فيما قال له -: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله» قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله» قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله» قال: فبالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فاكفني هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه - صلوات الله وسلامه عليه - بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه (٢).

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ، في هذه المدة -؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة: فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْقَصْرِ ۝ إِنْ لِلْإِنْسَانِ لَنَفِي خُسْرٍ ۝﴾ إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: يا زُبَيْرُ يا زُبَيْرُ، إنسا أنت أذناب وصدور، وسائرُك حفرٌ تُفَرُّ. كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب (٣).

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجج؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وقال في

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ بِيَدِ اللَّهِ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴾ ﴿٦﴾

مطلب المشرکین آیة

أي: يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيع عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ حَتَّى تَحْزَنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلَ لَكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ بل كذبوا بِالْأَسَاقِ وَأَعْتَدُوا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سَعِيرًا ۝١١﴾ وكتوبه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الآية، يقول تعالى: إن سئتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيّر رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى إرشاداً لئيبه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور.

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٦٠) أي: إن كنتم
لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم، فانظروا حكم الله في
وفيكهم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷻ أعظم مما سألو
حين أشار بحضرهم إلى القمر ليلة إيداره فانشق فرقة من وراء
الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما
سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك
استرشادا وتبثا لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا
وتعنتا فتركهم فيما راہب، علم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كقوله
تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦١) وَلَوْ
جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ
الْمَائِدَ كَمَا نَزَّلْنَاهُمُ الْتُورَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَوَلَا مَأْكَلًا لَأَيُّؤْمِنُوا إِلَّا
أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الآية، ولما فيه من المكابرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ
فَنَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْرُوا كَيْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَائِقًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ
فَلْيُسْوَأَ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا آلِئِنَّ قُرْآنًا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْئٌ﴾ (٦٢) فمثل
هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوهم، لأنه لا فائدة في جوابهم؛
لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا
قال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٦٣).

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْفُرُونَ ۚ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ يَمِينَ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاهًا تَهَاوِيهِ عَصِيفٌ وَّجَاءَهُمُ الْعَوَجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا ۖ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ بَأْسًا يَأْتِي النَّاسَ إِنَّمَا يَعْلَمُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

[تقلب الإنسان حين تصيبه الرحمة بعد الضر]

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرُفَةٌ آيَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب ^(١) وقوله: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَنَ الْفُضْرُ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي: مطر - ثم قال: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِيرَنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوفِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِيرَنَا بِتَوَكُّدِ كَذِّهِ وَكَذِّكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوفِ» ^(٢) وقوله: «قَالَ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا» أي: أشد استدراجًا وإمهالًا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غيرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَمَ يَوْمَ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فيسئها هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ أَيْحَاطَ بِهُدًى﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفردون بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا تَجَنَّكُمُ إِلَٰهٌ أَعْرَضْتُمْ

قَتَادَةَ: ﴿كَأَن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ كَأَن لَمْ تَنْعَمْ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ولهذا جاء في الحديث: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَبِيٌّ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، فَيُغْمَسُ فِي النَّبِيمِ غَمْسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا»^(١). وقال

تعالى إخبارًا عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيحًا﴾^(٢) كَأَن لَّمْ يَتَوَارَبُوا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَّاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾^(٣) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكثهم وثقتهم بمواعيدها، وتفلتها عنهم، فإن من طبعها الحرب من طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْخَيْوَةَ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَقْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَيْبًا لَدُونِ الْغَيْثِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا﴾^(٤) وكذا في سورة الزمر والحديد، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.

[الترغيب في النعم الدائمة التي لا زوال لها]

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية. لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسبها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جَبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اسْمَعْ، سَمِعْتُ أَنَّكَ وَاعِقِلْ، وَعَقِلْ قَلْبُكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمِّكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اخْتَدَّ دَارًا، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَذْبَحًا، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْتَهُمْ مَنْ أَحْبَبَ الرَّسُولَ، وَمِنْتَهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولُ، فَمَنْ أَحْبَبَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا» رواه ابن جرير^(٦). وعن أبي الدرداء مرفوعًا

وَكَانَ الْإِسْلَامُ كَفُورًا^(٧) ﴿وَقَالَ ههنا: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَهِوْءٍ﴾ أي هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٨) أي: لا نشرك بك أحدًا، ولنفردك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَجَّهُتُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿وَإِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيرَ الْحَقِّ﴾ أي: كان لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إنما يدوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحدًا غيركم، كما جاء في الحديث «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّجْمِ»^(٩) وقوله: ﴿مَنْعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ثُمَّ إِنَّمَا مَرَجَعْنَاهُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكهم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَقْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَغْذَتْ الْأَرْضُ زُرْعَهَا وَازْدَيَّتْ وَظَلَّتْ أَهْلُهَا أَنْتُمْ قَدَرُوا وَرُفْعَهَا أَتْنَاهَا أَشْرَافًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَفْعَلْ بِالْأَنْسِ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾^(١٠) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١١)

[مثل الحياة الدنيا]

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهره الحياة الدنيا وزيتها وسرعة انقضائها وزوالها، وبالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بقاء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آبٍ وقُضِبَ وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَغْذَتْ الْأَرْضُ زُرْعَهَا﴾ أي: زينتها الغالبة ﴿وَازْدَيَّتْ﴾ أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور بضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَلَّتْ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنْتُمْ قَدَرُوا وَرُفْعَهَا﴾ أي: على جذادها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتْنَاهَا أَشْرَافًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: يا بسا بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَفْعَلْ بِالْأَنْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك. وقال

(٢) مسلم: ٤/٢١٦٢.

(١) أبو داود: ٥/٢٠٨.

(٣) الطبري: ١٥/٦١.

في وجوههم وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم فضله وورثته أمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ يَنْظُرُونَ بِسُوءِ مُرْءَاهُمْ ذَلِكَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آتِلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾

[جزاء المجرمين]

لما أخبر تعالى عن حال الشعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك ﴿وَنَرَاهُمْ﴾ أي: نعتريهم وتعلوهم ﴿ذَلِكَ﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وَنَرَاهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنْ الدَّلِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٥٢﴾ مُتَوَلِّينَ لِمَقْنِيِّ رُءُوسِهِمْ﴾ الآيات، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: مانع ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْفِتْنُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَفْزِرُ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ﴾ الآية، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَسَوْدٌ وَجُوهٌُ قَامًا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ ایمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ تُسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ صَاحِبَةً مُتْسِفِرَةً ﴿٢٩﴾ وَوَجُوهُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَةٌ ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

﴿وَيَوْمَ تَحْشَرُهُمْ جَمِيعًا تَمَّ يَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنتُمْ إِلَّا نَاعِدُونَ ﴿١٨﴾ فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢١﴾﴾ هُنَاكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

[تباري آلهة المشركين منهم يوم القيامة]

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشَرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، ﴿تَمَّ يَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي:

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبَجَبَتْهَا مَلَكَانِ يَتَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَاتُمُوا إِلَى رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْمَلَى» قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (١).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذِكْرُكَ وَلَا يَهْقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

[أجر المحسنين]

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعة أضعاف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قوة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم (٢) من السلف والخلف. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذِكْرُكَ وَلَا يَهْقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُمُوهَ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ أَلَمْ يَقُلْ مَوَازِينًا؟ أَلَمْ يَبْيَضْ وَجُوهُنَا وَنُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ وَنُجِزَنَا مِنَ النَّارِ؟ - قَالَ -: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لَأَعْيُنِهِمْ» (٣) وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القفرة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿وَنُفِثَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَفَّهَهُمْ ضَرَّةٌ وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: نصرته

(١) الطبري: ٦٠/١٥ وأحمد: ١٩٧/٥.

(٢) الطبري: ٦٣-٦٨. (٣) أحمد: ٣٣٣/٤.

(٤) مسلم: ١/١٦٣ وتحفة الأحوذني: ٥٢٢/٨ والنسائي في

الكبرى: ٣٦١/٦ وابن ماجه: ٦٧/١.

يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ
عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَمَن يَزِدْهُمْ مِّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَمْشِي فِيهِمْ مِّنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٢﴾

[القرآن كلام الله حقًا، وبيان إعجازه]

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتغاله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليه، ومُبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَنَقْصِصَ الْكِتَابِ لَا يَغْفِرُ فِيهِ مِن رَّبِّ الْقَالِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مربة فيه من الله رب العالمين، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ أي: إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله وقتلتم كذبًا ومينًا: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شأؤوا، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿٦٥﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفَعِّلِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية، تحداهم بسورة منه وأخبر

كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُنَبِّئَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ مَا لَكُم كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشئ ما فيها من الخلق، ويفرق أجرام السماوات والأرض، ويبدلها بغيرها ما بهما، ثم يُعيد الخلق خلقًا جديدًا ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا، ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُنَبِّئَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ﴾ أي: أفتنبئ العبد الذي يهدي إلى الحق ويصر بعد العمى - أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهدي لعباده وبكمه؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَنَابِتُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿١٢٢﴾ وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ أي: فما بالكم أن يذهب بعقولكم؟ كيف سويتهم بين الله وبين خلقه، وعدلتهم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة، بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ تهديد لهم ووعد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أنتم الجزء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقْصِصَ الْكِتَابِ لَا رِبَّ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا

[الأمر بالتبري من المشركين]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون فتراهم ومن عملهم ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقولهم تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعُونَ الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾ إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۝ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۝﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة النصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسباع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ ۝﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التوبة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي. وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَسْخَرُونَكَ إِلَّا أَسْرَارًا ۝﴾ الآية.

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا شيئا وإن كان قد هدى به من هدى، وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَئِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلُمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُ بَيْنَكُمْ تُحْرِمًا فَلَا تَظَالُمُوا - إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَهْلُكُمْ أَخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ أَثَابًا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلم بطوله (٢).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُونَ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَرَاةً مِنَ النَّارِ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَبِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِلَهًا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝﴾

[الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر]

يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم

أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا فقال: ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ ۝﴾ الآية، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا يقبل لأحده، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى - عليه السلام - لا يصدر إلى عن مؤيد مسدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى - عليه السلام - بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوْتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَخِيَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَارْجُوا أَن أَكُونُ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا ۝﴾ (١).

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يُعْلِمِ اللَّهُ وَلَكِنَّهُمْ تَأْتِيهِمْ يَوْمًا يَكُونُ فِيهِ حِسَابٌ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ ۝﴾ أي: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفها ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ ۝﴾ الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۝﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَفْظَرُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجوز، بل يعطي كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَئِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾

الْمَقْضَىٰ لَهُمْ قَبْلَ الْحَلَاكِ ﴿٢١﴾ فَأَمَتَهُ إِنَّا حَازَتْ قَصَبَ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قُلْ لَا أَمِيتُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا سَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعِجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾ أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ عَذَابُهُمْ فَهُمْ أَكْفَرُ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَنُّوا ذُرُوفًا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجِزُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٦﴾

[استعجال المنكرين بيوم القيامة وجوابهم]

يقول تعالى خبرًا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنه لا محالة، وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينًا، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَتْلَاكِ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الآية، لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء عما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه، فإنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنه، ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَعِجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ الآية. كقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ الآية.

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلاً أو نهارًا ﴿مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ عَذَابُهُمْ فَهُمْ أَكْفَرُ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٤﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعَذِّبُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّ اللَّهُ الْآلِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَنَّمُوا ذُرُوفًا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبيكتنا وتقربنا كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿٢٧﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾

إلى عرصات القيامة: ﴿يَوْمَ يُخَشِّرُهُمُ﴾ الآية. كقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْتَوُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ وكقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّرُونَ لَوْ يَلْتَوُونَ إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَحَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنُفْخُ الْمُنَجَّرِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿٣٠﴾ يَسْتَحْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٣٢﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾، وقوله: ﴿يَتَعَاقَبُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقربات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ﴿٣٦﴾ الآيات، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَأَمَّا زَيْنَبُكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدِّعُ أَوْ نُؤْتِيكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

[ليستقم من المجرمين سواء في الدنيا أو في الآخرة]

يقول تعالى غاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا زَيْنَبُكَ بَعْضَ الَّذِي نُوَدِّعُ﴾ أي: نستقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نُؤْتِيكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله، وكتاب أعمالها: من خير وشر، موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضًا، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

(١) الطبري: ٩٩/١٥.

(٢) فتح الباري: ٥٩٥/٦ ومسلم: ٥٨٥/٢.

أَصْلُهَا قَاصِرًا أَوْ لَا صَبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَسَتُنِیُّوَنَکَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَفِ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنُتْ بِمُعْجِزٍ ﴿١٧﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِی الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِی بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا یُظْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

[القیامة حق]

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: المعاد والقيامة من الأحداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا ﴿قُلْ إِي وَرَفِ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنُتْ بِمُعْجِزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابًا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَفِ لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُغْيِهِمْ ثُمَّ لَتَأْتِيَ السَّاعَةُ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِی بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَکِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ هُوَ بَیِّنٌ وَبُیِّنٌ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتحرق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِّمَا فِی الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَيَذَرُكَ فَيَقْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾

[القرآن موعظة وشفاء وهدى]

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِی الصُّدُورِ﴾ أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس،

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَيَذَرُكَ فَيَقْرَحُوا﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الداهية لا محالة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ وَاللَّهِ أَتَمَّ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ فَتَقْرَبُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَکِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[ليس لأحد سوى الله أن يحل أو يحرم شيئًا]

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل ^(١) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآيات، وروى الإمام أحمد عن مالك بن نضلة قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قلت: نعم. قال: «مِنَ أَيِّ الْمَالِ؟» قال قلت: من كل المال: من الإبل والرقيق والحبل والغنم، فقال: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ عَلَيْكَ» وقال: «هَلْ تُتَبِّعُ بِإِلَيْكَ صَحَابًا أَذَانًا فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ أَذَانًا فَتَقُولُ: هَٰذَا بَحْرٌ وَشَقٌّ جُلُودًا وَتَقُولُ: هَٰذَا صُرْمٌ وَتُحْرِمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ» قال: نعم قال: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ، سَاعِدَ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ مُوسَاكَ» ^(٢) وذكر تمام الحديث، وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم

بالعقوبة في الدنيا^(١).

لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

[معرفة أولياء الله]

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسر بهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً فلا خوف عليهم ﴿١١﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وروى ابن جرير عن أبي هريرة **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يُغِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ» قيل: من هم يا رسول الله لعننا نحبهم؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَخَابَوُا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثم قرأ ﴿إِلَّا إِيَّاكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ (٣).

[المراد بالبشرى الرؤيا الصادقة]

روى ابن جرير عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» فقد عرفنا بشرى الآخرة، الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ أَوْ تُرَى لَهُ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ مِنَ النَّبُوَّةِ»^(١) وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويشنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٢). رواه مسلم^(٣)، وروى أحمد أيضًا عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» - قال: - «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ، جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ، فَلْيُخْبِرْ بِهَا وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّهَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزَنَ، فَلْيَنْتَفُتْ عَنْ تَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَكْبِرْ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»^(٤) لم يخرجوه.

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَلَوْنَهَا عَلَيْهِمْ سَلَوَةً أَلَّا يَحْزَنُوا وَلَا يَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» ﴿٥﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي

(قلت): ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ بل يجرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ نَسْنَالُ ذُرُوفَ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١﴾

[كل صغير وكبير في علم الله]

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْتَعْطِفُ مِنْ دَرَكَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْثَىٰ لَكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِثَ عَلَى السَّجْدِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ نَقْمٍ ﴿٥٢﴾ وَفَقَّلَكَ فِي السَّجْدِ ﴿٥٣﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم، راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ: لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٦).

﴿إِلَّا إِيَّاكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ

(١) الطبري: ١١٣/١٥. (٢) مسلم: ٣٧/١.

(٣) الطبري: ١٢٠/١٥. (٤) الطبري: ١٣٢/١٥.

(٥) أحمد: ١٥٦/٥. (٦) مسلم: ٢٠٣٤/٤.

(٧) أحمد: ٢١٩/٢.

أَتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

[الله منزله عن الزوجة والأولاد]

يقول تعالى: منكراً على من ادعى أن له ﴿وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أَتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿١٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٢٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٢١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٢٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٢٣﴾ لَقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا ﴿٢٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَزْدًا ﴿٢٥﴾ ثم تواعد تعالى الكاذبين عليه المفترين - من زعم أن له ولداً - بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأمل لهم متعهم قليلاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٢١﴾ كما قال تعالى ههنا: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: مدة قريبة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أي: الموضع المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله فيما ادعوا من الإفك والزور.

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَارَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا كُنْتُ اللَّهُ فَعَلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُطْرُونِ﴾ ﴿٢٦﴾ فَإِنْ قَوْلُنَا فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آخِرٍ إِنْ آجَرُوا إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْبِحِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

الْحَيَّةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ نَزَّلَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾ وفي حديث البراء رضي الله عنه: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةُ بَيْضَ الْوُجُوهِ بَيْضَ الثِّيَابِ فَقَالُوا: اخْرُجِي أَبْتَهَا الرُّوحَ الطَّيِّبَةُ إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ مِنْ قَوْمِهِ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ قَمِ السَّقَاءِ» ^(١)، وأما بشرهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ زُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ يَشْرِكُونَ يَوْمَ جُثَّتِ نَجْمٌ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَزَعُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿لَا يُبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يُبدل ولا يُخلف ولا يُغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَزَعُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوِزْرَةَ لِلَّهِ جَبِيئًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

[العزة لله جميعاً، وهو المتصرف في الكون دون غيره]

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه ﴿إِنَّ الْوِزْرَةَ لِلَّهِ جَبِيئًا﴾ أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً لاضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم والنهار مُبْصِرًا ﴿٢٧﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾

[قصة نوح مع قومه]

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذي يكذبونك ويخالفونك ﴿بَيِّنَاتٍ نُّوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكتهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عظم عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذَكَّرِي﴾ إياكم ﴿بِعَاقِبَتِ اللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَمَلُ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فاني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا ﴿فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَنْتُمْ عَنْ كُرْهُكُمْ﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم ترعون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُظْهِرُوا﴾ أي: ولا تخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دوني، فكذبوني جميعاً ثم لا تُظْهِرُوا ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية.

[الإسلام دين الأنبياء]

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب على نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممثّل ما أسرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاهِدُ﴾ قال ابن عباس: سيلاً وسنة^(١)، فهذا نوح يقول: ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ رَبِّيَ الْعَلَمِينَ﴾ ووَحْيِي بِهِمَا إِتْرَعُهُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾ وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وقال موسى: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُسْلِمِينَ ﴿١٣١﴾ وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا وَتَوَكَّلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْتَسْكَيْتُ وَتَحَيَّيْتُ وَمَتَّعَ اللَّهُ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك لله، وبذلك أيزرُ ولأنَّ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٢﴾، أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نَحْنُ مَغْفِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، وَدِينُنَا وَاحِدٌ»^(٢) أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أَوْلَادُ عَلَاتٍ» وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

[عاقبة المجرمين السيئة]

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَسَبَّوْهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فَالْفَالُ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: يا محمدا! كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومه فجاؤوهم بالبينات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلكم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنَقُلُّهُمْ أَفْتَدِيَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويحتم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجي من آمن بهم، وذلك من بعد نوح - عليه السلام - فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم - عليه السلام - على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم

السورة، وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يهريج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى - عليه السلام - من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ ١٣٠﴾ قَالُوا ءَمَّا رَبِّ الْمَلَكِينَ ١٣١ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ١٣٢ ﴿فَظَنَ فرعون أنه يستنصر بالسحار، على رسول [الله] عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ١٣٣﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ١٣٤﴾ وإنا قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا، وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿قَالُوا يَمْشِي يَمَّا أَنْ تَلْقَى وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ١٣٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿فَأَرَادَ موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم.

ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿فَأَوْجَسَ فِي قُلُوبِهِ خِيفَةً مُوسَى ١٣٦﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ: إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ١٣٧ ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَفَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُطِيعُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ ١٣٨﴾ فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا يَحْشُرُ بِهِ السَّاحِرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِّطٌ ١٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ١٤٠ ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْوَتَقَ يَكْمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ١٤١﴾.

﴿فَمَا ءَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْبِضَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَكَالِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ١٤٢﴾

[لم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا ذرية]

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون - لعنه الله - كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتر، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعبته منه خوفاً شديداً، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿فَمَا ءَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْبِضَهُمْ﴾ قال: فإن

نوحاً - عليه السلام - ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ^(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والتكال فإذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ١٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى ١٤٤ ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَسِرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ١٤٥﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ١٤٦﴾

[قصة موسى وفرعون]

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرُّسُلِ ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ. أي: قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى﴾ أي: كأنهم - تبجحهم الله - أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قاله كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَحَدَّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَّاهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا﴾ الآية ﴿قَالَ لَهُمُ ﴿مُوسَى﴾ مِنْكُمْ عَلَيْهِمْ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَسِرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبَرِيَّةُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤٧.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ١٤٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ١٤٩ ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا يَحْشُرُ بِهِ السَّاحِرُ إِنَّ اللَّهَ سَبِّطٌ ١٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ١٥١ ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْوَتَقَ يَكْمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ١٥٢﴾

[بين موسى والسحرة]

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى - عليه السلام - في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه

[أمرهم بالصلاة في البيوت]

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- أن يتبوءا أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى -عليه السلام- لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمرهم أن يجعلوا بيوتهم قِبْلَ القبلة^(٤)، وقال مجاهد: ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة يصلون فيها سراً^(٥)، وكذا قال قتادة والضحاك^(٦).

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْآخِرَ﴾^(٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تُلَاحِظَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٩)

[دعاء موسى على فرعون وملئه]

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين ظلماً وعلواً، وتكبيراً وعتواً، قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم. كقوله تعالى: ﴿لَنُفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وقرأ آخرون ﴿لِيُضِلَّوْا﴾ بضم الياء، أي: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقتك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس

الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه^(١).

وأما بنو إسرائيل فالمعروف أنهم كلهم آمنوا بموسى عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبيارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون، ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر، فلم يُجِدْ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلى مؤمن، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَآءِنُكُمْ بِاللَّهِ فَقُلِيبِي تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾^(٣) قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) وَجَحَّتْ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٥)

[تحريض موسى قومه على التوكل على الله]

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَآءِنُكُمْ بِاللَّهِ فَقُلِيبِي تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾^(٣) فإن الله كاف من توكل عليه ﴿إِلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٦) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٧) وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٨)، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ مَنَّانٌ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾^(٩) ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِنَّا لَكَ قَبِيلٌ وَإِنَّا لَكَ نَسِيمٌ﴾^(١٠) وقد امثال بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١١) أي: لا تظهرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي عجلز وأبي الضحى^(١٢)، وروى عبد الرزاق عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١٣) لا تسلطهم علينا فيفتنونا^(١٤). وقوله: ﴿وَجَحَّتْ بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١٥) أي: الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بُيُوتًا وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٦)

(١) الطبري: ١٦٤/١٥. (٢) الطبري: ١٦٩/١٥.

(٣) عبد الرزاق: ٢٩٧/٢. (٤) الطبري: ١٧٤/١٥.

(٥) الطبري: ١٧٤/١٥. (٦) الطبري: ١٧٣/١٥.

ومجاهد: أي أهلكتها^(١)، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهنية ما كانت^(٢).
وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها^(٣) ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٤) وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح - عليه السلام - فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٥) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(٦) ولهذا استجاب الله تعالى لموسى - عليه السلام - فيهم هذه الدعوة التي آمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآية، أي: كما أجبت دعوتكما فاستقيا على أمري، قال ابن جريج عن ابن عباس: فاستقيا فامضيا لأمرى، وهي الاستقامة^(٧).
﴿وَجَوْرَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُهُ الْفِرْقَانِ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٨) وَالَّذِينَ وَفَدَ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ^(٩) وَلَيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدَيْكَ لِتُكْرَبَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَالَهُ وَإِنَّ كِبْرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَفَافِلُونَ^(١٠)

[نجاة بني إسرائيل وغرق آل فرعون]

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى - عليه السلام - وهم فيما قيل: ستائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًا كثيرًا، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمة، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة، لما يريد به الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ ثَوْبٍ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾^(١١) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(١٢) فعندما ضاق

(١) الطبري: ١٨١/١٥. (٢) الطبري: ١٨٠/١٥.

(٣) الطبري: ١٨١/١٥. (٤) الطبري: ١٨٧/١٥.

قوم من العاقبة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها حيناً من الزمان.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْيَوْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَىٰ اخْتَلَفُوا عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِي هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١). رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٢).

﴿وَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٣) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَكَوُنُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٤) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ^(٥) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٦)

[تصديق القرآن في الكتب السابقة]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك، ويجرفونه ويبدلون، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٢) أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَنَّا أَمْوَالَهُمْ وَاشْهَدْ عَلَٰ

نَحَاةً أَنْ تُدْرِكَ الرِّحْمَةُ﴾^(٣) وقد رواه أبو عيسى الترمذي^(٤) وابن جرير^(٥)، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدَيْكَ لِنُكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة، على نجوة من الأرض، وهو المكان المرتفع ليحققوا موته وهلاكه^(٦) ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نسر من الأرض ﴿يَدَيْكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك^(٧). وقوله: ﴿لِنُكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِنُكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ وإن كثيراً من الناس عن آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ^(٨) أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ إلى المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ»^(٩).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدِيقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْيَوْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١٠)

[تمكين بني إسرائيل من الأرض ورزقهم من الطيبات]

يجبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿مَبْوَأَ صَدِيقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده واستقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْفَرَمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرُوقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِيهَا وَكَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(١١) وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتِ وَعُيُونِ﴾^(١٢) وَكَثُورَ وَمَقَارَ كَرِيمِ^(١٣) كَذَلِكَ وَأَوْزَنْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(١٤) وقال: ﴿كَفَرْتُمْ كُفْرًا مِنْ جَنَّتِ وَعُيُونِ﴾^(١٥) الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس، وكان فيه

(١) مسند الطيالسي: ٣٤١. (٢) تحفة الأحوذى: ٥٢٦/٨.

(٣) الطبري: ١٥/١٩٠، ١٩١. (٤) الطبري: ١٥/١٩٦.

(٥) الطبري: ١٥/١٩٧. (٦) فتح الباري: ٨/١٩٨.

(٧) الحاكم: ١/١٢٩.

كشف عنهم العذاب بعد أن تلى عليهم. قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنى نوى أرض الموصل^(٢) وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف^(٣) ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١١) وَمَا كَأَنَّ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ^(١٢) ﴿

[ليس من حكمة الله أن يكره الناس على الإيمان]

يقول تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جنتهم به، فأمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيها يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١٣) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِجْنَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(١٤) وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الْذِّبِ أَمَانًا أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١٥) أي: تلزمهم وتلجنهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١٦) أي: ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾^(١٧) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١٨) ﴿لَمَّا بَنَيْتَ قَسَمَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١٩) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٢٠) ﴿لَمَّا عَلَيكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢٢) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^(٢٣) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَأَنَّ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الْحَبَالِ وَالضَّلَالِ﴾^(٢٤) ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢٥) أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدي وإضلال من ضل.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِ الْآيَاتِ وَالذِّكْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢٦) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سِوَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ يَوْمَ الْمُنْتَظَرِ﴾^(٢٧) ثُمَّ نُنْفِ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ أَمَانُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْفِ الْمُؤْمِنِينَ^(٢٨) ﴿

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢٩) ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنَّا زِلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْتَوَكُّ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾^(٣٠) ﴿ثم قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ نَبِيٌّ قَبْلَكَ أَذِنَتْ فِتْنَتُهُمَا إِيحْيَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٣١) ﴿

[لم ينفع الإيمان عندما جاء العذاب إلا قوم يونس]

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكهاها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْوَعْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣٢) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾^(٣٣) ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَكُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِثْلِ هَذَا وَإِنَّا عَلَى مَا نُنْذِرُكُمْ مُتَعَدُونَ﴾^(٣٤) وفي الحديث الصحيح: «غُرِضَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلَ النَّبِيُّ يُمْرُ وَمَعَهُ الْفَتَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يُمْرُ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(٣٥). ثم ذكر كثرة أتباع موسى - عليه السلام -، ثم ذكر كثرة أمته - صلوات الله وسلامه عليه - كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكهاها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب، وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٣٦) وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا السوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم،

(١) فتح الباري: ١٠/٢٢٤. (٢) الطبري: ١٥/٢٠٧.

(٣) الطبري: ١٥/٢٠٨-٢١٠.

[الأمر بالتفكر في خلق السماوات والأرض]

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لدوي الأبواب، بما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافها، وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرورع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مستغر مدلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني [تجدي] الآيات السماوية والأرضية، والرسائل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب: إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ قَوْمٌ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ثُمَّ نَتَّبِعْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا أَي: وهلك المكذبين بالرسول ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسْجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حَقًّا أَوْجِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُظِرُّكُمْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَقْدَرُ وَجْهَكُمْ لِلَّذِينَ حَنِيفًا وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّارِكِينَ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّكَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الأمر بعبادة الله وحده والتوكل عليه]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل يا أيها الناس! إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله

إِلَيَّ فَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ آفَتُكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَقًّا فَنَا لَا أَعْبُدُهَا، فَادْعُوهَا فَلْتَضُرَّنِي، فَإِنَّا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَإِنَّا الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَأُظِرُّكُمْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ أَقْدَرُ وَجْهَكُمْ لِلَّذِينَ حَنِيفًا﴾ الآية. أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفًا، أي: منحرفًا عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّارِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُظِرُّكُمْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ﴾ الآية، فيه بيان؛ لأن الخير والشر والنفع والضَّرُّ إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي نَفْسَهُ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾

يقول تعالى أمر الرسول ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مِرَّةَ فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضلَّ عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

تفسير سورة هود

-عليه السلام- وهي مكية

[سورة هود مما شئبت النبي ﷺ]

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئبت، قال: «شئبتني هود، والواقعة والمُرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخوانها»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُتِبَ أَتُحْكَمُ مِنْهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
 أَلَّا تَقْبَلُوا إِلَّا أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ بَشَرٌ نَبِئْتُكُمْ بِشَيْءٍ قَدِيرٍ ﴿٢﴾
 وَتُؤْتُونَ نَفْسَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَتُؤْتُونَ كُلَّ
 ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ
 ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

[القرآن ودعوته إلى الله وحده]

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما
 أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أُتُحْكَمُ مِنْهُ﴾
 ثُمَّ فُصِّلَتْ، أي: هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها، فهو
 كامل صورة ومعنى. هذا معنى ما روي عن مجاهد وقادة^(١)
 واختاره ابن جرير. ومعنى قوله ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٢)
 أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، خبير بعواقب
 الأمور. ﴿أَلَّا تَقْبَلُوا إِلَّا أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ بَشَرٌ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم
 المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى: ﴿وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدُونِ﴾^(٣) وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا
 أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
 بُشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾^(٤) أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه،
 وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح؛ أن
 رسول الله صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم
 الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ
 أَنَّ خَيْلًا تُفْصِحُكُمْ أَسْتَمُ مَصْدَقِي؟» فقالوا: ما جربنا عليك
 كذبا قال: «فَإِنِّي لَذَرِيَّةُ ابْنِ عَبْدِ شَيْبَةَ»^(٥). وقوله:
 ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ ثُمَّ تُؤْتُوا إِلَيْهِ بِمَتَاعٍ حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ
 مُسَمًّى وَتُؤْتُونَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: وأمركم بالاستغفار من
 الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله - عز وجل -، فيما
 تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿وَتُؤْتُوا إِلَيْهِ بِمَتَاعٍ حَسَنًا﴾ أي
 في الدنيا ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُسَمًّى وَتُؤْتُونَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي في
 الدار الآخرة. قاله قتادة^(٦). كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ
 ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيوةً يَرْضَاهُ﴾ الآية.

وقول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^(٧)
 هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله،
 فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي:
 معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٨) أي: هو

القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من
 أعدائه، وإعادة الخلاق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب كما
 أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِنَسْخِطُوا مِنْهُ أَلَّا يَدِينُوا بِمَا نَسَخْنَا مِنْهُ﴾
 يَعْلَمُ مَا يُشِيرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

[الله خبير بكل شيء]

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء
 بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. روى
 البخاري من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر
 أن ابن عباس قرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية فقلت:
 يا أبا العباس! ما (تأتون صدورهم)؟ قال: الرجل كان يجامع
 امرأته فيستحي أو يتخل فيستحي فنزلت ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ
 صُدُورَهُمْ﴾^(١)، وفي لفظ آخر له قال ابن عباس: أناس كانوا
 يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم
 فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم^(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس ﴿يَسْتَفْشِنُونَ﴾ يغطون
 رؤوسهم^(٣).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
 وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٤)

[الله متكفل بأرزاق سائر المخلوقات]

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب
 الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها
 ومستودعها، أي: يعلم أين انتهى سيرها في الأرض، وأين
 تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها، وقال علي بن أبي طلحة
 وغيره عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي
 ﴿وَيُسْتَوْدَعُهَا﴾ حيث تموت^(١). وأن جميع ذلك مكتوب في
 ﴿كِتَابٍ﴾ عند الله ﴿مُبِينٍ﴾^(٢) عن جميع ذلك كقوله:
 ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أُنْثَاكُمْ مَا
 قَرُوطًا فِي أَلْكَتَبِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكُمْ يُحْشَرُونَ﴾^(٣) وقوله:
 ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ﴾

(١) الطبري: ٢٢٧/١٥. (٢) دلالات النبوة: ١٨١/٢.

(٣) الطبري: ٢٣١/١٥. (٤) فتح الباري: ٢٠٠/٨.

(٥) فتح الباري: ٢٠٠/٨. (٦) فتح الباري: ٢٠٠/٨.

(٧) الطبري: ٢٤١/١٥.

خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادِي ﴿٨﴾ الآية وقوله: ﴿لَتَبْلُوكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَتَكْفُرُونَ﴾ أي: لم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله - عز وجل - على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

[جدال المشركين في البعث بعد الموت واستعجالهم للعذاب]

وقوله: ﴿وَلَيْتَ كُنْتُمْ تُبْغُونَ مِنَ الْمَوْتِ﴾ الآية يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد! هؤلاء المشركين أن الله سيعنتهم بعد مماتهم كما بدأهم. مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئَتٍ وَجِدُوا﴾ وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً ما تصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول. وقوله: ﴿وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية. يقول تعالى: ولئن أخرجنا العذاب والمواخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ تكذيباً واستعجالاً، ﴿مَا يَجِئُهُ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

[معاني الأمانة]

والأمانة تستعمل في القرآن والسنة في معاني متعددة فإراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَهُ أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ﴾. وقوله في يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وتستعمل في الملة والدين كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

وَالْأَحْرَ وَمَا نَسْتَفْظُ مِنْ دَرَكَةٍ إِلَّا يَمْلِكُهَا وَلَا حَبْرَ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَكْبٍ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: أحسن عملاً وَلَيْتَ كُنْتُمْ تُبْغُونَ مِنَ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَهُ أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

[خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام]

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي نِجْمٍ!» قالوا: قد بشرتنا، فأعطينا، قال: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» قالوا: قد قبلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوحِ الْخَفُوفِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ» قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي^(١). وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بالفاظ كثيرة^(٢).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٣) وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَتَفْقُ أَتَفْقُ عَلَيْكَ» وقال: «بَدَأَ اللَّهُ مَالِي لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» وقال: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَتَفَقُّ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَبِيدُ الْمِيزَانُ يَنْفُضُ وَيَرْفَعُ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: أحسن عملاً أي: خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٧﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٣١﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا

(١) أحمد: ٤/٤٣١.

(٢) فتح الباري: ٦/٣٣٠ ومسلم: ٤/٢٠٤١.

(٣) مسلم: ٤/٢٠٤٤. (٤) فتح الباري: ٨/٢٠٢.

الْإِنْسَانَ لَقَىٰ خَيْرٌ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالْعَمْرِ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿٣﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٤﴾ الآيات.

﴿فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ
يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلَ لَهُ
كِتَابٌ مِنْ سَمَاءٍ مِثْلُ مَا نُفِّلُكَ وَتَذْكُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ كَذِبًا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ
بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧﴾

[تضاييق الرسول عن أقوال المشركين وتسليته]

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون
فما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في
قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَبِهُ فِي
الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ﴿١﴾ أَوْ يُنْفِلُ
إِلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعَذَّرْنَا لِأَنَّ رَسُولًا مَشْهُورًا ﴿٢﴾ فامر الله
تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا
يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يُثَبِّتَهُ عَنْ
دُعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ عز وجل أثناء الليل وأطراف النهار. كما قال
تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَكَّرْنَا أَنَّكَ بِبَعْضِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٣﴾ الآية،
وقال ههنا ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبَ بِهِ
صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴿٤﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك
أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا
فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

[بيان إعجاز القرآن]

ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي
بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام
الرب تعالى لا يُشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه
صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس
وتزه لا إله إلا هو، ولا رب سواه ثم قال تعالى: ﴿فَكَبَّرَ
يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه
فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٥﴾ وتستعمل في الجماعة
كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ
يَسْتَفُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦﴾ والمراد من الأمة ههنا: الذين يعث فيهم الرسول مؤمنهم
وكافرهم، كما في صحيح مسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِ
أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ
النَّارَ» ^(١). وأما أمة الأنبياء فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى:
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وفي الصحيح: «فَأَقُولُ: أُمِّي
أُمِّي» ^(٢) وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ
قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُودُوتَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٣﴾ وكقوله:
﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ﴾ الآية.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ
كَفُورٌ ﴿٤﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَرَةٍ مَسَّةٍ لِيَقُولَنَّ
ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾

[تقلب الإنسان في السراء والضراء]

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا
من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة
حصل له يأْس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفرٌ
وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك
فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أي يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء
﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١﴾﴾ أي: فرح بما في يده بطَرِ فَخُورٌ على
غيره، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على الشدائد
والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية
﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء «وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ» ^(٢) بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنُ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ،
وَلَا وَصَبٌ، وَلَا حَزَنٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
خَطَايَاهُ» ^(٣) وفي الصحيح: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ
لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ
خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ
لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ» ^(٤)؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ

(١) مسلم: ١/١٣٤. (٢) مسلم: ١/١٨٣.

(٣) أحمد: ٤/٣. (٤) مسلم: ٤/٢٢٩٥.

عند الله متضمن علمه وأمره ونبيه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّغُوا فِيهَا وَيُطَلَّ مَا كَانُوا يَمْشُونَ (١٦)

[من أراد الدنيا فليس له حظ في الآخرة]

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً يقول: من عمل صالحاً - التماس الدنيا - صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمل إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا: من الثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل لا لتمام الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين (١). وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد (٢). وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى (٣). وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء (٤). وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيتته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة (٥). وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُوَدِّعُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَمَلِكُوكَ وَمَا كَانَ عَمَلُكَ رِيكُوكَ عَمُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْآخِرَةِ نَزِدَ لَهُ فِي حَرِّهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا نُزِّلَتْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٢).

﴿أَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْآخِرِينَ فَالْآخِرَةُ مَوْعِدُهُ. فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٣)

[يؤمن بالقرآن من يكون على بينة من ربه]

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له: بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿قَاتِمٌ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودِيٌّ أَوْ يَنْصَرَانِيٌّ أَوْ يُمَجْسَانِيٌّ كَمَا تُوَلَّدُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءُ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءٍ» (١) الحديث. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَخَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّكَ لَهُمْ، وَأَمَرْتُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِ مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» (٢) فالؤمن باقٍ على هذه الفطرة، قوله: «وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أي: وجاء شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشريعة محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ، وبلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى وَمَنْ قَبْلُ الْقُرْآنِ كِتَابَ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقُدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْآخِرِينَ فَالْآخِرَةُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿لَا تُذَكِّرُكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلُغْ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْآخِرِينَ فَالْآخِرَةُ مَوْعِدُهُ﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» (٨).

(١) الطبري: ١٥/٢٦٣. (٢) الطبري: ١٥/٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) الطبري: ١٥/٢٦٥. (٤) الطبري: ١٥/٢٦٦.

(٥) الطبري: ١٥/٢٦٤.

(٦) فتح الباري: ٣/٢٩٠، ومسلم: ٤/٢٠٤٧.

(٧) مسلم: ٤/٢١٩٧. (٨) مسلم: ١/١٣٥.

[مصدق كل حديث موجود في القرآن]

ثم يعطي كتاب حسنة، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) الآية (١). أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين (٢). وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ويحبونهم الجنة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجًا غير معتدلة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٩) أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٢٠).

وفي الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ لِيُغْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» (٣) ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الآية أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعًا وبصيرًا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا ضما عن سماع الحق عميًا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّهَبُهُمْ عَذَابًا قَوْفَ الْعَذَابِ﴾ الآية، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبهوا، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١١) أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارًا حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَزَّتْ رَدَنَّهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٢).

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣) من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تُجَدَّ عنهم شيئًا، بل ضررهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خُسِفَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٤).

وكقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٥) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسارهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ

وقال أيوب السخيتاني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلى وجدت مصداقه - أو قال - تصديقه: في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقًا في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ قال: من الملل كلها؛ وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّنْ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧) كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٨) وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَقْطَعَ أَكْثَرُ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢٠) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٢١) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٣) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٢٤)

[المفترون على الله الصادقون عن سبيله هم الخاسرون]

يبين الله تعالى حال المفتري عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان. كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُذْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَفَّهُ، وَيَسْئُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُفَرِّقُهُ بَيْنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بَيْنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»

(١) أحمد: ٧٤/٢.

(٢) فتح الباري: ٢٠٤/٨، ومسلم: ٢١٢٠/٤.

(٣) فتح الباري: ٢٠٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/١.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ وكقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٢﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَشْقَارُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾ أَذْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّهُ خَافَ عَلَيْكُمُ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٨﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا زَيْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا زَيْنَكَ إِلَّا النَّبِيُّ هُمُ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[قصة نوح وحواره مع قومه]

يخبر تعالى عن نوح - عليه السلام - وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿٢٨﴾﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴿٢٩﴾ وَالْمَلَأُ هُمُ السَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ. ﴿٣٠﴾﴾ وَمَا زَيْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴿٣١﴾ أي: لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا، ثم ﴿وَمَا زَيْنَكَ إِلَّا النَّبِيُّ هُمُ أَرْسَلْنَاكَ ﴿٣٢﴾﴾ كالعبادة والحاكاة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا زَيْنَكَ إِلَّا النَّبِيُّ هُمُ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴿٣٣﴾﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتمم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذي

أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يخبر تعالى عن ما لهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا الدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسيلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْسَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصْبَرِ وَالصَّبِيرِ وَالصَّبِيرُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[جزاء أهل الإيمان]

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتعلة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمأكول المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون، ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يتغيطون، ولا يبصقون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشَحٌ مسك يعرقون.

[مثل المؤمنين والكافرين]

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك ﴿كَالْأَعْنَى وَالْأَصْبَرِ ﴿٣٩﴾﴾ وهؤلاء كالصبر والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه. أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴿٤٠﴾﴾ الآية.

وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يزوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤١﴾﴾ أفلا تعتبرون، فترقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ

معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَعْلَمُونَ رَحْمَةً بِالْقُرْآنِ وَالْغَفْلَةَ وَالْأَشْيَاقَ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) الآيات.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِجُ آعْيُنُكُمْ كُنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٢٣) إِذَا لَيْسَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾
يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ياذن الله له في ذلك، ولا يسأله على ذلك أجراً بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقروهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالماً فائلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا فَإِنَّا بِمَا تَوَدَّعَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٤) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾

[مطالبة قوم نوح بالعذاب وجوابه لهم]

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، -وبلاء موكل بالمتنطق-: ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا﴾، أي: حاجبتنا فأكثر من ذلك ونحن لا ننبئك ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَاكَ﴾، أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعوه به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٤) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٥﴾، أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، أي: أي شيء يجدي عليكم: إيلاعي لكم، وإنذاري إياكم، ونصحي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، أي: إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٦)، أي: هو مالك

يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٧) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل (١).

وقولهم: ﴿يَا دَاوُدَ الرَّأْيَ﴾ ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لابد من اتباع الحق -والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء- بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عيبي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعون إنما جاءوا بأمر جلي واضح. وقوله: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم غمي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون، وهم في الآخر هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَقُولُونَ أَنَّهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتُحِ مِنْ رَبِّي وَهَئِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ فَمَا كَذِبُونَ﴾ (٢٨)

[جواب نوح]

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَنَّهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتُحِ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتهم إلى تكذيبها وردها ﴿أَنزَلْنَاهُمْ فَمَا كَذِبُونَ﴾ أي: [نغصبكم] بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿يَقُولُونَ لَا اسْتَشْكَمَ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ كُنْتَ أَرْذَلُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَقُولُونَ مِنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالا: أجرة أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، ويجلس

الفرق ﴿قَالَ إِنْ تَسَحَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَحَّرُ بِكُمْ﴾ الآية وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿مَنْ يَأْتِيَنَّكَ عَذَابٌ يَجْزِيهِ﴾، أي: يبينه في الدنيا ﴿وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾ (٣٦)، أي: دائم مستمر أبداً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَهْلُهَا وَقَالَ النَّورُ فَلَنَّا آتَمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٧)

[بداية الطوفان وحمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين]

هذه موعدة من الله تعالى لنوح - عليه السلام - إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يُقْلَع ولا يُفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا كُنَّا نَمْنَحُهَا وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءُ عَلَيْهِ أَمْرٌ فَدُورٌ﴾ (٣٨) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَدُمُرٍ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ (٣٩) وأما قوله: ﴿وَقَارَ النَّورُ﴾ فمن ابن عباس: النور وجه الأرض (١)، أي: صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكرًا وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من [الدواب الذرة] وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فتعلق إبليس بذنبه، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس، وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح عليه السلام: ما لك ويحك ادخل، فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخل في السفينة.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقربته إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنة يام الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠)، أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فمن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم (٢).

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِدْنَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي

أزمت الأمور، التصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَمَنَئِهِمْ قَوْلٌ إِنْ أَفَرَرْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ﴾ (٤١)

[استطراد لبيان صدق النبي ﷺ]

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها. مقرر لها يقول تعالى لمحمد: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَرْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك عليّ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ﴾ (٤٢)، أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه. ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٣) وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِطِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿وَصْنَعِ الْفُلَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَحَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَحَّرُ بِكُمْ كَمَا تَسَحَّرُونَ﴾ (٤٤) فَسَوِّ قَعْلُوكَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ (٤٥)

[الوحي إلى نوح بمصير القوم والأمر بالاستعداد له]

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم، وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيكًا﴾ (٤٦) ﴿فَدَعَا رَبُّهُ إِلَىٰ مَقْلُوبٍ فَأَنْشَرَهُ﴾ (٤٧) فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمُرَآى منا ﴿وَوَحِّينَا﴾ أي: تعليمنا لك ما نصنعه ﴿وَلَا تَخْطِطِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٤٨) وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل له جُوجُواً أَرْوَرًا يشق الماء، وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفل للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبقٌ عليها. وقوله: ﴿وَصْنَعِ الْفُلَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾، أي: يهزؤون به ويكذبون بما يتوعدهم به من

معه ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَوَّيْتُ لِي جَبَلٌ يَتَصَوَّنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (١٢).

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَتَسْكَنِي أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَنُفِثِي الْأَمْرَ وَاسْتَوتَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣).

[نهاية الطوفان]

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تثقل عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي: شرع في النقص ﴿وَنُفِثِي الْأَمْرَ﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة من كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿وَاسْتَوتَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشاخصت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو الله عز وجل، فلم يغرق، وأزست عليه سفينة نوح عليه السلام (١٤) وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقي الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية (١٥). حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادا.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦)، أي: هلاكا وخسارا لهم وبُعْدًا من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٧) قَالَ يَتَّبِعُ ابْنَهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلُ غَيْرِ صُلْحٍ فَلَا تُنْكِنْ لَكَ بِهِ، عَلِمَ ابْنُ نُوحٍ أَنَّهُ عَمَلُ الْجَاهِلِينَ (١٨) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكِّلَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ، عَلِمَ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٩).

[العود إلى قصة ابن نوح وذكر ما دار بين الله

تعالى ونوح عليه السلام حول ابنه]

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال

لَقَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٢١) قَالَ سَوَّيْتُ لِي جَبَلٍ يَصْعَدُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٢٢).

[الركوب في السفينة وجريها في الأمواج الهائلة]

يقول تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام: أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِبُهَا وَتَرَسَّهَا﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رَسْوَاهَا، وقرأ أبو رجاء العطاردي: (بسم الله تجربها ومرسبها) (٢٣) وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤) وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِثْلَ مَا بَارَكْتَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ (٢٥) ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (٢٦) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ، الآية، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين، فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِنَاسٍ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٩) إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طُفَّتْ على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كتفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَاطِقُا أَلَمًا حَمَلَتُكَ فِي الْبَاطِنَةِ﴾ (٣٠) لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكَرَةً وَنَبِيهَا أَذُنٌ وَعِيَةٌ (٣١) وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْتُهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَوَسَّرَ﴾ (٣٢) تَجْرِي بِأَمْرِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا (٣٣) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ (٣٤).

[قصة غرق ابن نوح الكافر]

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب

برز وجه الأرض، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطَ يَسْكُنْ مَتَا﴾ الآية (٣).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ نُوحِيَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١)

[بيان هذه القصص دليل على وحي الله إلى الرسول ﷺ]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة، نوحها إليك على وجهها، كأنك شاهدها ﴿نُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك؛ فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين، حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُتُبُنَا لِيُؤَيِّدَ الْتَّائِبِينَ﴾ (١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُودٌ﴾ قَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَوُونَ ﴿٥﴾ يَقُولُونَ لَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرُهُ إِلَّا عِلَى الْوَدَى فَطَرْفَ أَعْيُنًا يَقُولُونَ ﴿٦﴾ وَيَقُولُونَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُرْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

[قصة هود وقومه عاد]

يقول تعالى: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أساء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجر على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما ينبغي ثوابه من الله الذي فطره، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١) من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجر، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه،

ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي آتِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق؛ لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الدين وعدتك بنجاة. وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة في بعض الحروف: (إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ) (١).

﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطَ يَسْكُنْ مَتَا وَرَكَتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِمْ وَمَنْ تَعَلَّمَ وَأُمُّهُ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ رَبُّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤)

[الأمر بالنزول من السفينة بالسلام والبركة]

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرسدت السفينة على الجودي من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة (٢). وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت بتابع الأرض [الغوط] الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ آلِيكَ مَا تَكُ﴾ الآية فجعل الماء ينقص ويغض ويدبر وكان استواء الفلك على الجودي - فيما يزعم أهل التوراة - في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئي رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين

(١) الطبري: ٣٤٣/١٥. (٢) الطبري: ٣٥٣/١٥.

(٣) الطبري: ٣٣٨/١٥.

ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغها إياكم رسالة الله التي بعثني بها، **﴿وَسَتَخْلُفُ رِيقًا غَيْرُكَ﴾** يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم، فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم **﴿إِنَّ رِيقًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾** أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعاله ويجزيهم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

[إهلاك عاد وتنجية من آمن منهم]

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه **﴿وَمَكَرَ عَادٌ جَحْدُوا بِكَائِتِ رَبِّهِمْ﴾** كفروا بها وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيثار به، فعاد كفروا يهود ففزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، **﴿وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** تركوا اتباع رسولهم الرشيد واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أتبعوا في الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: **﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾** الآية.

﴿وَأَنَّ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رِيقًا قَرِيبٌ يُجِيبُ﴾ (١١)

[قصة صالح وشمود]

يقول تعالى: **﴿وَزَكَرْنَاكَ أَرْسَلْنَا﴾** إلى ثمود، وهم الذين يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم **﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾** فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال: **﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾** أي: ابتداء خلقكم منها، خلق منها آبائكم آدم **﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾** أي: جعلكم عملازا تعمرونها وتستغلونها **﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾** لسالف ذنوبكم **﴿ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ﴾** فبما تستقبلونه **﴿إِنَّ رِيقًا قَرِيبٌ يُجِيبُ﴾** (١١) كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** الآية.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكَّتْ فِينَا مَرْحُوًا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُمْ أَنَا نَعْبُدُ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (١٢) قال ينقور أرميت إن كنتم على بينة من ربي وإنني منه رحمة فمن يضربني من الله إن عصيته، فما تريدونني غير تحسير **﴿١٣﴾**

وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: **﴿رُسُلِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ يَذَرَاكَ﴾** (١١).

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) **﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** (١٤) **﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾** (١٥) **﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رِيقًا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** (١٦)

[الحوار بين عاد وهود]

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبيهم: **﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه **﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾** أي: بمجرد قولك: اتركوهم، نتركهم!! **﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** (١٣) **﴿بِمُصَدِّقِينَ﴾** (١٤) **﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾** يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها **﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾** (١٤) **﴿مِنْ دُونِهِ﴾** يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام **﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾** أي: أنتم وأهنتكم إن كانت حقا **﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾** (١٥) أي: طرفه عين وقوله: **﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾** أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جهاد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العباد، الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رِيقًا قَرِيبًا غَيْرُكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رِيقًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ (١٦) **﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** (١٧) **﴿وَمَكَرَ عَادٌ جَحْدُوا بِكَائِتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** (١٨) **﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَبُوءِ الْقَيْمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بِعَادٍ لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾** (١٩) يقول لهم هود: **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾** عما جئتكم به من عبادة الله

[الحواريين صالح وثمود]

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه، وما كان من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أَنْتَ هَذَا أَتَقْبِدُ مَا يَبْعُدُ أَبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَأَنْتَ أَنْفَى شَيْءٍ مِنَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَبٌ﴾ أي: شك كثير ﴿قَالَ يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَأَنَا أَنذَرُكُمْ إِلَيْهِ وَمَنْ يَشْكُرْ لِي بَشَرًا مِّنْكُمْ أَفَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتوني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ فَصِيمٍ﴾ أي: خسارة.

﴿وَيَقُولُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَنَذَرُهَا تَأْكُلُ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فعزوبها فقال تَمَسُّوْا فِي دَارِكُمْ فَلَمَّا ذَلَّلْنَاهُ أَتَيْنَا ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَهْلُنَا نَبَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمُوا صِنًا وَمَنْ كَفَرَ بِيَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ وأخذ الذين ظلموا الضَّيْبَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُنُودًا ﴿كَانَ لَكُمْ يَتَّبِعُهَا الْآنَ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدُّ لَكُمْ ثَمُودًا﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا اسْكُنْ مَا سَلَمَ فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَمِيمٍ﴾ فلما رآه آيهم لا يقبل إليهم ﴿نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لَّوْطٍ﴾ وأمر الله قايمة فضحكك فبشرنا بإسحاق ومن وراءه إسحق يعقوب ﴿قَالَ يَبْرَأُكَ اللَّهُ إِنِّي مَعَهُ خَشِيعَةً﴾ ﴿قَالَ أَنُفَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

[مجىء الملائكة إلى إبراهيم وتبشيرهم

إياه بإسحاق ويعقوب]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة، ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ﴾ قيل: تبشره بإسحاق وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ بَيِّنَاتٍ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿قَالُوا اسْكُنْ مَا سَلَمَ﴾ أي: عليكم قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَمِيمٍ﴾ أي:

ذهب سريعاً فأثامهم بالضيافة، وهو عجل فتى البقر، حنيذ: مشوي على الرضف وهي الحجارة المحمأة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقادة وغير واحد (١) كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَرَأَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ فَبِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ فقرأه إليهم قال ألا تأكلون (٢) وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ إِلَيْهِمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك لأن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام، ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهم رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلهم ﴿قَرَأَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ فَبِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ فذبحه، ثم شواه في الرضف، وأثامهم به، فبعد معهم. فلما قربه إليهم قال: ألا تأكلون؟ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشئ، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكايل فقال: حق لهذا أن يتخذ به خليلاً ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ إِلَيْهِمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ﴾، يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم، وقامت هي تخدمهم ضحكك، وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعاماً (٣) وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي: قالوا: لا تخف منا، ﴿إِنَّا﴾ ملائكة ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لنهلكهم، فضحكك سارة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، فلهمنا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِهِمْ يَعْزُبُ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد لإسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿وَأَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ومن هنا استدل من استدل لهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فيكف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده؟ ووعده الله

وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوْطًا بِئْسَ يَوْمٌ وَصَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ﴾ (٧٧) ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بِنَارِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ وَأَتَقَوُّوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي الْبَشَرِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ﴾ (٧٨) ﴿قَالُوا لَقَدْ عِوَتْ مَا لَنَا مِنْ نَارِكَ مِنْ حَتَّىٰ رَأَيْنَا لِلنَّارِ مَا يُرِيدُ ۖ﴾ (٧٩)

[مجيء الملائكة إلى لوط وما حصل له من

الضييق وما دار بينه وبين قومه]

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة، بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه، وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام، وهو على ما قيل: في أرض له. وقيل: في منزله. ووردوا عليه، وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله، وله الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم، وضاعت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ﴾ (٧٧) قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه (٧٨) وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له (٧٩) فتضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم، وقال لهم في أثناء الطريق كالعرض لهم بأن يصرفوا عنه: إنه والله: يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك (٨٠).

وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيئتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ وَيَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بِنَارِي﴾ يرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿اتَّقُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ (٨١) وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (٨٢) وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَسْأَلْكَ عَنِ

حق لا تخلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسما عيلاً.

وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبينه والله الحمد. ﴿قَالَتْ يَتْلُوْنَ أَفَلَا يَأْتِيهِمْ هَؤُلَاءِ بَنِي شَيْخَا ۖ﴾ الآية حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى ﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَوفَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۖ﴾ (٨٣) كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعلنهن عند التعجب ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير: ﴿رَحِمْتُ الْوَدَّ وَبَرَكْنَهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۖ﴾ (٨٤) أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود بمجد في صفاته وذاته. ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: ﴿قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۖ﴾ (٨٥).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُهُ الْبَشَرُ يُخَيِّدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۖ﴾ (٨٦) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۖ﴾ (٨٧) ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۖ﴾ (٨٨)

[مجادلة إبراهيم في قومه لوط]

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروح، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ﴾ قال: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا، قال: أرايتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَتُخَيِّطَنَّوْا أَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ ۖ﴾ الآية. فسكت عنهم واطمأنت نفسه (٨٩).

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۖ﴾ (٩٠) مدح لإبراهيم بهذه الصفات الحميلة، وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾ الآية: أي: أنه قد تقدّم فيهم القضاء

(١) فتح الباري: ٦/٤٦٩، ومسلم: ١/٣٠٥.

(٢) الطبري: ١٥/٤٠٣. (٣) الطبري: ١٥/٤١١.

(٤) الطبري: ١٥/٤٠٨. (٥) الطبري: ١٥/٤٠٨.

يرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهدّدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يبتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِمْ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ الآية.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾ (٨٢) ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

[قلب قرية قوم لوط وإهلاكهم]

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَشَقُّهَا مِائِثَةَ﴾ (٨١) أي: أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين. قاله ابن عباس وغيره. وقال بعضهم: أي من «سك» وهو الحجر، «وكل» وهو الطين، وقد قال في الآية الأخرى ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٧) أي: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية. وقال البخاري: سجيل: الشديد الكبير. سجيل وسجين السلام والنون أختان^(٥)، وقال غميم بن مقبل:

وَرَجُلِي يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً

ضرباً توأمت به الأبطال يسجينا
وقوله: ﴿مَنْضُورٍ﴾ (٨٢) قال بعضهم: منضودة في السماء أي: مُعَدَّة لذلك. وقال آخرون: ﴿مَنْضُورٍ﴾ (٨٢) أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمة مختومة عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مطوقة، بها نضج من حمرة^(٦). وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فينأ أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد وقوله:

الْمَلُوكِ ﴿٧٠﴾، أي: ألم تنهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَت لِّى سَكَرْتُمْ بِمَعَهُمْ﴾ (٧٢) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته^(١). وكذا روي عن قتادة وغير واحد^(٢).

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبَإِي﴾ أي: اقبلوا ما أمركم به من الاقتصاد على نساءكم ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (٧٣) أي: فيه خير يقبل ما أمره به، ويترك ما أنياه عنه ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمَا مِن حَقٍّ﴾ أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستهيهن ﴿وَأَنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٤) أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟!

﴿قَالَ لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٧٥) ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُشِدٌ رَبِّكَ لَا نَبْصُلُوا إِلَيْكَ فَنَافِلُكَ يَفْتَقِرُ يَرَى الْبَيْلَ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١)

[عجز لوط وتمنيه القوة وإخبار الملائكة له بالحققة]

يقول تعالى خبراً عن نبيه لوط عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية: أي: لكنك نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رَحِمَهُ اللهُ عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - يعني الله عز وجل - ﴿فَمَا بَعَثَ اللهُ بَهْلَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي قُرُوءٍ مِنْ قَوْمِهِ﴾^(٣). فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليهم، وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُشِدٌ رَبِّكَ لَا نَبْصُلُوا إِلَيْكَ﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم: أي: يكون ساقية لأهله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تؤولكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ قال الأكثرون معناه: أنها لا تسري ولا تذهب معك، بل تبقى في بيتها وتهلك، وقيل: بل معناه: أنها تلتفت.

وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوما! فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف، قد جاؤوا

(١) الطبري: ١٥/٤١٣.

(٢) الطبري: ١٥/٤١٤.

(٣) الترمذي: ٣١١٦.

(٤) الطبري: ١٥/٤٣٤.

(٥) فتح الباري: ٨/٢٠٢.

(٦) نضج من حمرة: أي: أثر وبقية، الطبري: ١٥/٤٣٨.

﴿وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ (٨٧) أي: وما هذه النعمة من تشبه بهم في ظلمهم يبعد عنه، وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلُ قَوْمٍ لَوْ طُفِقُوا الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ» (١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا شِعْيَانًا قَالَ يَقْتُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ (٨٨)

[قصة مدنين ودعوة شعيب]

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدنين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قرياً من معان. بلاداً تعرف بهم يقال لها مدنين، فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: «أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه، بانتهاكم محارم الله ﴿وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ (٨٩) أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَقْتُورُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ﴾ (٩٠) يَقِثُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٩١) ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط، أخذين ومعطين، ونهاهم عن العُتُو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقال أبو جعفر بن جرير: «يَقِثُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ» أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس (٩٢) قال وقد روي هذا عن ابن عباس (قلت): ويشبه: (٩٣) قوله تعالى: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» الآية: وقوله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» (٩٤) أي: بربق ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله - عز وجل - لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله - عز وجل.

﴿قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكِيَ مَا يَعْيُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٩٥)

[جواب قوم شعيب]

يقولون له على سبيل التهكم - قبحهم الله -: «أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكِيَ» أي قراءتك تأمرُكَ أَنْ تَتَّكِيَ

مَا يَعْيُدُ آبَاؤُنَا؟ أي: الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي﴾ فترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: «أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكِيَ مَا يَعْيُدُ آبَاؤُنَا» إي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آبائهم (٩٦) وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي﴾ يعنون الزكاة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٩٧) قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم (٩٨) وابن جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء - قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل (٩٩)

﴿قَالَ يَقْتُورُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَنٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِلَّا أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠٠)

[رد شعيب على قومه]

يقول لهم: هل رأيتم يا قوم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَنٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أَدْعُو إليه ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة وقيل: أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين، وقال الثوري: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه (١٠١) ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: فيما أمركم وأناكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠٢) أي: أرجع. قاله مجاهد وغيره (١٠٣).

﴿وَيَقْتُورُوا بِمَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (١٠٤) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (١٠٥) يقول لهم: ﴿وَيَقْتُورُوا بِمَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم

(١) أبو داود: ٤٤٦٢، والترمذي: ١٤٥٦ وابن ماجه: ٢٥٦١.

(٢) الطبري: ٤٤٧/١٥. (٣) الطبري: ٤٤٧/١٥.

(٤) الطبري: ٤٥١/١٥. (٥) الطبري: ٤٥٣/١٥.

(٦) الطبري: ٤٥٣/١٥. (٧) الطبري: ٤٥٣/١٥.

(٨) الطبري: ٤٥٤/١٥.

[تهذيب شعيب قومه]

لما يش نبي الله شعيب من استجابته له قال: يا قوم! ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أي: طريقكم. وهذا تهديد شديد ﴿إِنِّي عَذِيبٌ عَلَىٰ طَرِيقَتِي﴾ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب أي: مني ومنكم ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا نَجِيِّيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا﴾ وقوله جاثمين أي: هامين، لا حراك بهم. وذكر ههنا أنه أنتهم «صيحة»، وفي الأعراف: «رجفة»، وفي الشعراء: «عذاب يوم الظلة» وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: «أَنْتَ جَنَّتْكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا» ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبشهم وأخذتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيرا دائما، وقوله: ﴿كَانَ لَمْ يَتَوَّافِيَا﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بَعْدَ لَئِيلَيْنِ كَمَا بَدَتِ كُفُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار، وشبيها بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عربا مثلهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَبِينٍ﴾ (١٦) ﴿إِن فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهٖ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرٌ فِرْعَوْنٌ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (١٧) ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْيَقِينَةِ فَاوْرِدَهُمُ النَّارَ وَيَكْسُ الْوُرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (١٨) ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْسُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ (١٩)

[قصة موسى وفرعون]

يقول تعالى خبرا عن إرسال موسى بآياته ودلالته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملته ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى. وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو

صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب. وقال قتادة: ﴿وَيَتَقَوَّرُ لَا يَجُوزُكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقتي (١٦). وقال السدي: عداوتي، على أن عمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني: إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس. وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من سالف الذنوب ﴿ثُمَّ تَوَّأ إِلَيْهِ﴾ فيها تستقبلونه من الأعمال السيئة، وقوله: ﴿إِن رَّبِّي رَجِيمٌ﴾ ودود (١٧) لمن تاب.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَوِيعًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (١٨) قَالَ يَتَقَوَّرُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَخَذَتْهُمُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرَانِ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٩)

[جواب قوم شعيب]

يقولون: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرًا﴾ من قولك، وقال الثوري: كان يقال له: خطيب الأنبياء (٢٠). قال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَوِيعًا﴾ قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك. قيل: بالحجارة وقيل: لسبيناك. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس عندنا لك معزة.

[رد شعيب على قومه]

﴿قَالَ يَتَقَوَّرُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ يقول: أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَ كُمُ ظَهْرَانِ﴾ أي: نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم بها.

﴿وَيَتَقَوَّرُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَذِيبٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَرَتَقُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٢١) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا نَجِيِّيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا﴾ (٢٢) ﴿كَانَ لَمْ يَتَوَّافِيَا أَلَا بَعْدَ لَئِيلَيْنِ كَمَا بَدَتِ كُفُودُ﴾ (٢٣)

الآلهة فلها خسروا في الدنيا والآخرة^(٤).

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ

إِنْ أَخَذَهُ الْيَهُودُ شَرِيدٌ﴾^(١٣)

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة
لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنْ أَخَذَهُ الْيَهُودُ شَرِيدٌ﴾^(١٣)

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِعْهُ»^(٥). ثم قرأ رسول

الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ الآية.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾^(١٤) وما تُوخَّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ^(١٥) يَوْمٌ

يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ^(١٥)

[إهلاك القرى دليل على قيام الساعة]

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين

﴿لَآيَةٌ﴾ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في

الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ

يَقُومُ السَّاعَةِ﴾^(١٦) وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُحْلِكَ

الْقُرْيَانِ﴾^(١٧) الآية. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ

أَي: أولهم وآخرهم كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا

﴿١٧﴾، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾^(١٨) أي: عظيم تحضره الملائكة

ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن

والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا

يظلم شيئاً فقال ذُرُّوا إِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴿١٨﴾ وقوله: ﴿وَمَا

تُوخَّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ﴾^(١٩) أي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها

ولا يتقص منها ﴿يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢٠) أي: يوم

يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا

تَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(٢١) وقال:

﴿وَحَشَرْنَا الْأَنْصَاثَ لِلرَّحْمَنِ﴾، الآية. وفي الصحيحين في

حديث الشفاعة: ﴿وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، ودعوى الرُّسُلِ

يومئذٍ اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ﴾^(٢٢) وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾^(٢٣)

أي: فمن أهل الجمع شقي، ومنهم سعيد كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي

النَّارِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٢٤)، وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده

يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من

حياض ردها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر،

كما قال تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا﴾^(٢٥)

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾^(٢٦) ثُمَّ أَذْبَحْهُنَّ^(٢٧) فَحَشَرَ فَنَاقِثٌ^(٢٨)

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى^(٢٩) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى^(٣٠) إِذْ فِي ذَلِكَ لَعِبَرَةٌ

لِمَنْ يَحْتَسِبُ^(٣١) وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ

النَّارَ وَيَلْسُ الْوُرْدَ الْمَورُودُ﴾^(٣٢) وكذلك شأن المتبوعين

يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ

ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٣)، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة

أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَةً تَأْفَاضِلُونَا

السَّبِيلَ﴾^(٣٤) رَبَّنَا إِنَّمَا ضَعُفَيْنَا مِنَ الْعَذَابِ الآية.

وقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية، أي:

أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ويوم القيامة

بشس الرشد المفرد قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك

لعنتان^(٣٥). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَلْسُ

الرَّيْدَ الْمَرْفُودُ﴾^(٣٦) قال: لعنة الدنيا والآخرة^(٣٧).

وكذا قال الضحاك وقتادة^(٣٨) وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً

يَكْذِبُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرَفُونَ﴾^(٣٩)

وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ

الْمَقْبُوحِينَ^(٤٠) وقال تعالى: ﴿النَّارُ يَمْزَجُوكَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

﴿٤١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ

﴿٤٢﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ

عَالِيَهُمْ^(٤٣) الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا

زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابُعٍ﴾^(٤٤)

[الاتعاذ بالقرى المهلكة]

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أمهم، وكيف أهلك

الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ﴾ أي:

أخبارهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ

﴿٤٥﴾ أي: هالك: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ

عَالِيَهُمْ﴾ أو ثأنهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ مَا نَعْبُدُهُمْ وَلَا أَتَقْنُوهُمْ﴾ لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا

زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابُعٍ﴾^(٤٦) قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير

تحسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك

(١) الطبري: ٤٦٨/١٥. (٢) الطبري: ٤٦٩/١٥.

(٣) الطبري: ٤٦٩/١٥، ٤٧٠. (٤) الطبري: ٤٧٣/١٥.

(٥) فتح الباري: ٢٠٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/٤.

(٦) فتح الباري: ٣٤١/٢، ومسلم: ١٦٩/١.

وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيُخَالِطُونَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُورَةٍ﴾ (١١٠)

[حال السعداء ومصيرهم]

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَيُخَالِطُونَ﴾ أي: فمأواهم الجنة ﴿خَالِطِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكينين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيها هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس (٤).

وقال الضحاك والحسن البصري هي: في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُورَةٍ﴾ (١١٠) أي: غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد (٥) لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة: أن ثم [انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً] بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١١٠) كما قال: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (٢٢) وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُورَةٍ﴾ (١١٠) وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أُمْلَحَ فيُدْبَحُ بين الجنة والنار، ثم يُقال: يا أهل الجنة! خلّدوا فلا موت»، ويا أهل النار! خلّدوا فلا موت» (٦).

وفي الصحيح أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة! إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تمروا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تنأسوا أبداً» (٧).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعَثُ الْمُتُوفَّيُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعَثُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُّوهُمْ نَضِيبُهُمْ غَيْرُ مُتَوَشِّصٍ﴾ (١١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٢) وَإِنْ كَلَّا لَمَا

عن ابن عمر، عن عمر قال: لما نزلت ﴿فَيَنْهَضُ سَعْيُهُ وَسَعِيدٌ﴾ (١١٠) سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عُمَرُ وجرت به الأقلام، ولكن كلُّ مُيسَّرٍ لما خلق له» (١) ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ سَقُوا فَيَنَالُ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١١١) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١١٢)

[حال الأشقياء ومصيرهم]

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١١١) قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق (٢)، لما هم فيه من العذاب، عباداً بالله من ذلك: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السماوات والأرض» وكذلك يقولون: «هو باق ما اختلف الليل والنهار»، «وما سمر ابنا سمر» «وما لألات [العفر بأذناها]» يعنون بذلك كله: أبداً، فخطابهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (٣).

(قلت): ويحتمل أن المراد بـ «ما دامت السماوات والأرض» الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١١٢) كقوله: ﴿النَّارُ مَثْبُوتَةٌ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٣) قيل: إن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين: من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج [من النار] من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله». كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من

(١) الترمذي: ٣١١١. (٢) الطبري: ٤٨٠/١٥.

(٣) الطبري: ٤٨١/١٥. (٤) مسلم: ٢١٨١/٤.

(٥) الطبري: ٤٩٠/١٥.

(٦) فتح الباري: ٢٨٢/٨، ومسلم: ٢١٨٨/٤.

(٧) مسلم: ٢١٨٢/٤.

لَوْ قَسَمْتُمْ رُبَّكُمْ أَعْمَلْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣١﴾

[الشرك ضلال لا شك فيه]

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْذِبُكَ لَهُمْ﴾ المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمُ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ^(١). ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يبيدك ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ^(٢). كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ^(٣) فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكُنَّا لِرِجَالِكُمْ شُرَكَاءُ﴾ ^(٤) فاصبر على ما يقولون ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال: ﴿وَأَن تَكْفُرُوا لَنَا يَوْمَ تُقَامُ سَوَاءُ أَعْمَلْتُمْ أَوْ لَمْ تَعْمَلُوا﴾ ^(٥) أي: عليهم بأعمالهم جميعاً، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها. وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن كُلَّ لَمَّا جُمِعَ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ ^(٦).

﴿فَأَسْتَفْتِمُ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَفْطِنُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٧) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٣٢﴾

[الأمر بالاستقامة]

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنوا. وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ^(١). وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ^(٢) أي: ليس لكم من دونه من ولي يقيذك ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ^(٣) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾

[الأمر بإقام الصلاة]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال يعني: الصبح والمغرب ^(٤) وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٥). وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر ^(٦) ومن آخره وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه: ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء. وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه: ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء. قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ رَزَقْنَا لَيْلًا﴾ ^(٧) والمغرب والعشاء، وكذا قال مجاهد ومحمد ابن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل، قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول الله أعلم.

[إن الحسنات تمحو السيئات]

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً تفعني الله بما شاء أن يتفني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي

(١) الطبري: ٤٩٢/١٥. (٢) الطبري: ٤٩٣/١٥.

(٣) الطبري: ٥٠١/١٥. (٤) الطبري: ٥٠٣/١٥.

(٥) الطبري: ٥٠٣/١٥.

[لا بد من وجود جماعة تنهى عن الفحشاء]

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير يهتدون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَهْتَدُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٩) وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» (٨).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَعْنَا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا يُحْزِمُونَ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا رَأَيْتُكُمْ بَاطِلِينَ لِلْعَمِيدِ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْلَفِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٣).

[ليرجعل الله الإيمان لجميع أهل الأرض]

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمْعًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْلَفِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات ملهمهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾

صدقته، وحدثنني أبو بكر، وصدق أبو بكر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ» (١) وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضع لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «مَنْ تَوَضَّأَ وَضُوءِي، هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَجُودُ فِيهَا نَفْسُهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَابَ أَحَدِكُمْ نَهْرًا غَمَرًا، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا» (٣) وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ» (٤).

وروى البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿وَأَقْرِضْكَ صَلَواتَكَ طَرَفِي الْفَهَارِ وَذُلًا مِّنَ الْإِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» (٥). هكذا رواه في كتاب الصلاة وأخرجه في التفسير بنحوه (٦). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تباعه فأدخلتها الدولج، فأصبت منها ما دون الجراح، فقال: ويحك لعلها مُغَيِّبَةٌ في سبيل الله؟ قال: أجل، قال: فانت أبا بكر فسله. قال: فأتاه فسأله، فقال: لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فَلَعَلَّهَا مُغَيِّبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ونزل القرآن ﴿وَأَقْرِضْكَ صَلَواتَكَ طَرَفِي الْفَهَارِ وَذُلًا مِّنَ الْإِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال: لا ولا نعمة عين، بل للناس عامة، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ» (٧).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَعْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا مُحْزِمِينَ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمُ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٤﴾

(١) أحمد: ٩/١ وأبو داود: ١٨٠/٢، وتحفة الأحوزي: ٣٥٧/٨، والنسائي في الكبرى: ١٠٩/٦، وابن ماجه: ٤٤٦/١.

(٢) فتح الباري: ٣٢٠/١، ومسلم: ٢٦٠١.

(٣) البخاري: ٥٢٨، ومسلم: ٦٦٧.

(٤) مسلم: ٢٠٩/١. (٥) فتح الباري: ١٢/٢.

(٦) فتح الباري: ٢٠٦/٨. (٧) أحمد: ٢٤٥/١.

(٨) ابن ماجه: ١٣٢٧/٢.

جاء فيها قصص حق، ونبا صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١١)
وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتهن ومنهجكم ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا عِبْدُهُ
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣)

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣) أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين. آخر تفسير سورة هود عليه السلام والله الحمد والمنة.

تفسير سورة يوسف

عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّؤْيَا إِنَّا إِلَهُ الْكُتُبِ الْيُسُفُ ١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ هَٰذَا الْقُرْآنُ كَانَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْأَنْفِيلِ ٣﴾

[أوصاف القرآن]

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله: ﴿ذَٰلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو

(١) أحمد: ٣٣٢/٢، وأبو داود: ٤/٥، وتحفة الأحوذى:

٣٩٧/٧، وابن ماجة: ٢/١٣٢٢.

(٢) الحاكم: ١/١٢٩.

(٣) فتح الباري: ١٣/٤٤٤، ومسلم: ٤/٢١٨٦.

رَبُّكَ ﴿أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه ووازره [فنازوا] بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً: «إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاسْتَفَرَّقَ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» (١) رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة (٢).

وقوله: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٣). يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: أُلْوِثْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشْيَاءِ وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَتَقِمُّ بِكَ مِنْ أَشْيَاءِ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّى يُبْشِرَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فَقُولُ قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ» (٤).

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِ ذِكْرًا لِمَنْ يَهْدَىٰ وَرَءَاكَ فِي هَٰذَا الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥)

[الخاتمة]

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أهمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين. كل هذا مما ثبت به فؤادك أي: قلبك يا محمد! ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذَا الْحَقِّ﴾ أي: هذه السورة قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وهو الصحيح يعني في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين،

فيغنون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّكَ أَنَا الَّذِي أَنزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يُردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليستعذ بالله من إلى جنبه الآخر، ولينقل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يتحدث بها أحداً فإنها لن تضره»^(٤) وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عبرت وقعت»^(٥).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٦)

[تعبير رؤيا يوسف]

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبیر الرؤيا^(٦) ﴿وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: يارسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ الْخَلِيلُ﴾ ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٧) أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾^(٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَصَبٌ إِنَّ أَنَا لَنَبِيٌّ مِّمَّنِّ ۖ فَبَيَّنَ ۖ أَفْتَلَا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخَلَ لَكُم بَیْهَ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۖ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْعَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۖ﴾^(٨)

[قصة يوسف وفيها آيات]

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَصَبٌ﴾ أي: حلفوا - فيما يظنون -

القرآن المبين، أي: الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المهمة، ويفسرها ويبينها ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٩) وذلك؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالفوس، فلها أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمثل من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بسبب إيجائنا إليك هذا القرآن.

[سبب نزول هذه الآية]

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١٠).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١١)

[رؤيا يوسف]

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد! في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي^(١٢). وقد تكلم المفسرون على تعبیر هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة. وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره، وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا فِي حَقِّهِ﴾^(١٣).

﴿قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّكَ أَنَا الَّذِي أَنزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ﴾^(١٤) الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ عَذُوبٌ مِّثْلُ ۖ

[أمر والد يوسف بإخفاء الرؤيا حذراً من كيد الشيطان]

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبیرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك،

(١) الطبري: ١٥/٥٥٢. (٢) الطبري: ١٥/٥٥٤.

(٣) الطبري: ١٥/٥٥٧. (٤) مسلم: ٤/١٧٧٢.

(٥) أحمد: ٤/١٠، وأبو داود: ٥/٢٨٣، وابن ماجه: ٢/١٢٨٨.

(٦) الطبري: ١٥/٥٦٠.

والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه، ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إِنَّا أَنَا وَلِيُّ مِثْلِكُمُ الْيَتِيمِينَ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا.

﴿أَقْتُلُوا يُسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم، ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، فأضمرنا التوبة قبل الذنب. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل^(١). وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون الصفا ﴿لَا تَقْتُلُوا يُسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإحياء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصر فهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيبة الحب وهو أسفله. ﴿لَنَلْقَاهُ بَعْضَ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنْتُمْ فَعِلَيْمِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الغاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحييه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله [قيمن] أحبه طفلا صغيرا، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما. رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

﴿قَالُوا يَا أَبَا نَأْسِكُمْ عَلَيْكَ تَأْتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّكْرَمٍ﴾
﴿أَرْسَلَهُ مُنَقَّضًا وَرَتَعُ وَإِنَّا لَكُلِّفُوتُونَ﴾

[استئذان الإخوة بذهاب يوسف]

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿لَا تَأْتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّكْرَمٍ﴾^(١١) وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرْسَلَهُ مُنَقَّضًا﴾ أي: ابعته معنا

(غدا نرتع وتلعب) وقرأ بعضهم بالياء: ﴿رَتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط^(٢)، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم^(٣) ﴿وَإِنَّا لَكُلِّفُوتُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾^(١٢) قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَبِيرُونَ^(١٣)

[جواب الأب]

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يشق عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمال النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾^(١٣) يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه بزميكم وروعكم فيأتيه ذنب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَبِيرُونَ﴾^(١٤) يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إننا إذا هلكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآجَمُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَرْحَبَا إِلَيْهِ لَتَنِتَّنَّهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٥)

[اللقاء يوسف في البئر]

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه، فيما يظهر منه له، إكراما له وبسطا وشرحا لصدوره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعته معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك

(١) الطبري: ١٥/٥٦٤، ٥٦٥. (٢) الطبري: ١٥/٥٧٠.

(٣) الطبري: ١٥/٥٧١.

الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فاصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨) أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَسْلَوْا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْ رَجُلٌ هَذَا مِنْكُمْ وَاسْرُوءْ يَضَنَّةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَمِئْتُونَ﴾ (١٩) وَشَرُّهُ يَمِينٌ يَحْسِرُ دَرَجَتَهُمْ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

[إخراج يوسف من البئر وبيعته]

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سياره، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يطلب لهم الماء - فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿كُتِبَ بُشْرَى هَذَا عَلَيْنَا﴾.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوءْ يَضَنَّةً﴾ يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكنتمو أن يكون أخاهم، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿كُتِبَ بُشْرَى هَذَا عَلَيْنَا﴾ بياح فباعه إخوته (٢١) وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَمِئْتُونَ﴾ (١٩) أي: عليهم بما يفعلوه إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ الْخِطَابُ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذي قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني ساملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرُّهُ يَمِينٌ يَحْسِرُ دَرَجَتَهُمْ مَعْدُودَةً﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمان قليل. قاله مجاهد وعكرمة. والبخس: هو النقص (٢٣)، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ يَحْشَا وَلَا رَهَقًا﴾ (٢٤)

الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمسه، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها: «الراغوفة» فقام فوقها (٢٥).

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَظَرُ﴾ أي: نرىهم هنالك وهم لا يشعرون (٢٦) يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن عما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) وقال ابن عباس: مستبهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك (٢٧).

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (٢٨) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ زُرْعَتَنَا يُوسُفُ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (٢٩) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (٣٠)

[مكر إخوة يوسف مع أبيهم]

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغتمون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيها زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ زُرْعَتَنَا﴾ (٢٨) ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (٢٩) أي: نترامى، ﴿وَزُرْعَتَنَا يُوسُفُ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ (٢٨) أي: ثيابنا وأمتعتنا. ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (٢٨) وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (٢٩) تلتطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابية ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (٢٩) أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سحلة - فيها ذكره مجاهد والسدي وغير واحد - فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها (٣١)، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلها لم يرج هذا الصنيع على نبي

(٢) الطبري: ١٥/٥٧٧.

(١) الطبري: ١٥/٥٧٤.

(٤) الطبري: ١٦/٦.

(٣) الطبري: ١٥/٥٨٠.

(٥) الطبري: ١٦/١٢.

أي: إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى.

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَلَأَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأُبْرَاقَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣)

[حب امرأة العزيز ليوسف ومكيدتها به]

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً، لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تحمِلَ له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، ﴿وَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: منزلي، وأحسن إليّ فلا أقبله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٤) قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقد اختلف القراء في قوله:

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها (١٥) وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم لك بالخورانية. وهكذا ذكره معلقاً (١٦). وقرأ آخرون (هَيْتُ لك) بكسر الهاء والهمز وضم التاء، بمعنى تهبأت لك من قول القائل: هتت بالأمر أيء هتة، ومن روي عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى تهبأت لك. وقرأ عبد الله بن إسحاق: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء. قال أبو عبيد معمر بن المنثري: ﴿هَيْتَ﴾ لا تثنى، ولا تجمع، ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لك، وهيت لكم، وهيت لهن.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ رَيْءٌ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَيْءُ كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٧)

وقيل: المراد بهما بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي

أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دُون قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرُّهُ﴾ عائذ على إخوة يوسف (١٨). وكانوا قد باعوه بأنقص الأثمان، ولهذا قال: ﴿وَدَرَّهْمَ مَعْدُودٍ﴾ فعن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً (١٩)، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي، وزاد: اقتسموها درهمين درهمين (٢٠). وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الَّذِينَ هَدَىٰ﴾ (٢١) وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣)

[يوسف في مصر]

يخبر تعالى بالظافه بيوسف عليه السلام أنه قبض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها. وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿تَكَاتَبْ أَسْتَجِرُّهُ﴾ الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٤). يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿وَكَذَلِكَ مَكَانُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا (٢٥) ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يباينع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد ابن جبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: فعال لما يشاء (٢٦). وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلفه وفعله لما يريد. وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: استكمل عقله وتم خلقه ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٨)

(١) الطبري: ١٦/١٤-١٧. (٢) الطبري: ١٦/١٢.

(٣) الطبري: ١٦/١٤. (٤) الطبري: ١٦/١٩.

(٥) الطبري: ١٦/٢٠. (٦) الطبري: ١٦/٢١.

(٧) الطبري: ١٦/٢٧. (٨) فتح الباري: ٨/٢١٤.

قولها: إنه راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه فيصح ما قالت: ﴿وَأِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْرَمِ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٧) وذلك يكون - كما وقع - لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ فروى عبد الرزاق عن ابن عباس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَبِي مَلِكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا﴾.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال: كان صبيًا في المهد (١٨). وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبيًا في الدار (١٩)، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدْرَمِ دُبُرٍ﴾ أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ إِنَّمِينَ كَذِبُكَ﴾ أي: إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدك ﴿إِنْ كَذِبُكَ عَظِيمٌ﴾ (٢٠) ثم قال أمرًا ليوسف عليه السلام بكتان ما وقع: ﴿يُوسُفُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: اضرب عن هذا صفيحًا، أي: فلا تذكره لأحد.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ﴾ يقول لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك، أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بها هو بريء منه ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢١).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٢) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن مكائد وأتت كل واحدة منهن سيكناً وقالت أخرجن عليهن فلما رأتهن أكبرنهم وقطعن أيديهن وقطن حش لله ما هذا بئراً إن هذا إلا مآك كريمة (٢٣) قالت فذلك الذي لئمتني فيه ولقد رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أمَرُهُ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

(١) البغوي: ٢/ ٢٢٠.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٤٧٣، ومسلم: ١/ ١١٧.

(٣) الطبري: ١٦/ ٤٩. (٤) الطبري: ١٦/ ٥٦.

(٥) الطبري: ١٦/ ٥٤، ٥٥.

عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِذَا هُمْ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوا حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوا بِمِثْلِهَا﴾ (١)، وهذا الحديث خرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها (٢). وقيل: هم بضربها، وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزرجه عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣) أي: من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه (٤).

﴿وَأَسْتَبَقُوا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) قال هي رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْرَمِ دُبُرٍ قَبْلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ (٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْرَمِ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدْرَمِ دُبُرٍ قَالَ إِنَّمِينَ كَذِبُكَ إِنْ كَذِبُكَ عَظِيمٌ (٨) يُوسُفُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٩)

يخبر تعالى عن حالها حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قدًا فظيعًا، يقال: إنه سقط عنه واستمر يوسف هاربًا ذاهبًا، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: فاحشة ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) أي: يضرب ضربًا شديدًا موجعًا. فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمت به من الخيانة، و﴿قَالَ﴾ بآراء صادقة هي رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وذكر أنها اتبعته تحببه إليها حتى قلدت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْرَمِ قَبْلِي﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في

قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء، أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: **«إِنَّا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ»** (٣). قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله **«مَا هَذَا بَشَرًا»** (٤)، **«إِنَّ هَذَا أَلَمَلُكَ كَرِيمٌ»** (٥) قالت: **«فَذَلِكَ الَّذِي لُتْنَتْنِي فِيهِ»** تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يجب لجماله وكماله، **«وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَقَصَمَ»** أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال. ثم قالت تتوعده: **«وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِيَسْجُنَ وَلِيَكُونَ آيِنَ الْصَغِيرَيْنِ»** (٦) فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و**«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»** أي: من الفاحشة **«وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ»** أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلسني إلى نفسي **«أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِينَ»** (٧) فاستجاب الله رؤيته، الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«سَبَّعَ يُظْلِمُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ بِسَلَالَةٍ مَا أَنْفَقَتْ بَيْمَتُهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ»** (٨) ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» (٩).

«قَدْ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَةَ لِيَسْجُزَّهُنَّ عَنْ حَبْنِ» (١٠)

[القرار بسجن يوسف وتنفيذه]

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم

مِنَ الصَّغِيرَيْنِ (١١) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِينَ (١٢) فَاسْتَجَابَ لَهُ رُبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)

[وصول الخبر إلى نسوة المدينة ومكيدتهن بيوسف]

ينجز تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر، حتى تحدث به الناس **«وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ»** مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير ويعين ذلك عليها **«امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ»** أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها **«قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا»** أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَفُ الحب القاتل، والشَّغَفُ دون ذلك، والشَّغاف حجاب القلب **«إِنَّا لَنَرِيهَا فِي صُكْلٍ مُبِينٍ»** (١٤) أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها ومرادتها إياه عن نفسه، **«فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ»** قال بعضهم: يقولن: «ذهب الحب بها»، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسن يوسف، فأحبين أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك **«أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ»** أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن **«وَأَعَدَّتْ لَكُنَّ مَنَازِلًا»** قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه (١٥)، ولهذا قال تعالى: **«وَأَتَتْ كُلٌّ وَجِدَتْهُنَّ يَسْكِنَنَّ»** وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتياهن على رؤيته **«وَقَالَتِ أَمْرُجُ عَلَيْهِنَّ»** وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر **«فَلَمَّا»** خرج **«وَرَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ»** أي: أعظمته أي: أعظم من شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد (١٦)

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأيته جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحزنن في أيديهن، فلما أحسن بالآلم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلنن هذا، فكيف ألام أنا؟! **«وَقُلْنَ خَشَنَ إِلَيْنَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»** (١٧) ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا

(١) الطبري: ٧٢، ٧١/١٦. (٢) الطبري: ٧٦، ٧٨.

(٣) مسلم: ١٤٦/١. (٤) الطبري: ٨٤، ١٦.

(٥) فتح الباري: ١٦٨/٢، ومسلم: ٧١٥/٢.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)، أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٩).

﴿يَصْحَبِي السَّجْنَاءَ أَبَابٌ مَثْفُوفَتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٠) مَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابْنًا وَكُفْرًا مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلْبِمْ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣١)

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدونها قومها، فقال: ﴿أَوْبَابُ مَثْفُوفَتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٢)، أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آفة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشينة والمملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلْبِمْ﴾، أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)، أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٤)، ولما فرغ من دعوتها شرع في تعبير رؤياها فقال:

﴿يَصْحَبِي السَّجْنَاءَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقُ رَبِّهِ خَمْرًا وَآمَّا الْآخَرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٣٥)

[تعبير الرؤيا]

يقول لهما: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنَاءَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقُ رَبِّهِ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعينه ثلثا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت. وروى الثوري عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن عبد الله قال:

يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءة وظهور الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَاءُ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَدْتُ أَخْصِرَ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَدْتُ أَخْصِلَ فَوْقَ رَأْسِي سَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بِنَاءً وَيْلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

[سجنيان يسألان يوسف عن تأويل رؤياهما]

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه (١) ثم إنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِ بِهِ إِلَّا بِنَاءُ ثُكْبَاتٍ وَيْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِغَاءَ وَاسْخَاقٍ وَيَقُوبُ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

[دعوة يوسف السجنيين إلى التوحيد قبل التعبير]

يخبرهما يوسف عليه السلام أنها رؤيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره، يخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِ بِهِ إِلَّا بِنَاءُ ثُكْبَاتٍ وَيْلَهُ﴾. قال مجاهد يقول: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِ بِهِ﴾ في يومكما ﴿لَا بِنَاءُ ثُكْبَاتٍ وَيْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدي (٢). ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِغَاءَ وَاسْخَاقٍ وَيَقُوبُ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾، أي: أوحاه إلينا وأمرنا به. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك

وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة [والحرزة] وكبار دولته وأمره فقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿أَضَعْتُ أَخْلِيكَ﴾ أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِكَلِمَيْنِ﴾ (١٤)، أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها - وهو تعبيرها - فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذنك الفتين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمه - أي مدة - وقرأ بعضهم: (بعد أمه) أي: بعد نسيان، فقال لهم: أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أَنَا أَنْتُمْ كُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل هذا المنام ﴿فَأَرْسَلُونِي﴾ (١٥)، أي: فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاءه [ه] فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك.

[تعبير رؤيا الملك]

فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: يأتاكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي [تُسْتَعْلَم] منها الثمرات والزروع، وهن السنبليات الخضراء، ثم أرشدهم إلى ما [يعتمدونه] في تلك السنين، فقال: ﴿فَأَحْصِدْهُمْ فِدْرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [أقليلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ] (١٧)، أي: مهسا استغلثتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله؛ ليكون أبقى له، وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا، لا تسرفوا فيه، لتتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف الالتي تأكل السبان؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبليات اليابسات، وأخبرهم أنهم لا يبنون شيئًا، وما يلدروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ (١٨)، ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس، أي: يأتهم الغيث وهو

لما قالوا ما قالوا وأخبرهما، قالوا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿فُتِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (١٩) وحاصله أن من تخلم بباطل، وفسره فإنه يلزم بتأويله - والله تعالى أعلم - وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: ﴿الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٌ مَا لَمْ تَعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ﴾ (٢٠).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَيْدَهُ فَلَمَّتْ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ﴾ (٢١)

[قال يوسف للساقى اذكرني عند الملك]

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له: ﴿أَذْكُرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان؛ لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد (٢٢).

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع (٢٣). وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعًا، ويوسف في السجن سبعًا، وعُذِّبَ بختنصر سبعًا (٢٤).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِذْ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أُنْتَوَىٰ فِي رَأْيِي إِنَّ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٢٥) قالوا أَضَعْتُ أَخْلِيكَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِكَلِمَيْنِ (٢٦) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْرِ أَنَا أَنْتُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِي (٢٧) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٢٨) قَالَ تَزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ (٢٩) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصُونَ (٣٠) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْبُرُونَ (٣١)

[رؤيا ملك مصر]

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن، مُعَزِّزًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها

(١) الطبري: ١٠٨/١٦. (٢) أحمد: ١٠/٤.

(٣) الطبري: ١١٣/١٦. (٤) الطبري: ١١٥/١٦.

(٥) الطبري: ١١٤/١٦.

المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا قَلَمًا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبٍ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُمْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

[تحقيق ما جرى بين يوسف وبين امرأة العزيز ونسوة مصر]

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بها أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه، فقال: ﴿أَتُؤْتِي بِهَذَا﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلمًا وعدوانًا، فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الآية. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحاحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ أَخْلُ بِالسُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: «رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى» الآية، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْ طَأْتُ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَيْشْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»^(١)، وفي لفظ لأحمد: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبٍ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لمن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة، ﴿قُلْتُمْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف منها، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ

الْحَقُّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق^(٣) وظهر وبرز، ﴿أَنَارَ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: في قوله ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾. ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إنها اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأن ﴿النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿وَالْغَيْبِ﴾ الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿وَالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواء. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا قَلَمًا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبٍ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُمْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

[مكانة يوسف في عين الملك]

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿أَتُؤْتِي بِهَذَا قَلَمًا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَطَعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبٍ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُمْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

(١) أحمد: ٣٢٦/٢، وفتح الباري: ٢١٦/٨، ومسلم: ١/١٣٣.

(٢) أحمد: ٣٤٦/٢. (٣) الطبري: ١٦/١٣٨.

والسلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصصة، ثم تلتها السبع السنين المجدية، وعمّ القحط بلاد مصر بكاملها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعبائهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام، لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والمملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بها في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

فكان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُ مُشْكِرُونَ﴾، أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهم لم يعرفوه، وأما هو عرفهم، فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قد قمنا للميرة، قال: فلعلكم حيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإئزاهم وإكرامهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾، أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحامهم، قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي ذكرت، لأعلم صدقكم فيما ذكرت ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهَذَا فَكَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ الآية، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ﴿١١﴾ قالوا: سترؤد عنه أباه، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ﴿١٢﴾ أي: سنحرص على

وبصيرة بما يتولاه. وإنا سألته أن يجعله على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَلَا جُرْ إِلَّاخِرَةً خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٤﴾

[حكم يوسف في مصر]

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء ﴿١٣﴾.

وقال ابن جرير: يتخذ منه منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿١٣﴾، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهم أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَلَا جُرْ إِلَّاخِرَةً خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَكُفْيٌ وَحُسْنُ مَّكَارٍ ﴿١٨﴾ والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام، قاله مجاهد.

﴿وَكَاةَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُهُ وَهُمُ لَهُ مُشْكِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ اتَّوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهَذَا فَكَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي ﴿٢١﴾ قَالُوا سَتَرُودُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾

[ورود إخوة يوسف إلى مصر ورجوعهم مع الميرة]

وتعهدهم باتيان أخيه الأصغر]

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه

نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَنَزِدُكَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير.

﴿ذَلِكَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ (٥٥) هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهد والمواثيق ﴿لَأَتُنْفِذَهُ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرين على تخليصه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٥٦) قال ابن إسحاق: وإنسا فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم (٥٧).

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَوْبَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٥٧) ولَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْتُ لَوْلَا كُنْتُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٨)

[أمر يعقوب بنبيه أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة] يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنبيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر: أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس وعمر بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يأنس (٥٩) ﴿إِنْ أَلْحَمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٠) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴿قَالُوا: هِيَ دَفْعُ إصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ﴾ (٦١) وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْتُ لَوْلَا كُنْتُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٣) (٦٤).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْسَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٥)

مجئته إليك بكل ممكن، ولا ينبغي مجهوداً لتعلم صدقتنا فيما قلناه، ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ﴾ أي: غلبانه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحْلَتِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٦) بها، قيل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٧) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَالَهُ حَبْرٌ حَفِظُوا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٨)

[طلبهم من يعقوب أن يذهبوا ببنيامين وجوابه] يقول تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإننا له لحافظون، قرأ بعضهم بالباء أي: يكتل هو ﴿وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٧) أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿سَنَكُونُ أَجْدَا رَبِّكَ وَنَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٩) ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغييونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَالَهُ حَبْرٌ حَفِظُوا﴾ وقرأ بعضهم: (حفظاً) ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٨) أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِغِي أَخَانَا وَنَزِدُكَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ﴾ (٦٩) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَأَتُنْفِذَهُ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٧٠)

[خروج البضاعة من المتاع]

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياها بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي﴾ أي: ماذا نريد؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل (٧١)، ﴿وَنَبِغِي أَخَانَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا

(١) الطبري: ١٦٢/١٦. (٢) الطبري: ١٦٤/١٦.

(٣) الطبري: ١٦٨/١٦. (٤) الطبري: ١٦٨/١٦.

[تسليية يوسف بنيامين]

ينجز تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطف والإحسان، واختل بأخيه فأطلعهم على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ يُوسُفَ لِيُكَلِّمَهُمْ لَسَّرُوا (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾

[جعل صواع الملك في رجل أخيه وحبيه بهذه الحيلة]

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعامًا، أمر بعض فتياته أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد، كان يشرب فيه^(١)، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقنادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد^(٢). وقال شعبة عن أبي بشر، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: صواع الملك - قال - كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك^(٣)، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَتَيْتُهَا آلُ يُوسُفَ لِيُكَلِّمَهُمْ لَسَّرُوا (٧٠)﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ أي: صاعه الذي يكيل به ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ عَمَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخَرَجَهَا مِنْ عَمَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَبَ لِيُؤْثِفَ مَا كَانَ لِأَخِيهِ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مِنْ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، - لأنهم

شاهدوا منهم سيرة حسنة - أنا ﴿مَا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)﴾ أي: ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟﴾ أي: السارق إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله تورية ﴿ثُمَّ اسْتَخَرَجَهَا مِنْ عَمَاءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم والزاما لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ لِيُؤْثِفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخِيهِ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره^(٤)، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مِنْ شَاءَ﴾ كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الآية، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل^(٥). وكذا روى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم. فقال ابن عباس: بشئ ما قلت الله العليم [وهو] فوق كل عالم^(٦). وكذا روى سالك عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم^(٧)، وهكذا قال عكرمة^(٨). وقال قنادة: وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْثِفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ سُرَّ مَكَانًا﴾

(١) الطبري: ١٦/١٧٢.

(٢) الطبري: ١٦/١٧٦.

(٣) الطبري: ١٦/١٩٣.

(٤) الطبري: ١٦/١٩٢.

(٥) الطبري: ١٦/١٩٣.

(٦) الطبري: ١٦/١٩٣.

(٧) الطبري: ١٦/١٩٣.

(٨) الطبري: ١٦/١٩٣.

(٩) الطبري: ١٦/١٩٣.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

[إخوة يوسف اتهموه بالسرقة]

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل - يعنون به يوسف عليه السلام - وقوله: ﴿فَأَسْرَهَا يُوْثِقُ فِي نَقِيْبِهِ﴾، يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، قال العوفي عن ابن عباس ﴿فَأَسْرَهَا يُوْثِقُ فِي نَقِيْبِهِ﴾ قال: أسر في نفسه ﴿أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمِّعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

[اقتراح الإخوة أخذ أحد منهم بدل بنيامين]

والرد على هذا الاقتراح

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون وهو محبة جبا شديداً ويشل به عن ولده الذي فقده ﴿فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ أي: العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمِّعًا عِنْدَهُ﴾، أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ ﴿٧٩﴾، أي: إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿قَلَمَّا اسْتَمْتَعُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَّخِذُ أَبُوكَ سَرَقًا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَيَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

[مشاورتهم ومشورة كبيرهم]

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يشعروا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه

على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو رؤيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتصلوا إليه ويروؤا عما وقع بقولهم وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾ قال قتادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق ^(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَسَيَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر ^(٢)، قاله قتادة ^(٣). وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ فيها أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِلْكَ آيَاتُ يَوْسُفَ وَإِذْ بَصَّصْنَا مِنْهُ الْكُزْنَ فَوُتِحَ لَهُ الْكُتَيْبُ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقَوُّوا تَذَكَّرُوا يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونُوا مَرْضاً أَوْ فَكُونُوا مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

[جواب نبي الله وحاله بعد سماع الخبر المؤلم]

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد ابن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم ترجى

(١) الطبري: ١٦/٢١١، ٢١٢. (٢) الطبري: ١٦/٢١٠.

(٣) الطبري: ١٦/٢١٢.

[إخوة يوسف بين يديه]

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿فَالْوَأْيَاتُهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الْقُتْرُ﴾ يعنون: من الجذب والقحط وقلة الطعام ﴿يُضَعِّعُ مَرْجَحَهُ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد^(٦).

وقوله إخباراً عنهم ﴿فَأَوْفَى لَنَا الْكَيْلُ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود ﴿فَأَوْفَى رِكَابَنَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾^(٧). وقال ابن جريج: وتصدق علينا برء أخينا إلينا^(٨). وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفَى لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(٩) رواه ابن جرير.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(١٠) قالوا لولا أنك لآنت يوسُفُ قال أنا يوسُفُ وهذا أي: قد مرَّ الله علينا إنَّه من بَنِي وَصَيْرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(١١) قالوا تالله لقد عاينك الله علينا وإن كنا لخطيئين^(١٢) قال لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين^(١٣)

[تعرف يوسف إلى إخوته وعفوه عنهم]

يقول تعالى خبراً عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبذره البكاء تعرف إليهم، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(١٤) يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(١٥) أي: إنها حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما

من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبير^(١٦) الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾^(١٧) في أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِيسَى عَلَى يُوْسُفَ﴾ أي: أعرض عن بني، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يُوْسُفَ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين. قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري عن سفيان العُصْفَرِيِّ، عن سعيد ابن جببر أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يُوْسُفَ وَأَيُّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١٨) أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره^(١٩). وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢٠) كتيب حزين^(٢١).

فعند ذلك رقى له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرْ يُوْسُفَ﴾ أي: لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾^(٢٢) يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٣) أي: أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٤) يعني: رؤيا يوسف أنها صدق^(٢٥)، وأن الله لا بد أن يظهرها.

﴿يَتَنَبَّأُ أَذْهَبُوا فَتَخَسَّسُوا يَنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢٦) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الْقُتْرُ وَجِئْنَا بِضَعْفِ مَرْجَحَتِهِ فَأَوْفَى لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(٢٧)

[الامر بتحسس يوسف وأخيه]

يقول تعالى خبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيته على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يأسوا من روح الله، أي: لا يقطع رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

- (١) الطبري: ١٦/٢١٤. (٢) عبد الرزاق: ٢/٢٢٧.
(٣) الطبري: ١٦/٢١٦. (٤) الطبري: ١٦/٢١٨.
(٥) الطبري: ١٦/٢٢٧. (٦) الطبري: ١٦/٢٣٨.
(٧) الطبري: ١٦/٢٣٨. (٨) الطبري: ١٦/٢٤٣.
(٩) الطبري: ١٦/٢٤٢.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ تَقْدِيرَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تسفهون^(٣). وقال مجاهد أيضًا والحسن: تهرمون^(٤). وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَاكٍ أَلْفَكِيدٍ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم^(٥). وقال قتادة: أي: من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ^(٦). وكذا قال السدي وغيره^(٧).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَحْكُمُونَ﴾ قالوا يَا بَنَاتَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِيِينَ ﴿٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

[جاء يهوذا بالقميص بشيرا]

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾ البريد^(٨). وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب^(٩). قال السدي: إنسا جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرا^(١٠). وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنْ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ أَنَّ تَقْدِيرَ﴾^(١١).

[ندامة إخوة يوسف]

فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَتَابَنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِيِينَ﴾ قال سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر^(١١).

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيَّ يُوسُفَ أَوَّحَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَ وَقَالَ ادْخُلُوا بَصْرَانِ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ وَرَفَعَ أَبُويَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَّوْهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَوَلَّىٰ زَمْيَ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَعَلْنَا فِي قَدِّهِ إِذْ أَخْرَجْنَاهُ مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرْغِبَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي

أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأولين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا كَانَ رِسَالَتُ الْبَشِيرِ﴾ أي: أنباء يوسف^(١٢). فعند ذلك قالوا: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَتَّ يُوسُفَ﴾ وقرأ أبي بن كعب: (أَوَلَيْكَ لَأَتَّ يُوسُفَ) وقرأ ابن محيص: (إِنَّكَ لَأَتَّ يُوسُفَ) والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه، فلماذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَتَّ يُوسُفَ﴾ قال أنا يوسف وهذا أحي^(١٣).

وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَا﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة^(١٤). ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قالوا تَأَلَّوْا لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَا الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا وأقروا له بأنهم أسأقوا إليه وأخطأوا في حقه^(١٥). قال لا تُثَرِّبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يقول: أي: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١٦).

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْوَيْلُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنْ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ أَنَّ تَقْدِيرَ ﴿١٧﴾ قالوا تَأَلَّوْا إِنَّكَ لَفِي ضَلَاكٍ أَلْفَكِيدٍ ﴿١٨﴾

[قميص يوسف ووجدان يعقوب ريح يوسف]

يقول: اذهبوا بهذا القميص^(١٧). ﴿فَالْقُوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء^(١٨). ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بجميع بني يعقوب^(١٩). ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْوَيْلُ﴾ أي: خرجت من مصر^(٢٠). ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه^(٢١). ﴿إِنْ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ أَنَّ تَقْدِيرَ﴾ تنسوني إلى الفسد والكبر، روى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنْ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ أَنَّ تَقْدِيرَ﴾^(٢٢). قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام^(٢٣). وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به^(٢٤).

(١) عبد الرزاق: ٣٢٩/٢. (٢) الطبري: ٢٥٠/١٦.

(٣) الطبري: ٢٥٣/١٦. (٤) الطبري: ٢٥٥/١٦.

(٥) الطبري: ٢٥٧/١٦. (٦) الطبري: ٢٥٧/١٦.

(٧) الطبري: ٢٥٧/١٦. (٨) الطبري: ٢٥٨/١٦.

(٩) الطبري: ٢٥٨/١٦. (١٠) الطبري: ٢٥٩/١٦.

(١١) الطبري: ٢٦٢/١٦.

وَتَبَنَ إِخْوَتِي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

[استقبال يوسف أبويه وصدق رؤياه]

يغير تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدمه بلاد مصر - لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر - فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه، وقوله: ﴿وَقَالَ أَذْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ أي: قال لهم بعدما دخلوا عليه وآراهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمين، أي مما كنتم فيه من الجهد والفقر.

وقوله: ﴿ءَاوَيْتُ إِلَيْهِ أَبُوِّي﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: إنما كان أباه وخالته ^(١). وكانت أمه قد ماتت قديمًا ^(٢). وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمّه يعيشان، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق ^(٣). وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سرير ^(٤). ﴿وَوَخَّرُوا لَهُ سُجْدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ يَأْتُوكَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه من قبل، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية، وقد كان هذا سائغًا في شرائعتهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره ^(٥).

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأسافتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيهم يسجدون لأسافتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله! فقال: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْءَ أَنْ تَسْجُدَ لِرُؤْيَاكَ لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا» ^(٦). والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم، ولهذا خروا له سجدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَأْتُوكَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ أي: هذا ما أكل إليه الأمر،

فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ أي: صحيحة صدقًا يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية. قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية ^(٧)، وقال: كانوا يسكنون بالعربيات من أرض فلسطين من غور الشام، ﴿وَمِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَنِي رَبِّ بْنِ إِخْوَتِي إِنَّا رُبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: إذا أراد أمرًا قبض له أسبابًا وقدره ويسره ^(٨)، ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عبادته، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤَفِّي سُلَيْمًا وَالْحَقِيقَ بِالصِّدِّيقِ﴾ ^(٩)

[الدعاء بالاخاتمة على الإسلام]

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه - قاله الضحاك - وأن يحلقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ^(٨)، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» ثلاثًا ^(٩). ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ نُوْحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ^(١٠) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾

(١) الطبري: ١٦/٢٦٧. (٢) الطبري: ١٦/٢٦٩.

(٣) الطبري: ١٦/٢٦٧. (٤) الطبري: ١٦/٢٦٧.

(٥) الطبري: ١٦/٢٦٩. (٦) ابن ماجه: ١/٥٩٥.

(٧) الطبري: ١٦/٢٧٦. (٨) الطبري: ١٦/٢٨٠.

(٩) فتح الباري: ٧/٧٤٣.

[ما سبق من القصص هو من وحي الله]

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من سوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿تُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك، والاعتاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ﴾ ﴿إِذَا جَمَعُوا أَرْثَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحيًا إليك وإنزالًا عليك، كقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْفَيْنِ إِذْ قُضِيَتَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ الْأَثَرِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ﴾ وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ أَهْلَ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَشَاءُ﴾ الآية، يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ آخِرٍ﴾ أي: ما تسألهم يا محمد! على هذا النصيح والدعاء إلى الخير والرشد، من أجر، أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقك ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَكُرُّ الْقَوْلَيْنِ﴾ يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَكَانَيْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهِمَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ الْآلَاءِ تَأْتِيهِمْ سَاعَةً بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[علمهم تفكر الناس في الآيات التي بين أيديهم]

ينجر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السماوات والأرض من كوكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجمال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطحات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم

والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به^(١). وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٢). وفي الصحيح أن المشركين كانوا يقولون في تليتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك^(٣). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٤).

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: ذلك المناق في عمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وشم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد ابن سلمة عن عاصم بن أبي النجود، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرًا فقطعه - أو انتزع - ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وفي الحديث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر^(٥). وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالسَّحَائِمَ وَالتَّوَلَّهَ شِرْكٌ»^(٦)، وفي لفظ لهما «الطِّيرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِثْلُهَا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»^(٧).

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن تأتيهم أمر يغشاهم من حيث

(١) الطبري: ٢٩٢/١٦.

(٢) مسلم: ٨٤٣/٢.

(٣) فتح الباري: ٨/٣٥٠، ومسلم: ٩٠/١.

(٤) تحفة الأخوذ: ١٣٥/٥.

(٥) أحمد: ١/٣٨١، وأبو داود: ٤/٢١٢، وابن ماجه: ٢/١١٦٧.

(٦) أحمد: ١/٣٨٩، وأبو داود: ٤/٢٣٠.

[الأنبياء من البشر لا من الملائكة]

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ الآية، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم^(١). وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُونُ أَلْطَعَامَ وَيَكْشُوكَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ثم صدقهم الوعد فأنجيهم ومن نشأ وأهلكنا المشركين^(٢). وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذي هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً.

[العبرة فيمن سبق]

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسول، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم للعنة ولهم سوء الدار^(٣). وأضاف الدار إلى الآخرة، فقال: ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ﴾ كما يقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس.

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَا يَزِدُّهُمْ بَاسْتِغَاثَ الْفُلُوفِ الْمَعْجِرِينَ﴾

[يُنصِرُ الأنبياء في أحوال الأوقات]

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوال الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلْنَا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُنَا﴾ الآية، وفي قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾

لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿أَقَامِينَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأخذهم في غلغلة ما هم بمعجزين^(٤) أو يأخذهم على غفوة فإن ركبكم لرهوف رجيم^(٥). وقوله: ﴿أَقَامِينَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَاسْتِغَاثَ يَنبَأَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بآسنا ضحى وهم يلعبون^(٦) أقاموا مكر الله فلا يأتون مكر الله إلا القوم الخاسرون^(٧).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ

وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[سبيل الرسول ﷺ]

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين: الإنسن والجن، أمراله أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، وهو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَٰكِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولذار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون^(٨).

[الأنبياء كانوا بشرًا ورجالًا]

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وعليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى خبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿فَتَا الْمَسِيحَ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُنْثَىٰ صَدِيقَةٌ كُنَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقة، فلو كانت نبيه لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كالיום قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً.

ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلماً بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجاب بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه وقال: قرّج الله عنك كما فرجت عني^(٤). وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرهما كذلك، وكذا فسرهما مجاهد بن جبر وغيره واحد من السلف إلا أن بعض من فسرهما كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أي وظن الكفار أن الرسل ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ مخففة فيما وعدوا به من النصر. وأما ابن مسعود، فروى ابن جرير عن تميم بن حذلم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِّبوا بالتخفيف^(٥).

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَئِكَ نَصْذِيقُ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذِي رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

[العبارة لمن اعتبر]

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويخلف ﴿وَلَئِكَ نَصْذِيقُ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمور المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجليلة، وغير الغيوب المستقبلية المجملية، والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهَذِي رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى

قراءتان: إحداهما بالتشديد (قَدْ كُذِّبُوا)، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها. روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة: أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أم (كُذِّبُوا)؟ قالت عائشة: (كُذِّبُوا). قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ عن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك^(١). قال عروة فقلت لها: لعلها قد كُذِّبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره^(٢).

وقال ابن جرير: أخبرني ابن أبي مليكة: أن ابن عباس قرأها ﴿وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خفيفة. قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشرًا، ثم تلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ الْآلَاءُ نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي مليكة، وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أن سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها ﴿وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مثقلة من التكذيب^(٣).

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري عن عبد الله أنه قرأ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره، وعن ابن عباس ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قال: لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك ﴿فَتَنَبَّيْ مِنْ نَّشَأَةٍ﴾.

وروى ابن جرير عن إبراهيم بن أبي [حُرَّة] الجزي قال: سألت فتي من قریش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله! كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾؟ قال: نعم حتى إذا استيسر الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال

(١) فتح الباري: ٨/٢١٧. (٢) فتح الباري: ٨/٢١٨.

(٣) الطبري: ١٦/٣٠٧. (٤) الطبري: ١٦/٣٠٣.

(٥) الطبري: ١٦/٣٠٤.

عام، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية. وقوله: ﴿يَعْرِىَ عَمَدُ تَرُونَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى^(١). وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني: بلا عمد^(٢). وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق^(٣)، والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرُونَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

[الاستواء]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يُمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

[تسخير الشمس والقمر وجريانها]

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنها يجريان إلى انقطاعها بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وقيل: المراد إلى مستقرها وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنها وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحلة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنها أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مع أنه صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْحَقُّ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وقوله: ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾

السداد، ويتنغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح الميضة وجوهم الناضرة، ويرجع المسودة وجوهم بالصفقة الخاسرة. آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام والله الحمد والمنة وبه المستعان.

تفسير سورة الرعد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[القرآن كلام الله]

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقد مر أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى يَذِيرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوَّابُونَ﴾

[بيان كمال قدرة الله]

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي يذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل يذنه وأمره وتسخيرها رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسما الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاً وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسما الدنيا وما حوت، وبينها من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة

الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ» (٢).

وقوله: «يَسْتَقِي بِمَاءٍ وَجِدٍ وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ» عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ «وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ» قال: «الْدَقْلُ، وَالْفَارِسِيُّ، وَالْحُلُوءُ، وَالْحَامِضُ» (٣) رواه الترمذي وقال: حسن غريب، أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وهذا في غاية المرارة، وهذا عفص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (٤).

«وَأَن تَتَجَبَّ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَحْنُ جَدِيدٌ أَوَّلَتِكَ الْآيَاتُ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْدَىٰ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٥).

[إنكار الحياة بعد الممات عجيب]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: «وَأَن تَتَجَبَّ» من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعرفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: «أَوَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَحْنُ جَدِيدٌ» وقد علم كل عالم وعافل أن خلق السباع والارض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فلا إعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

لَهُم لِقَاءَ رَبِّكُم تَوْفِيقٌ» (٦) أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه بعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

«وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (٧) وفي الأرض قطع متجوزات وحبثت من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يستقى بماء وجِدٍ وتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (٨).

[آيات الله في الأرض]

لما ذكر تعالى العلم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ» أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها ببجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجدول والعيون، يسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» أي من كل شكل صنفان «يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ» أي جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشية هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (٩) أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.

وقوله: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ» أي: أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد (١٠). ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله: «وَجَبَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ» أي: يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون «وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ» مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منها طائفة من الأئمة.

وقوله: «صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ» الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر

﴿وَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧)

[طلب المشركين الآية والرد عليهم]

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا آيتنا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتصوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي إنسا عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَسَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ولكل قوم داع^(١) كقوله: ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٨)، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد^(٢).

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَضِيحُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْدُدُ وَكُلُّ مَثْقَلٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عليه القَبِيلُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)

[عالم الغيب هو الله]

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْهَمُ بِكُرِّ إِذَا نَسَأَ كُرِّ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْشَأَ جَنَّةً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) وفي الصحيحين عنه ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ

السَّعِيدُ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَبْقَ يَخْلُقْهُنَّ بِمَقْدَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٥) ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَغْنَاهُمْ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٦) أي ما يكون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون. ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسِّنَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمُتْلُثُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٧)

[استعجال الكفار بالعذاب]

يقول تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿بِالسِّنَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (١) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢) مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ (٣) وقال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ (٤) الأيمن، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (٥) وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (٦) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا وَاللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا بِعَيْنِكَ﴾ الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون [من الرسول] أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُتْلُثُ﴾ أي قد أوقعنا نعمنا بالأُمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن انتظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿وَلَوْ تَوَاسَّوْا لَأَخَذَ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧) وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) وقال: ﴿تَبِعْ عِبَادِيَ أَقْبَىٰ أَنَا أَلْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩) وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٢٠) إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

الذي وسع سمعه الأصوات، والله! لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُ فِي ذَوْجِهَا وَنَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَائِكَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ (١). وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتَيْلٍ﴾ أي ظاهر مختفي في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضياؤه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْفِرُونَ يَأْتِيهِمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُثُ عَنْ زَيْكٍ مِنْ مُنْقَالٍ ذَرْوٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝﴾ (٢).

[الملائكة الحفظة]

وقوله: ﴿لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكتابتان، كما جاء في الصحيح: «يَتَعَقَّبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَحْتَسِبُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَُلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَُلُّونَ» (٣).

وروى الإمام أحمد رحمه الله عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِيبُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِيبُهُ

سَعِيدٌ» (١). وفي الحديث الآخر: «فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْتَى؟ أَيُّ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ» (٢).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَقَاتِلُخُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَنْ يَأْتِي الْمَطَرُ، أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَنْ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ» (٣) وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾ يعني: السقط، ﴿وَمَا تَزَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيب والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى (٤).

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَمَّْا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُّوهُمَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ» (٥) الحديث بتمامه. وقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُعْتَالِ﴾ أي على كل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝﴾ (٦) وقهر كل شيء، فخفضت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَسْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝﴾ (١) لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ مَا يُقَوْمُ حَتَّى يَغْفِرَ مَا يَنْفُسُهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ۝﴾ (٣)

[علم الله محيط بكل ظاهر وخفي]

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّزُلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِّرَ وَخَفَى ۝﴾ (١) وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْشِرُونَ ۝﴾ (٢)، قالت عائشة رضي الله عنها: سبحة

(١) فتح الباري: ٤٨٦/١١ ومسلم: ٢٠٣٦/٤.

(٢) فتح الباري: ٤٨٦/١١ ومسلم: ٢٠٣٨/٤.

(٣) فتح الباري: ٢٢٥/٨ (٤) الطبري: ٣٥٩/١٦.

(٥) فتح الباري: ٥٠٢/١١.

(٦) البخاري: ٧٣٨٥ والنسائي في الكبرى: ١١٥٧٠ وابن ماجه:

١٨٨ والطبري: ٥٠/٢٨.

(٧) فتح الباري: ٤٢٦/١٣.

مِنَ الْمَلَائِكَةِ» قالوا: وإياك يا رسول الله؟

قال: «وإِيسَى، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(١)، انفرد بإخراجه مسلم^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يجوبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا قَبُرُوا حَتَّىٰ يَبْعُثُوا مَا بُيِّنُوا».

«هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ»^(٣) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ»^(٤)

[السحاب والبرق والرعد والصواعق من قدرة الله]

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء^(٥). وقوله: «خَوْفًا وَطَمَعًا» قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، «وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ»^(٦) أي: ويخلقها منشاءً جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض قال مجاهد: السحاب الثقال الذي فيه الماء^(٧)، قال: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» كقوله: «وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

وروى الإمام أحمد عن إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي! وسع [له] فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ، فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال له الشيخ: سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّطْقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحْكِ»^(٨) والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد وضحكها البرق. وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً، ولا آسن منه منطقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

[الدعاء عند الرعد]

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(٩). ورواه الترمذي والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه^(١٠). وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض. ورواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب^(١١).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ: لَوْ أَنَّ عِبِيدِي أَطَاعُونِي لِأَسْقِيَتُهُمُ الْمَطَرُ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَّا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»^(١٢). وقوله تعالى: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ» أي: يرسلها نعمة ينتقم بها من يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس أن أريد بن قيس بن جزء بن جليل بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل ابن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فأنشأ إليه وهو جالس فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا عمدا ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ وَلَا لِقَوْمِكَ، وَلَكِنَّ لَكَ أَعْنَةَ الْخَيْلِ» قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله ﷺ: «لَا»، فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يَمْنَعُكَ اللَّهُ»، فلما خرج أريد وعامر، قال عامر: يا أريد! أنا أشغل عنك حمداً بالحديث فاضربه

(١) أحمد: ٤٠١/١. (٢) مسلم: ٢٨١٤.

(٣) الطبري: ٣٨٧/١٦. (٤) الطبري: ٣٨٨/١٦.

(٥) أحمد: ٤٣٥/٥. (٦) أحمد: ١٠٠/٢.

(٧) تحفة الأحوذى: ٤١٢/٩ والأدب المفرد: ١٨٧ والنسائي في الكبرى: ٢٣٠/٦ والحاكم: ٢٨٦/٤.

(٨) الموطأ: ٩٩٢/٢ والأدب المفرد: ٧٢٤.

(٩) أحمد: ٣٥٩/٢.

غير الله ﴿كَبِشِطَ كَفَيْهِ إِلَى آتَمَاءٍ يَبْلُغُ فَأَهْ﴾ . قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يتاله أبداً بيده ، فكيف يبلغ فاه؟ ^(٦) . وقال مجاهد: ﴿كَبِشِطَ كَفَيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ^(٧) . ومعنى هذا الكلام: أن الذي يسبط يديه إلى الماء؛ إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد كما أنه لا يتنفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره ، لا يتفعلون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَوَظَلَّتْ لَهُمْ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَصَالُ﴾ ^(٨)

[كل شيء يسجد لله]

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه ، الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين ﴿وَوَظَلَّتْ لَهُمُ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي البكر ^(٩) ﴿وَالْأَصَالُ﴾ وهو جمع أصيل ، وهو آخر النهار ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَارٍ وَيَنْفَعُوا ظِلَّهَا﴾ الآية . ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَأَعْبُدْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَدْعُونَ لِقَائِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ^(١٠)

[إثبات التوحيد]

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسهم ولا لعبادها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً ، أي لا تحصل لها منفعة ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من رب ، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجمع

بالسيف ، فإن الناس إذا قتلوا محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب ، فنعطيهم الدية ، قال أريد: أفعُل ، فأقبلا راجعين إليه ، فقال عامر: يا محمد! قم معي أكلمك ، فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار ، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه ، وسل أريد السيف ، فلما وضع يده على السيف بيست يديه على قائم السيف ، فلم يستطع سل السيف ، فأبطأ أريد على عامر بالضرب ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أريد وما يصنع ، فأنصرف عنها ، فلما خرج عامر وأريد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالبحر - حرة واقم - نزلا ، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فقالا: اشخصا يا عدوي الله لعنكم الله ، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكاتب ، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم ، أرسل الله على أريد صاعقة فقتلته ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخرم أرسل الله قرحة فأخذته ، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول ، فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول غلة كغلة الجمل في بيت سلولية ، يرغب أن يموت في بيتها ، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً ، فأنزل الله فيها: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ دَالٍ﴾ ^(١١) قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ ثم ذكر أريد وما قتله به ، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية ^(١٢) [وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري مختصراً ٤٠٩١].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ^(١٣) قال ابن جرير: شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه ، وعتا وتمادى في كفره ^(١٤) . وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ^(١٥) فأنظر كيف كانت عاقبة مكرهم أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ^(١٦) وعن علي عليه السلام وهو شديد الحال ^(١٧) أي شديد الأخذ ^(١٨) .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَوْتَى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبِشِطِ كَفَيْهِ إِلَى آتَمَاءٍ يَبْلُغُ فَأَهْ وَهُوَ يَبْلُغُهُ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ^(١٩)

[تمثيل عجز آلهة المشركين]

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَوْتَى﴾ قال التوحيد ^(٢٠) ، رواه ابن جرير . وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَوْتَى﴾ لا إله إلا الله ^(٢١) . ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية ، أي: ومثل الذين يعبدون آلهة

(١) الطبراني: ٣٧٩/١٠ - ٣٨١ . (٢) الطبري: ٣٩٤/١٦ .

(٣) الطبري: ٣٩٦/١٦ . (٤) الطبري: ٣٩٨/١٦ .

(٥) الطبري: ٣٩٨/١٦ . (٦) الطبري: ٤٠٠/١٦ .

(٧) الطبري: ٤٠٠/١٦ .

متاعاً، فإنه يعلوه زيد منه كما يعلو ذلك زيد منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي إذا اجتماعاً لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة، ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسف الرياح، وكذلك خبت الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه، ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهُمُ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١٧) وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١٧).

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ وهو الشك، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ وأما ما ينتفع النَّاسُ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك (١).

[أمثلة الماء والنار موجودة، في الكتاب والسنة]

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ آلِ يُودَ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَهَسَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ يُمْطَرُ ثُمَّ وَعَدَ وَرَقٌ﴾ الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين: أحدهما قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانَهُمْ كَمَرٍ﴾ الآية، والسراب إنسا يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً. ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَطُلُمُوتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ الآية (١).

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

هؤلاء المشركون مع الله آلهة تنظر الرب وتمائله في الخلق، فخلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابه شيء، ولا يماثل ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون مع آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْتِيَ لَّهُ﴾، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَتَرِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٧) ﴿أَقْدَحَصْنَهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا﴾ (١٨) ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (١٩) فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل مجرد الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزرهم عن ذلك وتناههم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَطْلُبُ لَكُمْ أَحَدًا﴾ (٢٠).

﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جِلْدٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَرٍ يَصْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١٧)

[مثلاً لبقاء الحق وفناء الباطل]

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفناؤه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زيد عالٍ عليه، هذا مثل.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جِلْدٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل

(١) الطبري: ١٦/٤١٠.

(٢) فتح الباري: ٨/٩٨ ومسلم: ١/١٦٨.

[لا يستوي المؤمن والكافر]

يقول تعالى لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَكَمَلَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يبتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انفاد له ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَنَنْتَعِلُكُمْ أَنَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كُنْ هُوَ أَعْرَبُ﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ وَلَا يَقْتُضُونَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ﴾ والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاجَ رَوْحِهِمْ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدُورُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمُ عِبَادِي الدَّارِ ﴿١٢﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا وَفَعَلَ عَقْبِي الدَّارِ ﴿١٤﴾

[أوصاف السعداء التي تؤدي إلى الجنة]

يقول تعالى مخبراً عن انصف هذه الصفات الحميدة بأن لهم عاقبة الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ وَلَا يَقْتُضُونَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد

(١) فتح الباري: ١/٢١١ ومسلم: ٤/١٧٨٨.

(٢) أحمد: ٢/٣١٢.

(٣) فتح الباري: ١١/٣٢٣ ومسلم: ٤/١٧٩٠.

قال: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَلِيلٌ الْمَاءِ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَسْكَبَتِ الْمَاءَ، فَفَتَحَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا، وَرَعَوْا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْحَانٌ لَا تُنْبِتُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» ^(١) فهذا مثل ما في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهْذِهِ الدُّوَابُّ - التي يَتَعَنَّى فِي النَّارِ - يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجَرُهُنَّ وَيَغْلِبُهُنَّ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - : فَلِلَّكُمْ مَثَلِي، وَمَثَلُكُمْ أَنَا أَجِدُ يَحْجَرُكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» ^(٢) وأخرجه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري ^(٣).

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءَ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ

[جزاء السعداء والأشقياء]

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الْحَسَنُ﴾ وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿أَنَّمَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا﴾ ^(١) وَأَمَنْ آمَنَ وَحَمِلَ صَلِيحًا قُلُوبَهُ، جَزَاءُ الْحَسَنَى وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُبَشِّرُ ^(٢)، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَدُنِّي أُولَئِكَ لَمْ يَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ^(٣) ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَئِكَ هُمْ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة. أي: يناقشون على التقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: ﴿وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ

﴿أَفَنَنْتَعِلُكُمْ أَنَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كُنْ هُوَ أَعْرَبُ﴾

﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ ^(١٤)

سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَتَقَامُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ
وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ يَقُولُونَ: إِنَّمَا كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُقَتَّى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ
وَخَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً - قَالَ -: فَتَأْتِيهِمُ
الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١).

﴿وَالَّذِينَ يَقْسُومُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ
أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢)

[أوصاف الأشقياء التي تؤدي إلى اللعنة وسوء الدار]
هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم في الآخرة،
ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا
بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله،
ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَقْسُومُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾
كما ثبت في الحديث: «أَبَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا
وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوْتِيَ خَانَ» (٣). وفي رواية: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»
وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» (٤)، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي
الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥) وهي سوء العاقبة
والمال، ﴿وَمَا أُوْتِيَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَقَدْ لَهَا بِرُءُوسٌ مُكَدَّةٌ﴾ (٦).

﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٧)

[السعة في الرزق والقتر بيد الله]

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء،
ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح
هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدرأجا لهم
وإمهالاً، كما قال: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ مُزِينٍ ﴿٥٥﴾
نُكْرًا لَهُمْ فِي الْغَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ثم حقر الحياة الدنيا
بالنسبة إلى ما آخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة،
فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٦١﴾﴾، كما قال: ﴿قُلْ
مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلُمُونَ قِيْلًا﴾. وقال:
﴿بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٢﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٦٣﴾﴾ وروى
الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ:

والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم
القاصرة والمتعدية ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن
المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل، ابتغاء
مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها
وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي
المرضي ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: على الذين يجب عليهم
الإنفاق لهم من زوجات وقربات وأجانب من فقراء
ومحاييج ومساكين ﴿مِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي في السر والجهر، لم
يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف
النهار ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون القبيح
بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً
وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
يَكِينُكَ وَيُنَبِّئُكَ عِندَ وَجْهِكَ وَهُوَ حَصِيمٌ ﴿٢١﴾ وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الذُّوْخُ حَظِيْعٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، ولهذا قال خبراً عن
هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى
الدار، ثم فر ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة،
أي جنات إقامة يخلدون فيها.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي يجمع
بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو
صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم حتى إنه
ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً
من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْمَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا
ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تغد عليهم
الملائكة مسلمين، مهتئين لهم بما حصل لهم من الله من
التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين
والأنبياء والرسل الكرام. وروى الإمام أحمد رحمه الله عن
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«قُلْ تَذَرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ خَلَقَ اللهُ؟» قالوا: الله
ورسوله أعلم. قال: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ خَلَقَ اللهُ الْفُقَرَاءُ
الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُقَتَّى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ
أَحَدُهُمْ وَخَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً فيقول الله تعالى
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ أَتَوْهُمْ فَحَبَّوْهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ

(١) أحمد: ٢/١٦٨. (٢) فتح الباري: ١/١١١.

(٣) فتح الباري: ١/١١١.

[بيان طوبى]

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ (١) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فرح وقرّة عين (٢). وقال عكرمة: نعم ما لهم (٣). وقال الضحاك: غبطة لهم (٤). وقال إبراهيم النخعي: خير لهم (٥). وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً (٦). وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ حسنى لهم (٧)، ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها.

وروى البخاري ومسلم جميعاً عن سهل بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا» قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقني، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسِيرُ الرَّائِبُ الْجَوَادَ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا» (٨).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْحَبِيطُ إِذَا أُذْخِلَ فِي الْبَحْرِ» (٩). الحديث بطوله، وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبي حاتم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ (١٠)

وَمَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَبْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجَعُ» وأشار بالسبابة (١١). ورواه مسلم في صحيحه (١٢). وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك: الصغير الأذن، فقال: «وَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَىٰ أَهْلِهِ حِينَ الْقَوَّةِ» (١٣).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (١٤) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (١٥) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ (١٦)

[طلب المشركين الآيات والرد عليهم]

يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: ﴿بَلْ تَفْتَحْ لَهُم بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ﴾ (١٧)، ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أي: هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجيبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تَنْفِي الْآيَاتِ وَالنَّذِرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨) وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٩) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَأَ الْأَعْدَابُ الْأَلِيمَ﴾ (٢٠) وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوْفُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَبَلَا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (٢١)، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه.

[طمأنينة قلب المؤمن بذكر الله]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٢) أي هو حقيق بذلك.

(١) أحمد: ٢٢٨/٤. (٢) مسلم: ٢١٩٣/٤.

(٣) مسلم: ٢٩٥٧. (٤) أحمد: ٢٤٢/١.

(٥) الطبري: ٤٣٥/١٦. (٦) الطبري: ٤٣٥/١٦.

(٧) الطبري: ٤٣٥/١٦. (٨) البغوي: ١٨/٣.

(٩) الطبري: ٤٣٥/١٦. (١٠) الطبري: ٤٣٥/١٦.

(١١) البخاري: ٦٥٥٢ ومسلم: ٢٨٢٧.

(١٢) مسلم: ١٩٩٤/٤.

[القصد من إرسال النبي ﷺ تلاوة ما

أوحى إليه ، والدعوة إليه]

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لَتَتْلُوا عَلَيْهِمْ آلِئِذٍ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من الرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ﴾ الآية ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّنْ قَبْلِكَ فَانصَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا وَحَىٰ إِلَيْهِمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأُمُورِ سُلَيْمٌ﴾ (٢١) أي: كيف نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا: ما نندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة (١)، والحديث في صحيح البخاري (٢). وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ» (٣) «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقرر له بالربوبية والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» أي في جميع أموري، «وَالْيَهُ مَتَابُ» أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُ﴾ بل لله الأمر جميعاً أفلم يأتين الذين أمموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبتهم دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف اليمين (٢١)

[فضل القرآن ووجود الكفار]

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان

هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به، جاحدون له ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل الله فلا هادي له، ومن يهدي الله فلا اله من مضل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّقَتْ عَلَىٰ دَاوُدَ الْوَرَاءَةُ فَكَانَ بِأَمْرٍ يَدَّابِتُهُ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدِّهِ» (٤) انفرد بإخراجه البخاري (٥).

والمراد بالقرآن هو الزبور. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا «أَنَّ لِرَبِّكَ إِشَاءً اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا» فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لم ينزل الله على جبل لرأيه خاشعاً متصدعاً من خشية الله وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَأَرَجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦)، معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

وقوله: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل (٧)، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٨) وقال: «أَفَلَا يَرْجِعُونَ أَنَا نَاقِي

(١) الطبري: ٤٤٦/١٦. (٢) فتح الباري: ٣٩٠/٥.

(٣) مسلم: ١٦٨٢/٣. (٤) أحمد: ٣١٤/٢.

(٥) فتح الباري: ٢٤٨/٨. (٦) فتح الباري: ٦١٩/٨.

(٧) الطبري: ٤٤٧/١٦.

﴿يَعْلَمُ الْإِثْرَ وَأَخْفَى﴾ (٧) وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٨) أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعا لنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكفاء بدلالة السياق عليه هو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿فَلَسَوْهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَوَكَّلُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول (٩). وقال الضحاك وقتادة: يبطل من القول (١٠)، أي إنها عبدتم هذا الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتوها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا آتَمَّ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (١١) ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه أثناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ الآية، ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه: أنه لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقال: ﴿إِنْ تَحْزَنْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ (١٢).

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحُورِ وَالْذُنُوبِ وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَافٍ﴾ (١٣) ﴿سَلِّ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَرَجَاتٌ وَظَلُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (١٤)

[بيان عقاب الكفار وجزاء الأبرار]

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَهُمْ

الْأَرْضُ نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٥). قال قتادة عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلْ قَرْيَاتٍ مِنْ دَارِهِمْ﴾ أي الفارعة (١٦) وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿تَضَيُّعُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ قال: عذاب من السواء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلْ قَرْيَاتٍ مِنْ دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةً﴾ أي نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسوله بالنصرة لهم ولا تباعدهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْزَنْ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ بَعْدَهُ رُسُلَهُ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (١٩).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ بَعْدَهُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾

كَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٢٠)

[تسليية لرسول الله ﷺ]

يقول تعالى مسلما لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ بَعْدَهُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخلة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأملت لهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا﴾ (٢١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ﴾ (٢٢) وفي الصحيحين: ﴿إِنَّ اللَّهَ كُنِيَ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُمْ بَغْلُهُ﴾ ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الشَّرَّ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَ بِرِيسٍ شَدِيدٍ﴾ (٢٣).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فَلَسَوْهُمْ أَمْ تَتَوَكَّلُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٤)

[لا اشتراك بين الله وبين آلهة المشركين بوجه من الوجوه]

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَرِثَتُهَا وَبَيَّضَتْهَا وَسَوَّدَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢٥) وقال: ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (٢٦) وقال:

(١) الطبري: ٤٥٩/١٦.

(٢) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤.

(٣) الطبري: ٤٦٦/١٦. (٤) الطبري: ٤٦٦/١٦.

(٥) الطبري: ٤٦٧/١٦.

والنسائي^(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ هُتُورٌ كَثِيرَةٌ ۖ لَا تَمْلِكُونَ عَنْهَا شَيْئًا وَلَا تَسْمَعُونَ ۚ﴾ (٣٢) وقال: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ ظُلُومُهَا نَذِيلًا ۚ﴾ (٣٣) وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤).

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بدأ بذكر النار بعده: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤).

أيفرح الصادقون من أهل الكتاب

بما أنزل على محمد ﷺ

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلْلٌ ۚ﴾ (٣٤).

(١) مسلم: ١١٣١/٢. (٢) فتح الباري: ٢/٢٧١ ومسلم: ٢/٢٦٦.

(٣) مسلم: ٢٨٣٥. (٤) أحمد: ٤/٣٦٧.

(٥) الطبري: ١٦/٤٧٤.

عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ أَي بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ۚ أَي الْمَذْخَرُ مَعَ هَذَا الْحَزَنِيِّ فِي الدُّنْيَا ۚ ﴿أَشَقُّ ۚ﴾ أَي مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(١) وَهُوَ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ، وَذَلِكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارِ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوِثَاقٌ لَا يَتَصَوَّرُ كِتَافَتَهُ وَشِدَّتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۚ وَلَا يُؤْنِسُ وَفَاةً أَحَدًا ۚ﴾ (٣٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۚ﴾ (٣٦) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ۚ وَإِذَا أَلْفَوْا وَتَهَا كَانُوا صَافِقًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ (٣٧) لَدَعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا ۚ وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۚ (٣٨) قُلْ أَذَلَّكَ حَتَّى أَمَرَ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۚ (٣٩) وَهَذَا قَرْنٌ هَذَا يَقُولُهُ: ﴿فَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ أَي صِفَتُهَا وَنَعْمَتُهَا ۚ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ أَي: سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلًا يَفْجَرُونَهَا وَتَفْجِرُهَا، أَي يَصْرِفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا، قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ ۚ الْآيَةُ ۚ﴾.

وقوله: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ أَي فِيهَا الْفَوَاكِهُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ لَا انْقِطَاعَ وَلَا فَنَاءَ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعَّمْتَ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أُرَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهَا لَأَكَلْتُ مِنْهَا مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»^(٢).

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا» وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يُبُولُونَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ، وَيُلْهَمُونَ التَّنْسِيخَ وَالْتَقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ ۚ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عَقْبَةَ، سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مَائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْجِنَاحِ وَالشَّهْوَةِ». قَالَ: إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ أَذَى؟ قَالَ: «تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ فَيَضُمُّ بَطْنَهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ

كلها بالقرآن الذي أنزل الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وقال مجاهد: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنها لا يتغيران^(٢١). وقال منصور: سألت مجاهداً، فقلت: أ رأيت دعاء أحدنا يقول:

اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في

الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء؟ فقال: حسن: ثم

لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك فقال: ﴿إِنَّا

أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ بُرُكَّتْ﴾ الآية، قال: يقضي في ليلة القدر ما

يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير^(٢٢).

وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحه

واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما

تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب^(٢٣). رواه ابن جرير، وروى نحو من هذا عن عمر بن الخطاب وابن مسعود، ومعنى هذه

الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما

يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان

قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقَ بِالدُّنْبِ

بُصِيئَةٍ، وَلَا يَزِدُّ الْقَدْرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ»،

ورواه النسائي وابن ماجه^(٢٤). وثبت في الصحيح أن صلة

الرحم تزيد في العمر^(٢٥). وفي حديث آخر: «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لَيَتَنَلَّحَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢٦) يقول: هو الرجل يعمل

الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلالة،

فهو الذي يمحو، والذي يثبت، الرجل يعلم بمعصية الله، وقد

كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، وهو الذي

يثبت^(٢٧). وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى: «فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٢٨).

(١) فتح الباري: ٥/٩، ومسلم: ١٠٢٠/٢.

(٢) الطبري: ٤٧٩/١٦، (٣) الطبري: ٤٨٠/١٦.

(٤) الطبري: ٤٨١/١٦، (٥) أحمد: ٢٧٧/٥، وابن ماجه: ٩٠.

(٦) مسلم: ٢٥٥٧، (٧) الطبري: ٤٨٣/١٦.

(٨) القرطبي: ٣٣١/٩.

الْكِتَابَ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، الآية، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنِثُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾ أي إنما بعثت عبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس ﴿وَالَيْهِ مَقَابِلُ﴾^(٢٩) أي مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك

للمرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن حكماً عربياً، شرفناك به، وفضلناك على من

سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣٠). وقوله:

﴿وَكَيْفَ أَتَّبَعْتُ أَقْوَاءَهُمْ﴾ أي: أراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ﴾

أي: من الله سبحانه ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾^(٣١)

وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما

صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ

لِرُسُلِي أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(٣٢) يَمَحُوا اللَّهُ

مَا يَشَاءُ وَيُنِثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٣٣)

[الأنبياء كانوا بشرًا]

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا أو يأكلون الطعام، ويمشون في

الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا له أزواجاً

وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا

بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:

«أَنَا أَفْصُومٌ وَأَنْطَرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣٤).

[ليس لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله]

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل

إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(٣٥) أي: لكل مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها،

وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرٌ﴾^(٣٦).

[معنى محوما في الكتاب وإثباته]

﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ منها، ﴿وَيُنِثُ﴾ يعني: حتى نسخت

﴿وَيَنْصُرُكُمْ﴾ أي: ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي حسي الله، هو الشاهد علي وعليكم. شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٣) قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، قاله مجاهد (٣). وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى (٤)، وقال قتادة: منهم ابن سلام وسليمان وقيم الداري (٥).

والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَفَسَّاحَتْهَا لِلَّذِينَ يَنْفَقُونَ زُقُوتَ الزُّكَاةِ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِهَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٣) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ الْأُمِّيِّ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الآية: وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٣) الآية، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

آخر تفسير سورة الرعد، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة إبراهيم

- عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُوا عَاجِلَ أَوْلِيَّتِكَ فِي سَبِيلِ تَعْدِيلِ (٣)

[التعريف بالقرآن ومقصوده والويل لمن خالفه]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء،

﴿وَيَنْصُرُكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥)

[على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب]

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَيَنْصُرُكُمْ﴾ يا محمد، بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنتكال في الدنيا ﴿أَوْ تَوَقَّيْتُمْ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٥) أي: حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٦) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ (٧) إِلَّا مَنْ قَوْلِكَ وَكَفَرُوا (٨) فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩) إِنَّا إِنَّمَا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ثُمَّ إِنَّا عَرَّبْنَاهُمْ (١٠) وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أننا فتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض (١١). وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين (١٢). كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾ الآية.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٣) عَقَى الدَّارِ (١٤)

[مكر الكفار وفلاح المؤمنين]

يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَكْرُؤُهُمْ لَكُمْ وَمَكْرُؤُهُمْ لَكُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا ذَا مَرْتَبَتِهِمْ وَقَوْمُهُمْ جَمْعِينَ﴾ (١٧) الآيتين، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله. (وسيعلم الكفار)، والقراءة الأخرى: ﴿الْكُفْرُ﴾ (لَمَنْ عَقَى الدَّارِ) (١٤) أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٧)

[كفى الله ومن عنده علم الكتاب شهيداً برسالة النبي ﷺ]

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ

(١) الطبري: ١٦/٤٩٣. (٢) الطبري: ١٦/٤٩٤.

(٣) الطبري: ١٦/٥٠٢. (٤) الطبري: ١٦/٥٠٢.

(٥) الطبري: ١٦/٥٠٣.

وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيفضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجُودًا وَطُحُورًا، وَاجْتَلَيْتُ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّقَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَقُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُعْتَقُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

[قصة موسى وقومه]

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: أمرناه قائلين له ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بآياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيئ، لعلهم يذكرون، صبار، أي: في الضراء، شكور أي في السراء، كما قال قتادة:

نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر^(٣). وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ

على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ مَنَاسِكَتًا لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَبِآيَاتِنَا رَبِّيهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾، أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره. وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتيان صفة للجلالة، فقولته تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَرْبِقُونَ عِوَجًا﴾ أي: ويجنون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاقلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُفْهَمَ فِيمَا نُفِصِلُ اللَّهُ مِنْ نِّشَاءٍ وَيَهْدَى مِنْ نِّشَاءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[كل نبي أرسل بلسان قومه لتكون

الهداية أو الضلال بعد تبيينه]

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، وقوله: ﴿فِيُفْصِلُ اللَّهُ مِنْ نِّشَاءٍ وَيَهْدَى مِنْ نِّشَاءٍ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان،

(١) فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١.

(٢) الطبري: ٥٢١/١٦. (٣) الطبري: ٥٢٣/١٦.

مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ
وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُنُمْ وَجِئْتُكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي،
فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا
كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَخْرُ^(١) فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيِّ
الْحَمِيدِ.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَمُودُودٍ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾^(٢)

[تَكْذِيبُ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ وَمَا دَارِيْنَهُمْ]

خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فالله تعالى قد قص
علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة
لِلرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل ﴿جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات
القاطعات. وقال ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، عن
عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كذب
النسابون^(٣). وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف
ما بعد معد بن عدنان^(٤).

[تفسير: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾]

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل معناه: أنهم
أشاروا إلى أفواه الرسل بأمرهم بالسكوت عنهم لما دعواهم
إلى الله عز وجل. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم
تكديبا لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب
الرسول. وقيل معناه: عضوا عليها غيظا. وقال مجاهد وعمر
ابن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم
بأفواههم^(٥). قلت: ويؤيد مجاهد تفسير ذلك بستانم
الكلام ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾^(٦) وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام
الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم^(٧)، ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به،

صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ^(٨).
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ
أَنْفُسَكُمْ وَيَسْتَأْذِنُونَ فِيسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(٩) وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ لَمِنْ شَكْرَتِهِ
لَا زَيْدٌ لَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١٠) وَقَالَ مُوسَى إِنَّ
تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَفَتَى حَمِيدٌ^(١١)

يقول تعالى مخبرا عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله
عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا
يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون
من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من
ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾^(١٢) أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك
، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها وقيل: وفيما كان يصنعه
بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار
عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله
تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ وَالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(١٣)
وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ﴾ أي: آذنتكم وأعلمكم بوعده
لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم بركم وآلى بعزته
وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ لَمِنْ شَكْرَتِهِ
لَا زَيْدٌ لَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾^(١٤)

وقوله: ﴿لَمِنْ شَكْرَتِهِ لَا زَيْدٌ لَكُمْ﴾ أي: لمن شكرتم
نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي:
كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾^(١٥)
وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في
الحديث: ﴿إِنَّ الْعَبْدَ لَيُخْرَمُ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ بُصِيَّةً﴾^(١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
فَإِنَّ اللَّهَ لَفَتَى حَمِيدٌ ﴾^(١٧) أي: هو غني عن شكر عباده، وهو
الحميد الم محمود وإن كفره من كفره، كقوله ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴾^(١٨) وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ

فيما يرويه عن ربه عز وجل: ﴿اللَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ
وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُنُمْ وَجِئْتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبٍ وَرَجُلٍ وَاحِدٍ
مِنْكُمْ، مَا رَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ
وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُنُمْ وَجِئْتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبٍ وَرَجُلٍ وَاحِدٍ

(١) مسلم: ٤/٢٢٩٥. (٢) أحمد: ٥/٢٨٢.

(٣) مسلم: ٤/١٩٩٤. (٤) الطبري: ١٦/٥٢٨.

(٥) القرطبي: ٩/٣٤٤. (٦) الطبري: ١٦/٥٣٤.

(٧) الطبري: ١٦/٥٣٣.

فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَيْءٌ فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْشَأَ بِشْرُنَا رَبُّدُونَ أَنْ نَبْدُوكَ عَمَّا كَانَتْ يَتَعَبُ أَوَّلَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

[المجادلة بين الأنبياء والكفار]

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسولهم من المجادلة، وذلك أن أهمهم لما واجههم بالشك فيما جاءهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفَى اللَّهِ شَيْءٌ﴾ أي: ألي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَفْتُوا رَبِّيكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى رَبِّكُمْ مَعَكُمْ مَتَعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول.

[عدم اعتراف الكفار برسالة الرسل لأجل أنهم بشر]

وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنْشَأَ بِشْرُنَا رَبُّدُونَ﴾ أي: كيف تتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: خارق نفترحه عليكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي صحيح إنسا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: وما يمنعا من التوكل عليه، وقد هداانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي: من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ رَبِّهِمْ جَهَنَّمَ وَرُسُلِي مِنْ مَاءٍ صَافٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٍ وَمِنْ رَبِّهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

[تهديد الأمم رسولهم وتبشير الله لهؤلاء الرسل]

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسولهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولما آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ الآية. وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلِفُوكَ يَخْلِفُكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعاوناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرفقه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وكما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كُنْهَاتَ لِبَادَاتِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْمَصْرُورُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ وَلَنْ جُنْدَنَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٨١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا بِاللَّهِ وَأَصْدَرُوا مِنْكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَرْزُقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَغْنَوْنَ مِنْكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبُهَا أَلَيْهَا بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْعَقُونَ فَرَعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٨٤﴾﴾

وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال عمرو ابن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق^(٦).

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ جَمُوعُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾^(٧) ومعنى كلام ابن عباس رحمه الله أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ زُرِّيهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾^(٨) أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾^(٩) طلعها كأنة رؤوس الشياطين^(١٠) فأنهم لا يكون منها فقالون منها البطون^(١١) ثم إن لهم عليها لشونا من حبيبر^(١٢) ثم إن مرجعهم لآلٍ للجم^(١٣) فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عيادا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(١٤) يقولون بيننا وبين جحيم ما^(١٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَجْنَمِ﴾^(١٦) كأنهم ليقولون في البطون^(١٧) كغلي الجحيم^(١٨) خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم^(١٩) ثم صبوا فوق رؤسهم من عذاب الجحيم^(٢٠) ذق إنك أنت العزيز الكريم^(٢١) إن هذا لما كشد يده مترون^(٢٢)، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمَانِ مَا أَصْحَابُ الْيَمَانِ﴾^(٢٣) في سورة تيميم^(٢٤) وظل من يحبور^(٢٥) لأبار ولا كبر^(٢٦) وقال تعالى: ﴿هَذَا وَرَأْسُكَ لِلظَّالِمِينَ لَسْرَ مَتَابٍ﴾^(٢٧) جهنم تصلونها قبلها كالمهاد^(٢٨) هذا ليدوقوه جحيم وعساق^(٢٩) وآخرون من شكبه أرواح^(٣٠) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصى إلا الله عز وجل جزاء

أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾^(٣١) وَأَمَّا تَرْتِجُوهُ الدُّنْيَا﴾^(٣٢) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٣٣) وقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقادة^(٣٤). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها^(٣٥) كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَقُّ مِنْ عِزِّكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ افْعَلْ بِعَذَابِ آلِيسَ﴾^(٣٦) ويحتمل أن يكون هذا مرادا وهذا مرادا، كما أنهم استفتحوها على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَمَا وَخَرْتُمْ لَكُمْ﴾ الآية، والله أعلم، ﴿وَعَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٣٧) أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي جَهَنَّمُ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٣٨) تَنَالُ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيدٍ﴾^(٣٩) الذي جعل مع الله إليها عارا فالقيام في العذاب الشديد^(٤٠) وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهمهم يوم القيامة، فتناوي الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد»^(٤١) الحديث. أي خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِنْ زُرِّيهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيهَةٍ فَغَضِبَا﴾^(٤٢) وكان ابن عباس يقرؤها: (وكان أمامهم ملك)، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها خلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَوفِيٍّ﴾^(٤٣) أي في النار، ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ جحيم وعساق﴾^(٤٤) وآخرون من شكبه أرواح^(٤٥) وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم^(٤٦).

يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(٤٧) ويقول: ﴿وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾^(٤٨) الآية، وهكذا رواه ابن جرير^(٤٩).

وقوله: ﴿يَنْجَرَعُهُ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهرا وقسرا لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ﴾^(٥٠) ولا يكاد يُسِفُّهُ﴾ أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه

(١) الطبري: ٥٤٤، ٥٤٥. (٢) الطبري: ١٦/٥٤٥.

(٣) الترمذي: ٢٥٧٣، ٢٥٧٤. (٤) الطبري: ١٦/٥٤٨.

(٥) الطبري: ١٦/٥٤٩. (٦) الدر المنثور: ٥/١٦.

(٧) الدر المنثور: ٥/١٦.

وَقَالَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ

أَصْلُكُمُ الْيَوْمَ﴾.

[مثل لأعمال الكفار]

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم

القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون

أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما

يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدرُوا على

شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرُونَ على

جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا

عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مِّنْهُنَّ﴾، وقوله

تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

ضَرْبٌ أَصَابَتْ حَرَّتْ قُوَّةَ ظُلُمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

وَلَكِنِ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ

النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ

فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَّهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا

كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله في هذه

الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَصْلُكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي سعيهم وعملهم

على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما

كانوا إليه ﴿ذَلِكَ هُوَ أَصْلُكُمُ الْيَوْمَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ

يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

[برهان الحياة بعد الممات]

يقول تعالى خبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة

بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس،

أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها

واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت

والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات،

وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري

وصحاري، وقفار وبحار، وأشجار ونبات، وحيوان على

اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ

اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ

مُجَسِّدًا مِّثْلَهُ بَلْ يَخْلَقُ مَا يَشَاءُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ

يَرَ الْإِنسَانَ إِذَا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وَصَرَّبَ

لِنَاسٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَجَعَلَ لَكُمُ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكِبُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ مِنْهُ نُفُودٌ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ

الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدُوهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِئَلَّا تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ وقوله:

﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

بِعَزِيزٍ ﴿٩٠﴾ أي: بعظيم ولا يمنع بل هو سهل عليه إذا خالفتكم

أمره أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم كما قال:

﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ أَمْثَلُ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إِنْ

يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٩١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٩٢﴾

وقال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مَسَدِدًا يَصْدُبُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ

﴾ وقال: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ﴾ وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ

وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٠﴾.

﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْفَتَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ

لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَىٰ سُوءٍ أَبَدْنَا لَكُمُ الْمَوْتَ مَا لَنَا مِن مَّحْصٍ﴾ ﴿١١﴾

[مجادلة التابعين والمتبوعين من أهل النار]

يقول تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها برّها

وفاجرها لله الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من

الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فَقَالَ

الصُّعْفَتَانِ﴾ وهم الأنواع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿وَالَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة

الرسول، قالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: مهبا أمرتمونا

اثتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي

فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا

ونحنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ مَدِينَةً

وَلَكِن حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ قَدَرُ اللَّهِ

وحقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٦١) أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَكَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَضِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ (٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٨) وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لَا وَلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتَنَهُمْ عَذَابُ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِينَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٩) وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٣٧) رَبَّنَا آتِنَاهُمْ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ (٣٨) وَأَمَا تَحْصَاهُمْ فِي الْحِشْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْتُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٤١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدُكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِكَ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ (٤٣) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِنْسِ وَالنَّهَارِ إِذَا تَوَلَّوْنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْبَوْنَا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٤)﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

[خطاب إبليس أتباعه واعتذاره إليهم يوم القيامة]

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغيباً إلى غيبتهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّكَ

اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٣٠)﴾، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتهم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أي: بنافعي بإنقاذي عما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل (١). وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل (٢). وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذْ أَخْبَرْنَا النَّاسَ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾.

وقوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل، لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَلِيِّينَ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال: ويقوم إبليس - لعنه الله - فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية (٣). ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأبين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكين أبداً لا يحولون ولا يزولون

(٢) الطبري: ١٦/٥٦١.

(١) الطبري: ١٦/٥٦٤.

(٣) الطبري: ١٦/٥٦٢.

كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها الشريان. رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل (٥) وقوله: ﴿اجْتَنَّتْ﴾ أي: استوصلت ﴿مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٦) أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٧)

[تثبت المؤمن بالقول الثابت في الدنيا والآخرة]

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» (٦) ورواه مسلم أيضاً وبقيّة الجماعة كلهم (٧).

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ يَبْسُخُ الوُجُوهَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ - قَالَ -: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ، كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ

﴿يَاذِنْ رَبِّهِمْ يَخِيتُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (١٣) كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَقِيحَتْ أَقْبُوهَا وَقَالَ لِمَ خَزَنَتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٤) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وقال تعالى: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا بَحِيرَةً وَسَلَامًا﴾ (١٥). وقال تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سَمِيعَةٌ اللَّهُمَّ وَيَخِيتُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ رَاجِحٌ دَعْوَاهُمْ أَنْ لِحْمَدُكَ لِلرَّبِّ الْفَلَوَيْتَ﴾ (١٦).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١٧) تَوَقَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ ﴿يَاذِنْ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٨) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (١٩)

[مثل كلمة الإسلام وكلمة الكفر]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٠) يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء (١). وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد (٢). إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء.

وروى البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَسْحَاقُ وَرَقُهَا صَيِّفًا وَلَا شِئَاءَ، وَتَوَقَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا (٣).

وعن ابن عباس ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة (٤). وقوله: ﴿تَوَقَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ قيل: غدوة وعشياً، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿يَاذِنْ رَبِّهَا﴾ أي:

(١) الطبري: ١٦/٥٦٧. (٢) الطبري: ١٦/٥٧٢، ٥٧٣.

(٣) فتح الباري: ٨/٢٢٨. (٤) الطبري: ١٦/٥٧٣.

(٥) الطبري: ١٦/٥٦٩. (٦) فتح الباري: ٨/٢٢٩.

(٧) مسلم: ٤/٢٢٠١ وأبو داود: ٥/١١٢ ونحفة الأحوذى:

٨/٥٤٧ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٧٢.

وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِيهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي، يَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ يَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي، يَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ يَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي، فَيَنَادِي مُتَاوٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتْنِنُ الرِّيحِ، يَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسْؤُوكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، يَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ نَجِيءٌ بِالنَّارِ، يَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثُ، يَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١)، ورواه أبو داود وابن ماجه^(٢).

وروى الإمام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِيهِ يَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَتَانِي الْمُؤْمِنُ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»، قال النبي ﷺ: «فَبَرَأَهُمَا جَمِيعًا»، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ويملا عليه خصرًا إلى يوم القيامة^(٣)، ورواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب^(٤).

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَنَّهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَوْ زَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: مُنْكَرٌ وَالْآخَرُ نَكِيرٌ، يَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ يَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، وَيُؤْوَرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَسَمُ، يَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، يَقُولَانِ: نَسَمُ نَوْمَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُمْ، لَا أَذْرِي، يَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا،

(١) أحمد: ٤ / ٢٨٧.

(٢) أبو داود: ٥٤٦ / ٣ والنسائي: ٧٨ / ٤ وابن ماجه: ٤٩٤ / ١.

(٣) المنتخب لعبد بن حميد: ١١٧٨.

(٤) مسلم: ٢٨٧٠ والنسائي: ٩٧ / ٤.

مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْخَةٍ مِنْكَ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُونُ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي - عَلَى مَلَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ يَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يَسْمُونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُ فَيُسَبِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَأْتِي مِنْهَا خَلْقُهُمْ وَبِهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِيهِ يَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، يَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ يَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، يَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ يَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، يَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟ يَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُتَاوٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ - قَالَ -: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِبْهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، يَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَشْرُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، يَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالْخَيْرِ، يَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، يَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْفِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُحُ، فَيَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ، يَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الْحَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ - قَالَ -: فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ السُّوحِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَبِفَةٍ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُونُ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْحَبِيثَةُ؟ يَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْجَسِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يَسْمَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ ابْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، يَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرُقُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾^(٥)، فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ،

(٧)

واحد من السلف

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَ الْقَرَارَ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٠﴾ ﴾

[مصير من بدل نعمة الله كفراً]

قال البخاري: قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ البوار: الهلاك، بار بيور بوراً، ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو بن عطاء. سمع ابن عباس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال: هم كفار أهل مكة (٨).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (١٨) قال: هم كفار قريش يوم بدر (٩)، وقال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيثار فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. والمعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٢٠) أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إلينا كما قال تعالى: ﴿ نَعِظُكُمْ إِنَّكَ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (٢١) وقال تعالى: ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّكُمْ رَجَعْتُمْ إِلَى نُزُلِكُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧).

﴿ قُلْ لِيَسَاءَ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَتَذَكَّرُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَاءَ لِقَوْمِهِمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُدُ ﴾ (٢٣)

يَقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيَجَّى عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعْدَبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ (١) ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ - قَالَ - ذَلِكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَيَنْبِئُ مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ (٢). وروى ابن جرير عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَلِمْتَ لَيْسَمْعَ خَفَقَ نِعَالُكَ حِينَ تَوَلَّوْنَ عَنْهُ مُذِيرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصُّومُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عِنْدَ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيَقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ قَدْ مُتَلِّكٌ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْمَرْوَبِ، فَيَقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ، فَيَقُولُ: دَعْنِي حَتَّى أَصَلِّيَ، فَيَقَالُ لَهُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ، فَيَقُولُ: وَهَمْ نَسْأَلُوكَ؟ فَيَقَالُ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَادَا يَقُولُ بِهِ، وَمَادَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أَتَحْمَدُ؟ فَيَقَالُ لَهُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيَقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتْ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُسَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَرَاكَ غِيظَةً وَشُرُورًا، ثُمَّ يُجْعَلُ تَسْمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَبْرٌ خُضِرَ تَعْلَقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيَعَادُ الْجَسَدُ إِلَى مَا بُدِئَ مِنَ التُّرَابِ»، وذلك قول الله: ﴿ يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (٣). رواه ابن حبان فذكر جواب الكافر وعذابه (٤). وروى عبد الرزاق عن طواس ﴿ يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر (٥)، وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيبشهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ في القبر (٦). وكذا روي عن غير

(١) الترمذي: ١٠٧١. (٢) الطبري: ٥٩٦/١٦.

(٣) الطبري: ٥٩٦/١٦. (٤) ابن حبان: ٤٥/٥.

(٥) عبد الرزاق: ٣٤٢/٢. (٦) الطبري: ٦٠٢/١٦.

(٧) الطبري: ٦٠٢/١٦. (٨) فتح الباري: ٢٢٩/٨.

(٩) الطبري: ٦١٧/١٧.

[الأمر بالصلاة والإنفاق]

يقول تعالى أمراً بعباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي: في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿يَنْقُلْ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ (٢١) أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَئِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَخْلُ﴾ قال ابن جرير: يقول ليس هناك محالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، والخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلاناً فأنما أخاله محالة وخلالاً^(١).

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من بخال، وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه^(٢). قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفَعُوا يَوْمًا لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣١) وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٢). ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَائِكَ لِيَجْريَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأنْهَارَ﴾ (٣٣) ﴿لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٤) ﴿وَمَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ كَيْلٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَطْلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٥).

[بيان نعم الله العديدة]

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان

والأشكال والطعوم والروائح والمنافع. وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي: يسيران، لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١٠)، ﴿يَغْشَى الَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١) فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾، ﴿يَكُونُ الَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١٢).

وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَيْلٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول: هيا لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْنِيٍّ، وَلَا مُودَعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا»^(٣). وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء الشكر المنعم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنِّي أَضِلُّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٦).

[دعاء إبراهيم عندما أسكن إسماعيل مكة]

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام بمكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة تبرا ممن عبد غير الله، وأنه دعا مكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ

(٢) الطبري: ١٢/١٧.

(١) الطبري: ١٢/١٧.

(٣) فتح الباري: ٤٣٩/٩.

جبر وغيره: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم^(٣)، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون وقوله: ﴿وَأَرْزَقَهُمْ مِنْ الشَّعَرِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وإد غير ذي زرع فاجعل له ثابراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُخَيِّجُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى وَمَا تَعْلَمُ مَا نَعْتَصِرُ﴾ وَمَا نَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى خبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى وَمَا تَعْلَمُ مَا نَعْتَصِرُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقياً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تين له عداوته لله عز وجل ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجازهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْزَنْكَ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَسْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ

(١) مسلم: ١/١٩١.

(٢) يفيد بل يصرح حديث البخاري رقم: ٣٣٦٤ أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء حينما جاء مكة لأول وهلة وترك بها إسماعيل رضيعاً.

(٣) الطبري: ١٧/٢٦٢، ٢٦٣.

اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ﴿٣٨﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴿٣٧﴾ وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً.

وقوله: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَابْتَئِ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ من عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعْبُدُونَنِي فَأَتِمُّوا عِبَادَتَكُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٣٨﴾﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك. عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أُنَادِيكَ كَافِرًا مِنْ الْنَّاسِ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعْبُدُونَنِي فَأَتِمُّوا عِبَادَتَكُمْ﴾ الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللَّهُمَّ أُنِّي، اللَّهُمَّ أُنِّي، اللَّهُمَّ أُنِّي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبيحك؟ فأنابه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال: فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمك ولا نسوؤك^(١).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه^(٢) تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرماً لئتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن

إِمْهَالُ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ]

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٥٥) ﴿أَي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر﴾ (٥٦) ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً فَمَا تَتَنَّبَهُ الْأَنْدَرُ﴾ (٥٧) ﴿وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن [ابن دايل] أن علياً عليه السلام قال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُقُنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٥٨) قال: أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشببا، قال: فأوثق رجل كل واحد منهما بوتر إلى تابوت وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب، قال: فصبوب العصا، فصبوبا فهبطا جميعا، قال: فهو قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُقُنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٥٩) قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾. وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصبوب الرماح فصبوب النسور، ففرغت الجبال من هدها، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُقُنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٦٠) ﴿٥٥﴾. نقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها (لترزول منه الجبال) بفتح اللام الأولى وضم الثانية. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُقُنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٦١) ﴿٥٦﴾ يقول: ما كان

يقول تعالى: ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون، أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم همل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عداً ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِیهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٦) أي: من شدة الأحوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿ثُمَّ طُفِّیْعُونَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ طُفِّیْعِينَ إِلَى النَّارِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿یَوْمَیْذٍ یُنْفِیْثُونَ النَّارَ لَا عِوَجَ لَهَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَعَسَى الْأُجُورُ لِلْحَىِّ الْقَبُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿یَوْمَ یُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ یَزَافًا﴾ الآية. وقوله: ﴿ثُمَّ نُنْفِیْ رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم ﴿لَا یَبْزُدُ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: أبصارهم طائفة شاخصة يديمون النظر، لا يطفرون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَقْبَدَهُمْ هَوَاءً﴾ (٤٧) أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجاعة: إن أمكنة أفتدتهم خالية؛ لأن القلوب لدى الخناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ
أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ
(٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
وَنَبِّئْ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ
(٤٥) الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَلَإِن كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْوَلُوا مِنْهُ لَجَالًا ﴿٤٦﴾

[لا مهلة بعد مجيء العذاب]

يقول تعالى خبراً عن قِبل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجُوبُ دَعْوَتِكَ وَتَسْتَجِبَ أَلْرُّسُلُ﴾ كقوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلَهِكُمُ ءَأْمُورُكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى خبراً عنهم في حال محشرهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُخْمِرُونَ تَأْكُمُوهَا رَبُّوهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ هُمْ عَلَى النَّارِ فَيَقُولُوا لَوْلَا نُنْزِلُهَا رَبَّنَا﴾

(١) الطبری: ٣١، ٣٢ / ١٧. (٢) الطبری: ٣٤ / ١٧.

(٣) الطبری: ٣٦/١٧. (٤) الطبری: ٣٩/١٧.

(٥) الطبری: ٣٩/١٧.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
الْإِقْدَارِ﴾ (١٧) يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَلَسْمَوَاتٌ وَبَرَزُوا
لِلَّهِ الْأَرْجَاءُ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته ولا يغالب، وذو انتقام من كفر به وجحدته ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَسَّرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ تَبْصَاءُ عَقَرَاءَ كَقَرْصَةِ النَّقْيِ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ» (٣).

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «عَلَى الصَّرَاطِ»^(٤). رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٥).

[أحوال المجرمين يوم القيامة]
 يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾
 وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم
 الذين أجزموا بكفرهم وفسادهم ﴿مُتَّقِرِينَ﴾ أي: بعضهم إلى
 بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى
 صنف، كما قال تعالى: ﴿اٰخِثِرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَاٰزِفٰهُمْ﴾ وقال:
 ﴿وَإِذَا الثُّوَسُ زُوِجَتْ ﴿٧﴾﴾ وقال: ﴿وَإِذَا الْفُؤَا مِنْهَا مَكْنٰتُهَا
 ضَبِقًا مُّقْرَرِينَ دَعَوْا هٰنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾﴾ وقال: ﴿وَاللَّيْطِينَ﴾

(١) الطبري: ٤١/١٧. (٢) الطبري: ٤١/١٧.

(٣) فتح الباري: ١١/٣٧٩ ومسلم: ٤/٢١٥٠.

(٤) أحمد: ٦/٣٥.

(٥) مسلم: ٢١٥٠/٤ وتحفة الأحوزي: ٥٤٨/٨ وابن ماجه

.143. / 2

(٦) مسلم: ٣١٥.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ زُبْرًا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا
وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

[يتمنى الكفار في وقت ما أن لو كانوا مسلمين]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.
وقوله تعالى: ﴿زُبْرًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، إخبار عنهم
أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا
في الدنيا مسلمين. وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل،
عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿زُبْرًا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) قال: هذا في الجهنمين إذا
راوهم يخرجون من النار (١). وروى ابن جرير أن ابن عباس
وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿زُبْرًا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) يتأولانها يوم يحبس الله أهل
الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم
المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال:
فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول:
﴿زُبْرًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) (٧).

وقوله: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا﴾ تهديد شديد لهم
ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَسْتَعْتَبُونَ فَإِنْ مَصِيبٌ كُنْتُمْ
أَلَنَارِ﴾ (٣) ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَتَسْتَمْتَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٤)
ولهذا قال: ﴿وَيَلْهَهُمُ الْأَمَلُ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ﴾ (٥) أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا قَرْيَةً إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٦﴾
تَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٧﴾﴾

[لكل قرية أجل معلوم]

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها
وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم

(١) الطبري: ٥٤، ٥٣/١٧. (٢) الطبري: ٥٦/١٧.

(٣) الطبري: ٥٦، ٥٥/١٧. (٤) أحمد: ٣٤٢/٥.

(٥) مسلم: ٦٤٤/٢. (٦) الطبري: ٦٢/١٧.

(٧) الطبري: ٦٢/١٧.

﴿لَبَّاءُ وَتَوَاصٍ﴾ (٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ وَالْأَصْفَادُ
هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة والأعمش
وعبد الرحمن بن زيد (١)، وهو مشهور في اللغة.

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها
من قطران، وهو الذي تفتأ به الإبل أي: تطل. قال قتادة:
وهو الصق شيء بالنار. وكان ابن عباس يقول: القطران هنا
النحاس المذاب (٢)، وربما قرأها: (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرِ أَنْ) أي:
من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد
وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقتادة (٣). وقوله:
﴿وَتَقَفَّيْ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (٤) كقوله: ﴿تَلَقَّيْ وَجُوهَهُمُ النَّارُ
وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (٥). وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا
يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير
عن زيد عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال
رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمْنِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَنْزَكُونَهَا»:
الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطُّغْيَانُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْإِسْتِغْيَاءُ بِالنُّجُومِ،
وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالنَّائِيحَةُ إِذَا لَمْ تَنْبُ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطَرَانٍ وَدَرْعٌ مِنْ جَرَبٍ. (٤) انفراد
بإخراجه مسلم (٥).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: يوم القيامة
كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا﴾ الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٦) أي: في حال محاسبته لعبده سريع
النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع
الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا
خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكِبُ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا معنى قول
مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٦) إحصاء.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْيَابِ﴾ (٧)

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: ﴿لَا يُذَكِّرُ بِهِ وَمَنْ
بَلَّغٌ﴾ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في
أول السورة: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية، ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي ليتعظوا به
﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج
والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْيَابِ﴾ (٧)
أي: ذوي العقول. آخر تفسير سورة إبراهيم عليه
الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا يَكُونُ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ①
لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ② مَا نُنَزِّلُ
الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ③ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ④﴾

[رمي الرسول بأنه مجنون وطلب

نزول الملائكة والرد عليه]

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَكُونُ الَّذِي
نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي يدعي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ①﴾
أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿لَوْ
مَا﴾ أي هلا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما
جئت به إن كنت من الصادقين، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا آتَايَ
عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَعَهُ مُقْتَرِبِينَ ②﴾
﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُولَٰئِكَ نَزَّلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ
أَوْ رَأَىٰ رَبًّا لَّعَلَّهٖ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ③ يَوْمَ
يَرَوْنَ الْمَلَكَ لَا يُخَيِّرُونَ بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِبَرًا مُّجْرِبًا ④﴾
﴿وَكُلَّا قَالَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ﴾ ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا
كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ⑤﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَ﴾
إِلَّا بِالْحَقِّ بالرسالة والعذاب ^(١)، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل
عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغير والتبدل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ ① وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ② كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ ③ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ④﴾

[استهزاء مشركي كل أمة برسوله]

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفر
قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من
رسول إلا كذبوه واستهزأوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في
قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال
أنس والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ③﴾
يعني: الشرك ^(٢). وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ④﴾
أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار،
وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ①﴾
﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ②﴾

[المعاندون من الكفار لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات]
يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه
لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا
بذلك، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قال مجاهد وابن
كثير والضحاك: سدت أبصارنا ^(٣).

وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي
عن ابن عباس: شُبِّه علينا وإنا سحرنا ^(٤).

وقال ابن زيد: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ السكران الذي لا يعقل.
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ①﴾
﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ②﴾ ﴿إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ ③﴾
﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ④﴾ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَّوْزُونٍ ⑤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ
مَّعْيَشَ وَمَنْ أَسْمَتْ لَهُ بُرْزُقِينَ ⑥﴾

[قدرة الله وآياته في السماوات والأرض]

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب
الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من
العجائب والآيات الباهرات، ما يجار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد
وقتادة: البروج ههنا هي: الكواكب ^(٥). (قلت): وهذا كقوله
تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الآية.
وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور الحرس ^(٦). وجعل
الشهب حرساً لها منردة الشياطين لئلا يسمعوها إلى الملأ
الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب
مبين فأنلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن
يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى
وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح. كما روى البخاري في
تفسير هذه الآية عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِذَا قُضِيَ
اللَّهُ الْأَمْرُ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ
سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» قال علي وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك،
فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال
الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو

(٢) الطبري: ١٧/٧٠.

(١) الطبري: ١٧/٦٨.

(٤) الطبري: ١٧/٧٥.

(٣) الطبري: ١٧/٧٤.

(٦) البغوي: ٣/٤٥.

(٥) الطبري: ١٧/٧٧.

السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء^(١)، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والشمار المتناسبة.

[منفعة الرياح]

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ أي: تلتفح السحاب فتدري ماء، وتلتفح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردا ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيتين فصاعداً.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة^(٢)، وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة^(٣). وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحها فيمتلئ ماء^(٤). وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتولف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾^(٥).

[الماء العذب من نعمة الله]

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاباً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾^(٦) مَا أَنتُمْ بِأَرْسِلُوهُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَنَحَّيْتُمُوهَ^(٧) لَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ أُنْجَاباً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ^(٨).

وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ لَشَرْبِهِ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(٩) وقوله: ﴿وَمَا أَشْدَقُ لَكُمْ بِخَيْرَيْنِ﴾^(١٠) أي: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك؛ ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقال ابن عباس: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾^(١١) أي: معلوم، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة^(١٢)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعاش وهي جمع معيشة. وقوله ﴿وَمِنْ أَشْئُمْ لَهُمْ بَرَزَيْنِ﴾^(١٣) قال مجاهد: هي الدواب والأنعام^(١٤). وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى^(١٥).

﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(١٦) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمَا أَشْدَقُ لَكُمْ بِخَيْرَيْنِ^(١٧) وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَثُبُتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ^(١٨) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ^(١٩) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ هَكَيْمٌ عَزِيزٌ

[خزائن كل شيء عند الله]

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٢٠) كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة، قال يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة عن عبد الله: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه بينهم

(١) فتح الباري: ٢٣١/٨. (٢) الطبري: ١٧/٧٩-٨١.

(٣) الطبري: ١٧/٨٢. (٤) الطبري: ١٧/٨٢.

(٥) الطبري: ١٧/٨٤. (٦) الطبري: ١٧/٨٦.

(٧) الطبري: ١٧/٨٧، ٨٨. (٨) الطبري: ١٧/٨٨.

(٩) الطبري: ١٧/٨٨.

أَدَمَ نَمًا وَصِفَ لَكُمْ^(٨). والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ^(٩)﴾ فَوَاضَتْ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَفَعُوا لَهُ سَجِدِينَ^(١٠) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ^(١١) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(١٢) قَالَ يَتَّبِعُكَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(١٣) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ^(١٤)

[خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، وتمرد إبليس يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً واختاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾، كقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(١٥) كقوله: ﴿أَرَأَيْتَ لَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ الْآيَةَ﴾.

﴿قَالَ فَامْخُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ^(١٦) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ^(١٧)﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ^(١٨) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ^(١٩) إِلَى يَوْمِ الزَّوْءِ الْمَعْلُومِ^(٢٠)

[إخراج إبليس من الجنة وإمهاله إلى يوم القيامة] يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يناع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى وأنه رجم أي: مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(٢١) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(٢٢)﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ^(٢٣) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ^(٢٤) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ^(٢٥) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ^(٢٦)

[بيان قدرة الله على بدء الخلق وإعادته]

وقوله: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ خَيْرُ﴾ وثبت إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس: المستقيمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة^(٢٧). وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم^(٢٨).

وروي ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه أنه سمع عرو بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ﴾ ولقد علمنا المستقيمين^(٢٩) وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ﴾ الميت والمقتول ﴿الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ من ينجى بعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(٣٠) فقال عرو بن عبد الله: وفلك الله وجزاك خيراً^(٣١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ^(٣٢) وَلَبَّأَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ^(٣٣)﴾

[مادة خلق الإنسان والجنان]

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا: التراب اليابس^(٣٤). والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَاطِلِ كَالْفَخَّارِ^(٣٥)﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ وعن مجاهد أيضاً: ﴿صَلَاطِلِ﴾ المنتن^(٣٦)، وتفسير الآية بالآية أولى. قوله: ﴿مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي الصلصال من حمأ، وهو الطين. والمسنون: الأملس. وقوله: ﴿وَلَبَّأَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِّن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل^(٣٧).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمر الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ ﴿وَلَبَّأَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾^(٣٨) وقد ورد في الصحيح: ﴿خُلِقَتِ الْمَلَأِكَةُ مِن نُّورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِن مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ

(١) الطبري: ٩١/١٧. (٢) الطبري: ٩٠-٩٢. (٣) الطبري: ٩٠/١٧. (٤) الطبري: ٩٦/١٧. (٥) الطبري: ٩٧/١٧. (٦) الطبري: ٩٩/١٧. (٧) الطبري: ٢١/١٦. (٨) مسلم: ٢٢٩٤/٤.

[أبواب جهنم سبعة]

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (١٥) أي قد كتب لكل باب منها جزء من أنبياء إبليس يدخلونه لا يحيد لهم عنه، - أجارنا الله منها، - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذلك بقدر عمله ومنازله بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (١٥).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ﴾ (١٦) ادخلوها يستدرء أمينين ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (١٧) لا يمشهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴿نَجَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨) وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ (١٩)

[بيان أهل الجنة وأحوالهم]

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ (٢٠) أي: سالمين من الآفات، مسلم عليكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ (٢١) أي: من كل خوف وقلق، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٢٢) روى القاسم عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم من غلٍّ (٢٣)، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف، ولكن هذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُجَسَّسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فَيَقْصُرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَطَائِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ﴾ (٢٤).

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِنَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ﴾ (٢٥).

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٢٦) كما جاء في الحديث:

[تحدي إبليس بالإغواء، ووعيد الله له بجهنم]

يقول تعالى خبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿مِمَّا أَغْوَيْتَنِي﴾ (٢٧) أي: بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ﴾ (٢٨) أي: لذرية آدم عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ (٢٩) أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأؤزمهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجاً ﴿وَلَأُعْوِجَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٠) أي: كما أغويتني وقدرت على ذلك ﴿لَا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٣١) كقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣٢)، ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُتَعَدًّا وَمَتَّعِدًا هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٣) أي مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (٣٤). كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٣٥) أي: الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنْ أَتَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ (٣٦) استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ههنا عن يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنئى ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى، فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاءه عدو الله - يعني: إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعود بالله من الشيطان الرجيم، [فقال عدو الله: أرايت الذي تعود منه فهو هو فقال النبي: أعود بالله من الشيطان الرجيم] قال: فردد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب بن آدم مرتين؟ فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ (٣٧). قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول الله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُوكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٨) وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت بهذا تنجو مني، فقال النبي: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال أخذه عند الغضب والهوى (٣٩).

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتْ أَتَا مَوْعِدُهُ﴾.

(١) الطبري: ١٧/١٠٥.

(٢) الطبري: ١٧/١٠٧.

(٣) البخاري: ٦٥٣٥.

(٤) فتح الباري: ٧/١٦٦ ومسلم: ٤/١٨٨٧.

«يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْخَوْا فَلَا تَعْرِضُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَبْشُرُوا فَلَا تَهْزَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَنْطَعُوا أَبَدًا» (١١). وقال الله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (١٢).

وقوله: «نَبِيَّةٌ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ» (١٣) وَأَنَّ عِبَادِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (١٤) أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيفِ إِتْرِهِمْ﴾ (١٥) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (١٦) قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا بَشَرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (١٧) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُون (١٨) قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْطَلِبِينَ (١٩) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٢٠)

[ضيف إبراهيم وتبشيرهم إياه بغلام]

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة «صَيفِ إِتْرِهِمْ» (٢١) والضيف يُطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف «دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» (٢٢) أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيد «قَالُوا لَا تَوَجَّلْ» أي: لا تخف «وَيُبَشِّرُهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» (٢٣) أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم «قَالَ» متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد «أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُون» (٢٤) فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا وبشارة بعد بشارة «قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْطَلِبِينَ» (٢٥).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٦) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٢٧) إِنَّا لَوِطُ إِنَّا لَمُتَّحِقُهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٨) إِلَّا أَمْرَانَهُ، قَدَرْنَا وَإِنَّا لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٢٩)

[سبب مجيء الملائكة]

يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري، أنه شرع يسأله عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٣٠) يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المالكين، ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ، قَدَرْنَا وَإِنَّا لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣١) أي الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٢) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٣٣) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُونَ (٣٤) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٣٥)

[مجيء الملائكة عند لوط]

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٣٦) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُونَ (٣٧) يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم «وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ» كقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وقوله: ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٣٨) تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٣٩) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنْ يُدِيرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ (٤٠)

[أمر لوط بخروجه مع أسرته في الليل]

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو إنما يكون ساقية يزجي الضعيف ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والتكال «وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ» (٤١) كأنه كان معهم من يهديهم السبيل «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ» أي: تقدمنا إليه في هذا «أَنْ يُدِيرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ» (٤٢) أي: وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٤٣).

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٤) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صَافِي فَلَا تَنْصَحُون (٤٥) وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٤٦) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ (٤٧) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٤٨) لَمَنْرَكْ إِنْهُمْ لَنَى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٤٩)

[مجيء أهل المدينة إلى الملائكة فلما منهم أنهم رجال]

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين «قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صَافِي فَلَا تَنْصَحُون» (٥٠) وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٥١) وهذا إنما قاله

التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهَيَّح مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وَلَا تَكُ لَمْرُؤًا عَلَيْهِمْ مُضْمِرِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَالَّذِينَ أَقْلًا عَقِلُونَ﴾ (٧٨). وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٩) أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جليلة للمؤمنين بالله ورسوله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ لَطَائِفُ﴾ (٨٠) فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ

وَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ

[إهلاك أصحاب الأيكة: قوم شعيب]

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، قال الضحاك وقتاده وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف^(٦)، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ (٧٩) أي: طريق مبین، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر^(٧)، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِمُحْسِنِينَ﴾ (٨١).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٢) وَءَايَتُهُمْ ءَايَتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨٣) وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْإِبِلِ أَيْتَانِ ۚ ءَايَتُنَا ۚ فَآخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُضْمِرِينَ (٨٤) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٥)

[إهلاك أصحاب الحجر، وهم ثمود]

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليهم السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا

لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْفَوَاحِشِ﴾ (٧٠) أي: أو ما نهيتك أن تنصيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نساءهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصحبهم من العذاب المستقر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَعَنَّاكَ إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢) أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال عمرو ابن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَنَّاكَ إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢) يقول: وحياتك وعمرك وبقاؤك في الدنيا ﴿لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢) رواه ابن جرير، وقال قتادة: ﴿لَنِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالهم ﴿يَمْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون^(٢). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لَعَنَّاكَ﴾ لعيشك ﴿لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢) قال: يترددون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّا لَإِسْبِيلٌ مُقِيمٌ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

[إهلاك قوم لوط]

يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع قلب بلادهم وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) أي: إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿الْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين^(٣). وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين^(٤)، وقال قتادة: للمعتبرين^(٥). ﴿الْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين.

[قرية سدوم على الطريق]

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَإِسْبِيلٌ مُقِيمٌ﴾ (٧٦) أي: وإن قرية سدوم

(١) الطبري: ١١٨/١٧. (٢) الطبري: ١١٩/١٧.

(٣) الطبري: ١٢٠/١٧. (٤) الطبري: ١٢١/١٧.

(٥) الطبري: ١٢١/١٧. (٦) الطبري: ١٢٥/١٧.

(٧) الطبري: ١٢٥/١٧.

فَسَبَّحَنَ الَّذِي يَدُّوهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٦﴾
 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَيْكَ مَا مَتَعْنَا بِهِ أُزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ مَلَيْتِهِمْ
 وَكَفُوفُ جَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[الامتنان بالقرآن والأمر بالتركيز على دعوته]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرون إلى الدنيا، وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه فلا تبططهم بها هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك ﴿وَكَفُوفُ جَنَاحِكَ لِمَنِ آتَيْتُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ أي: ألن لهم جانبك، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطوال، يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير. وقال سعيد بن يونس فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر^(٢).

(والقول الثاني): أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس: والبسمة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها^(٣). وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد^(٤). وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين:

(أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آتته حتى صليت فأتته، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟﴾ قلت: كنت أصلي، فقال: ﴿أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَكْثَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟﴾ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ رُبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾^(٥) هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنُ الَّذِي أَوْتَيْتَهُ.

(الثاني): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أم القرآن

وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتُّعُوا فِي تَارِكِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٦٠﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿كَانُوا يَحْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا أَمِينًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقتل رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْعَذَّابِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِآيِنٍ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبَاكُوا خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ﴾^(١). وقوله: ﴿فَأَعَذَّتْهُمْ الْقَيْصَةُ مُصِيبِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بئانها عن الناقة، حتى عقروها، لثلاث تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصِّحٌ فَاصِّحٌ الْجَمِيلُ ﴿٨٥﴾﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

[خلقت الدنيا لمصلحة ما، ثم تقوم الساعة]

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ أي بالعدل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّاعَةَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَصَبَّحْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ مَرَّةً وَآخَرُكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فَنَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿٧٩﴾﴾ ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصبح الجميل عن المشركين في أذهام له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿فَاصْبَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ وقال مجاهد وقادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالوا، فإن هذه مكة والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَدُنْهِ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٧﴾﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٨﴾

(١) أحمد: ٩١/٢. (٢) الطبري: ١٧/١٣٠-١٣٢.

(٣) الطبري: ١٧/١٣٣. (٤) الطبري: ١٧/١٣٥.

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (١١) ﴿أَي: جَزَوْا كَتَبَهُمُ الْمَنْزِلَةَ عَلَيْهِمْ فَأَمَنُوا بِيَعُضٍ وَكَفَرُوا بِيَعُضٍ﴾.

روى البخاري عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (١١) قال: هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه (٥). وقيل: المراد بالمقتسمين قریش، وبالقرآن هو هذا القرآن، ومعنى جعله عِضِينَ هو ما قاله عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقالوا: مجنون. وقال: كاهن. فذلك العِضِينَ، وكذا روي عن الضحاک وغيره. وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قریش، وكان إذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قریش! إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، قال: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فإذا نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (١١) أصنافاً ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣).

وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣) قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين (٧). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣) ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (١٤) قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا؟

هي السبع المثاني، والقرآن العظيم (١)، فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَرَّلَ أَحْسَنَ الْخَبِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً. وقوله: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

قال العوفي عن ابن عباس: ﴿لَا تَدْعُ عَيْنُكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه (٢). وقال مجاهد: ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء (٣).

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨) ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (١١) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣)

[الرسول نذير مبين]

بأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨) البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ بَعِثَنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْتَجَاءُ النِّجَاءَ فَأَطَاعَةَ طَائِفَةٍ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْبَحُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلِهِمْ فَتَجَعَلُوا وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَائِهِمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَنَّةُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ فَلَذِكْ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِنِي جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» (٤).

[تفسير المقتسمين]

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، ﴿وَأَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ الآية، ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتْلُوهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء في الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين.

(١) فتح الباري: ٨/٢٣٢. (٢) الطبري: ١٧/١٤١.

(٣) الطبري: ١٧/١٤١.

(٤) فتح الباري: ١٣/٢٦٤ ومسلم: ٤/١٧٨٨.

(٥) فتح الباري: ٨/٢٣٣. (٦) ابن هشام: ١/٢٨٨.

(٧) الطبري: ١٧/١٥٠.

وكذا؟^(١)

يطوف بالبيت، فقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود [بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمى ومر به الأسود] بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات لله حبًا، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بستين وهو يجزأه، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتفض به فقتله، ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومر به الحارث بن الطلائع فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله^(٥).

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١١) تهديد شديد ووعد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

[التشجيع على تحمل المشاق، والأمر بالانزاع]

التسبيح والعبادة حتى الموت

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاكَ بِصِيقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١٧) فَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٨) أي: وإنا لنعلم يا محمدا أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يبيدك ذلك ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٨). كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن نعيم بن همار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنِ آدَمَ، لَا تَغْبِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفَلَكَ آخِرَهُ»^(٦).

وقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِثُ﴾^(١١) قال البخاري: قال سالم: الموت^(٧)، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما روى ابن جرير عن سالم بن عبد الله ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِثُ﴾^(١١) قال: الموت^(٨). وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ

﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٤) إِنَّا كُنْثِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(١٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(١٦) وَلَقَدْ نَزَّلْنَاكَ بِصِيقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ^(١٧) فَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِثُ^(١٩)

[الأمر بالصداق بالحق]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإفناذه والصداق به، وهو مواجهة المشركين به. كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ﴾ أي: أمضه^(٢). وفي رواية: (افعل ما تَوَمَّرُ) وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة^(٣). وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ﴾، فخرج هو وأصحابه^(٤).

[الأمر بالإعراض عن المشركين وضمان كفاية المستهزين]

وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٤) إِنَّا كُنْثِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(١٥) أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿وَدُّوا أَنْ يُدْخِلَ اللَّهُ فِي دِينِهِمُ﴾^(١٦) ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِمْ أَرْسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

قال محمد بن إسحاق: كان عظام المستهزين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى ابن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، كان رسول الله ﷺ فيها بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: «اللَّهُمَّ أَغْمِ بَصَرَهُ، وَأَكْثِلْهُ وَلَدَهُ، وَمَنْ بَنِي زَهْرَةَ: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلائع بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان فلما غادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٤) إِنَّا كُنْثِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(١٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(١٦)».

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو

(١) الطبري: ١٧/١٥٠. (٢) الطبري: ١٧/١٥١.

(٣) الطبري: ١٧/١٥١. (٤) الطبري: ١٧/١٥٢.

(٥) ابن هشام: ١/٤٠٩، ٤١٠. (٦) أحمد: ٥/٢٨٦.

(٧) فتح الباري: ٨/٢٣٥. (٨) الطبري: ١٧/١٦٠.

النَّاسُ، فَيَقْبَلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَهُمْ
 مِنْ يَقُولُ: نعم، ومنهم من يشك ثم ينادي الثانية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ،
 فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ
 يُنَادِي الثَّالِثَةَ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَرِانِ
 النَّوْبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُدُّنَ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ
 شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرِبُ أَبَدًا» - قَالَ -
 وَيَسْتَعْمِلُ النَّاسُ^(١)، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به
 غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى
 وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال:

﴿سَبِّحْنَاهُ وَنَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ

أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢)

[يرسل الله من يشاء بالتوحيد]

يقول تعالى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ كقوله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ
 جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» وقوله: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
 رُسُلَهُ﴾ وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَلَمِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا
 وَمِنْ أَلَمِ الْبَشَرِ﴾ وقال: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (٣) يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ
 شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤) وقوله: ﴿أَنْ
 أُنذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٥) أي
 فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعيد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٦)

[الله الذي خلق السماوات والأرض والإنسان]

يجبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم
 السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا
 للعبث بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحَقِّ﴾ (٧) ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو
 المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد

لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء:
 رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال
 رسول الله ﷺ: «وَمَا يُنْذِرُكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟» فقلت: بأبي وأمي يا
 رسول الله! فمن؟ فقال: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ
 الْخَيْرَ»^(١). ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ
 حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٢) على أن العبادة كالصلاة ونحوها
 واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله
 عنها أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِلًا، فَإِنْ لَمْ
 تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢) ويستدل بها على تحطئة من ذهب من
 الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة
 سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء
 عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم
 بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد
 وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما
 المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله
 على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على
 أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

[الإنذار بقرب الساعة]

يجبر تعالى عن اقتراب الساعة ودونها معبراً بصيغة الماضي
 الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ
 حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (٢) وقال: ﴿اقْتَرَبَ
 السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٣) وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي
 قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
 بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
 يَشْعُرُونَ﴾ (٤) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥﴾
 وروى ابن أبي حاتم عن عتبة بن عامر قال: قال رسول الله
 ﷺ: «تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنَ الْمَغْرِبِ وَمِثْلُ
 الثَّرَسِ، فَمَا تَرَأَى تَرْتَفِعُ فِي السَّيِّءِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا

(١) فتح الباري: ٣/١٣٧. (٢) فتح الباري: ٢/٦٨٤.

(٣) الحاكم: ٤/٥٣٩.

﴿٧﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونُ ﴿٨﴾ وَرَبِّكُمْ ءَابِتِيهِ قَائِي ءَابِتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٩﴾ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ أي: ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِمَلْتَ آيِينَآ أَنعَمْنَا فَعَمِلَ لَهُمْ مَلَكُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ الْآفَتُونَ مَا تَكُونُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَلَئِنَّا لَنَاسِقُونَ ﴿١٤﴾ قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي ثياب ﴿وَمَنَافِعُ﴾ ما تستفون به من الأطعمة والأشربة (١).

﴿وَاللَّيْلِ وَالْيَالِ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبِهَا وَزِينَةً وَمَخْلَقًا مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهي رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل (٣). ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال: ذبحنا يوم خير الخيل والبغال والحمير، فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل (٤). وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر ؓ قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة (٥).

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَنَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩﴾

[بيان الطرق الدينية]

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيرا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية،

وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو بخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضلعا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَلَّةِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَاهِرًا ﴿١٥﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَوِيَّةٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ بِحُجَّتِي الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن مِّثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَهَدَيْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْدِكَ وَالْأَرْضِ مِنْكَ رَيْدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْخُلُقُومَ قُلْتَ: أَتَصَلَّقُ وَأَتَى أَوَأَنُ الصَّدَقَةِ (١)».

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّوْ تَكُونُوا بِلْدَيْهِ إِلَّا يَشِيقَ الْأَثْقِينَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

[الأنعام من خلق الله ونعمة منه]

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبها جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضرورا وأعلاه أسنمة ﴿وَحِينَ تَسْرَحْنَ﴾ ﴿٦﴾ أي: غداة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحوال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّوْ تَكُونُوا بِلْدَيْهِ إِلَّا يَشِيقَ الْأَثْقِينَ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله: ﴿وَلَئِنْ لَّكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرُوا مِنَّا فِي بَنَائِهَا وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

(١) أحمد: ٢١٠/٤ وابن ماجه: ٩٠٣/٢.

(٢) الطبري: ١٧/١٦٨.

(٣) فتح الباري: ٩/٥٧٠ ومسلم: ٣/١٥٤١.

(٤) أحمد: ٣/٣٥٦، ٣٦٢ وأبو داود: ٤/١٤٩، ١٥١.

(٥) مسلم: ٣/١٥٤١.

كقوله تعالى: ﴿وَكَسَّرَوْدُوا فَإِنَّهُ خَيْرٌ لِّأَرْزَادِ النَّقْوَى﴾ وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِدْنًا وَلِيَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله^(١). وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي بين الهدى والضلالة. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه. وكذا قال قتادة والضحاك. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة^(٢) والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾^(٣)، ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا رَآلُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٥) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(٦) يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله^(١). وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي بين الهدى والضلالة. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه. وكذا قال قتادة والضحاك. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة^(٢) والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾^(٣)، ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا رَآلُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٥) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(٦) يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله^(١). وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي بين الهدى والضلالة. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه. وكذا قال قتادة والضحاك. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة^(٢) والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾^(٣)، ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا رَآلُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٥) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٧) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا إِلَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

[آيات في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر وفيما يخرج من الأرض]

ينبئ تعالى عباده على آياته العظام ومنته الجسماء في تسخير الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات نوراً وضياءً ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨) ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٩) أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا إِلَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١٠) أي: ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها

[المطر وفوائده وبيان أنه آية]

(١) الطبري: ١٧/ ١٧٥. (٢) الطبري: ١٧/ ١٧٦.

(٣) الطبري: ١٧/ ١٧٦. (٤) الطبري: ١٧/ ١٧٨.

جعل فيها سبلاً أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الآية.
وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاكُمْ﴾ أي: دللنا من جبال كبار وأكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وَيَا تَجِمْ هُمْ يَتَذَوَّنُ﴾ (١٦) أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس (١).

[العبادة حق لله]

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَنَنْتَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ أَنْ تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتكم وتركتكم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم، لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة (٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُمْ وَمَا تَعْلِنُونَ﴾ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) آمَنُوا غَيْرَ أَحْسَنَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

[ألهة المشركين مخلوقة غير خالقة]

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعوها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ (٢٢) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٢٣) وقوله: ﴿آمَنُوا غَيْرَ أَحْسَنَ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٤) أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

من المنافع والخواص ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها.
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَسُونَهَا وَتَرَكِبَ الْفُلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦)
وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَيسُ أَنْ يَقِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) وَعَلَّمْنَا وَيَا تَجِمْ هُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٨) أَفَنَنْتَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٩) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٠)

[آيات في البحار والجبال والأنهار والسبل والنجوم]

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلق فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح. وقيل: تمخره بجوئتها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسبرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، جلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣١) أي: نعمه وإحسانه. ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرزاسي الشاخات، والجبال الراسيات؛ لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يئس لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ (٣٢).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا وَسُبُلًا﴾ أي: جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والأكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمته ويسرة، وجنوباً وشمالاً. وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجع، وقوى السير ويطئه بحسب ما أراد وقد سخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك

﴿لَهُمْ لَهُ وَحْدًا فَلْيُنْكِرُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٣) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِيطُ الْمُسْتَكْبِرُونَ (١٤)

[لا معبود إلا الله]

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٥) وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٣) أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَافِعِينَ﴾ (٦) ولهذا قال ههنا ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (١٣) أي: وسيجزئهم على ذلك أنهم الجزاء **إِنَّهُ لَا يُحِيطُ الْمُسْتَكْبِرُونَ** (١٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُكُوعًا قَالُوا أُسْطُورٌ الْأَوَّلِيَّةُ﴾ (١٦) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُهُمْ (١٧)

[إعراض الكفار عن الوحي ومضاعفة عقابهم]

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رُكُوعًا قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أُسْطُورٌ الْأَوَّلِيَّةُ﴾ (١٦) أي: لم ينزل شيئا، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أُسْطُورٌ الْأَوَّلِيَّةُ اصْتَبَّهَا فِيهِ شَمْلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ (٥) أي: يفترون على الرسول ويقولون أقوالا متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (١٨) وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحي المسمى بالوليد ابن المغيرة المخزومي لما ﴿ذُكِرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا صِرٌّ بُؤْسٌ (٢٤) أي: ينقل ويحكي، ففرقوا عن قوله ورأيه - قبهم الله - قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم، ومن أوزار

الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالتهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: ﴿مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣) وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنها كقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (١٣) وقال مجاهد: يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عنهم أطاعهم من العذاب شيئا (٣).

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْأَسْوَى عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٦)

[بيان ما فعله السابِقُونَ وما فعل بهم]

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح (٤). وقال آخرون: بل هو بختنصر. والصحيح أن هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (٢٢) أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أنبأهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَتَيْلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَآفَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجثته من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَفُلْهَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاقْتَبِرُوا يَكَاؤُهُ الْأَفْئِدِ (٢)﴾، وقال الله ههنا: ﴿فَآفَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ

(١) مسلم: ٤/٢٠٦٠. (٢) الطبري: ١٧/١٩١.

(٣) الطبري: ١٧/١٩٠. (٤) الطبري: ١٧/١٩٣.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٠)
 جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ
 كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوْفَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَبِيعًا
 يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

[قول المتقين في الوحي وحزواهم وأحوالهم

عند الوفاة وبعدها]

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفًى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣١) أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿ وَكَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَلَئِيْكُمْ ثَوَابٌ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ ﴾ (٣٢) وقال تعالى: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٣٣) وقال لرسوله ﷺ: ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (٣٤) ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٥).

وقوله: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ ﴾ بدل من دار المتقين أي: لهم في الآخرة جنات عدن، أي مقام يدخلونها ﴿ يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا شَتَّىٰ هِيَ الْأَنْفُسُ وَلَكُلِّ الْأَعْيُنِ وَأَشْرَفُ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴾ (٣٦). وفي الحديث: «إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى سُرَابِهِمْ، فَلَا يَسْتَقْبِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطَرْنَا كَوَاعِبَ أَتْرَابًا فَيَكُونُ ذَلِكَ» ﴿ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٦) أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي: خلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن

أي يظهر فضائحهم، وما كانت تحبه ضمايرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ ﴾ (٣٧) أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوْاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِيقَافِهِ عَذْرَتُهُ فَيَقَالُ هَذِهِ عَذْرَتُهُ فَلَنْ يَنْفُلَنَّ» (٣٨). وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿ إِنَّ شَرَّكُمْ لَعِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَبْصِرُونَ ﴾ (٣٩) ﴿ قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (٤٠) فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، يقولون حينئذ: ﴿ إِنَّ الْآخِرَىٰ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَعَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٤١) أي الفضيحة والعذاب يحيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَوْفَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قالوا أَلَمْ نَكُنْ نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مِنَّا الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿٤٣﴾

[أحوال الكافرين عند وفاتهم وبعدها]

خبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم وجميعة الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ نَعْمَلُ ﴾ أي أظهرنا السمع والطاعة والانقياد لسائلكم: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ كما يقولون يوم الحساب ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٤٤) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْفِقُونَ لَهُمْ كَمَا يُحْفَظُونَ لَكُمُ ﴾ قال الله مكذباً لهم في قبيلهم ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٥) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مِنَّا الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿٤٦﴾ أي: بشس القليل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبرها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿ لَا يَبْقَىٰ عَلَيْهِمْ فَيْحٌ وَهُمْ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٧).

يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٧﴾

[استدلال المشركين على شركهم بالقدر، والرد عليهم]

ينخر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراف واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنتنا منه، قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة - أي: في كل قرن وطائفة من الناس - رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٩﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَقُلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٣١﴾ أي: أسألوا عما كان من أمر من خالف

الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ تَحْنُ أُولَآئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٣﴾ نَزَّلَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٤﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يَحْيِي اللَّهُ الَّذِينَ أَمَاتُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٣٥﴾. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

[معنى تأخر الكافرين عن الإيمان انتظارهم للعذاب]

يقول تعالى مهذباً للمشركين على عمادهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم. قاله قتادة ^(١). ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلماذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلماذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ إِنَّ تَحَرُّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ

﴿١٥﴾ أَصْلَوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك، إذا أراد كونه فلأنه يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿١٥﴾ وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْنِيكُمْ إِلَّا كَفْهٍ وَجِدَةٌ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٦﴾ أي: أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن. أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٧﴾

[جزء المهاجرين]

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والحلن رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم: عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضيهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُؤِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي وقناة: المدينة^(١). وقيل: الرزق الطيب. قاله مجاهد^(٢) ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فوعضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإنهم مكن الله؛ لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتيقن إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: لو كان المتخلفون عن

الرسول وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَانَهَا﴾ ﴿١٦﴾ فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٧﴾ ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصْغِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ ويذكرهم في طغيانهم بعموم ﴿١٧﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّي لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٨﴾. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ لِئِنْ لَهُمْ يَحْتَفِقُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٠﴾

[البعث بعد الموت حق، وفيه حكمة، وهو هين على الله]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكدباً لهم وراذلاً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: فلدجلهم بخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِئِنْ لَهُمْ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَحْتَفِقُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئَلَتِهِمْ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أَفَيسر هذا أم أشد لا تبصرون

أنزل الله عليك وحركك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجل وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَقَدْهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤)

كَيْفَ يَأْمَنُ الْمَجْرُمُونَ

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحلهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (١٢) أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٣) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٤) وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾ أي: في تقليلهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهمية. قال قتادة والسدي: تقلبهم أي أسفارهم (١٤)، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ﴾ (١٥) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (١٦).

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٦) أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك (١٥). وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم (١٦)، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّءُوفُ رَحِيمٌ﴾ (١٧) أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين ﴿لَا أَخَذَ أَصْبَرَ عَلَى آذَى سَمْعَةٍ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يُزَرِّقُهُمْ وَيَعْلَمُ فِيهِمْ﴾ (١٧). وفيها:

الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتباع رسوله. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١١) أي: صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَقَدْهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)

ما أرسل رسول إلا من البشر

قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمدا ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ليسوا من أهل السماء كما قلتم (١١) وكذا روي عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب (١٢)، وذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (١٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (١٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَسَشْرُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (١٥) وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم (١٣). والزبر جمع زبور. تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ بِالزُّبُرِ﴾ (١٤) وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥) ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلكم بمعنى ما

(١) الطبري: ٢٠٨/١٧. (٢) الطبري: ٢٠٨/١٧.

(٣) الطبري: ٢١١/١٧. (٤) الطبري: ٢١٣/١٧.

(٥) الطبري: ٢١٤/١٧. (٦) الطبري: ٢١٥/١٧.

(٧) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ ومسلم: ٤/٢١٦٠.

وَإِصْبًا ﴿١٠٠﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَمِيمُونُ بْنُ مِهْرَانَ
وَالسَّيْدِيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ دَائِمًا ^(٩٩). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
أَيْضًا: أَيُّ وَاجِبًا ^(١٠٠). وَقَالَ مَجَاهِدٌ: أَيُّ خَالِصًا لَهُ، أَيُّ: لَهُ الْعِبَادَةُ
وَحْدَهُ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَعَيَّرَ بَيْنَ اللَّهِ
يَتَّبِعُونَ وَلَهُ اسْتَلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ^(١٠١) هَذَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَعُكْرَمَةُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَجَاهِدٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ
مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، أَيُّ: أَرَاهُو أَنْ تَشْرَكَوا بِي شَيْئًا وَأَخْلَصُوا لِي
الطَّاعَةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ^(١٠٢) ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ
النَّفْعِ وَالضَّرَرِ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَصْرٍ فَمِنْ
فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ
تَجْتَرِعُونَ﴾ ^(١٠٣) أَيُّ: لَعَلَّكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ، فَإِنْ كَمَ
عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجُؤُونَ إِلَيْهِ وَتَسْأَلُونَهُ وَتَلْحُونَ فِي الرِّغْبَةِ إِلَيْهِ
مُسْتَغِيثِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ
تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا تَجَدَّكَ إِلَى الْيَمِّ عَرَضَظْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ ^(١٠٤)
وَقَالَ هُنَا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْكُمْ يَبْرِهِمْ
يُشْرِكُونَ﴾ ^(١٠٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ ^(١٠٦) قِيلَ: الْإِلَامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ.
وَقِيلَ: لَامُ التَّعْلِيلِ بِمَعْنَى: قَبِضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا أَيُّ: يَسْتَرُوا
وَيُخْفُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ الْمُسَدِّيُّ إِلَيْهِمْ النِّعَمَ، الْكَاشِفُ
عَنْهُمْ النِّقَمَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ أَيُّ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
وَتَمْتَعُوا بِمَا أَنْتُمْ بِهِ قَلِيلًا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٠٧) أَيُّ: عَاقِبَةُ ذَلِكَ.
﴿وَيَعْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّى عَمَّا
كُتِبَ يَقْتُرُونَ﴾ ^(١٠٨) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَافٍ﴾ ^(١٠٩)
يَتَوَرَّى مِنَ الْفَوْرِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّهُ عَلَى هَوْنٍ أَوْ يَدُسُّهُ
فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ^(١١٠) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ
السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١١١)

[من أعمال المشركين النذر للألوهة مما رزقهم الله]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عْبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ
الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَجَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ نَصِيحًا مِمَّا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ فَقَالُوا: هَذَا اللَّهُ يَزْعُمُهُمْ وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ

﴿إِنَّ اللَّهَ يُكَلِّمُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَ لَمْ يَفْلِتْهُ﴾ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ
﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخَذَهُ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ^(١١٢) ^(١١٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَوْمِي أَمَلَيْتُ
لِمَا وَهُمْ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَهَا وَلِيَ الْمَصِيرُ﴾ ^(١١٤)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَّ اللَّهِ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ^(١١٥) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ^(١١٦)
يَتَفَتَّحُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(١١٧)

[سجود كل شيء لله]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ الَّتِي خَضَعَ لَهَا كُلَّ
شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهَا الْأَشْيَاءُ وَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرَافِهَا: جَمَادَاتُهَا
وَحَيَوَانَاتُهَا، وَمَكْلُوفُهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، فَأَخْبَرَ
أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَفَتَّحُ ذَاتُ الْيَمِينِ وَذَاتُ الشِّمَالِ، أَيُّ: بِكَرَّةٍ
وَعَشِيًّا فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى. قَالَ مَجَاهِدٌ: إِذَا زَالَتْ
الْشَّمْسُ سَجَدَ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ^(١١٨). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ
وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ ^(١١٩). وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ^(١٢٠) أَيُّ:
صَاغِرُونَ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ أَيْضًا: سَجُودُ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ ^(١٢١)،
وَذِكْرُ الْجِبَالِ، قَالَ: سَجُودُهَا فِيْهَا. وَقَالَ أَبُو غَالِبٍ
الشَّيْبَانِيُّ: أَمْوَاجُ الْبَحْرِ صَلَاتُهُ، وَنَزَلُهَا مَنْزِلَةً مِنْ يَعْقِلُ إِذَا
أَسْنَدَ السَّجُودَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ ^(١٢٢)، كَمَا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْأَشْدِّ وَالْأَصْفَى﴾ ^(١٢٣) وَقَوْلُهُ:
﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ^(١٢٤) أَيُّ: تَسْجُدُ لِلَّهِ، أَيُّ غَيْرِ
مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿يَتَفَتَّحُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ﴾ أَيُّ
يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجَلِينَ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿وَيَقْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ﴾ ^(١٢٥) أَيُّ: مُتَابِعِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِثَالِ
أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّبِعُوا إِلَهَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُي وَحِيدٌ فَإِنِّي
فَارْهُبُونِ﴾ ^(١٢٦) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَعَيَّرَ اللَّهُ
لَنَفْسِهِ ^(١٢٧) وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ
تَجْتَرِعُونَ ^(١٢٨) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْكُمْ يَبْرِهِمْ
يُشْرِكُونَ ^(١٢٩) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَسْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(١٣٠)

[الله وحده يستحق العبادة]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿وَلَهُ الدِّينُ

(١) فتح الباري ٨/٢٥٠، ومسلم ٤/١٩٩٧.

(٢) الطبري: ٢١٧/١٧. (٣) الطبري: ٢١٧/١٧.

(٤) الطبري: ٢١٧/١٧. (٥) الطبري: ٢٢٢/١٧.

(٦) الطبري: ٢٢٣/١٧.

لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون أي: جعلوا لأهنتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه وانتفكوه وليقابلهم عليه وليجازيهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٨) ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدها معه، فأخطوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الْكُفْرُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ (٦١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٦٢).

وقوله ههنا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا أَنَّهُمْ يَنْفَرُونَ لِيُكَفِّرُوا﴾ (٦١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٦٢) أَصْطَلَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (٦٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٦٧) أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

[نفور المشركين عن البنات]

﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: كتيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكِرُ﴾ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟﴾ أي: يثدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟! ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٦١) أي: بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٦٧) وقوله ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠).

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ (٦١) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

وَنَصِفُ آلَيْسَنَّهُمُ الْكَذِبَ أَتَىٰ لَهُمْ لُحْسٌ لَا جَرَمَ لَهُ هُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢)

[لا يؤخذ بالمعاصي فوراً]

ينبخر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع الدواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى، أي: لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً. روى ابن جرير عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه. فقال: بلى والله! حتى إن الجباري لتموت في وكرها بظلم الظالم (١).

[نسبة المشركين إلى الله ما يكرهون]

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَنَصِفُ آلَيْسَنَّهُمُ الْكَذِبَ أَتَىٰ لَهُمْ لُحْسٌ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾ (١) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مِّسَّةٍ لِّيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّْي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا (١٠) وكقوله: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مِّسَّةٍ لِّيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠). وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْآلِئِ كَفَرًا بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاؤْتِيكَ مَا لَا وَدَّعَ﴾ (٧٧) وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْنُ أَنْ يَبْدُ هَذِهِ أَبَدًا (٧٣) وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنَّمَا مُنْقَلَبًا (٧٤)﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل.

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد منه ﴿إِنَّ هُمُ النَّارُ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢) قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها

مضعون^(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ كَمَا سَوَّأَ يَوْمَهُمْ هَذَا﴾. وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ^(٢)﴾ أي: معجلون إلى النار من الفرط^(٣)، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة؛ لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي: يخلدون.

﴿ثُمَّ أَنَا الَّذِي أَرْسَلْتُكَ أَنِ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكَ فَرِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْوَيْنَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ آلِيمٍ^(٤)﴾ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا يُخَيِّبُ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٥)﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ^(٦)﴾

[التعزي بمن سبق]

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يبهذلك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حلهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب آليم.

[القصد من إنزال القرآن]

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يبتازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَلَنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَةٌ شَفِيفَةٌ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَمِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَنْخَضُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٧)﴾

[العبرة والنعمة في الأنعام وثمرات النخيل والأعنب]

يقول تعالى: ﴿وَلَنْ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبَةٌ﴾ أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿شَفِيفَةٌ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ أفردا ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان،

وفي الآية الأخرى مما في بطونها، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذْكُرُ^(٨)﴾ مِّنْ شَأْنِ ذِكْرِهِ^(٩)﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَّيْ مَرْيَلَةٍ الْيَوْمَ يَهْدِيهِمْ فَنَاطِرُهُمْ يَوْمَ يَرْجِعُ الْفَرَسُونَ^(١٠)﴾ فَلَمَّا جَاءَ سَيْتَيْنِ^(١١)﴾ أي المال.

وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، ما بين قرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يقص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرباً للناس سائغاً نثي بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَنْخَضُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك.

كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السكر ما حرم من ثمرتيها، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيها^(١٢). وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله^(١٣)، يعني: ما ييس منها من تمر وزبيب، وما عمل منها من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقلها، قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَتًا فِيهَا مِّنَ الْعُيُونِ^(١٤)﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ^(١٥)﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ^(١٦)﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ^(١٧)﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ

(١) الطبري: ١٧/٢٣٣. (٢) الطبري: ١٧/٢٣٤.

(٣) الطبري: ١٧/٢٤١. (٤) الطبري: ١٧/٢٤٢.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٥﴾

[وفي النحل وعسلها نعمة وعبرة]

المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومسا يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورحصها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرتها تسخيراً أن تأكل من كل الشمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَأَسْلُكِي شُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: مطيعة^(١)، فجعلاه حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا مِمَّا قَبَيْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كُفْرٌ﴾^(٢) قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فأسلكها مذلة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس، أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشئ يداوى بضده. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاها عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاها عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «أذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاها عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال

رسول الله ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَّبَ بَطْنُ أَخِيكَ، أَذْهَبَ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاها عسلاً فبرئ^(٤). وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل هذا لفظ البخاري. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشِّقَاءُ فِي ثَلَاثَةِ فِي شَرِّطَةٍ مَجْجَمٍ أَوْ شَرِّطَةٍ عَسَلٍ، أَوْ كَيْفَ يَنَارُ وَأَنَا أَتَمُّ أَتَمِّي عَنِ الْكَيِّ»^(٥) وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٦) أي: إن في إلهام الله هذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة، والاجتناء من سائر النار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدارها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَكِّرُ مَنْ يَرْذَلُ الْعُمُرَ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(٧)

[وفي الإنسان عبرة]

ينجر تعالى عن تصرفه في عبادته، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدرك الهرم، وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الآية، وقوله: ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفقد والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(٨) وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة.

سئمت تكاليف الحياة ومن يمش

ثانين عائلاً أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمتته ومن نخطئ يعمر فيه هرم
﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا لِلْبَرِّ فُضْلٌ

(١) الطبري: ٢٤٩/١٧. (٢) الطبري: ٢٤٩/١٧.

(٣) الطبري: ٢٤٩/١٧.

(٤) فتح الباري: ١٧٨/١٠ ومسلم: ١٧٣٦/٤.

(٥) فتح الباري: ٨١/١٠ ومسلم: ١١٠١/٢.

(٦) فتح الباري: ١٤٣/١٠. (٧) فتح الباري: ٢٣٩/٨.

الولد^(٣). وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان، وقيل: الأصهار، قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقًا بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المطامع والمشارب، ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(٧٤) أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنَّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُغْنِكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبُوعًا؟»^(٤).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٧٥) فَلَا تَعْبُدُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(٧٦)

[النكير على عبادة غير الله]

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْبُدُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧٦) أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُفْنِقُ يَنفِقُ يَنفِقُ وَجَهَرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧٧)

[مثل للمؤمن والكافر أو للوثن والحق]

قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضرب به الله للكافر والمؤمن^(٥). وكذا قال قتادة^(٦). واختاره ابن جرير^(٧).

(١) الطبري: ١٧/٢٥٢. (٢) الطبري: ١٧/٢٥٦، ٢٥٧.

(٣) الطبري: ١٧/٢٥٧. (٤) مسلم: ٤/٢٢٧٩.

(٥) الطبري: ١٧/٢٦١. (٦) الطبري: ١٧/٢٦١.

(٧) الطبري: ١٧/٢٦٣.

يَرَاوِي رِزْقَهُ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٧٨)

[وفي أمور معاش الإنسان آية ونعمة]

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تليبتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكنا هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكرًا عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية. قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٧٩) وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم.

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٧٩) أي: إنهم جعلوا الله ما ذرأ من الحرث والأعنام نصيبًا، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَّعَلَّ لَكُم مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(٨٠)

[ومن النعم والآيات الأزواج والأولاد والأحفاد]

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد^(٢). قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾ وهم الولد وولد

[ومن نعم الله السمع والأبصار والأفئدة]

ثم ذكر تعالى مثته على عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسبون الرزقيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح. وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَى رَزَقًا بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحْضَلُ مِنْ أَدَاءٍ مَا أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَجِبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَلَيْثِي الَّذِي يَنْطِشُ بِهَا، وَرَجُلَهُ الَّذِي يَمْشِي بِهَا، وَلَكِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظَمَ، وَلَكِنْ دَعَانِي لِأَجْنَبَةٍ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعْيَدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ تَحَرُّهُ الْمَوْتِ وَأَكْرَهُ مَسَاقَاتِهِ، وَلَا يَدُلُّهُ مِنْهُ» (١) فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها فهي يسمع، وبها يبصر، وبها يبطش، وبها يمشي (٢). ولهذا قال تعالى: «وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٣). فقل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة فليلاً ما تشكرون (٤). قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تَحْشُرُونَ (٥).

[وفي تسخير الطير في جو السماء آية]

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما

فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا (١)؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٢).

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣).

[مثل آخر]

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كل شيء عيال وكلفة على مولاه، «أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ» أي يبعثه «لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» ولا ينجح مسعاه «هَلْ يَسْتَوِي» من هذه صفاته «وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة «وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٤). وقال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

«وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٥) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧).

[الغيب لله وعنده علم الساعة]

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته النامة التي لا تحالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَنَفْحِ الْبَصِيرِ» (١) أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢) كما قال: «مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ».

(١) الطبري: ١٧/٢٦٣. (٢) فتح الباري: ١١/٣٤٨.

(٣) فتح الباري: ١١/٣٥٣.

أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ﴾ (٨١) هكذا فسر الجمهور، وقرؤه بكسر اللام من ﴿تَسْلُمُونَ﴾ (٨١) أي: من الإسلام.

[ما على الرسول إلا البلاغ]

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) وقد أدبته إليهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه وغيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وإذا رآه الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرِكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءَ شَرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٥) وألقوا إلى الله يؤسز السادة وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَدْعُهُمْ عَذَابًا قَوْفًا الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٦).

[حال المشركين يوم الحشر]

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً - وهو نبيها - يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقولهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٢٤) ولا يؤذن لهم فيقولون ﴿٢٥﴾ فلهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وإذا رآه الذين ظلموا ﴿أَيُّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (٨٤) فلا يخفف عنهم ﴿أَيُّ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً﴾ (٨٥) ولا هم ينظرون ﴿٨٥﴾ أي: لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جاء بهجهم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عتق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، فتقول: إني وكلت بكل جبار عبيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر. ويكذا ويكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم، وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهُمْ تَقِيطًا وَذَفِيرًا﴾ (١٢) وإذا ألقوا منها

قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضُ مَا يَسْكُنُ إِلَّا أَلَمَنْ إِنَّهُ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٦) وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧١).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا لَكُمْ حِينَ﴾ (٨٠) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَبِيلَ بَقَرٍ لَكُمْ مِنْهَا حَرٌّ وَسَرَبِيلٌ لَكُمْ أَنْتُمْ بِأَسْكُنُكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ﴾ (٨١) فإن تولوا ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣).

[البيوت والأثاث والثياب من نعم الله]

يلذكر تبارك وتعالى غام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً - أي: من الأدم - يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثْنَا﴾ أي: تتخذون منه أثناً وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع^(١). وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة. وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠) أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

[الظلال والجبال وسرابيل الثوب والحديد]

أيضاً من نعم الله

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر^(٢) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: حصوناً ومعاقل كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ بَقَرٍ لَكُمْ مِنْهَا حَرٌّ وَالْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَبِيلٌ لَكُمْ أَنْتُمْ بِأَسْكُنُكُمْ﴾ كاللدروع من الحديد المصفح والزررد وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على

عن اتباع الحق كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباعه ويتعدون هم منه أيضًا ﴿وَلَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٩)

[كل نبي يشهد على أمته يوم القيامة]

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله في من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٣٠) فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فقال ابن مسعود: «فالتفت فإذا عيناه تذرفان» (٣١).

[القرآن تبيان لكل شيء]

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء (٣٢). فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣). وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسنة (٣٤). ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله أعلم - إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَقُولَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٦) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ قِيُولًا مَاذَا أُجْبِتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ذَلِكَ أَنْتَ

مَكَانًا صَبِيحًا مَقَرِّينَ دَعَا هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ ثُبُورًا (٣٨) لَا نَدْعُوا إِلَيْهِمْ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (٣٩) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّاءُ الْمُجْرِمُونَ النَّارُ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٤٠) وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمْ أَلْتَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ (٤١) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٢)﴾.

[تبارأ الله المشركون منهم أحوج ما يكونون إليها]

ثم أخبر تعالى عن تبارأ ألفتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاةً هَذِهِ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٣) أي: قالت لهم الآلهة: كذبتهم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ إِلَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ (٤٤) وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٤٥)﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٤٦) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٤٧)﴾ وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية: وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

[يستسلم الجميع لله يوم القيامة]

وقوله: ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَهِ السَّاعَةِ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ (٤٨). أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت ذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله: ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَهِ السَّاعَةِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٤٩) أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

[الزيادة في عذاب المفسدين من الكفار]

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنَّبُهُمْ عَذَابًا﴾ الآية، أي عذابًا على كفرهم وعذابًا على صدمهم الناس

(١) الطبري: ١٧/٢٧٦. (٢) فتح الباري: ٨/٩٩.

(٣) الطبري: ١٧/٢٦٩. (٤) الدر المنثور: ٥/١٥٨.

«الْأَجْلِسُ؟» فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبلاً،
فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ بصره إلى السماء،
فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على
يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلوسه عثمان إلى
حيث وضع بصره، فأخذ ينغص رأسه كأنه يستفقه ما يقال له،
وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له،
شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة،
فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته
الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل
كفعلك الغداة، فقال: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟» قال: رأيتك
شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعت على
يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغص رأسك كأنك
تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وَقَطِئْتُ لِمَ ذَلِكَ؟» فقال عثمان:
نعم، قال: رسول الله ﷺ «أَتَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ أَفْئاً وَأَنْتَ جَالِسٌ؟»
قال: رسول الله؟ قال: «نَعَمْ»، قال: فما قال لك؟ قال: «إِنَّ
اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الآية، قال عثمان: فذلك حين
استقر الإيمان في قلبي وأحببت عمداً ﷺ (٣). إسناده جيد متصل
حسن قد بين فيه السماع المتصل.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَعْمَلُونَ﴾ (٥) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ
قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَتَعْدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ
أَمَةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أَمَةٍ إِنَّمَا يَبْلُغُكُمْ اللَّهُ بِهٖ وَلِيَّتَيْنِ لَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَحِلِّفُونَ﴾ (٦)

[الامر بإيفاء العهد]

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق
والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» ولا تعارض بين هذا وبين قوله: «وَلَا
تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» الآية، وبين قوله
تعالى: «وَذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» أي:
لا تركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في
الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنِّي وَاللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ
لَأُخْلِفَ عَلَى بَيْنٍ قَارَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرُ

عَلَّمَ الْغُيُوبَ (١٧)» وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ
الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ» أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ
القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما
فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي
الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يُعْظِمُ لَكُمْ لَعْنَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ (١٠)

[الامر بالإنصاف والإحسان]

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة،
ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: «وَأَنْ عَاقِبَتُهُمْ عَاقِبَتُ
يُمُوسَى مَا عُرِضَتْ بِهٖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٦)
وقوله: «وَيَحْزَنُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ يَنْتَلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»
وقال: «وَالْجَوْرُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهٖ فَهُوَ كَفَّارَةٌ»
لله إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل
والندب إلى الفضل.

[الامر بصلة الأرحام والنهي عن

الفحشاء والمنكر والبغى]

وقوله: «وَأِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى» أي: بامر بصلة الأرحام،
كما قال: «وَأَتَا ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلَ وَلَا يُبْدِرْ
تَبْدِيرًا﴾ (٥). وقوله: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»
فالنواحيش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها،
ولهذا قال في الموضع الآخر: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
بِهَا وَمَا بَطَّنَ» وأما البغى فهو العدوان على الناس، وقد جاء في
الحديث: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا
يُدْخِرُ لِبِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» (١). وقوله:
«يُعْظِمُكُمْ» أي: يامركم بما يامركم به من الخير وينهاكم عما
ينهاكم عنه من الشر «لَعْنَكُمْ تَذَكُّرُونَ» (١٠). وقال
الشعبي عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن
أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية (٢). رواه ابن جرير.

[واقعة عين لعثمان]

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد عن عبد الله
ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به
عثمان بن مظعون، فكشّر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ:

(٢) الطبري: ١٧ / ٢٨٠.

(١) أبو دود: ٥ / ٢٠٨.

(٣) أحمد: ١ / ٣١٨.

وَحَلَّلْتُهَا - وفي رواية - وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي^(١) لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» يعني: الحلف، أي: حلف الجاهلية^(٢). ويؤيد ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَيْسَ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»^(٣) وكذا رواه مسلم^(٤). ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا^(٥). فمعناه: أنه أخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ»^(٦) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ»^(٧). قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه^(٨). وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده^(٩). وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: «أَنْكَبَتْ» يحتمل أن يكون اسم مصدر، نقضت غزلها أنكبت أي: أنقضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي لا تكونوا أنكبتاً جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» أي: خديعة ومكرًا «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمثوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عنه ذلك لينبه بالآدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلا ينبغي عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: «إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يُلُوكُمْ» قال سعيد بن جبير: يعني: بالكثرة^(٨). رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء بالعهد «وَلْيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ»^(١٢) فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر^(٩). «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَعَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^(١٣) «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَرُوهَا كَالشَّوْءِ يَمًا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»^(١٤) «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ»^(١٥) «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(١٦)

[لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة]

يقول الله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَعَمَلَكُمْ» أيها الناس «أُمَّةً وَاحِدَةً» كقوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا» أي: لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباعد ولا شحنة «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»^(١٧) «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ» وهكذا قال ههنا: «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على القليل والكثير والقطمير.

[النهي عن أن يحلف للخداع]

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي: خديعة ومكرًا لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الخائفة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فأنصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: «وَيَذَرُوهَا كَالشَّوْءِ يَمًا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»^(١٤).

[لا تنقضوا الأيمان للدنيا]

ثم قال تعالى: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» أي: لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله

(١) فتح الباري: ١١/٥٢٥ ومسلم: ٣/١٢٦٩.

(٢) الطبري: ١٧/٢٨٢. (٣) أحمد: ٤/٨٣.

(٤) مسلم: ٤/١٩٦١.

(٥) فتح الباري: ٤/٥٥٢ ومسلم: ٤/١٩٦٠.

(٦) الطبري: ١٧/٢٨٥. (٧) الطبري: ١٧/٢٨٥.

(٨) الدر المنثور: ٥/١٦٣. (٩) الطبري: ١٧/٢٨٧.

التفسير، والله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية (١١). قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه (١٢). وقال آخرون: معناه: لا حجة له عليهم. وقال آخرون كقوله: ﴿لَا يَعْصِيكَ مِنْهُمْ الْغَايِبِينَ﴾ الآية (١٣). وقال آخرون: على الذين يتوكلون. قال مجاهد: يطيعونه (١٤). وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله (والذين هم بدمه شركون) (١٥). أي: أشركوه في عبادة الله تعالى.

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مِّنْ كَذِبٍ أَوَّلَهُ أَخْلَصْنَاهَا بِزُكْرِ قَوْلِهِ إِنَّكَ مَعَهُ قَاتِلٌ﴾ الآية (١٦). قال الثوري: لا يخلصها ولا يخلصون (١٧). قل نزلهم روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهديهم للشرك للمسلمين (١٨).

[رعي المشركين الرسول بالافتراء لنسخ]

بعض الآيات، والرد عليهم]

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها قالوا الرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَأْنَا آيَةً مِّنْ كَذِبٍ أَوَّلَهُ﴾ أي رفعناها وأثبتنا غيرها (١٩). وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخْنَا مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية (٢٠). فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل (٢١). وقال قتادة: ﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٢). أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ شَيْتٍ﴾ (٢٣).

خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) ما عندكم بقدر أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناهٍ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قسم من الرب تعالى مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٦).

[العمل الصالح وجزاؤه]

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقبله مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحياه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقاتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانصراف بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَزُيِّنَ كَقَفَا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ﴾ (١). ورواه مسلم (٢).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٤) إنما سلطاننا على الذين يتولونهم والذين هم به شركون (٥).

[الأمر بالاستعاذة قبل التلاوة]

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وقد قسمننا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول

(١) أحمد: ٢/٢٦٨. (٢) مسلم: ٢/٧٣٠.

(٣) الطبري: ١٧/٢٩٤. (٤) الطبري: ١٧/٢٩٤.

(٥) الطبري: ١٧/٢٩٧. (٦) الطبري: ١٧/٢٩٧.

[نسبة المشركين لتعليه القرآن إلى بشر والرد عليهم]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَفْتُ مُبِيتٌ﴾ (١٧) أي: القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعلم قتيلاً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَفْتُ مُبِيتٌ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٩)

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجحش من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألتها من صفة رسول

الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله - عز وجل -.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِقُونَ (١٨) جَحَّمَ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ (١٩)

[قهر الله وغضبه على المرتد إلا من أكره على الكفر]

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يبد الله قلوبهم ويشتهم على الدين الحق، قطع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً يتفهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا يتفهمون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراهم بهم ﴿لَا جَحْمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١٩) أي: الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة وأما قوله: ﴿لَا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

[سبب نزول الآية]

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتزلاً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية (٢). وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك (٣). وروى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك

(١) الطبري: ٢٩٨/١٧. (٢) الطبري: ٣٠٤/١٧.

(٣) الطبري: ٣٠٤/١٧.

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبداً،
فقام فقبل رأسه رضي الله عنه.

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ الَّذِي هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا
ثُمَّ جَعَلُوا وَمَكَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ (١) ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ مَاعِيلَتَ وَهَمَّ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢)

[يقفر للمكره إذا عمل الصالحات بعد الإكراه]

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في
قومهم فوافقهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص
بالحجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله
وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم
الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها، أي: تلك
الفعله وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم
معادهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ ﴾ أي: تحتاج ﴿ عَنْ
نَفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا
زوجة ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعِيلَتَ ﴾ أي: من خير وشر
﴿ وَهَمَّ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا
يزاد على ثواب الشر، ولا يظلمون فقيراً.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَانُ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٤) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ
مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٥)

[مثل مكة]

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة
مستقرة ويتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا
يخاف، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنَّا نَنْتَهِجُ أَلْهَدَىٰ مَعَكَ نَتَخَفُ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ تُمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا
مِنْ لَدُنَّا ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي: هنيئاً
سهلاً ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ أي: جحدت
آلاء الله عليها وأعظمها بعتة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، كما قال تعالى:

(١) الطبري: ٣٠٤ / ١٧ والحاكم: ٣٥٧ / ٢.

(٢) النسائي في الكبرى: ٢٠٩ / ٨.

(٣) أسد الغابة: ١٠٤٩.

(٤) ذكر الحافظ هذه القصة في الإصابة (ت: ٤٦٤١) مختصراً

وعزاه لليهقي.

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئناً
بالإيمان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» (١). ورواه البيهقي بأبسط
من ذلك، وفيه أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آهتهم بخير، فشكا ذلك
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! ما تركت حتى سبتك وذكرت
آهتهم بخير، قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال:
«إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (٢). ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر
يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رضي الله عنه
أبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا
الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله
فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة
هي أغبط لكم منها لقلتها - رضي الله عنه وأرضاه -. وكذلك
حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن
حمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟
فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطععه إرباً إرباً وهو ثابت على
ذلك (٣). والفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى
قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة
السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى ملكهم
فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزورك ابنتي، فقال له: لو
أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن
دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفه عين ما فعلت. فقال: إذا أقتلك، أنت
وذاك، قال: فأمر به فصلب. وأمر الرماة فروه قريباً من يديه
ورجله وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل،
ثم أمر بقدر. وفي رواية بيقرة من نحاس فأحيت، وجاء بأسير من
المسلمين فالتقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه
فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى
فطمع فيه ودعاه، فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس
واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحييت أن يكون لي
بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي
بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم
أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما
منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك
بي، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي
جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه
جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

إِذْ هُمْ حَيِّفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَبَاحِكٌ بِبِئْسَ بَوْمٍ اتَّخَذْتُمُومَ الْفَيْعَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿١٣٢﴾
[جعل السبت على اليهود]

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله في الخليقة، واجتمعت فيه وعت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كُمل خلقها يوم الجمعة فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذه موافقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة ^(١) ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصراني بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْنَ أَتَمِّمْ أَوْثَا الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي قَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالْأَنْسَ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ هَذَا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» ^(٢). لفظ البخاري. وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أَصْلُ اللَّهِ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا. فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمُقْضَى بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلْقِ» ^(٣) رواه مسلم.

(١) الطبري: ١٧ / ٣٢٠.

(٢) فتح الباري: ١١ / ٥٢٦ ومسلم: ٢ / ٥٨٦. (٣) مسلم: ٢ / ٥٨٦.

﴿صَدِّقُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ أي: فاستحقوا ذلك كقوله: ﴿يُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أَجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١٣٣﴾ ثم أخبر تعالى تكملاً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أفلحوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٣٤﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَنِبَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٦﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٨﴾

[ذكر خليل الله]

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخفاء والساد الأنبياء، ويرثه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والخنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾.

وقال مجاهد: أمة أي: أمة وحده، وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي قانئاً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿١٤٠﴾ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿اجْتَنِبَهُ﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ ثم قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٤٢﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ كقوله في الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رِجْلِي هَدْيَ اللَّهِ وَنَدْبَتِي نَدْبَةَ اللَّهِ

وقوته، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ﴾ أي: على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨) أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُّوْا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنِّي مَعَكُمْ فَأَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقوله النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (٥). وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ يُعْلِمُ مَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية، ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨) أي فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظهرهم على أعدائهم ومخالفهم. آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

تفسير سورة الإسراء

وهي مكية

[فضل سورة الإسراء]

روى الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ (١). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر (٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعِمْرَانٍ ۚ يَلَيْلًا ۚ مِنَ الْمُشْجِرِ الْحَكِيمِ ۚ

(١) الطبري: ٣٢١/١٧. (٢) عبد الرزاق: ٣٦١/٢.

(٣) الطبري: ٥٢٤، ٥٢٥. (٤) الطبري: ٣٢٤/١٧.

(٥) فتح الباري: ١١/٧. (٦) فتح الباري: ٦٥٥/٨.

(٧) أحمد: ١٨٩/٦.

﴿أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ ۖ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٩)

[الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة]

يقول تعالى أمراً رسولاً محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس (١)، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى وقوله: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليها السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ أَفَعْلُهُ ۖ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٢).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية، أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هذاهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَلَّكَ تَعْلَمُ يَوْمَ يُنْفَخُ﴾.

﴿وَرَأَىٰ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٩) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٣٠) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ (١٣١)

[الأمر بالمساواة في القصاص]

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمائلة في استيفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله (٢). وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم (٣). واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لاتصرتنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾

[بيان الإسراء]

يُحْمَدُ تَعَالَى نَفْسَهُ، وَيَعْظُمُ شَأْنَهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ﴿الَّذِي أَسْرَيْنَا بِمُوسَى﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بَيْتًا﴾ أي: في جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي يبالياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقال تعالى: ﴿الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: في الزروع والشمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿مِنَ آيَاتِنَا﴾ أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَيْنَا آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾ وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١٩﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذِّبهم، البصير بهم فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

رواية أنس بن مالك رضي الله عنه

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُنِيتُ بِالْبَرَقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِجَابِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ حِينَئِذٍ مُنْتَهَى طَرَفِهِ، فَرَكِيئَةٌ فَسَارِبِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْتَبُطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ وَكُتِبَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جَبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَخَّرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ. قَالَ: ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ لَهْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَقَمِ قَرْحَبٍ بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ لَهْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَبْنِي الْحَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى قَرْحَبًا بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، قَبِيلَ لَهْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ:

وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ قَرْحَبٍ بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَدْرِيسَ قَرْحَبٍ بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ قَرْحَبٍ بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَرْحَبٍ بِي وَدَعَا بِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قَبِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى الْبَيْتِ الْمُعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ: ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى، فَإِذَا وَرَفُهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا نَمْرُكَا كَالْفَلَاحِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا. قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَقَدْ قَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، قَالَ: مَا قَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَهْمِيكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَهْمِيكَ، فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ خَفَّفَ عَنِّي أَهْمِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا قُلْتَ؟ فَقُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَقَالَ: إِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَهْمِيكَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى وَتَحَطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَبِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ تُكْتَسَبْ سَيِّئَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَبْعَةً وَاحِدَةً، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَهْمِيكَ، فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَقَالَ:

رسول الله ﷺ: [فَقُلْتُ: لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ^(١)]. ورواه مسلم بهذا السياق^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجئاً لركبه، فاستصعب عليه فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه قال: فافرض عرقاً، ورواه الترمذي وقال: غريب^(٣).

وروى أحمد أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَرَزْتُ بِسَوْمٍ لَمْ أَطْفَأْ مِنْ نَحَاسٍ يَجْمَعُونَ بِهَا وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٤). وأخرجه أبو داود^(٥) وروى أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَزْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاتِمًا يَصِلُ فِي قَبْرِهِ»^(٦). ورواه مسلم^(٧).

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَاطِمِ - وربما قال قتادة: فِي الْجَجَرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ الْأَوْسَطِ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ - قَالَ: - فَأَتَانِي فَقَدْ - سمعت قتادة يقول: فَتَشَى - مَا يَبِينُ هَلْهُ إِلَى هَلِهِ» وقال قتادة: فقلت: للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرته قال: «فَأَسْخَرَجَ قَلْبِي - قَالَ: - فَأَنْتَيْتُ بِطَسْبٍ مِنْ ذَهَبٍ تَمْلُؤُهُ إِبَانًا وَحِكْمَةً فَعُيِّلَ قَلْبِي ثُمَّ خُيِّتُ، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أَنْتَيْتُ بِدَابِئِ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَيْضًا» قال: فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه قال: «فَعُمِلْتُ عَلَيْهِ فَأَنْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» [الحديث بنحو ما سبق، وفيه في ذكر موسى عليه السلام] - قَالَ: - «فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَى قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنِّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي بِدُخُلِ الْجَنَّةِ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِنِّي بِدُخُلِهَا مِنْ أُمَّتِي. قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّابِعَةَ

فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ - قَالَ: ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا مِثْلُ قِلَاقٍ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ، فَقَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، قَالَ: وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، تَهْرَانُ بِاطْنَانٍ، وَتَهْرَانُ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَتَهْرَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ - قَالَ: ثُمَّ رُفِعَ إِلَيَّ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ.

قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثُمَّ أَنْتَيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ. قَالَ: فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ قَالَ: هَذِهِ الْفُطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَمْتُكَ - قَالَ: - ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: فَزِلْتُ حَتَّى أَنْتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتُكَ؟ قَالَ: فَزِلْتُ حَتَّى خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ: إِنْ أَمْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجَلَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ - قَالَ: - فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا - قَالَ: - فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمِرْتُ؟ قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنْ أَمْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجَلَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ - قَالَ: - فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمِرْتُ؟ قُلْتُ: بِثَلَاثِينَ صَلَاةً، قَالَ: إِنْ أَمْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ ثَلَاثِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجَلَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ - قَالَ: - فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمِرْتُ؟ قُلْتُ: بِأَمْرٍ بَعْشَرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنْ أَمْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ بَعْشَرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(٢) مسلم: ١/١٤٥.

(١) أحمد: ٣/١٤٨.

(٤) أحمد: ٣/٢٢٤.

(٣) الترمذي: ٣١٣١.

(٦) أحمد: ٣/١٢٠.

(٥) أبو داود: ٤٨٧٨.

(٧) مسلم: ٢٣٧٥.

قَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ مُوسَى: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، قُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِحَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَتَحْيِيهَا الْوَلَا لَا أَذْهَبُ مَا هِيَ، ثُمَّ أَذْخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُو، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ» وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان منه نحوه^(٣).

أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ - قَالَ: فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا آخَرَ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِسْمِ أُمِرت؟ قُلْتُ: أُمِرتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَمْتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِسْمِ أُمِرت؟ قُلْتُ: أُمِرتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَمْتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْتِكَ - قَالَ: قُلْتُ: قَدْ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأَسْلَمُ، فَفَعَلْتُ فَنَادَى مُتَاوِدًا: قَدْ أَمَضْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَقْتُ عَنْ عِبَادِي^(١). وأخرجاه في الصحيحين بنحوه^(٢).

رواية أنس عن أبي ذر

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فَرِحَ عَنْ سَقَبٍ بَنِيي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَتَزَلَّ جَبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ عَسَلَهُ نَبَاءُ زَمَرَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُتَلَيٍّ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَقْرَعَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ جَبْرِيلُ لِحَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ - فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى كَيْسِيهِ أَسْوَدَةٌ، وَعَلَى بَسَائِرِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرْتُ قَبِلَ يَمِينِيهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرْتُ قَبِلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَبْنِ الصَّالِحِ - قَالَ: - قُلْتُ لَجَبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِيهِ ضَحِكٌ وَإِذَا نَظَرْتُ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ» فذكر الحديث. قال: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَبْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كان يقولان: قال النبي ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَقَرَضَ اللَّهُ عَلَى أَمْتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَى أَمْتِكَ؟ قُلْتُ: رَوَى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته، فقال: «قَدْ رَأَيْتُهُ نُورًا، أَنَّى أَرَاهُ» هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد^(٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(٥). وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رَأَيْتُ نُورًا»^(٦).

رواية جابر بن عبد الله

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَمَّا كُنْتُ بَنِي قُرَيْشٍ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحَجَرِ فَجَلَى اللَّهُ لِي بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»^(٧) أخرجاه في الصحيحين من طرق وعند البيهقي قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا:

(١) أحمد: ٢٠٨/٤.

(٢) فتح الباري: ٣٤٨/٦، ومسلم: ١٥١/١.

(٣) فتح الباري: ٥٤٧/١، ٥٧٦/٣، ٤٣١/٦، ومسلم: ١٤٨/١.

(٤) أحمد: ١٤٧/٥. (٥) مسلم: ١٦١/١.

(٦) مسلم: ١٦١/١. (٧) أحمد: ٣٧٧/٣.

(٨) البخاري: ٤٧١٠ ومسلم: ١٧٠.

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَقَرَضَ اللَّهُ عَلَى أَمْتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَى أَمْتِكَ؟ قُلْتُ:

الشَّعْر، شَدِيدَ الْخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى إِرْبٍ مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّى كَانَتْ صَاحِبُكُمْ، قَالَ جَرِيرٌ: سَلَّمَ عَلَى أَبِيكَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ» ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن [يزيد] عن هلال - وهو ابن [خباب] - به^(٣)، وهو [سناد صحيح].

وروى البيهقي عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ رَجُلًا طَوَّالًا جَعْدًا، كَانَتْهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُزْبوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبَطَ الرَّأْسِ» وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ جَهَنَّمَ وَالدِّجَالَ فِي آيَاتِ أَرَاهَنَ اللَّهِ إِيَّاهُ، قَالَ: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيُومَ بْنِ لَقَادٍ» فَكَانَ قَتَادَةَ يَفْسِرُهَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ لَقِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَحَمَلْنَاهُ هَذِي لَيْلِي أُسْرِي بِلَ»^(٤) قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ مُوسَى هَدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ^(٥)، رواه مسلم في الصحيح، وأخرجاه عن قتادة مختصرًا^(٥).

وروى الإمام أحمد أيضًا عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، فَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظَعْتُ وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكْذِبُونَ» فَقَعْدَ مَعْتَزَلًا حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ»، قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِيَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَمْ يَرَأْ أَنْ يَكْذِبَ خَافَةً أَنْ يَجْحَدَ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتَ قَوْمَكَ لَأُحَدِّثَهُمْ بِمَا حَدَّثَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ: فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاؤُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهَا، قَالَ: حَدَّثَ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ» فَقَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ». قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِيَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمَنْ بَيْنَ مَصْفُوقٍ وَمَنْ بَيْنَ وَاضِعٍ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ - زَعَمَ - قَالُوا: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَعِتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى

هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ لَكُنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتَصَدِّقُهُ بِأَنْ يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا أَصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فِيهَا سُمِّيَ: أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ^(١).

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ليلة أُسْرِي برسول الله ﷺ، دخل الجنة فسمع في جانبها وخشًا فقال: «يَا جَرِيرُ مَا هَذَا؟» قَالَ: «هَذَا بِلَاكُ الْمُؤَدَّنِّ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ: «قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ، رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا» قَالَ: فَلَقِيَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، قَالَ: «وَهُوَ رَجُلٌ أَدَمٌ طَوِيلٌ، سَبَطَ شَعْرُهُ مَعَ أَذُنَيْهِ أَوْ قَوْفُهُمَا»، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَرِيرُ؟» قَالَ: «هَذَا مُوسَى»، قَالَ: فَمَضَى فَلَقِيَهُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مُتَهَيِّبٌ فَرَحَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكَلَّمَهُ يَسْلَمَ عَلَيْهِ، قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَرِيرُ؟» قَالَ: «هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ» - قَالَ - وَنَظَرَ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْحَبِيفَ، قَالَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَرِيرُ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ» وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَدًّا قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَرِيرُ؟» قَالَ: «هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ» قَالَ: فَلَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، قَامَ يَصِلِي فِإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يَصِلُونَ مَعَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ جِيءَ بِقَدَحَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ وَالْآخَرُ عَنِ الشِّمَالِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ عَسَلٌ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَالَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ الْقَدَحُ: «أَصْبَبْتُ الْفِطْرَةَ»^(٢)، [سناد صحيح، ولم يخرجوه].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أُسْرِي برسول الله ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَبِعَبْرِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ لَا نَصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ، فَارْتَدُّوا كُفْرًا فَضَرَبَ اللَّهُ رِقَابَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَخُوفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُومِ، هَانُوا تَمَرًا وَزَبْدًا فَتَرَقَّمُوا، وَرَأَى الدِّجَالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ، لَيْسَ بِرُؤْيَا مَنْامٍ، وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدِّجَالِ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ قَبْلَهَا إِنَّمَا أَقَمَرُ هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ، وَرَأَيْتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ [شَابًا] أَبْيَضَ، جَعَدَ الرَّأْسِ حَيِّدَ الْبَصَرِ، وَمُبْتَطِنَ الْخَلْقِ، وَرَأَيْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ

(١) دلائل النبوة: ٣٥٩/٢. (٢) أحمد: ٢٥٧/١.

(٣) أحمد: ١/٣٧٤ والنسائي في الكبرى: ١١٤٨٤.

(٤) دلائل النبوة: ٣٨٦/٢.

(٥) البخاري: ٣٢٣٩ ومسلم: ١٦٥.

وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، قَالَ: وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، قِيلَ لِي: خُذْ أَتَيْهَا شِئْتُ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ قَوْتُ أَمْتِكَ^(٤). وأخرجه من وجه آخر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجَرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَتَيْهَا، فَكُرِنتُ [كُرْنَةً] مَا كُرِنتُ مِنْهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيَّ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَتَيْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ جَعَدَ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْءَةٍ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبَ النَّاسِ شَبَهاً بِهِ عَزْرَةَ بَنِي مُسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبَ النَّاسِ شَبَهاً بِهِ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَّتُهُمْ، فَلَمَّا قَرَعْتُ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ» فَالْتَقْتُ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ^(٥).

(رواية عائشة أمر المؤمنين رضي الله عنهم)

روى البيهقي عن عائشة قالت: لما أسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أوقال: ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمِّيَ أبو بكر الصديق^(٦).

[زمان الإسراء وأنه كان بجسده وروحه يقظة لا مناماً]

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة^(٧)، وكذا قال عروة^(٨). وقال السدي: بستة عشر شهراً^(٩)، والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناماً من

المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى التَّبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ - قَالَ - فَجِئْتُ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ - أَوْ عَقَالٍ - فَنَعْتُهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ - قَالَ - وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتُ لَمْ أَحْفَظْهُ - قَالَ - فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ فِيهِ»^(١١) وأخرجه النسائي ورواه البيهقي^(١٢).

رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ فانتهي إلى سدره المنتهى وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به، حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، حتى يقبض منها ﴿إِذْ يَنْشِئُ النَّبُوءَ مَا يَشْنُو﴾^(١٣) قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطني رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقفحات، يعني: الكبائر. ورواه مسلم في صحيحه.

رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجالية، فذكر فتح بيت المقدس، قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صلتي خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصل، ثم جاء فيسط رداءه وكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس^(١٤). فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه، كما أشار كعب الأبحار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن من الله عليه بالإسلام فهدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك، قال له أمير المؤمنين عمر: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلية اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه.

رواية أبي هريرة رضي الله عنه

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «جِئْتُ أُسْرِي بِي، لَقِيتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَنَعْتُهُ، فَإِذَا رَجُلٌ حَسْبَتْهُ قَالَ: - مُضْطَرِبٌ رِجْلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْءَةٍ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى - فَنَعْتُهُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: - رُبْعَةٌ أَهْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَّاسٍ - يَعْنِي: حَمَامًا، قَالَ: - وَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ

(١) أحمد: ٣٠٩/١.

(٢) النسائي في الكبرى: ١١٢٨٥ ودلائل النبوة: ٣٦٣/٢.

(٣) أحمد: ٣٨/١.

(٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦ ومسلم: ١٥٤/١.

(٥) مسلم: ١٥٦/١ عن زهير بن حرب.

(٦) دلائل النبوة: ٣٦٠/٢ (٧) دلائل النبوة: ٣٥٥/٢.

(٨) دلائل النبوة: ٣٥٤/٢ (٩) القرطبي: ٢١٠/١٠.

مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصل في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما عليهما السلام وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستائة جناح ورأى رفرقاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرص الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا، وهو يخبرهم بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس - والله سبحانه وتعالى أعلم - وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقدام - والله أعلم - ثم إنه أسري بيده وروحه يقظة لا مناماً، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَيْنَا بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى

الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال [تعالى]: ﴿أَسْرَيْنَا بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري ^(١)، وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ^(٢) والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه محل على البراق وهو دابة بيضاء براقه لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه. والله أعلم.

(فائدة حسنة جليلة)

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمرو بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر، فذكر وروده عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار، فجاءه بأبي سفيان صخر ابن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينيه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصبح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنى كلهم معالجه، فغلبننا فلم نستطع أن نحركه كأننا نزاول به جبلاً. فدعوت إليه النجاجة، فظفروا إليه قفاً، إن هذا الباب

عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهَا» ^(١). وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي ^(٢). وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - بطوله، وفيه - فَيَأْتُونَ نَوْحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَأَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ» ^(٣). وذكر الحديث بكامله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفُسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلَعَنَّا عَلَيْهِمْ كَلِمَةً كَبِيرًا﴾ ^(١) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَ أَعْقَابِ الْفَاسِقِينَ لَأَنْفُسُكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا النَّبِيَّ ﴿٧﴾ عَنَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً وَمَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

[ذكر في التوراة أن اليهود يطفون مرتين]

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاهُ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ ^(٩) أي: تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به.

[الإفساد الأول من اليهود وجزاؤهم عليه]

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطاناً عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد؛ أي: قوة وعدة وسلطنة شديدة، فجاسوا خلال الديار، أي: غلوا بلادكم وسلكوا خلال

(١) أحمد: ١١٧/٣.

(٢) مسلم: ٢٠٩٥/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٣٦/٥ والنسائي في الكبرى: ٢٠٢/٤.

(٣) فتح الباري: ٤٢٨/٦.

سقط عليه النجاف والبيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى يصبح فتتظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليها، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد منقوب، وإذا فيه أثر مريط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث.

(فائدة): قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذرٍّ ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليل الأنصاري، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانئ، وعائشة وأسما بنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنه أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنُورِهِمْ ثُمَّ يُورُونَ﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَمَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ ^(٢) ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

[ذكر موسى وإعطاؤه التوراة]

لما ذكر تعالى أنه أسري بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكنيته أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ أي: لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ ^(١) أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهيج وتنبه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ

بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً وكان وعداً مفعولاً. وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلمين عليهم من هم؟ وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها، - والله الحمد - وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يوجبنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبره الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً، وما ريك بظلام للعبيد، فلنهم كانوا قد عمدوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألم، ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا أباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكيا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشrafهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

[الإفساد الثاني]

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الكرة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْتَوُوا بِخِوْفِكُمْ﴾ أي يبنونكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال السديار ﴿وَلِيَسْزِفُوا﴾ أي: يدمروا ويحربوا ﴿مَا عُلُوًّا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿نَبِيرًا﴾ (٧) عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ أَي: فيصرفهم عنكم ﴿وَلَنْ تُدْخِلَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عَذَابًا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما نذرهم لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٨) أي:

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه، ﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ويشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠) أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَيَقْبِضُهُمْ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾ (١٢)

[عجلة الإنسان ودعاؤه على نفسه]

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعاؤه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿وَالنَّارُ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه هلك بدعاؤه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الْآيَةَ، وَكَذَا فُسِرَ ابن عباس ومجاهد وقتادة، (٦) وقد تقدم في الحديث: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً إِبَاجِيَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا» (٧) وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾ (١١) وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجله، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك يا آدم، فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده، جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجله فلم يستطع،

(١) الطبري: ١٧/٣٦٩.

(٢) الطبري: ١٧/٣٩٠.

(٣) الطبري: ١٧/٣٩٠.

(٤) الطبري: ١٧/٣٩٠.

(٥) الطبري: ١٧/٣٨٩.

(٦) الطبري: ١٧/٣٩٣، ٣٩٤.

(٧) مسلم: ٤/٢٣٠٤.

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أُولَئِكَ نَعْمَلُ مَا
يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَهَاجَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى
لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

[مسألة من مات من الأولاد الصغار]

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها
قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار
وأبائهم كفار: ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم
والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته؟ وقد
ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه.

(فالحديث الأول) عن الأسود بن سريع. روى الإمام أحمد
عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجِبُونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَتَمَّحٌ، وَرَجُلٌ
هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ
الْإِسْلَامَ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَتَمَّحُ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ
الْإِسْلَامَ وَالصَّبِيَّانَ يَخْدِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ جَاءَ
الْإِسْلَامَ وَمَا أَغْفِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرِ فَيَقُولُ: رَبِّ
مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَالِيْقَهُمْ لِيُطِيعَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ
ادْخُلُوا النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ
عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا». وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي
رافع عن أبي هريرة مثله، غير أنه قال في آخره: «فَمَنْ دَخَلَهَا
كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا»^(١)
وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام^(٢)، ورواه
البيهقي في كتاب «الاعتقاد» وقال: هذا إسناد صحيح،
ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة،
فذكره مرفوعاً، ثم قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: «وَمَا
كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»^(٣) وكذا رواه معمر عن
عبدالله بن طائوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفاً^(٤).

(الحديث الثاني): عن أبي هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال:
«كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَرِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ
يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَعَاءً، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ
جَدْعَاءٍ؟» وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت
(١) الطبري: ١٧/٤٠٠. (٢) أحمد: ٤/٢٤.
(٣) الطبراني: ١/٢٨٧. (٤) الطبري: ١٧/٤٠٣.
(٥) القرطبي: ١٠/٢٣٢.

عنه. وقال معمر عن قتادة: «أَلَمْ تَرَ طَائِفَةً فِي عُنُقِهِ» قال:
عمله «وَنُفِخَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قال: نخرج ذلك العمل
«كِتَابًا يُلْقَاهُ مَشُورًا»^(١٢) قال معمر، وتلا الحسن البصري:
«عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيعِدٌ»^(١٣) يا ابن آدم بسطت لك
صحيفتك، ووكّل بك ملكان كريان أحدهما عن يمينك
والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك،
وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقل
أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك
معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً
«أَفْرَأَى كَيْفَ تَكُنُّ» الآية، فقد عدل - والله - من جعلك حسيب
نفسك^(١٤)، هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله.

«مَنْ أَهْتَدَى فَأَمَّا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَا تَنصِلُ عَلَيْهِ وَلَا
نُزْرَ وَارِزَّةٌ وَزَرَّ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»^(١٥)

[لا يحمل أحد ذنب أحد]

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتضى أثر النبوة،
فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه «وَمَنْ ضَلَّ» أي: عن
الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما
يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: «وَلَا نُزْرَ وَارِزَّةٌ وَزَرَّ أُخْرَى»
أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه،
كما قال تعالى: «وَلَنْ تَنصِفَ لَكَ إِثْمَ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ» ولا
منافاة بين هذا وبين قوله: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ
أَنْفُسُهُمْ»، وقوله: «وَمَنْ أَنْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ يَغْفِرْ عَلَيْهِمْ»
فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب
ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا
[يحملوا] عنهم شيئاً، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا
قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»^(١٦).

[لا عذاب إلا بعد بعثة الرسول]

إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام
الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: «كُلَّمَا نَزَّلْنَا
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوهُمْ حَزَنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ»^(١٧) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا
مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْشَأَ إِلَّا فِي سَبِيلِ كِبَرٍ»^(١٨) وكذا قوله:
«وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ»^(١٩) وقال تعالى: «وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا

صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم - شك موسى - قال: «ذَرَارِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢). وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ»^(٣)، وفي رواية لغيره «مُسْلِمِينَ».

(الحديث الثالث): عن سمرة رضي الله عنه. رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وَأَوَّلَادُ الْمُشْرِكِينَ»^(٤). وروى الطبراني عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين: فقال: «هُمْ حَتَمٌ أَهْلُ الْجَنَّةِ»^(٥).

(الحديث الرابع): عن عم حسناء روى أحمد عن حسناء بنت معاوية، من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال: «النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْوَلِيدُ فِي الْجَنَّةِ»^(٦).

[كراهة الكلام في هذه المسألة]

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والفاطم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم^(٧)، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس رضي الله عنه وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُوَاتِنًا - أَوْ مُقَارِبًا - مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ» قال ابن حبان: يعني: أطفال المشركين^(٨)، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به، ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس موقوفاً^(٩).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمْدَمْنَاهَا نَذِيرًا﴾^(١٠)

[قراءات قوله: «أمرنا» ومعانيه]

واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: «آتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»^(١١) فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل

الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، رواه ابن جريج عن ابن عباس^(١٢)، وقاله سعيد بن جبير أيضاً^(١٣). قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: «أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُحَرِّمِيهَا» الآية^(١٤)، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس^(١٥).

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم^(١٦)، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة^(١٧). وعن مالك، عن الزهري «أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا» أكثرنا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾

﴿وَكُنْزِي رَبِّكَ يُدْثِرُ بِأَوْدِهِمْ خَيْرًا بِصِيرًا﴾^(١٨)

[تهديد لقريش]

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام^(١٩)، ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعمدوكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكُنْزِي رَبِّكَ يُدْثِرُ بِأَوْدِهِمْ خَيْرًا بِصِيرًا﴾^(٢٠) أي: هو عالم بجميع أعمالهم: خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَاسِقَةَ عَبَلْنَاهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾^(٢١) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا

(١) البخاري: ١٣٨٥ ومسلم: ٢٦٥٨.

(٢) أحمد: ٣٢٦/٢ والمجمع: ٧/٢١٩.

(٣) مسلم: ٢٨٦٥. (٤) البخاري: ٧٠٤٧.

(٥) المعجم الكبير: ٧/٢٤٤ والمجمع: ٧/٢١٩.

(٦) أحمد: ٥٨/٥ وفتح الباري: ٣/٢٤٦.

(٧) أحمد: ٧٣/٥. (٨) ابن حبان: ٨/٢٥٦.

(٩) كشف الاستار: ٣/٣٥. (١٠) الطبري: ١٧/٤٠٣.

(١١) الطبري: ١٧/٤٠٣. (١٢) الطبري: ١٧/٤٠٤.

(١٣) الطبري: ١٧/٤٠٤. (١٤) الطبري: ١٧/٤٠٤.

(١٥) الطبري: ١٧/٤٠٤، ٤٠٥. (١٦) المجمع: ٦/٣١٨.

سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيَهُمْ مَشْكُورًا ﴿١١﴾

[جزاء من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة]

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَبَدْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَذْخُورًا﴾ ﴿١٢﴾ مبعداً مقصياً ذليلاً مهاناً.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيَهَا﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيَهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٣﴾.

﴿كُلًّا نُمِيزُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿١٤﴾ أَنْظَرَكَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيها فيه ﴿مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿١٤﴾ أي: لا يمنعه أحد، ولا يردعه راد. قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿١٥﴾ أي: منقوصاً^(١). وقال الحسن وغيره أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿أَنْظَرَكَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبیح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمّر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغللها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين:

«إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّنَ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ»^(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿١٧﴾

[لا تشركوا بالله أحداً]

يقول تعالى: والمراد: المكلفون من الأمة، لا نجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي: على إشراكك به ﴿وَمَخْذُولًا﴾ ﴿١٧﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ [أَوْشَكَ] اللَّهُ لَهُ بِالْغَنَى، إِمَّا [أَجَلٍ أَجَلٍ] وَإِمَّا غِنًى [عَاجِلٍ]»^(٣) رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي حسن صحيح غريب^(٤).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿١٨﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ ﴿١٩﴾

[الأمر بالتوحيد والإحسان بالوالدين]

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى: الأمر، قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني وصى^(٥)، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (وَوَصَّىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)^(٦) ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين، فقال: ﴿وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنَّ السَّيِّئَاتُ﴾. وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ﴾ أي: لا تسمعها قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال

(١) الطبري: ١٧/٤١٠.

(٢) فتح الباري: ٦/٣٨٦، ومسلم: ٤/٢١٧٧.

(٣) أحمد: ١/٤٠٧.

(٤) أبو داود: ٢/٢٩٦، وتحفة الأحوذى: ٦/٦١٧.

(٥) الطبري: ١٧/٤١٤.

(٦) الطبري: ١٧/٤١٣، ٤١٤.

إِنَّهُ كَانَ بِعَادِهِ خَيْرًا نَبِيرًا ﴿١٠﴾

الاعتصاف في الإنفاق

يقول تعالى أمرًا بالاعتصاف في العيش، دائمًا للبخل، ناهيًا عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعدها ملومًا محسورًا، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعدها بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال ﴿تَارِجُ الْبَصَرِ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ ﴿١١﴾ ثم أنجع البصر كَرَيْنَ يَقَبِّبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِرًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١٢﴾ أي: كليل عن أن يرى عيبًا، هكذا فسر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسين وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم ﴿٩﴾. وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ وَجْهَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تَحْتِهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا مَبْقَتْ - أَوْ قُرْتُ - عَلَىٰ جِلْدِهِ حَتَّىٰ تَخْجِي بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَسْرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْهَا مَكَائِسُهُ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَسْبُحُ» ﴿١١﴾. هذا لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرع عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُضْبَحُ الْعِيَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَرَلَّانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُبْسِكًا تَلْفًا».

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ

وَفِي رَوَايَةٍ: «ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلَا أَقْرَبَ» ﴿١١﴾، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَجْمُهُ» ﴿١٢﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطًا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، ثم قال منفردًا عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق ﴿١٣﴾، وكذا قال ابن عباس ﴿١٤﴾، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مدًا في غير حق كان مبذرًا ﴿١٥﴾. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد ﴿١٦﴾.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أَنْفِقَ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ، فَإِنَّمَا طَهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمَسْكِينِ» فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْلِلْ لِي، قَالَ: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ، وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أدبت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ، إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا، وَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِنَّمَا عَلَىٰ مَنْ بَدَّلَهَا» ﴿١٧﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسرف وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ﴿١٧﴾ أي: جحودًا، لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ بَيْعَاتُ رَحْمَتِي مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: إذا سألك أقاربك ومن أمرك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ﴿١٨﴾ أي: عدهم وعدًا بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فنسئلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ﴿١٨﴾ بالوعد، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن وقتادة وغير واحد ﴿١٨﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَنحُورًا﴾ ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

(١) أحمد: ٢٢٦/٢. (٢) مسلم: ١٩٨٢/٤.

(٣) الطبري: ٤٢٨/١٧. (٤) الطبري: ٤٢٩/١٧.

(٥) الطبري: ٤٢٩/١٧. (٦) الطبري: ٤٢٩/١٧.

(٧) أحمد: ١٣٦/٣. (٨) الطبري: ٤٣١/١٧، ٤٣٢.

(٩) الطبري: ٤٣٤/١٧، ٤٣٥.

(١٠) فتح الباري: ٣٥٨/٣ ومسلم: ٧٠٨/٢.

قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَمَتِهِمْ»، قال: «أَفْتَجِبُهُ لِابْنَتِكَ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَتِهِمْ». قال: «أَفْتَجِبُهُ لِأَخِيكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ»، قال: «أَفْتَجِبُهُ لَعَمْرِيكَ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَلَانِهِمْ»، قال: «أَفْتَجِبُهُ لِخَالَتِكَ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَأَخْصِنْ فَرْجَهُ» قال: فلم يكن بعد ذلك، الفتى يلتفت إلى شيء^(٤).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٢)

[النهي عن قتل النفس بغير حق]

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي بِالْمُحْصَنِ، وَالتَّارِكُ لِيَدِينِهِ الْمَقَارِفَ لِلْجَمَاعَةِ»^(٥). وفي السنن: «لَزَوَالِ الثُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ»^(٦).

وقوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا» أي: سلطنة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقد أخذ الإمام الخبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، أنه سيملك لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل مظلوماً ﷺ، وقد تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قاله ابن عباس واستنتبه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجيب.

وقوله: «فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ» قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به، أو يقتص من غير القاتل. وقوله: «إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا»^(٣٣) أي: إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالب قادراً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا

وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا أَنْفَقًا إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١) وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن [عمر] أرفوعاً: «إِيَّاكُمْ وَالشَّعْ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَجَلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»^(٢).

وقوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» إخباراً أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: «إِنَّهُ كَانَ يَبْعَادُوهَ خَيْرًا بِصِيرًا»^(٣) أي: خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَ عَنْ رِزْقِهِمْ وَإِنَّا نَكْفِيهِمْ»

كَانَ خَطَاً كَبِيراً» (٣٤)

[النهي عن قتل الأولاد]

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَ عَنْ رِزْقِهِمْ وَإِنَّا نَكْفِيهِمْ» وفي الأنعام: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ إِنَّهُ كَانَ خَطَاً كَبِيراً»^(٣٥) أي: من فقر «فَتَحْنُ رِزْقُكُمْ وَإِنَّا نَكْفِيهِمْ»^(٣٦) أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم: (كَانَ خَطَاً كَبِيراً) وهو بمعناه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ يَدًا وَهُوَ خَلَقَكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»^(٣٧).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٨)

[الأمر باجتناب الزنا وأسبابه]

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتة ومخالطة أسبابه ودواعيه: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً» أي: ذنباً عظيماً «وَسَاءَ سَبِيلًا»^(٣٩) أي: وبش طريقاً ومسلكاً.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «إِذْنُهُ» فدنا منه قريباً، فقال: «اجْلِسْ» فجلس، فقال: «أَتَجِبُ لَكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك،

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤. (٢) أحمد: ١٥٩/٢.

(٣) فتح الباري: ١٣/٨. (٤) أحمد: ٢٥٦/٥.

(٥) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ ومسلم: ١٣٠٢/٣.

(٦) تحفة الأحوذني: ٢٥٦/٤ والسائي: ٨٢/٧ وابن ماجه: ٨٧٤/٢.

بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتٌ مَشْهُوْلًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٧﴾

[الأمر بالتصرف الحسن في مال اليتيم وبالكيل

الأوفى والوزن المستقيم]

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالتييم إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأْمُرَنَّ عَلَىٰ اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلِّئَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ» ^(١) وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَاتٌ مَشْهُوْلًا﴾ ^(٢) أي: عنه.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ﴾ أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرهما، كالقسطاس، وهو الميزان. وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ^(٣) أي: مآلا ومنقلبًا في آخرتكم، قال سعيد عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ^(٤) أي: خير ثوابًا وأحسن عاقبة ^(٥). وابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْهُوْلًا﴾ ^(٦)

[لا تكلموا إلا بالعلم]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تقل ^(٧). وقال العوفي: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم ^(٨). وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور ^(٩). وقال قتادة: لا تقل: رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ^(١٠)، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وفي الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» ^(١١). وفي سنن أبي داود: «يُبْشَسُ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ:

رَعْمُوا» ^(١٢)، وفي الحديث الآخر: «إِنَّ أَقْرَى الْفِرَى أَنْ يُبْرِى الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَبَا» ^(١٣). وفي الصحيح: «مَنْ تَحَلَّمَ خُلْمًا كُفِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَغْفَرَ بَيْنَ شُعَيْرَتَيْنِ، وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ» ^(١٤). وقوله: ﴿كُلُّ أَوْلَٰئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْهُوْلًا﴾ ^(١٥) أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعما عمل فيها، ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك».

﴿وَلَا تَقْدِسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ^(١٦) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ^(١٧)

[ذم مشية التبختري]

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التبخر والتبختر في المشية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متباليًا مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وقاتم الأعاق خاوي [المخترق]

وقوله: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ^(١٨) أي: بتبايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا، إِذْ خَسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(١٩). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ^(٢٠) أما من قرأ: ﴿سَيِّئُهُ﴾ أي: فاحشة، فمعناه عنده كل هذا الذي نهينا عنه من قوله: ﴿وَلَا تَقْدُسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ^(٢١) إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها، مكروهًا عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ: ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَٰٓأَيُّهَا﴾ ^(٢٢) إلى هنا فسيئته أي: فقيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

(١) مسلم: ٣/١٤٥٨. (٢) الطبري: ١٧/٤٤٦.

(٣) الطبري: ١٧/٤٤٦. (٤) الطبري: ١٧/٤٤٧.

(٥) الطبري: ١٧/٤٤٧. (٦) الطبري: ١٧/٤٤٦.

(٧) فتح الباري: ٩/١٠٦. (٨) أبو داود: ٥/٢٥٤.

(٩) فتح الباري: ١٢/٤٤٦. (١٠) فتح الباري: ١٢/٤٤٦.

(١١) مسلم: ٣/١٦٥٤.

يقول تعالى: قل يا محمد هؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى، لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نبى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقّدها فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (١٢) أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿سُبْحَنَهُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١)

[كل شيء يسبح الله]

يقول تعالى: تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتزهره وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته والهيبة:

فقبي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ (١٠) أن دعواً للرحمن ولداً (١١).

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تفقهون تسيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسيح الطعام وهو يؤكل (٢). وروى الإمام أحمد عن [معاذ بن أنس] عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «ارْكَبُوهَا سَالَةً وَدَعُوهَا سَالَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَامِيٍّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَسْوَاقِ، قَرَبَ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ مِنْهُ» (٣).

فَلْتَقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (١٦)

[كل ما سبق وحي وحكمة]

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلوّمك نفسك ويلومك الله والخلق ﴿مَدْحُورًا﴾ (١٦) أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً (١٦)، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه، معصوم.

﴿أَفَأَصْفَقْتُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾

إِنْكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (١٠)

[الرد على الزاعمين أن الملائكة بنات الله]

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين، عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَقْتُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنْكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (١٠) أي: في زعمكم أن الله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأفون أن يكن لكم، وربما فتلتموهن بالوآد، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩)

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْجِبَالِ هَذَا

(٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ

كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ

أَخَصَّاهُمْ فِي ذُرِّيَّتِهِ عَدَا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٩٦)

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: صرّفنا فيه من

الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ،

فبترجوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ

أَي: الظالمين منهم إِلَّا نُفُورًا﴾ (٩٦) أي: عن الحق وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَنْفَعُوا لَكَ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٩٧)

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٩٨)﴾

(١) الطبري: ٤٥٢/١٧. (٢) فتح الباري: ٦/٦٧٩.

(٣) أحمد: ٤٣٩/٣.

قَرَأَتِ الْقُرْآنَ جَمَلًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴿١٠﴾ قَالَتْ: فاجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، قال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك، قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها^(١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَقْفَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي مَآذِنِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو النفل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً يتفهمهم ويبتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، ﴿وَلَوْ﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الآية، قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية، إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم فضاقتها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يَمْضِيهَا ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنها يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الساهر في فثام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرون بها^(٢).

﴿مَنْ أَغْرَبَ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ إِذْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (١٧) أَنْظِرْ كَيْفَ صَبَرُوا لَكَ الْأَمْتَالُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (١٨)

[تناجي قريش بعد سماع القرآن]

يخبر تعالى نبيه ﷺ بما يناجي به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سرًا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السَّخَرِ على المشهور، أو من السَّخَرِ وهو الرثة، أي: إن تتبعون - إن اتبعتم محمدًا - إلا بشرًا يأكل، وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رُئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر. ومنهم من قال:

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع.

وقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١) أي: إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ لَكَيْفِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُمْ بَغْلُهُ»^(١)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قُرْبَى أُمِّتٍ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية، وقال: ﴿فَكَايْنٍ مِنْ قُرْبَى أُمْلِكْنَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية، ومن أقنع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١) كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْتَ أَنَّ أَسْمَكُهُمَا مِنْ لَحْمٍ مِنْ بَقِيَّةِ اللَّهِ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١) إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ إلى آخر السورة. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَمَلًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ﴿جَنَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَقْفَهُوهُ﴾ وفي مآذِنِهِمْ ﴿وَقَرَأَ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ﴾ (١٦) ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (١٦)

[الحجاب على قلوب المشركين]

يقول تعالى لرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا. قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُوكَ إِلَيْهِ وَفِي مَآذِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: مانع حائل أن يصل إلينا ما تقول شيء. وقوله: ﴿جَنَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥) بمعنى ساتر كميون ومشووم بمعنى يامن وشائم؛ لأنه من يَمْنَهُمْ وشَأْمُهُمْ، وقيل: مستورًا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَلْفِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مُدَّمَا أَتَيْنَا - أو أَيْنَا - (قال أبو موسى: الشك مني)، وِدِينَةُ فَلَيْنَا، وأمره عصينا، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر ﷺ: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: ﴿إِنَّمَا لَنْ تَرَانِي﴾ وقرأ قرآنًا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا

(١) فتح الباري: ٢٠٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/٤.

(٢) الطبري: ٤٥٧/١٧. (٣) مستد أبي يعلى: ٥٣/١.

(٤) الطبري: ٤٥٨/١٧.

[الرد على من لا يؤمنون بالحياة بعد الممات]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستعبدين وقوع المعاد،
 القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا﴾
 أي: تراباً، قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
 رضي الله عنهما: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا﴾ (١) أي: يوم القيامة
 بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع
 الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَوَدَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (٢) أي: أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا
 (٣) فَأَوَدَا نَاكَ إِذَا كَرَّ خَايَرَةً (٤). وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا
 مَثَلًا وَلَيْسَ خَلْقَهُ﴾ (٥) الآيتين، فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن
 يبيهن فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيداً﴾ (٦) إذ هما أشد
 امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي
 صُدُورِكُمْ﴾ قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد:
 سألت ابن عباس عن ذلك، فقال: هو الموت، وروى عطية
 عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى
 لأحييتكم (٧)، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن
 وقتادة والضحاك وغيرهم (٨)، ومعنى ذلك: أنكم لو
 فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة،
 لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ.
 وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني:
 السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا،
 فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا
 حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم
 بشرًا تتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال
 ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية،
 وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ نَرْجِعُهُمْ﴾ قال ابن عباس
 وقتادة: يرجعونها استهزاء (٩)، وهذا الذي قاله هو الذي
 تعرفه العرب من لغاتها، لأن الإنعاض هو التحرك من أسفل
 إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم - وهو ولد
 النعامة - نعاض، لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه
 ويقال: نعاض سته، إذا تحركت وارتفعت من [منبتها].

كأن. ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا
 قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَفُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَبِيلًا﴾ (١٠) أي: فلا يمتدون إلى الحق ولا يجدون إليه خلاصاً،
 قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن
 شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل
 ابن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي،
 حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ
 وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً
 يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له
 حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق
 تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض
 سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت
 الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون
 له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال
 بعضهم لبعض: مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا
 كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له
 حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم
 لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم
 تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج
 حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني
 يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة
 والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت
 أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا
 والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل
 فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من
 محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف
 الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا،
 حتى إذا تجأنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا
 نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به
 أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه (١١).

﴿وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوَدَا لَمَرَدُودُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١٢) ﴿قُلْ
 كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيداً﴾ (١٣) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾
 ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ
 نَرْجِعُهُمْ وَنُقْبِلُوكَ مَعَهُ قُلْ هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (١٤) ﴿يَوْمَ
 يَدْعُوهُمْ فَتَجِيهِيُونَ﴾ (١٥) ﴿يَوْمَ تَنْظُرُونَ أَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦)

(١) ابن هشام: ١/ ٣٣٧. (٢) الطبري: ١٧/ ٤٦٤.

(٣) الطبري: ١٧/ ٤٦٣. (٤) الطبري: ١٧/ ٤٦٣.

(٥) الطبري: ١٧/ ٤٦٧.

﴿لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَشِيرُ أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أخرجه من حديث عبد الرزاق (٢).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُزِّ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ بِرَحْمَتِكَ أَتَوَيْنَ شَأْ يَعْذِبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٥١) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٢)

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُزِّ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ شَاءَ رَبُّكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَتَوَيْنَ شَأْ يَعْذِبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ - يا محمد - ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٥١) أي: إنهم أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية.

[تفصيل الأنبياء بعضهم على بعض]

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَفْضُلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» (٣) فإن المراد من ذلك هو التفصيل بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصًا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَبِئْسَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وفي الشورى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليه السلام على المشهور، وقد بسطنا بدلائله في غير هذا الموضوع، والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٢)

تنبه على فضله وشرفه. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَفَّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ

(١) أحد: ٣١٧/٢.

(٢) فتح الباري: ٢٦/١٣، ومسلم: ٤/٢٠٢٠.

(٣) فتح الباري: ٥١٩/٦، ومسلم: ٤/١٨٤٤.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥٨) وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥٩) أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تبارك وتعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٦٠) أي: إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يخالف ولا يانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلِّجٍ يَالْبَسَرِ﴾ (٦١)، ﴿لَمَّا قَوْلْنَا لِنُفْسٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٢). وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٦٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (٦٤) أي: إنما هو أمر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٥) وكقوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ زَوْجُنَا لَوْ لَبَسُوا إِلَّا عَيْبَةً أَوْ ضَعُفًا﴾ (٦٦) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِيزَ زُرْقًا﴾ (٦٧) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشِيرًا﴾ (٦٨) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ حِيلَةٌ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (٦٩) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَسُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ (٧٠) وقال تعالى: ﴿قُلْ كَلَّ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (٧١) قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا مِنَ الْهَادِينَ﴾ (٧٢) قُلْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧٣).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٧٤)

[ليتكلهم العباد بالحسن والأدب]

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي فربما أصابه بها. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَكَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حُشْرًا﴾ (١) وقال: ﴿وَلَيَكُنْ مِنَ قَرِيبٍ عَذَابٌ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ الآيات. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَيْنَا نُمُودُ الْأَتَافَةِ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفٌ﴾ (٢)

[سبب علم إرسال الآيات]

وعن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يجيئ الموتى، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنيت بهم. قال: «يَا رَبِّ اسْتَأْنِ بِهُمْ» (٣) وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما (٤)، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، ف قيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوها، فإن كفروا هلكوا، كما أهلك من كان قبلهم من الأمم. قال: «لَا، بَلْ اسْتَأْنِ بِهُمْ» وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٥) الآية (٦)، ورواه النسائي من حديث جرير (٧).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «وَتَفْعَلُونَ؟» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: «بَلْ يَأْتِ التَّوْبَةَ وَالرَّحْمَةَ» (٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفٌ﴾ (٩) قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت

فَنَسْرَجُ، فَكَانَ يَفْرُؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ» يعني: القرآن (١).

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٣)

[آلهة المشركين لا تقدر على النفع والضرر]

بل تطلب القرية إلى الله

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عِبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ﴾ «ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ» من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم (ف) إنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (١) أي: بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا (٢).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية، روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٤) أي: ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عبادًا بالله منه.

﴿وَلَيَكُنْ مِنَ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْرِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥)

[تهلك أو تعذب قري الكفار كلها قبل قيام الساعة]

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقال

(١) فتح الباري: ٥٢٢/٦. (٢) الطبري: ١٧/٤٧١.

(٣) فتح الباري: ٨/٢٤٩، ٢٥٠. (٤) الطبري: ١٧/٤٧٧.

(٥) الطبري: ١٧/٤٧٧. (٦) أحمد: ١/٢٥٨.

(٧) النسائي في الكبرى: ٦/٣٨٠، والطبري: ١٧/٤٧٦.

(٨) أحمد: ١/٢٤٢.

تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد، وكل من قال إنها ليلة الإسراء، فسر كذلك بشجرة الزقوم^(٤) وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٥) أي: تمادياً فيها هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَلَوْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَاسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(٦) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا^(٧)

[قصة آدم وإبليس]

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس، استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَاسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(٨) كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا لِلرَّبِّ جَرَاءٌ وَكَفَرًا وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيَنْظُرُ﴾^(٩) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ^(١٠) الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً، وقال مجاهد: لأحتوين، وقال ابن زيد: لأضلنهم^(١١)، وكلها متقاربة، والمعنى أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي، لئن أنظر تسلي لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَثُ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَوْفُورًا﴾^(١٢) وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتُكَ وَأَطَاعَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(١٣) إِنَّ عِبَادِي لَئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا^(١٤)

على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه^(١)، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر: أحذثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن^(٢).

وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنْ هُمَا لَبَتَا يَتَخَسَّفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَوِّفُ بَيْنَهُمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْرَعُوا إِلَى ذِمَّتِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ - ثُمَّ قَالَ -: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا أَخَذَ أَغْيَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِيْرَ عَبْدُهُ أَوْ تَزِيْرَ أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا»^(٣).

﴿وَلَوْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّءْيَا آلَئِيَّ أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ وَيُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٤)

[إحاطة الله بالناس وجعله رؤيا النبي فتنة لهم]

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً على إبلاغ رسالته ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. [و] قال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: ﴿وَلَوْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم^(٥)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرَّءْيَا آلَئِيَّ أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية، روى البخاري عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرَّءْيَا آلَئِيَّ أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ﴾ شجرة الزقوم^(٦)، وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما^(٧)، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس^(٨).

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء، مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد^(٩)، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، والله الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعد ما كانوا على الحق، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بها لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمرًا وزبدًا، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول:

(١) الطبري: ١٧ / ٤٧٨. (٢) ابن أبي شيبة: ٢ / ٤٧٣.

(٣) فتح الباري: ٢ / ٦١٥، ومسلم: ٢ / ٦١٨.

(٤) الطبري: ١٧ / ٤٧٩، ٤٨٠. (٥) فتح الباري: ٨ / ٢٥٠.

(٦) أحمد: ١ / ٢٢١، وعبد الرزاق: ٢ / ٣٨٠.

(٧) الطبري: ١٧ / ٤٨١، ٤٨٤.

(٨) الطبري: ١٧ / ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٢.

(٩) الطبري: ١٧ / ٤٨٤ و ٤٨٥ و ٤٨٦.

(١٠) الطبري: ١٧ / ٤٨٩.

خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءً، فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ^(١٣) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»^(١٤) وقوله تعالى: «وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا»^(١٥) كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق «إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْغَىَّ وَوَعَدُكَ فَخَلَقْتُكُمْ» الآية، وقوله تعالى «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى: «وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا»^(١٦) أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً. رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ أَفْئَكُ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَذَّابٌ كَذِبًا^(١٧)

[الفلك من علامات رحمة الله]

ويخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لا يتغاثمهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: «إِنَّهُ كَذَّابٌ كَذِبًا»^(١٨) أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم. «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْيَمِّ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَمَا تَجْعَلُونَ إِلَّا أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا»^(١٩)

[الكفار لا يذكرون عند الضر إلا الله]

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْيَمِّ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه» أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى. وقوله تعالى «فَمَا تَجْعَلُونَ إِلَّا أَعْرَضْتُمْ» أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: «أَذْهَبْ» فقد أنظرتك كما قال في الآية الأخرى: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»^(٢٠) إلى يومِ الْقِيَامَةِ الْمَعْلُومِ^(٢١) ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: «فَمَنْ يَنْعَكْ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ» أي: على أعيالكم «جَزَاءُ مَوْفُورًا»^(٢٢) قال مجاهد: وافراً^(٢٣)، وقال قتادة: موفوراً عليكم، لا ينقص لكم منه^(٢٤). وقوله تعالى: «وَأَسْفِزْ مِنْ أَسْطَفَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» قيل: هو الغناء قال مجاهد: باللهو والغناء^(٢٥) أي: استخفهم بذلك وقال ابن عباس في قوله: «وَأَسْفِزْ مِنْ أَسْطَفَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» قال: كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل^(٢٦) وقاله قتادة^(٢٧) واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: «وَأُجِيبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجُلًا» يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالهم ورجلهم، فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع راجل، وصحب جمع صاحب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدره كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَأْنَا أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُّمًا أَنَّا»^(٢٨) أي: تزعجهم إلى المعاصي إذ عاجزاً وتسوقهم إليها سوقاً وقال ابن عباس ومجاهد في قوله: «وَأُجِيبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجُلًا» قال كل راجل وماشي في معصية الله^(٢٩). وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه^(٣٠). تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهي في المسابقة عن الجلب والجنب ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات. وقوله تعالى: «وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ» قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى^(٣١). وقوله: «وَالْأَوْلَادِ» قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك يعني أولاد الزنا^(٣٢). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم^(٣٣). وقال قتادة عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا [على غير صبغة الإسلام، وجزّؤوا من أموالهم جزءاً للشيطان]^(٣٤). وكذا قال قتادة سواء^(٣٥). ولم يخص بقوله: «وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ» معنى الشراكة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي

(١) الطبري: ٤٩٠ / ١٧. (٢) الطبري: ٤٩٠ / ١٧.

(٣) الطبري: ٤٩٠ / ١٧. (٤) الطبري: ٤٩١ / ١٧.

(٥) الطبري: ٤٩١ / ١٧. (٦) الطبري: ٤٩٢، ٤٩١ / ١٧.

(٧) الطبري: ٤٩١ / ١٧. (٨) الطبري: ٤٩٣ / ١٧.

(٩) الطبري: ٤٩٤ / ١٧. (١٠) الطبري: ٤٩٤ / ١٧.

(١١) الطبري: ٤٩٥ / ١٧. (١٢) الطبري: ٤٩٥ / ١٧.

(١٣) مسلم: ٢١٩٧ / ٤.

(١٤) فتح الباري: ٣٨٦ / ٦، ومسلم: ١٠٥٨ / ٢.

وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله، ويتفهم به، ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها، ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ﴿وَمَلَكْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال ﴿و﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضا على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ آتٍ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان المستهية اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فَيْسِلًا﴾ (٧١) ومن كانت في هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

[كل أحد يدعى بإمامه يوم القيامة]

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أحد بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقناة: أي بنبيهم. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد بكتابتهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير.

ودروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم فيحتمل أن يكون أراد هذا وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم^(١). وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك^(٢). وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارَةِ بُرْجَيْنِ﴾ (٧٣) وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُحْسِنِينَ شَافِقِينَ وَمَعَا فِيهِ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَرَبَّى كُلَّ مَنُونٍ جَانِبَهُ كُلِّ امْتِعَةٍ نَدْعِي إِلَى كِتَابِ الْيَوْمِ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) هذا كِتَابُنَا يَطُوقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٥) وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون

دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٧٦) أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويحجدها إلا من عصم الله. ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخْفَى بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا﴾ (٧٧)

[ألا يأتي عذاب الله في البر]

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه: أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا، وهو المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد وغير واحد^(١)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ لَمْ جَعَلْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٧٨) يَغْمَرُ مِنْ عِنْدِنَا ﴿وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَاجِدٍ مُنْقُوشٍ﴾ (٧٩) وقال: ﴿أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ (٨٠) وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا﴾ (٨١) أي: ناصرا يرد ذلك عنكم، ويُتَقَذَّمُ منه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كُفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَبِيرًا﴾ (٨٢)

[ولو شاء أن يعيدكم في البحر]

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر ﴿أَمْ يُبَدِّلُكُمْ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً﴾ ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها^(٢). وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كُفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَبِيرًا﴾ (٨٣) قال ابن عباس نصيرا^(٣). وقال مجاهد: نصيرا ثائرا أي يأخذ بثأركم بعدكم^(٤). وقال قناة ولا نخاف أحدا يتبعنا بشي من ذلك^(٥).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْآلَمِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ غَيْرٍ مِّنْهُ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾ (٨٤)

[بيان شرف الإنسان وكرمه]

[و] يخبر تعالى عن تشریفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٨٥) أي: يمشي قائما منتصباً على رجليه ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه -

(١) الطبري: ١٧/٤٩٨ عن قناة. (٢) الطبري: ١٧/٥٠٠.

(٣) الطبري: ١٧/٥٠٠. (٤) الطبري: ١٧/٥٠٠.

(٥) الطبري: ١٧/٥٠٠. (٦) الطبري: ١٧/٥٠٢.

(٧) الطبري: ١٧/٥٠٢، ٥٠٣.

﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلِكُوتُ جَانَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧١) سُنَّةٌ مَّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسِنَتِنَا مَخُوبًا ﴿٧٢﴾

[سبب نزول الآية]

نزلت في كفار قريش، لما هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم - بعد ما اشتد أذاهم له - إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم، وسلطه عليهم، وأظفره بهم، فقتل أشrafهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةٌ مَّن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسlnا، وأذوهم - بخروج الرسول من بين أظهرهم - يأتيهم العذاب - ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا يقبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ يُدْلِكُ الشَّمْسُ إِلَى عَسَىٰ أَلَيْلٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٣) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ بِحَمْدِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٤﴾

[الأمر بإقامة الصلوات في أوقاتها]

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمرا له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ يُدْلِكُ الشَّمْسُ﴾. وقال هشيم عن مغيرة، عن الشعبي عن ابن عباس: دلوكها: زوالها (٣). ورواه نافع عن ابن عمر (٤). ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر (٥). وقاله أبو برزة الأسلمي ومجاهد. وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة (٦). وما استشهد عليه ما رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر فها هنا حين ذلكت

شاهدا على أمته بأعمالها، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ مَن أَوْفَى كِتَابَهُ يَسْمِعُهُ فَأَوَّلِيكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويجب قراءته، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَن أَوْفَى كِتَابَهُ يَسْمِعُهُ يَقُولُ هَٰذَا أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ (٧٥) إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَن أَوْفَى كِتَابَهُ يَسْمِعُهُ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ قَلِيلًا﴾ (٧٦) قد تقدم أن القليل هو الخط المستطيل في شق النواة. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ قال: «يُدْعَى أَحَدُهُمْ لِنُطْقِ كِتَابِهِ يَسْمِعُهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَبْصُرُ وَجْهَهُ وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلَاةٍ بَيِّنَةٍ، فَيُنْطَلَقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَيْتِهِ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنَّا بَيْدًا، وَبَارَكَ لَنَا فِي هَٰذَا. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ، فَإِنْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلُ هَٰذَا. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَسُودُ وَجْهَهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ هَٰذَا، أَوْ مِنْ شَرِّ هَٰذَا، اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَخْرِجْهُ، فَيَقُولُ: أَبْعَدْكُمْ اللَّهُ، فَإِنْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلُ هَٰذَا» (١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَتْ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد ﴿وَمَن كَانَتْ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ أي: عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿فَهَوِيَ إِلَى الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ (٧٧) أي: وأصل منه، كما كان في الدنيا. عيادا بالله من ذلك (٢).

﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْزِيَ عَلَيْنَا عَصِيَّةً وَإِذَا لَأَتَّخَذُوكَ خِلِيلًا﴾ (٧٨) وَلَوْلَا أَن بُنِيتَ لَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعُفَ الْحَيَوةِ وَضَعُفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾

[شدة عقوبة النبي لوركن شيئا قليلا إلى الكفار]

[في مظاهر البتة بتفسير بعض الوحي]

نخبر تعالى عن تأييده رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته وعصمته، وسلامته من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه، وناصره ومؤيده ومظفّره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

(١) موارد الظمآن: ٢٥٨٨، وصحيح ابن حبان: ٧٣٤٩، وسنن الترمذي: ٣١٣٦.
(٢) الطبري: ٥٠٤، ٥٠٥. (٣) الطبري: ٥١٤/١٧.
(٤) الطبري: ٥١٥/١٧. (٥) الطبري: ٥١٥/١٧.
(٦) الطبري: ٥١٦، ٥١٥/١٧.

وإبراهيم النخعي وغير واحد^(١٠). وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجّد بعد نومه، عن ابن عباس^(١١) وعائشة^(١٢) وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم. كما هو مبسوط في موضعه، والله الحمد والمثني. وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء ويحمل: على ما كان بعد النوم^(١٣). وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه. قاله مجاهد^(١٤). وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه^(١٥).

وقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(١٦) أي: أفعّل هذا الذي أمرتك به لنفيك يوم القيامة مقامًا محمودًا، يحمّدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقرب محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم بهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم^(١٧).

عن حذيفة قال: يُجمع الناس في صعيد واحد يستمعهم الداعي وينفّذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قيامًا لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: «لَيْسَ بِكَ وَسَعْدُكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ هَدْيِكَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَنَجَى وَلَا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ» فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل^(١٧). وقال ابن

الشمس^(١) فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس: فمن قوله: ﴿لَذُلُّوكَ أَشْتَمِينَ إِلَيْكَ عَسَى أَلَيْلٌ﴾ - وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس - أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر. وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترًا: من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفًا عن سلف وقرنًا بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه. والله الحمد.

[اجتماع الملائكة في صلاة الفجر والعصر]

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢٨) عن ابن مسعود، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢٩) قال: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار^(٣٠). وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلَ صَلَاةُ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ، خُمُسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ» يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود وأبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣٢) قال: «تَشْهَدُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ»^(٣٣).

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٣٤). وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يَتَعَابُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، وَتَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُخْرِجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَُلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَُلُّونَ»^(٣٥) وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء^(٣٦). وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقائدة وغير واحد في تفسير هذه الآية^(٣٧).

[الأمر بالتهجد]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صَلَاةُ اللَّيْلِ»^(٣٨). ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود

(١) الطبراني: ٥١٨/١٧ وفيه رجل لم يسم وآخر ضعيف لكن أصل القصة مخرج في الصحيحين وغيرهما.

(٢) الطبري: ٥٢٠/١٧. (٣) فتح الباري: ٢٥١/٨.

(٤) أحمد: ٤٧٤/٢.

(٥) تحفة الأحوذى: ٥٦٩/٨، والنسائي في الكبرى: ٣٨١/٦، وابن ماجه: ٢٢٠/١.

(٦) فتح الباري: ٤١/٢، ومسلم: ٤٣٩/١.

(٧) الطبري: ٥٢١/١٧. (٨) الطبري: ٥٢١/١٧.

(٩) مسلم: ٨٢١/٢. (١٠) الطبري: ٥٢٤/١٧.

(١١) فتح الباري: ٨٣/٨. (١٢) فتح الباري: ٣٩/٣.

(١٣) الطبري: ٥٢٤/١٧. (١٤) الطبري: ٥٢٥/١٧.

(١٥) أحمد: ٢٥٥/٥. (١٦) الطبري: ٥٢٦/١٧.

(١٧) الطبري: ٥٢٦/١٧.

يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»^(٨).

ورواه أبو داود الطيالسي عن عبد الله قال: ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى، قال أبو الزعراء: لا أدري أيهما، قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعًا فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٩).

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه)

روى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها شهية، ثم قال: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يُمَعُّهُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَنْفَذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيُلْغِي النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَسِبُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَنْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِأَدَمَ، فَيَأْتُونَ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا أَدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَأَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا تَخْضُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ أَدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ تَهَيَّأَ عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا تَخْضُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا تَخْضُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ

عباس: هذا المقام المحمود: مقام الشفاعة^(١). وكذا قال ابن أبي نجیح عن مجاهد، وقاله الحسن البصري^(٢). وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع^(٣)، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٤). (قلت) لرسول الله ﷺ تشریفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشریفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث راکبًا إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الخوض الذي ليس في الموقف أكثر واردًا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أَنَا هَا، أَنَا هَا» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيُذَرُّون عنها، وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم^(٥)، وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تلعبها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفّع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك^(٦)، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، والله الحمد والمنة، ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود والله المستعان. روى البخاري عن ابن عمر يقول: إن الناس يصبرون يوم القيامة [جئنا]، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقامًا محمودًا^(٧).

روى ابن جرير عن عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَذْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأَذْنِ، فَيَسْتَأْذِنُ هُمْ كَذَلِكَ اسْتِغَاثُوا بِأَدَمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيُشْفَى حَتَّى يَأْخُذَ بِحُلَّةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا»^(٨). وهكذا رواه البخاري في الزكاة. وزاد: «فَيَوْمِئِذٍ

(١) الطبري: ١٧/٥٢٧. (٢) الطبري: ١٧/٥٢٧.

(٣) الطبري: ١٧/٥٢٨. (٤) مسلم: ١/١٨٢.

(٥) الطبراني في الطوال: ٣٦. (٦) فتح الباري: ٨/٢٥١.

(٧) الطبري: ١٧/٥٢٩. (٨) فتح الباري: ٣/٣٩٦.

(٩) مسند الطيالسي: ٥١ والنسائي في الكبرى: ١١٢٩٦.

أَن يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الآية (٥).

وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة (٦). وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (٧).

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨) قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه ليتزعم ملك فارس وعز فارس وليجعل له، وملك الروم وعز الروم وليجعل له (٩). وقال قتادة فيها إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولرفراض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم (١٠). فلا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ إِلَى قَوْمِهِ﴾ الآية.

[وعيد لكفار قريش]

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية، تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي: اضمحل وهلك. فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِرُ الْبَاطِلَ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْدًا مُّغْتَمَرًا﴾ (١١) روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده فيقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» (١٢).

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَذِيقُ

الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١٣)

[القرآن شفاء ورحمة]

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزل على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي: يذهب

بعده مثله. فَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحُ مِنْهُ، وَكَلِمَتُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ صَبِيًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - ولم يذكر ذنباً - نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ خَفَّرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَأَقْوَمُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ حَاجِمِدِهِ وَحُسْنِ الشَّاءِ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَفْتَحْهُ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ نِعْمَتَهُ، وَاشْفَعْ لِنَفْسِكَ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمْنِي يَا رَبِّ، أُمْنِي يَا رَبِّ، أُمْنِي يَا رَبِّ، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمْنِيكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ ابْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْبُؤَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ مَا بَيْنَ الْمَضْرَعَيْنِ مِنْ مَضَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى (١٤). أخرجه في الصحيحين (١٥).

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (١٦) وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ

الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١٧)

[الامر بالهجرة]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (١٨) وقال الترمذي: حسن صحيح (١٩). وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطرده أو يوثقوه فأراد الله قتال أهل مكة؛ أمره

(١) أحمد: ٤٣٥/٢. (٢) البخاري: ٤٧١٢، ومسلم: ٨٩٤.

(٣) أحمد: ٢٢٣/١. (٤) تحفة الأحوذى: ٥٧٤/٨.

(٥) الطبري: ٥٣٣/١٧. (٦) أحمد: ٢٢٣/١.

(٧) الطبري: ٥٣٤/١٧. (٨) الطبري: ٥٣٦/١٧.

(٩) الطبري: ٥٣٦/١٧. (١٠) فتح الباري: ٢٥٢/٨.

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ - إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ
 اللَّهُ تَعَالَى - فِي حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَالٍ
 رَعَايَةٍ وَفَتْحٍ وَرِزْقٍ وَنَصْرٍ، وَنَالَ مَا يَرِيدُ، ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنْ طَاعَةِ
 اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَنَتَّاجِبَانِيَّةً﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: بَعْدَ عَنَّا ^(١). قُلْتُ: وَهَذَا
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ، مَرَّكَانَ لَأُرِيدَعْنَا إِلَى صُورٍ
 مَسْمُومَةٍ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا تَخَيَّنُوا إِلَى آيَةِ أَعْرَضْتُمْ﴾. وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ -
 وَهُوَ الْمَصَائِبُ، وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبُ - ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾ ^(٢) أَيْ
 قَطَطُ أَنْ يَعُودَ يَحْصِلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا
 الْإِنْسَانَ وَمَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوسَّ كَقُورٍ﴾ ^(٣)
 وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبِهِ مَسْمُومَةً لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي
 إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ^(٤) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ^(٥)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى
 شَاكِلَتِهِ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَى نَاحِيَتِهِ ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَى
 حِدَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَى نَيْتِهِ ^(٨). وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:
 دِينَهُ ^(٩). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ

(١) الطبري: ٥٣٩/١٧. (٢) الطبري: ٥٤١/١٧.
(٣) الطبري: ٥٤١/١٧. (٤) الطبري: ٥٤١/١٧.
(٥) الطبري: ٥٤١/١٧. (٦) الطبري: ٥٤٢/١٧.

(١) الطبري: ٥٣٩/١٧. (٢) الطبري: ٥٤١/١٧.
(٣) الطبري: ٥٤١/١٧. (٤) الطبري: ٥٤١/١٧.
(٥) الطبري: ٥٤١/١٧. (٦) الطبري: ٥٤٢/١٧.

اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عدل له، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي آيَةِ هَذَا الْحَجِجِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَا، وَبَسَطْنَا، وَمَعَ هَذَا ﴿فَأَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُوا﴾ (٨١)﴾ أي: جحوداً للحق ورذلاً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصَرِّفَ بِهِ السَّاعَاتِ وَنَحْنُ بِمَا نُنْزِلُ كَافِرُونَ﴾ (٨٢) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي آيَةِ هَذَا الْحَجِجِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَا، وَبَسَطْنَا، وَمَعَ هَذَا ﴿فَأَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُوا﴾ (٨١)﴾ أي: جحوداً للحق ورذلاً للصواب.

[طلب قريش آيات معينة والرد عليهم]

روى ابن جرير عن محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة، عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البختری أخا بني أسد، والأسود بن المطلب ابن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل ونيهاً ومنبهاً ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا - أو: من اجتمع منهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تفسدوا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عنّهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لتعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعيت الدين، وسفّحت الأحلام، وشتمت الآلهة وقرّقت الجعاعة، فما بقي من قبح إلا وقد جثته فيها بيتنا وبينك. فإن كنت إنسا جثت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن

بهذا؟ قال: «جاءني به جبريل من عند الله»، فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٨١).

[الروح والنفس]

ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر: أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر: أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطراً أو خمراً، ولا يقال له ماء حينئذ، إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس: روح إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم (٨٢). قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه، في الروح.

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنذَهِبَ بِاللَّيْلِ أَوْ حِينًا إِلَيْكَ ثُمَّ لَأَقْعُدَنَّكَ بِمَا عَظَيْتَنَا وَكَبَلًا﴾ (٨٣) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَافٍ﴾ (٨٤) ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٥) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُوا﴾ (٨٦).

[لو شاء الله لذهب بالقرآن]

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء، يعني في آخر الزمان من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية. ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنذَهِبَ بِاللَّيْلِ أَوْ حِينًا إِلَيْكَ﴾ (٨٣) الآية.

[التحدي بالقرآن]

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو

(١) الطبري: ١٧/٥٤٣. (٢) الروض الأنف: ٢/٦٢.

(٣) الطبري: ١٧/٥٤٦.

به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة يقال له الرحمن، وإننا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعيد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى ﴿تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (١٧) فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم يقبله منهم، ثم سألوكم لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتكم من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوكم أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السوء سبيلاً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوته، ولما رأى من مباحثتهم إياه (١١).

[سبب رد طلبات المشركين]

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً [له]، فقبل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال: «بَلِّغْ رِسَالَتِي بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» (١٢). وهذا كقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَنُودِ الْأَوَّلَةَ مُبْرِرِينَ فَعَلِمُوا بِمَا وَمَا يُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (١٣).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْإِنْسَانِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ الْمَلَكَ فَيَكُونُ مَعَهُ زَنْزِيرًا﴾ (١٤) ﴿أَوْ يُفَقِّرْ إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا﴾ (١٥) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ (١٦) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي أَنْشَأَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَارِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا

كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رؤياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك، بذلتنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُمْ بِنَا جِئْتُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْتَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لَأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَجْزِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً، فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بها بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا، وليتجر فيها أنهاراً كأَنْهَارِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدَّقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا بِهِذَا بُعِثْتُ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا يَعْتَنِي بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لَأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَجْزِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جنات، وكُنُوزاً، وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهِذِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْتَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لَأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَجْزِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» قالوا: فأسقط السوء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ» فقالوا: يا محمد، أما علم ربك، أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا

﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءَا﴾ ﴿١٠﴾ النبيوع: العين الجارية، سألوه أن يُجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا وذلك سهل على الله تعالى يسيراً لو شاء لفعله، ولأجابههم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَءَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَّوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢﴾، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِدَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ وَفُيَا مَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقَطَّ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، وتبني وتذلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفاً، أي قطعاً كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ الآية، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة ونبى التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل انظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلاهم من يعبد له لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع فإن من هؤلاء - الذين ذكروا - من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأتاب إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتٌ مِّنْ ذُرِّيِّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هو الذهب ^(١)، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ ^(٢)، ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في سُلَّم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرَبِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا تَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه، إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تُصبح موضوعة عند رأسه ^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٣﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس، أن يقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتهم، إلى الله عز وجل.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَرًا يَكُونُ لَنَا رَسُولٌ﴾ ﴿١٤﴾

مُطْمَئِنِّينَ لَنَرُنَّكَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾

[إباء المشركين عن الإيمان لكون

الرسول بشراً، والرد عليهم]

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ مُّشْهُرًا يَلْتَبِتُوا فَأَلَّا بَشَرًا يَدْعُونَا﴾ الآية، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَتُؤْمِنُ بِبَشَرٍ مِّثْلِي وَيُفْلِتُ قَوْمُهُمَا لَنَا عِذُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْتُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ والآيات في هذه كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكينهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسلاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ تَعَالَى: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٩﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿قَدْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَعْشُرُكَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لَنَرُنَّكَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ﴿٢٠﴾ أي: من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم، لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد على وعليكم، عالم بما جئتمكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا آفَاقٌ لَّأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَنَقْبَضَنَّهُ أَلْوِينَ ﴿٢٣﴾. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ أي: علياً بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن

(١) الطبري: ١٧/٥٥٣. (٢) الطبري: ١٧/٥٥٣.

(٣) الطبري: ١٧/٥٥٤.

يستحق الشفاء والإضلال والإزاعة، ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَدَّ إِلَهُهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أُولِيَّةَ مِنْ دُونِهِ وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًٌا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ﴾ (٧)

[الهداية والإضلال بيد الله]

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له: بأنه من يهده فلا مضل له، ﴿وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أُولِيَّةَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَدَّ إِلَهُهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ۖ﴾ (٧).

[جزاء أهل الضلال]

وقوله: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الليي أمشاهم على أرجلهم، فأودع على أن يمشيهم على وجوههم» (١) وأخرجاه في الصحيحين (٢).

وقوله: ﴿عُمًٌا﴾ أي: لا يبصرون، ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون، ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فنجزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ۖ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٣). وقال مجاهد: طففت. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ﴾ أي: لهاً ووهجاً وجرماً، كما قال: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَرْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۖ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَائِلِنَا وَقَالُوا آءَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا آءَذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۖ﴾ (١١)

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى، والبكم، والصمم جزاءهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿بِعَائِلِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا آءَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا﴾ أي: بالية نخرة ﴿آءَذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٨) أي: بعد ما صرنا إليه: من البلى والمهلاك والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية؟ فاتحج تعالى عليهم ونههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَتَّقِدِرُ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتِ﴾ الآية، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٩) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٠)

﴿١١﴾ إلى آخر السورة. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يسوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا لِيُجْلَّ مَعْدُودٌ﴾ (١٢). وقوله: ﴿فَأَنِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ (١٣) ﴿إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ﴾.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۖ﴾ (١٠٠)

[الإمساك من طبيعة الإنسان]

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله ﴿لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ قال ابن عباس وقادة: أي الفقر (١). خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۖ﴾ (١٠٠) قال ابن عباس وقادة: أي: بخيلاً منوعاً (٢).

وقال الله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۖ﴾ (٩٢) أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نكير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهده، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعًا ۖ﴾ (٩١) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ﴾ (٩٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ مَنُوعًا ۖ﴾ (٩٠) ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ (٩٢) ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين ﴿يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا اتَّفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) أحمد: ١٦٧/٣.

(٢) فتح الباري: ٣٥٠/٨، ومسلم: ٤/٢١٦١.

(٣) الطبري: ١٧/٥٦١. (٤) الطبري: ١٧/٥٦٣.

(٥) الطبري: ١٧/٥٦٣.

وَالْأَرْضُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْغُضْ مَا فِي يَمِينِهِ^(١).

فخالفوها وعاندوا كفراً وجحوداً. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرَ﴾ أي حجباً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا^(٢)﴾ أي هالِكًا، قاله مجاهد وقتادة^(٣)، وقال ابن عباس: ملعوناً^(٤)، وقال أيضاً هو والضحاك ﴿مَثْبُورًا^(٥)﴾ أي مغلوباً^(٦)، والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله.

[إهلاك فرعون وقومه]

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها. ﴿فَأَعْرَفْنَاهُ مِنْ مَعَهُ جَمِيعًا^(٧)﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴿وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ يفتح مكة، مع أن [هذه] السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآيةين، ولهذا أورد الله رسوله مكة، فدخلها عنوة - على أشهر القولين - وقهر أهلها ثم أطلقهم حليماً وكرماً، كما أورد الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم ونهارهم وكنوزهم، كما قال ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٨)﴾ وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا^(٩)﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: لفيفاً أي: جميعاً^(١٠).

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا^(١١)﴾

وَقَرَأَهُ أَكْثَرُ قُرُونِهِ لِقُرَآءِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّهِ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا^(١٢)﴾

[نزل بالحق متفرقاً]

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَكْتُبُ شَهِدُونَ﴾ أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ونزل إليك يا محمد محفوظاً محرراً لم يشب

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا مُوسَىٰ كَيْفَ كَانَتْ يَدَاكَ يُسْقِطُ مِنْهُ قِطْرًا وَيَكُودُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا^(١٣)﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا^(١٤) فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ مِنْ مَعَهُ جَمِيعًا^(١٥) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا^(١٦)﴾

[تسع آيات لموسى]

ينبغي تعالى أنه بعث موسى تسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به، عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات. قاله ابن عباس^(١٧). وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطمسة والحجر^(١٨). وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان، والجراد، والقمل والضفادع، والدم^(١٩). ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا﴾ وما نَجَّتْ فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبْلُغُوا﴾ إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى. وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا^(٢٠)﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعينة في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي عَصَاكَ فُلْمَاءَ مَا هَنَرَ كَانَتْ جَاءَ وَلِيٌّ مِّمَّكَ وَكِرْمٌ مِّمَّكَ يَتُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي يَدَيْكَ آيَاتُ فِرْعَوْنَ وَقُوَّةُهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ^(٢١)﴾ فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها. وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة، منها ضربُ الحجر بالعصا وخروج الماء منه، ومنها تطليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم،

(١) فتح الباري: ٢٠٢/٨، ومسلم: ٦٩١.

(٢) الطبري: ٥٦٤/١٧. (٣) الطبري: ٥٦٥/١٧.

(٤) الطبري: ٥٦٥، ٥٦٦. (٥) الطبري: ٥٧١/١٧.

(٦) الطبري: ٥٧٠/١٧. (٧) الطبري: ٥٧٠/١٧.

(٨) الطبري: ٥٧٢، ٥٧٣.

يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُتِ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٣﴾ وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَلْنَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَبِيرٌ كَبِيرًا ﴿١٤﴾

[لله الأسماء الحسنى]

يقول تعالى: ﴿قُلِ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ صِفَةً
الرَّحْمَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَةِ بِالرَّحْمَنِ أَذْعُرُوا اللَّهَ أَوْ
أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: لا فرق بين
دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء
الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقد
روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو
يقول في سجوده: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» فقال: إنه يزعم أنه يدعو
واحداً وهو يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية. وكذا روي عن
ابن عباس، رواهما ابن جرير (٣).

[الأمر بالقراءة بين الجهر والخافتة]

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية روى الإمام أحمد عن
ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ
بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُتِ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى
بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا
القرآن وسبوا من أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى
لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع
المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تَخَافُتِ بِهَا﴾ عن أصحابك -
فلا تسمعهم القرآن - حتى يأخذوك عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٣﴾﴾ (٤) أخرجه في الصحيحين (٥).

وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس، وزاد: فلما هاجر إلى
المدينة سقط ذلك، يفعل أي ذلك شاء (٦).

وروا محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله
ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي، تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا
منه وكان الرجل إذا أراد أن يسمع رسول الله ﷺ بعض ما
يتلو وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقا منهم، فلماذا رأى

بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل
به شديد القوى، الأمين المكين، المطاع في الملال الأعلى. وقوله:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١٥) مبشراً لمن
أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقَرَأْهُ نَكَارَةً﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه
فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا،
ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث
وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس (١١). وعن ابن
عباس أيضاً أنه قرأ: ﴿قَرَأْتَاهُ﴾ بالتشديد، أي أنزلناه آية آية
مبيناً ومفسراً (١٢). ولهذا قال: ﴿لِنُقَرِّئَكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه
الناس وتتلوه عليهم، أي: ﴿عَلَى مَكِّيٍّ﴾ أي: مهمل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ
تَنْزِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُدْعَى بِأَسْمَاءِ الْأَلْبَانِ أَوْ الْأَلْبَانِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَسْتَلِي عَلَيْهِمْ
يَحْزُونَ لِلَّذَيْنِ سَجْدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَحْزُونَ لِلَّذَيْنِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾

[القرآن حق يعترف به السابقون من أهل العلم]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلِ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ
بِمَا جَنَّهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ﴾ «يَا أَيُّهَا يَهُؤُا أَوْ لَا تُؤْمِنُوا»
أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوره
بذكره في سالف الأزمان، في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا
قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالحى أهل
الكتاب الذين تمسكوا بكتابتهم، وقيمونه، ولم يبدلوه ولا
حرفوه. ﴿إِذَا يَسْتَلِي عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَحْزُونَ لِلَّذَيْنِ﴾ جمع
ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سَجْدًا ﴿١٧﴾﴾ أي: لله عز وجل
شكراً على ما أنعم به عليهم: من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا
هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون:
﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتقديراً على قدرته التامة، وأنه لا
يُخْلَفُ الميعاد الذي وعدهم، على ألسنة الأنبياء المتقدمين، عن
بعثة محمد ﷺ. ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا
﴿١٨﴾﴾. وقوله: ﴿يَحْزُونَ لِلَّذَيْنِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعاً لله
عز وجل، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾ أي: إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ نَفَقَاتُهُمْ ﴿٢٠﴾﴾. وقوله: ﴿يَحْزُونَ﴾

عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ولا

(١) الطبري: ١٧/٥٧٤. (٢) الطبري: ١٧/٥٧٣، ٥٧٤.

(٣) الطبري: ١٧/٥٨٠. (٤) أحمد: ١/٢٣.

(٥) فتح الباري: ٨/٢٥٧، ومسلم: ١/٣٢٩.

(٦) الطبري: ١٧/٥٨٤.

الحضير كما تقدم في تفسير سورة البقرة. وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» ^(٨) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي، ولفظ الترمذي: «مَنْ حَفِظَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ» وقال: حسن صحيح ^(٩). وقد أخرجه الحاكم في مستدركه، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَصَابَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا يَبِينُهُ وَيَبَيِّنُ الْجُمُعَتَيْنِ» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ^(١٠). وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم، ثم روى البيهقي بإسناده أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا تَرَكْتُ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

[أنزل القرآن بشيراً ونذيراً]

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتاب العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً، جليلاً نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١» أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيفاً ولا ميلاً، بل

أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب، خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ۝١ فَيَفْرَقُوا عَنْكَ ۝٢ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ۝٣ فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم، فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فيستفح به، «وَاتَّبَعَ بَِيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝٤» ^(١) وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقناة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة ^(٢). وعن ابن مسعود «وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ۝٣ من أسمع أذنيه ^(٣).

[بيان التوحيد]

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ^(١) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومديرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ لم يخالف أحداً ولم يتبع نصر أحد ^(٢) ﴿وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا ۝٣﴾ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً. وروى ابن جرير عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا ۝٣﴾ ^(٣)

آخر تفسير سورة سبحان. والله الحمد والمنة.

سورة الكهف

وهي مكية

(ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال)

روى الإمام أحمد عن البراء يقول: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقْرَأْ فَلَانٌ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنْزَلَتْ لِلْقُرْآنِ» ^(١) أخرجه ابن الصريحين ^(٢)، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن

- (١) الطبري: ٥٨٥/١٧. (٢) الطبري: ٥٨٧/١٧.
(٣) الطبري: ٥٨٩/١٧. (٤) الطبري: ٥٩٠/١٧.
(٥) الطبري: ٥٩٠/١٧. (٦) أحمد: ٢٨١/٤.
(٧) فتح الباري: ٧١٩/٦، ومسلم: ٥٤٨/١.
(٨) أحمد: ١٩٦/٥.
(٩) مسلم: ٥٥٥/١، وأبو داود: ٤٩٧/٤، والنسائي في الكبرى: ٢٣٦/٦ وتحفة الأحوذى: ١٩٥/٨.
(١٠) الحاكم: ٣٦٨/٢. (١١) البيهقي: ٢٤٩/٣.

جنتاكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاؤا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسألوه عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يتحدث الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرحف أهل مكة وقالوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحرز رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معابته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر القتيبة والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ الآية (٢).
﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا (٨)
[لا تأسف على عدم إيمان المشركين]

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركه الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧) باخع أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ (٦) يقول: لا تهلك نفسك أسفاً. قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ (٣). وقال مجاهد: جزعاً (٤). والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، [فلا] تذهب نفسك عليهم حسرات.

[الدنيا دار الابتلاء]

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) الطبري: ٥٩٥/١٧.
(٢) وفي الأصل وقع: قال: الروح بدل قوله: قل. الطبري: ٥٩٢/١٧.
(٣) الطبري: ٥٩٧/١٧، ٥٩٨. (٤) الطبري: ٥٩٨/١٧.

جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: ﴿قَتَمًا﴾ أي: مستقيماً ﴿لِنَبْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذبه، ولم يؤمن به ينذره بأسا شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الآخرة ﴿مِمَّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَيُنْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢) أي: مثوبة عند الله جميلة ﴿مُكَبِّينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣) في ثوابهم عند الله، وهو الجنة خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ (٤) دائماً لا زوال له ولا انقضاء.
وقوله: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٥) قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قومه: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله (١). ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بهذا القول الذي افتروه واتفكوه ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ﴾ أي: لأسلافهم ﴿كُتِبَتْ كَلِمَةٌ﴾ هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كُتِبَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ليس لها مستند سوى قومه، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥).

[سبب نزول السورة]

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول [قروا] فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد

الفتية المذكورون، وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو وإد قريـب من أيلة^(٨). وكذا قال عطية العوفي وقتادة: وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي^(٩). والرقيم اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم. ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم^(١٠).

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله الرقيم: كان يزعم
كعب أنها القرية. وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم
الجل الذي فيه الكهف. قال سعيد بن جبير: الرقيم لروح من
حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على
باب الكهف (١١).

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرٍ﴾ **رَشَدًا** ﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتيات الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يقتلوهم عنه، فهربوا منهم، فلدجؤوا إلى غار في جبل ليختموا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرٍ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا **وَوَيْتٍ** **لَّنَا** **مِن أَمْرٍ** **رَشَدًا** ﴿١٠﴾ أي: وقدّر لنا من أمرنا هذا **رَشَدًا** أي اجعل عاقبتنا **رَشَدًا**، كما جاء في الحديث: **وَمَا قَضَيْتُ لَنَا مِن قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا** (١٢).

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من رَفَدْتَهُمْ تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشترى لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوَ أَىِّ الْفِرْيَيْنِ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَخْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (١٢) قيل: عددًا، وقيل: غاية، فَإِنَّ الْأَمَدَ الغاية، كقوله:

سبق الجَوَاد إذا استَوَى على الأَمَد

﴿ تَحَنَّنْ نَفْسَ عَلَيَّكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ
وَزِدَّ لَهُمْ هُدًى ۝۱۳ ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا

الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَا اسْتَبَاوَهُمْ أُتِيَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ قال أبو مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظِرٌ مَّاذَا تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنْ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها، وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾ أي: وإنا لمصيرُها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكًا صعيدًا جُرُزًا لا يثبت ولا يتنعم به.

كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا مَاءَ عَلَيْهَا صَاعِدًا فَجَرًّا﴾ (٨) يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد^(٢). وقال مجاهد: صعيدًا جرزًا بَلَقْعًا^(٣). وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات^(٤).

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾
 (١) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ
 لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ
 عَدَدًا ﴿٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُغَ أَفْئِدَ الْكَافِرِينَ لِمَا بَشَّرُوا الْمُنَادِمَ ﴿٣﴾

[قصة أصحاب الكهف]

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ١: أي: ليس أمرهم عجيبيًا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة - على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء - أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال ابن جريج عن مجاهد ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ٢: يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك (٥).

وقال السوفي عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (١) يقول: الذي آتيتك
من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف
والرقيم (٢). وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حجيبي
على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم (٣).
وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء

(١) أحمد: ٢٢/٣. (٢) الطبري: ٥٩٩/١٧.

(٣) الطبری: ٥٩٩/١٧. (٤) الطبری: ٦٠٠/١٧.

(٥) الطبری: ٦٠١/١٧. (٦) الطبری: ٦٠١/١٧.

(٧) الطبري: ٦٠١/١٧. (٨) الطبري: ٦٠٢/١٧.

(٩) الطبري: ٦٠٢/١٧. (١٠) الطبري: ٦٠٢/١٧.

(١١) الطبري: ٦٠٣/١٧. (١٢) أحمد: ١٤٧/٦.

خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويدبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وإنا جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيثار.

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْأَزْوَاجُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْنَتَانِ، وَمَا تَنَاسَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» ^(٢). وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ^(٣).

والناس يقولون: الجنسية علة الضم. والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتف بما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم ما بأمره، فقال الآخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنا الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السماوات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فَوَسَّوْا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه، فسألمهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَّنَا عَلِّ قُلُوبَهُمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولسن

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ^(١) هَتُولَاهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ يَاسُلْطَنُ بَيْنَ قَعْنِ أَطْلَمَ مِمَّنْ أَفَرَّقَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ^(٢) زَادَ اعْتَرَسُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْدَى إِلَى الْكَهْفِ يَكْشُرْ لَكُمْ رَيْبَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُخَوِّجْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ^(٣)

[إيمانهم بالله واعتزالهم القوم]

من هنا شرع في سبط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعانتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في أذان بعضهم القِرْطَبة يعني: الخلق، فألمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فأمنوا بربهم أي: اعتزلوا به بالوحداية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿وَوَدَّعْتُهُمْ هَذَى ^(١) استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره من ذهب إلى زيادة الإيثار وتفاضله وأنه يزيد وينقص ^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَدَّعْتُهُمْ هَذَى ^(٣) كما قال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْنَدُوا زَادَهُمْ هَذَى وَآلَهُمْ نَقَبُهُمْ ^(٤) وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ^(٥) وقال: ﴿وَرَدَّادُوا إِيْمَانًا عَ إِيْمَانِهِمْ ^(٦) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فأنهم كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمبايعتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء، فيمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَّنَا عَلِّ قُلُوبَهُمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدببتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم

(١) فتح الباري: ٦٠/١. (٢) فتح الباري: ٤٢٦/٦.

(٣) مسلم: ٢٠٣١/٤.

كَفَرُوا الشَّقَلُ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلَمُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ قصصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّوْهُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَلَهِ وَلَكُمْ مَرْشِدًا﴾ (١٧)

[موقع الكهف]

وهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: يتقلص الفيء يمينه، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿تَرَوُّوْهُ﴾ أي تميل (١٦) وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، وهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شال يابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب. وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تدخل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، والله الحمد.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: تقرضهم تركهم (١٧). وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ» (١٨) فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّوْهُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في متسع منه داخلًا بحيث لا تصيبهم، إذا

لنفي التأيد أي لا يقع منا هذا أبدًا، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَعَدْنَا قُلُوبَنَا إِذَا شِطَطَ﴾ (١٩) أي: باطلاً وبهتاناً ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾ أي: هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٢٠) يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء الحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ عَسَا يُتَّبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يُقَرَّبُ بِهِ مِنَ الْفِتَنِ» (٢١) ففي هذه الحال تُشرع الغزلة عن الناس ولا تشرع فيها عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم. واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿رَادُّوْهُمُ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَيْبَكُمْ مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُخَوِّضُ لَكُمْ أَمْزُكُ﴾ الذي أنتم فيه ﴿يَزِفُّكَ﴾ (٢٢) أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبية محمد ﷺ وصاحبة الصديق حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يفتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ: حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِنْسَانٍ اللَّهُ تَالِيَهُمَا؟» (٢٣) وقد قال تعالى:

﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَعَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودٍ لَمْ تَرَوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ

(١) فتح الباري: ١/ ٨٧. (٢) فتح الباري: ٧/ ١١.

(٣) الطبري: ١٧/ ٦٢٠. (٤) الطبري: ١٧/ ٦٢١، ٦٢٢.

(٥) عبد الرزاق: ١١/ ١٢٥.

يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة والدَّعَر؛
لثلا يدنو منهم أحد، ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ
الكتاب أجله، وتقضي رقتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم،
لما له في ذلك: من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاءَ لَوْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ
لَيْسَتْ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ
فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا
أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ۝١١ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِي بِلَدِهِمْ وَلَكِنْ تَقْدِرُوا إِذَا أُنْذِرُوا ۝١٢﴾

[استيقاظهم وبعثهم أحدهم لشراء الطعام]

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم
وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً
وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم
﴿كَمْ لَيْسَتْ﴾ أي كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ﴾؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار،
واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدرکوا فقالوا: ﴿أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ﴾ أي الله أعلم بأمركم،
وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم. ثم
عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام
والشراب، فقالوا: ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ أي
فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم
من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها، فلهذا
قالوا: ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي
مدينتكم التي خرجتم منها، والآلف واللام للعهد ﴿فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي أطيب طعاماً. وقوله: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَآزِكُمْ مِنْكُمْ مِنْكُمْ أَبَدًا﴾ وقوله: ﴿قَدْ أُلْحَقَ مِنْ رَبِّكَ
۝١٢﴾ ومنه الزكاة التي تُطَيَّبُ المال وتطهره.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه
وإيابه، يقولون: وَلْيَتَلَطَّفْ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾
أي ولا يعلمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا ۝١١﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ

لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَحْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَثِيَابَهُمْ. قاله ابن
عباس ^(١). ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا
الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل
عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الآية، أي هو
الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من
هذه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَتَحَسَّبُوهُمْ أَنْكَاسًا وَهُمْ رُقُودٌ وَتَقَبَّلْهُمْ دَآتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ
الشِّمَالِ وَكُلُّهُمْ نَاسٍ يَرْغَبُ فِي الْوَصِيدِ لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ
لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٣﴾

[رقودهم في الكهف]

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم النوم،
لم تنطبق أعينهم؛ لثلا يُسْرَعُ إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة
للنواء كان أبقي لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحَسَّبُوهُمْ أَنْكَاسًا
وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح
عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلْهُمْ دَآتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ﴾ قال ابن
عباس: لَوْ لَمْ يُقْبَلُوا لَأَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ ^(٢). قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ
نَاسٍ يَرْغَبُ فِي الْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن
جبير وقسادة: الوصيد: الفناء ^(٣). وقال ابن عباس:
بالباب ^(٤). وقيل: بالصعيد وهو التراب، والصحيح أنه
بالبناء وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَى ثَمُودَ
۝١٤﴾ أي مطبقة مغلقة، ويقال: وصيد وأصيد. ربح
كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن
جريح: يحرس عليهم الباب ^(٥). وهذا من سجيته وطبيعته
حيث يربض ببابهم، كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج
الباب، لأن الملازمة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد في
الصحيح - ولا صورة ولا جُنب ولا كافر. كما ورد به
الحديث الحسن. وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم
من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحة الأخبار، فإنه
صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل: إنه كان كلب
صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كلب طباط الملك، وقد
كان واقفهم على الدين [فصحه] كلبه، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ
مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٣﴾ أي إنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا

(١) الطبري: ١٧/٦٢٠. (٢) الطبري: ١٧/٦٢٠.

(٣) الطبري: ١٧/٦٢٤، ٦٢٥. (٤) الطبري: ١٧/٦٢٥.

(٥) الطبري: ١٧/٦٢٥.

يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» يعنون: أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها، أو يموتوا. وإن وافقتهم على العود في الدين، فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ تَقِيلُوا إِذَا أَبْكَدَا ۝٦٠﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٦١﴾

[عشور أهل البلد عليهم وبنواؤهم تذكاراً على الكهف]

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك^(١). وذكروا: أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم لياكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقوسوس، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها: لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنونا أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولي، ثم عمد إلى رجل من يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النققة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النققة؟ لعله وجدها من كنز، ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم: دعوني حتى

أقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه يندوسيس، ففرحوا به وأنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل. فالله أعلم^(٢).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي كما أرقسناهم وأيقظناهم ببيأتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أي في أمر القيامة، فومن ثبوت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفس، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ فَوَسَّاهُمْ مَسَاجِدَ، يُحْذَرُ مَا فَعَلُوا»^(٣). وقد رويناه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلِمَةً وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَاءَ مَا يَحْكُمُكُمْ رَبُّكُمْ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَرَأَيْتُهُمْ كَلِمَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ قُلْ إِنِّي لَا أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٦٢﴾

[عدهم]

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَبِّمَا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قبله بقوله: ﴿وَرَأَيْتُهُمْ كَلِمَةً﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا

(١) تاريخ الطبري: ٩/٢.

(٢) فتح الباري: ١/٦٣٤.

(٣) البداية والنهاية: ٨٨/٧.

الاستثناء، فاستثنى عند ذكره له. قاله أبو العالية والحسن البصري^(٥)، وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في الرجل يحلف، قال: له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد. فقال: حدثني به ليث بن أبي سليم يرى ذهب كسائي هذا^(٦). ومعنى قول ابن عباس: أنه يستثني ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث - قاله ابن جرير رحمه الله. ونص على ذلك^(٧) - لا أن يكون رافعا لحنث اليمين ومسقطا للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وروى الطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ عِزِّيْ فَإِعلَ ذَلِكَ عِذَا﴾^(٨) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** أن تقول: إن شاء الله^(٩). وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّيَ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(١٠) أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، والله أعلم.

﴿وَلْيَسِّرْهُ لَكَ فَهَيَّئْ لَهُ مِمَّا تَشَاءُ مِنْهُ سَبِيلًا وَأَزِدْهُ وَأَسْعَمْهُ مَا أَعْلَمَ بِمَا لِيْشَاءَ لَهُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ مَا لَهْمُ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾^(١١)

[مدة قيامهم في الكهف]

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَأَزِدْهُ وَأَسْعَمْهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيْشَاءُ﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك، وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه

احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة^(١٢)، وكذا روى ابن جريج عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول: أنا من استثنى الله عز وجل، ويقول: عدتهم سبعة^(١٣)، وروى ابن جرير عن ابن عباس ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١٤) أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه، من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ عِزِّيْ فَإِعلَ ذَلِكَ عِذَا﴾^(١٥) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّيَ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(١٦)**

[الاستثناء عند العزم على فعل في المستقبل]

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ على الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَا طَوْفَنَ اللَّيْلَةِ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً - وَفِي رِوَايَةٍ: تِسْعِينَ امْرَأَةً، وَفِي رِوَايَةٍ: مِائَةَ امْرَأَةٍ - تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ: - وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ بِهِمْ فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُمْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً نَصَفَ إِنْسَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْتَسِبْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ» وفي رواية: «وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثَرْسَانًا أَجْمَعُونَ»^(١٧). وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «عِذَا أُحْيِيَهُمْ» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً^(١٨).

وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نسيت

(١) الطبري: ١٧/٦٤٢. (٢) الطبري: ١٧/٦٤٢.

(٣) فتح الباري: ٦/٤١، ومسلم: ٣/١٢٧٥.

(٤) الطبري: ١٧/٥٩٢. (٥) الطبري: ١٧/٦٤٥.

(٦) الطبري: ١٧/٦٤٥. (٧) الطبري: ١٧/٦٤٦.

(٨) الطبراني في الأوسط: ٧/٤٥٤٥.

رَسُولَهُ وَاللَّهُ يَصْصِلُكَ مِنَ الْآثَامِ ﴿١﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي سائلك عما فرض عليك من إيلاح الرسالة.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَصِيَّةِ يَرْيَدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويمجدونه ويسبحونه، ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيًا، من عباد الله سواء كانوا اقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، ويُقَرَّد أولئك بمجلس علي حدة، فنهأه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَصِيَّةِ﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَصِيَّةِ﴾ الآية، وروى مسلم في صحيحه عن سعد هو ابن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يمتزئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسيتهما اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما يشاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فانزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَصِيَّةِ يَرْيَدُونَ وَجْهَهُ﴾ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري (٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تحاوزهم إلى غيرهم (٩)، يعني: تطلب بذهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿وَلَا تَطْغِ مَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَاثَ أَمْرُهُ﴾ أي (١٠) مطيعًا ولا محبًا لطريقته، ولا تعبطه بها هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُ بَعْضُهُمْ أَرْزُقًا مِّنْهُم زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَ بِهَا وَرِيقَ رَبِّكَ﴾ (١١) وَرِيقَ رَبِّكَ حَبْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٢).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلْيُثْبِتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ﴾ الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿وَقَالُوا: وَلْيُثْبِتُوا﴾، يعني: أنه قاله الناس (١). وهكذا قال مطرف بن عبد الله (٢). وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون: بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا سِتْعًا﴾ (٣) والظاهر من الآية إنها هو إخبار من الله لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَصْبِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي أنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه (٣)، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله: ﴿أَصْبِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع (٤). وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشِيرُكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٥) أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير، ولا نصير، ولا شريك، ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَأَنزِلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن يَجْعَلَ مِّنْ دُونِهِ مَلْجَأًا﴾ (٦) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَصِيَّةِ يَرْيَدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْغِ مَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَنَّهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (٧).

[الأمر بتلاوة القرآن وبالصبر مع المؤمنين]

يقول تعالى أمرًا رسول الله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مغير لها ولا عارف ولا مؤول. وقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ مِّنْ دُونِهِ مَلْجَأًا﴾ (٧) عن مجاهد ﴿مَلْجَأًا﴾ (٧) قال: ملجأ (٥). وعن قتادة: وليًا ولا مولى (٦). قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله (٧). كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلِّغْتَ

(١) الطبري: ١٧/٦٤٧. (٢) الطبري: ١٧/٦٤٨.

(٣) الطبري: ١٧/٦٥٠. (٤) الطبري: ١٧/٦٥٠.

(٥) الطبري: ١٧/٦٥١. (٦) الطبري: ١٧/٦٥١.

(٧) الطبري: ١٧/٦٥١. (٨) مسلم: ٤/١٨٧٨.

(٩) الطبري: ١٨/٦.

يَشْوَى الْوُجُوهُ بِشَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٦﴾

[الحق من الله وجزاء من لم يؤمن به]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس هذا الذي جنتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي أَرَصَدْنَا ﴿لِالظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿بَارَأَ أَعْمَالَهُمْ شُرَادِقُهَا﴾ أي سورها.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ شُرَادِقُهَا﴾ قال: حائط من نار. ^(١) وقوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيضُوا يَفَانُوا يَمَآءَ كَالْمُهْلِ يَشْوَى الْوُجُوهُ﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل: الماء الغليظ مثل دردي الزيت. ^(٢) وقال مجاهد: هو كالدّم والقحج. ^(٣) وقال

عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. ^(٤) وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أقدود، فلما انما وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل. ^(٥) وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود. وهذه الأنوار ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود متن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوَى الْوُجُوهُ﴾ أي من حره. إذا أراد الكافر أن يشربه، وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

وقال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار استغاثوا، فأغاثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها، فاجتنت جلود وجوههم، فلو أن ناراً منهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ^(٦) ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿بَشَسِّ الشَّرَابِ﴾ أي بشس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمُتَوُا مَاءً حَمِيمًا قَطِّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿تَشْقَىٰ مِنَ غَيِّهِ نَارُ عَذَابٍ﴾ أي حارة، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ عِمْرَانٍ﴾ ^(٧) ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ^(٨).

﴿بَشَسِّ الشَّرَابِ﴾ مأمنوا وعملوا الصالحات إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ هَدَىٰ عَمَلًا ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَذْبٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ
وَيَسْتَبْرِقُونَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ النَّوَابِ وَحَسَنَتَ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾

[جزاء من آمن وعمل الصالحات]

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيها جاؤوا به، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّتٌ عَذْبٌ﴾ والعدن: الإقامة ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنزلهم، قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي﴾ الآية ﴿يُحَلِّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلَوْثُوًّا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وفصله هنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَيَسْتَبْرِقُونَ﴾ فالسندس لباس رفيع رقيق كالقمصان وما جرى مجراها. وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هنا، ومنه الحديث الصحيح: «أَمَا أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَّكِئًا» ^(١) والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

وقوله: ﴿نِعَمَ النَّوَابِ وَحَسَنَتَ مُرْتَفَقًا﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفعاً، أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿بَشَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ^(٢) وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ^(٣) ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ يَمَا كَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبِيبَةً وَسَلَامًا﴾ ^(٤) ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ^(٥).

﴿وَأَضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا﴾ ^(٦) ﴿كِلَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْثَابٌ وَلَمْ يُطْعِمْنِي مِنْهُنَّ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ^(٧) ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَادِّثُهُ إِنَّكَ أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا وَأَعَزُّ نَفْسًا﴾ ^(٨) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ^(٩) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خِيَارَ مِمَّا مَثَّلْتُ لَكَ﴾ ^(١٠)

(١) الطبري: ١١/١٨. (٢) الطبري: ١٣/١٨.

(٣) الطبري: ١٣/١٨. (٤) الطبري: ١٢/١٨.

(٥) الطبري: ١٣/١٨. (٦) الطبري: ١٣/١٨.

(٧) الطبري: ١٤/١٨. (٨) تحفة الأحوذى: ٥٥٧/٥.

[مثل المشرك الغني والمسلم الفقير]

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، مخوفتين بالنخيل، المحدثه في جنباتها، وفي خلاهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع ثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كُنَّا لِنَنْتَهِ أَنْتَ أَكْلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظَلِمْنَاهُ شَيْئاً﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهراً﴾ أي: والأنهار متفرقة فيها ههنا وههنا ﴿وَكُنَّا لَهُ نَصراً﴾ قيل: المراد به المال، وقيل: الثَّار، وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: (وَكُنَّا لَهُ نَصراً) بضم الناء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون: ﴿نَصراً﴾ بفتح الناء والميم^(١)، ﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين: ﴿لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُجَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله، ويخاصمه يفتخر عليه، ويترأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً﴾ أي: أكثر خدماً وحشاً وولداً، قال قتادة: تلك - والله - أمنية الفاجر، كثرة المال وعزة النفس^(٢).

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكار المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تنفي ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي كائنة ﴿وَلَكِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكون لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَكُسْئِي﴾ وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ أي: في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل. وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُجَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٢٨﴾ ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صُفْعًا زُلْفًا أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿٢٩﴾

[جواب المؤمن الفقير]

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، وأعطاه وزاجراً عما هو فيه، من الكفر بالله والاعترار: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْرًا فَأَخْبِتْكُمْ﴾ الآية، أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كئار معدوم، ثم وجد، وليس وجوده من نفسه، ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن: ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقاتلتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إن تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٢٨﴾ هذا تخفيض وحش على ذلك، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حدث الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَثْرٍ مِنْ كُتُوبِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣).

وقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة^(٤) ومالك عن الزهري: أي: عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها

(١) الطبري: ٢١/١٨. (٢) الطبري: ٢٢/١٨.

(٣) فتح الباري: ٢١٧/١١، ومسلم: ٢٠٧٦/٤.

(٤) الطبري: ٢٥/١٨.

يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿١٦﴾ ومنهم من خفف القاف على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرُ ثَوَابٍ﴾ أي: جزاء ﴿وَحَيْرُ عِقَابٍ﴾ ﴿١٧﴾ أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا لِّحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ تَبَاثُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٨﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مِمَّا﴾ ﴿١٩﴾

[مثل الحياة الدنيا]

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلًا لِّحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ تَبَاثُ الْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ﴿١٨﴾ أي: هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيرا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ تَبَاثُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ الآية، وقال في الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ نَجِييحًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ الآية، وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَمَتَاعٌ خَرَابٌ إِنَّ الْأُمُورَ لَلْآتُولَ كَمَا لَبِثَ أَجِبَ الْكَافِرُ نَبَأُهُ﴾ الآية، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة» (٣).

[عبادة الله تعالى خير من الأموال والأولاد]

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿رُبُّنَا لِلنَّاسِ كَيْدٌ شَدِيدٌ مِنَ الْإِسْكَوَاتِينَ وَالْقَطِطِ الْمُنْفَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ زِينَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مِمَّا﴾ ﴿١٩﴾.

واشجارها، ولهذا قال: ﴿فَنُصِصَ صَوِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿١٠﴾ أي: بقلعها زوالا أبلس، لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا يثبت شيئا (١) وقوله: ﴿أَوْ يُصِصَ مَاؤَهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرا في الأرض، وهو ضد النابح الذي يطلب وجهه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ نَسَخَ مَا تَدْعُونَ فَإِنْ تَأْتِيكُمْ بِلَا مَعِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: جار وسامع، وقال مهبسا: ﴿أَوْ يُصِصَ مَاؤَهَا غَوْرًا فَإِنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبُ﴾ ﴿١١﴾ والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ فأصبح يقبض كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول بليتي لو أشرك برفي لحدا (١٢) ولم تكن له فئة مصروته من دون الله وما كان منصورا (١٣) هنالك الولية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا (١٤)

[النتيجة السيئة للكفر]

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ بأمواله، أو بشماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جتته التي اغتر بها وألهمته من الله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْبِضُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ بَلَيْتِي لَوْ أَشْرَكْتُ بِرَفِي لَحَدَا﴾ ﴿١٢﴾ ولم تكن له فئة أي: عسيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكَانَ مُنْصَرًّا﴾ ﴿١٣﴾ هنالك الولية لله الحق اختلف القراء منها فسهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ ﴿١٣﴾ هنالك من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ ﴿١٣﴾ ويتبدى بقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ ﴿١٣﴾ ويتبدى بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ثم اختلفوا في قراءة «الْوَلِيَّةُ» فمنهم من فتح الواو من الولاية، فيكون المعنى هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد [من] مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وكقوله عبيد بن جراح: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ أَمَنْتُ بِاللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ والكن وقد صحت قبل وكنت من المفسدين (١٦) ومنهم من كسر الواو من الولاية، أي هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع «الحق» على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَالُ

(١) الطبري: ٢٦/١٨. (٢) الطبري: ٢٧/١٨.

(٣) مسلم: ٢٠٩٨/٤.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ الصلوات الخمس ^(١).

وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ^(٢)، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رواه الإمام أحمد ^(٣).

وروى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُجُ لِحُمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي السَّيِّئَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَاللَّهُ - وقال - : يَخْلُجُ لِحُمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَيَقِنًا بَيْنَ دَخَلِ الْجَنَّةِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبِالْبَيْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَبِالْحِسَابِ» ^(٤).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض ^(٥). وقال العوفي عن ابن عباس: هي الكلام الطيب ^(٦). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها ^(٧)، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ^(٨) وَعَرْضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنْ تَبْجَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ^(٩) وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ^(١٠)

[أهم أهوال الساعة]

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ^(١) وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ^(٢) أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ ثَمَرٌ مَرْمَرٌ لَشَّابٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ

فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ^(٣) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ^(٤) لَا تَبْقَى فِيهِ جِبَالٌ وَلَا أَمْتًا ^(٥) يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتساوي المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ^(٦) أي: سطحًا مستويًا لا عوج فيه ولا أمتًا أي: لا وادي ولا جبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يوراري أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تنفى عليهم خافية. قال مجاهد وقتادة: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لا خريفية ولا غيبة ^(٨) قال قتادة لا بناء ولا شجر ^(٩).

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ^(١٠) أي: وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ^(١١) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِقْدَرٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ^(١٢) وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْآلُفُ وَأُولَئِكَ يَوْمَ يَكُونُ مَثْهَبٌ﴾ ^(١٣) وقوله: ﴿وَعَرْضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا أَمْرًا لَهُ أَلَزَمَنَ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ^(١٤) ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وَبِمَا رَبُّكَ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا صَفًّا﴾ ^(١٥) وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا تقرير للمتكبرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنْ تَبْجَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ ^(١٦) أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي به الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا﴾ أي: يا حشرتنا وولينا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: ضبطها وحفظها.

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الآية، وقال

- (١) الطبري: ٣٢ / ١٨. (٢) الطبري: ٣٣ / ١٨.
(٣) أحمد: ٧١ / ١. (٤) أحمد: ٢٣٧ / ٤.
(٥) الطبري: ٣٥ / ١٨. (٦) الطبري: ٣٥ / ١٨.
(٧) الطبري: ٣٥ / ١٨. (٨) الطبري: ٣٦ / ١٨.
(٩) الطبري: ٣٦ / ١٨.

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَتَذَكَّرُونَ ذُرِّيَّتَهُ أُولَٰئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ
لَكُمْ عَذْرَاءٌ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

[قصہ آدم و ابلیس]

يقول تعالى منها بني آدم على عداوة إبليس هم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه، وبألطافه رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله وإلى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَي: لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُوجٍ﴾ (١٨) ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢١) وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خاتمه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اخْلُقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ بِمَا وَصِفَ لَكُمْ»^(٥)، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخاتمه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبدهم وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: على أنه خلق من نار، كما قال ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٦) قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر، رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه^(٦).

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله، فإن
الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من
أكمها، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعبث
والفساد، ثم قال تعالى مفرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه:
﴿أَفَسْتَدْرِكُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ﴾ الآية، أي بدلاً
عني، ولهذا قال: ﴿يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠) وهذا المقام كقوله
بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء
والأشقياء في سورة يس: ﴿وَأَمَّا نِسْوَةٌ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ (٥١)

(١) أحمد: ١٤٢/٣.

(۲) فتح الباری: ۳۵۴/۱۲، ومسلم: ۱۳۶۱/۳.

(٣) أحمد: ٤٩٥/٣. (٤) زوائد المسند: ١٢/١.

(٥) مسلم: ٢٢٩٤/٤. (٦) الطبري: ٥٠٦/١٨.

تعالى: ﴿يُنْفِثُ الْبَلْغَمَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفِثُ الْبَلْغَمَ يَوْمَئِذٍ﴾ (١) أي: تظهر المخبات والضماير. روى الإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَكَّدُ بِهِ» (١) أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِثْبَاتِهِ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرُهُ فُلَانٌ بِنِ فُلَانٍ» (٢).

قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١١) أي: فيحكم بين عباده في
أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر
ويزحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار
من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي
وعمل فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يبور ولا يظلم، قال
نعمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا﴾
الآية، وقال: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿حَسْبِيَ﴾ (١٧) والآيات في هذا كثيرة
وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر
ابن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ،
فأنشئت بهيراً ثم شددت عليه رحلي، فسرت عليه شهراً حتى
فلست عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له:
جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه
فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من
رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن
أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْتَرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِيَادَ - عُرَّةً غُرّاً لِبَنِيهَا» قلت: وما
بها؟ قال: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُتَادِيهِمْ يَصُوتُ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا
يَسْمَعُهُ مَنْ قَبْلَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ
أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَيَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، وَلَا
يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَيَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْحَيَّةَ، وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ
النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ».

قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ حِفَاةَ عِزِّهِ غَرْلًا
 هَاهُنَا؟ قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» (٣).

وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن أبي عثمان عن عثمان
ابن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَقْتَصَّ مِنَ
الْقِرَاءَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد، وله
شواهد من وجوه أخر.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ (٢١).

[ألهة المشركين لهم يشهدوا خلق شيء حتى أنفسهم]

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومديرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك، ولا وزير ولا مشير، ولا نظير كما قال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَقَالَ ذَرُّوْهُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَاءٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوْتِيَ لَهُ، والآية، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ (٢١) قال مالك: أعواناً. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٢٢) وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٢٣).

[عجز الشركاء عن الجواب وحضور المجرمين النار]

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوه يوم ينفذوكم بما أنتم فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٤) وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٢٥) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٢٦) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٢٣) قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مهلكاً (١).

والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائداً إلى المؤمنين

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير

والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يفرق بين الهدى والضلالة به (٢)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَفْرَوْنَ﴾ (٢٧) وقال: ﴿يَوْمِذِرُ يَصْدَعُونَ﴾ (٢٨) وقال تعالى: ﴿وَأَنْتَزَعْنَا أَلِيمًا مِنَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢٩)، وقال تعالى: ﴿تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ يَبْتَئِمْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾ (٣٠) وقوله: ﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارُ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٣١) أي: أنهم لما عابوا جهنم حين جيء بها بقسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك من المجرمين النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف قبل وقوعه، عذاب ناجز. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدًّا﴾ (٣٢).

[تصريف الأمثال في القرآن]

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحا الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المحاد والمخاصمة المعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصر لطريق النجاة. روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقالت: «ألا أنصلياً؟» فقلت: يا رسول الله إنها أنفست بيد الله، فإذا أنت أن يبعثنا بشئ، فأنصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول: «وَكَاكَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدًّا» (٣٣) أخرجاه في الصحيحين (٤).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (٣٥) وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ (٣٦).

[بيان تمرد الكفار]

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديث

(١) الطبري: ٤٦/١٨. (٢) الطبري: ٤٦/١٨.

(٣) أحمد: ٤/١١٢ (٤) فتح الباري: ٣/١٣، ومسلم: ١/٢٨.

إِذَا بَدَأَ ﴿٥٧﴾.

وقوله: ﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابُ﴾ كما قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٥٨﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ ﴿٥٩﴾ أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل. وقوله: ﴿وَيَلَيْكَ الْفُرُوسُ أَهْلُكُنْهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٦٠﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

﴿وَلَا قَالَتْ مُوسَىٰ لِفَتْنَةٍ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦١﴾ فلما بلغنا مجمع بينهما شيئا حوثهما فأنفذ سبيله في البحر سريّا ﴿٦٢﴾ فلما جاوزا قال لِفَتْنَةٍ مَا بَيْنَا غَدَاةً فَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا السَّيْطَنُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٤﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٦﴾

[قصة موسى والخضر]

سبب قول موسى لفته وهو يوشع بن نون هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبدا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحيط به موسى، فأحب الرحيل إليه، وقال لفته ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال سائرا ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦١﴾ أي ولو أنا أسير حقبًا من الزمان. قال ابن جرير - رحمه الله -: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة ^(١)، ثم روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب

(١) الطبري: ٥٦/١٨.

سببهم بالحق بين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات ثلاث الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانا، كما قال ربك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْكَ سَنًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ وأخبرون قالوا: ﴿إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْعَذَابَ اللَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧١﴾ وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ هَذَا الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْعَذَابَ الْيَوْمَ﴾ ﴿٧٢﴾، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي تُوَلَّىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ خَبِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٤﴾ غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ مِنَ الْأَرْبَابِ﴾ من غشيانهم بالعذاب وانحدم عن آخرهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٥٥﴾ أي: يرونه عيانا مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَزِيلُ الرُّسُلُ إِلَّا أَهْلِيْنَ وَمَذْهَبَهُنَّ﴾ أي: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وأهلهم، ومبشرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار أنهم يجادلون ﴿بِالْبُطْلِ لِيُذْخِرُوا بِهِ لِقَاءَ﴾ أي: ليضعفوا به الحق الذي جاءهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا عَلَىٰ رءُوسِهِمُ الْأَنْدَرُؤُسَ﴾ ﴿٦١﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُؤُلَاءِ﴾ ﴿٦٢﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ دَخَلُوا مَدِيْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ وَفَرَّغَتْ مَدِينَتُهُمْ قُلُوبُهُمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا بَدَأَ ﴿٧٠﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ ﴿٥٩﴾ وَيَلَيْكَ الْفُرُوسُ أَهْلُكُنْهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٦٠﴾

[أظلم الناس من أعرض بعد التذكير]

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها؟ أي: تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَفِي مَقَادِمِهَا﴾ أي: من الأعمال السيئة والأعمال القبيحة ﴿وَنَاجَعْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةٌ﴾ أي أغطية وغشاوة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمما معنويا عن الرشاد ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾

ثمانون سنة ^(١). وقال مجاهد: سبعون خريفاً ^(٢). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَمْضَى حَقًّا﴾ ^(٣) قال: دهرًا ^(٤)، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك ^(٥).

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا جَمْعَ بَيْنِهِمَا نِسَاءَهُمَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت، فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: «عين الحياة» فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكمل مع يوشع عليه السلام، وطفروا من المكمل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ^(٦) أي: مثل السرب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر ^(٧). وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «مَا أَنْجَابَ مَاءٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ [عَيْزُهُ، بَيْتُ] مَكَانَ الْحَوْتِ الَّذِي فِيهِ، فَاِنْجَابَ كَالْكُوءِ حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ مُوسَى، فَرَأَى مَسْلَكَهُ، فَقَالَ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ» ^(٨).

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسبته، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ^(٩) وإنما يخرج من المالح في أحد القولين، فلما ذهبا عن المكان الذي نسيانه فيه بمرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لِفَتْنَةٍ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ ^(١٠) يعني تعبًا. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ. ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ^(١١) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ أي هذا هو الذي نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أي طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ ^(١٢) أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ^(١٣) وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوحًا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر - عليه السلام - ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَسِيلُ: أَيُّ النَّاسِ

أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمَكْتَلٍ، فَتَحْمِلُهُمَا فَقَدْ الْحَوْتَ فَهُوَ ثَمٌّ، فَتَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمَكْتَلٍ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ مَعَهُ فَتَوْشَعُ بَيْنَ نَوْنٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى إِذَا آتَى الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَاقَا، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتُ فِي الْمَكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتِ جُزْءَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يَخْبُرَ بِالْحَوْتَ، فَاِنْطَلَقَا بَيْنَهُمَا وَلِيَتَّخِذَا حُوتًا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدْرِ قَدْ مَوَسَى لِقَاءَهُ: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ^(١٤) وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ: قَسَا، ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ^(١٥) قَالَ: فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا، وَلْيُوسَى وَقَتَهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ^(١٦) قَالَ: فَرَجَعَا يَقْصَانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى اتَّهَمَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِنُوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ: الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى نَسِيتُ إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي رُسُلًا، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ^(١٧) يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا أَفْلَهُمْ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ^(١٨) قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ وَحِينَ أَحَدُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ^(١٩) فَاِنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَسَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِمِثْلِ نَوْنٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ تَوَلٍّ فَعَمَدَتْ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقَتْهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتُكَ بِمَا إِمْرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ^(٢٠) قَالَ لَا تَوَلِّئْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَزِدْهُنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ^(٢١) قَالَ: - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ قَوِيَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ

(١) الطبري: ٥٦/١٨. (٢) الطبري: ٥٦/١٨.

(٣) الطبري: ٥٧/١٨. (٤) الطبري: ٥٧/١٨.

(٥) الطبري: ٥٨/١٨.

بَخْرٍ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَيَبْتَغِيَانِ مِمَّا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ
 الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَيْنِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَأَقْبَلَهُ
 بِفِكَرَةٍ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿قَالَ أَقْبَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَاقِصٍ
 خِزْيَ شَيْئًا لَكَ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
 ﴿قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى﴾ (٧٧) ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ
 مِمَّا لَا تَصْنَعُ حَتَّى قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ (٧٨) ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ
 وَبَاءَهُمَا لَمْ يَجِدْهُمَا فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْمَوْلُودَ فِيهَا فَجَدَا فِيهَا جَدَارًا يُرِيدُ أَنْ
 يُنْفِضَهُ﴾ (٧٩) ﴿أَي مَائِلًا﴾ فَقَالَ الْخَضِرُ يَسِدُهُ: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فَقَالَ
 مُوسَى: قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعَمُوا وَلَا يُصَبَّوْا ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ
 لَخَدْتُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا﴾ (٨٠) ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَيْتُكَ بِأَنْ يُولِىَ مَا لَمْ
 يَنْطَلِقْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨١) ﴿قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَوَدِدْنَا أَنْ مُوسَى
 كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقْبَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرٍ هُمَا﴾ قال سعيد بن جبير:
 كان ابن عباس يقرأ: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ
 عِطْفًا) وكان يقرأ: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنًا) (٨٢).

ثم رواه البخاري نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع
 ابن نون ومعها الخوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزل عندها،
 فوضع موسى رأسه فنام، قال: وفي أصل الصخرة عين يقال
 لها الحية لا يصب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الخوت من ماء
 تلك العين، فتحرك وانسل من الكتل فدخل البحر، فلما استيقظ
 قال موسى لفتاه: «إِنَّا غَدَاؤُنَا» قال: وساق الحديث، ووقع
 عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر
 لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلات في علم الله إلا مقدار ما
 غمس هذا العصفور منقاره، وذكر تمامه بنحوه (٨٣).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٨٤)
 ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٨٥) ﴿كَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾
 ﴿قَالَ سَجِدْ فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٨٦) ﴿قَالَ فَإِنْ
 أَتَيْتَنِي فَلَا تُسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٧)

[لقاء موسى مع الخضر ومصاحبتة إياه]

يخبر تعالى عن قبل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم
 وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه
 أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ
 أَتَيْتُكَ﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا
 ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْتُكَ﴾
 أي: أصحبك وأرافقك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾
 (٨٤) أي: أي ما علمك الله شيئًا أسترشد به في أمري من علم

نافع وعمل صالح، فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ
 تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٦) أي: إنك لا تقدر على مصاحبتي لما
 ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأنني على علم
 من علم الله ما علمه الله، وأنت على علم من علم الله ما
 علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه،
 وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾
 (٧٧) فإنا نعرف أنك ستترك علي ما أنت معذور فيه، ولكن
 ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا
 عليها دونك ﴿قَالَ﴾ أي موسى: ﴿سَجِدْ فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ
 صَابِرًا﴾ أي على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٨٦)
 أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه
 السلام ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تُسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أي ابتداء ﴿حَتَّى
 أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٧) أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.
 ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا
 لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧٦) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
 (٧٧) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَى﴾ (٧٨)

[قصة خرق السفينة]

يقول تعالى خبرًا عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما
 انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن
 شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدؤه من تلقاء نفسه
 بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف
 ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول،
 يعني بغير أجر، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في
 البحر ولججت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها،
 واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رفعها، فلم يملك موسى
 عليه السلام نفسه أن قال منكرًا عليه: ﴿أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ
 أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧٦) قال مجاهد: منكرًا (٨٣). وقال

قتادة: عجبًا (٨٤). فعندها قال له الخضر مذكرًا بما تقدم من
 الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٦) يعني: وهذا
 الصنيع فعلته قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن
 لا تنكر علي فيها؛ لأنك لم تحط بها خبرًا ولها دخل هو

(١) فتح الباري: ٨/ ٢٦٢. (٢) فتح الباري: ٨/ ٢٧٦.

(٣) الطبري: ١٨/ ٧٢. (٤) الطبري: ١٨/ ٧٢.

مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَبِيتٌ وَلَا تَرْفَعْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ﴾ ﴿٧٦﴾ أي: لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿كَاتَبَ الْأَوَّلَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا﴾^(١).

﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي رَسُولَ اللَّهِ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمُونِي لَتُكْرَأَنَّ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ الرَّاقِلُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿٧٩﴾

[قصة قتل الغلام]

يقول تعالى: ﴿فَاطْلُقَا﴾ أي بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجلهم وأضوأهم فقتله، فلما شاهد موسى عليه السلام هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي: صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت إثماً بعد، فقتلته؟ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونِي لَتُكْرَأَنَّ﴾ ﴿٧٧﴾ أي ظاهر النكارة ﴿قَالَ الرَّاقِلُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿٧٩﴾ أي أعذرت إلي مرة بعد مرة، روى ابن جرير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: ﴿رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْلَيْتَ سَعَّ صَاحِبُهُ لَا بَصَرَ الْعَجَب، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا لَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^(٢).

﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَلْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾

[قصة إقامة الجدار]

يقول تعالى مخبراً عنها إنها ﴿فَاطْلُقَا﴾ بعد المرتين الأولين ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الآية^(٣)، وفي الحديث: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِنَامَا﴾^(٤) أي بخلاء ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل

الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى المبالغة والانقضاض هو السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: فردده حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿سِتَتْ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿٧٧﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفوا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاًناً ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك ﴿سَأَلْتُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿أَنَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْوَاهُ أَنْ أَسْفَلَ وَرَأَاهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿٧٩﴾

[تأويل خرق السفينة]

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكم باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيها لأنهم كانوا يعمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صاحب أي جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيها لأرده عنها العيب فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء. بتفسير به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

﴿وَأَنَا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٠﴾ فَأَرَادْنَا أَنْ يُنَادِيَهُمَا رَجُلًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ ذَكَوَةٌ وَأَقْرَبُ بِهِنَّ أُنثَىٰ﴾ ﴿٨١﴾

[تأويل قتل الغلام]

عن ابن عباس عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: الغلام الذي قتل الخضر طبع يوم طبع كافراً رواه ابن جرير عن ابن عباس^(٥)، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يحملها حبه على متابعتها على الكفر قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنوا عليه حين قتل، وبقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء المؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب^(٦)، وصح الحديث: ﴿لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لِّهُ﴾

(١) فتح الباري: ٢٦٢/٨. (٢) الطبري: ٧٧/١٨.

(٣) الطبري: ٧٨/١٨. (٤) أحمد: ١١٩/٥.

(٥) الطبري: ٨٥/١٨. (٦) الطبري: ٨٦/١٨.

(٧) أحمد: ١١٧/٣.

[وجه تسمية الخضر]

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضِرَاءُ» ^(٤) ورواه أيضًا عن عبد الرزاق ^(٥)، وقد ثبت أيضًا في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قَرْوَةٍ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضِرَاءُ» ^(٦) والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق ^(٧). وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» ^(٨) أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: «[مَا لَمْ تَسْطِعْ]» وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقیلاً، فقال: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» ^(٩) فقابل الأثقل بالأنثقل، والأخف بالأخف، كما قال: «فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ» وهو الصعود إلى أعلاه «وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ تَقْبَالًا» ^(١٠) وهو أشق من ذلك، فقابل كلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينها، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

«وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقَرْكَينَ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا

﴿١٢﴾ إِنَّا مَكْنُؤُهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحٌ ﴿١٣﴾

[قصة ذي القرنين]

يقول تعالى لنبيه ﷺ: «وَيَسْتَأْذِنُكَ» يا محمد «عَنْ ذِي الْقَرْكَينَ» أي عن خبره وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقال تعالى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» وقوله: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْا وَأَقْرَبَ رُحَمَاءَ» ^(١١) أي: ولما أزرى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج ^(١٢).

«وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» ^(١٣)

[تأويل إقامة الجدار بغير أجره]

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: «حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ» وقال ههنا: «فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ» كما قال تعالى: «وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ أَشَدَّ قُوَّةٍ مِنْ قَرْيَةٍ آخَى أَخْرَجَكَ»، «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» ^(١٤) يعني: مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة وقتادة وغير واحد: وكان تحته مال مدفون لهما ^(١٥)، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير - رحمه الله.

وقوله: «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لنظر عنه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: حفظًا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحًا ^(١٦) وقوله: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا» ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يفدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْا» وقال في السفينة: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُصِيبَهُمَا فَلَاحٌ أَوْ غَرَقٌ» ^(١٧) والله أعلم.

[هل كان الخضر نبياً]

وقوله تعالى: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، والودي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، أي: لكنني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بشوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعُلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» ^(١٨).

(١) الطبري: ٨٧، ١٨/٨٧. (٢) الطبري: ٩٠، ١٨/٩٠.

(٣) الطبري: ٩٠، ١٨/٩٠. (٤) أحمد: ٣١٢/٢.

(٥) أحمد: ٣١٨/٢. (٦) فتح الباري: ٤٩٩/٦.

(٧) أحمد: ٣١٨/٢.

[كان ذو القرنين صاحب سلطة كبيرة]

وقوله: ﴿وَأَنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أعطينا له ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشرق والمغرب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿وَأَيُّبَ بْنَ كَثُوتَ سَيِّبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقناة والضحاك وغيرهم: يعني علياً^(١). وقال قناة أيضاً في قوله: ﴿وَأَيُّبَ بْنَ كَثُوتَ سَيِّبًا﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها^(٢).

وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ﴾ أي مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين، يسير الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سيباً والله أعلم.

﴿فَأَنبَغُ سَيِّبًا﴾ ^(٣) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدّها تقرب في عتبات حجة ووجد عند هاقوماً فلنا يذو القرنين إيماناً تعذب وإيماناً لنخذه فيهم حسناً^(٤) قال أماناً ظلم فسوف تعذب، ثم ردد إلى ربهم فيعذبهم عذاباً لئلاً^(٥) وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسن وسؤل لهم من أُمرياً يسيراً^(٦)

[ذهابه وبلوغه إلى مغرب الشمس]

قال ابن عباس: ﴿فَأَنبَغُ سَيِّبًا﴾ يعني بالسبب المنزل^(٧)، وقال مجاهد: ﴿فَأَنبَغُ سَيِّبًا﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب^(٨)، وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَيِّبًا﴾ قال: طريقاً في الأرض^(٩) وقال قناة: أي: اتبع منازل الأرض ومعالمها^(١٠).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَقَرَّبُ فِي عَيْنٍ حَجَرَةٍ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه

لا تفارقه، والحمة مشتقة على إحدى القراءتين من الحماة وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتَوْسِمٍ﴾ ^(١١) أي: طين أملس، وقد تقدّم بيانه.

وقوله: ﴿وَوَجَدَهُ عَاقِبَةً﴾ أي: أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿فَلَنَازِلُ الْقُرْنَيْنِ إِيْمَانًا تَعَذِّبُ وَإِيْمَانًا تَنْجِذُ فِيهِمْ حَسَنًا﴾ ^(١٢) معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظفره بهم، وخيره إن شاء قتل وسبي، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ قال قناة بالقتل^(١٣)، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَّئِيْلًا﴾ ^(١٤) أي شديداً بليغاً وجيماً أليلاً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أي اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ لَا يَخْسَرُونَ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وَسَوْفَ لَهُمْ أَجْرٌ يَسْتَوُونَ﴾ ^(١٥) قال مجاهد: معروفاً^(١٦) ﴿ثُمَّ أَنبَغُ سَيِّبًا﴾ ^(١٧) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدّها تطلع على قمر ثم جعل لهم من دونهما يسيراً^(١٨) كذلك وقد أحطنا بما لَدَيْهِمْ خيراً^(١٩)

[ذهابه إلى جهة المشرق]

يقول تعالى ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلّبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلّمهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعته، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَقَطُّعٌ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿ثُمَّ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا يسيراً﴾ ^(٢٠) أي ليس لهم بناء يكتنهم، ولا أشجار تظلمهم وتستترهم من حر الشمس.

وقال قناة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً فهم لا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حُرُوتهم ومعاشهم^(٢١). وقوله: ﴿كَذَلِكَ رَدُّهُ﴾ أي أحطنا بما لَدَيْهِمْ خيراً^(٢٢) قال مجاهد والسدي: علياً أي نحر

(١) البداية والنهاية: ١٠٦/٢، والطبري: ٩٤/١٨، ٩٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٠٦/٢، والطبري: ٩٤/١٨، ٩٥.

(٣) الطبري: ٩٩/١٨، (٤) الطبري: ٩٥/١٨.

(٥) الطبري: ٩٥/١٨، (٦) الطبري: ٩٩/١٨.

(٧) الطبري: ٩٨/١٨، (٨) الطبري: ٩٩/١٨.

(٩) الطبري: ١٠٠/١٨.

يظلمون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أعمهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَإَ﴾ (٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ هَٰذَا الْأَرْضِ فَهَلْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ خَرْمًا عَلَيَّ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٤﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعْبُو فِي صُوقِهِمْ أَلْجَعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٥﴾ فَأَتَوْا نَذِيرًا لِلْحَيْدَرِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتَوْا فَرَجًا عَلَيْهِمْ وَقَطَرًا ﴿٦﴾

[ذهابه إلى أرض يأجوج ومأجوج وبناءه السد]

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَإَ﴾ (٢) أي: ثم أخبر سبأ عن طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبال متناوحتان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيشون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ لِيَسْكُ وَتَسْعُدُكَ. فَيَقُولُ: أَمِنْتُ بِكَ النَّارَ، فَيَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْبٍ تَسْعَانِي وَتَسْعَةُ وَتَسْمُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَجِيئْتُ بِنَسَبِ الصُّغَيْرِ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلٍ تَحْمِلُهَا. فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثْرَتَا: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» (٣).

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (٣) أي: لا استعجم كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ هَٰذَا الْأَرْضِ فَهَلْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ خَرْمًا﴾ قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (٤): أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا لهم من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: «أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اثْنَيْنِ؟ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَيْتُكُمْ» الآية، وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تذلونه ولكن ساعدوني بقوة، أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَلْجَعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٥) فَأَتَوْا نَذِيرًا لِلْحَيْدَرِ والزبر جمع زبرة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس ومجاهد وقادة (٦)، وهي كاللينة، يقال: كل لينة زنة قطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من

الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طوًلاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ أي: أجمع عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قَالَ آتَوْا فَرَجًا﴾ (٦) فَرَجٌ عَرِيقٌ قَطَرًا (٦) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي: هو النحاس زاد بعضهم المذاب (٥) ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبب. ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقَابٌ﴾ (٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَعَلْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩﴾

[صار السد مانعاً وسوف يدك قرب القيامة]

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقَابٌ﴾ (٧) وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه.

روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استميط النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَنُزِلَ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ يَمْلَأُ هَٰذَا» وحلّق ليأصبعيه الإبهام والتي تليها قلت: يا رسول الله، أهلك وفيينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ» (٦) هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخرجه (٧).

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ نَذِيرُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ﴾

(١) الطبري: ١٨/١٠١.

(٢) فتح الباري: ٨/٢٩٥، ومسلم: ١/٢٠١.

(٣) الطبري: ١٨/١١٢. (٤) الطبري: ١٨/١١٤.

(٥) الطبري: ١٨/١١٦، ١١٧، والدر المنثور: ٥/٤٦٠.

(٦) أحمد: ٦/٤٢٨.

(٧) فتح الباري: ٦/٤٤٠، ومسلم: ٤/٢٢٠٨.

دَكَّا ﴿١٨﴾ أي: مساوياً للأرض.

﴿وَكَانَ وَعْدِي حَقًّا﴾ ﴿١٩﴾ أي: كائنًا لا محالة. وقوله: ﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي الناس يومئذ، أي يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس ^(١)، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتِ الْأُجُوجُ وَمُاجُوجٌ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقُّ ﴿٢١﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الْأُصُورِ﴾ والصور كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرائيل عليه السلام، كما تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة ^(٢٢)، وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس ^(٢٣) وأبي سعيد مرفوعاً: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ تَقَمَّ الْقُرْنُ، وَحَتَّى جَبَّهَتْهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ؟» قالوا: كيف نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» ^(٢٤). وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ﴿٢٥﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّا لَا أُولِيْنَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ لَمَجْمُوعُونَ لِيَوْمَئِذٍ يَمِيقَتْ يَوْمَ تَمْلَأُ ﴿٢٧﴾، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٨﴾.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ يُومِئذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٣٠﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٣١﴾

[عرض جهنم على الكفار يوم القيامة]

يقول تعالى مخبراً على الكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمة والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ» ^(١) ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتساموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فَقِصْلُهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٢﴾ وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿٣٣﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك ويتنفعون به ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٣٤﴾ ولهذا أخبر

الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٣٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿٣٨﴾

[الآخسرون أعمالاً وجزاؤهم]

روى البخاري عن عمرو بن مصعب قال: سألت أبي يعنى سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿٣٥﴾ أعم الخروية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب، والخروية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين ^(١)، وقال علي ابن أبي طالب ^(٢) والضحاك وغير واحد: هم الخروية، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الخروية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكنا قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يجب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو خطي، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ خَشِيعَةً﴾ ﴿٣٩﴾ عَابِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٤٠﴾ فَتُصَارِفُ حَايَةً ﴿٤١﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَوْمًا كَانُوا مَاعُولُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَمِلُوا هَبَاةً مَسْثُورًا﴾ ﴿٤٢﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرِفٍ يَقْبَعُوا بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ ثُمَّ يَحْدُوهُ شَيْئًا﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي نخبركم ^(٣) ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿٣٥﴾ ثم فسرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿٣٦﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدده رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ﴿٣٧﴾

- (١) الدر المنثور: ٤/ ٤٥٤. (٢) تحفة الأحوذى: ٩/ ١١٦.
(٣) الطبري: ١٨/ ١٢٢. (٤) تحفة الأحوذى: ٧/ ١١٧.
(٥) مسلم: ٤/ ٢١٨٤. (٦) فتح الباري: ٨/ ٢٧٨.
(٧) الطبري: ١٨/ ١٢٧.

آخر وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفذت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ وَالْبَحْرُ مِمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ، سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧) وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله قطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكُنْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ يقول: لو كانت تلك البحور مدادًا لكلمات الله، والشجر كله أقلام لا تكسرت الأقلام، وفي ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة، كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ إِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١)

[محمد ﷺ بشر ورسول والإله واحد]

يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكُونَ الْمَكِيدِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبركم به من الماضي، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر، ولولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ وَحْدَهُ﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ إِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراده وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنتا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ.

روى الإمام أحمد عن محمود بن أبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَعْبُدُونَ عَنْدهم جزاء؟» (٦).

لا تثقل موازينهم، لأنها خالية عن الخير. روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ عَظِيمُ السَّيِّئِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعْضَةٍ - قال: - أَقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾» (١٠) رواه مسلم (١).

قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا جزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا، شهروا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٧)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا﴾ (١٨)

[جزاء المؤمنين الصالحين]

يجر نعل عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيها جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، وقال بر أمانة الفردوس سره الجنة (٢)، وقال قتادة: الفردوس روضة الجنة وأوسطها وأفضلها (٣)، وقد روي هذا مرفوعًا عن سمرة عن النبي ﷺ: ﴿الْفِرْدَوْسُ رَوْضَةُ الْجَنَّةِ أَوْسَطُهَا وَأَحْسَنُهَا﴾. وروي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعًا بنحوه روى ذلك كله ابن جرير رحمه الله (٤)، وفي الصحيح: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَضَلُّ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَعَجَّرَ أَتَّهَرَّ الْجَنَّةَ» (٥). وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ (١٧) أي ضيافة، فإن النزول للضيافة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين ساكنين فيها، لا يفتنون عنها أبدًا ﴿لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا﴾ (١٨) أي لا يختارون عنها غيرها، ولا ينجسون سواها.

قوله: ﴿لَا يَدْخُلُونَهَا جَوْلًا﴾ (١٨) تنبيه على رغبتهم فيها وجهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه قد يسأمه أو يملسه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود لرسولهم لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ولا طعنًا ولا رحلة ولا بدلًا.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكُنْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ

تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾ (١٩)

[لا تنفذ كلمات الرب]

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفذ البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ﴾ أي بمثل البحر آخر، ثم

(١) فتح الباري: ٢٧٩/٨، ومسلم: ٢١٤٧/٤.

(٢) الطبري: ١٣٠/١٨. (٣) الطبري: ١٣٠/١٨.

(٤) الطبري: ١٣٤/١٨. (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣.

(٦) أحمد: ٤٢٨/٥.

لستقر نفسي ويطمئن قلبي بها وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّقُ الْمَوْتَ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية ﴿فَقَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن يحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والشدي وقادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة^(٢). قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة^(٣).

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿فَإِذَا رَبُّنَا جَعَلَ فِيْهَا آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْرًا وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَتَسْمَعُ بِالْعُرِيِّ وَالْإِنْكَارِ﴾ وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا زَمْرًا﴾ أي: إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكرًا لله على ما أولا. قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار^(٤) وبه قال وهب وقادة^(٥).

﴿يَنْبَغِي حَيْثُ أَلْكَتَبَ يَقُوْءُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وَحَنَانًا بَيْنَ لَدُنَّا وَرُكُوْءًا وَكَانَ قَبِيًّا^(٦) وَبَرًّا يُولَدُ لَهُ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا^(٧) وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا^(٨)

[ولادة الغلام وأوصافه]

وهذا أيضًا تضمن محذوفًا، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى - عليه السلام -، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا، فلهاذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: ﴿يَنْبَغِي حَيْثُ أَلْكَتَبَ يَقُوْءُ﴾ أي: تعلم الكتاب ﴿يَقُوْءُ﴾ أي: بجهد وحرص واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٩) أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير

﴿يَزَكِّرُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾

[قبول دعائه]

هذا الكلام يتضمن محذوفًا، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَزَكِّرُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِوَعْدِكَ مِنْ أَلَدٍ وَنَسِيتَ وَجْهَ مَوْلَا وَنِسَاءِ مِنَ الْأَصْلَاحِينَ^(١٠) وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة وابن جريج وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم^(١١)، واختاره ابن جرير - رحمه الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ مِنْ الدُّعَاءِ وَكَانَتْ أُمْرًا قَائِمًا وَقَدْ نَلِغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عَصِيًّا﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا^(١٢)

[التعجب بعد قبول الدعاء]

هذا تعجب من زكريا - عليه السلام - حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، وفرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن أمره كانت عاقرا لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي: عسا عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا نيس: عتا يعتو عتيا وعتوا، وعسا يعسو عسوا وعسيا.

[جواب الملك]

﴿قَالَ﴾ أي: الملك مجيبًا لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه، لا من غيرها، ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا أَنِّي عَلِ الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا^(١٣) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(١٤)

[علامة الحمل]

يقول تعالى مخبرًا عن زكريا - عليه السلام - أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة ودليلا على وجود ما وعدتني،

(١) الطبري: ١٨/١٤٨. (٢) الطبري: ١٨/١٥٢.

(٣) الطبري: ١٨/١٥٢. (٤) الطبري: ١٨/١٥٣.

(٥) الطبري: ١٨/١٥٤.

والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا^(١)، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا، وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا^(٢). وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا﴾ وتعطفًا من ربه عليه^(٣). والظاهر من السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًا﴾^(٤) أي وأتيناه الحكم وحنانًا وزكاة، أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل.

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزكاة: الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة: العمل الصالح^(٥)، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي^(٥). وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَاثِبِيًّا﴾^(٦) طُهر، فلم يَمُ بِذَنْبٍ^(٦).

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾^(٧) لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وثقى، عطف بذلك طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقها قولاً وفعلاً، أمراً ونهيًا، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾^(٨) ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٩) أي: له الأمان في هذه الثلاث الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ يَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٩) رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾^(١٠) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا^(١١) قَالَتْ إِنَّهُ عَذُوٌّ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا^(١٢) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّي لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا^(١٣) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا^(١٤) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَقْضِيًّا^(١٥)

[قصة مريم والمسيح]

لما ذكر تعالى قصة زكريا - عليه السلام -، وأنه أوجد منه

في حال كبره وعُظم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى -عليهما السلام- منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يُقَرَّن بين القصتين؛ لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قُدْرته وعظمته وسلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران من سُلالة داود -عليه السلام-. وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتا محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها [وقيل: خالتها] زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كَلَّمَادْخَلَ عَلَيْهَا فَرَكَّبَهَا بِالْإِصْبَاحِ وَرَدَّهَا بِرُحْمَةٍ وَأَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتِ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُّكَ مِنْ شَيْءٍ يَخْتَارُ﴾^(١٦) فذكر: أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى -عليه السلام- أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾^(١٧) أي اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس.

عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله، لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى: ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾^(١٨) واتخذوا ميلاد عيسى قبلة^(١٩).

وقوله: ﴿فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل -عليه السلام- ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٢٠) أي: على صورة إنسان تام كامل.

(١) الطبري: ١٥٦/١٨. (٢) الطبري: ١٥٦/١٨.

(٣) الطبري: ١٥٦/١٨. (٤) الطبري: ١٥٩/١٨.

(٥) الطبري: ١٥٩/١٨.

(٦) الطبري: ١٥٩/١٨، والدر المنثور: ٤٨٦/٥.

(٧) الطبري: ١٦٢/١٨.

وقوله: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (١) من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيته، قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢) أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد^(٤).

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٣) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ سَكِينًا مَنِيًّا (٤)

[استقرار الحمل ثم الولادة]

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلبها ورجعت، استمسك عنها الدم، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد، من الوصب والتوحم وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنها صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه. وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي فاضطرها وأجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه، وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس^(٥). وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق^(٦). وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم^(٧). قلت: وفي أحاديث الإسرائ من رواية النسائي عن أنس^(٨)، والبيهقي عن شدد بن أوس^(٩) أنه قال: علم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه بيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح.

قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرائيل - عليه السلام - (١). ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ (٢) أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافت وظنت أنه يريد بها على نفسها، فقالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ (٣) أي: إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع، أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل.

روى ابن جرير عن عاصم قال: قال أبو وائل وذكر قصة مريم، فقال: قد علمت أن النبي حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ (٤) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ أَي: فقال لها الملك مجيباً لها، ومزيلاً لما حصل عندها، من الخوف على نفسها: لست بما تظنين، ولكني رسول ربك، أي بعثني الله إليك^(٥). ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً وعاد إلى هيبته وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (٦) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ أَي فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني؟ ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٧) والبغي: هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث نهي عن مهر البغي^(٨). ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّكَ نَذِیَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة الناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتنت القسم الرابعة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله: نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكُتُكُ يَمَرُّمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً مِنَ الذَّنْبِ وَالْآخِرَةُ مِنَ الْمَعْرُوفِ (٩) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٠)﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.

(١) الطبري: ١٨/ ١٦٣. (٢) الطبري: ١٨/ ١٦٤.

(٣) أحمد: ١/ ٢٣٥. (٤) الطبري: ١٨/ ١٦٥.

(٥) الطبري: ١٨/ ١٦٦. (٦) الطبري: ١٨/ ١٧٠.

(٧) الطبري: ١٨/ ١٧٠. (٨) النسائي في الكبرى: ١/ ٢٢١.

(٩) دلائل النبوة: ٢/ ٣٥٥.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (١٣) فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنه سبتلى وتمتحن بهذا الولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (١٤) أي لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس (١). وقال قتادة: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (١٥) أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يُدري من أنا.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِيًّا سَرِيًّا وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجُنَاحَيْكَ تَشْفُقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّبًا﴾ (١٦) فُكِّلِي وَأَشْرِي وَفَرَى عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (١٧)

[ما قيل لها بعد الولادة]

قرأ بعضهم: (مَنْ تَحْتَهَا) بمعنى: الذي تحتها، وقرأ الآخرون: (مِنْ تَحْتِهَا) على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ جبريل (٢)، ولم يتكلم عيسى حتى أنت به قومه. وكذا قال سعيد بن جبيرة والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقاتادة: إنه الملك جبرائيل - عليه السلام (٣)، أي ناداه من أسفل الوادي. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروایتين عن سعيد بن جبيرة: أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداه قائلًا لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِيًّا سَرِيًّا﴾ (١٨) قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن السراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِيًّا سَرِيًّا﴾ (١٩) قال: الجدول (٤). وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السري النهر (٥). وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه (٦). وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية (٧). وقال سعيد بن جبيرة: السري: النهر الصغير بالنبطية (٨). وقال آخرون: المراد بالسري عيسى - عليه السلام -، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر. ولهذا قال

بعده: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجُنَاحَيْكَ تَشْفُقُ عَلَيْكَ﴾ أي: وحُذِي إِلَيْكَ بجذع النخلة. فامتن عليها بأنه جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿تَشْفُقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّبًا﴾ (١٩) فُكِّلِي وَأَشْرِي وَفَرَى عَيْنًا. أي: طيبي نفسك، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب. ثم تلا هذه الآية الكريمة (٩).

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: أي: منها رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٠) المراد بهذا: القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به: القول اللفظي؛ لثلاث بنياني ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢١) قال أنس ابن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً (١١)، وكذا قال ابن عباس والضحاك (١٢). والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقاتادة وعبد الرحمن بن زيد (١٣). وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عُنْدِي عند الناس؟ ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (٢٢) قال لها عيسى: ألسنا أكفيناك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٣) قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب.

﴿فَأَنَّتْ بِهِ، وَوَمَهَا تَحَلُّمُهُ، قَالُوا يَمُرُّهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيًّا﴾ (٢٤) يَتَأَخَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغِيًّا (٢٥) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٦) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢٧) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٢٨) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٢٩) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٠)

(١) الطبري: ١٨/ ١٧٢. (٢) الطبري: ١٨/ ١٧٣.

(٣) الطبري: ١٨/ ١٧٣. (٤) الطبري: ١٨/ ١٧٥.

(٥) الطبري: ١٨/ ١٧٦. (٦) الطبري: ١٨/ ١٧٦.

(٧) الطبري: ١٨/ ١٧٦. (٨) الطبري: ١٨/ ١٧٦.

(٩) الطبري: ١٨/ ١٧٩.

(١٠) الطبري: ١٨/ ١٨٢، ١٨٣.

(١١) الطبري: ١٨/ ١٨٢، ١٨٣.

(١٢) الطبري: ١٨/ ١٨٣، والقرطبي: ١١/ ٩٨.

[مريم مع المسيح أمام القوم ونكيرهم]

عليها ورد المسيح عليهم]

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، ﴿فَأَلْوَيْنَهُمْ فَكَيْدًا وَقَدْ خِيفَتِ﴾ (١٧) ﴿أَيُّ امْرَأَةٍ عِظِيَ﴾ قاله مجاهد وقادة والسدي وغير واحد. (١٨) وروى ابن أبي حاتم عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها، قال: وكانت من أهل بيت نبوة وشرف، فلم يحسوا منها شيئاً، فلحقوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعلها؟ قال: لا ولكني رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً، فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم تعدت وحملت ابنها في حجرها، فجأوا حتى قاموا عليها ﴿فَأَلْوَيْنَهُمْ فَكَيْدًا وَقَدْ خِيفَتِ﴾ (١٧) ﴿أَيُّ امْرَأَةٍ عِظِيَ﴾ (١٨) ﴿تَأْتَتْ هُتُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَتًا وَمَا كَانْتَ امْرَأَةً﴾ (١٩) أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالنصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها: ﴿تَأْتَتْ هُتُونَ﴾ أي: أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتيمي: يا أخا تميم، وللمضري يا أخا مضر. (٢٠) وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً (٢١) أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معترضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمكين بها طائنين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم ﴿فَأَلْوَيْنَهُمْ فَكَيْدًا وَقَدْ خِيفَتِ﴾ (١٧) ﴿أَيُّ امْرَأَةٍ عِظِيَ﴾ (١٨) ﴿تَأْتَتْ هُتُونَ﴾ (١٩) قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالت: كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيّاً! (٢٢)

وقال السدي لما «أشارت إليه» غضبوا، وقالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي، أشد علينا من زناها

﴿كَيْفَ نَكْلَمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ (٢٣) ﴿أَيُّ امْرَأَةٍ عِظِيَ﴾ (١٨) أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ (٢٤) تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ (٢٤) إلى قوله ﴿مَادُمْتُ حَيّاً﴾ (٢٥).

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قال مجاهد وعمر بن قيس والثوري: وجعلني معلماً للخير. (٢٥) وفي رواية عن مجاهد: نفعاً. (٢٦) وروى ابن جرير عن وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوفه في العلم، فقال له: يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده. وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان. (٢٧) وقوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَمَادُمْتُ حَيّاً﴾ (٢٨) كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٢٩).

وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَمَادُمْتُ حَيّاً﴾ (٢٨) قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر. (٣٠)

وقوله: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْ﴾ أي وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة الله ربه، لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ وقال: ﴿إِنِّي أَشْكُرُ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَىٰ النَّصِيرِ﴾ (٣١) وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ (٣٢) أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته، وبر والدي، فأشقي بذلك. وقوله: ﴿وَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَوْمِ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ (٣٣) إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله، يحى ويموت، ويبعث كسائر المخلوقات

(١) الطبري: ١٨/١٨٥. (٢) الطبري: ١٨/١٨٧.

(٣) الدر المنثور: ٥/٥٠٨. (٤) الطبري: ١٨/١٨٩.

(٥) الطبري: ١٨/١٩١. (٦) الطبري: ١٨/١٩١.

(٧) الطبري: ١٨/١٩١. (٨) القرطبي: ١١/١٠٣.

ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، - صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَيْكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣١) مَا كَانَ يَكُونُ أَنْ يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَرْتَابُونَ فَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٢) فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٣﴾

[عيسى عبد الله وليس بولده]

يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَيْكَ﴾ الذي قصصناه عليك من خبر عيسى - عليه السلام ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣١) أي: يختلف المبتلون والمحقون من آمن به وكفر به، ولهذا قرأ الأكثرون: (قَوْلَ الْحَقِّ) برفع قول، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وعن ابن مسعود أنه قرأ: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَالَ الْحَقُّ) ^(١)، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣٢) ولما ذكر تعالى: أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٣) أي إذا أراد شيئاً، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٤) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣٥).

[أمر عيسى بالتوحيد ثم اختلف الناس بعده]

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَرْتَابُونَ فَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٢) أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهلة أن أخبرهم إذا ذلك: أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٢) أي هذا الذي جئتمكم به عن الله صراطاً مستقيماً، أي قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى. وقوله: ﴿فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون

وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿قَوْلَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٣) تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم، حلساً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ لَيُكَلِّمُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (٣٤) وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا أَخْذَ أَضْبَرُ عَلَى أَذَى سَمِعْتُهُ مِنْ اللَّهِ، إِنَّمَا يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يُزَرِّقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» ^(٢) وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرْبَى أُمِيتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّنَفْسِهَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغَفِلَا غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٣٥) ولهذا قال ههنا: ﴿قَوْلَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٣) أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَوُجِّعَتْ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» ^(٤).

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٦) وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ تُنْفَسُ الْأَنْفُسُ إِذْ قَضَى الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا رُجُوعٌ ﴿٣٨﴾

[إنذار الكفار بيوم الحسرة]

يقول تعالى خبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُخْرِبُونَ تَأْكُلُ أَرْضَهُمْ وَهِيَ فِي يَدَيْهِمْ رَبًّا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاناة العذاب لكان نافعا لهم ومتقدماً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصُرْ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا

(١) الطبري: ١٨/١٩٤.

(٢) فتح الباري: ٨/٢٠٥، ومسلم: ٤/١٩٩٧.

(٣) فتح الباري: ١٠/٥٢٧، ومسلم: ٤/٢١٦٠.

(٤) فتح الباري: ٦/٥٤٦، ومسلم: ١/٥٧.

﴿قُلْ رَغِبْتُ عَنْ الْهَيْئَةِ بَيْنَهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْني مِلًّا﴾ (١٧) ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَحِمِي إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّي﴾ (١٧) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١٨) ﴿

[جواب والد إبراهيم]

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْئَةِ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانتبه عن سبها وشتمها وعبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتضت منك وشمتك وسبها، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم (١). وقوله: ﴿وَاهْجُرْني مِلًّا﴾ (١٧) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق: يعني: دهرًا (٢). وقال الحسن البصري: زمانًا طويلًا (٣). وقال السدي: ﴿وَاهْجُرْني مِلًّا﴾ (١٧) قال: أبداً (٤). وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: ﴿وَاهْجُرْني مِلًّا﴾ (١٧) قال: سويًا سألًا قبل أن تصيبك مني عقوبة. وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجلي ومالك وغيرهم، واختاره ابن جرير.

[جواب خليل الله]

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِمْتُ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلَا تَخَاطَبُهُمُ الْجَنَّهُلُونَ قَالُوا سَلِمْنَا﴾ (١٧) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِمْتُ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَيْكُمْ شَيْئًا﴾ (٥٥) ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِمْتُ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمه الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّي﴾ (١٧) قال ابن عباس وغيره: لطيفًا (٥). أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له.

وقال السدي: الخفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (١١) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا

لِقَوْمِهِ إِنَّا أَبْرَأُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُدْعَىٰ لِلدِّينِ أَنِ ابْرَاهِيمَ لَأَيْسَرَ لَاسْتَفْعِينَكَ لَكُمْ وَمَا أَمَّا إِلَهُكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، يعني: إلا في هذا القول، فلا تناسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أطلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلشَّيْءِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّيْءِ كَيْفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفِرُوا إِبْرَاهِيمَ لَأَيْسَرَ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١٣) وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن ألفتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١٨) وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠)

[وهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب]

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ وَرَثَةِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ (٦) ولا خلاف أن إسحاق والسدي يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدَلِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَالِمُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ولهذا لما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (١١) فلو لم يكن يعقوب - عليه السلام - قد نبى في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضًا كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس، فقال: «يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ إِسْحَاقَ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ» (١)، وفي اللفظ الآخر: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» (٢).

(١) الطبري: ١٨/٢٠٥. (٢) الطبري: ١٨/٢٠٦، ٢٠٥.

(٣) الطبري: ١٨/٢٠٥. (٤) الطبري: ١٨/٢٠٦.

(٥) الطبري: ١٨/٢٠٧. (٦) فتح الباري: ٨/٢١٢.

(٧) فتح الباري: ٨/٢١٢.

السلام-، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها^(٣). يعني: ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاهها حقها.

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقُ الْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٠) ﴿فَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ، فَصَدَّقَ الْوَعْدَ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كَمَا أَنَّ خُلْفَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمَنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِيَ خَانَ»^(٤).

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا، لا يبعد أحدًا شيئًا إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَّى لِي»^(٥) ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ أَوْ ذِيْنٌ فَلْيَأْتِنِي أَنْجُزْ لَهُ، فجاء جابر ابن عبد الله فقال إن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَسْأَلُ الْبَحْرَيْنِ أَطْعَمْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» يعني: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرًا فغفر بيديه من المال، ثم أمره بَعْدَهُ، فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثلها معها^(٦).

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٥١) في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَضْطَقَّنِي مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ»^(٧) وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه. وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾^(٥٥) هذا أيضًا من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابرًا على طاعة ربه عز وجل، أمرًا بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾^(٥٠) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: الثناء الحسن^(١).

وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين^(٢). ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَذَرْنَاهُ مِنَ الْجَانِّ الطُّورَ الْأَيْمَنَ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَىٰ﴾^(٥٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٥٣)

[ذكر موسى وهارون]

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي لبابة قال: قال الخواريون: يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يجب أن يعمده الناس. وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى: أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٥٤) جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَذَرْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي الجبل^(٥٢) من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرأها تلوح، فنقصها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبة، عند شاطئ الوادي، فكلّمه الله تعالى وناداه وقره فناجاه. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٥٣) أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي لِسَانًا فَارْسَلْنَاهُ مَعِي إِذْ بَصُلْتُ إِلَيْهِ الْحَافُ أَنْ يَكْذِبُونِ﴾^(٥٦) وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ مُؤَلَّكَ بِمُوسَى﴾^(٥٦) وقال: ﴿فَارْسَلْ إِلَى هَارُونَ﴾^(٥٧) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٥٨) ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبيًا، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٥٣).

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾^(٥٥)

[ذكر إسماعيل]

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليهما

(١) الطبري: ٢٠٨/١٨. (٢) الطبري: ٢٠٨/١٨.

(٣) الطبري: ٢١١/١٨.

(٤) البخاري: ٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥.

(٥) فتح الباري: ٥/٣٨٠. (٦) فتح الباري: ٤/٥٥٤.

(٧) مسلم: ٤/١٧٨٢.

عَلَيْهَا ﴿الْآيَةَ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتُنْكِرُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّا نُنْكِرُ مَا نُرِيدُهَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَظَ شِدَادُهَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١﴾﴾ أي: مروهم بالمعروف وانهموم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَبْقَضَ أَمْرَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَبْقَضَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أُمِي نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ﴾. أخرجه أبو داود وابن ماجه ^(١).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

[ذكر إدريس]

ذكر إدريس - عليه السلام - بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وقد تقدّم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. قال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: السماء الرابعة ^(٢)، وقال الحسن وغيره في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِدِينَ إِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِ الْآخِرِينَ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبُكُوا ﴿٥٨﴾﴾

[أولئك الأنبياء هم المجتوبون]

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء - عليهم السلام -، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية.

قال السدي وابن جرير - رحمه الله -، فالذي عني به من ذرية آدم إدريس، والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عني به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عني به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح ^(٣). (قلت): هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام.

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية: جنس الأنبياء أنها كقولها تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ حُجَّتَنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى

وفي صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أي «ص» سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾ فيبيحكم من أمر أن يقتلهم هم قال: وهو منهم، يعني: داود ^(٤). وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِ الْآخِرِينَ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبُكُوا ﴿٥٨﴾﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحذاً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنواهم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾

[خلفهم السوء والخير]

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء - عليهم السلام - ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه، ذكر أنه خلف من بعدهم خلف أي قرون أخر ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الراجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أفعال العباد وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون عذاباً، أي خساراً يوم القيامة.

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن غيمرة في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أي

(١) أبو داود: ٧٣/٢، وابن ماجه: ٤٢٤/١.

(٢) الطبري: ٢١٣/١٨. (٣) الطبري: ٢١٤/١٨.

(٤) فتح الباري: ١٤٤/٨.

أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً^(١).

أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾^(١٨) أي: كائنًا لا محالة، وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًا﴾ أي العباد صائرون إليه وسائتونه، ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًا﴾ بمعنى آتيا، لأن كل ما أتاك فقد أتيتك، كما تقول العرب: أتت عليّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه، لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿وَلَا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَسْمَعُونَ﴾^(١٩) إلّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا^(٢٠).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا بَكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾^(٢١) أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةُ الْبَدْرِ، لَا يَصْطَقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، أَنْبَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَجِمَامُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مِثْلُ سَافِيهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكُرَّةٍ وَعِشْيَا»^(٢٢) أخرجه في الصحيحين^(٢٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ يَبَاقُ الْجَنَّةُ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يُخْرِجُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعِشْيَا» تفرد به أحمد. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا بَكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾^(٢٤) قال: مقادير الليل والنهار.

وقوله: ﴿فَلِكُلِّ الْجَنَّةِ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٢٥) أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي

وعن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكسر ذكر الصلاة في القرآن^(٢٦) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(٢٧)، وَعَلَى صَلَاتِهِمْ يَرْفَعُونَ^(٢٨)، وَعَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ^(٢٩) فقال ابن مسعود: على براقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال ذلك الكفر^(٣٠). قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس يكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن^(٣١). وقال الأوزاعي عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهْوَى فَفُتِنُوا يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٣٢) ثم قال: لم تكن إضاعتهن تركها ولكن أضاعوا الوقت^(٣٣).

وقوله: ﴿فُتِنُوا يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٣٤) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فُتِنُوا يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي خساراً^(٣٥). وقال قتادة: شراً^(٣٦). وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فُتِنُوا يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٣٧) قال: وإد في جهنم بعيد القعر، حيث الطعم^(٣٨). وقال الأعمش عن زياد عن أبي عياض في قوله: ﴿فُتِنُوا يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٣٩) قال: وإد في جهنم من قبح ودم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من رجع عن إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلَاقُونَ فِيهَا شَيْئًا﴾^(٤٠) وذلك لأن التوبة تحب ما قبلها، وفي الحديث الآخر: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٤١). ولهذا لا يُقَصُّ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها سيئاً، ولا قولوا بما عملوه قبلها، فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤٢).

﴿حَبَّتْ عَيْنُ النَّبِيِّ وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ، بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٤٣) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا بَكْرَةٌ وَعِشْيَا^(٤٤) فَلِكُلِّ الْجَنَّةِ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا^(٤٥)

[صفة جنات التائبين الصادقين]

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن، أي إقامية، التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب،

(١) الطبري: ٢١٥/١٨. (٢) الطبري: ٢١٦/١٨.

(٣) الطبري: ٢١٦/١٨. (٤) الطبري: ٢١٦/١٨.

(٥) الطبري: ٢١٦/١٨. (٦) الطبري: ٢١٩/١٨.

(٧) الطبري: ٢١٨/١٨. (٨) الطبري: ٢١٨/١٨.

(٩) ابن ماجه: ١٤٢٠/٢. (١٠) أحمد: ٣١٦/٢.

(١١) فتح الباري: ٣٦٧/٦، ومسلم: ٤/٢٨٠.

لنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَحْنُزِلَنَّ الَّذِينَ يَلْبِسُونَ إِلَهَ اللَّهِ بِإِلَهِهِمْ فَخُشِعُوا آلَ الْأَيْمَنِ وَالْآثَرِينَ ۚ وَأَلْزَمْنَا كِلْتَا آلِ الْفِرْعَوْنِ يُرْيَسَهُمَا يَوْمَهُمَا وَلِلَّهِ الْيَوْمُ نَارُ الْفِرْعَوْنَ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ ﴿١٥﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۚ ﴿١٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۚ ﴿١٧﴾

[تعجب الإنسان على الحياة بعد المات]

والرد على هذا التعجب

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَوْذَا كُنَّا بُرْسًا أَوْ أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ نَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَإِذَا مَاتَ لَنُصَوَّرُ فَأَخْرَجَ حَيًّا﴾ ﴿٨٠﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴿٨١﴾ يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني: أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا، أفلا بعدد وقد صار شيئا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَىٰ﴾ وفي الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كُنْ يَبْنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَكُنْ بَنِي، وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤَدِّيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَتْ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنْ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الْأَخَذُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَهًا قَبْلُ فَاعْبُدْهُ» ﴿١٠﴾

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾ ﴿٨٢﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني قعودا كقوله: ﴿وَرَبِّي كُلُّ شَيْءٍ جَانِبٌ﴾ ﴿٨٣﴾ وقال السدي في قوله جثيا: يعني: قياما، ورؤي عن مرة عن ابن مسعود مثله وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة، قاله

نورثها عبادة المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الزَّوْرُونَ﴾ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَرْثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾

﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿١٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٧﴾

[لا تنزل الملائكة إلا بأمر الله]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «مَا يَمْنُوكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ﴿١١﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية (٧).

وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية (٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين النفتختين، هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبر وقتادة في رواية عنهما، والسدي والربيع بن أنس (٤)، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، ويروي نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبر والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري (٥)، واختاره ابن جرير أيضا. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿١١﴾ قال مجاهد: معناه: ما نسيتك ربك (٦). وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبها؟ (٧) وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبر وقتادة وابن جريج وغيرهم (٨). وقال عكرمة عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره - تبارك وتعالى - وتقدس اسمه (٩).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَإِذَا مَاتَ لَنُصَوَّرُ فَأَخْرَجَ حَيًّا﴾ ﴿٨٠﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴿٨١﴾ فَوَرَبِّكَ

(١) أحمد: ٢٣١/١. (٢) فتح الباري: ٨/٢٨٢.

(٣) الطبري: ١٨/٢٢٢. (٤) الطبري: ١٨/٢٢٤.

(٥) الطبري: ١٨/٢٢٤، والقرطبي: ١١/١٢٩.

(٦) الطبري: ١٨/٢٢٥. (٧) الطبري: ١٨/٢٢٦.

(٨) الطبري: ١٨/٢٢٦. (٩) القرطبي: ١١/١٣٠.

(١٠) أحمد: ٣٥٠/٢. (١١) الطبري: ١٨/٢٢٧.

النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجاوزهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله [وإن] لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ (٩).

﴿وَإِذَا نُنَجِّي الْعِبَادَ مِنْ آيَاتِنَا فَتَنَّا ۚ وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا يَنَابُوتَ قَالَ لِلَّهِ كُفْرًا وَلَئِنْ لَئِنْ ءَامَنُوا أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَءَايَا﴾ (٧٤)

[اقتحار الكفار على حسن حفظهم من الدنيا]

يخبر تعالى عن الكفار حين تنجلي عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، أنهم يصدون ويُعرضون عن ذلك ويقولون عن الدين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣) أي أحسن منازل، وأرفع درجاً وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديم أغمر وأكثر واداً وطارقاً، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة، على باطل، وأولئك الذين هم مخفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور، على الحق، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وقال قوم نوح: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٣١) وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ

مجاهد (١) ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (١٣٢) قال الثوري عن علي ابن الأقرع عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَزَعُنَّك مِنْ كُلِّ فِئَةٍ أَنْتُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (١٣٣) (٢).

وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَسُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَنَا مَتَلَدٌ أَهْلُكُمْ فَخَاتِمٌ عَنْكُمْ وَعَدَّا صُفْعَاتٍ النَّارُ﴾ إلى قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (١٣٤) وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلَا﴾ (١٣٥) ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد: أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٦).

﴿وَإِنْ يَنْتَكِرُوا لَهَا وَأَرَادُوا عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧٤) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ (٧٣)

[كل يرد على جهنم ثم ينجو المتقون]

روى ابن جرير عن عبد الله قوله: ﴿وَإِنْ يَنْتَكِرُوا لَهَا وَأَرَادُوا عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧٤) قال: الضراط على جهنم مثل حد السيف، فبسر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم (٣). ولهذا سواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس، وأبي سعيد، وابن هريرة، وجابر وغيرهم من الصحابة رضاهم.

وروى أحمد أيضاً عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَنَرًا وَالْحَذْبِيَّةُ» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ يَنْتَكِرُوا لَهَا وَأَرَادُوا عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧٤) فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (الآية). وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، ثَمَّةُ النَّارِ إِلَّا نَجَلَةَ الْقَسَمِ» (٥).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِنْ يَنْتَكِرُوا لَهَا وَأَرَادُوا عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧٤) قال: ورد المسلمين المرور على الجسر بين طهراتها، وورود المشركين أن يدخلوها. وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧٤) قال: قسماً واجباً (٦). وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء (٧). وكذا قال ابن جريج (٨).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إذا مر الخلاق كلهم على

(١) الطبري: ١٨/٢٢٨. (٢) الدر المنثور: ٥/٥٣٣.

(٣) الطبري: ١٨/٢٣٢. (٤) أحمد: ٦/٣٦٢.

(٥) فتح الباري: ٣/١٤٢ ومسلم: ٤/٢٠٢٨.

(٦) الطبري: ١٨/٢٣٧. (٧) الطبري: ١٨/٢٣٧.

(٨) الطبري: ١٨/٢٣٧. (٩) فتح الباري: ١٣/٤٨.

بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ قُلْ قَالُوا نَبْعُ آبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَدِلْ فَتَجْعَلُ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ فنكلوها أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿١٢﴾﴾

[يزاد في هداية المهتدين]

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُهَا هِيَ هِيَ يَنْسَى الْآيَاتِينَ. وقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ﴾ قد تقدم تفسيرها والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَيَحْيَى مَرَدًّا ﴿١٣﴾﴾ أي عاقبة ومردًا على صاحبها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿١٤﴾ كَلَّا سَكَتَ مَن يَقُولُ وَنَسَى لِمَ الْوَعْدَ مِنْ أَلْعَابِ مَذَامُنِ الْوَعْدِ مَائِقُولٍ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿١٥﴾﴾

[الرد على من يزعم من الكفار أنه يعطى]

في الآخرة مالا وولدا]

وروى الإمام أحمد عن خباب بن الارت قال: كنت رجلا قينًا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأنيته أتقاضاه مني، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال فلإني إذا مت ثم تبعث، جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿١٥﴾﴾ (٣) أخرجه صاحبها الصحيح وغيرهما وفي لفظ البخاري: كنت قينًا بمكة فعملت للعاص ابن وائل سيفًا، فجئت أتقاضاه فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿١٤﴾﴾ قال: موثقًا (٤).

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ما له في الآخرة حتى نال وحلف على ذلك ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿١٤﴾﴾ أم له عند

بَيِّنَاتٍ لِّئَلَّا يَعْلَمَ بِالشَّحِيكِينَ ﴿١٦﴾ ولهذا قال تعالى رادًا على شبهتهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَاءُ وَرِيًّا ﴿١٧﴾﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ومناظر وأشكالاً وأمتعة، قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿١٨﴾﴾ قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر (١). وقال العوفي عن ابن عباس: المقام: المسكن والندي: المجلس، والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَم تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٩﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾﴾ فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قصص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي تَكَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ ﴿٢١﴾﴾ والعرب تسمي المجلس النادي (٢).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَنْدِرْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَاءً حَقًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَمِيعَلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٢٢﴾﴾

[يمهل المتمرّد ولا يهمل]

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد هؤلاء المشركين برهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَلْيَنْدِرْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَاءً﴾ أي فأمله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله ﴿حَقًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ﴾ يصيبه ﴿وَإِنَّمَا السَّاعَةُ﴾ بغتة تأتيه ﴿فَمِيعَلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٢٢﴾﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ هَادُوا وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَائُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا آلَ آلِهِمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي ادعوا بالموت على المبطل منا، أو منكم، وإن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوها عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة [مبسوطاً]، والله الحمد، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصاري في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم: أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَلَّجَكَ فِيهِ وَمَنْ

(١) الطبري: ١٨/٢٣٩، ٢٤١. (٢) الطبري: ١٨/٢٣٩.

(٣) أحمد: ١١١/٥.

(٤) فتح الباري: ٤/٣٧٢، مسلم: ٤/٢١٥٣.

﴿وَمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨١) أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله. وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآية، ﴿فَقِيلَ الْكَافِرُونَ آمَنَّا لَهُمْ رِزْقًا﴾ (٨٢) ﴿وَمَا نَعُدُّ لَهُمْ لِرِزْقِ اللَّهِ إِلَّا حِسَابًا﴾ ﴿وَنُعَذِّبُهُمْ فَلَيْلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٨٣) ﴿قُلْ نَمَتُّوْا فَإِنَّ مَصِيْرَكُمْ إِلَىٰ النَّارِ﴾ (٨٤) وقال السدي: إنما نعد لهم عذابًا: السنين والشهور والأيام والساعات.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَةً﴾ (٨٦) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧)

[حال المتقين والمجرمين يوم القيامة]

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمرهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه، والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذوبون للرسول المخالفون لهم، فإنهم يساقون عُنْفًا إلى النار ﴿وَرِثَةً﴾ (٨٦) عطاشًا، قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد^(٨)، وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيمًا﴾ (٨٧). وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحًا، فيقول: من أنت؟ فيقول أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك، فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا فهل أمركني فركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: ركبانًا^(٩).

بعد سيوئيه ذلك، وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق^(١١). قوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيده لما بعدها ﴿نَحْشُرُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما ينشأه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًّا﴾ (٨٦) أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَرِثَةً مَا يَقُولُ﴾ أي من مال وولد، نسبه منه عكس ما قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) أي من المال والولد.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِّتَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨٨) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّوهُمْ أَرَاءَ﴾ (٩٠) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٩١)

[يكفر الله المشركين بعبادتهم]

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربههم أنهم اتخذوا من دونه آلهة فتكون لهم تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ (٨٨) يعتزون بها يستصحبونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما ظنوا، فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٩) أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنِّي يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ شَيْءٍ فَيَجْعَلُوهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (٩٠) وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ (٩١) وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي بعبادة الأوثان^(١٢).

قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٩) أي: بخلاف ما رجوا منه. وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٩) قال: الخصاء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاک: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٩١) قال: أعداء^(١٣).

[تسلط الشياطين على الكافرين]

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّوهُمْ أَرَاءَ﴾ (٩٠) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: تنويعهم إغواء^(١٤). وقال لعوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه^(١٥). وقال قتادة: تزعجهم لإزعاجا إلى معاصي الله^(١٦). وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمُ الشَّيَاطِينَ فَهُمْ لَهَا قُرِينٌ﴾ (٩١). وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٩١) أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم

(١) فتح الباري: ٣٧٢/٤. (٢) الطبري: ٢٥١/١٨.

(٣) الطبري: ٢٥٠/١٨. (٤) الطبري: ٢٥١/١٨.

(٥) الدر المنثور: ٥٣٨/٥. (٦) الطبري: ٢٥٢/١٨.

(٧) الطبري: ٢٥٢/١٨.

(٨) الطبري: ٢٥٣/١٨ والدر المنثور: ٥٤١/٥.

(٩) الطبري: ٣٨٠/٨.

أَوْجِبَ وَأَوْجِبَ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِئَ بِالسَّيَّائِثِ وَالْأَرْضِيِّينَ، وَمَا فِيهِنَّ وَمَا يَسْتَهْنُونَ وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوَضَعْنِي فِي كِفَّةٍ الْمِيزَانِ، وَوَضَعْتَ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لَرَجَحْتُ بِهِنَّ» هكذا رواه ابن جرير^(٢)، ويشهد له حديث البطاقة^(٣). والله أعلم.

وقال الضحاك: «تَكَادُ السَّنَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ» أي يتشققن قَرَقًا من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «وَتَشَقُّ الْأَرْضُ» أي غضبًا له عز وجل، «وَيَحْرُ لُجِبَالُ هَذَا»^(٤)، قال ابن عباس: هدمًا. وقال سعيد بن جبير: هَذَا يَنْكسر بعضها على بعض متتابعات.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى آتَى سَمْعَةٍ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدٌ وَمَوْعِيفِيهِمْ وَيَنْقَعُ عَنْهُمْ وَيَسْرُ قُلُوبُهُمْ»^(٥) أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَمَوْعِيفِيهِمْ»^(٦)، وقوله: «وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْخِذَ وَلَدًا»^(٧) أي لا يصلح له ولا يليق به جلالة وعظمته؛ لأنه لا كفة له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا»^(٨) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا»^(٩) أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنشأهم، صغيرهم وكبيرهم، «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَرْدًا»^(١٠) أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بها يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحدًا.

«إِنَّ الَّذِينَ ءَاسَؤْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا كَمَنْ تُنْفِئُ الْبَاسِلَاتُ يُنْفِئُ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُزُلًا مِنْ قَوْلِهِ لَدَا»^(١١) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مُتَّبِعُهُمْ مِنْ آخِرٍ أَوْ سَمِعُ لَهُمْ وَكْرًا»^(١٢)

[يجعل حب الصالحين في القلوب]

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين حبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك

وقوله: «وَسَوْفَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا»^(١٣) أي عطاشًا «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ» أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى خبرًا عنهم: «فَقَالَتَا إِنْ شِئْتِغَيْنِ»^(١٤) وَلَا صِدْقَ جِئِمِ»^(١٥). وقوله: «لَا مَنِي أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا»^(١٦). هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «لَا مَنِي أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا»^(١٧) قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله - عز وجل -^(١٨).

«وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»^(١٩) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَحْرُ لُجِبَالُ هَذَا»^(٢٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا»^(٢١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْخِذَ وَلَدًا»^(٢٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا»^(٢٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا»^(٢٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَرْدًا»^(٢٥)

[النكير الشديد على نسبة الولد إلى الله]

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريعة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا، تعالى وتقدس وتزه عن ذلك علوًا كبيرًا، فقال: «وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»^(٢٦) لَقَدْ جِئْتُمْ أَي فِي قَوْلِكُمْ هَذَا «شَيْئًا إِذَا»^(٢٧) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ: أَي عَظِيمًا. وَيَقَالُ «إِذَا» بِكَسْرِ الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضًا ثلاث لغات أشهرها الأولى وقوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَحْرُ لُجِبَالُ هَذَا»^(٢٨) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا»^(٢٩) أَي يَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ، عِنْدَ سَمَاعِهِن هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ فَجْرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدة، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفة له، بل هو الأحد الصمد.

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَحْرُ لُجِبَالُ هَذَا»^(٣٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا»^(٣١) قَالَ: إِنْ الشَّرْكَ فَرَعَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ لِعَظْمَةِ اللَّهِ، وَكَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرْكَ إِحْسَانُ الْمَشْرِكِ، كَذَلِكَ نَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقُتُوا مَوْتَكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ قَالَهَا فِي صَحْتِهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ

(١) الطبري: ٢٥٧/١٨. (٢) الطبري: ٢٥٨/١٨.

(٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٧. (٤) أحمد: ٤٠٥/٤.

(٥) فتح الباري: ٥٢٧/١٠. (٦) مسلم: ٢١٦٠/٤.

وَمَا تَحْتِ الثَّرَى (١) وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى (٧)
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴿

[القرآن تذكرة وتنزيل من الله]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بها أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (١) قال جوير عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه ﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَحْشَى (٣) ﴿ (٧)

فليس الأمر كما زعمه المبطون، بلا من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (٨).

وقال مجاهد في قوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (١) هي كقوله: ﴿ فَاقْرَأْ مَا يَنْصُرُكَ ﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة (٩). وقال قتادة: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (١)

لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونورا ودليلاً إلى الجنة (١٠). ﴿ إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَحْشَى ﴾ (٢) إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكراً، ويتنفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿ تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالْغَنَاقِ ﴾ (٣) أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٤) تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

(١) أحمد: ٤١٣/٢، ٥١٤.

(٢) فتح الباري: ٤٧٦/١، ومسلم: ٤/٢٠٣٠.

(٣) عبد الرزاق: ١٠/٤٥٠.

(٤) مسلم: ١٠٣١/٤ وتحفة الأحوذى: ٦٠٨/٨.

(٥) الطبري: ٢٦٥/١٨، (٦) الطبري: ٢٦٥/١٨.

(٧) القرطبي: ١١/١٦٧.

(٨) فتح الباري: ١٩٧/١، ومسلم: ٧١٩/٢.

(٩) الطبري: ٢٦٩/١٨، (١٠) الطبري: ٢٦٩/١٨.

الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ إِنِّي أَحَبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ قَالَ: نَجِئُهُ جَبْرِيلُ قَالَ ثُمَّ يَتَّيِدِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ قَالَ فَيَجِئُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَجِبْهُ قَالَ فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ ثُمَّ يَتَّيِدِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبْضَةُ فِي الْأَرْضِ» (١). ورواه البخاري ومسلم نحوه (٢).

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلُ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَجِبْهُ، فَيَتَّيِدِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ يُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» (٣)». رواه مسلم والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح (٤).

[أنزل القرآن للتبشير والإنذار]

وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ يعني: القرآن ﴿ يَسِّرْنَاهُ ﴾ أي يسهل محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل.

وقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (٨) أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. وقال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد: يعني: صوتاً (٩). وقال الحسن وقاتدة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً (١٠). والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي. آخر تفسير سورة مريم والله الحمد والمنة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة طه والله الحمد.

سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَحْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالْغَنَاقِ (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

ناه عن الطريق، كما قال الثوري عن أبي سعيد الأعمش عن
عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَاجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١)
قال: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق،
فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم
بنار توقدون بها (٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْتِ﴾ (١) أي الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه
ومشيئته، وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا
إله سواه ولا رب غيره. وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الْآرْتِ﴾ (١) قال
محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة (١).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٢) أي
أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى الذي
يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَوُّوا رَجِيًّا﴾ (١) قال علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٢) قال: السر
ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ (٢) ما أخفي على ابن
آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه
فما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في
ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ
إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٢). وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) أي الذي أنزل عليك القرآن، هو الله
الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
فَاصْبِرُوا نَارَ الْعَلِيِّ إِلَيْكُمْ فَتَهَا بِقَيْسٍ وَأَوَّجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (٢)

[حديث رسالة موسى]

من هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان
ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى
الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله
قيل: قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر
سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل
منزلاً بين شعاب، وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام
وضباب، وجعل يقدر بزند معه ليوري نارا كما جرت له العادة
به، فجعل لا يقدر شيئاً ولا يخرج منه شر ولا شيء فيسبها هو
كذلك إذ أس من جانب الطور نارا، أي ظهرت له نار من
جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يشربهم: ﴿إِنِّي
أَشَسْتُ نَارًا لَعَلِّي إِلَيْكُمْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ﴾ أي شهاب من نار. وفي الآية
الأخرى ﴿أَوْ جَذُوقًا مِنْ أَلْتَارٍ﴾ وهي الجمر الذي معه هب
﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢) دل على وجود البرد.

وقوله: ﴿وَبَقِيَ﴾ دل على وجود الظلام، وقوله: ﴿أَوَّجِدُ
عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١) أي من يهديني الطريق، دل على أنه قد

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى﴾ (١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاسْلُخْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى (٢) وَأَنَا أَنفَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (٣) إِنِّي
أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (٤) فِي
السَّاعَةِ ؕ آيَةً أَكَادُ أَخْفِي لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (٥) قُلْ
يُصَدِّقُكَ عَنْهَا مَا لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَى (٦)

[أول الوحي إلى موسى]

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي النار، واقترب منها ﴿نُودِيَ
بِمُوسَى﴾ (١) وفي الآية الأخرى ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الرَّاءِ
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى اللَّهِ﴾
وقال ههنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك
﴿فَاسْلُخْ نَعْلَيْكَ﴾ قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب
 وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حار غير ذكي، وقيل
إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة (٤).

وقوله: ﴿طَوًى﴾ (٢) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
هو اسم للوادي (٥)، وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون
عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالطولء بقدميه، وقيل:
لأنه قدس مرتين، وطوي له البركة وكررت، والأول أصح
كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ (٢). وقوله: ﴿وَأَنَا
أَنفَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَتِي وَبِكَلِمَةٍ﴾
أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله
تعالى قال يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين
الناس؟ قال: لا، قال: لاني لم يتواضع إلي أحد تواضعك
وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٣) أي استمع الآن ما أقول لك
وأوحى إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على
المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي وحدني، وقم بعبادتي من غير شريك
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٤) قيل: معناه صل لتذكركني

(١) الطبري: ١٨ / ٢٧١. (٢) الطبري: ١٨ / ٢٧٢.

(٣) الطبري: ١٨ / ٢٧٧. (٤) الطبري: ١٨ / ٢٧٨.

(٥) الطبري: ١٨ / ٢٨١.

عَلَيْهَا ﴿ أَي اعتمد عليها في حال المشي ﴾ وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَى ﴿ أَي أهر بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك : الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود ، فهذا الهش ولا يحبط ^(٦) . وكذا قال ميمون ابن مهران أيضا .

وقوله : ﴿ وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى ﴾ ^(١٨) ﴿ أَي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَى ﴾ ^(١٩) ﴿ أَي هذه العصا التي في يدك يا موسى ، ألقها . ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ^(٢٠) ﴿ أَي صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة . فإذا هي تتهز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة ، ﴿ تَسْعَى ﴾ ^(٢١) ﴿ أَي تمشي وتضطرب . وقوله تعالى : ﴿ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ^(٢٢) ﴿ أَي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك .

﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةُ أُخْرَى ﴾ ^(٢٣) ﴿ لَرُبَّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ ^(٢٤) ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ^(٢٥) ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ^(٢٦) وَخَرِّجْ لِی أَمْرِي ^(٢٧) وَأَطْلِعْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ^(٢٨) فَفَقَّهُوا قَوْلِي ^(٢٩) وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ^(٣٠) هَؤُلَاءِ خِي ^(٣١) أَسْتَدْرِيهِ أَرَى ^(٣٢) وَأَشْرُكُهُ فِي أَمْرِي ^(٣٣) كَيْ تَسْبِيحَكَ كَثِيرًا ^(٣٤) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ^(٣٥) إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَصِيرًا ^(٣٦) ﴿

[ابْيَضَّتْ يَدُ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ]

وهذا برهان ثانٍ لموسى عليه السلام ، وهو أنه الله أمره أن يدخل يده في جيبه ، كما صرح به في الآية الأخرى ، وههنا عبر عن ذلك بقوله : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ وقال في مكان آخر ﴿ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقَبِ فَذَلِكَ بِرُهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ وقال مجاهد : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ كفك تحت عضدك ^(٣٧) . وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، تخرج تتلألاً

(١) أحمد : ٨٤ / ٣ .

(٢) فتح الباري : ٨٤ / ٢ ، ومسلم : ٤٧٧ / ١ .

(٣) فتح القدير : ٣٦١ / ٣ . (٤) الدر المنثور : ٥٦٣ / ٥ .

(٥) الطبري : ٢٨٥ / ١٨ . (٦) الدر المنثور : ٥٦٤ / ٥ .

(٧) الطبري : ٢٩٧ / ١٨ .

وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ما روى الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا ، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ ^(١) ﴿ وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا ، تَكْفَارُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ أَكَاذُخْفِيهَا ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها : ﴿ أَكَاذُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي ﴾ ^(٣) ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً ^(٤) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ أَكَاذُخْفِيهَا ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحداً غري ^(٥) . وقال : ﴿ فَنُكِّلَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْإِبْرَةِ ﴾ ^(٦) أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ^(٧) أي أقيمها لا محالة لأجزى كل عامل بعمله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٨) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٩) ، ﴿ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١٠) وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الآية ، المراد بهذا الخطاب : أحاد المكلفين . أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فَتَرَدَّى ﴾ ^(١١) أي تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بَقِيَ عَنْهُ مَالٌ إِذَا تَرَدَّى ﴾ ^(١٢) .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ ^(١٣) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكَّوْا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى ^(١٤) قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَى ^(١٥) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ^(١٦) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ^(١٧) ﴿

[قَلْبُ عَصَا مُوسَى حَيَّةٌ]

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل . وقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ ^(١٧) قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له ، وقيل : وإنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ، فسترى ما نصنع بها الآن ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ ^(١٧) استفهام تقرير ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكَّوْا

موسى عليها السلام^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فترلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري. قال: أنا والله أدري. قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قلت ومن هذا قال الله تعالى - في الثناء على موسى عليه السلام - ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ۝﴾.

وقوله: ﴿أَشْهَدُ بِمَا أَتَى ۝﴾ قال مجاهد: ظهري، ﴿وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ۝﴾ أي في مشاورتي ﴿كَتَبْتُ لَكَ كِتَابًا ۝﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً^(٤). وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَعِيرًا ۝﴾ أي في اصطفاك لنا وإعطائك إباننا النبوة، وبِعْتِكَ لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ۝﴾ وَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا أُوحِيَ أَنْ أَقْرِضْنِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْرِضْنِي فِي الْيَمِّ فَلْيَقْرِضْنِي الْيَمَّ وَالسَّاحِلَ يَأْخُذْ عِدْوِي وَعِدُوهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِثِّي وَلْيَضَعْ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٨﴾ إِذْ تَمَسَّيْتُ أَخْشَاكَ فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَيْنَا أَيْكَ كَيْ نَفَرَّ عَيْنًا وَلَا نَحْزَنَ وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَنَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّاكَ فَنُورًا ۝

[البشارة بقبول الدعاء والتذكير باليمن السابقة]
هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه. فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله إلى البحر، وهو النمل، وتُسكبه إلى منزلهما بحبل. فذهب من تربط الحبل فانفلت منها، وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهلم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا لِمُؤْمِنٍ قَدَرًا ۝﴾ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَّا عَلَى قَلْبِنَا ۝ فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۝﴾ أي قدرنا مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله

كانها فلقة قمر. وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ۝﴾ أي من غير برص ولا أذى ومن غير شين، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم^(١). وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۝﴾.

[أمر موسى بالذهاب إلى فرعون للبلاغ]

وقوله: ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝﴾ أي اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فარاً منه وهارباً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وأثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى.

[دعاء موسى]

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝﴾ وَفَيْضَ أَمْرِي ﴿١١﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعث به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه لها غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوه إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝﴾ وَفَيْضَ أَمْرِي ﴿١٢﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝﴾ يَقْفُوهَا قَوْلِي ﴿١٣﴾ وذلك لما كان أصابه من اللغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِّلِّ هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝﴾ أي يفصح بالكلام.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿١٤﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال فُتِّعَ هارون ساعته حين نُبِّئَ

(١) الطبري: ٢٩٨، ٢٩٧/١٨. (٢) الطبري: ٢٩٨/١٨.

(٣) الدر المنثور: ٥٦٧/٥. (٤) القرطبي: ١٨٦/١٤.

وروى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم: وأنت موسى الذي اضطفك الله برساليه واضطفك لنفسيه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم قال: فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن تخلقني؟ قال نعم فتح آدم موسى أخرجه» (٥).

وقوله: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي بمحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (١١) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تبطلنا (٦). وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا، والمراد أنها لا يفران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له. وقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٢) أي تمرد وعتا وتجبر [تجهم] على الله وعصاه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ﴾ (١٣) هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين فدعوتها له تكون بكلام رقيق لين سهل [قريب] رفيق؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسِيَّةِ وَبِخَيْرِ لِّهْمٍ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ﴾ (١٤) أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَحْشَىٰ﴾ (١٥) أي يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ أُنَادِرُ مِنْ سُحُورٍ﴾ (١٦) فالذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة وقوله عز وجل:

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ أَنْ يَرْفُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ﴾ (١٧) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (١٨) فَأَيُّهُمَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْتَ الْمَلَكُ (١٩) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٢٠)

[خوف موسى من فرعون وتثبيت الله إياه]

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام: أنها قالا مستجيرين بالله تعالى شاكين إليه: ﴿إِنَّا خَافُ أَنْ يَرْفُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ﴾

وله السلطان العظيم والقدرة التامة، أن لا يُربى إلا على فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي عند عدوك جعلته محبك، قال سلمة بن كهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال: حببتك إلى عبادي ﴿وَلَضَعْتُ عَلَىٰ عَنَقِي﴾ (٢١) قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله (٢٢) وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَفِيحُ الْغَمَامُ فَقُولُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ رَجَعْتُمْ إِلَيَّ أُنِمْ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباهها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِي يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ (٢٣) يعني هل أذكركم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به ومم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فانها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل. وقال نسائل ههنا: ﴿فَرَجَعْتُمْ إِلَيَّ أُنِمْ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك ﴿وَوَقَلْتُ نَفْسًا﴾ يعني القبطي ﴿فَفَجَّيْتُكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَحْزَنْ مَوْتُكَ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤).

﴿فَلَقِيتُ سَيِّدِي فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ﴾ (٢٥) ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٢٦) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٢٧) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٨) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ (٢٩)

[اصطفاء موسى وأمره بالذهاب إلى فرعون]

وبدعوته باللين والرفق]

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فائراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عبادة وخلق فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ﴾ (٣٠) قال مجاهد: أي على موعد (٣١). وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ﴾ (٣٢) قال: على قدر الرسالة والنبوة (٣٣). وقوله: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٣٤) أي اصطفيتك واجتيتك رسولاً لنفسي أي كما أريد وأشاء.

(١) الطبري: ٣٠٣/١٨. (٢) فتح القدير: ٣/٣٦٧.

(٣) الطبري: ٣١١/١٨. (٤) عبد الرزاق: ٣/١٧.

(٥) فتح الباري: ٢٨٨/٨ ومسلم: ٤/٢٠٤٣، ٢٠٤٤.

(٦) الطبري: ٣١٢/١٨.

جبر في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه^(١)، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول ربنا الذي خلق الخلق وقدر القدر وجعل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (١٨) أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوا فإن علمهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب [الأعمال] [الأيض] ربي ولا ينسى (١٩) أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء عليم، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فزعه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ (٢٠) ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (٢١) ﴿مِنَّا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نَعِيدَكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأُنْكِرَ﴾ (٢٣)

[تتمة جواب موسى لفرعون]

هذا من غام كلام موسى فيها وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٢٤) ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وفي قراءة بعضهم ﴿مَهْدًا﴾ أي قرارًا تستقرون عليها، وتقومون وتسامون عليها، وتسافرون على ظهرها

يَطْعَى (٢٥) يعنيان أن يسلر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. وقال الضحاك عن ابن عباس أو أن يطغى: يعتدي (٢٦). ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَتَمَّعَ وَأَرَى﴾ (٢٧) أي لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلم أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبسط إلا بإذني وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي.

[وعظ موسى أمام فرعون]

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِن رَّبِّكَ﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (٢٨) أي والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ فَأَسْلِمَ تَسْلِمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» (٢٩). ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (٣٠) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣١) أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم: أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٢) ﴿وَرَأَى الْكِبْرِيَاءَ إِلَهًا﴾ (٣٣) ﴿فَإِنَّ الْخِجَمَ فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٤) وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾ (٣٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (٣٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣٧) وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا ظَلَمَ﴾ (٣٨) ولكن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٩) أي كذب بقلبه، وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ (٤٠) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٤١) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٤٢) قَالَ عَلِمْنَا بِعَنْدَرِي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٤٣)

[الحوار بين موسى وفرعون]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه، قال ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ (٤٤) أي الذي بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٤٥). قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجة (٤٦). وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والجمار حمزاً، والشاة شاة. وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: سوى خلق كل دابة. وقال سعيد بن

(١) الدر المنثور ٥/ ٥٨٠. (٢) فتح الباري: ١/ ٤٢.

(٣) الطبري: ١٨/ ٣١٦. (٤) القرطبي: ١١/ ٢٠٤.

واجتماع جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أي جميعهم ﴿صُحِّي﴾ أي ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجل وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء^(١). وقال السدي وقادة وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم. ولا منافاة. (قلت): وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح^(٢). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مكاناً سوى مستو بين الناس وما فيه، لا يكون [صوب] ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوحين يرى^(٣).

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (١٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مِنْ آفَتِي (١١) فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى (١٢) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا وَيَسْحَرَا بِمِصْرِنَا وَيَذْهَبَا بِأَمْوَالِنَا إِلَى أَفْئُوتٍ لَنْ نَرَهُنَّ وَلَا هُنَّ لَنَا فِئَةٌ وَلَا نَعْلَمُهُنَّ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ طَائِفَتًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَذُكِّرُهُم بِالْآيَاتِ فَأْتَوْهُم بِبَنَاتِنَا غُلَامًا لِمُوسَى وَمَرْيَمَ فَكُلَّمَا مَلَاحَظَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ عَمِلُوا غَلُوطَةً عَلَيْهِمْ ذُنُوبُهُمْ وَأَبْصَرُوا كَيْدَهُمْ وَعَكَّرُوا نَبْهَهُمْ وَسَوَّغُوا لِفِتْنِهِمْ لِيُثَبِّرَهَا مِصْرَ فِئَةٍ لَمْ يَنْفَعِ لَهُمْ فِتْنُهُمْ وَهُمْ مُكِلُونَ (١٣) فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِنَا وَمَا نَفَعُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ غَافِلِينَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرْ لَمَّا هُوَ دَافِعُ عَنْ يَمِينِهِ رَبَّاهُ وَلَهُمْ أُولَاءُ الْبَنَاتُ الْأُنثَى (١٤) وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِنَا وَمَا نَفَعُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ غَافِلِينَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرْ لَمَّا هُوَ دَافِعُ عَنْ يَمِينِهِ رَبَّاهُ وَلَهُمْ أُولَاءُ الْبَنَاتُ الْأُنثَى (١٥) وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِنَا وَمَا نَفَعُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ غَافِلِينَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرْ لَمَّا هُوَ دَافِعُ عَنْ يَمِينِهِ رَبَّاهُ وَلَهُمْ أُولَاءُ الْبَنَاتُ الْأُنثَى (١٦)

[اجتماع الفريقين ودعوة موسى والسحرة]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافعاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٨) ثم أتى. أي اجتمع الناس ﴿وَلِيَقْدَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٧٩) وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقف الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويُرغِّبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون ﴿أَيُّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٨١) قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لَيْنَ الْمُرْغَبِينَ (٨٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة،

﴿وَسَاءَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكيبها ي قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَرْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتِ شَقٍ﴾ (٨٤) أي من أنواع النباتات من زروع وثبار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَفْعَمَكُمُ﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً وبيساً ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَتٌ﴾ أي للدلالات وحججاً وبراهين ﴿لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ (٨٥) أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه ﴿وَمَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُبَيِّدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٨٦) أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفيها نبئدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ وَمَنْ يُظْلَمُ مِنْ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْفِيلِ﴾ (٨٧) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٨٨).

[أري فرعون كل الآيات ولم يؤمن]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مَا آتَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَنَّ﴾ (٨٩) يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلْمًا﴾ (الآية). ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا بِسِحْرٍ حَسْبًا مِنْ أَرْضِنَا يَسْحَرَكُ يَمْشُونَ﴾ (٩٠) ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ سِحْرَ مِصْرَ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، عَنْ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ (٩١) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ صُحِّي (٩٢)

[وصف فرعون آيات موسى بالسحر]

والاتفاق على المعارضة]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء. فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم [وتنور زورهم] وتفرغهم من أعمالهم

(١) الدر المنثور: ٤/ ٥٤٠. (٢) فتح الباري: ٨/ ٢٨٨.

(٣) الطبري: ١٨/ ٣٢٣.

الآخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بَعْرَةٌ ذَاتُ لَاحٍ إِنَّا لَنَرُّوْنَ﴾^(١١) وقال تعالى ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(١٢) وقال ههنا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَا تَعْنَى﴾^(١٣) وكانوا جمًّا غفيرًا وجمًّا كثيرًا فألقى كل منهم عصًا وحبلًا، حتى صار الوادي ملآنًا حبابًا يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(١٤) أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغترون بهم قبل أن يلقي ما في يمينه فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَأَتَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني عصاك، فإذا هي ﴿تَلْقَفُ مَا مَسَّوْهُوَ﴾ وذلك أنها صارت تبتلع عظيمًا هائلًا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تبتلع تلك الحبال والعصي، حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلففته وابتلعت. والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرًا نهارًا ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا صُنْعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(١٥) فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خيرة فيقولوا السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجدًا لله، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ^(١٧) ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة^(١٨).

[عِلَّةُ السَّحَرَةِ]

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلًا، أصبَحُوا سحرة، وأمَسُوا شهداء^(١٩). روى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال: لما خر السحرة سجدًا، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها^(٢٠). قال: وعن سعيد بن جبلة قوله: ﴿فَأَتَى السَّحَرَةَ مُجَدًّا﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وفي سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة^(٢١) ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْقُرْآنَ فَلَا تُقْبِرُونَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّارِ وَلَنُكَلِّمَنَّ أَتْمَانَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَلْقَى﴾^(٢٢) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَنْ مَخَارِجِ نَارِ الْيَمِينِ

فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ ﴿فَيَسْجُتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْرَى﴾^(٢٣) فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قيل معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر، وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾^(٢٤) أي تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون موسى وهارون- ساحران علمان، خيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتبعتها العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم. وقوله: ﴿وَيَذَّهَبُ بِطَرِيقَتِكُمُ النَّارُ﴾^(٢٥) أي ويستبد بها هذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكناكم وأخرجناكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم. وقال عبد الرحمن بن زيد: بطريقكم المثل بالذي أنتم عليه. ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَفْتُوا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾^(٢٦) أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَانًا تَلْقَىٰ وَإِمَانًا تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(٢٧) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَا تَعْنَى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٢٨) فَلَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَتَى الْأَعْلَى ﴿وَأَتَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا مَسَّوْهُوَ﴾^(٢٩) وَمَا صُنْعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ فَأَلْقَاوْا أَمْتَارَهُمْ هَرُونَ وَمُوسَى﴾^(٣٠)

[المَعَارِضَةُ وَغَلْبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَانًا تَلْقَى﴾ أي أنت أولاً ﴿وَأَمَانًا تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(٣١) قَالَ بَلْ أَلْقُوا أي أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَا تَعْنَى﴾^(٣٢) وفي الآية

(١) الطبري: ١٨/٣٤٠ و ١٣/٣٦.

(٢) ابن أبي حاتم: ٧/٢٤٢٨. (٣) ابن أبي حاتم: ٧/٢٤٢٨.

(٤) الطبري: ١٨/٣٣٤.

علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بـموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا بَرِئْنَا لِنَعْرِفَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا كَرِهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ (٢). وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (٣). وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٣١) أي خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ (٣٢) أي أدام ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا، والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ بِخَيْرٍ مَّا فَنَ لَّهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمِن بَآئِهِ مُمْسِكٌ فَدَعِمِلَ الصَّلَاحِ نَ قَاوَلَيْكَ هُمُ الدَّرَجَتُ الْعُلَىٰ ۚ حَتَّىٰ عَذَابُ نَجَرِي مَن تَحِبَّهَا لَا تَهْتَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (٣٦)

[وعظ السحرة أمام فرعون]

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ بِخَيْرٍ مَّا فَنَ لَّهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمِن بَآئِهِ مُمْسِكٌ فَدَعِمِلَ الصَّلَاحِ نَ قَاوَلَيْكَ هُمُ الدَّرَجَتُ الْعُلَىٰ ۚ حَتَّىٰ عَذَابُ نَجَرِي مَن تَحِبَّهَا لَا تَهْتَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (٣٦) وقال:

﴿وَيَسْتَجِيبُ الْأَسْفَىٰ ۚ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۚ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَادَا يَمْسِكُ لِيَقِضَ عَلَيْهِمْ نَارُكَ قَالَ أَتُكْرَهُونَهُ ۚ﴾ (٣٧) وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ أَنَاسٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِثَنَوِيهِمْ فَتُصِيبُهُمْ إِمَاتَةٌ حَتَّىٰ إِذَا صَارُوا فَحْشًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ فَجَاءَ بِهِمْ صَبَاطٌ صَبَاطٌ فَبُتُوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَتَّبِعُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ» فقال رجل من القوم: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية (٤)، وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمِن بَآئِهِ مُمْسِكٌ فَدَعِمِلَ الصَّلَاحِ نَ قَاوَلَيْكَ هُمُ الدَّرَجَتُ الْعُلَىٰ ۚ حَتَّىٰ عَذَابُ نَجَرِي مَن تَحِبَّهَا لَا تَهْتَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (٣٦) أي ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعملته ﴿قَاوَلَيْكَ هُمُ الدَّرَجَتُ الْعُلَىٰ ۚ﴾ (٣٦) أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات.

﴿يَنِي فَطَرْنَا فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاجِرٌ إِنَّمَا نَقِضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٣٧) ﴿إِنَّمَا أَنَا بَرِيءٌ لَّكَ خَطِيئَتَنَا وَمَا كَرِهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٣٨)

[تقلب فرعون على السحرة وتهديده وجوابهم]

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهدهم وتوعدهم وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا صِدْقُهُمْ﴾ (٣٩) ﴿قَالَ أَنَا ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ أَي مَا أَمَرْتُمْ بِذَلِكَ وَأَقْسَمْتُ عَلَىٰ فِي ذَلِكَ﴾ وقال - قولاً يعلم هو السحر والخلق كلهم أنه ثبت وكذب -: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفُكَمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (٤٠) أي اسم لما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى ربي لظهوره، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُهُمْ فِي الْمَوَاطِنِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)، ثم أحد يتهدهم فقال: ﴿فَلَا تَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ (٤٢) أي لأجعلنكم مثله، ولأقتلنكم وأشهرنكم، قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم (٤٣).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَا شَدِيدَ عَذَابِ وَأَبْقَىٰ﴾ (٤٤) أي أنتم تقولون: إن فرعون على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، سوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل ﴿وَقَالُوا لَئِنْ تَوَلَّيْنَا عَلَىٰ مَا جَاءَنَا نَبِئْتُكَ أَلَيْسَتْ﴾ (٤٥) أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ (٤٦) يحتمل أن يكون نسباً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، يعنون لا نختارك على فاطرنا، وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من ظن، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، ﴿فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاجِرٌ أَي فاعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا نَقِضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٤٧) أي إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار سوزان، ونحن قد رغبنا في دار القرار ﴿إِنَّمَا أَنَا بَرِيءٌ لَّكَ خَطِيئَتَنَا وَمَا كَرِهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٤٨) أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ﴿وَمَا كَرِهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ (٤٩) لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَرِهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ (٤٩) قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقرآن، وقال:

(١) الطبري: ٣٤ / ١٣. (٢) الدر المنثور: ٥ / ٥٨٧.

(٣) الطبري: ٣٤١ / ١٨. (٤) أحمد: ١١ / ٣.

(٥) مسلم: ١ / ١٧٢، ١٧٣.

البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُيُوتِهِمْ ۖ فَمَشَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ ۖ أَيُّ الْبَحْرِ ۖ مَا غَشِيَهُمْ ۖ﴾ (٧٨) أي الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَوَيْفُكَ أَمْوَى ۖ فَغَشِيَهُمَا مَآغِشٌ ۖ﴾ (٧٩) وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم، وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْفَزَعُ الْأَوَّلُ ۖ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ الْوَادِي الْأَخْضَرُ ۖ﴾ (٨٠).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُمْ مِنْ مَدُونِكُمْ وَوَعَدَكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۖ﴾ (٨١) كَلَامًا مِنْ طِبَسَاتٍ مَا رَزَقْتَكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْمِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۖ (٨٢) وَإِنِّي لَفَاعِلٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۖ (٨٣)

[تذكير بني إسرائيل بنعمة الله عليهم]

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ومنه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده، قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم يبق منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ﴾ (٨٤) وروى البخاري عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر [أظهر] الله فيه موسى على فرعون، فقال: «تغفر أولي يموسى قصوؤموه» (٨٥) رواه مسلم أيضًا في صحيحه.

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل في الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غصون ذلك عاد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريشًا، وأما المر والسوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها فالن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله ورحمة بهم وإحسانًا إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طِبَسَاتٍ مَا رَزَقْتَكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقكم، ولا تطعموا في رزقي فتأخذوه من غيري.

روى الإمام أحمد عن عباد بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجة بين السَّاءِ والأرض، والفرْدوسُ أعلاها درجة ومنها تُخْرَجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ وَالْعَرْشُ قَوْفَهَا فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفِرْدوسُ» (١) ورواه الترمذي (٢).

وفي المصحيحين: «إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ قَوْفَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبُ فِي أَفْقِ السَّاءِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ - قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء قال: - بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» (٣) وفي السنن: «وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ لَيَسْتَهْمُ وَأَنْعَمًا» (٤). وقوله: ﴿جَنَّتْ عَيْنُ أَيِّ إِقَامَةٍ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنْ «الدَّرَجَتِ الْاَلَى» (٥) «تَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» أي ما كثرين أبدًا «وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى» (٦) أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له. واتبع المرسلين فيها جاءوا به من خير وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ۖ﴾ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُيُوتِهِمْ ۖ فَمَشَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ ۖ أَيُّ الْبَحْرِ ۖ مَا غَشِيَهُمْ ۖ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ (٧٩)

[خروج بني إسرائيل من مصر]

يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا، وأرسل في المداين حاشرين أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورسائيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ لَيَرْزُقْنَهُمْ فَيَلْبُونَ ۖ﴾ (٨٥) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۖ (٨٥) ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُيُوتِهِمْ ۖ﴾ (٦٠) أي عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانِ ۖ﴾ أي نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ۖ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ (٦٢) ووقف موسى ببني إسرائيل: البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن: اضرب ﴿لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ۖ﴾ فاضرب البحر بعضاه، وقال: انقلب علي ياذن الله، ﴿فَأَنفَلَقَ فَنُفِثَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّيْرِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ (٦٣) أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسًا كوجه الأرض، فلهذا قال: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا ۖ﴾ أي من فرعون ﴿وَلَا تَحْشَى ۖ﴾ (٦٤) يعني من

(١) أحمد: ٣١٦/٥. (٢) تحفة الأحوذى: ٣٨/٧.

(٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦، ومسلم: ٢١٧٧/٤.

(٤) أبو داود: ٢٨٧/٤، وتحفة الأحوذى: ١٠/١٤١، وابن

ماجه: ٣٧/١.

(٥) فتح الباري: ٢٨٨/٨. (٦) مسلم: ٧٩٥/١.

وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري.

وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُوُّوْهُ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخَذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَوْرِكُوا دَارَ الْفَنَاسِقِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ أي عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ أي بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل - له لب وحزم - بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا قال: رجع إليهم ﴿غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ والأسف شدة الغضب. وقال مجاهد غضبان أسفا أي جزعا^(٣). وقال قتادة والسدي: أسفا حزينا على ما صنع قومه من بعده ﴿قَالَ يَقْوِيهِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إليكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل في جواب ما اتبهم موسى وقَرعهم ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلِّي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي ألقيناها عنا.

وفي رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس، إنسا أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجرا واحدا، حتى إذا رجع موسى عليه السلام، رأى فيه ما يشاء، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعاه هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له، فقال السامري عند ذلك

حاجة، وتحالفوا ما أمرتكم به ﴿فَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي نصب عليكم ﴿وَمَنْ يُحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿١٥٧﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس^(١): أي فقد شقي.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي كل من تاب إلي، تبت عليه من أي ذنب كان، حتى أنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿تَابَ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق. وقوله: ﴿وَأَمَّنَ﴾ أي بقلبه. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي بجوارحه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَفْتَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ثم لم يشك^(٢). وقال قتادة ﴿ثُمَّ أَفْتَدَىٰ﴾ أي لزم الإسلام حتى يموت، ﴿ثُمَّ﴾ ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَمَا أَصْبَلْتُمْ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٥٩﴾﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَصَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿١٦٠﴾﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّوا السَّامِرِيَّ ﴿١٦١﴾﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقْوِيهِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْنَا مَوْعِدِي ﴿١٦٢﴾﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَفَكَذَّبْتَ أَبْنَاءَ السَّامِرِيَّ ﴿١٦٣﴾﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خِلَافَةُ النَّاسِ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَيْسَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بَرِيْعَ الْيَمِّ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا ﴿١٦٥﴾﴾

إذ هاب موسى إلى موعد الله ووقوع

بني إسرائيل في عبادة العجل

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ يَمَكُونُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْجَهُلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ إِنَّ هَذِهِ آيَةُ رَبِّكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها له عشرًا، فتمت أربعين ليلة، أي يصومها ليلاً ونهارًا، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَلْتُمْ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٦٨﴾﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي قادمون يتزلون فرياً من الطور ﴿وَعَصَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿١٦٩﴾﴾ أَي لِتَزِدَادَ عَنِي رَحْمَةً ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّوا السَّامِرِيَّ ﴿١٧٠﴾﴾

أخبر تعالى نبهه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل،

(٢) الطبري: ١٨/٣٤٧.

(١) الطبري: ١٨/٣٤٧.

(٤) الطبري: ١٨/٣٥٠.

(٣) الطبري: ١٨/٣٥٠.

فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤﴾

[ما حصل بين موسى وهارون بعدما رجع موسى]

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «أَتَيْسَ الْحَبْرَ كَالْمَعَابِيَةِ» ^(١) وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: «مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٤﴾ أَلَا تَتَّبِعُهُمْ ﴿١٥﴾ أَي فَنَخْبِرُنِي بِهِمَا الْأَمْرَ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿١٦﴾ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٧﴾ أَي فيما كنت قد كنت إليك، وهو قوله: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾» قَالَ يَبْنَؤُمْ تَرَقَّى لَهُ بِذِكْرِ الْأَمِّ مَعَ أَنَّهُ شَفِيعٌ لِأَبَوَيْهِ، لِأَن ذَكَرَ الْأُمَّ هُنَا أَرْقُ وَأَبْلَغُ فِي الْحَنِّوِّ وَالْعُطْفِ، وَلِهَذَا قَالَ: «يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبر به كان من هذا الخطب الجسيم، قال: «إِنِّي خَشِيتُ» أَن تَمْلِكَ فَأَخْبِرَكَ بِهَذَا فَتَقُولَ لِي لَمْ تَرْكَبْهُمْ وَحْدَهُمْ وَفَرَقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿١٨﴾ تَرَقَّبَ قَوْلِي ﴿١٩﴾ أَي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له ^(٧)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴾ ﴿٢٠﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٢١﴾ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَبْرِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ، وَأَنْتَ بِنَظَرٍ إِلَيْكَ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٢٢﴾ إِكْسَامًا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٣﴾

[كيف نحت السامري العجل]

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل

أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار أي صوت استدرأجاً، وإمهالاً ومحنة واختياراً، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبَكَ الْقَلَى السَّامِرِيُّ﴾ ^(٨) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لِّلشَّوَارِ ^(٩).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: ﴿فَتَنَسَّى ﴿٨﴾﴾ أَي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري ^(١٠). قال الله تعالى ردّاً عليهم وتقريعاً لهم، وبياناً لفصيحته، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُجْعَلُونَ لَّهُمْ حُكْمٌ وَلَا يُعْلَمُ لَّهُمْ ضَرَأٌ وَلَا نَفْعٌ ﴿٨﴾﴾ أَي العجل، أفلا يرون أنه لا يبيهم إذا سأله ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يُعْلَمُ لَّهُمْ ضَرَأٌ وَلَا نَفْعٌ ﴿٨﴾﴾ أَي: في دنياهم ولا في آخرهم. قال ابن عباس ^(١١): لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره، فيخرج من فمه فيسمع له صوت ^(١٢)، وقد ورد في حديث الفتون عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهموت ^(١٣)، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلاء أنهم تورعوا عن زينة القبط، فآلقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير. كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر ^(١٤): انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله، يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة ^(١٥).

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ فَيَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠﴾﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١﴾

[نهى هارون بني إسرائيل عن عبادة العجل، وإصرارهم عليها]

يخبر تعالى عما كان من نهى هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل، وإخبارهم بإيهم أنها هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠﴾﴾ أَي فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاركم عنه ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١﴾﴾ أَي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

﴿ قُلْ يَهْدِيكُمْ رَبُّكُمْ بِمَا تَعْبَثُونَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾﴾ أَلَا تَتَّبِعُهُمْ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ

(١) النسائي في الكبرى: ٣٩٦/٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٢٢/١ والطبري: ٣٥٥/١٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٢٤/١، ٤٢٥.

(٤) النسائي في الكبرى: ٣٩٦/٦.

(٥) فتح الباري: ٤٤٠/١٠.

(٦) أحمد: ٢٧١/١.

(٧) الطبري: ٣٥٩/١٨.

ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢١﴾

[القرآن ذكر الله الجامع وبيان عقوبة من أعرض عنه]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُتُولُ﴾ أي يبيد ولا يمتد ولا ينقص من خلفه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾ الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا على أن ختموا بمحمد ﷺ كتابا مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمرا وطلبًا، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿٢٠﴾ أي إثمًا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَخْرَابِ قَالَ ثَوْرٌ مُوعِدُهُ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لَا تَذَرْنَهُمْ يَوْمَ وَمَنْ بَلَغَ﴾ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه، ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿٢٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ ﴿٢١﴾ أي: لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿٢١﴾ أي: بشس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٣﴾ نَحْنُ أَكْبَرُكُمْ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا نَوْمًا ﴿١٤﴾

[نفخ الصور ويوم القيامة]

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» ^(١). وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ^(٢) وجاء في

بأجرنا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر ^(٣)، وقال قتادة: كان من قرية سامرا ^(٤)، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴿٥﴾ أَي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل ^(٦)، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا حسدا له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره ^(٧). ولهذا قال: ﴿تَسَدَّثَهَا﴾ أي ألقيتها مع من ألقى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّكَتُ لِي نَفْسِي﴾ أي حسنته وأعجبها إذ ذاك.

[عقاب السامري وتحريق العجل]

﴿قَالَ قَادَ هَبْ فَإِنَّكَ لَكِ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تأس الناس ولا يمسونك ﴿وَلَكِنَّكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَنْ تَخْلَفَهُ﴾ أي: لا يحيد لك عنه. وقال قتادة ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم وبقياتهم اليوم يقولون لا مساس. وقوله: ﴿وَلَكِنَّكَ مَوْعِدًا أَنْ تَخْلَفَهُ﴾ قال الحسن و قتادة وابن عبيك: لن تغيب عنه ^(٨). وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أي معبود: ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي أقمت على عبادته، يعني العجل.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٨﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد له. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٨﴾ نصب على التمييز، أي هو عالم بكل شيء ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٩﴾، ﴿وَأَخْبَىٰ كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٠﴾، فـ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ﴿٢١﴾، ﴿وَمَا تَشْقَطُ مِنْ وَرْدِهِ إِلَّا يُعْلِمُهَا وَلَا حِجْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٢﴾، ﴿وَمَا مِنْ دَاكِرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾ والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٤٢٤. (٢) الطبري: ١٨/ ٣٦٣.

(٣) الطبري: ١٨/ ٣٦٢. (٤) الطبري: ١٨/ ٣٦٢.

(٥) الطبري: ١٨/ ٣٦٤. (٦) تحفة الأحوذى: ٩/ ١١٦.

(٧) الطبراني في الطوال: ٣٦.

البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف (٣).

[يسعى الناس لصوت الداعي]

﴿يَوْمَيزِيدُ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي يوم يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيث أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتُؤْتُونَ﴾ وقال: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَى النَّارِ﴾.

وقوله: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قال ابن عباس: سكنت (٤)، وكذا قال السدي: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٥) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطاء الأقدام (٥)، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والزيغ بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم (٦). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٦) الصوت الخفي (٧)، وهو رواية عن عكرمة والضحاك. وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٨) الحديث وسره ووطء الأقدام.

﴿يَوْمَيزِيدُ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (٩) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به، علما (٩) وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حل ظلمات (١٠) ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما (١١).

[الشفاعاة والجزاء]

يقول تعالى: ﴿يَوْمَيزِيدُ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ أي عنده ﴿إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٢) كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (١٣) وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ﴾ (١٤). وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِنَ لَهُ﴾ (١٥)، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِحُ صِفًا لَا يُكَلِّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (١٦). وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «إِنِّي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَخَّرَ اللَّهُ سَاجِدًا

الحديث: «كَيْفَ أُنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَلِيلُ السَّعَةِ الْقَرْنِ، وَحَتَّى جِبَّتُهُ، وَانْتَظَرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ» فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» (١٧). وقوله: ﴿وَنُحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَيزِيدُ﴾ (١٨) قيل: معناه رُزق العيون من شدة ما هم فيه من الأحوال ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم (١٩)، أي يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (٢٠) أي في الدار الدنيا، وقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَحْنُ أَكْثَرُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَتْلُوهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي العاقل الكامل فيهم ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (٢١) أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقص الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعِزِّنْكُمْ مَا يَنْذَكُرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةُ سِنِينَ﴾ (٢٣) قلنا يوماً أو بعض يوم فسئل العاقلون (٢٤) فكل إن لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنتُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٥) أي إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لأنتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأساتم التصرف، قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَسَأَلْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (٢٦) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٢٧) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (٢٨) يَوْمَيزِيدُ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (٢٩).

[تنسِفُ الجبال وتصير الأرض قاعاً صفصفاً]

يقول تعالى: ﴿وَسَأَلْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (٣٠) أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (٣١) أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (٣٢) أي لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن

(١) تحفة الأحوذى: ١١٧/٩. (٢) الطبري: ٣٧١/١٨.

(٣) الطبري: ٣٧٢/١٨ والدر المنثور: ٥٩٨/٥ و٥٩٩.

(٤) الطبري: ٣٧٤/١٨. (٥) الطبري: ٣٧٤/١٨.

(٦) الطبري: ٣٧٥/١٨. (٧) الطبري: ٣٧٥/١٨.

يتركون المأثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُخَوِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١٣) وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تنزهه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعدته حق، ووعيدته حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثه الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

[أمر النبي ﷺ بسماع القرآن عند النزول دون

الاستعجال لقراءته]

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة: ﴿لَا تُخَوِّثُ بِهِ﴾، لسانك لتعجل به ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) فإذا قرأته فأنتع قد قرأته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٨) وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١٦) يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُخَوِّثُ بِهِ﴾ لسانك لتعجل به ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْتَظِرْ﴾ (١٨) ثم إن علينا بيانه ﴿١٩﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي بلس أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٢٠) أي زدني منك علمًا، قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَسَمٍ وَلَمْ يُخِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ (٢١) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿٢٢﴾ فَقُلْنَا يَنْقَضُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿٢٣﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿٢٤﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ ﴿٢٥﴾ فَوَسَّوْا لِلْإِنْسَانِ السَّيْطَانَ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَازِلٍ ﴿٢٦﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ

وَيَنْفُخُ عَلَى بَنَحَامِدَ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ قَبْدَعْنِي مَا شَاءَ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقُولُ يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعُ تُشْفَعُ، فَيُحْدِثُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُوذُ (١) فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وفي الحديث أيضًا: «يَقُولُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِبْرَانِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نَيْصَفٌ مِثْقَالٍ مِنْ إِبْرَانِ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنِي أَذْنِي مِثْقَالٍ ذَرَّةً مِنْ إِبْرَانِ» الحديث (٢).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يحيط علمًا بالخالق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (٢٠) كقوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. وقوله: ﴿وَنَسِيتُ الرُّوحَ إِلَيْنِ الْفُتُورِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلاق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام (٣)، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٢١) أي يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتض للشاة الجباء من الشاة القراء، وفي الحديث: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزِّي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ ظَالِمٌ» وفي الصحيح: «إِبَّاكُمُ وَالظُّلْمُ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤)، والحية كل الحية من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٥). وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحْكُمُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (٢٢) لما ذكر الظالمين ووعيدهم، نسي بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي لا يزد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد (٥)، فالظلم الزيادة، بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْشِرُونَ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٢٠)

[أنزل القرآن ليتقوا الناس ويتذكروا]

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعًا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي

(١) فتح الباري: ٢٤٧/٨ ومسلم: ١٨٤/١.

(٢) فتح الباري: ٤٨١/١٣. (٣) الطبري: ٣٧٨، ٣٧٧/١٨.

(٤) مسلم: ١٩٩٦/٤. (٥) الطبري: ٣٨٠، ٣٧٩/١٨.

(٦) فتح الباري: ٣٩/١.

لَمَّا سَوَّاهُمَا وَطَفِقَا يَتَحَفَّانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَقَوِيَ (١٦) ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَآبَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٧) ﴿

[قصة آدم وإبليس]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فسي (١١)، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه (١٢). وقال مجاهد والحسن: ترك (١٣). وقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على كثير من خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف، وسيأتي في آخر سورة (ص) يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيه قديماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي امتنع واستكبر ﴿فَلَنُفِخَ فِي الصورِ فَتَنَّاكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى﴾ أي حواء عليها السلام ﴿إِيَّاكَ أَنْ يَخْرُجَكَ مِنْهَا فَتَتَّبِعُكَ وَتَعْنَى وَتَشَقَّى فِي طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة ﴿إِنَّكَ أَلا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَقْرَى﴾ (١٤)﴾ إنما قرآن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (١٥) ﴿وهذان أيضاً متقابلان، فالظما حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَنْ لَكُمْ لَا يَبْكُ﴾ (١٦) قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿وَفَاسَمَهُمَا إِلَى لَحْمَا لَيْسَ لَاصِحِينَ﴾ (١٧) وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا، وَهِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ﴾ (١٨) ورواه الإمام أحمد (١٩).

وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَّالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٍ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَقُولَ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرُهُ شَجَرَةً

فَتَارَعَهَا، فَكَادَهُ الرَّحْمَنُ يَا آدَمَ مَنَى قَفْرُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنْ اسْتِخْيَاءً، أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَرَجَعْتُ أَغَاثِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ (٢٠) فذلك قوله: ﴿فَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَآبَ عَلَيْهِ﴾ وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَتَحَفَّانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي (٢١). وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَقَوِيَ (١٦) ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَآبَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٧)﴾ روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرَسُولِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتُلَوِّمُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - أَوْ قَدْ كُنْتُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَاجَّ آدَمَ مُوسَى (٢٢) وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد ﴿قَالَ آمِطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّا يَا أَبْنَاءَ كُفٍّ مَنَى هُدًى فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا فَلَاحِظٌ وَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (٢٦)﴾

[إنزال آدم إلى الأرض ووعد الخیر لمن]

اهتدى والشر لمن بغى]

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَأِنَّا يَا أَبْنَاءَ كُفٍّ مَنَى هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان (٢٧) ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا فَلَاحِظٌ وَلَا يَشْقَى (٢٣)﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (٢٨) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي،

- | | |
|--|------------------------|
| (١) الطبري: ٣٨٣/١٨ | (٢) الطبري: ٣٨٣/١٨ |
| (٣) الطبري: ٣٨٣/١٨ | (٤) مسند الطيالسي: ٣٣٢ |
| (٥) أحمد: ٤٥٥/٢ | (٦) الطبري: ٣٥٤/١٢ |
| (٧) الطبري: ٣٨٨/١٨ | (٨) فتح الباري: ٢٨٨/٨ |
| (٩) فتح الباري: ٥٠٨/٦ و ٥١٣/١١ ومسلم: ٢٠٤٢/٤ | |
| (١٠) الطبري: ٥٤٩/١ | (١١) الطبري: ٣٨٩/١٨ |

باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفهم فيها، يمشون فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٣) أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلِمَا لَا تَعْقِلُ الْبُصُرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١٤) وقال في سورة الم السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا هَلَكَنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كِتَابٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرَأْمَا وَاجِلٌ مَّسْمًى﴾ (١٥) أي: لسولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة.

[الأمر بالصبر وبإداء الصلوات الخمس]

ولهذا قال لنبيه مسلماً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَاهَوْنَ فِي رُؤْيَاهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ هذه الآية (١٦).

وروى الإمام أحمد عن عبارة بن رؤية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَنْ يَلْجَأَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» (١٧) رواه مسلم (١٨).

وقوله: «وَمِنَ آيَاتِي الْيَلَّ فَسَبِّحْ» أي من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء «وَأَطْرَافَ النَّهَارِ» في مقابلة آناء الليل «لَعَلَّكَ تَرْضَى» (١٩) كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٢٠) وفي الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ قِيْلُوا لِرَبِّكُمَا وَنَا وَسَعَدَيْكَ قِيْلُوا: هَلْ رَضِيتُمْ؟ قِيْلُوا: وَمَا لَنَا لَا تَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِّنْ خَلْقِكَ قِيْلُوا: إِنِّي أُعْطِيتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قِيْلُوا: أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ

أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ، وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هَذَا ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدرة، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة.

وقوله: ﴿وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (٢١) قال مجاهد وأبو صالح والسدي: لا حجة له (٢٢)، وقال عكرمة: عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَنْ وَجْهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا يَبْصُرُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (٢٣) أي في الدنيا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ آدَمَ أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (٢٤) أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاعها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينسك ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فإن اجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْوَعُ﴾ (٢٥)

[العذاب الشديد للمسرفين]

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (٢٦) ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْوَعُ﴾ (٢٧) أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» (٢٨).

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا هَلَكَنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (٢٩) ﴿وَلَوْلَا كِتَابٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرَأْمَا وَاجِلٌ مَّسْمًى﴾ (٣٠) ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنَ آيَاتِي الْيَلَّ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (٣١)

[في إهلاك الأمم الماضية عبرة للمعتبرين]

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ هؤلاء المكذبين بما جتهد به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم

(١) الطبري: ١٨/٣٩٤، ٣٩٥.

(٢) مسلم: ١١٣١/٢.

(٣) فتح الباري: ٢/٤٠، ومسلم: ١/٤٣٩.

(٤) أحمد: ٤/١٣٦، (٥) مسلم: ١/٤٤٠.

عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا^(١) وفي الحديث الآخر: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُمُوهُ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وَجُوهَنَا وَيَقْطُلْ مَوَازِينَنَا وَيُزْخِرْ حَنَا عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ قَوَالِهِ مَا أَعْطَاهُمْ خَيْرًا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ^(٢)»

وقوله: «لَا تَسْتَكِرُّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَنْظُرْ إِلَى مُتَعَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَاصْبِرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ»

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: «أَزْوَاجًا مِنْهُمْ»، يعني الأغنياء^(٣)، فقد أتاك خيرا مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ^(٤) لَا تَدْنُ عَيْنُكَ» الآية، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة، أمر عظيم لا يحسد ولا يوصف، كما قال تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى^(٥)» ولهذا قال: «وَرَزَقْنَاكَ خَيْرًا وَأَبْقَى^(٦)» وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فراه متوسدا مضطجعا على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أَوْ فِي شَيْءٍ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طِيْبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا^(٧)» فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقه هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ، مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ^(٨)» وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا^(٩)، يعني زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: «لِنَفْسِهِمْ فِيهِ» لتبليهم^(١٠). وقوله: «وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» أي استغفهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) فتح الباري: ١١/٤٢٣. (٢) أحمد: ٤/٣٣٢.

(٣) الطبري: ١٧/١٤١. (٤) فتح الباري: ٥/١٣٧.

(٥) ابن أبي حاتم: ٧/٢٤٤٢. (٦) الطبري: ١٨/٤٠٤.

(٧) الطبري: ١٨/٤٠٥. (٨) الطبري: ١٨/٤٠٦.

(٩) تحفة الأحوذى: ٧/١٦٦ وابن ماجه: ٢/١٣٧٦.

(١٠) ابن ماجه: ٢/١٣٧٥. (١١) مسلم: ٤/١٧٧٩.

[طلب المشركين الآيات مع أن القرآن آية]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿أَوَلَا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٧٣) يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (١) وإنما ذكر هنا أعظم الآيات التي أعطاها عليه السلام، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَلْأَوَّلِينَ﴾ أَوَلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿أَيُّ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ قُلْ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرُّسُولَ الْكَرِيمَ وَنُنْزِلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ، لَكَانُوا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا قَبْلَ أَنْ تَهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَ كَمَا قَالَ: ﴿فَتَنبِئْ عَالَمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزِلَ وَتُخْزَى﴾ (١٧٣) يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٧٤) كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كَذِبٌ أُلْهِلَكُمْ بِهِ مِثْلَ آبَائِكُمْ فَاتَّبِعُوهُمُ فَاسْتَكْبَرُوا فَاتَّخَذُوا لَكُمْ رُجُومًا﴾ (١٧٥) - إلى قوله - ﴿يَا كَاذِبِينَ﴾ (١٧٦) وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ الآيتين، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد، لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ شَرِّصٍ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَقَرِصُوا﴾ أي فاستنظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الضُّرْطِ السَّوِيِّ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْخَلْقِ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ

يُرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَصْلَ سَيْلًا﴾ (١٧٦) وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكِتَابِ الْأَثِيرِ﴾ (١٧٧). آخر تفسير سورة طه، والله الحمد والمنة، ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء والله الحمد.

تفسير سورة الأنبياء

- عليهم السلام - وهي مكية

[فضل سورة الأنبياء]

روى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: بنو إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّيْحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ (٣) قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَهْلَكُنَّ بِأَنْتَ نَايِبُهُمْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

[الساعة على رؤوس الناس وهم في غفلة عنها]

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها. وروى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (١) قال: «في الدنيا» (٢). وقال تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ إِلَهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ﴾ (٣) وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُونَ (٤) الآية.

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ أي جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب. رواه البخاري بنحوه (٤).

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨، مسلم ١٣٤/١.

(٢) فتح الباري: ٢٨٩/٤. (٣) النسائي في الكبرى: ٤٠٧/٦.

(٤) فتح الباري: ٥٠٥/١٣.

[لم يكن الرسل إلا بشرًا]

يقول تعالى رادًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا، كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم: لأنهم أنكروا ذلك فقالوا ﴿أَبَشَرٌ مَقْدُونًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة؟ وإنها كانوا بشرًا، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ أي: قد كانوا بشرًا من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم، ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ فِي الْآسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) أو يُلْقِي إِلَيْهِ كِتَابًا فَيَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ﴾ (٨) أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلَافَةَ﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم بهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (٩) أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنفُسًا بَعْدَهَا قَوْمًا خَرَجُوا لَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ مِنْهَا رِجْزُونَ (١١) لَا تَرْجِعُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٣) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِثِينَ (١٤)

وقوله: ﴿وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبيًا لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال: ﴿أَنَّا أَتَيْنَاكَ الْبَحْرَ وَآتَيْنَاكَ بَصِيرَتَكَ﴾ (٥) أي أفتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيبًا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتغل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦) أي السميع لأقوالكم، والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعد.

[قول الكفار في القرآن والرسول،

وطلبهم الآيات، والرد عليهم]

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّعَتْ أَهْلُكُمْ بِكُلِّ آفَةٍ رُبُّهُ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحرًا، وتارة يجعلونه شعرًا، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ صَرَّوْا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلَّوْا فَلَا يَسْطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٣٨) وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٥) يعنون ناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْرٍ أَهْلُكُنْهَا أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) أي ما أتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل، آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات ولو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٢) هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا مِنْهُ أَلْذِكْرِ﴾ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)

[فضل القرآن]

يقول تعالى منها على شرف القرآن ومحرضا لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم^(١). ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أي: هذه النعمة، وتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكَ لَعْنَتِي وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(٣).

[كيف أهلك الظالمون؟]

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ ظُلُمَةً﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَايِنْ مِنْ قَبْلِكَ أَهْلُكُمْ وَأَهْلُكُمْ ظُلُمَةٌ فِيهِمْ عَائِيَةٌ عَلَىٰ غُرُوشِهِمَا﴾ الآية. وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٤) أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَنُوا بَأْسًا﴾ أي: يقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾^(٥) أي: يفرّون هارين ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأَوْسُوا إِلَىٰ مَا أُتِفْتُمْ فِيهِ وَتَسْكَبُوا﴾ هذا تهكم بهم نزارا، أي: لئلا لهم نزارا لا تركبوا هارين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة استهزاء بهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُونَ﴾^(٦) أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٧) اعترفوا بظلمهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ مَكَانَتُهُمْ فِيهِمْ خَيْرٌ مِنْهَا﴾^(٨) أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم، ويجيرهم حتى حصدها هم حصدا، وحدث حركاتهم وأصواتهم خوفا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾^(٩) لو أردنا أن نتخذ هؤلاء اتخذته من لدنا إن كنا فاعلين^(١٠) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَصِفُونَ﴾^(١١) من في السموات والأرض ومن عنده لا يستحيون عن عبادتي ولا يستحيون^(١٢) ﴿يَسْتَحْيُونَ النَّارَ وَالنَّارَ لَا يَقْتُورُونَ﴾^(١٣)

[خلق الكون بالعدل والحكمة]

غير تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(١٤) وأنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ نَارٍ﴾^(١٥) وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَؤُنَا تَبَعًا لَقَدْ تَفَعَّلْنَا﴾^(١٦) قال ابن أبي نجيع عن مجاهد: ﴿لَوْ

أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَؤُنَا تَبَعًا لَقَدْ تَفَعَّلْنَا﴾ يعني من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا^(١٧).

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾^(١٨) قال قتادة^(١٩) والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي: ما كنا فاعلين وقال مجاهد: كل شيء في القرآن ﴿إِنْ﴾ فهو إنكار^(٢٠). وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾^(٢١) أي: نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^(٢٢) أي: ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾^(٢٣) أي: أيها القائلون: لله ولد ﴿وَمَا نَصِفُونَ﴾^(٢٤) أي: تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا، فقال:

[كل شيء ملك لله وعبد له]

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾^(٢٥) يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾^(٢٦) أي: لا يستكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَتُكْرِهَ فَسَيَحْشَرُهُمُ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾^(٢٧)

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾^(٢٨) أي: لا يتبعون ولا يملكون ﴿يَسْجُدُونَ لِلَّهِ وَالنَّارَ لَا يَقْتُورُونَ﴾^(٢٩) فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا، مطيعون قصدا وعملا، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾^(٣٠) لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدنا فبئس آلوه ربنا لعرض عما يصِفُونَ^(٣١) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^(٣٢)

[الرد على الآلهة الكاذبة]

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾^(٣٣) أي: أهم يجيئون المسوي وينشرونهم من الأرض، أي: لا يقدرُونَ على شيء من ذلك، فكيف جعلوها الله نداً وعبودا معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾^(٣٤) أي: في السماوات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾^(٣٥) كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لِلَّذِينَ يَمْحَاقُ وَلَمَّا بَصَّهْمُ عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٣٦) وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

(١) الطبري: ٢١/٦١١. (٢) الطبري: ١٨/٤٢١.

(٣) الطبري: ١٨/٤٢٠. (٤) الدر المنثور: ٥/٦٢٠.

يَصِفُونَ ﴿١٧﴾ أي: عما يقولون أن له ولدًا أو شريكًا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًا كبيرًا. وقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَتَلَقَّاهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْجِزُ وَلَا يُجَاوِزُ عَلَيْهِ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ رَبِّي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ يَا أَعْمَلُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليكم على ما تقولون: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ رَبِّي﴾ يعني القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٣﴾ كما قال: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفتنة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا يبرهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ رَبِّي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٣﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

الرد على من زعم أن الملائكة بنات الله وبيان

أعمالهم ودرجاتهم

﴿أَيَّاتُ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول تعالى منها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْأَلَمِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض، متلاصق مترامم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبئت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

فقسي كل شيء له آية تسدل على أنه واحد

يقول تعالى راداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولدًا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية

وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا أَنْتِيرًا أَنْتِيرًا﴾ (١٧) وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ (١٨) ﴿أَفَتَرَى بَنَاءَ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (١٩) والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» (٢٠) أي: خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب ﴿مَحْفُوظًا﴾ (٢١) أي: عاليًا محروسًا أن ينال. وقال مجاهد: مرفوعًا (٢٢).

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آبَائِهِمْ مَعْزُونُونَ﴾ كقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، تفسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها. ثم قال منبها على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٢٤) أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٢٥) هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢٦) أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة (٢٧) كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمِ الْوَاصِلِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢٨).

﴿وَمَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ مِنْ بَيْنِكَ وَاللَّحْدِ أَقْوَامِينَ مِتَّ فَهُمْ الْمَخْلُودُونَ﴾ (٢٩) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٠)

[ليس لأحد الخلود في الدنيا]

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ بَيْنِكَ وَاللَّحْدِ أَقْوَامِينَ مِتَّ فَهُمْ الْمَخْلُودُونَ﴾ (٣١) أي: يا محمد ﴿الَّذِينَ فِي الدُّنْيَا بَلَّ﴾ (٣٢) ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنَّى﴾ (٣٣) ﴿وَبَيْنَ وَجْهِ رَبِّكَ ذُو الْجَنَّةِ وَالْآكَرَةِ﴾ (٣٤) وقوله: ﴿أَفَأَمِينٌ مِتَّ﴾ (٣٥) أي: يا محمد ﴿فَهُمُ الْمَخْلُودُونَ﴾ (٣٦) أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٣٧) وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: رأيت السموات والأرض حين كانتا رتقا هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار (١). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (٢). قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علما، صدق، هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علما (٣).

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فقها الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن وقادة: كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٤) أي: أصل كل الأحياء منه. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبتي عن كل شيء، قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ﴾ قال: قلت: أنبتي عن أمر إذا علمت به دخلت الجنة قال: «أَنْفَسُ السَّلَامِ، وَأَطْعَمُ الطَّعَامِ، وَصَلَّيْتُ الْأَرْحَامَ، وَقُمْتُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (٥) وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم، والترمذي يصحح له.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ (٦) أي: جبالا أرسى الأرض بها وقررها ونقلها لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع. فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (٧) أي: لئلا تميد بهم. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُكًا﴾ (٨) أي: تغزا في الجبال، يسلكون فيها طرقا من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ نَذِيرًا﴾ (٩).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ (١٠) أي: على الأرض

(١) الطبري: ١٨/٤٣٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٥٠.

(٣) أحمد: ٢/٢٩٥٠، ٣٢٣، ٣٢٤. (٤) فتح الباري: ١/٦٤.

(٥) الطبري: ١٨/٤٣٦. (٦) الطبري: ٢٠/٥٢٠، ٥٢١.

واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يغى خلاف الذي مضى

نبياً لأخرى مثلها فكان قد

وقوله: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نخبركم

بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر،

ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس: ﴿وَيَبْلُوكُمْ﴾ يقول: نبتليكم ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال

والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. وقوله:

﴿وَالَّذِينَ تَرَجُّصُونَ﴾ (٢٥) ﴿أي: فنجازيكم بأعمالكم﴾ (١)

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ يَخِفُّونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا

الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ

(٢٦) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧)

[استهزاء المشركين بالنبي ﷺ]

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ

الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه

﴿إِنَّهُمْ يَخِفُّونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ أي: يستهزئون بك

ويتقصونك، يقولون: ﴿أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ﴾

يعنون أهذا الذي يسب ألهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى:

﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٦) ﴿أي: وهم

كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية

الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ يَخِفُّونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ

إِلَهُهُ رُسُلًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ كَذَلِكَ لَفِي ضَلَالٍ عَنَّا إِلَهُنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا

عَلَيْهَا وَسَوَفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٢٧)

وقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١) ﴿أي: في الأمور. والحكمة في ذكر

عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله

وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت

ذلك فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالى يملئ

للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا

يؤخر، ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نعمي وحكمي

واقتراري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿لَوْ

يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ
وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ (٢٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ
فَتَنَّهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٣٠)

[استعجال المشركين بالعذاب]

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع

العذاب بهم تكديماً وجحوداً وكفراً وعناداً واستعجاباً، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿قال الله تعالى:

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا

عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما

استعجلوا به. ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم

ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَفِيهِمْ

ظُلَلٌ﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقال في هذه

الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ

ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ يُفْشُونَ وَوُجُوهُهُمْ

النَّارُ﴾ (٣٠) فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ

يُبْصِرُونَ﴾ (٣١) ﴿أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ وَاقٍ﴾ (٣٢) وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ﴾ أي: تأتيهم

النار بغة أي: فجأة، ﴿فَتَنَّهُمْ﴾ أي: تدعهم،

فيستسلمون لها حائرين ولا يدرون ما يصنعون ﴿فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك ﴿وَلَا هُمْ

يُنْظَرُونَ﴾ (٣٠) ﴿أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَفَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ

عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا إِلَهُهُمُ تَتَّبِعُهُمْ فِي

دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ آلِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ (٤٣)

[العبرة بمن تقدم من المستهزئين]

يقول تعالى مسلماً لرسوله [صلوات الله وسلامه عليه] عما آذاه

به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ

قَبْلِكَ فَفَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١)

يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرًا وَعَلَى مَا كَانُوا يَأْمُرُونَ وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُ

وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمُورِ﴾ (٤٢) ثم ذكر

تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته

رَبِّكَ يَقُولُكَ يَتَوَلَّاتُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾ أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنها هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿١٧﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ وقال لقمان: ﴿يَبْنِيْ إِيَّائِي أَنْ تَأْكُلَ مِنْكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وروى الإمام أحمد أيضًا عن عائشة أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي عملين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضر بهم وأشتهم، فيكف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ يَقْدَرُ ذُنُوبُهُمْ، كَانَ كَفَّافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ ذُونَ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، انْقَصَ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ قَبْلَكَ» فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ، ويسف، فقال رسول الله ﷺ: «مَالَهُ لَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾﴾ ﴿٢١﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم»^(٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكِ أَنْزَلْنَاهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ، مَنِ كَرِهَ ﴿٢٤﴾

وحرصته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوَكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بدل الرحمن، يعني: غيره.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَرْهَقُمْ إِلَهَهُمْ مُنْتَمِعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلوهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أن هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصَحُحُبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصَحُحُبُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: يجارون^(٣).

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَيًّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَمُرُ أَفَلَا يَرْجِعُونَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْقَابِلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَنْذَرُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنَ عَذَابِ رَبِّكَ يَقُولُكَ يَتَوَلَّاتُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٣١﴾

[الخداع المشركين لطول استمتاعهم]

بالدنيا وبيان الحق لهم]

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا، وطال عليهم العمر فيها هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظًا لهم: ﴿أَفَلَا يَرْجِعُونَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ﴿٣٢﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَ كُرْمِ الْفُرَيْنِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر^(٤)، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة، والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْقَابِلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ يعني: بل هم الغلوبون الأسفلون الأخسرون الأدلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَنْذَرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وقوله: ﴿وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنَ عَذَابِ

(١) الطبري: ١٨/٤٤٨.

(٢) الطبري: ١٨/٤٩٤.

(٣) فتح الباري: ١٣/٥٤٧، ومسلم: ٤/٢٠٧٢.

(٤) أحمد: ٦/٢٨٠، والترمذي: ٣١٦٥.

[إنزال التوراة والقرآن]

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال مجاهد: يعني الكتاب^(١). وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل^(٢).

وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغني والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) أي: تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ يَجْعَلْ لِّهِ رِزْقًا وَسِعًا﴾^(٤). وقوله: ﴿لِإِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٥)، ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾^(٦) أي: خائفون وجلون ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُّشْرِكُونَ﴾^(٧) أي: أفنتكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٨) إذ قال لإبراهيم وقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(٩) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ^(١٠) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(١١) قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّاعِينَ^(١٢) قَالَ بَلْ زَكَّرْتُمْ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(١٣)

[قصة إبراهيم وقومه]

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من قبل ذلك.

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١٤) أي: وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا

عَاكِفُونَ﴾^(١٥) أي: معتكفون على عبادتها. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾^(١٦) لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٧) أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سلف أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّاعِينَ﴾^(١٨) يقولون: هذا الكلام الصادر عنك، تقوله لاعتنا أم محققاً فيه، فإننا لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَلْ زَكَّرْتُمْ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾^(١٩) أي: ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٢٠) أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ﴾^(٢١) فَعَجَلَهُمْ جُدًّا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْعَلْهُمُ إِلَهٌ يَرْجِعُونَ^(٢٢) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ^(٢٣) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ^(٢٤) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آتٍ نَأْتِيَ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ^(٢٥) قَالُوا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ هَذَا بَاهِلٌ يَا إِبْرَاهِيمُ^(٢٦) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَوُوا^(٢٧) إِنَّ كَانُوا يَنْشِقُوقُونَ^(٢٨)

[كسر الخليل الأصنام]

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذاهم وتكسیرهم بعد أن يولوا مديين، أي: إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ﴾^(٢٩) فسمعه ناس منهم. وقوله: ﴿فَعَجَلَهُمْ جُدًّا﴾^(٣٠) أي: حطاماً كسرهما كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْعَلْهُمُ إِلَهٌ يَرْجِعُونَ﴾^(٣١) يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿وَرَأَى عَلَيْهِمْ ضُرْبًا بِالْيَمِينِ﴾^(٣٢) وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَهٌ يَرْجِعُونَ﴾^(٣٣) ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣٤) أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من

تُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَكُن لَكُمْ أَلْفَافٌ تَقُولُونَ ﴿١٧﴾

[اعتراف القوم بعجز الآلهة ووعظ إبراهيم]

يقول تعالى خبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿قَرِّعُوا إِنَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باللامعة في عدم احترازهم وحرصاتهم لألهتهم، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ تُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿١٥﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿١٥﴾. ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿١٧﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أَلَمْ تَكُن لَكُمْ أَلْفَافٌ تَقُولُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أي: أفلا تدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر. فأقام عليهم الحجة والزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبِكَ حُجَّتْنَا عَلَيْهِمْ أَتَيْنَاهُمُ ابْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ الآية.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَاصْرَوْهُ إِلَى الْهَتَمِ﴾ ﴿١٨﴾ كُنْتُمْ فَعَلَيْكُمْ قُلَائِنَارُ كُرِّي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٠﴾

[إلقاء إبراهيم في النار وتصرف الله فيها]

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَاصْرَوْهُ إِلَى الْهَتَمِ﴾ ﴿١٨﴾ كُنْتُمْ فَعَلَيْكُمْ كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتندبر إن عوفيت أن تحمل خطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبة من الأرض وأضرموها نارا، فكان لها شر عظيم وهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد^(١).

الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ لَبْنُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ أي: قال من سمعه يخلف إنه ليكيدهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً، ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿١٦﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأَنذَرُوكُمُ عَلَيْكُمْ أَنْتَارِينَ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قَالُوا أَنْتَ فَكَلْتَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿١٧﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿فَنَشْكُرُهُمْ إِن كَانَ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جاد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ: يُشْتَبِي فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ - وَبَيْنَهُمْ يَسِيرُ فِي أَرْضِ حَبَارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَمَعَهُ سَارَةٌ، إِذْ تَزَلَّ مَنَزِلًا، فَاتَى الْحَبَارَ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ تَزَلَّ هَهُنَا رَجُلٌ بِأَرْضِكَ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مَعَكَ؟ قَالَ: هِيَ أُخْتِي. قَالَ: فَادْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ، فَانْطَلِقْ إِلَى سَارَةِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْحَبَارَ قَدْ سَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي عَنْهُ، بِإِنَّكَ أُخْتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَانْطَلَقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَرَأَهَا أَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاقَشَا فَأَخَذَ أَخْذًا شَدِيدًا، فَقَالَ: أَدْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرِكَ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاقَشَا، فَأَخَذَ بِبِطْنِهَا أَوْ أَشَدَّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّلَاثَةَ فَأَخَذَ، فَذَكَرَ مِثْلَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ فَلَا أَضْرِكَ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، ثُمَّ دَعَا أَذْنَى حُجَّابِهِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِي بِيَانَسَان، وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، أَخْرَجَهَا وَأَعْطَاهَا هَاجِرَ. فَأَخْرَجَتْ وَأَعْطَيْتُ هَاجِرَ، فَأَقْبَلْتُ، فَلَمَّا أَحْسَسَ إِبْرَاهِيمُ بِمَحَبَّتِهَا أَفْتَقَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَالَ: مَهْمٌ. قَالَتْ: كَفَى اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَتْنِي هَاجِرَ. قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(١).

﴿قَرِّعُوا إِنَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ

(١) فتح الباري: ٦/٤٤٧، ومسلم: ٤/١٨٤٠.

(٢) القرطبي: ١١/٣٠٣.

﴿وَلَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٦) أي: الجميع أهل خير وصلاح
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ أي: يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي:
يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف
الخاص على العام ﴿وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ﴾ (٧٧) أي: فاعلين لما
يأمرون الناس به.

[ذكر لوط]

ثم عطف بذكر لوط، وهو لوط بن هاران بن آزر. كتاب قد
آمن إبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى
﴿فَأَمَّا لُوطُ وَقَالِ إِنِّي مِنْهَا جَارٌ إِلَى رَبِّي﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً
وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سدوم وعمهاها، فخالقوا
وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير
موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ﴾ (٧٨) وأدخلناه
رَحْمَةً إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٩).

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٠) وَصَرَّيْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨١)

[ذكر نوح وقومه]

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين
دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (٨٢)
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ (٨٣) إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي
يُغْلِبُوا عَلَيْكَ ذُلًّا وَيَلْذُلُوا لَكَ الْفَاجِرَ كَقَارَارِ﴾ (٨٤) ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِذْ
نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: الذين آمنوا
به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنِّي مَأْمُورًا﴾ (٨٥)
﴿مَعَهُ أَثَقِيلُ﴾ (٨٦) وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٧)

أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا
خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا
القليل وكانوا يتصلون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد
جيل على خلافه، وقوله: ﴿وَصَرَّيْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجينا

قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن - فحسب الله به الأرض فهو
يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم
الوكيل (١). كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله
ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد
عليهما السلام حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٢).

وقال سعيد بن جبير - ويروى عن ابن عباس أيضاً -
قال: لما ألقى إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أومر
بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله
عز وجل: ﴿يَنَادُوا كُرِيًّا نَدَاً وَسَلَّمَا عَلَىٰ إِبراهيمَ﴾ (٣) قال: لم يبق
نار في الأرض إلا طفت (٤).

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال:
﴿وَسَلَّمَا﴾ لأذى إبراهيم بردها (٥).

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا
الوزغ (٦)، وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله، وسماه
فويسقا (٧). وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾
(٨) أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً
فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩)
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ (١٠) ﴿وَلَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (١١)
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ﴾ (١٢)
﴿وَلُوطًا عَائِنَةً حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ
الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ﴾ (١٣)
﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٤)

[هجرة خليل الله إلى الشام ومعه لوط]

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه،
وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض
المقدسة منها.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء
وبجاهد: عطية (١٥)، وقال ابن عباس وقتادة (١٦) والحكم بن
عيسى (١٧): النافلة ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق،
كما قال: ﴿فَفَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآئِهِ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ (١٨) وقال
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ
لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩) فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة

(١) الطبري: ١٨/٤٦٥. (٢) فتح الباري: ٨/٧٧.

(٣) الطبري: ١٨/٤٦٦. (٤) الطبري: ١٨/٤٦٥، ٤٦٦.

(٥) الطبري: ١٨/٤٦٧. (٦) الطبري: ١٨/٤٦٧.

(٧) الطبري: ١٨/٤٧١. (٨) الطبري: ١٨/٤٧١.

(٩) الدر المنثور: ٥/٦٤٣.

قال: - يعني الحسن - إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً: لا يشترطوا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاتَّخِشُوا اللَّهَ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(٨) قلت: أما الأنبياء عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَسْتَأْذِنُ الْإِنْسَانُ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا، إِذَا جَاءَ الدُّبُّ فَأَخَذَ أَحَدُ ابْنَيْهِمَا فَتَحَاكَمَ إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلْكَبِيرِ، فَخَرَجَا فَدَعَا هُمَا سَلِيمَانَ فَقَالَ: هَاتُوا السَّكِينَ اثْنَتَيْنِ، يَبْنِيَا: فَقَالَتِ الصَّغْرَى: يَرْبَحُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشْهُقْ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلصَّغْرَى»^(٩). وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما^(١٠). ويؤب عليه النسائي في كتاب القضاء^(١١):

[باب الحاكم يومه خلاف الحكم ليستعلم الحق].

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ الآية، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويهاً، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لَقَدْ أَوْتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مِزْمَارِ آلِ دَاوُدَ» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبته لك تحببنا^(١٢).

وقوله: ﴿وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح: وهو أول من سردها حلقاً^(١٣)، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾^(١٤) أَنْ أَعْمَلَ سِيْفَيْنِ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ أَي: لا توسع الحلقة فتقلق المسارة ولا تغلظ المسار فتقذع الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال: ﴿فَهَلْ

أَخْلَصْنَاهُ مُتَصِرًا مِنَ الْقَوْمِ﴾^(١٥) الَّذِينَ كَذَبُوا بِإِيمَانِهِمْ كَذَابًا مُزْمَنًا فَأَعْرِضْنَاهُمْ لِمِجْنِينَ ﴿٧٦﴾ أَي: أهلكهم الله بعمامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ النَّوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(١٦) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ كَلَامًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ حَامِصَةً تَجْرِي أَمْرَهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٧٩﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّ لَهُ وَيَعْمَلُ مَكَلَادُونَ ذَلِكَ وَكَانَ لَهُمْ كُوفِيلِينَ ﴿٨٠﴾

[ذكر داود وسليمان وما أوتيا من الآيات وذكر

قصة نفس الغنم في الزرع]

قال [أبو] إسحاق عن مرة عن ابن مسعود: كان ذلك الحارث كرمًا قد تدلت عناقيده^(١)، وكذا قال شريح^(٢).

وقال ابن عباس: النفس الرعي^(٣). وقال شريح والزهري (قتادة): النفس لا يكون إلا بالليل^(٤)، زاد قتادة: والهمل بالنهار^(٥). وروى ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: لقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا بني الله قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيضرب منها حتى إذا كان الكرم كما كان، دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾^(٦) وكذا روى العوفي عن ابن عباس^(٧).

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَامًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ روى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية لما استقضى أياه الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى، فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب، فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن لما نص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكمًا ودقيل هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(٨) فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم

(١) الطبري: ١٨/٤٧٤. (٢) الطبري: ١٨/٤٧٥.

(٣) الطبري: ١٨/٤٧٧، ٤٧٨. (٤) الطبري: ١٨/٤٧٧، ٤٧٨.

(٥) الطبري: ١٨/٤٧٧. (٦) الطبري: ١٨/٤٧٥.

(٧) الطبري: ١٨/٤٧٥.

(٨) تهذيب تاريخ دمشق: ٣/١٨٤، وابن أبي حاتم: ٨/٢٤٥٨.

(٩) أحمد: ٢/٣٢٢.

(١٠) البخاري: ٦٧٦٩، ومسلم: ١٧٢٠.

(١١) النسائي في الكبرى: ٥٩٥٨. (١٢) فتح الباري: ٨/٧١١.

(١٣) الطبري: ١٨/٤٨٠.

أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ أي: نعم الله عليكم لما أهدى به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

[سلطنة سليمان لا مثال لها]

وقوله: ﴿وَلَسَيَمُنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا﴾ يعني أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحًا حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿٨٢﴾ وقال تعالى: ﴿عُذُّوْهَا شَهْرٌ وَرُوحُهَا شَهْرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٣﴾. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ دَاوَى رَّبُّهُ إِلَى مَسْجِدِ الْمَرْجُومِ وَأَرْحَمَ الرَّحِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾

[ذكر أيوب]

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْآثِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَثْمَلُ» ^(١). وفي الحديث الآخر: «يُنْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَلْبِ زَيْنِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ» ^(٢). وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر. وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن

ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي بإليس بالذي صنعت حسدني. قال: قلبي بإليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك ^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا عَاقَى اللَّهُ أَيُّوبَ أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ بِهِ بِيَدَيْهِ وَيَجْعَلُهُ فِي نَفْوِهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ أَمَا تَنْشِيعُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَنْشِيعُ مِنْ رَحِمَتِكَ» أصله في الصحيحين وسياق في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم ^(٥). وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً ^(٦)، وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة ^(٧) وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم. قال: لا، بل أتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. قوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي جعلناه في ذلك قدوة لتلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لحوادثهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وإتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَأَسْمِعْ لِرَبِّهِ وَذَا الْكَفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَأَخْلَصَتْ لَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

[ذكر إسماعيل وإدريس وذوي الكفل]

وأما إسماعيل فالمراد به: ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام، وأما

(١) الطبراني: ٢٤٥/٢٤٦، (٢) أحمد: ١/١٨٠.

(٣) حلية الأولياء: ٥/٢٣٩، (٤) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٦١.

(٥) الطبري: ١٨/٥٠٧، (٦) الطبري: ١٨/٥٠٧، (٧) الطبري: ١٨/٥٠٧.

(٨) الطبري: ١٨/٥٠٧.

وغيرهم^(٣)، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِقْدَهُ فَلْيَسِقْ وَمَا أَعْنَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا مَاتَهَا سَجَلًا اللَّهُ بَعْدَ عَشْرٍ مَرَّةً﴾ (٧).

وقوله: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل^(٤)، وكذا روي عن ابن عباس وعمر بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة^(٥). وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر^(٦)، قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في

البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهناك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله، فلما تحركت سجد مكانه ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس^(٨).

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٩) أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء. روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملا عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت، قال سعد: قلت: بلى، حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث

ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك^(١٠)، فالله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١١) فاستجبنا له وبجينا له من الغم وكذلك نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ^(١٢)

[ذكر يونس]

هذه القصة المذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة ق^(١٣)، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم معاصياً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأبعاسهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم نصرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصلانها، وحات البقر وأولادهما، وثغت الغنم وسخلها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَّنتْ فَتَغْمَهَا يَمْنُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُصَلِّتُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾^(١٤).

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلعجت بهم، وخافوا أن يغرقوا فاقتنعوا على رجل يلقيه من بينهم يخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقيه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾^(١٥) أي: وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقي نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فالقتم يونس حين ألقي نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك يكون له سجنًا.

وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني: الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه^(١٦) ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نصيق عليه في بطن الحوت، يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك

(١) الطبري: ١٨/٥٠٧. (٢) الطبري: ١٨/٥١١.

(٣) الطبري: ١٨/٥١٤، ٥١٥. (٤) القرطبي: ١١/٣٣٣.

(٥) الطبري: ١٨/٥١٦، ٥١٧. (٦) الطبري: ١٨/٥١٧.

(٧) ابن أبي شيبة: ١١/٥٤١ و ١٣/٥٧٨.

(٨) الطبري: ١٨/٥١٨.

﴿خُشِيعَتِ﴾ (١٠) أي: متواضعين. وقال الحسن وقتادة والضحاك: ﴿خُشِيعَتِ﴾ (١١) أي: متذللين لله عز وجل (١٢) وكل هذه الأقوال متقاربة.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٣)

[ذكر عيسى ومريم الصديقة]

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم، لأن تلك مربوطتان، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ الَّتِي عَمَرْنَا الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٤) أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، ﴿وَأَنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٥) وهذا كقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٦) ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ﴾ (١٧) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ ﴿وَالَّذِي لَهُ كُتُوبٌ﴾ (١٨)

[الناس أمة واحدة]

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: دينكم دين واحد (١٩) وقال الحسن البصري في هذه الآية

نفس بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ هَذَا، أَبُو إِسْحَاقَ؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فَمَهْ» قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ»: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له (٢٠). ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة (٢١).

وروى ابن أبي حاتم عن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا يَدْعَاءَ يُؤْتَسَّ، اسْتَجِبَ لَهُ» قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢) (٢٣).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢٤) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ﴾ ﴿لَهُ زَوْجُهُمْ إِنَّمَا كَانُوا بُسْرُوعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُشِيعِينَ﴾ (٢٥)

[ذكر زكريا ويحيى]

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً وقد تقدمت القصة مبسطة في أول سورة مريم، وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منها ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: خفية عن قومه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢٦) ﴿دَعَاءَ وَتَاءَ مُنَاسِبٍ لِلْمَسْأَلَةِ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجُهُ﴾ أي: امرأته، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت (٢٧).

وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانُوا بُسْرُوعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغباً فيما عندنا، ورهباً بما عندنا (٢٨) ﴿وَكَانُوا لَنَا خُشِيعِينَ﴾ (٢٩) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله (٣٠)، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً (٣١). وقال أبو العالية: خائفين (٣٢). وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً:

(١) أحمد: ١/١٧٠.

(٢) تحفة الأحوذى: ٩/٤٧٩، والنسائي في الكبرى: ٦/١٦٨.

(٣) الحاكم: ٢/٥٨٤. (٤) الطبري: ١٨/٥٢٠.

(٥) تفسير الثوري: ٢٠٤. (٦) الطبري: ٢/١٦.

(٧) الطبري: ٢/١٦. (٨) الطبري: ٢/١٦.

(٩) الكشاف: ٣/١٣٣، والبغوي: ٣٢٧/٣، وابن أبي شيبه: ١٣/٥٨٠.

(١٠) الطبري: ١٨/٥٢٣.

يُؤْمِرُ بِعَيْنٍ ﴿١١﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (١١) أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحذب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم (٣)، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلَ خَيْرٍ﴾ (١٢) هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وروى ابن جرير عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا يتزود بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج (٤)، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

(فالحديث الأول) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (١١) فَيَقْتَتِلُونَ النَّاسَ، وَيَنْحَارُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَسْرِبُونَ مِائَةَ الْأَرْضِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ، فَيَسْرِبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَابِسًا، حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ ههنا ماءً مَرَّةً، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِضْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَقْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَهْرُ أَحَدُهُمْ حَرْسَتَهُ، ثُمَّ يَرِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُحْضَبَةً دَمًا لِلْبِلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَيَبْنِي هُمْ عَلَى ذَلِكَ، بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُودًا فِي أَغْصَانِهِمْ كَتَفَبِ الْجَرَادِ الَّذِي يُخْرَجُ فِي أَغْصَانِهِ، فَيَضْبِعُونَ مَوْتَى، لَا يَسْمَعُ لَهُمْ جِسٌّ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يُشِيرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ؟ قَالَ: فَيَجْرُدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أُوطِنَهَا عَلَى اللَّهِ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى، يَضْبِعُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مُعْتَصِرِ السَّلِيمِينَ، أَلَا ابْشُرُوا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَفَّكُمْ عَنْكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَسْرِبُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لِحَوْمِهِمْ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الثَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطٌّ (٥). ورواه ابن ماجه (٦).

(الحديث الثاني) روى الإمام أحمد أيضًا عن النواس بن

بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ستكم سنة واحدة، فقلوه: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خير إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضعت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّا رَأَيْكُمْ قَاعًا غَدِيرًا﴾ (١٢) كما قال: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُلَ كُلًّا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَنَّا بِكُمْ فَأَفْقُون﴾ (١٣) وقال رسول الله ﷺ: «تَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَالٍ، وَبَيْنَا وَاحِدٌ» (١٤) يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسوله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَبَيْنَهُمَا جَاءَ﴾.

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ الْبَازِجِيَّاتِ﴾ (١٥) أي: يوم القيامة، فيجازي كل بحسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مصدق، وعمله عملاً صالحًا ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾ كقولوه: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَهْسَنَ عَمَلًا﴾ (١٦) أي: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَلِإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ (١٧) أي: يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَكَرِّمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ﴾ أي: لا يرجعون إلى قريبة أهلكتها أنهم لا يرجعون (١٨) ﴿حَقَّقَ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (١٩) ﴿وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقُّ إِذَا هِيَ مُخْصَصَةٌ لِمَنْ كَفَرُوا﴾ (٢٠) ﴿بَلْ كُنَّا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا نَطْلُبُ لِيَكُنْ﴾ (٢١)

[لا يرجع إلى الدنيا من هلك]

يقول تعالى: ﴿وَكَرِّمٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ﴾ قال ابن عباس: وجب، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وفتادة وغير واحد (٢٢).

[ذكر يأجوج ومأجوج]

وقوله: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضًا من أولاد يافث، أي: أبي الترك، والترك شذمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾ (٢٣) ﴿إِنَّا جَاءَ وَعَدَ رَبِّي جَعْلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدَ رَبِّي حَقًّا﴾ (٢٤) ﴿وَتَرَكَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٥٠.

(٢) البيهقي: ٣/ ٢٦٨، والطبري: ١٨/ ٥٢٥، والرازي: ٢٢/ ١٩١.

(٣) الطبري: ١٨/ ٥٣٢. (٤) الطبري: ١٨/ ٥٢٨.

(٥) أحمد: ٣/ ٧٧. (٦) ابن ماجه: ٢/ ١٣٦٣.

سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسالناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل [فقال: «عَبَّرَ الدَّجَالُ أَخْرَفْنِي عَلَيْكُمْ. فَإِنْ يُخْرِجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَبِيبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يُخْرِجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَبِيبٌ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، وَإِنَّهُ يُخْرِجُ خَلَّةَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَمَاتَ يَمِينًا وَشِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ انْتَبِهُوا» - قلنا: يا رسول الله ما لبث في الأرض؟ - قال: «أَرَيْعُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنَهُ، وَيَوْمَ كَشَّهَرَهُ، يَوْمَ كَجَمَعَهُ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنته، أتكنفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لَا، أَقْدَرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قلنا: يا رسول الله، فما إسراره في الأرض؟ قال: «كَالْغَيْثِ اسْتَبْرَأَتْهُ الرِّيحُ» قال: «فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَذَعُوهُمْ فَيَسْتَحْيِيُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبُتُ، وَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَسَدُهُ خَوَاصِرُ، وَأَنْسَبُهُ ضُرُوعًا، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَذَعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَنْبُتُهُ أَمْوَالُهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُنْجَلِينَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ، وَيَمُرُّ بِالْحَرِيقَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرَجِي كُنُوزِي، فَتَنْبُتُهُ كُنُوزُهَا كَيْتَاسِيِبِ النَّخْلِ» - قال: - وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيَقْتُلُ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةِ الْفَرَسِ، ثُمَّ يَذْعُوهُ فَيَقْبَلُ إِلَيْهِ، يَنْهَلُّ وَجْهَهُ، فَيَسْبَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْفِي دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنِ، فَيَتْبَعُهُ فَيُدْرِكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابِ لُدِّ الشَّرْقِيِّ - قَالَ: - فَيَبْنِي هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لَا يَدَانِ لَكَ بِقَتْلِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، فَيَنْبُتُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَسْلُوتُ﴾ (١٧) فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَفْقًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيَصْبِحُونَ فَرَسِي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَيَهْطُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَلَا يَجِدُونَ بَيْنًا إِلَّا قَدَمَاءَ رَهْمَتِهِمْ وَتَسْتُهُمْ، فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُحَيْثِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَقْطُرُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَحَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ السَّكْسَكِيُّ عَنْ كَعْبٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ: فَتَقْطُرُهُمْ بِالْمُهْلِ، قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَقُلْتُ يَا أَبَا يَزِيدَ وَأَيْنَ الْمُهْلُ؟ قَالَ: مَطْلَعُ الشَّمْسِ. قَالَ: «وَيُرْسَلُ اللَّهُ مَطَرًا، لَا يَكُنُّ مِنْهُ

بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَتَرٍ، أُرْتَعَيْنَ يَوْمًا، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَبْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ، وَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْتَبِي ثَمَرَكِ وَرُدِّي بِرَكَتِكَ، قَالَ: فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفَرُ مِنَ الرَّمَانَةِ فَيَسْتَظِلُّونَ بِقَفْصِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْقَتَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْفَخْذَ، وَالشَّاةُ مِنَ الْغَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ الْبَيْتِ، قَالَ: فَيَسْبَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهِمَ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ: كُلِّ مُؤْمِنٍ - وَيَقْبِضُ شِرَارَ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ تَهَارِجَ الْحُمْرِ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ (١)، انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ (٢) دُونَ الْبَخَارِيِّ وَرَوَاهُ مَعَ بَقِيَةِ أَهْلِ السَّنَنِ مِنْ طَرُقٍ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٣).

(الحديث الثالث) روى الإمام أحمد عن ابن حرملة، عن خاله قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: «إِنكُمْ تَقُولُونَ: لَا عَدُوَّ لَكُمْ، وَإِنكُمْ لَا تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّى يَأْتِيَ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ عِرَاضُ الْوُجُوهِ، صِنَارُ الْعَيْنِ، صُهْبُ الشَّعَافِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَسْلُوتُونَ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ لِلطَّرْفَةِ» (٤). وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي، عن خاله، عن النبي ﷺ، فذكره مثله سواء (٥).

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «لِيُحْجَنَ هَذَا الْبَيْتَ، وَلِيُغْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ أَجُوجَ وَمَاجُوجَ» انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبَخَارِيُّ (٦) وقوله: «وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقُّ» يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلايا، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ شَرْعِصَةٌ أَبْصَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام «يَتَوَلَّوْنَ» أي: يقولون يا ولينا «وَدَكُنَّا فِي عَقْلَةٍ مِنْ هَذَا» أي: في الدنيا «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» (٧) يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ

(١) أحمد: ٤/١٨١. (٢) مسلم: ٤/٢٢٥٠.

(٣) أبو داود: ٤/٤٩٦، وتحفة الأحوذى: ٦/٤٩٩، والنسائي في الكبرى: ٦/٢٣٥، وابن ماجه: ٢/١٣٥٦.

(٤) أحمد: ٥/٢٧١. (٥) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٦٧.

(٦) أحمد: ٣/٢٧، والبخاري: ١٥٩٣.

يقال: نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزيز والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعمش عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٨) ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل، وكذا قال

عكرمة والحسن وابن جريج. وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة. وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٨) إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٩) ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبيري السهمي حتى جلس معهم، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبيري: والهل ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفأ ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعيد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبيري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعيد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ» وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: عيسى وعزيز ومن عبدوا من الأجبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة، أرباباً من دون الله ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْسَ بِنَجْوَىٰ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه

لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ هُوَلَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ ﴿٢١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَسُوا نَفْسَهُمُ اللَّاتِيكَةَ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[المشركون وأهلهم وقود جهنم]

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي: وقودها (١) يعني كقولها: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وفي رواية عن ابن عباس قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني حطب جهنم، بالزنجية. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها، وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها (٢)، وكذا قال غيره (٣)، وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٤) أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَتْ هُوَلَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذوها من دون الله آلهة صحيحة، لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥) أي: العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٦) والزرير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٧).

[ذكر حال السعداء]

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ (٨) لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبق لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٩) فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله ما بهم وثوابهم، ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ (١٠) لا يسمعون حسيساً أي: حريقها في الأجساد.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (١١) فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

(١) القرطبي: ١١ / ٣٤٣. (٢) الطبري: ١٨ / ٥٣٦.

(٣) الطبري: ١٨ / ٥٣٦. (٤) الطبري: ١٨ / ٥٤١.

يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حجة وخصومته: ﴿وَلَمَّا شَرِبَ مِنْ مَرْصَمٍ مَثَلًا إِذَا قَوْمًا يَمْنَهُ يَصْدُرُونَ﴾ (٧) وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرًا هُوَ مَا صُرُّوا لَهُ لِإِجْدَالٍ بِلْ هَرَقُمْ خَصْمُونَ (٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمَّا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلَكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (١٠) وَإِنَّهُ لَیْلَمُ السَّاعَةَ فَلَا تَمُوتُ بِهَا: أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلًا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١١) وهذا الذي قاله ابن الزبيري، خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطابًا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جاد لا تعقل، ليكون ذلك تقريبًا وتوبيخًا لعبادها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يُورد على هذا، المسيح وعزير ونحوهما من له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده.

وقوله: ﴿لَا يَخْرُجُ مِنْهُمُ الْفَرْخُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء وقيل: المراد: بالفَرْخُ الأكبر النفخة في الصور، قاله العوفي عن ابن عباس (١٢) وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره، وقوله: ﴿وَنَلَقْنَهُمْ أَلْمَلَكُ كَهَذَا يَوْمَكُمْ أَلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣) يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هَذَا يَوْمَكُمْ أَلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٤) أي: فأملوا ما يسركم. ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٥)

[تطوي السماء يوم القيامة]

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَبِيضِينَ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦) وقد روى البخاري عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ جَمِيعًا وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِمِثْلِهِ أَنْفَرْدَ بِهِ الْبَخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٧)﴾. وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ المراد بالسجل الكتاب، وقال السدي في هذه الآية: السجل ملك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعاه إلى يوم القيامة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي

الصحيفة (١٨)، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه (١٩)، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد (٢٠)، واختاره ابن جرير، لأن المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على هذا الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّ وَنَزَلَ لِلْجِبْرِينَ﴾ (٢١) أي: على الجبين وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢٢) يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلق خلقًا جديدًا كما بدأهم، هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعده الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢٣) وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» (٢٤) وذكر غم الحديث، أخرجه في الصحيحين، ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه (٢٥).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢٦) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَدًا لَقَوْمٍ عَكِيدِينَ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (٢٨) [الأرض يرثها الصالحون]

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٩) وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٣٠) وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال الأعمش: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال: الزبور: التوراة

(١) ابن هشام: ١/ ٣٨٤. (٢) الطبري: ١٨/ ٥٤٢.

(٣) فتح الباري: ١٣/ ٤٠٤. (٤) الطبري: ١٨/ ٥٤٣.

(٥) الطبري: ١٨/ ٥٤٣. (٦) الطبري: ١٨/ ٥٤٣.

(٧) أحمد: ١/ ٢٣٥.

(٨) فتح الباري: ٨/ ٢٩٢، ومسلم: ٤/ ٢١٩٤.

الْقِيَامَةِ^(٧) ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة^(٨).
فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه
أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٧) قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتب
له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله،
عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف^(٩).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾^(١٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُ
أَقْرَبَ أَم بَعِيدَ مَا تُوعَدُونَ^(١٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ^(٢٠) وَإِنْ أَذْرَيْتُ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ^(٢١) وَمَنْعَ لِّي
بِإِنِّي قُلْتُ رَبِّي أَحْكَمُ بِالْحَقِّ وَرَبِّي الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ^(٢٢)

[خلاصة الوحي أن اعبدوا الله]

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول
للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٨) أي متبعون على ذلك، مستسلمون
متقادون له ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ
ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني حرب لكم، كما أنكم
حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ
كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ
مِمَّا تَصْمَلُونَ﴾^(٢١) وقال: ﴿وَلِيَا تَحْفَافٍ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَالْيَدِ
الْيَمِينُ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: ليكن علمك وعلمهم بنبد العهود على
السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾
أي: أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني، لعلمي بذلك.

[لا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله]

وقوله: ﴿وَإِنْ أَذْرَيْتُ أَقْرَبَ أَم بَعِيدَ مَا تُوعَدُونَ﴾^(١٩) هو
واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا بعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢٠) أي: إن الله يعلم
الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر
والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في
أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل.

والإنجيل والقرآن^(١) وقال مجاهد: الزبور: الكتاب^(٢)، وقال
ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي
أنزل على داود، والذكر التوراة. وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد
الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله^(٣). وكذا قال زيد بن أسلم:
هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال
مجاهد عن ابن عباس: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ بَرْنَهَا عِبَادِي الضَّحِيحُوتُ﴾
^(٤) قال: أرض الجنة^(٥). وكذا قال
أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي
وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري^(٦) رحمهم الله تعالى
وقوله: ﴿إِنْ فِي هَٰذَا بَلَدًا لَّغَوِيٌّ عَكِيدٌ﴾^(٧) أي: إن في
هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لمنفعة
وكفاية ﴿لَقَوْمٍ عَكِيدٌ﴾^(٨) وهم الذين عبدوا الله بما شرعه
راحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات
الفسهم.

[محمد ﷺ رحمة للعالمين]

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٧) يخبر تعالى
أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي: أرسله رحمة لهم
كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا
والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة كما
قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ
دَارَ النَّارِ﴾^(٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْقَرَارَ^(٢٩) وقال
تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَىٰ عَنَىٰ أُولَٰئِكَ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣٠) وقال مسلم في صحيحه:
حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن
كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول
الله ادع على المشركين. قال: ﴿إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعْنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ
رَحْمَةً﴾ انفرد بإخراجه مسلم^(٦).

وردى الإمام أحمد عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان
حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء
حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله ﷺ
لكان يغضب فيقول: ويرضى فيقول: لقد علمت رسول الله
ﷺ أني أخطب فقال: ﴿أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَيْتُهُ [سَبَةً] فِي
عَشِيٍّ، أَوْ لَعْنَتُهُ لَعْنَةً، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا
تُغْضِبُونَ، إِنَّمَا بُعِثْتُ بِاللَّهِ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ

(١) الطبري: ١٨/٥٤٧. (٢) الطبري: ١٨/٥٤٧.

(٣) الطبري: ١٨/٥٤٧. (٤) الطبري: ١٨/٥٤٩.

(٥) الطبري: ١٨/٥٤٩، ٥٥٠.

(٦) مسلم: ٤/٢٠٠٦. (٧) أحمد: ٥/٤٣٧.

(٨) أبو داود: ٥/٤٥٠. (٩) الطبري: ١٨/٥٥٢.

وقوله: ﴿وَلِنْ أَدْرِي لَعَلَّهٗ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١٣) أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى (١)، وحكاه عون عن ابن عباس قاله أعلم ﴿فَلْيَرْجُوا يَوْمَ الْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كان الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (١٤) وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك (٢)، وعن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تُصِفُونَ﴾ (١٥) أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتوعدون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك. آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الحج [وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ أَنْقَرُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنها تَهْدُلُ كَلَّ مُرْصَعَةٍ عَمَّا أَضْعَتْ وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾

[أحوال الساعة]

يقول تعالى أمرا عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أحوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْئَالَهَا (٢)﴾ وقال تعالى: ﴿وُحِّلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّدَاكَ وَجَدَةٌ (٣) فَيَوْمَ تَوَفَّتْ السَّاعَةُ (٤)﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٥) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٦)﴾ الآية، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ قال: قبل الساعة (٣)، وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث.

روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد [تفاوت بين] أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته. ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ أَنْقَرُوا رَبَّكُمْ إِنَّ

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنها تَهْدُلُ كَلَّ مُرْصَعَةٍ عَمَّا أَضْعَتْ وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله: فلما دنوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك، ذاك يوم يُنْأَىٰ آدم عليه السلام، فيناديه ربُّه عز وجل فيقول: يا آدم ابْعَثْ بَعْثَكَ إِلَى النَّارِ، فيقول: يا رب وما بعث النَّار؟ فيقول: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْمِئَةٌ وتسعة وتسعون في النَّارِ، وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واغتملوا فوالذي نفس محمد بيده! إنكم لمع خَلِيقَتَيْنِ، ما كنا مع شيء قط إلا كثرتاه: بأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسري عنهم، ثم قال: «اغتملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في النَّاسِ إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقعة في ذراع الدابة» (٤) وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سنيهما وقال الترمذي: حسن صحيح (٥).

(طريق أخرى) لهذا الحديث: روى الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ أَنْقَرُوا رَبَّكُمْ﴾ - إلى قوله - «وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله لأدم: ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، قال: يا رب وما بعث النَّار؟ قال: تِسْمِئَةٌ وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» فأنسا المسلمون ييكون فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا فإني لا تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقعة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبروا ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا (٦). وكذا رواه الإمام أحمد (٧). ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح.

(١) الطبري: ١٨/٥٥٤. (٢) القرطبي: ١١/٣٥١.

(٣) الطبري: ١٨/٥٥٧. (٤) أحمد: ٤/٤٣٥.

(٥) تحفة الأحوذى: ٩/١٢، والنسائي في الكبرى: ٦/٤١٠.

(٦) تحفة الأحوذى: ٩/٩. (٧) أحمد: ٤/٤٣٢.

وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ كَيْبَ عَلَيْهِ ﴿قَالَ مُجَاهِدٌ: يعني الشيطان﴾، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن نَّوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: يضلّه في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المولم الملقق المزعج، وقد قال السدي عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث^(٥)، وكذلك قال ابن جريج^(٦).

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيِّنَاتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نَّارٍ ثُمَّ مِن طُفْءٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغٍ مُّخْلَقٍ وَظَهَرَ خُلُقُهُ لِنَبِيِّنَا لَكُمْ وَنُفِثَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوبُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْذُرْ إِلَىٰ أَرْضِ الْغُرِّ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ اللَّهُ هُوَ لَقِيٌّ وَنَبِيٌّ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ مَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

[دلالت البعث من خلق الإنسان والنبات]

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نَّارٍ ثُمَّ مِن طُفْءٍ﴾ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن طُفْءٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

[تطور النطفة والجنين في الرحم]

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت

(١) فتح الباري: ٨/٢٩٥. (٢) فتح الباري: ٦/٤٤٠.

(٣) مسلم: ١/٢٠١، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٠٩.

(٤) المحرر الوجيز: ٤/١٠٧. (٥) الدر المنثور: ٦/٨.

(٦) الطبري: ١٨/٥٦٦.

وروى البخاري: عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَقُولْ: لَيْسَكَ رَبًّا وَسَعْدِيكَ، فَيُأَدَىٰ بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْ دُرُثِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارُ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ -أَرَاهُ قَالَ- تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فَحَيْثُ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «مَنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، أُنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبّرنا ثم قال: «ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبّرنا ثم قال: «سَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبّرنا^(١)، وقد رواه البخاري أيضًا في غير هذا الموضع^(٢)، ومسلم والنسائي في تفسيره^(٣).

والأحاديث في أحوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدًا لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مפתح، وحادث هائل، وكائن عجيب، والزلازل هو ما يحصل للنفس من الرعب والفرع، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كَيْفَ أَنْبَأُ الْقُرْآنُكَ وَأَنْزَلْنَاهُ زِلْزَلًا لَّا تُسْمِعُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسرنا له: ﴿بَذَلْ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: فتشتغل لهول ما نرى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، لندهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل مرضع، وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ وتُرى (سُكَرَى) أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن نَّوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ.

ويَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

[ذم متبعي الشيطان]

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله

تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهمشة. وقال السدي: ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ﴾ ٥ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ﴾ ٥ أي: حسن المنظر، طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَّقَى﴾ أي: الخالق المدبر، الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَى﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُ الْمَوْتُ أَهْلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٦ ﴿لَئِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٧ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ كَائِدَةٌ لَا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مزية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ٨ أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم ربما ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَّ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ٩ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ١٠ والآيات في هذا كثيرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّشِيرٍ﴾ ١١ ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ يضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي وتذيقه يوم القيمة عذاب الحرىق ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَهُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَنَاصِرٌ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٢

[بيان حال رؤساء المبتدعين والضالين]

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ﴾ ١٣ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّشِيرٍ﴾ ١٤ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبر عن الحق إذا دعي إليه،

النفطة في رحم المرأة، مكثت أربعين يومًا كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغة: قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُّخْلَقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها ﴿وَلَنَسِئَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا نَشَاءُ لَكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُّخْلَقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة، أرسل الله تعالى ملكًا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: ﴿إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِّثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِّثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَمِّرُ بَارِعَ كَلِمَاتٍ: بِكُتُبِ رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ وَأَجَلِهِ، وَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ﴾ ١٥.

[تطور الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة]

وقوله: ﴿ثُمَّ نَحْنُ شَكَمٌ ظِفْلًا﴾ أي: ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئًا فشيئًا، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوي ويتزايد، ويصل إلى عتوان الشباب وحسن المظهر ﴿وَمِنْكُمْ مَن يَبْزُقُ﴾ أي: في حال شبابه وقواه ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهزم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ١٦.

[مثال آخر للبعث من النبات]

وقوله: ﴿وَنُفِثَ الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته

(١) فتح الباري: ٦/٤١٨، ومسلم ٤/٢٠٣٦.

(٢) الطبري: ١٨/٥٧٣.

وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿كَانَ عَطْفُهُ﴾ أي: لاوي عنقه وهي رقبته، يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويشي رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَقِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا ۖ وَالْآيَةُ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ١١﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازُوسُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥﴾ وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَصْغُرْ خِلَالِ النَّاسِ﴾ أي: تمبله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ آيَنُنَا وَلَكِنْ مُسْتَكْبِرًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إما أن يكون المراد بها المعاندين أو يكون المارد بها أن هذا الفاعل لهذا، إنما جبلناه على هذا الخلق الذي جعله ممن يضل عن سبيل الله، ثم قال تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاء الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة: لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿وَيَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ ۖ أَي: يقال له هذا تقرعاً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمَ لِلْعَبِيدِ ١٠﴾ كقوله تعالى: ﴿عُدُّوهُ فَاغْتَبَوْهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَجِيرِ ٥٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَجِيرِ ٥٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٥٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٦٠﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَلَوْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ صَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ١٣﴾

[معنى العبادة على حرف]

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شك^(١)، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فلما وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر. وروى البخاري، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء^(٢).

وقال العوفي عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة

[وهي أرض ويئة] فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسناً وولدت امرأته غلاماً رضي به، وأطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ١٠﴾ والفتنة البلاء، أي: وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أناه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة^(٣)، وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية^(٤). وقال مجاهد في قوله: ﴿أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد كافراً^(٥).

وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخساسة وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستترزقها، وهي لا تنفعه ولا تنصره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٢﴾ وقوله: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ صَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة، أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ١٣﴾ قال مجاهد: يعني الوثن^(٦)، يعني بس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصرًا ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ١٣﴾ وهو المخالط والمعاشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

[جزاء الصالحين]

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أفضل أولئك، وهدى هؤلاء قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ١٥﴾

(١) الطبري: ٥٧٦/١٨. (٢) فتح الباري: ٢٩٦/٨.

(٣) الطبري: ٥٧٥/١٨. (٤) الطبري: ٥٧٦/١٨.

(٥) الطبري: ٥٧٦/١٨. (٦) الطبري: ٥٧٩/١٨.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿٦﴾

[لينصرن الله رسوله مهما كان]

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَسُدُّ سَبِيلَ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء بيته ﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به ^(١)، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقادة وغيرهم ^(٢)، فالمعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ^(٣) ﴿الآية، ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ ^(٤) قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ ^(٥). وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ^(٦) أي: يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿لَا يَتَّبِعُ عَمَّا يَقَعْلُ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ ^(٧) أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ^(٨) ﴿لَا يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ^(٩)

[إن الله يقضي بين الفرق يوم القيامة]

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين، وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره، فإنه تعالى: ﴿يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حيظ لأقوالهم، عليهم بسائرهم وما تكن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ^(١٠)

[كل شيء يسجد لله]

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء عما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْشَّمَائِلِ سُجُودًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ^(١)، وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السماوات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور ﴿وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ أي: ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عُبِدت من دون الله، فيبين أنها تسجد لخالقها وأنها مريوبة مسخرة، ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ ^(٢) الآية، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت» ^(٣).

وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتها وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة، رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ^(٤).

وقوله: ﴿وَالدُّوَابُّ﴾ أي: الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، «قَرَّبَ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ رَاكِبِهَا» ^(٥). وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طوعاً وختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي:

(١) الطبري: ١٨/٥٨١. (٢) الطبري: ١٨/٥٨٠ - ٥٨٣.

(٣) الرازي: ١٣/١٥.

(٤) فتح الباري: ٦/٣٤٢، ومسلم: ١/١٣٨.

(٥) تحفة الأحوزي: ٣/١٨١، وابن ماجه: ٤/٣٣٤، وابن حبان:

١٩١/٤.

(٦) أحمد: ٣/٤٤١.

المؤمنين يريدون نصره دين الله عز وجل، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن.

[جزاء الكفار]

ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نَارٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من النار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ^(٨) ﴿يُصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ^(٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ^(١٠) أي: إذا صب على رؤوس الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وروى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيُصَّبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجَنْجَمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ» ^(٩) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح ^(١٠) وهكذا رواه ابن أبي حاتم. ثم روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ ^(١١)

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَكَمْ مَقْنَعٍ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ^(١٢) قال: يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالشبور ^(١٣) وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سليمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ^(١٤) كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ^(١٥)

ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

مِنْ أَمْتَعٍ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ^(١٦)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُرِئَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَثْلَهُ أَمْرُ ابْنِ آدَمَ بِالسَّجْدَةِ فَسَجَدَ؛ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمْرَتْهُ بِالسَّجْدَةِ فَأَبَيْتُ؛ فَلِيَ النَّارُ» رواه مسلم ^(١). وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدة؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بها فلا يقرأها» رواه أبو داود والترمذي ^(٢). وقد روى أبو داود في المراسيل عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ» ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه ولا يصح ^(٣). وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن أبي الجهم أن عمر سجد سجدة في الحج وهو بالخباية، وقال: إن هذه فضلت بسجدة ^(٤). وروى أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان، فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً ^(٥).

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نَارٌ مِنْ نَارٍ يُصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ^(١١) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ^(١٠) وَلَهُمْ مَقْنَعٌ مِنْ حَدِيدٍ ^(١٢) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ^(١٤)

[سبب النزول]

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر، أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر. لفظ البخاري عند تفسيرها ^(١٦)، ثم روى البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجئ بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري ^(٧).

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن

- (١) مسلم: ٨٧/١. (٢) الترمذي: ٥٧٨.
(٣) أبو داود في المراسيل: ٧٨. (٤) البيهقي: ٣١٧/٢.
(٥) أبو داود: ١٤٠١، وابن ماجه: ١٠٧٥.
(٦) فتح الباري: ٢٩٧/٨، ومسلم: ٢٣٢٣/٤.
(٧) فتح الباري: ٢٩٧/٨. (٨) الطبري: ٥٩٠/١٨.
(٩) الطبري: ٥٩١/١٨. (١٠) تحفة الأحوذى: ٣٠١/٧.
(١١) الدر المنثور: ٢١/٦. (١٢) الطبري: ٥٩٣/١٨.

أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُعَذِّبْهُ نُزُقَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢)

[جزء المؤمنين]

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنكال والحرق والأغلال وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه [أن يدخلنا الجنة] فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تتخرقق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا﴾ من الخلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تَبْلُغُ الْخَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ» (١).

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢) في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَحُلُوتٌ أَسَاوِرٌ مِنْ يَاقُوتٍ وَنَاقُورٌ رُتَبُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٣) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ وَكَانَ سَعِيرٌ مُتَكَوِّنًا (٤) وفي الصحيح: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدَّبِيجَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مِنْ لِبَاسَةِ فِي الدُّنْيَا لَمْ تَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ» (٥).

قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الصِّرَاطِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ بَيْنَهُمْ جَنَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٦) وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٧) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٨) وقوله: ﴿لَا تَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٩) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (١٠) فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وقوله ﴿وَيُفْقَرُونَ فِيهَا مَحْجَةً وَسَلَامًا﴾ (١١) لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٢). وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣) أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ» (١٤) وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الصِّرَاطِ مِنَ الْقَوْلِ﴾

[الوعيد لمن صد عن سبيل الله والمسجد الحرام] يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ﴾ (١) إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ (٢) الآية، وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٣) أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

[مسألة إيجار بيوت مكة]

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنافي عنه البعيد الدار منه ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكنائها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام (٤). وقال مجاهد في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: سواء فيه أهله وغير

(١) مسلم: ٢١٩/١. (٢) مسلم: ١٦٤٢/٣ و١٦٣٨.

(٣) النسائي في الكبرى: ٤٦٥/٥.

(٤) مسلم: ٢١٨٠، ٢١٨١. (٥) الطبري: ١٨/٥٩٦.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿يُظْلِمُ﴾ بشرك^(٦)، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿يُظْلِمُ﴾ هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم^(٧)، وقال مجاهد: ﴿يُظْلِمُ﴾؛ يعمل فيه عملاً سيئاً، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره، عن عبد الله يعني ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَنْ يُزِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظْلِمُ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بالحد بظلم وهو بعدن أبين، لأذقه الله من العذاب الأليم^(٨)، ورواه أحمد^(٩)، قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، والله أعلم. وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه.

وقال حبيب بن أبي ثابت: ﴿وَمَنْ يُزِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظْلِمُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فاقتروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يُزِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظْلِمُ﴾ يعني من لجأ إلى الحرم إلحاد، يعني بميل عن الإسلام، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن يَّسْجَلٍ ۖ ۝١ تَجْعَلُهُمْ كَصَفِّ مَأْكُولٍ ۝٢﴾ أي: دمرهم وجعلهم عبدة ونكالا لكل من أراد به سوء، ولذلك ثبت في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْتَاءَ مِنَ الْأَرْضِ تُحِيفُ بِأَوْفِهِمْ وَأَخْرَجَهُمُ الْحَدِيثُ^(١٠)﴾.

﴿وَلَا يَوَاسُوا لِإِذْرِهِنَّ مَكَاتُ الْآيَةِ أَنْ لَا تَشْرَفَ بِهِ شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْعَاقِبِينَ وَالْقَاصِمِينَ وَالرُّكَّعَ السَّجُودَ^(١١)﴾

أهلها، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباح مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله، أنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: ﴿وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِّن رِّبَاعٍ؟﴾ ثم قال: ﴿لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ﴾ وهذا الحديث خرج في الصحيحين^(١٢)، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً، بأربعة آلاف درهم، وبما قال طاوس وعمر بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعي رباح مكة إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن^(١٣).

وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتهما، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً، فأردت أن اتخذ بابين يحبساني ظهري، قال: فلك ذلك إذا. وروى عبد الرزاق عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة لا تتخذوا للدوركم أبواباً؛ لينزل البادي حيث يشاء^(١٤). قال: وأخبرنا معمر عن سمع عطاء يقول في قوله: ﴿سَوَاءٌ الْعَرَضُ فِيهِ وَالْبَاقُ﴾ قال: يتزلون حيث شاؤوا، وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: من أكل كراء بيوت مكة، أكل نازلاً^(١٥)، وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه] فقال: تملك وتورث، ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

[الوعيد لمن أراد الإلحاد في الحرم]

وقوله: ﴿وَمَنْ يُزِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظْلِمُ تَذَكُّرٌ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَاكَ مِنَ الْيَمِينِ﴾ أي: تبت الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ يُزِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ﴾ تقديره إلحاداً أي: يعم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿يُظْلِمُ﴾ أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمأول، كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد^(١٥).

(١) البخاري: ٦٧٦٤، ومسلم: ١٦١٤.

(٢) ابن ماجه: ٣١٠٧. (٣) الدر المنثور: ٤/٦٣٣.

(٤) الدارقطني: ٢/٣٠٠. (٥) الطبري: ١٨/٦٠١.

(٦) الطبري: ١٨/٦٠٠. (٧) الطبري: ١٨/٦٠٠.

(٨) الطبري: ١٨/٦٠١. (٩) أحمد: ١/٤٢٨.

(١٠) فتح الباري: ٤/٣٩٧.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٧٧﴾

[بناء الكعبة والتأذين بالحج]

هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قریش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بَيْتُ الْمُقَدَّسِ». قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(١). وقد قال الله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِكَاءِ مَبَارَكًا الْإِيْتَيْنِ، وَقَالَ تَعَالَى: «وَعَهْدَ نَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَاسْمِعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» وقال تعالى ههنا: «أَنْ لَتَشْرِقَنِي فِي شَيْعًا» أي: ابنه على اسمي وحدي «وَلَطَمَتِ يَدَيَّ» قال قتادة ومجاهد: من الشرك^(٢). «لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» أي: اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت؛ فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها «وَالْقَائِمِينَ» أي: في الصلاة، ولهذا قال: «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنها لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» أي: ناد في الناس بالحج، داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يتفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لييك اللهم لييك. وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير^(٣) وغير واحد من السلف. والله أعلم. أوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة. وقوله: «يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ» الآية، قد

يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيًا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبًا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم، وقوة همهم وشدة عزمهم، وقال وكيع عن أبي العميس، عن أبي حنيفة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما أساء علي شيء إلا أنا وددت أني كنت حججت ماشيًا، لأن الله يقول: «يَأْتُوكَ رِجَالًا»^(٤).

والذي عليه الأكثر أن الحج راكبًا أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكبًا مع كمال قوته عليه السلام، وقوله: «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ» يعني طريق، كما قال: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا» وقوله: «عَمِيقٍ» أي بعيد، قاله مجاهد وعطاء والسدي وقاتدة ومقاتل بن حيان والشوري وغير واحد^(٥)، وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبراهيم حيث قال في دعائه: «فاجعل أفعدة من الناس تهوي إليهم» فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالتاس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٧٩﴾

[في الحج منافع الدارين]

قال ابن عباس: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن، والذبائح والتجارات^(٦) وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة^(٧) كقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ» قال شعبة وهشيم عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر^(٨). وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم

(١) فتح الباري: ٦/٤٦٩، ومسلم: ١/٣٧٠.

(٢) الطبري: ١٨/٦٠٤.

(٣) الطبري: ١٨/٦٠٥، ١٨/٦٠٦، ١٨/٦٠٧.

(٤) الدر المنثور: ٦/٣٥. (٥) الطبري: ١٨/٦٠٨.

(٦) الطبري: ١٨/٦٠٩. (٧) الطبري: ١٨/٦٠٩.

(٨) فتح الباري: ٢/٥٣١، والطبري: ٤/٢٠٨.

وقوله: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (١١) قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر (١٥)، وروى ابن أبي حاتم عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أنقرأ سورة الحج يقول الله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (١٢) فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت (١٦). وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض (١٧).

وقوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (١٨) من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قریش قد أخرجه من البيت حين قصرت بهم النفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنها لم يتما على قواعد إبراهيم العتيقة. وقال قتادة عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (١٩) قال: لأنه أول بيت وضع للناس (١٨). وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (١٩).

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه اعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خُصيف: إنما سمي بالبيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَمَ إِلَّا مَا يَتَلْنَّ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٢٠) حَقَّقَهُ اللَّهُ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

ب (١). وروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وقاتدة، وعطاء، وسعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي (٢).

وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ يُخْرُجُ يَخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجَعْ بِشَيْءٍ» (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَغْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثَرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ» (٤). وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبران الناس بتكبيرهما (٥).

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت [في] صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن سبام يوم عرفة، فقال: «أَخْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ لِمَا ضَعُفَ وَالْآيَةَ» (٦). ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث: أنه أفضل الأيام عند الله.

وقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني الإبل والبقرة والغنم كتبنا فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿فَمِنْهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ﴾، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَاسَ الْفَقِيرَ﴾ (٧) كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة بضعة فتنطخ، فأكل من لحمها وحسا من مرقها (٧).

قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: هي كقولته: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الضَّلَاةُ فَاذْهَبُوا إِلَى الْأَرْضِ﴾ (٨).

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿الْبَاسَ الْفَقِيرَ﴾ (٩) قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف (٩). وقال مجاهد: هو الذي لا يسيطر يده (١٠). وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقْسُضُنَّ عَصَمَتَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظفار، ونحو ذلك (١١). وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه (١٢)، وكذا قال عكرمة وعمر بن كعب القرظي (١٣).

وقوله: ﴿وَلَيَسْئُرُنَّ أَنْزَرَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني نحر ما نذر من أمر البدن (١٤).

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٣١.

(٢) الطبري: ١٨/ ٦١٠، والرازي: ٢٣/ ٢٦.

(٣) فتح الباري: ٢/ ٥٣٠. (٤) أحمد: ٢/ ٧٥.

(٥) البخاري: العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق.

(٦) مسلم: ٢/ ٨١٩. (٧) أحمد: ١/ ٣١٤.

(٨) الطبري: ١٨/ ٦١١. (٩) الطبري: ١٨/ ٦١٢.

(١٠) الطبري: ١٨/ ٦١٢. (١١) الطبري: ١٨/ ٦١٣.

(١٢) الطبري: ١٨/ ٦١٠. (١٣) الطبري: ١٨/ ٦١٠.

(١٤) الطبري: ١٨/ ٦١٤. (١٥) الدر المنثور: ٤/ ٦٤٣.

(١٦) ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٤٩٠.

(١٧) فتح الباري: ٣/ ٦٨٤، ومسلم: ٢/ ٩٦٣.

(١٨) القرطبي: ١٢/ ٥٢. (١٩) الطبري: ١٨/ ٦١٥.

فَتَحَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾

[الأجر على اجتناب المعاصي]

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه، ومحارمه ويكون ارتكابها عظمًا في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير، وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.

[حالة الأنعام]

وقوله: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَيَّنَّا عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحلنا لكم جميع الأنعام ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْعَةٍ وَلَا سَيِّئَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا بَيَّنَّا عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أَهْلَ لَنْتَرِ اللَّهُ بِهِ﴾ وَالْمُنْحَقَّةُ ﴿الآية﴾ قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة (١).

[الأمر باجتناب الشرك والكذب]

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٢) من ههنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور. كقوليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا كُفْرًا﴾ (٣٣) ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكره أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَحَبِّ الْكِبَائِرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكان متكئًا فجلس فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت (٤).

وروى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائمًا فقال: «عَدَلْتُ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ» ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٢) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ (٣٤).

وقوله: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين منصرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ثم ضرب للمشارك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط

منها ﴿فَتَحَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء ﴿تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ (٣١) أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحًا من هناك. ثم قرأ هذه الآية (٣٢) وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم. وقد ضرب الله تعالى للمشركون مثلاً آخر في سورة الأنعام. وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُفِردُ عَلَىٰ أَغْغَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُوْثَانًا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَدًى﴾ الآية.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ﴾ (٣٤)

[بيان الأضاحي وتفسير شعائر الله]

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ﴾ أي: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٣) ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس: تعظيمها استسائها واستحسانها (٥). وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون، رواه البخاري (٦) وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سميين أقرنين أملحين موجوعين (٧) وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوعين» (٨). وعن علي بن أبي طالب قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحى بمقابلة ولا مدبرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء. رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي (٩).

وأما المقابلة: فهي التي قطع مُقَدِّمُ أذنها، والمدبرة: من

(١) الطبري: ١٨/٦١٨.

(٢) فتح الباري: ١٠/٤١٩، ومسلم: ١/٩١.

(٣) أحمد: ٤/٣٢١ (٤) أحمد: ٤/٢٨٧.

(٥) الطبري: ١٨/٦٢١ (٦) فتح الباري: ١٠/١١.

(٧) أحمد: ٦/٨، وتفرد به كذا قال المؤلف في جامع المسانيد والسنن: ١٤/٢١.

(٨) أبو داود: ٣/٢٣١ وابن ماجه: ٢/١٤٣.

(٩) أحمد: ١/١٠٨، وأبو داود: ٣/٢٣٧ وتحفة الأحوذ: ٥/٨٢، والنسائي: ٧/٢١٧، وابن ماجه: ٢/١٠٥٠.

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ ولهذا قال: ﴿قُلْهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وَيَشِيرَ الْمُحْشِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قال مجاهد: المطمئين ^(٧). وقال الثوري: ﴿وَيَشِيرَ الْمُحْشِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قال: المطمئين الراضين بقضاء الله المستسلمين له ^(٨). وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبهم ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: المصابب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمَنَافِعَهُمْ يُفْقُونَ﴾ ^(٩) أي: ويفقهون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم وقرائهم ومحاببيهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره في سورة براءة.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَبْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُ جُنُوبَهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَافٍ وَالْمَعْرُوفَ ذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾

[الأمر بنحر البدن]

يقول تعالى متمتا على عباده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدي إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْتِينَ آلِيَتِ الْحَرَامِ﴾ الآية، قال ابن جريج، قال عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهُ﴾ قال البقرة والبعر ^(٩). وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري ^(١٠). وقال مجاهد: وإنما البدن من الإبل ^(١١). وفي قول يطلق على البقرة أيضا ثم جمهور العلماء على أنه تمزيء عن سبعة كما ثبت عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله وغيره قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأصاحي المدينة عن سبعة، والبقرة عن سبعة ^(١٢).

- (١) أحمد: ٢٨٤/٤، وأبو داود: ٢٨٠٢، والترمذي: ١٤٩٧، والنسائي: ٢١٥/٧، وابن ماجه: ٣١٤٤.
- (٢) الطبري: ١٨/٦٢٣.
- (٣) فتح الباري: ٥/٤٥٠، ومسلم: ٢/٩٦٠.
- (٤) مسلم: ٢/٩٦١. (٥) الدر المنثور: ٦/٤٨.
- (٦) فتح الباري: ١٠/٢٥٠، ومسلم: ٣/١٥٥٦.
- (٧) الطبري: ١٨/٦٢٨. (٨) تفسير الثوري: ٢١٣.
- (٩) الطبري: ١٨/٦٣٠. (١٠) مسلم: ٢/٨٨٢.
- (١١) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود/٣٦٧. (١٢) مسلم: ٢/٨٨٢.

مؤخر أذنهما، والشرقاء: هي التي قطعت أذنهما طولا، قاله الشافعي والأصمعي، وأما الخرقاء: فهي التي خَرَّتْ السَّمَةُ أذنهما خرقاً مدوراً، والله أعلم. وعن البراء: قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَصْحَاحِي: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرَجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا» والكسيرة التي لا تنقي. رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي ^(١).

[منافع البدن]

وقوله: ﴿لَكُم فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ أي: لكم في البدن منافع من لبنها، وصوفها، وأوبارها، وأشعارها، وركوبها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال مقسم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكُم فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم تسم بدنًا ^(٢). وقيل: له أن يتنعم وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «ازكبتها» قال: إنها بدنة. قال: «ازكبتها ويحك» في الثانية أو الثالثة ^(٣). وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ازكبتها بالمعروف إذا أُخِثَتْ إِلَيْهَا» ^(٤).

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ^(٥) أي: محل الهدى والنهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَدُ الْكَنَّةِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِي مَعَكُمْ أَن يَتَّبِعَ حِمْلَهُ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيْمَةٍ الْآتَمِرِ فَلِلَّهِكُمُ إِلَهٌ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَيَشِيرَ الْمُحْشِينَ﴾ ^(٦) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمَنَافِعَهُمْ يُفْقُونَ ﴿٢٥﴾

[النسك مشروع في جميع ملل العالم]

نحر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبيحاً، وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها ^(٥). وقوله: ﴿لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيْمَةٍ الْآتَمِرِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله بكبشين أملحين أقرنين، فسقى وكبر ووضع رجله على صفاحهما ^(٦).

وقوله: ﴿فَلِلَّهِكُمُ إِلَهٌ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: معبودكم واحد وإن توعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

فأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفَرَتَهُ، وَلِيُرِخْ ذَيْبَحَتَهُ^(٨) وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قُطِعَ مِنَ الْبَيْمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيْتَةٌ». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه^(٩).

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ» أمر بإباحة. قال العوفي عن ابن عباس: «أَلْقَانِعَ» المستغني بما أعطيته وهو في بيته «وَالْمُعْتَرَّ» الذي يتعرض لك ويلزم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل^(١٠). وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي^(١١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: القناع: المتعفف، والمعر السائل^(١٢). وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه^(١٣). وقيل بالعكس. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث لصاحبها يأكله منها. وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ»^(١٤) وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إِنِّي كُنْتُ نَبِيَّكُمْ عَنْ إِدْخَارِ لَحُومِ الْأَصْحَانِ فَوْقَ ثَلَاثِ، فَكُلُوا وَادْخُرُوا مَا بَدَا لَكُمْ»^(١٥). وفي رواية: «فَكُلُوا وَادْخُرُوا وَتَصَدَّقُوا»^(١٦). وفي رواية: «فَكُلُوا وَأَطِيعُوا وَتَصَدَّقُوا»^(١٧). وأما الجلود ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي «فَكُلُوا وَتَصَدَّقُوا، وَاسْتَمِعُوا بِجُلُودِهَا، وَلَا تَبِيعُوهَا»^(١٨).

(مسألة) عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ تُضَلِّيَ، ثُمَّ تَرْجِعَ فَتَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ

وقوله: «لَكَ فِيهَا حَرٌّ» أي: ثواب في الدار الآخرة.

وقوله: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ» وعن المطلب ابن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحَّ مِنْ أُمَّتِي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي^(١١) وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن [أبي عياش] عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ» ثم سَمَى الله وكَبَّرَ وذبح^(١٢).

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس، أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه، فذبحه بنفسه بالمدينة، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا: مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالْتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ، ثُمَّ يُوْتَى بِالْآخِرِ فَيَذْبَحُهُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» فيطعمهما جميعًا المساكين ويأكل هو وأهله منها. رواه أحمد وابن ماجه^(١٣).

وقال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ» قال قيامًا على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال: ابعثها قيامًا مقيدة، سنة أبي القاسم^(١٤).

وقوله: «فَإِذَا وَجَّعَتْ جُذُوبُهَا» قال ابن أبي نجيع عن مجاهد: يعني سقطت إلى الأرض^(١٥). وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فإذا وجَّعَتْ جنوبها، يعني: ماتت^(١٦). وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البذنة إذا نحرحت حتى تموت وتبرد حركتها. وقد جاء في حديث مرفوع: «لَا تُمَجِّلُوا النَّفْسَ أَنْ تَزْهَقَ»^(١٧) وقد رواه الثوري في جامعه عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك، ويؤيده حديث شدد بن أوس في صحيح مسلم: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ

(١) أحمد: ٣/٣٣٥٦، وأبو داود: ٣/٢٣٠، وتحفة الأحوذى: ٥/١١٣.

(٢) أبو داود: ٣/٢٣٠، ٢٣١.

(٣) أحمد: ٨/٦، وابن ماجه: ٢/١٠٤٣، ١٠٤٤.

(٤) البخاري: ١٧١٣. (٥) الطبري: ١٨/٦٣٥.

(٦) الطبري: ١٨/٦٣٥. (٧) البيهقي: ٩/٢٧٨.

(٨) مسلم: ٣/١٥٤٨.

(٩) أحمد: ٥/٥١٨، وأبو داود: ٣/٢٧٧، وتحفة الأحوذى: ٥/٥٥.

(١٠) الطبري: ١٨/٦٣٦. (١١) الطبري: ١٨/٦٣٦.

(١٢) الطبري: ١٨/٦٣٦، ٦٣٧.

(١٣) الطبري: ١٨/٦٣٦، ٦٣٧.

(*) ولا دليل في الآية على ذلك.

(١٤) النسائي: ٧/٢٣٤. (١٥) النسائي: ٧/١٧٠.

(١٦) فتح الباري: ١١/٢٩. (١٧) أحمد: ٤/١٥.

ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من
عند ربه عز وجل.

(مسألة) الأضحية سنة مستحبة، ونكفي واحدة منها عن جميع أهل بيت واحد. قال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي. رواه الترمذي ^(٤). وقال أبو أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس، فصار كما ترى. رواه الترمذي وصححه وابن ماجه ^(٥). وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله، رواه البخاري ^(٦). وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَغْسِرَ[عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ]» ^(٧).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

[بشارة الدفاع عن المؤمنين]

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه، شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِمَّنْ زَاوَىٰ مِنُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالنَّجَارِ الَّذِينَ هُمُ أَلْيَٰ يَدُ الْأَعْيُنِ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ السَّيْرُ فَقَدْ أَفْوَٰهًا لَا يَفْقَهُوْنَ دِينَ وَلَا عِلْمًا وَلَا يُفْتَلِحُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَاذِبٍ﴾ أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفِي بما قال، والكفر الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلَئِنْ أَخَذْتُمْ بِهِمْ بَعْضَ مَا كَفَرُوا بِهِمْ لَنَنصُرَهُمْ وَلَنَنصُرَنَّ الْقَوْمَ الَّذِي يَكْفُرُونَ لَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٢٣) ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ يَفْعَرُ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا بِقَوْمٍ رُسُلًا لِلَّهِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَئِن صُرِفَتْ بِالْحَنَاءِ لَنَرْجِعَنَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ بُضْعِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٤) ﴿

(١) فتح الباري: ٢/٥٢٦، ومسلم: ٣/١٥٥٣، وقوله بعده: وأن لا تنذبوا.... قال الدكتور إبراهيم البنا: لم يقع لنا هذا في صحيح مسلم.

(٢) أحمد: ٨٢/٤. (٣) مسلم: ١٩٨٧/٤.

(٤) تحفة الأخوذى: ٩٦/٥.

(٥) أبو داود: ٩٠/٥ وابن ماجه: ١٠٥١/٢.

(٦) فتح الباري: ٢١٣/١٣. (٧) مسلم: ١٥٥٥/٣.

أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ دَبَّحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا هِيَ الْحَمُّ قَدَّمَهُ لِأَهْلِيهِ، لَيْسَ مِنَ التَّشْهُكِ فِي شَيْءٍ» أخرجه ^(١)، وفي صحيح مسلم: وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام. ويشرع الذبح يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا دَبْحٌ» رواه أحمد وابن حبان ^(٢).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لِقَوْمٍ لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦٦) يقول تعالى من أجل هذا: ﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللتها لكم، أي: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبيتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (٦٧) - إلى قوله - ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٨) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لِقَوْمٍ لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦٩).

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ
مُسْكِرًا كَذَٰلِكَ يُذَكِّرُ لِقَائِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ مُّهِيمٌ
وَنَبَشِّرُ الْمُتَحِيزِينَ﴾ (٣٧)

[المقصود من الأضحية عند الله

إخلاص العبد وتقواه

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لأهنتهم وضعوا عليها من لحوم فراسيتهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ﴾ أي: يتقبل ذلك ويحزي عليه، كما جاء في الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٣).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾ أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿وَشَرَعْنَا لَهَا أَفْئِدَةً عَلَىٰ مَآ هَدَىٰكُمْ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ما يحبه ويرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقوله: ﴿وَنَبِّئِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ونبشروا يا محمد المحسنين أي: في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين

[الإذن بالقتال، وهي أول آية الجهاد]

قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة^(١). وقال مجاهد والضحاك، وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد^(٢). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِآثَمِهِمْ ظِلْمًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣). قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. وزاد الإمام أحمد: قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال^(٤). ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننهما^(٥). وقال الترمذي: حديث حسن.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْتَحْتُمُوهُمُ شُدُّوا الْوُكُوفَ فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدَ وَلَمَّا فِدَا حَتَّىٰ تَضَعَ الْقَرْيَاتُ أَوَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ أَنشَاءَ اللَّهُ لَأَنصَرِمَتْهُمْ وَلَكِنْ يُبَلِّغُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُبْذِلَ أَعْمَالَهُمْ ۖ سَيَرْجِعُهُمْ فَيُصْلِحُ لَهُمْ ۖ وَيُؤْتِيَهُمُ الْخَيْرَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَافِلًا عَنِ الْكَافِرِينَ﴾^(٦). وقال تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ ذِئْفُورٌ صَدُورٌ قَوِيْرٌ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ وقال: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتُبْلُوا أَعْيَارَكُمْ ۝١٦﴾ والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد فعل^(٧). وإنا شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى، ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُؤَمِّرْ بِهَذَا»^(٨) فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهو ما يقتله، وشرّدوا أصحابه شذراً مَذَرًا، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه،

وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِآثَمِهِمْ ظِلْمًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني محمداً وأصحابه^(١٠) ﴿إِلَّا أَنْتَ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَيَتَكَبَّرُونَ لَنُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَ النَّاسُ لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ بَقِيَّةَ قَوْمٍ، وَيَكْفِ شُرُورَ أَنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيَقْدِرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَأَهْلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفُ ۖ فَكَلِمَتٌ صَوِيْعٌ﴾ وهي المعابد الصغار للربان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم^(١١). وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وَرَبِيعٌ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم^(١٢). وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس^(١٣) وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها: صَلَوَات. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق^(١٤).

(١) الطبري: ١٨/٦٤٣.

(٢) الطبري: ١٨/٦٤٣، والدر المنثور: ٦/٥٧.

(٣) أحمد: ١/٢١٦.

(٤) تحفة الأحوذى: ٩/١٥، والنسائي في الكبرى: ٦/٤١١.

(٥) الطبري: ١٨/٦٤٣. (٦) دلائل النبوة للأصبهاني: ٢٦٥.

(٧) الطبري: ١٨/٦٤٣.

(٨) الطبري: ١٨/٦٤٧، والدر المنثور: ٦/٥٩، والرازي: ٣/٣٦.

(٩) الطبري: ١٨/٦٤٨. (١٠) الطبري: ١٨/٦٤٩.

(١١) الطبري: ١٨/٦٥٠.

عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا^(٣).

﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾ فَكَانَ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَارِيَةُ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَوعُ مَعْلَلٌ لُفُوفٍ مَشِيدٌ ﴿١٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُونَ مِمَّنْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ مِمَّا آوَاذَانُ يَسْمَعُونَ مِمَّا قَالَتْ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٦﴾﴾

[عاقبة المكذبين]

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ - إلى أن قال - ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَكْمِلُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسولها ﴿فِيهَا تَارِيَةُ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها^(٥). أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها ﴿وَيَبْنَوعُ مَعْلَلٌ﴾ لا يستقي منها، ولا يرد لها أحد بعد كثرة واديتها والازدحام عليها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال عكرمة يعني المبيض بالخص^(٦). وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو

وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب للذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصراني، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب^(١). وقال بعض العلماء: هذا ترقى من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد؛ وهي أكثر عماراً وأكثر عبادة وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ آمِنَاتٌ يَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ مَا هُمْ فِيهِ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المهبور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ لِكُنُوزِنَا لِرِجَالِ الْفِرْعَوْنِ﴾. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ لِكُنُوزِنَا لِرِجَالِ الْفِرْعَوْنِ﴾. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ اللَّهُ لَوْلَا أَنَا وَرُسُلِي لَكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾﴾

[واجب المسلمين عند تمكينهم من الحكم]

روى ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا: ربنا الله ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتيناهم الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي^(٢). وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال الصباح بن سودة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم: أن يؤخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المنزوعة ولا المستكبرة بها، ولا المخالف سرها علانياتها. وقال

(١) الطبري: ١٨/٦٥٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٩٦، ٢٤٩٧.

(٣) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٩٨.

(٤) فتح الباري: ٨/٢٠٥، ومسلم: ٤/١٩٩٧.

(٥) الطبري: ١٨/٦٥٣.

(٦) الطبري: ١٨/٦٥٤، ٦٥٥.

ذلك^(١). وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: المشيد: المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يحجم أهله شدة بنائه، ولا ارتفاعه، ولا إحكامه، ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: ﴿أَتَيْنَا تَكُونُوا يَذْرُوكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّسْتَكِينٍ﴾.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم ويفكرهم أيضًا، وذلك كاف كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار: قال بعض الحكماء: أخبى قلبك بالمواعظ، ونوره بالتفكير، وموته بالزهد، وقوه باليقين، وذلكه بالموت، وقدره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسيره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حلوا وعم انقلبوا. أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنتكال ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر، وما أحسن ما قاله أبو محمد عبد الله بن محمد ابن [سارة] الأندلسي الششتري، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسةائة:

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد

نادى به الناعيان الشئب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى فقيم تُرى

في رأسك الواعيان: السمع والبصر

ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل
لم يهده الهاديان العين والأثر

لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ

أعلى ولا النيران الشمس والقمر

ليزحلن عن الدنيا وإن كرها

فراقها التاويان: [البندؤ] والحضر

﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَئِنْ يَوْمًا عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَةٍ وَمِمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٧﴾ وَكَأَن مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ

لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّا تَأْخُذُهَا وَلَئِنَّ الْمَصِيرَ ﴿١٨﴾﴾

[مطالبة الكفار بالعذاب]

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ

بِالْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتبه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابِ إِلَهِكُمْ ﴿١٧﴾﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلَلٌ لَّنَا فِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾﴾. وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَةٍ وَمِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأمل، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَن مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّا تَأْخُذُهَا وَلَئِنَّ الْمَصِيرَ ﴿١٨﴾﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَدْخُلُ قُرَاءَةُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسَائِةَ عَامٍ» ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢). وروى أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَا رَجُوْ أَنْ لَا تُعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا، أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ» قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة^(٣).

﴿قُلْ يَكَيْفَا النَّاسُ إِذَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢١﴾﴾

[جزاء أهل الصلاح وأهل الفساد]

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَكَيْفَا النَّاسُ إِذَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: آمنت قلوبهم

(١) الطبري: ١٨/٦٥٥ والبغوي: ٣/٢٩١.

(٢) الترمذي: ٢٣٥٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٤١٢.

(٣) أبو داود: ٤/٥١٧.

الشیطان^(١١). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق. قال ابن جريج: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون^(١٢).

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١٣). وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له ﴿فَتُخَيِّطَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل له قلوبهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الَّذِي آمَنَّا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوقفهم لمخالفة الباطل واجتنبه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى

درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(١٤) ألمثلث يؤمِّن بالله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جَنَّاتٍ النَّعِيمِ^(١٥) والذين كفروا وكذبوا بآياتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ^(١٦)

[لا يزال الكفار في الشك والتردد]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك من هذا القرآن، قاله ابن جريج واختاره ابن جرير^(١٧). ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد: فجأة^(١٨)، وقال

وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. وقال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة^(١٩).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مبطون^(٢٠). وقال ابن عباس: معاجزين مراغمين^(٢١) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارة الموجهة، الشديد عذابها ونكالها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّابُنَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢٢) كانوا يقصدون

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَحْيَ إِلَّا إِذَا نَمَخَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢٣) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ^(٢٤) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَيِّطَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الَّذِي آمَنَّا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢٥)

[تدخل الشيطان في أمنية الرسل وإبطال الله ذلك]

قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرائق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي فريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسله، ولم أرها سنده من وجه صحيح، والله أعلم. قال البخاري: قال ابن عباس ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدثت ألقى الشيطان في حديثه، فيطل الله ما يلقى الشيطان^(٢٦) ﴿ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِذَا نَمَخَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. يقول: إذا حدثت ألقى الشيطان في حديثه^(٢٧). وقال مجاهد: ﴿إِذَا نَمَخَ﴾ يعني: إذا قال^(٢٨)، ويقال: أمنيته قراءته ﴿إِلَّا مَا نِيَّ﴾ يقولون ولا يكتبون. قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿نَمَخَ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في تلاوته^(٢٩).

وقال الضحاك: ﴿إِذَا نَمَخَ﴾ إذا تلا^(٣٠). قال ابن جرير هذا قول أشبه بتأويل الكلام^(٣١). وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: فيطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦٣. (٢) الطبري: ١٨/ ٦٦٢.

(٣) الدر المنثور: ٦/ ٦٤. (٤) الدر المنثور: ٦/ ٦٤.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٢٩٢. (٦) الطبري: ١٨/ ٦٦٧.

(٧) الطبري: ١٨/ ٦٦٧. (٨) البغوي: ٣/ ٢٩٣.

(٩) الطبري: ١٨/ ٦٦٨. (١٠) الطبري: ١٨/ ٦٦٨.

(١١) الطبري: ١٨/ ٦٦٨. (١٢) الطبري: ١٨/ ٦٦٩.

(١٣) الطبري: ١٨/ ٦٧٠. (١٤) الطبري: ١١/ ٣٦٠.

﴿لَيْدُخْلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَةٍ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴿١﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله ويمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه.

فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٢) والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه. روى ابن أبي حاتم عن شرحبيل بن السمط قال: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمري سلمان، يعني: الفارسي، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أَجَرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ الرِّزْقَ، وَأَمِنَ مِنَ الْقَتَائِنِ، وَأَقْرَبُوا إِنْ شِئْتُمْ» (٣) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٤﴾ لَيْدُخْلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥﴾ (١) (٢) (٣) (٤) (٥).

وروي أيضًا عن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق، والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفي فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيها بُعِثْتُ إِنْ قَالَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الْآيَتِينَ. فلما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترزاه، ورزقت رزقا حسنا، والله ما أبالي من أي حفرتيها بعثت (٤).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين في شهر محرم، فناشدتهم المسلمون لئلا يقتلوه في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ (٥).

قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾ بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ﴾ قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، قال عكرمة ومجاهد: هو يوم القيامة، لا ليل له (١)، وكذا قال الضحاك والحسن البصري (٢)، ولهذا قال: ﴿أَلَمْ لَأْتُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿مِثْلِكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٣). وقوله: ﴿أَلَمْ لَأْتُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٤) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق وجحدوا به، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ أي في مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٥﴾ لَيْدُخْلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٦﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيُصْرَفَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ (٦).

[الأجر العظيم لمن هاجر لله]

يخبر تعالى عن خرج مهاجرا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ثم قتلوا، أي: في الجهاد، أو ماتوا أي: حتف أنفهم أي: من غير قتال، على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُفْقُ فَقَدْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليَجْرِينَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ (٥) لَيْدُخْلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَةٍ، أي: الجنة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِقِينَ﴾ (٨) ﴿رُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (٨) فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم قال:

(١) البغوي: ٣/٢٩٥. (٢) البغوي: ٣/٢٩٥.

(٣) ابن أبي حاتم: ٨/٢٥٠٣. (٤) الطبري: ٩/١٨٢.

(٥) الطبري: ١٨/٦٧٥.

﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ النَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ
النَّهَارَ فِي النَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١٦) ذَٰلِكَ يَأْتِ
اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ
وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٧﴾

الآية، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوماً^(١)، ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا ههنا قال: «فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً» أي: خضراء بعد [يَبَسِهَا] ومحوها. وقد ذُكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء، قاله أعلم.

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمُلُوكَ مِنْ شَأْءٍ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِنْ شَأْءٍ وَتُعْصِرُ مِنْ شَأْءٍ وَتُدْخِلُ مَنْ شَأْءٍ بِرُكْبَتِكَ الْحَبْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١١) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْأَعْمَى مِنَ الْعَمَيِّ وَتُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ وَتُخْرِجُ النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ ۝ (١٢)﴾

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُبْصِرٌ﴾ أي: سميع بأقوال عباده. بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم ومسكناتهم، ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنْتَ مَا كُنْتَ تَدْعُو مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحابًا فيمطر على الأرض الجزر التي لا

تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿١٧﴾ ولذا قال: ﴿اللَّهُ يَخْتَكِمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ قَادِحٌ وَأَسْتَقِيمٌ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تُلَئِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بها في السماوات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِمَ الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ﴿٢٠﴾ وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ﴿٢١﴾ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ بِهِمْ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وإذا نزل على عليهم آياتنا بينات نعرف في وجوه الذين كفروا الممكر بكادوت يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنهيتكم بشر من ذلك أم النار وعددها الله الذين كفروا وبشر المصير ﴿٢٣﴾

[عبادة المشركين غير الله وشدة]

إنكارهم على آيات الله

يقول تعالى خبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ولهذا قال ههنا: «مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ» أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان وزينه لهم،

(١) الطبري: ١٨/٦٧٨، ٦٧٩.

(٢) مسلم: ٤/٢٠٤٤.

(٣) أبو داود: ٥/٧٦ ونحفة الأحوذى: ٩/٢٣٢.

الآخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّنَّاسٍ عَلَى ظُلُمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٥﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿٢٦﴾ كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَارِبِينَ فِيهِ﴾. وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتَيْنِ وَأَحْيِنَا آتَيْنِ وَمَعْنَى الكلام: كيف تجعلون الله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكِلُ مُدْخِ مَسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣٠﴾

[لكل قوم منسك]

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، قال ابن جرير: يعني: لكل أمة نبي منسكاً، قال: وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويردد إليه، إما لخبر أو شر، قال: ولهذا سُمِّيَتْ مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها^(١)، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْبِقٌ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾ أي: فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك ولبرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكِلُ مُدْخِ مَسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾. كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا

ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال، ثم قال: ﴿وَيَذُنُّ لَكُمْ عَلَيْهِمْ كَيْدَنَا وَيَتَذَكَّرُ لَكُمْ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَالْحُجُجِ وَالْأَدْلَالِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَن رَّسَلَهُ الْكَرَامَ حَقَّ وَصْدُقٍ ﴿بِكَادُوتٍ يَسْطُوتُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوَّتْ عَلَيْهِمْ كَيْدُنَا﴾ أي: يكادون يسادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم والستهم بالسوء ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد هؤلاء ﴿أَفَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِذَلِكَ أَلْتَارُونَ وَعَدَاهُ اللَّهُ الَّذِي كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأظم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن تلبس بزعمكم وإرادتكم وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: وبشِّر النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (١٦).

﴿يَتْلَاهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (١٧) مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (١٨)

[بيان حقارة الأصنام وحقارة عابديها]

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَتْلَاهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ﴾ أي: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ [خَلْقًا] كَحُلُقَيْنِ فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ ذَرَّةٍ أَوْ ذُبَابَةٍ أَوْ حَبَّةٍ» (١). وأخرجه صاحبها الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» (٢)، ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمْ لُسُوبًا شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَلَمِكَ رَسُولًا وَمِنْ أَلَمِكَ النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢٠)

[اختيار الله رسلاً من الملائكة ورسلاً من الناس]

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١) أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ عَمَلًا﴾ (٢٢) إلى قوله: ﴿وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم ﴿يَتْلَاهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية.

﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْفُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٣) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ

(١) أحمد: ٣٩١/٢.

(٢) فتح الباري: ٥٣٧/١٣، ومسلم: ١٦٧١/٣.

(٣) الطبري: ٦٨٥/١٨.

(٤) البغوي: ٢٩٨/٣، عن الضحاك.

وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن ^(٩)، وكذا قال غيره. لأن تعالى قال: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكرت منته تعالى على هذه الأمة بأن نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يئلى على الأبحار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّيَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنْحِي جَهَنَّمَ» قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، فَأَذْغُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ» ^(١٠). قوله: ﴿لَيْكُنَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَكُونُوا شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إنا جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعد التكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة «شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ» لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلماذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: قابلوها هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة. وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿فَتَعِمَّ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

وهذا آخر تفسير سورة الحج وصى الله على سيدنا محمد

جِهَادُهُ هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لَيْكُنَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَكُونُوا شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

[الأمر بالعبادة والجهاد]

عن عقبه بن عامر عن النبي ﷺ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَقْرَأَهُمَا» ^(١١). قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: بأموالكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾. وقوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم شيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث ^(١٢)، وتُصَلَّى رجالاً وركباً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصلحها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال عليه السلام: «بُيِّنْتُ بِالْحَقِيقَةِ السَّمْحَةِ» ^(١٣) وقال ﷺ لعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَبَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا» ^(١٤)، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق ^(١٥).

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن جرير: نُصِبَ عَلَى تَقْدِيرِ ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق بل وسَّعَهُ عليكم كمِّلَةً أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، وقال ويحتمل أنه منصوب على تقدير: ألزموا ملة أبيكم إبراهيم ^(١٦).

(قلت) وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَقِيقًا﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ سَمَّيَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّيَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: الله عز وجل ^(١٧)، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقَتادة ^(١٨).

قال مجاهد: الله سهاكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة

(١) الحاكم: ٢٢١/١. (٢) أبو داود: ٣٨/٢.

(٣) أحمد: ٢٦٦/٥. (٤) فتح الباري: ٦٥٧/٧.

(٥) الطبري: ٦٨٩/١٨. (٦) الطبري: ٦٨٩/١٨.

(٧) الطبري: ٦٩١/١٨. (٨) الطبري: ٦٩١/١٨.

(٩) القرطبي: ١٠١/١٢.

(١٠) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ وأحمد: ١٣٠/٤.

وأله وصحبه وسلم وشرف وكرم ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

تفسير سورة المؤمنون

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهَىٰ لِعَهْدِهِمْ رِغْوَنَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

[الفلاح للمؤمنين وذكر صفاتهم]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «خَاشِعُونَ» خائفون ساكنون (١)، وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري (٢). وعن علي بن أبي طالب «ثُمَّ»: الخشوع خشوع القلب (٣)، وكذا قال إبراهيم النخعي (٤). وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وأثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبَّ إِلَيَّ طَيْبُ النَّسَاءِ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٥).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٣) أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِاللَّغْوِ مَرَّ وَاحِرًا﴾ (٦) قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَّدهم عن ذلك (٦). وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) الأكثرون على أن لا بد من الزكاة ههنا: زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في ستة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن فرضت بالمدينة إنما هي ذات النُصَب والمقادير الخاصة، لا لظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة، كما قال تعالى في

سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ غَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٢) وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي [يتعاطى] هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقرّبون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ (٧) أي: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهَىٰ لِعَهْدِهِمْ رِغْوَنَ﴾ (٨) أي: إذا أوغثوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدا أو فوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِيَ خَانَ» (٧). وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩) أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا». قلت: ثم أي؟ قال: «بِرِّ الْوَالِدَيْنِ». قلت: ثم أي؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أخرجه في الصحيحين (٨).

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها (٩)، وقد افتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَحْضُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا تُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مَوْمِنٌ» (١٠). ولما وصفهم تعالى بالقيام

(١) الطبري: ٩/١٩. (٢) الطبري: ٩/١٩.

(٣) الطبري: ٩/١٩. (٤) الطبري: ٩/١٩.

(٥) أحمد: ١٩٩/٣ والنسائي: ٧/٦٦، ٦٢.

(٦) الزهد لابن المبارك: ٥٥. (٧) فتح الباري: ١٠/٥٢٢.

(٨) فتح الباري: ١٠/٤١٤ ومسلم: ٨٩/١.

(٩) الدر المنثور: ٦/٨٩. (١٠) ابن ماجه: ٢/١٠١.

بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَارِهُونَ﴾ (١) الَّذِينَ يَرْتُفُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢).

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (١).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنَازِلَانِ: مَنَزَلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنَزَلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنَزِلُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَارِهُونَ﴾ (١)» (٢). وقال ابن جريج عن ليث عن مجاهد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَارِهُونَ﴾ (١) «فَالْمُؤْمِنُونَ يَرْتُونَ مَنَازِلَ الْكَفَّارِ لِأَنَّهُمْ خَلَقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمَّا قَامَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَتَرَكَ أُولَئِكَ مَا أَمَرُوا بِهِ مِمَّا خَلَقُوا لَهُ، أَحْرَزَ هَؤُلَاءِ نَصِيبَ أُولَئِكَ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا رِيسَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا أَيْضًا، وَهُوَ مَا ثَبِتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِثَنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، يُغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» (٣). وفي لفظ له قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، يَقُولُ: هَذَا فِكَاحُكَ مِنَ النَّارِ» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك قال: فحلف له (٤). قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿بِذَلِكَ أَتَى بُرْتُقُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا﴾ (٥) وَكَقَوْلُهُ: ﴿وَبِذَلِكَ أَتَى بُرْتُقُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا﴾ (٦).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُتْلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٨) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْيُطْرُقَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٩) ثُمَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُوثٌ (١٠) ﴿ثُمَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُوثٌ﴾ (١١).

[آية الله في تطور خلق الإنسان من التراب ثم

النطفة إلى ما بعدها]

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالته من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً؛ لأنه مخلوق منه (٥) وقال قتادة: استل آدم من الطين (٦) وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من

طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَمْخَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» (٢) وقد رواه أبو داود والترمذي نحوه (٣). وقال الترمذي: حسن صحيح «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً» (٤) هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٥) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُتْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَكِينٍ (٦) «أَي: ضَعِيفٍ، كَمَا قَالَ: «أَزْ فَخَلَقَكَ مِنْ مَاءٍ مَكِينٍ» (٧) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٨) يعني الرحم معد لذلك مهياً له «إِنْ قَدَرْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٩) فَقَدْ زَانَعُوا الْقَدِيرُونَ (١٠) أي: مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ (١١) أي: ثم صيرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الشدوة، فصارت علقه حراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة: وهي دم «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً» (١٢) وهي قطعة كالْبُضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا» (١٣) يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصها وعروقها.

﴿فَكَسَوْنَا الْيُطْرُقَ لَحْمًا﴾ (١٤) أي: وجعلنا على ذلك ما يسره ويشده ويقويه «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» (١٥) أي: ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب «فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (١٦).

وقال العوفي عن ابن عباس: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» (١٧) يعني: نقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا (١٨). روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه -

(١) فتح الباري: ١٣/٤١٥. (٢) ابن ماجه: ١٤٥٣/٢.

(٣) مسلم: ٤/٢١٢٠. (٤) مسلم: ٤/٢١١٩.

(٥) الطبري: ١٩/١٥. (٦) الطبري: ١٩/١٤.

(٧) أحمد: ٤/٤٠٠.

(٨) أبو داود: ٥/٦٧ وتحفة الأحوذى: ٨/٢٩٠.

(٩) الطبري: ١٩/١٨.

كتم والله بما تعملون بصير، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، ويعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (٢) فَأَشْنَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ وَاعْنَبْ لَكُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٣) وَمَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْآكِلِينَ (٤) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٦)

[آياته في المطر والنبات والأشجار والأنعام]

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها: الأرض الجرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، يأتي الماء يحمل طيناً أحمرًا فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: لو شئنا أن لا تُطَرَّ لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاباً لا يتتبع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا يتزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو

قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ الرَّجُلُ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» (١) أخرجه (٢).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النظفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَنُكْرِ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسُونَ﴾ (٣) يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ لَنُكْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ﴾ (٤) يعني: النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَالِقِ غَفِيلِينَ﴾ (٥)

[آيته في خلق السماوات]

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السماوات السبع، وكثيرًا ما يذكر تعالى خلق السماوات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السماوات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال مجاهد: يعني: السماوات السبع (١)، وهذه كقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لُحُوفٍ السَّيِّئَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا﴾، ﴿أَنزَلْنَاهُ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (٢)، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يَتَنَبَّهَ لِعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَصْلَحَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٣) وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَالِقِ غَفِيلِينَ﴾ (٤) أي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما

(١) أحمد: ١/٣٨٢.

(٢) فتح الباري: ٦/٤١٨ ومسلم: ٤/٢٠٣٦.

(٣) الدر المنثور: ٦/٩٤.

كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَقْسَامَكُمْ﴾ إِنَّ بَلَدَهُ لَوْ تَكَوَّنُوا بِبَلَدِهِ
لَا يَشِقُ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوِّفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وقال تعالى:
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلًا يَنْصُلُونَ لَهَا مَا يَدْعُونَ
وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَعٍ
وَمَسَاوِيرَ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ عِذَةٍ
أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ
يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَصَّوْهُ حَقًّا حِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[قصة نوح عليه السلام وقومه]

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه
لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه من أشرك به
وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ
عِذَةٍ أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراكم به؟
فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون يرفع عليكم، ويتعاطم
بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لمبعث
ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي ببعث
البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في
الدهور الماضية. وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي
مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم
بالوحي ﴿فَنَصَّوْهُ حَقًّا حِينَ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون،
واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ اصْنِ لِي فَيْسًا مِّنَ الْفُلِّ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنِعْ الْفُلَّ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا فَإِذَا جَاءَ أَهْلُهَا فَكَارِ السَّخِرَ فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ اثْنين وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطَبُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّخْرَجُونَ ﴿٧٤﴾ إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ
فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ لِّقَوْمٍ الْظُلْمَ لِيُؤْمِنُوا ﴿٧٥﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرِنِي مِثْلَ مَا كُنْتَ
فَاعِلًا فَجَاءَ بِهَا بِأَنْفُسَ الَّذِينَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَإِنَّ كَذَابًا لِّبَنِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على
قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ

شَتْنَا لَجَعَلْنَاهُ إِذَا نَزَلَ فِيهَا يَغُورُ إِلَىٰ مَدَى لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ وَلَا
تَنْتَفِعُونَ بِهِ لَفَعَلْنَا، وَلَكِنْ بَلَطْهُ وَرَحْمَتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْمَاءُ مِنْ
السَّحَابِ عَذَابًا فَرَاتًا زَلَالًا، فَيَسْكُنُهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكُهُ
يَنَابِيعُ فِي الْأَرْضِ، فَيَفْتَحُ الْعَيُونَ وَالْأَنْهَارُ وَيَسْقِي بِهِ الزَّرْعَ
وَالثَّمَارَ وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابِكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ
وَتَنْتَهَرُونَ وَتَنْتَفِقُونَ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمَنَّةُ.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكَ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ يعني
فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي: بساتين
وحدائق ذات بهجة أي: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ
وَأَعْنَبٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل
الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل
أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون
عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكَرَّمْنَا فَوْكَةً كَبِيرَةً﴾ أي: من
جميع الثمار، كما قال: ﴿يُبَيِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الشَّيْءِ مَنَظَرٌ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى
حسنه ونضجه ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتون، والطور
هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن
عري عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم وطور سيناء هو طور
سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه
السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله:
﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تبت الدهن
كما في قول العرب: ألقى فلان يده، أي يده، وأما على قول من
يضمن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال:
﴿وَصَيِّغُ﴾ أي: آدم، قاله قتادة^(١)، ﴿لَا يَكِينُ﴾ أي: فيها ما يتضع
به من الدهن والاصطباغ. وروى عبد بن حميد في مسنده وتفسيره
عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿اتَّبِعُوا بِالزَّيْتِ وَادَّهِنُوا بِهِ،
فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، ورواه الترمذي وابن ماجه^(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ تَشْجِرُكُمْ وَمَا فِي ظُهُورِهَا وَلَكُرٌّ
فِيهَا مَتَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلِّ تُحْمَلُونَ ﴿٨١﴾﴾
يذكر تعالى ما جعل لخلق في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم
يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من
لحمانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون
ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم،

(١) الدر المنثور: ٩٥/٦.

(٢) المنتخب لعبد بن حميد: ١٣، والترمذي: ١٨٥١ وابن ماجه: ٣٣١٩.

[قصة عاد أو ثمود]

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قوتاً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا من اتباعه لكونه بشرا مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا ببقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجشاني وقالوا: ﴿أَيُّدُّكُمْ أَكْثَرُ لِمَا مِثَّمْ وَكُنْتُمْ رَبَّاءَ وَعَظَمْنَا أَكْثَرَ نَفْرَجُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: بعيد بعيد ذلك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا تَحْنُ لَهُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ بِنْتًا بِالْمَعَادِ ﴿٥٩﴾ أي: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً﴾ ﴿٦٠﴾ أي: بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿تُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: صرعى هلكى، كغثاء السيل، وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا يتفَع بشيء منه، ﴿فَبَعَثْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦١﴾ أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْزِرُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا نَذْرًا كُلِّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذِبُوا فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَثْنَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

[ذكر الأمم الأخرى]

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ أي: أما وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْزِرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ يعني: بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفا بعد سلف، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا نَذْرًا﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضا ^(١)، وهذا كقوله

أَيُّ مَلَكُوتٍ فَأَنْصَرُ ﴿١٠﴾ وقال ههنا: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ بِنْتًا﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والشار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي من سبق عليه القول من الله باهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُهُمْ مَغْرُوقُونَ﴾ أي عند معاناة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رافة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنني قد نصبت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مسبوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا. وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ لِلْعَبْدِ لِلَّهِ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ الْفُلُوفِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ كما قال: ﴿وَجَعَلْ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ الْوَأَنْتُمْ مَا تَكُونُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَنَّا إِنَّا لَكُنْظِيلُونَ ﴿٧١﴾ وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ آتِكُمْ بِهَا بِسْمِ اللَّهِ نُحَجِّجُهَا وَنُفَرِّقُهَا﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ انْزِلْ لِي مَزَلًا مَّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات أي لحججها ودلالات وأصحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء وقادر على كل شيء عليهم بكل شيء. وقوله: ﴿وَأَن كُنَّا لَنُبَشِّرُ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٤﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُفِّرْنَاهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَكُلَ مِمَّا تَكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَئِنْ أُلْقِيتُمْ بِالنُّجُومِ إِذْ لَخَسِرُونَ ﴿٧٦﴾ أَيْدُكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِثَّمْ وَكُنْتُمْ رَبَّاءَ وَعَظَمْنَا أَكْثَرَ نَفْرَجُونَ ﴿٧٧﴾ هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٧٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا تَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ بِنْتًا بِالْمَعَادِ ﴿٨٠﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً ﴿٨١﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾

وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة^(٢).

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قُرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهراً^(٣)، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة^(٤). وقال مجاهد: ربوة مستوية^(٥) وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري^(٦).

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى ﴿وَمَا أَوْثَقْتُهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي دمشق^(٧) قال: ورؤي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك. وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق^(٨). وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: ﴿وَمَا أَوْثَقْتُهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ﴾ قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها^(٩). وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: في قول الله تعالى: ﴿إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَوْثَقْتُهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكُم سُرِّيًّا﴾. وكذا قال الضحاك وقتادة: ﴿إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هو بيت المقدس، فهذا - والله أعلم - هو الأظهر. لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه ببعضاً وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(١٠) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ^(١١) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ذُبْرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(١٢) فَذَرْنَاهُمْ فِي عُرْسِهِمْ حَتَّى بَيِّنَ^(١٣) أَيْسَرُونَ أَمَّا نَذِيرُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ لَمَنَ فِي الْقُبُورِ^(١٤) بَلْ لَا يَشْعُرُونَ^(١٥)

[الامر باكل الحلال وبالعمل الصالح]

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين

تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾. وقوله: ﴿كُلْ مِمَّا جَاءَ أُمَّةُ رَسُولُكَ كَذَّبُوهُ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَنْحَسِرُوا عَلَى الْآيَاتِ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١٦). وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا أَي أَهْلَكْنَاهُمْ كَقَوْلِهِ﴾. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(١٧) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ^(١٨) فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ^(١٩) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ^(٢٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٢١)

[قصة موسى عليه السلام وفرعون]

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما؛ لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قسم الله فرعون والقيبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢٢).

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٢٣)

[ذكر عيسى ومريم]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام أنه جعلها آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وَمَا أَوْثَقْتُهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات^(٢٤).

(١) الدر المنثور: ٦/١٠٠. (٢) الطبري: ٥/٥٣٦، ٥٣٧.

(٣) الطبري: ١٩/٣٨. (٤) الطبري: ١٩/٣٩.

(٥) الطبري: ١٩/٣٨. (٦) الطبري: ١٩/٣٩.

(٧) الطبري: ١٩/٣٧. (٨) القرطبي: ١٢/١٢٦.

(٩) الدر المنثور: ٦/١٠٠.

أَمَلًا وَأَوْلَدًا وَمَا تَحْنُ يَمْعَدِينَ ﴿١٠﴾ لَقَدْ أَخْطَوْا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِرْجَاً وَإِنْظَارًا وَإِمْلَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعِجْكَ أَمْرُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ لِيَزِدَّ دَاوُدَ إِسْمًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكُونُ بِهَذَا الْخَبِيرِ سَتَذَرُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١) وَأَتَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ الآية، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا﴾ (١٣) إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَيْنًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْلَأُكُمْ وَلَا أَوْلَدَكُمْ بِأَنِّي تُفَرِّكُمُ عَنْ دَارِيَّ إِلَى مَنْ أَمِنَ وَعَجِلَ صَلَاحًا﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (١٤) وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ لَا يَشْكُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا شَاقِقُونَ ﴿١٨﴾

[صفات أهل الخير]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (١٤) أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكروههم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً (١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ﴾ (١٥) أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْهِه﴾ أي: أيقنت أن ما كان فإنها هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فما يحببه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكره ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ لَا يَشْكُونَ﴾ (١٦) أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفه له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (١٧) أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشرط الإعطاء،

بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجعلوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. وقال سعيد بن جبير والضحاك: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وفي الصحيح: ﴿وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ﴾ قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: ﴿نَبِيٌّ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارٍ بِطَلْحٍ لَأَهْلِ مَكَّةَ﴾ (١). وفي الصحيح: ﴿إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ﴾ (٢). وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسنَد الإمام أحمد واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِسْمِ أَمْرِهِ لِلْمُرْسَلِينَ﴾ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ وَأَكْمَلُوا صِلَاً إِلَى بَيْتِكُمْ تَعْلَمُونَ عَلَيْهِمُ﴾ (٣) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُلِّيَ بِالْحَرَامِ، يُمْدُ نَذِيهِ إِلَى السَّمَاءِ يَارَبِّ، يَارَبِّ فَاتَى يُسْتَجَابُ لِنَدَائِهِ (٤) وقال الترمذي: حسن غريب.

[دين جميع الأنبياء هو التوحيد]

والوعيد للذين تفرقوا

وقوله: ﴿وَلَنْ هُذَيْفَةَ أَشْكُرَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَيْكُمُ فَالْقُورُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال. وقوله: ﴿فَمَقَطَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ ذُبْرًا﴾ أي: الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْنِي فِي عَمَزِيتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين خَبْنِهِمْ وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَقِيلَ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَاهُمُ نَارًا﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ذَرْنِهِمْ يَأْكُلُوا وَنَسْتَعْوِ وَنُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦).

وقوله: ﴿أَيَعَسَىٰ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَاسٌ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾ (٧) شَايَعَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ لَا يَشْعُرُونَ (٨) يعني: أيقظ هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ

(١) البخاري: ٢٢٦٢ وابن ماجه: ٢/٧٢٧.

(٢) فتح الباري: ٤/٣٥٥.

(٣) مسلم: ١/٧٠٣ وتحفة الأحمدي: ٨/٣٣٥ وأحمد:

٣٢٨/٢.

(٤) الطبري: ١٩/٤٥.

حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَذْخُلُهَا»^(٧).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾^(٨) يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المعتمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿وَذُرِّي وَالْكُذَّابِينَ أَتُولُوا الْقَعَمَةَ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾^(٩) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا^(١٠) الآية، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا بَرَاءَةُ آبَائِهِمْ لَكَرِهْتَ أَنْ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١١) لا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا^(١٢) أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم، لا تحيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿فَذَاكَاتْ مَائِنِي تَتْلِي عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَغْفَاكُمْ تُنكَصِرُونَ﴾^(١٣) أي: إذا دعيتم أينتم وإن طلبتم امتنعتم: ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ يَافِكُمْ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَرُسُلُهُ فَيَنصُرُوا وَإِنْ نُهُوا فَيَنصُرُوا فَاَلْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(١٤).

وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ بِهِ سَمِيرًا فَتَجْرُونَ﴾^(١٥) أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا بهم، كما قال النسائي في التفسير من سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُتَكَبِّرِينَ بِهِ سَمِيرًا فَتَجْرُونَ﴾^(١٦) فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهل سمر قال: كانوا يتكبرون ويمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه^(١٧).

﴿أَقْلَرُوا بِذُرِّيهِمُ الْقَوْلَ فَرَبُّهُمْ مَا رَأَىٰ مِنْ بَابِهِمْ الْأَوَّلِينَ﴾^(١٨) أَرَأَيْتُمْ رُسُلَهُمْ فَهَمُّ لَهُمْ مُنْكَرُونَ^(١٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْ رُسُلُهُمُ بِالْحَقِّ كَذِبُونَ^(٢٠) وَلَوْ أَنَّبَعْنَا آلِهَتُهُمْ فَتَسَدَّتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ^(٢١) أَمْ قَسَمُهُمْ حَرَمًا فَمَرَجَ رُبُوكَ حَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^(٢٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّدُوكَ^(٢٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا

وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يَزُوقُونَ مَاءَهُنَّ أَوْ وَفُؤَهُمْ وَجِلَّةٌ﴾، هو الذي يسرق ويغني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لَا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيُصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢٥) وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه، وقال: «لَا، يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ: ﴿أَوَلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾»^(٢٦) وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية^(٢٧).

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ﴾^(٢٨) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرَرٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَغْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِيلُونَ^(٢٩) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ^(٣٠) لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا^(٣١) فَكَانَتْ مَائِنِي تَتْلِي عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَغْفَاكُمْ تُنكَصِرُونَ^(٣٢) مُتَكَبِّرِينَ بِهِ سَمِيرًا فَتَجْرُونَ^(٣٣).

[بيان عدل الله وتقلبات المشركين]

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَكُتِبَ بِالْحَقِّ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قریش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرَرٍ﴾ أي: في غفلة وضلالة ﴿مِنْ هَذَا﴾، أي: القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُمْ أَغْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِيلُونَ﴾^(٣٤) قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ أَغْمَلٌ﴾ أي: سئمة من دون ذلك يعني الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَمِيلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها^(٣٥)، كذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد^(٣٦). وقال آخرون: ﴿وَهُمْ أَغْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِيلُونَ﴾ أي: قد كتبت عليهم أعمال سئمة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقق عليهم كلمة العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٣٧)، وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

(١) أحمد: ١٥٩/٦. (٢) تحفة الأحوذى: ١٩/٩.

(٣) الطبري: ٤٦، ٤٥/١٩. (٤) الدر المنثور: ١٠٧/٦.

(٥) الطبري: ٤٩/١٩، والقرطبي: ١٣٤/١٢.

(٦) الطبري: ٥٠/١٩. (٧) أحمد: ٣٨٢/١.

(٨) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦.

مَا بِهِمْ بَيْنَ ضَرٍّ لِلْجَوِّ فِي طَعْنِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴿٧٥﴾

[الرد على المشركين وذمهم]

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما أبائهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أنباهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها أثناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقُرْآنَ إِذْ وَاللَّهُ يَجِدُونَ فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ تَدْبَرِهُ الْقَوْمَ وَعَقْلُوهُ وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَهَلَكُوا عِنْدَ ذَلِكَ^(١)﴾. ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ^(٢)﴾ أي: أفهم لا يعرفون عمداً وصدقه وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم أي: أيفقدون على إنكار ذلك والمباينة فيه، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رحمه الله للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته^(٣)، وهكذا قال المغيرة بن شعبه لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سألته وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك^(٤). وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ إنه يقول القرآن، أي افتراه من عنده، أو إن به جنونا لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدین ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاطِلُ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْبَاطِلِ عَاكِفُونَ﴾. يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي: في حالة كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة. والله أعلم.

[الحق لا يتبع الهوى]

وقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عز وجل^(٥)، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من

الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٦) ثم قال: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ لَوِ اتَّخَذَ اللَّهُ مَوْلًى لَّكَوْنُ خَزَائِنِ رَحْمَةِ رَبِّكَ إِذَا لَأَسْكُمُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُصِيبْ مِنَ الْمَلَكِ فَيْدًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٧) ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه، ثم قال: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

[النبي لا يسأل أجراً ويُدْعُو إلى صراط مستقيم]

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ قال الحسن: أجراً^(٨). وقال قتادة جعلاً^(٩)، ﴿فَخَرَجَ عَلَى رِجْلِ خَيْرٍ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجراً ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك محتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنِ أَجْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾^(١٠) وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿رَبَّاهُ مِنْ أَقْصَا الْمَرْيَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفِرُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ سَالِكِ﴾^(١١) أَسْعَوْا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لننكبون^(١٢) روى الإمام أحمد عن ابن عباس: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَاهُ فِيمَا يَرَى النَّاسَ مَلَكَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَالْآخَرُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيْهِ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ: اضْرِبْ مِثْلَ هَذَا وَمِثْلَ أُمِّيهِ فَقَالَ: إِنَّ مِثْلَهُ وَمِثْلَ أُمِّيهِ كَمِثْلِ قَوْمٍ سَفَرُوا انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ مَقَارَةٍ فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الرَّادِّ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْمَقَارَةَ وَلَا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ حَبَرَةٍ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَجِيَاضًا رَوَّاءَ فَتَبِعُونِي فَقَالُوا: نَعَمْ قَالَ: فَأَنْطَلِقَ بِهِمْ فَأَوْرِدُهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَجِيَاضًا رَوَّاءَ فَأَكَلُوا وَشَرَبُوا وَسَمِنُوا فَقَالَ لَهُمْ أَلَمْ أَلْفَكُمُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَجَعَلْتُمْ لِي

(١) الدر المنثور: ١١٠/٦. (٢) ابن هشام: ٣٥٧/١.

(٣) فتح الباري: ٤٢/١.

(٤) الطبري: ٥٧/١٩ والقرطبي: ١٤٠/١٢.

(٥) الطبري: ٥٨/١٩. (٦) الدر المنثور: ١١٠/٦.

في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِ يُونُسَ» (٣) وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ﴾ (٧) أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغته، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت ألامهم ورجاؤهم.

[التذكير بنعم الله وقدرته العظيمة]

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يدركون بها الأشياء ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: ﴿فَلْيَلْمُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: ما أقل شكركم لله على ما أعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في بره الخلقية وذوته لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين ليقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما يشاء، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ تُخْلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمُنُ يَبْنِي لَهَا أَن تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلَ سَائِي النَّهَارِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء وخضع له كل شيء.

[استيفاد المشركين البعث بعد الموت]

ثم قال خبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من الكاذبين: ﴿بَلْ قَالُوا وَمِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَوَدَا وَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَاكَ وَإِسَاءًا﴾

إِنْ وَرَدَتْ بِكُمْ رِيَاضًا مُعَشِّبَةً وَحِيَاضًا رُوءَاءَ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: بَلَىٰ قَالَ: فَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا آعْشَبَ مِنْ هَذِهِ وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَىٰ مِنْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي قَالَ: فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: صَدَقَ اللَّهُ وَلَسَّيْتُهُ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نَقِيمٌ عَلَيْهِ (١).

[ذكر أحوال الكفار]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ لَهُمْ سُلَاطِينَ ثُمَّ لَا نَمُنُّ بِهِمْ وَلَا نَخَفُ سَمِيتُهُمْ بِمَعْمُورٍ﴾ (٧٦) أي: لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكُنَّا بِمَا بِهِمْ مُّشِرًا لَّجَبَّوْا فِي طَعْنِهِمْ يَمْمُورُونَ﴾ (٧٧) يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أراح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انفادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) وقال: ﴿وَلَوْ رَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ فَذَرَوْا وَاعْلَمُوا سَوَاءً لَّخَسِرُوا أَكْبَرُ خَسِرَاتٍ﴾ (٢٤) بل بدأهم ما كانوا يخفون من قبل ولورؤدوا لعلوا لعلوا عنه. إلى قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه ﴿لَوْ﴾ فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ﴾ (٧) وهو الذي أنشأ لَكَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ فَلْيَلْمُوا فِتْنَتَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٨) وهو الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ يُخْلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨) بَلْ قَالُوا وَمِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَوَدَا وَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَاكَ وَإِسَاءًا تَنْ وَابَاءُكَ هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ﴾ أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: ما خشعوا ﴿وَمَا يَنْصُرُهُمْ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني السور والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا﴾ الآية، وكذا رواه النسائي (٢)، وأصل هذا الحديث

(١) أحمد: ١/٢٦٧. (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤١٣.

(٣) فتح الباري: ٨/٤٣٥ ومسلم: ٤/٢١٥٦.

هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ يعنون: الإعادة محال، إنا نجبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظَمًا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذْ كَرِهَ خَاسِرَةُ ﴿١٢﴾ فَأَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ الآيات.

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَكُمْ كَلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْعِرُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَانْتَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

إقرار المشركين بتوحيد الربوبية والزامهم

بذلك بتوحيد الألوهية

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَّا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فقال: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: من مالكةا الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعتزون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٣﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجها، ومن هو رب العرش العظيم، يعني الذي هو سقف المخلوقات. ولهذا قال ههنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الكبير. وقال

في آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر، ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به.

﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَكُمْ كَلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيده الملك ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لَا، وَمُقَلَّبُ الْقُلُوبِ» فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يجفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجبر عليه لثلاث فئات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يباع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يَسْتَلْ عَنَّا فِعْلَهُمْ وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أي: لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وحكمته وعدله، فالخلق كلهم يسألون عن أفعالهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْرَيْكَ لَسَخْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجبر ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُشْعِرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وَأَنْتُمْ لَكَافِرُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَبْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرًا لَا يَرْهَنَ لَهُ يَدَهُ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ فالمركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا

عَابَاءَنَا عَلَى أَقْمَرٍ وَإِنَّا عَلَى عَاقِبَتِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١﴾ .

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيِّهِ مِمَّا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١) عَلَيْهِمُ الْعَقِيبُ وَاللَّشْكُونَةُ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾

[لا شريك لله]

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيِّهِ مِمَّا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لا انفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التنازع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهم كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً ﴿ عَلَيْهِمُ الْعَقِيبُ وَاللَّشْكُونَةُ ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِيقِي بِمَا وَعَدْتُهُ ﴾ (٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَا مَا نَعِدُهُمْ لَقَنَدُونَ ﴿٥﴾ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٨﴾

[الأمر بالدعاء عند حلول النقم]

وبالدفع الحسن وبالتعوذ

يقول تعالى أمراً بنبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ رَبِّ إِنَّمَا رُفِيقِي بِمَا وَعَدْتُهُ ﴾ أي: إن عاقبتهم وأنا شاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي

رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: ﴿ وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فَتَنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُتَوَنٍّ ﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَا مَا نَعِدُهُمْ لَقَنَدُونَ ﴾ (٢) أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿٤﴾ الآية، أي: وما يُلْهِمُ هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي: على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَأُولَئِكَ عَظِيمٌ ﴾ (٥) أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٦) أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَتَفَنُّهِ» (٧). وقوله تعالى: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ (٨) أي: في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ السَّهَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَتَغَيَّبَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ» (٩).

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (١٠) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾

[تمنى الكفار عند الاحتضار]

ينجز تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (١٠) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴿١١﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْأَحْذَكُ ﴾ إلى قوله:

(١) أحمد: ٢٤٣/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٨/٩.

(٢) أبو داود: ٤٩٠/١. (٣) أبو داود: ١٩٤/٢.

بَرْزَخٌ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمٍ يُمِتُّونَ﴾ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا» أي: في الأرض^(٢).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَ إِلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَمِنْهَا كَالْمُحْتَوِكِ﴾^(٣).

[النفخ في الصور ووزن الأعمال]

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ أي: لا تنفع [الأنساب] يومئذ ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾^(١) يصرونهم أي: لا يسأل القريب قريبه، وهو يصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ وَبَنِيهِ﴾^(٢) وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه - قال: فيفرج المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾^(٣). رواه ابن أبي حاتم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس^(٥)، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا وباعوا بالصفقة الخاسرة. ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ما كانوا فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كما

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوْلٍ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ شُؤُوا مِنْ قَبْلِ قَدِ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَبَلَّغُوا شَفَعَاءَ فَشَفَعُوا لَنَا أَوْ نُرْدِ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَارَ كِسُوفِ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّمَا مُوقِنُونَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُتَقَوُّوا عَلَى النَّارِ فَأَوْأَلَيْسَ لَنَا بُدٌّ لَنَا مِنْ كَذِّبِ رَبِّنَا بِمَا يَكُونُ لَنَا حُجَّةٌ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنَ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْرِضْنَا بِدُونِنَا فَبَلَّغُوا إِلَى حُرُوجٍ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥) والآية بعدها وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُحْزَنْكُمْ مَا تَدْكُرُ فِيهِمْ تَذَكَّرُوا وَجَاءَكُمْ مِنَ النَّارِ فَذُقُوا فَلَا يَجَابُونَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ وَيَوْمَ النَّشُورِ وَوَقْتُ الْعَرْضِ عَلَى الْجِبَارِ، وَحِينَ يَعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

وقوله ههنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلا حرف ردع ورجع، أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول، لا عمل معه، ولو ردُّ لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١) قال قتادة: والله ما نمتي أن يرجع إلى أهل ولا على عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن نمتي أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأ عمل فيها يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار.

[البرزخ وعذابه]

﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ قال أبو صالح وغيره قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ﴾ يعني أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون^(١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ

(١) الدر المنثور: ١١٦/٦. (٢) تحفة الأحوذني: ٤/١٨٣.

(٣) الطبري: ٧٢/١٩. (٤) الدر المنثور: ٤١٨/٦.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٧) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال. آخر تفسير سورة المؤمنون.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَفُرِضَتْهَا وَأُنْزِلَ فِيهَا آيَاتٌ يَسْتَلْزِمُكُمْ لَذِكْرُكُمْ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشِدَّةٌ عَلَيْهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةُ النُّورِ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها؛ ﴿وَفُرِضَتْهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: بينا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود (٢). وقال البخاري: ومن قرأ فرضناها، يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم (٣) ﴿وَأُنْزِلَ فِيهَا آيَاتٌ يَسْتَلْزِمُكُمْ﴾ أي: مفسرات واضحة ﴿لَذِكْرُكُمْ﴾.

[بيان حد الزنا]

ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وفيه تفصيل، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل. فإما إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني: في الأعرابي الذي أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيماً - يعني أجيئاً - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدة مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، الْوَلِيدَةُ وَالْعَسَمَةُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِائَةً وَتَغْرِيبٌ عَامٌ، وَاعْدُ يَا ابْنِيسُ، -

﴿قُلْ إِنْ لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿أَوْ أَتُكْفَرُ بِهِ﴾ أي: لما أثرتكم الفاني على الباقي ولما نصرتم أنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققتهم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

روى ابن أبي حاتم عن صفوان عن أبيه عن عبد الكلاعي أنه سمعه يخاطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كُنْمْ لِبَشَرِ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَوْمَآ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - قَالَ: لَيْسَ مَا أَتُحَرِّمُ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَتَحْتَمِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، انْكُتُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ كُنْمْ لِبَشَرِ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَوْمَآ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - قَالَ: بَشَرِ مَا أَتُحَرِّمُ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَارِي وَسَخَطِي، انْكُتُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ» (١).

[إن الله لم يخلق العباد عبثاً]

وقوله تعالى: ﴿أَفَصَبَّحْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَشَا﴾ أي: أفنظمتكم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبشوا كما خلقت البهائم لا نواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة، وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنْتُمْ لَيْسَ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَذَكَّرَ (٢)﴾ يعني مثلاً. وقوله: ﴿فَتَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ الْمَلِكَ الْحَقُّ﴾ أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي: حسن النظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿أَبَلَيْسَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذِي كَرَمٍ﴾.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهَ إِنَّهُ يَهْدِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿فَأَتَمَّ حَسَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٧) ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٨)

[الشرك ظلم عظيم لا فلاح لصاحبه]

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، وغيراً أن من أشرك بالله ﴿لَا يَرْجِعْ لَهُمْ﴾ أي: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهَ إِنَّهُ يَهْدِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَأَتَمَّ حَسَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: الله يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

(١) أسد الغابة: ١/١٨٧.

(٢) الطبري: ١٩/٨٩ والدر المنثور: ٦/١٢٤.

(٣) فتح الباري: ٨/٣٠١.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠)

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاص بزنا، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه.

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطب بالتزوج بالبغايا، أو تزويج العفاف بالرجال الفجار، وقال قتادة ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا (٧)، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْتَوْحِشَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْتَوْحِشَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول، كانت تسافح وتشترب له أن تنفق عليه، قال: فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال: فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) (٨).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ». وهكذا أخرج أبو داود في سننه (٩).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢١) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢)

[بيان حد القذف]

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف

لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فَإِنْ اغْتَرَفَتْ فَازْجَمْهَا فغدا عليها فاعترفت فرجها (١).

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج، فأما إذا كان محصنًا، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل، فإنه يرجم. كما روى الإمام مالك أن عمر [رضي الله عنه] قام فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس! فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم. فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف (٢). أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا (٣).

[لا تكن لديكم رافة في إقامة الحدود]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله، أي لا ترحمهما وترأفاً بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرافة الطبيعية على إقامة الحد، وإنما هي الرافة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز [له] ذلك. قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل، وكذا روي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح (٤). وقد جاء في الحديث: «تَعَاثَرُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا يَلَغِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ» (٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك، وأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال «وَلَكِ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ» (٦).

[أقيموا الحد بحضرة الناس]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين، إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقييماً وتوبيخاً وفضيحة، إذا كان الناس حضوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: علانية.

(١) فتح الباري: ٥/٣٥٥ ومسلم: ٣/١٣٢٤.

(٢) الموطأ: ٢/٨٢٣.

(٣) فتح الباري: ١٣/١٤٨ ومسلم: ٣/١٣١٧.

(٤) البغوي: ٣/٣٢١. (٥) أبو داود: ٤/٥٤٠.

(٦) أحمد: ٥/٣٤. (٧) الدر المنثور: ٦/١٢٧.

(٨) أحمد: ٢/١٥٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٤١٥.

(٩) أبو داود: ٢/٥٤٣.

الحد (٨) **﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ﴾** (٨) **﴿وَالْخَوَاسَةِ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** (٩) فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يجحد عنه.

ثم ذكر تعالى رافته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾** أي: لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم **﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾** أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة **﴿حَكِيمٌ﴾** فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة.

[سبب نزول اللعان]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَاءَ ثُمَّ لَا بِأَيِّهَا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَجَازُوا بِهَا عَذَابَ اللَّهِ جَلَدًا وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾** قال سعد بن عباد - وهو سيد الأنصار - **﴿ههنا﴾** أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله **﴿نعم﴾** **﴿يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيّدكم؟﴾** فقالوا: يا رسول الله لا نعلم فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيظه. فقال سعد: والله - يا رسول الله - إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكنني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهتجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته - قال: فإلبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلًا، فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهتجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله **﴿فقال﴾** يا رسول إني جئت على أهلي عشاء فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، ففكر رسول الله **﴿ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد، الآن يضرب رسول الله **﴿هلال بن أمية ويطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها نحر جأ.﴾****

رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: **﴿ثُمَّ لَازِمُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَجَازُوا بِهِمْ شَلَّةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** فأوجب على القاذف - إذا لم يقم البينة على صحة ما قال - ثلاثة أحكام: (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة. (الثاني) أنه ترد شهادته أبدًا. (الثالث) أن يكون فاسقًا ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس.

[بيان توبة القاذف]

ثم قال تعالى: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** هذا الاستثناء يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ - أما الجلد فقد ذهب وانقضى، سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فإذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، نص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضًا (١).

وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته (٢)، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْبَعَهُمْ وَلَا بِكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣) **﴿وَالْخَوَاسَةِ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾** (٤) **﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ﴾** (٥) **﴿وَالْخَوَاسَةِ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** (٦) **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾** (٧)

[بيان اللعان]

هذه الآية الكريمة فيها فرج للزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء **﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أي: فيما رماها به من الزنا **﴿وَالْخَوَاسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾** (٧) فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذه اللعان وحُرِّمت عليه أبدًا، ويعطيه مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرا عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به **﴿وَالْخَوَاسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** (٨) ولهذا قال **﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابُ﴾** يعنسى

كَبُرَ مِنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

[حديث الإفك]

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولبنيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِمَّنْكُمْ﴾ أي: جماعة منكم يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فإن كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة

وروى الإمام أحمد عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت لـ اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وذكر أن عائشة ﷺ زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة ﷺ: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأننا أهل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمنا حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتصت عقدي، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي فحولوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يلبسهن [و] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما

وقال هلال: يا رسول الله! فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم أنني لصادق. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يامر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي - وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تزييد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من السوحي - فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهِدَاتٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أُخْرَىٰ أَرَأَيْتُمْ شَهِدَاتِ الْيَوْمِ﴾ الآية، فسري عن رسول الله ﷺ فقال: «أَبَشِّرْ يَا هَلَالُ، فَقَدْ جَمَلَ اللَّهُ لَكَ قَرْجًا وَمَخْرَجًا» فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «أُرْسِلُوا إِلَيْهَا» فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لَا عِشْوَا بَيْنَهُمَا» فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفصح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينها، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا يبيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أن يفرقا من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إِنْ جَاءَتْ بِهِ أَصْنَبٌ [أُرْسِخْ] حَمْسُ السَّاقِينَ فَهُوَ لِهَلَالٍ وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْزَقُ جَعْدًا جَمَالِيًا خَدَلَجُ السَّاقِينَ سَابِعُ الْأَلْيَتَيْنِ فَهُوَ لِلَّذِي رُمِيَ بِهِ» فَجَاءَتْ بِهِ أَوْزَقُ جَعْدًا جَمَالِيًا خَدَلَجُ السَّاقِينَ سَابِعُ الْأَلْيَتَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَوْلَا الْأَيُّمَانُ لَكُنَّا لِي وَلَهَا شَأْنٌ» قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب^(١).

ورواه أبو داود^(٢) نحوه. مختصراً.

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِمَّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى

قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله [هم] أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيئ الله عليك والنساء سواها كثير، وإن نساء الجارية تصدقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريدة فقال: «أي بريدة هل رأيت من شيء يريئك من عائشة؟» فقالت له بريدة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجيين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، مَنْ يَغْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ» فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله! إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عباد، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد: كذبت! لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتأور الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخففهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ، قالت: ويكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبوأي يظنان أن البكاء فائق كبدي، قالت: فيسئما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فيينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قبل ما قبل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيَرُوكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ثُمَّ ثَوْبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب

استمر الجحيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمنت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني ف يرجعون إلي، فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فتمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجحيش، فاذلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفتني حين رأي، وقد كان رأي قبل [أن يضرب علي] الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخرمت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه [حتى] أنساخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجحيش بعدما نزلوا موغرين في بحر الظهير، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدما المدينة فاشتكت حين قدمها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أي لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنها يدخل رسول الله ﷺ يسلم ثم يقول: «كيف يَكُم؟» فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشئ حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح، قبل الماصع — وهو متبرزنا — ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية، وكنا نتأذى بالكُف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب ابن عبد مناف، وأما ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنتها مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح لي مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بشما قلت، تسين رجلاً شهد بدرًا؟! قالت: أي: هتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرصاً لي مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «كَيْفَ يَكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فبحثت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بها، فيكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي،

فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط^(١)، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري^(٢)، وهكذا رواه ابن إسحاق عن الزهري^(٣)، كذلك قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب والبهتان والافتراء «عصبة» أي: جماعة منكم «لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ دَعْوَاهُمْ» أي: يا آل أبي بكر «بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ» أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة وإظهار شرف لهم باعتبار الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» الآية، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنهما وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يجبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء^(٤). وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْفِ﴾ أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب «وَاللَّهُ تَوَّابٌ غَفُورٌ» قيل: ابتداء به. وقيل: الذي كان يجمع ويستوشيه ويذيعه ويشيعه «لَهُ مَذَابٌ عَظِيمٌ» أي: على ذلك، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول فبحه الله تعالى ولعنه «لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا» وقالوا «هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ» «لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ»

[تأديب المؤمنين على إشاعة الإفك]

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك فقال تعالى: ﴿لَوْ لَا﴾ يعني هلا «إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» أي: ذلك الكلام الذي رमित به أم المؤمنين رضي الله عنها «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا» أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وقد قيل: إنها نزلت في التأمي بقول أبي أيوب

عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني -، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (١٨) قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله أعلم حيث أتي بريئة وأن الله تعالى مبرئي براءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شائي وحي يتي، ولشائي كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتل، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم [من] مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في [اليوم الشاتي] من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أُبَشِّرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَأَكِ» قالت: فقالت لي أُمِّي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله [هذه الآيات] في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان يتفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيُ أَنْ يَرْفُخُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩) فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يتفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمري، فقال: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع. وطفقت أختها حمزة بنت جحش تحارب لها، فهلك فيمن هلك. قال ابن شهاب:

(١) أحمد: ١/١٩٤.

(٢) فتح الباري: ٨/٣٠٦، ومسلم: ٤/٢١٢٩.

(٣) ابن هشام: ٣/٣٠٩. (٤) فتح الباري: ٨/٣٤٠.

المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مبشرواً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعض ^(٢)، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقرأ آخرون: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرأها كذلك ^(٣)، وتقول: هو من وَلَقِيَ اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَقِيَ فلان في السير إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون، ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشاً وكلاً، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وفي الصحيحين: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَكْبِرُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يَذُرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وفي رواية: «لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا» ^(٤).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَاتْرُكُوهُ أَلَا تَنْتَكُمُ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٥) يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِلْعَيْلَةِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٦) وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(٧)

[التأديب مرة أخرى]

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بظن الخير، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا

خالد بن زيد الأنصاري وأمراته ^(٨)، كما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ^(٩)؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، قال: فلما نزل القرآن ذكر عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ لَمَسْنَاكُمْ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبه ^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ أي: هلا ظنوا الخير فإن أم المؤمنين أهله وأولى به. هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بالسستهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ ^(١١) أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين ^(١٢)، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رابكة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكامله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك عما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعوننة الفاحشة الفاجرة، والصفتة الخاسرة، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالْبَهْدَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ^(١٣) أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكُنْتُمْ فِي مَا أَفْسَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ^(١٥)

[فضل الله على أهل الإفك بتوفيق التوبة لهم]

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: الخائفون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَكُنْتُمْ فِي مَا أَفْسَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(١٦) وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بن جحش، فأما من خاض فيه من

(١) الطبري: ١٢٩/١٩. (٢) الطبري: ١٣٢/١٩.

(٣) فتح الباري: ٣٤٠/٨.

(٤) فتح الباري: ٣١٤/١١، ومسلم: ٢٢٩٠/٤.

يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَاوَزَ لَأَمْنِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» أخرجاه في الصحيحين^(١). وقال الله تعالى: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا» أي: ما ينبغي لنا أن نقوله بهذا الكلام ولا نذكره لأحد «سُبْحَنَكَ هَذَا بَشَرًا لَيْسَ غَیْبٌ»^(٢) أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجه رسوله وحليته خليه.

ثم قال تعالى: «يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا لِلشَّيْءِ أَبَدًا» أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي: فيما يستقبل، فلهذا قال: «إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ»^(٣) أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر، ثم قال تعالى: «وَرَبِّينَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتُ» أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدسية «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٤) أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

«إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(٥)

[تأديب من يجب إشاعة الفاحشة في المؤمنين]

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالفحش «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا» أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(٦) أي: فردوا الأمور إليه ترشدوا. وروى الإمام أحمد عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «لَا تُؤْخَذُوا عِبَادَةَ اللَّهِ وَلَا تُعَبِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ»^(٧).

«وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»^(٨)
«يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»^(٩)

[التذكير بفضل الله والتحذير من خطوات الشيطان]

يقول الله تعالى: «وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»^(١٠) أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه، ثم قال

تعالى: «يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ» يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «خُطُوبَ الشَّيْطَانِ» عمله^(١١). وقال عكرمة: نزغته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان^(١٢). وقال أبو مجلز: التذوُّر في المعاصي من خطوات الشيطان^(١٣). ثم قال تعالى: «وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شرورها، وفجورها وذنوبها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغى. وقوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أي: سميع لأقوال عباده «عَلِيمٌ»^(١٤) بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

«وَلَا يَأْتِي أَوَّلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوَّلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ يَنْقُرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١٥)

[حث أولي الفضل على العطاء والسماح]

يقول تعالى: «وَلَا يَأْتِي» من الآية وهي الخلف، أي لا يحلف «أَوَّلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ» أي: الطُّول والصدقة والاحسان «وَالسَّعَةِ» أي: الجسدة «أَنْ يُؤْتُوا أَوَّلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا إخوانكم المساكين والمهاجرين. وهذا في غاية الترفق والعطف على صلا الأرحام، ولهذا قال تعالى: «وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ يَنْقُرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي: عما نقله منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق لله حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أتبع عليه، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والملة - يعطف الصديق على قريبه ونسيه وهو مسطح بن أثانة، فإنه كان ابن خالاً

(١) فتح الباري: ١١/٥٥٧، ومسلم: ١/١١٦، ١١٧.

(٢) أحمد: ٥/٢٧٩. (٣) الطبري: ٣/٣٠١.

(٤) الدر المنثور: ١/٤٠٤. (٥) الطبري: ٣/٣٠١.

وروى ابن أبي حاتم أيضًا عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أَتَذَرُونَ مِمَّ أَصْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلُمِ؟ يَقُولُ: بلى، فيقول: لَا أُجِيزُ عَلَيْكَ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، يَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهودًا، فيحتم على فيه ويقول: لَا زَكَاةَ أَنْطِيقُ فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يَحْتَلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ يَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُخْفًا، فَعَنْكَرُ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» وقد رواه مسلم والنسائي (٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَدِينُهُمْ﴾ أي: حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي: حسابهم، وكذا قال غير واحد (٥)، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٦) أي: وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧)

[عائشة طيبة؛ لأنها لأطيب البشر]

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول — قال: — ونزلت في عائشة وأهل الإفك (٨)، وهكذا روي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن بن أبي الحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، واختاره ابن جرير (٩) ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسب أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

(١) الطبري: ١٩/١٣٩.

(٢) فتح الباري: ٥/٤٦٢، ومسلم: ١/٩٢.

(٣) الدر المنثور: ٧/٣١٩، والطبري: ٨/٣٧٣.

(٤) مسلم: ٢٩٦٩. (٥) الطبري: ١٩/١٤١.

(٦) الطبري: ١٩/١٤٢، والدر المنثور: ٦/١٦٧.

(٧) الطبري: ١٩/١٤٣، ١٤٤.

الصادق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما يتفق عليه أبو بكر، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولّى ولقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق عليه السلام معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تَجِدُونَ أَنَّ يَقُولُ أَنَّ لَكُمْ﴾ الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك تغفر لك، وكما تصفح نصفك عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب - ياربنا - أن تغفر لنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بئانه أبدًا. فلهذا كان الصديق هو الصديق عليه السلام وعن بته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفُ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَعِينُونَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (١٥)

[الوعيد على رمي المحصنات الغافلات المؤمنات]

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فأمهات المؤمنات أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق عليه السلام، وقد أجمع العلماء ورحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بها ورماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وكذا الحكم في جميع أمهات المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أمًا في ذلك (١٦).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفَوِّقَاتِ» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّخَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». أخرجه في الصحيحين (١٧).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨) روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذ رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجهد فيجحدون، فيختم على أفواههم ونشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا (١٩).

واتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأي أنت وأمي، ما سلمت تسليمًا إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أَكَلْتُ طَعَامَكَ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرْتُ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ»، ثم ليُعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بسر، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور. تفرد به أبو داود (٤).

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّ أُمَّةً أَطَاعَتْ عَلَيْكَ بَعْدِي إِذْنِي، فَخَلَّتْ بِحَصَاةٍ فَقَاتَتْ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ» (٥)، وأخرج الجماعة عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دبر كان على أبي فدقت الباب، فقال: «مَنْ ذَا؟» فقلت: أنا، قال: «أَنَا» كأنه كرهه (٦)، وإنا كرهه ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، ولا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل به المقصود بالاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية، وقال العمري عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان، وكذا قال غير واحد. وقد روى الإمام أحمد عن كلدة بن الحنبل أن صفوان أمة بعته في الفتح بلبا وجداية وصغابيس، والنبي ﷺ بأمر الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم استأذن فقال [النبي] ﷺ «ارْجِعْ فَقُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَذْخَلَ؟» وذلك بعدما أسلم صفوان (٨)، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي. وقال الترمذي: حسن غريب (٩).

الحيثيات من النساء للحيثيين من الرجال، والحيثيون من الرجال للحيثيات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء (١)، وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا، ولهذا قال تعالى: «أَوَلَيْكَ مَثَرَةٌ مِمَّا يَقُولُونَ؟» أي: هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» (٢) أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ» (٤) «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» (٥).

[الاستئذان وآداب الدخول في البيوت]

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في [الاستئذان]. أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأمنوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فإن أذن له وإلا انتصرف، كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انتصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال: إني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إِذَا اسْتَأْذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ». فقال عمر: لتأنيني على هذا بينة وإلا أوجعتك ضربا، فذهب إلى ملا من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر: فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق (٦).

وروى الإمام أحمد عن أنس أو غيره أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عباد فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثا، ورد عليه سعد ثلاثا ولم يُسمعه، فرجع النبي ﷺ

(١) الطبري: ١٩/١٤٤. (٢) فتح الباري: ١٣/٣٢٢.

(٣) أحمد: ٣/١٣٨. (٤) أبو داود: ٥/٣٧٤.

(٥) فتح الباري: ١٢/٢٥٣، ومسلم: ٣/١٦٩٩.

(٦) فتح الباري: ١١/٣٧، ومسلم: ٣/١٦٩٧، وأبو داود: ٥/٣٧٤، وتحفة الأحوذى: ٧/٤٩١، والنسائي في الكبرى: ٦/٩٠.

(٧) الطبري: ١٩/١٤٦. (٨) أحمد: ٣/٤١٤.

(٩) أبو داود: ٥/٣٦٨، وتحفة الأحوذى: ٧/٤٩٠، والنسائي في الكبرى: ٦/٨٧.

وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدن الناس. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والإذن كله قد جحدته الناس قال: قلت: أستاذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضاً. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم، قال: فاستأذن. قال ابن جريج: وأخبرني ابن طاوس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عريتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك، وقال ابن جريج عن الزهري: سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم وقال ابن جريج: نكح لوطاً: أستاذن الرجل على امرأته قال: لا وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يباحها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى أبو جعفر بن جرير عن ابن أخي زينب - امرأة عبد الله ابن مسعود - عن زينب رضي الله عنها قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأتته إلى الباب تنحنح ويزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ^(١)، إسناده صحيح.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول: حييت صباحاً وحييت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم يطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: قد دخلت، ونحو ذلك، فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله فغضب الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من النجس والقذر والدرن، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ الآية ^(٢)، وهذا الذي قاله مقاتل: حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿لَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من لطرفين: للمستأذن ولأهل البيت عليهم السلام ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يَخْرُجَ لَكُمْ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتِعُوا فَتَرْتِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ الآية، هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كاليوت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى، قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ثم نسخ واستثنى فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وكذا روي عن عكرمة ^(٤) والحسن البصري.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ^(٥)

[الأمر بغض البصر]

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن [يغضوا] أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرّم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري ^(٦). وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ» قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَيْتَمْتُ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ فقال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكُفُّ الْأَدَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ النِّكَرِ» ^(٧).

وروى أبو القاسم البغوي عن أبي أمامة، يقول: سمعت رسول الله ﷺ: «اتَّخِلُوا لِي سِتًّا، أَتُخَلِّلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ إِذَا حَدَّثَ

(١) الطبري: ١٤٨/١٩. (٢) الدر المنثور: ١٧٦/٦.

(٣) الطبري: ١٥٠/١٩. (٤) الطبري: ١٥٣/١٩.

(٥) مسلم: ١٦٩٩/٣. (٦) فتح الباري: ١٣٤/٥.

المشركات، وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرشدة كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأذرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذواتهن فقالت أسماء: ما أصبح هذا فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ الآية^(١)، فقله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن.

وذهب من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحراهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت^(٢)

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جبير: عس الفواحش. وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا يراها أحد^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود كالرداء والثياب^(٤)، يعني على ما كان يتعانهن نساء العرب من المقنعة التي تحمل ثيابها وما يسد من أسافل الثياب. فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم^(٥)

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني المقانع يعمل لها صيقات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وتراثبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن

أحدكنم فلا يكذب، وإذا اتحنن فلا يتحنن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم^(٦) ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُنَّ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ فُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٧) وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «أحفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك»^(٨) وذلك أنك لهم^(٩) أي: أظهر لقلوبهم وأنتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصرته، ويروى: في قلبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(١٠) كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١١). وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَقُّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا حَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ، وَرَزْنَا اللِّسَانَ النَّطْقُ، وَرَزْنَا الْأَذْنَيْنِ الْاسْتِغَاةَ، وَرَزْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَرَزْنَا الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيُ، وَالنَّفْسَ تَمَكُّي وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يُصَدَّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكْذَبُ» رواه البخاري تعليقا^(١٢)، ومسلم مسنداً من وجه آخر بنحو ما تقدم^(١٣)، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهاون أن يحد الرجل بصره إلى الأمد، وروى ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنَا حَفْصَتَ عَنْ مَخَازِمِ اللَّهِ، وَعَيْنَا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنَا تَخْرُجُ مِنْهَا يَنْتُلُ رَأْسَ اللَّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٤)

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يَبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِخْوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْزَاقِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَا يَظْهَرُونَ عَلَى عَوْرَتِ الْإِسْلَامِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٥)

[أحكام الحجاب]

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيره منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتميزهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال

(١) تاريخ الخطيب: ٣٩٢/٧، والطبراني في المعجم الكبير

٣١٤/٨، وابن حبان في المجروحين: ٢٠٤/٢.

(٢) أحمد: ٣/٥، وأبو داود: ٣٠٤/٤، والترمذي: ٥٣/٨.

والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٥، وابن ماجه: ٦١٨/١.

(٣) فتح الباري: ٢٨/١١. (٤) مسلم: ٢٠٤٧/٤.

(٥) الفردوس للدليمي: ٢٥٦/٣، والدر المنثور: ١٧٨/٦.

(٦) الدر المنثور: ١٧٩/٦. (٧) البخاري: ٤٥٤ وغيره.

(٨) الطبري: ١٥٤/١٩. (٩) الطبري: ١٥٦/١٩.

(١٠) الطبري: ١٥٦/١٩.

يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة
بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها
وأقرطه أذانيها، فأمر الله المؤمنات أن يسترن في هياتهن،
وأحوالهن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوَّجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْبِرْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ذَلِكُمْ أَذْفَىٰ أَنْ يَعْرِقْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾
وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾
والخمر جمع خمار وهو ما يُمخَّر به أي: يغطى به الرأس، وهي
التي يسميها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ
جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء^(١).
وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء
المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾
فشققن مروطهن فاختمرن بها^(٢). وروى أيضًا عن صفية
بنت شيبة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: لما نزلت هذه الآية
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزهرن فشققنهن من
قبل الحواشي فاختمرن بها^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي:
أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ
أَسْنَافَهُنَّ﴾ أو أخواتهن أو بنات أخواتهن أو بنات أخواتهن
كل هؤلاء محرم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتهن ولكن
من غير اقتصاد والتبرج. وقد روى ابن المنذر: عنه عكرمة في
هذه الآية: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ
أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حتى فرغ منها وقال: لم يذكر العم ولا
الحال؛ لأنها ينعان لأبنائهن، ولا تضع خمارها عند العم
والحال^(٤)، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتصنع له بما لا
يكون بحضرة غيره.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني تظهر بزيتهن أيضًا للنساء
المسلمات دون نساء أهل الذمة لثلاث تصفهن لرجالهن. وذلك
وإن كان محذورًا في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة
أشد، فإنه لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها
نعلم أن ذلك حرام فتزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا
تُباشر المرأة المرأة [فتفتحنها] لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجه
في الصحيحين عن ابن مسعود^(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قال ابن جرير: يعني
من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زيتها لها، وإن كانت

مشركة لأنها أمتها^(٦)، وإليه ذهب سعيد بن المسيب^(٧).
وقوله تعالى: ﴿أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾
يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك
في عقولهم ولغة وأحوال، ولا همه لهم إلى النساء ولا
يشتهوهن، قال ابن عباس هو المغفل الذي لا شهوة له^(٨).
وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال
غير واحد من السلف، وفي الصحيح عن عائشة، أن غنثًا
كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير
أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا
أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول
الله ﷺ: «أَلَا أَرَىٰ هَذَا يَنْلَمُ مَا قَهْنَا، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمُ»
فأخرجه، فكان بالبديء يدخل كل يوم جمعة ليستنطم^(٩).
وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلَ الَّذِي تَرَىٰ يُظْهِرُ عَلَىٰ عَوْرَتِهِ أُنْثَىٰ﴾
يعني لصغره لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، من
كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا
كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء،
فأما إن كان مراهقًا، أو قريبًا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه
يفرق بين الشوهاء والحسنة، فلا يمكن من الدخول على
النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمور؟
قال: «الْحَمُورُ الْمُؤْتَّ»^(١٠).

[آداب مشي المرأة في الطريق]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية، كانت المرأة في
الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال
صامت لا يعلم صوته، ضربت برجلها الأرض، فيعلم
الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا
كان شيء من زيتها مستورًا فتحركت بحركة لتظهر ما هو
خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ

(١) الدر المنثور: ٦/١٨٢. (٢) فتح الباري: ٨/٣٤٧.

(٣) فتح الباري: ٨/٣٤٧. (٤) ابن أبي شيبة: ٤/٣٣٨.

(٥) فتح الباري: ٩/٢٥٠. (٦) الطبري: ١٩/١٦٠.

(٧) الدر المنثور: ٦/١٨٣. (٨) الطبري: ١٩/١٦١.

(٩) مسلم: ٤/١٧١٥، ١٧١٦، وأحمد: ٦/١٥٢، وأبو داود:

٥/٢٢٤، والنسائي في الكبرى: ٥/٣٩٥.

(١٠) فتح الباري: ٥/٢٤٢، ومسلم: ٤/١٧١١.

الأيامي جمع أيام، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج، واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيام وامرأة أيام.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، وودعهم عليه الغنى^(١)، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رواه ابن جرير^(٢)، وذكر البغوي عن عمر بنحوه^(٣)، وعن الليث عن محمد ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: النَّكَاحُ يُرِيدُ الْعَقَّافَ، وَالْمَكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه^(٤). وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي يجد عليه إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فوجد تلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله.

[الأمر بالاستعفاف لمن لم يقدر على النكاح]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجا، بالاستعفاف عن الحرام كما قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ سَكُنَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» الحديث^(٥)، وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا اسْتَعْطَرْتُمْ فَمَرْثُ بِالْمَجْلِسِ فِيهِ مِنَ التَّبَرُّجِ. رواه أبو داود عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ». فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليلتصق بالجدار من لصوقها به^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهي عنه، والله تعالى هو المستعان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٧) وليستغفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاكِتُبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٨) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَادِيَّ مَيْمِنَتٍ وَمَكَرَ مِنَ الَّذِينَ خَلَاوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ^(٩)

[الأمر بالنكاح]

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة، فقله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ إلى آخره، هذا أمر بالتزويج. وقال عليه الصلاة والسلام: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» أخرجه في الصحيحين من حديث ابن مسعود^(٤)، وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا تَوَالِدُوا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

(١) تحفة الأحوذى: ٨/ ٧٠.

(٢) أبو داود: ٤/ ٤٠٠، والنسائي: ٨/ ١٥٣.

(٣) أبو داود: ٥/ ٤٢٢.

(٤) فتح الباري: ٩/ ١٤، ومسلم: ٢/ ١٠١٩.

(٥) لم نثر على هذا اللفظ، وإنما رواه أبو داود والنسائي بلفظ قريب من هذا.

(٦) الطبري: ١٩/ ١٦٦. (٧) الطبري: ١٩/ ١٦٦.

(٨) البغوي: ٣/ ٣٤٢.

(٩) أحمد: ٢/ ٢٥١، وتحفة الأحوذى: ٥/ ٢٩٦، والنسائي:

٦١/ ٦، وابن ماجه: ٢/ ٨٤١.

(١٠) فتح الباري: ٩/ ١٤.

الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية، فيما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم.

[ذكر الآثار الواردة في ذلك]

روى الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مستنده عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول، يقال لها معاذة يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تَكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ الآية^(٥)، وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة، كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَا تَكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ كَرْهِيهِنَّ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾^(٦) وروى النسائي نحوه^(٧).

وقال مقاتل بن حيان: بلغني - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت [للأنصاري]، وكانت أممية أم مسيكة لعبد الله بن أبي وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة، فأتت مسيكة وأمها النبي ﷺ فذكرتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تَكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ يعني: الزنا^(٨).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ نَحْصُكُمُ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن^(٩)، وفي رواية: «مَهْرُ الْبَغِيِّ حَبِيبٌ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ، وَثَمَنُ الْكَلْبِ

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: صبركم عن تزويج الإماء خير لكم، لأن الولد يبيء رقيقاً ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾^(١٥). نسال عكرمة في قوله: ﴿وَلَيْسَتْ عَفْوٌ لِلَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله.

[الأمر بمكاتبة العبيد]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لَكَتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه.

وقال البخاري: وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه، قال: ما أراه إلا واجباً. قال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثروا عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتب، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عمر [بن الخطاب] رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى فضربه بالدرّة، ويتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه. هكذا ذكره البخاري تعليقاً^(١). ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً^(٢). وروى ابن جريج عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه فقال له عمر: لتكاتبته، إسناد صحيح^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانه، وقال بعضهم: صدقاً، وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: حيلة وكسب. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ هو الخصب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة، وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان واختاره ابن جريج^(٤)، وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ قال: حبس الناس عليه مولاه وغيره، وكذا قال بريدة بن الحصيب الأسلمي وقطادة، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب.

[النهي عن إكراه الإماء على الزنا]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ الآية، كان أهل

(١) فتح الباري: ٥/٢١٩. (٢) عبد الرزاق: ٨/٣٧١.

(٣) الطبري: ١٩/١٦٧.

(٤) الطبري: ١٩/١٧٣، والبخاري: ٣/٣٤٣.

(٥) كشف الأستار: ٣/٦١. (٦) الطبري: ١٩/١٧٤.

(٧) النسائي في الكبرى: ٦/٤١٩. (٨) الدر المنثور: ٦/١٩٣.

(٩) مسلم: ٣/١١٩٨.

خَيْبٌ^(١) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) أي: لمن كما تقدم في الحديث عن جابر . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لمن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن^(٣)، وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة^(٤).

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ نِجْرٍ أَنْبِيَاءَ مِنْ بَنِيهِمْ﴾ يعني القرآن، فيه آيات واضحة مفسرات ﴿وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾^(٥) ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٦) أي: لمن اتقى الله وخافه.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْوَاقِعِ﴾ يعني: ﴿وَصَبَّاحُ الْيَصْبَاحِ فِي زَجَاجَةِ الزَّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٧)

[مثل نور الله]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السماوات والأرض^(٨)، قال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيها نجومها وشمسها وقمرها^(٩).

وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبنوره أضواء السماوات والأرض. وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نَوْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» الحديث^(١٠)، وعن ابن مسعود قال: إن ريكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في هذا الضمير قولان: (أحدهما): أنه عائد إلى الله عز وجل أي: مثل هده في قلب المؤمن - قاله ابن عباس - : كمشكاة. (والثاني): أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دلَّ عليه عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي دلَّ عليه عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة.

فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى: ﴿أَفَنُكْفِيكَ عَنْ عَلَى يَنْتَوِي مِن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فشبه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرف المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف، فقله: ﴿كَيْشْكُورٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل^(١١) هذا هو المشهور ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا صَبَّاحٌ﴾ وهو الذبالة التي تضيء. وقيل: المشكاة كوة في البيت، وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نوراً ثم سبها أنواعاً شتى، قال أبي بن كعب: المصباح النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره^(١٢)، وقال السدي: هو السراج، ﴿الْيَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ﴾ أي: هذا النور مشرق في زجاجة صافية، وقال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن^(١٣) ﴿الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾ أي: بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أي: كأنها كوكب من در، وقرأ آخرون: ﴿دُرِّيَّةٌ﴾ (ودُرِّيَّةٌ) بكسر الدال وضمها مع الحمزة من الدرء وهو الدفع، وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استتارة من سائر الأحوال، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري، قال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف ببيان ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربيها فيقلص عنها الفياء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تفرعه الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً.

(١) مسلم: ١١٩٩/٣.

(٢) النسائي: في الكبرى: ٤١٩/٦.

(٣) الطبري: ١٧٥/١٩.

(٤) الطبري: ١٧٥، ١٧٦، الدر المنثور: ١٩٥/٦.

(٥) الطبري: ١٧٧/١٩.

(٦) الطبري: ١٧٧/١٩.

(٧) فتح الباري: ٥/٣، ومسلم: ٥٣٢/١.

(٨) الطبري: ١٧٩/١٩.

(٩) الطبري: ١٧٩/١٩.

(١٠) الطبري: ١٨١/١٩.

وذلك كالقنديل، ذكر علها، وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يعبد فيها ويوحده فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها. كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها^(٧)، وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان ابن أبي حشمة وسفيان بن حسين وغيرهم من علماء المفسرين.

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطيبها وتبخيرها، وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءا على حدة، والله الحمد والمنة، ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفا من ذلك إنه شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان: فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدا يتقي بوجهه الله، بنى الله له مثله في الجنة» أخرجاه في الصحيحين^(٨).

وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجدا يذكُر فيه اسم الله، بنى الله له بيتا في الجنة»^(٩) وللنسائي مثله^(١٠)، والأحاديث في هذا كثيرة جدا، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي^(١١)، ولاحمد وأبي داود عن سمرة بن جندب نحوه^(١٢)، وقال البخاري: قال عمر: ابن للناس ما يُكِنُّهم، وإياك أن تحمُر أو تُصَفِّرَ نفثن الناس^(١٣).

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيِّنُوهُ لِأَشْرَقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلمها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواربها شيء وهو أجود لزيته^(١). وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَأَشْرَقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت^(٢).

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيِّنُوهُ لِأَشْرَقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتًا يَبُخُّ﴾ قال: هو أجود الزيت، قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية. قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَبُخُّ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: يعني لضوء إشراق الزيت^(٣).

وقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يعني بذلك إيمان العبد^(٤) وعمله، وقال السدي في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت حين اجتماع أضواء ولا بضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعهما، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمِئِذٍ، فَمَنْ أَضَاءَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمِئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ أَدَاهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: خَفِّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ﴾

﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِنُورِ هِدَاةٍ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ خَتَمَ

الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ﴾

﴿أَي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَابِلِ﴾^(٧) رجال لا تلهمهم تحيرة ولا بيع عن ذكر الله

وإنك الصلوة وإنشاء الزكوة يحاؤون يوما تنقلب فيه القلوب

والأبصار^(٨) يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله

والله يزرئ من يشاء بغير حساب^(٩)

فضائل المساجد وأدائها وفضائل المتهادين لها

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى

والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب،

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٠٠ / ٨. (٢) الطبري: ١٩ / ١٨٦.

(٣) الطبري: ١٩ / ١٨٣. (٤) الطبري: ١٩ / ١٨٢.

(٥) الدر المنثور: ٦ / ٢٠٢. (٦) أحمد: ٢ / ١٧٦.

(٧) الطبري: ١٩ / ١٩١.

(٨) فتح الباري: ١ / ٦٤٨، ومسلم: ٣٧٨.

(٩) ابن ماجه: ١ / ٢٤٣. (١٠) النسائي: ٢ / ٣١.

(١١) أحمد: ٦ / ٢٧٩، وتحفة الأحوذى: ٣ / ٢٠٦، وابن ماجه:

٢٥٠ / ١.

(١٢) أحمد: ٥ / ١٧، وأبو داود: ١ / ٣١٥.

(١٣) فتح الباري: ١ / ٦٤٢.

أمرت بتشيد المساجد قال ابن عباس: أرخفها كما زخرفت اليهود والنصارى^(١). وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي^(٢). وعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا وجدت، إنما بُنيت المساجد لما بُنيت لله» رواه مسلم^(٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبس أو يتساع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك». رواه الترمذي وقال حسن غريب^(٤).

وروى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئت بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف. قال: لو كتبنا من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ^(٥). وروى النسائي عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ هذا أيضاً صحيح^(٦). وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة. إسناده حسن لا بأس به والله أعلم^(٧)، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في الجماعة ترفع على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة. فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»^(٨). وفي السنن: «يُسْرُ السَّائِلِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ، بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٩). ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» قال: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»^(١٠). وروى مسلم بسنده عن أبي حنيفة أو أبي أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(١١).

ورواه النسائي عنهما عن النبي ﷺ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ»^(١٢) ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهم^(١٣).

وقوله: «وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ» أي: اسم الله كقوله: ﴿يَنْبَغِي مَادَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني فيها يتلى كتابه^(١٤)، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١٥) أي: في البكرات والعشيات. ﴿وَالْآصَالُ﴾ جمع أصيل وهو آخر النهار. وقوله تعالى: ﴿وَجَالًا لَّيْلِهِمْ يَحْزَنُونَ وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ كقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوتُ الصَّلَاةِ مِنْ تَوَرُّدِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الآية، يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وما يبعيهم وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عندهم هو خير لهم وأنفع مما يبيعون لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ يَحْزَنُونَ وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارِ الصَّلَاةِ وَإِلَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي يقدمون طاعته ومراذه ومحبه على مرادهم ومحبته.

(١) أبو داود: ١/٣١٠.

(٢) أحمد: ٣/١٣٤، وأبو داود: ١/٣١١، والنسائي: ٢/٢١.

وابن ماجه: ١/٢٤٤.

(٣) مسلم: ١/٣٩٧. (٤) تحفة الأحوذى: ٤/١٥٠.

(٥) فتح الباري: ١/٦٦٧. (٦) تحفة الأشراف: ٨/٤.

(٧) مسند أبي يعلى: ١/١٧٠.

(٨) البخاري: ٦٤٧، ومسلم: ٦٤٩.

(٩) أبو داود: ٥٦١، والترمذي: ٢٢٣.

(١٠) أبو داود: ٣١٨/٢. (١١) مسلم: ١/٤٩٤.

(١٢) النسائي: ٢/٥٣.

(١٣) ابن ماجه: ١/٢٥٤، وابن خزيمة: ١/٢٣١، وابن حبان: ١/٢٤٧، ٢/٢٤٦.

(١٤) الطبري: ١٩/١٩١.

ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار^(١)، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضًا. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُجْعَلِ اللَّهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢) أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل، حائل، بائر، كافر، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَهِدَىٰ لَهُ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِمْ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ فسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورًا، وعن أياننا نورًا، وعن شماننا نورًا، وأن يعظم لنا نورًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣) وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ^(٤)

[كل يسبح لله تعالى وله الملك]

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي: من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجهاد، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ صَفَفَاتٍ﴾ أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح أهمها وأرشدوا إليه وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٥) ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٦) أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء: ﴿لَيَجْزِي الَّذِينَ اسْتَفْتَوْا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِئُ مَحَابِلَهُ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَرْتَلِّقُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهُ بِذَهَبٍ وَالْأَبْصُرُ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٧)

[التنبيه على قدرة الله بخلق السحاب وما يتبعه]

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ أي: متراكمًا، أي: يركب بعضه بعضًا ﴿فَتَرَى

الْوَدَّكَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من خلله، ويقرأها ابن عباس والضحاك^(٨). قال عبيد بن عمير اللطيف يبعث الله الثيرة فتقم الأرض قيًا، ثم يبعث الله الناشئة فتسبح السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث اللواتي فتلحق السحاب. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله^(٩) وقوله: ﴿وَيَرْتَلِّقُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ قال بعض النحويين: الأولى لا ابتداء الغاية، والثانية للتبعية، والثالثة للجنس، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى قوله: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ معناه أن في السماء جبالًا يبرد بها الله منها البرد. وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن الثانية عند هذا لا ابتداء الغاية أيضًا، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِمَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يبعث من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ مَن يَشَاءُ﴾ رحمة لهم ﴿وَيَصْرِفُهُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يوحرهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: ينزل نعمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف رؤسهم وأشجارهم، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَاقِرُهُ بِذَهَبٍ وَالْأَبْصُرُ﴾ أي: يكاد برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يتصرف فيها يأخذ طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في فيطول الذي كان قصيرًا ويقصر الذي كان طويلًا، والله المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١٠) أي: للدليل على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١١) وما بعدها من الآيات الكريمة ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(١٢)

[قدرة الله في خلق الدواب]

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلق المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ورحمة

(١) الطبري: ١٩٨/١٩.

(٢) الطبري: ١٩٨/١٩.

(٣) الطبري: ٢٠١/١٩.

وسكانها من ماء واحد، ﴿فِيهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينًا وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم
والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًا، وأنه يرشد إلى تفهمها
وتعلمها أولي الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مَن
بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أَوَّلَتْكَ يَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لَمَن يَأْتُواكُم
بِخَبَرٍ مُنْ بَعِيدٍ أَوْ قُلُوبُهُمْ رَاضٍ بِأَن يَأْتُواكُم يَكْفُرُونَ أَنْ يُخْفِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَسُولُهُ أَلَّا يَأْتِيَنَّكَ هُمُ بِالْغُلَامِ الْمُرْتَدِ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَوَّلَتْكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَضَعَ لِرَبِّهِ وَتَقَرَّ
فَأَوَّلَتْكَ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥١﴾

[حيل المناققين وحال المؤمنين]

يُخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما
يظنون، يقولون قولاً بالسنتهم ﴿ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَرْسُولَ أَطَعْنَا ثُمَّ
يَبُولُونَ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأفعالهم
فيقولون ما لا يفعلون ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
(١٦)﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾
الآية، أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله
أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله
تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى قوله ﴿رَأَيْتَ الْمُسْتَفِيقِينَ يَبْغِضُونَ
عَنْكَ صُودًا﴾ (١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (١١) أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ (١١) وإذا كانت الحكومة عليه عرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ليبرج باطله ثم، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن

ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿يَا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبّرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا ييغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا

كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ أَيْ: سَمِعْنَا وَطَاعَةً. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وقال قتادة في هذه الآية: ﴿أَنْ يَقُولُوا أَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت، وكان عقيباً بديراً أحد بقعاء الأنصار، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أتيتك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تتنازع الأمر أهله إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله. ^(١)

وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين، رواه ابن أبي حاتم ^(٢)، والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمراه به، وترك ما نهاه عنه، ﴿وَيَحْشُ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فيما يستقبل. وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الذين

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٢٣/٨.

(٢) ابن أبي حاتم: ٨/٢٦٢٣، ٢٦٢٤.

فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُنِيبُ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يخلفون للرسول ﷺ: لئن أمرتكم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تخلفوا. وقوله ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي: قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِزَمْنُوا عَنْهُمْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿أَتَعِدُّوا أَيْمَانَكُمْ جُنَّةً﴾ الآية، فهم من سَجَّيْتَهُم الكذب حتى فيها يخارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَعْدَىٰ لَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا عنه وتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآخِذُ﴾ أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿وَعَلَيْكُمْ مَآخِذُكُمْ﴾ أي: بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُنِيبُ ﴿٥٣﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَفَلْيَا الْحِسَابُ ﴿٥٠﴾﴾ وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٥١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الْبَنِيَّاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

[وعده الله المؤمنين بالاستخلاف]

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه

سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاء عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من سوء خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمثنة، فإنه ﷺ لم يمض [رسول الله ﷺ] حتى فتوح عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكماها، وأخذ الجزية من مجوس هَجَرَ ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عان والنجاشي ملك الحبشة الذي نكح بعد أصحمة رحمة الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله ما عنده من الكرامة، فبالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شَعَثَ ما وهى بعده موته ﷺ وأطد جزيرة العرب ومهداها، وبعث الجيش الإسلامي إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتح طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو ابن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي أيامه بصرى ودمشق ومخالفتهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة.

ومن على أهل الإسلام بأن أهم الصديق أن يستحل عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك من الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكماها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقبال فارس. وكسّر كسرى وأهان غاية الهوان وتهقير إلى أقصى مملكته، وقصّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدار القسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله - عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مشقة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، ونجح الجراح من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأم

ابن هرْمُزٍ. قلت: كسرى بن هرمز، قال: «نَعَمْ، كَسْرَى بِنِ هُرْمُزَ، وَلَيَنْدَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ». قال عدي بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل، قال: «يا مُعَاذُ؟» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بَنَ جَبَلٍ؟» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بَنَ جَبَلٍ؟» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هَلْ تُدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بَنَ جَبَلٍ؟» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فَهَلْ تُدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(٥)، أخرجه في الصحيحين^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٧) أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابه رضوا لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم أظهرها كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَّاهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٨) - وفي رواية: حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ [كَذَلِكَ]^(٩) - وفي رواية - حَتَّى يُقَاتِلُوا

حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، قَرَأْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَلْتُ لَيْلِكَ أَهْمِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا»^(١٠)، فيها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيذان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً لِيَسْتَعْلِفَ غُرُوبُ الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَدْوِهِمْ أَمْثَلًا﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسسون في السلاح ويصبحون في السلاح، ففعلوا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَنْ تَغَبُّوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى تَجْلِسَ الرَّجُلُ فِي السَّمَاءِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِئًا لَيْسَتْ فِيهِ حَبِيدَةٌ» وأزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك أمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيها وقعوا فيه، فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجة والشرط وغيروا وغير بهم، وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية^(١١).

وقال السراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد^(١٢)، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْشَدَ قِيلَ سَتَنْقَضُونَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٣). وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُفْرَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَرُوَيْدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الْأَوَّلِ اسْتَضْمِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتين.

وقوله: ﴿وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَكُنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الطَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ، وَلَتَقْتَحُنَنَّ كُنُوزَ كَسْرَى

(١) مسلم: ٢٢١٥/٤. (٢) الطبري: ٢٠٩/١٩.

(٣) الدر المنثور: ٢١٥/٦. (٤) أحمد: ٢٥٧/٤.

(٥) أحمد: ٢٤٢/٥.

(٦) فتح الباري: ٤١٢/١٠، ومسلم: ٥٨/١.

(٧) مسلم: ١٣٧/١. (٨) مسلم: ١٥٢٣/٣.

الدَّجَالُ^(١) - وفي رواية - حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ^(٢) وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّبِعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾^(٣) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ^(٤)

[الأمم بالصلاة والزكاة والطاعة وبيان

عجز الكفار ومصيرهم]

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، و[تاركين] ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل هذا، أن الله سيرهمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ أَي: لا تظنن يا محمد أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِهِمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٥) أي: بشس المال مآل الكافرين، وبشس القرار وبشس المهادر.

﴿يَتَأْتِيهَا الْبُزْءُ﴾ أمم الاستتذات الذين ملكت أيمانكم والذين لا يتأفوا الحلم منكم تلك مريم من قبل صلوة الفجر وبين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة العشاء تلك عورتكم لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم^(٦) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستندوا كما استندوا الذين من قبلهم كذلك كذلك بين الله لكم آياته والله عليم حكيم^(٧) والقواعد من النساء التي لا يرعن نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم^(٨)

[أوقات استئذان المملوكين والصغار]

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا

الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الفجر لأن الناس إذا ذاك يكونون نياماً في فرشهم ﴿وَبَيْنَ أَصْحَابِ بُيُوتِكُمْ مِنَ الظُّهُورِ﴾ أي: في وقت القيلولة، لأن الإنسان يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله ﴿وَبَيْنَ بَعْدِ صَلَاةِ الْوُضُوءِ﴾ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا عَزَلَتْ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَئِذَا﴾ أي: إذا دخلوا حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم [من ذلك] ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم طوافون عليكم أي: الخدمة وغير ذلك. ويغضرو في الطوافين ما لا يغضرو غيرهم. ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكما عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: لم يؤمن بها أكثر الناس وإني لأمر جاريته هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به^(٣). وقال الثوري عن موسى بن أبي عائشة: سألت الشعبي ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَئِذَا﴾؟ قال: لم تنسخ. قلت: فإن الناس لا يعملون بها فقال: الله المستعان^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الذين كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة لأجانبهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن يكن في الأحوال الثلاث.

[لا جناح على العجائز إن لم يحتجبن]

وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال سعيد بن جبير ومفتي بن حيان والضحاك وقادة: هن اللواتي انقطع عنهن الخصر ويشن من الولد ﴿الَّتِي لَا يَرْتَدُّ عَلَيْهَا﴾ أي: لم يبق لهن تشوك

(١) أحمد: ٤/٤٣٧.

(٢) فتح الباري: ١٣/٢٠٦.

(٣) أبو داود: ٥/٣٧٧.

(٤) الطبري: ١٩/٢١٣.

أنزل الله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَتْعَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿وَأَوْصِيكُمْ﴾ وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾^(١) وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾^(٢) فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما رواه الإمام أحمد عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع. قال: «لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، يَبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ» ورواه أبو داود وابن ماجه^(٣). وقد روى ابن ماجه عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُلُوا جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا، فَإِنَّ الْبَرَكَةَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(٤).

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري: يعني فليسلم بعضكم على بعض^(٥). وقال ابن جريج: أخبرني على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، قال: ما رأيته إلا يوجبه. قال ابن جريج: وأخبرني زياد عن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم^(٦).

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(٧). فإنه كان يوم بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه^(٨).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٩) لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المثقنة للبرمة، نه تعالى عباده على أنه بين لعباده الآيات بيانا شافيا ليتدبروها ويتعقلوها، لعلهم يعقلون. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ

جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ اللَّهِ لِيَسْتَأْذِنَكَ أُولَئِكَ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْهُمْ مِثْلَ مَا أَسْتَفْتَرُكُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

[الاستئذان عند الانصراف إذا ما كانوا على أمر جامع وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا يتفرق عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفتر ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له بغير شيء، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا لَمْ يَنْفُتْ مِنْهُمْ وَأَسْتَفْتَرُكُمْ اللَّهُ﴾ الآية. وقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ يَقُومُ فَلْيُسَلِّمْ، فَلْيَسْتَأْذِنِ الْأَوَّلَى بِأَحَقِّ مِنَ الْآخِرَةِ»^(١٠) ورواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن^(١١). ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْزِمُونَ مِنْكُمْ لِيُؤْذَنَ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

[بيان الأدب في مخاطبة النبي ﷺ]

قال الضحاك عن ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبية قال: فقولوا يا نبي الله! يا رسول الله!^(١٢) وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير^(١٣). وقال قتادة: أمر الله أن يهابه ﷺ، وأن يعجل وأن يعظم وأن يُسود^(١٤). وقال مقاتل

(١) الطبري: ٢٢٤/١٩. (٢) الطبري: ٢٢٤/١٩.

(٣) أحمد: ٥٠١/٣، وأبو داود: ٣٧٦٤، وابن ماجه: ٣٢٨٦.

(٤) ابن ماجه: ٣٢٨٧، وقال البوصيري في الزوائد: ٧٧/٣.

(٥) البيهقي: ٣٥٨/٣، والطبري: ٢٢٦/١٩.

(٦) الطبري: ٢٢٥/١٩. (٧) عبد الرزاق: ٦٦/٣.

(٨) الدر المنثور: ٢٢٨/٦. (٩) أبو داود: ٣٨٦/٥.

(١٠) تحفة الأحوذ: ٤٨٥/٧، والنسائي في الكبرى: ١٠٠/٦.

(١١) الدر المنثور: ٢٣٠/٦. (١٢) الطبري: ٢٣٠/١٩.

(١٣) الطبري: ٢٣٠/١٩.

وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَكْتُمُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

[يعلم الله ما أنتم عليه]

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقد للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لِيَأْذَنَ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنْكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ الآية، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ ولكن الظالمين يفتات الله يَجْهَدُونَ ﴿٢٣﴾ وقال: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر، كقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. فقله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢٧﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٨﴾ وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَرُدُّ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ نُنْقَلُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا مُمْسِكُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٩﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَنُفِثَ هُوَ قَائِمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَشْفُونَ يَأْتِيهِمْ يَعْلَمُ مَا يَشْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ قَائِمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦﴾ وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظَلْمِنتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويسوم يرجع الخلاق إلى الله وهو يوم القيامة. ﴿فَيَكْتُمُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يَبْنِيُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿١٢﴾ وقال:

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله! يا رسول الله! والقول الثاني في ذلك أن المعنى في ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي، والله أعلم ^(١).

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لِيَأْذَنَ﴾ قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، ويعني بالحديث الخطبة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ غط بطلت جمته ^(٢). وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لا بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم.

[النهى عن مخالفة أمر الرسول ﷺ]

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ^(٣) أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا. «أَنْ تُصِيبَهُمْ نَسْنَةٌ» أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ^(٤) أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس ونحو ذلك. كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِي وَمَنْ لَكُمْ كَمَلْتُ رَجُلًا اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا، جَعَلَ الْقَرَأَشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّائِي يَقَعْنَ فِي نَارٍ، يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يُحْجَرُ مِنْهَا وَيَغْلِيئُهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا» - قَالَ - فَلِلَّذِي مَنَى وَمَنْ لَكُمْ، أَنَا أَحَدٌ يُحْجَرُ مِنْ نَارٍ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَقْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونِ فِيهَا» أخرجه ^(٥).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾

(١) الطبري: ١٩/٢٣٠. (٢) الدر المنثور: ٦/٢٣١.

(٣) فتح الباري: ٤/٤١٦، ومسلم: ٣/١٣٤٣.

(٤) أحمد: ٢/٣١٢، ومسلم: ٢٢٨٤.

والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غُفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة وإخبارهم بأن رحمة واسعة وأن حلمه عظيم مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهو لاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهوم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَكُنْ سَوَاءً لَكُم مِّنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْكُوفِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ﴾ ﴿٤﴾ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجلود قتلوا أولياءه وهو يدعوهوم إلى التوبة والرحمة.

﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٥﴾ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَذِبًا أَمْ كُنْتُمْ كُنُوزَ لَّهُ جَنَّةٍ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّشْهُورًا ﴿٦﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ ﴿٧﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُجُورًا ﴿٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٩﴾ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَبِيدُونَ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١١﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٢﴾

﴿أَقْوَالُ الْكُفَارِ فِي الرَّسُولِ ﷺ﴾، والرد عليهم

وبيان مصيرهم

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: يتردد فيها واليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٥﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على

يُكْفَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّيْسَ مَحْضُورُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد له؛ ولا والد، ولا عدل ولا بديل ولا نديد، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مِّنْ قَدَمَيْهِ قَوْمٌ لَا يَحْكُمُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ كَتَبْنَاهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُعْثَةٌ وَأَصِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غُفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٧﴾

أقوال الكفار في القرآن

يقول تعالى خبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿أَفْكْرُهُ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿١٥﴾ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ كَتَبْنَاهَا﴾ يعنون كتب الأوائل أي: استنسخها ﴿فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرا عليه ﴿بُعْثَةٌ وَأَصِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ أي: في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نوحاً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونوايته وبيته وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبيته، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبروا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر. وتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: مجنون. وتارة يقولون: كذاب. وقال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ﴾ ﴿٧﴾ وقال تعالى في جواب ما ماسدوا ههنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين

فتشعق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعر، وتزفر زفرة لا يفر أحد إلا خاف^(٢)، وهذا إسناد صحيح.

وروى عبد الرزاق عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿يَتَجَرَّأُونَ وَتُفَوِّرُ﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ لوجهه ترتعد فرائضه، حتى إبراهيم عليه السلام ليحشو على ركبتيه ويقول: رب أسألك اليوم إلا نفسي^(٣). وقوله: ﴿وَلِذَا الْقَوَايِمُ مَكَانًا مَنِيًّا مُقَرَّرِينَ﴾ قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال مثل الزج في الرمح، أي: من ضيقة^(٤).

وقوله: ﴿مُقَرَّرِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين ﴿يَتَجَرَّأُونَ﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَا تَذَرُكَ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا﴾ الآية.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِينَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّكَ وَعْدًا مَشْهُوكًا﴾

[النار خير أم الجنة]

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال أولئك [الاشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكن الضيقة] مقرنين لا يستطيعون حراكًا ولا استسقاءً، فكأنما بما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها للمؤمنين من عبادته، التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصير على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل ما لهم إليها ﴿لَهُمْ فِيهَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذ من مأكول ومشروب وملابس ومسكن ومراكب ومناظر، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يغفون عنه حوّلًا، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَشْهُوكًا﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَشْهُوكًا﴾ أي: وعد

صدق ما يدهيه، وهذا كما قال فرعون: ﴿قُلْ لَّيْسَ عَلَيَّ آسَؤُهُ مِنْ ذَهَابِ أَوْجَعَةٍ مَعَهُ الْمَلَكُ مَعَكُمْ مُقَرَّرِينَ﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا: ﴿أَوْ يُفْقِدُوا كَنْزَهُمْ﴾ أي: علم كنز ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ أَطَّاعِلُمُوتَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا سَخِرَ﴾ ﴿أ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ فَضْلُوا﴾ أي: جاءوا بما يقدفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر، مسحور، مجنون كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضْلُوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضًا.

ثم قال تعالى مخبرًا بنبيه أنه إن شاء آتاه خيرًا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ لَاتَّاهَ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقرش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا كبيرًا كان أو صغيرًا^(١).

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: إننا يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِئِنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَوِيرًا﴾ أي: عذابًا أليمًا حارًا، لا يطاق في نار جهنم. وقوله: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: جهنم ﴿مِنْ تَحْتِ بَيْبَرٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. ﴿تَتِمُّوا لَهُمْ تَنْظِيمًا وَزَفِيرًا﴾ أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الْقَوَايِمُ حُمُومًا مُنِيًّا شَبَقًا وَنُورًا﴾ ﴿٧﴾ تكاد تميز من ألقظ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن، ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبيدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبيدي، وإن الرجل ليجر إلى النار

(١) الطبري: ٢٤٣/١٩. (٢) الطبري: ٣٧٠/٩. (٣) عبد الرزاق: ٦٧/٣. (٤) الدر المنثور: ٢٤٠/٦، والزهد لابن المبارك: الزوائد: ٨٦.

واجباً^(١)

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والجبور، ثم قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّوا مِنْ شَجَرَةِ الزَّوْدِ﴾ (٢) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَرِ﴾ (٤) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ دُرٌّ مُسْتَبِينٌ﴾ (٥) ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ فِيهَا فَمَالُؤُنَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾ (٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاقِنَ حِمِيمٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٨) ﴿إِنَّهُمْ أَلُوفٌ أَلِيَّةٌ مُضْطَّائِلِينَ﴾ (٩) ﴿فَهُمْ عَلَى النَّارِ مُهْرَجُونَ﴾ (١٠).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأُنْتُمْ شَتَّتَكُمْ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ تَتَّبِعُهُمْ وَآيَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١١) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ نَفْسَهُ نَفَقَةٌ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٢).

[تَبَرُّوا إِلَهَةَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يقول تعالى خبراً عما يقع يوم القيامة من تفرع الكفار في عبادتهم من عبادة من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو عيسى وعزير والملائكة^(١) ﴿فَيَقُولُ أَأُنْتُمْ شَتَّتَكُمْ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ تَتَّبِعُهُمْ وَآيَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١١) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ نَفْسَهُ نَفَقَةٌ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٢).

يقول تعالى خبراً عما يقع يوم القيامة من تفرع الكفار في عبادتهم من عبادة من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو عيسى وعزير والملائكة^(١) ﴿فَيَقُولُ أَأُنْتُمْ شَتَّتَكُمْ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ تَتَّبِعُهُمْ وَآيَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١١) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ نَفْسَهُ نَفَقَةٌ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٢).

سُبْحَنَكَ ﴿الآية، وقرأ آخرون: (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا وإنما عبيد لك فقرأ إليك، وهي قريية المعنى من الأولى ﴿وَلَكِنْ تَتَّبِعُهُمْ وَآيَاءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١١) قال ابن عباس: أي ملكي^(٣). وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم^(٤).

وقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقرئونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَنْ يظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نَفَقَةٌ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (١٤).

[كُلٌّ مِنْ سَبْقٍ مِنَ الرُّسُلِ كَانَ بُشْرًا]

يقول تعالى خبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحاظهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخواص الباهرة والأدلة الظاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَآكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع عن يعصي، ولهذا قال:

(١) الطبري: ١٩/٢٤٧. (٢) الطبري: ١٩/٢٤٧.

(٣) الطبري: ١٩/٢٤٨. (٤) الطبري: ١٩/٢٤٨.

عَذَابَ الْهُونِ يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَوْمَ الْمَلَكَةِ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يشرون بالخيرات، وحصول المسرات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا سَتُؤْتِيهِمُ الْمَلَكَةُ الْأُولَى حَافَاتٍ وَلَا تَحْزَنُوا وَابْتَهِرُوا مِنَ الْغَيْظِ إِلَى كُنُفِكُمْ تُوعَى كُفُّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْرُونَ ﴿١٤﴾ تَرَى الَّذِينَ غُفِرَ عَنْهُمْ ذُنُوبُهُمْ الْبَرَاءُ بِنِيعَةِ اللَّهِ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِينَ أْخْرِجْهُ أَتَيْنَهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُرُونَهُ، أَخْرِجْهُ إِلَى رُوحٍ وَرَبِّحْنَا وَرَبَّ غَيْرَ غَضَبَانِ﴾ (١٤).

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَوْمَ الْمَلَكَةِ لَا بُشْرَى﴾ يعني: يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم المآل يوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتحذر الكافرين بالخيبة والخسران، ولا بشرى يومئذٍ للمجرمين ﴿وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ﴾ (١٥) أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم وأصل الحجر: المنع ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لفسد أو سفه أو صغر أو نحو ذلك، ومنه سُئِرَ الحجر عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا، وإنما يطاف من ورائه، ومنه يقال للعقل حجر؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة، وهذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقشادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير (٥).

وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين (٦) ﴿يَوْمَ يَوْمَ الْمَلَكَةِ﴾ أي: يتعذرون من الملائكة، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول: ﴿جِئْنَا نَحْمَدُكَ﴾ وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه، ولكل

﴿أَنْتَصِرُوكَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَعْمَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ بَعْضٌ فِتْنَةً أَنْتَصِرُوكَ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون، لفعلت، ولكني قد أردت أن أبلي العباد بهم وأبتليكم بهم (١). وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَتُبْتَلِي بِكَ» (٢) وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا، فاختار أن يكون عبدا رسولا (٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّوْا أَوَلَمْ أَنْزِلْ عَلَيْكُمُ الْمَلَكَةَ مَوْزِعًا رِسَالًا فَلَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ (١٥) يَوْمَ يَوْمَ الْمَلَكَةِ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ ﴿١٦﴾ وَتَقُولُ إِلَهُ مَّا عَمِلْنَا مِنْ غَمَلٍ فَجَعَلْنَا لَهَا مِنْ شَوْرِكٍ ﴿١٧﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٨﴾

[بيان تعنت الكفار]

يقول تعالى غيبرا عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قسومهم: ﴿تَوَلَّوْا أَوَلَمْ أَنْزِلْ عَلَيْكُمُ الْمَلَكَةَ﴾ كقوله: ﴿تَوَلَّوْا أَوَلَمْ أَنْزِلْ عَلَيْكُمُ الْمَلَكَةَ﴾ فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله، فهذا مثل قسومهم: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَكَةَ قِيلًا﴾ (١٦) ولهذا قالوا: ﴿أَوَلَمْ أَنْزِلْ عَلَيْكُمُ الْمَلَكَةَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةَ مُتَنَزِّلِينَ وَأَنْزَلْنَا إِلَهُكُمْ بِالْهَيْبَةِ وَالْجَبَرُوتِ﴾ (١٧) وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلَكَةِ لَخَبَرْنَا لَقَدْ أَخَذْنَا لِرَبِّنَا نَسِيحًا﴾ (١٨).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمَ الْمَلَكَةِ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جِئْنَا نَحْمَدُكَ﴾ (١٥) أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذٍ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه، اخبرني أتينا النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخبرني إلى سموم وحميم وظل من محموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوهُمْ وَيُجْهِدُوهُمْ وَأَذْبَحُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

(١) الطبري: ١٩/٣٧٧. (٢) مسلم: ٢٨٦٥.

(٣) أحمد: ٢/٢٣١. (٤) مسلم: ٤/٢٢٠٢.

(٥) الطبري: ١٩/٢٥٦ والمحرم الوجيز: ٤/٢٠٦.

(٦) الطبري: ١٩/٢٥٤.

الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿حَلِيلِيكَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٦١) وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٦٢) أي: بشئ المنزل منظرًا، وبشئ القليل مقامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٦٣) أي: بما عملوه من الأعمال المثقلة نالوا ما نالوه، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية.

وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقبل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٦٤).

وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبده حوت فأشبعهم كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٦٥).

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى الْأُنثَىٰ بِأَلْفَمٍ وَزُلْ لِمَلَكَةٍ تَنْزِيلًا﴾ (٦٦) الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿وَيَوْمَ يَمْضَىٰ أَلْطَلَامُ عَلَىٰ بَدَنِهِ يَكُونُ يَكْتُمِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيرًا﴾ (٦٧) يَوْمَئِذٍ لَيَنْتَبِهُ لَرَأْفَتِهِ فَلَا تَخْلِيلًا ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (٦٨).

[أحوال يوم القيامة وتمني الضالمة]

[التخاذ سبيل الرسول]

ينحدر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفتورها، وانفراجها بالغمام، وهو ظلل النور العظيم الذي يهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم

النسبة إلى السياق بعيد لاسيا وقد نص الجمهور على خلافه. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركون من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، وأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعها معًا فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْآءً مَّنْثُورًا﴾ (٦٩).

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْآءً مَّنْثُورًا﴾ (٧٠) قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي بن علقمة في قوله: ﴿هَبْآءً مَّنْثُورًا﴾ (٧١) قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة. وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي، وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم (٧٢). وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أديم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع (٧٣). وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي: ﴿هَبْآءٌ مَّنْثُورٌ﴾ (٧٤) قال: الهباء [زهج] الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضًا والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿هَبْآءٌ مَّنْثُورًا﴾ (٧٥) قال: أما رأيت من الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق (٧٦). وعن علي بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على أن أعمال الكفار تكون كالشيء التافه حقير المنفرد الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ مُّشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْلُوفُونَكُمْ بِاللَّيْلِ وَالْأَذَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ غَنَافَةٍ مِنْهَا كَسِبُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَبِغٍ رَّابِيعٍ تَجْهَرُ الْأَعْمَالُ مَاءً حَرًّا إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾.

[مستقر أهل الجنة]

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٧٧) أي: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٧٨) وذلك أن أهل

(١) الطبري: ٢٥٨، ٢٥٧/١٩. (٢) الطبري: ٢٥٧/١٩.

(٣) الطبري: ٢٥٨/١٩.

يحيى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُمٍ لَّيْلٍ أَنْفُسَهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الآية (١).

وقوله تعالى: ﴿أَتَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقَّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٢). وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّاعَاتِ بِمِيزَانِهِ، وَيَأْخُذُ الْأَرْضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، أَيَنْ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيَنْ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَنْ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» (٣).

وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرِينَ عَذِيبًا﴾ (٤) أي: شديداً صعباً؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَذِيبٌ﴾ (٥) عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيبٌ (٦). فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْصِي الْأَمْرُ لِلَّهِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَنْتَهِ عَنَّا فَرَّقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٧)، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشرقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ الآية، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، وبعض على يديه قاتلاً: ﴿يَنْتَهِ عَنَّا فَرَّقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٧) يَنْتَهِ عَنَّا فَرَّقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٨) يعني مَنْ صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرها، «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ» وهو القرآن «بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي» أي: بعد بلوغه إليّ، قال تعالى: ﴿وَكُنَّا الشُّبُكُنَ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ (٩) أي: يخذله عن

الحق ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (١٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (١١)

[الرسول يشكو مخالفيه]

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ [صلوات الله

وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين] أنه قال: «يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْعِقُونَ للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْفِ﴾ الآية، فكانوا إذا نزل عليهم القرآن أكثروا للغلط والكلام في غيره حتى لا [يسمعه]. فهذا من هجرانه، وترك تدبره وفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه، فسنال الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يُسْخَطُهُ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه أثناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الأمم الماضية؛ لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْإِنِّ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١٢) أي: لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١٣) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن؛ لتلايه يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآية. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرُفِّقَ لِرَبِّكَ﴾ (١٤) وَلَا يَأْتِيَنَّكَ السَّيِّئَاتُ بِشَرٍّ إِلَّا جُنتَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيمًا (١٥) الَّذِينَ يُحْضِرُونَ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (١٦)

[الحكمة في إنزال القرآن متفرقاً والورد

على الكفار وبيان سوء مصيرهم]

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنُّتهم وكلامهم فيما لا يعينهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى

(١) الطبري: ١٩/٢٦٠.

(٢) فتح الباري: ١١/٣٧٩، ومسلم: ٤/٢١٤٨.

[عليه السلام] وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي: نبياً موازراً ومؤيداً وناصرًا فكذبها فرعون وجنوده: ﴿فَدَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكَافِرِينَ أَهْلًا مَثَلًا﴾ (١٠) وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحًا عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإلهم كانوا يكذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم نقمه ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١١) ولهذا أغرقهم الله جميعًا ولم يبق منهم أحدًا، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكِ فِي الْبَارَةِ لِنُجِّتَ لَكَ نَذِيرًا لِّذِكْرٍ وَعِبَةٍ أَذُنٌ وَغِيَّةٌ﴾ (١٢) أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم [في] إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، كسورة الأعراف بما أغشى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس، فقال ابن جريج عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود (٤). وقال الثوري عن أبي بكير، عن عكرمة: الرس: بئر رسوا فيها نبيهم، أي: دفنوه بها (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (٦) أي: وأما [بين] أضعاف من ذكر أهلكتهم كثيرة، ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: وأزحنا الأعداء عنهم (٦) ﴿وَكَلَّا تَبَرَّأْتَ تَلْبِيرًا﴾ (٧) أي: أهلكتنا هلاكًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا فَكَّرْتُمْ﴾ (٨) وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة. وقيل بشائين، وقيل: أربعين، وقيل غير ذلك، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في

إيه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزيور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجنًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لبث قلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿وَقَرَأْنَا قُرْآنَهُ﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي هَؤُلَاءِ قُرُونًا مِّنْ قَبْلِكَ رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ﴾ (٩) قال قتادة: بيناه بينا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيرًا (١١) ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْتَنكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (١٢) أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجابهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأنصح من مقاتلهم.

وروي أبو عبد الرحمن النسائي، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة (١٢). قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ بِمَثَلٍ إِلَّا مِثْلُ الْبَقِيَّةِ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (١٣) وقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا قُرْآنَهُ نَقْرًا عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكٍّ وَزَيَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (١٤).

ثم قال تعالى مخبرًا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح المصنعات: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ يَنْزَلُونَ فِيهَا وَأَصْلُ سَبِيلِكَ﴾ (١٥). وفي الصحيح عن أنس أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ يُمَشِّئَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١٦).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧) وعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقَوْمًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (١٨) وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّأْتَ تَلْبِيرًا (١٩) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقُرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرًا أَسْوَأَ أَفْئَلَمْ يَكُونُوا بِرَوْحِهَا يَكْفُونَ لَا يَرَجُونَ تَشْرُوكًا (٢٠)

[تخويف مشركي قريش]

يقول تعالى متوعدًا من كذب رسوله محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه لما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى

(١) الطبري: ٢٦٦/١٩. (٢) النسائي في الكبرى: ٤٢١/٦.

(٣) أحمد: ٢٢٩/٣. (٤) الطبري: ٢٦٩/١٩.

(٥) البغوي: ٣/٣٦٩ والقرطبي: ١٣/٣٢.

(٦) الطبري: ٢٧٢/١٩.

ههنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (١٢) قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول (١٣). ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية، أي: هم أسوأ حالًا من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا، وهم يعبدون غير.

ويشكون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (١٤) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (١٥) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لِيَّاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ تُشُورًا (١٦)

[الدلائل على وجود الباري وسعة قدرته]

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد ابن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة (والسدي وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس) (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (١٨) أَي: لئلا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقد قتادة والسدي: دليلًا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله (١٩) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٢٠) أي: الظل. ﴿يَسِيرًا﴾ (٢١) أي: سهلاً. وقال السدي: قبضًا خف حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة. وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى في الآية: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٢٢) قليلًا قليلًا (٢٣). وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لِيَّاسًا﴾ (٢٤) أي: يلبس الوجود ويغشاها، كما قال تعالى: ﴿وَالْيَلَّ إِذَا بَعَثْنَا﴾ (٢٥) ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ (٢٦) أي: قاطعًا للحركة

الصحيحين: «خَبَرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ» الحديث (١) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقُرْيَةِ الَّتِي أَمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوَى﴾ يعني: قرية قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٢) وقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُ لَكُمْ عَنْهُمْ عُتُقُهُمْ مُصْغِينَ﴾ (٣) ﴿وَالْيَلَّ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَأَنهَا لَيْسَ بِلَيْسَ مُقْبِرٍ﴾ (٥) وقال: ﴿وَأَنهَا لَيْسَ بِمَيِّتٍ﴾ (٦) ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكْفُرُوا بِكُفْرَتِهِمْ﴾ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (٧) يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون نشورًا، أي: معادًا يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٨) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٩) ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (١٠) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (١١)

[استهزاء الكافرين بالرسول ﷺ]

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول إذا رآه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُوا﴾ الآية، يعنونه بالعبث والنقص. وقال ههنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (١٢) أي: على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾. يعنون أنه كاد ينشيه عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال الله تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ﴾ الآية.

[التخاذل ههنا هوهم آلهة وكونهم أضل من الأنعام]

ثم قال تعالى لنبيه منبها أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: مهما استحسنت من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ دُئِنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية، ولهذا قال

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٥ ومسلم: ١٩٦٣/٤.

(٢) الدر المنثور: ٢٦٠/٦.

(٣) الطبري: ٢٧٥/١٩ والقرطبي: ٣٧/١٣.

(٤) الدر المنثور: ٢٦٢/٦. (٥) الدر المنثور: ٢٦٢/٦.

في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥٠) أي: ليدذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليدذكروا من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥٠) قال عكرمة: يعني: الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا (٣)، وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أَتَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطْرَنَا يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكُوفِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطْرَنَا بِنُوءِ كَذَا، وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكُوفِ» (٤).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَحَسْبُ لَهُمْ جَهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَجِجًا تَحْجُرُونَ (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)

[عموم رسالته ﷺ وتثبيته عليه

وذكر نعم الله على الإنسان]

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) يدعونهم إلى الله عز وجل، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم القرآن ﴿لَا تَذَكَّرُكَ بِهِ وَمَنْ يَلُغْ﴾ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَآثَارُ مَوْعِدُهُ﴾ ﴿لَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وفي الصحيحين: بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وفيهما: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً،

إلى الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في شتات النهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت حركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن وروح منا ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٥٧) أي: ينتشر الناس فيه من نومهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بِمَا يَدْنِي رَحْمَتُهُ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٥٨) لِنُخْشِعَ بِهِ بَلَدَهُ مِيتًا وَشَقِيقَةً مِيتًا مِمَّا أَعْمَأَمْنَا وَأَنَابُوا كَثِيرًا (٥٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٦٠)

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه على يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، ورياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير فمنها ما يشير بسحاب، ومنها ما يحمل، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون في يدي السحاب مبشرًا، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض، ومنها ما يحمل، ومنها ما يلقيح السحاب ليمطر، فطاف قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٦٨) أي: آلة طهر به كالسحور والوقود وما جرى مجراها.

عن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله: أنتوضأ من بئر مائة، وهي بئر يلقى فيها التنن ولحوم الكلاب؟ فقال: «إِنَّ طَهُورًا لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ» رواه الشافعي وأحمد وصححه داود والترمذي وحسنه والنسائي (١).

وقوله تعالى: ﴿لِنُخْشِعَ بِهِ بَلَدَهُ مِيتًا﴾ أي: أرضًا قد طال عليها اللغيت، فهي هامدة، لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والأنوان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ افْكُرَتْ وَرَتَّتْ﴾ (٦١) «وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَعْمَأَمًا وَأَنَابُوا كَثِيرًا (٦٢)» أي: وشرب منه الحيوان من أنعام، وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُطَرُّوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَكَيفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويعملها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويعملها غداة، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله

(١) مسند الشافعي: ٢١/١ وأحمد: ٣١/٣ وأبو داود: ٥٣/١

وتحفة الأحوذني: ٢٠٣/١ والنسائي: ١٧٤/١.

(٢) الطبري: ٢٨٠/١٩. (٣) الطبري: ٢٨٠/١٩.

(٤) مسلم: ٨٣/١.

يَتَيَّنَ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي آتٍ بِنُوحٍ كَذَّبَ ﴿٥١﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَعَلُ الْآرْضَ قَرَارًا وَجَعَلُ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلُ لَهَا رُوسًا وَجَعَلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ الآية، أي: خلق الإنسان من نقطة ضعيفة فسواه وعذله وجعله كامل الخلقة ذكرًا وأنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ سَبًا وَصَهْرًا﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير لأصهار وأختان وقربات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَيْكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ظُهُورًا﴾ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ لِكُلِّ رِزْقٍ سَبِيلًا ﴿٥٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٧﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِهِ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٥٩﴾

[جهاالة المشركين]

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضرًا ولا نفعًا، بلا دليل قادم إل ذلك، ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء والشهوى والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظُهُورًا﴾ ﴿٥٤﴾ أي: عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرهم وهم لم يجدوا من نصرهم، أي: أهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضون يقاتلون عنهم، ويدبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة

وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ يعني القرآن، قاله ابن عباس^(٢)، ﴿جَاهِدًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٢﴾ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ أُلْجَاجٌ﴾ أي: خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات والزلال، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا يَمِلُحٌ أُلْجَاجٌ﴾ أي: مالح مرزعاقي، لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخزر، وما شاكلها وشابها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتهما الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة، خلقها الله سبحانه وتعالى؛ مألحة لثلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولثلا تجرى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها [مألحًا]، كان هواؤها صحيحة وميتتها طيبة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: وقد سئل عن ماء البحر: أتوضأ به؟ فقال: «هُوَ الطَّهَوْرُ مَأْوُهُ، الْجِلُّ مَيْتَتُهُ». رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزًا﴾ أي: حاجزًا وهو اليبس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا تَحْجُورًا﴾ ﴿٦٣﴾ أي: مانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿٦٤﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزٌ لَا

(١) مسلم: ١/ ٣٧٠ وفتح الباري: ١/ ٦٣٤.

(٢) الطبري: ١٩/ ٢٨١.

(٣) الموطأ: ١/ ٢٢ ومسنَد الشافعي: ١/ ٢٣ وأحمد: ٢/ ٢١١

وأبو داود: ١/ ٦٤ وتحفة الأحوذ: ١/ ٢٢٤ والنسائي:

٥٠/ ١ وابن ماجه: ١/ ١٣٦.

خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ (٢١) أي: استعلم عنه من هو خير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آخَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ فَحْكُمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كُذِّبَتْ رُبُّكَ صَدَقًا وَعَدَلاً﴾ أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَنَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ (٢٢).

[ذم المشركين]

ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكتاب: «اكتُتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم،^(١) ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرفه ولا نقر به﴾ استجد لنا قمرًا أي: لمجرد قولك ﴿وَزَادَهُمْ ثُورًا﴾ (٦) فأما المؤمنون فلانهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وقد اتفق العلماء رحيمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارتها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦) وهو الذي جعل الليل والنهار خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا (١٢)

له ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رُؤُوفٍ ظَهِيرًا﴾ (٥) قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه.

[الرسول بشير ونذير]

ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠) أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَوِي﴾ (١١) ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رُؤُوفٍ سَبِيلًا﴾ (١٢) أي: طريقًا وسبيلًا ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به.

[أمر الرسول بالتوكل على الله وذكر بعض صفاته]

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلًا على الله، الحي الذي لا يموت أبدًا، الذي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم ورب كل شيء ومليك اجعله ذخرًا وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ تَفْعَلَ مَا نَتَنَزَّلَ رُسُلَنَا، وَاللَّهُ يَتَعَصَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»^(١) أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿فَاتَّعِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ مَنَّانٌ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذْنُوبٍ عَسَاوِيًّا خَيْرًا﴾ (٨) أي: علمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، سدي بقدرته وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها وتوسعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو

في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتوب؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية. وقد ثبتت السنة

الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث. وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧). روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ أَجْرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، وَأَجْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ: نَحْنَا عَنْتَهُ كَيْتَارَ ذُنُوبٍ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكُرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَيُقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا» قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره (٧). انفرد بإخراجه مسلم (٨).

روى ابن أبي حاتم عن أبي جابر، أنه سمع مكحولًا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها يمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أَسَلَّمْتُ؟» فقال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال النبي ﷺ: «فَلْيَنْ أَلَّهِ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ، وَبُذِلَ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ» فقال: يا رسول الله، وغدراتي وفجراتي؟ فقال: «وَعَذْرَاتُكَ وَقَبَحَاتُكَ» فولى الرجل يهمل ويكبر (٩).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقُوا لَمْ يُنْكِرُوا وَلَمْ يَقْتُلُوا﴾ الآية. أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ يَنْتَ ذَلِكَ قَوْمًا﴾ (١٠) كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الآية.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (١١) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخَذُّ فِيهِ مَهْكَاءٌ (١٢) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٣) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُذِّبُ إِلَى اللَّهِ مَا بَا (١٤)

[من صفات عباد الرحمن:]

اجتناب الشرك والقتل والزنا

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَبِيلَةَ جَارِكَ» قال عبد الله: وأنزل الله لنصدق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية (١٥). وهكذا رواه النسائي (١٦)، وقد أخرجه البخاري ومسلم (١٧).

عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي نقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، ونزلت ﴿فَلْيَبْغُوا الْآلِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية (١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (١٩) روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثاماً: واد في جهنم (٢٠). وقال عكرمة: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ (٢١) أودية في جهنم يُعَذَّب فيها الزناة. وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد (٢٢). وقال السدي: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ (٢٣) جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية، وهذا فسر به بعله مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ ﴿وَيُخَذُّ فِيهِ مَهْكَاءٌ﴾ (٢٤) أي: حقيراً ذليلاً. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي:

(١) أحمد: ٣٨٠/١. (٢) النسائي في الكبرى: ٤٢٠/٦.

(٣) فتح الباري: ١١٦/١٢ ومسلم: ٩٠/١، ٩١.

(٤) الطبري: ٤١٤/٩. (٥) الطبري: ٣٠٨/١٩.

(٦) الطبري: ٣٠٨/١٩. (٧) أحمد: ١٧٠/٥.

(٨) مسلم: ١٧٧/١.

(٩) الدر المنثور: ٢٨١/٦ وأحمد: ٣٨٥/٤ ومجمع الزوائد:

مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجَسِهِمْ ﴿٧٢﴾ فقله: ﴿لَمْ يَحْزُوا عَلَيْهَا صَمًا وَعَمِيًا﴾ ﴿٧٣﴾ أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه، فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة^(٢).

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد ابن الأسود يومًا، فمر به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين [رأنا] رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرًا، ثم أقبل إليه، فقال: ما يحمل الرجل على أن ينسى محضرًا غيبة الله عنه، لا يدري لو شاهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يحبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم، لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء بنبيمكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على [أشد] حال بعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة [من] جاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافرًا وقد فتح الله قُلُوبَ قَلْبِهِ لِلإِيْمَانِ، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عين وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنما التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٧٤﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس: أمث يقتل بنا في الخير^(٤). وقال غيرهم: هداة مهتدين، دعاء إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا، ولهذا ثبت في صحيح مسلم

ثم قال تعالى خبرًا عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلًا أو حقيرًا، كبيرًا أو صغيرًا، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿٧٥﴾ أي: فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوًّا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَعْمَلُونَ صَالِحًا يُحْصِئْ لَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ آسَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية، أي: لمن تاب إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِتَابَتِ رِيهَتُهُمْ لَمْ يَحْزُوا عَلَيْهَا صَمًا وَعَمِيًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٨﴾

[بعض صفات عباد الرحمن]

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، وهو الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمدًا على غيره، كما في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُتْبِخُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» - ثلاثًا -، قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَشَقَاقُ الْوَالِدَيْنِ» وكان متكئًا، فجلس، فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(١). والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي: لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿٧٦﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿٧٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِتَابَتِ رِيهَتُهُمْ لَمْ يَحْزُوا عَلَيْهَا صَمًا وَعَمِيًا﴾ ﴿٧٧﴾ وهذه أيضًا من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِتَابَتِ رِيهَتُهُمْ لَمْ يَحْزُوا عَلَيْهَا صَمًا وَعَمِيًا﴾ ﴿٧٧﴾ أي: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربه يتوكلون ﴿٧٨﴾ بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرًا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْدِيكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

(١) فتح الباري: ٣٠٩/٥ ومسلم: ٩١/١.

(٢) الطبري: ٣١٨/١٩. (٣) أحمد: ٢/٦.

(٤) الطبري: ٣١٩/١٩.

تفسير سورة الشجر

وهي مكية

(ووقع في تفسير مالك المروي عنه، تسميتها: سورة الجامعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ ١. يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٢. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣. تِلْكَ بَنَاجُ نَفْسِكَ ٤. لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٥. إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٦. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ٧. فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَستَهْزِئُونَ ٨. أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَاسُهَا مِنْ كُلِّ رُجٍّ كَرِيمٍ ٩. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١١.

[القرآن وإعراض الكفار عنه وقهرهم

على الإيمان لو شاء الله]

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: الين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل، والغبي والزُشاد. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ بَنَاجُ نَفْسِكَ﴾ أي: مما تحرص وتحزن عليهم ﴿الَّذِينَ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهذه تسليّة من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ حَلَجَ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا يَهُدَا الْحَدِيثَ أَشَقًّا﴾. قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم: ﴿تِلْكَ بَنَاجُ نَفْسِكَ﴾ أي: قاتل نفسك (٤).

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا فعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية،

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ» (١).

﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعَرْشَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُقَرَّبُونَ فِيهَا حُجَّةً وَسَلَامًا﴾ ٧٥. ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ٧٦. ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ بِكَرِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ٧٧.

[جزاء عباد الرحمن والوعيد لأهل مكة]

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يَجْزُونَ﴾ يوم القيامة ﴿الْعَرْشَةَ﴾ وهي الجنة، قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: سميت بذلك لارتفاعها ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُقَرَّبُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿حُجَّةً وَسَلَامًا﴾ ٧٥. أي: يُتَسَدَّرُونَ فيها بالتحية والإكرام، ويُلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار؛ وقوله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: مقربين لا يظعنون ولا يحولون، ولا يموتون ولا يزولون عنها، ولا يغيثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَيُّ الَّتِي خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ٧٦. أي: حسنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ بِكَرِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ٧٧. أي: فسوف يكون تكذيبكم لزماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم (٢). وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ٧٧. أي: يوم القيامة (٣)، ولا منافاة بينهما.

آخر تفسير سورة الفرقان والله الحمد والمنة.

(١) مسلم: ٣/ ١٢٥٥.

(٢) الطبري: ١٩/ ٣٢٤، وعبد الرزاق: ٣/ ٧٢.

(٣) الدر المنثور: ٦/ ٢٨٧.

(٤) الطبري: ١٩/ ٣٣٠، والدر المنثور: ٦/ ٣٦٠.

[بين موسى وفرعون]

يخبر تعالى عما أمر عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام - حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَصْبِقُوا صَدْرِي وَلَا يُطِيقُوا لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ١٣ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ هذه أَعْدَارُ سَأَلَ الله إِزَاحَتَهَا عَنْهُ، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ آمْرِجْ فِي صَدْرِي ١٥ وَتَبَيَّرْ بِأَمْرِي ١٦﴾ إلى قوله: ﴿فَدَاوَيْتُ سَرْكَكَ يَتْمَوْنِ ١٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤﴾ أي بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿قَالَ كَلَّا ١٥﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلْنَا لَكُمَا سُلْطَانًا ١٦﴾ أي برهائما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْزِلَ وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَلَاحُ ١٧﴾ ﴿فَأَذْهَبْنَا بِأَيِّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ١٨﴾ كقوله ﴿وَإِنِّي مَعَكُمْ أَسْعَى وَأُرِي ١٩﴾ أي: إني معكم بحملي وكلاقي ونصري وتأييدي ﴿فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٠﴾ كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ ٢١﴾ أي: كل منا أرسل إليك ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٢٢﴾ أي: أطلقهم من إسارِكَ وقبضتك وقهرك وتعديك فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والغمص، فقال: ﴿أَلَمْ تُرْكِبْ فِتْنًا وَلَيْدًا ٢٣﴾ الآية، أي: أما أنت الذي ربيناه فينا ولى بيتنا وعلى فراشنا، [وَعَلَيْنَا] وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعل: أن قتلتنا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٢٤﴾ أي: الجاحدين، قاله ابن عباس وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير (٣). ﴿قَالَ قُلْنَا لَهَا ٢٥﴾ أي: في تلك الحال ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ٢٦﴾ أي: قبل أن يوحى

فَنَقَذَ قَدْرَهُ، ومضت حكمته، وقامت حجة البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْتَلِفًا إِلَّا كَأَنَّهُمْ مَعْرُضِينَ ٢٧﴾ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ٢٨﴾ وقال تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَأَنَّهُمْ يَسْتَخَرُونَ ٢٩﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَ كُلًّا مَا جَاءَهُ أَتَاهُ رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ ٣٠﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ أَتَىٰ كَأَنَّهُمْ يَسْتَخَرُونَ ٣١﴾ أي: فقد كذبوا بسا جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ٣٢﴾.

ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأثبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان. قال سفيان الثوري عن رجل عن الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم (١). ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ٣٣﴾ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به ورسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نبيه. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ٣٤﴾ أي: الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الزَّجِيمُ ٣٥﴾ أي: بخلقه، فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله ويظفره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية وقادة الربيع بن أنس وابن إسحاق: العزيز في نعمته وانتصاره من خالف أمره وعبد غيره (٢). وقال سعيد بن جبير: الرحيم بمن تاب إليه وأناب.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٣٦﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ ٣٧ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٣٨ وَيَصْبِقُوا صَدْرِي وَلَا يُطِيقُوا لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ٣٩ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٤٠ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيِّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ٤١ فَأَيُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٢ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٤٣ قُلْ أَلَمْ تُرْكِبْ فِتْنًا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِتْنًا مِنْ عَمْرِكَ سِتِينَ ٤٤ وَقُلْتَ فَعَسَىٰ إِلَهِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٤٥ قَالَ قُلْنَا لَهَا ٤٦ وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ٤٧ فَقَرَّرْتَ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَعْتُمْ قَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٤٨ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَدَّتْ بِحَىٰ إِسْرَءِيلَ ٤٩﴾

(١) الدر المنثور: ٦/٢٨٩.

(٢) الطبري: ٢٣/٣٠٤، ٣/٢٦٠، ٥/٥١١.

(٣) الطبري: ١٩/٣٤٠.

إلي، وينعم الله علي بالرسالة والنبوة.

﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١١) أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته؛ سلمت، وإن خالفته عطبت؛ ثم قال موسى: ﴿وَلَوْلَا يَمْنَةُ فِئْتِنَاهُمْ أَنْ عَيْدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١٢) أي: وما أحسنت إلي وريبتني مقابل ما أسأت إلي بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماء تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيته، أفئنتني إحسانك إلي رجل واحد منهم بما أسأت إلي مجموعهم، أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلي ما فعلت بهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ^(١٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ^(١٥) قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ^(١٧) قَالَ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ^(١٨)

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) وذلك أنه كان يقول لقوميه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١٤) ﴿فَأَسْتَحَفَّ فِئْتِنَاهُمْ فَأُطَاعُوهُ﴾ وكانوا يمحذون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦) قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسر علماء السلف وأئمة الخلاف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(١٥) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى^(١٦) ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(١٦) أي: خالق جميع ذلك ومالكة والمتصرف فيه، وإله لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(١٧) أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء

دولته قائلاً لهم - على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيها قاله - - ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾^(١٥) أي: ألا تعجبون [عما يقول] هذا في زعمه: أن لكم إلهاً غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَوَّلِينَ﴾^(١٦) أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين - الذين كانوا قبل فرعون وزمانه - ﴿قَالَ﴾^(١٧) أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(١٧) أي: ليس له عقل في دعواه: أن ثم رباً غيري. ﴿قَالَ﴾^(١٨) أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾^(١٨) أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب؛ ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى عن: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ فِي رِجِّهِ أَنْ تَسْبُحُوا لَهُ أَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلُوكَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ رَبِّيَ الَّذِي يُنْصِي وَيُخِيطُ قَالَ آتَا أُنْصِي وَأُخِيطُ قَالَ لِرَبِّهِمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّحَابِ مِنَ الشَّرْقِ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ الآية. ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى - عليه السلام - فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾^(١٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ^(٢٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٢١) فَأَتَاهُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ^(٢٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ^(٢٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ^(٢٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ^(٢٥) قَالُوا أَرَأَيْتَ إِنْ هُوَ إِلَّا نَارٌ مَقْنُونَةٌ وَنَارٌ مَلْهُونَةٌ فِي اللَّيْلِ نَارٌ حَامِسَةٌ^(٢٦) بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ^(٢٧)

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾^(١٩) فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾^(٢٠) أي: ببرهان قاطع واضح ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢١) فَأَتَاهُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ^(٢٢) أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾^(٢٣) أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ

بَيْضَةً لِلنَّظِيرِ (٢٣) ﴿أَي: تَتَلَا كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ، فَبَادِرُ فِرْعَوْنَ بِشَقَاوَتِهِ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا سِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤) ﴿أَي: فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي السَّحَرِ، فَرُوجٌ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنَ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْعِجْزَةِ، ثُمَّ هَبَّجَهُمْ وَحَرَضَهُمْ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ (٢٥) ﴿أَي: أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا، فَيَكْثُرَ أَعْوَانُهُ وَأَنْصَارُهُ وَاتِّبَاعُهُ، وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ، فَاشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ؟﴾ (٢٦) ﴿قَالُوا أَرْجُو أَنَّهُ وَاعِدٌ فِي اللَّيَالِي حَشِيرَةٍ﴾ (٢٧) ﴿يَأْتِيكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿أَي: أَخْبَرَهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ يَقَابِلُونَهُ، وَيَأْتُونَ بِظُلْمٍ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلِبَهُ أَنْتَ، وَتَكُونَ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّائِيدُ، فَأُجَابِهِمْ إِلَى ذَلِكَ. وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِيَجْمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتُظْهِرَ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ وَبِرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢٩) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٠) لَعَلَّنا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَلِيلِينَ (٣١) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَلِيلِينَ (٣٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِينُ الْمُقَرَّبِينَ (٣٣) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبِلُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٣٤) قَالُوا جَاهِلُكُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةٍ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَلِيلُونَ (٣٥) قَالَتِ مَرْيَمُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٣٦) قَالَتِ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ (٣٧) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْمَلَائِكَةِ (٣٨) رَبِّهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ (٣٩)

[بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحَرَةِ]

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ الْفَعْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْقَبْطِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبْطَ أَرَادُوا أَنْ يَطْفِشُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَهَذَا شَأْنُ الْكَفْرِ وَالْإِيمَانِ مَا تَوَاجَعَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلِبَهُ الْإِيمَانُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (١٩) الْآيَةُ، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمِ بِلَادِ مِصْرَ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَرُ النَّاسِ وَأَصْنَعُهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَحْيِيلًا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ. وَاجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْاجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿لَعَلَّنا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَلِيلِينَ﴾ (٢٠) وَلَمْ يَقُولُوا تَتَّبِعِ الْحَقَّ، سِوَاهُ كَانَ مِنْ

السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى، بَلِ الرِّعْيَةُ عَلَى دِينِ مَلِكِهِمْ ﴿فَلَمَّا يَخْلُ السَّحَرَةُ﴾ (٢١) إِلَى مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ ضَرَبُوا لَهُ وَطَاقًا، وَجَعَلَ خُدْمُهُ وَحُشْمُهُ [وَأَمْرَاءَهُ] وَوزرائه ورؤساء دولته، وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ، فَقَامَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ إِنْ غَلَبُوا، أَيْ: هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْلِ، فَقَالُوا: ﴿أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَلِيلِينَ﴾ (٢٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِينُ الْمُقَرَّبِينَ (٢٣) أَيْ: وَأَخْصَ مَا تَطْلُبُونَ، أَجْعَلُكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي، وَجِلْسَانِي، فَعَادُوا إِلَى مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ ﴿قَالُوا يَمُوتُونَ أَمَّا لِي تَلَيَّ وَإِنَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٢٤) قَالَ بَلْ أَقْبِلُوا وَقَدْ اخْتَصَرْنَا هَهُنَا، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿أَقْبِلُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا جَاهِلُكُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةٍ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَلِيلُونَ (٢٦) وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ تَقُولُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَوَامِ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا: هَذَا بِشَوَابِ فَلَانٍ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُمْ: ﴿سَكَّارًا أَفْعَى النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٧). وَقَسَّالٌ فِي سُورَةِ طه: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجِئِلٍ إِلَى يَوْمِ يَسْخَرُهُمْ أَتَانَهُمْ﴾ (٢٨) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّارِحِينَ﴾ (٢٩) وَقَالَ هَهُنَا: ﴿قَالَتِ مَرْيَمُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٣٠) أَيْ: تَخْتَلِطُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ وَتَتْبَلَعُهُ فَلَمْ تَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣١) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٣٢) فَكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جَدًّا، وَبِرَهَانًا قَاطِعًا لِلْعُدْرِ، وَحُجَّةً دَامِغَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَغْلِبُوا، غَلِبُوا وَخَضَعُوا، وَأَمَنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهَةِ وَسَجَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَرْسَلَ مُوسَى وَهَارُونَ بِالْحَقِّ وَبِالْعِجْزَةِ الْبَاهِرَةِ، فَغَلِبَ فِرْعَوْنَ غَلِبًا لَمْ يَشَاهِدِ الْعَالَمُ مِثْلَهُ، وَكَانَ وَقْعًا جَرِيئًا - عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ - فَعُدِلَ إِلَى الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ وَدَعَا إِلَى الْبَاطِلِ، فَشَرَعَ يَهْدِيهِمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ هَذَا لَتَكْذَرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (٣٤) الْآيَةُ.

﴿قَالَ آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ عَادَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْفَرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تُطِيعُنَّ آيَاتِهِمْ وَآيَاتُكُمْ مِنْ خَلْقٍ وَآيَاتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٥) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُقْبِلُونَ (٣٦) إِنَّا نَطَعُكَ يَقِفُ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٧)

[بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ]

تَهْدِدُهُمْ فَلَمْ يَنْفَعِ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدُهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كَشَفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابَ الْكَفْرِ، وَظَهَرَ

عليه السلام - قد أوصى بذلك: إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم^(٢). فلما أصبحوا وليس في ناديمهم داع ولا محجب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي: من يحشر الجند ويجمعه كالقباء والحجّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لَيَرْزُمَنَّهُمْ لَيَالُونَ﴾^(٣) أي: لطائفة قليلة ﴿وَلَهُمْ لَنَا لَقَائُونَ﴾^(٤) أي: كل وقت يصل منهم إلينا ما يغبطنا ﴿وَلَنَا لَجِيعٌ حَذِرُونَ﴾^(٥) أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف: (ولنا لجميع حذرون) أي: مستعدون بالسلاح، وإن أريد أن أستأصل شائفتهم، وأبسد خضراءهم، فجزوي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٦) وَكَثُورٌ وَمَقَابِرَ كَثِيرٍ^(٧) أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك، والجاه الوافر، في الدنيا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٨) كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَعَكُمُ الْآلِيَّةُ بِذُنُوبِهِمْ﴾^(٩) الآية، وقال تعالى: ﴿وَرِثُودُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَلْنَاهُمْ لِيَمَّةٍ وَيَجْلِبُهُمْ إِلَيْكَ الْوَرِيدُ﴾^(١٠) الآية.

﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِيقَ﴾^(١١) فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ^(١٢) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ^(١٣) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَصْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ^(١٤) وَأَزْلَفْنَا نَمُ الْآخِرِينَ^(١٥) وَأَوْحَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ^(١٦) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ^(١٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ^(١٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(١٩)

[مطاردة فرعون بني إسرائيل]

[وإغراقه وإغراق قومه]

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، - هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه - أولى الحل والعقد والدول: من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِيقَ﴾^(١١) أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها، ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ﴾^(١٢) أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك

لهم الحق يعلمهم ما جهل قومهم: من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿يَأْمُرُهُمْ رَبِّي أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ﴾^(١٣) أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا علي في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم وإن منعكم، امتنعتم فياني أنا الحاكم المطلق ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ﴾^(١٤) أي: مَنَّكُمْ الْكَيْرَ^(١٥) وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يمتنعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا: ﴿لَا ضَرَرَ﴾^(١٦) أي: لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْقُضْ يَوْمَئِذٍ﴾^(١٧) أي: المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغِيْرَ لَنَا رَبُّنَا خَطْبُنَا﴾^(١٨) أي: ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُفْلِسِينَ﴾^(١٩) أي: بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَمْرِ بِمَا كُنْتَ إِكْرَامُ مُّشْعُونَ﴾^(٢٠) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ^(٢١) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَرْزُمَنَّهُمْ لَيَالُونَ^(٢٢) وَلَهُمْ لَنَا لَقَائُونَ^(٢٣) وَلَنَا لَجِيعٌ حَذِرُونَ^(٢٤) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(٢٥) وَكَثُورٌ وَمَقَابِرَ كَثِيرَةٍ^(٢٦) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٢٧)

[خروج بني إسرائيل من مصر]

لما طال مقام موسى - عليه السلام - ببلاد مصر، وأقام بها حجاج الله وبراهيمته على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى - عليه السلام - أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه عز وجل، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيها ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وذكر مجاهد - رحمه الله - أنه كُشف القمر تلك الليلة^(١)، فالله أعلم، وأن موسى - عليه السلام - سأل عن قبر يوسف - عليه السلام -، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه عليها السلام، وكان يوسف -

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (١١) وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهاذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (١٢) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَكُونُ (١٣) أي: لا يصل إليكم شيء مما تخدرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون، يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله! ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول: نعم، فاقرب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق ياذن الله.

قال الله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (١٤) أي: كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقناة، وغيرهم (١٥). وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق (١٦). وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان (١٧). وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾ (١٨) وقال في هذه القصة: ﴿وَأَرْسَلْنَا نَمُ الْآخِرِينَ﴾ (١٩) أي: هنالك. قال ابن عباس، وعطاء الخراساني، وقناة والسدي: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ أي: قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدبناهم إليه (٢٠) ﴿وَأَجَبْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ﴾ (٢١) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٢٢) أي: أنجبنا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من المعجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ (٢٤) تقدم تفسيره.

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَبِّهِمْ﴾ (٢٥) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٢٦) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَرُ هَا عَلَيْكِنَّ (٢٧) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ

تَدْعُونَ (٢٨) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ (٢٩) قَالُوا لَا تَأْتِيَنَا كَلِمَةٌ يَفْعَلُونَ (٣٠) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٣١) ثُمَّ رَأَيْنَاهُ الْآفَاقِينَ (٣٢) فَأَتَاهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَالَمِينَ (٣٣)

[وعظ خليل الله إبراهيم]

عليه السلام في رد الشرك

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخطيله إبراهيم عليه السلام إمام الخفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً أن يتلوه على أمته ليقنتوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكز على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (١) أي: ما ههنا التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَرُ هَا عَلَيْكِنَّ﴾ (٢) أي: مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ مَا يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٣) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ (٤) قَالُوا لَا يَنفَعُنا هَؤُلَاءِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّا رَأَوُا أَبَاءَهم كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، فهم على آثارهم يُهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ تَكْبُدُونَ﴾ (٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ (٦) فَأَتَاهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَالَمِينَ (٧) أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها سائر فلتخلص لي بالمساءة، فإنني عدو لها، لا أبالي بها ولا أكره فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآلِهَتُهُ لَا بُدَّ لِي بِهِمْ﴾ (٨) وَإِنِّي نَذَرْتُ لِلَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ دِينَهُ فَمَكَدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٩) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِيْصِيْنًا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠) وهكذا تبرا إبراهيم من آلهتهم فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَاكَ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَحْدَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (١١) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي (١٢) وَجَعَلَهَا كِتَابًا بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ (١٣) يعني: لا إله إلا الله.

(١) الطبري: ١٩/٣٥٨. (٢) الدر المنثور: ٦/٢٩٩.

(٣) الطبري: ١٩/٣٥٧. (٤) الطبري: ١٩/٣٥٩.

والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً^(٢). وقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٣) أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي، أذكر به ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٤) سلم على إبراهيم^(٥) كذلك تجزي التحسين^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾^(٧) أي: أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم. وقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لِي﴾ الآية، كقوله: ﴿رَبِّ ااغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِبرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٨) وقد قطع [الله] تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى: ﴿فَكَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ مِنْ حَسَنَةِ فَعَالِ إِبرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَتَيْنَاكَ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾^(٩) أي: أجري من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

وروى البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ إِبرَاهِيمَ رَأَى أَبَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ الْعُزْبَةُ وَالْفَقْرَةُ»^(١٠). وفي رواية أخرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يَلْقَى إِبرَاهِيمُ أَبَاهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»^(١١) هكذا رواه عند هذه الآية.

وفي أحاديث الأنبياء وبلفظه: «يَلْقَى إِبرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرَزٌ فَتَرَةً وَعُزْبَةً، فَيَقُولُ لَهُ إِبرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تُغْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبرَاهِيمُ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا إِبرَاهِيمُ، انْظُرْ تُمْتُ رَجُلِيكَ، فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيحٍ مُتَلَطِّحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١٢) ورواه أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبرى^(١٣).

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾^(١٤) أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾^(١٥).

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(١٦) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾^(١٧) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١٨) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾^(١٩) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٢٠)

[ذكره كرم الله ولطفه به]

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي يَهْدِينِ﴾^(٢١) أي: هو الخالق الذي قدر قدرته، وهدي الخلاق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾^(٢٢) أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُنَزَّل، وأنزل الماء وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً ولا يَسْقِيه بما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٢٣) أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى أمراً للمصلي أن يقول: ﴿عَدِينَا تَحِيطُ الْمُسْتَقِيمِ﴾^(٢٤) إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حُذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشْرَأُ يَدِ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرْأَاكُمْ بِهِمْ رُجُومًا رَمَدًا﴾^(٢٥) وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٢٦) أي: إذا وقعت في مرض، فإنه لا يفتقر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾^(٢٧) أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعبد ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٢٨) أي: لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿لَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٢٩) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٠) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣١) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٢) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٣) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٤) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٥) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٦) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٧) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٨) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٣٩) وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَفْوَاجٍ﴾^(٤٠)

[دعاء الخليل لنفسه وأبيه]

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتیه ربه حُكماً. أسند ابن عباس: وهو العلم^(١). وقوله: ﴿وَالْحَقِيقُ الْمُسْتَقِيمُ﴾^(٢) أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا

(١) البغوي: ٣/ ٣٩٠. (٢) فتح الباري: ٧/ ٧٤٣.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٣٥٧. (٤) فتح الباري: ٨/ ٣٥٧.

(٥) فتح الباري: ٦/ ٤٤٥. (٦) النسائي في الكبرى: ٦/ ٤٢٢.

أي: ولو افترى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنَ اتَّقَى اللَّهَ يَغْفِرْ قَلْبَ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) أي: سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور (١). وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح (٢)، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة.

﴿وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِمُنَاقِبٍ (٩٠) وَبَرَزَ الْجَحِيمُ لِلْقَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ (٩٣) فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ (٩٤) وَخَوَدُوا إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي ضَلَالِ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَفَاعَةٍ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) قُلْ أَوْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَكَلَّمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

[المتقون والفاوون يوم القيامة]

وجدال الفاوون وحسرتهم]

﴿وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ﴾ أي: قربت وأدريت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها في الدنيا ﴿وَبَرَزَ الْجَحِيمُ لِلْقَاوِينَ﴾ (٩١) أي: أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عتق فزرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر. وقيل: لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ (٩٣) أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دُونِ اللَّهِ، من تلك الأصنام والأنداد، تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصَّبَ جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ﴾ (٩٤) قال مجاهد: يعني فذُهِرُوا فيها (٣). وقال غيره: كَبَّوْا فيها، والكاف مكررة، كما يقال صرصر، والمراد: أنه ألقى بعضهم على بعض: من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿وَخَوَدُوا إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٥) أي: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي ضَلَالِ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا

لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟ ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي ضَلَالِ مُبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٩٩) أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفَاعَةٍ﴾ (١٠٠) كما يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شَفَاعَةٍ فَيَسْأَلُوكَ لَنَا أَوْ تَرُدُّهُمْ فَيَقُولُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفَاعَةٍ﴾ (١٠١) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠٢) أي: قريب.

﴿قُلْ أَوْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَكَلَّمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - والله تعالى يعلم أنهم لو رُدُّوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ﴾ (٩٦) ثم قال تعالى: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لآية، أي: لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله، وما كان أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَلَئِنَّ رَبَّكَ لَوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤).

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (١١٠)﴾

[ذكر نوح ووعظه لقومه وجوابهم]

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح علي السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك وعذراً من وييل عقابه، فكذب قومه، فاستمروا على ما هم عليه من الفعل الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ﴾ (١٠٩) أي: لا أطلب

(١) الطبري: ١٩/٣٦٦. (٢) البغوي: ٣/٣٩٠.

(٣) الطبري: ١٩/٣٦٧.

﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٣٠﴾ وَالْمَشْحُونُ هُوَ الْمَلُوءُ بِالْأَمْتَةِ وَالْأَزْوَاجُ الَّتِي حَمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: أَنْجَبْنَا نُوحًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ كُلَّهُمْ، وَأَغْرَقْنَا مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَئِنْ رَيْكَ لَهَوَ الْعَزِيزُ الرَّجِيمُ ﴿١٣٣﴾

﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣١﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٠﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٢٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّي الْمَلِئِينَ ﴿١٢٨﴾ أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ تَقْبُثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَسْتَوْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتَ جَبَارِينَ ﴿١٢٥﴾ فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٢٤﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَّاكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ أَمَّاكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِئْسَ وَحِشٌ وَعَبُودٌ ﴿١٢٢﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

[وعظ هود عليه السلام لقومه عاد]

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عادًا، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريبًا من حضرموت، متاخمة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والشجار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هودًا إليهم رجلًا منهم رسولًا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نعمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ تَقْبُثُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ اختلف المفسرون في الريح بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، ينون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا، ولهذا قال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ﴾ أي: معلما بناء مشهورًا ﴿تَقْبُثُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه بل المجرى للعب واللغو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبههم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضییع للزمان وإتعب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَوْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة والبنان المخلد.

منكم جزاء على نصحي لكم، بل أذخر ثواب ذلك عند الله ﴿فَاقْبَلُوا اللَّهَ وَاطِيعُوهُ ﴿١٢٩﴾﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به واتممتني عليه.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١٣١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنْ جِئْتُمْ إِلَّا عَلَى رِجْلِ تَوَشَّعُونَ ﴿١٣٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٣٥﴾﴾

يقولون: لا نؤمن لك، ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأراذل، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١٣١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي؟ ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التفتيق عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل ﴿إِنْ جِئْتُمْ إِلَّا عَلَى رِجْلِ تَوَشَّعُونَ ﴿١٣٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: إنما بعثت نذيرًا، فمن طاعني واتبعتني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء كان شريفًا أو ضعیفًا، أو جليلًا أو حقيرًا.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَرِئْتُ كَذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٩﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَئِنْ رَيْكَ لَهَوَ الْعَزِيزُ الرَّجِيمُ ﴿١٤٢﴾﴾

[تهديد القوم ودعاء نوح عليه

السلام عليهم وإهلاكهم]

لما طاع مقام نبي الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهارًا، وسراً وجهاً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: نخرجك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَرِئْتُ كَذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴿١٣٨﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٣٩﴾﴾ في آخر الآية. وقال ههنا: ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ

وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٧) مَا أَنْتَ إِلَّا نَسْرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ۖ هَٰذَا شَرِبَ وَلَٰكُزْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٩﴾ وَلَا تَسْهَوْا يَسْوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٠﴾ فَقَرَوْهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٦١﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

[جواب ثمود وطلبهم الآية ومجيئهم العذاب]

يقول تعالى خبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٧) قال مجاهد وقادة: يعنون: من المسحورين (١٥٨). ثم قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا نَسْرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَتُنْفِئُ الذِّكْرَ طَلْحُومٍ يَبْنَؤُا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ (١٥٩) سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابِ الْآيُورِ (١٦٠) ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملوهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عُشراء وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح، العهد والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به [وليصدقن]، وليتبعن، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيئهم إلى سؤلهم، فانفطرت تلك الصخرة - التي أشاروا إليها - عن ناقة عُشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ۖ هَٰذَا شَرِبَ وَلَٰكُزْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٩) يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوما تردونه أنتم ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٦٠) فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتآكل الورق والمرعى - ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالأوا على قتلها وعقرها ﴿فَقَرَوْهَا﴾ (١٦١) فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٦٢﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٦٣﴾ وهو أن أرضهم

معروفة مشهورة، وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث الروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى ثوبك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك (١). وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يتغنى بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل، ثم ذكروهم آلاء الله عليهم، فقال:

﴿أَنْزَلْنَاهُ فِي مَاءٍ هَنَاءٍ ءَامِنَةٍ﴾ (١٦٤) فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ ﴿١٦٥﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٦٦﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ ﴿١٦٧﴾ فَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ ﴿١٧٠﴾

[تذكيرهم بأحوالهم ونعمهم]

يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم من الزروع والشجرات، ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٦٦). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أነع وبلغ، فهو هضم (٢). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٦٦) يقول: مُشْمِة. وقال إسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٦٦) قال: إذا رطب واسترخى، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن أبي صالح نحو هذا.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ (١٦٧) قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين (٣). وفي رواية عنه: شريين، وهو اختيار مجاهد وجماعة (٤)، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً ويطربوا وعشاً من غير حاجة إلى سكنائها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿فَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٦٨) أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ﴾ (١٦٩) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ ﴿١٧٠﴾ يعني رؤساءهم

(١) فتح الباري: ٧/ ٧٣١. (٢) الطبري: ١٩/ ٣٨٠.

(٣) الطبري: ١٩/ ٣٨٢. (٤) الطبري: ١٩/ ٣٨٣.

(٥) الطبري: ١٩/ ٣٨٤، ٣٨٥.

زُلزِلَتْ زَلَزَلًا شَدِيدًا، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ اقْتَلَعَتْ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِهَا، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِثِينَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

[ذَكَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعَاؤُهُ]

يقول تعالى خبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، هو لوط ابن هاران بن آزار وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليها السلام، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكتها الله بها، وجعل مكانها بحيرة متنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية متاخمة لجلال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسوله الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى: ﴿آتَاوُنَا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَلِ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نَنْتَهِيَ بِكَ لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُفْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

[نَكِيرَ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِعْلٍ]

قَوْمُهُ، وَجَوَابُهُمْ وَعَذَابُهُمْ

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿لَنْ نَنْتَهِيَ بِكَ لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُفْرَجِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ أي: نفيك من بين جنتنا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلَا لُوطُ مِنْ قَرِينِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه، وأنهم مستمررون على

ضلالتهم، تبرأ منهم وقال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾ أي: المبعضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ قال الله تعالى: ﴿فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ ﴿١٧١﴾ وهي امرأته، وكانت عجزوز سوء بقيت فهلك مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومهم فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾

﴿كَذَبَتْ أَعْيُنُ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

[شُعَيْبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعْظِي أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ]

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصعيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنسا لم يقل ههنا أخوه شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: هم ملتف كالغيسة كانوا يعبدونها، فهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفظن هذا النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيب عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قوم شعيب، وقاله إسحاق بن بشر^(١). وقال غير جوير: أصحاب الأيكة ومدين واحد^(٢)، والله أعلم.

والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشي وهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنها أمة واحدة. ﴿أَرْفُقُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٧٩﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَنْفُسِ

(١) الدر المنثور: ٦/٣١٨. (٢) الطبري: ١٩/٣٩٠.

مُفْسِدِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَنْفَعُوا الَّذِينَ خَلَقْتُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٣٣﴾

[الأمر بإيفاء المكيال والميزان]

بأمرهم الله تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيها، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾ أي: إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافيّاً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿وَيُؤْتِي الْقِسْطَ مِنَ النَّاسِ أَشْيَاءَ هُمْ لَا تَقْصُومُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَعْتَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ يعني قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنْفَعُوا الَّذِينَ خَلَقْتُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ يخوفهم بأمر الله الذي خلقهم وخلق آباءهم والأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّكَ رَبُّ رَبِّ آبَائِكُمْ الْأُولِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ يقول: خلق الأولين وفرا ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَسْأَلْتُ نَبِيَّكُمْ جِبِلًّا كَبِيرًا﴾ (١).

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ لَطَمْنَا لَنَكْذِبَنَّكَ لَيَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤١﴾ وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ وَإِنْ رَيْتَ أَنَّكَ لَهِوَ الْعَرَبِ الرَّحِيمِ ﴿١٤٣﴾

جواب قوم شعيب وتكذيبهم إياه ومجيئهم العذاب]

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به نمود وسولها - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ لَطَمْنَا لَنَكْذِبَنَّكَ لَيَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ أي: تتعمد الكذب فيما تقول، لا أن الله أرسلك إلينا ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال الضحاك: جانباً من السماء (٢).

وقال قتادة: قطعاً من السماء (٣). وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله مسألي: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءَا لَنَا بِأَنْتَ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَخِذْ مِنْهُمْ مِرْيَاقًا فَجَنَحَ بِمِزَانٍ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَقَالَ لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ مِيزَانٌ يَوْمَئِذٍ وَمَنْ يَمِيزْ كَيْفًا فَلَا تَفْخَرْ يَوْمَئِذٍ بِالَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٤٥﴾ وَقَالَ لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ مِيزَانٌ يَوْمَئِذٍ وَمَنْ يَمِيزْ كَيْفًا فَلَا تَفْخَرْ يَوْمَئِذٍ بِالَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٤٦﴾

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿١٤٧﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجاهلة: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جزاكم به وهو غير ظالم لكم وهكذا وقع بهم جزاء - كما سألوا - جزاءً وفاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٤٩﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يكتفون منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحمها، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار وهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥٠﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَّاكَ بِسْمِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي عَلَمَيْنَا﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ﴾ [وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ] وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلُّوْا تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿١٥١﴾ قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تستكثهم، فقال: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ﴾ [وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ] الآية: وهنأ قالوا: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥٢﴾.

وروى محمد بن جرير عن يزيد الباهلي، سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ الآية، قال: بعث الله عليهم رعدةً وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم [فدخلوا البيوت فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم] فخرجوا من

بَعْدَى أَمْتُهُ أَحْمَدُ ﴿١٠٠﴾ والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبر، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿١٠١﴾ أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَّاؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٠٢﴾ أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد: العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمه، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وسليمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ الرَّسُولُ الَّذِي الْأَنْتُمْ﴾ الآية.

[شدة كفر قريش]

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ فقرأ عليهم ما كانوا يؤمنون به، ﴿كَمَا أَخْبَر عَنْهُمْ فِي الْأَيَّاتِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ فَسْخُودًا﴾ ﴿١٠٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا تِيمَ الْمَلِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ الآية ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، عَزَّ بِرُؤُوسِهِمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٠٧﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٨﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١٠٩﴾ أَفَعَدَّيْنَا لِلْمُجْرِمِينَ أَكْرَبًا إِنَّ مَتَعَنَّهُمْ سِينٌ ﴿١١٠﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١١١﴾ مَا أَقْرَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَهْلَكُنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١١٣﴾ وَكَذَلِكَ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١١٤﴾

[المكذبون لا يؤمنون حتى يروا العذاب]

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناهم في قلوب المجرمين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالحق ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١١٥﴾ أي: حيث لا يقع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١١٧﴾ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو

البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سبحانه فأظلمتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذقة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نازراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَلَهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢١﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٢٢﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٢٣﴾

[القرآن أنزله الله]

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَلَهُ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ تَنذِيرُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَذُكِرُوا﴾ الآية: ﴿لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٢٥﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج^(٢)، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿١٢٦﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴿١٢٧﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ أي: لتندر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٢٩﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه [بلسانك] العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقبلاً للحجة دليلاً إلى المحجة.

﴿وَلَهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَّاؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣١﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٣٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا

كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾

[ذكر القرآن موجود في كتب الأولين]

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ

[نزل بالقرآن جبريل لا الشيطان]

يقول تعالى خبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِالشَّيْطَانِ﴾ ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم، لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ثم بين أنه ولو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السواء ملئت حرصاً شديداً وشهياً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لثلا يشته الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأنيده لكتابه ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوُونَ﴾ كما قال تعالى خبراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً مِنْ حَرِّ سَاطِرٍ ذُو قُبُورٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ وهذا قال تعالى: ﴿مَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾.

في الحديث الصحيح: «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغَسِّسُ فِي النَّارِ غَسَسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَيْمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا والله يا رب، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُضَغُّ فِي الْحِنِّ ضَغْطَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، وَهِيَ يَا رَبِّ: أَيُّ مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ» (١).

ثم قال تعالى خبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من أمة إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ نَنْذِرَ بِهِ، وَنُحْيِيَ النَّاسَ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُضَغُّ فِي الْحِنِّ ضَغْطَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، وَهِيَ يَا رَبِّ: أَيُّ مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ» (١).

[الأمر بإنذار الأقربين]

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، وخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

نُظِرُوا قَلِيلًا لِّعْمَلِهِمْ - فِي زَعَمِهِمْ - بِطَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ فكل ظالم وفاجر إذا شاهد عقوبته ثم نادى شديداً، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتٌ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ فأنثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿عِنْدَ إِذَا أَدْرَكَهُ الْمُرَقَّةُ قَالَ آمَنْتُ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾ الآيات.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار عليهم وتوبيخ لهم فإنهم كانوا يقولون للرسول تكديباً واستبعاداً: ﴿لَنَنفِخَ بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآيات، ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴿مَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ أي: لو عرفناهم وانظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان دون طالع، ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من عسر؟ ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَيْسَ إِلَّا غَيْشٌ أَوْ صَهَابٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ أَهْلَهُمْ تُوعَدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ وهذا قال تعالى: ﴿مَا أَفْقَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾.

في الحديث الصحيح: «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغَسِّسُ فِي النَّارِ غَسَسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَيْمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا والله يا رب، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُضَغُّ فِي الْحِنِّ ضَغْطَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، وَهِيَ يَا رَبِّ: أَيُّ مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ» (١).

ثم قال تعالى خبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من أمة إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ نَنْذِرَ بِهِ، وَنُحْيِيَ النَّاسَ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُضَغُّ فِي الْحِنِّ ضَغْطَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، وَهِيَ يَا رَبِّ: أَيُّ مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ» (١).

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِالشَّيْطَانِ﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوُونَ﴾

[الرد على قولهم في النبي ﷺ إنه شاعر]

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن (٤). وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما (٥). وقال عكرمة: كان الشعراء يتهاجسون فيتنصر لهذا فقام من الناس، ولهذا فقام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٣) (٦).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ﴾ (٣٤) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون (٧). وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام (٨)، وكذا قال مجاهد وغيره (٩). وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٥) قال العوفي عن ابن عباس: كان رجلا من قوم عهد رسول الله أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٣) الَّذِينَ آمَنُوا فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ (٣٤) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٣٥) (١٠).

والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا شاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (١١) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ رُسُلُ كَرِيمٍ﴾ (١٢) هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تَأْتُواشُونَ (١٣) وَلَا يَقُولُ كَافِرٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (١٤) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْغَلِيظِ (١٥).

[استثناء شعراء الإسلام]

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي الحسن سالم البراد مولى تميم الداري قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٣) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبيحون، قالوا: قد علم الله

الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ مِنْ أَيْ: أَحْبَبْتُمْ مِنْ نَزَلِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٣٣) نَزَلَ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ أَمِيرٌ (٣٤) أي: كذوب في قوله وهو الأفك (٣٥) أَمِيرٌ (٣٦) وهو الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيريدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صرح بذلك الحديث، كما رواه البخاري عن عائشة بنت قالت: سألت ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إِنَّهُمْ لَشَوْاسِيَةٌ» قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا، فقال النبي ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، تَخْطُفُهَا الْجَنُّ تَقْرُؤُهَا فِي أَدْنَى وَلَيْلَةٍ فَتَقْرَأُ الدَّجَاجُ، فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ» (١).

وروى البخاري أيضا عن أبي هريرة يقول: إن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا يَقُولِينَ: كَأَنَّا سِلْسِلَةٌ عَلَى صُفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرْقُو السَّمْعِ هَكَذَا نَعُضُّهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِيَدِهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ مِنْ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، وَبِمَا أَذْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَبِمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَذْرُوكَ، تَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَصَدَّقَ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ» فترد به البخاري (٢).

وروى البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْدُثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الْغَمَامُ - بِالْأَمْرِ [يَكُونُ] فِي الْأَرْضِ فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ فَتَقْرُؤُهَا فِي أَدْنَى الْكَاهِنِ كَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَرِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ» (٣).

(١) فتح الباري: ١٣/٥٤٥. (٢) فتح الباري: ٨/٣٩٨.

(٣) البخاري: ٣٢٨٨. (٤) الطبري: ١٩/٤١٦.

(٥) الطبري: ١٩/٤١٥، ١٩/٤١٦. (٦) الدر المنثور: ٦/٣٢٣.

(٧) الطبري: ١٩/٤١٧. (٨) الدر المنثور: ٦/٣٣٤.

(٩) الطبري: ١٩/٤١٧. (١٠) الطبري: ١٩/٤١٦.

سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ تُبَيِّنُ ① هَذِي وَلِتُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ ②﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُدْثِرُونَ الرَّكْعَةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أََعْمَلُوهُمْ فِيهَا يَعْهَدُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ⑤ وَلِلَّهِ كُلُّ الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾

[القرآن هدى وبشرى للمؤمنين،

نذير للكافرين، وهو من الله]

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أول السور. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ﴾ أي: هذه آيات القرآن و﴿كِتَابِ تُبَيِّنُ﴾ أي: بين واضح ﴿هَذِي﴾ وبشرى المؤمنين ﴿وَلِتُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وأدى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال: خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هَكَذَا وَفُتِحَتْ بَابُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدُنَّا ⑦﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يكذبون بها ويستعبدون وقوعها ﴿رَبَّنَا هُمْ أََعْمَلُوهُمْ فِيهَا يَعْهَدُونَ ④﴾ أي: حسنا لهم هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتبهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِثَ فَنَفَثُهُمْ فَأَصْبَحَتْهُمُ كَمَا تَأْتِي مَوَاطِنُهُ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ الآية.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ⑤﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْقُرْآنُ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾ أي: ﴿وَلِلَّهِ الْقُرْآنُ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾ لتأخذ ﴿الْقُرْآنُ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾

حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلأ النبي: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: ﴿أَنْتُمْ﴾ ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: ﴿أَنْتُمْ﴾ ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ قال: ﴿أَنْتُمْ﴾ رواه ابن حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق ^(١). ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب وأقلع وعمل صالحا، وذكر الله كثيرا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه، كما قال عبد الله بن الزُّعْرِي حين أسلم:

بَارِسُ رَسُوْلٍ الْمَلِيْكِ إِنْ لِسَانِي

رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُرُور

إِذَا جَارِي الشَّيْطَانِ فِي سَنَنِ الْغَى

سَيِّ وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مُتَّبُور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجو، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ^(٢). وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد ^(٣)، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهْجُئْهُمْ» - أوقال - «هَاجِئْهُمْ وَجَبْرِئُ مَعَكَ» ^(٤). وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعْرَاءِ مَا أَنْزَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُجَاهِدٌ يَسْفِقُو وَلِسَانُهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَكُنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ» ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ⑧﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٦).

قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ⑧﴾ يعني من الشعراء وغيرهم، آخر تفسير

(١) الطبري: ١٩/٤٢٠. (٢) الطبري: ١٩/٤٢٠. (٣) الطبري: ١٩/٤١٩، ٤٢٠. (٤) تلخيص الباري: ٦/٣٥١. (٥) أحمد: ٦/٣٨٧. (٦) أحمد: ٢/١٠٦.

مصنوعاته، وهو العلي العظيم المبين لجميع المخلوقات، ولا يكتفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مائلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجنان ضرب من الحيات، أسرع حركة، وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْطَبُ﴾ أي: لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لا تخف في لا تخاف لَدَى الرَّسُولِ (٢) أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وجيهاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيئ ثم أقبل عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا تَعْلَمَ أَلَمِنَ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة جداً. وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تلالاً كالبرق الخاطف.

وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي: هاتان اثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك ﴿إِنَّ رُحُونَهُمْ فِي شَجَرَةٍ كَأَنَّهَا كَفِيفٌ﴾ (٥) وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيِنَاتِنَا بَصِيرَةً﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٦) وأرادوا معارضته بسحرهم، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾

أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور: جليلها وحقيقها، فخبهره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَقَمَّتْ كَيْمُتُ رَبِّكَ مَذْهَبًا عَدْلًا﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَنَازَعُ مِنْهَا بِحَبِيرٍ أَوْ أَنَا بِكُمْ بِشَاهِبٍ بِكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ أَوْلَاهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) رَأَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْطَبُ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَخَافُ لَدَى الرَّسُولِ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ تِسْعَ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيِنَاتِنَا بَصِيرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

[قصة موسى عليه السلام ومصير فرعون]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، ليجعلوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانتقاد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله فأصل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأنس من جانب الطور نارا، رأى نارا تاجج وتضطرم، فقال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَنَازَعُ مِنْهَا بِحَبِيرٍ أَوْ أَنَا بِكُمْ بِشَاهِبٍ بِكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧) أي: تستدفئون به، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ أَوْلَاهَا﴾ أي: فلما أتاها ورأى منظرًا هائلًا عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه، فإذا نورها متصل بغتان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن نارا، وإنما كانت نوراً يتوهج، وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين (١)، فوقف موسى متعجباً مما رأي ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (٧) قال ابن عباس: تقدس (٢) ﴿وَمَنْ أَوْلَاهَا﴾ أي: من الملائكة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨) الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من

(١) الطبري: ٤٢٨/١٩. (٢) الطبري: ٤٢٨/١٩.

(٣) الطبري: ٤٢٩/١٩ والمحرر الوجيز: ٤/٢٥٠ والدر المنثور:

في ظاهر أمرهم ﴿وَأَسْتَفَقَّتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلُمًا وَظُلُومًا﴾ أي: ظلمًا من أنفسهم سَجِيَّةً ملعونة، وعلوًا أي: استكبارًا عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمدًا ﷺ أشرف وأعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بإتاء الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشعائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٥ وورث سليمان داود وقال يتابها الناس عِلْمًا مِّنْ طَيْرٍ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ١٦ وَحِشْرَ لِّسْلِيْنِ جُنُودَهُ مِنَ الْيَجْنَ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَابُهَا أَتَمَلُّوْا مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطِطُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّصَ صَاحِبُهَا قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَادِيكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩

[ذكر داود وسليمان عليهما السلام وترتيب

جنوده وقصة مروره على وادي النمل]

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ونبيه: داود وابنه سليمان عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٥.

وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ

لَا تُوْرَثُ، مَا تَرَكَتَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ» ١١ وقال: ﴿يَتَابُهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنْ طَيْرٍ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه فيها وبه له من الملك التام والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيها علمناه - أخبر الله به ورسوله - فالله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال: ﴿عِلْمَنَا مِّنْ طَيْرٍ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ١٦ أي: الظاهر البين لله علينا.

وقوله تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِّسْلِيْنِ جُنُودَهُ مِنَ الْيَجْنَ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٧ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبير الجن والإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم يعدمون في المنزل، والطير ومزنتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمت بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٧ أي: يكف أولهم على آخرهم لثلاث يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، فلما مجاهد: جعل على كل صنف وَرْعَةً يردون أولها على آخرها لثلاث يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم ١٨

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَابُهَا أَتَمَلُّوْا مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطِطُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٨ ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿فَتَبَسَّصَ صَاحِبُهَا قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَادِيكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليم منطلق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٩ أي: إذا توفيتني فالخصر بال صالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

﴿وَنَقَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْدَةَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ ٢٠ لَأَعْلَيْتُهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْجَعْتُهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٢١

[غِيَابُ الْهَدَد]

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلم عليه، أمر سليمان الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من نوره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فنقد الطير ليرى الهدد فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لَكَ لَأَأْرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَأِبِيَةِ﴾ (١) حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع ابن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: تف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي يضع الحبة في الفخ ويخثر على الفخ تراباً، فيجيء الهدد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبت، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً (٢).

وقوله: ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأعمش عن النعمان بن عمرو عن سعيد عن ابن عباس: يعني تنف ريشه (٣) وقال عبد الله بن شداد: تنف ريشه وتشميسه (٤)، وكذا قال غير واحد من السلف: أنه تنف ريشه وتركه ملقى يأكله الدر والنمل. وقوله: ﴿لَأَذْنَحَنَّ﴾ يعني قتله ﴿أَوْ لَأَنْتَقِي سُلْطَانِي شَيْبِنَ﴾ (٥) بعذر بين واضح. وقال سفيان ابن عيينة وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدد قالت له الطير: ما خلقتك؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم. قال: ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحَنَّ أَوْ لَأَنْتَقِي سُلْطَانِي شَيْبِنَ﴾ (٦) قال: نجوت إذا.

﴿فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَلَمٍ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٧) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء وهما عرش عظيم (٨) وجدتها وقومها يسجدون له من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٩) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (١٠) الله لا إله إلا

هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١﴾

[الهدد بين يدي سليمان عليه السلام]

وإخباره عن سببها

يقول تعالى: ﴿فَكَتَّ﴾ الهدد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَلَمٍ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (١) أي: بخر صدق حق يقين، وسبأ، هم: خير وهم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِكُكُمْ﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ (٢).

وقوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك التمكن ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ (٣) يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والألوان. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (٤) أي: عن طريق الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٥).

وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ معناه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٦) ألا يسجدوا لله أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ مَّا يَكْبِرُ أَيْلًا وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٧).

وقوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض (٨). وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقناة وغير واحد (٩).

(١) القرطبي: ١٣/١٧٧، ١٧٨. (٢) الطبري: ١٩/٤٤٣.

(٣) الطبري: ١٩/٤٤٣. (٤) الدر المنثور: ٦/٣٥١.

(٥) الدر المنثور: ٦/٣٥١. (٦) الدر المنثور: ٦/٣٥١.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ﴾ (١٥) أي: يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْصُرُكُمْ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِكُمْ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٦) أي: هو المدعو، الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والضفدع، وإسناده صحيح (١).

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٧) أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ (١٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَهِي لَإِنَّكَ كُنْتُمْ كَرِيْماً (١٩) إِنَّهُمْ مِنْ شَيْطَانٍ وَإِنَّهُمْ يَنْسُوْنَ إِلَهَهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ (٢٠) أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَأَتَوْهُنَّ مُسْلِمِينَ (٢١)

[كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس]

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبا وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٧) أي: أصدقت في إخبارك هذا؟ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٢) في مقاتلك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه ذلك الهدهد فحملة، قيل في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلو التي كانت تحتل فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شَيْطَانٍ وَإِنَّهُمْ يَنْسُوْنَ إِلَهَهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ (٢٠) أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَأَتَوْهُنَّ مُسْلِمِينَ (٢١)

فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها وعملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَهِي لَإِنَّكَ كُنْتُمْ كَرِيْماً﴾ (١٩) تعني بكرمه وما رآته من عجيب أمره كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شَيْطَانٍ وَإِنَّهُمْ يَنْسُوْنَ إِلَهَهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ (٢٠) أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَأَتَوْهُنَّ مُسْلِمِينَ (٢١) فعرّفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام،

وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجاهة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. وقول ﴿أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ﴾ قال قتادة: يقول لا تجبروا علي وأنت مسليمين (٢١) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: تمنعوا ولا تتكبروا علي وأنت مسليمين (٢١) (٢).

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونَّ﴾ (٢٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْءٍ وَأَلْأَمْرُ إِلَيْنَا فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٢٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً فَفَسَدُوْهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَوَّلَهُ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ (٢٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَمْ بَرِّجُ الْمُرْسَلُونَ (٢٥)

[مشاورة بلقيس مع ملئها]

لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها وما نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونَّ﴾ (٢٢) أي: حتى تحضرون وتشهرون قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْءٍ أي: منسوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَأَلْأَمْرُ إِلَيْنَا فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٢٣) أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، شئت أن نقصديه ونحاربه، فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك مري فينا رأيك ونمثله ونطيعه. قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً فَفَسَدُوْهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَوَّلَهُ﴾ (٢٤) قال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ﴾ (٢٤) (١) عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالة والمخادعة والمصانة فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَمْ بَرِّجُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٥) أي: سأبعث إليه هدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب عليها خراجاً نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا قال قتادة: رحمه الله ورخصي عنها ما كان أعقلها في إسلامه وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه (٥).

(١) أحمد: ١/٣٣٢ وأبو داود: ٥/٤١٨ وابن ماجه: ٢/٧٤

عن ابن عباس.

(٢) الدر المنثور: ٦/٣٥٤ (٣) الطبري: ١٩/٤٥٣.

(٤) الطبري: ١٩/٤٥٥. (٥) الطبري: ١٩/٤٥٥.

فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرثه أحد حتى أتيتك، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قتل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قتل منهم ألف كثيرة فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس عن تحت يده فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) ﴿٢٩﴾.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال مجاهد: أي: مارد من الجن، قال أبو صالح وكان كأنه جبل (٢٩) ﴿أَنَا إِلَٰهِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك (٣٠).

وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِيرٌ﴾ (٣٠) قال ابن عباس: أي: قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام أريد أعجل من ذلك (٣١)، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس وهو أصف كاتب سليمان وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه أصف بن برخياء. وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم (٣٢).

وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه أصف. وقوله ﴿أَنَا إِلَٰهِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: أرفع بصرك وانظر، مد بصرك بما تقدر عليه، فإنك لا يكمل بصرك إلا وهو حاضر عندك، ثم قام فتوضأ، ودعا الله تعالى. قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام (٣٣). فلما عين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَذَا مِمَّنْ فَضَّلْتُ رَبِّي﴾ أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِبَلَوِّي﴾ أي: ليختبرني ﴿أَشْكُرُكُمْ أَكْفَرُكُمْ شَكَرْتُ فَمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾

﴿قَلْبًا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ﴾ أي: أتريدونني بغير ما آتيناكم من المال؟ ﴿أَتَجِزُّ إِلَيْهِمْ فَلَئِن آتَيْنَاهُمْ يَجُودُوا لَا يَدْرُسُهُمْ يَوْمَئِذٍ فَخَرْتَهُمْ بِهَا أَذَلَّةٌ وَهُمْ ضَايِرُونَ﴾ (٣٤).

[الهدية وجواب سليمان]

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه هدية عظيمة من ذهب وجواهر ولائى وغير ذلك. والظاهر أن سليمان عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه. وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ﴾ أي: اتصاعونني بمال لأترككم على شرركم وملئكم؟! ﴿فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿وَلَا أَشْرَ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٥) أي: أنتم الذين تتقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف. ﴿أَتَجِزُّ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديتهم ﴿فَلَئِن آتَيْنَاهُمْ يَجُودُوا لَا يَدْرُسُهُمْ يَوْمَئِذٍ فَخَرْتَهُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَتُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذَلَّةً﴾ أي: ولنخرجهم من بلادهم أذلة ﴿وَهُمْ صَايِرُونَ﴾ (٣٦) أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت، وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان نأوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٧) قال عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا إِلَٰهِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِيرٌ (٣٨) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا إِلَٰهِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِمَّنْ فَضَّلْتُ رَبِّي لِبَلَوِّي أَشْكُرُكُمْ أَكْفَرُكُمْ شَكَرْتُ فَمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَذِيبٌ عَزِيزٌ (٣٩)

[إحضار عرش بلقيس في لحظة]

وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرتة شيئاً، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من ذلك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه. وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي،

(١) الطبري: ٥٢٠/٩. (٢) الدر المنثور: ٣٥٩/٦.

(٣) البغوي: ٤٢٠/٣. (٤) البغوي: ٤٢٠/٣.

(٥) البغوي: ٤٢٠/٣. (٦) الطبري: ٤٦٦/١٩.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ يَمَّهْدُونَ﴾ (١١).

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَيْرِ كَرِيمٍ﴾ (١٢) أي: كريمة في نفسه وإن لم يعبد أحد، فإن عظمتها ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ (١٣) وفي صحيح مسلم: ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأَخَرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأَخَرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَأَخَرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ بِمَا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ، يَا عِبَادِيَ إِنَّمَا هِيَ أَغْمَالُكُمْ أَخْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِلَافَهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ شَرًّا فَلْيَلُومَنَّ لَوْ أَنَّهُ نَفْسُهُ﴾ (١٤).

﴿قَالَ تَكْرَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرَ أَتَنْتَبِهِي أَمْ تَكُونِ مِنَ الَّذِينَ لَا يَنْتَبِهُونَ﴾ (١٥) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ (١٦) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَثِيرِينَ (١٧) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨)

[اختبار بلقيس]

لما جئ سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها؟ فقال: ﴿تَكْرَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرَ أَتَنْتَبِهِي أَمْ تَكُونِ مِنَ الَّذِينَ لَا يَنْتَبِهُونَ﴾ (١٩) قال ابن عباس نزع منه فصوصه ومراقه (٢٠). وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحر جعل أصفر وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحر غير كل شيء عن حاله. وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا (٢١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودعاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبطل ونكر - فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾

أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ (٢٢) قال مجاهد يقول سليمان (٢٣). وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَثِيرِينَ﴾ (٢٤) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام - من قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله - أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ (٢٥) وهي كانت قد صدها أي: منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَثِيرِينَ﴾ (٢٦) وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد وحسن، وقال ابن جرير أيضًا (٢٧)، ثم قال ابن جرير ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل وتقدير: ومنعها ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: صدها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَثِيرِينَ﴾ (٢٨) (قلت): ويؤيد قول مجاهد أنها إن أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ (٢٩) وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير أي: من زجاج وأجرى تحته الماء فالسلي لا يعرف أمره بحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه

[قال: إنه صرح مهرد من قوارير]

أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخبارًا عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان: ﴿أَتِنِي بِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْمَانَ﴾ (٣٠) الآية، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمهرد: المبنى بناءً عكسًا أملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج، وتمرير البناء: تليق، ومارد: حصن بدومة الجندل، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليرى عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلاله ما هو به وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: يا سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣١) أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

(١) مسلم: ٤/١٩٩٤. (٢) الطبري: ١٩/٤٦٩.

(٣) الطبري: ١٩/٤٦٩. (٤) الطبري: ١٩/٤٧١.

(٥) الطبري: ١٩/٤٧٢.

يُؤْتُهُمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَنَفَّسُونَ ﴿١٦﴾ [مكر طائفة المفسدين ومصير قوم ثمود]

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهو ما يقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبرهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْقَدِيمَةِ﴾ أي: مدينة ثمود ﴿بِتَعْدَةِ رَعِيطٍ﴾ أي: تسعة نفر ﴿يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٨) وإنا غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم. قال العوفي عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة (١٩)، أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم - قبحهم الله ولعنهم -، قال الله تعالى: ﴿فَادَّأَوْا صَاحِبَكُمْ فَتَطَّاعَنُوا مَقَرًّا﴾ (٢٠) وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَيْتُ أَشْقَقُهَا﴾ (٢١).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا [يحيى] بن ربيعة الصنعاني، سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿وَكَانَ فِي الْقَدِيمَةِ بِتَعْدَةِ رَعِيطٍ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٨) قال: كانوا يقرضون الدراهم (٢٢)، يعني: أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً كما كان العرب يتعاملون. وقال الإمام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض. والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَالْوَأَنَّا قَسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ (٢٣) أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين (٢٤).

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَنَبْعَثَنَّ آيَاتٍ ذَلِكُمْ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٢٥)

لَنَبْعَثَنَّ آيَاتٍ تَمُودُ أَحَاثَهُمْ صَالِحًا أَيْنَ أَعْبَدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِي مَكَانٍ تَمَتُّعُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْثَبِيثَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَتَسْتَفْتِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَيَّرَكُمْ بَعْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾

[بين صالح عليه السلام وثمرود]

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فِي مَكَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١٥) قال مجاهد: مؤمن وكافر (١٦) كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسِلَ بِهِ تَوثِقُونَ﴾ (١٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْثَبِيثَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ (١٩) أي: لم تدعوا بحضور العذاب ولا تطالبون من الله رحمته ولهذا قال: ﴿أَوَلَا تَسْتَفْتِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠) قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ (٢١) أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاوروا بهم (٢٢)، وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم لوط: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ﴾ (٢٣) الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ قُلُوبِنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (٢٤) أي: بقضائه وقدره، وقال تعالى خبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ لَمَن لَّيْنٌ تَنْتَهُوا تَرْجَحْتُمْ وَلْيَسْتَكْشِرُوا عَذَابَ آلِيسَ﴾ (٢٥) قَالُوا تَطَّيَّرْنَا بِكُمْ الْآيَةُ، وقال هؤلاء: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَيَّرَكُمْ بَعْدَ اللَّهِ﴾ (٢٦) أي: الله يجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٢٧) قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية (٢٨). والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ (٢٧) أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿وَكَانَ فِي الْقَدِيمَةِ بِتَعْدَةِ رَعِيطٍ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٨) قَالُوا قَسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ بِمَا شَهِدْنَا مَهْلِكُ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكْرُؤُهُ خَسِرًا وَمَكْرُؤُهُ مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ سَخَبَ عَلَيْهِ مَكْرَهُمْ أَفَادَمْرُنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ لَجِبِينَ ﴿٢١﴾ فَتِلْكَ

(١) الطبري: ١٩/٤٧٥. (٢) الدر المنثور: ٦/٣٦٩.

(٣) الدر المنثور: ٦/٣٦٩. (٤) الطبري: ١٩/٤٧٧.

(٥) عبد الرزاق: ٣/٨٣. (٦) الطبري: ١٩/٤٧٨.

وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْتَنَاهَا مِنَ الْقَنِيَتِ ﴿٥٧﴾ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردة لهم على دينهم وعلى طريقتهم. في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيقات لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لئلا يظن الله ﷻ لا كرامة لها. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعبيد، ولهذا قال: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليه من الإنذار فخالقوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ لِّلْمُتَدِّبِينَ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِ إِلَٰهِكُمْ أَصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّا خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾

[الامر بتحميد الله والصلاة على رسوله]

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما انصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسالته وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام. هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى، هم الأنبياء، قال: وهو كقولهم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾. وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عباس أيضا، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آله أخرى.

[بعض أدلة التوحيد]

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ودون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّا خَلَقَ السَّمَكَاتِ﴾ أي: خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة. وخلق الأرض في استقالتها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال

قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف -أي: غار هناك- ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا، إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من المصطب حيالهم، فخشوا أن تشدهم فتبادروا، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم فعذب الله هؤلاء هنا وهؤلاء هنا، وأنجى الله صالحا ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ مَكْرًا كَرِيمًا ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ ۚ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ۚ إِنَّا نَدْرُسُهُمْ وَفِئَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ خَاسِرَهُمْ ۚ أَي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوا رَبًّا فِي ذَٰلِكَ ۚ لَا يَكُونُ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا آلَ يُونُسَ ۚ ائْتُوا وَكَانُوا يَنْفِرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَتَأْتُونَ الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْهَرُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَيْسَ لَكُمُ اللَّاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْإِنْسَانِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ۖ أَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ نَارَ النَّارِ لَا تُبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ۖ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْتَنَاهَا مِنَ الْقَنِيَتِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

[ذكر لوط عليه السلام وقومه]

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نعمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْهَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يرى بعضكم بعضا، وتأنون في ناديتكم المنكر.

﴿أَلَيْسَ لَكُمُ اللَّاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْإِنْسَانِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا تعرفون شيئا لا طبعيا ولا شرعا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ۖ أَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ نَارَ النَّارِ لَا تُبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ

الاختلاط لثلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلاً لا تسقى الحيوان والنبات والشمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً لثلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَجِيراً مَحْجُوراً ٥٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آيَةٌ؟﴾ أي: فعل هذا، أو يعبد؟ - على القول الأول والآخر، وكلاهما متلازم صحيح - ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٣﴾ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمِنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ الْكُمَّ حُلُفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آيَةٌ فَلْيَكُ مَأْذَكُرُونَ ٥٤﴾
بينه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فَلْيَكُ مَأْذَكُرُونَ ٥٥﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿أَمِنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف الضر المضرورين سواه. روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجم قال: قلت: يا رسول الله إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وَحْدَهُ الَّذِي إِنْ سَأَلَكَ ضُرٌّ قَدْ عَوْتُهُ كَشَفَ عَنْكَ وَالَّذِي إِنْ ضَلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفِرَ دَعْوَتُهُ رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ قَدْ عَوْتُهُ أَتَيْتَ لَكَ» قال: قلت: أو صني، قال: «لَا تَسْبِيَنَّ أَحَدًا وَلَا تَزْهَدْكَ فِي الْمَعْرُوفِ وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْسَبِطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ وَلَوْ أَنَّ تَفْزِعَ مِنْ ذَلِكَ فِي إِتَاءِ الْمُسْتَقِي وَأَنْزِلَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ فَإِنْ أَتَيْتَ فَاِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِلَّاكَ وَإِسْبَالُ الْإِزَارِ فَإِنْ إِسْبَالُ الْإِزَارِ مِنَ السَّخِيلَةِ وَإِنْ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يُحِبُّ السَّخِيلَةَ» (١).

[قصة مجاهد في سبيل الله]

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحد العجليه قال: هزم الكفار يوماً المسلمين في غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: ما لك؟ وملك! إنما كنت أعدك لثل هذا

والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والشار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي: جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنْتُمْ تَنَاجَوْنَ﴾ أي: بساكنين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَا كُنْتُمْ لَكُمْ أَنْ تَنْتَبِهُوا شَجَرَهَا﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها. وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره بما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آيَةٌ؟﴾ أي: إله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب بما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق!!؟

ثم قال ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٥٦﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظراً.

﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آيَةٌ لَكُم تَعْلَمُونَ ٥٧﴾

يقول تعالى: ﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة لا تغيب ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فإنها لو كانت كذلك لما طلب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً ساطعاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاصٍ﴾.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقفاً في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أناليمهم وأقطارهم - حيث ذرأهم في أرجاء الأرض - وسيرهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً شامخة ترمس الأرض وتثبتها لئلا تميد بهم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من

بعد هذا [يعبد] وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢) أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدكم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣) يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السبابة والأرضية كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمَكُم مَّا تَلْعَمُونَ﴾ (١٤) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (١٥) أي: يسوق السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجتهدين الأولي القنطين ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَرْضَ وَأَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنْ يَشَاءْ رَبُّكَ تَشِيدُ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ بَدِئُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١٩) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٢٠) ﴿وَمَنْ يَرْفَعُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَرْضَ﴾ أي: ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (٢١) وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّنِيعِ (٢٢) وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مبارك فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزهار وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُّوا وَارْزُقُوا﴾ (٢٣) ﴿أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢٤) ولهذا قال تعالى ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ (٢٥) أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر: بعد هذا [يعبد]؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (٢٦) على صحة ما تدعون من عبادة آلهة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٧) في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَلْعَمِ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٨)

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَىٰ بِهِنَّ﴾ (٢٩) ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ (٣٠) ﴿بَلْ هُمْ فِيهَا عَمُونَ﴾ (٣١)

اليوم، فقال له الجواد: وما لي لا أقصر وأنت تكل العلوفة إلى الشؤاس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك علي عهد الله أي لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجرني، فجرى الجواد عند ذلك، ونجى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره، واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمره، فقال: ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصله في بلده فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه حتى استوثق، ثم خرجا يوماً يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتفاه لياخذه رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم! إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت. قال: فخرج سبعان [إليهما] فأخذاهما ورجع الرجل سالماً (١).

[بيان خلافة الأرض]

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (٣٢) أي: يخلف قرناً لقرن قبلهم، وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءْ يُدْخِلْكُمْ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِمَّا يَشَاءُ كَمَا أَنْفَكْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٣٣) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٣٤) أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره، وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (٣٥) أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذراهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأما بعد أمم، حتى يتقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ (٣٦) أي: يقدر على ذلك، أو آله مع الله

[عالم الغيب هو الله]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُ أَتَانُ يُمْشُونَ﴾ أي: وما يشعرون الخلائق ساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بِنَقْلٍ﴾ أي: تنقل علمهم في أهل السماوات والأرض.

وقوله: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: انهم علمهم وعجز عن معرفة وقتها، وقرأ آخرون: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عَنْهُمْ﴾ أي: تساوى علمهم في ذلك كما في الصحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١) أي: تساوى في العجز عن ذلك، علم المسؤول والسائل.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جِئْتُمُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جِئْتُمْ لَكُمْ تَوْبَةً﴾ أي: الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: شاكون في وجودها ووقوعها ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْتًا لَمُخْرَجُونَ﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ هَذَا لَا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ^(٢)

[استبعاد البعث والرد عليه]

يقول تعالى خبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاً ونزاً، ثم قال: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما نلنا نسمع بهذا نحن وأبائنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) يعنون ما هذا

الوعد بإعادة الأبدان ﴿لَا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) أي: أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ يَا عَمَلُوا هَؤُلَاءِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٥) أي: المكذبين بالرسول وبما جاءهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٦) أي: في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغرب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٧) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ^(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ^(٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ^(١٠) وَمِمَّا عَائِدَةٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^(١١)

يقول تعالى خبراً عن المشركين في سؤا لهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٢) قال الله تعالى مجيباً لهم:

﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(١٣) قال ابن عباس: أن يكون قُرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون^(١٤). وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي^(١٥). وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾^(١٦) وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١٧) وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿رَدْفٌ لَكُمْ﴾ لأنه ضمن معنى: عجل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ عجل لكم^(١٨).

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: في إسباغ نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا

(١) مسلم: ٣٦/١. (٢) الطبري: ٤٩٢/١٩.

(٣) الطبري: ٤٩٢/١٩ والدر المنثور: ٣٧٥/٦.

(٤) الطبري: ٤٩٢/١٩.

يشكرون على ذلك إلا القليل منهم ﴿وَلَنْ رَّبِّكَ لَيَعْلَمَنَّ مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٦) أي: يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿سَوَاءٌ يَنْصُرُكَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ ﴿يَعْلَمُ الْبُيُوتَ وَيَخْفَى﴾ (٧٧) ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِشُونَ بِيَابَتِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء (١) ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٨) وهذا كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٩).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾ (٨٠) وإنه: هُذًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٨١) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٨٢) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٨٣) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْذَرِينَ (٨٤) وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعَمَى عَنْ صُلَيْبَتِهِمْ إِنَّ تَسْمِيعَ إِلَّا مَنْ يُوْثِقُ يَدَايِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨٥)

[القرآن يقص اختلاف بني إسرائيل]

والله يحكم بينهم]

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾ (٨٦) كاختلافهم في عيسى وتبانيهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلبوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٨٧)، وقوله: ﴿وَلَهُ هُذًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) أي: هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم في العمليات.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨٩) بأفعال عباده وأقوالهم.

[الأمر بالتوكل في البلاغ]

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٩٠) أي: أنت على الحق المبين وإن

خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ أي: لا تسمعهم شيئاً ينفهمون فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْذَرِينَ﴾ (٩١) أنت بهدى العَمَى عَنْ صُلَيْبَتِهِمْ إِنَّ تَسْمِيعَ إِلَّا مَنْ يُوْثِقُ يَدَايِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٩٢) أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لله ربنا جاء عنه على السنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ

أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٩٣)

[خروج دابة الأرض]

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان؟ عند فساد الناس وتبرك أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل: من مكة، وقيل: من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن ومقاتل ويروى عن علي عليه السلام: تكلمهم كلاماً، أي: مخاطبهم مخاطبة (٩٤)

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وأثار كثيرة فلندكر منها: تيسر والله المستعان. روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحو نتذاكر أمر الساعة، فقال: ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا غَنَمَ آيَاتٍ: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالْدُّخَانَ وَالْذَّابَّةَ وَالْخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالْخُرُوجَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْذَّجَالَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَذْرَاءٍ تُسَوِّقُ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ، تَبِيتَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ حَيْثُ قَالُوا﴾ (٩٥). وهكذا رواه مسلم وأهل السنن عن حذيفة مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح (٩٦). ورواه مسلم أيضاً عنه موقوفاً (٩٧)، فالله أعلم.

(حديث آخر) روى مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن

(١) الطبري: ٤٩٤/١٩. (٢) الطبري: ٥٠٠/١٩.

(٣) أحمد: ٦/٤.

(٤) مسلم: ٢٢٢٥/٤ وأبو داود: ٤٩١/٤ وتحفة الأحوذى: ١٣/١.

والنسائي في الكبرى: ٤٥٦/٦ وابن ماجه: ١٣٤١/٢.

(٥) مسلم: ٢٢٢٧/٤.

بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسأله عما فعلوه في الدار الدنيا، تريقاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قوم وقرن فوجاً أي: جماعة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الْآيِينَ ظَلَمُوا وَأَوْرَثَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِعَتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُرْجَعُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون^(٥).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون^(٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم! فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم: ﴿فَلَا سَلٰةَ لَكُمْ﴾ ولكن كَذَبْتُمْ^(٧) فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْقُونُ﴾ ولا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ^(٨) الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْقُونُ﴾ أي: هبتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَرَوْا أَنَّآ جَعَلْنَا الْآيِلَ لَيْسَكُنَّ فِيهِ﴾ أي: في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿إِنِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩).

﴿وَيَوْمَ يُفْعَخُ فِي الْأُصُورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ ذٰخِرِينَ﴾^(١٠) وَرَى الْجِبَالِ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَآئِنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١١) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَحٍ يَوْمَئِذٍ عَامِثُونَ^(١٢) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١٣)

عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ صُحَىٰ وَآيَتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَيْهَا فَلَا أُخْرَىٰ عَلَىٰ إِفْرَاقِهَا قَرِيبًا»^(١٤).

(حديث آخر) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْيَالِ مَتَّأً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالْذَّخَانِ، وَالذَّجَالِ، وَالْدَّابَّةِ، وَخَاصَّةً أَحَدِكُمْ، وَأَمْرُ الْعَامَةِ تَفْرُدُ بِهِ»^(١٥).

(حديث آخر) روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا عَصَا مُوسَىٰ وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَتُخْطِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْعَصَا وَتُحْلِي وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْخَاتَمِ حَتَّىٰ يَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى السَّخَوَانِ يُعْرِفُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ»^(١٦).

وقال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس نمر، وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعام، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وأخصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعضاً موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على ما نذهب فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، يا فلان أنت من أهل النار. فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(١٧).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُرْجَعُونَ﴾^(١٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١٩) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْقُونُ^(٢٠) أَلَمْ نَرَوْا أَنَّآ جَعَلْنَا الْآيِلَ لَيْسَكُنَّ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٢١)

[حشر الظالمين يوم القيامة]

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين

(١) مسلم: ٤/٢٢٦٠. (٢) مسلم: ٤/٢٢٦٧.

(٣) مسند الطيالسي: ٣٣٤. (٤) البغوي: ٣/٤٢٩.

(٥) الطبري: ١٩/٥٠١. (٦) الطبري: ١٩/٤٣٨.

[أحوال يوم القيامة وجزاء الحسنة والسيئة فيه]

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ». وفي حديث الصور: إن إسرئيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون^(١).

روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله! أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوها، لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إننا قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ: «يُخْرَجُ الدَّجَالُ فِي أُمِّي فَيَمُكُّكُمْ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْماً أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْراً أَوْ أَرْبَعِينَ عَاماً - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْعُودٍ فَيُطَلِّبُهُ فَيَهْلِكُهُ ثُمَّ يَمُكُّكُمْ النَّاسُ سِتْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا لَبِثَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِصْفَةٍ الطَّنَرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ لَا يَغْرُقُونَ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَسْتَمَلُّهُمْ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ فَيَقُولُونَ: قِمَا قَامَرُنَا فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقَهُمْ حَسَنَ عَيْشِهِمْ ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْثاً وَرَفَعَ لَيْثاً - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ - طَطْراً كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ الطَّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاءُ - فَتَبَيَّنَتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ يَقَامُ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّوا إِلَى رَبِّكُمْ» وَفَعُولُهُمْ هَلُمَّوا ١٦ قَالَ ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعِينَ قَالَ فَذَلِكَ يَوْمٌ «يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً» ١٧ وَذَلِكَ يَوْمٌ «يَكْتَفَى عَنْ سَائِي» ١٨.

وقوله: «ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْثاً وَرَفَعَ لَيْثاً». الليث: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه

ليستمعه من السماء جيئاً، فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: «وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَخِيرٌ» ١٧ قرئ بالمد وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحد، و«ذَخِيرٌ» ١٧ أي: صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودٍ» وقال تعالى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» ١٨ وفي حديث الصور ١٩ أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في نخب في الصور، ثم ينفخ إسرئيل فيه بعد ما تبنت الأجساد في قبورها وأما كتبها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله عز وجل وعزقي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجي الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللدبع، ثم يقومون يتفحصون التراب من قبورهم، قال تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يِرَافًا كَأَنَّهُمْ إِلَى ضُبٍّ يُوْفَّشُونَ» ٢٠.

وقوله تعالى: «وَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِداً وَهِيَ تَمُورُ مَرْتَاباً» أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا» ١ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ٢ قال تعالى: «وَيَسْتَرْفِقُونَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» ٣ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ٤ وقال تعالى: «وَيَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضِ بَارِدَةً» وقوله تعالى: «سُحُوعُ اللَّهِ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ» أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة «الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ» أي: اتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، «إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ٥ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: «مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» قال قتادة: بالإخلاص ٦، وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها «وَهُمْ يَنْفَعُونَ بِأَعْيُنِهِمْ» ٧ عَامُونَ ٨ كما قال في الآية الأخرى: «لَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ نَرَقٌ» ٩ الْأَكْثَرُ وقال تعالى: «أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِلَاةٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» وقال تعالى: «وَهُمْ فِي الْعُرْوَاتِ عَامُونَ» ١٠.

(١) الطبراني في الطوال: ٣٦. (٢) مسلم: ٤/٢٢٥٨.

(٣) الطبراني في الطوال: ٣٦. (٤) الطبراني: ١٩/٥٠٨.

﴿فَأَمَّا عَلَيْكَ اللَّيْلُ وَعَلَيْنَا النَّهَارُ﴾ (١) وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٢). ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَ عَالِيهِ فَمَنْ قَرَعُونَهَا﴾ أي: الله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ عَالِيهِ فَمَنْ قَرَعُونَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْهُمُ عَالِيَهُمُ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رُبُّكَ يَخْفَىٰ عَنْكَ يَكْمُلُوكَ﴾ (٣) أي: بل هو شهيد على كل شيء. وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره:

إذا ما خلّوت الدهر يوماً فلا تقل

خلّوت ولكن قل عني رقيب

ولا تخسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل والله الحمد والمنة.

تفسير سورة القصص

وهي مكية

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن معد يكرم قال: أتينا عبد الله فسالناه أن يقرأ علينا ﴿طس﴾ (١) المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ، خباب بن الارت، قال: فأتينا خباب ابن الارت فقرأها علينا، (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طس﴾ (١) يٰذَاكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ مِثْرَىٰ وَفِرْعَوْنَ وَالْحَقَّ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يَرْخَبُ مِنْ بَنَائِهِمْ وَيَسْتَعْجِلُ مِنْهُمْ أَجْرًا (٤) وَكَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٥) وَزُرِيدَ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ الْأَيْدِ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٦) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُنَادَ هُمْ أَهْلَهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٧)

(١) فتح الباري: ٥٦/٤.

(٢) لم: ٩٨٦/٢ وأبو داود: ٥١٨/٢ والنسائي: ٥٠٣/٥ وابن ماجه: ١٠٣٨/٢ وأحمد: ٢٥٣/١.

(٣) أحمد: ٤١٩/١.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ جَاءَ بِالسَّيْفِ فَكَيْتَ وَيُجَاهُكُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

﴿وَأَمَّا أَمْرُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ أُنْهِيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَ عَالِيهِ فَمَنْ قَرَعُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَنْ مَا تَعْمَلُونَ (١١)

[الأمر بعبادة الله والدعوة بالقرآن]

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمره أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (١٢) الَّذِي أَمَلَّكُمْ مِنْ خُرُوجِهَا وَأَسْكَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (١٣) وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرًا، بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ يُحَرِّمُهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنْشَرُ صَبْغُهُ وَلَا يُلْقَطُ لَقَطَطُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا وَلَا يُجْتَكَلَى خِلَافُهَا الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ (١٤). وقد ثبت في الصحيحين والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (١٥)، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وَأَمْرُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦) أي: الموحدين الخالصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الْوَسْطَىٰ﴾ (١٧) وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ مِثْرَىٰ وَفِرْعَوْنَ وَالْحَقَّ﴾ الآية، أي: أناسا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلَنُيَهْدِيَهُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٨) أي: لي أسوة بالرسول الذين أنذروا نوحهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم وحساب أعمهم على الله تعالى، كقوله تعالى:

[نبأ موسى عليه السلام وفرعون]

وما أراد الله لقومهما]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَرْضِ﴾ هذه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَرْضِ﴾ أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبر وطغى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولئن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَنْ تَنْعَلِ الْأَلْبِيتَ﴾ استضعفوا في الأرض إلى قوله ﴿وَحَذَرْتَهُ﴾ وقد فصل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذْ أَخْفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمِيهِ فِي اللَّيْلِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قالنقطه: ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ⁽

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالْقَلْبَةُ أَلْ فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة، لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى يقضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فَرَعُونَ وَعَمَنَ وَخُوَّهُ هُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾ (٨).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فَرَعُونَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ﴾ الآية، يعني أن فرعون لما رآه هم يقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، وهما الله بسببه وأهلكه الله على يديه. وقوله: ﴿عَيْنِي أَن بَعَثْنَا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهما الله به وأسكنها الجنة سبه. وقوله: ﴿أَوْتَنَخَذَهُ وَلَكَا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتنبأه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَأَسْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ قَدِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتِ لَأَخْتِي قُصِيصٌ قُصِرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ (١٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أَخَذُوهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يَدْرِيكَ بِنَصْحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نَصَحْتُهُمْ لَمْ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَغِبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ وَرَجَاءِ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَمْ وَخَلَصْتُ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزَلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهَ عَلَى أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ ثَدِيهَا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى أُمِّ امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ لثَدِيهَا ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهَا فَرَضْعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدَكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا أُمُّ فَرَعُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النِّفْقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَارْجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بَوْلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَاهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا، فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّدَةِ وَالْفَرْجِ إِلَّا الْقَلِيلُ يَوْمَ وَلِيلَةٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسَبَّحَانَ مِنْ بِيَدِهِ الْأَمْرِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ

﴿وَأَسْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ قَدِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فَرَعُونَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ (١٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أَخَذُوهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يَدْرِيكَ بِنَصْحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نَصَحْتُهُمْ لَمْ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَغِبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ وَرَجَاءِ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَمْ وَخَلَصْتُ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزَلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهَ عَلَى أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ ثَدِيهَا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى أُمِّ امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ لثَدِيهَا ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهَا فَرَضْعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدَكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا أُمُّ فَرَعُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النِّفْقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَارْجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بَوْلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَاهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا، فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّدَةِ وَالْفَرْجِ إِلَّا الْقَلِيلُ يَوْمَ وَلِيلَةٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسَبَّحَانَ مِنْ بِيَدِهِ الْأَمْرِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ

﴿وَأَسْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ قَدِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فَرَعُونَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ (١٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أَخَذُوهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يَدْرِيكَ بِنَصْحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نَصَحْتُهُمْ لَمْ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَغِبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ وَرَجَاءِ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَمْ وَخَلَصْتُ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزَلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهَ عَلَى أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ ثَدِيهَا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى أُمِّ امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ لثَدِيهَا ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهَا فَرَضْعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدَكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا أُمُّ فَرَعُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النِّفْقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَارْجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بَوْلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَاهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا، فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّدَةِ وَالْفَرْجِ إِلَّا الْقَلِيلُ يَوْمَ وَلِيلَةٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسَبَّحَانَ مِنْ بِيَدِهِ الْأَمْرِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ

﴿وَأَسْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ قَدِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فَرَعُونَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ (١٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أَخَذُوهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يَدْرِيكَ بِنَصْحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نَصَحْتُهُمْ لَمْ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَغِبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ وَرَجَاءِ مَنَفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَمْ وَخَلَصْتُ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنَزَلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهَ عَلَى أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ ثَدِيهَا فَالْتَقَمَهُ، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى أُمِّ امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ لثَدِيهَا ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تَقِيمَ عِنْدَهَا فَرَضْعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدَكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا أُمُّ فَرَعُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النِّفْقَةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَارْجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بَوْلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَاهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا، فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّدَةِ وَالْفَرْجِ إِلَّا الْقَلِيلُ يَوْمَ وَلِيلَةٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسَبَّحَانَ مِنْ بِيَدِهِ الْأَمْرِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ

[شدة حزن أم موسى ورجوعه إليها]

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد، وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة، والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم (١). ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: إن كادت من شدة وجددها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها، فسأل الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

مجاهد: ﴿فَوَكَرَهُ﴾ أي: طعنه بجمع كفه ^(٦). ﴿فَقَتْنَى عَلَيْهِ﴾ أي: كان فيها حشفه فمات ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ^(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ^(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أَي: بسا جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا﴾ أي: معينًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ^(١٧) أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَنَصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ^(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشِ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ كَمَا قُتِلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ^(١٩)

[فشوس القتل]

يقول تعالى خبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ أي: من معرة ما فعل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استصره بالأمس على ذلك القبطي يقتال آخر، فلما مر عليه موسى استصره على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ^(١٨) أي: ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلة أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَمْوَسَّى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ كَمَا قُتِلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؛ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لفتها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده، فعلم فرعون بذلك، فاشتد حقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا لَا تَأْتُرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ ^(٢٠) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ وصفه بالرجولية؛ لأنه خالف الطريق، فسلط طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى ﴿إِنَّكَ أَلَمَّا لَا تَأْتُرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أي: من البلد

لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا وبعد كل ضيق غرجًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آتِيهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: عليه ﴿وَلْيَعْلَمْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٢١) أي: حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريبًا إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ^(٢٢).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٢٣) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَهَذَا مِنْ عَدُوِّ هَذَا فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ^(٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ^(٢٥) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِمُنْجِرٍ ^(٢٦)

[قتل موسى عليه السلام رجلا من القبط]

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، آناه الله حكمًا وعلما. قال مجاهد: يعني النبوة ^(١) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٢٣) ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء ^(٢). وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار ^(٣). وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: إسرائيلي ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: قبطي ^(٤). قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ^(٥)، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قال

(١) الدر المنثور: ٢٣١/٥. (٢) الطبري: ٥٣٨/١٩.

(٣) الطبري: ٥٣٨/١٩. (٤) الطبري: ٥٣٩/١٩.

(٥) الطبري: ٥٣٩/١٩، ٥٤٠. (٦) الطبري: ٥٤٠/١٩.

﴿إِنِّي لَمِنَ الصَّاحِبِينَ﴾ (٢٠).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ يَخِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْمَغْشَىٰ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّىٰ نُصِيرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا تَرْوِجَ إِلَى الْوَيْلِ فَقَالَ رَبِّي إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

[موسى عليه السلام في مدين]

وسقيه أغانم امرأتين]

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يالف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ يَخِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١) أي: من فرعون وملئه، فذكروا أن الله سبحانه وتعالى - بعث إليه ملكاً على فرس، فأرشده إلى الطريق، فإله أعلم ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: أخذ طريقاً سالكاً مهيباً، فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْمَغْشَىٰ﴾ (٢٢) أي: الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة يسقون، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفمان غنهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء للابؤدأ، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّىٰ نُصِيرَ الرِّعَاءَ﴾ أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) أي: فهذا الحال اللجج لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الْوَيْلِ فَقَالَ رَبِّي إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤) وقوله: ﴿إِنِّي الْفَظِلِّي﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسدي: جلس تحت شجرة (١). وقال عطاء بن السائب لما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٥) «أسمع المرأة» (٢).

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ﴾ قَالَ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْمَغْشَىٰ قَالَتْ إِنِّي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَفَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْنُ وَرَبُّكَ فَخَرَجُوا عَلَىٰ سُبُلِ الْمَغْشَىٰ فَوَجَدُوهَا يَمْدُودُ غَنَمَهُنَّ لِرَبِّهِنَّ قَالَتُ

أَسْتَجِرُّكَ إِنِّي خَشِيتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ آتِيَكُمُكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجِجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

[موسى عليه السلام بين يدي والد المرأتين ونكاح]

موسى بإحداهما على أجرة رعي الغنم]

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألها عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ﴾ قَالَ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْمَغْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أي: مشي الحرائر. كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: كانت مستتره بكم درعها (٣). وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء ولأجرة خراجة (٤). هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السلفع من الرجال الجسور، ومن النساء [الجريشة] السليطة، ومن النوق الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنِّي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لثلا يومهم ربية، بل قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، يعني ليشيك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَفَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده؛ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَحْنُ وَرَبُّكَ فَخَرَجُوا عَلَىٰ سُبُلِ الْمَغْشَىٰ﴾ (٢٧) يقول: طب نفساً وقر عيناً، فقد خرجت من ملكتهم، فلا تحكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَحْنُ وَرَبُّكَ فَخَرَجُوا عَلَىٰ سُبُلِ الْمَغْشَىٰ﴾ (٢٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَكُ اسْتَجِرُّكَ إِنِّي خَشِيتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل. قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام، قالت لأبيها: ﴿يَأْتِيَكُ اسْتَجِرُّكَ﴾ أي: لرعية هذه الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنِّي خَشِيتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٠) قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع

(١) الطبري: ١٩/٥٥٦. (٢) الطبري: ١٩/٥٥٧.

(٣) الطبري: ١٩/٥٥٨. (٤) الطبري: ١٩/٥٥٩.

الصخرة التي لا يطيق حملها إلى عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذني لي بحصاة، أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه^(١). وعن عبد الله هو ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوِيَّ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿وَبَدَأَتْ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّكَ خَيْرُ مَنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوَى الْأَيَّامِ﴾^(٢).

قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاشِمٍ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاشميتين.

وقوله: ﴿عَلَّحَ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِمَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: على أن ترعى غنمي ثمان سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) أي: لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك.

وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٤) يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنما متى فعلت أقلها فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرج علي، مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر، فقال: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَافْطِرْ»^(٥) مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمها.

وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. هكذا رواه البخاري^(٦).

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ

كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلُ يَكُونُ مِنْهَا نَعْلٌ جَدَّوًى مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٧) فَلَمَّا آنَسَهَا ثَوْرٌ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونُ إِلَيْتُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهُ تُهَيِّئُ كَانَهَا جَانًا وَلَىٰ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢١﴾ آنَسَ يَدُكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَمْسَةً مِنْ جَيْبِكَ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَانَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَمَّا يَدُكَ بَرَهْنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾

[رجوع موسى عليه السلام إلى مصر وتكريمه]

بالرسالة والمعجزات في الطريق

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملها وأتقاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكل منها، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعرض على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في تلك مطيرة مظلمة باردة، فتزل منزلاً، فجعل كلما أوري رنيداً يضيء شيئاً فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿وَاللَّهُ بِجَانِبِ الطُّورِ كَارٍ﴾ أي: رأى نارا تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَعَلَّيْكُمْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه [كان] قد أضل الطريق ﴿وَجَدَّوًى مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٨) أي: تستدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آنَسَهَا ثَوْرٌ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جان الوادي يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ إذ قضيتا إلى موسى الأثر. فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

(١) الطبري: ١٩/٥٦٢-٥٦٤. (٢) ابن أبي شيبه: ١٤/٥٧٤.

(٣) أحمد: ٣/٤٩٣، والنسائي: ٤/١٨٥.

(٤) فتح الباري: ٥/٣٤٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَسْمُوتَ﴾ إِيَّا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ أي: الذي يخاطبك ويحكمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن بمائلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلْكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٢٠﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَسْكُنُ فِيهَا عَنَتِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى ﴿٢١﴾، والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿أَلْقِهَا﴾ ﴿٢٢﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٣﴾ فعرف وتحقق أن الذي بكلمه ومخاطبه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. كما تقدم بيان ذلك في سورة طه، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا﴾ أي: في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها، واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعته، تنحدر في فيها تتفجع كأنها حادرة في وادٍ فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يَخَفْ﴾ أي: ولم يكن يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال له: ﴿يَسْمُوتُ﴾ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِيِّينَ ﴿٢٤﴾ رجع لوقوف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي عِصْفِكَ تُخَرِّجُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ غَيْرَ سَمِيعٍ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها، فلها تخرج شيئاً لا كأنها قطعة قمر في ليلان البرق، ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سَمِيعٍ﴾ أي: من غير برص.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمْتَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقِيبِ﴾ قال مجاهد: من الفرع، وقال قتادة: من الرعب ^(١). وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من رعب وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من خوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوسع يده في على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله تعالى: ﴿فَدَا بِكَ بِرَهْطَانٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: إلقاء عصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج شيء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة فاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، فذا قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: وقومه من رؤساء الكبراء والأتباع ﴿لَهُمْ كَانُوا اقْوَمًا فَتَسْقِيَهُمْ﴾

في خراجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ودينه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسًا فَأَنَاقِصْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنُنَدُّ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا تَأْتِينَا أَنْشَاءً وَمَنْ أَتَّبَعْنَا الْغَالِبُونَ ﴿٢٧﴾

[سؤال موسى مؤازرته بأخيه هارون]

وقبول ذلك من الله

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني: ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: إذا رأوني ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسًا﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿٢٦﴾ يَقْفُوهَا قَوْلِي ﴿٢٧﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٨﴾ هَارُونُ أَخِي ﴿٢٩﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴿٣٠﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣١﴾ أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسًا فَأَنَاقِصْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمر، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿٣٢﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه عني ما لا يفهمون ^(٢)، فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿سَنُنَدُّ عَصَاكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أَوْرَثْتَ سُلُوكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٣٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٣٤﴾ ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً﴾ ﴿٣٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا﴾ أي: حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا تَأْتِينَا﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى

أذا كما بسبب إبلاغكم آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا
الرَّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى
قوله ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَيًّا﴾ (١٦) أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا
ومؤيدًا، ولهذا أخبرهما أن العقابة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا
والآخرة، فقال تعالى: ﴿أَتَسْمَاوِينَ اتَّبَعَكُمُ الْفَالِغِينَ﴾ (١٧) كما
قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِي أَنَا وَرَسُولِي أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ
(١٨)﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآية.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُفْتَرٍ وَمَا سِعَتِ بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾ (١٩) وَقَالَ مُوسَى
رَبِّ أَعْلَمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ عِدْوِي وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَنَقِيَّةُ
الدَّارِ إِنِّي لَا أَقِيلُ الظَّالِمِينَ (٢٠)

[موسى عليه السلام بين يدي فرعون وقومه]

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملكه
وعرضه ما أتاهما الله من المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة
على صدقهما فيما أخبرا به عن الله - عز وجل - من توحيده
واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه
وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيبهم إلى
العناد والمباهة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق
فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا
معارضته بالحيلة والجاه فما صدع معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سِعَتِ بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾ (١٩) يعنون
عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحدًا من
آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة
أخرى، فقال موسى عليه السلام بحياء لهم: ﴿رَبِّ أَعْلَمْ بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ عِدْوِي وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَنَقِيَّةُ الدَّارِ﴾ أي: من
النصرة والظفر والتأييد ﴿إِنِّي لَا أَقِيلُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٠) أي:
المشركون بالله عز وجل.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرٍ
فَأَوْفِدْنِي يَهْتَكِرْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢١) وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَخُدُودُهُ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ (٢٢)
فَأَخَذْنَاهُ وَخُدُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظَرْ كَيْفَ كَانَتْ

عَنَقِيَّةُ الظَّالِمِينَ (٢٣) وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى
النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا تَنْصُرُونَ (٢٤) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٢٥)
[استكبار فرعون ومصريه]

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعوى
الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله، كما قال الله تعالى
﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ الآية، وذلك لأنه دعاهم إلى
الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخا
أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ
غَيْرٍ﴾ وقال تعالى إخبارًا عنه: ﴿فَعَسَىٰ أَفْكَارُهُ
قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٦) فَأَخَذَ اللَّهُ تَكَالُفَ الْيَمْرِ وَالْأَوَّلِ (٢٧) إِذْ فِي ذَلِكَ لَعْنَةٌ
لِّمَن يَخْفَى (٢٨)﴾ يعني: أنه جمع قومه، ونادى فيهم بصوته
العلي مصرحًا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا
انتقم الله منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحذر
إنه واجه موسى الكليم بذلك، فقال: ﴿لَيْسَ أَتَّخَذْتُ لِلنَّاسِ
لَعْنَةً لَّعْنَتَكَ مِنَ السَّجُورِ (٢٩)﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْفِدْنِي يَهْتَكِرْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي
أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني أمر وزيره هامان ومدير رعيته
ومشير دولته أن يوعد له على الطين، يعني: يتخذ له
لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في
الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْتَكِرْ بَيْنَ يَدَيْ صَرْحًا لَّعَلِّي
أَطَّلِعُ (٣٠)﴾ اسْتَبَدَّ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِلَى
لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سَوَاءٌ عَمَلُهُ وَصَدَقَ
السَّيْلُ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣١) وذلك لأن
فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إن
أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى
إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٢)﴾
أي: في قوله: إن ثم ربًا غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى
أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قد
﴿وَمَارِئًا الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾؟ وقال: ﴿لَيْسَ أَتَّخَذْتُ لِلنَّاسِ
لَعْنَةً لَّعْنَتَكَ مِنَ السَّجُورِ (٣٤)﴾ وقال: ﴿يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرٍ﴾ وهذا قول ابن جرير (١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَخُدُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

فَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

[التنبيه على برهان نبوة محمد ﷺ]

يقول تعالى منها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهَمُ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿١١﴾ الآية، أي: وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَاكُم مِّنْ آيَاتِهِ الْغَيْبِ يُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢﴾ الآية، وقال في آخر السورة: ﴿وَلَاكُم مِّنْ آيَاتِهِ الْغَيْبِ يُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢﴾ الآية، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٣﴾ لذلك ولكن الله - سبحانه وتعالى - أوحى إليك ذلك؛ ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهداها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبينا شعيب وما قال لقوم وما ردوا عليه: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مَرْسِلِينَ﴾ ﴿١٤﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك على الناس رسولا ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: موسى وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْأَيْمَنِ طَوًى﴾ ﴿١٥﴾ وقال تعالى:

وَلَقَدْ أَنذَرْنَاهُمْ آلِيسَ لَا يُرْمَوْنَ ﴿١٦﴾ أي: طغوا وتجبروا، واكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿نَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَاطِيرَ غَابٍ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُّصَادٍ ﴿١٨﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُثَّةً فَأَقْبَدَ فَتَنَّهُمْ فِي الْغَيْبِ﴾ أي: أغرقناهم في البحر في صيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ﴿وَأَنظَرْنَاهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ لِبَنَةِ كَذِبٍ إِلَىٰ الْكَافِرِ ﴿٢٠﴾ أي: لمن سلك وراءهم وأخذ طريقهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُعْرَوْنَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بدل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الْمَرْفُودَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَنذَرْنَا مُوسَى الْكَتَبَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَ بَصَائِرَ النَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

[بيان نعم الله على موسى عليه السلام]

بحر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وماله. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أنه بعامه بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَرْغَبُونَ وَفِي قُلُوبِهِمُ الْكَيْفُ وَالْخُفْيَةُ﴾ ﴿٢٦﴾ مصرا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿بَصَائِرَ النَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ أي: من العمى والغي، وهدى الحق ورحمة، أي: إرشادا إلى العمل الصالح ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُسْرِعِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ لَهُمْ بِخَافٍ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قِبَلِكُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ وَلَوْلَا أَن نَّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً مَّا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ

﴿وَنَدَبْتُهُ مِنْ بَيْنِ الظُّلُمَاتِ وَلَئِنْ وَفَّرْتَهُ نَجَيْتُ﴾ (٥٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد وبإرسالك إليهم ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ قَلِيلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ (٥٥) أي: لعلهم يهتدون بما جنتهم به من الله - عز وجل - ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية، أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، وليقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٥٦) أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّامًا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ (٥٨) قل فأتوا يكتب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صديقين (٥٩) فإن لم يستجبوا لك فاعلم أنما يتبعوك أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هوائه ويغير هدى ربك أنه إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٦٠) ولقد وصلناهم القول لعلهم يذكرون (٦١)

[تعنت الكفار وجوابهم]

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم؛ لاحتجوا بأنه لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ الآية، يعنون - والله أعلم - من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار - مما يضيع على أعداء الله - وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجزاها الله تعالى على

يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون ومن بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا له: ﴿لَتَلْفَنَّا عَنْآ وَبَدَنَّا عَلَيَّآ أَبَآءَنَا وَكُنَّا لَكَآ الْكَرِيهَآ فِي الْأَرْضِ وَمَا نُنْزِلُ لَكَآ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦) وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَأَلُوا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٧٨).

[لا يؤمن المتمردون بالمعجزات]

ولهذا قال ههنا: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاوننا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ (٧٨) أي: بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاح والمقاربة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر.

[الافتراء على موسى وهارون]

عليهما السلام بالسحر]

قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا للمحبس ذلك، فقال الله: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ (٧٨) سِحْرَانِ تَظَاهَرَا قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونوا وتناصروا وصدق كل منهما الآخر (٧٩) وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله ﴿سِحْرَانِ﴾ يعنون موسى وهارون (٨٠)، وهذا قول جيه قوي، والله أعلم.

[جواب الافتراء]

وأما من قرأ: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ فقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن (٨١)؛ لأن قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى قال ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ وقال في آخر السورة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الآية، وقال ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَآتِيهِمْ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٨٢) وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقال ورقة ابن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. وقد علم بالضرورة لذوي الأبواب أن الله تعالى

(١) الطبري: ١٩/٥٨٨. (٢) الطبري: ١٩/٥٨٩.

(٣) الطبري: ١٩/٥٨٩.

لَعَفُولًا ﴿٨٨﴾ وقال تعالى: ﴿أَقْرَبُهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا مَعَكُم مِّنْ قَبْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾
﴿٨٩﴾ قال سعيد بن جبیر: نزلت في سبعين من القيسيين
بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يَسْ
١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون
وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ^(٥): ﴿الَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ ءَامَنَّا
بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّكُم مِّنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ يعني: من قبل
هذا القرآن كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله
مستجيبين له. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا
صَبَرُوا﴾ أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا
بالكتاب الأول ثم الثاني [يؤتون أجرهم مرتين بليلانهم
بالرسول الأول ثم بالثاني]، ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي:
على اتباع الحق، فإن تحشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد

ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن
أبي موسى الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ
يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ
بِي، وَعَبَدَ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ
فَادَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَخْتَفَاهَا فَتَزَوَّجَهَا» ^(٦). وروى الإمام
أحمد عن أبي أمامة قال: إني لثحت راحلة رسول الله ﷺ يوم
الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: «مَنْ أَسْلَمَ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَمَنْ
أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا» ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَّ إِلَى الْخَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أي: لا يقابلون
السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون، ﴿وَمَنَّا رَزَقْنَهُمْ
يُفْقِرُونَ﴾ أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون
على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة
المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل
والقربات. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾
أي: لا يخاطبون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال
تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ^(٧٦) ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا

لن ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على
أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من
الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في
الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن
عمران عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا
أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بَيْنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
الَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة،
وخللاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل، ولهذا قال
تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبَعُونَ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٩٠) أي: فيما تدافعون به الحق
وتعارضون به من الباطل.

[ضلال من اتباع هواه]

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَنتَهِبُوا لَكَ﴾ أي: فإن لم يحييوك
عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُعْمِلُونَ أَعْوَابَهُمْ﴾
أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنْ اللَّهِ﴾ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٩١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال مجاهد: فصلنا
لهم القول ^(٩٢). وقال السدي: بينا لهم القول ^(٩٣). وقال قتادة:
يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو
صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(٩٤) قال مجاهد وغيره: ﴿وَلَقَدْ
رَضْنَا﴾ يعني قريباً ^(٩٥).

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ
قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّكُم مِّنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٩٧﴾ أُولَئِكَ
يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٩٨﴾ وَإِذَا سَكَبُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٩٩)

[المؤمنون من أهل الكتاب]

نحبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب
أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ مِّنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ
خُشُوعِينَ لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُنَالُ
لَهُمْ خُشُوعٌ لِّلْآذَانِ سَجْدًا﴾ ^(١٠٠) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا

(١) الطبري: ١٩/٥٩٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٩/٢٩٨٧.
(٣) الطبري: ١٩/٥٩٣. (٤) الطبري: ١٩/٥٩٤.
(٥) ابن أبي حاتم: ٩/٢٩٨٨. (٦) فتح الباري: ١/٢٢٩.
(٧) أحمد: ٥/٢٥٩.

وَأَمَّا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ ۖ وَأَنْ يُرْسِلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ^(١) أخرجه من حديث الزهري ^(٢).

[عذر أهل مكة عن الإيمان والرد عليهم]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا الرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا ما حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالآل والمحاربة - ويتخطفونا أيئنا كنا، قال الله تعالى عجباً لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ لَّهُمْ هُدًى حَرَمًا آمِنًا﴾ يعني: هذا الذي اعتذروا به كذب باطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم أمنهم وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَهُ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: من سائر الشياخ مما حولهم الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَإِنَّكَ لَمَّا تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهَا لَا قِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ^(٣) وقال ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا ﴿كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ^(٤)

[التعرض باهلاك القرى وأنها]

تهلك بعد إقامة الحجة]

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا﴾ أي: طغت وأثرت وكثرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَأْخُذْ الْعَذَابُ بِهُمْ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَذُوقُوا مَسَكِنَهُمْ لَمَّا تَكُنْ مِنْ بَعْدِهَا لَا قِيلًا﴾ أي: دثرت ديارهم لا ترى إلا مساكنهم. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خراباً ليس فيها أحد.

(١) الطبري: ١٩/٥٩٩.

(٢) فتح الباري: ٨/٣٦٥، ومسلم: ١/٥٤.

وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيَنَّ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ أي: إذا سلفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلى كلام طيب، ولهذا قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَنَّا أَعْمَلُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيَنَّ الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٥٥) أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ^(٥٦) وقالوا إن تتبع الهدى معك نختطف من أرضنا أولئك ثمكّن لهم حرماً آمناً يتبع إليهم تمرّت كل شئ ورزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ^(٥٧)

[يهدي الله من يشاء]

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ^(٥٦) أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام. فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه، وهو المسيب بن حزن المخزومي رحمه الله قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يَا عَمُّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةُ أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا تَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد وقادة: من المعذبين. ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل. وكلاهما عن مجاهد (١).

والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات، وذلك في الدرجات، فقال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجَنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٣) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٤) وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَزَعِبُوهُمْ وَمَا جَبْتُمْ لَهُمْ مِنْ دَرَجَةٍ أَعْتَبْتُمْ لَكُمْ فَبِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٥) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَعَبَّيْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٧) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٨)

[تبرؤ المشركين وشركائهم كل عن الآخر]

يقول تعالى مخبراً عما يوجب به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاكُمْ فِرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (١٠) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (١١) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافُونَ﴾ (١٢) وَإِذْ أَخْبَرْنَا النَّاسَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣) وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (١٤) وقال الخليل عليه السلام

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْزُكَ مَعَكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهي مكة ﴿رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجم، كما قال تعالى: ﴿لَنُنَزِّلَ أَمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأُولَٰئِكَ سَوْفَ يُعَذِّبُهُمْ﴾ وتام الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَمُنَّ قَرِيبٌ إِلَّا مَنْ مَلَكَ كُوفًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾

الآية، فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى؛ لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «يُبْعَثُ إِلَى الْأَخْرَجِ وَالْأَسْوَدِ» (١٥) ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده، ولا رسول، بل شرعه بان بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ مِّنْهُ حَيَّوْهُ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَالَّذِينَ أَفْلَحُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٦) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقٍ بِهِ كُنْ مَنَعْنَاهُ مِّنْ حَيَّوْهُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (١٧)

[الدنيا فانية لا يستوي صاحبها وصاحب الآخرة]

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة اللبثية، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِلِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٨) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٩) وقال رسول الله ﷺ: «وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِبْصَعَهُ فِي النَّيِّمِ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ» (٢٠).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقٍ بِهِ كُنْ مَنَعْنَاهُ مِّنْ حَيَّوْهُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٢١)؟

يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب ببقاء الله ووعده ووعيده، فهو ممتنع في الحياة الدنيا أياماً قلائل

(١) مسلم: ٣٧٠/١. (٢) أحد: ٤/٢٣٠.

(٣) الطبري: ٦٠٤، ٦٠٥/١٩.

(٤) الطبري: ٦٠٤، ٦٠٥/١٩.

لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴿٥١﴾ أي: ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها. قال الأعمش عن خثيمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلاً أغر محجلاً^(٥٠). وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني المرحين^(٦). وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم^(٧).

وقوله: ﴿وَأَبْنِغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والمناخ، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، ونسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُتَّبِعُونَ﴾^(٨)

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه، وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: لا أتفر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْأَلَسْنَ ضُرْدَعَانِمْ إِذَا حَوْلَتْ يُنْعَمَةً مِّنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم من

تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾^(٩) رَيْنَ نَحْمَتِهِ. أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْيَوْمَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل: ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَسْكُنُ فِي دَارِهِ شُكْرًا﴾^(١٠) والآيات في هذا كثيرة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾^(١١) وَيَرْفَعُنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾^(١٢)

[التوبيخ والزجر للمشركين]

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿وَيَرْفَعُنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً^(١١) ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتوه من أن الله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَبْرِ مُوسَىٰ ذُنُوبًا وَعَٰثِيَةً مِّنَ الْكُفْرِ﴾^(١٣) مَفَاتِيحُ لِنُوءٍ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٦١﴾ وَأَبْنِغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٦٢)

[ذكر قارون ووعظ قومه له]

عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَبْرِ مُوسَىٰ﴾ قال: عن ابن عمه^(١٤). وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن جابر بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام^(١٥). عن ابن جريج: هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث^(١٦).

وقوله: ﴿وَعَٰثِيَةً مِّنَ الْكُفْرِ﴾ أي: الأموال ﴿مَآثِرَ مَفَاتِيحَ﴾

(١) الطبري: ١٩/٦١٤. (٢) ابن أبي حاتم: ٩/٣٠٠٥.

(٣) الطبري: ١٩/٦١٦. (٤) الطبري: ١٩/٦١٥.

(٥) الطبري: ١٩/٦١٧. (٦) الطبري: ١٩/٦٢٢.

(٧) الطبري: ١٩/٦٢٣.

[خسف قارون في الأرض مع داره]

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زنته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَخْرُجُ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثم رواه عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه^(٥). وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْتَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٦) تفرد به أحمد، وإسناده حسن.

وقوله تعالى: «فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ» أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه متصراً بنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

[انعاظ القوم بخسفه]

وقوله تعالى: «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ» أي: الذين لما رأوه في زنته قالوا: «بَيْنَاتٍ لَنَا يَمْلُ مَا أَوْفَى قَدْرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» فلما خسف به أصبحوا يقولون: «وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ» أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة النافذة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي السَّالَّ مِنْ حُبٍّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مِنْ حُبٍّ»^(٧) «وَلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا» أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله «وَيَكُنَّ لَا يَطْلُعُ الْكَافِرُونَ» يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكن، فقال بعضهم: معناه: «ويلك اعلم أن»، ولكن خفف فقيل:

الله بي، وكقوله تعالى: «وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي» أي: هذا أستحقه.

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، فإن قال في قوله: «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ» قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ «أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرَ جَمْعًا» الآية^(١). وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي.

«فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ» قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَيْنَاتٍ لَنَا يَمْلُ مَا أَوْفَى قَدْرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٢) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ^(٣)

[خروج قارون في الزينة وتعليق القوم عليه]

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا: «بَيْنَاتٍ لَنَا يَمْلُ مَا أَوْفَى قَدْرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» أي: ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: «وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا» أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَغْدِثُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَافْرُقُوا إِنْ شِئْتُمْ» «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٤) وقوله: «وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ» قال السدي: ولا يلقي الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم^(٥). قال ابن جرير: ولا يلقي هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة، وكأنه جعل ذلك ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك^(٦).

«لَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ»^(٧) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّ لَا يَطْلُعُ الْكَافِرُونَ^(٨)

(١) الطبري: ٦٢٦/١٩. (٢) فتح الباري: ٣٧٥/٨.

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٠١٦/٩. (٤) الطبري: ٦٢٩/١٩.

(٥) فتح الباري: ٢٦٩/١٠. (٦) أحمد: ٤٠/٣.

(٧) أحمد: ٣٨٧/١.

«ويك» يدل فتح «أن» على حذف «اعلم» وقيل: معناها: ويكان، أي: «ألم تر أن»، قاله قتادة: وقيل: معناها: «وي كان» ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، وكان بمعنى «أظن وأحسب».

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٧) «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ» (٨٨)

[نعم الآخرة للمؤمنين المتواضعين]

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض أي: ترفعًا على خلق الله وتعاطفًا عليهم وتجبرًا بهم ولا فسادًا فيهم، كما قال عكرمة العلوي: التجر (١). وقال ابن جريج: «لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ» تعظيماً وتجبراً (٢). وروى ابن جرير عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَدْعُونَ إِلَى الْفُسَادِ وَيُقَرَّبُونَ لَهُم مِّنْ ذُلٍّ أَوْ هَيْبَةٍ أَوْ مَخْشَوَةٍ﴾ (٣) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ أَوْحِي إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا تَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَتَّبِعِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (٤) وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسنًا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لَا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُجْتَهِلَ» (٥). وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضغافاً كثيرة، وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْفَ يُكْتَبُ لَهَا خَيْرٌ لِّمَن كَانَ مُسْلِمًا﴾ (٦) وهذا مقام الفضل والعدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ هُوَ الْهَادِي وَهُوَ فِي صُلْبِي مُبِينٌ﴾ (٨٩) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٩٠) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِيعِينَ (٩١) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُتُورُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٩٢)

[الأمر بالبلاغ والتوحيد]

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، وخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ وقال: ﴿وَجَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

روى البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة (٢)، وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه (٣). وابن جرير (٤). وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها (٥). وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مولدك بمكة (٦). وفسر ابن عباس قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله، وإبلاغها إلى الثقلين: الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق. وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالهتدي ومنكم ومتني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى مذكراً لنبية نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ولكن

(١) الطبري: ٦٣٧/١٩. (٢) الطبري: ٦٣٧/١٩.

(٣) الطبري: ٦٣٨/١٩. (٤) مسلم: ٢١٩٩/٤.

(٥) مسلم: ٩٣/١. (٦) فتح الباري: ٣٦٩/٨.

(٧) النسائي في الكبرى: ٤٢٥/٦. (٨) الطبري: ٦٤١/١٩.

(٩) الطبري: ٦٤١/١٩. (١٠) الطبري: ٦٤١/١٩.

الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَشَدُّ النَّاسِ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صِلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ»^(١). وهذه الآية كقوله: «أَمَرَ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ»^(٢) ومثلها في سورة براءة. وقال في البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَنْثَبِتُهُمُ الْأَسَافَةَ وَزُلُوفًا عَنْ يَقُولِ الرُّسُولِ وَالَّذِينَ نَحْنُ آمِنُوا بِهِمْ فَقَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ فَبِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٣) ولهذا قال ههنا: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ»^(٤) أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: «أَلَا يَعْلَمُ» إلا لئلا يرى ذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

[المسيئون لا يفوتون الله]

وقوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِطْنَاهُمْ مَا يَكْفُرُونَ»^(٥) أي: لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِطْنَاهُمْ» أي: يفوتونهم «سَاءَ مَا يَكْفُرُونَ» أي: بش ما يظنون.

«مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ رَبُّهُهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٦) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ
«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٧)

[يحقق الله رجاء الصالحين]

يقول تعالى: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ» أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات، ولهذا

«رَحِمَهُ مَنْ رَبُّكَ» أي: إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا» أي: معينا «لِلْكَافِرِينَ» ولكن فارقمهم ونابذهم وخالفهم «وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آلِهَتِ اللَّهِ بِعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ» أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، لا تلوي على ذلك ولا تباله، فإن الله مُعَلِّ كَلِمَتِكَ ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: «وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ» أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

وقوله: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته، وقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ»^(٨) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٩) فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» أي: إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا السَّائِرُ [كَلِمَةً] لَيْبِدَ - أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(١٠).

وقوله: «لَهُ الْحُكْمُ» أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه «وَأِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أي: يوم معادكم، فيجزيكهم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

آخر تفسير سورة القصص والله الحمد والمنة.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«أَلَمْ يَأْتِ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْسَا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ»^(١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٢) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِطْنَاهُمْ سَاءَ مَا يَكْفُرُونَ^(٣)

[اختبار المؤمنين حتى يعرف الصادق من الكاذب]

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله تعالى: «أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْسَا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ»^(١) استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من

(١) فتح الباري: ١٨٣/٧.

(٢) الترمذي: ٣٢٩٨، وأحمد: ١/١٧٢.

مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَائِهِمْ شَيْئًا. وفي الصحيح: «مَا قِيلَتْ نَفْسٌ ظَلَمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلُ كِفْلٌ مِنْ دِيهَانٍ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» (١).

وقوله تعالى: «وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أي: يكذبون ويختلقون من البهتان، وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثًا عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به، ثم قال: «يَا أَتَكْمُ وَالظَّلْمُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْزِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبُولُ وَعِزِّي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي الْيَوْمَ ظَلَمٌ، ثُمَّ يَتَّيْدِي مُنَادٍ يَقُولُ: ابْنُ فُلَانٍ بَنُ فُلَانٍ؟ فَيَأْتِي بِتَبَعِهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، فَيُسْحَرُ النَّاسُ إِلَيْهَا أَبْصَارُهُمْ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَأْمُرُ الْمُنَادِي قِتَادِي: مَنْ كَانَتْ لَهُ تِبَاعَةٌ أَوْ ظَلَامَةٌ هُنْدَ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ فَهَلُمَّ، فَيَقْبَلُونَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا قِيَامًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ الرَّحْمَنُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نَقْضِي عَنْهُ؟ فَيَقُولُ: خُذُوا لَهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَلَا يَزَالُونَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا حَسَنَةٌ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ الظَّلَامَاتِ، فَيَقُولُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: لَمْ يَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، فَيَقُولُ: خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَأَجْلُوهَا عَلَيْهِ»، ثم نزع النبي ﷺ هذه الآية الكريمة «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (٢). وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَأَخَذَ مِنْ عِزِّ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَيَأْخُذُ بِنَقْلِ لَهْ حَسَنَةً، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطَرَحَ عَلَيْهِ» (٣).

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ الْأَخْيَرِ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» (٤) فَأَجْنَحَتْهُ وَأَصْحَبَ السَّيِّئَةِ وَجَعَلْنَاهَا مَكِيدَةً لِلْكَافِرِينَ» (٥).

[ذكر نوح وقومه]

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكديماً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» أي: بعد هذه المدة الطويلة ما

أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينَةً ﴿١﴾ وقال تعالى: «خَبَرًا عَنْهُمْ هَذَا: ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لِتَقُولُوا إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾»، ثم قال الله تعالى: «وَأَرْسَلَ اللَّهُ يُبَايِعُكُمْ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَي: أُولَئِكَ الَّذِينَ بَايَعُوا اللَّهَ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا تَكُنْ ضَمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمْ الْمَوَافَقَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١) أي: وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء؛ لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءُ مِنْ هَؤُلَاءِ، مَنْ يَطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ، إِنَّمَا يَطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيَكُونَنَّكُمْ حَقٌّ نَعَارُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّادِينَ وَبَلَغُوا خَبَرَكُمْ﴾ (٢)، وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِكُمْ بَيْنَ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٣) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٤).

[جراة الكفار في تحمل خطايا الآخرين]

بشرط عودتهم إلى الكفر]

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا: «وَلَيَحْمِلْ خَطَايَكُمْ» أي: وأنامكم إن كانت لكم أنام في ذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيبتك في رقبتني، قال الله تعالى تكذيباً لهم: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِكُمْ بَيْنَ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» أي: فما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: «وَأَنْ تَدْعُ مَثَلَهُ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ (٢) يُصَرِّفُهُمْ.

وقوله تعالى: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: «لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِثَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» الآية، وفي الصحيح: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ

(١) مسلم: ٢٠٦/٤. (٢) فتح الباري: ١٩/٦.

(٣) الدر المنثور: ٥/٢٧٧.

في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة والخوف **﴿وَلَا تَكُنَّ خِيَرَةً لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** أي: إذا فعلستم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم، هكذا رواه العوفي عن ابن عباس^(٣)، وبه قال مجاهد والسدي. وروى الوالي عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً أي: تنحتونها أصناماً^(٤)، وهي لا تملك لكم رزقاً **﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾** وهذا أبلغ في الحصر كقوله: **﴿إِنَّكَ تَبْتَدِئُ وَإِنَّكَ تَنْتَعِمُ﴾** **﴿رَبِّ أَبْنِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾** ولهذا قال: **﴿فَابْتَغُوا﴾** أي: فاسألوا **﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾** أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً **﴿وَارْعَبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾** أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم **﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَدَّ كَذَبُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: إنها على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. قال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَدَّ كَذَبُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعزي نبيه ﷺ، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ فَلْيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَنْشَأَ

تَجْعَلُ فِيهِمُ الْبَلَاغَ وَالْإِنذَارَ، فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَأْسَفُ عَلَى مَنْ كَفَرَ
بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْدَأُ الْأُمُورَ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يَبْرُؤُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ وَيُؤَيِّدُكَ، وَيَذِلُّ عَدُوَّكَ
رَيْبَكِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ.

وعن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّيْتُهُمُ وَاصْحَبَ السَّيْفَ﴾ أي: الذين آمنوا بربهم عليه السلام، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك
الفسفة باقية إما عينها، كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول
الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة
لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان ^(٢)، كما قال
تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ أَتَىٰ حَمِلًا دَرِيثًا فِي الْعُلُكِ الْمَشْحُونِ﴾ ١١ ﴿وَجَعَلْنَا
لَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِجًا﴾ ١٢ إلى قوله: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقال
تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَأْكُلُ الْأَعْمَاءَ حَمَلًا كَرِيًّا لِّبَايَةِ﴾ ١١ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا
أَذْرًا﴾ ١٢ ﴿وقال ههنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينِ﴾
وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ١٥ وهذا من باب التدرج من
الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِنُجُومٍ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: وجعلنا نوعها رجوماً
فإن التي يرمي بها ليست هي زينة للساء، وقال تعالى:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ١٢ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
رَحْمَتِكُمْ﴾ ١٣﴾ ولهذا نظائر كثيرة.

وَالَّذِينَ إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِمْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِنَّهُ يَكْتُمُ السِّرَاتِ ۖ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

[وعظ إبراهيم عليه السلام لقومه]

نَحْنُ نَدْعُوهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ

بِمُعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ الْأَلِيمِ ﴿١٢﴾

[أدلة الحياة بعد الممات]

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه، يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دالٌّ على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَىٰ﴾، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْفِثُ النَّفْثَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعلاً؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: ﴿إِنَّ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَآوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَّهُمْ﴾^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَلِيُّوهُ تَقْلُبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنشَأَ الْمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه، وهو الغني عما سواه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ الْأَلِيمِ ﴿١٦﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿وَأُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ الْأَلِيمِ﴾ أي: موجه شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ﴾

اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَنَكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿١٨﴾

[جواب قوم إبراهيم، وتصرف الله في النار]

يقول تعالى مخبراً عن قدوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿لَا تَأْتُوا الْقُرْآنَ فَقُولُوا هُوَ حَرِّقُونَا﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا إِلَهُ بَيْنَنَا وَفَأَلْقُوهُ فِي الْخَبِيرِ﴾ ﴿١٩﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٠﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أخطاب عظيمة مدة طويلة، وحوطوا حولها، ثم أضرموها فيها النار، فارتفع لها هب إلى عنان السماء، ولو توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قدروا فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً بعد ما مكث فيها إماماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمة وجسده للنيران، وسخا بولده للقران، وجعل ماله للصفيان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[وإبراهيم عليه السلام بين لقومه عجز الأصنام]
﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مفرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنها اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنائاً ثم ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاهدون ما كان بينكم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع ﴿كُلَّمَا دَخَلَ أَتَىٰ لَعْنَتٌ أَخْبَاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿الْأَخْيَارُ يَوْمَئِذٍ يَعْصِمُهَا لِبَعْضٍ عَذْوٌ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾

﴿ فَلَمَّا آتَوْكُم مَّوَدِّعَهُمُ الْبَارِئُ أَوْ أَمَرَ لَهُمْ مَبِيتَهُمْ وَمَا يَغْدُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلا جَعَلْنَا نِيَّتًا ﴾ أي: إنه لما فارق قومه، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي: زيادة، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَدَّوْا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي: يولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملثهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَءَاتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴾ أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ^(٢)، كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ^(٣) أي: قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَءَاتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٤) إلى قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٥) أي: أنكم لانتوت الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في كاديكم المنكر فما كانت جواب قومي إلا أن قالوا آتينا يعذاب الله إن كنت من الصادقين ^(٦) قال رب أنصرتني على القوم المفسدين ^(٧)

ببشركم بعضاً وما واعدكم النار الآية، أي: ومصيركم ورجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، وأما المؤمنين فبخلاف ذلك.

﴿ فَأَمَّا لُوطُ فَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَءَاتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٨)

[إيمان لوط عليه السلام وهجرته]

مع إبراهيم عليه السلام

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم. يقولون: هو لوط بن هاران بن أزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه، فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبي، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وأنت أختي في الدين.

وكان المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض روحان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها ^(٩)، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ يحتمل عود ضمير في قوله: ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط؛ لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قاله ابن عباس والضحاك، وهو المكني عنه بقوله: ﴿ فَأَمَّا لُوطُ ﴾ أي: من قومه، ثم أخبر عنه بأن اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في قوله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشرعية. وقال قتادة: هاجر جميعاً من «كوني»، وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

[وهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب]

وجعل في ذريته النبوة

وقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ كقوله:

[وعظ لوط عليه السلام وما دار بينه وبين قومه]

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من تبجح الأفعال في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله، ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونه ويأخذون أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِي تَكَرُّبٍ مُّكْتَرٍ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم في الملا، قاله مجاهد^(١). ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم^(٢). ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ قَوْمُهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا يَعْذَابُ اللَّهِ أَنْ كُنْتَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَتَنْجِيَّتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ (٣٣) إِنَّا مَرْسُولُكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا رَجِيًّا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُمْ مِّنْهَا آيَةً يَنْتَهُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ (٣٥)

[مجيء الملائكة إلى إبراهيم ثم]

إلى لوط عليهما السلام]

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلا الطعام، نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويشرونه بوجود ولد صالح من أمرته سارة، وكانت حاضرة، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة

هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُظنون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَتَنْجِيَّتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ (٣١)﴾ أي: من المالكين؛ لأنها كانت ثملتهم على كفرهم وبغيهم وديبرهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سِتًّا بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا﴾ أي: اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يصفهم خشي عليهم، منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ (٣٢)﴾ إِنَّا مَرْسُولُكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا رَجِيًّا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٣) وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل متضود مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين بعباد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة متنتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُمْ مِّنْهَا آيَةً يَنْتَهُ﴾ أي: واضحة ﴿لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَنْهُمْ مُّصِيبِينَ﴾ (٣٤) وَإِلَّا لَأَفْلَاقُ تَقْوِلُونَ (٣٥).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا شِعَارَ اللَّهِ قَالُوا يَقَوْمُ أَغْدُو اللَّهِ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوا فَخَذَّهْمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ (٣٧)

[ذكر شعيب عليه السلام وقومه]

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَنْتَهُ يَخَافُوا بِأَسِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ وَسَطْوَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿وَيَنْتَهُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر^(٣)، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا يتقصون المكيل

(١) الطبري: ٢٠/٢٩، والبغوي: ٣/٤٦٦.

(٢) الطبري: ٢٠/٣٠. (٣) الطبري: ٢٠/٣٤.

وتوعدهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخذت الأصوات منهم والحركات ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهٖ الْآزْمَكُ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وفرح وفرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صيحة واحدة فلم ينج منهم خبر ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ نَفٍّ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَذَٰلِكَ الْأَمَثَلُ نَضْرِبُكَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)

[تمثيل آلهة المشركين ببیت العنكبوت]

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها. ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد وأشرك به، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم، إنه حكيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ الْأَمَثَلُ نَضْرِبُكَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٢) أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَذَٰلِكَ الْأَمَثَلُ نَضْرِبُكَ لِلنَّاسِ

والميزان ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزحق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف وهود والشعراء. وقوله: ﴿فَأَنْصَبُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيثِينَ﴾ قال قتادة: ميتين (١). وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض (٢). ﴿وَعَذَابًا وَتُؤْمَرُ وَوَقَدْ بُيِّنَتْ لَكُمْ مِنْ مِّنْكَرِهِمْ وَرَزَقَهُمُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُتَبِينَ (٣٨) وَفَرُّونَ وَفَرُّونَ وَهَنَتِ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُودُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاستَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِالْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كُنَّا اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠)

[ذكر إهلاك أقوام كذبوا رسلهم]

يخرج تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم ونحو ذلك عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف ساكنيها جيذاً، وتجر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه فمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وهم عاد، وذلك أنه قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، سانية الميول جداء، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، ترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده، يبقى بذنا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ سَفِهَ النَّفْسَ﴾ وهم ثمود، قامت عليهم الحجة، وظهرت الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على كفرهم وكفرهم، وتهادوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه،

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١١﴾

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ أَتَى مَا أُوجِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العيب واللعب ﴿لَيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، ﴿لَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (w) أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

[الأمر بالبلاغ والتلاوة والصلاة]

ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: «إِنَّهُ سَيِّئُهُمَا مَا تَقُولُ» (٧). وتشمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهيه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه. وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة، فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

﴿ وَلَا تَحْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

[مجادلة أهل الكتاب]

المعنى: أن من أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل

بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الآية، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿قُولَا لَهُ قَوْلًا نَّيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١٤) ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ يتنقل من الجدال إلى الجلال ويقاثلون بما يمنعونهم ويردعهم، قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نصره بالسيف، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا تقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً جملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَصَدَّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَدِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وهذا الحديث نضد به البخاري (١٣).

وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا [كتاب الله] وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم (١٤).

وروى البخاري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأجبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (١٥). (قلت: معناه: أنه يقع من

(١) الدر المنثور: ٦/٤٦٤. (٢) أحمد: ٢/٤٤٧.

(٣) فتح الباري: ٨/٢٠. (٤) البخاري: ٧٣٦٣.

(٥) فتح الباري: ١٣/٣٤٥.

تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٧) وقال رسول الله ﷺ: ﴿مَا مِنْ نَبِيٍّ وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ النَّبِيُّ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَخِيَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا﴾ (٢) وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَمِّلُكَ بِكَ، وَمُنَزِّلُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ السَّاءُ تَغْرِؤُهُ نَاجِيًا وَيَقْطُنَا﴾ (٣) أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتجج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء في الحديث الآخر: ﴿لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أُخْرِقَتْهُ النَّارُ﴾ (٤) ولأنه محفوظ في الصدور، يسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلْهُ يَتَابِعُنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويميدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥) وَلَوْ جَعَلْتُمْ كُلَّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٦) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَنَيْبَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)

[طلب المشركين الآيات وجوابهم]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾﴾ أي: إنها أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك،

الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل، ومن منحه الله تعالى علماً بذلك كل بحسبه، والله الحمد والمنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (١٠) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمَطْلُوبُ (١١) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (١٢)

[القرآن نزل من عند الله والدليل عليه]

قال ابن جرير: يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من نيك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب (١٣)، وهذا الذي قاله حسن ومناسبه وارتباطه جيد. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حتى تلاوته من أجارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام وسليمان الفارسي وأشباههما. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: العرب من قريش وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيئات، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرا كتاباً ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرا ولا تكتب، وهكذا صفت في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَرْدَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَزَبْتَ الْمَطْلُوبُ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنها تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿وَقَالُوا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكُنْتُمْهَا فَبِحَى ثَمَلْنِ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١٤) قال الله

(١) الطبري: ٥٠/٢٠. (٢) فتح الباري: ٦١٩/٨.

(٣) مسلم: ٢١٩٧/٤. (٤) أحمد: ١٥٥/٤.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيرًا لكم بين النذارة، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى و﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قال تعالى مبيِّنًا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب، فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالخلق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مِمَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

وروي الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَخَبَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْ، فَارْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَأْيِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) أخرجاه (٢). وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرِيسَةً وَذِكْرَيْنَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن لرحمة أي: بيانا للحق وإزالة للباطل، وذكره بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَةً وَبَيِّنَاتُكُمْ شَيْدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، وعلّم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَوْلُ عَيْنَا بِمَا لَآفَاطِلُ﴾ (٣) لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْلَ (٥) فَمَا يَرْكَنُ إِلَّا عَلَيْهِ حَاجِرِينَ (٦) وإنا أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ» أي: لا تخفى عليه خافية «وَالَّذِينَ آمَنُوا

بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٧) أي: يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

﴿وَسَتَجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ بِعَذَابِهِ لَمَكِيدُونَ﴾ (٨) ﴿وَسَتَجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّهُمْ لَمَكِيدُونَ﴾ (٩) ﴿يَوْمَ يَنْفَسُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠)

[استعجال المشركين بالعذاب]

يقول تعالى خبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ آيَةً مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْنِصْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ (١١) وقال ههنا: ﴿وَسَتَجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُ الْعَذَابُ﴾ أي: ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلَئِنَّهُمْ بِعَذَابِهِ لَمَكِيدُونَ﴾ أي: فجاءه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّهُمْ لَمَكِيدُونَ﴾ (١٣) أي: يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَنْفَسُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (١٤) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٦) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٧) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٨) أَصْلَحُوا فَأَصْلَحُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩).

(١) أحمد: ٣١٤/٢.

(٢) فتح الباري: ٦١٩/٨، ومسلم: ١٣٤/١.

بيقعة، بل رزقه تعالى عام خلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الاقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ ذَٰلِكُمْ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تسخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يفيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ ذَٰلِكُمْ فِي الْأَرْضِ لَا أَعْلَىٰ لِلَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَسُجُودَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عبادہ العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَقُولُونَ اللَّهُ فَإِنْ يُفَكِّرُونَ﴾ (١١) ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ (١٢) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا يَقُولُونَ اللَّهُ فَاِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٣)

[أدلة التوحيد]

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلاً منهم، ومن يستحق الغنى من يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء، المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كان يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هِيَ الْحَيَّةُ الدَّيَّا إِلَّا لَهُمْ وَلِعَبٌ لِّكَ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١١) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهُ تَحْمِلِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا فَجَسْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٢) ﴿لِكُفُّوا يَمَٰءَاتِنْتَهُمْ وَلِيَمْنَعُوا فُسُوقَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

﴿يَعْبُدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ أَرْضِي وَرِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ (١٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَافًا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٧) ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ ذَٰلِكُمْ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٨) [الإشارة بالهجرة والوعد بالرزق والجزاء الحسن]

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدر فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدا الله ويعبدوه، كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْبُدُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ أَرْضِي وَرِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ (١٤) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة فهاجروا، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحاب النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فأواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيوفاً بيلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) أي: أينما كنتم يدرحكم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، نس إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَافًا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها أبداً لا ينفون عنها حولاً ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده.

وروى ابن أبي حاتم رحمه الله عن [أبي معاتق] الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه: أن رسول الله ﷺ، حدثه: أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام (١). ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم، ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص

يفتح الله على رسوله مكة، وأرغم أتافهم وأذل رقابهم.
ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة عن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة عن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا﴾ يعني: الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنُبصِّرَهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

روى ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد - من أهل عكا - في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد ابن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فأعجبه وقال: ليس ينبغي لمن أهدى شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحده الله حتى وافق ما في قلبه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إني الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. والله أعلم.

آخر تفسير سورة العنكبوت. والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَمْ ١﴾ غَلَبَ الزُّمُّ ٢ ﴿فِي آتَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سِقَالُوتٌ ٣﴾ فِي يَضِيعُ سِينٌ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يَوْمَئِذٍ ظَهَرَ أَعْيُنُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٨

[التنبؤ بغلبة الروم]

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم.

يقول تعالى خبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها هو ولعب: ﴿وَلَيْكَ الْأَدَارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَوَاتُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعون وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً: ﴿فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُاً فَلَمَّا نَجَّيْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِيراً﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيُحْمِلُهُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ ١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ١٨ ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ ١٩﴾ وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٢٠﴾

[العظة والامتنان بحرمه الحرام]

يقول تعالى تمتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ شَرِيْشٌ ١﴾ إِيْلَفِيْهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ٤﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيُحْمِلُهُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ ١٧﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد و ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ٢﴾ وكفروا بنبي الله وعبدوا ورسوله، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله، وأن لا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه، وأخرجوه من بين ظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين،

يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال: فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين، قال لأن الله قال في بضع سنين، قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير. هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح^(١).

[من هم الروم]

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقلوه تعالى: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنا معبدها، وفيه محارب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس وأمه مريم الهيلانية [الشدقانية] من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً فاتباعها، يقال: تقيبة، واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشرًا منتشرًا لا ينضب، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه، فصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعيادًا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث [الشعائين]، وجعلوا له الباب، وهو كبيرهم، ثم البتارقة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشمامسة، وابتدعوا الرهبانية، وبنى

(١) أحمد: ٢٧٦/١.

(٢) تحفة الأحوذى: ٥١/٩، النسائي في الكبرى: ٤٢٦/٦.

(٣) تحفة الأحوذى: ٥٢/٩.

واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي. روى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ (١) فِي أَذَى الْأَرْضِ قال: غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ. قال: كان المشركون يجيئون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يجيئون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فاجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: «أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ - أَرَأَاهُ قَالَ: الْعَشْرَ -» قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد قال: فذلك قوله: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بُضْعِ سِنِينَ قَدْ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُمُؤْمِنُونَ (٤) يُخَضِّرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) هكذا رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب^(١).

(حديث آخر): روى أبو عيسى الترمذي، عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بُضْعِ سِنِينَ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يجيئون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُمُؤْمِنُونَ﴾ (٤) يُخَضِّرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان يبعث، فلما أنزل الله هذه الآية، خرج أبو بكر يصبح في نواحي مكة: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ (٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بُضْعِ سِنِينَ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتعن أبو بكر والمشركون ونواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر: كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه؟ قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت ست السنين قبل أن

قيلها، فأنتم بالخيار: إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًّا، ولم غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط هذا، وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعات في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساء حريمه، وحلق رأس ولده وركبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصىه إلا الله تعالى، واشتد حنق على البلد، فجذ في حصارها بكل ممكن، فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش وأمر بأعمال من التبن والبرع والروث، فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدًا، ثم أمر باللقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشرغت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، فكان ذلك يومًا مشهورًا عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربتهم الروم، وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذرارهم، ونساءهم، فكان هذا من غلب الروم لفارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم، وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالحق أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَهُوَ يَتَّبِعُ الْأَمْرَ مَنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبُني على الضم لما قطع المضاف، وهو قوله: قبل، عن الإضافة وتويت ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ

لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنى أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف، ثم السطورية أصحاب سطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُمْ أَفْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ قِرْقَةً» والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل، وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غورًا، وأقصاهم رأيًا، فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبهة [كبيرة]، فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رئاسة العجم، وحماقة الفرس، وكانوا مجوسًا يعبدون النار.

[كيف غلب قيصر على كسرى؟]

فتقدم عن عكرمة أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده، فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة، حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لخصائنها؛ لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيمهم الميرة والمدد من هنالك، فلما طال الأمر، دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء، فأجابته إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوارٍ وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر وأوممه أن عتده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية فجمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عيتته من جيوشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول، فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ
اسْتَوُوا الشَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾

[دلائل التوحيد]

يقول تعالى منبها على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده
وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال:
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل
لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من
المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما
خلقت سُدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها موجهة إلى أجل
مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنْ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ يَلْقَآئَ رَبِّهِمْ لَكُفْرُونَ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما
جاءوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل الواضحات
من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال تعالى:
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم
وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم
الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم
محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معاشاً ما أوتوا،
ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه وعمرها فيها أعماً
طوالاً، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من
استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا
بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق،
ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا
دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم
من العذاب والنكال ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي:
وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤا
بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم،
ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَوُوا الشَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما قال تعالى:
﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ﴾ وقيل: بل المعنى في ذلك ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْتَمْنَا فِي دِينِكُمْ
أَن نَّصِيبَهُمْ يَتَقَبَّلُ دُؤُوبَهُمْ﴾ وقيل: بل المعنى في ذلك ﴿ثُمَّ كَانَ

﴿يَنْصُرُ اللَّهُ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام على
فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصره الروم
على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء،
كأبي عباس والثوري والسدي وغيرهم. وقد ورد الحديث
الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن
أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على الفرس،
فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَ يُنْزِلُ
فَتْحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ
الْمُكَرِّرُ الرَّجِيمُ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾

وروي ابن أبي حاتم عن الزبير الكلابي قال: رأيت غلبة
فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس ثم رأيت غلبة
المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمسة عشرة سنة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من
أعدائه ﴿الْجَبَرُ﴾ بعباده المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا
يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمداً من أنا
ستصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخبر صدق لا
يخلف ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن
يصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة
﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه،
وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا
وأخبارها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكىء في تحصيلها
ودرجة مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما يتفهم في
الدار الآخرة كان أحدهم مُغْفَل لا ذهن له ولا فكرة. قال
الحسن البصري: والله ليلبغ من أحدهم بدنياء أن يقلب
لدهم على ظفره، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقال
ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يعني: الكفار يعرفون عمران الدنيا،
وهم في أمر الدين جهال ﴿١﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ
لَكُفْرُونَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَّرُوهَا
فَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ فَأَعْتَمْنَا فِي دِينِكُمْ أَن نَّصِيبَهُمْ يَتَقَبَّلُ دُؤُوبَهُمْ﴾

(١) تحفة الأحوذني: ٥٠/٩، والطبري: ٧٣/٢٠.

(٢) الطبري: ٧٦/٢٠.

عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا الشَّوْاعِبُ ﴿١﴾: أي: كانت السواى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. هذا توجيه ابن جرير. ونقله عن ابن عباس وقتادة ^(١). ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاک بن مزاحم، وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله: ﴿وَكَاثُرًا بِمَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿أَنَّهُ يَبْذُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ^(١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذُ مَنْفَرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُخْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿أَنَّهُ يَبْذُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(١٢) قال ابن عباس: يبأس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية: يكتب المجرمون ^(٢) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذُ مَنْفَرُونَ﴾ ^(١٤) قال قتادة: هي والفرقة التي لا اجتماع بعدها ^(٣)، يعني: أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُخْبَرُونَ﴾ ^(١٥) قال مجاهد وقتادة: ينعمون ^(٤).

﴿تُسَبِّحُنَّ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ^(١٥) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٦﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾

[الأمر بالصلوات الخمس]

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار [عن] ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق

في السماوات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام، والإظهار قوة الضياء، فسيحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح، وجاعل الليل سكتاً، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ وَأَلِيلٌ إِذَا يُغَشِّئُهَا﴾ ^(١) وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ﴾ ^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ ۖ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۖ﴾ ^(٣) والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإن يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها؛ ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا هُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتُهَا وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا نَبَاتًا فَيَنْبِتُ بِأَكْثَرِ مَا كُنُونَ﴾ ^(٣٧) - إلى قوله -: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَرَّتْ وَبَارَكَتْ مِنْ مَوْلَىٰ ذِي الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَأَنكُم مِّنَ الْغَافِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِالْأَوَّلِ رُوحًا وَجَاءَهُ بِبَشَرٍ لِّدَىٰ رَحْمَةٍ ۖ هَٰذَا إِذَا أَقْلَبَ سَحَابًا مِّثْقَالًا﴾ - إلى قوله -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن يَخْلُقَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنشَرْنَا بَشَرًا تَنْشُرُونَ﴾ ^(١) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

[من آيات الله]

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق إياكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَا أَنشَرْنَا بَشَرًا تَنْشُرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكان علقه، ثم مضغه، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوي والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به

(٢) الطبري: ٢٠/٨٠.

(١) الطبري: ٢٠/٧٩.

(٤) الطبري: ٢٠/٨٢.

(٣) الطبري: ٢٠/٨١.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تَتَرَلِّمُ لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تُكْرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هندو، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم وهي حُلَاهم، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان

وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾ (١٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ قُضَائِهِ ﴿أَي: ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب. وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَي: يَعُون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَافاً وَطَمَعاً وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَشْجَارَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٣) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ كَرُّجُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَافاً وَطَمَعاً أَي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَشْجَارَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَفَعَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَشْبَعَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيج﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُ السَّمَاءُ أَنْ

الجال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة، كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصر فهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر والحسن، والقيح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (١٥).

وروي الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى ثَلَاثِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّخِيبُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ** (١٦) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِيُحْبَبَنَّ إِلَى خَلْقِكُمْ مِنْ جَنْسِكُمْ إِنَّا نَكُنْ لَكُمْ أَزْوَاجًا وَلَتَشْكُرُنَّ إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا لِسْكُونَ لَكُمْ إِلَيْهَا﴾ يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم نكورا وجعل إناثهم من جنس آخر؛ إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الاختلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمة بني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهي لوعة، ورحمة وهي الرافة، فإن الرجل يمسك المرأة إناثا لمحبه لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق والالفة بينهما وغير ذلك ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَتُنْكِحُ الْإِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾ (١٨) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ قُضَائِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَي خلق السماوات في ارتفاعها وسعائها وشفوف أجرامها، وزهرة كواكبها ونجومها وشبوت والسيارات، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية وبحار، وقفار وحيوان وأشجار.

[مثل يدل على التوحيد]

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غير الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تليستهم يقولون: لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدوا وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسمكم الأموال. قال أبو جاز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذلك، كذلك الله لا شريك له^(٥)، والمعنى: إن أحداً يألف من ذلك، فكيف تجعلون الله الأنداد من خلقه؟!

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك لييك اللهم لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فأنزل الله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٦) ولما كان التنبيه بهذا الملل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأخرى قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَفْهَمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧) ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٨) ﴿مِنَ الَّذِينَ قَرَعُوا دِيَارَهُمْ وَكَانُوا شُعَبًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٩)

تَفَعَّ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَذْنِبُهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: [لا] والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها لإياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: من الأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِصَوْنِهِمْ فَمِنْهُمْ شُرَكَاءُ أَصْنَاءُكُمْ فَتَبْتَغُونَ الرَّحْمَةَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مَلَكُوتٌ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجْدَةً﴾^(١٠) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ﴾^(١١) وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾^(١٢) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾^(١٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١٤) يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً.

[إعادة الخلق أهون]

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أيسر عليه^(١٥). وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداية، والبداية عليه هينة^(١٦). وكذا قال عكرمة وغيره^(١٧) وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». انفراد بإخراجه البخاري^(١٨).

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره. ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾^(١٩)

(١) الطبري: ٩٢/٢٠. (٢) الطبري: ٩٢/٢٠.

(٣) الطبري: ٩٢/٢٠. (٤) فتح الباري: ٨/٦١٢، ٦١١.

(٥) الطبري: ٩٦/٢٠. (٦) الطبري: ٢٠/١٢.

تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولا م التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل؛ لتقيض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله! لو توعدني حارس درب لحقت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون؟! ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلقوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ سُلْطَانًا﴾ أي حجة ﴿فَهُوَ يَنكَرُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْخَرُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمْشُوا مُبْتَلِينَ﴾ إذا هم يفتنون ﴿٢٦﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنْهُ﴾ لفرح فخره أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء. كما ثبت في الصحيح: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المنتصف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَاتَّبَعُوا الْقُرْآنَ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينَ وَأَمَّا السَّبِيلُ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّكَ لَئِيْلًا فِي أَنْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ دُكُوْرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

[الأمر بصلة الأرحام والنهي عن الربا]

يقول تعالى أمرًا بإعطاء ﴿ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي من البر والصلة، ﴿وَالْمُسْكِينَ﴾ وهو الذي لا شيء له يتفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَأَمَّا السَّبِيلُ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى،

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّكَ لَئِيْلًا فِي أَنْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ دُكُوْرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح: «وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعَدْلٍ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ فَنَزَّاهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُزَيَّرُ أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَكْظَمَ مِنْ أَحَدٍ»^(٣).

[الخلق والرزق والإماتة والإحياء بيد الله]

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرزاق، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانًا، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوة، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُيَسِّتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتبرأ وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مسار أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يولد ولن يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١١﴾

[آثار الذنوب في الدنيا]

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم: المراد بالبر ههنا الفياضي، وبالبحر الأمصار والقرى^(٢). وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر الأمصار والقرى ما

(١) مسلم: ٢٢٩٥/٤. (٢) الطبري: ٢٠/١٠٥، ١٠٤.

(٣) مسلم: ٧٠٢/٢. (٤) الطبري: ٢٠/١٠٨.

وكفر النعم.

﴿ فَأَقْرَرَهُمْ بِآيَاتِهِ لِيَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٣) ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِيهِمْ بِسَهْدُونَ ﴾ (١٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٥)

[الأمر بالاستقامة قبل يوم القيامة]

يقول تعالى أمراً بعباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات: ﴿ فَأَقْرَرَهُمْ بِآيَاتِهِ لِيَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٣) أي: يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِيهِمْ بِسَهْدُونَ ﴾ (١٤) أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِيهِمْ بِسَهْدُونَ ﴾ (١٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١٥) أي: يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٥) ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجر.

﴿ وَمَنْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا يُنْكِرُ ﴾ (١٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِآيَاتِنَا فَآتَيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً ﴾ (١٧) ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨)

[من آيات الله الرياح]

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِآيَاتِنَا فَآتَيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً ﴾ (١٧) أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِآيَاتِنَا فَآتَيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً وَمِنْ قِبَلِنَا مَتْنِماً ﴾ (١٧) هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من

كان منها على جانب نهر^(١). وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف. وقال زيد بن رفيع: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه، رواه ابن أبي حاتم، وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً.

وأعلى القول الأول معنى قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ كَسِبَتْ آيَاتُ النَّاسِ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أسند في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لَحْدُ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(٢) والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض. ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركتك، فيأكل من الرمانة الغمام من الناس ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا بركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت في الصحيح أن: «الْفَاجِرُ إِذَا مَاتَ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالذُّوَابُ»^(٣)

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي قحزم قال: وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد، صرة فيها حب، يعني: من بُرَّ، أمثال النوى مكتوب فيها: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل^(٤). وقوله تعالى: ﴿ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ الآية، أي: ليتلهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبأ منه هم ومجازاة على صنيعهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٤) أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ وَبَارَكْنَا لَهُمْ فِي الْحَسَنَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٤) ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: ممن قبلكم «كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ»^(٥) أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل

(١) الطبري: ١٠٨/٢٠. (٢) النسائي: ٧٥/٨.

(٣) البخاري: ٦٥١٢. (٤) أحمد: ٢٩٦/٢.

إيانه، فتأخر، ثم مضت مدة فترقبه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتزورها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظُلُومًا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه، ففراوه مصفرًا، أي: قد اصفر وشرع في الفساد لظلموا من بعده، أي: بعد هذا الحال، يكفرون: أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿بَلْخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ إِذَا وَلَّىٰ مَذْرُؤَهُ﴾ وما أنت بهد الآتي عن ضلالهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴿٥٧﴾

[الكفار أموات، صمد، عمي]

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدانها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العباد عن الحق وردهم عن ضلالهم بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ رُجُوعٌ﴾ وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتل الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاينته إياهم وتقريره لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله! ما تخاطب من قوم قد جئوا؟ فقال: «الوَاللَّيْ نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ»

الدلائل الواضحات. ولكن انتقم الله من كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكُنَّا حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو حق أوجه على نفسه الكريمة نكرما وتفضلا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿١٨﴾ وإن كانوا من قبل أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلْسَيْنَا ﴿١٩﴾ فَنَنْظُرُ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُتَّقِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظُلُومًا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾

[إحياء الأرض دليل البعث]

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي يتزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يمدده فيكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر نقالا مملوءا [ماء]، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّا الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سَفَنَةٌ لَيْلٍ نَجِيَّتْ﴾ - إلى قوله - ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ وكذلك قال ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقناة: يعني قطعاً^(١). وقال غيره: متراماً، كما قاله الضحك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقيلًا قريباً من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: فترى المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادَةِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلْسَيْنَا﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم، على فاقة، فوق وقع منهم موقعا عظيما، ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت، فترقبوه في

وَبَاوُلْتُهُ عَائِشَةً عَلَى أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُمْ الآنَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ
أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ»^(١). وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا
مقالته تقريرا وتوبيخا ونقمة^(٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(٣)

[ذكر أحوال الإنسان المختلفة]

فيه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال،
فأصله من تراب ثم من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة ثم يصير
عظاما، ثم تكسى العظام لحما، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من
بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى، ثم يشب قليلا قليلا حتى
يكون صغيرا، ثم حدثا ثم مراهقا شابا. وهو القوة بعد الضعف،
ثم يشق في النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد
القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير
الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
قُوَّةٍ سَعِيقًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» أي: يفعل ما يشاء ويتصرف
في عباده بما يريد «وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ»^(٤).

﴿يَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقَسِّرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ
كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْآيَاتِ فَهَذَا يَوْمَ الْآيَاتِ
وَلَكِنَّا كُنْمْ كُنْمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٧﴾

[جهالة الكفار في الدنيا والآخرة]

عبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا
فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم
جهل عظيم أيضا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة
واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة
عليهم وأنهم لم ينتظروا حتى يعذر إليهم. قال الله
تعالى: «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ»^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْآيَاتِ فَهَذَا يَوْمَ الْآيَاتِ
وَلَكِنَّا كُنْمْ كُنْمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٧﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّبَ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ
بِنَائِهِ يُقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾^(٨) كَذَلِكَ
يُطِيعُ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾

[ضرب الأمثال في القرآن وعلمه اعتبار الكفار بها]
يقول تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّبَ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ»
أي: قد بينا لهم الحق، ووضحنا لهم، وضرينا لهم فيه الأمثال
ليستبينوا الحق ويتبعوه «وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِنَائِهِ يُقُولُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا إِنَّهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ»^(٨) أي: لو رأوا أي آية كانت،
سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها
سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال
تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ عَلَىٰ عِدَّتِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُتُوحُ
﴿٩﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١٠) ولهذا
قال ههنا: «كَذَلِكَ يُطِيعُ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أي: اصبر على مخالفتهم
وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك
عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة
﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(١٠) أي: بل اثبت على ما
بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مربة فيه، ولا تعدل عنه
وليس فيما سواه هدى يُتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

[ما روى في فضل هذه السورة الشريفة]

واستحباب قراءتها في الفجر

روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن
رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم،
فقال: «إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا
يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَحَسَّ شَهِدَ مِنْكُمْ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَأُلْحِشِينَ
الْوُضُوءَ»^(١) وهذا إسناد حسن، ومتمن حسن، وفيه سر
عجيب، ونبا غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بقصان وضوء من ائتم
به، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

(١) فتح الباري: ٣٥١/٧. (٢) فتح الباري: ٣٥١/٧.

(٣) أحمد: ٤٧١/٣.

آخر تفسير سورة الروم. والله الحمد والمنة.

تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَمْرُ﴾ ١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَسِيتَ الْكَلِمَةَ الْحَكِيمَةَ﴾ ٢ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ ٣ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٤ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقرباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراؤا به، ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا، فمن فعل ذلك كذلك، فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ مُّهِينٍ﴾ ٦ ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا وَلَكُن مَّتَكِّرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أذُنِهِ قِرْفًا فَنُقْرِئُكَ يُعَذِّبُكَ أَلَيْسَ﴾ ٧

[من حال الأشقياء الاشتغال بلهوا]

الحديث والإعراض عن آيات الله]

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يبتدون بكتاب الله وينتفعون بسماحه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّتَابًى تَتَشَابَهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماح كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو - والله - الغناء.

وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا، ولكن شراؤه

استجاب به بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع^(٢)، وقيل: أراد بقوله ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري. واختار ابن جرير أنه كل كلام يصدر عن آيات الله واتباع سبيله^(٣) وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إنسا يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزئ بها^(٤).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ مُّهِينٍ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله أمينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَكُن مَّتَكِّرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أذُنِهِ قِرْفًا﴾ أي هذا المقل على اللهو واللعب والطرب إذا نلت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وماب من صمم، كأنه ما سمعها، لأنه يتأذى بسماحها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فَنُقْرِئُكَ يُعَذِّبُكَ أَلَيْسَ﴾ أي: يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماح كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ٨

خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٩

[ذكر مال المؤمنين الحسن]

هذا ذكر مال الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المأكول والمشرب والملابس المساكن والمراكب والنساء والنصرة والسماح، الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائما لا يظعنون دائما ولا يغيثون عنها حولا. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأنه الكريم المتين الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ يَلْزِمُ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءً ءَآيَاتِهِ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ١٠.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى أَن

(١) الطبري: ١٢٧/٢٠. (٢) الطبري: ١٢٧/٢٠.

(٣) الطبري: ١٣٠/٢٠. (٤) الطبري: ١٣١/٢٠.

النوبة^(٤). وقال الأوزاعي: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر^(٥).

وروى ابن جرير عن خالد الربيعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أطيب مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أحب مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أحب مضغتين فيها، فأخرجتهما؟ فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منها إذا طابا، ولا أحب منها إذا خبثا^(٦). وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً^(٧).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾^(٨). وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٩) أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَلَوْ قَالَ لَقَمَانُ لِإِيتِيَهُ وَهُوَ يَعْطُهُ، يَبْنِي لَا شَرِيكَ بِاللَّهِ إِسْتِ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١٠) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَوَصَّيْنَاهُ فِي عَمَرَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الصَّبِيرِ^(١١) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرِّي إِلَيْنَا مَرْجِعَكُمْ فَإِنِ شَاءَ كُنَّا كَثِيرًا نَعْلَمُونَ^(١٢)

[وصية لقمان لابنه]

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وهو لقمان بن

يَعْدِيكُم وَيَتَّيْنُ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ^(١٣) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١٤)

[أدلة التوحيد]

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيها وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرُ عَلَيْهِ﴾ قال الحسن وقادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية^(١٥). ﴿وَأَلْفَىٰ فِي الْأَرْضِ رُوسًا﴾ يعني الجبال أرسست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ولهذا قال: ﴿أَنْ يَعْدِيكُم﴾ أي لئلا تميد بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّيْنُ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي وذراً فيها من أصناف الحيوانات عما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^(١٦) أي من كل زوج من النبات كريم، أي حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس أيضاً من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهر كريم، ومن دخل النار فهو لثيم.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي ذكره الله تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي عما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي جهل وعمى^(١٧) أي واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١٨)

[ذكر لقمان]

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً^(١٩). وعن عبد الله بن الزبير: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان نصيراً أفضس الأنف من النوبة^(٢٠).

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه

(١) الطبري: ١٣٢/٢٠. (٢) الطبري: ١٣٥/٢٠.

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٠٩٧/٩، والدر المنثور ٣١٠/٥.

(٤) الطبري: ١٣٥/٢٠. (٥) الطبري: ١٣٥/٢٠.

(٦) الطبري: ١٣٥/٢٠. (٧) الطبري: ١٣٤/٢٠.

عطاء بن سدون، واسم ابنته ثاران في قول حكاة السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبههم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) أي هو أعظم الظلم. روى البخاري عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾﴾ (١٤).

ورواه مسلم (١). ثم قرن بوصيته بإياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَاتَا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال مجاهد: مشقة وهن الولد (٢).

وقال قتادة: جهداً على جهد (٣). وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف.

وقوله: ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَةَ﴾ الآية، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة حمل ستة أشهر؛ لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي وَمَنْ يَرْحَمْنِي﴾ (١١) ولهذا قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِكْرُ اللَّهِ لَإِنِّي لَصَاحِبٌ خَسِيرٌ﴾ (١٢) أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

وقوله: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي محسناً إليهما، ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) روى الطبراني في كتاب العشرة أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: كنت رجلاً بَرًّا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد! ما

هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعل يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتدت جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكني وإن شئت لا تأكلي، فأكلت (٤).

﴿يَبْنِي﴾ أي إنك ومثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السمك أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبير (١) يَبْنِي أَقِيمَ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ (٢) وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمُوتْ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ (٣) وَأَقْبِدْ فِي سَبِيلِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (٤)

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْنِي﴾ أي إنك ومثقال حبة من خردل، أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قول «إنها» ضمير الشأن والقصة، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى. وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَفِخَ الْمَوْتَزِينَ أَنْفِطَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٥) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٦)﴾ ولو كانت تلك الذرة محصنة محببة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) أي لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ (١٧) ببديب النمل في الليل البهيم.

(١) فتح الباري: ٨/ ٣٧٢. (٢) الطبري: ٢٠/ ١٣٧.

(٣) الطبري: ٢٠/ ١٣٧.

(٤) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٢/ ٢١٦.

أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ إِنَّاكَ وَالْتَقِعْ، فَإِنَّهُ خَوْفُهُ بِاللَّيْلِ مَدْمَةٌ بِالنَّهَارِ»^(٤).

وروي عن الثري بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني! إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك^(٥).

وروي أيضًا عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني! إذا آتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام، يعني: السلام، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله، فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم^(٦).

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ»^(٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ^(٨)

[التذكير بالنعم]

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار ونلج ويرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ»^(٩) أي مبين مضيء «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَيُّهُ لَاءَ الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ»^(١٠) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ «أَيُّهُ لَاءَ الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ»^(١١) قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا «أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعُ آبَاءِ الْأَقْدَمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَوَلَوْ كُنَّا كُنَّا نَبَاكُمْ وَلَا يَسْقُوتُ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»^(١٢) «أَيُّ فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُحْتَجُونَ بِصُنْعِ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ

لَمْ تَقَالُوا: «يَبْنِي أَقْبَرُ الصَّلَاةِ» أي بحدودها وفروضها وأوقاتها «وَأَمَّا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ» أي بحسب طاعتك وجهدك «وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ» علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: «إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»^(١٣) أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور وقوله: «وَلَا تَصْغُرْ بِذَلِكَ النَّاسِ» يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقارا منك لهم، واستكبارا عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «وَلَوْ أَنَّ تَلْقَىٰ أَحْسَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُتَبَسِّطًا، وَإِنَّاكَ وَاسْبِغْ الْإِزَارَ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يَحِيْجُهَا اللَّهُ»^(١٤). وقوله: «وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أي خيلاء متكبرا جبارا عنيدا، لا تفعل ذلك يبغيضك الله، ولهذا قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن مَّخَالَ فُخُورٍ»^(١٥) أي مختال معجب في نفسه، فخور أي على غيره. وقال تعالى: «وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا»^(١٦) وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه.

[الأمر بالاقتصاد في المشي]

وقوله: «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أي: امش مقتصدا مشيا ليس بالطبيعي المشط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلا وسطا بين بين. وقوله: «وَأَقْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ» أي لا تبغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيها لا فائدة فيه، ولهذا قال: «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ صَوْتُ الْفَخِيرِ»^(١٧) قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ الْعَائِدِ فِي هَيْبِهِ كَالْكَلْبِ يَقْبِي ثُمَّ يَعُودُ فِي قَتْبِهِ»^(١٨).

[نصائح لقمان]

فهذه وصايا نافعة جدا، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجا ودستورا إلى ذلك.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لَقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حَفَظَهُ»^(١٩) وروى ابن أبي حاتم [عن أبي موسى الأشعري]

(١) أبو داود: ٤/٣٤٥. (٢) تحفة الأحوذى: ٤/٥٢٢.

(٣) أحمد: ٢/٨٧. (٤) الحاكم: ٢/٤١١.

(٥) الدر المنثور: ٥/٣١٦. (٦) الزهد لابن المبارك: ٣٣٢.

خلف لهم فيها كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٨).

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٩) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ، إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ فِينَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ تَمُتْنَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى خبراً عما أسلم وجهه لله أي أحلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٩) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ ﴿١٠﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبها جنت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي فيجزئهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٠) فلا تخفي عليه خافية، ثم قال تعالى: ﴿تَمُتْنَهُمْ قَلِيلًا﴾ أي في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ (١١) أي فطع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْكُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١٢) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَلَكِنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

[اعتراف المشركين بأن الله هو الخالق]

يقول تعالى خبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعرفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤). ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) أي الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٦) مَا

خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْتَسَ وَاجِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

[كلمات الله لا تحصى ولا تنفذ]

يقول تعالى خبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنی وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كتبها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: ﴿لَا أَحْصِي نَسَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَتَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ﴾ (١٨) فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ونفذ ماء البحر، ولمد ماء البحر جعلت أقلاماً، فكتب بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر، ولم جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطاً بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُنْتُ زَيْتًا نَارًا قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٩) فليس المراد بقوله ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله ثم هلم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٠) أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معيب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه. وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْتَسَ وَاجِدٌ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هن عليه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢١) ﴿وَمَا أَمْرُهُ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٢٢) أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٢٣) فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ ﴿٢٤﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٥) أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْتَسَ وَاجِدٌ﴾ الآية.

﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ نُورَ الْيَلِّ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾

ينجر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلفظه وتسخره، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا ذَغَابِهِمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَانَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَعِنْتُهُمْ مَقْنَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد (٢). كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ عَذَابِنَا إِلَّا لَأَكْثَرَ خِثَارٍ كُفُورٍ﴾ (٣٢) فالختار هو الغدار، قاله مجاهد والحسن وقنادة ومالك عن زيد بن أسلم (٣) وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختار الغدر وأبلغه.

وقوله: ﴿كُفُورٍ﴾ (٣٢) أي الجحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَكُنَّهَا الْفُلُكُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣)

[الأمر بتقوى الله والخشية من يوم القيامة]

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وأمرهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه. لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي لا تلهيكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣) يعني الشيطان. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقنادة (٤). فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كان كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٣٤) قال وهب بن منبه: قال عزيز عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي وأرق نومي، فضرعت إلى ربي وصليت وصمت، فأنا في ذلك التضرع أبكي، إذ أتاني الملك، فقلت له:

وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣٠) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣١)

[ذكر قدرة الله وعظمته]

ينجر تعالى أنه ﴿يُورِثُ الْبَلَّ فِي النَّهَارِ﴾ يعني: يأخذ منه في نهار فيطول ذاك، ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يَا أَيُّهَا ذُرُّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟﴾ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ﴿فَإِنَّمَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تَسْأَلُ رَبَّهَا فَيُؤَيِّدُكَ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ﴾ (١). روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فللكها، فإذا غربت جرت بالليل في فللكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر. إسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣٠) كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَتْلُمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق للعالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣١) أي إننا يظهر لكم آياته نستدلوا بها على أنه الحق، أي الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعييده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣١) أي العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿الْقُرْآنَ الْفَلَكُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَتَعَمَّتُ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) ﴿وَلَا ذَغَابِهِمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ (٣٢) ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ (٣٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَعِنْتُهُمْ مَقْنَصِدٌ وَمَا يَجْعَلُ عَذَابِنَا إِلَّا لَأَكْثَرَ خِثَارٍ كُفُورٍ﴾ (٣٢)

(١) البخاري: ٤٨٠٣ ومسلم: ١٥٩.

(٢) الطبري: ١٥٧/٢٠. (٣) الطبري: ١٥٧/٢٠.

(٤) الطبري: ١٥٩/٢٠.

وجه آخر، أن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾»^(٤) انفرد به أيضاً.

(حديث أبي هريرة) روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبُغْيِ الْآخِرِ» قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَقْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال: «مَّا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَخَذُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الْحَقُّاءُ الْعُرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾» الآية، ثم انصرف الرجل فقال: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فأخذوا لبردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هَذَا جَرِيْلُ خَاءٍ لِيَعْلَمَ النَّاسُ وَيَنْتَهَمُ»^(٥) ورواه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان، ومسلم من طرق^(٦). وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري، وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم.

وقوله تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحرر أو أسود، وما هو ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ

خبرني هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء، وملك ظاهر ليس فيه رخصة، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد به غيره، ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يمههمه، ويكي عوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره، رواه ابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٧)

[عالم الغيب هو الله]

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لَا يُخَبِّرُكَ لَوَقْتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى أو شقيًا أو سعيدًا، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

روى الإمام أحمد عن بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»^(٨) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه.

(حديث ابن عمر) وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»^(٩) انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في كتاب الاستسقاء في صحيحه^(١٠). ورواه في التفسير من

(١) أحمد: ٥/٣٥٣. (٢) أحمد: ٢/٢٤.

(٣) فتح الباري: ٢/٦٠٩. (٤) فتح الباري: ٨/٣٧٣.

(٥) فتح الباري: ٨/٣٧٣.

(٦) فتح الباري: ١/١٤٠، ومسلم: ١/٣٩.

[الله هو الخالق المدبر للكون]

ينجز تعالى أنه خالق للأشياء فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿يُذِيرُ الْأُمُورَ أَلَسْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ تَرْجَعُ إِلَيْهِ﴾ أي يتزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ يَنزُلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة وسمك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ذلك عليم الغيب والشهادة ﴿أي: المدبر لهذه الأمور، الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته. وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ فَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

[تطويروا خلق الإنسان]

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأنقنها وأحكمها. وقال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من المقدم

أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من أرض، أي بحر أم بر أو سهل أو جبل^(١). وقد جاء في حديث: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَهًا يَتَّقِي»^(٢) روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه كبير في مسند أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِيتَةً عَبْدٍ بِأَرْضٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً»^(٣). آخر تفسير سورة لقمان، والحمد لله رب العالمين، وحسبنا به ونعم الوكيل.

تفسير سورة آل عمران السجدة

وهي مكية

[فضل سورة آل عمران السجدة]

روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿آلَ﴾ ^(١) ﴿تَبِيلُ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ ^(٢) ورواه مسلم أيضاً^(٣). روى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يسرا: ﴿آلَ﴾ ^(١) ﴿تَبِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو لِلَّهِ﴾^(٤) تفرد به أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَ﴾ ^(١) ﴿تَبِيلُ﴾ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ^(٢) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرِيقُهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ^(٣)

[القرآن كتاب الله لا شك فيه]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا. وقوله: ﴿تَبِيلُ﴾ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل من ربِّ الملَكَيْنِ ^(٢) ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرِيقُهُ﴾ بل يقولون: ﴿أَفَرِيقُهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ^(٣) أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ^(١) ﴿يُذِيرُ الْأُمُورَ أَلَسْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ تَرْجَعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ^(٢) ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ^(٣)

(١) الطبري: ١٦٠/٢٠. (٢) الحاكم: ٤٢/١.

(٣) الطبراني: ١٧٨/١. (٤) فتح الباري: ٤٣٨/٢.

(٥) مسلم: ٥٩٩/٢. (٦) أحمد: ٣٤٠/٣.

الْخُلْدِي مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

[بيان حال المشركين السيئ يوم القيامة]

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالمهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسين رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى: ﴿أَتَسْمِعُهُمْ وَأَبْصِرُهُمْ بِأَوْتُنَا﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿تَعْمَلْ صَلَاتَنَا إِنَّا مَوْفُقُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابَ اللَّهِ قَالُوا يَلَيْلًا نَارُهُمْ وَلَا تَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَرْنَا فِي الْأَرْضِ كُلَّ نَفْسٍ هُدًى جَمِيعًا﴾ ﴿١٣﴾ ولكن حق القول بغير لاملان جهنم من الجنة والناس جميعين ﴿١٤﴾ أي من الصنفين فدارهم النار لا يحيد لهم عنها ولا يحصى لهم منها، نعوذ بالله وكلنا من التامة من ذلك، ﴿فَذُوقُوا يَمَا فَيَسْتَرْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التفرع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِيتُكُمْ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناس، لأنه تعالى لا ينسى شيئًا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسْكَوُكُمَا فَيَسْتَرْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ووقوعاً عذاب الخلد كما كنتم تعملون ﴿١٥﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿١٦﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿١٧﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنْ نَرِيَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَتُوبُنَا رَبَّنَا لِلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ نتجاف جُودُهُمْ عَنِ الْمَصَاحِبِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَا تَعْلَمُ قَسَمًا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْآنِ جَزَاءٍ يَمَازُكَوْا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

والمؤخر، ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُكُلَةٍ مِنْ نَمَاءٍ مِهْنٍ﴾ ﴿٨﴾ أي يتناسلون كذلك من نقطة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ثُمَّ رَوَيْنَاهُ﴾ يعني: آدم لما خلقه من تراب، خلقه سوياً مستقيماً ﴿وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ يعني: العقول ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٩﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل هم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفُورُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

[الرد على استبعاد البعث]

يقول الله مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي غمزت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أننا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى [قدرتهم] العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بداهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة إبراهيم، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور، قال قتادة وغير واحد وله أعوان^(١). وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء^(٢). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ رَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا رُسُومَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَلَاتَنَا إِنَّا مَوْفُقُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا فَيَسْتَرْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

[حال أهل الإيمان وجزاؤهم]

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلًا ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ❶ أي: عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجاهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰلِخِينَ﴾ ❷ ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ مَضَاجِعَ النَّاسِ﴾ يعني: بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيدة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: بذل قيام الليل ❸. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة. وصلاة الغداة في جماعة ﴿يَذْكُرُونَ مِنْهُمْ حَقًّا وَطَمَعًا﴾ أي خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ❹ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسبدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ.

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: اللّٰهُ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسِّرُهُ اللّٰهُ عَلَيْهِ، نَعْبُدُ اللّٰهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَنُقِيمُ الصَّلَاةَ وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَنَصُومُ رَمَضَانَ، وَنُحْجُّ الْبَيْتَ - ثم قال -: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؟ نُصُومُ جَنَّةَ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَاطِيَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثم قرأ -: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿وَجَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ❶ - ثم قال -: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَابِهِ؟ - فقلت: بلى يا رسول الله، فقال -: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَابِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ - ثم قال -: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ قَوْمًا؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عَنْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله، وإننا لما أخذون بما نتكلم به، فقال: «فَكَلِّتُكَ أَمْلَكَ يَا مَعْزُودٌ، وَهَلْ يَكْبُكُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَىٰ تَوَجُّهِهِمْ» - أو قال: عَلَىٰ مَتَاجِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ ❷. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم. وقال الترمذي: حسن صحيح ❸.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، أي لا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم

واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاؤه، فإن الجزء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم، فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، ثم روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: أَعْذَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ❶. ورواه مسلم والترمذي. وقال الترمذي: حسن صحيح ❷. وفي رواية للبخاري: «وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، دُخْرًا مِنْ بَلَاءٍ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ» ❸. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْتَعِمُ لَا يَنْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» رواه مسلم ❹.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ❶ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ لَا يَمَسُّهُمُ الْمَوْتُ شَيْئًا وَلَا يَمَسُّهُمْ فِي أُولَٰئِكَ شَيْءٌ مِّنْ أَثَرِ النَّارِ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ❷ وَلَنَذِقَنَّهِنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأُولَىٰ لَقَدْ كُنْتُمْ فِيهَا كَاذِبِينَ ❸ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فُتِيَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ❹

[لا يستوي المؤمن والفاسق]

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسوله، بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه، مكذبًا بآياته، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَتَحَفَّلُوا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ حَيْثُ كَانُوا وَمَتَّعْنَاهُمْ سَلَامَةً مَا يَحْكُمُونَ﴾ ❶ وقال

(١) الطبري: ٢٠/١٨٠. (٢) أحمد: ٥/٢٣١.

(٣) تحفة الأحوزي: ٧/٣٦٢، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٢٨، وابن ماجه: ٢/١٣١٤.

(٤) فتح الباري: ٨/٣٧٥.

(٥) مسلم: ٤/٢١٧٤، وتحفة الأحوزي: ٩/٥٦.

(٦) فتح الباري: ٨/٣٧٥.

(٧) الطبري: ٢٠/١٨٦، ومسلم: ٤/٢١٨١.

تعالى: ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفَسِقِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝١٨﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۝ الْآيَةُ ۝ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ههنا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ۝١٩﴾ أي: عند الله يوم القيامة، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط^(١)، ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝ أَي صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَمِلُوا بِمَقْتَضَاهَا وَهِيَ الصَّالِحَاتِ ۝ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ۝ أَي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نَزَلًا ۝ أَي: ضيافة وكرامة ﴿وَمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ۝١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ۝ أَي خرجوا منها أعيدها فيها، كقولهم: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموتقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ۝٢٠﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى ۝ ذُوقُوا عَذَابَ الْكَبِيرِ ۝﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتُها، وما يجل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه^(٢). وروي مثله عن أبي بن كعب وأبي العالية والحسن وإبراهيم النخعي والضحاك وعلقمة وعطية ومجاهد وقنادة وعبد الكريم الجزري وخصيف^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۝ أَي: لا أظلم من ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدتها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢١﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِآيَاتِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٣﴾

[كتاب موسى وإمامة بني إسرائيل]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ ۝ أَي: الكتاب الذي آتيناه هُدى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ وَكِيلًا ۝٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِآيَاتِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٥﴾ أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم آمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير ويأمرون بالعرف وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وجرسوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِآيَاتِنَا لِمَا صَبَرُوا ۝٢٥﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا. وكذلك قال الحسن بن صالح. قال سيفان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدي به حتى يتحامي عن الدنيا. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَضَعْنَاهُمْ عَلَى الْآيَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٢٦﴾ وَأَبَايْنَاهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ ۝ الآية، كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٧﴾ أي من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمْنَاهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ۝٢٩﴾

(١) الطبري: ٢٠/١٨٨. (٢) الطبري: ٢٠/١٨٩.

(٣) الطبري: ٢٠/١٨٩، ١٩٠. (٤) الطبري: ٢٠/١٩٣.

(٥) الطبري: ٢٠/١٩٤.

[خذوا العبرة بالماضين]

كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا ويتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿١١﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآيةين. ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿١١﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الآية، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَاذِبِينَ قَبْلَ يَسْتَفْتِحُوكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله تعالى: ﴿أَتَبَعُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ رِيبَ رَبِّ الْمُتَوَدِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأيدك، وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من ويل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

آخر تفسير سورة السجدة والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

يقول تعالى: أولم يهد هؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبيلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيها جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿١٨﴾ ولهذا قال: ﴿يَتَشَوَّيْنَ فِي مَكَانِهِمْ﴾ أي هؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا﴾ ﴿١٩﴾ كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ وقال: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا رَبُّنَا مُنْظِلُ الْقَصْرِ مَشِيدٌ﴾ ﴿٢٥﴾ فَأَمَّا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَكِنْ نَعَمِ الْقُلُوبُ الْبَاطِلَةُ فِي الْأَصْدُورِ ﴿٢٦﴾ ولهذا قال مهسا: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة ﴿أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: أخبار من تقدم كيف كان أمرهم.

[إحياء الأرض بالماء دليل البعث]

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزَ﴾ بين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو ما تحمله الأنهار ويتحدّر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزَ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا لَجَعَلْنَاهُ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾ أي يسالاتبت شيئا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَخَرَجَ مِنْهُ رِزْقًا فَأَكُلُ مِنْهُ أَشْجُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿١١﴾ أَنَا صَبَّيْنَاهُ سَكَّابًا ﴿١٥﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٢٠﴾

[استعجال الكفار للعذاب وجوابهم]

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استعباداً وتكديلاً وعناداً: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢﴾

[الأمر بالصمود في وجه الكافرين والمنافقين]

متبعاً وحي الله ومتوكلاً عليه]

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلا ينبغي أن يمتنع من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله خافة عذاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ مَا يُؤْتِيكَ إِلَهِكَ مِنْ نَبَأٍ﴾ أي: من قرآن وسنة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ أي: فلا تخفي عليه خافية، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيل لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفًا تُظَاهِرُونَ مِنْهُمْ أَتَهْتِكُوا وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَلِمَةٌ يَفْقَهُكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾

[إبطال التنبني]

يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصوير زوجته التي يظهر منها بقوله: أنت علي كظهر أمي أمثاله، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفًا تُظَاهِرُونَ مِنْهُمْ أَتَهْتِكُوا كقوله عز وجل: ﴿مَا هِيَ أَتَهْتِكُوهَا إِنْ أَتَهْتِكُوهَا إِلَّا الْآلِيَّةُ وَلَذُنْهُمُ الْآيَةُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له زيد ابن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه

النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كما قال تعالى في أنشاء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾ وقال ههنا: ﴿ذَلِكَ كَلِمَةٌ يَفْقَهُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٢﴾ قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي العدل، وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٣﴾ أي: الصراط المستقيم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير عن قباوس يعني ابن أبي ظبيان، قال: إن أباه حدثه قال: قلت لأبي عباس: أرايت قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ ما عني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين: قلباً معكم وقلباً معهم، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ﴾ ﴿١﴾. وهكذا رواه الترمذي، ثم قال: وهذا حديث حسن ﴿٢﴾. وكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير به ﴿٣﴾.

[ينسب التنبني إلى أبيه الحقيقي]

وقوله عز وجل: ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر. روى البخاري - رحمه الله - عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن ابن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿٤﴾ وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي ﴿٥﴾. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنه: يا رسول الله! إنا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من

(١) أحمد: ٢٦٧/١. (٢) تحفة الأحوذى: ٥٨/٩.

(٣) الطبري: ٢٠٤/٢٠. (٤) فتح الباري: ٣٧٧/٨.

(٥) مسلم: ١٨٨٤/٤، وتحفة الأحوذى: ٧٢/٩، والنسائي:

أَخُونَا وَمَوْلَانَا. كما قال تعالى: ﴿فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي: إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى أمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُوَاخِذْنَا إِنْ خِيسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ فَعَلْتُ»^(١). وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٢). وفي الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ [وَمَا] يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ»^(٣) وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَكِنْ مَتَا نَعَمْتُ فَلْيُؤْكَدُوا وَمَتَا نَهَيْتُمُكُمْ فَلْيُتَّقُوا اللَّهَ عِفْوَاً رَجِيماً﴾^(٤) أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل، كما قال عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ثم قال قد كنا نقرأ ولا نترغبوا عن آياتكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آياتكم وأن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُقُونِي كَمَا أُطْرِقَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» وربما قال معمر: «كَمَا أُطْرِبَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»^(٥) ورواه في الحديث الآخر: «ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ تُكْفَرُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالْأَسْتِغْنَاءُ بِالنَّجْمِ»^(٦).

﴿الَّتِي أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَجَهُمْ مِنْهُمْ وَأَوَّلُوا

ذَلِكَ شَيْئاً، فَقَالَ ﷺ: «أَرْضَعِيهِمْ تَحْرُمِي عَلَيْهِ» الحديث^(٧). ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال عز وجل: ﴿لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَزْوَاجَهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احتراماً عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاة فممنزلة ابن الصلب شرعاً بقوله ﷺ في الصحيحين: «حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(٨)، فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحييب، فليس مما نبه عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول: «[أُبَيْنِي] لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»^(٩) قال أبو [عبيد] وغيره: [أُبَيْنِي] نصير بني وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر. وقوله: «أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ» في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «نَسَائِي»^(١٠) ورواه أبو داود والترمذي^(١١). وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَاخُوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه: «يَا عَمَّ يَا عَمَّ! فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكَ، فَاحْتَمَلَتْهَا فَاحْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعَفَرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي أَيْمِهِمْ يَكْفُلُهَا، فَكُلُّ أَمْلٍ بِحِجَّةٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي، يَعْنِي أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِّيسَ، فَفَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِحَالَتِهَا وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» وَقَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ مَتْنِي وَأَنَا مِنْكَ». وَقَالَ لَجَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي». وَقَالَ لَزَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(١٢)

ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ حكم بالحق، وأرضى كلا من المتنازعين. وقال لزيد رضي الله عنه: «أَنْتَ

(١) مسلم: ١٠٧٦/٢.

(٢) فتح الباري: ٣٩٢/٨، ومسلم: ١٠٦٩/٢.

(٣) أحمد: ٢٣٤/١، وأبو داود: ٤٨٠/٢، والنسائي: ٢٧١/٥، وابن ماجه: ١٠٠٧/٢.

(٤) مسلم: ١٦٩٣/٣.

(٥) أبو داود: ٢٤٧/٥، وتحفة الأحوذى: ١٢٠/٨.

(٦) فتح الباري: ٥٧٠/٧، مسلم: ١١٦/١.

(٧) فتح الباري: ٣٣٠/١٣، تحفة الأحوذى: ٦٥٩/١.

(٨) أحمد: ٤٧/١.

(٩) مسلم: ٩٣٤، وأحمد: ٣٤٢/٥.

الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِكُتُبِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ
ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

[ولاية النبي وأئمة أزواجه للمؤمنين]

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (١٥) وفي الصحيح: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (١). وفي الصحيح أيضاً أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله! والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لَا يَا عُمَرُ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يَا عُمَرُ» (٢). ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وروى البخاري عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ» ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّ مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَا لَا قَلْبَ لَهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِياعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ» تفرد به البخاري ورواه أيضاً في الاستقراض (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْلِيَّةُ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِكُتُبِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالخلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ (٤). وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان

والوصية. وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦) أي: هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزل وقضائه القدري الشرعي. والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لِنَسْتَلِ الْأَصْطَفِيَّينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

[العهد والميثاق من الأنبياء]

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء أن أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كُتُبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨) فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فذكر الطرفين، والوسط الفاتح والخاتم، ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرف صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم. وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد (٥).

وقوله تعالى: ﴿لِنَسْتَلِ الْأَصْطَفِيَّينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدبين عن الرسل (٦). وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ

(١) فتح الباري: ١/ ٧٥. (٢) فتح الباري: ١١/ ٥٣٢.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٣٧٦ و ٥/ ٧٥.

(٤) البخاري: ٢٢٩٢ و ٤٥٨٠ و ٦٧٤٧.

(٥) الطبري: ٢٠/ ٢١٣. (٦) الطبري: ٢٠/ ٢١٤.

يجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والفراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري، فلم يزل بهم حتى تقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي اُنْبِئْتُ الْمُؤْمِنُونَ وَنَزَّلُوا وَلَا كَاشِفًا﴾ ومكنوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو ابن عبد ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب معه فوارس، فاقترحوا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فيقال إنه لم يبرز أحد، فأمر علياً عليه السلام فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي عليه السلام، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله - عز وجل - على الأحزاب ريحاً شديدة المهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائئين خاسرين، كما قال الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنُجُومُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝﴾ الحديث الآخر: «نُصِرْتُ بِالْغَيْبِ، وَأُهْلِكْتُ بِالدُّبُورِ» (٢).

وقوله: ﴿وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النجاء، النجاء، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب.

روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن البيان عليه السلام فقال له رجل: لو أدرت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «يَا حُذَيْفَةُ، فَمَنْ قَاتَلَنِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: «إِنِّي بَخِيرِ الْقَوْمِ وَلَا تَدْعُهُمْ عَلَيَّ» قال: فمضيت كأننا أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت

للكافرين أي: من أمهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعادين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال. كما يقول أهل الجنة: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنُجُومُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝﴾

[ذكر غزوة الأحزاب]

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عبادہ المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحربوا، وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عقبة وغيره: كان في سنة أربع (١)، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير كانوا قد أجلهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن سكم وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش واليهوم على حرب النبي ﷺ، ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعاهم فاستجابوا لهم أيضًا، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان فارسي عليه السلام، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فزلزلوا شرقي المدينة، قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف، وقيل سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم

خبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود
الحرب والقبائل لإخوانهم أي أصحابهم وعشائرهم
وحطائهم: ﴿هَلَمْ وَلَيْتَ﴾ أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في
الظلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥)
أَشْجَةً عَلَيْهِمْ ﴿أَيْ بَخْلَاءَ بِالْمُودَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ. وقال
السدي: ﴿أَشْجَةً عَلَيْهِمْ﴾ أي في الغنائم، ﴿فَإِذَا جَلَّةَ الْفَوْفُ
وَرَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي:
من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من
قتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْفَوْفُ سَقَوْكُمْ بِالسِّبْغِ جَدَاوٍ﴾ أي: فإذا
كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادعوا
لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والتجدة، وهم
يخدبون في ذلك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿سَقَوْكُمْ﴾ أي:
استفلقوكم ^(٢). وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم
وأساو مقاسمة: أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم، وأما عند
البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ^(٣)، وهم مع ذلك أشجعة

طرق آخر. روى الإمام أحمد عن أنس قال: عني أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ [عُتِبَ] عنه، لأن أراي الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع. قال فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو! أين؟ وأها لريح الجنة، إني أجده دون أحد. قال فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر فيما عرفت أخي إلا بينانه، قال: فزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ^(١١) قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه رضي الله عنه ^(١٢). ورواه مسلم والترمذي والنسائي ^(٧).

وروى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن سفيان رضي الله عنه فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طُلِحَ مِنْ قَضَىٰ نَحْبُهُ» ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ» يعني: عهده ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال: يومئذ فاب القتال فيصدق في اللقاء ^(٨).

وقال الحسن: «فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ» يعني: موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً ^(٩)، وكذا قال قتادة وابن زيد وقال بعضهم، نجه ندره.

وقوله تعالى: «وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ^(١٣) أي وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه ففعل المنافقين الذين قالوا: «إِنْ يَبْرُؤْنَا عَوْدَةً وَمَا هِيَ بِعَوْدَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» ^(١٤)، «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدَّبِيرَ». وقوله تعالى: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ

تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وقادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّالَّةَ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» ^(١٥) أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: «وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». وقوله تعالى: «وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» ^(١٦) دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة، ومعنى قوله: جلّت عظمتهم: «وَمَا زَادَهُمْ» أي: ذلك الحال والضيق والشدة «إِلَّا إِيمَانًا» بالله «وَتَسْلِيمًا» ^(١٧) أي: انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ^(١٨) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» ^(١٩)

[مدح المؤمنين على موقفهم وإرجاء أمر المنافقين]
لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و«صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ» قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده وهو يرجع إلى الأول ^(٢٠) «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» ^(٢١) أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» ^(٢٢) تفرد به البخاري دون مسلم، وأخرجه أحمد في مسنده والترمذي والنسائي في التفسير من سنيهما. وقال الترمذي: حسن صحيح ^(٢٣).

وروى البخاري أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» الآية ^(٢٤)، انفرد به البخاري وله شواهد من

(١) الطبري: ٢٠/٢٣٦. (٢) فتح الباري: ٨/٣٧٧.

(٣) فتح الباري: ٨/٣٧٧.

(٤) أحمد: ٥/١٨٨، وتحفة الأحوذ: ٨/٥٢٠، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٣٠.

(٥) فتح الباري: ٨/٣٧٧. (٦) أحمد: ٣/١٩٤.

(٧) مسلم: ٣/١٥١٢، وتحفة الاحوذ: ٩/٦٠، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٣٠.

(٨) الطبري: ٢٠/٢٣٨. (٩) الطبري: ٢٠/٢٣٩.

الله ﷻ يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ، أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ^(١). وفي الصحيحين عن عبد الله ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعِ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْنَهُمْ وَزَلِّلْنَهُمْ» ^(٢). وفي قوله عز وجل: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم. كما روى الإمام أحمد عن سليمان ابن صرد رضي الله عنه قال: قل رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن تَغْزَوْهُمْ وَلَا يَغْزَوْنَا» ^(٣) وهكذا رواه البخاري في صحيحه ^(٤). وقوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا» ^(٥) أي يحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرا، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده ونصر رسوله وعبيده، فله الحمد والمنة.

«وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَرْسَلْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَتَرَفَعُونَ فِيهَا وَلَهُمْ مُدْرِكَةٌ يَوْمَكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ^(٦)

[ذكر غزوة بني قريظة]

قدم تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئت بك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحايشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل يقتل في الذروة والغارب حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم، فلما نقضت قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيداه الله تعالى ونصره وكبت الأعداء، وردهم خائبين بأخسر

يصدقهم وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» أي إن شاء يجز عباداه بالخوف والزلال ليميز الخبيث من الطيب، يظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: «وَلَتَبْلُؤَنَّهُمْ حَقَّ تَمَلُّهِ أَلِجَنِّدِينَ يَتُوبُ وَالْمُذْنِبِينَ وَيَتْلُوا أَعْيَارَكُمْ» ^(٧) فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَكَ عَلَى الْغَيْبِ» ولهذا قال تعالى ههنا: «لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ» أي بصبرهم على ما عهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه «وَلَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ» وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه، وعذابه، ولكن هم تحت مشيئة في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقيه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرضدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقهم فهي الغالبة لغضبه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا» ^(٨).

«وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا» ^(٩)

[رد الله الأحزاب خائبين خاسرين]

يقول الله تعالى مغرباً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين، ولكانت هذه الريح العقيم التي أرسلها على عاد، ولكن قال تعالى: «وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ اللَّهُمَّ فَمِلْطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءَ فَفِرْقَ شَمْلَهُمْ كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ الْهَوَى، وَهُمْ أَخْلَاطُ مِنْ قِبَالِ شَتَّى أَحْزَابٍ وَأَرَاءَ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءَ الَّذِي فَفِرْقَ جَمَاعَتِهِمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بَغِظُهُمْ وَحَقَّتْهُمْ، وَلَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا عَمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظُّفْرِ وَالْمَغْنَمِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحْمِلُوهُ مِنَ الْأَثَامِ فِي مِبَارَازَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعِدَاوَةِ وَهُمْ بِقَتْلِهِ وَاسْتِصْصَالِ جِيْشِهِ، وَمِنْ هُمْ بِشَيْءٍ وَصَدَقَ هُمُ بِفَعْلِهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كِفَاعِلُهُ.

وقوله تبارك وتعالى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» أي لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده ونصر عنده وأعز جنده، ولهذا كان رسول

(١) فتح الباري: ٧/٤٦٩، ومسلم: ٣/٢٠٨٩.

(٢) فتح الباري: ٧/٤٦٩، ومسلم: ٣/١٣٦٣.

(٣) أحمد: ٤/١٦٢. (٤) فتح الباري: ٧/٤٦٧.

صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم» قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمر أن تنهض إلى بني قريظة، وفي رواية فقال له: عذيرك من مقاتل أوضعت السلاح؟ قال: «نعم» قال ﷺ: «أين؟» قال: بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلب بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصلبها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه [يحسن] إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد! إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم، فلما أكثروا عليه قال

فقال ﷺ: «إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسيب فريستهم وأموالهم» فقال له رسول الله ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ أَرْقِيَةٍ»، وفي رواية: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ السُّلْطَانِ»، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعين إلى الثمانين، وسمى من لم يثبت منهم مع النساء وأموالهم^(١) وهذا كله مقرر مفصل لأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفرده موجزاً وبسيطاً، والله الحمد والمنة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمُ أَيَّ عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ وَسَاعَدَهُمْ عَلَى حَرْبٍ﴾ رسول الله ﷺ ﴿يَزِيْزُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل أبأؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاعَزُوا عَكْفَرُوا بِيْءَ﴾ فعليهم لعنة الله.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ صَيَاصِيْهِمْ﴾ يعني حصونهم. كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي وغيرهم من السلف^(٢). ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف، لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القال، انشمر المشركون فجازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة،

وارجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم» قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمر أن تنهض إلى بني قريظة، وفي رواية فقال له: عذيرك من مقاتل أوضعت السلاح؟ قال: «نعم» قال ﷺ: «أين؟» قال: بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلب بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصلبها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه [يحسن] إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد! إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم، فلما أكثروا عليه قال

عمر رضي الله عنه، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلوا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه، وهو صلى الله عليه وسلم ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفأ فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال: «هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عز وجل الحيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: «إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ أَنْ تَعْبَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوكَ» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ تَلْعَنُونَ إِيَّاهُ وَقَدْ نَزَّلَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ حَتَّى يُدْعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِلنَّبِيِّ قُلْ إِنَّ إِيَّاهُ تُلْعَنُونَ» الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لا امرأة من نساءك ما اخترت، فقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَتَّعِنِي مُعْتَمًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا، لَا تَسْأَلُنِي أَمْرًا مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا» (١٠) انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه هو والنسائي .

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن، وكانت تحته صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

«وَبَلَغَ الْوَحْيُ النَّبِيَّ عِندَ ذَلِكَ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ إِلَهَهُ وَرَسُولَهُ وَتُفْعَلُ صُلُوحًا نُفُوذُهَا أَجْرُهَا مَرَّتَيْنِ

(١) أحمد: ٤/٣٨٣.

(٢) أبو داود: ٥٦١/٤، وتحفة الأحوذى: ٢٠٧/٥، والنسائى فى

الكبرى: ١٨٥/٥، وابن ماجه: ٨٤٩/٢.

(٣) النسائي في الكبرى: ١٨٥/٥. (٤) الطبري: ٢٥٠/٢٠.

(٥) فتح الباري: ٣٧٩ / ٨. (٦) فتح الباري: ٣٨٠ / ٨.

(٧) أحد: ٤٥/٦.

(٨) فتح الباري: ٢٨٠/٩، ومسلم: ١١٠٤/٢.

(٩) أحمد: ٣/٣٢٨.

(١٠) مسلم: ١١٠٤/٢، والنسائي: ٣٨٣/٥.

(۱۱) الطبری: ۲۰/۲۵۲.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ بِرِيقًا
فَالَّذِينَ قَتَلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ وَالْأَسْرَاءُ هُمُ [الأصاغر] النساء.

وروى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال: عرضت على النبي
يوم قريظة، فشكوا فيّ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت
بعد، فنظروني فلم يجدوني أنبت، فخلي عني وألحقني بالسبي .
وكذا رواه أهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح ، ورواه
الساقي أيضاً عن عطية بنحوه . وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْزِرْكُمْ
أَسْلِحَهُمْ وَيَرْهَقْهُمْ أُمُورَهُمْ ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَزِدْكُمْ
لَهُمْ تَوَارِثًا ﴾ قيل: خير . وقيل: مكة رواه مالك عن زيد بن أسلم
وقيل: فارس والروم . قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً
﴿ وَأَزِدْكُمْ لَهُمْ تَوَارِثًا ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُلْ لِيُزَوِّجَكُمُ اللَّهُ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَرَسُولُهَا فَلْيُزَوِّجْكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ وَأَمْثَلُكُمْ مِّثْلًا بَعِيلًا﴾ (٢٨) وَإِن
كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ
مِنْهَا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

[تَخْيِيرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخبر نساءه بين أن يفارقهن فيذهب إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا ودينها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها روج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخبر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: **إِنِّي ذَاكِرُكَ أُمًّا فَلَا عَلَافَةَ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوكَ** وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾** إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ^(٥). وكذا رواه معلقاً وزاد: قالت: ثم فعل رواج النبي ﷺ مثل ما فعلت ^(٦).

يروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: خيرنا رسول الله
، فآخرناه، فلم يعدنا علينا شيئاً ^(٧).

أخبرناه من حديث الأعمش ^(أ). وروى الإمام أحمد عن
 جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ
 فجلس يباه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل

وَأَعْتَدْنَا لَهُ يَوْمًا كَرِيمًا ﴿٦١﴾

[نساء النبي لسن كرامة النساء]

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة. قال ابن عباس رضي الله عنه: وهي النشوز وسوء الخلق ^(١)، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَتْرَكُوا لَحَبَطَ عَمَلُهُمْ فَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٢)، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلزَّمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَوْدِينَ﴾ ^(٣)، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مَا تَغْلَىٰ مَا تَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ^(٤) فلما كانت محلتهم رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغالطاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ النَّبِيُّ مِنْ يَدٍ مِنْكُمْ يَفْجَحُكَ شَيْئٌ سَوْفَ نُنْصِفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿يُنْصَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة، وعن ابن أبي نجيع عن مجاهد مثله ﴿وَكَاكَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَسِيرًا﴾ ^(٥) أي سهلاً هيناً، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي يطع الله ورسوله ويستجب ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهُمَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُ يَوْمًا كَرِيمًا﴾ ^(٦) أي في الجنة فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿لَيْسَ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ الْإِنْسَاءِ إِنْ أَنْفَقْتَنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ^(٧) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ^(٨) وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ^(٩)

[الأمر بآداب تكون أمهات المؤمنين فيها أسوة]

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا

تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترفيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ^(١٠) قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ^(١١)، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَمُتُوا إِتَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللّٰهِ وَلْيُخْرِجَنَّ وَهْنُ نَفْسَاتٍ﴾ ^(١٢) وفي رواية: ﴿وَيُؤَيِّدُنَّ خَيْرَ لَّهْنٍ﴾ ^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية ^(١٤) وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ يقول: إذا خرجت من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فهن الله تعالى عن ذلك ^(١٥). وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ والتبرج أنها تلقي الحمار على رأسها ولا تشده ^(١٦)، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقام الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص.

[أزواج النبي من أهل البيت]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ^(١٧) نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

(١) البغوي: ٥٢٧/٣. (٢) الطبري: ٢٥٨/٢٠.

(٣) أبو داود: ٣٨١/١. (٤) أبو داود: ٣٨٢/١.

(٥) الدر المنثور: ٦٠٢/٦. (٦) الطبري: ٢٥٩/٢٠.

(٧) الدر المنثور: ٦٠٢/٦.

الرَّحْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ فإن سياق الكلام معهم، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير واحد^(٥)، وأذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق ﷺ أولا هن بهذه النعمة، وأحظا هن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ و ﷺ، فناسب أن تخصص هذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العليا، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي حمزة قال: إن الحسن بن علي ﷺ استخلف حين قتل علي ﷺ، قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجره، وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ﷺ ساجد. قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فغرض منها شهرا ثم برأ، فقعده على المنبر فقال: يا أهل العراق! اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيغانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد في المسجد إلا وهو يحن بكاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾ أي: بلطفه بكن، بلغتن هذه المنزل، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاك ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير رحمه الله: وأذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة. خيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا^(٦). وقال قتادة: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن

﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ﴿٣٣﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة^(١). وهكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلهته أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ^(٢). [فهن] سبب النزول دون غيرهن [لكن يدخل فيه غيرهن على سبيل التوسع والعموم]. روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة ﷺ: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن ﷺ فأدخله معه، ثم جاء الحسين ﷺ فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة ﷺ فأدخلها معه، ثم جاء علي ﷺ فأدخله معه، ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ رواه مسلم^(٣).

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن [حيان] قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن [مسلم] إلى زيد بن أرقم ﷺ، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. حدثنا يا زيدا ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: يا ابن أخي! والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوا فيه، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوما خطيبا بهاء يدعى حمأ، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإننا أنا بشرٌ مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربِّي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيبي أذكركم الله في أهل بيبي، أذكركم الله في أهل بيبي» ثلاثا، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ﷺ، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم^(٤). [وهذا تفسير من زيد بن أرقم وليس بمرفوع].

[الأمر بالعمل على الكتاب والسنة]

ثم الذي لا شك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

(١) الطبري: ٢٠ / ٢٦٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر. الدر المنثور: ٥ / ٣٧٦.

(٣) الطبري: ٢٠ / ٢٦١، ومسلم: ٨١ / ٢٠.

(٤) مسلم: ٤ / ١٨٧٣. (٥) الطبري: ٢٠ / ٢٦٨.

(٦) الطبري: ٢٠ / ٢٦٨.

لنفسه إنما يخطبها جليبيب، قالت: أجليبيب [إنه] أجليبيب
[إنه]؟ لا لعمر الله لا نزوجها، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله
ﷺ فيخبرها بما قالت أمها، قالت لجارية: من خطبني إليكم؟
فأخبرتها أمها، قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني
إليه، فإنه لن يضيعني، فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال:
شأنك بها فزوجها جلييباً، قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة
له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ
أَحَدٍ؟» قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً، قال ﷺ: «انظروا هل
تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قالوا: لا. قال ﷺ: «لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيًّا»
قال ﷺ: «فَاظْلُبُوهُ فِي الْقَتْلِ» فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة
قد قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله! هاهو ذا إلى جنب سبعة
قد قتلهم ثم قتلوه، فاتاه رسول الله ﷺ فقام عليه فقال: «قَتَلَ
سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ» مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه
رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعد النبي
ﷺ، ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله ﷺ، قال ثابت بن
قها كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله
بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال:
قال: «اللَّهُمَّ صَبِّ عَلَيْهَا [الخير] صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا»
وكذا كان، فها كان في الأنصار أيم أنفق منها، هكذا أورده الإمام
أحمد بطوله ^(٥). وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة
قتله ^(٦). وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب أن
الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟
نزلت هذه الآية: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» ^(٧).

وعن طائوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد
العصر فنهاه، وقرأ ابن عباس ﷺ: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ
إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» ^(٨) فهذه
الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله

بِكُمْ الْبَاءَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ
يَنْتَفِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ ^(١) ناسب أن يذكر
بعده: «وَالْحَفِظَاتُ فُرُوجُهُمْ وَالْحَفِظَاتُ» أي عن
الحارم والمائم إلا عن المباح كما قال عز وجل: «وَالَّذِينَ
مُرُوا بِهِمْ بِحِفْظٍ» ^(٢) إِلَّا عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مُؤْمِنِينَ ^(٣) قَدْ أَتَىكَ ذَلِكَ تَأْوِيلُكَ هُوَ التَّادُؤُ ^(٤).

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ أَكْثَرُ» أي الذين كفروا
روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: إن
رسول الله ﷺ قال: «إِذَا انْقَضَى الرَّجُلُ أَثَرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّيًا
رَكْعَتَيْنِ [كُنِيَا] تِلْكَ اللَّيْلَةُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»
وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي سعيد
وأن هريزة عن النبي ﷺ بمثله ^(٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريزة عن النبي ﷺ قال: كان رسول الله
ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جمدان فقال: «هَذَا جَمْدَانُ،
سَبَرُوا فَقَدْ سَبَّ السُّمَرُودُونَ» قالوا: وما المفردون؟ قال ﷺ:
«الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ» ثم قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ
لِلْمُخْلِيقِينَ» قالوا: والمقصرين؟ قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ
لِلْمُخْلِيقِينَ» قالوا: والمقصرين؟ قال: «وَالْمُقَصِّرِينَ» تفرد به
من هذا الوجه ^(٦) ورواه مسلم دون آخره ^(٧).

وقوله تعالى: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» ^(٨) خبر
عن هؤلاء المذكورين كلهم أي أن الله تعالى قد أعد لهم أي
مياهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة.
«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ
الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» ^(٩)

[بيان سبب النزول]

روى الإمام أحمد عن أبي برزة الأسلمي قال: إن جلييباً كان
أمرًا يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا
تدخلن عليهن جلييباً فإنه إن دخل عليهن لأفعلن
ولأفعلن، قالت: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم
يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا، فقال
النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ» قال: نعم
وكرامة يا رسول الله ونعمة عين، فقال ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا
لِنَفْسِي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لِجُلَيْبِيٍّ» فقال:
يا رسول الله! أشاور أمها! فأتى أمها، فقال: رسول الله ﷺ
يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونعمة عين، فقال: إنه ليس يخطبها

(١) فتح الباري: ١٤/٩.

(٢) أبو داود: ٧٤/٢، والنسائي في الكبرى: ٤٣٣/٦، وابن

ماجه: ٤٢٣/١.

(٤) مسلم: ٩٤٦/٢.

(٣) أحمد: ٤١١/٢.

(٥) أحمد: ٤٢٢/٤.

(٦) مسلم: ٢٤٨٢، والنسائي في الكبرى: ٤٢٤٦.

(٧) الاستيعاب: ٢٥٩/١. (٨) عبد الرزاق: ٤٣٣/٢.

وفارقها زوجها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

روى الإمام أحمد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذْهَبْ فَأَذْكُرْهَا عَلَيَّ» فانطلقت حتى أتتها وهي تخمر عجبها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن

رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب! أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامري عز وجل، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتها حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطمعنا عليها

الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ وابتعته، فجعل ﷺ يتبع حمر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله! كيف وجدت أهلنا؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلقت حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب ووعظ القوم بها وعظوا به: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» الآية كلها، ورواه مسلم والنسائي ^(١).

وقد روى البخاري رحمه الله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات ^(٢)، وقد قدمنا في سورة النور عن محمد بن عبد الله ابن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما، فقالت زينب رضي الله عنها: أنا الذي نزل تزويجي من السماء. وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب رضي الله عنها ^(٣).

وقوله تعالى: «لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِنْ قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» أي إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد بنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقال له زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَنْسَاءَكُمْ»

بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنها، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: «فَلَا زَوَاجَ لَكُمْ بِأَزْوَاجِكُمْ حَتَّى يُحْكَمَ لَكُمْ فِيهَا شَحْرٌ يَنْهَرُ ثُمَّ لَا جُنْدَ وَأَقْرَبَ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا» ^(٤) ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» ^(٥) كقوله تعالى: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ^(٦).

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» ^(٧)﴾

[عتاب الله لرسوله ﷺ في قصة زيد وزينب]

وتزويجه إياها بعد الطلاق والعدة لإبطال التبنّي] يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه أي بالإسلام، ومتابعة الرسول ﷺ: «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» أي بالعق من الرق، وكان سيذا كبير الشأن جليل القدر حبیباً إلى النبي ﷺ يقال له الحب، ويقال لابنه أسامة الحب بن الحب، قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه الإمام أحمد ^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً وملحفة ودرعاً، وخمسين مدّاً من طعام وعشرة أمداد من تمر، قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» قال الله تعالى: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً عما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» ^(٢) وقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا» الوطر: هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها

(١) أحمد: ٢٢٧/٦، ٢٨١. (٢) الطبري: ٢٠/٢٧٤.

(٣) أحمد: ٣/١٩٥، ومسلم: ١٤٢٨، والنسائي: ٦/٧٩.

(٤) فتح الباري: ١٣/٤١٥. (٥) الطبري: ١٩/١١٨.

وعلاتيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنوهم يقتدي المهتدون، وعلى منتهجهم يسلك الموفقون، فسنال الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

[الرسول ليس أباً أحد من الرجال]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهي أن يقال بعد هذا زيد بن محمد، أي لم يكن أباه وإن كان قد تنباه، فإنه ﷺ لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والظاهر من خديجة ﷺ، فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﷺ أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة ﷺ حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده لسته أشهر.

[هو خاتم النبيين]

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٠﴾ كقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَمُوتُ رِسَالَتَهُ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَحْمَلَهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ لِّبَضْعِهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتَانِ وَيَعْبُجُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبَنَةِ، فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبَنَةِ» (١) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح (٢).

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّسَالََةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ» قال: فشق ذلك على الناس، فقال: «وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ» قالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: «وَوُفَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِّنْ أَجْزَاءِ النَّبُوَّةِ» (٣) وهكذا رواه الترمذي، وقال: صحيح غريب (٤).

(١) أحمد: ١٣٦/٥. (٢) تحفة الأحوذى: ٨١/١٠.

(٣) أحمد: ٢٦٧/٣.

(٤) تحفة الأحوذى: ٥٥١/٦، والترمذي: ٢٢٧٢.

إلى قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ﷺ، لما طلقها زيد بن حارثة ﷺ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ﴾ ليحترز من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧) أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب ﷺ في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُونًا﴾ (٢٨)

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب ﷺ التي طلقها دعيه زيد بن حارثة ﷺ. وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقضاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد نساها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُونًا﴾ (٢٨) أي وكان أمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾

[مدح المبشرين لرسالات الله]

يصدق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي إلى خلقه ويؤذونها بأماناتها ﴿وَيَحْشَوْنَهُ﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا﴾ (٢٩) أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بإداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما محمد ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿فَلَا يَتَأَتَّىهَا نَبِيٌّ﴾ إلى رسول الله ﷺ إليكم جميعاً ﷺ ثم ورث مقام البلاغ من أمته من بعده، أصحابه ﷺ بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أحواله وأفعاله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره

ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأَ خَيْرِ مَنَّةٍ» والصلاة من الله تعالى ثاؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية^(٥). ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه. وقال غيره: الصلاة من الله عز وجل الرحمة. وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة فيمعني الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْشَوْا زِلْزَلَةَ الْأَرْضِ﴾ أي: بسبب

رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغام، وأما رحمته بهم في الآخرة فأمّنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبخارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفتهم بهم.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله! ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال: فخفضهم رسول الله ﷺ وقال: «لَا، وَاللَّهِ لَا يُلْقِي حَبِيبٌ فِي النَّارِ»^(٦) إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فآلصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ تُلْقِي

وَاللَّهُ الْمَنُوعُ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْمُنَنِ، لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَجَمِيلِ الْمَأْتَبِ.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال ﷺ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» وقال الآخر: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمروني بأمر نثبت به، قال ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى»^(١) روى الترمذي وابن ماجه الفصل الثاني وقال الترمذي: حديث حسن غريب^(٢).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «مَنْ مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا رَأَوْهُ خَيْرٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»^(٤) إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، لم يعدر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على نفسه، فقال: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُوَّةً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ»^(٥) الليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغني والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال عز وجل: «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٦) فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته^(٧).

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جدًا، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من الذكر. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما.

وقوله تعالى: «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٨) أي عند الصباح، كقوله عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَنَضْوًا ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَّلَ الْوَحْيَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ هذا تنبيه إلى الذكر، أي أنه سبحانه يذكركم به، كقوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّن قَبْلِهِ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاصْبِرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ^(٩) وقال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ

(١) أحمد: ٤/١٩٠.

(٢) تحفة الأحوذى: ٦/٦٢١، وابن ماجه: ٢/١٢٤٦.

(٣) أحمد: ٢/٢٢٤. (٤) الطبري: ٢٠/٢٨٠.

(٥) البخاري: التفسير، الأحزاب، باب ١٠.

(٦) أحمد: ٣/١٠٤.

وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره،
والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعبادة والمعروف
خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته والهدى إمامه، والإسلام
ملته، وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلال، وأعلم به بعد الجهالة،
وأرفع به بعد الخفالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة،
وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أُمم
متفرقة وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستفد به فتناً من
الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس
يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنون مخلصين
مصدقين لما جاءت به رسلهم، ألهمهم التيسير والتحميد، والثناء
والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاميرهم
ومثابهم ومثواهم يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاثلون في سبيل
الله صفواً وزحواً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضات
الرفاء، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في
الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان
بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين
والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق
ويه يعدلون، وأعز من نصرهم، وأويد من دعا لهم، وأجعل
دائرة السوء على من خالفهم، أو بغى عليهم، أو أراد أن يتنزع
شيئاً مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم،
يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقومون الصلاة،
ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأت
بأولهم، ذلك فضلي أوتيته من أشياء، وأنا ذو الفضل العظيم^(١)

فقال تعالى: ﴿شَهِدَ أَيُّهَا اللَّهُ بِالْحَدَانَةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ
وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجَّهْنَاكَ عَلَى هَذِهِ شَهِيداً
(١)﴾ كقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيداً﴾ وقوله عز وجل: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً
للمؤمنين بجزييل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.
وقوله جلّت عظمتة: ﴿وَدَاعَيْتُ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً للخلق
إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿وَسِرَاجاً مُنِيرًا﴾ أي:
وأمرك ظاهر فصار جئت به من الحق كالشمس في إرشاقها
وإضاءتها لا يمحدها إلا معاند. وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُطِيعُ

وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟﴾ قالوا: لا. قال رسول الله
ﷺ: ﴿قُلْ اللَّهُ! اللَّهُ أَزْهَمُ بَعِيداً مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا﴾^(١).
وقوله تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظاهر أن المراد -
والله أعلم - ﴿يَحْيَتُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾
أي: يوم يسلم عليهم، كما قال عز وجل: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّي
رَحِيمٌ﴾^(٢) وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً
بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة^(٣)، كما قال تعالى:
﴿دَعْوَانَهُمْ فِيهَا سَمْعُكَ اللَّهُمَّ وَيَحْيَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وإيخِر دَعْوَانَهُمْ
أَن لِّحَمْدِكَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ
أَجْرًا كَرِيمًا﴾^(٥) يعني الجنة وما فيها من المأكول والمشرب
والملايس والمساكن والمنافع والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت
ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا﴾^(٦)
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا^(٧) وَنَذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ يَأْنِ
لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلٌ كَرِيمٌ^(٨) وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعَا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^(٩)

[صفات رسول الله ﷺ]

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن
عمرو بن العاص^(١)، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله
ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض
صفته في القرآن (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً
وَنَذِيرًا وَحِزْراً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمْعُكَ
الْمُتَوَكِّلُ، كُنْتَ يَقْظٌ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا سَخَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا
يَذْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ، وَلَكِنْ
يَقْبِضُهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بَأَن يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ، فَيَنْتَحِبَهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صَمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا)^(٢). وقد
رواه البخاري في البيوع والتفسير^(٣).

وقال وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني
إسرائيل يقال له شعيا: أن قم في قومك بني إسرائيل فإني منطلق
لسانك بوحى وأبعث أُمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا
غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه
من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه،
أبعثه مبشراً ونذيراً لا يقول الحنا، أفتح به أعينا كمها وأذناناً صمًّا
وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم،

(١) فتح الباري: ١٠/٤٤٠. (٢) الطبري: ٢٠/٢٨٠.

(٣) أحمد: ٤/١٧٤. (٤) فتح الباري: ٤/٤٠٢، ٨/٤٤٩.

(٥) فتح الباري: ٤/٤٠٢.

تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُمْ وَزَوَّجُوهُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝١١﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَصِفْ مَا قَرَضْتُمْ﴾ وقال عز وجل: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْقَفْرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد

وأبي أسيد رضي الله عنه قالوا: إن رسول الله ﷺ تزوج أيممة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهرها ويكسوها ثوبين رازقين ^(٥). قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن كان سمي لها صداقًا فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقًا أمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل ^(٦).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَطْلَعْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّيْلِ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ اللَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥﴾

[بيان النساء اللاتي أحلن للنبي ﷺ]

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وهي الأجور ههنا، كما قاله مجاهد وغير واحد ^(٧). وقد كان مهره لسنائه اثنتي عشرة أوقية [ونشأ]، وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلفية أدى عنها كتابتها إلى ثاب بن

الكافرين والمنافقين ودع أذنهم ^(٨) أي: لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه: ﴿وَدَّعْ أَذْنَهُمْ﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَنَزَّكَلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٨﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَاحًا جَمِيلًا ۝١٩﴾

[المتعة وعدم الاعتداد للمطلقة قبل المسيس]

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتانية في ذلك بالاتفاق، وقد استدلل ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن المسيب والحسن البصري وعلي بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، للدلالة على أنه لا يصح ولا يقع قبله ^(٩).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية ^(١٠) عن ابن عباس رضي الله عنه أيضًا فقال: إنها قال الله عز وجل: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح. وقد ورد حديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا طَلَاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي. هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب ^(١١)، وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمصور بن مخزومة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ» ^(١٢).

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا﴾ هذا أمر بجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا سدة عليها، فتذهب فتزوج في فورها من شاءت، ولا يثبت من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعدت منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا. وقوله

(١) الطبري: ٢٠ / ٢٨٣.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم: الدرر المشور: ٥ / ٣٩٢.

(٣) أحمد: ٢ / ٢٠٧، وأبو داود: ٢ / ٦٤٠، وتحفة الأحوذى:

٤ / ٣٥٥، وابن ماجه: ١ / ٦٦٠.

(٤) ابن ماجه: ١ / ٦٦٠. (٥) فتح الباري: ٩ / ٢٦٩.

(٦) الطبري: ٢٠ / ٢٨٣. (٧) الطبري: ٢٠ / ٢٨٤.

قيس بن شماس وتزوجها - رضي الله عنهن أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التبري مما أخذت من المغنم، وقد ملك صفة وجورية فأعتقها وتزوجها، وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام، وكانتا من السرايري ^١. وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عِمْلَقَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ﴾ الآية، هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصراري لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصراري فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عِمْلَقَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ﴾ فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لتقصصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَسِينِ وَالْأَسْمَآئِيلِ﴾، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وله نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال الضحاك: قرأ ابن مسعود: ﴿وَاللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾ الآية، أي: ويجل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالي فيها شرطان.

وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله! إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل، فقال: يا رسول الله! زوجيني إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُضِدِّقُهَا بِهَا؟» فقال: ما عندي إلا إزارِي هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ لَا إِزَارَكَ لَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا» فقال: لا أجد شيئاً، فقال: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ: «رَوِّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ^(٢) أخرجه من حديث مالك ^(٣).

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها

لنبي ﷺ خولة بنت حكيم ^(٤). وروى البخاري عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتبه المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَاغْتَبْ مِنْ شِئْنَاهُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِنْ عَمَلِكَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ^(٥).

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. ورواه ابن جرير ^(٦) عن يونس بن بكير، أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن [كان] ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي إن اختار ذلك وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً ^(٧). وكذا قال مجاهد والشمسي وغيرهما ^(٨)، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في [إبروع] بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما مهر عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء، ولم يدخل بها؛ لأنه لا أن يتزوج بغير صداق ولا ولي، ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش ^٩، ولهذا قال قتادة في قول: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول: ليس لامرأة تمس نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ ^(٩).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ قَرْضَانَا عَلَيْهِمْ فِي أَنْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقاتدة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ قَرْضَانَا عَلَيْهِمْ فِي أَنْوَاجِهِمْ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ^(١٠)، وما شأوا من الإمام واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ

(١) الطبري: ٢٨٥/٢٠. (٢) أحمد: ٣٣٦/٥.

(٣) فتح الباري: ٩٧/٩، ومسلم: ١٠٤٠/٢.

(٤) البيهقي: ٥٥/٧. (٥) فتح الباري: ٣٨٥/٨.

(٦) الطبري: ٢٨٨/٢٠. (٧) الدر المنثور: ٦٣١/٦.

(٨) الطبري: ٢٨٦/٢٠، ٢٨٧. (٩) الطبري: ٢٨٦/٢٠.

(١٠) الطبري: ٢٩٠/٢٠.

وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِنْ عَزَّتٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَبِرِّضَتِكَ يَمَآءَ أَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

[تخيير النبي ﷺ في قبول الواهبية نفسها أو ردّها]

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تغير النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية، قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هلاكك^(١). وقد تقدم أن البخاري رواه أيضًا^(٢)، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تَرْجِي﴾ أي تؤخر من تَشَاءُ مِنْهُنَّ أي من الواهبات، ﴿وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِنْ عَزَّتٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية، أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لمن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت وتترك من شئت، هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقادة وأبي رزين وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيرهم، ومع هذا كانه النبي ﷺ يقسم لمن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وروى البخاري عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في بزم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِنْ عَزَّتٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول إن كان ذلك لي فإني لا أريد يا رسول الله! أن أؤثر عليك أحدًا^(٣)، فهذا حديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات وفي النساء فيما اختار ابن جرير أن الآية العامة في الواهبات وفي النساء لأن عنده أنه غير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم^(٤). وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين أحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِنَّ وَلَا

تَحْزَنَ وَبِرِّضَتِكَ يَمَآءَ أَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لمن اختارًا منك، لأنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به، وحلن جميلك في ذلك، واعترفن بمتك عليهن في قسمتك لمن وتسويتك بينهن وإنصافك لمن وعدلك فيهن.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلى بعضهم دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمَلِكُ وَلَا أَمَلْتُكُ»^(٥) ورواه أهل السنن الأربعة، وزاد أبو داود بعد قوله: «فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمَلِكُ وَلَا أَمَلْتُكُ» يعني القلب^(٦). وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات، ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي بضمائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾^(٧) أي يحلم ويغفر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بَيْنَ مَنْ أَزْوَاجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

[مجازاة الأزواج على اختيارهن صحبة الرسول]

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم^(٧)، أن هذه الآية نزلت مجازاة للأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بين أزواجه غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإساءة والسراي فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن.

(١) أحمد: ١٥٨/٦. (٢) فتح الباري: ٣٨٥/٨.

(٣) فتح الباري: ٣٨٥/٨. (٤) الطبري: ٣٠٤/٢٠.

(٥) أحمد: ١٤٤/٦.

(٦) أبو داود: ٦٠١/٢، وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/٤، والنسائي:

٦٣/٧، وابن ماجه: ٦٣٣/١.

(٧) الطبري: ٢٩٧/٢٠، ٢٩٩.

الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقلت: يا رسول الله! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلم حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ: تمالأن عليه في الغيرة ﴿عَسَى رَبُّهُ أَنْ يُلَاقَكُمْ أَنْ تُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا غَيْرَ مِثْلِكُمْ﴾ فتزلت كذلك^(٤)، وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بلدر وهي قضية رابعة^(٥).

وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر فلم أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب^(٦) وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطمعوا، لم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهاى للقيام فلم يقوموا، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجنبت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فالتقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَّخِذْنَ أَلْبِسَ عَمَامَةً لَا تَدْخُلُونَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ عَلَيْهِمْ وَإِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرِفُوا﴾ الآية^(٧)، وقد رواه أيضاً في موضع آخر^(٨)، ومسلم والنسائي^(٩).

ثم روى البخاري عن أنس بن مالك قال: بنى النبي ﷺ بزینب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا رسول الله! ما أجد أدعوه، قال: «ارْقُمُوا طَعَامَكُمْ». وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء^(١٠). ورواه الترمذي والنسائي في سننهما^(١١).

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك، اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمة والخال والخالات والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعن غيره.

وروى الترمذي عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الآية^(١٢).

واختار ابن جرير رحمه الله: أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير من السلف، فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه.

﴿يَتَّخِذْنَ أَلْبِسَ عَمَامَةً لَا تَدْخُلُونَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ عَلَيْهِمْ وَإِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرِفُوا وَلَا مُسْتَعْجِلِينَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِي مِنْ الْخَبَرِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَائِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٧﴾﴾ إنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٨﴾﴾

[آداب الدخول في بيوت النبي والأمر بالحجاب]

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في

(١) أحمد: ٤١/٦.

(٢) تحفة الأحوذى: ٧٨/٩، والنسائي: ٥٦/٦.

(٣) تحفة الأحوذى: ٧٧/٩.

(٤) فتح الباري: ٦٠١/١، ومسلم: ١٨٦٥/٤.

(٥) مسلم: ١٨٦٥/٤. (٦) فتح الباري: ٣٨٧/٨.

(٧) فتح الباري: ٣٨٧/٨. (٨) فتح الباري: ٢٤/١١.

(٩) مسلم: ١٠٥٠/٢، والنسائي في الكبرى: ٤٣٥/٦.

الرَّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَا يَطْهَرُونَ عَلَى عَوْرَتِ الْإِسَاءِ. وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا.

روى ابن جرير عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والحال لم يذكر؟ قال: لأنها يعتنقها لأبنائها، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني به أرقاءهن. قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَ اللَّهُ إِلَهًا كَانَتْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي واخشيته في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفي عليه خافية فراقت الرقيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[الأمر بالصلاة على النبي ﷺ]

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون يركعون^(٢). هكذا علقه البخاري عنها، وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار^(٣).

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله! أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ»^(٤) وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله! قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ»^(٥).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم من طرق متعددة (حديث آخر): روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله! هذا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ».

قال أبو صالح عن الليث: «عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ». حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والدروردي عن يزيد يعني ابن الهادي قال: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»^(٦). وأخرجه النسائي وابن ماجه^(٧).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله! كيف نصلي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَبَارَكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ»^(٨). وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي.

(حديث آخر) روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال: بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله! فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله حتى ثميناً أنه يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَيِّدٌ حَيِّدٌ وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»^(٩) وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير. وقال الترمذي: حسن صحيح^(١١).

(١) الطبري: ٣١٨/٢٠. (٢) فتح الباري: ٣٩٢/٨.

(٣) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٢. (٤) فتح الباري: ٣٩٢/٨.

(٥) أحمد: ٢٤١/٤. (٦) فتح الباري: ٣٩٢/٨.

(٧) النسائي: ٤٩/٣، وابن ماجه: ٢٩٢/١.

(٨) أحمد: ٤٢٤/٥.

(٩) فتح الباري: ١٥٧/١١، ومسلم: ٣٠٦/١، وأبو داود: ٦٠٠/١، والنسائي: ٤٩/٣، وابن ماجه: ٢٩٣/١.

(١٠) مسلم: ٣٠٥/١.

(١١) أبو داود: ٦٠٠/١، وتحفة الأحوذى: ٨٤/٩، والنسائي في الكبرى: ٤٣٦/٦، والطبري: ٣٢١/٢٠.

حديث آخر: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ

وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في الأذكار ^(٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ^(٩) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغْيَرُ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ^(١٠)

[من أذى الله ورسوله فهو ملعون في الدنيا والآخرة]

يقول تعالى متهددا ومتوعدا من آذاه بمخالفة أوامره وارتيكاب زواجره، وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو نقص - عيادا بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في المصورين ^(٩). وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ لِكُلِّ وَتَهَارَهُ» ^(١٠) ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا حبيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيستندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهى عن ذلك وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب ^(١١). والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد أذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

[الوعيد للمفتريين]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغْيَرُ مَا أَكْتَسَبُوا﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم براء منه، لم يعلموا.

- (١) أحمد: ٦/٢٨٢. (٢) مسند الشافعي: ٢١٠.
 (٣) النسائي: ٤/٧٥. (٤) تحفة الأحوذى: ٢/٢١٠.
 (٥) تخریج الکشاف لابن حجر: ص ١٣٧.
 (٦) أحمد: ١/١٩٩، وأبو داود: ٢/١٣٣، وتحفة الأحوذى: ٢/٥٦٢، والنسائي: ٣/٢٤٨، وابن ماجه: ١/٣٧٢، وابن خزيمة: ٢/١٥١، وابن حبان: ٢/١٤٨، والحاكم: ٣/١٧٢.
 (٧) أحمد: ٤/٨.
 (٨) أبو داود: ١/٦٣٥، والنسائي: ٣/٩١، وابن ماجه: ١/٥٢٤، وابن خزيمة: ٣/١١٨، وابن حبان: ٢/١٣٢، والنووي: ٩٧.
 (٩) الطبري: ٢٠/٣٢٢.
 (١٠) فتح الباري: ٧/٤٣٧، ومسلم: ٤/١٧٦٢.
 (١١) الطبري: ٢٠/٣٢٣.

ثم قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ» وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ» ^(١).

ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنائز، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية أن يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

روى الشافعي - رحمه الله - عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بالفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنائز، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سرا في نفسه ^(٢). ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه أنه قال من السنة، فذكره ^(٣).

وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ^(٤). ورواه معاذ بن الحارث عن أبي قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر مرفوعا ^(٥). ومن أكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن الحسن ابن علي ﷺ قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي سِرِّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعْزِزُ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»، وزاد النسائي في سننه بعد هذا «وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ» ^(٦).

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة. روى الإمام أحمد عن أوس ابن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبُضَ، وَفِيهِ النَّفْثَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْبَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنْ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةً عَلَيَّ» قالوا: يا رسول الله! وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ - يعني: وقد بليت - قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» ^(٧) ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه،

اليسرى^(٤). وقوله: ﴿ذَلِكَ آدَعٌ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذَنُ﴾ أي إذا فعلن ذلك عُرِفَ أنهن حرائر، لسن باماء ولا عواهر.
وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَقُورًا رَاجِحًا﴾^(٥) أي: لما سلف في أيام الجاهلية، حيث لم يكن عندهن علم بذلك.

[التنبيه والتهديد للمنافقين الأشرار]

ثم قال تعالى متوعدا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره هم الزناة ههنا^(٥) ﴿وَالْمَرْجُوفُونَ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لكن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُفْرِتَنَّ مِنْهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي لنسلطنك عليهم^(٦). وقال قتادة: لنحرقنك بهم^(٧)، وقال السدي: لنعلمنك بهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٨) ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة، مطرودين مبعدين ﴿أَتَيْنَا فَنَقُوهَا﴾ أي وجدوا ﴿أَخْدُوا﴾ لذلتهم وقتلهم ﴿وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾^(٩) ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذه سنته في المنافقين، إذا مردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرهم ﴿وَلَنْ يُجَادِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١٠) أي سنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

﴿يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا بَدْرِيكَ لَمَلِّ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾^(١١) إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلَايَا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١٢) يوم تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا بَلِيغَتَا أَلْعَنَّا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهَتَنَا فَأَفْضَلُونَا السَّبِيلَ﴾^(١٣) رَبَّنَا قَاتِلْهُمْ يَضْعَفِينَ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا^(١٤)

[لا يعلم يوم القيامة إلا الله]

يقول تعالى مخبرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشد أنه يرد

ولم يفعلوه ﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَا مَهْمَتَكُمْ وَلَمَّا مِينًا﴾^(١٥) وهذا هو اليهت الكبير أن يحكى أو يتقل عن المؤمنين والمؤمنات، ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن، ولا فعلوه أبدا، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون المدوحين ويمدحون المذمومين.

وروي أبو داود عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال: ﴿ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ﴾ قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ﴿إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبَتْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَغَتْهُ﴾^(١٦) وهكذا رواه الترمذي ثم قال: حسن صحيح^(١٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُلْ لَّا رُوحَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَعٌ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذَنُ وَكَانَ اللَّهُ عَقُورًا رَاجِحًا﴾^(١٨) ﴿لَسْ لَرِ يَنْتَهُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمَرْجُوفُونَ فِي الدُّنْيَا لَنُفْرِتَنَّ مِنْهُمْ﴾^(١٩) ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَتَيْنَا فَنَقُوهَا وَأَقْبَلُوا قَتِيلًا﴾^(٢١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يُجَادِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢٢)

[الأمر بالجلاب]]

يقول تعالى أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما أن يأمر نساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يبنين عليهن من جلابيبهن، ليميزن عن سمات نساء جاهلية وسمات الإماء، والجلاب هو الرداء فوق الخمار، قتله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد وهو حترلة الإزار اليوم. قال الجوهرى: الجلاب الملحفة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق بأوسن بالجلابيب ويدين عينا واحدة^(٢٣)، وقال محمد بن سنان سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْرِكُنَّ مِهْمَتَكُمْ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾؟ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه

- (١) أبو داود: ١٩٢/٥. (٢) تحفة الأحوذى: ٦٣/٦.
(٣) الطبري: ٣٢٤/٢٠. (٤) الطبري: ٣٢٥/٢٠.
(٥) الطبري: ٣٢٦/٢٠. (٦) الطبري: ٣٢٨/٢٠.
(٧) الطبري: ٣٢٨/٢٠.

لَا يَرَى مِنْ جَلِيدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءَ مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَسِرُّ هَذَا التَّسَرُّ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ فِي جَلِيدِهِ إِنَّمَا بَرَصٌ وَإِمَّا أَذَى وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ يَوْمًا قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَخَلَا يَوْمًا وَخَدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا قَرَعَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَذَابٌ يُنَوِّبُهُ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَّبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَأُوا عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَبْرَأَهُ يَوْمًا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ قَلْبَةً، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَالِ إِنْ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَرَضْرُوبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (١٦) وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.

روى الإمام أحمد عن عبد الله - أي ابن مسعود - قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال: فقلت: يا عدو الله أنا لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبْرًا» أخرجه في الصحيحين (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (١٦) أي: له وجاهة وجاهه عند ربه عز وجل. قال الحسن البصري كان مستجاب الدعوة عند الله (٤). وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿وَوَعَدْنَا لَدُنَّ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًا﴾ (١٧).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (١٧) يُطِيعُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (١٨).

[أمر المؤمنين بالتقوى والصدق]

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وإن يقولوا: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (١٧) أي مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٢٢٣/٣.

(٢) فتح الباري: ٥٠٢/٦.

(٣) أحمد: ١/٣٨٠، والبخاري: ٣٤٠٥، ومسلم: ١٠٦٢.

(٤) البغوي: ٥٤٥/٣.

علمها إلى الله عز وجل، كما قال الله تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يَذُرْك لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (١٦) كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلَّسَّاعَةِ وَأَنْتَقَى الْقَوْمُ (١)﴾ وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (٢)﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

[لعن الكفار وخلودهم في النار وحسرتهم]

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفَّيْنَ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (١٦) أي في الدار الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧) أي وليس لهم مغيث ولا معين يقدمهم مما هم فيه ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي التَّارِ يَقُولُونَ يَكُنْثَنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولُ﴾ (١٨) أي يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك يتمنون: أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَطْلَامُ عَلَى بَيْدِهِمْ يَكْفُلُ يَكُنْثَنَا مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (١٩) يَتَوَلَّوْا لِيَنِي لَوْ أَخَذَ فَلَا نَصِيرًا (٢٠) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢١) وقال تعالى: ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢٢) وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الشَّيْطَانُ﴾ (٢٣) وقال طابوس: «سَادَتَنَا» يعني: الأشراف، «وَكُبَرَاءَنَا» يعني: العلماء. «رَبَّنَا» أيهم ضعفين مرة العذاب أي بكفرهم وإغوائهم إيانا.

وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي رافع في تسمية من شهد مع علي عليه السلام الحجاج بن عمرو بن غزية وهو الذي كان يقول عند اللقاء يا معشر الأنصار أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الشَّيْطَانُ رَبَّنَا» أيهم ضعفين مرة العذاب والعنت لعلنا كبر (٢٤).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (١٦).

[افتراء اليهود على موسى]

روى البخاري في أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا

نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجمل كجمر دحرجته على رجله، تراه متبراً وليس فيه شيء - قال: ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله! وما في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً^(٧).

وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به^(٧).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلْقَةٍ، وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ»^(٨).

[نتيجة حمل الأمانة]

وقوله تعالى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ﴾ أي إنما يحمل بني آدم الأمانة وهي: التكليف، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعة لأهله ﴿وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ﴾ وهم الذين ظاهراً وباطنهم على الشرك بالله، ومخالفة رسوله ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ويرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكبوه ورسله، العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٩). آخر تفسير سورة الأحزاب والله الحمد والمنة.

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَاءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَاءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَفِيرُ﴾^(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا

لَهُمْ عَلَيْهِ: بأن يصلح لهم أعمالهم - أي يوفقهم للأعمال الصالحة - وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢) وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

﴿وَلَقَدْ عَرُضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا فَغَطَّ بِهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٣) لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٤).

[حمل الإنسان الأمانة]

قال العوفي عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أن أخذ بها فيها؟ قال: يا رب! وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتمحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٥) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أناهم وإن ضيعوها عذبهم ففكر هو ذلك، واشفقوا عليه من غير مغصية، ولكن تعظيماً للدين الله أن لا يقوموا، باسم عرضها على آدم فقبلها بها فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٦) يعني غرّاً بأمر الله^(٧).

وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض^(٨)، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال أبي ابن كعب: من الأمانة أن المرأة أوثقت على فرجها^(٩). وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود^(١٠). وقال مالك عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاعتسال من الجنابة، وكل هذه لا اقترال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها: تكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله، وبالله المستعان.

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم

(١) الطبري: ٣٣٨/٢٠ (٢) الطبري: ٣٣٧/٢٠

(٣) الطبري: ٣٣٧/٢٠ (٤) الطبري: ٣٣٨/٢٠

(٥) الطبري: ٣٣٩/٢٠ (٦) أحمد: ٢٨٣/٥

(٧) فتح الباري: ٣٤١/١١، ومسلم: ١٢٦/١

(٨) أحمد: ١٧٧/٢

يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْرِفُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

[الحمد وعلم الغيب لله فقط]

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٧﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده، ونحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ لَنَا الْآخِرَةُ وَالْأَوَّلَى﴾ ﴿١٣﴾، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾؛ الذي لا تخفي عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال مالك عن الزهري: خير بخلقه، حكيم بأمره، ولهذا قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيقُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور، والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من قطر ووزق، وما يعرج فيها، أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿٢﴾ أي: الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه التوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَقْصُودُ رِزْقِكَ رَبِّهِمْ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابُ رَبِّكَ يُجْزَىٰ أُولَٰئِكَ أُولُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

[إن الساعة لآتية ليجزي كل حسب عمله]

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها من أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداها في سورة يونس عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَسَيَسْأَلُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ والثانية

هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة في سورة التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْطُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم وصفه بما يؤكده ذلك ويقرره، فقال: ﴿عَلَيْهِ الْغَلِيظُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ قال مجاهد وقادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يغيب عنه أي الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفي عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة، بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَقْصُودُ رِزْقِكَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٤﴾ والَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴿٥﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابُ رَبِّكَ يُجْزَىٰ أُولَٰئِكَ﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَحْسَبُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَالْعُجَابِ﴾ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي: أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار، بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، راوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ يقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ فَكَذًا يَوْمَ الْآخِرَةِ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٦﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو: المنيع الجنب الذي لا يغالب ولا يانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، ﴿الْحَمِيدُ﴾ ﴿٦﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا.

السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطواها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بَلَىٰ ﴿وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِي مَعَهُ

وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (٥٨) أَن تَحْمِلَ سَيِّدَتِ وَقْدِ فِي

السَّرَدِ وَتَعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٥٩)

[بيان فضل الله على داود]

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملوك المتمكن، والجنود ذوي العدد، والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبَّح به تسبَّح معه الجبال الراسيات، الصم الشاخات، وتقف له الطيور السارحات: والغاديات، والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ، سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لَقَدْ أَوَىٰ هَذَا مَرْمَارًا مِنْ مَّرَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» (٦٠) وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنَّج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري ﷺ (٦١). ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوَىٰ﴾ أي سبَّح، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد (٦٢) والتأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (٦٠) قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة، بل كن يفعله بيده مثل الخيوط (٦٣). ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَحْمِلَ سَيِّدَتِ﴾ وهي الدروع قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح (٦٤).

(١) عبد الرزاق: ٣/١٢٦. (٢) الطبري: ٢٠/٣٥٦.

(٣) مسلم: ١/٥٤٦.

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد: ص ٧٩.

(٥) الطبري: ٢٠/٣٥٧. (٦) الطبري: ٢٠/٣٥٩.

(٧) الطبري: ٢٠/٣٥٩.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رِجْلِ يَبِيتُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ إِنَّا لَنَرِيكُمْ لَعْنِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾ (٧) أَفَرَأَيْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفْظٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّا نَحْشِفُهُمْ بِالْأَرْضِ أَوْ نَسْفُطُهُمْ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِينٍ﴾ (٩)

[إنكار الكفار الحياة بعد الممات والرد عليهم]

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رِجْلِ يَبِيتُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وعزفت كل عمزق ﴿إِنَّا لَنَرِيكُمْ لَعْنِي خَلْقِي﴾ أي بعد هذا الحال ﴿لَعْنِي خَلْقِي﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين، إما أن يكون قد تعمد الانفراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن أنس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفْظٌ﴾ قال الله عز وجل رادًا عليهم ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (٨) أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (٨) من الحق في الدنيا، ثم قال تعالى مبنيًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسما مظلَّة عليهم، والأرض تختهم، كما قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءُ بَنِينَهَا بِأَنبُرٍ وَهَٰئِلًا لِّمُؤْمِنِينَ﴾ (٩) وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَيْعَمُ الْمُتَعَدِّينَ﴾ (١٠).

وقوله تعالى: ﴿إِن شَاءَ نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْفُطُهُمْ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحملنا وعفونا، ثم قال: ﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِينٍ﴾ (٩) قال معمر عن قتادة: ﴿تَبِينٌ﴾ (١١) تائب (١٢). وقال سفيان عن قتادة: المنيب المقبل إلى الله تعالى (١٣)، أي إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطِنٍ لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه

﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبهه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تدق المسار فيلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقسمها واجعله بقدر^(١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السرد حلق الحديد. وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاها

داود أو صنع السوابغ تباع

وقول تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١١) أي مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفي علي من ذلك شيء.

﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرًا وَرَوَّاحهاً شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ آلَجْنَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَمَتَشِيلٍ وَحَقَّانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَأْسِيكَ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ

[فضل الله على سليمان]

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له: تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل باصطخر يتغذى بها، ويذهب راثحاً من اصطخر فيبيت بكابل^(٢). وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس: ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: القطر: النحاس^(٣). قال قتادة: وكانت باليمن^(٤).

فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ آلَجْنَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه. أي بقدره وتسخره لهم بمشيئته ما يشاء من البنائيات وغير ذلك ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن

الطاعة ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٣) وهو الحريق.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَمَتَشِيلٍ﴾ أما المحارب: فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره. وقال ابن زيد: هي المساكن^(٥). وأما المتشيل، فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التنايل الصور^(٦). وقول تعالى: ﴿وَحَقَّانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَأْسِيكَ﴾ الجواب جمع جابية، وهي الخوض الذي يجي فيه الماء. والقدرور الراسيات: أي الثابتات في أماكنها، لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما^(٧). وقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم: اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا. وشكراً مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال الشاعر أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدي ولساني والضمير المحجب

قال أبو عبد الرحمن [الجلي]: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير عمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير^(٨). وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أن قال: «إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَتَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَتَنَامُ سُدُسَهُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَغْتَرُّ إِذَا لَاقَى»^(٩) وروى ابن أبي حاتم عن فضيل قال في قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ قال داود: يارب! كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شُكْرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي»^(١٠). وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١١) إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا فَضَيَّتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(١٢)

(١) الطبري: ٣٦١/٢٠. (٢) الطبري: ٣٦٢/٢٠.

(٣) الطبري: ٣٦٣/٢٠، ٣٦٤. (٤) الطبري: ٣٦٣/٢٠.

(٥) الطبري: ٣٦٥/٢٠. (٦) الطبري: ٣٦٦/٢٠.

(٧) الطبري: ٣٦٧/٢٠. (٨) الطبري: ٣٦٩/٢٠.

(٩) فتح الباري: ٥٢٥/٦، ومسلم: ٨١٦/٢.

(١٠) الدر المنثور: ٦٨٠/٦.

[وفاة سليمان]

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكلًا على عصاه، وهي منسلته، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد ^(١). مدة طويلة نحوًا من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأَرَضَة، ضَعُفَتْ وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة. وتبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يوهمون ويوهمون الناس ذلك. وذلك قول الله عز وجل: ﴿مَا كُنْتُمْ عَلَىٰ مَوَازِيهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن مَّا يَمْسِكُ فَلَمَّا حَرَّ يَتَنَبَّأُ لِلْإِنسِ أَنَّ لَهُمْ قَوَادِرٌ زَكَاةً وَمَا تَشَاءُونَ وَمَا يُغِيبُ اللَّهُ عَنِ الْغَيْبِ مَا لَشَاءُ لِلْغَيْبِ إِلَهٍ﴾.

^(٢) يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَيْمَانَ فِي مَسْكُوتِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَافْتَكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكَم بِمَا كُفَرْتُمْ وَأَهْلُكُمْ يُخَذَّرُونَ﴾.

[كفران سبأ وعذابهم]

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم ولبس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وازدوعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذّر نذر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريبًا وبه الثقة.

روى ابن جرير عن فروة بن مسيك الغطيفي رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! أخبرني عن سبأ ما هو: أرض أم امرأة؟ قال ﷺ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا أَمْرًا، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِّنَ الْوَلَدِ، فَيَكْمُنُ سِتَّةَ وَتَشَاءُ أَرْبَعَةً، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءُونَ: فَلَهُمْ رُحْدَامٌ وَعَامِلَةٌ وَغَسَانٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَكْمُنُونَ: فَكِنْدَةُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَالْأَزْدُ وَمَذْحِجٌ وَحِمْيَرٌ وَأَتَارُ» فقال رجل: ما أنهار؟ قال ﷺ: «الَّذِينَ مِنْهُمْ خَشَمٌ وَبَحِيلَةٌ» ^(٢) ورواه الترمذي في جامعه بإسقاط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب ^(٣).

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق -: اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنها سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش، لأنه أول من غنم في الغزو، فأعطى قومه فسمى الرائش، والعرب تسمي المال ريشًا ورياشًا. واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال: (أحدها) أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. (والثاني) أنه من سلالة عابر، وهو هود عليه الصلاة والسلام، واختلفوا أيضًا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا. (والثالث) أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليها الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا.

وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله تعالى عليه في كتابه المسمى الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة.

ومعنى قوله ﷺ: «كَانَ رَجُلًا مِّنَ الْعَرَبِ» يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح، وعلى القول الثالث كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم يتصلون، فقال: «اِزْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَأِيمًا» ^(٤) فأسلم قبيلة من الأنصار - والأنصار أوسها وخزرجها من غسان، من عرب اليمن من سبأ - نزلوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنها قيل لهم: غسان بهاء نزلوا عليه قيل: باليمن وقيل: إنه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ تُجُوبُ

الْأَزْدُ نَسَبُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله ﷺ: «وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِّنَ الْعَرَبِ» أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه

(١) الطبري: ٣٧٠/٢٠. (٢) الطبري: ٣٧٥/٢٠.

(٣) تحفة الأحوذى: ٨٨/٩. (٤) فتح الباري: ٦/٢٢١.

الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله ﷺ: «فَتَيَأَمَّنْ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتُسَاءَمُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ» أي بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نَزَحَ عنها إلى غيرها.

[سَد مَارِبَ وَسِيلِ الْعَرَمِ]

وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينها سدًا عظيمًا محكمًا، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكمل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة، ولا قطاف لكثرة ونضجه واستوائه^(١). وكان هذا السد بمارب، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مَارِبَ، وذكر آخرون أنه لم يكن يبلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ» ثم فسرها بقوله عز وجل: «جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» أي من ناحيتي الجبلين، والبلدة بين ذلك «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ» أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله تعالى: «فَاعْرِضْوا» أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام «يَسْأَلُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَبْتَغِي (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَقَدْ عَرُضْتُ عَلَيْهِمْ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)».

وقوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ» المراد بالعرم المياه، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز، حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقاتدة والضحاك: أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجُرْدُ نَقَبَتْهُ^(٢).

وقال وهب بن منبه: وقد كانوا يجردون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرد فكانوا يرصدون عند السنانير بره من الزمن، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولبت إلى السد فنقبته فانهار عليهم^(٣)، وقال قتادة وغيره: الجرد هو الخلد، نقت أسفله حتى إذا ضعف ووهى، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك^(٤) ونُصِبَ الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فَيَسْتِ وتَحَطَّمَتْ وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأبنية النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: «وَبَدَّلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَطٍ» قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقاتدة والسدي: وهو الأراك وأكل البربر^(٥) «وَأَلَّيْ» قال العوفي عن ابن عباس: هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل هو السمر، والله أعلم. وقوله: «وَوَثَّقَ وَثْنٌ سِدْرٌ قَلِيلٌ» لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال: «وَوَثَّقَ وَثْنٌ سِدْرٌ قَلِيلٌ» فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الشار النضيضة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأشجار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدوهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: «ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ» أي عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور^(٦) وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ مِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْمَأُ آمِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)»

[تِجَارَةُ سَبَا وَذَهَابِهَا]

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني

(١) الطبري: ٣٧٦/٢٠. (٢) الطبري: ٣٧٨/٢٠. ٣٨٠.

(٣) الطبري: ٣٨١/٢٠. (٤) الطبري: ٣٨١/٢٠.

(٥) الطبري: ٣٨٢، ٣٨٣. (٦) البغوي: ٥٥٥/٣.

فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ^(٥). وعن قتادة: ﴿لَنْ فِي ذَلِكَ لَأَيَّتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٦) قال: كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر^(٦).
﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧)
﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَآخِرَهُ﴾^(٨)
وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ^(٩)

[تصديق إبليس ظنه على الكفار]

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال ابن عباس^(٧) وغيره. هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَرْضِيَ إِلَيْكَ يَوْمَ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال: ﴿فَمَنْ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمَنْ يَأْتِيهِمْ وَمَنْ يَأْتِيهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(٨) والآيات في هذه كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قال ابن عباس^(٧): أي من حجة. وقوله عز وجل: ﴿لَا نَعْلَمُ مَنْ يُوَفِّي بَآخِرَهُ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا من هو منها في شك.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءه سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.
﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكَ شَيْئًا وَذَرُوا فِي السَّكُونِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٩) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ^(١٠)

الرغد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة القاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويقل في قرية ويبيت في أخرى، بقدر ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَنَوْا كَنَفًا﴾ قال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقاتدة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم، يعني قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسرون من البين إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة^(١١).

وقال العوفي عن ابن عباس: القرى التي باركنها فيها بيت المقدس^(١٢)، ﴿قُرَىٰ ظَهَرَةٍ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون فيقلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(١٣) أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقرأ آخرون: (بعد بين أسفارنا) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهائم يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف، ﴿فَنَجَّلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْزِقٍ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم ورفق سملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، وتفرقوا شذر مذر.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ فِي ذَلِكَ لَأَيَّتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم. روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص^(١٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ، يُؤَجِّرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ فِي مَرَاتِهِ»^(١٥) وقد رواه النسائي في اليوم والليلة^(١٦). وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة^(١٧): «عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَنْفِي اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ؛ شَكَرَ

(١) الطبري: ٣٨٦، ٢٠/٣٨٦. (٢) الطبري: ٣٨٦، ٢٠/٣٨٦.

(٣) أحمد: ١٧٣/١.

(٤) النسائي في الكبرى: ٢٦٣/٦.

(٥) فتح الباري: ١٠/١٠٧. (٦) مسلم: ٤/١٩٩٢.

(٧) الطبري: ٢٠/٣٩٢.

[عجز الهة المشركين]

بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنسداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود؛ ليشفع في الخلق كلهم، أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال: «فَأَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَدْفَعْنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْفَعْنِي، وَيَفْتَحَ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ازْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمِعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ» (١) الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة حت يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود رحمه ومسروق وغيرهما (٢) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي زال الفزع عنها، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والحسن، وقتادة في قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ يقول: خلني عن قلوبهم. وقرأ بعض السلف، وجاء مرفوعاً «إِذَا فُزِعَ» بالغين المعجمة ويرجع إلى الأول فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً ماذا

قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - لمن تحتهم - حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣).

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ وَهُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقِ السَّمْعِ وَمُسْتَرْقِ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بَنِي فَحْرَقَهَا، وَتَشَرَّيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاجِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرَبِّمَا أَذْرَكَ الشَّهَابَ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَرَبَّيْنَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُذْرَكَ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةٌ كَذِبَةٍ يَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ» انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم (٤) من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (٥)، والله أعلم.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦) قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا شُكْلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ يَفْتَنُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٨) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهْتَمُّ بِهِمْ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

[لا شريك لله في أمرها]

يقول تعالى مقررًا تفرد بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض، أي بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فيعلموا أنه لا إله غيره. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١١) هذا من باب اللف والنشر أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد

(١) فتح الباري: ٨/٢٤٨، ومسلم: ١/١٨٥.

(٢) الطبري: ٢٠/٣٩٦. (٣) فتح الباري: ٨/٣٩٨.

(٤) أبو داود: ٤/٢٨٨، وتحفة الأحوذى: ٩/٩٠ وابن ماجه:

(٥) أحمد: ٥/١٤٥.

ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُوخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّومٍ﴾ (١٠) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِيمٌ وَسَعِيدٌ (١١).

مكرهم بالليل والنهار (٢) ﴿إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي نظراء وآله معه، وتقيمون لنا شُبهًا وأشياء من المحال تُضِلُّوننا بها ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِيْ أَصْنَافٍ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلْقَاهُمْ فِيهَا ثُمَّ لَقَحَتْهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرْثِ﴾ (٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٦) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٧) قُلْ إِنْ رَدِيَّ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْأَلَى تَقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا لَفِيَّ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْبِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُوفِ آمِنُونَ﴾ (٩) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي مَالِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١٠) قُلْ إِنْ رَدِيَّ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَأَوْا الظَّلِثُونَ مَوْفُورُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَقْتُمْ عَنْ أَهْلِكُنَّ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِبَلِّ كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾ (١٣) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِيْ أَصْنَافٍ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

[اتفاق الكفار في الدنيا على إنكار الحق

ومشاجرتهم يوم القيامة]

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيذان بالقرآن الكريم، وبما أخبره من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله عز وجل متهددا لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الدليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ منهم وهم قاداتهم وساداتهم ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) أي لولا أنتم تصدوننا لَكُنَّا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَنْتُمْ صَدَقْتُمْ عَنْ أَهْلِكُنَّ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل، لشهوتمكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾ (١٣) وَالَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ أَي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا أنا على هدى وأننا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين. قال قتادة وابن زيد ﴿بَلْ مَكْرَ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكرهم بالليل والنهار (١٤). وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم

[تكذيب المترفين بالرسول

واغترارهم بالأموال والأولاد]

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ وأمرأ له بالناسي بمن قبله من الرسل، وخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١) ﴿وَمَا زِدْنَاكَ آتِيعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ﴾ وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٢) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣) وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

ومن كل شر يحذرونه.

وروى ابن أبي حاتم عن علي بن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرَافًا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ بَطُونِهَا، وَبُكُورَهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» (٤) «وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ» أي يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسوله والتصديق بآياته «أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» (٥) أي: جميعهم محضرون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله تعالى: «قُلْ إِنْ رِئِي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَيَقْدِرْ لَهُ» أي بحسب ماله في ذلك من الحكمة ييسط على هذا من المال كثيرًا. ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدًا. وله في ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره، كما قال تعالى: «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا» (٦) أي: كما هم متفاوتون في الدنيا، هذا فقير مدقع، وهذا غني موسع عليه، فكذاك هم في الآخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدرجات. واطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ» رواه مسلم (٥).

وقوله تعالى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ» أي مهسا أنفقتم من شيء فبما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والشواب، كما ثبت في الحديث: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفَقْ، أَنْفَقْ عَلَيْكَ» (٦) وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسْكًا تَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا (٧). وقال رسول الله ﷺ: «أَنْفَقْ بِإِلَالَةٍ، وَلَا تَحْشَسْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاحًا» (٨).

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» (٩) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (١٠) قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَتَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ

بِهَا تَكْفُرُونَ (١١)

(١) الطبري: ٤٠٩/٢٠. (٢) أحمد: ٥٣٩/٢.

(٣) مسلم: ١٩٨٧/٤، وابن ماجه: ١٣٨٨/٢.

(٤) ابن أبي شيبة: ٤٣٧/٨. (٥) مسلم: ٧٣٠/٢.

(٦) مسلم: ٦٩١/١. (٧) مسلم: ٧٠٠/١.

(٨) الطبراني: ١٩١/١٠.

النَّاسِ كَرِينَ (١٢) وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُمْسِكًا لِتَمَسْكُوا فِيهَا» وقال جل وعلا: «وَلَوْ أَنَّ آدَمَ أَنْ تَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (١٣) وقال جل وعلا ههنا: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ» أي نبي أو رسول «إِلَّا قَالُوا مُتْرَفُوهُمْ وَهُمْ أَولُو النِّعَةِ وَالْحُشْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ، قَالُوا قَتَادَةُ: هُمْ جَابِرَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤُوسُهُمْ فِي الشَّرِّ» (١٤) «إِنَّا يَمَّا أَرْسَلْنَاكُمْ بِكُمْ كُفْرُونَ» (١٥) أي: لا تؤمن به ولا تتبعه.

وقال تبارك وتعالى إخبارًا عن المترفين المكذبين: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْلًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» (١٦) أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك قال الله تعالى: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَيُحْمِلُهُنَّ الْمَلَائِكَةُ وَأَنَّا لَا نَنْبُرُهُنَّ عَذَابًا» (١٧) وقال تبارك وتعالى: «فَلَا تُغْنِيَنَّكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيزَهِّقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ» (١٨) وقال عز وجل: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا» (١٩) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَلَكُودًا (٢٠) وَبَيْنَ أَشْهُدَا (٢١) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (٢٢) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ (٢٣) كَلَّا إِنَّكَ كَانْتَ لَآيِنًا عَنِّي (٢٤) سَاهِقَهُ صَعُودًا (٢٥) وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال ونصر وولد، ثم لم يغن عنه شيئًا بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال عز وجل هاهنا: «قُلْ إِنْ رِئِي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة لقاطعة الدامغة «وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (٢٦).

ثم قال تعالى: «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عَنَّا تَفَقُّ» أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم. روى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢٧) ورواه مسلم وابن ماجه (٢٨) ولهذا قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا» أي إنما يقر بكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح «فَأُولَئِكَ يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَجْرَهُمُ بِمَا عَمِلُوا» أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة مثلاً إلى سبعمائة ضعف «وَهُمْ فِي الْعَرْشِ عَامُونَ» (٢٩) أي في منازل الجنة العالية آمنون، ومن كل بأس وخوف، وأذى،

[براءة الملائكة من عابديهم يوم القيامة]

يخبر تعالى أنه يُفَرِّعُ المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم؛ ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَؤْلَاءِ إِذَا كُفِّرُوا بَعِدُوكُمْ؟﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتهم؟ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿مَا أَنتُمْ أَهْلُكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧) وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءِي مِنَ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلِئَايُنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن عبيدك، ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً﴾ يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلواهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَاهُمْ أَنْ لَا يَسْطِطَعَ تَرِيذًا﴾ (١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ ﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم: من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكرهكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا، ولا ضَرًّا ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧) أي: يقال لهم ذلك تقريبًا وتوبيخًا.

﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَيْتَانَا يَتَّبِعْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٧) وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (١٨) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَمَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ كَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٩)

[أقوال الكفار في الأنبياء والرد عليهم]

يخبر الله عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَصَّةَ طَرَبَةٍ من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾

يعنون القرآن، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٧)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (١٨) أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَّغُوا وَمَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي: من القوة في الدنيا (١). وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد (٢) كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُتُوهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفُتِدَتُهُمْ مِنْ مَقْنَى إِذْ كَانُوا يُجْحَدُونَ وَيَأْتِي اللَّهُ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم ما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿كَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٩) أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَرْجِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرْدَى ثُمَّ نَنْفَعُكُمْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢٠)

[طريق الفصل فيما رموا به النبي ﷺ من الجنون]

يقول تبارك وتعالى: قل: يا عمدا لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَرْجِدَةً﴾ أي: إنما أمركم بواحدة وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرْدَى ثُمَّ نَنْفَعُكُمْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قيامًا خالصًا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضًا هل بمحمد من جنون، فينصح بعضهم بعضًا ﴿ثُمَّ نَنْفَعُكُمْ﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرْدَى ثُمَّ نَنْفَعُكُمْ مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقاتة وغيرهم (٣).

(١) الطبري: ٤١٦/٢٠. (٢) الطبري: ٤١٦/٢٠، ٤١٧.

(٣) الطبري: ٤١٨/٢٠.

وهذا هو المراد من الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١) روى البخاري هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يَا صَبَاحَةَ! فاجتمع إلي قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخَذْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمْسِكُكُمْ أَمَا كُنتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فقال أبو لهب: نَبَأُ لَكَ أَهَذَا جَمْعَتْنَا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ثُمَّ يَدَّ أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (٢) وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣) (١).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْذُوقُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ﴾ (٥) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾ (٦) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ فَإِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٧).

[لا أسألكم أجراً على البلاغ]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنَ الْإِجْرِ فَهِيَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﷻ ﴿قُلْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٧) أي: عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه: بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه.

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْذُوقُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ﴾ (٨) وقوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَرْئَاةٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾ (٩) أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزعم واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَقَذِّفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ لُطُفٍ قَدِمَتْهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقول: «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (١٠) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾ (١١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية (١٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ

اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ﴾ (١٣) أي: الخير كله من [عند الله]، وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين فهي الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فلأنها يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه (١٤). وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (١٥) أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: ﴿إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا حَيًّا﴾ (١٦).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (١٧) وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (١٨) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (١٩) وَجِئِلَ بَيْنَهُمُ الْيَبْتُ مَا يُشْتَهَوْنَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٢٠).

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمداً إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة، ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ (٢١) أي: فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٢٢) أي: لم يمتكنوا أن يمتنعوا في الهرب بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم (٢٣). ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ﴾ (٢٤) أي: يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُلْمِجُّوا مَثُورًا نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْزِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٢٥) ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٦) أي: وكيف لهم تعاطي الإتيان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة، لا سبيل لهم إلى قبول الإتيان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد:

(١) فتح الباري: ٨/٤٠٠.

(٢) فتح الباري: ٨/٢٥٢، ومسلم: ٣/١٤٠٩، وتحفة

الأحوذى: ٨/٥٧٣، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٨٣.

(٣) أبو داود: ٢/٥٨٩.

(٤) النسائي في الكبرى: ٦/٤٣٨، وفتح الباري: ٩/١٥٧،

ومسلم: ٤/٢٠٧٦.

(٥) الطبري: ٢٠/٤٢٣.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجِبُوا رَبَّهُمْ نَحْوَهُ﴾
 ﴿مَنْقُوتٌ وَتِلْكَ فِي الْخَلْقِ مَا يُشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)

[ذكر قدرة الله]

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي: بدأتها^(١). وقال ابن عباس رضي الله عنه أيضًا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بديع السماوات والأرض^(٢). وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض، فهو خالق السماوات والأرض^(٣) وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبياء ﴿أُولَئِكَ أَجِبُوا رَبَّهُمْ نَحْوَهُ﴾ أي: يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعًا ﴿مَنْقُوتٌ وَتِلْكَ فِي الْخَلْقِ مَا يُشَاءُ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب^(٤). ولهذا قال جل وعلا: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥) قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء^(٦).

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ﴾

﴿فَلَا يُرِيدُ لِلْعَرَبِ الْغَلَبَةَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمُحْكِمُ﴾^(٧)

[لا مُمْسِك لرحمة الله]

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. روى الإمام أحمد عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ، فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من

قال مجاهد: ﴿وَأَنَّ لَهُمُ التَّنَافُثَ﴾ قال: التناول لذلك^(١). وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ﴾ قال: بالظن، (قلت): كما قال تعالى: ﴿رَجَعْنَا بِالْأَغْيَابِ﴾ فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ويقولون: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾^(٢) قال قتادة ومجاهد: يرجعون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان^(٤). وقال السدي: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي التوبة^(٥). وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل^(٦). وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس رضي الله عنه، وهو قول البخاري وجماعة، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا فَعَلْ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(٧) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّ اللَّهُ الْكُفْرَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾^(٨) وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾^(٩)

أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم تقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

(١) الدر المنثور: ٦/٧١٤. (٢) الطبري: ٢٠/٤٢٩.

(٣) الطبري: ٢٠/٤٣٠. (٤) الدر المنثور: ٦/٧١٥.

(٥) الطبري: ٢٠/٤٣١. (٦) الدر المنثور: ٧/٣.

(٧) الدر المنثور: ٧/٣. (٨) الدر المنثور: ٧/٣.

(٩) فتح الباري: ٦/٣٦١. (١٠) الدر المنثور: ٧/٤.

﴿فَلَا تَعْرَضْكُمْ حَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسوله من الخير العظيم، فلا تتلَّهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان قاله ابن عباس ^(٤). أي: لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرَّار كذاب أفك، وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَعْرَضْكُمْ حَيَوةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغُرُّكم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضلِّكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير فهذا هو العدو المبين نَسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله، والافتقار بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْنَا الْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَقَرُّهُمْ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ^(٧) أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَءَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَصْرِي إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ^(٨).

[جزاء الكافر والمؤمن يوم المعاد]

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك: أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَقَرُّهُمْ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ^(٧) على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَءَهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه

الصلوة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا منعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وسمعتة ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات ^(١). وأخرجاه من طرق ^(٢). وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ^(٣) قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لَنْ حِمْدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِنْ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ لَيْلٍ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ أَهْلَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِي لِمَا نَنْتَهِ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» ^(٣) وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ صَبْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَأَبَوَاكَ عَنِ الْغُرُفِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ولها نظائر كثيرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ ^(٧)

[دليل التوحيد]

بين تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في أفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذاك ليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره: من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ ^(٢) أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان، والله أعلم.

﴿وَلَنْ يَجْزِيكَ فَعْدُكَ قَدِ كَذَبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾ ^(٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ حَيَوةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ سَوَاءُ الْغُرُورِ ^(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ^(٦)

[التسليية بتكذيب الرسل من]

قبل والتنبيه على المعاد]

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون وبخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف لك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وسروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾ ^(٤) أي: وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة

(١) أحمد: ٤/٢٥٠.

(٢) فتح الباري: ٢/٣٧٨، ١١/١٣٧، ٥٢١، ومسلم: ١/٤١٤، ٤١٥.

(٣) مسلم: ١/٣٤٧.

(٤) الطبري: ٢٠/٤٣٨.

وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ عبادة الأوثان ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣) وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣) أي: فليتعزز بطاعة الله عز وجل (٤).

[العمل الصالح يرفع إلى الله]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف. وروى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال: قال لنا عبدالله هو ابن مسعود رضي الله عنه: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله ويحمده والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقاتلن حتى يجي بهن وجه الله عز وجل، ثم قرأ عبدالله رضي الله عنه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٥).

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلَالِهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ هُنَّ ذَوِي كُنُودِي النَّحْلِ، يَذْكُرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِلَّا اللَّهُ شَيْءٌ يَذْكُرُ بِهِ» (٦) وهكذا رواه ابن ماجه (٧).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: الكلم الطيب ذكر الله تعالى، يصعد به إلى الله عز وجل، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمله عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله، فكان أولى به (٨).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَاتِ﴾ قال مجاهد وسعيد ابن جبير وشهر بن حوشب: هم المراؤون بأعمالهم (٩)، يعني يمحرون بالناس يومون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراؤون بأعمالهم ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُورُ﴾ (١٠) أي: يفسد ويطل ويظهر.

حيلة؟ لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أي: لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِحَ سَحَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ (١) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

[دليل الحياة بعد الممات]

كثيرا ما يستدل تعالى المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج بينه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿أَهْزَنْتَ وَرَبَّتْ وَأَكْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ﴾ (٥) كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا، ونبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ولهذا جاء في الصحيح: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ» (١) ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ (١) وفي حديث أبي رزين قلت: يا رسول الله! كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يَا أَبَا رَزِينِ! أَمَا مَرَزْتُ بِوَادِي قَوْمِكَ ثَمَجًا لَمْ مَرَزْتُ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟ قلت: بلى، قال ﷺ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» (٢).

[من يرد العزة في الدنيا والآخرة فليطع العزيز]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يجب أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة، فليطع طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣) وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقال جل جلاله: ﴿وَالِلَّهِ الْعِزَّةُ

(١) مسلم: ٢٢٧١/٤ (٢) أحمد: ١٢/٤

(٣) الطبري: ٤٤٣/٢٠ (٤) الطبري: ٤٤٤/٢٠

(٥) الطبري: ٤٤٤/٢٠ (٦) أحمد: ٢٦٨/٤

(٧) ابن ماجه: ١٢٥٢/٢ (٨) الطبري: ٤٤٥/٢٠

(٩) الطبري: ٤٤٧/٢٠

وقال بعضهم: بل معناه ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يحب من الأجل ﴿وَلَا يُقْضَى مِنْ عُمرٍ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة،

حالة (٢).

يمنتع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٢) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يُجِيبُواكُمْ وَلَا يُنصِتُونَ كَذَّبُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنصِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ (١٣)﴾

[آلهة المشركين ما يملكون من قطمير]

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه، والنهار بضياؤه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات، بأضوائهن أجرام السماوات، الجميع يسرون بمقدار [معين]، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٢)﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة النمرة (١)، أي: لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم، لأنها جهاد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدر على شيء مما تطلبون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَفِلُونَ (٥) وَإِذْ أَخْبَرْنَا النَّاسَ كَوْنَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْصِتُكَ مِثْلَ خَيْرٍ (١١)﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور وما لها وما نصير إليه مثل خير بها.

قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) يَشَاءُ يَذْهَبَ عَنْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكِ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ (١٨)﴾

[الناس مفتقرون إلى الله وكل

يحمل أوزاره يوم القيامة]

يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات إليه كلها وتذلها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ولهذا قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول به ويقدره ويشعر به وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْ عَنْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦)﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس! وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا يمتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا﴾ أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: وإن كان قريبًا إليها حتى ولو كان أباهًا أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿وَمَنْ تَرَكِ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن عمل صالحًا فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَالِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا الظُّلُمُتُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الْأُمُوتُ إِلَّا اللَّهُ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَتَىٰ بِمُسْمِعٍ مِّنَ الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)﴾

والأدلة القاطعات ﴿وَالْزُّبُرُ﴾ وهي الكتب ﴿وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ﴾ أي: الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيها جاؤوهم به، فأخذتهم أي بالعقاب والנקال ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرًا﴾ أي:

فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا، والله أعلم. ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ وَمِمَّنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[بيان قدرة الله التامة]

يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَمَثِّرَاتٌ وَّجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَعِزْرٌ صِنُونٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَقُصَصٌ بَعْضُهُا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْشَفِ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَا بَشِيرٌ لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة، مختلفة الألوان أيضًا قال ابن عباس: الجدد الطرائق، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي، ومنها غرايب سود. قال عكرمة: الغرايب الجبال الطوال السود، وكذا قال أبو مالك وعطاء والحراساني وقتادة^(١). وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غريب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب، وهو كل ما دب على القوائم، والأنعام، من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضًا، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصفالية وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنِّي لَأَشِيرُكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرُ وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرًا ﴿١٦﴾

[لا يستوي المؤمن والكافر]

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللکافرين وهم الأموات كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالنَّصِيبُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فالؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأعمى في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَدْعُوهُ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولَهَا وَالانقياد لها. وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى نورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا نستطيع هدايتهم ﴿إِن أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بَشِيرًا للمؤمنين ونَذِيرًا للکافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلعت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا لِّئِذْ يَتَذَكَّرُوا وَأَنبِئُوا بِالْظَّلُوعِ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَلَّامِينَ ﴿٢٢﴾، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذي يعلمون أن الله على كل شيء قدير ^(١) وعن ابن عباس قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ^(٢).

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان التميمي عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله، ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس العالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عز وجل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبْزُورَ ۖ ﴿٢٣﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَبَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ^(٣).

[المسلمون هم تجار الآخرة]

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق عما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا، سرًا وعلانية ﴿يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبْزُورَ ۖ ﴿٢٣﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَبَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير
وَبَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴿٢٣﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما عملوا، ويضاعفه لهم بزيادات لم تحط لهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ ۚ ﴿٢٤﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَبَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ^(٤) للقليل من أعمالهم.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَاوُهُ لَخَيْرٌ بِبَصِيرٍ﴾ ^(٥)

[القرآن كتاب الله الحق]

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتبوية، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْعَاوُهُ لَخَيْرٌ بِبَصِيرٍ﴾ ^(٦) أي: هو خير بهم بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبي محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ لَأُولَٰئِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ^(٧)

[ورثة القرآن ثلاثة أقسام]

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المتركبة لبعض المحرمات ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ۖ﴾ وهو المؤدّي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ۖ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمّة محمد ﷺ، ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزل، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب ^(٨). وروى أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ

الآخرة^(٥) وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»^(٦).
 ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من
 المحذور، أراحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من
 هموم الدنيا والآخرة.

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات،
 وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿الَّذِينَ أَحْنَأَ دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ
 قَصْرِهِ﴾ يقولون الذي أعطانا هذه المنزلته وهذا المقام من
 فضله ومَنه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في
 الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ
 الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ
 يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٧) ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
 يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نُفُوثٌ﴾^(٨) أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء.
 والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب على أبدانهم
 ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يذنبون
 أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها،
 وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَسَبَّحُوا لِلَّهِ فِيمَا آتَاكُمْ مِنْهُ لَا تُلْغُوا فِيهِ لِلَّذِينَ اسْلَفُوا مِنْ قَبْلِكُمْ وَلَا تَتَذَكَّرُ بِهِمْ بِأَفْئَاتِهِمْ﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا
 يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾^(٩) وَهُمْ
 يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
 نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
 فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾^(١٠)

[جزاء الكفار وحالهم في جهنم]

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان ما
 للأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ
 فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾^(١١) وثبت في
 صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ
 أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَوْنَ»^(١٢) وقال عز وجل: ﴿وَقَادِرًا
 يَتَكَلَّمُ يَقْضِي عَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾^(١٣) فهم في حالهم

(١) الطبري: ١١/١٨٩. (٢) أحمد: ٥/١٩٦.

(٣) أبو داود: ٤/١٥٧، وتحفة الأحوذى: ٧/٤٥٠، وابن ماجه:

٨١/١.

(٤) مسلم: ١/٢١٩. (٥) فتح الباري: ١٠/٢٩٦.

(٦) فتح الباري: ١٠/٢٩٦. (٧) فتح الباري: ١٠/١٣٢.

(٨) مسلم: ١/١٧٢.

بن أبي. قال ابن عباس رضي الله عنه: السابق بالخيرات يدخل الجنة
 بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه
 وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ.^(١٤)
 وكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من
 هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال
 آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا المصطفين
 الوارثين للكتاب. والصحيح أنه أيضًا من هذه الأمة.

[فضل العلماء]

والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه
 الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس ابن
 كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو
 بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك
 تحدث به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال:
 لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في
 طلب هذا الحديث؟! قال: نعم. قال رضي الله عنه: فإني سمعت
 رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا، سَلَكَ
 اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا
 لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَفْهِرُ لِنَافِثٍ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 حَتَّى يَجِدَ الْبَحْثَانَ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالَمَ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضَّلَ الْقَمَرَ
 عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ
 إِذَا مَاتُوا دُفِنُوا وَوُضِعَتْ رُءُوسُهُمْ وَرُئُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ
 بِحَبْطِ الْوَرْدِ»^(١٥). وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه^(١٦).

﴿جَنَّاتٌ عَنْدَ يَدِّهَا يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
 وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^(١٧) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا
 الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿الَّذِي أَحْنَأَ دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ
 قَصْرِهِ لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نُفُوثٌ﴾^(١٨)

يجز تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا
 الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، ماواهم جنات
 عدن، أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقيدومهم
 على الله عز وجل ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما
 ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه
 قال: «تَبْلُغُ الْحَالِيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١٩).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^(٢٠) ولهذا كان محظورًا عليهم في
 الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن
 رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَسَى الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبِسْهُ فِي

ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧١) ﴿لَا يَغُفِّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُلْسُونَ﴾ (٧٢) وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا جَبَّتْ زَيْدَتُهُمْ سَمِيرًا﴾ (٧٣) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٧٤) ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ﴾ (٧٥) أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

وقوله جلّت عظمتة: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجارون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى خبراً عنهم في قوله: ﴿هَلْ إِلَى مَرَزٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٧٦) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَقُولُوا﴾ أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتهم عنه، ولذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ أي: أوما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتهم به في مدة عمركم؟

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَقَدْ أَغْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَبْدِهِ أَخِيَّاهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ أَوْ سِتِينَ سَنَةً، لَقَدْ أَغْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، لَقَدْ أَغْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ» (١). وهكذا رواه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَغْدَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَمْرِي آخِرَ عُمْرِهِ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً» (٢) وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى سِتِينَ سَنَةً، فَقَدْ أَغْدَرَ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» (٣) وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق (٤).

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْتَارُ أَتْنِي مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة جميعاً في كتاب الزهد (٥). وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة وأبي جعفر الباقر رضي الله عنه وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم

قالوا: يعني: الشيب (٦) وقال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به: رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ﴾ (٧) وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول (٨)، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَأَذَانًا يَنْتَهِلُ يَقْضِي عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ أَتَكْمُرُ مَكْشُوتَ﴾ (٧) ﴿لَقَدْ جَحَنَّاكَ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ (٨) أي: لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل فأبيتهم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْتَغُوا رَسُولًا﴾ (٩) وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجَ مَلَأَةٍ خَرْنَبًا أَلْقَى فِيهَا نَذِيرًا﴾ (١٠) ﴿قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (١١) وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٢) أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر يفتدكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرْتُمْ عَنْهُ كُفْرًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١٤)

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوماً آخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾. ﴿فَنْ كَفَرْتُمْ عَنْهُ كُفْرًا﴾ أي: فإنما يعود وبإل ذلك على نفسه دون غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْنًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزله في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارؤه رب العالمين.

(١) أحمد: ٢/ ٢٧٥. (٢) فتح الباري: ١١/ ٢٤٣.

(٣) الطبري: ٢٠/ ٤٧٨.

(٤) أحمد: ٢/ ٤١٧، وتحفة الأشراف: ٩/ ٤٧٢.

(٥) الترمذي: ٣٥٥٠، وابن ماجة: ٤٢٣٦.

(٦) البغوي: ٣/ ٥٧٣. (٧) الطبري: ٢٠/ ٤٧٨.

(٨) الدر المنثور: ٧/ ٣٢.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ
دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٣﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا
أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مِّنْ
أَزْلَمُمْ وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا ﴿١٤﴾ وَكَفَرُوا تَعَالَى: ﴿١٥﴾ وَإِنْ
كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦﴾ لَوَ أَنَّا عِنْدَكَ ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ
﴿١٨﴾ فَكُفِّرُوا بِيَدِهِ فَمَوْفٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ
نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو
القرآن المبين ﴿فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تُقُبُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفرًا
إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي:
استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا
بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون
غيرهم.

وقوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني:
عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فَلَنْ يَجِدَ
لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية
كذلك في كل مكذب ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي:
﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم
ويحول عنهم أحد، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ لَئِنَّكَ كَانتَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْ يَوَاجِدُ اللَّهُ
النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَهُمْ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٢٣﴾﴾

[ذكر النتائج السيئة لتكذيب الأنبياء]

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جثتهم به من
الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين
كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها،
فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد
كمال القوة وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما
أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما
جاء أمر ربك؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في
السموات والأرض ﴿لَئِنَّكَ كَانتَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: عليم

﴿لَوْ أَن يَدَّ إِلَهُكُمْ شَرَّكُمْ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ
شَيْءٍ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ عَالِيَهُمْ كُنُيَا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ
إِنْ يَدَّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَسْخُفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا أُنْصَبَ عَلَيْهِنَّ
أَحْدَرِينَ بَعْدَهُ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢٦﴾﴾

[التبنييه على عجز الشركاء وقدره الله]

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ
الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿أَرُونِي مَاذَا
خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من
ذلك ما يملكون من قاطمير. وقوله: ﴿أَمْ عَالِيَهُمْ كُنُيَا فَهُمْ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولون من الشرك
والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿لَئِنْ يَدَّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا
غُرُورًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم
وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.
ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء
والأرض عن أمره وما جعل فيها من القوة الماسكة لها،
فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْخُفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: أن
تضطربا عن أماكنها، كما قال عز وجل: ﴿وَمَسَّكَ السَّمَاءَ أَنْ
تَفُتَّ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَازْنَةً﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْ عَالِيَتِهِمْ أَنْ
تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ﴿وَلَئِنْ زَالَا أُنْصَبَ عَلَيْهِنَّ أَحْدَرِينَ
بَعْدَهُمْ﴾ أي: لا يقدر على دوامها وإبقائها إلا هو، وهو مع
ذلك حلیم غفور أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه،
وهو يحلم فيؤخر، وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستتر آخرين
بغيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَلْسِنَتِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى
مِّنْ أَوَّلَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تُقُبُورًا ﴿٢٩﴾
اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٣٠﴾﴾

[التمني الكفار مجيء نذير فلما جاءهم كفروا به]

يخبر تعالى عن قريش والعرب، أنهم أقسموا بالله جهد
ألسنتهم قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ أَوَّلَى الْأُمَمِ﴾، أي: من جميع الأمم الذين
رسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى:

بجميع الكائنات قدير على مجموعها.

[حكمة تأجيل المؤاخاة]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ دَابِكَةً﴾ أي: لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق. وقال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ دَابِكَةً﴾ أي: لما سقامهم المطر فماتت جميع الدواب، **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى** أي: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبال عقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتُكَّ اللَّهُ كَانَ يَكَاذِبُ بَصِيرًا﴾ (١٥). آخر تفسير سورة فاطر والله الحمد والمنة.

تفصيل للنورة ليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) **وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ** (٢) **إِنَّكَ لَئِنْ أَرْسَلْتَ** (٣) **عَلَى صَرْطٍ مُسْتَقِيمٍ** (٤) **تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ الرَّحِيمِ** (٥) **لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** (٦) **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** (٧)

[الرسول بعث منذراً]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. **﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾** (٢) أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه **﴿إِنَّكَ﴾** أي: يا محمد **﴿لَئِنْ أَرْسَلْتَ﴾** (٣) **عَلَى صَرْطٍ مُسْتَقِيمٍ** (٤) أي: على منهج ودين قويم وشرع مستقيم **﴿تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ الرَّحِيمِ﴾** (٥) أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صَرْطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** (٥٢) **صَرْطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾** (٥٣).

وقول تعالى: **﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾** (٦) يعني بهم العرب، فإنه ما أناهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: **﴿قُلْ يَكْفِيهَا النَّاسُ لِي﴾**

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وقوله تعالى: **﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾** قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون **﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** (٧) بالله ولا يصدقون رسله (١).

﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَفْئَةً لِيَأْتِيَهُمْ إِلَهُ الْأَفْئَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨) **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** (٩) **وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** (١٠) **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَتُؤْتَى بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** (١١) **إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ الْقَدْرَ وَالْأَنزِلَافَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** (١٢)

[حال من كتبت عليه الشقاوة]

يقول تعالى: **﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا﴾** هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاوة نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحا ولهذا قال تعالى: **﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾** والمقمح هو الرافع رأسه كما قالت أم زرع في كلامها: وأشرب فأنقمح (١) أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تنهيتا وترويا، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانت مرادتين، قال العوفي عن ابن عباس **﴿فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَفْئَةً لِيَأْتِيَهُمْ إِلَهُ الْأَفْئَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾﴾** (٨) قال: هو كقوله عز وجل **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾** يعني بذلك: أن أيديهم موفقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير (٢) وقال مجاهد: **﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾** (٨) قال: رافعي رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم (٣)، فهم مغلولون عن كل خير وقوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾** قال مجاهد: عن الحق فهم يترددون (٤) وقال قتادة: في الضلالات (٥). وقوله تعالى: **﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾** أي: أغشينا أبصارهم عن الحق **﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾** (٩) أي: لا يتفهمون بخير ولا يهتدون إليه. قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس **﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾** (٩) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢)

(١) الطبري: ٤٩٢/٢٠.

(٢) البخاري: ٥١٨٩، ومسلم: ٢٤٤٨.

(٣) الطبري: ٤٩٤/٢٠.

(٤) الطبري: ٤٩٤/٢٠.

(٥) الطبري: ٤٩٥/٢٠.

(٦) الطبري: ٤٩٥/٢٠.

مجتابي النار المضرين^(٤)، ورواه ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية **﴿وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾** وقد رواه مسلم من طريق آخر^(٥).

هكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾**^(٦)، وقال سفيان الثوري عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: سمعت مجاهدًا يقول في قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾** قال: ما أورثوا من الضلالة.

وقال ابن أبي نجيع وغيره عن مجاهد رضي الله عنه **﴿مَا قَدَّمُوا﴾** أعمالهم **﴿وَآثَرَهُمْ﴾** قال: خطاهم بأرجلهم^(٧)، وكذا قال الحسن وقتادة **﴿وَآثَرَهُمْ﴾** يعني خطاهم^(٨). وقال قتادة: لو كان الله عز وجل مغفلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم! أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار^(٩)، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو مسلمة أن يتنقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: **﴿إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَنَقَّلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟﴾** قالوا: نعم يا رسول الله! قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: **﴿يَا بَنِي سَلَمَةَ! إِيَّارَكُمْ تَكْتُبُ أَثَارَكُمْ، وَإِيَّارَكُمْ تَكْتُبُ أَثَارَكُمْ﴾**^(١٠)، وهكذا رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه به^(١١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: توفي رجل في المدينة فعلى عليه النبي ﷺ وقال: **﴿يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ﴾**، فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَوَفَّى فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ، قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطِعِ أَثَرِهِ فِي الْحَيَاةِ﴾**^(١٢). ورواه النسائي وابن ماجه^(١٣).

ابن المهمله من العشاء، وهو داء في العين^(١٤)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله تعالى هذا السد بينهم بين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ **﴿إِنَّ يَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**^(١٥) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَزُوا لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ^(١٦) ثم قال: من منعه الله ما لا يستطيع^(١٧).

وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا لأفعلن لأفعلن، فأنزلت **﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ مَغْلَقًا﴾** - إلى قوله - **﴿لَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾**^(١٨) قال: وكانوا يقولون هذا محمد، يقول: أين هو أين هو؟ لا يبصره، رواه ابن جرير^(١٩).

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَسَوْفَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**^(٢٠) أي: فقد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد لهم الإنذار ولا يتأثرون به، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تبارك وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**^(٢١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَزُوا لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ^(٢٢). **﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾** أي: ما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم **﴿وَحِشْيَ الرَّحْمَنِ وَالْغَيْبِ﴾** أي: حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل **﴿فَتَنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ﴾** أي: لذنوبه **﴿وَأَجْرُكُمْ﴾**^(٢٣) أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**^(٢٤) ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾** أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين لم ماتت قلوبهم بالضلالة فيهدى بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: **﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**^(٢٥).

وقوله تعالى: **﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾** أي: من الأعمال، **﴿وَآثَرَهُمْ﴾** أي: نكتب أعمالهم التي باسروها بأنفسهم، والآثر التي آثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضًا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، كقوله ﷺ: **﴿مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شُئًا سَنَّاهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شُئًا سَيِّئًا كَانَ عَلَيْهِ دَرَرُهَا وَوُزْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا﴾** رواه مسلم، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وفيه قصة

(١) الطبري: ٤٩٦/٢٠. (٢) الطبري: ٤٩٥/٢٠.

(٣) الطبري: ٤٩٥/٢٠. (٤) مسلم: ٧٠٤/٢.

(٥) مسلم: ٧٠٦/٢. (٦) مسلم: ١٢٥٥/٣.

(٧) الطبري: ٤٩٧/٢٠. (٨) الطبري: ٤٩٩/٢٠.

(٩) الطبري: ٤٩٩/٢٠. (١٠) أحمد: ٣٣٢/٣.

(١١) مسلم: ٤٦٢/١. (١٢) أحمد: ١٧٧/٢.

(١٣) النسائي: ٧/٤ وابن ماجه: ٥١٥/١.

وروى ابن جرير عن ثابت قال: مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويداً، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس! أما شعرت أن الآثار تكتب ^(١)؟ وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ^(٢) أي: وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور، مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقناة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٣)، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبَارِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرِيدُنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صِفْرَهُ وَلَا كِبْرَهُ إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ^(٤).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ^(٥) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُرسَلُونَ ﴿٨﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩﴾

[قصة أصحاب القرية مع الرسل،

وهي تفيد إهلاك المكذبين]

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ^(١) مثلاً أصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب الأحبار ووهب ابن منبه: إنها مدينة أنطاكية وكان بها ملك يقال له أنطيوخس بن أنطيوخس ابن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم صادق وصدوق وشلوم، فكذبهم ^(٢)، وهكذا روي عن بريدة بن الحصب وعكرمة وقناة والزهري أنها أنطاكية ^(٣)، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي:

بادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قوتناهما وشددنا أزهما برسول ثالث. قال ابن جرير عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي قال: كان اسم الرسولين الأولين شعيب ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية ﴿فَقَالُوا﴾ أي: لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَهُكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ ^(٤) أي: من ربكم الذي خلقكم بأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العباس وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام أهل أنطاكية ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم ولو كانت رسلاً لكتبتم ملائكة، وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَجْعَدُونَ﴾ أي: استعجبوا من ذلك وأنكروا وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا عِمَّا كَانَتْ يَدُكَ يُعْبَدُ عِبَادًا فَأَوْفُوا بِطِلْغَانِ مُبِينٍ﴾ ^(٥) وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا أَطْعَمْتُمْ نَارًا يَنْقُلُوا إِلَيْكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خَائِرُونَ﴾ ^(٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ^(٧) وهذا هو هـؤلاء: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ^(٨) قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُرسَلُونَ ﴿٩﴾ أي: أجابهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كانت كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سبغنا وينصرا علينا وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُنْ مِنْ أَلْفِهِ بِنْتِي وَيَتَيْكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُورِ وَالْأَنْزِيرِ وَالذَّيْبِ مَأْمُورًا بِالْطَّيْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ ^(١٠) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ^(١١) يقولون: إنه علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تحيوا فستعلمون غنا ذلك، والله أعلم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَافُكُم بِكُم لَيْنَ لَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٢) ﴿يَا عَذَابَ الْيُسُفْ﴾ ^(١٣) قَالُوا طَاعِدْكُمْ مَعَكُمْ إِنْ دُكِرْتُمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿١٤﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَافُكُم بِكُم﴾ أي: نطوف على وجوهكم خيراً في عيشنا. وقال قتادة: يقولون:

(١) الطبري: ٤٩٨/٢٠. (٢) الطبري: ٩٩٩/٢٠.

(٣) الطبري: ٥٠٠/٢٠. (٤) الطبري: ٥٠٠/٢٠.

خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿١﴾ ءَاتِخُذْ مِنْ دُونِهِ ٱلْهَكَةَ ۖ اسْتَفْهَام
 إنكار وتوبيخ وتقرّيع ﴿٢﴾ إِنْ يَرِئِدَ ٱلرَّحْمَنُ يَصْرِفْ ۖ لَا تَغْنَىٰ عَنكَ
 شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٣﴾ أي: هذه الآلهة التي
 تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا، فإن الله تعالى لو
 أرادني بسوء ﴿٤﴾ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ۖ وَهَذِهِ ٱلْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ
 دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنَعَهُ، وَلَا يَنْقِذُونِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ﴿٥﴾ إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي
 مُبِينٍ ﴿٦﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿٦﴾ إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي مُبِينٍ ﴿٦﴾ فاسمعون ﴿٧﴾ قال
 ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب وهب: يقول لقومه
 ﴿٨﴾ إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي مُبِينٍ ﴿٨﴾ الذي كفرتم به ﴿٩﴾ فاسمعون ﴿٩﴾ فاسمعون أي: فاسمعوا قولي ﴿١٠﴾ ويحتمل
 أن يكون خطابه للرسول بقوله: ﴿١١﴾ إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي مُبِينٍ ﴿١١﴾ أي
 الذي أرسلكم ﴿١٢﴾ فاسمعون ﴿١٢﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك
 عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب
 بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول
 لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول الذي
 حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم. قال ابن
 إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب وهب: فلما
 قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له
 أحد يمنع عنه ﴿١٣﴾ وقال قتادة: جعلوا يرحمونه بالحجارة وهو
 يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى
 أقصصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله ﴿١٤﴾

﴿١٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَإِتَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ يٰمَآ عَقْرٰى
 رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمَكْرُوبِينَ ﴿١٧﴾ وَمَآ أَرْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ
 مِن جُنْدٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مَزْلُومِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً
 فِإِذَا هُمْ خٰمِدُونَ ﴿١٩﴾

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود
 ؓ أنهم وطؤوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دبره، وقال
 الله له: ﴿٢٠﴾ ادْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ فَدْخَلَهَا فَهُوَ يَرْزُقُ فِيهَا قَدْ أَذْهَبَ ٱللَّهُ
 عَنْهُ سَقَمَ ٱلدُّنْيَا وَحَزَنَهَا وَنَصَبَهَا ﴿٢١﴾. وقال مجاهد: قيل لحبيب
 النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى

سباشر فإنما هو من أجلكم ﴿١﴾. وقال مجاهد: يقولون لم
 يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿٢﴾ لَيْنٌ لَّمْ تَنْتَهَوْا
 فَنُفِّرْ ۖ قَالَ قَتَادَةُ: بالحجارة ﴿٣﴾. ﴿٤﴾ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَ عَذَابٍ
 يُنَبِّئُكُمْ ﴿٥﴾ أي: عقوبة شديد، فقالت لهم رسلهم: ﴿٦﴾ طٰلَيْتُكُمْ
 ﴿٦﴾ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم
 رَعْن ﴿٧﴾ فَإِذَا جَآءَهُمْ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَآ هِذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبُنَا مِن مِّثْلِهِ
 نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ وَمِنْ مَعَهُ ٱلْآءَآءُ طٰلَيْتُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴿٨﴾ وقال قوم
 سَالِح ﴿٩﴾ طٰلَيْتُنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَال طٰلَيْتُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ وقال
 من رَجُل ﴿١١﴾ وَإِنْ تُصِيبُنَا مِن حَسَنَةٍ نَّقُولُ هَٰذِهِ مِن عِندِ ٱللَّهِ وَإِنْ
 تُصِيبُنَا مِن مِّثْلِهِ نَقُولُ هَٰذِهِ مِن عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ قَال هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمُ
 ٱلْيَٰكُونُونَ بِمَقْعُودِ حَدِيثٍ ﴿١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿١٣﴾ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ
 نَعْلَمُ مَسَرِّتُوكُمْ ﴿١٤﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم
 بعبادة الله وإخلاص العباد له، قابلتمونا بهذا الكلام
 وتوعبونا وتهديمونا، بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة:
 أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا بل أنتم قوم مسرفون ﴿١٥﴾

﴿١٦﴾ رَجَاةٌ مِّنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَّسْعَىٰ قَال يَنْقُورُ ٱنْجِعُوا
 ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ ٱنْجِعُوا مَن لَّا يَسْتَكْفِرُ ٱجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ
 ﴿١٨﴾ وَمَآ لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٩﴾ ءَاتِخُذْ
 مِنْ دُونِهِ ٱلْهَكَةَ ۖ إِنْ يَرِئِدَ ٱلرَّحْمَنُ يَصْرِفْ ۖ لَا تَغْنَىٰ عَنكَ
 شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٠﴾ إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي مُبِينٍ ﴿٢١﴾
 إِنْ يَإِذَا لِي ضَلٰلِي مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ فاسمعون ﴿٢٣﴾

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب الأحبار
 وهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم
 رجل من أقصى المدينة يسعى، أي ليضرهم من قومه، قالوا:
 وهو حبيب، وكان يعمل الحرير، وهو الحبال، وكان رجلا
 شفيقا قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف
 كسبه، مستقيم الفطرة ﴿٢٤﴾. وقال شبيب بن بشر عن عكرمة
 عن ابن عباس رضي الله عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال:
 سم صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه. ﴿٢٥﴾ قَال يَنْقُورُ
 ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين
 أنعم ﴿٢٧﴾ ٱنْجِعُوا مَن لَّا يَسْتَكْفِرُ ٱجْرًا ﴿٢٨﴾ أي: على إبلاغ الرسالة
 وهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك
 له ﴿٢٩﴾ وَمَآ لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴿٣٠﴾ أي: وما يمنعني من
 إخلاص العباد للذي خلقتني وحده لا شريك له ﴿٣١﴾ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) الطبري: ٥٠٢/٢٠. | (٢) الطبري: ٥٠٢/٢٠. |
| (٣) الطبري: ٥٠٤/٢٠. | (٤) الطبري: ٥٠٤/٢٠. |
| (٥) الطبري: ٥٠٧/٢٠. | (٦) الطبري: ٥٠٨/٢٠. |
| (٧) الطبري: ٥٠١/٢٠. | (٨) الطبري: ٥٠٨/٢٠. |

الثواب ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (١) قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى: ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢) وما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٣) ﴿تَنِي [على] الله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه﴾ (٤). وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَكْبَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥) وبعد مماته في قوله: ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٦) وما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٧) ﴿رواه ابن أبي حاتم.

وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز ﴿يَمَا غَفَر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ (٨) بإيماني بسربي وتصديقي المرسلين. ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. روى ابن أبي حاتم عن عبد الملك - يعني: ابن عمير - قال: قال عروة بن مسعود الثقفي لله للنبي ﷺ: ابعني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ» فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فقال له رسول الله ﷺ: «أَنْطَلِقُ» فانطلق، فمر على اللات والعزى، فقال: لأصحبك غداً ما يسوءك، فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف! إن اللات لالات وإن العزى لا عزى، أسلموا تسلموا، يا معشر الأحلاف! إن العزى لا عزى وإن اللات لالات أسلموا تسلموا، قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «هَذَا مِثْلُهُ كَمِثْلِ صَاحِبِ بَسْ» ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٩) يَمَا غَفَر لي ربي وجعلني من المكرمين (١٠) ﴿٣﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (١١) يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه [عنه] أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (١٢) أي: ما كثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك ﴿إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمُودٌ﴾ (١٣) ﴿١٤﴾

قال: فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية (١٤)، وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (١٥) أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١٦) أي: من رسالة أخرى إليهم، قاله مجاهد وقتادة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمُودٌ﴾ (١٧) قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً (١٨). قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تردد في جسد وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

(أحدها): أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (١٩) - إلى أن قالوا - ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِلَهُائِكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (٢٠) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٢١) ﴿وَلَوْ كُنَّا هَؤُلَاءِ مِنَ الْخَوَارِيز لَقَالُوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام. والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

(الثاني): أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصاري إحدى المدائن الأربعة التي فيها بئر باركة، وهن: القدس لأنه بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلمحو على اتخاذ البئر باركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين، ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده، ولما ابتنى

(١) الطبري: ٥٠٩/٢٠. (٢) الطبري: ٥٠٩/٢٠.

(٣) الحاكم: ٦١٥/٣. (٤) الطبري: ٥١٠/٢٠.

(٥) الطبري: ٥١١، ٥١٠/٢٠. (٦) الطبري: ٥١٠/٢٠.

(٧) الطبري: ٥١١/٢٠.

يَعْمُرُونَ ﴿٢٧﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا، كما كانوا فيها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَهُمْ وَمِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيراً وشرها، ومعنى هذا كقوله جل وعلا: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا يُؤْتِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِينَ أَلْقَيْتَهُمْ فِيهَا جَحِيمًا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَسْتَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وجعلنا فيها جحشاً من نخيل وأعنب وفجراً فيها من العيون ﴿٣١﴾ ليأكلوا من ثمره، وما عملته أيديهم أفلاً يَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْوَارَ كُلَّهَا وَمَا تُنَبِّئُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسُهُمْ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾.

[ثبوت الصانع للعالم والحياة بعد الممات]

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الَّذِينَ أَلْقَيْتَهُمْ﴾ أي: إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَسْتَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ أي: جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَحْشًا مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ وفجراً فيها من العيون ﴿٣٥﴾ أي: جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس ؓ وقادة: ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير - بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتيالاً - أن ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى: الذي تقديره ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي

مطبخية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ذكر تواريخهم، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب المسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة أمنت، فأهل هذه قرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة جده أخذتهم، والله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد ول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري ؓ وغير واحد من سلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من أمة عن آخرهم بعذاب يعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بفنالك المشركين، ذكره عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَنَيْنَا الْكُرْعَتَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ فعلى ما بين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير عاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون عاكية إن كان لفظها محفوطاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة عراكية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿نَحْنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَهُمْ وَمِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ ﴿٣٩﴾.

[يا حسرة على المكذبين]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يا ويل العباد ^(١). وقال قتادة: ﴿نَحْنُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، وفي بعض تفارقات: (يا حسرة العباد على أنفسهم) ^(٢)، ومعنى هذا: حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف دنسوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فأنهم كانوا في الدار الدنيا للمكذوب منهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ في يكذبونه ويستهزئون به ويحسدون ما أرسل به من الحق.

[الرد على عقيدة التناسخ]

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَهُمْ وَمِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من الكافرين للرسول، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

كذلك في قراءة ابن مسعود **﴿يَا كُؤَامُنْ تَمُرْ وَمَا عَيْلَتُهُ أَبْدِيَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾** (٣٦) ثم قال تبارك وتعالى: **﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾** أي: من زروع ونثار ونبات **﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** فجعلهم ذكرا وأنثى **﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾** (٣٧) أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال جلّت عظمتها: **﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (٣٨) **﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ آيَلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾** (٣٩) **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٠) **﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ﴾** (٤١) **﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** (٤٢)

[ومن قدرة الله وآياته العظيمة الليل والنهار والشمس والقمر]

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته - تبارك وتعالى - العظيمة، خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وجعلها يتعاقبان: يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: **﴿يَتَّبِعُ آيَلُ النَّهَارِ ظِلُّهُ حَيْثُ كَانَ﴾** ولهذا قال عز وجل ههنا: **﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ آيَلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ﴾** أي: نصرمه منه، فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: **﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾** (٣٧) كما جاء في الحديث: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هُنَا، وَغَرِبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» هذا هو الظاهر من الآية (١).

وقوله جل جلاله: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٠) في معنى قوله: **﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾** قولان: (أحدهما): أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت، فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة، ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة، تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون إلى العرش، فحيثئذ تسجد وتستأذن في الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث.

روى البخاري عن أبي ذر **﴿قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَذَرِي آيَنَ**

تَقَرَّبَ الشَّمْسُ؟﴾ قلت: الله ورسوله أعلم، قال **﴿تَذَهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَلَذِكْ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴾** **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٠) وأيضاً عن أبي ذر **﴿قال: سألت رسول الله ﷺ عن تبارك وتعالى:﴾** **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾** قال **﴿مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ﴾** (٣)

(والقول الثاني): أن المراد بمسقرها هو منتهى سيرها يوم القيامة، يطل سيرها وتسكن حركتها وتكسور، وينتقل هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. قال **﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾** أي: لوقتها ولأجل لا تعدو (١) والمراد أنها لا تزال تتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا عليها، ثم تتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها. وهذا عن عبد الله بن عمرو **﴿وقرأ ابن مسعود وابن عمر ﷺ (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)﴾** أي: لا قرار لها ولا سكون بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تقف ولا تتقف، كما قال تبارك وتعالى: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾** (٤٣) أي: لا يقف ولا يقفان إلى يوم القيامة **﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾** أي: الشئ يخالف ولا يناع **﴿الْعَلِيمِ﴾** بجميع الحركات والسكنات وقد قدر ذلك وقته على منوال لا اختلاف فيه ولا تعذر كما قال عز وجل: **﴿فَالْيَوْمِ الْاِصْبَاحُ يَجْعَلُ آيَلٌ سَكَنًا وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٤) وهكذا حكم الله السجدة بقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٥).

ثم قال جل وعلا: **﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾** أي: جعله يسير سيرا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كإفادته عز وجل: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ﴾** (٤٦) وقال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّتِ السِّنِينَ وَالْأَحْسَابُ﴾** (٤٧) **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** (٤٠) **﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ﴾** (٤١) **﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** (٤٢)

هذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد

(١) فتح الباري: ٤/ ٢٣١. (٢) فتح الباري: ٨/ ٤٠٢.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٤٠٢. (٤) الطبري: ٢٠/ ١٧.

﴿وَأَيُّهُمْ أَتَانَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ﴾ (٤١) ﴿وَلَقَدْ أَنشَأْنَا مِنْ مَتْلَبِ مَا رَزَقْنَاهُمْ فَلَاحَ صَاحِبِهِمْ وَلَمْ يَصْرِحْ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَعْقِدُونَ﴾ (٤٢) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٣)

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٦﴾
وَرَدَّ قَيْدَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْشَرْنَا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾

[بيان ضلال المشركين]

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكترائهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمِمَّا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب، وقال غيره بالعكس ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك، يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه، وتقدير الكلام: أنهم لا ينجون إلى ذلك بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا يتفكرون بها.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ﴾ أي: وإذا أمروا بالإففاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإففاق محاجين لهم فيما أمرهم به ﴿أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرقونا بالإففاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إِنْ أَنْشَرْنَا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾

[استبعاد الكفار يوم البعث]

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ قال الله عز وجل: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرائيل فنفخ في الصور نفخة يطوها ويمدها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ورفع ليتها - وهي صفحة العنق -

يستمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكون الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثًا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٣﴾ فَأَلِيمُ لَا تَغْلِبُكُمْ نَفْسُ شَيْئٍ وَلَا تَجْزُوتُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

[نفخة البعث]

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ والنسلان هو المشي السريع كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءُكُمْ إِلَى نَسَبٍ رُفُوعٍ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثًا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عابوا ما كذبوا به في عشرهم ﴿قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثًا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقادة: ينامون نومة قبل البعث ^(١). قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون ﴿مِنْ بَعْثًا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ^(٢)، فإذا قالوا ذلك أجابه المؤمنون، قاله غير واحد من السلف ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وقال الحسن: إنما يجهيم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّا بِنُفْحِ رَبِّنَا لَمَرْسِلُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْأَيْمَنِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُ إِنْ لَيْتَ

﴿٥٨﴾ أي: إنا نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع
﴿٥٩﴾ قَالِيمٌ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴿٦٠﴾ أي: من عملها ﴿٦١﴾ وَلَا
﴿٦٢﴾ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿٦٤﴾ وَنَحْنُ الْجَنَّةُ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَبُوهْنَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ وَأَرْجُوهْنَ فِي
﴿٦٦﴾ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ فِيهَا فَتَكَبُّهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ
﴿٦٨﴾ سَلِّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٦٩﴾

[بيان عيش أهل الجنة]

عن تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من
رجعات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن
هم، بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم. قال
عن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ عما فيه
من النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَبُوهْنَ﴾
في نعيم معجبون أي به^(١)، وكذا قال قتادة، وقال ابن
سريج: ﴿فَكَبُوهْنَ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: فرحون.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ وَأَرْجُوهْنَ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم،
في ظلال ﴿أي: في ظلال الأشجار﴾ ﴿٦٢﴾ عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَكَبِّرُونَ
﴿٦٣﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب
والحسن وقاتدة والسدي وخفيف ﴿الْأَرْبَابِكُمْ﴾ هي السرر
في المجالس^(٢). وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ فِيهَا فَتَكَبُّهُمْ﴾ أي:
مع أنواعها ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ أي: مهما طلبوا
جدوا من جميع أصناف الملاذ.

وقوله تعالى: ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾ قال ابن جريج:
سليم عباس في قوله تعالى: ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾
﴿٦٩﴾ فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا الذي قاله
ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَيَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومُهُمْ سَلِّمٌ﴾.

﴿أَخْبَرُوا اللَّهَ أَنَّكُمْ بَنِي﴾ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ يَعْهَدُوا إِلَيْكُمْ بَنِي
﴿٦٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَأَنْ
﴿٦٧﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا
كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

[مكان الكفار بالموقف يوم القيامة وزجرهم]

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من
بأنهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم،
قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ
﴿٧٠﴾ وَنُزِّلُكُمْ فِي النَّارِ لِيُنْفِئَهُمْ ﴿٧١﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ
﴿٧٢﴾ وَنُفِخُ فِي الصُّورِ ﴿٧٣﴾ وَنُفِخُ فِي الصُّورِ ﴿٧٤﴾ أَي: يصيرون

صاعدين فرقتين ﴿أَخْبَرُوا اللَّهَ أَنَّكُمْ بَنِي﴾ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ يَعْهَدُوا إِلَيْكُمْ بَنِي ﴿٦٥﴾ وَأَنْ لَا تَعْبُدُوا
﴿٦٦﴾ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٧﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا
كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْهَدُوا إِلَيْكُمْ بَنِي﴾ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ يَعْهَدُوا إِلَيْكُمْ بَنِي ﴿٦٥﴾ وَأَنْ لَا تَعْبُدُوا
﴿٦٦﴾ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٧﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا
كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ أي: أفما كان لكم
عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا
شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ
﴿٧١﴾ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُهُمْ
﴿٧٣﴾ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ
﴿٧٥﴾ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْ يَصِيرُوا ﴿٧٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
﴿٧٧﴾ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الحميم
لهم تقريراً وتوبيخاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾
أي: هذه التي حذرتكم الرسل، فكذبتموهم ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾
﴿٧١﴾ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ
﴿٧٣﴾ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَيَسْخَرُ
﴿٧٥﴾ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾

[الختم على أفواه المجرمين يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ
﴿٧٣﴾ وَنَنصِتُهُمْ﴾ هذا حال الكفار
والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموا في الدنيا،
ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق
جوارحهم بما عملت.

(٢) الطبري: ٥٣٨/٢٠.

(١) الطبري: ٥٣٥/٢٠.

(٣) الطبري: ٥٤٠، ٥٣٩/٢٠.

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أَتَذَرُونَ مِمَّ أَضَحَكْتُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «مِنْ تَجَادُلِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلُمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيْكَ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَا، فَيُخْتَمَرُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقْ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُجَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُغْدًا لَكُنَّ وَسُخْفًا، فَعَتَكُنَّ كُنْتُ أَتَأْخِضُ» وقد رواه مسلم والنسائي ^(١).

وروى ابن جرير عن أبي موسى، هو الأشعري رضي الله عنه قال: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم، أي: رب عملت عملت عملت، قال: فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها، قال: فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئا، وتبدو حسناته، فود أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول: أي: رب وعزتك، لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك ختم الله على فيه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: فلاني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: «أَيُّومَ نَخْتَرُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» ^(٢) وقوله تبارك وتعالى: «وَكُوْنُوا شَآءَ لَطْمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» ^(٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: يقول ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يبتدون؟ وقال مرة: أعميناهم ^(٤). وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميا يترددون. وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي: «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ» يعني الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراط ههنا الحق، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه: «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» لا يبصرون الحق ^(٥).

وقوله عز وجل: «وَكُوْنُوا شَآءَ لَطْمَسْنَا عَنْهُمْ أَبْصَارَهُمْ» قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه: أهلكناهم. وقال السدي: يعني لغيرنا خلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة. وقال الحسن البصري وقتادة: لأتعدهم على أرجلهم ^(٦)، ولهذا قال تبارك وتعالى: «فَمَا اسْتَطَعُوا

مُضِيًّا» أي: إلى أمام «وَلَا يَرْجِعُونَ» ^(٧) إلى وراء، بل يلزمون حالًا واحدًا، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

«وَمَنْ تَعَمَّرَهُ نَكَسَهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ» ^(٨) وعلمته الشَّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَفَرَانٌ مُبِينٌ ^(٩) لِنَذِيرٍ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(١٠)

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رُدَّ إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تبارك وتعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» ^(١١) وقال عز وجل: «وَمَنْكُمْ مَنْ رُدُّوا إِلَى الْأَوَّلِ الْأَوَّلِيِّ» يعز بعد عز شيئًا والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار بهذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار ولهذا قال عز وجل: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» ^(١٢) أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشَّيْبَةِ، ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال ولا انتقال منها ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

[إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْطِهِمْ رَسُولَهُ الشَّعْرَ]

وقوله تبارك وتعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُ» ^(١٣) عز وجل خبرًا عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر ^(١٤) يَلْبِغِي لَهُ أي: ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يجبه ولا ينقبجبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتًا على وزن مستطبل إن أنشده زحفه، أو لم يتمه.

وروى البيهقي في الدلائل أن رسول الله ﷺ قال للعباس ابن مرداس السلمي رضي الله عنه: «أَنْتَ الْقَائِلُ»:

أَجْعَلْ نَهْيِي وَتَهْبِيبِي بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَغَيْبِي فَقَالَ: إِنَّمَا هِيَ «عَيْبَةُ وَالْأَقْرَعُ» فقال ﷺ: «الْكُلُّ سَبْعَةٌ» يعني في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه ^(١٥)، والله أعلم وذلك لأن الله تعالى علمه القرآن العظيم الذي «لَا يَأْتِيهِ الظُّلُمُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ مُبِينٍ» ^(١٦) وليس من شعر، كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كنهان، ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضَّالَّالِ وَلِ

(١) مسلم: ٤/ ٢٢٨٠، والنسائي في الكبرى: ٦/ ٥٠٨.

(٢) الطبري: ٢٠/ ٥٤٤. (٣) الطبري: ٢٠/ ٥٤٥.

(٤) الطبري: ٢٠/ ٥٤٧. (٥) الطبري: ٢٠/ ٥٤٧.

(٦) الطبري: ٢٠/ ٥٤٧. (٧) دلائل النبوة: ٥/ ١٨.

الانتقام عن أرواحها بسوء؛ لأنها جاهد لا تسمع ولا تعقل.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَمْ جُنْدُ خُضْرُونَ﴾ (٧٥) قال مجاهد: يعني: عند الحساب (٣) يريد أن هذه الأصنام محشورة بمجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في حزنهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَمْ جُنْدُ خُضْرُونَ﴾ (٧٦) والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم شراً، إنها هي أصنام، وهكذا قال الحسن البصري. وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى.

[تسليية الرسول ﷺ]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦) أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفتقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَصَرَّحَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُخَيِّ الْعَظَمُ وَهُوَ رِيمٌ ﴿٧٨﴾ كُلُّ يَحْيِيَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَرَمْتُهُ تَوَدُّونَ ﴿٨٠﴾

[إنكار الحياة بعد الممات والرد على ذلك]

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف -لعنه الله- إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتنه ويدروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أنزع من الله بيعت هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يُبَيْعُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ» ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخره (٤). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضيهما: قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتنه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيجبى الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٧٦) أي: ما هذا الذي علمناه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٧٦) أي: بين واضح جلي لمن تأمله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَنُنْزِلَنَّ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا من الدين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لَنُنْزِلَنَّ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ (٧٦) وقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْلَاكُمْ﴾ (٧٦) وإنما يتفجع بنذارته من هو حي القلب مستبصر، كما قال قتادة: حي القلب حي البصر (١). وقال سبحانه: يعني عاقلاً (٢) ﴿وَيَحْيِ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) موجهة للمؤمنين، وحجة على الكافرين.

﴿وَرَبُّنَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا شُكْرُونَ﴾ (٧٦) وَلَكِنَّهَا لَهُمْ قِيَمَاتٌ وَمِنْهَا رِزْقُهُمْ وَمِنْهَا يَكُونُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعِينَ وَمَسَارِبَ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

[الأنعام آية ونعمة]

ذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿لَهُمْ لَهَا مَتَلَكُونَ﴾ (٧٦) قال قتادة: مطبقون، أي: جعلهم موزوناً وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى الإنسان، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل متقاد معه، ولو كان القطار مائة بغير أو أكثر، لسار الجميع بسيرهم. وقوله تعالى: ﴿فِي مَتَلَكُونَ وَمِنْهَا يَكُونُونَ﴾ (٧٦) أي: منها يكونون في الأسفار، ويحملون عليه الانتقال إلى سائر الجهات والقطار ﴿وَمِنْهَا يَكُونُونَ﴾ (٧٦) إذا شاؤوا ونحروا واجتازوا ومنها ينفع ﴿أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ (٧٦) وسارِبَ ﴿أي: من ألبنائها وأبوالها لمن ساروا ونحو ذلك﴾ (٧٦) أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أي: أفلا يوحدون حق ذلك ومسخره، ولا يشكرون به غيره؟

﴿وَتَذَكَّرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ (٧٦) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ جُنْدُ خُضْرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

[آلهة المشركين لا تقدر على نصرهم]

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ﷻ بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم من الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ (٧٥) أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحق وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا

يُمِيتُكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُذِلُّكَ جَهَنَّمَ قال: ونزلت من آخر يس، ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبيرة (١).

وهذه الآيات سواء كانت قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما، ولكنها عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا الْإِنْسَانَ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبده على الإعادة، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠) فَعَمَلَتْهُ فِي فَرْجِ امْرَأَةٍ (٢١) إِنْ قَدَرْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة، أليس بقادر على إعادته بعد موته.

كما روى الإمام أحمد في مسنده عن بشر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَنْتَ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ مِثْلِي هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَتَيْدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَافِي قُلْتَ: اتَّصَدَّقْ، وَأَنْتَ أَوَّانُ الصَّدَقَةِ؟» ورواه ابن ماجه (٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) أي: استبعد إعادة الله تعالى، ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض، للأجسام والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته، ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت.

روى الإمام أحمد عن ربيعة قال: قال عقبه بن عمرو لحذيفة رضي الله عنه: ألا نحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إِنَّ رَجُلًا خَضِرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزَلًا، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي، وَخَلَصَتْ لِي عَظْمِي فَأَمْشُجْشْتُ، فَخَذُّوْهَا فَذَقُوْهَا فَذَرُّوْهَا فِي الْيَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَقَرَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ» فقال عقبه بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان

نابشاً (٤)، وقد أخرجاه في الصحيحين بألفاظ كثيرة منها: أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه في البحر، فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، قال له: كن، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على صنعت؟ قال: مخافتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن غفر له وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنَارْتُمْ تَبَدَّلَ لَوْنٌ ثَوْبُكُمْ﴾ (٨٠) أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من نار حتى صار خضراً انضراً إذا تمز ونبع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنَارْتُمْ تَبَدَّلَ لَوْنُ ثَوْبِكُمْ﴾ يخرج هذه النار من هذا الشجر، قادر على أن يعيته، وقيل المراد بذلك شجر المُرِّ والعفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أفراس قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويضع أحدهما بالأخر، فتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي المثل: لكل شجر نار واستعمل المرخ والعفار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسَيَحْنُ الَّذِي يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَالَّذِي تَرْجُونَ (٨٣) يقول تعالى: مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السماوات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والنواب والارضين السبع، وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير: وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْ خَلْقِهِنَّ مَقَدِيرًا﴾ (٨٤) أَن يَخْلُقَ الْمَوْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨٥) وقال تبارك وتعالى ههنا

(١) الطبري: ٢٠/٥٥٤. (٢) أحمد: ٤/٢١٠.

(٣) ابن ماجه: ٢/٩٠٣. (٤) أحمد: ٥/٣٩٥.

(٥) فتح الباري: ٦/٥٩٤، ومسلم: ٤/٢١١٠.

والنسائي^(٤). آخر تفسير سورة يس والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

[فضل سورة الصافات]

روى النسائي عن عبد الله بن عمر^(٥) قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات^(٦)، تفرد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ١ فَالزَّجْرَجُ زَجْرًا ٢ فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا ٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾

[تشهد الملائكة بتوحيد الإله]

عن عبد الله بن مسعود^(٧) أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا ١﴾ وهي الملائكة ﴿فَالزَّجْرَجُ زَجْرًا ٢﴾ هي الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا ٣﴾ هي الملائكة^(٨)، وكذا قال ابن عباس^(٩) ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقاعدة والربيع بن أنس^(١٠). قال قاعدة: الملائكة صفوف في السماء^(١١). وروى مسلم عن حذيفة^(١٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ لَنَا تَرَابُهَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ»^(١٣) وقد روى مسلم أيضًا وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن جابر بن سمرة^(١٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال^(١٥): «يُصِفُونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(١٦) وقال السدي وغيره معنى قوله تعالى: ﴿فَالزَّجْرَجُ زَجْرًا ٢﴾ أنها تزجر السحاب ﴿فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا ٣﴾ قال السدي: الملائكة يحييئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس.

(١) أحمد: ٥/١٥٤. (٢) أحمد: ٥/١٥٤.

(٣) أبو داود: ١/٥٤٤.

(٤) شهاب الترمذي: ١٦٤، والنسائي: ٢/٢٢٣.

(٥) النسائي: ٢/٩٥. (٦) الطبري: ٢١/٧.

(٧) القرطبي: ١٥/٦١، ٦٢. (٨) الطبري: ٢١/٧.

(٩) مسلم: ١/٣٧١.

(١٠) مسلم: ١/٢٢٣، وأبو داود: ١/٤٣١، والنسائي: ٢/٩٢.

وابن ماجة: ١/٣١٧.

﴿لَوْ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَكُونُ^(٨٢) ﴿٨٣﴾ أي: إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، لا حاجة إلى تكرار أو تأكيد:

إِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا وَاحِدًا

يقول له كن قوله فيكون

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر^(٨٤) قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ بَدَأْتُ، فَاسْتَغْفِرْهُ وَأَغْفِرْ لَكُمْ، وَكُلُّكُمْ قَافِرٌ إِلَّا مَنْ أَهْنَيْتُ، فَإِنْ جَاءَ مَا جَاءَ أَحَدٌ أَفْعَلَ مَا أَشَاءُ، عَطَانِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي نَارٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا قَالَتْ أَيْدِي لَوْ كُنْ فَيَكُونُ»^(٨٥).

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ رُجُوعُهُنَّ ٨٢﴾ أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء، للحي يوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه يرجع أمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، يجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل. معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَبْدُو الْمَلِكُ﴾ فالملك والملوك واحد في المعنى، كرحمة ورحمت، وربة وربوب، وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد، والملوك هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي ذهب إليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

روى الإمام أحمد عن حذيفة وهو ابن اليمان -^(٨٦) قال: كنت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع نجات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سَمِعَ اللَّهُ لَنْ هَذَا» ثم قال: الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فصرف وقد كادت تنكسر رجلاي^(٨٧).

وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي^(٨٨) قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف يعوذ، قال: ثم ركب بقدر قيامه يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ الْجِبْرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة^(٨٩)، ورواه الترمذي في الشرائع

[المعبود الحق هو الله]

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۚ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو، رب السماوات والأرض ﴿وَمَا يَتَّبِعُهَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۚ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدالتها عليه وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّمَا لِقُدْرَتِهِ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَرِيَنَّ الْكَوَاكِبَ ۚ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا أَمْرًا أَوْحَايَ وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ دُخْرًا وَمِنْ عَذَابٍ وَاصِبٍ ۚ﴾ إِلَّا مَنْ خُفِيَ لَخُطْفَةٍ فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ ثَائِبٌ ۚ

[تزئين السماء وحفظها من الله]

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للنظارين إليها من أهل الأرض ﴿نَرِيَنَّ الْكَوَاكِبَ﴾ قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعنى واحد، فالكوكب السيارة والثوابت في السماء تضيء لأهل الأرض كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۚ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۚ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَاجٍ ۚ﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَكْثَعَ فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ ثَائِبٌ ۚ فقولاه جل وعلا ههنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناها حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ يعني المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع أثناء شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا أَمْرًا أَوْحَايَ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بها يوحى الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك وتعالى: ﴿حَقِّقْ إِذَا فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۚ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقْدِرُونَ﴾ أي: يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُخْرًا﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ويرجمون ﴿وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ﴾ أي: في الدار الآخرة، لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال جلست عظمتهم: ﴿هُمَّ عَذَابُ السَّعِيرِ ۚ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ

خُفِيَ لَخُطْفَةٍ ۚ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخفية وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقها إلى الذي تحته، والآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها، فيذهب ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث. ولهذا قال: ﴿خُفِيَ لَخُطْفَةٍ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ۚ﴾ أي: مستتير. وروى جرير عن ابن عباس ؓ قال: كان للشياطين مقاعد في السماء قال: فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تحرق وكان الشياطين لا ترمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله جعل الشيطان إذا قصد مقعده جاءه شهاب فلم يحطك بحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس - لعنه الله - فقال: ما هذا إلا من أمر حدث، قال: فبعث جنوده فإذا رسول الله يصلي بين جبلي نخلة - قال وكيع: يعني بطن نخلة - فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث

﴿فَأَسْفَفْنَاهُمْ أَهْمَ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۚ﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَئِنْ رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَمِنَّا وَكَانَ نَزَارًا وَعَطْلًا إِنَّمَا تَبْعُوثُونَ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ نَأْتِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا وَمَنْ أَنْتُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَأَمَّا هِيَ تَرْجَوُ وَحِيدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾

[ثبوت الحياة بعد الممات]

يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث، أيها أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ وقرأ ابن مسعود ؓ: (أَمْ نَبْعَدُكُمُ) عَذَابًا فَإِنَّهُمْ يَقْرُونَ أَنَّ هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ ينكرون البعث وهم يشاهدون هو أعظم مما أنكروا؟، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَخْشَى الْفَسَادَ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الْكَافِرِينَ وَلَكِنَّ أَكْبَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم بين أنهم خلقوا من نوره ضعيف فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبيرة والضحاك: هو الجيد الذي يلتصق ببعضه ببعض (٣)، وقال ابن عباس ؓ وعكرمة: هو اللزج الجيد وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ

(١) الطبري: ١٢/٢١. (٢) الطبري: ١٩/٢١.

(٣) القرطبي: ٦٩/١٥، الطبري: ٢٢/٢١.

عمر يقول: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم.
قال: يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الربا
مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر،
وروى مجاهد وسعيد بن جبيرة عن ابن عباس: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾
قرناؤهم ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢١) من دُونِ اللَّهِ أي من الأصنام
والأنداد تحشر معهم في أماكنهم. وقوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى
صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٢) أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا
كقوله تعالى: ﴿وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمًا وَيَكْمَأُ
وَصُمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٢٣) وقوله
تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ أَتَيْتُمْ مُتَعَلِّقُونَ﴾ (٢٤) أي قفروهم حتى يسألوا
عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، كما
قال الضحاك عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون.
وقال عبد بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول
ما يسأل عنه الرجل، جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل
التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٢٥) أي كما زعمتم
أنكم جميع منتصر ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُتَسَلِّطُونَ﴾ (٢٦) أي متقادون
لأمر الله، لا يخالفونه ولا يجيدون عنه، والله أعلم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ
(٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ
كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ (٣٠) فَخَبَّرْنَا عَنْهُمْ قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاهِقُونَ (٣١) فَأَقْبَرْنَاكُمْ إِنَّا
كَاغِبُونَ (٣٢) فَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) أَنْتُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
(٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرَكُوا إِلَّا فِي سَبِيلِنَا وَلَعَبٌ كَبِيرٌ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ
وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ (٣٧)

[تخاصم المشركين يوم القيامة]

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات يوم
القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار ﴿فَيَقُولُ الضَّالِّعَتُونَ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ
عَنَّا ضَغِيْبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٢) وَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَوْ رَدُّوا إِلَى الظَّالِمِينَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

بِالْخَطِيئَةِ إِنَّهُمْ لَكَ مُخْشَرُونَ﴾ (٣) أي: بل عجبت يا محمد من تكذيب
ته، ولتقية المكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من
نيها، ورعب العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فناءها، وهم بخلاف
يذهب بها من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

ال: ﴿إِنَّا قَتَلْنَاكَ﴾ عجب محمد ﷺ وسخر ضلال بني آدم
روى ابن عباس: ﴿إِنَّا قَتَلْنَاكَ﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَكْبِرُونَ
بِالسَّامِ﴾ قال مجاهد وقتادة: يستهزئون (٢) ﴿وَقَالُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا يَسْخَرُ
مِنَّا لَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبین
ي نزلوا مِنَّا وَكُنَّا نُرَآكَ وَحَدَّثْنَا إِنَّكَ لَمُبْعُوثُونَ (١) أَوَمَا بَرَأْنَا الْأَوَّلُونَ
قَوْلَ اللَّهِ ذَلِكَ وَيَكْذِبُونَ بِهِ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرْتُمْ﴾ (٣) أي:
لهم يا محمد، نعم تُبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا
ل: مَنَافٍ ﴿وَأَنْتُمْ دَخِرْتُمْ﴾ (٤) أي: حقرون تحت القدرة
عظيمة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَخِيرٌ﴾ (٥).
نَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
مُتْرَفُونَ﴾ (٦) ثم قال جلست عظمته: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجِدَتْ
مَنْ يَخْرُجُ﴾ (٧) أي: فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل،
مهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام
يذهب، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.
قَالُوا لَوْلَا بَرَأْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ (٨) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَكْبُرُونَ (٩) أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (١٠) وَقَفَّوهُمْ أَتَيْتُمْ
تَزَوُّونَ (١١) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (١٢) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُتَسَلِّطُونَ (١٣)

[أهوال يوم الدين]

نقل عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على
بهم باللام، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في
الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندما كل الندم حيث
سفعهم الندم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا بَرَأْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١) فتقول
لكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْبُرُونَ﴾
وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله
بالملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في
سفرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير: يعني بأزواجهم:
سفرهم وأمنائهم (٢)، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة
وقال شريك عن سواك عن النعمان قال: سمعت

(١) الطبري: ٢٣/٢١.

(٢) الطبري: ٢٤/٢١.

(٣) الطبري: ٢٧/٢١.

(٤) الطبري: ٢٨، ٢٧/٢١.

أَنْتُمْ مُظْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ أي مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فَأَطْلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٥٧﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبير وخليل العصري وقنادة والسدي وعطاء الخراساني: يعني في وسط الجحيم ^(١)، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ^(٢) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزُوِّنَ﴾ ﴿٥٨﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعته ﴿وَلَوْلَا يَمْنَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: ولولا فضل الله عليّ لكننت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ هذا من كلام المؤمن مغطاً نفسه لما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة، والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾. وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ قيل: لا، قالوا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٥﴾ وقوله جل جلاله: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه مثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصروا إليه في الآخرة ^(٤).

[قصة إسرائيليين]

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة، روى أبو جعفر ابن جرير عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿٥٨﴾ قال: إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراي إلا مفارقتك ومقاسمك فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت للملك، مات فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار؟ قال ما أحسنها، فلما خرج قال: اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك داراً من دور الجنة فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه

وصنع له طعاماً، فلما أتاه قال: إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار قال: ما أحسن هذا، فلما انصرف قال: يا رب صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الجنة العين فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى يمكث، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال: ابتعت هذين البستانين بألفي دينار قال: ما أحسن هذا، ثم خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة فتصدق بألفي دينار، ثم إن المرء أتاهما فتوفاهما ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله داراً نعيم وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسننها، ثم أدخله بستاناً وشيئاً الله به عليهم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا بمرجل كان أمره كذا وكذا، قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستان والمرأة، قال: فإنه كان لي صاحب ﴿يَقُولُ أَمْ لَكَ لَبَنَ الْغَنَاءِ﴾ ﴿٦٧﴾ قيل له: فإنه في الجحيم قال: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ فَأَطْلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٩﴾ فقال عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ كِدْتُ لَتَزُوِّنَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَلَوْلَا يَمْنَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ الآيات.

﴿أَذَلَّكَ حَيْرُ نَزْلَا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ ﴿٧٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٧٣﴾ إِنَّمَا سَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٧٤﴾ ظِلُّهَا فِي دُورِ الشَّيْطَانِ ﴿٧٥﴾ فَلَا تَكُونُ مِنْهَا مَكَاثِرُونَ وَمِنَهَا ثَمَرٌ لِّبَنِي آدَمَ لَا يَلْعَنُونَ لِمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخُصَمَاءُ تَتَوَاتَوْا فِيهِ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخُصَمَاءُ تَتَوَاتَوْا فِيهِ ﴿٧٨﴾ فَهُمْ عَلَىٰ الدَّرَجَاتِ مُبْتَلَوْنَ ﴿٧٩﴾

[ذكر شجرة الزقوم وأصحابها]

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكول ومشروب ومناجح وغير ذلك من الملاذ خير ضياء وعطاء ﴿أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ ﴿٧٢﴾ أي التي في جهنم المرء بذلك جنس شجر يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَسَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكَلِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ بنم الزيتون، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْأَصَاوِرُ الْكَذَّابُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ دَقْقٍ﴾ ﴿٧٥﴾ وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فالتفت بها أهل الضلالة وقالوا: صاحبكم يبينكم أن في النار شجرة

(١) الطبري: ٤٨/٢١.

(٢) الدر المنثور: ٩٥/٧.

(٣) الطبري: ٤٥/٢١.

(٤) الطبري: ٤٨/٢١.

وقال السدي في قراءة عبد الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وكان عبد الله ﷻ يقول: والذي نفسي بيده لا يتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ أَتَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ (١٥) أي إنما جازيناهم بذلك، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ عَائِرِهِمْ نِيرُورٌ﴾ (١٦) قال مجاهد: شبيهة بالهرولة (١٧)، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿وَلَقَدْ حَسِبَ قُلُوبُهُمْ أَنَّكَ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ (١٨) فأنظر كيف كان عقبة المُنْذِرِينَ (١٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٢٠)

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم مندرين يندرون بأس الله ويحدرونها سطوته ونقمته بمن كفر به وعبد غيره، وأنهم تهادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلك المكذبين ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٢١) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٢٢)

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلْ الْغُصْبُونَ﴾ (٢٣) وَنَحْنُ أَهْلُهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ (٢٤) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٢٥) وَرَكَّبْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٢٦) سَلَّمْنَا عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْكَافِرِينَ (٢٧) إِنَّا كَذَلِكَ نَحْزِي الْمُعْتَصِينَ (٢٨) اللَّهُ مِنْ عِبَادَتِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٩) ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٣٠)

[ذكر نوح وقومه]

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع بين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة. لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (٣١) فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلْ

النار تأكل الشجر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٣٢) غزيت من النار ومنها خلقت (٣٣). وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣٤) قال أبو جهل -لعله يعني: إنها الزقوم التمر والزبد أترقمة (٣٥). قلت: ومعنى الآية: يا أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً تختبر به الناس، من يصدق منهم عن يكذب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِمَّنَّا أَزْمَا الَّذِي أَزْمَنَّاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْلُومَةُ فِي ثَمَرِهِمْ وَيَخُوفُهُمْ حَمَاقُ ثَمَرِهِمْ إِلَّا طَعْنًا كَبِيرًا﴾ (٣٦). وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٣٧) أي أصل بيتها في قرار النار ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُومُ الشَّيْطَانِ﴾ (٣٨) تبشيع فارتكبه لذكرها، وإنا شبهها بـ ﴿رُومُ الشَّيْطَانِ﴾ (٣٩) وإن لكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن للشياطين قبيحة المنظر، وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ فِيهَا مَالٌ وَلَا نَبَأٌ الْيَتُورُ﴾ (٤٠) ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة شي لا أشبع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَمَّا لَمُوا إِلَىٰ نَارٍ خَالٍصَةٍ لَا تَبْغِي وَلَا يُنْقِ مِنْ جُحِيمٍ﴾ (٤١). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا نُشُوبًا مِنْ جَحِيمٍ﴾ (٤٢) قال ابن عباس ﷺ: يعني شرب الحميم على الزقوم (٤٣)، وقال في رواية عنه: شوباً من حميم، مزجاً من حميم (٤٤)، وقال غيره: يعني مزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم ويخرجهم وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها، فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون به كالليل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم شربوا من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضرّبون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله يدعو بالثبور. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَىٰ الْجَحِيمِ﴾ (٤٥) أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار ناجح، وجحيم تنوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا، وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُورُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَيْثُ هُمْ﴾ (٤٦) هكذا لا فتادة هذه الآية عند هذه الآية (٤٧)، وهو تفسير حسن قوي،

(١) الطبري: ٥٢/٢١. (٢) الطبري: ٥٣/٢١.

(٣) الطبري: ٥٥/٢١. (٤) الطبري: ٥٢/٢١.

(٥) الطبري: ٥٦/٢١. (٦) الطبري: ٥٦/٢١.

(٧) الطبري: ٥٧/٢١.

الْمُجِيبُونَ ﴿٧٦﴾ أَي فَلْنَعْمَ الْمَجِيبُونَ لَهُ ﴿وَيَحْتَسِبُ أَهْلَهُ مِنْ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ
مُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ عَلِي بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
يَقُولُ: لَمْ تَبْقَ إِلَّا ذُرِّيَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ
أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ مُرَّ
الْبَاقِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ: النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢)،
وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَمُرَةَ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ مُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٩﴾
قَالَ: «سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ» ^(٣) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَمُرَةَ
بِهِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَامُ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامُ أَبُو الْحَبَشِ،
وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ» ^(٤) وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ^(٥) وَالْمُرَادُ بِالرُّومِ هَهُنَا،
هَمُّ الرُّومِ الْأَوَّلُ وَهُمْ الْيُونَانُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى رُومَا بْنِ لُطَيْبِ بْنِ
يُونَانَ بْنِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَذْكُرُ
بِخَيْرٍ ^(٦)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي لِسَانَ صَدُوقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ ^(٧)،
وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسَّيِّدِيُّ: أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي
الْآخِرِينَ ^(٨). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: السَّلَامُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿سَلَّمْنَا عَلَى نُوحٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨١﴾ مَفْسَرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ
الذِّكْرَ الْجَمِيلَ وَالثَّنَاءَ الْحَسَنَ أَنَّهُ يَسْلَمُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَمَمِ ﴿إِنَّا كَذَّبْنَاكَ بِكَرِّي الْمُتَحِينَينَ ﴿٨٢﴾ أَي هَكَذَا نَجْزِي مَنْ
أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صَدُوقٍ
يَذْكُرُ بِهِ بَعْدَهُ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُتَّوِّعِينَ ﴿٨٣﴾ أَي الْمَصْدُوقِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمَوْقِنِينَ ﴿ثُمَّ
أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ أَي أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ
تُطْرَفُ، وَلَا ذَكَرٌ، وَلَا عَيْنٌ، وَلَا أَثَرٌ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ
الصِّفَةِ الْقَيِّحَةِ.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٥﴾ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ
﴿٨٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٧﴾ أَفَعَالُكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ
اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٨﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾

[قصة إبراهيم وقومه]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ: ﴿وَإِنْ مِنْ
شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٥﴾﴾ يقول: من أهل دينه ^(٩)، وقال مجاهد:
على منهاجه وسنته ^(١٠) ﴿إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٥﴾﴾ قال
ابن عباس ﷺ: يعني شهادة أن لا إله إلا الله ^(١١). وروى ابن
أبي حاتم عن عوف قلت لمحمد بن سيرين ما القلب

السليم؟ قال: يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها
وأن الله يبعث من في القبور ^(١٢)، وقال الحسن: سليم
الشرك ^(١٣) وقال عروة لا يكون لعائناً ^(١٤).
وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾
عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل: ﴿إِن
عَالِمَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾
قَتَادَةُ: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيتموه وقد عبت
معه غيره ^(١٥).

﴿فَنَظَرْنَا فِي السَّمُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُفِثُوا عَنْهُ
﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَهُ الْهَيْبَةِ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ
﴿٩٢﴾ عَلَيْهِمْ صَرَاحٌ بِالْبَيِّنِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْتَفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَأْتِدُونَ
نَجَاحُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْنَاءُ اللَّهِ يُكَلِّمُكَ
فِي الْغَيْبِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليس
في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أذرف خروجه
عيد لهم فأحب أن يختلي بأهنتهم ليكسرهما فقال لهم كلاماً
حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما
يعتقدونه ﴿فَنُفِثُوا عَنْهُ مُدْرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال قَتَادَةُ: والعرب تقول
لمن تفكر نظر في النجوم ^(١٦)، يعني قَتَادَةُ أنه نظر إلى السماء
متفكراً فيما يليهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي ضعيف
فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا عن أبي هريرة رضي الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
غَيْرَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: يَشْتَبِي فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ
﴿٨٩﴾﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ فِي سَارَةِ
هِيَ أُخْتِي» فهو حديث خرج في الصحاح والسنن من

- (١) الطبري: ٥٩/٢١.
- (٢) الطبري: ٥٩/٢١.
- (٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٥/٥ والطبري: ٥٩/٢١.
- (٤) أحمد: ٩/٥.
- (٥) تحفة الأحوذى: ٩٨/٩.
- (٦) الطبري: ٦٠/٢١.
- (٧) الطبري: ٦٠/٢١.
- (٨) الطبري: ٦٠/٢١.
- (٩) الطبري: ٦١/٢١.
- (١٠) القرطبي: ٩١/١٥.
- (١١) الطبري: ٦٢/٢١.
- (١٢) الطبري: ٦٢/٢١.
- (١٣) الطبري: ٦٣/٢١.
- (١٤) الدر المنثور: ١٠٠/٧.

حجته ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ (١٨).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (١٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْقَمٍ حَلِيمٍ﴾ (٢٠) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿فَلَمَّا أَتَمَّ وَكَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢١) إِنَّ هَذَا لَوِ الْبَلَاءُ الْكَبِيرُ ﴿وَقَدِيتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٢) وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٣) كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٤) وَيَشْرَنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَاقَ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (٢٥)

[هجرة إبراهيم وإسماعيل عليه]

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (١٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلْقَمٍ حَلِيمٍ﴾ (٢٠) وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة أخرى: بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً «إسحاق» ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل

لن (١) ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم وأعله حاشاً وكلاً ولماً، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني، وقيل: أراد «إِنِّي سَقِيمٌ» (٢٨) أي مريض القلب من عبادتكم لأن من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال: «إِنِّي سَقِيمٌ» (٢٩) وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا، نزل إلى أمتهم فكسرهما (٣٠). ورواه ابن أبي حاتم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٣١) أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فَقَالَ آلا تَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه. فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿آلا تَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿قَالَ فَرَأَيْتُمْ ضَرَفًا بِالْيَمِينِ﴾ (٣٤) قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين (٣٥). وإنما ضربهم باليمين، لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاداً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. قوله تعالى ههنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ﴾ (٣٦) قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون، وهذه القصة ههنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك، حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي فعل ذلك. فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعييبهم فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ (٣٧) أي تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحوتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣٨) يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن حذيفة مرفوعاً قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ» (٣٩) وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤٠) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا: «إِنَّا لَنَرَاكَ بَيْنَنَا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ» (٤١) وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم وأعلى

(١) فتح الباري: ٦/٤٤٧ مسلم: ٤/١٨٤٠ وأبو داود: ٦٥٩/٢

وتحفة الأحوزي: ٩/٥ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٤٠.

(٢) الطبري: ٢١/٦٣. (٣) الطبري: ٢١/٦٧.

(٤) السنة: ١/١٥٨.

كان ذهب به وبأهله إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال: وحيدك إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفق ولده وأم ولده ببلاد فاران وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك والله أعلم. وعن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ بمعنى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ^(١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ قَالَ يَبْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةَ أُذْهِجَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَكَالَ يَبْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةَ أُذْهِجَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ ^(٢). وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَبْنِي أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(٣) أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ^(٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ^(٥). وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّكَ وَتَمَّكَ لِلْجَبِينِ﴾ ^(٦) أي فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت، وقيل: أسلما يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امثال أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق ^(٧) وغيرهم. ومعنى ﴿وَتَمَّكَ لِلْجَبِينِ﴾ ^(٨) أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه. قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وسعيد بن جبيرة والضحاك وقتادة: ﴿وَتَمَّكَ لِلْجَبِينِ﴾ ^(٩) أكمه على وجهه ^(١٠). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لما أمر إبراهيم عليه السلام بالناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسأله فسأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جرة العقبة، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى

فرماه بسبع حصيات، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال: يا أبت إنه ليس لي نور تكفنتي فيه غيره فاخلعه حتى تكفنتي فيه فعالجه ليخبر فنودي من خلفه: ﴿أَنْ يَتَّخِذَهُ﴾ ^(١١) قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ إِذَا بِكَشٍ أَيْضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ - قال ابن عباس لقد رأينا [نتبع] ذلك الضرب من الكباش ^(١٢). وذكر هذا الحديث في الناسك بطوله. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّكَ لِلْجَبِينِ﴾ ^(١٣) قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا أي قد حصل المقصود رؤياك ويأضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره: أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبين صفحة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك: ﴿قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا﴾ ^(١٤). وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(١٥) أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكروه والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ^(١٦) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ^(١٧) وقد استدلت بهذه الآية والقصة مما من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافاً لطائفة من المعتزلة والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخ عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرع أولئك الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْعَلِيمُ﴾ ^(١٨) أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، متقاداً لطاعته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذْهُ الَّذِي وَدَّ﴾ ^(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرْتَهُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ﴾ ^(٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً ^(٢١). وروى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرني امرأة من بني سليم - ولدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه، وقالت مرة: إنها سألت عثمان دعاك النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنِّي كُنْتُ وَائِثًا

(١) الطبري: ٧٣، ٧٢/٢١. (٢) الطبري: ٧٥، ٢١/٢١.

(٣) الطبري: ٧٧، ٢١/٢١. (٤) الطبري: ٧٨، ٧٧/٢١.

(٥) أحمد: ٢٩٧/١. (٦) الطبري: ٧٤، ٢١/٢١.

(٧) الطبري: ٩٠، ٢١/٢١.

يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه، فقال إسماعيل: والله يا أمير المؤمنين! وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يحسدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لكون إسحاق أباهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل ^(١١). وقال عبد الله ابن الإمام أحمد ابن حنبل - رحمه الله - سألت أبي عن الذبيح؟ هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد ^(١٢). وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام. قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنه أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل ^(١٣). وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله ابن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي ^(١٤). وهو رواية عن ابن عباس وحكاها أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء. وقد روى ابن جرير عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبر سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عد عليّ بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ فقليل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الله له أمرها عليه، ليذبحن أحد

الكنشي حين دخلت البيت فتسيت أن أمر أن تحمّرهما رضي الله عنهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلين ^(١٥). سفيان: لم يزل قرنا الكبيش معلقين في البيت حتى احترق ^(١٦). فاحترقا ^(١٧). وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشاً توارثوا قرني الكبيش الذي فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة بأن الذبيح هو إسماعيل عليه

الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به

قال سعيد بن جبيرة وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وغطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنه: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ^(٢) وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: المقدس إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ^(٣)، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: الذبيح إسماعيل ^(٤). وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو إسماعيل عليه السلام ^(٥). وكذا قال يوسف بن مهران ^(٦). وقال الشعبي: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وقد رأيت قرني الكبيش في الكعبة ^(٧). وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام ^(٨) قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْنَاهُ بِأَسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الْبَشَرِ﴾ ^(٩) ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِأَسْحَقَ وَمِنْ وَدَّاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ ^(١٠) يقول ابن زبير بن عبيد بن جراح: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام، وقد رأيت قرني الكبيش في الكعبة ^(١١). وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان

(١) أحمد: ٦٨/٤. (٢) الطبري: ٨٣/٢١.

(٣) الطبري: ٨٣/٢١. (٤) الطبري: ٨٢/٢١.

(٥) الطبري: ٨٤/٢١. (٦) الطبري: ٨٤/٢١.

(٧) الطبري: ٨٤/٢١. (٨) الطبري: ٨٥/٢١.

(٩) الطبري: ٨٤/٢١. (١٠) الطبري: ٨٥/٢١.

(١١) الطبري: ٨٥/٢١.

(١٢) الزهد لعبد الله بن أحمد: ٨٠. (١٣) الطبري: ٨٤-٨٢/٢١.

(١٤) البغوي: ٣٢/٤.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾

[ذكر إلياس]

قال قتادة ومحمد بن إسحاق: يقال: إلياس هو إدريس وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس ^(٢)، وكذا قال الضحاك ^(٣) وقال وهب بن منبه هو إلياس بن إلياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون عمران ^(٤) بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليه السلام. وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: بعل، فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ارتدوا واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سأله يكشف ذلك عنهم ووعدوه الإيمان به، إن هم أصابهم المطر فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على آخيت كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نزل على يديه اليسع بن أخطوب عليهما الصلاة والسلام، فذهب إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليرى ولا يبيعه، فجاءته فرس من نار فركب وألبسه الله تعالى الدر وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنساناً سائر أرضياً، هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب، وأعلم بصحته ^(٥) **﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَلَا تَتَّقُونَ﴾** ^(١٣٢) أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾** ^(١٣٣) قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وقاتدة والسدي: بعلًا يعني ربًّا ^(٦). قال عكرمة وقاتدة: وهي لغة أهل اليمن ^(٧)، وفي رواية عن قتادة قال: وهي لغة أهل شنوءة ^(٨). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق ^(٩)، وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه وقوله تعالى: **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾** أي أنعبدون صنماً **﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾** ^(١٣٤) الله ربكم ورب آبائكم الأولين ^(١٣٥) أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال

ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا: أفد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل، والثاني إساعيل. وقوله تعالى: **﴿وَيَسِّرْهُ يَسْخَرِ يَدَايَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** ^(١٣٦) لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إساعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله تعالى: **﴿يَنبَأُ﴾** حال مقدرة أي سيصير منه نبي صالح. وقوله تعالى: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيَّوْا وَعَلَىٰ يَدَايَا مِنَ دُرِّيَّتَيْهِمَا مَجِئٌ وَظَلَمَ لِنَفْسِهِ مِثْرًا﴾** ^(١٣٧) كقوله تعالى: **﴿قَدْ يَتَنُحُّ أَقِطٌ يَسْلُمُ مِنَّا وَزَكَّيْتُ عَلَيَّوْا وَعَلَىٰ أُمِّهِ وَمَنْ مَعَهُ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ^(١٣٨).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهْرُونَ﴾ ^(١٣٩) وَجَعَلْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ^(١٤٠) وَصَرَّفْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَاطِلِينَ ^(١٤١) وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١٤٢) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١٤٣) وَزَكَّيْنَاهُمَا فِي الْآخِرِينَ ^(١٤٤) سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ^(١٤٥) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٤٦) إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^(١٤٧)

[ذكر موسى وهارون]

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهم، من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعه طول حياتهم، ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾** وقال عز وجل ههنا: **﴿وَأَيَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** ^(١٤٨) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١٤٩) أي في الأقوال والأفعال **﴿وَزَكَّيْنَاهُمَا فِي الْآخِرِينَ﴾** ^(١٥٠) أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جليلاً وثناً حسناً ثم فسره بقوله تعالى: **﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾** ^(١٥١) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٥٢) إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^(١٥٣).

﴿وَإِنِّي لِيَاسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ^(١٥٤) **﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَلَا تَتَّقُونَ﴾** ^(١٥٥) **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾** ^(١٥٦) **﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾** ^(١٥٧) **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ﴾** ^(١٥٨) **﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلَصِينَ﴾** ^(١٥٩) **﴿وَزَكَّيْنَاهُمَا فِي الْآخِرِينَ﴾** ^(١٦٠) **﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾** ^(١٦١)

- (١) الطبري: ٩٥/٢١. (٢) القرطبي: ١١٥/١٥.
(٣) الطبري: ٩٧/٢١. (٤) الطبري: ٩٧/٢١.
(٥) الطبري: ٩٦/٢١. (٦) الطبري: ٩٦/٢١.
(٧) الدر المنثور: ١١٩/٧. (٨) الطبري: ٩٧/٢١.
(٩) الطبري: ٩٧/٢١.

بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق، فساھموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضمنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتًا من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام فلا يهشم له لحمًا ولا يكسر له عظمًا، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه، فإذا هو حي، فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه يا رب اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق عليه السلام، وقيل أربعين يومًا، قاله أبو مالك ^(٣). وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضُحًى ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٣٢) لَكَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٣٣﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء، قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير واحد^(٤)، واختاره ابن جرير^(٥)، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صح الخبر، وفي حديث عن ابن عباس: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ»^(٦). وقيل: المراد ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٣٢) هو قول الله عز وجل: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَيَّرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ وَكَذَلِكَ يُرْسِلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ قاله سعيد بن جبر وغيره^(٧).

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه - ولا أعلم أنسا إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ **إِنْ يُونُسَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَدْعُو بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ**

قَالَ: ﴿فَكَذَّبُوا فَلَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ (١٣٧) ﴿أَيُّ الْعَذَابِ يَوْمَ﴾
 ﴿سَابِ﴾ (١٣٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٣٩) ﴿أَيُّ الْمُوحِدِينَ مِنْهُمْ،
 هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ مُثَبَّتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
 الْبُيُوتِ﴾ (١٤٠) ﴿أَيُّ ثَنَاءٍ جَمِيلًا﴾ (١٤١) ﴿سَلِّمٌ عَلَى إِلَٰهٍ يَأْتِيَنَّ﴾ (١٤٢) ﴿كَمَا
 سَلِّمْنَا فِي إِسْمَاعِيلَ: إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي أَسَدٍ، وَيُقَالُ:
 سَلَامٌ، وَمِيكَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَإِبْرَاهِيمَ وَإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْرَائِيلَ
 وَإِسْرَائِيلَ، وَطُورَ سَيْنَاءَ وَطُورَ سَيْنِينَ، وَهُوَ مُوَضَّعٌ وَاحِدٌ،
 وَكُلُّ هَذَا سَائِفٌ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٣)
 ﴿يَوْمَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٤) ﴿قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمَسْلُومِينَ (١٢٢) إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمَوْتُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٢٣)
وَالَّذِينَ هُمْ فِي الْغَدِيرِ (١٢٤) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٢٥) وَالَّذِينَ
لَمْ نَرُ لَهُمْ مَتَابِعًا (١٢٦) وَيَأْتِلْ أَعْيُنُكَ (١٢٧)

[ذكر إهلاك قوم لوط]

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لَوْ طَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمٍ فَكَفَرُوا فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ هُوَ وَأَهْلُهُ إِلَّا رَأَتْهُ، فَإِنَّمَا هَلَكْتَ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُعَذِّبُهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَجَمِلَ مُحَلَّتُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُحَيْرَةَ شَتَّى نَبِيْحَةِ الْمُنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيْحِ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلِ مُقِيمٍ يَمُرُّ بِهَا سَائِرُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَذْكُرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ سِمَةً﴾ (١٢٧) ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْفُلُوا﴾ (١٢٨) ﴿أَيُّ أَفْلَاكُمُ يَعْتَبِرُونَ مِنْهُمْ﴾ (١٢٩) ثُمَّ دَرَسَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا.

وَلَا يَخْشَى لِمَنِ الْمَرْسِلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ أُنِزَ إِلَى الْعَالَمِ الْمَسْحُورِ
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣٧﴾ فَالْقَعَمَةُ اخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣٨﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى
تَمُوتُونَ ﴿١٣٩﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَأَلْقَيْنَا
شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤١﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِثْرَ
يَرْدُونَ ﴿١٤٢﴾ فَاسْمِعُوا مَسْمَعَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٣﴾

تَرْفِيقُ عَيْنِي

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة
الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا
يُنْبِئُ لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» ^(١) وقوله
قال: «إِنَّ أَجَنَ إِلَى أَلْفِكَ الْمَشْهُونَ» ^(٢) قال ابن عباس
في التور، أي المملوء بالأمته «فَسَاهَمَ» أي قارع ^(٣) «فَكَانَ
الْمُغْلُوبِينَ» ^(٤) أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت

(۱) فتح الباری: ۴/ ۱۹۳ و مسلم: ۴/ ۱۸۴۶.

(٢) الطبري: ١٠٦/٢١. (٣) الطبري: ١١١/٢١.

(٤) الطبری: ٢١/١٠٨، ١٠٩. (٥) الطبری: ٢١/١٠٨.

(٦) أحمد: ٣٠٧/١. (٧) الطبري: ١١٠/٢١.

الظالمين، فَأَقْبَلَتِ الدَّعْوَةُ تَحْفًا بِالْعَرْشِ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا صَوْتُ ضَعِيفٍ مَعْرُوفٍ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ غَرِيبَةٍ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي يُوسُفُ، قَالُوا: عَبْدُكَ يُوسُفُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ وَدَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ أَوْ لَا تَرْحَمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ فَتُنَجِّبُهُ فِي الْبَلَاءِ، قَالَ: بَلَى، فَأَمَرَ الْحَوْتَ فَطَرَحَهُ بِالْعَمَاءِ^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّدَتْهُ﴾ أي ألقيناه **﴿وَالْعَمَاءُ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: هو الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء **﴿وَهُوَ سَوِيسٌ﴾** أي ضعيف البدن **﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ سَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾** قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طائوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم اليقطين هو القرع^(٢) وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخًا بلبه وقشره أيضًا، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ يَاقَةَ آلِ آدَمَ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٤) كان الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم، بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٥) قال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف رواه ابن أبي حاتم قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عنكم، يقول كذلك كانوا عنكم^(٦) ولهذا سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا فُزِّقَ مِنْهُمْ يُخَشَّونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^(٧) المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد. وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُوا﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم **﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾** أي إلى وقت أجالهم، كقوله جلست عظمته: ﴿لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَعْمَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسَسُ لَهَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٨)

﴿فَأَسْقَيْنَهُمُ الْآبَاطَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبُسُوتُ﴾^(٩) أم خلقنا

الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ^(١٠) أَلَا إِنَّا مِنْهُمْ مِنْ لِقَوْلِهِ^(١١) وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّتُهُمْ لَكَذِبُونَ^(١٢) أَصْطَفَىٰ الْبَسِينَ^(١٣) مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(١٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(١٥) سُلْطَنٌ مُبِينٌ^(١٦) فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٧) وَيَبْنَؤُا لِحِسَّةٍ سَبًا وَلَقَدْ عَلِمْتَ لِحِسَّةٍ إِيَّاهُمْ لَمُحْضَرُونَ^(١٨) حَتَّىٰ يَصِيرُونَ^(١٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُتْلِفِينَ^(٢٠)

[الرد على من يثبت لله الولد]

ويجعل الملائكة بنات له]

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم له البنات سبحانه ولهم ما يشتهون أي من الذكور أي يريدون لأنفسهم الجيد **﴿وَأِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أي يسوءه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا يقول عز وجل فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْقَيْنَهُمُ الْآبَاطَ الْبَنَاتِ﴾^(١١) سئلهم على سبيل الإنكار عليهم **﴿الْآبَاطَ الْبَنَاتِ﴾** **﴿الْبُسُوتُ﴾** كقوله عز وجل: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ إِذَا قَسَمُوا بِزِينَتِهِمْ﴾** وقوله تبارك وتعالى: **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾** أي كيف حكم على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، كقوله وعلا: **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكَبَّ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾** يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله جلست عظمتهم: **﴿إِنَّمَا مِنْ إِيْهِمْ﴾** أي من كذبهم **﴿لِيَقُولُوا﴾** **﴿وَلِيَّتُهُمْ لَكَذِبُونَ﴾** **﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾** أي صدر منه الولد **﴿وَلِيَّتُهُمْ لَكَذِبُونَ﴾** **﴿فَذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فاجعلوهم بنات الله فجعلوا الله ولداً تعالى وتقدس، وجعل ذلك الولد أنثى ثم عبدوهم من دون الله تعالى ونفسه وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال تعالى عنهم: **﴿أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَسِينَ﴾** أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين كقوله عز وجل: **﴿أَفَأَصْفَقَكُمْ رَبُّكُمُ الْبَنِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبُ غُلُوبٌ﴾**

(١) الطبري: ١٠٩/٢١.

(٢) الطبري: ١١٣/٢١، ١١٤ والدر المنثور: ٧/١٣٠، ١٣١.

(٣) البخاري: ٢٠٩٢. (٤) الطبري: ١١٦/٢١.

[مقام الملائكة وتسيبهم صفوفا]

ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة عما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداه. وقال الضحاك في تفسيره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ سَمَاءٍ الدُّنْيَا مَوْضِعٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ^(٢١)

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء، ثم قرأ عبد الله ﷺ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ^(٢٢) وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ﴾ ^(٢٣) أي: نصف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّفَافَتِ صَفًّا﴾ ^(٢٤) وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم، استوتوا قياماً، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة، ثم يقول: ﴿وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ﴾ ^(٢٥) تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ^(٢٦)، وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتُرْبَتُهَا طَهُوراً» ^(٢٧) الحديث ﴿وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ﴾ ^(٢٨) أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزله عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

[تمني قريش لو كان عندها ذكر من الأولين]

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ﴾ ^(٢٩) لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ^(٣٠) لكنا عباد الله المخلصين ^(٣١) أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد، لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا سُخُورًا﴾ ^(٣٢)

ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ عَقُولٌ تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ^(٣٣) أي حجة على ما تقولونه ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٣٤) أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوز العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَافِثًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن ^(٣٥) وكذا قال قتادة وابن زيد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَشَعَرُونَ﴾ ^(٣٦) أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في الغداب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافتراءهم، وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمتة: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ^(٣٧) أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ^(٣٨) استثناء منقطع وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ^(٣٩) عائد إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحن المنزل على كل نبي مرسل.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْتَهُنَّ﴾ ^(٤٠) مَا أَنتَ عَلَيْهِنَّ بِقَاتِلَةٍ ^(٤١) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ^(٤٢) وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ^(٤٣) وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ ^(٤٤) وَلَا تَحْزَنُ السَّاقُونَ ^(٤٥) وَلَنْ كَانُوا يَقُولُونَ ^(٤٦) لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ^(٤٧) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ^(٤٨) ذَكَّرُوا بِهِمْ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ^(٤٩)

[لا يؤمن بكلام المشركين إلا من هو أفضل منهم]

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَاتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُونَ﴾ ^(٥٠) مَا أَنتَ عَلَيْهِنَّ بِقَاتِلَةٍ ^(٥١) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ^(٥٢) أي إنما ينقاد لمالككم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أفضل منكم ممن ذرئ للنار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَأَفْأَنَ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَشَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ^(٥٣) فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَنَ تَجِدَ قَوْمًا يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْوَيْدِ﴾ ^(٥٤) أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

(٢) الطبري: ٢١/١٢٧.

(١) الطبري: ٢١/١٢١.

(٤) الطبري: ٢١/١٢٨.

(٣) الطبري: ٢١/١٢٧.

(٥) مسلم: ١/٣٧١.

وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِتَايَدِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ عَائِنَتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْرُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿٧٧﴾ قَوْلَ عَنَّهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٧٦﴾ وَأَنبَرَهُمْ سَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴿٧٦﴾ أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِرِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٧٦﴾ وَأَنبَرَهُمْ سَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

[الوعد بالنصر والأمر بالتولي عن قریش]

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْرُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَإِبْرَاهِيمَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٦٦﴾﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُؤَيِّمُ بِنُصْرَتِنَا أَسْهُدُ ﴿٢١٣﴾﴾ ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْرُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبههم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرون ونجى عباده المؤمنين ﴿وَلَوْ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٧٦﴾﴾ أي اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، وقوله جل جلالته: ﴿وَأَنبَرَهُمْ سَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والتكال بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿سَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ثم قال عز وجل: ﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢١٤﴾﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضًا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِرِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم يهلكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ

بِسَاحِرِهِمْ﴾ يعني بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي فبئس يُصباحون أي بش الصبح صباحهم. ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ غدا فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: أَكْبَرُ خَرَبْتُ خَيْرٌ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ^(١) وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٧٦﴾ وَتَوَلَّىٰ سَوْفَ يُبَيِّرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، وسبحانه وتعالى أعلم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾
يزنه تبارك وتعالى نفسه ويقدها ويربها عما يقول الظالم المكنون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً أي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المشركين المقترين ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، كان التسييح يتضمن التنزيه من النقص، قرن بينهما في الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وقال سعيد أبي عروبة عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، قَالَا رُسُولُ رَبِّ الْمُرْسَلِينَ»، هكذا ابن جرير وابن أبي حاتم^(٢).

وروى أبو محمد البغوي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: أحب أن يكتال بالميال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فذكر آخر كلامه في مجلسه ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وقد أورد لها جزءاً على حدة، فكتب هاهنا إن شاء الله تعالى آخر سورة الصافات والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) فتح الباري: ١٠٧/٢، ومسلم: ١٠٤٣/٢.

(٢) الطبري: ١٣٤/٢١. (٣) البغوي: ٤٦/٤.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذْرٍ وَيَقَاقِي﴾ (١) **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذْرٍ وَيَقَاقِي** (٢) **أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ جِئْ مَتَانِ** (٣)

لما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة ص، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذْرٍ وَيَقَاقِي﴾ أي القرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم العاش والمعاد. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي نذكركم (١) وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير (٢). وقال ابن

سعيد بن جبيرة وإساعيل بن أبي خالد وابن عيينة وحسين وأبو صالح والسدي: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي في الشأن والمكانة (٣)، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار - جواب هذا القسم هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ (٤) وقال قتادة جوابه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذْرٍ وَيَقَاقِي﴾ (٥) واختاره ابن جرير (٦) وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذْرٍ وَيَقَاقِي﴾ أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر، وعبرة لمن يتذكر، وإنما لم ينتفع به الكافرون؛ لأنهم ﴿فِي عَذْرٍ﴾ أي في عذر عنه وحماية ﴿وَيَقَاقِي﴾ أي ومخالفة له ومعاندة معارضة - ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم سبحانه عليهم للرسول، وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة مكذبة

﴿وَنَادُوا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ أَسْرَأْ بِأَسْرَاءَ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾ (٧) أي يهربون ﴿لَا تَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ روى أبو داود الطيالسي عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادُوا وَلَا تَجِئْ جِئْ مَتَانِ﴾ قال: ليس بحين نداء، ولا نزو ولا فرار. وقال محمد بن عبد الله بن جبر في قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا وَلَا تَجِئْ جِئْ مَتَانِ﴾ نادوا مستجدين حين تولت الدنيا عنهم، واستنصحووا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم (٦)، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء - وقال مجاهد: ﴿فَنَادُوا وَلَا تَجِئْ جِئْ مَتَانِ﴾

﴿مَتَانِ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجِئْ جِئْ مَتَانِ﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ (١) **أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** (٢) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** (٣) **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا كُفْلَانٌ** (٤) **أَنْزِلْ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِ سَائِمْ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٌ** (٥) **أَرَعَيْدُهُمْ هَازِلُونَ رَحْمَةً مِنْكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ** (٦) **أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ** (٧) **جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ** (٨)

[تعجب المشركين من الرسالة والتوحيد والقرآن] يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: ﴿أَكُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (١) وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي بشر مثلهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ﴾ (٢) **أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا** أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٣) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ** (٤) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ** (٥) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ** (٦) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ** (٧) **وَأَنْطَلِقُ الْآلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْأَلُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْتِكِ** (٨)

تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد، لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه (٧).

(١) الطبري: ١٤٠/٢١. (٢) الطبري: ١٤٠/٢١.

(٣) الطبري: ١٤٠، ١٣٩/٢١. (٤) الطبري: ١٤٠/٢١.

(٥) الطبري: ١٤١/٢١. (٦) الدر المنثور: ١٤٥/٧.

(٧) الطبري: ١٥٢/٢١.

على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَنِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهِ أَوْابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآيَئْتْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (٢٠)

[ذكر داود]

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيدٍ، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس رضي الله عنه والسدي وابن زيد: الأيد القوة (٦). وقال مجاهد: الأيد القوة في الطاعة (٧). وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام (٨)، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّيَّامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَتَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَتَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا، وَلَا يَفْرُغُ إِذَا لَاقَى، وَأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا» (٩) وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَنِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) أي: أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَسْبُحُ أَجْمَعُ وَالطَّيْرُ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيء الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له. روى ابن جرير عن عبد الله بن الحارث بن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنه كان لا يصلي الضحى، فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقلت أخبرني هذا ما أخبرني به، فقالت: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيته، ثم أمر بقاء صب في قصعة، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلي

﴿يَا سَاعَةَ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (١٦) فَلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ (١٧) وَنَمُودٌ وَقَوْمُ لُجَّتِكَ لُجَّتُكَ أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ (١٨) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبٌ فَحَقَّ عِقَابُ (١٩) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا (٢٠) وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (٢١)

[التذكير بمن أهلك من الأقباط السابقين]

يذكر تعالى خبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والهلاك والنقبات في مخالفة الرسل وتكذيبهم عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم في أماكن متعددة. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ﴾ (١٨) أي الأكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ولهذا رجل: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبُ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فيحذر هؤلاء من ذلك أشد الحذر.

تعالى ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ (٢٠)﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية يظنون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، فالتربت وذنبت وأزفت وهذه الصيحة هي نفخة الفزع الله تعالى إسماعيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل الأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله عز وجل.

جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (٢١)﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على تعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب. وقيل: هو الصيب. قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد والضحاك وغير واحد، سألوا تعجيل العذاب (٢١)، زاد قتادة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ حِكْمَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) وقيل: تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة، ليلقوا الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الشر في الدنيا (٢٤). وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم (٢٥). ولما كان الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال رسول الله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له

(١) عبد الرزاق: ١٦١/٣.

(٢) الطبري: ١٦٤/٢١، والدر المنثور: ١٤٨/٧.

(٣) الطبري: ١٦٤/٢١. (٤) الطبري: ١٦٥/٢١.

(٥) الطبري: ١٩٥/٢١. (٦) الطبري: ١٦٦/٢١، ١٦٧.

(٧) الطبري: ١٦٦/٢١. (٨) الطبري: ١٦٧/٢١.

(٩) فتح الباري: ٢٠/٣، ومسلم: ٨١٦/٢.

ثمان ركعات، وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس رضي الله عنه وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يَسْتَعِزُّ بِالْقِيَمَةِ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق ^(١). ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ أَي مَحْبُوسَةٌ فِي الْهَوَاءِ كُلُّ لَهْوٍ أَوَّابٌ﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، وقال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿كُلُّ لَهْوٍ أَوَّابٌ﴾ أي مطيع ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُوتَهُ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك قال ابن أبي نجيع عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقوله عز وعلا: ﴿وَأَنبِئْنَهُ أَلْحِكْمَهُ﴾ قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفطنة. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدي: ﴿أَلْحِكْمَهُ﴾ النبوة ^(٣) وقوله جل جلاله: ﴿وَقَصِّلَ الْخِطَابَ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان ^(٤) وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يعين المدعى عليه، هو فصل الخطاب ^(٥) الذي فصل به الأنبياء والرسل، أو قال المؤمنون والصالحون، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك ^(٦) وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير ^(٧).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ^(٨) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَفْنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْرَجَ بَيْنَهُمَا الْحَقَّ وَلَا تُشِيطُوا أَبْغِيَا إِلَى سُوءِ الْفِتْرِ ^(٩) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلَهُ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكَلْتُنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ^(١٠) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ لِي فَاجْعَلْ لِي كِذَا بَيْنَ الْمَلَأَةِ لِيُنِي بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَطَرَ دَاوُدَ أَلَمْ أَفْتِنَّهُ فَاسْتَعْفِرْ رَبَّهُ وَحَرَّ رَأْيَكُمْ وَأَنَابَ ^(١١) فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِذْدَانُ لَرَفَعْنِي وَحَسَنَ مَقَابِرَ ^(١٢)

[قصة الخصمين]

قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيلية، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثاً لا يصح سنده لأنه

من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه - ويزيد وإن كان الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأصح يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها عز وجل، فإن القرآن حق - وما تضمن فهو حق - وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك، لأنه كان في وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا المحراب، أي احتاطا به يسألانه عن شأنها وقوله عز وجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني. يقال: عز يعز إذا غلب. وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّنْ دَاوُدَ أَلَمْ أَفْتِنَّهُ﴾ قال علي أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: أي اختبرناه ^(٨) وقوله: ﴿وَحَرَّ رَأْيَكُمْ﴾ أي ساجداً وَأَنَابَ ﴿فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين

[سجدة ص]

سجدة ﴿ص﴾ ليست من عزائم السجود، بل هي شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: السجدة في ﴿ص﴾ ليست من عزائم السجود وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها ^(٩). ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره.

وقال الترمذي: حسن صحيح ^(١٠). وروى النسائي عن مجاهد عند تفسيره هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن النبي سجد في ﴿ص﴾ وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوْبَةً، وَتَسْجُدُهَا شُكْرًا» تفرد بروايته النسائي ^(١١) وإسناده كلهم ثقات.

وروى البخاري عند تفسيرها أيضاً عن العوام قال سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾

(١) الطبري: ١٦٩/٢١. (٢) الطبري: ١٦٩/٢١.

(٣) الطبري: ١٧١/٢١. (٤) الطبري: ١٧٣/٢١.

(٥) الطبري: ١٧٣/٢١. (٦) الطبري: ١٧٢/٢١.

(٧) الطبري: ١٧٣/٢١. (٨) الطبري: ١٨١/٢١.

(٩) أحمد: ٣٥٩/١.

(١٠) فتح الباري ٦٤٣/٢، وأبو داود: ١٢٣/٢، وأبو

الأحوذ: ١٧٦/٣، والنسائي في الكبرى: ٣٤٢/٦.

(١١) النسائي: ١٥٩/٢.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧) أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٨﴾ كَتَبَ آيَاتُهُ إِلَيْكَ مِيزَةً لِّذِكْرَىٰ ءَابَائِهِمْ وَلِسْتَذَكِّرَ أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

[الحكمة في خلق الدنيا]

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدهو ويوحده، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم، ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلِمَاتُ الصَّالِحِينَ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي لا يفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى: ﴿كَتَبَ آيَاتُهُ إِلَيْكَ مِيزَةً لِّذِكْرَىٰ ءَابَائِهِمْ وَلِسْتَذَكِّرَ أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ (٩) أي ذوو العقول، وهي الأبواب جمع لب، وهو العقل.

﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفَافَتُ الْجَبَادُ ﴿٣﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٤﴾ رَدُّهَا عَنْ فَطَقَ مَسَاحًا بِالسُّوفِ وَالْأَغْنَسَانِ ﴿٥﴾

[ذكر سليمان بن داود]

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي نبياً كما قال

إِلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَقَدِيدٌ ﴿١﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام من أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجد لها داود الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ (١).

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ص﴾، فلما بلغ السجدة نزل سجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ سجدة تشزن الناس للسجود، فقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ نَّبِيِّ، يَكْفِي وَأَنْتُمْ تَسْزَنُكُمْ﴾ فنزل وسجد (٢). وتفرد به أبو داود بسنده على شرط الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَارٍ﴾ أي وإن له في القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع، وهو درجات العالية في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «الْمُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ يَمِينٌ، الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» (٣).

﴿يُنَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْحُوسَابُ﴾ (٤)

[الوصية للحكام والسلطين]

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه ليعضوا عن سبيل الله، وقد توعده تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتنادى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرة - وكان قد كتب الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيجاسب خليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن ونهيت، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول: قال: قل في أمان الله، يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى: ﴿يُنَادُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْحُوسَابُ﴾ (٤) وقال عكرمة: «لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ يُنْفَخُ الْحُوسَابُ» هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا (٤). وقال السدي: لهم عذاب شديد بما نسوا أن يعملوا ليوم الحساب (٥) وهذا القول أمشى على من الآية. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

(١) فتح الباري: ٤٠٥/٨. (٢) أبو داود: ١٤١٠.

(٣) مسلم: ١٤٥٨/٣. (٤) الطبري: ١٨٩/٢١.

(٥) الطبري: ١٨٩/٢١.

عز وجل: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿يَعْمُ الْغَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإجابة إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَيْثُ الْصَفْثُ لِيَجَاذِبَ﴾ أي: إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه، الخيل الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والحياد السراع^(١). وكذا قال غير واحد من السلف، وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر، عن بنات لعائشة رضي الله عنها، لُعِبَ فقال ﷺ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قالت رضي الله عنها: بناتي. ورأى بينهما فرساً له جناحان من رقا، فقال ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت رضي الله عنها: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة؟ قالت رضي الله عنها: فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه^(٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(٣) ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقَطِّعُ به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شُغِلَ النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا» فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب^(٤). ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَكَلَفَقَ سَسَا يَأْتُوْنِي وَالْأَعْنَاقُ﴾^(٥) قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعمرت^(٦) وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقبها بالسيوف^(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يمسح أعراف

الخيل وعراقيبها حباً لها^(٦). وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله. سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها وهذا الذي رجح به ابن جرير، فيه نظر، لأنه قد يكون شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رضاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر. فهذا أسرع وخير من الخيل، روى الإمام أحمد عن أبي ثعلبة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالوا: أتينا رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني بما علمه الله عز وجل وقال: «إِنَّكَ لَا تَعْلَمُ شَيْئاً اتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا أَغْطَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرَ أَمَةٍ»^(٧)

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٨) قال أنفري وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إِنَّكَ أَنتَ الرَّحْمَنُ فَصَحَّنا لَهُ أَرَبَعٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِفَاقَةً حَيْثُ أَصَابَ^(٩) وَالشَّيْطَانُ كَرِهُوا^(١٠) وَعَاصِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ^(١١) هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْتَبِهْ أَمَّا كَرِهُوا^(١٢) وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَقَابٍ^(١٣)

[ابتلاء سليمان ثم التفضل عليه]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي اختبرناه وَالْإِنشَاءُ كَرِهُوا^(١٤) جَسَداً لم يبين الله تعالى حقيقة هذا الجسد الذي ألقاه على كرسيه فنحن نؤمن أن الله اختبره بإلقاء الجسد كرسيه ولا نعرف ما هو؟ وكل ما قيل حوله، فهو من الإسرائيليات، لا نعرف صدقه من كذبه. والله أعلم. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي بعد هذا الاختبار أناب إليه تعالى، ودعا وطلب منه المغفرة، وطلب حكماً لا ينبغي لأحد بعده. ﴿ثُمَّ قَالَ أَنفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾^(١٥) قال بعضهم: لا ينبغي لأحد من بعدي أي إنه من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث

(١) الطبري: ١٩٢/٢١، ١٩٣، (٢) أبو داود: ٢٢٧/٥.

(٣) فتح الباري: ٨٢/٢، ومسلم: ٤٣٨/١.

(٤) الطبري: ١٩٥/٢١. (٥) الطبري: ١٩٥/٢١.

(٦) الطبري: ١٩٦/٢١. (٧) الطبري: ١٩٦/٢١.

(٨) أحمد: ٧٨/٥.

حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال له: تواضع، فاختر المنزلة الأولى لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل، وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية، وهي النبوة مع الملك، عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبه تعالى على أنه ذو حظ عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ حَافِيٍّ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَسْفَىٰ الشَّيْطَانِ يَضْطَرُّ وَعَدَابُ ۝۱۱ أَرْضُكَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝۱۲ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۝۱۳ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝۱۴﴾

[ذكر أيوب]

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاء تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيائها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكاملها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته فقط، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿أَتَىٰ مَسْفَىٰ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ

صحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ عِفْرِيثًا مِنَ الْجُنِّ تَقَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَى الصَّلَاةِ فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ - تَبَارَكَ - بِمَالٍ - مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخُصِّحُوا وَتَنَظَّرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي بَيْنَ بَيْنَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝۳۵﴾ قَالَ رُوح: فردّه - وكذا رواه مسلم والنسائي (٢). وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قام رسول الله ﷺ يصلي سمعناه يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ» - ثم قال: - أَلَعَنْكَ بِأَعْنَةِ اللَّهِ - ثُمَّ رَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: رَسَطَ رُوحُ اللَّهِ، سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ يَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بِسَطْتَ يَدَكَ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ يَطْرُقُ جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَكَ فِي وَجْهِهِ فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَوْلَا مَرَاتٍ ثُمَّ قُلْتُ أَلَعَنْكَ بِأَعْنَةِ اللَّهِ النَّامَةِ فَلَمْ يَسْتَخِرْ ذَلِكَ مَرَاتٍ ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ وَاللَّهِ لَوَلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَفُصِحَ نُونُهَا بَلَعَبٍ بِهِ وَلَدَانِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» (٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ذُفَاءً حَيْثُ شَاءَ ۝۳۶﴾ قال الحسن البصري رحمه الله. لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل، عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر (٤).

وقوله جل وعلا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ ۝۳۷﴾ أي حيث أراد من البلاد. وقوله جل جلاله: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ مَكْرٍ وَعَوَاسٍ ۝۳۸﴾ أي منهم من يستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وثمانيل وجفان وجناب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار، مستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿وَالْخَرِيبَ مَعْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ ۝۳۹﴾ أي يتوقنون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرّد وعصى وامتنع من عمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله عز وجل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِحَبْرِ حِسَابٍ ۝۴۰﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا

(١) فتح الباري: ١/٦٦٠.

(٢) مسلم: ١/٣٨٤، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٤٣.

(٣) مسلم: ١/٣٨٥. (٤) الطبري: ٢١/٢٠١.

مَسَى الشَّيْطَانُ يَصْبِي وَعَلَا ۖ ﴿١١﴾ قِيلَ: بَنُصَبُ فِي بَدَنِي،
وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم
الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله،
ففعّل فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما
كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر
فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان
في بطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال
تبارك وتعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿١٢﴾ روى
ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن
رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
لَبِثَ بَدْءَ بَلَاوَةٍ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، قَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا
رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرْوَحَانِ،
فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبُهُ
أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ
سَنَةً لَمْ يَزِهِمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَضِيرِ الرَّجُلُ
حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا أَذْرِي
مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ
يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ لِلَّهِ تَعَالَى فَارْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَافْكُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً
أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ فِي حَقِّي، قَالَ: وَكَانَ يُخْرِجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا
فَقَّصَاها أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ
عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
أَنْ «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿١٣﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ
[فَتَلَقَّاهُ] تَنْظُرٌ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ
عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ
رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى، فَوَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ
مِنْكَ إِذْ كَانَ صَاحِبًا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ:
أَنْدَرٌ لِلْقَمْعِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْعِ، أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى قَاضَ،
وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى قَاضَ، هَذَا لَفْظُ ابْنِ
جرير رحمه الله ^(١).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ
أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْنُو فِي نَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ
يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عَمَّا تَرَى قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَلَى
يَا رَبِّ وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ» انفراد بإخراجه البخاري ^(٢).

ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَزَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٤﴾ قال الحسن وقناة: أحياء
تعالى له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم ^(٣). وقوله عز وجل
﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستغفره
﴿وَزَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول، ليعلموا أن
الصبر الفرج والمخرج والراحة. وقوله جلّت عظمتها
يَبْرِكُ ضَعْفًا فَكُثِرَ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبُ﴾ وذلك أن أيوب عليه السلام
والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمره
وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه
عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة الثامنة
والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل
ياخذ ضعفًا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به
واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حشته، ووفى ببلده، ورجع
من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه، ولهذا قال
وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْقَبْرِ إِنَّهُ أُوْثِيَ﴾ انتهى الله تعالى
ومدحه بأنه ﴿نَقِمَ الْقَبْرِ إِنَّهُ أُوْثِيَ﴾ أي رجاء منيب، ولهذا
جل جلاله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿١٥﴾ ورواه
لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ تَلَّعَ أُمُورَهُ
جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَأَذْكُرْ عِدَّتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَتَعَوَّبَ أُولَى الْأَلْبَابِ وَاللَّهُ
﴿١٧﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ عِشَاءُ
الْمُصْطَفَيْنِ الْآخِرِ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَذْكُرْ إِسْتِجْلِيلَ وَالسَّعْيِ وَالْكَفْرِ
مِنَ الْآخِرِ﴾ ﴿٢٠﴾ هَذَا وَذَكَرَ

[ذكر المصطفين الأخيار من الأنبياء]

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المؤمنين
وأنبيائه العابدين: ﴿وَأَذْكُرْ عِدَّتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَتَعَوَّبَ
أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٢١﴾ يعني بذلك العمل الصالح
النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال علي بن أبي طالب
عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أُولَى الْأَلْبَابِ» يقول: أولي
العبادة «وَالْأَبْصَرِ» يقول: الفقه في الدين ^(٤).

وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في
وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ

(١) الطبري: ٢١/٢١١.

(٢) البخاري: ٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣.

(٣) الطبري: ٢١/٢١٢.

(٤) الطبري: ٢١/١٥٥.

لِرَفْعِنَا مَا لَكَ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ﴿٥٥﴾ وكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَطَاةٌ غَيْرُ مَحْذُوفٍ﴾ ﴿٥٦﴾ وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٥٧﴾ أي غير مقطوع وكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكْثَلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا يَأْتِيكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٥٨﴾ والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿هَذَا وَارْتِ الْظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَقَابٍ﴾ ﴿٥٩﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَقْسُ الْمِهَادُ ﴿٦٠﴾ هَذَا قَلِيدُوفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٦١﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ ﴿٦٢﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَدِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنْهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَا بِكَ أَشْتَرُ فَلَمَّئِمْهُو لَنَا فَيَقْسُ الْقَسَارُ ﴿٦٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٥﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٦٧﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٨﴾

[بيان مال الأشقياء]

لما ذكر تبارك وتعالى مال السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَارْتِ الْظَّالِمِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لَشَرِّ مَقَابٍ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَيَقْسُ الْمِهَادُ﴾ ﴿٦٠﴾ هَذَا قَلِيدُوفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٦١﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم.

ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ﴾ ﴿٦٢﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَأَخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ﴾ ﴿٦٢﴾ ألوان من العذاب ^(٦)، وقال غيره: كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

[تخاضع أهل النار]

وقوله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَدِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنْهُمْ

مجاهد: أي جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم ما ^(١). وكذا قال السدي: ذكرهم للأخرة وعملهم وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حبها وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وقال: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنِ الْآخِرِ﴾ ﴿٦٧﴾ أي المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْغَالِيَةِ﴾ ﴿٦٨﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستفصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله عز وجل: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن ذكر. قال السدي: يعني القرآن العظيم ^(٤).

﴿وَارْتِ الْظَّالِمِينَ لَحَسَنَ مَقَابٍ﴾ ﴿٦٩﴾ حَسَنٌ عَدْنِي مُفْتَحَةٌ لِمَنْ الْأَنْبِيَاءُ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا يَفْكُكُهُمْ كَثِيرٌ وَتَرْكِبُ ﴿٧٠﴾ وَتَصَدَّقُ قَصِيرَتْ أَنْظَرِي أَنْزَارِي ﴿٧١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيُؤْمِرَ الْيَسَابِ ﴿٧٢﴾ إِنَّ هَذَا لِرَفْعِنَا مَا لَكَ مِنْ نَفَادٍ ﴿٧٣﴾

[بيان مآب السعداء]

ثم تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب، وهو المرجع والمنقلب، ثم فسره بقوله: ﴿حَسَنٌ عَدْنِي﴾ أي جنات إقامة ﴿مُفْتَحَةٌ لِمَنْ الْأَنْبِيَاءُ﴾ ذلت واللام ههنا بمعنى الإضافة كأنه يقول: مفتحة لهم بها أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها.

وقوله عز وجل: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا﴾ قيل: متريعين على سرر من الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا يَفْكُكُهُمْ كَثِيرٌ﴾ أي مها طلبوا جنات وأحضر كما أرادوا ﴿وَتَرْكِبُ﴾ أي من أي أنواعه سوا أنتم به الخدام ﴿يَا كُورِي وَيَا رِقِي وَيَا نَعِيمِي﴾ ﴿٧١﴾ وَتَصَدَّقُ قَصِيرَتْ أَنْظَرِي أَنْزَارِي ﴿٧٢﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى ما يعولنهن ﴿أَنْزَارِي﴾ أي متساويات في السن والعمر، هذا

من قول ابن عباس ^(٥) ومجاهد وسعيد بن جبير وعمر بن الخطاب والسدي ^(٥) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيُؤْمِرَ الْيَسَابِ﴾ ﴿٧٣﴾ أي: الذي ذكرنا من صفة الجنة، هي التي وعدنا لعباده المتقين، يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم من النار. ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا

(١) الطبري: ٢١/٢١٨.

(٢) الطبري: ٢١/٢١٧.

(٣) الطبري: ٢١/٢٢٣.

(٤) الطبري: ٢١/٢٢٠.

(٥) الطبري: ٢١/٢٣٠.

يَخْتَصِمُونَ ﴿١١﴾ إِنْ يُوْحَىٰ إِلَىٰ آلِهَةٍ أَنَّا تُنِيرُ تُنِيرُ ﴿١٢﴾

[رسالة الرسول ﷺ نبي عظيم]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله، المشركين به المكذبين لرسوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي غفار مع عظم وعزته ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي خبر عظيم وشأن يليق وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي غافلون.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائكة الأعراف يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأُ كُلُّهُمْ آخِضُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَتُكْبِرُ مِنْ أَلَّيْنِ ﴿١٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَاكْرِهًا ﴿١٧﴾ وَإِنِّي عَلَيْكَ لَعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدَّيْنِ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أُبْعَثُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٠﴾ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَذِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٢﴾ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَصِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَأَلْحِقْ بِالْحَقِّ أَقُولُ ﴿٢٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾

[قصة آدم وإبليس]

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة ولأول سورة الأعراف وفي سورة الحجر وسبحان والكتب وههنا، وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه ونسوه فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتناعاً لأمره عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً. كان من الجن فخاناه طبعه وجبلته أحوج ما كان.

صَالُوا النَّارِ ﴿١١﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتَ أَخْبَهَا﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا قَوْجٌ مُنْتَجِمٌ﴾ أي داخل ﴿مَعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ إِلَهُمَّ صَلَّوْا النَّارَ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ﴾ أي فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ أَنتُمْ قَدْ مَتَّوْا لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِيدُهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿١٢﴾ كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ أَخْرِطْنَهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَخَاتِمُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقْلَبُونَ ﴿١٣﴾ أي: لكل منكم عذاب بحسبه ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿١٤﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا ما لنا لا نراهم معنا في النار. قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاتاً وفلاتاً^(١). وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿١٥﴾ أَفَتَدْنِيهِمْ سَخِرًا ﴿١٦﴾ أي في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ يُسَلِّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْحَالِ، يقولون: أو لعلمهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَكَادَهُ أَصْبَحُ الْجَنَّةُ أَصْبَحَ النَّارُ﴾ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ مُؤَذَّنُونَ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿١٩﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض، لحق، لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي دُعِيَ الْفُتَّارُ﴾ ﴿٢٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢١﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ إِذْ

أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ أخرجه (٤) وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنه. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَا تُذِرْكُم يَهُدَىٰ وَمَنْ يَلُغْ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَآتَاهُ اللَّهُ مَوَدَّةً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاتُ أَيُّ خَبْرِهِ وَصَدَقَهُ﴾ بعد جوب أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة، ولا منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة.

آخر تفسير سورة ص، والله الحمد والمنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

[فضل سورة الزمر]

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر (٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي الْكِتَابِ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ أَخْلَاصُوا وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَا بَعْدُ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ إِلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ إِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

[الأمر بالتوحيد والرد على الشرك]

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ ﴿٣٥﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ

فَأَسْتَكْفَ عَنْ السُّجُودِ لِآدَمَ وَخَاصِمَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، يعني أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار، وآدم خلق من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك حلف أمر الله تعالى وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل عن أنفه، وطرده عن باب رحمته ومل أنسه، وحضرة وسماه إبليس إعلالاً له بأنه قد أبلس من الرحمة، بل من السوء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله عز وجل أن يبعث في يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من شاء. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطمع.

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٧﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ فِي الْحَرْبِ إِنِّي يَوْمَ الْعِقَمَةِ لَأُحْيِيَنَّكَ دَرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بجواب هم المستنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ لِمَنْ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ ﴿٨٤﴾ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ يَوْمَ تَعْلَمُ يَوْمَ أُجْعِينَ ﴿٨٥﴾ قرأ ذلك جماعة منهم عاهد برفع الحق الأول، وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق الحق أقول، وفي رواية عنه: الحق مني وأقول الحق (١). وقرأ آخرون بنصبها. قال السدي: هو قسم أقسم الله به (٢) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً وَفُورًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاتُ بَعْدَ جُوبٍ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد هؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصيح، أجراً تعطوني من عرض الحياة الدنيا بجواب أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، لا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أدبته، لا أزيد عليه ولا أغص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي شحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أبا الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم، الله أعلم (٣)، لأن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾

(١) الطبري: ٢٤٢/٢١. (٢) الطبري: ٢٤٢/٢١.

(٣) القرطبي: ٢٣٠/١٥.

(٤) فتح الباري: ٤٠٩/٨، ومسلم: ٢/٢١٥٥.

(٥) النسائي في الكبرى: ٤٤٤/٦.

الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾ وقال
جل وعلا ما هنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي المنيع
الجناب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿إِنَّا
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ
﴿٢﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى
ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس
له شريك ولا عديل ولا نديد، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ
الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه
العمل لله وحده لا شريك له.

ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: إنا يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة^(١). ولهذا كانوا يقولون في تلييتهم إذا حجوا في جاهليتهم: ليبيك، لا شريك له: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) وأخبر أن الملائكة التي في السماوات من الملائكة المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ شَيْئًا﴾ (٢٦) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكِ أَهْلُوا إِلَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ

ذَوْنَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
 وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَلْبٌ﴾
 أي لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على
 تعالى، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه، ثم بين تعالى أنه
 ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعادن، و
 اليهود والنصارى في العزيز وعيسى، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَلْطَفَنِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لكل
 الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوله
 جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه
 كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَنَتَّخِذَهُ مِنْ دُونِكَ
 كَمَا فَتِيلَينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَوْدِ
 ﴾ ﴿١٨﴾ كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على
 المستحيل لمقصد المتكلم.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١)
تعالى وتزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد
الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه، وهو القهار
عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت
تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ إِلَهًا عَلَى الثَّهَارِ رَبُّ
الْأَنْهَارِ عَلَى الْإِلَهِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
أَجَلًا مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٢) خلقكم من نفس واحدة
ثم جعل نساءً منكم أزواجاً وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلق
في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقي في ظلمات ثلاثي ذلك
الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأن تضرعون^(٣)

[الاستشهاد على قدرة الله وتوحيده]

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض ومما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلبه حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿تَنفِثُ أَيْدِي النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ هذا معنى ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم ^(٢). وقوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ لِلْأَجْلِ مِثْمَلٍ﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي

(١) الطبري: ٢١/٢٥١، ٢٥٢. (٢) القرطبي: ١٥/٢٣٥.

حَيْدٌ ﴿١﴾ وفي صحيح مسلم: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ
وَأَسْكَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ
ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ﴿٢﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ
الْكَفْرَ﴾ أي: لا يجبه ولا يأمر به ﴿وَلَنْ تَشْكُرُوا بِرِضَا لَكُمْ﴾ أي
يجبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلَا تَزِدْ وَارِدَةً وَزِدْ أُخْرَى﴾ أي
لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ
إِنْ رَيْدَكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَبْتَحِمُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية.

[من كفر الإنسان ذكره الله في الشدة

والشرك به بعد الفرج]

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ضَرَّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾
أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له،
كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْفُشْرُ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِلَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾﴾ ولهذا
قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء
والتضرع كما قال جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ الضُّرَّ دَعَا
لِجُنُودِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَتْ عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ
يَدْعُنَا إِلَى صَوْرٍ مُسَدَّدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال
العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه: تمتع
بكفرك قليلاً، وهو تهديد شديد ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿تُتِمُّهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَمَنْ هُوَ قَتَلَتْ عَائِةً أَيْلًا سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْذَرُ الْآخِرَةَ
وَرَجُوا رَحْمَةً رُبُّهُ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾﴾

[لا يستوي المطيع والعاصي]

يقول عز وجل: ﴿أَمَنْ هُوَ صَفَتَهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ
أَنْدَادًا؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ
أَهَلَّ الْأَكْثَبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَخَلَّوْنَ بَيْنَكَ اللَّهُ عَائِةً أَيْلًا وَهُمْ

الْقِيَامَةُ﴾ ﴿إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: مع عزته وعظمته
يُتِمُّهُمْ هُوَ غَفَّارٌ لِمَنْ عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ أَوْ أَنَابَ إِلَيْهِ.

وقوله جلَّت عظمته: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم
مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم والوأنكم من
نفس واحدة، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ
تِلْكَ رُزُقُكُمْ الَّتِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهِمَا
بِلَا كِبَارٍ وَفَسَاءً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
نَسِيئَةً أَرْزَاجَ﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج،
وهي المذكورة في سورة الأنعام، ثمانية أزواج من الضأن اثنين
وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: قدركم
في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدكم أولاً
خلقاً، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً
وعظاماً وعصباً وعروفاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر
﴿تَسَابَّحُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني في ظلمة الرحم
وظلمة المشيمة - التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد -
وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة
وابن مالك والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد ^(١). وقوله جل
جلاله: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي هذا الذي خلق السموات
والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب، له الملك
والنصرف في جميع ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا ينبغي
المادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فَأَنْ تَصْرُفُونَ﴾ أي: فكيف
تبدلون معه غيره؟ أين يذهب بقولكم؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكَفْرَ
وَلَنْ تَشْكُرُوا بِرِضَا لَكُمْ وَلَا تَزِدْ وَارِدَةً وَزِدْ أُخْرَى ثُمَّ إِنْ
رَيْدَكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَبْتَحِمُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٥﴾﴾ ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ضَرَّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ
إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ
لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ
أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

[يفضب الله من الكفر ويرضى من الشكر]

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني
عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه الصلاة
والسلام: ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

(١) الطبري: ٢٥٨، ٢٥٩، والدر المنثور: ٧/٢٣٦.

(٢) مسلم: ٤/١٩٩٤.

يَسْجُدُونَ ﴿١٣﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيتُ عَائَةَ أَتَيْتُ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي خاشع في حال سجوده وفي حال قيامه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنه والحسن والسدي وابن زيد: ﴿عَائَةَ أَتَيْتُ﴾ جوف الليل ^(١). وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كَيْفَ تَحْذَرُ؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَغْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ» ^(٢). رواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث سيار بن حاتم عن جعفر ابن سليمان به. وقال الترمذي غريب ^(٣).

وروى الإمام أحمد عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِبَايَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ حَبِبَ لَهُ قُتُوثُ لَيْلَةٍ» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله عن جعل الله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلم.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ^(١) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

[الأمر بالتقوى والهجرة وإخلاص العبادة]

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم، وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ^(٥). وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال لهم، إنما يغرف لهم غرفا. وقال

السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني الجنة ^(٦). وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ^(٧).

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٨) قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ عَلَيْهِ السَّلَامَ دِينِي ﴿١١﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي لَخَشِيرٌ مِنَ الَّذِينَ خَشَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ قُلْ مَنْ قُوَّتُهُمْ ظُلُمٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُمْ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يٰٓعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٣﴾

[التخويف من عذاب الله]

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي لَأَخَافُ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا من معناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ عَلَيْهِ السَّلَامَ دِينِي﴾ ^(١١) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ وهذا أيضا تهديد وتبر منهم ﴿قُلْ إِنِّي لَخَشِيرٌ مِنَ الَّذِينَ خَشَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي تفارقوا ولا التقاء لهم أبدا، وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد دهموا إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿قُلْ مَنْ قُوَّتُهُمْ ظُلُمٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُمْ﴾ كما قال عز وجل ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ يُخَوِّفُ الْظَّالِمِينَ﴾ ^(١٢).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفْسَقُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ وَنَبِيذُ الشَّوْبِ يُرْفَعُ دُورًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(١٣) وقوله جل جلاله ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا علة ليخوف به عباده، ليتزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله تعالى: ﴿يٰٓعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي اخشوا بأسى وسطوتي وعذابي ونقمتي ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبَرَكَاتُ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ ^(١٤) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

(١) القرطبي: ٢٣٩/١٥. (٢) القرطبي: ٢٣٩/١٥.

(٣) مسند عبد بن حميد: ٤٠٤.

(٤) تحفة الأحوذى: ٥٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٦٢ وابن

ماجه: ١٤٢٣/٢.

(٥) الطبري: ٢٦٩/٢١. (٦) الطبري: ٢٧٠/٢١.

يَكُ الْاَلَيْنَ هَدَيْتُهُمُ اللَّهُ وَأَوَّلَيْكَ هُمْ أَوْلَا الْاَلَيْبِ ﴿١٨﴾

[البشارة للصالحين]

ابن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا شَرْكَهُ أَوْ يَجِدُونَهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ^(١) والصحيح أنها نزلت لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأتاب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرية في الحياة الدنيا في الآخرة، ثم قال عز وجل: ﴿فَيَذَرُهَا آلُ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ نَدَاءَ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بها فيه، قوله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام حين ناهى التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. ﴿وَالَّذِينَ هَدَيْتُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة، هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأَوَّلَيْكَ هُمْ أَوْلَا الْاَلَيْبِ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

﴿فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي الْعَذَابِ﴾ ^(١٩) لكن الذين ألقوا بهم لهم عُزٌّ مِنْ قُوَّتِهَا عَزٌّ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من فضل الله فلا هادي له، ومن يهديه فلا مضل له. ثم أخبر عز وجل عن عبادة السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور أي الشاهقة ﴿مِنْ قُوَّتِهَا عَزٌّ مَبْنِيَّةٌ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات بحكمات مزخرفات عاليات. روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي بن عيسى قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا بَرَى بَطُونَهَا مِنْ ظُهُورِهَا، وَظُهُورَهَا مِنْ بَطُونِهَا﴾ فقال أعرابي: من هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: ﴿لَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ﴾ ^(٢١) ورواه الترمذي وقال: حسن غريب ^(٢٢) وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْغُرَفَةِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ﴾

قال: فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال: سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: ﴿كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الَّذِي فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ﴾ ^(٢٣) أخرجاه في الصحيحين ^(٢٤) وقال الإمام أحمد: حدثنا فزارة، أخبرني فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

﴿إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرَفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الَّذِي فِي الْغَارِبِ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ﴾ فقالوا يا رسول الله، أولئك النسيون؟ فقال ﷺ: ﴿بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُولَ﴾ ^(٢٥) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح ^(٢٦). وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤون وأين أرادوا ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه وعدَّ وعده الله عباده المؤمنين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ^(٢٧).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا﴾ ^(٢٨) فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأُولَى الْاَلَيْبِ ﴿٢٩﴾ أَفَنْدَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ. لِأَسْلَكَهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْفَلَسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَوَّلَيْكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

[مثل الحياة الدنيا]

يخبر تعالى أن أصل الماء من السماء كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ^(٣١) فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء ^(٣٢)، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأُولَى الْاَلَيْبِ﴾ ^(٣٣) أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسنة، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيرًا

(١) الطبري: ٢١/٢٧٤. (٢) أحمد: ١/١٥٥.

(٣) تحفة الأحوذني: ٧/٢٣١. (٤) أحمد: ٥/٣٤٠.

(٥) فتح الباري: ١١/٤٢٤، ومسلم: ٤/٢١٧٧.

(٦) أحمد: ٢/٣٣٩. (٧) تحفة الأحوذني: ٧/٢٧٢.

(٨) الدر المنثور: ٧/٢١٩.

ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعد
إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل
الله من السماء من ماء، وينبت به زرعاً وثبائراً، ثم يكون بعد
ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْزَيْتُمْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَلَاهُ
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ
الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝﴾.

[لا يستوي أهل الحق وأهل الضلال]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمَنْ مَرَجَ اللَّهُ صِدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى
نُورٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ۝﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد
من الحق، كقوله عز وجل: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا
لَهُ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ
مِنْهَا ۝﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿قَوْلِ الْغَفِيِّ قُلُوبُهُمْ قِنْ ذَكَرَ اللَّهُ ۝﴾
أي: فلا تلبس عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم
﴿أُولَئِكَ فِي صُلَحٍ مُبِينٍ ۝﴾.

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝﴾

[وصف القرآن]

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على
رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
مُتَشَبِّهًا مَثَانِي ۝﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه
مثنائي^(١)، وقال قتادة: الآية تشبه الآية والحرف يشبه
الحرف^(٢) وقال الضحاك: مثنائي ترديد القول ليفهموا عن
ربهم تبارك وتعالى. وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه
القضاء. زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة
الأخرى آية تشبهها. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه:
﴿مَثَانِي ۝﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه على
بعض^(٣)، وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة
معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَبِّهًا مَثَانِي ۝﴾ أن سياقات القرآن تارة
تكون في معنى واحد، فهذا من التشابه، وتارة تكون يذكر
الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم
صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثنائي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نِيعٍ ۝﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي حِمِيمٍ ۝﴾ وكقوله عز وجل:
﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝﴾ إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ

الْأَبْرَارَ لَفِي نِيعٍ ۝﴾ ﴿هَذَا ذِكْرُ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِاللَّهِ لِحُسْنِ مَنَاقِبِهِ ۝﴾
إلى أن قال: ﴿هَذَا ذِكْرُ الْفَاطِنِينَ لَشَرِّ مَنَاقِبٍ ۝﴾ ونحوه
من السياقات، فهذا كله من المثنائي، أي: في معنيين اثنين،
إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو
المتشابه. وليس هذا من التشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ
مَائِكَ تُحْكِمُكَ هُنَّ أَمْ أَلَيْسَ بِكَ وَأَخْرَجْتُكِ مِنْهُنَّ ۝﴾ ذلك معنى آخر
وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۝﴾ أي: هذه صفة الأبرار،

سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد
والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من
الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۝﴾
يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغريمهم
الفجار من وجوه (أحدها) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات
وسماع أولئك نغمات الآيات من أصوات القينات (الشارح)
أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بآيات
وخشية ورجاء وعبادة وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبْوَةٍ يَقُولُونَ ۝﴾ ﴿أُولَئِكَ يَنْفَعُهُمُ
الصَّلَاةُ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ
يَرْتَفِعْ عَنِ اللَّهِ ذَرْبُهُمْ وَمَقْفَرَةٌ وَرَزَقٌ كَرِيمٌ ۝﴾ وقال تعالى
﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهًا ۝﴾
﴿آي ۝﴾ أي: لم يكونوا عند سماعها مبصرين بمعانيها، فلهاذا إنما يعملون بها
مصدقين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهاذا إنما يعملون بها
ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغريمهم
(الثالث) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة
عليهم السلام عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله
تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. ولم يكونوا
يتصارخون ولا يتكلمون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات
والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا
فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. قال
عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ
اللَّهِ ۝﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر

(٢) الطبري: ٢٧٩/٢١.

(١) الطبري: ٢٧٩/٢١.

(٣) الطبري: ٢٧٩/٢١.

﴿١٧﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يَقْرِبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَي: تَعَلَّمُونَهُ مِنْ أَنفُسِكُمْ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنشَأْنَا لَكُم مَّثَلًا مِّنْ نَّفْسِكُمْ لِيَتَذَكَّرُوا﴾ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِيُونَ ﴿١٨﴾ وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَرَأَيْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أَي: هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، لَا اِعْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لِسَانَ يَلِيسَ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَوَضُوحٌ وَبِرْهَانٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ، وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أَي: يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَ فِيهِ شِرْكَاءُ مُتَشَكِّكُونَ﴾ أَي: يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمَشْرُوكِ بَيْنَهُمْ ﴿وَزَجَلَ سَلَمًا﴾ أَي: سَلَامًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ أَي: خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أَي: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا. كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمَشْرُوكُ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُ الْمَخْلُصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَمَجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هَذِهِ الْآيَةُ ضَرَبَتْ مَثَلًا لِلْمَشْرُوكِ وَالْمَخْلُصِ ^(١). وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ ظَاهِرًا بَيْنَنَا جَلِيًّا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَي: عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَي: فَلِهَذَا يَشْرُكُونَ بِاللَّهِ [مَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُرَيْشٍ وَاخْتِصَامِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٢١﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهِ الصَّدِيقُ رضي الله عنه عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتُهُ، مَعَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: أَنْكُمْ سَتَقُولُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا عَالَةَ، وَتَسْتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ، فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُصِينَ الْمُوَحِّدِينَ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ الْمَشْرُوكِينَ الْمَكْذِبِينَ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ -وإن كَانَ سِيَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَذِكْرُ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ- فَهِيَ شَامِلَةٌ لِّكُلِّ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ تَعَادُلَهُمْ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الزَّيْرِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا

يَوْمَ تَبْكِي أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمِثُن قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَلْزَمَ عَقْلَهُمْ وَالْغَشْيَانُ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ لَوَّى يَدَيْهَا مِن يَشَاءُ﴾ أَي: هَذِهِ صِفَةُ هَذَا اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ بِمَثَلِ اللَّهِ قَالَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿٢٣﴾. يَتَّبِعِي بَوَّجَهُمْ. سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْكُرْهُمْ يَوْمَ يَسْأَلُونَ عَنْهُمْ أَنَّى قَالْتُمْ فَتَقُولُونَ نَكَلًا عَلَى أَفْئِدِهِمْ أَمْ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ فَادْفَنُوهمْ دُفُونًا مِّنْ سَعَرٍ ﴿٢٦﴾ وَرَبِّكَ يَبَارِكُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَن يَتَّقِينَ فِي النَّارِ غَيْرَ أَمْ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَانْتَفَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَحَدِ الْقَسَمَيْنِ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْكُرْهُمْ﴾ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْنِي: الْقُرُونُ الْمَاضِيَةُ لِمَنْ رَسَلْنَا إِلَيْهِمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ فَتْرَةٍ وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاذْكُرْهُمْ اللَّهُ الْخَزْزَى فِي الْخَيْرَةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: لَمْ يَمُوتُوا مِنْ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَتَشْفَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَانْصَرَفُوا مِنَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَحَمَلُوا الْأَنْبِيَاءَ رضي الله عنهم وَالَّذِي أَعَدَّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، أَعْظَمَ عَمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ رَجُلٌ: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

تَعَالَى: ﴿أَفَن يَتَّقِينَ بَوَّجَهُمْ. سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَقَالَ لَهُ وَلَا مِثَالَهُ مِنَ الظَّالِمِينَ: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَن يَكْفُرُونَ﴾ وَجَهْدُهُ أَهْدَى أَمَّنْ يَمُوتُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُسْأَلُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجْهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ وَرَبِّكَ يَبَارِكُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَن يَتَّقِينَ فِي النَّارِ غَيْرَ أَمْ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَانْتَفَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَحَدِ الْقَسَمَيْنِ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْكُرْهُمْ﴾ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَعْنِي: الْقُرُونُ الْمَاضِيَةُ لِمَنْ رَسَلْنَا إِلَيْهِمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ فَتْرَةٍ وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاذْكُرْهُمْ اللَّهُ الْخَزْزَى فِي الْخَيْرَةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: لَمْ يَمُوتُوا مِنْ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَتَشْفَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَانْصَرَفُوا مِنَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَحَمَلُوا الْأَنْبِيَاءَ رضي الله عنهم وَالَّذِي أَعَدَّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، أَعْظَمَ عَمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ رَجُلٌ: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

[مَثَلُ الشَّرْكِ]

يَسْأَلُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَي: بَيْنَا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٢١) قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله، أكرر علينا الخصومة؟ قال: «نَعَمْ» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد^(١). وروى أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٢٣) قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نَعَمْ، لِيُكَرِّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُوَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد^(٢)، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٣). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٢٤) يقسمون: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر. وقد روى ابن منده في كتاب الروح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت ويقول الجسد للروح: أنت أمرت وأنت سولت، فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير والآخر ضرير، دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير: إني أرى ههنا ثياراً، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني فتناولها. فركبه فتناولها. فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالطية، وهو راكبه. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٢٥) قال: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نخخصم فيه. ورواه النسائي^(٤).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٢٦) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٢٧) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٢٨) لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٩)

[أجزاء الكاذبين الكذابين والصادقين المصدقين]

يقول عز وجل مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله

وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله وجعلوا لله ولداً - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا قال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ (٢٦) أي: لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله وكذب على رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلّت عظمتة متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٢٧) وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (٢٨) قال مجاهد وقادة والرابع ابن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: المسلمون ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢٩) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشريك^(٥) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني في الجنة بهما طلبوا وجدوا ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٠) لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣١) كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْمُنَّةِ وَالْصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٣٢).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٥) قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَالُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَوَّلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٦) مَنْ يَأْتِ بِعَدَابٍ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)﴾

(١) الدر المنثور: ٥/٦١٤. (٢) أحمد: ١/١٦٤.

(٣) تحفة الأحوذى: ٩/٢٨٩.

(٤) النسائي في الكبرى: ١١٤٤٧.

(٥) الطبري: ٢١/٢٨٩، والقرطبي: ١٥/٢٥٦.

(٦) الطبري: ٢١/٢٩٠. (٧) الطبري: ٢١/٢٩٢.

[الله كاف لعبده]

يَعَالَى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم: يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه ﴿يُؤْتِيكَ بِالْزَيْتِ مِنْ ذِيوَيْه﴾ يعني: المشركين يخوفون به، ويتوعدونه بأصنامهم وألتهم التي يدعونها من جهلاء منهم وضلّالاً، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَشَاءِ اللَّهُ فَمَا لِدُومِينَ هَآؤَ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ﴿٣١﴾ أي: منيع الخناب، لا يضام استد إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، لا انتقاماً منه، من كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

[اعتراف المشركين بتوحيد الله في

خلق الكون لعجز ألتهتهم]

يَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه دجلاً لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضَرٍّ لَمْ يَكُنْ لَهُ دُفْعٌ ۚ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ لَمْ يَكُنْ مُمْسِكًا﴾ ﴿٣٢﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «أَحْفَظُ اللَّهَ يَحْفَظُنِي، أَحْفَظُ غَدَتِي يَحْفَظُنِي، أَعْرِفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّحَاءِ يَعْرِفُنِي فِي الشَّدَقِ، إِذَا نَاقَلْتُ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتُ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، حَسْبُ الضُّعْفِ وَرَفَعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ، عِلْمُ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ﴿٣٣﴾ قل: أي الله كافٍ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا فِئْتَانِكَ بَعْضُ الْهَيْبَتِ يَسُوءُ قَالِي إِيَّاهُ أَشْهَدُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ من ذؤيبه فكيف في جميعاً ثم ﴿يُنْزِلُ إِلَيْنَا الْوَحْيَ وَاللَّهُ رَبُّنَا الَّذِي لَا هُوَ أَجَدُ مِنَّا إِنَّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣٥﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد

ووعيد ﴿إِنِّي عَائِلٌ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غيب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَعَجِلَ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: دائم مستمر، لا يحيد عنه، وذلك يوم القيامة، أعادنا الله منها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٌ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ ۚ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿وَالنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتتذرعهم به ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٌ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿٤٠﴾.

[الله الذي يميت ويحيي]

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ فِي الصورِ ۚ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ ﴿٤١﴾ فذكر الوفايتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ ۚ إِنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنه تجتمع في الملائ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفِضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ

لَيَقُولَ: يَا سَمِيعَ رَبِّي وَصَفْتُ جَنَّتِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَنْسَكْتُ نَفْسِي فَأَزَحَّهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتُهَا فَأَحْفَظَهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ^(١). ﴿فَيَمِيسُكَ أَلَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها^(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: يميسك أنفُسُ الأموات ويرسل أنفُسَ الأحياء، ولا يغفل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

﴿أَمْ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾^(٤) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٥) وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ^(٦)

[لا شفاعة إلا لله واشمئزاز]

المشركين من ذكره وحده

يقول تعالى دائماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حدهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد هؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه من شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) أي: يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويميزي كلَّ بعمله، ثم قال تعالى دائماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي إذا قيل: لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت^(٢) كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣) أي عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٤) أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُرْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٥) وَلَوْ أَنَّ

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتْنُوا بِهٖ
سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ
(٧) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ
يَسْتَهْزِءُونَ^(٨)

[طريقة الدعاء]

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم من التوحيد: ﴿قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السماوات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي السر والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(٩) أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، سَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اغْنِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنْ خَلْقٍ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تُبْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١٠)

[لا تقبل فدية يوم القيامة]

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لَا فُتْنُوا بِهٖ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي الذي أوجهه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(١١) أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدنيا من المحارم والمآثم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١٢) أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون

(١) فتح الباري: ١١/١٣٠، ومسلم: ٤/٢٠٨٤.

(٢) الطبري: ٢١/٢٩٨. (٣) الطبري: ٢١/٣٠١.

(٤) مسلم: ٢/٥٣٤.

في الدار الدنيا.

﴿٥١﴾ مَسَّ الْإِنْسَانُ ضَرْدَعَانًا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا
 أُتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنِّي أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ قَدْ قَالُوا
 مِمَّنْ قَبِيتِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَصَابَتْهُمْ
 سَخَابٌ مِّنْ مَّكَسِبِهِمْ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُنَّ أُولَٰئِكَ سَيُعَذِّبُهُمُ سَخَابُ مَا
 سَاءُوا بِمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٤﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

[تقلب الإنسان إذا أصابته نعمة بعد الضر]

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء
يضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه، وإذا حوله نعمة
تدبغى وطفى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم
من استحقاتي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني
هذا. قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: على خبر عندي ^(١) قال الله
مورجلاً: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما
أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم
يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي اختبار ﴿وَلَنَكْثُرَنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ^(٢) فلماذا يقولون ما يقولون ويدعون ما
يدعون ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد قال هذه المقالة
زعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير من سلف من
الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^(٣) أي فما صح
فرلم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ أي من المخاطبين
﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿وَمَا
كُنْ بِمُعْجِزٍ﴾ ^(٤) كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه
قاله قومه: ﴿لَا تَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ^(٥) وَابْتَغِ فِيمَا
آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْزِن
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ ^(٦) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ
فَعَّلَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْفُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا
تُفَكِّرْ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ^(٧) وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا تَحَنُّنٌ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ^(٨) وقوله تبارك
وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي
يرسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿وَإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(٩) أي لعبراً وحججاً.

قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّهِ تَعْلُفُ الذُّنُوبِ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ وَأَبَسُوا
إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لِلَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُصْغِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾
أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحُصْنِي عَلَىٰ مَا قُرِئْتُ فِي حَبْلِ اللَّهِ وَإِنْ
كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرُونَ ﴿٦٠﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ
مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي
كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٢﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَاءٌ إِلَيْنِي
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾

[الدعوة إلى التوبة قبل أن يأتي العذاب]

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهابكات، وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فساكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه حسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونزل: ﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ آسَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي ^(٢). والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قُلْ يَبْنَؤُا الَّذِينَ أَتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣). ورواه أبو داود والترمذي (٤). فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقتنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال

(١) الطبري: ٢١/٣٠١.

(٢) فتح الباري: ٤١١/٨، ومسلم: ١١٣/١، وأبو داود:

٤٤٦/١٦٦، والنسائي في الكبرى: ٤٤٦.

(٣) أحمد: ٤٥٤/٦.

(٤) أبو داود: ٢٨٥/٤، وتحفة الأحوزي: ١١١/٩.

الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثَمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَجِدُ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقال جل وعلا في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ الآية. ﴿وَالَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ وقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال جل جلالته: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ قال الحسن البصري رحمه الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. والآيات في هذا كثيرة جدًا. وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم ندّم وسأل عابدًا من عباد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالمًا من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشرب، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(١)، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتُوبُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولًا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن

يتوب حتى يتوب الله عليه^(٢) وروى الطبراني عن شريك شكل قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وإن أجمع آية في القرآن ﴿وَشَرُّهُ﴾ وإن الله يأمر بالعدل والإحسان. وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الزمر ﴿قُلْ يَتُوبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَوْ تَوَضَّعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإن أشد آية في كتاب الله تفويضًا ﴿يَتُوبُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ يَهْدِي لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ﴾ ﴿يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فقال مسروق: صدقت^(٣).

ذكر أحاديث فيها نفي القنوط

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَطْعَمْتُ حَتَّى تَمَلَّأَ خَطَابَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمْ تَعَالَى لَغَفَّرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي مَحْدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُحْطُوا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُحْطُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» تفرد به أحمد. وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كنتمت منكم ثم سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لَوْلَا أَنْتُمْ لَذُنُوبُنَا لَطَمْنَا عَزَّ وَجَلَّ قَوْمًا يُذُنُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي^(٥).

ثم استحث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ الآية، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له. ﴿وَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ تَسْتَعِزُّوهُ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة. ﴿وَأَسْعَوْا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم. ﴿وَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ تَسْتَعِزُّوهُ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثم قال عز وجل: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ تَسْتَعِزُّ بِاللَّهِ قَرِطٌ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفسد في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ لَاحِقِينَ﴾

(١) فتح الباري: ٥٩١/٦.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن المنذر، الدر المنثور: ٦٢١/٥.

(٣) الطبري: ١٤٢/٩. (٤) أحمد: ٣/٢٣٨.

(٥) أحمد: ٥/٤١٤، ومسلم: ٤/٢١٠٥، وتحفة الأحرار.

من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١) أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، نائلون كل خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٣) ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٥) بَلِ اللَّهُ غَافِلٌ عَمَّا تَكْمُلُونَ (١٦)

[الله هو الخالق المتصرف]

والإشراك به يحبط العمل]

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكمها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته، وقوله عز وجل: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة^(٤). وقال السدي: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض^(٥)، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٦) وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤) ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٥) وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٨). وقوله عز وجل: ﴿بَلِ اللَّهُ غَافِلٌ عَمَّا تَكْمُلُونَ﴾ (١٦) أي: أخلص العبادة لله وحده لا

شريك له، أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل سائر غير موقن مصدق ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٧) أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (١٨) أي: تود لو أهدت إلى التمسك بالعمل. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد من قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال ﷺ: ﴿لَا يَبْنِيَنَّكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٩) ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَةٍ عَلَىٰ وَلَدٍ﴾ (٢٠) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢١) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٢) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٣) وقد روى إمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّنِي هَدَانِي اللَّهُ لَكُنْتُ مِنَ الْجَنَّةِ حَسْرَةً»، قال: «وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّنِي هَدَانِي اللَّهُ لَكُنْتُ مِنَ النَّارِ حَسْرَةً». ولما غنى أهل الجرائم العود إلى سبيلهم انحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسوله، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَالٌ إِلَىٰ قَوْمٍ كَذَّبَتْ بِهَا رَسُولُهُ وَكَانُوا مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) أي: قد جاءتك أيها محمد النادم على ما كان منه، آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (٢٥) ﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٦) وَيَسْمَعُونَ اللَّهَ الذِّكْرَ ﴿لَقَدْ أَمَرْنَا بِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧)

[عاقبة الكاذبين على الله وعاقبة المتقين]

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً ولولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وإفترائهم. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٦) أي: أليست جهنم نافية لهم سجنًا وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجرهم وإيائهم عن الانقياد للحق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْمَعُونَ اللَّهَ الذِّكْرَ﴾ (٢٧) أَتَقْوَاهُمْ أَتَقْوَاهُمْ أَتَقْوَاهُمْ (٢٨) أي: بما سبق لهم

(١) الطبري: ٣١٦/٢١. (٢) أحمد: ٥١٢/٢.

(٣) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦.

(٤) الدر المنثور: ٢٤٣/٧، والطبري: ٣٢١/٢١.

(٥) الطبري: ٣٢١/٢١.

(٦) انظر الطبري: تفسير سورة الكافرون.

شريك له، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧)

[ما قدر المشركون الله حق قدره]

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه (١). وقال محمد بن كعب:

لو قدروه حق قدره ما كذبوا. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره (٢) وقد

وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف. روى البخاري في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عن عبد الله بن مسعود: قال: جاء خبر من

الأخبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد الله عز وجل يجعل السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره

تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية (٣) ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد

ومسلم والترمذي والنسائي في التفسير من مستنيهما (٤) عن أبي هريرة: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقْبُضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟» (٥) تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر (٦).

وروى البخاري في موضع آخر عن ابن عمر: قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ» (٧) تفرد به أيضاً من هذا الوجه فروى عن ابن عمر: قال: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٧) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يجرها يقبل بها ويقول: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، الْكَرِيمُ» فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به (٨) ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه (٩).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي مَقَامٍ يَنْظُرُونَ﴾ وَأَشْرَفَتِ الْأَرْضُ بَوْرَ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشُّهَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٠) وَوُفِّيَتْ نَفْسٌ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ (١١) ﴿١٧﴾

[النفخ في الصور والقضاء والجزاء]

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فنزل تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور

المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفخ الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو اليوم

آخر بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يجيب أول من يجيب إسرائيل، ويأمر

أن ينفخ بالصور مرة أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي مَقَامٍ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاقاً، صار

أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فِي مَقَامٍ يَنْظُرُونَ﴾

(١) الطبري: ٣٢١/٢١. (٢) الطبري: ٣٢١/٢١.

(٣) فتح الباري: ٤١٢/٨.

(٤) فتح الباري: ٤٠٤/١٣، وأحمد: ٤٢٩/١، ومسلم: ٢١٣٧/٤، وتحفة الأحوذفي: ١١٢/٩، ١١٣، والنسائي: ٤٤٦/٦.

(٥) فتح الباري: ٤١٣/٨.

(٦) مسلم: ٢١٤٨/٤.

(٧) فتح الباري: ٤٠٤/١٣. (٨) أحمد: ٧٢/٢.

(٩) النسائي في الكبرى: ٤٠٠/٤، وابن ماجه: ١٤٢٩/٢.

رُزِقُوا (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤). وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَنْفَعُ سِجِّينٌ بِمَعْدُوهُمْ وَتَقْنُتُونَ إِيَّاهُ لِتَنْتَهِ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾
 من جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَعْيَبَهُ أَنْ يَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ
 بِأَعْيَابِكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (١٥)﴾ روى الإمام
 أحمد أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة
 تروم إلى كذا وكذا، قال: لقد هممت أن لا أحدنكم شيئاً، إنما
 تسمعون بعد قليل أمراً عظيماً، ثم قال عبد الله بن عمرو
 قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمِّيَةِ قِيَمَتِكَ فِيهِمْ
 رُبْعِينَ (لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين
 عاماً، أو أربعين ليلة) فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْغُودِ النَّفْقَى، فَيُظْهِرُ قَهْلُوكَهُ
 تَعَالَى، ثُمَّ يَلْبِثُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِتِينَ سَبْعًا، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ
 مَلَأَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ، فَلَا يَبْقَى
 أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبِضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ
 كَانَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ» قال: سمعتها من رسول الله
 ﷺ وَبَقِيَ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَخْلَامِ السَّبَاعِ، لَا
 يَمْلِكُونَ مَمْرُوفًا، وَلَا يُنْكَرُونَ مُنْكَرًا، قَالَ فَيَمْتَلُكُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
 يَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا، وَهُمْ
 لَا يَدْرِي دَارَةُ أَرْوَاقِهِمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ، ثُمَّ يُنْفِخُ فِي الصُّورِ، فَلَا
 سَمْعَ أَحَدٍ إِلَّا أَصْفَى لَهُ، وَأَوَّلَ مَنْ يَسْمَعُهُ، رَجُلٌ يَلُوطُ
 حَوْضَهُ فَيَصْغَقُ، ثُمَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَوْقٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ
 تَعَالَى أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ الظَّلَّ شَكَّ
 مَاءٍ - فَيَنْثَبِتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ
 قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقَفُّهُمْ
 ثُمَّ سُئِلُوا (١٦)﴾ قال: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارِ، قَالَ:
 يُقَالُ: كَمْ؟ يُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ بِسَعَةِ أَلْفٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ،
 لِيَوْمِذٍ يَبْعَثُ الْوَلَدَانِ شَيْئًا، وَيَوْمِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَائِقِ (١٧) انفراد
 بإخراجه مسلم في صحيحه (٢).

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن
 النبي ﷺ قال: «مَا يَرَى النَّفَّاثَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قالوا: يا أبا هريرة،
 أربعون يوماً؟ قال رضي الله تعالى عنه: أبيت، قالوا: أربعون
 سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبلى كل
 شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق (٣).
 وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ الْأَرْضُ بِثَوْرٍ رَتِيهَا﴾ أي:
 انشعبت يوم القيامة إذا تحلى الحق جل وعلا للخلاق لفصل

القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال (٤)
 ﴿وَحَاقَتْ بِالْيَتِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما:
 يشهدون على الأسم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم (٥)
 ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال
 العباد من خير وشر ﴿وَوُضِعَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل
 ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ (٦)﴾ قال الله تعالى: ﴿وَضَعِ الْمَوَازِينَ الْقَوِصَ
 لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
 خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٧)﴾ وقال جل وعلا:
 ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً قَدْ عَمَلْتَ فَيُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ
 لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٨)﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ
 مَا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقَعُونَ (٩)﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءَهَا
 فَخِصَتْ أَنزَلْنَاهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ
 عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى
 وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٠)﴾ قِيلَ أَتَذْكُرُوا
 أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا قِيَسَ مَوْتَى الْمُسْكِرِينَ (١١)﴾

[يساق الكفار إلى جهنم]

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار
 وإنما يساقون سوقاً عنيماً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال
 عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٢)﴾ أي: يدفعون
 إليها دفعاً، وهذا وهم عطاش ظمأ، كما قال جل وعلا في
 الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْآرْتَمَنِ وَقَدَاً (١٣)﴾ وَسَوْفَ
 الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ رَدًّا (١٤)﴾ وهم في تلك الحال صم وبكم
 وعمي، منهم من يمشي على وجهه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 عَلَى وُجُوهِهِمْ عَيْنًا وَبِكُلِّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا كُتِبَ لَهُمْ
 سَوِيرًا (١٥)﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهَا فَخِصَتْ
 أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها
 سريعاً، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية
 الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع
 والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم
 تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
 رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما

(١) أحمد: ١٦٦/٢. (٢) مسلم: ٢٢٥٨/٤.

(٣) فتح الباري: ٤١٤/٨. (٤) الطبري: ٣٣٥/٢١.

(٥) الطبري: ٣٣٦/٢١.

دعوكم إليه ﴿وَنَذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَى﴾ أي: قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧) أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال عز وجل خبراً في الآية الأخرى: ﴿كَلِمَاتٍ لِّفِيهَا فُتِحَ سَلَامُكُمْ خَزَائِنُ أَرْضِكُمْ يَذُرُّهَا﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) أي: رجعوا على أنفسهم باللاملة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١) أي: بعداً لهم وخساراً.

وقوله تبارك وتعالى ههنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به. ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: مكاثرين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَيَقْسَمُونَ لَهُمُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٢) أي: فبش المصير وبش المال.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٤)

[يذهب بالمؤمنين إلى الجنة]

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصدّيقون مع أشكائهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قطرة بين الجنة والنار، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول، فيقصّدون آدم، ثم نوحاً، ثم إسماعيل،

ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين، كما فعل في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي القضاة القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواقف كلها. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ» (١) وفي لفظ لمسلم: «وَأَنَا أَوَّلُ يَفْرُقُ بَابَ الْجَنَّةِ» (٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا بَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحْ لِقَائِي الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ - قَالَ - يَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» (٣) ورواه مسلم (٤). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا وَلَا يَمْتَحِنُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، أَلْبَسَهُمْ وَأَسَاطِيرُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَجَارُهُمْ الْأَكْوَةُ وَرَشْحُهُمُ الْمُسْكُ، وَلَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مِثْلُ سَاقِيهِمَا مِنْ زَوَارِ الثَّغْمِ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِتَحْسَرَةٍ وَعَشِيَّةٍ» (٥) ورواه البخاري ومسلم (٦). وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلْبَسُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْكَوْكَبِ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَنْتَفِلُونَ، وَلَا يَمْتَحِنُونَ، أَسَاطِيرُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمُسْكُ، وَجَارُهُمُ الْأَكْوَةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، يَسْتَوُونَ فِرَاسًا فِي السَّمَاءِ» وأخرجه أيضاً من حديث جرير (٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ، هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، نُفُوسُهُمْ وَجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثم قام رجل من الأنصار فقال:

(١) مسلم: ١/١٨٨. (٢) مسلم: ١/١٨٨.

(٣) أحمد: ٣/١٣٦. (٤) مسلم: ١/١٨٨.

(٥) أحمد: ٢/٣١٦.

(٦) فتح الباري: ٦/٣٦٧، ومسلم: ٤/٢١٨٠.

(٧) مسند أبي يعلى: ١٠/٤٧٠.

(٨) فتح الباري: ٤/٤١٧، ومسلم: ٤/٢١٧٩.

إِلَّا اللَّهَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا قُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٦).

ذكر سعة أبواب الجنة نسال الله من

فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فَقِيلَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخُلْ مِنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنْ مَا بَيْنَ الْمَضْرَعَيْنِ مِنْ مَضَارِيعِ الْجَنَّةِ - مَا بَيْنَ عِضَادَتَيْ الْبَابِ - لَكُمْ بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ - أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ - فِي رَوَايَةٍ - مَكَّةَ وَبُضْرَى»^(٧) وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذكر لنا أن ما بين مصرعين من مزارع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام^(٨). وقوله تبارك وتعالى: «وَقَالَ لِمَنْ خَزَنَتْهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يَسْمَعُ» أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسَلِّمَةٌ» - وفي رواية - مُؤْمِنَةٌ»^(٩) وقوله: «فَادْخُلُوهَا خَلِيلِينَ»^(١٠) أي: ما كثر فيها أبداً، لا يغيون عنها حولاً «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَهُ» أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الشواب الوافر والعطاء العظيم والتعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَهُ» أي: الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ»^(١١) «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ» «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»^(١٢) الَّذِي أَطْنَا دَارَ

رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: سَلِّمْ عَلَيْكَ يَا عُمَاةَ شَأْ. أخرجاه^(١١). وقد روى هذا الحديث - السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري بسلم عن ابن عباس رضي الله عنه وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهني وأم قيس بنت ميمون رضي الله عنهم ولها عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سِتُّونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَأَخِرُهُمْ الْجَنَّةَ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً»^(١٢) وقوله تعالى: «حَقَّقْ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لِمَنْ خَزَنَتْهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يَسْمَعُ فَادْخُلُوهَا خَلِيلِينَ»^(١٣) لم تذكر الجواب ههنا، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقاهم ملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية كفره بالشراب والتأنيب، فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا دخل الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسَلِّمَةٌ» واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق في التزعزع، وإنما يستفاد من أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَقَى رُؤُوسَ جَنِّينَ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دعي من بيادعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١٤) رواه البخاري ومسلم نحوه وفيها عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرِّيَّانَ، لَا يَدْخُلُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»^(١٥) وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَوْسُفُ قَيْلُغُ - أَوْ قَيْسُغُ - الْوُضُوءُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا قُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»

(١) فتح الباري: ١١/٤١٣، ومسلم: ١/١٩٧.

(٢) فتح الباري: ١١/٤١٤، ومسلم: ١/١٩٨.

(٣) أحمد: ٢/٢٦٨.

(٤) فتح الباري: ٤/١٣٣، ومسلم: ٢/٧١١.

(٥) فتح الباري: ٦/٣٧٨، ومسلم: ٢/٨٠٨.

(٦) مسلم: ١/٢٠٩.

(٧) فتح الباري: ٨/٢٤٧، ومسلم: ١/١٨٤.

(٨) مسلم: ٤/٢٢٧٨، (٩) فتح الباري: ١١/٣٨٥.

الْمُقَامَةُ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسَّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسَّنَا فِيهَا تَعُوبٌ ﴿١٧﴾
وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾.

قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد: أي: أرض الجنة ^(١) فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَائِمُ الْمُسْكِ» ^(٢).

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكتهم أنهم محذون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلاق ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢)

سواء **﴿الْبَيْتِ الْكَبِيرِ﴾** ٢: أي: المرجع والمآب، فيجازي عامل بعمله **﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** ٣.

وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يعرّك قتلهم في الدنيا **﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ تَوَجَّوْا وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** ٤. فثبت كل أمة برسولهم ليأخذوه ويحذلوهم **﴿يَا بَطِلُ لِيَدْحَضُوا إِلَيْكَ فَتُفْعَلْ لَكَ فِئَةٌ كَذِبُ﴾** ٥. وكذلك حقّت ربك على الذين كفروا أنهم أصبحوا نآر **﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ رَبُّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾** ٦.

[من صفات الكفار الجدال في آيات الله]

وبيان ما يترتب عليه]

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور برهان **﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه **﴿فَلَا يَعْرِزُّكَ قَتْلُهُمْ فِي الْيَوْمِ﴾** ١. أي: في أوطانها ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: **﴿لَا يَعْرِزُّكَ قَتْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَوْمِ﴾** ٢. **﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَكَانَ الْمِهَادُ﴾** ٣. وقال عز وجل: **﴿لَنُفَعِّلَهُمْ فَلْيَلَاثِمُ صَفْرَهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** ٤. ثم قال تعالى مسلياً لنييه عند كذبه من قومه، بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد كذبهم ففهم وخالفهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال: **﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ تَوَجَّوْا﴾** وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان **﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** أي: من كل أمة **﴿وَهَقَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾** أي: حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله **﴿وَيَحْذِلُوا يَا بَطِلُ لِيَدْحَضُوا إِلَيْكَ فَتُفْعَلْ لَكَ فِئَةٌ كَذِبُ﴾** أي: ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقوله جلت عظمتة: **﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾** أي: أهلكتهم على ما سبوا من هذه الآثام والذنوب العظام **﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾** ٥. أي: فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان شديداً والله **﴿١﴾**. وقوله جل جلاله: **﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْفَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾** ٦. أي: كما حقّت كلمة العذاب على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

وَسَتَجِدُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَذِلَّ لَهُمْ جَنَّتِ عَذَابِ الْآلِ وَعَذَابُهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَوَلَّى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ ٩

[حملة العرش يحمدون الله ويستغفرون للمؤمنين]

يخبر تعالى عن الملائكة الكرويين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح **﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** أي: خاشعون له أدلاء بين يديه وأنهم **﴿وَسَتَجِدُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** أي: من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب كما ثبت في صحيح مسلم: **﴿إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ﴾** ١. قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا **﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾** أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم **﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾** ٢. أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات **﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾** ٣. أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجه الأليم **﴿رَبَّنَا وَأَذِلَّ لَهُمْ جَنَّتِ عَذَابِ الْآلِ وَعَذَابُهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾** أي: اجمع بينهم وبينهم لتقرر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ يَتَّبِعُهُمْ دُورُهُمْ وَمَا كُنْتُمْ مِنْهُمْ﴾**

(١) الطبري: ٣٥٣/٢١. (٢) مسلم: ٢٠٩٤/٤.

(٣) البغوي: ٩٣/٤.

عليهم من شئ، أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساوينا به بكثير العمل تفضلاً منا ومنه. وقال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول: إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية وأغش عباده للمؤمنين الشياطين (٩). وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) أي: الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فعلها أو وبالحا ممن وقعت منه ﴿وَمَنْ فِي السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدَرْتَهُمْ﴾ أي: لطفت به ونجيتهم من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) قالوا ربنا آتتنا اثنين وأحييتنا اثنين فأعزفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبي (١١) ذلكم بأنهم إذا دعوا لله وعدده كفرته وإن يشرك به يؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته ويترك لكم من السمة رقاً وما يتذكركم إلا من نيب (١٣) فادعوا الله محضين لله الذين ولو كره الكافرون (١٤).

[ندامة الكفار بعد دخول النار]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار إنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون وذلك عندما باسروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٥) يقول: لمقت الله أهل

الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله في القيامة (١٦)، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذو بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبري رحمة الله عليهم أجمعين (١٧). وقول ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيِتْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود: هذه الآية كقولته تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ رُجُومٌ﴾ (١٨) وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك (١٩) وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية. والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة مرة وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسًا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٢٠) فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة الله مما سألوا أول مرة فلا يجابون. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ عَلَى النَّارِ قَالُوا يَلَيْسَ نَرُدُّ وَلَا نُكَلِّبُ رَبَّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) بداهة ما كانوا يحقون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٢٢) فإذا دخلوا النار ذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلاها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿وَهُمْ يَسْطَرُجُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ لَئِنْ كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٢٣) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَهَا ظَالِمُونَ﴾ (٢٤) قَالَ أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ (٢٥) وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدما وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيِتْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة فلنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا ثم آتتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما نشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٢٦) أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر

(١) الطبري: ٣٥٧/٢١. (٢) القرطبي: ٢٩٥/١٥.
 (٣) الطبري: ٣٥٩/٢١. (٤) الطبري: ٣٥٩/٢١.
 (٥) الطبري: ٣٦٠/٢١. (٦) الطبري: ٣٦٠/٢١.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥ يَوْمَ هُمْ بَدْرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ مِنْهُم ١٦ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٧ الْيَوْمَ نُخَوِّدُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٨﴾

[وحي الله للإنذار عباده يوم التلاق]

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبرائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى: ﴿يَزِيدُ اللَّهُ ذِي الْمَنَاجِزِ ٢﴾ تَرْجِعُ الْمَلَكُتُكَ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقوله جلّت عظمته: ﴿يَزِيلُ الْمَلَكُتُكَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ١﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٣ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ٣٤ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ٣٥﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده ^(٤)، وذلك أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر.

وقوله جل جلاله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: ظاهرهم بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٧﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر ^(٥) أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده ثم يقول: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَيْنُ مُلْكُ الْأَرْضِ؟ أَنَيْنُ الْجَبَّارُونَ؟ أَنَيْنُ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» ^(٥) وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حيث قد يقول: لمن الملك اليوم؟

(١) أحمد: ٤/٤.

(٢) مسلم: ٤١٦/١، وأبو داود: ١٧٣/٢، والنسائي: ٧٩، ٧٨/٣.

(٣) مسلم: ٤١٥/١. (٤) الطبري: ٣٦٤/٢١.

(٥) الطبري: ٣٢٧/٢١.

ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه ظالمون فأجبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سبجايكم لا تقبل من ولا تقتضيه بل تمنجه وتفضيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَنَا نَزَعْنَاهُ مِنْكُمْ وَأَنَا مُبْتَلِيكُمْ ١٩﴾ أي: هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ دُرُّوا الْعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢٠﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ٢١﴾ أي هو الحاكم في الدار الآخرى لا يجوز، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو، وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته خلفه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات عظمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحواس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائح وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد وبالقدرة العظيمة التي بين هذه الأشياء ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَلِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى.

[أمر المؤمنين بعبادة الله وحده مهما كان]

وقوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٢٢﴾ أي: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء اخلقوا المشركين في مسلكتهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد أن عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا بِاللَّهِ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الشَّاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» قال: وكان رسول الله ^(١) يهلل بين دبر كل صلاة، ^(٢) ورواه مسلم وأبو داود والنسائي بنحوه. وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير ^(٣) أن رسول الله ^(٤) كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا بِاللَّهِ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الشَّاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» ^(٣).

ثلاث مرات ثم يحيب نفسه قائلا: ﴿اللَّهُ أَرْجَى الْقَهَّارِ﴾ (١) أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. وقوله جلست عظمته: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢) يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسبئية واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ وَحَرَمًا فَلَا تَظَالُمُوا - إِلَى أَنْ قَالَ - يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ (٣) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤) أي: بحاسب الخلاق كلهم كما بحاسب نفساً واحدة كما قال جل وعلا: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْبُدُكُمْ إِلَّا ذِكْرُنَا وَاحِدَةٌ﴾ وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةٍ بَالِغَةٍ﴾ (٥).

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (٦) يعلم حايبة الأعين وما تخفى الصدور (٧) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٨).

[الإنذار من يوم القيامة وقضاء الله فيه]

يوم الأرزاق اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقتها كما قال تعالى: ﴿أُوفِيَ الْأَرْزَاقُ﴾ (٩) لئلا يهين دونه الله كاشفة (١٠) وقال عز وجل: ﴿أَفَقَدْ آتَيْنَا السَّاعَةَ وَآتَيْنَا الْقِسْرَ﴾ (١١) وقال جل وعلا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقال: ﴿أَفَأَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال جل جلاله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ رَافِقَةٌ سِيتَنُ وَهُوَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ قال قتادة: وقتت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها (١٢)، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى ﴿كَظِيمٍ﴾ أي: ساكنين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَوْمِ الرُّوحِ وَالنَّفَاثَةِ صَفًا لَا يَنْكَلِمُونَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (١٣) وقال ابن جريج: ﴿كَظِيمٍ﴾ أي: باكين (١٤). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٥) أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا

شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل عز وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٦) يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه بحسن تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ الْأَعْيُنَ﴾ هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أولم أروا رأي (١٧). وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعلم تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا (١٨) وكذا مجاهد وقاتدة (١٩)، وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٢٠) يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزي أم لا (٢١)؟ وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٢٢) أي: الوسوسة.

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ قاندر على أن يجري بالحسنة وبالسبئية السبئية (٢٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢٤) وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿يُجْزَى الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ (٢٥) وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الأصنام والأوثان والأنسداد ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢٦) أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿وَلَمْ يَسِرُوا فِي الْأَرْضِ فَحَفَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ كَانُوا قِيلَ لَهُمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ وَتَهُمْ قُوَّةٌ وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ أَوَّي (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ غَائِبَةً فَلْيَنْتَبِهُوا فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٨)

(١) الطبري في الطوال: ص ٢٧٠.

(٢) مسلم: ٤/١٩٩٤. (٣) الطبري: ٢١/٣٦٨.

(٤) الدر المنثور: ٧/٢٨١. (٥) القرطبي: ١٥/٢٠٣.

(٦) الطبري: ٢١/٣٦٩. (٧) الطبري: ٢١/٣٧٠.

(٨) الطبري: ٢١/٣٦٩. (٩) الطبري: ٢١/٣٦٩.

[عاقبة الكذابين السيئة]

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد هؤلاء قوة ﴿وَأَنَّا كُنَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنشروا في الأرض بنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه كما عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾ وقال: ﴿وَأَنَّا كُنَّا فِي الْأَرْضِ وَعَمْرُومًا أَكْثَرُ مِمَّا عَمِرُوا﴾ أي: هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم من كفرهم برسولهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: ما دافع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم من ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنبهم التي ارتكبوها من جرورها فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ يَتْلُو أَيْ: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات تَكْذَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا لِدَعْوَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين ساء ما ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْقَوَائِبِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة بطش شديد ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْقَوَائِبِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجميع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى فرعون وهنن وقنوت فقالوا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وقال فرعون ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

[قصة موسى وفرعون]

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات والنبات. والدلائل الواضحات ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ كَذَبُوا﴾ والسلطان هو الحجة

والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَنُنَ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وَقُنُوتٌ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سَجَرٌ كَذَابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً عموها كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقولته تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ ﴿أَتَوَصَّو بِهٖ لَنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية وإلهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَكُمْ كَيْفَ تَقْعَلُونَ﴾ قال قتادة: هذا أمر بعد أمر^(١)، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدتهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والتهمج والعناد، وقوله قبحه الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني: واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام. وقرأ الآخرون: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ الآخرون: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بالضم ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى عليه

السلام استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال: ﴿إِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿وَمِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق مجرم ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٧) وهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَذَرُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ» (١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٢٨) يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرِفُنَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩)

[تأييد موسى برجل مؤمن من

آل فرعون، وخطاب هذا الرجل]

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام (٢). وقال ابن [جرير] عن ابن عباس رضي الله عنه لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: «يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» الْمَلِكُ يَأْتِيهِمْ يَكْتُمُ يَقْتُلُوكَ» رواه ابن أبي حاتم (٣). وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: «دُرُوبِي أَقْتُلْ مُوسَى» فأخذت الرجل غصبة لله عز وجل. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث (٤)، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنها قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ منكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» انفرد به البخاري (٥). وقوله تعالى: «وَقَدْ جَاءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الخیر ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: «وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ» يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي إن الحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يكن صادقاً وقد آذيتموه يصيبكم بعض الشر بعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائر عندكم إن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. ومضى أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادة في قوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُرْسِلَ رَسُولَ آيِينَ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَأَوْهُوَ بِالْأَرْضِ فَاسْتَوْذِنُوا» (٢١) وهذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتكروه يدعو إلى الله تعالى الله، ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من الفرائض ترك أذيته، قال الله عز وجل: «قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْقُرْبَىٰ» أي: أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الفتنة يوم الحديبية، وكان فتحة مبيتاً، وقوله جل وعلا: «وَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٢٨) أي لو كان هذا الذي يهدى أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غلب الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سلباً ومنهجاً مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرسله إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن عذراً في زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: «يَقُولُ لَكَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ» أي: قد أنعم الله عليكم بالملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاء العرب فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله

(١) النسائي في الكبرى ١٨٨/٥.

(٢) الطبري: ٣٧٥/٢١. (٣) القرطبي: ٣٠٦/١٥.

(٤) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٦. (٥) فتح الباري: ١١٦/٨.

لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ أَي: إِنَّا أَهْلَكْهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسْلَهُ وَمَخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ فَأَنْفَذَ فِيهِمْ قَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَقُولُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ﴿٣٢﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أَي: ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿٣٣﴾ إِلَى رَبِّكَ يُؤَيِّدُ التَّنَادَ ﴿٣٤﴾ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ﴾ أَي: لَا مَانِعَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٥﴾ أَي: مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مِصْرَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَمْتَهُ بِالْقِسْطِ فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةُ إِلَّا بِمَجْرَدِ الْوِزَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّينَ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَي: يَسْتَمُ قَقْلَتُمْ طَامَعِينَ: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أَي: كَحَالِكُمْ هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يَضِلُّهُ اللَّهُ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ قَلْبِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أَي: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمُتُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا يَغْضَوْنَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ فَإِنْ مِنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكُرُ مُنْكَرًا وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾ أَي: عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿جَبَّارٍ﴾ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَبُو عَمْرٍو الْجَوْنِي وَتَقَادَرُ: آيَةُ الْجَبَابَرَةِ الْقَتْلُ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنَّ آيَاتِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُعَ الْآسَافَ﴾ ﴿٣٨﴾ أَسْبَبَ السَّمَكُوتَ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُؤَمِّنٍ وَإِنِّي لِأَطْنَعُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ الْقُرَيْشِ سَوَّاهُ عَلَيْهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٩﴾

[اسْتَهْزَأَ فِرْعَوْنُ بِرَبِّ مُوسَى]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافتراءه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له

مذبحاً لئلا ينقم الله إن كذبتم رسولاً ﴿فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ ﴿٣٠﴾ أَي: لَا تَغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ وَلَا رِعَايَاتُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَا بِسُوءِ قَالِ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارِ الرَّاشِدُ الَّذِي أَحْبَبَ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ﴿٣١﴾ أَي: مَا يَرَى لَكُمْ وَأَشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا جَاءَ مِنَ الرِّسَالَةِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ضَائِرٌ﴾ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمْدُهُمَا وَاسْتَيْقَنَتْهُمَا مِنْ فَلَانٍ وَفُلَانٍ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كَذَبَ فِيهِ فِرْعَوْنَ وَخَانَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيَّتَهُ فَغَشِبَهُمْ مَا نَصَحَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرَّشَدِ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَابِعُوا أَمْرًا فِرْعَوْنَ وَمَا أَشْرَفِعُونَكَ بِرَأْسِهِمْ﴾ وَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَسْبَلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَذِهِ﴾ ﴿٣٣﴾ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ إِمَامٌ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ عَلَيْهِ، إِلَّا لَا يَرْحَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رَجَحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبَاثَةِ عَامٍ» ﴿١﴾ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَوْفِقُ لِلْمُصَوِّبِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْقُورُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ﴾ ﴿٣٤﴾ يَنْقُورُ أَبْ قَوْمٍ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ لِلْعِبَادِ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّينَ وَمَا كُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٩﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَنْقُورُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ﴾ ﴿٣٤﴾ أَي: الَّذِينَ كَذَّبُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كَقَوْمِ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللَّهِ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا

صرحاً وهو القصر العالي المنيّف الشاهق وكان اتخاذه من الآجر
الضروب من الطين المشوي كما قال تعالى: ﴿فَأَوْفَيْتُ بِهِمُ نَدْنَ
عَلَى الطِّينِ فَاجْمَعُوا فِي صَرْحٍ﴾ وقوله: ﴿لَعَلِّي أَتْلُعَ آلَاسْتَبِ (٣٦)
أَسْتَبِ السَّمَوَاتِ﴾ الآية قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب
السموات (١) وقيل: طرق السماوات ﴿فَأُطْلِعَ إِلَى اللَّهِ مُوسَى
وَأُفِي لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ وهذا من كفره وتجرده أنه كذب موسى
عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه قال
تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾
أي: [بصنيعه] هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً
يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال
تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣٧) قال ابن
عباس ومجاهد يعني إلا في خسار (٢).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ عَاتَبُوا بِقَوْمِهِمْ أَنْ يَنْبَغُوا أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ (٣٨) يَنْبَغُوا إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ
الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا
مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرُوا أَنْفُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾

[مواصلة خطاب مؤمن آل فرعون]

يقول المؤمن لقومه من تمرد وطني وآثر الحياة الدنيا ونسي
الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿يَنْبَغُوا أَنْبَغُوا أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ (٣٨)﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٩)﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على
الأخرى وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه
السلام فقال: ﴿يَنْبَغُوا إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ﴾ أي:
قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ
هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال
منها ولا ظعن عنها إلى غيرها بل إما نعيم وإما جحيم وهذا
قال جلّت عظمتها: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾
أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرُوا أَنْفُ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ
(٤٠)﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله عز وجل ثواباً كثيراً
لا انقضاء له ولا نفاذ. والله تعالى الموفق للصواب.

﴿وَيَنْبَغُوا مَا لِي أَذْعُوَكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ
(٤١) تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَذْعُوَكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ (٤٢) لَاجِرًا أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ

لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَكَانَ
الْمُتَشَرِّفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَتَذَكَّرْتُ مَا أَفْعَلُ
لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَمَلِ
(٤٤) فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا كُفَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُدَّ
الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾

[نهاية الخطاب ومصير الفريقتين]

يقول لهم المؤمن ما بالي أذعوكم إلى النجاة وهي عبادة
وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعث
﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَذْعُوَكُمْ
إِلَى الْغَيْرِ الْقَهَّارِ (٤٢)﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنوب
تاب إليه ﴿لَاجِرًا أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقاً قال السدي
وابن جرير معنى قوله: ﴿لَاجِرًا﴾ حقاً. وقال الضحاك
﴿لَاجِرًا﴾ لا كذب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
﴿لَاجِرًا﴾ يقول: بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام
والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد
الوثن ليس له شيء (٣)، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا
يضر، وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا
في الآخرة (٤)، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ
ذُنُوبِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)
﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَهُمْ يُحْسِنُونَ كِتَابَكُمْ﴾ وقوله
﴿وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كل
بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُتَشَرِّفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)﴾
أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم به
عز وجل: ﴿فَتَذَكَّرْتُ مَا أَفْعَلُ لَكُمْ﴾ أي: سود
تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتمكم عنه ونصحتكم
ووضعت لكم وتذكروته وتندمون حيث لا ينفع الندم
﴿وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعين
وأقسطكم وأبعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَمَلِ (٤٤)﴾ أي
هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية

(١) القرطبي: ٣١٤/١٥. (٢) الطبري: ٢٨٨/٢١.

(٣) الطبري: ٣٩٢/٢١. (٤) الطبري: ٢٩٢/٢١.

من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة والقدر النافذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَكَّنَهُ اللَّهُ نَارًا مَكْرُومًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة.

[ثبوت عذاب القبر]

وَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ سِوَهُ الْعَذَابِ (١٥) وهو الغرق في اليم نقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة صعدت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ النَّارِ أَدْخِلُوهَا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (١٦)﴾ أي: أشده وأعظمه لكآلاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُرْمَى عَلَيْهَا غُدُوًا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد حملوها على عذاب القبر في البرزخ وقد روى الإمام أحمد وعائشة رضي الله عنهما أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة رضي الله عنها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وذاك الله عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا، نعم ذلك؟ قالت: هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من حروف إلا قالت: وذاك الله عذاب القبر. قال صلى الله عليه وسلم: كَذَبَتْ وَوَعَدَ اللَّهُ عَلَى اللَّهِ أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ مَكَثَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ فُخِرَ ذات يوم نصف النهار مستلماً بنو به محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته «الْقَبْرِ نَطْعُ النَّارِ الْمُظْلِمِ، أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمْتُ لَكَيْتُمْ كَثِيرًا مِنْكُمْ قَلِيلًا، أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، إِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ» (١) وهذا إسناد صحيح على شرط بخاري ومسلم ولم يخرجاه، فيقال: فما الجمع بين هذا وبين الآية مكية وفيها دلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب: الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تأملها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك جسد في البرزخ وتأمله بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في أحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما

دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذبذب. ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم، فارتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ» قالت عائشة رضي الله عنها: فلبشنا ليلي ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ» وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يستعيز من عذاب القبر (٢)، وهكذا رواه مسلم (٣).

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك بخصوصه استعاذ منه والله سبحانه وتعالى أعلم. وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿غُدُوًا وَعَشِيًّا﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم (٤)، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٥)﴾ وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٥) أخرجاه في الصحيحين (٦).

﴿وَلَا يَخَافُكَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكَرُّوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَاءً فَهَلْ أَشْرَ مُعْتُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ (٧)﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَرُّوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ (٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٠)

(١) أحمد: ٦/٨١.

(٢) أحمد: ٦/٢٤٨.

(٣) مسلم: ١/٤٦٠.

(٤) الطبري: ٢١/٣٩٦.

(٥) أحمد: ٢/١١٣.

(٦) فتح الباري: ٣/٢٨٦، ومسلم: ٤/٢١٩٩.

[تخاصم أهل النار]

ينجر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جلتهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْ نَصِيبِكُمْ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُوا﴾ ﴿سَأَلُوا الْخَزَنَةَ وَهُمْ كَالسَّجَانِينَ لِأَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْعُوا لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخَفِّفَ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ فَقَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ رَادِينَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منك برآء ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿أَي: إِلَّا فِي ذَهَابٍ وَلَا يُقْبَلُ وَلَا يَسْتَجَابُ.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ هدى وذكرى لأولي الألباب ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْغَيْثِ وَالْإِبْرَةِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَدُونَ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[نصرة الرسل والمؤمنين]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب

ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم عن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال فكانت الأبرار والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها^(١). وذكر نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكره وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين، بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سرائرهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه القداء منهم ثم بعد مدة قرية فتح عليه مكة، ففرت عينه ببلده، وهو المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما كان عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلف بعده فبلغوا عنه دين الله عز وجل، ودعوا عباد الله تعالى إلى جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى يوم الساعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قول ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه نصر به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين ﴿وهم المشركون معذرتهم﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا ذنب ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد والطرده من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي النار قاله السدي بشئ المنزل والقتل

[الإشارة إلى نجاح الرسل والمؤمنين]

بمثال موسى وبني إسرائيل]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى وأن

انكروا ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينها فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٩) أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ ۖ أَي: لكائنة وواقعة ﴿لَأَرْبَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠) أي: لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰلِخِينَ﴾ (٦١)

[الأمر بالدعاء]

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه من سألته فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب. رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبئس آدم حين يُسأل يغضب

وقال قتادة: قال كعب الأحبار أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها ولا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قال له: أنت شاهد على أمتك، [وجعلكم] شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكان يقال له: ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم (١). وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰلِخِينَ﴾ (٦١) وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير. وقال الترمذي: حسن صحيح (٢). ورواه أبو داود

بإسناد صحيح عليه الصلاة والسلام وفي الكتاب الذي أورثوه من السورة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٥٨) وهي السورة الصحيحة السليمة. وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ﴾ (٥٩) أي: ﴿إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ (٦٠) أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك بل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد، وهذا ما أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، وقوله تبارك ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ هذا تمهيد للأمة على الاستغفار ﴿سَيَجْزِيكَ يَوْمَكَ الْعَشْءَ﴾ (٦١) أي: في أواخر النهار وأوائل الليل. ﴿وَالْآلِ كَرِيمٍ﴾ (٥٩) وهي أوائل النهار وأواخر الليل. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٦٢) أي: يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج صحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِّمَّا هُمْ يَبْلُغُونَ﴾ (٦٣) أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع عنهم وفصلهم هو الموضوع ﴿فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (٦٤) أي: من حال هؤلاء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٦٥) أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ ۖ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠)

[الحياة بعد الممات]

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلق الناس بداية وإعادة فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَغْفِرْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ يَحْيِي الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦٦) وقال ههنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ نَسَائٍ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) فلهذا لا يتعجبون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض وينكرون نعتاً استبعاداً وكفراً وعناداً وقد اعترفوا بها هو أولى مما

(١) القرطبي: ٣٢٧/١٥. (٢) أحمد: ٢٧١/٤.

(٣) تحفة الأحوذى: ٣٠٨/٨، والنسائي في الكبرى: ٤٠٥/٦.

وابن ماجه: ١٢٥٨/٢، والطبري: ٤٠٦، ٤٠٧.

والترمذي والنسائي وابن جرير أيضًا من طريق آخر^(١).
وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي:
عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢)
أي: صاغرين حقيرين كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن
شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: ﴿يُخْتَرُ الْمَكْبَرُونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالُ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلَوْهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ
الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولُسُ، يَعْلَوْهُمْ
نَارُ الْآتِيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طَبِئَةِ الْحَبَالِ، عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(٣).

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ﴾^(٤) ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٥﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُوهُ
يَجْعَدُونَ ﴿٦﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

[آيات الله على قدرته وتوحيده]

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي
يسكنون به ويستريحون من حركات ترددهم في المعاش
بالنهار، وجعل النهار مبصرًا أي: مضيئًا ليتصرفوا فيه
بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٩)
أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال عز وجل:
﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي:
الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء
الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فكيف
تعبدون من الأصنام التي لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة منحوتة.
وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُوهُ
يَجْعَدُونَ﴾^(١٠) أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك
أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل
بمجرد الجهل والهوى. وجحدوا حجج الله وآياته وقوله
تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها
لكم مستقرًا بساطًا مهادًا تعيشون عليها وتتصرفون فيها
وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لثلا تمجد بكم ﴿وَالسَّمَاءَ

بِنَاءً﴾ أي: سقفًا للعالم محفوظًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحوت
أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي:
من المأكول والمشرب في الدنيا فذكر أنه خالق الدار والدار
والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى في سورة البقرة
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾^(١١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
أَنْتُمْ قَتْلُومُ ﴿١٢﴾ وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه
الأمشياء: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين
كلهم ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي
أزلا وأبدًا لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر
والباطن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عدل
﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين له مقربين بانه
لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين. روى الإمام أحمد عن
أبي الزبير قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة
حين يسلم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ
الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ
الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ قال
وكان رسول الله ﷺ يبل بين دبر كل صلاة^(١٤). ورواه مسلم
وأبو داود والنسائي^(١٥).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦) هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَن يُؤْتِي بِن
قَبْلَ وَنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي
يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾

(١) أبو داود: ١٦١/٢، وتحفة الأحوذى: ١٢١/٩، والنسائي في
الكبرى: ٤٥٠/٦.

(٢) أحمد: ١٧٩/٢. (٣) أحمد: ٤/٤.

(٤) مسلم: ٤١٥/١، ٤١٦، وأبو داود: ١٧٣/٢، ١٧٤،
والنسائي: ٦٩/٣، ٧٠.

[الأمر بالصبر والبشارة بالفتح]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿فَكَاتِرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: في الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم أبيدوا في يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ وقوله عز وجل: ﴿أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرجِعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسلماً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة ﴿وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ يَنْقُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء والله الحمد والمنة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فُصِّيَ بِالنَّارِ﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل: ﴿وَحَرِّرْ هَٰؤُلَاءِ الْمَبْتُورِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَكُونُونَ﴾ (٧٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١)

[الأنعام أيضاً من نعم الله وآياته]

يقول تعالى ممثلاً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرق عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك ولذا قال عز وجل ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا

وَمِنْهَا تَكُونُونَ﴾ (٧٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآيات وفي أنفسكم ﴿فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١) أي: لا تقدر على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَفَرَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّ اللَّهُ إِلَىٰ قَدْحَلَّتْ فِي عِبَادَةٍ وَخَسِرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥)

[العبرة بحال من سبق]

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وما حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أنزلهم في الأرض وجمعهم من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا راد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب^(١).

وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿وَحَافَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي عابنا ووسع العذاب بهم ﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَأَمْسَتْ أَهْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمْسَتْ بِهِ نَارًا يُرْوَى وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) قال الله تبارك وتعالى ﴿ءَأَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) أي فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاؤه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

[الدعوة إلى التوحيد]

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهٌُ وَحِيدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أي لسالف الذنوب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله (٢). وكذا قال عكرمة (٣). وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝٢﴾ وكقوله جلّت عظمتة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَكَذَّبَ تَوَاتُرًا فَصَلَّىٰ ۝٢﴾ وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ لَكُمْ إِلَهٌ إِلَّا أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنزَلْنَا بِهِ ظُلُمًا سَمًى وَبَارَكْنَا فِيهِ الزَّكَاةَ لِلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَ إِلَّا بِالْحَكْمِ الْمُبِينِ ۝١﴾ وَكَذَّبَ تَوَاتُرًا فَصَلَّىٰ ۝٢﴾ وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ لَكُمْ إِلَهٌ إِلَّا أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنزَلْنَا بِهِ ظُلُمًا سَمًى وَبَارَكْنَا فِيهِ الزَّكَاةَ لِلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَ إِلَّا بِالْحَكْمِ الْمُبِينِ ۝١﴾ وَكَذَّبَ تَوَاتُرًا فَصَلَّىٰ ۝٢﴾

هو القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُ نَزَّلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ نزل به الروح الأمين (٣٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَ أَتُكِّمَتَ آيَاتُهُ﴾ أي بينت عليه وأحكمت أحكامه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي في حال كونه نازلًا عَرَبِيًّا بَيِّنًا وَاضِحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَتُكِّمَتَ آيَاتُهُ﴾ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّي ذِكْرًا خَبِيرًا (١) أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ نَزَّلَ مِنْ حِكْمٍ حَمِيدٍ ﴿وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿بَيِّنًا وَكَذِيرًا﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَمَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بَيِّنَةٍ وَوَضُوحَةٍ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتُمٍ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿إِنَّمَا نَسْمَعُ سَمْعًا وَنَاذِنَا وَوَرَّرْ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿وَمِنَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ﴾ أي اعمل أنت على طريقك ونحن على طريقنا لا نتابعك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

تفسير سورة فصلت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْآنَ بِحَقِّهِ ۖ وَمَا أَصْحَابُ الْقُرْآنِ إِلَّا أَعْيُنٌ يَرَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۖ بَيِّنَاتٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ ۖ إِنَّا عَمِلُونُ ۝٢﴾

[صفة القرآن وأقوال المعرضين]

يقول تعالى: ﴿١﴾ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْآنَ بِحَقِّهِ ۖ وَمَا أَصْحَابُ الْقُرْآنِ إِلَّا أَعْيُنٌ يَرَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۖ بَيِّنَاتٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ ۖ إِنَّا عَمِلُونُ ۝٢﴾

(١) ابن ماجه: ٢/١٤٢٠. (٢) الطبري: ٢١/٤٣٠.

(٣) الطبري: ٢١/٤٣٠. (٤) الطبري: ٢١/٤٣١.

لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا محبوب، كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ فِيهِ أَبَدًا﴾ ﴿٢﴾ وكقوله عز وجل: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَحْذُوفٍ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَمَدًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَقْبِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

[بعض تفاصيل خلق هذا الكون]

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَمَدًا﴾ أي نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ففصل ههنا ما يخص بالأرض عما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾

الآية فاما قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ إِنَّهَا سِتُّ أَيَّامٍ فَسَوَّاهُنَّ﴾ وأعطش ليلها وأخر صحتها ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أخرج منها ماءها ومرتعها ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ منها لكؤود لا تغيروا ﴿فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ [دحي] الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه روى عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١١﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿١٢﴾، ﴿وَاللَّهُ يَتِمُّكُمْ كِتَابًا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣﴾، فقد كنموا في هذه الآية وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ إِنَّهَا سِتُّ أَيَّامٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٢٠﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال: ﴿وَكُنَّا اللَّهُ عَقُورًا رَاجِعًا﴾ ﴿١٥﴾،

﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٦﴾، ﴿سَمِيعًا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾ فكانه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ في النفخة الأولى، ثم نفخ في الصور ﴿فَصُيُتُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ يَتِمُّكُمْ كِتَابًا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿١٢﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين فيحدث على أفواههم فتتطرق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يحكم حديثاً، وعنده ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض، ودحيا أن أخرج منها الماء والرمح وخلق الجبال والرمال والجهاد والأكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ ﴿٢٠﴾ وخلق ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ﴿وَكُنَّا اللَّهُ عَقُورًا رَاجِعًا﴾ ﴿١٥﴾ سمي نفسه بذلك، وذلك قوله، أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يحفل عليك القرآن فإن كلاً من عند الله عز وجل. رواه البخاري وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أي جعلها مباركة قابضة للخير والبلر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج إليها من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن والسابوري بسابور والطياسية بالري (٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك (٣). وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي على وفق مراده من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه (٤)، وهذا القول يشبه ما ذكره

(١) فتح الباري: ٤١٨/٨. (٢) الطبري: ٤٣٦/٢١.

(٣) الطبري: ٤٣٨/٢١. (٤) الطبري: ٤٣٨/٢١.

تَقِيلُونَ ﴿١٦﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى بخلاف ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ثم قال عز وجل منتصراً للقرآن ومتنبهاً من عاداه من أهل الكفران ﴿فَلْيَذِيقُوا كَذَابَ عَذَابِ شَيْدِينَا﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن عند سماعه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي بشر أعمالهم وسعي أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ عَادِلٍ اللَّهِ النَّارَ لَمْ يَخْلُ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وقال الذين كفروا ربنا أئذا الذين أضلنا من الجن والإِنس نجعلهما تحت أقدامنا ليَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٠﴾ قال سفيان عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَضَلْنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه ﴿٢١﴾ وقال السدي عن علي بن أبي طالب يدعوه به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعوه به كل صاحب كبيرة، فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه وابن آدم الأول ﴿٢٢﴾ كما ثبت في الحديث: «مَا قِيلَتْ نَفْسٌ ظُلُمًا إِلَّا تَحَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ يَفُضُّ مِنْ دِمَهِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» ﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا ولهذا قالوا: ﴿يَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ أي في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قاداتهم أضعاف عذابهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي أنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَسْأَلْ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَا تُخَافُوا وَلَا تُحْزَنُوا وَأَنْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿٢٨﴾ ﴿لَا يَمُنُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾

[البشارة للموحدين ذوي الاستقامة]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. روى ابن جرير عن سعيد بن عمران قال قرأت عند

بعضهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا يحيد لهم عنها ولا يرج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم بال ولا يقال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا﴾ أي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم بهذا وكفوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مِثْرَتَانَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ضَالِّونَ ﴿٣١﴾ قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾

﴿وَقُضِيَ لَهُمْ قَرْنَهُمْ فَزَيَّنُوا لِمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِمَّنْ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَايِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَلْيَذِيقُوا كَذَابَ شَيْدِينَا سَوْجِدَهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ عَادِلٍ اللَّهِ النَّارَ لَمْ يَخْلُ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أئذا الذين أضلنا من الجن والإِنس نجعلهما تحت أقدامنا ليَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٨﴾

[قراءة المشركين يزينون لهم سوء الأعمال]

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قبض لهم من قراء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لِمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم في الماضي والنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَهِيدًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٩﴾ وَأَنْتُمْ لَصُدُورُهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمة قد نخلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ﴾ ﴿٤١﴾ أي استواهم وإياهم في خسار والدمار.

[تواصي الكفار بالامتناع عن]

سماع القرآن وجزاء ذلك]

يقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي نواصروا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره والقرآنيين أي إذا تلى لا تسمعوا له كما قال مجاهد ﴿وَأَلْفُوا﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قرئش تفعله، ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) الطبري: ٤٥٨/٢١. (٢) الطبري: ٤٦٢/٢١.

(٣) الطبري: ٤٦٢/٢١. (٤) فتح الباري: ٤١٩/٦.

أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً^(١). ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ من ذنب فقال: لقد حملتموه على غير المحمل قالوا: ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره^(٢). وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد^(٣).

وروى أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به قال ﷺ: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» قلت: يا رسول الله! ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «هَذَا»^(٤). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح^(٥). وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال ﷺ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ» وذكر تمام الحديث^(٦). وقوله تعالى: «تَتَزَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين: «أَلَا تَحْشَاوُنَا؟»^(٧) قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة^(٨). «وَلَا تَحْزَنُوا» على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإننا نخلفكم فيه «وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»^(٩) فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير: وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: أَخْرِجِي أَتَيْتِهَا الرُّوحَ الطَّيِّبَةَ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ، أَخْرِجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَبِّحَانِ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ»^(١٠) وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم أي قرناؤكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم

يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهى النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ﴾^(١١) أي ما تشتهون منها طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غير لذنوبكم رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٢) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ إِِلَى الَّتِي هِيَ يَنْكَرُ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿وَمَا يُلْقِ الْأَلْدِينَ صَبْرًا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾^(١٣) وَمَا يَزِيدُ الشَّيْطَانُ نَجَسًا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾

[فضل الدعوة إلى الله]

يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٥) أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لآمر ومند ليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه بل يأمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم^(١٦).

وقيل: المراد بها المؤذنون الصالحاء كما ثبت في صحيح مسلم: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَالَ النَّاسِ أَغْنَاؤًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١٧) والسنن مرفوعاً: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤَمِّنٌ، فَأَرْشَدَهُ الْإِئِمَّةُ وَغَفَرَ لِلْمُؤَذِّنِينَ»^(١٨). والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة

(١) الطبري: ٢١/٤٦٤. (٢) الطبري: ٢١/٤٦٤.

(٣) الطبري: ٢١/٤٦٥. (٤) أحمد: ٣/٤١٣.

(٥) تحفة الأحوذ: ٧/٩١، وابن ماجه: ٢/١٣١٤.

(٦) مسلم: ١/٦٥.

(٧) الطبري: ٢١/٤٦٦، والقرطبي: ١٥/٣٥٨.

(٨) الطبري: ٢١/٤٦٧. (٩) أحمد: ٤/٢٨٧.

(١٠) القرطبي: ١٥/٣٦٠. (١١) مسلم: ١/٢٩٠.

(١٢) أبو داود: ١/٣٥٦، وتحفة الأحوذ: ١/٦١٤.

نَزَعَ فَأَسْجَدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٢٢﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٢٣﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَيِّتٌ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

[من آيات الله]

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له على ما يشاء قادر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس نورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سبائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنها مخلوقان عبادان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ أي ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفْرِ بِهَا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً﴾ أي هاملة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع

الجمرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري ﷺ في قصصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال ﷺ والذي صوتاً، كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذا أنها كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه هذه الآية ﴿وَمِنْ أَحْسَنُ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا نَأْتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض لله، أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، قال: إني من المسلمين، هذا خليفة الله ^(١).

[الحكمة في الدعوة وغيرها]

بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي فرق بين هذه وهذه وهذه ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من أساء بك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر ﷺ: ما أتيت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢٦﴾ وهو الصديق أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك فادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو إليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الصفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنْتَهِزُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْأَوْحُيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم ^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعَ فَأَسْجَدَ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما يخدع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه لله عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى صلاة يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَتَفْنِيهِ» ^(٣)، وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْقَوْلَ مِنْ أَلْفِ عَرَفٍ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

(١) عبد الرزاق: ٢/ ١٨٧. (٢) فتح الباري: ٨/ ٤١٨.

(٣) أحمد: ٥/ ٢٥٣.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
شَكُّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٥﴾

[إنكار القرآن عناد وتعنت]

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في الفصح
ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم
كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْزَلْنَاهُ عَلَى
الْأَعْيُنِ ﴿١٧﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وذلك
لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت
والعناد ﴿وَلَوْلَا فَصْلَتُ آيَاتِنَا لِلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ فِيهَا
أَنْزَلَ مَفْصَلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا تَكْرُوا ذَلِكَ فَقَالُوا: أَعْجَمِي
وعربي أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي
يفهمه؟ هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد
وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم؟ ﴿ثُمَّ لَمَّا
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ أي في
محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور
من الشكوك والريب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِنَا
أَي لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ أي لا يستدلون
ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ
مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾﴾
﴿أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿١٢﴾﴾ قال مجاهد يعني
من قلوبهم ^(٦). قال ابن جرير: معناه كان من مخاطبهم
يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول ^(٧)، فقلت: وقد
كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَبْنُونَ بِلَاتٍ
إِلَّا دَعَا وَبَنَاهُ ثُمَّ يَكْفُرُونَ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾﴾.

[الإشارة إلى التماسي بموسى]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ
فِيهِ أَي كَذِبَ وَأَوْذَى ﴿١٤﴾ فَاصْبِرْ كَاصْبِرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ
﴿١٥﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴿١٦﴾ بَنَاهُ
الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل لهم الحساب
بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَبِيٍّ شَكَّ مِنْهُ
مُرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما نزل

والنهار ﴿إِنَّ الَّذِي آتَيْنَاهَا لَمْ يَحْمِلِ الْمَوْتَ إِلَيْهِ، عَلَى كُلِّ نَفْسٍ وَقِيرٌ ﴿١٨﴾﴾.
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا أَفَنُثَقِّلُ بِالنَّارِ
خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَأْسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ
﴿٢٠﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ ﴿٢١﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو
مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾

[عقاب الملحدين ووصف القرآن]

قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن
عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه ^(١).
وقال قتادة وغيره هو الكفر والعناد، وقوله عز وجل: ﴿لَا
يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد ووعد أكيد أي إنه تعالى عالم بمن
يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة
والنكال ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَنُثَقِّلُ بِالنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَأْسًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ﴾ أي أيسوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل
تهديدا للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء
الخراساني ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد ^(٢)، أي من خير أو شر، إنه
عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٢٠﴾﴾ ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾
قال الضحاك والسدي وقاتادة: وهو القرآن ^(٣) ﴿وَلَهُ لَكُنْتُ
عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ أي منيع الجنب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿لَا يَأْتِيهِ
الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه
متزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي
حكيم في أقواله وأفعاله ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ بمعنى محمود أي في جميع
ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمود عواقبه وغاياته. ثم قال عز
وجل: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال قتادة
والسدي وغيرهما ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل
من قبلك، فكما كذبت كذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم
فاصبر أنت على أذى قومك لك ^(٤). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو
مَغْفِرَةٍ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي لمن استمر
على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه وخالفته.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فَصْلَتُ آيَاتِنَا لِلَّذِينَ لَا
يَعْرِفُونَ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِنَا هُمْ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُوَ بِهَا هَادٍ
مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٥﴾﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) الطبري: ٤٧٨/٢١. | (٢) الطبري: ٤٧٨/٢١. |
| (٣) الطبري: ٤٧٩/٢١. | (٤) الطبري: ٤٨١/٢١. |
| (٥) الطبري: ٤٨٢/٢١. | (٦) الطبري: ٤٨٥/٢١. |
| (٧) الطبري: ٤٨٤/٢١. | |

كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا
 بنو جرير وهو محتمل^(١)، والله أعلم.

أَنْ يَعْمَلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
بِهَا ۝ (١٧) إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرٍ مِنْ
بُهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
رُكَّائِي قَالَُوا هَذَا نَحْنُ مِنْ شَهِيدٍ ۝ (١٨) وَصَلَّ
لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ۝ (١٩)

[کل پیجاز حسب عملہ]

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي إنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك إليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بما يستحق ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال رسول إليه.

[علم الساعة عند الله]

قال جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ تُرْءَوْ عِلْمَ السَّاعَةِ﴾ أي لا يعلم ذلك
إلا هو. قال محمد ﷺ وهو سيد البشر لجبريل عليه
السلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن
الجنة فقال: «أما السُّؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» (٢) وكما قال
رجل: «إِنَّ رَبَّكَ شَنَّهُمَا» (٣)، وقال جل جلاله: ﴿لَا يَجْلِبُهَا
مَاءُ الْوَيْلِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَخْجُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ
تَلْهَايَاهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْقَالٍ وَلَا تَصْنَعُ الْإِبْرَاطِ﴾ أي الجميع يعلمه
بوزن عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وقد
سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وقال
رسول الله ﷺ: «يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا
تُرْكَبُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْرِفُ
غَيْبَهُ إِلَّا فِي كِتَابٍ عِنْدَ اللَّهِ يَبْصُرُ﴾ (٥) قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ أي يوم
القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق أين شركاءي
من عبدتموهم معي ﴿قَالُوا أَذْنُكَ﴾ أي أعلمناك ﴿مَا مَنَّا مِنْ
عِبَادِكَ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً
وَسَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ذهبوا فلم يتبعوهم
وَأَشْرَأَ مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٦) أي وطن المشركون يوم القيامة
عفا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٧) أي لا محيد لهم عن
سباب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مُتَّوِّفَاوْنَ وَلَمْ يُجِدْوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ (٨).

﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلْ
قُنُوطًا﴾ (١١) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّهُ لِيَقُولَ
هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي
عِنْدَهُ لَلْحَقَّيْنِ فَلْيُنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥﴾ وَإِذَا أَعْمَسَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنَجْمِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَنَدُوهُ عَصَىٰ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

[تقلب الإنسان حين تصيبه السراء بعد الضراء]

يقول تعالى لا يعمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، وإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَتَوَسَّسُ فَوْتُوْهُ﴾ (٤٩) أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاةٍ مَسَّةٍ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي يكفر بقيام الساعة، أي لأجل أنه خول نعمة يطر ويغفر ويكفر كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّافٍ﴾ (٥٠) أن رآه استغنى ﴿وَلَكِنْ تَجَسَّوْا إِلَيْنَا رِجَاتٍ إِلَىٰ عِندَهُ لِّلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَتَنَزَّلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وُلَدِيْقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾ (٥١) يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَمْنًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل كقوله جل جلاله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيْهِ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الشدة ﴿فَدُودُعَاَ عَرِيْضٍ﴾ (٥٢) أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا إِنِّجْنِيْهِ أَوْ قَاعِيْدَا أَوْ قَالِمَا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ الآية. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي سُبُلِيْ بِعِيْدٍ﴾ (٥٣) سُبُلِهِمْ يَتَّبِعُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبْتَلِيَنَّهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكُفِّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٤) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لَعْنَةِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٥)

[القرآن ودلائل صدقه]

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿ مَنْ أَضَلُّ مَعَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ثم قال جل جلاله: ﴿ سَتُريَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْأَفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد [والأخلاق] والهيات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحدره أن يجوزها ولا يتعداها.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُكْمِهِ ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعلمون له ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هدر، لا يعبؤون به، وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة حم السجدة، والله الحمد والمنة.

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير

تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ﴾ (١) عَسَى (٢) كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيمُ **الْعَظِيمُ** (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا حَافِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)

[الوحي وعظمة الله]

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله عز وجل ﴿ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أي في انتفاء **الْحَكِيمُ** (٣) في أقواله وأفعاله.

روى الإمام مالك رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه رضي الله عنه ليترقق عرقاً» (١) أخرجه أبو الصحيحين ولفظه للبخاري (٢). وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) كقوله تعالى **الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** (٥)، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٦) والآيات في هذا كثيرة. وقوله عز وجل: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار أي فرقاً من العظمة (٣) ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ

(١) الموطأ: ١/٢٠٢.

(٢) فتح الباري: ١/٢٥٠، ومسلم: ٤/١٨١٦.

(٣) الطبري: ٢١/٥٠١.

مِنْهُمْ أَبَدًا» ثم قال ﷺ: «لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلُ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ مِنْهُمْ أَبَدًا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلا شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه فقال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبُ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ» ثم قال ﷺ: بيده قبضها ثم قال: «فَرِّقْ رُبُكُم عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِيَادِ - ثم قال باليمين فنبذ بها، فقال: «فَرِّقْ فِي الْجَنَّةِ» ونبذ باليسرى وقال: «فَرِّقْ فِي السَّعِيرِ»^(١) وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني»، قال: بلى ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى، قَالَ: هَذِهِ هِلْدِهِ، وَهَذِهِ هِلْدِهِ، وَلَا أَبَالِي» فلا أدري في أي القبضتين أنا^(٣). وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة حجة رضي الله عنهم أجمعين. وقوله تبارك وتعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عز وجل: «وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي» وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٤).

«أَرَأَيْتُمْ أَيُّ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٥) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ^(٦) قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ

يَسْتَفْرِيقُ لِلَّذِينَ آمَنُوا رِزْقًا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَقوله جل جلاله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(٧) بلام بذلك وتنويه به، وقوله سبحانه وتعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ أَوْفَى» يعني المشركين «اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ» شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدّاً، وسيجزئهم بها من الجزاء «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ»^(٨) أي إنما نذير والله على كل شيء وكيل.

«وَكَلَّمَ اللَّهُ آدَمَ وَنَبَاتًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَهُمُ الْفِتْرَةَ وَمَنْ حَوْلَهَا لِيُنْذِرَهُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ» لا ريب فيه فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ^(٩) وَرِشَاءَ اللَّهِ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١٠).

[أوحى القرآن للإنذار به]

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أي واضحاً جلياً بيناً «لِيُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى» وهي مكة «وَمَنْ حَوْلَهَا» أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله ما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالخزوة في سوق مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَبِيبُ لَوْسِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^(١) هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢). وقوله عز وجل: «وَلِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد وقوله تعالى: «لَارِبَّ فِيهِ» أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة، وقوله جل وعلا: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»^(٣) كقوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ كُلُّ النَّاسِ لِيَوْمَ ذَلِكَ يَوْمَ التَّلَاقِ» أي يغيب أهل الجنة أهل النار، وكقوله عز وجل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لُهُ النَّاسُ»^(٤) وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ^(٥) وَمَا تَوْخِهُهُ إِلَّا لِيُجْزِيَ الْمُتَّقِينَ^(٦) يَوْمَ بَأْسٌ لَا تَنْكُصُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِئْبَةِ نَفْسٍ تَسْأَلُ عَنْهَا نَفْسٌ فَرِيقٌ يَنْصَرِفُ وَأُخَرُ يُجْزَى^(٧) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «اتْلُوهُمَا هَذَا فِي الْكِتَابَيْنِ؟» قلنا: لا إلا أن نخبرنا يا رسول الله. قال ﷺ: للذي في يمينه: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلُ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثم قال ﷺ: «لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلُ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَضُ مِنْهُمْ أَبَدًا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلا شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه فقال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبُ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ» ثم قال ﷺ: بيده قبضها ثم قال: «فَرِّقْ رُبُكُم عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِيَادِ - ثم قال باليمين فنبذ بها، فقال: «فَرِّقْ فِي الْجَنَّةِ» ونبذ باليسرى وقال: «فَرِّقْ فِي السَّعِيرِ»^(٨) وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب^(٩).

(١) أحمد: ٤/٣٥٠.

(٢) تحفة الأحوذى: ١٠/٤٢٦، والنسائي في الكبرى: ٢/٤٧٩، وابن ماجه: ٢/١٠٣٧.

(٣) أحمد: ٢/١٦٧.

(٤) تحفة الأحوذى: ٦/٣٥٠، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٥٢.

(٥) أحمد: ٤/١٧٦.

[دين الرسل واحد]

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم [وهم] إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الرسل الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١). وفي الحديث: «تَحْسَنُ تَفْسِيرُ الْأَنْبِيَاءِ أَرْبَا عَشْرًا، وَبَيْنَا وَاحِدٌ» (١) أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَاةٌ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي وصي الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالاتفاق والجماعة. ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وقوله عز وجل: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال جل جلالته: ﴿اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد.

[وجه الاختلاف]

ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ (٢) أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقبالة الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَنْ لَا يُقَامَ حِسَابُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَفَعَلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ فِي الْآخِرَةِ﴾ (٣) أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإظهار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الآخرة سريعاً. وقوله جل جلالته: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ أَوْفَرُوا إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق

الأنعم أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثلهم شيء وهو السميع البصير (١) له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم (١٢)

[الله هو الولي الحاكم الخالق]

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله وخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير، ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠) أي: أرجع في جميع الأمور، وقوله جل جلاله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُمِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل ونسلًا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١). وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتُهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الدِّينَ أَوْفَرُوا إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْصُرَنَّكَ لِيُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُعْذِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِرْصَرًا﴾ (١٤)

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٥٠.

(٢) وقع في جميع النسخ «وما اختلفوا».

﴿١٨﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٩﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٠﴾

[تنبيه لمن جادل في الدين]

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿مُجْتَنِّهِمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ أي: من عذاب شديد ﴿أَي: يوم القيامة﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية ^(٢١). وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا لهم: ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ^(٢٢). وقد كذبوا في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الكتاب المنزل من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقاتة ^(٢٣). وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّاعَةَ رَفَعْنَا وَوَضَعْنَا الْمِيزَانَ﴾ ^(٢٤) ﴿أَلَا تَقْضُوْنَ فِي الْمِيزَانِ﴾ ^(٢٥) وَأَنِصُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ^(٢٦). وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ^(٢٧) فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهد في الدنيا، وقوله عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنا يقولون ذلك تكديفاً واستبعاداً وكفراً وعناداً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي كائنه لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته:

مَنْ تَكُ مِنْهُ مَرِيبٌ ﴿١٩﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإنا هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وهم في حيرة من أمرهم وشك مرِيب وشقاق بعيد. ﴿لَقَدْ لَكِ فَادَعٌ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ^(٢٨) وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْمَلُ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ رَبِّي وَرَبِّيكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٠﴾

انتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستغلات منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها، قالوا: ولا عبر لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. بنوه: ﴿لَقَدْ لَكِ فَادَعٌ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع كبار التبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه. وقوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي واستقم أنت ومن تبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني المشركين فيما اختلفوه فيه كذبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزل من السماء على الأنبياء لا فرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْمَلُ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي في الحكم كما أمرني الله، وقوله جلت عظمته: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي نحن برآء منكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكْذِبُوا قُلُوبُكُمْ لِيْ عَلَيَّ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ مَّرْشُوعُونَ وَمَنْ أَعْمَلْ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢٩) وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة ^(٣٠). قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ ^(٣١) وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ^(٣٢) أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ ^(٣٣) مُجْتَنِّهِمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

(١) الطبري: ٥١٨/٢١. (٢) الطبري: ٥١٨/٢١.

(٣) الطبري: ٥١٩/٢١. (٤) الطبري: ٥٢٠/٢١.

«هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَيْحُكَ إِنَّمَا كُنْتُ نَذِيرًا مِمَّا أَعْدَدْتُ لَهَا؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» ^(١). فقلوله في الحديث: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ^(٢) هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يبيح عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها. وقوله تعالى: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ» أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها «لَيْسَ ضَلَالٍ بَعِيدٍ» ^(٣) أي في جهل بين، لأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

«اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» ^(٤) مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْبَ الْآخِرَةِ نَزِدَ لَهُ فِي حَرْبِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْبَ الدُّنْيَا نُفِذْنَا مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ^(٥) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِحَ رِجَالُ الَّذِينَ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٦) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعُوا بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ^(٧)

[رِزْقُ اللَّهِ وَعِطَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

يقول تعالى خبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله عز وجل: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا لَاحِلٌ لَهَا مِنْ رَبِّهَا رِزْقٌ وَسِعَ اللَّهُ مَشْرِيقَهَا وَمَشْرِيقُهَا وَمَشْرِيقُهَا وَمَشْرِيقُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» ^(١) ولها نظائر كثيرة، وقوله جل وعلا: «يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ» أي يوسع على من يشاء «وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» ^(٢) أي لا يعجزه شيء ثم قال عز وجل: «مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْبَ الْآخِرَةِ» أي عمل الآخرة «نَزِدَ لَهُ فِي حَرْبِهِ» أي نقويه ونعيمه على ما هو بصده ونكسر نياه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله «وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْبَ الدُّنْيَا نُفِذْنَا مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» ^(٣) أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية حرمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا أن هذه الآية

ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى: «مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَصَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا» ^(٤) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَوَّاهُ سَعَىٰهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ^(٥) كَلَّا لَوْ هَتَّوَلَاءَ وَهَتَّوَلَاءَ مِنْ عَطْلٍ رِيًّا وَمَا كَانَ عَطْلًا رَبِّكَ عَطْلًا ^(٦) أَنْظِرْ كَيْفَ نَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَةً وَأَكْبَرُ تَقْضِيًّا ^(٧).

وروى الثوري عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئَةِ وَالرَّفِيعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّكْوِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» ^(٨).

[تشريع العباد شرك]

وقوله جل وعلا: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجبن والإسراف، تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحلم وتحليل أكل الميتة والدم والقهار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة [والأقوال] الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحْيٍ يَسْأَلُ الرَّجُلَ أَحَدَ مَلُوكِ خَزَاعَةَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ قَرِيشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ - لَعَنَهُ اللَّهُ وَتَبِعُوهُ - وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِحَ رِجَالُ الَّذِينَ الظَّالِمِينَ بِالْعُقُوبَةِ لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ الْإِنِّظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ» وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ^(١) أي شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

[فرع المشركين في ميدان الحشر]

ثم قال تعالى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا» أي في عرصات القيامة «وَهُوَ وَقِعَ بِهِمْ» أي الذي يخافون من واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ

(١) فتح الباري: ١٠/٥٧٣، ومسلم: ٤/٢٠٣٣.

(٢) مسلم: ٤/٢٠٣٤. (٣) أحمد: ٥/١٣٤.

(٤) فتح الباري: ٦/٦٣٣.

(٥) عبد الرزاق: ٣/ ١٩١.

الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ^(١). وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْقُوا عَنْ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿وَتَعْلَمُ مَا تُفْعَلُونَ﴾ ^(٢) أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتهم وقتلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ^(٣). ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك. وقال قتادة عن إبراهيم النخعي [اللمخي] في قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم ^(٤). وقوله عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ^(٥) لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

[الحكمة في عدم بسط الرزق]

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً. وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَآئِنًا إِنَّهُ يَعْبَادُ حَيِّرٌ بَصِيرٌ﴾ ^(٦) أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله عز وجل: ﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُلِيحِينَ﴾ ^(٧) وقوله جل جلاله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين! قحط المطر وقنط الناس. فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ^(٨) أي: هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ^(٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ^(١٠) وَمَا أَنْشَأَ مِنْ جَمْعٍ عَلَى الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَوَاتِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ^(١١)

[من آيات الله خلق السماوات والأرض]

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ذراً فسيهما أي في السماوات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهي تشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض ﴿وَقَرَّبَ﴾ هذا كله ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ^(١٢) أي: يوم القيامة الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يستمع الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق

[سبب المصائب العصيان]

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْ تُبْذَرُوا عَنْهَا﴾ أي: أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿وَلَا يُوَاحِدُكُمْ النَّاسُ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمْ كَيْدُكُمْ﴾ الحديث الصحيح: ﴿وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ وَلَا حَزَنٌ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا كَسَبَ خَطَايَاهُ حَتَّى الشُّوْكَهُ يُشَاكِّهَا﴾ ^(١٣).

وروى الإمام أحمد عن معاوية هو ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ جَسَدُهُ يُؤْذِيهِ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ﴾ ^(١٤) الإمام أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يُكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا، ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحَزَنِ لِيُكَفِّرَهَا﴾ ^(١٥).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ^(١٦) إِنَّ يَسَّارَ يَسْكُنُ فِي ظِلِّهَا رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ فَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

(١) الطبري: ٢١/٥٣٣. (٢) الطبري: ٢١/٥٣٤.

(٣) الطبري: ٢١/٥٣٤. (٤) الطبري: ٢١/٥٣٧.

(٥) أحمد: ٢/٣٠٣. (٦) أحمد: ٤/٩٨.

(٧) أحمد: ٦/١٥٧.

[صفات من يستحق ما عند الله]

يقول تعالى محقراً الشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى: ﴿ فَأَوْفَيْتُمْ مِنْ قَوْلِهِ فَكَفَى لِكُلِّ شَيْءٍ أَثِمًا ﴾ أي: أي منها حصلتكم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدى فلا تقدموا الفاني على الباقي ولهذا قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ تَرَوْكَوْنَ ﴾ (٢٣) أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرًا أَكْثَرَ الْوَجْشِ ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف ﴿ وَإِذَا مَا عَصَوْا قَالُوا نَفْعُورُ ﴾ (٢٤) أي سحبتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سحبتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله (٢٥).

وقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: لا يرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضيه الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢٦) وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنصَابُهُم قَالُوا هُمْ بِتَصَوُّرِهِمْ ﴾ (٢٧) أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأدلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفواً، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿ لَا تَتَرَبَّصُّوا عَلَيَّ يَوْمَ تَتُفَرَّقُونَ ﴾

يَتَأَكَّبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٢٨) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصْنٍ (٢٩)

[السفن من آيات الله]

تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجوارى في كالأعلام أي كالجبال. قاله مجاهد والحسن والسدي حاله: أي: هذه في البحر كالجبال في البر (١) ﴿ إِن يَشَأْ يُزِيلْ ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها لا تحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تحيى ولا تذهب، الله على ظهره أي على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ عَالِمٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شُكُورٍ ﴾ (٢) أي: إن في تسخيرهم وإجرائه في الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم دلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار أي في الشدة شكور في الرخاء. وقوله عز وجل: ﴿ أَوْ يُوقَهُنَّ يَمَانًا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها ثم ركبوا فيها ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣) أي: من ذنوبهم أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقد بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُوقَهُنَّ يَمَانًا ﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن حثاها عن سيرها المستقيم فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا هو المتضمن هلاكها، وهو مناسب للآول وهو أنه لو شاء لسكن الريح فوقفت أو لقواه فشردت وأبقت سكنت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسل بحسب الحاجة، يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم السيلان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل مصر سيجاً من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون مطراً، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم، قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصْنٍ ﴾ (٤)

لا يحيد لهم عن بأسنا ونقمنا فإنهم مهورون بقدرتنا. ﴿ فَأَوْفَيْتُمْ مِنْ قَوْلِهِ فَكَفَى لِكُلِّ شَيْءٍ أَثِمًا ﴾ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ تَرَوْكَوْنَ (٥) وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرًا أَكْثَرَ الْوَجْشِ وَإِذَا مَا عَصَوْا قَالُوا نَفْعُورُ (٦) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ إِذَا صَلَّوْا وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٧) وَالَّذِينَ إِذَا أَنصَابُهُم قَالُوا هُمْ بِتَصَوُّرِهِمْ

لَكُمْ ﴿ مع قدرته على مواخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التعميم فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتا فانتهره فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ وَجَزَّوْا سَيِّئَاتِكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ مَثَلًا قَمْنٌ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) وَلَمْ يَنْصَرِ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَنْصَرِ وَغَفَرَ لَهُ ذَلِكَ لِيَنْعَزِمَ الْأُمُورُ ﴿١٣﴾

[العفو أو الانتصار من الظالم]

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَّوْا سَيِّئَاتِكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ مَثَلًا ﴾ كقوله تعالى: ﴿ قَمْنٌ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلُ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ وكقوله: ﴿ وَإِنْ اَعَابْتُمْ فَعَابُوا يَمِثِلُ مَا عُوِثْتُمْ بِهِ ﴾ الآية، فشرع العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله جل علا: ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿ قَمْنٌ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وَمَا زَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» (١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال جل وعلا: ﴿ وَلَمْ يَنْصَرِ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (١١) أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي يبيدوا الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: «السَّبِيلُ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي، مَا لَمْ يَتَعَدِ الْمَظْلُومُ» (٢) ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٢) أي شديد موجه.

وعن محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق قطرة، فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة فقال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي، قال: ومن أخو

بني عدي؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقاً له مرة عمل، فكتب إليه: أما بعد، فإن استطعت أن لا تبغ المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك، لم يكن عليك سبيل ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٢) فقال مروان: صدق ونصح، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله، قلت: حاجتي تلحقني بأهلي، قال: نعم (٣). رواه ابن أبي خاتم، ثم إن تعالى، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العبد والصفح: ﴿ وَلَمْ يَنْصَرِ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى، وما السيئة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَنْ عَزِمَ الْأُمُورُ ﴾ (١٣) قال سعيد بن جبير: نعم لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (١٤) وَنَبِّئِ الْمُعْرِضُونَ عَلَيْهَا خُشُوعٍ مِنَ اللَّهِ لِيَبْظُرُوا مِنْ طَرَفٍ جَبَلٍ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِلَى الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿١٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ آيَةٍ يُضَرُّوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٦﴾

[حال الظالمين يوم القيامة]

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضى له، ومن يضل الله فلا هادي له، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴾ (١٧) ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله: ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أي يوم القيامة تمسوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (١٤) كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ رَدُّوا وَقَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَخِفَتْنَا أَفْرَدٌ وَلَا تَكْذِبُ رِيَاءٌ وَكَوْنٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨) بل بدأ لهم ما كانوا يخشون من قبل ولورؤوا العادوا إليها بها عنه وانهم لأكذبون (١٩).

وقوله عز وجل: ﴿ وَرَدُّهُمْ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي: على النار ﴿ خُشُوعٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي الذي قد اعتراهم با أسلوا من عصيان الله تعالى: ﴿ يَبْظُرُوا مِنْ طَرَفٍ جَبَلٍ ﴾ قال مجاهد

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤. (٢) مسلم: ٢٠٠٠/٤.

(٣) ابن أبي شيبة: ٦٣/١٤.

عليه دليل^(١) أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، وما الله من ذلك. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يقولون يومئذ ﴿إِنَّ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَآهْلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا بهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين آهليهم وأصحابهم وآهليهم وقربائهم فخسروهم ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي لا يروح لهم منها ولا يحيد لهم عنها.

وفوه تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ مِنْ أُولِيَاءٍ بِضَرْبٍ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ينفذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس له خلاص. ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا مَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظْتُ أَنْ عَلَىكَ إِلَّا الْبَلْعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ مِثْرًا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أُولِيَاءٍ كُفُورًا^(٢)

[الحث على طاعة الله قبل يوم القيامة]

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال وأمر العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مع. وقوله عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تحصنون فيه ولا خان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم يعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ سواه إلا إليه ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنْ لَمْ نَرْكَبْ سَفَرًا﴾ أي: لا لا دور^(٣) ﴿إِلَّا إِلَهُكُمُ الْمَلَكُ الْفَرَجُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني المشركين ﴿فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظْتُ﴾ أي لست عليهم بمسيطر، فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿إِنْ عَلَىكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾ أي إنما عليك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ مِثْرًا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ

يعني الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: جلد ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشرب وطير، وإن أصابته عنة يشرب وقط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: ﴿يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ﴾ فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿لَأَنْتُمْ تَكْثُرُنَ الشُّكَايَةَ وَتَكْثُرُنَ الْغَيْبِيرَ، لَوْ أَحْسَنْتُ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ تَرَكْتُ يَوْمًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ﴾^(٤) وهذا حال أكثر النساء، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال ﷺ: ﴿إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شُكِرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ صَابَتْهُ سَرَاءٌ صَبِرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ﴾^(٥)

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكَورَ﴾^(٦) أَوْ يُرْجِيهِمْ ذُكْرًا وَإُنْثَاءً وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ^(٧)

يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً﴾ أي يرزقه البنات فقط. قال البغوي: ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكَورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى^(٨) ﴿أَوْ يُرْجِيهِمْ ذُكْرًا وَإُنْثَاءً﴾ أي يعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد ﷺ^(٩) ﴿وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ أي لا يولد له. قال البغوي: كيحيى وعيسى عليهما السلام^(١٠)، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عاقبا لا نسل له ولا ولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة

(١) الطبري: ٢١/٥٥٣. (٢) مسلم: ٨٦/١.

(٣) مسلم: ٤/٢٢٩٥. (٤) البغوي: ٤/١٣٢.

(٥) البغوي: ٤/١٣٢. (٦) البغوي: ٤/١٣٢.

والسلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، قادم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٧ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ١٨ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ١٩﴾

[بيان كيفية الوحي]

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يمتارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسَانِ تَمْوَتُ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَتِمُّوا فِي الطَّلَبِ» (١). وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا» (٢). كذا جاء في الحديث، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ ١٥﴾ فهو علي عليم خبير حكيم. وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنَّا بِهِ هُدًى وَبَشَارَةً لِّلَّذِينَ يُوَفُّوْنَ فِي مَآذِنِهِمْ وَفَرَّحُوا عَلَيْهِمْ عَمًّى﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف لهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ١٧﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُ فِي آثُرِ الْكِتَابِ لَدَلِيلًا لِّلْمُحْكَمِ ٤ أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَهِيَ بَيْنَهُمْ وَمِن نَّبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ ٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ لَعْنًا ٨ بَطْشًا وَمِثْلَ مَثَلِ الْأَوَّلِينَ ٩﴾

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ أي تفهون وتدبرونه، كما قال عز وجل: ﴿يَلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي آثُرِ الْكِتَابِ لَدَلِيلًا لِّلْمُحْكَمِ ٤﴾ بين شرفه في الملا الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أحد الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿فِي آثُرِ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد (٣) ﴿لَدَلِيلًا ٤﴾ أي عندنا، قاله قتادة وغيره (٤) ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ أي ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة (٥) ﴿حَكِيمٌ ١٥﴾ أي محكم بربي من اللبس والزيف.

(١) مسند الشهاب: ١٨٥/٢. (٢) تحفة الأحوذى: ٨/٨.

(٣) الرازي: ١٦٧/٢٧. (٤) البغوي: ١٣٣/٤.

(٥) الطبري: ٥٦٧/٢١.

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٣﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٤﴾ وَإِلَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٥﴾

[اعتراف المشركين بتوحيد الخلق]

ومزيد الدليل عليه [

يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿١﴾ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد، ثم قال تعالى: ﴿٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا أي: فراشا قرارا ثابتة تسرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿٤﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا أي: طرقا بين الجبال والأودية ﴿٥﴾ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم ﴿٧﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿٨﴾ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا أي أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿٩﴾ كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿١٠﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا أي عما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك. ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿١١﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَائِكِ أي السفن ﴿١٢﴾ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ أي ذلها لكم وسخرها لأكلكم لحومها وشربكم لبنها وركوبكم ظهورها، ولهذا قال جل وعلا: ﴿١٣﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ أي لتستوا وتمكنين مرتفعين ﴿١٤﴾ عَلَى ظُهُورِهِ أي

بهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿١٥﴾ إِنَّهُ لَقَرِيبٌ أَرْكَبُ ﴿١٦﴾ فِي كُنُوزٍ مَعْنُونٍ ﴿١٧﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴿١٨﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وقال تعالى: ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿٢١﴾ فَتَنَاسَّاهُ ذِكْرُهُ ﴿٢٢﴾ فِي سَحَابٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٢٣﴾ تَرْوَعُهُ مَطَهَّرَةٌ ﴿٢٤﴾ بِلَيْلٍ مُتَقَدِّمَةٍ ﴿٢٥﴾ كَرَامٍ مَرَّةٍ ﴿٢٦﴾.

نوله عز وجل: ﴿٢٧﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ حَظَّتُمْ مَوَاسِرَ فِيهِ ﴿٢٨﴾ أي: أنحسبون أن نصفح عنكم بتهذيبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والصالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ^(١). وقال تعالى في قوله تعالى: ﴿٢٩﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، بحسب الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه شرب سنة أو ما شاء الله من ذلك ^(٢)، وقول قتادة لطيف مني جدًا، وحاصله أنه يقول في معناه إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلق لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم بعد القرآن وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

[تسليية للنبي ﷺ على تكذيب قريش]

ثم قال جل وعلا مسليا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمرأله بالصبر عليهم: ﴿٣١﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾ أي: في شيع الأولين ﴿٣٣﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ أي يكذبونه ويسخرون به. وقوله تبارك وتعالى: ﴿٣٥﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا أي فأهلكنا المكذبين أرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله عز وجل: ﴿٣٦﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ الْذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ﴿٣٧﴾ والآيات في ذلك كثيرة جدًا.

ونوله جل جلاله: ﴿٣٨﴾ وَمَوْصًى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ قال مجاهد: سنهم ^(٣). وقال قتادة: عقوبتهم ^(٤). وقال غيره ما: منهم، أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿٤٠﴾ لَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٤١﴾ وكقوله جلست عظمت: ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ ﴿٤٣﴾ وقال عز وجل: ﴿٤٤﴾ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٤٥﴾.

﴿٤٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

(١) الطبري: ٥٦٨، ٥٦٧/٢١. (٢) الطبري: ٥٦٨/٢١.

(٣) الطبري: ٥٧١/٢١. (٤) الطبري: ٥٧١/٢١.

على ظهور هذا الجنس ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا يَوْمَ رَبِّكُمْ﴾ أي فيها سحر لكم ﴿إِذَا أَسْوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي وقتادة والسدي وابن زيد: مقرنين، أي مطيقين ^(١١) ﴿وَإِنَّا إِلَٰهِنَا لَنَكْفُرُونَ﴾ أي لصاثرون إليه بعد ممانتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الديني على الزاد الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَتَزَكَّوْا فَإِنَّ خَيْرَ أَزْوَاجِ الْتَفَوُّي﴾ وبالبلباس الديني على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِدْشَا وَلِبَاسُ الْتَفَوُّي ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ^(١٥) أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ^(١٦) وَإِنَّا بِئْسَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ^(١٧) أَوْ مَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ^(١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُ آشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنَ سَكَنَ شَهَدَتْهُمْ وَنُسُكُونَ ^(١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(٢٠)

[النكير على جعل المشركين لله ولداً]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيَّتِهِ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(١٣) وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ^(١٤) يَكُ إِذَا نُسِيتُ ضَرْبًا ^(١٥) وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ^(١٦) ثم قال جل وعلا: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ^(١٧) وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار، فقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّا بِئْسَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ^(١٨) أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم

من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأفون أن من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ مَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ^(١٩) أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، ولا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيبة، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناها ليحجب ما فيها من نقص. وأما نقص معناها فإن ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار لا عبارة لها ولا هي، كما قال بعض العرب وقد بشر ببيت: ما هي بنعم الولد نصرد بكاء، ويرها سرقة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُ آشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ أي شاهدوه وقد خلقهم الله إننا سكتنب شهدتهم أي بذلك ﴿وَنُسُكُونَ﴾ ^(٢٠) عن ذلك يوم القيامة وهذا عيب شديد ووعد أكيد ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لم أراد الله لحال بيتنا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

(أحدها) جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتبره عن ذلك علواً كبيراً.

(الثاني) دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إننا.

(الثالث) عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والإياء والخطب في الجاهلية الجهلاء.

(الرابع) احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ^(٢١)

قال عز وجل: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الْحَرَمِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (١٥) وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجبتهم هذه: ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي محضة ما قالوه واحتجوا به ﴿وَلَنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٦) أي كذّابون ويتقولون. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٧) يعني ما يعلمون قدرة له تبارك وتعالى على ذلك (١٨).

﴿مَّا آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (١٩) بل آتَيْنَاهُمْ إِنْ جَاءَنَا آيَةٌ نَا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٠) بِذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا نَبَأًا عَلَى آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢١) قُلْ أَوَلَمْ حِثَّكُمْ عَلَى مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا إِنَّمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفْرًا وَفِتْنًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٢٢)

[بيان أن المشركين لا حجة لهم]

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا دمان ولا دليل ولا حجة ﴿مَّا آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل شركهم ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢٣) أي فيما هم فيه أي ليس الأمر كذلك، كقوله عز وجل: ﴿مَّا أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ لِقَاءًا فَيُحْشَرُوا بِمَا كَانُوا يَشْرِكُونَ﴾ (٢٤) أي لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢٥) أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة والمراد بها الدين ههنا. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هَذِهِ أَهْلُكُمْ مُتْرَكَةٌ﴾ (٢٦) وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ﴾ أي وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ (٢٧) دعوى منهم بلا دليل. ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قيد سبقهم إليها أشباههم ونظائرهم من الأمم لسابقة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُرْتَدٌّ﴾ (٢٨) أَوْ صَاحِبُ بَلَدٍ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ (٢٩) وهكذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا نَبَأًا عَلَى آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (٣٠) ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَمْ حِثَّكُمْ عَلَى مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا إِنَّمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفْرًا وَفِتْنًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣١)

قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا وَمَهُمْ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٢) أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجي الله المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٣٣) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٣٤) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ (٣٥) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٣٦)﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٣٧) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٨) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ (٣٩) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخًا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٤٠) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِحَهُمْ سُفُوفًا مِّنْ فِضْضٍ وَمَعَاجٍ عَلَيْهِمْ يُظَاهَرُونَ (٤١) وَلِيُؤْيِسَهُمْ نَوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهِمْ يُتَكَلَّمُونَ (٤٢) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٣)

[إعلان خليل الله عن التوحيد]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الخفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٤٤) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٤٥) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ (٤٦) أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٧) أي إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها (٤٨)، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام (٤٩) وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

(١) الطبري: ٥٨٣/٢١.

(٢) الطبري: ٥٨٩/٢١، والقرطبي: ٧٧/١٦.

(٣) القرطبي: ٧٧/١٦.

من أعدائه، وحكمه في نواصبيهم، وملكه ما تضمنته صياصبيهم! هذا معنى قول السدي واختاره ابن جرير^(١).

[الحث على التمسك بالقرآن]

ثم قال عز وجل: ﴿فَاسْتَمِيعْ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١٢)﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم.

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس^(٢) ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد^(٣). ومعناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوهم من الخالص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٤)﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي شَمْعِكَ الْقُرْآنَ﴾ وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ^(٥)﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلست عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطَ﴾ قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود^(٦): (واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك [من] رسلنا)^(٧). وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود^(٨). وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٩)﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ وَمَا يُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ^(١٠)﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ مَا دَعَا لَنَا رَبُّكَ

وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُنَادُونَ^(١١)﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي السُّمَى وَمَنْ كَانَتْ فِي يَدَيْهِ سُلَيْمٌ^(١٢)﴾ فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمَتِّعُونَكَ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أُوتُوا بُرْهَانًا مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ^(١٣)﴾ فَاسْتَمِيعْ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١٤)﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكِلُونَ^(١٥)﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ^(١٦)﴾

[الشیطان قرین المعرض عن الرحمن]

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِفْ أَيُّ يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلْ وَيَعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد هنا عشا البصيرة ﴿فَنَقِضْ لَهُ سُلْطَانًا فَهُوَ لَدَيْنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ الآية وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَضَّيْنَا لَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَزَاغُوا لَهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا ظَنَّهُمْ﴾ الآية، ولهذا قال تبارك وتعالى هنا: ﴿وَأَنَّهُمْ لَسَوَءٌ رِجْءٌ﴾ أي: السبيل ويحسبون أنهم مهتدون^(١٧) حتى إذا جاءتهم آية من ربهم بغافل عما وعدوا من ربهم، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيمة يهرم بالشیطان الذي وكل به ﴿قَالَ بَلَّغْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا تَشَاءُ فَيَنْسُ الْفَرِيقُ^(١٨)﴾ وقرأ بعضهم: (حتى إذا جاءهم آية) يعني القرين والمقارن.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ^(١٩)﴾ أي: لا يعني عنكم اجتماعكم في النار وانتمراكم في العذاب الأليم.

[لا يهدي من شقي في بطن أمه]

وقوله جلست عظمته: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي السُّمَى وَمَنْ كَانَتْ فِي يَدَيْهِ سُلَيْمٌ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك.

[انتقام الله من أعداء الرسول واقع]

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمَتِّعُونَكَ﴾ أي: لا بد أن تنتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهب أنت ﴿أَوْ يُرِيكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ^(٢٠) أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه

(١) الطبري: ٦٠٩/٢١. (٢) الطبري: ٦١٠/٢١. (٣) الطبري: ٦١١/٢١.

(٤) الطبري: ٦١١/٢١. (٥) الطبري: ٦١١/٢١. (٦) الطبري: ٦١١/٢١. (٧) الطبري: ٦١١/٢١. (٨) الطبري: ٦١١/٢١. (٩) الطبري: ٦١١/٢١. (١٠) الطبري: ٦١١/٢١.

بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْثَدُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٢﴾

[بحث موسى بالتوحيد إلى فرعون وملئه]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأنبياء والرعايا من القبط وبنو إسرائيل يدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً كيداً وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمار، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وَمَا تُرِيهِمْ﴾ ^(١) ^(٢) ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^(١٠٠١) ^(١٠٠٢) ^(١٠٠٣) ^(١٠٠٤) ^(١٠٠٥) ^(١٠٠٦) ^(١٠٠٧) ^(١٠٠٨) ^(١٠٠٩) ^(١٠١٠) ^(١٠١١) ^(١٠١٢) ^(١٠١٣) ^(١٠١٤) ⁽

لنهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري وإنما أراد الترويح على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء وكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهي ما يجعل في يدي من الحلي. قاله ابن عباس رضي الله عنه وقادة وغير واحد ^(١) ﴿أَوْ بَعَثَ الْمَلَكُكَ مُقَرَّبِينَ﴾ ^(٢) أي: يكتفونه خدمة وشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر بوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم، ولهذا قال سالي: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف عقولهم لدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: أسفونا أسخطونا ^(٤). وقال الضحاك عنه: أسفونا، وهكذا قال ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقادة والسدي وغيرهم من السريين ^(٥).

وروي ابن أبي حاتم عن عتبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ يُسَبِّحُ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَلَيْتَ ذَلِكَ اسْتِزْجَاجٌ مِنْهُ لَهُ» ثم قال: ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٦) وعن طارق بن شهاب قال كنت عند عبد الله رضي الله عنه ذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ رضي الله عنه ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٧) وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النقرة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَغَرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٨)
أقوله سبحانه وتعالى:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ^(٩) قال أبو مجلز: «سَلَفًا» لمثل من عمل بعملهم ^(١٠). وقال هو ومجاهد: «وَمَثَلًا» أي عبرة لمن بعدهم ^(١١). والله سبحانه وتعالى الوفاق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ^(١٢) وَقَالُوا: «أَلَيْهِنَا حَبِيرٌ أَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ» ^(١٣) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ^(١٤) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ

﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَانَهُ فَلَا تَمُوتُكَ بِهَا وَأَتَّبَعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ^(١٥) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ^(١٦) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ^(١٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِذُّوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ^(١٨) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْبَرِّ﴾ ^(١٩)

[استخفاف قريش لابن مريم، ودرجته عند الله]

يقول تعالى مخبرًا عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ^(٢٠) قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: يضحكون أي أعجبوا بذلك ^(٢١). وقال قتادة: يزعجون ويضحكون ^(٢٢). وقال إبراهيم النخعي: يعرضون ^(٢٣)، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ، فيما بلغني، يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ ^(٢٤) الآيات.

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبيري التميمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبيري: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدًا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن

(١) الطبري: ٦١٩/٢١. (٢) الطبري: ٦٢٢/٢١.

(٣) الطبري: ٦٢٢/٢١، والدر المنثور: ٣٨٣/٧.

(٤) أحمد: ١٤٥/٤ باختلاف يسير.

(٥) الدر المنثور: ٣٨٤/٧. (٦) القرطبي: ١٠٢/١٦.

(٧) الطبري: ٦٢٤/٢١، والقرطبي: ١٠٢/١٦.

(٨) القرطبي: ١٠٣/١٦. (٩) الطبري: ٦٢٧/٢١.

(١٠) القرطبي: ١٠٣/١٦.

الزبيري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك
 لرسول الله ﷺ فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ
 مَعَ مَنْ عِبَدَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ»
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ»
 أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١﴾ أي عيسى وعزير ومن عبد معها
 من الأحرار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله عز وجل،
 فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله،
 ونزل فيها يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات
 الله ﴿١٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٣﴾
 والآيات ونزل فيها يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة
 والسلام، وأنه يعبد عن دون الله، وعجب الوليد ومن
 حضره من حجته وخصومته ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿١٧﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من
 قوله. ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: «إِنَّ هُوَ إِلَّا
 عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا
 مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَوَلِّمَ لِلسَّاعَةِ ﴿٢٠﴾ أي ما
 وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام
 فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا
 وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾» (١).

وذكر ابن جرير من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله:
 ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿١٧﴾
 قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٢٠﴾» إلى آخر
 الآيات. فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ
 وَرَسُولُهُ» فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذة رباً كما
 اتخذ النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله عز وجل:
 «مَا صَرُّوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٨﴾» (٢).

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة: يقولون:
 آلهتنا خير منه وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه (وَقَالُوا آلِهَتُنَا
 خَيْرٌ أَمْ هَذَا؟) يعنون محمد ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: «مَا صَرُّوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا» أي مراء، وهم
 يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي
 قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»
 ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون
 الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه،

فتعين أن مقاتلهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعنف
 صحتها. وقد روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي أسامة
 رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ ذَلِكَ
 كَانُوا عَلَيْكَ، إِلَّا أَوْزَعُوا الْجَدَلَ» ثم تلا رسول الله ﷺ
 الآية «مَا صَرُّوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٨﴾»
 الترمذي وابن ماجه وابن جرير ثم قال الترمذي: حسن
 صحيح لا نعرفه إلا من حديثه (٤).

وقوله تعالى: «إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» يعني عيسى
 عليه الصلاة والسلام. ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل
 أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة. «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾»
 أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء
 وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ أَفْئِدَةً يَخْلُفُونَ﴾ ﴿١٩﴾ قال السدي: يخلفون
 فيها (٥). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يخلف بعضهم بعضاً
 يخلف بعضهم بعضاً (٦)، وهذا القول يستلزم الأول. وقد
 مجاهد: يعمرن الأرض بدلهم (٧).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَوَلِّمَ لِلسَّاعَةِ﴾ الصحيح
 أن المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى
 «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مَوَاطِينٌ ﴿١٧﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴿١٨﴾» أي نفس
 موت عيسى عليه الصلاة والسلام «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نَكُونُ عَلَيْهِ
 شَهِيدًا ﴿١٩﴾» ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى «وَإِنَّهُ لَوَلِّمَ
 لِلسَّاعَةِ» أي أماره ودليل على وقوع الساعة.

قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَوَلِّمَ لِلسَّاعَةِ﴾ أي آية للساعة خبر
 عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة (٨)، وهذا
 روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك
 وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم (٩)، وقد
 تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى
 عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

(١) ابن هشام: ٣٩٦/١ - ٣٩٨، (٢) الطبري: ٢١/٦٢٥.

(٣) أحمد: ٥/٢٥٦.

(٤) تحفة الأحوذى: ٩/١٣٠، وابن ماجه: ١/١٩، والطبري:

٦٢٩/٢١.

(٥) الطبري: ٢١/٦٣١. (٦) الطبري: ٢١/٦٣٠.

(٧) الطبري: ٢١/٦٣٠. (٨) الطبري: ٢١/٦٣٢.

(٩) الطبري: ٢١/٦٣٢، والقرطبي: ١٦/١٠٦.

القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ بَعْضًا وَفَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ١٥﴾.

[بشارة المتقين يوم القيامة ودخولهم الجنة]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَتَوَدَّوْا حَتَّىٰ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ١٦﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ١٧﴾ أي: أمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المصنف بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرع فينادي مناد ﴿يَتَوَدَّوْا حَتَّىٰ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ١٦﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال فينبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ١٧﴾ قال: فيبأس الناس منها غير المؤمنين ^(٢). ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ١٨﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة، ﴿أَن تَرَوْا كَرَامًا ١٩﴾ أي نظراؤكم ﴿تَحْزَنُونَ ٢٠﴾ أي تتنعمون وتسعدون وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ٢١﴾ أي زيادي آنية الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ ٢٢﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَبِيهِ الْأَنْفُسُ ٢٣﴾ وقرأ بعضهم: ﴿فَتَشْتَبِيهِ الْأَنْفُسُ ٢٣﴾، وكذلك الأعراب أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَرَوْهَا ٢٤﴾ أي: في الجنة ﴿وَحُلِيِّهَا ٢٥﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا.

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا ٢٦﴾ أي أوفئتموها بما كنتم تعملون ﴿٢٧﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إليكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنها الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ٢٨﴾ أي: من جميع الأنواع ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٢٩﴾ أي: منها اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

وله تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنُوا ٣٠﴾ أي لا تشكوا فيها أنها وكأنه لا محالة ﴿وَأَتَّبِعُونِ ٣١﴾ أي فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٢﴾ ولا يصدكم الشيطان أي عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُم عَذْرٌ مُبِينٌ ٣٣﴾ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد أتاكم بالحكمة أي بالنبوة ﴿وَلَا يَن لَّكُم بَعْضٌ الَّذِي يَبْتَغِي ٣٤﴾ قال ابن جرير يعني من الأمور الدينية لا دنيوية ^(١)، وهذا الذي قاله حسن جيد.

وله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ٣٥﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا ٣٦﴾ أي فيما جنتكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٧﴾ أي أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادة لا شريك له ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٨﴾ أي الذي جنتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وحده. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن دُونِ اللَّهِ ٣٩﴾ أي اختلف الفرق وصاروا شيعة فيه، منهم من يقر بأنه ربهم من يقول: إنه الله. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٤٠﴾.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٤١﴾ أي لا تأتيهم فجأة ولا يسمعونها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٢﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٣﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٤﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٥﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٦﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٧﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٨﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٤٩﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٠﴾ أي لا يحيطون بها.

[تأتي القيامة بغتة وتقع العداوة]

[بين الإخلاء من الكفار]

وله تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذوبون للرسول أم لا؟ ﴿لَا تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥١﴾ أي فإنها لا تأتيهم فجأة ولا يسمعونها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٢﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٣﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٤﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٥﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٦﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٧﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٨﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٥٩﴾ أي لا يحيطون بها. ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِهَا ٦٠﴾ أي لا يحيطون بها.

﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ أَي: الذي أنزل القرآن هو رب السموات
والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾
(٧) ۖ أَي: إِنْ كُنْتُمْ مُتَحَقِّقِينَ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَرَبُّكُمْ رَبُّ الْآلَافِ ﴾ (٨) وهذه الآية كقوله
تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ﴾ الآية.
﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩) فَارْتَبَعَ يَوْمٌ ثَلَاثِي السَّعَاءِ بِدُخَانٍ
مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَلَيْسَ الْأَكْرَبُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ
(١٣) ثُمَّ نَبَذُوا عَنْهُ وَقَالُوا مُؤَلَّاهُ تَحْنُوتُ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنْ كُنَّا عَابِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ (١٦)

[تخويف المشركين من اليوم

الذي تأتى السماء بالدخان]

يقول تعالى: **بَلْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ ﴿١٠﴾ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾** أي قد جاءهم الحق اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال عز وجل متوعدا لهم ومهددا: **﴿فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾** عن مسروق قال: دخلنا المسجد، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: **﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾** تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة يأخذ بأسباع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه، فذكرنا له ذلك وكان مضطجعا، ففرع فقعده وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٨٦﴾﴾** إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصعبهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ^(١). وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فرى ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد ^(٢).

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يُغَشِّي النَّاسَ هَذَا آيَاتُ الْيَوْمِ ﴿١١﴾﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله! استسق الله لخصرك فأنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ

لهم فمُتُوا، فنزلت ﴿لَا تَكْفُرُوا بِالْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٧) فمُتُوا
 ابن مسعود رضي الله عنه : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة، فمُتُوا
 أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: ﴿يَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّمَا تُنْقَوْنَ﴾ (١٨) قال: يعني يوم بدر
 قال ابن مسعود رضي الله عنه : فقد مضى خمسة: الدخان والروم والفسخ
 والبطشة والرزاق، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ^(١) .
 الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في
 تفسيريهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة
 وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان
 مضى: جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإسراء
 النخعي والضحاك وعطية العوفي ^(٢) . وهو اختيار ابن جرير
 وفي حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغضائري رضي الله عنه :
 أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة
 فقال ﷺ : «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ طَلَبُ
 الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ
 وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ
 خَسَفَ بِالشَّمْسِ، وَخَسَفَ بِالشَّمْسِ، وَخَسَفَ بِالشَّمْسِ، وَخَسَفَ بِالشَّمْسِ
 الْقَرْبِ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْمِلُ
 النَّاسَ - بَيْتٌ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَثَقِيلٌ مَعَهُمْ حَيْثُ نَالُوا»
 تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه ^(٣) ، وفي الصحيحين أن
 رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إِنِّي خَبَأْتُ لَكَ خَبَاءً قَالَ: مَا
 الدُّخَانُ، قَالَ ﷺ : «اِخْسَاءٌ فَلَنْ تَعْمُدُوا قَدْرَكُمْ» قال: وخبا له رسول
 الله ﷺ : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٩) وهذا
 فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على
 طريقة الكهان بلسان الجان، وهم [يَقْرَطُمُونَ] العبادة، ولهذا
 قال: هو الدخ، يعني الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ
 مادته، وأنها شيطانية، فقال ﷺ : «اِخْسَاءٌ فَلَنْ تَعْمُدُوا قَدْرَكُمْ»
 وقد روي من الأحاديث المرفوعة والموقوفة من الصحاح
 والاحسان وغيرهما ما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان

(۱) مسلم: ۲۱۵۵/۴. (۲) مسلم: ۲۱۵۶/۴.

(٣) فتح الباري: ٤٣٤/٨. (٤) فتح الباري: ٤٣٤/٨.

(٥) أحمد: ١/ ٣٨٠ وتحفة الأحوزي: ٩/ ١٣٣، والنسائي في

الكبرى: ٦/٤٥٥، والطبري: ٢٢/١٣، ١٤.

(٦) الطبري: ١٦/٢٢. (٧) مسلم: ٤/٤.

أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ عَنْهُ ^(٢). وَعَنْ أَبِي بَنْ
كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(٣). وَهُوَ مُحْتَمَلٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنْ كَانَ
يَوْمَ بَدْرٍ يَوْمَ بَطْشَةِ أَيْضًا قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَا
أَقُولُ هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنْهُ وَيَه يَقُولُ الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ وَعِكْرِمَةُ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿١٧﴾ وَلَقَدْ فَعَلْنَا فَعَلَهُمْ قَوْمٌ فَدَعَوْهُمْ رَجَعُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ أَنْ أَدْعُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِيَّايَ لَكُم رُسُلُ اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْ لَّا تُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُطَغِّفَ الْفُجَّارُ أَعْيُنَكُمْ فَإِذَا ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِي إِنَّهُمْ يَرْتَدَّوْنَ عَلَیَّ فَعَالِمُونَ ﴿١٩﴾ فَذَرَانِي هَذِهِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ﴿٢١﴾ وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُثْوَىٰ ﴿٢٣﴾ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَنَعَمُوا كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَنَا بُنَىٰ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٨﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَلَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَيَّاتِ مَا فِيهِ بَلَكَاؤٌ مُّبِينٌ ﴿٣١﴾

[قصة موسى وفرعون ونجاة بني إسرائيل]

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧) يعني موسى كليمه عليه الصلاة والسلام ﴿أَن أَدْرَأَكُمُ عِبَادَ اللَّهِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نَعْتَذِرُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ زُبَاجِرَ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ اللَّهُ سَبِيلَ﴾ (١٧). وقوله جل وعلا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧) أي مأمون على ما أبلغكموه. وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه، والإيمان ببراهيمه كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠)، ﴿إِنِّي أَنذِرُكُمْ بِلُطْفِي مَبِينٍ﴾ (١١) أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ (١٠) قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم ^(٤). وقال قتادة: الرجم بالحجارة أي أعوذ بالله

قال: الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي بَكْرٍ﴾ (١٥) أي: بين واضح، كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال، أي في أعينهم من شدة الجوع والجهل. وهكذا قوله تعالى: ﴿يَعْتَقِي النَّاسُ﴾ أي يتفشاهم ويعممهم، ولو كان أمراً خيالياً، فمن أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَعْتَقِي النَّاسُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١) أي: يقال لهم ذلك
ثريفاً وتوبيخاً كقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَكُونُ لِلنَّارِ جَهَنَّمُ
شَأْنًا﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا كَذِبُونَ ﴿١٤﴾ أو يقول
بعض لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا أَكْرِفْ
عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) أي: يقول الكافرون إذا عابوا
عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلّت
عظمته: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآثَرِ فَاقُولُوا وَلَيْسَ بِنَا تُرْذِلُ وَلَا تَكْذِبُ يَأْتِي
بِنَا وَلَكُونِ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (١٧) وكذا قوله جل وعلا: ﴿وَأَنذِرْ
النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ
وَحَدٍ حُبِّ دَعْوَتِكَ وَتَجِيعِ الرُّسُلِ أَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن
لَهُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ (١١). وهكذا قال جل وعلا ههنا:
﴿إِن لَّهُمُ الذِّكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ
لِّبَنَاتٍ لَا يُعَلِّمُهُنَّ الْعِلْمَ﴾ (١٤) كيف لهم بالذكر وقد أرسلنا إليهم
رسولاً بين الرسالة والتذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه
بل كذبوه وقالوا: ﴿مُعَلِّمٌ يَتَّبِعُونَ﴾ (١٤) وهذا كقوله جلّت
عظمته: ﴿يَوْمَ مَظْهَرٌ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرُ﴾ (١٢)
الآية وكقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُعِيتُمْ فَلاَ قُرَتْ وَلِجِذُوا
مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (١١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَادُ مَن مَّكَانٍ
يَتَّبِعُ (١١) إلى آخر السورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٩) معناه
 ألبسوا كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا،
 بعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله
 تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلِجَوفِ طُعْنَتِهِمْ
 سَهُونَ﴾ (٧٥) وكقوله جلّت عظمته: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَاذُوا إِلَٰهًا
 غَيْرَ مَا لَهُمْ لَعَذَابٌ لَّهِمْ﴾ (٦٨).

[تفسير البطشة الكبرى]

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الْبَاطِنَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾^(١) فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر^(١). وهذا قول جماعة من وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم، وروي

(١) الطبري: ٢٢/٢٢. (٢) الطبري: ٢٢/٢٢.

(٣) الطبري: ٢٢/٢٣. (٤) الطبري: ٢٢/٢٦.

الذي خلقتني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أو فعل ^(١) ﴿وَأَنْ لَّيْزَمَنَّكَ قَاتِلُكَ﴾ أي: فلا تتعرضوا لي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسألة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم كل ذلك، وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّئَا عَنْ سَيِّدِكَ رَبَّنَا طُغِيَ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ^(٢) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَسْقِمَا. وهكذا قال ههنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ يَكُونَ لِقَوْمِ عِجْرُونَ﴾ ^(٣) فعند ذل أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستنائه، ولهذا قال جل جلاله: ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ ^(٤) كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا إِلَى الْبَحْرِ يَسَّى لَأَخَذَهُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ ^(٥). وقوله عز وجل ههنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْيَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ ^(٦) وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم ^(٧) جُنْدٌ مُغْرَقُونَ. فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَأَتْرَكَ الْيَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيشته وامضة ^(٨). وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾ طريقًا يسى كهيشته. يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم ^(٩). وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقاتدة وابن زيد، وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد ^(١٠). ثم قال تعالى: ﴿كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتِي﴾ وهي البساتين ^(١١) وَغِيُونٌ ^(١٢) وَزُرُوعٌ ^(١٣) والمراد بها الأنهار والآبار ^(١٤) وَمَقَارِ كَرِيرٍ ^(١٥) وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ^(١٦) وَمَقَارِ كَرِيرٍ ^(١٧) المناير ^(١٨). ^(١٩) وَتَعَمَّرُوا فِيهَا فَنَكِبْنَهَا أَي: عشية كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير. قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ^(٢٠) وهم بنو إسرائيل. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ

وَالْأَرْضُ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدانهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبد الله تعالى فيها فقدتهم، فلماذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا، لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم. وروى جرير عن سعيد بن جبير قال: أتى ابن عباس رضي الله عنه رجل فقال يا أبا العباس أرايت قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ^(٢١) فهل تبكي السماء والأرض عن أحد؟ قال رضي الله عنه: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمل وينزل من رزقه، ففقدته، بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكى عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض ^(٢٢) وروا العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه نحو هذا ^(٢٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَبًا﴾ ^(٢٤) من فرعون ^(٢٥) إِنَّهُ كَانَ ظَالِمًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ^(٢٦) يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلال لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله تعالى: ﴿فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَانَ طَالِيًا﴾ أي مستكبرًا جبارًا عنيدًا كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله جلست عظمته: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ^(٢٧) من المسرفين أي مسرف في أمره، سمع رأيي على نفسه. وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْغُلَامِيِّينَ﴾ ^(٢٨) قال مجاهد: ﴿أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْغُلَامِيِّينَ﴾ ^(٢٩) على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالمًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْحُومُؤُوسُ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أهل زمانه ذلك كقوله عز وجل لمريم عليها السلام: ﴿وَأَمْسُطِفِكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٣٠) أي: في زمانها فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام

(١) الطبري: ٢٢/٢٧. (٢) الدر الثور: ٧/٤١٠.

(٣) الطبري: ٢٢/٣٠. (٤) الطبري: ٢٢/٣٠.

(٥) الطبري: ٢٢/٣٢. (٦) الطبري: ٢٢/٣٤.

(٧) الطبري: ٢٢/٣٥.

جل جلاله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي الحجج
أعين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَكَاٌ مُّبِينٌ﴾ أي
لما ظهر جلي لمن اهتدى به.

﴿هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ (٢١) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بَشَيْئٍ﴾ (٢٢) ﴿فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَفَلْكَفَرْتُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا جَحِيمِينَ﴾ (٢٤)

[الرد على منكري القيامة]

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث
عاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد المات
البعث ولا نشور، ويحتجون بأبائهم الماضين الذين ذهبوا
سبهم رجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ (٢١) وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد
هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها
بإغناء عبيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار
هم وفوداً، يوم [تكونون] شهداء على الناس ويكون
رسول عليكم شهيداً، ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً
بأنزلهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم
من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع، وهم سبأ، حيث
أنزلهم الله عز وجل وخرب بلادهم وشردهم في البلاد
فرزهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ - وهي
مقدمة بإنكار المشركين للمعاد - وكذلك هنا شبههم
بذلك وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من
مذحجان، وقد كانت حمير وهم سبأ كلها ملك فيهم رجل
سوء تبعاً، كما يقال: كسرى، لمن ملك الفرس، وقصر لمن
ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن
ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تابعتهم خرج من اليمن وسار في
بلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه
جيشه، واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه، وهو الذي
مصر الخيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام
جاهلية، فأراد قتال أهلها فهاجموه وقتلوه بالنهار، وجعلوا
شرفه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه
سبعين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له
على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع
فيها وأخذها معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم

الكعبة فنهاه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه
من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأنه سيكون له
شان عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان،
فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحجر، ثم كثر
راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه، وكان إذ ذاك دين
موسى عليه الصلاة والسلام فيه - من يكون على الهداية قبل
بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام - فتهود معه عامة أهل
اليمن، وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: «مَا أَذْرِي تَبِعَ نَبِيًّا كَانَ، أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ» (١) وروى
عن تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء ابن أبي رباح: لا تسبوا
نبياً فإن رسول الله ﷺ نبي عن سبه (٢). والله تعالى أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْتِ﴾ (٢٥) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ
أَجْمَعِينَ﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْقًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾
(٢٨) ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٩)

[خلقت الدنيا لحكمة]

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبت
والباطل كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بِطُلٍّ ذَلِكَ ظَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن آتَانَا﴾ (٣٠) وقال
تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾
(٣١) ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾
(٣٢) ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٣)
وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب
الكافرين ويشيب المؤمنين. وقوله عز وجل: ﴿مِيقَتُهُمْ
أَجْمَعِينَ﴾ (٣٤) أي يجمعهم كلهم أوهم وآخرهم ﴿يَوْمَ لَا
يُغْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْقًا﴾ أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه
وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
يَسْأَلُونَ﴾ (٣٥) وكقوله جلَّتْ عظمته: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيًّا حِمِيًّا﴾
(٣٦) ﴿يُنصَرُونَ﴾ أي لا يسأل أخاه عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٧) أي لا ينصر
القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن
رَّجِمَ اللَّهُ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه
﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٨) أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ طَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٣﴾ كَالْمُهْلِ يَقْلِي فِي
الْبُطُونِ ﴿١٤﴾ كَفَنِي الْحَمِيمِ ﴿١٥﴾ خَذُوهُ فَأَعْيَتُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَجِيمِ
﴿١٦﴾ ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٩﴾

[حال المشركين وعذابهم يوم القيامة]

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه:
﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ طَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٣﴾ وَالْأَنْبِيَاءُ فِي
قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا
شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. روى
ابن جرير أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ
الزُّقُومِ﴾ طَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٣﴾ فقال طعام النبي، فقال
أبو الدرداء: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر ^(١). أي
ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في
الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ^(٢)، وقد تقدم
نحوه مرفوعاً، وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَقْلِي
فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿١٤﴾ كَفَنِي الْحَمِيمِ ﴿١٥﴾ أي من حرارتها ورداءتها،
وقوله: ﴿خَذُوهُ﴾ أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال
للزبانية ﴿خَذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله:
﴿فَأَعْيَتُوهُ﴾ أي سقوه سحباً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد:
﴿خَذُوهُ فَأَعْيَتُوهُ﴾ أي خذوه فادفعوه، ﴿إِلَى سَوَاءِ الْحَجِيمِ
﴿١٦﴾ أي وسطها ﴿ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ
﴿١٧﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْقُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿١٨﴾
يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٩﴾ وذلك أن الملك يضربه
بوقمعة من حديد، فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه
فيتزل في بدنه، فيسلب ما في بطنه من أمعائه حتَّى تمرُق من
كعبه، أعاذنا الله تعالى من ذلك. وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿١٨﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم
والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس: أي لست بعزير
ولا كريم. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿١٩﴾
كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَذْهَبُ عَنْ نَارِجَهْمُ دَعَا﴾ ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ
الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا كُذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿١٥﴾
ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُشُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ
مِنْ سُتُورٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَوَدَّعْتُهُمْ مَحْجُورِينَ
﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكَّةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذْهَبُونَ

فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَتْهُمُ عَذَابُ الْجَحِيمِ
فَصَلَّامِينَ رَبَّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ بِلِئَالِكَ الْمَلَائِكَةِ
يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٨﴾

[حال المتقين ونعيمهم في الجنة]

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا
سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: الله في الدنيا
﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿٥١﴾ أي في الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها
من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع ونصب
ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب
﴿فِي جَنَّتٍ وَعُشُوبٍ﴾ ﴿٥٢﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك في
من شجرة الزقوم وشرب الحميم، وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ
سُتُورِينَ﴾ وهو رقيق الحرير كالقمصان ونحوها
﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالبريش، وما
يلبس على أعالي القماش ﴿مُتَقَنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ أي على السُر
لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره. وقوله تعالى
﴿كَذَلِكَ وَوَدَّعْتُهُمْ مَحْجُورِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ أي هذا العطاء مع ما
قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين
اللاتي ﴿لَوْ يَطْمَئِنُّنَّ لَأَشْرَقَتْ لُجُنُوبُهُمْ لَوْلَا جَاءَهُنَّ النَّارُ
وَالْمَرَحَانُ﴾ ﴿٥٥﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٥٦﴾
وقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكَّةٍ ءَامِنِينَ﴾
﴿٥٥﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون
من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا. وقوله:
﴿لَا يَذْهَبُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ هذا استثناء
يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها
الموت أبداً، كم ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:
﴿يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ قِيَوفُهُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ
يُذْبَحُ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ
خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ﴾ ^(٣) وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليها
الصلاة والسلام. وروى عبد الرزاق عن أبي سعيد وأبي
هريرة: قالوا: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّ
لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَمِشُوا فَلَا تَعْوُوا
أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَسْبُوا فَلَا

(١) الطبري: ٤٣/٢٢. (٢) الطبري: ٤٣/٢٢.

(٣) فتح الباري: ٨/٢٨٢، ومسلم: ٤/٢١٨٨.

يؤمنون؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ۝٧﴾ أي: أفاك في قوله كذاب حلاف مهين، أثيم في فعله وقلبه كافر بآيات الله، ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ أَيْتَانَ ثُمَّ يُسْقَرُ بِهِ ۝٨﴾ أي: يقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصْرَفُ﴾ أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّهُ سَمْعُهَا ۝٩﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ أي: فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ أَيْنِئْتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۝١١﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذها سخرياً وهزواً ﴿أَوَلَيْكَ لَعْنَةُ عَذَابٍ مُّهِينٍ ۝١٢﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه قال: نهي رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو ^(١).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۝١٣﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْسُهُمْ شَيْئًا ۝١٤﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ۝١٥﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾ ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا هَدًى ۝١٧﴾ يعني القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَكُمْ عَذَابٌ مِنْ تَحْتِ أَلْيَدِ ۝١٨﴾ وهو المولم الموجه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَسْتَفْتُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۝١٩﴾ وسَخَّرَ لَكُمْ مِائِي السَّمَوَاتِ وَمِائِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٠﴾ قل للذين ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٢١﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۝٢٢﴾ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝٢٣﴾

[في تسخير البحر وغيره آيات]

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِيَجْزِيَ الْفُلْكَ ۝٢٤﴾ وهي السفن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ ۝٢٥﴾ تعالى. فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِيَسْتَفْتُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۝٢٦﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٧﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم من [الأقاليم] النائية والأفاق القاصية، ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِائِي السَّمَوَاتِ وَمِائِي الْأَرْضِ ۝٢٨﴾ أي: من الكواكب، والجبال، والبحار، والأنهار، وجميع ما تتفنون به، أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ ۝٢٩﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ

يَجْتَرُونَ ۝٣٠﴾ وروى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِائِي السَّمَوَاتِ وَمِائِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۝٢٨﴾ كل شيء هو من الله. وذلك الاسم فيه، اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه ولا ينافيه فيه المنازعون، واستيقن أن كذلك ^(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣١﴾

[الأمر بالصبر على أذى المشركين]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ۝٣٢﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم. وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه وقتاده ^(٣).

وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ۝٣٢﴾ لا ينالون نعم الله تعالى ^(٤). وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٣٣﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۝٣٤﴾ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزئكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٣٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيفَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَنْسِجْ أَمْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ إِنْهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤٠﴾

[فضل الله على بني إسرائيل واختلافهم بعد ذلك]

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل: من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ۝٤١﴾ أي: من المآكل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٤٢﴾ أي: في زمانهم ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ۝٤٣﴾ أي حججاً

(١) مسلم: ٣/١٤٩١. (٢) الطبري: ٢٢/٦٥.

(٣) الطبري: ٢٢/٦٦، ٦٧. (٤) الطبري: ٢٢/٦٧.

﴿وَعَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ﴾ أي بالعدل ﴿وَلُجَزَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١).

ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْهَهُوهَ﴾ أي إنبا يأمر بهواه، فهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْوٍ﴾ أي أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه.

والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس ﴿وَنَحْمَ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِمْ وَتَعَلَّ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَوَةٌ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢) كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٣).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْدِيهِ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١٤) وإذا نكث عليهم آياتنا يثبت ما كان حجتهم إلا أن قالوا اقتنوا بآياتنا إن كنتم صديقين (١٥) قل الله يجزيكم يبيِّن لكم ثُمَّ يَجْعَلُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٦).

[معتقد الكافر وحجته والرد عليه]

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، ومن ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية [الدورية] المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا [المعقول] وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُبْدِيهِ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١٤) أي يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الذي أخرجه صاحبها الصحيح وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يَقُولُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، يَبْذِي الْأَمْرَ، أَقْلَبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ (١٧) وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ

(١) الطبري: ٥٠/٢.

(٢) فتح الباري: ٤٣٧/٨، ومسلم: ١٧٦٢/٤، وأبو داود:

٤٢٣/٥، والنسائي في الكبرى: ٤٥٦/٦.

إلهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم صلى الله عليه وسلم يا محمد ﴿يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧) أي سيفصل بينهم بحكمة العدل.

[تحذير هذه الأمة عن سلوك منهج بني إسرائيل]

وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد بهجهم، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنْ أَمْرِنَا فَلْيَمْسِكْهَا﴾ أي ﴿أَتَمِّعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٨) وقال جل جلاله ههنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٩) إِنْهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ عَلَيْهِمْ بِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم بعضهم بعضاً. فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً والله ولي المؤمنين (٢٠) وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى نور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من نور إلى الظلمات، ثم قال عز وجل: ﴿هَذَا صَبْرٌ لِلنَّاسِ فِي الْقُرْآنِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢١).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَعَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٣) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْهَهُوهَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْوٍ وَنَحْمَ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِمْ وَتَعَلَّ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَوَةٌ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

[لا تستوي حياة المؤمن والكافر ومماتهما]

يشول تعالى لا يستوي المؤمنون والكافرون: كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَمُحِبُّ الْكَلْبَ وَأَمُحِبُّ الْجَنَّةَ أَصْحَابُ جَنَّةٍ هُمْ الْقَائِمُونَ﴾ (٢٥) وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ يَمْشُوا وَكُسبُوا بِأَنَّهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٦) ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٨) وقد روى الطبراني عن مسروق أن سمياً بنى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٩) وهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٣٠) وقال عز وجل:

الدَّهْرُ^(١١) قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة، أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر، فيستندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويستندون إليك تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا بِبَيِّنَاتٍ أَيْ إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفَرَّقَها﴾ «فَمَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَتَابِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٢)» أي أحببهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ أَي كَمَا تَشَاهِدُونَ ذَلِكَ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ﴾ «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ ثُمَّ يُجِيبُكُمْ أَي الَّذِي قَدَرَ عَلَى الْبِدَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ﴾ «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ «ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِیْهِ أَي إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا: إِنَّا تَوْبَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٣)» «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ»، «لَا يَوْمَ يُؤْتَىٰكُم^(١٤)» «يَوْمَ الْقَضَاءِ^(١٥)»، «وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ^(١٦)» وقال ههنا: «ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِیْهِ أَي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(١٧)» أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ قَرِيبًا^(١٨)» أي يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿وَيَوْمَ تَكُونُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ تَكُونُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ «وَمَنْ ذَكَرَ أَمْرَ حَاطَّةٍ كُلِّ أَمْرٍ شَرَعَ إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١٩)» ههنا كَيْفَ يَطُوقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢٠)»

بعض أحوال يوم القيامة وأحوالها

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيها في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ^(٢١)» وهم الكافرون بالله الجاحدون

بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات ثم قال تعالى: ﴿وَرَىٰ كُلُّ أَمْرٍ حَاطَّةٍ﴾ أي على رُكْبَتَيْهَا مِنَ السَّاعَةِ وَالْعِظْمَةِ، ويقال: إِنَّ هَذَا إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّمَا تَزْفَرُ زَفْرَةً، لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَامُ وَالسَّلَامُ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي! لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ نَفْسِي. وَحَتَّى إِنْ عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي لَا أَسْأَلُكَ مَرِيَمَ الَّتِي وَلَدْتَنِي!

وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ أَمْرٍ نَعْنِي إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يعني كتاب أعمالكم كقوله جل جلاله: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهُدَاءِ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ نُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢٢)» أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها كقوله عز وجل: ﴿يُنَادُوا رَبَّهُمْ يَقُولُونَ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ عَلِيمٌ﴾ «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ^(٢٣)» وَلَوْ لَوَّىٰ مُعَارَفًا^(٢٤)» ولهذا قال جل جلالته: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ أَي يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، كَقَوْلِ جَل جلاله: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ قَرَأَ الْمُتَجَرِّبِينَ مُشْفِقِينَ مِثْلَ مَا يَرَىٰ وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَاذِرُ صُغْرَةً وَلَا كِبَرًا إِلَّا أَحْصَيْنَاهُ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُوكَ أَحَدًا^(٢٥)» وقول عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢٦)» أي إِنَّا كُنَّا نَلْقَى الْحَفْظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَغَيْرُهَا تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، ثُمَّ تَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقْبَلُونَهَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ عَلَى مَا بِيَدِي الْكِتَابَةِ، مِمَّا لَمْ يَبْرُزْ لَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدَرٌ، مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ الْقِدَمَ عَلَى الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، فَلَا يَزِيدُ حَرْفًا وَلَا يُنْقِصُ حَرْفًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢٧)».

﴿قَالُوا الْيَوْمَ أَسْمَأُ وَهَمِلُوا الصَّلَاحَ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٢٨)» وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَفْعُ تَكُنَّ عَابَتِي كُلِّ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ^(٢٩)» وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ^(٣٠)» وَبَلَا لَكُمْ سَخِيكٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ^(٣١)» وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَفِيسَتْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا زُكِرْتُمُ النَّادُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ^(٣٢)» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَغْدَبْتُمْ إِبْنَ اللَّهَ هَذَا وَغَرَبْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ^(٣٣)» قُلْ لِمَنْ دَرَبَ السَّمَوَاتِ وَدَرَبَ الْأَرْضِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهِيَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٣٤)»

المجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكَبرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَسْكَنْتُهُ نَارِي»^(٣) ورواه مسلم بنحوه. وقوله تعالى: «وَمُؤَلَّفَاتُ دِينِي»^(٤) أي الذي لا يغالب ولا يمانع «الْمَكِيدُ»^(٥) في أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو. آخر تفسير سورة الجاثية والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ ١ نَزَلَ الْكِتَابُ مِنْ أَمْرِ الْغَرِيْبِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَفَتُرِي كَيْفَ يُقَسِّمُونَ أَرْضَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٤ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ لَّهُ إِنْ يَوَدَّ الْفَيْسَمُ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦

[القرآن تنزيل من الله والكون مخلوق له بالحق]

نحبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ، صلوات الله عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: «ما خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» أي لا على وجه العبث والباطل «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أي إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ» أي لا هوان عما يراهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي وسيعلمون غيب ذلك.

[الرد على المشركين]

ثم قال تعالى: «قُلْ» أي: هؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره «أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ»

نحبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى: «فَأَمَّا الشُّرَكَاءُ» أي آمنوا وعملوا الصالحات أي آمنتم قلوبهم وعملت أفعالهم الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع «يُدْعَاهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ» وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح: «وَاللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ»^(١) ول: لا هو الْقَوْلُ الْبَاطِلُ ٢٠ أي: البين الواضح. ثم قال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَكْفَرُ مِنْكُمْ فَمَنْ عَلَيْهِمْ كُفْرُهُمْ أَكْفَرُ مِنْكُمْ كُفْرُهُمْ» أي يقال ذلك تقريراً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى تنبئكم عن اتباعها، وأعرضتم عن سماعها؟ «وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ» في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ «وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا» أي إذا لكم المؤمنون ذلك «قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» أي لا نعرفها «إِنْ نَحْنُ إِلَّا أَطْلَافٌ» أي إن نتوهم وقوعها إلا نوهماً أي رجوحاً ولهذا قال: «وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ» أي مستحقين. قال الله تعالى: «وَيَذَلُّهُمْ سِحْرًا مَا عَمِلُوا» أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة «وَحَقَّ بِهِمْ» أي أحاط بهم «مَا كَانُوا يَنْتَوِيذُونَ» أي من العذاب والنكال «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَبْرِكُوا نَبْرًا» أي فلنعملوا له لأنكم لم تصدقوا به «وَأَمَّا الْكُفَّارُ الْكَارِهُنَّ» وقد ثبت في الصحيح: «أَلَمْ أَرْوُجْكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ لِي كَالْحِجْلِ وَالْإِبِلِ، وَأَنْزَلْتُكَ تَرَأْسًا وَتَرَبُّعًا؟ يَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ. يَقُولُ: أَفَلَمْ تَنْتِ أَنْتَ مُلَاحِظِي؟ يَقُولُ: لَا. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتِي»^(٢).

فقال الله تعالى: «ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ مِيثَاقَ اللَّهِ هُزُوا» أي إنساها من أنساكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم مسخرين، سخرهم وتستهزئون بها «وَعَرَّفْتُمْ كُفْرَ الْغَيْبِ الدُّنْيَا» أي خدعتكم، طمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عز وجل: «وَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا» أي من النار «وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» أي لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، ثم تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب، ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين: قال: «وَلِلَّهِ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ» أي: المالك لها وما فيها، ولهذا قال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» ثم قال جل وعلا: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» قال مجاهد: يعني السلطان أي هو العظيم

(١) فتح الباري: ٨/٤٦٠. (٢) مسلم: ٤/٢٢٧٩.

(٣) أبو داود: ٤/٣٥٠. (٤) مسلم: ٤/٢٠٢٣.

شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَي لا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هم شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتَتَوَكَّلُ بِكُتُبٍ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أَوْ أَتَنَزَّلُ مِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك. ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلُ مِنِّي﴾ أي أو علم صحيح تؤثرونه عن أحد من قبلكم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَتَنَزَّلُ مِنِّي عَلَيْهِ﴾ أو أحد ياتر علماً^(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطلش، لأنها جماد حجارة صم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ^(٢) ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^(١٠٠١)

الصحابة رضي الله عنهم: هو بدعة. لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله تعالى: ﴿وَأَذَلَّمْ يَهْدُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: كذب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: ﴿بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿إِسْمًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿لِسَائِقَا عَرِبِيَّ﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيها يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا ﴿أُولَئِكَ أَحْصَى الْجَنَّةَ خَلِيدِينَ فِيهَا جِزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم، والله أعلم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ اَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي لِي بِنِعْمَتِكَ وَأَيُّكَ يَا مَعْزُومُ السُّلَاطِينَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَلْنَا عَنْهُمْ مَا عَمِلُوا وَنَجَّوهُمْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَحْصَى الْجَنَّةَ وَعَدَّ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

[وصية الله بالوالدين]

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَٰهٗ وَآلِ يَٰهٗ وَلِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ وقوله جل جلاله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَٰهَ الْمَصِيرِ﴾ (١١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال عز وجل ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما وروى أبو داود الطيالسي عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً ولا أشرب شرباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الآية (٧). ورواه مسلم وأهل السنن إلا

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير
ابن ماجه (٣) ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي قاست بسببه في جال حم مشقة وتعباً من [وحوام] وغثيان وثقل وكَرْب، إلى غير ذلك تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقد استدلل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في نفسه ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ﴾ على أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي وصحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم. روى محمد بن إسحاق بن يسار عن [بجعة] بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له نهما ستة أشهر، فأنطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت: وما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى في ما شاء، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علي رضي الله عنه فأتاه فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسته أشهر وهل يكون ذلك، فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر قال: فقال عثمان رضي الله عنه والله ما فطنت بهذا، علي رضي الله عنه بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها قال: فقال: [بجعة] فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه. قال: وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه، الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم (٤).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر فحولين كاملين لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ

(١) مسلم: ٩٣/١. (٢) مسند الطيالسي: ٢٨.

(٣) مسلم: ١٨٧٨/٤، وأبو داود: ١٧٧/٣، وتحفة الأحوذى: ٤٨/٩، والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر، الدر المنثور: ٩/٦.

عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه **﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتُؤَدِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾** فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري ^(٢).

(طريق أخرى) روى النسائي عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه: سنة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه **﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾** الآية. فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: كذب مروان والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فُضِّصَ من لعنة الله ^(٣).

وقوله: **﴿أَتُؤَدِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾** أي: أبعت **﴿وَقَدْ خَلَيْتَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾** أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر **﴿وَهُمَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ﴾** أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: **﴿وَبِكَ أَمِينٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** قال الله تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا خَسِرِينَ﴾** ^(٤) أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة. وقوله: **﴿أُولَئِكَ﴾** بعد قوله: **﴿وَالَّذِي قَالَ﴾** دليل على ما ذكرناه من: أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث ^(٥).

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾** أي: لكل عذاب بحسب عمله **﴿وَلِيُوقَبَهُمْ أَثْمَانَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾** ^(٦) أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، درجات النار تذهب سَفَلاً ودرجات الجنة تذهب علواً ^(٧). وقوله عز وجل: **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْتَئِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾** أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المأكَل والمشارب. وتنزه

الْحَقُّ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ^(٨) أي قوي وشب وارتمج. **﴿وَبَلَغَ ثَلَاثِينَ سَنَةً﴾** أي تنهى عقله وكل فهمه وحلمه. ويقال: إنه يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين **﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾** أي المُنْسى **﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ فَقِّرَ صَلَاحًا تَرْضَاهُ﴾** أي: في المستقبل **﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾** أي نسلي وعقبتي **﴿إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** ^(٩) وهذا به إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها. قال الله عز وجل: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَدْعُوا لِيُسْخَرُوا مِنْكُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾** ^(١٠) أي تَدْعُوا لِيُسْخَرُوا مِنْكُمُ الْمُؤْمِنُونَ **﴿وَنَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾** أي هؤلاء المتصفون بما ذكرناه، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، لستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم **﴿الَّذِينَ تَنْقِبُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ مَا كَانُوا وَمَا يَخُصُّهُمْ مِنْكُمْ غَيْرُكُمْ﴾** ^(١١) أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأتاب، وهذا إذا قال تعالى: **﴿وَعَدَ الْوَصْدِيُّ إِلَىٰ مَا أَفْتَدَىٰ بِهِنَّ﴾** ^(١٢).

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتُؤَدِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ وَبِكَ أَمِينٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(١٣) **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا خَسِرِينَ﴾** ^(١٤) **﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقَبَهُمْ أَثْمَانَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾** ^(١٥) **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْتَئِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا قَالُوا لِمَ نُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾** ^(١٦) **﴿فَسَتَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَقْسَوْنَ﴾** ^(١٧)

[ذكر الأولاد العاقين ومصيرهم]

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بها وما لهم عنده من الفوز، والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: **﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾** وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقله ضعيف مردود لأن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. روى البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الجواز، استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت

(١) البيهقي: ٤٤٢/٧. (٢) فتح الباري: ٤٣٩/٨.

(٣) النسائي في الكبرى: ٤٥٨/٦.

(٤) الطبري: ١١٨/٢٢. (٥) الطبري: ١١٩/٢٢.

عنها ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم، ووبخهم وقرَّعهم: ﴿أَذْهَبَتْ طِينَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ وقال أبو جازل: ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم: ﴿أَذْهَبَتْ طِينَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوت عن جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي، والآلام الموحجة والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المُنْقَطعة، أجازنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَاهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفْسِكَ عَنَّا لَهَيْجَتِنَا قَالِنَا بَلْ نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. وَلَكِنِّي أَنْزَلْتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ أَمْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾

[قصة عاد]

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذب من قومه ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادَ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو الجبل من الرمل، قاله ابن زيد^(١). وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار، وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر^(٢). قال ابن ماجه: باب إذا دعا فليبدأ بنفسه. ثم روى عن ابن عباس رض الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُرْجَى عَادٌ وَأَخَا عَادٍ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ عَصَوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْغَةً مِثْلَ صَوْغَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾^(٤) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿٥﴾، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٦) أي: قال لهم هود ذلك فأجابهم قومه قائلين: ﴿أَجِئْنَا لِنُفْسِكَ عَنَّا لَهَيْجَتِنَا﴾ أي: لتصدنا ﴿عَنَّا لَهَيْجَتِنَا﴾، ﴿قَالِنَا بَلْ نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٦﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبت استبعاداً منهم وقوعه كقوله جلَّتْ عظمته: ﴿يَسْتَعْجِلُ الْآلِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم، إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَنْزَلْتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مُنْطَرِفٌ، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا تمجلين محتاجين إلى المطر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) أي هم العذاب الذي قلتم ﴿قَالِنَا بَلْ نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧﴾، ﴿تُدْمِرُ﴾ أي تحرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مناسير شأنه الخراب ﴿وَأَمْرُ رَبِّهَا﴾ أي ياذن الله لها في ذلك، كقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَذُرُكُمْ شَيْءٌ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّيِّحِ﴾^(٢) أي كالشيء البالي ولهذا قال عز وجل: ﴿فَأَسْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم يبق لهم بقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) أي: هذا حكم فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهوئته، إذا كان يتسم وقال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ﴾^(٤) وأخرجه^(٥) روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ» فإن كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل، وإن أمطر قال: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»^(٦).

(١) الطبري: ١٢٥/٢٢. (٢) الطبري: ١٢٤/٢٢.

(٣) ابن ماجه: ١٢٦٦/٢. (٤) أحمد: ٦٦/٦.

(٥) فتح الباري: ٤٤١/٨، ومسلم: ٦١٦/٢.

(٦) أحمد: ١٩٠/٦.

خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتادهم عليها، والله أعلم.
 ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُوتُوا فَلَمَّا فَصَىٰ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿١١﴾﴾
 قَالُوا يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ يَقُولُونَ أَجِئُوا بِآيَاتٍ مِّنَ اللَّهِ دَاعِي آلِهَةَ دَاعِي آلِهَةٍ يَغْفِر لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّئُ مِّنْ عَذَابِ آيَةٍ ﴿١٣﴾﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾﴾

[قصة استماع الجن للقرآن]

روى الإمام أحمد عن الزبير ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ ﴿١١﴾ قال لسفيان: ألبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض، تفرد به أحمد ^(٢). وروى الإمام أحمد والإمام الشَّهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة عن ابن عباس ؓ قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء؟ إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها، يتتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرk ربنا أحدًا وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإنا أوحى إليه

إنال مسلم في صحيحه عن عائشة ؓ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، بِمَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» قالت: وإذا تخيلت السماء بربوئها وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري، فعرفت ذلك عائشة ؓ، فسألته فقال رسول الله ﷺ: «لَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ رَيْبِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّخِيطٌ» ^(١) وقد ذكرنا قصة هلاك قوم بني سوري: الأعراف وهود بها أغنى عن إعادته هنا، والله

على الحمد والمنة.
 ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَفُؤَادًا عَاقِبَ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ذَكَرُوا يُحَدِّثُونَ كِتَابَتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ وَمَصَرَفًا لِّعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُم مِّن دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا لِّأَهْلِ الْإِلَهِتِ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبًا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَفُؤَادًا عَاقِبَ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُحَدِّثُونَ كِتَابَتِ اللَّهِ بِمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ^(١٥) أي: وأحاط بهم عذاب، والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون روعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، نصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، وبلدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزوة، وكذلك بحيرة ثوم لوط كانوا يمرون بها أيضًا، وقوله عز وجل: ﴿وَصَرَفْنَا إِلَيْكَ أَيُّ بَيْنَاهَا وَأَوْضَحْنَاهَا﴾ ^(١٦) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُم مِّن دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا لِّأَهْلِ الْإِلَهِتِ أَي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أَي بل ذهبوا عنهم لئلا يخرج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ﴾ أَي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ^(١٨) أَي: وافترأؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد

قوله، وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإحسان
﴿وَالْإِلَهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٠) في الأعمال فإن القرآن مشتمل على
شيتين خبر وطلب، فخيرهُ صدق وطلبه عدل، كما قال تعالى
﴿وَمَتَّ كَلِمَتَكَ لِرَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَرَبِّينَ الْحَقِّ﴾ فالهدى هو العلم النافع، ﴿وَرَبِّينَ الْحَقِّ﴾ هو
العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في
الاعتقادات ﴿وَالْإِلَهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٠) أي في العمليات ﴿يَهْدِي
أَجْمَعًا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا إلى
التقلين الجن والإنس، ولهذا قال: ﴿أَجْمَعًا دَاعِيَ اللَّهِ وَهُوَ أَمْرٌ بِهِ
وقوله تعالى: ﴿يَتَوَكَّلْ كُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ قيل: إن (من) هي
زائدة وفيه نظر، لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على
بابها للتبعية ﴿وَيُخَوِّضُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) أي ويخففكم من
عذابه الأليم، ثم قال خبراً عنهم: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَهُ
يُعَذِّبُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيط
﴿وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿أَلَمْ تَرَ
سُكُوتِي ثَمِينٌ﴾ (٢٢) وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم
بالترغيب والترهيب، ولهذا نجح في كثير منهم، وجادوا إلى
رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً، والله الحمد والمنة والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْفَظْهُنَّ
بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخَيِّتَ السَّوَاءَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٣) وهو
يُعْرِضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قُلْ
فَدَعُوا الْعَذَابَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٤) فَأَصْرَكَ مَا صَبَرُوا أُولَئِكَ
مِنَ الْأَرْسَالِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا
إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٢٥)

[دليل الحياة بعد الممات]

يقول تعالى: أولم ير هؤلاء المتكرون للبعث يوم القيام
المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْفَظْهُنَّ﴾ أي ولم يكره خلقهن بل

قول الجن (١). رواه البخاري بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه
الترمذي والنسائي في التفسير (٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو
يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾
قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله
عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِقُونَ الْقُرْآنَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٣)
إلى ﴿سُكُوتِي ثَمِينٌ﴾ (٢٢) فهذا مع الأول من رواية ابن عباس
رضي الله عنه يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه
المرّة، إنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك
وفدوا إليه أرسالاً قومًا بعد قوم وفوجًا بعد فوج.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٢) أي: رجعوا
إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله جل
وعلا: ﴿لَسَنَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِنُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٢٣) وقد استدلل بهذه الآية على أنه في الجن
نذر وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم
رسولاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾. وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُ كُفَرُوا أَنْظَعَكُمْ وَيَكْشُرُونَ
فِي الْأَسْوَاقِ﴾. وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة
والسلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فكل نبي بعثه
الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿يَتَمَشَرُ لَيْلِي وَالْإِنْسِ أَنْتَ
بَأَيْكُمُ رَسُلٌ وَنَكَمٌ﴾ فالمراد هنا مجموع الجنس فيصدق على
أحدهما. وهو الإنس كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾
(٢٤) أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم
فقال خبراً عنهم: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ مَتَانَا سَمِعْنَا كَيْتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ
مُوسَى﴾ ولم يذكر عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه
الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل
والترهيم، وهو في الحقيقة كالتميم لشرعة التوراة، فالعمدة
هو التوراة، فلهذا قالوا: ﴿أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ وهكذا قال
ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه
- عليه الصلاة والسلام - أول مرة فقال: بَخْ بَخْ! هذا
الناموس الذي كان يأتي موسى يا ليتني أكون فيها جدعاً (٤).
﴿مُضَيِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة على الأنبياء

(١) أحمد: ٢٥٢/١، ودلائل النبوة: ٢/٢٢٥.

(٢) البخاري: ٧٧٣، ٤٩٢١، مسلم: ٣٣١/١، وتحفة الأحاديث.

١٦٨/٩، والنسائي في الكبرى: ٤٩٩/٦.

(٣) الحاكم: ٤٥٦/٢.

(٤) فتح الباري: ٣٠/١ بدون "بخ بَخْ".

ءَامَنُوا اتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿١﴾

[جزاء الكفار والمؤمنين]

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وأنقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإتيان بعد بعثته ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَوْلُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جل جلاله: ﴿كَفَرْتُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم^(١). وقال مجاهد: شأنهم^(٢). وقال قتادة وابن زيد: حالهم^(٣). والكل متقارب. وقد جاء في حديث تسميت العاطس: «يُنذِرُكُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْحُكْمِ»^(٤) ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي إنهم أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُوهُمْ قُنَدُوا الزُّنَادَ وَإِنَّمَا مَنَّا بَعْدَ وَلَمَّا مَنَّا حَتَّى نَضَعُ الْحَرْبَ أُونَدًا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُنَصِّرَهُنَّ وَلَكِنْ لَبِئْسَ مَا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فَمَنْ يَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ سَبَّحَهُمْ وَيُصْلِحْ بِالْحُكْمِ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ يتأبها الذين ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُمْ وَبُنِيَتْ أَعْمَالُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ

[الامر بضرب رقاب العدو وشده]

وثاقه ثم امن أو الفداء]

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصوهم حصداً بالسيف ﴿حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُوهُمْ﴾

الإخبار لما: كوني، فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة مل على الله ووجهه، أفليس ذلك بقادر على أن يجبي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ فِي يَوْمٍ ثَلَاثِينَ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لهذا قال تعالى: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال جل جلاله مهديداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم أما هذا حق؟ أفسح هذا أنتم لا تبصرون ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي لا يسعهم إلا اعتراف ﴿قَالَ قَدْ وَقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

[أمر النبي ﷺ بالصبر]

ثم قال تبارك وتعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم. وأولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي أحزاب والشورى.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّفْسِ وَمَهْلِكِ قَبِيلِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْصَرُّونَ إِلَيْهِمْ رُبُّهُمْ﴾، ﴿كَانَتْهُمْ دَارُ بَرٍّ أَوْ عَذْرَاءٍ تَلْبَسُ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزْفَرُونَ تَلْبَسُ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّارِ يَتَعَارَفُونَ فِيهَا﴾ الآية. وقوله جل وعلا: ﴿بَلَى﴾ أي إن هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَهْدِيكُمْ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرْتُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ

(٢) الطبري: ١٥٢/٢٢.

(١) الطبري: ١٥٢/٢٢.

(٤) تحفة الأحوذى: ١١/٨.

(٣) الطبري: ١٥٢/٢٢.

أهلكتموهم قتلاً ﴿فَسُدُّوا أَوْثَاقَهُ﴾ الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم - بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة - خيرون في أمرهم، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسارهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ - ليأخذوا منهم الفداء - والتقليل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيْنِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَمْرِي حَتَّى يُفْخَخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧) ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَنَسَكَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٨).

وقوله عز وجل: ﴿حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام (١١). وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالَ» (١٧). وروى الإمام أحمد عن جابر بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني [سمعت] الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال»، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يُزِيغُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ وَيَزِيغُهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَلَا إِنَّ عَقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ السَّامُ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي تَوَاصِيهَا الْحَبِيرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٣) وهكذا رواه النسائي (٤).

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرْتُمْ﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿وَلَكِنْ يَسْتُلِوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبسراء في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١).

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة: ﴿فَتِلْكَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ آيَاتُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُغْرِقُكُمْ وَيَجْعَلُ أَيْدِيَكُمْ وَيُسَبِّحُكُمْ عَلَيْهِمْ وَتُفْسِدُ صُدُورُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥).

[فضل الشهداء]

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: ﴿وَالَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ يُسَلِّ أَعْلَانَهُمْ﴾ (١٤) أي: لن يذهبها بل يكثر وينمها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخ كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده كثير بن مرة عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحة - قال رسول الله ﷺ: «يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتًّا خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ نَفْسٍ مِنْ دُمِهِ: تُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَيَبْرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرَقِ الْكَثِيرِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَتُحْلَى حُلَّةُ الْإِيمَانِ» تفرد به أحمد رحمه الله (٥).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يُسْمَعُ الشَّهِيدُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ» ورواه أبو داود (٦) والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَيِّدِهِمْ﴾ أي إلى الجنة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١٠). وقوله عز وجل: ﴿وَيُصَلِّعُ لَكُمْ﴾ (٥) أي أمرهم وحالهم ﴿وَيُزِيلُ الْجَنَّةَ عَنْهُمْ﴾ (٦) أي عرفهم بها وهداهم إليها فمجاهد: يهدي أهلها إلى بيوتهم ومسكنهم، وحيث قسم لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقها، يستدلون عليها أحداً (٧). روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا خَلَصَ السُّيُوفُ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَنْقَاصُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَقُتِلُوا أَوْزُنَ هُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ السَّحَابَةِ أَهْدَى مِنْ بِمَنْزِلَةِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا» (٨).

[انصروا الله ينصركم]

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصْرَفُوا فِي الدَّيْنِ وَبِشَيْءٍ أَمَّاكُمْ﴾ (٧) كقوله عز وجل: ﴿وَلَنَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ﴾ (٧) فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٧) كما جاء في الحديث: «مَنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاعَهَا، ثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ»

(١) الطبري: ١٥٧/٢٢. (٢) أبو داود: ١١/٣.

(٣) أحمد: ١٠٤/٤.

(٤) النسائي: ٢١٤/٦، والنسائي في الكبرى: ٢١٨/٥.

(٥) أحمد: ٢٠٠/٤. (٦) أبو داود: ٢٥٢٢.

(٧) الطبري: ١٦٠/٢٢. (٨) البخاري: ٦٥٣٥.

إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(٣) ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَشْجُومَةٌ ۖ أَيُّ يَوْمٍ جزائهم، وقوله عز وجل: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرِيْبِهِ أَشْدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ يعني مكة ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فإذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفّر على الكافرين به في معادهم ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۖ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه فالتفت إلى مكة وقال: «أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخْرَجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكَ»^(٥) فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمة، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدحول الجاهلية، فانزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرِيْبِهِ أَشْدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾^(٦).

﴿أَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ ذُرِّيَةِ لَهُ سَوْءٌ عَلَيْهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾^(٧) مثل الجنة التي وعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِكٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ﴾^(٨).

[لا يستوي عابد الحق وعابد الهوى]

يقول تعالى: ﴿أَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ ذُرِّيَةِ لَهُ سَوْءٌ عَلَيْهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ أي على بصيرة ويقين من أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِكٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ﴾ أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَمَنْ يَتْلُو آيَاتِنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْمُنْقُذُ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ۖ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

الْآخِرَةِ﴾ ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمُ﴾^(٩) على تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعَسَّ الدُّنْيَا، تَعَسَّ عَبْدُ الدُّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَّ كَسَنٌ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَفَشَ»^(١٠) أي فلا شفاه الله عز وجل. وله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْلُ أَهْلَكْتَهُمْ ۖ﴾^(١١) أي أحبطها ظاهراً، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۖ﴾ أي لا بدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾^(١٢).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَأْنَاهُمْ عَنْهُمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْنَاءُ ۖ﴾^(١٣) ذلك بأن الله مولى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَغِيْلُوا عَلَيْهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَأَكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْجُومَةٌ لَهُمْ ۖ ﴿١٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبِهِ أَشْدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾^(١٦).

[النار للكفار والجنة للمتقين]

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني المشركين بالله المكذبين رسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَأْنَاهُمْ عَنْهُمْ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أَشْنَاءُ ۖ﴾^(١٧) ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ﴾^(١٨).

ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يجب وقال: «أنا هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبت يا عدو الله! بل أبقى الله تعالى لك ما يسووك، وإن الذين عذدت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثلكم لم أمر بها، ولم أنه عنها، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل اعل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «الْأَنْجِبِيهِمْ؟» فقالوا: يا رسول الله! وما نقول؟ قال ﷺ: قولوا: «اللَّهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «الْأَنْجِبِيهِمْ؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قالوا: «اللَّهُ مُؤَلَّانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(١٩).

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَغِيْلُوا عَلَيْهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَأَكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كآكل الأنعام خضاً وقضماً، وليس لهم همة

(١) فتح الباري: ٩٥/٦، وابن ماجه: ١٣٨٦/٢.

(٢) فتح الباري: ١٨٨/٦. (٣) فتح الباري: ٤٤٦/٩.

(٤) الطبري: ١٦٥/٢٢.

الْجَنَّةُ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٥﴾.

[صفات الجنة وأنهارها]

ثم قال عز وجل ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وقادة: يعني غير متغير ^(١). وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير متن ^(٢)، والعرب تقول: آسِنُ الماء إذا تغير ريحه، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَبَنٌ يَغَيَّرُ طَعْمَهُ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع: ﴿لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ النَّاشِئَةِ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ ^(٣)، ﴿لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفَوْنَ﴾ ^(٤)، ﴿بِضْطَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ^(٥) وفي حديث مرفوع: ﴿لَمْ يَغْبِضْهَا الرَّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ صَبْغٍ مُصَيَّغٍ﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح. وفي حديث مرفوع: ﴿لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَطُونِ النَّحْلِ﴾ ^(٦).

وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿فِي الْجَنَّةِ يَخْرُ اللَّبَنُ وَيَخْرُ السَّاءُ وَيَخْرُ الْعَسَلُ وَيَخْرُ الْخَمْرُ، ثُمَّ تُشَقُّ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ﴾ ^(١) ورواه الترمذي في صفة الجنة وقال: حسن صحيح ^(٥). وفي الصحيح: ﴿إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ﴾ ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ^(٥) وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ نَدْبَانِ﴾ ^(٥) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي مع ذلك كله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمْ هُوَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي حارًا شديد الحر لا يستطيع ﴿فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ^(١٥) أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عيادًا بالله تعالى من ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ^(١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير

يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ كُنْ جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَهُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذَلِكِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

[بيان حال المنافقين والأمر بالتوحيد والاستقفار]

يقول تعالى خبرًا عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، يفهمون منه شيئًا فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي: الساعة لا يعقلون ما قال ولا يكثر ثوب له. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ^(١٨) أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح. ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقههم الله تعالى فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَالَّذِينَ تَقَوَّيْهُمْ﴾ ^(١٩) أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿فَقَدْ أَشْرَاطُهَا﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُنذَرُونَ﴾ ^(٢٠) ﴿أَرَأَيْتِ الْآيَةَ﴾ ^(٢١) وكقوله جلست عظمة ﴿أَفَتَرَبَّيْتُ السَّاعَةَ وَأَنْشَقُّ الْقَمَرَ﴾ ^(٢٢) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ النَّارَ﴾ ^(٢٣) ﴿حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ ^(٢٤) فبعثة رسول الله من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين.

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى، والتي تليها ﴿بُعِثْتُ فِي السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ﴾ ^(٢٥) ثم قال تعالى: ﴿فَأَنْ كُنْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ ^(٢٦) أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا يفهمون ذلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنْ لَهُ الذِّكْرَى﴾ ^(٢٧) ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنْفَى لَهُمْ أَشْوَاقُ﴾ ^(٢٨)

(١) الطبري: ١٦٦/٢٢. (٢) الطبري: ١٦٧/٢٢.

(٣) روى هذا ومعنى ما قبله ابن المنذر عن سعيد بن جبير موقوفًا عليه، الدر المنثور: ٢٥/٦.

(٤) أحمد: ٥/٥. (٥) تحفة الأحوذني: ٢٨٧/٧.

(٦) فتح الباري: ١٤/٦. (٧) فتح الباري: ٥٦٠/٨.

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَظَلَّ الْمَعْشِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿١٠﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فَأَوَّلُ لَهْمٍ ﴿١١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴿١٢﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴿١٣﴾ أي جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴿١٤﴾ أي أخلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴿١٦﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿١٨﴾﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجه كثيرة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ فَلَمَّا قَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّجُمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴿١٩﴾﴾ ثم رواه البخاري بلفظ: قال رسول الله ﷺ «اقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴿٢٠﴾﴾» ورواه مسلم ^(٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَخْرَى أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ تَعَالَى عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخُرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّجْمِ» ^(٦). ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح ^(٨). وروى الإمام أحمد عن نوبان رضي الله عنه عن

ابن بجير ^(٩) وقوله عز وجل: ﴿فَاعْتَزَلْنَا اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الخبر بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك، بهذا عطف عليه قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ الْيَوْمَ وَالْغُفْرَانِ﴾ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا تَأْتِي عِلْمِي بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدْلِي، وَخَطِيئَتِي الْيَوْمَ وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي» ^(١٠). وفي الصحيح أنه كان يقول آخر الصلاة: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا سَرَفْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ عِلْمِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» ^(١١). وفي الصحيح أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ بُولُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سِتِينَ مَرَّةً» ^(١٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ ﴿٢١﴾﴾ أي علم تصرفكم في نهركم ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّيْكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رَاغِبَةٌ وَمَلُوفَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ وَمُسْتَوْدَعَةٌ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِسَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَظَلَّ الْمَعْشِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوَّلُ لَهْمٍ ﴿٢٣﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴿٢٤﴾ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢٥﴾ لَهْلُ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

[حال المؤمن الصادق ومريض القلب]

عند نزول الأمر بالجهاد

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم غمنا شرعية الجهاد، فلما نرضه الله عز وجل وأمر به تكفل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا ظُلْمُ لِمَنْ قَلِيلًا﴾ ^(٢٨) وقال عز وجل ههنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي مشتملة على حكم القتال ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِسَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

(١) فتح الباري: ٢٠٠/١١. (٢) فتح الباري: ٤٧٣/١٣.

(٣) فتح الباري: ١٠٤/١١. (٤) فتح الباري: ٤٤٣/٨.

(٥) فتح الباري: ٤٤٣/٨. (٦) مسلم: ١٩٨٠/٤.

(٧) أحمد: ١٨٥/٥. (٨) أبو داود: ٢٠٨/٥، وتحفة

الأحوذى: ٢١٣/٧، وابن ماجه: ١٤٠٨/٢.

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ النِّسَاءُ فِي الْأَجَلِ وَالزِّيَادَةِ فِي الرِّزْقِ، فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ». تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح^(١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّجْمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَجْمُهُ وَصَلَهَا»^(٣) رواه البخاري^(٤). وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «تَوَضَّعُ الرِّجْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا [حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ] الْمَغْزَلِ تَكَلِّمُ بِلِسَانِ طَلْقِي ذَلِكِ، فَتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا وَتَصِلُ مَنْ وَصَلَهَا»^(٦) وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو^(٧) يبلغ به النبي ﷺ قال: «الرَّجْمُونَ يَرْجُمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمُهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّجْمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَنَتْهُ»^(٨) وقد رواه أبو داود والترمذي، وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولوية وقال الترمذي: حسن صحيح^(٩) والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(١٠) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ^(١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ^(١٢) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ^(١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْتَخْطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَبْتَ أَعْمَلَهُمْ^(١٤)

[الأمر بتدبر القرآن]

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه ونهاياً عن الإعراض عنه فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(١٥) أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، روى ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه^(١٦) قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(١٧) فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر^(١٨) حتى وُلِّي، فاستعان به^(١٩).

[ذم الارتداد]

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾^(٢٠) أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر^(٢١) ومن

بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ^(٢٢) أي: زبسه لهم ذلك وحسنه ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾^(٢٣) أي: غرهم وخدعهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾^(٢٤) أي: ما لؤوهم وناصرهم في الباطل من الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يبطنون. ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾^(٢٥) أي: ما يسيرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله تبارك وتعالى ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴾^(٢٦) أي: كيف حالهم إذا جاءهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصبت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالنفث والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ لَمُوتٍ فِي غَمَرَاتِ اللَّوْنِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ ﴾^(٢٧) أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِأَنكُم كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ^(٢٨) ولهذا قال ههنا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْتَخْطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَبْتَ أَعْمَلَهُمْ ﴾^(٢٩).

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْجِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾^(٣٠) وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ قَلْعًا فَهُمْ يَسْمَعُونَ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ^(٣١) وَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ حَقَّ تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَبَلَّوْا أَنْفُسَكُمْ^(٣٢)

[كشف سر المنافقين]

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْجِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾^(٣٣) أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة، فبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع أضغاث

(١) أحمد: ٢٧٩/٥. (٢) أحمد: ١٦٣/٢.

(٣) فتح الباري: ٤٣٧/١٠. (٤) أحمد: ١٨٩/٢.

(٥) أحمد: ١٦٠/٢.

(٦) أبو داود: ٢٣١/٥، وتحفة الأحوزي: ٥١/٦.

(٧) الطبري: ١٨٠/٢٢.

الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢١﴾ فلما نزلت كفنا عن القول في ذلك، فكننا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها^(٢).

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية. ثم قال جلّ وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَاحِ﴾ أي: المهادنة، والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار، في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدَدكم، - ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَاحِ وَأَسْرَ الْأَعْلُونَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم - فاما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة، والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك، وقوله جلّت عظمتهم: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا والله أعلم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لُوبٌ وَلَهُوَ لَنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُزَيِّدُكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ إن يستلكموها فيخففكم تبخلوا ويخرج أضعفكم ﴿٢٤﴾ فلأنشأ هؤلاء تدعوتك لتسبغوا في سبيل الله فينصركم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه. والله الغني وأنشد الفقهاء ولت تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿٢٥﴾

[بيان حقارة الدنيا والحث على الإنفاق]

يقول تعالى تحقيرا لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لُوبٌ وَلَهُوَ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله

يوما في النفوس من الحسد والحق للسلام وأهله ثلثين بنصره. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُمُ فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد لأريناك خاصهم فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع باقين سترًا منه على خلقه، وحالًا للأمر على ظاهر السلامة بدلًا للسرائر إلى عالمها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يروى من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي حزبين هو، بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَتَبْلُغَنَّهُمْ﴾ أي: لنخبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَتَبْلُغُوا أَعْيُنَكُمْ﴾ ليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن: أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم أي: ليرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُورُوا﴾ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ﴿٢٧﴾ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢٩﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَاحِ وَأَسْرَ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾

[إحباط عمل الكفار والأمر بملاحقتهم]

غير تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر له شيئا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يشيه على سالف ما تقدم من عمله - الذي عقبه برذته يقال بعوضة - من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات. وقد روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا يضر مع الشرك عمل فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل^(١)، ثم روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ قلنا:

(١) الصلاة للمروزي: ٢/ ٦٤٥.

(٢) الصلاة للمروزي: ٢/ ٦٤٦.

عز وجل: ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَوَدُّواْ أَن تُخْلَفُواْ تَكُونُواْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلَكُم مِّنْ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال جل جلاله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيَخْفَكُمْ بِتَحَلُّواْ﴾ أي: يحرجكم تبخلوا ﴿وَيُخْرِجَ أَصْغَرَكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضعف (١).

وصدق قتادة؛ فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. وقوله تعالى: ﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ ثَلَاثُونَ لِّسْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَّخْلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَّخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ أي: عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْمُرُ الْفُقَرَاءَ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ تَتَذَكَّرُوا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

آخر تفسير سورة القتال والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

[فضل سورة الفتح]

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها. قال معاوية: لولا أي أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته (٢). أخرجه من حديث شعبة به (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيُضَرِّكَ اللَّهُ تَصْرًا عَرَبِيًّا (٣)

[سبب نزول سورة الفتح]

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده

المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام [ليقضي] عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتحاً ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وعن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية (٤). وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كسابع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فتر حناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم غضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (٥).

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كسابع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري، ففتنت غحافة أن يكون نزل في شيء، قال فإذا أنا بمناد يا عمر، قال فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال: فقال النبي ﷺ: ﴿أَنزَلَ عَلَى الْبَارِحَةِ سُورَةَ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا﴾: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ (٢) ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله (٧). وقال علي بن المديني هذا إسناد مدني جيد.

(١) عبد الرزاق: ٣/ ٢٢٤. (٢) أحمد: ١/ ٥٤.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٤٤٧، ومسلم: ١/ ٥٤٧.

(٤) الطبري: ٢٢/ ٢٠١. (٥) فتح الباري: ٧/ ٥٥٥.

(٦) أحمد: ١/ ٣١.

(٧) فتح الباري: ٨/ ٦٧٥، وتحفة الأحوذى: ٩/ ١٤٧، والنسائي

في الكبرى: ٦/ ٤٦١.

تعالى فيك، بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾
 لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ۝٥﴾
 وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّطَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
 الظَّالِمِينَ ۖ بِاللَّهِ ظَرْفُ السُّوَرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ وَلَهُ جُنُودُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

[نزول السكينة في قلوب المؤمنين]

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة،
 وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله
 عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله
 ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً
 مع إيمانهم، وقد استدلل بها البخاري وغيره من الأئمة على
 تفاضل الإيمان في القلوب، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر
 من الكافرين فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد
 خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال،
 لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة والبراهين
 الدامغة، ولهذا قال جلّت عظمته: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه حين قالوا: هنيئاً
 لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأُنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (٧) أي:
 ماكنين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم
 وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستتر
 ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾ كقوله جلّ

إلا عندهم، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله
 عنه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا
 تَرَجَعَهُ مِنْ الْحَدِيثَةِ﴾ قال النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ
 لَقَاءَ آتَةٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ﴾ ثم قرأها عليهم النبي ﷺ
 قال: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، [لقد] بين الله عز وجل ما يفعل
 فإذا ما فعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ - حتى بلغ - ﴿قُرْآنًا عَظِيمًا﴾ (١)
 حرجاه في الصحيحين (٢).

وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ
 ملي حتى ترم قدما ف قيل له: اليس قد غفر الله لك ما تقدم
 من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: ﴿أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟﴾ (٣)
 حرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود (٤).

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) أي: بيناً ظاهراً والمراد به:
 صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس
 اجتماع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر
 علم النافع والإيمان.

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا
 من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث
 صحيح في ثواب الأعمال لغيره: غفر الله له ما تقدم من ذنبه
 وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو
 لجميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر
 سواه إلا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر
 على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق
 الله تعالى [لله] وأشدّهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين
 ركب به الناقة: ﴿حَبَسَهَا حَاسِبُ الْفِيلِ﴾ ثم قال ﷺ: ﴿وَالَّذِي
 نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعْظَمُونَ بِهِ حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا
 جِئْتُهُمْ إِلَيْهِ﴾ (٥) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال
 تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
 ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴿أَبُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُزِيدُكَ مِرْطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع
 عظيم والدين القويم ﴿وَيُتِمِّتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ (٢) أي:

سبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على
 عدائك كما جاء في الحديث الصحيح: ﴿وَمَا رَأَى اللَّهُ عَبْدًا يَعْقُو
 لِأَعْرَأَ وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى﴾ (٦)
 وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله

(١) أحمد: ١٩٧/٣.

(٢) فتح الباري: ٥١٦/٧، ومسلم: ١٤١٣/٣.

(٣) أحمد: ٥٥/٤.

(٤) البخاري: ٤٨٣٦، ومسلم: ٢٨١٩، والترمذي: ٤١٢،
 والنسائي: ٢١٩/٣، وابن ماجه: ١٤١٩.

(٥) فتح الباري: ٣٨٨/٥. (٦) مسلم: ٢٠٠١/٤.

(٧) فتح الباري: ٥١٦/٧.

جزيلًا. وهذا البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قیل: ألفًا وثلاثمائة، وقیل: وأربعمائة، وقیل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة ^(٢) ورواه مسلم ^(٣). وأخرجه أيضًا عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يومئذ ألفًا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رويوا كلهم ^(٤). وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهم سهمًا من كنانته فوضعوه في يده الحديبية، فجاشت بالماء حتى كففتهم، فقيل لجابر رضي الله عنه كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفًا وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا ^(٥). وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة ^(٦).

وروى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قلت فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كانوا أربع عشرة مائة فقال رضي الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة ^(٧). قال البيهقي هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول خمس عشرة مائة ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة ^(٨).

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبيعته إلى مكة، ليلبلغ عنه إشراك قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله! إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه، نبعثه إلى أبي سفيان

وعلا: ﴿فَمَنْ دُخِيَ عَنِ الْكُفَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَرَفُ السَّوَةِ﴾ أي: يهتمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوَةِ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ثم قال عز وجل مؤكدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام ومن الكفرة والمنافقين ﴿وَلِلَّهِ جُثُوذُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيضًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ^(٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقْضِيَهُ وَنُفِيقُوهُ بِكُفْرِهِ وَآصِيَالًا ^(٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَسْمُوهُ إِجْرًا عَظِيمًا ^(١٠)

[صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم]

يقول تعالى لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب. ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقْضِيَهُ وَنُفِيقُوهُ بِكُفْرِهِ وَآصِيَالًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظموه ^(١١) ﴿وَنُقْضِيَهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَنُفِيقُوهُ﴾ أي: تسبحون الله ﴿بِكُفْرِهِ وَآصِيَالًا﴾ أي: أول النهار وآخره.

[بيعة الرضوان]

ثم قال عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم تشريفًا له وتعظيمًا وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمَوْهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيْبِعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(١٢).

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَسْمُوهُ إِجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا

(١) الطبري: ٢٢/٢٠٧. (٢) فتح الباري: ٨/٤٥١.

(٣) مسلم: ٣/١٤٨٤.

(٤) فتح الباري: ٧/٥٥٥، ومسلم: ٣/١٤٨٤.

(٥) فتح الباري: ٧/٥٥٤.

(٦) فتح الباري: ٧/٥٥٥، ومسلم: ٣/١٤٨٤.

(٧) فتح الباري: ٧/٥٠٧. (٨) دلائل النبوة: ٤/٩٧.

إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر رضي الله عنه: يا عبد الله! انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ فوجدهم يبائعون فبايع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه، فخرج فبايع^(٣) وعن جابر رضي الله عنه، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر رضي الله عنه أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بايعناه على أن لا نفر ولا نبايعه على الموت. رواه مسلم^(٤).

وروى مسلم عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لقد رأيته يوم الشجرة والنبي ﷺ يبائع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر^(٥). وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت يا أبا سلمة على أي شيء كنتم تبائعون يومئذ؟ قال: على الموت^(٦). وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيت فقال ﷺ «يَا سَلْمَةُ، أَلَا تُبَايِعُ؟» قلت: قد بايعت، قال ﷺ «أَقْبِلْ فَبَايِعْ». فدنوت فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت^(٧). وأخرجه مسلم^(٨) وكذا روى البخاري عن عباد بن غميم أنهم بايعوه على الموت^(٩).

وروى البيهقي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا تروها، فقدم رسول الله ﷺ على جباها يعني الركي، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ «بَايِعْنِي يَا سَلْمَةُ» قال: قلت: يا رسول الله! قد بايعتك في أول الناس قال ﷺ «وَأَيْضًا» قال: ورأي رسول الله ﷺ عَزَلًا فاعطاني حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس، قال ﷺ «أَلَا تُبَايِعُ يَا سَلْمَةُ؟» قال: قلت: يا رسول الله! قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال ﷺ «وَأَيْضًا» فبايعته الثالثة، فقال

سبحان قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً إلى البيت ومعظماً لحرمته. فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقبه بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعطاء قريش، فمضى عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه من فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن عرف بالبيت طفف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتسسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ المسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه «لَا تَبْرُحْ حَتَّى تُنَاجِزَ الْقَوْمَ».

وبعد رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبيعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس ولم يخل أحد من المسلمين حضرها، إلا الجذ بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً بإبطه قد صلباً إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل^(١).

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ «اللَّهُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى حَاجَةِ رَسُولِهِ» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت بيعة رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وروى البخاري عن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر وليس كذلك، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار، أن يأتي به، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبائع عند الشجرة، وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله رضي الله عنه، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبائع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر رضي الله عنه^(٢). ثم روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

(١) ابن هشام: ٣/٣٢٩، ٣٣٠. (٢) فتح الباري: ٧/٥٢١.

(٣) فتح الباري: ٧/٥٢١. (٤) مسلم: ٣/١٤٨٣.

(٥) مسلم: ١٤٨٥. (٦) فتح الباري: ٦/١٣٦.

(٧) فتح الباري: ١٣/٢١١. (٨) مسلم: ٣/١٤٨.

(٩) فتح الباري: ٦/١٣٦.

رسول الله ﷺ: «يَا سَلَمَةَ أَيْنَ حَجَفْتُكَ أَوْ دَرَفْتُكَ الَّتِي أَغْطَيْتُكَ؟» قال: قلت: يا رسول الله! لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ اللَّهُمَّ أَبْغِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي».

قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة ابن عبيد الله ﷺ أسقي فرسه وأجنبه وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض، أتيت شجرة [فكسحت] شوكةا، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين قتل ابن زُئيم فاخرطت سيفي فشدت على أولئك الأربعة، وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي ثم قلت: والذي كرم وجهه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْقُجُورِ وَلِنَا» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل: «وَمَوْءَاظُهُمْ يَبْتَغِي حَيْبُكَ عَنْ تِلْكَ الْأَعْيُنِ عَنْ ذَوْنِكُمُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» (١) الآية، وهكذا رواه مسلم نحوه أو قريباً منه (٢).

وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي عن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجين فخفي علينا مكانها، فإن كان بُيِّنْتَ لكم فأنتم أعلم (٣). وروى أبو بكر الحميدي عن جابر ﷺ قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له الجُدُّ ابن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره (٤). رواه مسلم (٥). وروى الحميدي أيضاً عن عمرو أنه سمع جابراً ﷺ قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ» قال جابر ﷺ: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة (٦). قال سفيان إنهم اختلفوا في موضعها أخرجاه (٧). وروى الإمام أحمد عن جابر ﷺ عن رسول الله

ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ بَايَعِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» وروى عبد الله بن أحمد عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمَرَارِ فَإِنَّهُ يُحِطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ» فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تباد الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبك فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم عن عبيد الله به (٨). وعن أبي الزبير أنه سمع جابراً ﷺ يقول: أخبرني أم بشر أب سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» قالت بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة ﷺ: «وَأَنْ يَنْكَرُوا وَإِرْدَاهَا» فقال النبي ﷺ: «قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثُمَّ سَجَى الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءً» (٩) رواه مسلم (١٠).

وفيه أيضاً عن جابر ﷺ قال: إن عبداً لحاطب بن أبي ثعلبة جاء يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ: «كَذَّبْتَ لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بِنَارِ الْوَحْدَانِيَّةِ» (١١) ولهذا قال تعالى في الشاء عليهم: «إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا نَكُفُّ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» كما قال عز وجل في الآية الأخرى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَسْلَمَتْهُمُ فَتَحًا وَقَرِينًا» (١٢).

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَؤُلُوْنَا فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِتْهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلٌ مِمَّنْ يَقُولُكُمْ وَأَلَّهُ شَهِيدٌ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣) بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وذكركم في قلوبكم وظننتم ظنكم الساعة

(١) دلائل النبوة: ٤/١٣٨. (٢) مسلم: ١٨٠٧.

(٣) فتح الباري: ٧/٥١٢، ومسلم: ٣/١٤٨٥.

(٤) مسند الحميدي: ٢/٥٣٧. (٥) مسلم: ٣/١٤٨٣.

(٦) مسند الحميدي: ٢/٥١٤.

(٧) فتح الباري: ٧/٥٠٧، ومسلم: ٣/١٤٨٤.

(٨) أحمد: ٣/٣٥٠. (٩) مسلم: ٤/٢١٤٤.

(١٠) مسلم: ٤/١٩٤٢. (١١) مسلم: ٤/١٩٤٢.

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مَعَاقِبَةٌ لَهُمْ مِنْ جَنْسِ ذَنْبِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحَدِيثِ بِمَغْنَمٍ خَيْرٍ وَحَدَهُمْ، لَا يَشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبْسِلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ قَالَ مجاهد وقتادة وجوير: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديث واختاره ابن جرير^(٣). ﴿قُلْ لَنْ تَسْبِقُونَا كَذَلِكَ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: وعد الله أهل الحديث قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَتَذَكَّرُوا﴾ أَي: أن نشرككم في المغنم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١٥) أَي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسَدُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأَنْ سَدِيدٌ يُغْنِيَهُمْ أَوْ يُصْلِحُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرْبُوعِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١٧)

[الإخبار بمزيد الجهاد وأنه يكون

فرقًا بين المؤمنين والمنافقين]

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد على أقوال (أحدها) أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميعًا^(٤). ورواه هشيم عن أبي بشر عنها^(٥) وبه يقول قتادة في رواية عنه^(٦) (الثاني) ثقيف. قاله الضحاك. (الثالث) بنو حنيفة. قاله جوير ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري^(٧) وروي مثله عن سعيد وعكرمة^(٨). (الرابع) هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رض، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه^(٩). وقال كعب الأجباز: هم الروم^(١٠). وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس

[العذر المكذوب ممن تخلف عن

الحديبية ووعيد الله عليه]

قال تعالى مخبرًا رسول الله ﷺ بما يعتز به المخلفون من الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم، وتركوا مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يرهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ سُبْحَنَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلٌّ فَمَنْ يَتْلُكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ﴾ أَي: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَ الله تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أترككم وضائركم وإن سبونا وناقضتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: لم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِحَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ أَيْدِي﴾ أَي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص فلف بفاق واعتقدتم أنهم يقتلون، وتستأصل شأفتهم، ساد حضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ﴾ كَقَوْلِهِمْ بَوْرًا ﴿أَي: هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد واحد^(١١). وقال قتادة: فاسدين^(١٢). وقيل: هي لغة عيان. قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَي: من لم يخلص من الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. قال تعالى: ﴿يَنْفَعِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا﴾ أَي: لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

سَمِعُوا الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَطْلَقْتُمْ إِلَيْنَا مَكَائِدَ لِنَأْخُذَهَا وَأَنْ تَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبْسِلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَسْبِقُونَا كَذَلِكَ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَمَسْبُحُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١٥)

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رض إلى مكة ليفتحوها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، فتخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابتهم،

- | | |
|---------------------------------------|---------------------|
| (١) الطبري: ٢٢/٢١٤. | (٢) الطبري: ٢٢/٢١٤. |
| (٣) الطبري: ٢٢/٢١٥. | (٤) الطبري: ٢٢/٢٢٠. |
| (٥) الطبري: ٢٢/٢٢٠. | (٦) الطبري: ٢٢/٢٢٠. |
| (٧) الطبري: ٢٢/٢٢٠. | (٨) الطبري: ٢٢/٢٢٠. |
| (٩) الطبري: ٢٢/٢١٩، والقرطبي: ١٦/٢٧٢. | |
| (١٠) الطبري: ٢٢/٢٢١. | |

والروم^(١). وعن مجاهد: هم أهل الأوثان^(٢).

وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة.

وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿نَقُولُ لَهُمْ أَوْ يَكْلَبُوكُمْ﴾ يعني شرع لكم جهادهم

وقتلهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم أو

يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ طِيعُوا﴾ أي: تستجبوا وتنفروا في

الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿تُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ

تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية حيث دعيتم

فتخلفتم ﴿يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣).

[الأعداء الشرعية في ترك

الجهاد مع الأمر بالطاعة]

ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى

والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرا أيا ما ثم

يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة

حتى يبرأ. ثم قال تبارك وتعالى مرغبا في الجهاد وطاعة الله

ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش

﴿يَعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤) في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار،

والله تعالى أعلم.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٥)

وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٦)

[البشارة بالرضا والمغانم لأهل بيعة الرضوان]

يخبر تعالى عن رضا عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ

تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفا

وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى

البخاري عن طارق أن عبد الرحمن ؓ قال: اطلقت حاجبا

فمرت يقوم يصلون فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه

الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأثبت سعيد

بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع

رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل

نسناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم

يعلموها وعلمتموها أنتم؟! فأنتم أعلم؟!^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء

والسمع والطاعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ

وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٨) وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم

من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العبد

المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد

والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا

والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ

عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٩).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ

وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(١٠) وأخرى لم تقدرها عليها قد أحاط الله بها

وَكَانَ اللَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(١١) وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَلَّ

الْأَذْبُرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي لَا

تُخَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ

أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطِينِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(١٤)

[البشارة بالمغانم الكثيرة]

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً

يَأْخُذُونَهَا﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾

يعني فتح خيبر^(١٥). وروى العوفي عن ابن عباس

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني صلح الحديبية^(١٦) ﴿وَكَفَّ أَيْدِي

النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضربونكم

لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم

الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى

حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم،

وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وإن

الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كرهه في الظاهر كما

قال عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(١٧)، أي: بسبب انقيادكم

لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ.

(١) الطبري: ٢٢/٢١٩. (٢) الدر المنثور: ٧/٥٢٠.

(٣) فتح الباري: ٧/٥١٢. (٤) الطبري: ٢٢/٢٣٠.

(٥) الطبري: ٢٢/٢٣٠.

الأسارى، فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم فقال: «أَرْسَلُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَذْلُ الْفُجُورِ وَثَنًا». قال وفي ذلك أنزل الله عز وجل: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَدَّ بِكُمْ عَنْهُمْ» الآية. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَدَّ بِكُمْ عَنْهُمْ يَطْعَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» (١) ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سنيهما (٢).

«هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْأَعْدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (٣) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (٤)

[من مصالِح صلح الحديبية مع كون

المؤمنين أصحاب الحق والغلبة]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ «هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: هم الكفار دون غيرهم «وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أي: وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر «وَالْأَعْدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ» أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وقوله عز وجل: «وَلَوْلَا

[البشارة بجميع الفتوحات إلى يوم القيامة]

قوله تبارك وتعالى: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» أي: والله على كل شيء قدير (١) أي: وغنمة أخرى وفتحاً من معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم لحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يتصور، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنمة ما المراد بها قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي خيبر (٢). وهذا على قوله في قوله عز وجل: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» أي: إنها صلح الحديبية، قاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن سلم (٣) وقال قتادة: هي مكة واختاره ابن جرير (٤). وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم (٥). وروى داود الطيالسي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم (٦).

لوقال كفار مكة بالحديبية لفرأوا ولم يصمدوا]

وقوله تعالى: «وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ أَلْبَسْتُمْ لَاجِدُونَ» (١) يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين، لئلا ينجسهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين منهم، ولا يهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال تبارك وتعالى: «سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدْلاً» (٢) أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل كفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على كفر ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بالولائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله سبحانه وتعالى: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَدَّ بِكُمْ عَنْهُمْ يَطْعَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» (١) هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف يدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف يدي المؤمنين عن المشركين فلم يقتلواهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين جاؤوا بأولئك السبعين

(١) الطبري: ٢٢٠ / ٢٢.

(٢) الطبري: ٢٢ / ٢٣٣، ٢٣٤. (٣) الطبري: ٢٢ / ٢٣٤.

(٤) الطبري: ٢٢ / ٢٣٣. (٥) الطبري: ٢٢ / ٢٣٣.

(٦) عند الطبري بهذا الطريق قال: فارس والروم وعن مجاهد:

فافتحوا حتى اليوم: ٢٢ / ٢٣٣.

(٧) أحمد: ١٢٢ / ٣.

(٨) مسلم: ٣ / ١٤٤٢، وأبو داود: ٣ / ١٣٧، وتحفة الأحوذ:

١٤٩ / ٩، والنسائي في الكبرى: ٦ / ٤٦٤.

رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴿١﴾ أَي: بين أظهرهم ممن يكتفون إيمانهم، ويخفيه عنهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبذنتم خضراءهم ولكن بين أفتانهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل. ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَاءٌ﴾ أَي: إثم وغرامة ﴿بَعَثَ عَلَيْهِ لَيْدَخٌ لِلَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، ويرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ تَرَكْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ﴾ ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٢﴾ أَي: لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

وقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْبَنِيِّ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.

قال مجاهد: كلمة التقوى الإخلاص ^(١). وقال عطاء بن أبي رباح: هي: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» ^(٢) وقاله يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

[وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة]

الحديبية وقصة الصلح

روى البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب الشروط عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينا له من خزاعة وسار، حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتُرُونَ أَنْ نَوَيْلَ عَلَيَّ عِيَالُهُمْ وَذَرَارِيُّ هَؤُلَاءِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوَنَا عَنِ الْبَيْتِ؟» وفي لفظ: «[أَتُرُونَ أَنْ نَوَيْلَ عَلَيَّ ذَرَارِيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَخْزُونِينَ]» وفي لفظ: «فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مَخْزُونِينَ، وَإِنْ نَجَّوْا يَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ

عَزَّ وَجَلَّ. أَمْ تُرَوْنَ أَنْ نُوْثِمَ الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلَانَهُ».

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله! خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عن قاتلنا، وفي لفظ: فقال أبو بكر ﷺ: الله ورسوله أعلم، إننا جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلنا، فقال النبي ﷺ: «فَرَوْحُوا إِذَنْ» وفي لفظ: «فَامْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقرة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ مَا يَخْلُقُ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» ثم قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يَعْظُمُونَ فِيهَا خُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا». ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على تمديد قليل الماء يترصده الناس تبرصاً، فلم يلبث الناس حتى تزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه ب فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيينة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي بركتكم [أعداد] مياه الحديبية، معهم العود المطافيل وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَكَّتْهُمْ الْحَرْبُ، وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُوا، فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَبَّوْا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقَاتِلُهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْقَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيْتَنِي دَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول.

سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله رسول الله ﷺ عروة بن مسعود فقال: أي قوم أستم بالوالد؟ قالوا: قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ لا، قال: أستم تعلمون أي استغفرت أهل عكاظ، فلما خرجوا علي جنتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني قالوا: الله، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «هَذَا مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَقَالَ عُرْوَةُ بَعْدَ ذَلِكَ: أَيُّكُمْ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتُ [أَمْرًا] قَوْمَكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكِ الْآخَرَىٰ فِلَانِي وَاللَّهِ رَأَىٰ وَجْهَهَا، وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا بِعُرْوَةٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: امْصَصْ بَظَرِ اللَّاتِ أَنْحَنَ وَرَدَعَهُ؟ قَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالَ: قَالُوا أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا بَدَىٰ نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُ [كَانَتْ] لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا بِحَبْلِكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَلِمًا كَلِمَةً أَخَذَ بِحَبْلِهِ وَالْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ السَّيْفِ وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ، وَكَلِمًا أَهْوَىٰ عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَىٰ لَحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرْبَ يَدِهِ بِنَعْلِ السَّيْفِ وَقَالَ: أَخْرِيكَ عَنْ لَحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ وَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عُرْوَةُ بْنُ شُعْبَةَ. قَالَ: أَيُّ عُذْرٍ، أَلَسْتُ أَسْعَىٰ فِي عُذْرَتِكَ؟ قَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ﷺ: صَحَبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ أَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقُلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا مضوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، قال النبي ﷺ: «هَذَا قُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُذْنَ فَابْعَثُوا لَهُ». فبعثت واستقبله الناس بلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي هؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هَذَا يَكْرَزُ وَهُوَ رَجُلٌ قَاجِرٌ» فجعل يكلم النبي ﷺ فيبين ما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا، فدعا النبي ﷺ بعلي ﷺ وقال: «اُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثم قال: «هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال [له] النبي ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اُكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» قال الزهري: وذلك لقوله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِنَّا هَا» فقال له النبي ﷺ: «عَلَىٰ أَنْ تَحْلُلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا ردذته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي. فقال ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ» قال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبدًا، فقال النبي ﷺ: «فَاجِزْ لِي» قال: ما أنا بمجيز ذلك لك قال: «بَلَىٰ فَاَفْعَلْ» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزأنا لك. قال أبو جندل:

إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله حين رآه: «لَقَدْ رَأَى مِنْهُ ذُعْرًا» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ وَاللهَ صَاحِبِي وَلَوْ لَمَقْتُول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله! قد والله أوفى ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «وَيْلَ أُمِّهِ وَسِعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ».

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى إلى سيف البحر قال: وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحقه بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمر بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوه وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تأسفًا والرحم لما أرسل إليهم: فمن أتاها منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله عز وجل: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّخَذَ لَكُمْ مِصْرًا وَمَكَةَ» - حتى بلغ - «حِمَّةَ الْمَدِينَةِ» وكانت حِمَّتُهُمْ أنهم لم يقرأوا أنه رسول الله، ولم يقرأوا باسم الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت (١). هكذا سأل البخاري ههنا، وقد أخرجه في التفسير (٢) وفي عمدة الحديبية (٣) وفي الحج وغير ذلك (٤) والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخاري في التفسير عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يذهبون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب ﷺ: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسهم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر ﷺ فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: فسيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب! إلى رسول الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا» فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا، فزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضًا في مواضع آخر ومسلم والنسائي من طرق آخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة عن سهل

أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله عز وجل. قال عمر ﷺ: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: أأست نبي الله حقًا؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي» قلت: أولست كنت نحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: «بلى» فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟. قلت: لا. قال ﷺ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يصعب ربه، وهو ناصرهم فاستمسك بعززه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتية العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتية وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر ﷺ: فعملت لذلك أعمالًا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قُومُوا فَأَنْخَرُوا ثُمَّ اخْلُقُوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة ﷺ، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة ﷺ: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ» حتى بلغ «يَصِمْنَ الْكُفْرَ» فطلق عمر ﷺ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداها معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فزلا يأكلون من تمرهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت. فقال أبو بصير: أرفي أنظر

(١) فتح الباري: ٣٨٨/٥. (٢) فتح الباري: ٤٥١/٨.

(٣) فتح الباري: ٥١٨/٧. (٤) فتح الباري: ١٣٤/٣.

أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيها قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك أتبه ومطوف به» وهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضًا حذو القذة بالقذة ^(٧) ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَفَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء. وقوله عز وجل: ﴿ءَاْمِنْتَ﴾ أي في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَقِّقِينَ رُؤْيَاكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَقِّقِينَ» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَقِّقِينَ» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَقِّقِينَ» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ الْمُحَقِّقِينَ» في الثالثة أو الرابعة ^(٨). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَخَافُوكَ﴾ أثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة. فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهد بها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جمعهم بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ^(٩)، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي،

خيف به، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس! اتهموا الرأي فلقد ي يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ لردته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ إلى الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه ^(١).

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: إن قريشا صالحوا النبي وفيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب [ما نعرف] باسمك اللهم ﷺ: «اكتب مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ» قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال ﷺ: «اكتب مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ» واشتروا على النبي أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه بنا، فقال: يا رسول الله! أنكتب هذا؟ قال ﷺ: «نعم إنه مني ما إليهم فأبعده الله» ^(٢) رواه مسلم ^(٣).

روى أحمد أيضًا عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما خرجت من حديبية اعتزلوا فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صلح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: «اكتب يا علي! هذا ما صالح به محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك قال رسول الله ﷺ: «امض يا علي! اللهم إنيك تعلم أني رسولك، امض يا علي! واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي وقد مح نفسه ولم يكن يرد ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم ^(٤) رواه أبو داود بنحوه ^(٥) وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه أن حجر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي بكر فلما صدت عن البيت حنت كما نحن إلى أولادها ^(٦).

لَقَدْ صَدَفَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَاْمِنْتَ مُحَقِّقِينَ رُؤْيَاكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُوكَ عَلَيْهِمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ^(٧) هُوَ نَبِيُّكُمْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ^(٨)

[بيان صدق رؤيا النبي ﷺ]

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بها فآخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام حديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، لما وقع ما وقع من قضية الصلح، ورجعوا عامهم ذلك على

(١) فتح الباري: ٤٥١/٨. (٢) أحمد: ٢٦٨/٣.

(٣) مسلم: ١٤١١/٣. (٤) أحمد: ٣٤٢/١.

(٥) أبو داود: ٣١٧/٣. (٦) أحمد: ٣١٤/١.

(٧) فتح الباري: ٣٩٠/٥.

(٨) فتح الباري: ٦٥٦/٣، ومسلم: ٩٤٦/٢.

(٩) الطبري: ٢٥٩/٢٢.

قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيـل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مُعَمَّدة في قُرْبها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: «لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَى يَأْجُجٍ». فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظا وحنقا. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله يقودها وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينه

باسم الذي محمد رسوله

خلّوا بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على ثأويله

كما ضربناكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويُزيل الخليل عن خليله

قد أنزل الرحمن في تنزيله

في صُحُف تتلى على رسوله

بأن خير القتل في سبيله

بما رب إني مؤمن بـقـيـلـه

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

وروى أحمد عن ابن عباس ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءا،

فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شرًا، وجلس المشركون من الناحية التي شر الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدكم قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركب حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرمي الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. فقال المشركون: أمروا الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من ذلك وكذا^(١) أخرجاه في الصحيحين^(٢).

وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ صبيحة رابعة يعني ربي ذى القعدة، فقال المشركون إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم وروى البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: لما قدم النبي ﷺ الذي استأمن قال: «ارملوا»، ليري المشركين قوتهم والمشركين من قبل قُتَيْبَعَانَ^(٣)، وأيضًا عن ابن عباس ﷺ قال: سعى المشركون بالبيت وبالصفاء والمروة ليري المشركون قوته^(٤) وروى البخاري أيضًا عن ابن عمر ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحل رأسه بالحديبية وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتبر من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاث أموره أن يخرج فخرج^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَمِمَّ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَةً قَرِيبًا﴾^(٦) أي فعلم الله عز وجل من الخير والمصلحة صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلم أنتم ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخولكم السنة وعدمتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحة قريبا، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

[البشارة بغلبة المسلمين على العالم]

ثم قال تبارك وتعالى مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول

(١) أحمد: ١/ ٢٩٤.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٥٨١، ومسلم: ٢/ ٩٢٣.

(٣) فتح الباري: ٣/ ٥٤٨. (٤) فتح الباري: ٧/ ٥٨١.

(٥) فتح الباري: ٧/ ٥٨١. (٦) فتح الباري: ٧/ ٥٧١.

أَكْبَرُ ﴿ وَقَوْلُهُ جَلَّالَهُ: ﴿سَيِّئَاتُهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ آثَرِ
السُّجُودِ﴾ قَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَيِّئَاتُهُمْ
فِي وَجْهِهِمْ يَعْنِي السَّمْتَ الْحَسَنَ ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ
وَاحِدٍ: يَعْنِي الْخَشُوعَ وَالتَّوَاضُعَ ^(٤). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ
لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ وَضِيَاءٌ فِي الْوَجْهِ، وَسَعَةٌ فِي الرِّزْقِ
وَحِمَّةٌ فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسْرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا
اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
«إِنَّ الْمُهْذِيَّ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالْإِقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ
خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ» ^(٥) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ^(٦)،
فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خَلَصَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسَنَتْ أَعْمَالُهُمْ فَكُلٌّ مِنْ نَظَرٍ
إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدِيهِمْ. وَقَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَّغْنِي أَنْ
النَّصَارَى كَانُوا إِذَا رَأَوْا الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ
يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَهْؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنَ الْخَوَارِيزِيِّينَ فِيمَا بَلَّغْنَا، وَصَدُقُوا فِي
ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَعْظَمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمَقْدَمَةِ، وَأَعْظَمُهَا
وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
بَذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُنَادِلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى هُنَا: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» ثُمَّ قَالَ: «وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ كَرَنْجٍ أَخْرَجَ شَطْلُهُ» أَي: فَرَاخُهُ «فَتَارَؤُهُ» أَي: شَدَهُ
«فَاسْتَقْلَطَ» أَي: شَبَّ وَطَالَ «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» يُعْجِبُ
الزَّرْعَ أَي: فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ
وَنَصَرُوهُ، فَهَمَّ مَعَهُ كَالشَّطْرِ مَعَ الزَّرْعِ «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَرَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فِي رِوَايَةِ
عَنْهُ، بِتَكْفِيرِ الرُّوَافِضِ الَّذِينَ يَغْضُونَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ:
لَأَنْهُمْ يَغْضُونَهُمْ وَمِنْ غَاظِ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ،
وَوَافِقُهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ
الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِمَسَاوِيهِمْ كَثِيرَةٌ،
وَيَكْفِيهِمْ ثَنَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَا عَنْهُمْ: ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ» «مَغْفِرَةً» أَي: لِدُنُوبِهِمْ
وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَصَدَقَ لَا يَخْلِفُ وَلَا يَبْدُلُ، وَكُلٌّ مِنْ اقْتَضَى

بِلِ عَدُوِّهِ، وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ: ﴿هُوَ الَّذِي تَزَكَّى أَوْسَلَ
بِرَّوْهُ بِالْمُهْذِيَّ وَبِرَّوْنِ الْحَقِّ﴾ أَي: بِالسَّعْيِ الْعَمَلِ وَالنَّافِعِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ،
بِالسَّعْيِ الشَّرْعِيِّ صَحِيحٍ، وَالْعَمَلِ الشَّرْعِيِّ مَقْبُولٍ،
بِإِجَارَاتِهَا حَقًّا وَإِنْشَاءَاتِهَا عَدْلًا «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» أَي:
عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، مِنْ سَائِرِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ،
يُؤْمِنُونَ وَمُشْرِكِينَ «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» ^(٧) أَي: أَنَّهُ
يُؤْمِنُ بِهِ وَهُوَ نَاصِرُهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكُوعًا سَاجِدًا يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّئَاتُهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ
آثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَنْجٍ أَخْرَجَ
شَطْلُهُ فَتَارَؤُهُ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّرْعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا» ^(٨)

[صفات المؤمنين]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ
قَالَ: «يُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى
كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ، ثُمَّ ثَنَى بِالنَّسَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
قَالَ: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ» كَمَا قَالَ
عَزَّ وَجَلَّ: «فَتَوَقَّ يَا أَيُّهَا اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِنْهُمْ وَيُحْيِيهِمْ أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
بِرٌّ عَلَى الْكَافِرِينَ» وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ
شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكُفَّارِ، وَحَيًّا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ، غَضُوبًا عُبُوسًا
لِوَجْهِ الْكَافِرِ، ضَحُوكًا بِشَوْشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ
نَعَالَى: «يَتَابِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَاتَّبَعُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْكُفَّارِ
لِيُجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي
تَوَاقُعِهِمْ وَتَرَاهِمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ
تَلَفَّتْ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُزْنِ وَالسَّهْمِ» ^(٩) وَقَالَ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَتِيمَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ ﷺ بَيْنَ
أَصَابِعِهِ ^(١٠)، كَلَّا الْحَدِيثَيْنِ فِي الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «تَرَاهُمْ رُكُوعًا سَاجِدًا يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا» وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ خَيْرُ
تَعَامُلٍ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِحْتِسَابِ
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى فَضْلِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَعَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ. وَرِضَا تَعَالَى عَنْهُمْ،
وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ

(١) مسلم: ١٩٩٩/٤. (٢) فتح الباري: ١١٩/٥.

(٣) الطبري: ٢٦٣/٢٢. (٤) الطبري: ٢٦٣/٢٢.

(٥) أحمد: ٢٩٦/١. (٦) أبو داود: ١٣٦/٥.

أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَذْرَكَ مَدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَةً» ^(١). آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُوا إِلَهَ اللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

[النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله،

والأمر بتعظيمه والتأدب معه]

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم: «لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ^(٢). وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا، لو صح كذا، فكره الله تعالى ذلك ^(٣). وتقدم فيه «وَأَقْرَأُوا اللَّهَ» أي: فيما أمركم به «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أي لأقوالكم «عَلِمٌ» بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم. وروى البخاري عن أبي مليكة، قال: كاد الحيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهم رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم،

فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخى بني نجاش، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١) قال ابن الزبير رضي الله عنه فيما كان عمر رضي الله عنه يُسَمِعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر رضي الله عنه ^(٤). انفرد به دون مسلم.

وفي رواية للبخاري عنه أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، الحديث ^(٥). وهكذا رواه هذا منفرداً به أيضاً.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ انقصد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شاك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» نفرد به البخاري من هذا الوجه ^(٦).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: «وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (٢) وكان ثابت بن قيس بن الشساس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار حبط عملي، وجلس في أهله حزناً ففقد رسول الله ﷺ فأنطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم البيامة كان فينا بعض الانكشاف

(١) مسلم: ٤/١٩٦٧. (٢) الطبري: ٢٢/٢٧٥.

(٣) الطبري: ٢٢/٢٧٦. (٤) فتح الباري: ٨/٤٥٤.

(٥) فتح الباري: ٨/٤٥٧. (٦) فتح الباري: ٨/٤٥٤.

عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه، أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه فقال: يا رسول الله إن حدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال ﷺ: «ذَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» ^(٣).

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۚ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولٌ ۚ اللَّهُ لَؤْيُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَرَبُّهُ فِي ظُهُورِهِمْ ۚ ذَكَرُوا الْيَوْمَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الزَّائِدُونَ ۚ﴾ ^(٧) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(٨).

[الأمر بالتثبت إن جاء فاسق بنبأ]

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحاط له لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اتقى وراءه، وقد نبى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقد روي في سبب نزول هذه الآية قصة من طرق من أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن أبي ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها، قال الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه: قدمت على رسول الله فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به. ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله! أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته. وترسل إلي يا رسول الله رسولا إيان كذا وكذا ليأتيك بها جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة من استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول لم يأت به وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه: فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسول له ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطة، فانطلقوا بنا تأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من

ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحط ولبس كفته فقال: نعدون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل ﷺ ^(١).

من نبى عن الجهر له بالقول ما يجهر الرجل لمخاطبه ممن يبل مخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بِنِسْبِهِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أَن تَحِطُّ أَعْمَالُكُمْ وَأَن تَشْعُرُونَ﴾ ^(١) إنما هييناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه فلا يدري كما جاء في الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَكَلِّمُ كَلِمَةً مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَكْتَسِبُ لَهُ بِهَا نَارًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَتَوَيَّ بِهَا فِي النَّارِ أَبَدًا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ^(٢) ثم نبى الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، ورغب فيه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَمْرَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أحلصها ما جعلها أهلاً ومحلاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٣) وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مجاهد قال: كتب إلي يا أمير المؤمنين! رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها فصل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ سَخَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَكَ مِنْ وَرَثَةِ الْحَبْرَةِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾ ^(٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^(٦).

[ذم من ينادي النبي ﷺ من وراء الحجرات]

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجنالاف الأعراب فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾ ^(١) ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكن لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﷻ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^(٥) وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيها أورده غير واحد. روى الإمام أحمد

(٢) فتح الباري: ١١/٣١٤.

(١) أحمد: ٣/١٣٧.

(٣) أحمد: ٣/٤٨٨.

الزكاة، فلما سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي: خاف، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث ﷺ وأتى الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعه الزكاة وأردت قتله. قال ﷺ: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله قال: «مَنَعْتُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتُ قَتْلَ رَسُولِي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله تعالى ورسوله. قال فنزلت الحجرات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا جَاءَكُمْ قَائِقُ يَمَا» إلى قوله: «حَكِيمٌ» (٨) ورواه ابن أبي حاتم والطبراني (١).

[حكم النبي ﷺ هو الأصلح]

وقوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتادبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أنتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك وتعالى: «الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ثم بين أن رأيهم سخيף بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِلْكُمْ إِلَىٰ لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» (٧) وقوله عز وجل: «وَلَا يَكُنْ اللَّهُ جَبِّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَرَيْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ» أي: حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

[الفرق بين الإسلام والإيمان]

«وَكُذِّبَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ» أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار والعصيان، وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة، وقوله تعالى: «أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» (٧) أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

روى الإمام أحمد عن أبي رفاعة الزرقعي عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوْأَوْا خَيْرَ أَتَيْتُ عَلَىٰ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» فصاروا خلفه صفوفاً فقال «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَائِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ قَبَضَتْ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّكَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ. اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمَقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنِ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِدُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَنَا. اللَّهُمَّ حَبِّبِ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَرَيْتَهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَكَّلْ عَلَىٰ مُسْلِمِينَ وَأَخِيْنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ عَزِّيزًا وَخَرَابًا وَلَا مَقْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رَسُولَكَ وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رَجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ» (٣). ورواه النسائي في السنن والبيهقي في الشعب ثم قال: «فَضَّلَا نَ الْوَيْعَةَ» أي: هذا العطلة الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدن الله ﷻ عَلَيْهِ حَكِيمٌ (٨) أي عليهم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

«وَلَا تَلْفُتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَدَلَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَدَلَّوْا إِلَىٰ بَيْنِهِ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَتَلَا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (١٠) «الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (١١)

[الأمر بالإصلاح بين المقاتلين المؤمنين،

وبقتال الفئة الباغية]

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: «وَلَا تَلْفُتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا»

(١) أحمد: ٢٧٩/٤.

(٢) الطبري: ٢٢/٢٧٤ وتسمية الوليد بن عقبة في هذه الفسقة وهم؛ لأن القصة وقعت بعد غزوة بني المصطلق قريب وكانت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ بينما أسلم الوليد بن عقبة بعد الفتح أي في رمضان سنة ٥٨هـ

(٣) أحمد: ٣/٤٢٤. (٤) النسائي في الكبرى: ١٥٦/٦.

فِي عَوْنِ أَخِيهِ^(٧) وفي الصحيح أيضًا: «إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ وَلَكَ بِعَيْنِهِ»^(٨) والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاضِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا أَشْكَى مِنْهُ عُضْوٌ نَدَّاهُ لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِأَلْحَمَى وَالسَّهَرِ»^(٩) وفي الصحيح أيضًا: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمُ بَعْضًا» وشبك بين أصابعه^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفتنتين المقتلتين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَصْحَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَفْسَدُ مِنْ فُسَادٍ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسُنُ الْفُشُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١١)

[النهى عن السخرية والاحتقار]

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْكِبْرُ يَبْغُرُ الْحَقَّ وَغَمَضُ النَّاسِ - ويروى - وَغَمَضُ النَّاسِ»^(١٢) والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَصْحَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَفْسَدُ مِنْ فُسَادٍ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ فنص على نهى الرجال، وعطف بنهي النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والمجاز اللباز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُنْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُزْمَةٌ﴾^(١٣) والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال عز وجل: ﴿هَازِلٌ مُشَامِلٌ يَبْسِمْ﴾^(١٤) أي: يحتقر الناس ويهزهم طاغيًا عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كما قال:

لَا كَلِمَتِهِمْ مَوْمِنِينَ مَعَ الْاِقْتَالِ، وَهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ أَحْسَنُ لَهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ، لَا كَمَا لَهُ الْخَوَارِجُ وَمِنْ تَابِعِهِمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، وَهَكَذَا ثَبَتَ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ يَوْمًا، وَمَعَهُ عَلَى الْمَنبَرِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً، وَإِلَى النَّاسِ أُخْرَى وَيَقُولُ: خَيْرُكُمْ بَيْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فَتَنَيْنِ يَجْرُؤُ عَيْنَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(١٥). فكان كما قال ﷺ، أصالح الله بيني وبينه بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، وأصالحات المهولة. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغْتُمْ لِإِخْوَتِهِمْ عَلَى الْأَرْضِ فَحِيلُوا إِلَى تَبِيعِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه كما ثبت في الصحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قلت: يا رسول الله! هذا نصرته مظلومًا، فكيف نصر ظالمًا؟ قال ﷺ: «تَمْتَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُكَ لِإِيَّاهُ»^(١٦).

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال شغل والنعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينها^(١٧)، وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزورها، فحبسها زوجها وجعلها في علية له: لا يدخل عليها أحد من أهلها، وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها فدخلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل كان قد خرج، فاستعان أهل رجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا فاجتلبوا بالنعال فزلت فيهم هذه الآية فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله تعالى^(١٨). وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ قَاصِدُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١٩) أي: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم من القسط وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢٠).

وروي ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي - الْآخِرَةِ أَوْ الْجَنَّةِ - عَلَى نَابِرٍ مِنْ لَوْلُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا» رواه النسائي^(٢١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ»^(٢٢) وفي الصحيح: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ

(١) فتح الباري: ٣٦١/٥. (٢) فتح الباري: ١١٨/٥.

(٣) الدر المنثور: ٥٦٠/٧. (٤) الطبري: ٢٩٤/٢٢.

(٥) النسائي في الكبرى: ٥٩١٧. (٦) فتح الباري: ١١٦/٥.

(٧) مسلم: ٢٠٧٤/٤. (٨) مسلم: ٢٠٩٤/٤.

(٩) مسلم: ١٩٩٩/٤. (١٠) فتح الباري: ١١٩/٥.

(١١) مسلم: ٩٣/١.

تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴿١﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما نلت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَغْتَابُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابُرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» (٢) وقد الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء، والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يسمع عمل أبايهم، والتدابير: الصرم، رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمُ بَعْضًا﴾ فيه نهي عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَّتَهُ» (٣) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح (٤). وقد ورد في الغيبة الزجر الأكيد، ولهذا نسبها

تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما نلت عز وجل: «يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: كما تكرهون هذا طبعًا فأكروهوا ذاك شرعًا فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبته: «كَالْكَلْبِ يَفِيءُ ثُمَّ يَرْجِعُ فِي فَيْئِهِ» وقد قال: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ» (٥) وثبت في الصحيح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» (٦).

وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِزُّهُ وَدَمُهُ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْجُرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» (٧) ورواه الترمذي وقال: حسن غريب (٨).

- (١) أحمد: ٤/٤٦٠. (٢) أبو داود: ٥/٢٤٦.
(٣) أخرجه أحمد في الزهد، الدر المشور: ٦/٩٩.
(٤) الموطأ: ٢/٩٠٧. (٥) فتح الباري: ١٠/٤٩٩.
(٦) مسلم: ٤/١٩٨٣، وتحفة الأحوذى: ٦/٦٤.
(٧) فتح الباري: ١٠/٤٩٦. (٨) أبو داود: ٥/١٩١.
(٩) تحفة الأحوذى: ٦/٦٣. (١٠) فتح الباري: ٥/٢٧٨.
(١١) فتح الباري: ٣/٦٧٠، ومسلم: ٣/١٣٠٦، وتحفة الأحوذى: ٨/٤٨١، وأحمد: ١/٢٣٠.
(١٢) أبو داود: ٥/١٩٥. (١٣) تحفة الأحوذى: ٦/٥٤.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضهم بعضًا.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» أي لا يطعن بعضهم على بعض، وقوله تعالى: «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» أي لا تدعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبي جبريرة بن الضحاك، قال فينا نزلت في بني سلمة «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» قال: قدم رسول الله المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحدًا منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله! إنه يغضب من هذا، فنزلت: «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» (١) ورواه أبو داود (٢). وقوله جبل وعلا: «يَسْأَلُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» أي بسئ الصفه والاسم الفسوق. وهو التنازع بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه «وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ» أي: من هذا «فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤)

[النهى عن الظن]

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجنب كثير منه احتياطاً. وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً (٥).

وروى مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِسَانُكُمْ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَغْتَابُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابُرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» (٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود (٧).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابُرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» رواه مسلم والترمذي وصححه (٨). «وَلَا تَجَسَّسُوا» أي: على بعضكم بعضاً والتجسس البحث غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال: «يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَصَحَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا

أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعوائل والأفخاذ وغير ذلك، وقيل: المراد بالشعوب: بطون العجم، وبالقبايل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل، وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب الأشباه لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القصص والأسم» في معرفة أنساب العرب والعجم» فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليها السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحترار بعض الناس بعضاً، منها على تساويهم في البشرية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته. وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ وكما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا أي من قبيلة كذا وكذا^(١). وقال سفيان الثوري: كانت حير يتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز يتسبون إلى قبائلها.

[الكرم بالتقوى]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ. روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ بْنُيَّ اللَّهُ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا قَهَّوْا»^(٢) وقد رواه البخاري في غير موضع^(٣) ورواه النسائي في التفسير^(٤).

(حديث آخر) روى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٥) ورواه ابن ماجه^(٦).

(١) مسند أبي يعلى: ٥٢٤/٦. (٢) أحمد: ٣/٣٥١.

(٣) الطبري: ٣١٢/٢٢. (٤) فتح الباري: ٨/٢١٢.

(٥) فتح الباري: ٦/٤٧٧، ٤٨١.

(٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣٦٧. (٧) مسلم: ٤/١٩٨٧.

(٨) ابن ماجه: ٢/١٣٨٨.

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن معاذاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد زينت، فأعرض عنه حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: «زَيْتٌ؟» قال: نعم. قال: «وَتَذَرِي مَا الزَّيْنُ؟» قال: نعم أتيت بها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؟» قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَدْخَلْتُ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغِيْبُ الْمَيْلُ فِي الْكُحْلِ وَالرَّشَاءُ فِي الْبَيْتْرِ؟» قال: نعم يا رسول الله! قال: فأمر برجمه، فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ أَنْزِلَا فَكَلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ» قال: غفر الله لك يا رسول الله! وهل يؤكل هذا؟! قال: «إِنَّمَا يَلْتَمِسُ مِنْ أَخِيكُمْ أَنْفًا أَشَدَّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُ إِنْ لَقِيَ أَتَهَارَ الْجَنَّةُ يَنْفُوسُ فِيهَا»^(١). إسناده صحيح.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة متنة. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَذَرُونَ مَا هَذِهِ الرَّيْحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ»^(٢).

[طريقة توبة المغتاب والنمام]

نوله عز وجل: ﴿وَالْقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه لراغبه في ذلك واخشوا منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) أي: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يطلع بمن ذلك ويعزم على أن لا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا علمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته؛ لتكون تلك بتلك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(٤) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

[كل الناس بنو آدم وحواء]

يقول تعالى خبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً وهي

(حديث آخر) روى ابن حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنبخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمُ غَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعْظَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيَّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ فَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) - ثُمَّ قَالَ ﷺ -: «أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ» هكذا رواه عبد بن حميد ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) أي: عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ الَّذِينَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْئاً عَلَيْهِ (١٦) يَحْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ الْإِيمَانَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

[الفرق بين المؤمن والمسلم]

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة

والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه وروى الإمام أحمد عن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله! أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رَجُلًا وَأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئاً حَتَّى أَتَى بِي النَّارَ عَلَى وَجْهِهِمْ» ^(٢) أخرجهما في الصحيحين ^(٣)، فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدق في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري والله أعلم والمنة. فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمناققين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فادعوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه وإبراهيم النخعي ومقاتل واختاره ابن جرير. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) أي: لمن تاب إليه وأتاب. وقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بذلوا مهجهم وفسائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) أي: في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ يَدِينُكُمْ﴾ أي: تخبرونه بما في ضمايركم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْئاً﴾

(١) المنتخب لعبد بن حميد: ٧٩٣، (٢) أحمد: ١٧٦/١.

(٣) فتح الباري: ٩٩/١، ومسلم: ١٣٢/١.

فتعين أن أوله سورة ق. وهو الذي قلنا والله الحمد والمنة.

[فضل سورة ق]

روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة^(٣).

(حديث آخر) وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق﴾ والقرآن المجيد^(١) إلا على لسان رسول الله ﷺ، وكان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس^(٤)، رواه مسلم^(٥). وروى أبو داود عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت ق إلا من في رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً^(٦)، وكذا رواه مسلم والنسائي^(٧)، والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار كالعيد والجمع لاشتغالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار والشواب والعقاب والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ^(١) بَلْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَجْوَىٰ مِثْلُ عَجَبٍ^(٢) أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكَ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ^(٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ^(٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ^(٥)

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى: ﴿ص﴾ و﴿ت﴾ و﴿ث﴾ و﴿ذ﴾ و﴿ز﴾ و﴿ح﴾ و﴿ط﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

[تعجب الكفار من الرسالة والمعاد، والرد عليهم]

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ^(١)﴾ أي: الكريم العظيم

(١) فتح الباري: ٦٤٤/٧. (٢) النسائي في الكبرى: ١١٥١٩.

(٣) أحمد: ٢١٧/٥، ومسلم: ٦٠٧/٢، وأبو داود: ٦٨٣/١، ونخبة

الأحاديث: ٧٩/٣، والنسائي: ١٨٣/٣، وابن ماجه: ٤٠٨/١.

(٤) أحمد: ٤٣٥/٦. (٥) مسلم: ٥٩٥/٢.

(٦) أبو داود: ٦٦٠/١.

(٧) مسلم: ٥٩٥/٢، والنسائي: ١٠٧/٣.

عليه^(١) ثم قال تعالى: ﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَن أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ يعني الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم والله المنة عليكم فيه ﴿بَلَىٰ اللَّهُ يَمْنُنُ عَلَيْكَ أَن هَدَيْتَكَ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتَ صَادِقِينَ﴾^(٢) أي: في دعاكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأَنْصَارِ يوم حنين: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا لَا يَهْدِيكُمْ اللَّهُ يَوْمَ؟ وَكُنْتُمْ مَتَفَرِّقِينَ فَأَلْقَيْتُكُمْ اللَّهُ يَوْمَ؟ وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغَاثَكُمْ اللَّهُ يَوْمَ؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن^(٣).

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِيهِمْ قَلِيلًا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ». ونزلت هذه الآية ﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَن أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلَىٰ اللَّهُ يَمْنُنُ عَلَيْكَ أَن هَدَيْتَكَ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتَ صَادِقِينَ﴾^(٤) ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِيمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥) آخر تفسير سورة الحجرات، والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

تفسير السورة

وهي مكية

[بداية الفصل]

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل من الحجرات. وأما ما يقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء رحمهم الله المعبرين فيما نعلم. إذا علم هذا فإذا عُدَّتْ ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة ق. بيانه ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء. وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة. وسبع: يونس وهود ويوسف والعدا إبراهيم والحجر والنحل. وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء والتمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس. وثلاث عشرة: البصافات وص والزمر وغافر وحمل السجدة وحمل عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رحمهم الله.

[بيان قدرة الله على ما هو أكبر من المعاد]

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستعبدين لوقوعه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: بالمصابيح ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق (٣). وقال غيره: فتوق. وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِبْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثم اتَّجِبَ الْبَصَرَ كَيْفَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاشَا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من جميع الزروع ولانهار والنبات والأنواع ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله بهيج أي حسن المنظر ﴿بَحِيرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ﴾ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيها من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وجل رجاء إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَازِغًا﴾ أي نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّ وَنَخْلًا﴾ أي حقائق من بساين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَبِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالاً شاهقات. قال ابن عباس: وبهاجهج وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال (٤) ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي: منضود ﴿زَيْفًا لِيَبَازِغَ﴾ أي: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحق أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَمَدِينًا﴾ أي يحيي الموتى بآية

الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بل الذين كفروا في عِزِّهِ وَيُفَاقِقُ ﴿٢﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ بل يجيئنا أن جاءهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَحْنُ بِعَبِيدٍ ﴿٣﴾ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جل جلاله: ﴿أَكُنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُسُلًا مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

ثم قال عز وجل خبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا أَنَّا نَأْتِيهِمْ بِعَبِيدٍ﴾ أي: يقولون: أنذا متنا ولبينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع. والمعنى أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه. قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لذلك فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم (١). وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم (٢). ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمرج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْ لَكُمْ قَوْلٌ مُخْتَلِفٌ﴾ يُوَفِّقُ عَنْهُمْ مِنْ أَيْكٍ ﴿١﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ١ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ٢ ﴿بَحِيرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ﴾ ٣ ﴿وَزَيَّنَّا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَازِغًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّ وَنَخْلًا وَحَبَّ الْحَبِيدِ﴾ ٤ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ ٥ ﴿زَيْفًا لِيَبَازِغَ﴾ ٦ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ٧

(٢) الطبري: ٣٢٩/٢٢.

(١) الطبري: ٣٢٨/٢٢.

(٤) الطبري: ٣٣٥/٢٢.

(٣) الطبري: ٣٣٢/٢٢.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٢﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِمْ مِنْ أَرْضٍ خَشِيعَةً فَإِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهَا الْغَمَّةَ أَهْرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَتَى الْمَوْتَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْحِ وَمُؤَدُّوهُ ﴿٣٤﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٣٥﴾ وَأَصْحَابُ لَأَيَكُوهَ وَقَوْمُ نُوحٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿٣٦﴾ أَفَتَعْجَبُ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُوَ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴿٣٧﴾﴾.

[تذكير قريش بهلاك الأمم السابقة]

يقول تعالى مهددا لكفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس، وقد ثلاث قصتهم في سورة الفرقان.

﴿وَنُوحٌ ﴿٣٨﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٣٩﴾ وَهُمْ أُمَّةٌ الَّذِينَ عَذَّبَ الْبَيْمُ مِنْ أَهْلِ سَدُومَ وَمَعَامِلَتِهَا مِنَ الْغُورِ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة متنة حينة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿٤٠﴾ وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ ﴿٤١﴾ وَهُوَ الْبَارِي، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن أعادته ههنا، والله الحمد والشكر.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴿٤٢﴾ أَي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ الْقُرُونِ كَذَّبَ رُسُولَهُمْ، وَمِنْ كَذْبِ رَسُولٍ فَكَأَنَّا كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ جَل وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ فَهَمُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿حَقَّ وَعِيدُ ﴿٤٤﴾ أَي: فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رُسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ.

[الإعادة أسهل]

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْجَبُ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿٤٥﴾ أَي أَفَأَعْجَزْنَا ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ﴿بَلْ هُوَ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ وَالْمَعْنَى أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يَعْجِزْنَا وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ إِلَيْهِ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ اللَّهُ جَل جَلَالِهِ: ﴿وَصَرَبَ لَنَا نَسْلاً وَلَيْسَ خَلْقُهُ، قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ وقد تقدم في الصحيح: ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَقُولُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَىٰ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٥١﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿٥٢﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِدٌ ﴿٥٣﴾ وَحَلَّتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٥٤﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٥٥﴾ وَحَلَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَافِدٌ ﴿٥٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْضًا عَنْكَ غِطَاءُكَ فَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٥٧﴾﴾.

[إحاطته تعالى وحفظه لكل ما عند الإنسان]

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَضَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ ﴿٥٨﴾ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٥٩﴾﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٦٠﴾﴾ كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْشِرُونَهُ ﴿٦١﴾﴾ يعني ملائكته وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك. فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴿٦٣﴾﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مترصد ﴿مَا يَلْفُظُ ﴿٦٥﴾﴾ أي ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ ﴿٦٦﴾﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِدٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٦٨﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٦٩﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فيكتب الملك كل شيء من الكلام.

وهو قول الحسن وقتادة^(١)، هو ظاهر الآية وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ» فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث^(٢). ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وقال الترمذي: حسن صحيح^(٣) وله شاهد في الصحيح.

[التذكير بسكرة الموت ونفخ الصور]

وما يليه من الحشر

وقوله تبارك وتعالى: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»^(١) يقول عز وجل: وجاءت أياها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمترى فيه «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»^(٢) أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا تحيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ لِمَوْتٍ لَسْكَرَاتٍ»^(٣) وفي قوله: «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»^(٤) قولان: (أحدهما) أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تتبعد وتتأذى وتفر قد حل بك ونزل بساحتك (والقول الثاني) أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر منه ولا الحيد عنه وقد روى الطبراني في المعجم الكبير عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ مِنَ الْمَوْتِ مَثَلُ الثَّعْلَبِ تَطْلُبُهُ الْأَرْضُ بِدَيْنٍ، فَجَاءَ بِسَيْحٍ حَتَّى إِذَا أُعْجِبَ وَأُسْهِرَ دَخَلَ جُحْرَهُ وَقَالَتْ لَهُ الْأَرْضُ: يَا ثَعْلَبُ، دَيْنِي. فَخَرَجَ وَلَهُ خُصَاصٌ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ وَمَاتَ»^(٥) ومضمون هذا لا مثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله تبارك وتعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ»^(٦) قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفرع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كَيْفَ نَنعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَبْلَ النَّعَمِ الْقُرْنِ، وَحَتَّى جَبْهَتُهُ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤَدَّنَ لَهُ» قالوا: يا رسول الله!

كيف نقول؟ قال ﷺ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فنزل القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل^(٦). «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِرٌ وَشَهِيدٌ»^(٧) أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد على بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير^(٧) ثم روى عن يحيى ابن رافع مولى لثقيف قال سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخاطب قرا هذه الآية «وَمَعَ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِرٌ وَشَهِيدٌ»^(٨) فقال: سائق يسوقها إلى الله وشاهد يشهد عليها بما عملت^(٨). قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتُمْ عَفْلَوْنَ مِنْ هَذَا فَكُنْتُمْ عَنْكَ غِطَاءٌ كَافِرُونَ الْيَوْمَ حَتَّى يُصْرَفَ أَكْفَرْتُمْ»^(٩) الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتُمْ عَفْلَوْنَ مِنْ هَذَا» يعني من هذا اليوم «فَكُنْتُمْ عَنْكَ غِطَاءٌ كَافِرُونَ الْيَوْمَ حَتَّى يُصْرَفَ» أي: قوي لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار في الدنيا، يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: «أَنْصَرَفُوا وَآخِرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا» وقال عز وجل: «وَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ أَنْصَرَفْتُمْ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ لَافْتَدَتْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنْصَرَفُوا وَآخِرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا» فأكسروا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسيمعنا فأجمعنا قسما صليحا إنا مؤفنون^(١٠).

«وَقَالَ قَوْمٌ هَذَا مَا لَدَى عَيْنَيْهِ»^(١١) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيبٌ^(١٢) متاع للآخر معتبر ثميب^(١٣) أَلَيْسَ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَلَيْسَ فِي الْعَذَابِ الْقَدِيدِ^(١٤) قَالَ قَوْمٌ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^(١٥) قَالَ لَا تَخْصِمُوا أَلَدَى وَقَدْ قَدِمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ^(١٦) مَا كُنْتُمْ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ^(١٧)

[شهادة الملك وأمر الله بالبقاء الكافر في جهنم]

يقول تعالى مخبرا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: «هَذَا مَا لَدَى عَيْنَيْهِ»^(١٢) أي مُعْتَدٌ محضر بلا زيادة ولا نقصان. فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيبٌ»^(١٣)

(١) الطبري: ٣٤٥/٢٢. (٢) أحمد: ٤٦٩/٣.

(٣) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٦، وتحفة الأشراف: ٥٥٥٢/٢، وابن ماجة: ١٣١٢/٢.

(٤) فتح الباري: ٣٦٩/١١.

(٥) الطبري: ٢٢٢/٧، وعنده: فجعل يسعى ... حتى إذا أعجب وانتهى.

(٦) تحفة الأحوذى: ١١٧/٧. (٧) الطبري: ٣٤٧/٢٢.

(٨) الطبري: ٣٤٧/٢٢.

﴿١٦﴾ أي لست أعذب أحداً بذنب أحد ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٢١﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٢٢﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخَالِدِينَ ﴿٢٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٢٤﴾

[أحوال جهنم والجنة وأهلها]

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول: هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث. وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزِي بِنَفْسِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُشَيِّئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيُسْكِنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي فَضُولِ الْجَنَّةِ» (١) ورواه مسلم (٢).

(حديث آخر) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان: «يُقَالُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ» (٣).

(طريق أخرى) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْشِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالتَّعَبِيرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشْأَاءِ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَتِ النَّارُ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشْأَاءِ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُم مَلَكُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رَجُلٌ فِيهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِئُ وَتَنْزَوِي بِنَفْسِهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُشَيِّئُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ» (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ عَنِ النَّبِيِّ عَزَّ وَجَلَّ﴾ (٥) قال قتادة

لظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بالقائه في نار جهنم، وبس المصير ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَقَوْلِي عَيْنِي﴾ (٦) أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق عند معاند للحق، يعارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿مَتَاعٌ لِغَيْرٍ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مَتَاعٌ﴾ أي: فيما يتفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: يعتد في منطقته وسيره وأمره ﴿مُرِيبٌ﴾ (٧) أي: شاك في أمره مرِيب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿وَالْأَيُّهَا فِي الْعَذَابِ الْكَثِيرِ﴾ (٨) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «نُفِخَ عَنَّا مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: وَكَلْتُ الْيَوْمَ بِنَلَاةٍ: بِكُلِّ حَذَايَ عَيْنِي، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ فَتَقْدِفُهُمْ فِي عَمَرَاتِ جَهَنَّمَ» (٩).

[اختصار الإنسان والشیطان عند الله]

﴿قَالَ رَبُّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقاتة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به ﴿رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتُنَا﴾ (١٠) أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يترأ منه شيطانه فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتُنَا﴾ أي: ما أضللتنا ﴿وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١١) أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ النَّفَى وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢) وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنها يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي يا رب! هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتُنَا وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٣) أي: عن منهج الحق، فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي عندي ﴿وَقَدْ دَعَمْتُ إِلَيْكَ بِالْأَعْيُنِ﴾ (١٤) أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْمُتَزَيِّدِ﴾ (١٥)

(١) الطبري: ٣٥٦/٢٢. (٢) أحمد: ٤٠/٣.

(٣) الطبري: ٣٥٧/٢٢. (٤) الطبري: ٣٥٩/٢٢.

(٥) أحمد: ٢٣٤/٣. (٦) مسلم: ٢١٨٨، ٢١٨٧/٤.

(٧) فتح الباري: ٤٦٠/٨. (٨) فتح الباري: ٤٦٠/٨.

وأبو مالك والسدي ﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ أدنيت وقربت من المتقين^(١) ﴿عَذِّبِيهِ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس بعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب ﴿هَذَا مَا وَعَدُونَكُمْ لِكُلِّ أَثَافٍ﴾ أي: راجع نائب مقلع ﴿حَفِظَ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل كقوله ﷺ: ﴿وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾^(٢) ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أي الجنة ﴿وَكُنْتُمْ﴾ قال قتادة سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلم عليهم ملائكة الله^(٣). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا ولا يبعثون عنها حولًا وقوله جلّت عظمتة: ﴿لَهُمْ ثَابِتَاتٌ فِيهَا﴾ أي مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ زَيْدًا﴾ في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم^(٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ إن في ذلك لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قَاصِرٌ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾

[تهديد الكفار بالعذاب وأمر]

النبي ﷺ بالصبر والصلاة

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ قال ابن عباس: ﴿أَثَرُوا فِيهَا﴾، وقال قتادة: فساروا في البلاد أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره وهل نفعمهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل فأنتم أيضًا لا مفر لكم

ولا محيد ولا مناص ولا محيص. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ أي لعبرة: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: لب يعي به وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه في هذا بقلب^(٦). وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب^(٧) وهكذا قال الثوري وغير واحد^(٨). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فيه تقرير للمعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى، وقال قتادة: قال اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيها فقالوا: وتناولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تبارك وتعالى في الآية الأخرى ﴿أَوَلَمْ نَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِمْ يَخْلُقْهُمْ يَتَقَدَّرْ عَلَيْهِ أَنْ يُخَيِّطَ الْمَوْتَ بَلَاءَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿مَأْتَمُّ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسَافَةً بَنَاهَا﴾

وقوله عز وجل: ﴿قَاصِرٌ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء تثنى قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولًا، ثم نُسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نُسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات؛ ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس

(١) الطبري: ٣٦٣/٢٢. (٢) فتح الباري: ١٦٨/٢.

(٣) الطبري: ٣٦٦/٢٢. (٤) مسلم: ١٦٣/١.

(٥) الطبري: ٣٧١/٢٢. (٦) الطبري: ٣٧٣/٢٢.

(٧) الطبري: ٣٧٤/٢٢. (٨) الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(٩) الطبري: ٣٧٦/٢٢.

نَحْيَ وَثُبْتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلاق كلهم، فيجازي كلًا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطرًا من السماء ينبت به أجساد الخلاق كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح توهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سرعًا مبادرين إلى أمر الله عز وجل: ﴿مُهَيَّيْنِ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَلْبُورُ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِصُورَةٍ غَيْرَ اللَّهِ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ صُورَةُ الْأَنْسَابِ﴾ وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ»^(٥)، وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا كما قال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلِّجْ بِالْبَصْرِ﴾^(٦).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنِينَ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٧).

[تسليية النبي ﷺ]

وقوله جل وعلا: ﴿تَحَنَّنْ عَلَيْنَا يَا بَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولك ذلك كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَمِعْنَاكَ يَحْيَى صَدْرَكَ يَمَّا يَقُولُونَ﴾^(٨) فَسَمِعَ مُحَمَّدٌ رَبِّكَ وَكَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، ثم قال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ لِي مَخَافَ وَعِيدِ﴾^(٢٠) أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده

(١) أحمد: ٣٦٥/٤.

(٢) فتح الباري: ٤٦٢/٨، ومسلم: ٤٣٩/١، وأبو داود:

٩٧/٥، وتحفة الأحوذى: ٢٦٥/٧، والنسائي في الكبرى:

٤٦٩/٦، وابن ماجه: ٦٣/١.

(٣) الطبري: ٣٨١/٢٢.

(٤) فتح الباري: ٣٧٨/٢.

(٥) مسلم: ١٧٨٢/٤.

نيل الغروب. وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة بدر فقال: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَعْرُضُونَ عَلَىٰ رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَىٰ بِلَادَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١) ثم قرأ رواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي فصل له قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ نَامًا تَحْمَدُ﴾^(٣) ﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُودِ﴾^(٤) قال ابن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويبد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟»

المراد: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا يتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: «أَفَلَا أَعْلَمُكُمْ سُنَنًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ؟ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكْرِمُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» قال: فقالوا: يا رسول الله! سمع

أمرنا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٥) والقول الثاني أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُودِ﴾^(٦) هما الركعتان بعد المغرب.

وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُدَادُ النَّاسُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(٧) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُؤْتِي وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١٤﴾ تَحَنَّنْ عَلَيْنَا يَا بَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ لِي مَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٥﴾

[التذكير ببعض ما يكون يوم القيامة]

يقول تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُدَادُ النَّاسُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(١) أن تجتمعوا لفصل القضاء ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ وَالْعُتَى﴾ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾^(٢) أي من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ

وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو صالح والسدي وقادة عطية العوفي والربيع بن أنس وغيرهم^(٤). وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما مثل تجعد الماء والرمل والزرع، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء فإنها من حسنهما مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء، مكلفة بالنجوم الثوابت والسيرات موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

اختلاف أقوال المشركين

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنَافِي قَوْلِ غَخْلَفٍ﴾^(٨) أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتزم ولا يجتمع، وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به^(٩). ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾^(١٠) أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما يبقا له ويضل بسببه، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال عسر، لا فهم له كما قال تعالى: ﴿فَلْيَكْذِبُوا مَا كَفَرُوا﴾^(١١) مَا أَشْرَعَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ^(١٢) قال ابن عباس رضي الله عنه والسدي ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾^(١٣) يضل عنه من ضل. وقوله تعالى ﴿قِيلَ الْخُرُوصُ﴾^(١٤) قال مجاهد: الكذابون. قال: وهي مثل التي في عبس ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾^(١٥) والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون^(١٦). وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿قِيلَ الْخُرُوصُ﴾^(١٧) أي لعن المرتابون^(١٨). وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل غرة والظنون^(١٩) وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ سَاهُوتَ﴾^(٢٠) قال ابن عباس رضي الله عنه وغير واحد في الكفر والشك غافلون لا همون ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْآزِينِ﴾^(٢١) وإنما يقولون هذا تكديفاً وعناداً وشكاً واستبعاداً، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^(٢٢)

(١) القرطبي: ٢٩/١٧.

(٢) الطبري: ٣٨٩/٢٢ - ٣٩٢، وعبد الرزاق: ٢٤١/٣.

(٣) الطبري: ٣٩٦/٢٢ - ٣٩٦، (٤) الطبري: ٣٩٦/٢٢ - ٣٩٧.

(٥) عبد الرزاق: ٢٤٢/٤. (٦) الطبري: ٤٠٠/٢٢.

(٧) الطبري: ٣٩٩/٢٢. (٨) الطبري: ٤٠٠/٢٢.

(٩) الطبري: ٤٠١، ٤٠٠/٢٢.

ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَلِكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٢٣) وقوله جل جلاله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢٤) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ^(٢٥)، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢٦) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢٧) ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(٢٨) كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بار يا رحيم^(٢٩). آخر تفسير سورة والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلْيَحْلِقُوا وَقَرًا ﴿٢﴾ فَلْيَجْزِبْ يَمْرًا ﴿٣﴾ فَلْيَمْسِكْ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْآلِينَ لَنُفَعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنَافِي قَوْلِ غَخْلَفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخُرُوصُ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ سَاهُوتَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْآزِينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِمِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

[التأكيد على صدق خبر المعاد والحساب]

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنبأكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين! ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾^(١) قال علي رضي الله عنه: الريح، قال: ﴿فَلْيَحْلِقُوا وَقَرًا﴾^(٢) قال رضي الله عنه: السحاب، قال: ﴿فَلْيَجْزِبْ يَمْرًا﴾^(٣) قال رضي الله عنه: السفن، قال: ﴿فَلْيَمْسِكْ أَمْرًا﴾^(٤) قال رضي الله عنه: الملائكة^(٥).

وقال بعضهم: الجاريات يسرا هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها؛ ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك والمقسيات أمراً الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية، والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾^(٥) أي خبر صدق ﴿وَإِنَّ الْآلِينَ لَنُفَعٌ﴾^(٦) أي لكائن لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوبِ﴾^(٧) قال ابن عباس رضي الله عنه: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء^(٨)، وكذا قال مجاهد

إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر^(٩). وقال عبد الله بن سلام عليه السلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١٠).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرْقًا يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ لِلَّهِ قَاتِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١١).

وقوله عز وجل: «وَالَّذِينَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»^(١٢) قال مجاهد وغير واحد: يصلون^(١٣). وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى: «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»^(١٤) فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ. هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ. هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سَوْلُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(١٥) وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال لبيته: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تعالى: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»^(١٦) لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ» أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسَّائِلِ

ابن ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: «يَسْتَغْفِرُونَ»^(١٧) مذبذبون^(١٨). قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار^(١٩). وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضًا وعكرمة وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: «يَسْتَغْفِرُونَ»^(٢٠) يجرقون^(٢١) ذوقُوا فَنَتَكَّرُ قال مجاهد: حريقكم^(٢٢)، وقال غيره: «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَغِيلُونَ»^(٢٣) أي يقال لهم ذلك غريعا وتوبيخا وتحقيرا، وتصغيرا، والله أعلم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(٢٤) «لَا يَزِيدُ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ كَانُوا قَبْلَ تَحْمِيلِنَ»^(٢٥) كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَلْيَلٍ مَا يَهْجُونَ^(٢٦) «وَالَّذِينَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»^(٢٧) «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»^(٢٨) «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمُتَذَكِّرِينَ»^(٢٩) «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»^(٣٠) «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقٌ وَمَا نُوعِدُونَ»^(٣١) «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ»^(٣٢)

[جزاء المتقين وصفاتهم]

يقول تعالى مخبرا عن المتقين الله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من عذاب والنكال والحريق والأغلال.

ويؤله تعالى: «لَا يَزِيدُ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ»^(٣٣) قوله تبارك وتعالى «لَا يَزِيدُ» حال من قوله: في جنات وعيون، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من نعم والسرور والغبطة، وقوله عز وجل: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُخْصِينَ»^(٣٤) كقولهم جل جلاله: «وَلَمَّا أَتَوْا قُرُونًا مِّنْهَا سَأَلْتُمُوهُ فِي آيَاتِهِ لَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ»^(٣٥) ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا: «كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَلْيَلٍ مَا يَهْجُونَ»^(٣٦) اختلف المفسرون في ذلك على قولين: (أحدهما) أن «مَا» نافية تقديره كانوا قليلا من الليل لا يجمعونه، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم تكن تمضي عليهم ليلة لا يأخذون منها ولو شيئا^(٣٧). وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قُلْ ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أوطأ وإما من أوسطها^(٣٨). وقال مجاهد: قُلْ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتجهجدون^(٣٩)، وكذا قال قتادة^(٤٠). وقال

س بن مالك رضي الله عنه وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء^(٤١). (والقول الثاني) أن «مَا» مصدرية تقديره كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير.

وقال الحسن البصري: «كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَلْيَلٍ مَا يَهْجُونَ»^(٤٢) نادوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا

(١) الطبري: ٢٢/٤٠٢. (٢) الطبري: ٢٢/٤٠٢.

(٣) الطبري: ٢٢/٤٠٣. (٤) الطبري: ٢٢/٤٠٧.

(٥) الطبري: ٢٢/٤٠٧. (٦) الطبري: ٢٢/٤٠٨.

(٧) الطبري: ٢٢/٤٠٨. (٨) الطبري: ٢٢/٤٠٧، ٢٢/٤٠٨، ٢٢/٤٠٩.

(٩) تحفة الأحوذ: ٧/١٨٧. (١٠) أحمد: ٢/١٧٣.

(١١) الطبري: ٢٢/٤١٣.

(١٢) فتح الباري: ٣/٣٥، ١١/١٣٣، ١٣/٤٧٣، ومسلم:

١/٥٢١-٥٢٣، وأبو داود: ٢/٧٧، ٥/١٠١، وتحفة

الأحوذ: ٩/٤٧١، والنسائي في الكبرى: ٤/٢٤، وابن

ماجة: ١/٤٣٥.

[حديث ضيف إبراهيم]

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر أيضاً فتقول ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) أي السليلين أرصد لهم الكرامة، وقوله تعالى: ﴿فَالْوَأَسَتْكَمَا قَالَ سَلَّمَ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُجِمَ بِهِمْ يَبْتَغِيهِمْ فُجُورًا يَبْتِغِيهِمْ وَفُجُورًا يَبْتَغِيهِمْ﴾ (٢) فالحليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿فَقَمَّ شُكْرَهُ﴾ (٣) وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال: ﴿فَقَمَّ شُكْرَهُ﴾ (٤) وقوله عز وجل: ﴿فَرَأَى إِلَهُهُ﴾ أي أنسل خفية في سرعة ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٥) أي من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَمِيدٍ﴾ (٦) أي: مشوي على الرضف ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أي ادناهم منهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧) تلطف في العبارة وعمره حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم يرضه وقال اقربوا، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أبداً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٨) على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (٩) لا تخف إنا أرسلناك قوم لوط (١٠) وأمرته، فأيمه فصاحت أي استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعثوهم على الله تعالى فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَوْنَتَنِي إِلَهٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (١١) قَالُوا أَمْحَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْآيَاتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (١٢) ولهذا قال الله سبحانه وتعالى

وَالْمَحْرُورِ (١٣) أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدىء بالسؤال، وله حق، وأما المحروم فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم (١٤)، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً (١٥).

قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَصْدَقَ عَلَيْهِ» (١٦) وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحهما من وجه آخر (١٧).

[آيات الله في الأرض والنفس]

وقوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ﴾ (١٨) أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألْسنة الناس واللوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٩) قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق وليت مفاصله للعبادة (٢٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر ﴿وَمَا تُرْجَوْنَ﴾ (٢١) يعني الجنة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد (٢٢). وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلَى مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ (٢٣) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك ههنا.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْ فَلَمْ يَجِبْ لَهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ سَلَامًا وَلَهُمْ عِزٌّ مِنْ رَبِّكَ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عِثَابِكُمْ مُخَدَّعُونَ وَأَنْتُمْ لَا تَخِفُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَتَشْرُوهُ بَشْتٍ خَسِيرٍ ﴿٢٦﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَتَ رَجُلَيْهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٧﴾ قَالُوا كَذِبٌ قَالَ رَبِّ لَيْتَ عَنْهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٨﴾

(١) الطبري: ٢٢/٤١٤.

(٢) الطبري: ٢٢/٤١٦.

(٣) النسائي: ٥/٨٥.

(٤) فتح الباري: ٣/٣٩٩، ومسلم: ٢/٧١٩.

(٥) القرطبي: ١٧/٤٠.

(٦) الطبري: ٢٢/٤٢.

هنا: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِقُلُوبِكُمْ عَلَيْهِ﴾ ٢٨ ﴿فالبشارة له هي بشارته لها. لأن الولد منها فكل منها بشر به. وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَاهُ أَمْرَاتِهِ فِي صَرْفٍ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثوري والسدي ^(١) وهي قوله: ﴿يَتَوَلَّى﴾ ﴿فَصَلَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربت يدها على جبينها قاله مجاهد وابن سابط ^(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: لطمت أي تعجبا كما تعجب النساء من الأمر الغريب ^(٣) ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَوِيْمٌ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ تِلْكَ إِنِّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ٢٩ أي: عليهم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٣٠ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ أَنْ يَتَزَوَّلُوا عَنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِنْ طَيْفٍ مِّنْ آلِ عَادٍ أَن يَقُولُوا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَفَرَحْنَا بِكُمْ وَأَنتُمْ تَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ٣١ ﴿فَأَعْرَضُوا عَنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ وَآلِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٣٢

[شأن الملائكة إهلاك قوم لوط]

قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ٦٨ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِّهٌ﴾ ٦٩ ﴿يَتَذَكَّرُ فِي مَا مَرَّرَتْهُ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ رُؤُوسُ رُؤُوسِهِمْ فَبَيِّنْ لَهُمْ مَا يَتْلُونَ صَوْرَةَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَنْ هَٰذَا وَذُكِّرُوا بِهِمْ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمُ الْغَدَ وَجَعَلْنَاهُمْ سِجًّا وَخَرَّصْنَاهُمْ فِي ذُلٍّ أَلَسْ بَدِيعَتِنَا لَذُنُوبُهُمْ﴾ ٧٠ وقال ههنا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٧١ ﴿أي: ما شأنكم وفيهم جئتم﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ أَنْ يَتَزَوَّلُوا عَنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِنْ طَيْفٍ مِّنْ آلِ عَادٍ أَن يَقُولُوا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَفَرَحْنَا بِكُمْ وَأَنتُمْ تَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ٧٢ ﴿فَأَعْرَضُوا عَنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ وَآلِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٧٣ ﴿أي: مكلبة عنده بأسائهم كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ٧٤ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْهَا تَسْبِيحَتُهُمْ وَأَهْلُهَا إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ٧٥ وقال تعالى ههنا: ﴿فَأَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهَا وَبَنِيهَا﴾ ٧٦ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ سِجًّا وَخَرَّصْنَاهُمْ فِي ذُلٍّ أَلَسْ بَدِيعَتِنَا لَذُنُوبُهُمْ﴾ ٧٧ ﴿ففي ذلك عبرة للمؤمنين﴾ ٧٨ ﴿لَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٧٩.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٨ ﴿تَوَلَّىٰ رُكُودًا﴾ ٢٩ ﴿وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ٣٠ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ٣١

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ١١ ﴿مَآذِرٌ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ﴾ ١٢ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ جِيئَ الْفَتْوَىٰ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْطُرُونَ﴾ ١٣ ﴿هَٰذَا أَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٤ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ ١٥ ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ مِنْ قَبْلُ هُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَكُنَّا لَهُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ١٦ ﴿وَفِي لُوطٍ إِذْ أَنَا فِي سَفَرٍ فَأَبْرَأَ لِي وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نَجِّنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٧

[العبر من قصة فرعون وعاد وثمود وقوم نوح]

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٨ ﴿أي: بدليل باهر وحجة قاطعة﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُودًا﴾ ٢٩ ﴿أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارا وعنادا. كقوله تعالى: ﴿ثَانِي عَظِيمُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٣٠ ﴿أي: معرض عن الحق مستكبر﴾ ﴿وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ٣١ ﴿أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرا أو مجنونا قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ ٣٢ ﴿أي: ألقيناهم﴾ ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ٣٣ ﴿أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ١١ ﴿أي: المفسدة التي لا تنتج شيئا قاله الضحاك وقتادة وغيرهما﴾ ١٢ ﴿ولهذا قال تعالى: ﴿مَآذِرٌ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ﴾ ١٣ ﴿أي مما تفسده الريح﴾ ١٤ ﴿وَالْجَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ﴾ ١٥ ﴿أي كالشيء الهالك البالي. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ١٦ ﴿قالوا: هي الجنوب﴾ ١٧. وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكَتُ عَادًا بِالذَّبُورِ» ١٨ ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ جِيئَ الْفَتْوَىٰ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْطُرُونَ﴾ ١٩ ﴿وذلك أنهم انتظروا العذاب أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار﴾ ٢٠ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ٢١ ﴿أي: من هرب ولا نهوض﴾ ٢٢ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ ٢٣ ﴿أي لا يقدرون على أن يتصرفوا بما هم فيه. وقوله عز وجل:

(١) الطبري: ٤٢٦/٢٢، والقرطبي: ٤٦/١٧.

(٢) الطبري: ٤٢٨/٢٢. (٣) الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(٤) الطبري: ٤٣٤/٢٢. (٥) الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(٦) فتح الباري: ٦٠٤/٢، ومسلم: ٦١٧/٢.

﴿وَقَوْمٌ يُوشَعُونَ﴾ أي وأهلكتنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّمَا كُنَّا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِيمَانٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ (٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩) فَعَرَّضُوا إِلَهِ اللَّهِ إِيَّيْكَ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١)

[دلائل التوحيد في خلق السماوات والأرض]

وجعل الله كل شيء زوجين

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿بِإِيمَانٍ﴾ أي بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد (١) ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها وفرعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ أي وجعلناها مهذا لأهلها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض وليل ونهار، وشمس وقمر وبر وبحر وضيء وظلام، وإيمان وكفر وموت وحياة وشقاء وسعادة وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿فَعَرَّضُوا إِلَهِ اللَّهِ﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لا تشركوا به شيئا ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٢) ﴿أَتَأْمُرُوا بِوَعْدِ اللَّهِ هَلْ هُمْ قَوْمٌ طَائِفُونَ﴾ (٣) ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ﴾ (٤) ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ نَعَفَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ (٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٨) ﴿قَدْ لَبِثْنَا أَنْظَمًا بِمَثَلِ ذُنُوبٍ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٩) ﴿قَوْلَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١٠)

[تكميل كل قوم رسولهم على طريق واحد]

يقول تعالى مسلما لنبيه ﷺ وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (١١) قال الله عز وجل:

﴿أَتَأْمُرُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿هَلْ هُمْ قَوْمٌ طَائِفُونَ﴾ (١٢) أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ﴾ (١٣) أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ﴾ يعني فما نلوك على ذلك ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ نَعَفَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) أي إنما تتفجع بها القلوب المؤمنة.

[ما خلق الجن والإنس إلا لعبادة الله]

ثم قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١٥) أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١٦) أي إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها (١٧).

وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (١٨) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (١٩) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقراني رسول الله ﷺ (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (٢٠) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح (٢١). ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم. فهو خالقهم ورازقهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّقْ فِي عِبَادِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنَى وَأَسَدُ فُفْرَكَ وَإِلَّا تَفَعَّلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ سُغْلًا وَلَمْ أَسُدْ فُفْرَكَ» (٢٢) ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب (٢٣).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ (٢٤) أي نصيبا من العذاب ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٥) فلا يستعجلون (٢٦) أي: فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿قَوْلَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٢٧) يعني يوم القيامة. آخر تفسير سورة الذاريات والله الحمد والمنة.

(١) الطبري: ٢٢/٤٣٨. (٢) الطبري: ٢٢/٤٤.

(٣) أحمد: ١/٤١٨.

(٤) أبو داود: ٤/٢٩٠، وتحفة الأحوذى: ٨/٢٦١، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٦٩.

(٥) أحمد: ٨/٣٥٨.

(٦) تحفة الأحوذى: ٧/١٦٦، وابن ماجه: ٢/١٣٧٦.

تفسير سورة الطور

وهي مكية

[فضل سورة الطور]

روى مالك عن جبير بن مطعم [قال]: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو زادة منه^(١)، أخرجاه من طريق مالك^(٢). وروى البخاري عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي قال: «طوفي من وراء الناس وأنت رَاكِبَةٌ» فطفت ورسول الله علي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكَتَبَ مَسْطُورٌ (٢) فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ (٣) وَأَلَيْتَ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا (١٠) قَوْلٌ يُوعَذُّ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي حُكُومٍ يُلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَئِذِهِ أَنْشَأَ إِلَهِي كُتُبَهُ بِهَا تُكَذَّبُونَ (١٤) أَنْسَحَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٥) أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصِبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

[قسم الله على وقوع العذاب]

قسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه لا يبعده، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه نبي، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا إنما يقال له جبل، ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾ (٢) قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارًا وهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ﴾ (٣) وَأَلَيْتَ الْمَعْمُورِ (٤) ثبت في صحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد ما أُنزلته إلى السماء السابعة: «ثُمَّ رَفِعَ بِي إِلَى النَّبِيِّ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا مُرِدُّ خُلَّةَ كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يَمُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»^(٤) يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل أرض بكةبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة أرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي

كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ﴾ (٥) قال سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعة عن علي ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ﴾ (٥) يعني السماء. قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٦) وكذا قال مجاهد وقطادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ﴾ (٦) قال الجمهور: هو هذا البحر، والمراد بالمسجور أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) أي أضمرت فنصير نارا تتأجج محيطة بأهل الموقف. ورواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب^(٧). وروى عن ابن عباس وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبد الله ابن عبيد بن عمير وغيرهم. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ (٦) المملوء، واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨) أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائما يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) حتى إذا بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) ما له من دافع (٨) قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حمارة واستند إلى حائط فمكث مليا ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعود الناس لا يدرون ما مرضه^(٨).

[وصف يوم العذاب وهو يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩) قال ابن عباس

(١) الموطأ: ٧٨/١.

(٢) فتح الباري: ٢/٢٨٩، ومسلم: ١/٣٣٨.

(٣) فتح الباري: ٨/٤٦٨.

(٤) فتح الباري: ٦/٣٤٩، ومسلم: ١/١٥٠.

(٥) الطبري: ٢٢/٢٥٧، ٢٥٨. (٦) الطبري: ٢٢/٤٥٨.

(٧) الطبري: ٢٢/٤٥٨.

(٨) ذكره المؤلف في مسند عمر: ٢/٦٠٨.

وقتادة: تتحرك تحريكاً^(١). وعن ابن عباس: هو تشققها. وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض^(٢). وهذا اختيار ابن جبر أنه التحرك في استدارة. «وَسَيَرُ الْجِبَالِ سَيْرًا» أي تذهب فتصير هباء منبثاً وتنسف نسفاً «قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم «الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ» أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً «يَوْمَ يَدْعُوكَ» أي: يدفعون ويساقون «إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً» وقال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يدفعون فيها دفعاً^(٣) «هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ» أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريباً وتوبيخاً «أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ» أي ادخلوها «أَيَّ دُخُولٍ مِنْ تَعْمَرِهِ مِنْ جَمِيعِ جَهَاتِهِ» فأصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم^(٤) أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا يحيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلًّا بعمله.

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْسٍ» فكيفهم بما آتاهم ربهم ووفقهم ربهم عذاب الجحيم «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» متكررين على سرر مصفوفة وزوجتهم بحور عين^(٥).

[وصف مآل السعداء]

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْسٍ» وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال «فَكَيْفَ هِيَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكول ومشروب وملابس ومسكن ومراكب وغير ذلك «وَوَقَّعَتْهُمْ رُبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حداثتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» كقوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي آلَاءِ الْغَالِيَةِ» أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً. وقوله تعالى: «مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» قال الثوري عن حصين عن مجاهد عن ابن عباس: السرر في الحجال، ومعنى

«مَصْفُوفَةٌ» أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله: «عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» «وَزَوْجَتُهُمْ يَحْوِي عَيْنَ» أي وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسناً من الحور العين. وقال مجاهد: «وَزَوْجَتُهُمْ يَحْوِي عَيْنَ» أي أنكحناهم بحور عين وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادتي ههنا.

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» وأمددناهم بفرزهم ولحمهم مما شتهون «يَلْزَمُونَ فِيهَا كَانُوا لَا لُغْوَ فِيهَا وَلَا نَأْيَهُ» «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُجْجَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ» وأقبل بعضهم على بعض يتسألون «قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ هَٰذَا أَهْلًا مَشْفُوقِينَ» فمن الله علينا «وَوَدَّ عَذَابَ السَّمُورِ» إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدُوعًا إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ^(٦).

[لحوق ذرية المؤمن به في المنزلة]

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلف وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: «الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» روى الثوري عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كان له دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري به^(١). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قول الله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بأبائهم، ولم ينقصوا من أعيالهم التي عملوها شيئاً. وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي

(١) الطبري: ٢٢/٤٦٢. (٢) الطبري: ٢٢/٣٦٢.

(٣) الطبري: ٢٢/٤٦٤، والدر المشور: ٧/٦٣١.

(٤) تفسير الثوري: ٢٨٣. (٥) الطبري: ٢٢/٤٦٧.

سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية قال رسول الله ﷺ: «هُمَا فِي النَّارِ» فلما رأى الكراهة في جهنمها قال: «لَوْ رَأَيْتُ مَكَانَهَا لَبَغَضْتُهَا» قالت: رسول الله! فولدي منك؟ قال: «فِي الْجَنَّةِ» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ أَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ بِرَحْمَتِنَا فِي الْجَنَّةِ﴾ الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء كونه عمل الآباء وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء يروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ قِيْلُ: يَا أَبَتِي أَيْ لِي هَذِهِ؟ قِيْلُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(١) إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدٌ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

[عدل الله مع أهل الذنوب]

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(١) لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل ينفي ذلك، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤخذ أحداً بسبب أحد فقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٢) أي بمن يعمل لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان سالوا أبنا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٣) إلا أنصب بين^(٤) في جنن يساءلون^(٥) عن النجسين^(٦).

[وصف خمر الجنة ونعيم أهلها]

وقوله: ﴿وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ فَيُكَفِّرُهُمُ اللَّهُ عَنْهَا لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ نَعِيمَ مَا يَسْتَبَاطُ فِيهَا وَيُقَالُ: لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهَا بِمَا كَسَبْتُمْ مِنْ حَسَنَاتٍ لَكُمْ تَسْتَعْتَبُونَ؟ وَقِيلَ لَهُمْ: لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهَا بِمَا كَسَبْتُمْ مِنْ حَسَنَاتٍ لَكُمْ تَسْتَعْتَبُونَ؟﴾^(١) أي: لا تتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إنم أي فحش كما يتكلم به الشرية من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو الباطل والتأنيب الكذب^(٢). وقال مجاهد: لا يستبشرون ولا يؤمنون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان ففزه الله غم الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها^(٣)، كما تقدم فنفى عنها صدام الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية،

وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿يَبْقَىٰ ذُكْرُ الْمُنَافِقِينَ﴾^(١) لا فيها غول ولا هم عنها يزفون^(٢) وقال: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَزْفُونَ﴾^(٣) وقال ههنا: ﴿يَسْتَعْتَبُونَ فِيهَا كَأَنَّهُمْ لَا لَوْ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَهُمْ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ لَعْنُ الْكُفْرَانِ﴾^(٥) لؤلؤ حكوان^(٦) إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخْتَلِفُونَ﴾^(٧) يا كواب وأباريق وكأين من معين^(٨) وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٩) أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شراهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَاوِينَ﴾^(١٠) أي: كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١١) أي: فنصدق علينا وأجارنا مما نخشاه ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾^(١٢) أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾^(١٣).

[تبرئة الرسول مما اتهم به المشركون، وتوعددهم وتحذيرهم]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَدَكَّرْنَا مَا يَنْصِبُ رَيْكَ يَكَاهِي وَلَا يَجْنُونَ﴾^(١) أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقول الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرثي من الجنان بالكلمة يتلقاها من خير الساء ﴿وَلَا يَجْنُونَ﴾^(٢) وهو الذي

(٢) أحمد: ٥٠٩/٢.

(١) أحمد: ١٣٥/١.

(٤) الطبري: ٤٧٤/٢٢.

(٣) مسلم: ١٢٥٥/٣.

(٥) الطبري: ٤٧٤/٢٢.

يتخبطه الشيطان من المس، ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ﴾ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿٢٠﴾ أي قوارع الدهر، والمنون: الموت، يقولون: تنتظره نصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾ ﴿٢١﴾ أي انتظروا فإنني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. قال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس ؓ: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلككم هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة إنما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ﴾ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٢٣) أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٢٥) أي إن كانوا صادقين في قولهم تقوله وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْمَخْلُوقُونَ ﴾ (٦٦) أَمْ خَلِقُوا الْمَسْكُونَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَاذِغْنَاهُمْ بِسُلُوكِ
الْمُضِيِّتِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ آجْرًا فَمَا مِنْ مَقَرٍّ
مُتَقَرٍّ ﴿٧٠﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾

[أسئلة تثبت التوحيد وتنفي حيل المشركين]

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ مَّيِّتَةٍ أَمْ هُمْ الْخَالِثُونَ﴾ (٣٥) أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله

هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. روى البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ أُنْزِلُوا مِنْ دَرَجَاتٍ أَمْ هُمُ الْمُحْضَرُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٦) ﴿عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُحْصِيّطُونَ﴾ (٢٧) كعاد قلبي يظير^(٢٧)، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَيُّ أَمَّهُمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ وَهَذَا إِنكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شَرِكِهِمْ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكِنْ عَدَمُ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُحْصِيّطُونَ﴾ (٢٧) ﴿أَيُّ أَمَّهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمَالِ وَيَبْدَهُمْ مَفَاتِيحَ الْخَزَائِنِ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ هُمُ الْمُحْصِيّطُونَ﴾ (٢٧) أي المحاسبون للخلاق، ليس الأمر كذلك بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ يَتَّبِعُونَ فِيهِ﴾ أي مرقاة إلى الاله
الأعلى ﴿تَلْبِثُ أَمْثَلَهُمْ يَسْطَرُّونَ فِيهِ﴾ أي: فليأت الذي
ستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعل
والمقال، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء ولا هم
دليل، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات وجعلهم
الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث
إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وهذا وقد
جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: ﴿أَمْ لَهُ أَلِهَةٌ
وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ
أَجْرًا﴾ أي أجرة إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على
ذلك شيئاً ﴿فَهُمْ يَنْتَقِرُونَ مُتَقَلِّبُونَ﴾ أي فهم من أدنى شيء
يتربصون منه ويثقلهم ويشق عليهم ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ ثُمَّ يَكُونُ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ
الْمَكِيدُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾ أَمْ يَرِيدُ هَؤُلَاءِ يَقُولُهُمْ هَذَا

(۱) الطبري: ۴۷۹/۲۲. (۲) فتح الباري: ۴۶۹/۸.

(٣) فتح الباري: ٢ / ٢٨٩ و ٦ / ١٩٤ و ٧ / ٣٧٥، ومسلط

قَوْمٌ ﴿١٨﴾ قَالَ الضحّاك: أي إلى الصلاة، سبحانه اللهم ويحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جددك، ولا إله غيرك ^(١).

وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة ^(٢). ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك ^(٣). وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ قُومُ﴾ ﴿١٨﴾ أي من نومك من فراشك ^(٤)، واختاره ابن جرير ^(٥) ويتأيد هذا القول بما

رواه الإمام أحمد، عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَعَارَى مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ قَوْصًا ثُمَّ صَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ» ^(٦) وأخرجه البخاري في صحيحه وأهل السنن ^(٧). وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ قُومُ﴾ ﴿١٨﴾ قال: من كل مجلس. وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ قُومُ﴾ ﴿١٨﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانهك اللهم ويحمدك ^(٨).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غَفَرُ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ» رواه الترمذي، وهذا لفظه والنسائي في اليوم والليلة. وقال الترمذي: حسن صحيح ^(٩)، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: إسناده على شرط مسلم ^(١٠).

(١) الطبري: ٤٨٩/٢٢. (٢) مسلم: ٢٩٩/١.

(٣) أحمد: ٥٠/٣، وأبو داود: ٤٩٠/١، وتحفة الأحوذ: ٤٧/٢،

٥٠، والنسائي: ١٣٢/٢، وابن ماجه: ٢٦٤/١ و٢٦٥.

(٤) القرطبي: ٧٩/١٧. (٥) الطبري: ٤٨٨/٢٢.

(٦) أحمد: ٣١٣/٥.

(٧) فتح الباري: ٤٧/٣، وأبو داود: ٣٠٥/٥، وتحفة الأحوذ:

٣٥٩/٩، والنسائي في الكبرى: ٢١٥/٦، وابن ماجه: ١٢٧٦/٢.

(٨) القرطبي: ٧٨/١٧.

(٩) تحفة الأحوذ: ٣٩٢/٩، والنسائي في الكبرى: ١٠٥/٦.

(١٠) الحاكم: ٥٣٦/١.

رسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، كيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم فالذين كفروا هم كيدون ﴿أَمْ هُمْ إِلَّا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وهذا كاد شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، بزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٢٠﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴿٢١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَصْبَرَ لَمُكْرٍ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ قُومُ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٢٥﴾

[بيان عناد المشركين، وأنهم يعدلون]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة محسوس ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي عليهم يعدلون به لما صدقوا، ولما أيقنوا بل يقولون: هذا سحاب مرموم أي مترام، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ نَقُومُ مُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾. وقال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وذلك يوم قيامه ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرمهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم قيامه شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣١﴾ أي: نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينبئون فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم ما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه وفي الأثر الإلهي: ثُمَّ أَصْبِرْ وَلَا تَافِكْ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عَبْدِي كَمْ أَفَانِكَ وَأَنْتَ لَا تَذَرِي؟

[أمر الرسول ﷺ بالصبر والتسبيح]

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِمُكْرٍ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي اصبر على كذاهم ولا تبألم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله بمصمك من الناس. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ

بضال، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق غير علم، والغاوي هو العالم بالحق، العادل عنه قصداً إلى غيره، فبشره الله رسوله وشرعه، عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود. وهي علم الشيء وكتباته، والعمل بخلافه. بل هو صلاة الله وسلامه عليه وما بعثه الله به من الشئ العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسادات.

[رحمة للعالمين لا ينطق عن الهوى]

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٧) أي ما يقول قولا عن هوى وغرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٨) أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَيْدُخْلَنَ» الجنة بشفاعته رجل ليس بنبي مثل الحنظل - مثل أحد الحنظل - ربيعة ومضر فقال رجل: يا رسول الله! أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ» (٧).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فبشرني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب. فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكْتُبْ، فوالذي نفسي بيده ما أخرج مني إلا الحق» (٨) ورواه أبو داود.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (٩) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ (١٠) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (١١) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١٢) أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ بُرُجٍ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ ثَلَاثَةَ أَفْرَاقٍ﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ﴾ (١٤) إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿مَا رِيعَ الْبَصَرِ وَمَا لَيْسَ﴾ (١٥) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿﴾ (١٦)

[معلم الرسول الأمين هو الروح الأمين]

يقول تعالى خبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علم

(١) الطبري: ٣٧٩/٢٢.

(٢) فتح الباري: ٥٥٠/٣، ومسلم: ٥٠١/١.

(٣) مسلم: ٥٠١/١. (٤) فتح الباري: ٤٨٠/٨.

(٥) فتح الباري: ٦٤١/٢، ٦٤٣ و ٢٠٢/٧ و ٢٤٨، ومسلم: ٤٠٥/١، وأبو داود: ١٢٢/٢، والنسائي: ١٦٠/٢.

(٦) الطبري: ٤٩٥/٢٢. (٧) أحمد: ٢٥٧/٥.

(٨) أحمد: ١٦٢/٢. (٩) أبو داود: ٦٠/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَمِعَهُ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً (٧). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَرَأَ النَّجْمَ﴾ (١١) في حديث ابن عباس، أنها الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنها مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوبها للغيبوبة (١). وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر (٢). وفي لفظ لمسلم: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (٣).

آخر تفسير سورة الطور والله الحمد والمنة.

تفسير سورة النجم

وهي مكية

[أول سورة أنزلت فيها سجدة]

روى البخاري عن عبد الله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قال: فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف (٤). وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ومسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن أبي إسحاق به (٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿﴾ (٣)

[أقسم الله على أن الرسول حق]

وما ينطق إلا بالوحي]

قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) قال ابن أبي نجيج عن مجاهد: يعني بالنجم الثريا إذا سقط مع الفجر (٦). وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) إذا رمي به الشياطين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النَّجْمِ﴾ (٧) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُكَ وَكَرِيمٌ﴾ (٨) فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ (١٠) وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (٢) هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس

عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْقَوْلُ رِشْوَةً كِذِّبُوا﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ
بِأَرْوَاحِهِمْ يُكَيِّدُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾ وقال ههنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾
ذو قوة، قاله مجاهد والحسن وابن زيد (١). وقد ورد في
حديث الصحيح من رواية ابن عمر وأبي هريرة أن النبي
قال: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» (٢). وقوله
﴿فَأَسْتَوَى﴾ يعني جبريل عليه السلام، قاله الحسن
ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (٣) ﴿وَقَوَّيَا الْأَنْفُ الْأَعْلَى﴾ (٤)
جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغيره.
قال مجاهد هو مطلع الشمس (٤). وقال قتادة: هو الذي
منه النهار (٥)، وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وروي الإمام أحمد عن عبد الله [أي ابن مسعود] أنه قال:
أي رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستائة جناح، كل
جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل
والدواب والياقوت ما الله به عليم (٦). انفرد به أحمد. وروي
أحمد عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في
صورته فقال: ادع ربك، فدعاه عز وجل فطلع عليه سواد
من قبل المشرق فجعل يرتفع ويتشرب، فلما رآه النبي ﷺ
سبح فآثاه فنعشه ومسح البزاق عن شدة (٧). انفرد به أحمد.

[تفسير ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾]

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) أي فاقترب
جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين
محمد ﷺ قاب قوسين أي بقدرهما إذا مُدَّ، قاله مجاهد
وقتادة (٨). وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس
إلى كبدها. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) قد تقدم أن هذه
الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد
عليه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ
أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي ما هي بالآل من الحجارة، بل هي مثلها أو
تزيد عليها في الشدة والقسوة وكذا قوله: ﴿يَحْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ
يَزِيدُونَ﴾ (٩) أي ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة
أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد
فإن هذا ممنوع ههنا وهكذا هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾
(٩) وهذا الذي قلناه من أن هذا المقرب الداني الذي صار

بينه وبين محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو جبريل عليه
السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر
وأبي هريرة (٩)، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى.
وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية
﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) قال: قال رسول الله ﷺ:
«رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتَائَةٌ جَنَاحَ» (١٠).

وروى البخاري عن طلق بن غنم عن زائدة عن الشيباني
قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) فَأَوْحَى
إِلَى عَبْدِيهِ مَا أَوْحَى (١٠) قال: حدثنا عبد الله أن محمداً
رأى جبريل له ستائة جناح (١١).

قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِيهِ مَا أَوْحَى﴾ (١٠) معناه: فأوحى
جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده
محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح. وقد
ذكر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِيهِ مَا
أَوْحَى﴾ (١٠) قال: أوحى الله إليه ﴿أَلَمْ يَحْذَرِكَ يَسَّيَا﴾ ﴿وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١٢) وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة
على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

[هل رأى النبي ﷺ ربه في ليلة الإسراء؟]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) أَفَتُنْكِرُ هُوَ عَلَى مَا رَأَى
(١٢) روى مسلم عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١)
﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) قال: رآه بفؤاده مرتين (١٣)، وكذا
رواه سناك عن عكرمة عن ابن عباس مثله (١٤)، وكذا قال
أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين (١٥).

وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟
فقلت: لقد تكلمت بشيء ففت له شعري فقلت: رويداً ثم

(١) الطبري: ٤٩٩/٢٢، والقرطبي: ٨٥/١٧.

(٢) أبو داود: ٢٨٦/٢، والنسائي: ٩٩/٥.

(٣) الطبري: ٥٠١/٢٢. (٤) القرطبي: ٨٨/١٧.

(٥) الطبري: ٥٠١/٢٢. (٦) أحمد: ٣٩٥/١.

(٧) أحمد: ٣٢٢/١.

(٨) الطبري: ٥٠٣/٢٢، وعبد الرزاق: ٢٥٠/٣.

(٩) الطبري: ٥٠٤/٢٢. (١٠) الطبري: ٥٠٣/٢٢.

(١١) فتح الباري: ٤٧٦/٨. (١٢) القرطبي: ٥٢/١٧.

(١٣) مسلم: ١٠٨/١. (١٤) الطبري: ٥٠٧/٢٢.

(١٥) الطبري: ٥٠٨/٢٢.

قرأت ﴿لَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) فقالت: أين يذهب بك إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كنتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ فقد أعظم على الله الفرية ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين؛ مرة عند سدره المنتهى، ومرة في أجياد وله ستمائة جناح قد سد الأفق (١).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نُورٌ أُنَّى أَرَاهُ»، وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَ هَاجَةِ الْمَوْتِ (١٥) هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة سبحان بما أغنى عن إعادته ههنا، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ يَنْتَشِرُ مِنْ رِيشِهِ النَّهْأَوِيلُ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتُ» (٣) وهذا إسناد جيد قوي، وروى أحمد أيضاً عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من النهاب من الدر والياقوت ما الله به أعلم (٤). إسناده حسن أيضاً.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ» سألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب (٥). وهذا أيضاً إسناد جيد. وروى أحمد عن ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُضْرِ مُعَلَّقِي بِهِ الدَّرُّ» (٦) إسناده جيد أيضاً. وروى الإمام أحمد عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين! هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله! لقد قف شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿لَا تَدْرِيكَ أَأَلْأَبْصَرُ وَهُوَ يَدْرِيكَ أَأَلْأَبْصَرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد

فقد كذب ثم قرأت ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية. ومن أخبرك أن محمداً قد كنتم قد كذب، ثم قرأت ﴿يُنَادِيهِمُ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين (٧).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ (١٣) ﴿رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «إِنَّمَا ذَلِكَ جِبْرِيلُ» لم يره في صورة التي خلق عليها إلا مرتين؛ رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض (٨). أخرجه في الصحيحين من حديث الشعبي به (٩).

[غشيان الملائكة والنور والألوان السدرة]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْفِثُ الِّيْذَرَةُ مَا يَفْثُ﴾ (١٠) قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان وغشيتها نور الرب وغشيتها ألوان ما أدري ما هي؟ وروى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يسرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿إِذْ يَنْفِثُ الِّيْذَرَةُ مَا يَفْثُ﴾ (١٠) قال فرائض من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوان الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفرن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقححات (١١). انفرد به مسلم (١٢).

وقوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ (١١) قال ابن عباس رضي الله عنهما ما ذهب يميناً ولا شمالاً (١٢) ﴿وَمَا طَفَى﴾ (١١) ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة فإنه ما فعل إلا ما أمر به ولا سأل فوق ما أعطي.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) كقولهم ﴿لَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاين

(١) تحفة الأحوذى: ١٦٧/٩. (٢) مسلم: ١٦١/١.

(٣) أحمد: ١٦٠/١. (٤) أحمد: ٣٩٥/١.

(٥) أحمد: ٤٠٧/١. (٦) أحمد: ٤٠٧/١.

(٧) أحمد: ٤٩/٦. (٨) أحمد: ٢٤١/٦.

(٩) فتح الباري: ٤٧٢/٨، ومسلم: ٣٥٩/١.

(١٠) أحمد: ٤٢٢/١. (١١) مسلم: ١٥٧/١.

(١٢) الطبري: ٥٢١/٢٢.

خالد وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «أَرْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبها أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عزي، يا عزي، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحشو التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تِلْكَ الْعُزَّى!»^(٦)

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معتب^(٧).

(قلت): وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدهما وجعلها مكانها مسجداً بالطائف، قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان يدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدهما، ويقال علي بن أبي طالب قال: وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان يبلادهم من العرب بتيالة^(٨).

(قلت): وكان يقال لها الكعبة البليانية، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدهم، قال: وكانت [فلس] لطيء ومن يليها بجبل طيء من سلمى وأجا، قال ابن هشام: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعثه إليه علي بن أبي طالب فهدهم، واصطفى منه سيفين: الرسوب والمخزم، ففعله إياهما رسول الله ﷺ فهما سيفا علي. قال ابن إسحاق: وكان لحميم وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام، وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الخبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدهما البيت. قال ابن إسحاق: وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم^(٩)، ولها يقول المستور بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام.

ولقد شددت على رضاء شدة

فتركتها قفراً بقاع أسماحا

بين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة تقع لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان في ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس.

وَرَبِّمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى (١) وَمَنْزُةُ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى (٢) أَلَكُمُ الذَّكْرُ الْأُنْثَى (٣) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا رَبُّنَا وَكَذَلِكَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْعَثُ إِلَّا لُطْفًا وَمَا يَبْعَثُ إِلَّا لِنَفْسٍ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفَتْحُ (٥) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَكُنَّ لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٦) وَكَرَّمْنَا مَلَكِي فِي السَّمَاءِ لَا تَعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعَثَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى (٧)

الرد على عبدة الأوثان وبيان اللات والعزى ومناة

يقول تعالى مقررًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾، وكانت اللات صخرة بضياء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله ماء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بأعلى من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات، يعنون مؤنثة من، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وحكي عن ابن عباس (رضي الله عنه) وأبي هريرة (رضي الله عنه) أنهما قرؤا اللات بتشديد التاء فسروا بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السوق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه^(١).

وروى البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنه) في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ قال: كان اللات رجلاً يلت السوق سوق الحاج^(٢). قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخل، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها^(٣) كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزي لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مُوَلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(٤).

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه^(٥). وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب تعظيم الكعبة. غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها.

وروى النسائي عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى فأتاها

(١) الطبري: ٥٢٣/٢٢. (٢) فتح الباري: ٤٧٨/٨.

(٣) الطبري: ٥٢٣/٢٢. (٤) فتح الباري: ١٨٨/٦.

(٥) فتح الباري: ٤٧٩/٨. (٦) النسائي في الكبرى: ٤٧٤/٦.

(٧) ابن هشام: ٨٧/١. (٨) ابن هشام: ٨٧/١.

(٩) ابن هشام: ٨٩/١.

وقال ابن إسحاق: وكان ذو الكعبات ليكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:
بين الخورنق والسدير وبارق

والبيت ذو الكعبات من سنداد

[الرد على معتقد المشركين في تذكير

الأنداد وتنايث الملائكة]

ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ ﴿١١﴾ وَمَنْزِلَ النَّارِ ﴿١٢﴾ الْأُخْرَىٰ ۖ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ لَهُ الْآلُفُنَّ ﴿١٣﴾ أَي: اتبعون له ولداً وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتصمت أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قِسْمَ ضَرِيءٍ ﴿١٤﴾ أَي جوراً باطلاً، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال تعالى منكرًا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿ إِنْ مِنْ إِلَّا أَسْمَاءٌ يَتَّبِعُوهَا أَنْتُمْ وَابْنُ أَوْكُرٍ ﴿١٥﴾ أَي من تلقاء أنفسكم ﴿ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ ﴿١٦﴾ أَي من حجة ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أَي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ أَي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا اتقادوا له.

[لا يحصل الخير بالتمني]

ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١٨﴾ أَي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّى، فَإِنَّهُ لَا يَذُرِي مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْ أَمْنِيَّتِهِ» ^(١) تفرد به أحمد. وقوله: ﴿ يَلِلَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٠﴾ أَي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

[لا شفاعاة إلا بإذن الله]

وقوله تعالى: ﴿ وَكَرَّمْنَا لَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَقْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ كقوله: ﴿ مَنْ

ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهي عنها السنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟ ﴿ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ لِلْمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٢﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَتَّبِعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٣﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَبُرْءَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّهُمْ أَغْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَظْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٢٥﴾

[الرد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله] يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله - تعالى الله عن ذلك - كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كُنُوا مِنْ رَحْمَتِي إِنْسًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِطُكُ بِسَخَطِهِمْ وَتَسْتَلُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس لهم علم صحيح يُصَلِّق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وقد شنيع. ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَتَّبِعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» ^(٢).

[الأمر بالإعراض عن أهل الباطل]

وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بُرْءَ إِلَّا الْخَبَرَ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهَا، وَلَا تَبْلُغْ عِلْمَهَا» ^(٤) وقوله تعالى: ﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَظْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴾ ^(٥) أي: هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العائد

(٢) فتح الباري: ٤٤١/٥

(١) أحمد: ٣٥٧/٢

(٣) تحفة الأحوذى: ٤٧٦/٩

شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها فقله تعالى:
﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) وقوله تعالى:
﴿هُوَ أَكْثَرُ بِكُمْ وَإِنْ أَنْتُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: هو بصير بكم عليم
بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم، وتقع منكم
حين أنشأن أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه
أمثال الذر ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير. وكذا
قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كتب الملك الذي
يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد؟
وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تمسحوها
وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَكْثَرُ بِكُمْ وَأَفْضَى﴾ (٥٣) كما قال
تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا
يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٥٤).

وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء
قال: سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن
رسول الله ﷺ نهي عن هذا الاسم وسميت برة، فقال
رسول الله ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَكْلَمُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ
مِنْكُمْ» فقالوا: بيم نسميها؟ قال: «سَمُّوْهَا زَيْنَبُ» (٥٥) وقد ثبت
أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن
أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال
رسول الله ﷺ: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُقْبَ صَاحِبِكَ - مراراً - إِذَا
كَانَ أَحَدُكُمْ مَا دَخَا صَاحِبِيَةَ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبْ فَلَانًا وَاللَّهِ
حَسِيْبُهُ، وَلَا أَزْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ
يَعْلَمُ ذَلِكَ» (٥٦)، وكذا رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن
ماجة (٥٨).

وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى
عثمان فأثنى عليه في وجهه قال: فجعل المقداد ابن الأسود
يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا

(١) أحمد: ٢٧٦/٢.

(٢) فتح الباري: ٢٨/١١، ومسلم: ٢٠٤٦/٤.

(٣) الطبري: ٥٣٧/٢٢. (٤) الطبري: ٥٣٧/٢٢.

(٥) الطبري: ٥٣٧/٢٢. (٦) مسلم: ١٦٨٧/٣.

(٧) أحمد: ٤٦، ٤١/٥.

(٨) فتح الباري: ٣٢٤/٥، ٤٩١/١٠، ٥٦٧، ومسلم:

٢٢٣٢/٢، وأبو داود: ١٥٤/٥، وابن ماجه: ١٢٣٢/٢.

ذليل لا يجوز أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

﴿وَمِمَّا فِي السَّعْيِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا
عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ (٥٩) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ
الْإِثْمِ وَالْمَوَاجِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ
إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا
تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٦٠)

الله يعلم كل صغير وكبير، فهو يجازي كلًّا بحسبه [غير
تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه الغني عما
سواه الحاكم في خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق] ﴿يَجْزِي
الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ (٦١) أي يجازي
الذين عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

صفة المحسنين وغفران اللهم دون الكبائر

ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم
والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات الكبائر وإن وقع
منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في
آية الأخرى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ
مَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ (٦٢) وقال
الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْمَوَاجِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وهذا
الثناء منقطع لأن اللهم من صغائر الذنوب ومحقرات
الأعمال. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً
فيه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ
مَلَأَ كِتَابَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا، أَذْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا
عَيْنَ النَّظَرِ، وَزَيْنَا اللِّسَانِ النَّطْقُ وَالنَّفْسُ تَتَمَتَّى وَتَشْتَهِي،
وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ» (٦٣) أخرجه في الصحيحين (٦٤).

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا
الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي،
ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً
إلا فهو اللهم (٦٥)، وكذا قال مسروق (٦٦) والشعبي.

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له: ابن لبابة الطائفي
قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القبلية
والعزوة والنظرة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد
وجب الغسل، وهو الزنا (٦٧).

الترغيب في التوبة والنهي عن تزكية النفس

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي رحته وسعت كل

المداحين أن نحثو في وجوههم التراب^(١). ورواه مسلم وأبو داود^(٢).

﴿أَمَرَ بَنَاتِي لَدَى قَوْلٍ^(٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى^(٤) أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ^(٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى^(٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى^(٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى^(٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى^(٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ بِرَى^(١٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى^(١١)﴾

[الذم لمن تولى عن الطاعة وبخل بالمال والرد عليه]

يقول تعالى دائماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صُلَّ^(١٢) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتْلَى^(١٣)﴾ ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى^(١٤)﴾ قال ابن عباس: أعطى قليلاً ثم قطعه^(١٥). وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد^(١٦). قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذ كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون: «أكدينا»^(١٧) ويتركون العمل.

وقوله تعالى: ﴿أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ^(١٨)﴾ أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً؟ أي ليس الأمر كذلك. وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة ببخلًا وشحًا وعلماً، ولهذا جاء في الحديث: «أَنْفَقَ بِلَالٌ، وَلَا تَحْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِلَّا لَا»^(١٩) وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ^(٢٠)﴾.

[بيان صحف موسى وإبراهيم]

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى^(٢١) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى^(٢٢)﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي بلغ جميع ما أمر به^(٢٣)، وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى^(٢٤)﴾ الله بالبلاغ^(٢٥). وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّى^(٢٦)﴾ ما أمر به^(٢٧)، وقال قتادة: ﴿وَفَّى^(٢٨)﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتَ بِإِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ، وَكَانَتْ قَاتِلَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاءُكَ لِلنَّاسِ إِيمَانًا﴾ فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. قال الله

الصباح المنير في تهذيب ابن كثير
تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٢٩)﴾.

وروى الترمذي في جامعه عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله - عز وجل - أنه قال: «ابن آدم، اركب لي أربع ركعات من أول النهار أخفك آخره»^(٣٠).

[لا يحمل أحد وزر أحد يوم القيامة]

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى^(٣١)﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنها عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا تَجْمَلُ مِنْ شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ^(٣٢)﴾ ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى^(٣٣)﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الآخر إلا ما كسب هو لنفسه.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»^(٣٤) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سبب وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إِنْ أَطْبِقَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنْ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٣٥) والصدقة الجارية كالزكاة ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾ الآية. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»^(٣٦). وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ بِرَى^(٣٧)﴾ أي يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَبِيلِ اللَّهِ عَالِمُ الْغُيُوبِ^(٣٨)﴾.

(١) أحمد: ٥/٦.

(٢) مسلم: ٤/٢٢٩٧، وأبو داود: ٥/١٥٣.

(٣) الطبري: ٢٢/٥٤١. (٤) الطبري: ٢٢/٥٤٢.

(*) كذا وقع في النسخ ولعله: أكدنا بالتاء إما بضمير الغائب أو بالمخاطب وانظر الطبري.

(٥) الطبري: ١٠/١٩١. (٦) الطبري: ٢٢/٥٤٤.

(٧) الطبري: ٢٢/٥٤٣. (٨) الطبري: ٢٢/٥٤٤.

(٩) تحفة الأحوزي: ٢/٥٨٥. (١٠) مسلم: ٣/١٢٥٥.

(١١) النسائي: ٧/٢٤١. (١٢) مسلم: ٤/٢٠٦٠.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) ﴿إِذْ دَاوُدُ الْغَمَادُ﴾ (٢) **التي لم يخلق مثلها في البلاد** (٣) ﴿فَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ وَأَقْوَامَهُمْ وَأَعْتَاهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٤) **سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا** (٥) أي متتابعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُؤْمِدًا أَقْبَى﴾ (٦) أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً ﴿وَقَوْمٌ نُوِجٌ مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْمَ الظَّالِمِ وَأَطْلَى﴾ (٧) أي: أشد تمرداً من الذين من بعدهم ﴿وَالْمُؤْنِفِكَةَ أَهْوَى﴾ (٨) يعني: مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضودن ولهذا قال: ﴿فَنَفْسُهَا مَا عَشْنَى﴾ (٩) يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٠) ﴿فَيَأْتِي آلَهُ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ (١١) أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة (١٢) وقال ابن جرير: ﴿فَيَأْتِي آلَهُ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ (١٣) يا محمد! والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ (١٤) أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ (١٥) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (١٦) أَقْبَى هَذَا الْحَدِيثِ قَبِيحُونَ (١٧) وَنَصَحُونَ وَلَا يَنْبَغُونَ (١٨) وَأَنْتُمْ سَكِينُونَ (١٩) فَاتَّخِذُوا لَهُمْ أَعْبَادًا (٢٠) ﴿٢١﴾

[الإنذار والتنبية والأمر بالسجدة والخضوع]

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ (٢١) أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَايَنَ الرُّسُلِ﴾ (٢٢) ﴿أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ﴾ (٢٣) أي اقتربت القرية وهي القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٢٤) أي لا يدفعها إذا من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه، والنذير الحذر لما يعان من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢٥) وفي الحديث: «أَنَا النَّذِيرُ الْعَرَبَانِ» (٢٦) أي الذي أعجله شدة ما عان من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل يادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عرباناً مسرعاً، وهو مناسب لقوله: ﴿أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ﴾ (٢٧) أي اقتربت القرية يعني يوم القيامة. كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا كُمْ وَنَحْنُ قَرَاتِ

كَانَ مِنْهُمْ وَتَوَدَّوْا إِلَيَّ عَلَيْهِ النَّيْبُ وَالْهَيْدَةُ فَيَتَفَكَّرُ بِمَا كُنْتُمْ لَوْ (١٥) أي فيخبركم به ويحذركم عليه أتم الجزء إن ذر عن الفخير وإن شراً فشر، وهكذا قال ههنا: ﴿تَمَّ يَجْزِيهِ الْجَزَاءُ﴾ (١٦) أي: الأوفر.

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (١٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى (١٨) وَأَنَّهُ هُوَ أَلْهَمَكَ مَا كُنْتَ تَحْتَسِبُ (١٩) وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَ الْبَاطِنَ (٢٠) وَمِنْ تَطَفُّعِ إِذَا (٢١) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْآخِرَى (٢٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٢٣) وَأَنَّهُ تَوَارَتْ الْبَغِيضُ (٢٤) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَى (٢٥) وَمُؤْمِدًا أَقْبَى (٢٦) وَقَوْمٌ نُوِجٌ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا أَهْمَ الظَّالِمِ وَأَطْلَى (٢٧) وَالْمُؤْنِفِكَةَ أَهْوَى (٢٨) فَفَسَّهَا مَا عَشْنَى (٢٩) فَيَأْتِي آلَهُ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٣٠)

[بعض صفات الرب وأنه يعيد الإنسان كما

بدأه، وذكر بعض ما فعله بعباده]

رسول تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (٣١) أي: المعادي يوم القيامة. روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «روينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسول رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار» (٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى﴾ (٣٣) أي خلق في سادة الضحك والبكاء وسببها وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَلْهَمَكَ مَا كُنْتَ تَحْتَسِبُ﴾ (٣٤) كقوله: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَ الْبَاطِنَ﴾ (٣٥) من تَطَفُّعِ إِذَا تَتَنَّى (٣٦) كقول: «أَحْسَبُ أَنْ يَنْزِلَ سُدَى (٣٧) أَلَمْ يَكُنْ نَفْثَةً مِنْ نَفْثِ بَيْتَى (٣٨) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُفْعَلًا سَرَى (٣٩) فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَ الْبَاطِنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٠) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ لَوْ (٤١)».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْآخِرَى﴾ (٤٢) أي: كما خلق للعبادة هو قادر على الإعادة وهي النشأة الآخرة يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (٤٣) أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقبلاً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما (٤٤)، وعن مجاهد «أَغْنَى» مَوْلٌ «وَأَقْنَى» (٤٥) أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً: «أَغْنَى» أعطى «وَأَقْنَى» (٤٦) رضى. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْغَيْبِ﴾ (٤٧) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه (٤٨) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَى﴾ (٤٩) وهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح

(١) الحاكم: ٨٣/١. (٢) الطبري: ٥٤٩، ٥٤٨/٢٢.

(٣) الطبري: ٥٥١/٢٢. (٤) الطبري: ٥٥٦/٢٢.

(٥) فتح الباري: ٣٢٣/١١.

[اقتراب الساعة وانتشاق القمر]

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال: ﴿أَقْرَبُ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) وقيل وردت الأحاديث بذلك. روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب، فلم يبق منها إلا شف يسر فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ فِيمَا مَضَى مِنْهُ، وَمَا نَرَى مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا تَبِيرًا» (٢).

(حديث آخر يعضد الذي قبله ويقصره) روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قيعقان بعد العصر فقال: «مَا أَغْمَرَتْكُمْ فِي أَغْمَارٍ مِّنْ مَّضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ فِيمَا مَضَى» (٣) وروى الإمام أحمد عن سهل ابن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَبِئْسَتْ أَلْسِنَةً وَالسَّاعَةُ هَكَذَا» وأشار بأصبعه السبابة والوسطى وأخرجاه (٤).

وروى الإمام أحمد عن وهب السوائي قال: قال رسول الله ﷺ: «لَبِئْسَتْ أَلْسِنَةً وَالسَّاعَةُ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ، إِنَّ كَادَتْ لَتَسْفِي» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى (٥). وروى الإمام أحمد عن الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله قال: قدم أنس ابن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» (٦) تفرد به أحمد رحمه الله، وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أساء رسول الله ﷺ أنه الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه (٧).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٨) قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد

الدُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِطَبْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى أَنْصَبُوا خُبْرَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الدُّنُوبِ، مَتَى يُؤْخَذَ بِهَا صَاحِبُهَا، يُهْلِكُهَا» (٩) ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تَعْبُونَ﴾ (١٠) من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَكُونُ﴾ (١١) أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ زِينَةً لَهُمْ حُشُوعًا﴾ (١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ (١٣) قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباس قال: الغناء: هي بيانية اسمد لنا: عن لنا، وكذا قال عكرمة (١٤). وفي رواية عن ابن عباس ﴿سَيِّدُونَ﴾ (١٥) معروضون (١٦)، وكذا قال مجاهد وعكرمة، ثم قال تعالى أمراً لعباده بالسجود له، والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿فَانْجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا﴾ (١٧) أي فاحضعوا له وأخلصوا ووحده. روى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (١٨). انفرد به دون مسلم، وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه (١٩). وقد رواه النسائي في الصلاة (٢٠).

آخر تفسير سورة النجم. والله الحمد والمنة.

تفسير سورة اقتربت الساعة

وهي مكية

قد تقدم في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحي والفطر وكان يقرأ بها في المحافل الكبار لاشتغالها على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَخَرٌ (٤) حَكَمَهُ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ (٥)

(١) أحمد: ٣٣١/٥. (٢) الطبري: ٥٥٩/٢٢.

(٣) عبد الرزاق: ٢٥٥/٣. (٤) فتح الباري: ٤٨٠/٨.

(٥) أحمد: ٣٩٩/٦. (٦) النسائي: ١٦٠/٢.

(٧) مجمع الزوائد: ٣١١/١٠. (٨) أحمد: ١١٥/٢.

(٩) أحمد: ٣٣٨/٥.

(١٠) فتح الباري: ٣٥٥/١١، ومسلم: ٢٢٦٨/٤.

(١١) أحمد: ٣٠٩/٤. (١٢) أحمد: ٢٢٣/٣.

(١٣) فتح الباري: ٦٤١/٦.

وروى ابن جرير أيضًا عن عبد الله قال: لقد رأيت الجبل من فرج القمر حين انشق^(١٤). ورواه الإمام أحمد عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر^(١٥).

[عناد المشركين وموقفهم السيئ]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يَعْرِضُوا﴾ أي لا يتقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به ومعنى ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب، قاله مجاهد وقتادة^(١٦) وغيرهما: أي باطل مضمحل لا دوام له ﴿وَكَذَّبُوا وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به أراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر^(١٧). وقال ابن جريج: مستقر بأهله^(١٨)، وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَآيَةٍ مُّزْدَجَرٍ﴾ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتادي على التكذيب وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه

(١) أحمد: ١٦٥/٣، وقوله: مرتين أي قطعتين.

(٢) مسلم: ٢١٥٩/٤.

(٣) فتح الباري: ٢٢١/٧ و ٤٨٤/٨، ومسلم: ٢١٥٩/٤.

(٤) أحمد: ٨١/٤. (٥) دلائل النبوة: ٢٦٨/٢.

(٦) فتح الباري: ٤٨٤/٨.

(٧) فتح الباري: ٢٢١/٧، ومسلم: ٢١٥٩/٤.

(٨) الطبري: ٥٦٩/٢٢. (٩) دلائل النبوة: ٢٦٧/٢.

(١٠) مسلم: ٢١٥٩/٤، وتحفة الأحوذى: ١٧٥/٩.

(١١) مسلم: ٢١٥٨/٤، وتحفة الأحوذى: ١٧٥/٩.

(١٢) أحمد: ٣٧٧/١.

(١٣) فتح الباري: ٤٨٣/٨، ومسلم: ٢١٥٨/٤.

(١٤) الطبري: ٥٦٧/٢٢. (١٥) أحمد: ٤١٣/١.

(١٦) الطبري: ٥٦٧/٢٢. (١٧) الطبري: ٥٧٢/٢٢.

(١٨) الدر المنثور: ٦٧٣/٧.

حججة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد اكتمل في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

(رواية أنس بن مالك): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سألت أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(١) ورواه مسلم^(٢). وروى البخاري عن أنس بن مالك، أن أهل مكة رأوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما^(٣). وأخرجاه أيضًا من طرق.

(رواية جبير بن مطعم الله): روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما. وأخرجاه أيضًا من طرق.

(رواية جبير بن مطعم الله): روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار لثنتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم^(٤). تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق آخر^(٥).

(رواية عبد الله بن عباس الله): روى البخاري عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ^(٦). ورواه البخاري أيضًا ومسلم^(٧). وروى ابن جرير عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٨) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر^(٩) قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه^(٨).

(رواية عبد الله بن عمر): روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(١) قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق لثنتين، فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(٩) وهكذا رواه مسلم والترمذي^(١٠) وقال الترمذي: حسن صحيح^(١١).

(رواية عبد الله بن مسعود): روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين، حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشْهَدُوا»^(١٢) وهكذا رواه البخاري ومسلم^(١٣).

واضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تَنْتَظِرُونَ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبِيرَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُونَ﴾ والَّذِينَ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْمِرُ﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٨﴾

[سوء أحوالهم يوم القيامة]

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْمِرُ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأحوال، ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطيرير ﴿فَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ عِيرٌ﴾ على الكافرين عير يسير ﴿١٠﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ فَدَعَا رَبُّهُ إِلَى مَغْلُوبٍ فَأَنْتَصَرَ ﴿١١﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مُمْسِكِهِ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُشِرَ ﴿١٤﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ مَابَةً مِّنْ مَّذِكِرٍ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿١٨﴾

[قصة قوم نوح، والعبرة بها وبقيصص الأقوام]

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي صرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي استظير جنوباً. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي انتهروه وزجره وتواعده ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ بِنُوحٍ لَّكَوْنُ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ قاله ابن زيد ^(٢) وهذا متوجه، حسن. ﴿فَدَعَا رَبُّهُ إِلَىٰ

مَغْلُوبٍ فَأَنْتَصَرَ ﴿١١﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعبر مقاومتهم فانتصر أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مُمْسِكِهِ﴾ قال السدي: وهو الكثير ^(٣) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التفت التي هي محال النيران نبعت عيوناً ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي من السماء والأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي أمر مقدر.

قال ابن جريج عن ابن عباس ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مُمْسِكِهِ﴾ كثير، لم تطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماء ان على أمر قد قدر ^(٤). ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُشِرَ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرطبي وقناة وابن زيد: هي المسامير ^(٥). واختاره ابن جرير. قال: وواحدها دسار. ويقال: دسير كما يقال حيك وحباك والجمع حُبْك ^(٦). وقوله: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بامرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ مَابَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة ^(٧). والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَرَوَاهُ لَمْ يَأْكُلْهَا ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْأَفْكَالِ الْمَشْحُونِ﴾ وعلقتهم من مثله، ما يكون ^(٨). وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَاطِقُا السَّمَاءَ حَمَلْتَنكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ لِنَحْمِلَنَّكِ لَذِكْرَةٍ وَنَعِيماً أَذْنُ رَبِّهِ ﴿١٢﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ. روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ ^(٩).

وهكذا رواه البخاري عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ وقال النبي ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ ^(١٠). وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي كيف كان عذاب لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالشار. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد أن يذكر

(١) الطبري: ٥٧٦/٢٢. (٢) الطبري: ٥٧٧/٢٢.

(٣) القرطبي: ١٣١/١٧. (٤) الدر المنثور: ٦٧٥/٧.

(٥) الطبري: ٥٨٠/٢٢، والقرطبي: ١٣٢/١٧.

(٦) الطبري: ٥٧٨/٢٢. (٧) الطبري: ٥٨٢/٢٢.

(٨) فتح الباري: ٤٨٥/٨. (٩) فتح الباري: ٤٨٤/٨.

شديد ووعد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ وَنَذَرْنَاهُمْ﴾ أي اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى أمرًا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْقُبْهُمْ وَأَصْطَلِقْ﴾ (٧) أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿وَنَبِّهْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِتْنَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة كقوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٨).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَرِيبٍ مَخْضَرٌ﴾ (٩) قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء. وإذا جاءت حضروا اللبن (١٠). ثم قال تعالى: ﴿فَادَاوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنَهُمْ فَفَعَّرُوا﴾ (١١) قال المفسرون: هو عافر الناقة، واسمه قدار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقُّهَا﴾ (١٢) ﴿فَطَعْنُوهُ﴾ أي فجسسه ﴿فَفَعَّرُوا﴾ (١٣) فكيف كان عذابي ونذري (١٤) أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّعَةً وَجَعَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَنَظِيرِ﴾ (١٥) أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد ويبس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين، والمحظن قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين يبس ويحترق وتسفيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظائرًا على الإبل والمواشي من يبس الشوك فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيرِ الْحَنَظِيرِ﴾ (١٦).

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لَوْطٌ بِالنَّذْرِ﴾ (١٧) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (١٨) ﴿نِعْمَةً مِنَّا يَذْكُرُ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (١٩) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ (٢٠) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَتْ أَيْتُهُمْ فُؤُودُهُمْ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٢١) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (٢٢) ﴿فَدُودُهُمْ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٢٣) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٢٤).

[قصة قوم لوط]

يقول تعالى مخبرًا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وازتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكًا لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مداتهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم

ساحس، كما قال: ﴿كَتَبْنَا نَزْلَهُ إِلَيْكَ مِيزَانًا لِّدَبْرُوا عَائِدَةً﴾ ﴿كَرُّوا إِلَى الْآيَةِ﴾ (٢٥) وقال تعالى: ﴿فَاتِمَّا يَسْرِتْهُ﴾ ﴿لِيُنَبِّشَ بِهِ الْمُتَقَاتِلِينَ وَنُذِرُهُ قَوْمًا لَّدَا﴾ (٢٦) ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٢٧) أي فهل من متذكر بهذا القرآن يقدس الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب طلي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ (٢٨).

﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٢٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّتْنَمِرَةٍ﴾ (٣٠) ﴿تَرَى النَّاسَ كَانُهُمْ أَصْجَادٌ تَحِلُّ مُفْعِرٍ﴾ (٣١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٣٣).

[قصة عاد]

يقول تعالى مخبرًا عن عاد قوم هود، إنهم كذبوا رسولهم أيضًا كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿فِي يَوْمٍ نَّخَسٍ﴾ أي عليهم عاد الضحاك وقناة والسدي (٣٤) ﴿مُتَسِمِّرٍ﴾ (٣٥) عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالآخروي. وقوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ أَصْجَادٌ تَحِلُّ مُفْعِرٍ﴾ (٣٦) ﴿وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي لَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُمْ حَتَّى تَغِيَهُ عَنِ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ تَكْسَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَنَلُّ رَأْسَهُ فَيَقْبِى جِثَّةً بِلَا رَأْسٍ، وَهَذَا نَسَالُ﴾ (٣٧) ﴿تَرَى النَّاسَ كَانُهُمْ أَصْجَادٌ تَحِلُّ مُفْعِرٍ﴾ (٣٨) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٣٩) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٤٠).

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ﴾ (٤١) ﴿فَقَالُوا أَتُبْرَكُ مِنَّا وَجِدًا نَّبَعُدُ إِنَّا إِذَا لَأَمْنَى صَلَاتِي وَشُعْرَى﴾ (٤٢) ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ﴾ (٤٣) ﴿سَيَعْمَلُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشِيرِ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ وَنَذَرْنَاهُمْ﴾ ﴿فَارْقُبْهُمْ وَأَصْطَلِقْ﴾ (٤٥) ﴿وَنَبِّهْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِتْنَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِيبٍ مَخْضَرٌ﴾ (٤٦) ﴿فَادَاوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنَهُمْ فَفَعَّرُوا﴾ (٤٧) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّعَةً وَجَعَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَنَظِيرِ﴾ (٤٩) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٥٠).

[قصة ثمود]

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحًا ﴿فَقَالُوا أَتُبْرَكُ مِنَّا وَجِدًا نَّبَعُدُ إِنَّا إِذَا لَأَمْنَى صَلَاتِي وَشُعْرَى﴾ (٥١) يقولون: لقد خبتنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا. ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ﴾ (٥٢) أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْمَلُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشِيرِ﴾ (٥٣) وهذا تهديد لهم

(١) الدر المنثور: ٧/٦٧٦. (٢) الطبري: ٢٢/٥٨٧.

(٣) الطبري: ٢٢/٥٩٢.

[نصح قريش وتهديدهم]

ثم قال تعالى: ﴿أَكْفَرُكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفْرِي﴾ قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم من أهل كواكب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب، أنتم خير من أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (١٣) أي أم معكم من براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال تعالى عني عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ (١٤) أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء. قال الله تعالى: ﴿سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّفُونَ الذُّبُرَ﴾ (١٥) سيتفرق شملهم ويغلبون.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو يمشي قبة له يوم بدر: «أَشْهَدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِن شِئْتَ لَآتِيَنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبْنَاءُ فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ وَوَدَّ حَسْبَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحِجَّتُ عَلَى رَبِّكَ فَخَرَجَ وَهُوَ بِشَفِ الدَّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّفُونَ الذُّبُرَ﴾ (١٥) مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ» (١٦).

وروى البخاري عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة المؤمنتين فقالت: نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية العيب في السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (١٦) (١٧) هكذا رواه هبة مختصراً، ورواه في فضائل القرآن مطولاً (١٨) ولم يخرج مسلم ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي صَلَاتِي وَمُعْرَ (١٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ وَجُوهُهُمْ دُورًا مَسَّ سَقَرٌ (١٨) إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ (١٩) وَمَا أَنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٢٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهِيَ مِنْ مُذَكِّرٍ (٢١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٢٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ مُسْتَطَرٍّ (٢٣) إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي حَنْتٍ وَنَهْرٍ (٢٤) فِي مَقْعَدِ صَنِيعٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ (٢٥)﴾

[عاقبة المجرمين]

نجبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسر ما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا بشر كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي كما كانوا في سر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضالاً

وأرسلها وأتعت بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة ﴿لَا آتَالُ لَوْ طَغَيْتُمْ يَسْرَ (٢١)﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته؛ أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٢٢) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه وتماروا به.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل في صور شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية ولوط عليه السلام يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساءهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٢٦)﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا نَأْتِي فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ أي ليس لنا فيهن أرب ﴿وَلَيْكُمُ النَّعْمُ مَا تَأْتِي (٢٧)﴾ فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالخيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٢٨)﴾ أي لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ (٢٩)﴾ وَلَقَدْ يَسْرَا الْفَرَارَى لِلَّذِينَ هُمْ مِنْ مُذَكِّرٍ (٣٠).

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ (٣١)﴾ كَذَبُوا بِبَنَاتِكُمْ كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٣٢) أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٣٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٣٤) سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّفُونَ الذُّبُرَ (٣٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٣٦)

[قصة آل فرعون]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالنبأ إن آمنوا، النذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم خبر ولا عين أثر.

(١) فتح الباري: ٤٨٥/٨ و٤٨٦. (٢) فتح الباري: ٨٦/٨.

(٣) فتح الباري: ٦٥٥/٨.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجَزُ وَالْكَيْسُ»^(٨) ورواه مسلم منفرداً به من حديث مالك^(٩).

وفي الحديث الصحيح: «اسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(١٠) وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، جَعَلَتْ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ»^(١١) وروى الإمام أحمد عن عبادة ابن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لم تطعم الإيوان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار^(١٢). ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب^(١٣). وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» زاد ابن وهب: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١٤). ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب^(١٥).

(١) أحمد: ٤٤٤/١.

(٢) مسلم: ٢٠٤٦/٤، وتحفة الأحوذى: ١٧٦/٩، وابن ماجه: ٣٢/١.

(٣) كشف الأستار: ٧٢/٣. (٤) الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(٥) جزء الحسن بن عرفة: ٤٦. (٦) أحمد: ٩٠/٢.

(٧) أبو داود: ٢٠/٥. (٨) أحمد: ١١٠/٢.

(٩) مسلم: ٢٠٤٥/٤. (١٠) مسلم: ٢٠٥٢/٤.

(١١) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٧. (١٢) أحمد: ٣١٧/٥.

(١٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٨/٦. (١٤) مسلم: ٢٠٤٤/٤.

(١٥) تحفة الأحوذى: ٣٧٠/٦، وابن ماجه: ١٤١٧/٢.

سحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقيعاً وتوبيخاً: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^(١٨).

أكل شيء بقدر

وقوله تعالى: «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ»^(١٩) كقوله: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا»^(٢٠) وكقوله تعالى: «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) أَي قَدَرٌ قَدَرًا هَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَمَّةٌ لَسَتْ عَلَى إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الترتبة القدريّة، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيوان من صحيح البخاري رحمه الله، ولنذكر منها الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة.

روى أحمد عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاضعونهم في القدر فنزلت: «يَوْمَ يُسْجَنُ فِي الْأَنْزَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^(٢١) «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ»^(٢٢) وهكذا رواه مسلم (الترمذي وابن ماجه)^(٢٣). وروى البزار عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات «إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي سَلَاسِلٍ وَسُجُرٍ»^(٢٤) «يَوْمَ يُسْجَنُ فِي الْأَنْزَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^(٢٥) «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ»^(٢٦) إلا في أهل القدر^(٢٧). وروى ابن أبي حاتم عن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^(٢٨) «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ»^(٢٩) قال: «نَزَلَتْ فِي أَنْفُسٍ مِنْ أُمَّتِي يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكْذِبُونَ بِقَدَرِ اللَّهِ»^(٣٠).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو يتزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له: قد تكلم في القدر، فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^(٣١) «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ»^(٣٢) أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين^(٣٣). وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه. فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فأياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَكْذِبُونَ بِالْقَدَرِ»^(٣٤) ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل^(٣٥).

[التهديد بتنفيذ أمر الله فيهم]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠) وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ أي إنما نأمر بالشئ مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (٥١) أي فهل من منعتظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَجَلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢) أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي من أعمالهم ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ (٥٣) أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يَا عَائِشَةُ إِنَّا لَكِ وَتَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنْ اللَّهِ طَالِبًا» (١) ورواه النسائي وابن ماجه (٢).

[عاقبة الملتقين الحسنة]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم، مع التويخ والتقريع والتهديد. وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنِنٍ﴾ (٥٥) أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها. وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «الْمُقْنِنُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلَابَتِهِ يَمِينِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ» (٣) وأخرجه مسلم والنسائي (٤). آخر تفسير سورة اقتربت ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

[توطئة عن سورة الرحمن]

روى الإمام أحمد عن زر أن رجلاً قال: كيف تعرف هذا

الحرف من (ماء غير آسن) أو (أسن)؟ فقال: كل القرآن لم قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: أمراً كهذا الشعر لا أبأ لك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قريتين قريتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (٥٦). وروى أبو عيسى الترمذي عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لَقَدْ قَرَأَ عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةً الْجِنُّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْوُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلُّ أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٧) قَالُوا: لَا يَشْئِي مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ» ثم قال: هذا حديث غريب (٦). ورواه الحافظ أبو بكر البزار (٧). وروى أبو جعفر ابن جرير عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن قرئت عنده فقال: «مَا لِي أَسْمَعَ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (٥٧) إِلَّا قَالَتْ الْحُرُ لَا يَشْئِي مِنْ نِعَمٍ رَبَّنَا نَكْذِبُ» (٨) ورواه الحافظ البزار (٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانُ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَابِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالذُّرَى (١٢) وَالْعَصْفُ وَالرَّيْحَانُ (١٣) فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ (١٤)

[القرآن أنزله الرحمن وعلمه]

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقته أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَ الْبَيَانَ (٤) قال

(١) أحمد: ١٥١/٦.

(٢) تحفة الأشراف: ١٢/٢٥٠، وابن ماجه: ١٤١٧/٢.

(٣) أحمد: ١٦٠/٦.

(٤) مسلم: ١٤٥٨/٣، والنسائي: ٢٢١/٨.

(٥) أحمد: ٤١٢/١.

(٦) تحفة الأحوذى: ٩/١٧٧.

(٧) الحاكم: ٤٧٣/٢.

(٨) الطبري: ٢٣/٢٣.

(٩) كشف الأستار: ٧٤/٣.

﴿وَالْتَحُلْ ذَاتَ الْأَكَامِرِ﴾ (١١) أفرد بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويا بساً، والأكام قال ابن جريج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع (٧) وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العقود، فيكون بسراً ثم رطباً ثم ينضج ويتناهى يفعه واستواؤه.

﴿وَالْتَبَّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (١٢) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَالْتَبَّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني التبن (٨). وقال العوفي عن ابن عباس: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس (٩)، وكذا قال قتادة والضحاك وأبو مالك عصفه: تبنه (١٠). وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: والريحان يعني الورق (١١). وقال الحسن: هو ريحانكم هذا (١٢)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ (١٣) خضر الزرع (١٣)، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها. وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقللاً والريحان الورق يعني إذا أوجن وانعقد فيه الحب.

[الإنسان مغمور بنعم الله]

وقوله تعالى: ﴿فَإَيَّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣) أي فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده، أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به: اللهم بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. وكان ابن عباس يقول: لا بأيا يارب أي لا نكذب بشيء منها (١٤).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿فَإَيَّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٥) رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿فَإَيَّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٦) مَرَجَ

الحسن: يعني النطق، وذلك لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الخلق واللسان والشفنتين على اختلاف مخارجها وأنواعها.

[آيات الله في الشمس والقمر والسماء والأرض]

وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (١٥) أي يجريان تعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَجَعَلَ آيَاتُ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (١٨) قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق (١١). فروى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات (٢). وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري (٣)، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء (٤). وكذا قال الحسن وقتادة (٥)، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ وَكَثِيرٌ مِّنَ الْبَائِسِينَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ آلِيزَاتِ﴾ (١٧) يعني البعد كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿أَلَا تَطْفِئُ فِي آلِيزَاتِ﴾ (١٨) أي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا آلِيزَاتِ﴾ (١٩) أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَيْمُنَ مِيزَانٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْبَاءِ﴾ (٢٠) أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالجبال الراسيات الشاخات، لتستقر لما على وجهها من الأنعام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنعام الخلق (٢١) ﴿فِيهَا فَنَكِهَةٌ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح

(١) الطبري: ١١/٢٣. (٢) الطبري: ١١/٢٣.

(٣) الطبري: ١١/٢٣. (٤) الطبري: ١٢/٢٣.

(٥) الطبري: ١٢/٢٣. (٦) الطبري: ١٦، ١٥/٢٣.

(٧) الدر المنثور: ٦٩٣/٧. (٨) الطبري: ١٨/٢٣.

(٩) الطبري: ١٨/٢٣. (١٠) الطبري: ١٨/٢٣.

(١١) الطبري: ١٩/٢٣. (١٢) البغوي: ٢٦٨/٤.

(١٣) الطبري: ٢١/٢٣. (١٤) الطبري: ٢٣/٢٣.

تَحْرِيْبُ بَشِيْبٍ (١) يَنْهَمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْقِيَانِ (٢) فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا
تُكْذِبَانِ (٣) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٤) فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا
تُكْذِبَانِ (٥) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٦) فَيَأْتِي ءَالَهُ
رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ (٧)

[بيان خلق آدم والجنان]

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه
الجنان من مارج من نار، وهو طرف لجهنم، قاله الضحاك عن
ابن عباس (١)، وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن
زيد (٢)، وقال العوفي عن ابن عباس: من مارج من نار من
هيب النار من أحسنها (٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة،
قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ
الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ يَمًا وَصِفَ لَكُمْ» (٤) ورواه
مسلم (٥). وقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٦)
تقدم تفسيره.

[الامتنان بكونه رب المشرقين والمغربين]

﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٧) يعني مشرقى الصيف
والشتاء ومغربى الصيف والشتاء، وقال في الآية الأخرى:
﴿لَا أُشِيرُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس
وتقلعها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية
الأخرى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٨)
وهذا المراد منه جنس المشرق والمغرب، ولما كان في
اختلاف هذه المشرق والمغرب مصالح للخلق من الجن
والإنس قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٩).

[الامتنان بنوعى البحر والسفن]

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٠) قال ابن عباس: أي
أرسلهما (١). وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ (١١) قال ابن زيد: أي منعهما
أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما (٢)،
والمراد بقوله ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار
السارحة بين الناس، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة
الفرقان عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ
فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجًا مَحْجُورًا﴾ (٣) ﴿يَنْهَمَا
بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٤) أي وجعل بينهما برزخًا، وهو الحاجز من
الأرض لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل
واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٥) واللؤلؤ
معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد
وقتادة وأبو رزين والضحاك وروى عن علي (٦)، وقيل:
كباره وجيده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف (٧). وقد
روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء
فتحت الأصداف في البحر أفواهاها فما وقع فيها، يعني من
قطر فهو اللؤلؤ (٨). إسناده صحيح، ولما كان اتخاذ هذه
الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَيَأْتِي
ءَالَهُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعني السفن التي تجري
﴿فِي الْبَحْرِ﴾ قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن ف منشآت
وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت (١٠). وقال قتادة:
﴿الْمُنشَآتُ﴾ يعني المخلوقات (١١). وقال غيره: (المنشآت)
بكسر الشين يعني البادئات ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ (١٢) أي كالجمال في
كبرها وما فيها من التاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى
قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح للناس في جلب ما
يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَهُ
رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (١٣).

﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَيُّ رُبِّكُمْ وَجْهٌ لَكُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٤)
﴿فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (١٥) يَسْتَكْفِرُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ
هُوَ فِي شَأْنٍ (١٦) ﴿فَيَأْتِي ءَالَهُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (١٧)

[بيان شأن الله وبقائه وغناه]

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيدهون ويموتون
أجمعون، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ولا يقضى
أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت
بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا. قال قتادة: أنبأ بما خلق ثم
أنبأ أن ذلك كله فان. وفي الدعاء المأثور: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، يَا
بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،

(١) الطبري: ٢٦/٢٣. (٢) الطبري: ٢٧/٢٣.

(٣) الطبري: ٢٦/٢٣. (٤) أحمد: ١٦٨/٦.

(٥) مسلم: ٤/٢٢٩٤. (٦) الطبري: ٢٩/٢٣.

(٧) الطبري: ٣١/٢٣.

(٨) الطبري: ٣٣/٢٣، والقرطبي: ١٦٣/١٧.

(٩) الطبري: ٣٤/٢٣. (١٠) الطبري: ٣٥/٢٣.

(١١) الطبري: ٣٧/٢٣. (١٢) القرطبي: ١٦٤/١٧.

يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخْلِصِ مِنْ حُكْمِهِ وَلَا النُّفُوزِ عَنْ حُكْمِهِ فَيْكَمْ،
أَيْنَمَا ذَهَبْتُمْ أُحِيطَ بِكُمْ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْحُشْرِ، الْمَلَائِكَةُ مُحَدِّقَةٌ
بِالْخَلَائِقِ سَبْعَةَ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى
الذَّهَابِ ﴿الْإِسْطَاطْنِي﴾ (٣٢) أَيِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ
الْعَرَّ﴾ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كُنَّا أَغْشَيْتُمْ وُجُوهَهُمْ وَقَطَعْنَا مِنْ أَتْلَلٍ مَظْلِمًا وَلَئِنْ أَكْحَبَ النَّارُ هُمْ فَيَاخُذِلُون﴾ (٧٧) ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْطَلٌ مِنَ النَّارِ وَتُفْجَرُ سَبْعَةُ مَضَامِيرٍ﴾ (٧٨) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الشواط: هو هب النار (٧٩).

وقال أبو صالح: الشواظ هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحّاك: ﴿شَوَاطِلٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ سيل من نار. وقوله تعالى: ﴿وَنَحَّاسٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَنَحَّاسٌ﴾ دخان النار ^(٨)، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد ابن جبير وأبي سنان ^(٩). وقال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحّاسًا، بضم النون وكسرها، والقراء مجمعة على الضم ^(١٠) وقال مجاهد: النحاس الصُّفْر يذاب فيصب على رؤوسهم ^(١١). وكذا قال قتادة ^(١٢)، وقال الضحّاك:

ونحاس سيل من نحاس، والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْصِرُوا﴾ (٣) ﴿فَإِنِّي إِلَٰهٌ رَبِّكُمْ أَتَذْكُرُونَ﴾ (٤).

﴿ فَإِذَا انشَبَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٣٧) ﴿ فَإِنِ الْآلَاءُ رِيكٌ مَّا نَكَدِيانِ ﴾ (٣٨) ﴿ قَوْمٌ يَدَّ لَا يُشَلُّ عَنْ دِيَنِهِمْ اِسْ وَلَا جَسَدٌ ﴾ (٣٩) ﴿ فَإِنِ الْآلَاءُ رِيكٌ مَّا نَكَدِيانِ ﴾ (٤٠) ﴿ يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالْيُوسَى وَالْأَفْئَامِ ﴾ (٤١) ﴿ فَإِنِ الْآلَاءُ رِيكٌ مَّا نَكَدِيانِ ﴾ (٤٢) ﴿ هَلْ يَدْرِي جَهَنَّمَ إِنِّي يُلَكَّ بَهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤٣) ﴿ يَطْرُقُونَ بِهَا مَبَازِيقَ وَبِهَا حَمِيرٌ ﴾ (٤٤) ﴿ فَإِنِ الْآلَاءُ رِيكٌ مَّا نَكَدِيانِ ﴾ (٤٥)

وَلَمْ
أَهْد
يَلْ
وَقَدْ
سَمَاءُ
مَنْ
سَدَّ
بَنَاءُ
رِي
أَت
دَعَا
(ن)
فِي
إِلَى
سَاءُ
تَمَّ

فَتَبَكَ نَسْتَعِثُ، أَصْلَحَ لَنَا شَأْنُنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكُنْ لَنَا إِلَى أَنْفُسِنَا
نَذْرًا عَيْنًا، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ». وقال الشعبي: إذا قرأت
كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ (١٦) ﴿ فَلَا تَسْكُتُ حَتَّى تَقْرَأَ ﴿وَبَقِيَ وَبِمَكَرِكَ
وَالْمَلِكِ وَالْإِكْرَامِ (١٧) ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ
يَوْمًا لَكَ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه
آية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجل فلا يعصى،
أن يطاع فلا يخالف كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وكقوله إخبارًا
من المصنفين: ﴿لَمَّا نَظَعُوا كُرْسِيَّ لَبِيبِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: ﴿ذُو
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (١٧)﴾ ذو العظمة والكبرياء (٢). ولما أخبر تعالى
عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون
في الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه
بعدد قال: ﴿فَيَأْتِيَ الْآخِرَ رَبُّكُمْ أَنْ تَكُونُوا (١٨)﴾. وقوله تعالى:
﴿وَسَأَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهذا إخبار
عن غناه عما سواه وافتقار الخلق إليه في جميع الآئات وأنهم
سألونه بلسان حالهم وقالمهم وأنه كل يوم هو في شأن. قال
أعشى عن مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
(١٩)﴾ قال من شأنه أن يجيب داعيًا أو يعطي سائلًا، أو يفك
عالمًا أو يشفي سقيم (٣).

﴿سَنُرِيْكُمْ اِيَّاهُ الثَّغْلَانِ﴾ ﴿٣١﴾ فَاَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾
مَعْتَبِرَيْنِ وَالْاِنْسَانِ اِنْ اَسْتَطَعْتُمْ اَنْ تَعْبُدُوْا مِنْ اَفْطَارِ السَّنَوَاتِ
وَالْاَرْضِ فَاَعْبُدُوْا لَا تَعْبُدُوْا اِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَاَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمْ
تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ بَرِّسْ عَلَيْنِكَ سَوَاطِئَ مِنْ نَّارٍ وَحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِكُنِ ﴿٣٥﴾
فَاَيَّ ءَالٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾

[تہدید لائقین و بیان لہول ما یصیبہما]

وقال ابن جريج: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾ أي سقضي لكم. وقال البخاري: سنداسبكم لا يشغله شيء عن شيء^(٤)، وهو معروف في كلام العرب، يقال لأتفرغن لك وما به شغل، يقول: لأخذنك على غرتك. وقوله تعالى: ﴿أَبَاهُ الثَّقَلَيْنِ﴾^(٥) الثقلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»^(٥) وفي رواية: «إِلَّا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ». وفي حديث الصور: «الثَّقَلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ»^(٦) «فَيَأْتِيهِ آلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ»^(٧). ثم قال تعالى: ﴿يَتَعَمَّرُ الْبَيْنَ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْطَعْتُمْ أَنْ تَفْعُلُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعُوا أَوْ تَنْفَعُوا وَالْإِسْطَاطِنِ﴾^(٨) أي لا تستطيعن هزنا من أمر الله وقدره بل هو محيط بكم، لا

(١) الدر المنثور: ٦٩٨/٧. (٢) الطبري: ٨٦/٢٣.

(٣) الطبری: ٣٩/٢٣. (٤) فتح الباری: ٤٨٧/٨.

(٥) فتح الباری: ٢٤٤/٣. (٦) الطوال للطبرانی: ٢٧٣.

(٧) الطبری: ٤٥/٢٣. (٨) الطبری: ٤٧/٢٣.

(٩) الطبری: ٤٧/٢٣. (١٠) الطبری: ٤٨/٢٣.

(١١) الطبري: ٤٨/٢٣. (١٢) الطبري: ٤٨/٢٣.

[بيان أهوال القيامة وأحوال المجرمين]

يقول تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذُو مِيزَةٍ﴾ (١١) وقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلِكُ كَثْرَتِ زِيْلًا﴾ (١٥) وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأُوتِرَتْ زَوَالًا وَحُفَّتْ (٢)﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٧)﴾ أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردي الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ (٣)﴾ كالوان الدهان (١).

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَئْسَ عَنْهُمْ لَحْنٌ يَخْتَرُونَ (٢١)﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٢٢) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٢٣)﴾ فهذا في حال وثم في حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم، وقال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِفُّهُمْ أَجْمِينَ (٢٤) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ ولهذا قال قتادة: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَئْسَ عَنْهُمْ لَحْنٌ يَخْتَرُونَ (٢٦)﴾ قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٧). قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الشُّجْرُونَ بِأَسْمَائِهِمْ (٢٨)﴾ أي بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون (٢٩). (قلت): وهذا كما يعرف المؤمنون بالغيرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالْأُفْئَامِ وَالْأَفْئَامِ (٣١)﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وقال الأعمش عن ابن عباس: يؤخذ بناصرته وقدميه فيكسر كما يكسر الخطب في التنور (٣٢).

وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُكْفُرُونَ (٣٣)﴾ أي هذه النار التي كنتم بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله تعالى: ﴿يَطْرُقُونَ بِهَا وَيَبْنَ وَيَبْنَ وَيَبْنَ (٣٤)﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالحساس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا الْأَغْصَانُ فِي أَعْتِقِهِمْ وَالسَّيْلُ يُسْحَبُونَ (٣٥)﴾ في الحميم ثم في النار يسحبون (٣٦).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطيع في شدة ذلك، قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطْرُقُونَ بِهَا وَيَبْنَ وَيَبْنَ وَيَبْنَ (٣٤)﴾ أي: قد انتهى غليه واشتد حره (٣٥). وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسدي (٣٦) وقال قتادة: قد آن طبعه منذ خلق الله السماوات والأرض (٣٧). وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس وهي كالثني يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ تُدْمِى النَّارُ يُسْجَرُونَ (٣٨)﴾ والحميم الآن يعني الحار، وعن القرظي رواية أخرى ﴿حَمِيمٌ يَأْتِي (٣٩)﴾ أي حاضره وهو قول ابن زيد أيضاً (٤٠)، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً أنه الحار كقوله تعالى: ﴿تَشَقَّقُ مِنَ عَيْنَيْهِ آتِيَةً (٤١)﴾ أي حارة شديدة الحر لا تستطيع، وكقوله: ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ لِأَنَّهُ يَعْصِي أَسْتَوَاهُ وَنَضَجَهُ فَقَوْلُهُ: ﴿حَمِيمٌ يَأْتِي (٤٢)﴾ أي حميم حار جداً ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضل ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأس مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال متمناً بذلك على بريته ﴿يَأْتِي آتِيَةً يَكُونُ كَالْغَدَايَةِ (٤٣)﴾.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٤)﴾ يَأْتِي آتِيَةً يَكُونُ كَالْغَدَايَةِ (٤٥) ذَرَأَاتٍ أَفْئَانٍ (٤٦) يَأْتِي آتِيَةً يَكُونُ كَالْغَدَايَةِ (٤٧) فِيهَا عَيْنَانِ تَحْرِيانِ (٤٨) يَأْتِي آتِيَةً يَكُونُ كَالْغَدَايَةِ (٤٩) فِيهَا مِنْ كُلِّ فَرْكَةٍ زَوَاجٍ (٥٠) يَأْتِي آتِيَةً يَكُونُ كَالْغَدَايَةِ (٥١).

[أحوال المتقين ونعيمهم في الجنات]

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٥٠)﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضْءِ آيَتِيهَا وَمَا فِيهَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبِ آيَتِيهَا وَمَا فِيهَا، وَمَا يَبْنَ الْقَوْمُ وَيَبْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا

(١) الطبري: ٢٣/٥٠. (٢) الطبري: ٢٣/٥٢.

(٣) الطبري: ٢٣/٥٢. (٤) الدر المنثور: ٧/٧٠٤.

(٥) الطبري: ٢٣/٥٤.

(٦) الطبري: ٢٣/٥٤، ٥٥، والقرطبي: ١٧/١٧٥.

(٧) الطبري: ٢٣/٥٤. (٨) الطبري: ٢٣/٥٥.

﴿فَطُوفُهَا دَائِبَةٌ﴾ (٢٣) وقال: ﴿وَدَائِبَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ طُوفُهَا نَذِيلًا﴾ (٢٤) أي: لا تمتنع من تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٥) ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فَبَيْنَ﴾ أي في الفرش ﴿فَقَصِرَتْ الظَّرْفُ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد^(٨)، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعولها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك. ولا في الجنة شيئاً أحب إلي منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك.

﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِذْ فَتِلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٦) أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة. وقال أروطاة بن المنذر: سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجنة؟ قال: نعم وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات^(٩)، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِذْ فَتِلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٦) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٧) ثم قال ينعتن للخطاب ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوثَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٢٨) قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ^(١٠).

وقد روى مسلم عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: «إِنْ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةُ الْبَذْرِ، وَالتِّي تَلِيهَا عَلَى [أَضْوَاءِ] كَوْكَبِ دُرِّي فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مِثْلُ سُوقَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَضْرَبُ»^(١١) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(١٢). وروى الإمام أحمد عن أنس، أن

إِنَّ الْكَثِيرَاءَ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنِ^(١١) وأخرجه بقية الجماعة لأباً داود من حديث عبد العزيز به^(١٢). وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة فأتوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (١٣) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٤) ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذُرَّاءُ أَفْنَانٍ﴾ (١٥) أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فاتقة ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٦) هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة أن لأنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً. ﴿فَيَمَاعِيَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (١٧) أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من مع الأسوان ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٨) قال الحسن بنصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسيل^(١٩). وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خير لذة للشاربين^(٢٠)، ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَرْكَحَةٍ﴾ (٢١) أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٢) قال إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس، ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل^(٢٣). وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني: أن من ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل.

﴿يُنَكَّبُونَ عَلَى فَرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْبَى وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٢٤) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٥) ﴿فَبَيْنَ قَصِرَتْ الظَّرْفُ لَمْ يَطْمِئْنُوا إِذْ فَتِلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٦) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٧) ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوثَ وَالْمَرْجَانَ﴾ (٢٨) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٩) ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٣٠) ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣١)

يقول تعالى: ﴿مُنَكَّبُونَ﴾ يعني: أهل الجنة، والمراد بالانكباء ههنا: الاضطجاع ويقال: الجلوس على صفة الترييع ﴿عَلَى فَرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْبَى﴾ وهو ما غلط من الديباج. قاله عكرمة والضحاك وقتادة^(٦). وقال أبو عمران الجوني: هو الديباج الزين بالذهب، فنه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. قال أبو إسحاق عن هبيرة بن أنس عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيت الظواهر^(٧). ﴿وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٣٢) أي ثمرهما قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال تعالى:

(١) فتح الباري: ٨/٤٩١.

(٢) مسلم: ١/١٦٣، وتحفة الأحوذى: ٧/٢٣٢، والنسائي في الكبرى: ٤/٤١٩، وابن ماجه: ١/٦٦.

(٣) القرطبي: ١٧/١٧٨، (٤) القرطبي: ١٧/١٧٨.

(٥) القرطبي: ١٧/١٧٩.

(٦) الطبري: ٢٣/٦١، القرطبي: ١٧/١٧٩.

(٧) الطبري: ٢٣/٦٢، (٨) الطبري: ٢٣/٦٣ و ٢١/٤١.

(٩) الطبري: ٢٣/٦٥، (١٠) الطبري: ٢٣/٦٦، ٦٧.

(١١) مسلم: ٤/٢١٧٨.

(١٢) فتح الباري: ٦/٣٦٧ و ٤/٤١٧، ومسلم: ٤/٢١٧٩، ٢١٨٠.

رسول الله ﷺ قال: «الْعَذْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ زَوْجَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدُهُمْ، أَوْ مَوْضِعٌ قَلْبُهُ - يَعْنِي سَوْطُهُ - مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَطْلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَتَصِفُّهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ^(١) ورواه البخاري بنحوه ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَرَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ^(٣) أي لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ولما كان في الذي ذكره نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ^(٤).

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٥) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٦) مَدَّاهُمَا جَنَّتَانِ ^(٧) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٨) فِيهِمَا عِصْيَانٌ ^(٩) فَضَاخَتَانِ ^(١٠) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١١) فِيهِمَا فَكِّهَةٌ ^(١٢) وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ ^(١٣) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١٤) فِيهِ خَيْرٌ حَسَنٌ ^(١٥) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١٦) خُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَارِ ^(١٧) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١٨) لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَلْبِهِمْ وَلَا جَانٌ ^(١٩) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٢٠) مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ ^(٢١) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٢٢) بَنَزَلَ أَسْمُ رَيْكُ ذِي الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ^(٢٣).

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمترلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٢٤) وقد تقدم في الحديث: جنتان من ذهب آتيتهما وما فيها وجنتان من فضة آتيتهما وما فيها، فالأوليان للمقربين والآخران لأصحاب اليمين ^(٢٥). وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من فضة لأصحاب اليمين والدليل على شرف الأوليين على الآخرين وجوه: (أحدها) أنه نعت الأوليين قبل هاتين والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٢٦) وهذا ظاهر في شرف التقديم وعلوه على الثاني وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ^(٢٧) وهي الأغصان أو الفنون في الملاف، وقال ههنا: ﴿مَدَّاهُمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٢٨) أي سوداوان من شدة الري من الماء. قال ابن عباس في قوله: ﴿مَدَّاهُمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٢٩) قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء ^(٣٠). وقال محمد بن كعب: ﴿مَدَّاهُمَا جَنَّتَانِ﴾ ^(٣١) تمتلئتان من الخضرة، ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكية بعضها في بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عِصْيَانٌ تَجْرِيَانِ﴾ ^(٣٢) وقال ههنا: ﴿فَضَاخَتَانِ﴾ ^(٣٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي فياضتان والجري أقوى من النضج ^(٣٤) وقال الضحاك: ﴿فَضَاخَتَانِ﴾ ^(٣٥) أي تمتلئتان ولا تنقطعان ^(٣٦). وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عِصْيَانٌ تَجْرِيَانِ﴾ ^(٣٧) وقال ههنا: ﴿فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ ^(٣٨) ولا شك أن الأولى أعنى وأكثر في الأفراد والتوزيع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعميم، ولهذا ليس قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ ^(٣٩) من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والريمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

ثم قال: ﴿فِيهِ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾ ^(٤٠) قيل: المراد: خيرات كثيرة حسنة في الجنة قاله قتادة: وقيل: خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة، الحسنة الخلق، الحسنة الوجه، قاله الجهمي وروى مرفوعاً عن أم سلمة ^(٤١)، وفي الحديث الآخر أن الطور العين يغني: «نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحَسَنَاتُ، خُلِقْنَا لِأَزْوَاجِ كِرَامٍ» ^(٤٢) ثم قال: ﴿خُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ ^(٤٣) وهناك قال: ﴿بَنَزَلَ أَسْمُ رَيْكُ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ ^(٤٤) ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل من قصرت وإن كان الجميع مخدرات. وقوله تعالى: ﴿فِي الْخِيَارِ﴾ ^(٤٥) روى البخاري عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي السَّجَّةِ خِيَمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ رَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمَوْسُونَ» ^(٤٦) ورواه أيضاً وقال: «ثَلَاثُونَ مِيلًا» ^(٤٧)، وأخرجه مسلم ولفظه: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ لَخِيَمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَهْلٌ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» ^(٤٨) وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَلْبِهِمْ وَلَا جَانٌ﴾ ^(٤٩) قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَانَتْ أَلْيَافُهُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ^(٥٠) فَإِنِّي ءَالَاءُ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٥١).

(١) الطبري: أحمد: ١٤١/٣. (٢) فتح الباري: ١٩/٦.

(٣) فتح الباري: ٤٩١/٨. (٤) الدر المنثور: ٧١٥/٧.

(٥) الدر المنثور: ٧١٦/٧. (٦) الطبري: ٣٥٧/٢٣.

(٧) الطبري: ٧٥/٢٣.

(٨) الطبراني في الأوسط: ٢٥٧/٧.

(٩) فتح الباري: ٤٩١/٨. (١٠) فتح الباري: ٢٦٦/٦.

(١١) مسلم: ٢١٨٢/٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ خَافِضَةُ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾
 إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً
 مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ
 الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٩ وَالسَّيْفُونَ
 السَّيْفُونَ ۝١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾

[ذكر أحوال يوم القيامة]

الواقعة من أسماء يوم القيامة سُمِّيَتْ بذلك لتحقق كونها
 وجودها كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَذِ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ قوله
 تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله
 كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها كما قال: ﴿أَسْتَجِيبُوا
 لِرَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١٦﴾ لا تَكْفُرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ وقال تعالى:
 ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ
 فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٧﴾
 ومعنى «كاذبة» ﴿٢﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بد أن تكون.
 وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة (١١) قال
 ابن جرير: والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية (١٢).

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣﴾ أي تخفض أقوامًا إلى
 أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع
 آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا
 وضعاء، هكذا قال الحسن وقاتدة وغيرهما (١٣). وقال العوفي
 عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣﴾ أسمعته القريب
 والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت
 فأسمعت الأقصى، وكذا قال الضحاك وقاتدة.

وقوله تعالى: ﴿مُنْكَيْنٍ عَلَى قَرْفٍ خَصْرٍ وَبَقَرِي جَسَانٍ ۝١٦﴾
 علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الررف المحابس (١٤). وكذا
 مجاهد وعكرمة والحسن وقاتدة والضحاك وغيرهم: هي
 محابس (١٥). وقال العلاء بن [بلد]: الررف على السرير كهشة
 محابس التليل. وقوله تعالى: ﴿وَبَقَرِي جَسَانٍ ۝١٦﴾ قال ابن
 عباس وقاتدة والضحاك والسدي: البقري الزرابي (١٦).

ثم قال: ﴿بَنَزَلْنَاكُمْ نَارًا وَذَى لِّلْمَلِكِ وَالْإِكْرَامِ ۝١٧﴾ أي هو أهل أن
 يُلَ فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن
 يكر فلا ينسى. وقال ابن عباس: ﴿ذَى لِّلْمَلِكِ وَالْإِكْرَامِ ۝١٧﴾
 ذي العظمة والكبرياء (١٧). وفي الحديث الآخر: «إِنَّ مِنْ
 أَجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ، وَحَامِلِ
 لِقُرْآنٍ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَانِي عَنْهُ» (١٨).

وقد روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال: سمعت
 رسول الله ﷺ يقول: «أَلْظُوا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١٩)
 رواه النسائي (٢٠). وقال الجوهري الظ فلان بفلان إذا لزمه،
 يقول ابن مسعود: أَلْظُوا بِذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أي الزموا،
 قال: الإلظاظ هو الإلحاح. (قلت) وكلاهما قريب من
 الآخر - والله أعلم - وهو المداومة واللزوم والإلحاح، وفي
 صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت: كان رسول
 الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول:
 «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ
 وَالْإِكْرَامِ» (٢١).

آخر تفسير سورة الرحمن والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

[فضل سورة الواقعة]

- (١) الطبري: ٢٣/٨٣. (٢) الطبري: ٢٣/٨٤.
 (٣) الطبري: ٢٣/٨٥. (٤) الطبري: ٢٣/٨٦.
 (٥) أبو داود: ٥/١٧٤. (٦) أحمد: ٤/١٧٧.
 (٧) النسائي في الكبرى: ٦/٤٧٩.
 (٨) مسلم: ١/٤١٤، وأبو داود: ٢/١٧٩، وتحفة الأحوذى:
 ١٩٢/٢، والنسائي: ٣/٦٩، وابن ماجه: ١/٢٩٨.
 (٩) تحفة الأحوذى: ٩/١٨٤. (١٠) أحمد: ٥/١٠٤.
 (١١) الطبري: ٢٣/٨٩. (١٢) الطبري: ٢٣/٨٩.
 (١٣) الطبري: ٢٣/٩٠.

قال أبو إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال
 أبو بكر: يا رسول الله! قد شئت، قال: «شَيْئَتِي هُوَ،
 وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»
 رواه الترمذي وقال: حسن غريب (٢٢). وروى الإمام أحمد
 عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات
 كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف،
 كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر
 الواقعة ونحوها من السور (٢٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقادة وغير واحد في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي زلزلت زلزلاً^(١). وقال الربيع بن أنس: ترج الغربال بما فيها كرج الغربال بما فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَغْفَارٌ رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي فتفت فتاً، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقادة: وغيرهم^(٢). وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَيْبًا مَهْلًا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ قال أبو إسحاق عن الحارث عن علي بن: ﴿هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت يطير منه الشر فإذا وقع لم يكن شيئاً^(٤). وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبشه. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ كيبس الشجر الذي تذرره الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها [أي قلعتها] وصيرورتها كالعهن المنفوش.

[الناس ثلاثة أقسام يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش. وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمنهم ويؤخذ بهم ذات اليمين. وقال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عباداً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾^(٥) وَأَصْحَابُ الْشِّمَةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَةِ^(٦) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ^(٧) وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ الْآيَةَ.

وقال محمد بن كعب وأبو حنيفة يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام^(٨). وقال السدي: هم أهل عليين.

والمراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ﴾ وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدن تدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ في جَنَّتِ النَّعِيمِ^(٩).

﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ^(١٠) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(١١) عَلَى مَرْبٍ مَوْضُوعٍ^(١٢) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ^(١٣) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ^(١٤) يَأْكُوبُ وَأُيَاقُ^(١٥) وَكُلٌّ مِنْ مَّيْنٍ^(١٦) لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ^(١٧) وَفَلَكُهُمْ وَمَا يَسْمُرُونَ^(١٨) وَلَهُمْ فِيهَا نِسْرَةٌ^(١٩) وَحُورٌ عِينٌ^(٢٠) كَأَمْثَلِ الذَّوْلِيِّ^(٢١) الْمَكُونِ^(٢٢) حَزَّاءٌ^(٢٣) يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا^(٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا^(٢٦)

[السابقون وجزاؤهم]

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلثة أي جماعة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(١١) وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾^(١٢) و﴿الْآخِرِينَ﴾^(١٣) فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالأخريين هذه الأمة، وهذا رواية عن مجاهد والحسن البصري، رواها عنها ابن أبي حاتم، وهو اختيار ابن جرير^(١٤) واستأنس بقوله: ﴿لَنُحْضِرَنَّ الْأَخْيَرُونَ السَّابِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١٥) ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(١٦) شق ذلك على أصحاب النبي

(١) الطبري: ٩١/٢٣. (٢) الطبري: ٩٢/٢٣، ٩٣.
(٣) الطبري: ٩٣/٢٣. (٤) الطبري: ٩٤/٢٣.
(٥) القرطبي: ١٩٩/١٧. (٦) الطبري: ٩٨/٢٣.
(٧) فتح الباري: ٥٢٦/١١.

نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) فقال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - أَوْ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - وَتُقَاسِمُوهُمْ النِّصْفَ الثَّانِي» ورواه الإمام أحمد (١).

وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، بل الظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) أي من هذه الأمة.

روى ابن أبي حاتم عن السري بن يحيى قال: قرأ الحسن: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الْمُرْفُوقُونَ (١٦) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (١٧) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٨) قال: ثلثة ممن مضى من هذه الأمة. وروى عن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٩) قال: كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، ليحتمل أن تعم الآية جميع الأمم، كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت أن الضحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (٢٠). الحديث شامع. وقال عليه السلام: «لَا تَرَالِ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ» روى لفظ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ كَذَلِكَ» (٢١) والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وفي لفظ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» وفي آخر: «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ (٢٢) قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به (٢٣)، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم وقتادة والضحاك وغيره (٢٤). وقال ابن جرير: ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحس بطنها، وهو فصيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللاقي.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىهَا مُتَنَبِّلِينَ﴾ (٢٥) أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد ﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنُّ مُخَلَّدُونَ﴾ (٢٦) أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يتكبرون عنها، ولا يشيرون ولا يتغيرون ﴿يَا كُؤَبُ وَالْبَارِقُ وَكُلٌّ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٢٧) أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا أذان. والأباريق التي جمعت الوصفين، والكؤوس الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْغَرُونَ عَنْهَا وَلَا يَذِفُونَ﴾ (٢٨) أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهاها عن هذه الخصال (٢٩). وقال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطية وقتادة والسدي: ﴿لَا يَصْغَرُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس (٣٠) وقالوا في قوله: ﴿وَلَا يَذِفُونَ﴾ (٢٨) أي لا تذهب بعقولهم (٣١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكْهُوْهُمَا بِمَآ يَخْتَارُونَ﴾ (٣٢) وَيَقْرَظِرُونَ مَا يَشْتَهُونَ (٣٣) أي: ويطفون عليهم بما يختارون من الشار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيير لها. وروى الإمام أحمد عن ثابت قال: قال أنس: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أنشئ عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنني أنثيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان بن فلان وفلان بن فلان فسمت اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجاء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ - أو البيدخ - قال: فغمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بسر، فأكلوا من بسر ما شأوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما

(١) أحمد: ٣٩١/٢. (٢) البخاري: ٣٦٥١.

(٣) البخاري: ٣١١٦، ٧١، ٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٣١١، ٧٣١٢.

٧٤٥٩، ٧٤٦٠ وغير ذلك.

(٤) الطبري: ٩٩/٢٣. (٥) الطبري: ٩٩/٢٣، ١٠٠.

(٦) القرطبي: ٢٠٤/١٧. (٧) الطبري: ١٠٣/٢٣، ١٠٤.

(٨) الطبري: ١٠٤/٢٣، ١٠٥.

أرادوا، وأكلت معهم فجاء البشير من تلك السرية، فقال: ما كان من رؤيا كذا وكذا فأصيب فلان وفلان حتى عدّ اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة، فقال: «فَصِّي رُؤْيَاكَ» فقصتها وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال: هذا لفظ أبي يعلى^(١)، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ طَرِقَ مِمَّا يَنْتَهَوْنَ﴾^(٢) روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ طَيْرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبُحْتِ، يَزْعُمِي فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أَكَلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا» قالها ثلاثاً: «وَأَيُّ لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْ يَأْكُلُ مِنْهَا»^(٣) انفرد به أحد من هذا الوجه. وقوله تعالى: «كَأَمْثَالِ اللَّوْلُوكِ الْكَثْرُونَ»^(٤) أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم في سورة الرحمن وصفهن «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ»^(٥) وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضاً، ولهذا قال: «جَزَاءَهُنَّ كَأَنَّهُنَّ يَسْمَعُونَ»^(٦) أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيًا﴾^(٧) إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا^(٨) أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لا غياً أي عبثاً خالياً من المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير، أو ضعيف كما قال: «لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْبَةً»^(٩) أي كلمة لاغية «وَلَا تَأْنِيًا»^(١٠) أي ولا كلاماً فيه قبح «إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا»^(١١) أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعض كما قال تعالى: «وَيُخَيِّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ»^(١٢) وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ»^(١٣) في سائر مَثُور^(١٤) وَطَلَحَ مَثُور^(١٥) وَطَلَحَ مَثُور^(١٦) وَمَا مَسْكُوبٌ^(١٧) وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ^(١٨) لَا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُوعٌ^(١٩) وَفُتِي مَرْوَعَةٌ^(٢٠) إِيَّا أَشْأَنَهُنَّ^(٢١) لِنِشَاءِ^(٢٢) فَعَلَّاهُنَّ أَتَكَارَ^(٢٣) عَرَا أَتَكَارَ^(٢٤) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ^(٢٥) نَلَّةٌ نَلَّةٌ^(٢٦) نَلَّةٌ^(٢٧) نَلَّةٌ^(٢٨) نَلَّةٌ^(٢٩) نَلَّةٌ^(٣٠) نَلَّةٌ^(٣١) نَلَّةٌ^(٣٢) نَلَّةٌ^(٣٣) نَلَّةٌ^(٣٤) نَلَّةٌ^(٣٥) نَلَّةٌ^(٣٦) نَلَّةٌ^(٣٧) نَلَّةٌ^(٣٨) نَلَّةٌ^(٣٩) نَلَّةٌ^(٤٠) نَلَّةٌ^(٤١) نَلَّةٌ^(٤٢) نَلَّةٌ^(٤٣) نَلَّةٌ^(٤٤) نَلَّةٌ^(٤٥) نَلَّةٌ^(٤٦) نَلَّةٌ^(٤٧) نَلَّةٌ^(٤٨) نَلَّةٌ^(٤٩) نَلَّةٌ^(٥٠) نَلَّةٌ^(٥١) نَلَّةٌ^(٥٢) نَلَّةٌ^(٥٣) نَلَّةٌ^(٥٤) نَلَّةٌ^(٥٥) نَلَّةٌ^(٥٦) نَلَّةٌ^(٥٧) نَلَّةٌ^(٥٨) نَلَّةٌ^(٥٩) نَلَّةٌ^(٦٠) نَلَّةٌ^(٦١) نَلَّةٌ^(٦٢) نَلَّةٌ^(٦٣) نَلَّةٌ^(٦٤) نَلَّةٌ^(٦٥) نَلَّةٌ^(٦٦) نَلَّةٌ^(٦٧) نَلَّةٌ^(٦٨) نَلَّةٌ^(٦٩) نَلَّةٌ^(٧٠) نَلَّةٌ^(٧١) نَلَّةٌ^(٧٢) نَلَّةٌ^(٧٣) نَلَّةٌ^(٧٤) نَلَّةٌ^(٧٥) نَلَّةٌ^(٧٦) نَلَّةٌ^(٧٧) نَلَّةٌ^(٧٨) نَلَّةٌ^(٧٩) نَلَّةٌ^(٨٠) نَلَّةٌ^(٨١) نَلَّةٌ^(٨٢) نَلَّةٌ^(٨٣) نَلَّةٌ^(٨٤) نَلَّةٌ^(٨٥) نَلَّةٌ^(٨٦) نَلَّةٌ^(٨٧) نَلَّةٌ^(٨٨) نَلَّةٌ^(٨٩) نَلَّةٌ^(٩٠) نَلَّةٌ^(٩١) نَلَّةٌ^(٩٢) نَلَّةٌ^(٩٣) نَلَّةٌ^(٩٤) نَلَّةٌ^(٩٥) نَلَّةٌ^(٩٦) نَلَّةٌ^(٩٧) نَلَّةٌ^(٩٨) نَلَّةٌ^(٩٩) نَلَّةٌ^(١٠٠)

[أصحاب اليمين وجزاؤهم]

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقرين فقال: «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ»^(١) أي أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى: «فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ»^(٢) قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو

الأحوص وقسامة بن زهير والسفر بن نسير، والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وأبو حذرة وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه^(٣). وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر، وهو رواية عن عكرمة ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك به، والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس من هذا، لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، وعتبة بن عبد السلمي قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ: فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعل شجراً أكثر شوكاً منها، يعني الطلح، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِنْهَا ثَمَرَةً، مِثْلَ خُصْوَةِ النَّسِيبِ الْمَلْبُودِ فِيهَا سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، لَا يُشْبِهُ لَوْنُ آخَرَ»^(٤) وقوله «وَطَلَحٌ مَخْضُودٌ»^(٥) الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاة واحدة طلحة، وهو شجر كثير الشوك وقال مجاهد: «مَخْضُودٌ»^(٦) أي: متراكم الثمر يذكر بذلك قريشاً لأنهم كانوا يعجبون من وجّ وظلاله من طلح وسدر وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد: «وَطَلَحٌ مَخْضُودٌ»^(٧) قال الموز. قال: وروى عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقسامة بن زهير وقتادة وأبي حذرة مثل ذلك^(٨)، وبه قال مجاهد وابن زيد، وزاد فقالوا: أهل اليمن يسمون الموز الطلح^(٩)، روى يحك ابن جرير غير هذا القول.

وقوله تعالى: «وَطَلَحٌ مَخْضُودٌ»^(١٠) روى البخاري عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسَمُّونَ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، أَفْرُؤُوا إِنْ يَسْتَنْتُمْ: «وَطَلَحٌ مَخْضُودٌ»^(١١) ورواه مسلم^(١٢). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسَمُّونَ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، أَفْرُؤُوا إِنْ يَسْتَنْتُمْ: «وَطَلَحٌ مَخْضُودٌ»^(١٣) وكذا رواه مسلم^(١٤). وكذا رواه البخاري^(١٥).

(١) أحمد: ١٣٥/٣، ومسند أبي يعلى: ٤٤/٦.

(٢) أحمد: ٢٢١/٣. (٣) الطبري: ١١٠/٢٣.

(٤) البعث لابن أبي داود: ٥٩. (٥) الطبري: ١١٤/٢٣.

(٦) الطبري: ١١٣/٢٣، ١١٢/٢٣. (٧) الطبري: ١١٣/٢٣.

(٨) فتح الباري: ٤٩٥/٨. (٩) مسلم: ٢١٧٥/٤.

(١٠) أحمد: ٤٨٢/٢. (١١) مسلم: ٢١٧٥/٤.

(١٢) فتح الباري: ٣٦٨/٦.

وكذا رواه عبد الرزاق (١).

وقوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ﴾ (٢٣) لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ (٢٤) أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُشْجِئِينَ﴾ أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى: «فَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَتَبَقُّهَا مِثْلُ قِلَالٍ هَجَرَ» (٢).
وفيها أيضًا عن ابن عباس قال: خسفت الشمس فصلي رسول الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيك تكعكت، قال: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَّاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهَا لَأَكَلْتُ مِنْهَا مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا» (٣).

وروى الإمام أحمد عن عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الخوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُذْهِبُ طُوبَى» - قال: فذكر شيئًا لا أدري ما هو - قال: أي شجر أوصنا تشبه؟ قال: «كَيْسَتْ تُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ» فقال النبي ﷺ: «أَتَيْتَ الشَّامَ؟» قال: لا. قال: «تُشَبِّهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تَدْنِي الْجَوْزَةَ، تُنْبِتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، وَيَتَفَرَّشُ أَغْلَاهَا». قال: ما عظم أصلها؟ قال: «لَوْ ازْتَحَلَّتْ جَذْعَةً مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ مَا أَخَاطَتْ بِأَصْلِهَا، حَتَّى تَنْكَبِرَ تَرْقُوتُهَا هَرَمًا» قال: فيها عنب؟ قال: «نَعَمْ» قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْعَقِ وَلَا يَفْتَرُّ» قال: فما عظم الحبة؟ قال: «هَلْ دَبَّحَ ثَوْبُكَ نَيْسًا مِنْ عَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟» قال: نعم، قال: «فَسَلِّحْ إِهَابَهُ فَأَغْطَاهُ أَمَّاكَ فَقَالَ: الْحِجْزِيُّ لَنَا مِنْهُ دَلُوءٌ؟» قال: نعم. قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لشبعني وأهل بيتي؟ قال: «نَعَمْ، وَعَاقَةُ عَشِيرَتِكَ» (٤).

وقوله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ (٢٤) أي لا تنقطع شتاء ولا صيفًا، بل أكلها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء. وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد (٥)، وقد تقدم في الحديث: إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى وقوله تعالى: ﴿وَرُفُشٌ مَرْوَعَةٌ﴾ (٢٥) أي عالية وطيبة ناعمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ (٢٦) جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٢٧) عُرُبًا أَتْرَابًا (٢٨).

لَا مَحْصَبَ الْيَبِينَ (٢٨) جرى الضمير على غير مذكور. ولكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصُّفُوفُ الْإِيَادُ﴾ (٢٩) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٠) يعني الشمس على المشهور من قول المفسرين، وقال الأخفش: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك (٦)، وقال أبو عبيدة: ذكرن في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٣١) كَأَمْثَلِ الثُّلُوثِ الْكَوْكُورِ (٣٢) فقله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعدما كن عجائز رُمَصًا، صرنا أبكارًا عربًا، أي بعد الثبوبة عدن أبكارًا عربًا متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة.

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا فِي النِّسَاءِ» قلت: يا رسول الله، ويطبق ذلك؟ قال: «يُعْطَى قُوَّةٌ مِائَةٌ» (٨) ورواه الترمذي وقال: صحيح غريب (٩). وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل إلى نساءنا في الجنة؟ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ» (١٠) قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني متحبيات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبيعة هي كذلك، وقال الضحاك عن ابن عباس: العُرب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون (١١)، وكذا قال عبد الله ابن سرجس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية ويحيى ابن أبي كثير وعطية والحسن وقاتدة والضحاك وغيرهم (١٢).

وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يعني في (١) عبد الرزاق: ٤١٧/١١.
(٢) فتح الباري: ٣٤٩/٦، ومسلم: ١٤٦/١.
(٣) فتح الباري: ٦٢٧/٢، ومسلم: ٦٢٦/٢.
(٤) أحمد: ١٨٣/٤. (٥) الطبري: ١١٨/٢٣.
(٦) الطبري: ١١٨/٢٣. (٧) الطبري: ١١٨/٢٣.
(٨) مسند الطيالسي: ٢٦٩. (٩) تحفة الأحوذى: ٢٤١/٧.
(١٠) الطبراني في الصغير: ١١٦٨/٢ (١١) الدر المنثور: ١٦/٨.
(١٢) الطبري: ١٢١/٢٣ و١٢٢ و١٢٣.

سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة^(١)، وقال مجاهد: الأثراب: المستويات، وفي رواية عنه: الأمثال^(٢)، وقال عطية: الأقران، وقوله تعالى: ﴿لَا صَحْبَ الْيَمِينِ﴾^(٣) أي خلقن لأصحاب اليمين، أو ادخرن لأصحاب اليمين، أو زوجن لأصحاب اليمين. والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾^(٤) فجعلتهن أبقاراً^(٥) عزراً^(٦) أثراً^(٧) لأصحاب اليمين^(٨) فقصد به أنشأناهن لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير^(٩).

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا صَحْبَ الْيَمِينِ﴾^(١٠) متعلقاً بها قبله وهو قوله: ﴿أَثَرًا﴾^(١١) لأصحاب اليمين^(١٢) أي في أسنانهم، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُوتُهُمْ عَلَى صُورِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ ذُرِّي فِي السَّمَاءِ إِصْأَةً، لَا يَتَوَلَّوْنَ، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ، وَلَا يَتَقَلَّوْنَ، وَلَا يَتَمَحَّطُونَ، أَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَتَجَازِيهِمُ الْأَلْوَةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحَوَرُ الْعَيْنُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، يَسْتَوُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْآخِرِينَ﴾^(١٤) وثُمَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْآخِرِينَ^(١٥) أي جماعة من الأولين، وجماعة من الآخرين.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود، قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهَا بِأَنْبِيَاءِ، فَمَرَّ عَلَيَّ النَّبِيُّ، وَالنَّبِيُّ فِي الْعَصَابَةِ، وَالنَّبِيُّ فِي الثَّلَاجَةِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» وتلا قسادة هذه الآية: «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ»^(١٦) قال: «حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قال: «قُلْتُ: رَبِّي مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قال: «قُلْتُ: رَبِّ قَائِنٌ أَمْنِي؟ قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فِي الظَّرَابِ» قال: «فَإِذَا وَجَّهَ الرِّجَالَ» قال: «قَالَ: أَرْضَيْتُ؟» قال: «قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ رَبِّ». قال: «انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ عَنْ يَسَارِكَ، فَإِذَا وَجَّهَ الرِّجَالَ» قال: «أَرْضَيْتُ؟ قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ رَبِّ» قال: «فَلِإِنْ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال: وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد: وكان بدرياً قال: يا نبي الله! ادع الله أن يجعلني منهم قال: فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» قال: أنشأ رجل آخر قال: يا نبي الله، ادع الله أن

يجعلني منهم قال: «سَبَقَتْ بِهَا عَكَّاشَةٌ» قال: فقال رسول الله ﷺ: «فَلِإِنْ اسْتَطَعْتُمْ - فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي - أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّبْعِينَ فافْعَلُوا، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الظَّرَابِ وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الْأَفْقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ نَاسًا كَثِيرًا أَقْبَسُوا حَوْلَهُ» ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكبرنا، ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قال: فكبرنا، قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قال: فكبرنا، قال ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْآخِرِينَ﴾^(١٧) قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً؟ قلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام وولدوا يمشون. قال: فبلغه ذلك فقال: «بَلْ هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١٨) وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحاح وغيرها^(١٩).

﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ﴾^(٢٠) في سُمُورٍ وَجِيمٍ^(٢١) وَظِلٍّ^(٢٢) يَنْبُتُ^(٢٣) لَا يَبْرِدُ وَلَا كَرِيمٍ^(٢٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَمْلُوكِينَ^(٢٥) وَكَانُوا يَصِيرُونَ عَلَى لَيْثِ الْعَظِيمِ^(٢٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَا مَنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَظَلْنَا أَوَلَمْ نَلْعَبْ^(٢٧) أَوَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ^(٢٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^(٢٩) لَمَجْمُوعُونَ لَكَ بِيَوْمٍ مَمْلُومٍ^(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ إِلَيْهَا لَمَصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ^(٣١) لَا كُفْرَ بَيْنَ شَيْعَرَيْنِ نَفَرٍ^(٣٢) فَلَوْلَئِنْ يَمَّا الْبَطُونِ^(٣٣) فَتَسْرُونَ عَلَيْهِ وَنَ الْجِيمِ^(٣٤) فَتَسْرُونَ شَرِبَ الْكَيْمِ^(٣٥) هَذَا تَرْكُومَ الْيَمِينِ^(٣٦)

[أصحاب الشمال وأحوالهم وجزاؤهم]

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم يذكر أصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ﴾^(٣٧) أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سُمُورٍ﴾ وهو الهواء الحار ﴿وَجِيمٍ﴾ وهو الماء الحار ﴿وَالظِّلِّ يَنْبُتُ﴾^(٣٨) قال ابن عباس: ظل الدخان^(٣٩)، وكذا

(١) الدر المنثور: ١٦/٨. (٢) الطبري: ٢٣/٢٤.

(٣) الطبري: ٢٣/١٢٥.

(٤) فتح الباري: ٦/٤١٧، ومسلم: ٤/٢١٧٩.

(٥) الحاكم: ٤/٤٧٧.

(٦) فتح الباري: ١٠/١٦٤ و٢٢٤ و١١/٣١٢ و٤١٣.

ومسلم: ١/١٩٨ و١٩٩، وتحفة الأحوذ: ٧/١٣٩، وأحمد:

٤٠١/١.

(٧) الطبري: ٢٣/١٢٩.

الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربه يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْآزْدَادِ نُزُلًا ۖ﴾ (١٧) أي ضيافة وكرامة.

﴿تَحْنُ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (١٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (١٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (١٩) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾ (٢٠) ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١) وَلَقَدْ عَشَرُ النَّشْأَةِ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢)

[ثبوت القيامة ودليل المعاد]

يقول تعالى مقررًا للمعاد، وراذًا على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد، من الذين قالوا: ﴿أَوَدَّأَيْنَا وَكَأَنَّا رَبُّهَا وَعَظَمَاءُ أَوَّانًا لِمَبْعُوثُونَ﴾ (٢٣) وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد. فقال تعالى: ﴿تَحْنُ خَلْقَتَكُمْ﴾ أي نحن ابتداءنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداية، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٢٤) أي فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال مستدلًا عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٦) أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي صرفناه بينكم. وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض (٢٧) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾ (٢٨) أي وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) أي من الصفات والأحوال. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَشَرُ النَّشْأَةِ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠) أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجعل لكم السمع والبصير والأفئدة، فهلا تذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداية - قادر على النشأة الأخرى - وهي الإعادة - بطريق الأولى والأحرى؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٣١) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٢) وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ.

قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وقتادة والسدي وغيرهم (١)، وهذه كقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ النَّظَائِرُ﴾ (٢) ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣) لَا ظِلِيلَ وَلَا يَقِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (٤) إِنَّمَا تَرَىٰ بُكْرًا بِكَفَصٍ﴾ (٥) كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ﴾ (٦) وَيَلْزَمُهُ لِلْمَكِيدِينَ﴾ (٧) ولهذا قال ههنا: ﴿وَظِلٌّ مِّنْ جَبْهُوٍ﴾ (٨) وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ (٩) أي ليس طيب المهبوب، ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ (١٠) أي ولا كريم المنظر (١١). قال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم (١٢).

ثم ذكر تعالى استحقاقتهم لذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلٌ ذَلِكُمْ مَّتْرُوفٌ﴾ (١٣) أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون ما جاءتهم به الرسل ﴿وَكَانُوا يُعْرَوْنَ﴾ أي يقيمون ولا ينون توبة ﴿عَلَىٰ لَيْثٍ الْعَظِيمِ﴾ (١٤) وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله. قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك. وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم (١٥): ﴿وَكَانُوا يُبْلَوْنَ أَيْدًا وَيُنَّا وَكَأَنَّا رَبُّهَا وَعَظَمَاءُ أَوَّانًا لِمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوَّابًا وَأَوَّانًا﴾ (١٧) يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به، مستبعدين لرفعه، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْكُمُ الْأُولَىٰ وَالْآخِرُونَ﴾ (١٨) لِمَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَمِّنَّتْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٩) أي أخبرهم يا محمد، أن الأولين والآخريين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة، لا يغادر منهم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ نَخْصُمُ لَهُ الْإِنْسَانَ ذَلِكِ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ (٢٠) وَمَا تَنْفِرُهُ إِلَّا لِأَعْلَىٰ مَقْدُودٍ﴾ (٢١) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقُوتٌ وَتَعْبِيدٌ﴾ (٢٢) ولهذا قال ههنا: ﴿لِمَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَمِّنَّتْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٢٣) أي هو موقت بوقت محدود، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

﴿يَوْمَ لَكُمْ أَنبَاءُ الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ﴾ (٢٤) لَا يَكُونُ مِنْ شَرِّينَ زُفُورٍ﴾ (٢٥) فَأُولَٰئِكَ يَتْلُونَ زُفُورًا﴾ (٢٦) وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ﴿فَتَشْرِيقُونَ عَلَيْهِمْ﴾ (٢٧) لَقِيمٍ﴾ (٢٨) فَتَشْرِيقُونَ شَرِبَ لَقِيمٍ﴾ (٢٩) وهي الإبل العطاش، واحداها أهيم والثنى هياء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: الهيم: الإبل العطاش الظماء (٣٠). وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الهيم أبدًا. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٣١) أي هذا

(١) الطبري: ٢٣/١٢٩، ١٣٠. (٢) الطبري: ٢٣/١٣١.

(٣) الطبري: ٢٣/١٣١. (٤) الطبري: ٢٣/١٣٢.

(٥) الطبري: ٢٣/١٣٦. (٦) القرطبي: ١٧/٢١٦.

قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيَّةٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَخْشَى الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَفْسُهُ مِنْ صُفْيٍ ﴿٨١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَلَانِ صَوًى ﴿٨٢﴾ جَعَلَ مِنْهُ الْتَوْبَتَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ﴿٨٣﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يُحْيِيَ النَّوْثَى ﴿٨٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يعني السحاب، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ^(١) ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يقول: بل نحن المنزلون ﴿فَإِنْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴿٨٠﴾﴾ أي رُعَاقًا مرًا، لا يصلح لشرب ولا ريح ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم إزاله المطر عليكم عذابًا زلًا! ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَسَّحَابٌ ﴿٨٢﴾ فِيهِ يُخِيمُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يُخِيمُ لِكُرْبِهِ الرِّيحُ وَالزَّبُوتُ وَالْخَيْلُ وَالْأَعْنَبُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾. ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: تقدحون من الزناد، وتستخرجونها من أصلها ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: بسل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها. وللعرب شجرة (إحدهما) المرخ، (والأخرى) العفار، وإذا أخذ منها غصن أخضر ان فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴿٨٧﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: تذكّر النار الكبرى ^(٢)، قال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله قال: «يَا قَوْمِ نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية فقال: «إِنَّمَا قَدْ صُرِّتْ بِإِلَهِائِي صَرْبَتَيْنِ - أَوْ مَرَّتَيْنِ - حَتَّى يَسْتَلْعِقَ بِهَا بَنُو آدَمَ وَيَذْنُبُوا مِنْهَا» ^(٣) وهذا الذي أرسله قتادة عند دولة الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنْ نَارُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَصُرِّتْ بِالْبُخَيْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفْعَةً لِأَحَدٍ» وروى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «إِنَّمَا قَدْ فَضَّلْتُ عَلَيْهَا بِسَبْعَةِ وَسَبْعِينَ جُزْءًا» ^(٤) رواه البخاري من حديث مالك ومسلم من حديث أبي الزناد ^(٥)

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَتَّعْنَا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وسعدناهم بموتهم.

[التبئيه على تفرد الله بالزرع وإنزال الماء وخلق النار وهي من أقرب حاجات الإنسان]

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿أَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: تبتغونه في الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٩١﴾﴾ أي: بل نحن الذين نقره قراره وننبئه في الأرض. روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُولُوا: زَرَعْتُ وَلَكِنْ قُلْ: حَرَرْتُ» قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴿٩٤﴾﴾ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، بل و﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: لا يسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿فَطَلَّغْنَاهُمْ تَفْكِهُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَنَعْمُرُهُمْ ﴿٩٧﴾﴾ بل نحن نحرمهم ﴿٩٨﴾ أي: لو جعلناه حطامًا لظللتم تفكهون في المقالة، تنوعون كلامكم فتقولون تارة: ﴿إِنَّا لَنَعْمُرُهُمْ ﴿٩٩﴾﴾ أي: للمقون، وقال مجاهد وعكرمة: إنا لمولع بنا ^(٦). وقال قتادة: معذبون وتارة تقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وقال عكرمة: ﴿فَطَلَّغْنَاهُمْ تَفْكِهُونَ ﴿١٠١﴾﴾ تلاومون ^(٧)، وقال الحسن وقتادة والسدي: ﴿فَطَلَّغْنَاهُمْ تَفْكِهُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ تندمون ^(٨)، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب، قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

(١) الطبري: ٢٣/١٣٩. (٢) الطبري: ٢٣/١٤١.

(٣) الطبري: ٢٣/١٤١. (٤) الطبري: ٢٣/١٤٠.

(٥) الطبري: ٢٣/١٤٠. (٦) الطبري: ٢٣/١٤٣.

(٧) الطبري: ٢٣/١٤٤. (٨) الطبري: ٢٣/١٤٤.

(٩) أحمد: ٢/٢٤٤. (١٠) الموطأ: ٢/٩٩٤.

(١١) فتح الباري: ٦/٣٨٠، ومسلم: ٤/٢١٨٤.

النجوم في السماء ويقال: مطالعها ومشارقتها^(٦).

وكذا قال الحسن وقتادة: وهو اختيار ابن جرير^(٧). وعن قتادة: مواقعها: منازلها^(٨) وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَّرُوا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٩) أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتهم المقسم به عليه ﴿إِنَّهُ لَقَرَأَنَّا كَرِيمٌ﴾^(١٠) أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾^(١١) أي معظم، في كتاب معظم محفوظ موقر. وقال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى: أخبرنا شريك عن حكيم هو ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٢) قال: الكتاب الذي في السماء^(١٣). وقال العوفي: عن ابن عباس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٤) يعني الملائكة^(١٥)، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نيك والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم^(١٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، حدثنا معمر عن قتادة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٧) قال: لا يمسّه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسّه المجوس النجس، والمنافق الرجس، وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿مَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٨) وقال أبو العالية: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٩) ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب^(٢٠)، وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾^(٢١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ^(٢٢) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَنَعَزَّوُونَ^(٢٣) ﴿١٤﴾ وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله، وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَالِيينَ﴾^(٢٤) أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو

تسادة والضحاك والنضر بن عربي: يعني بالمقوين سافرين^(٢٥)، واختاره ابن جرير وقال: ومنه قولهم: أقوت ناراً، إذا رحل أهلها^(٢٦). وقال عبد الرحمن بن زيد بن سلم، المقوي ههنا الجائع، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: ﴿وَمَتَّعُوا الْمُتَّقِينَ﴾^(٢٧) للحاضر والمساfer، لكل طعام يصلحه إلا النار. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوله: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾^(٢٨) يعني المستمتعين من الناس أجمعين^(٢٩)، وكذا ذكر عن عكرمة. وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والسافر من غني وفقير، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاضطلاع والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن السافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصلطى بها واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أراد السافرين، وإن كان ذلك عامّاً في حق الناس كلهم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(٣٠) أي الذي قدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المفرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل ذلك منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد. ﴿فَلَا أُفْسِدُ بِمَوْعِدِ النَّجْمِ﴾^(٣١) وَإِنَّهُ لَفَسَّرُوا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ^(٣٢) إِنَّهُ لَقَرَأَنَّا كَرِيمٌ^(٣٣) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ^(٣٤) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ^(٣٥) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَالِيينَ^(٣٦) أَفَبِعَدَا لِكُلِّبِثْ أَنْتُمْ مَذْهَبُونَ^(٣٧) وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ^(٣٨) ﴿٣٩﴾

[قسم الله على عظمة القرآن]

ليست «لا» زائدة لا معنى لها، كما قال بعض المفسرين، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي، كقول عائشة رضي الله عنها: لا، والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة فط^(٤٠). وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا، أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم. وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَا أُفْسِدُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك، فقيل أقسم^(٤١) وقوله: ﴿فَلَا أُفْسِدُ بِمَوْعِدِ النَّجْمِ﴾^(٤٢) وقال مجاهد أيضاً: مواقع

- | | |
|--|------------------------|
| (١) الطبري: ١٤٥/٢٣. | (٢) الطبري: ١٤٦/٢٣. |
| (٣) الطبري: ١٤٥/٢٣. | (٤) فتح الباري: ٥٠٤/٨. |
| (٥) الطبري: ١٤٧/٢٣. | (٦) الطبري: ١٤٨/٢٣. |
| (٧) الطبري: ١٤٨/٢٣. | (٨) الطبري: ١٤٨/٢٣. |
| (٩) الطبري: ١٤٩/٢٣. | (١٠) الطبري: ١٥٠/٢٣. |
| (١١) الطبري: ١٥٠/٢٣، والقرطبي: ٢٣٥/١٧. | (١٢) الطبري: ١٥١/٢٣. |
| (١٣) الطبري: ١٥٢/٢٣. | (١٤) الطبري: ١٥١/٢٣. |
| (١٥) الطبري: ١٤٩/٢٣. | (١٦) عن الضحاك. |

شعر، بل هو الحق الذي لا مزية فيه، وليس وراءه حق نافع. وقوله تعالى: ﴿أَفِينَا لَقْدَيْتُمْ مَذْهُونٌ﴾ (٨١) قال العوفي عن ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين^(١). وكذا قال الضحاك وأبو حذرة والسدي^(٢). وقال مجاهد: ﴿مَذْهُونٌ﴾ (٨١) أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم^(٣) ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢) قال بعضهم: معنى ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ بمعنى شكركم أنكم تكذبون أي تكذبون بدل الشكر. وقد روي عن علي وابن عباس أنها قرأها: ﴿وَيَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٤) كما سيأتي.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما مَطَر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: ﴿وَيَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٥) وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس. وقال مالك في الموطأ: عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحدبية في أثر سماء كانت في الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(٦) أخرجه في الصحيحين وأبو داود والنسائي، كلهم من حديث مالك به^(٧).

وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بشئ ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، ولهذا قال قبله: ﴿أَفِينَا لَقْدَيْتُمْ مَذْهُونٌ﴾ (٨١) ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢)

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) وَأَنْشَرُ جِيهًا نَظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوْنَ بِأَنفُسِهِمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

[أحاديث الاستطاعة رد الروح حين تبلغ]

الحلقوم، دليل على المحاسبة]

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي الروح ﴿الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) أي

الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٨٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٨٨﴾ وَالنَّفْسُ السَّاقُ وَالنَّاسُ ﴿٨٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ ﴿٩٠﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنْشَرُ جِيهًا نَظُرُونَ﴾ (٨٤) أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوْنَ بِأَنفُسِهِمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٥) أي ولكن لا تروهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَوُءَاتَاهُ فَوْقَ عَصَاوِهِمْ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ جَاءَ أَعْيُنَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ (٩١) ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَيُّ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٩٢﴾ وقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا ﴿٨٧﴾ معناه فيما ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم، إلى مكان الأول، ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدنيين.

وقال سعيد بن جبير والحسن البصري: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتحزون، وهذا هذه النفس. وعن مجاهد: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) غير موقنين ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَجِيمٌ ﴿٨٧﴾ إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْأَصْلَاحِينَ ﴿٩٢﴾ فَزَلَّ مِنَ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصَبَ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ يَقِينٌ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

[أحوال الناس عند الاحتضار، ومصير كل صنف منهم]

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَجِيمٌ﴾ (٨٧) أي: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في

(١) الطبري: ١٥٣/٢٣. (٢) الطبري: ١٥٣/٢٣.

(٣) الطبري: ١٥٣/٢٣. (٤) الطبري: ١٥٥، ١٥٤/٢٣.

(٥) الطبري: ١٥٤/٢٣. (٦) الموطأ: ١/١٩٢.

(٧) فتح الباري: ٢/٣٨٨، ومسلم: ٨٣/١، وأبو داود: ٢٢٧/٤، والنسائي: ١٦٥/٣.

حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في جسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان ورب برغضان^(١). قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿رُوحٌ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة^(٢)، وكذا قال مجاهد: إن الروح: الاستراحة^(٣). وقال أبو حمزة: راحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير والسدي: الروح: فرح. وعن مجاهد: ﴿رُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ جنة وريحاء. وقال قتادة: ﴿رُوحٌ﴾ فرحة، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: ﴿وَرِيحَانٌ﴾ ورزق، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿وَرَحَّتْ نَفْسُهُ﴾ وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المؤمنين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة، فيقبض روحه. وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو أم من أهل النار؟

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خَضِرٍ، تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْتِي إِلَى قَتَادِيلٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالْعَرْشِ» الحديث. وروى الإمام أحمد عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة فسمعتة يقول: حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قال: فأكسب القوم يكونون، فقال: «مَا يُبْكِيكُمْ؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ إِذَا اخْتَضَرَ ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَبِينَ﴾ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَرَحَّتْ نَفْسُهُ﴾ ﴿فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَائِهِ أَحَبَّ﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَرُوحٌ مِنَ جَحِيمٍ﴾ ﴿وَنَفْسٌ جَحِيمٌ﴾ ﴿فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لِلْقَائِهِ أَكْرَهُ» هكذا رواه الإمام أحمد، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحِبِّينَ﴾ أي: وأما إذا كان المحضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: تبشروهم بالملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك، أي لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب

اليمين. وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا أَلْتُّمَافُوا﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَاتَّبِعُوا بِالْحَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿تَحَنُّ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿لَوْلَا مَنْ غُفِرَ تَحِيمٌ﴾ وقال البخاري: ﴿فَسَلَّمَ لَكَ﴾ أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين، وألغيت (إن) وبقي معناها كما تقول: أنت مصدق مسافر عن قليل، إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل، وقد يكون كالدعاء له كقولك سقياً لك من الرجال، إن رفعت السلام، فهو من الدعاء^(٨)، وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم^(٩).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَرُوحٌ مِنَ جَحِيمٍ﴾ ﴿وَنَفْسٌ جَحِيمٌ﴾ أي: وأما إن كان المحضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فَرُوحٌ﴾ أي فضيافة ﴿وَمِنْ جَحِيمٍ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَنَفْسٌ جَحِيمٌ﴾ أي تقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الخبر هو حق اليقين، الذي لا مرية فيه، ولا يحيد لأحد عنه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَيَحْمَدُهُ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» هكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب^(١٠) وروى البخاري في آخر كتابه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود^(١١) آخر تفسير

(١) الطوال: ص ٢٣٨. (٢) الطبري: ١٥٩/٢٣.

(٣) الطبري: ١٦٠/٢٣. (٤) الطبري: ١٦٠/٢٣.

(٥) مسلم: ١٥٠٢/٣. (٦) أحمد: ٢٥٩/٤.

(٧) فتح الباري: ١١/٣٦٤، ومسلم: ٢٠٦٥/٤.

(٨) البخاري: تفسير سورة الواقعة.

(٩) الطبري: ١٦٢/٢٣.

(١٠) تحفة الأحوذى: ٩/٤٣٤، والنسائي في الكبرى: ٢٠٧/٦.

(١١) فتح الباري: ١٣/٥٤٧.

(١٢) مسلم: ٢٠٧٢/٤، وتحفة الأحوذى: ٩/٤٣٤، والنسائي

في الكبرى: ٢٠٧/٦، وابن ماجه: ١٢٥١/٢.

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

[فضل سورة الحديد]

روى الإمام أحمد عن عرياض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إِنَّ فِيْهِنَّ آيَةً أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ^(١)» وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن بقية به. وقال الترمذي: حسن غريب^(٢). والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾ كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾

[يسبح جميع الكون لله وذكر بعض صفاته]

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض، أي من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿تَسْبِيحُهُ السَّمَوَاتُ السَّبَّاحُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^(٤)﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٥)﴾ أي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرياض بن سارية أنها أفضل من ألف آية، وروى أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً

المصباح المنير في تهذيب ابن كثير
فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٣)﴾ وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية، وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علمه والباطن على كل شيء علماً^(٤). وقال شيخنا الحافظ المزي يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سباه «معاني القرآن»، وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك ما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبَّاحِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، يَا إِلَهَ الْإِلَهِاتِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ^(٥)» ورواه مسلم في صحيحه عن سهل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(٦).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٣)﴾

[شمول علم الله وقدرته ومملكه]

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة

(١) أحمد: ١٢٨/٤.

(٢) أبو داود: ٣٠٤/٥. وتحفة الأحوذني: ٢٣٨/٨ و ٢٥١/٩.

(٣) أبو داود: ٣٣٥/٥. (٤) فتح الباري: ١٣/٣٧٤.

(٥) أحمد: ٤٠٤/٢. (٦) مسلم: ٢٠٨٤/٤.

يجور، ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشرة أمثالها ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٦﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُخْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْبٍ لَأَنَّا بِهَا وَكُفٌّ بِتَحْسِينٍ﴾ ﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ﴾ الخلق، يقلب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين وتارة يكون الفصل شتاء، ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٨﴾ أي: يعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا مِمَّا آخَرُ كَبِيرٌ﴾ ﴿٩﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعونكم ليؤمنوا بربكم وقد أخذتم منكم مؤمنين ﴿٨﴾ هو الذي ينزل على عبده الآية ينزل ليخبركم من الظلمات إلى النور وإن الله يكره أن يسأله أن ينزل من فوق ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُؤْمِنُوا بِالْوَعْدِ وَأَلَّا يَنْفِقُوا مِنْكُمْ مِنْ أَنْفَقٍ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَكْثَرُ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَأَكْثَرُ اللَّهُ لَخَسْفٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُمْرُسُ اللَّهُ فَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١١﴾

[الأمر بالإيمان والحث على الإنفاق]

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد الله تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «**أَلَيْسَ بَالَكُمْ التَّكَاثُرُ**» ﴿١٢﴾ يقول ابن

ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد علم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة الأعراف، بما نرى من إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَشَجَرٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَقَاتِلُ رَبِّهَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظِلْمٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَجَبٍ وَلَا يَمِينٌ إِلَّا عِنْدَ ثُبُوتِهَا﴾ ﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاطَرٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَالَّذِينَ فِي السَّمَاءِ لَا يَمَسُّهُمُ السَّجْدُ وَالَّذِينَ فِي السَّمَاءِ لَا يَمَسُّهُمُ السَّجْدُ وَالَّذِينَ فِي السَّمَاءِ لَا يَمَسُّهُمُ السَّجْدُ﴾ أي: من أقطار، والثلوج والبرد، والأقذار، والأحكام مع الملائكة كرام. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَشَجَرٍ﴾ أي من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «**يُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ نَهَارٍ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ**» ﴿١٤﴾. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم براً أو بحراً، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، ونحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورُهُمْ سِتْرًا مِنْهُ أَلَا جِنَّةً يَنْسَخُونَ بَيْنَهُمْ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصُّلَّةَ كُلَّ بَيْتٍ﴾ ﴿١٥﴾

وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿١٦﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿١٨﴾ أي: هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَا نَجْزُهُ وَالْأُولَى﴾ ﴿١٩﴾ وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحُسْنَى الْأُولَى وَالْآخِرَةُ﴾ وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحُسْنَى الْآخِرَةُ رَفَعُوا الْحِكْمَةَ لِيُخَيَّرَ﴾ ﴿٢٠﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أذلاء بين يديه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٢١﴾ لَقَدْ فَصَّلْنَا لَهُمْ عَمَلَهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ﴿٢٢﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٢٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم بما خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا

أَدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْبَيْتَ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟^(١) ورواه مسلم وزاد: «وَمَا سَوَى ذَلِكَ، فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٣) ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرِيسِكُمْ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد روي في الحديث من طرق في أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَغْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيَّانَا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» قالوا: فالأنبياء. قال: «وَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ وَلَكِنْ أَغْجَبُ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّانَا، قَوْمٌ يَحْسِبُونَ بَعْدَكُمْ، يَحْدِثُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِهَا فِيهَا»^(٤) وقد ذكرنا طرفاً من هذه الرواية في أول سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ، وزعم ابن جرير أن المراد بذلك: الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد فإله أعلم^(٥). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ عَلَى عِبَادِهِ إِنْ يَشَاءُ يُنَزِّلِ﴾ أي حجاجاً واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿وَرَأَى اللَّهُ يَكُونُ وَفَرَجِمَ﴾^(٦) أي في إنزاله الكتاب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعهم، حثهم على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ الشَّيْءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالكم السموات والأرض، ويده مقاليدهما وعنده خزائنها، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَفْنَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٧). وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْنَى وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فمن توكل على الله، أنفق

ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أنه الله سيخلفه عليه [فضل الإنفاق والقتال قبل الفتح]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَمَنْ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودعى الناس في دين الله أفواجاً. ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَفْضَلُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْجَاهِلُونَ عَلَى أَنْ الْمَرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتَحَ مَكَّةَ، وَعَنِ الشَّعْبِ وَغَيْرِهِ: أَنْ الْمَرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا صَلَاحُ الْحَدِيثِ»^(٨)، وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بهما، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي، قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ - أَوْ مِثْلَ الْجَبَالِ - ذَهَبًا، مَا بَلَغْتُمْ أَغْلَاهُمْ»^(٩) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهما الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صابنا صابنا، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تُسَيِّئُوا أَصْحَابِي، قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان يستهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الْقَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ

(١) أحمد: ٢٤/٤. (٢) مسلم: ٢٢٧٣/٤.

(٣) المجمع: ٦٥/١٠. (٤) الطبري: ١٧٢/٢٣.

(٥) الطبري: ١٧٥/٢٣. (٦) أحمد: ٢٦٦/٣.

(٧) مسلم: ٢٥/٤.

(١١) يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَتَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ تَوَرَّكُمُ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٢) يَأْتِدُونَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَفَضَّلْتُمْ وَأَنتُمُ الْغَالِبُونَ (١٣) قَالُوا لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٤)

[يعطى المؤمنون نوراً يوم القيامة حسب أعمالهم]

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يعسى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفا مرة. ورواه ابن حاتم وابن جرير (٤).

وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين فقالوا: ربنا أعم لنا نورنا.

وقوله: ﴿وَيُأْتِيهِمْ﴾ قال الضحاك: أي وبأيمانهم كتبهم كما قال: ﴿فَمَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ يَسْمِعُهُ﴾ وقوله: ﴿يُشْرِكُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١).

[أحوال المنافقين يوم القيامة]

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَتَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ تَوَرَّكُمُ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة والزلازل العظيمة، والأمر الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بها أمر الله به وترك ما عنه زجر. وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس: بينا الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من

سَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُتَجِدِّينَ عَلَى الْقَافِلِينَ آجراً عظيماً (١٥) وهكذا حديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» (١) وإنما نبه بهذا لئلا يهمل باب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه، بهذا عطف بمدح الآخر، والثناء عليه، مع تفضيل الأول له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٢) أي: خيره فآوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن قبل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيقة، وفي الحديث: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ» (٣) ولا شك عند أهل الإبان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أئمة الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

[الحث على الإنفاق في سبيل الله]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على البنال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله نية خالصة، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَضَاعَا كَثِيرَةً﴾ أي جزاء جميل وورق باهر، وهو الجنة يوم القيامة.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناول يده. قال: فلإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضت ربي عز وجل، وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك بأبأ الدحداح. ونقلت منه متاعها وصييانها وإن رسول الله ﷺ قال: «كَمْ مِنْ عَبْدٍ رَدَّاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَحِ» وفي لفظ: «وَبِ نَخْلَةٍ مُدْلَاةٍ، عَرُوفُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ، لِأَبِي الدَّحْدَحِ فِي الْجَنَّةِ» (٣).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ تُشْرِكُهُمْ﴾

(٢) النسائي: ٥٩/٥.

(١) مسلم: ٢٠٥٢/٤.

(٣) جزء الحسن بن عرفة: ٩٢. (٤) الطبري: ١٧٩/٢٣.

(٥) الطبري: ١٧٩/٢٣.

بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾

[الحض على الخشوع والنهي عن أن

يكونوا مثل أهل الكتاب]

يقول تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله. أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فنفهمه ونفقد له وتسمع له ونطيعه. روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. كذا رواه مسلم في آخر الكتاب ^(٩)، وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية ^(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبدوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتلفة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿وَكَبُرَتْ مِنْهُمْ فَسِقَتٌ﴾ ^(١١) أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال تعالى: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيَعْلَمَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَكَسُوا حُضُلًا فَمَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فسدت قلوبهم فقست وصار من سجنهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ^(١٢) فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضللتها، ويفرج

الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حيثئذ: ﴿أَنْتُمْ لَنَا نَقِيصٌ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿أَرْجِعُوا وَرَكُّكُمْ﴾ من حيث جثتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَنِيَّمْ سُورَةً بِآبِطَةٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرَةٌ مِنْ قِبَلِ الْعَذَابِ﴾ ^(١٤) قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار ^(١٥)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ ^(١٦) وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد ^(١٧) وهو الصحيح ﴿بِآبِطَةٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرَةٌ مِنْ قِبَلِ الْعَذَابِ﴾ ^(١٨) أي النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما ^(١٩).

﴿يَنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجُمُعَات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانَةُ﴾ قال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانَةُ﴾ أي قلتم: سيغفر لنا. وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ما زلت في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ^(٢٠) أي الشيطان ^(٢١) قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار ^(٢٢). ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا، أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً، قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرهم، وكانوا معهم أموالاً، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، وبماز بينهم حيثئذ ^(٢٣).

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَانَكُمْ النَّارُ﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم، وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتياحكم، ويشس المصير.

﴿لَمْ يَأْتِ لِيُبَيِّنْ أَمْوَانُ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ أَلْحَى وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبُرَتْ مِنْهُمْ فَسِقَتٌ﴾ ^(٢٤) اعلموا أن الله يحيي الأرض

(١) الطبري: ١٨٢/٢٣.

(٢) الطبري: ١٨٢/٢٣، وابن أبي شبة: ١٣٠/١٧٥.

(٣) الطبري: ١٨٣/٢٣. (٤) الطبري: ١٨٢/٢٣.

(٥) الطبري: ١٨٤/٢٣. (٦) الطبري: ١٨٥/٢٣.

(٧) الطبري: ١٨٥/٢٣. (٨) الطبري: ١٨٤/٢٣.

(٩) مسلم: ٢٣١٩/٤. (١٠) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨١.

لَيَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرَبِ مِنْ قَوْفِهِمْ، كَمَا تَرَاءُونَ الْكُوكَبَ الذَّرِّيَّ الْغَائِبَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَقَاضِي مَا يَتَنَهَمُ» قال: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ أَمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» اتفق البخاري ومسلم على إخراجها (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الصحيح: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي خَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطْلَعُ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً فَقَالَ: مَاذَا تُرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: نَحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَتَقَاتِلَ فِيكَ فَتَقْتُلَ، كَمَا قُتِلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أُنْتُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ» (٤). وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم عند الله أجر جليل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، كما روى الإمام أحمد، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشَّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللهُ فَقُتِلَ، فَذَاكَ الَّذِي يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهِ هَكَذَا» ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر «وَالثَّانِي مُؤْمِنٌ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يَضْرِبُ ظَهْرُهُ بِسَوْكِ الطَّلْحِ، جَاءَهُ سَهْمٌ غَرَبَ فَقَتَلَهُ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ. وَالثَّلَاثُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللهُ حَتَّى قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ. وَالرَّابِعُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ إِسْرَافًا كَثِيرًا، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللهُ حَتَّى قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ» (٥). وهكذا رواه علي بن المديني، وقال: هذا إسناد مصري صالح (٦)، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب (٧)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨) لما ذكر السعداء وما لهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُحْيٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافَةٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَالِهَهُ ثُمَّ يَسِيحُ فَرْدَهُ مُصْفًى ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

زوب بعد شدتها، فكما يحكي الأرض الميتة المجذبة الهامدة بيت الحثان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراكين إن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا بل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، فضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو يكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللهُ قَرُوبًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ أَجْرُهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (٩) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)

أجر المصدق والصديق والشهداء ومصير الكفار

عن تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وَأَقْرَبُوا اللهُ قَرُوبًا حَسَنًا﴾ أي بعونه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ممن عطوه ولا شكورًا، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف، روى ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١) أي ثواب جليل حسن، يرجع صالح ومآب كريم. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هذا تمام الجملة، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون، قال العوفي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ إسناده مفصولة ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (١٢) وقال أبو الضحى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (١٣) وهكذا قال مسروق والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم.

وقال الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين والصديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللهَ وَالرَّسُولَ أُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما متفان، ولا شك أن الصديق أعلى مقامًا من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في كتابه الموطأ، عن سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ

(١) الطبري: ١٩١/٢٣. (٢) الطبري: ١٩١/٢٣.

(٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦، ومسلم: ٤/٢١٧٧.

(٤) مسلم: ١٥٠٢/٣. (٥) أحمد: ٢٣/١.

(٦) علل الحديث: ٣٤٩/١. (٧) تحفة الأحوذى: ٢٧٤/٥.

يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليل بالنسبة إلى دار الآخرة. وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «لَلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١) انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق من حديث الثوري^(٢). ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» والمراد جنس النساء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى: «وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»^(٣) وقال ههنا: «أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»^(٤) أي هذا الذي أحلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدمناه في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور بالدراجات العلل والنعم المقيم قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قالوا: يصلون كما يصل ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتصرون ولا نعتق. قال: «أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَقَمْتُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ: تَسْبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتُحَمِّدُونَ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٥).

«مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»^(٦) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(٧) الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ بِاتِّمَارٍ لِلنَّاسِ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٨)

[كل ما يصيب الإنسان فهو بقدر]

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال:

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ^(٩)

[الحياة الدنيا لهو ولعب]

يقول تعالى موهنا أمر الحياة الدنيا وعقرا لها «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافٌ فِي الْأُمُورِ وَالْأَوَّلَى» أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَقَابِلِ»^(١٠) ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: «كَمَثَلِ غَيْثٍ» وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثُ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا».

وقوله تعالى: «أَعَجَبَ الْكَافِرُ بِاللَّهِ» أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها «ثُمَّ يَهَيِّجُ فُورُهُمْ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا» أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعد ما كان خضرا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أي يصير ييسا متحطما، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجورا شوها، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعقوان شبابه غضا طريا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ»^(١١) ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ مُرُورٌ»^(١٢) أي وليس في الآخرة الآتية القرية إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ مُرُورٌ»^(١٣) أي هي متاع فان غار لمن ركن إليه، فإنه يغير بها وتعجبه حتى

(٢) فتح الباري: ١١/٢٢٨

(١) أحمد: ١/٣٨٧

(٣) مسلم: ١/٤١٦

الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١) كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلَعَلَّكُمْ مِنَ الْبَصِيرَةِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣).

[أرسل الأنبياء بالمعجزات والعدل والحق]

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما (٤). وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: ﴿أَفَنْتَ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مُتَقَاتِلٌ﴾ وقال تعالى: ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ إِلَيْنَا فَطَرُ النَّاسِ عَلَيْنَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٥) ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ أي: صدقًا في الأخبار، وعدًا في الأوامر والنواهي، ولهذا يقول المؤمنون: إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

[فوائد الحديد]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد، وبيانات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهزم لمن خالف القرآن وكذب به وعانده،

تَابِينَ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي في الآفاق أنفسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا﴾ أي من قبل خلق الخليقة ونبرأ النعمة. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ عَذَابٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون يعني الجذب ﴿وَلَا فِي كِتَابٍ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بما، وما يعفو الله عنه أكثر (١).

ومنه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية العلم السابق - فبحمهم الله - وروى الإمام أحمد عن ابن عمر بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٢). ورواه مسلم في صحيحه، وزاد: ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح (٣). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٤) أي علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في جنبها، سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

[الأمر بالصبر والشكر]

وقوله تعالى: ﴿لِيَكِلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابتنا لأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي جاءكم، وتفسر ﴿فَمَا آتَاكُمْ﴾ أي أعطاكم، وكلاهما متلازم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيتكم ولا بكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أنرا وبطرا، تفخرون بها على الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١) أي مختال في نفسه، متكبر فخور أي على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا (٢).

[ذهاب البخل]

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْلَتُونَ بِأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُبْلِ﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي عن أمر

(١) الطبري: ٢٣/١٩٦. (٢) أحمد: ٢/١٦٩.

(٣) مسلم: ٤/٢٠٤٤، وتحفة الأحوذ: ٦/٣٧٠.

(٤) الطبري: ٢٣/١٩٨. (٥) الطبري: ٢٣/٢٠٠.

جبر وقادة^(٢).

(والآخر) - ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتداء
رضوان الله. وقوله تعالى: ﴿فَمَارِعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أي فسي
قاموا بها التزاماً حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين
(أحدهما) - الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله.
(والثاني) - في عدم قيامهم بها التزاماً مما زعموا أنه قريب
يقرهم إلى الله عز وجل.

وروى ابن جرير وأبو عبد الرحمن النسائي واللفظ له عن
ابن عباس رضي الله عنه قال: كان ملوك بعد عيسى عليه السلام بذلك
التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة
والإنجيل، فقبل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونه
هؤلاء إنهم يقرءون: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ﴾^(١) هذه الآيات مع ما يعيونا به من أعمال الناس
قراءتهم، فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا، فدعاهم
فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة
والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟
دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنا لنا اسطوانة، ثم ارفعونا إليها،
ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، وقالت
طائفة: دعونا نسيج في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب
الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة:
ابنا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار ونحرق البقول، فلا نرد
عليكم ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم بينهم،
ففعّلوا ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾^(٣)

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله قال:
«لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ» ورواه الحافظ أبو يعلى ولفظه: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ،
وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤). وروى الإمام أحمد
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال:
سألت عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله من قبلك: «أوصيك
بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وآله: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ يَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ
وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)
ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السلاح كالسيوف
والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿وَمَنْفِعٌ
لِّلنَّاسِ﴾ أي في معاشهم كالسكة والفأس والقدم والمنشار
والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة
والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير
ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يُنَصِّرُهُ، وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي
من نيته في حل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢)
أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه
إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾^(٣) ثُمَّ قَتَلْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ
رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي
قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَتَأْتِنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾^(٤)

[فسق الكثير من أمة الأنبياء]

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده
رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام
خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا
أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة، كما قال تعالى في
الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾^(١)
حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر
من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال
تعالى: ﴿ثُمَّ قَتَلْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه
﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وهم الخواريون
أي رقة وهي الخشية «ورحمة» بالخلق. وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا﴾ أي ابتدعها أمة النصارى «ما كتبناها عليهم»
أي ما شرعناها لهم، وإنما هم التزاموها من تلقاء أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان:

(أحدهما): أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن

(١) أحمد: ٥٠/٢، وأبو داود: ٣١٤.

(٢) الطبري: ٢٣/٢٠٣.

(٣) الطبري: ٢٣/٢٠٣، والنسائي: ٨/٢٣١.

(٤) أحمد: ٣/٢٦٦.

وروى البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا إِلَى نَصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمَلْنَا بِاطِلٍ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ يَغْدَهُمْ فَقَالَ: أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ هُمْ مِنَ الْأَجْرِ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ جِيبُ صَلَوةِ الْعَصْرِ قَالُوا: مَا عَمَلْنَا بِاطِلٍ، وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ: أَكْمَلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، فَلَمَّا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ بَسِيرٌ، فَأَبَوْا. فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَهُ الْفَرِيقَيْنِ كُلَّيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قِيلُوا مِنْ هَذَا الثَّوَرِ» انفرد به البخاري ^(٧) ولهذا قال تعالى: ﴿لِنَلَّا بِعَلَّةٍ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منح الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٨). آخر تفسير سورة الحديد والله الحمد والمنة.

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(١)

[سبب النزول]

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية ^(٨).

(١) أحمد: ٨٢/٣.

(٢) فتح الباري: ٢٢٩/١، ومسلم: ١٣٤/١.

(٣) الطبري: ٢٣/٢٠٨ و٢١٠. (٤) الطبري: ٢٣/٢١٠.

(٥) أحمد: ١١١ و٦/٢.

(٦) فتح الباري: ٥٢١/٤ و٥٧١.

(٧) فتح الباري: ٥٢٣/٤. (٨) أحمد: ٤٦/٦.

سَلَامٌ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي سَاءٍ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ» ^(١). تفرد به أحمد، والله أعلم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ جَنَّةٍ يَجْعَلُ لَكُمْ تَوَارًا تَمْشُونَ فِيهَا وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِنَلَّا بِعَلَّةٍ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٢)

[يؤتي مؤمن أهل الكتاب الأجر مرتين]

قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس أنه حل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِفُلَّةٍ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ تَمْلُوكُ آدَى حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ مَوْلَاهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ آدَبَ أَمَتَهُ فَأَخْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَغْنَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا لِلَّهِ أَجْرَانِ» أخرجه في الصحيحين ^(٧) ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحّاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما وهو اختيار ابن جرير ^(٣).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(١) وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبراً من أجبّار اليهود [كم] أفضل ما ضُغِفَ لكم حسنة؟ قال: كفيل ثلاثمائة و[خمسون] حسنة، قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين، ثم ذكر سعيد قول الله عز وجل: ﴿يُؤْتِيَكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال سعيد: والكفّان في الجمعة مثل ذلك، رواه ابن جرير ^(٤). وما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى نَصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِرَاطٍ قِرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلْتُ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِرَاطٍ قِرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلْتُ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَى قِرَاطَيْنِ قِرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَانْتُمْ الَّذِينَ عَمِلْتُمْ، فَغَضِبَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلَ عَطَاءً، قَالَ: مَثَلُ ظُلْمَتِكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي لَوْ تَبِعْتُمْ مِنْ أَسْأَاءِ» ^(٥) وأخرجه البخاري ^(٦).

علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي رَوْحِهَا وَنَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَارِكًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ إلى قوله تعالى
﴿وَاللَّكْفَرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ قالت: فقال لي رسول الله
﴿مُرِّيهِ فَلْيَعْتِقْ رَقَبَةً﴾ قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما
يعتق، قال: «فَلْيُضْمِمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قالت: فقلت: والله إنه
لشيخ كبير، ما به من صيام قال: «فَلْيُطْعِمِ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَمَسْكًا
وَمِنْ ثَمَرٍ» قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت:
فقال رسول الله ﷺ «فَلْيَأْتِ سَتْنِيئَهُ بِعَرْقٍ مِنْ ثَمَرٍ» قالت:
فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بعرقٍ آخر قال: «قَدْ أَصَبْتَ
وَأَحْسَنْتَ فَأَذْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِأَيِّ عَمَلٍ
تُحِبُّ» قالت: ففعلت (٤).

ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه (٥) وعنده خولة
بنت ثعلبة ويقال لها: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر
فيقال: خويلة، ولا منافاة بين هذه الأقوال فالأمر فيها قريب
والله أعلم. هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة
فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أصل الظاهر
مشق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدكم
من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، وكان الظاهر عند
الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم
يجعله طلاقاً، كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُمْ أَهْمَانِهِمْ إِنَّ أَهْمَانَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدَتْهُمْ﴾
أي لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت علي كأمي أو مثل أمي
أو كظهر أمي وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك، إنما أم
التي ولدتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مُسْكِرَاتٍ
أَلْقَوْلُ وَرُؤَا﴾ أي: كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ
ذُو فَضْلٍ ۝﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما
خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، ولو قصده
لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها
من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.
وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾

وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً (١) وأخرجه
النسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير (٢). وفي رواية
لابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوعى
سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى
علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي
تقول: يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونشرت له
بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي، ظاهر مني،
اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل
بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي رَوْحِهَا﴾. قالت:
وزوجها أوس بن الصامت (٣).

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُمْ أَهْمَانِهِمْ إِنَّ
أَهْمَانَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدَتْهُمْ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مُسْكِرَاتٍ أَلْقَوْلُ وَرُؤَا
وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ ذُو فَضْلٍ ۝﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ فَوْعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِطَاعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِآلِهِ
وَرَسُولِهِ. وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾

[الظهار وكفارته]

روى الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: في والله وفي
أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت:
كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل
عليّ يوماً فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي.
قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ
فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس
خويلة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله
ورسوله فينا بحكمه، قالت: فوثابني فامتنعت منه، فغلبته بها
تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فآلقته عني، قالت: ثم
خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت
حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له
ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه،
قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكَ
شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِي اللَّهَ فِيهِ». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل
في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاها ثم سري عنه
فقال لي: «يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ» ثم قرأ

(١) فتح الباري: ١٣/٣٨٤.

(٢) النسائي: ٦/١٦٨، وابن ماجة: ١/٦٧، والطبري:

٢٢٥/٢٣.

(٣) الطبري: ٢٣/٢٢٦. (٤) أحد: ٦/٤١٠.

(٥) أبو داود: ٢/٦٦٦، ٦٦٤.

مِنْ تَجَوُّي ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي
مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

[بيان عاقبة أعداء الدين]

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُتِبَ﴾
كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿أَيْ أَهْبَنُوا وَلَعَنُوا وَأَخْزَوْا كَمَا فَعَلَ بِمَنْ
أَشْبَهُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿وَقَدْ أَزَلْنَا عَائِيتَ يَنْتَهِي﴾ أَي: واضحات،
لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ
مُهِينٌ﴾ ﴿٥﴾ أَي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله،
والانقياد له والخضوع لديه.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة
يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا
عَمِلُوا﴾ أَي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أَخْصَنَهُ
اللَّهُ وَكُتِبَ﴾ أَي ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما
كانوا عملوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٦﴾ أَي لا يغيب عنه
شيء ولا يخفى ولا ينسى شيئاً.

[علم الله محيط بالخلق]

ثم قال تعالى خبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم
وسمعه كلامهم ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا،
فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا
يَكْشُوفُ مِنْ تَجَوُّي ثَلَاثَةَ﴾ أَي: من سر ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ
وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَنْ
مَا كَانُوا﴾ أَي مطلع عليهم، يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم،
ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به
وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ ﴿٨﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ
يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٨﴾
ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية
علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع
علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع

في الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن
يلقي فيها فلا يطلق، وقال أحد بن حنبل: هو أن يعود إلى
الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد
حكى عن مالك أنه العزم على الجماع والإمساك، وعنه أنه
الجماع، عن سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُونَ لَنَا قَالُوا﴾ يعني
يبدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم.

وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج، وكان لا
يرى بأساً أن يغشى فيها دون الفرج قبل أن يكفر. وقال علي
بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآتَا﴾ والمس
التمكح^(١)، وكذا قال عطاء والزهري وقشادة ومقاتل بن
حيان: وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى
يكفر. وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن
عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي
لوقعت عليها قبل أن أفكر. فقال: ﴿مَا تَحْمَلُكَ عَلَىٰ ذَلِكَ يَزْحَمُكَ
اللَّهُ﴾ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: ﴿فَلَا تَقْرَبَهَا
حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ وقال الترمذي: حسن
غريب صحيح، ورواه أبو داود والنسائي^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أَي: فإعتاق رقبة كاملة من
نبل أن يتامسا، فها هنا الرقة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي
كفارة القتل مقيدة بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ به ﴿وَاللَّهُ
يَتَقَبَّلُ تَوْبَتَهُمْ﴾ ﴿٢﴾ أَي: خير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم.
وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَتَمَآتَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ سَوِيكَةً﴾ قد تقدمت
الأحاديث الأربعة بهذا على الترتيب كما ثبت في الصحيحين في
نصبة الذي جامع امرأته في رمضان^(٣) ﴿ذَلِكَ لِيُذَكِّرُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ﴾ أَي شرعنا هذا لهذا. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَاتِ خُدُودُ
اللَّهِ﴾ أَي محارمه فلا تنتهكوها. وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ أَي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة،
لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا،
بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة.

﴿وَالَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ كُتِبَ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا
عَائِشَةَ بِسَمِّ وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَكُتِبَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْشُوفُ

(١) الطبري: ٢٣/٢٣١.

(٢) أبو داود: ٦٦٦/٢، وتحفة الأحوذني: ٤/٣٨٠، والنسائي:

١٦٧/٦، وابن ماجه: ١/٦٦٦.

(٣) فتح الباري: ٤/١٩٣، ومسلم: ٢/٧٨١.

سلم يا رسول الله، قال: **قَبِلَ قَالَ: سَأَمَ عَلَيْكُمْ؟** أي تسامون دينكم. قال رسول الله ﷺ: **«رُدُّوهُ»** فردوه عليه فقال نبي الله ﷺ: **«أَقَلَّتْ: سَأَمَ عَلَيْكُمْ؟»** قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ»** أي عليك ما قلت^(٥)، وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه^(٦).

وقوله تعالى: **«وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ؟»** أي يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لم كان هذا نبياً لعذبتنا الله بما نقول له في الباطن، لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: **«حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ»** أي جهنم كفائهم في الدار الآخرة **«يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ»**^(٨) وقال الآسام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو، أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية: **«وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَزِمَكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ»**^(٩) إسناد حسن ولم يخرجوه.

[آداب النجوى]

ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: **«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَجَرُوا بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ»** أي كما يتناجى به الجاهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين **«وَتَنْتَجَرُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»**^(١٠) أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم، وسيجزيك بها.

ثم قال تعالى: **«إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»**^(١١) أي إنما النجوى، وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً

على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم قال تعالى: **«ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»**^(١٢) وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا هُوُوا عَنْهُ وَيَنْتَجَرُونَ بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَزِمَكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ»^(٨) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَجَرُوا بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْتَجَرُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ^(١٠) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(١١)

[بيان شرارة اليهود]

قال ابن نجيب عن مجاهد: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا هُوُوا عَنْهُ»**^(١)، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشىهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا هُوُوا عَنْهُ»**^(٢).

وقوله تعالى: **«وَيَنْتَجَرُونَ بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ»** أي يتحدثون فيما بينهم **«وَالْعَدْوَنِ»** وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها وقوله تعالى: **«وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَزِمَكَ بِهِ اللَّهُ»** روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ»** قلت: ألا تسمعهن يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أَوْ مَا سَمِعْتِ أَقُولُ؟ وَعَلَيْكُمْ»** فأنزل الله تعالى: **«وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَزِمَكَ بِهِ اللَّهُ»**^(٣) وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيْنَا»**^(٤).

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بينا هو جالس مع أصحابه إذ أتى عليهم يهودي، فسلم عليهم فردوا عليه فقال نبي الله ﷺ: **«هَلْ تَذَرُونَّ مَا قَالَا؟»** قالوا:

(١) الطبري: ٢٣/٢٣٦. (٢) الدر المنثور: ٨/٨٠.

(٣) الطبري: ٢٣/٢٣٦، ٢٣٧. (٤) فتح الباري: ١٠/٤٦٦.

(٥) الطبري: ٢٣/٢٤٠. (٦) فتح الباري: ١٠/٤٦٣.

(٧) أحمد: ٢/١٧٠.

وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعُّوا﴾ فِي الْمَجْلِسِ فَانْتَشَرُوا: يَسْعَ اللَّهُ لَكُمْ يعني في مجالس الحرب قالوا: ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أي انهضوا للقتال^(١٢). وقال قتادة: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أي إذا دعيت إلى خير فأجيبوا^(١٣).

[فضل العلم وأهل العلم]

وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١٤) أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضع ذلك له، بل يميزه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره، ولهذا قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١٥) أي خير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه.

وروي الإمام أحمد عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع ابن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبيزى رجل من مواليها، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاضي، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(١٦) وهكذا رواه مسلم^(١٧).

(١) أحمد: ٤٢٥/١، ٤٣١.

(٢) فتح الباري: ٥٨/١١، ومسلم: ١٧١٨/٤.

(٣) عبد الرزاق: ٢٦/١١، (٤) مسلم: ١٧١٧/٤.

(٥) فتح الباري: ٦٤٨/١، (٦) مسلم: ٢٠٧٤/٤.

(٧) الطبري: ٢٣/٢٤٤.

(٨) أحمد: ١٢٦/٢، وترتيب الشافعي: ١٨٦/٢.

(٩) فتح الباري: ٦٤/١، ومسلم: ١٧١٤/٤.

(١٠) أحمد: ٥٢٣/٢، (١١) أحمد: ٣٣٨/٢.

(١٢) الطبري: ٢٣/٢٤٤، والقرطبي: ١٧/٢٩٩، والدر المنثور: ٨٢/٨.

(١٣) الطبري: ٢٣/٢٤٥، (١٤) أحمد: ٣٥/١.

(١٥) مسلم: ٥٥٩/١.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ يَخُزُّنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني إنما يصدر هذا من التناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿يَخُزُّنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعد بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةٌ فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ مُخْرَجُهُ»^(١) أخرجه من حديث الأعمش^(٢). وروى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةٌ فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُخْرَجُهُ»^(٣) أخرجه مسلم^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعُّوا فِي الْمَجْلِسِ فَانْشُرُوا يَسْعَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٥)

[آداب المجلس]

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وأمرهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعُّوا فِي الْمَجْلِسِ﴾ وقرئ: (في المجلس) ﴿فَانْشُرُوا يَسْعَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ بَنَى اللَّهُ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(٥)

وفي الحديث الآخر: «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْبُيُوتِ وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٦) ولهذا أشباه كثيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْشُرُوا يَسْعَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض^(٧).

وقد روى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُقِمُّ الرَّجُلُ مِنَ الْمَجْلِسِ قِيْلَاسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا»^(٨) وأخرجه في الصحيحين^(٩) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَا يُقِمُّ الرَّجُلُ مِنَ الْمَجْلِسِ قِيْلَاسَ فِيهِ، وَلَكِنْ أَفْسَحُوا فَيَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ»^(١٠) ورواه أيضاً بلفظ: «لَا يَقُومُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَلَكِنْ أَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ»^(١١) تفرد به أحمد.

وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال علي: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت، وأحسبه قال: وما كانت إلا ساعة^(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُم وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ أَنْ تَقُفَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُطَوِّفُونَ لَهُمْ كَذَّابِينَ لِيُحْلِفُوا لَهُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَهُمْ وَذَكَرَ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

[ذه المنافقين]

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدَلَهُ سَبِيلًا﴾^(١٧) وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يبالسونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال تعالى: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود، ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١٤) يعني المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياداً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله إنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيانهم وشهادتهم لذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٥) أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاودة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا

﴿قَاتِلَاهُمْ لَيْسَ بِإِيمَانِهِمْ إِذَا تَجِيتُمْ الرُّسُولَ فَفَعَلُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦) أَشَقَقْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقْتُ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

[الأمر بالصدقة قبل أن يناجي الرسول]

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يسأله فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦) فما أمر بها إلا من قدر عليها. ثم قال تعالى: ﴿أَشَقَقْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقْتُ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٧) فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قوله: ﴿فَفَعَلُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام، فلما قال ذلك: [صبر] كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَشَقَقْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقْتُ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق^(١).

وقال عكرمة والحسن البصري في قوله تعالى: ﴿فَفَعَلُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ نسختها الآية التي بعدها ﴿أَشَقَقْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقْتُ﴾ إلى آخرها^(٢). وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل بن حيان: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة ففطمهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦).

وقال معمر عن قتادة: ﴿وَإِذَا تَجِيتُمْ الرُّسُولَ فَفَعَلُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ إنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار^(٤). وهكذا

(١) الطبري: ٢٣/٢٤٩. (٢) الطبري: ٢٣/٢٥٠.

(٣) الطبري: ٢٣/٢٤٨. (٤) الطبري: ٢٣/٢٤٩.

(٥) عبد الرزاق: ٣/٢٨٠.

للحق، مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿أُولَئِكَ فِي
الْأَذَلِّينَ﴾ (٦) أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن
الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ
أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي
لا يخالف ولا يانع ولا يبدل، بأن النصر له وكتابته ورسله
وعبادته المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين كما
قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يُقُومُ الشَّهَادَةُ﴾ (٧) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم
اللعنة ولهم سوء الدار (٨) وقال ههنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ
لَأَعْلَبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٩) أي كب القوى
العزیز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن
العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

[لا يواد المؤمنون الكافرين]

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا
من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ
تَسْتَوُوا مِنْهُمْ فَنُكْثَ وَيُعْذِرُكُمْ اللَّهُ تَسْأَلُ الْآيَةَ.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْثَلٌ اقْرَبَتْكُمْ وَبَحْتَرَةٌ تَحْسَبُونَ كِسَادَهَا
وَمَسْكَنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ (١٠) وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره:
أنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
إلى آخرها، في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين
قتل أباه يوم بدر (١١)، ولهذا قال عمر بن الخطاب ذلك حين
جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم:
ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته. وقيل في قوله تعالى:
﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ
فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيَذَرُهُمْ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ أُولَئِكَ
حِزْبَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٢)

بإيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم
صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض
ناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٣) أي: في مقابلة ما امتنوا من
الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحائشة. ثم قال
تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَلَمْ يَلْن
يُدْفَعْ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِأَمْرٍ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ (١٤) ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَيْمًا﴾ أي
يخسرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً
﴿يُجْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَجْلِفُونَ لَكُمُ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: يجلفون بالله
عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يجلفون
للناس في الدنيا، لأن من عاش على شيء مات عليه ويعث
عليه، ويعتقدون أن ذلك، ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم
عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال:

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي حلفهم بذلك لربهم عز وجل.
ثم قال تعالى منكرًا عليهم حسابهم: ﴿أَلَا إِنَّمَا تَحِبُّونَ
الْأَلْبَاسَ﴾ (١٥) ثم قال تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذُ
عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان
حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل، وكذلك يصنع بمن
استحوذ عليه، ولهذا روى أبو داود عن أبي الدرداء قال:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ قَلْبٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا
تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَلْبٌ اسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ
بِالْجِمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّنْبَ الْقَاصِيَةَ» قال زائدة: قال السائب:
يعني الصلاة في الجماعة (١٦). ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ
الشَّيْطَانِ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر
الله، ثم قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (١٨) ﴿كَتَبَ اللَّهُ
لَأَعْلَبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١٩) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ
فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيَذَرُهُمْ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ أُولَئِكَ
حِزْبَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٠)

[ذلة المخالفين لله وغلبة الله ورسوله]

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المعاندين المحادين لله
ورسوله، يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي مجانبون

(١) أبو داود: ٣٧١/١.

(٢) انظر الإصابة ترجمة عامر بن عبد الله بن الجراح.

عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة بني النضير^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)
 هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ
 مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَارِعَتْهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ
 فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ
 يَوْمُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصُرِ
 وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفَهُمْ فِي الْأَجْرِ
 عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَسْتُمْهَا فَأَجْبَئْهُ
 عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيْخْرَى الْقَائِدِينَ ﴿٤﴾

[يسبح لله كل شيء]

يجزى تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء
 يسبح له ويمجده ويقدسه، ويصلي له ويوحده، كقوله تعالى
 ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَكَانَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
 وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي
 منيع الجبابرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه.

[ذكر ما حل ببني النضير]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾
 يعني يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى
 وغير واحد^(٤): كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم
 وأعطاهم عهداً ودعة، على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه،
 فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم يأسه
 الذي لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد،
 فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما
 طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما
 أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن بيسألهم
 وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم
 طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض
 المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد
 أنزلهم منها على أن لهم ما حلت إليهم، فكانوا يجربون ما في

عمير يومئذ ﴿أَوْعَشِرَ لَهُمْ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ
 أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة
 والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله المسلمين في
 أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يبادوا، فيكون ما يؤخذ
 منهم قوة للمسلمين، وهم بنو النعم والعشيرة، ولعل الله
 تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله،
 هل تمكنتني من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من
 عقيل، وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا
 هودة للمشركين... القصة بكاملها. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ
 كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي من
 انصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو
 أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة
 وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته. قال السدي:
 ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان. وقال
 ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي قواهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذِخُّهُمْ حَتَّى تَبْجُرَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة،
 وفي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع، وهو
 أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى، عوضهم الله
 بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم
 والفوز العظيم والفضل العميم. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَبُ
 اللَّهُ إِلَيْنَا جَزَبُ اللَّهِ لَهُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء حزب الله، أي
 عباد الله وأهل كرامته. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا جَزَبُ اللَّهِ لَهُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا
 والآخرة، في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان.
 ثم قال: ﴿إِلَيْنَا جَزَبُ الشَّيْطَانِ لَهُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المجادلة والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير^(١).

روى سعيد بن منصور عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن
 عباس سورة الحشر. قال: أنزلت في بني النضير. ورواه البخاري
 ومسلم من وجه آخر عن هشيم به^(٢)، ورواه البخاري من
 حديث أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٩٧.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٤٩٧، ومسلم: ٤/ ٢٣٢٢.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٤٩٧. (٤) الطبري: ٢٣/ ٢٦٢.

وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة^(١). ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان.

[سبب غزوة بني النضير]

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لِأَدِينَهُمَا» وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها^(٢).

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لها فيما حدثني يزيد بن رومان، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تمجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيرميها منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبت النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال رأيتُه داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم

(١) أبو داود: ٤٠٤/٣.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير: ١٨٠، ١٨١، وابن هشام:

بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: «يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَتَقْتُلُوا بِأَقْدَامِكُمُ الْآصْنَرِ^(٣)» أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم أويتم صاحبنا وإننا نقسم بالله لتقاتلنه أو [لتخرجنّه] أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم و[نستبيح] نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، [اجتمعوا] لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مَا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَنْبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ» فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم سائلكم شيء - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ [اجمعت] بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ أخرج البنا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حرباً حتى نلتقي بمكان المنصف، [فيسمعوا] منك، فإن صدقوك وأمنوا بك أمنا بك. فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ نَعَاهِدُونَنِي عَلَيْهِ» فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقالت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال تعالى: «وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رُكَابٍ» يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار،

أَلْقَوَاعِدَ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قُوْفِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف والهلل والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نصر بالربع مسيرة شهر، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ يُؤْتِيهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسونه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل، وكذلك قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد ^(٢). وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي لسولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء - وهو النفسي من ديارهم وأموالهم - لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله الزهري، عن عروة والسدي وابن زيد، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعدم لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي: حتم لازم لا بد لهم منه. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسوله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ^(٤).

[ما وقع من قطع النخيل كان بإذن الله]

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَسَنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَنَ عَنْ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَيُخْرِجُهُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ^(٥) اللين نوع من التمر وهو جيد، قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرن من التمر ^(٦)، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل ^(٧) ونقله عن مجاهد وهو البويرة أيضاً وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصروهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم، فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان وفتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: قبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع

النخيل بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيو لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعييه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟. وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعه ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمتعوا، فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتلموا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إحياف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسما على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل ابن حنيف وأبا دجاجة - سهاك ابن خرشة - ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله ﷺ، قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلا: يامين ابن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «أَلَمْ تَرَ مَا لَوَيْتُ مِنْ ابْنِ عَمَلِكَ وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ شَأْنِي؟» فجعل يامين بن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فسيا يزعمون. قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ^(٨) وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم، فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني بني النضير ﴿مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنَّهُمْ فَاغَتْهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّهُمْ لَمُحْتَسِبُونَ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ

(١) ابن هشام: ١٩٩/٣ - ٢٠٢.

(٢) الرازي: ٢٩/٢٤٥.

(٣) القرطبي: ٤/١٨.

(٤) الطبري: ٢٣/٢٦٨.

(٥) الرازي: ٢٩/٢٤٦.

ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ، فافاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير ﴿أَوْ جَفَّتْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني الإبل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يانع، بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ وَالرَّسُولُ وَلِأَهْلِ الْقُرَى وَالنَّبِيِّ وَالْمَسْكِينِ وَأَهْلِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفتيء ووجوهه. روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة ستة - وقال مرة قوت ستة - وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل^(٨)، هكذا أخرجه أحمد ههنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجه وقد رويناه مطولاً^(٩).

وروى أبو داود رحمه الله عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار، فجيئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه: يا مالك، إنه قد دفأ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك؟ فقال: خذ، فجاءه يرفاً فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن

لأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي ما قطعتم من شيء وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيتته وقدره ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم^(١١).

وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنها هي مغانم المسلمين، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم، وإنا قطعه وتركه بإذنه، وقد روي نحو هذا مرفوعاً^(١٢)، فروى النسائي عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَوَّلِهَا فَإِذَا نِ الْخَيْزِ الْأَنْسِقِينَ﴾^(١٣) قال: يستزولونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيها قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من رزق؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾^(١٤).

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق^(١٥)، وأخرجه صاحبها الصحيح بنحوه^(١٥)، ولفظ البخاري عن ابن عمر، قال: حاربت النضير وقرينة فأجلى بني النضير وأقر قرينة ومن عليهم حتى حاربت قرينة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة^(١٦)، ولها أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع - وهي البويرة - فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَوَّلِهَا فَإِذَا نِ الْخَيْزِ الْأَنْسِقِينَ﴾^(١٧).

قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِأَهْلِ الْقُرَى وَالنَّبِيِّ وَالْمَسْكِينِ وَأَهْلِ السَّبِيلِ كَلَّا لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١٨)

[أموال الفتيء ومصارفها]

يقول تعالى ميئاً ما الفتيء وما صفته وما حكمه؟ فالفتيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا

(١) الطبري: ٢٣/٢٧١. (٢) الطبري: ٢٣/٢٧١.

(٣) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨٣.

(٤) أحمد: ٢/٧. (٥) مسلم: ٣/١٣٦٥.

(٦) فتح الباري: ٧/٣٨٣.

(٧) فتح الباري: ٧/٣٨٣، ومسلم: ٣/١٣٦٥.

(٨) أحمد: ١/٢٥.

(٩) فتح الباري: ٨/٤٩٨، ومسلم: ٣/١٣٧٦، وأبو داود:

٣/٣٧١، وتحفة الأحوذى: ٥/٣٨١، والنسائي: ٧/١٣٢.

هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

[الأمر بطاعة الرسول في كل ما يأمر وينهى]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمَّا أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْتَهُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾ أي مهبا أمركم به فافعلوه ومهبا نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال: لعن الله الواشيات والمستوشيات والمتنصبات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، قال فبلغ امرأة من بني أسدي البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت: كيت وكيت، قال مالي لا ألعن من لعن رسول الله وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوجه وما وجدته، فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَا أَمَّا أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْتَهُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾ قالت: بلى قال: فإن رسول الله ﷺ ينهى عنه. قالت: إني لأظن أهلك بعلوه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا^(٣). أخرجه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري^(٤). وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»^(٥) وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿لِلْفَقَرَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَبَصُورًا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ﴾^(٦) وَالَّذِينَ يَبُوءُ بِالدَّارِ وَالْإِيمَانِ مِنْ قَبْلِهِمْ يَتُوبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى

(١) أبو داود: ٣٦٥.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٢٩٠، ومسلم: ١٣٧٧/ ٣، ونخبة الأحاديث: ٥/ ٢٣٣، والنسائي: ٧/ ١٣٦.

(٣) أحمد: ١/ ٤٣٣.

(٤) فتح الباري: ٨/ ٤٩٨، ومسلم: ٣/ ١٦٧٨.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٤٩٨، ومسلم: ٢/ ٩٧٥.

ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلوا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا يعني علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وأرحهما، قال مالك بن أوس: خيل إلي أنها قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر بن الخطاب: ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً» قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً» فقالا: نعم. فقال: إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس، فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال.

ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي يذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم. فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً» والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق، فوليتها أبو بكر، فلما توفي، قلت: أنا ولي رسول الله وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئت أنت وهذا، وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتكما، فقلت: إن شئنا فأنادفعا إليكما على أن عليهما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتاني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك، حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرداها إلي^(١)، أخرجه من حديث الزهري به^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَبَيْنَكُمْ﴾ أي جعلنا

[كان الأنصار لا يحسدون المهاجرين]

﴿وَلَا يَحْسُدُونَ فِي سُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يحسدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.
وقوله: ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أعطي إخوانهم.
وكذا قال ابن زيد.

[إيثار الأنصار]

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم، ويبدون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.
وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ الْمُقِلِّ» ^(١) وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا آتَىٰ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» فقال ﷺ: «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ^(٢)، وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ﷺ وأرضاهم.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا، اللَّيْلَةَ، رَحْمَةً لِلَّهِ؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ -

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ^(٣) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» ^(٤)
[بيان المستحقين الآخرين لأموال الفيء،

وفيه فضل المهاجرين والأنصار]

يقول تعالى مبيِّنا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» ^(٥) أي موالء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين. ثم قال تعالى مادحا للأنصار ومبيِّنا فضلهم وشرفهم وكرمهم، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محبتهم، وأن يعفو عن سيئتهم. رواه البخاري ههنا أيضا ^(٦).

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ هَاجَرِ إِيَّتِهِمْ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المنها، حتى لقد حسينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لَا، مَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ» ^(٧) لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وروى البخاري عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين. قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال: «إِنَّمَا لَا، فَاصْبِرُوا حُضْنِي تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرُهُ» ^(٨) تفرد به البخاري من هذا الوجه. وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا. فقالوا: أتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا ^(٩). تفرد به دون مسلم.

(١) فتح الباري: ٤٩٩/٨. (٢) أحمد: ٣/٢٠٠.

(٣) فتح الباري: ١٤٦/٧. (٤) فتح الباري: ١١/٥.

(٥) أبو داود: ١٤٦/٢. (٦) تحفة الأحوذى: ١٠/١٦١.

تَجْعَلُ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبواهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية (١١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَمْرًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَظْفَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ لَئِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَشَرٌّ أَسَدٌ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جَدْبٍ أَسْهَمَ بَيْنَهُمْ شِدَّةٌ مَحْصَنَةٍ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ كَذَّبَ الشَّاطِطِينَ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِينَ اكْفُرْ فَلَنَكُفِّرَنَّ قَالِ إِنِّي بِرَبِّكُمْ خَلْقٌ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

[وعد المنافقين الكذب لبني النضير]

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَمْرًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، إما لأنهم قالوا لهم قولاً، ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿لَيُؤْتِيَنَّ الْأَظْفَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها، كقوله تعالى: ﴿لَئِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَشَرٌّ أَسَدٌ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾

(١) فتح الباري: ٨/٥٠٠.

(٢) فتح الباري: ٧/١٤٩، ومسلم: ٣/١٦٢٤، و١٦٢٥، ونخبة الأحاديث: ٩/١٩٧، والنسائي في الكبرى: ٦/٤٨٦.

(٣) أحمد: ٣/٣٢٣. (٤) مسلم: ٤/١٩٩٦.

(٥) الطبري: ٢٨/٢٩.

(٦) روى مسلم نحوه: ٤/٢٣١٧.

أَوْ ضَحِكَ - مِنْ قُلَانٍ وَقُلَانَةٍ ^(١) وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وكذا رواه البخاري في موضع آخر ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان به نحوه. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.

روى أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي أَنَا وَالظُّلَمُ، فَإِنَّ الظُّلَمَ ظَلَمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا حِمَارَهُمْ» ^(٣) انفرد بإخراجه مسلم ^(٤).

وروى ابن أبي حاتم عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلك، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبش الشيء البخل ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقرائهم من مال الفبيء، وهم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ فُتْرًا وَلَهُمْ فِيهَا مَخْرَجٌ إِلَىٰ بَرَاءةٍ وَأَسْوَاقٍ لِيُتَبَعُوا مِنْ أَجْلِ الْكَفَّةِ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُفَعِّلُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي قائلين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي بغضنا وحسداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفبيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا

مجتابي النار - أو العباء - متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فجلس، ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْ بَيْنِكُمْ عَشْرَةَ صُنُوفٍ وَمَنْظُورٌ﴾ إلى آخر الآية. وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلَنْظُرَ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تصديق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره - حتى قال: -: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ كُلُّ شَيْءٍ فِي يَوْمٍ ذُو نَجْوٍ لِلنَّاسِ، فَهُمْ فِي يَوْمٍ ذَلِكَ خُتِّمَ عَلَيْهِمْ صُلُوبُهُمْ، وَهُمْ يَخِصِّمُونَ أَيْدِيَهُمْ أَيْدِيَهُمْ فَوَيْلٌ لِلنَّاصِبِ﴾. ففجاء رجل من الأنصار ببصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ﴾^(١) انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة^(٢)، فقلوه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه، وهي تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْظُرَ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثان ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) أي اعلّموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤) أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥).

[لا يستوي أهل الجنة وأهل النار]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال

نحو: أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله قنوله: ﴿إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ يُخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾^(٦) ثم قال تعالى: ﴿لَا يَتْلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فَرَى مُخِصَّةً أَوْ رِجْلٌ جُذِي﴾ يعني أنهم من جنبهم واهلهم لا يقدر على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة.

ثم قال تعالى: ﴿بِأَسْمِهِمْ يُبْهِتُهُمْ سَكِينٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَعْصُونَ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ يَنْتَسِبُونَ﴾^(٧) ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزَلْنَا ذَاقُوا تَمَرَهُمْ وَلَكُنْ مِنْكُمْ ذُكْرٌ أَلِيمٌ﴾^(٨) وقال ابن عباس: ﴿كُنْ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني يهود بني قينقاع^(٩)، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق^(١٠).

[مثل المنافقين واليهود في هذه القضية]

وقوله تعالى: ﴿كُنْ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَا كُفْرَ قَالُوا إِنَّا بِرَبِّهِمْ يَنْتَضِلُّ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم لئن لم تلتزم لننصرنكم، ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مشاهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعباد بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾^(١١) وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له، ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ﴾^(١٢) أي جزاء كل ظالم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَنْظُرَ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(١٥) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ^(١٦)

[الأمر بالتقوى والاستعداد ليوم القيامة]

روى الإمام أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاء قوم حفاة عراة

(٢) الطبري: ٢٩٣/٢٣.

(١) الطبري: ٢٩٣/٢٣.

(٣) أحمد: ٣٥٨/٤.

(٤) مسلم: ٧٠٤/٢.

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْنَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ فِيْنَا لَهُمْ وَمَتَّعْنَاهُمْ سِنَةً مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ (١٧) وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (١٨) في آيات أخر دلالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويبين الفجار، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ (١٩) أي الناجون السالمون من عذاب الله عز وجل.

﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مُّصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَبِذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٠) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢١) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٣)

[بيان عظمة القرآن]

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علوقدرة، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مُّصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَبِذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤) أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تدبر قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٥).

وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تستنشقوا إلى

رسول الله ﷺ من الجذع (١) وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتتصدع من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُمِ بِهِ الْوُجُوهُ﴾ الآية. وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن، وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ الْجِبَارِ لَمَّا يُنْفَخُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَلَنْ مِنْهَا لَمَّا يَسْفَقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَلَنْ مِنْهَا لَمَّا يَبْطِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

[تمجيد الله بأسمائه وصفاته]

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٦) أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما بعد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقيق وصغير وكبير حتى الدر في الظلمات. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٧) قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ههنا، والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُفَكِّرُونَ﴾ (٢٨) ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مُّصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَبِذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٩) ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة. وقوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد وقادة: أي المبارك (٣٠) وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام (٣١) ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكمال في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي آمن خلقه من أن يظلمهم (٣٢). وقال قتادة: أئمن بقوله أنه حق (٣٣). وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

(١) فتح الباري: ٦/٦٩٦، والدارمي: ١/٣٤، ٣٥.

(٢) الطبري: ٢٣/٣٠٢. (٣) الدر المنثور: ٨/١٢٣.

(٤) الدر المنثور: ٨/١٢٣. (٥) الطبري: ٢٣/٣٠٣.

(٦) الطبري: ٢٣/٣٠٣.

إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخَوِّنُ الرَّسُولَ وَإِذَا أُنذِرُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِذَا أَنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَآيَاتِنَا مَرَضَاتٍ يُشْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَعْلَمْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ (١) إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَيَسْطُرْ لَكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأُتْسِدَتْ لَهُمُ السُّبُلُ وَوَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا ۝ (٢) لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقْضَىٰ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِرَاطٍ ۝ (٣)

[سبب نزول سورة الممتحنة]

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب ابن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال: «اللَّهُمَّ عَمَّ عَلَيْهِمْ خَيْرَنَا» فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً فاطلع الله تعالى على ذلك رسول الله ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بين في الحديث المتفق على صحته.

روى الإمام أحمد عن حسن بن محمد بن علي، أخبرني عبد الله بن أبي رافع وقال مرة: إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره أنه سمع علياً عليه السلام يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها» فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الشياطين، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فلإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟» قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأةً ملصقةً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قربات

بقوله تعالى: «الْمُهَيْمُونَ» قال ابن عباس وغير واحد: في الشاهد على خلقه بأعمالهم (١) بمعنى هو رقيب عليهم، بقوله: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» وقوله: «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ» وقوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» الآية. وقوله تعالى: «الْعَزِيزُ» أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال تعالى: «الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» أي الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدم في الصحيح: «الْعَظْمَةُ إِرَارِي، وَالْكَبَرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ» (٢) ثم قال تعالى: «سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» وقوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» الخلق: التقدير. والبرء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورثبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل.

وقوله تعالى: «الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» أي الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. فتوكله تعالى: «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ» ولهذا قال «الْمُصَوِّرُ» أي الذي ينقذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريد.

[الأسماء الحسنى]

وقوله تعالى: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (٣) قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف. ونذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سِتْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَثَرٌ حُبُّ الْوَثَرِ» (٤).

[كل شيء يسبح لله]

وقوله تعالى: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» كقوله تعالى: «يُسَبِّحُ لَهُ الثَّانُونَ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» (٥) وقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ» أي فلا يرام جنبه «الْحَكِيمُ» (٦) في شرعه وقدره. آخر تفسير سورة الحشر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«ثَانِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ

(١) البخاري: ٣٢٦/٤. (٢) مسلم: ٢٠٢٣/٤.

(٣) فتح الباري: ٢١٨/١١، ومسلم: ٢٠٦٣/٤.

تَجْعَلُ قِسْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا (٢)، وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِزَّنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣) أي واستر ذنوبنا عن غيرك، وأعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجناحك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها، وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تيسج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٤) كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ (٥) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَغْنِيٌ﴾ الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفاء، وليس كمثله شيء، سبحانه الله الواحد القهار ﴿حَمِيدٌ﴾ المستحمد إلى خلقه، أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ (٦) والله عَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَرْحَمُوهُمْ وَيُقِيمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ أَخْرَاجِكُمْ أَن تَوْلَوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَلَا يُغْلِبُوا (٩)

[عسى الله أن يجعل بين المؤمنين وأعدائهم مودة]

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَوَدَّةً﴾ أي حبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى متمتاً على

نَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا قِسْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٢﴾

[للمسلمين أسوة حسنة في إبراهيم وأصحابه]

في تبرئهم عن قومهم الكفار]

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿وَمَعَنَا سُلُوكٌ مِّن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وَلَبِئْسَ تِلْكَ الْأَعْدَاءُ الْبَغِيضَةُ أَبَدًا﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، مادمتم على كفركم فنحن ذانبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تَوَمَّلُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي إلى أن وحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتحملوا ما تعبدون من الأوثان والأنداد. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لِمَ تَدْعُو آلَ اللَّهِ لَكَ﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة يسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن عدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على شرك ويستغفرون لهم ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فانزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٣) وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِدَعْوَىٰ اللَّهِ وَتَعَدَّىٰ آلِهَتَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَإِنِ إِبْرَاهِيمَ لَآوَدُّ عَلَيْكَ ﴿١٤﴾ وقال تعالى في هذه الآية: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لِمَ تَدْعُو آلَ اللَّهِ لَكَ وَمَا أَمَّاكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار لمشركين، هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقاتة ومقاتل بن حبان والضحاك وغير واحد (١٥).

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين ألقوا قومهم وتبرعوا منهم، فلجأوا إلى الله وتضرعوا إليه فسألوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦) أي تركنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١٧) أي المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا

وَأَخْرَجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿١﴾ أَيِ إِنْسَانٍ يَنْهَاكُمْ عَنْ مَوَالَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُم بِالْعَدَاوَةِ، فَسَانِلُوا وَأَخْرَجُوكُم، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُم، يَنْهَاكُم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مَوَالَتِهِمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِمَعَادَتِهِمْ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مَوَالَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِيمَانِ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاوَهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ نَكْتُمُوهُنَّ فَإِذَا نُفِيتُمُوهُنَّ يُعَصِّمُ الْكُفَّارُ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْنَا لِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَيْكُمْ حُكْمٌ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣) وَإِنْ نَافَرَكُمُ فَؤُءٌ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَقْتُمْ فَتَأَوُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ يُنْزِلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

[تخصيص المسلمات بعدم ردهن إلى]

الكفار إذا هاجرن بعد الحديبية]

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وقد ذكرنا في ترجمة عبد الله بن أبي أحمد بن جحش من المسند الكبير، عن عبد الله بن أبي أحمد قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة فخرج أخوها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ، فكلماه فيها أن يردها إليهما فرفض الله العهد بين

الأنصار: ﴿وَاذْكُرُوا إِصْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية. وكذا قال لهم النبي ﷺ: ﴿أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ إِلَيَّ، وَكُنْتُمْ مُتَصَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي؟﴾ (١) وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمٍ وَمِنْكَ وَالْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) وفي الحديث: «أَحْسِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِضْكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغَضَ بَغِضْكَ هَوْنًا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا» (٣). وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنبأوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان.

[يجوز الإحسان إلى الكفار]

الذين لا يقاتلون في الدين]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي يعاونوا على إخراجكم، أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ أي تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعادلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١) روى الإمام أحمد عن أساء بنت أبي بكر رضى الله عنه قالت: قدمت أُمِّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأثبت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أُمِّكِ» (٢) أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أساء بنت أبي بكر بهدايا: ضباب وأقط وسمن وهي مشركة، فأبى أساء أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى آخر الآية. فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها (٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥) قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات، وأورد الحديث الصحيح: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَتَابَرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا» (٦).

[النهي عن موالاة المحاربين من المشركين]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) فتح الباري: ٦/٧٦٤. (٢) تحفة الأحوذى: ٦/١٣٣.

(٣) أحمد: ٦/٣٤٤.

(٤) فتح الباري: ٥/٢٧٥، ومسلم: ٢/٦٩٦.

(٥) أحمد: ٤/٤. (٦) مسلم: ٣/١٥٨.

بين المشركين في النساء خاصة، فمنعهم أن يردوهن إلى شركين، وأنزل الله آيات الامتحان^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بَاءَ كُفْرِكُمُ التَّوْبَةُ مَهْجَرَةٌ فَاتِّجِهُوا﴾ وكان امتحانهم أن يهتدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله. وقال داود: ﴿فَاتِّجِهُوا﴾ فاسألوهن عما جاء بهن، فإذا كان جاء من غضب على أزواجهن أو سخطه أو غيره ولم يؤمن برجعوهن إلى أزواجهن^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيذان يمكن الاطلاع عليه يقيناً.

[حرمة المسلمات على المشركين،

والمشركات على المؤمنين]

وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في بدء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وكانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقبالدة لها كانت لأما حديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ تَطْطِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا» ففعلوا فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يعث ابنته إليه، فوفى له بذلك رصده فيها وعده وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه^(٣)، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر. وكانت ستة اشنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان^(٤) فردها عليه بالنكاح الأول ولم يحدث لها صداقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ مَّا أَنفَقُوا﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري وغير واحد^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن.

وفي الصحيح عن المسور مروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من

المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ التَّوْبَةُ مَهْجَرَةٌ فَاتِّجِهُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية^(٦). وقال ابن ثور عن معمر عن الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم، على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاء النساء نزلت هذه الآية وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَسَلُّوا مِمَّا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ بِمَالِكُمْ إِنفَقْتُمْ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ يَنْكِحُ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٨) أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الداهية إليهم مثل نفقته عليها^(٩)، وروى ابن جرير عن الزهري قال: أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾^(١٠).

فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردوه على المشركين

(١) جامع المسانيد: ٢٤٣/٧. (٢) الطبري: ٣٢٦/٢٣.

(٣) أبو داود: ١٤٠/٣.

(٤) الصحيح أنه ستة سنة قبل الحديبية وقبل نزول هذه الآية.

(٥) الطبري: ٣٢٩، ٣٢٨/٢٣. (٦) فتح الباري: ٣٩١/٥.

(٧) الطبري: ٣٢٩/٢٣. (٨) الطبري: ٣٣٨/٢٣.

من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمننَّ وهاجرنَّ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمننَّ وهاجرنَّ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعُكَ عَلَيْنَ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِإِلَهِ سِوَاكَ وَلَا يُشْرِكْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْيِنَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأُذُنِيهِنَّ وَلَا يَعْيِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِلَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْنَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

[الأمور التي يبايع عليها النساء]

روى البخاري عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعُكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله: «قَدْ بَايَعْتُكَ» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعه قط، وما يبايعهن إلا بقوله: «قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ»^(٤) هذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت ربيعة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لبنايه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية، وقال: «فِيْمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لَانْتِرَاءٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِي لِمَاةٍ امْرَأَةٍ»^(٥) هذا إسناد صحيح، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه^(٦).

وروى البخاري عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقراً علينا: «أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا» وها هنا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها قالت: أسعدتني فلانة فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها^(٧)، ورواه مسلم^(٨).

وروى الإمام أحمد عن عباد بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «تَبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تُسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ» - قرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ^(٩) أخرجه في الصحيحين^(١٠).

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعُكَ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يُشْرِكْنَ﴾ أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله المعروف ما جرت به عادة أمثاله، وإن كان من غير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ، مَا يَكْفِيكَ وَتَكْفِي بَنِيكَ» أخرجه في الصحيحين^(١١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِتْمًا كَانَ فَرْجُهُنَّ وَكَانَ سَبِيلًا﴾^(١٢) وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم^(١٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله ﷺ فأخذ عليها: «أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يُشْرِكْنَ وَلَا يَزْنِينَ» الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياءً فأعجب ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعمة، إذاً، فبايعها بالآية^(١٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهم جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها للنيل تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْيِنَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأُذُنِيهِنَّ﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم^(١٥) وكذا قال مقاتل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْيِيْنَكَ﴾

(١) الطبري: ٣٣٧/٢٣. (٢) فتح الباري: ٥٠٤/٨.

(٣) أحمد: ٣٥٧/٦.

(٤) تحفة الأخوذ: ٢٢٠/٥، والنسائي: ١٤٩/٧، والنسائي في الكبرى: ٤٨٨/٦، وابن ماجه: ٩٥٩/٢.

(٥) فتح الباري: ٥٠٦/٨. (٦) مسلم: ٦٤٦/٢.

(٧) أحمد: ٣١٤/٥.

(٨) فتح الباري: ٥٠٦/٨، ومسلم: ١٣٣٣/٣.

(٩) فتح الباري: ١٨٣/١٣، ومسلم: ١٣٣٨/٣.

(١٠) أحمد: ٩/٥. (١١) أحمد: ١٥١/٦.

(١٢) الطبري: ٣٤٠/٢٣.

اختيار ابن جرير رحمه الله (٧).

آخر تفسير سورة الممتحنة، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

[فضل سورة الصف]

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقراً علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها (٨)، هكذا رواه الإمام أحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقْنِتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ ثَلَاثُونَ فَرَسًا (٤)

[ثم من يقول قولاً لا يفعله]

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) غير مرة بما أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) إنكار على من يعد عدة أو يقول قولاً لا يفعله، ولهذا استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» (٩). وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَذْهَبَهَا» (١٠) فذكر منهن إخلال الوعد، وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة، ولهذا أكد

معروفٌ يعني فيها أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه منكر. روى البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَكُ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله سبحانه (١). وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لبيبه إلا المعروف، والمعروف طاعة (٢)، وقال ابن زيد: أمر الله طاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف (٣).

وروى ابن جرير عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط بنا رسول الله ﷺ من المعروف حين بايعناه، أن لا تنوح، قلت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني فلا حتى مزيمهم، فانطلقت فأسعدتهم ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفي بن غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك (٤).

وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق حفصة بنت عرين، عن أم عطية نسية الأنصارية (٥).

وروى ابن أبي حاتم عن أسيد بن أبي أسيد البراءة، عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ لا نعصيه في معروف: أن لا نخمش وجهها، ولا ننشر شعرها، ولا نشق جيبها، ولا ندعو ويلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤِرَ الْأُخْرَىٰ كَمَا يَسُؤُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٢)

يعني تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه سورة كما نهي عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى وأهل الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله طرده والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء الأعداء وقد يسؤوا من الآخرة، أي من ثواب الآخرة بعينها في حكم الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَسُؤُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣) فيه دلالة على أحدهما كما يشك الكفار الأحياء من قرايبهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. والقول الثاني معناه كما يشك الكفار الذين هم في القبور من كل خير. قال الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود: ﴿كَمَا يَسُؤُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٤) قال: كما يشك هذا الكافر إذا مات وعابن ثوابه واطلع عليه، وهذا قول جماعة وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي ومنصور (١٥)، وهو

(١) فتح الباري: ٥٠٦/٨. (٢) القرطبي: ٧٣/١٨.

(٣) الطبري: ٣٤٥/٢٣. (٤) الطبري: ٣٤٦/٢٣.

(٥) البخاري: ٤٨٩٢. (٦) الطبري: ٣٤٨/٢٣.

(٧) الطبري: ٣٤٨/٢٣. (٨) أحمد: ٤٥٢/٥.

(٩) فتح الباري: ١١١/١، ومسلم: ٧٨/١.

(١٠) فتح الباري: ١١١/١.

الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي، فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وَمَا أَرَدْتُ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قالت: تمرًا. فقال: «أَمَّا عَلَيْكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُنَيْتُ عَلَيْكَ كَذِبَةً» (١). قال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا» فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين، فانزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي (٣).

ومنها من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر. وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخًا لقوم كانوا يقولون: قتلنا وضربنا وطعنا وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك.

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين (٣). قال وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ ثِيَابٌ رَمَتْهُمْ﴾ أي ملتصق بعضهم ببعض من الصف في القتال. وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضهم إلى بعض. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُمْ ثِيَابٌ رَمَتْهُمْ﴾ (٤) مثبت لا يزول، ملتصق بعضهم ببعض (٤).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِي لَقَوْمِي لَقَوْمِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَحْمَدُ ثُمَّ قَالَ فَمَنْ رَأَوْهُ بِالْيَمِينِ قَالُوا هَذَا سَاحِرٌ كَذِبٌ (٦)

[خطاب موسى لقومه على أذاهم]

وإزاغة الله قلوبهم

يقول خبرًا عن عبده ورسوله وكنيته موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي لم تصلون الأذى إلي وأنتم

تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم. وأمر له بالصبر، ولهذا قال: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُرِدْنِي بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا قَصْبَرٍ» (٥) وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا آيَاتِهِمْ وَابْصَرْتَهُمْ كَمَا لَا يَوْمِنُوا يَوْمَ أَقْلَ مَرَوْ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي مُلَيْنٍ نَهْمُ يَوْمَهُونَ﴾ (٧) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ التَّوْحِيدِ تُولِيهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٨) ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩).

[تبشير عيسى بنينا ﷺ باسمه أحمد]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَحْمَدُ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام هو خاتم الأنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشرًا بمحمد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي روى فيه عن جابر بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنِّي أُسَاءُ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ» (٦) ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه (٧).

وروى محمد بن إسحاق عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك قال: «دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشِّرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حَبْلًا فِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورٌ بِضُرَى مِنْ أَرْضِ

(١) أحمد: ٤٤٧/٣، وأبو داود: ٢٦٥/٥.

(٢) الدر المنثور: ١٤٦/٨. (٣) القرطبي: ١٨/٨١.

(٤) الدر المنثور: ١٤٧/٨. (٥) فتح الباري: ٧/٢٥٢.

(٦) فتح الباري: ٥٠٩/٨. (٧) مسلم: ١٨٢٨/٤.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاسَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ٧ ﴿يُرِيدُونَ ليطفئوا نور الله بأفواههم وأنه أمم نوره. ولَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٨ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ٩

[ذكر أظلم الناس والبشارة بإتمام نور الإسلام]

وغلبته على كل الأديان

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٨ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ٩ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية، والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَجٍ يُجْرِكُم مِّنْ عَذَابِ آلِمِ﴾ ١٠ ﴿تَوْتُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ جَزَاءُ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١١ ﴿يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنَاتٍ فِيهَا ثَمَرٌ أَفْوَاضَ الْعِظِيمِ﴾ ١٢ وَأَخْرَجَ يُخَوِّنُهَا نَصْرًا مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبًا وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣

[التجارة المنجية من العذاب الأليم]

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَجٍ يُجْرِكُم مِّنْ عَذَابِ آلِمِ﴾ ١٠ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود، ومزيلة للمحذور، فقال تعالى: ﴿تَوْتُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ جَزَاءُ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١١ أي من تجارة الدنيا والكدها والتصدي لها وحدها، ثم قال تعالى: ﴿يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم

١٠ وهذا إسناده جيد، وروي له شواهد من وجوه أخرى، إلى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ أَدَمَ لَمَنْجِدٌ فِي نَارٍ، وَسَأَتُبْنِكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى وَرُؤْيَا أُمِّي النَّبِيِّ رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أَهْمَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَوْنَ﴾ ٢١. روى أحمد أيضا عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أمرك؟ قال: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي مَخْرُجٌ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» ٢٢.

وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلا منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن عرفة، وعثمان بن عفان وأبو موسى، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعماره بن الوليد بهدية، فلما دخلوا على النجاشي سجدوا، ثم ابتدأه عن يمينه وعن شماله، ثم قال له: إن نفرا من بني ساسا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: وما بالك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة.

قال عمرو بن العاص: فلأنهم يخالفوك في عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألهاها إلى العذراء البتول التي لم يسسها بشر ولم يعترضها ولد، قال: فرفع عودا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقيسيين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا، مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أتانيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته ٢٣.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَجْآئُهُم بِالْيَمِينِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ ٢٤ قال ابن جرير وابن جرير: ﴿فَلَنَجْآئُهُم﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقدمة، المنوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات، قال الكفرة والمخالفون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ ٢٤.

(١) ابن هشام: ١/ ١٧٥. (٢) أحد: ٤/ ١٢٧.

(٣) أحد: ٥/ ٢٦٢. (٤) أحد: ١/ ٤٦١.

إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعطائم، وهم اليهود عليهم - لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، واقتروا فرقا وشيعا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء.

[نصر الله الطائفة المؤمنة]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١١) أي عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ كما روى الإمام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضه، قال: لما أورد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي قال: ثم قال: أيكم يكفر عليه شهبي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدهم سنا فقال: أنا، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم أنت ذلك. قال: فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفروا بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمنوا به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء البعوية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فظاهرت الكافران على المسلمة فقتلوا فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَإِذَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٢) بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار (١٣). هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه

عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَذَلُّكُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٤) ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: ﴿نَضْرِبُ لِلَّهِ وَقَنْعٌ قَرِيبٌ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصَرُّوهُم بِنُصْرَتِكُمْ وَيَبْغُوا أَفْءَادَكُمْ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿وَلَنُصَرِّفَنَّ اللَّهُ مِن بَيْنِهِمُ إِتْرَ اللَّهِ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١٦) وقوله تعالى: ﴿وَقَنْعٌ قَرِيبٌ﴾ أي عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا، موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَإِذَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٨)

[المسلمون أنصار الدين في كل حال]

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا الله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازرك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيلين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: ﴿مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي فَإِن قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ (١٩) حتى قبض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازره، وشارطوه أن يمنعه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سباهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علما عليهم ﷺ وأرضاهم.

[طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى وأخرى كفرت به]

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين، اهدت طائفة من بني

إخبارًا عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق أحرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام بالآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

سأني عند تفسير هذه الآية من سنته^(١)، فامة محمد ﷺ لا لون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى مثل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ماوردت بذلك الأحاديث الصحاح^(٢)، والله أعلم. آخر تفسير سورة الصف والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

[فضل سورة الجمعة]

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ الْمُسَبِّحُونَ لَهُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِينَ رُسُلًا يُتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينًا ۚ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾

[يسبح لله كل شيء]

بحر تعالى أنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَخْفَىٰ عَنِّي شَيْءٌ سِوَىٰ مَا تُبَيِّنُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ أي هو مالك السماوات والأرض المتصرف فيها بحكمه، وهو القدس، أي المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال العزيز الحكيم^(١) تقدم تفسيرهما غير مرة.

[الامتنان ببعثة رسول الله ﷺ]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِينَ رُسُلًا يُتْلُو مِنْهُمْ﴾ هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلِّ لُذَيْنِ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ بِاللَّهِ بِصِدْقِ الْإِعَادِ ۚ﴾ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿لَا تَذَرُونَهُمْ يَذَرُونَهُمْ﴾ وقوله تعالى

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، أي نزاراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِينَ رُسُلًا يُتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقرهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقرهم إلى النار وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

[محمد رسول للحرب والعجم]

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه

(١) النسائي في الكبرى: ٤٨٩/٦.

(٢) فتح الباري: ١٣/٣٠٦، ومسلم: ١٥٢٤/٣، وأبو داود:

١١/٣.

(٣) مسلم: ٥٩٧/٢ و٥٩٩.

﴿يَسْئَلُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥). ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الذِّكْرَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أُولَئِكَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦) أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين إن كنتم صادقين، أي فيما تزعمون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ أَيْدَاً يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يعمدون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿وَاللَّهُ عَالِمُ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٧) وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْأَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٨) وَلَنْ يَسْتَوِيَ أَيْدَاً يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَالِمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمُ النَّاسِ عَلَى حَافِظَةٍ مِنَ الذِّكْرِ أَشْرَكَوا بِوَدِّ أَحَدِهِمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُعَزِّجٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٩) وقد أسلفنا الكلام هناك، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحُكْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لِنَفْسٍ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٠) ومباهلة المشركين في سورة مريم ﴿قُلْ مَنْ كَانَ مِنَ الضَّالَّةِ فَلْيَعْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعبد الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لا يتبني حتى أطأ على عتبة، قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ بِالْمَلَابِكَةِ عَيْنَا وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا أَلَمُوتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُسَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا﴾^(١١) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمُوتَ أَلَمُوتَ تَقْرُبُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

سورة الجمعة ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئِلَ ثلاثاً، وفيها سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ﴾^(١٢) ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير. ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسر قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوههم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به، ولذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: هم الأعاجم^(١٣) وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١٤) يعني: ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالِاتُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَسْئَلُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٥) قُلْ يَتَّبِعُوا الذِّكْرَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أُولَئِكَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٦) وَلَا يَسْتَوُونَ أَيْدَاً يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَالِمُ بِالظَّالِمِينَ﴾^(١٧) قُلْ إِنْ أَلَمُوتَ أَلَمُوتَ تَقْرُبُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَوِّصُكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عِلِيِّ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْشُرُكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٨)

[ذم اليهود ودعوتهم لتبني]

الموت على سبيل المباهلة

يقول تعالى دائماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها: مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيماً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرّفوه وبدلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١٩) وقال تعالى ههنا:

(١) فتح الباري: ٨/٥١٠.

(٢) مسلم: ٤/١٩٧٢، وتحفة الأحوذى: ٩/٢٠٩ و ١٠/٤٣٣.

والنسائي في الكبرى: ٥/٧٥ و ٦/٤٩٠، والطبري: ٣٧٥/٢٣.

(٣) الطبري: ٢٣/٣٧٤. (٤) أحمد: ١/٢٤٨.

(٥) فتح الباري: ٨/٥٩٥، وتحفة الأحوذى: ٩/٢٧٧، والنسائي في الكبرى: ٦/٥١٨ و ٣٠٨.

سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿١﴾ وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرأنها (فامضوا إلى ذكر الله) ^(٣) فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما أخرجه في الصحيحين، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتُوا» ^(٤) لفظ البخاري. وعن أبي قتادة قال: بيننا نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة قال: «فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَامْشُوا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتُوا» أخرجه ^(٥). قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة في قوله: «فَامْشُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ^(٦)، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي المشي معه، وروي عن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وغيرهما نحو ذلك ^(٧).

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ» ^(٨) ولهما عن أبي سعيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ» ^(٩) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْتَسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ» رواه مسلم ^(١٠). وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ غُسْلُ يَوْمٍ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ» رواه أحمد والنسائي وابن حبان ^(١١).

(١) فتح الباري: ٥٢٦/١١، ومسلم: ٥٨٦/٢.

(٢) مسلم: ٥٨٦/٢. (٣) الطبري: ٣٨١/٢٣.

(٤) فتح الباري: ١٣٨/٢، ومسلم: ٤٢٠/١.

(٥) فتح الباري: ١٣٧/٢، ومسلم: ٤٢٢/١.

(٦) الطبري: ٣٨٠/٢٣.

(٧) الطبري: ٣٨٣/٢٣، والدر المنثور: ١٦٢/٨.

(٨) فتح الباري: ٤١٥/٢، ومسلم: ٥٧٩/٢.

(٩) فتح الباري: ٤١٥/٢، ومسلم: ٥٨٠/٢.

(١٠) مسلم: ٥٨٢/٢.

(١١) أحمد: ٣٠٤/٣، والنسائي: ٩٣/٣، وابن حبان: ٢٦٢/٢.

يَكُنْكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْقَتِيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ ﴿٨﴾ كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا كَوْمَ الْفَتَىٰ وَكَوْنَكُمْ فِي رُجُوعٍ مُّسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿تَابِئَهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(١) إذا قضيت الصلوة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كبيرا لعلمكم بقلوبكم ^(٢).

[الجمعة والأوامر والآداب يوم الجمعة]

إيا سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل سلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل مع الخلائق فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها سموات والأرض، وفيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله بها خيرا إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح. وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة، وثبت أن الاسم قبلنا أمروا به فصلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي نودي فيه الخلق، واختار الله هذه الأمة يوم الجمعة الذي كمل الله فيه الخليقة كما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْأَخِيرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّنَاتُهُمْ أَوْثَرُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي قَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالْأَنَاسُ لَنَا فِيهِ بَيْعٌ، الْيَهُودُ عَدَا وَالنَّصَارَى بَعْدَ عَدٍ» ^(١) لفظ البخاري وفي لفظ لمسلم: «أَصْلُ اللَّهِ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ بَيْعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْأَخِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» ^(٢).

[الأمر بالسعي إلى ذكر الله]

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى: ﴿تَابِئَهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي اقصدا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا

[فضل الجمعة]

وروى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَتَكَرَّرَ وَابْتَكَّرَ وَمَتَّى وَلَمْ يَزْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(١) وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ» أخرجاه^(٣).

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر. وفي حديث أبي سعيد المتقدم «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ وَالسَّوَاكُ وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طَيِّبٍ أَهْلِيهِ»^(٤) وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طَيِّبٍ أَهْلِيهِ إِنْ كَانَ عَنْدَهُ وَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَبَزَّحَ إِنْ بَدَأَ لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِيَّاهُ حَتَّى يُصَلِّيَ كَأَنَّهُ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخِرَةِ»^(٥). وفي سنن أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَسُوِي ثَوْبِيْ مَهْتَبِيْ»^(٦). وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النهار فقال: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِيْ الْجُمُعَةِ يَسُوِي ثَوْبِيْ مَهْتَبِيْ» رواه ابن ماجه^(٧).

[المراد بالنداء أذان الخطبة]

وقوله تعالى: «إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حيث يؤذن بين يديه فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه، فإنه كان هذا لكثرة الناس كما رواه البخاري رحمه الله عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله

إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء^(٨) وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد.

[حرمة البيع والشراء بعد نداء الجمعة]

[والترغيب في طلب الرزق بعدها]

وقوله تعالى: «وَذَرُوا الْبَيْعَ» أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني، وقوله تعالى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كَيْفِ تَعْلَمُونَ»^(٩) أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون. وقوله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ» أي فسرع منها «فَانْشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، كما كان عراك ابن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين. رواه ابن أبي حاتم^(١٠).

وقوله تعالى: «وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١١) أي في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكرًا كثيرًا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ دَخَلَ سُوقًا مِنَ الْأَسْوَاقِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَحَسَنَةً أَلْفَ أَلْفِ سَجْدَةٍ»^(١٢) وقال مجاهد: لا يكون العبد من المداكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

(١) أحمد: ٩/٤.

(٢) أبو داود: ٢٤٦/١، ٢٤٧، وتحفة الأحوذ: ٢/٣.

والنسائي: ٩٥/٣، ٩٧، وابن ماجه: ٢٤٦/١.

(٣) فتح الباري: ٢/٢٥، ومسلم: ٥٨٢/٢.

(٤) فتح الباري: ٢/٤٢٣. (٥) أحمد: ٥/٤٢٠.

(٦) أبو داود: ٦٥٠/١، وابن ماجه: ٣٤٨/١.

(٧) ابن ماجه: ٣٤٩/١. (٨) فتح الباري: ٢/٤٥٧.

(٩) القرطبي: ١٨/١٠٨. (١٠) تحفة الأحوذ: ٩/٢٨٦.

جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُتَقِفُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة خبره أنه رسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُتَقِفِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الأتمة ليصدقوا فيما يقولون، فآغرت بهم من لا يعرف جليلة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبداهم الضلالة بالهدى، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون. أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي كانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجن، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجنهم أنه نازل بهم كما قال تعالى: ﴿أَشِيعَةً عَلَيْهِمْ فَلَا جَاءَ الْخَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَعُونَ آلِيكَ نَدْوَاهُمْ عَلَى آلِيكَ يَقْعَنَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَكَنُواكُمْ يَأْسِتَةً جِذَاءُ أَشِيعَةٍ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا أَعْمِلُوا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سَبِيلاً﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَادُو فَاحْذَرهُمْ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنَّى يَقُولُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، وقد روى الإمام

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْفَوْا بِنَصْوِهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ يَسْتَجْرُوا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

النهي عن الانصراف من المسجد والإمام يخطب

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن خطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْفَوْا بِنَصْوِهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي على غير تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة^(١)، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم، وقد صح بذلك الخبر فروى الإمام أحمد عن سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: قدمت غير مرة المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْفَوْا بِنَصْوِهَا﴾^(٢) أخرجه في الصحيحين من حديث سالم به^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً. وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِنَ الْهَوَىٰ وَمِنْ الْيَجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته. آخر تفسير سورة الجمعة والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة المنافقين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُتَقِفُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُتَقِفِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْ خُسْفًا مُمَسَّدَةً يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُو فَاحْذَرهُمْ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنَّى يَقُولُونَ^(٤)

أحوال المنافقين وتقلباتهم

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا

(١) الطبري: ٣٨٧/٢٣. (٢) أحمد: ٣/٣١٣.

(٣) فتح الباري: ٥١١/٨، ومسلم: ٥٩٠/٢.

(٤) مسلم: ٥٨٩/٢. (٥) الطبري: ٣٩٤/٢٣.

أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمَنَافِقِينَ غَلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا: نَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةً وَطَعَامُهُمْ نُجَبَةً وَغَنِمَتُهُمْ غُلُولٌ لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا ذُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ لَا يَأْتُونَ وَلَا يُؤْتُونَ، حُسْبٌ بِاللَّيْلِ صُحْبٌ بِالنَّهَارِ» وقال يزيد بن مرة: «سُحْبٌ بِالنَّهَارِ» (١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَرَّبَ أَيْنَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٣) يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْزَمُ مِنَ الْأَدَلِّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَهُ ۖ وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٤)

[إعراضهم عن استغفار الرسول]

وعن الإنفاق على من عنده]

يقول تعالى خبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ ۖ أَيْ صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١) كما قال في سورة براءة، وقد تقدم الكلام على ذلك وإيراد الأحاديث المروية هنالك.

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان. وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، يعني مرجعه من أحد، وكان عبد الله ابن أبي بن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة، لا ينكر، شرفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، يعني مرجعه بثلاث الجيش ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل

وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنها قلت بُجْرًا أَنْ قَمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ، فلقبه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أَشَدُّ أَمْرَهُ فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنها قلت بُجْرًا أَنْ قَمْتُ أَشَدُّ أَمْرَهُ. قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله ما أبغني أن يستغفر لي (٢). وقال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يخلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلا سمروه وعزلوه، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لم أنبت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً (٣).

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى ابن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق، فينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجبراً لعمر بن الخطاب وستان ابن وبر قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار! والجهجاه: يا معشر المهاجرين! وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: ما صنعتم بأنفسكم، أحللتهم بلادكم، وقاسمتهم أموالكم، أما والله لو كففت عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ - وهو غليظ - عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، قال رسول الله ﷺ: «كَتِفٌ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا عُمَرُ أَنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لَا، وَلَكِنْ نَادِيَ عُمَرُ الرَّجُلَ» فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم، وكان عند قومه بمكان قالوا: يا رسول الله! عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل.

(١) أحمد: ٢/ ٢٩٣. (٢) ابن هشام: ٣/ ١١١.

(٣) الطبري: ٢٣/ ٣٩٩.

بلغني أنك تريد أن تقتل أبي؟ فوالذي بعثك بالحق، ما تأملت وجهه قط هية له، ولئن شئت أن أتيك برأسه لأتيك فلاني أكره أن أرى قاتل أبي^(١).

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمُولُكُمْ وَلَا نِسَاءُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢) وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ^(٣) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٤)

[الحث على عدم الاشتغال بأسباب

الدنيا وعلى الصدقة قبل الموت]

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، وغبراً لهم بأنه من التهي بمتاع الحياة الدنيا وزيتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستعبد ويستدرك ما فاتته وهيئات، كان ما كان وأتى ما هوأت، وكل بحسب تفریطه، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّجِبَ دَعْوَتِكَ وَرَتَّبِ الْوَسْطَىٰ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿حَقُّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^(٣) لَعَلِّي أَفْعَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(٤). ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥) أي: لا يُنظر أحداً بعد حلول أجله. وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله من لو رُدَّ لعاد إلى شر ما كان عليه ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٦).

آخر تفسير سورة المنافقون. والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

(١) ابن هشام: ٢/ ٢٩٠-٢٩٢. (٢) دلائل النبوة: ٤/ ٥٣.

(٣) أحمد: ٣/ ٣٩٢.

(٤) البخاري: ٤٩٠٧، ومسلم: ٢٥٨٤.

(٥) الطبري: ٢٣/ ٤٠٣ و٤٠٥. (٦) مسند الحميدي: ٢/ ٥٢٠.

وراح رسول الله ﷺ مُهَجَّراً في ساعة كان لا يروح فيها، في أسيد بن الحضير ﷺ فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله ندرحت في ساعة منكورة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَمَّا بَلَّغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ ابْنُ أَبِي؟ وَعَمَّ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ يُخْرِجُ لَهُ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾ قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: أرفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وأنا نطم له الخرز لتتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته مُلكاً، فسار رسول ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشغلهم، عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا من الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين^(١). وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عمرو بن دينار: سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار: فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ: ﴿مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعُوهَا فَإِنَّمَا مَتْنَةٌ﴾.

وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعي أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دَعْنِي لَا تَحْدِثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(٢) ورواه الإمام أحمد^(٣) ورواه البخاري ومسلم^(٤).

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله [بن أبي ابن سلول] هذا على باب المدينة، واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك وملك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقية فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن^(٥). وروى أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده عن أبي هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل. قال: وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَأَنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ نَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَى الْمَصِيرِ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَقُولُونَ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)

[التيسيح لله وذكر خلقه وعلمه]

هذه السورة هي آخر المسبحات وقد تقدم الكلام على تيسيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلق ويقدره. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا مانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية عن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزئهم بها أتم الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ نَصِيرٌ﴾ (٢) ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ (٢) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٣) كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤) أي المرجع والمآب، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَقُولُونَ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤).

﴿لَهُ يَاتِكُمْ بَنُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَا قَوْلُوا بِآيَاتِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)

[الإنذار ببيان إهلاك من سبق من الكفار]

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم من

العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي خبرهم وما حل بهم من أمرهم ﴿فَذَا قَوْلُوا بِآيَاتِهِمْ﴾ أي: وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) أي في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هدايم على يدي بشر مثلهم ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: كذبوا بالحق ونكل عن العمل ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي عنهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٦) ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يَعْثُوا قُلُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ثُمَّ لَنُتَيَّبَنَّهُنَّ بِمَا عَمِلْنَ﴾ (٧) ﴿فَتَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ وَالتَّوْرُ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٨) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَاقِ﴾ (٩) ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِ اللَّهُ لِكُلِّ حَسَبٍ مَا يَكُونُ مِنْهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢)

[الحياة بعد الممات حق]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يعيشون ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَشْعُنَّ لَنُتَيَّبَنَّهُنَّ بِمَا عَمِلْنَ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧) أي بعثكم ومجازاةكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس ﴿وَيَسْأَلُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَنُتَيَّبَنَّهُنَّ بِمَا عَمِلْنَ﴾ (١٢) والثانية في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية. والثالثة هي هذه ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يَعْثُوا قُلُوبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ثُمَّ لَنُتَيَّبَنَّهُنَّ بِمَا عَمِلْنَ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ (١١) خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَتَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ وَالتَّوْرُ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨) أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

[ذكر يوم التفاضل]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة،

ورسوله فيها شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّيْتُ تَوَاتُّرًا فَآتَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ﴾ (١٢) أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حل من البلاغ، وعليكم ما حلتكم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم (٥).

[التوحيد]

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٣) فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْزُومِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٥) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ (١٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَإِنَّهُ يَفْلَحْ هُمُ الْفَالِحُونَ (١٧) إِن تَقْرَضُوا آلَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٨) عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ وَالسَّهْدَةُ الْعَزِيمُ (١٩)

[التحذير من فتنه الأزواج والأولاد]

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو: الزوج والوالد بمعنى أنه ينتهي به عن العمل الصالح كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١) ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد: ﴿إِن مِّنْ أَرْزُومِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْزُومِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهو لاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم

سعي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمَ شَهَادَتِهِمْ﴾ (٢٠) وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ لَكَ بِيَوْمٍ نَّتْلُوهُمُ﴾ (٢١) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْفُتُوحِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار (١). وكذا قال قتادة ومجاهد (٢). وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَبِعَمَلِهِ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣) الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَابَعُوا أَوْلِيَائِهِمْ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٤) وَمَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ (٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٧)

[ما يصيب المرء فهو بإذن الله]

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نُنَزِّلَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١). وهكذا قال ههنا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني عن قدره ومشيبته ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه. وعوضه عما فاتته من الدنيا هدى في قلبه وبقيتاً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه (٣).

وفي الحديث المتفق عليه: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» (٤).

[الامر بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ]

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بطاعة الله

(١) الطبري: ٢٣/٤٢٠. (٢) الطبري: ٢٣/٤١٩، ٤٢٠.

(٣) الطبري: ٢٣/٤٢١. (٤) مسلم: ٤/٢٢٩٥.

(٥) البخاري: توحيد، باب ٤٦.

ههنا، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا أَثْمَرَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي مهما أنفقتهم من شيء فهو يُخْلِفُه. ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونُزِّلَ ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ ظُلُومٍ، وَلَا عَدِيمٍ»^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿يَضْعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة ﴿يَضْعِفُهُ لَهُ أَشْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويكفر عنكم السيئات ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾^(٢) أي: يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز، عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿عَلِيمٌ الْقَلْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣) تقدم تفسيره غير مرة، آخر تفسير سورة التغابن، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَفَلَا حُدُودَ لِلَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(١)

[تطلق المرأة لعدتها ولا تخرج من بيتها وتحصى عدتها]

خو طب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ثم خاطب الأمة بقوله فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وروى البخاري أن عبد الله بن عمر طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «الْبُرْجِيعُهَا ثُمَّ يُنْسِكُهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ يُحْيِضُ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَأَ لَهَا أَنْ يُطْلَقَهَا، فَلْيُطْلَقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَهَا، فَإِنَّكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢) هكذا رواه البخاري ههنا وقد رواه في مواضع من كتابه ومسلم ولفظه «فَإِنَّكَ الْعِدَّةُ الَّتِي

وأولادهم أن يدعُوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَعُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقهِ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أي يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٦) كما قال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلثَّائِبِ حُبُّ الشَّاهِدِ مِنَ النَّكِسَاءِ وَالْبَيْنِ وَالْفَنَظِيرِ الْمُتَقَرِّبِ مِنَ الْإِسْهِارِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْكَمِ وَالْحَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾^(٧) والتي بعدها، وروى الإمام أحمد عن بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين ﷺ، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتِرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»^(٨) ورواه أهل السنن وقال الترمذي: حسن غريب^(٩).

[الأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة]

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا يَهَيِّجُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»^(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي كونوا متقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم. ولا تركبوا ما عنه زجرتم.

[الترغيب في الصدقة]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين، وذوي الحاجات. وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْخِشْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١١) تقدم تفسيره في سورة الحشر وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية بما أغنى عن إعادته

(١) تحفة الأحوذى: ٢٢٢/٩. (٢) أحمد: ٣٥٤/٥.

(٣) أبو داود: ٦٦٣/١، وتحفة الأحوذى: ٢٧٨/١٠، والنسائي

١٠٨/٣، وابن ماجه: ١١٩٠/٢.

(٤) فتح الباري: ٢٦٤/١٣، ومسلم: ٩٧٥/٢.

(٥) مسلم: ٥٢٢/١. (٦) فتح الباري: ٥٢١/٨.

وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابه، وأبو صالح والضحاك، وزيد ابن أسلم، وعطاء الخراساني، والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم^(٦). وتشمل ما إذا نَشَزَت المرأة أَوْ بَدَتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُل، وَأَذْنَمَ فِي الْكَلَامِ وَالْفَعَال. كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم^(٧). وقوله تعالى: ﴿وَيْلَاكُمْ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي شرائعه ومخارمه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يخرج عنها، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَعَذَابُكُمْ نَجَسٌ﴾ أي يفعل ذلك.

[مصلحة الاعتداد في بيت الزوج]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. قال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هي الرجعة^(٨). وكذا قال الشعبي وعطاء، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والثوري^(٩).

[لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة]

ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة واعتدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائبًا عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك. فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فسخطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ» ولمسلم: «وَلَا سُكْنَى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال: «تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اغْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّ رَجُلًا أَعْمَى تَضَعُ يَدَيْهَا فِيهِ»^(١٠) الحديث.

(١) فتح الباري: ٢٥٨/٩ و٣٩٣، ومسلم: ١٠٩٤/٢ و١٠٩٥.

(٢) مسلم: ١٠٩٨/٢. (٣) الطبري: ٤٣٢/٢٣.

(٤) الطبري: ٤٣٢/٢٣ - ٤٣٤. (٥) الطبري: ٤٣٥/٢٣.

(٦) الطبري: ٤٣٨/٢٣، والقرطبي: ١٥٦/١٨، والدر المنثور: ١٩٤/٨.

(٧) الطبري: ٤٣٨/٢٣. (٨) الطبري: ٤٤١/٢٣.

(٩) الطبري: ٤٤٢/٢٣، والقرطبي: ١٥٧/١٨، والدر المنثور: ١٩٤/٨.

(١٠) مسلم: ١٤٨٠.

لَرَأَى أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ^(١). وأمس لفظ يُورد ههنا ما رواه صحيحه من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع: كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضًا؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لِيُرَاجِعَهَا» - فردها وقال - إِذَا طَهَّرْتَ لِلطَّلَاقِ أَوْ يُسِيكَ.

قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عَدَّتِهِنَّ)^(٢) وعن عبد الله في قوله: «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» قال: الطهر من غير جماع^(٣). وروي عن ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، يسوم بن مهران، ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة، والضحاك^(٤). وقال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» قال: لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها بطلاقة^(٥). وقال عكرمة: «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» العدة: الطهر (القرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مُسْتَبِيحًا حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدرى حبلى هي أم لا؟ ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سُتَّةٍ وطلاق بدعة: فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. والبدعة هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدرى أحملت أم لا. وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والأيسة وغير المدخول بها.

وقوله تعالى: «وَأَحْضُوا أَلِئَدَةَ» أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لثلاث طول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج «وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ» أي في ذلك.

[النفقة والسكنى على الزوج في عدة الرجعية]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي في مدة العدة، لها حق السكنى على الزوج، ما دامت مُعْتَدَةً منه. فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضًا الخروج لأنها مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الزَّوْجِ أيضًا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَرْحَةٍ مُبِينَةٍ﴾ أي لا يخرج من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة: تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي، والحسن

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ: فقال رسول الله ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس إننا النفقة والسكنى للمرأة على زوجها، ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى، اخرجني فأنزلي على فلانة» ثم قال: «إنه يتحدث إليها، أنزلي على ابن أم مكتوم فإنه أعمى لا يراك»^(١) وذكر تمام الحديث.

وروى أبو القاسم الطبراني عن عامر الشعبي أنه دخل على فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس القرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة علي والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فسألت أولياءه السكنى والنفقة علي، فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان زوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحمل له حتى تنكح زوجاً غيره: فلا نفقة لها ولا سكنى»^(٢) وكذا رواه النسائي^(٣).

[يجعل الله للمتقين مخرجاً ويرزقهم ويكفيهم] وقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(٤) ويرزقه من حيث لا يحتسب^(٥) أي ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهى عنه يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطر بباله.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» وإن أكرم آية في القرآن فرجاً: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(٦) وقال عكرمة من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً^(٧). وكذا روي عن ابن عباس والضحاك. وقال ابن مسعود ومسروق: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(٨) يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(٩) أي يدري^(١٠). وقال قتادة: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(١١) أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(١٢) من حيث لا يرجو ولا يأمل^(١٣).

وقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»^(١٤) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ: فقال رسول الله ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس إننا النفقة والسكنى للمرأة على زوجها، ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى، اخرجني فأنزلي على فلانة» ثم قال: «إنه يتحدث إليها، أنزلي على ابن أم مكتوم فإنه أعمى لا يراك»^(١) وذكر تمام الحديث.

وروى أبو القاسم الطبراني عن عامر الشعبي أنه دخل على فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس القرشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة علي والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فسألت أولياءه السكنى والنفقة علي، فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان زوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحمل له حتى تنكح زوجاً غيره: فلا نفقة لها ولا سكنى»^(٢) وكذا رواه النسائي^(٣).

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُعَظُّ بِهُ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٤) إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا^(٥)

[الأمر بالإحسان إلى المطلقة سواء]

أراد الرجعة أو الفراق]

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكُلِّية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده «بِمَعْرُوفٍ» أي محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف، أي من غير مقابحة ولا مشاقمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن.

[الأمر بالإشهاد على الرجعة]

وقوله تعالى: «وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ» أي على الرجعة إذا

(١) أحمد: ٦/٣٧٣. (٢) الطبراني في الكبير: ٢٤/٣٨٢.

(٣) النسائي: ٦/١٤٤.

(٤) أبو داود: ٢/٦٣٧، وابن ماجه: ١/٦٥٢.

(٥) الطبري: ٢٣/٤٤٦. (٦) الطبري: ٢٣/٤٤٥، ٤٤٦.

(٧) الطبري: ٢٣/٤٤٨.

[عدة الحامل]

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعها، ولو كان بعد الطلاق، أو الموت بفراق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنة النبوية. روى البخاري عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريماً إلى أم سلمة يسألها فقالت: قُتِلَ زوج سبيعة الأسلمية وهي حُبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها^(٧). هكذا أورد البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطوَّلاً من وجوه أخر^(٨).

وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تنكح، فنكحت^(٩). ورواه البخاري في صحيحه ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق عنها^(١٠). كما روى مسلم بن الحجاج: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية، فيسألها عن حديثها وعمما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته: أنها كانت تحت سعد بن خولة - وكان ممن شهد بدرًا - فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من

الأنثى لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ^(١١) وقد رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد. ويشاؤه ﴿فَدَجَّلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَقْدًا﴾^(١٢) كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١٣).
﴿وَالَّذِي يَسْنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(١٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾^(١٥)

[عدة الأيسة والتي لم تحض]

يقول تعالى مبيناً لعدة الأيسة، وهي التي انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض: أن عدتهن كعدة الأيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ فيه قولان: (أحدهما) وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد أي إن رأيتم دماً وشككتهم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه . (والقول الثاني) إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه عن أبي بن كعب قال: يا رسول الله! إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فإنزل الله عز وجل: ﴿وَالَّتِي يَسْنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(١٦) ورواه ابن أبي حاتم بأيسر من هذا السياق عن أبي بن كعب قال: قلت لرسول الله ﷺ إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار اللاتي قد انقطع منهن الحيض، وذوات الحمل. قال: فإنزلت التي في النساء القصرى: ﴿وَالَّتِي يَسْنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾^(١٧)

- (١) أحمد: ٢٩٣/١. (٢) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٧.
(٣) الطبري: ٤٥٠/٢٣. (٤) الطبري: ٤٥٢/٢٣.
(٥) الطبري: ٤٥١/٢٣. (٦) الحاكم: ٤٩٢/٢.
(٧) فتح الباري: ٥٢١/٨.
(٨) فتح الباري: ٣٧٩/٩، ومسلم: ١١٢٣/٢، وتحفة الأحوذى: ٣٧٥/٤، والنسائي: ١٩٢/٦.
(٩) أحمد: ٣٢٧/٤.
(١٠) فتح الباري: ٣٧٩/٩ و٣٦٠/٧، وأبو داود: ٧٢٨/٢، والنسائي: ١٩٠/٦، وابن ماجة: ٦٥٤/١.

حاملًا أو حائلاً.

[تأخذ الأم المطلقة أجره الرضاعة إن أرضعت]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد ين بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ، وهو: بأكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به، فإن أرضعت استحققت أجر مثلها، ولها أن تعاقب أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتِيَنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولستكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا تَضَارَّ وَالدَّةُ يُؤَلِّفُهَا وَلَا يُولَدُ لَهُ يُولَدُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَأْسَرْتُمْ فَعَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُعْزِيَنَّهُ﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجره الرضاع كثيراً، ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم باستؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُفَقَّ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿وَمَنْ قُوِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفَقَّ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾.

[قصة المرأة المتقية]

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعد منه تعالى ووعدته حتى لا يتخلفه وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره ههنا: فروى عن أبي هريرة: بينما رجل وامرأة من السلف الخليل لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته [جائعاً] قد أصابته منسغبة شديدة، فقال لامرأته عندك شيء؟ قالت: نعم أبشر أتنا رزق الله، فاستحثها فقال: ويحك ابتغي إن كان عندك شيء، قالت: نعم هنيهة - ترجو رحمة الله - حتى إذا طال عليه الطول قال: ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فاثبني به، فإني قد بلغت وجهت، فقالت: نعم، الآن نفتح الثور

نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفانني بأني قد حلت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدالي (١) هذا لفظ مسلم ورواه البخاري مختصراً (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي يسهل له أمره ويسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْزَلَهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سُبُلًا مِّنْ أَمْرِهِ وَيُفَقِّهْ لَكُمْ أَمْرًا﴾ أي يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

﴿أَشْكُرُوهنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتِيَنَّ أَجُورَهُنَّ وَأُتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَأَسَّرْتُمْ فَسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَىٰ (١) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ وَمَنْ قُوِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفَقِّ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٢)﴾

[تسكن المطلقة حسب ما يجد الزوج]

يقول تعالى أمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها فقال: ﴿أَشْكُرُوهنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ﴾ أي عندكم ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني سعتكم (٣) حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه (٤).

[النهي عن التضيق على المطلقة]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال مقاتل ابن حيان: يعني يضاجرها لتفندي منه بإلها أو تخرج من مسكنه. وقال الثوري عن منصور عن أبي الضحى: ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال: يطلقها فإذا بقي يومان راجعها (٥).

[نفقة الحامل البائن على الزوج حتى تضع الحمل]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، بدليل: أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت

(١) مسلم: ١١٢٢. (٢) فتح الباري: ٣٧٩/٩.

(٣) الطبري: ٤٥٧/٢٣. (٤) الدر المنثور: ٢٠٧/٨.

(٥) القرطبي: ١٦٨/١٨.

إِلَى الثَّورِ ﴿١﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقال تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سَمَى الله تَعَالَى الوحي الذي أنزله نورا لما يحصل به من الهدى كما ساءه روحا، لما يحصل به من حياة القلوب فقال تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن مَّشَاءَ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾﴾ وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٣﴾﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته ههنا. والله الحمد والمنة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ أَن اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٤﴾﴾

[بيان قدرة الله التامة]

يقول تَعَالَى مخبرا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثا على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إخبارا عن نوح أنه قال لقومه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ ظَنَّمْتُم أَن تُدْرِكُوا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَتَجْعَلُ لَهَا فُجُورًا وَنَجَاتًا﴾ وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَفِّهِمُ اللَّهُ مَقْرَرًا وَمَزِيدًا﴾ وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَفِّهِمُ اللَّهُ مَقْرَرًا وَمَزِيدًا﴾ وفي صحيح البخاري «خُصِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» (٤) وقد ذكرت طرقة وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية عند ذكر خلق الأرض والله الحمد والمنة، ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة، وأغرق في التزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند.

آخر تفسير سورة الطلاق، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة التلخيص

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبِعِيَ مَضَاجِئَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ

(١) أحمد: ٤٢١/٢. (٢) الطبري: ٤٦٨/٢٣.

(٣) فتح الباري: ١٢٤/٥، ومسلم: ١٢٣٢/٣.

(٤) فتح الباري: ١٢٤/٥. (٥) البداية والنهاية: ١٩/١، ٢٠.

لَا تَعْجَلْ، فَلَمَّا أَنَّ سَكَتَ عَنْهَا سَاعَةً وَتَحِينَتْ أَنْ يَقُولَ لَهَا، قَالَتْ مِّنْ عِنْدِ نَفْسِهَا: لَوْ قُمْتَ فَظَنَرْتُ إِلَى تَتُورِي فَقَامَتْ فَظَنَرْتُ إِلَى تَتُورِهَا مَلَأَنَ مِنْ جَنُوبِ الْغَنَمِ وَرَحِيَّتِهَا تَطْحَنَان، فَقَامَتْ إِلَى الرَّحَى فَفَضَّتْهَا وَاسْتَخَرَجَتْ مَا فِي تَتُورِهَا مِنْ جَنُوبِ الْغَنَمِ، قَالَ لَوْ هَرِيرَةٌ: فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ هُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ ﷺ: «لَوْ أَخَذْتُ مَا فِي رَحِيَّتِهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا [لَطَحَّتْهَا] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١).

﴿وَكَانَ مِّنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ﴿٢﴾﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَقِيبَ أَمْرِهَا حُشْرٌ ﴿٣﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٤﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَةً لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٥﴾﴾

[جزاء العتوة عن أمر الرب]

يقول تَعَالَى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه، ومخبرا عما حل بالأمة السالفة بسبب ذلك، فقال تَعَالَى: ﴿وَكَانَ مِّنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي تَرَدَّتْ وَطَغَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنْ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ وَمَتَابَعَةِ رُسُلِهِ ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا﴾ أي مِنْكَرًا نَظِيمًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي غِبَّ مَخَالَفَتِهَا، وَنَدَمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿وَكَانَ عَقِيبَ أَمْرِهَا حُشْرٌ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَعَ مَا [عَجَلَ] لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي الْأَفْهَامِ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَيُحْشِرَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صَدَقُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (١) يَعْنِي الْقُرْآنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢﴾﴾.

[صفة الرسول ﷺ]

وقوله تَعَالَى: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَةً﴾ قال بعضهم: رسولاً منصوب على أنه بدل اشتغالٍ وملازمة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذِّكْرَ. قال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيراً له (٢). ولهذا قال تَعَالَى: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَةً﴾ أي: في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ

أكلت مغاير فإنه سيقول لك «لَا»، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد فإنه سيقول لك: «سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ»، فقولي جرس نحل العرطف وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفيّة ذلك، قالت: تقول سودة فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرفقا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله! أكلت مغاير؟ قال: «لَا» قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ» قالت: جرس نحل العرطف، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفيّة قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ» قالت: تقول سودة والله لقد حرّمناه، قلت لها: اسكتي^(٤). هذا لفظ البخاري. وقارواه مسلم^(٥)، وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن يوجد منه الريح^(٦). يعني الريح الحثيئة، ولهذا قلن له أكلت مغاير، لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» قلن: جرس نحل العرطف، أي: رعت نحلته شجر العرطف الذي صمّغه المغاير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته فقال الجوهري: جرس النحل العرطف تجرس إذا أكلته، ومنه قيل للنحل جوارس، قال الشاعر:

* تَطْلُ عَلَى الثَّغْرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ *

وقال: الجرس والجرس الصوت الخفي. ويقال: سمعت جرس الطير إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وفي الحديث: «فَيَسْمَعُونَ جَرَسَ طَيْرِ الْجَنَّةِ» قال الأصمعي كنت في مجلس شعبة، قال: فيسمعون جرس طير الجنة بالشين - فقلت: جرس، فنظر إلى فقال: خذوها عب فإن أعلم بهذا منا^(٧). والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبي عن خالته عائشة، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبد ابن عمير عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة توطأتا وتظاهرتا عليه فإله أعلم. وقد يقال إنها واقعتان ولا بُعد في ذلك إلا أن كونها سببا لتزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن

الْحَكِيمُ ﴿١﴾ وَإِذْ أَسْرَأْتَنِي إِلَى نَعِيضِ أَرْوَاجِهِ حَيَاتًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ نَبَأُكَ هَذَا؟ قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢﴾ إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ فُؤُوكُمْ وَإِنْ تَطَهَّرْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ طَهِيرٌ ﴿٣﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يَدُلَّهُ، أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ فَيُنْزِلَنَّهُ عَلَيْكُمْ يُغْنِي عَنْكُمْ سَعْيَكُمْ وَإِنَّكُمْ لَأَنْكَارٌ ﴿٤﴾

[عتاب الله لنبيه في تحريمه الحلال وبيان

كفارته وتأديب الأزواج على تضيقه]

روى البخاري في كتاب الأيمان والنذور عن عبيد بن عمير قال: سمعت عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له: إني أجد منك ريح مغاير أكلت مغاير، فدخل على إحدهما النبي ﷺ فقالت ذلك له فقال: «لَا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَكِنْ أَغْوَدَ لَهُ» فزلت: «يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِيُخْرِجَ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ» - إلى قوله تعالى - «إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا» لعائشة وحفصة «وَإِذْ أَسْرَأْتَنِي إِلَى نَعِيضِ أَرْوَاجِهِ حَيَاتًا» لقوله: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: «وَلَكِنْ أَغْوَدَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ فَلَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا»^(١) وهكذا رواه في كتاب الطلاق بهذا الإسناد ولفظه قريب منه^(٢). ثم قال: المغاير شبيه بالصمغ يكون في الرثم فيه حلاوة، أغفر به الرثم: إذا ظهر فيه. واحدها مُغْفُورٌ ويقال مغاير، وهكذا قال الجوهري قال وقد يكون المغفور أيضا للعسر والثمام والسلم والطلح، قال والرثم بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الخمض، قال والعرفط شجر من العضاء ينضج المغفور.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق من صحيحه عن عائشة به، ولفظه كما أورده البخاري في الأيمان والنذور^(٣)، ثم روى البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيلدن من إحدهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنوك، فإذا دنا منك فقولي:

(١) فتح الباري: ٥٨٢/١١. (٢) فتح الباري: ٢٨٧/٩.

(٣) مسلم: ١١٠٠/٢. (٤) فتح الباري: ٢٨٧/٩.

(٥) مسلم: ١١٠١/٢، ١١٠٢. (٦) مسلم: ١١٠٢/٢.

(٧) المجموع المغيث: ٣٢٠/١.

فقال: ذكرت لك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرت لك له، فصمت، فخرجت، فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرت لك له، فصمت فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال خضير وقد أثر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا» فقلت: الله أكبر. ولو رأيتنا يا رسول الله! وكنا معشر قريش قومًا تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت عليّ امرأتي يومًا فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر رأ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقتل: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أقتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت.

فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله! قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا [أهبة ثلاثة]، فقلت: ادع الله يا رسول الله! أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أَفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ! أَوَلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله! وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل^(١). وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق^(٢)، وأخرجه الشيخان، عن ابن عباس، قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق،

(١) أحمد: ١/٣٣، ٣٤.

(٢) فتح الباري: ٩/١٨٧ و ٥/١٣٧، ومسلم: ٢/١١١، وتحفة

الأحوذى: ٩/٢٢٤، والنسائي في الكبرى: ٥/٣٦٦.

عائشة وحفصة وهما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحجبت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز، ثم أناني فسكيت على يديه، فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين! من المراتين من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس: قال الزهري: كره - والله - ما سأله عنه ولم يكتمه قال: هي عائشة وحفصة.

قال: ثم أخذ يسوق الحديث قال: كنا معشر قريش قومًا تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أقتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت، لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجل - وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يومًا وأنزل يومًا فيأتي بي بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك.

قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنْعِل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبني يومًا ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائنًا حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلامًا له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي

بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقرتْهُنَّ أقول: لنكفرُ
عن رسول الله ﷺ أو ليلدنه الله أزواجاً خيراً منكُنَّ، حتى
أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت: يا عمر! أما في
رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن، فأمسكت فأنزل الله
عز وجل ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكِ مُسْلِمَاتٍ
مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ يَتُبْنَ عِلْدَانِيَّتَيْنِ سَوَّيَاتٍ فَأَبَى أَنْ تَكَارَهُنَّ﴾ (١) وهذه
المرأة التي ردتها عما كان فيه من وعظ النساء، هي أم سلمة
كما [ثبت] ذلك في صحيح البخاري (٢).

ومعنى قوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ يَتُبْنَ عِلْدَانِيَّتَيْنِ﴾ ظاهر
وقوله تعالى: ﴿سَوَّيَاتٍ﴾ أي: صائحات، قاله أبو هريرة
وعائشة وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير
وعطاء، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو عبد الرحمن السلمي
وأبو مالك وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والضحاك
والربيع بن أنس والسدي وغيرهم (٣).

وقوله تعالى: ﴿يَتُبْنَ وَأَبْكَارًا﴾ (٤) أي: منهن ثيبات ومنهن
أبكاراً ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التسرع يسقط
النفس، ولهذا قال: ﴿يَتُبْنَ وَأَبْكَارًا﴾ (٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْلَمُوا الْيَوْمَ أَنَا
جَبْرُوتٌ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
كَبِيرَةً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَتُوبَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ فِي
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَهُ تَوْمَ تُورَثُ يَتَّىٰ أَيْدِيهِمْ وَأَيْمَانُهِمْ يَقُولُونَ نَبَأًا
أَتَيْنَ لَنَا تَوْكَرًا وَءَاغِفْرَتًا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨)

[تعليم الأهل الأدب والدين]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا﴾ يقول اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمرنا
أهليكم بالذكر يُنجيكم الله من النار (٩). وقال مجاهد: ﴿قُوا

عدل إلى الأراك حاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ ثم سرت
معه، فقلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي
ﷺ. هذا لفظ البخاري، ولمسلم: من المرأتان اللتان قال
الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ﴾ قال عائشة وحفصة، ثم ساق
الحديث بطوله (١٠) ومنهم من اختصره.

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن
الخطاب، قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد،
فإذا الناس ينكثون بالحصى ويقولون طلق رسول الله ﷺ
نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب فقلت لأعلمن ذلك
اليوم، فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة
ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برباح غلام
رسول الله ﷺ على أُنْكَمَةِ المِثْرَبَةِ، فناديت فقلت: يا رباح!
استأذن لي على رسول الله ﷺ، فذكر نحوه ما تقدم - إلى أن
قال - فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من أمر النساء،
فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال،
وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، قلنا تكلمت - وأحمد الله -
بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت هذه
الآية آية التخير ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكِ﴾
﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (١١) فقلت: أطلقتهن؟ قال: «لا»
فقمتم على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق
نساءه. ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ
الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكانت أنا استنبطت ذلك
الأمر (١٢). وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة ومقاتل بن
حيان والضحاك وغيرهم (١٣) ﴿وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر
وعمر، زاد الحسن البصري وعثمان وقال ليث بن أبي سليم
عن مجاهد ﴿وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: علي بن أبي طالب.

وروى البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي
ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لمن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ
أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكِ﴾ فنزلت هذه الآية (١٤). وقد تقدم أنه وافق
القرآن في أماكن: منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى
بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل
الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وروى ابن أبي
حاتم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٢٥. (٢) مسلم: ٢/ ١١٠٨.

(٣) مسلم: ٢/ ١١٠٥. (٤) الطبري: ٢٣/ ٤٨٦.

(٥) فتح الباري: ٨/ ٥٢٨. (٦) الطبري: ٢٣/ ٤٨٨.

(٧) فتح الباري: ٨/ ١٦. (٨) الطبري: ٢٣/ ٤٩٠.

والقرطبي: ١٨/ ١٩٣، والدر المنثور: ٨/ ٢٢٤.

(٩) الطبري: ٢٣/ ٤٩١.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿تُورِيهِمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ﴾ (٨) قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفئ (٦). وروى الإمام أحمد عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعت يقول: «اللَّهُمَّ لَا تُخْزِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٧).

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٩) ضرب الله مثلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٍ نُّوحٍ وَأَمْرَاتٍ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ (١٠)

[الأمر بجهاد الكفار والمنافقين]

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين: هؤلاء بالسلح والقتال وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ أي في الدنيا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١١) أي في الآخرة.

[لا ينفع المؤمن الكافر عند الله مهما كان قريباً]

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم: أن ذلك لا يُجدي عنهم شيئاً ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿أَمْرَاتٍ نُّوحٍ وَأَمْرَاتٍ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي: نبين رسولين عندهما، في صحبتها ليلاً ونهاراً، يؤاكلها ويضاجعها، ويعاشرانها أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في

أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله (١)، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به وتساعدهم عليه، فإذا رأيت الله معصية قَدَعْتَهُمْ عنها وزجرتهم عنها (٢). وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمانته وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه (٣). وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن الربيع بن سبرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا» هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن (٤).

[وقود جهنم وملأكتها]

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقودها أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَسْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقال ابن مسعود مجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي، هي حجارة من كبريت، (اد مجاهد: أتت من الحيفة) (٥).

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غِلَاطٍ شِدَادٌ﴾ أي: طابعهم غليظة قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿شِدَادٌ﴾ أي تركيبيهم في غاية الشدة والكنافة والمنظر المزعج. وقوله: ﴿لَا يَبْصُرُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه وهؤلاء وهم الزبانية - عباداً بالله منهم -.

[لا يقبل عذر الكافر يوم القيامة]

وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧) أي يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

[الترغيب في التوبة النصوح]

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا نُورًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتُلغى شعث التائب، وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

(١) الطبري: ٤٩٢/٢٣. (٢) الطبري: ٤٩٢/٢٣.

(٣) القرطبي: ١٩٦/١٨.

(٤) أحمد: ٤٠٤/٣، وأبو داود: ٣٣٢/١، ونخبة الأحرادي:

٤٤٥/٢.

(٥) الطبري: ٣٨١/١. (٦) الطبري: ٤٩٦/٢٣.

(٧) أحمد: ٢٣٤/٤.

الإيمان لم يوافقها على الإيمان، ولا صدقهما في الرسالة، فلم يُجِدْ ذلك كله شيئاً ولا دفع عنها محذوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ أي للمراتين ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (١٠) وليس المراد بقوله: ﴿فَخَاتَمَتُهُمَا﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، كما قدمنا في سورة النور.

وقال العوفي عن ابن عباس قال: كانت خيانتها أنها كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع لي سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجارية من قوم نوح به، وأما امرأة لوط، فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل سوء (١١). وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إننا كانت خيانتها في الدين (١٢). وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم (١٣).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ﴾ (١٥)

[لا يضر الكافر المؤمن عند الله]

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَغَيَّرُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفَرَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (١٦) ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا بُهْتَانَهُمْ ثَقَنَةٌ﴾ (١٧) قال قتادة: كان فرعون أعنى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضار امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربه، ليعلموا أن الله تعالى حكيم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه (١٨). وروى ابن جرير عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة (١٩).

ثم روى ابن جرير عن القاسم بن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون، فقول: أمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فآلقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها وانترعت روحها

وآلقت الصخرة على جسديس فيه روح (٢٠). فقولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ (٢١) ﴿وَبِئْسَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٢) وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم بنت

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي حفظته وصانته، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك وهو جبريل فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب ذراعها، فزلت النفخة فوَلَجَتْ في فرجها، فكان منه الحمل بعميس عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ﴾ (٢٣) أي بقدره وشرعه ﴿وَوَكَاتُ مِنَ الْقَنَاتِ﴾ (٢٤) روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أَتَذَرُونَ مَا هَذَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» (٢٥). وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ فَفَضَّلَ الرَّيْدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٢٦). وقد ذكرنا طريق هذه الأحاديث والأفاظ والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم عليها السلام في كتاب (البداية والنهاية) (٢٧) والله الحمد والمنة، آخر تفسير سورة التحريم، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الملك

وهي مكية

[فضل سورة الملك]

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

(١) الطبري: ٢٣/٤٩٨. (٢) الطبري: ٢٣/٤٩٨.

(٣) الطبري: ٢٣/٤٩٨. (٤) الطبري: ٢٣/٥٠٠.

(٥) الطبري: ٢٣/٥٠٠. (٦) الطبري: ٢٣/٥٠٠.

(٧) أحمد: ١/٢٩٣.

(٨) فتح الباري: ٦/٥١٤، ومسلم: ٤/١٨٨٦.

(٩) البداية والنهاية: ٢/٦١.

إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: **بِتَرِكَ الَّذِي بَدَّهَ الْمَلِكُ** ^(١) ورواه أهل السنن الأربعة، وقال بزملي: هذا حديث حسن ^(٢).

وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «سُورَةُ فِي الْقُرْآنِ خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ: **بِتَرِكَ الَّذِي بَدَّهَ الْمَلِكُ**» ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِتَرِكَ الَّذِي بَدَّهَ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ^(٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ^(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاشِيًَا وَهُوَ حَسِيرٌ ^(٤) وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَةَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رِجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ^(٥)

[تمجيد الله وذكر خلقه الموت

والحياة والسموات والنجوم]

بمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك أي هو المنصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا سأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: **(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** ^(١) ثم قال تعالى: **(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)** واستدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودي، لأنه مخلوق، ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم بلوهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً، كما قال تعالى: **(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْرَجَكُمُ)** فسمى الحال الأول وهو العدم موتاً وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال تعالى: **(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)** وقوله تعالى: **(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)** أي خير عملاً كما قال محمد ابن عجلان، ولم يقل أكثر عملاً ثم قال تعالى: **(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)** ^(٢) أي هو العزيز العظيم المنيع الجنباب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب بعد ما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال تعالى: **(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)** أي طبقة بعد طبقة وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض أو متفاصلات بينهن خلاء، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله تعالى: **(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ)** أي بل هو مُصْطَحَبٌ مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: **(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)** ^(٣) أي: انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم في قوله تعالى: **(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)** ^(٣) أي: شقوق ^(٤) وقال السدي **(هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)** ^(٣) أي من خروق ^(٥) وقال قتادة: **(هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)** ^(٣) أي هل ترى خللاً يا ابن آدم.

وقوله تعالى: **(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)** قال قتادة: مرتين **(وَيَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاشِيًَا)** قال ابن عباس: ذليلاً ^(٦) وقال مجاهد وقاتة: صاغراً ^(٧) **(وَهُوَ حَسِيرٌ)** ^(٨) قال ابن عباس: يعني وهو كليل ^(٩) وقال مجاهد وقاتة والسدي: الحسير المنقطع من الإعياء. ومعنى الآية إنك لو كررت البصر مهما كررت لا قلب إليك، أي لرجع إليك البصر **(حَاشِيًَا)** عن أن يرى عيباً أو خللاً **(وَهُوَ حَسِيرٌ)** ^(٩) أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً، ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: **(وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَةَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ)** وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثواب.

وقوله تعالى: **(وَجَعَلْنَاهَا رِجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)** عاد الضمير في قوله: **(وَجَعَلْنَاهَا)** على جنس المصاييح لا على عينها، لأنه لا يُرمى بالكواكب التي في السماء بل بشهْب من دونها وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. وقوله تعالى: **(وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)** ^(٥) أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة كما قال تعالى في أول الصافات: **(إِنَّا رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنِزَالِ الْكَوَاكِبِ)** ^(٦) وَجَعَلْنَا فِي كُلِّ شَيْطَانٍ مَرَدًّا ^(٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آتِلَا الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

(١) أحد: ٢/٣٢١.

(٢) أبو داود: ٢/١١٩، وتحفة الأحوذى: ٨/٢٠٠، والنسائي في

الكبرى: ٦/٤٩٦، وابن ماجه: ٢/١٢٤٤.

(٣) الطبري في الأوسط: ٤/٣٩١.

(٤) الدر المنثور: ٨/٢٣٥، والقرطبي: ١٨/٢٠٩، والطبري:

٥٠٧/٢٣.

(٥) القرطبي: ١٨/٢٠٩. (٦) الطبري: ٢٣/٥٠٧.

(٧) الطبري: ٢٣/٥٠٧. (٨) الدر المنثور: ٨/٢٣٥.

وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَنْشَأُوا فِي مَكَانِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

[جزاء من خشية ربه بالغيب]

يقول تعالى مخبراً عن من يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فَيَنْكَفُ عَنْ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له ﴿مَغْفِرَةٌ وَاجِرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ أي تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سَبْعَةُ يَظْلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» فذكر منهم رجلاً «دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِيعَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» ^(٤) ثم قال منها على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١٣﴾ أي بما يخطر في القلوب.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي ألا، يعلم الخالق، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾.

[نعمة الله في تسخير الأرض لعباده]

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخير له الأرض وتذليل إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب، بها جعل فيها من الجبال وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهما فيها من المنافع ومواضع الزروع والشجار، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَنْشَأُوا فِي مَكَانِهَا﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها، في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن يسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ فالسعي في السب لا ينال التوكل كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: إن سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى تَوَكَّلِيهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ خَلِفَ لُخْطَةً فَأَلْعَمَهُ رَبُّهَا نَاقِبٌ ﴿٢﴾ قال قتادة: إنها خلقت هذه النجوم لثلاث خصال خلقتها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظّه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُورُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٦﴾ إِذَا الْقُلُوبُ فُجِعُوا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا نَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

[صفة جهنم والداخلين فيها]

يقول تعالى: ﴿وَعَذَابُنَا أَعْتَدْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُورُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٦﴾ أي بس المأل والمنقلب ﴿إِذَا الْقُلُوبُ فُجِعُوا﴾ أي سمعوا لها شيعياً قال ابن جرير: يعني الصباح ^(٧) ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿٧﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ﴾ أي: تكاد ينفصل بعضها عن بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا نَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ لِكُلَّمَةٍ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ وهكذا عادوا على أنفسهم باللامعة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ أي لو كانت لنا عقول نتفعل بها، أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتقار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقيل يرشدنا إلى اتباعهم. قال الله تعالى: ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ﴿١١﴾ يَذَرِيهِمْ فُسْحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ روى الإمام أحمد عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٢﴾

(١) الطبري: ٥٠٨/٢٣. (٢) الطبري: ٥٠٨/٢٣.

(٣) أحمد: ٥/٢٩٣.

(٤) فتح الباري: ١٦٨/٢، مسلم: ٧١٥/٢.

(٥) أحمد: ٥٢/١.

يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٧٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنِ امْسُكَ رِزْقَهُ بَلْ لُبَوَّابٌ غَوِّ وُفُورٍ ﴿٨٠﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨١﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهٌ لَّذِي كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٨٦﴾﴾

[لا ينصركم أحد ولا يرزق إلا الله]

يقول تعالى للمشركون الذين عبدوا معه غيره يتغنون عندهم نصراً ورزقاً، منكراً عليهم فيما اعتقدوه وغبراً لهم، أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ﴿٧٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنِ امْسُكَ رِزْقَهُ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يترككم بعده، أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل وحده لا شريك له، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لُبَّابٌ﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي غَوِّ وَفُورٍ﴾ أي: في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه.

[مثل الكافر والمؤمن]

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٨١﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه: كمثله من يمشي مكباً على وجهه، أي يمشي منحنيلاً لا مستوياً على وجهه. أي لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال، وهذا أهدي ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: مستصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٨٢﴾ أي: على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه

صحيح^(١). فأنبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر المسير المسبب ﴿وَالِلَّهِ النُّشُورُ﴾ ﴿٧٩﴾ أي المرجع يوم القيامة. قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: مناكبها: أطرافها وفجاجها ونواحيها^(٢).

﴿أَمَّا أَيْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿٧٩﴾ أم أينم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴿٧٩﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكف كان تكبير^(٣) أوله يروا إلى الطير فوقهم صفتين ويقضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴿٨٠﴾

[كيف تآمنون عذاب الله وهو يقدر

على مواخذتكم كيفما شاء]

وهذه أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه، أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذِّكْرِ وَلَئِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ يَارِئُ اللَّهُ كَانَ يَعْدُوهُ. بصيراً﴾ ﴿٥٥﴾ وقال ههنا: ﴿أَمَّا أَيْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿٧٩﴾ أي تذهب ونجى وتضطرب ﴿أَمَّا أَيْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدفعكم كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمَّا مَن كَانَ يَصِفُ بِكُمْ جَانِبَ الْوَادِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ ﴿٨٠﴾ وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ ﴿٧٩﴾ أي كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٨٠﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم، أي عظيماً شديداً أليماً.

[طيران الطيور بقدره الله وهو

دليل على أنه بصير بكل صغير وكبير]

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتَيْنِ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي تارة يصفقن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي في الجو ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ﴿٨١﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) تحفة الأحوذى: ٨/٨، والنسائي: في الكبرى في الرقائق

وتحفة الأشراف: ٧٩/٨، وابن ماجه: ١٣٩٤/٢.

(٢) الطبري: ٥١٢/٢٣، والقرطبي: ٢١٥/١٨.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ وَرَحِمْتَ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٨) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ مَنَّ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٢٠)

[موت المؤمن لا يجير الكافر فليفكر في خلاصه]

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد هؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمة ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٨) أي: خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء علينا الله أو رحمتنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: أمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٩) أي: منا ومنكم ولن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

[التذكير بنعمة الله في نبع الماء والتخفيف بذهابه]

ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفزوس الجداد ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٢٠) أي نابع سائح جار على وجه الأرض، أي لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فوس فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة. آخر تفسير سورة الملك.

تفسير السورة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) ﴿مَا أَنْتَ بِعَفْوٍ رَبِّكَ يَمْحُورُونَ﴾ (٢) ﴿لَكَ لَاجِرٌ أَعْرَضُونَ﴾ (٣) ﴿رَبِّكَ لَعَلَّ خَلْقِي عَظِيمٌ﴾ (٤) ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ عَمَّا يَشْرُونَ﴾ (٥) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَقْتُولُونَ﴾ (٦) ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٧)

مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة، فالْمُؤْمِنُ يُحْشَرُ ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢) مُفْضِي بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ. ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ لِلْحَيْمِ ﴿الْآيَاتِ﴾ (٢٤) أَرْوَاجِهِمْ: أَشْبَاهِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يَمْشِي النَّاسُ عَلَى وَجْهِهِمْ؟ فَقَالَ: «الَّذِي أُنْشَأَهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وَجْهِهِمْ»! (١) وهذا الحديث خرج في الصحيحين (٢).

[قدرة الله في الخلق ودلائلها على المعاد]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أي ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي العقول والإدراك ﴿فَلَيْلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) أي: قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته، وامتنال أو امره، وترك زواجه ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بشكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وجلائكم وأشكالكم وصوركم ﴿وَالَّذِي يُخَسِّرُكُمْ﴾ (٢٣) أي يجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٤) أي: متى يقع هذا الذي نخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وَلِنَأْتِيَنَّهُمْ سُبْحَانُ﴾ (٢٥) أي وإنما علي البلغ وقد أدبته إليكم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آتٍ، وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آتِهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٢٦) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿الْأَنفُسِ﴾ (٢٧) ولهذا يقال لهم على وجه التقرع والتوبيخ: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٢٨) أي: تستعجلون.

سَبِيلَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة أن قوله تعالى: ﴿ت﴾ كقوله: ﴿ص﴾. ﴿ق﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحريم القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا.

[تفسير القلم]

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُكَ الْأَكْمَرُ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ الْقَلَمَ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٣﴾ فهو قسم منه تعالى وتنبية لخالقه على ما أنعم به عليهم: من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿٤﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقاعدة: يعني وما يكتبون^(١). وقال السدي: وما يسطرون يعني الملائكة وما كتب من أعمال العباد، وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق، قبل أن تخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف عام.

وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم روى ابن أبي خاتم عن الوليد بن عباد بن عباد بن الصامت قال: دعاني أبي، حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنْ إِلَى الْأَبَدِ»^(٢) وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق^(٣)، وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي به، وقال حسن صحيح غريب^(٤).

[القسم بالقلم على عظمة النبي ﷺ]

وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِمَعْمُورٍ بِكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿٥﴾ أي لست والله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهله من قومك، المكذبون بما جتهد به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون، ﴿وَلَيْنَ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إيلائك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ أي غير مقطوع كقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ أي غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ أي: غير محسوب. وهو يرجع إلى ما قلناه.

[تفسير إنك لعلى خلق عظيم]

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ قال العوفي عن

ابن عباس: وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام^(٦). وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس^(٧). وكذا قال الضحاك وابن زيد^(٨). وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله: ﴿وَلَيْكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أليست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن^(٩). وروى نحوه عبد الرزاق^(١٠). وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله^(١١).

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار أمثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً، تطبعه وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم: من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميع كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مست خراً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شيمت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ^(١٢). وروى البخاري عن البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل ولا بالقصير^(١٣). والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشرائع.

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل^(١٤) وروى

(١) الطبري: ٥٢٨، ٥٢٧/٢٣. (٢) الطبري: ٥٢٦/٢٣.

(٣) أحمد: ٣١٧/٥. (٤) تحفة الأحوذى: ٢٣٢/٩.

(٥) الطبري: ٥٢٨/٢٣. (٦) الطبري: ٥٢٩/٢٣.

(٧) الطبري: ٥٢٩/٢٣. (٨) الطبري: ٥٢٩/٢٣.

(٩) الطبري: ٥٢٩/٢٣. (١٠) عبد الرزاق: ٣٠٧/٣.

(١١) مسلم: ٥١٣/١. (١٢) فتح الباري: ٤٧١/١٠، ومسلم: ١٨١٤/٤.

(١٣) فتح الباري: ٦٥٢/٦. (١٤) أحمد: ٢٣٢/٦.

الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمَّ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ» تفرد به (١).

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ (٥) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ (٦) فستعلم يا محمد! وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَبِئَرِ﴾ (٦) وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أُرِيتُكُمْ لَمَلَكًا مِّثْلَ هَذَا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١١) قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة (١). وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ (٦) أي المجنون (٣). وكذا قال مجاهد وغيره (٤). ومعنى ﴿الْمَفْتُونُ﴾ (٦) ظاهر أي الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه. وإنما دخلت الباء في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ (٥) وتقديره فستعلم ويعلمون، أو فستخبر ويخبرون ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ (٦) والله أعلم.. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ مِنْهُنَّ﴾ (٧) أي هو يعلم تعالى أي الفريقين - منكم ومنهم - هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تَطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَائِفٍ مِّنْهُمْ ﴿١٠﴾ هَكَذَا مَشَاءُ يَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّاهُ عَلَيْهِ مَا كُنَّا نَفَعُكَ أَسْطُورَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَمِعَهُ عَلَى الْمَرْطُورِ ﴿١٦﴾

[النهاية عن قبول ضبط المكذبين ومقترحاتهم]

وأنهم يحبون اللقاء في منتصف الطريق]

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فَلَا تَطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فیرخصون (٥). وقال مجاهد: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٩) تركن إلى أهتهم وترك ما أنت عليه من الحق (٦). ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَائِفٍ مِّنْهُمْ﴾ (١٠) وذلك أن الكاذب لضعفه ومهاته إنما يتقي بآيانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب (٧).

وقوله تعالى: ﴿هَكَذَا مَشَاءُ يَمِيمٍ﴾ (١١) قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب (٨). ﴿مَشَاءُ يَمِيمٍ﴾ (١١) يعني الذي يمشي بين

الناس ويمرّش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة. وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقرنين فقال: «إِنَّمَا لِعَعْبَتَانِ وَمَا يَعْتَبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَشِيرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمُشِي بِالنَّيْمَةِ» الحديث (٩). وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم من طرق، عن مجاهد به (١٠).

وروى الإمام أحمد أن حذيفة قال: سمعت رسول الله يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ» (١١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه (١٢).

وقوله تعالى: ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ﴾ (١٢) أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَيْمٍ﴾ (١٢) أي: يتناول المحرمات، وقوله تعالى: ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ (١٣) أما العتل فهو اللفظ الغليظ الصحيح الجموع النوع. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُّتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ. أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٌ جَوَاطٍ مُّسْتَكْبِرٌ» (١٣). وقال وكيع: «كُلُّ جَوَاطٍ جَعْفَرِيٌّ مُّسْتَكْبِرٌ» أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث سفيان الثوري وشعبة، كلاهما، عن سعيد بن خالد به (١٤).

قال أهل اللغة: الجعظري: اللفظ الغليظ. والجوواط: الجموع النوع. وأما الزنيم فروى البخاري عن ابن عباس ﴿عَتَلٌ بَعْدَ

- (١) أحمد: ٣٨١/٢. (٢) القرطبي: ٢٢٩/١٨.
(٣) الطبري: ٥٣١/٢٣. (٤) الطبري: ٥٣٠/٢٣.
(٥) الطبري: ٥٣٣/٢٣. (٦) الطبري: ٥٣٣/٢٣.
(٧) الطبري: ٥٣٣/٢٣. (٨) الطبري: ٥٣٤/٢٣.
(٩) فتح الباري: ٣٥٨/١، ومسلم: ٢٤٠/١.
(١٠) أبو داود: ٢٥/١، وتحفة الأحوذ: ٢٣٢/١، والنسائي: ٢٨/١، و٤١٢/٤، وفي الكبرى: ٤٩٦/٦، وابن ماجه: ١٢٥/١.
(١١) أحمد: ٣٨٢/٥.
(١٢) فتح الباري: ٤٨٧/١٠، ومسلم: ١٠١/١، وأبو داود: ١٩٠/٥، وتحفة الأحوذ: ١٧٢/٦، والنسائي في الكبرى: ٤٩٦/٦.
(١٣) أحمد: ٣٠٦/٤.
(١٤) فتح الباري: ٥٣٠/٨، ومسلم: ٢١٩٠/٤، وتحفة الأحوذ: ٣٣١/٧، والنسائي في الكبرى: ٤٩٧/٦، وابن ماجه: ١٣٧٨/٢.

بِالْزَنِيمِ ﴿١٣﴾ قال: رجل من قريش له زئمة مثل زئمة
شاة^(١). ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة
إذ الزئمة من بين أخواتها، وإن الزئيم في لغة العرب هو
لدعي في القوم، قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة.
وقوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِ إِبْنَانَا
فَالْأَسْطِرَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ يقول تعالى: هذا - مقابلة ما أنعم
الله عليه من المال والبنين - كفر بآيات الله عز وجل وأعرض
عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين كقوله تعالى:
﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿١٦﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٧﴾ وَبَنِينَ
ثُبُورًا ﴿١٨﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٩﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِبْنَانَا
بَنِينَ ﴿٢١﴾ سَابِقُهُ صَعُودًا ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿٢٣﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ
قُلُوبُ قَدَرٍ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ حَسَّ وَبَصَرَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ أَزْوَاجَهُ اسْتَعَارَ ﴿٢٨﴾
فَقَالَ إِنَّ هَذَا لَأَجْرُ يُؤْتَرُ ﴿٢٩﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٣٠﴾ سَأَلِيهِ سَقَرًا ﴿٣١﴾
إِنَّا أَوْفَدُّكَ مَا سَقَرًا ﴿٣٢﴾ لَا بُدَّيْ وَلَا نَذَرَ ﴿٣٣﴾ لَوَاعَةَ لَلْبَشَرِ ﴿٣٤﴾ عَلَيْهَا نِعْمَةُ
سَقَرٍ ﴿٣٥﴾.

وقال تعالى ههنا: ﴿سَيَسْأَلُهُ عَمَّا تَلْمِزُوهُ﴾ ﴿٣٦﴾ قال ابن جرير:
سبب أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفه ولا يخفى عليهم كما
لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم^(٢).
وقال آخرون: ﴿سَيَسْأَلُهُ﴾ سمة أهل النار يعني تسود وجهه
يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَلَا
يَسْتَنْتُونَ ﴿٣٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهِ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
﴿٤٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْرِمِينَ ﴿٤١﴾ أَلْأَنْتُمْ عَلَىٰ حَرِّكَ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٤٢﴾
فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَسْتَحْفَتُونَ ﴿٤٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٤٤﴾ وَغَدَوْا
عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرٍ ﴿٤٥﴾ فَمَا زَاوَاهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٤٦﴾ بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ ﴿٤٧﴾
قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَنْتُمْ لَكُمْ لَوْلَا لَيْسَ لَكُمْ ﴿٤٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٩﴾
﴿وَقَبِلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتُمَمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥١﴾
عَسَىٰ رَبُّنَا يُبْدِيَنَّ حِجْرًا مِنَّا إِنْ لَمْ نَرْجِعْهُنَّ ﴿٥٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَنَّاكُمُ
لِآخِرِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

[مثل لذهاب كسب الكفار]

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش، فيما أهدى إليهم:
من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة
محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا
قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾
وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿وَإِذْ أَقْبَمُوا

لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْرِمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجنن ثمرها ليلاً؛
لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم، ولا
يتصدقوا منه بشيء ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أي فيما حلفوا به ولهذا
حتهم الله في آياتهم فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهِ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ
نَائِمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: أصابتها آفة مساوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ﴿٥٧﴾
قال ابن عباس كالليل الأسود^(٣). وقال الثوري والسدي:
مثل الزرع إذا حُصد أي: هشيأ ييسأ. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْرِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾
أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليهبوا إلى
الجذاب أي: القطع: ﴿أَلْأَنْتُمْ عَلَىٰ حَرِّكَ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ أي
تريدون الصرام ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَسْتَحْفَتُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أي يتناجون فيما
بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم. ثم فسر الله سبحانه
وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى:
﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَسْتَحْفَتُونَ﴾ ﴿٦١﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٦٢﴾ أي
يقول بعضهم لبعض لا نمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم:
قال الله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ﴾ أي قوة وشدة. ﴿قَدِيرٍ﴾ ﴿٦٣﴾
أي عليها، فيما يزعمون ويرومون ﴿فَمَا زَاوَاهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ﴾ ﴿٦٤﴾
التي قال الله عز وجل، قد استحالنا عن تلك النصارة
والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْهِمَةً لا ينتفع
بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ولهذا قالوا:
﴿إِنَّا لَصَالُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتنها عنها
قاله ابن عباس وغيره، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها
هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ خَرُومُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ أي بل هي هذه، ولكن
نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبر
وعكرمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضحاك
وقصادة: أي أعدلهم وخيرهم ﴿الْأَوَّلُ لَكُمْ لَوْلَا لَيْسَ لَكُمْ﴾ ﴿٦٧﴾
قال مجاهد والسدي وابن جريج: ﴿لَوْلَا لَيْسَ لَكُمْ﴾ أي لولا
تستنون^(٤). قال السدي: وكان استنأؤهم في ذلك الزمان
نسيحاً وقال ابن جرير: هو قول القائل إن شاء الله^(٥). وقيل

(١) البخاري: ٤٩١٧. (٢) الطبري: ٥٤١/٢٣.

(٣) الطبري: ٥٤٤/٢٣.

(٤) الطبري: ٥٥٠/٢٣، والدر المنثور: ٨/٢٥٢.

(٥) الطبري: ٥٥١/٢٣، والدر المنثور: ٨/٢٥٣.

(٦) الطبري: ٥٥٠/٢٣.

معناه: ﴿قَالَ ارْضَوْهُمْ أَزْأَفَلْ لَكُمُ اللَّاتِيحُونَ﴾ (٢٨) أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩) أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا، واعترفوا حيث لا ينفع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣٠) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَ ﴿أَي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) أي اعتدنا وبغينا وطغينا، وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا.

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا جَنَّاتٍ بِثَابِتٍ إِلَى رَبَّنَا رَضَوْنَ﴾ (٣٢) قيل: رغبوا في بَدْخُلِهِمْ في الدنيا وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة والله أعلم. ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن. قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها: ضَرَوَان، على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوههم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب. وقد كان أبوههم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحقّ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أننا منعناهم لتوفّر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكُلَيَّة: رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَفْتَكَبُ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله ويخجل بما آتاه الله، وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرًا ﴿وَلَقَدْ أَكْثَرُوا ظُلْمًا وَكَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) أَنْتَجِلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَعْزُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأَعْزُونَ (٣٩) سَلِّمُوا لَهُمْ وَسَلِّمُوا لَهُمْ (٤٠) أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا وَلَئِنَّا لَأَشْرِكِيهِمْ إِنْ كَانُوا أَصْدِيقِينَ (٤١)

[جزاء المتقين وأنهم لا يجعلون كالمجرمين]

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة، حين عصوا الله عز وجل، وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ، ولا ينقصي نعيمها.

ثم قال تعالى: ﴿أَنْتَجِلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) أي أفسدوا بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماوات. ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) أي كيف تظنون ذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَعْزُونَ (٣٨) يقول تعالى: أفبايديكم كتاب منزل من السماء، تدرسونه وتحفظونه وتداولونه، بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعون؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَعْزُونَ﴾ (٣٩) لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأَعْزُونَ (٣٩) أي أيعجز عهودنا ومواثيقنا مؤكدة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَأَعْزُونَ﴾ (٣٩) أي أن سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿سَلِّمُوا لَهُمْ وَسَلِّمُوا لَهُمْ﴾ (٤٠) أي قل لهم: من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس: يقول: أيهم بذلك كفيل (١). ﴿أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا﴾ (٤١) أي من الأصنام والأنداد ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤٢)

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (٤٣) خَنِيعةً أَسْرَرَهُمْ رَعَفَهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا بِدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَمَا يَسْتَجِيبُونَ (٤٤) وَنَذَرُوا وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِهِ اللَّهُ لِيُفْلِتْ مِنْ عَذَابٍ بَلَّغُوا لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأَعْزُونَ (٤٥) أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا وَلَئِنَّا لَأَشْرِكِيهِمْ إِنْ كَانُوا أَصْدِيقِينَ (٤٦) مَثَقُلُونَ (٤٧) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٨)

[هول يوم القيامة]

لما ذكر تعالى أن ﴿الْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (٤٣) يعني يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء، والامتحان والأمور العظام. وقد روى البخاري ههنا عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُكْشَفُ رَبَّنَا عَنْ سَاقِيهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رَبَاءً وَسُجُودًا، فَلْيَسْجُدْ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله الفاظ، وهو حديث طويل مشهور (٢).

وقوله تعالى: ﴿خَنِيعةً أَسْرَرَهُمْ رَعَفَهُمْ ذَلَّةً﴾ أي: في الدار الآخرة، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحته

(١) الطبري: ٢٣/٥٥٤.

(٢) فتح الباري: ٨/٥٣١ و٥٣٢، ومسلم: ١/١٦٧.

وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العقابة لك ولا تباعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني ذا النون وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان: من ركوبه في البحر، والقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غَمَرَاتِ الْيَمِّ، وسماعه تسييح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدُّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿وَقَالَ ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي: وهو مغموم ^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ أَنَا يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى» ^(٣) ورواه البخاري ^(٤) وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة ^(٥).

[إصابة العين حق]

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَكْدُلِيكَ الْيَدَيْنِ كَفْرًا لِّبَرِّكَ يَا بَصِيرَهٗ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿لِّبَرِّكَ﴾ لينفذونك^(١) ﴿يَا بَصِيرَهٗ﴾ أي يعينونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحايته إياك منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

(حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه) روى أبو عبد الله بن ماجه عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ نَحْوِهَا» ^(٧) هكذا رواه ابن ماجه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن بريدة موقوفاً وفيه قصة ^(٨). وكذا رواه

(١) فتح الباري: ٢٠٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/٤.

(٢) الطبري: ٥٦٣/٢٣. (٣) أحمد: ٣٩٠/١.

(٤) فتح الباری: ٥١٩/٦.

(٥) فتح الباري: ١٤٤/٨، ومسلم: ١٨٤٦/٤.

(٦) الطبري: ٥٦٤، ٥٦٥ / ٢٣. (٧) ابن ماجه: ١١٦١ / ٢.

(A) مسلم: 1/199.

لأنهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا
الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من
الذين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً
ذلك، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لفقاه عكس السجود،
كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون.

﴿وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِّمَن يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَنَبِكُؤْبَ هَذَا الْخَدِيثِ﴾ يعني القرآن،
هذا تهديد شديد أي دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به
ما استدرجه وأمدّه في غيه، وأنظِّره ثم أخذه أخذ عزيز
بأس، ولهذا قال تعالى: ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾
﴿آي:﴾ وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من
كرامة وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى:
﴿تَسْتَبْشِرُونَ أَنْفُسَكُمْ بِرَبِّهِمْ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ سَأَجْعَلُكُمْ فِي اللَّغْيَةِ بَل
تَقُولُونَ ﴿٥٦﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا
لَهُمْ آيَاتِ رَبِّهِمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا رَجَوْا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا
فُتِحُوا﴾ ﴿٥٧﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ يَكِيدُوا مَتْنِ﴾ ﴿٥٨﴾
ن رَأَوْهُمْ وَأَنْظَرَهُمْ وَأَمَدَّهُمْ وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي
س، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ يَكِيدُوا مَتْنِ﴾ ﴿٥٩﴾ أي عظيم لمن
ألف أمرى وكذب رسل، واجترأ على معصيتي.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِعْهُ» ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٢٠) ﴿١٢١﴾. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَنْتَهُمُ أَجْرَهُمْ مِنْ تَعْرِفْتُمْ أَتَقُولُونَ﴾ (١٢٢) ﴿١٢٣﴾ أَمْ عَنْهُمْ الْقِتَابُ فَمَنْ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٢٤) تقدم تفسيرهما في سورة الطور، والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما ينشبه به بمجرد الجهل والكفر والعناد.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأَوْبَانِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُومٌ ﴿١٨﴾
لَوْلَا أَن تَرْكَبَهُ رَيْعَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١٩﴾ فَاصْبِرْ لَهُ رَيْعًا
فَعْمَلَهُ مِّن لَّصِيحِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا
سَمِعُوا الذِّكْرَ وَعَلَىٰ أُنُوفِهِمْ مِّجَنُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

الأمر بالصبر وعدم الاستعجال

مثلاً یونس علیہ السلام

يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه) روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ» ^(١٢) أخرجه وروى ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الْعَيْنُ حَقٌّ» ^(١٤) تفرد به.

(حديث أساء بنت عميس) روى الإمام أحمد عن عبيد بن رفاعه الزرقى قال: قالت أساء: يا رسول الله! إن بني جعفر تصيبهم العين أفاسترقي لهم؟ قال: «نَعَمْ فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يُسْقِى الْقَدْرَ لَسَقَيْتُهُ الْعَيْنَ» ^(١٥) وكذا رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح ^(١٧).

(حديث عائشة رضي الله عنها) روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين ^(١٨) ورواه البخاري، وأخرجه مسلم ^(١٩).

(حديث سهل بن حنيف) روى الإمام أحمد عن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف، أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الحرار من

(١) تحفة الأحوذى: ٦/٢١٧.

(٢) فتح الباري: ١٠/١٦٣، وأبو داود: ٤/٢١٣، وغف الأحوذى: ٦/٢١٧.

(٣) مسلم: ٤/١٧١٩.

(٤) فتح الباري: ٦/٤٧٠، وأبو داود: ٥/١٠٤، وغف الأحوذى: ٦/٢٢٠، والنسائي في الكبرى: ٦/٢٥٠، وابن ماجه: ٢/١١٦٤.

(٥) سنن ابن ماجه: ٣٥٠٩.

(٦) النسائي في الكبرى: ٧٦١٧-٧٦١٩.

(٧) ابن ماجه: ٢/١١٦١.

(٨) تحفة الأحوذى: ٦/٢١٨، والنسائي: ٨/٢٧١.

(٩) أحمد: ٣/٢٨، ٥٦.

(١٠) مسلم: ٤/١٧١٨، وتحفة الأحوذى: ٤/٤٦، والنسائي في الكبرى: ٦/٢٤٩، وابن ماجه: ٢/١١٦٤.

(١١) أحمد: ٣/٥٨، ٥٧. (١٢) أحمد: ٢/٣١٩.

(١٣) فتح الباري: ١٠/٢١٣، ومسلم: ٤/١٧١٩.

(١٤) ابن ماجه: ٢/١١٥٩. (١٥) أحمد: ٦/٤٣٨.

(١٦) تحفة الأحوذى: ٦/٢١٩، وابن ماجه: ٢/١١٦٠.

(١٧) تحفة الأحوذى: ٦/٢٢٠، والنسائي في الكبرى: ٤/٣٦٥.

(١٨) ابن ماجه: ٢/١١٦١.

(١٩) فتح الباري: ١٠/٢١٠، ومسلم: ٤/١٧٢٥.

الترمذي ^(١). وروى هذا الحديث الإمام البخاري وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين موقوفاً: «لا رقية إلا من عين أو حمة» ^(٢).

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتِ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتَفْسَلْتُمْ فَأَغْسِلُوا» ^(٣) انفرد به دون البخاري. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوّذ الحسن والحسين يقول: «أُعِيدُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَأَمَةٍ» ويقول: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعوّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ». أخرجه البخاري وأهل السنن ^(٤).

(حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه) روى ابن ماجه عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال: مر عامر ابن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: لم أر كالיום ولا جلد محبباً، فما لبث أن لُطِبَ به فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً قال: «مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟» قالوا: عامر بن ربيعة قال: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالرَّكَّةِ» ثم دعا بساء فأمر عامراً أن يتوضأ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان: قال معمر عن الزهري: وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه ^(٥).

وقد رواه النسائي من طرق عن أبي أمامة: ويكفأ الإناء من خلفه ^(٦).

(حديث أبي سعيد الخدري) روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان، أخذ بهما وترك ما يسوى ذلك ^(٧). ورواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن ^(٨).

(حديث آخر عنه) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: اشتكت يا محمد؟ قال: «نَعَمْ» قال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنٍ تُنْشِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ» ^(٩). ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود ^(١٠).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ اشتكى فأتاه جبريل فقال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ» ^(١١).

وَمَنْعَتَهُ أَيْتَابُ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَارُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ
 (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَمَا يَرْجُؤْنَ مِنْ قِتْلَةٍ وَالْمُؤْتَمِكَةُ
 بِالْمُطَايَعَةِ (٩) فَصَوَّرَ رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَشَدَّ رَأْسِهِ (١٠) بِأَلْسَانِ طَعْدِ الْمَاءِ
 حَمَلَتْكَ فِي الْبَارِيَةِ (١١) لِنَجْلِهَا لَكُنْ تَذَكَّرُ وَبَعِيهَا أَذُنُ رَعِيَةٍ (١٢) ﴿

[التنبيه على عظم القيامة]

الحاقة من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد،
 ولهذا عظم الله أمرها فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٢)﴾.

[ذكر إهلاك الأمم]

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا
 ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥)﴾ وهي الصيحة التي أسكتهم
 والزلزلة التي أسكتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية:
 الصيحة (٣). وقال مجاهد: الطاغية: الذنوب، وكذا قال
 الربيع بن أنس وابن زيد إنها الطغيان. وقرأ ابن زيد: ﴿كَذَّبَتْ
 ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا (١١)﴾.

﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْاكَ يُرِيْعُ صَرَصِرٌ (٤)﴾ أي باردة قال قتادة
 والسدي والربيع بن أنس والثوري: ﴿عَالِيَةِ (٤)﴾ أي شديد
 الهبوب، قال قتادة: عنت عليهم حتى نقت عن أفئدتهم (٤).
 وقال الضحاك: ﴿صَرَصِرٌ (٤)﴾ باردة ﴿عَالِيَةِ (٤)﴾ عنت عليهم
 بغير رحمة ولا بركة (٥). وقال علي وغيره: عنت على الخزنة
 فخرجت بغير حساب (٦).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً
 أَتْيَابٍ حُسُومًا (٧)﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود
 وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري وغيرهم: حُسُومًا
 متتابعات (٧). وعن عكرمة والربيع بن خثيم: مشائيم عليهم
 كقوله تعالى: ﴿فِي آيَاتٍ لِّمَنَسَاتٍ (٧)﴾ ويقال: إنها التي تسميها
 الناس الأعجاز، وكان الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى:
 ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَارُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ (٧)﴾.

قال ابن عباس: ﴿خَاوِيَةٍ (٧)﴾ خربة. وقال غيره: بالية أي
 جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرب ميثا على أم
 رأسه، فيشذخ رأسه وتبقى جثته هامة، كأنها قائمة النخلة

لجحفة، اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلاً أبيض حسن
 الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن
 كعب وهو يغتسل فقال: ما رأيت كالיום ولا جلدًا مَجْبَأً،
 نَلْبَطُ سَهْلَ فَاتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ
 لَكَ فِي سَهْلٍ! وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَلَا يُقْبِقُ، قَالَ: «هَلْ
 تَهْمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَظَرْنَا إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَنَدَعَا
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيِظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ
 أَخَاهُ، هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكَتُ؟» - ثُمَّ قَالَ - اغْتَسِلْ لَهُ،
 فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه
 ودخله إزاره في قدح، ثم صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، فَصَبَّ رَجُلٌ
 عَلَى رَأْسِهِ وَظَهَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ يَكْفَأُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ
 ذَلِكَ فَرَأَى سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ (١).

(حديث عامر بن ربيعة) روى الإمام أحمد في مسنده عن
 عبيد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن
 حنيف يريدان الغسل، قال: فانطلقا يلتمسان الحِجْرَ. قَالَ:
 لَرَضِعَ عَامِرُ جَبَّةَ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ صَوْفٍ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَأَصَابَتْهُ
 بَغْيِي، فَزَلَّ الْمَاءُ يَغْتَسِلُ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَهُ فِي الْمَاءِ فَرْقَعَةً
 فَأَتَيْتُهُ ثَلَاثًا فَلَمْ يَجِبْنِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ فَعَجَّامٌ
 يَمْسِي فَيَخَاضُ الْمَاءَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ سَاقِيهِ، قَالَ:
 فَضَرَبَ صَدْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اضْرِبْ عَنْهُ حَرَمًا وَبَرْدَهَا
 وَوَصَّيْهَا» قَالَ: فَقَامَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ
 مِنْ أَخِيهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ، أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَبْرِكْ فَإِنَّ الْعَيْنَ
 حَقٌّ (٢)».

[رمي الكفار وجوابهم]

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥)﴾ أي يزدرونه بأعينهم
 ويؤذونه بألسنتهم ويقولون: إنه لمجنون أي لمجيته بالقرآن
 قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥)﴾.

آخر تفسير سورة ن والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْخَافَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَلَمَّا عَادَ
 فَأَتَوْاكَ يُرِيْعُ صَرَصِرٌ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً
 أَتْيَابٍ حُسُومًا (٧)﴾

(٢) أحمد: ٤٤٧/٣.

(١) أحمد: ٤٨٦/٣.

(٤) الطبري: ٥٧٢/٢٣.

(٣) الطبري: ٥٧١/٢٣.

(٦) الطبري: ٥٧٢/٢٣.

(٥) الطبري: ٥٧٢/٢٣.

(٧) الطبري: ٥٧٤، ٥٧٣/٢٣.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَبِيهَا أَذُنٌ وَغِيَّةٌ﴾ (١٢) أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعيه، قال ابن عباس: حافظة سامعة (١٣) وقال قتادة: ﴿أَذُنٌ وَغِيَّةٌ﴾ (١٢) عقلت عن الله فانفتحت بها سمعت من كتاب الله. وقال الضحاك: ﴿وَقَبِيهَا أَذُنٌ وَغِيَّةٌ﴾ (١٢) سمعتها أذنٌ ووعت. أي من له سمعٌ صحيح وعقل رجيح، وهذا عامٌ في كل من فهم ووعى.

﴿فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَجِدَةٌ﴾ (١٣) وَجِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكِّدَتْ وَجِدَةٌ (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)

[ذكر أهوال يوم القيامة]

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفرع ثم يعقبها نفخة الصعق، حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة، لأن أمر الله لا يخالف ولا يباين ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد. ولهذا قال ههنا: ﴿وَجِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكِّدَتْ وَجِدَةٌ﴾ (١٣) أي فمُدت مَدَّ الأديم العكاظمي وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١٤) أي: قامت القيامة ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (١٥) وقال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٦) وقال ابن عباس: متخرقة والعرش بحداثتها ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ (١٦) الملك اسم جنس، أي الملائكة على أرجاء السماء، وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يقول على ما استند من السماء ينظرون إلى أهل الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ (١٧) أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، وقد رواه أبو داود في كتاب السنة من سنته، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حِمْلَةِ الْعَرْشِ: أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاقِبَةِ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا» هذا لفظ أبي داود (١٧).

إذا خرت بلا أغصان. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالْبُبُورِ» (١١) ﴿فَهَلْ رَزَقْنَا لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةِ﴾ (٨) أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن يتسبب إليهم؟ بل بادؤا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قرئ بكسر القاف أي ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط، وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ وهم الأمم المكذوبون بالرسول ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ (٩) وهي التكذيب بما أنزل الله قال الربيع: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ (٩) أي: بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا (١٠). ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَصَّ رَسُولُ رَبِّهِمْ﴾ وهذا جنس، أي: كل كذب رسول الله إليهم كما قال تعالى: ﴿كُلُّ كَذِبٍ أُرْسِلَ بَعْدَ وَعْدِ﴾ (١١) ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع كما قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْأُمَرَّاسِيِّينَ﴾ (١٢) ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْأَمْرَسِيِّينَ﴾ (١٣) ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ الْأَمْرَسِيِّينَ﴾ (١٤) وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿فَقَصَّ رَسُولُ رَبِّهِمْ لَقَدْهُمْ أَخَذَ رَابِعَةً﴾ (١٥) أي عظيمة شديدة الأيمة، قال مجاهد: ﴿رَابِعَةً﴾ (١٥) شديدة (١٦)، وقال السدي: مهلكة.

[التذكير بنعمة السفينة]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَاطِقُا أَلْمَاءَ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود، وقال ابن عباس وغيره: ﴿طَفَا أَلْمَاءَ﴾ (٤) كثير. وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. ولهذا قال تعالى عمتاً على الناس: ﴿إِنَّا لَنَاطِقُا أَلْمَاءَ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ (١١) وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿وَنَجَّيْنَاهَا لَكُمُذِكْرًا﴾ عاد الضمير على الجنس للدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تكونون على تيار الماء في البحار كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمُ مِنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَمُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ.

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّكَ الشَّحُونَ﴾ (١١) وَخَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَسْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (١٢) وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة (١٣). والأول أظهر

(١) مسلم: ٦١٧/٢. (٢) الطبري: ٥٧٦/٢٣.

(٣) الطبري: ٥٧٧/٢٣. (٤) الطبري: ٥٧٧/٢٣.

(٥) الطبري: ٥٧٨/٢٣. (٦) الطبري: ٥٧٩/٢٣.

(٧) أبو داود: ٩٦/٥.

(٧) فتح الباری: ١١ / ٣٠٠. (٨) الطبری: ٢٣ / ٥٨٧.

الله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ لَازِمِي سَلْوَتهُ﴾ (٢١) أي يأمر الزبانية أن تأخذنه عتقا من المحشر، فتغلله، أي: تضع الأغلال في عُنُقَه، ثم توردنه إلى جهنم فتضليه إياها أي: تغمره فيها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٢٢) قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال العوفي عن ابن عباس وابن جريج: بذراع الملك (١)، وقال ابن جريج: قال ابن عباس ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ (٢٢) تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى. وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «لَوْ أَنَّ إِرْصَاصَةً مِثْلَ هَذِهِ - وأشار إلى جُمُوعَةٍ - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، لَكَلَفَتْ الْأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السَّنَسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَصْلَهَا» (٣) وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهٗ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٣) ولا يحض على طعام آتيتك (٢٤) أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن الله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئا، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (٥) وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسِّرْ لَنَا أَلِيمَ هَهنا نَحْمِمْ﴾ (٢٦) وَلَا طَعَامَ إِلَّا مَيْنَ غَسْلَيْنِ (٢٧) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِرُ (٢٨) أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم وهو القريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين، قال قتادة: هو شر طعام أهل النار (١). وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء يسيل من لحومهم. وقال علي بن أبي طلحة عنه: الغسلين صديد أهل النار.

﴿فَلَا أَقِيمَ مَا يَبْشُرُونَ﴾ (٢٩) وَمَا لَا يَبْشُرُونَ (٣٠) إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٣١) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٣٢) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُكْفِرُونَ (٣٣) كَرِيمٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٤)

[القرآن كلام الله]

يقول تعالى مقسما لخلقها بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته

الدالة على كماله في أسائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووجه وتنزله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة فقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمَ مَا يَبْشُرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا يَبْشُرُونَ (٣٩) إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) يعني محمدا ﷺ. أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ولهذا أضافه في سورة التكوين إلى الرسول الملكي (٤١) إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٢) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٤٣) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (٤٤) وهذا جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٤٥) يعني محمدا ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِثَةِ الْئِينِ﴾ (٤٦) يعني أن محمدا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٤٧) أي: بمتهم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ (٤٨) وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤٩) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُكْفِرُونَ (٥٠) فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وجه وكلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥١)

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا آفَاقُوبِلِ﴾ (٥٢) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٥٣) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ (٥٤) فَمَا مَنَكُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ (٥٥) وَإِنَّهُ لَنُذَكِّرُ لِلنَّاسِ (٥٦) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (٥٧) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٨) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥٩) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٦٠)

[لو تقول النبي شيئا على الله لأخذه الله بعذاب] يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا﴾ أي عمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلنا بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٥٤) قيل: معناه لا نتقنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾ (٥٥) قال ابن عباس: وهو يباط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه (٦). وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقاتة والضحاك، ومسلم البطين وأبو صخر حميد بن

(١) الطبري: ٥٨٩/٢٣. (٢) الطبري: ٥٨٩/٢٣.

(٣) أحمد: ١٩٧/٢. (٤) تحفة الأحوذى: ٢١٣/٧.

(٥) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤. (٦) الطبري: ٥٩١/٢٣.

(٧) الطبري: ٥٩٣/٢٣.

سَائِلٌ ﴿دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَقَعَ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ قَالَ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عَذَابِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آخِرٍ﴾ (٢٣)﴾ (٦). وقوله تعالى: ﴿وَاقِفِرْ (١) لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مُرْصِدٌ مَعْدٌ لِلْكَافِرِينَ، وقال ابن عباس: ﴿وَاقِفِرْ (١)﴾ جاء ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢) أي لا دافع له إذا أراد الله كونه ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَرَزَ اللَّهُ ذِي الْمَمَارِجِ (٣)﴾.

[تفسير ذي المارج]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ذِي الْمَمَارِجِ (٣)﴾ يعني العلو والقواضل (٧). وقال مجاهد: ﴿ذِي الْمَمَارِجِ (٣)﴾ معارج الساء (٨). وقوله تعالى: ﴿تَنْجِي الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿تَنْجِي﴾ تصعد. وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله يُشَبِّهُونَ النَّاسَ وَلَيْسُوا نَاسًا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فلما إذا قبضت يُصْعَدُ بها إلى الساء، كما دل عليه حديث البراء (٩).

[المراد بيوم كان مقداره خمسين ألف سنة]

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) المراد بذلك يوم القيامة. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) قال: يوم القيامة. وإسناده صحيح. ورواه الثوري عن سماك بن حرب عن عكرمة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) وكذا قال الضحاک وابن زيد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تَنْجِي الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) قال: هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة (١١). وقد وردت أحاديث في معنى ذلك.

سألا (١). وقال محمد بن كعب هو القلب ومراقه وما يليه (٢). جبرئله تعالى: ﴿فَمَا يَكْفُرُ لِمَصْرَعَتِهِ خَجْرِينَ﴾ (١٧) أي: فما يقدر سألته منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك. يروون عني في هذا: بل هو صادق بآر راشد؛ لأن الله عز وجل سأل ربه ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات لهذا دلالات القاطعات.

كبري ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَذَكَوَّةُ اللَّامِقِينَ﴾ (١٨) يعني القرآن كما قال بل: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ هَدًى وَشِقَاقًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَهُمْ عَلَىٰ عَنَتِي﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ (١٩) أي: مع هذا البيان والوضوح يوجد منكم من يكذب بالقرآن. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٠) قال ابن جرير: وأن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة (٢١). وحكا عن قتادة بمثله (٢٢). ويحتمل عود الضمير إلى القرآن، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٢٣) لا يؤمنون به. وقال تعالى: ﴿وَجِبِلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَحَقَّ الْيَقِينَ﴾ (٢٤) أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، ثم قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٢٥) أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة سأل سؤال

تفسير سورة سأل سؤال

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِفِرْ (١)﴾ (٢) ﴿يَكْفُرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)﴾ ﴿بَرَزَ اللَّهُ ذِي الْمَمَارِجِ (٣)﴾ ﴿تَنْجِي الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ ﴿فَأَصْبَحَ صَبْرًا جَبِيلًا (٥)﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، قَعِيدًا (٦) وَنَزَّهَةً قَرِيبًا (٧)﴾

[الاستعجال بيوم القيامة]

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِفِرْ (١)﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر: استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُنَاكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدُهُ﴾ أي وعذاباه واقع لا محالة. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِفِرْ (١)﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم (١٥). وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ

(١) الطبري: ٢٣/٥٩٣، ٥٩٤، والدر المشور: ٢٧٦/٨.

(٢) القرطبي: ١٨/٢٧٦. (٣) الطبري: ٢٣/٥٩٥.

(٤) الطبري: ٢٣/٥٩٥. (٥) الطبري: ٢٣/٥٩٩.

(٦) الطبري: ٢٣/٥٩٩. (٧) الطبري: ٢٣/٦٠٠.

(٨) الطبري: ٢٣/٦٠٠. (٩) الطول للطبراني: ٢٣٨.

(١٠) الطبري: ٢٣/٦٠١.

(١١) الطبري: ٢٣/٦٠٣.

وروى الإمام أحمد عن أبي عمر الغداني قال: كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقبل له هذا أكثر عامري مالا، فقال أبو هريرة، ردهه إلي فردوه فقال: نبئت أنك ذو مال كثير. فقال العامري: إي والله إن لي لمائة حُرٍّ ومائة أُنْثَى، حتى عد من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل، فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولُهَا» قلنا: يا رسول الله! ما نجدتها ورسولها؟ قال: «فِي غَسَرِهَا وَيُسْرِهَا، فَإِنَّمَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَخْذٍ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمَى وَأَشْرُهُ، ثُمَّ يُطَبَّحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ فَتَقْطُوهُ بِأَخْفَافِهَا، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ.

[تلقين النبي الصبر]

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَرْؤْنَ سُبُلَ الْوَقُوعِ بِمَعْنَى مُسْتَحِيلِ الْوُقُوعِ﴾ ﴿وَوَرْنَهُ قَرِيبًا﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريبًا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ يَقْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِسَبِيلِهِ﴾ ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَجْزَى﴾ ﴿وَلَصَّيِلَتْ أَلْيُ ثَنُوبٍ﴾ ومن في الأرض جميعًا ثم ينجي ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَطَفُ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَزَاعَةً لِلنَّسَوِيِّ﴾ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾ ﴿وَجَمْعٌ فَأَوْجِزْ﴾

[أحوال يوم القيامة]

يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وغير واحد: أي كدُرِّي الزيت ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة والسدي. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْشُورِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره، قال العوفي عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَتَيْنَاهُمْ نَبِيًّا يَتَّبِعُ شَأْنُ بَنِيهِ﴾ ﴿وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَكَلِّمُ النَّاسَ انْفُسًا وَرَبِّكُمْ وَأَخْنَسُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي الدُّنُورُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلًى هُوَ جَائِزٌ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ﴾

(١) أحمد: ٤٨٩/٢.

(٢) أبو داود: ٣٠٤/٢، والنسائي: ١٢/٥.

(٣) أحمد: ٢٦٢/٢. (٤) مسلم: ٦٨٢/٢.

(٥) الطبري: ٦٠٤/٢٣. (٦) الطبري: ٦٠٥/٢٣.

وروى الإمام أحمد عن أبي عمر الغداني قال: كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقبل له هذا أكثر عامري مالا، فقال أبو هريرة، ردهه إلي فردوه فقال: نبئت أنك ذو مال كثير. فقال العامري: إي والله إن لي لمائة حُرٍّ ومائة أُنْثَى، حتى عد من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل، فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولُهَا» قلنا: يا رسول الله! ما نجدتها ورسولها؟ قال: «فِي غَسَرِهَا وَيُسْرِهَا، فَإِنَّمَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَخْذٍ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمَى وَأَشْرُهُ، ثُمَّ يُطَبَّحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ فَتَقْطُوهُ بِأَخْفَافِهَا، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ.

وإذا كانت له بقرة لا يعطي حَقَّها في نَجْدَتِهَا وَرَسُولُهَا، فَإِنَّمَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَخْذٍ مَا كَانَتْ وَأَسْمَى وَأَشْرُهُ، ثُمَّ يُطَبَّحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ فَتَقْطُوهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظِلْفِهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ وَلَا عُضْبَاءٌ إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ» فقال العامري: وما حق الإبل يا أبا هريرة؟ قال: أن تعطي الكريمة وتمنح الغزيرة، وتُفَقَّرَ الظهر وتسقي الإبل وتطرق الفحل^(١). وقد رواه أبو داود والنسائي^(٢).

(طريق أخرى لهذا الحديث) روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ كُنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا أُجْمِلَ صَفَاتِهِ، يُجْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَمَّا تَعْدُونَ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِنَّمَا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا إِلَى النَّارِ» وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم، وفيه: «الْحَبْلُ لثَلَاثَةِ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ» إلى آخره^(٣). ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفردًا به

(١٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (١٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُرْوَدُونَ حَقِيقُونَ (١٩) إِلَّا عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ (٢٠) هُمْ أَنْبِئُوكَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٢١) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٢٢) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٢٣) أُولَٰئِكَ فِي جَهَنَّمَ مُكْرَمُونَ (٢٤)

[الإنسان هالِك]

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٧) ثم فسره بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ فَزِعَ وَجَزِعَ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (١٨) أي إذا حصلت له نعمة من الله يبخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ مَالِهِ وَجُبْنُ خَالِهِ» (١٧) ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به، وليس لعبد العزيز عنده سواء (١٨).

[استثناء المصلين مما سبق]

وبيان أعمالهم وصلاتهم

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٣) قيل: معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي (٢٤).

وقيل: المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢٦) قاله عتبة بن عامر. ومنه: الماء الدائم، وهو الساكن الراكد، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته، لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينقرا نقر الغراب فلا يفلح في صلاته.

(١) الطبري: ٦٠٦/٢٣. (٢) الطبري: ٦٠٨/٢٣.

(٣) الطبري: ٦٠٩/٢٣. (٤) الطبري: ٦٠٩/٢٣.

(٥) الطبري: ٦٠٩/٢٣. (٦) مسلم: ٧١٣/٢.

(٧) أحمد: ٣٠٢/٢. (٨) أبو داود: ٢٦/٣.

(٩) الطبري: ٦١٢/٢٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَشْفَلَةً إِلَىٰ جِهَلٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (٢٧) وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْصَابَ يَسْتَغْنِي يَوْمَئِذٍ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ لَوْكَ﴾ (٢٨) وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْوَيْدُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٩) وَأَيُّهُ (٣٠) وَصَاحِبُهُ (٣١) وَلِكُلِّ أَمْرٍ نَّهْنٌ يَوْمَئِذٍ نَّهْنٌ يَغْنِي (٣٢).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (٣٣) وَصَاحِبِهِ (٣٤) وَأَخِيهِ (٣٥) وَفَصْلَتِهِ الَّتِي تُقْوِيهِ (٣٦) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (٣٧) كَلَّا (٣٨) أَي لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَبَاعَ مَا يَمِجِدُ مِنَ الْمَالِ وَلَوْ يَجْلُءُ الْأَرْضَ ذَهَبًا، أَوْ مِنْ وَلَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حُشَّاشَةً كَيْدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ - أَنْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِهِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ. قال مجاهد والسدي: ﴿وَفَصْلَتِهِ﴾ قَبِيلَتُهُ وَعَشِيرَتُهُ (٣٩). وقال عكرمة: فخذِهِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ، وقال أشهب عن مالك: لَصِيبَتُهُ: أُمُّهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَطَقْتُ﴾ (٤٠) يَصِفُ النَّارَ وَشِدَّةَ حَرِّهَا ﴿نَزَاعَةً لِلنَّسْوَى﴾ (٤١) قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس (٤٢). وقال الحسن البصري وثابت البناني: ﴿نَزَاعَةً لِلنَّسْوَى﴾ (٤٣) أَي مَكَارِمَ وَجْهِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿نَزَاعَةً لِلنَّسْوَى﴾ (٤٤) أَي نَزَاعَةً لِمَا فِيهِ مِنْ مَكَارِمَ وَجْهِهِ وَخَلْقِهِ وَأَطْرَافِهِ (٤٥). وقال الضحاك: تَشْرِي اللَّحْمَ وَالْجِلْدَ عَنِ الْعِظَمِ حَتَّى لَا تَبْقَى مِنْهُ شَيْئًا (٤٦). وقال ابن زيد: النَّسْوَى: الْأَرَابُ الْعِظَامُ (٤٧). فَقَوْلُهُ نَزَاعَةً قَالَ: تَقْطَعُ عِظَامَهُمْ، ثُمَّ تَبْدِلُ جُلُودَهُمْ وَخَلْقَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (٤٨) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (٤٩) أَي تَدْعُو النَّارَ إِلَيْهَا أَبْنَاءُهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لَهَا، وَقَدْ هَمَّ أَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِسَانٍ طَلِقٍ ذَلِقٍ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَانُوا مِنْ «أَدْبَرَ وَتَوَلَّى» (٥٠) أَي كَذَبَ بَقْلِهِ وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ «وَجَمَعَ فَأَوْعَى» (٥١) أَي جَمَعَ الْمَالَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَأَوْعَاهُ، أَي: أَوْكَاهُ، وَمَنْعَ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النِّفَقَاتِ وَمِنْ إخراج الزَّكَاةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُؤْوِي قِيَّومِي اللَّهُ عَلَيْكَ» (٥٢).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٥٣) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٥٤) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٥٥) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٥٦) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٠) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦١) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٢) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٣) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٤) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٥) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٦) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٦٩) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٠) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧١) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٢) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٣) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٤) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٥) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٦) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٧٩) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٠) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨١) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٢) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٣) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٤) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٥) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٦) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٨٩) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٠) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩١) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٢) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٣) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٤) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٥) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٦) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٨) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (٩٩) وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ لَا يَسْتَغْنُونَ (١٠٠)

وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ ^(١١) لِلنَّسَائِ وَالْمَحْرُورِ ^(١٢) أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ ^(١٣) أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب. ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ^(١٤) أي خائفون وجلون ^(١٥) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ^(١٦) أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرْفَعُونَ مِنْ خِطْيَاهُمْ﴾ ^(١٧) أي يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ^(١٨) أي من الإماء ^(١٩) فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ^(٢٠) فَمَنْ أَتَى ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ^(٢١) وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة ﴿فَدَأَلَّهَا النَّفُوسُ الْوُثْقَى﴾ ^(٢٢) بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخَالِفُونَ عَنْ عَهْدِهِمْ زَعُونَ﴾ ^(٢٣) أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغيروا. وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد في الحديث الصحيح: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِنَ خَانَ» ^(٢٤) وفي رواية: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» ^(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢٦) أي يحافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها ^(٢٧) وَكَانَ يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُهَا ^(٢٨).

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ^(٢٩) أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنبه به. سَاهَوْهَا كما تقدم في أول سورة ﴿فَدَأَلَّهَا النَّفُوسُ الْوُثْقَى﴾ ^(٣٠) سواء، ولهذا قال هناك: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ^(٣١) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَرَبُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ^(٣٢) وقال ههنا: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ﴾ ^(٣٣) أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِيعٌ﴾ ^(٣٤) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ^(٣٥) يُطِيعُ كُلُّ أَمْرٍ يَأْمُرُ بِهِنَّ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ^(٣٦) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ^(٣٧) فَلَا أَقْبَمُ رَبِّي أَنْ يُقَدِّرَ إِنَّا لَقَادِرُونَ ^(٣٨) عَلَيَّ أَنْ سِيلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ^(٣٩) فَذَرْنِي يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

الَّذِي يُوعَدُونَ ^(٤٠) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَابِ سِرَّاتٌ تُمْنُهُمْ إِلَى نَصِيبٍ مَوْضُوعٍ ^(٤١) خَشِيعَةً أَنْصَرَفَتْ رُءُوسُهُمْ ذُلَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَكَ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّكَ أَنْتَ الْوَعْدُونَ ^(٤٢)

[النكير على الكفار وتهذيبهم]

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى، وما أيد الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه، شاركون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكُرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ^(١) كَانَتْهُمْ حُمْرُ شُتَبٍ ^(٢) فَزَيَّنَ مِنْ قُدُورِهِ ^(٣) الآية. وهذه مثلها فإنه قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِيعٌ﴾ ^(٤) أي فها هؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ^(٥) ﴿مُهْطِيعٌ﴾ ^(٦) أي مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: ﴿مُهْطِيعٌ﴾ ^(٧) أي منطلقين ^(٨) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ^(٩) واحدا عزة أي متفرقين ^(١٠). وهو حال من ^(١١) ﴿مُهْطِيعٌ﴾ ^(١٢) أي: في حال تفرقهم واختلافهم، وقال العوفي عن ابن عباس ^(١٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِيعٌ﴾ ^(١٤)، قال قيلك ينظرون ^(١٥) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ^(١٦) قال: العزير: الغضب من الناس عن يمين وشمال ^(١٧) مُعْرِضِينَ يستهزئون به.

وغن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم جلق فقال: «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟» ^(١٨) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير ^(١٩).

وقوله تعالى: ﴿يُطِيعُ كُلُّ أَمْرٍ يَأْمُرُ بِهِمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ^(٢٠) كَلَّا ^(٢١) أي: أيطع هؤلاء - والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم؟ ^(٢٢) كَلَّا ^(٢٣) بل ماوَاهم جهنم. ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٢٤) أي من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ^(٢٥) وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ^(٢٦) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ^(٢٧) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْعِظْمِ وَالْإِزْأِجِ ^(٢٨) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ^(٢٩) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ^(٣٠) قَالَ مَنْ قُوَّةٌ

(١) مسلم: ٥٤١/١. (٢) فتح الباري: ١/١١١.

(٣) فتح الباري: ١/١١١. (٤) الطبري: ٢٣/٦٢٠.

(٥) الطبري: ٢٣/٦٢٠.

(٦) أحمد: ٩٣/٥، ومسلم: ٣٢٢/١، وأبو داود: ٥٦١/١.

والنسائي: ٣/٤ والطبري: ٢٣/٦٢٠.

الصاد وهو مصدر بمعنى المنصب، وقرأ الحسن البصري ﴿نُصِبَ﴾ بضم النون والصاد وهو الصنم أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عابنوه، ﴿وَيُضَوَّنَ﴾ (٢٤) يتدرون أنهم يستلمه أول. وهذا مروى عن مجاهد ويحيى بن أبي كثير ومسلم البطين وقادة والضحاك والريصع بن أنس وأبي صالح وعاصم بن بهدلة وابن زيد وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿خَيِّعَةَ ابْنِ مَرْثَدَةَ﴾ أي خاضعة ﴿زَهْمَهُمْ﴾ فَلَءَ أَي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٥). آخر تفسير سورة ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾، والله الحمد والملة.

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَي أَصْبَدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَقُولُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّدُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)

[دعوة نوح لقومه]

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه أمراً له أن يُنذِرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَي بَيِّنِ النَّذِيرَةَ ظَاهِرَ الْأَمْرِ وَاضْهَرِ، ﴿أَي أَصْبَدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ (٣)، أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ (٤) فيما أمركم به وأنهاكم عنه ﴿يَقُولُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم، و ﴿يُنْذِرُ﴾ هنا قيل إنها زائدة ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل. ﴿وَيُخَوِّدُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي يمد في أعماركم ويدرا عنكم العذاب الذي إن لم تجنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث: «صَلَّةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ» (١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) أي

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي بي خلق السموات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر كراكت تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، وتقرير الكلام: من الأمر كما ترعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بلاء في ابتداء قسم ليدل على أن القسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو رد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة. وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيها: من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٥) لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَهُمْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٧) قَالَ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٩) وقال ههنا: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ (١٠) عَلَىٰ نَسِيلِهِ خَيْرًا مِنْكُمْ أَي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (١١) أَي بعاجزين كما قال تعالى: ﴿أَبَحْسَبِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (١٢) بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ سَوَّاهُ بَنَانَهُ (١٣) وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (١٤) عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَسْنَانُكُمْ وَنُتَبِّعَكُمْ فَمَا لَا تَعْلَمُونَ (١٥) واختار ابن جرير ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ أي: أمة نطيعنا ولا نعصينا، وجعلها كقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (١٦) والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الآخر عليه والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي يا محمد ﴿يَخْشَوْنَ وَيَلْمِئُوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١٧) أَي فسيعلمون غيب ذلك ويذوقون وباله ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفُونَ﴾ (١٨) أَي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعا ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفُونَ﴾ (١٩) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى علم يسعون. وقال أبو العالية ويحيى ابن أبي كثير إلى غاية يسعون إليها. وقد قرأ الجمهور (إلى نُصُبٍ) بفتح النون وإسكان

[ما قال نوح حين دعا قومه إلى الله]

﴿ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ ﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه معها كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ ﴾ يرسل السماء عليكم مدرارًا ﴿ ١١ ﴾ أي متواصلة الأمطار، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ ﴾ يرسل السماء عليكم مدرارًا ﴿ ١١ ﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي يُستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضًا وقوله تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُ بِأَمْوَالِ وَيَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمُ الْجَنَّةَ وَجَعَلَ لَكُمُ الْغُلَاظَ ۝١٢ ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتوه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرك لكم الضرع وأمدكم بأموال وبين أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿ وَقَالَ لَا تُخَوِّنُوا اللَّهَ وَخَوِّنُوا اللَّهَ وَخَوِّنُوا اللَّهَ وَخَوِّنُوا اللَّهَ ۝١٣ ﴾ أي عظمة.

قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك ^(١). وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمتة ^(٢). أي: لا تخافون من بأسه ونفتمه ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ ﴾ قيل: معناه من نطفة ثم من علقته ثم من مضغة. قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ ﴾ أي واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المذركة بالحواس ما علم من التسيير والكسوفات، إنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ ﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي تُوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بِرَآكًا ﴿ ١٦ ﴾ أي فاوت بينهما في الاستتارة فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيها، وقد للقم منازل وبروجاً وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتأهي، ثم

بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿ قُلْ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝١٧ ﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿ ١٨ ﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ قِيَّ مَادَانِيهِمْ وَاسْتَغْفَسُوا بِأَيْمَانِهِمْ وَأَمْسَرُوا وَأَمْسَرُوا وَأَمْسَرُوا وَأَمْسَرُوا اسْتَجَابًا ﴿ ١٩ ﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿ ٢٠ ﴾ ثُمَّ إِنِّي أَظَلْتُ لَهُمْ وَأَمْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿ ٢١ ﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿ ٢٢ ﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿ ٢٣ ﴾ وَيَذْكُرُ بِأَمْوَالِ وَيَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمُ الْجَنَّةَ وَجَعَلَ لَكُمُ الْغُلَاظَ ﴿ ٢٤ ﴾ مَا لَكُمْ لَا تُخَوِّنُونَ اللَّهَ وَقَالَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿ ٢٦ ﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿ ٢٧ ﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي تُوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بِرَآكًا ﴿ ٢٨ ﴾ وَاللَّهُ أُنْتَبِذَ مِنَ الْأَرْضِ بِآثَارِهِ ثُمَّ يُعِيدُهَا وَتُغَيَّرُ بِحُكْمِ إِخْرَاجِهَا ﴿ ٢٩ ﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿ ٣٠ ﴾ اسْتَغْلِبُوا مِنْهَا فَعَالًا ﴿ ٣١ ﴾

[شكوى نوح ما لقي من قومه]

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝١٧ ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ۝١٨ ﴾ أي كلما دعوتهم ليقربوا من الحق قروا منه وحادوا عنه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ قِيَّ مَادَانِيهِمْ وَاسْتَغْفَسُوا بِأَيْمَانِهِمْ ۝١٩ ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أذعوههم إليه كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَايَةِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٠ ﴾

﴿ وَاسْتَغْفَسُوا بِأَيْمَانِهِمْ ۝٢١ ﴾ قال ابن جرير عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿ وَأَمْسَرُوا ۝٢٢ ﴾ أي استمروا على ما هم فيه: من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ وَاسْتَغْبَرُوا اسْتِجَابًا ۝٢٣ ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝٢٤ ﴾ أي جهره بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَظَلْتُ لَهُمْ ۝٢٥ ﴾ أي كلما ظاهرًا بصوت عال ﴿ وَأَمْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٢٦ ﴾ أي فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم.

بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ ولهذا قال ههنا:

[أصنام قوم نوح وما صارت إلهية]

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (١) وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ إِلَهُكُمُ إِلَّا أَنْ تَنْزِلَ وَلَا تَنْزِلَ وَلَا سَوْلًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢) وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

روى البخاري عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في

قوم نوح في العرب بعد: أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل.

وأما سواع فكانت فثليل. وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني

غطف الجحيف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر

فكنت لحمير لآل ذي كلاع. وهي: أسماء رجال صالحين من

قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن

انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسَمُّوها

بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسَخَ العلم

عُبدت (٣). وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقناة وابن

اسحاق نحو هذا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذه

أصنام كانت تعبد في زمن نوح (٤). وروى ابن جرير عن محمد

بن قيس ويغوث ويعوق ونسرا قال: كانوا قومًا صالحين بين

آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم

الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة

إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون، دب إليهم

إيليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

[دعاء نوح على قومه ولئن آمن به]

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها

أضلوا بها خلقًا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى

زماننا هذا، في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد

قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿وَأَجَبْنِي وَيَوْمَ أَنْ تَعْبُدَ

الْأَصْنَامَ﴾ (٥) رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْبَقَايَا ﴿وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (٦) دعاء منه على قومه لتمردهم

وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في

قوله: ﴿رَبَّنَا أَطِيعْ عَلَى أَمْرٍ إِلَهُمُّ وَأَشْدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى

يُزِيلَ فِي الْقَصَصِ حَتَّى يَسْتَرِدَّ لَيْلًا عَلَى مَضَى الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا يُدْرِكُهُ مَنَازِلُ لِيَعْلَمُوا عِدَّةَ الْيَمِينِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٧).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٨) هذا اسم

بصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ثُمَّ يَبْدُؤُوكُمْ فِيهَا﴾ أي إذا متم

﴿وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا﴾ (٩) أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم

أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٠) أي بسطها

ومهدّها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات، الشَّمَّ الشَّخَات

﴿لِتَشْكُرُوا مِنْهَا شَاكِرًا﴾ (١١) أي خلقها لكم لتستقروا عليها

وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها،

وكل هذا مما ينهبهم به نوح عليه السلام على قدرة الله

وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما

جعل لهم: من المنافع السايية والأرضية، فهو الخالق الرازق

جعل السماء بناءً والأرض مهادًا وأوسع على خلقه من رزقه،

نهر الذي يجب أن يُعْبَدَ ويوحّد، ولا يُشْرَكَ به أحد، لأنه لا

ظهير له ولا عدل ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد،

ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي مَقَمٌ مِّنْ لَّدُنْكَ مَا لَهُ، وَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا

﴿١٢﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (١٣) وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ إِلَهُكُمُ إِلَّا أَنْ تَنْزِلَ وَلَا تَنْزِلَ وَلَا سَوْلًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١٤) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ

الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (١٥)

[شكوى نوح إلى ربه لما أجاب به قومه]

يقول تعالى خبرًا عن نوح عليه السلام أنه أتى إليه، وهو

العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه من البيان المتقدم ذكره

والدعوة المتنوعة المشتملة على الترتيب تارة والترتيب أخرى:

أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، وأتبعوا أبناء الدنيا عن غفل عن

أمر الله ومُتَّع بهما وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار

لا إكرام ولهذا قال: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَن لَّدُنْكَ مَا لَهُ، وَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١٦)

قرئ (وولده) بالضم وبالفتح وكلاهما مقارب. وقوله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (١٧) قال مجاهد: ﴿كَبِيرًا﴾ (١٨) أي

عظيمًا (١٩). وقال ابن زيد: ﴿كَبِيرًا﴾ (٢٠) أي كبيرًا والعرب

تقول أمر عجيب وعُجاب وعُجاب، ورجل حُسان وحُسان

وجمال وجمال، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد (٢١).

والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (٢٢) أي

(١) الطبري: ٦٣٨/٢٣. (٢) الطبري: ٦٣٨/٢٣.

(٣) فتح الباري: ٥٣٥/٨. (٤) الطبري: ٦٤٠/٢٣.

مجاهد. إلا خساراً أي في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة نوح عليه السلام والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الجن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِنَا مَا تَأْخُذُ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوقِدُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادَهُمْ هَرَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْبَغِيَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

[استماع الجن للقرآن وإيمانهم به]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالى ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا ۝٢﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادتها هنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِنَا﴾ أي فعله وأمره وقدرته ^(١) وقال الضحاك عن ابن عباس: جد الله الآؤه وقدرته ونعمته على خلقه. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلالة وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره.

[إقرار الجن بأن الله منزّه عن الزوجة والأولاد]

وقوله تعالى: ﴿مَا تَأْخُذُ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن - عن اتخاذ الصاحبة والولد ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ قال مجاهد وعكرمة وقاتدة والسدي: ﴿سَفِيهُنَا﴾ يعنون إبليس. ﴿شَطَطًا ۝٤﴾ قال السدي عن أبي مالك: ﴿شَطَطًا

بِرَوِّ الْقَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٨﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿مَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْجَلُوا فَأَرَا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَصْرًا ۝٩ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ۝١٠ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْطِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝١١ رَبِّ آغْضْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝١٢﴾

يقول تعالى: ﴿مَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ وقرئ: (خطاباهم) ﴿أَغْرَقُوا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أَغْرَقُوا فَأَدْجَلُوا فَأَرَا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَصْرًا ۝٩﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لَا عَاجِمَ الْيَوْمَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجِمَ ۝١٠﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ۝١١﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً، وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: ﴿دِيَارًا ۝١١﴾ واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار.

فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال ﴿سَوَّيْتُ إِلَى جَبَلِي يَعْصِي مِّنَ أَمْرِي قَالَ لَا عَاجِمَ الْيَوْمَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝١٢﴾ ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُبْطِلُوا عِبَادَكَ ۝١٠﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك، أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝١١﴾ أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكنه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم قال: ﴿رَبِّ آغْضْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ۝١٢﴾ قال الضحاك: يعني مسجدي. ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۝١٢﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝١٢﴾ قال السدي: إلا هلاكاً. وقال

جبر.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثِيَابٍ مَلْتَمَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ اللَّيْلِ لِلْخَمِيرِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۖ﴾^(١) وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ

[استراق الجن خبر السماء قبل بعثة الرسول

ورميهم بالشهب بعد البعثة]

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له، أن السماء ملئت حرسًا شديدًا وحُفِظَتْ من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيُلْقُوهُ على السنة الكَهَنَةِ فيَلْتَسِ الْأَمْرَ ويختلط ولا يُدْرِي مَنْ الصَّادِقُ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثِيَابٍ مَلْتَمَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۖ﴾^(٢) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ اللَّيْلِ لِلْخَمِيرِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۖ﴾^(٣) أي من يروم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهابًا مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يَمُخِّقُهُ ويهلكه. ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ﴾^(٤) أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، ﴿لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ﴾^(٥) وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخبر أضافوه إلى الله عز وجل.

وقد ورد في الصحيح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٦) وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار فقال: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» فقلنا: كنا نقول يولد عظيم، يموت عظيم فقال: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ»^(٧) وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه، وهذا هو السبب الذي هلمهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فأمن من آمن منهم وعُمد في طغيانه من بقي كما

﴿١﴾ أي جورًا. قال ابن زيد: أي ظلمًا كبيرًا. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: ﴿سَفِينًا﴾ اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبه أو ولدًا، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِينًا﴾ أي قبل إسلامه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾^(٨) أي باطلاً وزورًا، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(٩) أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتألفون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

[من سبب طغيان الجن استعادة الإنس بهم]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١٠) أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً أي خوفاً وإرهاباً ودُعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١١) أي إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١٢) أي ازدادت الجن عليهم جراءة^(١٣).

وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فيترها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضُرَّ أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي. قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله، رَهَقَتْهُمُ الْجِنُّ الْأَذَى عِنْدَ ذَلِكَ.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كان الجن يَفَرُّونَ مِنَ الْإِنْسِ كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هَرَبَ الْجِنُّ فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يَفَرُّونَ منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالحِجْلِ والجُثُونِ، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١٤) أي إثماً. وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم: ﴿رَهَقًا﴾^(١٥) أي خوفاً وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾^(١٦) أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً، قاله الكلبي وابن

(١) الطبري: ٢٣/٦٥٥. (٢) مسلم: ١/٥٣٥.

(٣) مسلم: ٤/١٧٥٠.

تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية (١).

ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا فيه وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لحراب العالم، كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر، فلما بعث الله محمدًا ﷺ نبيًا رسولاً رجوا ليلة من الليالي ففرع لذلك أهل الطائف فقالوا: هلك أهل السماء كما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسبون مواشيهم، فقال لهم عبد اليليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف، أنيسكو عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة - يعني: محمدًا ﷺ -، وإن نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء. فنظروا فأروها، فكفوا عن أموالهم وفرعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال: اتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشتمها، فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة، فيعت سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائمًا يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصًا على القرآن، حتى كادت كلاهم تصيبه، ثم أسلموا، فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله ﷺ، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول، والله أعلم، والله الحمد والمنة.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَارِقِينَ قَدَرًا ۖ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۖ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِكَ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا ۖ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رِسَدًا ۖ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۖ وَأَلُو اسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا ۖ لَنَقْنِقَنَّهُمْ فِيهِ ۖ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ﴾

[إقرار الجن بأنهم أصناف منهم المؤمن والكافر

والضال والراشد ومعرفتهم بمصير كل منهم]

يقول تعالى خبرًا عن الجن أنهم قالوا خبرين عن أنفسهم:

﴿وَأَنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي غير ذلك ﴿كُنَّا طَارِقِينَ قَدَرًا﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿كُنَّا طَارِقِينَ قَدَرًا﴾ أي منا المؤمن والكافر (٢). وروى أحمد بن سليمان النجاشي أماليه سمعت الأعمش يقول: تروح إلينا جني فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، قال: فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا، فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم، فقلت: فما الراضة فيكم؟ قال: شربنا. عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج [المزي] فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش.

[إقرار الجن أيضًا بقدرته الله التامة]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجز في الأرض، ولو أمعنا في الحرب فإنه علينا قادر لا يعجز أحد منا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِكَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة، وقولهم: ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس وقناة وغيرهما: فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يعمل عليه غير سيئاته (٣). كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل ﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رِسَدًا﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقودًا تسع بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلُو اسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا ۖ لَنَقْنِقَنَّهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: (أحدهما) وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعبدوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾ أي كثيرًا والمراد بذلك سعة الرزق، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لَنَقْنِقَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم، كما قال مالك عن زيد بن أسلم: لنفتنهم لنتليهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية.

(ذكر من قال بهذا القول) روى العوفي نحوه عن ابن عباس

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٣٧. (٢) الطبري: ٢٣/ ٦٥٩.

(٣) الطبري: ٢٣/ ٦٦٠.

[أزه حمار الجن على سماع القرآن]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾

(١) قال العوفي عن ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعَ تَفَتُّنَ لِيَلِيَّ﴾ يستمعون القرآن. هذا قول، وهو مروى عن الزبير بن العوام رضي الله عنه. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قال الجن لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٢) قال: لما راوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عجبوا من طوعية أصحابه له قال: فقالوا لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٣) وهذا قول ثاني وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا (٤). وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبذ عليه جميعا (٥).

وقال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (٦) قال: تلبذت الإنس والجن على هذا الأمر لبطفته، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه (٧). وهذا قول ثالث وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وقول ابن يزيد، وهو اختيار ابن جرير (٨)، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٩) أي قال لهم الرسول لما أدوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (١٠).

[الرسول ﷺ لا يملك الضر والرشد]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله

وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي، وقاتدة والضحاك وقال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين.

(والقول الثاني) ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي الضلال ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَلَّةً عَذَا﴾ (١٢) أي لأوسعنا عليه الرزق استدراجا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَسَّوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرَّجُوا بِمَا آوَوْا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (١٣) وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مِّائِلٍ وَبَيْنَ أَيْمَنِ لَمْتٍ لَهُمْ فِي الْفُتُورِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٤) وهذا قول أبي جازر لاحق بن حديد، فإنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي طريقة الضلالة، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١٥). وحكاها البغوي عن الربيع ابن أنس وزيد ابن أسلم والكلبي وابن كيسان (١٦). وله اتجاه، ويتأيد بقوله ﴿لَتُنْفِئَنَّهُمْ فِئَةٍ﴾ (١٧) وقوله: ﴿لَتُنْفِئَنَّهُمْ فِئَةً وَمَنْ يَعْزِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٨) أي عذابا مشقًا شديدًا موجعا مؤلما، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقاتدة وابن زيد: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٩) أي مشقة لا راحة معها (٢٠)، وعن ابن عباس: جبل في جهنم (٢١)، وعن سعيد بن جبير: بشر فيها.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٢٢) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا (٢٣) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٤) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢٥) قُلْ إِنِّي لَا يَجِدُنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٦) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٧) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَعْصَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا (٢٨)

[الأمر بالتوحيد واجتناب الشرك]

يقول تعالى أمرا بعباده أن يوحدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٢٩) قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده (٣٠). وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٣١) قالت الجن لنبي الله ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن نأوون؟ أي بعيدون عنك، وكيف نشهد الصلاة ونحن نأوون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٣٢)

(٢) البغوي: ٤/ ٤٠٤.

(١) الطبري: ٢٣/ ٦٦٣.

(٤) الطبري: ٢٣/ ٦٦٤.

(٣) الطبري: ٢٣/ ٦٦٤.

(٦) الطبري: ٢٣/ ٦٦٥.

(٥) الطبري: ٢٣/ ٦٦٥.

(٨) الطبري: ٢٣/ ٦٦٧.

(٧) الطبري: ٢٣/ ٦٦٧.

(١٠) الطبري: ٢٣/ ٦٦٧.

(٩) الطبري: ٢٣/ ٦٦٨.

(١١) الطبري: ٢٣/ ٦٦٨.

ولكني أحب الله ورسوله قال: «فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (٢).

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِطُّونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وهكذا قال ههنا إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٤) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿وهذا يعنى الرسول الملكي والبشري. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٥) أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساقونهم على ما معه من وحي الله. ولهذا قال: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٦) الضمير الذي في قوله: ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ يعود إلى النبي ﷺ، وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٧) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٨) قال أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ محمد ﷺ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٩) ورواه ابن أبي حاتم. وهكذا رواه الضحاك والسدي ويزيد بن أبي حبيب.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعها عنها (١٠)، وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير (١١). وقال البغوي: قرأ يعقوب (لَيَعْلَمَنَّ) بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا (١٢). ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزل إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ (١٣).

عز وجل، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (١٤) قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ (١٥).

[ليس على الرسول إلا البلاغ]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِبَلَاغٍ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ استثناء من قوله: ﴿لَنْ يُجِيرَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا لإبلاغني الرسالة التي أوجب أداءها علي، كما قال تعالى: ﴿تَنَائِيًا الرَّسُولُ يَلْفُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (١٦) أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم، خالدين فيها أبداً أي لا يحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَبَ عَدَدًا﴾ (١٧) أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى، أي بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (١٨) ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٩) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٠) ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢١).

[الرسول لا يعرف وقت الساعة]

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (٢٢) أي مدة طويلة، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب، وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدي له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأل أن قال: يا محمد! فأخبرني عن الساعة؟ قال: «مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «وَلَيْتَ كُنْتُ نَسْأَلُ عَنْهَا مَا تَسْأَلُونَ عَنْهَا» قال: أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام

(١) الطبري: ٢٣/٦٦٩. (٢) فتح الباري: ١/١٤٠.

(٣) الطبري: ٢٣/٦٧٣. (٤) عبد الرزاق: ٣/٣٢٣.

(٥) الطبري: ٢٣/٦٧٣. (٦) البغوي: ٤/٤٠٦.

[طريقة تلاوة القرآن]

وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (١) أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها (٢). وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدًا ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣) يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم (٤). وقال ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله عنها: سألت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٥) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٧) تَبَارَكَ الَّذِي يَوْمِرُ الْيَوْمِ (٨) رواه أحمد وأبو داود والترمذي (٩).

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما جاء في الحديث: «رَتِّلُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (١) و«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ» (٢) و«لَقَدْ أَوْتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مِزْمَارِ آلِ دَاوُدَ» (٣) يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لخيرته لك تحبيرًا: وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر، فقلوا عند عجائبه وحرخوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. رواه البخاري (٤). وروى البخاري عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة. فقال هذا كهذ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في ركعة (٥).

[عظمة القرآن]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١) قال الحسن وقتادة: أي العمل به وقيل: ثقیل وقت نزوله من عظمتها، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على

ل أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢). آخر تفسير سورة الجن، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة المزمل

عليه السلام وهي مكية

[سبب نزول سورتي المزمل والمذثر]

روى الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا يصد الناس عنه، فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتذثر فيها. فأنشأ جرير عليه السلام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١)﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ (٢)﴾ ثم قال البزار: معلى بن عبد الرحمن قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١)﴾ ﴿وَأَتْلُ الْأَقْلِيلَ (٢)﴾ ﴿يَضْمَهُ أَوْ أَنْصُ مِنْهُ قَلِيلًا (٣)﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَوْقَمُ فِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)

[الأمر بقيام الليل]

يامر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه عز وجل كما قال تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ النَّصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَكَمَمًا وَسَمًا وَرَقَنَةًهُمْ يُعْفَوْنَ﴾ (١) وكذلك كان ﷺ ممتثلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَمَّا يُبْعَثُ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٢) وههنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١)﴾ ﴿وَأَتْلُ الْأَقْلِيلَ (٢)﴾ قال ابن عباس والضحاك والسدي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١)﴾ يعني يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه. وقوله تعالى: ﴿يَضْمَهُ﴾ بدل من الليل ﴿أَوْ أَنْصُ مِنْهُ قَلِيلًا (٣)﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك.

- (١) كشف الأستار: ٧٧/٣. (٢) الطبري: ٦٧٧/٢٣.
(٣) مسلم: ٥٠٧/١. (٤) فتح الباري: ٧٠٩/٨.
(٥) أحمد: ٣٠٢/٦، وأبو داود: ٢٩٤/٤، وتحفة الأحوذى: ٢٤١/٨.
(٦) فتح الباري: ٥٢٧/١٣. (٧) فتح الباري: ٥١٠/١٣.
(٨) فتح الباري: ٧١٠/٨. (٩) معالم التنزيل: ٢١٥/٨.
(١٠) فتح الباري: ٢٩٨/٢.

فخذي فكادت ترض فخذي^(١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَسْمَعُ صَلَاحَ نَفْسِي ثُمَّ أَسْمَعُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تَقْبِضُ»^(٢) تفرد به أحمد. وفي أول صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أَحْيَانًا يَأْتِيَنِي فِي مِثْلِ صَلَاحَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا يَتَكَلَّمُنِي فَأُعْيِي مَا يَقُولُ» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً، هذا لفظه^(٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها: إن كان ليوحي إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها^(٤). الجران هو باطن العنق، واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين.

[شرف قيامه الليل]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾^(٥) وقال عمر ابن عباس وابن الزبير: الليل كله ناشئة^(٦)، وكذا قال مجاهد وغير واحد^(٧). يقال نشأ إذا قام من الليل. وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء^(٨). وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر^(٩). والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآتات، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾^(١٠) أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش أن أنس ابن مالك قرأ هذه الآية (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قِيلاً) فقال له رجل: إنما تقرأوها «وَأَقْوَمُ قِيلاً»^(١١)، فقال له: إن أصوب وأقوم وأهياً وأشبه هذا واحد^(١٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾^(١٣) قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم^(١٤). وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن

وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري: فراغاً طويلاً. وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقبلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾^(١٥) قال: لحوائجك فأفرغ لديتك الليل. قال وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن الله تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾^(١٦) إلى آخر الآية ثم قرأ: ﴿إِنَّ رَيْبَكَ يَمُنُّ إِنَّكَ تَآمُمُ أَنَّكَ مِنْ تِلْكَ الْآلِ يَنْصَفُ﴾ حتى بلغ ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْصَرِفُ﴾^(١٧) وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(١٨) وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعيد بن هشام أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقاراً لها بها، ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أَلَيْسَ لَكُمْ فِي أَسْوَةِ حَسَنَةٍ؟» فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: أتت عائشة فسلها ثم أرجع إلي فأخبرني بردها عليك. قال: فأنيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال: ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأبت فيها إلا مضياً، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته قال: نعم. قالت: من هذا الذي معك؟ قال: سعيد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قال: فترحت عليه وقالت: نعم المرء كان عامراً. قلت: يأم المؤمنين، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أأستقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم ثم بدلي قيام رسول الله ﷺ. قلت: يأم المؤمنين! أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ قالت: أأستقرأ هذه

(١) فتح الباري: ١٠٨/٨. (٢) أحمد: ٢٢٢/٢.

(٣) فتح الباري: ٢٥/١. (٤) أحمد: ١١٨/٦.

(٥) الطبري: ٦٨٣/٢٣. (٦) الطبري: ٦٨٢/٢٣.

(٧) الطبري: ٦٨٢/٢٣. (٨) الطبري: ٦٨٣/٢٣.

(٩) مسند أبي يعلى: ٨٨/٧.

(١٠) الطبري: ٦٨٦/٢٣، والقرطبي: ٤٢/١٩.

(١١) الطبري: ٦٨٦/٢٣.

وعطية والضحك والسدي ﴿وَيَتَبَلَّ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ أي أخلص له العبادة^(٧). وقال الحسن: اجتهد وأبذل إليه نفسك^(٨). وقال ابن جرير: يقال للعابد متبئل، ومنه الحديث المروي: نهى عن التبتل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك الزوج^(٩). وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ لِلشَّرِيقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالتوكل فاتخذهُ وكيلًا كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّكَ تَبْتَلُ وَإِنَّكَ نَسْتَعِيبُ﴾ وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْلُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلِكْ قَلِيلًا^(١١) إِنَّ لَدُنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا^(١٢) وَطَعَامًا فَاقْصِرْ وَعَذَابًا أَلِيمًا^(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَمِيلًا^(١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قِرْعَوْنَ رَسُولًا^(١٥) فَصَوَّغَتْ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا^(١٦) فَكَيْفَ تَنْفَقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا^(١٧) السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ يَوْمَ كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا^(١٨)

[الأمر بالصبر على أذى الكفار وبيان ما لهم عليه]

يقول تعالى أمراً رسوله بالصبر على ما يقوله من كذب من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب معه ثم قال له متهدداً لكفار قومه ومتوعداً، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنيهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿وَمَهْلِكْ قَلِيلًا﴾ أي رويداً كما قال تعالى: ﴿نُتِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ لَدُنَا أَنْكَالًا﴾ وهي القيود، قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبد الله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو مجلز والضحك وحماة بن أبي سليمان وقتادة

سورة ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض نام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة. فهمت أن أقوم ثم بدلتني وتر رسول الله ﷺ فقلت: يا أم المؤمنين! أثبتيني عن وتر رسول الله ﷺ قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات ولا يجلس نهين إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يسمعون، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أتم رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثلثي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ را القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال: صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأيتها حتى تشافهني مشافهة^(١). هكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل وقد أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه^(٢).

وروى ابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ قاموا حولاً حتى ورمّت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْتَرِمُونَهُ﴾ قال: فاستراح الناس^(٣). وكذا قال الحسن البصري والسدي^(٤).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَرَأَيْتَ لَإِيلَافٍ﴾ يَضْمُهُ أَوْ أَشْضَمُهُ قَلِيلًا^(٥) فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله تعالى عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا ﴿وَعَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُونَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْتَرِمُونَهُ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنْتُمْ رَبَّكَ وَتَتَّبِعْ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه^(٦). قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح

(١) مسلم: ٥١٢/١.

(٢) أحمد: ٥٣/٦.

(٣) الطبري: ٦٨٠/٢٣.

(٤) الطبري: ٦٧٩/٢٣.

(٥) الطبري: ٦٨٩/٢٣.

(٦) الطبري: ٦٧٩/٢٣.

(٧) الطبري: ٦٨٨/٢٣.

(٨) الطبري: ٦٨٨/٢٣.

(٩) الطبري: ٦٨٧/٢٣.

وهوله، وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (١٨) أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة وكان لا محيد عنه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ مِنْ اللَّيْلِ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلَيَّ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَبَاتَ عَلَيْكَ قَائِمًا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَأَخْرَجَ بِضُرُونٍ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ بَقَائِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَائِمًا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَمْسُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَبًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَعْظَمَ لَكُمْ وَأَسْتَعِيرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

[هذه السورة تذكرة لأولي الألباب]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي السورة ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٩) أي من شاء الله تعالى هدايته كما عهده في السورة الأخرى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٠).

[نسخ وجوب قيام الليل وذكر أَعذاره]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم، ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿قَائِمًا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي من غير تحدي بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَأَخْرَجَ بِضُرُونٍ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ بَقَائِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أَعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يتبعون من

والسدي وابن المبارك والثوري وغير واحد (١١). ﴿وَجِيئًا﴾ (١٢) وهي السعير المضطربة ﴿وَلَمَّا دَاخَمَتْهُ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج (١٣) ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٤) يوم ترتجف الأرض والجبال أي تزلزل ﴿وَكُنْتَ لِلْجَالِ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ (١٥) أي تصير ككباش الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعاً صاففاً لا ترى فيها عوجاً أي وادياً ولا أمناً أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

[رسولكم ﷺ مثل رسول فرعون]

وتعلمون مصير فرعون]

ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾ أي بأعمالكم ﴿كَأَنَّمَا لَنَا إِلَىٰ رُفُوعِنَا رَسُولًا أَوْعِثَ الرُّسُلَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (١٦) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (١٧) أي شديداً (١٨) أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذه عزيز مقتدر كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْوَ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٩) وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتكم رسولكم، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران، ويروى عن ابن عباس ومجاهد.

[التهديد بعذاب يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَقُولُونَ إِن كُفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (٢٠) يحتمل أن يكون «يومًا» معمولاً «لستقون» كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كُفَرْتُمْ بالله ولم تصدقوا به (٢١)؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكُفَرْتُمْ فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كُفَرْتُمْ، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كُفَرْتُمْ يوم القيامة وجحدتموه، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى والله أعلم. ومعنى قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (٢٢) أي من شدة أهواله وزلازله وبلاؤه، وذلك حين يقول الله تعالى لأدم ابعث بعث النار فيقول: من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ قال الحسن وقتادة أي بسببه من شدته

(١) الطبري: ٢٣/٦٩٠، ٦٩١، والدر المنثور: ٨/٣١٩.

(٢) الطبري: ٢٣/٦٩١. (٣) الطبري: ٢٣/٦٩٣.

(٤) الطبري: ٢٣/٦٩٤.

﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ (٥) وَلَا تَنْتَكِرْ (٦) وَلَرَبِّكَ
فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نَزَلَ فِي التَّائِبِينَ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ
عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩)

[أول آيات نزلت بعد اقرأ]

ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أبي سلمة قال أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قَبْلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَنَزَلُونِي. فَأَنْزَلَ [الله تعالى]: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (٢) إِلَى ﴿فَأَهْجُرْ﴾ (٣) قال أبو سلمة: والرجز الأوثان - ثُمَّ حَمِي الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ هذا لفظ البخاري (٤)، وهذا السياق يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله: «فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ» وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا.

روى الإمام أحمد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً، بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قَبْلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقَا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَنَزَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (٢) وَرَبُّكَ الْكَرِيمُ (٣) وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (٤) وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ (٥) ثُمَّ حَمِي الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ (٦) أخرجه من حديث الزهري به (٧).

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: الوليد بن المغيرة صنع

(١) الطبري: ٢٣/٦٧٩، ٦٨٠، والدر المنثور: ٨/٣٢٢.

(٢) فتح الباري: ١/١٣٠، ومسلم: ١/٤١.

(٣) مسند أبي يعلى: ٩/٩٧.

(٤) فتح الباري: ١١/٢٦٤، والنسائي: ٦/٢٣٧.

(٥) فتح الباري: ٦/٣٦١، ومسلم: ١/١٤٣.

(٦) أحمد: ٣/٣٢٥.

(٧) فتح الباري: ١/٣٧، ومسلم: ١/١٤٣.

فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْتَزِعُ مِنْهُ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال إن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم. وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل (١). وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: «تَحْسُ صَلَاتُكَ فِي النَّوْمِ وَاللَّيْلَةِ» قال: هل على غيرها؟ قال: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطُوعٌ» (٢).

[الأمر بالتصدق وعمل الخير]

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ فجدوه عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَيْرٍ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ؟» قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: «اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ» (٣) ورواه البخاري (٤). ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره، آخر تفسير سورة المزمل، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة البقرة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ذِكْرًا﴾ (٢) وَبَيَّانًا فَطَقَّرَ

والسدي وابن زيد ﴿النَّافِرُونَ﴾ (٨) الصور (١١)، قال مجاهد: وهو كهية القرن (١٢). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط بن محمد عن مطرف عن عطية العوفي عن ابن عباس ﴿فَإِذَا يُقْرَأُ النَّافِرُونَ﴾ (٨) فقال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ انْقَمَ الْقُرْنُ وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْشَقُّ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فيما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به (١٣).

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكِ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (١) أي شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ﴾ (١) أي غير سهل عليهم كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٨) وقد روينا عن زرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا يُقْرَأُ النَّافِرُونَ﴾ (٨) فذلك يوم عسير عسير ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ﴾ (١) شق شقة ثم خسر مينا رحمه الله تعالى (١٤).

﴿ذَرَفٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِداً﴾ (١١) وَجَعَلَتْ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَيْنَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدَتْ لَهُ تَهِيماً (١٤) ثُمَّ بَطَعَ أَنْ أَرَادَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِابْنِنَا عَمِيداً (١٦) سَأَرْهُنَّهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَسَى وَكُنْ (٢٢) ثُمَّ أَذَرَ وَأَسْتَكْبَرُ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا جَحْرٌ يُؤْذَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاقِعَ النَّارِ (٢٩) عَلَيْهَا نِصْعَةٌ عُسْرٌ (٣٠)

[تهديد من قال إن القرآن سحر]

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بسمع الدنيا فكفر بأنعم الله ويدلها كفراً وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ذَرَفٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِداً﴾ (١) أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد له ثم رزقه الله

لقريش طعاماً، فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر وقال بعضهم: ليس بشاعر وقال بعضهم: بل سحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدنثر، فأُنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ (١) قُرْآنُكَ (٢) وَرَبِّكَ فَكْذَرٌ (٣) وَيَا أَيُّهَا ظَلُومٌ (٤) وَالرَّجَزُ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿قُرْآنُكَ (٢)﴾ أي شمر عن ساق العزم وأندرائ الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة. ﴿وَرَبِّكَ فَكْذَرٌ (٣)﴾ أي عظم.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَيَا أَيُّهَا ظَلُومٌ (٤)﴾ يعني لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية (١). وقال محمد بن سريـن: ﴿وَيَا أَيُّهَا ظَلُومٌ (٤)﴾ أي اغسلها بالماء (٣). وقال ابن زيد: وكان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه (٤)، وهذا القول اختاره ابن جرير (٥).

وقال سعيد بن جبـير ﴿وَيَا أَيُّهَا ظَلُومٌ (٤)﴾ وقلبك ونيـتك فطهر. وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن، وقوله تعالى: ﴿وَالرَّجَزُ فَاهْجُرْ (٥)﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: والرجز وهو الأصنام فاهجر (٦)، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد: إنها الأوثان (٧)، كقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُنَّ أَنْتَ اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾ (٨)، ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ (٦)﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وقال خصيف عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ (٦)﴾ قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف (٨). وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل قاله مجاهد (٩). وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عز وجل (١٠).

[التذكير بيوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا يُقْرَأُ النَّافِرُونَ﴾ (٨) فذلك يوم عسير ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ﴾ (١) قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وزيد ابن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) الطبري: ١٢٥/١١. | (٢) الطبري: ١١/٢٤. |
| (٣) الطبري: ١٢/٢٤. | (٤) الطبري: ١٢/٢٤. |
| (٥) الطبري: ١٢/٢٤. | (٦) الطبري: ١٣/٢٤. |
| (٧) الطبري: ١٣/٢٤. | (٨) الطبري: ١٦/٢٤. |
| (٩) الطبري: ١٦/٢٤. | (١٠) البغوي: ٤/٤١٤. |
| (١١) الطبري: ١٨/٢٤. | (١٢) الطبري: ١٨/٢٤. |
| (١٣) أحمد: ٣٢٦/١. | (١٤) الحاكم: ٢٠٦/٢. |

دخل عليه بيته، فقال الوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: أأست أكثرهم مالا وولدا؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقدم تحدث به عشتري؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ﴾ (١١) إلى قوله ﴿لَا تَبْقَىٰ وَلَا تَذَرُ﴾ (١٢) وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر فأنزل الله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ تَذَرُ﴾ (١٣) الآية ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (١٤) قبض ما بين عينيه وكلح (١٥). قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهٖ سَعَرَ﴾ (١٦) أي سأعمره فيها من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَزِيدُهُ سَعَرًا سَعَرًا﴾ (١٧) وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْقَىٰ وَلَا تَذَرُ﴾ (١٨) أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون. قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما (١٩).

وقوله تعالى: ﴿لَوَاسَّةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢٠) قال مجاهد أي للجلد، وقال قتادة: ﴿لَوَاسَّةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢١) أي حراقة للجلد (٢٢). وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان (٢٣). وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تَتَعَفَّىٰ عَشْرَ﴾ (٢٤) أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْفَ وَيَرْجِعَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَلَا يَكُونُوا فِي أَعْيُنِنَا﴾ (٢٥) الآية ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرَّةٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۖ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْرِضُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَـُٔى إِلَّا بِدِكْرِ الْبَشَرِ﴾ (٢٦) كلاً والقمر (٢٧) وأبلى إذ أدبر (٢٨) وأضجع إذا أسفر (٢٩) إنها لإحدى الكبر (٣٠) توبوا للبشر (٣١) لمن شئت منكر أن تقدم أو تأخر (٣٢)

تعالى: ﴿مَا لَا تَمْدُونَا﴾ (٣٣) أي واسعاً كثيراً وجعل له ﴿وَيَتَيْنَ﴾ (٣٤) قال مجاهد: لا يغيبون (٣٥) أي حضوراً عنده لا ينافون بالتجارات بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك منهم: وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم، وكانوا لما ذكره السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة ثلاثة عشر (٣٦). وقال ابن عباس ومجاهد كانوا عشرة (٣٧) وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده ﴿وَمَهَّدَتْ لَهُ بُيُوتًا﴾ (٣٨) أي كتبه من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (٣٩) كلاً إن شاء الله لا يئسنا عبيداً (٤٠) أي معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله تعالى: ﴿سَأُزَيِّقُهُ صُعُودًا﴾ (٤١) وقال قتادة عن ابن عباس: ﴿صُعُودًا﴾ (٤٢) سخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه (٤٣).

وقال السدي: ﴿صُعُودًا﴾ (٤٤) صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعد بها. وقال مجاهد: ﴿سَأُزَيِّقُهُ صُعُودًا﴾ (٤٥) أي شقة من العذاب (٤٦). وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه (٤٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرُ وَفَدَّرُ﴾ (٤٨) أي إنما أرهقناه صعوداً أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيثار؛ لأنه فكر وفدر أي تروي ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن فكر ماذا يختلق من المقال ﴿وَفَدَّرُ﴾ (٤٩) أي تروي ﴿فَقِيلَ كَيْفَ تَذَرُ﴾ (٥٠) ثم قيل كيف تذر (٥١) دعاء عليه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٥٢) أي أعاد النظرة والتروي ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ (٥٣) أي قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾ (٥٤) أي كلح وكره.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَكْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٥٥) أي صرف عن الحق ورجع الفهمى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿فَقَالَ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (٥٦) أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٥٧) أي ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله فلما سمع بذلك النفر من قريش اتهموا وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى

- (١) البغوي: ٤/٤١٤. (٢) الدر المنثور: ٨/٣٢٩.
- (٣) الطبري: ٢٤/٢١. (٤) الدر المنثور: ٨/٣٣١.
- (٥) الطبري: ٢٤/٢٣. (٦) الطبري: ٢٤/٢٣.
- (٧) الطبري: ٢٤/٢٤. (٨) الطبري: ٢٤/٢٥.
- (٩) الدر المنثور: ٨/٣٣٢. (١٠) الطبري: ٢٤/٢٧.
- (١١) الطبري: ٢٤/٢٨.

يُنْكَرُ أَنْ يَفْتَدَّ أَوْ يَنْخَرَّ (٣٧) أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٣٩) فِي حَسَنِّ تَبَاطُؤِهِ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنْ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَوْ نَكُنْ نَطْلُعُ السِّكِّينَ (٤٤) وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْخَافِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَقَّقَ أَتْنَا الْيَقِينَ (٤٧) فَتَنَعَّمُ شَفْعَةُ الشَّعْبِيِّ (٤٨) فَمَا لَمْ عَنِ التَّذِكُّرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَهُمْ حُمْرُ مُسْتَفِيرَةٍ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٢) كَلَّا لَمْ لَا يَخْلُتُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ (٥٦)

[ما يدور بين أهل الجنة والنار من الجوار]

يقول تعالى خبراً أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ (٣٨) أي معقولة بعملها يوم القيامة قاله ابن عباس وغيره (٤٤) ﴿إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٣٩) فإنيهم ﴿فِي حَسَنِّ تَبَاطُؤٍ﴾ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في البدركات قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَوْ نَكُنْ نَطْلُعُ السِّكِّينَ (٤٤) أي ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلق من جنسنا ﴿وَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ (٤٥) أي نتكلم فيما لا نعلم. وقال قتادة: كلما غوى غاي غوينا معه (٤٥) ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤٦) حَقَّقَ أَتْنَا الْيَقِينَ (٤٧) يعني الموت كقول الله تعالى ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١١) وقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هُوَ - يعني عثمان بن مظعون - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ» (٦) قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّعْبِيِّ﴾ (٤٨) أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعته شافع فيه؛ لأن الشفاعه إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالداً فيها.

[النكير على إعراض الكفار وموقفهم]

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ عَنِ التَّذِكُّرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) أي لما هؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به.

[عدد خزنة جهنم وما قاله الكفار حول ذلك]

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي خزائنها ﴿إِلَّا مَلَكًا﴾ زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَكًا﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويمجذه عشرة ليزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يترحز عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ﴿لِيَسْتَفِيقَ﴾ الَّذِينَ أَوَّلُوا الْكِتَابَ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السبوية المنزلة على الأنبياء قبله. وقوله تعالى: ﴿وَيُرَادُّ الَّذِينَ آمَنُوا آمِنًا﴾ أي إلى إيمانهم [أي] بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوَّلُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أي من المنافقين ﴿وَالْكَاذِبُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

[لا يعلم جنود الله إلا هو]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لثلاث يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَحَرٌ مَا عَلَيْهِمْ» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢) قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي النار التي وصفت (٢) ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٣) ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقُرْآنِ وَالْإِنشَادِ أَذِيبُ﴾ (٣) أي ولى ﴿وَالصَّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ﴾ (٤) أي أشرق ﴿إِنَّمَا لِأَحَدٍ الْكِبَرِ﴾ (٥) أي العظام يعني النار. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف (٦) ﴿يَذِيرُ النَّاسَ لِينِ شَأْنِهِ﴾

(١) فتح الباري: ٦/٣٤٨، ومسلم: ١/١٤٦.

(٢) الطبري: ٢٤/٣٢. (٣) الطبري: ٢٤/٣٣.

(٤) الطبري: ٢٤/٣٥. (٥) الطبري: ٢٤/٣٧.

(٦) البيهقي: ٣/٤٠٦.

قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) وقال قتادة: بل أقسم بها جميعاً (٣). وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير (٤)، فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال قرة بن خالد عن الحسن البصري في هذه الآية: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلمتي، ما أردت بحديث نفسي، وإن الفاجر يمضي قُدماً قُدماً ما يعاتب نفسه (٥). وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (٦) قال: تلوم على الخير والشر، ونحوه عن عكرمة، وقال علي بن أبي نجيع عن مجاهد تندم على ما فات وتلوم عليه (٧).

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٨) أي يوم القيامة أليظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ﴿بَلْ قَدِيرِينَ عَلَٰنَ سَوَىٰ بَنَانِهِ﴾ (٩) أي أليظن الإنسان أننا لا نجمع عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (١٠) قال سعيد عن ابن عباس: يعني يمضي قدماً، وقال مجاهد: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (١١) ليمضي أمامه راكباً رأسه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب (١٢)، وكذا قال ابن زيد (١٣)، ولهذا قال بعده ﴿يَسْتَلْ أَكْأَنُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١٤) أي يقول متى يكون يوم القيامة وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥) قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ (١٦).

وقال تعالى ههنا: ﴿فَإِنَّ رَيْقَ الْفَصْرِ﴾ (١٧) قرأ أبو عمرو بن العلاء ﴿رَيْقٌ﴾ بكسر الراء أي حار، وهذا الذي قاله شبيهه بقوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ الْيَهُودَ مَرْفُفُهُمْ﴾ أي بل ينظرون من الفرع

معرضين ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفِيزَةٌ﴾ (١٨) فَزَتْ مِنْ قَسْوَمٍ (١٩) أي كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت حمر يربد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة (٢٠). وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن [مهران] عن ابن عباس: الأسد بالعربية، ويقال له بالحشية: قسورة، وبالفارسية: شير، وبالنبطية: أوبا (٢١). وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَنَّرَةً﴾ (٢٢) أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ، قاله مجاهد وغيره (٢٣). كقوله تعالى: ﴿وَلَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٢٤) وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل (٢٥). فقولته تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٢٦) أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها.

[القرآن تذكرة]

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ (٢٧) أي حقاً إن القرآن تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ (٢٨) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿كَقَوْلِهِ﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرَىٰ وَهَلْ الْغَفِرَةُ﴾ (٣٠) أي هو أهل أن يخاف منه وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب. قاله قتادة (٣١).

آخر تفسير سورة المدثر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ (٣) بَلْ قَدِيرِينَ عَلَٰنَ سَوَىٰ بَنَانِهِ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَكْأَنُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِنَّا رَيْقُ الْفَصْرِ (٧) وَحُفِّ الْقَمَرِ (٨) أَوْجَمُ لِنَفْسٍ وَالْقَمَرِ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّا لَمَرَّةٌ كَلَّا لَا وَدَّ (١٠) فِي رَيْقٍ يَوْمَئِذٍ لِّلشَّمْرِ (١١) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمْ وَأَخَّرَ (١٢) بَلْ لَّيْسَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٣) وَلَوْ أَلَمْنَا مَآزِيرَهُ (١٤)

[القسم على وقوع المعاد يوم القيامة]

والرد على حيل المتحايلين]

قد تقدم غير مرة أن القسم عليه إذا كان متفياً جاز الإتيان بلا

(١) الطبري: ٤٢/٢٤. (٢) الطبري: ٤٢/٢٤.

(٣) القرطبي: ٩٠/١٩. (٤) الطبري: ٤٣/٢٤.

(٥) الطبري: ٤٤/٢٤. (٦) الطبري: ٤٨/٢٤.

(٧) الدر المنثور: ٤٧/٨، والقرطبي: ٩١/١٩.

(٨) القرطبي: ٩٣/١٩. (٩) الطبري: ٥٠/٢٤.

(١٠) الطبري: ٥٤/٢٤. (١١) الطبري: ٥٤/٢٤.

هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب،
وقرأ آخرون: (برق) بالفتح وهو قريب في المعنى من الأول،
والمقصود أن الأبصار تنبه يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل
من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من
الأمور. وقوله تعالى: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (٨) أي ذهب ضوءه
﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٩) قال مجاهد: كورا^(١). وقرأ ابن زيد
عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ
انْكَدَرَتْ (٢) وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿وَجُمِعَ بَيْنَ
الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَّ (٦)
أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حيث يد أن
يفر ويقول: أين المفر أي: هل من ملجأ أو موئل، قال الله
تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) قال ابن مسعود
وابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: أي لا
نجاة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا
لَكُمْ مِنْ نَّاصِرٍ﴾ (١٧) أي ليس لكم مكان تتكرون فيه،
وكذا قال ههنا: ﴿لَا وَزَرَ﴾ (١١) أي ليس لكم مكان تعتصمون
فيه، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٢) أي المرجع والمصير.

[أعمال الإنسان تكون بين يديه يوم القيامة]

ثم قال تعالى: ﴿يُنْفِخُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِنَافِثِهِ وَأَعْرَ﴾ (١٣) أي يخبر
بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها
وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾ (١٤) وهكذا قال ههنا: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٥) وَلَوْ
أَلْفَىٰ مَعَادِيرُهُ (١٥)﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو
اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ كَيْفَ يَنْفِقُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ
حَبِيبًا﴾ (١٦) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿بَلِ
الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٥)﴾ يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه
وجوارحه^(٢). وقال قتادة: شاهد على نفسه. وفي رواية قال:
إذا شئت والله رأيته بصيرًا بعيوب الناس وذنوبهم غافلًا عن
ذنوبه. وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوبًا يا ابن آدم تبصر
القدادة في عين أخيك وتترك الحذق في عينك لا تبصره!

وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَادِيرُهُ (١٥)﴾ ولو جادل عنها فهو
بصير عليها^(٣). وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَادِيرُهُ (١٥)﴾ ولو
اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه^(٤). وقال السدي: ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ
مَعَادِيرُهُ (١٥)﴾ حجته. كقوله تعالى: ﴿فَرَأَوْهُمُ كَفُتْنًا فَنُزِّلْنَاهُمْ
قَالَوَا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (١٢) وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْمَلُونَ

﴿لَا تَحْرُكَ يَوْمَ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ يَوْمَ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا
قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ (١٩) كُلًّا نُمِيزُ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ الْآخِرَةُ (٢١) وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِقَةٌ (٢٣) وَجُودَ
يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ (٢٥)

[تعليم تلقي الوحي]

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه
الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في
قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع
له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن يسره لأدائه على
الوجه الذي ألقاه عليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه
فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره
وإيضاح معناه. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَحْرُكَ يَوْمَ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ يَوْمَ﴾ (١٦)
﴿أَي بِالْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَتَّبِعَ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ (١٦) أي في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) أي أن
تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ (١٨) أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى
﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ﴾ (١٩) أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه
ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وروى الإمام أحمد عن
ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة
فكان يحرك شفتيه قال: فقال لي ابن عباس: أنا أحرك شفتي
كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه، وقال لي سعيد: وأنا
أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه، فأنزل الله
عز وجل ﴿لَا تَحْرُكَ يَوْمَ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ يَوْمَ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ
﴿١٧﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ

(١) الطبري: ٥٧/٢٤. (٢) الطبري: ٦٢/٢٤.

(٣) الطبري: ٦٤/٢٤. (٤) الطبري: ٦٥/٢٤.

(٥) الطبري: ٦٤/٢٤.

الجنات، ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام.

[تسود وجوه العصاة يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْوِيَةٌ ۖ أَن تَنْظُرَ أَنْ يَقُولَ يَٰ قَافِرٌ ﴿١٥﴾﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة بأسرة، قال قتادة: كالحة^(٨). وقال السدي: تغير ألوانها^(٩). ﴿تَنْظُرُ﴾ أي تستيقن ﴿أَنْ يَقُولَ يَٰ قَافِرٌ ﴿١٥﴾﴾ قال مجاهد: داهية^(١٠)، وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْوِيَةٌ ۚ صَاحِبُكُمْ تَسْتَبِشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٢٢﴾ تَرْمَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٢٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ﴿٢٤﴾﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَانِشَةٌ ﴿٢٥﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٢٦﴾ تَصَلَّ نَارًا كَامِيَةً ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٢٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٣٠﴾﴾ في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْمَرَاتُ ﴿١٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿١٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿١٨﴾ وَالْفَقْرُ أَلَسَّا بِالَسَاقِ ﴿١٩﴾ إِلَىٰ ذِكْرِكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٢٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا حَصْلَ ﴿٢١﴾ وَلَكِنَّ كَذَبَ رِقْوِكَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْكَ أَهْلُهُ يَسْتَطِقُ ﴿٢٣﴾ أُولَٰئِكَ لَكَ قَاوُكُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ قَاوُكُ ﴿٢٥﴾ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يَتْرَكَ سُدًى ﴿٢٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِنْ مَّيْمَنَتَيْنِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّطَقَّةً فَنُفِثَ ﴿٢٨﴾ لِمَعْلَلٍ لِّبَنِي الرَّجْمَنِ الْمَذْكُورِ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَذِرٍ عَلَٰكُمْ أَن يَخْبَىٰ لَلَّذِينَ ﴿٣٠﴾﴾

[يحصل اليقين عند الاحتضار]

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا

(١) أحمد: ١/٣٤٣.

(٢) فتح الباري: ١/٣٩ و ٨/٥٤٧ و ٥٤٩ و ٥٥٠ و ٧٠٧ و ١٣/٥٠٨، ومسلم: ١/٣٣٠.

(٣) فتح الباري: ١٣/٤٣٠.

(٤) فتح الباري: ١٣/٤٣٠ و ٤٣١ ومسلم: ١/١٦٣ و ١٦٧.

(٥) فتح الباري: ١٣/٤٢٩، ومسلم: ١/٤٣٩.

(٦) مسلم: ١/١٦٣. (٧) مسلم: ١/١٧٨.

(٨) الطبري: ٢٤/٧٤. (٩) القرطبي: ١٩/١١٠.

(١٠) الطبري: ٢٤/٧٤.

رُؤْيَاةُ ﴿١٨﴾﴾ أي فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه^(١). وقد رواه البخاري ومسلم ولفظ البخاري فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل^(٢).

[سبب تكذيب يوم القيامة حب]

الدنيا والغفلة عن الآخرة]

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُخَيِّرُ الْعَاجِلُ ﴿٢٠﴾ وَتَذَكِّرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم، أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

[رؤية الله في الآخرة]

ثم قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّضِيَّةٌ ﴿٢٢﴾﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا طَائِرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي تراه عياناً كما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه ﴿إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عِيَانًا ﴿٢٤﴾﴾. وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قال: «فَلِإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَٰلِكَ»^(٤).

وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: ﴿إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْفِلُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»^(٥). وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: تَرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَهِيَ الزَّيَادَةُ» ثم تلا هذه الآية ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَ وَزَيْادَةُ ﴿٦﴾﴾ وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: «إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ»^(٧) يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات وفي روضات

الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَةَ﴾ (٦) إن جعلنا كلا رادة فمعناها لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى حقاً فظاهر، أي حقاً إذا بلغت تراقيك، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاقق، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨) وَأَشْرَجْتَ نَظْرُوكَ (٩) وَخُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (١٠) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (١١) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٢) وهكذا قال ههنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَةَ﴾ (٦)، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٧) قال عكرمة عن ابن عباس: أي من راق يرقى (١١). وكذا قال أبو قلابة: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٧) أي من طيب شاف (١٢)، وكذا قال قتادة والضحاك وابن زيد (١٣). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْقَبْأُ النَّاسُ﴾ (١٤) يقول آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمة الله (١٥). وقال عكرمة: ﴿وَالْقَبْأُ النَّاسُ﴾ (١٤) الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء بلاء، وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَالْقَبْأُ النَّاسُ﴾ (١٤) هما ساقاك إذا التفتا (١٦)، وفي رواية عنه ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليهما جوالاً (١٧). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِوَيْحٍ مِنَ النَّاسِ﴾ (١٨) أي المرجع والمآب وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عز وجل: ردوا عبيدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل (١٩).

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْعِلُونَ﴾ (٢٠) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْخُفْيَةُ وَهُوَ أَمَرُ الْمُحْسِنِينَ (٢١)

[ذكر حال المكذب]

وقوله جل وعلا: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صِلَىٰ﴾ (٢٢) وَلَكِنَّ كَذَبًا وَتَوَلَّىٰ (٢٣) هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صِلَىٰ﴾ (٢٢) وَلَكِنَّ كَذَبًا وَتَوَلَّىٰ (٢٣) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَتَّبِعُهُ (٢٤) أي جدلان أشراً بطراً كسلان لا همه له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَتَقَبَّلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٢٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْتَوِيًّا﴾ (٢٦) إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ أُنْجُوزَ (٢٧) أي يرجع ﴿يَلَيْقَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (٢٨) وقال

وروي أبو عبد الرحمن النسائي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَىٰ﴾ (٢٩) ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٠) قال: قال رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عز وجل (٣١) روى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَىٰ﴾ (٢٩) ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٠) وعيد على أثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبي الله ﷺ بمجامع ثيابه ثم قال: أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ، ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدي يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها.

[لا يترك الإنسان هملاً]

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُرَكَّبَ سُنَىٰ﴾ (٣٢) قال السدي: يعني لا يبعث. وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى، والظاهر أن الآية تعم الخالين أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدي لا يبعث بل هو مأمور منتهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكروه من أهل الزيغ، والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداة فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَلَقَّوْنَهُمْ يَتْلَوْنَ﴾ (٣٣) أي أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين. ﴿يَتْلَوْنَ﴾ (٣٣): يراق من الأصلاب في الأرحام.

(١) الطبري: ٧٥/٢٤. (٢) الطبري: ٧٥/٢٤.

(٣) الطبري: ٧٥/٢٤. (٤) الطبري: ٧٦/٢٤.

(٥) الطبري: ٧٨/٢٤. (٦) القرطبي: ١١٢/١٩.

(٧) الطوال للطبراني: ٢٣٨. (٨) الدر المنثور: ٣٦٣/٨.

(٩) الطبري: ٨١/٢٤.

(١٠) النسائي في الكبرى: ٥٠٤/٦.

والمشج والمشيخ: الشيء المختلط بعضه في بعض. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْأَمْشَاجِ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا^(٣)، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون، وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس: الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة^(٤).

وقوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ أي نخبره كقوله جل جلاله: ﴿لِيَتَّبِعَكُمْ اللَّهُ أَخْسَنَ عَمَلًا﴾، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥) أي جعلناه سمعًا وبصرًا يتمكن بها من الطاعة والمعصية.

[هذه الله السبيل فهو إما شاكر وإما كفور]

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به كقوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْغَنَىٰ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٦) أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٧) تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَفْعَلُو قَبَائِعَ نَفْسِهِ، فَمُؤِيقُهَا أَوْ مُعِيقُهَا»^(٨).

﴿إِنَّا آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ سَلِيلًا وَأَغْلَلْنَا وَسُورًا﴾^(٩) إن الآجر يترنوب من كأس كانت مِرَاجُهَا كَأْفُورًا^(١٠) عِنَّا يَتَرَبَّ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يَفْعَرُونَهَا فَجِيرًا^(١١) يُوْقُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَقْفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا^(١٢) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَشْيِكُمَا وَيُفِيمَا وَايُسِرًا^(١٣) إِنَّمَا تُطْعَمُونَ يَوْمَ لَا تَرْدُ مَكْرَهُهُ وَلَا تَشْكُرُوا^(١٤) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمًّا مُّقْتَرًا^(١٥) فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَفْرًا وَسَبْرًا^(١٦) وَبَرَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا^(١٧).

[جزاء الكافرين والأبرار]

يخبر تعالى عما أُرصد للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق في نار جهنم كما قال تعالى: ﴿إِذَا الْأَغْطَالُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾^(١٨) في

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَلَقًا فَمُسَوًّى﴾^(١٩) أي فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر سويًا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره. ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ أَنْثَىٰ وَالْذَكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(٢٠) ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي ذَلَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمُ الْوَحْشَ﴾^(٢١) أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة وإما مساوية على القولين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾^(٢٢) والأول أشهر كما تقدم في سورة الروم بيانه وتقديره، والله أعلم.

[الدعاء عند ختام السورة]

روى أبو داود رحمه الله عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿الَّذِي ذَلَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمُ الْوَحْشَ﴾^(٢٣) قال: سبحانك فيلي، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ^(٢٤). تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك.

آخر تفسير سورة القيامة والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

[قراءة سورة السجدة والإنسان في

صلاة الصبح يوم الجمعة]

قد تقدم في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٢٥) السجدة و﴿هَذَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(٢٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْذَّهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾^(٢٧) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّتَّبِعُهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا^(٢٨) هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(٢٩).

[خلق الله الإنسان بعد أن لم يكن]

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه فقال تعالى: ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْذَّهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾^(٣٠) ثم بين ذلك فقال جل جلاله: ﴿وَإِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط.

(١) أبو داود: ٥٤٩/١. (٢) مسلم: ٥٩٩/٢.

(٣) الطبري: ٨٩/٢٤. (٤) الطبري: ٩٠، ٨٩/٢٤.

(٥) مسلم: ٢٠٣/١.

شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْفَنَى وَتَحْشَى الْفَقْرَ^(٨) أي في حال مجتنب
للهمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حَيْوَةٍ وَتَكِينٍ وَبَيِّنَاتٍ أَمِيرًا﴾^(٩) أما المسكين
واليتم فقد تقدم بيانها وصفتهما، وأما الأسير فقال سعيد بن
جبير والحسن والضحاك: الأسير من أهل القبلة^(١٠). وقال
ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين^(١١)، وشهد لهذا
أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى،
فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء. وقال عكرمة: هم
العييد^(١٢)، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم
والمشرك^(١٣)، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن
وقتادة، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في
غير ما حديث، حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول:
«الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»^(١٤) قال مجاهد: هو
المحبوس^(١٥)، أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتبهون
ويحبونه قائلين بلسان الحال ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكَ لِيُؤْمِنَ اللَّهُ﴾ أي رجاء
ثواب الله ورضاه ﴿لَا يُدْمِنُكَ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا﴾^(١٦) أي لا يطلب
منكم مجازاة تكافؤنا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال
مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بالستهم ولكن علم
الله به من قلوبهم، فأننى عليهم به، ليرغب في ذلك واغيب^(١٧)
﴿إِنَّمَا نَخَفُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَيُّوسًا فَطِيرًا﴾^(١٨) أي إنما نفعل هذا العمل الله
أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العيوس القمطير. قال علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس: «عَيُّوسًا ضَيْقًا»^(١٩) ﴿فَطِيرًا﴾^(٢٠)
طويلا^(٢١). وقال عكرمة وغيره عنه في قوله: ﴿يَوْمًا عَيُّوسًا فَطِيرًا﴾^(٢٢)
﴿١﴾ قال: يعيس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق
مثل القطران^(٢٣). وقال مجاهد: «عَيُّوسًا العائس الشفتين
﴿فَطِيرًا﴾^(٢٤) قال: [تقيض] الوجه [بالسور]. وقال سعيد

الْعَيِّسُ تُدْرِكُ النَّارَ يُسْجَرُونَ^(٢٥) ﴿٢٦﴾ ولما ذكر ما أعده لهؤلاء
الاشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِنْ كَأْسٍ
كَانَتْ مِرْاجِحًا كَأُفُورًا﴾^(٢٧) وقد علم ما في الكافور من
التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذادة في
الجنة. قال الحسن: يرد الكافور في طيب الزنجبيل ولهذا قال:
﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٢٨) أي هذا الذي مزج
لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد
الله صرًا بلا مزج ويروون بها، ولهذا ضمن يشرب معنى
يروي حتى عذاه بالباء ونصب عينًا على التمييز، وقوله تعالى:
﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٢٩) أي يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين
شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، والتفجير هو
الإنباع كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ نَنْجِرُ لَنَا مِنْ
الْأَرْضِ يَبُوءًا﴾^(٣٠) وقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾^(٣١).
وقال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٣٢) يقودونها حيث
شاؤوا^(٣٣) وكذا قال عكرمة وقتادة^(٣٤). وقال الثوري
يصرفونها حيث شاؤوا^(٣٥).

[أعمال هؤلاء الأبرار]

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَمَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٣٦) أي
يتبعون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة
بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. قال
الإمام مالك عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن
مالك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ
يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يُعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يُعْصِه»^(٣٧) رواه
البخاري من حديث مالك^(٣٨). وتركون المحرمات التي
نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم
الذي شره مستطير أي منتشر عام على الناس إلا من رحم
الله. قال ابن عباس: فاشيا. وقال قتادة: استطار والله شر
ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض^(٣٩). وقوله تعالى:
﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حَيْوَةٍ﴾ قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا
الضمير عائدا إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه، والأظهر
أن الضمير عائدا على الطعام أي يطعمون الطعام في حال
محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن
جرير^(٤٠) كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ أَلْمَالٍ عَلَى حَيْوَةٍ﴾ وكقوله تعالى:
﴿لَنْ نَنَالُوا الْآخِرَ حَتَّى نُنْفِقُوا أَمَّا نُحْيِيهِمْ﴾.

وفي الصحيح: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ

(١) الطبري: ٩٤/٢٤. (٢) الدر المنثور: ٣٦٩/٨.

(٣) الطبري: ٩٥/٢٤. (٤) الموطأ: ٤٧٦/٢.

(٥) فتح الباري: ٥٨٩/١١. (٦) الطبري: ٩٦/٢٤.

(٧) الطبري: ٩٦/٢٤. (٨) فتح الباري: ٣٣٤/٣.

(٩) الطبري: ٩٧/٢٤. (١٠) عبد الرزاق: ٣٣٧/٣.

(١١) القرطبي: ١٢٩/١٩. (١٢) الطبري: ٩٨/٢٤.

(١٣) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤.

(١٤) الطبري: ٩٨/٢٤. (١٥) الطبري: ٩٨/٢٤.

(١٦) الطبري: ١٠٠/٢٤. (١٧) الطبري: ٩٩/٢٤.

التربع أو التمكن في الجلوس، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال. وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣) أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم بل هي مزاج واحد دائم سرمدى لا يغيون عنها حولا.

[دنوا الضلال والقطوف]

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ أي قرية إليهم أغصانها ﴿وَوُذِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا﴾ (١٤) أي متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدل من أعلى غصنه كأنه سامع طائع كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَنَحَى الْجَنَّةِ دَانٍ﴾ (١٥) وقال جل وعلا: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (١٦) قال مجاهد: ﴿وَوُذِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا﴾ (١٧) إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد تذللت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى: ﴿تَذِيلًا﴾ (١٨) وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد (١٩).

[أنبية من فضة وأكواب]

وقوله جلت عظمته: ﴿وَبُطَّائِفُهَا عَلَيْهِمْ يَخِيَّةٌ مِّنْ فَضْوَةٍ وَأَكْوَابُ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم، وقوله: ﴿قَوَارِيرًا﴾ (٢٠) قوارير من فضة فالأول منصوب بخبر كان أي كانت قوارير، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز لأنه بينه بقوله جل وعلا: ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فَضْوَةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد: يياض الفضة في صفاء الزجاج (٢١) والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفاقة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا عما لا نظير له في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿مَدْرَمًا نَّقِيرًا﴾ (٢٢) أي على قدر ريم لا تزيد عنه ولا تنقص بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح وقاتدة وابن أبيزى، وعبد الله بن عبيد بن عمير وقاتدة والشعبي وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد (٢٣)، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة.

ابن جبير وقاتدة: تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿مَطِيرًا﴾ (٢٤) يقلص الجبين وما بين العينين من الهول. وقال ابن زيد، العيوس الشر، والقمطير الشديد.

[بعض التفصيل لجزاء الأبرار في]

الجنة وما فيها من النعيم

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شِرْذَنَةً يَّوْمَ تَقَعُّهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ (٢٥) وهذا من باب التجانس البليغ ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شِرْذَنَةً يَّوْمَ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً﴾ أي في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ (٢٦) أي في قلوبهم، قاله الحسن البصري وقاتدة وأبو العالية والربيع بن أنس (٢٧)، وهذه كقوله تعالى: ﴿يُجِوُّهُ يَوْمَ ذُو الْقَعْدَةِ﴾ (٢٨) حاشاكة تستثير (٢٩) وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه. قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: ركان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه فلقه نسر (٣٠). وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل علي رسول الله ﷺ سرورًا تبرق أسارير وجهه الحديث (٣١). وقوله تعالى: ﴿وَجَزَّهَمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم ربوهم جنة وحريرا أي منزلا رحبا وعيشا رغدا ولباسا حسنا. وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة ﴿مَدْرَمًا عَلَى الْأَنْسِيِّ﴾ فلما بلغ القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَزَّهَمَ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٢) قال: بها صبروا على ترك الشهوات في الدنيا. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (٣٣) ودانيتها عليهم لظللها ووذِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا (٣٤) وبُطَّائِفُهَا عَلَيْهِمْ يَخِيَّةٌ مِّنْ فَضْوَةٍ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا (٣٥) قوارير من فضة قدرها نقير (٣٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زحملا (٣٧) عينا فيها شتى ستيلا (٣٨) وبُطُوفُهَا عَلَيْهِمْ وَلَدُنَّ مَخْدُورًا إِذْ رُيَّتْهُمْ حِسْتَهُمْ نُلُوءًا مَّشُورًا (٣٩) وإذا رأيت ثم رأيت نعيما ومعا كيرا (٤٠) غنيهم ياب سديس حصر واسترق وحلوا أساور من فضة وسقمهم زهيم سراكا طهور (٤١) إن هذا كان لكر جزاء وكان سعيكم مشكورا (٤٢).

[الأرائك ولا حرو ولا برد في الجنة]

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات، وذكر الخلاف في الالتكاء هل هو الاضطجاع أو التمرق أو

(١) الطبري: ١٠١/٢٤. (٢) فتح الباري: ٦/٦٥٣.

(٣) فتح الباري: ٦/٦٥٣. (٤) الطبري: ١٠٣/٢٤.

(٥) الطبري: ١٠٣/٢٤.

(٦) الطبري: ١٠٦، ٢٠٥/٢٤.

(٧) الطبري: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨/٢٤، والقريطي: ١٤١/١٩.

[شرب الزنجبيل والسلسبيل]

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧) أي ويسقون يعني الأبرار أيضًا في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر، وهو لاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا كما قاله قتادة وغير واحد (١). وقد تقدم قوله جل وعلا: ﴿عَيْنَا يَنْبُرُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾ وقال ههنا: ﴿عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (١٨) أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلًا. وقال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها (٢).

[الولدان والخدم]

وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا نَّشُورًا﴾ (١٩) أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿مُغَلَّدُونَ﴾ أي على حالة واحدة مغلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فرهم بأنهم مخرصون في أذانهم الأقربة فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا نَّشُورًا﴾ (١٩) أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا ذَرَأَتْ﴾ أي إذا رأيت يا محمد ﴿نَمٌّ﴾ أي هناك يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخيرة والسرور ﴿رَأَيْتَ نِجْمًا وَمَلَكَ كَبِيرًا﴾ (٢٠) أي ملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها (٣).

فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟.

[اللباس والحلي]

وقوله جل جلاله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير

كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ﴿وَلَوْثَا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢١) ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَمَهُمْ زِينَةً شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢٢) أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين، فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداها فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فحرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن (٤). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٣) أي يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ (٢٤) وكقوله تعالى: ﴿وَتُؤَدُّونَ آلَكُمْ الْجَنَّةِ أَرْثُومًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٦) أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٧) فأصير لعمر ربك ولا تطع منتهن، أيًا أوكفوك (٢٨) وأذكر اسم ربك بكرة وأصيلًا (٢٩) ومن أئيل فأسيئ لله، وسيئته ليلًا طويلاً (٣٠) إنك هؤلاء مخبون العاجلة ويبدون وراءهم يومًا ثيبًا (٣١) نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا ذلًا أنزلناهم تبديلًا (٣٢) إن هذيه تذكروه فمن شاء استخذ إلى ربه سبيلًا (٣٣) وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً (٣٤) يدخل من يشاء في رحمته، والظالمين أعد لهم عذابًا أليمًا (٣٥)

[ذكر تنزيل القرآن والأمر بالصبر والذكر]

يقول تعالى ممثلاً على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزل عليه من القرآن العظيم تنزيلاً: ﴿فَأَصْبِرْ لِعْمَرَ رَبِّكَ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك فأصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ﴾ أيًا أوكفوك (٣٦) أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من

(١) الطبري: ٢٤/١٠٧. (٢) الطبري: ٢٤/١٠٨.

(٣) مسلم: ١/١٧٣. (٤) القرطبي: ١٩/٤٧.

وهي مكة

روى البخاري عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه **﴿وَالْمُرْسَلَتْ﴾** فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه ليرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: **﴿اقتُلُوها﴾** فابتدرناها فذهبت فقال النبي ﷺ: **﴿وُيِّتَ شَرُّكُمْ، كَمَا وُيِّتُمْ شَرُّهَا﴾** ^(٣) وأخرجه مسلم أيضًا من طريق الأعمش ^(٤). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن أمه أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفًا ^(٥). وفي رواية مالك عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ **﴿وَالْمُرْسَلَتْ عَرَفًا﴾** ^(٦) فقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب ^(٦). أخرجه في الصحيحين من طريق مالك به ^(٧).

وَالْمُرْسَلَاتُ عَمَكَا ۖ (١) فَأَلْقَيْتُكَ عَصْفًا ۖ (٢) وَالشَّيْرَاتِ نَسْرًا ۖ (٣)
فَالْمُرْسَلَاتُ فَرَا ۖ (٤) فَأَلْقَيْتُكَ ذِكْرًا ۖ (٥) عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ۖ (٦) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ۖ (٧) وَإِذَا الْجُمُوعُ سُمِرَتْ ۖ (٨) وَلِذَا أَسْمَاءُ فَأُجِزَتْ ۖ (٩)
وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِتْ ۖ (١٠) وَإِذَا الْأَرْسُلُ أُنْقِذَتْ ۖ (١١) لِأَنِّي بِيَوْمِ أُحُدٍ ۖ (١٢) لِيَوْمِ
الْفَصْلِ ۖ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمِ الْفَصْلِ ۖ (١٤) وَلَبَّيْكُمْ يَوْمَ الْفَتْكِ بِينَ ۖ (١٥)

[قسم الله بأشياء من خلقه على وقوع المعاد]

قال ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة **﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا﴾** قال: الملائكة، وروي عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس مثل ذلك وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل، وفي رواية عنه: أنها الملائكة. وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات: أنها الملائكة. وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي العبيدين قال: سألت ابن مسعود

(١) الطبري: ٢٤/١١٨.

(٢) الطبري: ٢٤/١١٨، ١١٩.

(۳) فتح الباری: ۴/۴۲. (۴) مسلم: ۴/۱۷۵۵.

(٥) أحد: ٣٣٨/٦. (٦) الموطأ: ١/٧٨.

(٧) فتح الباري: ٢/٢٨٧ ومسلم: ١/٣٣٨.

الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله والكفور هو الكافر قلبه
 ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١٥) ﴿أَيَّ أَوَّلِ النَّهَارِ وَأَآخِرِهِ
 ﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (١٦) ﴿كَقَوْلِهِ تَعَالَى
 ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَنَّا أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا
 مَّحْمُودًا﴾ (٧٨) ﴿وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْزُقُوا آلَافِيلًا
 ﴾﴾ (٧٩) ﴿وَأَنْتُمْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٨٠) ﴿أَزِدْ عَلَيْهِ وَرِثَ الْفَرَثَانِ رَبِّي﴾ (٨١) ﴿.

ثم قال تعالى متكرراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعَاقِلَةَ لِذُرُورٍ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا تَبْدِيلًا﴾ (٢٧) يعني: يوم القيامة ثم قال تعالى: ﴿عَنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني خلقهم (١) ﴿وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أُمَّتَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨) أي وإذا شئنا بعناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً، وهذا استدلال بالبداة على الرجعة. وقال ابن زيد وابن جرير: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أُمَّتَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨) أي وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم (٢) كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَتَمَّا النَّاسُ وَيَأْتِ غَيْرُكُمْ وَكُنَّ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا﴾ (٣٢) وكقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ جَدِيدًا﴾ (٣٣) وما ذاك على الله يعزیز ﴿٣٤﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً ومسلِكاً أي من شاء اهتدى بالقرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمَهُمْ لَوْ ءَامَنُوا بِآيَاتِهِ وَالْبُيُوتِ الْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُ وَلَا أَتَىٰ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يخرج لنفسه نفعاً ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فيسرها له ويبقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثم قال: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. آخر تفسير سورة الإنسان، والله الحمد والمنة.

﴿وَأَسْرَفَتِ الْأَرْضُ بَنُورَ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (٦٦) ثم قال تعالى: ﴿لَا يَوْمَ يُؤْتَىٰ يَوْمَ الْأُخْتِ﴾ (٦٧) ﴿يَوْمَ الْقَضَايِ﴾ (٦٨) ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقَضَايِ﴾ (٦٩) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٧٠) يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجى أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٧١) ﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٧٢) وهو يوم الفصل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقَضَايِ﴾ (٧٣) ثم قال تعالى معظم لشأنه: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقَضَايِ﴾ (٧٤) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٧٥) أي: ويل لهم من عذاب الله غداً.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧٦) ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (٧٧) ﴿كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٧٨) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٧٩) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٨٠) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٨١) ﴿إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ (٨٢) ﴿فَقَدَرْنَا نِعْمَةً أَلْقَدِرُونَ﴾ (٨٣) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٨٤) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٨٥) ﴿أَخْيَافًا وَمَآثِرًا﴾ (٨٦) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْمًا شَهِيقًا وَأَسْنِمَةً فَاةً فَرَافًا﴾ (٨٧) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٨٨)

[الدعوة إلى الاعتبار بأنواع من قدرة الله]

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٩) يعني: من المكسبين للرسول المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (٩٠) أي: من أشبههم ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُفُّ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٩١) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ﴾ (٩٢) قاله ابن جرير (٨) ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى﴾ (٩٣) ﴿مَتَنَّا عَلَى خَلْقِهِ وَحَتَجًا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبِدَاءِ﴾ (٩٤) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٩٥) أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل كما في حديث [بُشَيْر] بن جَحَّاش: «إِنَّ آدَمَ أَمَى تُعْجِزِي وَقَدْ خَلَقْتَهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟» (٩٦) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٩٧) يعني: جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معدٌّ لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء. وقوله تعالى: ﴿إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ (٩٨) يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو

عن المرسلات عرفاً قال: الريح، وكذا قال في العاصفات عصفاً والناشرات نشراً: إنها الريح (٩٩). وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة (١٠٠) وقطع ابن جرير بأن العاصفات عصفاً الرياح كما قاله ابن مسعود ومن تابعه، وتوقف في الناشرات نشراً هل هي الملائكة أو الريح كما تقدم؟ وعن أبي صالح أن الناشرات نشراً هي المطر، والأظهر كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهكذا العاصفات هي الرياح، يقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت، وكذا الناشرات هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتِ ذِكْرًا﴾ (١٠١) ﴿عَذَابًا أَوْ تَذَكُّرًا﴾ (١٠٢) يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والريبع بن أنس والسدي والثوري (٣)، ولا خلاف هنا فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إغذار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْدَحُونَ لَوَاقِحَ﴾ (١٠٣) هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي: ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إن هذا كله لواقع أي: لكائن لا محالة.

[ذكر بعض ما يحدث يوم القيامة]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُوسَتْ﴾ (١٠٤) أي ذهب ضوؤها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (١٠٥) وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ﴾ (١٠٦) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ﴾ (١٠٧) أي انفطرت وانشقت وتدلَّت أرجاؤها ووهت أطرافها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ (١٠٨) أي: ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله تعالى: ﴿وَيَسُفُّونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٩) الآية. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُسْداً﴾ (١١٠) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ (١١١) قال العوفي عن ابن عباس: جمعت (٤). وقال ابن زيد: وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ (٥) وقال مجاهد: ﴿أَقْنَتْ﴾ (١١٢) أجلت (٦). وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم: ﴿أَقْنَتْ﴾ (١١٣) أوعدت (٧). وكأنه يجعلها كقوله تعالى:

(١) الطبري: ١٢٤/٢٤ و ١٢٥.

(٢) الطبري: ١٢٣/٢٤ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦.

(٣) الطبري: ١٢٨/٢٤، ١٢٩. (٤) الطبري: ١٢٩/٢٤.

(٥) الطبري: ١٣٠/٢٤. (٦) الطبري: ١٣٠/٢٤.

(٧) الطبري: ١٣٠/٢٤. (٨) الطبري: ١٣١/٢٤.

(٩) أحمد: ٢١٠/٤.

الرجال^(٨) ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[عجز المجرمين عن الكلام والعذر

والإقدام يوم القيامة]

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي لا يتكلمون ولا يؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿أي لا يقدرُونَ على الكلام ولا يؤذَنُ لَهُمْ فيه ليعتذروا بل قد قامت عليهم الحجة ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرضات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدة الأحوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ فإن كان لكوكبٌ كَيْدٌ فَيَكْذِبُونَ ﴿وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ تهديد شديد ووعد أكيد أي إن قدرتم على أن تخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا فإنكم لا تقدرُونَ على ذلك كما قال تعالى: ﴿يَنْتَعِزُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَسْتَظْهَرَنَّ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّنُورِ وَالْأَرْضِ فَانْظُرُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ وفي الحديث: «يا عبادي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَقْعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَتَضُرُّوهُ»^(٩).

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُمٍ لَّيْلِ وَيَوْمٍ ثَوِيٍّ﴾ وفوكه مِمَّا يَنْتَهَوْنَ ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْسًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَاسِينَ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ كُلُوا وَتَمَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ رَادًا قِيلَ لَهُمْ أَتُكْفَرُ أَمْ لَا تُكْفَرُ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿

[مال المتقين]

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء

نسعة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْ أَفْكَدُونَ﴾ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا﴾ ﴿أَحْيَا وَأَمُوتَا﴾ قال ابن عباس: ﴿كِهَاتَا﴾ كِنَا^(١). وقال مجاهد: يكف الميث فلا يرى منه شيء^(٢). وقال الشعبي بطنها لأموانكم وظهرها لأحيائكم^(٣) وكذا قال مجاهد وقتادة^(٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْحِي شَيْخِي﴾ أي عني: الجبال أرسى بها الأرض لتلا تميم وتضطرب ﴿وَأَنْشَأْنَا فِيهَا فُرَاتًا﴾ أي عذبا زلالا من السحاب، أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها من بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ﴿لَا ظِلِّ لَهُ وَلَا يَغْنِي مِنَ الْلَّهِ﴾ ﴿إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ ﴿كَأَنَّهُ يَمْشِي صَفْرًا﴾ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ ﴿وَلِئَلَّيْسَ لِلْكَافِرِينَ﴾

[سوق المجرمين إلى ماواه في جهنم]

وشيء من كيفيتها]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعَبٍ ﴿لَا ظِلِّ لَهُ وَلَا يَغْنِي مِنَ الْلَّهِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب يعني: ولا يقيهم حر اللهب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي: يتطاير الشر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالخصون^(٥)، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وغيرهم: يعني: أصول الشجر^(٦) ﴿كَأَنَّهُ يَمْشِي صَفْرًا﴾ أي: كالإبل السود. قاله مجاهد والحسن وقتادة والضحاك واختياره ابن جرير^(٧)، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: ﴿يَمْشِي صَفْرًا﴾ يعني: حبال السفن. وروى البخاري عن ابن عباس بنَّ: ﴿إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا نعمل إلى الخشية ثلاثة أذرع وفوق ذلك فزعه للبناء، فنسميه القصر ﴿كَأَنَّهُ يَمْشِي صَفْرًا﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط

(١) الطبري: ٢٤/١٣٤. (٢) الطبري: ٢٤/١٣٤.

(٣) الطبري: ٢٤/١٣٤. (٤) الطبري: ٢٤/١٣٥.

(٥) الطبري: ٢٤/١٦٣. (٦) الطبري: ٢٤/١٣٨.

(٧) الطبري: ٢٤/١٣٩-١٤١ (٨) فتح الباري: ٨/٥٥٦.

(٩) مسلم: ٤/١٩٩٤.

﴿لَنُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ بَشَرًا مِنْكُمْ وَإِنَّا أَكْثَرُ﴾ ﴿١٥﴾ وَحَسْبَ الْعَذَابُ ﴿١٦﴾

[الرد على إنكار المشركين لوقوع القيامة]

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ أَي شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ؟ عن أمر القيامة وهو النبا العظيم، يعني: الخبر الهائل المقطع الباهر ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلِفُونَ﴾ ﴿٣﴾ يعني: الناس فيه على قولين مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سِعْمَاءُونَ﴾ ﴿٤﴾ تَوَكَّلْ سِعْمَاءُونَ ﴿٥﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد.

[ذكر شيء من قدرة الله كدليل على

قدرته على البعث بعد الموت]

ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿١﴾ أي مهددة للخلاق، ذلولاً لهم قارة ساكنة ثابتة ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ﴿٢﴾ أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَقْنَاهُ أَرْوَاجًا﴾ ﴿٣﴾ يعني: ذكرنا وأنشئنا يتمتع كل منها بالآخر ويحصل التماسك بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَرْوَاجًا لَتَتَّبِعُوا أَلْفًا بِمِثْلِ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُخْلِفُونَ﴾ ﴿٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿٥﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعيش في عرض النهار وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿٦﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده كما قال: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَشْسُهَا﴾ ﴿٧﴾ وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿٦﴾ أي سكتاً، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ﴿٨﴾ أي جعلناه مشرقاً نبتاً مضياً؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك ^(١). وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ﴿٩﴾ يعني السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزينها بالكواكب الثوابت والسيارات ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ﴿١٠﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهم ضوؤها لأهل الأرض كلهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ

الواجبات وترك المحرمات، أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحوم وهو الدخان الأسود المتن، وقوله [تعالى]: ﴿وَقَوْكَةً يَمَّا يَسْتَنْوُونَ﴾ ﴿١١﴾ أي ومن سائر أنواع الشار مهما طلبوا وجدوا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى خبراً خبيراً مستأنفاً: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿وَلَنُؤَمِّدَنَّ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٤﴾.

[تهديد لمنكري القيامة]

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين وأمرهم أمر تهديد ووعد فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ أي مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿وَلَنُؤَمِّدَنَّ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٧﴾ كما قال تعالى: ﴿لَنُصْطَرِّقَهُمْ ثُمَّ نَنْفَخُهُمْ فِي عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿١٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا لَا تَزْكُمُوتَ﴾ ﴿٢١﴾ أي إذ أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنُؤَمِّدَنَّ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

آخر تفسير سورة المرسلات، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة النبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سِعْمَاءُونَ ﴿٤﴾ تَوَكَّلْ سِعْمَاءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَحَقَّقْنَا أَرْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَحَقَّنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا ﴿١٤﴾

تَمَرَّتْ مَاءً نَجَابًا ﴿١١﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
من المعصرات أي من السحاب ^(١). وكذا قال عكرمة أيضًا
أبو العالية والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري
اختاره ابن جرير ^(٢)، وقال الفراء: هي السحاب التي
تجلب بالمطر ولم تطر بعد، كما يقال امرأة معصر إذا دنا
جفها ولم تحض ^(٣). وهذا كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ
رِيحَ فَتْنٍ سَحَابًا فَيَسْطُلُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى
وَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي من بينه.

وقوله جل وعلا: ﴿مَاءً نَجَابًا﴾ ^(٤) قال مجاهد وقتادة
والربيع بن أنس: نجابًا منصبًا ^(٥). وقال الثوري:
شائبًا ^(٦). وقال ابن زيد: كثيرًا ^(٧). وفي حديث المستحاضة
حين قال لها رسول الله ﷺ: «أَنْعَتْ لَكَ الْكَرْشَفُ» يعني: أن
غشي بالقطن، فقالت: يا رسول الله! هو أكثر من ذلك إنما
أج نجابًا ^(٨)، وهذا فيه دلالة على استعمال الشج في الصب
التتابع الكثير، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿نُخْرِجُ بِسَحَابٍ مَبْنًى﴾ ^(٩) وَجَبَتْ أَلْفَاقًا ﴿١٠﴾ أي
لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حَبًّا﴾ بدخر
للأناسي والأنعام ﴿وَبَنَاتًا﴾ ^(١٠) أي خضرًا يؤكل رطبًا
﴿وَجَنَّتْ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة والأوان
مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة وإن كان ذلك في بقعة واحدة
من الأرض مجتمعًا ولهذا قال: ﴿وَجَبَّتْ أَلْفَاقًا﴾ ^(١١) قال ابن
عباس وغيره: ﴿أَلْفَاقًا﴾ ^(١٢) مجتمعة ^(١٣)، وهذا كقوله تعالى:
﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّدَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ عَثَبٍ وَرَزَقٌ وَنَجِيلٌ
مِثْوَانٌ وَغَيْرُ مِثْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُوسٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ^(١٤).

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ^(١٥) يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ قَتَاوَنُ أَوْجَابًا
﴿١٦﴾ وَفِيهِ مِنَ السَّمَاءِ فَكَاتَتْ أَبْوَابًا ﴿١٧﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ
سَرَادٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١٩﴾ لِلطَّغْيِينَ مَتَابًا ﴿٢٠﴾ لِيُثَبِّتَ
فِيهَا أَهْقَابًا ﴿٢١﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا زُجُورًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا حَيْمًا
وَسَدًّا ﴿٢٣﴾ حَرَاءً وَفَاقًا ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا
﴿٢٥﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٦﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا
﴿٢٧﴾ فَذَرُّوا قُلُوبَكُمْ لَا يَرْيَدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٨﴾

[تفسير يوم الفصل وتفصيل ما فيه]

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه
موقت بأجل معدود، لا يُزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم

وقته على التعيين إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا
تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ^(١٩)، ﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ قَتَاوَنُ أَوْجَابًا
﴿٢٠﴾ قال مجاهد: زمرا زمرا ^(٢١)، قال ابن جرير: يعني تأتي
كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ
بِأُمِّهِمْ﴾ ^(٢٢) وروى البخاري [في تفسير قوله]: ﴿يَوْمَ يُفْعَلُ
فِي الصُّورِ قَتَاوَنُ أَوْجَابًا﴾ ^(٢٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله
ﷺ: «مَا يَبَيْنُ النَّفْثَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قالوا: أربعون يومًا؟ قال:
أبيت قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟
قال: أبيت قال: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يُنْبِتُ
الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا بَيْتٌ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ
عَظْبُ الذَّنْبِ، وَمِمَّا يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٢٤).

﴿وَفِيهِ مِنَ السَّمَاءِ فَكَاتَتْ أَبْوَابًا﴾ ^(٢٥) أي طرقًا ومسالك لنزول
الملائكة ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَادٍ﴾ ^(٢٦) كقوله تعالى:
﴿وَرَزَى الْجِبَالُ سَحَابًا جَاوِدَةً وَهِيَ ثَمَرُ السَّحَابِ﴾ وكقوله تعالى:
﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ ^(٢٧) وقال ههنا:
﴿فَكَانَتْ سَرَادٍ﴾ ^(٢٨) أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست
بشيء وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر، كما قال
تعالى: ﴿وَتَكُونُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ^(٢٩) فَيَذَرُهَا قَاعًا
صَفْصَفًا ﴿٣٠﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٣١﴾ وقال تعالى:
﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ^(٣٢) أي مرصدة معدة ﴿لِلطَّغْيِينَ﴾ وهم المردة
العصاة المخالفون للرسول ﴿مَتَابًا﴾ ^(٣٣) أي مرجعًا ومنقلبًا
ومصيرًا ونزلاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ فِيهَا أَهْقَابًا﴾ ^(٣٤) أي ماكثين فيها أحقابًا
وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان.

وقال خالد بن معدان: هذه الآية وقوله تعالى: ﴿لَا مَأْشَاءَ
رَبِّكَ﴾ في أهل التوحيد ^(٣٥) رواها ابن جرير، وروى ابن
جرير عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى:

(١) الطبري: ١٥٤/٢٤.

(٢) الطبري: ١٥٣/٢٤، والبغوي: ٤٣٧/٤.

(٣) البغوي: ٤٣٧/٤. (٤) الطبري: ١٥٥/٢٤.

(٥) الطبري: ١٥٥/٢٤. (٦) الطبري: ١٥٥/٢٤.

(٧) أبو داود: ١٩٩/١. (٨) الطبري: ١٥٦/٢٤.

(٩) الطبري: ١٥٨/٢٤. (١٠) الطبري: ١٥٨/٢٤.

(١١) فتح الباري: ٥٥٨/٨. (١٢) الطبري: ١٦٣/٢٤.

[الفوز الكبير للمتقين]

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك: متزهاً^(٧). وقال مجاهد وقناة: فازوا فنجوا من النار^(٨). والأظهر ههنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وكواعب أزهارها^(٩). أي وحورًا كواعب، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد (كواعب) أي نواهد، يعنون أن ثديين نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عرب أنراب أي في سن واحد^(١٠) كما تقدم بيانه في سورة الواقعة. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا وَهَّابًا﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة^(١١). وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد والحسن وقناة وابن زيد: ﴿وَهَّابًا﴾ الملاهي المتزعة^(١٢). وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ كقوله: ﴿لَا لَفْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيًا﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص وقوله: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهم به بفضلته ومنه وإحسانه ورحمته ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي كافياً وافياً شاملاً كثيراً، تقول العرب: أعطاني فأحسني أي كفاني ومنه حسبي الله أي الله كافي.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾^(١٣) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاشِرُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْذِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾^(١٤) إِنَّا أُنذَرْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا^(١٥)

﴿لَيْتَنِي فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون^(١٦). وقال سعيد عن قتادة: قال الله تعالى: ﴿لَيْتَنِي فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده [وذكر لنا أن الحقب ثمانون سنة^(١٧)]. وقال الربيع بن أنس: ﴿لَيْتَنِي فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عز وجل، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، وكل يوم كألف سنة مما تعدون، رواها أيضاً ابن جرير^(١٨).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يجدون في جهنم برذاً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا لَحِيمًا وَشَعَابًا﴾ قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق^(١٩)، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطيع من برده ولا يواجه من نتته - أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه - وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد وقناة وغير واحد^(٢٠). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ومجاسبون ﴿وَكَذَبُوا بَيِّنَاتٍ كَذِبًا﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله ﷺ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ أي تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصِيَّتُهُ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناها عليهم وسنجزيمهم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج. قال قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله ابن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً^(٢١).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ حدائق وأعنب^(٢٢) وكواعب أزهارها^(٢٣) وكُنَّا وَهَّابًا^(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا^(٢٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا^(٢٦)

(١) الطبري: ١٦٢/٢٤. (٢) الطبري: ١٦٢/٢٤.

(٣) الطبري: ١٦٢/٢٤. (٤) الطبري: ١٦٥/٢٤.

(٥) الطبري: ١٦٧/٢٤. (٦) الطبري: ١٦٩/٢٤.

(٧) الطبري: ١٧٠/٢٤، والبيهقي: ٤٣٩/٤.

(٨) الطبري: ١٦٩/٢٤، ١٧٠.

(٩) الطبري: ١٧٠/٢٤، والدر المنثور: ٣٩٨/٨.

(١٠) الطبري: ١٧٣/٢٤. (١١) الطبري: ١٧٢/٢٤.

[لا يجترئ أحد على التكلم أمام

الله حتى الملائكة إلا بعد الإذن]

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السماوات والأرض وما فيها وما بينها وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْعَنُ مِنْهُ خَطَابًا﴾ (٣٧) أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه وكقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَنْفَعُ عَنْدهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ المراد بالروح ههنا هو: جبريل قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك (١). كما قال عز وجل: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ (٣٨) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٣٩) وقال مقاتل ابن حيان: الروح هو أشرف الملائكة وأقرب إلى الرب عز وجل وصاحب الوحي (٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا مَنَ أَدْنَى لَّهَ الرَّحْمَنُ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكما ثبت في الصحيح: «وَلَا يَتَكَلَّمُ بِوَيْثُاقٍ إِلَّا الرُّسُلُ» (٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٤) أي حقًا ومن الحق لا إله إلا الله كما قاله أبو صالح وعكرمة (٤). وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَكَا﴾ (٥) أي مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه.

[القيامة قريبة]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبًا؛ لأن كل ما هو آت أت ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ الْعَذَابُ مَا قَدَّمْت بِدَاهُ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرا وشرها، قديما وحديثا كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَبْقَى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (٦)، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلْئِنِّي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٧) أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن مخلوق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يمحور، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا، فتصير ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿بَلْئِنِّي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٨) أي كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب، وقد ورد

معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما. آخر تفسير سورة النبأ. والله الحمد والمنة. وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتُ تَشَّطُّ (٢) وَأَسْبِغْنَ سَبِيحًا (٣) فَالْمُزِيدَاتُ سَبَا (٤) فَالْمُزِيدَاتُ أَمْرًا (٥) يَوْمَ رَحُفَ الرَّاحَةِ (٦) تَبْعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمِيَّةٌ وَاجِعَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ دُونَ فِي الْحَاوِرَةِ (١٠) أَوَلَمْ نَكُنْ عَطْمًا حَجَرَةٍ (١١) قَالُوا نَآئِكَ إِذَا كَرِهَ خَاطِرُهُ (١٢) فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ زَجْدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

[القسم بخمسة أوصاف على وقوع يوم القيامة]

قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وأبو صالح وأبو الضحى والسدي ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَا﴾ (١) الملائكة يعنون: حين تنزع أرواح بني آدم (٥)، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنها حلت من نشاط وهو قوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ تَشَّطُّ﴾ (٢) قاله ابن عباس (٦). وأما قوله تعالى: ﴿وَالنَّشِيطَاتُ سَبَا﴾ (٣) فقال ابن مسعود: هي الملائكة (٧)، وروي عن علي ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح مثل ذلك (٨).

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُزِيدَاتُ سَبَا﴾ (٤) روي عن علي ومسروق ومجاهد وأبي صالح والحسن البصري يعني: الملائكة (٩). وقوله تعالى: ﴿فَالْمُزِيدَاتُ أَمْرًا﴾ (٥) قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة (١٠)، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء والأرض

(١) الطبري: ١٧٦/٢٤، والقرطبي: ١٨٦/١٩.

(٢) الدر المنثور: ٤٠٠/٨. (٣) فتح الباري: ٤٣٠/١٣.

(٤) الطبري: ١٧٨/٢٤. (٥) الطبري: ١٨٥/٢٤.

والقرطبي: ١٩٠/١٩، والدر المنثور: ٤٠٤/٨.

(٦) الطبري: ١٧٨/٢٤. (٧) الدر المنثور: ٤٠٤/٨.

(٨) الطبري: ١٩٠/٢٤، القرطبي: ١٩٣/١٩.

(٩) القرطبي: ٩٣/١٩، والدر المنثور: ٤٠٤/٨.

(١٠) الطبري: ١٩٠/٢٤، القرطبي: ١٩٤/١٩، والدر المنثور:

يعني: بأمر ربه عز وجل.

[صفة القيامة وصفة الناس وأقوالهم فيها]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ﴾ (٦) قال ابن عباس: هما التفتختان الأولى والثانية (١)، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد (٢)، وعن مجاهد: أما الأولى: وهي قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ﴾ فكفوله جلت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ۖ﴾ (٦) والثانية: وهي الرادفة فهي كفوله: ﴿وَجَلَّتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ تَذَكُّا دَكَّةً وَجِدَّةً ۖ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ﴾ (٨) قال ابن عباس: يعني: خائفة (٤)، وكذا قال مجاهد وقتادة (٥) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ۖ﴾ (٩) أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَنَرُدُّوْنَ فِي الْحَيَاةِ ۖ﴾ (١٠) يعني: مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الخافرة وهي القبور، قاله مجاهد (٦)، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُدُّوْنَ فِي الْحَيَاةِ ۖ﴾ (١١) وقرئ: (تَاخِرَةً) وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي بالية (٧). قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه وأما قولهم: ﴿تِلْكَ إِذْ أَوْرَثْتَ خَيْرَةً ۖ﴾ (١٢) فقال محمد بن كعب: قالت قريش لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن (٨)، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ۖ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾ (١٤) أي فإنما هو أمر من الله لا مشنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون وهو أن يأمر الله تعالى إسرأفيل فينفتح في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودٍ وَتَنْظُنُونَ أَن لَّيْسَ لَكُم مَّا لَكُم إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۖ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾ (١٥) قال ابن عباس: الساهرة: الأرض كلها (٩)، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح. وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة: وجه الأرض (١٠). وقال مجاهد: كانوا بأسفلها

فأخرجوا إلى أعلاها، قال: والساهرة: المكان المستوي (١١). وقال الربيع بن أنس: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عِبْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۖ﴾ (١٨) ويقول تعالى: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ﴾ (١٩) لَا تَرَى فِيهَا عِصْمًا وَلَا أَمْتًا ۖ﴾ (٢٠) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ﴾ (٢١) وبرزت الأرض التي عليها الجبال وهي لا تعد من هذه الأرض وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة ولم يهرق عليها دم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ (٢٢) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ يَا لَوْلَا الَّذِي نَسَىٰ هَٰذَا ۖ أَذْهَبَ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ إِنَّهُ طَعَىٰ ۖ﴾ (٢٣) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا ۖ وَهَدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۖ﴾ (٢٤) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۖ﴾ (٢٥) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۖ﴾ (٢٦) ﴿ثُمَّ أَرَادَ يَسْتَفِي ۖ﴾ (٢٧) ﴿فَحَسَرَ فَتَادَىٰ ۖ﴾ (٢٨) ﴿فَقَالَ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ (٢٩) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۖ﴾ (٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۖ﴾ (٣١).

[ذكر قصة موسى وأنها عبرة لمن يخشى]

يخبر تعالى رسوله محمدا ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبه من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۖ﴾ (٣١) يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ (٣٢) أي هل سمعت بخبره ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ۖ﴾ (٣٣) أي كلمه نداء ﴿يَا لَوْلَا الَّذِي نَسَىٰ هَٰذَا ۖ﴾ (٣٤) أي المطهر ﴿طَوًى ۖ﴾ (٣٥) وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه، فقال له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ إِنَّهُ طَعَىٰ ۖ﴾ (٣٦) أي تجبر وتمرد وعتا ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا ۖ وَهَدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ (٣٧) أي تسلّم وتطيع ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ (٣٨) أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فَتَخْشَىٰ ۖ﴾ (٣٩) أي فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشعًا بعدما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۖ﴾ (٤٠) يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلاً واضحاً

(١) الطبري: ٢٤/١٩١. (٢) الطبري: ٢٤/١٩١، ١٩٢.

(٣) الطبري: ٢٤/١٩٢. (٤) الطبري: ٢٤/١٩٣.

(٥) الطبري: ٢٤/١٩٣، والبغوي: ٤/٤٤٣.

(٦) الطبري: ٢٤/١٩٥. (٧) الطبري: ٢٤/١٩٥.

(٨) القرطبي: ١٩/١٩٨. (٩) الطبري: ٢٤/١٩٨.

(١٠) الطبري: ٢٤/١٩٨.

(١١) الطبري: ٢٤/١٩٨، والدر المنثور: ٨/٤٠٨.

ولكن إنا دحيث بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا﴾ أي قررهما وأثبتهما وأكدهما في أماكنهما وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم. وقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكَ وَلِأَنفِكَ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها ونهارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعًا لخلقها ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ يوم يندكر الإنسان ما سعى^(٣٢) وبرزت الجحيم لمن يرى^(٣٣) فأما من طعن^(٣٤) وآثر الحياة الدنيا^(٣٥) فإن الجحيم هي المأوى^(٣٦) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى^(٣٧) فإن الجنة هي المأوى^(٣٨) يشولوك عن الساعة إيانا مرسها^(٣٩) فيم أنت من ذكركها^(٤٠) إلى ربك منهنها^(٤١) إنما أنت سئير من يحسنها^(٤٢) كأنهم يوم رزواها لم يلبسوا إلا عيشة أو صحتها^(٤٣)

[يوم القيامة وما فيها من النعيم

والجحيم وأن وقتها غير معلوم]

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس^(٥) سُميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل، مقطع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾، يوم يندكر الإنسان ما سعى^(٦) أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره، وشره كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ وبرزت الجحيم لمن يرى^(٧) أي: أظهرت للنظرين، فرأها الناس عيانًا فأما من طعن^(٨) أي: تمرد وعتا وآثر الحياة الدنيا^(٩) أي: قدما على أمر دينه وأخراه ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله عز وجل وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها ووردها إلى

على صدق ما جاء به من عند الله ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أي: يكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر بالله فلم يفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذْبَرْنَاهُ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿فَفَتَحْنَا قَائِدَهُ﴾ أي في قومه ﴿فَقَالَ تَارَكُمْ الْآخِلَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ بَيْنَ يَدَيْ غَيْرِي﴾ بأربعين سنة^(١٠) قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذُكِّرُوا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي انتقم الله منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالًا لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ أَرْقَدًا أَلْفَرُودًا﴾ كما نال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعَبُونَ إِلَى الْكَافِرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لمن يتعظ وينتزع.

﴿يَأْتِيكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْفَهًا﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا^(١١) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا^(١٢) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا^(١٣) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا^(١٤) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا^(١٥) سَمَّا لَكَ وَلِأَنفِكَ^(١٦)

[خلق السماوات والأرض أشد من إعادة الخلق]

يقول تعالى محتجًا على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بده: ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يَأْتِيكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْفَهًا﴾ يعني: بل السماء أشد خلقًا منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَتَيْتِسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿بَشَاهَا﴾ فسر به بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمًا أسود حالكا ونهارها مضيئًا مشرقًا نيرًا واضحا. قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه^(١٧)، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة^(١٨) وجماعة كثيرون ﴿وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا﴾ أي أثار نهارها. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسر به بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وقد تقدم في سورة (حم) السجدة أن الأرض خلقت قبل خلق السماء

(١) القرطبي: ٢٠٢/١٩. (٢) الطبري: ٢٤/٢٠٦.

(٣) الطبري: ٢٤/٢٠٧، والدر المنثور: ٨/٤١١.

(٤) الطبري: ٢٤/٢٠٨. (٥) الطبري: ٢٤/٢١١.

فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلج عليه، وود النبي ﷺ أن لو كفَّ ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته. وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: ﴿عَسَىٰ وَنُوَّلَ ۖ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِنُجَّةٍ ۖ الْأَخْمَنِ ۖ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْكَبُ ۖ﴾ (٢) أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۖ﴾ (٣) أي يحصل له اتعاظ [وانزجار] عن المحارم ﴿وَأَمَّا مَنْ أَسَفَنِيَ ۖ﴾ (٤) فأتته له صدقته ﴿أَيُّ مَا أَنْتَ بِمُطَالِبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ زَكَاةٌ ۖ﴾ (٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ وَهُوَ يَخْفَىٰ ۖ﴾ (٦) أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له: ﴿فَأْتَتْهُ لَحَىٰ ۖ﴾ (٧) أي تتشاغل، ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقر والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَسَىٰ وَنُوَّلَ﴾ (١) في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: «أترى بما أقول بأشأ؟» فيقول: لا، ففي هذا أنزلت ﴿عَسَىٰ وَنُوَّلَ﴾ (٢) وقد روى الترمذي هذا الحديث ولم يذكر فيه عن عائشة (٣). (قلت: كذلك هو في الموطأ) (٤).

[أوصاف القرآن]

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ (١) أي هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إيلاخ العلم بين شريفهم ووضيعهم وقال قتادة والسدي: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ (٢) يعني: القرآن ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ﴾ (٣) أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه. وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ﴾ (٤) مرفوعة مظهرية (٥) أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن في صحف مكرمة

طاعة مولاهما ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾ (٦) أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء، ثم قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُكَ عَنِ السَّاعَةِ ۖ أَيَّانَ مُرْسِنَا ۖ﴾ (٧) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا ۖ (٨) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا ۖ (٩) أي ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿فَنُفِّلُكَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ﴾ وقال ههنا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا ۖ﴾ (١٠) ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» (١١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ مَنْ يَتَذَكَّرْهَا ۖ﴾ (١٢) أي أنها بعثت لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْفِهِمْ أَلْبَسُوا ۖ إِلَّا عِشَّةً أَوْ صُحْحًا ۖ﴾ (١٣) أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو صُحْحٌ من يوم. وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْفِهِمْ أَلْبَسُوا ۖ إِلَّا عِشَّةً أَوْ صُحْحًا ۖ﴾ (١٤) أما عشية فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أَوْ صُحْحًا ۖ﴾ (١٥) ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار (١٦). وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة. آخر تفسير سورة النازعات، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَسَىٰ وَنُوَّلَ ۖ﴾ (١) ﴿أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِنُجَّةٍ ۖ﴾ (٢) ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْكَبُ ۖ﴾ (٣) ﴿يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۖ﴾ (٤) ﴿أَمْ مَنْ أَسَفَنِيَ ۖ﴾ (٥) ﴿فَأَتَتْهُ لَحَىٰ ۖ﴾ (٦) ﴿وَمَا يَدْرِيكَ ۖ﴾ (٧) ﴿وَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ﴾ (٨) ﴿وَهُوَ يَخْفَىٰ ۖ﴾ (٩) ﴿فَأَتَتْهُ لَحَىٰ ۖ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ (١١) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ﴾ (١٢) ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۖ﴾ (١٤) ﴿رَأَيْتُ سَفَرَهُ ۖ﴾ (١٥) ﴿كَرَامَ بَرَدَهُ ۖ﴾ (١٦)

[عتاب النبي ﷺ على عبوسه في وجهه]

رجل ضعيف: ابن أم مكتوم]

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش قد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذا أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديماً،

(١) فتح الباري: ١/١٤٠. (٢) الدر المنثور: ٨/٤١٣.

(٣) الطبري: ٢٤/٢١٧. (٤) تحفة الأحوذ: ٩/٢٥٠.

(٥) الموطأ: ١/٢٠٣.

فأقبره أي جعله ذا قبر، والعرب تقول: قبرت الرجل إذا ولى ذلك منه، وأقبره الله، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله وبترت ذنب البعير وأبتره الله، وطردت عني فلاناً وأطرده الله، أي جعله طريداً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَنْتَرَهُ﴾ (١٢) أي بعثه بعد موته ومنه يقال البعث والنشور ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (١٣)، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى آلِطَارٍ كَيْفَ تُبْشِرُهُمْ أَنْ تَكْسُوهُمُ أَحْصَاً﴾ في الصحيحين من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْشُرُ إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يَرْكَبُ» (١٤).

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَنَأْيِسُّنَّ مَا آمَرُهُ﴾ (١٥) قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه كلاً ليس الأمر، كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله ﴿لَنَأْيِسُّنَّ مَا آمَرُهُ﴾ (١٦) يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل والذي يقع لي في معنى ذلك، والله أعلم، أن المعنى ﴿ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَنْتَرَهُ﴾ (١٧) أي بعثه ﴿كَلَّا لَنَأْيِسُّنَّ مَا آمَرُهُ﴾ (١٨) أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن يسجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا فإذا تنهى ذلك عند الله، أنشر الله الخلاق وأعادهم كما بدأهم.

[إنبيات الحب وغيره دليل على الحياة بعد الممات]

وقوله تعالى: ﴿فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٩) فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً ﴿أَنَا صَبَبْنَا

أي معظمة موقرة ﴿تَرْفَعُهُ﴾ أي عالية القدر ﴿مُطَهَّرَةً﴾ (٢٠) أي من الدنس والزيادة والنقص. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِي سَفَرُهُ﴾ (٢١) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد: هي الملائكة (٢٢).

وقال البخاري: ﴿سَفَرُهُ﴾ (٢٣): الملائكة، سفرت: أصلحت بينهم وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم (٢٤). وقوله تعالى: ﴿كَرِيمٌ يَرْزُقُ﴾ (٢٥) أي خلقهم، كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ نَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاكٍ، لَهُ أَجْرَانِ» (٢٦) أخرجه الجماعة (٢٧).

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٢٨) مِنْ أَيِّ قَوْمٍ خَلَقَهُ. (٢٩) مِنْ طَعْمِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ. (٣٠) ثُمَّ السَّيْلُ يَسْرُهُ. (٣١) ثُمَّ مَا لَهُ فَأَقْبَرَهُ. (٣٢) ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَنْتَرَهُ. (٣٣) كَلَّا لَنَأْيِسُّنَّ مَا آمَرُهُ. (٣٤) فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ. (٣٥) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. (٣٦) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. (٣٧) فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا. (٣٨) وَصَبَّاءُ وَصَبَّاءُ. (٣٩) وَزَيَّنَّا وَمَخَلَّأْنَا. (٤٠) وَحَدَّائِقُ عَلَيَّا. (٤١) وَفَكَّهُةٌ وَأَنَا مَنَعَا لَكُمْ وَلَآتِيكُمْ. (٤٢)

[الرد على من أنكر الحياة بعد الممات]

يقول تعالى ذاكاً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٤٣) قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ﴾ لعن الإنسان (٤٤). وكذا قال أبو مالك: وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم، قال ابن جريج ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٤٥) أي ما أشد كفره، وقال قتادة: ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٤٦) ما ألغنه (٤٧)، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (٤٨) مِنْ طَعْمِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ. (٤٩) أي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ثُمَّ السَّيْلُ يَسْرُهُ﴾ (٥٠) قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه (٥١)، وكذا قال عكرمة والضحاك وأبو صالح وقاتدة والسدي واختاره ابن جرير (٥٢) وقال مجاهد: هذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّيْلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ (٥٣) أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه عمله، وكذا قال الحسن وابن زيد (٥٤)، وهذا هو الأرجح والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا لَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (٥٥) أي أنه بعد خلقه له أماته

(١) الطبري: ٢٤/٢٢١، والدر المنثور: ٨/٤١٨.

(٢) فتح الباري: ٨/٥٦١. (٣) أحمد: ٦/٤٨.

(٤) فتح الباري: ٨/٥٦٠، ومسلم: ١/٥٤٩، وأبو داود:

٢/١٤٨، وتحفة الأحوذى: ٨/٢١٥، والنسائي في الكبرى:

٦/٥٠٦، وابن ماجه: ٢/١٢٤٢.

(٥) القرطبي: ١٩/٢١٧. (٦) البغوي: ٤/٤٤٨.

(٧) الطبري: ٢٤/٢٢٣.

(٨) الدر المنثور: ٨/٤١٩، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٩) الطبري: ٢٤/٢٢٤.

(١٠) فتح الباري: ٨/٤١٤، ومسلم: ٤/٢٢٧٠.

(١١) الطبري: ٢٤/٢٢٥.

[يوم القيامة وفرار الناس فيها من أقاربهم]

قال ابن عباس: الصاخة: اسم من أساء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده^(٨)، قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور^(٩) وقال البغوي: الصاخة: يعني صيحة يوم القيامة، سُميت بذلك؛ لأنها تصخ الأسباع أي تبالغ في إسباعها حتى تكاد تصمها^(١٠) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾^(١١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ^(١٢) أي يراهم ويفر منهم؛ ويتعد منهم؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل. وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طُلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلاق يقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتها^(١١). ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ﴾^(١٢) قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(١٣) أي هو في شغل شاغل عن غيره. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةٍ غُرُلًا» قال: فقالت زوجته يا رسول الله: ننظر - أو يرى - بعضنا عورة بعض؟ قال: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» - أو قال: «ما أَشْغَلَهُ عَنِ النَّظَرِ»^(١٢).

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا» فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «بِئْسَ فَلَانَةٌ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح^(١٣).

[وجوه أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ﴾^(١٤) مُسْفَرَةٌ: مُسْبِيحَةٌ^(١٥) أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستبشرة

أَلَمَّا صَا^(١٥) أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا﴾^(١٦) أي أسكنناه فيها فدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا﴾^(١٧) وَعَبَا وَفَصًّا^(١٨) فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والضب هو الفصصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القت أيضًا، قال ذلك ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي^(١٩)، وقال الحسن البصري: القضب: العلف ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف وهو آدم وعصيره آدم ويستصبح به ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾^(٢٠) يُؤْكَل بِلَحًا وَبَسْرًا وَرَطْبًا وَغَمْرًا وَنَيْسًا وَمَطْبُوحًا ويعتصر منه رب وخل ﴿وَصَدَائِقُ غُلَابٍ﴾^(٢١) أي بساتين، قال الحسن وقتادة: ﴿غُلَابٍ﴾^(٢٢) نخل غلاظ كرام^(٢٣). وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التفت واجتمع^(٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَنَكِئُهُ وَأَبَّا﴾^(٢٥) أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كل ما أكل رطبًا، والأب: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس^(٢٦)، وفي رواية عنه: هو الخشيش للبهائم^(٢٧).

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَنَكِئُهُ وَأَبَّا﴾^(٢٥) فقال: أي ساء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(٢٦) فأما ما رواه ابن جرير عن أنس قال: قرأ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ﴿عَسَى وَتَوَكَّلْ﴾^(٢٧) فلما أتى على هذه الآية ﴿وَنَكِئُهُ وَأَبَّا﴾^(٢٨) قال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف^(٢٩). فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض؛ لقوله: ﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا﴾^(٣٠) وَعَبَا وَفَصًّا^(٣١) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا^(٣٢) وَصَدَائِقُ غُلَابٍ^(٣٣) وَنَكِئُهُ وَأَبَّا^(٣٤) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَكُمْ أَشْجَارٌ كُنُوزٌ﴾^(٣٥) أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿فَلَا صَدَبَ أَنْشَدَهُ﴾^(٣٦) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ^(٣٧) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ^(٣٨) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ^(٣٩) مُسْبِيحَةٌ^(٤٠) وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ^(٤١)

(١) الطبري: ٢٤/٢٢٦.

(٢) الطبري: ٢٤/٢٢٨ و٤٢١. (٣) الطبري: ٢٤/٢٢٧.

(٤) الطبري: ٢٤/٢٣٠، ٢٣١. (٥) الدر المنثور: ٨/٤٢١.

(٦) البغوي: ٤/٤٤٩. (٧) الطبري: ٢٤/٢٢٩.

(٨) الطبري: ٢٤/٢٣٢. (٩) الطبري: ٢٤/٢٣١.

(١٠) الطبري: ٢٤/٤٤٩. (١١) مسلم: ١/١٨٢.

(١٢) الحاكم: ٢/٢٥١. (١٣) تحفة الأحوذني: ٩/٢٥١.

[انكدار النجوم]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝١﴾ أي انثرت كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢﴾ وأصل الانكدار: الانصباب. قال الريح بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينها الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففرغت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والحوش فاجأوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٣﴾ واختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ قال: أهلها أهلها ﴿وَإِذَا الْيَبَابُ سُحِرَتْ ۝٥﴾ قال: قالت الجن نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتهم. رواه ابن جرير ^(٨) وهذا لفظه.

[تسيير الجبال، وتعطيل العشار وحشر الوحوش]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٦﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل ^(٩)، قال مجاهد: ﴿عُطِّلَتْ ۝٤﴾ تركت وسييت ^(١٠). وقال أبي بن كعب والضحاك: أهلها أهلها ^(١١)، وقال الريح بن خثيم: لم تحلب ولم تصر تحلب منها أربابها ^(١٢). وقال الضحاك: تركت لاراعي لها ^(١٣) والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشار ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا

﴿مُتَبَشِّرَةٌ ۝٧﴾ أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم وهؤلاء هم أهل الجنة ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا صِرَافٌ ۝٨﴾ تَرْفَعُا قَتَرٌ ۝٩﴾ أي يعلوها ويغشاها قتر أي سواد وقال ابن عباس: ﴿تَرْفَعُا قَتَرٌ ۝٩﴾ أي يغشاها سواد الوجوه ^(١١) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۝١٢﴾ أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا ۝١٣﴾.

آخر تفسير سورة عبس والله الحمد والمنة.

تفسير سورة التكويد

وهي مكية

[ما ورد في هذه السورة]

روى الإمام أحمد عن ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنِي فَلْيَقْرَأْ: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝٢﴾ و﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٣﴾ وهكذا رواه الترمذي ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ وَإِذَا الْيَبَابُ سُحِرَتْ ۝٦﴾ وَإِذَا الثُّغُورُ صُجِّتْ ۝٧﴾ وَإِذَا الْمَوَدَّةُ خُلِّتْ ۝٨﴾ أَي دَبُّ قُلَيْتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْخُفُوفُ نُثِرَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ۝١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِثَتْ ۝١٣﴾ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

[ما يقع يوم القيامة، وهو تكوير الشمس]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ يعني: أظلمت ^(٤). وقال العوفي عنه: ذهب. وقال قتادة: ذهب ضوءها ^(٥). وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ ۝١﴾ غورت ^(٦). وقال أبو صالح: ﴿كُوِّرَتْ ۝١﴾ ألقيت، والتكويد: جمع الشيء بمضه على بعض، ومنه تكويد العامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ ۝١﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها.

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٧) انفرد به البخاري، وهذا لفظه.

(١) الدر المنثور: ٤٢٤/٨. (٢) أحمد: ٢٧/٢.

(٣) تحفة الأحوذني: ٢٥٢/٩. (٤) الطبري: ٢٣٧/٢٤.

(٥) الطبري: ٢٣٨/٢٤. (٦) الطبري: ٢٣٨/٢٤.

(٧) فتح الباري: ٣٤٣/٦. (٨) الطبري: ٢٣٧/٢٤.

(٩) الطبري: ٢٤٠/٢٤. (١٠) الطبري: ٢٤٠/٢٤.

(١١) الطبري: ٢٤٠/٢٤. (١٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤.

(١٣) الطبري: ٢٤٠/٢٤.

أَتَى عَنِ الْغَيْلَةِ فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَقَارِسَ، فَلَإِذَا هُمْ يُبْعِلُونَ
أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَقْصُرُ أَوْلَادُهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا» ثم سأله عن العزل
فقال رسول الله ﷺ «ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ، وَهُوَ الْمَوَدَّةُ
سُئِلْتُ»^(٥) ورواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذي
والنسائي^(٦).

[كفارة وأد البنات]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سياك بن حرب عن
النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: «وَإِذَا
أَلْمُوءَدَةُ سُئِلَتْ»^(٨) قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله
ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية فقال
«أَعْتَقِي عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً» قال: يا رسول الله إني
صاحب إبل قال: «فَانْخُرْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً»^(٧)

[نشر الصحف]

وقوله تعالى: «وَإِذَا النُّفُوسُ شُعِرَتْ»^(١٠) قال الضحاك
أعطي كل إنسان صحيفته يمينه أو بشاله، وقال قتادة:
يا ابن آدم اعملي فيها، ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة،
فلينظر رجل ماذا يمل في صحيفته^(٨).

[كشط السماء وتسعير الجحيم وتقريب الجنة]

وقوله تعالى: «وَإِذَا النُّفُوسُ كُشِلَتْ»^(١١) قال مجاهد
اجتذبت^(٩). وقال السدي: كشفت. وقوله تعالى:
«وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ»^(١٢) قال السدي: أحميت. وقوله تعالى:
«وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ»^(١٣) قال الضحاك وأبو مالك وقتادة
والربيع بن خثيم: أي قربت إلى أهلها.

[كل أحد يعلم يوم القيامة ما أحضره]

وقوله تعالى: «عِلَّتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ»^(١٤) هذا هو الجواب
أي إذا وقعت هذه الأمور حيث تعلم كل نفس ما عملت

أرغب شيء فيها يا دهمهم من الأمر العظيم المظتع الهائل، وهو
أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها.

وقوله تعالى: «وَإِذَا النُّفُوسُ شُعِرَتْ»^(٥) أي جمعت كما قال
تعالى: «وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِمَنَاجِدِ إِلَّا أَمَّ أَتَالِكُمْ
مَا قَرَطْنَا مِنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لَيْكَ بِهِمْ يُحْشَرُونَ»^(٦) قال ابن
عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم^(١).
قال الله تعالى: «وَالطَّيْرُ مُحْشَرَةٌ» أي مجموعة.

[تسجير البحار]

وقوله تعالى: «وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ»^(٦) روى ابن جرير عن
سعيد بن المسيب قال: قال علي بن أبي طالب لرجل من اليهود: أين
جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً والبحر
المسجور «وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ»^(٦) وقد تقدم الكلام على
ذلك عند قوله تعالى: «وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ»^(٦).

[تزيوج النفوس]

وقوله تعالى: «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ»^(٧) أي جمع كل شكل
إلى نظيره كقوله تعالى: «أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» وروى
ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله
ﷺ: ««وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ»^(٧) قال: الضَّرْبَاءُ: كُلُّ رَجُلٍ مَعَ
كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:
«وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً»^(٧) فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ^(٨)
وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ^(٩) وَالشَّقِيقُونَ الشَّقِيقُونَ^(١٠) -
قال - هُمُ الضَّرْبَاءُ»^(٣).

[سؤال الموءودة]

وقوله تعالى: «وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ»^(٨) بَأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ^(٩)
هكذا قراءة الجمهور «سُئِلَتْ»^(٨). والموءودة هي التي كان
أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة
تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ليكون ذلك تهديداً
لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟ وقال علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس «وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ»^(٨) أي
سألت. وكذا قال أبو الضحى: (سألت) أي طالبت
بدمها^(٤). وعن السدي وقتادة مثله.

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة، فروى الإمام أحمد
عن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت:
حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ

(١) القرطبي: ٢٢٩/١٩. (٢) الطبري: ٢٤٢/٢٤.

(٣) الطبري: ٢٤٥/٢٤. (٤) الطبري: ٢٤٦/٢٤.

(٥) أحمد: ٤٣٤/٦.

(٦) مسلم: ١٠٦٦/٢، ١٠٦٧، وابن ماجه: ٦٤٨/١.

وأبو داود: ٢١١/٣، وتحفة الأحوذى: ٢٤٩/٦، والنسائي

في الكبرى: ١٠٦/٦.

(٧) عبد الرزاق: ٣٠١/٣. (٨) الطبري: ٢٤٩/٢٤.

(٩) الطبري: ٢٤٩/٢٤.

طلع. وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل (٨).

[القرآن نزل به جبريل وليس من نتيجة الجنون]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١١) يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف، حسن الخلق، بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران والحسن وقاتدة والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم (٩) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُو مِرَّةٍ أي شديد الخلق، شديد البطش والفعل ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٦) أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أي في السماوات يعني: ليس هو من أفئدة الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٌ﴾ (١١) صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدًا أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْنُنُ﴾ (١٢) قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح ومن تقدم ذكرهم المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْنُنُ﴾ (١٢) يعني: محمدًا ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ (١٣) يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ (١٤) أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) كما تقدم تفسير ذلك وتقريره، والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا

وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخْتَصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ مَوْدُودًا لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُوا إِلَافَتَنِي يَوْمَ يُصَادُّهَا قَوْمُ لُحْمٍ﴾ (١٣).

﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٦) وَأَتْلَى إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالضُّجُجُ إِذَا نَفَسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ مُبْتَلٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٢٥) قَالَتْ تَذَرُونِ أَتَنْتَحُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَوِي (٢٨) وَمَا شَاءَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

[تفسير الخنس والكنس]

روى مسلم في صحيحه والنسائي في تفسيره عند هذه الآية عن عمرو بن حريث قال: صليت خلف النبي ﷺ البصر فسمعتهم يقرأ ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٦) وَأَتْلَى إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالضُّجُجُ إِذَا نَفَسَ (١٨) (١). وروى ابن جرير عن [خالد] بن عرعة، سمعت عليًا وسئل عن ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٦) فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلَى إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبيرة: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس (٣)، وكذا قال عطية العوفي (٤) وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) إذا أدير (٥)، وكذا قال مجاهد وقاتدة والضحاك (٦) وكذا قال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) أي إذا ذهب فتولى (٧).

وعندي أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضًا لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياؤه إذا أشرق كما قال تعالى: ﴿وَأَتْلَى إِذَا بَتْنَ﴾ (١) وَالْجَوَارِ إِذَا تَحَلَّى (٢) وقال تعالى: ﴿وَالضُّجُجُ﴾ (٣) وَأَتْلَى إِذَا سَجَى (٤) وقال تعالى: ﴿قَالُوا لِلْأَعْصَجِ جَعَلَتِ آيَتُكَ سَكَنًا﴾ وغير ذلك من الآيات، وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة (عسس) تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالضُّجُجُ إِذَا نَفَسَ﴾ (١٨) قال الضحاك: إذا

(١) مسلم: ١/٣٣٦، والنسائي في الكبرى: ٥٠٧/٦.

(٢) الطبري: ٢٥١/٢٤. (٣) الطبري: ٢٥٦/٢٤.

(٤) الطبري: ٢٥٦/٢٤. (٥) الطبري: ٢٥٥/٢٤.

(٦) الطبري: ٢٥٦/٢٤. (٧) الطبري: ٢٥٦/٢٤.

(٨) الطبري: ٢٥٨/٢٤.

(٩) القرطبي: ٢٤٠/١٩، والدر المنثور: ٤٣٣/٨.

(١٠) الطبري: ٢٥٩/٢٤، والدر المنثور: ٤٣٤/٨.

على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم
بالمعاد والجزاء والحساب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰكُمْ لِحُظُنِّ
﴿١٠﴾ كِرَامًا كَذِبِينَ﴾ ﴿١١﴾ يَتَأْمُونَ مَا تُنَادُونَ ﴿١٢﴾﴾ يعني: وإن عليكم
للملائكة حفظة كرامًا، فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون
عليكم جميع أعمالكم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ وَلِلْفُجَّارِ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ
الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا
وَالْأَمْرُ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

[جزاء الأبرار والفجار]

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين
أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصي. ثم ذكر ما يصير
إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال: ﴿يَصَلُّونَهَا
يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ ﴿١٥﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا
بِغَائِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا
يخفف عنهم من عذابها ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت
أو الراحة ولو يومًا واحدًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الَّذِينَ﴾ ﴿١٧﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكد بقوله تعالى:
﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْيَوْمِ﴾ ﴿١٨﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ
نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه
مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ونذكر هنا
حديث: «يَا بَنِي هَاشِمٍ اتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» ^(١) وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء ولهذا
قال: ﴿وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾ ﴿١٩﴾ وكقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
وَكَقوله: ﴿تَبٰرَكَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ ﴿٢٠﴾ قال قتادة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ
لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾ ﴿٢١﴾ والأمر - والله - اليوم لله،
ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد. آخر تفسير سورة الانفطار،
والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

﴿وَأَن لَّفُورٌ بَعُورٌ﴾ ﴿٢٢﴾ قال ابن عباس: بحث ^(١). وقال
السدي: تبعثر: تحرك فيخرج من فيها ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ﴾ ﴿٢٣﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا.

[لا ينبغي للإنسان أن ينسى الله]

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَوْبِرَ﴾ ﴿٢٤﴾ هذا
تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب
حيث قال الكريم: حتى يقول قائلهم: غره كرمه، بل المعنى
في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم
حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق. كما جاء في
الحديث: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا غَرَكَ بِي
يَا ابْنَ آدَمَ مَاذَا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟» ^(٢).

وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنها قالوا: نزلت هذه
الآية في الأسود بن شريق ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة
الراهة فأنزل الله تعالى: ﴿مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَوْبِرَ﴾ ﴿٢٤﴾
وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي ما غرك
بالرب الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي جعلك
سويًا مستقيمًا، معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات
والأشكال. روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي
أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه، ثم
قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ
مِثْلِي هَذِهِ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَسَّيْتَ بَيْنَ بُرْدَتَيْنِ،
وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي
قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنْتَى أَوَّلُ الصَّدَقَةِ؟» ^(٣) وكذا رواه ابن
ماجه ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ﴿٢٦﴾ قال مجاهد: في
أي شبه أب أو أم أو خال أو عم ^(٥). وفي الصحيحين عن
أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن امرأتي ولدت
غلامًا أسود، قال: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا
أَلَوْنَهَا؟» قال: حر، قال: «فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزُقٍ؟» قال: نعم، قال:
«فَأَنَّى آتَاهَا ذَلِكَ؟» قال: عسى أن يكون نزع عرق. قال:
«وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُ عِرْقٍ» ^(٦).

[سبب الغرور، والتنبية على]

تسجيل الملائكة لأعمال بني آدم]

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي إنما يحملكُم

(١) الطبري: ٢٤/٢٦٧. (٢) تحفة الأشراف: ٧/٧٠.

(٣) البغوي: ٤/٤٥٥. (٤) الطبري: ٢٤/٢١٠.

(٥) ابن ماجة: ٢/٩٠٣. (٦) الطبري: ٢٤/٢٧٠.

(٧) فتح الباري: ٩/٣٥١، ومسلم: ٢/١١٣٧.

(٨) مسلم: ١/١٩٣.

موقف صعب حرج ضيق ضحك على المجرم وبغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رُشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذْنِهِ» رواه البخاري من حديث مالك وعبد الله ابن عون كلاهما عن نافع به^(٢). ورواه مسلم من الطريقين أيضًا^(٣).

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن المقداد يعني ابن الأسود الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْنِبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرًا مِيلًا أَوْ مِيلَيْنِ - قَالَ - فَتَضَرُّهُمْ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدَرِ أَغْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِئُهُ إِلَى الْجَمَامَةِ» رواه مسلم والترمذي^(٤).

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة^(٥). وعن ابن مسعود يقومون أربعين سنة، رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا يكلمهم أحد قد أطمع العرق برهم وفاجرهم^(٦). وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة رواها ابن جرير^(٧). وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل: يكبر عشرا ويحمد عشرا، ويسبح عشرا، ويستغفر عشرا ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة^(٨).

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

الزيادة والنقصان في المكيال

والميزان سبب للويل والخسران

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبب الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ» (١) فحسبوا الكيل بعد ذلك (١). والمراد بالتطفيف ههنا: البخس في المكيال والميزان؛ إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى: «الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ» (٢) أي من الناس «يَسْتَوْفُونَ» (٣) أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» (٤) أي ينقصون، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعديا ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر في قوله: كالوا ووزنوا ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وقد أمر الله تعالى بالفناء في الكيل والميزان فقال تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَلِلسْتَعِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (٥) وقال تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفَّ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا» وقال تعالى: «وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» (٦) وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس في الميزان والمكيال.

[تخويف المطففين من القيامة بين يدي رب العالمين]

ثم قال تعالى متوعدا لهم: «أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» (٥) أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه؛ أدخل نارا حامية، وقوله تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٦) أي يقومون حفاة عراة غرلا في

(١) النسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦، وابن ماجه: ٧٤٨/٢.

(٢) فتح الباري: ٥٦٥/٨.

(٣) مسلم: ٢١٩٥/٤، ٢١٩٦.

(٤) أحمد: ٣/٦، ومسلم: ٢٨٦٤، وتحفة الأحوذى: ٨٩/٧.

(٥) أبو داود: ٤٨٧/١. (٦) الطبري: ٢٤٨١/٢٤.

(٧) الطبري: ٢٨٠/٢٤.

(٨) أبو داود: ٤٨٦/١، والنسائي: ٢٩٩/٣، وابن ماجه:

عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ حُجُّوا ١٥ ثُمَّ يَأْتُهُمُ لَصَافُوا الْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكَذِّبُونَ ١٧

[كتاب الفجار وبعض أحوالهم]

يقول تعالى حقاً ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِتْرَيْنِ﴾ (٧) أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فعيل من السجن وهو الضيق، كما يقال: فسق وشريب وخير وسكير ونحو ذلك، ولهذا عظم أمره، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَحْبِبُونَ﴾ (٨) أي هو أمر عظيم وسجن مقيم، وعذاب أليم، ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل: يقول الله عز وجل في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين، وسجين هي تحت الأرض السابعة (١). ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقال ههنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِتْرَيْنِ﴾ (٧) وَمَا أَذْرَكَ مَا يَحْبِبُونَ (٨) وهو يجمع الضيق والسفل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْفَاظُهَا مَكَانًا ضَبَقْنَا مَقَرِّينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٢).

وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْثُومٌ﴾ (٩) ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَحْبِبُونَ﴾ (٨) وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم، مكتوب، مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد. قاله محمد بن كعب القرظي (٢) ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَوْمَئِذٍ لَمَكِيدِينَ﴾ (١٠) أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهيئ، وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿قَوْلٌ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ وَأَنْ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ: الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ كَمَا يُقَالُ: وَبِلَ لِفَلَانٍ، وَكَمَا جَاءَ فِي الْمُسْتَدِّ وَالسَّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ هِزْزِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ، وَيَلٌ لَهْ وَيَلٌ لَهْ» (٣) ثم قال تعالى مفسراً للمكدين الفجار الكفرة: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١١) أي لا يصدقون بوقوعه ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَذِرٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢) أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ إِذْ بَنَوا أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن

السوء فيعتقد أنه مفتعل، مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَكُوعًا قَالُوا أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٤) وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِمْ كُفْرًا وَأَصِيلًا﴾ (٥) قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥) أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥).

والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقرين، وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْثَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، إِنْ تَابَ مِنْهَا ضُفِّلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ رَادَّ رَادَّتْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا يَأْتُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ حُجُّوا﴾ (١٦) أي لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتُهُمْ لَصَافُوا الْجَحِيمِ﴾ (١٦) أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧) أي يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٨) وَمَا أَذْرَكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْثُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَارِكِ يُنْظَرُونَ (٢٣) تَرَوْنَ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النُّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِمْمُهُمْ مِسْكَ فِي ذَلِكَ قَلِيلًا فَيَسْتَنَفِيسُونَ (٢٦) وَمَرْجَاهُهُمْ فِي سَلَامٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

(١) الطوال للطبراني: ٢٣٨. (٢) الدر المنثور: ٤٤٤/٨.

(٣) النسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦.

(٤) الطبري: ٢٨٧/٢٤، وتحفة الأحوذى: ٢٥٣/٩، والنسائي

في الكبرى: ٥٠٩/٦، وابن ماجه: ١٤١٨/٢.

[كتاب الأبرار وجزاؤهم]

يقول تعالى: **حَقًّا ۖ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ۝** وهم بخلاف
الفجار **لَقِيَ عَلَيْهِ ۝** أي مصيرهم إلى عليين وهو
خلاف سجين. عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس
كعباً وأنا حاضر عن سجين قال: هي الأرض السابعة وفيها
أرواح الكفار، وسأله عن عليين، فقال: هي السماء السابعة
وفيها أرواح المؤمنين^(١)، وهكذا قال غير واحد: إنها السماء
السابعة^(٢). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله:
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَقِيَ عَلَيْهِ ۝ يعني: الجنة^(٣). وقال
غيره: عليون: عند سدرة المنتهى^(٤)، والظاهر أن عليين
مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عَظُمَ واتسع،
ولهذا قال تعالى معظماً أمره، ومفخماً شأنه **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ**
۝ ثم قال تعالى: **مُوكَّدًا** لما كتب لهم **كِتَابَ تَرْوِمٍ ۝**
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝ وهم الملائكة قاله قتادة^(٥). وقال العوفي
عن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها^(٦).

ثم قال تعالى: **لَإِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝** أي يوم القيامة هم
في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عظيم **عَلَى الْأَرْيَافِ ۝** وهي
السُرر تحت الحجال **يَنْظُرُونَ ۝** قيل: معناه: ينظرون في
ملكهم وما أعطوهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي
ولا يبس، وقيل: معناه: **عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ۝** إلى الله
عز وجل، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار **كَلَّا إِنَّهُمْ**
عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ۝ فذكر عن هؤلاء أنهم يبأحون
النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم. وقوله
تعالى: **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝** أي تعرف إذا
نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترافة
والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم
العظيم.

وقوله تعالى: **يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝** أي يسقون
من خمر من الجنة، والرحيق من أساء الخمر، قاله ابن مسعود
وابن عباس ومجاهد والحسن وقاتدة وابن زيد^(٧). روى
الإمام أحمد عن سعيد الخدري أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ
قال: **«أَيْسًا مُؤْمِنٌ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةَ مَاءٍ عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ**
تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ، وَأَيْسًا مُؤْمِنٌ أَطْعَمَ
مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَأَيْسًا مُؤْمِنٌ كَسَا
مُؤْمِنًا عَلَى عُرْيٍ، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضِرِ الْجَنَّةِ»^(٨) وقال ابن

مسعود في قوله: **يُخْتَمَةُ مِسْكَ ۝** أي: خلطه مسك^(٩)، وقال
العوفي عن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل
فيها مسك ختم بمسك^(١٠). وكذا قال قتادة والضحاك^(١١).

وقوله تعالى: **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَبِّسُونَ ۝** أي وفي
مثل هذا الحال فليتنافس المتنافسون وليتباهى ويكاثر
ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله تعالى: **لِيُثْلِقَ هَذَا فَيُعْمَلِ**
الْعَمَلُونَ ۝ وقوله تعالى: **وَمَرَجُهُمْ يُتَنَبِّسُ ۝** أي
ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي: من شراب
يقال له: تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، قاله
أبو صالح والضحاك^(١٢). ولهذا قال: **عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا**
الْمُقَرَّبُونَ ۝ أي: يشربها المقربون صرناً وتسرجه
لأصحاب اليمين مزجاً، قاله ابن مسعود وابن عباس
ومسروق وقاتدة وغيرهم^(١٣).

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وإذا
مروا بهم يتغامزون **۝** وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين **۝**
وإذا رآوهم قالوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۝ وما أرسلنا
عليهم خفيظين **۝** قالوا الذين آمنوا من الكفار يضحكون **۝**
عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ۝ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون **۝**

[إساءة المجرمين واستهزاءهم بالمؤمنين]

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا
يضحكون من المؤمنين، أي يستهزؤون بهم ويحتقرونهم،
وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي يحقرين لهم **وإذا**
انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ۝ أي وإذا انقلب أي رجع
هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي مهينين
طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم بل
اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم **وإذا رآوهم**
قالوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۝ أي: لكونهم على غير دينهم.

- | | |
|---------------------------|----------------------|
| (١) الطبري: ٢٤/٢٩١. | (٢) الطبري: ٢٤/٢٩٠. |
| (٣) الطبري: ٢٤/٢٩٢. | (٤) الطبري: ٢٤/٢٩٢. |
| (٥) الطبري: ٢٤/٢٩٤. | (٦) الطبري: ٢٤/٢٩٤. |
| (٧) الطبري: ٢٤/٢٩٦. | (٨) أحمد: ٣/١٣. |
| (٩) الطبري: ٢٤/٢٩٧. | (١٠) الطبري: ٢٤/٢٩٧. |
| (١١) الطبري: ٢٤/٢٩٨، ٢٩٧. | (١٢) الطبري: ٢٤/٣٠١. |
| (١٣) الطبري: ٢٤/٣٠١، ٣٠٠. | |

[انشقاق السماء وتمديد الأرض يوم القيامة]

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿وَأُوتِيَتْ لَهَا﴾ أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيها أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿وَحُفَّتْ ۖ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم، قاله مجاهد وسعيد وقتادة: ﴿وَأُوتِيَتْ لَهَا وَحُفَّتْ ۖ﴾ (٣) كما تقدم.

[جزاء الأعمال حق]

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملًا ﴿فَمُلَاقِيهِ ۖ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر. ويشهد لذلك ما رواه أبو داود الطيالسي عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ جَبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مِيتٌ، وَأَحِبِّ [مَنْ] شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ» (٤) ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿رَبِّكَ﴾ أي فملاقى ربك، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلما القولين متلازم. قال العوفي عن ابن عباس ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا﴾ يقول: تعمل عملًا تلقى الله به خيرًا كان أو شرًا (٥).

[العرض والمناقشة في الحساب]

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَهُ، يَسْمِعُهُ ۖ﴾ فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا (٨) أي: سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَقَّضَ الْحِسَابَ عَذَّبَ» قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ﴾ قال: «الْيَسَّ ذَٰلِكَ بِالْحِسَابِ، وَلَكِنْ ذَٰلِكَ الْعَرَضُ، مَنْ تَوَقَّضَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ» (٩)

(١) مسلم: ٤٠٦/١، والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦.

(٢) فتح الباري: ٢٩٢/١. (٣) الطبري: ٣١٠/٢٤.

(٤) مسند الطيالسي: ٢٤٢. (٥) الطبري: ٣١٢/٢٤.

(٦) أحمد: ٤٧/٦.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۖ﴾ أي: وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟ كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَخَشُّوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۖ﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَلِرَحْمَتِنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٨﴾ فَاتَّخَذْتُمُوسَىٰ سَخِرَآ حَتَّىٰ أَسْوَأَكُمْ يَذْكُرُونَ وَكَشَرُوهُنَّ مَضْجَعَهُنَّ ﴿١٩﴾ إِلَىٰ جَزَائِهِنَّ يَوْمَ صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكَافِرَاتِ بِصَحْوَةٍ ۖ﴾ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَىٰ الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ۖ﴾ أي: إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَافِرَاتُ مَا كَانُوا يَقُولُونَ ۖ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصيص أم لا، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله. آخر تفسير سورة المطففين، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة [الانشقاق]

وهي مكية

[سجدة التلاوة في سورة الانشقاق]

عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها، رواه مسلم والنسائي من طريق مالك (١). وروى البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتبة فقرا ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ فسجد، فقلت له: فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ وَأُوتِيَتْ لَهَا وَحُفَّتْ ۖ ﴿١﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ ﴿٢﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ ﴿٣﴾ وَأُوتِيَتْ لَهَا وَحُفَّتْ ۖ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمُلَاقِيهِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَهُ، يَسْمِعُهُ ۖ ﴿٦﴾ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٧﴾ وَيُقَلِّبُ إِلَيْكَ أَهْلَهُ، مَسْرُورًا ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ وَفَىٰ كَيْفَهُ، وَرَدَّ صُفُورًا ﴿٩﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٠﴾ وَيَصْنَعُ صَعِيرًا ﴿١١﴾ كَذَّبَ كَذَّابًا أَهْلَهُ مَسْرُورًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحْجُورَ ﴿١٣﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ، كَانَ يَدَّ بَصِيرًا ﴿١٤﴾

ﷺ أنه قال: «وَقَتُّ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّقُّ»^(٨) ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقناة: «وَمَا وَسَقَ»^(٩) وما جمع^(١٠)، قال قناة: وما جمع من نجم ودابة^(١١).

وقد قال عكرمة: «وَأَيْتَلِ وَمَا وَسَقَ»^(١٢) يقول: ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه^(١٣)، وقوله تعالى: «وَالْقَمَرُ إِذَا أَتَقَى»^(١٤) قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى^(١٥). وقال الحسن: إذا اجتمع إذا امتلا^(١٦). وقال قناة: إذا استدار^(١٧) ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلًا لليل وما وسق، وقوله تعالى: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»^(١٨) روى البخاري عن مجاهد قال: قال ابن عباس «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»^(١٩) حالًا بعد حال قال هذا نيكم ﷺ، هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ^(٢٠).

وقال عكرمة «طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»^(٢١) حالًا بعد حال^(٢٢) فطبقًا بعد ما كان رضيعًا، وشيخًا بعد ما كان شابًا. وقال الحسن البصري: «طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»^(٢٣) يقول: حالًا بعد حال^(٢٤)، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقمًا بعد صحة.

[النكير على عدم إيمانهم وتبشيرهم

بالعذاب وأن النعيم للمؤمنين]

وقوله تعالى: «فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٢٥) وإذا قرئ عليهم القرآن لا يستجيبون ﷻ^(٢٦) أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما هم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو

وهكذا راه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير^(٢٧).

وقوله تعالى: «وَيَقْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا»^(٢٨) أي ويرجع إلى أهله في الجنة، قاله قناة والضحاك «مَسْرُورًا»^(٢٩) أي فرحًا مغتبطًا بما أعطاه الله عز وجل^(٣٠). وقوله تعالى: «وَأَمَّا أَنْ أَفَ كِتَبُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»^(٣١) أي بشماله من وراء ظهره تشنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك «فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا»^(٣٢) أي خسارًا وهلاكًا «وَيَصْنَعُ سَعِيرًا»^(٣٣) إنَّه كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا^(٣٤) أي: فرحًا لا يفكر في العواقب ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل «إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ»^(٣٥) أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته، قاله ابن عباس وقناة وغيرهما^(٣٦)، والخور هو الرجوع قال الله: «يَنْقُزُ الْإِنْفُكَ كَانَ يَدْعُ بَصِيرًا»^(٣٧) يعني: بلى سيعيده الله كما بداه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه كان به بصيرًا أي عليًا خيرًا.

«فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ»^(٣٨) وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ^(٣٩) وَالْقَمَرُ إِذَا أَتَقَى^(٤٠) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ^(٤١) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٤٢) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﷻ^(٤٣) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ^(٤٤) وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ^(٤٥) فَيَسِّرْهُمْ يَدْخُلُ الْإِيمَانَ^(٤٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^(٤٧)

[القسم على ركوب الإنسان حالًا بعد حال]

روي عن علي وابن عباس وعبد بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر ومحمد بن علي بن الحسين ومكحول وبكر بن عبد الله المزني ويكير بن الأشج ومالك وابن أبي ذئب وعبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون أنهم قالوا: الشفق: الحمرة^(٤٨). وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: الشفق: البياض^(٤٩)، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس كما قاله مجاهد^(٥٠)، وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل: غاب الشفق^(٥١) وقال الجوهري: الشفق: بقية ضوء الشمس وحرمتها في أول الليل إلى قريب من العتمة، وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله

(١) فتح الباري: ٥٦٦/٨، ومسلم: ٢٢٠٤/٤، وتحف الأحوذى: ٢٥٦/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦، والطبري: ٣١٣/٢٤.

(٢) الطبري: ٣١٥/٢٤. (٣) الطبري: ٣١٧/٢٤.

(٤) القرطبي: ٢٧٤/١٩. (٥) عبد الرزاق: ٣٥٨/٣.

(٦) الطبري: ٣١٨/٢٤. (٧) القرطبي: ٢٧٥/١٩.

(٨) مسلم: ٤٢٦/١. (٩) الطبري: ٣١٩/٢٤.

(١٠) الطبري: ٣٢٠/٢٤. (١١) الطبري: ٣٢١/٢٤.

(١٢) الطبري: ٣٢١/٢٤. (١٣) الطبري: ٣٢١/٢٤.

(١٤) الطبري: ٣٢٢/٢٤. (١٥) فتح الباري: ٥٦٧/٨.

(١٦) الطبري: ٣٢٣/٢٤. (١٧) الطبري: ٣٢٣/٢٤.

[تفسير اليوم الموعود وشاهد ومشهود]

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ (٢) وشاهد ومشهود (٣) روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ (٤) يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَشَاهِدٌ﴾ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَاقِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَغْطَاهُ إِثْمًا، وَلَا يَسْتَعِدُّ فِيهَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا أَعَادَهُ. ﴿وَمَشْهُودٌ﴾ (٥) يَوْمَ عَرَفَةَ (٦) وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة وقد روى موقوفًا على أبي هريرة وهو أشبه (٨).

[وعن أبي هريرة وابن عباس والحسن بن علي والحسن البصري وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة والضحاك المشهود: يوم القيامة].

قال البغوي الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة (٩).

[ظلم أصحاب الأخدود المسلمين]

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ﴾ (١) أي لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدودًا وأججوا فيه نارا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقتلهم فيها ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ﴾ (٢) النَّارِ ذَاتِ الْوُوقِ (٣) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٤) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٥) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٧) إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَا يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (٨).

(٩) أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١٠) أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجانبه، المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان في قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد وإن خفي سبب

هذا القرآن لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا؟ وقوله تعالى: ﴿يَا الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبْتُمْ﴾ (١١) أي من سجنهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُؤْعَتُونَ﴾ (١٢) قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم ﴿فَبَيَّرَهُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾ (١٣) أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابًا أليمًا.

وقوله تعالى: ﴿لَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبكم وعملوا الصالحات أي بجوارحهم ﴿هُمْ أَجْرٌ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١٤) قال ابن عباس غير منقوص (١٥). وقال مجاهد والضحاك غير محسوب (١٦) وحاصل قولها أنه غير مقطوع كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾ (١٧) وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون غير منقوص. آخر تفسير سورة الانشقاق. والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة (البروج)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٌ وَمَشْهُودٌ (٣) قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُوقِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَا يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠).

[تفسير البروج]

يقسم تعالى بالسواء وبروجها وهي النجوم العظام كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا زِيكًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١١) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة والسدي: البروج النجوم (١٢). وقال المنهال ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (١٣) الخلق الحسن (١٤)، واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلاثًا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ويستمر ليلتين (١٥).

(١) الطبري: ٣٢٧/٢٤. (٢) الطبري: ٣٢٧/٢٤.

(٣) الطبري: ٣٢٧/٢٤. (٤) القرطبي: ٢٠٠/١٩.

(٥) القرطبي: ٢٨٣/١٩. (٦) الطبري: ٣٣٢/٢٤.

(٧) الطبري: ٣٣٤، ٣٣٣/٢٤. (٨) ابن خزيمة: ١١٦/٣.

(٩) البغوي: ٤٦٦/٤.

ذلك على كثير من الناس.

دِينِكَ فَأَمِّي، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاقُهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ازْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَمِّي، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاقُهُ إِلَى الْأَرْضِ. وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ازْجِعْ عَن دِينِكَ فَأَمِّي، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَثَدًا وَكَثَدًا وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا فَذَهَبُوا بِهِ فَكَلِمًا عَلَوًا بِهِ الْجَبَلُ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِينِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ السَّجَلُ فَذَهَبُوا أَتَجَمُّعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَكَلَّمُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى السَّمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُوقٍ فَقَالَ: إِذَا لَجِجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ، وَإِلَّا فَعَرِّقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِينِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَعَرِّقُوا أَتَجَمُّعُونَ.

وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى السَّمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا أَمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجَمُّعُ النَّاسِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جَذَعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كَتَانِي، ثُمَّ قُل: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: أَمَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَبَقِيَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتُ تَحْذَرُ؟ فَقَدْ وَافَقَهُ اللَّهُ نَزَلَ بِكَ، فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السَّكَّكِ، فَخُدَّتْ فِيهَا الْأَخَادِيدُ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّارُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ فَذَهَبُوا بِهِ فَأَقْبَحُوا فِيهَا، قَالَ: فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ فِيهَا وَيَتَدَاخَمُونَ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بَابِنَ لَهَا ثُرَيْضَةٌ، فَكَأَنَهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ فَقَالَ الصَّبِيُّ: اضْبِرِّي يَا أُمًّا فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ^(١). وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح^(٢). وقد أورد محمد ابن إسحاق بن

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السماوات والأرض وما فيها وما بينهما ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السماوات والأرض ولا تخفى عليه خافية.

[قصة ساحر وراهب وغلّام ومن أدخل الأخدود]

وقد روى الإمام أحمد عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ السَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي وَخَضِرَ أَجْلِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لَعَلَّمَهُ السَّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ، وَكَانَ يَنْتَ السَّاحِرُ وَيَنْتُ الْمَلِكُ رَاهِبٌ فَأَمَّى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَتْهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ ظُعِيمَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضِي مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتَبْقَى، فَإِنْ أَبْقَيْتَ فَلَا تَدُلْ عَلَيَّ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُرِي الْأَحْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيُشْفِيهِمْ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِي فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: أَشْفِينِي وَلَكَ مَا هُنَا أَجْمَعُ، فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ.

ثُمَّ أَتَى السَّمَلِكُ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوُ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ، مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي. فَقَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُرِي الْأَحْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ؟ قَالَ: مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَمَّى بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ازْجِعْ عَن

يسار هذه القصة في السيرة بسياق آخر فيها مخالفة لما تقدم.

ثم قال ابن إسحاق بعد أن بين أن أهل نجران صاروا بعد قتل الغلام على دينه دين النصرانية: قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل، فخذ الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا،

[جزاء الصالحين والبطش الشديد]

باعداء الله الكافرين]

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِثِرُ﴾ (١٣) أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْذُوْدُ﴾ (١٤) أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان، والودود قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب (١٥) ذو القربى أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق، و ﴿الْحَكِيمُ﴾ (١٦) فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل، والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ (١٧) أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا فما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد (١٨).

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٩) فرعون ونمود ﴿أَيُّهَا لَيْسَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرْدهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ﴾ وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا أخذ عزيز مقتدر وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (٢٠) أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢١) أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢٢) أي عظيم كريم ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٢٣) أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

آخر تفسير سورة البروج، والله الحمد والمنة.

(١) ابن هشام: ١/٣٦. (٢) الطبري: ٢٤/٣٤٣، ٣٤٤.

(٣) الطبري: ٢٤/٣٤٦. (٤) القرطبي: ١٩/٢٩٧.

ففي ذي نواس وجنده أنزل الله عز وجل على رسوله ﴿قُلْ أَحْبَبَ الْأَخْدُودُ﴾ (١) أَلَا ذَاتِ الْوَقُودِ (٢) إِذْ هُرِّعَتْ قُودُ (٣) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٤) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٥) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) وهكذا ذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس واسمه زرعة، ويسمى في زمان مملكته بيوسف، وهو ابن [تبان أسعد أبي كرب] وهو تبع الذي غزا المدينة، وكسا الكعبة واستصحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان يهود من تهود من أهل اليمن على يديهما كما ذكره ابن إسحاق مبسوطًا، فقتل ذو نواس في غداة واحدة في الأخدود عشرين ألفًا ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان، ذهب فارسًا وطردوا وراءه فلم يقدروا عليه فذهب إلى قيصر ملك الشام فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فأرسل معه جيشًا من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود، وذهب ذو نواس هاربًا فلجج في البحر ففرق، واستمر ملك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنقذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه من في السجون فكانوا قريبًا من سبعائة، ففتح بهم اليمن ورجع الملك إلى حبر، وسنذكر طرْفًا من ذلك إن شاء الله في تفسير سورة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) (٢).

[جزاء أصحاب الأخدود]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي حرقوا. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبيزى (٢) ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١) وذلك أن الجزء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ لَيْسَ مَوْ وَهَلُوا أَصْلَحْتَ لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (٢) إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِثِرُ (٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْذُوْدُ (٤) ذُو الْعَرْشِ الْحَكِيمُ (٥) فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ (٦) هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (٧) فَرْعَوْنَ وَنَمُودَ (٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (١٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (١١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (١٢)

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

[فضل سورة الطارق]

وروى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبي ﷺ: «أَفَتَأْتِيَنَا مُعَاذُ مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَنَحْوِهَا؟» (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) إِنَّهُ نَزَّلَ النَّوْمَ (٣) نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ (٤) لِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ وَمِمَّا خَلَقَ (٥) خَلَقَ مِنْ مَلَأَ دَافِقِي (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابِ وَالْأَرْيَابِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَإِنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

[القسم على كون الإنسان محاطاً بنظام الله]

يقسم تبارك وتعالى بالسما والطارق وما جعل فيها من الكواكب النيرة؛ ولهذا قال تعالى: «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١)» ثم قال «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢)» ثم فسره بقوله: «إِنَّهُ نَزَّلَ النَّوْمَ (٣)» قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار (٧)، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح أنه أن يطرق الرجل أهله طروقاً أي يأتيهم فجأة بالليل. وقوله تعالى: «الْأَرْيَابِ (٢)» قال ابن عباس: المضيء (٤)، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

وقوله تعالى: «إِنْ كُنْ تَعْلَمُ لَمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ (٤)» أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات كما قال تعالى: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (٥)».

[كيفية خلق الإنسان دليل على]

قدرة الله على رجعه]

وقوله تعالى: «لِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ وَمِمَّا خَلَقَ (٥)» تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيهِ (٦)» وقوله تعالى: «خَلَقَ مِنْ مَلَأَ دَافِقِي (٦)» يعني المني يخرج دفقاً من الرجل والمرأة، فيتولد منها الولد، بإذن الله عز وجل، ولهذا قال: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابِ وَالْأَرْيَابِ (٧)» يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها. وقال شيب بن بشر

عن عكرمة عن ابن عباس «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصْلَابِ وَالْأَرْيَابِ (٧)» صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منها (٥).

وقوله تعالى: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)» إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة، وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع.

[يوم القيامة لا يكون للإنسان قدرة ولا نصرة]

ولهذا قال تعالى: «يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ (٩)» أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يَرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءً عِنْدَ اسْتِثْبَائِهِ» هذه غدره فلان بين فلان (١١) وقوله تعالى: «فَأَنذَرْتُ» أي الإنسان يوم القيامة «يَوْمَ تَبْلَى» أي في نفسه «وَلَا نَاصِرَ (١٠)» أي من خارج منه أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع له أحد ذلك.

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنِيعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ (١٤) لِمَنْ يَكْفُرُ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَيَكْبَلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا مِنْ رَبِّهَا (١٧)»

[القسم على كون القرآن حقاً وفشل مخالفيه]

قال ابن عباس: الرجع المطر (٧)، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وعنه «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١)» تَطَرُّ ثُمَّ تَطَرُّ، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام ولولا ذلك هلكوا وهلكت مواشيهم (٨)، و«وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنِيعِ (١٢)» قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات (٩). وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك والضحاك والحسن وقاتدة والسدي وغير واحد (١٠). وقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣)» قال ابن عباس: حق (١١)، وكذا قال قتادة، وقال آخر: حكم عدل «وَمَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ (١٤)» أي بل هو جد حق، ثم أخبر عن الكافرين

(١) النسائي في الكبرى: ٥١٢/٦.

(٢) الطبري: ٣٥١/٢٤. (٣) فتح الباري: ٢٥١/٩.

(٤) الطبري: ٣٥٢/٢٤. (٥) الدر المنثور: ٤٧٥/٨.

(٦) البخاري: ٦١٧٧، ٦١٧٨، ومسلم: ١٣٥٩/٣.

(٧) الطبري: ٣٦٠/٢٤. (٨) الطبري: ٣٦٠/٢٤.

(٩) الطبري: ٣٦١/٢٤. (١٠) الدر المنثور: ٤٧٧/٨.

(١١) الطبري: ٣٦٢/٢٤.

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿١﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٢﴾ سَفَرْتُكَ فَلَا نَسَى ﴿٣﴾
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٤﴾ وَيَبْرُكُ لَيْسَتِي ﴿٥﴾ مَكْرِيَّتِي
نَعْتِي الْوَكْرَى ﴿٦﴾ سِيدُكَرْمٍ مَخْفَى ﴿٧﴾ وَبَنَجَهَا الْأَسْفَى ﴿٨﴾ لَيْسِي
بَصَلِ النَّارِ الْكَرْبَى ﴿٩﴾ ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَخْفَى ﴿١٠﴾

[الأمر بالتسبيح وجوابه]

روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا
قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ قال: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» ﴿٥﴾.
وروى ابن جرير عن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عباس
كان يقرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ يقول سبحان ربي
الأعلى، وإذا قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ بِنُورِ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿١﴾ فأتى على آخرها
﴿الْقِسْطَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْوَلَدَ﴾ ﴿١﴾ يقول: سبحانك وبلى ﴿٦﴾.
وقال قتادة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ
كان إذا قرأها قال: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» ﴿٧﴾.

[الخلق والتقدير وإخراج النبات]

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَوَّى﴾ ﴿١﴾ أي خلق الخليقة وسوى
كل مخلوق في أحسن الهيئات. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾
﴿٢﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى
الأنعام لمراعتهما ﴿٨﴾ وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى
أنه قال لفرعون: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥﴾
أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم
عن عبد الله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ
مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى السَّمَاءِ» ﴿٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي
أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿١﴾ أي: من جميع صنوف النباتات والزروع
﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ﴿٢﴾ قال ابن عباس: هشيأ متغيراً ﴿١٠﴾،
وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه ﴿١١﴾.

بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال: ﴿لَهُمْ يَكْفُرُونَ كَيْدًا﴾
﴿١٥﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن، ثم
قال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم
﴿أَنَّهُمْ رُؤُوسٌ﴾ ﴿١٧﴾ أي قليلاً أي وسرى ماذا أحل بهم من
العذاب والنكال والعقوبة والهلاك كما قال تعالى: ﴿نُعِيبُهُمْ
فَلْيَأْتُمْ نَصْرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿١٦﴾ آخر تفسير سورة
الطارق، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة سبح

وهي مكية

[فضل سورة الأعلى]

(هي مكية نزلت قبل الهجرة) والدليل على ذلك ما رواه
الخجاري عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من
أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا
بقرآننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن
الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة
فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان
يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء فها جاء حتى قرأت:
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ في سور مثلها ﴿١﴾. وثبت في
الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هَلَّا صَلَّيْتُ
بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾، وَالْقَمِينَ وَتَحْتَهَا ﴿١﴾»، «وَأَتْلَيْتُ
إِذَا يَفْتَنِي ﴿١﴾». وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير
أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾
و «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ ﴿١﴾» وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
قَرَأَهَا جَمِيعًا ﴿٣﴾. وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود
والترمذي والنسائي ورواه ابن ماجه ولفظ مسلم وأهل
السنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ
أَلْعَلَى﴾ ﴿١﴾ و «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ ﴿١﴾» وربما اجتمعا
في يوم واحد فقرأهما. وقد روى الإمام أحمد في مسنده من
حديث أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن
أبزي وعائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر
بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و «قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾»
و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾» زادت عائشة والمعوذتين ﴿٤﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ سَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾

(١) فتح الباري: ٥٦٩/٨.

(٢) فتح الباري: ٢٣٤/٢، ومسلم: ٣٤٠/١.

(٣) أحمد: ٢٧١/٤.

(٤) أحمد عن أبي: ١٢٣/٥، عن ابن عباس: ٢٩٩/١، وابن

أبزي: ٤٠٦/٣، عن عائشة: ٢٢٧/٦.

(٥) أحمد: ٢٣٢/١. (٦) الطبري: ٣٦٧/٢٤.

(٧) الطبري: ٣٦٨/٢٤. (٨) الطبري: ٣٦٩/٢٤.

(٩) مسلم: ٢٠٤٤/٤. (١٠) الطبري: ٣٦٩/٢٤.

(١١) الطبري: ٣٦٩/٢٤، ٣٧٠.

[النبي ﷺ لا ينسى الوحي]

وقوله تعالى: ﴿سُقِرْتُكَ﴾ أي: يا محمد ﴿فَلَا تَنسَ﴾ (١) وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له. بأنه سيقرته قراءة لا ينساها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَنسَ﴾ (٢) طلب، ومعنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما تقرئك إلا ما يشاء الله رفعه فلا عليك أن تتركه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٣) أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُكَ لِلشَّرِّ﴾ (٤) أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشر لك شرعاً سهلاً مستقبلاً عدلاً لا أعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر.

[الامر بالتذكير]

وقوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ إِنَّ لَكُمْ لَعَلَّ الدَّكْرَى﴾ (٥) أي ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم، وقال: حدث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ وقوله تعالى: ﴿سَيَذَكَّرُنَّ يَحْيَى﴾ (٦) أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ﴿وَيَنْجَنِي﴾ (٧) أَلَسْتُ (٨) أَلَّى يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (٩) ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَجِي (١٠)

أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه بل هي مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا أَنْاسُ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيَمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ، فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضُّبَارَةَ فَيَسْتَتِرُ بِهَا - أَوْ قَالَ: يَنْتُسُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانِ أَوْ قَالَ: نَهْرِ الْجَنَّةِ - فَيَنْتَبِثُونَ نَبَاتَ الْحَيَةِ فِي حِمْلِ السَّلِيلِ» قال: وقال النبي ﷺ: «أَمَّا تَرُونَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ؟» قال: فقال بعضهم: كأن النبي ﷺ كان بالبادية (١١).

وروى أحمد أيضًا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَنْاسُ - أَوْ كَمَا قَالَ - تُصِيبُهُمُ النَّارُ يُلْتَوِيهِمْ - أَوْ

قال: يَخْطَأُ بَاهُمْ - فَيَمِيتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْشًا أُذِنَ فِي الشُّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَائِرَ صَبَائِرَ فُتُّوا عَلَى أَنْبَاءِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْتَبِثُونَ نَبَاتَ الْحَيَةِ تَكُونُ فِي حِمْلِ السَّلِيلِ» قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية (١٢)، ورواه مسلم (١٣).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرْ أَسْمَاءَ رِيَّةَ، فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْذِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَقْبَقَ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُفِّفَ لَهُمْ وَمُؤَمَّنَ (١٩)

[بيان أهل الفلاح]

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٢٠) أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَذَكَرْ أَسْمَاءَ رِيَّةَ، فَصَلَّى﴾ (٢١) أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر وتتلو هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٢٢) وَذَكَرْ أَسْمَاءَ رِيَّةَ، فَصَلَّى (٢٣) وقال أبو الأحوص: إذا أنسى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته ركعة فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٢٤) وَذَكَرْ أَسْمَاءَ رِيَّةَ، فَصَلَّى (٢٥) وقال قتادة في هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٢٦) وَذَكَرْ أَسْمَاءَ رِيَّةَ، فَصَلَّى (٢٧) زكى ماله وأرضى خالقه (٢٨).

[لا قيمة للدنيا في جنب الآخرة]

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْذِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَقْبَقُ﴾ (٣٠) أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد. وقد روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَيُّوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» تفرد به أحمد (٣١).

(٢) أحمد: ١١/٣.

(١) أحمد: ٥/٣.

(٤) الطبري: ٣٧٤/٢٤.

(٣) مسلم: ١٧٢/١.

(٦) أحمد: ٤١٢/٤.

(٥) الطبري: ٣٧٤/٢٤.

[صحف إبراهيم وموسى]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩).

هذه الآية كقولته تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يَنْتَهِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢٧) ﴿أَلَا نَزَّلَ وَزْرًا نُزِّلَ فِي صُحُفٍ وَمَا سَمِعَ﴾ (٢٨) ﴿وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوَّفَ بَرَى﴾ (٢٩) ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٠) ﴿وَأَنْ يَكُنْ رِيَكُ الْمُنْتَهَى﴾ (٣١) ﴿الآيَاتِ ثُمَّ يَجْزِلُهُ الْجَزَاءُ الْآخِرُ﴾ (٣٢) وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى (١)، واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٥) وذكر أنه روي، فعلى (١٥) بل يُؤَيِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى (١٧) ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩) وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه (٢)، والله أعلم، آخر تفسير سورة سبوح، والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

[قراءة الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة]

قد تقدم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة (٤). وروى الإمام مالك أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية (٥). ورواه أبو داود والنسائي (٦)، ورواه مسلم وابن ماجه (٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَصِيَّةِ﴾ (١) ﴿وَجُودٌ يُؤْمِلُ خَشِيعَةً﴾ (٢) ﴿عَامِلَةً نَاصِبَةً﴾ (٣) ﴿فَصَلِّ نَارَ حَامِيَةٍ﴾ (٤) ﴿تَشْقَى مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾ (٥) ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) ﴿لَا يَسِينُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ﴾ (٧).

[القيامة وما يكون من حال أهل النار فيها]

الغاشية من أساء يوم القيامة. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد (٨) لأنها تغشى الناس وتعمهم، وقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِلُ خَشِيعَةً﴾ (٢) أي ذليلة قاله قتادة (٩). وقال ابن عباس:

تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةً نَاصِبَةً﴾ (٣) أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وصليت يوم القيامة ناراً حامية. روى الحافظ أبو بكر البرقاني عن أبي عمران الجوني قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه يا راهب! فأشرف قال: فجعل عمر ينظر إليه ويكي، فقبل له: يا أمير المؤمنين! ما يبكك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةً نَاصِبَةً﴾ (٢) ﴿فَصَلِّ نَارَ حَامِيَةٍ﴾ (٤) فذاك الذي أباكاني (١٠).

وقال البخاري: قال ابن عباس ﴿عَامِلَةً نَاصِبَةً﴾ (٢) النصارى (١١)، وعن عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي وناصبة في النار بالعذاب والإهلاك، قال ابن عباس والحسن وقتادة ﴿فَصَلِّ نَارَ حَامِيَةٍ﴾ (٤) أي حارة شديدة الحر ﴿تَشْقَى مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾ (٥) أي قد انتهى حرها وغليناها، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي (١٢). وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: شجر من النار (١٣).

وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشبرق، قال قتادة: قريش تسميه في الربيع الشبرق وفي الصيف الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لا طعة بالأرض (١٤). وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له:

الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يس وهو سم (١٥)، وقال معمر عن قتادة ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) هو الشبرق إذا يس سمي الضريع (١٦). وقال سعيد عن قتادة ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) من شر الطعام وأبشعه وأخبثه (١٧)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسِينُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ﴾ (٧) يعني لا يحصل به مقصود ولا

(١) الطبري: ٣٧٦/٢٤. (٢) الطبري: ٣٧٧/٢٤.

(٣) الطبري: ٣٧٦/٢٤. (٤) مسلم: ٥٩٨/٢.

(٥) الموطأ: ١/١١١.

(٦) أبو داود: ٦٧٠/١، والنسائي: ١١٢/٣.

(٧) مسلم: ٥٩٨/٢، وابن ماجه: ٣٥٥/١.

(٨) الطبري: ٣٨١/٢٤. (٩) الطبري: ٣٨٢/٢٤.

(١٠) عبد الرزاق: ٢٩٩/٢، والحاكم: ٥٢٢/٢.

(١١) فتح الباري: ٥٧٠/٨. (١٢) الطبري: ٣٨٣/٢٤.

(١٣) الطبري: ٣٨٥/٢٤. (١٤) الطبري: ٣٨٤/٢٤.

(١٥) فتح الباري: ٥٧٠/٨. (١٦) الطبري: ٣٨٤/٢٤.

(١٧) الطبري: ٣٨٤/٢٤.

يندفع به محذور.

﴿وَحُورٌ مَّقْصُودَاتٌ بَنَاتٌ تَرْجَوْنَ نِكَاحًا فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعْنَ فِيهَا شَيْئًا سَرًّا وَلَا نَجْوًا﴾ (١٠) ﴿فِيهَا مَرْفَعٌ مَرْفُوعٌ﴾ (١١) ﴿وَأَكْوَافٌ مَوْصُوعَةٌ﴾ (١٢) ﴿وَرِزْقٌ مَبْنُوعٌ﴾ (١٣)

الحال أهل الجنة يوم القيامة

لما ذكر حال الأشقياء ثلثي يذكر السعداء فقال: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ﴾ أي يوم القيامة ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أي يعرف النعيم فيها وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ (١٤) قد رضيت عملها. وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٥) أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا نَفْسٌ﴾ (١٦) أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سَلَمًا﴾ (١٧) وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (١٨) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (١٩) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (٢٠) أي سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عينا واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَنْفِرُ مِنْ تَحْتِ ثَلَاثٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمُسْلِكِ﴾ (٢١) ﴿فِيهَا مَرْفَعٌ مَرْفُوعٌ﴾ (٢٢) أي عالية ناعمة كثيرة الفرش مرتفعة السمك عليها الحور العين، قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿وَأَكْوَافٌ مَوْصُوعَةٌ﴾ (٢٣) يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها.

﴿وَمَارِثٌ مَصْفُوفٌ﴾ (٢٤) قال ابن عباس: النارق الوسائد (٢٥). وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي والثوري وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ مَبْنُوعٌ﴾ (٢٦) قال ابن عباس: الزرابي البسط، وكذا قال الضحاك وغير واحد، ومعنى ﴿مَبْنُوعٌ﴾ أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٢٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٢٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٣٠) ﴿فَذَكِّرْ بَمَا أَنتَ مُدْعٍ﴾ (٣١) ﴿لَسْتُ عَلَيْهِ بِمُعْصِطٍ﴾ (٣٢) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٣٣) ﴿فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ (٣٤) ﴿إِنْ لَيْتَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (٣٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسَامَهُمْ﴾ (٣٦)

الحض على النظر في خلق الإبل

والسما والجبال والأرض

يقول تعالى أمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته

وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٣٧) ﴿فَإِنهَا خُلِقَتْ عَجِيبٌ وَتَرْكِيهَا غَرِيبٌ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّمَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَةِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينَ لِلْحَمْلِ الثَّقِيلِ وَتَتَقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ وَتُؤْكَلُ وَيَتَنَفَّعُ بِوَبَرِهَا وَيَشْرَبُ لَبَنُهَا﴾ (٣٩) ﴿وَنَبِهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبُ دَوَابِهِمْ كَانَتِ الْإِبِلُ﴾ (٤٠) ﴿وَكَانَ شَرِيحُ الْقَاضِي يَقُولُ: أَخْرَجُوا بَنَاتٍ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ! أَي كَيْفَ رَفَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْأَرْضِ هَذَا الرَّفْعَ الْعَظِيمَ﴾ (٤١) ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾﴾ (٤٢) ﴿وَرَأَى الْجِبَالَ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٤٣) أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لثلاثين الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿وَرَأَى الْأَرْضَ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٤٤) أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فبني البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

قصة ضمام بن ثعلبة

وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد عن ثابت عن أنس، قال: كنا نبينا أن نسل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع. فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد! إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صَدَقَ» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله» قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله» قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك؟ قال: «نَعَمْ» قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صَدَقَ» قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: «نَعَمْ» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا؟ قال: «صَدَقَ» قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: «نَعَمْ» قال: وزعم رسولك [أن علينا صوم شهر رمضان في سَنَتِنَا] قال:

(١) ابن حبان: ٢٦٢٢ (موارد الظمان).

(٢) الطبري: ٣٨٧/٢٤.

ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الوعيد لمن تولي عن الحق]

تفسير سورة الفجر

وهي مكة

قراءة سورة الفجر في صلاة

روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل

فصلي معه، فطول فصلي في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاداً فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال: يا رسول الله: جئت أصلي معه فطول علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله ﷺ: «أَفَتَأْتِيَا مُعَادًا؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ سَجِّ اسْمِكَ؟» ﴿الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالْثَمِينِ وَصَحْهَا﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَالْبَلَدِ إِذَا يَغْشَى﴾ (أ)

وَالْمَصْحُورِ ١) وَالْكَافِرِ ٢) وَالشَّافِقِ وَالزَّوْجَرِ ٣) وَالْيَتِيمِ ٤) وَالْمَسْكِينِ ٥) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدِي هَبْرٍ ٦) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِهَادٍ ٧) إِمْرَأَتِ هَارَانَ الْمَأْمُونَةِ ٨) لَمَّا آتَتْ وَحْدَهَا الْيَلَدَ ٩) وَأَسْمَدَ ١٠) الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ١١) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٢) الَّذِينَ طَعَمُوا ١٣) فِي الْيَلَدِ ١٤) فَأَنكَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٥) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ١٦) عَذَابٍ ١٧) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْأَعْيَادِ ١٨)

[تفسير الفجر وما بعده]

أما الفجر فمعروف وهو الصبح، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي^(٩)، وعن مسروق ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر^(١٠)، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف^(١١)، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من مسند أحمد وهو غير موجود في نسخ تفسير ابن كثير (الناشر).

- (١) أحمد: ١٤٣/٣.
(٢) البخاري: ٦٣، ومسلم: ٤١/١، وأبو داود: ٤٨٦،
والترمذي: ٦١٩، والنسائي في الكبرى: ٢٤٠١، ٢٤٠٢،
وابن ماجه: ١٤٠٢.
(٣) الطبري: ٢٤/٣٩٠. (٤) الطبري: ٢٤/٣٩٠.
(٥) أحمد: ٣/٣٠٠.
(٦) مسلم: ٥٣/١، ونخبة الأئمة: ٩/٢٦٥ والنسائي في
الكبرى: ٥١٤/٦.
(٧) فتح الباري: ١/٩٥ عن ابن عمر ومسلم: ٥٢/١.
(٨) النسائي في الكبرى: ٥٥/٦.
(٩) الطبري: ٢٤/٣٩٥، والبغوي: ٤/٤٨١.
(١٠) القرطبي: ٢٠/٣٩. (١١) الطبري: ٢٤/٣٩٦.

مرفوعاً: «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِجْ مِنْ ذَلِكَ بَشْيَءٍ»^(١). روى الإمام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَشْرَ عَشَرَ الْأَضْحَى، وَالْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّعْبَ يَوْمَ النَّحْرِ»^(٢)، ورواه النسائي^(٣) وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم وعندي أن المتن في رفعه نكارة والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَالشَّعْبَ وَالْوَتْرَ﴾^(٤) قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، وأن الشَّعْبَ يوم النحر لكونه العاشر، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً^(٥) وفي تفسيرهما أقوال أخرى.

[تفسير الليل]

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ﴾^(٦) قال العوفي عن ابن عباس: أي إذا ذهب^(٧). وقال عبد الله بن الزبير: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ﴾^(٨) حتى يذهب بعضه بعضاً^(٩). وقال مجاهد وأبو العالية وقنادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ﴾^(١٠) إذا سار^(١١) وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾^(١٢) أي لذي عقل ولب وحجاء [ودين]، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حجر اليازمة، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ﴿وَيَقُولُونَ حَجَّراً﴾^(١٣) كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حجب وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقنون الطيعون له، الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم. ص ٢ عاد احداها ارم

[ذكر إهلاك عاد]

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِرَبِّكَ يَكَاوُ﴾^(١٤) وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِرَبِّكَ يَكَاوُ﴾^(١٥) إرم ذات اليماء^(١٦) وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْيَمَامِ﴾^(١٧) لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقاً وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكرهم هود بملك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(١٨) وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقال ههنا: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْيَلْدِ﴾^(١٩) أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدهم وعظم تركيهم. قال مجاهد: إرم، أمة قديمة يعني عاداً الأولى. قال قتادة بن دعامة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد وقوي.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْيَلْدِ﴾^(٢٠) أعاد ابن زيد الضمير على العباد لا ارتفاعها وقال: بنوا عمداً بالأحقاب لم يخلق مثلها في البلاد^(٢١). وأما قتادة وابن جرير فأعادوا الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم^(٢٢)، وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال النبي لم يخلق مثلها في البلاد وإنما قال: ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْيَلْدِ﴾^(٢٣).

وقوله: ﴿وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا الْأَصْحَرَ بِالْأَوَادِ﴾^(٢٤) يعني يقطعون

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٣٠، وأحمد: ٢/ ٢٢٤.

(٢) أحمد: ٣/ ٣٢٧.

(٣) النسائي في الكبرى: ٦/ ٥١٤.

(٤) الطبري: ٢٤/ ٣٩٧، ٣٩٨.

(٥) الطبري: ٢٤/ ٤٠١. (٦) الطبري: ٢٤/ ٤٠١.

(٧) الطبري: ٢٤/ ٤٠١. (٨) الطبري: ٢٤/ ٤٠٤.

(٩) الطبري: ٢٤/ ٤٠٦. (١٠) الطبري: ٢٤/ ٤٠٦.

يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر.

[من شر ما يعملُه العبد في المال]

وروى أبو داود عن سهل -عني: ابن سعد - أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام^(٧)، «وَلَا تَحْضُوتَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِينَ»^(٨) يعني لا يأمرن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك «وَتَأْكُلُوا الثَّرَاتِ» يعني الميراث «أَكْثَلًا لَنَا» أي من أي جهة حصل لهم ذلك من حلال أو حرام «وَتُحْبَرُوا الْمَالَ حَبًّا جَمًّا» أي كثيراً، زاد بعضهم فاحشاً.

«كَلَّا إِذَا دُكِّيَ الْأَرْضُ دَكَاةً»^(٩) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا^(١٠) وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يَخْمَدُ يَوْمَئِذٍ بَيِّنَاتٍ لِلْأَسْنَنِ وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى^(١١) يَقُولُ بَلِّغْنِي قَدَمْتُ لِي بِأَيِّ^(١٢) يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا^(١٣) وَلَا يُؤْتِي وَفَاقَهُ أَحَدًا^(١٤) يَكَلِّمُنَا أَنْفُسَ الْمُطْمَئِنِّينَ^(١٥) أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً^(١٦) فَأَدْخِلْ فِي عَذَابِي^(١٧) وَأَدْخِلْ جَنَّتِي^(١٨)

[يوم القيامة يوفى كل بما عمل من خير أو شر]

ينجز تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة، فقال تعالى: «كَلَّا» أي حقاً «إِذَا دُكِّيَ الْأَرْضُ دَكَاةً» أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لرهبهم «وَجَاءَ رَبُّكَ» يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النبوة إلى محمد ﷺ: «أَنَا هَا، أَنَا هَا» فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك^(٨).

وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

- | | |
|----------------------|---------------------|
| (١) الطبري: ٤٠٨/٢٤. | (٢) الطبري: ٤٠٨/٢٤. |
| (٣) الطبري: ٤٠٩/٢٤. | (٤) الطبري: ٤٠٩/٢٤. |
| (٥) الطبري: ٤٠٩/٢٤. | (٦) الطبري: ٤١١/٢٤. |
| (٧) أبو داود: ٣٥٦/٥. | (٨) أحمد: ٢٨٢/١. |

الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها^(١١)، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد^(١٢) ومنه يقال: مجتأب النار إذا خرقتها، واجتأب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضًا وقال الله تعالى: «وَنَحْنُ مِنْ أَجْبَالٍ يُؤْتَا قُتْرَيْنِ»^(١٣).

[ذكر فرعون]

وقوله تعالى: «وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَارِ»^(١٤) قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره^(١٥)، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد^(١٦)، وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي^(١٧).

وقوله تعالى: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ»^(١٨) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ^(١٩) أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»^(٢٠) أي أنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة، لا يردها عن القوم المجرمين.

[الرب بالمِرْصَادِ]

وقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ»^(٢١) قال ابن عباس: يسمع ويرى^(٢٢) يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويمجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلًّا بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور.

«فَأَمَّا الْإِنْسَنُ إِذَا مَا أَبْلَغَهُ رِزْقَهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ»^(٢٣) وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْلَغَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ^(٢٤) كَلَّا كُلَّ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ^(٢٥) وَلَا تَحْضُوتَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِينَ^(٢٦) وَتَأْكُلُوا الثَّرَاتِ أَكْثَلًا لَنَا^(٢٧) وَتُحْبَرُوا الْمَالَ حَبًّا جَمًّا^(٢٨)

[الغنى والفقر اختبار، وليس من]

إكرام الله أو إهانته للعبد]

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: «أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ»^(٢٩) سُجَّعَ لَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ^(٣٠) وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنته وضيق عليه في الرزق فيعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: «كَلَّا» أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى

عَبَّيٍّ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدِيَّةً أَلْجَبِيْنَ (١٠)

[القسم بحرمة مكة وغيرها على

خلق الإنسان في مشقة]

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالا لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها. قال خصيف عن مجاهد ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) لا رد عليهم. أقسم بهذا البلد (٥). وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) يعني مكة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به (٦)، وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وعطية والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد (٧). وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار (٨)، وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته. «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَةُ اللَّهِ يَوْمَ يَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ يَحْرُمُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، وَإِنَّمَا أُجِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَنْسِ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَايِبَ» (٩) وفي لفظ آخر: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّضَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَيْذَنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ» (١٠) وقوله تعالى ﴿وَاللَّوِلِيُّ وَمَا وَلَدَ﴾ (٢) وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والضحاك وسفيان الثوري وسعيد بن جبير والسدي والحسن البصري وخصيف وشرحيل بن سعد وغيرهم: يعني بالوالد آدم وما ولد ولده (١١)، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالسكان وهو آدم أبو البشر وولده،

وقوله تعالى: ﴿وَسَاءَ يَوْمَئِذٍ يَجْمَعُهُمْ﴾ روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها» (١) وهكذا رواه الترمذي (٢). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَ﴾ (٣) أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿يَقُولُ يَلَيِّنَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٤) يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعا كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن محمد بن [أبي عميرة]، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: «لَوْ أَنَّ عِبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلَدَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَحَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ أَنَّهُ رَدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْفَا يَزْدَادُ مِنَ الْأَجْرِ وَالْثَوَابِ» (٥).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَعْدُبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ (٦) أي ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوَفِّي وَثَاقَهُ أَحَدًا﴾ (٧) أي وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ أَي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿رَاضِيَةً﴾ أي في نفسها ﴿مَرْضِيَّةٌ﴾ (٨) أي قدر رضى عن الله ورضي عنها وأرضاها ﴿فَادْخُلِي فِي عِيشِي﴾ (٩) أي في جنتهم ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (١٠) وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضا، كما أن الملائكة يسرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، فكذاك ههنا.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٨) قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله! ما أحسن هذا؟ فقال: «أَمَّا إِنَّهُ سَيَقَالُ لَكَ هَذَا» (٤). آخر تفسير سورة الفجر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة البلد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ (٣) نَعَمْ حَقًّا إِذَا نَسَّ فِي كِبَرٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ هَكَذَا مَا لَأَسْ (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَوْا أَحَدٌ (٧) الرَّحْمَلُ لَهُ.

(١) مسلم: ٢١٨٤/٤. (٢) تحفة الأحوذى: ٢٩٤/٧.

(٣) أحمد: ١٨٥/٤.

(٤) ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة: الدر

المشور: ٥١٣/٨.

(٥) الدر المشور: ٥١٧/٨.

(٦) القرطبي: ٦٠/٢٠، والدر المشور: ٥١٨/٨.

(٧) القرطبي: ٦٠/٢٠، والدر المشور: ٥١٨/٨.

(٨) الدر المشور: ٥١٨/٨. (٩) فتح الباري: ٥٦/٤.

(١٠) فتح الباري: ٢٣٨/١.

(١١) القرطبي: ٦١/٢٠، والدر المشور: ٥١٩/٨، والطبري:

بِالرَّحْمَةِ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْآيَةِ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ كَفَرُوا شَيْدَهُ
أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ ﴿٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّصَةٍ ﴿١٠﴾

[الحض على سلوك سبيل الخير]

وقال ابن زيد: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقِبَةَ﴾ ﴿١١﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بينها فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقِبَةُ﴾ ﴿١٢﴾ تَكَرَّرَ ﴿١٣﴾ أَوْ يُطْعَمُ ﴿١٤﴾. روى الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَغْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَغْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ - أَي: عُضْوٍ - مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَغْتَقِي بِأَلْيَدِ الْبَيْدِ - وَيَالِ رَجُلٍ، وَيَا لَفَرْجِ الْفَرْجِ». فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غليانه: ادع مطرقاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله ﴿١٥﴾. وقد رواه البخاري، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن سعيد بن مرجانة به ﴿١٦﴾.

روى أحمد عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة، قال السلمي: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاصاً ولا وهم قال: سمعته يقول: «مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةٌ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ فَتَأْتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْحِنْتَ أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ الْعَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عِتْقٌ رَقَبَةً، وَمَنْ أَغْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَغْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَنْفَقَ رُجُوبَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا» ﴿١٧﴾ [وروي من طرق] وهذه أسانيد جيدة قوية، والله الحمد.

وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته، رواه ابن جرير ﴿١٨﴾ وابن أبي حاتم، واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده وهو محتمل أيضاً ﴿١٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٢٠﴾ وقال ابن أبي نجيح وجريج وعطاء عن ابن عباس: في كبد قال في شدة خلق ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه ﴿٢١﴾، وقال مجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٢٢﴾ نطفة ثم علقه ثم مضغة يتكبد في الخلق. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وأرضعته كرهاً ومعيشته كره فهو يكابد ذلك. وقال سعيد ابن جبير: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٢٣﴾ في شدة وطلب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول ﴿٢٤﴾. وقال قتادة: في مشقة ﴿٢٥﴾. وعن الحسن يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

[الإنسان محاط بالله وبنيعمائه]

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٢٦﴾ قال الحسن البصري: يعني ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٢٧﴾ يأخذ ماله. وقال قتادة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٢٨﴾ قال: ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه، وأين أنفقه ﴿٢٩﴾. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدًا﴾ ﴿٣٠﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت ما لا لبداً أي كثيراً قاله مجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم ﴿٣١﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٣٢﴾ قال مجاهد: أي يحسب أن لم يره الله عز وجل وكذا قال غيره من السلف: وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّعَيْنَيْنِ﴾ ﴿٣٣﴾ أي يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿وَشَفَّيْنِ﴾ ﴿٣٤﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجالاً لوجهه وفمه.

[التمييز بين الخير والشر نعمة]

﴿وَهَدَيْنَا لَلْجَنَّةِ نِجْنَينِ﴾ ﴿٣٥﴾ الطريقين. قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿وَهَدَيْنَا لَلْجَنَّةِ نِجْنَينِ﴾ ﴿٣٦﴾ قال: الخير والشر ﴿٣٧﴾. وكذا روي عن علي وابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين ﴿٣٨﴾. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٩﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَا وَإِنَّمَا كَفَرُوا ﴿٤٠﴾.

﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقِبَةَ﴾ ﴿٤١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقِبَةُ ﴿٤٢﴾ تَكَرَّرَ ﴿٤٣﴾ وَ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ مَسْمُومٍ ﴿٤٤﴾ نَبِيحًا ذَا مَقَرَّبَةٍ ﴿٤٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا دَ مَرْتَرٍ ﴿٤٦﴾ شَدَّكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

- (١) الطبري: ٤٣٣/٢٤. (٢) الطبري: ٤٣٣/٢٤.
(٣) الطبري: ٤٣٤/٢٤. (٤) الدر المنثور: ٥٢٠/٨.
(٥) الطبري: ٤٣٣/٢٤. (٦) الطبري: ٤٣٦/٢٤.
(٧) الطبري: ٤٣٦/٢٤. (٨) الطبري: ٤٣٧/٢٤.
(٩) الطبري: ٤٣٧/٢٤ و ٤٣٨، والدر المنثور: ٥٢١/٨، ٥٢٢.
(١٠) الطبري: ٤٤٠/٢٤.
(١١) أحمد: ٤٢٢/٢.
(١٢) فتح الباري: ١٧٤/٥ و ٦٠٧/١١، ومسلم: ١١٤٧/٢.
وتحفة الأحوذى: ١٤٤/٥، والنسائي في الكبرى: ١٦٨/٣.
(١٣) أحمد: ٣٨٦/٤.

منها آخر الأبد^(١٢). آخر تفسير سورة البلد، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية

[قراءة والشمس وضحاها في صلاة العشاء]

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هَلَّا صَلَّيْتُ بِـ **سُبْحِ اسْمِكَ الْأَمَلِ** (١)»، **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** (٢)، **وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَسُ** (٣)؟»^(١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا** (٢) **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىهَا** (٣) **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** (٤) **وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا** (٥) **وَالْأَرْضَ وَمَا خَلَقَهَا** (٦) **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** (٧) **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (٨) **قَدْ أَفْلَحَ مَن رَّكَهَا** (٩) **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** (١٠).

[قسم الله بمخلوقاته على فلاح من زكى نفسه وخيبة من دساها]

قال مجاهد: **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** (١) أي وضوئها^(١٤). وقال قتادة: **وَضُحَاهَا** (١) النهار كله^(١٥). قال ابن جرير والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها لأن صرء الشمس الظاهر هو النهار **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا** (٢) قال مجاهد تبعها^(١٦). وقال العوفي عن ابن عباس **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا** (٢) قال: يتلو النهار^(١٧). وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رؤي الهلال^(١٨) وقوله تعالى: **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىهَا** (٣) قال مجاهد: أضاء^(١٩).

وقوله تعالى: **أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي سَعْيٍ** (١١) قال ابن عباس: ذي جماعة^(١)، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد^(٢)، والسغب هو الجوع وقوله تعالى: **يَتِيمًا** أي أطمع في مثل هذا اليوم يتيمًا **ذَا مَقَرَّبَةٍ** (١٢) أي ذا قرابة منه، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسدي^(٣)، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»^(٤) وقد رواه الترمذي والنسائي^(٥) وهذا إسناده صحيح، وقوله تعالى: **أَوْ يُسْكِنُكَ إِذَا مَرَّتْكَ** (١٣) أي فقيرًا مدقًا لاصقًا بالتراب، وهو الدقعاء أيضًا. قال ابن عباس: ذا مترية هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب^(٦).

وقوله تعالى: **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا** أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل كما قال تعالى: **وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** (١١) وقال تعالى: **وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنُوبَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** الآية. وقوله تعالى: **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ** (١٢) أي كان من المؤمنين العاملين صالحًا المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث: **الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَن فِي أَرْضٍ يَرْحَمَكُم مِّن فِي السَّمَاءِ** (٧) وفي الحديث الآخر: **لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَن لَا يَرْحَمُ النَّاسَ** (٨). وقال أبو داود عن عبد الله بن عمرو ويرويه قال: **مَن لَّمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا** (٩). وقوله تعالى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ** (١٨) أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

[أصحاب المشئمة وجزاؤهم]

ثم قال: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ** (١٩) أي أصحاب الشمال **عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٍ** (٢٠) أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها! قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وعطية العوفي والحسن وقتادة والسدي **مُؤَصَّدَةٌ** أي مطبقة^(١٠). قال ابن عباس: مغلقة الأبواب^(١١). وقال الضحاك: **مُؤَصَّدَةٌ** (٢٠) حيط لا باب له، وقال قتادة: **مُؤَصَّدَةٌ** (٢٠) مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج

(١) الطبري: ٤٤٢/٢٤. (٢) الطبري: ٤٤٢/٢٤، ٤٤٣.

(٣) الدر المنثور: ٥٢٥/٨. (٤) أحمد: ٢١٤.

(٥) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٣. (٦) الطبري: ٤٤٤/٢٤.

(٧) أبو داود: ٢٣١/٥. (٨) مسلم: ١٨٠٩/٤.

(٩) أبو داود: ٢٣٢/٥.

(١٠) الطبري: ٤٤٧/٢٤، والدر المنثور: ٥٢٦/٨.

(١١) الدر المنثور: ٥٢٦/٨. (١٢) الطبري: ٤٤٧/٢٤.

(١٣) فتح الباري: ٢٣٤/٢، ومسلم: ٣٤٠/١.

(١٤) الطبري: ٤٥١/٢٤. (١٥) الطبري: ٤٥١/٢٤.

(١٦) الطبري: ٤٥٢/٢٤. (١٧) الطبري: ٤٥٢/٢٤.

(١٨) الطبري: ٤٥٢/٢٤. (١٩) الطبري: ٥٢٩/٢٤.

ولهذا قال مجاهد ﴿وَالْتَهَارُ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٢) ﴿إِنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْتَهَارُ إِذَا جَلَّتْ﴾ (٣) وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَالْتَهَارُ إِذَا جَلَّتْهَا﴾ (٤) يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا﴾ (٥) يحتمل أن تكون ما هنا مصدرية بمعنى السماء وبناؤها، وهو قول قتادة: ويحتمل أن تكون بمعنى من يعني السماء وبناؤها، وهو قول مجاهد (١)، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ - أَي بِقُوَّة - ﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾ (٨) وهكذا قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا لَحْظُهَا﴾ (٩) قال مجاهد: طحاها دحاها (٢)، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَمَا لَحْظُهَا﴾ (٣) أي خلق فيها (٣). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: طحاها قسمها (٤). وقال مجاهد وقاتادة والضحاك والسدي والثوري وأبو صالح وابن زيد ﴿لَحْظُهَا﴾ (٦) بسطها (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ (٧) أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقْوَصْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُبَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْمَةٍ جَمْعَاءُ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءُ؟﴾ أخرجه من رواية أبي هريرة (٦). وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال: ﴿يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَجَعَلْتُهُمْ عَنْ يَسِينِهِمْ﴾ (٧)، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) بين لها الخير والشر (٨)، وكذا قال مجاهد وقاتادة والضحاك والثوري (٩).

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها (١٠). وروى ابن جرير عن أبي الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبينهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضى عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففرغت منه فرعًا شديدًا قال: قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال:

سددك الله إنا سألتك لأخبر عقلك، إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! رأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبينهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: ﴿بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ﴾ قال ففهم نعمل؟ قال: ﴿مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَرْئَتَيْنِ مِثْلَهُ هَا، وَتَصَدَّقْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) رواه أحمد ومسلم (١٢).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا (١٠) يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من رزق نفسه أي بطاعة الله كما قال قتادة: وطهرها من الأخلاق الدنية والردائل، ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠) أي دسها أي أخلها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل، وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من رزق الله نفسه، وقد خاب من دسى الله نفسه كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١٣).

وروى الطبراني عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) وقف ثم قال: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، وَخَيْرٌ مِنْ زَكَاهَا» (١٤).

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَالسُّجْبِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَذَكَاها أنت خير من ذكائها، أنت وليها ومولاها اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَذَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» قال زيد: كان

(١) الطبري: ٢٤/٤٥٣. (٢) الطبري: ٢٤/٤٥٤.

(٣) الطبري: ٢٤/٤٥٣. (٤) الطبري: ٢٤/٤٥٤.

(٥) الطبري: ٢٤/٤٥٤، والدر المنثور: ٨/٥٢٩، ٥٣٠.

(٦) فتح الباري: ٣/٢٩٠، ومسلم: ٨/٢٠٤٨.

(٧) مسلم: ٤/٢١٩٧. (٨) الطبري: ٢٤/٤٥٤.

(٩) الطبري: ٢٤/٤٥٥. (١٠) الطبري: ٢٤/٤٥٥.

(١١) الطبري: ٢٤/٤٥٥.

(١٢) أحمد: ٤/٤٣٨، ومسلم: ٤/٢٠٤١.

(١٣) الطبري: ٢٤/٤٥٧. (١٤) الطبري: ١١/١٠٦.

تفسير سورة الليل

وهي مكية

[قراءة والليل إذا يغشى في العشاء]

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فَهَلَّا صَلَّيْتُ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»، «وَالْتَمِسْ وَضْعَهَا ﴿١﴾»، «وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ﴿٢﴾» (٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا حَقَّ الذِّكْرَ الْأَعْلَى ﴿٣﴾ سَبِّحْ لَشَيْءٍ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَتَنْبِئُهُ نَبِيُّ رَبِّهِ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَاسْتَفْتَى ﴿٧﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٨﴾ فَتَنْبِئُهُ نَبِيُّ رَبِّهِ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَاسْتَفْتَى ﴿٩﴾ وَمَا يَنْبِئُهُ عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١٠﴾﴾

[القسم على اختلاف الناس في سعيهم]

والتنبيه على اختلاف نتائج ذلك]

أقسم تعالى بـ «وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾» أي إذا غشى الخليفة بظلامه «وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾» أي بضياءه وإشراقه. «وَمَا حَقَّ الذِّكْرَ الْأَعْلَى ﴿٣﴾» كقوله تعالى: «وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾» وكقوله: «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴿٢﴾» ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضًا متضادًا، ولهذا قال تعالى: «إِنْ سَعَيْتُمْ لَشَيْءٍ ﴿٤﴾» أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًا. قال الله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾» أي أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله في أموره «وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾» أي بالمجازاة على ذلك قاله قتادة (١)، وقال خصيف: بالثواب. وقوله تعالى: «فَتَنْبِئُهُ نَبِيُّ رَبِّهِ ﴿٧﴾» قال ابن عباس: يعني للخير (١١)، ولهذا قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾» أي بما عنده

رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن (١)، ورواه مسلم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوِيهَا ﴿١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَكَدِمُوا عَلَيْهَا ﴿٤﴾ فَذُهِبَ زُجُجُهُمْ ذُجُجًا فُسُوحًا ﴿٥﴾ فَلَا يَخَافُ عَذَابَهَا ﴿٦﴾﴾

[تكذيب ثمود واهلاكهم]

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما (١)، فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٢﴾» أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال الله تعالى: «فَادَاؤُا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٩﴾» الآية. وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم شريفًا في قومه نسيًا رئيسًا مطاعًا، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: «﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٢﴾﴾ انْبَعَثَ هَذَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» (٤) ورواه البخاري في التفسير ومسلم في صفة النار والترمذي والنسائي في التفسير من سنينها (٥).

[قصة ناقة صالح]

وقوله تعالى: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يعني صالحًا عليه السلام «نَاقَةُ اللَّهِ ﴿١﴾» أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء «وَسُقْيَاهَا ﴿٣﴾» أي لاتعدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، قال الله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴿٤﴾» أي كذبوه فيها جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم «فَكَدِمُوا عَلَيْهَا ﴿٥﴾» أي غضب عليهم فدمر عليهم «فُسُوحًا ﴿٦﴾» أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنتاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها (٦). وقوله تعالى: «﴿وَلَا يَخَافُ ﴿١﴾ وَقرئ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ عَذَابَهَا ﴿١٥﴾﴾» قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة (٧)، وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم (٨). آخر تفسير سورة والشمس وضحاها، والله الحمد والمنة.

(١) أحمد: ٤/٣٧١. (٢) مسلم: ٤/٢٠٨٨.

(٣) الطبري: ٢٤/٤٥٨. (٤) أحمد: ٤/١٧.

(٥) فتح الباري: ٨/٥٧٥، ومسلم: ٤/٢١٩١، وثخفة الأحوذ: ٩/٢٦٨، والنسائي في الكبرى: ٦/٥١٥.

(٦) الطبري: ٢٤/٤٦٠. (٧) الطبري: ٢٤/٤١٦.

(٨) الطبري: ٢٤/٤٦١.

(٩) فتح الباري: ٢/٢٣٤، ومسلم: ١/٣٤٠.

(١٠) الطبري: ٢٤/٤٧٠. (١١) الدر المنثور: ٨/٥٣٥.

ورواه مسلم ^(٨).

روى ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾** ^(٩) وقوله تعالى: **﴿وَمَا يَفْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۖ﴾** ^(١٠) قال مجاهد: أي إذا مات ^(١١). وقال أبو صالح ومالك عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار ^(١٢).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۖ﴾ ^(١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ^(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ^(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^(١٦) وَسَمِعْتُهُ ^(١٧) الْأَذَى ^(١٨) الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَتَرَكَّى ^(١٩) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَحْمٍ تُجْرَى ^(٢٠) إِلَّا أَنْبَاءٌ وَمَوْرِدٌ الْأَعْلَى ^(٢١) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ^(٢٢)

[الهدى وغيره بيد الله]

قال قتادة: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۖ﴾** ^(٢٣) أي نبين الحلال والحرام ^(٢٤)، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله وجعله كقوله تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ۖ﴾** حكاها ابن جرير ^(٢٥). وقوله تعالى: **﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۖ﴾** ^(٢٦) أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيها وقوله تعالى: **﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۖ﴾** ^(٢٧) قال مجاهد: أي توهج ^(٢٨). روى الإمام أحمد عن سبائك بن حرب، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: **﴿أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ﴾** حت لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه

﴿وَأَسْتَغْفِرُ ۖ﴾ ^(٢٩) قال عكرمة عن ابن عباس: أي بخل ماله واستغنى عن ربه عز وجل ^(٣٠). رواه ابن أبي حاتم **﴿وَكَذَّبَ الْحَسَنُ ۖ﴾** ^(٣١) أي بالجزء في الدار الآخرة **﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾** أي لطريق الشر كما قال تعالى: **﴿وَتَقَلَّبَ أَفْعَدَهُمْ وَأَضْرَبَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۖ﴾** ^(٣٢) والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

(رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه): روى الإمام أحمد عن أبي بكر قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف؟ قال: **﴿بَلْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ﴾** قال: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: **﴿كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ﴾** ^(٣٣).

(رواية عبي رضي الله عنه): روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتى رسول الله ﷺ، فقعده وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: **﴿أَمَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ - أَوْ مَا مِنْ نَفْسٍ مُتَّقِيَةٍ - إِلَّا كَتَبَ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ﴾** فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا ونندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فيسير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فيسير إلى أهل الشقاء؟ فقال: **﴿أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُسَرُّونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاءِ فَيُسَرُّونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْفَرَ ۖ﴾** ^(٣٤) **﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾** ^(٣٥) وقد أخرجه بقية الجماعة ^(٣٦).

(رواية عبد الله بن عمر): روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله! أرايت ما نعمل فيه أفى أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: **﴿فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَأَعْمَلْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ كُلَّ مَيْسَرٍ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ﴾** ^(٣٧) ورواه الترمذي في القدر وقال: حسن صحيح.

(حديث آخر من رواية جابر): روى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله! أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: **﴿لَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ﴾** فقال سراقه: ففيم العمل إذا؟ فقال رسول الله ﷺ: **﴿كُلُّ عَامِلٍ مَيْسَرٍ لِعَمَلِهِ﴾** ^(٣٨)

(١) الطبري: ٤٧٢/٢٤. (٢) أحمد: ٥/١.

(٣) فتح الباري: ٥٧٩/٨.

(٤) مسلم: ٢٠٣٩، ٢٠٤٠، وأبو داود: ٦٨/٥، ونحفة الأحوذى: ٦/٣٤٠ و ٩/٢٧٠، والنسائي في الكبرى: ٥١٦، ٥١٧ وابن ماجه: ٣٠/١.

(٥) أحمد: ٥٢/٢. (٦) تحفة الأحوذى: ٦/٣٣٩.

(٧) الطبري: ٤٧٥/٢٤. (٨) مسلم: ٢٠٤١/٤.

(٩) الطبري: ٤٧٣/٢٤. (١٠) الطبري: ٤٧٦/٢٤.

(١١) الطبري: ٤٧٦/٢٤، والقرطبي: ٨٥/٢٠.

(١٢) الطبري: ٤٧٧/٢٤. (١٣) الطبري: ٤٧٧/٢٤.

(١٤) الطبري: ٤٧٧/٢٤.

من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خبيصة كانت على عاتقه عند رجليه^(١). وروى الإمام أحمد عن أبي إسحاق، سمعت النعمان ابن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قُوضِعَ فِي أَخْصَصِ قَدَمَيْهِ جَرَّتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ»^(٢). رواه البخاري^(٣).

وروى مسلم عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ تَعْلَانِ وَشِرَّكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الرُّجُلُ، مَا يَبْرَى أَنْ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَمُومُهُمْ عَذَابًا»^(٤). وقوله تعالى: «لَا يَصْلَهُنَّ آلُ الْمُتَّقِينَ»^(٥) أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى ثم فسرهُ فقال: «الَّذِي كَذَبَ» أي بقلبه «وَتَوَلَّى»^(٦) أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مِنْ أُمَّي» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٧) ورواه البخاري^(٨).

وروى مسلم عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ تَعْلَانِ وَشِرَّكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الرُّجُلُ، مَا يَبْرَى أَنْ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَمُومُهُمْ عَذَابًا»^(٩). وقوله تعالى: «لَا يَصْلَهُنَّ آلُ الْمُتَّقِينَ»^(١٠) أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى ثم فسرهُ فقال: «الَّذِي كَذَبَ» أي بقلبه «وَتَوَلَّى»^(١١) أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مِنْ أُمَّي» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(١٢) ورواه البخاري^(١٣).

وقوله تعالى: «وَسَيَجْزِيَنَّكَ اللَّهُ» أي وسيزجرك عن النار النقي النقي الأنقى ثم فسرهُ بقوله: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى»^(١٤) أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى»^(١٥) أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك «آيَاتِهِ وَيُؤْتِي الْأَمْثَالَ»^(١٦) أي طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى: «وَلَسَوْفَ يَرْضَى»^(١٧) أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقوله تعالى: «وَسَيَجْزِيَنَّكَ اللَّهُ» أي وسيزجرك عن النار النقي النقي الأنقى ثم فسرهُ بقوله: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى»^(١٨) أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى»^(١٩) أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك «آيَاتِهِ وَيُؤْتِي الْأَمْثَالَ»^(٢٠) أي طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى: «وَلَسَوْفَ يَرْضَى»^(٢١) أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

[سبب النزول وفضل أبي بكر]

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها العموم، وهو قوله تعالى: «وَسَيَجْزِيَنَّكَ اللَّهُ»^(٢٢) أي يؤتي ماله، يتركي^(٢٣) وما لأحد عنده من نعمة تجزى^(٢٤) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقًا تقيًا كريمًا جوادًا بذلاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد

تفسير سورة الضحى

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَى﴾^(١) وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى^(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى^(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى^(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى^(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَوَّى^(٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى^(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى^(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ^(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ^(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ^(١١)

[سبب نزول سورة الضحى]

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى﴾^(١) وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى^(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى^(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير^(٤) عن

(١) أحمد: ٢٧٢/٤. (٢) أحمد: ٢٧٤/٤.

(٣) فتح الباري: ١١/٤٢٤. (٤) مسلم: ١/١٩٦.

(٥) أحمد: ٣٦١/٢. (٦) فتح الباري: ١٣/٢٦٣.

(٧) فتح الباري: ٧/٢٣، ومسلم: ٢/٧١٢.

(٨) أحمد: ٣١٢/٤.

(٩) فتح الباري: ٣/١١ و ٨/٥٨٠، ٥٨١ و ٦١٩، ومسلم:

٣/١٤٢١، ١٤٢٢، وتحفة الأحوذى: ٩/٢٧٢ والنسائي في

الكبرى: ٦/٥١٧، والطبري: ٢٤/٤٨٥، ٤٨٦.

رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعد كنزاً كنزاً فسر بذلك، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٥) فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه (٥). وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف.

[ذكر شيء من نعم الله على الرسول ﷺ]

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (٦) وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه أمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أدى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم أووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ﷺ أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) كقوله: ﴿وَوَجَدَكَ أَوْسًا يَبُغِيكَ﴾ (٨) أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْفَتْنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْفَتْنَىٰ غِنَى النَّفْسِ» (٩) وفي صحيح مسلم عن عبد الله

جندب، هو ابن عبد الله البجلي، ثم العلقي به وفي رواية عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: ودع محمدًا ربه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (٢) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَآقَلَىٰ﴾ (٣) (١).

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (٢) قال العوفي عن ابن عباس: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَآقَلَىٰ﴾ (٣) وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (٤) أي سكن فأظلم وادهم؟ قاله مجاهد وقادة والضحاك وابن زيد وغيرهم، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنفَشَ﴾ (٥) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿فَالْقَائِلُ لِإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلَ آيَاتِهِ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٧) وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي ما تركك ﴿وَمَآقَلَىٰ﴾ (٨) أي وما أبغضك.

[الآخرة خير من الأولى]

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ مِّنَ الْأُولَىٰ﴾ (٩) أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطرأ كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خير عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة وبيت الصبرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية. روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقتل: يا رسول الله! ألا أدنتنا حتى نسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَتَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَرَايِبِ ظَلٍّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (١٠) ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي به وقال الترمذي حسن صحيح (١١).

[نعم الآخرة الكثيرة تنتظر لرسول الله ﷺ]

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (١٢) أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي، وروى الإمام أبو عمرو الأوزاعي عن عبد الله بن عباس قال: عرض على

(١) الطبري: ٤٨٦/٢٤.

(٢) الطبري: ٤٨٤/٢٤، والقرطبي: ٩١/٢٠.

(٣) أحمد: ٣٩١/١.

(٤) تحفة الأحوزي: ٤٨/٧، وابن ماجه: ١٣٧٦/٢.

(٥) الطبري: ٤٨٧/٢٤.

(٦) فتح الباري: ٢٧٦/١١، ومسلم: ٧٢٦/٢ بسند آخر وبهذا

الإسناد أحمد ٣١٥/٢.

ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَفَتَنَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(١).

[كيف تقدر هذه النعم]

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ^(١)﴾ أي كما كنت يتيمًا فأواك الله فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتنهه ولكن أحسن إليه وتلطّف به، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم^(٢) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ^(٣)﴾ أي وكما كنت ضالًّا فهدك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. قال ابن إسحاق: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ^(٤)﴾ أي فلا تكن جبارًا ولا متكبرًا ولا فحاشًا ولا فظًا على الضعفاء من عباد الله، وقال قتادة يعني رد المسكين برحمة ولين^(٥) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ^(٦)﴾ أي وكما كنت عائلًا فقيرًا فأعناك الله فحدث بنعمة الله عليك.

وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(٧) ورواه الترمذي وقال صحيح^(٨). وروى أبو داود عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُبْلِىَ بِلَاءَةً فَذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^(٩) تفرد به أبو داود. آخر تفسير سورة الضحى، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة (الزيتون)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ^(١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ^(٢) أَلَيْسَ أَفْضَظَ ظَهْرَكَ^(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ^(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ^(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ^(٨)﴾

[معنى شرح الصدر]

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ^(١)﴾ يعني أنا شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيًا واسعًا كقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

[بيان نعم الله على رسوله]

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ^(٢)﴾ بمعنى ﴿يُخَفِّرْ لَكَ اللَّهُ مَا قَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ﴿أَلَيْسَ أَفْضَظَ ظَهْرَكَ^(٣)﴾ الانقاض الصوت، وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَلَيْسَ أَفْضَظَ ظَهْرَكَ^(٤)﴾ أي أثقلت حمله.

[معنى رفع ذكر النبي]

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ^(١)﴾ قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله^(٢). وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله^(٣).

[اليسر بعد العسر]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(٤) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(٥)﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر.

[الأمر بالذكر عند الفراغ]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ^(٦) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ^(٧)﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال وأخلص لربك السنة والرغبة، ومن هذا القليل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يَدْفَعُهُ الْأَخْبَانِ»^(٨) وقوله ﷺ: «إِذَا أَقِمْتَ الصَّلَاةَ وَحَضَرَ الْعَشَاءَ فَأَبْسِ ذَوَا بِالْعَشَاءِ»^(٩) قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقم إلى الصلاة فانصب لربك^(١٠). آخر تفسير سورة ألم نشرح، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة (التين) والزلزلة

وهي مكية

[قراءة التين بالصلاة في السفر]

قال مالك وشعبة عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه. أخرجه الجماعة في كتبهم^(١٢).

- (١) مسلم: ٧٣٠/٢. (٢) القرطبي: ١٠٠/٢٠.
(٣) البغوي: ٥٠٠/٤. (٤) أبو داود: ١٥٧/٥.
(٥) تحفة الأحوذى: ٨٧/٦. (٦) أبو داود: ١٩٥/٥.
(٧) الطبري: ٤٩٤/٢٤. (٨) الطبري: ٤٩٤/٢٤.
(٩) مسلم: ٣٩٣/١. (١٠) فتح الباري: ٤٩٨/٩.
(١١) الطبري: ٤٩٧/٢٤.
(١٢) فتح الباري: ٥٨٣/٨، ومسلم: ٣٣٩/١، وأبو داود: ١٩/٢، وتحفة الأحوذى: ٢٢٦/٢، والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦، وابن ماجه: ٢٧٣/١.

والحسن وابن زيد وغيرهم^(٥)، ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل لهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي إلى أرذل العمر، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر^(٦)، واختار ذلك ابن جرير^(٧)، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ^(٨) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم.

ثم قال: ﴿فَمَا يَكُونُكَ﴾ أي يا ابن آدم ﴿بَعْدَ الْإِنِّ﴾ أي بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البداءة وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأى شيء يملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْبَرَ لِلْحَكِيمِينَ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فيتصف للمظلوم في الدنيا من ظلمه. وقد قدما في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إِذَا قُرَأَ أَحَدُكُمْ وَالْإِنِّ وَالزَّيْتُونِ» فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْبَرَ لِلْحَكِيمِينَ» فَلْيُثَلِّ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(٩) آخر تفسير سورة التين والزيتون والله الحمد والمنة.

تفسير سورة (الزيتون)

وهي أول شيء نزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفْرَأَى بِأَسْمَى رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿أَفَرَأَى﴾ (٣) ﴿الْأَكْبَرُ﴾ (٤) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٥) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٦)

[بدء نبوة محمد ﷺ وأول ما نزل من القرآن]

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٢٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٣٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٤٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٥٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٧٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٨٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٠) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٣) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٤) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٥) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٦) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٧) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٨) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (٩٩) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ (١٠٠)

[تفسير التين وما بعده]

المراد بالتين روى العوفي عن ابن عباس أنه مسجد نوح الذي على الجودي. وقال مجاهد هو تينكم هذا^(١) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال كعب الأحبار وقادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون^(٢) ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام^(٣)، ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ يعني مكة، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النخعي وابن زيد وكعب الأحبار^(٤) ولا خلاف في ذلك، وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

(فالأول): محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام.

(والثاني): طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران.

(والثالث): مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبال بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكره مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منها.

[سقوط الإنسان في أسفل سافلين مع كونه

خلق في أحسن تقويم ونتيجة ذلك]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٢) أي إلى النار، قاله مجاهد وأبو العالية

(١) الطبري: ٥٠٢/٢٤. (٢) الطبري: ٥٠١/٢٤.

(٣) الطبري: ٥٠٣/٢٤. (٤) الطبري: ٥٠٦، ٥٠٥/٢٤.

(٥) الطبري: ٥١٠، ٥٠٩/٢٤. (٦) الطبري: ٥٠٨/٢٤.

(٧) الطبري: ٥١١/٢٤. (٨) أبو داود: ٥٥٠/١.

للبخاري مستقصى، فمن أرادَه فهو هناك محرر والله الحمد والمنة، فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريكات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم.

[عزة الإنسان وشرفه بالعلم]

وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ذهني ولفظي ورسمي والرسمي يستلزمها من غير عكس، فلهذا قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١) الذي علم بالقلم (٢) علم الإنسان ما لم يعلم (٣) وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة، وفيه أيضًا: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَرِيمٌ﴾ (١) ﴿أَنزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَاقًا﴾ (٢) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٥) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٦) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٧) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٨) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٩) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٠) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١١) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٢) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٣) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٤) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٥) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٦) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٧) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٨) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٩) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢٠)

[الوعيد على طغيان الإنسان لأجل المال]

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّكَ رَبُّكَ أَكْرَمُ﴾ (١) أي إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيه صرفته.

[ذم أبي جهل والوعيد بمؤاخذته]

ثم قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَاقًا﴾ (١) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٤) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٥) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٦) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٧) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٨) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٩) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٠) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١١) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٢) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٣) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٤) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٥) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٦) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٧) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٨) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (١٩) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢٠)

(١) أحمد: ٦/٣٢٢.

(٢) فتح الباري: ١٢/٣٦٨، ومسلم: ١/١٣٩.

يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: «اقرأ» قال رسول الله ﷺ «فقلت: ما أنا بقاري» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاري، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاري، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) حتى بلغ ﴿مَآ تَرَىٰ﴾ (٢) قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي» فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: «يَا خَدِيجَةُ مَا لِي؟» وأخبرها الخبر وقال: «قَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي».

فقلت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ خَرَجْتِي هُم؟» فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيها بلغنا، حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواطئ الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقًا، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طال عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدي له جبريل فقال له مثل ذلك (١). وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري (٢)، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه في أول شرحنا

أَنْشَقَّتْ ① ﴿١﴾ و ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ②﴾ (٨) آخر تفسير سورة اقرأ، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَلِمَةَ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْذُنُ رَسِيمٌ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤﴾

[فضل ليلة القدر]

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ وهي ليلة القدر وهي من شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى معطفاً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ④ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ (٩).

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرُ مُبَارَكٍ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةُ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حَرَّمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حَرَّمَ» (١٠) ورواه النسائي (١١). ولما

﴿كَأَن لَّيْلَتَهُ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَتَنْفَعَا يَٰ نَاصِيَةً ⑤﴾ أي لنسمنها سواذا يوم القيامة ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑥﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها ﴿فَلْيَنْتَهِ نَادِيَهُ ⑦﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿سَنَعَنْ الزَّيْنَابَةَ ⑧﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه؟.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لَئِنْ فَعَلَ لَأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ» (١١). وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما (٢). وهكذا رواه ابن جرير (٣). وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد! ألم أنك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال يا محمد! بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً فأنزل الله ﴿فَلْيَنْتَهِ نَادِيَهُ ⑦﴾ سَنَعَنْ الزَّيْنَابَةَ ⑧ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذي: حسن صحيح (٤).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعرف محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو يتكص على عقيه ويتقي يديه، قال: فليل له! ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة قال: فقال رسول الله: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غُصُوا غُصُوا» قال: وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿كَأَن لَّالِاسِنَّ لَطْفِي ⑩﴾ إلى آخر السورة (٥). وقد رواه أحمد بن حنبل ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم (٦).

[تسليية للنبي]

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تَطَعُ﴾ يعني يا محمد! لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت، ولا تباليه فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿وَأَسْجِدْ وَاقْرَأْ ⑪﴾ كما ثبت في الصحيح عند مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» (٧) وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا أَلَمْنَا

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٩٥.

(٢) تحفة الأحوذى: ٩/ ٢٧٧، والنسائي في الكبرى: ٦/ ٥١٨.

(٣) الطبري: ١٢/ ٦٤٩ ط. علمية.

(٤) أحمد: ١/ ٣٢٩، والترمذي: ٣٣٤٩، والنسائي في الكبرى:

١١٦٨٤، والطبري: ١٢/ ٦٤٨ ط. علمية.

(٥) الطبري: ١٢/ ٦٤٩ ط. علمية.

(٦) أحمد: ٢/ ٣٧٠، ومسلم: ٢٧٩٧، والنسائي في الكبرى:

١١٦٨٣.

(٧) مسلم: ١/ ٣٥٠. (٨) مسلم: ١/ ٤٠٦.

(٩) الطبري: ٢٤/ ٥٣١، ٥٣٢، والقرطبي: ٢٠/ ١٣٠.

(١٠) أحمد: ٢/ ٢٣٠. (١١) النسائي: ٤/ ١٢٩.

كل رمضان» ثم روى عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال: «هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ»^(٣)، وهذا إسناده رجاله ثقات، إلا أن أبا داود قال: رواه شعبة وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه.

وعن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأناه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأناه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال: «مَنْ كَانَ اغْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَرْجِعْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي أُنْسِيْتُهَا، وَإِنِّي فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ فِي وَفْرِ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ» وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قرعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه. وفي لفظ: «فِي صَبْحِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ»، أخرجاه في الصحيحين^(٤) قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات. وقيل: ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم^(٥).

وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «التَّوَسُّوْهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فِي ثَاسِعَةِ ثَبَقَى، فِي سَابِعَةِ ثَبَقَى، فِي خَامِسَةِ ثَبَقَى»^(٦) فسرّه كثيرون بلبالي الأوتار وهو أظهر وأشهر. وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين^(٧).

وروى الإمام أحمد عن زر سأل أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقيم الحول يصيب ليلة القدر. قال يرحمه الله لقد علم أنها في شهر رمضان وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف، قلت: كيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها يعني الشمس^(٨)، وقد رواه مسلم^(٩).

(١) فتح الباري: ٤/ ٢٩٤، ومسلم: ١/ ٥٢٣.

(٢) أحمد: ٥/ ٣٢٤. (٣) أبو داود: ٢/ ١١١.

(٤) فتح الباري: ٤/ ٣١٨، ٣٢٩، ومسلم: ٢/ ٨٢٤.

(٥) مسلم: ٢/ ٨٢٧. (٦) فتح الباري: ٤/ ٣٠٦.

(٧) مسلم: ٢/ ٨٢٨. (٨) أحمد: ٥/ ١٣٠.

(٩) مسلم: ٢/ ٨٢٨.

كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

[نزول الملائكة وقضاء كل خير في ليلة القدر]

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٢) أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له، وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ كُلُّ أَمْرٍ﴾^(٣) قال مجاهد: سلام هي من كل أمر، وقال سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا الأعمش عن مجاهد في قوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة وغيره: تقضي فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(٥) قال سعيد بن منصور: حدثنا [هشيم] عن أبي إسحاق عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ كُلُّ أَمْرٍ﴾^(٦) سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ^(٧) قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر. وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر.

[تعيين ليلة القدر وعلاماتها]

ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ الْوَاقِي، مَنْ قَامَهُنَّ انْتِفَاءً حَسْبَتْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهِيَ لَيْلَةٌ وَفَرٌّ: سَبْعٌ أَوْ سَبْعٌ أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ». وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلْجَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا، سَاكِئَةٌ سَاجِدَةٌ، لَا بَرْدُ فِيهَا وَلَا حَرٌّ، وَلَا يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ يُرْمَى بِهِ فِيهَا حَتَّىٰ يُضْبَحَ، وَإِنْ أَمَارَتُهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ هَا شُعَاعٌ، مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ، وَلَا يَحِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ»^(٢) وهذا إسناده حسن، وفي المتن غرابة وفي بعض ألفاظه نكارة.

وقد ترجم أبو داود في سننه فقال: «باب بيان أن ليلة القدر في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَحِبِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَتْمَةُ ۖ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ﴾ (٢) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتْمَةُ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَظَةً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۖ﴾ (٣)

[ذكر حال الكفار من أهل الكتاب والمشركون]

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والثيران من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿مُتَحِبِّينَ﴾ يعني متبهين حتى يتبين لهم الحق (٩) وهكذا قال قتادة (١٠): ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَتْمَةُ﴾ (١) أي هذا القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَحِبِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَتْمَةُ ۖ﴾ (١). ثم فسر البيهقي بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) يعني عمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتوب في المسأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ (٧) تَرَفُّعًا مَطَهَّرَةً (٨) بِأَيْدِي سَوَرٍ (٩) كَرَامٍ زَرَرٍ (١٠)، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ﴾ (٢) قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عز وجل (١١).

[إنما وقع الاختلاف بعد مجيء العلم]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتْمَةُ ۖ﴾ (٢) كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتْمَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۖ﴾ (١٥) يعني بذلك

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. وروى الإمام أحمد ابن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «فِي رَمَضَانَ فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، فَإِنَّهَا فِي وَتَرِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، أَوْ ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسِ وَعِشْرِينَ، أَوْ سَبْعِ وَعِشْرِينَ، أَوْ تِسْعِ وَعِشْرِينَ، أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ» (١١) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إِنَّهَا لَيْلَةٌ سَابِعَةٌ أَوْ تَاسِعَةٌ وَعِشْرِينَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَلَكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى» (١٢) تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به.

وروى الترمذي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنقل في العشر الأواخر وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور والمزني وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي نقله القاضي عنه وهو الأشبه والله أعلم.

[دعاء ليلة القدر]

والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه ثم في أوتاره أكثر والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إني أعوذ بك عن غفوة الغفوة فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد أن عائشة قالت: يا رسول الله إني وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُجِيبُ الْعُفُوفَ فَاعْفُ عَنِّي» (١٣) وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (١٤) وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين (١٥)، ورواه النسائي أيضاً (١٦). آخر تفسير سورة ليلة القدر. والله الحمد والمنة.

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

[قراءة رسول الله ﷺ هذه السورة على أبي]

- روى الإمام أحمد أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: لأبي بن كعب: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾» قال: وسأني لك؟ قال: «نَعَمْ» فبكى (١٧). ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث شعبة به (١٨).
- (١) أحمد: ٣١٨/٥.
 (٢) أحمد: ٥١٩/٢.
 (٣) أحمد: ١٨٢/٦.
 (٤) تحفة الأحوذى: ٤٥٩/٩، والنسائي في الكبرى: ٢١٨/٦، وابن ماجه: ١٢٦٥/٢.
 (٥) الحاكم: ٥٣٠/١.
 (٦) النسائي في الكبرى: ٢١٩/٦.
 (٧) أحمد: ١٣٠/٣.
 (٨) فتح الباري: ٥٩٧/٨، ومسلم: ٥٥٠/١، وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/١٠، والنسائي في الكبرى: ٥٢٠/٦.
 (٩) الطبري: ٥٣٩/٢٤.
 (١٠) الطبري: ٥٣٩/٢٤.
 (١١) الطبري: ٥٤٠/٢٤.

ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨) أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبيده كأنه يراه وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّبِيَّةِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «رَجُلٌ اخْتَبَرْتُ فِي رِسْوِي سَبِيلَ اللَّهِ، كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةً اسْتَوَى عَلَيْهِ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ [بِالَّذِي يَلِيهِ؟]» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «رَجُلٌ فِي ثَلَاثٍ مِنْ عَنِيهِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّبِيَّةِ؟» قالوا: بلى قال: «الَّذِي يُسْأَلُ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ» (٩). آخر تفسير سورة لم يكن، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة إِذَا زُلْزَلَتْ

وهي مكية

[فضل سورة الزلزلة]

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: «افْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ أَلْرَّ» فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني، فقال: «فَافْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حَمٍّ» فقال: مثل مقالته الأولى، فقال: «افْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ الْمُسَبَّحَاتِ» فقال: مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» (١) حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً لا أريد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ الرَّوَيْجِلُ، أَفْلَحَ الرَّوَيْجِلُ» ثم قال: «عَلَيَّ بِهِ» فجاءه فقال له: «أَمِرتُ بِيَوْمِ الْأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ» فقال له الرجل: أرايت إن لم أجد إلا منيحة أنشئ فأضحى بها؟ قال: «لَا، وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتَقْلَمُ أَظْفَارَكَ وَتَقْصُ شَارِبَكَ وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ فَذَاكَ تَحَامُّ أَضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٢) وأخرجه أبو داود والنسائي (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) وَأَحْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا (٤)

(١) القرطبي: ١٥٩/٤، ١٦٠. (٢) أحمد: ٣٩٦/٢.

(٣) أحمد: ١٦٩/٢.

(٤) أبو داود: ١١٩/٢، والنسائي في الكبرى: ١٦/٥.

أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلّفوا في الذي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كِتَابِهِمْ وَاختَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِي مِنْ طَرَقٍ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَسَتَفَرِّقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (١).

[إنما كان أمر الله هو إخلاص الدين له]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجْسًا أَتَعْبُدُ اللَّهَ تُخِيبُ لَهَ الَّذِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥) وهذا قال: «حَقَّاهُ» أي متحفين عن الشرك إلى التوحيد كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ههنا ﴿وَرَبُّهُمْ الصَّلَاةُ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمساكين ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (١) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٢) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٣)

[ذكر شر البرية وخير البرية وذكر جزائهما]

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفره أهل الكتاب والمشركون المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أي ماكنين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (١) أي شر الخليقة التي برأها الله وذراها ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدلل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفصيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٢) ثم قال تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

بِأَنَّ رَمَكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّبَرِّهِمْ أَغْمَظَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

[يوم القيامة وما يكون فيه]

حال الأرض وحال الناس

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي تحركت من أسفلها ^(١) ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْعَالَهَا﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى قاله غير واحد من السلف، وهذه كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُورًا رِيَكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وكقوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ^(٢) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ^(٣) وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «[تَقِيءُ] الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا أَتْنَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَائِلُ يَقُولُ فِي هَذَا قُتِلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ يَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجُلِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ يَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا» ^(٤) وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَأْتِ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو مستقر على ظهرها أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. روى الإمام أحمد والترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي واللفظ له عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فَلْيَنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَآمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها وأوحى إليها ووحى لها ووحى إليها واحد ^(٦)، وكذا قال ابن عباس: أوحى لها أي أوحى إليها ^(٧)، والظاهر

أن هذا مضمن بمعنى أذن لها. وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لها ربي قولي: فقالت ^(٨): وقال مجاهد: أوحى لها أي أمرها ^(٩). وقال القرطبي: أمرها أن تنشق عنهم، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أشنأًا أي أنواعًا وأصنافًا ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار.

وقال السدي: أشنأًا فرقًا ^(١٠). وقوله تعالى: ﴿لِيُشْرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ أي ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر.

[الجزاء على كل ذرة من العمل]

ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ^(١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(١٢).

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رِبَطُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ طِيلُهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلُهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَزْوَائُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ - وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ - كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ.

وَرَجُلٌ رِبَطُهَا تَغْنِيًا وَتَعْمُقًا وَلَمْ يَنْسَحْ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رِبَطُهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَبُؤَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» فسنل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَاسِدَةُ الْجَامِعَةُ» ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ^(١٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(١٤)» ورواه مسلم ^(١٥).

وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعًا: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» ^(١٦) وله أيضًا في الصحيح: «لَا

(١) الدر المنثور: ٥٩٢/٨. (٢) مسلم: ١٠١٣.

(٣) أحمد: ٣٧٤/٢، تحفة الأحوذ: ٢٨٥/٩، والنسائي في الكبرى: ١١٦٩٣.

(٤) فتح الباري: ٥٩٨/٨. (٥) الطبري: ٥٤٩/٢٤.

(٦) الدر المنثور: ٥٩٢/٨. (٧) الطبري: ٥٤٨/٢٤.

(٨) الدر المنثور: ٥٩٣/٨. (٩) فتح الباري: ٥٩٨/٨.

(١٠) مسلم: ٦٨٠/٢. (١١) فتح الباري: ٣٣٢/٣.

﴿فَأْتَرَنِيهِ نَقْعًا﴾ (٤) هو المكان الذي حلت فيه، أنارت به الغبار وقوله تعالى: ﴿فَوْسَطَنِيهِ جَمْعًا﴾ (٥) قال العوفي: عن ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك: يعني: جمع الكفار من العدو (٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَآلَسْنَنَّا لِرَبِّهِ لَكُودٌ﴾ (٦) هذا هو المقسم عليه بمعنى: أنه لنعم ربه لكفور جحود، قال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم النخعي وأبو الجوزاء وأبو العالية وأبو الضحى وسعيد بن جبير ومحمد بن قيس، والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الكنود: الكفور (٩)، قال الحسن: الكنود هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم الله عليه (١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد (١١) ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد، أي بلسان حاله أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) أي وإنه لحب الخير - وهو المال - لشديد، وفيه مذهبان: (أحدهما) أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال، (والثاني) وإنه لحريص بخيل من حبة المال؛ وكلاهما صحيح.

[التخويف من المعاد]

ثم قال تبارك وتعالى مزهدًا في الدنيا، ومرغبًا في الآخرة، ومنبها على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (١) أي أخرج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (٢) قال ابن عباس وغيره: يعني: أبرز وأظهر ما كانوا يسيرون في نفوسهم ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (٣) أي لعالم بجميع ما

تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ تُفْرِغَ مِنْ ذُلُوكَ فِي إِنَاءٍ الْمُسْتَنْقِي، وَلَوْ أَنَّ تَلْقَىٰ أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبِطٌ (١) وفي الصحيح أيضًا: «يَا مَعْشَرَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِّجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ» (٢) يعني ظلفها، وفي الحديث الآخر: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظُلْفٍ مَحْرُوقٍ» (٣).

وروي عن عائشة أنها تصدقت بعتبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة (٤). وروى الإمام أحمد: عن عوف بن الحارث بن الطفيل، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان يقول: «بِعَائِشَةَ، إِيَّاكَ وَتَحْقِرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ هَا مِنْ اللَّهِ طَالِيًا» ورواه النسائي وابن ماجه (٥). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَتَحْقِرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُبْلِكَنَّهُ» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارا، وأنضجوا ما قذفوا فيها (٦). آخر تفسير إذا زلزلت، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُورِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَأْتَرَنِيهِ نَقْعًا﴾ (٤) ﴿فَوْسَطَنِيهِ جَمْعًا﴾ (٥) ﴿إِنَّا لَآلَسْنَنَّا لِرَبِّهِ لَكُودٌ﴾ (٦) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (١٠) ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١)

[القسم بخيل الحرب على كفران الإنسان وحرصه]

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ (٢) يعني: اصطكاك نعلها للصخر فتقدح منه النار ﴿فَالْمُورِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (٣) يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويتسمع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار. وقوله تعالى: ﴿فَأْتَرَنِيهِ نَقْعًا﴾ (٤) يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول ﴿فَوْسَطَنِيهِ جَمْعًا﴾ (٥) أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني: إغارة الخيل صبحًا في منبيل الله (٧)، وقوله:

(١) مسلم: ٢٠٢٦/٤. (٢) فتح الباري: ١٠/٤٥٩.

(٣) أحمد: ٣٨١/٥. (٤) الموطأ: ٢/٩٩٧.

(٥) أحمد: ١٥١/٦، وابن ماجه: ٤٢٤٣.

(٦) أحمد: ٤٠٢/١. (٧) الطبري: ٢٤/٥٦٢.

(٨) الطبري: ٢٤/٥٦٥، ٢٤/٥٦٦. (٩) الطبري: ٢٤/٥٦٦.

(١٠) الطبري: ٢٤/٥٦٦. (١١) الطبري: ٢٤/٥٧٦.

(١٢) الطبري: ٢٤/٥٦٩.

وقال ابن زيد: الهاوية: النار هي أمه وماواه التي يرجع إليها، ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَا أَدْرَاكُمْ أَنْتَارُ﴾^(١) قال ابن أبي حاتم: وروي عن قتادة أنه قال: هي النار، وهي ماواههم^(٢)، ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا هِيَ﴾^(٣) نَارُ حَامِيَةٍ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾^(٥) أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: «إِنَّمَا فَضِّلْتُ عَلَيْهَا بَيْسَعَةً وَبَسْتَيْنِ جُزْءًا» ورواه البخاري ومسلم^(٦) وفي بعض ألفاظه: «إِنَّمَا فَضِّلْتُ عَلَيْهَا بَيْسَعَةً وَبَسْتَيْنِ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ يُنْتَلِ حَرُّهَا».

وجاء في الحديث عند الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مِنْ لَهُ نَعْلَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ»^(٧) وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اشْتَكَبَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ: أَكُلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشَّتَاءِ مِنْ بَرْدِهَا، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا»^(٨) وفي الصحيحين: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ»^(٩). آخر تفسير سورة القارعة، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَلْكُمْ التَّكَاثُرُ﴾^(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

(١) الطبري: ٥٧٤/٢٤.

(٢) الطبري: ٥٧٤/٢٤، ٥٧٦، والقرطبي: ١٦٧/٢٠.

(٣) الطبري: ٥٧٦/٢٤. (٤) الطبري: ٥٧٥/٢٤.

(٥) الطبري: ٥٧٥/٢٤. (٦) الطبري: ٥٧٦/٢٤.

(٧) الطبري: ٥٧٥/٢٤.

(٨) فتح الباري: ٣٨٠/٦، ومسلم: ٢١٨٤/٤.

(٩) أحمد: ٤٣٢/٢، ١٣/٣.

(١٠) فتح الباري: ٣٨٠/٦، ومسلم: ٤٣١/١.

(١١) فتح الباري: ٢٠/٢، ومسلم: ٤٣٠/١.

كانوا يصنعون ويعملون، ومجازتهم عليه وأوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة. آخر تفسير سورة العاديات، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾^(١) مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَايَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

القارعة من أساء يوم القيامة، كالخاق والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك، ثم قال تعالى معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا الْقَارِعَةُ﴾^(٢) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٣) أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجئهم من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كَانَتْهُمْ جَزَاءً مَثْبُورًا﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾^(٥) يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن و قتادة وعطاء الخراساني والضحاك والسدي: ﴿كَانَتْهُمْ﴾^(٦) الصوف^(٧)، ثم أخبر تعالى عما يسؤل إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٨) أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٩) يعني: في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(١٠) أي: رجحت سيئاته على حسناته. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةٌ﴾^(١١) قيل: معناه: فهو ساقط هارٍ بأم رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه يعني دماغه روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح و قتادة^(١٢)، وقال قتادة يهوي في النار على رأسه^(١٣) وكذا قال أبو صالح: يهون في النار على رؤوسهم^(١٤)، وقيل: معناه: فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها (هاوية) وهي اسم من أسماء النار، قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها^(١٥)،

عَلِمَ الْيَقِينُ ⑤ لَرَوُتُ الْجَحِيمِ ⑥ ثُمَّ لَرَوُتُهَا عَيْنُ
الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَسْتُ أَنْ يَوْمِيذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

[نتيجة حب الدنيا غفلة عن الآخرة]

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها وتمادي بكم وذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها.

وفي صحيح البخاري في الرقاق منه عن أنس بن مالك عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَاكُرُ ①﴾ يعني: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْمَنْ ذَهَبٌ» ②. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَاكُرُ ①﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَقْبَلْتِ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمَضَيْتِ؟» ③ ورواه مسلم والترمذي والنسائي ④، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَقْنَى، أَوْ لَيْسَ فَأَقْبَلَ، أَوْ تَصَدَّقَ فَأَمَضَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَهَبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ» ⑤ تفرد به مسلم.

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَمِيتَ ثَلَاثَةٌ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ» ⑥ وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي ⑦، وروى الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يَبْزُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مِنْهُ اثْنَانِ: الْخِرْصُ وَالْأَمَلُ» ⑧ أخرجه في الصحيحين ⑨.

[الوعيد برؤية الجحيم والسؤال عن النعيم]

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ①﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ② قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد ③، وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ①﴾ يعني: أيها الكفار ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ②﴾ يعني: أيها المؤمنون ④، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألحاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم من المقابر، ثم قال: ﴿لَرَوُتُ الْجَحِيمَ ⑥﴾ ثُمَّ لَرَوُتُهَا عَيْنُ الْيَقِينِ ⑦ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ①﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ② توعدهم بهذا

الحال، وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة، خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاناة الأحوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ أي ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وروى ابن جرير: حدثني الحسين بن علي الصدائي، حدثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة ؓ قال: بينا أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «مَا أَجْلَسَكُمَا هَهُنَا؟» قالا: والذي بعثك بالحق! ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة فقال لها النبي ﷺ: «أَيُّنَ فُلَانٌ؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال مرحباً، ما زال العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعددق، فقال النبي ﷺ: «أَلَا كُنْتَ اجْتَنَيْتُ؟» فقال: أحيت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة فقال له النبي ﷺ: «إِنَّاكَ وَالْحُلُوبُ» فذبح لهم يومئذ فأكلوا، فقال له النبي ﷺ: «لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هَذَا، فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ» ① ورواه مسلم ②.

وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَبْنُونَتَانِ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» ③ ومعنى هذا أنهم

(١) فتح الباري: ١١/٢٥٨. (٢) أحمد: ٤/٢٤.

(٣) مسلم: ٤/٢٢٧٣ وتحفة الأحوذ: ٩/٢٨٦ والنسائي في الكبرى: ٦/٥٢١.

(٤) مسلم: ٤/٢٢٧٣. (٥) فتح الباري: ١١/٣٦٩.

(٦) مسلم: ٤/٢٢٧٣ وتحفة الأحوذ: ٧/٥٠ والنسائي في الكبرى: ٦/٦٣١.

(٧) أحمد: ٣/١١٥.

(٨) البخاري: ٦٤٢١ ومسلم: ١٠٤٧.

(٩) البغوي: ٤/٥٢٠. (١٠) الطبري: ٢٤/٥٨١.

(١١) الطبري: ٢٤/٥٨٣. (١٢) مسلم: ٣/١٦٠٩.

(١٣) فتح الباري: ١١/٢٣٣ وتحفة الأحوذ: ٦/٥٨٩ وتحفة الأشراف: ٤/٤٦٥ وابن ماجه: ٢/١٣٩٦.

مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجهتهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ عِفَان: يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَا ابْنَ آدَمَ، تَحْتَلِكُ عَلَى الْخَلِيلِ وَالْإِيلِ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعَ وَتَرَأْسَ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ؟»^(١) تفرد به من هذا الوجه.

آخر تفسير سورة التكاثر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة العصر

وهي مكية

[معرفة عمرو بن العاص لإعجاز

القرآن بهذه السورة]

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وبما هي؟ فقال: «وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) فَفَكَرَ مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وير يا وير، إنما أنت أذنان وصدر، وسائر كحفر نقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب^(٢).

وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف (بمسائى الأخلاق) في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه. والوبر دوية تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدرة وباقيه دميم، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن. فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان. وروى الطبراني عن [عبد الله بن حفص أبي مدينة] قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر^(٣)، وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾^(٢)
العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو العشي، والمشهور الأول، فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي في خسارة وهلاك ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي على المصائب والأفئدة، وأذى من يؤدي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر. آخر تفسير سورة العصر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيَكُونَنَّ فِي الْخَطْمَةِ (٤) وَمَا أَدرِيكَ مَا الْخَطْمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ (٦) إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٧) فِي عَمُوْمُدَدٍ (٨)﴾^(١)

الهماز بالقول، واللساز بالفعل، يعني يزدرى الناس ويتقص بهم. وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ يُنْبِئُ (١١)﴾ قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ (١)﴾: طعان معياب^(٤). وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان. وقوله تعالى: ﴿الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)﴾ أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَنْجَى (١٨)﴾ قاله السدي وابن جرير^(٥). وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)﴾: ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة متنتة.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)﴾ أي يظن أن جمعه

(١) أحمد: ٤٩٢/٢.

(٢) ذكره أيضاً في البداية والنهاية: ٦/٣٢٠ ط. زمزم، ونحوه الحافظ في الإصابة ٣/٢٢٥.

(٣) المعجم الأوسط: ٥٠٩٧ «جمع البحرين».

(٤) الطبري: ٥٩٦/٢٤.

(٥) الطبري: ٥٩٨/٢٤، والقرطبي: ١٣٨/٢٠.

والتقريب: قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نواس - وكان آخر ملوك حمير، كان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى وكانوا قريباً من عشرين ألفاً فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام، وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر، واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرها وتصالوا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيتنا، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك، فأجابه إلى ذلك فبارزا وخلف كل واحد منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضره بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن.

فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويخلف ليطأن ببلاده ويحزن ناصيته، فأرسل إليه أبرهة يترفق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا ونحف وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته، فأرسلها معه ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رقيقة البناء عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سميتها العرب القليس لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بناؤها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدوا بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً، فأحدث فيها وكرراً رجاءً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إننا صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة

المال يخلده في هذه الدار ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعم، ولا كما حسب. ثم قال تعالى: ﴿يَبْدَنَّ فِي الْخَطْمَةِ﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع ملاً فعدده، في الخطمة وهي اسم صفة من أساء النار، لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْفِدِ﴾ قال ثابت البناني: تخرجهم إلى الأقدلة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب ثم يبكي، قال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقوله تعالى: ﴿فِي عَذَابٍ مُّتَدَدٍ﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد، وقال السدي: من نار، وقال العوفي عن ابن عباس: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب^(٢). آخر تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَنُهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاب والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم نصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشره ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء.

قصة أصحاب الفيل بإيجاز

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار

ليسيرن إلى بيت مكة وليخرينه حجرًا حجرًا.

وذكر مقاتل بن سليمان: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارا، وكان يومًا فيه هواء شديد، فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش كثيف عرمرم لثلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك، ويقال: كان معه أيضًا ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً غيره فالله أعلم.

يعني ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًّا وراوا أن حقًّا عليهم المحاجة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخراجه، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريد الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر، فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه، حتى إذا كان بأرض خشع اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران وناهس فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز.

فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال دليلًا، فلما انتهى أبرهة إلى المغمس - وهو قريب من مكة - نزل به. وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: الأسود بن مقصود فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجمع لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال: فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن نخل بيته وبيته فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه.

فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جسيبًا حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال لترجمانه: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتي، أنكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا يمينه.

قال: ما كان ليمنتع مني. قال: أنت وذاك، ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفًا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب: وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - رَمَى يَمْنَعُ

رَخَّلَهُ فَمَنْعَ جَلَّالِكَ

لَا يَفْلَحُ بَنُ صَالِحٍ لِيَبْهَمُ

وَمَجْهَالُهُمْ غَمَزُوا مَحَالَّكَ

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال، وذكر مقاتل بن سليمان: أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيله، وكان اسمه محمودًا، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود أو ارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقيه [فبزغوه] بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك،

الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)، ﴿لَا يَلْفُ ثَرِيثٌ﴾ (٦) لِإِلْفِهِمْ رَحَلَةً أَلَيْسَ الْأَصْنَفُ (٧) قَلْعِيدُوا رَبَّ هَذَا أَلَيْتَ (٨) الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جَوْعٍ وَأَمَتْهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٩) ﴿أَي لثلا غير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام: الأبايل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنها كلمتان بالفارسية جعلتها العرب كلمة واحدة، وإنما هو سنج وجل، يعني بالسنج: الحجر والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسيتين الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، واحده عصفه^(١)، انتهى ما ذكره. وقد قال حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله، وأبو سلمة بن عبد الرحمن: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٢) قال: الفرق، وقال ابن عباس والضحاك، أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري وقادة: الأبايل الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبايل المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا أتهم من كل مكان^(٢)، وقال الكسائي: سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبايل إيل.

وروي ابن جرير عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) هي الأفاطيع كالإبل المؤبلة^(٣)، عن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) قال: لهم خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأف الكلاب^(٤). عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) قال: كانت طيراً خضرًا خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع^(٥)، عن عبيد ابن عمير: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) قال: هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها^(٦) الحجارة، وهذه أسانيد صحيحة. عن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل

ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، ولا يصيب منهم أحداً إلا هلك.

وليس كلهم أصابت، وخرجوا هارين يتندرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أَيُّنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ

والأشرم المغلوب غير الغالب

قال ابن إسحاق وقال نفيل في ذلك أيضاً:

أَلَا حَيَّيْتِ عَنَابِيَا رُدَيْنَا

نَعْمَنَّاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عِنَا
رُدَيْنَةُ لَوْرَأَيْتِ - وَلَا تَرَيْنَهُ -

لَدَى جَنْبِ الْمُخَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَلَّزْتِنِي وَحَمَدْتِ أَمْرِي

وَلَمْ تَأْسِي عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا

وَخَفْتُ حِجَارَةً تَلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلَ الْقَوْمِ تَسْأَلُ عَنْ نَفِيلٍ

كَأَنَّ عَلِيَّاً لِلْحُبُشَانِ دِينَا
وقال عطاء بن يسار وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في

الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم. وقال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يُعَدُّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر

(١) ابن هشام: ٥١/١ - ٥٦. (٢) الطبري: ٢٤/٦٠٥، ٦٠٦.

(٣) الطبري: ٢٤/٦٠٦. (٤) الطبري: ٢٤/٦٠٧.

(٥) الطبري: ٢٤/٦٠٧. (٦) الطبري: ٢٤/٦٠٧.

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ (١) إِلَافُهُمْ رَحْلَةً لَيْسَتْ وَالصَّبِ

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٢) كَذَلِكَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ

جُوعٍ وَءَامَهُمْ مِنْ حَوْفٍ ﴿١﴾

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما حسنا عن مكة الفيل وأهلكتنا أهله ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ (١) أي لا تلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في التاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم أحترمهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم آمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ﴿١﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ (١) إِلَافُهُمْ ﴿٢﴾ بدل من الأول ومفسر له، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَافَهُمْ رَحْلَةً لَيْسَتْ وَالصَّبِ﴾ (٢) قال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب، كأنه يقول اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنها سورتان منفصلتان مستقلتان.

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٢) أي فليؤدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ تَعْبُدُوا رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي

بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجله وحجرًا في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومنقارها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة ففريت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٢) قال سعيد ابن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة هُبُور، وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة (١)، وعنه أيضاً: العصف: التبن، والمأكول: القصيل يجز للدواب، وكذلك قال الحسن البصري، وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة (٢).

وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه فصار [روثاً] (٣) والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا هو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات، فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة، ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانته على الحبشة، فأفئذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آبائهم من الملك وجاءته وفود العرب بالتهنئة (٤).

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته فزجروها فألحقت، فقالوا: خلأت القصواء أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ - ثم قال: - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا» ثم زجرها فقامت (٥).

والحديث من أفراد البخاري، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيَبْسِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» (٦).

آخر تفسير سورة الفيل، والله الحمد والمنة.

(١) الدر المنثور: ٦٣٣/٨. (٢) البغوي: ٥٢٩/٤.

(٣) الطبري: ٦٩٩/٢٤.

(٤) انظر مفصلاً في سيرة ابن هشام: ٩٦/١ - ١٠٣.

(٥) فتح الباري: ٣٨٨/٥.

(٦) فتح الباري: ٢٤٨/١، ومسلم: ٩٨٨/٢.

هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفرده بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنما ولا ندا ولا وثنا، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَلَائِكَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾. آخر تفسير سورة لإيلاف قريش، والله الحمد والمنة.

تفسير السورة التي يذكر

فيها الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْإِيمَانَ ﴿٢﴾ وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْمَعُونَ أَلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

[أوصاف منكري القيامة]

يقول تعالى: أرايت يا محمد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْإِيمَانَ﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ﴿وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ ﴿٢﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْإِيمَانَ﴾ ﴿٣﴾ وَلَا تَخْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴿٤﴾ يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته، ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر ^(١)، ولهذا قال ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٦﴾ الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدّر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى ^(٢).

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ» ^(٥)، وما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ﴿٦﴾ أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس، فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء.

- وقوله تعالى: ﴿وَيَسْمَعُونَ أَلْمَاعُونَ﴾ ﴿٧﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما يتسفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهو لا يمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى، وقال المسعودي عن سلمة بن كهيل، عن أبي العبيدين: أنه سئل ابن مسعود عن الماعون فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقدر

(١) الطبري: ٢٤/٦٣٢. (٢) الطبري: ٢٤/٦٣١.

(٣) القرطبي: ٢٠/٢١٢.

(٤) فتح الباري: ٦/٣٨٦، ومسلم: ١/٤٣٤.

(٥) أحمد: ٢/٢١٢.

والدلو وأشباه ذلك^(١).
آخر تفسير السورة والله الحمد والمنة.

أيضاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الكوثر: الخير الكثير^(٢)، وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافاته من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماءه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»^(٣). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وقال الترمذي: حسن صحيح^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾^(٥) أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) لا شريك له، وبذلك أثبت وأثبت أول السليبين^(٧) قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن: يعني بذلك نحر البدن ونحوها^(٨)، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب القرظي والضحاك والربيع وعطاء الخراساني والحكم وإسماعيل بن أبي خالد وغير واحد من السلف^(٩)، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ إِنَّهَ لَفُسْقٌ﴾ الآية.

[عدو النبي هو الأبتار]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١٠) أي إن

(١) الطبري: ٢٤/٦٣٩.

(٢) مسلم: ١/٣٠٠، وأبو داود: ٥/١١٠، والنسائي في الكبرى:

٥٣٣/٦.

(٣) مسلم: ١/٣٠٠. (٤) أحمد: ٣/١٠٢.

(٥) أحمد: ٣/١٠٣. (٦) البخاري: ٤٩٤٦.

(٧) أحمد: ٣/٢٢٠. (٨) فتح الباري: ٨/٦٠٣.

(٩) الطبري: ٢٤/٦٤٧. (١٠) أحمد: ٢/٦٧.

(١١) تحفة الأحوذني: ٩/٢٩٤، وابن ماجه: ٢/١٤٥٠،

والطبري: ٢٤/٦٥٠.

(١٢) الطبري: ٢٤/٦٥٣. (١٣) الطبري: ٢٤/٦٥٤.

تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٢)

روى مسلم وأبو داود والنسائي عن أنس^(٣)، واللفظ لمسلم قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً سُرُورَةً» فقرا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٤) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ^(٥) إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ^(٦) ثم قال: «أَتَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ خَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ - آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي - فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَخَذْتُ بِعَدْلِكَ»^(٧). ورواه أحمد ثلاثياً عن محمد بن فضيل، عن المختار بنلفل، عن أنس بن مالك^(٨).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ، فَضَرَبْتُ يَدَيَّ إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِنْكَ أَذْفَرُ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٩). ورواه

البخاري في صحيحه ومسلم عن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ الْمَجُوفُ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ»^(١٠) وهو لفظ البخاري رحمه الله.

وروى أحمد عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ أَغْطَانِيهِ رَبِّي، هُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَغْنَاهَا كَأَغْنَى الْجَزْرِ» قال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة. قال: «أَكَلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ»^(١١).

روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت

بعد المغرب بضعا وعشرين مرة - أو بضع عشرة مرة - ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢) .^(٨)

وروى أحمد أيضا عن ابن عمر قال: رمت النبي ﷺ أربعاً وعشرين مرة - أو خمسا وعشرين مرة - يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢) .^(٩) وروى أحمد عن ابن عمر قال: رمت النبي ﷺ شهرا، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢) .^(١٠) وكذا رواه الترمذي وابن ماجه وأخرجه النسائي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن^(١١)، وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكَ دِينٌ وَلِي دِينٌ (٦)

[البراءة من الشرك]

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) يعني من الأصنام والأنداد ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) وهو الله وحده لا شريك له، ف «ما»

مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتى الأقل الأذل المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقسادة: نزلت في العاص بن وائل^(١)، وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة^(٢)، وقال شمر ابن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط^(٣).

وقال ابن عباس أيضا وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش^(٤)، وروى البزار عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقاتلت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، قال: فتزلت: ﴿إِن كُنتَ شَايِئًا فَهُوَ الْآبِتُ﴾ (٢) هكذا رواه البزار وهو إسناده صحيح^(٥)، وعن عطاء قال: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال: بتر محمد الليلة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِن كُنتَ شَايِئًا فَهُوَ الْآبِتُ﴾ (٢).

وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد، فأنزل الله: ﴿إِن كُنتَ شَايِئًا فَهُوَ الْآبِتُ﴾ (٢) فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد. آخر تفسير سورة الكوثر، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية

[قراءة هذه السور في النوافل]

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) في ركعتي الطواف^(٦)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بها في ركعتي الفجر^(٧). وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين، قبل الفجر، والركعتين

(١) الطبري: ٢٤/٢٥٦، ٦٥٧. (٢) ابن هشام: ٧/٢.

(٣) الطبري: ٢٤/٦٥٧. (٤) الطبري: ٢٤/٦٥٧.

(٥) كشف الأستار: ٨٣/٣.

(٦) مسلم: ٨٨٨/٢ في حديث طويل.

(٧) مسلم: ٥٠٢/١. (٨) أحمد: ٢/٢٤، ٥٨.

(٩) أحمد: ٢/٩٩. (١٠) أحمد: ٢/٩٤.

(١١) تحفة الأحوذى: ٢/٤٧٠، وابن ماجه: ١/٣٦٣،

والنسائي: ٢/١٧٠.

هنا بمعنى من، ثم قال: ﴿وَلَا أَتَاعِدُ مَا عَدِدْتُكُمْ﴾ (١) ﴿وَلَا أَتَعِدُ مَا عَدِدْتُكُمْ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقفد بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿وَلَا أَتَعِدُ مَا عَدِدْتُكُمْ﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِنْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (٢).

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عباداً لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٣) كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ فِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِّيعُونَ وَمِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرٌّ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤) وقال: ﴿لَا أَعْمَلُ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾. وقال البخاري يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ (٥) الإسلام. ولم يقل ديني، لأن الآيات بالنون تحذف الياء، كما قال: ﴿تَهْوَى النَّفْسُ﴾ (٦) و﴿تَشْفِينِ﴾ (٧) (٨).

آخر تفسير سورة قل يا أيها الكافرون.

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية

[فضل سورة النصر]

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن. وروى النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) قال: صدقت (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وَرَأَيْتَ

لَكَ سَادَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

[هذه السورة إخبار عن تمام أجل رسول الله ﷺ]

روى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع

تقول (٣). تفرد به البخاري.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) قال رسول الله ﷺ: «نُبِئْتُ إِلَى نَفْسِي، بِأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّيَةِ» (٤)، تفرد به أحمد.

وروى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكسر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» (٥) يتأول القرآن. وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي (٦).

وروى الإمام أحمد عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكسر في آخر أمره من قول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» وقال: «إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أَسْبِّحَ بِحَمْدِكَ وَأَسْتَغْفِرُكَ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا» (٧) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) (٧) ورواه مسلم (٨). والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون:

(١) فتح الباري: ٨/٦٠٤.

(٢) النسائي في الكبرى: ٦/٥٢٥.

(٣) فتح الباري: ٨/٦٠٦. (٤) أحمد: ١/٢١٧.

(٥) فتح الباري: ٨/٦٠٥.

(٦) مسلم: ١/٣٥٠، وأبو داود: ١/٥٤٦، والنسائي في

الكبرى: ٦/٥٢٥، وابن ماجه: ١/٢٨٧.

(٧) أحمد: ٦/٣٥٠. (٨) مسلم: ١/٣٥١.

روى الإمام أحمد عن أبي الزناد قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الدليل، وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرين يقول: إنه صابغ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب^(٤)، ثم رواه عن سريج عن ابن أبي الزناد عن أبيه فذكره، قال أبو الزناد: قلت: لربيعة كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا والله، إني يومئذ لأعقل، أي أزر القربة^(٥). تفرد به أحمد.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٦) قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾^(٦) يعني ولده^(٦)، وروى عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله^(٧)، وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب الأليم بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٨) وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٩) أي ذات لهب وشرر وإحراق شديد.

[ذكر مصير أم جميل امرأة أبي لهب]

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^(١٠) وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده. فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^(١١) في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن نَّسِيمٍ^(١٢) يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، وهي مهياة لذلك مستعدة له ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن نَّسِيمٍ﴾^(١٣) قال مجاهد وعروة: من مسد النار^(١٤).

وقال العوفي: عن ابن عباس وعطية الجذلي والضحاك وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ. وقال الجوهري: المسد: الليف، والمسد أيضاً: حبل من

إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض ستان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، والله الحمد والمنة.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكان الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي^(١٥) الحديث، وقد حررنا غزوة الفتح في كتابنا «السيرة» فمن أراد فليراجع هناك، والله الحمد والمنة. وروى الإمام أحمد عن أبي عمار، حدثني جابر بن عبد الله قال قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله فسلم علي، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبيكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا»^(١٦). آخر تفسير سورة النصر، والله الحمد والمنة.

تفسير السورة تبت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يُدَا إِلَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن نَّسِيمٍ^(٥)

[سبب نزول السورة، وعناد أبي لهب لرسول الله ﷺ]

روى البخاري عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: «يَا صَبَاخَةَ» فاجتمعت إليه قريش فقال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ، أَوْ مُسَيِّكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِ؟» قالوا: نعم، قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فقال أبو لهب: ألهذا جئتنا؟ بئاً لك، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يُدَا إِلَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٦) إلى آخرها^(٧) وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: بئاً لك سائر اليوم، ألهذا جئتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يُدَا إِلَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٨) الأول دعاء عليه والثاني خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتيبة، وإنما سمي أباً لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتقصص له ولديته.

(١) فتح الباري: ٧/٦١٦. (٢) أحمد: ٣/٣٤٣.

(٣) فتح الباري: ٨/٦٠٩. (٤) أحمد: ٤/٣٤١.

(٥) أحمد: ٤/٣٤١. (٦) الطبري: ٢٤/٦٧٧.

(٧) الطبري: ٢٤/٦٧٧. (٨) الدر المنثور: ٨/٦٦٧.

الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١) ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء (٢). ورواه ابن أبي حاتم والترمذي ذكره مرسلًا ثم قال الترمذي: وهذا أصح (٣).

(حديث آخر في فضلها) روى البخاري عن عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في حجر عائشة زوج النبي ﷺ - عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهَا» هكذا رواه في كتاب التوحيد (٤)، وقد رواه مسلم والنسائي أيضًا (٥).

(حديث آخر) روى البخاري في كتاب الصلاة، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتكم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: «يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» قال: إني أحبها، قال: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَذْخَلَكَ الْجَنَّةَ». هكذا رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به (٦).

(حديث في كونها تعدل ثلث القرآن) روى البخاري عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

ليف أو خوص، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسدًا، إذا أجدت قتله.

وقال مجاهد: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسِيٍّ﴾ (٥) أي طوق من حديد (٦)، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسدًا؟ [قصة من إزاء امرأة أبي لهب لرسول الله ﷺ]

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي وأبو زرعة قالوا: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا الوليد ابن كثير عن [ابن تدرُس] عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول:

لَمَّا أَبَيْنَا

وَدَيْنَاهُ قَلِينَا

وَأَمْرَهُ عَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَنْ تَرَانِي» وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَلِّسْنَا يَنبُكَ وَبَيْنَ أَلْيَيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جُنَابًا مُّسْتُورًا﴾ (٥) فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرتك أن صاحبك هجاني، فقال: لا، ورب هذا البيت ما هجاك، فقلت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فعشرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت: تنس مُدَمَّم، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصان فما أكلم، ونكاف فما أعلم، وكناتنا من بني العم، وقريش بعد أعلم (٦).

آخر تفسير السورة، والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

[ذكر سبب نزولها وفضلها]

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) وكذا رواه الترمذي وابن جرير، زاد ابن جرير والترمذي قال: ﴿الصَّمَدُ﴾ (٥)

(١) الطبري: ٢٤/٦٨١. (٢) فتح الباري: ٨/٦١٠.

(٣) أحمد: ٥/١٣٣.

(٤) تحفة الأحوذى: ٩/٢٩٩، والطبري: ٢٤/٦٩١.

(٥) تحفة الأحوذى: ٩/٣٠١. (٦) فتح الباري: ١٣/٣٦٠.

(٧) مسلم: ١/٥٥٧، والنسائي في الكبرى: ٦/١٧٧.

(٨) فتح الباري: ٢/٢٩٨.

من جسده يبدأ بها على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(١٢). وهكذا رواه أهل السنن^(١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① **اللَّهُ الصَّمَدُ** ② **لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ③
وَلَمْ يُولَدْ ④ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ⑤

قد تقدم ذكر سبب نزولها، وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير، ولا تدبير ولا شبه ولا عدل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ② قال عكرمة عن ابن عباس: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته. وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثل شيء، سبحانه الله الواحد القهار^(١٤)، وقال الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل:

(١) فتح الباري: ٦٧٦/٨.

(٢) أبو داود: ١٥٢/٢، والنسائي في الكبرى: ١٦/٥.

(٣) فتح الباري: ٦٧٦/٨. (٤) الموطأ: ٢٠٨/١.

(٥) تحفة الأحوذى: ٢٠٩/٨، والنسائي في الكبرى: ١٧٧/٦.

(٦) فتح الباري: ٢٩٨/٢. (٧) أحمد: ٣١٢/٥.

(٨) أبو داود: ٣٢٠/٥، وتحفة الأحوذى: ٢٨/١٠، والنسائي:

٢٥٠/٨.

(٩) النسائي: ٢٥١/٨.

(١٠) النسائي في الكبرى: تحفة الأشراف: ٩٠/٢.

(١١) أبو داود: ١٤٩٣، والترمذي: ٣٤٧٥، وابن ماجه: ٣٨٥٧.

(١٢) فتح الباري: ٦٧٩/٨.

(١٣) أبو داود: ٣٠٣/٥، وتحفة الأحوذى: ٣٤٧/٩، والنسائي

في الكبرى: ١٩٧/٦، وابن ماجه: ١٢٧٥/٢.

(١٤) الطبري: ٦٩٢/٢٤.

أَحَدٌ ① ﴿يردها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالمها فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»^(١) ورواه أبو داود والنسائي^(٢).

(حديث آخر) روى البخاري عن أبي سعيد لله قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أُبَعِّجُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»^(٣) تفرد بإخراجه البخاري.

(حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة) روى الإمام مالك بن أنس عن عبيد بن حنين قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ - قلت: وما وجبت؟ قال: - الْجَنَّةُ»^(٤) ورواه الترمذي والنسائي من حديث مالك، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث مالك^(٥)، وتقدم حديث: «حُبُّكَ إِنَّمَا أَذْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(٦).

(حديث في تكرار قراءتها) روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أصابنا طش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: «قُلْ فسكت. قال: «قُلْ قلت: ما أقول؟ قال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَالْمُؤَدِّينَ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»^(٧) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقد رواه النسائي من طريق أخرى، ولفظه «تَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ»^(٨).

(حديث آخر) في الدعاء بما تضمنته من الأسماء. روى النسائي عند تفسيرها، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد، فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ»^(٩) وقد أخرجه بقية أصحاب السنن^(١١) وقال الترمذي: حسن غريب.

(حديث آخر) في الاستشفاء بهن، روى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلْكَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَائِسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع

[فضل المعوذتين]

﴿أَفْصَحُ﴾ (٢) السيد الذي قد انتهى سؤده (١).

[الله منزله عن الولد والوالد والصاحبة والكفو]

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤْكَدْ﴾ (٥) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ: كَفُوا أَحَدًا (٦) أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

قال مجاهد: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُوا أَحَدًا﴾ (٦) يعني لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَلَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالفه، فكيف يكون له من خلقه نظير

يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتزه، قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨)

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَفْشَقُ الْأَرْضُ وَتَجْرُ لِجِبَالِ هَذَا

(٩) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (١٠) إِنْ

كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِندًا (١١) لَقَدْ أَحْصَيْنَا

وَعَدَّهُمْ عِندًا (١٢) وَكُلُّهُمْ مَائِيهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا (١٣).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ

مُكْرَمُونَ (١٤) لَا يَسْجُدُونَ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

(١٥)﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهَابًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ

إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٦)﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٧)﴾ وفي الصحيح

صحيح البخاري: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرَ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ،

يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَزُرُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٢) وروى البخاري

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي

ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا

تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعَذِّبَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ

بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا،

وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ» (٣).

آخر تفسير سورة الإخلاص، والله الحمد والمنة.

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدينتان

[موقف ابن مسعود من المعوذتين]

روى الإمام أحمد عن زر بن حبیش قال: قلت لأبي بن

كعب: إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال:

أشهد أن رسول الله أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) فقلتها: قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

النَّاسِ﴾ (٢) فقلتها: فنحن نقول ما قال النبي ﷺ (٤).

وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال

رسول الله ﷺ: «الَّذِينَ تَرَى آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِنْهُمْ

قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

(٢)﴾» (٥) ورواه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي:

حسن صحيح (٦).

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال:

بينما أنا أقود برسول الله ﷺ في نهب من تلك النقاب إذا قال

لي: «يَا عَقْبَةُ لَا تَرْكَبْ؟» قال: فاشفقت أن تكون معصية،

قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال:

«يَا عَقْبَةُ، أَلَا أَعْلَمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا

النَّاسُ؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (٢) ثم أقيمت الصلاة فتقدم

رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي فقال: «كَيْفَ رَأَيْتَ يَا

عَقْبَةُ، أَقْرَأَ بِهِمَا كُلَّمَا نَفَسْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ؟» (٧) ورواه النسائي

وأبو داود (٨).

(طريق أخرى) روى النسائي عن عقبة بن عامر أن

رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَعَوَّدُوا بِمِثْلِ هَذَيْنِ: ﴿قُلْ

أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (٢)» (٩).

(طريق أخرى) روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: كنت

أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «يَا عَقْبَةُ قُلْ» قلت: ماذا

أقول؟ فسكت عني ثم قال: «قُلْ» قلت: ماذا أقول

يا رسول الله؟ قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾» فقرأتها حتى

أتيت على آخرها، ثم قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فقرأتها

ثم أتيت على آخرها ثم قال رسول الله ﷺ: عند ذلك: «مَا

سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِذٌ بِمِثْلِهِمَا» (١٠).

(حديث آخر) روى النسائي عن ابن عباس الجهني أن

(١) الطبري: ٦٩٢/٢٤. (٢) فتح الباري: ٣٧٢/١٣.

(٣) فتح الباري: ٦١١/٨، ٦١٢، (٤) أحمد: ١٢٩/٥.

(٥) مسلم: ٥٥٨/١.

(٦) أحمد: ١٤٤/٤، وتحفة الأحوذ: ٣٠٣/٩، والنسائي:

٢٥٤/٨.

(٧) أحمد: ١٤٤/٤.

(٨) أبو داود: ١٥٢/٢، والنسائي: ٢٥٢/٨، ٢٥٣.

(٩) الكنى للدولابي: ١٠٦/١. (١٠) النسائي: ٢٥٣/٨.

النبي ﷺ قال له: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ أَلَا أَخْبِرُكَ - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ»^(١).

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفق، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها^(٢)، ورواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(٣). وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْفَلَقَةٍ فِي الْعَقَدِ﴾^(٥) قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر^(٦)، قال مجاهد: إذا رقيت ونفثت في العقد.

وفي الحديث الآخر أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: اشتكت يا محمد؟ فقال: «نَعَمْ» فقال: «يَا سَمِ اللَّهُ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ»^(٧).

[بيان سحر النبي]

روى البخاري في كتاب الطب من صحيحه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سُحْرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ - قَالَ سَفِيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا - قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَانِي فِيمَا اسْتَشْفَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ، قَالَ: لَيْدٌ بَنُ أَغْصَمَ: رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلَفَ لِيَهُودَ، كَانَ مُتَنَافِقًا، قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُنْطَبِ وَمُشَاطِطَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ، تَحْتَ رَاغُوفَةٍ فِي بَثْرِ ذُرَّوَانٍ» قالت: فأتى البشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾^(١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^(٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ^(٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ^(٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ^(٥).

روى ابن أبي حاتم عن جابر قال: ﴿أَلْفَلَقِ﴾^(١)؛ الصبح^(٥)، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَلْفَلَقِ﴾^(١)؛ الصبح^(٦). وروى عن مجاهد وسعيد بن جبر وعبد الله بن محمد بن عقيل والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي، وابن زيد ومالك عن زيد بن أسلم مثل هذا^(٧). قال القرظي وابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فَاتَى الْإِصْبَاحِ﴾^(٨).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٢) أي من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(٣) قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس، حكاه البخاري عنه^(٩)، وكذا رواه ابن أبي نجيع عنه، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخصيف والحسن وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه^(١٠)، وقال الزهري: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(٣) الشمس إذا غربت. وقال أبو المهزم عن أبي هريرة: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(٣) الكوكب^(١١)، وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها^(١٢).

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر.

(١) النسائي: ٢٥١/٨. (٢) الموطأ: ٩٤٢/٢.

(٣) فتح الباري: ٦٧٩/٨، ومسلم: ١٧٢٣/٤، وأبو داود:

٢٢٠/٤، والنسائي في الكبرى: ٨٦٧/٤ و٣٦٨، وابن ماجه:

١١٦٦/٢.

(٤) تحفة الأحوذى: ٢١٨/٦، والنسائي: ٢٧١/٨، وابن ماجه:

١١٦١/٢.

(٥) الطبري: ٧٠٠/٢٤. (٦) الطبري: ٧٠١/٢٤.

(٧) الطبري: ٧٠٠/٢٤، ٧٠١/٢٤. (٨) الطبري: ٧٠١/٢٤.

(٩) فتح الباري: ٦١٣/٨.

(١٠) الطبري: ٧٤٨/١٢، ٧٤٩ (عملية).

(١١) الطبري: ١٤٩/١٢ (عملية).

(١٢) الطبري: ١٤٩/١٢ (عملية).

(١٣) أحمد: ٦١/٦. (١٤) الترمذي: ٣٣٦٦.

(١٥) الطبري: ٧٥١/١٢، ٧٥٠/١٦ (مسلم: ٢١٨٦).

حتى استخرجه فقال: «هَذِهِ الْبَيْتُ الَّتِي أُرِيْتَهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةُ الْحَيَاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ» قال فاستخرج [قالت] فقلت: أفلا تنشّرت؟ فقال: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهَ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله.

وقد ثبت في الصحيح أنه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٢)، وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفة للنبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال رسول الله ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُجَيْبٍ». فقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا»^(٣).

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قال: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس^(٤)، وكذا قال مجاهد وقتادة^(٥) وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس^(٦). وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال: هو الشيطان يأمر، فإذا أطيع خنس^(٧).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم

والجن؟ فيه قولان: ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا. وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم^(٨). وقوله تعالى: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾ ثم يبينهم فقال: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ وهذا يقوي القول الثاني.

وقيل قوله: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحدث نفسي بالشيء، لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به.

قال: فقال النبي ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّهُ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ»^(٩) ورواه أبو داود والنسائي^(١٠).

* * *

آخر التفسير.

والله الحمد والمنة،

والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) فتح الباري: ١٠/٢٤٣. (٢) مسلم: ٤/٢١٦٧.

(٣) فتح الباري: ٤/٣٢٦. (٤) الطبري: ٢٤/٧٠٩.

(٥) الطبري: ٢٤/٧١٠. (٦) الطبري: ٢٤/٧١٠.

(٧) الطبري: ٢٤/٧١٠. (٨) الطبري: ٢٤/٧١١.

(٩) أحمد: ١/٢٣٥.

(١٠) أبو داود: ٥/٣٣٦، والنسائي في الكبرى: ٦/١٧١.

٢٧- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، لعبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، لبنان.

٢٨- تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

٣٠- جامع المسانيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣١- جزء حسن بن عرفة، مكتبة دار الأقصى، الكويت.

٣٢- الجزء المفقود من مصنف ابن أبي شيبة دار عالم الكتب، الرياض.

٣٣- حلية الأولياء للأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣٤- الدر المنثور للسيوطي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٣٥- الدرر اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٣٦- دلائل النبوة للأصبهاني، دار الباز، مكة المكرمة.

٣٧- دلائل النبوة لليبهي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٨- الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة دار التراث، بالقاهرة.

٣٩- الروض الأنف للسيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤٠- زاد المعاد لابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٤١- الزهد لهند بن السري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

٤٢- سلسلة الأحاديث الضعيفة للمحدث الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت.

٤٣- السنة لابن أبي عاصم، المكتبة الإسلامية.

٤٤- سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، سورية.

٤٥- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.

٤٦- سنن الدارقطني، نشر السنة، ملتان، باكستان.

٤٧- سنن الدارمي، نشر السنة، ملتان، باكستان.

٤٨- سنن سعيد بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٩- السنن الكبرى لليبهي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٥٠- السنن الكبرى للنسائي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[مراجع التخریج للمخص تفسیر ابن كثير]

١- الأدب المفرد للبخاري، والمكتبة الأثرية، باكستان.

٢- أسد الغابة لابن الأثير، الشعب.

٣- أطراف المسند لابن حجر، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة.

٤- الأم للشافعي، الشعب.

٥- الإتيان للسيوطي، الطبعة الثالثة، دار التراث، بالقاهرة.

٦- إرواء الغليل، المكتب الإسلامي، بيروت.

٧- الإصابة لابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٨- الاستيعاب لابن عبد البر على أسفل الإصابة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٩- البحر الزخار للزوار، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

١٠- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.

١١- البعث والنشور لابن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت.

١٢- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

١٣- تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت، لبنان.

١٤- التاريخ الكبير للإمام البخاري، بدون ذكر المطبعة.

١٥- تحفة الأحوذ للمحدث عبد الرحمن المباركفوري، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٦- تحفة الأشراف، الدار القيمة، بيوندي، بمبائي، الهند.

١٧- تخریج الإحياء للعراقي، دار العاصمة، الرياض.

١٨- تخریج الكشف لابن حجر، في آخر الكشف، وفي بعض الطبقات أسفله.

١٩- ترتيب مسند الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٠- الترغيب والترهيب للمنذري، مكتبة شباب الأزهر.

٢١- تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٢- تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية مع التكملة.

٢٣- تفسير عبد الرزاق، مكتبة الرشد، الرياض.

٢٤- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق د/ الغامدي - مسودة.

٢٥- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الطبعة الأولى، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.

٢٦- التفسير الكبير للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- ٥١- سنن النسائي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥٢- سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٥٣- شرح السنة للبغوي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٥٤- الشريعة للأجري، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان.
- ٥٥- شعب الإيمان لليهقي، الدار السلفية، بمبائي، الهند.
- ٥٦- شمائل الترمذي، دار العلم، جدة.
- ٥٧- صحيح ابن حبان، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥٨- صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي.
- ٥٩- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- ٦٠- صفة الجنة لأبي نعيم، بيروت، لبنان.
- ٦١- الضعفاء للعقيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٦٢- الطوال للطبراني في آخر الجزء للمعجم الكبير.
- ٦٣- العظمة لأبي الشيخ، دار العاصمة، الرياض.
- ٦٤- علل الحديث لعل بن المدني، بيروت، لبنان.
- ٦٥- العلل المتناهية لابن الجوزي، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان.
- ٦٦- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، أحمد شاكر، (بدون اسم المطبعة).
- ٦٧- عمل اليوم والليلة للنسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٦٨- عون المعبود للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، نشر السنة، ملتان، باكستان.
- ٦٩- غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية، بالقاهرة.
- ٧١- فتح القدير للشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧٢- الفردوس للدليمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٣- فضائل القرآن لأبي عبيد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٤- فضائل القرآن للإمام النسائي، تحقيق فاروق حمادة، دار الثقافة، المغرب.
- ٧٥- الفقيه والمتفقه للبغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٦- الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٧٧- كتاب الزهد لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٨- كتاب الصلاة للمروزي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- ٧٩- كتاب المجروحين لابن حبان، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
- ٨٠- الكشاف للزخشري، دار الكتاب العربي.
- ٨١- كشف الأستار، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٨٢- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الكتاب، بيروت، لبنان.
- ٨٣- المجموع المغيث للمديني الأصفهاني، دار المدني، جدة.
- ٨٤- المحرر الوجيز لعبد الحق بن غالب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٨٥- المختارة للضياء، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
- ٨٦- المراسيل لأبي داود، المكتبة القاسمية، فيصل آباد، باكستان.
- ٨٧- المستدرک للإمام الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٨- مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٩- مسند أبي عوانة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٩٠- مسند أبي يعلى، تحقيق حسن سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.
- ٩١- مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت.
- ٩٢- مسند الحميدي، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٩٣- مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٩٤- مشكاة المصابيح للتبريزي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٩٥- مشكل الآثار للطحاوي، دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند.
- ٩٦- المصنف لابن أبي شيبة، الدار السلفية، بمبائي، الهند.
- ٩٧- المصنف لعبد الرزاق، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٩٨- المطالب العالية للحافظ ابن حجر.
- ٩٩- المعجم الأوسط للطبراني، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٠٠- المعجم الصغير للطبراني، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- ١٠١- المعجم الكبير للطبراني، الطبعة الثانية، القاهرة.
- ١٠٢- المغازي للواقدي.
- ١٠٣- المنتخب من مسند عبد بن حميد، مكتبة السنة، القاهرة.
- ١٠٤- موارد الظمآن للهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ١٠٥- الموطأ للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥	الاستعاذة واجبة أو مستحبة؟	١٨
تفويض	٧	من لطائف الاستعاذة	١٨
ترجمة المؤلف	٨	معنى الاستعاذة	١٨
شرح الرموز المستعملة في التخريج	١٠	تسمية الشيطان	١٨
مقدمة ابن كثير	١١	معنى الرحيم	١٩
الأمر بفهم القرآن	١١	البسملة أول آية من سورة الفاتحة	١٩
أصول التفسير	١١	الجر والإسرار بالبسملة في الصلاة الجهرية	١٩
حكم الروايات الإسرائيلية	١٢	فصل في فضلها	٢٠
مكانة تفسير التابعين	١٢	استحبابها في بداية كل عمل	٢٠
التفسير بالرأي	١٣	بماذا يتعلق «بسم الله»	٢٠
السكوت عن تفسير غير المعلوم	١٣	معنى لفظ الجلالة «الله»	٢١
وجوه التفسير	١٣	تفسير: الرحمن الرحيم	٢١
السور المكية والمدنية	١٣	معنى الحمد	٢٢
عدد آيات القرآن الكريم	١٤	الفرق بين الحمد والشكر	٢٢
عدد كلماته وحروفه	١٤	ذكر أقوال السلف في الحمد	٢٢
تفسيرات أخرى للقرآن الكريم	١٤	فضائل الحمد	٢٢
التحزيب والتجزئة	١٤	الألف واللام في الحمد للاستغراق	٢٣
معنى السورة واشتقاقها	١٤	معنى الرب	٢٣
معنى الآية	١٤	معنى العالمين	٢٣
معنى الكلمة	١٥	وجه تسمية العالم	٢٣
العجمة والقرآن	١٥	معنى تخصيص الملك بيوم الدين	٢٣
سورة الفاتحة	١٥	معنى يوم الدين	٢٣
أسماء الفاتحة ومعناها	١٥	الملك وملك الأملاك هو الله	٢٣
عدد آياتها	١٥	تفسير الدين	٢٤
عدد كلماتها وحروفها	١٥	معنى العبادة لغة وشرعاً	٢٤
لماذا سميت أم الكتاب؟	١٥	فوائد تقديم المفعول والالتفات	٢٤
ذكر ما ورد في فضل الفاتحة	١٥	الفاتحة إرشاد إلى الثناء فتجب قراءتها في الصلاة	٢٤
الفاتحة في الصلاة	١٦	توحيد الألوهية	٢٤
الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من		توحيد الربوبية	٢٤
وجوه	١٦	تسمية الله نبيه عبداً في أشرف المقامات	٢٥
وجوب قراءة الفاتحة في الصلوات كلها إماماً كان أو		الإرشاد إلى العبادة عند ضيق الصدر	٢٥
مأموراً أو منفرداً	١٦	سر تأخير الدعاء بعد الحمد والوصف	٢٥
تفسير الاستعاذة وأحكامها	١٧	معنى الهداية	٢٥
الاستعاذة تكون قبل التلاوة	١٧	معنى الصراط المستقيم	٢٥
التعوذ عند الغضب	١٧	سؤال المؤمن الهداية مع اتصافه بها	٢٥

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤١	أقسام القلوب	٢٧	مشمات الفاتحة
٤١	توحيد الألوهية	٢٧	إسناد الإنعام إلى الله دون الإضلال والرد على القدرية
٤٢	دلائل وجود الباري تعالى	٢٧	التأمين بعد الفاتحة
٤٢	إثبات رسالة الرسول ﷺ	٢٨	تفسير سورة البقرة
٤٢	التحدي والإعجاز	٢٨	ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران
٤٣	من وجوه إعجاز القرآن	٢٩	سورة البقرة مدنية بلا خلاف
٤٤	القرآن هو المعجزة العظمى لنبينا محمد ﷺ	٢٩	الكلام حول الحروف المقطعة
٤٤	المراد بالحجارة	٣٠	الحروف المقطعة دالة على إعجاز القرآن
٤٤	إن جهنم موجودة الآن	٣٠	لا ريب في القرآن
٤٤	جزاء المؤمنين الصالحين	٣١	اختصاص الهداية بالمتقين
٤٥	مشابهة ثمار الجنة بعضها ببعض	٣١	معنى المتقين
٤٥	أزواج أهل الجنة مطهرات	٣١	الهداية نوعان
٤٥	مثل لدنيا	٣١	معنى التقوى
٤٧	المراد بالخسران	٣١	معنى الإيمان
٤٧	بيان دلائل القدرة	٣٢	المراد بالغيب
٤٧	بداية الخلق	٣٢	معنى إقامة الصلاة
٤٨	خلقت الأرض قبل السماوات	٣٢	المراد بالإنفاق
٤٨	دحيت الأرض بعد خلق السماوات	٣٣	معنى الصلاة
٤٨	استخلاف آدم وبنه للملائكة وما قالوه	٣٣	أوصاف المؤمنين
٤٩	وجوب نصب الخليفة، وبعض مسائل الخلافة	٣٣	الهداية والفلاح من نصيب المؤمنين
٤٩	فضل آدم على الملائكة	٣٤	معنى الختم
٥٠	إظهار فضل آدم بعلمه	٣٤	إعراب غشاوة ومعناها
٥١	تكريم آدم بسجود الملائكة له	٣٥	ذكر المنافقين
٥١	دخول إبليس فيمن أمر بالسجود، ولم يكن من الملائكة	٣٥	معنى النفاق
٥١	كانت الطاعة لله والسجدة لآدم	٣٥	بداية النفاق
٥١	استكبار إبليس	٣٥	تفسير الآية
٥١	تكريم آخر لآدم	٣٦	المراد بالمرض
٥٢	خلقت حواء قبل دخول آدم الجنة	٣٧	المراد بالفساد
٥٢	اختبار آدم	٣٧	أنواع فساد المنافقين
٥٢	كان آدم طويل القامة	٣٨	مكر المنافقين وخداعهم
٥٢	لبث آدم في الجنة ساعة من نهار	٣٨	شياطين الجن والإنس
٥٢	شبهة وجوابها	٣٨	معنى الاستهزاء
٥٣	توبة آدم ودعاؤه	٣٨	مكر المنافقين وباله عليهم
٥٣	حض بني إسرائيل على الدخول في الإسلام	٣٨	المد والطغيان والعمى
٥٣	إسرائيل لقب يعقوب عليه السلام	٣٩	مثل المنافقين
٥٤	نعم الله على اليهود	٣٩	مثل آخر للمنافقين
٥٤	تذكير اليهود بعهد الله إليهم	٤٠	ذكر الحديث الوارد في ذلك
٥٥	النهى عن لبس الحق وكتمانه	٤٠	أقسام المؤمنين وأقسام الكافرين والمنافقين

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
بنود الميثاق، ونقصهم له.....	٧٢	التوبيخ على الأمر بالمعروف مع عدم الالتزام به.....	٥٥
استكبار اليهود وتكذيبهم الأنبياء وقتلهم إياهم.....	٧٣	الاستعانة بالصبر والصلاة.....	٥٦
روح القدس هو جبريل.....	٧٤	تذكير بني إسرائيل بتفضيلهم على الأمم.....	٥٧
استمرار اليهود في محاولة قتل الأنبياء.....	٧٤	أمة محمد أفضل من بني إسرائيل.....	٥٧
كانت اليهود تنتظر بعثة النبي ﷺ فلما بعث كفروا به.....	٧٤	لا يقبل من الكفار شفاععة ولا فداء، ولا ينصرون.....	٥٧
ادعاء اليهود الإيمان مع كفرهم بالحق.....	٧٥	تنجية بني إسرائيل من فرعون وإغراق آل فرعون.....	٥٨
عصيان اليهود بعد أن رفع الله عليهم الطور وأخذ الميثاق.....	٧٦	صوم يوم عاشوراء.....	٥٩
دعوة اليهود إلى المباهلة.....	٧٦	اتخاذ بني إسرائيل العجل.....	٥٩
حرصهم على طول العمر.....	٧٧	توبة بني إسرائيل بقتل أنفسهم.....	٥٩
عداوة اليهود لجبريل.....	٧٧	طلب خيارهم رؤية الله وإماتتهم وإحيائهم.....	٦٠
التفريق بين الملائكة كالتفريق بين الأنبياء.....	٧٨	تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم.....	٦٠
دلائل نبوة محمد ﷺ.....	٧٩	فضيلة صحابة محمد ﷺ على سائر أصحاب الأنبياء.....	٦١
نقض العهد من عادة اليهود.....	٧٩	تعنت اليهود بعد الفتح بدلاً من شكر الله تعالى.....	٦١
اليهود تركوا كتاب الله وأقبلوا على السحر.....	٧٩	انفجار اثنتي عشرة عيناً.....	٦٣
كان السحر قبل عهد سليمان عليه السلام.....	٧٩	طلبهم الطعام الدنيء بدل المن والسلوى.....	٦٣
قصة هاروت وماروت وتفسير الملكين.....	٨٠	ضرب الذلة والمسكنة على اليهود.....	٦٤
تعلم السحر كفر.....	٨١	تعريف الكبر.....	٦٤
من السحر ما يفرق به بين الزوجين.....	٨١	الإيمان والعمل الصالح هو مدار النجاة في كل زمان.....	٦٤
قضاء الله فوق كل شيء.....	٨١	تعريف المؤمن.....	٦٤
الأدب في اختيار الكلمات.....	٨٢	وجه تسمية اليهود.....	٦٤
شدة عداوة الكافرين وأهل الكتاب للمسلمين.....	٨٢	وجه تسمية النصارى.....	٦٥
النسخ وتعريفه.....	٨٣	الصابئون.....	٦٥
بيان صحة النسخ والرد على اليهود في استحالتهم ذلك... ..	٨٣	أخذ الميثاق من اليهود مع رفع الطور عليهم وتوليهم بعد ذلك... ..	٦٥
النهي عن كثرة السؤال.....	٨٤	اعتداؤهم في السبت ومسحهم قردة وخنازير.....	٦٥
النهي عن سلوك طريقة أهل الكتاب.....	٨٥	القردة والخنازير الموجودة ليست من نسل المسوخة.....	٦٦
الترغيب في الأعمال الحسنة.....	٨٦	قصة مقتل بني إسرائيل والبقرة.....	٦٦
أمانى أهل الكتاب.....	٨٦	تعنتهم في السؤال عن البقرة وتضييق الله عليهم.....	٦٧
تنازع اليهود والنصارى فيما بينهم كفراً وعناداً.....	٨٧	إحياء المقتول وتعيين القاتل.....	٦٧
ظلم من منع عن المساجد وسعى في خرابها.....	٨٧	بيان قسوة قلوب اليهود.....	٦٨
بشارة بغلبة الإسلام.....	٨٨	وجود قوة الإدراك في الجهادات.....	٦٨
استقبال القبلة في الصلوات.....	٨٨	قطع الطمع في إيمان يهود زمن النبي ﷺ.....	٦٩
قبلة أهل المدينة ما بين المشرق والمغرب.....	٨٩	اليهود كانوا يقولون نبوة محمد ﷺ ولا يؤمنون.....	٦٩
الرد على من يقول: إن الله ولدًا.....	٨٩	معنى الأمي.....	٧٠
كل شيء خاضع وقانت لله تعالى.....	٩٠	تفسير الأمانى.....	٧٠
معنى البديع.....	٩٠	ويل لهؤلاء اليهود المحرّفين.....	٧٠
أوصافه ﷺ في التوراة.....	٩١	من أمانى اليهود أنهم لا يمكنون في النار إلا أياماً معدودة.....	٧٠
معنى التلاوة للحقة.....	٩٢	محقرات الذنوب إذا اجتمعن يهلكن.....	٧١
ذكر إبراهيم الخليل وتوليته إمامة الناس.....	٩٢	ميثاق بني إسرائيل.....	٧١

الموضوع	الصفحة
معنى نفى الجناح في الطواف بين الصفا والمروة	١١٢
حكم السعي وأصله	١١٣
اللعن الدائم لمن كتم الأحكام الدينية	١١٤
جواز لعن الكفرة	١١٤
دلائل التوحيد	١١٤
أحوال المشركين في الدنيا والآخرة، وتبري المتبوعين من	
تابعهم يوم القيامة	١١٥
الأمر بأكل الحلال، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ...	١١٦
المشرك مقلد	١١٧
المشرك كالحيوان	١١٧
الأمر بأكل الطيبات، وبيان المحرمات	١١٧
إباحة الحرام للمضطر	١١٨
ذم اليهود على كتابتهم ما أنزل الله	١١٨
جامع البر	١١٩
الأمر بالقصاص، وبيان ما فيه من المصلحة	١٢١
لولي الدم إحدى ثلاث خصال	١٢١
فائدة القصاص وحكمته	١٢١
الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، ثم نسخها في حق الورثة ...	١٢٢
الوصية لقريب لا يرث	١٢٢
الوصية بالمعروف	١٢٢
فضل العدل في الوصية	١٢٣
الأمر بالصوم	١٢٣
فدية الصيام للعجزة وكبري السن	١٢٤
فضل رمضان ونزول القرآن فيه	١٢٤
فضل القرآن	١٢٤
إيجاب صوم شهر رمضان	١٢٤
مسائل عن الصوم في السفر	١٢٤
اليسر دون العسر	١٢٥
ذكر الله على إتمام العبادة	١٢٥
الله يسمع دعاء عباده	١٢٥
الدعاء يقبل ولا يضيع	١٢٦
ثلاثة لا ترد دعوتهم	١٢٦
الإذن بالأكل والشرب والجماع في ليالي رمضان	١٢٦
آخر وقت السحور	١٢٧
استحباب السحور وبيان وقته	١٢٧
من أصبح جنباً فلا حرج في صيامه	١٢٨
الصيام ينتهي بدخول الليل فيشرع الإفطار على الفور	١٢٨
النهي عن صوم الوصال	١٢٨

الموضوع	الصفحة
ما هي كلمات الابتلاء؟	٩٣
عهد الله لا ينال الظالمين	٩٣
فضل بيت الله	٩٤
مقام إبراهيم	٩٤
الأمر بتطهير بيت الله	٩٥
تحريم مكة	٩٥
دعاء الخليل لمكة بالأمن والرزق	٩٦
بناء الكعبة والدعاء بقبول ذلك العمل	٩٧
ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد	
طويلة، قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين	٩٨
التزاع في وضع الحجر الأسود وقضاء محمد بن عبد الله القضاء	
العادل ﷺ	٩٩
بناء ابن الزبير الكعبة على ما كان يريد رسول الله ﷺ	١٠٠
حشي يهدم الكعبة قرب القيامة	١٠١
دعاء الخليل	١٠١
تفسير المناسك	١٠١
دعاء الخليل ببعثة النبي ﷺ	١٠٢
تفسير الكتاب والحكمة	١٠٢
ملة إبراهيم، لا يرغب عنها إلا السفية	١٠٢
وجوب الالتزام بالتوحيد حتى المات	١٠٣
عهد يعقوب لبنيه عند الموت	١٠٣
المسلم يؤمن بجميع ما أنزل الله ولا يفرق بين نبي ونبي ...	١٠٤
تحويل القبلة	١٠٦
فضل الأمة المحمدية	١٠٧
من حكمة تحويل القبلة	١٠٧
أول ما نسخ من القرآن القبلة	١٠٨
هل القبلة عين الكعبة أم جهة الكعبة؟	١٠٨
مسألة تحويل القبلة كانت معلومة عند اليهود	١٠٩
عناد اليهود وجحودهم	١٠٩
معرفة اليهود بالنبي محمد ﷺ وكتابهم الحق	١٠٩
لكل أمة قبله	١٠٩
لماذا تكرر ذكر نسخ القبلة ثلاث مرات؟	١١٠
حكمة نسخ القبلة	١١٠
بعثة نبينا محمد ﷺ نعمة عظيمة توجب ذكر الله وشكره ...	١١٠
فضل الصبر والصلاة	١١١
حياة الشهداء	١١١
يبتلى المؤمن فيصبر ويؤجر	١١٢
فضل الاسترجاع عند المصيبة	١١٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أحكام الاعتكاف.....	١٢٩	من صفات المؤمن المخلص إثارة مرضاة الله.....	١٤٤
الرشوة حرام.....	١٣٠	وجوب الأخذ بالإسلام كاملاً.....	١٤٥
قضاء القاضي لا يجل حراماً ولا يجرم حلالاً.....	١٣٠	الحث على عدم التأخير في الإيمان.....	١٤٥
السؤال عن الأهله.....	١٣٠	عقاب تبديل نعمة الله والسخرية من المؤمنين.....	١٤٦
مدار البر على التقوى.....	١٣٠	الاختلاف بعد مجيء العلم دليل على البغي والضلال.....	١٤٦
الأمر بقتال من يقاتل، وبقتله حيث وجد.....	١٣١	لا يحصل النصر ودخول الجنة إلا بعد الاختبار والتميز.....	١٤٧
النهي عن الاعتداء كالمثله والغلول.....	١٣١	من يتفق عليه.....	١٤٨
الشرك أشد من القتل.....	١٣١	إيجاب الجهاد.....	١٤٨
حرمة القتال في الحرم، وجواز دفع الصائل.....	١٣١	سرية نخلة، وحكم القتال في الشهر الحرام.....	١٤٨
الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة.....	١٣٢	التدرج في تحريم الخمر.....	١٥٠
حرمة القتال في الأشهر الحرم إلا إذا بدأ العدو بالقتال فيها.....	١٣٢	الأمر بإتفاق ما فضل من المال.....	١٥١
الأمر بالإتفاق في سبيل الله.....	١٣٣	إصلاح أموال اليتامى.....	١٥١
الأمر بإتمام الحج والعمرة.....	١٣٤	تحريم نكاح المشركين والمشركات.....	١٥٢
إذا أحصر الحرم في الطريق فليذبح وليلحق رأسه ويتحلل.....	١٣٤	الأمر باعتزال النساء في المحيض.....	١٥٣
من حلق رأسه في الإحرام وجبت عليه الفدية.....	١٣٥	تحريم الوطء في الدبر.....	١٥٣
بيان التمتع في الحج.....	١٣٦	سبب نزول قوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ﴾.....	١٥٤
إذا لم يجد التمتع الهدي فليصم عشرة أيام.....	١٣٦	النهي عن اليمين بترك الأعمال الصالحة.....	١٥٥
لا يتمتع أهل مكة.....	١٣٧	لغو اليمين.....	١٥٥
متى يجرم للحج؟.....	١٣٧	الإيلاء وحكمه.....	١٥٦
أشهر الحج.....	١٣٧	بيان عدة المطلقة.....	١٥٧
النهي عن الرث في الحج.....	١٣٨	معنى القرء.....	١٥٧
النهي عن الفسوق في الحج.....	١٣٨	يقبل كلام النساء في الحيض والطمهر.....	١٥٧
النهي عن الجدال في الحج.....	١٣٨	الزوج أحق بالرجعة.....	١٥٧
الترغيب في فعل الخيرات وأخذ الزاد في الحج.....	١٣٩	حقوق الزوجين.....	١٥٧
زاد سفر الآخرة.....	١٣٩	فضل الرجال على النساء.....	١٥٨
التجارة في الحج.....	١٣٩	قصر الطلقات على الثلاث، وبيان الرجعية والبائنة.....	١٥٨
الوقوف بعرفة.....	١٣٩	النهي عن استرجاع المهر.....	١٥٨
وقت الإفاضة من عرفات ومزدلفة.....	١٤٠	الإذن بالخلع واسترجاع المهر فيه.....	١٥٨
المشعر الحرام.....	١٤٠	عدة المختلعة.....	١٥٩
الأمر بالتزام الوقوف بعرفة والإفاضة منها لمن لم يكن يقف بها.....	١٤١	اعتداء حدود الله ظلم.....	١٥٩
في الجاهلية.....	١٤١	الطلقات الثلاث في مجلس واحد حرام.....	١٥٩
الأمر بالاستغفار وبعض أدعية الاستغفار.....	١٤١	لا رجعة بعد الطلاق الثالث.....	١٥٩
الأمر بكثرة الذكر وطلب خيري الدنيا والآخرة بعد قضاء.....	١٤٢	اللعنة على المحلل والمحلل له.....	١٥٩
النسك.....	١٤٢	متى تحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول؟.....	١٦٠
الذكر في أيام التشريق، وهي أيام أكل وشرب.....	١٤٣	الأمر بحسن المعاملة مع المطلقة.....	١٦٠
بيان الأيام المعدودات.....	١٤٣	نهي الولي عن منع المرأة أن تنكح زوجها المطلق.....	١٦١
بيان أحوال المناققين.....	١٤٣	لا نكاح إلا بولي.....	١٦١
من صفات المنافق: رد النصيحة.....	١٤٤	سبب نزول الآية.....	١٦١

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المساوس الشيطانية في الإنفاق	١٨٢	لا رزاعة إلا في مدة الرزاعة	١٦١
معنى الحكمة	١٨٢	رزاعة الكبير	١٦٢
فضل إظهار الصدقة وإخفائها	١٨٣	أجرة الرزاعة	١٦٢
الصدقة للمشركون	١٨٣	لا ضرر ولا ضرار	١٦٢
من أحق بالصدقة؟	١٨٤	القطام عن تراض منها	١٦٢
مدح المتصدقين	١٨٤	عدة المتوفى عنها زوجها	١٦٣
ذم أكلة الربا	١٨٤	حكمة هذه العدة	١٦٣
لا يبارك في الربا	١٨٦	عدة أم الولد المتوفى عنها سيدها	١٦٣
إن الله يربي الصدقات كما يربي أحدكم فلوه	١٨٦	وجوب الإحدا في هذه العدة	١٦٣
الكافر الأثيم مبغض عند الله	١٨٦	إباحة التعريض بالخطبة في العدة، والنهي عن النكاح فيها	١٦٤
مدح الشاكرين	١٨٦	الطلاق قبل الدخول	١٦٥
الأمر بالتقوى واجتناب الربا	١٨٧	متعة الطلاق	١٦٥
أكل الربا إعلان عن الحرب مع الله ورسوله	١٨٧	للزاعة نصف المهر إذا طلقت قبل الدخول	١٦٥
الإحسان إلى المعسر	١٨٧	الصلاة الوسطى	١٦٦
الأمر بكتابة المعاملات المؤجلة	١٨٨	النهي عن الكلام في الصلاة	١٦٧
الأمر بالإشهاد مع الكتابة	١٨٩	صلاة الخوف	١٦٧
بيان الرهن	١٩٠	الأمر بإتمام الصلاة في حالة الأمن	١٦٨
هل يحاسب العباد على ما أخفوه في صدورهم؟	١٩٠	نسخ هذه الآية	١٦٨
ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين		وجوب متعة الطلاق	١٦٩
نفعنا الله بهما	١٩١	قصة هؤلاء الأموات	١٦٩
تفسير الآيتين	١٩٢	الفرار من الجهاد لا يقرب الأجل ولا يبعده	١٧٠
تفسير سورة آل عمران وهي مدنية	١٩٣	القرض الحسن وثوابه	١٧٠
بيان الآيات المشابهات والمحكمات	١٩٣	قصة اليهود في طلبهم الملك والقتال، واستقامة القليل	
لا يعلم تأويل المشابهات إلا الله	١٩٤	منهم وانتصارهم	١٧٠
يوم القيامة لا ينفع مال ولا بنون	١٩٥	تفضيل بعض الأنبياء على بعض	١٧٣
تهديد اليهود بأنهم سيغلبون، وحثهم على الاعتبار بيوم بدر	١٩٦	فضل آية الكرسي	١٧٤
بيان الحياة الدنيا	١٩٦	اسم الله الأعظم في آية الكرسي	١٧٤
جزاء المتقين خير من نعيم الدنيا كلها	١٩٧	وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة	١٧٥
دعاء المتقين وصفاتهم	١٩٧	لا إكراه في الدين	١٧٦
شهادة التوحيد	١٩٨	التوحيد هو العروة الوثقى	١٧٦
الدين هو الإسلام	١٩٨	مناظرة خليل الله مع نمرود	١٧٧
الإسلام دين الناس كافة، والنبي ﷺ مبعوث إليهم جميعاً	١٩٨	قصة عزيز	١٧٨
ذم اليهود على كفرهم وقتلهم الأنبياء والصالحين	١٩٩	طلب خليل الله من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى	١٧٨
ذم أهل الكتاب على عدم تحكيمهم كتاب الله	١٩٩	جواب طلب الخليل	١٧٩
الإرشاد إلى الشكر	١٩٩	جزاء الإنفاق في سبيل الله	١٧٩
النهي عن موالاة المشركين	٢٠٠	النهي عن إتباع الصدقات بالمال والأذى	١٨٠
الله يعلم ما في الصدور، ويحضر كل أعمال العبد يوم القيامة	٢٠٠	مثال ضياع الحسنات بالسيئات	١٨١
حب الله في اتباع الرسول	٢٠١	ترغيب إنفاق المال الطيب في سبيل الله	١٨١

الموضوع	الصفحة
المصطفون من أهل الأرض	٢٠١
قصة ولادة مريم	٢٠٢
نشوء مريم وكرامتها على الله	٢٠٢
دعاء زكريا وتبشيره بيهي	٢٠٣
فضل مريم على نساء عصرها	٢٠٣
تبشير مريم الصديقة بعيسى	٢٠٤
كلام عيسى في المهد	٢٠٤
خلق عيسى من غير أب	٢٠٥
صفات عيسى عليه السلام ومعجزاته ودعوته	٢٠٥
نصرة الحوارين لعيسى عليه السلام	٢٠٦
هم اليهود بقتل عيسى عليه السلام	٢٠٦
معنى متوفيك	٢٠٦
التحريف في دين المسيح	٢٠٧
تهديد الكفار بالعذاب في الدنيا والآخرة	٢٠٧
المائلة في خلق آدم وعيسى	٢٠٨
الدعوة إلى المباهلة في عيسى عليه السلام	٢٠٨
مسألة التوحيد معلومة عند الجميع	٢١٠
حاجة اليهود والنصارى في دين إبراهيم الخليل عليه السلام	٢١٠
حسد اليهود للمسلمين وكيدهم	٢١١
بيان حال أمانة اليهود	٢١٢
لا نصيب في الآخرة لمن خالف العهد	٢١٢
تحريف اليهود لكلام الله بلي الألسن	٢١٣
النبي لا يدعو إلى عبادة نفسه ولا إلى عبادة غير الله	٢١٣
أخذ الميثاق من الأنبياء أن يؤمنوا بنبينا محمد	٢١٤
الدين عند الله الإسلام ولا يقبل غيره	٢١٤
لا يهدي الله قومًا كفروا بعد الإيمان إلا من تاب	٢١٥
لا تقبل توبة الكافر عند الموت ولا فديته يوم القيامة	٢١٥
الإنفاق من أحب الأموال من البر	٢١٦
أسئلة اليهود لنبينا محمد	٢١٦
الكعبة أول بيت وضع للعبادة	٢١٨
وجه تسميه بكة، وأسما مكة	٢١٨
مقام إبراهيم	٢١٨
الحرم مقام أمن	٢١٨
بيان وجوب الحج	٢١٩
معنى الاستطاعة	٢١٩
منكر الحج كافر	٢١٩
تعنيف أهل الكتاب على كفرهم وصلهم عن سبيل الله	٢١٩

الموضوع	الصفحة
تحذير المسلمين عن طاعة أهل الكتاب	٢٢٠
ما هو حق تقاة الله؟	٢٢٠
الأمر بالاعتصام بحبل الله ولزوم الجماعة	٢٢١
الأمر بالقيام بالدعوة إلى الله	٢٢١
النهي عن التفرقة	٢٢١
ثمرات الألفة والفرقة يوم الحشر	٢٢٢
فضل الأمة المحمدية وكونها خير أمة	٢٢٢
نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرها	٢٢٣
وكرامتها على الله عز وجل، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة	٢٢٣
البشارة للمسلمين بالفتح والنصر على أهل الكتاب	٢٢٣
فضل من أسلم من أهل الكتاب	٢٢٤
بيان مثل ما يتفقه الكفار	٢٢٤
النهي عن اتخاذ غير المؤمنين بطانة	٢٢٥
بيان غزوة أحد	٢٢٦
التذكير بنصر الله يوم بدر مع قلة العدد والعدد	٢٢٧
النصر بالملائكة	٢٢٧
حرمة الربا على الإطلاق	٢٢٩
الندب إلى فعل الخيرات وحصول الجنة	٢٢٩
بيان حكمة ما أصيبوا به يوم أحد	٢٣١
ذكر إشاعة موت الرسول في غزوة أحد، وبيان الموقف الصحيح في حالة موته	٢٣١
النهي عن طاعة الكفار، وبيان أسباب ما حصل في أحد	٢٣٣
من النصر والهزيمة	٢٣٣
ذكر ما أصاب بعض المسلمين يوم أحد من الهزيمة	٢٣٤
دفاع الأنصار والمهاجرين عن الرسول	٢٣٤
إنزال الأمانة، وهي النعاس أثناء الغزوة، على المؤمنين، وذكر هلع المنافقين	٢٣٥
ذكر تولي بعض المؤمنين يوم أحد وبيان العفو عنهم	٢٣٦
النهي عن مشابهة الكفار في تعليق الموت وأمور القدر بغير مشيئة الله تعالى	٢٣٦
من صفات نبينا محمد الرحمة واللين	٢٣٧
الأمر بالشورى والعمل بها	٢٣٧
التوكل على الله بعد المشورة	٢٣٨
الغلول ليس من شأن النبي	٢٣٨
ليس الأمين والغال سواء	٢٣٩
بعثة نبينا محمد نعمة عظيمة	٢٣٩
سبب ما أصابهم يوم أحد وحكمته	٢٣٩
فضل الشهداء	٢٤٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
حكم أولاد الأم من غير أبيه.....	٢٥٨	ذكر غزوة حراء الأسد وفضل من شهدها.....	٢٤١
الوعيد على تعدي الحدود في الموارث.....	٢٥٨	تسليّة للرسول ﷺ.....	٢٤٢
الأمر بحبس الزانية في البيت، ثم نسخ هذا الأمر.....	٢٥٩	ذم البخل والوعيد عليه.....	٢٤٣
قبول توبة العبد ما لم يغفر.....	٢٦٠	وعيد الله للمشركين.....	٢٤٣
معنى إرث النساء كرها.....	٢٦٠	كل نفس ذائقة الموت.....	٢٤٤
النهي عن الإضرار بالنساء.....	٢٦٠	لمن الفوز؟.....	٢٤٤
الأمر بحسن عشرة النساء.....	٢٦١	المؤمن يتلى ويسمع من العدو الأذى.....	٢٤٤
النهي عن استرداد الصداق.....	٢٦١	ذم أهل الكتاب على نبذ اليهود وكتان الحق.....	٢٤٥
تحريم زوجات الأب على الأبناء، وحكم من خالف ذلك.....	٢٦٢	ذمهم على خداعهم وحبههم أن يحمداً بما لم يفعلوا.....	٢٤٥
بيان المحرمات الأبدية وغير الأبدية.....	٢٦٣	دلائل التوحيد لأولي الألباب، وصفاتهم وقولهم ودعائهم.....	٢٤٦
قدر ما يحرم من الرضاعة ومدتها.....	٢٦٣	استجابة الله لأولي الألباب.....	٢٤٧
حرمة أمهات الزوجات وبناتهن.....	٢٦٣	التحذير من الاغترار بأهل الدنيا، وبيان ما للصالحين من.....	
الربية حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن.....	٢٦٣	الجزاء.....	٢٤٨
تفسير الدخول.....	٢٦٣	حال بعض أهل الكتاب وأجرهم.....	٢٤٨
تحريم زوجات الأبناء دون زوجات المتبنى.....	٢٦٣	الأمر بالمصابرة والمراقبة.....	٢٤٩
شبهة وجوابها.....	٢٦٤	تفسير سورة النساء مدنية، وبعض ما لهذه السورة.....	
تحريم الجمع بين الأختين في النكاح.....	٢٦٤	من فضائل.....	٢٥١
تحريم المحصنات إلا إذا صرن ملك اليمين.....	٢٦٤	الأمر بالتقوى والتذكير بالخلق وصلة الأرحام.....	٢٥١
إحلال نكاح غير من ذكرن.....	٢٦٤	الأمر بحفظ أموال اليتامى.....	٢٥٢
بيان متعة النساء وحرمتها.....	٢٦٤	النهي عن نكاح اليتيمة بصداق دون.....	٢٥٢
جواز نكاح الإماء إذا لم يستطع نكاح الحرائر.....	٢٦٥	قصر الزواج على أربع من النساء.....	٢٥٢
على الأمة إذا زنت نصف عذاب الحرّة.....	٢٦٥	الاكتفاء بالواحدة عند خشية عدم العدل.....	٢٥٣
النهي عن الكسب الحرام.....	٢٦٦	إعطاء الصداق واجب.....	٢٥٣
خيار المجلس في البيع من تمام التراضي في التجارة.....	٢٦٦	الحجر على السفهاء.....	٢٥٣
النهي عن قتل النفس والوعيد عليه.....	٢٦٦	الأمر بالإتفاق على المحجورين بالمعروف.....	٢٥٣
تكفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر.....	٢٦٧	الأمر باختبار اليتامى، ودفع أموالهم لهم عند الرشد.....	٢٥٤
السبع الموبقات.....	٢٦٧	جواز الأكل للفقراء من مال اليتيم بقدر قيامهم عليه.....	٢٥٤
النهي عن تمني ما فضل به غيره.....	٢٦٨	الأمر بالتورث والرضخ لحاضري القسمة من غير الورثة.....	٢٥٥
علامة المرأة الصالحة.....	٢٦٨	العدل في الوصية.....	٢٥٥
النشوز وعلاجه.....	٢٦٩	الوعيد لمن أكل مال اليتيم.....	٢٥٥
لا سبيل على المرأة إذا أطاعت.....	٢٦٩	الأمر بالموارث والحض على تعلمها.....	٢٥٦
تحكيم حكّمين عند خوف الشقاق بين الزوجين.....	٢٦٩	سبب نزول الآية.....	٢٥٦
الأمر بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين والأقربين وغيرهم.....	٢٧٠	الأولاد يرون بحساب للذكر مثل حظ الأنثيين.....	٢٥٦
حق الجار.....	٢٧٠	ميراث البنات إذا انفردن.....	٢٥٧
الأمر بالإحسان إلى المملوك.....	٢٧١	ميراث الوالدين.....	٢٥٧
إن الله لا يحب المتكبرين.....	٢٧١	تقديم الدّين ثم الوصية على الميراث.....	٢٥٧
ذم البخل.....	٢٧١	ميراث الزوجين.....	٢٥٨
لا يظلم الله مثقال ذرة.....	٢٧٢	تعريف الكلالة.....	٢٥٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
هل يخفف العذاب عن المشركين؟	٢٧٢	القرآن حق	٢٨٦
معنى الأجر العظيم	٢٧٣	النهي عن إشاعة الخبر دون تحقيق	٢٨٦
شهادة نبينا ﷺ على أمته يوم القيامة وتمني الكفار الموت	٢٧٣	أمر الله رسوله بأن يباشر القتال بنفسه	٢٨٧
النهي عن اقتراب الصلاة في حال السكر والجناية	٢٧٣	تحريض المؤمنين على القتال	٢٨٦
بيان التيمم	٢٧٤	الشفاعاة الحسنة والسيئة	٢٨٧
ذم اليهود على اختيارهم الضلالة وتحريف الكلم	٢٧٤	الأمر برد السلام بأحسن منه	٢٨٨
والعصيان وفي الألسن والطعن في الدين	٢٧٦	النكير على اختلاف الصحابة فيمن رجع من أحد	٢٨٨
دعوتهم إلى الإيثار مع التهديد	٢٧٦	من يقاتل ومن لا يقاتل	٢٨٩
إسلام كعب الأحبار عند سماعه هذه الآية	٢٧٦	حكم قتل المؤمن خطأ	٢٨٩
لا يغفر الشرك أبداً إلا بالتوبة	٢٧٧	الوعيد على قتل العمد	٢٩٠
ذم اليهود ولعنهم على تركيتهم أنفسهم وإيائهم بالجيت	٢٧٧	هل تقبل توبة قاتل العمد؟	٢٩١
والطاغوت وقلبهم الهداية والإيثار	٢٧٧	السلام من علامات الإسلام	٢٩١
لا فضل للكفار على المسلمين	٢٧٨	لا يستوي المجاهدون والقاعدون	٢٩٢
لعنة الله على اليهود لاستنصارهم بالمشركين	٢٧٨	النهي عن المكث في المشركين للقادرين على الهجرة	٢٩٣
بخل اليهود وحسدكم	٢٧٨	صلاة القصر	٢٩٤
بيان عذاب من يكفر بكتاب الله ورسله	٢٧٩	بيان صلاة الخوف وأنواعها	٢٩٥
بيان مآل الصالحين وهو الجنة ونعيمها	٢٧٩	الأمر بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف	٢٩٦
الأمر بأداء الأمانة	٢٧٩	الحض على مطاردة العدو رغم الجراح	٢٩٦
الأمر بالعدل في القضاء	٢٧٩	الأمر بالحكم بما أنزل الله	٢٩٧
الأمر بطاعة الأمير في المعروف	٢٨٠	الترغيب في التوبة والاستغفار والوعيد لمن يكسب الإثم	٢٩٧
الأمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع	٢٨٠	أو يرمي به البريء	٢٩٧
من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما فليس بمسلم	٢٨١	نجوى الخبر	٢٩٨
ذم المنافقين	٢٨١	جزاء من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين	٢٩٨
طاعة الرسول واجبة حتماً	٢٨١	الشرك لا يغفر والمشركون يعبدون الشيطان في الحقيقة	٢٩٨
لا يكون المرء مؤمناً حتى يحكم النبي ﷺ في خصوصاته	٢٨١	جزاء المؤمنين الصالحين	٢٩٩
ويرضى به في قرارة نفسه	٢٨٢	النجاح ليس بالأمان بل بالعمل الصالح	٣٠٠
أكثر الناس يعاندون لما يؤمرون	٢٨٢	إبراهيم خليل الله	٣٠١
من يطع الله والرسول فهو مع المكرمين عند الله	٢٨٢	حكم التيمم	٣٠١
ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة	٢٨٣	أحكام نشوز الزوج	٣٠٢
الأمر بأخذ الحذر من العدو	٢٨٣	معنى ﴿وَالضَّالُّ حَيْرٌ﴾	٣٠٢
من علامات المنافقين التخلف عن الجهاد	٢٨٣	الوصية بتقوى الله	٣٠٣
الترغيب في الجهاد	٢٨٤	الأمر بالقيام بالعدل وبأداء الشهادة لله	٣٠٣
الحض على القتال لإيقاظ المستضعفين	٢٨٤	الأمر بالإيمان بعد الإيمان	٣٠٤
اللوم على حب تأخر فرض القتال ممن كانوا يريدونه	٢٨٤	أحوال المنافقين ومصيرهم	٣٠٤
لا مفر من الموت	٢٨٥	تربص المنافقين بالمسلمين	٣٠٥
طيرة المنافقين بالنبي ﷺ	٢٨٥	مخادعة المنافقين لله وكسلهم في الصلاة وتذبذبهم بين	٣٠٦
طاعة الرسول هي طاعة الله	٢٨٥	المؤمنين والكفار	٣٠٦
بيان سفاهة المنافقين	٢٨٦	النهي عن ولاء الكفار	٣٠٧

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٢٧	حل ذبيحة أهل الكتاب	٣٠٧	المنافقون - الموالون للكفار - في أسفل النار إلا أن يتوبوا
٣٢٧	جواز نكاح الحرائر العفاف من أهل الكتاب	٣٠٧	الإذن بالجهر بالسوء للمظلوم مع ترغيه في العقو
٣٢٨	الأمر بالوضوء	٣٠٨	الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم كفر خالص
٣٢٨	النية والتسمية في الوضوء	٣٠٨	عناد اليهود
٣٢٩	تحليل اللحية	٣٠٩	جرائم اليهود
٣٢٩	كيفية الوضوء	٣٠٩	قولهم في مريم وادعاهم قتل عيسى وحقيقة ذلك
٣٢٩	وجوب غسل الرجلين دون المسح	٣١٠	يؤمن جميع النصارى بالمسيح قبل موته
٣٣٠	ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه	٣١٠	ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له
٣٣٠	الأمر بالتخليل بين الأصابع	٣١١	صفة عيسى عليه السلام
٣٣٠	المسح على الخفين سنة ثابتة	٣١٣	تحريم طيبات على اليهود لأجل ظلمهم
٣٣٠	الأمر بالتيمم عند عدم وجود الماء وللمريض	٣١٣	أوحى إلى النبي ﷺ مثل ما أوحى إلى من قبله
٣٣١	الدعاء بعد الوضوء	٣١٤	المذكرون في القرآن خمسة وعشرون رسولاً
٣٣١	فضل الوضوء	٣١٤	فضل موسى
٣٣١	التذكير بنعمة الرسالة والإسلام	٣١٥	القصد من بعثة الأنبياء إقامة الحجة
٣٣٢	الأمر بالتزام العدل	٣١٦	نهي أهل الكتاب عن الغلو في الدين وإطراء عيسى ابن مريم
٣٣٢	كف أيدي الكفار عن المسلمين نعمة من الله	٣١٧	فرق النصارى
٣٣٣	ميثاق أهل الكتاب ولعنهم على نقضه	٣١٧	الأنبياء والملائكة لا يستنكفون عن كونهم عباد الله
٣٣٣	نقيا الأنصار ليلة العقبة	٣١٨	أوصاف ما جاء من عند الله
٣٣٣	الميثاق ونقضه	٣١٨	حكم الكلاله، وهي آخر آية نزولاً
٣٣٤	ميثاق النصارى ونسيانهم له ونتيجته	٣١٨	ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان وعليه التكلان
٣٣٤	بيان الحق بالرسول والقرآن	٣١٩	تفسير سورة المائدة
٣٣٤	شرك النصارى وكفرهم	٣١٩	فضائل المائدة وزمن نزولها
٣٣٥	الرد على أهل الكتاب في قولهم: نحن أبناء الله	٣٢٠	بيان ما يحل ويحرم من الحيوانات
٣٣٥	تذكير موسى قومه بنعم الله وأمره بدخولهم في الأرض المقدسة وتمردهم عليه	٣٢٠	الأمر باحترام الحرم والشهر الحرام
٣٣٦	خطبة يوشع وكالب عن الجهاد	٣٢١	الإهداء إلى بيت الله
٣٣٧	حسن جواب الصحابة يوم بدر	٣٢١	تحريم من قصد البيت الحرام
٣٣٧	دعاء موسى على اليهود	٣٢١	إباحة الصيد بعد الحلال من الإحرام
٣٣٨	تحريم دخول اليهود الأرض المقدسة أربعين سنة	٣٢١	العدل واجب في كل حال
٣٣٨	فتح بيت القدس	٣٢٢	ما حرم أكله من الحيوانات
٣٣٨	تسلية الله لموسى	٣٢٣	حرمة الاستقسام بالأزلام
٣٣٩	قصة هابيل وقايل	٣٢٤	يأس الكفار والشيطان من دين المسلمين
٣٤٠	تعجيل عقوبة البغي وقطيعة الرحم	٣٢٤	إكمال دين الإسلام
٣٤٠	يجب على الإنسان أن يحترم الإنسان	٣٢٥	إباحة الميتة في حالة الاضطراب
٣٤١	تهديد المسرفين	٣٢٥	بيان الحلال
٣٤١	جزاء المحاربين والأشرار	٣٢٦	حكم صيد الجوارح المعلمة
٣٤١	تسقط حدود المحاربة إذا تاب المحاربون قبل القدرة عليهم	٣٢٦	التسمية على الجارح عند إرساله

الموضوع	الصفحة
ذم المنافقين.....	٣٥٩
بيان سبب النزول لهذه الآيات.....	٣٦٠
لا رهبانية في الإسلام.....	٣٦١
اللغو في اليمين.....	٣٦١
كفارة اليمين.....	٣٦١
تحريم الخمر والميسر.....	٣٦٢
تفسير الأنصاب والأزلام.....	٣٦٢
ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر.....	٣٦٢
حرمة الصيد في الحرم والإحرام.....	٣٦٤
جزاء قتل الصيد في الحرم أو الإحرام.....	٣٦٥
إحلال صيد البحر للمحرم.....	٣٦٦
تحريم صيد البر للمحرم.....	٣٦٦
ذم السؤال بدون فائدة.....	٣٦٧
تفسير الحيوانات المذكورة.....	٣٦٨
الأمر بإصلاح النفس.....	٣٧٠
شهادة عدلين على الوصية.....	٣٧٠
يسأل الأنبياء عن أمهم.....	٣٧١
تذكير عيسى بالنعم.....	٣٧١
بيان نزول المائدة.....	٣٧٢
واقعة تاريخية غريبة.....	٣٧٣
المسيح يتبرأ من الشرك ويقر بالتوحيد.....	٣٧٣
لا يتفع يوم القيامة إلا الصدق.....	٣٧٤
تفسير سورة الأنعام وهي مكية.....	٣٧٤
فضل سورة الأنعام وزمن نزولها.....	٣٧٤
الحمد لله على جليل قدرته وعظيم سلطانه.....	٣٧٤
عناد المشركين وتوعدهم عليه.....	٣٧٥
ذم المعاندين وإياؤهم عن أن يكون الرسول بشراً.....	٣٧٥
الله هو الخالق الرازق المنعم فيجب الانقياد له.....	٣٧٦
الله هو النافع الضار القاهر.....	٣٧٦
أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.....	٣٧٧
يسأل المشركون عن شرهم.....	٣٧٧
لا يستفيد الشقي من القرآن.....	٣٧٧
لا تنفيد الأمانى عند رؤية العذاب.....	٣٧٨
تسلية للنبي ﷺ.....	٣٧٩
مطالبة المشركين بآية.....	٣٨٠
ما المراد بالأمم.....	٣٨٠
الكفار صم وبكم في الظلمات.....	٣٨٠
إقامة الحجة على المشركين بدعائهم الله وحده عند العذاب.....	٣٨١

الموضوع	الصفحة
الأمر بالتقوى والوسيلة والجهاد.....	٣٤٣
لا تقبل الفدية من الكفار يوم القيامة ويستمرون في النار.....	٣٤٣
الأمر بقطع يد السارق.....	٣٤٤
متى تقطع يد السارق؟.....	٣٤٤
توبة السارق مقبولة.....	٣٤٤
التلقين بعدم الحزن على تصرفات اليهود والمنافقين.....	٣٤٥
تحريف اليهود ومحاولة انحرافهم عن الرجم في قصة اليهوديين.....	٣٤٥
ذم مقاصد اليهود الزائغة ومدح كتابهم التوراة.....	٣٤٦
سبب آخر في نزول هذه الآيات الكرييات.....	٣٤٧
يقتل الرجل المرأة.....	٣٤٨
قصاص الجروح.....	٣٤٨
قاعدة مهمة.....	٣٤٨
العفو كفارة للذنوب.....	٣٤٨
ذكر عيسى ومدح الإنجيل.....	٣٤٩
مدح القرآن ووصفه والأمر بالحكم به.....	٣٤٩
النهى عن موالة اليهود والنصارى وأعداء الإسلام.....	٣٥١
سبب النزول.....	٣٥٢
تهديد المؤمنين بإتيان قوم آخرين إن ارتدوا.....	٣٥٢
بيان سبب نزول هذه الآيات.....	٣٥٣
النهى عن موالة الكفار.....	٣٥٣
استهزاء الكفار بالصلاة والأذان.....	٣٥٣
نقم أهل الكتاب من المؤمنين لأجل الإيثار بالله.....	٣٥٤
أهل الكتاب يستحقون شر عذاب يوم القيامة.....	٣٥٤
من عادات المنافقين إظهار الإيثار وإبطان الكفر.....	٣٥٤
التكبر على الربانيين والأخبار على تركهم النهي عن المنكر.....	٣٥٤
قول اليهود يد الله مغلولة.....	٣٥٥
يد الله مسوطتان.....	٣٥٥
ما نزل على المسلمين يزيد اليهود طغياناً وكفراً.....	٣٥٥
لو عمل أهل الكتاب بكتابهم لحصل لهم خيراً الدنيا والآخرة.....	٣٥٦
الأمر بالتبليغ والوعد بالعصمة.....	٣٥٦
لا نجاة إلا بالإيمان بالقرآن.....	٣٥٧
كفر النصارى ودعوة المسيح للتوحيد.....	٣٥٨
المسيح عبد وأمه صديقة.....	٣٥٨
النهى عن الشرك والغلو في الدين.....	٣٥٨
لعنة الله على الكافرين من بني إسرائيل.....	٣٥٩
أحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....	٣٥٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٠٣	اعتراف الكفار بعلو نسب النبي ﷺ	٣٨٢	الرسول لا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب
٤٠٤	تولية بعض الظالمين على بعض		نهي الرسول عن طرد أصحابه الضعفاء والأمر بتكريمهم
	تقريع الجن والإنس بالسؤال عن إرسال الرسل واعترافهم	٣٨٢	إذا جاؤوا
٤٠٥	بذلك		الرسول على بيته مما يدعوا إليه والجزاء بيد الله وليس بيده
٤٠٦	الوعيد بإذهابهم إذا عصوا	٣٨٣	لا يعلم الغيب إلا الله
٤٠٦	بيان بعض أعمال الشرك	٣٨٤	العباد بيد الله قبل الموت وبعده
٤٠٧	زين الشيطان للمشركون قتل أولادهم	٣٨٥	بيان فضل الله وكرمه وبطشه وقهره
٤٠٧	بعض تحريبات المشركين في الأنعام	٣٨٦	الدعوة إرشاد بغير إكراه
٤٠٨	الله الذي خلق الثمر والحب والأنعام	٣٨٦	النهى عن الجلوس مع من يخوض في آيات الله
٤٠٩	بيان الإسراف	٣٨٧	مثل من يرجع إلى الكفر بعد الإتيان والعمل الصالح
٤٠٩	فوائد الأنعام	٣٨٧	بيان نفخ الصور
٤٠٩	كلوا من هذه الأنعام ولا تتبعوا فيها خطوات الشيطان	٣٨٨	وعظ إبراهيم لأبيه
٤١٠	بيان الأشياء المحرمة	٣٨٨	انكشاف دلائل التوحيد على إبراهيم
٤١١	ما حرم على اليهود من الحلال لبغيهم	٣٨٨	هذا مقام المناظرة
٤١١	حيلة اليهود ولعنة الله عليهم	٣٩٠	الشرك هو الظلم العظيم
٤١٢	ذكر مغالطة والرد عليها	٣٩٠	هبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم في شيخوخته
٤١٢	الوصايا العشرة	٣٩٠	خصوصية نوح وإبراهيم
٤١٣	النهى عن الشرك	٣٩١	الشرك يحبط أعمال المخلوقين حتى الرسل
٤١٣	الأمر بالإحسان إلى الوالدين	٣٩٢	بشرية الرسل وإنزال الكتاب عليه
٤١٣	النهى عن قتل الأولاد	٣٩٣	لا أحد أظلم ممن يفترى على الله ويدعي نزول الوحي عليه
٤١٤	النهى عن قتل النفس المحرمة	٣٩٣	حال هؤلاء الظلمة عند الموت ويوم القيامة
٤١٤	تحريم أكل مال اليتيم	٣٩٤	التعريف بالله ببعض آياته
٤١٤	الأمر بإيفاء الكيل والميزان	٣٩٥	ذم المشركين
٤١٤	الأمر بالشهادة العادلة	٣٩٦	معنى البديع
٤١٤	الأمر بإيفاء عهد الله	٣٩٦	الله هو ربكم
٤١٥	الأمر باتباع الصراط المستقيم والنهى عن اتباع السبل الأخرى	٣٩٦	رؤية الله في الآخرة
٤١٥	مدح التوراة والقرآن	٣٩٧	تفسير البصائر
٤١٦	القرآن حجة الله على خلقه	٣٩٧	الأمر باتباع الوحي
٤١٦	تهديد من سوف إيمانه وتوبته	٣٩٨	النهى عن سب آلهة المشركين لثلاث يسبوا الله
٤١٧	ذم التفرقة	٣٩٨	طلب المعجزات والإقسام على الإتيان عند مجيئها
٤١٧	الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها	٣٩٩	لكل نبي عدو
٤١٨	الإسلام هو الصراط المستقيم	٤٠٠	أكثر الناس في ضلال
٤١٨	الأمر بإخلاص العبادة	٤٠٠	إحلال ما ذبح باسم الله
٤١٩	دين جميع الأنبياء هو الإسلام	٤٠١	تحريم ما ذبح بغير اسم الله
٤١٩	الأمر بإخلاص التوكل	٤٠١	وحي الشيطان
٤٢٠	لا تزر وازرة وزر أخرى	٤٠١	تقديم قول أحد على ما شرعه الله شرك
٤٢٠	جعل الله الناس خلائف ومتفاوتي الدرجات ليلوهم	٤٠١	مثل الكافر والمؤمن
٤٢١	تفسير سورة الأعراف وهي مكية	٤٠٢	أكابر المجرمين وحيلهم ومصيرهم

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أحوال قرى أهلكت	٤٢١	ساكن قوم ثمود ونسبهم	٤٣٨
بيان وزن الأعمال	٤٢٢	قصة صالح عليه السلام و ثمود	٤٣٨
سائر نعم السماء والأرض خلقت للإنسان	٤٢٢	ثمود طلبت ناقة من صخرة فظهرت	٤٣٨
قصة سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس	٤٢٢	قتل الناقة	٤٣٩
أول من قاس إبليس	٤٢٣	محاولة المفسدين بقتل صالح وبداية العذاب بهم، ثم نزول	٤٣٩
مكر الشيطان مع آدم وحواء وأكلهما من الشجرة	٤٢٤	العذاب على ثمود	٤٣٩
إهباطهم إلى الأرض	٤٢٥	قصة لوط عليه السلام وقومه	٤٤٠
إنزال لباس والزينة	٤٢٥	قصة شعيب عليه السلام ومدين	٤٤١
التحذير من فتنة الشيطان	٤٢٦	ابتلاء الأمم السابقة	٤٤٣
عمل الكفار الفاحشة ونسبتها إلى الله	٤٢٦	البركات مع الإيمان والبطش مع الكفر	٤٤٣
إن الله لا يأمر بالفحشاء، بل بالقسط والإخلاص	٤٢٦	قصة موسى وفرعون	٤٤٤
مفهوم البدء والعودة	٤٢٦	عصا موسى ويده البيضاء	٤٤٥
الأمر بالتجمل عند الذهاب إلى المساجد	٤٢٧	قول قوم فرعون في موسى إنه ساحر واتفاقهم على	٤٤٥
النهى عن الإسراف في المطعم والملبس	٤٢٨	معارضته بالسحرة	٤٤٥
الحرام هو الفواحش والإثم والبغي والشرك والافتراء على	٤٢٨	اجتماع السحرة ومقابلتهم مع موسى وتمويههم في تحويل	٤٤٥
الله	٤٢٨	حبالهم وعصيتهم حيات	٤٤٥
المشركون المقترنون ينالهم نصيبهم ويضل عنهم أولياؤهم	٤٢٨	غلبة موسى وإيمان السحرة	٤٤٦
عند الموت	٤٢٩	تهديد فرعون السحرة بعد الإيمان وجوابهم له	٤٤٦
تخاصم أهل النار وتلاعنهم	٤٢٩	تحريض القوم واستعداد فرعون لقتل بني إسرائيل	٤٤٧
المكذبون لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة أبداً	٤٣٠	وشكوى بني إسرائيل إلى موسى ووعد نصر الله	٤٤٧
بيان مآل الصالحين وأحوالهم	٤٣٠	ابتلاء آل فرعون بالسنين	٤٤٨
لأهل جهنم حسرة فوق حسرة	٤٣١	تمرد قوم فرعون وعقاب الله لهم بآيات	٤٤٨
الأعراف وأصحابها	٤٣١	إغراق آل فرعون في اليم وتورث بني إسرائيل الأرض	٤٤٩
نعيم الجنة حرام على أهل النار	٤٣٢	المباركة	٤٤٩
لا مجال للمشركين للاعتذار	٤٣٢	مجازة بني إسرائيل البحر ومرورهم بمعبره مجسم	٤٤٩
خلق الكون في ستة أيام	٤٣٣	تذكير بني إسرائيل بنعم الله	٤٥٠
تفسير الاستواء	٤٣٣	صام موسى وانقطع إلى الله أربعين ليلة	٤٥٠
الليل والنهار من آيات الله	٤٣٣	طلب موسى رؤية ربه	٤٥٠
الترغيب في الدعاء	٤٣٣	اصطفاء موسى وإعطاءه الألواح	٤٥١
النهى عن الاعتداء في الدعاء	٤٣٤	يحرم التكبرون من آيات الله	٤٥١
النهى عن الإفساد في الأرض	٤٣٤	قصة عبادة العجل	٤٥٢
من آيات الله أنه ينزل المطر ويخرج الثمر	٤٣٤	أخذ موسى الألواح بعد أن سكث الغضب	٤٥٣
قصة نوح وقومه	٤٣٥	ذهاب سبعين رجلاً من بني إسرائيل لميقات ربهم،	٤٥٣
قصة هود عليه السلام ونسب قوم عاد	٤٣٦	وإهلاكهم	٤٥٣
ساكن قوم عاد	٤٣٦	رحمة الله مكتوبة للمتقين المزمكين المؤمنين بآياته وبرسوله	٤٥٤
ما دار بين هود عليه السلام وقومه	٤٣٦	صفات ذلك الرسول ﷺ	٤٥٥
مصير قوم عاد	٤٣٧	عموم رسالة نبينا محمد ﷺ للعالم كله	٤٥٦
قصة وافد عاد	٤٣٧	عدوان اليهود في السبت	٤٥٧

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٧٨	الأمر باستجابة الله والرسول	٤٥٧	مسخهم قردة ونجاة الناهين دون الساكتين
٤٦٨	الله يحول بين الإنسان وقلبه	٤٥٨	الذلة الدائمة لليهود
٤٧٨	التحذير من فتنة عامة	٤٥٨	انتشار بني إسرائيل في الأرض
٤٧٩	تذكير المسلمين بما كانوا فيه من الذل والضعف وما ألوا	٤٥٩	رفع الطور على رؤوس اليهود لتمردهم
٤٨٠	إليه من القوة والنصر	٤٥٩	بيان العهد المأخوذ من ذرية آدم
٤٨٠	سبب نزول هذه الآية والنهي عن الخيانة	٤٦٠	قصة بلعم بن باعوراء ومثل العالم الذي ينسلخ عن علمه
٤٨٠	ذكر ما دبره أهل مكة من قتل النبي ﷺ أو حبسه أو	٤٦٢	الكفر والقدر
٤٨٠	إجلاله	٤٦٢	بيان أساء الله الحسنى
٤٨١	زعم قريش في إتيانهم بمثل القرآن	٤٦٤	بيان الساعة وأشراتها
٤٨٢	استفتاح المشركين وطلبهم العذاب	الرسول لا يعلم الغيب، ولا يملك نفعا ولا ضرا حتى	
٤٨٢	وجود النبي ﷺ واستغفار المشركين كانا أمانين من	٤٦٦	لنفسه
٤٨٢	العذاب	٤٦٦	كل الناس أولاد آدم
٤٨٢	عذاب المشركين بعد ارتكابهم الفظائع	٤٦٧	آلهة المشركين لا تخلق ولا تنصر ولا تملك شيئا
٤٨٣	إنفاق الكفار أموالهم للصد عن سبيل الله بعود حسرة عليهم	٤٦٨	الأمر بالعفو
٤٨٤	ترغيب الكفار في التوبة وترهيبهم على كفرهم	٤٦٩	طريقة أرباب التقوى عند الوسوسة
٤٨٤	الأمر بالقتال لإنهاء الكفر والشرك	٤٦٩	إخوان الشياطين يمدون في الغي
٤٨٥	حكم الغنيمة والفيء	٤٦٩	طلب المشركين الآيات
٤٨٦	بعض تفاصيل يوم بدر	٤٦٩	الأمر باستماع القرآن
٤٨٧	تقليل الله كل فئة في عين الأخرى	٤٧٠	الأمر بالذكر والعبادة في الصباح والمساء
٤٨٨	تعليم آداب الحرب	٤٧٠	تفسير سورة الأنفال وهي مدنية
٤٨٨	الأمر بالثبات عند المقابلة	٤٧٠	تفسير الأنفال
٤٨٨	كيفية خروج المشركين ليوم بدر	٤٧٠	سبب نزول الآية
٤٨٩	تزيين الشيطان وتغريه المشركين	٤٧٠	سبب آخر في نزول الآية
٤٨٩	موقف المنافقين يوم بدر	٤٧١	أوصاف المؤمنين الصادقين
٤٨٩	ضرب الملائكة الكفار عند قبض أرواحهم	٤٧١	زيادة الإيثار إذا تتلى آيات القرآن
٤٩٠	الأمر بشدة ضرب من يكفر وينقض العهد	٤٧١	بيان التوكل
٤٩٠	الأمر بنقض العهد على سواء	٤٧٢	بيان أعمال المؤمنين
٤٩١	الأمر بالإعداد حسب المستطاع حتى يهرب أعداء الله	٤٧٢	بيان حقيقة الإيثار
١٩٢	الأمر بالجروح للسلم إن جرح لها العدو	٤٧٢	ثمره الإيثار الكامل
٤٩٢	التذكير بنعمة التأليف بين قلوب المؤمنين	٤٧٢	اتباع الرسول باعث خير للمؤمنين
٤٩٢	التحريض على القتال والتبشير بأن القليل من المسلمين	٤٧٣	استغاثة المسلمين واستجابة الله لهم بإنزال الملائكة
٤٩٢	يغلبون الكثير من الكفار	٤٧٤	غلبة النعاس على المسلمين
٤٩٣	وعد الأسرى بعوض أحسن إن كان فيهم خير	٤٧٥	نزول المطر ليلة بدر
٤٩٤	المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض	٤٧٥	أمر الله الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين والقتال معهم
٤٩٥	لا ولاية لمن آمن ولم يهاجر	٤٧٦	النهي عن التولي يوم الزحف وجزاؤه
٤٩٥	الكفار بعضهم أولياء بعض ولا ولاية لهم مع المسلمين	٤٧٦	قتل الله للكافرين ودميهم بالتراب
٤٩٥	المؤمنون حقاً	٤٧٧	إجابة استفتاح المشركين
٤٩٦	الإرث للأقارب	٤٧٧	الأمر بطاعة الله ورسوله

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تفسير سورة التوبة وهي مدنية	٤٩٦	الفقراء	٥١٥
لم تكتب البسلة في أول هذه السورة؟	٤٩٦	المساكين	٥١٥
إعلان البراءة إلى المشركين	٤٩٦	العاملون عليها	٥١٥
من كان له عهد ولم ينقض فعهده إلى مدته	٤٩٧	المؤلفة قلوبهم	٥١٥
هذه هي آية السيف	٤٩٧	الرقاب	٥١٦
إذا طلب المشرك الأمن فيعطى	٤٩٨	فضل العتاق	٥١٦
تأكيد البراءة من المشركين	٤٩٨	الغارمون	٥١٦
لا أيمان لأئمة الكفر	٤٩٩	في سبيل الله	٥١٦
الحث على قتالهم وبيان بعض فوائده	٤٩٩	ابن السبيل	٥١٦
من حكمة القتال اختبار المسلمين	٥٠٠	من سمات المنافقين إيذاء النبي ﷺ	٥١٦
لا يعمر المشركون مساجد الله	٥٠٠	ومنها محاولة إرضاء الناس بالحلف الكاذب	٥١٧
أهل الإيمان يعمرون المساجد	٥٠٠	ومنها خوفهم من إفشاء السر	٥١٧
ثقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا يساويان الإيمان	٥٠١	ومنها تحاييلهم واعتذارهم بالباطل	٥١٧
والجهاد	٥٠١	بيان بعض خصال المنافقين الأخرى	٥١٨
الأمر بترك موالاته المشركين ولو كانوا أقارب	٥٠١	نصيحة المنافقين بأن يعتبروا بمن قبلهم	٥١٨
انحصار الفتح على النصر الغيبي	٥٠٢	صفات المؤمنين المحمودة	٥١٩
وقعة غزوة حنين	٥٠٢	البشارة للمؤمنين بالنعم الدائمة	٥١٩
منع المشركين عن دخول المسجد الحرام	٥٠٣	الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم	٥٢٠
التحريض على قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية	٥٠٤	سبب النزول	٥٢٠
الجزية علامة الذلة والكفر	٥٠٤	هم المنافقين بقتله ﷺ	٥٢٠
شرك اليهود والنصارى وكفرهم هو سبب قتالهم	٥٠٥	من سمات المنافقين طلب المال ثم البخل بالصدقة	٥٢١
محاولة أهل الكتاب إطفاء نور الإسلام	٥٠٦	ومنها لزم المطوعين والسخرية من المقلين	٥٢١
دين الإسلام يغلب جميع الأديان	٥٠٦	النهي عن الاستغفار للمنافقين	٥٢٢
التحذير من علماء سوء وعباد الضلال	٥٠٦	فرح المنافقين على تخلفهم عن الغزوة	٥٢٢
عذاب من يكثر الذهب والفضة	٥٠٦	لا يؤذن للمنافقين بالخروج في الحرب	٥٢٣
السنة اثنا عشر شهراً	٥٠٧	النهي عن الصلاة على المنافقين	٥٢٣
الأشهر الحرم	٥٠٨	ذم المتخلفين عن الجهاد	٥٢٣
القتال في الأشهر الحرم	٥٠٩	بيان العذر الشرعي لعدم المشاركة في الجهاد	٥٢٤
ذم التصرف في الشرع بالرأي	٥٠٩	بيان مكر المنافقين	٥٢٥
العتاب والتهديد على التناقل عن الجهاد	٥١٠	الأعراب أشد كفراً ونفاقاً	٥٢٥
الله ناصر نبيه ﷺ	٥١٠	فضائل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان	٥٢٦
تحميم الجهاد على كل حال	٥١١	منافقو الأعراب والمدينة	٥٢٦
سبب تخلف المنافقين وبيان حيلتهم	٥١٢	المؤمنون المتخلفون عن الجهاد كسلاً	٥٢٦
معاتبه النبي ﷺ على إذنه لهم	٥١٢	الأمر بأخذ الزكاة وبيان فوائدها	٥٢٧
كشف أحوال المنافقين	٥١٢	الوعيد للعصاة	٥٢٧
بيان هلع المنافقين	٥١٤	إرجاء أمر المتخلفين الثلاثة	٥٢٨
لزم المنافقين في الصدقات وطعمهم فيها	٥١٤	مسجد الضرار ومسجد التقوى	٥٢٨
بيان مصارف الزكاة	٥١٥	فضل مسجد قباء والصلاة فيه	٥٢٩

الصفحة	الموضوع
٥٤٩	ليستمن من المجرمين سواء في الدنيا أو في الآخرة
٥٤٩	استعجال المنكرين يوم القيامة وجوابهم
٥٥٠	القيامة حق
٥٥٠	القرآن موعظة وشفاء ورحمة وهدى
٥٥٠	ليس لأحد سوى الله أن يحل أو يحرم شيئاً
٥٥١	كل صغير وكبير في علم الله
٥٥١	معرفة أولياء الله
٥٥١	المراد بالبشرى الرؤيا الصادقة
٥٥٢	العزة لله جميعاً، وهو المتصرف في الكون دون غيره
٥٥٢	الله ممتزج عن الزوجة والأولاد
٥٥٣	قصة نوح مع قومه
٥٥٣	الإسلام دين الأنبياء
٥٥٣	عاقبة المجرمين السيئة
٥٥٤	قصة موسى وفرعون
٥٥٤	بين موسى والسحرة
٥٥٤	لم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا ذرية
٥٥٥	نحريض موسى قومه على التوكل على الله
٥٥٥	أمرهم بالصلاة في البيوت
٥٥٥	دعاء موسى على فرعون وملئه
٥٥٦	نجاة بني إسرائيل وغرق آل فرعون
٥٥٧	تمكين بني إسرائيل من الأرض ورزقهم من الطيبات
٥٥٧	تصديق القرآن في الكتب السابقة
٥٥٨	لم ينفع الإيمان عندما جاء العذاب إلا قوم يونس
٥٥٨	ليس من حكمة الله أن يكره الناس على الإيمان
٥٥٩	الأمر بالتفكير في خلق السماوات والأرض
٥٥٩	الأمر بعبادة الله وحده والتوكل عليه
٥٥٩	تفسير سورة هود عليه السلام وهي مكية
٥٥٩	سورة هود عما شئت النبي ﷺ
٥٦٠	القرآن ودعوته إلى الله وحده
٥٦٠	الله خبير بكل شيء
٥٦٠	الله متكفل بأرزاق سائر المخلوقات
٥٦١	خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام
٥٦١	جدال المشركين في البعث بعد الموت واستعجابهم للعذاب
٥٦١	معاني الأمة
٥٦٢	تقلب الإنسان في السراء والضراء
٥٦٢	تضايق الرسول عن أقوال المشركين وتسليته
٥٦٢	بيان إعجاز القرآن
٥٦٣	من أراد الدنيا فليس له حظ في الآخرة

الصفحة	الموضوع
٥٢٩	الفرق بين المسجدين
٥٣٠	اشترى الله من المجاهدين أنفسهم وأموالهم بالجنة
٥٣٠	النهي عن الدعاء للمشركين
٥٣١	لا مؤاخاة إلا بعد إقامة الحجة
٥٣١	بيان غزوة تبوك
٥٣٢	قصة الثلاثة الذين خلفوا
٥٣٤	الأمر بقول الصدق
٥٣٤	جزاء الخروج للغزوة
٥٣٦	الأمر بجهاد الكفار والأقرب فالأقرب
٥٣٦	إيمان المؤمن يزيد وينقص والمنافقون يزدادون رجساً
٥٣٧	ابتلاء المنافقين
٥٣٧	بعثة الرسول ﷺ مئة من الله تعالى
٥٣٨	تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية
٥٣٨	لا يكون الرسول إلا بشراً
٥٣٨	الله خالق الكون وربّه والمتصرف فيه
٥٣٩	مرجع الجميع إلى الله
٥٣٩	كل شيء شاهد على قدرة الله
٥٣٩	ماوى منكري الساعة جهنم
٥٤٠	الجزاء الحسن لأهل الإيمان والعمل الصالح
٥٤٠	لا يستجيب الله دعاء الشر استجابته دعاء الخير
٥٤٠	الإنسان يذكر الله عند الشدة وينساه عند الرخاء
٥٤١	العبرة بإهلاك القرون الأولى
٥٤١	بيان تعنت رؤساء قریش
٥٤١	ثبوت صدق القرآن
٥٤٢	ما يعتقد المشركون في آلهتهم
٥٤٢	الشرك حادث
٥٤٣	طلب المشركين آية
٥٤٣	تقلب الإنسان حين تصيبه الرحمة بعد الضر
٥٤٤	مثل الحياة الدنيا
٥٤٤	الترغيب في النعم الدائمة التي لا زوال لها
٥٤٥	أجر المحسنين
٥٤٥	جزاء المجرمين
٥٤٥	تبري آله المشركين منهم يوم القيامة
٥٤٥	اعتراف المشركين بتوحيد الله في ربوبيته، وإقامة الحجة عليهم بذلك
٥٤٧	القرآن كلام الله حقاً، وبيان إعجازه
٥٤٨	الأمر بالتبري من المشركين
٥٤٨	الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر

الموضوع	الصفحة
يؤمن بالقرآن من يكون على بينة من ربه	٥٦٣
مصادق كل حديث موجود في القرآن	٥٦٤
المفترون على الله الصادون عن سبيله هم الأخسرون	٥٦٤
جزاء أهل الإيمان	٥٦٥
مثل المؤمنين والكافرين	٥٦٥
قصة نوح وحواره مع قومه	٥٦٥
جواب نوح	٥٦٦
مطالبة قوم نوح بالعذاب وجوابه لهم	٥٦٦
استطرد لبيان صدق النبي ﷺ	٥٦٧
الوحي إلى نوح بمصير القوم والأمر بالاستعداد له	٥٦٧
بداية الطوفان وحمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين	٥٦٧
الركوب في السفينة وجريها في الأمواج الهائلة	٥٦٨
قصة غرق ابن نوح الكافر	٥٦٨
نهاية الطوفان	٥٦٨
العود إلى قصة ابن نوح وذكر ما دار بين الله تعالى ونوح عليه السلام حول ابنه	٥٦٨
الأمر بالنزول من السفينة بالسلام والبركة	٥٦٩
بيان هذه القصص دليل على وحي الله إلى الرسول ﷺ	٥٦٩
قصة هود وقومه عاد	٥٦٩
الحوار بين عاد وهود	٥٧٠
إهلاك عاد وتنجية من آمن منهم	٥٧٠
قصة صالح وثمود	٥٧٠
الحوار بين صالح وثمود	٥٧١
مجيء الملائكة إلى إبراهيم وتبشيرهم بإبائه بإسحاق ويعقوب	٥٧١
مجادلة إبراهيم في قوم لوط	٥٧٢
مجيء الملائكة إلى لوط وما حصل له من الضيق وما دار بينه وبين قومه	٥٧٢
عجز لوط وثمينه القوة وإخبار الملائكة له بالحقبة	٥٧٣
قلب قرية قوم لوط وإهلاكهم	٥٧٣
قصة مدين ودعوة شعيب	٥٧٤
جواب قوم شعيب	٥٧٤
رد شعيب على قومه	٥٧٤
جواب قوم شعيب	٥٧٥
رد شعيب على قومه	٥٧٥
تهديد شعيب قومه	٥٧٥
قصة موسى وفرعون	٥٧٥
الانتعاز بالقرى المهلكة	٥٧٦
الموضوع	الصفحة
إهلاك القرى دليل على قيام الساعة	٥٧٦
حال الأشقياء ومصيرهم	٥٧٧
حال السعداء ومصيرهم	٥٧٧
الشرك ضلال لا شك فيه	٥٧٨
الأمر بالاستقامة	٥٧٨
الأمر بإقام الصلاة	٥٧٨
إن الحسنات تنحو السيئات	٥٧٨
لا بد من وجود جماعة تهوى عن الفحشاء	٥٧٩
لم يجعل الله الإيمان لجميع أهل الأرض	٥٧٩
الخاتمة	٥٨٠
تفسير سورة يوسف عليه السلام وهي مكية	٥٨٠
أوصاف القرآن	٥٨٠
سبب نزول هذه الآية	٥٨١
رؤيا يوسف	٥٨١
أمر والد يوسف بإخفاء الرؤيا حذرًا من كيد الشيطان	٥٨١
تعبير رؤيا يوسف	٥٨١
قصة يوسف وفيها آيات	٥٨١
استئذان الإخوة بذهاب يوسف	٥٨٢
جواب الأب	٥٨٢
إلقاء يوسف في البئر	٥٨٢
مكر إخوة يوسف مع أبيهم	٥٨٣
إخراج يوسف من البئر وبيعه	٥٨٣
يوسف في مصر	٥٨٤
حب امرأة العزيز ليوسف ومكيدتها به	٥٨٤
وصول الخبر إلى نسوة المدينة ومكيدتهن ليوسف	٥٨٦
القرار بسجن يوسف وتنفيذه	٥٨٦
سجينان يسألان يوسف عن تأويل رؤياهما	٥٨٧
دعوة يوسف السجينين إلى التوحيد قبل التعبير	٥٨٧
تعبير الرؤيا	٥٨٧
قال يوسف للساقى: اذكرني عند الملك	٥٨٨
رؤيا ملك مصر	٥٨٨
تعبير رؤيا الملك	٥٨٨
تحقيق ما جرى بين يوسف وبين امرأة العزيز ونسوة مصر	٥٨٩
مكانة يوسف في عين الملك	٥٨٩
حكم يوسف في مصر	٥٩٠
ورود إخوة يوسف إلى مصر ورجوعهم مع الميرة وتعهدهم بإتيان أخيه الأصغر	٥٩٠
طلبهم من يعقوب أن يذهبوا بينامين وجوابه	٥٩١

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الدعاء عند الرعد	٦٠٤	خروج البضاعة من المتاع	٥٩١
تمثيل عجز آلهة المشركين	٦٠٥	أمر يعقوب بنيه أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة	٥٩١
كل شيء يسجد لله	٦٠٥	تسليّة يوسف لبنيامين	٥٩٢
إثبات التوحيد	٦٠٥	جعل صواع الملك في رحل أخيه وحبه بهذه الحيلة	٥٩٢
مثال لبقاء الحق وفناء الباطل	٦٠٦	إخوة يوسف اغتموه بالسرقة	٥٩٣
أمثلة الماء والنار موجودة، في الكتاب والسنة	٦٠٦	اقتراح الإخوة أخذ أحد منهم بدل بنيامين والرد على هذا الاقتراح	٥٩٣
جزاء السعداء والأشقياء	٦٠٧	مشاورتهم ومشورة كبيرهم	٥٩٣
لا يستوي المؤمن والكافر	٦٠٧	جواب نبي الله وحاله بعد سماع الخبر المؤلم	٥٩٣
أوصاف السعداء التي تؤدي إلى الجنة	٦٠٧	الأمر بتحسّن يوسف وأخيه	٥٩٤
أوصاف الأشقياء التي تؤدي إلى اللعنة وسوء الدر	٦٠٨	إخوة يوسف بين يديه	٥٩٤
السعة في الرزق والقتريد الله	٦٠٨	تعرف يوسف إلى إخوته وعفوه عنهم	٥٩٤
طلب المشركين الآيات والرد عليهم	٦٠٩	قميص يوسف ووجدان يعقوب ريح يوسف	٥٩٥
طمأنينة قلب المؤمن بذكر الله	٦٠٩	جاء يهوذا بالقميص بشيراً	٥٩٥
بيان طوبى	٦٠٩	ندامة إخوة يوسف	٥٩٥
القصص من إرسال النبي ﷺ، تلاوة ما أوحى إليه، والدعوة إليه	٦١٠	استقبال يوسف أبويه وصدق رؤياه	٥٩٦
فضل القرآن وجحود الكفار	٦١٠	الدعاء بالخاتمة على الإسلام	٥٩٦
تسليّة لرسول الله ﷺ	٦١١	ما سبق من القصص هو من وحي الله	٥٩٧
لا اشتراك بين الله وبين آلهة المشركين بوجه من الوجوه	٦١١	عدم تفكر الناس في الآيات التي بين أيديهم	٥٩٧
بيان عقاب الكفار وجزاء الأبرار	٦١١	سبيل الرسول ﷺ	٥٩٨
يفرح الصادقون من أهل الكتاب بما أنزل على محمد ﷺ	٦١٢	الأنبياء كانوا بشراً ورجالاً	٥٩٨
الأنبياء كانوا بشراً	٦١٣	الأنبياء من البشر لا من الملائكة	٥٩٨
ليس لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله	٦١٣	العبرة فيمن سبق	٥٩٨
معنى محوما في الكتاب وإثباته	٦١٣	يُنصّر الأنبياء في أحوال الأوقات	٥٩٨
على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب	٦١٤	العبرة لمن اعتبر	٥٩٩
مكر الكفار وفلاح المؤمنين	٦١٤	تفسير سورة الرعد وهي مكية	٦٠٠
كفى بالله ومن عنده علم الكتاب شهيداً برسالة النبي ﷺ	٦١٤	القرآن كلام الله	٦٠٠
تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وهي مكية	٦١٤	بيان كمال قدرة الله	٦٠٠
التعريف بالقرآن ومقصوده والويل لمن خالفه	٦١٤	الاستواء	٦٠٠
كل نبي أرسل بلسان قومه لتكون الهداية أو الضلال بعد تبيينه	٦١٥	تسخير الشمس والقمر وجريانها	٦٠٠
قصة موسى وقومه	٦١٥	آيات الله في الأرض	٦٠١
تكذيب الأمم لرسلهم وما دار بينهم	٦١٦	إنكار الحياة بعد الممات عجيب	٦٠١
تفسير: ﴿فَرَدُّوا أَعْيُنُهُمْ فِي آفَاقِهِمْ﴾	٦١٦	استعجال الكفار بالعذاب	٦٠٢
المجادلة بين الأنبياء والكفار	٦١٧	طلب المشركين الآية والرد عليهم	٦٠٢
عدم اعتراف الكفار برسالة الرسل لأجل أنهم بشر	٦١٧	عالم الغيب هو الله	٦٠٢
تهديد الأمم رسلهم وتبشير الله هؤلاء الرسل	٦١٧	علم الله محيط بكل ظاهر وخفي	٦٠٣
مثل لأعمال الكفار	٦١٩	الملائكة الحفظة	٦٠٣
		السحاب والبرق والرعد والصواعق من قدرة الله	٦٠٤

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
برهان الحياة بعد المات	٦١٩	إهلاك أصحاب الحجر: وهم ثمود	٦٣٤
مجادلة التابعين والمتبوعين من أهل النار	٦١٩	خلقت الدنيا لمصلحة ما ثم تقوم الساعة	٦٣٥
خطاب إبليس أتباعه واعتذاره إليهم يوم القيامة	٦٢٠	الامتنان بالقرآن والأمر بالتركيز على دعوته	٦٣٥
مثل كلمة الإسلام وكلمة الكفر	٦٢١	الرسول نذير مبين	٦٣٦
تثبيت المؤمن بالقول الثابت في الدنيا والآخرة	٦٢١	تفسير المقتسمين	٦٣٦
مصير من بدل نعمة الله كفراً	٦٢٣	الأمر بالصدع بالحق	٦٣٧
الأمر بالصلاة والإنفاق	٦٢٤	الأمر بالإعراض عن المشركين وضمان كفاية المستهزئين	٦٣٧
بيان نعم الله العديدة	٦٢٤	التشجيع على تحمل المشاق، والأمر بالتزام التمسح	٦٣٧
دعاء إبراهيم عندما أسكن إسحاق مكة	٦٢٤	والعبادة حتى الموت	٦٣٧
إمهال الله للكافرين ليس عن غفلة	٦٢٦	تفسير سورة النحل وهي مكية	٦٣٨
لا مهلة بعد مجيء العذاب	٦٢٦	الإنذار بقرب الساعة	٦٣٨
لا يخلف الله الميعاد	٦٢٧	يرسل الله من يشاء بالتوحيد	٦٣٨
أحوال المجرمين يوم القيامة	٦٢٧	الله الذي خلق السماوات والأرض والإنسان	٦٣٨
تفسير سورة الحجر وهي مكية	٦٢٨	الأنعام من خلق الله ونعمة منه	٦٣٩
يتمنى الكفار في وقت ما أن لو كانوا مسلمين	٦٢٨	بيان الطرق الدينية	٦٣٩
لك قرية أجل معلوم	٦٢٨	المطر وفوائده وبيان أنه آية	٦٤٠
رمي الرسول بأنه مجنون وطلب نزول الملائكة والرد عليه	٦٢٩	آيات في تسخير الليل والنهار والقمر وفيما يخرج	٦٤٠
استهزاء مشركي كل أمة برسولهم	٦٢٩	من الأرض	٦٤٠
المعاندون من الكفار لا يؤمنون بها رأوا من الآيات	٦٢٩	آيات في البحار والجبال والأنهار والسيل والنجوم	٦٤١
قدرة الله وآياته في السماوات والأرض	٦٢٩	العبادة حق لله	٦٤١
خزائن كل شيء عند الله	٦٣٠	آلهة المشركين مخلوقة غير خالقة	٦٤١
منفعة الرياح	٦٣٠	لا معبود إلا الله	٦٤٢
الماء العذب من نعمة الله	٦٣٠	إعراض الكفار عن الوحي ومضاعفة عقابهم	٦٤٢
بيان قدرة الله على بدء الخلق وإعادة خلقه	٦٣١	بيان ما فعله السابقون وما فعل بهم	٦٤٢
مادة خلق الإنسان والجنان	٦٣١	أحوال الكافرين عند وفاتهم وبعدها	٦٤٣
خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، وتمرد إبليس	٦٣١	قول المتقين في الوحي وجزاؤهم وأحوالهم عند الوفاة	٦٤٣
إخراج إبليس من الجنة وإمهاله إلى يوم القيامة	٦٣١	وبعدها	٦٤٣
تحدي إبليس بالإغواء، ووعد الله له بجهم	٦٣٢	معنى تأخير الكافرين عن الإيمان، انتظارهم للعذاب	٦٤٣
أبواب جهنم سبعة	٦٣٢	استدلال المشركين على شركهم بالقدر، والرد عليهم	٦٤٤
بيان أهل الجنة وأحوالهم	٦٣٢	البعث بعد الموت حق، وفيه حكمة، وهو هين على الله	٦٤٤
ضيف إبراهيم وتشيرهم إياه بغلام	٦٣٣	جزاء المهاجرين	٦٤٤
سبب مجيء الملائكة	٦٣٣	ما أرسل رسول إلا من البشر	٦٤٦
مجيء الملائكة عند لوط	٦٣٣	كيف يأمن المجرمون	٦٤٦
أمر لوط بخروجه مع أسرته بالليل	٦٣٣	سجود كل شيء لله	٦٤٧
مجيء أهل المدينة إلى الملائكة ظناً منهم أنهم رجال	٦٣٣	الله وحده يستحق العبادة	٦٤٧
إهلاك قوم لوط	٦٣٤	من أعمال المشركين النذر للآلهة عما رزقهم الله	٦٤٧
قرية سدوم على الطريق	٦٣٤	نفور المشركين عن البنات	٦٤٨
إهلاك أصحاب الأيكة: قوم شعيب	٦٣٤	لا يؤخذ بالمعاصي فوراً	٦٤٨

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٥٩	مثل لكه	٦٤٨	نسبة المشركين إلى الله ما يكرهون
٦٦٠	الأمر بأكل الرزق الحلال وبالشكر وبيان الحرام	٦٤٩	التعزي بمن سبق
٦٦٠	تحريم بعض الطيبات على اليهود	٦٤٩	القصد من إنزال القرآن
٦٦١	ذكر خليل الله	٦٤٩	العبرة والنعمة في الأنعام وثمرات النخيل والأعناب
٦٦١	جعل السبت على اليهود	٦٥٠	وفي النحل وعسلها نعمة وعبرة
٦٦٢	الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة	٦٥٠	وفي الإنسان عبرة
٦٦٢	الأمر بالمساواة في القصاص	٦٥١	وفي أمور معاش الإنسان آية ونعمة
٦٦٢	تفسير سورة الإسراء وهي مكية	٦٥١	ومن النعم والآيات الأزواج والأولاد والأحفاد
٦٦٢	فضل سورة الإسراء	٦٥١	التكبر على عبادة غير الله
٦٦٣	بيان الإسماء	٦٥١	مثل للمؤمن والكافر أو للوثن والحق
٦٦٣	ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء	٦٥٢	مثل آخر
٦٦٣	رواية أنس بن مالك رضي الله عنه	٦٥٢	الغيب لله وعنده علم الساعة
٦٦٤	رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة	٦٥٢	ومن نعم الله السمع والأبصار والأفئدة
٦٦٥	رواية أنس عن أبي ذر	٦٥٢	وفي تسخير الطير في جو السماء آية
٦٦٥	رواية جابر بن عبد الله <small>رضي الله عنه</small>	٦٥٣	البيوت والأثاث والثياب من نعم الله
٦٦٦	رواية عبد الله بن عباس <small>رضي الله عنه</small>	٦٥٣	الظلال والجبال وسرايل الثوب والحديد أيضًا من نعم الله
٦٦٧	رواية عبد الله بن مسعود <small>رضي الله عنه</small>	٦٥٣	ما على الرسول إلا البلاغ
٦٦٧	رواية عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small>	٦٥٣	حال المشركين يوم الحشر
٦٦٧	رواية أبي هريرة <small>رضي الله عنه</small>	٦٥٤	تبرؤ آلهة المشركين منهم أحوج ما يكونون إليها
٦٦٧	رواية عائشة أم المؤمنين <small>رضي الله عنها</small>	٦٥٤	يستسلم الجميع لله يوم القيامة
٦٦٧	زمان الإسراء وأنه كان بجسده وروحه بقطة لا منامًا	٦٥٤	الزيادة في عذاب المفسدين من الكفار
٦٦٨	قائدة حسنة جليلة	٦٥٤	كل نبي يشهد على أمته يوم القيامة
٦٦٩	ذكر موسى وإعطاؤه التوراة	٦٥٤	القرآن تبيان لكل شيء
٦٦٩	ذكر في التوراة أن اليهود يطغنون مرتين	٦٥٥	الأمر بالإنصاف والإحسان
٦٦٩	الإفساد الأول من اليهود جزاؤهم عليه	٦٥٥	الأمر بصلة الأرحام والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي
٦٧٠	الإفساد الثاني	٦٥٥	واقعة عين لعشان
٦٧٠	مدح القرآن	٦٥٥	الأمر بإيفاء العهد
٦٧٠	عجلة الإنسان ودعاؤه على نفسه	٦٥٦	لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة
٦٧١	الليل والنهار من آيات قدرة الله العظام	٦٥٦	النهي عن أن يخلف للخداع
٦٧١	مع كل إنسان كتاب أعماله	٦٥٦	لاتنقضوا الأيمان للدنيا
٦٧٢	لا يحمل أحد ذنب أحد	٦٥٧	العمل الصالح وجزاؤه
٦٧٢	لا عذاب إلا بعد بعثة الرسول	٦٥٧	الأمر بالاستعاذة قبل التلاوة
٦٧٢	مسألة من مات من الأولاد الصغار		رمي المشركين الرسول بالافتراء لنسخ بعض الآيات،
٦٧٣	كرهة الكلام في هذه المسألة	٦٥٧	والرد عليهم
٦٧٣	قراءات قوله: «أمرنا» ومعانيه	٦٥٨	نسبة المشركين لتعليم القرآن إلى بشر والرد عليهم
٦٧٣	تهديد لقريش	٦٥٨	قهر الله وغضبه على المرتد إلا من أكره على الكفر
٦٧٤	جزاء من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة	٦٥٨	سبب نزول الآية
٦٧٤	لا تشرکوا بالله أحدًا	٦٥٩	يعفر للمكره إذا عمل الصالحات بعد الإكراه

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الأمر بالهجرة	٦٩٠	الأمر بالتحديد والإحسان بالوالدين	٦٧٤
وعيد لكفار قريش	٦٩٠	غفران زلة الولد في حق والديه بإنابته إلى الله	٦٧٥
القرآن شفاء ورحمة	٦٩٠	الأمر بصلة الأرحام والنهي عن التبذير	٦٧٥
عادة الإنسان في حالتي السراء والضراء	٦٩١	الاقتصاد في الإنفاق	٦٧٦
ذكر الروح	٦٩١	النهي عن قتل الأولاد	٦٧٧
الروح والنفس	٦٩٢	الأمر باجتناب الزنا وأسبابه	٦٧٧
لو شاء الله لذهب بالقرآن	٦٩٢	النهي عن قتل النفس بغير حق	٦٧٧
التحدي بالقرآن	٦٩٢	الأمر بالتصرف الحسن في مال اليتيم وبالكيل الأوفى	٦٧٨
طلب قريش آيات معينة والرد عليهم	٦٩٢	والوزن المستقيم	٦٧٨
سبب رد طلبات المشركين	٦٩٣	لا تكلموا إلا بعلم	٦٧٨
إباء المشركين عن الإيمان لكون الرسول بشراً والرد عليهم	٦٩٤	ذم مشية التبخر	٦٧٨
الهداية والإضلال بيد الله	٦٩٥	كل ما سبق وحي وحكمة	٦٧٩
جزاء أهل الضلال	٦٩٥	الرد على الزاعمين أن الملائكة بنات الله	٦٧٩
الإمسك من طبيعة الإنسان	٦٩٥	كل شيء يسبح الله	٦٧٩
تسع آيات لموسى	٦٩٦	الحجاب على قلوب المشركين	٦٨٠
إهلاك فرعون وقومه	٦٩٦	تناجي قريش بعد سماع القرآن	٦٨٠
نزول بالحق متقرباً	٦٩٦	الرد على من لا يؤمن بالحياة بعد الممات	٦٨١
القرآن حق يعترف به السابقون من أهل العلم	٦٩٧	ليتكلم العباد بالحسن والأدب	٦٨٢
الله الأسما الحسنى	٦٩٧	تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض	٦٨٢
الأمر بالقراءة بين الجهر والخفية	٦٩٧	آلهة المشركين لا تقدر على النفع والضرر بل تطلب القربة	٦٨٣
بيان التوحيد	٦٩٨	إلى الله	٦٨٣
سورة الكهف وهي مكية	٦٩٨	تهلك أو تعذب قرى الكفار كلها قبل قيام الساعة	٦٨٣
أنزل القرآن بشيراً ونذيراً	٦٩٨	سبب عدم إرسال الآيات	٦٨٣
سبب نزول السورة	٦٩٩	إحاطة الله بالناس وجعله رؤيا النبي فتنة لهم	٦٨٤
لا تأسف على عدم إيمان المشركين	٦٩٩	قصة آدم وإبليس	٦٨٤
الدنيا دار الابتلاء	٦٩٩	الفلك من علامات رحمة الله	٦٨٥
قصة أصحاب الكهف	٧٠٠	الكفار لا يذكرون عند الضر إلا الله	٦٨٥
إيمانهم بالله واعتزالهم القوم	٧٠١	ألا يأتي عذاب الله في البر	٦٨٦
موقع الكهف	٧٠٢	ولو شاء أن يعيدكم في البحر	٦٨٦
رقودهم في الكهف	٧٠٣	بيان شرف الإنسان وكرمه	٦٨٦
استيقاظهم وبعثهم أحدهم لشراء الطعام	٧٠٣	كل أحد يدعى بإمامه يوم القيامة	٦٨٦
غور أهل البلد عليهم وبنائهم تذكراً على الكهف	٧٠٤	شدة عقوبة النبي لو ركن شيئاً قليلاً إلى الكفار في مطالبتهم	٦٨٧
عددهم	٧٠٤	بتغيير بعض الوحي	٦٨٧
الاستثناء عند العزم على فعل في المستقبل	٧٠٥	سبب نزول الآية	٦٨٧
مدة قيامهم في الكهف	٧٠٥	الأمر بإقامة الصلوات في أوقاتها	٦٨٧
الأمر بتلاوة القرآن وبالصبر مع المؤمنين	٧٠٦	اجتماع الملائكة في صلاة الفجر والعصر	٦٨٨
الحق من الله وجزاء من لم يؤمن به	٧٠٧	الأمر بالتهجد	٦٨٨
جزاء من آمن وعمل الصالحات	٧٠٧	حديث أبي هريرة <small>رضي الله عنه</small>	٦٨٩

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
علامة الحمل.....	٧٢٣	مثل المشرك الغني والمسلم الفقير.....	٧٠٨
ولادة الغلام وأوصافه.....	٧٢٣	جواب المؤمن الفقير.....	٧٠٨
قصة مريم والمسيح.....	٧٢٤	التيجه السيئة للكفر.....	٧٠٩
استقرار الحمل ثم الولادة.....	٧٢٥	مثل الحياة الدنيا.....	٧٠٩
ما قبل لها بعد الولادة.....	٧٢٦	عبادة الله تعالى خير من الأموال والأولاد.....	٧٠٩
مريم مع المسيح أمام القوم ونكيرهم عليها ورد المسيح عليهم.....	٧٢٧	أهم أهوال الساعة.....	٧١٠
عيسى عبد الله وليس بولده.....	٧٢٨	قصة آدم وإبليس.....	٧١١
أمر عيسى بالتحديد ثم اختلف الناس بعده.....	٧٢٨	آلهة المشركين لم يشهدوا خلق شيء حتى أنفسهم.....	٧١٢
إنذار الكفار بيوم الحسرة.....	٧٢٨	عجز الشركاء عن الجواب وحضور المجرمين النار.....	٧١٢
وعظ إبراهيم لأبيه.....	٧٢٩	تصرف الأمثال في القرآن.....	٧١٢
جواب والد إبراهيم.....	٧٣٠	بيان تمرد الكفار.....	٧١٢
جواب خليل الله.....	٧٣٠	أظلم الناس من أعرض بعد التذكير.....	٧١٣
وهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب.....	٧٣٠	قصة موسى والخضر.....	٧١٣
ذكر موسى وهارون.....	٧٣١	لقاء موسى مع الخضر ومصاحبه إياه.....	٧١٥
ذكر إسماعيل.....	٧٣١	قصة خرق السفينة.....	٧١٥
ذكر إدريس.....	٧٣٢	قصة قتل الغلام.....	٧١٦
أولئك الأنبياء هم المجتوبون.....	٧٣٢	قصة إقامة الجدار.....	٧١٦
خلفهم السوء والخير.....	٧٣٢	تأويل خرق السفينة.....	٧١٦
صفة جنات التائبين الصادقين.....	٧٣٣	تأويل قتل الغلام.....	٧١٦
لا تنزل الملائكة إلا بأمر الله.....	٧٣٤	تأويل إقامة الجدار بغير أجره.....	٧١٧
تعجب الإنسان على الحياة بعد الممات والرد على هذا التعجب.....	٧٣٤	هل كان الخضر نبياً؟.....	٧١٧
كل يرد على جهنم ثم ينجو المتقون.....	٧٣٥	وجه تسمية الخضر.....	٧١٧
افتخار الكفار على حسن حفظهم من الدنيا.....	٧٣٥	قصة ذي القرنين.....	٧١٧
يمهل المتمرد ولا يهمل.....	٧٣٦	كان ذو القرنين صاحب سلطة كبيرة.....	٧١٨
يزاد في هداية المهتدين.....	٧٣٦	ذهابه وبلوغه إلى مغرب الشمس.....	٧١٨
الرد على من يزعم من الكفار أنه يعطي في الآخرة مالا وولداً.....	٧٣٦	ذهابه إلى جهة المشرق.....	٧١٨
يكفر آلهة المشركين بعبادتهم.....	٧٣٧	ذهابه إلى أرض يأجوج ومأجوج وبناء السد.....	٧١٩
تسلط الشياطين على الكافرين.....	٧٣٧	صار السد مانعاً وسوف يدك قرب القيامة.....	٧١٩
حال المتقين والمجرمين يوم القيامة.....	٧٣٧	عرض جهنم على الكفار يوم القيامة.....	٧٢٠
النكير الشديد على نسبة الولد إلى الله.....	٧٣٨	الأخسرون أعمالاً وجزاؤهم.....	٧٢٠
يجعل حب الصالحين في القلوب.....	٧٣٨	جزاء المؤمنين الصالحين.....	٧٢١
نزل القرآن للتبشير والإنذار.....	٧٣٩	لا تنفذ كلمات الرب.....	٧٢١
سورة طه وهي مكية.....	٧٣٩	محمد ﷺ بشر ورسول والإله واحد.....	٧٢١
القرآن تذكرة وتنزيل من الله.....	٧٣٩	سورة مريم وهي مكية.....	٧٢٢
حديث رسالة موسى.....	٧٤٠	قصة زكريا ودعائه للولد.....	٧٢٢
أول الوحي إلى موسى.....	٧٤٠	قبول دعائه.....	٧٢٣
		التعجب بعد قبول الدعاء.....	٧٢٣
		جواب الملك.....	٧٢٣

الموضوع	الصفحة
طلب المشركين الآيات مع أن القرآن آية	٧٥٧
تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام وهي مكية	٧٥٧
فضل سورة الأنبياء	٧٥٧
الساعة على رؤوس الناس وهم في غفلة عنها	٧٥٧
قول الكفار في القرآن والرسول، وطلبهم الآيات، والرد عليهم	٧٥٨
لم يكن الرسل إلا بشرًا	٧٥٨
فضل القرآن	٧٥٩
كيف أهلك الظالمون؟	٧٥٩
خلق الكون بالعدل والحكمة	٧٥٩
كل شيء ملك لله وعبد له	٧٥٩
الرد على الآلة الكاذبة	٧٥٩
الرد على من زعم أن الملائكة بنات الله وبيان أفعالهم ودرجاتهم	٧٦٠
آيات الله في السماوات والأرض والليل والنهار	٧٦٠
ليس لأحد الخلود في الدنيا	٧٦١
استهزاء المشركين بالنبي ﷺ	٧٦٢
استعجال المشركين بالعذاب	٧٦٢
العبرة بمن تقدم من المستهزين	٧٦٢
انخداع المشركين لطول استمتاعهم بالدنيا وبيان الحق لهم	٧٦٣
إنزال التوراة والقرآن	٧٦٤
قصة إبراهيم وقومه	٧٦٤
كسر الخليل الأصنام	٧٦٤
اعتراف القوم بعجز الآلهة ووعظ إبراهيم	٧٦٥
إلقاء إبراهيم في النار وتصرف الله فيها	٧٦٥
هجرة خليل الله إلى الشام ومعه لوط	٧٦٦
ذكر لوط	٧٦٦
ذكر نوح وقومه	٧٦٦
ذكر داود وسليمان وما أوتيا من الآيات وذكر قصة نفس الغنم في الزرع	٧٦٧
سلطنة سليمان لا مثال لها	٧٦٨
ذكر أيوب	٧٦٨
ذكر إسماعيل وإدريس وذو الكفل	٧٦٨
ذكر يونس	٧٦٩
ذكر زكريا ويحيى	٧٧٠
ذكر عيسى ومريم الصديقة	٧٧٠
الناس أمة واحدة	٧٧٠
لا يرجع إلى الدنيا من هلك	٧٧١
ذكر يأجوج ومأجوج	٧٧١
المشركون وأهنتهم وقود جهنم	٧٧٣
ذكر حال السعداء	٧٧٣
تطوى الساء يوم القيامة	٧٧٤

الموضوع	الصفحة
قلب عصا موسى حية	٧٤١
ابيضت يد موسى من غير سوء	٧٤١
أمر موسى بالذهاب إلى فرعون للبلاغ	٧٤٢
دعاء موسى	٧٤٢
البشارة بقبول الدعاء والتذكير بالمنن السابقة	٧٤٢
اصطفاء موسى وأمره بالذهاب إلى فرعون ويدعوته باللين والرفق	٧٤٣
خوف موسى من فرعون وتثبيت الله إياه	٧٤٣
وعظ موسى أمام فرعون	٧٤٤
الحواريين موسى وفرعون	٧٤٤
تتمة جواب موسى لفرعون	٧٤٤
أرى فرعون كل الآيات ولم يؤمن	٧٤٥
وصف فرعون آيات موسى بالسحر والاتفاق على المعارضة	٧٤٥
اجتماع الفريقين ودعوة موسى والسحرة	٧٤٥
المعارضة وغلبة موسى وإيمان السحرة	٧٤٦
عدد السحرة	٧٤٦
تقلب فرعون على السحرة وتهديده وجوابهم	٧٤٧
وعظ السحرة أمام فرعون	٧٤٧
خروج بني إسرائيل من مصر	٧٤٨
تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم	٧٤٨
ذهاب موسى إلى موعد الله ووقوع بني إسرائيل في عبادة العجل	٧٤٩
نهى هارون بني إسرائيل عن عبادة العجل، وإصرارهم عليها	٧٥٠
ما حصل بين موسى وهارون بعدما رجع موسى	٧٥٠
كيف نحت السامري العجل؟	٧٥٠
عقاب السامري وتحريق العجل	٧٥١
القرآن ذكر الله الجامع وبيان عقوبة من أعرض عنه	٧٥١
نفخ الصور ويوم القيامة	٧٥١
تنسف الجبال وتصحّر الأرض قاعًا صفيصًا	٧٥٢
يسعى الناس لصوت الداعي	٧٥٢
الشفاعة والجزاء	٧٥٢
أنزل القرآن ليتقي الناس ويتذكروا	٧٥٣
أمر النبي ﷺ بسماح القرآن عند التزول دون الاستعجال لقراءته	٧٥٣
قصة آدم وإبليس	٧٥٤
إنزال آدم إلى الأرض ووعده الخير لمن اهتدى والشر لمن بغى	٧٥٤
العذاب الشديد للمسرفين	٧٥٥
في إهلاك الأمم الماضية عبرة للمعتبرين	٧٥٥
الأمر بالصبر وبأداء الصلوات الخمس	٧٥٥
لا تنظر إلى متعة الأغنياء واصبر على عبادة الله	٧٥٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
لا يزال الكفار في الشك والتردد	٧٩٣	الأرض يرثها الصالحون	٧٧٤
الأجر العظيم لمن هاجر لله	٧٩٤	محمد ﷺ رحمة للعالمين	٧٧٥
خالق الدنيا والمصرف فيها هو الله	٧٩٥	خلاصة الوحي أن اعبدوا الله	٧٧٥
آيات على قدرة الله	٧٩٥	لا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله	٧٧٥
لكل قوم منسك	٧٩٦	تفسير سورة الحج وهي مكية	٧٧٦
عبادة المشركين غير الله وشدة إنكارهم على آيات الله	٧٩٦	أحوال الساعة	٧٧٦
بيان حقارة الأصنام وحقاقتها	٧٩٧	ذم متبعي الشيطان	٧٧٧
اختيار الله رسلاً من الملائكة ورسلاً من الناس	٧٩٧	دلائل البعث من خلق الإنسان والنبات	٧٧٧
الأمر بالعبادة والجهاد	٧٩٨	تطور النطفة والجنين في الرحم	٧٧٧
تفسير سورة المؤمنون مكية	٧٩٩	تطور الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة	٧٧٨
الفلاح للمؤمنين وذكر صفاتهم	٧٩٩	مثال آخر للبعث من النبات	٧٧٨
آية الله في تطور خلق الإنسان من التراب ثم من النطفة إلى ما بعدها	٨٠٠	بيان حال رؤساء المتبعدين والضالين	٧٧٨
آياته في خلق السماوات	٨٠١	معنى العبادة على حرف	٧٧٩
آياته في المطر والنبات والأشجار والأنعام	٨٠١	جزاء الصالحين	٧٧٩
قصة نوح عليه السلام وقومه	٨٠٢	لينصرن الله رسوله مهما كان	٧٨٠
قصة عاد أو ثمود	٨٠٣	إن الله يقضي بين الفرق يوم القيامة	٧٨٠
ذكر الأمم الأخرى	٨٠٣	كل شيء يسجد لله	٧٨٠
قصة موسى عليه السلام وفرعون	٨٠٤	سبب النزول	٧٨١
ذكر عيسى ومريم	٨٠٤	جزاء الكفار	٧٨١
الأمر بأكل الحلال وبالعمل الصالح	٨٠٤	جزاء المؤمنين	٧٨٢
دين جميع الأنبياء هو التوحيد والوعيد للذين تفرقوا	٨٠٥	الوعيد لمن صد عن سبيل الله والمسجد الحرام	٧٨٢
صفات أهل الخير	٨٠٥	مسألة إيجار بيوت مكة	٧٨٢
بيان عدل الله وتقلبات المشركين	٨٠٦	الوعيد لمن أراد الإلحاد في الحرم	٧٨٣
الرد على المشركين وذمهم	٨٠٧	بناء الكعبة والتأذين بالحج	٧٨٤
الحق لا يتبع الهوى	٨٠٧	في الحج منافع الدارين	٧٨٤
النبي لا يسأل أجراً ويدعو إلى صراط مستقيم	٨٠٧	الأجر على اجتناب المعاصي	٧٨٦
ذكر أحوال الكفار	٨٠٨	حلة الأنعام	٧٨٦
التذكير بنعم الله وقدرته العظيمة	٨٠٨	الأمر باجتناب الشرك والكذب	٧٨٦
استبعاد المشركين البعث بعد الموت	٨٠٨	بيان الأضاحي وتفسير شعائر الله	٧٨٦
إقرار المشركين بتوحيد الربوبية وإلزامهم بذلك بتوحيد الألوهية	٨٠٩	منافع البدن	٧٨٧
لا شريك لله	٨١٠	النسك مشروع في جميع ملل العالم	٧٨٧
الأمر بالدعاء عند حلول النقم والدفع الحسن والتعوذ	٨١٠	الأمر بنحر البدن	٧٨٧
تمني الكفار عند الاحتضار	٨١٠	المقصود من الأضحية عند الله إخلاص العبد وتقواه	٧٨٩
البرزخ وعذابه	٨١١	بشارة الدفاع عن المؤمنين	٧٨٩
النفخ في الصور ووزن الأعمال	٨١١	الإذن بالقتال، وهي أول آية الجهاد	٧٩٠
توبيخ أهل النار واعتراهم بشقوتهم وطليهم الخروج منها	٨١٢	واجب المسلمين عند تمكينهم من الحكم	٧٩١
جواب الله ورده على الكفار	٨١٢	عاقبة المكذبين	٧٩١
إن الله لم يخلق العباد عبثاً	٨١٣	مطالبة الكفار بالعذاب	٧٩٢
		جزاء أهل الصلاح وأهل الفساد	٧٩٢
		تدخل الشيطان في أمنية الرسل وإبطال الله ذلك	٧٩٣

الموضوع	الصفحة
الأكل من بيوت الأقرباء	٨٣٧
الاستئذان عند الانصراف إذا ما كانوا على أمر جامع	٨٣٨
بيان الأدب في مخاطبة النبي ﷺ	٨٣٨
التهني عن مخالفة أمر الرسول	٨٣٩
يعلم الله ما أنتم عليه	٨٣٩
تفسير سورة الفرقان وهي مكية	٨٤٠
تبارك الله	٨٤٠
بيان سفاهة المشركين	٨٤٠
أقوال الكفار في القرآن	٨٤١
أقوال الكفار في الرسول، والرد عليهم وبيان مصيرهم	٨٤١
النار خير أم الجنة	٨٤٢
تبرؤ ألهة المشركين منهم يوم القيامة	٨٤٣
كل من سبق من الرسل كان بشراً	٨٤٣
بيان تعنت الكفار	٨٤٤
مستقر أهل الجنة	٨٤٥
أحوال يوم القيامة وغني الظالم اتخاذ سبيل الرسول	٨٤٥
الرسول يشكو مخالفته	٨٤٦
الحكمة في إنزال القرآن متفرقاً والرد على الكفار وبيان سوء مصيرهم	٨٤٦
تحذير مشركي قريش	٨٤٧
استهزاء الكافرين بالرسول ﷺ	٨٤٨
اتخاذهم أهواءهم ألهة وكونهم أضل من الأنعام	٨٤٨
الدلائل على وجود الباري وسعة قدرته	٨٤٨
عموم رسالته ﷺ وتبليته عليه وذكر نعم الله على الإنسان	٨٤٩
جهالة المشركين	٨٥٠
الرسول بشير ونذير	٨٥١
أمر الرسول بالتوكل على الله وذكر بعض صفاته	٨٥١
ذم المشركين	٨٥١
بيان عظمة الله وقدرته	٨٥٢
بيان صفات عباد الرحمن	٨٥٢
من صفات عباد الرحمن اجتناب الشرك والقتل والزنا	٨٥٣
بعض صفات عباد الرحمن	٨٥٤
جزاء عباد الرحمن والوعيد لأهل مكة	٨٥٥
تفسير سورة الشعراء وهي مكية	٨٥٥
القرآن وإعراض الكفار عنه وقهرهم على الإيمان لو شاء الله	٨٥٥
بين موسى وفرعون	٨٥٦
بين موسى عليه السلام والسحرة	٨٥٨
بين فرعون والسحرة	٨٥٨
خروج بني إسرائيل من مصر	٨٥٩

الموضوع	الصفحة
الشرك ظلم عظيم لا فلاح لصاحبه	٨١٣
تفسير سورة التور وهي مدنية	٨١٣
أهمية سورة النور	٨١٣
بيان حد الزنا	٨١٣
لا تكن لديكم رافة في إقامة الحدود	٨١٤
أقيموا الحد بحضرة الناس	٨١٤
بيان حد القذف	٨١٤
بيان توبة القاذف	٨١٥
بيان اللعان	٨١٥
سبب نزول آية اللعان	٨١٥
حديث الإفك	٨١٦
تأديب المؤمنين على إشاعة الإفك	٨١٨
فضل الله على أهل الإفك بتوفيق للتوبة لهم	٨١٩
التأديب مرة أخرى	٨١٩
تأديب من يحب إشاعة الفاحشة في المؤمنين	٨٢٠
التذكير بفضل الله والتحذير من خطوات الشيطان	٨٢٠
حث أولي الفضل على العطاء والسماح	٨٢٠
الوعيد على رمي المحصنات الغافلات المؤمنات	٨٢١
عائشة طيبة لأنها لأطيب البشر	٨٢١
الاستئذان وآداب الدخول في البيوت	٨٢٢
الأمر بغض البصر	٨٢٣
أحكام الحجاب	٨٢٤
آداب مشي المرأة في الطريق	٨٢٥
الأمر بالنكاح	٨٢٦
الأمر بالاستعفاف لمن لم يقدر على النكاح	٨٢٦
الأمر بمكاتبة العبيد	٨٢٧
النهى عن إكراه الإمامة على الزنا	٨٢٧
ذكر الآثار الواردة في ذلك	٨٢٧
مثل نور الله	٨٢٨
فضائل المساجد وآدابها وفضائل المتعاهدين لها	٨٢٩
مثلان لنوعي الكفار	٨٣١
كل يسبح لله تعالى وله الملك	٨٣٢
التنبية على قدرة الله بخلق السحاب وما يتبعه	٨٣٢
قدرة الله في خلق الدواب	٨٣٢
حيل المنافقين وحال المؤمنين	٨٣٣
وعد الله المؤمنين بالاستخلاف	٨٣٤
الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبيان عجز الكفار ومصيرهم	٨٣٦
أوقات استئذان المملوكين والصغار	٨٣٦
لا جناح على العجائز إن لم يحتجن	٨٣٦

الموضوع	الصفحة
بين صالح عليه السلام وثمود	٨٧٩
مكر طائفة المفسدين ومصير قوم ثمود	٨٧٩
ذكر لوط عليه السلام وقومه	٨٨٠
الأمر بتحميد الله والصلاة على رسله	٨٨٠
بعض أدلة التوحيد	٨٨٠
قصة مجاهد في سبيل الله	٨٨١
بيان خلافة الأرض	٨٨٢
عالم الغيب هو الله	٨٨٣
استبعاد البعث والرد عليه	٨٨٣
القرآن يقص اختلاف بني إسرائيل والله يحكم بينهم	٨٨٤
الأمر بالتوكل في البلاغ	٨٨٤
خروج دابة الأرض	٨٨٤
حشر الظالمين يوم القيامة	٨٨٥
أحوال يوم القيامة جزاء الحسنه والسيئة فيه	٨٨٦
الأمر بعبادة الله والدعوة بالقرآن	٨٨٧
تفسير سورة القصص وهي مكية	٨٨٧
نبأ موسى عليه السلام وفرعون وما أراد الله لقومها	٨٨٨
إيحاء التدبير إلى أم موسى	٨٨٨
موسى عليه السلام في دار فرعون	٨٨٨
شدة حزن أم موسى ورجوعه إليها	٨٨٩
قتل موسى عليه السلام رجلاً من القبط	٨٩٠
فشو سر القتل	٨٩٠
موسى عليه السلام في مدين وسقيه أغنام امرأتين	٨٩١
موسى عليه السلام بين يدي والد المرأتين ونكاح موسى بإحداهما على أجره رعي الغنم	٨٩١
رجوع موسى عليه السلام إلى مصر وتكريمه بالرسالة والمعجزات في الطريق	٨٩٢
سؤال موسى مؤازرته بأخيه هارون وقبول ذلك من الله	٨٩٣
موسى عليه السلام بين يدي فرعون وقومه	٨٩٤
استكبار فرعون ومصيره	٨٩٤
بيان نعم الله على موسى عليه السلام	٨٩٥
التنبية على برهان نبوة محمد ﷺ	٨٩٥
تعنت الكفار وجوابهم	٨٩٦
لا يؤمن المتمردون بالمعجزات	٨٩٦
الاقتراء على موسى وهارون عليهما السلام بالسحر	٨٩٦
جواب الاقتراء	٨٩٦
ضلال من اتبع هواه	٨٩٧
المؤمنون من أهل الكتاب	٨٩٧
يهدي الله من يشاء	٨٩٨
عذر أهل مكة عن الإتيان والرد عليهم	٨٩٨

الموضوع	الصفحة
مطاردة فرعون بني إسرائيل وإغراقه وإغراق قومه	٨٥٩
وعظ خليل الله إبراهيم عليه السلام في رد الشرك	٨٦٠
ذكره كرم الله ولطفه به	٨٦١
دعاء الخليل لنفسه وأبيه	٨٦١
المؤمنون والغاؤون يوم القيامة وجدال الغاوين وحسرتهم	٨٦٢
ذكر نوح ووعظه لقومه وجوابهم	٨٦٢
تهديد القوم ودعاء نوح عليه السلام عليهم وإهلاكهم	٨٦٣
وعظ هود عليه السلام لقومه عاد	٨٦٣
جواب قوم هود وعذابهم	٨٦٤
ذكر صالح عليه السلام وثمود	٨٦٤
تذكيرهم بأحوالهم ونعمهم	٨٦٥
جواب ثمود وطلبهم الآية ومجيئهم العذاب	٨٦٥
ذكر لوط عليه السلام ودعوته	٨٦٦
نكير لوط عليه السلام على فعل قومه، وجوابهم وعذابهم	٨٦٦
شعيب عليه السلام يعظ أصحاب الأيكة	٨٦٦
الأمر بإيفاء المكيال والميزان	٨٦٧
جواب قوم شعيب وتكذيبهم إياه ومجيئهم العذاب	٨٦٧
القرآن أنزله الله	٨٦٨
ذكر القرآن موجود في كتب الأولين	٨٦٨
شدة كفر قريش	٨٦٨
المكذبون لا يؤمنون حتى يروا العذاب	٨٦٨
نزل بالقرآن جبريل لا الشيطان	٨٦٩
الأمر بإنذار الأقرين	٨٦٩
الرد على افتراء المشركين	٨٧٠
الرد على قولهم في النبي ﷺ إنه شاعر	٨٧١
استثناء شعراء الإسلام	٨٧١
تفسير سورة النمل وهي مكية	٨٧٢
القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، نذير للكافرين، وهو من الله	٨٧٢
قصة موسى عليه السلام ومصير فرعون	٨٧٣
ذكر داود وسليمان عليهما السلام وترتيب جنوده وقصة مروءة على وادي النمل	٨٧٤
غياب الهدد	٨٧٥
الهدد بين يدي سليمان عليه السلام وإخباره عن سبأ	٨٧٥
كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس	٨٧٦
مشاورة بلقيس مع ملتها	٨٧٦
الهدية وجواب سليمان	٨٧٧
إحضار عرش بلقيس في لحظة	٨٧٧
اختبار بلقيس	٨٧٨
قال: إنه صرح بمرد من قواير	٨٧٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
التعريض بإهلاك القرى وأنها تهلك بعد إقامة الحجة	٨٩٨	العظة والامتنان بحرمة الحرم	٩١٦
الدنيا فانية لا يستوي صاحبها وصاحب الآخرة	٨٩٩	تفسير سورة الروم وهي مكية	٩١٦
تبرؤ المشركين وشر كائهم كل عن الآخر	٨٩٩	التنبؤ بغلبة الروم	٩١٦
موقفهم عن الرسول يوم القيامة	٩٠٠	من هم الروم	٩١٧
الله متفرد بالخلق والعلم والاختيار	٩٠٠	كيف غلب قيصر على كسرى	٩١٨
الليل والنهار من نعم الله ودلائل توحيده	٩٠٠	دلائل التوحيد	٩١٩
التوبيخ والزجر للمشركين	٩٠١	الأمر بالصلوات الخمس	٩٢٠
ذكر قارون ووعظ قومه له	٩٠١	من آيات الله	٩٢٠
خروج قارون في الزينة وتعليق القوم عليه	٩٠٢	إعادة الخلق أمهون	٩٢٢
خسف قارون في الأرض مع داره	٩٠٢	مثل يدل على التوحيد	٩٢٢
اتعاظ القوم بخسفه	٩٠٢	الأمر بالتزام التوحيد	٩٢٣
نعم الآخرة للمؤمنين المتواضعين	٩٠٣	تقلب الإنسان من التوحيد إلى الشرك ومن الفرح إلى	
الأمر بالبلاغ والتوحيد	٩٠٣	اليأس حسب الظروف	٩٢٣
تفسير سورة العنكبوت وهي مكية	٩٠٤	الأمر بصلة الأرحام والنهي عن الربا	٩٢٤
اختبار المؤمنين حتى يعرف الصادق من الكاذب	٩٠٤	الخلق والرزق والإماتة والإحياء بيد الله	٩٢٤
المسيئون لا يفوتون الله	٩٠٤	آثارة الذنوب في الدنيا	٩٢٤
يحقق الله رجاء الصالحين	٩٠٤	الأمر بالاستقامة قبل يوم القيامة	٩٢٥
الأمر بالإحسان إلى الوالدين	٩٠٥	من آيات الله الرياح	٩٢٥
عادات المنافقين وسنة الله في الاختيار	٩٠٥	إحياء الأرض دليل البعث	٩٢٦
جراة الكفار في تحمل خطايا الآخرين بشرط عودتهم إلى		الكفار أموات صم عمي	٩٢٦
الكفر	٩٠٦	ذكر أحوال الإنسان المختلفة	٩٢٧
ذكر نوح وقومه	٩٠٦	جهالة الكفار في الدنيا والآخرة	٩٢٧
وعظ إبراهيم عليه السلام لقومه	٩٠٧	ضرب الأمثال في القرآن وعدم اعتبار الكفار بها	٩٢٧
أدلة الحياة بعد المات	٩٠٨	ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب	
جواب قوم إبراهيم وتصرف الله في النار	٩٠٨	قراءتها في الفجر	٩٢٧
وإبراهيم عليه السلام يبين لقومه عجز الأصنام	٩٠٨	تفسير سورة لقمان وهي مكية	٩٢٨
ليمان لوط عليه السلام وهجرته مع إبراهيم عليه السلام	٩٠٩	من حال الأشقياء الاشتغال بلهو الحديث والإعراض عن	
وهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة	٩٠٩	آيات الله	٩٢٨
وعظ لوط عليه السلام وما دار بينه وبين قومه	٩١٠	ذكر مآل المؤمنين الحسن	٩٢٨
مجيء الملائكة إلى إبراهيم ثم إلى لوط عليهما السلام	٩١٠	أدلة التوحيد	٩٢٩
ذكر شعيب عليه السلام وقومه	٩١٠	ذكر لقمان	٩٢٩
ذكر إهلاك أقوام كذبوا رسلهم	٩١١	وصية لقمان لابنه	٩٢٩
تمثيل آلهة المشركين ببیت العنكبوت	٩١١	الأمر بالاقتصاد في المشي	٩٣١
الأمر بالبلاغ والتلاوة والصلاة	٩١٢	نصائح لقمان	٩٣١
مجادلة أهل الكتاب	٩١٢	التذكير بالنعم	٩٣١
القرآن نزل من عند الله والدليل عليه	٩١٣	اعتراف المشركين بأن الله هو الخالق	٩٣٢
طلب المشركين الآيات وجوابهم	٩١٣	كلمات الله لا تحصى ولا تنفذ	٩٣٢
استعجال المشركين بالعذاب	٩١٤	ذكر قدرة الله وعظمته	٩٣٣
الإشارة بالهجرة والوعد بالرزق والجزاء الحسن	٩١٥	الأمر بتقوى الله والخشية من يوم القيامة	٩٣٣
أدلة التوحيد	٩١٥	عالم الغيب هو الله	٩٣٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٥٨	صفات رسول الله ﷺ	٩٣٥	تفسير سورة الم السجدة وهي مكية
٩٥٩	المتعة وعدم الاعتداد للمطلقة قبل الميس	٩٣٥	فضل سورة الم السجدة
٩٥٩	بيان النساء اللاتي أحلن للنبي ﷺ	٩٣٥	القرآن كتاب الله لا شك فيه
٩٦١	تحخير النبي ﷺ في قبول الواهبه نفسها أو ردّها	٩٣٥	الله هو الخالق المدبر للكون
٩٦١	مجازاة الأزواج على اختيارهن صحبة الرسول	٩٣٥	تطويده خلق الإنسان
٩٦٢	آداب الدخول في بيوت النبي والأمر بالحجاب	٩٣٦	الرد على استبعاد البعث
	النهي عن إيذاء الرسول وبيان حرمة أزواجه على	٩٣٦	بيان حال المشركين السيئ يوم القيامة
٩٦٣	المسلمين	٩٣٧	حال أهل الإيمان وجزاؤهم
٩٦٣	من لا تحتجب المرأة منه من الأقارب	٩٣٧	لا يستوي المؤمن والفاسق
٩٦٤	الأمر بالصلاة على النبي ﷺ	٩٣٨	كتاب موسى وإمامة بني إسرائيل
٩٦٥	الصلاة على النبي قبل الدعاء	٩٣٩	خذوا العبرة بالماضين
٩٦٥	فضل الصلاة على النبي ﷺ	٩٣٩	إحياء الأرض بالماء دليل البعث
٩٦٥	مواقع الصلاة عليه	٩٣٩	استعجال الكفار للعذاب وجوابهم
٩٦٦	من أذى الله ورسوله فهو ملعون في الدنيا والآخرة	٩٣٩	تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية
٩٦٦	الوعيد للمفترين		الأمر بالصمود في وجه الكافرين والمنافقين متبعاً وحي الله
٩٦٧	الأمر بالحجاب	٩٤٠	ومتوكلاً عليه
٩٦٧	التنبيه والتهديد للمنافقين الأشرار	٩٤٠	إبطال التنبئ
٩٦٧	لا يعلم يوم القيامة إلا الله	٩٤٠	ينسب التنبئ إلى أبيه الحقيقي
٩٦٨	لعن الكفار وخلودهم في النار وحسرتهم	٩٤٢	ولاية النبي وأمومة أزواجه للمؤمنين
٩٦٨	افتراء اليهود على موسى	٩٤٢	العهد والميثاق من الأنبياء
٩٦٨	أمر المؤمنين بالتقوى والصدق	٩٤٣	ذكر غزوة الأحزاب
٩٦٩	حمل الإنسان الأمانة	٩٤٤	ابتلاء المؤمنين ومواقف المنافقين في وقعة الأحزاب
٩٦٩	نتيجة حمل الأمانة	٩٤٥	الأمر باتباع الرسول
٩٦٩	تفسير سورة سبأ وهي مكية	٩٤٥	موقف المؤمنين من الأحزاب
٩٧٠	الحمد وعلم الغيب لله فقط	٩٤٦	مدح المؤمنين على موقفهم وإرجاء أمر المنافقين
٩٧٠	إن الساعة لأتية ليجزي كل حسب عمله	٩٤٧	رد الله الأحزاب خائبين خاسرين
٩٧١	إنكار الكفار الحياة بعد الممات والرد عليهم	٩٤٧	ذكر غزوة بني قريظة
٩٧١	بيان فضل الله على داود	٩٤٩	تحخير أزواج النبي ﷺ
٩٧٢	فضل الله على سليمان	٩٥٠	نساء النبي لسن كعامة النساء
٩٧٣	وفاة سليمان	٩٥٠	الأمر بأداب تكون أمهات المؤمنين فيها أسوة
٩٧٣	كفران سبأ وعذابهم	٩٥٠	أزواج النبي من أهل البيت
٩٧٤	سد مأرب وسيل العرم	٩٥١	الأمر بالعمل على الكتاب والسنة
٩٧٤	تجارة سبأ وذهاها	٩٥٢	بيان سبب النزول
٩٧٥	تصديق إبليس ظنه على الكفار	٩٥٣	بيان سبب النزول
٩٧٦	عجز آلهة المشركين		عتاب الله لرسوله ﷺ في قصة زيد وزينب وتزويجه
٩٧٦	لا شريك لله في أمر ما	٩٥٤	إياها بعد الطلاق والعدة لإبطال التنبئ
٩٧٧	بعث النبي ﷺ إلى الناس كافة	٩٥٥	مدح المبلغين لرسالات الله
٩٧٧	سؤال الكفار عن وقت القيامة والرد عليهم	٩٥٥	الرسول ليس أباً أحد من الرجال
	اتفاق الكفار في الدنيا على إنكار الحق ومشاجرتهم	٩٥٥	هو خاتم النبيين
٩٧٨	يوم القيامة	٩٥٦	فضيلة كثرة ذكر الله

الموضوع	الصفحة
تكذيب المترفين بالرسول واغترارهم بالأموال والأولاد.....	٩٧٨
براءة الملائكة من عابديهم يوم القيامة.....	٩٨٠
أقوال الكفار في الأنبياء والرد عليهم.....	٩٨٠
طريق الفصل فيما رموه به النبي ﷺ من الجنون.....	٩٨٠
لا أسألكم أجرًا على البلاغ.....	٩٨١
تفسير سورة فاطر وهي مكية.....	٩٨٢
ذكر قدرة الله.....	٩٨٢
لا تمسك لرحمة الله.....	٩٨٢
دليل التوحيد.....	٩٨٣
التسليية بتكذيب الرسل من قبل والتنبيه على المعاد.....	٩٨٣
جزاء الكافر والمؤمن يوم المعاد.....	٩٨٣
دليل الحياة بعد الممات.....	٩٨٤
من يرد العزة في الدنيا والآخرة فليطع العزيز.....	٩٨٤
العمل الصالح يرفع إلى الله.....	٩٨٤
الله خالق وعلام للغيوب.....	٩٨٥
من نعمة الله وآياته.....	٩٨٥
آلهة المشركين ما يملكون من قطمير.....	٩٨٦
الناس مفتقرون إلى الله وكل يحمل أوزاره يوم القيامة.....	٩٨٦
لا يستوي المؤمن والكافر.....	٩٨٧
بيان قدرة الله التامة.....	٩٨٧
المسلمون هم تجار الآخرة.....	٩٨٨
القرآن كتاب الله الحق.....	٩٨٨
ورثة القرآن ثلاث أقسام.....	٩٨٨
فضل العلماء.....	٩٨٩
جزاء الكفار وحالهم في جهنم.....	٩٨٩
التنبيه على عجز الشركاء وقدرة الله.....	٩٩١
تمني الكفار محيئ النذير فلما جاءهم كفروا به.....	٩٩١
ذكر النتائج السيئة لتكذيب الأنبياء.....	٩٩١
حكمة تأجيل المؤاخذه.....	٩٩٢
تفسير سورة يس وهي مكية.....	٩٩٢
الرسول بعث منذرًا.....	٩٩٢
حال من كتب عليه الشقاوة.....	٩٩٢
قصة أصحاب القرية مع الرسل، وهي تنيد إهلاك المكذبين.....	٩٩٤
ياحسرة على المكذبين.....	٩٩٧
الرد على عقيدة التناسخ.....	٩٩٧
ثبوت الصانع للعالم والحياة بعد الممات.....	٩٩٧
ومن قدرة الله وآياته العظيمة الليل والنهار والشمس والقمر.....	٩٩٨
ومن آيات الله حملهم في الفلك المشحون.....	٩٩٩
بيان ضلال المشركين.....	١٠٠٠
استبعاد الكفار يوم البعث.....	١٠٠٠
الموضوع	الصفحة
نفخة البعث.....	١٠٠٠
بيان عيش أهل الجنة.....	١٠٠١
مكان الكفار بالموقف يوم القيامة وزجرهم.....	١٠٠١
الحتم على أفواه المجرمين يوم القيامة.....	١٠٠١
إن الله لم يعلم رسوله الشعر.....	١٠٠٢
الأنعام آية ونعمة.....	١٠٠٣
آلهة المشركين لا تقدر على نصرهم.....	١٠٠٣
تسليية الرسول ﷺ.....	١٠٠٣
إنكار الحياة بعد الممات والرد على ذلك.....	١٠٠٣
تفسير سورة الصافات وهي مكية.....	١٠٠٥
فضل سورة الصافات.....	١٠٠٥
تشهد الملائكة بتوحيد الإله.....	١٠٠٥
المعبود الحق هو الله.....	١٠٠٦
تزيين الساء وحفظها من الله.....	١٠٠٦
ثبوت الحياة بعد الممات.....	١٠٠٦
أحوال يوم الدين.....	١٠٠٧
مخاصم المشركين يوم القيامة.....	١٠٠٧
جزاء المشركين والمخلصين.....	١٠٠٨
اجتماع أهل الجنة وحوار أحدهم مع صاحبه في الدنيا	
المعذب في جهنم وشكره نعمة الله تعالى.....	١٠٠٩
قصة إسرائيليين.....	١٠١٠
ذكر شجرة الزقوم وأصحابها.....	١٠١٠
ذكر نوح وقومه.....	١٠١١
قصة إبراهيم وقومه.....	١٠١٢
هجرة إبراهيم وابتلاؤه بذبح إسمايل ونعم الله عليه.....	١٠١٣
ذكر الآثار الواردة بأن الذبيح هو إسمايل عليه الصلاة	
والسلام وهو الصحيح المقطوع به.....	١٠١٥
ذكر موسى وهارون.....	١٠١٦
ذكر إلياس.....	١٠١٦
ذكر إهلاك قوم لوط.....	١٠١٧
ذكر قصة يونس.....	١٠١٧
الرد على من يثبت لله الولد ويجعل الملائكة بناتًا له.....	١٠١٨
لا يؤمن بكلام المشركين إلا من هو أضل منهم.....	١٠١٩
مقام الملائكة وتسييحهم صفوفًا.....	١٠١٩
تمني قريش لو كان عندها ذكر من الأولين.....	١٠١٩
الوعد بالنصر والأمر بالتولي عن قريش.....	١٠٢٠
سورة ص.....	١٠٢١
تعجب المشركين من الرسالة والتوحيد والقرآن.....	١٠٢١
ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمة.....	١٠٢٢
التذكير بمن أهلك من الأقسام السابقين.....	١٠٢٣

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٤٣	عاقبة الكاذبين على الله وعاقبة المتقين	١٠٢٣	ذكر داود
١٠٤٣	الله هو الخالق المتصرف والإشراك به يحبط العمل	١٠٢٤	قصة الحصين
١٠٤٤	ما قدر المشركون الله حق قدره	١٠٢٤	سجدة ص
١٠٤٤	التفخ في الصور والقضاء والجزاء	١٠٢٥	الوصية للحكام والسلاطين
١٠٤٥	يساق الكفار إلى جهنم	١٠٢٥	الحكمة في خلق الدنيا
١٠٤٦	يذهب بالمؤمنين إلى الجنة	١٠٢٥	ذكر سليمان بن داود
	ذكر سعة أبواب الجنة - نسال الله من فضله العظيم أن	١٠٢٦	ابتلاء سليمان ثم التفضل عليه
١٠٤٧	يجعلنا من أهلها	١٠٢٧	ذكر أيوب
١٠٤٨	تفسير سورة المؤمن وهي مكية	١٠٢٨	ذكر المصطفين الأخيار من الأنبياء
١٠٤٨	فضل الحواميم	١٠٢٩	بيان مآب السعداء
١٠٤٩	من صفات الكفار الجدال في آيات الله وبيان ما يترتب عليه	١٠٢٩	بيان مآل الأشقياء
١٠٤٩	حملة العرش يمدون الله ويستغفرون للمؤمنين	١٠٢٩	تخاصم أهل النار
١٠٥٠	ندامة الكفار بعد دخول النار	١٠٣٠	رسالة الرسول ﷺ نبا عظيم
١٠٥١	أمر المؤمنين بعبادة الله وحده مهما كان	١٠٣٠	قصة آدم وإبليس
١٠٥١	وحي الله لإنذار عباده يوم التلاق	١٠٣١	تفسير سورة الزمر وهي مكية
١٠٥٢	الإنذار من يوم القيامة وقضاء الله فيه	١٠٣١	فضل سورة الزمر
١٠٥٣	عاقبة المكذبين السيئة	١٠٣١	الأمر بالتوحيد والرد على الشرك
١٠٥٣	قصة موسى وفرعون	١٠٣٢	الاستشهاد على قدرة الله وتوحيده
	تأييد موسى برجل مؤمن من آل فرعون، وخطاب هذا	١٠٣٣	يغضب الله من الكفر ويرضى من الشكر
١٠٥٤	الرجل	١٠٣٣	من كفر الإنسان ذكره الله في الشدة والشرك به بعد الفرج
١٠٥٥	استهزاء فرعون برب موسى	١٠٣٣	لا يستوي المطيع والعاصي
١٠٥٦	مواصلة خطاب مؤمن آل فرعون	١٠٣٤	الأمر بالتقوى والهجرة وإخلاص العبادة
١٠٥٦	نهاية الخطاب ومصير الفريقين	١٠٣٤	التخويف من عذاب الله
١٠٥٧	ثبوت عذاب القبر	١٠٣٥	البشارة للصالحين
١٠٥٨	تخاصم أهل النار	١٠٣٥	مثل الحياة الدنيا
١٠٥٨	نصرة الرسل والمؤمنين	١٠٣٦	لا يستوي أهل الحق وأهل الضلال
	الإشارة إلى نجاح الرسل والمؤمنين بمثل موسى وبني	١٠٣٦	وصف القرآن
١٠٥٨	إسرائيل	١٠٣٧	مآل المكذبين
١٠٥٩	الحياة بعد المات	١٠٣٧	مثل الشرك
١٠٥٩	الأمر بالدعاء	١٠٣٧	موت رسول الله ﷺ وقريش واختصاصهم عند الله
١٠٦٠	آيات الله على قدرته وتوحيده	١٠٣٨	جزاء الكاذبين المكذبين والصادقين المصدقين
١٠٦١	النهي عن الشرك والأمر بالتوحيد، والدليل عليه	١٠٣٩	الله كاف لعبده
١٠٦١	مصير المجادلين المكذبين	١٠٣٩	اعتراف المشركين بتوحيد الله في خلق الكون لعجز آفتهم
١٠٦٢	الأمر بالصبر والبشارة بالفتح	١٠٣٩	الله الذي يميت ويحيي
١٠٦٢	الأنعام أيضًا من نعم الله وآياته	١٠٤٠	لا شفاعة إلا لله واشتمزاز المشركين من ذكره وحده
١٠٦٢	العبرة بحال من سبق	١٠٤٠	طريقة الدعاء
١٠٦٣	تفسير سورة فصلت وهي مكية	١٠٤٠	لا تقبل فدية يوم القيامة
١٠٦٣	صفة القرآن وأقوال المعرضين	١٠٤١	تقلب الإنسان إذا أصابته نعمة بعد الضر
١٠٦٣	الدعوة إلى التوحيد	١٠٤١	الدعوة إلى التوبة قبل أن يأتي العذاب
١٠٦٤	بعض تفاصيل خلق هذا الكون	١٠٤٢	ذكر أحاديث فيها نفي القنوط

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تنبيه للمكذبين وتذكير لهم بقصة عاد وثمود	١٠٦٥	النكير على جعل المشركين لله ولداً	١٠٨٤
يوم الحشر تشهد أعضاء المجرمين عليهم	١٠٦٦	بيان أن المشركين لا حجة لهم	١٠٨٥
قرناء المشركين يزينون لهم سوء الأعمال	١٠٦٧	إعلان خليل الله عن التوحيد	١٠٨٥
تواصي الكفار بالامتناع عن سماع القرآن وجزاء ذلك	١٠٦٧	إعراض أهل مكة عن الرسول وإعتراضهم عليه وجوابه	١٠٨٦
البشارة للموحدين ذوي الاستقامة	١٠٦٧	ليس المال من علامة الرضا	١٠٨٦
فضل الدعوة إلى الله	١٠٦٨	الشیطان قرين المعرض عن الرحمن	١٠٨٧
الحكمة في الدعوة وغيرها	١٠٦٩	لا يهدي من شقى في بطن أمه	١٠٨٧
من آيات الله	١٠٦٩	انتقام الله من أعداء الرسول واقع	١٠٨٧
عقاب الملحدين ووصف القرآن	١٠٧٠	الحث على التمسك بالقرآن	١٠٨٧
إنكار القرآن عناد وتعنّت	١٠٧٠	بعث موسى بالتوحيد إلى فرعون وملئه	١٠٨٨
الإشارة إلى التأسي بموسى	١٠٧٠	خطاب فرعون لقومه ومؤاخذه الله إياه	١٠٨٨
كل يجازى حسب عمله	١٠٧١	استخفاف قريش لابن مريم، ودرجته عند الله	١٠٨٩
علم الساعة عند الله	١٠٧١	تأتي القيامة بغتة وتقع العداوة بين الأخلاء من الكفار	١٠٩١
تقلب الإنسان حين تصيبيه السراء بعد الضراء	١٠٧١	بشارة المتقين يوم القيامة ودخولهم الجنة	١٠٩١
القرآن ودلائل صدقه	١٠٧٢	عاقبة الأشقياء السيئة	١٠٩٢
تفسير سورة الشورى وهي مكية	١٠٧٢	ليس لله ولد	١٠٩٢
الوحي وعظمة الله	١٠٧٢	بيان تفرد الرب	١٠٩٢
أوحي القرآن للإنذار به	١٠٧٣	نفي شفاعة الأوثان	١٠٩٣
الله هو الولي الحاكم الخالق	١٠٧٤	اعتراف المشركين بتوحيد الله في الخلق	١٠٩٣
دين الرسل واحد	١٠٧٤	شكوى النبي ﷺ إلى الله	١٠٩٣
وجه الاختلاف	١٠٧٤	تفسير سورة الدخان وهي مكية	١٠٩٣
تنبيه لمن جادل في الدين	١٠٧٥	فضل سورة الدخان	١٠٩٣
رزق الله وعطاؤه في الدنيا والآخرة	١٠٧٦	نزل القرآن في ليلة القدر	١٠٩٣
تشریع العباد شرك	١٠٧٦	تخويف المشركين من اليوم الذي تأتي السماء بالدخان	١٠٩٤
فزع المشركين في ميدان الحشر	١٠٧٦	تفسير البطشة الكبرى	١٠٩٥
البشارة بنعم الجنة لأهل الإيمان	١٠٧٧	قصة موسى وفرعون ونجاة بني إسرائيل	١٠٩٥
رمي النبي باختلاق القرآن والرد عليه	١٠٧٧	الرد على منكري القيامة	١٠٩٧
الله يقبل التوبة ويستجيب الدعاء	١٠٧٧	خلقت الدنيا لحكمة	١٠٩٧
الحكمة في عدم بسط الرزق	١٠٧٨	حال المشركين وعذابهم يوم القيامة	١٠٩٨
من آيات الله خلق السماوات والأرض	١٠٧٨	حال المتقين ونعيمهم في الجنة	١٠٩٨
سبب المصائب العصيان	١٠٧٨	تفسير سورة الجاثية وهي مكية	١٠٩٩
السفن من آيات الله	١٠٧٩	الإرشاد إلى التفكير في آيات الله	١٠٩٩
صفات من يستحق ما عند الله	١٠٧٩	صفات الأفاك الأثيم وجزاؤه	١٠٩٩
العفو أو الانتصار من الظالم	١٠٨٠	في تسخير البحر وغيره آيات	١١٠٠
حال الظالمين يوم القيامة	١٠٨٠	الأمر بالصبر على أذى المشركين	١١٠٠
الحث على طاعة الله قبل يوم القيامة	١٠٨١	فضل الله على بني إسرائيل واختلافهم بعد ذلك	١١٠٠
بيان كيفية الوحي	١٠٨٢	تحذير هذه الأمة عن سلوك منهج بني إسرائيل	١١٠١
تفسير سورة الزخرف وهي مكية	١٠٨٢	لا تستوي حياة المؤمن والكافر ومعامتهما	١١٠١
تسليّة للنبي ﷺ على تكذيب قريش	١٠٨٣	معتقد الكافر وحجته والرد عليه	١١٠١
اعتراف المشركين بتوحيد الخلق ومزيد الدليل عليه	١٠٨٣	بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها	١١٠٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة لأحقف وهي مكية	١١٠٣	لو قاتل كفار مكة بالحديبية لفروا ولم يصمدوا	١١٢٥
القرآن تنزيل من الله والكون مخلوق له بالحق	١١٠٣	من مصالح صلح الحديبية مع كون المؤمنين أصحاب	١١٢٥
الرد على المشركين	١١٠٣	الحق والغلبة	١١٢٥
أقوال المشركين في القرآن والرسول والرد عليهم	١١٠٤	وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح ..	١١٢٦
القرآن كلام الله الحق وموقف الكفار والمسلمين منه	١١٠٥	بيان صدق رؤيا النبي ﷺ	١١٢٩
وصية الله بالوالدين	١١٠٦	البشارة بغلبة المسلمين على العالم	١١٣٠
ذكر الأولاد العاقين ومصيره	١١٠٧	صفات المؤمنين	١١٣١
قصة عاد	١١٠٨	تفسير سورة الحجرات وهي مدنية	١١٣٢
قصة استماع الجن للقرآن	١١٠٩	النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتعظيمه ..	١١٣٢
دليل الحياة بعد الممات	١١١٠	والتأدب معه	١١٣٢
أمر النبي ﷺ بالصبر	١١١١	ذم من ينادي النبي ﷺ من وراء الحجرات	١١٣٣
تفسير سورة القتال وهي مدنية	١١١١	الأمر بالتثبت إن جاء فاسق نبأ	١١٣٣
جزاء الكفار والمؤمنين	١١١١	حكم النبي ﷺ هو الأصح	١١٣٤
الأمر بضرب رقاب العدو وشذ وثاقه ثم المن أو الفداء ..	١١١١	الفرق بين الإسلام والإيمان	١١٣٤
فضل الشهداء	١١١٢	الأمر بالإصلاح بين المقاتلين المؤمنين، وبقتال الفئة الباغية ..	١١٣٤
انصروا الله ينصركم	١١١٢	النهي عن السخرية والاحتقار	١١٣٥
النار للكفار والجنة للمتقين	١١١٣	النهي عن الظن	١١٣٦
لا يستوي عابد الحق وعابد الهوى	١١١٣	طريقة توبة المغتاب والنام	١١٣٧
صفات الجنة وأنهارها	١١١٤	كل الناس بنو آدم وحواء	١١٣٧
بيان حال المنافقين والأمر بالتحديد والاستغفار	١١١٤	الكرم بالقوى	١١٣٧
حال المؤمن الصادق ومريض القلب عند نزول الأمر بالجهاد ..	١١١٥	الفرق بين المؤمن والمسلم	١١٣٨
الأمر بتبديل القرآن	١١١٦	تفسير سورة ق وهي مكية	١١٣٩
ذم الارتداد	١١١٦	بداية الفصل	١١٣٩
كشف سر المنافقين	١١١٦	فضل سورة ق	١١٣٩
إحباط عمل الكفار والأمر بملاحقتهم	١١١٧	تعجب الكفار من الرسالة والمعاد، والرد عليهم	١١٣٩
بيان حقارة الدنيا والحث على الإنفاق	١١١٧	بيان قدرة الله على ما هو أكبر من المعاد	١١٤٠
تفسير سورة الفتح وهي مدنية	١١١٨	تذكير قريش بهلاك الأمم السابقة	١١٤١
فضل سورة الفتح	١١١٨	الإعادة أسهل	١١٤١
سبب نزول سورة الفتح	١١١٨	إحاطته تعالى وحفظه لكل ما عند الإنسان	١١٤١
نزول السكينة في قلوب المؤمنين	١١١٩	التذكير بسكرة الموت ونفخ الصور وما يليه من الحشر ..	١١٤٢
صفات رسول الله ﷺ	١١٢٠	شهادة الملك وأمر الله بإلقاء الكافر في جهنم	١١٤٢
بيعة الرضوان	١١٢٠	اختصاص الإنسان والشیطان عند الله	١١٤٣
ذكر الأحاديث الواردة في ذلك	١١٢٠	أحوال جهنم والجنة وأهلها	١١٤٣
ذكر سبب هذه البيعة العظيمة	١١٢٠	تهديد الكفار بالعذاب وأمر النبي ﷺ بالصبر والصلاة	١١٤٤
العذر المكذوب عن تخلف عن الحديبية ووعيد الله عليه	١١٢٣	التذكير ببعض ما يكون يوم القيامة	١١٤٥
الإخبار بمزيد الجهاد وأنه يكون فرقاً بين المؤمنين والمنافقين ..	١١٢٣	تسليمة النبي ﷺ	١١٤٥
الأعذار الشرعية في ترك الجهاد مع الأمر بالطاعة	١١٢٤	تفسير سورة الذاريات وهي مكية	١١٤٦
البشارة بالرضا والمغانم لأهل بيعة الرضوان	١١٢٤	التأكيد على صدق خبر المعاد والحساب	١١٤٦
البشارة بالمغانم الكثيرة	١١٢٤	اختلاف أقوال المشركين	١١٤٦
البشارة بجميع الفتوحات إلى يوم القيامة	١١٢٥	جزاء المتقين وصفاتهم	١١٤٧

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
آيات الله في الأرض والنفس	١١٤٨	بعض صفات الرب وأنه يعيد الإنسان كما بدأه، وذكر	
حديث ضيف إبراهيم	١١٤٨	بعض ما فعله بعباده	١١٦٣
شأن الملائكة إهلاك قوم لوط	١١٤٩	الإنذار والتنبيه والأمر بالسجدة والخضوع	١١٦٣
العبر من قصة فرعون وعاد وثمود وقوم نوح	١١٤٩	تفسير سورة اقتربت الساعة وهي مكية	١١٦٤
دلائل التوحيد في خلق السماوات والأرض وجعل الله		اقتراب الساعة وانشقاق القمر	١١٦٤
كل شيء زوجين	١١٥٠	ذكر الأحاديث الواردة في ذلك	١١٦٥
تكذيب كل قوم رسولهم على طريق واحد	١١٥٠	عناد المشركين وموقفهم السيئ	١١٦٥
ما خلق الجن والإنس إلا لعبادة الله	١١٥٠	سوء أحوالهم يوم القيامة	١١٦٦
تفسير سورة الطور وهي مكية	١١٥١	قصة قوم نوح، والعبرة بها وبقصص الأقوام	١١٦٦
فضل سورة الطور	١١٥١	قصة عاد	١١٦٧
قسم الله على وقوع العذاب	١١٥١	قصة ثمود	١١٦٧
وصف يوم العذاب وهو يوم القيامة	١١٥١	قصة قوم لوط	١١٦٧
وصف مآل السعداء	١١٥٢	قصة آل فرعون	١١٦٨
لحوق ذرية المؤمن به في المنزل	١١٥٢	نصح قريش وتهديدهم	١١٦٨
عدل الله مع أهل الذنوب	١١٥٣	عاقبة المجرمين	١١٦٨
وصف خمر الجنة ونعيم أهلها	١١٥٣	كل شيء بقدر	١١٦٩
تبرئة الرسول مما اتهمه به المشركون، وتوعدهم وتحذيرهم	١١٥٣	التهديد بتنفيذ أمر الله فيهم	١١٧٠
أسئلة تثبت التوحيد وتنفي حيل المشركين	١١٥٤	عاقبة المتقين الحسنة	١١٧٠
بيان عناد المشركين، وأنهم يعذبون	١١٥٥	تفسير سورة الرحمن وهي مكية	١١٧٠
أمر الرسول ﷺ بالصبر والتسبيح	١١٥٥	توطئة عن سورة الرحمن	١١٧٠
تفسير سورة النجم وهي مكية	١١٥٦	القرآن أنزله الرحمن وعلمه	١١٧٠
أول سورة أنزلت فيها سجدة	١١٥٦	آيات الله في الشمس والقمر والسماء والأرض	١١٧١
أقسم الله على أن الرسول حق وما ينطق إلا بالوحي	١١٥٦	الإنسان مغفور بنعم الله	١١٧١
رحمة للعالمين لا ينطق عن الهوى	١١٥٦	بيان خلق آدم والجان	١١٧٢
معلم الرسول الأمين هو الروح الأمين	١١٥٦	الامتنان بكونه رب المشركين والمغربين	١١٧٢
تفسير ﴿فَكَانَ تَابُ قَوْسَيْنِ﴾	١١٥٧	الامتنان بنوعي البحر والسفن	١١٧٢
هل رأى النبي ﷺ ربه في ليلة الإسراء؟	١١٥٧	بيان شأن الله وبقائه وغناه	١١٧٢
غشيان الملائكة والنور والألوان السدرة	١١٥٨	تهديد للمتقين وبيان هول ما يصيبها	١١٧٣
الرد على عبدة الأوثان وبيان اللات والعزى ومناة	١١٥٩	بيان أحوال القيامة وأحوال المجرمين	١١٧٤
الرد على معتقد المشركين في تذكر الأنداد وتأنيث الملائكة	١١٦٠	أحوال المتقين ونعيمهم في الجنات	١١٧٤
لا يحصل الخير بالتمني	١١٦٠	تفسير سورة الواقعة وهي مكية	١١٧٧
لا شفاعاة إلا بإذن الله	١١٦٠	فضل سورة الواقعة	١١٧٧
الرد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله	١١٦٠	ذكر أحوال يوم القيامة	١١٧٧
الأمر بالإعراض عن أهل الباطل	١١٦٠	الناس ثلاثة أقسام يوم القيامة	١١٧٨
الله يعلم كل صغير وكبير، فهو يجازي كلا بحسبه	١١٦١	السابقون وجزاؤهم	١١٧٨
صفة المحسنين وغفران اللوم دون الكبائر	١١٦١	أصحاب اليمين وجزاؤهم	١١٨٠
الترغيب في التوبة والنهي عن تزكية النفس	١١٦١	أصحاب الشمال وأحوالهم وجزاؤهم	١١٨٢
الذم لمن تولى عن الطاعة وبخل بالمال والرد عليه	١١٦٢	ثبوت القيامة ودليل المعاد	١١٨٣
بيان صحف موسى وإبراهيم	١١٦٢	التنبه على تفرد الله بالزرع وإنزال الماء وخلق النار وهي	
لا يحمل أحد وزر أحد يوم القيامة	١١٦٢	من أقرب حاجات الإنسان	١١٨٤

الموضوع	الصفحة
سبب غزوة بني النضير	١٢٠٥
ما وقع من قطع النخيل كان بإذن الله	١٢٠٦
أموال الفتيء ومصارفها	١٢٠٧
الأمر بطاعة الرسول في كل ما يأمر وينهى	١٢٠٨
بيان المستحقين الآخرين لأموال الفتيء، وفيه فضل	
المهاجرين والأنصار	١٢٠٩
كان الأنصار لا يجسدون المهاجرين	١٢٠٩
إثارة الأنصار	١٢٠٩
وعد المنافقين الكاذب لبني النضير	١٢١٠
مثل المنافقين واليهود في هذه القضية	١٢١١
الأمر بالتقوى والاستعداد ليوم القيامة	١٢١١
لا يستوي أهل الجنة وأهل النار	١٢١١
بيان عظمة القرآن	١٢١٢
تمجيد الله بأسائه وصفاته	١٢١٢
الأسماء الحسنى	١٢١٣
كل شيء يسبح لله	١٢١٣
تفسير سورة الممتحنة وهي مدنية	١٢١٣
سبب نزول سورة الممتحنة	١٢١٣
الأمر بعداوة الكفار وترك موالاتهم	١٢١٤
للمسلمين أسوة حسنة في إبراهيم وأصحابه في تبرئهم	
عن قومهم الكفار	١٢١٥
عسى الله أن يجعل بين المؤمنين وأعدائهم مودة	١٢١٥
يجوز الإحسان إلى الكفار الذين لا يقاتلون في الدين	١٢١٦
النهي عن موالات المحاربين من المشركين	١٢١٦
تخصيص المسلمات بعدم ردهن إلى الكفار إذا هاجرن بعد	
الحديبية	١٢١٦
حرمة المسلمات على المشركين، والمشركات على المؤمنين	١٢١٧
الأمر التي يبايع عليها النساء	١٢١٨
تفسير سورة الصف وهي مدنية	١٢١٩
فضل سورة الصف	١٢١٩
ذم من يقول قولاً لا يفعله	١٢١٩
خطاب موسى لقومه على أذاهم وإزاعة الله قلوبهم	١٢٢٠
بشير عيسى بنينا ﷺ باسمه أحمد	١٢٢٠
ذكر أظلم الناس والبشارة بإتمام نور الإسلام وغلبته على	
كل الأديان	١٢٢١
التجارة المنجية من العذاب الأليم	١٢٢١
المسلمون أنصار الدين في كل حال	١٢٢٢
طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى وأخرى كفرت به	١٢٢٢
نصر الله الطائفة المؤمنة	١٢٢٢
تفسير سورة الجمعة وهي مدنية	١٢٢٣

الموضوع	الصفحة
قسم الله على عظمة القرآن	١١٨٥
عدم استطاعة رد الروح حين تبلغ الحلقوم، دليل على	
المحاسبة	١١٨٦
أحوال الناس عند الاحتضار، ومصير كل صنف منهم	١١٨٦
تفسير سورة الحديد وهي مدنية	١١٨٨
فضل سورة الحديد	١١٨٨
يسبح جميع الكون لله وذكر بعض صفاته	١١٨٨
شمول علم الله وقدرته وملكوته	١١٨٨
الأمر بالإيمان والحث على الإنفاق	١١٨٩
فضل الإنفاق والقتال قبل الفتح	١١٩٠
الحث على الإنفاق في سبيل الله	١١٩١
يعطى المؤمنون نوراً يوم القيامة حسب أعمالهم	١١٩١
أحوال المنافقين يوم القيامة	١١٩١
الحض على الخشوع والنهي عن أن يكونوا مثل أهل	
الكتاب	١١٩٢
أجر المصدق والصدى والشهداء ومصير الكفار	١١٩٣
الحياة الدنيا هو ولعب	١١٩٤
كل ما يصيب الإنسان فهو بقدر	١١٩٤
الأمر بالصبر والشكر	١١٩٥
ذم البخيل	١١٩٥
أرسل الأنبياء بالمعجزات والعدل والحق	١١٩٥
فوائد الحديد	١١٩٥
فسق الكثير من أئمة الأنبياء	١١٩٦
يؤتى مؤمن أهل الكتاب الأجر مرتين	١١٩٧
تفسير سورة المجادلة وهي مدنية	١١٩٧
سبب النزول	١١٩٧
الظهار وكفارته	١١٩٨
بيان عاقبة أعداء الدين	١١٩٩
علم الله محيط بالخلق	١١٩٩
بيان شرارة اليهود	١٢٠٠
آداب النجوى	١٢٠٠
آداب المجلس	١٢٠١
فضل العلم وأهل العلم	١٢٠١
الأمر بالصدقة قبل أن يتاجي الرسول	١٢٠٢
ذم المنافقين	١٢٠٢
ذلة المخالفين لله وغلبة الله ورسوله	١٢٠٣
لا يواد المؤمنون الكافرين	١٢٠٣
تفسير سورة الحشر وهي مدنية	١٢٠٤
يسبح لله كل شيء	١٢٠٤
ذكر ما حل ببني النضير	١٢٠٤

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
فضل سورة الجمعة	١٢٢٣	النهى عن التضيق على المطلقة	١٢٣٦
يسبح الله كل شيء	١٢٢٣	نفقة الحامل البائن على الزوج حتى تضع الحمل	١٢٣٦
الامتنان ببعثة رسول الله ﷺ	١٢٢٣	تأخذ الأم المطلقة أجره الرضاعة إن أرضعت	١٢٣٦
محمد رسول العرب والعجم	١٢٢٣	قصة المرأة المتقية	١٢٣٦
ذم اليهود ودعوتهم لتمني الموت على سبيل المباهلة	١٢٢٤	جزاء العتو عن أمر الرب	١٢٣٧
الجمعة والأوامر والآداب يوم الجمعة	١٢٢٥	صفة الرسول ﷺ	١٢٣٧
الأمر بالسعي إلى ذكر الله	١٢٢٥	بيان قدرة الله التامة	١٢٣٧
فضل الجمعة	١٢٢٦	تفسير سورة التحريم وهي مدنية	١٢٣٧
المراد بالنداء أذان الخطبة	١٢٢٦	عتاب الله لنيه في تحريمه الحلال وبيان كفارته وتأديب	
حرمة البيع والشراء بعد نداء الجمعة والترغيب في طلب		الأزواج على تضييقه	١٢٣٨
الرزق بعدها	١٢٢٦	تعليم الأهل الأدب والدين	١٢٤٠
النهى عن الانصراف من المسجد والإمام يخطب	١٢٢٧	وقود جهنم وملانكتها	١٢٤١
تفسير سورة المنافقين وهي مدنية	١٢٢٧	لا يقبل عذر الكافر يوم القيامة	١٢٤١
أحوال المنافقين وتقلباتهم	١٢٢٧	الترغيب في التوبة النصوح	١٢٤١
إعراضهم عن استغفار الرسول وعن الإنفاق على من		الأمر بجهاد الكفار والمنافقين	١٢٤١
عنده	١٢٢٨	لا ينفع المؤمن الكافر عند الله مها كان قريباً	١٢٤١
الحث على عدم الاشتغال بأسباب الدنيا وعلى الصدقة		لا يضر الكافر المؤمن عند الله	١٢٤٢
قبل الموت	١٢٢٩	تفسير سورة الملك وهي مكية	١٢٤٢
تفسير سورة التغابن وهي مدنية وقيل: مكية	١٢٣٠	فضل سورة الملك	١٢٤٢
التسبيح لله وذكر خلقه وعلمه	١٢٣٠	تمجيد الله وذكر خلقه الموت والحياة والسموات والنجوم	١٢٤٣
الإنذار ببيان إهلاك من سبق من الكفار	١٢٣٠	صفة جهنم والداخلين فيها	١٢٤٤
الحياة بعد الممات حتى	١٢٣٠	جزاء من خشى ربه بالغيب	١٢٤٤
ذكر يوم التغابن	١٢٣٠	نعمة الله في تسخير الأرض لعباده	١٢٤٤
ما يصيب المرء فهو بإذن الله	١٢٣١	كيف تأمنون عذاب الله وهو يقدر على مؤاخذتكم كيفما	
الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ	١٢٣١	شاء	١٢٤٥
التوحيد	١٢٣١	طيران الطيور بقدرة الله وهو دليل على أنه بصير بكل	
التحذير من فتنه الأزواج والأولاد	١٢٣١	صغير وكبير	١٢٤٥
الأمر بالتقوى بقدرة الاستطاعة	١٢٣٢	لا ينصركم أحد ولا يرزق إلا الله	١٢٤٥
الترغيب في الصدقة	١٢٣٢	مثل الكافر والمؤمن	١٢٤٥
تفسير سورة الطلاق وهي مدنية	١٢٣٢	قدرة الله في الخلق ودلائها على المعاد	١٢٤٦
تطلق المرأة لعدها ولا تخرج من بيتها وتحصى عدتها	١٢٣٢	موت المؤمن لا يجير الكافر فليفكر في خلاصه	١٢٤٦
النفقة والسكنى على الزوج في عدة الرجعية	١٢٣٣	التذكير بنعمة الله في نبع الماء والتخوف بذهابه	١٢٤٦
مصلحة الاعتداد في بيت الزوج	١٢٣٣	تفسير سورة ن وهي مكية	١٢٤٦
لا نفقة ولا سكنى للميتة	١٢٣٣	تفسير القلم	١٢٤٧
الأمر بالإحسان إلى المطلقة سواء أراد الرجعة أو الفراق	١٢٣٤	القسم بالقلم على عظمة النبي ﷺ	١٢٤٧
الأمر بالإشهاد على الرجعة	١٢٣٤	تفسير إنك لعلى خلق عظيم	١٢٤٧
يجعل الله للمتقين خرجاً ويرزقهم ويكفيهم	١٢٣٤	النهى عن قبول ضغط المكذبين ومقرحاتهم وأنهم يحبون	
عدة الأيسة والتي لم تحض	١٢٣٥	اللقاء في منتصف الطريق	١٢٤٨
عدة الحامل	١٢٣٥	مثل للذهاب كسب الكفار	١٢٤٩
تسكن المطلقة حسب ما يجد الزوج	١٢٣٦	جزاء المتقين وأنهم لا يجعلون كالمجرمين	١٢٥٠

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢٦٧	الأمر بالتوحيد واجتناب الشرك	١٢٥٠	هول يوم القيامة
١٢٦٧	ازدحام الجن على سماع القرآن	١٢٥١	وعيد شديد لمن يكذب بالقرآن
١٢٦٧	الرسول ﷺ لا يملك الضر والرشد	١٢٥١	الأمر بالصبر وعدم الاستعجال مثل يونس عليه السلام
١٢٦٨	ليس على الرسول ﷺ إلا البلاغ	١٢٥١	إصابة العين حق
١٢٦٨	الرسول ﷺ لا يعرف وقت الساعة	١٢٥٣	رمي الكفار وجوابهم
١٢٦٩	تفسير سورة المزمل عليه السلام وهي مكية	١٢٥٣	تفسير سورة الحاقة وهي مكية
١٢٦٩	سبب نزول سورتي المزمل والمدثر	١٢٥٣	التنبية على عظم القيامة
١٢٦٩	الأمر بقيام الليل	١٢٥٣	ذكر إهلاك الأمم
١٢٦٩	طريقة تلاوة القرآن	١٢٥٤	التذكير بنعمة السفينة
١٢٦٩	عظمة القرآن	١٢٥٤	ذكر أهوال يوم القيامة
١٢٧٠	شرف قيام الليل	١٢٥٥	عرض بني آدم على الله
١٢٧١	الأمر بالصبر على أذى الكفار وبيان ما لهم عليه	١٢٥٥	فرحة من أوتي كتابه يمينه وحسن حاله
١٢٧٢	رسولكم ﷺ مثل رسول فرعون وتعلمون مصير فرعون	١٢٥٦	سوء حال من أوتي كتابه بشماله
١٢٧٢	التهديد بعذاب يوم القيامة	١٢٥٦	القرآن كلام الله
١٢٧٢	هذه السورة تذكرة لأولي الألباب	١٢٥٦	لو تقول النبي شيئاً على الله لأخذه الله بعذاب
١٢٧٢	نسخ وجوب قيام الليل وذكر أعدائه	١٢٥٧	تفسير سورة سأل سائل وهي مكية
١٢٧٣	الأمر بالتصدق وعمل الخير	١٢٥٧	الاستعجال بيوم القيامة
١٢٧٣	تفسير سورة المدثر وهي مكية	١٢٥٧	تفسير ذي المعارج
١٢٧٣	أول آيات نزلت بعد اقرأ	١٢٥٧	المراد بيوم كان مقداره خمسين ألف سنة
١٢٧٤	التذكير بيوم القيامة	١٢٥٨	تلقين النبي الصبر
١٢٧٤	تهديد من قال: إن القرآن سحر	١٢٥٨	أهوال يوم القيامة
١٢٧٦	عدد خزنة جهنم وما قاله الكفار حول ذلك	١٢٥٩	الإنسان هالع
١٢٧٦	لا يعلم جنود الله إلا هو	١٢٥٩	استثناء المصلين مما سبق وبيان أعمالهم وصلاتهم
١٢٧٦	ما يدور بين أهل الجنة والنار من الحوار	١٢٦٠	النكير على الكفار وتهديدهم
١٢٧٦	النكير على إعراض الكفار وموقفهم	١٢٦١	تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية
١٢٧٧	القرآن تذكرة	١٢٦١	دعوة نوح لقومه
١٢٧٧	تفسير سورة القيامة وهي مكية	١٢٦٢	شكوى نوح ما لقي من قومه
	القسم على وقوع المعاد يوم القيامة والرد على حيل	١٢٦٢	ما قال نوح حين دعا قومه إلى الله
١٢٧٧	المتحاملين	١٢٦٣	شكوى نوح إلى ربه لما أجاب به قومه
١٢٧٨	أعمال الإنسان تكون بين يديه يوم القيامة	١٢٦٣	أصنام قوم نوح وما صارت إليه
١٢٧٨	تعليم تلقي الوحي	١٢٦٣	دعاء نوح على قومه ولمن آمن به
	سبب تكذيب يوم القيامة: حب الدنيا والغفلة عن	١٢٦٤	تفسير سورة الجن وهي مكية
١٢٧٩	الآخرة	١٢٦٤	استماع الجن للقرآن وإيمانهم به
١٢٧٩	رؤية الله في الآخرة	١٢٦٤	إقرار الجن بأن الله منزّه عن الزوجة والأولاد
١٢٧٩	تسود وجوه العصاة يوم القيامة	١٢٦٥	من سبب طغيان الجن استعاذة الإنس بهم
١٢٧٩	يحصل اليقين عند الاحضار		استراق الجن خبير السماء قبل بعثة الرسول ورميهم
١٢٨٠	ذكر حال المكذب	١٢٦٥	بالشهب بعد البعثة
١٢٨٠	لا يترك الإنسان هماً		إقرار الجن بأنهم أصناف منهم المؤمن والكافر والضال
١٢٨١	الدعاء عند ختام السورة	١٢٦٦	والراشد ومعرفتهم بمصير كل منهم
١٢٨١	تفسير سورة الإنسان وهي مكية	١٢٦٦	إقرار الجن أيضاً بقدرة الله التامة

الموضوع	الصفحة
قراءة سورة السجدة والإنسان في صلاة الصبح يوم الجمعة	١٢٨١
خلق الله الإنسان بعد أن لم يكن	١٢٨١
هداه الله السبيل فهو إما شاكراً وإما كفور	١٢٨١
جزاء الكافرين والأبرار	١٢٨١
أعمال هؤلاء الأبرار	١٢٨٢
بعض التفصيل لجزاء الأبرار في الجنة وما فيها من التعيم	١٢٨٣
الأرائك ولا حر ولا برد في الجنة	١٢٨٣
دنو الظلال والقطوف	١٢٨٣
آنية من فضة وأكواب	١٢٨٣
شراب الزنجبيل والسلسيل	١٢٨٤
الوالدان والخدم	١٢٨٤
اللباس والحلي	١٢٨٤
ذكر تنزيل القرآن والأمر بالصبر والذكر	١٢٨٤
ذم حب الدنيا والتنبيه على يوم المعاد	١٢٨٥
القرآن تذكرة والهداية بتوفيق الله	١٢٨٥
تفسير سورة المرسلات وهي مكية	١٢٨٥
نزول هذه السورة وقراءتها في المغرب	١٢٨٥
قسم الله بأشياء من خلقه على وقوع المعاد	١٢٨٥
ذكر بعض ما يحدث يوم القيامة	١٢٨٦
الدعوة على الاعتبار بأنواع من قدرة الله	١٢٨٦
سوق المجرمين إلى مأواهم في جهنم وشيء من كيفيتها	١٢٨٧
عجز المجرمين عن الكلام والعذر والإقدام يوم القيامة	١٢٨٧
مآل المتقين	١٢٨٧
تهديد المنكري للقيامة	١٢٨٨
تفسير سورة النبأ وهي مكية	١٢٨٨
الرد على إنكار المشركين لوقوع القيامة	١٢٨٨
ذكر شيء من قدرة الله كالدليل على قدرته على البعث	١٢٨٨
بعد الموت	١٢٨٨
تفسير يوم الفصل وتفصيل ما فيه	١٢٨٩
الفوز الكبير للمتقين	١٢٩٠
لا يجترئ أحد على التكلم أمام الله حتى الملائكة إلا بعد الإذن	١٢٩١
القيامة قريبة	١٢٩١
تفسير سورة النازعات وهي مكية	١٢٩١
القسم بخمسة أوصاف على وقوع يوم القيامة	١٢٩١
صفة القيامة وصفة الناس وأقوالهم فيها	١٢٩٢
ذكر قصة موسى وأنها عبرة لمن يخشى	١٢٩٢
خلق السماوات والأرض أشد من إعادة الخلق	١٢٩٣
يوم القيامة وما فيها من التعيم والجحيم وأن وقتها غير معلوم	١٢٩٣
الموضوع	الصفحة
تفسير سورة عبس وهي مكية	١٢٩٤
عتاب النبي ﷺ على عبسه في وجه رجل ضعيف: ابن أم مكتوم	١٢٩٤
أوصاف القرآن	١٢٩٤
الرد على من أنكر الحياة بعد الممات	١٢٩٤
إنبات الحب وغيره دليل على الحياة بعد الممات	١٢٩٥
يوم القيامة وفرار الناس فيها من أقاربهم	١٢٩٦
وجوه أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة	١٢٩٦
تفسير سورة التكويد وهي مكية	١٢٩٧
ما ورد في هذه السورة	١٢٩٧
ما يقع يوم القيامة، وهو تكوير الشمس	١٢٩٧
انكدار النجوم	١٢٩٧
تسير الجبال، وتعطيل العشار وحشر الوحوش	١٢٩٧
تحجير البحار	١٢٩٨
تزيوج النفوس	١٢٩٨
سؤال الموقودة	١٢٩٨
كفارة وأد البنات	١٢٩٨
نشر الصحف	١٢٩٨
كشط السماء وتسعير الجحيم وتقريب الجنة	١٢٩٨
كل أحد يعلم يوم القيامة ما أحضره	١٢٩٨
تفسير الخنس والكنس	١٢٩٩
القرآن نزل به جبريل وليس من نتيجة الجنون	١٢٩٩
لم يكن النبي ضئيلاً في إبلاغ الوحي	١٣٠٠
القرآن ذكر للعالمين وليس بوحى الشيطان	١٣٠٠
تفسير سورة الانفطار وهي مكية	١٣٠٠
فضل سورة الانفطار	١٣٠٠
ما يقع يوم القيامة	١٣٠٠
لا ينبغي للإنسان أن ينسى الله	١٣٠١
سبب الغرور، والتنبيه على تسجيل الملائكة لأعمال بني آدم	١٣٠١
جزاء الأبرار والفجار	١٣٠١
تفسير سورة المطففين وهي مدنية	١٣٠٢
الزيادة والتقصان في المكيال والميزان سبب للويل والخسران	١٣٠٢
تحويق المطففين من القيام بين يدي رب العالمين	١٣٠٢
كتاب الفجار وبعض أحوالهم	١٣٠٣
كتاب الأبرار وجزاؤهم	١٣٠٤
إساءة المجرمين واستهزاؤهم بالمؤمنين	١٣٠٤
تفسير سورة الانشقاق وهي مكية	١٣٠٥
سجدة التلاوة في سورة الانشقاق	١٣٠٥
انشقاق السماء وتمديد الأرض يوم القيامة	١٣٠٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
جزاء الأعمال حق	١٣٠٥	ذكر إهلاك عاد	١٣١٦
العرض والمناقشة في الحساب	١٣٠٥	ذكر فرعون	١٣١٦
القسم على ركوب الإنسان حالاً بعد حال	١٣٠٦	الرب بالمرصاد	١٣١٧
التكبر على عدم إيمانهم وتبشيرهم بالعذاب وأن النعيم		الغنى والفقر اختبار، وليس من إكرام الله أو إهانة للعبد	١٣١٧
للمؤمنين	١٣٠٦	من شر ما يعمل العبد في المال	١٣١٧
تفسير سورة البروج وهي مكية	١٣٠٧	يوم القيامة يوفى كل بما عمل من خير أو شر	١٣١٧
تفسير البروج	١٣٠٧	تفسير سورة البلد وهي مكية	١٣١٨
تفسير اليوم الموعود وشاهد ومشهود	١٣٠٧	القسم بحرمة مكة وغيرها على خلق الإنسان في مشقة ..	١٣١٨
ظلم أصحاب الأخدود المسلمين	١٣٠٧	الإنسان محاط بالله وبعبائنه	١٣١٩
قصة ساحر وراهب وغلाम ومن أدخل الأخدود	١٣٠٨	التمييز بين الخير والشر نعمة	١٣١٩
جزاء أصحاب الأخدود	١٣٠٩	الحض على سلوك سبيل الخير	١٣١٩
جزاء الصالحين والبطش الشديد بأعداء الله الكافرين	١٣٠٩	أصحاب المشيمة وجزاؤهم	١٣٢٠
تفسير سورة الطارق وهي مكية	١٣١٠	تفسير سورة والشمس وضحاها وهي مكية	١٣٢٠
فضل سورة الطارق	١٣١٠	قراءة والشمس وضحاها في صلاة العشاء	١٣٢٠
القسم على كون الإنسان محاطاً بنظام الله	١٣١٠	قسم الله بمخلوقاته على فلاح من زكى نفسه وخيبة من	
كيفية خلق الإنسان دليل على قدرة الله على رجعه	١٣١٠	دساها	١٣٢٠
يوم القيامة لا يكون للإنسان قدرة ولا نصرة	١٣١٠	تكذيب ثمود وإهلاكهم	١٣٢٢
القسم على كون القرآن حقاً وفشل مخالفيه	١٣١٠	قصة ناقة صالح	١٣٢٢
تفسير سورة سبوح وهي مكية	١٣١١	تفسير سورة الليل وهي مكية	١٣٢٢
فضل سورة الأعلى	١٣١١	قراءة والليل إذا يغشى في العشاء	١٣٢٢
الأمر بالتسبيح وجوابه	١٣١١	القسم على اختلاف الناس في سعيهم والتنبيه على	
الخلق والتقدير وإخراج النبات	١٣١١	اختلاف نتائج ذلك	١٣٢٢
النبي ﷺ لا ينسى الوحي	١٣١٢	المهدي وغيره بيد الله	١٣٢٣
الأمر بالتذكير	١٣١٢	سبب النزول وفضل أبي بكر	١٣٢٤
بيان أهل الفلاح	١٣١٢	تفسير سورة الضحى وهي مكية	١٣٢٤
لا قيمة للدنيا في جنب الآخرة	١٣١٢	سبب نزول سورة الضحى	١٣٢٤
صحف إبراهيم وموسى	١٣١٣	الآخرة خير من الأولى	١٣٢٥
تفسير سورة الغاشية وهي مكية	١٣١٣	نعم الآخرة الكثيرة تنتظر لرسول الله ﷺ	١٣٢٥
قراءة الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة	١٣١٣	ذكر شيء من نعم الله على الرسول ﷺ	١٣٢٥
القيامة وما يكون من حال أهل النار فيها	١٣١٣	كيف تقدر هذه النعم	١٣٢٦
حال أهل الجنة يوم القيامة	١٣١٤	تفسير سورة ألم نشرح وهي مكية	١٣٢٦
الحض على النظر في خلق الإبل والسماء والجبال		معنى شرح الصدر	١٣٢٦
والأرض	١٣١٤	بيان نعم الله على رسوله	١٣٢٦
قصة ضمام بن ثعلبة	١٣١٤	معنى رفع ذكر النبي	١٣٢٦
ليس على الرسول إلا البلاغ	١٣١٥	اليسر بعد العسر	١٣٢٦
الوعيد لمن تولى عن الحق	١٣١٥	الأمر بالذكر عند الفراغ	١٣٢٦
تفسير سورة الفجر وهي مكية	١٣١٥	تفسير سورة التين والتينون وهي مكية	١٣٢٦
قراءة سورة الفجر في الصلاة	١٣١٥	قراءة التين بالصلاة في السفر	١٣٢٦
تفسير الفجر وما بعده	١٣١٥	تفسير التين وما بعده	١٣٢٧
تفسير الليل	١٣١٦	سقوط الإنسان في أسفل سافلين مع كونه خلق في أحسن	

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تقديم ونتيجة ذلك	١٣٢٧	تفسير سورة العصر وهي مكية	١٣٣٧
تفسير سورة اقرأ وهي أول شيء نزل من القرآن	١٣٢٧	معرفة عمرو بن العاص لإعجاز القرآن بهذه السورة	١٣٣٧
بدء نبوة محمد ﷺ وأول ما نزل من القرآن	١٣٢٧	تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة وهي مكية	١٣٣٧
عزة الإنسان وشرفه بالعلم	١٣٢٨	تفسير سورة الفيل وهي مكية	١٣٣٨
الوعيد على طغيان الإنسان لأجل المال	١٣٢٨	قصة أصحاب الفيل بإيجاز	١٣٣٨
ذم أبي جهل والوعيد بمؤاخذته	١٣٢٨	تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية	١٣٤١
تسليّة للنبي	١٣٢٩	تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون وهي مكية	١٣٤٢
تفسير سورة القدر وهي مكية	١٣٢٩	أوصاف منكري القيامة	١٣٤٢
فضل ليلة القدر	١٣٢٩	تفسير سورة الكوثر وهي مدنية، وقيل: مكية	١٣٤٣
نزول الملائكة وقضاء كل خير في ليلة القدر	١٣٣٠	عدو النبي هو الأبر	١٣٤٣
تعيين ليلة القدر وعلاماتها	١٣٣٠	تفسير سورة قل يا أيها الكافرون وهي مكية	١٣٤٤
دعاء ليلة القدر	١٣٣١	قراءة هذه السور في النوافل	١٣٤٤
تفسير سورة لم يكن وهي مدنية	١٣٣١	البراءة من الشرك	١٣٤٤
قراءة رسول الله ﷺ هذه السورة على أبي	١٣٣١	تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح وهي مدنية	١٣٤٥
ذكر حال الكفار من أهل الكتاب والمشركين	١٣٣١	فضل سورة النصر	١٣٤٥
إنما وقع الاختلاف بعد مجيء العلم	١٣٣١	هذه السورة إخبار عن تمام أجل رسول الله ﷺ	١٣٤٥
إنما كان أمر الله هو إخلاص الدين له	١٣٣٢	تفسير سورة تبت وهي مكية	١٣٤٦
ذكر شر البرية وخير البرية وذكر جزائهما	١٣٣٢	سبب نزول السورة، وعناد أبي لب لرسول الله ﷺ	١٣٤٦
تفسير سورة إذا زلزلت وهي مكية	١٣٣٢	ذكر مصير أم جميل امرأة أبي لب	١٣٤٦
فضل سورة الزلزلة	١٣٣٢	قصة من إذاء امرأة أبي لب لرسول الله ﷺ	١٣٤٧
يوم القيامة وما يكون فيه حال الأرض وحال الناس	١٣٣٣	تفسير سورة الإخلاص وهي مكية	١٣٤٧
الجزاء على كل ذرة من العمل	١٣٣٣	ذكر سبب نزولها وفضلها	١٣٤٧
تفسير سورة العاديات وهي مكية	١٣٣٤	الله منزّه عن الولد والوالد والصاحبة والكفو	١٣٤٩
القسم بخيل الحرب على كفران الإنسان وحرصه	١٣٣٤	تفسير سورتي المعوذتين وهما مدنيتان	١٣٤٩
التخويف من المعاد	١٣٣٤	موقف ابن مسعود من المعوذتين	١٣٤٩
تفسير سورة القارعة وهي مكية	١٣٣٥	فضل المعوذتين	١٣٥٠
تفسير سورة التكاثر وهي مكية	١٣٣٥	بيان سحر النبي	١٣٥٠
نتيجة حب الدنيا غفلة عن الآخرة	١٣٣٦	مراجع التخرّيج للمخص تفسير ابن كثير	١٣٥٢
الوعيد برؤية الجحيم والسؤال عن النعيم	١٣٣٦	الفهرس	١٣٥٤